

التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين
إبن تيمية
ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ
رحمة الله تعالى

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن حميرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة
بجامعة الأزهر

مشتق من

مخطوطة بخط يده
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين

إبن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ

رحمه الله تعالى

الجزء الاول

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن حميرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة

بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

فهرست الجزء الأول من كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الحالة السياسية	١٣
الحروب الصليبية	١٨
الحالة الاجتماعية في عصر ابن تيمية	٢٥
الإمام ابن تيمية : ولادته ، نسبه ، أسرته	٣٧
التفسير الكبير ومنهجنا في التحقيق	٦٤
صور المخطوطات	٦٦
مقدمة التفسير للمؤلف	٨٥
فصل في الفرقان بين الحق والباطل	٨٧
فصل الله يفرق بين الأمور المختلفة ويجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة	١٠٧
فصل ما جاء من التفسير عن الرسول هو الأحق بالإمثال	١١٩
فصل النهي عما جاء عن الرسول نهي عن العدل ، والأمر بضده أمر بالظلم	١٦٥
فصل عن التحريفات في التوراة والإنجيل	٢٠٧
فصل في النعي على الكفار لإتباعهم الظن وتنوع طرق الناس في جواز هذا	٢١٥
فصل في موارد الإجتهد	٢٢٧
فصل مناقشة نفاة الصفات والمثبتين لبعضها وقضية نداء موسى عليه السلام	٢٣٩
فصل جماع الفرقان اتباع ما أنزل من الرحمن	٢٤٥
فصل أهل الضلال هم أهل البدع والشبهات	٢٥١
الفهرست	٣١٥

فهرست الجزء الثاني

من

كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
فصل في أسباب ضلال المتكلمين وأتباعهم	٥
فصل الخوارج أول دعاة للفرقة في الإسلام	٨
الجزء الثاني من مقدمة التفسير للمؤلف	٣٧
فصل إدعاء بعض الطوائف أن للباطن باطناً إلى سبعة أبطن	٣٩
فصل علم الباطن الذي يبطن عن أكثر الناس علمه	٤٦
فصل تحقيق ما يقال أن النبي خص كل قوم بما يصلح لهم	٦٣
الإكليل في التشابه والتأويل	٨٨
فصل في أنواع القلوب	٨٨
فصل إختلاف العلماء في أن أسماء الله وصفاته في التشابه أم لا .. ؟ ..	١١٥
فصل القرآن آية صدق النبي	١٣٩
فصل في إظهار معجزاته	١٤٤
فصل في معجزات القرآن	١٥٠
فصل في معنى الصراط المستقيم	١٧١
فصل في أقسام القرآن	١٧٤
فصل إختلاف السلف في التفسير قليل	١٩٦
فصل الإختلاف في التفسير وأسبابه : النوع الأول سببه النقل	٢٠٩
فصل النوع الثاني سببه طرف الإستدلال	٢٢١

الموضوع _____ الصفحة

٢٣١	فصل أحسن طرق التفسير
٢٣٧	فصل تفسير القرآن بأقوال التابعين
٢٤٥	فصل
٢٤٩	فصل
٢٩٤	فصل في أسماء القرآن الكريم وصفاته
٢٩٦	فصل في الآيات الدالة على اتباع القرآن
٢٩٧	فصل في إياك نعبد وإياك نستعين
٢٩٩	فصل فاتحة الكتاب
٣٠٧	فصل في معنى : الحمد لله رب العالمين
٣٠٩	فصل في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية
٣١١	فصل الإنسان ليس له من نفسه إلا العدم
٣٢٤	فصل العبد وكل مخلوق فقير إلى الله
٣٣٢	فصل العبد فقير إلى الله فيما يصلحه ويقصده
٣٣٥	فصل في حاجة العبد إلى هداية الله
٣٣٩	الفهرست

فهرست الجزء الثالث من كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة البقرة (عرض مجمل لما تضمنته من معانٍ)	٥
تفسير : « بلى من كسب سيئة »	١٢
فصل في معنى الغيب والشهادة	١٥
فصل في قياس التمثيل وقياس الشمول	١٨
فصل في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾	٣٤
فصل في تقسيم المذمومين من أهل الكتاب إلى محرفين وأمين	٣٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصص حياة ﴾	٣٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ لا يسألونك عن الشهر الحرام ﴾	٥٢
نكاح الكتابية	٥٥
الصدقة وما يقترن بها من أحوال	٥٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾	٦٢
خواتيم سورة البقرة	٩٤
فصل في فضل دعاء آخر سورة البقرة	١٠٧
تفسير سورة آل عمران	١٣٥
فصل في معنى شهادة الرب	١٤٣
فصل في قوله تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾	١٤٥
فصل في تفسير قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾	١٥٠

فصل في نظم هذه الآية : « للتوحيد والعدل والحكمة والقدرة »	١٥٢
فصل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ وفيه الرد على الجبرية والقدرية	١٥٤
فصل في أن شهادة أولى العلم تتضمن الشهادة بالوحدانية	١٥٦
فصل يتضمن تعريف العباد أن خالقهم قد شهد	١٥٨
فصل يتضمن أن شهادة الله للعباد تكون بالسمع والبصر	١٦٠
فصل صدق الله معلوم بالفطرة لكل مخلوق	١٦٤
فصل شهادة الله تعالى بما أنزله على رسله	١٦٨
فصل في أن شهادة الله تتضمن ما يجعله في القلوب من العلم وما تنطق به الألسنة	١٧٢
فصل في سبب نزول	١٧٦
فصل	١٨١
فصل موقف الأمم من الرسل	١٨٨
فصل	١٩١
فصل في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم	٢٠١
فصل في الرد على أن في عيسى طبيعتين	٢١٩
فصل	٢٢٢
تفسير سورة النساء	٢٣٣
فصل فيما يتعلق بشهوات الآدميين	٢٣٥
فصل في تفسير معنى الشوز في الآية	٢٣٨
فصل في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾	٢٤٠
فصل سر الجمع بين الخيلاء والبخل في موضع وبين العطاء والتقوى في موضع	٢٤٢
فصل في قول الناس : الآدمي جبار ضعيف	٢٤٧

٢٥٠	فصل في تفسير قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾
٢٥٨	فصل في توضيح أقوال العلماء ورجال الفرق والرد عليهم
٢٦٣	فصل حقيقة الحسنات والسيئات في كتاب الله
٢٦٩	فصل عوامل ارتكاب العبد للمعصية الثانية
٢٧٦	فصل الذنوب التي يعملها العبد من نفسه وإن كانت مقدرة عليه
٢٧٧	فصل في ضلال القدرية في فهمهم للآية
٢٨٠	فصل ليس في كلام الله تعالى ضلال أو إشكال
٢٨٣	فصل أقوال العلماء في تفسير الآية
٢٨٦	فصل ما يصيب المسلم ليس بسبب وحي الرسول ولكن بذنوبه
٢٨٨	فصل في تقيد أقوال الأدعياء والكافرين
٢٩٠	فصل إبطال قول الجهمية في تصورهم للثواب والعقاب
٢٩٢	فصل نعم الله على عباده بلا سبب وعقابه لا يكون إلا بذنب
٢٩٤	فصل على العبد أن يشكر إذا أنعم عليه ويتوب إذا أخطأ
٢٩٨	فصل الحسنة يضاعفها الله وينميها السيئة لا يضاعفها
٣٠٢	فصل مناقشة النافين لحكمة الله تعالى والأسباب التي بها يفعل
٣٠٤	فصل الشر لا يضاف إلى الله إلا على وجوه ثلاث
٣١١	فصل الثواب على فعل الحسنة حباً لها وعلى ترك السيئة كرهاً لها
٣١٦	فصل التنازع في الترك هل وجودي أو عدمي ؟
٣٢١	فصل الثواب والعقاب يكون على أمر وجودي
٣٢٤	فصل منشأ ارتكاب السيئات الجهل والظلم
٣٢٦	فصل عوامل الشر : الغفلة والشهوة
٣٣٣	فصل أصل السعادة في اتباع الفطرة وما جاءت به الرسل
٣٦٦	فصل ما يبتلى به العبد من الذنوب هو عقوبة له على عدم فعل ما خلق له
٣٧٢	فصل الموجب للعذاب عدم الإيمان

الموضوع _____ الصفحة

٣٧٣ فصل ما يضاف إلى النفس وما يضاف إلى الله
٣٧٨ فصل النفس الخبيثة لا تصلح للمكان الطيب
٤٠٤ فصل الشرك يكون في الإلتجاء لغير الله تعالى
٤٥١ فصل
٤٥٧ ليس ديناً أحسن من الإسلام
٤٦٨ فصل
٤٧٦ فصل
٤٨١ الفهرست

فهرست الجزء الرابع من كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
سورة المائدة	٣
فصل	٧
فصل	١٠
فصل	١١
فصل	١٤
فصل	٢٠
فصل	٢٢
فصل	٣٠
فصل	٤٧
فصل في مجادلة أهل الكتاب في أمر المسيح	٥٣
فصل في عقوبة المحاررين وقطاع الطريق	٦٦
فصل	٧٥
فصل	٨٨
فصل	٩٤
فصل	٩٧
فصل	١٠٠
فصل	١١٨

١٢٣	فصل
١٢٧	فصل في بطلان الإستدلال بالمتشابه
١٣٦	فصل في ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان
١٣٩	فصل
١٤٢	فصل
١٦٠	فصل في كفارة اليمين
١٦٥	فصل
١٧٠	فصل
١٧٤	فصل في معنى روح القدس
١٧٩	فصل عيسى عبدالله ورسوله
١٨٨	فصل فساد قول النصارى في أن المسيح خالق
١٩٧	سورة الأنعام
٢٠٢	فصل
٢٠٥	فصل
٢١٢	فصل
٢١٦	فصل
٢٢٣	فصل الأنبياء أفضل الخلق
٢٣٤	فصل
٢٣٧	فصل
٢٤٠	فصل
٢٤٧	فصل
٢٥١	فصل في ذبائح أهل الكتاب
٢٦١	فصل
٢٨٢	سورة الأعراف

الموضوع _____ الصفحة

٢٨٤ فصل
٢٨٦ فصل
٢٨٨ فصل
٢٩٠ فصل
٢٩٥ فصل
٣١٣ فصل
٣١٥ فصل
٣١٧ فصل
٣١٩ فصل
٣٢٣ فصل
٣٣٣ سورة الأنفال
٣٣٣ أسباب النزول
٣٣٥ فصل
٣٣٧ فصل
٣٤٠ فصل
٣٤٦ سورة التوبة
٣٥٣ فصل
٣٦١ فصل
٣٦٩ فصل
٣٨١ فصل
٣٨٥ فصل توبة الأنبياء عليهم السلام
٣٩٣ سورة يونس
٣٩٧ فهرس الموضوعات

فهرست الجزء الخامس

من

كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
سورة هود	٥
فصل	٢٤
فصل	٣٨
فصل	٤٥
فصل	٤٨
سورة يوسف	٥٣
فصل	٧٢
فصل	٧٧
فصل	٨٠
فصل	٨٣
فصل	١١٧
فصل	١٣٦
سورة الرعد	١٤٧
سورة الحجر	١٤٩
سورة النحل	١٦٧
سورة الإسراء	١٧٧
سورة الكهف	١٨١

١٨٣	سورة مريم
١٩١	سورة طه
١٩٣	فصل في طريق العلم والعمل
٢٠٢	فصل
٢١٤	فصل
٢١٧	سورة الأنبياء
٢١٩	سورة الحج
٢٢٩	سورة المؤمنون
٢٣٣	سورة النور
٢٣٤	فصل في معان مستنبطة من سورة النور
٢٤٢	فصل في عدم الرأفة في إقامة الحدود
٢٦٢	فصل في إيذاء الذين يأتون الفاحشة
٢٦٨	فصل في التعذيب
٢٧٥	فصل في تهيج الشهوات
٢٧٨	فصل في تحريم الزواج من الزاني والزانية
٢٨٢	فصل في التوبة شرط للزواج
٢٨٧	فصل نفى الخبائث عن نساء الأنبياء
٢٨٩	فصل التفريق بين المتلاعنين
٢٩٥	فصل الإختبار والإمتحان للمصاحبة
٢٩٧	فصل في الثبوت قبل القذف ورمي المحصنات
٣٠١	فصل في معرفة المنكر وإنكاره ومعرفة المعروف وإتيانه
٣١٠	فصل المعين على الإثم داخل فيه والمعين على الخير داخل فيه
٣٢٠	فصل خصائص الشهود لإقامة الحد
٣٢٤	فصل حكم شهادة القاذف التائب وغيره

٣٢٧	فصل في عدالة الشهود
٣٢٩	فصل في لعن قذفة أمهات المؤمنين
٣٤٠	فصل في الإستئذان والدخول
٣٤٣	فصل في غض البصر وحفظ الفرج
٣٤٦	فصل في غض البصر وترك الشبهات
٣٥٤	فصل في غض البصر عن بيوت الآخرين
٣٥٧	فصل في أن النظر إلى العورات حرام
٣٦٦	فصل في أنواع النجاسة
٣٦٩	فصل في حقيقة الإيمان
٣٧٧	فصل في فضائل غض البصر قربة لله تعالى
٣٨٥	فصل في دعوة المؤمنين إلى التوبة
٣٨٩	فصل خصائص الداعية إلى الله
٣٩٤	فصل في « الذين يرمون المحصنات الغافلات » وأقوال العلماء فيها
٤٠٨	فصل في تحريم النظر إلى العورات
٤٢١	فصل إعتراض وجوابه
٤٤١	الفهرست

فهرست الجزء السادس من كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
سورة الفرقان	٣
فصل الكبائر وقوى الإنسان الثلاث	٣
فصل في خصائص البشر	٦
فصل في أنواع الفضائل	٧
فصل في تقسيم الأمم	٩
فصل في القوة الشهوية والغضبية	١١
فصل	١٢
سورة النمل	١٦
سورة الأحزاب	١٨
فصل في الفاظ الطلاق واختلاف العلماء فيها	٢٤
سورة الزمر	٢٨
فصل في أنواع السماع	٣١
فصل في مصادر المياه في الأرض	٣٩
فصل في قبول توبة العاصين وأصحاب الذنوب	٤٠
سورة الشورى	٥٨
سورة الزخرف	٦٢

٦٤	سورة الأحقاف
٦٧	سورة ق
٦٩	سورة المجادلة
٧٢	سورة الطلاق
٧٦	فصل
٧٩	سورة التحريم
٨٢	سورة الملك
٨٣	سورة القلم
٩٤	فصل في هول يوم القيامة
٩٩	سورة التكويد
١٠١	سورة الأعلى
١٠٨	فصل أقوال الفرق في صفات الله تعالى
١١٦	فصل في صفات الله تعالى
١٢٤	فصل
١٢٩	فصل في الأعلى والعظيم
١٤٢	فصل
١٤٤	فصل
١٤٧	فصل
١٥٣	فصل هداية الله إلى خلقه
١٥٧	فصل الله تعالى قَدَّر المقادير لخلقه
١٦٦	فصل في تقدير أرزاق البهائم والحيوانات
١٧٠	فصل
١٨٥	فصل
١٨٩	فصل
١٩٢	فصل في الخشية والتذكر
١٩٨	فصل في الإنابة والتذكر

٢٠٣	فصل
٢٠٩	فصل أهل النار لا يموتون ولا يحيون
٢١٢	فصل التزكية ذكرت في كتب الله السابقة
٢١٨	فصل أصل الدين بين إبراهيم وموسى عليهما السلام
٢٢٣	فصل أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبتته الله لنفسه
٢٣٠	سورة الفاشية
٢٣٤	سورة البلد
٢٣٨	سورة الشمس
٢٥٣	فصل في الرد على المكذبين بالقدر
٢٦٠	سورة العلق
٢٧٣	فصل في الاستدلال على وجود الخالق تعالى
٢٧٩	فصل الأعراض دليل الحدوث عند المتكلمين
٢٨٣	فصل في أطوار الخلق والبعث
٢٩٥	فصل الإنسان بين خلقه وتكريم الله له
٣١٣	فصل من خصائص الرسالة الهداية والرحمة
٣١٧	فصل في حقيقة الأكرم
٣٢٣	فصل القرآن الكريم خطاب للبشرية كلها
٣٤٣	فصل نسيان الإنسان لربه نسيان لنفسه
٣٤٨	فصل الخالق لا يكون إلا قادراً
٣٥١	فصل وسائل إثبات صفات الكمال لله تعالى
٣٥٨	فصل
٣٦٣	فصل
٣٦٥	فصل
٣٨٢	فصل إثبات الصفات الخبرية
٤٢٢	فصل علماء الكلام أصلوا أصولاً تناقض الحق
٤٣٩	فصل لوازم القدرة والمشيئة

٤٤١ فصل علم الله تعالى وأخباره به
٤٤٦ فصل أصول الدين تأخذ من الكتاب والسنة
٤٥٢ خصائص السور القصار
٤٥٥ الفهرست

فهرست الجزء السابع والأخير
من
كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
سورة البينة	٣
فصل	٢٩
سورة التكاثر	٣٥
سورة الهمة	٣٩
سورة الكوثر	٤٥
سورة الكافرون	٥١
فصل	٦٥
فصل	٩١
فصل	٩٣
فصل	١٠٣
سورة تبت	١٠٩
سورة الإخلاص	١١١
فصل عن التفاضل بين كلام الله تعالى	١١٧
فصل	١٦٢
فصل	١٩٢
فصل	٢٠٧

الموضوع	الصفحة
فصل	٢٤٢
فصل	٢٩٤
فصل	٣٠٧
فصل	٣٢٧
فصل	٣٥١
فصل	٣٥٦
فصل	٣٥٩
فصل	٣٦٣
فصل	٣٧٥
فصل	٣٨٤
فصل	٤٢٩
فصل	٥١٠
فصل	٥١٥
سورة الفلق	٥٦٢
فصل	٥٦٢
سورة الناس	٥٦٧
فصل	٥٦٧
فصل	٥٧٦
فصل في سورة الفلق والناس	٥٩١
فصل	٥٩٤
الفهرس	٥٩٥

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

التفسير الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وأرشد المسلمين إلى كتاب ربهم فصنع منهم سادة وقادة ، مدنوا الدنيا ، وهذبوا العالم ، وقرروا الحق للبشرية كلها .

إن القلم لا يستطيع أن يصور الفرحة التي غمرت حياتنا بعد أن أعاننا الله تعالى ووفقنا إلى إخراج كتاب « التفسير الكبير » بأجزائه العشرة لأول مرة في تاريخ الأمة الاسلامية لشيخ الاسلام - في عصره - ابن تيمية ، محققاً أصوله ومخرّجة أحاديثه ، ومنضبطة نصوصه .

ولا شك أن قلوب الملايين من أبناء الأمة الاسلامية بعامة ، وقلوب المهتمين بعلوم القرآن وتفسيره بخاصة ستغمرهم مثل هذه الفرحة ، ويثلج صدورهم إبراز الكتاب بالصورة الجميلة التي أخرج بها .

ولكن يبقى بعد إخراج الكتاب سؤال يتردد في قلوب المشككين الذين لا يعملون ويؤذي نفوسهم أن يعمل الناس - أهذا كل ما كتبه ابن تيمية في تفسير الكتاب العزيز ... ؟

ويتضخم هذا السؤال ليفرز في النهاية رواية تمعن في الاغراق والتزيد لتقرر أن التفسير الذي كتبه ابن تيمية يصل إلى الثلاثين مجلداً أخذ منه قسراً - وهو في سجنه - وأحرق بأكمله .. ؟؟

ويطيب لنا أن نلمح هذه الرواية حتى نصل إلى الحقيقة في هذه القضية التي تقرر مصادرة الفكر وإحراقه .

لقد دخل ابن تيمية السجن ثلاث مرات .

الأولى : كانت في رمضان سنة ٧٠٥ هـ عندما ادعى عليه زين الدين بن مخلوف - قاضي المالكية في ذلك الوقت - أنه يقول : إن الله فوق العرش حقيقة وإنه يتكلم بحرف وصوت . ؟؟

وفي هذه المرة دافع عنه الأمير سلار حاكم القاهرة - وجع القضية الثلاثة ، الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، وبعض الفقهاء ، وتكلم معهم في إخراج الشيخ من السجن وإطلاق سراحه .

ورأى الحاكم أن بقاء الشيخ في السجن لا يتفق مع الدين ، ولا العدل ولا الخلق . وكيف يحدث له ذلك ، وهو الذي قاد الجموع ، وحرك الجيوش ، وتقدم للموت ، وكان روح المقاومة العنيفة التي انتهت بالانتصار على التتار .

وتم فعلاً إخراجاه في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٧٠٧ هـ بعد أن مكث في السجن نحو ثمانية عشر شهراً .

فهل كتب ابن تيمية في هذه الثمانية عشر شهراً كتابه « التفسير الكبير » المكون من ثلاثين جزءاً كما يدعي الأدعياء . . ؟

إن أماننا احتمالين :

الأول : أن العقل يستبعد أن يكتب في هذه الفترة القليلة من عمر الزمن مثل هذا التفسير ، وكيف يتم له ذلك . . ؟ وهو القائل : ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يا معلم آدم ، وإبراهيم علمني . «

الثاني : أنه كتب هذا التفسير فهل يعقل أن الحاكم يحرقه . . ؟ والحاكم هذا هو الذي سعى للتوفيق بينه وبين الفقهاء ثم عمل على إخراجاه من السجن وبعد

خروجه أراد ابن تيمية السفر إلى دمشق ، ولكن الحاكم يستبقه في القاهرة معزراً
مكراً لينتفع الناس بعلمه .

الثانية : بقي الشيخ ابن تيمية في القاهرة ، وأخذ يزاول نشاطه في خدمة
الإسلام والمسلمين ، يبصرهم بأمور دنياهم ويرشدهم إلى فهم دينهم .

ولقد كان للصوفية في ذلك الوقت سلطان قوي ، وكلمة نافذة ، وقد أخذوا
أنفسهم بمذهب وحدة الوجود ، وهو المذهب الذي يوجد بين الواجد والموجود ،
والخالق والمخلوق .

رأى ابن تيمية ذلك فنزل باللائمة عليهم ، وكشف ضلالهم ، وفضح خداعهم
وزيفهم . فلما رأى الصوفية ذلك جمعوا جموعهم وساروا إلى القلعة يشكون ابن تيمية
ومن ورائهم اتباعهم .

ولقد ضاقت الدولة ذرعاً بذلك وأحست أن الفوضى أخذت تدب في أنحاء البلاد
نتيجة للشغب الذي يقوم به الصوفية فأرادت أن توقف هذه الأمور فأحضر الحاكم
ابن تيمية وخيره بين أمور ثلاثة :

أ - إما أن يسير إلى دمشق وهي موطنه ومكان أهله .

ب - وإما أن يذهب إلى الاسكندرية ويقبل الشروط التي يملئها عليه .

ج - وإما الحبس .

والعجب أن ابن تيمية اختار الحبس لأنه رأى بثاقب فكره أن تقييد الجسم في
الحركة خير له من أن يقيد فكره ولسانه .

وهذه هي المرة الثانية التي دخل فيها السجن .

يقول ابن كثير تلميذ ابن تيمية :

« لم يكن الحبس حبساً بمعناه الحقيقي بل كان إقامة مفيدة ، فقد كان طلاب
العلم يغدون ويرحون إليه ، وترسل إليه الفتوى من الأمراء والأعيان ، ولم يلبث إلا
قليلاً حتى خرج من محبسه ، بقرار من مجلس الفقهاء والقضاة عقد بالمدرسة

الصالحية ، وأكب الناس على الاجتماع به ليلاً ونهاراً » .

فالحبس في المرة الثانية : كان صيانة له من غوغاء الصوفية الذين كانوا يتريصون به الدوائر ، ولهذا قال قاضي القضاة - ابن جماعة - إن الحبس فيه مصلحة له .

أنقول بأنه كتب تفسيره في هذه الفترة الثانية التي قضاه في السجن . . ؟
إن أماننا احتمالين أيضاً :

الأول : أن يكون كتب تفسيراً في هذه الفترة فإن كان الأمر كذلك فلا شك أن تلاميذه ومريديه الذين كانوا يذهبون إليه في سجنه كانوا ينسخون ما كان يكتبه أولاً بأول ثم يشاع منهم ويقوم بنسخه العلماء والمفكرون .

الثاني : أنه لم يكتب شيئاً لأنها فترة وجيزة وشغل فيها بتحرير الفتاوى والرد على أسئلة طلاب العلم والمعرفة .

الثالثة : دخل ابن تيمية السجن في قلعة دمشق عام ٧٢٦ هـ بأمر من السلطان لأنه نهاه عن الفتوى فلم يستجب له .

وفي هذه المرة أخلت له قاعة في القلعة وأجري إليها الماء وأقام معه أخوه « زين الدين » يخدمه بإذن السلطان ، وأجري عليه ما يقوم بكفايته .

وقال ابن تيمية عند ذلك : أنا كنت منتظراً ذلك ، وهذه فيه خير كثير ومصلحة كبيرة لنا . » .

ونرى أن الخير الكثير الذي يقصده ابن تيمية يتمثل في أمرين :

أولاهما : العبادة ، فقد وجد في هدأة السجن فرصته لمناجاة ربه في شيخوخته تلك الفترة التي يحس فيها الانسان بدنو أجله .

وثانيهما : الاتجاه إلى تمحيص آرائه وتدوينها وهو في هذا الهدوء الشامل الباعث على التأمل وبين يديه الكتب يراجع فيها وينقب .

يقول ابن كثير : وقد كتب في ذلك كثيراً من تفسير القرآن الكريم ، وكان ما بكتبه يخرج إلى الناس وينسخه العلماء وطلاب العلم ، وخصوصاً رده على بعض فضاة المالكية في مصر واسمه - عبدالله بن الأخنائي وسماها « الاخنائية » وقد طبعت في مصر .

إن فكره يذاع ورأيه ينشر إن ما حبس من ابن تيمية هو جسده فقط أما أفكاره وآراؤه فهي بين الناس حية قائمة يتداولها الخاص والعام . إن ما قصدوه بالحبس لم يتحقق ، إن ما كانوا يخشونه منه - هو فكره الذي يوجه ويرشد ويصنع العمالة ويقوم الثورات إذا لزم الأمر .

وقرروا أمراً ، ومكروا مكرأ ، وهو أن يمنع الشيخ من الكتابة ، أن يحبسوا فكره ، أن يسجنوا علمه .

وفي اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ٨٢٨ أخرج ما كان لدى الشيخ رضي الله عنه من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام ، وحملت كتبه ومراجعته إلى المكتبة الكبرى بالعادية فنظر فيها القضاة والفقهاء ثم بقيت محفوظة بهذه المكتبة .

إن كتبه لم تحرق ، ومراجعته لم تعد بل بقيت في هذه المكتبة نبعاً ثرياً لطلاب العلم ، والمعرفة . ومائدة شهية لهؤلاء الراغبين في فهم دينهم ، والتفقه في شرع ربهم .

والمطالع للجزء الرابع عشر من تاريخ البداية والنهاية لابن كثير تلميذ ابن تيمية ، والذي سجل فيه الكثير من أخبار شيخه لا يرى إلا المطاردة والمصادرة لفكره ، ولم يذكر حرقاً ولا إعداماً لهذه المؤلفات .

بل إن ابن كثير يجمع الكثير من أراء ابن تيمية وفكره والذي كتبها بعد مصادرة أوراقه وأقلامه على بعض القصاصات المتناثرة بأقلام الفحم المتبقي من القود .

ومن هذه القصاصات : « نحن والله الحمد في عظيم الجهاد في سبيله بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجلبية ، والجهمية ، والاتحادية وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . » .

لقد حفظ التاريخ بعض هذه القصص التي كتبت بفحم في أغوار السجن
كيف لم يحفظ كتاباً ضخماً في التفسير . . ؟

وكيف لم يسجل ابن كثير قضية الحرق هذه ، وهو الذي لم يترك شاردة ولا
واردة في حياة شيخه الأسجلها . . ؟

إن العقل والمنطق ، ووقائع الأحداث ، والوثائق التي توصلنا إليها تنفي نفيّاً
باتاً ما يدّعيه الأدعياء وما يشيعه المتزيدون .

وإذا كان ذلك فما أصل هذه القضية وما حكاية الثلاثين مجلداً التي يقول بها
هؤلاء الناس . . ؟ وهل كتب ابن تيمية تفسيراً كاملاً لآيات القرآن الكريم . . ؟

إننا لكي نجلي هذا الأمر ونوضحه علينا أن نستقرأ النصوص والأحداث التي
توصلنا إليها مع الاعتماد على أقوال ابن تيمية شخصياً في هذا الأمر : لقد طلب منه
أحد تلاميذه - وهو في السجن - أن يكتب تفسيراً للقرآن الكريم كله مرتباً وكاملاً
فكتب ابن تيمية إليه قائلاً :

« إن القرآن منه ما هو بين بنفسه ، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب ،
ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة العلماء ، فربما يطالع الإنسان فيها عدة
كتب ، ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ويفسر غيرها
بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره ، وإذا تبين معنى آية
تبين معاني نظائرها . »

إن ابن تيمية في هذا النص ليس مقتنعاً بتفسير القرآن الكريم آية آية . فقد
سبقه في ذلك كثير من المفسرين وبعضهم أصاب كبداية الحقيقة والبعض الآخر لم يفتح
الله عليه .

فهو يتناول مثل هذه الآيات التي يقول فيها « ربما طالعت على الآية الواحدة
نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمني ، وكنت
أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها ، وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى الفهم

وأقول : يا معلم ابراهيم فهمني . » .

إن هذا النص يدل دلالة قاطعة على ابن تيمية كتب تفسيره وهو خارج السجن فهو يذهب إلى المساجد البعيدة ، والأماكن المهجورة ويطلب من الله أن يعلمه وأن يفهمه .

إن ما كتبه في سجنه من التفاسير هو تفسير سورة الاخلاص والمعوذتين فقط ولقد حفظ هذا التفسير وطبع أكثر من مرة في مصر ودمشق ولم تسقط منه كلمة واحدة عما كتبه الشيخ في سجنه .

وإذا كان ذلك كذلك فما قضية الثلاثين مجلداً من التفسير . . ؟
« إن الشيخ ابن تيمية كان معنياً بجمع نقول السلف في التفسير ولعل ما جمعه هو المجلدات الثلاثون » ولقد وجدت كاملة ، ولذا كتب ابن تيمية عليها « كتبه للتذكرة » .

وإذا كانت المقدمات السليمة تؤدي إلى النتائج الصحيحة - فإن ما قدمه الآن إلى الأمة الاسلامية هو التفسير الكامل الذي كتبه ابن تيمية كاملاً غير منقوص . وعلى الله قصد السبيل .

الحالة السياسية

إن أصدق ما ينطبق على الحالة السياسية في عصر ابن تيمية ويعبر عنها أصدق تعبير حديث الرسول - ﷺ - الذي رواه الإمام أبو داود في سننه بسنده عن ثوبان - رضي الله عنه .

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها .

فقال قائل : أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله . . ؟

قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدر

عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » .

قال قائل : يا رسول الله وما الوهن . . . ؟

قال : حب الدنيا وكراهية الموت . «^(١)

هذا - والحق يقال - حال المسلمين في القرن السابع والثامن بعد الهجرة حيث

صارت حياتهم ضعفاً وتفككاً وهواناً .

هواناً لف ليلهم وأعتم نهارهم ، . وضعفاً شمل أفرادهم وحكامهم ، وأصبح

بأسهم بينهم شديداً . الأمر الذي جعل كل حاكم على ولاية ينظر إلى من يجاوره من

الحكام الآخرين على أنهم أعداء يجب أن يترىص بهم ليقضي عليهم قبل أن يقضوا

عليه .

ليس هذا فحسب بل لجأ بعضهم إلى أعدائهم ، أعداء العقيدة ، وأعداء

الدين ليستنصر بهم على أخوة الدين والعقيدة . . ؟

(١) أبو داود في كتاب الملاحم ٥ والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥ : ٢٧٨ (حلي) .

ولما رأى أعداؤهم ما وصل إليه حالهم من التفكك والتباغض ، من الضعف والهوان ، أجمعوا العدة ، وجيشوا الجيوش للقضاء عليهم .

يقول المؤرخ المدقق ابن الأثير :

« لقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يتل بها أحد من الأمم . منها هؤلاء التتر فمنهم من أقبل من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها . ومنها خروج الفرنج من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر ، وامتلاكهم ثغرها - أي دمياط - وأشرفت ديار مصر وغيرها على أنه يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم ومنها أن السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة » .

إن هذا الكلام الذي ساقه ابن الأثير يدل دلالة واضحة على أن المسلمين في تلك الآونة من تاريخهم تعرضوا لثلاث من الهجمات الشرسة :

الأولى : الهجمات الصليبية والتي استمرت في رأي بعض المؤرخين قرابة الثلاثة قرون .

والثانية : هجمات التتار الذين خرجوا من أواسط آسيا الصغرى .

والثالثة : هجمة من داخله بالعداوة المستحكمة بين حكامه وأمرائه .

ويطيب لنا أن نبدأ حديثنا بالتعرف على الهجمة الداخلية والتي تعتبر - في رأينا - أشد الهجمات ضراوة للأمة الإسلامية لأن ما جاء بعدها يعتبر نتيجة طبيعية لها وأثر من آثارها .

لقد ذكر بعض المؤرخين أن من أسباب الحروب الصليبية أن الفاطميين في مصر لما رأوا ملك السلجوقيين يتسع حتى استولوا على الشام ، ولم يكن لهم قبل بدفعهم كاتبوا ملوك الافرنج يدعونهم للخروج لامتلاك الشام ويكونوا بينهم وبين المسلمين .

إن مجرد ذكر هذا الكلام في كتب التاريخ يدل دلالة واضحة على أن المسلمين في هذا العصر كادوا ينسلخون من دينهم جملة ، وأوشكت الصلة أن تنقطع بينهم وبين خالقهم أو انقطعت بالكامل - وإلا لو كانت متينة ومتصلة في قلوبهم للأنها بالإيمان ،

وحالت بينهم وبين الخوف وتوقع الهزيمة تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) .

ولكن ما سجله التاريخ يقرر أن أقدامهم لم تثبت ، وقلوبهم لم تطمئن ، واستجاروا من الرمضاء بالنار .

وما حدث في مصر حدث نظيره في الشام يقول المؤرخ ابن الأثير :

« لقد كان بوادي التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب مختلفة ومنهم بعض المجوس وغيرهم ، وقد آلت الرياسة فيهم إلى رجل اسمه « المزدقاني » علا شأنه وكثر أتباعه فراسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور ، واستقر الأمر بينهم على ذلك ، وتقرر بينهم الميعاد وقرر « المزدقاني » مع الاسماعيلية أن يحتاطوا لذلك اليوم (بأن) يقفوا بأبواب الجوامع فلا يمكنوا أحداً من الخروج منه ليجيء الفرنج ويملكوا البلاد ، فبلغ ذلك التدبير صاحب دمشق فاستدعى « المزدقاني » إليه ، ولما حضر خلا به وقتله ، وعلق رأسه على باب القلعة ، ونادى مناديه في المدينة بقتل كافة الباطنية » .

ولما علم الأعداء (الفرنجة) بما حدث لصديقهم ووليهم المسلم انقضوا على المدينة ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد فألحقوهم بأوليائهم الباطنية ، وأذاقوهم أليم الموت بعد أن ذاقوا أليم الحرب .

فعل المنشقون على دينهم واخوانهم ذلك وحسبوا أن عزهم ونصرهم عند هؤلاء وتناسوا قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أنه يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿ (٢) .

(١) سورة محمد آية : ٧ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥١ - ٥٢ .

وما حدث في مصر وفي الشام حدث نظيره في بغداد عاصمة الخلافة في ذلك

الوقت . لقد كان ابن العلقمي وزير المعتصم آخر خليفة عباسي أقام ببغداد ، وكان شيعياً غالباً ارتضى لنفسه أن يملىء عبدة الشمس من التتار على عبدة الواحد القهار فخان دينه ، وخان بلاده ، وذلك بعمله على إضعاف جند بغداد إلى عشرة آلاف بعد أن كانوا مائة ألف أو يزيدون عند توليه الوزارة .

وعندما وصل الجيش إلى هذا العدد القليل أطمع التتار ، وكشف لهم الحال ، وأبان لهم ضعف الجيش ، وقلل من قيمة القوة الضاربة التي تقف في طريقهم ، ولم يكتف بذلك بل إنهم عندما أقبلوا كالوحوش الكاسرة الضارية ، حسن للخليفة مصالحتهم على أن يترك لهم نصف خراج العراق ، ويكون للخليفة النصف الآخر ، فرضي بما أشار عليه به وزيره .

وذهب الخليفة إلى « هولاكو » في قلعته ، ولكنه رد مذموماً مدحوراً لأن الوزير الذي يملأ الحقد كل ذرة من قلبه أشار على « هولاكو » ألا يقبل مصالحة الخليفة خشية نقضه الصلح عند جماع حمله واعداد قوته بل وأغراه بقتله ؟؟ وقتل خليفة المسلمين بإشارة الروافض ، واندفعت جيوش التتار داخل بغداد يقتلون ويخربون ، ولم ينبج من هذه المذبحة إلا اليهود والنصارى ومن لجأ إلى العلقمي الخائن . فهؤلاء كان لهم عند « هولاكو » الأمان .

إن هذه الخيانات المتلاحقة في تاريخ المسلمين تقرب إلى أذهاننا صورة هذا العصر ، وتبين لنا كيف كان المسلمون في هذا الزمن والبلاء بلاء يتناحرون في أرائهم ومعتقداتهم فأشبه حالهم حال أهل « القسطنطينية » عندما كانوا يتجادلون في نحلهم وفرقهم ومحمد الفاتح القائد المظفر يدق أبوابها ويشتت شمل أتباعها .

وهؤلاء يقتتلون ويكيد بعضهم لبعض وجيوش التتار قد أزالوا كل ما وراءهم من بلاد وعباد .

ثم تعطينا هذه الحوادث صورة أخرى للتعصب المذهبي الذي يعمي القلب .

والبصيرة فيتقدم وزير أعطى أمانة الخلافة والملك إلى أعداء الله والدين فيستعديهم على بلده وأهل دينه .

ومن هنا نفهم سر الحملة الضارية التي كان ابن تيمية - رحمه الله - يشنها على هؤلاء الروافض الذين جعلوا كتاب ربهم وراءهم ظهيراً .

إن هذه الخيانات المتتابعة في تاريخ هذه الأمة قديماً وحديثاً هي العامل المباشر في ضعف قوتهم ، وذهاب دولتهم ، وجعلهم في النهاية أتباع في ذيل القافلة . تحتل أرضهم فلا يحمي لهم أنف ، وتداس مقدساتهم فلا يندى لهم جبين . حتى الذين كنا نقول لهم بلسان الإسلام - فيما سبق - أسلموا تسلموا ، يقولون لنا بلسان الاضطهاد تنصروا تنصروا ؟؟

الحروب الصليبية ..

سؤال يطرح نفسه ، لماذا كانت الحروب الصليبية .. ؟ وما الدوافع والأسباب التي أدت الى قيامها .. ؟

أكانت من أجل نصره الصليب ، والدفاع عن عقيدته .. ؟ وخصوصاً أن تلك الحروب نسبت إلى « بطرس الراهب » نعم « بطرس الراهب » الذي طاف الآفاق داعياً إلى فتح البلاد المقدسة التي تفيض لبناً وعسلاً على حد قول هذا الموتور .. ؟

أكانت من أجل استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين .. ؟ والذي يمثل - في نظرهم - أنه مهد المسيحية الأول ، وفيه ولد « ناسوت » المسيح ، وقبر ثم قام على حسب اعتقادهم ، فمن استولى عليه فقد استولى على عرش المسيحية في كل البقاع .. ؟

أم كانت لتصفية الحسابات القديمة بينهم وبين المسلمين ، المسلمون الذين انقضوا على الشام فأخذوه ، وانقضوا على مصر فاستولوا عليها ، وصارت هذه الأقاليم إسلامية ترتفع مآذن مساجدها في الآفاق ويدوي في أرجائها صوت الله أكبر ، ويقام فيها حكم الإسلام العادل ، ويضيء ظلامها نوره المشرق ؟ .

ومن هذا التاريخ أقضت الجيوش الإسلامية - في صدر الإسلام ، وفي العصرين الأموي والعباسي مضاجع حكام الرومان وانتقصوا الأرض من أطرافها عليهم وذلك باستيلائهم على الأندلس ، ومحاصرة عاصمتهم « القسطنطينية » وتوغل

جيوشهم الحرارة داخل أوروبا حتى وصلت إلى « كروسيكا » مواطن « نابليون » على مشارف فرنسا .

إننا نغفل إلى هذا الرأي الأخير في اندلاع الحروب الصليبية ، وخصوصاً أن أوروبا لم يغمض لها جفن لاستمرار البلاد في حوزة المسلمين ، فكانت دائماً على أهبة الاستعداد والترصد ، وسلكت إلى ذلك طرقاً عدة ، منها إشاعة الفرقة بين حكام المسلمين ، وإرسال الجواسيس لكشف عوارثهم ، والتعرف على مواضع الضعف في تحصيناتهم ، وإعداد القوة الضاربة لاسترداد هذه البلاد .

تقول بعض الروايات التاريخية إن أحد الجواسيس من الفرنجة توغل داخل بلاد الأندلس عقب وقوعها في حوزة المسلمين فرأى طفلاً تحت شجرة ييكي ويذرف الدموع الغزار . . ؟؟

فتقدم إليه الجاسوس وسأله ما الذي يبكيك يا بني . . ؟
فأجابه الطفل اليافع لأنني لم أستطع إصابة الهدف الذي حدد - رهو صيد العصفور الذي يقف فوق الشجرة . . ؟؟

فقال الجاسوس : هون عليك فهذا أمر هين ، وعاور بكرة من جديد . ولكن الطفل المسلم ابن الأبطال المغاوير قال لهذا الرجل المتطفل : إن الذي يبكيك أمر أعمق من صيد العصفور .

قال الجاسوس : ما هو . . ؟
قال الطفل الكبير : إذا كنت لا أستطيع أن أصيد العصفور اليوم - كما فعل أترابي - بسهم واحد فكيف أستطيع أن أصيب عدوي غداً . . ؟
وعندما أبلغ الجاسوس هذه الواقعة إلى ملكهم قال :

« الرأي عندي ألا تعترضوهم - أي العرب - في خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع .

«ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة

ويستعين بعضهم على بعض فحيثئذ يتمكنون منهم بأيسر أمر» .
ولقد تحقق ما تنبأ به هذا الملك - كما قلنا في بداية هذا البحث - لقد استعان
حكام الولايات بالأندلس بأعدائهم الفرنجة لكسر شوكة إخوانهم الأمراء بالأندلس .
واستعان ابن العلقمي الوزير الرافضي بالمغول لتحطيم الدولة المسلمة في بغداد
واستعان الوزير الفاطمي في مصر بالصليبيين للقضاء على المناوئين له في الحكم .

ثم ماذا . . ؟ لقد شغلت الحروب الصليبية المسلمين نحو ثلاثة قرون أبلى فيها
السلاجقة ثم الأيوبيون من بعدهم - بلاء حسناً وكان آخر ضربة وجهتها الجيوش
المصرية إلى هؤلاء المغيرين في موقعة حطين - فانتصروا عليهم انتصاراً مظفراً ، وأسروا
ملوكهم وقادتهم ووضعوهم في سجون أعدت لذلك .

ولقد عاش ابن تيمية في العصر الذي جاء بعد ذلك ، وسمعت أذناه ووعى
قبله الأهوال الكبيرة ، والحروب المدمرة التي مني بها المسلمون في ذلك العصر .

التار في بلاد المسلمين . . ؟؟

إذا كانت الحروب الصليبية قد تركت جروحاً غائرة ، وندوباً موجعة في جسم
الأمة الإسلامية . فإن هذه الجروح ما كادت تندمل ، وتخضر الأشجار التي
صوحت ، وتفور المياه التي جفت حتى كانت جيوش جرارة خرجت من أواسط آسيا
الصغرى تحمل معها الدمار والخراب والفناء ، وانداحت في جسم الأمة الإسلامية
تحرق الأخضر واليابس ، وتبتلع بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى ، حتى وصلت
إلى بغداد عاصمة الخلافة فأطبقت عليها من كل جانب حتى سقطت بين مخابها جثة
هامدة .

ولا يستطيع الانسان أن يتصور الأهوال والمصائب التي صبها هؤلاء المغيرين
على أهالي بغداد العزل من كل سلاح .

يقول ابن الاثير في كتابه الكامل :

« لقد بقيت عدة سنوات معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها ، كارهاً
لذكرها ، وهأنذا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب
نعي الاسلام والمسلمين .. ؟ »

ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أُمي لم تلدني ، وبالييتني مت قبل هذا
وكنت نسياً منسياً ، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ،
ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً . »

فنقول هذا الفعل متضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التي عمقت
الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلوقال قائل إن
العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم « عليه السلام » إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان
صادقاً ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتنفى الدنيا .

هؤلاء « التتار » لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا
بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة - فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم ، لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها ، وسارت في البلاد
كالرياح .

إن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ، ومنها إلى بلاد ما
وراء النهر فملكوها ، ثم عبرت طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً ،
وقتلًا ، ونهبًا ، ثم يتجاوزونها إلى الري ، وهمذان ، إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد
أذربيجان ، ويخربونها ، ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل
من سنة . هذا ما لم يسمع بمثله .

فعلوا هذا في أسرع زمان ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير . إن الاسكندر
الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا ، لم يملكها في هذه السرعة ، إنما ملكها في
نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحداً ، إنما رضي من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا
أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً ، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً
وسيرة في نحو سنة . »

أين ذهبت قوة المسلمين . . ؟ أين الأبطال الذين فتحوا فارس وانتصروا على الروم . . ؟

أين هؤلاء الرجال الذين قال الله فيهم :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . ﴾ (١) .

أين هؤلاء الرجال الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً . ﴾ (٢) .

أين ذهبوا . . ؟ كيف تركوا بلادهم وأولادهم وحرماهم . . ؟

كيف هانت عليهم مقدساتهم وتراث أجدادهم - حتى أقام منها المغير جسراً عبر عليها جنوده إلى داخل بغداد . . ؟

لا عجب ولا عجاب إن هؤلاء ملكتهم الدنيا فأصبحوا عبيداً لها وقيدتهم شهواتهم فانساقوا خلفها عندها حق عليهم قول الله تعالى :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ (٣) .

ثم ماذا . . ؟ لقد تحركت جيوش التتار من بغداد إلى دمشق فدخلوها واستولوا على كل ما فيها . ولكن بقاءهم في دمشق لم يدم طويلاً فقد جاءت الجيوش الاسلامية من مصر الاسلامية بقيادة قائدها المظفر سيف الدين قطز ، وهزمهم في موقعة « عين جالوت » كما تقول أوثق المصادر التاريخية . وتحقق قول الرسول - ﷺ - الذي رواه الامام مسلم بسنده عن جابر بن سمرة :

(١) سورة التوبة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء آية ١٦ .

« لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة . » .

« وفي رواية عن جابر بن عبد الله :

« لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة . » .
لقد تكسرت تلك الصخرة القوية التي جاءت من الصين ، ولا يعلم إلا الله أين كانت تقف لو لم يوقفها المصريون في عين جالوت . . . ؟؟؟ .
ومن المؤكد أنها كانت قاصدة أوربا التي كانت ترتعد فرائص أهلها عند ذكر هجومهم . ولذلك يقول المؤرخون :

« إن مصر عندما حطمت تلك الصخرة ، لم تنقذ الاسلام وحده ، بل أنقذت المسيحية أيضاً ، بل أنقذت الحضارة بعامة من أن يقضي عليها أولئك الطغاة وتداس تحت أقدام خيلهم .

لقد تمت هذه الحوادث قبل ميلاد ابن تيمية بنحو ثلاث سنوات ، ولما شب عن الطوق شاهد آثارها ودمارها ، واستمع بأذنيه إلى الآلام المبرحة التي تركتها تلك الهجمة الشرسة في نفوس معاصريها .

وعرف ابن تيمية فضل مصر الاسلامية ، في إنقاذ أمة القرآن من هذا البلاء الذي حل بها .

ولقد كان اللون السياسي للعالم الاسلامي في عصر ابن تيمية - وخصوصاً في مصر والشام - هو اللون الذي اصطبغ به حكم المماليك . .

وحكم المماليك كان حكماً مطلقاً ، الحاكم فيه مستبد لا يصل إلى الحكم إلا بقوته ، ومع ذلك فقد كان الواحد منهم يحرص على أن يكون حكمه تحت سلطان الدين يستمد من قوة الدين قوة ، ويعلن حكمه بين الناس على ذلك . .

من هنا كنت ترى أن الوظائف الشرعية قائمة ، والحسبة لها رجالها ، والقضاء له سلطانه ، بل حرص بعض السلاطين أن يكون حكمه برضاء العلماء ، وقد كان الظاهر بيبرس الذي وضع قواعد الحكم للدولة المماليك يعني بسماع أقوال العلماء

يستجيب لاستشاراتهم ، وينفذ آراءهم .

وقد عاصره عالمان جليلان كان كلاهما يستمتع بنفوذه عند العامة ، أما أحدهما لقد كان « الظاهر » له مطيعاً ، وأما الثاني فقد صار له مغاضباً .

فالأول : العز بن عبد السلام (ت . ٦٦٠ هـ) وقد قال السيوطي في علاقته بالظاهر « كان بمصر منقماً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره . حتى أنه قال : لما مات الشيخ : ما استقر ملكي إلا الآن . »^(١) .

والثاني : الشيخ محيي الدين النووي (ت . ٦٧٦ هـ) - وكان بدمشق - وكان كثير الوعظ للظاهر يكتب إليه بما يراه إن كان بمصر ، ويصدع بكلمة الحق أمامه إن كان الظاهر بدمشق .

والعامة لم يكن لهم من الأمر شيء فليس ثمة من يمثلهم في شورى ، وليس لهم ثر ايجابي في نظام الدولة ، ومع ذلك لم يكونوا مهملين في النصف الأول من حكم المماليك ، ولولا اضطراب الأحوال بين المماليك أنفسهم - والحروب التي خاضوها ضد جيوش التتار وغيرهم لساووا بالأمة في طريق الحكم الشورى . الذي يكون للأمة فيه رأي يسمع ، وكلمة تقال .

هذه صورة موجزة عن الحالة السياسية في عصر ابن تيمية ، والعصر السابق له ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على الأهوال ، والنكبات التي مرت بها الأمة الاسلامية طوال ثلاثة قرون متلاحقة وإن توجت في نهاية الأمر بالنصر المؤزر والفتح المين على أحزاب الشرك وجيوش الكفر والإلحاد .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ٢ : ٦٦ .

الحالة الاجتماعية في عصر ابن تيمية . .

كان المجتمع في عصر ابن تيمية مجتمع الاضطراب ، والاختلاط ، والفوضى ، التي لا تقف عند حد ، وكيف لا يكون كذلك وقد تشابكت فيه الأمور ، وتداخلت فيه حربان ضاريتان . . ؟؟ .

الأولى : الحروب الصليبية ، وفيها اختلط الناس اختلاط عادات وتقاليدها ، اختلاط حضارة وثقافات ، اختلاط ديانة ومعتقدات ، ولا شك والحرب قائمة ، والرياح مشرعة ، والسيوف تطيح بالرقاب . أخذ الغرب من عادات المسلمين ومعتقداتهم الشيء الكثير ، وتشربته بعض نفوسهم ، فاصبح لكثير منهم - منهجاً وسلوكاً ولبعضهم نظام حياة .

وكذلك ما جاء به الغرب من تنظيمات للحرب والسلم ، من قوانين للتجارة والمعاملات ، من أسس قيام الحياة الاجتماعية عندهم . اشرأبت إليه بعض النفوس في الشرق وجاءت به إلى مجتمعاتها الخاصة ، وحياتها اليومية .

ثم كانت الحرب الثانية : التي شنها على العالم الاسلامي هؤلاء الرجال الذين خرجوا من أواسط آسيا الصغرى تحمل الدمار والهلاك لكل من تلقاه أو يعترض طريقها - كما قلنا سابقاً .

وعندما هزمهم سيف الدين قطز في موقعة « عين جالوت » المشهورة أخذ منهم كثيراً من الأسرى ، وعندما أطلق سراحهم لم يغادروا البلاد بل استقروا في مصر

والشام ، واختلطوا بالمجتمعات الاسلامية ، ومعهم عاداتهم وتقاليدهم ونظام حياتهم - والتي لم يتخلوا عنها .

نعم نظام حياتهم الذي يسير على مقتضى قواعد « السياسة » وهو كتاب الحكم الذي وضعه لهم « جنكيزخان » .

وهذا الكتاب أكثر مبادئه مخالف لما جاءت به الكنب السماوية ، وأحكامه فيها قسوة وشدة ، ويصدر الدم فيها لجرائم لا تستحق الاهدار كما يقول : علاء الدين الجويني .

وقد نقل العلامة ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » نتفاً منه جاء فيها :
« إن من زنى قتل ، محصناً أو غير محصن ، وكذلك من لاط قتل ، ومن تعمد الكذب قتل ، ومن سحر قتل ، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل ، ومن بال في الماء الواقف قتل ، ومن انغمس فيه قتل ، ومن اطعم أسيراً قتل ، ومن وجد هارباً ولم يرده قتل ، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولاً ، ولو كان المطعوم أميراً أو أسيراً ، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل ، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله . الخ . » .

ولا شك أن تلك الخلطة الاجبارية تكون منها خلط نفسي واجتماعي أفرز في النهاية ثلاث طوائف :

الأولى : طائفة الحكام (والوافدية) .

لقد خص المماليك الذين تربعوا على عرش مصر والشام الأسرى من التتار الذين وقعوا في أيديهم ، بمعاملة خاصة وأكرمهم ، وفكوا وثاقهم ومنحهم الحرية ، واطلقوا عليهم لقب « الوافدية » .

ولعل السبب في ذلك انهم جميعاً من جنس واحد ، فإن لم يكن هؤلاء الأسرى إخوتهم فهم أبناء عمومتهم .

وكانت لغة الحكام والوافدية - اللغة التركية - يلون بها ألسنتهم ولا يعرفون العربية ولا ينطقونها إلا في العبادات ، أو عندما يخاطبون العلماء .

وهذه الطائفة هي التي تملك الاقطاعات والثروات التي تخرجها الأرض ، أو تعود إليهم ثمراتها إن كان يقوم بزراعتها وتغليحها الغمال والمزارعون .
ليس هذا فحسب ، ولكن هذه الطائفة كانت شرهة في جمع المال وفي سبيل ذلك كانت تفرض الضرائب الباهظة على الفلاحين والعمال ، وتأخذها منهم بالطرق المشروعة مرة ، وغير المشروعة مرات .

الثانية : طائفة العلماء .

أما هذه الطائفة ، فكان لها سلطان الدين ، والقوة الروحية ، فإذا كان للأمرء حماية الدولة ، فالعلماء لهم عزاء النفوس ، وطب القلوب .
وكانوا ينصحون الحكام برفع أيديهم عن العامة ، وتخفيف الضرائب عنهم ، فإذا لم يستجيبوا لهم حرضوا العامة وآثاروهم عليهم ، واسمعوهم فارغ الكلم كما حدث مع الشيخ شمس الدين الديروطي ، والسلطان الغوري ، عندما دخل عليه مجلس الحكم وألقى عليه بتحية الاسلام . ولكن الغوري لم يرد عليه التحية .. ؟ .

فقال الشيخ : إن لم ترد السلام فسُقت وعُزلت .

فقال السلطان : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم فقال السلطان : لماذا تهاجمنا على ترك الجهاد ومقاتلة الأعداء ، وليس لنا مراكب نجاهد عليها ... ؟

فقال الشيخ : بل عندك المال الذي تجهزها به - وطال بينهما الكلام .

فقال الشيخ للسلطان : قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانياً ثم أسروك وباعوك .. باعوك من يد إلى يد ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق .. ؟

وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجو منه أحد ، ولا ينجح فيه طب ، ثم تموت وتكفن ، ويحفرون لك قبر مظلم ثم يدسون أنفك في التراب ، ثم تبعث عرياناً عطشاناً جوعاناً ، ثم توقف بين يدي الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ثم ينادي

المنادي من كان له حق على الغوري فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله .

يقول روائي الخبر : فتغير وجه السلطان من كلام الشيخ وأوشك أن يختل عقله وهنا يعرض على الشيخ - كي يرضى عنه - عشرة آلاف دينار . . ؟؟ .
فقال الشيخ : أنا رجل ذو مال ، ولا احتاج إلى مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجاً لأجل الجهاد ، من أجل الدفاع عن بلاد الاسلام والمسلمين أقرضتك وصبرت عليك .

يقول روائي الحديث : فما كان أحد أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان في ذلك المجلس .

وما حدث مع السلطان الغوري ، والشيخ الديروطي ، حدث مثله مع السلطان الظاهر بيبرس ، والشيخ محيي الدين النووي كما سجله السيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » .

فقد طلب الظاهر من الشيخ النووي أن يوقع على فتوى تتيح له جمع الضرائب العامة .

وكان الشيخ يعتذر بأن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف حاله بسبب قلة الأمطار ، وغلاء الأسعار ، ولكن « الظاهر » أراد أن يجبر الشيخ على ذلك فقال له الشيخ :

« أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مال ثم من الله عليك ، وجعلك ملكاً وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملك له « حياصة » من ذهب وعندك مائة جارية لكل جارية حق من الحلى فإن انفقت ذلك كله ، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلى افتيئك بأخذ المال من الرعية . » ؟؟ .

الثالثة : طائفة العمال والفلاحين .

ولقد كانت هذه الطبقة مكدودة، مضيق عليها وخصوصاً الزارع منهم، ولا أحد

ينكر أن رقعة العالم الاسلامي خصبة ومنتجة ، وفلاحية يميلون إلى العمل ، وإلى السعي في الأرض ، والضرب في فجاجها ، ولكن ما فعله الصليبيون ، والتار من شن الغارات الواحدة تلو الأخرى^(١) قد أضعف موارد البلاد ، وأنهك اقتصادياتها فمزارعها وحدائقها وبساتينها نهباً مباحاً للجيوش المغيرة وكلاً سهلاً أمام شراسة الهجمات من قوم لا يؤمنون بعقيدة ولا يهتدون بوحي . الأمر الذي جعلهم يتسلطون على الأهالي الأمنين تسلط الذئاب المفترسة للقطيع الوديع والذي جعل الكثير من أفراد الشعب تفضل الموت جوعاً وعطشاً في منازلهم على الموت في مزارعهم أو حوانيتهم بيد المغيرين المتسلطين .

ويصور لنا العماد ابن كثير ما حدث في القرن الثامن الهجري قائلاً :
« قل المطر في بلاد الجزيرة والموصل ، فحصل الجذب والقحط ، وارتفعت الأسعار ، وعمدت الأقوات ، بحيث أكلوا كل ما وجدوا من الجملادات والحيوانات ، ولما قلت الأموال التي يشترون بها ما يسدون به رمقهم باعوا كل شيء يملكونه حتى أولادهم وأهلهم ، وبيع الولد في ذلك الحين بخمسين درهماً ، بل وبأقل من ذلك .

وما حدث في الجزيرة ، والموصل ، حدث مثله في مصر والشام ، ومكة والمدينة ، واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب ، والحمير والخيل والبغال ، ولم يبق شيء من الدواب عند أحد من الناس ، وبيع الكلب في ذلك الوقت بخمسة دراهم^(٢) .

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
هذه صورة الحياة الاجتماعية في عصر ابن تيمية ، تؤلم القلوب وتدمع العيون ،

(١) استطاع السلطان الأشرف بن قلاوون أن يسترد من الصليبيين في نهاية القرن السابع الهجري . عكا ، وصور ، وصيدا ، ويبروت ، وقلعة الروم . انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣ : ٣١٩ ، والنجوم الزاهرة ٣/٨ .

(٢) راجع تاريخ مصر لابن إياس ١ : ١٣٣ والبدية والنهاية لابن كثير ١٣ : ٣٤٣ .

وتوقظ الانسانية من غفلتها ، وتدفعها إلى تصور البلاء الذي يصيب الله به عباده إذا ما ابتعدوا عن نهجه القويم أو تهاونوا في تكاليفه العظيمة ، أو سلكوا مسالك الشيطان ، أو أغرتهم قوتهم فظنوا انهم هم القادرون والمسيطرون ، وصدق الله العظيم في قوله :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ (١) .

الحياة الفكرية في عصر ابن تيمية

إن الراصد للحركة الفكرية في نهاية القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع يرى أن المدارس التعليمية ، والموسوعات العلمية ، والخزائن الكبيرة المملوءة بالكتب والمؤلفات ، كان لها دور كبير في إثراء الحركة الفكرية وتوسيع نطاق المعرفة والثقافة في ذلك العصر .

ونحاول بمشيئة الله أن نتكلم على كل عامل من هذه العوامل الثلاثة حتى تكون الرؤية أمام القارئ واضحة وبيّنة .
أولاً : المدارس التعليمية .

أما عن المدارس فقد عرفتها الأمة الاسلامية قبل هذا التاريخ بفترة طويلة وكانت تؤدي دورها في تقديم علوم الدين والدنيا لطلابها .

وكان ذووا اليسار يقومون بالإنفاق عليها وسد حاجات الأساتذة وطلاب العلم فيها ، ثم تولاهم الملوك والأمراء وقاموا بالتوسع فيها وتعميمها في كثير من المدن الاسلامية .

فنظام الملك السلجوقي (٢) قام بافتتاح العديد من المدارس ببغداد ، والبصرة

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٦ .

(٢) الحسن بن علي ت ٤٨٥ .

والموصل ، ونيسابور ، ومرو ، وهراة ، وحشد لها عمالقة العلماء والمفكرين أمثال الغزالي .

ثم جاء من بعده محمود نور الدين زنكي^(١) ، فأنشأ مدرسة الحديث في دمشق ، وأوقف عليها الأملاك الكثيرة والعقارات الواسعة وكذلك « العادلية » أتمها بعده العادل في دمشق ، وأقام بحلب مدرسة للعلوم الفقهية ، وأخرى في حمص .

وعندما تولى صلاح الدين الأيوبي^(٢) الحكم سار على نهج الملوك والأمراء السابقين له من الاهتمام بالحركة التعليمية والنهضة الفكرية .

فتوسع في انشاء المدارس بمصر والشام ووضع لها النظم الثابتة والقواعد المقررة .

وكثيراً ما كان يرى صلاح الدين وخلصاؤه ورجال دولته ومعاونيه يغشون هذه المدارس للاستماع لدروس الحديث والتفسير والفقه حتى أنه يقال : « كان على جانب حسن من معرفة الحديث والفقه والادب لا سيما أنساب العرب ووقائعهم ، وحفظ ديوان الحماسة .

وعندما جاء المهلبك كانت وسيلتهم لكسب رضا الجماهير التوسع في إنشاء المساجد والمدارس ، وكانوا يجرون على طلبتها الرواتب اليومية ويهيئون لهم السكنى داخل المدارس في أروقة تعد لذلك كما هو في الجامع الأزهر بمصر ، ودار الحديث بدمشق ، والمدارس النظامية في بغداد .

وكانت توزع على هؤلاء الطلاب الملابس والتحف في الأعياد والمناسبات تشجيعاً لهم على طلب العلم والاستمرار فيه . .

ولا شك أن ابن تيمية النافذ البصيرة قد تغذى في هذه المدارس غذاء فكرياً كاملاً .

(١) محمود بن زنكي ت ٥٦٩ .

(٢) يوسف بن أيوب ت ٥٨٩ هـ .

فقد تمهياً له فيها أن يدرس الحديث على أكبر شيوخه - في ذلك العصر - وأن يتلقى علوم العقل على ذوي المهارة فيها ، فدرس المنطق دراسة فاحص ناقد ، لا دراسة محصل يقبل الكلام على علاقته ، ولا يدرك هناته .

ودرس علوم اللغة كلها على شيوخها ، حتى ساغ له أن ينتقد إمام النحاة في القديم « سيبويه » إمام كبير النحاة في عصره - وهو أبو حيان .
ثم استبحر في علوم الفقه راداً له إلى أصوله من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح والاقيسة المستقيمة .

ونحب أن نقول : أنه ما كان يتسنى لابن تيمية ولا لغيره من العلماء الذين تخرجوا في هذا العصر - الاطلاع الواسع والاستبحار والتعمق والتخرج على أكبر الشيوخ بيسر وسهولة إلا بوجود المدارس التي سهلت للعلماء والباحثين السبيل لنشر علومهم ، وللطلاب السبيل لنيله وتحصيله .

ثانياً : الموسوعات العلمية :

أما عن الموسوعات فإنه لم يأتي هذا العصر إلا وكانت جل المعارف الاسلامية ، وعلوم اليونان والفرس قد هيأت بالكامل ووضعت في موسوعات وبوت ونسقت .

فتفسير القرآن الكريم قد تم تدوينه في موسوعات مثل « جامع البيان في تفسير القرآن » لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

ويظهر أن هذا التفسير كان أوسع مما هو عليه اليوم ثم اختصره مؤلفه إلى هذا القدر .

وهذا التفسير يعتبر موسوعة جامعة لأفكار الصحابة والتابعين . ومن الموسوعات أيضاً في علم التفسير « جامع الأحكام في تفسير القرآن » للقرطبي . وأيضاً « زاد المسير في التفسير » لابن الجوزي .

والحديث النبوي قد تم تدوينه بالكامل وأصبح الباحث في علوم الحديث يجد بين يديه صحيح الامام البخاري ، وصحيح الامام مسلم ، ومسنند الامام أحمد بن حنبل ، وسنن الترمذي ، وسنن ابن ماجه ، وسنن أبي داود ، وغير ذلك كثير من

كتاب الصحاح والمسانيد . كموطأ الامام مالك ومسند الربيع بن حبيب .

وفي علوم الفقه كان كتاب المحلى لابن حزم الأندلسي ، وهو فقه الأثر ، لأن صاحبه دَوّن فيه فقه الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم - وفيه طائفة كبيرة من هدى النبي - ﷺ .

وأيضاً فقهاء المذاهب جميعاً دونوا فقههم في موسوعات كبيرة الحجم كما صنع الامام الشافعي في موسوعته الأم التي قام بنشرها في بغداد ثم أعاد تنقيحها في مصر . وكذلك صنع أصحاب الامام مالك في موسوعتهم الكبيرة « المدونة » رواية الامام سحنون بن سعيد التنوخي عن الامام عبد الرحمن بن القاسم العتقي عن الامام مالك بن أنس - رضي الله عنه .

وفي الفقه الحنفي يرى الباحث موسوعات كبيرة كـ « المبسوط » للامام المجتهد أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل السرخسي أملاها وهو في السجن في أوردجند « بفرغانة » وكذلك ما كتبه الامام الطحاوي وغيره .

وفي الفقه الحنبلي وجد كتاب « المغني لابن قدامة » والمصنف لابن عقيل الحنبلي وغير ذلك كثير .

وكذلك الموسوعات في اللغة مثل « الصحاح » لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري . ولسان العرب لجمال الدين أبي الفضل المعروف بابن منظور ، والقاموس المحيط لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزبادي وغير ذلك كثير .

وفي الادب نجد كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالبرد ، وكتاب العقد الفريد لمؤلفه أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي .

وكذلك ما كتبه العلماء والمؤلفون في بقية المعارف الانسانية كالتاريخ وفي مقدمتها كتاب الرسل والملوك لابن جرير الطبري ، والكامل في التاريخ لابن الاثير ، والمنطق والفلسفة وكتب الديانات كموسوعة ابن حزم والتي يعتبرها علماء الغرب أكبر موسوعة

وأصدقها وضعت في مقارنات الأديان في عصره .

ثالثاً : المكتبات أو خزائن الكتب .

كان للمكتبة في صدر الاسلام مهمة جليلة ، وغاية دينية كبيرة تلخص في تعليم الناس شرائع ربهم وتدريبهم على فقه دينهم .

ثم اتسعت الفتوحات ، ووجد المسلمون في البلاد المفتوحة الكثير من الكتب والمؤلفات ، فحافظوا عليها ونظروا فيها ، وترجم الكثير من تلك الكتب إلى العربية .

وأخذت حركة التأليف والترجمة في العصر العباس دوراً كبيراً حيث اهتم الخلفاء والملوك بأفكار العلماء ونتاج عقولهم وكان لهذا التوسع في العلم والمعرفة مقابل في انشاء الكثير من المكتبات وخزائن الكتب ، وعين لأمانتها العلماء النجباء ، ورصدت لها الأموال الطائلة وبذل في المحافظة عليها الجهد الكبير .

يقول الفلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » عند كلامه على خزائن الكتب : « فقد كان للخلفاء والملوك في القديم مزيد اهتمام ، وكمال اعتناء حتى أقاموا منها العدد الوفير »

ومن أجل اهتمام الملوك والخلفاء بالمكتبات انتشرت في جميع البلدان الاسلامية ، مثل مكتبة الجامع الكبير في القيروان ، ومكتبة جامع الزيتونة بتونس ، الذي انشأه التابعي الجليل عبد الله بن الحجاب سنة ١١٤ هـ .

ومكتبة الأزهر الشريف التي تحوي آلاف المجلدات العلمية والمخطوطات الإسلامية النادرة .

ودار الكتب الظاهرية بدمشق والتي نسبت إلى الظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٧٦ هـ .

ولا شك أن هذه الموسوعات المدونة والمكتبات التي ضاقت بما فيها من كتب ومؤلفات قد ساهمت مساهمة فعالة في تثقيف العقول ، ومد العلماء وطلاب المعرفة بالزاد الوفير في كل علم وفن .

ولقد عكف ابن تيمية على هذه الكتب والمؤلفات واستفاد استفادة كبيرة من آراء أصحابها وفكرهم - حتى أصبح له رأيه الناقد ، وفكره المتقد المجتهد في الفقه والعقائد .

وكيف لا يكون كذلك - وأسرته الأولى التي تربى في أحضانها ذات علم وفضل ، والكتاب عندها أغلى ما يقتنى .

وقد شاهد ابن تيمية أسرته وهو في طفولته عندما داهم التتار بلدته ترك الكثير والكثير من مدخراتها وأثاث منزلها - ولكنها لم تفرط مطلقاً في مكتبتها الخاصة - وفرت بها بعد وضعها على عربة خاصة ، لأن الدواب لا تقوى على حملها - فعلت الأسرة ذلك لأن المكتبة أغلى متاع وثروة وغذاء . ولم يحل بينها في ذلك أن العدو يلاحقهم ويأخذ عليهم الأرض من أقطارها ، ولكنها استعانت بالله ونجت من القوم الظالمين .
وبعد :

فإن الحياة الفكرية في ذلك العصر لم تصل إلى درجة الأبداع والابتكار بالرغم من وجود هذه الثروة الكبيرة من المعارف والثقافات ، ولقد انصرف الكثير من العلماء إلى الجدال العقيم والمهاترات اللفظية ، وتدبير المكاييد ، وصنع الخصومات ، والعكوف على المتون والحواشي .

ومع ذلك فإن هذا العصر خرّج مجموعة من العلماء الأجلاء الذين تفخر بهم الأمة الإسلامية أمثال الامام النووي ، الذي قال للملك الظاهر عندما تمادى في جمع الضرائب من الشعب (أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مال ، ثم من الله عليك وجعلك ملكاً) .

ومنهم العز بن عبد السلام . وقد قال السيوطي في علاقته بالملك الظاهر (كان بمصر منقماً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج من أمره ، حتى أنه قال لما مات الشيخ : ما استقر ملكي إلا الآن ..) .
وكثير غير هؤلاء أمثال ابن دقيق العيد ، وابن حجر العسقلاني وابن جماعة ، ودرة العقد الامام ابن تيمية .

وإذا كان ذلك كذلك فمن هو ابن تيمية صاحب التفسير الكبير . . . ؟

الامام ابن تيمية ولادته - نسبه - أسرته

هو الإمام أحمد تقي الدين أبو العباس حجة الإسلام في عصره .

والده : شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم ، شيخ دار الحديث بدمشق ،
يصفه المؤرخون بأنه صاحب العقل الرشيد ، والمنطق السديد ، والمؤلفات المحلقة .

وأمه : اختلف المؤرخون في جنسيتها كثيراً فهي عربية عند بعضهم وكردية عند
ال بعض الآخر ، ولكنهم يتفقون على دورها الكبير في تربيته وتنظيم تفكيره . ويقال
إنها عاشت حتى رآته عالم عصره وفارس ميدانه .

وجده : مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن أبي محمد ، صاحب المصنفات
الكثيرة والمؤلفات العظيمة .

من هذه الأسرة الكريمة التي كانت تقطن مدينة « حران » ولد تقي الدين بن
تيمية عام ٦٦١ هـ .

ولد على ثرى « حران » مدينة الفلسفة والفلاسفة ، والتي كانت تتصارع الآراء
فيها فلا تهدأ ، وتباین على مسرحها الأفكار ولا تلتقي .

ولقد هيات له إرادة الله سبحانه وتعالى أن يبعد عن هذا المسرح القلق فلم يعيش طويلاً في تلك المدينة ، فما كان يبلغ السابعة من عمره حتى داهمت « حران » جيوش التتار ، واضطرت أسرته أن تفر مع الفارين بحثاً عن الأمان والاطمئنان في عالم قل فيه الأمان والاطمئنان .

وفي هذه الهجرة الاجبارية ، عرف الطفل الصغير ، قسوة الحياة ، ومرارة الغربة ، وشراسة الأعداء ، فامتلاً قلبه الغض بكراهية المعتدين وبغض المغيرين .

وفي دمشق عاصمة الأمويين في صدر الإسلام ، وكعبة طلاب العلم وموطن الشيوخ والعلماء ، والسوق الرائجة للمعارف الإسلامية والإنسانية في القرن السابع الهجري - استقر المقام به مع أسرته .

وما كادت عاصمة الأمويين تسمع بصول الشيخ - شهاب الدين - والد تقي الدين إليها حتى بادرت لاستقباله وإكرامه ، لأن علمه الواسع وفقهه الكبير قد سبقاه إلى هناك . وقرر علماؤها ، ورجال الفضل فيها تولية الشيخ - شهاب الدين مشيخة دار الحديث . وبها صار مسكنه ونقل إليها مكتبته ومؤلفاته .

النشأة والتعليم

في هذا الجو الذي يعبق بأريج المعرفة ، وتدار فيه حلقات العلم ومجادلة الأفكار ، ويجتمع فيها الطلاب من كل حذب وصوب كانت نشأة تقي الدين بن تيمية ، بين رعاية والده العالم الجليل الذي يجلس العلماء الكبار طلاباً بين يديه ليزدادوا علماً ويتعرفوا خلال دروسه التي كان يلقيها في دار الحديث إلى دقائق التفسير ، وشوارد اللغة ، واجتهاد الفقهاء نشأ ابن تيمية ، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، واستظهر أحاديث الرسول - ﷺ - ولقد اسعفته في ذلك ذاكرة واعية وعقل نير .

فإذا ما انتهى من تلك المرحلة شهدته دار الحديث جالساً مصغياً إلى أقوال العلماء وهم يتناولون بالدرس والشرح المسانيد والسنن ، وكتب الصحاح فسمع منهم مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وصحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم ، وجامع الإمام الترمذي ، وسنن أبي داود السجستاني ، والإمام النسائي ، وسنن ابن ماجه ، والدارقطني .

سمع ذلك كله مرات ومرات . سمعه من والده عالم العلماء ، وصاحب العقل الرشيد ، والمنطق السديد ، وسمعه من الشيخ النووي عملاق العلماء ، ومرعب السلاطين ، وسمعه من الشيخ دقيق العيد ، ومن الشيخ المزي والزملكاني وغيرهم الكثير ، والكثير .

ولقد كان بجوار دراسته للحديث وعلومه يدرس علوماً أخرى كانت سائدة في عصره ، ولا يستغني عنها العالم المتبحر في علوم الشريعة .

فدرس علوم الرياضة ، ودرس علوم الجبر ، وتبحر في علم المثلثات والفلك . ودرس علوم العربية ، وعني بها عناية خاصة ، واستظهر مشورها ومنظومها . ودرس البيان والبدیع ، وعلم الاشتقاق والصرف وبرع في علم النحويبراعة واضحة .

يقول بعض المؤرخين ، ولقد وصل الأمر به أن خالف سيبويه في بعض ما جاء في كتابه معتمداً على ما صح لديه من المراجع الأخرى .

لقد كان طالباً ومعلماً ، وفاحصاً وناقداً ودارساً لكل المعارف الإنسانية في عصره ، ولم يحاول أن يقتصر على بعض العلوم دون بعض أو يتناول بعض المعارف ويترك بعضها .

ثم عكف على كتب التفاسير ، التي وجدت في عصره ، يقرأها بعقله المنفتح ، وفكره المتقدم ، وذهنه اللامح ، ليتعرف على ما فيها من حق وباطل ، ومن جوهر

أصيل ، أو معدن خسيس ، ولا يقبل منها إلا ما يستقيم أمام عقله . ويصفه المؤرخون بأن كان شغوفاً بذلك دؤوباً على التعرف لكثير من التفاسير .

ولهذا يقول صاحب الكواكب الدرية : ومن ذلك ما جمعه من التفاسير وما حصله من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم ، وذلك أكثر من ثلاثين مجلداً وقد بيض أصحابه بعض ذلك وكثير منه لم يكتبوه ، ولو كتب كله لبلغ خمسين مجلداً ، وكان رحمه الله يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله تعالى الفهم . وأقول يا معلم ابراهيم علمني ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها ، وأمرغ وجهي في التراب وأقول يا معلم ابراهيم فهمني .

والعلم دائماً يحتاج إلى فاحص يدل على لآئه - إلى شيخ غواص عرف فجاج العلوم وأغوارها إلى « جواهرجي » مدقق يرشد طلابه إلى الجوهر الثمين وبحول بينهم وبين البهرج الزائف . ويرجعهم إلى جادة الصواب إن عصف الهوى بعقولهم ، أو اضطربت الموازين بين أيديهم .

وكانت مدارس الحديث تقوم بتدريس الفقه بمذاهبه المختلفة الحنبلي ، والمالكي ، وأحنفي ، والشافعي ، وغير ذلك من المذاهب .

وقد خص آل أيوب مدة حكمهم المذهب الشافعي بزيادة عناية ، وكان صلاح الدين الأيوبي يدين بمذهب الشافعي فشجع ذلك العامة على اعتناقه والتفقه بأصوله وفروعه .

وكما كان آل أيوب يدينون بالمذهب الشافعي في الفقه كانوا يتبعون مذهب الأشعري في العقيدة ، وقد دانت الأمة لهم في ذلك . وإنما كان يخالفهم جماعة الحنابلة ذلك أنهم كانوا يستخرجون العقائد من نصوص الكتاب والسنة ولا يحيدون عن ذلك . وكان الأشاعرة يسلكون في العقائد طرق الإستدلال العقلي والبرهان المنطقي .

ذلك أن أبا الحسن الأشعري شيخ الأشاعرة نشأ معزلياً فأتقن طرائقهم في الاستدلال ثم خالفهم في النتائج . وهذا ما دفع آل أيوب إلى الإعجاب بهم واتباع مذاهبهم .

قال المقرئ في خطه : « حفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد النيسابوري ، وصار يحفظها صغار أولاده فلذلك عقدوا الخناصر ، وشدوا البنان على مذهب الأشعري ، وحملوا في أيامهم كافة الناس على التزامه ، فتمادت الحال على ذلك في جميع أيام الملوك من بني أيوب ، ثم في أيام مواليتهم الأتراك وكذا فعل ابن تومرت في المغرب بعد أن أخذ عن الغزالي مذهب الأشعري . وكان هذا هو السبب في انتشار مذهب الأشعري في الأمصار حتى لم يبق مذهب يخالفه إلا أن يكون المتبعون مذهب ابن حنبل » .

وإذا كان ذلك كذلك فمن هم الحنابلة . . . ؟ الحنابلة الذي يخالفون جمهور المسلمين في ذلك الوقت وتكون لهم مدارسهم الفقهية والاعتقادية الخاصة بهم . مثل الجوزية ، والسكرية ، والعمرية التي أنشأها أبو عمر بن قدامة . . ؟

إنهم أتباع الإمام أحمد بن حنبل الذي يقول عنه الشافعي : خرجت من بغداد وما خلفت فيها رجلاً أفضل ولا أعلم ، ولا أفقه ولا أبقى من أحمد بن حنبل . . .

ويقول عنهم المستشرق (لاوست) ما من مرة هوجم الإسلام سياسياً أو عسكرياً إلا اتجه نحو المذهب الحنبلي الذي ينادي في قوة وحاس بالرجوع إلى السنة .

وكان ابن تيمية حنبلي المذهب ونشأ في أسرة تدين كلها بهذا المذهب ولوالده وجده كتابات في المذهب الحنبلي تجلي قواعده ، وتوضح فروعه ، ولقد درس ابن تيمية في كنف أبيه آراء الحنابلة ومعتقدهم في الفقه والعقيدة وغيرهما من العلوم .

ولقد شاهد ابن تيمية دولة الأشاعرة تشمخ عليهم وتتطاوّل على آرائهم ليس

هذا فحسب بل ويرمونهم بالتجسيم مرة وبالتشبيه مرات .
ولقد هداه تفكيره ألا يصدر حكماً مسبقاً على الأشاعرة أو يتهمهم بما لم يعلمه
في مذهبهم .

فعكف على دراسة آرائهم في العقيدة وعرف طريقتهم في الجدل والاستدلال
وهدته دراسته لمذهب الأشاعرة على التعرف الدقيق لآراء مدرسة الاعتزال حتى عرف
ما عندهم معرفة أتاحت له أن يحكم على آرائهم بأنها حق أو باطل ، ولما كان الحكم
على الشيء فرع عن تصوره - كما يقول الأصوليون - من هنا استطاع ابن تيمية أن
ينازل الخصوم بسلاحهم ويفند آراءهم ، وحتى يثبت مما أقدم عليه عكف على دراسة
المنطق اليوناني ، والفلسفة ، وأصول الديانات القديمة ، وكتب اليهودية والنصرانية
دراسة المحقق المدقق الفاحص الناقد .

يقول أحد معاصريه : « قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود عليه السلام
الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان
الفقهاء من سائر المذاهب إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه
قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء
أكان من علوم الشرع أم من غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه ، وكان له اليد
الطولى في حسن التصنيف » .

وبعد فإن ابن تيمية خاض هذا البحر المتلاطم بالعلوم والمعارف ، الزاخر باطنه
بالجواهر واللالء ليعود إلى دنيا الناس عملاقاً في دينه فقيهاً بما جاء به الرسول - ﷺ -
من عند ربه ، فاهماً لكل آراء المدارس الكلامية والفلسفية ، والمنطقية ، والأصولية ،
والفقهية ، التي وجدت في عصره ، ثم ماذا ؟ ...

ثم عاد ليحق الحق ويبطل الباطل ، ويزيل هذا الركام المتعفن في فكر المسلمين
وميزانه في ذلك عقل ناضج وفكر ثاقب ، ودراية وافية بكل ما انتجه العقل البشري
من معارف وعلوم ومن قبل هذا ومن بعده كتاب الله تعالى وسنة رسوله - ﷺ - وإذا
كان ذلك فعلينا أن نقطع شوطاً آخر في البحث .

ابن تيمية والسلفية ..

يرى بعض المفكرين أن ابن تيمية سلفي في تفكيره ، ويكاد لا يعدو منهج السلف في كثير من آرائه وأفكاره التي عرضها في تفسيره .

وحجة القائلين بهذا الرأي أن ابن تيمية نفسه يقرر ذلك ويكرره في تفسيره حيث يعتقد أن الرسول - ﷺ - بين القرآن الكريم كله ، ولم يترك منه شيئاً يحتاج إلى بيان لأن الله سبحانه وتعالى أمره بذلك بقوله :

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ^(٢) .

ويرى ابن تيمية أن الصحابة - رضوان الله عليهم - تلقوا كتاب الله من الرسول - ﷺ - وتعلموا منه معانيه . قال عبد الرحمن السلمي « حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما - رضوان الله عليهم - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي - ﷺ - عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل » .

فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يترقبون نزول الوحي - بكلمات الله على الرسول - ﷺ - فإذا نزلت الآيات بادروا إلى تلقيها وحفظها ثم علموا ما فيها من تأويل وتفسير ، ليكون هذا الفهم دستوراً لحياتهم ، ومنهجاً ينظم سلوكهم وتصرفاتهم .

وعن مسلم ، عن مسروق عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : « والذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته » .

(١) سورة النحل آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٦٤ .

ثم انتقل تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه من الصحابة إلى التابعين وأولئك ورثوا العلم والفهم لمن جاء بعدهم .

يقول مجاهد - رضي الله عنه - « عرضت المصحف على ابن عباس اوقفه عند كل آية وأسأله عنها » .

ولهذا قال الثوري : « إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به » .

وكان يعتمد على تفسير الإمام الشافعي ، والبخاري ، وغيرهما من أهل العلم كالإمام أحمد بن حنبل ، وأتباعه ممن صنفوا في التفسير ومن هنا نرى أنه كان لا يأخذ إلا بالتفسير المأثور ، فإن وجد الأثر لم يلتفت إلى سواه ، ويرفض الأخذ بالرأي المجرد كليته .

ويقول في ذلك : أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام .

ويدلل على صحة رأيه بكثير من الأحاديث الثابتة عن رسول الله - ﷺ - والآثار المروية عن الصحابة - والتي تدل على توقفهم إذا لم يجدوا حديثاً أو أثراً .

وكذلك الأخبار الكثيرة والتي توضح تحفظ التابعين في ذلك الشأن ، يقول

الرسول - ﷺ :

« من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

ويقول أيضاً :

« من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

وأما الأخبار عن الصحابة - رضوان الله عليهم فكثيرة مشهورة من ذلك ما يروى عن الصحابي الجليل أبي بكر الصديق - رضوان الله عليه « أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم » .

وروي عن أنس - رضي الله عنه - قال : كنا عند عمر بن الخطاب - وفي ظهر

قميصه أربع رقاع فقرأ قول الله تعالى :

﴿ وفاكهة وأباً ﴾ .

فسأل ما الأب . . ؟

ثم قال : عادلاً عن السؤال : إن هذا هو التكلف فما عليك ألا تدريه . وأما التابعون فكانوا يتخرجون عن القول في تفسير القرآن إلا إذا كان عندهم رواية بهذا

التفسير عن النبي - ﷺ - أو عن الصحابة .

ولقد قال عن التابعين بعض تلاميذهم :

« لقد أدركت فقهاء المدينة ، وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، ولقد كان ابن

سيرين يتحرج عن التفسير ، ويقول :

« سألت عبدة السلماني عن آية من القرآن . » ؟ فقال :

« ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن فاتق الله وعليك السداد » .

ولقد قال ابراهيم النخعي : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه ولقد قال

الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ، ولكنها الرواية عن الله تعالى ولقد قال

مسروق : اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله تعالى .

وهكذا نرى أن أقوال الرسول - ﷺ - وأقوال الصحابة والتابعين - رضوان الله

عليهم جميعاً - تدل في نظر ابن تيمية على وجوب الاعتماد في التفسير على أقوال النبي -

ﷺ - الشارح للقرآن المبين لأحكامه .

ومع ترجيحنا لهذا الرأي وقناعتنا به ، فإننا نرى بعض المفكرين يقررون بأنه

إذا كان ابن تيمية قد اعتمد في التفسير على أقوال السلف فإنه لم يقف عند حد

اتباعهم ، وما صدر عنهم من آراء ، بل كان يتخطى ذلك في بعض الأوقات ،

ويستعمل رأيه وعقله في الاستنباط والبيان .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة :

« ولكن هل يضيق صدر ابن تيمية عن هذا الاتجاه ، أي أنه لا يحاول فهم

أسرار القرآن ، والاتجاه إلى الغوص والكشف عن معانيه وأسراره . . ؟ إننا نرى ابن

تيمية في استنباط علل الأحكام وتعرف غاياتها ومراميها والمناط الذي تسير وراءه

يغوص وراء المعاني المصلحية يتعرفها ويسير في ظلال الكتاب والسنة مهتدياً بهديهما ،

ويغوص غوصاً عميقاً يدل على بعد غوره ، ولا يقف عند حدود ظواهر الألفاظ بل

يتجه إلى تعرف المرامي والغايات المصلحية ، وأن الآيات الكونية والنفسية متسعة

الأفق ، وقد كشف من ظواهر الكون ما يتبين معه أحكام القرآن ودقة معانيه .

فهل كان ابن تيمية يتجافى عن كل هذا ويرى فيه بدعاً لا يصح السير وراءه...؟

إننا نعيذ ابن تيمية من أن يتجه ذلك الاتجاه السلبي .؟؟
لأنه يرى أن القرآن الكريم نزل ليكون صالحاً لكل زمان ومكان وكل جيل يأتي من الأجيال يرى في كتاب خاتمة الرسالات السماوية طباً لأمرضه ، ودواء لأوجاعه ، وحلاً لمشاكله ، ودستوراً ينظم حياة الأمة في الصغير والكبير ، وهذا هو الإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم . ومهمة المفسرين لكتاب الله تعالى أن يلاحظوا ذلك فيستنبطوا منه ومن أحكامه ما ينظم حياتهم ويقضي على مشاكلهم . وهذا ما فعله العالم الكبير في تفسيره العظيم .

القواعد الأساسية لفهم القرآن وتفسيره عند ابن تيمية ..

يرى العالم الجليل ابن تيمية أن أمثل الطرق لتفسير القرآن الكريم تتلخص في عدة طرق :

الأول : تفسير القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر وبين في موضع آخر ، وما اختصر في سورة فقد بسط ووضح في سورة أخرى .
الثاني : التفسير بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن الكريم وموضحة له قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه - كل ما حكم به رسول الله - ﷺ - فهو مما فهمه من القرآن .

وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

ولهذا قال رسول الله - ﷺ - « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » . يعني السنة .
وقال لمعاذ - رضي الله عنه - حين بعثه إلى اليمن بما تحكم ؟ ..
قال : بكتاب الله تعالى .
قال : فإن لم تجد ؟ ..
قال : بسنة رسول الله - ﷺ - .
قال : فإن لم تجد ؟ ..
قال : اجتهد رأيي .
قال : فضرب رسول الله - ﷺ - في صدره وقال :
« الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله » .

الثالث : أقوال الصحابة : إذا لم يجد التفسير في القرآن الكريم ، ولا في سنة رسول الله - ﷺ - يرجع في ذلك إلى أقوال الصحابة - رضوان الله عليهم - فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح لاسيما علماءهم وكبرائهم - كالأئمة الأربعة - الخلفاء الراشدين ، والأئمة المجتهدين المهيدين مثل عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه .

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري :

« حدثنا أبو كريب ، قال : أنبأنا جابر بن نوح ، أنبأنا الأعمش ، عن أبي الضحى - مسلم بن صبيح - عن مسروق قال : قال عبدالله - يعني ابن مسعود :

« والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته » ومنهم الخبر البحر عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله - ﷺ - حيث قال داعياً له : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وقال ابن جرير : « حدثنا محمد بن بشار ، أنبأنا وكيع ، أنبأنا سفيان عن

الأعمش عن مسلم . عن مسروق قال : قال عبدالله بن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وقال الأعمش عن أبي وائل : استخلف علي - رضي الله عنه - عبدالله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

فإذا لم يوجد التفسير في القرآن الكريم ولا في السنة ، ولم يوجد عند الصحابة فقد يرجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين .

هذه هي القواعد الأساسية التي يراها ابن تيمية لمن يريد أن يفسر كتاب الله تعالى . فهل التزم ابن تيمية بهذه القواعد عند تفسيره لكتاب الله أم أنه اختط منهجاً آخر غير الذي دعا إليه وطالب باتباعه ؟ للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في البحث لنبين فيه منهج ابن تيمية في التفسير ، وعلى الله قصد السبيل .

منهج ابن تيمية في التفسير

لقد وضع ابن تيمية قواعد لتفسير القرآن الكريم وطالب الراغبين في التفسير والتأويل أن يضعوا نصب أعينهم هذه القواعد . فهل التزم ابن تيمية نفسه بهذه القواعد ؟ وهل طبقها على ما قام به من تفسيره للقرآن الكريم ؟ ..

إن القارئ لهذا التفسير الذي وضعه ابن تيمية يرى فيه أن صاحبه ألزم نفسه هذه القواعد إلا في القليل النادر عندما يكون الأمر أمر مجادلة أو محاوراة والزام الخصم الحجة والبرهان .

فإذا أخذ في تفسير سورة من سور القرآن الكريم تناول الخطوط الرئيسية لها ،

والموضوعات التي تضمنتها ، وبذلك يضع أمام القارئ كشافاً بموضوعات السورة وقضاياها .

يقول عند تفسيره لسورة البقرة :

« إن الله تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين ، فوصف حال أهل الهدى ، ثم الكافرين ، ثم المنافقين ، فهذه جمل خبرية ، ثم ذكر الجمل الطلبية فدعا الناس إلى عبادته وحده ، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقاً للعباد ، ثم قرر الرسالة وذكر الوعد والوعيد ، ثم ذكر مبدأ النبوة والهدى وما بثه في العالم من الخلق والأمر ، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء ، وإسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم » .

ثم يستمر في عرض موضوعات السورة وكأنه يريد بذلك أن يبين هذه المعالم ويثبتها في الذهن حتى إذا تناولها بالتفسير والتحليل كان لدى القارئ فكرة واضحة عن موضوعاتها ويستمر في ذلك حتى يصل إلى نهاية سورة البقرة فيقول :

« ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات ، وما يتعلق بالأموال والصدقات ، والربا والديون ، وغير ذلك . ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الأصار ، والأغلال ، والعفو ، والمغفرة ، والرحمة ، وطلب النصر ، على القوم الكافرين ، الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين .

فإذا أراد بعد ذلك أن يتناول الآيات بالتفسير والتحليل نراه يذكر آراء العلماء فيها ثم يذكر رأي السلف ، ويعقب على ذلك بقوله : والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما في القرآن الكريم .

يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ . المثل في الأصل هو الشبيه وهو نوعان :

أحدهما : الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجوداً أو مقدر وهي في القرآن بضع وأربعون مثلاً كقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نار ﴾ ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة ﴾ وقوله : ﴿ كمثل صفوان

عليه تراب ﴿ وقوله ﴾ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ﴿ .

النوع الثاني : الأمثال الكلية ، وهذه التي أشكل تسميتها أمثالاً كما أشكل تسميتها قياساً .

إذا تبين ذلك فالأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً ومنها ما لا يسمى بذلك . . .

ثم يحشد الآيات التي جاءت لضرب الأمثال ويتناولها بالعرض والتحليل ويجادل المناطق في أقيستهم ، والفقهاء في قواعدهم ، ورجال التوحيد في قضاياهم ، ويخرج في النهاية بالرأي الأمثل الذي يتوافق وطبيعة الآية ، وما يمكن تطبيقه في العصر الذي يعيش فيه .

ثانياً : إذا بدأ في تفسير آية ولم تسعفه آيات القرآن الكريم في تفسيرها لجأ إلى حديث الرسول - ﷺ - .

يقول ابن تيمية عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ .
قد ثبت في صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما أنزل الله ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ . اشتد ذلك على أصحاب النبي - ﷺ - . فأتوا رسول الله - ﷺ - ثم بركوا على الركب وقالوا :
« أي رسول الله كُلفنا من العمل ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها » .

فقال رسول الله - ﷺ - :

« أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا ؟ ..

قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه

ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله .

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ .

قال : نعم .

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ .

قال : نعم .

﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ .

قال : نعم .

﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

قال : نعم^(١) .

ثم يعود ابن تيمية إلى أقوال الصحابة والتابعين فيقول :

« ولهذا قال كثير من السلف والخلف ، إنها منسوخة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ .

كما نقل ذلك عن ابن مسعود ، وأبي هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس في رواية عنه ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين ، وسعيد بن جبيرة وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل ، والكلبي وابن زيد .

ونقل عن آخرين أنها ليست منسوخة بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم

(١) ورد هذا الحديث من طرق عدة ، فرواه مسلم عن يزيد بن ربيع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ، ورواه الامام أحمد بنفس الاسناد في مسنده كما رواه الامام أحمد أيضاً عن وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس وفيه ذكر « قد فعلت » بدلاً من « نعم » عقب كل دعاء وذكره ابن جرير في تفسير الآية المذكورة ، راجع البخاري ٥ : ٤٠ كتاب التفسير باب قوله تعالى : ﴿ وان تدبوا ما في انفسكم ﴾ مسلم (كتاب التفسير) ابن كثير ١ : ٣٣٨ - ٣٤٠ .

فياخذ من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، كما نقل ذلك عن ابن عمر والحسن ، واختاره أبو سليمان الدمشقي والقاضي أبو يعلى . وقالوا هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ .

فإذا استعرض ابن تيمية أحاديث الرسول - ﷺ - وأقوال الصحابة والتابعين . أخذ يوضح رأيه في القضية الذي استخلصه من فهمه لهذه الأقوال مجتمعة فإذا وصل إلى قناعة تامة فيما وصل إليه أخذ يدافع عن هذا الرأي بالحجة والمنطق ، بالدليل والبرهان ، بطبيعة الحياة وما جبلت عليه النفوس . الذي نزل القرآن الكريم لمخاطبتها ووضع العلاج لأمرضها ورسم الطريق لسيرها حتى تحقق منهج الخلافة في الأرض .

يقول الدكتور الجليند :

« إنني أوجه نظر الباحثين إلى أهمية تلك الآراء التي قدمها لنا ابن تيمية حول النفس وطبيعتها وأمراضها وعلاجها ، إن هذه الآراء تشكل في مجموعها ما يمكن أن يسمى بعلم النفس القرآني الذي تكشف لنا هذه الآراء عن أصوله وقواعده ، وتلفت نظرنا إلى منهج دراسته وطريقة تناوله وعرضه على الدارسين » .

وإذا كان ابن تيمية قد ألزم نفسه بالقواعد التي وضعها لتفسير القرآن الكريم وهي التي لا تخرج عن :

١ - تفسير القرآن بالقرآن .

٢ - تفسير القرآن بأقوال الرسول - ﷺ - .

٣ - تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين .

فما رأي ابن تيمية في التفسير بالرأي ؟ . .

موقف ابن تيمية من التفسير بالرأي

إن ابن تيمية يرى أن تفسير القرآن بالرأي حرام ، ويقدم بين يدي هذا الرأي مجموعة من أحاديث الرسول - ﷺ - وأقوال الصحابة والتابعين .

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ .

« من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .
« وقال الترمذي : قال حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا حيان بن هلال قال حدثنا سهل أخو حزام القطعي ، قال : حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ ..

« من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »
قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم .
يقول ابن تيمية :

« وهكذا روى بعض أهل العلم عن أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم ... فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابيه ، كمن حكم بين الناس عن جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر . » .

ثم يحشد ابن تيمية مجموعة كبيرة من النصوص المروية عن السلف الصالح في منع أن يفسر القرآن بغير علم . وهذا الرأي لا يختلف فيه اثنان أن يفسر القرآن بالجهل فهذا حرام ويؤدي بصاحبه إلى النار .

أما أن يفسر القرآن بالعلم فيكون حراماً « حتى وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر . » .

هنا نختلف مع العالم الجليل ابن تيمية .
أولاً : أن أقوال الصحابة والتابعين في التفسير استنبطت من طبيعة العصر الذي كانوا يعيشون فيه ، ولقد كانت هذه الآراء تتوافق توافقاً كاملاً مع حياتهم وسلوكهم .

ولكن المسلمين الآن وقبل هذا العصر - كانت لهم ظروف وقضايا تحتاج إلى الرجوع لكتاب الله ليستلهم منه الحلول لكل المشاكل التي تعترض طريق المسلمين .

وبالتالي تكون لهم منهج حياة في التربية ، في الاقتصاد ، في السياسة في الاجتماع في كل شأن من شؤون الحياة فهل يقف المسلمون عند تفسير الصحابة والتابعين ولا يفسر القرآن ؟ ونهتف مع ابن تيمية .

« فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ »

ثانياً : إن الله سبحانه وتعالى طالب عباده بالنظر والتدبر ، والضرب في فجاج الأرض ، والتأمل في خلق السموات . فإذا كان القرآن الكريم آيات الله المتلوة ، فالكون بما فيه من بحار وجبال وسهول ووديان هو آيات الله المجلوة ، والمسلم مطالب في حياته بالغوص والتنقيب والبحث والترتيب حتى يصل إلى ما يحقق به دور الخلافة في الأرض وهو في ذلك قد يصيب ما يفتش عنه ويصل إلى الصواب في ذلك وقد يقف به العجز البشري عن تحقيق ما يرمي إليه ، وهو في كل ذلك مجتهد . إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر فهو مثاب في كلتا الحالتين .

ثالثاً : هل توقف ابن تيمية ولم يستعمل عقله وفكره ؟ هل عكف على ما استنبطه الصحابة والتابعين ، ورجال السلف من تفاسير للقرآن الكريم ، ولم يحاول أن يقدم جديداً لينظم حياة المسلمين الذين يعيشون في عصر يختلف عن عصر الصحابة والتابعين ؟ الحقيقة أن ابن تيمية عكف على تفسير القرآن الكريم واستعمل كل ما يمكن أن يوصله إلى هدفه حتى أنه كان في بعض الأوقات إذا كلَّ عقله أو توقف ذهنه ، ولم يصل إلى رأي يرضيه في تفسيره . . ؟؟ لجأ إلى الله وتمرغ في التراب وطلب من ربه أن يلهمه سبيل الرشاد ويقول :

« يا معلم ابراهيم علمني . »

لقد ناقش ابن تيمية الفرق التي كانت تعيش في عصره ، وجادلها بالمنطق والحجة ، ورفع على آراء أصحابها معول الهدم . وناقش أصحاب الحلول والاتحاد . وهاجم آراء المسيحية في الألوهية ، والصلب ، وهاجم أصحاب اليهودية وصب عليهم من قلمه سوط عذاب . ولا نستطيع في هذه العجالة أن نحصى كل من وقف

لهم ابن تيمية وهاجمهم برأيه وفكره وهو يقدم أدلته وحججه من آيات الكتاب العزيز .

وإذا كان ذلك كذلك فكيف نوفق بين ما يقوله ابن تيمية وبين ما يفعله ؟
إننا نرى أن النظر في كتاب الله تعالى والتدبر في معانيه واستنباط الأحكام التي
تبنى على العلم والدراية بكتاب الله تعالى هو واجب المسلمين بعامه وعلى علمائهم
بخاصة . والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في
الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (١) .

ونعتقد - والله أعلم - أن هذا ما كان يرمي إليه ابن تيمية حيث قال :
« فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن
الكلام في التفسير بما لا علم لهم به .

فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن
هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما
جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ،
فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى ﴿ لتبينه للناس ولا
تكتُمونه ﴾ (٢) .

ولما جاء في الحديث المروي من طرق : من سئل عن علم فكتمه أجم يوم
القيامة بلجام من نار . « والله أعلم .
وإذا كان ذلك كذلك فإن طبيعة البحث تقتضينا أن نلقي بعض الأضواء على
مصنفات ومؤلفات العالم الكبير ابن تيمية .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٧ .

مؤلفات الامام ابن تيمية

عاش ابن تيمية حياة عريضة ممتدة ، وإن كانت قليلة في عمر الزمن ولكنها كانت عميقة ومؤثرة في دنيا الناس .

ولقد استغل هذه الحياة استغلالاً كاملاً لصالح العلم والمعرفة باحثاً عنها في بطون الكتب ومستمعاً لها من أفواه العلماء ، ولقد حباه الله سبحانه وتعالى ذاكرة واعية قوية ، والمعية حاضرة متقدة استوعبت هذه الصنوف المختلفة من المعارف والعلوم ، ثم أخرجتها إلى البشرية رحيقاً مصفى ، وغذاء ثرياً ، أضاف للمكتبة الاسلامية والعربية الكثير والكثير من المراجع والمصنفات التي يعتز بها أبناء الاسلام من طلاب المعرفة في كل عصر ومصر .

وسنحاول بمشيئة الله تعالى أن نلقي الأضواء على بعض هذه المصنفات دالّين عليها في أماكنها أو معرفين بها قدر الجهد والطاقة ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

أ - كتب العقائد :

١ - كتاب الايمان ، طبع عدة طبعات مختلفة في البلاد العربية منها طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة - تصحيح الدكتور محمد خليل هراس .

وقد استعرض في هذا الكتاب الفرق بين الايمان والاسلام ، وزيادة الايمان ونقصانه ، ودخول العمل في الايمان ، وعدم دخوله ، وناقش الفرق الموجودة في عصره - ورد على بعضهم وفند أقوالهم ، واستخلص ما رآه انه الحق من هذه الأقوال .

٢ - كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، وقد طبع عدة طبعات مختلفة منها طبعة مطابع المجد السعودية عام ١٣٩٠ هـ وأخذها أحد طلاب الدراسات العليا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض اطروحة حصل بها على درجة الدكتوراه في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة .

٣ - كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - القاهرة ١٩٧٨ طبعة أخرى بتحقيق الشيخ محمود فايد صبيح سنة ١٩٥٨ وكانت الطبعة الأولى بالمطبعة العامرية الشرقية بمصر عام ١٣٢٣ هـ وهو مما صنفه بقلعة دمشق .

٤ - العقل والنقل لابن تيمية - ٤ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور بدار الكتب .

٤ - شرح الأصفهانية : تقديم فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف القاهرة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

٥ - الرسالة الحموية : ضمن مجموعة بعنوان نفائس ، مطبعة السنة المحمدية ، بدون تاريخ .

٦ - الرسالة التدمرية : طبعت أكثر من طبعة ، وأخذها أحد طلاب الدراسات العليا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض اطروحة حصل بها درجة الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة .

٧ - الرد على الفلاسفة : أربع مجلدات .

٨ - كتاب اثبات المعاد ، والرد على ابن سينا .

٩ - كتاب « ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً » .

١٠ - كتاب « المعجزات والكرامات » .

١١ - كتاب « اثبات الصفات » مجلد .

١٢ - كتاب « العرش » .

١٣ - كتاب « رفع الملام عن الأئمة الاعلام » .

١٤ - كتاب « الرد على الامامية » في مجلدين كبيرين .

١٥ - « الرد على القدريّة » .

١٦ - « الرد على الاتحادية والحلولية » .

١٧ - كتاب في « خلق الأفعال » .

١٨ - كتاب في « الرد على تأسيس التقديس » للرازي في سبع مجلدات .

١٩ - « كتاب الأسماء والصفات » ضمن فتاوى ابن تيمية طبعة الرياض عام

١٣٨١ هـ - المجلد الخامس ، والمجلد السادس .

٢٠ - « توحيد الألوهية » ضمن فتاوى ابن تيمية طبعة الرياض عام ١٣٨١ هـ .

٢١ - « توحيد الربوبية » ضمن فتاوى ابن تيمية طبعة الرياض عام ١٣٨١ هـ .

المجلد الثاني .

٢٢ - الرد على المنطقيين طبعة بمباي ١٣٦٨ - ١٩٤٩ م ، وطبعة أخرى تولى طبعتها « إدارة ترجمان السنة » لاهور باكستان ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م قال في مقدمته :
فإني كنت أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا يتففع به البليد ، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير منها ثم تبين لي الخ . .

٢٣ - الصفدية : تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم الجزء الأول مطابع حنيفة الرياض ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

تبدأ بسؤال وجه إلى الامام ابن تيمية عن رجل مسلم يقول : ان معجزات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم - قوى نفسية . افتونا مأجورين . فأجاب : الحمد لله رب العالمين : هذا الكلام - وهو قول القائل : إن معجزات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم - قوى نفسية - باطل ، بل هو كفر يستتاب قائله ويبين له الحق ، فأن أصر على اعتقاده بعد قيام الحجة الشرعية عليه كفر ، وإذا أصر بعد الاستتابة - قتل الخ .

٢٤ - قاعدة جلية في التوسل والوسيلة - القاهرة ١٣٨٨ - ١٩٦٩ م تصحيح الدكتور محمد الزيني .

٢٥ - كتاب « القدر » ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .

٢٦ - كتاب « التوحيد » تحقيق الدكتور محمد السيد الجليلند القاهرة ١٩٧٩ م مع مقدمة عن قضية التوحيد بين الدين والفلسفة .

٢٧ - « مجمل اعتقاد السلف » ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .

٢٨ - منهاج السنة النبوية : في نقض كلام الشيعة والقدرية (طبعة بولاق بدون

تاريخ)

طبعة أخرى مصورة « بيروت » تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم وطبعة أخرى

الناشر : مكتبة الرياض الحديثة - الرياض .

٢٩ - نقض المنطق : مكتبة السنة المحمدية - تصحيح الشيخ محمد حامد الفقي
القاهرة ١٣٧٠ هـ .

٣٠ - كتاب الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح - أربع مجلدات وسبب تأليف هذا الكتاب ان كتاباً ورد من قبرص . فيه بيان أن دين النصارى في عصره هو ما جاء في كتبهم وفيه الاحتجاج له بما يحتج به دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية فتصدى ابن تيمية للرد وقال في ذلك .

« اقتضى هذا أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب ، وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع به أولو الألباب ، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب . (راجع مقدمة الكتاب ص ١٩) .
ب - الفقه :

لقد ترك ابن تيمية آثاراً فقهية جلية حتى قال الحافظ الذهبي : فاق الناس في معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوى الصحابة والتابعين . ومن أهم هذه الكتب :

- ١ - « شرح العمدة في الفقه » أربع مجلدات .
 - ٢ - كتاب الدرة المضيئة في فتاوى ابن تيمية .
 - ٣ - كتاب « المناسك الكبرى والصغرى » .
 - ٤ - كتاب « اصلاح الراعي والرعية » أو « السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » طبعة دار الكاتب العربي .
- قال في مقدمته « وهذه رسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله وهي قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظمكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ .^(١) .
- ٥ - الفتاوى المصرية خمسة مجلدات - طبعة الكردي ١٣٢٩ هـ .

(١) سورة النساء آية رقم ٥٨ .

٦ - الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية « المطبعة السلفية بدون تاريخ » .

٧ - كتاب قواعد في الوقف والوصايا .

٨ - كتاب قاعدة في الاجتهاد والتقليد .

٩ - كتاب قاعدة تفضيل مذهب أهل المدينة وهي في رسالة تسمى « المالكية » .

١٠ - كتاب قاعدة شمول النصوص .

١١ - كتاب قاعدة القياس .

١٢ - كتاب قاعدة في لعب الشطرنج .

١٣ - كتاب قاعدة في السفر .

١٤ - كتاب قواعد في أحكام الكنائس .

١٥ - كتاب قاعدة رجوع المغرور على من غره .

١٦ - كتاب قاعدة في الضمان .

١٧ - كتاب قاعدة سؤر ما يؤكل لحمه وبوله .

١٨ - كتاب قاعدة الجهاد والترغيب فيه .

١٩ - رسالة في القياس .

٢٠ - رسالة في الحسبة .

٢١ - كتاب في نكاح المحلل .

٢٢ - كتاب في القعود .

٢٣ - تعليق على كتاب المحرر في الفقه لجده الشيخ مجد الدين ، في عدة

مجلدات .

ج - التصوف :

١ - الاستقامة : قاعدة في وجوب الاستقامة - مخطوط بدار الكتب المصرية

رقم ٩٧٣ - تصوف - تحت عنوان خطأ « وهو الكلمات السنيات » .

٢ - التحفة العراقية في الأعمال القلبية - المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٨٦ هـ .

٣ - رسالة العبودية . ط أنصار السنة سنة ١٩٤٧ بتحقيق محمد حامد الفقي .

- ٣ - التصوف ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .
- ٤ - تصوف وأخلاق دينية مخطوط رقم ٢٤٣٦ بدار الكتب المصرية .
- ٥ - السلوك ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .
- ٦ - الصوفية والفقراء رسالة صغيرة - تحقيق الدكتور محمد جميل غازي مطبعة المدني القاهرة - بدون تاريخ . ثم طبعة أخرى لمطبعة المدني ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ٧ - قاعدة في المحبة : مخطوط مصور بالجامعة المصرية - تصوف رقم ١٢٩ .

د - الجدل ، وفنون أخرى :

١ - تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل .
قال في مقدمته : بعد الاشارة إلى طريقة المتقدمين في المجادلة بالتالي هي أحسن : ثم صار المتأخرون بعد ذلك يتناظرون في أنواع التأويل والقياس بما يؤثر في ظن بعض الناس ، وإن كان عند التحقيق يؤول إلى الافلاس لكنهم لم يكونوا يقبلون من المناظرة إلا ما يفيد ، ولو ظناً ضعيفاً للناظر . واصطلحوا على شريعة من الجدل للتعاون على اظهار صواب القول والعمل ، ضبطوا بها قوانين الاستدلال لتسلم عن الانتشار والانحلال ، فطريقتهم ، وإن كانت بالنسبة إلى طرائق الأولين غير وافية بمقصود ، لكنها غير خارجة عنه بالكلية ، ولا مشتملة على ما يؤثر في القضية ، وربما كسوها من جودة العبارة ، وتقريب الاشارة ، وحسن الصياغة ، وصنوف البلاغة ، ما يجليها عند الناظرين ، وينفقهها عند المتناظرين مع ما اشتملت عليه من الأدلة السمعية والمعاني الشرعية وبنائها على الأصول الفقهية ، والقواعد الشرعية ، والتحاكم فيها إلى حاكم الشرع الذي لا يعزل ، وشاهد العقل المربي المعدل .

ثم إن بعض طلبة العلوم من أبناء فارس والروم صاروا مولعين بنوع من جدل الموهين ، استحدثه طائفة من الشرقيين ، وألحقوه بأصول الفقه في الدين ، راوغوا فيه مراوغة الثعلب ، وجادوا فيه عن المسلك اللائق ، وزخرفوه بعبارات موجودة في كلام العلماء قد نطقوا بها ، غير أنهم وضعوها في غير مواضعها المستحقة لها ، وألفوا الأدلة تأليفاً غير مستقيم ، عدلوا عن التركيب الناتج إلى العقيم ، غير أنهم بإطالة

العبرة ، وابعاد الاشارة ، واستعمال الألفاظ المشتركة والمجازية في المقدمات ، ووضع
الظنيات موضع القطعيات الخ .

٢ - تعارض العقل والنقل : تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم

الجزء الأول طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ م .

وتسعة أجزاء أخرى طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض ١٩٨١
١٩٨٢ م .

٣ - مجموعة الرسائل الكبرى الطبعة الأولى مصر ١٣٢٣ هـ .

٤ - جامع الرسائل - تحقيق محمد رشاد سالم - مطبعة المدني ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م .

م .

هـ - الحديث وعلومه :

قال الذهبي عن ابن تيمية : سمع الحديث ، واكثر بنفسه من طلبه ، وكتب
وخرّج وناظر في الرجال والطبقات ، وحصل ما لم يحصله غيره .

ثم قال : وبرع في الحديث وحفظه فقلّ من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزواً
إلى أصوله وصحابه مع شدة استحضار له وقت اقامة الدليل .

ثم قال : ونصر السنة بأوضح حجج ، وأبهر براهين ، وأوذى في ذات الله من
المخالفين ، وأخيف في نصر النسبة المحضّة ، حتى أعلى الله مناره ، وجمع قلوب أهل
التقوى على محبته والدعاء له .

١ - علم الحديث مكتوب على غلافه « الخزانة الأصفية بحيدر آباد الدكن » .

توجد منه نسخة خطية محفوظة بالآستانة رقم ٣٢٧١ ضمن مجموعة بخط فارس
جميل .

يوجد في الجزء الثامن عشر من الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ قام بتحقيقه
واعداؤه فضيلة الشيخ موسى محمد علي قامت بطبعه دار الكتب الإسلامية
لصاحبها توفيق عفيفي عامر ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

٢ - شرح حديث النزول : نشره المكتب الإسلامي بدمشق سنة ١٩٦٢ م .

و- التفسير :

قال الذهبي : شيخنا وشيخ الإسلام وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة وذكاء وتنويراً ألهياً وكرماً ونصحاً للأمة ، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر . ثم قال : وبرع في تفسير القرآن وغاص في دقيق معانيه ، بطبع سيال وخاطر وقاد ، إلى مواضع الإشكال مبال ، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها . وقال أيضاً : شرع في تفسير القرآن الكريم ، فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر ، وبقي يفسر سورة نوح عدة سنين أيام الجمع بالمسجد . وقال في الترجمة المطولة التي أفرد بها الذهبي لابن تيمية في كتابه (التاريخ الكبير) .

« أما التفسير فمسلّم إليه ، وله من استحضار الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوة عجيبة ، وإذا رآه المقرئ تحير فيه ، ولفرط امامته في التفسير ، وعظم اطلاعه ، يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويوهي أقوالاً عديدة ، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث . ويكتب في اليوم والليلة من التفسير نحواً من أربعة كرايس أو أزيد .

١ - تفسير سورة الاخلاص : ط المنيرية سنة ١٣٥٢ هـ بتصحيح محمد منير الدمشقي .

ونسخه في مجلد طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ بأولها فهرس .

٢ - تفسير سورة النور لابن تيمية .

٣ - دقائق التفسير في أربع مجلدات قام بتحقيقه الدكتور محمد السيد الجليند ط دار الانصار - القاهرة .

٤ - التفسير في الفتاوى ط الرياض ١٣٨١ هـ بداية من الجزء الثالث عشر وقد احتوى على مجموعة مقدمات في التفسير . والرابع عشر والذي يشمل من سورة الفاتحة إلى سورة الأعراف ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، والسابع عشر ، والذي يشمل تفسر سورة الأخلاص والمعوذين .

٥ - التفسير الكبير - وهو الكتاب الذي بين أيدينا .

التفسير الكبير ومنهجنا في التحقيق

وقع في يدي منذ عشر سنوات أو تزيد كتاب : « الدر المشور في التفسير بالمأثور » . للإمام العالم جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي . وهو كتاب فريد في بابه أعجبي وأخذ يلبي هذا الحشد الكبير من آثار وأخبار جمعها هذا الرجل العملاق من أقوال الرسول - ﷺ - وأفعاله ، وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم ، ثم صحتها هذا السفر الفريد .

ولكن هذا العمل الجليل سطت عليه أيدي النساخ والعاثين بالتحوير والتبديل ، فطمست بعض معانيه ، وغيّرت بعض كلماته ، فعقدت العزم على أن أقوم بتنقية هذا الكتاب مما شابه ، ورجوت المولى جل وعلا أن يعينني ويأخذ بيدي أمام هذه المهمة الشاقة التي تحتاج إلى عزيمة ووقت .

وكانت بداية خطة العمل أن أضع يدي على جل ما كتبه الإمام السيوطي في التفسير وعلوم القرآن ، وأخذت أبحث عن هذه الكتب في مظانها وخصوصاً لدى أحفاد وأقارب السيوطي في مقرهم بمدينة أسيوط من صعيد مصر . ولقد جمعت من هذه المصنفات وخصوصاً المخطوط منها ما يمكن أن يعينني في هذه المهمة .

وكان ضمن هذه المصنفات مخطوطة تكاد تكون مجهولة المعالم معنونة بـ « التفسير الكبير » لابن تيمية الحراني ، ناسخها محمد بن العباس بن الحسين ، الشافعي مذهباً ، ويرجع تاريخ نسخها إلى عام ٣١٠ هـ وهذه النسخة موقوفة على ناسخها في

حياته ، ولأولاد وأحفاده بعد مماته . لوحة رقم (١) (٢) .

والذي قدم لي هذه النسخة رجل نصيبه من المعرفة محدود ، وحرفته الزراعة ، وهي حرفة أبيه وجده ولكن هذه الأوراق ضمن ما وجده من مخلفات جده الأعلى الذي كان مجاوراً بالأزهر الشريف ، وهي تملأ « سحارة كاملة » وأهل منزله ضاقوا بها وبمحتوياتها فأراد أن يتخلص منها فقدمها إليَّ عندما علم برغبتني في جمع الأوراق القديمة و « العرائض » المكتوبة على حد تعبيره .

إن هذه الأوراق غير مرتبة ، وتحمل أرقاماً باهتة ، ولم تدخل مكتبة لتأخذ رقماً للتصنيف أو الفهرسة .

أ يكون هذا الجد الطالب بالأزهر جمعها من أوراق مختلفة ومن كتب متباينة ؟ ..

أو وضع يده على نسخة كاملة من تفسير الإمام الكبير فعكف على نسخها وكتابتها .

أكانت هذه الأوراق مما كان يملئ عليه في دروس الأزهر هو وزملاؤه ؟ .. أسئلة كثيرة محيرة جعلتني أضرب في المجهول باحثاً ومنقباً وسائلاً ومفتشاً في المكتبات العامة والخاصة .

والحق يقال : لقد شغلني هذه الأوراق عما نويت العزم عليه وعكفت عليها أقارن بينها وبين ما جمع وطبع من تفاسير لهذا العالم الكبير .

ورأيتني على غير ارادة أترك المهمة الأولى ، وأجري لاهثاً خلف توثيق هذه النسخة بالمقارنة بينها وبين التفاسير التي ظهرت أو لا زالت مخطوطة وتنسب لابن تيمية حجة الإسلام في عصره . واستطعت أن أضع يدي على الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم
تفسير ناقص الكتاب

فصل وأما حديث فانتسب الكتاب فقد ثبت في الصحيح عن النبي (ص) أنه قال:
يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصف لي ونصف لعبدي
ما سأل بآتي قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله: عبدي عبدي وإذا
قال: الرحمن الرحيم قال الله: أنت علي عبدي وإذا قال: الله يوم الدين. قال الله
عبدي عبدي وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين قال: هذه الآية بيني
وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: اهْدُوا لعبدي ولعبدي ما سأل.
فثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: بينما يربط قاعد عند النبي (ص) سمع
نبيها من فوقه فرمى رأسه فقال: هذا باب من السماء يترى اليوم ولم يفتح قط
إلا اليوم فترى من الله فقال: هذا الله يترى إلى الأبد ولم يترك قط إلا
اليوم نسلم ونال. أن بشر بوزن ارتبها لم يتركها في قلبه: فانتسب الكتاب
ومعنا في سورة البقرة الفقرة فقرأت من القرآن أعطيته وبني بعدى الوعداء: ١٠
فانتسب الكتاب أعطيته من كثر ثمت العرف.

فصل في آيات بعد آيات نستعين قال الله تعالى في ٢١ القرآن والسبح
الحماني والقرآن العظيم آيات بعد آيات نستعين وهذه السورة من أم القرآن
وهي فانتسب الكتاب وهي السورة المثالي والقرآن العظيم وهي الشافية وهي
الواجبة في الصلاة لا صلاة إلا بطر وهي الكائنة ثلثي غيرها ولا يكتفي غيرها
والصلاة أفضل الأعمال وهي توكلت في كل طيب وجعل ما ألحنا فعل كل طيب
وأرسل أم القرآن وأفضل عمل الصالح وأوعى المسجد وكلما مع بيت
الأميرين في أول سورة آخر على رسول الله حيث افتتح بقوله تعالى: اقرأ باسم
ربك الذي خلقه وقم بقوله واسجد واقترب فوضعت الصلاة على ذلك أول
الفرقة فأمرها السجود ولها قال سبحانه في صلاة الخوف فإذا سجدوا فليكنوا
من وراءكم والمراحم السجود لا ركعتين التي يفعلون بعدهم بعد منار فتسبح للإمام
وما قبل الفروقة من طير واستقام واستعادة هي تعميم للصلاة وقد عرفت لما
بعد أول ما يبدأ به لا تتقدمت وما قبل بعد السجود من تعدد وتشهد فيه
التحيت لله والسلام على عباده الصالحين والوعدة والسلام على العالمين
فوتجليل للصلاة ومقابلة لما قبل قال النبي (ص) من صلى الصلاة المبرور وتقرير
الخير وتحليل التسليم ولها ثمانية الناس أيما فعل، كذا الركوع والسجود
أول هذه التيام. أو ما سواها في ثلاثين أو قال من أهدى به كان العبد أنما
سواء التيام فيه أفضل الأذكار والسجود أفضل الأعمال وأعلا ولو كانت
صلاة رسول الله (ص) معطلت جعل الأركان تيمم من السجود وإذا أطال
التيام طولاً خير أكسها كان يفعل في تيام الليل وصلاة المسنون أطال معه الركوع
والسجود وإذا اقتصد فيه: فنهى في الركوعها المسجد.

ابن عبد السلام بن عبد السلام العزاني اعلى الله شأنه وتيسر ما الدين اركان
 كتبه العبد الفقير المحتاج الى مولاه ذو الجلال والاكرام محمد
 ابن العباس بن الحسين الشافعي نزيله الطباطبائي ولد له
 النعمان اقامناه اعانه الله وسدد خطاه وبانه الفاني
 في ذلك صبيحة يوم الاثنين ثلثين وثلثمائة عشر من
 رجب الفرد عام ١٢١٠ هـ ويختص العبد
 الفقير المحتاج الى رب عمله هذا الى
 الله تعالى وهو وقت له في حياته
 ولما مات المسلمين بعد حياته
 فتح الله به وامن
 وصيته واثرت
 منسج حياته

المخطوطات :

ب : في دار الكتب المصرية كتاب يسمى « مجموعة الكواكب الدراري » يوجد منه ست مجلدات .

تحت رقم ٦٤٥ تفسير ، عمومية ٤٧٢١٤ جمع وتأليف الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن عروة الحنبلي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ .

وهي مجموعة كبيرة من الآثار السلفية يوجد بها آثار لأحمد بن حنبل ، وأحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، وغيرها من علماء السلف ، جمعها وأضاف إليها ابن عروة الحنبلي .

ويقال له ابن زكنون ، وهو فقيه حنبلي ، عالم بالحديث وأسانيده ورجاله . أشهر تصانيفه : الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل على أبواب صحيح الإمام البخاري وهو كتاب كبير جداً ، والسيرة النبوية - خ متزعة من الكواكب ، ولد عام ٧٥٨ هـ وتوفي في دمشق عام ٨٣٧ هـ . راجع الضوء اللامع ٥ : ٢١٤ ومخطوطات الظاهرية ٢٠ ودار الكتب ١ : ٥٩ .

نقول والذي يوجد في دار الكتب المصرية من هذه المجموعة ست مجلدات أما بقية أجزائها فتوجد بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

ويقع الجزء السادس في ١٨٥ ورقة من القطع الكبير ، وعدد أسطر الصفحة يتراوح ما بين ٢٨ - ٣٠ سطراً ويشتمل السطر على ١٣ - ١٥ كلمة .

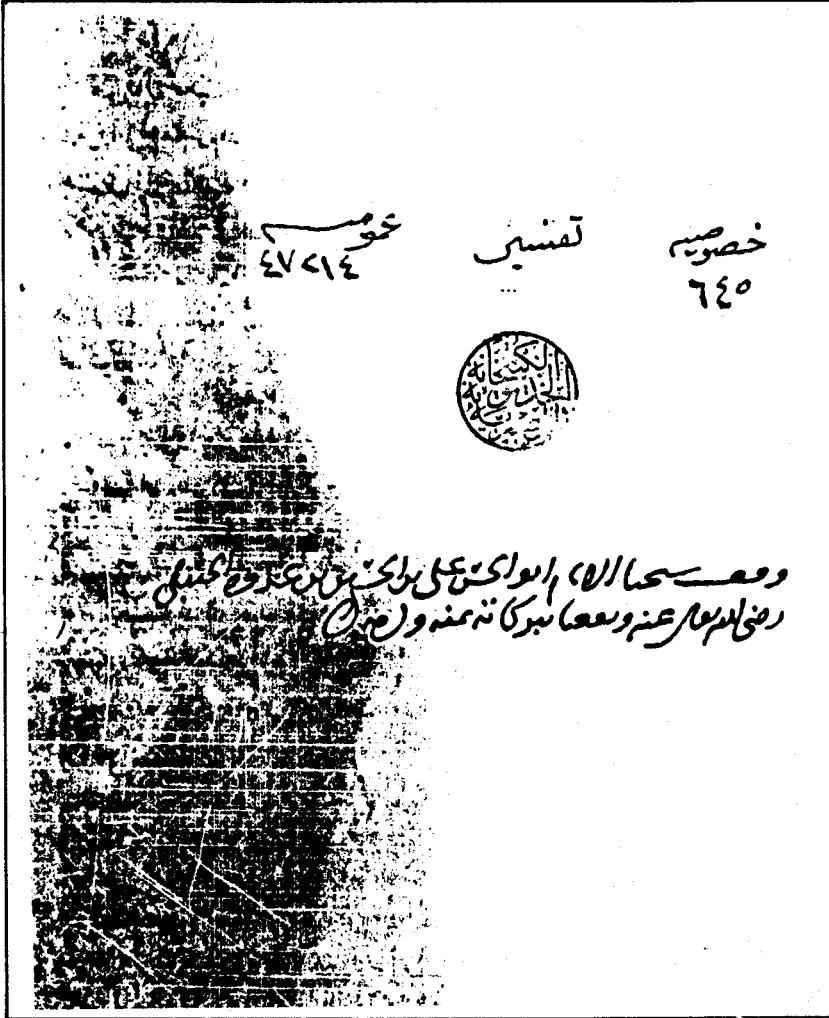
وهذه النسخة كتبت بخط نسخ غير واضح في كثير من المواضع وقد اشتملت هذه المجموعة على تفسير بعض السور القصيرة من تفسير الإمام ابن تيمية مثل :

- ١ - تفسير سورة الأعلى .
- ٢ - تفسير سورة الشمس .
- ٣ - تفسير سورة الليل .
- ٤ - تفسير سورة العلق .
- ٥ - تفسير سورة البينة .

٦ - تفسير سورة الكافرون .

وغير ذلك من قصار السور .

راجع لوحة رقم ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ .



لوحة رقم (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حنبلي ونعم الوكيل
تفسير بسورة يسح وهي مكيه

والدليل على ذلك ما رواه البخاري والامام احمد وغيرهما قال احدثنا محمد بن جعفر بن شعبة عن ابي
استحق قال سمعت البراء بن مالك قال كان اول من قدم المدينة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن
عمرو وان ايام ملكهم فكانوا يقرءون الماشي قال ثم قدم بلال بن رباح وعمر بن الخطاب بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب
عشرين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وراى اهل المدينة فحواش
فرحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حتى جعلوا الاماقلن قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما قدم حتى مراب سبع
ركبا الاعلاء سورة المصل ورواه البخاري وغيره عن محمد بن جعفر بن رواد احدثنا عثمان بن شعبة بن
ورواه البخاري عن عبد الله بن عباس عن شعبة بن جهمه ورواه الامام احمد حديث وكيع بن جابر عن ابي
ابن ابي فاخته عن ابيه عن علي بن ابي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث هذه السورة سمع اسم ربك الاعلاء قد رواه احمد
وثبت في المصنف والصحاح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما دخل المدينة اعلنت سبع اسم ربك الاعلاء بالنسبة
ومخاها والليل اذا قضى وقال الامام احمد حديث شفيق بن ابراهيم عن محمد بن ابي المثنى عن ابيه عن حبيب
ابن اسمعيل عن ابيه عن ابي ثعلبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قرأ العبد من سبع اسم ربك الاعلاء وهل
اما حديث العاصم بن قيس واثبت يوم الجمعة قراها جميعا كذا وقع في نسخة الامام احمد انا هذا الحديث
ودرواه اسمعيل في صحيحه وابوداود والترمذي والباي من حديث ابي جابر وشعبة بن شبيب
عن محمد بن المنصور عن ابيه عن حبيب بن اسمعيل عن ابيه عن ابي ثعلبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن ابراهيم قال رواه شفيق بن ابراهيم عن ابراهيم عن ابيه عن حبيب بن اسمعيل عن ابيه عن ابي ثعلبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن ابيه وقد رواه ابن جابر عن محمد بن ابي جابر عن ابراهيم عن ابيه عن حبيب بن اسمعيل عن ابيه عن ابي ثعلبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن ابيه وقد رواه ابن جابر عن محمد بن ابي جابر عن ابراهيم عن ابيه عن حبيب بن اسمعيل عن ابيه عن ابي ثعلبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
اسم ربك الاعلاء وهل احدثنا العاصم بن ربيعة ورواه اجماع في يوم واحد قراها ورواه الامام احمد
في مسنده من حديث ابي ابراهيم وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن ابيز وعائشة ام المؤمنين
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الوتر بسبع اسم ربك الاعلاء اولها يا اياك العبادون وقيل هو الله احد
ه فاذت عايشه والعبودتين وهكذا رواه الحديث من طريق جابر وابي امامه صلى الله عليه وسلم
وعبد الله بن مسعود وعمر بن ابي حمزة وعلى بن ابي طالب وقد ذكرنا هذه الاحاديث بطريقها والفاظها
في كتاب الوتر والمجمع والعبد بن ابي ابراهيم هذا اولها خيل الاطام لا دورنا هنا ما نشر لنا من ابي زيد
ذلك ومثله ولكن في الارشاد هذا الاختصار كهايم فليطلبه من له لسانه اعلم ه
بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى يسح لم ربك الاعلاء
الذي خلق مشرى والذي يمدد يدي والذي اخرج المرعى فجعل غدا اموى
فصل لفظ اسم زايد وقيل في الكلام حذف مضافا يسح حنبلي اسم ربك ذكرها ابو علي في كتاب الشعر وقيل

[illegible]

الكبري ثم لا يموت فيها ولا يحيى قيل ان لا في قوله ولا تنتم يا فيه اي وانتم وقيل هي نبى ولم يحزم لسواها
 رويها الاى وقيل لا لا يناسيها عن اشبع الفقه فتدبره سننك اي يا محمد فلا تنسى وهذا الخبر من الله
 عز وجل وودعتم له ما يشق من قراء لا ينساها الا ماشاء الله وهذا الخبر ران جريروا ك وقد اده
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيئا الا ماشاء الله وقيل المراد بقوله فلا تنسى طلب وجعلوا معنى
 الاستغناء على هذا ما يقع من النسيان لا تنسى ما تقرىك الا ماشاء الله ورفع فلا عليك ان تنسى وقوله
 انه يعلم الجهر وما يخفى يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من احوالهم وافعالهم لا يخفى عليهم ذلك شئ ودوله
 ونيسر للبر عما يشاء عليكم افعال الخير واقرالهم وشرع لك شرعا سهلا سميما مستقيما عدلا لا
 اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر ودوله قدر ان تنفعه الكبري اي ذكر حيث تنفع التذكر فرب
 ها هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ولا يضع عند غير اهل كمال لسمو الموضع على ما استحدث
 من احداث لا تبلغ عقول الا كان تنتم لبعضهم وان حدثوا الناس بما يعرفون لحيون ان تكذب الله
 ورسوله وقوله سيدك من خشى اي شيعته ما تبلغ يا محمد من قلبه خشى الله ويعلم ان ملائكة وقبض
 الاشقي الذي يصلي الله الكبري لم لا يموت فيها ولا يحيى اي لا يموت ويتبرج ولا يحيى حاش تنفعه بل
 هي مضرة علمه لان سبه شعرا يعاتبه من الم العذاب وانواع النكال قال الامام احمد رحمه
 ابن ابي عري عن سلمان بن يعقوب التيمي عن ابي نصر عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ان الله عز وجل يبعث في كل امة نبي واما الناس يريد انهم في الجنة فيموتون في النار فيدخل علمهم
 الشفاعة فاماخذ الرجل المضار به يشتم او قال يشتمون في نار الجحيم او قال الحيوان او قال النهر
 الجنة فيموتون في الجنة في جيل السيل قال وقال النبي صلى الله عليه وسلم اما ترون الشجر يملون خضرا
 ثم يملون صفرا ثم يملون خضرا قال فقال بعضهم كان النبي صلى الله عليه وسلم كان بالمدينة وكان احد ايضا
 حذرك اسمعيل ما سعد بن زيد عن ابي نصر عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ولم اما اهل النار الذين هم اهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحون ولكن يا مشرك او كما قال قتيبة السائر
 مذنبهم او قال يخطاياهم منتم اما حتى اذا صاروا في النار اذن في الشفاعة فيهم ضاير ضاير يمشوا
 على انهم الجنة وما اهل الجنة ايضا عليهم فيموتون نبات الجنة يكون في جيل السيل قال قال رجل
 من القوم حسد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المدينة وبعاء من جده شمس من الفضل وشبه
 كلاهما عن ابي سلمة سعيد بن زيد بن عبد الله بن ابي ربيعة عن ابي ربيعة عن ابي ربيعة عن ابي ربيعة عن ابي ربيعة
 نضر عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان اهل النار الذين لا يريد الله اخراجهم لا يموتون فيها ولا
 يحون وان اهل النار الذين يريد الله اخراجهم يموتون فيها اما حتى ينصروا فيهم محزون ضاير يملون
 على انهم الجنة فيموتون ما تنتم الجنة في جيل السيل ودفع الله على ابي ربيعة عن اهل المدينة ودعا
 ما كلك بعض علمك ربك قال انكم ما كثر وقال تعالى لا تنسى علمهم يموتون ولا يخف عنهم من غير اهل
 الا غير ذلك من الامات في هذا المعنى

قوله تعالى وقد اقم من تزكي وذكر اسم ربه فصلي
 بقول تعالى قد اقم من تزكي اي طهر نفسه من الاخلاق الرذيلة وتابع بها انزل الله على الرسول
 صلوات الله وسلامه عليه وذكر اسم ربه فصلي اي اقام الصلوات واوداها انتقاما من الله
 وطاعة لاسم الله وامثالا لشرع الله وقد قال الما قضا ابو بكر بن ارحم عدا ان اجد العري
 ما من محمد بن عبد الرحمن عن ابيه عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن ابي رافع عن ابي رافع عن ابي رافع
 عن النبي صلى الله عليه وسلم قد اقم من تزكي قال من شهد ان لا اله الا الله وخلف الانداد وشهد اني
 رسول الله وذكر اسم ربه فصلي قال هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام به ثم قال
 لا روي عن جابر الا من هذا الوجه وكذا قال ابن عباس ان المراد بذلك الصلوات الخمس والاهتمام
 ان جابر وعطاء بن رافع عن عبد الحميد بن ابي عامر عن ابن جابر عن ابي خلد
 قال دخلت على ابي العباس فقال لي اذا غدت غدا الى العيد فزني قال مررت به فقال هل
 طعت شيئا قلت نعم قال انفت على نفسك من الما قلت نعم قال فاجري ما فعلت وكانك قلت
 قد وجهتها قال انما اردت ذلك لهذا ثم اقم من تزكي وذكر اسم ربه فصلي وقال ان
 اهل المدينة لا يرون صدقة افضل منها ومن سقاها الما قلت ولا لك روي عن ابي
 المومنين عن عبد العزيز بن ابي اسحاق عن ابي اسحاق عن ابي اسحاق عن ابي اسحاق عن ابي اسحاق
 اقم من تزكي وذكر اسم ربه فصلي وقال ابو الاوصى اذا الى احدكم ما سئل وهو يريد
 الصلاة فليقدم بين يدي صلاته ركعة فان الله يقول قد اقم من تزكي وذكر اسم ربه
 فصلي وقال قد اقم هذه الامة قد اقم من تزكي وذكر اسم ربه فصلي روي عنه جابر
 قوله تعالى بل يوشرون الحياه الدنيا والاخره خير

وانما ان هذا الذي الجحش الا في محض ابرهم وموسى هـ بقا يوشرون بالياعلى الغيبه
 وبالنسأ على الخطاب اي قيل لم ذلك بقوله تعالى بل يوشرون الحياه الدنيا اي يقدمونه على أسر
 الاخره ويبذونها على ما فيه من مصلحتهم ومعايشهم والاخره خير وابقى اي ثواب الله في
 الدار الاخره خير من الدنيا وابقى فان الدنيا دنيه فانيه والاخره سرور عاقبه فليست يوشرون
 ما ينبغي على ما ينبغي وبهم ما نزول عنه قريبا ويترك الاهتمام بدار القاء والمخلد قال في اللام
 احمد بن محمد بن حسن بن محمد بن ساد وند غراي استحق عن عرو عن عطاء بن رافع قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دار من لا اهل له وما من اهل له ولها عجم من لا عقل له وقال
 ابن جابر عن ابي رافع عن ابي رافع عن ابي رافع عن ابي رافع عن ابي رافع عن ابي رافع
 قال استقرت اني مسعود اسم ربك الاعمال ما بلغ بل يوشرون الحياه الدنيا اي يترك
 الغراء وابقى على اصحابه وقال انما الدنيا على الاخره فليست بالقسم فان انما الدنيا
 لاننا رايها دنيته ونساها وطعامها وشربها وزينتها هذا الاخره كما جئت ربنا

عنه انما قيل في قوله تعالى ان الله يفتن من يشاء ويضل من يشاء ويهدي من يشاء



اهلكت صامعه كان الذي على ايدى الامم ومخبرات الزنوب فان مثل ذلك مثل قوم نزلوا على نارا من الارض
 وذكر خزانة صفاء ان كل واحد منهم جاءه وحط حتى او قروا وانا اعطيه طيرا او اشنوا ولا يزال استهل
 عليها الصغار حتى يتبين بها ايلون صاحب الكبرياء المنة بها احتجنا بالمنة ماني اعجز العبد من هذه
 المرتبة ينقله الى المرتبة الماسة وهي اشد من الماسحات التي انشأها لها ولا تقاوت بل يتما بها فوات
 الثواب الذي ضاع عليه واشتغالها فانما يجز العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوجه الله تعالى في جميع
 مقدماتها شانه وانقطاعه وما يتقالي من النعم والعباد ينقله الى المرتبة الدنيا في ربه وهو ان يشعل
 ما لول المفضول ومحبته عليه ومحبته له اذا تضمن ترك ما هو افضل واعلا منه وتكون غيبته بالذات الما
 مانه اذا راى فيه داعيا ياتو بحركات الى نوع من الطاعة لا يشك ان طاعته وقربه مانه اليك وان يقول ان
 هذا الداعي من الشيطان فان الشيطان لا يبرئ ويرى ان هذا خيرا مفعول هذا الداعي من الله وهو
 معذور ولم يعيلى عليه الى ان الشيطان ما من سبعين يوما من اواب الخير اما ليرسله الى باب واحد
 من الشر وانما الفتوت بها خيرا اعظم من تلك التعيين بابا واجل وافضل وهذا لا يتوصل اليه ففته الا
 منور من الله تعالى في قوله تعالى ان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ويهدي من يشاء
 عنده الله ولجبه اليه وارضاها وافعه للعدو داعيها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعامة خاصته وعامة
 ولا يعرف هذا الامر كان من روث الرسول على ايدى الامم ونوابه في الامم وخلفائه في الارض والخلق
 يحبون من هذا الامم يملكونهم واهل من يعلم على من يشاء من عباد ما خاله من العبد من هيله
 المرات الست واعين على شطوطه من الانس والجن والافاعي والكلاب والكلاب والكلاب والكلاب
 والتجارب منه وقصد اخاره والحقايد نيشوش عليه وشغل بحزبه نكره ولجميع الناس من الانتفاع
 به ميسر شيعه في تسليط المطمين مرشاه طين الانس والجن عليه لا يفترو ولا ينفخ في خيليه بل يبين المؤمنين
 الحرب ولا يصنع عنده الموت متى وضع السرا او صيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله تعالى
 هذا الفصل في تدبير موقعه وعظيم منفعته وافعله ميزانا لك تنزل به الماسة وتوفيه الامم فانه يطلعك
 على خفايا الوجود ودرجات الخلق والعلل الشعان وعلمه الكلان فصلا وقابل الشريعة قوله
 بعاد من شوش وصدور الناس وان يزل في الجهم والصدور هو ساحة القلب وبيته لمنه تداخل
 النوار ذات اليه مجتمع والصدور يزل في القلب هو بمنزلة الدهليز له ومن الكذب يخرج الاوانس من
 في الاما ذات الى الصدور ثم تنفر على النور ومن هم هذا فم تولى العالي ويعلى الله ما في صدره
 ولجميع ما في صدورهم والشيطان يدخل الى ساحة القلب فيبيته يلقى ما يريد الماء الى العلة هو يوسوس
 في الصدور ويوسوسه واسلة الى الدباب ولهذا قال تعالى فوسوس الشيطان واوله فنه لان
 المعاني التي الكذب والصدور اليه يدخل في قلبه فصلا وقوله تعالى ان الله خلق الانسان من
 الغضروف وهذا الحار والمجور ما خاتعلق بالزواج عهده هو بيان الناس الجوسوس في صدورهم
 والعة لوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والانس او الموسوسين وحدهم وشبان الناس

ج :

هذا المخطوطة توجد بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٤ (مجاميع) تيمور .
وهي عبارة عن رسالة ضمن مجموعة رسائل خطية لآحمد بن عبد الحليم الشهير
بابن تيمية .

وتبدأ من رقم ٢٩ - ٨٤ من المجموعة .
كتب في الصفحة الأولى منها (٢٩) عنوان الرسالة بخط نسخ كبير وفي وسط
الصفحة « قاعدة جامعة في توحيد الله عز وجل ، واخلاص العمل ، والوجه له » .
وهذه المخطوطة كتبت بخط نسخ واضح إلا في بعض الكلمات القليلة ويوجد
في هوامش بعض الصفحات تعليقات بخط النسخ كما في صفحات ٦١ ، ٦٣ .

مسطرة الصفحة ١٧ سطرأ في كل سطر من ٧ - ٩ كلمات تقريباً ومساحة
الصفحة ١٢ × ١٨ سم وتشغل الكتابة منها مساحة ٩ × ١٥ سم وهذه المخطوطة :
أرشد إليها الدكتور محمد السيد الجليلند عند جمعه لكتابه دقائق التفسير فجزاه الله عنا
وعن المنتفعين بهذا الكتاب خير الجزاء .

راجع لوحة رقم ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،

والاستغفانه بيدي من بعد غفره ويسمى بنزاه ه
فصل قال الله عز وجل

يُنَادِلُ السُّورَةَ اِجْمِدَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِدَاهَا ذِي
 مِصْرًا لِّاسْمِ اللَّهِ وَالرَّبِّ وَاللَّهِ هُوَ الْاَلَهُ الْمُعْبُودُ فَمِنَا
 الْاَنَامُ اِحْقِ بِالْعِبَادَةِ وَهَذَا اَعْلَى اَسْمَاءِ اَكْبَرِ اَحْمَدُ
 لِلّٰهِ سُبْحَانَ اللَّهِ لَا اِلَهَ اِلَّا اللَّهُ وَالرَّبُّ هُوَ الَّذِي اَعْلَى
 الرَّزَقِ النَّاصِ الْمُنَادِي هَذَا الْاِسْمُ اَحْقُّ لِّلْاِسْتِغَاثَةِ بِه
 وَلِهَذَا الْمُسْلِمُ وَالْمُتَكَبِّرُ يَقُولُ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ رَبَّنَا
 ظَلَمْنَا اَنْفُسَنَا وَان لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَرَحْمَتُكَ لَكُونُ
 مِنْ اَحْمَاسِ رَبِّ اَيُّ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي
 رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاسْرَافَنَا فِي امْرِئَاتِنَا اَلَا
 تُولَخُنَا اِنْ شِئْنَا اَوْ اَخْطَاْنَا فَاغْفِرْ لَنَا الْمِثْلَ ه
 وَالْاِسْتِغَاثَةَ الْمَشْرُوعَةَ بِاسْمِ الرَّبِّ قَالَ اسْتِغَاثَةُ الْاَوَّلِ
 فِي سَمْعِنِ غَايَةِ الْعِبَادَةِ صِيْرًا وَمُسْتَهْلَةً وَمَا ظَنُّكَ
 وَالْاِسْمُ الثَّانِي سَمْعِنِ الْمَكْرُورِ بِنَزَاهِ وَهُوَ اَفْرَبُ بِهِ وَيَتَوَلَّاهُ
 نَعْنِ اَنْ الثَّانِي يَدْخُلُ فِي الْاَوَّلِ وَهُوَ الَّذِي يَسْتَعِيْنُ
 الْاَلَهِيَّةَ وَالرُّسُوْلِيَّةَ سَعْلَزِمِ الْاَلُوْهِيَّةَ اَعْيَا وَالْاَسْمَ

الرحمن

الاستغفانه بيدي من بعد غفره ويسمى بنزاه ه

تَضَرُّعُ
الرَّحْمَنِ كَمَا لِي الْقَلْبَيْنِ وَوَصَفِ انِّجَالِزِيهِ يَتِمُّ سَعَادَتُهُ
بِإِدْنَاهُ وَآخِرَاهُ وَلِهَذَا قَالَ دَهْمِي كَيْفَ تَقْنُون بِالرَّحْمَنِ
فَلَهُ وَرَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَاللَّهُ مَتَاب
فَذَكَرَ هُنَا الْأَسْمَاءَ السَّالِسَةَ الرَّحْمَنِ وَرَبِّي وَالْإِلَهَ دَعَا عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَاللَّهُ مَتَاب كَذَا كَرَّرَ الْأَسْمَاءَ السَّالِسَةَ فِي أَمِّ الْقُرْآنِ
لَكِنْ بَدَأَ هُنَا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَلِهَذَا بَدَأَ فِي السُّورَةِ بِآيَاتِ
نَعْبُدُ فَقَدِمَ الْأَسْمَاءَ وَسَمَّاهُ بِمِنْ الْعِبَادَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ
السُّورَةَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَأَمَّ الْقُرْآنِ فَقَدِمَ فِيهَا الْقَسَمُ
الَّذِي هُوَ الْعِلْمُ الْعَالِمُ فَانْفَعَا عِلْمُ اللَّهِ لِلْعَالَمِ الْعَالِمِ
وَقَدْ سَطَّ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ
وَفِي فَعْدِهِ بِحَمْدِهِ وَالْإِتِّدَادُ وَفِي عَيْنِ ذَلِكَ ٥

فصل ولما كان علم القلوب
عَلَّمَ قَلْبَهُمْ وَفَهَّمَهُم إِلَى الرَّبِّ مَلَّ عَلَيْهِمْ بِحَاجَتِهِمْ إِلَى
الْإِلَهِ الْمَعْبُودِ وَفَصَّحَهُمْ لِدَفْعِ حَاجَاتِهِمْ الْعَاجِلَةِ
بِمَلَلِ الْأَجَلِ كَانَ أَوْرَادَهُمْ بِأَلْسِنِهِمْ مِنْ جِهَةِ رُبُّوَيْهِ
أَسْبَقَ مِنْ أَوْرَادِهِمْ مِنْ جِهَةِ الْوَهْمِ وَكَانَ
الدَّعَاءُ وَالِاسْتِغَاثَةُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ فِيهِمْ أَكْثَرُ مِنْ

محصيل مطلوبه كاستشفاء الحبيب مدوه الحبيب
 علي وصله فاذا استشفى قدره علي محصيل مطلوبه
 استغفاره والا فلا لاقتحام بسببه قد يكون محبوبا لعينه
 مستغفرا وقد يكون شحما ما عير محبوب وقد عتق فيه
 الاثران فاذا اعلم ان العبد لا بد له في كل وقت و حال
 من شئ يطلبه هو الهه ومنه يطلب منه هو مستغفرا
 وذلك هو صمد الذكيمه اليه في استغفاره وعبادته
 تبين ان قوله تعالى اياك نعبد و اياك نستعين كلام
 جامع محيط اول اخر لا يخرج عنه شئ فصار في الاقام
 ان يعبد اياك ان يعبد غير الله و يستغفره وان كان متلا
 فالشرك في هذه الايه لغفي من حيب المل و اما ان
 نعبد و نستعين غير مثل كثير من اهل الدين يقتلون
 طاعة الله ورسوله وعبادته وحيه لا يشرك له
 و تخضع قلوبهم لمن يستغفرون نصرهم و يرفعهم
 و هدايتهم من جهته من الملوك و الاغنياء و المشايخ
 و اما ان يستعينه وان يعبد غيره مثل كثير من ذوك
 الاحوال و ذوك الفدنه و السلطان الباطل له

واهل المشقة والتأني الذي يسمونه وعترون
 عليهم وسلوة ويلجون اليه لكن مقصودهم غير ما امر
 الله به ورسوله وعين اساع دينه وشهدته التي
 بعث بها نسله والشم الرابع الذي لا يعبدون
 الا اياه ولا يستعينون الا اياه وهذا القسم الرابع
 قد ذكرنا بعد ايضا كنه تارة يكون بحسب
 العبادة والاستغناء وتارة يكون بحسب المجهود المستغنى
 عنها هو المجهود المستغنى لبيان انه لا بد لكل
 عبد من مجهود يستعان به فيما بعد بحسب عباده الله
 ولست علمته فان الناس ينقسمون الى بعد اقسام
 فصل قال الله تعالى في ام القران
 والشيع الثاني والقران العظيم اياك تعبد واياك
 سبعين وهذه السورة هي ألم القران وهي
 فاتحة الكتاب وهي الشيع من الثاني والقران العظيم
 وهي الشافيه وهي الاجبه في الصلوات لاضل الانبياء
 وهي الكافية فكيف من غيرها ولا يكفى غيرها
 منها والاصل الاصل وفيه موافقة من كلام طيب

المطبوع :

أ - تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية - وهو العلامة شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس - أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي .

نسخة في مجلد طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ بأولها فهرس وتقع في حوالي ١٤٠ ص ٢٤ سم رقم [٥٤٥] ١١٢٧٩ مكتبة الأزهر الشريف .

ب - تفسير سورة النور لابن تيمية .

نسخة ضمن مجموعة في مجلد طبع حجر بالهند سنة ١٢٩٦ هـ (من ص ١ - ٣١) - ٣١ سم رقم [١٤١٤] مجاميع (حليم ٣٢٩٠٥) بمكتبة الأزهر الشريف .

بدأها بقوله :

هذه فوائد مستنبطة من سورة النور من كلام الحافظ العلامة المجتهد الحجة المفسر ، نادرة العصر ، علم الزهاد ، أوجد العباد ، الفقيه المحدث الأصولي ، علم الأعلام ، شيخ الاسلام ، امام الأئمة ، مفتي الأمة بحر العلوم ، المنطوق منها والمفهوم ، سيد الحفاظ ، فارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر ، قريع الدهر ، علامة الزمان ، ترجمان القرآن ، قامع المبتدعين ، آخر المجتهدين ، محيي السنة ، ومن عظم به الله علينا المنة ، وقامت به على اعدائه الحجة ، واستبان ببركته الحجة .

تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني أعلى الله مناره ، وشيد من الدين أركانه .
راجع لوحة رقم ١٣ ، ١٤ .

ج - مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه .

جمع وترتيب الفقير إلى الله عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي .

وساعده ابنه محمد ، وفقهما الله تعالى - الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ .

ههنا والله مستنبطة من سورة النور من كلام الحفاظ العلاقا بمجتهدا بحجة المفستى
 نادرة العصم الزهاد اوصال العباد الفقيه الخبث الرصوا علم الاعلام شيخ الاسلام
 الائمة مفتي الامة بحر العلوم المنطق منها والمنطق سبيل الحفاظ فارس العاني و
 الامانة في العصر قريع الدهر علام الزمان ترحم الله الفقير المبتدئ
 انظر الخبث في الحق من عظمته عليه علينا الله فامتنع على اعلاه
 بحجة واستبانه في الحق في قوله تعالى في العلم احمد
 عليه السلام في العلم احمد عليه السلام
 وشيخ من الدين
 اكانه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة انزلناها وفرضاها وانزلنا فيها آيات بينا لعلكم تذكرون فرضها بالبينات والتقدير والحمد التي من يتعدى لها الى الحرام فقللم نفسه من قرب
 من حرامها فقد اعتكف وتعدى الحرام وبان فيها فرض العقوبة ولا يتعدى وفرضية الشهادة على الزنا وفرضية شهادة المتلاعنين كل منها يشهد بالشرع
 الله ونحوه فيمن اعتكف فقد حمله الله في الفروج والارض والعورت وطاعة ذي السلطان سواء كان في الزنا والولاية ولا يخرج الا بدلالة لا بد من
 نوعان نوع لله فلا يتعدى حده ونوع للعباد فلا يفعل الا باذن المالك فليس لاهل البيت ان يفعل شيئا في حق غير الامانة الا اذا كان المالك فاذن
 عمل الصلح واذن المالك حيث اذن الله وجعل له الاذن فيه لم يضمنها الاستيذان في المساكن والمطاعم وفي الارض بما مائة كالعصاة واليهما ونحوهما
 ووسطها بذكر المور الذي هو مادة كل خير يصلح لكل شيء وهو يشاء عن امتثال امر الله واختيار خيبه وعن الصبر اذ ان فانه ضياء فان حفظ الحرام يتقوى الله
 يجعل الصلح نورا قال تعالى فتوا الله واسئله رسول فترككم كفيلين من صحت ويجعل لكم نوراً تشق به الآية فقد انقضى الظلمة ولهذا اعتد في كل شيء واعمال
 المؤمنين باعمال الكفار واهل البدع والضلال فقالوا الذين كفروا افعالهم كسراب الزيادة الى قوله وظلمنا في الجحيم يغشهم من الآيات ولكن الظلمة
 يوم القيمة وظلم العبد بنفسه من الظلم فان السبينة ظلمة في القلب سودا في الوجه ووهن في البدن ونقص في الرق وبغض في قلب الخلق كاره ذلك
 عن ابن عباس يوضح ان الله ضيق مثل ايمان المؤمنين بالحق واعمال الكفار بالظلمة والايمان اسم جامع لكل ما يحبه الله والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه
 والكان لا يكفر العبد اذا كان معاصيا للايمان وبغض في روع الكفر من المعاصي كما لا يصير مشركا اذا كان مع بعض فروع الايمان ولغض البصر فخصاص
 بالنور ثم ذكر حديث البراء الذي صححه الترمذي ان العبد اذا ذنب لم يجد في قلبه نور الا الذي ذكر الله وفي الصحيح انه ليغان على قلبه ان لا يستغفر
 الله الى يوم مائة مرة والذين يجاب في حق ارق من الغيم فاحذر ان يستغفر ليزيل الغيم فلا يكون ككت سودا كما اذا زيلت الاضياء وبقا
 حقيقة ان الايمان بيد وفي القلب لحظة بيميناً فكما ازداد العبد ايماناً ازداد قلبه بياضاً فلو كشفت عن قلب المؤمن لوجدته ابيضاً مشرقاً وان
 الاتفاق يبدل وفي القلب لحظة سودا فكما ازداد العبد بغاً ازداد قلبه سودا فلو كشفت عن قلب المؤمن لوجدته اسوداً وبدا وقال صلى الله عليه
 ان النور اذا دخل في القلب انشره ونفسه قيل فهل ذلك من علامة قال نعم الغيا في عن دار الغم والارادة الى دار الخلق والاستعداد للموت
 قبل نزول وفي خطبة الامام احمد الر على الزنادقة الحمد لله الذي جعل في كل زمان وفرة من الرسل بغايا من اهل العلم يدعون من ضلوا الى الهدى

١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

د : دقائق التفسير

جمع وتبويب وتحقيق الدكتور محمد الجليند والذي قام بجهد وعزيمة العلماء في هذا الكتاب حتى قدمه في الصورة المشرقة التي ظهر بها فجزاه الله خير الجزاء عن الاسلام والمسلمين ، والمتفعين بكتابه إلى يوم الدين .

وبعد . . فلقد صاحبت ابن تيمية فترة ليست بالقليلة في عمر الزمن وتعزمت على أكثر ما دبجته براعته ، وما تفتق عنه عقله طوال فترة نضوجه العقلي في جل التخصصات المختلفة ، والتي تشمل التفسير ، والحديث ، والمنطق ، والفقه والعقيدة ، وعاشت ، ردوده على أولئك الذين كانوا يطلبون رأيه ومشورته أو هؤلاء الذين يختلفون معه ولهم أدلتهم وحججهم ، أو الآخرين الذين يشطحون بفكرهم بعيداً عما أنزله الله في كتابه ، أو دعى إليه الرسول ﷺ في سنته .

وكانت لنا أيضاً سياحات وقراءات في مصنفاته المخطوط منها والمطبوع وتتبعنا ما كتبه الخصوم من نقد وتجريح لأرائه ، وما قاله الأحباب والمعجبون به من مدح وتقريظ لعلمه ، ثم ما حكم به المعتدلون على فكر الرجل وعقله .

ثم كان لنا رأينا في نتاج الرجل وعلمه بعيداً عن الحب والمجاملة ، أو الخصام والمجادلة متأدين بقول الله تعالى :

﴿ وان حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ﴾ .

وهذا ما يراه القارئ متفرقاً في ثنايا هذا السفر الكبير ، لم تختلف بنا السبل حتى وان اختلفنا معه ، ولم يجمع بنا الهوى حتى وان اتفقنا معه - والحمد لله على ذلك .
ثم ماذا . . ؟

إلى كل المعجبين بهذا الرجل علماً وعقلاً ، وإلى كل المختلفين معه حجة ودليلاً والشانئين له أيضاً المبغضين لحديثه يطيب لي أن أقدم هذا الكتاب ليكون معلمة على طريق الحق والنور .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

أ . د . عبد الرحمن عميرة

رئيس قسم العلوم الاسلامية بجامعة السلطان قابوس .

مقدمة التفسير

للمؤلف

الجزء الأول

وتشمل الآتي

- أ - الرد على الفرق الضالة كالجهمية، والمجبرة والخوارج والنفاة .
- ب - استعراض تفاسير هؤلاء وتقديم نماذج منها والرد عليها وتفنيدها بطلها .
- ج - مناقشة الصوفية والباطنية والقرامطة في حقيقة العلم الباطن والعلم الظاهر .

فصل في الفرقان ^(١) بين الحق والباطل

وأن الله بيّن ذلك بكتابه ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعاً لكتابه الذي أنزله ونبيه الذي أرسله كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان ، واشتبه عليه الحق بالباطل ، كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، والنبي الصادق بالمتنبىء الكاذب ، وآيات النبيين بشبهات الكذابين ، حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق .

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ففرق ^(٢) به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء وبين ما عليه الناس من الاختلاف ، وكذلك النبيون قبله .

(١) الفرق بالضم والفرقان ؛ القرآن ، وكل ما فرق به بين الحق والباطل ، والفرقان : النصر ، البرهان ، والصبح ، والتوراة وانفراق البحر ، ومنه قوله تعالى ﴿ وإذ أتينا موسى الكتاب والفرقان ﴾ [سورة البقرة آية رقم ٥٣] ويوم الفرقان يوم بدر .

(٢) فرق بينهما فرقاً وفرقناً : فصل وقوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ سورة الدخان آية ٤ [أي يقصن وقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ [سورة الاسراء آية ١٠٦] أي فصلناه وأحكمناه ، وقوله تعالى ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ أي فلقناه ، وقوله تعالى ﴿ فالفارقات فرقا ﴾ [المرسلات آية رقم ٤] أي الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل .

قال الله تعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ تَا اللَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٣) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٣

وهدى : معناه أرشد أي فهدى الله أمة محمد الى الحق بأن بين لهم ما اختلف فيه من كان قبلهم . وقالت طائفة : معنى الآية أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض ، فهدى الله تعالى أمة محمد للتصديق بجميعها وقالت طائفة : إن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيه أهل الكتابين من قولهم : إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً . وقال ابن زيد ، وزيد بن أسلم من قبلتهم . فإن اليهود الى بيت المقدس ، والنصارى الى المشرق ، ومن يوم الجمعة فإن النبي - ﷺ قال : هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فلليهود غد وللنصارى بعد غد ، وقال ابن زيد واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود فرية ، وجعلته النصارى رباً فهدى الله المؤمنين بأن جعلوه عبداً لله .

(٢) سورة النحل آية رقم ٦٣ - ٦٤ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم (١) وقيل الفرقان القرآن ، وقيل : إنه اسم لكل منزل كما قال : ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان . وفي تسميته فرقاناً وجهان أحدهما لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر . الثاني : لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام حكاه النقاش .

وقال تعالى :

﴿ أَلَمْ ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ
الْفُرْقَانَ ﴾ (١) .

قال جماهير المفسرين : هو القرآن . روى ابن أبي حاتم بإسناده عن الربيع
ابن أنس قال : هو الفرقان فرق بين الحق والباطل . قال : وروى عن عطاء
ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وروى بإسناده عن شيبان
عن قتادة في قوله : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ قال : هو القرآن الذي أنزله الله على
محمد ، ففرق به بين الحق والباطل (٢) ، وبين فيه دينه وشرع فيه شرائعه ،
وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحد حدوده ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته ،
وعن عباد بن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ قال :
هو كتاب بحق .

و« الفرقان » مصدر فرق فرقاناً مثل الرجحان ، والكفران ، والخسران
وكذلك « القرآن » هو في الأصل مصدر قرأ قرآناً ومنه قوله :
﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قُرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
بَيَانَهُ ﴾ (٣) .

ويسمى الكلام المقروء نفسه « قرآناً » وهو كثير كما في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٤) .

(١) سورة ال عمران آية من ١ - ٤

(٢) راجع ما كتبه الامام الطبري في تفسيره ، ٢ : ٧٠ - ٧٢ وما كتبه القرطبي عند تفسير قوله

تعالى ﴿ وإذ أتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ البقرة آية ٥٣ - ١ : ٣٩٩ - ٤٠٠

(٣) سورة القيامة الآيات ١٧ - ١٩

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٨

كما أن الكلام^(١) هو اسم مصدر كلم تكليماً ، وتكلم تكلماً ، ويراد به الكلام نفسه ؛ وذلك لأن الإنسان اذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هي مسمى المصدر ، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس التكلم ، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر ، وتارة يجعل قسيماً له إذا أريد ما يتكلم به ، وهو يتناول هذا وهذا ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع . والمقصود هنا أن لفظ « الفرقان » إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزل في الكتاب ، فإن في الكتاب الفصل وإنزال الفرق هو إنزال الفارق ، وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً . فهما في المعنى سواء ، وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كإنزال الإيمان وإنزال العدل . فإنه جعل في القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن ، كما جعل فيها الإيمان والعدل ، وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان ، والميزان قد فسر بالعدل ، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل ، وهو كالفرقان يفسر بالفرق ، ويفسر بما يحصل به الفرق ، وهما متلازمان ، فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه ، وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق ، ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى ، سمي كتاباً باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب ، وسمي فرقاناً

(١) الكلام : القول أو ما كان مكتفياً بنفسه ، والكلمة : اللفظة ، والجمع : كلم ، والكلمة بالكسر لغة فيها ، والجمع كلم ككسر ، وكلمه تكليماً وكلاماً تحدث ، والكلمة : القصيدة . وكلمة الله عيسى عليه السلام .

والكلام يقع على الألفاظ المنظومة ، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة ، وعند النحاة يقع على الجزر منه ، اسماً كان أو فعلاً أو أداة ، وعند كثير من المتكلمين لا يقع على الجملة المركبة المفيدة وهو أخص من القول ، فإن القول عندهم يقع على المفردات والكلمة تقع على كل واحد من الأنواع الثلاثة ، وقد قيل بخلاف ذلك . [راجع بصائر ذوي التمييز ٤ :

باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمي هدى ^(١) باعتبار أنه يهدي الى الحق ، وشفاء ^(٢) باعتبار أنه يشفي القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من أسمائه .

وكذلك أسماء « الرسول » كالمقفي ، والماحي ، والحاشر ^(٣) ، وكذلك « أسماء الله الحسنى » ^(٤) كالرحمن ، والرحيم ، والملك ، والحكيم ونحو ذلك .

- (١) قال تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ سورة البقرة آية رقم ٢ ، ١ .
- (٢) قال تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء رحمة للمؤمنين ﴾ سورة الاسراء آية رقم ٨٢ .
- اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين : أحدهما - أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثاني شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة - واللفظ للدارقطني عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنا رسول الله - ﷺ في سرية ثلاثين راكباً قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا قال : فلدغ سيد الحي ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يرقى من العقرب . ؟ في رواية ابن قته : إن الملك يموت .
- قال : قلت : بغم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا . فقالوا : فإننا نعطيكم ثلاثين شاة قال : فقرأت عليه ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ سبع مرات فبرأ وفي رواية سليمان بن قته عن أبي سعيد ، فأفاق وبرأ فبعث إلينا بالنزل وبعث إلينا بالشاة فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبوا أن يأكلوا من الغنم حتى أتينا رسول الله - ﷺ - فأخبرته الخبر .
- فقال : وما يدريك أنها رقية . ؟ قلت يا رسول الله شيء ألقى في روعي قال : كلوا وأطعمونا من الغنم » أخرجه في كتاب السنن .

(٣) روى صاحب الموطأ في ٦١ كتاب أسماء النبي - ﷺ (١) باب أسماء النبي .

حدثني مالك عن ابن شهاب ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، أن النبي - ﷺ - قال : لي خمسة أسماء . أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » قال ابن عبد البر : كذا أرسله يحيى وأكثر الرواة .

ورواه البخاري في كتاب المناقب ١٧ والتفسير سورة ٦١ والترمذي في الأدب ٦٧ والإمام أحمد بن حنبل ٤ : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ (حلي)

(٤) في الحديث المتواتر قوله ﷺ : إن الله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل =

والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات وإن كان المسمى واحداً كقوله :

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) ،

وقوله :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ (٢)

ونحو ذلك .

وهنا ذكر أنه نزل الكتاب ، فإنه نزل متفرقاً ، وأنه أنزل التوراة والإنجيل ، وذكر أنه أنزل الفرقان ، وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان في القلوب ، وأنزل الميزان ، والإيمان . و« الميزان » (٣) مما يحصل به الفرقان أيضاً ، كما يحصل بالقرآن ، وإذا أنزل القرآن حصل به الإيمان والفرقان ونظير هذا قوله :

= الجنة . وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ . سورة الأعراف آية رقم ١٨٠ .

(١) سورة الأعلى الآيات من ١ - ٣

(٢) سورة الحديد آية رقم ٣

(٣) الميزان : القبان والقسطاس وقوله تعالى : ﴿ ووضع الميزان ألا تطففوا في الميزان ﴾ [سورة الرحمن آية ٧ ، ٨] قيل أراد بالميزان العدل ، أي لا تجاوزوا العدل ، قال الحسن وقتادة ، والضحاك أراد به الذي يوزن به ليوصل به الى الانصاف والانتصاف ، ولا تخسروا الميزان ، أي لا تطففوا في الكيل والوزن .

وقوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ فقد قيل هو المعادن كالذهب والفضة ، وقيل : بل إشارة الى كل ما أوجده الله فإنه خلقه باعتدال كما قال تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [سورة القمر آية ٤٩]

وقوله تعالى ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ إشارة الى العدل في محاسبة الناس كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ . [سورة الأنبياء آية رقم ٤٧] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا ﴾ (١) .

قيل : الفرقان هو التوراة ، وقيل : هو الحكم بنصره على فرعون ، كما في قوله :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ (٢)

وكذلك قوله :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣)

قيل : « النور » هو محمد عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو الإسلام وقوله :

﴿ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (٤)

قيل : « البرهان » هو محمد . وقيل : هو الحجة والدليل . وقيل القرآن والحجة والدليل تتناول الآيات التي بعث بها محمد ﷺ ؛ لكنه هناك جاء بلفظ آتيناه وجاءكم ، وهنا قال : ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ جاء بلفظ الإنزال ؛ فلهذا شاع بينهم أن القرآن والبرهان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء .

وهذا كقوله في القرآن في قوله :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٤٨

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤١

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٥

(٤) سورة النساء آية رقم ١٧٤

الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قال الوالبي عن ابن عباس « يوم النرقان » يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل .

قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان ونحو ذلك ، وبذلك فسر أكثرهم :

﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٢) كما في قوله :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (٣)

أي : من كل ما ضاق على الناس . قال الوالبي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ أي مخرجاً .

قال ابن أبي حاتم : وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان كذلك ، غير أن مجاهداً قال مخرجاً في الدنيا والآخرة وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال نصراً . قال : وفي آخر ، قول ابن عباس والسدي نجاة .

وعن عروة بن الزبير (٤) ﴿ يجعل لكم فرقانا ﴾ أي : فصلاً بين الحق

= عن الثوري : هو محمد - ﷺ وسماه برهاناً لأن معه البرهان وهو المعجزة ، وقال مجاهد : البرهان ههنا الحجة ، والمعنى متقارب ، فإن المعجزات حجته - ﷺ - والنور المنزل هو القرآن ، عن الحسن ، وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة ، فهو نور مبين ، أي واضح بين .

(١) سورة الأنفال آية رقم ٤١

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٩

(٣) سورة الطلاق آية رقم ٢

(٤) هو : عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان عالماً بالدين ، صالحاً كريماً لم يدخل في شيء من الفتن ، وانتقل إلى البصرة ثم إلى مصر ، فتزوج وأقام بها سبع سنين ، وعاد إلى المدينة فتوفي فيها عام ٩٠ هـ وهو أخو عبد الله بن

والباطل ، يظهر الله به حقكم ويطفئ به باطل من خالفكم ، وذكر البغوي عن مقاتل بن حيان قال : مخرجاً في الدنيا من الشبهات ، لكن قد يكون هذا تفسيراً لمراد مقاتل بن حيان ، كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، والضحاك وابن قتيبة : أنهم قالوا هو المخرج . ثم قال : والمعنى يجعل لكم مخرجاً في الدنيا من الضلال ، وليس مرادهم ، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ ^(١) والفرقان المذكور في قوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ ^(٢) وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال : هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل ، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان ، والنصر والنجاة هما نوعا « الظهور » في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ^(٣) .

يظهره بالبيان والجنة والبرهان ويظهر باليد والعز والسنان . وكذلك « السلطان » في قوله :

﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيراً ﴾ ^(٤)

فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما في قوله :

﴿ أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكَلِمُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٥)

= الزبير لأبيه وأمه ، وبئر عروة بالمدينة منسوبة إليه [راجع ابن خلكان ١ : ٣١٦ وصفة الصفوة ٢ : ٤٧ وفيه وفاته سنة ٩٤ هـ وحلية الأولياء ٢ : ١٧٦] .

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤١

(٣) سورة التوبة آية رقم ٣٣

(٤) سورة الاسراء آية رقم ٨٠

(٥) سورة الروم آية رقم ٣٥

وقوله :

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ (١) .

وقوله :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ (٢)

وقد فسر « السلطان » بسلطان القدرة واليد ، وفسر بالحجة والبيان فمن الفرقان ما نعتة الله به في قوله :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ . يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

ففرق بين الحق والباطل ، بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا ، وبين الطيب والخبيث ، أحل هذا وحرم هذا .

(١) سورة غافر آية رقم ٥٦ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٣

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦ - ١٥٧

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون فقال الله تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ فخرجت الآية عن العموم والحمد لله .
وروى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة .

ومن « الفرقان » أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين
أهل الحسنات ، وبين أهل الباطل الكفار الضالين المفسدين أهل السيئات .
قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ
نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ ﴾ (٤)

وقال تعالى :

﴿ أَمِنْ هُوَ قَائِتُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ
رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴾ (٥)

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢١

(٢) سورة ص آية رقم ٢٨

(٣) سورة القلم آية رقم ٣٥ - ٣٦

(٤) سورة هود آية رقم ٢٤

(٥) سورة الزمر آية رقم ٩ .

وقال تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظُّلُ
وَلَا الْحُرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا
أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ
فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ (٣)

فهو سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول ،
والمعصية لله والرسول ، كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه .
وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز

(١) سورة فاطر الآيات ١٩ - ٢٤ ، والحرور شدة الشمس ، قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا
مع شمس النهار - والسموم يكون بالليل ، وقيل عكسه ، وقال رؤبة بن العجاج : الحرور
يكون بالليل خاصة ، والسموم يكون بالنهار خاصة ، وقال الفراء : السموم لا يكون إلا
بالنهار ، والحرور يكون فيها ، قال النحاس ، وهذا أصح وقال قطرب : الحرور : الحر ،
والظل : البرد ، وقال الكلبي : أراد بالظل الجنة ، وبالحرور النار ، وقال عطاء : يعني ظل
الليل وشمس النهار ، قيل : وإنما جمع الظلمات وأفرد النور ، لتعدد فتون الباطل واتحاد
الحق والله أعلم .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢

(٣) سورة السجدة آية رقم ١٨

أن يسوي بين الخالق والمخلوق في شيء ، فيجعل المخلوق نداً للخالق .
قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٢) ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٣) ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (٤)

وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرق ، بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه ، كما قالوا - وهم في النار يصطرخون فيها - ﴿ تَا اللَّهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) .

وقال تعالى :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ ﴾ (٧)

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٥

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٥

(٣) سورة الصمد آية رقم ٤

(٤) سورة الشورى آية رقم ١١

(٥) سورة فاطر آية رقم ٣٧ وهي محرفة وصحتها « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً » .

(٦) سورة الشعراء آية رقم ٩٧ - ٩٨ .

(٧) سورة النحل الآيات من ١٧ - ٢١

فهو سبحانه الخالق العليم ، الحق الحي الذي لا يموت ، ومن سواه لا يخلق شيئاً . كما قال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (١) .

وهذا مثل ضربه الله ، فإن الذباب من أصغر الموجودات ، وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ، ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم فهم عن خلق غيره ، وعن مغالبتة أعجز وأعجز .

« والمثل » هو الأصل والنظير المشبه به ، كما قال :

« المثل وما يراد به في القرآن »

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون ﴾ (٢)

أي لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آهتهم ، وقالوا : إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آهتنا ، فضربوه مثلاً لآهتهم ، وجعلوا يصدون أي يضجون

(١) سورة الحج آية رقم ٧٣

والذباب : اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أدبٌ والكثير ذبان على مثل غراب وأغربة وغربان ، وسمي به لكثرة حركته - الجوهرى والذباب معروف الواحدة ذبابة ، ولا تقل ذبانة ، والمذبذبة ما يذب به الذباب ، وذباب أسنان الابل ؛ حدها ، وذباب السيف طرفه الذي يضرب به ، وذباب العين : إنسانها ، والذبابة البقية من الدين ، وذباب النهار : إذا لم يبق منه إلا بقية ، والتذبذب التحرك ، والذبذبة : نوس الشيء المعلق في الهواء والذبذب الذكر لترده ، وفي الحديث : من وقى شر ذبذبة .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٧ .

ويعجبون منه احتجاجاً به على الرسول ، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر كما بينه في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (١)

وقال في فرعون :

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ (٢)

أي مثلاً يعتبر به ويقاس عليه غيره فمن عمل بمثل عمله جوزي بجزائه : ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٣)

وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية ، التي يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلية كما قال :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٤)

فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم ، وعلم أن الله يسعده في الدنيا والآخرة ، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم ، وعلم أن الله يشقيه في الدنيا والآخرة ، كما قال في حق هؤلاء :

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ ﴾ (٥)

(١) سورة الأنبياء آية رقم ١٠١

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٦ وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت « وجعلناهم » بدلا من (فجعلناهم)

(٣) سورة النور آية رقم ٣٤

(٤) سورة يوسف آية رقم ١١١

(٥) سورة القمر آية رقم ٤٣

وقد قال :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١)

وقال في حق المؤمنين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (٢)

وقال :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣٧

(٢) سورة النور آية رقم ٥٥

ويقال : نزلت هذه الآية في أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما ، قال مالك وقيل : إن سبب هذه
الآية أن بعض أصحاب النبي - ﷺ شكوا جهداً مكافحة العدو وما كانوا فيه من الخوف على
أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم . فنزلت هذه الآية ، وقال أبو العالية . مكث رسول الله - ﷺ -
بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفاً هو وأصحابه ، يدعون الله سراً وجهراً ثم أمر بالهجرة
إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح فقال رجل : يا رسول الله أما يأتي
علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح . ؟

فقال عليه السلام : لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتياً ليس
عليه حديدة * ونزلت هذه الآية .

وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس فكان في هذه الآية
دلالة على نبوة رسول الله - ﷺ - لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد .

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧ - ٨٨

وقال في قصة أيوب :

﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ ^(١)
﴿ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٢) وقال ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ ^(٣)

وقال :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسْتَهْمُهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزُلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ
اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ^(٤) وقال ﴿ وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا
نُثِبْتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ ^(٥)

فلفظ « المثل » يراد به النظير الذي يقاس عليه ويعتبر به ، ويراد به
مجموع القياس .

قال سبحانه : -

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ
رَمِيمٌ ﴾ ^(٦) .

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٨٤

(٢) سورة ص آية رقم ٤٣

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٠

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٤

(٥) سورة هود آية رقم ١٢٠

(٦) سورة يس آية رقم ٧٨

قال المفسرون : إن أبي بن خلف أتى النبي - ﷺ بعظم حائل قد بلى فقال : يا محمد . أترى الله
يحيي هذه بعد ما قد رم .. ؟ فقال : نعم ويبعثك ويدخلك النار ، فأنزل الله تعالى هذه الآية =

أي لا أحد يحياها وهي رميم . فمثل الخالق بالمخلوق في هذا النفي ، فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على إحياها ، سواء نظمه في قياس تمثيل أو قياس شمول ، كما قد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع . وبين أن معنى القياسين قياس الشمول وقياس التمثيل [واحد] - والمثل المضروب المذكور في القرآن - فإذا قلت : النبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله ﷺ : « كل مسكر حرام » ^(١) فهو كقوله ﷺ قياسا على الخمر ، لأن الخمر إنما حرمت لأجل الإسكار وهو موجود في النبيذ فقوله ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ ^(٢)

جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلا ونظيراً يعتبر به . فإذا كان أدور خلق الله لا يقدر على خلقه ولا منازعته فلا يقدر على خلق ما سواه . فيعلم بها من عظمة الخالق وأن كل ما يعبدون من دون الله في السماء والأرض لا يقدر على ما هو أصغر مخلوقاته . وقد قيل : إنهم جعلوا آلهتهم مثلاً لله

= وقال الإمام الواحدي : أخبرنا سعيد بن محمد بن جعفر ، قال : أخبرنا أبو علي بن أبي بكر الفقيه ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين بن الجنيد ، قال : حدثنا زياد بن أيوب ، قال : حدثنا هشيم ، قال : حدثنا حصين عن أبي مالك : وذكره .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الأشربة ٧ بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام ٧٣ (٢٠٠٣) حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر ، قال رسول الله - ﷺ وذكره وفيه زيادة [ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة] ورواه صاحب الموطأ في جزء من حديث من كتاب الضحايا ٤ باب ادخار لحوم الأصاحي ٨ - وحدثني عن مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري وفيه « ونهيتكم عن الانتباز فانتبذوا ، وكل مسكر حرام الخ ... »

ورواه ابن ماجه في كتاب الأشربة ٩ باب كل مسكر حرام ٣٣٨٧ بسنده عن عبد الله بن عمر يحدث عن أبيه وذكره . ورواه أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٥٠ (حلي)

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٣ والآية متصلة بقوله تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ ، وإنما قال « ضرب مثل » لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب إلى افهامهم .

فاستمعوا لذكرها (١) ؛ وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله ، جعلوا
المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل .

ومثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ،
ويجعل له نداً ومثلاً كقوله : -

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ،
وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟
فَسَيَقُولُونَ : اللَّهُ ، فَقُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ
إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ . قُلْ : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ قُلْ : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ؟
قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ . أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ؟
أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا
إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

(١) قاله الأخفش : ليس ثم مثل ، وإنما المعنى ضربوا الله مثلاً فاستمعوا قولهم يعني أن الكفار جعلوا
الله مثلاً لعبادتهم غيره فكانه قال جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا التشبيه .

(٢) سورة يونس الآيات من رقم ٣١ - ٣٦

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما في هذه الآية وكذلك أيضاً مقابلة الحق بالباطل عرف
لغة وشرعاً قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ .
والضلال حقيقته الذهاب عن الحق أخذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سبيله .

قال ابن عرفة : الضلال عند العرب سلوك غير سبيل القصد يقال : ضل عن الطريق ، وأضل
الشيء إذا أضاعه ، وخص في الشرع بالعبارة في العدول عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال .
ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ، ولم يقترب بعده
جهل أو شك وعليه حمل العلماء قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ أي غافلاً في أحد
التأويلات يحقيقه قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ .

ولما قرر الوجدانية قرر النبوة كذلك ، فقال :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؛ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١)

وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق ، وهذا من تكذيبهم إياه ، ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله في كل شيء ، بل كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق المالك لهم ، وهم مخلوقون مملوكون له ، ولكن كانوا يسوون بينه وبينها في المحبة والتعظيم ، والدعاء والعبادة ، والنذر لها ونحو ذلك مما يخص به الرب ، فمن عدل بالله غيره في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك ، بخلاف من لا يعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده ، وخضوعه له خوفاً من عقوبة الذنب ، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك .

(١) سورة يونس ٣٧ - ٣٩

قيل للحسين بن فضل : هل تجد في القرآن « من جهل شيئاً عاده قال : نعم . في موضعين » بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وقوله « وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفاك قديم » .

فصل

الله يفرق بين الأمور المختلفة ويجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة

وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة ، فيحكم في الشيء خلقاً وأمراً بحكم مثله ، لا يفرق بين متماثلين ، ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين ؛ بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسوينهما .

ولفظ « الاختلاف » ^(١) في القرآن يراد به التضاد والتعارض ؛ لا يراد به مجرد عدم التماثل - كما هو اصطلاح كثير من النظار ، ومنه قوله :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) وقوله :
﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا
فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ ^(٤) وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تبدل

(١) الاختلاف والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، والخلاف أعم من الضد ، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين ، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة ، قال تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ

الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ [سورة مريم ٣٧ والزخرف ٦٥]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ ﴾ سورة البقرة آية ١٧٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٢

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٨ - ٩

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣

ولا تتحول في غير موضع ؛ و« السنة »^(١) هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ، ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾^(٢) والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه ، كما قال ابن عباس : هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان ؟ فإذا قال : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾^(٣)

وقال ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي مثل جزائهم ، ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار ؟ وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء قال تعالى : -

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾^(٤)

وقال تعالى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾^(٥) .

(١) الأصل فيها الطريقة والسيرة ، ومنه قوله ﷺ « من سن سنة حسنة » أي طرّق طريقة حسنة ، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر النبي - ﷺ به أو نهى عنه ، أو ندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكلام العزيز ولهذا يقال : أدلة الشرع الكتاب والسنة : أي القرآن والحديث وفلان متسنن : أي عامل بالسنة .

وسنة النبي - ﷺ : أي طريقته التي كان يتحرّاهها وسنة الله قد يقال لطريقه وحكمته ، وطريق طاعته . قال تعالى ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ فاطر آية ٤٣

(٢) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ٢ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٣٧ .

(٥) سورة الإسراء آية رقم ٧٦ - ٧٧

وقال تعالى :

﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ : لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١) .

وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب ، وظهور الإسلام ، وذل المنافقين ، فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك ، قبل بدر وبعدها ، وقبل أحد وبعدها ، فأخفوا النفاق وكتموه ، فلهذا لم يقتلهم النبي ﷺ .

وبهذا يجب من لم يقتل الزنادقة . ويقول : إذا أخفوا زندقته لم يمكن قتلهم ، ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية . بقوله :-

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ! سُنَّةَ اللَّهِ ، فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (٢) قال قتادة : ذكر لنا أن المنافقين

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٦٠ - ٦٢ .

قال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، والإرجاف إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به ، وقيل تحريك القلوب ، يقال : رجفت الأرض - أي تحركت وتزلزلت - ترجف رجفاً والرجفان : الاضطراب الشديد ، والرجاف : الحر ، سمي به لاضطرابه قال الشاعر :

المطعمون اللحم كل عشية حتى تغيب الشمس في الرجاف

والإرجاف : واحد أراجيف الأخبار ، وقد أرجفوا في الشيء أي خاضوا فيه قال الشاعر :

فإننا وإن غيرتمونا بقتله وأرجف بالاسلام باغ وحاسد

وقال آخر :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعدي وفي الأراجيف خلت اللؤم والخور

فالإرجاف حرام ، لأن فيه إذابة . فدللت الآية على تحريم الإذابة بالإرجاف -

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٦١ - ٦٢ .

كانوا يظهرون ما في أنفسهم من النفاق ، فأوعدهم الله بهذه الآية ، فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكنموه . ﴿ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾

يقول : هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق . قال مقاتل بن حيان : قوله : -

﴿ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ (١)

يعني كما قتل أهل بدر وأسروا فقد قوله : ﴿ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ . قال السدي : كان النفاق على « ثلاثة أوجه »

« نفاق » مثل نفاق عبد الله بن أبي (٢) ، وعبد الله بن نفيل ، ومالك بن داعس . فكان هؤلاء وجوها من وجوه الأنصار ، فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ قال : الزناة . إن وحدوه عملوا به وإن لم يحدوه لم يتبعوه و« نفاق » يكابرون النساء مكابرة . وهؤلاء هم الذين يجلسون على الطريق . ثم قال : « ملعونين » ثم فصلت الآية « أينما ثقفوا » يعملون هذا العمل مكابرة النساء . قال السدي : هذا حكم في القرآن ليس يعمل به ، لو أن رجلاً أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على أمرها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم . أن يؤخذوا فتضرب

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٦٢

(٢) هو عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي أبو الحباب المشهور بابن سلول ، وسلول جدته لأبيه ، من خزاعة رأس المنافقين في الإسلام ، من أهل المدينة ، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم ، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقيّة مات عام ٩ هـ وتقدم النبي - ﷺ - فصلّى عليه - ولم يكن ذلك من رأي عمر - رضي الله عنه فتزلت ﴿ ولا تصل على أحد منهم الآية ﴾ وكان عملاً يركب الفرس فتخط أبهامه في الأرض . راجع تاريخ الخميس ٢ : ١٤٠ وامتاع الأسماع ١ : ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٢٠ ، ١٦٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، والمحرر ٢٢٣ ، وطبقات ابن سعد ، القسم الثاني من الجزء الثالث ٩٠ وجمهرة أنساب العرب ٣٣٥

أعناقهم . قال السدي : قوله : « سنة » كذلك كان يفعل بن مضي من الأمم . قال : فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت : هذا على وجهين :

« أحدهما » أن يقتل دفعا للصولة عنها ، مثل أن يقهرها فهذا دخل في قوله : « من قتل دون حرمة فهو شهيد » ^(١) وهذه لها أن تدفعه بالقتل . لكن إذا طاعت ففيه نزاع وتفصيل . وفيه قضيتان عن عمر وعلي معروفتان ، وأما إذا فجر بها مستكرها ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان : « أحدهما » أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال ؛ وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا . قال السدي : قد قاله غيره . وذكر أبو اللوي أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين .

و « الثاني » أن لا يكونوا ذوي شوكة ، بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالا ، حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها فهذا المحارب عيلة كما قال السدي . يقتل أيضا وإن كانوا جماعة في المصر ، فهم كالمحاربين في المصر ، وهذه المسائل لها مواضع أخر .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الديات ٢٠ باب ما جاء من قتل دون ماله فهو شهيد ١٤٤٣ - حدثنا عبد بن حميد أخبرني يعقوب بن سعد ، حدثنا أبي عن أبيه عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ، عن طلحة بن عبد الله بن عوف ، عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وهكذا روى غير واحد عن إبراهيم بن سعد نحو هذا ، ويعقوب هو ابن إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري . وأخرجه أبو داود في السنة ٢٩ والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، (حلي)

و« المقصود » أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول ، وسنته عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي ، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة . ولهذا قال : ﴿ أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ﴾ (١) ؟

وقال ﴿ اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (٢) أي أشباههم ونظراءهم . وقال : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (٣) قرن النظر بنظيره .

وقال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (٤)

وقال :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ . وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ (٥)

وقال :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦)

(١) سورة القمر آية رقم ٤٣

(٢) سورة الصافات آية رقم ٢٢

(٣) سورة التكوين آية رقم ٧

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٤

(٥) سورة الممتحنة آية رقم ٤

(٦) سورة التوبة آية رقم ١٠٠

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى :-

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى :-

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى :-

﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٣) فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم ، وهم خير الناس بعد الأنبياء ، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، وأولئك خير أمة محمد كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ^(٤) .

(١) سورة الأنفال آية رقم ٧٥

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٠

(٣) سورة الجمعة آية رقم ٣

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ٩ ، وفي فضائل أصحاب النبي - ﷺ - (١) وفي كتاب الرقاق ٧ وكتاب الإيمان ١٠ ، ٢٧ ورواه ابن ماجه في كتاب الأحكام ٢٧ باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ٢٣ ٦٢ - حدثنا جرير عن منصور عن ابراهيم ، عن عبيدة السلماني قال : قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - سئل أي الناس خير . ؟ قال : وذكره ورواه الترمذي في أبواب القدر ٣٩ باب ما جاء في القرن الثالث ٢٣٢٢ - عن قتادة عن زرارة بن أوفى ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه « ثم ينشأ أقوام يشهدون =

ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله ، كال تفسير وأصول الدين وفروعه ، والزهد ، والعبادة ، والأخلاق ، والجهاد وغير ذلك ، فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة . فالأقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم - فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم ، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه ، قال تعالى :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١) .

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ، ولا لهم خبرة بأقوالهم ، وأفعالهم ، بل هم في كثير مما يتكلمون به في العلم ويعملون به ، لا يعرفون طريق الصحابة والتابعين في ذلك ، من أهل الكلام والرأي والزهد والتصوف ، فهؤلاء تجد عمدتهم في كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو عما يظنونهم من الإجماع ، وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف البتة ، أو عرفوا بعضها ، ولم يعرفوا سائرهما ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين ؛ طائفة أو طائفتين

= ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤمنون ويفشو فيهم السمن . . هذا حديث حسن صحيح .
ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ٣٧٨ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٢ : ٢٢٨ ، ٤١٠ (حلي) .

(١) سورة النساء آية رقم ٥٩

أو ثلاث ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف ، والأول كثير في « مسائل أصول الدين وفروعه » كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، ^(١) ، يحكون إجماعاً ونزاعاً ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك البتة ، بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم ، كما تجد ذلك في مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ؛ مثل مسألة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك .

وهم إذ ذكروا إجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الإجماع ، فإنه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به ؛ لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم في مسائل النزاع بخلاف السلف فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً . وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التي يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعاً ، لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الإسلام مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد اجماع السلف خطأ قطعاً ، كخلاف الخوارج ^(٢) والرافضة ^(٣)

(١) راجع في ذلك كتاب « شرح المقاصد » لسعد الدين التفتازاني بتحقيقنا « طبع المكتبات الأزهرية » . وكتاب « المواقف » لعصّد الدين الأيحي . أو كتاب « العقائد النسفية وذلك كثير يملاً جانباً مهماً من المكتبة العربية والإسلامية .

(٢) الخوارج جمع خارج ، وهو الذي خلع طاعة الامام الحق ، وأعلن عصيانه ، وألب عليه بعد أن يكون له تأويل ، وعلماء الشريعة يسمونهم « بغاة » وأما النواصب فجمع ناصب ، وقد يقال ناصبي - وهو الغالي في بغض علي بن أبي طالب ، وأما الحرورية فنسبة الى حروراء - قرية أو كورة بظاهر الكوفة ، وأما الشراة - بضم الشين فجمع شار ، مثل قضاة وقاض وقد سموا أنفسهم بهذا الاسم وزعموا أنهم شروا أنفسهم من الله . راجع (مقالات الاسلاميين للشاعري ١ : ١٥٦] وما بعدها وخطط المقرئ ٢ : ٣٥٢ وما يليها . بولاق ، والبدء والتاريخ ٥ : ١٣٤ والتبصير ص ٢٦ وما بعدها والفرق بين الفرق ٧٢ وما بعدها .

(٣) الروافض : فإن السبئية منهم أظهروا بدعتهم في زمان علي - رضي الله عنه فقال بعضهم لعلي أنت الاله ، فأحرق علي قوماً منهم ، ونفى ابن سبأ الى ساباط المدائن ، وهذه الفرقة ليست من =

والقدرية ^(١) والمرجئة ^(٢) ، ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة ، المعلومة وإجماع الصحابة .

بخلاف ما يعرف من نزاع السلف فإنه لا يمكن أن يقال : إنه خلاف الإجماع وإنما يرد النص ، وإذا قيل : قد أجمع التابعون على أحد قوليهما فارتفع النزاع ، فمثل هذا مبني على مقدمتين :

« إحداهما » العلم بأنه لم يبق في الأمة من يقول بقول الآخر وهذا متعذر .

« الثانية » إن مثل هذا هل يرفع النزاع مشهور فنزاع السلف يمكن القول به إذا كان معه حجة ، إذ على خلافه ، ونزاع المتأخرين لا يمكن لأن كثيراً منه قد تقدم الإجماع على خلافه ، كما دلت النصوص على خلافه ومخالفة إجماع السلف خطأ قطعاً .

و« أيضاً » فلم يبق مسألة في الدين إلا وقد تكلم فيها السلف فلا بد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه ، وقد بسطنا في غير هذا الموضوع أن

= فرق الاسلام تسميتهم علياً ثم اختلفت الرافضة بعد زمان علي - رضي الله عنه - أربعة أصناف زيدية وإمامية وكيسانية وغلاة ، واختلفت الزيدية فرقاً ، والامامية فرقاً والغلاة فرقاً . [راجع الفرق بين الفرق ٢٩ ، ومروج الذهب ٣ . ٢٢٠ ومقالات الاسلاميين ١ : ١٣٢]

(١) حدث في زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، والجعد بن درهم ، وتبراً منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم وأوصوا أخلافهم بأن لا يسلموا على القدرية ولا يصلوا على جنائزهم ولا يعودوا مرضاهم .

(٢) المرجئة : ثلاثة أصناف . صنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر على مذهب القدرية . وصنف منهم قالوا بالارضاء في الإيمان ومالوا الى قول جهم في الأعمال والاكساب ، وصنف منهم خالصة في الارضاء من غير قدر وهم خمس فرق .

الصواب في أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين ، وأن
التأخرين أكثر خطأ وأفحش ، وهذا في جميع علوم الدين ، ولهذا أمثلة كثيرة
يضيّق هذا الموضوع عن استقصائها -

والله سبحانه أعلم

فصل ما جاء من التفسير عن الرسول هو الأحق بالامثال

ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء : « الأسماء ثلاثة أنواع . نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله :

﴿ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ^(١) وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين

(١) سورة النساء آية ١٩ .

وأمر الله سبحانه وتعالى بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون أدمه ما بينهم وصحبتهم على الكمال ، فإنه أهدأ للنفس وأهنا للعيش ، وهذا واجب على الزوج ، ولا يلزمه في القضاء وقال بعضهم : هو أن يتصنع لها كما تتصنع له ، قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي : أتيت محمد بن الحنفية فخرج إلي في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية . فقلت : ما هذا . ؟ قال : إن هذه الملحفة ألقتها علي امرأتي ودهنتني بالطيب وانهن يشتهين منا ما نشتهي منهن . وقال ابن عباس - رضي الله عنه - إني أحب أن أتزين لامرأتي لما أحب أن تتزين المرأة لي . قال ابن عطية وإلى معنى الآية ينظر قول النبي - ﷺ : فاستمتع بها وفيها عوج أي لا يكن منك سوء عشرة مع اعوجاجها .

الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن . لا برأيه ولا ذوقه ، ولا معقوله ، ولا قياسه ، ولا وجدته ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم : فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار فصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيفه إلى هواه ، ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق عن كثرة التردد ، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ، ولم يمل كغيره من الكلام ، ولا تنقضي عجائبه ^(١) ، ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ^(٢) .

فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل فضلاً عن أن يقول : فيجب تقديم العقل . والنقل - يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين - إما أن يغوص وإما أن يؤول ، ولا فيهم من يقول : إن له ذوقاً أو وجداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث . فضلاً عن أن يدعي أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك

(١) عند القرطبي (بزيادة) وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا
(٢) أسند عن الحارث عن علي - رضي الله عنه - وخرجه الترمذي « والحارث : رماه الشعبي بالكذب وليس بشيء ، ولم يبين من الحارث كذب وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا - والله أعلم - كذبه الشعبي ، لأن الشعبي يذهب الى تفضيل أبي بكر وعمر ولأن أبا بكر أول من أسلم - قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهمداني : حدثني الحارث وكان أحد الكذابين » . [راجع تفسير القرطبي ١ : ٤ ، ٥]

المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته ^(١) . أو يقول :
الولي أفضل من النبي ونحو ذلك من مقالات أهل الإلحاد ، فإن هذه الأقوال لم
تكن حدثت بعد في المسلمين ، وإنما يعرف مثل هذه إما عن ملاحدة اليهود
والنصارى ، فإن فيهم من يجوز أن غير النبي أفضل من النبي كما قد يقوله في
الحواريين ^(٢) فإنهم عندهم رسل ، وهم يقولون : أفضل من داود وسليمان ،
بل ومن إبراهيم وموسى وإن سموهم أنبياء ، إلى أمثال هذه الأمور .

ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها ،

(١) المشكاة : الكوة التي ليست بنافذة .

(٢) أصل الحور في اللغة : البياض ، وحورت الثياب بيضتها ، والحواري من الطعام ما حور أي
بيض ، وأحور أبيض ، والجفنة المحورة الميضة بالسنام ، والحواري أيضاً الناصر . قال رسول
الله - ﷺ « لكل نبي حواري وحواري الزبير » والحواريات : النساء لبياضهن وقال :

فقل للحواريات يكيّن غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب التوابح

والحواريون : أصحاب عيسى عليه السلام ، وكانوا اثني عشر رجلاً قاله الكلبي وأبو
وراق . واختلف في تسميتهم بذلك . فقال ابن عباس رضي الله عنه - سموا بذلك لبياض
ثيابهم ، وكانوا صيادين . وقال ابن أبي نجيع وابن أرتاة : كانوا قصارين فسموا بذلك
لتبييضهم الثياب وقال عطاء : أسلمت مريم الى أعمال شتى ، وآخر ما دفعته الى الحواريين
وكانوا قصارين وصباغين . فأراد معلم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندي ثياب كثيرة مختلفة
الألوان وقد علمتك الصبغة فاصبغها - فطبخ عيسى حُباً واحداً وأدخله جميع الثياب وقال :
كوني بإذن الله على ما أريد منك فقدم الحواري والثياب كلها في الحُب فلما رآها قال : قد
أفسدتها ، فأخرج عيسى ثوباً أحمر وأصفر وأخضر الى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب
عليه صبغة فعجب الحواري ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به فهم الحواريون
وقال قتادة والضحاك : سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء ، وقيل كانوا ملوكاً ، وذلك أن
الملك صنع طعاماً فدعا الناس اليه فكان عيسى على قصعة فكانت لا تنقص فقال الملك له : من
أنت ؟ قال : عيسى ابن مريم . قال : إني أترك ملكي هذا وأتبعك فانطلق بمن اتبعه معه
فهم الحواريون .

أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها ، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخا لها ، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل ، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها ، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية ، بل قد لا يفهم منها ، وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإبهام والإفهام نسخا ، [و] هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم .

وأصل ذلك [من إلقاء] الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ^(١) ، فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه ، سمي هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخا ، كما سموا قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ^(٢) ناسخا لقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ ^(٣) وقوله ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ^(٤) ناسخا لقوله : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٥) وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه . إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن لا رأي ، ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

(أسباب بدع الخوارج)

وكانت البدع الأولى مثل « بدعة الخوارج » إنما هي من سوء فهمهم

(١) قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته

فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ . سورة الحج آية رقم ٥٢

[راجع ما كتبه الإمام القرطبي على هذه الآية ١٢ : ٧٩ - ٨٦]

(٢) سورة التغابن آية رقم ١٦

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤

للقرآن ، لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه . فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب ^(١) ، إذ كان المؤمن هو البر التقي . قالوا : فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر وهو مخلد في النار . ثم قالوا : وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين ، لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله فكانت بدعتهم لها مقدمتان :

« الواحدة » أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه فهو كافر .
« والثانية » أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك ، ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ، فإن أول بدعة ظهرت في الإسلام ، فكفر أهلها المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم . قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ؛ ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه ، وأفرد البخاري قطعة منها ، وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف بمن تكون بدعته معارضة القرآن ، والإعراض .

(١) قال صاحب كتاب الفرق بين الفرق : وقد اختلفوا فيما يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها ، فذكر الكعبي في مقالاته : أن الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها - إكفار علي وعثمان والحكمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضي بتحكيم الحكمين ، والاكفار بارتكاب الذنوب ، ووجوب الخروج على الامام الجائر .

وقال شيخنا أبو الحسن : الذي يجمعهما إكفار علي وعثمان وأصحاب الجمل ، والحكمين ، ومن رضي بالتحكيم ، وصوب الحكمين أو أحدهما والخروج على السلطان الجائر ، ولم يرض ما حكاه الكعبي من إجماعهم على تكفير مرتكبي الذنوب . والصواب ما حكاه شيخنا أبو الحسن عنهم وقد أخطأ الكعبي في دعواه إجماع الخوارج على تكفير مرتكبي الذنوب منهم وذلك أن النجيدات من الخوارج لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقيهم . وقد قال قوم من الخوارج إن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها وعيد مخصوص ، فأما الذي فيه حد أو وعيد في القرآن فلا يراد صاحبه على الاسم الذي ورد فيه .

وقد قالت النجيدات : إن صاحب الكبيرة من موافقيهم كافر نعمة وليس فيه كفر دين . [راجع

الفرق بين الفرق ص ٧٣]

عنه ، وهو مع ذلك يكفر المسلمين ، كالجهمية ؟؟ ثم « الشيعة » لما حدثوا لم يكن الذي ابتدع التشيع قصده الدين ؛ بل كان غرضه فاسدا ؛ وقد قيل إنه كان منافقا زنديقا ، فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله ﷺ ، وتكذيب الأحاديث الصحيحة ، ولهذا لا يوجد في فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم ، بخلاف الخوارج فإنه لا يعرف فيهم من يكذب .

« الشيعة واصطناع الكذب »

« والشيعة » لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ، ولهذا أعرض عنهم أصل الصحيح ، فلا يروي البخاري ومسلم أحاديث عليّ إلا عن أهل بيته كأولاده ، مثل الحسن ، والحسين ، ومثل محمد ابن الحنفية ، وكاتبه عبيد الله بن أبي رافع ، أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم ، مثل عبيدة السلماني ، والحارث التيمي ، وقيس بن عباد وأمثالهم ، إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن عليّ ، فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

« نشأة الخوارج والشيعة وضلالهم »

وهاتان الطائفتان « الخوارج والشيعة » حدثوا بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدرا من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعا من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان ، ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه ، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء^(١) ، فكف عنهم أمير المؤمنين ،

(١) يقال : هم يومئذ اثنا عشر ألفاً ، وزعيمهم يومئذ عبد الله بن الكواء وشيث بن ربعي ، وخرج إليهم علي يناظرهم فوضحت حجته عليهم فاستأمن إليه ابن الكواء مع عشرة من الفرسان وانحاز الباقون منهم إلى النهروان وأمروا على أنفسهم رجلين ، أحدهما : عبد الله بن وهب الراسبي =

وقال : لكم علينا أن لا غنعمكم حقكم من الفيء ، ولا نمنعكم المساجد ، إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن خباب ، وأغاروا على سرح المسلمين ، فعلم على أنهم الطائفة التي ذكرها رسول الله ﷺ حيث قال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات » وفي رواية : « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان » (١) فخطب الناس

= والآخر : حرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية والتقوا في طريقهم الى نهروان برجل رآه يهرب منهم ، فأحاطوا به وقالوا : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب بن الارت ، فقالوا له : حدثنا حديثا سمعته عن أبيك عن رسول الله - ﷺ - فقال : سمعت أبي يقول : قال رسول الله - ﷺ - ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي ، فمن استطاع أن يكون مقتولاً فلا يكون قاتلاً فشد عليه رجل من الخوارج يقال له مسمع بسيفه فقتله . ثم قتلوا ولده وجاريته أم ولده ثم عسكروا بنهروان وانتهى خبرهم الى علي - رضي الله عنه ، فسار اليهم في أربعة آلاف من أصحابه وبين يديه عدي بن حاتم الطائي وهو يقول :

نسير إذا ما كاع قوم وبلدوا	برايات صدق كالنصور الخوافق
الى شر قوم من شرارة تحزبوا	وعادوا إله الناس ربّ المشارق
طفغة عملة مارقين عن الهدى	وكل يُرى في قوله غير صادق
وفينا علي ذو المعالي يقودنا	اليهم جهاراً بالسيوف البوارق

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٢ باب في ذكر الخوارج ١٦٨ حدثنا بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

ورواه مسلم في كتاب الزكاة ٤٧ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ١٤٢ / ١٤٤
 ١٤٧ / ١٤٨ / ١٥٤ / ١٥٦ / ١٥٩ / وأبو داود في السنن ٢٨ والترمذي في أبواب الفتن ٢٢
 باب ما جاء في صفة المارقة ٢٢٨٣ حدثنا أبو كريب أخبرنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زر
 عن عبد الله قال رسول الله - ﷺ - وذكره . والموطأ في مس القرآن . ١ والبخاري في الأنبياء ٦
 ومناقب ٢٥ ومغازي ٦١ وتوحيد ٢٣ ، ٥٧ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٨ ، ٩٢ ، ١٣١ ،
 ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٦ .

وأخبرهم بما سمع من رسول الله ﷺ وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا
الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كاد
لا يوجد فسجد لله شكراً .

وحدث في أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولهم ، لا يظهره لعلي
وشيعته ؛ بل كانوا ثلاث طوائف :

« طائفة » تقول : إنه إله ، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار وخذ
لهم أخاديد عند باب مسجد بني كندة وقيل إنه أنشد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبراً^(١)

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : أتى علي بزنادة
فحرقهم بالنار ، ولو كنت أنا لم أحرقهم ؛ لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله
ولضربت أعناقهم لقوله : « من بدل دينه فاقتلوه »^(٢) .

(١) هذه الطائفة هي طائفة السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذي غلا في علي - رضي الله عنه وزعم أنه
كان نبياً ثم غلا فيه حتى زعم أنه اله ، ودعا الى ذلك قوماً من غواة الكوفة ، ورفع خبرهم الى
علي - رضي الله عنه - فأمر باحراق قوم منهم في حفرتين . حتى قال بعض الشعراء في
ذلك :

لترم بي الحوادث حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين

راجع التبصر ٧١ - والملل والنحل ١ : ١٧٤ ومقالات الاسلاميين ١ : ٨٥ وشرح عقيدة
السفاريين ١ : ٨٠ والفرق بين الفرق ٢٣٣ - ٢٣٦ .

(٢) الحديث رواه البخاري في الجهاد ١٤٩ ، والاستنباه « وأبو داود في الحدود والنسائي في تحريم
الدم ١٤ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٣٢ ، والامام الترمذي في
أبواب الحدود ٢٥ باب ما جاء في المرتد ١٤٨٣ - حدثنا أحمد بن عبدة الضبي ، حدثنا عبد
الوهاب الثقفي حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً حرق قوماً ارتدوا عن الاسلام : وذكره .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم في المرتد .
واختلفوا في المرأة إذا ارتدت عن الإسلام . فقالت طائفة من أهل العلم : تقتل ، وهو قول

وهذا الذي قاله ابن عباس هو مذهب أكثر الفقهاء ، وقد روى أنه أجلبهم ثلاثاً .

والثانية « السابة » وكان قد بلغه عن أبي السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه . قيل : إنه طلبه ليقتله فهرب منه (١) .

والثالثة « المفضلة » الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر ثم عمر ، وروى ذلك البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر ، قال : ثم من . قال : عمر (٢) . وكانت الشيعة الأولى لا

= الأوزاعي وأحمد وإسحاق ، وقالت طائفة منهم تحبس ولا تقتل ، وهو قول سفيان الثوري وغيره من أهل الكوفة .

(١) لعلها الجارودية : أتباع المعروف بأبي الجارود ، وقد زعموا أن النبي - ﷺ - نص على إمامة علي بالوصف دون الإسم ، وزعموا أيضاً أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي ، وقالوا أيضاً ؛ إن الحسن بن علي كان هو الامام قال السيد المرتضى في تاج العروس ٢ : ٢١٨ والجارودية فرقة من الزيدية من الشيعة نسبت الى أبي الجارود زياد بن أبي زياد ، وأبو الجارود - هو الذي سماه الإمام الباقر « سرخوبا » وفسره بأنه شيطان يسكن البحر . وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٣ : ٣٨٦ زياد بن المنذر الهمداني ويقال الهندي . ويقال الثقفى - أبو الجارود - الأعمى - الكوفي ، وذكر من أخذ عنهم ، ومن أخذوا عنه . ثم قال : قال عبد الله بن أحمد عن أبيه : متروك الحديث وضعفه جداً . وقال معاوية بن صالح عن يحيى بن معين : كذاب عدو لله ليس يسوى فلساً .. وقال أبو حاتم بن حبان كان رافضياً يضع الحديث في مثالب أصحاب رسول الله - ﷺ - ويروي في فضائل أهل البيت رضي الله عنهم أشياء مالهأ أصول ، لا يحل كتب حديثه . وهو من المعدودين من أهل الكوفة المغالين .

وذكره البخاري في فصل من مات من الخمسين ومائة الى الستين .

وانظر عن هذه الفرقة مروج الذهب ٣ : ٢٢٠ ومقالات الاسلاميين ١ : ١٣٣ وخطط المقرئ

٢ : ٢٥٢ والملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٧

(٢) روى البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٥ باب قول النبي - ﷺ - « لو كنت متخذاً خليلاً قاله أبو

يتنازعون في تفضيل أبي بكر وعمر ، وإنما كان النزاع في علي وعثمان ، ولهذا قال شريك بن عبد الله ^(١) إن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر فليل له : تقول هذا وأنت من الشيعة ؟ فقال : كل الشيعة كانوا على هذا ، وهو الذي قال هذا على أعواد منبره أفنكذبه فيما قال ؟ ولهذا قال سفيان الثوري ^(٢) : من فضل علياً على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وما أرى يصعد له إلى الله جل وعز عمل وهو كذلك . رواه أبو داود في سننه ، وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي ^(٣) ، فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

= سعيد « ٣٦٧١ بسنده عن محمد بن الحنفية قال : قلت لأبي أي الناس خير بعد رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه زيادة [وخشيت أن يقول عثمان قلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

(١) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي ، أبو عبد الله : عالم بالحديث فقيه ، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديته ، استقضاها المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ ثم عزله ، وأعاد المهدي ، فعزله موسى الهادي وكان عادلاً في قضاائه . مولده عام ٩٥ هـ في بخاري ووفاته بالكوفة عام ١٧٧ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢١٤ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٥ والبداية والنهاية ١٠ : ١٧١ وميزان الاعتدال ١ : ٤٤٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٢٧٩]

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة من مضر ، أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد عام ٩٧ هـ في الكوفة ، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم ، فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي ، فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً عام ١٦١ هـ له من الكتب الجامع الكبير ، والجامع الصغير ، كلاهما في الحديث ، وكتاب في الفرائض . ولأبن الجوزي كتاب في مناقبه . [راجع دول الاسلام ١ : ٨٤ وابن النديم ١ : ٢٢٥ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ : ٢٥٧ وحلية الأولياء ٦ : ٣٥٦ وتهذيب التهذيب ٤ :

١١١-١١٥ وتاريخ بغداد ٩ : ١٥١ وصيد الخاطر ١٧٥]

(٣) قال ابن النديم في الفهرست ص ٢٦٧ ط مصر « ولد الحسن بن صالح بن حي سنة مائة ومات متخفياً سنة ثمان وستين ومائة وكان من كبار الشيعة الزيدية وعظمائهم ، وعلمائهم ، وكان

ولكن الشيعة لم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة ولا إمام ، ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالإمام والجماعة والدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاية المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعلياً ومن تولاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهما ، ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج من سفك الدماء وأخذ الأموال ، والخروج بالسيف ، فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم ، والأحاديث في ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جداً وهي متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤية وعذاب القبر وفتنته ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

وقد رويت أحاديث في ذم القدريّة (١) والمرجئة: روى بعضها أهل السنن ، كأبي داود وابن ماجه ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ، ومن العلماء من طعن فيها وضعفها ، ولكن الذي ثبت في ذم القدريّة ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس .

= فقيهاً متكلماً ، وله من الكتب كتاب التوحيد « كتاب إمامة ولد علي من فاطمة » كتاب الجامع في الفقه « وللحسن أخوان أحدهما علي بن صالح ، والآخر صالح بن صالح ، وهؤلاء على مذهب أخيهما الحسن وكان علي متكلماً . قال محمد بن اسحاق : أكثر علماء المحدثين زيديّة وكذلك قوله من الفقهاء المحدثين مثل : سفيان بن عيينه ، وسفيان الثوري » وقد ترجم له الذهبي في العبر ١ : ٢٤٩ وذكر ثناء العلماء عليه وذكر أن وفاته في سنة ١٦٧ هـ وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢ : ٢٨٥ - ٢٨٩ وذكر اختلاف العلماء فيه .

(١) روى الامام ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٩٢ - حدثنا بقية بن الوليد عن الأوزاعي عن ابن جريج عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم .

وروى عن النبي - ﷺ - لعنت المرجئة على لسان سبعين نبياً « قيل : من المرجئة يا رسول الله ؟ . قال : الذين يقولون الإيمان كلام » .

نشأة الروافض

وأما لفظ « الرافضة » فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام ، لما خرج زيد ابن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك ^(١) ، واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما فرفضه قوم فقال : رفضتموني رفضتموني فسموا « الرافضة » ^(٢) فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي ، والزيدية يتولون زيدا وينسبون إليه ، ومن حينئذ انقسمت الشيعة الى زيدية ورافضة إمامية .

« نشأة القدرية وأصول بدعتهم »

ثم في آخر عصر الصحابة حدثت « القدرية » ^(٣) وأصل بدعتهم كانت

(١) هو أبو الوليد ، الخليفة الأموي : هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بقي في الخلافة عشرين سنة إلا أشهراً ، وكانت داره عند الخواصين بدمشق وعلى أرضها بنيت مدرسة السلطان نور الدين ، وكان هشام ذا رأي وحزم وعلم ، وكان أبيض جميلاً سميناً أحول ، يخضب بالسواد ، ومات في شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٥ (العبر ١ : ١٦٠) مروج الذهب ٣ : ٢١٦ وما بعدها .

(٢) قد يطلق بعض الناس اسم الرفض على كل من يتولى أهل البيت وعلى هذا جاء قول الذي يقول :

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافض
(٣) يقول صاحب كتاب الفرق بين الفرق : ثم حدث في زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني ويقال أنه أول من تكلم في القدر قال أبو حاتم « قدم المدينة فأفسد فيها ناساً » وقال الدارقطني « حديثه صالح ومذهبه ردي » ، وقال محمد بن شعيب الأوزاعي « أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له « سوسن » كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر ، أخذ عنه معبد الجهني ، وأخذ غيلان عن معبد ، والجعد بن درهم ، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر بن الخطاب ت ٧٤ هـ وجابر بن عبد الله ، وأبي =

من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله ، والإيمان بنبيه وأمره ، ووعدته ووعيدته ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونبيه ووعدته ووعيدته ، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي ، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد ، فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق الصحابة أنكروا إنكاراً عظيماً وتبرأوا منهم ، حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك أي بريء منهم وأنهم مني برآء . والذي يخلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر . وذكر عن أبيه حديث جبريل وهذا أول حديث في صحيح مسلم ^(١) ، وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة مختصراً .

= هريرة وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم . وأوصوا أخلافهم بأن لا يسلموا على القدرية ولا يصلوا على جنائزهم ولا يعودوا مرضاهم .

(١) روى الإمام مسلم في كتاب الإيمان ١ باب بيان الإيمان والاسلام والاحسان ووجوب الإيمان بآيات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبيري عن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه .

١ - (٨) حدثنا وكيع عن كهس عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري وهذا حديثه ، حدثنا أبي . حدثنا كهس عن ابن بريدة ، عن يحيى بن يعمر . قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحيد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين . فقلنا لولقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ - فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتفتته أنا وصاحبي أحداً عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم - وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف . قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أي بريء منهم وأنهم برء .

ثم كثر الخوض في « القدر » وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس في « الإرادة » و« خلق أفعال العباد » فصاروا بذلك حزينين : « النفاة » يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة وهو لم يرد إلا ما أمر به ، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد .

وقابلهم الخائضون في القدر من « المجبرة »^(١) مثل الجهم بن صفوان وأمثاله ، فقالوا : ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة ، وقالوا : العبد لا فعل له البتة ولا قدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط ، وكان جهم بن صفوان مع ذلك ينفي الأسماء والصفات ، يذكر عنه أنه

= مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم ذكر الحديث عن أبيه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

(١) انظر في شأن هذه الفرقة : التبصير : ٦٢ والملل والنحل : ١ / ٨٦ والفرق بين الفرق ٢١١ وهؤلاء قالوا بالاجبار والاضطرار الى الأعمال وانكروا الاستطاعات كلها وزعموا أن الجنة والنار تبيدان وتفتيان وزعموا أن الايمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأن الكفر هو الجهل به فقط وقالوا : لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى : وإنما تنسب الأعمال الى المخلوقين على المجاز كما يقال : زالت الشمس ودارت الرحي من غير أن يكونا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به ، وزعموا أن علم الله تعالى حادث وامتنعوا عن وصف الله تعالى بأنه شيء أوحى أو عالم أو مريد وقالوا : لا نصف الله بوصف يجوز إطلاقه على غيره كشيء وموجود ، وحى ، وعالم ومريد ، ونحو ذلك ، وقالوا : بحدوث كلام الله تعالى كما قالته القدرية ، ولم يسم الله تعالى متكلماً به .

وزعيمهم : جهم بن صفوان : هو أبو محرز بن صفوان الراسبي ، قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ رقم ١٥٨٤ « الضال مبتدع ، رأس النجهمية هلك في زمان صغار التابعين ، وما علمته روى شيئاً ولكنه زرع شراً عظيماً » وقال الطبري عنه : إنه كان كاتباً للحارث بن سريج الذي خرج في خراسان في آخر دولة بني أمية (انظر حوادث سنة ١٢٨ هـ) وكان جهم تلميذاً للجعد ابن درهم الزنديق الذي كان أول من ابتدع القول بخلق القرآن ، وفيه يقول الذهبي في ميزان الاعتدال رقم ١٤٨٢ - الجعد بن درهم ، عداه في التابعين مبتدع ضال . زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر .

قال لا يسمى الله شيئاً ، ولا غير ذلك من الأسماء التي تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر . وكانت « الخوارج » قد تكلموا في تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة ، وقالوا : إنهم كفار مخلدون في النار ، فخاض الناس في ذلك ، وخاض في ذلك القدريّة بعد موت الحسن البصري ^(١) ، فقال عمرو بن عبيد ^(٢) وأصحابه : لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مخلدون في النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الإسلام والإيمان شيء ، ولكن لم يسموهم كفاراً ، واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري ، مثل قتادة وأيوب السخيتاني وأمثالهما .

فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن . وقيل : إن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة .

وتنازع الناس في « الأسماء والأحكام » أي في أسماء الدين ، مثل مسلم ومؤمن ، وكافر وفاسق ، وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة ، فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم في الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم

(١) هو أبو سعيد . الحسن بن يسار ، البصري ، مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه مولاة أم سلمة ، إمام أهل البصرة ، وحبر زمانه ولد لستين بقیة من خلافة عمر بن الخطاب ، وسمع خطبة عثمان ، وشهد يوم الدار قال عنه ابن سعد : كان جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً حجة مأمونا عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جليلاً وسيماً « وتوفي سنة ١١٠ هـ قبل وفاة ابن سيرين بمائة يوم العبر ١ : ١٣٦ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢٦٣ ، مشاهير علماء الأمصار رقم ٦٤٢ ، والمعارف لابن قتيبة ٤٤٠ ومروج الذهب ٣ : ٢١٤ .

(٢) هو أبو عثمان . عمرو بن عبيد بن باب ، البصري ، الزاهد ، العابد المعتزلي القدري ، قال ابن قتيبة « كان يرى رأي القدر ويدعو اليه » واعتزل الحسن هو وأصحابه فسما « المعتزلة » وقال الذهبي : صحب الحسن ثم خالفه واعتزل حلقته فلذا قيل المعتزلي « ا هـ ومات عمرو في طريق مكة سنة ١٤٢ هـ ودفن بمران على ليلتين من مكة ، وصلى عليه سليمان بن علي ورثاه أبو جعفر المنصور العبر ١ : ١٩٣ والمعارف ٤٨٣ وتاريخ بغداد رقم ٦٦٥٢ ومروج الذهب ٣ : ٣١٣ - ٣١٤ .

ما استحلته الخوارج ، وفي الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين ^(١) ، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا بها ، وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

نشأة المرجئة ومذهبهم في الايمان

وحدثت « المرجئة » وكان أكثرهم من أهل الكوفة ، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعي وأمثاله فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة ، فقالوا : إن الأعمال ليست من الإيمان ، وكانت هذه البدعة أخف البدع ، فإن كثيراً من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم ، إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول ، مثل حماد بن أبي سليمان ، وأبي حنيفة وغيرهما ، هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم بالشفاعة ، كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وعلى أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه ، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة

(١) قالت الأزارقة من الخوارج أن كل مرتكب للذنوب صغيراً أو كبيراً مشرك بالله وقالت الصفرية : في مرتكبي الذنوب بأنهم كفرة مشركون كما قالته الأزارقة غير أنهم خالفوهم في الأطفال . وقالت النجدات من الخوارج أن صاحب الذنب الذي أجمعت الأمة على تحريره كافر مشرك ، وصاحب الذنب الذي اختلفت الأمة فيه على حكم اجتهد أهل الفقه فيه . وكانت الاباضية من الخوارج يقولون : إن مرتكب ما فيه الوعيد مع معرفته بالله عز وجل وما جاء من عنده كافر كفران نعمة وليس بكافر كفر شرك . وزعم قوم أن صاحب الكبيرة من هذه الأمة منافق ، والمنافق شر من الكافر وكان علماء التابعين مع أكثر الأمة يقولون : إن صاحب الكبيرة من أمة الاسلام مؤمن : لما فيه من معرفته بالرسول والكتب المنزل من الله تعالى . ولكنه فاسق بكبيرته وفسقه لا ينفي عنه اسم الإيمان والاسلام . وعلى هذا القول مضى سلف الأمة من الصحابة وأعلام التابعين فلما ظهرت فتنة الأزارقة واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب على الوجوه الخمسة التي ذكرناها . خرج واصل ابن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان .

وتاركها مستحق للذم والعقاب ، فكان في الأعمال هل هي من الإيمان وفي الاستثناء ونحو ذلك ، عامته نزاع لفظي ، فإن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال ؟ لقول النبي ﷺ « الإيمان بضع وستون شعبة - أو بضع وسبعون شعبة - أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » (١) وإذا عطف عليه العمل كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٢)

فقد ذكر مقيدا بالعطف ، فهذا هنا قد يقال : الأعمال دخلت فيه وعطف عطف الخاص على العام . وقد يقال : لم تدخل فيه ولكن مع العطف كما في اسم الفقير والمسكين - إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان كما في آية الصدقات كقوله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ (٣)

وكما في آية الكفارة ، كقوله :

﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ (٤)

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان ١٢ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ٥٧ قالوا حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنا سليمان بن بلال عن عبد الله ابن دينار عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ - وذكره .
وأخرجه البخاري في كتاب الإيمان ٣ وأبو داود في السنة ١٤ ، والنسائي في الإيمان ١٦ وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ٩ باب في الإيمان ٥٧ حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) سورة البقرة الآية . ٢٧٧

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦٠

(٤) سورة المائدة آية رقم ٨٩

وفي قوله :

﴿ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (١)

فالفقير والمسكين شيء واحد .

وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البر والتقوى والمعروف وفي الإثم والعدوان والمنكر ، تختلف دلالتها في الأفراد والاقتران لمن تدبر القرآن ، وقد بسط هذا بسطا كبيرا في الكلام على الإيمان (٢) ، وشرح حديث جبريل الذي فيه بيان أن الإيمان أصله في القلب ؛ وهو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » (٣) وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » (٤) فإذا كان الإيمان في القلب فقد صلح القلب ، فيجب أن يصلح

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٧١

وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤١٤ ، ٤٤٢ (حلي)

(٢) راجع كتاب الإيمان للامام ابن تيمية فقد وفي الكلام في هذا الموضوع وبسطه بسطا وافيا .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب المساقاة ٢٠ باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٠٧

(١٥٩٩) حدثنا زكرياء عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال سمعته يقول : سمعت رسول الله - ﷺ يقول : وأهوى النعمان بأصبعيه الى أذنيه (إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه) وذكره .

وأخرجه البخاري في كتاب الايمان ٣٩ وابن ماجه في كتاب الفتن ١٤ باب الوقوف عند الشبهات بسنده عن النعمان بن بشير ٣٩٨٤ وذكره .

وأخرجه الدارمي في البيوع ١

سائر الجسد ، فلذلك هو ثمرة ما في القلب ؛ فلهذا قال بعضهم الأعمال ثمرة الإيمان ، وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت في الاسم ، كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع .

« أقوال العلماء في الاستثناء في الإيمان »

وفي « الجملة » الذين رموا بالإرجاء من الأكابر ، مثل طلق بن حبيب ^(١) ، وإبراهيم التيمي ^(٢) ونحوهما ، كان إرجاؤهم من هذا النوع ، وكانوا أيضا لا يستثنون في الإيمان ، وكانوا يقولون : الإيمان هو الإيمان الموجود فينا ، ونحن نقطع بأننا مصدقون ، ويرون الاستثناء شكا ، وكان عبد الله بن مسعود وأصحابه يستثنون ، وقد روي في حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ^(٣) ما قال ؛ لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث ، وصار الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال : قول : إنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعا . وقول : أن الاستثناء محذور ، فإنه يقتضي الشك في الإيمان . والقول الثالث . أوسطها وأعد لها أنه يجوز الاستثناء باعتبار ، وتركه

(١) طلق بن حبيب يقول عنه الذهبي : العابد من صلحاء التابعين إلا أنه كان يرى الإرجاء وقل ما روى .

قال أبو زرعة : سمع من ابن عباس ، وهو ثقة مرجى ، وقال أبو حاتم صدوق يرى الإرجاء ، وقد روى عن جابر ، وجندب بن سفيان ، وعنه عمرو بن دينار والمختار بن قلفل وجماعة .

(٢) لم نعثر على ترجمة له في تهذيب التهذيب ، وميزان الاعتدال ، ولسان الميزان .

(٣) هو معاذ بن نصر بن حسان العنبري التيمي أبو المثني : قاض بصري من الإثبات في الحديث ، أحصى له « البلخي » ثلاث غلطات إحداها أنه سمى أحد الرواة « عبد الأكبر » والصواب « عبد الأكرم » قال ابن حنبل ما رأيت أعقل من معاذ كأنه صخرة ، ولي قضاء البصرة للرشد سنة ١٧٢ هـ ولم يوفق فشكاه أهلها إلى الرشيد فصرفه فأظهروا السرور ونحروا الجزور وتصدقوا بلحمها واستر في بيته خوف الوثوب عليه ، ثم اشخص إلى الرشيد فاعتذر وقبل الرشيد عذره وأعطاه ألف دينار توفي بالبصرة عام ١٩٦ هـ [راجع تاريخ بغداد ١٣ : ١٣١ وتهذيب التهذيب

[١٠ - ١٩٤]

باعتبار ، فإذا كان مقصوده أني لا أعلم أني قائم بكل ما أوجب الله عليّ ، وأنه يقبل أعمالي ، ليس مقصوده الشك فيما في قلبه فهذا استثناءه حسن وقصده أن لا يزكي نفسه ، وأن لا يقطع بأنه عمل عملاً كما أمر فقبل منه ، والذنوب كثيرة ، والنفاق مخوف على عامة الناس . قال ابن أبي مليكة ^(١) : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، لا يقول واحد منهم إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل . والبخاري في أول صحيحه بوب أبواباً في « الإيمان والرد على المرجئة » وقد ذكر بعض من صنف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة ، قال : وأبو حنيفة ^(٢) وأبو يوسف ^(٣) ومحمد ^(٤) كرهوا أن يقول الرجل : إيماني كإيمان جبريل وميكائيل - قال محمد : لأنهم أفضل يقينا -

(١) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة التيمي المكي قاض من رجال الحديث الثقات ، ولاء ابن

الزبير قضاء الطائف توفي عام ١١٧ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٣٠٦ والمعارف ٢٠٩]

(٢) هو النعمان بن ثابت ، التيمي بالولاء الكوفي ، أبو حنيفة : إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، قيل أصله من أبناء فارس ، ولد ونشأ بالكوفة ، وكان يبيع الخبز ، ويطلب العلم في صباه ثم انقطع للتدريس والإفتاء وأراد عمر بن هبيرة أمير العراقيين على القضاء فامتنع ورعاً ، وأراد المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء على بغداد فأبى . وكان قوي الحجة من أحسن الناس منطقاً توفي عام ١٥٠ هـ راجع تاريخ بغداد ١٣ : ٣٢٣ - ٤٢٣

وابن خلكان ٢ : ١٩٣ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٢ والبداية والنهاية ١٠ : ١٠٧]

(٣) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه كان فقيهاً علامة من حفاظ الحديث ، ولد بالكوفة ، وتفقه بالحديث والرواية ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي ، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشد ومات في خلافته ببغداد عام ١٨٢ هـ من كتبه الخراج والأثار وهو مسند أبي حنيفة وغير ذلك كثير . [راجع مفتاح السعادة ٢ : ١٠٠ - ١٠٧ وابن النديم ٢٠٣ وأخبار القضاة لوكيع ٣ : ٢٥٤ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٠٧ والبداية والنهاية ١٠ : ١٨٠ والجواهر المضية ٢ : ٢٢٠]

(٤) هو محمد بن الحسن بن فرقد ، من موالي بني شيبان أبو عبد الله إمام بالفقه والأصول ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة أصله من قرية حرسته في غوطة دمشق ، وولد بواسط ونشأ بالكوفة ، فسمع =

أو إيماني كإيمان جبريل ، أو إيماني كإيمان أبي بكر ، أو كإيمان هذا ، ولكن يقول
آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال
منه ، ويذمون المرجئة ، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ، ولا
اجتناب المحارم ، بل يكتفون بالإيمان ، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لا
يصح تعليقه على الشرط ، لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده ، كما
قالوا في قوله : أنت طالق إن شاء الله ، فإن علق الإيمان بالشرط كسائر
المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط . قالوا : وشرط المشيئة
الذي يترجاه القائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيامة ، فإذا علق العزم بالفعل
على التصديق والإقرار فقد ظهرت المشيئة وصح العقد ، فلا معنى للاستثناء ،
ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام ، فلا يبقى الإقرار بالإيمان والعقد
مؤمنا ، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق ،
وذلك يزيله . « قلت » فتعليقهم في المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان
على المشيئة ، كالذي يريد الدخول في الإسلام . فيقال له : آمن . فيقول : أنا
أؤمن إن شاء الله ، أو آمنت إن شاء ، أو أسلمت إن شاء الله ، أو أشهد إن
شاء الله أن لا إله إلا الله ، وأشهد إن شاء الله أن محمدا رسول الله ، والذين
استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا في الإنشاء ، وإنما كان استثناءهم في

= من أبي حنيفة ، وغلب عليه مذهبه وعُرف به وانتقل إلى بغداد ، فولاه الرشيد القضاء بالرقعة ثم
عزله ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه فمات بالري عام ١٨٩ هـ قال الشافعي « لو أشاء
أقول : نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت : لفصاحته ، ونعته الخطيب البغدادي بإمام
أهل الري له كتب منها « المبسوط » والزيادات » والجامع الكبير ، وغير ذلك كثير . [راجع
الفهرست لابن النديم ١ : ٢٠٣ والفوائد البهية ١٦٣ والوفيات ١ : ٥٣٣ والبداية والنهاية ١٠ :
٢٠٢ والجواهر المضية ٢ : ٤٢ وذيل المذيل ١٠٧ ولسان الميزان ٥ : ١٢١ والنجوم الزاهرة ٢ :
١٣٠ ولغة العرب ٩ : ٢٢٧ وتاريخ بغداد ٢ : ١٧٢]

إخباره عما قد حصل له من الإيمان ، فاستثنوا إما أن الإيمان المطلق يقتضي دخول الجنة وهم لا يعلمون الخاتمة . كأنه إذا قيل للرجل : أنت مؤمن . قيل له : أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة ، فيقول : أنا كذلك إن شاء الله ، أو لأنهم لا يعرفون أنهم أتوا بكمال الإيمان الواجب . ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له : أنت مؤمن : آمنت بالله وملائكته وكتبه ، فيجزم بهذا ولا يعلقه . أو يقول : إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي ومالي فأنا مؤمن ، وإن كنت تريد قوله : -

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (١)

وقوله : -

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

(١) سورة الأنفال آية رقم ٢-٣-٤

وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ونظير هذه الآية ﴿ وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وقال : وتطمئن قلوبهم بذكر الله « فهذا يرجع الى كمال المعرفة ، وثقة القلب ، والوجل :

الفرع من عذاب الله فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين في قوله ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ﴾ أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين الى الله وإن كانوا يخافون الله ، فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النفاق الذي يشبه نُهاق الحمير . فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع لم تبلغ أن تساوى حال الرسول ، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم لجلالة ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله ، ولذلك وصف أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١﴾ .

فأنا مؤمن إن شاء الله ، وأما الإنشاء فلم يستثن فيه أحد ، ولا شرع الاستثناء فيه ، بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزما بلا تعليق .

فتبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظيا فإن الذي حرمه هؤلاء غير الذي استحسنته وأمر به أولئك ، ومن جزم جزم بما في قلبه من الحال ، وهذا حق لا ينافي تعليق الكمال والعاقبة ، ولكن هؤلاء عندهم الأعمال ليست من الإيمان ، فصار الإيمان هو الإسلام عند أولئك .

« أقوال العلماء في الاستثناء في الإسلام »

والمشهور عند أهل الحديث أنه لا يستثنى في الإسلام ، وهو المشهور عند أحمد رضي الله عنه ، وقد روي عنه فيه الاستثناء ، كما قد بسط هذا في شرح حديث جبريل وغيره من نصوص الإيمان التي في الكتاب والسنة .

ولو قال لامراته : أنت طالق إن شاء الله ، ففيه نزاع مشهور ، وقد رجحنا التفصيل ، وهو أن الكلام يراد به شيان ، يراد به إيقاع الطلاق ^(٢) تارة ، ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ .

= إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين ﴿ فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم .

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥

(٢) الطلاق : حل قيد النكاح وهو مشروع ، والأصل في مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع . أما الكتاب فقول الله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾

وأما السنن : فما روى ابن عمر - رضي الله عنه - أنه طلق امرأته وهي حائض فسأل عمر - رسول الله - ﷺ عن ذلك فقال له رسول الله - ﷺ : مره فليراجعها ثم ليتركها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء . متفق عليه . راجع كتاب المغني لابن قدامة ٧ : ٩٦ - وما بعدها]

فقلوه : إن شاء الله مثل قوله : بمشيئة الله ، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع وإن كان قد علق لثلا يقع ، أو علقه على مشيئة توجد بعد هذا لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن تطلق . وقول من قال المشيئة تنجزه ليس كما قال ، بل نحن نعلم قطعاً أن الطلاق لا يقع إلا إذا طلقت المرأة بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه ، من ولي أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لثلا يقع الآن . وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيدا وتحقيقا فهذا يقع به الطلاق .

وما أعرف أحدا أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة ، فإذا علقه فإن كان مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أو من بعد ذلك فهذا لم يصبر مؤمنا ، مثل الذي يقال له : هل تصير من أهل دين الإسلام فقال أصير إن شاء الله فهذا لم يسلم ، بل هو باق على الكفر ، وإن كان قصده أنني قد آمنت وإيماني بمشيئة الله صار مؤمنا ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا ، فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ في الإنشاء ، وأيضا فإن الأصل أنه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلا ، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء كما تقدم ، كيف وقد أمروا أن يقولوا :

﴿ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴾ (١)

وقال تعالى : -

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٢)

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥

فأخبر أنهم آمنوا فوق الإيمان منهم قطعاً بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ما استثنى أحد من السلف قط في مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن كما يخبر عن نفسه بأنه بر ، تقي ، فقول القائل له : أنت مؤمن هو عندهم كقوله : هل أنت بر تقي ؟ فإذا قال : أنا بر تقي فقد زكى نفسه فيقول : إن شاء الله ، وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له ، وجزاؤه عليه ، وكتابة الملك له . فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر ، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ؛ بل يقال : هذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه ، وقوله فيه إن شاء الله بمعنى إذ شاء الله ، وذلك تحقيق لا تعليق .

والرجل قد يقول : والله ليكونن كذا إن شاء الله وهو جازم بأنه يكون فالمعلق هو الفعل ، كقوله ؛

﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(١) .

والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الأدمي لأفعلن كذا إن شاء الله ، وهو لا يجزم بأنه يقع ، لكن يرجوه فيقول : يكون إن شاء الله ، تم عزمه عليه قد يكون جازماً ، ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقاً بالمشيئة أيضاً ، ولكن متى كان المعزوم عليه مطلقاً لزم تعليق بقاء العزم ، فإنه بتقدير أن تعليق العزم ابتداء أو دواما في مثل ذلك ، ولهذا لم يحث المطلق المعلق وحرف « إن » لا يبقى العزم . فلا بد إذا دخل على الماضي صار مستقبلاً . تقول : إن جاء زيد كان كذلك ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٧

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٧

و إذا أريد الماضي دخل حرف « ان » كقوله ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾
فَاتَّبِعُونِي ﴿ (١) .

يفرق بين قوله : (أنا مؤمن إن شاء الله) وبين قوله : (إن كان الله شاء إيماني) .

وكذلك إذا كان مقصوده إني لا أعلم بماذا يختم لي ، كما قيل لابن مسعود : إن فلانا يشهد أنه مؤمن . قال : فليشهد أنه من أهل الجنة فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان ، وكذلك إن كان مقصوده أن إيماني حاصل بمشيئة الله . ومن لم يستثن قال : أنا لا أشك في إيمان قلبي ، فلا جناح عليه إذا لم يزل نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد تقبل الله عمله ، وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل وأبي بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة . كما كان مسعر بن كدام (٢) يقول : « أنا لا أشك في إيماني ، قال أحمد : ولم يكن من المرجئة فإن المرجئة الذين يقولون : الأعمال ليست من الإيمان ، وهو كان يقول : هي من الإيمان . لكن أنا لا أشك في إيماني . وكان الثوري يقول لسفيان بن عيينة (٣) : ألا تنهاه عن هذا فإنهم من قبيلة واحدة ،

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣١

(٢) هو مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي العامري الرواسي أبو سلمة من ثقات أهل الحديث كوفي ، كان يقال له « المصحف لعظم الثقة بما يرويه ، وكان مرجئاً ، وعنده نحو ألف حديث ، وخرج له الستة توفي بمكة عام ١٥٢ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ١٠ : ١١٣ - وحلية الأولياء ٧ : ٢٠٩ ، والمعارف ٢١١ وذيل المذيل ١٠٤ والكواكب الدرية ١٦٨ وفيه وفاته سنة ١٥٥ هـ وفي خلاصة تهذيب الكمال ص ٣٢٠ مات سنة ١٥٣ هـ]

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي ، من الموالى ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة وتوفي بها عام ١٩٨ هـ . كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر . قال الشافعي : لولا مالك وسفيان ، لذهب علم الحجاز . حج سبعين سنة ، له الجامع في الحديث ، وكتاب في التفسير . [راجع تذكرة الحفاظ =

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع في هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة في كثير من الأحكام ، وكلهم من أهل الإيمان والقرآن .

« وأما جهنم » فكان يقول : إن الإيمان مجرد تصديق القلب . وإن لم يتكلم به ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها ، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول .

ولكن هو الذي نصره الأشعري^(١) وأكثر أصحابه ، ولكن قالوا مع ذلك أن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره ، واستدللنا بتكفير الشارع له على خلق قلبه من المعرفة ، وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم في « الإيمان » .

« الأصول التي بنت عليها المرجئة مذهبها في الإيمان »

والأصل الذي منه نشأ النزاع اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق ، وظن بعضهم أن هذا إجماع ، كما ذكر الأشعري أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الإرجاء ، كما كان « أصل القدر » عجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزينين . قالت الخوارج والمعتزلة عن علمنا يقيناً أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك

= ١ : ٢٤٢ والرسالة ٣١ ، وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال [٣٩٧ : ١]

(١) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق ، أبو الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ، ولد في البصرة عام ٢٦٠ هـ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ، ثم رجع وجاهر بخلافهم وتوفي ببغداد عام ٣٢٤ هـ من مصنفاته « الابانة عن أصول الديانة » ومقالات الملحدين ، والرد على ابن الرواندي ، وخلق الأعمال وغير ذلك كثير . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ ، والبداية والنهاية ١٨٧ : ١٨٧ ودائرة المعارف الاسلامية ٢ : ٢١٨]

بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه ؛ لأن الإيمان لا يتبعض ، ولا يكون في العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلصين في النار إذا كان ليس معهم من الإيمان شيء .

وقالت « المرجئة » - مقتصدهم وغلاتهم كالجهمية - قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلدون في النار ؛ بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث ، وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين ؟ فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله ^(١) ، وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله ^(٢) ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم ؛ وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفهم في أحكامهم في الدنيا .

و« الخوارج » لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجعون الزاني ، ولا يرون للسرقة نصاباً ، وحينئذ فقد يقولون : ليس في القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

و« أقوال الخوارج » إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف ، كما وقفنا على كتب ^(٣) المعتزلة ، والرافضة ، والزيدية ^(٤) ،

(١) قال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾
(٢) روى الامام مسلم في كتاب الحدود ٨ باب حد الخمر ٣٦ - حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني ابي عن قتادة عن أنس بن مالك أن نبي الله - ﷺ - جلد في الخمر بالجريد والنعال ، ثم جلد أبو بكر أربعين فلما كان عمر ودنا الناس من الريف والقرى . قال : ما ترون في جلد الخمر ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود . قال فجلد عمر ثمانين .

(٣) أمثال : كتاب المغني للقااضي عبد الجبار ، والأصول الخمسة . له ، وغير ذلك من الكتب .
(٤) الزيدية : يجمعها ثلاث فرق : الجارودية ، والسليمانية ، وقد يقال الحريرية أيضاً ، والبترية ، وهذه الفرق الثلاث يجمعها القول بامامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أيام خروجه وكان ذلك في زمن هشام بن عبد الملك .

والكرامية^(١) والأشعرية ، والسالمية ، وأهل المذاهب الأربعة ،
والظاهرية ، ومذاهب أهل الحديث ، والفلاسفة ، والصوفية ، ونحو
هؤلاء .

وقد بسط الكلام على تفصيل القول في أقوال هؤلاء في غير هذا الموضع .

وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على « أقسام » :

منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم ، فيبدأ بالخوارج .

ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة . ويختتم
بالجهمية . كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه ، كعبد الله^(٢) ابنه
ونحوه ، وكالخلال^(٣) ، وأبي عبد الله بن بطة^(٤) وأمثالهما ، وكأبي الفرج

(١) أتباع ابن كرام الذي دعا أتباعه الى تجسيم معبوده ، وزعم أنه جسم له حد ونهاية من تحته والجهة
التي منها يلاقي عرشه ، وهذا شبيه بقول الثنوية : إن معبودهم الذي سموه نوراً يتناهى من
الجهة التي تلاقي الظلام وإن لم يتناه من خمس جهات .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي ، أبو عبد الرحمن حافظ للحديث من
أهل بغداد ، له الزوائد على كتاب الزهد لأبيه وزوائد المسند ، زاد به على مسند أبيه نحو عشرة
آلاف حديث توفي عام ٢٩٠ هـ . [راجع تهذيب ٥ : ١٤١ والمستطرفة ١٦ والطبقات لابن أبي
يعلى ١ : ١٨٠]

(٣) هو أحمد بن محمد بن هارون ، أبو بكر الخلال : مفسر عالم بالحديث واللغة من كبار الحنابلة -
من أهل بغداد ، كانت حلقة بجامع المهدي قال ابن أبي يعلى : له التفاسير الدائرة والكتب
السائرة ، وقال الذهبي جامع علم أحمد ومرتبته ، من كتبه « تفسير الغريب » و« طبقات أصحاب
أحمد بن حنبل ، والسنة ، والعلل ، والجامع لعلوم الإمام أحمد في الحديث » توفي عام « ٣ » هـ .
[راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٢ ومختصره ٢٩٥ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٨ وتذكرة الحفاظ ٣ :
٧ ومناقب الإمام أحمد ٥١٢ ومخطوطات الظاهرية ٢٦٥]

(٤) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان أبو عبد الله العكبري ، المعروف بابن بطة عالم
بالحديث ، فقيه من كبار الحنابلة ، من أهل عكبرا مولداً ووفاة رحل الى مكة والثغور والبصرة ،
وغيرها في طلب الحديث ، ثم لزم بيته أربعين سنة فصنف كتبه وهي تزيد على مئة ، منها =

المقدسي، وكلا الطائفتين تختتم بالجهمية ، لأنهم أغلظ البدع ، وكالبخاري (١) في صحيحه فإنه بدأ بـ « كتاب الإيمان والرد على المرجئة » وختمه « بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية » .

ولما صنف الكتاب في الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات فيكون الكلام أولاً مع الجهمية ، وكذلك رتب أبو القاسم الطبري كتابه في أصول السنة ، والبيهقي (٢) أفرد لكل صنف مصنفاً ، فله مصنف في الصفات (٣) ، ومصنف في القدر ، ومصنف في شعب الإيمان (٤) ، ومصنف في دلائل

= « الإبانة في أصول الديانة » والسنة « والإنكار على من قضى بكتب الصحف الأولى » توفي عام ٣٨٧ هـ . [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٤٤ - ١٥٣ ومختصره للنابلسي ٣٤٦]

(١) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله حبر الاسلام ، والحافظ للحديث - صاحب « الجامع الصحيح » المعروف بصحيح البخاري و« التاريخ » و« الضعفاء » في رجال الحديث ، وخلق أفعال العباد »

ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ ونشأ يتيماً وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ في طلب الحديث ، فزار خراسان ، والعراق ، ومصر ، والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ ، أقام في بخارى فتعصب عليه جماعة ورموه بالتهمة فاخرج الى خرتنك (من قرى سمرقند) فمات بها عام ٢٥٦ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ والوفيات ١ : ٤٥٥ وتاريخ بغداد ٢ : ٤ - ٣٦ وتهذيب الاسماء واللغات ٦٧ والسبكي ٢ : ٢]

(٢) هو أحمد بن الحسين بن علي ، أبو بكر من أئمة الحديث ، ولد في خسرو جرد من قرى بيهق بنيسابور عام ٣٨٤ هـ ثم رحل الى بغداد والكوفة ومكة وغيرها ، وطلب الى نيسابور ، فلم يزل فيها الى أن مات عام ٤٥٨ هـ قال إمام الحرمين ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي ، فإن له المنّة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرته مذهبه . وقال الذهبي لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجهتد فيه لكان قادراً على ذلك لعلمه ومعرفته بالاختلاف . [راجع شذرات الذهب ٣ : ٤٠٣] وطبقات الشافعية ٣ : ٣ ومعجم البلدان ٢ : ٣٤٦ والمنظوم ٨ : ٢٤٢ وابن خلكان ١ : ٢٠ واللباب ١ : ١٦٥ واحمد محمد شاکر في دائرة المعارف الاسلامية ٤ : ٤٢٩ أما خسرو جرد) فبضم الخاء وسكون السين وفتح الراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء الثانية ، كما في الباب .

(٣) يسمى كتاب الأسماء والصفات طبع أكثر من مرة .

(٤) شعب الإيمان : ويسمى : الجامع المصنف في شعب الإيمان وهو كبير من الكتب المشهورة ، وله =

النوبة^(١) ، ومصنف في البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع في « الأسماء والأحكام » في الإيمان والإسلام أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض ، قال أولئك : فإذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد في النار ، فقالت الجهمية والمرجئة : قد علمنا أنه ليس يخلد في النار ، وأنه ليس كافراً مرتدّاً ، بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمناً تام الإيمان [ليس] معه بعض الإيمان ، لأن الإيمان عندهم لا يتبعض ، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة

فقال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب والقول باللسان ، فقالت الجهمية : بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً فالذي لا بد منه تصديق القلب ، وقالت المرجئة : الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال .

وأنكر كل هذه الطوائف أنه « ينقص » الصحابة قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص وهو قول أئمة السند ، وكان ابن^(٢) المبارك يقول : هو يتفاضل ويتزايد ويمسك عن لفظ ينقص ، وعن مالك^(٣) في كونه لا ينقص روايتان .

= مختصرات منها مختصر شمس الدين القنوي ومختصر الإمام معين الدين محمد بن حمويه وفيه سبعة وسبعون باباً ومنتقى للشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، جمع زوائد الأصل على الكتب الستة كتب منه الثلث فقط .

(١) دلائل النبوة : اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ .

[راجع كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج ١ ص ٧٦٠]

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي أبو عبد الرحمن :

الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ومجاهداً وتاجراً وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء كان من سكان خراسان ، ومات بهيت عام ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم ، له كتاب في

الجهاد ، وهو أول من صنف فيه « والرقاق » [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٣]

(٣) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله إمام دار الهجرة ، وأحد =

والقرآن قد نطق بالزيادة في غير موضع ، ودلت النصوص على نقصه كقوله « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ^(١) ونحو ذلك ، لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا في قوله في النساء « ناقصات عقل ودين » ^(٢) وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي ، وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين : من جهة أمر

= الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية ، مولده ووفاته عام ١٧٩ هـ بالمدينة ، كان صلباً في دينه بعيداً عن الأمراء والملوك ، وشي به الى جعفر عم المنصور العباسي فضربه سياطاً انخلعت لها كتفه ، ووجهه إليه الرشيد العباس ليأتيه فيحدثه ، فقال : العلم يؤق ، فقصده الرشيد منزله واستند الى الجدار . صنف كتاب « الموطأ » وله رسالة في الوعظ . [راجع الديباج المذهب ١٧ - ٣٠ والوفيات ١ : ٤٣٩ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥ وصفه الصفوة ٢ : ٩٩ وحلية ٦ : ٣١٦ وذيل المذيل ١٠٦ والانتقاء ٩ : ٤٧ والخميس ٢ : ٣٣٢ والتعريف بابن خلدون ٢٩٧ ، ٣٠٥ واللباب ٣ : ٨٦ ومعجم المطبوعات ١٦٠٩]

(١) روى ابن ماجه في كتاب الفتن ٣ باب النهي عن النبهة ٣٩٣٦ - أنبأنا الليث بن سعد عن عقيل ، عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ قال : لا يزني الزاني ، حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ٧٠

(٢) روى الامام مسلم في كتاب الايمان ٣٤ : باب بيان نقصان الايمان بنقص الطاعات وبيان ! إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ١٣٢ - أخبرنا الليث ، عن ابن الهاد ، عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لي لب منكن قالت : يا رسول الله وما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالي ما تصلي ، وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين » ورواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٩ باب فتنة النساء ٤٠٠٣ - أنبأنا الليث بن سعد عن ابن الهاد ، عن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه الامام البخاري في كتاب الحيض ١٦ ، والزكاة ٤٤ والترمذي في كتاب الايمان والامام أحمد ابن حنبل في المسند ٢ : ٦٧ ، ٣٧٣ - ٣٧٤ (حلي)

الرب ، ومن جهة فعل العبد .

أما « الأول » فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص ، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان ، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك ، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة ، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس ، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة .

و« أيضاً » فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملاً .

وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤدّيها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان ، وهذا من أصول غلط المرجئة ، فإنهم ظنوا أنه شيء واحد وأنه يستوي فيه جميع المكلفين ، فقالوا : إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء ، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس .

فيقال لهم : قد تبين أن الإيمان الذي أوجه الله على عباده يتنوع ويتفاضل ويتباينون فيه تبايناً عظيماً ، فيجب على الملائكة من الإيمان ما لا يجب على البشر ، ويجب على الأنبياء من الإيمان ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على العلماء ما لا يجب على غيرهم . ويجب على الأمراء ما لا يجب على غيرهم ، وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط ؟ بل ومن التصديق والإقرار .

فإن الناس وإن كان يجب عليهم الإقرار المجمل بكل ما جاء به الرسول فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به ، وما لم يعلموه كيف يؤمرون بالإقرار به مفصلاً ، وما لم يؤمر به العبد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الأمر به ، فمن أمر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج

والإيمان بها ، فيجب عليه من الإيمان والعمل ما لا يجب على غيره ، وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ، ومن الإيمان بذلك والعمل به ما لا يجب على غيره ، فيجب عليه من العلم والإيمان والعمل ما لا يجب على غيره إذا جعل العلم والعمل ليسا من الإيمان ، وإن جعل جميع ذلك داخلا في مسمى الإيمان كان أبلغ ، فبكل حال قد وجب عليه من الإيمان ما لا يجب على غيره . ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملا ، فإذا جاءت أمور أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقاً مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة الى الكعبة ^(١) ، وطائفة نافقت لما انهزم المسلمون يوم أحد ونحو ذلك . ولهذا وصف الله المنافقين في القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا ، كما ذكر ذلك في سورة المنافقين ^(٢) ، وذكر مثل ذلك في سورة البقرة ، فقال :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٣) .

وقال طائفة من السلف : عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا . فمن هؤلاء من كان يؤمن أولاً بإيماننا مجملا ، ثم يأتي أموراً لا يؤمن بها فينأق في الباطن ، وما يمكنه إظهار الردة بل يتكلم بالنفاق مع خاصته ، وهذا كما ذكر الله

(١) قال تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ سورة البقرة آية رقم ١٤٢ .
والمراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة ، قاله مجاهد والسدي وقال الزجاج : المنافقون : كفار قریش لما انكروا تحويل القبلة قالوا : قد اشتاق محمد الى مولده ، وعن قريب يرجع الى دينكم وقالت اليهود : قد التبس عليه أمره وتحير ، وقال المنافقون : ما ولاهم عن قبلتهم واستهزؤوا بالمسلمين .

(٢) قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ .

● سورة المنافقون آية رقم ٣

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٧ - ١٨

عنهم في الجهاد فقال :

﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأُولَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ (١) .

و« بالجملة » فلا يمكن المنازعة أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ، ويتفاضلون في إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ، ولهذا قال النبي ﷺ في النساء « ناقصات عقل ودين » وقال في نقصان دينهن « إنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي » (٢) وهذا مما أمر الله به فليس هذا النقص ديناً لها تعاقب عليه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة في هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصياً . فهذا أفضل ديناً وإيماناً ، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم ، فهذه زيادة كزيادة الإيمان بالتطوعات ، لكن هذه زيادة بواجب في حق شخص ، وليس بواجب في حق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها ، وذلك لا يستحق العقاب بتركها ، ولكن إيمان ذلك أكمل . قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » (٣) .

(١) سورة محمد آية رقم ٢٠ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث ولفظه كما جاء في سنن ابن ماجه « وتمكث الليالي ما تصلي ، ونفطر في رمضان ، فهذا من نقصان الدين » .

(٣) الحديث رواه الترمذي في كتاب الرضاع ١١ باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ١١٦٢ حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

وأخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٥ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه حديث رقم ٤٦٨٢ ، والدارمي في كتاب الرقاق ٧٤ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٠ ، ٤٧٢ . ٥٢٧ . ٦ : ٩٩ (حلي)

فهذا يبين تفاضل الإيمان في نفس الأمر به . وفي نفس الأخبار التي يجب التصديق بها .

و« النوع الثاني » هو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب ، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع . وهذا أيضاً يتفاضلون فيه فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم ، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل بها أو بيع بعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه ، مثل دين هذا وبره وتقواه ، بل هذا أفضل ديناً وبراً وتقوى ، فهو كذلك أفضل إيماناً ، كما قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » (١) وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . إذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٢) .

وأصل هؤلاء أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل ، بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع العباد فيما أوجبه الرب من الإيمان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال ، فغلطوا في هذا وهذا ثم تفرقوا كما تقدم . وصارت المرجئة على « ثلاثة أقوال » فعلماءهم وأئمتهم أحسنهم قولاً ؛ وهو أن قالوا : الإيمان تصديق القلب وقول اللسان . وقالت الجهمية : هو تصديق القلب فقط .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم - في كتاب الإيمان ٢٥ باب بيان خصال المنافق ١٠٦ - حدثنا عبد الله بن غنيم ، وحدثنا ابن غنيم ، وحدثنا أبي ، وحدثنا الأعمش ، وحدثني زهير بن حرب ، وحدثنا وكيع وحدثنا سفيان عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق عن عبد الله بن عمرو . قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره .

وأخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ٢٤ ، وفي كتاب الجزية ١٧ ، وأخرجه أبو داود في السنة ١٥ .

[وقالت الكرامية هو القول فقط] فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان ، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمناً من أهل النار ، وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته ، ولم يسبقها أحد الى هذا القول ، وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان ، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة وهو غلط عليهم . بل يقولون : إنه مؤمن كامل الإيمان وأنه من أهل النار ، فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الإيمان معذباً في النار ، بل يكون مخلداً فيها وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه « يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » (١) .

وإن قالوا لا يخلد وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار ، والمنافقون قد قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (٢) .

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم ، وقال له :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (٣) .

(١) الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب الايمان ١٥ وفي كتاب الرقاق ٣٥ ، ٥١ وفي كتاب الفتن ١٣ وفي كتاب التوحيد ٢٤ ، ٣٦ وأخرجه الامام مسلم في كتاب الايمان ٣٩ باب تحريم الكبر وبنيانه ١٤٧ بسنده عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه عن النبي - ﷺ بلفظ « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً قال : إن الله جميل يحب الجمال » .

ورواه الامام الترمذي في الفتن ١٧ وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ٩ باب في الايمان ٥٩ بسند ه عن علقمة عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٤٥

(٣) سورة التوبة آية رقم ٨٠

وقال :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١)
وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله .

فإن قالوا : هؤلاء قد كانوا يتكلمون بالسنتهم سرّاً فكفروا بذلك ، وإنما
يكون مؤمناً إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه ، فإن ذلك ردة عن الإيمان .
قيل لهم : ولو أضمرنا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين . قال تعالى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ
اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ (٢) .

وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم وإنما
لكاذبون . قال تعالى : -

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُ ، واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٤) .

وقد قال النبي ﷺ : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » (٥) . وقد

(١) سورة التوبة آية رقم ٨٤

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٤

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨

(٤) سورة المنافقون آية رقم ١

(٥) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٣ : ١٣٤ ، ١٣٥ - حديثي أبي ، حدثنا بهز حدثنا علي بن

قال الله تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا . قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) .

وفي الصحيحين عن سعد : أن النبي ﷺ أعطى رجالاً ولم يعط رجلاً
فقلت : يا رسول الله ! أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن ؟ فقال :
« أومسلم » مرتين أو ثلاثاً (٢) . وبسط الكلام في هذا له مواضع آخر ، وقد
صنفت في ذلك مجلداً غير ما صنفت فيه غير ذلك .

وكلام الناس في هذا الاسم ومسماه كثير ، لأنه قطب الدين الذي يدور
عليه ، وليس في القول اسم علق به السعادة والشقاء ، والمدح والذم ، والثواب
والعقاب ، أعظم من اسم الإيمان والكفر ، ولهذا سمي هذا الأصل « مسائل
الأسماء والأحكام » وقد رأيت لابن الهيثم فيه مصنفاً في أنه قول اللسان فقط ،
ورأيت لابن الباقلاني (٣) فيه مصنفاً أنه تصديق القلب فقط ، وكلاهما في عصر

= مسعدة حدثنا قتادة عن أنس قال : كان رسول الله - ﷺ - يقول وذكره . وفيه زيادة [قال ثم
يشير بيده الى صدره ثلاثاً قال : ثم يقول التقوى ههنا التقوى ههنا]
(١) سورة الحجرات آية رقم ١٤

(٢) الحديث رواه أبو داود في السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٤٦٨٣ حدثنا محمد بن
عبيد ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، قال وأخبرني الزهري ، عن عامر بن سعد بن أبي
وقاص ، عن أبيه قال : وذكره وفيه زيادة [ثم قال النبي - ﷺ - إني أعطي رجالاً وأدع من هو
أحب إلي منهم لا أعطيه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم] .

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر : قاص ، من كبار علماء الكلام ، انتهت
إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة وسكن بغداد فتوفي فيها كان جيد
الاستنباط ، سريع الجواب ، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه الى ملك الروم فجرت في
القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها . من كتبه « إعجاز القرآن »
والانصاف ، وغير ذلك توفي عام ٤٠٣ هـ واجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس

٣٧ - ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩

واحد ، وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة .

« عمدة أهل البدع في التوحيد والصفات »

و« المقصود هنا » أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان . فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، صار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غير ذلك . والآيات التي تحالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

ولهذا قال كثير منهم - كأبي الحسين البصري ومن تبعه كالرازي^(١) والآمدي^(٢) وابن الحاجب^(٣) - أن الأمة إذا اختلفت في تأويل الآية على قولين

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي الامام المفسر أصله من طبرستان ومولده في الري عام ٥٤٤ هـ وإليها نسبته ويقال له (ابن الخطيب) رحل الى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وتوفي في هراة من كتبه مفاتيح الغيب ، ولوامع البيئات في شرح أسماء الله تعالى وصفاته ومعالم أصول الدين ، وعحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، وغير ذلك كثير . راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ والوفيات ١ : ٤٧٤ ، ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ - ٤٥١ وذيل الروضتين ٦٨ وابن الوردي ٢ : ١٢٧ واداب اللغة ٣ : ٩٤ ولسان الميزان ٤ : ٤٢٦

(٢) هو علي بن محمد بن سالم الغلبي أبو الحسن ، سيف الدين الآمدي أصولي باحث ، أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها عام ٥٥١ هـ وتعلم في بغداد والشام وانتقل الى القاهرة فدرس فيها واشتهر وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه الى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة ، فخرج مستخفياً الى حماء ومنها الى دمشق فتوفي بها عام ٦٣١ هـ له نحو عشرين

جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث ، بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين . فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال في تفسير القرآن والحديث ، وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون ، ولكن قالوا : إن الله أراد معنى آخر ، وهم لو تصوروا هذه « المقالة » لم يقولوا هذا ، فإن أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ^(١) ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ والصواب قول ثالث لم يقولوه ، لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم ، والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال في لفظ الآية بجواز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ، ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى .

وكذلك إذا قالوا يجوز أن يراد بها هذا المعنى والأمة قبلهم لم يقولوا أريد بها الا هذا أو هذا ، فقد جوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة ،

= مصنفاً منها « الأحكام في أصول الأحكام » وأبكار الأفكار في علم الكلام ، ولباب الألباب ودقائق الحقائق . [راجع ابن خلكان ١ : ٣٢٩ والسبكي ٥ : ١٢٩ وميزان الاعتدال ١ : ٤٣٩ وفيه : كان يترك الصلاة ونفي من دمشق لسوء اعتقاده » ولسان الميزان ٣ : ١٣٤] .
 (٣) هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس أبو عمر وجمال الدين بن الحاجب - فقيه مالكي ، من كبار العلماء بالعربية . كردي الأصل ولد في أسنا (من صعيد مصر) عام ٥٧٠ هـ وكان في القاهرة وسكن دمشق ومات بالاسكندرية عام ٦٤٦ هـ أبوه حاجبا فعرف به من تصانيفه الكافية ، والشافية ، ومختصر الفقه ، ومنتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل » وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣١٤ والطحطا السعيد ١٨٨ وخطط مبارك ٨ : ٦٢ وغاية النهاية ١ : ٥٠٨ ومفتاح السعادة ١ : ١١٧ وآداب اللغة ٣ : ٥٣ والفهرس ٢٢٥]

(١) أخرج ابن ماجه في كتاب الفتن ٨ باب السواد الأعظم ٣٩٥٠ حدثنا الوليد بن مسلم ، ثنا معان ابن رفاعة السلامي ، حدثني أبو خلف الأعمى . قال : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله - ﷺ يقول : إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافاً فليكنم بالسواد الأعظم .

في الزوائد : في اسناده أبو خلف الأعمى واسمه حازم بن عطاء وهو ضعيف ، وقد جاء الحديث بطريق في كلها نظر . قاله شيخنا العراقي في تخريج أحاديث البيضاوي .

وأخبرت أن مراده غير ما أراده ، لكن الذي قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد ، وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ، ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا معنى الآية ؛ ولكن طائفة قالت : يجوز أن يريد هذا المعنى ، وطائفة قالت : يجوز أن يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من علم المراد ، فجاء الثالث وقال : ههنا معنى يجوز أن يكون هو المراد ، فإذا كانت الأمة من الجهل بمعاني القرآن والفضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه ، وبسط هذا له موضع آخر .

و« المقصود » أن كثيرا من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ، ولا على الإيمان الذي جاء به الرسول ، بخلاف السلف ، فلهذا كان السلف أكمل علما وإيمانا ، وخطأهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه .

« أصول مذهب السلف »

وكان الأصل الذي أسسوه هو ما أمرهم الله به في قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرُسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

فإن هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ، وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ

(١) سورة الحجرات آية رقم ١

فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١﴾

فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول ، وأنهم بأمره يعملون ، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله . كما قال : -

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾

وأعمالهم تابعة لأمره ، فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به ، فهم مطيعون لأمره سبحانه .

وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار ، فقال : -

﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٢)

وقد ظن بعضهم أن هذا تأكيد ، وقال بعضهم : بل لا يعصونه في الماضي ، ويفعلون ما أمروا به في المستقبل ، وأحسن من هذا وهذا أن العصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال ، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً ، فاذا قال : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾

(١) سورة الأنبياء آية رقم من ٢٦ - ٢٩

(٢) سورة التحريم آية رقم ٦

ذكر القشيري أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : يا رسول الله - نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ . فقال : تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله .
وقال مقاتل : ذلك حق في نفسه ، وولده ، وأهله ، وعبيده ، وإمائه قال الكيا الهراسي : فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب ، وهو قوله تعالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ونحو قوله تعالى للنبي - ﷺ ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ وفي الحديث « مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع » .

لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون ، فإن العاجز ليس بعاص ، ولا فاعل لما أمر به .

وقال : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به فهو لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية ، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين ، إما أن لا يكون قادراً وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة ، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به ، فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد وصف الملائكة بأنهم : -

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ، وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

فالملائكة مصدقون بخبر ربهم ، مطيعون لأمره ، ولا يخبرون حتى يخبر ، ولا يعملون حتى يأمر ، كما قال تعالى : -

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك ، فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه ، بل بينهم وبينه رسول من البشر ، فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله ، ولا يعملون إلا بما أمرهم به ، كما قال تعالى : -

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ - ٢٩

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٧

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

قال مجاهد : لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه ﴿ تَقْدُمُوا ﴾ معناه تتقدموا وهو فعل لازم وقد قرئ « يقدموا » يقال : قدم ونقدم ، كما يقال : بين وتبين ، وقد يستعمل قدم متعدياً أي قدم غيره ، لكن هنا هو فعل لازم ، فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله .

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل ينظر ما قال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين ، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ، ولا يؤسس ديناً على غير ما جاء به الرسول ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة ، وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ، ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول ، بل

(١) سورة الحجرات آية رقم ١

قال العلماء : كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي - ﷺ - وتلقيب الناس . واختلف في سبب نزولها منها ما ذكره الواحدي من حديث ابن جريج قال : حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله - ﷺ - فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافاً فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . ورواه البخاري عن الحسن بن محمد بن الصباح ، ذكره المهدوي أيضاً ومنها : ما روى أن النبي - ﷺ - أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذ مضى إلى خيبر ، فأشار عليه عمر برجل آخر . فنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . ذكره المهدوي أيضاً .

على ما رأوه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرفوها تأويلاً .

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة ، وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله ، وخالفوا الله ورسوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ، ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين ، بل ناقصي الإيمان مبتدعين ، وخطأهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

فصل

النهي عما جاء عن الرسول نهى عن العدل، والأمر بضده أمر بالظلم

وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل ،
بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن .

﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (١)

وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطناً وظاهراً ، فلا يمكن أن
يتصور أن يكون الحق في نقيضه . وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده
باطلاً ، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً ، وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم
فيه ، فمن نهى عنه فقد نهى عن العدل ، ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم ، فإن
ضد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلاً وظلماً ظناً وما تهوى
الأنفس ، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما أن يكون كان شرعاً لبعض
الأنبياء ثم نسخ ، وأدناهما أن يكون ما شرع قط ، بل يكون من المبدل .
فكل ما خالف حكم الله ورسوله ، فإما شرع منسوخ ، وإما شرع مبدل ما
شرعه الله ، بل شرعه شارع بغير إذن من الله ، كما قال : -

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٢)

(١) سورة النجم آية رقم ٢٣

(٢) سورة الشورى آية رقم ٢١

لكن هذا وهذا قد يقعان في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق ، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغمر ذلك ، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ؛ ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهراً بينهم فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول وهم معتمضون بحبل الله يحكمون الرسول فيما شجر بينهم ، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله ، فضلاً عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

« حكم المجتهد المخطيء في طلب الحق »

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم ، فكثرت من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف .

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر الله لهم خطاياهم ، ويشبههم على اجتهدهم .

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلاً يعملها في ذلك الزمان . لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك ، لكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة ، فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ، ومعادة أهل الأرض في موالاته الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجهه قبل أن

= هذه الآية لها اتصال بقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ ومعناه « هل لهم شركاء شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله ... ؟ »

تنتشر دعوته وتظهر كلمته ، وتكثر أعوانه وأنصاره ، وتنتشر دلائل نبوته ، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين ، وانفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه ، في مثل تلك الحال أمر ما بقي يحصل مثله لأحد ، كما في الصحيحين عنه ﷺ « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (١) .

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال ﷺ : « خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » (٢) فجملة القرن الأول أفضل من القرن الثاني ، والثاني أفضل من الثالث ، والثالث أفضل من الرابع ، لكن يكون في الرابع من هو أفضل من بعض الثالث ، وكذلك في الثالث مع الثاني ، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ؟ هذا فيه نزاع ، وفيه قولان حكاهما القاضي عياض (٣) وغيره . من الناس من يفرضها في مثل معاوية (٤) وعمر بن

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٥ باب قول النبي - ﷺ (لو كنت متخذاً خليلاً) قاله أبو سعيد ٣٦٧٣ حدثنا شعبة عن الأعمش قال سمعت ذكوان يحدث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وأخرجه الامام مسلم ٥٤ باب تحريم سب الصحابة - رضي الله عنهم ٢٢١ - حدثنا يحيى التميمي وأبو بكر بن أبي شيبة ، ومحمد بن العلاء قال يحيى : أخبرنا ، وقال الآخرون حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . وأخرجه الترمذي في المناقب ٥٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١ (حلي)

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي - ﷺ - ٣٦٥٠ - حدثنا النضر أخبرنا شعبة عن أبي جمرة سمعت زهد بن مضرب قال : سمعت عمران بن حصين - رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن ٤٥ باب ما جاء في القرن الثالث ٢٢٢٢ - حدثنا أبو عوانة ، عن قتادة عن زراة بن أوفى عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي ، أبو الفضل ، عالم المغرب ، =

عبد العزيز^(١) . فإن معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي ﷺ ، وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد ، والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

و« المقصود هنا » أن من خالف الرسول فلا بد أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى :

* ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾^(٢) .

وقال في الذين يخبرون عن الملائكة إنهم إناث :

= وإمام أهل السنة في وقته ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم . ولي قضاء سبته ولد فيها عام ٤٧٦ هـ ثم قضاء غرناطة وتوفي بمراكش عام ٥٤٤ هـ من تصانيفه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » وترتيب كتاب المدارك وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢ وقضاة الأندلس ١٠١ وقلائد العقيان ٢٢٢ والفهرس ٣٦٨ وبغية الملمس ٤٢٥ وأزهار الرياض ١ : ٢٣ وجذوة الاقتباس ٢٧٧]

(٤) هو معاوية بن أبي سفيان - صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ت ٦٠ هـ [راجع ابن الأثير ٤ : ٢ وتطهير الجنان . والطبري ٦ : ١٨٠ ومنهاج السنة ٢ : ٢٠١ - ٢٢٦ واليعقوبي ٢ : ١٩٢ والخميس ٢ : ٢٩١ و٢٩٦ والبدء والتاريخ ٦ : ٥ وخلاصة تهذيب الكمال ٣٢٦ والإسلام والحضارة العربية ٢ : ١٤٦ - ١٦١ - ٣٩٤ .

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي ، أبو حفص الخليفة الصالح ، والملك العادل ، وربما قيل له « خامس الخلفاء الراشدين » ت عام ١٠١ هـ [راجع فوات الوفيات ٢ : ١٠٥ وتهذيب التهذيب ٧ : ٤٧٥ وحلية الأولياء ٥ : ٢٥٣ - ٣٥٣ وفيه طائفة كبيرة من أخباره ، وابن الأثير ٥ : ٢٢ واليعقوبي ٣ : ٤٤ وصفة الصفوة ٢ : ٦٣ وابن خلدون ٣ : ٧٦ وتاريخ الخميس ٣ : ٣١٥ والطبري ٨ : ١٣٧ والإسلام والحضارة العربية ٢ :

[١٧٢]

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٣

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ ^(١)

وهم جعلوهم إناثا كما قال :-

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِاثًا ﴾ ^(٢)

وفي القراءة الأخرى :

﴿ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِاثًا ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ ^(٣) .

وهؤلاء قال عنهم :- ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ .

لأنه خبر محصن ليس فيه عمل . وهناك :-

﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾

لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها ، فهناك عبادة وعمل بهوى أنفسهم ، فقال :-

﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ ^(٤) .

والذي جاء به الرسول كما قال :-

(١) سورة النجم آية رقم من ٢٧ - ٣٠

(٢) الزخرف آية رقم ١٩ .

(٣) الزخرف آية رقم ١٩ .

(٤) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (١) .

وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس ، فإن كان
ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها ، كان غايته الظن الذي لا يغني من
الحق شيئاً كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب ، أو خطاب ألقى إليهم
اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هي عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلاً ، أما إن
يحتج بأدلة عقلية ويظنها برهاناً وأدلة قطعية ، وتكون شبهات فاسدة مركبة من
الفاظ مجملة ، ومعان متشابهة ، لم يميز بين حقها وباطلها ، كما يوجد مثل
ذلك في جميع ما يحتج به من خالف الكتاب والسنة ، إنما يركب حججه من
الفاظ متشابهة ، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وهذه
هي الحجج العقلية ، وإن تمسك المبطل بحجج سمعية فإما أن تكون كذباً
على الرسول ، أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول ، فالمنع إما
في الإسناد وإما في المتن ودلالته على ما ذكر ، وهذه الحجة السمعية هذه
حجة أهل العلم الظاهر .

« لأهل الحق إلهامات صحيحة »

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن أهل الحق من
هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه
قال « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر » (٢) .

(١) سورة النجم الآيات من ١ - ٥ .

(٢) الحديث رواه البخاري ٧ : ٤٠ و ٤١ في فضائل أصحاب النبي - ﷺ - باب مناقب عمر بن
الخطاب - رضي الله عنه مسنداً ومعلقاً وفي الأنبياء باب ما ذكر عن بني اسرائيل ومسلم ٢٣٩٨
في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه من حديث عائشة .

وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون
فإنها تجلي لهم أمور صادقة .

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : -

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ^(١) ثم قرأ قوله : -

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(٢)

وقال بعض الصحابة : أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم

= قال الحميدي : أخرجه أبو مسعود في المتفق بين البخاري ومسلم ، ولم يخرج مسلم عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وإنما أخرجه عن أبي سلمة عن عائشة .

(١) قال في الدرر رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة ، وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد ، وقال في التمييز تبعاً للأصل رواه الترمذي وقال غريب ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الديلمي بعد أن عزاه للترمذي عن أبي سعيد ، قال وزاد بعضهم وينطق بتوفيق الله ، قلت لم أقف على هذه الزيادة انتهى وقال في الأصل ورواه الطبراني وأبو نعيم والعسكري عن ثوبان رفعه بلفظ احدثوا دعوة المسلم وفراسته فإنه ينظر بنور الله وينظر بتوفيق الله ، ورواه العسكري عن أبي الدرداء موقوفاً بلفظ اتقوا فراسة العلماء فإنهم ينظرون بنور الله ، إنه شيء يقذفه الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم ورواه الديلمي عن أبي الدرداء بلفظ « اتقوا فراسة العلماء فوالله إنه لحق يقذفه الله في قلوبهم ويجعله على أبصارهم » ، وطرقه كلها ضعيفة ، وبعضها متماسك فلا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع لا سيما ورواه الطبراني والبزار وأبو نعيم بسند حسن عن أنس رفعه : إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم ونحوه ، قول النبي ﷺ - لعمران بن حصين وقد أخذ بطرف عمامته من ورائه ، واعلم أن الله يحب الناظر الناقد عند مجيء الشبهات وفي مستدرك الحاكم عن عروة مرسلاً أن النبي ﷺ - قال : إن لكل قوم فراسة وإنما يعرفها الأشراف . قيل والمراد بهم المؤمنون جميعاً بين الأحاديث ، وحكم عليه الصغاني بالوضع .

وقال النجم : ورواه البخاري في التاريخ والترمذي والعسكري والخطيب وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد وزاد ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم انتهى .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٧٥ .

وأسماعهم . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : - « ولا يزال عبي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » وفي رواية : « فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي » فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به (١) .

وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه ، وقال ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » (٢) وقال الله تعالى :

﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (٣) نور الإيمان مع نور القرآن . وقال تعالى : -

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (٤)

وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر بما أقربه حذاق النظر كما تكلموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقليل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله تحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ٣٨ باب التواضع ٦٥٠٢ حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني شريك بن عبد الله بن أبي تمر عن عطاء عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٢) الحديث رواه الترمذي في كتاب الأحكام ١ باب ما جاء عن رسول الله ﷺ - في القاضي ١٣٢٣ - حدثنا هناد حدثنا وكيع عن اسرائيل عن عبد الأعلى عن بلال بن أبي موسى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام ١ باب ذكر القضاء ٢٣٠٩ بالسند السابق بلفظ : من سأل القضاء وكل الى نفسه ، ومن جبر عليه نزل اليه ملك فسدده » .

(٣) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٧

النظر ، كما قال الشيخ الملقب بالكبيري - للرازي ورفيقه وقد قالوا له يا شيخ ! : بلغنا أنك تعلم علم اليقين ، فقال : نعم ! فقالوا : كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكر شيئاً أفسدته ، وكلما ذكرت شيئاً أفسده ؟ فقال : - هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلنا يعجبنا من ذلك ويكرران الكلام ، وطلب أحدهما أن تحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له وكان من المعتزلة النفاة .

« العلم الضروري والعلم النظري »

فتبين له أن الحق مع أهل الإثبات ، وأن الله سبحانه فوق سماواته ، وعلم ذلك بالضرورة ، رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، وذكر أن الشيخ الكبيري حكاها له ، وكان قد حدثني بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه ، وكلام المشايخ في مثل هذا كثير . وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قد قسموا العلم إلى ضروري ونظري ، والنظري مستند إلى الضروري ، والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه معه هذا الانفكاك عنه .

هذا حد القاضي أبي بكر بن الطيب ^(١) وغيره ، فخاصته أنه يلزم النفس لزوماً لا يمكن مع ذلك دفعه ، فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوماً لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه ، وقال : واردات : لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به ، فالواردات تحصل بهذا وهذا ، وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظر ، متقدميهم كالكياء الهراسي ^(٢) والغزالي ^(٣) وغيرهما . ومتأخريهم - كالرازي والأمدى - وقالوا

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء

(٢) هو علي بن محمد بن علي ، أبو الحسن الطبري ، الملقب بعماد الدين المعروف بالكياء =

نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضروري بما يحصل لنا بالنظر ، هذا لا ندفعه ، لكن إن لم يكن علماً ضرورياً فلا بد له من دليل ، والدليل يكون مستلزماً للمدلول عليه ، بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه . قالوا : فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذي حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل ، وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت إليه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع لكن يقع أيضاً ما يظن أنه منه كثير ، أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل ، كما يقع في الأدلة العقلية والسمعية فمن هؤلاء من يسمع خطاباً أو يرى من يأمره بقضية ويكون ذلك الخطاب من الشيطان ، ويكون ذلك الذي يخاطبه الشيطان وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب .

ورجال الغيب هم الجن ، وهو يحسب أنه أنسي ، وقد يقول له : أنا الخضر^(١) ، أو الياس ، بل أنا محمد ، أو ابراهيم الخليل ، أو المسيح ، أو

= الهراسي ، فقيه شافعي ، مفسر ولد في طبرستان ٤٥٠ هـ وسكن بغداد فدرس بالنظامية ووعظ وأنهم بمذهب الباطنية فرجم ، وأراد السلطان قتله فحماه المستظهر وشهد له من كتبه أحكام القرآن توفي عام ٥٠٤ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٢٧ وتبين كذب المفترى ٢٨٨ ومرة الزمان ٨ : ٣٧]

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ، حجة الاسلام فيلسوف ، متصوف ، له نحو مئتي مصنف ولد عام ٤٥٠ هـ وتوفي عام ٥٠٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وشذرات الذهب ٤ : ١٠ والوافي بالوفيات ١ : ٢٧٧ ومفتاح السعادة ٢ : ١٩١ - ٢١٠ وتبين كذب المفترى ٢٩١ - ٣٠٦ ومعجم المطبوعات ١٤٠٨ - ١٤١٦ وآداب اللغة ٣ : ٩٧ والفهرس التمهيدي ١٦٤ وفي الباب ٢ : ١٧٠]

(١) اسمه بلياً بن ملكان بن فالخ بن عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وكان أبوه من الملوك واختلفوا في سبب تلقيبه بالخضر فقال الأكثرون لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء والفروة وجه الأرض وقيل الهشيم من النبات وقيل إنه كان إذا صلى اخضر ما حوله

أبو بكر ، أو عمر ، أو أنا الشيخ فلان ، أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به في الهواء ، أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة ، فيظن هذا كرامة ، بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجل الغيب أو من الملائكة ، ويكون ذلك شيطانياً لبس عليه ، فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة ، كما أعرف من الغلط في السمعيات والعقليات .

فهؤلاء يتبعون ظناً لا يغني من الحق شيئاً ولو لم يتقدموا بين يدي الله ورسوله ، بل اعتصموا بالكتاب والسنة لتبين لهم أن هذا من الشيطان ، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجدته وما يجده محبوباً إليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة ، فيكون متبعاً لهواه بلا ظن ، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه ، كقول المشركين : -

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١)

وإن عكسوا احتجوا بالقدر ، وهو أن الله أراد هذا وسلطنا عليه ، فهم يعملون بهواههم وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالملوك المسلمين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله ، فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله ، فيقولون :

= والصحيح الأول لما في الحديث الصحيح من سند البخاري إنما سمي الخضر خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء وكنيته الخضر أبو العباس وهو صاحب موسى النبي عليه السلام واختلف العلماء في حياة الخضر وفي نبوته فقال الأكثرون هو حي موجود بين أظهرنا وذلك مجمع عليه عند المشايخ والصوفية - قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامّة معهم في ذلك وإنما شدّ بآثاره البخاري وابن المبارك والحري وابن الجوزي واختلف في كونه مرسلًا فقال القشيري لم يكن الخضر نبياً وإنما كان ولياً وقال الماوردي في تفسيره قبل هو ولي وقيل نبي ... الخ راجع بصائر ذوي التمييز ٦ : ٧٦ - ٧٧

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٣

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١)

لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يعتمدون على ما أوتوه من القوة والتصرف والحال ، فإن هذا من الجدد ، وقد كان النبي ﷺ يقول عقب الصلاة وفي الاعتدال بعد الركوع « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدم منك الجدد » (٢) .

فالذوق والوجد هو يرجع الى حب الانسان ووجدته بحلاوته وذوقه وطعمه ، وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد ، فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله ﷺ كان صاحبه متبعاً لهواه بغير هدى ، وقد قال الله تعالى : -

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (٣)

وقال تعالى : -

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الاعتصام ٣ باب ما يكره من كثرة السؤال ، ومن تكلف ما لا يعنيه وقوله تعالى ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ ٧٢٩٢ - حدثنا أبو عوانة ، حدثنا عبد الملك عن وراذ كاتب المغيرة قال : كتب معاوية الى المغيرة : اكتب إلي ما سمعت من رسول الله - ﷺ - فكتب اليه : إن نبي الله - ﷺ - كان يقول في دبر كل صلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وذكره . وأخرجه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركان الصلاة وتحقيقها في تمام ١٩٤ - بسنده عن شعبة عن الحكم . وأخرجه الامام مالك في كتاب القدر ٢ باب جامع ما جاء في أهل القدر ٨ عن مالك عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي وذكره .

(٣) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١﴾ .

وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة فإنما يتبع ظناً لا يغني من الحق شيئاً ، فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر ، كما قال ﷺ « إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم » (٢) وقد وافق عمر ربه في عدة أشياء ، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ، ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله ؛ بل يجعل ما ورد عليه إذ تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع الى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه ، فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه ، كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ، ويوم ناظره في مانعي الزكاة وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن ، فيرجع إليها كما جرى في مهور النساء ، ومثل هذا كثير .

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر ، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به الرسول ، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين أخطأوا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم ، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول .

وصار أحدهم يقول : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، فيقال له : أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق ، ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين ، وإما من اليهود

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٩ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث قريباً .

والنصارى ، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله ؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان ؟

« الوحي قسمان »

و « الوحي » وحيان : وحي من الرحمن ، ووحى من الشيطان ، قال تعالى : -

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجَادِلُوكُمْ ﴾ ^(١)

وقال تعالى : -

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ^(٢)

وقال تعالى : -

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴾ ^(٣)

وقد كان المختار بن أبي عبيد ^(٤) من هذا الضرب . حتى قيل لابن عمر

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢١

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٢

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١

(٤) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو اسحاق ، من زعماء الثائرين على بني أمية ، وأحد الشجعان الأفاذا من أهل الطائف انتقل منها الى المدينة مع أبيه في زمن عمر ، وتوجه أبوه الى العراق فاستشهد يوم الجسر وبقي المختار في المدينة منقطعاً الى بني هاشم وتزوج عبد الله بن عمر بن الخطاب اخته ثم كان مع علي « بالعراق » وسكن البصرة بعد علي ولما قتل « الحسين » سنة ٦١ هـ انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد أمير البصرة فقبض عليه ابن زياد وجلده وحسبه ونفاه بشفاعه ابن عمر الى الطائف ولما مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ذهب المختار الى عبد الله بن الزبير وعاهده وشهد معه بداية حرب الحصين بن نمير ثم استأذنه في التوجه الى الكوفة ليدعو الناس الى طاعته فوثق به وأرسله ووصى عليه غير أنه =

وابن عباس . قيل لأحدهما : إنه يقول إنه توحى إليه فقال : -

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾

وقيل للآخر : إنه يقول إنه ينزل عليه ، فقال : -

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ^(١)

« طرق العلم : الحس ، والخبر ، والنظر . »

فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآني النبوي الشرعي أعظم من حاجة غيرهم ، وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها ، والحسيات يضطر إليها الإنسان بغير اختياره ، كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره ، كما أن النظار لهم قياس ومعقول ، وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم : الحس والخبر والنظر ، وكل إنسان [يستدل] من هذه الثلاثة في بعض الأمور ، لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين ، كالطب فإنه تجربات وقياسات ، وأهله منهم من تغلب عليه التجربة ومنهم من يغلب عليه القياس ، والقياس أصله التجربة ، والتجربة لا بد فيها من قياس ، لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلة والمناسبة ، وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها ، والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية ، فلا بد له من الحسيات التي هي الأصل ليعتبر بها ، والحس إن لم يكن مع

= كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا الحسين وقتلوه فدعا إلى إمامة محمد بن الحنفية فباعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سراً ، فخرج بهم على والي الكوفة عبد الله بن مطيع فغلب عليها واستولى على الموصل ، وعظم شأنه - قتله مصعب بن الزبير عام ٦٧ هـ . [راجع الإصابة ٨٥٤٧ والفرق بين الفرق ٣١ - ٣٧ وابن الأثير ٤ : ٨٢ - ١٠٨ والطبري ٧ : ١٤٦ والحرور العين ١٨٢]

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ .

صاحبه عقل وإلا فقد يغلط . والناس يقولون : غلط الحس ، والغلط تارة من الحس ، وتارة من صاحبه ، فإن الحس يرى أمراً معيناً ، فيظن صاحبه فيه شيئاً آخر فيؤتى من ظنه ، فلا بد له من العقل .

ولهذا النائم يرى شيئاً ، وتلك الأمور لها وجود وتحقيق ، ولكن هي خيالات وأمثلة ، فلما عذب ظنها الرائي نفس الحقائق كالذي يرى نفسه في مكان آخر يكلم أمواتاً ويكلمونه ، ويفعل أموراً كثيرة وهو في النوم ، يجزم بأنه نفسه الذي يقول ويفعل ، لأن عقله عذب عنه ، وتلك الصورة التي رآها مثل صورته وخيالها ، لكن غاب عقله عن نفسه ، حتى ظن أن ذلك المثل هو نفسه فلما ثاب إليه عقله علم أن ذلك خيالات ومثالات ، ومن الناس من لا يغيب عقله ، بل يعلم في المنام أن ذلك في المنام ، وهذا كالذي يرى صورته في المرأة أو صورة غيره ، فإذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هي الشخص ، حتى أنه يفعل به ما يفعل بالشخص ، وهذا يقع للصبيان والبله ، كما يخيل لأحدهم في الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل ، فيظنونه شخصاً حقيقة ، ولا يعلمون أنه خيال ، فالحس إذا أحس [حسّاً] صحيحاً لم يغلط ، لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال ، فإن العقل قد عقل قبل هذا أن مثل هذا يكون مثلاً . وقد عقل لوازم الشخص بعينه ، وإنه لا يكون في الهواء ولا في المرأة ، ولا يكون بدنه في غير مكانه ، وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين .

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج ، وما لا يكون موجوداً إلا في أنفسهم كحال النائم ، وهذا يعرفه كل أحد ، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً يرونها عياناً ، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره ويخاطبهم أولئك الأشخاص ، ويحملونهم ، ويذهبون بهم إلى عرفات فيقفون بها وإما إلى غير عرفات ، ويأتوهم بذهب وفضة ، وطعام ولباس ، وسلاح وغير ذلك ، ويخرجون إلى الناس ، ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه ، مثل من يكون له إرادة في امرأة أو صبي ، فيأتونه بذلك إما

محمولاً في الهواء وإما بسعي شديد ، ويخبر أنه وجد في نفسه من الباعث القوي ما لم يمكنه المقام معه أو يخبر أنه سمع خطاباً ، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه ، فهذا كله موجود كثيراً ؛ لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان ، وأنه من السحر ، وأن ذلك حصل بما قاله وعمله من السحر .

ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن ، ويقول : هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا ، ومنهم من لا يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين قال : هؤلاء رجال الغيب ، وإن تسموا فقالوا : هذا هو الخضر ، وهذا هو الياس ، وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القادر^(١) أو الشيخ عدي أو الشيخ أحمد الرفاعي^(٢) أو غير ذلك ظن أن الأمر كذلك .

فهنا لم يغلط ولكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت

(١) هو عبد القادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني ، أو الجيلي مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين ولد في جيلان عام ٤٧١ هـ وانتقل إلى بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف ، وسرع في أساليب الوعظ وتفقه ، وسمع الحديث وقرأ الأدب ، واشتهر ، وكان يأكل من عمل يده وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة ٥٢٨ هـ وتوفي بها عام ٥٦١ هـ له كتب منها « الغنية لطالب الطريق الحق » و « الفتح الرباني » وغير ذلك كثير . [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧١ وطبقات الشعراني ١ : ١٠٨ - ١١٤ وفوات الوفيات ٢ : ٢ ونور الأبصار ٢٢٤ وشذرات الذهب ٤ : ١٩٨]

(٢) هو أحمد بن علي بن الرفاعي الحسين أبو العباس الإمام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية ولد في قرية حسن من أعمال واسط بالعراق عام ٥١٢ هـ وتفقه وتآدب في واسط ثم سكن قرية أم عبيدة بالبطائح وتوفي بها عام ٥٧٨ هـ وقد صنف كثيراً كتباً خاصاً به وبطريقته وفي كتاب عجائب واسط لابن المهذب أن عدد خلفاء الرفاعي وخلفائهم بلغ مائة وثمانين ألفاً في حال حياته وجمع بعض كلامه في رسالة سميت « رحيق الكوثر » [راجع ابن خلكان ١ : ٥٥ وابن الساعي ١١٢ وفيه نسبة . ومرة الزمان ٨ : ٣٧٠ والشعراني ١ : ١٢١]

على صور هؤلاء ، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليقظة ، ومن يرى ذلك عند قبر النبي ﷺ أو الشيخ وهو صادق في أنه إياه من قال إنه النبي ، أو الشيخ ، أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك .

والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي ﷺ ، تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع ، مثل أن يأمره بما يخالف أمر الله ورسوله ، وتارة يعلم أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحدا من أصحابه بعد موته في اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لي ، وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره ، وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا .

وهذا يقع كثيرا لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رقيقة فلان ، وقد يقولون : هو معناه تشكّل وقد يقولون : روحانيته ، ومن هؤلاء من يقول : إذا مت فلا تدعوا أحدا يغسلني ولا فلانا يحضرني ، فإني أنا أغسل نفسي ، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ، ويكون ذلك جنيا قد قال لهذا الميت إنك تجيء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقا ، فإنه كان في حياته يقول له أمورا ومرض الشيطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاء المشركين كالهند فهذا كثيرا ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته ، ورد ودائع ، وقضى ديونا ، ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه ، وإنما هو شيطان تصور في صورته .

ومن هؤلاء من يكون في جنازة أبيه أو غيره ، والميت على سريره وهو يراه آخذا يمشي مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخا بعد أبيه فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره ، وإنما كان شيطانا ، ويكون مثل هذا الشيطان قد سمى نفسه خالدا وغير خالدا ، وقال لهم إنه من رجال الغيب ، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ويسمونه خالدا الغيبي ، وينسبون الشيخ إليه فيقولون : محمد الخالدي ونحو ذلك .

« الجن مكلفون كالأنس »

فإن الجن مأمورون ومنهيون ، كالإنس وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى : -

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ ^(١) .

وهذا بعد قوله :

﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ . وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(٢) .

« الاستمتاع بين الإنس والجن »

قال غير واحد من السلف : أي كثير من أغويتهم من الإنس وأضللتهم . قال البغوي ^(٣) : قال بعضهم : استمتع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم : من الأراجيف ، والسحر ، والكهانة ، وتزيينهم لهم الأمور التي

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٨ .

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان ، أبو القاسم البغوي : حافظ للحديث من العلماء ، أصله من بغشور (بين هراة ومرو الروذ - النسبة إليها بغوي) ومولده ووفاته ببغداد ، كان محدث العراق في عصره له « معالم التنزيل » في التفسير ، و« معجم الصحابة » و« الجعديات » في الحديث . [راجع معجم البلدان : بغشور] واللباب ١ : ١٣٣ وميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١]

يهيئونها ويسهل سبيلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة للإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي .

قال محمد بن كعب : هو طاعة بعضهم لبعض ، وموافقة بعضهم بعضا ، وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري . قال : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت للإنس ، .

وعن محمد بن كعب قال : هو الصّحابة في الدنيا .

وقال ابن السائب^(١) : استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم . واستمتاع الجن بالإنس أن قالوا : قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفا في أنفسهم ، وعظما في نفوسهم وهذا كقوله : -

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾^(٢)

قلت : « الاستمتاع بالشيء » هو أن يتمتع به فينال به ما يطلبه ويريده ويهواه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم ببعض كما قال : -

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾^(٣)

(١) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي أبو النضر نسابه راوية عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب من أهل الكوفة . شهد موقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث وصنف كتابا في تفسير القرآن وهو ضعيف الحديث قال النسائي حدث عنه الثقات من الناس ورضوه في التفسير ، وأما في الحديث ففيه مناكير وقيل كان سبيا من أصحاب عبد الله بن سبأ وهو أبو هشام صاحب كتاب الأصنام توفي عام ١٤٦ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ ، وميزان الاعتدال ٣ : ٦١ والوافي بالوفيات ٣ : ٨٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٣٣ - والفهرست لابن النديم ٩٥ -]

(٢) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٢٤ .

ومن ذلك الفواحش ، كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم ، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ، ومنه قوله : -

﴿ وَمَتَّعُوهُمْ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ ﴾ (١)

وكان من السلف من يتمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته ، ومنهم من يتمتع بكسوة أو نفقة ، ولهذا قال الفقهاء : أعلى المتعة خادم ، وأدناها كسوة تجزى فيها الصلاة .

وفي « الجملة » استمتع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس . قال تعالى : -

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : - ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (٣)

قال مجاهد : هي المودات التي كانت لغير الله . وقال الخليل : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (٥)

فالمشرك يعبد ما يهواه ، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣٦ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٦٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٦٦ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٢٥ .

(٥) سورة الفرقان آية رقم ٤٣ .

يهواه ، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والإنس تطيع الجن ، فتارة تسجد له ، وتارة تسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة تمكنه من نفسه ، فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذي يخدمه ما يريد نساء الإنس من الرجال ، وهذا كثير في رجال الإنس ونسائهم ، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي ، وقد يفعل ذلك بالذكران . وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة : تارة يكون الجن يحب المصروع فيصرعه ليتمتع به ، وهذا الصرع يكون أرقى من غيره وأسهل ، وتارة يكون الإنس آذاهم إذا بال عليهم ، أو صب عليهم ناراً حارة ، أو يكون قتل بعضهم أو غير ذلك من أنواع الأذى وهذا أشد الصرع ، وكثيراً ما يقتلون المصروع ، وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبث سفهاء الإنس بأبناء السبيل . ومن استمتع الإنس بالجن استخدمهم في الأخبار بالأمور الغائبة ، كما يخبر الكهان . فإن في الإنس من له غرض في هذا ، لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك . فإن كان القوم كفاراً كما كانت العرب لم تبال بأن يقال : إنه كاهن كما كان بعض العرب كهاناً ، وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان ، فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي ، بأنه يطيعه الإنسي في بعض ما يريده إما في شرك وإما في فاحشة وإما في أكل حرام ، وإما في قتل نفس بغير حق .

فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ^(١) ،

(١) قال تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ سورة =

ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم . وهم يأمرون السارق أن يسرق ، ويذهبون إلى أهل المال ، فيقولون : فلان سرق متاعكم ؟ ولهذا يقال : القوة الملكية ، والبهيمية والسبعية والشرطانية ، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذي ، وأما الشرطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة ، لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه ، ويحب ذلك ، كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا يتفجع بزوال النعمة عن المحسود ، لكن يبغض ذلك ، وقد يكون بغضه لفوات غرضه ، وقد لا يكون .

ومن استمتع الإنس بالجن استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام ، وثياب ونفقة ، فقد يأتون ببعض ذلك ، وقد يدلونه على كنز وغيره ، واستمتع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية .

الجن آية رقم ٦ .

أي زاد الجن الإنس « رهقا » أي خطيئة وإثماً قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، والرهق الإنم في كلام العرب وغشيان المحارم ورحل رهق إذا كان كذلك ومنه قوله تعالى : ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ وقال الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشفي وامق ما لم يصب رهقا

يعني إنما . وأضيفت الزيادة إلى الجن إذ كانوا سببا لها ، وقال مجاهد أيضاً « فزادهم » أي أن الإنس زادوا الجن طغيانا بهذا التعوذ ، حتى قالت الجن : سدننا الإنس والجن ، وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وابن زيد : ازداد الإنس بهذا فرقا وخوفاً من الجن .

وقال سعيد بن جبير : كفراً .

ومن استمتاع الإنسان بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنسان من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجني في صورة الإنسي ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه . وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به يا سيدي فلان فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه ، ثم إن الشيخ يقول : نعم ، ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل ، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه ، وهو الذي فعل ذلك حتى أن تابع الشيخ قد يكون يده في إناء يأكل ، فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء ، فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أنه يده في ذلك الإناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدق ، ويكون بينهما مسافة شهر ، والشيخ موضعه ويده لم تطل ، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريد ، حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجني وخيله .

وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله ، أو علة في النساء أو غير ذلك . فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المال معظما ، وأراد أن يدلّه على سرقة ، مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال ، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ولا يكون عليه ، لأن الذي سرق المال معه أيضا جني يخدمه ، والجن يخاف بعضهم من بعض كما أن الإنسان يخاف بعضهم بعضا ، فإذا دل الجني عليه جاء إليه أولياء السارق فأذوه ، وأحيانا لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه ، كما يصيب من يعرف اللصوص من الإنسان تارة يعرف السارق ولا يعرف به ، إما لرغبة ينالها منه ، وإما لرهبة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف

سارقه ، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

والجن مكلفون كتكليف الإنس ، ومحمد ﷺ مرسل إلى الثقلين الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بالنصوص وإجماع المسلمين .

وأما مؤمنوهم ففيهم قولان ، وأكثر العلماء على أنهم يشابون أيضا ويدخلون الجنة ، وقد روي أنهم يكونون في ربطها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس عكس الحال في الدنيا ، وهو حديث رواه الطبراني في معجمه الصغير يحتاج إلى النظر في إسناده .

وقد احتج ابن أبي ليلى (١) وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى : -

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ (٢)

وقد ذكر الجن والإنس : الأبرار والفجار في الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعي (٣) وغيره بقوله تعالى : -

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار (وقيل : داود) ابن بلال الانصاري الكوفي قاض فقيه ، من أصحاب الرأي ، ولي القضاء والحكم بالكوفة لبني أمية ، ثم لبني العباس واستمر ٣٣ سنة له أخبار مع الإمام أبي حنيفة وغيره ، مات بالكوفة عام ١٤٨ هـ .

[راجع تهذيب التهذيب ٩ : ٣٠١ وميزان الاعتدال ٣ : ٨٧ ووفيات الأعيان ١ : ٤٥٢ والوافي بالوفيات ٣ : ٢٢١ وفيه وفاته سنة ١٤٩]

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمى الأوزاعي من قبيلة الأوزاع أبو عمرو : إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ، وأحد الكتاب المترسلين ، ولد في بعلبك عام ٨٨ هـ ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفي بها عام ١٥٧ هـ وعرض عليه القضاء فامتنع قال صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ، كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام ، وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان . له كتاب « السنن » في الفقه ، والمسائل ، ويقدر ما سئل عنه من الأمور بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها .

[راجع ابن النديم ١ : ٢٢٧ والوفيات ١ : ٢٧٥ وتاريخ بيروت ١٥ وحلية الأولياء ٦ : ١٣٥]

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ، وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ (١) .

وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة . وقوله : -

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ (٢) .

ثم قال : -

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣)

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علواً ودرجات أهل النار تذهب سفلاً ، وقد قال تعالى عن قول الجن : -

﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ (٤)

وقالوا : - ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (٥) .

ففيهم الكفار والفاسق والعصاة ، وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما في الانس . وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الانس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ،

= وتهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الأول ٢٩٨ والمعارف ٢١٧]

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٨ - ١٩

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ١٦ .

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

(٤) سورة الجن آية رقم ١١ .

(٥) سورة الجن آية رقم ١٤ ، ١٥ .

والفساق مع المفسدين . وأهل البدع والجهل مع أهل الجهل والبدع .
واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء : منهم من
يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بغير
علم ، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين ، وإنما هو من أفعال
الشياطين .

ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة ، إما إحضار ماله أو دلالة على
مكان فيه مال ليس له مالك معصوم ، أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا
كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك . و«النوع الثالث» أن يستعملهم
في طاعة الله ورسوله ، كما يستعمل الإنس في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر
الله به ورسوله ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله كما يأمر الإنس
وينهاهم ، وهذه حال نبينا ﷺ وحال من اتبعه واقتدى به من أمته ، وهم أفضل
الخلق ، فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون
الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله ، إذ كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً
بذلك إلى الثقلين ، الإنس والجن . وقد قال الله له : -

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

وعمر رضي الله عنه لما نادى ياسارية (٣) الجبل ؟ قال : إن الله جنوداً

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣١ .

(٣) هو سارية بن زئيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدثلي : صحابي من الشعراء القادة الفاتحين ،
كان في الجاهلية لصاً كثير الغارات ، يسبق الفرس عدواً على رجليه ، ولما ظهر الإسلام =

يلغون صوتي ، وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحى الجن فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية ، وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر ، والا نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه . فيقول : يا فلان ؟ فيعان على ذلك فيقول : الواسطة بينهما يا فلان . وقد يقول لمن هو بعيد عنه يا فلان احبس الماء ، تعال إلينا ، وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك يا فلان احبس الماء ، أرسل الماء ، إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه . وهذه حكاية : كان عمر مرة قد أرسل جيشاً فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر ، فقال عمر ؛ من أين لكم هذا ؟ قالوا لشخص صفته كيت وكيت فأخبرنا ، فقال عمر ذاك أبو الهيثم يريد الجن ، وسيجيء يريد الإنسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج الناس يتحدثون به ، فإن الجن تسمعه وتخبر به الناس ، والذين يستخدمون الجن في المباحات يشبه استخدام سليمان ، لكن أعطي ملكاً لا ينبغي لأحد بعده . وسخرت له الإنس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره ، والنبي ﷺ لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال « فأخذته فذغته ^(١) حتى سال لعبه على يدي ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ، ثم ذكرت دعوة أخي سليمان فأرسلته ^(٢) » فلم يستخدم الجن أصلاً ، لكن دعاهم إلى

= أسلم ، وجعله عمر أميراً على جيش وسيره إلى بلاد فارس سنة ٢٣ هـ ففتح بلاداً منها أصبهان في رواية ، وهو المعنى بقول عمر : يا سارية الجبل توفي عام ٣٠ هـ [راجع الإصابة الترجمة ٣٠٣٤ وتهذيب ابن عساکر ٦ : ٤٣ وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ٤٩ والنجوم الزاهرة ١ :

(١) فذغته : أي خنقته .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة . ٨ - باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه ، وجواز العمل القليل في الصلاة ٣٩ (٥٤١) حدثنا اسحاق بن

الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم الرسالة ، وبايعهم كما فعل بالإنس . والذي أوتيته ﷺ أعظم مما أوتيته سليمان . فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته واختار أن يكون عبداً رسولاً على أن يكون نبياً ملكاً ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين . وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء ، وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة وما لأولياء الشيطان من ذلك - من السحرة والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب ، وأهل البدع والضلال من الداخلين في الإسلام فجعلوا الخوارق جنساً واحداً وقالوا : كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدي بمثلها .

« خاصة المعجزة عند المعتزلة »

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك ، وأن يقيض له من يعارضه ، ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله ، فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي مما لم يكن معتاداً للناس ، قالوا : إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة ، فهذه هي المعجزات عندهم ، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هي خرق العادة ، لكن انكروا كرامات الصالحين ، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس

= إبراهيم واسحاق بن منصور قالوا : أخبرنا النضر بن شميل أخبرنا شعبة ، حدثنا محمد (وهو ابن زياد) قال : سمعت أبا هريرة يقول وذكره - ورواه البخاري في الصلاة ٧٥ والعمل في الصلاة ١٠ والأنبياء ٤٠ وتفسير سورة ٣٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٩٨ ، ١٠٤ : ١٠٥ ، ١٠٥ (حلي)

الشعبذة والحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك . وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي ، قالوا : فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع .

وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها يكون للسحرة ما هو مثلها ، وتناقضوا في ذلك ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان ، وما يفعله الشياطين من العجائب ، وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ، فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة ، فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء ، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ، ثم يقولون : الولي إذا تولى لا يعترض عليه ، فمنهم من يراه مخالفاً لما علم بالأضطرار من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة ، وأكل الخبائث والخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك ، وفعل الفواحش ، والفحش والتفحش في المنطق ، وظلم الناس وقتل النفس بغير حق ، والشرك بالله ، وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلاً من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين تضل بها الناس وتغويهم .

« ظهور الجن في صور الصالحين »

ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك ، فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق ، وأنا أتوبك لي ، وأصير شيخك وأنت تتوب الناس لي ، ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره في النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول : أنا الشيخ فلان فلا شك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره . وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت ، فيأتونه في صورة ذلك الشيخ ، وقد يخلصونه مما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه ، أو أن

ملكاً تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين ، والملائكة لا تجيب مشركاً .

وتارة يأتون إلى من هو خال في البرية وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً ، ويكون كافراً ، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت ، فيأتيه في صورة أنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويتوبه ويطعمه ، ويدله على الطريق ، ويقول من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ويكون [من مؤمني الجن] .

كما جرى مثل هذا لي ، كنت في مصر في قلعتها ، وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أنني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردین ، وأرسل بذلك ملك ماردین إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس ، فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم ، لما جاؤوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أنني أنا الذي فعلت ذلك .

قال لي طائفة من الناس ، فلم لا يجوز أن يكون ملكاً ؟ قلت : لا : إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك .

« الجزم بموت الخضر »

وكثير من الناس رأى من قال : إني أنا الخضر ، وإنما كان جنياً . ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكاراً لموت الخضر والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر^(١) ، وكلا الطائفتين مخطئ ، فإن الذين رأوا من قال : إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون والحكايات متواترات .

هذا الجزء في كلمة وافية .

لكن أخطأوا في ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنياً ، ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيراً ما يأتيهم في كنائسهم من يقول إنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من يقول إنه الخضر ، وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضوع ، يبين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر ، وأنه غلط في ظنه أنه الخضر وإنما كان جنياً وقد يقول : أنا المسيح ، أو موسى ، أو محمد ، أو أبو بكر ، أو عمر ، أو الشيخ فلان ، فكل هذا قد وقع ، والنبي ﷺ قال : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي » ^(١) قال ابن عباس : في صورته التي كان عليها في حياته . وهذه رؤية في المنام ، وأما في اليقظة فمن ظن أن أحداً من الموتى يجيء بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة فمن جهله أتى .

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب - كما يظنون أنه أتى - إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكور في أناجيلهم ، وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذي جاء كان شيطاناً قال : أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه . ويجوز أن يشبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه . ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه ، فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء . وأصحاب الحلاج ^(٢) لما قتل كان يأتيهم

(١) متفق عليه عن أبي هريرة ، وأبي قتادة ، ورواه ابن ماجه عن أبي جحيفة وحذيفة وغيرهما ، وفي لفظ لبعضهم « فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي » . ورواه أحمد عن أبي قتادة بلفظ الترجمة وزيادة « فإن الشيطان لا يتزيا بي » . ورواه مسلم في كتاب الرؤيا ١ باب قول النبي - ﷺ - « من رآني في المنام فقد رآني » ١١ أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ يقول : وذكره .

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج أبو مغيث عد في زمرة الملحدين أصله من بيضاء فارس ونشأ بواسط العراق ، وانتقل الى البصرة وحج ، ودخل بغداد ، وعاد الى تستر ، وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ كان يظهر مذهب الشيعة للحلول « العباسيين » ومذهب الصوفية للعامة وهو في تضاعيف ذلك يدعي حلول الالهية فيه أمر المقتدر العباسي بالقبض عليه ، فسجن وعذب =

من يقول : أنا الحلاج . فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي^(١) بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة . وأراني صادقاً من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن - وقد رأيت خط الجن غير مرة - وفيه كلام من كلام الجن ، وذلك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي . وكان يقول : انتقل ثم مات ، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن وقيل كان بعد هذا يأتي أصحابه في صورته ، فيعتقدون أنه هو ، وكذلك الذي كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية^(٢) قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته ، وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً .

= وضرب . قال ابن خلكان وقطعت أطرافه الأربعة ثم حز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة من كتبه « طاسين الأزل والجوهر الأكبر والشجرة النورية ، والظل المحدود الى غير ذلك . [راجع الفهرست ١ : ١٩٠ ولغة العرب ٣ : ١٥٤ والمشرق ١٢ : ١٩١ وروضات الجنات ٢٢٦ وطبقات الصوفية ٣٠٧ والبداية والنهاية ١١ : ١٣٢ ولسان الميزان ٢ : ٣١٤ وميزان الاعتدال ١ : ٢٥٦ وفيه كان مقتله سنة ٣١١ هـ .]

(١) هو ابراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد ، يتصل نسبه بالحسين السبط ؛ من كبار المتصوفين ، كثير الأخبار من أهل دسوق (بغربية مصر) أورد الشعراني من كلامه مجموعة كبيرة اختارها من كتاب له اسمه « الجواهر » وأورد له شعراً ينحوفيه منحى ابن الفارض في وحدة الوجود ، وفي خطط مبارك أنه تفقه على مذهب الشافعي في أوليته ثم اقتفى آثار الصوفية توفي عام ٦٧٦ هـ .

[راجع طبقات الشعراني ١ : ١٤٣ - ١٥٨ وخطط مبارك ١١ : ٧]

(٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب ، الهاشمي القرشي ، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية ، أحد الأبطال الأتد . في صدر الاسلام وهو أخو الحسن والحسين ، غير أن أمهما فاطمة الزهراء وأمه خولة بنت جعفر الحنفية كان يقول : الحسن والحسين أفضل مني ، وأنا أعلم منهما ، كان واسع العلم ورعاً ، وكان المختار الثقفي يدعو الناس إلى أمامته ويزعم أنه المهدي وكانت الكيسانية تزعم أنه لم يمت وأنه مقيم برضوى مولده عام ٢١ ووفاته عام ٨١ هـ .

[راجع طبقات ابن سعد ٥ : ٦٦ ووفيات الأعيان ١ : ٤٤٩ وصفة الصفوة ٢ : ٤٢ وحلية الأولياء ٣ : ١٧٤]

فهذا باب واسع واقع كثيراً ، ولما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر ، ففي المشركين أكثر مما في النصارى ، وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام ، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها ، فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه ، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون ويصبرون خيراً مما كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً . وقد قال النبي ﷺ « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم » (١) .

وهكذا كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي ، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل ويغوى بها كثير من أهل الحق ، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها ، والخير والشر درجات فيتنفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه .

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين : من الرافضة والجهمية وغيرهم

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب القدر ٥ باب العمل بالخواتيم ٦ . ٦٦ أخبرنا عبد الله أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ خبير فقال رسول الله - ﷺ - لرجل ممن معه يدعي الاسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال ، قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح فأبقتته ، فجاء رجل من أصحاب النبي - ﷺ - فقال يا رسول الله أرأيت الذي تحدثت أنه من أهل النار قاتل في سبيل الله من أشد القتال فكثرت به الجراح فقال النبي - ﷺ - أما إنه من أهل النار فكاد بعض المسلمين يرتاب فينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح فأهوى بيده الى كنانته فانتزع منها سهماً فانتحر بها . فاشتد رجال من المسلمين الى رسول الله - ﷺ - فقالوا يا رسول الله : صدق الله حديثك ، قد انتحر فلان فقتل نفسه . فقال رسول الله - ﷺ - يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وأخرجه مسلم في الايمان ٤٧ باب غلظ تحريم قتل الانسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ١٧٨ - بسنده عن أبي هريرة وابن ماجه في كتاب الفتن ٣٥ والدارمي في السير ٧٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٩ ، ٥ : ٤٥ (حلي)

إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون أثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذلك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير .

وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص ، قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذباً وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف . ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخوله في حكم المسلمين خيراً من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه ، وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه .

والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، والنبى ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان : -

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ^(١)

وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

مذهب المعتزلة خير من مذهب الرافضة

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فإن المعتزلة تقر

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

بخلافة الخلفاء الأربعة ، وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر ، ولكن حكي عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل إحدى الطائفتين ، ولا أعلم عينها وقالوا إنه قال : لو شهد علي ^(١) والزبير ^(٢) لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ، ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان ، وهذا القول شاذ فيهم ، والذي عليه عامتهم تعظيم علي .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبي موسى ^(٣) وعمر بن العاص ^(٤)

(١) راجع ترجمة له في ابن الأثير : حوادث سنة ٤٠ والطبري ٦ : ٨٣ والبدء والتاريخ ٥ : ٧٣ وصفة الصفوة ١ : ١١٨ واليعقوبي ٢ : ١٥٤ ومقاتل الطالبين ١٤ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ وشرح نهج البلاغة ٢ : ٥٧٩ ومنهاج السنة ٣ : ٢ وما بعدها ثم ٤ : ٢ الى آخر الكتاب وتاريخ الخميس ٢ : ٢٧٦ والمسعودي ٢ : ٢ - ٣٩ والاسلام والحضارة العربية ٢ : ١٤١ و ٣٧٩ والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ - ٢٤٩ وفيه الخلاف في عمره يوم قتل ، قيل ٥٧ عاماً وقيل ٥٨ و ٦٣ و ٦٥ و ٦٨ والاصابة الترجمة ٥٦٩٠ .

(٢) هو الزبير بن العوام بن خولد الأسدي القرشي أبو عبد الله الصحابي الشجاع أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من سل سيفه في الاسلام وهو ابن عمه النبي - ﷺ - وله ١٢ سنة وشهد بدرأً وأحداً وغيرهما من المشاهد ، وكان على بعض الكرايس في اليرموك ، وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب ، وجعله عمر في من يصلح للخلافة بعده ، وكان موسراً كثيراً المتاجر قتل عام ٣٦ هـ قتله ابن جرهموز غيلة يوم الجمل . [راجع تهذيب ابن عساكر ٥ : ٣٥٥ والجمع ١٥٠ وصفة الصفوة ١ : ١٣٢ وحلية الأولياء ١ : ٨٩ وذيل المذيل ١١ وتاريخ الخميس ١ : ١٧٢ وفيه كان له ألف مملوك يؤدون الضريبة والبدء والتاريخ ٥ : ٨٣]

(٣) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن خضار بن حرب ، أبو موسى ، من بني الأشعر من قحطان : صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين ، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين ، ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام ، فأسلم - وهاجر الى أرض الحبشة ثم استعمله رسول الله - ﷺ - على زبيد وعدن ، وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ فافتتح أصبهان والأهواز له ٣٥٥ حديثاً توفي عام ٤٤ هـ . [راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٧٩ والاصابة ت ٤٨٨٩ وغاية النهاية ١ : ٤٤٢ وصفة الصفوة ١ : ٢٢٥ وحلية الأولياء ١ : ٢٥٦ والمنادى ١ : ٤٨]

لأجل علي ، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم ، بخلاف طلحة ^(١) والزبير وعائشة فإنهم يقولون : إن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ، ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج ، لا يختلفون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الإسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض ، وهم قصدتهم إثبات توحيد الله ورحمته ، وحكمته وصدقه ، وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس ، لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس ، فجعلوا من « التوحيد » نفي الصفات وإنكار الرؤية ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا بذلك الجهمية ، وجعلوا من « العدل » أنه لا يشاء ما يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيتته وخلقته لإثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة .

وكذلك هم والخوارج قالوا بـ « إنفاذ الوعيد » ليشبثوا أن الرب صادق لا يكذب ، إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه ، وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

= (٤) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبد الله ، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم ، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام وأسلم في هدنة الحديبية ، وولاه النبي - ﷺ - إمرة جيش « ذات السلاسل » وأمه بأبي بكر وعمر . توفي عام ٤٣ هـ . راجع الاستيعاب بهامش الإصابة ٢ : ٥٥١ والإصابة ت ٥٨٨٤ وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ٢٣٥ - ٢٤٠]

(١) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني ، أبو محمد ، صحابي شجاع من الأجواد ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام له ٣٨ حديثاً توفي عام ٣٦ هـ [راجع ابن سعد ٣ : ١٥٣ وتهذيب التهذيب ٥ : ٢٠]

بالسيف « قصدوا به طاعة الله ورسوله ، كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا في ذلك .

وكذلك إنكارهم للخوارج غير المعجزات قصدوا به إثبات النبوة ونصرها وغلطوا فيما سلكوه ، فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق وذلك لأنهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء .

« الأشعرية ردوا بدع المعتزلة وغيرهم »

والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم وبينوا ما بينوا من تناقضهم ، وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة ، فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير .

فإن الأشعري كان من المعتزلة ، وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبي علي الجبائي^(١) ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم . وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة ، بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية ، وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعري في شيء منها . بل ناقضهم في جميع أصولهم ، ومال في « مسائل العدل والأسماء والأحكام » إلى مذهب جهم ونحوه .

وكثير من الطوائف « كالنجارية »^(٢) أتباع حسين النجار^(٣)

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي : من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره ، وإليه نسبة الطائفة « الجبائية » له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب نسبتها إلى جبي (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة ومات عام ٣٠٣ هـ ودفن بجبي له تفسير حافل مطول رد عليه الأشعري . [راجع المقرئ ٢ : ٢٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٥ واللباب ١ : ٢٠٨ ومفتاح السعادة ٢ : ٣٥]

(٢) انظر في شأن هذه الفرقة مقالات الاسلاميين ١ : ٣١٥ والملل والنحل ١ : ٨٨ والتبصير ٦١ =

و«الضرارية»^(١) أتباع ضرار بن عمرو^(٢) يخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام ، وانفاذ الوعيد ، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارق والصوفية يذمونها ويعيبونها .

وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود ، وهم إلى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ، فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين . وروى بإسناده عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه : قالهمنا دينك الحق - وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له - حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود . ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم ،

= والفرق بين الفرق ٢٠٧ وما بعدها .

(٣) هو أبو عبد الله : الحسين بن محمد بن عبد الله النجار ، كان حائكاً في طراز العباس بن محمد الهاشمي ، وهو من متكلمي المجبرة ، وقيل إنه كان يعمل الموازين ، وكان إذا تكلم سمع له صوت كصوت الخفاش ، وله مع النظام مجالس ومناظرات ، وسبب موته أنه تناظر يوماً مع النظام فأفحمه النظام فقام محموراً ومات عقب ذلك ، وقد ذكر ابن النديم هذه المناظرة راجع الفهرست ص ٢٦٨ مصر .

(١) انظر في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٦٢ والتنبيه ص ٤٣ واعتقادات فرق المسلمين ص ٦٩ والملل والنحل ١ : ٩٠ والمقالات ١ : ٣١٣

(٢) هو ضرار بن عمرو وقد ظهر في أيام واصل بن عطاء ، وقد وضع بشر بن المعتمر كتاباً في الرد على ضرار سماه « كتاب الرد على ضرار » وذكر صاحب الانتصار نقلاً عن الراوندي أن له كتاباً سماه « التحريش » ذكر فيه مستند كل فرقة فيما هي عليه من كلام الرسول - ﷺ - ولا بد أنه قد اختلق فيه ووضع وخب في الباطل ووضع (الانتصار ص ١٣٦) وانظر أيضاً ميزان الاعتدال (٢ : ٣٢٨ الترجمة رقم ٣٩٥٣)

يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين . وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله ، فيعظمون العلم وطريقه ، وهو الدليل ، والسلوك في طريقه ، وهو النظر . وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد ، وطريق أهل الإرادة فهو لاء يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر وهذه هي القوة العلمية ، ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول . فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة ، وعظموا جنس النظر ، ولم يلتزموا النظر الشرعي ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به وبين النظر البدعي الباطل المنهى عنه .

وكذلك « الصوفية » عظموا جنس الإرادة إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا في الباب ، ولم يميز كثير منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الإرادة البدعية ، بل أقبلوا على طريق الإرادة طريقة النظر ، وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ، ولهذا صار هؤلاء يميل اليهم النصارى ويميلون اليهم ، وأولئك يميل اليهم اليهود ويميلون اليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض .

وكذلك بين أهل الكلام والرأي ، وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض ، وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا الصراط المستقيم ، صراط
الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

فصل عن التحريفات في التوراة والانجيل

فإن قيل : فإذا كان في كتب الأنجيل التي عندهم أن المسيح صلب ، وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم : أنا المسيح - ولا يقولون : إن الشيطان تمثل على صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعظم - وهذه أثر المسامير أو نحو هذا الكلام ، فأين الانجيل الذي قال الله عز وجل فيه :

﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ (١)

وقال قبل هذا :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ، وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢)

وقد قال قبل هذا :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ، ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٧ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٦ - ٤٧ .

ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴿١﴾ .

وقال أيضاً : -

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (٢)

وقال أيضاً :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم - وهم من كان في وقته ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة - لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم وكذلك قوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ (٤)

إخبار عن اليهود الموجودين ، وأن عندهم التوراة فيها حكم الله وكذلك قوله : ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ (٥)

هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الانجيل ، ومن لا يؤمر على

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٣ - ٤٤

(٢) سورة المائدة آية رقم ٦٦

(٣) سورة المائدة آية رقم ٦٨

(٤) سورة المائدة آية رقم ٤٣

(٥) سورة المائدة آية رقم ٤٧

لسان محمد ﷺ .

قيل قبل هذا : إنه قد قيل : ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، بل ذلك مبدل ، فإن التوراة انقطع تواترها والإنجيل انما أخذ عن أربعة .

ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة أو الانجيل باطل ليس من كلام الله ، ومنهم من قال : بل ذلك قليل . وقيل لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب . وإنما حرموا معانيها بالتأويل ، وهذان القولان قال كلاً منهما كثير من المسلمين .

والصحيح القول الثالث . وهو أن في الأرض نسخاً صحيحة ، وبقيت الى عهد النبي ﷺ ، ونسخاً كثيرة محرفة ، ومن قال إنه لم يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه ، ومن قال جميع النسخ بعد النبي ﷺ حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، ويخبر أنه فيهما حكمه ، وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ .

وإذا كان كذلك فنقول . هو سبحانه قال :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ ^(١)

وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح ، فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها في التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيتهما ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو مما كتبه مع ذلك للتعريف بحال توفيتهما ، وهذا خبر محض من الموجددين بعدهما عن حالهما ، ليس هو مما

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٧

أنزله الله عليهما ولا هو مما أمرا به في حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس .

وكذلك : ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (٢)

فإن إقامة الكتاب العمل بما أمر الله به في الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول ، وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ليس هو مما أنزله الله على الرسول ، ولا مما أمر به ولا أخبر به ، وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة يصنف الشخص كتاباً ، فيذكر ناسخه في آخره عمر المصنف ونسبه وسنه . ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن ، وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن ، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ، ولا آمين ولا غير ذلك . والمصاحف القديمة كتبها أهل العلم على هذه الصفة ، وفي المصاحف من قد كتبها ناسخها أسماء السور . والتخميس ، والتعشير ، والوقف ، والابتداء ، وكتب في آخر المصحف تصديقه ، ودعا ، وكتب اسمه ، ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن فهكذا ما في الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه الى الحواريين ليس هو مما قاله المسيح وإنما هو مما رآه من بعده ، والذي أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله . فإن قيل : فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٨ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٦٦ .

والدين ، فقد دخلت الشبهة .

قيل : الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء ، فإن الحجة في كلام الأنبياء ، وما سوى ذلك فموقوف على الحجة إن كان حقا قبل وإلا ردّ ، ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله . لا سيما المتواتر كالقرآن ، وكثير من السنن ، وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه فاجماعهم معصوم ، وما تنازعوا فيه ردّ الى الله والرسول ، وعمر قد كان أولا أنكر موت النبي ﷺ حتى رد ذلك عليه أبو بكر ، وقد تنازعوا في دفنه حتى فصل أبو بكر بالحديث الذي رواه ، وتنازعوا في تجهيز جيش أسامة ، وتنازعوا في قتال مانعي الزكاة ، فلم يكن هذا قادحا فيما نقلوه عن النبي ﷺ (١) .

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ، ولم يشهد أحد منهم صلبه ، فإن الذي صلب إنما صلبه اليهود ، ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضرا ، وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح . وقد قيل : إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ، ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس ، والأول هو المشهور ، وعليه جمهور الناس (٢) .

وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب ، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذي جاء بعد أيام . وقال : أنا المسيح وذاك شيطان ، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيرا ما تجيء ويدعي [أحدهم] أنه نبي أو صالح . ويقول : أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطانا وفي ذلك حكايات متعددة ، مثل حكاية الراهب الذي جاءه جاء وقال : أنا المسيح جئت لأهديك ، فعرف أنه الشيطان فقال : أنت قد بلغت الرسالة ، ونحن

(١) راجع ما كتبه الامام الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » بشأن الخلافات التي حدثت في حياة المسلمين ، وراجع مقدمة شرح العقيدة الطحاوية بتحقيقنا .

(٢) قال تعالى : ﴿ وما صلبوه وما قتلوه ، ولكن شبه لهم ﴾ .

نعمل بها ، فإن جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند اليهود والنصارى علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى :
﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ
الظَّنِّ ﴾ (١) .

وأضاف الخبر عن قتله الى اليهود بقوله : -

﴿ وَقَوْلِهِمْ ، إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (٢) فإنهم
بهذا الكلام يستحقون العقوبة ، إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ، ومن
جوز قتله فهو كمن قتله ، فهم في هذا القول كاذبون وهم آثمون . وإذا قالوا
فخراً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه ، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك
وسعيهم فيه . وقد قال النبي ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل
والمقتول في النار . قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال إنه
كان حريصاً على قتل صاحبه » (٣)

« تفسير قوله تعالى : وإن الذين اختلفوا فيه »

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ (٤)

قيل : هم اليهود وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين . وقوله : -

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٥٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في الفتن « باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما » ٣٩٦٤ - ثنا يزيد بن
هارون عن سليمان التيمي وسعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن أبي موسى قال
قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات . وأخرجه النسائي في التحريم ٢٩ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٥٧ .

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ قيل : من قتله . وقيل : منه أي في شك منه هل صلب أم لا ، كما اختلفوا فيه فقالت اليهود هو ساحر ، وقالت النصارى إنه إله ، فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا ، وهم في شك من ذلك : -

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾

فإذا كان هذا في الصلب فكيف في الذي جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح ؟ فإن قيل : [إذا] كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا في إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم : -

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (١)

وقوله : -

﴿ فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوتِهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (٢)

قيل : ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح في إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح . بل هو مقرر بأنه عبد الله ورسوله . وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح في إيمانه ، فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلا له ، وقتل النبي لا يقدح في نبوته ، وقد قتل بنو اسرائيل كثيراً من الأنبياء - قال تعالى : -

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (٣) الآية وقال تعالى : -

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

انقلبتم على أعقابكم ﴾ (٤)

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الصف آية رقم ١٤ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٤٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤ .

وكذلك اعتقاد من يعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع ونسبهم هو . مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي ﷺ جاءهم في اليقظة ، فإنهم لا يكفرون بذلك ، بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة واتباعاً له ، وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره ، وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله ، فهذا غلط منه لا يوجب كفره ، فكذلك ظن من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ، ولا يقدر فيما نقلوه عنه ، وعمر لما كان يعتقد أن النبي ﷺ لم يمت ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه (١) ، لم يكن هذا قادحاً في إيمانه وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

« والله أعلم »

(١) لما اختار الله تعالى رسوله إلى الرفيق الأعلى ، وسمع المسلمون ذلك اشتد الحزن بهم وعلا ضجيجهم ، ومن شأن الحزن إذا اشتد أن يعطي على العقول ، وكان من الذين غلبهم الحزن عمر بن الخطاب ، فشهّر سيفه وقال : من قال إن رسول الله قد مات ضربته بسيفي هذا فجاء أبو بكر فقال : كلمته المشهورة وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ فسكن عمر وثاب المسلمون إلى الصواب ، وكان عمر يقول : والله لقد أنسيت هذه الآية ، ولكنني لم أسمعها حتى سمعتها من أبي بكر .

فصل

في النعي على الكفار لاتباعهم الظن وتنوع طرق الناس
في جواز هذا ..

وقوله تعالى في هذه : -

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ (١).

هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم ، وكذلك قوله : -

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (٢).

وكذلك قوله : -

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٣)

وقوله تعالى : -

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٧

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٢٨ .

هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١﴾ .

وقوله : - ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون الا الظن ، وكذلك قوله : ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ، قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ (٣) مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم . ولذلك قوله : -

﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤)

وقوله : - ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٥)

وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم ، وعمل بالظن .

وقد ثبت في السنة المتواترة وإجماع الأمة أن الحاكم يحكم بشاهدين ، وإن لم يكن شهود حلف الخصم ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « إنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أفضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » (٦)

(١) سورة يونس آية رقم ٦٦ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٣٥ - ٣٦ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٤٣ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١١٩ .

(٦) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الأقضية ٣ باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة ، ٥ - =

والاجتهاد في « تحقيق المناط » مما اتفق المسلمون عليه ، ولا بد منه كحكم ذوي عدل بالمثل في جزاء الصيد ، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ونحو ذلك ، فلا يقطع به الإنسان ، بل يجوز أن تكون القبلة في غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام لا بد فيها من هذا ، فإن دلالة العموم في الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس ، وإن كان قوم نازعوا في القياس ، فالفقهاء منهم لم ينازعوا في خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع في هذا وهذا لم ينازع في العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع في العموم والقياس منازع ، كبعض الرافضة مثل الموسوي ونحوه لم ينازع في الأخبار ، فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل عن الإثني عشر ، فلا بد لهم من الرواية ولا يوجد من يستغني عن الظواهر والأخبار والأقيسة ، بل لا بد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه ، وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن .

وقد تنوعت طرق الناس في جواز هذا ، فطائفة قالت : لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلاً ، وقالوا إن خبر الواحد يفيد العلم ، وكذلك يقولون في الظواهر ، بل يقولون نقطع بخطأ من خالفنا ، ونقض حكمه ، كما يقول داود (١) وأصحابه ، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونونه ظاهراً ، وأما

= أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب ، أخبرني عروة بن الزبير عن زينب بنت أسامة عن أم سلمة زوج النبي - عليها السلام - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج اليهم فقال إنما أنا بشر وذكره . وأخرجه الامام البخاري في كتاب ٢٩ ، ٣١ وفي كتاب المظالم ١٦ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٠٨ (حلي)

(١) هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني أبو سليمان ، الملقب بالظاهري أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام تنسب إليه الطائفة الظاهرية ، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وأعراضها عن التأويل والرأي والقياس ، وكان داود أول من جهر بهذا القول ، وهو أصبهاني الأصل من أهل « قاشان » بلدة قريبة من أصبهان ومولده عام ٢٠١ هـ بالكوفة سكن بغداد =

الاستصحاب ، فالاستصحاب في كثير من المواضع من أضعف الأدلة - وهم في كثير مما يحتاجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ ، بل الظاهر خلافه ، فطائفة قالت : لما قدم الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كنا متبعين للعلم ، فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم ، لا نعمل بالظن وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأتباعه (١) .

وهنا السؤال المشهور في « حد الفقه » إنه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، وقال الرازي : العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة قال :

فإن قلت : الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علماً ؟ .

قلت : المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم قطع بوجوب العمل مما أدى إليه ظنه ، فالعلم حاصل قطعاً ، والظن واقع في طريقه ، وحقيقة هذا الجواب إن هنا مقدمتين (إحداهما) أنه قد حصل عندي ظن و (الثانية) قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن .

ف - « المقدمة الأولى » وجدانية . و « الثانية » عملية استدلالية ، فليس الظن هنا مقدمة في الدليل كما توهمه بعضهم ، لكن يقال : العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه ، بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر ، وخبر الواحد والقياس والأصول تفيد أن العمل بهذا الظن واجب ،

= وانتهت إليه رئاسة العلم فيها ، قال ابن خلكان قيل : كان يحضر مجلسه كل يوم أربعمئة صاحب طليسان أخضر ، وقال ثعلب : كان عقل داود أكبر من علمه ، وله تصانيف أورد ابن النديم أسماءها في زهاء صفحتين توفي في بغداد عام ٢٧٠ هـ . [راجع تهذيب ابن عساكر

٥ : ٣٠٣ والمحرر ٣٣ وميزان الاعتدال ١ : ٣٢١ والطبري ٩ : ١٤٧]

(١) القاضي هو أبو بكر الطيب الباقلائي - سبق الترجمة له وأتباعه هم « الأشاعرة »

وإلا فالفقهاء لا يتعرضون لهذا . فهذا الحكم العملي الأصولي ليس هو الفقه . وهذا الجواب جواب القاضي أبي بكر ، وهو بناء على أصله ، فإن عنده كل مجتهد مصيب ، وليس في نفس الأمر أمر مطلوب ، ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن ، بل الظنون عنده بحسب الاتفاق . وقال الغزالي وغيره ممن نصر قوله : قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر ، كميل ذي الشدة إلى قول ، وذي اللين إلى قول .

وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظناً في نفسه ، فحكم الله في حقه اتباع هذا الظن ، وقد أنكر أبو المعالي ^(١) وغيره عليه هذا القول إنكاراً بليغاً ، وهم معذورون في إنكاره ، فإن هذا أولاً مكابرة ، فإن الظنون عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن ، وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشرعية جاءت به ورجحت شيئاً على شيء والكلام في شيئين : في اتباع الظن ، وفي الفقه هل هو من الظنون ؟ .

أما الأول : فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث ، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فإنما أمر بالعلم ، وذلك أنه في المسائل الخفية عليه أن ينظر في الأدلة ، ويعمل بالراجح ، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عند أمر مقطوع به ، وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان فإنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح ، وفرق بين اعتقاد

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين ، أعلم المتأخرين ، من أصحاب الشافعي ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد ، فمكة حيث جاور أربع سنين ، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس جامعاً طرق المذاهب ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فيها ، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء ، له مصنفات كثيرة منها « غياث الأمم والنيات الظلم » والعقيدة النظامية في الأركان الإسلامية » توفي عام ٤٧٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ والفهرس التمهيدي

الرجحان ورجحان الاعتقاد . أما اعتقاد الرجحان فقد يكون علماً وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان ، وإذا ظن الرجحان أيضاً فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ، ورجحان هذا غير معلوم ، فلا بد أن ينتهي الأمر الى رجحان معلوم عنده فيكون متبعاً لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن وهو اتباع الأحسن ، كما قال : -

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۖ ﴾ (١).

وقال ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٢)

وقال ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٣)

فإذا كان أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن ، وهذا معلوم . فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره ، وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحينئذ فما عمل إلا بالعلم وهذا جواب الحسن البصري ، وأبي (٤) وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن فلم يستند ظنه

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥

(٢) سورة الزمر آية رقم ١٨ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٥٥

(٤) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد ، من بني النجار ، من الخزرج أبو المنذر صحابي أنصاري ، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود ، مطلعاً على الكتب القديمة يكتب ويقرأ ولما أسلم كان من كتاب الوحي ، وشهد بدرأً وأحدأً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ وكان يفتي على عهده ، وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس ، وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه وله في الصحيحين وغيرهما ١٦٤ حديثاً وفي الحديث : اقرأ أمي أبي بن كعب « توفي عام ٢١ هـ راجع طبقات ابن سعد ٣ القسم الثاني ٥٩ وغاية النهاية ١ : ٣١ وصفة الصفوة ١ : ١٨٨ وحلية ١ : ٢٥٠ والمؤتلف والمختلف ٢٤ وسمط اللآلي ٤٩٤ .

إلى علم بأن هذا أرجح من غيره : كما قال : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ (٢) وهكذا في سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد لا علم معه ، وهم يتبعونه ، والذي جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعملون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت في نفس الأمر .

وهذا كما ذكر النبي ﷺ حيث قال : - « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بنحو مما أسمع » (٣) .

فإذا أتى أحد الخصمين بحجة . مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح ، فما حكم إلا بعلم ، لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أو لا يحسن أن يبينها ، مثل أن يكون قد قضاه أو أبراه ، وله بينة تشهد بذلك ، وهو لا يعلمها أو لا يذكرها أو لا يجسر أن يتكلم بذلك ، فيكون هو المضيع لحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل ، وضياح حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم .

وهكذا أدلة الأحكام ، فإن تعارض خبران أحدهما مسند ثابت والآخر مرسل كان المسند الثابت أقوى من المرسل ، وهذا معلوم ، لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه كشاهدين زكى أحدهما ولم يذكرك الآخر ، فهذا المزكى أرجح ، وإن جاز أن يكون في نفس

(١) سورة النجم آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

الأمر قول الآخر هو الحق ، لكن المجتهد إنما عمل بعلم ، وهو علمه برجحان هذا على هذا ، ليس ممن لم يتبع إلا الظن ، ولم يكن تبين له إلا بعد الاجتهاد التام فيمن أرسل ذلك الحديث ، وفي تزكية هذا الشاهد ، فإن المرسل قد يكون راويه عدلاً حافظاً ، كما قد يكون هذا الشاهد عدلاً .

ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوي ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهما ، وقد لا نعلم عدالتهما مع تقويتها ورجحانها في نفس الأمر ، فمن هنا يقع الخطأ في الاجتهاد ، لكن هذا لا سبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لا مكان ثبوته في نفس الأمر ، فإذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذي علم ثبوته على ما لا يعلم ثبوته ، وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته ، فإنهما إذا تعارضا وكانا متناقضين ، فإثبات أحدهما هو نفي الآخر ، فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفي ذلك ، وذلك المجهول بالعكس ، فإذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على ما لم يعلم ثبوته .

« الفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد »

ولكن قد يقال : إنه لا يقطع بثبوته ، وقد قلنا : فرق بين اعتقاد الرجحان ، ورجحان الاعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فهو علم ، والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم ، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا ، وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن ، لكن لم يكن ممن قال الله فيه : -

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾

بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذاك ، وهذا الظن هو الراجح ، ورجحانه معلوم ، فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح ، وهذا معلوم له لا مظنون عنده ، وهذا يوجد في جميع العلوم ، والصناعات كالطب والتجارة ، وغير ذلك .

وأما الجواب عند قولهم الفقه من باب الظنون : فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب ^(١) بجواب آخر ، وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر ، وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه كقوله :

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ ^(٢)

والتحقيق أن عنه جوابين :

« أحدهما » أن يقال : جمهور مسائل الفقه التي يحتاج إليها الناس ويفتقون بها هي ثابتة بالنص أو الإجماع ، وإنما يقع الظن والنزاع في قليل مما يحتاج إليه الناس ، وهذا موجود في سائر العلوم ، وكثير مسائل الخلاف هي في أمور قليلة الوقوع ومقدرة ، وأما مالا بد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين بالضرورة جزء من الفقه ، وإخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ، ولا احترز بهذا القيد أحد إلا الرازي ونحوه ، وجميع الفقهاء يذكرون في كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة ، والحج واستقبال القبلة ، وجوب الوضوء والغسل من الجنابة ، وتحريم الخمر والفواحش ، وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة .

و« أيضا » فكون الشيء معلوماً من الدين ضرورة أمر إضافي ، فحديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية ، فضلا عن كونه يعلمه بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي ﷺ سجد

(١) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوزاني أبو الخطاب : إمام الحنبلية في عصره ، أصله من كلواذي (من ضواحي بغداد) مولده ووفاته ببغداد من كتبه « التمهيد » في أصول الفقه ، والانتصار في المسائل الكبار ، ورؤوس المسائل » وغير ذلك ، وله اشتغال بالأدب ونظم توفي عام ٥١٠ هـ [راجع اللباب ٢ : ٤٩ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ ومخطوطات رباط الفتح ١ : ١٤١ وطبقات الحنابلة ٩ : ٤]

(٢) سورة الممتحنة آية رقم ١٠

للسهو^(١) ، وقضى بالدية على العاقلة^(٢) ، وقضى أن الولد للفراش^(٣) وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه البتة .

« الجواب الثاني » أن يقال : الفقه لا يكون فقهاً إلا من المجتهد المستدل ، وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح ، فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل وهذا الظن ، ليس الفقه قطعه بوجوب العمل ، أي بما أدى إليه اجتهاده ، بل هذا القطع من أصول الفقه ، والأصولي يتكلم في جنس الأدلة ، ويتكلم كلاماً كليلاً فيقول : يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما ويقول أيضاً : إذا تعارض العام والخاص فالخاص أرجح ، وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح ، ويقول أيضاً : العام المجرد عن قرائن التخصيص شموله الأفراد أرجح من عدم شموله ويجب العمل بذلك .

فأما الفقيه : فيتكلم في دليل معين في حكم معين ، مثل أن يقول قوله : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ

(١) أخرج ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة منها ١٣٠ باب من صلى الظهر خمساً وهو ساه بسنده عن عبد الله . قال صلى النبي ﷺ الظهر خمساً فقبل له : أزيد في الصلاة ؟ قال : وما ذاك فقبل له : فثنى أرجله فسجد سجدتين .

(٢) أخرج ابن ماجه في كتاب الديات ٧ باب الدية على العاقلة ٢٦٣٣ - بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : قضى رسول الله - ﷺ - « بالدية على العاقلة »

(٣) أخرج الإمام مسلم في كتاب الرضاع ١٠ باب الولد للفراش وتوفى الشبهات ٣٦ - حدثنا ليث ، وحدثنا محمد بن رمح أخبرنا الليث عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أنها قالت : اختصم سعد بن أبي وقاص ، وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد : هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إلي أنه ابنه ، أنظر إلى شبهه وقال عبد بن زمعة ، هذا أخي يا رسول الله ، ولد على فراش أبي من وليدته ، فنظر رسول الله - ﷺ - إلى شبهه فرأى شبهاً بيناً بعتبة ، فقال : هولك يا عبد : الولد للفراش وللعاهر الحجر واحتجني منه يا سودة بنت زمعة ، قالت : فلم ير سودة قط ، ولم يذكر محمد بن رمح قوله « يا عبد »

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿١﴾ .

خاص في أهل الكتاب ، ومتأخر عن قوله :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ (٢) .

وتلك الآية لا تتناول أهل الكتاب ، وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر ، فيكون ناسخاً ومخصصاً ، فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم ، وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً ، وهذا الفقه الذي يختص به الفقيه هو علم قطعي لا ظني ، ومن لم يعلم كان مقلداً للائمة الأربعة والجمهور الذين جوزوا نكاح الكتابيات ، واعتقاد المقلد ليس بفقه .

ولهذا قال المستدل على أعيانها : والفقيه قد استدل على عين الحكم المطلوب والمسؤول عنه ، وحيث لا يعلم الرجحان فهو متوقف لا قول له ، وإذا قيل له : فقد قال :

﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ (٣)

قال : هذا نزل عام الحديبية ، والمراد به المشركات ، فإن سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً ، وسورة المائدة بعد ذلك ، فهي خاص متأخر وذاك عام متقدم ، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم .

استجابة الصحابة لأوامر الله تعالى

ولهذا لما نزل قوله : -

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ .

﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ ﴾ ^(١)

فارق عمر امرأة مشركة ، وكذلك غيره ، فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية ، ولو كانت آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك ، فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة ، وآية المائدة بعد آية البقرة ، فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل ، وظن على دليل ، وهذا علم لا ظن . فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وأن العالم إنما يعلم بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا اذا علم رجحانه ، وأما الظن الذي لا يعلم رجحانه فلا يجوز اتباعه ، وذلك هو الذي ذم الله به من قال فيه : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾

فهم لا يتبعون إلا الظن ، ليس عندهم علم ، ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لكانوا قد اتبعوا علما لم يكونوا ممن يتبع إلا الظن « والله أعلم » .

(١) المراد بالكوافر عبدة الأوثان من لا يجوز ابتداء نكاحها ، فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب ، وقيل هي عامة نسخ منها نساء أهل الكتاب ولو كان إلى ظاهر الآية لم تحل كافرة بوجه ، وعلى القول الأول : إذا أسلم وثني أو مجوسي ، ولم تسلم امرأته فرق بينهما ، وهذا قول بعض أهل العلم ، ومنهم من قال : ينتظر بها تمام العدة ، فمن قال يفرق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العدة إذا عرض عليها الإسلام ولم تسلم مالك بن أنس وهو قول الحسن وطاووس ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة والحكم ، واحتجوا بقوله تعالى : وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ ، وقال الزهري : ينتظر بها العدة ، وهو قول الشافعي وأحمد ، واحتجوا بأن سفيان بن حرب أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته ، وكان إسلامه بمر الظهران ثم رجع إلى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها ، فأخذت بلحيته وقالت : اقتلوا الشيخ الضال ، ثم أسلمت بعده بأيام فاستقر على نكاحها لأن عدتها لم تكن انقضت .

فصل في موارد الإجتهد

فهنا ثلاثة أشياء « أحدها » الظن الراجح في نفس المستدل المجتهد .
و « الثاني » الأدلة - التي يسميها بعض المتكلمين أمارات - التي تعارضت ،
وعلم المستدل بأن التي أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها .

« الثالث » أنه قد يكون في نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم
يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع في عامة موارد الاجتهاد . فإن الرجل قد
يسمع نصاً عاماً ، كما سمع ابن عمر وغيره أن النبي ﷺ نهى عن قطع
الخفين ، وأنه أمر أن لا يخرج أحد حتى يودع البيت ، أو أن النبي ﷺ نهى^(١)
عن لبس الحرير وظاهره العموم ، وهذا راجح على الاستصحاب النافي
للتحريم ، فعملوا بهذا الراجح ، وهم يعلمون قطعاً أن النهي أولى من
الاستصحاب ، لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ، ولكن لما
لم يعلموه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى ما لم يعلموه ، فكانوا يفتون
بأن الحاتص عليها الدواع ، وعليها قطع الخفين ، وإن قليل الحرير وكثيره

(١) أخرج ابن ماجه في كتاب اللباس ١٦ باب كراهية لبس الحرير ٣٥٩١ - بسنده عن عبيد الله بن
عمر ، عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره ، أن عمر بن الخطاب رأى حلة سيرة من حرير ،
فقال يا رسول الله لو ابتعت هذه الحلة للوفد ، وليوم الجمعة . فقال رسول الله - ﷺ : إنما
يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة .

حرام، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء؛ لعموم قوله «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» (١) وكان في نفس الأمر نصوص خاصة بأن النبي ﷺ رخص للحائض أن تنفر بلا وداع، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم، ولكن تجتنب النقاب والقفازين. وأنه رخص في موضع أصبعين أو ثلاث أو أربعة من الحرير، كما بين ذلك في الصحيح في رواية عمر، ولم يعرف به ابنه عبد الله، وكان له جبة مكفوفة بالحرير فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا. وعلموا حينئذ أنه كان في نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذي يستصحبوه ولم يعلموا به، وهم في الحالين إنما حكموا بعلم لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن، فإنهم أولا رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية، وهذا ترجيح بعلم، فإن هذا راجح بلا ريب، والشرع طافح بهذا.

فما أوجبه الله أو حرمه في كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما هي نصوص عامة، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة، وهي راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم، فمن رجع ذلك فقد حكم بعلم، وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان، ولم

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب اللباس والزينة ٢ باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء ١١ حدثنا عبيد بن سعيد، عن شعبة عن خليفة بن كعب أبي ذبيان قال: سمعت عبد الله بن الزبير يخطب يقول: ألا لا تلبسوا نساءكم الحرير، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله - ﷺ - لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة. وكذلك البخاري في اللباس ٢٥ والترمذي في باب ما جاء في الحرير والذهب بسنده عن سويد بن غفلة عن عمر أنه خطب بالعجبية فقال: نهى نبي الله - ﷺ - عن الحرير إلا موضع أصبعين أو ثلاث أو أربع.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن ماجه في كتاب اللباس ١٦ باب كراهيه لبس الحرير. ٣٥٨٨ بسنده عن أنس بن مالك. قال: قال رسول الله - ﷺ - وذكره.

يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصا صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم ، وكذلك لو علم إرادة نوع قطع بانتفاء الخصوص ، وهذا القول في سائر الأدلة ، مثل أن يتمسك بنصوص ، وتكون منسوخة ، ولم يبلغه الناسخ كالذين نهوا عن الانتباز في الأوعية وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ ، وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ ، مثل من كان من المسلمين بالبوادي وبمكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة ، وصلى بعضهم صلاة إلى القبلتين ، بعضها إلى هذه القبلة ، وبعضها إلى هذه القبلة ، لما بلغهم النسخ وهم في أثناء الصلاة فاستداروا في صلاتهم من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة ، من جهة الشام إلى جهة اليمن .

فالقاضي أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون في الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه ، ويقولون : ما ثم إلا الظن الذي في نفس المجتهد ، والامارات لا ضابط لها وليست أمانة أقوى من أمانة ؛ فإنهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذي عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئا ، وعندهم ليس في نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والأئمة الأربعة والجمهور فيقولون : بل الامارات بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر ، وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى ، فإذا رأى دليلا أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئا معذورا . وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه وخطأه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤخذ بتركه .

فإذا أريد بالخطأ الإثم فليس المجتهد بمخطيء ، بل كل مجتهد

مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر فالمصيب واحد وله أجران ، كما في المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة - واحد وله أجران لاجتهاده وعمله - كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علما وعملا زاده أجرا بما زاده من العلم والعمل . قال تعالى : -

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ (١)

قال مالك عن زيد بن أسلم (٢) بالعلم ، وكذلك قال في قصة يوسف :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وإن « الفقه » من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر . إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر كما قال تعالى : -

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٤)

(١) سورة الأنعام آية رقم ٨٣

(٢) هو زيد بن أسلم العدوي العمري ، مولاهم أبو أسامة ، فقيه مفسر من أهل المدينة ، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته واستقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق مستفتياً في أمر ، وكان ثقة كثير الحديث له حلقة في المسجد النبوي ، وله كتاب في التفسير توفي عام ١٣٦ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ١٢٤ وتهذيب التهذيب ٣ : ٣٩٥]

(٣) سورة يوسف آية رقم ٧٦

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٧٨ - ٧٩ .

وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال في الأصول والفروع ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بل جعل الدين « قسمين » أصولاً ، وفروعاً لم يكن معروفاً في الصحابة والتابعين ، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين أن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم لا في الأصول ولا في الفروع ، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة وأدخله في أصول الفقه من نقل ذلك عنهم ، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبري (١) أنه قال : كل مجتهد مصيب ومراده أنه لا يأثم . وهذا قول عامة الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما .

« القصد من هجر أهل البدع ورد شهادتهم »

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها - كمالك وأحمد - فليس ذلك مستلزماً لإثمهما ، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة ، فإذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعا له من إظهار البدعة ، ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره ، وكذلك قال الخرقي (٢) : ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد ، وبسط هذا له موضع آخر .

(١) هو عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري ، من تميم : قاض ، من الفقهاء العلماء بالحديث من أهل البصرة ، قال ابن جبان من ساداتها فقهاً وعلماً ولي قضاءها سنة ١٥٧ هـ وعزل سنة ١٦٦ هـ وتوفي فيها عام ١٦٨ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٧ : ٧ وذيل المذيل ١٠٦ هـ ورغبة الأمل ٤ : ١٦٥]

(٢) هو عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقي ، أبو القاسم ، فقيه حنبلي من أهل بغداد ، رحل عنها لما ظهر فيها سبب الضحابة ، نسبته إلى بيع الخرق ، ووفاته بدمشق ، له تصانيف احترقت ، وبقي منها « المختصر » في الفقه يعرف بمختصر الخرقي توفي عام ٣٣٤ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٧٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٣ : ١٧٨]

« عمدة من فرق بين مجتهدي الأصول والفروع »

والذين فرقوا بين الأصول والفروع لم يذكروا ضابطا يميز بين النوعين ، بل تارة يقولون : هذا قطعي وهذا ظني ، وكثير من مسائل الأحكام قطعي ، وكثير من مسائل الأصول ظني عند بعض الناس ، فإن كون الشيء قطعياً وظنيا أمر اضافي ، وتارة يقولون : الأصول هي العمليات الخبريات والفروع العمليات ، وكثير من العمليات من جحدها كفر ، كوجوب الصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، وتارة يقولون : هذه عقليات وهذه سمعيات ، وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير المخطيء فإن الكفر حكم شرعي يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع . وإذا تدبر الانسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما في مسائل الأحكام ، مثال ذلك ما تقدم في الأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ^(١) ، ومسائل الأسماء والأحكام وانفاذ الوعيد ، وهي التي توالي المعتزلة من وافقهم عليها ويتبرأون ممن خالفهم فيها ، وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وإثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه ، وطاعة أمره لكن غلطوا في كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم .

وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ومن سلك مسلكهم ، كأبي الحسن الأشعري ^(٢) وأصحابه - فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة ، وكان عندهم علم ليس عند أولئك ، وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء ، وكل من الطائفتين لم تحط علما بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور بل علموا بعضها وجهلوا بعضا ، فإن هؤلاء المجبرة هم في الحقيقة لا يشبثون لله عدلا ولا حكمة ، ولا رحمة ولا صدقا .

(١) تكلمنا عن المنزلة بين المنزلتين في هذا الجزء في كلمة وافية بهذا الموضوع .

(٢) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

فأولئك قصدوا إثبات هذه الأمور ، أما العدل فعندهم كل ممكن فهو عدل ، والظلم عندهم هو الممتنع ، فلا يكون ثم عدل يقصد فعله وظلم يقصد تركه ، ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وإن كان قبيحا ، ويقولون : القبيح هو ما نهى عنه ، وهو لا ناهي له ، ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكرا وشركا . والنهي عن كل شيء وإن كان توحيدا ومعروفا ، فلا ضابط عندهم للفعل ، فلهذا ألزموهم جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب ، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقا بين المعجزات وغيرها ، ولا ما به يعلم صدق النبي ﷺ إلا إذا نقضوا أصلهم ، وقد قال الله تعالى : -

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (١)

وعندهم هذا لا فائدة فيه ، فليس في الممكن قسط وجور ، حتى يكون قائما بهذا دون هذا ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع . وكذلك « الحكمة » عندهم لا يفعل لحكمة ، وقد فسروا « الحكمة » إما بالعلم ، وإما بالقدرة ، وإما بالارادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون حكيما ويكون غير حكيما ، وكذلك المرید قد تكون إرادته حكمة وقد تكون سفها ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان حكمة أو سفها ، فليس عندهم في نفس الأمر أن الله حكيم .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

قال سعيد بن جبیر كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما نزلت هذه الآية ، خررن سجداً . وقال الكلبي : لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة ، قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان . فلما دخلا على النبي ﷺ ، عرفاه بالصفة والنعت . فقالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم . قال : وأنت أحمد ؟ قال : نعم . قال : نسألك عن شهادة ، فإن أنت أخبرتنا بها ، آمنا بك وصدقناك . فقال لهما رسول الله ﷺ : سلاني . فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله . فأنزل الله صلى نبيه ﷺ ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [راجع تفسير القرطبي ٤ : ٤٠]

وكذلك « الرحمة » ما عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلين بلا مرجح نسبتها الى نفس العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم في نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضا .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضوع ، وبين تناقضهم في الصفات والأفعال ، حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ، ومع نفي الحكمة وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض . وإن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضا منهم ، فإن الرازي ذكر في المطالب العالية ^(١) « مسألة الإرادة » ورجح فيها نفي الإرادة لأنه لم يمكنه أن يجيب على حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر إليهم ، وكذلك في غير هذا من المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة ، وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف ، واعترف في آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لا تشفي غليلاً ولا تروي غليلاً .

وقال : قد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ^(٢)

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ ^(٣)

(١) كتاب المطالب العالية - في علم الكلام للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة وشرحه عبد الرحمن المعروف بجلي زادة . [راجع كشف الظنون ٢ :

[١٧١٤

(٢) سورة طه آية رقم ٥

(٣) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

واقراً في النفي : -

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ^(١) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ ^(٢)

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

فقد تبين أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته ، وكذلك الصدق فإنهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم ، فقالوا : الصدق في الكلام النفساني واجب ، لأنه يعلم الأمور ومن يعلم يمتنع أن يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، وعلى هذا اعتمد الغزالي وغيره .

فقليل لهم : هذا ضعيف لوجهين :

« أحدهما » الصدق في ذلك المعنى لا ينفع إن لم يثبت الصدق في العبارات الدالة عليه ، ويميز بين الأفعال عندهم .

« الثاني » إنهم أثبتوا الخبر النفساني فإن الإنسان يخبرك بالكذب ، فيقوم في نفسه معنى ليس هو العلم ، وهو معنى الخبر ، فهذا يقتضي أنهم يقولون : إن العالم قد يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، والرازي لما ذكر مسألة أنه لا يجوز أن يتكلم بكلام ولا يعني به شيئاً خلافاً للحشوية ^(٣) . قيل له : هل قال أحد من طوائف الأمة أن الله لا يعني بكلامه شيئاً ؟ . وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه . وقيل له : هب أن في هذا نزاعاً

(١) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٠ .

(٣) الحشوية : فرقة من فرق المعتزلة ، سمو كذلك نسبة إلى الحشو ويقصد به أسافل الناس ، كما يقصد به الزائد من الكلام . أي اللغو ذلك أن الحشوية ، أو أهل الحشو أخذوا بظواهر القرآن دون تبصر حتى وقعوا في الاعتقاد بالتجسيم . [راجع القاموس الاسلامي ج ٢

ص ١٠٢]

فهو لم يقم دليلاً على امتناع ذلك . بل قال هذا عيب أو نقص والله منزّه عنه . فقل له : إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة . أما الأول فلا يجوز إرادته هنا . لأن المسألة هي فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ، ولا يعني به شيئاً وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى ، وإن أردت الحروف - وهو مراده - فتلك عندك مخلوقة ، ويجوز عندك أن يخلق كل شيء ليس منزهاً عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو ما لا تريده ، فهذا ممتنع .

فتبين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ، ولا على تنزيهه عن العيب في خطابه ، فإن ذلك إنما يكون ممن ينزهه عن بعض الأفعال ، وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله ولا حكمته ، ولا رحمته ولا صدقه ، والمعتزلة قصدتهم إثبات هذه الأمور ، ولهذا يذكرونها في خطبة الصفات ، كما يذكرها أبو الحسن البصري وغيره ، كما ذكر في أول صور الأدلة خطبة مضمونها . أن الله واحد عدل .

﴿ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(١) . و ﴿ أَنَّهُ بِالنَّاسِ لِرُؤُوفٍ رَحِيمٌ ﴾^(٢)

وأظن فيها إثبات صدقه ، ولهذا يكفرون من يجوزه ، أو يكذبه ، أو يسفهه ، أو يشبهه ، ولكن قد غلطوا في مواضع كثيرة - كما قد نبه على هذا في غير موضع فكل الطائفتين معها حق وباطل ، ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون ، بخلاف أولئك المختلفين . قال تعالى :

(١) سورة يونس آية رقم ٤٤

(٢) الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لِرُؤُوفٍ رَحِيمٌ ﴾ الحج آية رقم ٦٥ وسورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (١) .

(١) سورة هود آية رقم ١١٨ ، ١١٩ .
قيل الإشارة في الآية بذلك للاختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك الى شيئين متضادين كقوله تعالى : « لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » . ولم يقل بين ذنبك ولا تينك وقال : والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، وقال : « ولا تجهرب بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » . وكذلك قوله : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » .

فصل

مناقشة نفاة الصفات والمثبتين لبعضها وقضية نداء موسى عليه السلام

والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفس الصفات ، وابن كلاب ومن تبعه - كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم - أثبتوا الصفات : لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية مثل كونه يتكلم بمشيئته ، ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته ، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى :

﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

فأثبت رؤية مستقبلية ، وكذلك قوله تعالى : -

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

ومثل كونه نادى موسى حين أتى . لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته ، فإن المعتزلة والجهمية يقولون : خلق نداء في الهواء ، والكلابية والسالمية يقولون : النداء قام بذاته وهو قديم : لكن سمعه موسى ، فاستجدوا سماع

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٤

موسى ، وإلا فما زال عندهم مناديا . والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا ، وتبين أنه ناداه حين جاء ، وأنه يتكلم بمشيئته في وقت بكلام معين كما قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (١)

وقال تعالى : -

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢)

والقرآن فيه مثنون من الآيات تدل على هذا الأصل ، وأما الأحاديث فلا تحصى ، وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ، ولهذا قال عبد الله ابن المبارك (٣) والإمام أحمد بن حنبل (٤) وغيرهما : لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامة أهل السنة ، فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال : هو قديم لم يزل ، والذين قالوا من المتأخرين : هو قديم كثير منهم من لم يتصور المراد ، بل منهم من يقول : هو قديم في علمه ، ومنهم من يقول : قديم أي متقدم

(١) سورة الأعراف آية رقم ١١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

(٣) سبق الترجمة له قريباً في هذا الجزء .

(٤) هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة ، أصله من مرو ، وكان أبوه والي سرخس ، ولد ببغداد عام ١٦٤ هـ فنشأ متكباً على طلب العلم ، وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة ، وصنف المسند وله كتب في التاريخ ، والناسخ والمنسوخ ، والرد على من ادعى التناقض في القرآن ، والتفسير ، وفصائل الصحابة ، والمناسك والزهد ، وغير ذلك كثير توفي عام ٢٤١ هـ .
[راجع ابن عساكر ٢ : ٢٨ وحلية ٩ : ١٦١ والجمع ٥ ، وصفة الصفوة ٢ : ١٩٠ وابن خلكان ١ : ١٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٤١٢ والبداية والنهاية ١٠ - ٣٢٥ - ٣٤٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٤٩١ - ٤٩٦]

الوجود ، متقدم على ذات زمان المبعث ؛ لا أنه أزلي لم يزل ، ومنهم من يقول بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

و« المقصود هنا » أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده ، وكان ذلك بمشيئته وقدرته ، إذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته ، وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقد جاء في القرآن والسنة في غير موضع أنه يخصص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله :

« ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : ملك كذاب ، وشيخ زان ، وعائل مستكبر » (١) .

وكذلك في « الاستماع » قال تعالى :

﴿ وَأَذِّنْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (٢) أي استمعت

وقال النبي ﷺ « ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » (٣) وقال « لله أشد أذنا إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته » (٤) فهذا تخصيص بالإذن وهو الاستماع لبعض الأصوات دون بعض .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٤٦ باب وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ١٧٢ (١٠٧) حدثنا وكيع وأبو معاوية عن الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره . وأخرجه الامام الترمذي في الجنة ٢٥ والنسائي في الزكاة ٧٥ ، ٧٧ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤٣٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٣ (حلي)

(٢) سورة الانشقاق آية رقم ٢ و ٥ .

(٣) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٣٤ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٢٣٣ حدثنا عبد العزيز بن محمد ، حدثنا يزيد (وهو ابن الهاد) عن محمد بن ابراهيم ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله - ﷺ يقول : وذكره .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٧٦ باب في حسن الصوت بالقرآن =

وكذلك « سمع الإجابة » كقوله : -

﴿ سمع الله لمن حمده ﴾ ^(١) وقول الخليل ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ ^(٣) يقتضي التخصيص بهذا السمع فهذا التخصيص ثابت في الكتاب والسنة ، وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته - كما تقدم - وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل ، لا بمعنى يقوم بذاته ، وتخصيص من يحب بالنظر والاستماع المذكور يقتضي أن هذا النوع منتف عن غيرهم .

لكن مع هذا هل يقال : إن نفس الرؤية والسمع الذي هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته فلا يمكن وجود مسموع ومرئي إلا وقد تعلق به كالعلم ؟ أو يقال : إنه أيضا بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر الى بعض المخلوقات ؟ هذا فيه قولان : والأول قول من لا يجعل ذلك متعلقا بمشيئته وقدرته ، وأما الذين يجعلونه متعلقا بمشيئته وقدرته فقد يقولون : متى وجد المرئي والمسموع وجب تعلق الإدراك به .

والقول الثاني : إن جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته فيمكن أن لا ينظر الى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف ، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني قال : ما نظر الله الى شيء من خلقه إلا رحمه ، ولكنه قضى أن لا ينظر اليهم . وقد يقال :

= ١٣٤٠ ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي ، ثنا إسماعيل بن عبيد الله عن ميسرة مولى فضالة عن فضالة بن عبيد ، قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(١) كلمة يقولها المسلم إذا رفع رأسه من الركوع .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة سبأ وقد جاءت هذه الآية محرفة حيث ذكرت في الأصل (إن ربي سميع قريب) آية ٥٠ أما آية هود رقم ٦١ فهي كالآتي « إن ربي قريب مجيب » .

هذا مثل الذكر والنسيان . فإن الله تعالى قال : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ^(١) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : - « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » ^(٢) فهذا الذكر يختص بمن ذكره ، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ، ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه كما قال :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ؟ قَالَ : كَذَلِكَ أَتَتْكَ

(١) سورة البقرة آية رقم ١٥٢ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث ذكرت (أذكروني) بدون الفاء .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٥ باب قول الله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ ٧٤٠٥ - حدثنا الأعمش ، سمعت أبا صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ - يقول الله تعالى وذكره . وأخرجه الامام مسلم - في كتاب التوبة ^(١) باب في الخض على التوبة والفرح بها ١ - (٢٦٧٥) حدثنا حفص بن ميسرة ، حدثني زيد بن أسلم عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال « قال الله عز وجل : وذكره .

وأخرجه الترمذي في الدعاء ١٣٢ باب في حسن الظن بالله عز وجل ٣٦٠٣ بسنده عن أبي هريرة - قال : قال رسول الله - ﷺ - يقول الله عز وجل : وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ويروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث من تقرب مني شبراً تقربت منذ ذراعاً يعني بالمغفرة والرحمة وهكذا فسر أهل العلم هذا الحديث قالوا : إنما معناه يقول : إذا تقرب إلي العبد بطاعتي وما أمرت أسرع اليه بمغفرتي ورحمتي .

وأخرجه الامام احمد في المسند ٢ : ٢٥١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٩ ، ٥٢٤ ، ٥٣٥ ، ٣ : ٤٠ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٥ : ١٥٣ ، ١٦٩ (حلي)

آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١﴾ .

ومثل قوله :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (٢) وقد فسروا هذا النسيان بأنه وهذا النسيان ضد ذلك الذكر وفي الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال « أفظنت أنك ملاقي ؟ قال : لا . قال : فاليوم أنساك كما نسيته » (٣) فهذا يقتضي أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته ، هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضاً ، وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمل ، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله ، فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا .

(١) سورة طه آية رقم ١٢٤ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٧ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الزهد والرقائق ١٦ (٢٩٦٨) حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة . . ؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟ . قالوا : لا . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابه . . ؟ قالوا : لا . قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم الا كما تضارون في رؤية أحدهما قال : فيلقى العبد فيقول : أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والابل وأدرك ترأس وتربع فيقول : بلى قال : فيقول : أفظنت أنك ملاقي فيقول : لا فيقول فإني أنساك كما نسيته الخ .

وأخرجه الترمذي في الإقامة ٦ .

فصل

جماع الفرقان اتباع ما أنزل من الرحمن

جماع « الفرقان » بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى ، وطريق السعادة والنجاة ، وطريق الشقاوة والهلاك ، أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والايمان ، فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فإن وافقه فهو حق ، وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه ، أو تكذيبه ، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في أمور « دنيوية » مثل الطب والحساب ، والفلاحة والتجارة . وأما الأمور « الالهية » والمعارف الدينية « فهذه العلم فيها مأخذه عن الرسول ، فالرسول أعلم الخلق بها ، وأرغبهم في تعريف الخلق بها ، وأقدرهم على بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة ، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود ، ومن سوى الرسول إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد ، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك ، فلم يبينه إما لرغبة وإما لرهبة وإما لغرض آخر ، وإما أن يكون بيانه ناقصا ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان . وبيان الرسول على وجهين :

تارة يبين « الأدلة العقلية » الدالة عليها ، والقرآن مملوء من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية على المعارف الإلهية والمطالب الدينية . وتارة يخبر بها خبرا مجردا لما قد أقامه من الآيات البينات ، والدلائل اليقينية على أنه رسول الله المبلغ عن الله ، وأنه لا يقول عليه إلا الحق ، وأن الله شهد له بذلك ، وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه ، والأدلة التي بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة ، وهي أدلة عقلية ، تعلم صحتها بالعقل ، وهي أيضا شرعية سمعية ، لكن الرسول بينها ودل عليها وأرشد إليها ، وجميع طوائف النظار متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية في المطالب الدينية ، وهم يذكرون ذلك في كتبهم الأصولية ، وفي كتب التفسير ، وعامة النظار أيضا يحتجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة في المطالب الدينية ، فإنه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

أقسام العلوم عند ابن تيمية

« والعلوم ثلاثة أقسام » منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية ، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد إليها الرسول ، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ، فإن من الناس من يذهل عن هذا ، فمنهم من يقدر في الدلائل العقلية مطلقا لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من أحدثه من المتكلمين ، ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه ، لأنه قد صار في ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط ، فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق الخبر ، حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه ، ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء ، وخبرهم المجرد هو دليل سمعي ، مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الإلهية ، والملائكة والعرش ، والجنة والنار ، وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه .

فأما نفس إثبات الصانع ووحدانيته ، وعلمه وقدرته ، ومشيتته وحكمته ،

ورحمته ونحو ذلك فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية ، وإن كانت الأدلة والآيات التي يأتي بها الأنبياء هي أكمل الأدلة العقلية لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد ، وإن كانت أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقيني أيضاً ، فيعلم بالأدلة العقلية التي أرشدوا إليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التي دلت على صدقهم .

وقد تنازع الناس في « العلم بالمعاد ، وبحسن الأفعال وقبحها » فأكثر الناس يقولون : إنه يعلم بالعقل مع السمع ، والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين بأن المعاد يعلم بالعقل ، قال أبو الخطاب : هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول : المعاد والحسن والقبح لا يعلم الا بمجرد الخبر ، وهو قول الأشعري وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي الجويني ، وأبي الوليد الباجي وغيرهم ، وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذي هو مجرد الخبر ، مثل كون أفعال العباد ^(١) مخلوقة لله أو غير مخلوقة ، وكون رؤيته ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك ^(٢) .

« الأشعرية يثبتون الصفات الخيرية »

وكتب أصول الدين لجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخيرية ، لكن الرازي طعن في ذلك في « المطالب العالية » قال : لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي ، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه ، قال : والعلم بانتفاء المعارض العقلي متعذر ، وهو إنما

(١) للإمام البخاري صاحب الصحيح - كتاب يسمى « خلق أفعال العباد » وضع هذه القضية في ميزانها الصحيح ورد فيه على أصحاب الأهواء والمضللين . وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب - وطبعته دار عكاظ بجدّة « المملكة العربية السعودية » .

(٢) راجع هذا الشأن رؤية الله سبحانه وتعالى في كتاب شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني بتحقيقنا طبع « المكتبات الأزهرية » بالقاهرة .

يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد ، وقد يظن أن هذه طريقة أئمتة الواقفة في الوعيد ، كالأشعري ، والقاضي أبي بكر وغيرهما ، وليس كذلك ، فإن هؤلاء إنما وقفوا في أخبار الوعيد خاصة ، لأن العموم عندهم لا يفيد القطع ، أو لأنهم لا يقولون بصيغ العموم ، وقد تعارضت عندهم الأدلة ، وإلا فهم يثبتون الصفات الخيرية لله ، كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف قول الأشعري في ذلك ، وهو قول أئمة أصحابه ، لكن أبو المعالي وأتباعه لا يثبتون الصفات الخيرية ، بل فيهم من ينفيها ومنهم من يقف فيها كالرازي والآمدي ^(١) ؛ فيمكن أن يقال : قول الأشعري ينتزع من قول هؤلاء بأن يقال : لا يعرف أنهم اعتمدوا في الأصول على دليل سمعي ، لكن يقال : المعاد يحتجون عليه بالقرآن والأحاديث ، ولكن الرازي هو الذي سلك فيه طريق العلم الضروري أن الرسول جاء به .

وفي « الحقيقة » فجميع الأدلة اليقينية توجب علما ضروريا ، والأدلة السمعية الخيرية توجب علما ضروريا بأخبار الرسول ، لكن منها ما تكثر أدلته كخبر الأخبار المتواترة ، ويحصل به علم ضروري من غير تعيين دليل ، وقد يعين الأدلة ويستدل بها ، وبسط هذا له موضع آخر . و« المقصود هنا » أنه يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية سمعيها وعقليها ، ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلا ، فدلائل النبوة عامتها تدل على ذلك جملة ، وتفصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن والحديث تدل على ذلك تفصيلا .

وأيضاً فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولاهم بالحق فيه .

وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقولوه غيرهم وجد الصواب معهم ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

والخطأ مع مخالفهم ، كما قال الرازي - مع أنه من أعظم الناس طعننا في الأدلة السمعية ، حتى ابتدع قولاً ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تفيد اليقين ، ومع هذا فإنه يقول - لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيته تشفي غليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات :

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ^(١) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ^(٢)

واقراً في النفي :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ^(٣) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ ^(٤)

قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وأيضاً فمن اعتبر ما عند الطوائف الذين لم يعتصموا بتعليم الأنبياء وارشادهم وأخبارهم وجددهم كلهم حائرين ، ضالين شاكين مرتابين ، أو جاهلين جهلاً مركباً ، فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً . وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٢) سورة طه آية رقم ٥ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(٤) سورة طه آية رقم ١١٠ .

بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ . إِذَا أُخْرِجَ يَدَهُ لَمْ يَكُذِّ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا
فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١﴾ .

والله أعلم

(١) سورة النور آية رقم ٣٩ - ٤٠ .

قالوا : نزلت هذه الآية في شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهب متلمساً للدين فلما خرج - ﷺ - كفر .

والسراب : ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض ، والال الذي يكون ضحا كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء ، وسمى السراب سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء ، ويقال سرب الفحل أي مضى وسار في الأرض ويسمى الال أيضاً ، ولا يكون إلا في البرية والحر فيغتر به العطشان قال الشاعر :

فكنت كمهريق الذي في سقائه لرقراق آل فوق رابية صلدا

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهدهم كلمع سراب بالفلا متألق

وقال امرؤ القيس :

ألم انضى المطي بكل خرق أمق الطول لماع السراب
والقبة جمع القاع ، مثل جيرة وجار قاله الهروي ، وقال أبو عبيدة ، قبة وقاع واحد ، حكاه النحاس ، والقاع ما انسط من الأرض واتسع ، ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب ، وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء وجمعه قيعان قاله الجوهري والقاع المستوي من الأرض والجمع أقوع وأقواع وقيعان .

فصل أهل الضلال هم أهل البدع والشبهات

وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، هم كما قال مجاهد : أهل البدع والشبهات : يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، كما قال فيهم الإمام أحمد قال : هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يحتجون بالمشابهة من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم .

والمفترقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث فإن وافقه احتجوا به اعتقاداً لا اعتماداً ، وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ، ويقولون : نفوض معناه إلى الله ، وهذا فعل عامتهم .

وعمدة الطائفتين في الباطن غير ما جاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالأصول . ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من التشابه الذي لا يعرف معناه إلا الله ، أو لا يعرف معناه إلا الراسخون في العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقاً لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب وترك المحكم ،

كالنصارى والخوارج ، وغيرهم ، إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما ، وجعلوا المحكم متشابها .

وأما أولئك - كفاسة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ، وكالفلاسفة - فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وإن لم يكن معهم من الأنبياء والكتاب والسنة ما يوافقه ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء وإن كان صريحا قد يعلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه ، ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف ابن أسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : إن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الاثنتين وسبعين فرقة . قالوا : وأصولها أربعة : الشيعة والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية .

« في المتشابهات قولان »

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن في قوله تعالى :

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ ^(١)

في المتشابهات قولان :

« أحدهما » : انها آيات بعينها تتشابه على كل الناس .

و« الثاني » - وهو الصحيح - أن التشابه أمر نسبي ، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم ، كما قال :-

﴿ أَحْكِمْتَ آيَاتَهُ . ثُمَّ فَضَّلْتَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ١ .

وهذا كقوله : « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس » (١) وكذلك قولهم : -

﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ (٢) .

وقد صنف أحمد كتابا في « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات التي سأل عنها نافع بن الأزرق ابن عباس قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يجب أن يعلم فيم أنزلت ، وماذا عني بها .

ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضا ، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه ، مثل وقت الساعة ، ومجيء أشراطها ، ومثل كيفية نفسه ، وما أعدده في الجنة لأولياته .

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه : حدثنا زكريا عن عامر ، قال سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول وذكره ، وفيه زيادة [فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقع الأوان لكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب] . وأخرجه الامام مسلم في المساقاة ٢٩ باب أخذ الحلال ، وترك الشبهات ١٠٧ (١٥٩٩ بسنده عن النعمان بن بشير وذكره) .

وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع (١) باب ما جاء في ترك الشبهات ١٢٠٥ بسنده عن النعمان بن بشير وفيه زيادة [ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه] . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقد رواه غير واحد عن الشعبي عن النعمان بن بشير ، وأخرجه ابن ماجه في الفتن ١٤ والدارمي في البيوع ١ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ (حلي)

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٠ .

« أسباب نزول آية المتشابهات »

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم ، كقوله (إنا) و(نحن) . وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان ، لم يرد به أن الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ما قيل فيه : (إياي) وما قيل فيه (إنا) لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه : إذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ، ولهذا لا يقول : إيانا فاعبدوا ، ولا إيانا فارهبوا . بل متى جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ^(١) ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ^(٢) ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٣)

(١) سورة الفتح آية رقم ١ .

روى محمد بن اسحاق عن الزهري ، عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها الى آخرها . وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله - ﷺ - كان يسير في بعض أسفاره وعمر ابن الخطاب يسير معه ليلاً فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله - ﷺ - ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه : ثكلت أم عمر فزرت رسول الله - ﷺ - ثلاث مرات كل ذلك لم يجبك ، فقال عمر : فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآنا فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فقلت لقد خشيت أن ينزل في قرآنا فجنث رسول الله - ﷺ - فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب الي مما طلعت عليه الشمس - ثم قرأ - ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ لفظ البخاري ، قال الترمذي : حديث حسن غريب صحيح ، وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال لما نزلت ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكتابة ، وقد نحر النهدي بالحديبية فقال : « لقد أنزلت علي سورة هي أحب إلي من الدنيا جميعا »

(٢) سورة القيامة آية رقم ١٨ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٣ .

ونحو ذلك . مع أن تأويل هذا - وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم - لا يعلمه إلا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع . و« المقصود هنا » أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقل ، ويعرف برهانه ودليله ، أما العقلي وإما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، وتجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ : يحتمل كذا وكذا ، ويحتمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد .

وهذا مثل لفظ « المركب » و« الجسم » و« المتحيز » و« الجوهر » و« الجهة » و« العرض » ونحو ذلك ، ولفظ « الحيز » ونحو ذلك . فإن هذه الألفاظ ، لا توجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يجيده أهل هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة أيضا ، بل هم يختصون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطل ما دل عليه القرآن ؛ بالأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم ، فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفظ دليل ، وفي المعنى ليس بدليل كمن يقول : سهيل بعيد من الثريا ، لا يجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها والذي قال : أيها المنكح الثريا سهيلا .

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل : ثم قال :

عمر ك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك ، فجعل يعجبه ، وإنكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع .

« الأصل الذي بنى عليه نفاة الصفات معتقدهم »

والأصل الذي بنى عليه نفاة الصفات وعطلوا ما عطلوه حتى صار منهاهم الى قول فرعون الذي جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى في أن الله كلمه هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الأجسام محدثة ، واستدلواهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث ، ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية ، وفي ذم هؤلاء المتكلمين .

والسلف لم يذموا جنس الكلام ، فإن كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله (١) ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولا ذموا كلاماً هو حق ، بل ذموا الكلام الباطل ، وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل ، فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل (٢) . ولكن كثير من الناس خفى عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل ، حتى اعتقد أن ابراهيم الخليل استدل به ، ومن هؤلاء من يجعله أصل

(١) قال تعالى لرسوله - ﷺ - ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ سورة النحل آية رقم ١٢٥ .
وقال تعالى للمؤمنين ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ سورة العنكبوت آية رقم ٤٦ .

(٢) العقل في اللغة هو الحجر والنبي ، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة ، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل كما يمنع العقول الناقة من الشرود .
والعقل يطلق على ثلاثة أوجه أ - يرجع الى وقار الإنسان وهيئته ب : يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية ج : يراد به صحة الفطرة الأولى في الإنسان فيكون حده أنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها .

الدين ولا يحصل الإيمان أو لا يتم إلا به ، ولكن من عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد ، بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل ، لكنه طويل أو يبعد المعرفة ، أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيونه كما يعاب الطريق الطويل ، والطريق المخيف مع اعتقادهم أنه يوصل الى المعرفة وأنه صحيح في نفسه .

وأما الحذاق العارفون بتحقيقه فعلموا أنه باطل عقلا وشرعاً ، وأنه ليس بطريق موصل الى المعرفة ، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته الى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله الى الحيرة والشك .

ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون الى الحيرة والشك ، إذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس في الوجود قديم وهذا مكابرة ، فإن الوجود مشهود ، وهو إما حادث وإما قديم والحادث لا بد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين . وكذلك ما ابتدعه في هذه الطريق ابن سينا ^(١) وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك ، الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعات أصله من بلخ ومولده في إحدى قرى بخارى عام ٣٧٠ هـ نشأ وتعلم في بخارى وطاف البلاد وناظر العلماء ، واتسعت شهرته ، وتقلد الوزارة في همذان ، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتواري ثم صار الى أصفهان وصنف بها أكثر كتبه مات عام ٤٢٨ هـ قال ابن قيم الجوزية : كان ابن سينا كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين « وقال ابن تيمية « تكلم ابن سينا في أشياء من الالهيات والنبويات والمعاد ، والشرائع ، لم يتكلم بها سلفه ولا وصلت اليها عقولهم ولا بلغتها علومهم فإنه استفادها من المسلمين ، وإن كان إنما يأخذ من الملاحدة المنسيين الى المسلمين كالاسماعيلية وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالالحاد » [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٥٢ وإغاثة اللهفان ٢ : ٢٦٦]

بسط ذلك في غير هذا الموضع ، وحقيقته أن كل موجود فهو ممكن ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقاً لإثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقاً لإثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم والواجب فليس في واحد منهما إثبات قديم ولا واجب بنفسه مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة .

ولهذا صار حذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقديم هو العالم بنفسه ، وقالوا : هو الله . وأنكروا أن يكون للعالم رب مباين للعالم ، إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن أنكروا الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب ، لكنهم لا يعرفون أن هذا لا يلزمهم ، بل بظنون أنهم أقاموا الدليل على إثبات القديم الواجب بنفسه .

ولكن وصفوه بصفات الممتنع فقالوا : لا داخل العالم ولا خارجه ولا هو صفة ولا موصوف ، ولا يشار إليه ، ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لا صفة الموجود . فدليلهم في نفس الأمر يستلزم أنه ماثم قديم ولا واجب . ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه هو ممتنع ، فما أثبتوا قديماً ولا واجباً . فجاء آخرون من جهميتهم فرأوا هذه مكابرة ، ولا بد من إثبات القديم والواجب فقالوا : هو هذا العالم ، فكان قدمااء الجهمية يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالوا : هو عين الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس الموجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه . وأما حقيقة قولهم فهو النفي أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ، ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس

أن الجهمية يصفونه بالمسلوب حتى قال أبو تمام (١) .

جهمية الأوصاف إلا أنها قد حليت بحاسن الأشياء
وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب ، فإن هذا لا يقصده أحد من
العقلاء لا مسلم ولا كافر ، إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد ببديهة عقله ، فإنه
إذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت
بأنفسها ، ومن المعلوم ببدهة العقول أن الحادث لا يحدث بنفسه ، ولهذا قال
تعالى :-

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٢) .

وقد قيل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ من غير رب خلفهم ، وقيل :
من غير مادة ، وقيل : من غير عاقبة وجزاء . والأول مراد قطعاً فإن كل ما خلق
من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

ومعرفة الفطر أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها . ، من أن كل
محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فإن كثيراً من العقلاء نازع

(١) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبو تمام : الشاعر ، الأديب أحد أمراء البيان ، ولد في
جاسم من قرى حوران بسورية . ورحل الى مصر واستقدمه المعتصم الى بغداد فأجازه وقدمه على
شعراء وقته فأقام في العراق ، ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها عام ٢٣١ هـ
كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع في شعره قوة وجزالة
واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي له تصانيف منها فحول الشعراء ، وديوان الحماسة ،
ونقائض جرير والفرزدق وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٢١ ونزهة الألباء وابن
عساكر ، ومعاهد التنصيص ١ : ٣٨ وخزانة البغداد ١ : ١٧٢ ، ٤٦٤ وفيه : كان شعره غير
مرتب فرتبه الصولي على الحروف ، ثم رتبته علي بن حمزة الأصفهاني على أنواع الشعر ، وتاريخ
بغداد ٨ : ٢٤٨ وفيه قال ابنه تمام ولد أبي سنة ١٨٨ هـ ومجلة المجمع العلمي العربي ٢٤ :
٢٧٤ والذريعة ١ : ٣١٤ ودار الكتب ٣ : ١٩٩ .

(٢) سورة الطور آية رقم ٣٥ .

في هذا وهذا ، ولم ينازع في الأول . طائفة قالت : إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه ، بل من الطوائف من قال : إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع . وإما أن يقول : إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة ، وإنما يحكى عن لا يعرف .

ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممن حصل له فساد في عقله صار به الى السفسطة ^(١) ، والسفسطة تعرض لأحاد الناس ، وفي بعض الأمور ، ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية في كل شيء ، هذا لا يتصور ، فلهذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث .

وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أو كل ما قامت به صفة أو فعل بمشيئته ، فهو محدث ويمكن لزعمهم القول بحدوث كل موجود ، إذ كان الخالق جل جلاله متصفاً بما يقوم به من الصفات والأمور الاختياريات ، مثل أنه متكلم

(١) أصل هذه اللفظة في اليونانية (سوفيسيا) وهو (مشتق من لفظ سوفوس) ومعناه الحكيم والحادق .

والسفسطة : عند الفلاسفة : هي الحكمة الموهمة ، وعند المنطقيين هي القياس المركب من الوهميات ، والغرض منه تغليط الخصم واسكاته وقيل : إن السفسطة قياس ظاهره الحق وباطنه الباطل ، ويقصد به خداع الآخرين أو خداع النفس ، فإذا كان القياس كاذباً ولم يكن مصحوباً بهذا القصد لم يكن سفسطة ، بل كان مجرد غلط أو انحراف عن المنطق، وتطلق السفسطة أيضاً على القياس الذي تكون مقدماته صحيحة ، ونتائجه كاذبة لا ينخدع بها أحد إلا أنك إذا أنعمت النظر فيه وجدته مطابقاً لقواعد المنطق ، ووجدت نفسك عاجزاً عن دحضه كسفسطة السهم وسفسطة كومة القمح ، فإن الغرض منها إثارة المشكلات المنطقية ، وإظهار المتناقضات التي تضع العقل في مأزق حرج .

أما سفسطة السهم فقد لخصها (زينون) الإيلي في كلامه على بطلان الحركة بقوله : كل جسم يشغل امتداداً مساوياً لامتداده فهو ساكن ، والسهم المرمي ، جسم يشغل في كل لحظة من زمان حركته امتداداً مساوياً لامتداده .

والسوفسطائي : هو المنسوب الى السفسطة . قال (بروشار) لقد كان السوفسطائيون القدماء يدعون أنهم يستطيعون أن يبرهنوا على النظريات المتناقضة بأدلة منطقية متساوية الخ . [راجع المعجم الفلسفي ج ١ ص ٦٥٨ وما بعدها]

بمشيئته وقدرته ، ويخلق ما يخلقه بمشيئته وقدرته ، لكن هؤلاء اعتقدوا انتفاء هذه الصفات عنه ، لا اعتقادهم صحة القول بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهو حادث ، لأن ذلك لا يخلو من الحوادث وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإذا كان حادثاً كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب ، وأنه ذات مجردة عن الصفات ، ووجوده مطلق لا يشار اليه ولا يتعين ، ويقولون : هو بلا إشارة ولا تعيين ، وهذا الذي أثبتوه لا حقيقة له في الخارج . وإنما هو في الذهن . فكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع .

فجاء إخوانهم في أصل المقالة وقالوا : هذا الوجود المطلق المجرد عن الصفات هو الوجود الساري في الموجودات ، فقالوا بحلوله في كل شيء .

وقال آخرون منهم : هو وجود كل شيء ، ومنهم من فرق بين الوجود والثبوت ومنهم من فرق بين التعيين والإطلاق ، ومنهم من جعله في العالم كالمادة في الصورة ، ومنهم من جعله في العالم كالزبد في اللبن وكالزيت والشيرج في السمس والزيتون . وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع .

و« المقصود هنا » أن الأصل الذي أضلهم قولهم ما قامت به الصفات والأفعال ، والأمور الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ، ثم قالوا : والجسم لا يخلو من الحوادث ، وأثبتوا ذلك بطرق ، منهم من قال : لا يخلو عن الأكوان الأربعة : الحركة والسكون والاجتماع والافتراق . ومنهم من قال : لا يخلو عن الحركة والسكون فقط . ومنهم من قال : لا يخلو عن الأعراض ^(١) ،

(١) عرض الشيء ظهر ، وبدأ ولم يدم ، والعرب يطلقون لفظ العرض على عدة معان . فهو يدل على الأمر الذي يعرض للمرء من حيث لم يحتسبه أو على ما يثبت ولا يدوم ، أو على ما يتصل بغيره ويقوم به ، أو على ما يكثر ويقل من متاع الدنيا ، فكان المتكلمين والفلاسفة استنبطوا معنى العرض من أحد هذه المعاني فدلوا به على ما يقوم بذاته وهو الحال في موضوع . قال الخوارزمي : العرض هو ما يتميز به الشيء عن الشيء لا في ذاته كالسواد والبياض ، والحرارة =

والأعراض كلها حادثة ، وهي لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الأمدي ، وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها ، والرازي اعتمد على طريقة الحركة والسكون (١) .

وقد بسط الكلام على هذه الطرق ، وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم وإمكانه ، وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكره ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم ممن يقول بأنه جسم قديم فقد شاركهم في أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ولا قالوا : إن الجسم لا ينفك عن الحوادث ، إذ كان القديم عندهم جسماً قديماً وهو خال من الحوادث . وقد قيل : أول من قال في الإسلام إن القديم جسم هو هشام بن الحكم (٢) ، كما أن أول من أظهر في الإسلام نفي الجسم هو الجهم بن صفوان .

= والبرودة ، وغير ذلك (راجع مفاتيح العلوم ، ٨٦)

(١) الحركة : ضد السكون ولها عند القدماء عدة تعريفات ، وهي : أ - الحركة : هي الخروج من القوة الى الفعل على سبيل التدرج ومعنى التدرج هو وقوع الشيء في زمان بعد زمان .
ب - الحركة : هي شغل الشيء حيزاً بعد أن كان في حيز آخر ، أو هي كونان في آئين ومكانين بخلاف السكون الذي هو كونان في آئين ومكان واحد .

والحركة في الفلسفة الحديثة : هي التغير المتصل الذي يطرأ على وضع الجسم في المكان من جهة ما هو نابع للزمان فلكل حركة زمان لأن الجسم المتحرك لا يشغل مكانين في زمان واحد .

(٢) هو هشام بن الحكم الشيباني بالولاء الكوفي أبو محمد ، متكلم مناظر ، كان شيخ الامامية في وقته ، ولد بالكوفة ، ونشأ بواسط ، وسكن بغداد ، وانقطع الى محبي بن خالد البرمكي ، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره وصنف كتباً منها « الامامة » و« القدر » و« الشيخ والغلام » و« الدلالات على حدوث الأشياء » و« الرد على المعتزلة في طلحة والزبير » و« الرد على الزنادقة » و« الرد على شيطان الطاق » و« الرد على هشام الجواليقي » وغير ذلك ، ولما حدثت نكبة البرامكة استتر وتوفي على أثرها بالكوفة عام ١٩٠ هـ ويقال عاش الى خلافة المأمون .

[راجع منهج المقال ٣٥٩ وسفينة البحار ٢ : ٧١٩ والنجاشي ٣٠٤ وفهرست الطوسي ١٧٤ =

وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض التجسيم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة ، كما قال الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه واسحاق بن راهويه (١) وغيرهما قالوا : المشبهة الذين يقولون : بصر كبصري ، ويد كيدي ، وقدم كقدمي ، وابن كلاب (٢) ومن تبعه أثبتوا الصفات التي لا تتعلق بمشيئته وقدرته [فأما التي تتعلق بمشيئته وقدرته] فينفونها ، قالوا لأنها حادثة ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

و« محمد بن كرام » (١) كان بعد ابن كلاب في عصر مسلم بن الحجاج (٢)

= والكشي ١٦٥ وهم مضطربون في سنة وفاته ، منهم جزم بأنها سنة ١٩٩ ومنهم من يراها سنة ١٧٩ وفي فهرست ابن النديم طبعة فلوجل ١ : ١٧٥ مات بعد نكبة الرامكة بمدينة مستتراً ويقال عاش الى خلافة المأمون] .

(١) هو اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي أبو يعقوب بن راهويه عالم خراسان في عصره من سكان مرو (قاعدة خراسان) وهو أحد كبار الحفاظ طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ، وقيل في سبب تلقيبه (ابن راهويه) أن أباه ولد في طريق مكة فقال أهل مرو : راهويه ، أي ولد في الطريق . وكان اسحاق ثقة في الحديث قال في الخطيب البغدادي : اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد . توفي عام ٢٣٨ هـ .

[راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ - ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ وطبقات الحنابلة ٦٨ وفيه ولادته سنة ١٦٦ ووفاته سنة ٢٤٣ وتاريخ بغداد ٦ : ٣٤٥]

(٢) هو محمد بن كرام بن عراق بن حزابة أبو عبد الله السجزي : إمام الكرامية من فرق الابتداع في الإسلام ، كان يقول بأن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر . ولد في سجستان ، وجاور بمكة خمس سنين ، وورد نيسابور فحبسه طاهر بن عبد الله ، ثم انصرف الى الشام وعاد الى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر ، وخرج منها عام ٢٥١ هـ الى القدس فمات فيها عام ٢٥٥ هـ [راجع الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٨ وتذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٦ والأنس الجليل ١ : ١٦٢ وميزان الاعتدال ٣ : ١٢٧ ولسان الميزان ٥ : ٣٥٣]

أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ، ويتكلم بمشيئته وقدرته ، ولكن عنده
يُمْتَنَع أنه كان في الأزل متكلماً بمشيئته وقدرته ، لامتناع حوادث لا أول لها ، فلم
يقبل بقول السلف أنه لم يزل متكلماً إذا شاء بل قال : إنه صار يتكلم بمشيئته
وقدرته ، كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك ، وقال : هو
وأصحابه في المشهور عنه أن الحوادث التي تقوم به لا يخلو منها ولا يزول عنها ،
لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلاً لحدوثها وزوالها ، وإذا كان
قابلاً لذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإنما يقبل على
أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط ، كما يقبل أن يفعلها ويحدثها ، ولا يلزم من
ذلك أنها لم تخل منه كما لم يلزم أنه لم يزل فاعلاً لها ، والحدوث عندهم غير
الأحداث ، والقرآن عندهم حادث لا محدث ، لأن المحدث يفتقر إلى اجداث
بخلاف الحدوث .

خلاف العلماء في السكون هل وجودي أم عديمي . . ؟

وهم إذا قالوا : كان خالياً منها في الأزل وكان ساكناً لم يقولوا إنه قام به
حادث ، بل يقولون السكون أمر عديمي كما يقوله الفلاسفة ، ولكن الحركة أمر
وجودي ، بخلاف ما يقوله [من يقوله] من المعتزلة والأشعرية : أن السكون
أمر وجودي كالحركة ، فإذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث ،

(١) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أبو الحسين حافظ من أئمة المحدثين
بنيسابور ، ورحل إلى الحجاز ، ومصر ، والشام والعراق ، وتوفي بظاهر نيسابور عام ٢٦١ هـ
أشهر كتبه « صحيح مسلم » جمع فيه اثني عشر ألف حديث كتبها في خمس عشرة سنة ، وهو
أحد الصحيحين المعول عليها عند أهل السنة في الحديث ، ومن كتبه « المسند الكبير » رتبته
على الرجال ، « والجامع » مرتب على الأبواب ، « والأسماء والكنى » أربعة أجزاء ، وغير ذلك
كثير . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٥٠] وتهذيب ١٠ : ١٢٦ ، وابن خلكان ٢ : ٩١ وفهرسة
ابن خير ٢١٢ وتاريخ بغداد ١٢ : ١٠٠ وفيه أن مسلماً هذا حذو البخاري في صحيحه ولما
ورد البخاري نيسابور في آخر أمره لازمه مسلم . وطبقات الحنابلة ١ : ٣٣٧ والبداية والنهاية
١١ : ٣٣ ومعجم المطبوعات ١٧٤٥

فإنما يعدم الحادث بإحداث يقوم به وهذا ممتنع ، وهم يقولون : إنه يمتنع عدم الجسم وعندهم أن الباري يقوم به إحداث المخلوقات وافناءها ، فالحوادث التي تقوم بهم تقوم به لو أفناها لقام به الإحداث والإفناء ، فكان قابلاً لأن يحدث فيه حادث ، ويفني ذلك الحادث ، وما كان كذلك لم يخل من إحداث وإفناء فلم يخل من الحوادث وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلائية ، لكن المعتزلة يقولون : السكون ضد الحركة ، فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر . وهؤلاء يقولون : السكون ليس بضد وجودي . بل هو عديمي ، وإنما الوجودي هو الإحداث والإفناء ، فلو قبل قيام الاحداث والإفناء به لكان قابلاً لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده . وهؤلاء لما أراد منازعهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم ، كما ذكر ذلك أبو المعالي وأتباعه ، وكما ذكر الأمدي تناقضهم من وجوه كثيرة ، قد ذكرت في غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم لا على صحة مذهب المنازع .

وثم طائفة كثيرة تقول : أنه تقوم به الحوادث وتزول ، وأنه كلم موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية ^(١) لهم في ذلك قولان وإلا فالقول بفناء الصوت

(١) يقول عبد القاهر البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » : وأعجب من هذا ، فرقهم بين المتكلم والقائل ، وبين الكلام والقول . وذلك أنهم قالوا : إن الله تعالى لم يزل متكلماً قائلاً ، ثم فرقوا بين الإسمين في المعنى ، فقالوا : إنه لم يزل متكلماً بكلام هو قدرته على القول . ولم يزل قائلاً بقائلية لا بقول . والقائلية قدرته على القول . وقوله حروف حادثة فيه . فقوله الله تعالى عندهم حادث فيه ، وكلامه قديم .

قال عبد القاهر : ناظرت بعضهم في هذه المسألة ، فقلت له : إذا زعمت أن الكلام هو القدرة على القول ، والسكوت عندك قادر على القول في حال سكوته ، لزمك على هذا القول أن يكون السكوت متكلماً ، فالتزم ذلك .

الذي كلم به موسى من جنس القول بقدمه ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول : انه كلم موسى بصوت سمعه موسى ، وذلك الصوت قديم وهذا القول يعرف فساد بديهية العقل ، وكذلك قول من يقول كلمه بصوت حادث ، وأن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يعرف فسادها بالبديهية . وإنما أوقع هذه الطوائف في هذه الأقوال ذلك الأصل الذي تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلاً وشرعاً . وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع ، وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية ، فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل قد خالفوا السلف والأئمة وخالفوا العقل والشرع ، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم ، من الفلاسفة والدهرية ^(١) والملاحدة بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول وثبت لهم الأصل ، ولكن ضيعوا الأصول فحرموا الوصول ، والأصول اتباع ما جاء به الرسول .

وأحدثوا أصولاً ظنوا أنها أصول ثابتة ، وكانت كما ضرب الله المثلين : مثل البناء والشجرة . فقال في المؤمنين والمنافقين :

﴿ أَفَمَنْ أَكَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَكَّسَ بُنْيَانَهُ

(١) مذهب اعتقادي اشتق اسمه من الدهر ، والقول بأزليته وقدمه وأن الحياة بما في ذلك أفعال البشر تجري نتيجة للقوانين الطبيعية وإلى هذا تشير الآية الكريمة ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ويستتبع اعتقادهم أن المادة لا تفتنى وأن الحواس هي أبواب المعرفة دون غيرها وأن المحسوسات هي الحقيقة الثابتة لهذا كثيراً ما يطلق على الدهرية اسم المادية أو الطبيعية وإن كانت تختلف الواحدة عن الأخرى في بعض الوجوه ، وقد نشأت هذه المدرسة في التفكير الإسلامي نتيجة للتأثر بترجمات الفلسفة اليونانية . [راجع القاموس الإسلامي ٢ : ٣٩٧]

عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

« أقوال العلماء في الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة »

وقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا
فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ
قَرَارٍ ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ،
وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) .

والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ، ولهذا يقال فيه
الأصل ما ابتنى عليه غيره أو ما تفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء ، كما قيل :

أيها المفتدي لتطلب علما	كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح حكما	ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين الى صراطه المستقيم ، صراط الذين

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٩ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ - ٢٧ .

اختلف العلماء في أصل الشجرة - وخرج الدارقطني عن ابن عمر - رضي الله عنهما قال : قرأ
رسول الله - ﷺ - ﴿ وضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت ﴾ فقال رسول الله -
ﷺ - أتدرون ما هي ؟ . فوقع في نفسي أنها النخلة . قال السهيلي : ولا يصح فيها ما روي
عن علي بن أبي طالب أنها جوزة الهند - لما صح عن النبي - ﷺ - في حديث ابن عمر « إن
من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها - وهي مثل المؤمن خبروني ما هي - ثم قال - هي النخلة » -
أخرجه مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره .

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وهذه الأصول يبني عليها ما في القلوب ، ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين . و« الكلمة » هي قضية جازمة وعقيدة جامعة . ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين - وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية - ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كنبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (١) .

والله سبحانه وتعالى مثل الكلمة الطيبة ، أي : كلمة التوحيد ، ﴿ بِشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن ، ولها فرع عال ، وهي ثابتة في قلب ثابت ، كما قال :

﴿ يَبْتَغِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (٢) فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة والإيمان في قلبه ثابت مستقر ، وهو في نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه ، والكلمة الخبيثة ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ استؤصلت واجتثت . كما يقطع الشيء يجث من فوق الأرض ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ لا مكان تستقر فيه ولا استقرار في المكان ، فإن القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٢) سورة إبراهيم آية رقم ٢٧ .

﴿وَبَشِّرِ الْقَرَارُ﴾ (١) وقال ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ (٢) ويقال : فلان ماله قرار أي ثابت . وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا . فالمبطل ليس قوله ثابتا في قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر . كما قال تعالى في المثل الآخر :

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (٣) فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه ، كالذي يشرك بالله ، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله .

وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه ، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يوصله الى الله ، فإنه سبحانه : -

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (٤)

ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول : لأنه ضيع الأصول ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون الى غاية محمودة كما قال تعالى :
﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٥) .

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٢٩ وقد جاءت هذه الآية محرفة في الأصل حيث ذكرت بدون (الواو)

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(٤) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

والكلم الطيب : هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة . وقيل : هو التحميد والتمجيد ، وذكر الله ونحوه وأنشدوا :

حتى يزين ما يقول فعال

لا ترض من رجل حلاوة قوله

فتوازننا فإخاء ذاك جمال

فإذا وزنت فعاله بمقاله

(٥) سورة الرعد آية رقم ١٤ .

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ، بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله .

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصفه به رسله ، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره ، وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته . والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ في ثلاث مواضع ، ليثبت عظمتة في نفسه ، وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسله فقال في الزمر :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١)
الآية وقال في الحج :

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٢) .

وقال في الأنعام .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣)
وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره ، كما يجب عليه

= ضرب الله مثلاً لياسهم من الاجابة لدعائهم ، لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد قال الشاعر :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

(١) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٣ - ٧٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩١ .

أن يتقيه حق ثقاته ، وأن يجاهد فيه حق جهاده . قال تعالى : -

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ^(١) وقال ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ ^(٢)

والمصدر هنا مضاف الى المفعول ، والفاعل مراد أي حق جهاده الذي أمركم به ، وحق ثقاته التي أمركم بها ، ولقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر ، وأطيعوه فيما أوجب . وأمر ، وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه ، قالت عائشة : فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو .

ودلت الآية على أن له قدراً عظيماً ، لا سيما قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ^(٣) وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية . لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لقول الحبر ، وقرأ هذه الآية (٤) .

(١) سورة الحج آية رقم ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٩ باب قول الله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾

٧٤١٥ حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي حدثنا الأعمش ، سمعت ابراهيم ، قال

سمعت علقمة يقول : قال عبد الله - جاء رجل الى النبي ﷺ - من أهل الكتاب وذكره .

وأخرجه الامام مسلم - في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار

١٩ (٢٧٨٦) حدثنا فضيل (يعني ابن عياض) عن منصور عن ابراهيم عن عبيدة السلماني =

وعن ابن عباس قال : مر يهودي بالنبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم ؟ ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه ؟ والأرض على ذه والجبال والماء على ذه وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (١) .

رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الضحى عن ابن عباس ، وقال غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الجبر ، فإن الذي في الآية أبلغ ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » (٢) وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

= عن عبد الله بن مسعود قال : جاء خبر الى النبي - ﷺ - وذكره .

وأخرجه الترمذي في أبواب التفسير « سورة الزمر » ٣٢٩١ - حدثنا بندار أخبرنا يحيى بن سعيد أخبرنا سفيان ، حدثني منصور وسليمان الأعمش عن ابراهيم عن عبيدة عن عبد الله قال : وذكره .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب التفسير (سورة الزمر) ٣٢٩٣ - حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، أخبرنا محمد بن الصلت أخبرنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس قال : مر يهودي بالنبي - ﷺ - فقال له - النبي - ﷺ : يا يهودي حدثنا ، فقال : وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو كدينة اسمه يحيى بن المهلب ، ورأيت محمد بن اسماعيل روى هذا الحديث عن الحسن بن شجاع عن محمد بن الصلت

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم - في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢٣ (٢٧٨٧) حدثني حرمة بن يحيى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب حدثني ابن المسيب أن أبا =

« يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ورواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر فيه أنه يأخذ الأرض بيده الأخرى (١) .

وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا عمرو بن رافع ، ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال : تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى ، فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فجعل صفته التي وصفوه بها شركاً .

وقال : حدثنا أبي ، ثنا أبو نعيم ، ثنا الحكم يعني أبا معاذ عن الحسن ، قال : عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فرغوا أخذوا يقدرونه ، فأنزل الله تعالى على نبيه : -

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره . وقوله : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق ، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو

= هريرة كان يقول وذكره وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٦ باب قول الله تعالى ﴿ ملك الناس ﴾ فيه ابن عمر عن النبي - ﷺ - أخبرني يونس عن ابن شهاب عن سعيد ، هو ابن المسيب - عن أبي هريرة - عن النبي - ﷺ - وذكره ، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٢ - حدثنا حرمة بن يحيى ، ويونس بن عبد الأعلى قال : ثنا عبد الله بن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب حدثني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة كان يقول : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(١) الحديث عند مسلم - في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢٤ - ٢٧٨٨ حدثنا أسامة عن عمر ابن حمزة ، عن سالم بن عبد الله أخبرني عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

مشارك سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه ، والرب تعالى لا كفاء له ولا سمي له ولا مثل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ممثل ، والمعطل شر من المشارك .

والله ثنى قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلوما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ما ذكر الله تعالى - وليس لله صفة يماثله فيها غيره ، فلهذا لم يجوز أن يستعمل في حقه قياس التمثيل (١) ، ولا قياس الشمول الذي تستوي أفراده ، فإن ذلك شرك ، إذ سوى فيه بالمخلوق ، بل قياس الأولى فإنه سبحانه : -

﴿ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) .

فهو أحق من غيره بصفات الكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص . وقد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع ، وبين أن من جعله الوجود المطلق والمقيد بالسلب أو ذاتاً مجردة فهؤلاء مثله بأنقص المعقولات

(١) القياس : التقدير ، يقال : قاس الشيء إذا قدره ، ويستعمل أيضاً في التشبيه ، أي في تشبيه الشيء بالشيء ، يقال هذا قياس ذاك إذا كان بينهما تشابه .

والقياس اللغوي : رد الشيء إلى نظيره ، والقياس الفقهي : حمل فرع على أصله لعللة مشتركة بينهما .

والقياس المنطقي : قول مؤلف من أقوال إذا وضعت لزماً عنها بذاتها قول آخر . وقياس التمثيل : هو الحكم على شيء معين لوجود ذلك الحكم في شيء آخر معين ، أو أشياء أخرى معينة ، على أن ذلك الحكم على المعنى المتشابه فيه (ابن سينا النجاة ص ٩) .

والفرق بين قياس التمثيل والاستقراء أن قياس التمثيل ينقل الحكم من علاقة معلومة إلى علاقة مشابهة لها من جهة ، ومختلفة عنها من جهة أخرى ، على حين أن الاستقراء ينقل الحكم من المثل إلى المثل .

(٢) سورة الروم آية رقم ٢٧ .

الذهنية ، وجعلوه دون الموجودات الخارجية ، والنفاة الذين قصدوا إثبات حدوث العالم بإثبات حدوث الجسم لم يثبتوا بذلك حدوث شيء ، كما قد بين في موضعه .

« عمدة النفاة في التنزيه على نفي الجسم »

ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم . ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائص البتة ، فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام ألا يقال له فيما أثبتته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفة . فإن كان مثبتا لبعض الصفات قيل له : القول في هذه الصفة التي تنفيها كالقول فيما أثبتته ، فإن كان هذا تجسيميا وقولا باطلا فهذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق بالرب قيل له : وكذلك هذا . وإن قلت : أنا أثبتته وأنفي التجسيم . قيل وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

وإن كان ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعتزلة قيل له في الصفات ما يقوله هو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالمياً قادراً . وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً كان إثبات أن له علماً وقدرة ، كما نطق به الكتاب والسنة كذلك .

وإن كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه . وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً ، وإن قال : لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي : قيل له : سكوتك لا ينفي الحقائق ، ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإما أن يكون حقاً ثابتاً موجوداً ، وإما أن يكون باطلا معدوماً . وأيضا فإن كنت لم تعرفه فأنت جاهل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به ، مثل أن تقول : رب العالمين ، أو القديم الأزلي ، أو الموجود بنفسه ونحو ذلك ، وحينئذ فقد أثبت حياً موجوداً قائماً بنفسه ، وأثبتته فاعلا وأنت لا تعرف ما هو

كذلك إلا الجسم ^(١) .

وإن قدر إنه جاحد له قيل له : فهذا الوجود مشهور ، فإن كان قديماً أزلياً موجوداً بنفسه فقد يثبت جسم قديم أزلي موجود بنفسه وهو ما فررت منه ، وإن كان مخلوقاً مصنوعاً فله خالق خلقه ، ولا بد أن يكون قديماً أزلياً ، فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم ^(٢) الأزلي على كل تقدير ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع . وهنا قد نبهنا على ذلك ، هو أنه كل من بنى تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفي الجسم فإنه لا يمكنه أن ينزهه عن عيب أصلاً بهذه الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفي التركيب . ومن تدبر ما ذكره في كتبهم تبين له أنهم لم يقيموا حجة على وجوده ، فلا هم أثبتوه وأثبتوا له ما يستحقه ، ولا نزهوه ونفوا عنه ما لا يجوز عليه ، إذ كان إثباته هو إثبات حدوث الجسم ، ولم يقيموا على ذلك دليلاً ، والنفي اعتمدوا فيه على ذلك وهم متناقضون فيه لو كانوا أقاموا دليلاً على نفي كونه جسماً ، فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلاً وتناقضوا ؟ .

وهذا مما يتبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة ، فليس معه علم لا عقلي ولا سمعي ، لا سيما في هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية ، وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلوبهم تثبت ما تثبت وتنفي ما تنفي بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة : لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية ، وليس فيها علم

(١) الجسم الطبيعي : عند قدماء الفلاسفة : هو مبدأ الفعل والانفعال وهو الجوهر المركب من مادة وصورة ، وهم وإن كانوا يطلقون الجسم أحياناً على ما له مادة والجوهر على ما لا مادة له ، إلا أنهم يطلقون الجوهر أيضاً على كل متحيز ، فيكون معنى الجوهر أعم من معنى الجسم .

(٢) إذا قال الفلاسفة إن العالم قديم ، أرادوا بذلك أن وجود الله متقدم على وجود العالم والزمان تقدماً ذاتياً لا تقدماً زمانياً ، والقديم عندهم ، مقابل للحدث ، وهو ما لوجوده مبدأ زمني .

أصلاً ، ولكن يستفاد من كلامهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه . ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة في الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم ، كما فعل القاضي أبو بكر في هداية المسترشدين ^(١) وغيره ، فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود عند النبي ﷺ بالمدينة ، وكانوا أحياناً يذكرون له بعض الصفات ، كحديث الحبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ ^(٢) وأن يده مغلولة وغير ذلك ، ولم يقل النبي ﷺ قط إنهم يجسمون ، ولا أن في التوراة تجسيمياً ولا عابهم بذلك ، ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة .

فتبين أن هذه الطريقة مخالفة للشرع والعقل ، وأنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ، ولما فطر عليه عباده ، وأن أهلها من جنس الذين قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ^(٣)

« اعتماد العقلاء في التنزيه على طريقة الكمال »

وقد بينا في غير هذا الموضع فساد ما ذكره الرازي من أن طريقة الوجوب والإمكان ^(٤) من أعظم الطرق ، وبيننا فسادها وأنها لا تفيد علماً ،

(١) قال صاحب كشف الظنون (هداية المسترشدين في الكلام - لأبي بكر ... ابن الباقلاني الشافعي المتوفى سنة ...)

هكذا ذكره بدون توضيح للكتاب ولا ذكر تاريخ وفاة صاحبه [راجع كشف الظنون ج ٢ ص ٢٠٤٢]

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨١ .

(٣) سورة الملك آية رقم ١٠ .

(٤) الإمكان في اللغة : مصدر أمكن إمكاناً كما نقول : أكرم إكراماً وهو أيضاً مصدر أمكن الشيء من ذاته . والإمكان في الشيء عند المتقدمين هو إظهار ما في قوته الى الفعل ، وذلك أنك =

وأنهم لم يقيموا دليلاً على إثبات واجب الوجود ، وأن طريقة الكمال أشرف منها وعليها اعتماد العقلاء قديماً وحديثاً ، وهو قد اعترف في آخر عمره بأنه قد تأمل الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما وجدها تشفي غيلاً ، ولا تروي غيلاً ، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن .

وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها أحد قبل ابن سينا ، وهو أخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن ، ليكنه القول بأن الفلك ممكن مع قدمه ، وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغير سلفه ، وخالف نفسه ، فإنه قد ذكر في المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكن لا يكون إلا محدثاً ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع . ثم إن هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة انتهت بهم إلى قول فرعون ، فإن فرعون جحد الخالق وكذب موسى في أن الله كلمه ، وهؤلاء ينتهي قولهم إلى جحد الخالق ، وإن أثبتوه قالوا إنه لا يتكلم ، ولا نادى أحداً ولا ناجاه .

وعمدتهم في نفي ذاته على نفي الجسم ، وفي نفي كلامه وتكليمه لموسى على أنه لا تحله ^(١) الحوادث ، فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل ،

= إذا تصورت طبيعة الواجب كان طرفاً وبازائه في الطرف الآخر طبيعة الممتنع ، وبينهما طبيعة الممكن .

والإمكان : عبارة عن كون الماهية بحيث تتساوى نسبة الوجود والعدم اليها ، أو عبارة عن التساوي نفسه على اختلاف العبارتين فيكون صفة للماهية حقيقة من حيث هي هي [راجع كليات أبي البقاء] .

(١) قال تعالى ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وهذا تشریف لموسى (ع) بهذه الصفة ولهذا يقال له الكليم وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي ، حدثنا مسيح بن حاتم ، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله . قال : جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال : سمعت رجلاً يقرأ ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ فقال أبو بكر ما قرأ هذا إلا كافر ، قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن ثابت وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن =

فحقيقة قولهم يناقض شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإن الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله ، والرسالة هي كلامه الذي بعثه به ، فإذا لم يكن متكلماً لم تكن رسالة .

ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم ، ومن لم يقل إنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته لم يقل إنه يتكلم . والنفاة منهم من يقول : الكلام صفة فعل بمعنى أنه مخلوق بائن عنه ، ومنهم من يقول : هو صفة ذات بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته ، وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكل طائفة مصيبة في إبطال باطل الأخرى .

والدليل يقوم على أنه صفة ذات وفعل تقوم بذات الرب ، والرب يتكلم بمشيئته وقدرته . فأدلة من قال : إنه صفة فعل كلها إنما تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته وهذا حق ، وأدلة من قال إنه صفة ذات إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما كمن قال إن كلامه مخلوق أو قال إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته فهو لاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم ، ولا أثبتوا له كلاماً ، ولهذا يقولون : ما لا يعقل هذا يقول : إنه معنى واحد

= السلمي ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله - ﷺ - ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ (وكلم الله موسى تكليماً) فقال يا بن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل . وإذا كان الله قد كلم موسى تكليماً فهو لون من الوحي لا يعرف أحد كيف كان يتم . لأن القرآن - وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى الشك إلى صحته لم يفصل لنا في ذلك شيئاً فلا نعلم إلا أنه كان كلاماً ، ولكن ما طبيعته ؟ كيف تم ؟ بآية حاسة أو قوة كان موسى يتلقاه . ؟ كل ذلك غيب من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن ، وليس وراء القرآن - في هذا الباب - إلا أساطير لا تستند إلى برهان .

قام بالذات ، وهذا يقول : حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته
وهذا يقول : مخلوق بائن حسنه .

« القرآن كلام الله »

ولهذا لما ظهر لطائفة من أتباعهم ما في قولهم من الفساد ، ولم يعرفوا
عين هذه الأقوال الثلاثة حاروا وتوقفوا ، وقالوا : نحن نقر بما عليه عموم
المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونه مخلوقاً أو بحرف وصوت أو
معنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا .

ومعلوم أن الهدى في هذه الأصول ومعرفة الحق فيها هو معرفة ما جاء
به الرسول ، وهو الموافق لصريح المعقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون
فيه من العلم لا سيما والقلوب تطلب معرفة الحق في هذه بالفطرة ، ولما قد
رأوا من اختلاف الناس فيها .

وهؤلاء يذكرون هذا الوقف في عقائدهم ، وفيما صنفوه في أصول
الدين ، كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام قد
صنفوا في أصول الدين ما صنفوه ، ولما تكلموا في « مسألة القرآن » وهل هو
مخلوق ؟ أو قديم ؟ أو هو الحروف والأصوات ؟ أو معنى قائم بالذات ؟ نهوا
عن هذه الأقوال ، وقالوا : الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم : إن
القرآن كلام الله ، ويمسك عن هذه الأقوال .

وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك ، ولهم رغبة في العلم والهدى والدين ،
وهم من أحرص الناس على معرفة الحق في ذلك وغيره ، لكن لم يعلموا إلا
هذه الأقوال الثلاثة : قول المعتزلة ، والكلابية ، والسالمية ، وكل طائفة تبين
فساد قول الأخرى ، وفي كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ،
ولم يعلموا قولاً غير هذه فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب إليهم من الجهل
المركب ، وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ،

وهو الاستدلال على حدوث الأجسام وحدث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع ، كما سلكها من ذكرته من أجلاء شيوخ أهل العلم والدين ، والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر ، وهذا ينفي عن الواجب أن يكون جسماً بهذه الطريقة ، وذلك نفى عنه أنه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظر الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلالاً بها وبغيرها قد عرفوا فسادها ، كما قد بسط في غير هذا الموضع . والله سبحانه قد أخبر أنه ﴿ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (١) وأخبر أنه « ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا » (٢) والله سبحانه يجزي الإنسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه ، فإن كان قد قدح فيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتلى في عقله وعلمه ، وظهر من جهله ما عوقب به .

ومن قال عنهم : إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه . ومن قال : إنهم جهال أظهر الله جهله ، ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى : إنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم في قوله : -

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٣) .

وطلب فرعون إهلاكه بالقتل وصار يصفه بالعيوب . كقوله : -

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٣ وصحتها ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾

(٢) هذه ليست بآية وصحة الآية ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ سورة غافر آية رقم ٥١ .

(٣) سورة غافر آية رقم ٢٣ - ٢٤ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ . إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (١) وقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (٢)

أهلك الله فرعون وأظهر كذبه واقتراه على الله وعلى رسله وأذله غاية الإذلال ، وأعجزه عن الكلام النافع ، فلم يبين حجة ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ولكن النبي ﷺ سماه أبا جهل (٣) ، وهو كما سماه رسول الله ﷺ أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة .

والذين قالوا عن الرسول إنه أبتَر وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتارهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (٤) فلا يوجد من شئنا الرسول إلا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لستته . قيل لأبي بكر بن عياش إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة ، فقال : من جلس للناس جلس الناس إليه ، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم .

(١) سورة غافر آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٢ .

(٣) هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي : أشد الناس عداوة للنبي - ﷺ - في صدر الإسلام ، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية . قال صاحب عيون الأخبار : سوت قريش أبا جهل ولم يطر شاربته فأدخلته دار الندوة مع الكهول أدرك الإسلام وكان يقال له « أبا الحكم » فدعاه المسلمون « أبا جهل » سأله الأحنس بن شريك الثقفي ، وكان قد استمعاً شيئاً من القرآن ما رأيك يا أبا الحكم في ما سمعت من محمد . . ؟ فقال : ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرس رهان . قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرِكُ هذه . . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق . قتل في غزوة بدر عام ٢ هـ .

[راجع ابن الأثير ١ : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

وعيون الأخبار ١ : ٢٣٠ والسيرة الحلبية ٢ : ٣٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٣٢٢]

(٤) سورة الكوثر آية رقم ٣

« الجهمية نفاة الصفات رددوا مقالة فرعون وهامان »

وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات ، الذين وافقوا فرعون في جحده ، وقالوا إنه ليس فوق السموات ، وأن الله لم يكلم موسى تكليماً ، كما قال فرعون :

﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ ^(١) وكان فرعون جاحدا للرب ، فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال : ﴿ أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ قال تعالى : - ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا تَبَابٌ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ . فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ، وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ ^(٣) .

ومحمد ﷺ لما عرج به الى ربه وفرض عليه الصلوات الخمس ، ذكر أنه رجع الى موسى ، وأن موسى قال له : إرجع إلى ربك فسله التخفيف إلى أمتك ، كما تواتر هذا في أحاديث المعراج . فموسى صدق محمداً في أن ربه

(١) سورة غافر آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٣٨ - ٤٢ .

فوق ، وفرعون كذب موسى في أن ربه فوق ، فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد ، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون . وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظائر ، وهي مما اعتمد عليها أبو الحسن الأشعري في كتابه « الإبانة » (١) وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية على أن الله فوق العالم وقال في أوله :

فإن قال قائل : قد أنكرتم قول الجهمية والقدرية ، والخوارج والروافض ، والمعتزلة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وربما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون ، فإنه الإمام الكامل ، والرئيس الفاضل ، الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيع الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمه الله من إمام مقدم وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين ، وذكر جملة الاعتقاد والاعتقاد على علو الله على العرش (٢) ، وعلى الرؤية (٣) ومسألة القرآن (٤) ونحو ذلك وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

و« المقصود هنا » أن المعطلة نفاة الصفات أو نفاة بعضها لا يعتمدون في ذلك على ما جاء به الرسول ، إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن

(١) تم طبع هذا الكتاب وقامت بتحقيقه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه الدكتور فؤاد حسين .

(٢) قال تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ سورة طه آية رقم ٥

(٣) قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ القيامة ، آية ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) راجع كتاب الامام أحمد بن حنبل « الرد على الجهمية والزنادقة » وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب « طبع ونشر دار اللواء بالرياض » .

الإثبات لا النفي ، لكن يعتمدون في ذلك على ما يظنونونه أدلة عقلية ، ويعارضون بذلك ما جاء به الرسول .

وحقيقة قولهم أن الرسول لم يذكر في ذلك ما يرجع اليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب في ذلك على زعمهم ، بخلاف غير هذا فإنهم معترفون بأن الرسول ذكر في القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب ، وعلى صدق الرسول .

وقد يقولون أيضاً : إنه أخبر بالمعاد ، لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ما ذكروه من النفي لم يذكره الرسول ، فلم يخبر به ولا ذكر دليلاً عقلياً عليه ، بل إنما ذكر الإثبات ، وليس هو في نفس الأمر حقاً ، فأحوج الناس إلى التأويل أو التفويض ، فلما نسبوا ما جاء به الرسول إلى أنه ليس فيه لا دليل سمعي ولا عقلي ، لا خبر يبين الحق ولا دليل يدل عليه عاقبهم الله بجنس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه في هذا الباب خارجاً عن العقل والسمع ، مع دعواهم أنه من العقلات البرهانية ، فإذا اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية ، من جنس شبهات أهل السفسطة والإلحاد ، الذين يقدحون في العقلات والسمعيات .

وأما السمع فخلافتهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكموا العقلات ، فإذا حقق الأمر وجدتهم كما قال أهل النار ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١)

وكما قال تعالى : -

(١) سورة الملك آية رقم ١٠ .

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : لقد ندم الفاجر يوم القيامة قالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير . فقال الله تعالى ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ أي بتكذيبهم الرسل والذنب ها هنا بمعنى الجمع لأن فيه معنى الفعل .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (١) .

فلما كان حقيقة قولهم أن القرآن والحديث ليس فيه في هذا الباب دليل سمعي ولا عقلي سلبهم الله في هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية ، حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين ، وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين .

« الجعد أول من أظهر التعطيل في فكر المسلمين » .

وقد قيل : إن أول من عرف أنه أظهر في الإسلام التعطيل الذي تضمنه قول فرعون هو الجعد بن درهم (٢) ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري (٣)

(١) سورة النور آية رقم ٣٩ - ٤٠ .

(٢) الجعد بن درهم ، من الموالي : مبتدع ، له أخبار في الزندقة ، سكن الجزيرة الفراتية ، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة ، في أيام هشام بن عبد الملك ، فنسب إليه . أو كان الجعد مؤدبه في صغره . ومن أراد ذم مروان لقبه بالجعدي ، نسبة إليه . قال الذهبي : « عداة في التابعين . مبتدع ضال ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى ، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر » .

[راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ ، والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ، والتاج ٢ : ٣٢١ ، ولسان الميزان ٢ : ١٠٥ ، واللباب ١ : ٢٣٠ ، والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٢ ، وتاريخ الخميس ٢ : ٣٢٢] .

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري ، أبو الهيثم ، أمير العراقيين ، يمني الأصل ، من أهل دمشق ، ولي مكة سنة ٨٩ هـ . للوليد بن عبد الملك ، ثم ولاة هشام العراقيين « الكوفة والبصرة » سنة ١٠٥ هـ . عزله هشام سنة ١٢٠ هـ . وولى مكانه يوسف بن عمر ، =

وقال : أيها الناس : ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، إني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه ، وشكر له علماء المسلمين ما فعله ، كالحسن البصري ^(١) وغيره .

وهذا الجعد اليه ينسب مروان بن محمد ^(٢) الجعدي آخر خلفاء بني أمية وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة . فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل ، وانتصر لهم ، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم ، وهو حقيقة قول فرعون « إنكار الصانع وإنكار عبادته » وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض فكان خيارهم وأقربهم إلى الإسلام الرفضية وظهر بسببهم الرفض والإلحاد ، حتى كان من كان ينزل الشام مثل بني حمدان الغالية ونحوهم متشيعين ، وكذلك من كان من بني بويه في المشرق .

وكان ابن سينا ^(٣) وأهل بيته من أهل دعوتهم . قال : وبسبب ذلك

= فسجنه يوسف وعذبه ، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد عام ١٢٦ هـ . وكان خالد يرمى بالزندقة .

[راجع الأغاني ١٩ : ٥٣ - ٦٤ . وتهذيب التهذيب ٥ : ٦٧ ، وابن خلدون ٣ : ١٠٥]

(١) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي . كان إمام أهل البصرة . وهو أحد العلماء الفقهاء ، الفصحاء ، الشجعان ، النساك . ولد بالمدينة ، وشب في كنف علي بن أبي طالب واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية . له مع الحجاج بن يوسف مواقف . توفي بالبصرة عام ١١٠ هـ .

راجع ميزان الاعتدال ١ : ٢٥٤ ، وحلية الأولياء ٢ : ١٣١ .

(٢) هو مروان بن محمد بن الحكم الأموي ، أبو عبد الملك . ويعرف بالجعدي آخر ملوك بني أمية في الشام . ولد بالجزيرة عام ٧٢ هـ . وكان والده رئيساً عليها . وافتتح قونية عام ١٠٥ هـ . إستولى على العرش سنة ١٢٧ هـ . قتل عام ١٣٢ هـ . [راجع الكامل لابن الأثير

٥ : ١١٩ ، ١٥٨ . واليعقوبي ٣ : ٦٧ ، وابن خلدون ٣ : ١١٢ ، ١٣٠ . والطبري ٩ : ٥٤]

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

اشتغلت في الفلسفة ، وكان مبدأ ظهورهم من حين تولى المقتدر ، ولم يكن قد بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ، ولهذا سمي حينئذ بأمر المؤمنين الأموي الذي كان بالأندلس ، وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم ويقول : لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلما ولي المقتدر قال هذا صبي لا تصح ولايته فسمي بهذا الاسم .

وكان بنو عبيد الله القداح^(١) الملاحدة يسمون بهذا الاسم ، لكن هؤلاء كانوا في الباطن ملاحدة زنادقة منافقين ، وكان نسبهم باطلا كدينهم بخلاف الأموي والعباسي فإن كلاهما نسبة صحيحة ، وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء . فخرجت الروم النصارى الى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء ، إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة ، وبعد ذلك بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة ، إلى أن تولى نور الدين الشهيد ، وقام بما قام به من أمر الإسلام وإظهاره والجهاد لأعدائه ، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم ، وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت

(١) هو عبد الله بن ميمون بن داود المخزومي بالولاء ، المعروف بابن القداح ، فقيه إمامي ، من رجال الحديث من أهل مكة ، وأمه الحديث عند علماء السنة ، قال النسائي : ضعيف ، وقال أبو حاتم : لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد ، وهو من الثقات عند الشيعة ، له كتب ، منها « مبعث النبي وأخباره » و« صفة الجنة والنار وكان أبوه فارسي الأصل ، من موالي بني مخزوم ، عرف بالقداح - وهي صناعة السهام مات عام ١٨٠ هـ [راجع منهج المقال ٢١٢ ، وتهذيب التهذيب ٦ : ٤٩ واللباب ٢ : ٢٤٥ وفيه تخطئة ابن الأثير للسمعاني في كلامه على « القداحية » وفي المؤرخين من يصل بعبد الله بن ميمون نسب الفاطميين العبيديين أبناء عبيد الله بن محمد « الملقب بالمهدي »]

مصر من بني عبيد أخذها صلاح الدين يوسف بن شاذي ^(١) ، وخطب بها لبني العباس ، فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدي المنافقين المرتدين عن دين الإسلام مائة سنة .

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة وبالعكس البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة . فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الإلحاد والبدع سلط عليهم الكفار ، ولما أقاموا ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقاً لقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) .

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالإسلام كانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم ، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور سلط عليهم الكفار . قال تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ

(١) هو يوسف بن أيوب بن شاذي ، أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الإسلام ، كان أبوه وأهله من قرية دوين في شرق أذربيجان وهم بطن من الروادية من قبيلة الهذانية من الاكراد ولد بتكريت عام ٥٣٢ هـ ونشأ في دمشق دخل مع أبيه وعمه في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، صاحب دمشق وحلب ، والموصل - استقل بحكم مصر واستمرت ٢٤ سنة وبسورية ١٩ سنة وخلف من الأولاد ١٧ ذكراً وأنثى واحدة وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته وتوفي عام ٥٨٩ هـ . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ٣٧٦]

(٢) سورة الصف آية رقم ١٠ - ١٣

شَدِيدٍ ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ
وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئَرُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَبِيرًا . عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ
عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿١﴾ .

وكان بعض المشايخ يقول : هولاء (٢) - ملك الترك التتار الذي قهر
الخليفة بالعراق ، وقتل ببغداد مقتلة عظيمة جداً ، يقال : قتل منهم ألف
ألف ، وكذلك قتل بحلب دار الملك حينئذ . كان بعض الشيوخ يقول هو-
للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبني إسرائيل . وكان من أسباب دخول هؤلاء
ديار المسلمين ظهور الإلحاد والنفاق والبدع ، حتى أنه صنف الرازي (٣) كتاباً
في عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر ، سماه « السر المكتوم في السحر
ومخاطبة النجوم » ويقال : إنه صنفه لأمر السلطان علاء الدين محمد بن لكسن
ابن جلال الدين خوارزم شاه . وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازي
به اتصال قوي ، حتى أنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتاباً سماه
« الرسالة العلائية في الاختيارات السماوية » . وهذه الاختيارات لأهل الضلال
بدل الاستخارة التي علمها النبي ﷺ للمسلمين كما قال جابر في الحديث

(١) سورة الاسراء الآيات من ٤ - ٨ .

(٢) فاتح مغولي حفيد « جنكيز خان » قضى على الحشاشين في ايران ١٢٥٦ م ثم قضى على
الخلافة العباسية ١٢٥٨ وزحف على الشام ١٢٦٠ م ولكن المماليك هزموه بقيادة سيف الدين
قنطز في معركة « عين جالوت » فارتد شرقاً واستقر في ايران . [راجع الموسوعة الثقافية ص
١٠٣٧]

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسن ، أبو عبد الله الرازي ، الإمام المفسر . وهو قرشي النسب .
أصله من طبرستان . ومولده من الري عام ٥٥٤ هـ . توفي في هراة عام ٦٠٦ هـ . كان
يحسن الفارسية . من تصانيفه : مفاتيح الغيب ، ولوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى
والصفات ، وغير ذلك كثير . [راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ ، والوفيات ١ : ٤٧٤] .

الصحيح الذي رواه البخاري وغيره « كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : -

« اذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين ، من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه باسمه خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » (١) .

وأهل النجوم لهم اختيارات إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلاً أخذ طالعاً سعيداً ، فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتباً في الرد عليهم ، وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكما يخبرون من خبر فيكون كذباً ، وكما يأمرن باختيار فيكون شراً ، والرازي صنف الاختيارات لهذا الملك ، وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر في « السر المكتوم » في عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها ، والشرك بها ودعائها ، مثل ما يدعو الموحدون ربهم ، بل أعظم ، والتقرب إليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان ،

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٠ باب قول الله تعالى (قل هو القادر ٧٣٩٠ - حدثنا معن بن عيسى ، حدثني عبد الرحمن بن أبي الموالي . قال سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن يقول وذكره . وأخرجه الترمذي في أبواب التطوع ٣٤٤ باب ما جاء في صلاة الاستخارة ٤٧٨ - بسنده عن جابر بن عبد الله . قال الترمذي : حديث جابر حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الموالي ، وهو شيخ مديني ثقة ، روى عنه سفيان حديثاً وقد روي عن عبد الرحمن غير واحد من الأئمة . وأخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٨٨ باب ما جاء في صلاة الاستخارة ١٣٨٣ - حدثنا خالد بن مخلد ثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي ، قال : سمعت محمد بن المنكدر يحدث عن جابر بن عبد الله وذكره .

فذكر أنه يتقرب الى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ، ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله .

وهذا في نفس الأمر يقرب الى الشياطين ، الذين يأمرونهم بذلك ويقولون لهم : إن الكوكب نفسه يحب ذلك ، وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله ، لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاصي ، ولكن الشياطين هي التي تأمر بذلك ، ويسمونها روحانية الكواكب ، وقد يجعلونها ملائكة وإنما هي شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق بسبب مثل هذا الملك ونحوه ، ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الإلحاد والبدع سلط الله عليهم الترك المشركين الكفار ، فأبادوا هذا الملك ، وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ويعلم تحقيق ما أخبر الله به في كتابه - حيث يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ^(١) أي أن القرآن حق . وقال : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ^(٢) وبسط هذا له موضع آخر .

« من أسباب انقراض دولة بني أمية مقالة الجعد »

والمقصود هنا « أن دولة بني أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد ^(٣) المعطل وغيره من الأسباب ، التي أوجبت إدارها ، وفي آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان ^(٤) بخراسان . وقد قيل : إن أصله من ترمذ وأظهر قول المعطلة النفاة الجهمية ، وقد قتل في بعض الحروب . وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق . ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك ^(٥) وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام في

(١) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٣٧ .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٤) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٥) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم . مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم ، ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق ، لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد (١) وتولى ابنه الملقب بالمأمون (٢) بالمشرق ، وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه .

ثم لما ولي الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء ، ودعا الى قولهم في آخر عمره ، وكتب الى بغداد وهو بالثغر بطرسوس التي ببلدسيس - وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ، ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها ، رابط بها الإمام أحمد (٣) رضي الله عنه ، والسري السقطي (٤) ، وغيرهما ، وتولى قضاءها أبو عبيد ، وتولى قضاءها أيضا صالح ابن أحمد بن حنبل ، ولهذا ذكرت في كتب الفقه كثيراً فإنها كانت ثغراً عظيماً ، فكتب من الثغر - إلى نائبه ببغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا : القرآن مخلوق ، فلم يجبه أحد ، ثم كتب

(١) هارون (الرشيد) ابن محمد (المهدي) ، ابن المنصور العباسي ، أبو جعفر ، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم . ولد بالري ، لما كان أبوه أميراً عليها ، وعلى خراسان . ونشأ في دار الخلافة ببغداد ، وولاه أبوه غزوة الروم في القسطنطينية . وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ . وكان الرشيد عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه . توفي في « سنا باز » من قرى طوس . وبها قبره . [راجع النجوم الزاهرة ٣ : ١٩٨ ، والكامل لابن الأثير : حوادث سنة ٣٢٢ ، وصلة تاريخ الطبري ٦٩] .

(٢) عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، أبو العباس : سابع الخلفاء من بني العباس في العراق ، وأحد أعظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه . نفذ أمره من إفريقية الى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند . ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ . ولد سنة ١٧٠ هـ وتوفي سنة ٢١٨ هـ . [راجع ذيل المذيل ٨٨ والإصابة . ت ٤٩٩٤ وهو في المحبر ٤٦ من المشبهين بالنبي (ﷺ)] .

(٣) الامام أحمد بن حنبل سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

(٤) سري بن المغلس السقطي . أبو الحسن : من كبار المتصوفة . بغدادى المولد والوفاء . وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته . توفي عام ٢٥٣ هـ . [راجع الكامل لابن الأثير ٧ : ٢٩] .

كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه فأجاب أكثرهم ، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي اثنان لم يجيبا : الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ؛ فأرسلوهما إليه فمات قبل أن يصلا إليه ، ثم أوصى إلى أخيه أبي اسحاق ، وكان هذا سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وبقي أحمد في الحبس إلى سنة عشرين فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه ، وظهر مذهب النفاة الجهمية ، وامتحنوا الناس فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء وعزلوه من الولايات . ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير ، فإن أجابهم افتدوه ، والا لم يفتدوه . وكتب قاضيهم أحمد بن أبي داود ^(١) على ستارة الكعبة « ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم » ، لم يكتب وهو « السميع البصير » ثم ولي الواثق واشتد الأمر إلى أن ولي المتوكل فرفع المحنة وظهرت حينئذ السنة ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بينوه حتى قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية ، وكان ينشد :

عجبت لشیطان دعا الناس جهرة إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . قيل له : بحد ؟ قال : بحد وكذلك قال أحمد بن حنبل ، واسحاق بن إبراهيم بن راهويه ^(٢) ، وعثمان بن سعيد الدارمي ^(٣) ، وغيرهم

(١) أحمد بن أبي داود بن جرير بن مالك الإيادي . أبو عبد الله : أحد القضاة المشهورين من المعتزلة ، ورأس فتنة القول بخلق القرآن . قدم به أبوه من قنسرين إلى دمشق . فنشأ فيها . ومنها رحل إلى العراق . وقيل ولد بالبصرة . توفي مفلوجاً ببغداد . [راجع البعثات العلمية ٦١ ، وحركة الترجمة بمصر ٦٤ ، وبناء دولة ١١٢ و ٦٨٣]

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي ، أبو يعقوب بن راهويه ، عالم =

من أئمة السنة .

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون . وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه ، كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جل جلاله ويقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ^(١) ويقول لموسى : ﴿ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ ^(٢) ويقول : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ^(٣) .

وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى أن يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ويكون هو المعبود المطاع .

« وحدة الوجود وأقوال اتباعها والرد عليها »

فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول الى قول فرعون كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته وإنكار كلامه حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون : العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق ،

⁼ خراسان في عصره . من سكان مرو (قاعدة خراسان) وهو أحد كبار الحفاظ . طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ولد عام ١٦١ هـ . وتوفي بنيسابور عام ٢٣٨ هـ . [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ - ٤١٤ ، وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ ، وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ ، وابن خلكان ١ : ٦٤ ، والإنتفاء ١٠٨ ، وحلية الأولياء ٩ : ٢٣٤ ، وطبقات الحنابلة ٦٨ وفيه : ولادته سنة ١٦٦ ووفاته سنة ٢٤٣ هـ ، وتاريخ بغداد ٦ : ٣٤٥ .

(٣) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني ، أبو سعيد : محدث هراة . له تصانيف في الرد على الجهمية . وله « مسند كبير » ولد عام ٢٠٠ هـ . وتوفي في هراة عام ٢٨٠ هـ .

[راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٧٧ والتهيان - خ]

(١) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

والرب هو العبد ، ما ثم رب وعبد وخالق ومخلوق بل هو عندهم فرقان .

ولهذا صاروا يعيرون على الأنبياء وينقصونهم ، ويعيرون على نوح وعلى إبراهيم الخليل وغيرهما ، ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام ، ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وأن الله نفسه هو العابد وهو المعبود ، وهو الوجود كله ، فجددوا الرب وأبطلوا دينه ، وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله ، وتكليمه لموسى وغيره . وقد ضل في هذا جماعة لهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين^(١) والصدر القانوني^(٢) تلميذ ابن عربي والبلياني والتلمساني^(٣) ، وهو من حذاقهم علماً ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتي المحرمات .

وحدثني الثقة أنه قرأ عليه « فصوص الحكم » لابن عربي ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن ، قال فقلت له : هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع جلاء العينين ٥١ وفوات الوفيات ١ : ٢٤٧ ، ونفح الطيب ١ : ٤٢١ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ .

(٢) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القانوني الرومي ، صدر الدين . صوفي من كبار تلاميذ الشيخ محيي الدين بن عربي . تزوج ابن العربي أمه . وكان شافعي المذهب . وبينه وبين نصير الدين الطوسي مكاتبات في بعض المسائل الحكمية . من كتبه (الفصوص في تحقيق الطور المخصوص ، ومفتاح الغيب ... وغير ذلك كثير) . [راجع مفتاح السعادة ١ : ٤٥١ ، وطبقات السبكي ٥ : ١٩] .

(٣) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني ، غفيف الدين ، شاعر ، كومي الأصل (من قبيلة كومة) ، تنقل في بلاد الروم . ولد عام ٦١٠ هـ . وسكن دمشق . وصف كتباً كثيرة منها : « شرح مواقف النفزي » و« شرح الفصوص » لابن عربي ، وكتاب في « العروص - خ » وشعره مجموع في « ديوان - خ » . مات في دمشق عام ٦٩٠ هـ . [راجع غربال الزمان خ - والنجوم الزاهرة ٨ : ٢٩ ، والبداية والنهاية ١٣ : ٣٢٦ ، وآداب اللغة ٣ : ١١٩ ، وشذرات الذهب ٥ : ٤١٢] .

كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم . فقال له رفيقه : هذا أيضا هو ذات الله ؟ فقال : وهل ثم شيء خارج عنها ؟ نعم الجميع في ذاته ؟ .

وهؤلاء حقيقة قولهم هو قول فرعون ، لكن فرعون ما كان يخاف أحداً فيناقفه فلم يثبت الخالق ، وإن كان في الباطن مقراً به ، وكان يعرف أنه ليس هو إلا مخلوق . لكن حب العلو في الأرض والظلم دعاه الى الجحود والإنكار . كما قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين ، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضلال يحسبون أنهم على حق ، وإن الخالق هو المخلوق فكان قولهم هو قول فرعون ، لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد ، وهؤلاء إما جهال ضلال ، وإما منافقون مبطنون الإلحاد والجحود ، يوافقون المسلمين في الظاهر .

وحدثني الشيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم ، وكان من أصدق الناس ، ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً ، أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي يطلب منه المعرفة والعلم . قال : فدعاني إلى هذا المذهب فقلت له : قولكم هذا يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون ؟ . فقلت لعبد السيد واعترف لك بهذا قال : نعم ، وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب ، فقلت له : هذا مذهب فاسد وهو يؤول الى قول فرعون ، فحدثني بهذا فقلت له : ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على

(١) سورة النمل الآيتان : ١٣ و ١٤

قول فرعون ، لكن مع إقرار الخصم ما يحتاج الى بينة . قال عبد السيد فقلت له : لا أدع موسى وأذهب الى فرعون . فقال : ولم ؟ قلت : لأن موسى أغرق فرعون فانقطع ، واحتج عليه بالظهور الكوني ، فقلت لعبد السيد - وكان هذا قبل أن يسلم - نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعوني .

وفيه جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه ، وهم يحسبون أنه حق ، وعامتهم - الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله . وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء - لا يفهمون حقيقة قولهم ، بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض^(١) ، وإبراهيم بن أدهم^(٢) ، وأبي سليمان الداراني^(٣) ، والسري السقطي ،

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي أبو علي . شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصالحين ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق منهم الشافعي ، ولد في سمرقند عام ١٠٥ هـ ونشأ بآبيورد ودخل الكوفة وهو كبير ، وأصله منها ثم سكن مكة وتوفي بها عام ١٨٧ . [راجع طبقات الصوفية ٦ - ١٤ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٥ وتهذيب ٨ : ٢٩٤ والجواهر المضية ١ : ٤٠٩]

(٢) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور ، التميمي البلخي أبو إسحاق : زاهد مشهور . كان أبوه من أهل الغنى في بلخ ، فتفقه ورحل إلى بغداد ، وجال في العراق والشام والحجاز . أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبه ومسكنه ومثواه . [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ١٦٧ ، والبداية والنهاية ١٠ : ١٣٥ ، والشريشي ٢ : ٨٢ ، وحلية الأولياء ٧ : ٣٦٧ ثم ٨ : ٣ ، وروض المناظر - خ - وفيه وفاته سنة ١٦٠ هـ . ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٣٣ . والمناري ١ : ٧٣ وفيه : مات بالجزيرة سنة ١٦٢ هـ . وفوات الوفيات ١ : ٣] .

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي ، أبو سليمان : زاهد مشهور ، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الشام ، وتوفي في بلده . كان من كبار المتصوفين . [راجع طبقات الصوفية ٧٥ : ٨٢ ، وفوات الأعيان ١ : ٢٧٦ ، وحلية الأولياء ٩ : ٢٥٤ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٢٤٨ ، وتاريخ داريا ٥١] .

والجنيد بن محمد (١) ، وسهل بن عبد الله (٢) وأمثال هؤلاء .

وأما عرفاهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك ، ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وأن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء ، وأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يأتي خاتم الأنبياء ، فإنهم متجهمة متفلسفة ، يخرجون أقوال المتفلسفة والجهمية في قالب الكشف . وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال في نفس النبي ليس هو ملكاً يأتي من السماء ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء في زعمهم فإنه يأخذ من العقل المجرد الذي يأخذ منه الخيال ، فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول .

وهم يعظمون فرعون ، ويقولون ما قاله صاحب « الفصوص » قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه جارفي العرف الناموس . لذلك قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٣) .

أي وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما فأننا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز ، أبو القاسم : صوفي ، من العلماء بالدين . مولده ومنشأه ووفاته ببغداد . وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز . قال أحد معاصريه : ما رأيت عيناى مثله . وقال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه . من كلامه : طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به . توفي عام ٢٩٧ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١١٧ ، وحلية الأولياء ١٠ : ٢٣٥] .

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري ، أبو محمد : أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعبوب الأفعال . له كتاب في تفسير القرآن ، وكتاب رقائق المحبين ... وغير ذلك . توفي عام ٢٨٣ هـ . [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ ، والوفيات ٢١٨ : ١ ، وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ ، والشعراني ١ : ٦٦] .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

من الحكم فيكم قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك وقالوا له :

﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) قال فصح قول فرعون ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ وان كان فرعون عين الحق . وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد الله ﷺ . قال : وإذا نهق الحمار ونبح الكلب سجدوا له . وقالوا هذا هو الله فإنه مظهر من المظاهر . قال : فقلت له محمد بن عبد الله أيضا مظهر من المظاهر . فاجعلوه كسائر المظاهر وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه ، قال فقالوا لي : محمد نبغضه فإنه أظهر الفرق ودعا اليه وعاقب من لم يقل به ، قال : فتناقضوا في مذهبهم الباطل ، وجعلوا الكلب والحمار أفضل من أفضل الخلق . قال لي : وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ، ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكا ، وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا » ^(٢) فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت فيكون سجودهم للشياطين .

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقا - لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء - وقد صنف كتاباً سماه « فك الأزرار عن أعتاق الأسرار » ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس ، وأنه قال له ما معناه : إنكم قد غلبتموني وقهرتموني ونحو هذا ، لكن جرت لي قصة تعجبت منها مع شيخ

(١) سورة طه آية رقم ٧٢ .

(٢) الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب بديء الخلق ١٥ ، وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب ١٠٦ ، والامام الترمذي في كتاب الدعوات ٥٦ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠٦ ، ٢ : ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٦٤ (حلي)

منكم . فإني تجليت له فقلت : أنا الله لا إله إلا أنا فاسجد لي فتعجبت كيف سجد لي ، قال هذا الشيخ فقلت له : ذاك أفضلنا وأعلمنا وأنت لم تعرف قصده ، ما رأى في الوجود اثنين وما رأى إلا واحداً فسجد لذلك الواحد لا يميز بين إبليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذي سجد لابليس لا يميز بين الرب وغيره ، بل جعل إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

ولهذا عاب ابن عربي ^(١) نوحاً أول رسول بعث الى أهل الأرض ، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين ، وأنجاه ومن معه في السفينة ، وأهلك سائر أهل الأرض لما كذبوه ، فلبث في قومه الف سنة إلا خمسين عاماً . وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ما عبدوا إلا الله ، وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله . وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكافرين .

كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وغيرهم . ومدح عباد العجل وتنقص هارون وافتري على موسى . فقال : وكان موسى أعلم بالأمر من هارون ، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قد قضى ألا يعبد إلا إياه ، وما قضى الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في انكاره وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء - فذكر عن موسى أنه عتب على هارون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وأنه لم يسع ذلك فأنكره ، فإن العارف من يرى

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن العربي ، أبو بكر الحاتمي الطائفي الأندلسي ، فيلسوف له سطحات صدرت عنه ، واتهم بالزندقة فعمل بعضهم على إراقة دمه ، ولكن تمكن من خلاصه على ابن فتح البجائي . يقول عنه الذهبي : قدوة القائلين بوحدة الوجود . له نحو أربعمائة رسالة وكتاب منها : الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم ، ومفاتيح الغيب . توفي عام ٦٣٨ هـ . [راجع فوات الوفيات ٢ : ٢٤١ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٨٧ ، وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٨] .

الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء . وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهارون ، وعلى الله ، وعلى عباد العجل فإن الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل إنكاراً أعظم من إنكار هارون ، وأنه أخذ بلحية هارون لما لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفته . قال تعالى : -

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ : هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي ^(١) . وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ، قَالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ^(٢) ، فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ يَا قَوْمِ ؛ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ؟ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ؟ قَالُوا : مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ، وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ . فَقَالُوا : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؟ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ

(١) ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه ، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عددي إليهم .

وقيل : لا بل كان أمر هارون بأن يتبع في بني اسرائيل أسره ويلحقوا به وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكانهموسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً الى سماع كلام الله عز وجل .

(٢) قال ابن عباس - رضي الله عنهما - كان السامري من قوم يعبدون البقر ، فوقع بأرض مصر فدخل في دين بني اسرائيل بظاهره ، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر .
وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه وقيل : كان عظيماً من عظماء بني اسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام .

قال سعيد بن جبير ، كان من أهل كرمان .

(٣) وأن لا يرجع تقديره أنه لا يرجع فلذلك ارتفع الفعل فخفت (أن) وحذف الضمير وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن قال :

في فتية من سيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل =

قَبْلَ : يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ،
 قَالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ، قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ
 إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ قَالَ يَبْنَؤُا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
 قَوْلِي ﴿ ١ ﴾ .

قلت لبعض هؤلاء هذا الكلام الذي ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق
 القرآن أو يخالفه ، فقال : لا بل يخالفه ، قلت : فاختر لنفسك إما القرآن وإما
 كلام ابن عربي .

وكذلك قال عن نوح قال : لو أن نوحاً جمع لقومه بين الدعوتين
 لأجابوه ، أي ذكر لهم فدعاهم جهاراً ثم دعاهم إسراراً إلى أن قال : ولما
 علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ؛ لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى
 الغاية ﴿ أدعوا إلى الله ﴾ فهذا عين المكر ﴿ على بصيرة ﴾ فنه أن الأمر كله
 لله فأجابوه مكرراً كما دعاهم ، فجاء المحمدي وعلم أن الدعوة إلى الله ما هي
 من حيث هويته ، وإما هي من حيث أسمائه فقال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى
 الرَّحْمَنِ وَقُدَّاءً ﴾ (٢) فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم فعرّفنا أن العالم كان
 تحت حيلة اسم إلهي أوجب عليهم أن يكونوا متقين . فقالوا في مكرهم :
 ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
 وَنَسْرًا ﴾ (٣) فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن

= وقد يحذف مع التشديد قال :

فلو كنت ضيأً عرفت قرابتي ولكن زنجي عظيم المشافر أي ولكنك .

(١) سورة طه من آية رقم ٨٣ - ٩٤ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة نوح آية رقم ٢٣ .

للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله ، كما قال في
المحمديين :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ^(١) أي حكم ،
فالعارف يعرف من عبد ، وفي أي صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة
كالأعضاء في الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية ،
فما عبد غير الله في كل معبود .

وهو دائماً يحرف القرآن عن مواضعه ، كما قال في هذه القصة : ﴿ مِمَّا
خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ ^(٢) فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله وهي الحيرة .
﴿ فَأَدْخَلُوا نَارًا ﴾ ^(٣) في عين الماء في المحمديين ﴿ وَإِذَا الْبَحَارُ
سُجِّرَتْ ﴾ ^(٤) سجرت التنوير أوقدته ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَنْصَارًا ﴾ ^(٥) فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه الى الأبد - وقوله ﴿ وَقَضَى
رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ بمعنى أمر وأوجب وفرض ، وفي القراءة الأخرى
« ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » فجعل معناه أنه قدر وشاء أن لا تعبدوا إلا
إياه وما قدره فهو كائن ، فجعل معناها كل معبود هو الله وأن أحداً ما عبد غير
الله قط وهذا من أظهر الفرية على الله وعلى كتابه ، وعلى دينه ، وعلى أهل
الأرض .

فإن الله في غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله ، بل يعبدون
الشیطان ، كما قال تعالى : -

(١) سورة الاسراء آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

(٤) سورة التكوين آية رقم ٦ .

(٥) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .
وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
تَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى عن يوسف أنه قال : -

﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ مَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : - ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، فَأَتَوْا عَلَى
قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ،
قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا مَثْبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .
قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى عن الخليل : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا
يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ
وَلِيًّا . قَالَ : أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا .
وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي
شَقِيًّا . فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا

(١) سورة يس الآيات من ٦٠ الى ٦٢ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٩ - ٤٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٣٨ - ١٤٠ .

جَعَلْنَا نَبِيًّا ، وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿١﴾

فهو سبحانه تعالى يقول : -

﴿ فَلَمَّا اعْتَرَزَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢)

وهؤلاء الملحدون يقولون : ما عبدنا غير الله في كل معبود .

وقال تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ، وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا : لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) .

إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (٤) .

قال أبو قلابة : هي لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله . والجهمية النفاة كلهم مفترون ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل إنما يقودون قولهم الى فرية على الله ، وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله فإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقول إنه يحل فيه ، وهؤلاء يجهلون من يقول بالحلول أو يقول بالالاتحاد ، وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق ، فإن هذا إنما يكون إذا شيئان متباينان ، ثم اتحد

(١) سورة مريم الآيات رقم ٤٢ - ٥٠ .

(٢) سورة مريم الآيات رقم ٤٩ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٤٨ - ١٤٩ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٥٢ .

أحدهما بالآخر ، كما يقول النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت ، وهذا إنما يقال في شيء معين .

وهؤلاء عندهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده ، وهم من أعظم الناس تناقضاً ، فإنهم يقولون ما ثم غير ولا سوى ، وتقول السبعينية ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله ، ثم يقولون هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا ، فإذا كان ما ثم غير ، ولا سوى فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ومن الذي ليس بمحجوب وعم حجب؟ فقد اثبتوا أربعة أشياء : قوم محجوبون ، وقوم ليسوا بمحجوبين ، وأمرنا انكشف لهؤلاء وحجب عن أولئك . فأين هذا من قولهم ما ثم ابنان ولا وجودان؟ كما حدثني الثقة أنه قال للتلمساني : فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وابنته؟ قال : نعم؟ الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم . ف قيل لهم : فمن المخاطب للمحجوبين أهو هم أم غيرهم؟ فإن كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه ، وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين وعندهم ما ثم غير . وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين ، فإنه يقال : الوجود واحد ، كما يقال : الإنسانية واحدة ، والحيوانية واحدة أي يعني واحد كلي وهذا الكلي لا يكون كلياً إلا في الذهن لا في الخارج فظنوا هذا الكلي ثابتاً في الخارج ثم ظنوه هو الله ، وليس في الخارج كلي مع كونه كلياً ، وإنما يكون كلياً في الذهن ، وإذا قدر في الخارج كلي مع كونه كلياً وإنما يكون كلياً في الذهن وإذا قدر في الخارج كلي فهو جزء من المعينات وقائم بها ، ليس هو متميزاً قائماً بنفسه ، فحيوانية الحيوان وإنسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة هي صفة له ، ويمتنع أن تكون صفة الموصوف مبدعة له ، ولو قدر وجودها مجرداً عن العيان على رأي من أثبت « المثل الأفلاطونية » فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ، ويدعي أنها قديمة أزلية مثل إنسانية مجردة ، وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل .

وهذا الذي جعله مجرداً هو مجرد في الذهن وليس في الخارج كلي

مجرد ، وإذا قدر ثبوت كلي مجرد في الخارج وهو مسمى الوجود فهذا يتناول وجود المحدثات كلها ، كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعاً لشيء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بأنه حي عليم قدير ، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لا بد أن يكون حياً عليمًا قديرًا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

« الفناء وأنواعه »

ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الأعيان الموجودة المخلوقة فقد ثبت وجودان أحدهما غير الآخر ، وأحدهما محدث مخلوق ، فيكون الآخر الخالق غير المخلوق ، ولا يمكن جحد وجود الأعيان المعينة ، ولكن الواحد من هؤلاء قد يغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن أنه ما لم يشهده قد عدم في نفسه وفني وليس كذلك ، فإن ما عدم وفني شهوده له وعلمه به ونظره إليه ، فالمعدوم الفاني صفة هذا الشخص ، وإلا فالموجودات في نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علماً بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شهوداً للعدم ، ولكن هذه الحال يعتري كثيراً من السالكين يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات وقد يسمون هذا فناء واصطلاماً ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات ، لا أنها في نفسها فنيت ، ومن قال : فني ما لم يكن وبقي ما لم يزل ، فالتحقيق - إذا كان صادقاً - أنه فني شهوده لما لم يكن ، وبقي شهوده لما لم يزل ، لا أن ما لم يكن فني في نفسه ، فإنه باق موجود ، ولكن يتوهمون إذا لم يشهده أنه قد عدم في نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلول ، فأحدهما قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ، ويستغرق في ذلك فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفني ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت ، وأن نفسه فنيت حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله . ومن

هذا الباب غلط أبي يزيد ونحوه حيث قال : ما في الجبة إلا الله . وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين أنه يعبر بالفناء عن أمور ثلاثة : -

« أحدها » أنه يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبة وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه ، وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فقد فنى من قلبه التأله لغير الله ، وبقي في قلبه تأله الله وحده ، وفنى من قلبه حب غير الله وخشية غير الله والتوكل على غير الله ، وبقي في قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله .

وهذا الفناء يجمع البقاء ، فيتخلّى القلب عن عبادة غير الله مع تحلي القلب بعبادة الله وحده ، كما قال ﷺ لرجل : « قل أسلمت لله وتحليت » وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفي مع الإثبات نفي إلهية غيره مع إثبات إلهيته وحده ، فإنه ليس في الوجود إله إلا الله ، ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله ، فيجب أن يكون هذا ثابتاً في القلب ، فلا يكون في القلب من يألهه القلب ويعبده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كل تأله لغير الله ، ويثبت فيه تأله الله وحده ، إذ كان ليس ثم إله إلا الله وحده .

وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لكل معبود سواه ولمن عبدهم قال تعالى عن الخليل عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(١) ، ﴾ وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ - ٧٧ .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ . إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (١) .

قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء : قول الخليل : ﴿ إِنِّي بُرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ممن تبرأ الخليل . أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط ؟ والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين . وقد جعله الله لنا وفيمن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . قال تعالى : -

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢) .

وقد قال ﷺ : أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ..

وهذا تصديق قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٣) .

(١) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٢) سورة الممتحنة آية رقم ٤ - ٦ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٦٢ .

وقال تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّوْنَ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٢) .

قال طائفة من السلف كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه . وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ (٣) و « الإله » هو المألوه أي المستحق لأن يؤله أي يعبد ، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال ، بمعنى المركوب والمحمول وكان الصحابة يرتجزون في حفر الخندق يقولون :

هذا الحمال لا حمال خبير هذا أبر ربنا وأطهر

وإذا قيل : هذا هو الإمام فهو الذي يستحق أن يؤتم به ، كما قال تعالى لإبراهيم : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) فعهد بالإمامة لا ينال الظالم ، فالظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه ، ولا يركن اليه كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٥) .

فمن أنتم بمن لا يصلح للإمامة فقد ظلم نفسه ، فكيف بمن جعل من الله إلها آخر ، وعبد من لا يصلح للعبادة ، والله تعالى :

(١) سورة يونس آية رقم ٣٢

(٢) سورة القصص آية رقم ٨٨ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٨٧ - ٨٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٢٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ١١٣ .

﴿ لَا يَغْفِرُ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(١) وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن « الإله » بمعنى الفاعل ، وجعلوا الإلهية هي القدرة والربوبية ، فالإله هو القادر وهو الرب ، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون .

فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون في أمور لكن إمامهم ابن عربي يقول : الأعيان ثابتة في العدم ووجود الحق فاض عليها ، فلهذا قال : فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهاً . فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلهاً لها حيث كانوا مألوهين ومعنى مألوهين عنده مربوبيين وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة في العدم ، وفي كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

و« التحقيق » أن الله خالق كل شيء والمعدوم ليس بشيء في الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به فيكون سبباً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج . كما قال : -

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٢)

والله سبحانه خالق الإنسان ومعلمه فهو الذي : -

﴿ خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ^(٣) وهو : -

﴿ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(٤)

ولو قدر أن الإله بمعنى الرب فهو الذي جعل المربوب مربوباً فيكون

(١) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(٣) سورة العلق آية رقم ١ - ٢ .

(٤) سورة العلق آية رقم ٣ - ٥ .

على هذا هو الذي جعل المألوه مألوهاً ، والمربوب لم يجعله رباً ، بل ربوبيته صفة ، وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله رباً ولم يبيع رباً سوى الله ولم يتخذ رباً سواه ، كما قال تعالى :

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) وقال ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ ﴾ (٣) .

وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق لا إله غيره . فإذا عبده الإنسان فقد وحده من لم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره .

قال تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ (٥) وقال إبراهيم لأبيه آزر : ﴿ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٦) .

فالمخلوق ليس بإله في نفسه ، لكن عابده اتخذته إلهاً وجعله إلهاً وسماه إلهاً ، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره ، كما أن الجاهل إذا اتخذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلاً ، فإنه لا يصلح أن يؤم ولا يفتي ولا

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٦٤ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤ وقد جاءت هذه الآية في الأصل محرفة (حيث قال (أفغير) بدلاً من (قل أغير الله))

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٨٠ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢١٣ وقد جاءت الآية محرفة في الأصل حيث قال فلا تجعل بدلاً من (فلا تدع)

(٥) سورة الإسراء آية رقم ٢٢

(٦) سورة الأنعام آية رقم ٧٤ .

يقضي ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلهاً يعبد ويدعي ، فإنه لا يخلق ولا يرزق ، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد .

ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال ، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعي ، أو يسمع ولكن لا يستجيب له ، فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء البتة وقد قال تعالى : -

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (١) .

فغير الله لا مالك لشيء ، ولا شريك في شيء ، ولا هو معاون للرب في شيء ، بل قد يكون له شفاععة إن كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولكن لا تنفع الشفاععة عنده إلا لمن أذن له ، فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع ، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاععة البتة ، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلهاً معبوداً ، كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً . لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

« انتهى »

(١) سورة سبا آية رقم ٢٢ - ٢٣ .

التفسيـر الكبير

للإمام العلامة تقيّ الدين

إبن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ

رحمته الله تعالى

الجزء الثاني

محقق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن حميرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة

بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

التفسير الكبير

فصل « في أسباب ضلال المتكلمين » . وأتباعهم .

وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم ، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ، فإن الرسول بعث بالبينات والهدى : يبين الأدلة العقلية ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم ^(١) ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون : إنه لم يفد الناس علماً بخبره ولا بدالاته ، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة فيعتقدوا في الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم وإن كان كذباً وباطلاً ، وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به ، لكن كذباً للمصلحة ، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علماً ، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يشتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به .

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده ، ٦ : ٥٢ حدثنا يحيى عن اسماعيل ، ثنا قيس قال : لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلاً نبح الكلاب قالت : أي ماء هذا . . ؟ قالوا : ماء الحوآب . قالت : ما أظنني إلا أنني راجعة . فقال بعض من كان معها بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل ذات بينهم . قالت : إن رسول الله - ﷺ - قال لها ذات يوم كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب .
وذكر ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب ٢ : ٥٨١ - في ترجمة سراقه بن مالك بن جُعشم .
وروى سفيان بن عيينة عن أبي موسى ، عن الحسن أن رسول الله - ﷺ - قال لسراقه بن مالك : كيف بك إذا ليست سوارى كسرى ؟
قال : فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقه بن مالك فالبسه إياهما .

والمتكلمون - الذين يقولون : إنهم لا يخبرون إلا بصدق ، ولكن يسلكون في العقلیات غیر طریقهم - مبتدعون مع إقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية ، فكيف بهؤلاء الملاحدة المفترين ؟ ولهذا لا يعتنون بالقرآن ، ولا بتفسيره ، ولا بالحديث ، وكلام السلف ، وإن تعلموا من ذلك شيئاً فلاجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره ، لا لاعتقادهم موجبه في الباطن ، وهذا بخلاف طوائف المتكلمين فإنهم يعظمون القرآن في الجملة وتفسيره مع ما فيهم من البدع .

ولهذا لما استولى التتار على بغداد ^(١) وكان الطوسي ^(٢) منجماً لهولاًكو استولى على كتب الناس الوقف والملك ، فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها ، وأخذ كتب الطب ، والنجوم ، والفلسفة ، والعربية فهذه عنده هي الكتب المعظمة ، وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً

(١) قال ابن الأباري : أصل بغداد للأعاجم ، والعرب تختلف في لفظها إذا لم يكن أصلها من كلامهم ، ولا اشتقاقها من لغاتهم . قال بعض الأعاجم ، تفسيره بستان رجل « فباغ » بستان ، و داد اسم رجل ، وبعضهم يقول : بغ : اسم للصنم فذكر أنه أهدى الى كسرى خص من المشرق فأقطعها إياها ، وكان الخصي من عباد الأصنام ببلده . فقال : بغ داد أي الصنم أعطاني ، وقيل : بغ هو البستان ، و داد : أعطى ، وكان كسرى قد وهب لهذا الخصي هذا البستان فقال : بغ داد فسميت به وسماها المنصور : مدينة للسلام . وسميت مدينة السلام لأن دجلة يقال لها وادي السلام وقال موسى بن عبد الحميد النسائي : كنت جالساً عند عبد العزيز ابن أبي رواد فأتاه رجل فقال له : من أين أنت . . فقال له : من بغداد فقال : لا تقل بغداد فإن بغ صنم و داد أعطى ، ولكن قل : مدينة السلام فإن الله هو السلام ، والمدن كلها له . [راجع معجم البلدان ١ : ٤٥٦ - ٤٦٧]

(٢) هو محمد بن محمد بن الحسن ، أبو جعفر نصير الدين الطوسي ، كان رأساً في العلوم العقلية ، علامة بالأرصاد والمجسطي ، والرياضيات علت منزلته عند « هولاًكو » ولد بطوس (قرب نيسابور) عام ٥٩٧ هـ وابتنى بمراغة قبة ، ورصداً عظيماً واتخذ خزنة ملاًها من الكتب التي نهت من بغداد والشام والجزيرة ، من مصنفاته (تربيعة الدائرة) و « تجريد العقائد » وغير ذلك . توفي عام ٦٧٢ هـ [راجع فوات الوفيات ٢ : ١٤٩ والوافي ١ : ١٧٩ وشذرات ٥ : ٣٣٩ ومفتاح السعادة ١ : ٢٦١]

لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سحرية حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام فكان يقول لبعض أصحابنا يا فلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي ، ثم يرضيه فيقول : والعربية أيضاً ، والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع^(١) ونحوهم من حطب النار .

(١) هي القصائد السبع الطوال التي سمتها العرب السموط لأنها مختزن حكمتهم ، ومستقر بلاغتهم ، وغاية ما وصل اليه الخيال من شاعريتهم وقد قال بعض الرواة أنهم من فرط شغفهم بهذه القصائد ، وشدة اكبارهم لها كتبوها بماء الذهب على القباطي ، وعلقوها على الكعبة ، وأصحاب القصائد هم : امرؤ القيس ومعلقته عدد أبياتها ٨٩ بيتاً ، والحارث بن حلزة ومعلقته ٨٤ بيتاً ، ومعلقة زهير بن أبي سلمى وعدد أبياتها ٦٤ بيتاً وطرفة بن العبد ، ولبيد ، وعمرو ابن كلثوم ، وعنترة ، ولكن بعض الرواة نسب للناطقة الديباني والأعشى معلقتين .

فصل الخوارج أول دعاة للفرقة في الاسلام

أول التفرق والابتداع في الإسلام بعد مقتل « عثمان » وافتراق المسلمين ، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج ^(١) وقالوا

(١) يقال لهذه الطائفة « الخوارج ، والحرورية ، والنواصب ، والشراة ، أما الخوارج فجمع خارج ، وهو الذي خلع طاعة الإمام الحق وأعلن عصيانه وألب عليه ، وعلماء الفقه الإسلامي يسمون من فعل ذلك وصارت له شوكة « الباغي » وجمعه « بغاة » وأما الحرورية فنسبه الى حرورا وضبطه ياقوت بفتح الحاء والراء المهملتين وبعدهما واو ساكنة فالف ممدودة وقال : قيل هي قرية بظاهر الكوفة ، وقيل موضع على ميلين منها نزل به الخوارج الذين خالفوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنسبوا اليه ، وقال ابن الأنباري : حروراء كورة ، وقال أبو منصور الحرورية منسوبون الى موضع بظاهر الكوفة نسبت اليه الحرورية من الخوارج وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا علياً عليه السلام .

وقد وقع في حديث عائشة - رضي الله عنها - أن معاذة بنت عبد الله اليدوية سألتها : أتقضي إحدانا الصلاة أيام حيضها . ؟ فقالت عائشة : أحرورية أنت . ؟ قد كانت إحدانا تحيض على عهد رسول الله - ﷺ - ثم لا تؤمر بقضاء الصلاة (صحيح مسلم ١ / ١٨٢ الآستانة) وذكر شراح مسلم أن الحرورية يوجبون على الحائض إذا طهرت قضاء الصلاة ، وربما سموا فرقة من الخوارج بعينها (حرورية) .

وأما النواصب فجمع ناصبي وهو الغالي في بغض علي بن أبي طالب ، وقال المقرئ ٢ : ٣٥٤ والفرقة العاشرة الخوارج ويقال لهم : النواصب ، والحرورية نسبة الى حروراء موضع خرج فيه أولهم على علي - ﷺ - وهم الغلاة في حب أبي بكر وعمر وبغض علي بن أبي طالب - رضوان الله عليهم أجمعين .

لا حكم إلا لله وفارقوا جماعة المسلمين - فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم (١) فرجع نصفهم ، والآخرين أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم ، فقتلوا ابن خباب وقالوا كلنا قتله فقاتلهم علي ، وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه ، لكن خرجوا عن السنة والجماعة ، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة . وغير ذلك فضلوا ، فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالماً فلم ينفذوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده . بل قالوا : إن عثمان وعلياً ومن والاها قد حكموا بغير ما أنزل الله . ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)

فكفروا المسلمين بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبني على مقدمتين باطلتين .

« إحداهما » أن هذا يخالف القرآن .

و « الثانية » أن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئاً أو مذنّباً معتقداً للوجوب والتحريم .

= وأما الشراة فهم بضم الشين مثل رماة وقضاة - جمع شار أما هم أنفسهم فإنهم يفسرون ذلك على أن الشاري الذي هو مفرد الشراة اسم فاعل من الشراء ويزعمون أنهم سموا بذلك لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى على أن لهم الجنة يشيرون بذلك الى قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ .

وأما غيرهم فإنهم يفسرون ذلك على أن الشاري اسم الفاعل من شرى الشر من باب (رضي) إذ استطار وزاد وتفاقم وقالوا أيضاً (شرى الرجل كرضى) إذا غضب ولج في الخصومة وغيرها (انظر صحاح الجوهري ش ر ي)

(١) أخرج ابن سعد عن عمران بن مناح قال : فقال ابن عباس يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم ، في بيوتنا نزل فقال : صدقت ، ولكن القرآن حمال ذو وجه ، يقول : ويقولون : ولكن حاججهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً .

فخرج ابن عباس إليهم فحاججهم بالسنن فلم يبق بأيديهم حجة .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .

وبإزائهم « الشيعة » ^(١) غلوا في الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء ، وأوجبوا الرجوع اليهم في جميع ما جاءت به الرسل ، فلا يعرجون لا على القرآن ولا على السنة ، بل على قول من ظنوه معصوماً ، وانتهى الأمر الى الائتمام بإمام معدوم لا حقيقة له ، ثم إنما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون فحديثهم من أصح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث .

ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا ولكنهم عاجزون ، والزيدية ^(٢) تفعل

(١) التشيع لفظ يتصل بكلمة : شيعة ، وشيعة الرجل - بالكسر - أتباعه وأنصاره ، والفرقة على حده ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً - رضي الله عنه - وأهل بيته - حتى صار اسماً خاصاً لهم وجمعها أشياع وشيع . والتشيع في أصل اللغة هو الاتباع على وجه التدين والولاء للمتبع على الإخلاص . قال الله تعالى : ﴿ فاستغاثة الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾ القصص آية ١٥ وقال تعالى ﴿ وإن من شيعته لابراهيم ﴾ سورة الصافات آية ٨٣ فالتشيع إذن يتضمن في معناه الاتباع والنصرة من جماعة لرجل عموماً . ولكن كلمة « شيعة » مجردة لا تعني العموم ، وإنما تنصرف الى دلالة خاصة هي الجماعة التي ناصرت علياً وشايعته والتفت حوله ، وجعلت منه إماماً لها : تقتدي به وتجعل له مقاماً يسمو على مقام معاصريه فيما عدا الرسول - ﷺ .

وذكر أبو الحسن الأشعري أنهم « إنما قيل لهم : الشيعة لأنهم شيعوا » شايعوا « علياً - رضوان الله عليه - ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله - ﷺ - [راجع مقالات الاسلاميين ص ٥ والفصل ١١٣١٢ والتبصير في الدين ص ١٦-١٧]

(٢) إنما سموا « زيدية » لتمسكهم بقول « زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان زيد بن علي بويح له بالكوفة في أيام هشام بن عبد الملك ، وكان أمير الكوفة يوسف بن عمر الثقفي ، وكان زيد بن علي يفضل علي بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله - ﷺ - ويتولى أبا بكر وعمر ، ويرى الخروج على أئمة الجور ، فلما ظهر في الكوفة في أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن على أبي بكر وعمر ، فأنكر ذلك على من سمعه منه =

هذا ، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لا تقتل إلا تحت راية إمام معصوم .
والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ، ولهذا أوصت
الملاحدة - مثل القرامطة الذين كانوا في البحرين وهم من أكفر الخلق ، ومثل
قرامطة المغرب ومصر وهم كانوا يستترون بالتشيع - أوصوا بأن يدخل على
المسلمين من باب التشيع فإنهم يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من
المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن
والحديث كما قد بسط هذا في مواضع .

والمقصود أن النبي ﷺ قال : « إني تارك فيكم ثقلين كتاب الله » فحضر
على كتاب الله . ثم قال : « وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي
ثلاثاً »^(١) فوصى المسلمين بهم لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون اليهم
فانتحلت الخوارج كتاب الله ، وانتحلت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير
متبع لما انتحله ، فإن الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها ، وكفروا

= ففرق عنه الذين يابعوه فقال لهم (رفضتموني) فيقال إنهم سمووا الرافضة لقول زيد لهم
« رفضتموني » وبقي في شذمة . وهم ست فرق : الجارودية ، والمرتدية ، الأبرقية ،
اليعقوبية ، الأثرية ، الجريرية .

(١) الحديث أخرجه الامام الترمذي في كتاب المناقب ٣٢ باب في مناقب أهل بيت النبي - ﷺ -
٣٧٨٦ حدثنا زيد بن الحسين هو الأنماطي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله
قال : رأيت رسول الله - ﷺ - في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعته
يقول وذكره .

قال : وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد ، وزيد بن أرقم ، وحذيفة بن أسيد وقال : وهذا
حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وزيد بن الحسن قد روى عنه سعيد بن سليمان وغير
واحد من أهل العلم . وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٧ (حلي) بسنده عن
أبي سعيد الخدري عن النبي - ﷺ - بلفظ - إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم
الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي
أهل بيتي ، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروني بما
تخلفوني فيهما » .

المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه على غير تأويله ، من غير معرفة منهم بمعناه ، ولا رسوخ في العلم ، ولا اتباع للسنّة ، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن .

وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت في مواضع .

نشأة القدرية وأصل ضلالهم

ثم حدث في آخر عصر الصحابة « القدرية » فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعي ، أمره ونهيه ، وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ، ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهي مسائل : الأسماء والأحكام .

وسموا محكّمة لخوضهم في التحكيم بالباطل ، وكان الرجل إذا قال : لا حكم إلا لله قالوا : هو محكم أي خائض في حكم الله فخاض أولئك في شرع الله بالباطل .

وأما القدرية فخاضوا في قدره بالباطل .

وأصل ضلالهم : ظنهم أن القدر يناقض الشرع فصاروا حزينين ، حزباً يعظمون الشرع والأمر والنهي والوعد والوعيد ، واتباع ما يحبه الله ويرضاه وهجر ما يبغضه وما يسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦ - ٢٧ .

القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ففرقوا بين الكتاب والسنة ، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين وفرقوا بين المسلمين فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وكذلك القدرية ، فصاروا حزبين ، حزباً يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه ، أو ينفي بعضه .

وحزباً يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول : لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه ، وكذلك ما ذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة يأمر بهذا وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام ، كما أن أولئك وإن أقرروا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قدير ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليماً .

وأنكروا أن يكون خالقاً لكل شيء ، وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وأنكروا أن يكون الله فعلاً لما يشاء .

وأثبتوا لغير الله الانفراد بالأحداث وشركاء خلقوا كخلقه كما فعلت المجوس . واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالاحسان والكرم ، إن لم يجعل عاجزاً وإلا لزم أن يكون بخيلاً .

كما أن « القدرية » ^(١) « المجبرة » قالوا : لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً إلا بتسفيهه وتجويره .

(١) تكلمنا عن القدرية في هذا الجزء في كلمة وافية وستأتي فيما بعد فليرجع إليها .

فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيتته أو قدرته ومشيتته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الاشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالفاً .

وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ، ويقولون : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ ^(١) الآية . وهؤلاء منتهى توحيدهم توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية ^(٢) ، فأما توحيد الالهية المتضمن للأمر والنهي ولكون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه فهم ينكرونه ، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم وأكثر شركاً وتجويزاً من المعتزلة ، ومنتهى متكلمهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام ، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، كما ذكر ذلك صاحب منازل السائرين ^(٣) وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازي ^(٤)

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٢) توحيد الربوبية : الإقرار بأن الله خالق كل شيء ، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية ، وهذا التوحيد لم يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل عليهم السلام فيما حكى الله عنهم (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض) سورة ابراهيم آية رقم ١٠ .

(٣) الكتاب يسمى « منازل السائرين الى الحق المبين » لشيخ الإسلام عبد الله بن إسماعيل الانصاري الهروي الصوفي (المتوفى سنة ٤٨١) وهو كتاب في أحوال السلوك : أوله الحمد لله الواحد القيوم الخ قال فيه : وجميع هذه المقامات يجمعها رتب ثلاث الأولى : أخذ المقاصد في السير ، الثانية : دخوله في الغربة ، الثالثة : حصوله على المشاهدة الجاذبة الى عين التوحيد ، ألفه حين سأل جماعة من الراغبين في الوقوف على منازل السائرين الى الحق المبين من أهل هراة فأجاب ورتب لهم فصولاً وأبواباً فجعله مائة مقام مقسومة على عشرة أقسام كل منها يحتوي على عشر مقامات . [راجع كشف الظنون ٢ : ١٨٢٨]

(٤) هو أحمد بن حمدان بن أحمد الورسامي الليثي أبو حاتم الرازي من زعماء الاسماعيلية وكتابهم ، له تصانيف منها « الاصلاح » و« اعلام النبوة » في مذهبهم . قال ابن حجر =

صنف فيها مصنفاً ، وابن عربي وابن سبعين وأمثالهما يصرحون بجواز عبادتها ، وبالانكار على من أنكر ذلك ، وهم متناقضون في ذلك . ف « القدرية » أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته ، إذ لو كان قادراً لفعل غير ما فعل فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر .

وقالوا : يثبت حكمته كما يثبت حكمه ؛ لأن نفي ذلك يوجب السفه والظلم ، وهو منزّه عنه بخلاف ما لم يقدر عليه ، فإنه معذور إذا لم يفعله فلا يلزم عليه .

وقالت المجبرة : بل قدرته ثابتة بلا حكمة ، ولا يجوز أن يفعله لحكمة لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو منزّه عن الحاجة ، ولا عدل ولا ظلم ، بل كل ما أمكن فعله فهو عدل ، وليس في الأفعال ما هو حسن ينبغي الأمر به وقبيح ينبغي النهي عنه ، ولا معروف ومنكر ، بل يجوز أن يأمر بكل شيء ، وينهى عن كل شيء . ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالكلية ، وأنكر النبوات ، مع أنه مضطر إلى أن يأمر بشيء ، وينهى عن شيء ، فإن هذا لازم لجميع الخلق لا يجدون عنه محيصاً ، لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره ، وينهى عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهى عما ينفع فيستحق عذاب الدنيا والآخرة ، وأما من كان منهم مقراً بالنبوة فأنكر الشرع في الباطن وقال العارف : لا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة صار منافقاً يظهر خلاف ما يظن ، ويقول الشرع لأجل المارستان ولهذا يسمون باطنية ، كما سمو الملاحدة باطنية ، فإن كلاهما يظن خلاف ما يظهر ، يبطنون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهي .

= العسقلاني : ذكره ابن بابويه في تاريخ الري وقال : كان من أهل الفضل والأدب والمعرفة باللغة ، وسمع الحديث كثيراً وله تصانيف ، ثم أظهر القول بالإلحاد وصار من دعاة الاسماعيلية وأضل جماعة من الأكابر . [راجع لسان الميزان ١ : ١٩٤ وحسين فهمي الهمداني من محاضرة ألقاها بالقدس في ٢٩/١١/١٩٣١ ونشرت في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن] .

فمنتهى الجهمية المجبرة إما مشركون ظاهراً وباطناً ، وإما منافقون
 يظنون الشرك - ولهذا يظنون بالله ظن السوء ، وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه ،
 كما قال تعالى : ﴿ وَيَعَذَّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
 الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَعَنَهُمْ
 وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) .

وهم يتعلقون بقوله ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (٢) وبأنه : ﴿ يَفْعَلُ مَا
 يَشَاءُ ﴾ (٣) .

ولذلك لما ظهر المشركون التتار (٤) وأهل الكتاب كثر في عبادهم
 وعلمائهم من صار مع المشركين وأهل الكتاب ، وارتمد عن الاسلام إما باطنياً

(١) سورة الفتح آية رقم ٦ .

وقد جمعت هذه الآية بين المنافقين والمنافقات والمشركون والمشركات في صفة ظن السوء
 بالله ، وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين ، وفي أنهم جميعاً (عليهم دائرة السوء) فهم محصورون
 فيها ، وهي تدور عليهم وتقع بهم وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من
 سوء المصير ذلك أن النفاق صفة مردولة لا تغل عن الشرك سوءاً بل إنها أخط ولأن أذى
 المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات وإن اختلف
 هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه . وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى
 الأنواع وبين حالهم عنده ، وما أعده لهم في النهاية ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته
 ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٣ وتكملتها ﴿ وهم يسألون ﴾

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٤٠ وصدر الآية ﴿ قال كذلك الله ﴾

(٤) التتار أو التتر : هي أمة من الجنس الأصفر بلادها ممتدة من الجنوب الشرقي للمملكة الروسية
 الى غربها وهي شعوب متميزة منهم الياقوتية ، والجيرجيزية ، والساموية ، والترک العثمانيون
 وبعضهم يعد المغوليين منهم ، وليس الأمر كذلك وإن كان بينهم قرابة واضحة والتتر (الآن)
 دينهم الإسلام إلا قليل منهم وهم (الياقوتية) بقوا وثنيين وقد قدر بعض الخبيرين تعداد التتر
 بثلاثين مليون نسمة وهم الآن تحت سلطة الأمة الروسية التي كانت تحت سلطتهم فسبحان
 الله تعالى في قوله ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾

وظاهراً ، وإما باطناً .

وقال : إنه مع الحقيقة ، ومع المشيئة الالهية ، وصاروا يحتجون لمن هو معظم للرسول عما لا يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة ومخالفة المشركون وأهل الكتاب والدخول في دينهم ومجاهدة المسلمين معهم هو بأمر الرسول فتارة تأتيهم شياطينهم بما يخيّلون لهم أنه مكتوب من نور وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار لكون المسلمين قد عصوا ولما ظهر أن مع المشركين وأهل الكتاب خفراء لهم من الرجال المسلمين برجال الغيب ، وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب .

حزب يكذبون بوجود هؤلاء ، ولكن عاينهم الناس ، وثبت ذلك عمن عاينهم ، أو حدثه الثقات بما رأوه وهؤلاء إذا رأوهم أو تيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

وحزب عرفوا ورجعوا الى القدر ، واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقاً الى الله غير طريقة الأنبياء .

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا أولياء الله خارجين عن دائرة الرسول فقالوا : يكون الرسول هو ممداً للطائفتين لهؤلاء وهؤلاء فهؤلاء معظمون للرسول ، جاهلون بدينه وشرعه ، والذين قبلهم يجوزون اتباع دين غير دينه وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن وأن الذين مع الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الإنس فهو من جنسهم شيطان من شياطين الانس أعداء الأنبياء كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

شَیَاطِینَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ
غُرُورًا ﴿١﴾ .

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ،
وأصله قول الجهمية الذين يسوون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب
والمسخوط ، ثم إنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

« ارتدت الیونسية في زمن قازان »

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى فظهر أن
الیونسية (٢) كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار . وحضر عندي بعض

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٢ .

في صحيح السنة : قوله عليه السلام : ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن «
قيل : ولا أنت يا رسول الله . قال : ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا
بخير » روي برفع الميم ونصبها فالرفع على معنى فأسلم من شره ، والنصب على معنى فأسلم
هو . فقال « ما منكم من أحد » ولم يقل ولا من الشياطين إلا أنه يحتمل أن يكون نبه على
أحد الجنسين بالأخر فيكون من باب « سراييل تقيكم الحر » وفيه بُعد والله أعلم . وروي
عوف بن مالك عن أبي ذر قال قال رسول الله - ﷺ : يا أبا ذر هل تعوذت من شر شياطين
الإنس والجن . . ؟ قال قلت : يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين . . ؟

قال : نعم هم شر من شياطين الجن . وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد عليّ من
شيطان الجن ، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئي
فيجرني الى المعاصي عياناً وسمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه امرأة تنشد :

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلکم يشتهي شم الرياحين
فأجابها عمر - رضي الله عنه .

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

(٢) الیونسية : هؤلاء أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي ، وكان في الإمامية على مذهب القطعية
الذين قطعوا بموت موسى بن جعفر ، وأفرط يونس هذا في باب التشبيه ، فزعم الله عز وجل
يحملة حملة عرشه ، وهو أقوى منهم كما أن الكركي يحمله رجلاه وهو أقوى من رجليه
(الكركي : طائر قريب من الوز أبتر الذنب رمادي اللون ، دقيق الرجلين طويلهما ، يأوي الى =

شييوخهم واعترف بالردة عن الاسلام وحدثني بفصول كثيرة ، فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول : فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا ، وكان في بغداد بضعة عشر بغياً ، فالحبش الكفار المشركون الذين جاءوا كانوا شراً من هؤلاء فإن هؤلاء كن يزين اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات الألوف من حرائر المسلمين وسرايرهم بغير اختيارهم وردوهم عن الإسلام إلى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ، ودين النصارى وتعظيم الصليب ، حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضاعيف ما كان بفعل من المعاصي ، فهل يأمر محمد ﷺ بهذا ويرضى بهذا ؟ ! .

فتبين له ، وقال : لا والله ، وأخبرني عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الإسلام لما كانت شياطين المشركين تكرههم على الردة في الباطن ، وتعذبهم إن لم يرتدوا . فقلت : كان هذا الضعف إيمانهم ، وتوحيدهم والمادة التي يشهدونها من جهة الرسول ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين ^(١) ، وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين ، بل إنهم رجال من رجال الغيب الإنس ، وكلهم الله بتصريف الأمر . فبينت لهم أن رجال

= الماء أحياناً وجمعه كراكي) واستدل على أنه محمول بقوله ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ سورة الحاقة آية رقم ١٧ ، يقول البغدادي : وقال أصحابنا : الآية دالة على أن العرش هو المحمول دون الرب تعالى [راجع الفرق بين الفرق ص ٧٠ ومقالات الإسلاميين ١ : ١٠٦ والتبصر ٢٤] .

(١) قال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ . سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

وقال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ سورة النحل آية رقم ٩٩

وقال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلًا ﴾ سورة الإسراء آية رقم ٦٥ .

الغيب هم الجن كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (١) .

ومن ظن أنهم إنس فمن جهله وغلطه ، فإن الإنس يؤنسونه ، أي يشهدون ويرون إنما يحتجب الإنسي أحياناً لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنس بخلاف الجن ، فإنهم كما قال الله : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (٢) .

وكان غير هذا من المشايخ من يذكر عن الشيخ محمد بن السكران أن « هولاءكو » ملك المشركين لما دخل بغداد رأى ابن السكران شيخاً مخلوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق آخذاً بفرس هولاءكو قال : فلما رأيته أنكرت هذا واستعظمت أن يكون شيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين فقلت : يا هذا أو كلمة نحو هذا فقال : تأمر بأمر أو قال له : هل يفعل هذا بأمر ، أو فعلت هذا بأمر ؟ فقلت : نعم بأمر ، فسكت ابن السكران وأقنعه هذا الجواب ، وكان هذا لقلة علمه

(١) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٧ قال بعض العلماء : في هذا دليل على أن الجن لا يرون لقوله ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ وقيل جائز أن يروا لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى . قال النحاس « من حيث لا ترونهم » يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي ليكون ذلك دلالة على نبوته ، لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يرون فيه ، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم ، وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله عليهم . قال القشيري : أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم . وفي الخبر إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم « وقال تعالى : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ وقال عليه السلام : إن للملك لمة وللشيطان لمة أي بالقلب فأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق » .

وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة ، وقد خرج البخاري عن أبي هريرة قال : وكلني رسول الله - ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة طويلة ذكر فيها أنه أخذ الجن الذي كان يأخذ التمر ، وأن النبي - ﷺ قال له : ما فعل أسيرك البارحة ؟ . . .

بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وظن أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله ، وأن من قال : حدثني قلبي عن ربي ، فإن الله هو ينجيه ، ومن قال : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت هو كذلك . وهذا أضل ممن ادعى الاستغناء عن الأنبياء ، وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

وجواب هذا أن يقال له : بأمر من تأمر ؟ فإن قال : بأمر الله ؟

قيل : بأمر الله الذي بعث به رسوله ، وأنزل به القرآن أم بأمر وقع في قلبك ؟

فإن قال : بالأول ظهر كذبه فإنه ليس فيما يأمر الله به ورسوله أن يأتي بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ، ويضرب فيها بالنواقيس ويقتل قراء القرآن وأهل العلم بالشرع ، ويعظم النجسية علماء المشركين وقساوسة النصراني وأمثال ذلك : فإن هؤلاء أعظم عداوة لمحمد ﷺ وهم من جنس مشركي العرب الذين قاتلوه يوم أحد وأولئك عصاة من عصاة أمته ، وإن كان فيهم منافقون كثيرون ، فالمنافقون يبطنون نفاقهم .

وإن قال : بأمر وقع في قلبي لم يكذب ، لكن يقال : من أين لك أن هذا رحماني ؟ ولم لا يكون الشيطان هو الذي أمرك بهذا ؟ وقد علمت أن ما يقع من قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان .

فإن رجع الى توحيد الربوبية ، وأن الجميع بمشيئته قيل له : فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب فهو بالأمر . ولا ريب أنه بالأمر الكوني القدري ، فجميع الخلق داخلون تحته ، لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول ، فإنما يكون من جنس شياطين الإنس والجن . وهو مستوجب لعذاب الله في الدنيا والآخرة ، وهو عابد لغير الله ، متبع لهواه ،

وهو من قال الله فيه : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١) .

وممن قال فيهم الشيطان :

﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٢) قال الله : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥) فكيف تأمر بالشرك والكفر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين وقتل الكفار للمسلمين هذا لا يأمر الله به كما لا يأمر بالفحشاء فإن هذا من أفحش الفواحش إذا جعلت الفاحشة اسماً لكل ما يعظم قبحه ، فكانت جميع القبائح السيئة داخلة في الفحشاء .

وكان أيضاً بالشام بعض أكابر الشيوخ يبعلك (٦) - الشيخ عثمان شيخ

(١) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٢) سورة ص آية رقم ٨٢ - ٨٣ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٩ - ١٠٠ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

(٦) بعلبك : بالفتح ثم السكون ، وفتح اللام ، والباء الموحدة ، والكاف مشددة مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة ، وأثار عظيمة ، وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل إثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل .

وقيل إن بعلبك كان مهر بلقيس ، وبها قصر سليمان بن داود ، عليه السلام وبها قبر يزعمون أنه قبر مالك بن الأشتر النخعي ، وليس بصحيح ، فإن الأشتر مات بالقلمزم في طريقه الى =

دير ناعس^(١) - يأتيه خفير الفرنج النصارى راكباً أسداً ويخلو به ويناجيه ، ويقول : يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم فيعذره عثمان وأتباعه من ذلك ويرون أن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل كما عذر ابن السكران وأمثاله خفراء المشركين التتار والجواب لهذا كالجواب لذلك ، يقال له : وكلك الله تعالى بهذا ؟ .

الذي أنزل على لسان نبيه الدين أمر أن يوالى المسلمين وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء ، بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت ، هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم ؟ !
فان قال : هذا ظهر كذبه .

وإن قال : بل هو أمر ألقى في قلبي لم يكذب ، وقيل له : فهذا من أمر الشيطان ، لا من أمر الرحمن الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، ولكنه من الأمر الذي كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾^(٢) ومن هؤلاء من يظن الرجال الذين يؤيدهم الكفار من

= مصر ، وكان علي - رضي الله عنه وجهه أميراً فيقال إن معاوية دس له عسلاً مسموماً فأكله فمات بالقلزم فقال معاوية : إن لله جنوداً من غسل ، فيقال إنه نقل إلى المدينة فدفن بها وقبره بالمدينة معروف ، وبها قبر الياس النبي عليه السلام وبقلعتها مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، وبها قبر أسباط .

ولما فرغ أبو عبيدة بن الجراح من فتح دمشق في سنة أربع عشرة سار إلى حمص فمر ببلعبك فطلب أهلها إليه الأمان والصلح ، فصالحهم على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم كتاباً أجّلهم فيه إلى شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، فمن جلا سار إلى حيث شاء ومن أقام فعليه الجزية وقد نسب إلى بلعبك جماعة من أهل العلم منهم : محمد بن علي ابن الحسين بن محمد بن أبي المضاء أبو المضاء البعلبكي المعروف بالشيخ الدين . [راجع

معجم البلدان ١ : ٤٥٣ - ٤٥٤]

(١) العجيب أن هذا الدير لم يذكره صاحب معجم البلدان ولم تتعرف عليه على كثرة البحث والتقصي . والله أعلم .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ ..

المشركين وأهل الكتاب هم أولياء الله ولا يجب عليهم اتباع الرسول كالملائكة الموكلة ببني آدم المعقبات (١) .

فقلت لشيخ كان من شيوخهم : محمد أرسل الى الثقلين - الإنس والجن - ولم يرسل إلى الملائكة فكل إنسي أو جني خرج عن الإيمان به فهو عدو لله لا وليّ لله ، بخلاف الملائكة .

ثم يقال له : الملائكة لا يعاونون الكفار على المعاصي ، ولا على قتال المسلمين ، وإنما يعاونوهم على ذلك الشياطين ، ولكن الملائكة قد تكون موكلة بخلقهم ، ورزقهم وكتابة أعمالهم ، فإن ذلك ليس بمعصية .

فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين .

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين لا من جنس الملائكة وكان هذا الشيخ هو وأبوه من خفراء الكفار ، وكان والده يقال له : محمد الخالدي ، نسبة الى شيطان كان يقربه يقال له : الشيخ خالد . وهم يقولون له انه من الإنس من رجال الغيب .

وحدثني الثقة عنه أنه كان يقول : الأنبياء ضيعوا الطريق ، ولعمري : لقد ضيعوا طريق الشياطين ، شياطين الإنس والجن ، وهؤلاء المشايخ الذين يحبون المسلمين ، ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم خفراء الكفار ، ويظنون أنهم من أولياء الله اشتركوا هم وهم في أصل ضلالة ، وهو : أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية

(١) قال تعالى في سورة الرعد ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ . والتعقيب العود بعد البعد ، قال الله تعالى : ﴿ ولي مدبراً ولم يعقب ﴾ أي لم يرجع وفي الحديث (معقبات لا ينجيب قائلهن) أو فاعلهن فذكر التسييح والتحميد والتكبير . قال أبو الهيثم ، سمين معقبات لأنهن عادت مرة بعد مرة فعمل من عمل عملاً ثم عاد اليه فقد عقب ، والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عند اعجاز الإبل المعتركات على الحوض فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى .

ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا شَرًّا فَلَهُ أُجْرُهُ كَأَجْرِ الْبَاطِلِ ﴾ (١) فهو لاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذي أوحاه الله الى نبيه الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده ، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبين خوارق (٢) السحرة والكهان ، إذ هذا مذهب الجهمية المجبرة وهؤلاء كلهم

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ هذه الآية تتصل بقول الله تعالى أول السورة : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ أي نواصل لكم الذكر فمن يعش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه الى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أي نسب له شيطاناً جزء له على كفره ﴿ فهو له قرين ﴾ قيل في الدنيا ، يمنعه من الحلال ويبعته على الحرام وينهاه عن الطاعة ، وبأمره بالمعصية ، وهو معنى قول ابن عباس وقيل في الآخرة إذا قام من قبره قاله سعيد الجريري وفي الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخل النار وأن المؤمن يشفع بملك حتى يقضي الله بمن خلقه . ذكره المهدي . والله أعلم .

(٢) الخارق في عرف العلماء هو الأمر الذي يخرق بسبب ظهوره العادة وهو على الصحيح ينقسم باعتبار ظهوره الى ستة أقسام ، لأن الخارق إما أن يظهر عن المسلم أو الكافر ، والأول إما أن لا يكون مقروناً بكمال العرفان وهو المعونة أو يكون وحيداً إما مقرون بدعوى النبوة وهو المعجزة أولاً ، وحيداً لا يخلو إما أن يكون ظاهراً من النبي قبل دعواه وهو الإرهاس أولاً وهو الكرامة .

والثاني أعني الظاهر على يد الكافر إما أن يكون موافقاً لدعواه وهو الاستدراج أولاً وهو الإهانة .

ومنهم من ربح القسمة وأدخل الإرهاس في الكرامة فإن مرتبة الأنبياء لا تكون أدنى من مرتبة الأولياء ، وأدخل الاستدراج في الإهانة فإن معنى الاستدراج هو أن يقربه الشيطان الى فساد على التدرج حتى يفعل له سوء وافق ذلك غرض مرتكبه أو لم يوافق وعاقبة ذلك حسرة وندامة فقد آل الأمر الى الإهانة .

وللاستدراج أسماء كثيرة في القرآن أحدها الاستدراج قال تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ الأعراف آية رقم ١٨٢ وثانيهما المكر : قال تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ آل عمران آية ٥٤ .

وثالثهما الكيد : قال تعالى : ﴿ إن كيدي متين ﴾ الأعراف آية ١٨٣ .

يشترون في هذا المذهب فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ، ويبغض ما نهى عنه ، بل يجعلون كل ما قدره وقضاه فإنه يحبه ويرضاه ، فبقي جميع الأمور عندهم سواء وإنما يتميز بنوع من الخوارق ، فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله ، وخضعوا له إما اتباعاً له ، وإما موافقة له ومحبة ، وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولا يبغضوه إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الإيمان ما يعرفون به المعروف ، وينكرون به المنكر في هذا الموضوع .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

وفي رواية لمسلم « من جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ، وميت الأحياء الذي لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً .

= ورابعها الخدع: قال تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ النساء ١٤٢ وخامسها الاملاء : قال تعالى : ﴿ إنما نملي لهم ليزادوا إنمّا ﴾ آل عمران ١٧٨ . سادسها الاهلاك قال تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ سورة الأنعام آية رقم ٤٤ .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الإيمان ٢٠ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ٧٨ بسنده عن طارق بن شهاب قال : أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان . فقال إليه رجل . فقال الصلاة قبل الخطبة فقال : قد ترك ما هنالك . فقال أبو سعيد ، أما هذا فقد قضى ما عليه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : وذكره . وأخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة (١٥٥) باب ما جاء في صلاة العيدين ١٢٧٥ بسنده عن طارق بن شهاب عن أبي سعيد وذكره . وأخرجه أبو داود في الملاحم ١٧ ، والنسائي في الإيمان ١٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٣ (حلي) .

وفي حديث حذيفة الذي في صحيح مسلم ^(١) : « ان الفتنة تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأیما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، حتى تبقى القلوب على قلبين :

قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماء والأرض وقلب أسود مرباد ^(٢) كالكوز مجخياً ^(٣) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه .

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجدهم لا بالأمر والنهي متتاهم اتباع أهوائهم . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنْ

(١) الحديث عند الامام مسلم في كتاب الإيمان ٦٥ باب بيان أن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، وإنه يأرز بين المسجدين (٢٣١) بسنده عن حذيفة . قال : كنا عند عمر . فقال أيكم سمع رسول الله - ﷺ - يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلمكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره ؟ قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبي - ﷺ - . يذكر الفتن التي تموج موج البحر . قال حذيفة : فأسكت القوم . فقلت أنا . قال أنت لله أبوك . قال حذيفة سمعت رسول الله ﷺ - يقول . وذكره . وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٨٦ ثنا يزيد بن هارون ، ثنا أبو مالك عن ربعي ابن خراش عن حذيفة وذكره .

(٢) مرباداً قال الإمام النووي - رضي الله تعالى عنه : كذا هو في أصول روايتنا ، وأصول بلادنا ، وهو منصوب على الحال ، وذكر القاضي عياض خلافاً في ضبطه ، وإن منهم من ضبطه كما ذكر ، ومنه من رواه مربرد . قال القاضي وهذه رواية أكثر شيوخنا ، وأصله أن لا يهمز ، ويكون مربرد مثل مسود ومحمر ، وكذا ذكره أبو عبيد والهروي وصححه بعض شيوخنا عن أبي مروان بن سراج لأنه من اريد إلا على لغة من قال : احمار بهمزة بعد ميم لالتقاء الساكنين فيقال : ارباد ومربرد . والداد مشددة على القولين .

(٣) مجخياً : معناه مائلاً . كذا قاله الهروي وغيره ، وفسره الراوي في الكتاب بقوله : منكوساً . وهو قريب من معنى المائل . قال القاضي عياض : قال لي ابن سراج ، ليس قوله : كالكوز مجخياً تشبيهاً لما تقدم من سواده بل هو وصف آخر من أوصافه ، بأنه قلب ونكس حتى لا يعلق به خيراً ولا حكماً ، ومثله بالكوز المجخى ، وبينه بقوله ﴿ لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ﴾ .

الله ﴿١﴾ لا سيما إذا كانت حقيقتهم هي قول « الجهمية المجبرة » فأوا أن جميع الكائنات اشتركت في المشيئة ولم يميزوا بعضها عن بعض بأن الله يحب هذا ويرضاه ، وهذا يبغضه ويسخطه ، فإن الله يحب المعروف ويبغض المنكر فإذا لم يفرقوا بين هذا وهذا نكت في قلوبهم نكت سود فسود قلوبهم ، فيكون المعروف ما يهوونه ويحبونه ، ويجدونه ويدوقونه ، ويكون المنكر ما يهوون وبغضه وتنفر عنه قلوبهم كالمشركين الذين كانوا « عن التذكرة معرضين ، ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفَرَةٌ فَفَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ^(٢) ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر الحمر المستنفرة التي تفر من الرماة ومن الأسد ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا

وكان الشيخ ابراهيم بن معضاد يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والأحمدية : يا خنازير يا أبناء الخنازير ، ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة

(١) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٥٠ - ٥١ .

ويقول الإمام الشوكاني : المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه ، والقسورة : الرماة ، والقصور الرامي ، وجمعه قسورة ، قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ، وقتادة وابن كيسان ، وقيل : هو الأسد قاله عطاء والكلبي . قال ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر ، لأنه يقهر السباع ، وقيل : القسورة أصوات الناس ، وقيل القسورة بلسان العرب الأسد ، ولسان الحبشة الرماة ، وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل : أي فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة والأول أولى ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة ، ومنه قول الشاعر :

يا بنت كوني خيرة لخيره أحوالها الحي وأهل القسورة

ومنه قول لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا أنا الرجال العابدون القساور
ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر :

مضمر تحذره الأبطال كأنه القصور الرمال

[راجع التفسير للشوكاني ٥ : ٣٣٣]

﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسورة ﴾ كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاء به الرسل من قول النفاة ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا في زمن السلف بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم فإنه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ، ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل ، وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين ، وأهل الكتاب ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن القدرية المجبرة من جنس المشركين كما أن « النافية » من جنس المجوس (٢) ، وإن المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشئة في نفس الأمر ، والنافية تنفي القدرة العامة ، والمشئة التامة وتزعم إنها تثبت الحكمة والعدل ، وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشئة والقدرة ، كما قد بسط في مواضع وأولئك يتعلقون بقوله ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (٣) و﴿ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٤ .

(٢) هم عبدة النيران القائلين أن للعالم أصلين نور وظلمة ، قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان ، وواحد للرحمن ، وقيل المجوس في الأضل النجوس . لتدينهم باستعمال النجاسات ، والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين ، والأيم والأين . [راجع القرطبي ١٢ :

[٢٣

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٣ وعجز الآية ﴿ وهم يسألون ﴾

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٤٠ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت بزيادة (الواو) والله .

وهذا ذكره الله إثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله بل بين سبحانه انه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً ، بل هو قادر على فعل ما يشاء ، بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت . فإن الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة (١) ، وذلك أنه إنما يقال افعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرها فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما يشاء . فقوله تعالى ﴿ إِنْ اللَّهُ يُفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) و ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣) ونحو ذلك هو لاثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون إنه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء إلا الطاعة ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا غاصياً .

فهذه الآيات التي تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة ، كما أن الآيات التي يحتج بها النفاة التي تدل على أنه حكم عادل ، لا يظلم مثقال ذرة ، وانه لم يخلق الخلق عبثاً ، ونحو ذلك ، تدل على فساد قول

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٣ باب العزم في الدعاء ولا يقل إن شئت (٩) عن عطاء بن ميناء عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ - وذكره .

وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٣١ باب في المشيئة والإرادة (٧٤٦٤) حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره . وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ٧٧ وصاحب الموطأ في كتاب القرآن ٢٨ - عن مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج . عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ - وذكره .

وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٣ (حلي)

(٢) سورة الحج آية رقم ١٨

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤

المجبرة^(١)، وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين، بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى، وكلا القولين باطل، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند وغيره وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر. هذا يقول: ألم يقل الله كذا؟ وهذا يقول: ألم يقل الله كذا فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟»^(٢) ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض: إنا قد نهينا عن هذا.

فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهذا حال أهل الأهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال، فصاروا كما قال عن أهل الكتاب

-
- (١) سبق التعريف بهم وعرض بعض آرائهم والرد عليها في هذا الجزء.
- (٢) الحديث عند الترمذي ٣٣ كتاب القدر باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢١٣٣ - حدثنا عبد الله بن معاوية الجمحي البصري حدثنا صالح المري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: وذكره.
- قال أبو عيسى: وفي الباب عن عمر، وعائشة، وأنس. وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب يفرد بها لا يتابع عليها.
- وعند الامام أحمد في المسند ٢: ١٧٨ بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ - وذكره وأخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٠) باب في القدر ٨٥ بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ - على أصحابه وذكره. وفيه.
- قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ - ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه.
- في الزوائد: هذا إسناد صحيح. ورجاله ثقات.

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

« أهل البدع تجعل العقلیات أعظم من الشرعیات »

فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل ﴿ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٢) وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول ، وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به . وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة كما قال ﷺ « وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (٣) وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة

(١) سورة المائدة آية رقم ١٤ والاغراء : التحريش ، وأصله اللصوق يقال : غريت بالرجل غرّاً إذا لصقت به ، وقال كثير :

إذا قيل مهلاً قالت العين بالبكا غراء ومدتها حوافل نُهَل

القرطبي ٦ : ١١٧

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٥٣ وقوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ .

روى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - في هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ . هم أهل البدع والشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة . وروى بقية بن الوليد ، حدثنا شعبة بن الحجاج حدثنا مجالد عن الشعبي عن شريح عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال لعائشة : إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إنما هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة

غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا بريء منهم ، وهم منا برآء » وروى ليث بن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة أن النبي - ﷺ - قرأ « إن الذين فارقوا دينهم »

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٧ باب اجتناب البدع والجدل ٤٥ - بسنده عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش يقول : صبّحكم مساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه

يجعلون تلك هي الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الأصول وهو الذي يسمونه العقلیات - أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع .

فالمعتزلة يجعلون العقلیات هي الخبریات والأمريات جميعاً كالواجبات الشرعية لكن يقولون أيضاً إن الشرع أوجبها ، ولكن لهم فيها تخليط ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعوه في الخبریات كإثبات حدوث العالم بطريقة الأعراض ، واستلزامها للأجسام وهم ينفون الصفات والقدر ، ويسمون ذلك التوحيد والعدل .

وجههم بن صفوان ^(١) وأتباعه هم أعظم نفياً منهم فإنهم ينفون الأسماء مع الصفات وهم رؤوس المجبرة ، والأشعرية ^(٢) وافقتهم في الجبر ، لكن

= السبابة والوسطى ثم يقول : أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .

وأخرجه الإمام مسلم في الجمعة ٤٣ وأبو داود في السنة ٥ والنسائي في العيدين ٢٢ والدارمي في المقدمة ١٦ ، ٢٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٧١ ، ٣١٠ ، ٤ : ١٢٦ ، ١٢٧ (حلي) .

(١) هو جهنم بن صفوان السمرقندي ، أبو محرز ، من موالي بني راسب رأس الجهمية ، قال الذهبي : الضال المبدع ، هلك في زمان صغار التابعين ، وقد زرع شراً عظيماً ، قبض عليه نصر بن سيار فطلب جهنم استبقاءه . فقال نصر : لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت وأمر بقتله فقتل عام ١٢٨ هـ [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ والكامل لابن الأثير حوادث ١٢٨ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢] .

(٢) الأشعرية : أصحاب أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المنتسب إلى أبي موسى الأشعري (راجع الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١١٩ على هامش الفصل) ويقال إنه أعلن عقيدته في هذه العبارة : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن معتمدون ، وبما كان =

نازعوهم نزاعاً لفظياً في اثبات الكسب والقدرة عليه ، وهم يرون أن هذه الأصول العقلية - وهي العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه وما يجوز عليه من الأفعال - هي أعظم العلوم وأشرفها ، وإنهم برزوا بها على الصحابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة ، إما لكونه وكلها الى استنباط الأمة ، وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها بالجهاد ، وإما لكونه قال لهم في ذلك ما لم يبلغوه ، ولم يشغلهم بالأدلة لاشتغالهم بالجهاد .

وهذه هي الأصول العقلية التي يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم كالقاضي أبي يعلى (١) وأبي المعالي وأبي الوليد الباجي (٢) تبعاً للقاضي أبي بكر وأمثاله ، وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار (٦) وأمثاله . كما يناقض الأشعري وأمثاله أبا علي وأبا القاسم .

= عليه أحمد بن حنبل - نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون الخ . راجع الإبانة ص ٣ طبع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء ، أبو يعلى عالم عصره في الأصول والفروع ، وأنواع الفنون ، من أهل بغداد ارتفعت مكانته عند القادر ، والقائم العباسيين ، وولاه القائم قضاء دار الخلافة والحريم ، وحران وحلوان ، وكان قد امتنع واشترط أن لا يحضر أيام المواكب ، ولا يخرج في الاستقبالات ، ولا يقصد دار السلطان ، فقبل القائم شرطه ، له تصانيف كثيرة منها الايمان وعيون المسائل وأربع مقدمات في أصول الديانات ، والمجرد على مذهب الإمام أحمد ، وردود على الأشعرية ، والكرامية ، والسالمية والمجسمة توفي عام ٤٥٨ هـ [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٩٣ - ٢٣٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦ وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٦]

(٢) هو سليمان بن خلف بن سعد النجيب القرطبي أبو الوليد الباجي ، فقيه مالكي كبير من رجال الحديث أصله من بطليموس ومولده في باجة عام ٤٠٣ هـ بالأندلس رحل الى الحجاز سنة ٤٢٦ هـ فمكث ثلاثة أعوام ، وأقام ببغداد ثلاثة أعوام وبالموصل عاماً وفي دمشق وحلب مدة ، وعاد الى الأندلس فولي القضاء في بعض أنحائها وتوفي بالمرية عام ٤٧٤ هـ . من كتبه « التسديد إلى معرفة التوحيد » و« شرح فصول الأحكام والمتقى في شرح الموطأ وغير ذلك » .

[راجع الديباج المذهب ١٢٠ والوفيات ١ : ٢١٥ والفوات ١ : ١٧٥ ونفح الطيب ١ :

[٢٦١]

وكل الأصول العقلية التي ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشرع ، وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها من أعظم الدين ، ويقدمونها على الأصول الشرعية ، فإنهم في ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية ، ويفضلونها على العبادات الشرعية . والعبادات الشرعية هي التي معهم من الإسلام ، وتلك كلها باطلة ، وإن كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا نهاية الصوفي ابتداء الفقيه ، ونهاية الفقيه ابتداء الموله وكذلك صاحب منازل السائرين ، يذكر في كل باب ثلاث درجات فالأولى وهي أهونها عندهم توافق الشرع في الظاهر .

والثانية قد توافق الشرع وقد لا توافق ، والثالثة في الأغلب تخالف لا سيما في التوحيد ، والفناء ^(١) ، والرجاء ، ونحو ذلك وهذا الذي ابتدعه هو أعظم عندهم مما وافقوا فيه الرسل وكثير من العباد يفضل نوافله على أداء الفرائض ، وهذا كثير ، والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ، والحمد لله رب العالمين .

(١) أشار القوم بالفناء الى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء الى قيام الأوصاف المحمودة به ، وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين ، كان القسم الآخر لا محالة ، فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة ، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عليه الصفات المحمودة .

الجزء الثاني من مقدمة التفسير للمؤلف

وتشمل الآتي :

- أ - في حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف وتجزيب القرآن .
- ب - في أصح كتب التفسير .
- ج - قواعد كلية في التفسير .
- د - في المتشابه والتأويل .
- هـ - في معجزات القرآن الكريم ووجوه اعجازه .
- و - في ترجمة القرآن الكريم .

فصل « إدعاء بعض الطوائف أن للباطن » باطناً الى سبعة أبطن

عن طائفة من المتفكرة يدعون أن للقرآن باطناً ، وأن لذلك الباطن باطناً إلى سبعة أبطن ، ويروون في ذلك حديثاً أن النبي ﷺ قال : للقرآن باطن ، وللباطن باطن إلى سبعة أبطن » ويفسرون القرآن بغير المعروف عن الصحابة والتابعين والأئمة من الفقهاء ، ويزعمون أن علياً قال : لو شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب كذا وكذا حمل جمل . ويقولون : إنما هو من علمنا إذ هو اللدني ^(١) ويقولون كلاماً معناه : أن رسول الله ﷺ خص كل قوم بما يصلح لهم ، فإنه أمر قوماً بالإمساك وقوماً بالإنفاق وقوماً بالكسب ، وقوماً بترك الكسب ويقولون : إن هذا ذكرته أشياخنا في العوارف وغيره من كتب المحققين ، وربما ذكروا أن حذيفة ^(٢) كان يعلم أسماء المنافقين ، خصه

(١) إن كانوا يقصدون بالعلم اللدني ما عناه الله سبحانه وتعالى وذكره في كتابه بقوله : ﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ . سورة الكهف آية ٦٥ . فلا غار عليه . وعلم الله سبحانه وتعالى وكلامه جاء به جبريل عليه السلام يقول تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ ، سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ - ١٩٥ لا هذه الطلاسم والالغاز والمعميات التي يشيعونها والباطل الذي يدسونه في أدمغة السذج من الناس . ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

(٢) هو حذيفة بن حسل بن جابر العيسى أبو عبد الله ، واليمان لقب حسل صحابي ، من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبي ﷺ - في المنافقين ، لم يعلمهم أحد غيره - هاجم نهاوند سنة ٢٢ هـ فصالحه صاحبها على مال يؤديه في كل سنة - كان عمر معجب به =

بذلك رسول الله ﷺ وبحديث أبي هريرة « حفظت جرابين » (١) .

ويروون كلاماً عن أبي سعيد الخراز أنه قال : للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة ، يتكلمون فيها بلسان الأبدية يخبرون عنها بلسان الأزلية ، ويقولون : إن رسول الله ﷺ قال : إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل العزة بالله « فهل ما ادعوه صحيحاً أم لا ؟

فسيدي يبين لنا مقالاتهم ، فإن المملوك وقف على كلام لبعض العلماء ذكر فيه أن الواحدي (٢) قال : ألف أبو عبد الرحمن السلمي (٣) كتاباً سماه

= لعفته ونزاهته توفي عام ٣٦ هـ وله في كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً [راجع ابن عساكر ٤ : ٩٣ ، وتهذيب التهذيب ٢ : ٣١٩ والاصابة ١ : ٣١٧ وحلية الأولياء ١ : ٢٧٠] .

(١) الحديث ذكره صاحب كتاب « كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » ١ : ٢٢٦ بلفظ « حفظت عن النبي - ﷺ - وعاءين ، فأما أحدهما فبشته ، وأما الآخر فلو بشته لقطع هذا البلعوم » .

(٢) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مثنويه أبو الحسن الواحدي مفسر عالم بالأدب ، نعتة الذهبي : بامام علماء التأويل ، كان من أولاد النجار أصله من ساوة (بين الري وهمذان) مولده ووفاته عام ٤٦٨ هـ بنيسابور له « البسيط » و « الوسيط » و « الوجيز » كلها في التفسير ، والواحدي نسبة إلى الواحد بن الدليل بن مهرة . [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ١٠٤ والوفيات ١ : ٣٣٣]

(٣) هو محمد بن الحسين ، أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري شيخ الصوفية ، وصاحب تاريخهم ، وطبقاتهم ، وتفسيرهم . قال الذهبي : تكلموا فيه ، وليس بعملة ، روى عن الأصم ، وطبقته ، وعني بالحديث ورجاله ، وسئل الدارقطني قال الخطيب . قال لي محمد ابن يوسف القطان كان يضع الأحاديث للصوفية ، وقال الحافظ عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور ، جمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه حتى بلغ فهرست تصانيفه مائة أو أكثر ، وكتب الحديث بمرور ونيسابور والعراق والحجاز ومولده سنة ثلاثين وثلاثمائة . [راجع ميزان الاعتدال ٣ : ٥٢٣] .

« حقائق التفسير »^(١) إن صح عنه فقد كفر ، ووقفت على هذا الكتاب فوجدت كلام هذه الطائفة منه أو ما شابهه ، فما رأي سيدي في ذلك ؟ وهل صح عن النبي ﷺ أنه قال : للقرآن باطن . الحديث يفسرونه على ما يرونه من أذواقهم ومواجيدهم المردودة شرعا ؟

أفتونا مأجورين .

فأجاب الشيخ - رضي الله عنه -

الحمد لله رب العالمين

أما الحديث المذكور فمن الأحاديث المختلفة التي لم يروها أحد من أهل العلم ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث ولكن يروى عن الحسن البصري^(٢) موقوفاً أو مرسلأً أن لكل آية ظهراً وباطناً وحداً ومطلعاً ، وقد شاع في كلام كثير من الناس : علم الظاهر وعلم الباطن وأهل الظاهر وأهل الباطن ، ودخل في هذه العبارات حق وباطل .

(١) قال صاحب كشف الظنون : هو مختصر على لسان التصوف أوله الحمد لله رب أولاً وآخرأ الخ . ذكر فيه أن (أكثر) أهل الظاهر جمع في أنواع فوائد القرآن ، ولم يشتغل أحد بفهم خطابه على لسان الحقيقة .

المفسرون من أهل الظاهر تكلموا فيه على ما هو دأبهم في أمثاله فقال الواحدي زعم أنه صنف حقائق التفسير ، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر ، وطعن فيه ابن الجوزي أيضاً .

[راجع كشف الظنون ١ : ٦٧٣] .

(٢) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد : تابعي ، كان إمام أهل البصرة وجبر الأمة في زمنه ، وهو أحد الفقهاء العلماء الفصحاء الشجعان النساك ، ولد بالمدينة عام ٢١ هـ وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية وسكن البصرة ، وعظمت هيئته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، لا يخاف في الحق لومة لائم ، وكان أبوه من أهل ميسان ، مولى لبعض الأنصار . قال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف توفي عام ١١٠ هـ [راجع تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان ، وميزان الاعتدال ١ : ٢٥٤ وحلية الأولياء ٢ : ١٣١]

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، لكن نذكر هنا جملا من ذلك
فنقول :

« المراد بعلم الباطن »

قول الرجل : « الباطن » إما أن يريد علم الأمور الباطنة مثل : العلم بما
في القلوب من المعارف والأحوال ، والعلم بالغيوب التي أخبرت بها الرسل
وإما أن يريد به العلم الباطن ، أي الذي يبطن عن فهم أكثر الناس ، أو عن
فهم من وقف مع الظاهر ونحو ذلك .

فأما الأول فلا ريب أن العلم منه ما يتعلق بالظاهر كأعمال الجوارح ،
ومنه ما يتعلق بالباطن كأعمال القلوب ومنه ما هو علم بالشهادة ، وهو ما
يشهده الناس بحواسهم . ومنه ما يتعلق بالغيب وهو ما غاب عن إحساسهم .

وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب ^(١) ، كما قال تعالى : ﴿ اَلَمْ ، ذَٰلِكَ
الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ^(٢) والغيب الذي

(١) الإيمان بالغيب : هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما
تدركه الحواس الى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير
المحدد الذي تدركه الحواس ، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ، وهي نقله بعيدة الأثر
في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في
كيان هذا الوجود ، وفي إحساسه بالكون ، وما وراء الكون من قوة وتدبير ، كما أنها بعيدة
الأثر في حياته على الأرض ، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن
يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته . لقد كان الايمان بالغيب هو مفرق
الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة ، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان كجماعة
الماديين في كل زمان ، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري ، الى عالم البهيمة الذي لا
وجود فيه لغير المحسوس ، ويسمون هذه تقدمية وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين بإياها ،
فجعل صفتهم المميزة صفة ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والحمد لله على نعمائه والنكسة
للمتكسرين والمرتكسين . [في ظلال القرآن ١ : ٤٠]

(٢) سورة البقرة آية رقم ١ - ٣ .

يؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة ، ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ، وملائكته ، والجنة والنار فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب ، فإن وصف الرسالة هو من الغيب ، وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله :

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٢) والعلم بأحوال القلوب ، كالعلم بالاعتقادات الصحيحة ، والفسادة ، والإرادات الصحيحة والفسادة ، والعلم بمعرفة الله ومحبه (٣) والإخلاص (٤) له وخشيته ، والتوكل (٥) عليه ، والرجاء له ، والحب فيه والبغض فيه ، والرضا بحكمه والإنابة إليه ، والعلم بما يحمد ويذم من أخلاق النفوس ، كالسخاء ، والحياء ، والتواضع ، والكبر ، والعجب ، والفخر ، والخيلاء . وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه - قد يقال له علم الباطن أي علم بالأمر الباطن ، فالمعلوم هو الباطن ، وأما العلم الظاهر فهو ظاهر يتكلم به ويكتب ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، وكلام السلف وأتباعهم ، بل غالب آي القرآن هو من هذا العلم ، فإن الله أنزل

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٦ .

(٣) قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ سورة آل عمران آية رقم ٣١ .

(٤) قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُو إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ سورة البينة آية رقم ٥ .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ سورة الأحزاب آية رقم ٣ .

القرآن ﴿ وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين فإن اعتقاد القلب أصل لقول اللسان ، وعمل القلب أصل لعمل الجوارح والقلب هو ملك البدن ، كما قال أبو هريرة - رضي الله عنه - القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » ^(٢) .

ومن لم يكن له علم بما يصلح باطنه ويفسده ، ولم يقصد صلاح قلبه بالإيمان ، ودفع النفاق كان منافقاً إن أظهر الإسلام ، فإن الإسلام يظهره المؤمن والمنافق وهو علانية ، والإيمان في القلب كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : الاسلام علانية والإيمان في القلب ^(٣) وكلام الصحابة والتابعين ، والأحاديث والآثار ، في هذا أكثر منها في الإجارة ، والشفعة ،

(١) سورة يونس آية رقم ٥٧ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الايمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه ، ٥٢ بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراخ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » . وأخرجه الامام مسلم في كتاب المساقاة ١٠٧ وابن ماجه في كتاب الفتن ١٤ باب الوقوف عند الشبهات ٣٩٨٤ - بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ البخاري ، والدارمي في البيوع ١ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ : ١٣٤ - ١٣٥ (حلي) بسند : حدثنا بهز حدثنا علي بن مسعدة ، ثنا قتادة عن أنس ، قال كان رسول الله - ﷺ يقول : الاسلام علانية والايمان في القلب ، قال : ثم يشير بيده الى صدره ثلاث مرات ثم يقول : التقوى ههنا ، التقوى ههنا .

والحيض ، والطهارة ، بكثير كثير ، ولكن هذا العلم ظاهر موجود مقول باللسان ، مكتوب في الكتب ، ولكن من كان بأمور القلب أعلم كان أعلم به ، وأعلم بمعاني القرآن والحديث ، وعامة الناس يجدون هذه الأمور في أنفسهم ذوقاً ووجداً فتكون محسوسة لهم بالحس الباطن ، لكن الناس في حقائق (١) الإيمان متفاضلون تفاضلاً عظيماً (٢) فأهل الطبقة العليا يعلمون حال أهل السفلى (٣) من غير عكس ، كما أن أهل الجنة في الجنة ينزل الأعلى إلى الأسفل ، ولا يصعد الأسفل إلى الأعلى . والعالم يعرف الجاهل ؛ لأنه كان جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً ، فلهذا كان في حقائق الإيمان الباطنة ، وحقائق أنباء الغيب التي أنجرت بها الرسل ما لا يعرفه إلا خواص الناس فيكون هذا العلم باطناً من جهتين :

من جهة كون (٤) المعلوم باطناً ، ومن جهة كون العلم باطناً لا يعرفه أكثر الناس ، ثم إن هذا الكلام في هذا العلم يدخل فيه من الحق والباطل ما لا يدخل في غيره ، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق (٥) ، وما خالف ذلك فهو باطل كالكلام في الأمور الظاهرة .

(١) سقط من (ب) لفظ (حقائق)

(٢) في (ب) كبيراً بدلاً من (عظيماً)

(٣) في (ب) بزيادة لفظ (الطبقة)

(٤) سقط من (ب) لفظ (كون)

(٥) إن الطرق شتى ، والمسالك مختلفة ومتباينة ، وعقل الإنسان قاصر وتفكيره محدود إذا ابتعد عن دائرة الوحي ، واتخذ هواه له طريقاً ، ومن أجل هذا فالميزان الذي توزن به أعمال المسلمين ، ومنهجهم الذين يسرون عليه - هو الكتاب والسنة فما وافق هذين الأصلين فهو مقبول وما تعارض مع كتاب الله تعالى وسنة رسوله - ﷺ - فهو مرفوض وصدق ربي في قوله : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾

فصل

« علم الباطن الذي يبطن عن أكثر الناس علمه »

وأما إذا أريد بالعلم الباطن الذي يبطن ^(١) عن أكثر الناس ، أو عن بعضهم ، فهذا على نوعين :

أحدهما : باطن يخالف العلم الظاهر ^(٢) ، والثاني : لا يخالفه فأما الأول فباطل ، فمن ادعى علماً باطناً ، أو علماً بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئاً ، إما ملحداً زنديقاً ، وإما جاهلاً ضالاً .

وأما الثاني : فهو بمنزلة الكلام في العلم الظاهر قد يكون حقاً ، وقد يكون باطلاً ، فإن الباطن إذا لم يخالف الظاهر لم يعلم بطلانه من جهة مخالفته للظاهر المعلوم ، فإن علم أنه حق قبل ، وإن علم أنه باطل رد وإلا أمسك عنه .

« أركان الاسلام في اعتقاد الباطنية »

وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فمثل ما يدعيه الباطنية القرامطة ^(٣) من الاسماعيلية والنصيرية ^(٤) وأمثالهم ممن وافقهم من الفلاسفة

(١) في (ب) يخفى بدلاً من (يبطن)

(٢) من العلم الظاهر ما جاءت به الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين .

(٣) القرامطة فرقة تنسب إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ، تتلمذ على حسين الأهوازي ، =

وغلاة المتصوفة والمتكلمين وشر هؤلاء القرامطة فإنهم يدعون أن للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر فيقولون : « الصلاة » المأمور بها ليست هذه الصلاة ، أو هذه الصلاة إنما يؤمر بها العامة وأما الخاصة فالصلاة في حقهم معرفة أسرارنا ، والصيام كتمان أسرارنا ، والحج « السفر إلى زيارة شيوخنا المقدسين ويقولون : إن « الجنة » للخاصة هي التمتع في الدنيا باللذات ، و« النار » هي التزام الشرائع والدخول تحت أثقالها ، ويقولون : إن الدابة ^(١) التي يخرجها الله للناس هي العالم الناطق بالعلم في كل وقت .

وإن اسرافيل الذي ينفخ في الصور هو العالم الذي ينفخ بعلمه في القلوب حتى تحيا و« جبريل » ^(٢) هو العقل الفعال الذي تقيض عنه

= رسول عبد الله بن ميمون القداح ، اتخذ لنفسه داراً للهجرة قريباً من الكوفة ، ويشارك مع الباطنية في كثير من العقائد الباطلة ، وكثيراً ما شن الغارات على المسلمين بقصد إضعاف دولتهم وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في إثارة الفتنة في العالم الإسلامي ويكفي أن يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه في مكة ونقلوه الى مكان آخر في البحرين في القرن الثالث الهجري ، ليطلقوا بذلك فريضة الحج إلى مكة . [راجع مقالات الأشعري ١ : ٢٦ ، والفرق بين الفرق ص ١٦٩ - ١٧٣ ودائرة المعارف الاسلامية مادة حمدان قرمط]

(٤) النصيرية : هي إحدى الفرق الباطنية ، تقيم شمال الشام قبل طائفة الدروز في لبنان ، وهم من غلاة الشيعة ، وموطنهم جبل النصيرية ، وهو جزء من لبنان وتمتد بلادهم الى سهل حماه ، وحمص وحلب شرقاً وإلى ما وراء انطاكية على حدود بلاد الأناضول شمالاً . وقد كتب المستشرق « لويس ماسينيون » عن تاريخ طائفة النصيرية وعدد معتقداتها السرية وقدمها للمسؤولين عن دائرة المعارف الاسلامية بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٣ هـ .

وكان مما كتبه « ماسينيون » على النصيرية :

النصيرية : اسم يطلق على فرقة شيعية متطرفة تعيش في سورية ، وثمة اختلاف بين الدارسين حول اشتقاق هذا الاسم . [راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة نصيري ، وتاريخ الاسلام السياسي ٤ : ومذاهب الاسلاميين ٢ : ٤٤٥]

(١) قال تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ سورة النمل آية رقم ٨٢ .

(٢) لعلماء اللسان في جبريل عليه السلام لغات ، فأما التي هي معتمدة فعشر الأول : جبريل =

الموجودات ، والقلم : هو العقل الأول الذي تزعم الفلاسفة أنه المبدع الأول وأن الكواكب والقمر والشمس التي رآها إبراهيم ^(١) هي النفس والعقل وواجب الوجود ، وأن الأنهار الأربعة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج هي العناصر الأربعة وأن الأنبياء التي رآها في السماء هي الكواكب ، فآدم هو القمر ، ويوسف هو الزهرة ، وإدريس هو الشمس وأمثال هذه الأمور .

وقد دخل في كثير من أقوال هؤلاء كثير من المتكلمين والمتصوفين لكن أولئك القرامطة ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض وعامة الصوفية والمتكلمين ليسوا رافضة يفسقون الصحابة ولا يكفرونهم ، لكن فيهم من هو كالزيدية الذين يفضلون علياً على أبي بكر ، وفيهم من يفضل علياً في العلم الباطن كطريقة الحربي وأمثاله ، ويدعون أن علياً كان أعلم بالباطن وأن هذا

= وهي لغة أهل الحجاز : قال حسان بن ثابت :

وجبريل رسول الله فينا .

الثانية : جبريل (بفتح الجيم) وهي قراءة الحسن وابن كثير ، وروي عن ابن كثير أنه قال : رأيت النبي - ﷺ - في النوم وهو يقرأ جبريل وميكائيل فلا أزال أقرأهما أبداً كذلك .

الثالثة : جبرئيل (بياء بعد الهمزة مثال جبرئيل) كما قرأ أهل الكوفة وأنشدوا شهدنا فما تلقى لنا من كتيبة مدى الدهر إلا جبرئيل أمامها وهي لغة تميم وقيس .

الرابعة : جبرئيل (على وزن جبرعل) مقصور وهي قراءة أبي بكر عن عاصم

الخامسة : مثلها وهي قراءة يحيى بن يعمر ، إلا أنه شدد اللام .

السادسة : جبرائيل (بألف بعد الراء ثم همزة) وبها قرأ عكرمة

السابعة : مثلها إلا أنه بعد الهمزة ياء . الثامنة - جبرييل (بياءين بغير همزة) وبها قرأ الأعمش ، ويحيى بن يعمر أيضاً ، التاسعة - جبرئين (بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون)

العاشرة : جبرين (بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة ، وهي لغة قال الطبري ، ولم يقرأ بها ، وقال النحاس ، وذكر قراءة ابن كثير (لا يعرف من كلام العرب) فَعْلِيل) وفيه فَعْلِيل نحو دهليز ، وقطمير .

(١) قال : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ الى قوله : ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ سورة الأنعام الآيات من ٧٥ - ٧٨ .

العلم أفضل من جهته ، وأبو بكر كان أعلم بالظاهر ، وهؤلاء عكس محققي الصوفية وأئمتهم ، فإنهم متفقون على أن أعلم الخلق بالعلم الباطن هو أبو بكر الصديق . وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن أبا بكر أعلم الأمة بالباطن والظاهر ، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد .

« نماذج من تفسير الباطنية والصوفية »

« والفلاسفة لآيات القرآن الكريم »

وهؤلاء الباطنية قد يفسرون : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ ^(١) إنه علي ، ويفسرون قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ^(٢) بأنهما أبو بكر وعمر . وقوله ﴿ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ ^(٣) إنهم طلحة والزبير و ﴿ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ^(٤) بأنها بنو أمية .

وأما باطنية الصوفية فيقولون في قوله تعالى ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ ^(٥) إنه القلب .

و ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ ^(٦) إنها النفس ويقول أولئك هي عائشة .

ويفسرون هم والفلاسفة تكليم موسى بما يفيض عليه من العقل الفعال أو غيره ، ويجعلون « خلع النعلين » ^(٧) ترك الدنيا والآخرة .

(١) سورة يس آية رقم ١٢ .

(٢) سورة المسد آية رقم ١ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٢ وعجز الآية ﴿ إِنَّهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْتَهُونَ ﴾ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٦٠ .

(٥) سورة طه آية رقم ٢٤ وعجز الآية ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٦٧ .

(٧) قال الله تعالى في سورة طه آية رقم ١٢ ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمَقْدَسِ طَوًى ﴾ .

ويفسرون الشجرة التي كلم منها موسى ، والوادي المقدس ، ونحو ذلك بأحوال تعرض للقلب عند حصول المعارف له .

ومن سلك ذلك صاحب مشكاة الأنوار^(١) ، وأمثاله ، وهي مما أعظم المسلمون إنكاره عليه ، وقالوا أمرضه « الشفاء » وقالوا : دخل في بطون الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج فما قدر .

ومن الناس من يطعن في هذه الكتب ويقول : إنها مكذوبة عليه ، وآخرون يقولون : بل رجع عنها ، وهذا أقرب الأقوال ، فإنه قد صرح بكفر الفلاسفة في مسائل^(٢) وتضليلهم في مسائل أكثر منها ، وصرح بأن طريقتهم لا توصل إلى المطلوب .

وباطنية الفلاسفة يفسرون الملائكة والشياطين بقوى النفس ، وما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها ويتألم بها .

وقد وقع في هذا الباب في كلام كثير من متأخري الصوفية ما لم يوجد

(١) كتاب « مشكاة الأنوار في رياض الأزهار » للامام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي أوله : الحمد لله فأنض الأنوار وفاتح الأبصار الخ ، وهو رسالة على ثلاثة فصول كتبها لبعض أجيابه ، الفصل الأول في بيان أن النور الحق ، الفصل الثاني في بيان المشكاة والمصباح ، الفصل الثالث في معنى قوله - ﷺ - إن الله تعالى سبعين حجاباً .

(٢) يقول الامام الغزالي : مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في سبع عشرة :

أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم . ١ - إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به . الخ [راجع المنقذ من الضلال ص ١٢٢ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود]

مثله عن أئمتهم ومتقدميهم ، كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل الكلام والنظر من ذلك ما لا يوجد عن أئمتهم ومتقدميهم .

« أصحاب وحدة الوجود يدعون أن المتقدمين ما عرفوا التوحيد »

وهؤلاء المتأخرون - مع ضلالهم وجهلهم - يدعون أنهم أعلم وأعرف من سلف الأمة ومتقدميها ، حتى آل الأمر بهم إلى أن جعلوا الوجود واحداً ، كما فعل ابن عربي صاحب الفصوص^(١) وأمثاله فإنهم دخلوا من هذا الباب حتى خرجوا من كل عقل ودين ، وهم يدعون مع ذلك أن الشيوخ المتقدمين كالجنيد بن محمد^(٢) ، وسهل بن عبد الله التستري^(٣) وإبراهيم

(١) كتاب فصوص الحكم لمحيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي ، وهو على سبعة وعشرين فصاً . قال في خطبته : أما بعد فيأني رأيت رسول الله - ﷺ - في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم لسنة ٦٢٧ هـ بدمشق ويده كتاب فقال لي هذا كتاب فصوص الحكم خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به فقلت السمع والطاعة انتهى .
والعجب أن يقول الرسول - ﷺ - ذلك - هلا قال له - أخرج بكتاب الله - أو بحديثي وستي للناس كيما يعودوا إلى ربهم وخالقهم فيتدبروا آياته ويحكموا شرعه ... ؟ وكم من أتباع أمة محمد - ﷺ - لديه القدرة وحدة الذكاء لفهم هذه الطلاسم والألغاز ... ؟ والله في خلقه شؤون .

(٢) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي أبو القاسم من العلماء بالدين مولده ومنشؤه ووفاته ببغداد ، أصل أبيه من نهاوند ، وكان يعرف بالقواريري نسبة إلى عمل القوارير ، وعرف الجنيد بالخزاز ؛ لأنه كان يعمل الخبز ، قال أحد معاصريه ما رأيت عيناى مثله ، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه ، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد ، وقال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه ، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة توفي عام ٢٩٧ هـ . [راجع طبقات الصوفية - خ والحلية ١٠ : ٢٥٥ ، وصفة الصفوة ٢ : ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٧ : ٢٤١] .

(٣) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعبوب الأفعال له كتاب في التفسير ، وكتاب مختصر في رقائق المحبين وغير ذلك . توفي عام ٢٨٣ هـ . [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ ، والوفيات ١ : ٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ / ١٨٩]

الخواص ^(١) ، وغيرهم ماتوا وما عرفوا التوحيد .

وينكرون على الجنيد وأمثاله إذا ميزوا بين الرب والعبد كقوله « التوحيد » أفراد الحدوث عن القدم ^(٢) ، ولعمري إن توحيدهم الذي جعلوا فيه وجود المخلوق وجود الخالق هو من أعظم الإلحاد الذي أنكره المشايخ المهتدون وهم عرفوا أنه باطل فأنكروه ، وحذروا الناس منه وأمروهم بالتمييز بين الرب والعبد والخالق والمخلوق والقديم والمحدث ، وأن التوحيد أن يعلم مباينة الرب لمخلوقاته ، وامتنازه عنها ، وأنه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته .

ثم إنهم يدعون أنهم أعلم بالله من المرسلين ، وأن الرسل إنما تستفيد معرفة الله من مشكاتهم ، ويفسرون القرآن بما يوافق باطنهم الباطل ، كقوله ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ ^(٣) فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله ، وقولهم إن العذاب مشتق من العذوبة ، ويقولون : إن كلام نوح في حق قومه ثناء عليهم بلسان الذم ، ويفسرون قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) بعلم الظاهر بل ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى

(١) هو ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل أبو اسحاق الخواص ، صوفي كان أوحده المشايخ في وقته من أقران الجنيد ، ولد في سر من رأى ، ومات في جامع الري . قال الخطيب البغدادي ، له كتب مصنفة ، والخواص بائع الخوص . توفي عام ٢٩١ هـ . [راجع طبقات الصوفية ، وتاريخ بغداد ٦ : ٧ وسماء الشعرائي في طبقاته ١ : ٨٣ ابراهيم بن اسماعيل]

(٢) إفراده سبحانه من الحدث : أي الحدوث ، وذلك إنما يتم بعد معرفة ما يجب له تعالى ، وما يجوز ، وما يستحيل [راجع الرسالة القشيرية ١ : ٣٣ - ٣٤]

(٣) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٦ إن ما يقوله هؤلاء الناس في هذا التفسير هو الهوس بعينه ، والواجب على علماء المسلمين أن يعملوا على تنقية الفكر الاسلامي وعلى وجه الخصوص كتب التفسير من هذا الضلال .

﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ ^(١) فلا يعلمون غيره . ﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾ ^(٢) فلا يسمعون من غيره ، ولا يرون غيره ، فإنه لا غير له فلا يرون غيره ويقولون في قوله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ^(٣) إن معناه : قدر ذلك ؛ لأنه ليس ثم موجود سواه فلا يتصور أن يعبد غيره ، فكل من عبد الأصنام والعجل ما عبد غيره ، لأنه ما ثم غير ، وأمثال هذه التأويلات والتفسيرات التي يعلم كل مؤمن وكل يهودي ونصراني علماً ضرورياً أنها مخالفة لما جاءت به الرسل ، كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين .

وجماع القول في ذلك : أن هذا الباب نوعان :

أحدهما : أن يكون المعنى المذكور باطلاً لكونه مخالفاً لما علم فهذا هو في نفسه باطل ، فلا يكون الدليل عليه إلا باطلاً ؛ لأن الباطل لا يكون

لقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ، أي سواء عليهم هذا ، وجيء بالاستفهام من أجل التسوية ومثله قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتُمْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ وقال الشاعر :

وليل يقول الناس من ظلماته سواء صحاحات العيون وعورها

(١) سورة البقرة آية رقم ٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧ .

والختم : معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به دليله قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

وقال أهل المعاني : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف ١ - الحمية إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ٢ - الانصراف : ﴿ ثُمَّ انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ ٣ - القساوة ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ٤ - الموت : ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ٥ - الرين : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ٦ - المرض ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ٧ - الضيق : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضْلَهُ يَجْعَلِ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا ﴾ ٨ - الطبع : قال تعالى : ﴿ فَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ وقال : ﴿ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ ٩ - الختم : قال تعالى ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ١٠ - الانكار : قال تعالى : ﴿ قُلُوبِهِمْ مَنكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٢٣ .

عليه دليل يقتضي أنه حق .

و « الثاني » : ما كان في نفسه حقاً ، لكن يستدلون عليه من القرآن والحديث بالفاظ لم يرد بها ذلك ، فهذا الذي يسمونه « إشارات » و « حقائق التفسير » لأبي عبد الرحمن فيه من هذا الباب شيء كثير .
وأما النوع الأول « فيوجد كثيراً في كلام القرامطة والفلاسفة المخالفين للمسلمين في أصول دينهم فإن من علم أن السابقين الأولين قد رضي الله عنهم ورضوا عنه علم أن كل ما يذكرونه على خلاف ذلك فهو باطل .

ومن أقر بوجوب الصلوات الخمس على كل أحد ما دام عقله حاضراً ، علم أن من تأول نصاً على سقوط ذلك عن بعضهم فقد افترى ، ومن علم أن الخمر والفواحش محرمة على كل أحد ما دام عقله حاضراً علم أن من تأول نصاً يقتضي تحليل ذلك لبعض الناس أنه مفتر (١) .

وأما « النوع الثاني » فهو الذي يشبه كثيراً على بعض الناس ، فإن المعنى يكون صحيحاً للدلالة الكتاب والسنة عليه ولكن الشأن في كون اللفظ الذي يذكرونه دل عليه .
وهذا قسمان :

« أحدهما » أن يقال : إن ذلك المعنى مراد باللفظ فهذا افتراء على

الله .

(١) يقول الجنيد : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وقال : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول - عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته وقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا .

وقال الغزالي : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فأعلم أنه شيطان » ويقول أبو الحسن الشاذلي : إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك : « إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ، ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة » .

فمن قال : المراد بقوله : ﴿ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ هي النفس . ويقول ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ هو القلب ﴿ والذين معه ﴾ أبو بكر ﴿ أشداء على الكفار ﴾ عمر ﴿ رحماء بينهم ﴾ عثمان ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ علي ، فقد كذب على الله إما متعمداً وإما مخطئاً .

« والقسم الثاني » أن يجعل ذلك من باب الاعتبار والقياس لا من باب دلالة اللفظ فهذا من نوع القياس .

فالذي تسميه الفقهاء قياساً هو الذي تسميه الصوفية إشارة . وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل ، كانقسام القياس إلى ذلك .

فمن سمع قول الله تعالى ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ^(١) وقال : إنه اللوح المحفوظ ، أو المصحف ، فقال : كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسّه إلا بدن طاهر فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة ، وهي قلوب المتقين كان هذا معنى صحيحاً واعتباراً صحيحاً ، ولهذا يروى هذا عن طائفة من السلف ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ ^(٤) وأمثال ذلك .

وكذلك من قال : لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا جنب فاعتبر بذلك أن القلب لا يدخله حقائق الإيمان إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد فقد أصاب .

(١) سورة الواقعة آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١-٢ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ١٦ .

قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (٢) وأمثال ذلك .

و«كتاب حقائق التفسير» لأبي عبد الرحمن السلمي يتضمن ثلاثة أنواع :

«أحدها» نقول : ضعيفة عمن نقلت عنه مثل أكثر ما نقله عن جعفر الصادق (٣) ، فإن أكثره باطل عنه ، وعامتها فيه من موقف أبي عبد الرحمن ، وقد تكلم أهل المعرفة في نفس رواية أبي عبد الرحمن ، حتى كان البيهقي (٤) إذا حدث عنه يقول : حدثنا من أصل سماعه .

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٦ .

(٣) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسن السبط الهاشمي القرشي أبو عبد الله - الملقب بالصادق سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء الصحابة وله منزلة رفيعة في العلم ، أخذ عنه جماعة ، منهم الامامان أبو حنيفة ومالك ، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط ، له أخبار مع الخلفاء من بني العباس ، وكان جريئاً عليهم صداعاً بالحق ، له رسائل مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون يقال إن جابر بن حيان قام بجمعها : ولد عام ٨٠ بالمدينة ، وتوفي بها عام ١٤٨ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ واليعقوبي ٣ : ١١٥]

(٤) هو أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر من أئمة الحديث ولد عام ٣٨٤ هـ في قرية خسروجورد من قرى بيهق ، ونشأ بها ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرها ، وطلب إلى نيسابور فلم يزل فيها إلى أن مات ونقل جثمانه إلى بلده عام ٤٥٨ هـ .
قال إمام الحرمين : ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي فإن له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرته مذهبه ، وقال الذهبي : لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك ، صنف زهاء ألف جزء منها السنن الكبرى والأسماء =

و« الثاني » أن يكون المنقول صحيحاً ، لكن الناقل أخطأ فيما قال .

و« الثالث » نقول صحيحة عن قائل مصيب ، فكل معنى يخالف الكتاب والسنة فهو باطل ، وحجته داحضة وكل ما وافق الكتاب والسنة ، والمراد بالخطاب غيره إذا فسر به الخطاب فهو خطأ ، وإن ذكر على سبيل الاشارة والاعتبار والقياس ، فقد يكون حقاً وقد يكون باطلاً وقد تبين بذلك أن من فسر القرآن ، أو الحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله ، ملحد في آيات الله ، محرف للكلم عن مواضعه ، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد ، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام .

وأما ما يروى عن بعضهم من الكلام المجمل مثل قول بعضهم : لو شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب (١) الخ .

فهذا إذا صح عمن نقل عنه كعلي وغيره ، لم يكن فيه دلالة على الباطن المخالف للظاهر بل يكون هذا من الباطن الصحيح الموافق للظاهر الصحيح وقد تقدم أن الباطن إذا أريد به ما لا يخالف الظاهر المعلوم فقد يكون حقاً ، وقد يكون باطلاً ، ولكن ينبغي أن يعرف أنه قد كذب على علي وأهل بيته ، لا سيما على جعفر (٢) الصادق ما لم يكذب على غيره من الصحابة ، حتى إن الإسماعيلية والنصيرية يضيفون مذهبهم إليه ، وكذلك المعتزلة .

= والصفات ودلائل النبوة وغير ذلك . [راجع شذرات الذهب ٣ / ٨٠٤ ، طبقات الشافعية ٣ / ٢ ، وابن خلكان ١ : ٢٠ ، اللباب ١ / ١٦٥] .

(١) هذا الأثر لم نعثر عليه على كثرة تفتيشنا عنه في كتب الأحاديث المشتهرة ، ولم يوجد في تراجم الامام علي ولا في كتب التاريخ المعتمدة والله أعلم .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء ويقال : إنه سمي صادقاً لأنه لم يعرف عنه كذباً طوال حياته وصدق رسول الله - ﷺ - « والصدق يهدي الى البر »

وكذلك فرقة التصوف يقولون : إن الحسن البصري صحبه ، وأنه دخل المسجد فرأى الحسن يقص مع القصاص فقال : ما صلاح الدين ؟ قال : الورع .

قال : فما فسادہ ؟

قال : الطمع ، فأقره ، وأخرج غيره .

وقد اتفق أهل المعرفة بالمنقولات أن الحسن لم يصحب علياً ولم يأخذ عنه شيئاً ، وإنما أخذ عن أصحابه كالأحنف بن قيس^(١) وقيس بن سعد بن عباد^(٢) وأمثالهما ، ولم يقص الحسن في زمن علي ، بل ولا في زمن معاوية ، وإنما قص بعد ذلك وقد كانوا في زمن علي يكذبون عليه حتى كان الناس يسألونه ، كما ثبت في الصحيحين أنه قيل له :

هل عندكم من رسول الله ﷺ كتاب تقرأونه فقال : لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا هذه الصحيفة ، وفيها أسنان الإبل ، وفكك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر .

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي سيد تميم وأحد العظماء الدهاء الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل في الحلم ، ولد في البصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يره ، ووفد على عمر حين آلت الخلافة إليه فاستبقاه عمر فمكث عاماً وأذن له فعاد إلى البصرة شهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل ثم شهد صفين مع علي ولي خراسان ، وكان يغلف القول لمعاوية فسئل معاوية عن صبره عليه فقال : هذا الذي إذا غضب غضب له مائة ألف لا يدرون فيم غضب توفي عام ٧٢ هـ [راجع : ابن سعد ٧ / ٦٦ ، ابن خلكان ١ / ٢٣٠ ، تهذيب ابن عساكر ٧ / ١٠] .

(٢) هو قيس بن سعد بن عبادة بن ديلم الأنصاري الخزرجي المدني صحابي من دهاة العرب ، ذو الرأي والمكيدة في الحرب وأحد الأجواد المشهورين ، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ ، وفي البخاري إنه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير ، استعمله علي رضي الله عنه على مصر سنة ٣٦ ، ٣٧ هـ ، كان على مقدمة الجيش يوم صفين ، مات سنة ٦٠ هـ ، في مدينة تفليس هارباً من معاوية له ١٦ حديثاً . [راجع : النووي ٢ / ٦١ ، تهذيب التهذيب ٨ / ٣٩٥ صفة الصفوة ١ / ٣٠٠]

وفي لفظ : هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس ؟
فقال : لا .

وفي لفظ : «إلا فهما يؤتیه الله عبداً في كتابه وأما العلم اللدني» فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه ، وأتباعهم ما يحبه ، ما لا يفتح به على غيرهم .

وهذا كما قال علي : «إلا فهما يؤتیه الله عبداً في كتابه وفي الأثر : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» (١) .

وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع كقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (٢) .

فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطاً مستقيماً .

وقال تعالى ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٤) وقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦) وقال تعالى ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

(١) هناك حديث أخرجه المسند ٥ : ٢٦٩ - حدثني أبي ، ثنا حسن ثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ بلفظ : ومن علم علماً أجرى له مثل ما علم .

(٢) سورة النساء آية رقم ٦٦ - ٦٨ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٦ .

(٤) سورة محمد آية رقم ١٧ .

(٥) سورة الكهف آية رقم ١٣ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢ .

لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى كقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٤) أي : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ بها .

﴿ ونقلب أفئدتهم ﴾ أي يتركون الإيمان ، ونحن نقلب أفئدتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة ، أي ما يدريكم أنه لا يكون هذا ، وهذا حينئذ . ومن فهم معنى الآية عرف خطأ من قال « أن » بمعنى لعل . واستشكل قراءة الفتح ، بل يعلم حينئذ أنها أحسن من قراءة الكسر ، وهذا باب واسع ، والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام ، طرفان ووسط .

فقوم يزعمون أن مجرد الزهد وتصفية القلب ، ورياضة النفس توجب

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢٠ .

(٢) وسورة النحل آية رقم ٦٤ والاعراف آية رقم ٢٠٣ .

(٣) سورة الصف آية رقم ٥ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ - ١١٠ .

يقول الشيخ القرطبي : هذه آية مشككة ، ولا سيما وفيها « ونذره في طغيانهم يعمهون » قيل المعنى ونقلب أفئدتهم » وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحر الجمر « كما لم يؤمنوا » في الدنيا « ونذره » في الدنيا أي نملهم ولا نعاقبهم . فبعض الآية في الآخرة وبعضها في الدنيا ونظيرها ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ فهذه في الآخرة ، وبعضها في الدنيا ﴿ عاملة ناصبة ﴾ وقيل : ونقلب في الدنيا ، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة لما دعوتهم وأظهرت المعجزة ، وفي التنزيل : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ والله أعلم .

حصول العلم بلا سبب آخر (١) .

وقوم يقولون : لا أثر لذلك ، بل الموجب للعلم العلم بالأدلة الشرعية أو العقلية .

وأما الوسط : فهو أن ذلك من أعظم الأسباب معاونة على نيل العلم ، بل هو شرط في حصول كثير من العلم ، وليس هو وحده كافياً ، بل لا بد من أمر آخر ، أما العلم بالدليل فيما لا يعلم إلا به ، وإما التصور الصحيح لطرفي القضية في العلوم الضرورية .

« عوامل تحصيل العلم النافع الذي تتحقق به النجاة »

وأما العلم النافع الذي تحصل به النجاة من النار ويسعد به العباد فلا يصلح إلا باتباع الكتب التي جاءت بها الرسل .

قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى . وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ ﴾ (٢) الخ وقال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٣) .

(١) هذا كلام لا يقبله العقل الرشيد . إن من العوامل الأساسية في تحصيل العلم - التقوى قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ ومن النظم الذي يسند إلى الامام الشافعي :

شكوت الى وكيع سوء حفظي فأرشدني الى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٣ - ١٢٧ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ .

وقرأ ابن عباس وعكرمة « ومن يَعِش » بفتح الشين ، ومعناه يعمى ، يقال منه عشى يعشى عشا =

فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به ، أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقد ضل . وأضل منهما من سلك في العلم والمعرفة طريق أهل الفلسفة والكلام بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة . ولا العمل بموجب العلم ، أو سلك في العمل والزهد طريق أهل الفلسفة والتصوف بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا اعتبار العمل بالعلم ، فأعرض هؤلاء عن العلم والشرع وأعرض أولئك عن العمل والشرع ، فضل كل منهما من هذين الوجهين ، وتباينوا تبايناً عظيماً . حتى أشبه هؤلاء اليهود المغضوب عليهم ، وأشبه هؤلاء النصارى الضالين بل صار منهما من هو شر من اليهود والنصارى كالقرامطة ^(١) والاتحادية ^(٢) وأمثالهم من الملاحدة الفلاسفة .

= إذا عمى ، ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر ، ومنه قول الأعشى :
رأت رجلاً غائب الوافدي من مختلف الخلق أعشى ضريرا
وقال آخر :

لنعم الفتى يعيشو الى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جديب
والعشا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار ، والمرأة عشواء

- (١) تكلمنا عن جماعة القرامطة في كلمة وافية فليرجع عليها .
(٢) انظر ما كتبه الامام ابن تيمية ج ٢ : ص ٦٥ : ٦٦ وما بعدها بشأن الاتحاد والحلول والاباحة . وقوله أن مذهب الاتحادية مركب من ثلاث مواد : سلب الجهمية ، ومجملات الصوفية والزندقة الفلسفية ص ١٧٥ : ٢ وذكره لبعض الأنواع من تحريف الاتحادية لكلام الله تعالى ص ٢٠٠ ، ٢٠١ من المرجع السابق .

فصل

« تحقيق ما يقال أن النبي خص كل قوم بما يصلح لهم »

وأما قول القائل : إن النبي ﷺ خص كل قوم بما يصلح لهم ^(١) الخ ، فهذا الكلام له وجهان : إن أراد به أن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم ، فهذا لا ريب ^(٢) فيه ، فإنه ليس ما يؤمر به الفقير كما يؤمر به الغني ، ولا ما يؤمر به المريض كما يؤمر به الصحيح ^(٣) ، ولا ما يؤمر به عند المصائب هو ما يؤمر به عند النعم ، ولا ما تؤمر به الحائض كما تؤمر به الطاهرة . ولا ما تؤمر به الأئمة كالذي تؤمر به الرعية ، فأمر الله لعباده قد يتنوع بتنوع أحوالهم ، كما قد يشتركون في أصل الإيمان بالله وتوحيده ، والإيمان بكتبه ورسله . وإن أراد به أن الشريعة في نفسها تختلف ، وأن النبي ﷺ خاطب زيداً بخطاب يناقض ما خاطب به عمراً أو أظهر لهذا شيئاً يناقض ما أظهره لهذا ، كما يرويه الكذابون : أن عائشة سألته هل رأيت ربك ؟

فقال : لا ، وسأله أبو بكر فقال : نعم .

وأنه أجاب عن مسألة واحدة بجوابين متناقضين لاختلاف حال السائلين ، فهذا من كلام الكذابين المفترين . بل هو من كلام الملاحدة

(١) في (ب) حالهم بدلاً من (لهم)

(٢) في (ب) فهذا لا غبار عليه .

(٣) في (ب) السليم بدلاً من (الصحيح)

المنافقين ، فإن النبي ﷺ قال : ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين ^(١) والحديث في سنن أبي داود وغيره ، وكان عام الفتح قد أهدر دم جماعة منهم ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان ليبيع النبي ﷺ فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً ثم بايعه ، ثم قال : أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلي وقد أعرضت عن هذا فيقتله ، فقال بعضهم هلا أومضت ^(٢) إلي يا رسول الله ؟

فقال « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » وهذا مبالغة في استواء ظاهره وباطنه وسره وعلايته ، وأنه لا يظن خلاف ما يظهر على عادة المكارين المنافقين .

ولا ريب أن القرامطة وأمثالهم من الفلاسفة يقولون : إنه أظهر خلاف ما أبطن ، وأنه خاطب العامة بأمر أراد بها خلاف ما أفهمهم ، لأجل مصلحتهم ؛ إذ كان لا يمكنه صلاحهم إلا بهذا الطريق ، وقد زعم ذلك ابن سينا ^(٣) وأصحاب رسائل إخوان الصفا ^(٤) وأمثالهم من الفلاسفة والقرامطة

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الحدود باب الحكم فيمن ارتد ٤٣٥٩ حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، ثنا أحمد بن الفضل ، ثنا أسباط بن نصر ، قال : زعم السدي ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد ، قال : لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان ، فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ - فقال : يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى ، فبايعه بعد ثلاث ، ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حيث رأيته كفت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا : ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك . ؟ قال : إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » وأخرجه أيضاً في الجهاد ١١٧ ، وأخرجه النسائي في التحريم ١٤ .

(٢) الذي عند أبي داود « أومأت » بدلاً من (أومضت)

(٣) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعات والالهييات ، أصله من بلخ ، مولده عام ٣٧٠ هـ في إحدى قرى بخارى ، طاف البلاد وناظر العلماء وتقلد الوزارة في همدان ونار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتواري ثم ذهب إلى أصفهان وفيها ألف أكثر كتبه ، قال ابن قيم الجوزية كان ابن سينا . =

الباطنية ، فإن ابن سينا كان هو وأهل بيته من أتباع الحاكم القرمطي العبيدي ،
الذي كان بمصر .

وقول هؤلاء كما أنه من أكفر الأقوال فجهلهم من أعظم الجهل ؛ وذلك
أنه إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يعلمه أهل العقل والذكاء من الناس وإذا
علموه امتنع في العادة تواطؤهم على كتمانهم كما يمتنع تواطؤهم على
الكذب ، فإنه كما يمتنع في العادة تواطؤ الجميع على الكذب يمتنع
تواطؤهم على كتمان ما تتوافر الهمم والدواعي على بيانه وذكره لا سيما مثل
معرفة هذه الأمور العظيمة التي معرفتها والتكلم بها من أعظم ما تتوفر الهمم
والدواعي عليه .

ألا ترى أن الباطنية ^(١) ونحوهم أبطنوا خلاف ما أظهره للناس ،

= كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين ، وقال عنه ابن
تيمية : كان يأخذ من الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين كالإسماعيلية وكان أهل بيته من أهل
دعوتهم من أتباع الحاكم الذي كان هو وأهل بيته معروفين بالإلحاد [راجع وفيات الأعيان
٢٥٢ / ١ ، تاريخ حكماء الاسلام من ٢٧ : ٧٢]

(٤) تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) وكان موطنها
البصرة ، ولها فرع في بغداد ، ولم يعرف من أشخاصها سوى خمسة يغشاهم الغموض
والشك ، ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه الخاطر ، وينشرح له الصدر لما
كانوا عليه من التستر . ويؤخذ من كلام لأبي حيان التوحيدي - أثبتة أحمد زكي باشا في
مقدمته لرسائل الإخوان أن زيد بن رفاعه ، كان متهماً بمذهبه وأن الوزير صمصام الدولة بن
عضد الدولة سألته عنه فقال : إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعه قولاً يريني ، ومذهباً لا
عهد لي به . وتنقسم رسائلهم الى أربعة أقسام : القسم الرياضي وهو أول الأقسام . الثاني
القسم الطبيعي ويقتدون فيه بآراء أرسطو وفيثاغورس ، وأفلاطون . القسم الثالث : النفسانيات
والعقليات وفيه اعتمدوا مذهب الافلاطونية الحديثة في تحليل صدور الموجودات عن الله
بطريق الفيض ، وهو يختلف عما تقول به الأديان . القسم الرابع : خاص بالآراء والديانات
وغايتهم التوفيق بين الدين والفلسفة . والحقيقة كما يقول « دي بور » أن يضعوا ديناً عقلياً يعلو
الأديان جميعاً : قاتلهم الله أنى وجدوا وصدق ربي في قوله : ومن يبتغي غير الاسلام ديناً قلن
يقبل منه » [راجع دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٠٦ بتصرف]

(١) هم الإسماعيلية ، وإنما لقبوا بهذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً ، =

وسمعوا في ذلك بكل طريق ، وتواطؤا عليه ما شاء الله ، حتى التبس أمرهم على كثير من أتباعهم ثم إنهم مع ذلك اطلع على حقيقة أمرهم جميع أذكاء الناس من موافقيهم ومخالفهم ، وصنفوا الكتب في كشف أسرارهم ورفع أستارهم ، ولم يكن لهم في الباطن حرمة عند من عرف باطنهم ، ولا ثقة بما يخبرون به ، ولا التزام طاعة لما يأمرون ، وكذلك من فيه نوع من هذا الجنس .

فمن سلك هذه السبيل لم يبق لمن علم أمره ثقة بما يخبر به ، وبما يأمر به ، وحينئذ فينتقض عليه جميع ما خاطب به الناس ، فإنه ما من خطاب يخاطبهم به إلا ويجوزون عليه أن يكون أراد به غير ما أظهره لهم فلا يثقون بأخباره وأوامره ، فيختل عليه الأمر كله فيكون مقصوده صلاحهم ، فيعود ذلك بالفساد العظيم بل كل من وافقه فلا بد أن يظهر خلاف ما أبطن كاتباع من سلك هذه السبيل من القرامطة الباطنية وغيرهم لا تجد أحداً من موافقيهم إلا ولا بد أن يبين أن ظاهره خلاف باطنه .

ويحصل لهم بذلك من كشف الأسرار وهتك الأستار ما يصيرون به من شرار الكفار .

وإذا كانت الرسل تبطن خلاف ما تظهر فإما أن يكون العلم بهذا الاختلاف ممكناً لغيرهم ، وإما أن لا يكون ، فإن لم يكن ممكناً كان مدعي

= ولهم ألقاب كثيرة على حسب البقاع التي نشأوا فيها ، والمقالات التي دعو إليها ، فهم بالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية . وبخراسان يسمون التعليمية والملحدة ، وهم يقولون نحن « اسماعلية » لآنا تميزنا من فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص ، والباطنية الأول قد ألقوا لهم مذهباً خلطوا فيه بين الفلسفة والتصوف ، وصنفوا فيه كتباً كثيرة ومن أفكارهم أنهم قالوا في الخالق جل شأنه : لا نقول فيه أنه موجود ، ولا عالم ولا قادر الخ فإن الاثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه وبين سائر الموجودات ، في الجهة التي أطلقنا عليها ذلك التشبيه . وهذا قليل من كثير من خلطهم وكفرهم وضلالهم . [راجع دائرة معارف القرن العشرين ٢ : ٢٤٢]

ذلك كذاباً مفترياً ، فبطل قول هؤلاء الملاحدة الفلاسفة والقرامطة وأمثالهم ، وإن كان العلم بذلك ممكناً ، علم بعض الناس مخالفة الباطن للظاهر ، وليس لمن يعلم ذلك حد محدود ، بل إذا علمه هذا علمه هذا ، وعلمه هذا ، فيشيع هذا ويظهر ، ولهذا كان من اعتقد هذا في الأنبياء كهؤلاء الباطنية من الفلاسفة والقرامطة ونحوهم معرضين عن حقيقة خبره وأمره ، لا يعتقدون باطن ما أخبر به ، ولا ما أمر بل يظهر عليه من مخالفة أمره والإعراض عن خبره ما يظهر لكل أحد ، ولا تجد في أهل الإيمان من يحسن بهم الظن ، بل يظهر فسقهم ونفاقهم لعوام المؤمنين فضلاً عن خواصهم .

وأيضاً فمن كانت هذه حالة كان خواصه أعلم الناس بباطنه ، والعلم بذلك يوجب الانحلال في الباطن . ومن علم حال خاصة النبي ﷺ كأبي بكر وعمر وغيرهما من السابقين الأولين علم أنهم كانوا أعظم الناس تصديقاً لباطن أمر خبره وظاهره ، وطاعتهم له في سرهم وعلانيتهم ، ولم يكن أحد منهم يعتقد في خبره وأمره ما يناقض ظاهر ما بينه لهم ، ودلهم عليه وأرشدهم إليه .

ولهذا لم يكن في الصحابة من تأول شيئاً من نصوصه على خلاف ما دل عليه ، لا فيما أخبر به الله عن أسمائه وصفاته ، ولا فيما أخبر به عما بعد الموت ، وأن ما ظهر من هذا ما ظهر إلا ممن هو عند الأمة من أهل النفاق والاتحاد كالقرامطة والفلاسفة والجهمية نفاة حقائق الأسماء

ومن تمام هذا أن تعلم أن النبي ﷺ لم يخص أحداً من أصحابه بخطاب في علم الدين قصد كتمانهم عن غيره ، ولكن كان قد يسأل الرجل عن المسألة التي لا يمكن جوابها فيجيبه بما ينفعه ^(١) كالأعرابي الذي سأله عن

(١) في صحيح البخاري عن علي موقوفاً حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ، ونحوه في مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : ما أنت بمحدث قوموا حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، وروى البيهقي في الشعب عن المقدام بن معدى كرب مرفوعاً

الساعة ، والساعة لا يعلم متى هي ؟ فقال : ما أعددت لها ؟ فقال : ما أعددت لها من كثير عمل ، ولكنني أحب الله ورسوله ، فقال : المرء مع من أحب ^(١) ، فأجابه بالمقصود من علمه بالساعة ، ولم يكن يخاطب أصحابه بخطاب لا يفهمونه ، بل كان بعضهم أكمل فهماً لكلامه من بعض ، كما في الصحيحين عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال :

« إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله ، فبكى أبو بكر وقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا يا رسول الله ، فجعل الناس يعجبون أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة ، قال : وكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا به » ^(٢) .

فالنبي ﷺ ذكر عبداً مطلقاً لم يعينه .

= « إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يعزب عنهم ويشق عليهم » [راجع كشف الخفا : ١ : ٢٢٦]

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي - رضي الله عنه ٣٦٨٨ - بسنده عن أنس - رضي الله عنه وفيه زيادة (قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي - ﷺ - أنت مع من أحببت » . قال أنس : فأنا أحب النبي - ﷺ - وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبي إليهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم » . وأخرجه في الأدب ٩٥ ، ٩٦ ، وأحكام ١٠ وأخرجه الامام مسلم في البر ١٦١ - ١٦٤ والترمذي في الزهد ٥٠ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٠٤ ، ١١٠ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ (حلي)

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ٤٥ باب هجرة النبي - ﷺ - وأصحابه إلى المدينة ٣٩٠٤ بسنده عن أبي سعيد الخدري وفيه زيادة [إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الاسلام ، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر] . وأخرجه في الصلاة ٨٠ فضائل الصحابة ٣ وأخرجه الامام مسلم في فضائل الصحابة (١) باب من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه ٢ (٢٣٨٢) بسنده عن أبي سعيد وأخرجه الترمذي في المناقب ١٥ والدارمي في المقدمة ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٨ ، ٤٧٨ ، ٤ : ٢١١ ، ٥ : ١٣٩ (حلي)

«ولا في لفظه ما يدل عليه ، لكن أبو بكر لكمال معرفته بمقاصد الرسول ﷺ علم أنه هو ذلك العبد ، فلم يخص عنهم بباطن يخالف الظاهر ، بل يوافقه ولا يخالف مفهوم لفظه ومعناه .

وأما ما يرويه بعض الكذابين عن عمر أنه قال : « كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما ، فهذا من أظهر الأكاذيب المختلفة لم يروه أحد من علماء المسلمين في شيء من كتب أهل العلم ، وهو من أظهر الكذب ، فإن عمر أفضل الأمة بعد أبي بكر ، وهو المحدث الملهم الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه وهو أفضل المخاطبين المحدثين من هذه الأمة (١) .

فإذا كان هو حاضرا يسمع الألفاظ ولم يفهم الكلام كالزنجي فهو يتصور أن يكون غيره أفهم منه لذلك ؟

فكيف من لم يسمع ألفاظ الرسول ؟
بل يزعم أن ما يدعيه من المعاني هي تلك المعاني بمجرد الدعوى التي لو كانت مجردة لم تقبل .
فكيف إذا قامت البيئة على كذب مدعيها ؟

« حقيقة السر الذي خص الرسول به حذيفة »

وأما حديث حذيفة فقد ثبت في الصحيح « أن حذيفة كان يعلم السر الذي لا يعلمه غيره ، وكان ذلك ما أسره إليه النبي ﷺ عام تبوك من أعيان

(١) أخرج البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٣٦٨٩ بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فإن يك في أمي أحد فإنه عمر » زاد زكرياء بن أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمي منهم أحد فعمرو » .

المنافقين فإنه روى أن جماعة من المنافقين أرادوا أن يحلوا حزام ناقة رسول الله ﷺ بالليل ليسقط من بعيه فيموت ، وأنه أوحى إليه بذلك ، وكان حذيفة قريباً منه فأسر إليه أسماءهم (١) .

ويقال : إن عمر لم يكن يصلي على أحد حتى يصلي عليه حذيفة ، وهذا ليس فيه شيء من حقائق الدين ، ولا من الباطن الذي يخالف الظاهر ، فإن الله قد ذكر في كتابه من صفات المنافقين وأخبارهم ما ذكره ، حتى إن سورة براءة سميت الفاضحة لكونها فضحت المنافقين وسميت المبعثرة ، وغير ذلك من الأسماء ، لكن القرآن لم يذكر فلانا وفلانا ، فإذا عرف بعض الناس أن فلانا من هؤلاء المنافقين الموصوفين كان ذلك بمنزلة تعريفه أن فلانا وفلانا من المؤمنين الموعودين بالجنة ، فأخبره ﷺ أن أبا بكر وعمر وغيرهما في الجنة كإخباره أن أولئك منافقون .

وهذا إذا كان من العلم الباطن فهو من الباطن الموافق للظاهر المحقق له المطابق له .

ونظيره في الأمر ما يسمى : « تحقيق المناط » وهو أن يكون الشارع قد علق الحكم بوصف ، فتعلم ثبوته في حق المعين كأمره باستشهاد ذوي عدل ، ولم يعين فلانا وفلانا ، فإذا علمنا أن هذا ذو عدل كنا قد علمنا أن هذا

(١) أخرج البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٢٠ باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما ٣٧٤٣ بسنده عن مغيرة عن ابراهيم قال : ذهب علقمة الى الشام فلما دخل المسجد قال : اللهم يسر لي جليساً صالحاً فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال أبو الدرداء : ممن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة . قال : أليس فيكم أو منكم - صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ؟ يعني حذيفة قال : قلت : بلى ، قال : أليس فيكم أو منكم الذي أجاره الله على لسان نبيه ﷺ - يعني من الشيطان ، يعني عماراً ، قلت : بلى ، قال : أليس فيكم - أو منكم - صاحب السواك ، والوساد ، أو السرار ؟ قلت : بلى ، قال : كيف كان عبد الله يقرأ ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى ﴾ ؟ قلت : ﴿ والذكر والأنثى ﴾ قال : ما زال بي هؤلاء حتى كادوا يستنزلونني عن شيء سمعته من النبي - ﷺ - .

المعين موصوف بالعدل المذكور في القرآن وكذلك لما حرم الله الخمر والميسر .

فإذا علمنا أن هذا الشراب المصنوع من الذرة والعسل خمراً علمنا أنه داخل في هذا النص ، فعلمنا بأعيان المؤمنين وأعيان المنافقين هو من هذا الباب . وهذا هو من تأويل القرآن .

وهذا على الإطلاق لا يعلمه إلا الله ، فإن الله يعلم كل مؤمن وكل منافق ، ومقادير إيمانهم ونفاقهم وما يختم لهم .

وأما الرسول فقد قال : قال تعالى ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)

فالله يطلع رسوله ومن شاء من عباده على ما يشاء من ذلك .

وأما حديث أبي هريرة فهو حديث صحيح ، قال : «حفظت من رسول الله ﷺ جرابين ، فأما أحدهما فبشئته فيكم ، وأما الآخر : فلو بشئته لقطعتم هذا البلعوم» (٢) .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠١ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم ٤٢ باب حفظ العلم ١٢٠ عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة وذكره .

قال صاحب الفتح : وحمل العلماء الوعاء الذي لم يشه على الأحاديث التي فيها تبين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم ، وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم ، كقوله : أعوذ بالله من رأس الستين ، وإمارة الصبيان يشير الى خلافة يزيد بن معاوية ، لأنها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة ، قال ابن المنير : جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة الى تصحيح باطلهم ، حيث اعتقدوا أن للشرعية ظاهراً وباطناً وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين . قال : وإنما أراد أبو هريرة بقوله « قطع » أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم وتضليله لسعيهم ، =

ولكن ليس في هذا من الباطن الذي يخالف الظاهر شيء ، بل ولا فيه من حقائق الدين ، وإنما كان في ذلك الجراب الخبر عما سيكون من الملاحم والفتن فالملاحم الحروب التي بين المسلمين والكفار ، والفتن ما يكون بين المسلمين .

ولهذا قال عبد الله بن عمر : لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتمكم ، وتفعلون كذا وكذا لقلتم كذب أبو هريرة وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك وأعوانهم لما فيه من الأخبار بتغير دولهم .

ومما يبين هذا أن أبا هريرة إنما أسلم عام خيبر ، فليس هو من السابقين الأولين ، ولا من أهل بيعة الرضوان وغيره من الصحابة أعلم بحقائق الدين منه ، وكان النبي ﷺ يحدثه وغيره بالحديث فيسمعونه كلهم ، ولكن كان أبو هريرة أحفظهم للحديث ببركة حصلت له من جهة النبي ﷺ ، لأن النبي ﷺ حدثهم ذات يوم حديثاً فقال : أيكم يبسط ثوبه فلا ينسى شيئاً سمعه ففعل ذلك أبو هريرة .

وقد روي أنه كان يجزئ الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً يصلي وثلثاً ينام ، وثلثاً يدرس الحديث ، ولم ينقل أحد قط عن أبي هريرة حديثاً يوافق الباطنية ، ولا حديثاً يخالف الظاهر المعلوم من الدين .

ومن المعلوم أنه لو كان عنده شيء من هذا لم يكن بد أن ينقل عنه أحد شيئاً منه ، بل النقول المتواترة عنه كلها تصدق ما ظهر من الدين .

وقد روي من أحاديث صفات الله وصفات اليوم الآخر وتحقيق العبادات

= ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتوبة لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم ، وقال غيره : يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان فينكر ذلك من لم يألفه ، ويعترض عليه من لا شعور له به .

ما يوافق أصول أهل الإيمان ويخالف قول أهل البهتان .

وأما ما يروى عن أبي سعيد الخراز وأمثاله في هذا الباب وما يذكره أبو طالب ^(١) في كتابه وغيره ، وكلام بعض المشايخ الذي يظن أنه يقول بباطن يخالف الظاهر ، وما يوجد من ذلك في كلام أبي حامد الغزالي أو غيره .

فالجواب عن هذا كله أن يقال : ما علم من جهة الرسول فهو نقل مصدق عن قائل معصوم ، وما عارض ذلك فيما أن يكون نقلاً عن غير مصدق أو قولاً لغير معصوم فإن كثيراً مما ينقل عن هؤلاء كذب عليهم ، والصدق من ذلك فيه ما أصابوا فيه تارة ، وأخطأوا فيه أخرى وأكثر عباراتهم الثابتة ألفاظ مجملة متشابهة لو كانت من ألفاظ المعصوم لم تعارض الحكم المعلوم فكيف إذا كانت من قول غير المعصوم .

وقد جمع أبو الفضل الفلكي كتاباً من كلام أبي يزيد البسطامي ^(٢) سماه .. النور من كلام طيفور .. فيه شيء كثير لا ريب أنه كذب على أبي يزيد البسطامي وفيه أشياء من غلط أبي يزيد - رحمة الله عليه - وفيه أشياء

(١) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب ، واعظ زاهد فقيه من أهل الجبل (بين واسط وبغداد) نشأ واشتهر بمكة ورحل إلى البصرة واتهم بالاعتزال وتوفي ببغداد عام ٣٨٦ هـ من مصنفاته « قوت القلوب » .

قال الخطيب البغدادي : ذكر فيه أشياء منكورة مستشعة في الصفات [راجع وفيات الأعيان ١ :

٤٩ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٧ ، وتاريخ بغداد ٣ : ٨٩ ولسان الميزان ٥ : ٢٠٠]

(٢) هو أبو يزيد البسطامي : طيفور بن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ويقال بأبي يزيد . له أخبار كثيرة ، كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها وولد فيها عام ١٨٨ هـ . ووفاته بها عام ٢٦١ هـ قال المستشرقون عنه أنه كان يقول : بوحدة الوجود ، وكان أول قائل بمذهب الفناء ، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية . [راجع طبقات الصوفية ٦٧ - ٧٤ وفيات الأعيان ١ : ٢٤٠ وميزان الاعتدال ١ : ٤٨١ ، وحلية الأولياء ١٠ : ٣٣ والشعراني ١ : ٦٥ ، والمناوي ١ : ٢٤٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٣٣١] .

حسنة من كلام أبي يزيد ، وكل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ . ومن قيل له عن أبي يزيد أو غيره من المشائخ : أنه قال لمريديه : إن تركتم أحداً من أمة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء . فعارضه الآخر وقال : قلت لمريدي : إن تركتم أحداً من أمة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء فصدق هذا النقل عنه . ثم جعل هذا المصدق لهذا عن أبي يزيد أو غيره يستحسنه ويستعظم حاله ، فقد دل على عظيم جهله أو نفاقه . فإنه إن كان قد علم ما أخبر به الرسول من دخول من يدخل النار من أهل الكبائر ، وأن النبي ﷺ هو أول من يشفع فيهم بعد أن تطلب الشفاعة من الرسل الكبار ، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فيمتنعون ويعتذرون ^(٢) ، ثم صدق أن مريدي أبي يزيد أو غيره يمنعون أحداً من الأمة من دخول النار ، أو يخرجون هم كل من دخلها كان ذلك كفراً منه بما أخبر به الصادق المصدق

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الإيمان ٨٤ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ٣٢٢ (١٩٣) حدثنا أبو عوانه ، عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال : فيأتون آدم - ﷺ - فيقولون أنت آدم أبو الخلق خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك . اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناك ، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن اثنوا نوحاً أول رسول بعثه الله . قال فيأتون نوحاً - ﷺ - فيقول لست هناك . فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي من ربه منها ، ولكن اثنوا إبراهيم الذي اتخذ الله خليلاً ، فيأتون إبراهيم - ﷺ - فيقول لست هناك ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها فيقول اثنوا موسى - ﷺ - الذي كلمه الله وأعطاه التوراة قال : فيأتون موسى عليه السلام فيقول : لست هناك ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن اثنوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته . فيقول لست هناك ، ولكن اثنوا محمد ﷺ - عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخرت قال رسول الله - ﷺ - فيأتوني . فاستأذن على ربي فيؤذن لي . فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله . فيقال يا محمد : ارفع رأسك قل تسمع . سل تعطه اشفع تشفع الخ وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٩ ، ٢٤ ، ٣٦ ، وأخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٧ والقيامة ١٥ وابن ماجه في الزهد ٣٧ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٥ ، ٢٨٢ ، ٢٣٦ ، ٢ : ٤٣٦ ، ٣ : ١١٦ (حلي)

بحكاية منقولة كذب ناقلها ، أو أخطأ قائلها إن لم يكن تعمد الكذب ، وإن كان لا يعلم ما أخبر به الرسول كان من أجهل الناس بأصول الايمان .

« على المسلم اتباع المحكم المعلوم لا المشتبه المجهول »

فعلى المسلم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأن يجتهد في أن يعرف ما أخبر به الرسول وأمر به علما يقينيا وحينئذ فلا يدع المحكم المعلوم للمشتبه المجهول فإن مثال ذلك مثل من كان سائراً إلى مكة في طريق معروفة لا شك أنها توصله إلى مكة إذا سلكها فعدل عنها إلى طريق مجهولة لا يعرفها ولا يعرف متنها . وهذا مثال من عدل عن الكتاب والسنة إلى كلام من لا يدري هل يوافق الكتاب والسنة ، أو يخالف ذلك . وأما من عارض الكتاب والسنة بما يخالف ذلك فهو بمنزلة من كان يسير على الطريق المعروفة إلى مكة ، فذهب إلى طريق قبرص^(١) يطلب الوصول منها إلى مكة ، فإن هذا حال من ترك المعلوم من الكتاب والسنة إلى ما يخالف ذلك من كلام زيد وعمرو كائناً من كان ، فإن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وقد رأيت في هذا الباب من عجائب الأمور ما لا يحصىه إلا العليم بذات الصدور .

وأما الحديث المأثور : إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل

(١) قبرص : جمهورية (٩٢٥١ كم^٢ / ٥٩٠٠٠٠ نسمة) جزيرة في البحر المتوسط عاصمتها (نيقوسيا) معظم سكانها يونانيون وبها أقلية تركية . تنتج الكروم ، والقمح ، والزيتون ، والتبغ ، دخلتها المسيحية على يد بولس وبرنابا أعطيت (١١٩٢) لأسرة لوزينيان الفرنسية في أثناء الحروب الصليبية ، واستولت عليها البندقية ثم الترك ١٥٧١ ، وبريطانيا ١٨٧٨ ثارت ضد الحكم البريطاني بعد ١٩٥٠ م وطالب اليونانيون بالانضمام لليونان ، وتنازعا مع الأقلية التركية ، وأقيمت الجمهورية عام ١٩٥٩ م بالاتفاق بين بريطانيا ، وتركيا ، واليونان ورأسها الأسقف مكاريوس وأعلن استقلالها عام ١٩٦٠ م وانضمت للأمم المتحدة راجع الموسوعة الثقافية ص ٧٥١ .

العلم بالله ، ^(١) فإذا ذكروه لم ينكره إلا أهل العزة بالله ، فهذا قد رواه أبو اسماعيل الأنصاري شيخ الإسلام في كتابه الذي سماه « الفاروق بين المثبتة والمعتلة » وذكر فيه أحاديث الصفات صحيحها وغلبيها ، ومسندها ومرسلها وموقوفها ، وذكره أيضاً أبو حامد الغزالي في كتبه ، ثم هذا يفسره بما يناسب أقواله التي يميل فيها إلى ما يشبه أقوال نفاة الصفات من الفلاسفة ونحوهم .

وذكر شيخ الإسلام عن شيخه يحيى بن عمار أنه كان يقول : المراد بذلك أحاديث الصفات ، فكان يفسر ذلك بما يناقض قول أبي حامد من أقوال أهل الإثبات ، والحديث ليس اسناده ثابتاً باتفاق أهل المعرفة .

ولم يرو في أمهات كتب الحديث المعتمدة فلا يحتاج إلى الكلام في تفسيره ، وإذا قدر أن النبي ﷺ قاله فهو كلام مجمل ليس فيه تعيين لقول معين ، فحينئذ فما من مدع يدعي أن المراد قوله إلا كان لخصمه أن يقول نظير ذلك ولا ريب أن قول يحيى بن عمار وأبي اسماعيل الأنصاري ونحوهما من أهل الإثبات أقرب من قول النفاة أن هذا العلم هو من علم النبي ﷺ بالاتفاق وعلم الصحابة ومن المعلوم أن قول النفاة لا ينقله أحد عن النبي ﷺ ولا أصحابه ، لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ، بخلاف مذهب المثبتة ، فإن القرآن والحديث والآثار عن الصحابة مملوءة به فكيف يحمل كلام النبي ﷺ على علم لم ينقله عنه أحد ، ويترك حمله على العلم المنقول عنه وعن أصحابه ؟! وكذلك ما ذكره البخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله » ^(٢) .

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي أبو اسماعيل شيخ خراسان في عصره ، من كبار الحنابلة من ذرية أبي أيوب الأنصاري ، كان بارعاً في اللغة ، حافظاً للحديث ، عارفاً بالتاريخ والانساب من كتبه « ذم الكلام وأهله » والفاروق في الصفات ، وكتاب الأربعين في التوحيد توفي عام ٤٨١ هـ [راجع فوات الوفيات ١ : ٢٣٣ وطبقات الحنابلة ١ : ٦٤] .

(٢) أخرج البخاري في كتاب العلم ٤٩ باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا . =

قد حمله أبو الوليد بن رشد الحفيد الفيلسوف وأمثاله على علوم الباطنية الفلاسفة نفاة الصفات ، وهذا تحريف ظاهر ، فإن قول علي : أتحبون أن يكذب الله ورسوله . دليل على أن ذلك مما أخبر به النبي ﷺ ، وأقوال النفاة من الفلاسفة والجهمية والقرامطة والمعتزلة لم ينقل فيها مسلم عن النبي ﷺ شيئاً لا صحيحاً ولا ضعيفاً ، فكيف يكذب الله ورسوله في شيء لم ينقله أحد عن الله ورسوله ؟

بخلاف ما رواه أهل الإثبات من أحاديث صفات الرب وملائكته وجنته وناره ، فإن هذا كثير مشهور قد لا تحتمله عقول بعض الناس ، فإذا حدث به خيف أن يكذب الله ورسوله .

ومن هذا الباب قول عبد الله بن مسعود : ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم وابن مسعود فيما يقول ذاكراً أو أمراً من أعظم الناس اثباتاً للصفات ، وأرواهم لأحاديثها ، وأصحابه من أجل التابعين ، وأبلغهم في هذا الباب ، وكذلك أصحاب ابن عباس .

فكل من كان من الصحابة أعلم كان إثباته وإثبات (١) أصحابه أبلغ ،

وقال علي : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ زاد آدم بن أبي إياس في كتاب العلم له عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره (ودعوا ما يتكبرون) أي يشتبه عليهم فهمه ، وكذا رواه أبو نعيم في المستخرج ، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عنه العامة ، ومثله قول ابن مسعود ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، رواه مسلم ، وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات ، وأبو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين وأن المراد ما يقع من الفتن .

وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة ، وظاهره في الأصل غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره ، مطلوب والله أعلم .

(١) سقط من (ب) لفظ (وإثبات)

فعلّم أن الصحابة لم يكونوا يبطنون خلاف^(١) ما يظهرون ، ولا يظهرون الإثبات ويبطنون النفي ولا يظهرون الأمر ويبطنون امتناعه^(٢) ، بل هم أقوم الناس بتصديق الرسول فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر وهذا باب واسع دخل فيه من الأمور ما لا يتسع هذا الموضوع لتفصيله^(٣) ، ولكن نعلم جماع الأمر أن كل قول وعمل فلا بد^(٤) له من ظاهر وباطن ، فظاهر القول لفظ اللسان ، وباطنه ما يقوم من حقائقه ومعانيه^(٥) بالجنان ، وظاهر العمل حركات الأبدان ، وباطنه ما يقوم بالقلب من حقائقه ومقاصد الإنسان فالمنافق لما أتى بظاهر الإسلام دون حقائق الإيمان لم ينفعه ذلك ، وكان من أهل الخسران ، بل كان في الدرك الأسفل من النار .

قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٦) الآيات .

فإن الله أنزل في أول سورة البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين .

وقال تعالى - ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾^(٧) السورة وقال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا بِأَفْوَاهِهِمْ

(١) في (ب) بزيادة (الشيء الذي)

(٢) في (ب) غيره بدلاً من (امتناعه)

(٣) في (ب) بيانه بدلاً من (لتفصيله)

(٤) سقط من (ب) لفظ (فلا بد)

(٥) في (أ) بزيادة لفظ (ومعانيه)

(٦) سورة البقرة آية رقم ٨ - ٩ .

(٧) سورة المنافقون آية رقم (١) .

وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴿ الآية (١) .

« الملاحدة تدعي أن ابطان الكفر حقيقة الايمان »

والملاحدة يظهرن موافقة المسلمين ويبطنون خلاف ذلك ، وهم شر من المنافقين .

فإن المنافقين نوعان :

نوع يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، ولا يدعي أن الباطن الذي يبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان .

والملاحدة تدعي أن ما تبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان وأن الأنبياء والأولياء هم من جنسهم يبطنون ما يبطنونه مما هو كفر وتعطيل ، فهم يجمعون بين إبطان الكفر وبين دعواهم أن ذلك الباطن هو الإيمان عند أهل العرفان فلا يظهرن للمستجيب لهم أن باطنه طعن في الرسول والمؤمنين وتكذيب له ، بل يجعلون ذلك من كمال الرسول وتمايم حاله ، وأن الذي فعله هو الغاية في الكمال وأنه لا يفعله إلا أكمل الرجال من سياسة الناس على السيرة العادلة وعمارة العالم على الطريقة الفاضلة وهذا قد يظنه طوائف حقاً باطناً وظاهراً فيؤول أمرهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الإيمان ، وقد علم بالاضطراد أن النفاق ضد الإيمان .

ولهذا كان أعظم الأبواب التي يدخلون منها باب التشيع والرفض لأن الراضة هم أجهل الطوائف وأكذبها وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول ، وهم يجعلون التقية من أصول دينهم ويكذبون على أهل البيت كذباً لا يحصى إلا الله ، حتى يرووا عن جعفر الصادق أنه قال : التقية ديني ودين آبائي و« التقية » (٢) هي شعار النفاق ، فإن حقيقتها عندهم أن يقولوا بألسنتهم ما

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) من أشهر أقوال الشيعة التقية ، وهي لغة الصيانة والحفظ يقال : وقاه صانه ، ووقيت الشيء =

ليس في قلوبهم ، وهذا حقيقة النفاق .

ثم إذا كان هذا من أصول دينهم صار كل ما ينقله الناقلون عن علي أو غيره من أهل البيت مما فيه موافقة أهل السنة والجماعة يقولون : هذا قالوه على سبيل التقية ، ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية الفلاسفة من الاسماعيلية والنصيرية ونحوهم فجعلوا ما يقوله الرسول هو من هذا الباب أظهر به خلاف ما أبطن ، وأسر به خلاف ما أعلن ، فكان حقيقة قولهم أن الرسول هو امام المنافقين ، وهو ﷺ الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل إليهم ، المبلغ لرسالة ربه ، المخاطب لهم بلسان عربي مبين .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ ^(٤) .

= أقيه أي صنته وسترته من الأذى ، ووقاه ما يكره حماه منه ، ووقاه الله وقاية : أي حفظه ويرى الشيعة أن التقية أصل من أصول عقيدتهم ، ومبدأ أساسي من مبادئهم التي تواصلوا بها ، وكان هذا سببا يجعل للكلام عندهم معان خفية ، فجعلوا له ظاهراً يفهمه الناس ، وباطناً يفهمه الخاصة منهم ، وبذلك صاروا أقدر الفرق على العمل في الخفاء والمراد بها : كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه ، وقد جاء في كتاب الكافي في الأصول للكليني - الذي يعتبره الشيعة بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة ومما ورد فيه : أن الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لأصحابه يوصيهم ... فإذا حضرت بلية فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم ، فإذا نزلت فاجعلوا أنفسكم دون دينكم ، واعلموا أن الهالك من هلك دينه . [راجع أصول الكافي ص ٥٣]

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٤ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٣) سورة القمر آية رقم ١٧ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٩٧ .

وقال تعالى ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٤)

وقال تعالى ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٥)

« جماعة الرسل عليهم السلام بلغوا البلاغ المبين »

وقالت الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٦)

وقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٧)

وقال تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

(١) سورة النحل آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة القيامة الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٣) سورة ص آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة محمد آية رقم ٢٤ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٣٥ .

(٦) سورة يس آية رقم ١٦ - ١٧ .

(٧) سورة النور آية رقم ٥٤ .

البلاغ المبين ﴿ (١) .

وقال تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل
فما بلغت رسالته ﴾ (٢) .

فهذا ونحوه مما يبين أن الرسل عليهم أن يبلغوا البلاغ المبين .

يقال : بأن الشيء وأبان واستبان وتبين وبين ، كلها أفعال لازمة ، وقد
يقال : أبان غيره وبينه وتبينه واستبانته ومعلوم أن الرسل فعلوا ما عليهم ، بل
قد أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم ولا يكتُموه ، وذم كاتميه ،
فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
تَكْتُمُونَهُ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٤)
وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا
بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٥) .

فقد لعن كاتميه ، وأخبر أنه بينه للناس في الكتاب فكيف يكون قد بينه
للناس ، وهو قد كتم الحق وأخفاه وأظهر خلاف ما أبطن ؟ .

فلو سكت عن بيان الحق كان كاتما ، ومن نسب الأنبياء إلى الكذب
والكتمان مع كونه يقول إنهم أنبياء فهو من أشر المنافقين وأخبثهم وأبينهم

(١) سورة التغابن آية رقم ١٢ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٦٧ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٨٧ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٥٩ .

تناقضا . وكثير من أهل النسك والعبادة والعلم والنظر ممن سلك طريق بعض الصوفية والفقراء ، وبعض أهل الكلام والفلسفة يسلك مسلك الباطنية في بعض الأمور لا في جميعها حتى يرى بعضهم سقوط الصلاة عن بعض الخواص أو حل الخمر وغيرها من المحرمات لهم ، أو أن لبعضهم طريقا إلى الله عز وجل غير متابعة الرسول .

وقد يحتج بعضهم بقصة موسى ^(١) والخضر ^(٢) ، ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة ، فيجوز لغيره من الأولياء ما يجوز له من الخروج عن الشريعة وهم في هذا ضالون من وجهين :

« أحدهما » أن الخضر لم يخرج عن الشريعة : بل الذي فعله كان جائزا في شريعة موسى ، ولهذا لما بين له الأسباب أقره على ذلك ، ولو لم يكن حائزا لما أقره ، ولكن لم يكن موسى يعلم الأسباب التي بها أبيحت تلك ، فظن أن الخضر كالملك الظالم فذكر ذلك له الخضر .

و« الثاني » أن الخضر لم يكن من أمة موسى ، ولا كان يجب عليه متابعتة ، بل قال له : إني على علم من علم الله علمنيه الله ، لا تعلمه ،

(١) موسى اسم معرب أصله موشا ، وهو بالعبرية : الماء ، وشا : الشجر سمي به لأنه وجد في الماء والشجر الذي كان حول قصر فرعون في عين الشمس ، وهو موضع معروف بمصر لا ينبت شجر اللسان إلا فيه قيل : سئل النبي - ﷺ - ما بال الله أكثر من ذكر موسى في القرآن فقال : لأن الله يحبه ، ومن أحب شيئا أكثر ذكره .

(٢) الخضر عليه السلام فيه لغتان : فتح الخاء وكسر الضاد وكسر الخاء وسكون الضاد ، وهو لقب واسمه : بليا بفتح الباء الموحدة وسكون اللام بعدها مشاء تحته ، ابن ملكان بفتح الميم وسكون اللام ابن فالغ بن عامر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وكان أبوه من الملوك واختلفوا في سبب تلقيبه بالخضر فقال الأكثرون لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء ، والفروة وجه الأرض وقيل : الهشيم من النبات ، وقيل لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله والصحيح الأول لما في الحديث الصحيح من سند البخاري : إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء ، وهذا نص صريح في سبب تلقيبه ، وكنية الخضر : أبو العباس ، والله أعلم . [راجع بصائر ذوي التمييز ٦ : ٧٦]

وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، وذلك أن دعوة موسى لم تكن عامة فإن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة ، ومحمد ﷺ بعث إلى الناس كافة ، بل بعث إلى الإنس والجن باطناً وظاهراً ، فليس لأحد أن يخرج عن طاعته ومتابعته ، لا من الباطن ، ولا من الظاهر ، لا من الخواص ، ولا من العوام . ومن هؤلاء من يفضل بعض الأولياء على الأنبياء وقد يجعلون الخضر من هؤلاء .

وهذا خلاف ما أجمع عليه مشائخ الطريق المقتدى بهم دع عنك سائر أئمة الدين وعلماء المسلمين ، بل لما تكلم الحكيم الترمذي ^(١) في كتاب « ختم الأولياء » بكلام ذكر أنه يكون في آخر الأولياء من هو أفضل من الصحابة ، وربما لوح بشيء من ذكر الأنبياء قام عليه المسلمون ، وأنكروا ذلك عليه ونفوه من البلد بسبب ذلك ، ولا ريب أنه تكلم في ذلك بكلام فاسد باطل لا ريب فيه .

ومن هناك ضل من اتبعه في ذلك ، حتى صار جماعات يدعي كل واحد أنه خاتم الأولياء كابن عربي صاحب الفصوص ، وسعد الدين بن حمويه وغيرهما ، وصار بعض الناس يدعي أن في المتأخرين من يكون أفضل في العلم بالله من أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ، إلى أمثال هذه المقالات التي يطول وصفها ، مما هو باطل بالكتاب والسنة والإجماع ، بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القدرية ، وظنوا أن من شهدا سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وهذا هو دين المشركين الذين

(١) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله الحكيم الترمذي باحث صوفي ، عالم بالحديث وأصول الدين من أهل « ترمذ » نفي منها بسبب تصنيفه كتاباً خالف فيه ما عليه أهلها ، فشهدوا عليه بالكفر ، وقيل فضل الولاية على النبوة ، وفي لسان الميزان أن أهل ترمذ هجروه في آخر عمره لتأليفه كتاب « ختم الولاية » وعلل الشريعة من كتبه « نواذر الأصول في أحاديث الرسول » وغير ذلك توفي عام ٣٢٠ هـ [راجع لسان الميزان ٥ : ٣٤٨ ومفتاح السعادة ٢ : ١٧٠] .

قالوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) .

وهؤلاء شر من القدريّة المعتزلة ، الذين يقرون بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، ويكذبون بالقدر فإن أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين المكذبين بالأنبياء والشرائع ، فهم من شر الناس ، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع (٢) .

و«المقصود هنا» أن الظاهر لا بد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه ، فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق ، ومن ادعى باطنا يخالف ظاهراً فهو كافر منافق ، بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه ، وظاهره يوافق باطنه ويصدقه ويحققه ، فكما أن الإنسان لا بد له من روح وبدن ، وهما متفقان فلا بد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان ، فالباطن للباطن من الإنسان والظاهر للظاهر منه .

«الباطن أصل الظاهر»

والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر . والباطن أصل الظاهر ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده وقد قال النبي ﷺ : ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب (٣) وفي المسند عن النبي ﷺ أنه قال : «الإسلام علانية والإيمان في القلب» (٤) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ وقد وردت الآية في الأصل ﴿ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي بزيادة (من دونه) ولعلها خطأ من الناسخ .

(٢) راجع ما كتبه الإمام ابن تيمية في الجزء الثاني من كتاب الفتاوى ط السعودية .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

وقد قال تعالى ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٦) وأمثال هذا كثير في القرآن .

وقال في حق الكفار : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ (٧) .

وقال : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (٨) وأمثال ذلك فنسأل الله العظيم أن يصلح بواطننا وظواهرنا ،

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الفتح آية رقم ٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٥) سورة الأنفال آية رقم ٢ .

(٦) سورة الرعد آية رقم ٢٨ .

(٧) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ٧ « الغشاوة على الأبصار والغشاء : الغطاء . ومنه غاشية السرج ، =

ويوفقنا لما يحبه ويرضاه من جميع أمورنا بمنه وكرمه . والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد .
وآله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

= وغشيت الشيء أغشيه قال النابغة :

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي إذا الدخان تعشى الأشمط البرما
وقال آخر :

صحبتك إذ عينني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء وحكى الفراء : غشاوى مثل
أداوي ، وقرئ : غشاوة بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله :
علفتها تبناً وماءاً بارداً .

وقول الآخر :

يا ليت زوجك قد غدا متقلداً سيفاً ورمحاً

وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار ، والوقف على قلوبهم . وقال
آخرون : الختم في الجميع ، والغشاوة هي الختم فالوقف على « غشاوة » وقرأ الحسن
« غشاوة » بضم الغين وقرأ أبو حيوه بفتحها ، وروي عن أبي عمرو : غشوة ، رده الى أصل
المصدر . قال ابن كيسان : ويجوز غشوة وغشوه واجودها غشاوة كذلك تستعمل العرب في
كل ما كان مشتقاً على الشيء نحو عمامة وكنانة وقلادة ، وعصابة ، وغير ذلك .

« الاكليل في المتشابه والتأويل »

فصل

في أنواع القلوب

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

(١) سورة الحج آية رقم ٥٢ .

قال ابن كثير ٣ : ٢٢٩ : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، ولكنها من طرق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم . وسرد ابن كثير بعض الروايات في هذه القصة ثم قال في آخرها : وكلها مراسلات ومنقطعات والله أعلم . اهـ .
والحق أن روايات هذه القصة معلقة بالإرسال والضعف والجهالة وليس فيها رواية صحيحة تصلح للاحتجاج ، بل فيها ما لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، وذكر في معظمها أن الشيطان تكلم على لسان رسول الله - ﷺ - بما فيه مدح للأصنام بهذه الجملة الباطلة « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى » وكيف يكون مثل ذلك مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله - ﷺ - وذلك مما يدل على عدم صحة مثل هذه الروايات سنداً وممتناً ، ومن تكلم من العلماء على هذه القصة وبين بطلانها بكلام طويل : القاضي أبو بكر بن العربي ، والقاضي عياض ، والشوكاني ، والالوس وغيرهم .

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام :

قاسية ، وذات مرض ، ومؤمنة مخبئة . وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً ، أو لا تكون يابسة جامدة .

ف « الأول » هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ، ولا يرسم فيه العلم ؛ لأن ذلك يستدعي محلاً لنا قابلاً . و « الثاني » لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لفوته مع لينه ، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال .

فالثاني هو الذي فيه مرض ، والأول هو القوي اللين . وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلاً ، فإما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوي ولا تبطش بعنف فذلك مثل القلب القاسي ، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها فذلك مثل الذي فيه مرض ، أو تكون باطشة بقوة ولين ، فهو مثل القلب العليم الرحيم ، فبالرحمة خرج عن القسوة ، وبالعلم خرج عن المرض ، فإن المرض من الشكوك والشبهات ولهذا وصف من عدا هؤلاء بالعلم والإيمان والاختبات وفي قوله ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ ^(١) دليل على أن العلم يدل على

(١) سورة الحج آية رقم ٥٤ قال القاضي عياض في كتاب الشفا : أعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين . أحدهما : في توهين أصله والثاني على تسليمه . أما المأخذ الأول ، فيكيفك أن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه بسند صحيح سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به ويمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . قال أبو بكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي - ﷺ باسناد متصل يجوز ذكره إلا ما رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحب والشك في الحديث أن النبي - ﷺ - كان بمكة وذكر القصة ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبي عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه .

الإيمان ، ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الإيمان - كما يتوهمه طائفة من المتكلمة - بل معهم العلم والإيمان ، كما قال تعالى ﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (٢) الآية . وعلى هذا فقلوه ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ نظير هذه الآية فإنه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم ، وأخبر هناك أنهم يقولون في المتشابه ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (٣) وكلا الموضعين موضع ريب وشبهة لغيرهم ، فإن الكلام هناك في المتشابه وهنا فيما يلقي الشيطان مما ينسخه الله ثم يحكم الله آياته ، وجعل المحكم هنا ضد الذي نسخه الله مما ألقاه الشيطان ، ولهذا قال طائفة من المفسرين المتقدمين أن « المحكم » هو الناسخ ، و« المتشابه » المنسوخ ، أرادوا والله أعلم قوله ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ (٤)

والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله .

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٢ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٥٦ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٥٢ قال أحمد بن حنبل بمصر صحيفة في التفسير ، رواها علي بن أبي طلحة لورجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثير ، والمعنى عليه : أن النبي - ﷺ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون ، ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك ، فيبطل ما يلقي الشيطان كما قال ابن عباس - رضي الله عنه . وحكى الكسائي والقراء جميعاً تمنى إذا حدث نفسه ، وهذا هو المعروف في اللغة وحكى أيضاً تمنى إذا تلا ، وروى عن ابن عباس أيضاً وقال مجاهد والضحاك وغيرهما ، وقال أبو الحسن بن مهدي ، ليس هذا التمني من القرآن والوحي في شيء ، وإنما كان النبي - ﷺ إذا صفرت يده من المال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال . تمنى الدنيا بقلبه ووشومة الشيطان ، وذكر المهدوي عن ابن عباس أن المعنى إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه وهو اختيار الطبري .

وقد أشرت إلى وجه ذلك فيما بعد ، وهو أن الله جعل المحكم مقابل المتشابه تارة ، ومقابل المنسوخ أخرى ، والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف - العام - كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين ، ويدخل فيه المجمل فإنه متشابه ، وإحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذي ليس بمراد ، وكذلك ما رفع حكمه فإن في ذلك جميعه نسخاً لما يلقيه الشيطان في معاني القرآن ، ولهذا كانوا يقولون : هل عرفت الناسخ ^(١) من المنسوخ ، فإذا عرف الناسخ عرف المحكم ، وعلى هذا فيصح أن يقال : المحكم والمنسوخ ، كما يقال : المحكم والمتشابه .

« المحكم والمتشابه في اصطلاح بعض المفسرين »

وقوله بعد ذلك ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ جعل جميع الآيات محكمة محكمها ومتشابهها ، كما قال : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ ^(٢) وقال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ^(٣) على أحد القولين

وهناك جعل الآيات قسمين : محكما ومتشابهاً ، كما قال ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ

(١) اصل النسخ من (نسخ الكتاب) وهو نقله من نسخة الى اخرى غيرها فذلك معنى (نسخ الحكم الى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه الى غيرها فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية فسواء اذا نسخ حكمها فغير وبدل فرضها ، ونقل فرض العباد عن اللازم كان لهم بها أقر خطها فترك ، او محى أثرها فعفى ونسى اذ هي حينئذ في كلتا حالتها منسوخة والحكم الحادث المبدل به الحكم الأول والمنقول اليه فرض العباد هو الناسخ يقال منه « نسخ الله آية كذا وكذا ينسخها نسخاً ، والنسخة : الاسم » [راجع تفسير الطبري ٢ : ٤٧٢]

(٢) سورة هود آية رقم ١ .

(٣) سورة يونس آية رقم ١ .

مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴿١﴾

وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله ،
فصار المحكم في القرآن تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله .

وتارة يقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان ومن الناس من يجعله مقابلاً
لما نسخه الله مطلقاً (٢) حتى يقول « هذه الآية محكمة ليست منسوخة ويجعل
المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أولاً اتباعاً لظاهر قوله ﴿ فَيَنْسُخُ
اللهُ ﴾ ﴿ وَيُحْكِمُ ﴾ (٣) الله آيَاتِهِ ﴾ .

فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها . وجماع ذلك أن
الأحكام تارة يكون في التنزيل فيكون في مقابله ما يلقيه الشيطان ، فالمحكم
المنزل من عند الله أحكمه الله أي فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما
ليس منه ، فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق
الشيء ويحصل إتيقانه ، ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد فالمنع

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) في (ب) بزيادة (دون ما ألقاه الشيطان) .

(٣) المحكم : المتقن المبين ، وفي المراد به هنا ثمانية أقوال . أحدها : أنه الناسخ قاله ابن مسعود ،
وابن عباس ، وقتادة والسدي في آخرين والثاني : أنه الحلال والحرام ، روي عن ابن عباس ،
ومجاهد ، والثالث : أنه ما علم العلماء تأويله . روي عن جابر بن عبد الله ، والرابع : أنه الذي
لم ينسخ قاله الضحاك . الخامس : أنه ما لم تتكرر الفاظه قاله ابن زيد السادس : أنه ما استقل
بنفسه ولم يحتاج إلى بيان ذكره القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد ، وقال الشافعي ، وابن الأنباري
هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والسابع : أنه جميع القرآن غير الحروف المقطعة ،
والثامن ، أنه الأمر والنهي ، والوعد والوعيد والحلال والحرام هذا والذي قبله القاضي أبو
يعلى . وقال القاسمي في « محاسن التأويل » ص ٧٥٢ للعلماء في المحكم والمتشابه أقوال كثيرة
ومباحث واسعة . وابدع ما رأيته في تحرير هذا المقام مقالة سابعة الذيل لشيخ الإسلام تقي
الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان ويعني بهذا المقالة الموسومة بـ « الاكلیل فی التشابه
والتأويل » وقد اثبتها القاسمي رحمه الله في تفسيره بطولها .

جزء معناه لا جميع معناه .

وتارة يكون الإحكام في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع وهو اصطلاحى ، أو يقال - وهو أشبه بقول السلف - كانوا يسمون كل رفع نسخا ، سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة ، وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون في سمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه ، كما قال :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ ^(١) الآية . ومعلوم أن من سمع النص الذي قد رفع حكمه أو دلالة له . فإنه يلقي الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذي به يحصل رفع الحكم وبيان المراد ، وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار ، والله أعلم .

وتارة يكون « الإحكام » في التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشبه بغيرها ، وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا فتكون محتملة للمعنيين .

قال أحمد بن حنبل : المحكم الذي ليس فيه اختلاف والمتشابه : الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا . ولم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله وإنما قال ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٢)

وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع فإن الله أخبر أنه : لا يعلم تأويله إلا هو .

والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه أصحاب رسول الله ﷺ ، وجمهور التابعين وجماهير الأمة .

(١) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره ، بل قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ ^(١) وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات وما لا يعقل له معنى لا يتدبر : وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ^(٢) ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

فأما من تدبر المحكم والمتشابه ، كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه ، فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه .

يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي ﷺ كحبي بن أخطب ، وغيره من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ^(٣) كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين

(١) سورة ص آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

قال الزجاج : التدبر : النظر في عاقبة الشيء و« الدبر » النحل سمي دبراً لأنه يعقب ما يتفع به ، والدبر المال الكثير ، سمي دبراً لكونه يبقى للأعقاب ، والأدبار ، وقال ابن عباس : أفلا يتدبرون القرآن فيفكرون فيه فيرون تصديق بعضه لبعض ، وإن أحد من الخلائق لا يقدر عليه . قال ابن قتبية . والقرآن من قولك : ما قرأت الناقة سلى قط أي ما ضمت في رحمها ولداً ، وأنشد أبو عبيدة

ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنيـنا
والبيت لعمر بن كلثوم من معلقته المشهورة .

(٣) قال السيوطي في كتابه « الدر المنثور » أخرج ابن اسحاق ، والبخاري في تاريخه ، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس ، وعن جابر بن عبد الله بن رباب ، قال : مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله - ﷺ - وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ فاتاه أخوه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ فقالوا : أنت سمعته .. ؟ قال : نعم . فمشى حيي في أولئك نفر إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا : يا محمد ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ قال : بلى . قالوا : قد جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال : نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما تعلم بين نبي لهم ما مدة ملكه ، وما أجل امته غيرك ، فقال حيي بن أخطب وأقبل على =

موافقة للصبغة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً ؛ لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل بعد إسقاط المكرر ، وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر .

وروي أن من النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ في وفد نجران من تأول « إنا » و« نحن » على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع ، وهذا تأويل في الإيمان بالله ، فأولئك تأولوا في اليوم الآخر ، وهؤلاء تأولوا في الله . ومعلوم أن : « إنا » و« نحن » من المتشابه ، فإنه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى ، فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد ، والمعنى متنوع .

والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه وبعض المتواطئة أيضاً من المتشابه ، ويسمى أهل التفسير « الوجوه » و« النظائر » وصنفوا كتب

= من كان معاه ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، اقتدحون في دين نبي إنما مدة ملكه واجل امته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله - ﷺ - فقال : يا محمد هل مع هذا غيره . . ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : المصى . قال : هذه أثقل وأطول : الألف واحدة ، واللام ثلاثون والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه مائة وإحدى وستون سنة . هل مع هذا يا محمد غيره . . ؟ قال : نعم قال : ماذا . . ؟ قال : الر قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتان سنة . فهل مع هذا غيره . قال نعم : المر قال : فهذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثير ؟ ثم قاموا عنه . فقال أبو ياسر : لأخيه يحيى ومن معه من الأحرار : ملأيدركم لعله قد جمع هذا المحمد كله ، إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون . فقالوا لقد تشابه علينا أمره ، فيزعمون ان هذه الآيات نزلت فيهم ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾

الوجوه والنظائر ، فالوجوه في الأسماء المشتركة ، والنظائر في الأسماء المتواطئة .

وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعا في الأسماء المشتركة ، فهي نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ، بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله . والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل ﴿ وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (١)

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (٢)

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ (٣) .

﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ (٤)

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٥) .

ويتبعون المتشابه ابتغاء المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التي أخبر عنها .

« أنواع الكلام »

وذلك أن الكلام نوعان :

إنشاء فيه الأمر ، وإخبار فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف إن السنة هي تأويل الأمر .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٣ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٤ .

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١١١ .

(٥) سورة الإخلاص آية رقم ٣ - ٤ .

وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي يتأول القرآن ^(١) ، تعني قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ^(٢) .

وأما الأخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه .

وقد جاء اسم « التأويل » في القرآن في غير موضع وهذا معناه .

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ ^(٣)

فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه ، بحيث لا يشبهه .

ثم قال ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ ^(٤) إلى آخر الآية وإنما ذلك مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراتها كالدابة ، وبأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربك والملك صفا صفا ، وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب ، وغير ذلك ، فحينئذ يقولون :

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فهل لنا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ؟ أَوْ نُرَدِّ

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ٢٠ باب التسييح في الركوع والسجود ٨٨٩ بسنده عن عائشة وذكره . وأخرجه البخاري في كتاب الأذان ١٣٩ باب التسييح والدعاء في السجود ٨١٧ - بسنده عن عائشة - رضي الله عنها وذكره . والتفسير سورة ١١٠ وأبو داود . في الصلاة ١٤٨ والنسائي في التطبيق ٦٤ ، ٦٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٤٣ ، ٤٩ ، ١٩٠ (حلي)

(٢) سورة النصر آية رقم ٣ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ ؟ ﴿١﴾

وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله ، فإن الله يقول ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٢)

ويقول : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (٣) وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، فإن الله قد أخبر أن في الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه بل بينهما تباين عظيم مع التشابه ، كما في قوله : ﴿ وَأَتُوا بِهِ مَثَابِهَا ﴾ (٤) على أحد القولين أنه يشبه ما في الدنيا وليس مثله ، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة السجدة آية رقم ١٧ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٣٥ باب قول الله تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ٨٤٩٨ - حدثنا معاذ بن اسد اخبرنا عبد الله اخبرنا معمر عن همام بن منبه عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - وذكره ، وفي كتاب بدء الخلق ٨ وتفسير سورة ٣٣ وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الايمان ٨٤ باب أدنى اهل الجنة منزلة فيها - بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة . ؟ قال هو رجل يحيى بعد ما أدخل اهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة فيقول : اي ورب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : اترضى ان يكون لك مثل مُلْكٍ مُلْكٍ من ملوك الدنيا ، فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ، ومثله ، ومثله . فقال في الخامسة رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب . قال : رب فأعلامهم منزلاً قال : اولئك الذين اردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، قال ومصداقه في كتاب الله عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ سورة السجدة الآية ١٧ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥ .

خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق
خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى ادراكنا لها لعدم إدراك عينها أو
نظيرها من كل وجه ، وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله
به .

« إنكار المتفلسفة للأكل والنكاح في الجنة »

وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم
فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود
ما أخبر به القرآن ، ومن دخل في الإسلام وناق المؤمنين تأول ذلك على أن
هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة
المنكرة لحشر الأجساد ، وإن كان من منافقة الملتين المقرين بحشر الأجساد
تأول ذلك على تفهيم النعيم الذي في الجنة من الروحاني ، والسماح الطيب
والروائح العطرة ، فكل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته .

وكان في هذا أيضا متبعا للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء ،
والمسميات تشبه المسميات ، ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها .

فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه « ابتغاء الفتنة » بما يوردونه من الشبهات
على امتناع أن تكون في الجنة هذه الحقائق .

﴿ وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلَهُ ﴾ ^(١) ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا .

قال الله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٢) فإن تلك الحقائق قال الله
فيها ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ^(٣)

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٣) سورة السجدة آية رقم ١٧ .

لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

وقوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ (١) إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب ، أو على المتشابه ، فإن كان عائداً على الكتاب كقوله « منه » و« منه » فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهذا يصح ، فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضْلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ (٢) فجعل التأويل الجائي للكتاب المفصل .

وقد بينا أن ذلك التأويل (٣) لا يعلمه وقتاً وقدرأً ونوعاً وحقيقة إلا الله ، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا .

وكذلك قوله ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (٤) .

(١) سورة آل عمران رقم ٧ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

(٣) هناك استعمالات ثلاثة للكلمة التأويل هي : إما بمعنى الرجوع والعاقبة والمصير « ألت عن الشيء رجعت عنه ، وبمعنى التفسير والبيان حديث اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ، وبمعنى مجازي هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله وهذه الاستعمالات الثلاثة نجدها واضحة في قوله تعالى ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ فلفظ التأويل يتوقف منهم معناه بحسب الوقف على قوله تعالى ﴿ إلا الله ﴾ أو على قوله - والراسخون في العلم فمن وقف على لفظ الجلالة كان التأويل بمعنى الحقيقة والكيفية وهذا يؤول ويرجع معناه إلى الله تعالى ، ومن وقف على قوله ﴿ والراسخون في العلم ﴾ كان التأويل إما بمعنى التفسير والبيان ، أو صرف اللفظ عن ظاهر . إلى معنى آخر يحتمله اللفظ [راجع مقاييس اللغة للأزهري ١ / ١٦٢ ولسان العرب مادة أول ح ١ ص ٣٣]

(٤) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

وإذا كان التأويل للكتاب كله ، والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوَاقِئُهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وكذلك قوله ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (٢) .

فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله ، وهذا واضح بين .

ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن تفسر النصوص المبينة لأحوالها فهذا هذا .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه ، كما يقول كثير من الناس فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا في الآثار :

« العمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه »

لأن المقصود في الخبر الإيمان (٣) ، وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا قال بعض -

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٦٣ .

(٣) وهذا ما تشير إليه الآية في قوله تعالى : هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا « [سورة آل عمران آية رقم ٧]

العلماء - المتشابه الأمثال والوعد والوعيد و« المحكم » الأمر والنهي فإنه متميز غير مشتبه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع ، وأمور نتركها لا بد أن نتصورها ومما جاء من لفظ التأويل ، في القرآن قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١) والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود إلى القرآن .

قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفتري من دون الله ، وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفي كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ (٣) وقوله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (٤) لأن الخلق عاجزون عن الاتيان بمثله ، كما تحداهم وطالبهم لما قال ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) فهذا تعجيز لجميع المخلوقين قال تعالى ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٦) أي مصدق الذي بين يديه ﴿ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ ﴾ أي مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذي

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٣٧ - ٤٠ .

(٣) سورة هود آية رقم ١١٧ .

(٤) سورة الانفال آية رقم ٣٣ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٣٨ .

(٦) سورة يونس آية رقم ٣٧ .

بين يديه ومفصل الكتاب . والكتاب اسم جنس ، وتحدى القائلين : ﴿ اقترأه ﴾ .

ودل على أنهم هم المفترون . قال ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١)

أي : كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ففرق بين الإحاطة بعلمه ، وبين إتيان تأويله . فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به ، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به ، فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله .

و« نكتة ذلك » أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها في نفس العالم كذهن الإنسان مثلاً ، ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم واللفظ ، إنما يدل ابتداء على المعنى الذهني ، ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجة .

فالتأويل هو الحقيقة الخارجة ، وأما معرفة تفسيره ومعناه ، فهو معرفة الصورة العلمية ، وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر (٢) ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه ، وإن لم يعلم تأويله .

وبين ذلك أن الله يقول عن الكفار ﴿ وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ سورة ص آية رقم ٢٩ .

يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقَرَأَ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ
نُفُوراً ﴿١﴾

فقد أخبر دما للمشركين أنه إذا قرىء عليهم القرآن حجب بين أبصارهم
وبين الرسول بحجاب مستور ﴿وَجَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي
آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه
لشاركوه في ذلك .

وقوله ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ يعود إلى القرآن كله ، فعلم أن الله يحب أن
يفقهه .

ولهذا قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم
فيماذا أنزلت ، وماذا عنى بها ، وما استثنى من ذلك لا متشابهاً ولا غيره .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس (٢) من أوله إلى آخره
مرات أفق عند كل آية وأسأله عنها .

فهذا ابن عباس حبر الأمة ، وهو أحد من كان يقول : لا يعلم تأويله إلا
الله ، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن .

وهذا هو الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة (٣) على أن جعلوا

(١) سورة الاسراء آية رقم ٤٥ - ٤٦ .

(٢) هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي حبر الأمة الصحابي الجليل ولد
بمكة عام ٣ قبل الهجرة لازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث ، وشهد مع علي الجمل
وصفين ، وكف بصره في آخر عمره فسكن الطائف وتوفي بها له في الصحيحين
١٦٦٠ حديثاً ، ينسب إليه كتاب في تفسير القرآن جمعه بعض أهل العلم - راجع الإصابات
٤٧٧٢ ، وصفة الصفوة ١ / ٣١٣ وتاريخ الخميس ١ / ١٦٧]

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد من المصنفين الكثيرين ولد ببغداد عام

الوقف عند قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل ، لأن مجاهدا تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه فظن أن هذا هو التأويل المنفى عن غير الله .

« الفرق بين التأويل في لغة القرآن وبين التفسير »

وأصل ذلك أن لفظ التأويل فيه اشتراك بين ما عناه الله في القرآن ، وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين ، فبسبب الاشتراك في لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن ، ومجاهد إمام التفسير .

قال الثوري ^(١) : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وأما التأويل فشان آخر .

وبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ولا قال : هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه . ولا قال قط أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة المتبوعين : إن في القرآن آيات لا يعلم معناها ولا يفهمها رسول الله ﷺ ، ولا أهل العلم والإيمان جميعهم ، وإنما

= ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة وتوفي ببغداد عام ٢٧٦ من كتبه . تأويل مختلف الحديث والمعارف وعيون الأخبار ومشكل القرآن والمشتبه من الحديث والقرآن وغير ذلك كثير [راجع وفيات الأعيان ١ / ٢٥١ ، الأنباري ٢٧٢] و« لسان الميزان ٣ / ٣٥٧ ، دائرة المعارف الإسلامية ١ / ٢٦٠ ووقع اسمه فيها محمد بن مسلم] .

(١) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناف من مضمير أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد عام ٩٧ هـ في الكوفة وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات بها مستخفيا عام ١٦١ هـ له من الكتب الجامع الكبير والجامع الصغير كلاهما في الحديث وكتاب في الفرائض ولابن الجوزي كتاب في مناقبه . [راجع دول الاسلام ١ / ٨٤ وابن النديم ١ / ٢٢٥ وابن خلكان ١ / ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٥٧]

قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه .

وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات ، وآيات القدر ، وغير ذلك ، فلقبوها : « هل يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يعلم معناه » .

وأما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية .

وبأن الله يمتحن عباده بما شاء ، ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه ، والغالب على كلا الطائفتين الخطأ أولئك يقصرون في فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ ^(١) وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعني به شيئاً خلافاً للحشوية ، وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له .

وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه ؟ وبين نفي المعنى عند المتكلم ، ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم .

ثم احتج بما لا يجري على أصله فقال : هذا عبث والعبث على الله محال . وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً ^(٢) ، بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول : العبث صفة ^(٣) نقص ، فهو متنف عنه لأن النزاع في الحروف وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صحيح ولا عقل صريح .

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(٢) سقط من (ب) لفظ (أصلاً)

(٣) سقط من (ب) لفظ (نقص)

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم : أن مدعي التأويل أخطأوا في زعمهم ^(١) أن العلماء يعلمون التأويل ، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه فإن الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم وعلمهم بكلام السلف ، وكلام العرب علموا يقينا أن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن ، فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة ^(٢) ، وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر ، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء ، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر ، ومن آيات القدر . ويتأولون آيات الصفات .

وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء من بعض الصفات ، وبعضهم من بعض ما جاء في اليوم الآخر وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان تغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضا مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه .

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة ، وأكثر أهل الكلام والبدع رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معاني القرآن ، ورأوا عجزاً وعبثاً وقبحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرأونه ويتلونه وهم لا يفهمونه ، وهم مصييون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطأوا في معنى التأويل الذي نفاه الله ، وفي التأويل الذي أثبتوه .

وتسلك بذلك مبتدعهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً

(١) في (ب) في قولهم بدلاً من (في زعمهم)

(٢) راجع ما كتبه الامام ابن تيميه عن دور القرامطة في تاريخ المسلمين ، وأساليبهم في القمع والارهاب وتشكيكهم في العقائد وتضليل الناس .

وجدالاً ولكن بفرية على الله ، وقول عليه ما لا يعلمونه ، وإلحاد في أسمائه وآياته ، فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل .

فإن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثه والمتصوفة ونحوهم هو : صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقتزن به ، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف ، فإذا قال أحدهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل .

والتأويل عليه وظيفتان :

بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه .

وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في ابطال التأويل ، أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول . وقال الآخر : بل يجب تأويلها . وقال الثالث : بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة ، أو يصلح للعلماء دون غيرهم إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان : « أحدهما » تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً وهذا - والله أعلم - هو ان الذي عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله .

ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله « كذا وكذا » .

واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك ومراده التفسير .

و« المعنى الثاني » في لفظ السلف - وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً - هو نفس المراد بالكلام ، فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به .

وبين هذا المعنى والذي قبله بون ؛ فإن الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام ، كالتفسير والشرح والإيضاح ، ويكون وجود التأويل في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي .

وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبله .

فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها ويكون التأويل من باب الوجود العيني الخارجي .

فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها .

وتلك الحقائق لا تعرف على ما هي عليه بمجرد الكلام والأخبار إلا أن يكون المستمع قد تصورهما أو تصور بغير كلام وإخبار .

لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب إما بضرب المثل وإما بالتقريب ، وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها ، وإما بغير ذلك .

وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها ، وقد قدمنا البيتين في ذلك .

ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف :

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ (٢) .

وقول الملاء ﴿ أَصْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ . وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (٣)

وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ (٤) .

(١) سورة يوسف آية رقم ٦ وأجمع العلماء أن ذلك في تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ - بعد أربعين سنة ، وذلك منتهى الرؤيا وعن الأحاديث ما يراه الناس في المنام ، وهي معجزة له ، فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها وكان نبيا - ﷺ - نحو ذلك ، وكان الصديق - رضي الله عنه - من أعبر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم والعظم ، والطبع والإحسان ، ونحو أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٤٤ - ٤٥ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٩٩ - ١٠٠ قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن - في قوله : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ﴾ قال : لم يكن سجوداً لكنه سنة كانت فيهم ، يؤمنون برؤوسهم لإيماء ، كذلك كانت تحيتهم ، وقال الثوري والضحاك وغيرهم ، كان سجوداً كالسجود المعمود عندنا - وهو كان تحيتهم ، وقيل : كان انحناء كالركوع ولم يكن خروراً على الأرض وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا وجعل الكلام بدلاً من

فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه
كما قال يوسف : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (١)

والعالم بتأويلها الذي يخبر به ، كما قال يوسف : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِهِ ﴾ - أي في المنام - ﴿ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ (٢) أي قبل
أن يأتیکما التأويل .

وقال الله تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٣) قالوا : أحسن عاقبة
ومصيرا ، فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة والتأويل
في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا والتأويل في الأعراف ويونس تأويل
القرآن وكذلك في سورة آل عمران .

« اشتقاق التأويل »

وقال تعالى في قصة موسى والعالم ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ
بِتَأْوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٤) .

= الإنحاء ، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فيما بينهم تحية لا عبادة ،
قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٥٩ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٧٨ - ٨٢ قال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : قال شيخنا الإمام

أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية الى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية

فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل =

فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار ، فهو تأويل عمل لا تأويل قول ، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلاً ، مثل حول تحويلاً وعول تعويلاً ، وأول يؤول تعديه آل يؤول أولاً ، مثل : حال يحول حولاً .

وقولهم : آل يؤول ، أي : عاد إلى كذا ورجع إليه ومنه المآل ، وهو ما يؤول إليه الشيء ويشاركه في الاشتقاق الأكبر « الموئل » فإنه من وآل وهذا من أول . والموئل المرجع ، قال تعالى ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ ^(١) ومما يوافقه في اشتقاقه الأصغر « الآل » فإن آل الشخص من يؤول إليه ، ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه أعظم من المضاف يصلح أن يؤول إليه الآل ، كآل ابراهيم وآل لوط وآل فرعون ، بخلاف الأهل ، والأول أفعل ؛ لأنهم قالوا في تأنيثه أولى . كما قالوا جمادى الأولى ومن القصص ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(٢) ومن الناس من يقول : فوعل ، ويقول : أوله ، إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب : بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف ، سمي المتقدم أول - والله أعلم - لأن ما بعده يؤول إليه ،

=
الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم ، وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار فتجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون أعلى أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع والكليات - كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهم وقد جاء فيما ينقلون - استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » قال شيخنا - رضي الله عنه - وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ، لأنه إنكار ما علم من الشرائع . [تفسير القرطبي ١١ : ٤٠] .

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٨ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٧٠ .

ويبنى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة له ، والصيغة صيغة تفضيل لا صفة مثل : أكبر وكبرى وأصغر وصغرى ، لا من باب أحمر وحمراء ، ولهذا يقولون جئته أول من أمس ، وقال : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ^(١) ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٢) ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ ^(٣) .

فإذا قيل : هذا أول هؤلاء فهو الذي فضل عليهم في الأول ، لأن كل واحد يرجع إلى ما قبله فيعتمد عليه وهذا السابق كلهم يؤول إليه ، فإن من تقدم في فعل فاستن به من بعده كان السابق الذي يؤول الكل إليه ، فالأول له وصف السؤدد والاتباع .

ولفظ « الأول » مشعر بالرجوع والعود ، والأول مشعر بالابتداء والمبتدأ خلاف العائد لأنه إنما كان أولاً لما بعده ، فإنه يقال « أول المسلمين » و« أول يوم » فما فيه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف إليه لا للمضاف .

وإذا قلنا : آل فلان ، فالعود إلى المضاف ، لأن ذلك صيغة تفضيل في كونه مآلاً ومرجعاً لغيره ، لأن كونه مفضلاً دل على أنه مآل ومرجع ، لا آيل راجع : إذ لا فضل في كون الشيء راجعاً إلى غيره آيلاً إليه ، وإنما الفضل في كونه هو الذي يرجع إليه ويؤول إليه ، فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل في كونه مآلاً ومرجعاً والتفضيل المطلق في ذلك يقتضي أن يكون هو السابق المبتدئ ، والله أعلم .

فتأويل الكلام ما أوله اليه المتكلم ، أو ما يؤول إليه الكلام أو ما تأوله المتكلم ، فإن التفعيل يجري على غير فعل كقوله ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ ^(٤)

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ وتكملة الآية ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٤١ .

(٤) سورة المزمل آية رقم ٨ والتبتل : الانقطاع الى عبادة الله عز وجل أي انقطع بعبادتك إليه ، = ١ .

فيجوز أن يقال : تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلاً وتأولت الكلام تأويلاً ، وأولت الكلام تأويلاً والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل ، كعدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله .

فالتأويل : هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه أو تأول هو إليه ، والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول إلى حقيقته التي هي عين المقصود به ، كما قال بعض السلف في قوله ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ (١)

قال : حقيقة ، فإنه إن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع بل كان كذباً ، وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإن لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلًا ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول ، كما روي عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعاً ﴾ (٢) قال : إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد .

وعن عبد الله قال : خمس قد مضين : البطشة واللزام والدخان والقمر والروم .

= ولا تشرك به غيره ، يقال : بتلت الشيء أي قطعته ، ومنه قولهم طلقها بته بتلة ، وهذه صدقة بته بتلة أي بائنة منقطعة عن صاحبها أي قطع ملكه عنها بالكلية ، ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى ، ويقال للراهب متبتل لانقطاعه عن الناس وانفراذه بالعبادة : قال :
تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُنْسٍ راهب مُتَبَتِّل
وفي الحديث : النهي عن التبتل - وهو الانقطاع عن الناس والجماعات وقيل : إن أصله عند العرب : التفرد قاله ابن عرفة ، والأول أقوى .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٦٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

فصل اختلاف العلماء في أن أسماء الله وصفاته من المتشابه أم لا . . ؟

وأما إدخال أسماء الله وصفاته ، أو بعض ذلك في المتشابه ^(١) الذي لا يعلم تأويله إلا الله أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين :

الأول : من قال : إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه ، فنقول :

أما الدليل على بطلان ذلك فإني ما أعلم من أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة ، قالوا في أحاديث الصفات تمر كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات

(١) اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ، فقال جابر بن عبد الله ، وهو مقتضى قول الشعبي ، وسفيان الثوري وغيرهما والمحكمات من أي القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه . قال بعضهم ، وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج . والدجال ، وعيسى عليه السلام ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور .

الجهمية وردوها وأبطلوها التي مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه .

ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك .

وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت ، وفي أحاديث الوعيد مثل قوله :

« من غشنا فليس منا » ^(١) .

وأحاديث الفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه ، كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلاً بالعرف المتأخر .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل وكذلك نص أحمد في كتاب « الرد على الزنادقة والجهمية » أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبيّن معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله - فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه ، أو إلحاد في أسماء الله وآياته

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ، وفيه ومن حمل علينا السلاح فليس منا وعنده أيضاً عنه مرفوعاً « من غشّ فليس مني » قاله حين مرّ على صبرة من طعام وأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام . ؟ قال أصابه السماء يا رسول الله ، قال : هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس فذكره ، ورواه ابن عنبسة عن العلاء بلطف الترجمة ، وزاد قيل يا رسول الله ما معنى قولك ليس منا . ؟ فقال : ليس مثلنا ، وفي الباب عن أنس ، وبريدة ، وحذيفة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وعلي ، وغيرهم . ولفظ حديث علي عند السكري : ليس منا من غشّ مسلماً أو ضاره أو مأكره ، ولفظ حديث ابن عمر عند القضاعي : يا أيها الناس لا غش بين المسلمين من غش فليس منا ، ولفظ حديث أنس عند الدارقطني في الأفراد بسند ضعيف : من غشّ أمّي فعليه لعنة الله .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين .

والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره ، فلو قيل : إن هذا هو التأويل المذكور في الآية وأنه لا يعلمه إلا الله لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلاً يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله .

وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفي هذه التأويلات وردّها ، لا التوقف فيها ، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها ، وتمرّكها جاءت دالة على المعاني ، لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه في القرآن بأسماء مثل : الرحمن ، والودود ، العزيز والجبار والعليم والقدير والرءوف ، ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل : سورة الإخلاص ، وآية الكرسي ، وأول الحديد ، وآخر الحشر . وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) و ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٢) وأنه ﴿ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) .

و ﴿ المقسطين ﴾ و ﴿ المحسنين ﴾ وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ^(٤)

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة التغابن آية رقم ١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٧٦ والآية ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ .

- ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ ﴾ (١)
- ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ (٢)
- ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٣)
- ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٤)
- ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ (٥)
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦)
- ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٧)
- ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٨)
- ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ (٩)
- ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ (١٠)
- ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (١١)

-
- (١) سورة محمد آية رقم ٢٨ .
- (٢) سورة التوبة آية رقم ٤٦ .
- (٣) سورة طه آية رقم ٥ .
- (٤) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ .
- (٥) سورة الحديد آية رقم ٤ .
- (٦) سورة الزخرف آية رقم ٨٤ .
- (٧) سورة فاطر آية رقم ١٠ .
- (٨) سورة طه رقم ٤٦ .
- (٩) سورة الأنعام آية رقم ٣ وتكملتها (يعلم سرهم وجههم ويعلم ما تكسبون)
- (١٠) سورة ص آية رقم ٧٥ .
- (١١) سورة المائدة آية رقم ٦٤ .

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١)

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٢)

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (٣)

إلى أمثال ذلك .

فيقال لمن ادعى في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه أقول هذا في جميع ما سمي الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟

فإن قلت : هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح ، فإننا نفهم من قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) معنى .

ونفهم من قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) معنى ليس هو الأول .

ونفهم من قوله ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٦) معنى .

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٧ .

(٢) هذا جزء من آية من سورة الانعام ٥٢ وصدرها ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفُتُوَّةِ وَالْعَشِيِّ ﴾

(٣) سورة طه آية رقم ٣٩ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٦٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٠ وصدر الآية ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(٦) سورة الاعراف آية رقم ١٥٦ وصدر الآية ﴿ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ .

ونفهم من قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (١) معنى وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب - مع انتسابه إلى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة - من يقول : إنا نسمى الله الرحمن العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك في قوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ (٢) يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم .

وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة (٣) في الباطن ، لكن هذا أيسر ، وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الآله المعبود ، وعلى حق موجود أم لا ؟

فإن قال : لا . كان معطلاً محضاً .

وما أعلم مسلماً يقول هذا .

وإن قال : نعم . قيل له : فلم فهمت منها دلالتها على نفس الرب ،

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٤٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) القرامطة : فرقة تنسب الى حمدان بن الأشعث ، الملقب بقرمط تتلمذ على حسين الأهوازي ، رسول عبد الله بن ميمون القداح ، واتخذ لنفسه داراً للهجرة قريباً من الكوفة ، ويشترك مع الباطنية في كثير من العقائد الباطلة ، وكثيراً ما شن الغارات على المسلمين بقصد اضعاف دولتهم ، وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في إثارة الفتنة في العالم الإسلامي ، ويكفي أن يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه في مكة ونقلوه الى مكان آخر في البحرين في القرن الثالث الهجري ، ليطلبوا بذلك فريضة الحج الى مكة - هذا بالاضافة الى مبادئهم المسفة في الضلال من إباحة المحرمات ، واغتصابهم للأعراض وتعطيلهم لشعائر الله . [راجع مقالات الاسلاميين ١ : ٢٦ والفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٦٩ - ١٧٣ ودائرة المعارف الاسلامية مادة : حمدان قرمط ، ومشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ليحيى بن حزة العلوي (المقدمة) ونغية المرتاد في الرد على القرامطة أهل الاتحاد لابن تيمية] .

ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم ، وكلاهما في الدلالة سواء فلا بد أن يقول : نعم ، لأن ثبوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث بخلاف الذات ، فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سنذكره ، وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض .

يقال له : ما الفرق بين ما أثبتته وبين ما نفيتهُ أو سكت عن إثباته ونفيه ^(١) ، فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة بخلاف الآخر ، أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع ^(٢) ؟ .

أما الأول : فدلالة القرآن على أنه رحمن ، رحيم ، ودود ، سميع ، بصير ، على عظيم كدلالته على أنه عليم ، قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص ، وكذلك ذكره لرحمته ومحبه وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته وأما الثاني فيقال لمن أثبت شيئا ونفى آخر : لم نفيت مثلاً ^(٣) حقيقة رحمته ، ومحبه ، وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميل يمتنع على الله .

فإن قال : ارادته من جنس إرادته خلقه .

قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه وكذلك محبته ^(٤) .

وإن قال : - وهو حقيقة قوله - لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما

(١) سقط من (ب) لفظ (ونفيه)

(٢) في (أ) بزيادة جملة (في أكثر المواضع)

(٣) سقط من (ب) لفظ (مثلاً) .

(٤) سقط من (ب) جملة (وكذلك محبته)

أثبت العلم ، والقدرة ، والإرادة ، بالعقل ، وكذلك السمع ^(١) ، والبصر ، والكلام ، على إحدى الطريقتين ، لأن الفعل دل على القدرة والإحكام دل على العلم ، والتخصيص دل على الإرادة قيل له : الجواب من ثلاثة أوجه :

« أحدها » ^(٢) أن الإنعام ، والإحسان ، وكشف الضر ، دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والإدناء ، وأنواع التخصيص التي لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة ، وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص ، والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص وما سلكه في مسلك الإرادة يسلك في مثل هذا .

« الثاني » يقال له : هب أن العقل لا يدل على ^(٣) هذا فإنه لا ينفيه إلا بمثل ما ينفي به الإرادة والسمع دليل مستقل بنفسه ^(٤) ، بل الطمأنينة إليه في هذه المضائق أعظم ^(٥) ، ودلالته أتم .

فلأي شيء نفيت مدلوله ، أو توقفت ^(٦) وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة مع أن النصوص لم تفرق ؟ فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها في اثباته الارادة زيادة على الفعل .

« الثالث » يقال له : إذا قال لك الجهمي : الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه ، أو نفس الفعل والأمر به وزعم أن إثبات الإرادة تقتضي محذوراً إن قال بقدومها ، ومحذوراً إن قال بحدوثها .

(١) سقط من (ب) جملة (السمع والبصر) .

(٢) في (ب) الأول بدلاً من (أحدها) .

(٣) في (ب) لا يدل عليه بدلاً من (لا يدل على هذا) .

(٤) سقط من (ب) لفظ (بنفسه) .

(٥) في (ب) أكبر بدلاً من (أعظم) .

(٦) سقط من (ب) لفظ (أو توقفت) .

وهنا اضطربت المعتزلة^(١) ، فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم ، ولا يقولون بتجدد صفة له لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم مع تناقضهم .

فصاروا حزبين : البغداديون وهم أشد غلواً في البدعة في الصفات وفي القدر نفوا حقيقة الإرادة وقال الجاحظ^(٢) : لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبي^(٣) : لا معنى لها إلا نفس الفعل إذا تعلقت بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عباده والبصريون كأبي^(٤) علي وأبي هاشم^(٥)

(١) راجع ما كتبه الامام الأشعري في هذه النقطة في كتابه مقالات الاسلاميين الجزء الأول .

(٢) هو عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاد ، أبو عثمان الشهير بالجاحظ رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، مولده عام ١٦٣ هـ في البصرة ، ووفاته بها عام ٢٥٥ هـ فلع في آخر عمره ، وكان مشوه الخلقة ، ومات والكتاب على صدره . من كتبه : الحيوان ، والبيان والتبيين ، ومسائل القرآن « وفضيلة المعتزلة » . [راجع الوفيات ١ : ٣٨٨ ولسان الميزان ٤ : ٣٥٥ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢١٢ ودائرة المعارف الاسلامية ٦ : ٢٣٥]

(٣) الكعبي : هو عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي من بني كعب البلخي الخراساني أحد أئمة المعتزلة ، كان رأس طائفة منهم تسمى « الكعبية » وله آراء ومقالات في الكلام انفرد بها وهو من أهل بلخ أقام ببغداد مدة طويلة وتوفي بها عام ٣١٩ هـ من كتبه « التفسير » وتأييد مقالة أبو الهذيل « وأدب الجدل » والطعن على المحدثين . قال السمعاني : من مقالاته أن الله تعالى ليس له إرادة وأن جميع أفعاله واقعة منه بغير إرادة ولا مشيئة منه لها « وهذا تجديد وتضليل . [راجع تاريخ بغداد ٩ : ٣٨٤ والمقريزي ٢ : ٣٤٨ ولسان الميزان ٣ : ٢٥٥ ووفيات الأعيان ١ : ٢٥٢]

(٤) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي : من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره ، وإليه نسبة الطائفة الجبائية ، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب نسبته الى جبي (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة ودفن بجبي عام ٣٠٣ هـ له تفسير حافل مطول : رد عليه الأشعري : [راجع المقريزي ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٥ ومفتاح السعادة ٢ : ٣٥ ودائرة المعارف الاسلامية ٦ : ٢٧٠ - ٢٧٤]

(٥) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، من أبناء أبيان مولى عثمان ، عالم بالكلام ، من كبار المعتزلة ، له آراء انفرد بها وتبعته فرقة سميت « البهشية » نسبة الى كنيته =

قالوا : تحدث إرادة لا في محل فلا إرادة ، فالتزموا حدوث حادث غير مراد ،
وقيام صفة بغير محل . وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبديهة .

كان جوابه : أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ،
والنص قد دل عليها والعقل أيضاً فإذا أخذ الخصم ينازع في دلالة النص أو
العقل جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود في الرحمة والمحبة ، فإن
خصومه ينازعونه في دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتتم أنه عليم قدير ؟

فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة .

وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله في العليم التقدير وإذا انتهى
الأمر إلى ثبوت المعاني وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار كان
الجواب ما قررناه في غير هذا الموضع ؛ فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً
مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفي به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ،
ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية ، والضرورة العقلية ،
والقواطع العقلية واتفاق الأمم وغير ذلك من الدلائل .

ثم يطالبون بوجود من جنس ما نعهده ، أو بوجود يعلمون كيفيته ، فلا
بد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق .

فالقول في سائر ما سمي ووصف به نفسه كالقول في نفسه سبحانه
وتعالى .

ونكتة هذا الكلام : أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب

= « أبي هاشم » وله مصنفات في الاعتزال كما لأبيه قبله مولده عام ٢٤٧ هـ ووفاته ببغداد عام

٣٢١ هـ . [راجع المقريزي ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٢٩٢ والبداية والنهاية ١١ :

١٧٦ وميزان الاعتدال ٢ : ١٣١ وتاريخ بغداد ١١ : ٥٥]

والسنة لا بد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى وانتفاء المانع ، وينفي الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن له عنده مقتضى ولا مانع ، فيبين له أن المقتضى فيما نفاه قائم ، كما أنه فيما أثبتته قائم . إما من كل وجه أو من وجه يجب به الإثبات .

فإن كان المقتضى هناك حقاً فذلك هنا ، وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا .

وأما المانع فيبين أن المانع الذي تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذي تخيله فيما أثبتته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينجح من محذوره بإثبات أحدهما ونفي الآخر ، فإنه إن كان حقاً نفاهما وإن كان باطلاً لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوي بين الأمرين في الإثبات والنفي ، ولا سبيل إلى النفي ، فتعين الإثبات .

فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً ، وما من أحد إلا ولا بد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التي يدعي أنها موجبة النفي خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غير مرة .

فإن قال من أثبت هذه الصفات التي هي فينا أعراض كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، ولم يثبت ما هو فينا أبعاد كاليد ، والقدم ، هذه أجزاء وأبعاد تستلزم التركيب ، والتجسيم .

قيل له : وتلك أعراض ^(١) تستلزم التجسيم والتركيب العقلي كما

(١) العرض : ضد الجوهر ، لأن الجوهر هو ما يقوم بذاته ولا يفتقر الى غيره ليقوم به ، على حين أن العرض هو الذي يفتقر الى غيره ليقوم به ، فالجسم جوهر يقوم بذاته ، أما اللون فهو =

استلزمت هذه عندك التركيب الحسي فإن أثبت تلك على وجه لا تكون
أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها .

قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً أو تسميتها تركيباً
وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فإن قيل : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء .

قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض .

فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية قيل : والبعض ما جاز
انفصاله عن الجملة ، وذلك في حق الله محال ، فمفارقة الصفات القديمة
مستحيلة في حق الله تعالى مطلقاً ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه
وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم ، والتجسيم منتف .

قيل : وهذا تجسيم ، والتجسيم منتف .

فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز وإن لم يكن له في
الشاهد نظير .

قيل له : فأعقل صفة هي لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له في
الشاهد نظير ، فإن نفى عقل هذا نفى عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فرق
لكنه فرق غير مؤثر في موضع النزاع .

ولهذا كانت المعطلة الجهمية تنفي الجميع ، لكن ذاك أيضاً مستلزم

= عرض لأنه لا قيام له إلا بالجسم ، وكل ما يعرض في الجوهر من لون ، وطعم وذوق ،
ولمس ، وغيره ، فهو عرض لاستحالة قيامه بذاته والعرض : ضد الماهية ، وهو ما لا يدخل
في تقويم طبيعة الشيء للإنسان ، فهما لا يدخلان في تقويم ماهيته . ومنهم من يجعل
الأعراض على نوعين : قار الذات ، وهو الذي تجتمع أجزاؤه في الوجود كالبياض والسواد
وغيره ، وغير قار الذات وهو الذي لا تجتمع أجزاؤه في الوجود كالحركة والسكون والعرض :
هو المنسوب إلى العرض ، وهو ضد الجوهري ، والذاتي والضروري .

لنفي الذات .

ومن أثبت هذه الصفات الخيرية من نظير هؤلاء صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس هو معقول النص . ولا مدلول العقل وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

« السبب الذي ألجأ أهل البدع الى النفي والتعطيل »

وأصل ذلك أنهم أتوا بالفاظ ليست في الكتاب ولا في السنة ، وهي ألفاظ مجملة مثل : متحيز ومحدود ، و« جسم »^(١) و« مركب »^(٢) ونحو ذلك ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلمة ومدلولاً عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلوكه في إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعي لا يقبل الترك لمعارض راجح ، فأروا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ، ومن جهة العقل من ناحية أخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلبون القياس الأول ، ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة وتارة يغلبون القياس الثاني ويدفعون الاول كهشام بن الحكم^(٣) الرافضي ، فإنه قد قيل : أول ما تكلم في الجسم نفياً

(١) الجسم في بادئ النظر : هو هذا الجوهر الممتد القابل للأبعاد الثلاثة : الطول ، والعرض ، والعمق ، وهو ذو شكل ووضع وله مكان إذا شغله منع غيره من التداخل فيه معه ، فالامتداد وعدم التداخل هما إذن المعنيان المقومان للجسم ، ويضاف إليهما معنى ثالث ، وهو الكتلة .

(٢) المركب هو المؤلف من أجزاء كثيرة ، ويقابله البسيط كالجسم ، فإنه إذا كان مؤلفاً من أجزاء كثيرة كان مركباً وإذا لم يكن كذلك كان بسيطاً .

(٣) هو هشام بن الحكم الكوفي ، متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية في وقته ، ولد بالكوفة ، ونشأ بواسط ، وسكن بغداد ، وانقطع الى يحيى البرمكي ، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره ،

وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم ، وأبي الهذيل العلاف^(١) ، فإن أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس فعارضهم هشام ، وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته .

واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض . فما أعلم أحداً من الخارجيين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره ، إذ كلامهم من عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٢) .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله . لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع في ذلك سبيل السلف الماضين أهل العلم والإيمان ، والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات ، فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها فيكون من باب « الذين إذا ذكروا بآيات ربهم يخرن عليها صمّاً وعمياناً » .

= وصنف كتباً منها « الامامة » و« القدر » و« الشيخ والغلام » و« الدلالات على حدوث الأشياء » و« الرد على المعتزلة في طلحة والزبير » و« الرد على الزنادقة » و« الرد على هشام الجواليقي » و« الرد على شيطان الطاق » وغير ذلك توفي عام ١٩٠ هـ . [راجع منهج المقال ٣٥٩ ، وسفينة البحار ٢ : ٧١٩]

(١) هو أبو الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي ، مولى عبد القيس أبو الهذيل العلاف ، من أئمة المعتزلة ، ولد في البصرة عام ١٣٥ هـ واشتهر بعلم الكلام . قال المأمون : أطل أبو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الأنعام ، له مقالات في الاعتزال ، ومجالس ، ومناظرات كف بصره في آخر عمره وتوفي بسامرا له كتب كثيرة منها كتاب سماه (ميلاس) على اسم مجوس أسلم على يده ، وللاستاذ علي مصطفى الغرابي « أبو الهذيل العلاف » في سيرته وأقواله . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٨٠ ، ولسان الميزان ٥ : ٤١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٨ ، وتاريخ بغداد ٣ : ٣٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٤١٦ ونكت الهميان ٢٧٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى .

فهذا أحد الوجهين ، وهو منع أن تكون هذه من المتشابه .

« الوجه الثاني » أنه إذا قيل : هذه من المتشابه أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمي بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله .

إما المتشابه ، وإما الكتاب كله ما تقدم .

ونفي علم تأويله ليس نفي علم معناه ، كما قدمناه في القيامة وأمور القيامة .

وهذا الوجه قوي إن ثبت حديث ابن اسحاق في وفد نجران أنهم احتجوا على النبي ﷺ بقوله « إنا » و« نحن » ونحو ذلك .

ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن في القرآن متشابهاً وهو ما يحتمل معنيين ، وفي مسائل الصفات ما هو من هذا الباب ، كما أن ذلك في مسائل المعاد وأولى ، فإن نفي المشابهة بين الله وبين خلقه أعظم من نفي المشابهة بين موعود الجنة وموجود الدنيا .

وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفي علم التأويل ليس نفيًا لعلم المعنى .

ونزيده تقريراً : أن الله سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُبِينُ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ فَأَخْبِرْ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ لِيَعْقِلُوهُ ، وَأَنَّهُ طَلَبَ تَذَكُّرَهُمْ . وَقَالَ أَيْضاً ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢) .

فحضر على تدبره وفقهه والتذكر به ، والتفكر فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً .

بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٣) وقوله :

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ (٤)

ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله . وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر .

وقال علي رضي الله عنه لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتیه الله عبداً في كتابه ، وما في هذه الصحيفة ، فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٥)

وقال النبي ﷺ : رب مبلغ أوعى من سامع (٦) :

(١) سورة يوسف آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢١ .

(٣) سورة محمد آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

(٥) سورة الأنبياء آية رقم ٧٩ .

(٦) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب الفتن ٨ باب قول النبي - ﷺ (لا =

وقال : بلغوا عني ولو آية (١) .

« السلف فسروا آيات الصفات وتعلموا من النبي التفسير »

وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها ، وفسروها بما يوافق دلالتها وبيانها ، ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن ، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم مثل : عبد الله بن مسعود الذي كان يقول : لو أعلم أعلم بكتاب الله متى تبلغه آباط الإبل لأتيته ، وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ (٢) ، وهو حبر الأمة ، وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم

= ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض (٧٠٧٨ بسنده عن أبي بكره أن رسول الله - ﷺ - خطب الناس فقال : أليس بيوم النحر . ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : أي بلد هذا ؟ أليست بالبلد الحرام ؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ قلنا : نعم قال : اللهم أشهد فليبلغ الشاهد الغائب ، فإنه رب مبلغ يبلغه من هو أوعى له ، فكان كذلك . وأخرجه في العلم ٩ ، وفي كتاب الحج ١٣٢ وأخرجه الترمذي في العلم ٧ ، والدارمي في المقدمة ٢٤ وابن ماجه في المقدمة ١٨ باب من بلغ علماً ٢٣٣ بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه وذكره وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٧٢ (حلي)

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ٢٦٦٩ - عن ابن ثوبان - هو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية عن كبشة السلولي عن عبد الله بن عمرو قال . قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه زيادة [وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح] .

وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٥٠ والدارمي في المقدمة ٤٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ (حلي)

(٢) قال الرسول - ﷺ - (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) والحديث عند مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٣٠ باب فضائل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ١٣٨ (٢٤٧٧) بسنده عن عبيد الله بن أبي يزيد يحدث عن ابن عباس - وذكره وعند البخاري في كتاب =

الصحابة والتابعين اثباتاً للصفات ، ورواية لها عن النبي ﷺ ، ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا .

وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السידین بل وثالثهما في عليّة التابعين من جنسهم أو قريب منهم ، ومثلهما في جلالته جلالة أصحاب زيد بن ثابت ^(١) لكن أصحابه مع جلالته ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل : عمر وابن عمر ، وابن عباس ولو كان معاني هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه .

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي ^(٢) : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل .

= الوضوء ١٠ وعند أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ .

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي ، أبو خازجة صحابي من أكابرهم ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة عام ١١ ق . هـ ونشأ بمكة ، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين ، وهاجر مع النبي - ﷺ - وهو ابن ١١ سنة ، وتعلم وتفقه في الدين ، فكان رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض ، وكان ابن عباس على جلالة قدره وسعة علمه يأتيه الى بيته للأخذ منه ، ويقول العلم يؤتى ، ولا يأتي ، وأخذ ابن عباس بركاب زيد فنهاه زيد فقال ابن عباس هكذا أمرنا أن نفعل بعلماثنا ، فأخذ زيد كفه وقبلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ، وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي - ﷺ - من الأنصار وعرضه عليه ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف الى الأمصار له في كتب الحديث ٩٢ حديثاً . [راجع غاية النهاية ١ : ٢٩٦ وصفة الصفوة ١ : ٢٩٤]

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينصوا معناه ، بل
يشتون المعنى ، وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى
﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (١)
كيف استوى ؟

فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ،
والسؤال عنه بدعة .
وكذلك ربعة قبله .

وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس في أهل السنة من ينكره .
وقد بين أن الاستواء معلوم ، كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن
الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى ؟
ولم يقل مالك (١) : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول .
وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة غير أن أكثرهم
يقولون : لا تخطر كفيته ببال . ولا تجري ماهيته في مقال .
ومنهم من يقول : ليس له كيفية ، ولا ماهية .

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) هو الامام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله إمام دار الهجرة ، وأحد
الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية ، مولده ووفاته في المدينة ، كان صلباً في
دينه ، بعيداً عن الأمراء والملوك ، وشى به إلى جعفر عم المنصور العباس فضربه بالسياط
وجهه إليه الرشيد العباس ليأتيه فيحدثه فقال : العلم يؤتى فقصد الرشيد منزله . سألته
المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به فصنف « الموطأ » وله رسالة في
الوعظ ، ورسالة في الرد على القدرية ، وكتاب في النجوم ، وتفسير غريب القرآن توفي عام
١٧٩ هـ . [راجع الديباج المذهب ١٧ - ٣٠ والوفيات ١ : ٤٣٩ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥
وصفة الصفوة ٢ : ٩٩ وحلية ٦ : ٣١٦ وذيل المذيل ١٠٦ والخميس ٢ : ٣٣٢] .

فإن قيل : معنى قوله الاستواء معلوم .

أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم ، كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه .

قيل : هذا ضعيف ، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل فإن السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن وقد تلا الآية .

وأيضاً : فلم يقل : ذكر الاستواء من القرآن ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال : الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، ولم يخبر عن الجملة .

وأيضاً فإنه قال : « والكيف مجهول » ولو أراد ذلك لقال : معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه لو قال غي قوله : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (١) .

كيف يسمع ، وكيف يرى ؟

لقلنا : السمع والرؤيا معلوم ، والكيف مجهول .

ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ؟

(١) سورة طه آية رقم ٤٦ وهذه الآية ترد على من قال : إنه لا يخاف ، والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم . ولقد أحسن البصري رحمه الله حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء فحال الأسد بينهم وبين الماء . فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته . فقيل له : قد خاطرت بنفسك فقال : لأن تختلف الأسنة في جوفي أحب إلي من أن يعلم الله أنني أخاف شيئاً سواه . فقد خاف من كان خيراً من عامر ، موسى عليه السلام حين قال له الرجل : إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين » وقال : « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب » وقال حين ألقى السحرة جبالهم وعصيهم « فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى » . وغير ذلك كثير والله أعلم .

لقلنا : التكليم معلوم ، والكيف غير معلوم .
 وأيضاً : فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأن ذاته فوق ذات العرش ، لا ينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية .
 ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة قال بعضهم : ارتفع على العرش ، علا على العرش .

وقال بعضهم عبارات أخرى ، وهذه ثابتة عن السلف قد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخر كتاب « الرد على الجهمية » وأما التأويلات المحرفة مثل استوى وغير ذلك ، فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية .

« فعل الصحابة بمن اتبع المتشابه »

وأيضاً : قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس في خصوص الصفات ، بل في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لعائشة : يا عائشة إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله ، فاحذريهم ^(١) . وهذا عام ، وقصة صبيغ ابن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن ﴿ الذاريات ذروا ﴾ فقال : ما اسمك ؟

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣ سورة آل عمران ١ باب منه آيات محكمات ٤٥٤٧ عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها : وقد سمع ابن أبي مليكة عن عائشة كثيراً وكثيراً أيضاً ما يدخل بينها وبينه واسطة ، وقد اختلف عليه في هذا الحديث ، فأخرجه الترمذي من طريق أبي عامر الجزار عن ابن أبي مليكة عن عائشة ، ومن طريق زيد بن إبراهيم كما في الباب بزيادة القاسم ، ثم قال : روى غير واحد هذا الحديث عن ابن أبي مليكة عن عائشة ولم يذكروا القاسم ، وقد أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي الوليد الطيالسي عن يزيد بن إبراهيم ، وحماد بن سلمة جميعاً عن ابن أبي مليكة عن القاسم ، وممن رواه عن ابن أبي مليكة بغير ذكر القاسم أيوب أخرجه ابن ماجه من طريق ، ونافع بن عمر ، وابن جريج وغيرهما .

قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر وضربه الضرب الشديد (١) .

وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس ، يقول :
ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ .

وهذا لأنهم رأوا أنه غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبي ﷺ إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيات القرآن .

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض (٢) ، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبهم ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذي لا يعلمه إلا الله فكان مقصودهم مذموماً ومطلوبهم متعذراً مثل أغلوطات المسائل التي نهى رسول الله ﷺ عنها ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن « الذاريات » وليست من الصفات ، وقد تكلم الصحابة في تفسيرها مثل علي بن أبي طالب مع ابن الكواء لما سألها عنها كره سؤاله لما رآه من قصده ، لكن علي كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن

(١) الأثر : أخرجه الدارمي في المقدمة - أخبرنا أبو النعمان ، ثنا حماد بن زيد ثنا يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار وذكره ، وفي رواية أخرى أخبرنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث أخبرني ابن عجلان عن نافع مولى عبد الله أن صبيغ العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أخبار المسلمين حتى قدم مصر . فبعث به عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما الخ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٨٥ عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده ، قال : خرج رسول الله ﷺ - على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكانما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال : بهذا أمرتم ، أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعضه . بهذا هلكت الأمم قبلكم .

قال : فقال عبد الله بن عمرو : ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ - ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه .
في الزوائد : هذا إسناد صحيح ، ورجاله ثقات .

مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه ﴿ والذاريات ﴾ و ﴿ الحاملات ﴾ و ﴿ الجاريات ﴾ و ﴿ المقسمات ﴾ فيها اشتباه ؛ لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ، ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس في اللفظ ذكر الموصوف والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ، ومتى تهب ، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ، ومتى ينزل المطر ، وكذلك في ﴿ الجاريات ﴾ و ﴿ المقسمات ﴾ فهذا لا يعلمه إلا الله .

وكذلك في قوله ﴿ إنا ﴾ و ﴿ نحن ﴾ ونحوهما من أسماء الله التي فيها معنى الجمع كما اتبعه النصارى ، فإن معناه معلوم ، وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعاني ، بمنزلة الأسماء المتعددة مثل العليم والقدير والسميع والبصير فإن المسمى واحد ، ومعاني الأسماء المتعددة ، فهكذا الاسم الذي لفظه الجمع .

وأما التأويل الذي اختص الله به حقيقة ذاته وصفاته كما قال مالك :
والكيف مجهول .

فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره .

قيل : هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله .

وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله .

فإن قيل : فقد قال النبي ﷺ لابن عباس : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (١) .

قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الوضوء ١٠ باب وضع الماء عند الخلاء ١٤٣ - حدثنا هاشم بن القاسم ، قال حدثنا ورقاء عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس - أن النبي - ﷺ دخل الخلاء ، فوضعت له وضوءاً . قال : من وضع هذا ؟ فأخبر فقال : وذكره . وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٣ باب من فضائل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما ، وعند أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٥ (حلي)

المعهود ، لم يقل : تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله ، وهذا كقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ (١) وقوله ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (٢) فإن المراد تأويل الخبر الذي أخبر فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذي « ينتظر » و« يأتي » ﴿ لما يأتهم ﴾ وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل في التأويل لا ينتظر .
والله سبحانه أعلم ، وبه التوفيق .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٣٩ : أي ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم ، أو كذبوا بما في القرآن من ذكر البعث ، والجنة ، والنار ، ولم يأتهم تأويله ، أي حقيقة ما وعدوا في الكتاب . قاله الضحاك وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن ﴿ من جهل شيئاً عاداه ﴾ قال نعم ، في موضعين ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ وقوله : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إلفك قديم ﴾ .

فصل القرآن آية صدق النبي

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

لما كان محمد ﷺ رسولاً إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده - كان من نعمة الله على عباده ومن تمام حجته على خلقه ، أن تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته ، معلومة لكل الخلق ، الذين بعث إليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء . وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ، ما يبين به ان القرآن حق كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ * سُنَرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ^(١) حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ^(٢) أَخْبَر سُبْحَانَهُ أَنَّهُ سِيرَى الْعِبَادِ الْآيَاتِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَفِي الْآفَاقِ ،

(١) انشد ابن ابي الدنيا في كتابه التفكير والاعتبار عن شيخه ابي جعفر القرشي حيث قال :

وإذا نظرت تريد معتبراً	فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذي تمس وتصبح في	الدنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صغر	ثم استقل بشخصك الكبير
أنت الذي تنعاه خلخته	ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطي وتسلب لا	ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بماله القدر

(٢) سورة فصلت آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، فإن الضمير عائد إليه ، إذ هو الذي تقدم ذكره كما قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (١) والضمير في كان عائد الى معلوم يقول : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .

فإنه على هذا التقدير. يكون الكافر في شقاق بعيد ، قد شاق الله ورسوله ولا أحد أضل ممن هو في مثل هذا الشقاق ، حيث كان في شق ، والله ورسوله في شق ، كما قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) بين أن من تولى عن ذلك لم يكن متبعاً للحق قاصداً له ، فإن هذا الذي قلموه لا يتولى عنه من أهل الكتاب ، من قصده الحق ، وإنما يتولى عنه من قصده المشاققة والمعاداة لهوى نفسه ، وهذا يكفيك الله أمره .

والقرآن إن كان من عند الله ، ثم كفر به من كفر ، فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله ، إذ هو في شقاق بعيد ، وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق ، فهو ضال ، والشقاق قد يكون مع العناد وقد يكون مع الجهل .
فإن الآيات إذا ظهرت ، فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقاً ، ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٣) .

فأخبر أنه سيرى عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين أنه حق ، ثم

(١) سورة فصلت آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

قال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات كما قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (١) وشهادته للقرآن ولمحمد ، تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٢) وتكون بأقواله التي أنزلها على محمد ﷺ ، فإن القرآن نفسه آية بينة ومعجزة قاهرة . وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون . والقرآن نفسه هو قول الله ، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول وإنزاله على محمد ﷺ ، وإتيان محمد به هو آية وبرهان وذلك من فعل الله إذ كان البشر لا يقدرّون على مثله ، ولا يقدر عليه أحد من الأنبياء ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجْتَمَعَتِ الأنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بِمِثْلِ هَذَا القرآنِ لَا يَأْتُونُ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٣) وعمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة « سبحان » وهي مكية صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس .

وقد أخبر خبراً وأكدته بالقسم عن جميع الثقليين ، إنسهم وجنهم ، أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، بل يعجزون عن ذلك ، وهذا فيه آيات لنبوته .

ومنها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، بأنهم لا يفعلون هذا ، بل يعجزون عنه .

وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر

(١) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

يفسد عليه ما قصده ، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم ، المؤمن بمحمد والكافر به ، على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم يسهم أحد بمثلها ، ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة ، الذي يقرأ به في الصلوات ، وسمعه العام والخاص ، والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر ، وإلا لو كان شاكاً في ذلك ، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير ، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه ، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس ولا يقول مثل هذا ويظهره هذا الإظهار ، ويشيعه هذه الإشاعة ، وقصد أن يخلده هذا التخليد إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه . ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق ، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً وكونه آية على نبوته ، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام ، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق وهو - وحده - كاف في العلم بأن القرآن معجز دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز ، مثل عجز جميع الأمم من معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته .

وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة .

فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة ، تامة وانتفت المعارضة علم عجز جميع الأمم عن معارضته ، وهذا برهان بين يعلم به صدق هذا الخبر ، وصدق هذا الخبر آية لنبوته ، غير العلم بأن القرآن معجز ، فذلك آية مستقلة لنبوته ، وهي آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر ، معلومة لكل أحد ، وهي من أعظم الآيات فإن كونه معجزاً يعلم بأدلة متعددة ، والإعجاز فيه من وجوه متعددة ، فتنوعت دلائل إعجازه ، وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه فهو دليل إعجازه وهذه جمل ، لبسطها تفصيل طويل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرْحَمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ فهو كاف في الدعوة والبيان وهو كاف في الحجج والبرهان .

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٥٠ - ٥١ .

قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ما من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة . أخرجاه من حديث الليث .

فصل في إظهار معجزاته

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة ، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسمونها من يسميها من النظر معجزات ، وتسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ونحو ذلك . وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء ، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ (الآية) و (البينة) و (البرهان) كما قال تعالى في قصة موسى ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(١) في العصا واليد وقال الله تعالى في حق محمد ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ ^(٢) وقد قال في مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا

(١) سورة القصص آية رقم ٣٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٧٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٦٤ .

حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢) .

وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا يَجْرِمُهَا لِيَمْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ، وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ (٥) وقول فرعون له : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٦) وقال قوم صالح : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧) قال : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٨) وقال : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ (٩) .

وقال المسيح : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠) .

-
- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة المؤمنون آية رقم ١١٧ . | (٦) سورة الشعراء آية رقم ١٥٤ . |
| (٢) سورة القصص آية رقم ٧٤ - ٧٥ . | (٧) سورة الشعراء آية رقم ١٥٤ . |
| (٣) سورة الأنعام آية رقم ١٢٣ - ١٢٤ . | (٨) سورة الشعراء آية رقم ١٥٥ . |
| (٤) سورة الإسراء آية رقم ١٠١ . | (٩) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ . |
| (٥) سورة طه آية رقم ٢٢ . | (١٠) سورة آل عمران آية رقم ٤٩ . |

وقال في حق محمد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ^(٣) .

وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ بِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ^(٦) وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ^(٧) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٤ - ٥ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٧ .

(٣) سورة القمر آية رقم ١ - ٢ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ .

(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٥٠ - ٥١ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (يأتينا بآية) بدلاً من ﴿ أنزل عليه آيات ﴾ .

(٦) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) وقال لما ذكر قصص الأنبياء في سورة الشعراء قال في آخر كل قصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ (٤) إلى أن قال في آخرها : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (٥) إلى قوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٨) .

وأما لفظ المعجزة فإنما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٩) وقال : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (١٠) ومن لا يثبت فعلاً إلا الله ، يقول : المعجز هو الله وإنما سمي غيره معجزاً مجازاً .

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إذا فسر المراد به ، وذكر

-
- | | |
|----------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة يونس آية رقم ١٥ . | (٦) سورة يوسف آية رقم ١٠٥ . |
| (٢) سورة يونس آية رقم ١٠١ . | (٧) سورة الفتح آية رقم ٢٠ . |
| (٣) سورة الشعراء آية رقم ٨ - ٩ . | (٨) سورة المؤمنون آية رقم ٥٠ . |
| (٤) سورة يوسف آية رقم ٧ . | (٩) سورة الزمر آية رقم ٥١ . |
| (٥) سورة يوسف آية رقم ١٠٢ . | (١٠) سورة العنكبوت آية رقم ٢٢ . |

شرائطه ، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط ، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة .
والسلف - كأحمد وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء : إنها معجزات ، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك .

بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي ، فإن هذا يجب اختصاصه وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة المدلول ، فكذلك ما كان آية وبرهاناً وهو الدليل والعلم على نبوة النبي يمتنع أن يكون لغير النبي .
وقد يقال : إنهم سموها معجزات لأن كرامات الأولياء دليل على نبوة النبي الذي اتبعوه ، ولهذا سموها آيات أيضاً ، أو لأنها تعجز غيرهم ، وهي آية على صحة طريقهم ، وبسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة ومتنوعة كما قد تكلمنا على ذلك في غير هذا الكتاب وبيننا أن من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط ، بل هي أنواع كثيرة لكن الآيات نوعان : منها : ما مضى وصار معلوماً بالخبر كمعجزات موسى وعيسى . ومنها ما هو باق إلى اليوم ، كالقرآن الذي هو من أعلام نبوة محمد ﷺ وكالعلم والايان اللذين في اتباعه فإنه من أعلام نبوته ، وكشريعته التي أتى بها ، فإنها أيضاً من أعلام نبوته ، وكالآيات التي يظهرها الله وقتاً بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته ووقوع ما أخبر بوقوعه ، كقوله : (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك)^(١) . وقوله : (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار بأرض الحجاز

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ٩٥ باب قتال الترك ٢٩٢٨ حدثني سعيد بن محمد ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن صالح عن الأعرج قال : قال أبو هريرة - رضي الله عنه - ، قال رسول الله ﷺ وذكره وفيه زيادة (صغار الأعين حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر . ورواه أيضاً في الزكاة ٩ ، والحج ٤٧ ، والمناقب ٧ ، ٢٥ ، والاعتصام ١٤ ، والفتن ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، تفسير سورة ٦ ، ٢ ، رقائق ٤٠ ، ورواه مسلم في الإيمان ٢٤٨ ، والترمذي في الزهد ٢٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٩ ، ٩٣ ، ٣٧٦ ، ١٦٢ : ٢ . (حلي) .

تضيء لها أعناق الإبل ببصرى (١).

وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستماية وشاهد الناس أعناق
الإبل في ضوء النهار ببصرى .
وظهور دينه وملته بالمحجة والبرهان واليد والسنان ، ومثل المثلات
والعقوبات التي تحيق بأعدائه وغير ذلك ، وكنعته الموجود في كتب الأنبياء قبله ،
وغير ذلك .

(١) الحديث عند البخاري في كتاب الفتن ٢٤ باب خروج النار ٧١٨ حدثنا أبو اليمان أخبرنا
شعيب عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، أخبرني أبو هريرة عن رسول الله ﷺ وذكره . ورواه
مسلم في الفتن ٤٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١٤٤ .

فصل في معجزات القرآن

القرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة ، فله به اختصاص على غيره ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : (ما مِنْ نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمَنَ على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)^(١) والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً له ، من وجوه ، جملة وتفصيلاً . أما الجملة ، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم ، علماً متواتراً أنه هو الذي أتى بهذا القرآن ، وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخير كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم .

تحدي أهل مكة

والقرآن نفسه ، فيه تحدي الأمم بالمعارضة والمتحدي هو أن يحدوهم (أي يدعوهم ويبعثهم) إلى أن يعارضوه .
فيقال فيه : حدائي على هذا الأمر (أي بعثني عليه) ومنه سمي حادي العيس ، لأنه يحداه يبعثها على السير .

(١) الحديث رواه الامام أحمد بن حنبل في المسند : حدثنا حجاج حدثنا ليث ، حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ وذكره وأخرجاه من حديث الليث .

وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ولكن أصله الأول ، قال تعالى في سورة الطور ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَاثُتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (١) فهذا قال : ﴿ فَلْيَاثُتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في أن تقول له ، فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر ، كان هذا ممكناً للناس ، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله .

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ثم تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ثم تحداهم بسورة واحدة هم ومن استطاعوا قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٤) وهذا أصل دعوته وهو الشهادة بأن محمداً رسول الله وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (٥) كما قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (٦) أي هو يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفتري كما قال : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٧) أي ما كان لأن يُفترى ، يقول : ما كان ليفعل هذا ،

(١) سورة الطور آية رقم ٣٣ - ٣٤ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٣ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٣٧ - ٣٨ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ١٤ .

(٦) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٧) سورة يونس آية رقم ٣٧ .

فلم ينف مجرد فعله ، بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه ، فيكون المعنى ما يمكن ، ولا يحتمل ، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله ، فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق ، والمخلوق لا يقدر على ذلك ، وهذا التحدي كان بمكة ، فإن هذه السور مكية ، سورة يونس ، وهود ، والطور .

تحدي أهل المدينة

ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة ، فقال في « البقرة » وهي سورة مدنية ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾^(٢) فذكر أمرين :

أحدهما : قوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ يقول : إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق ، فخافوا الله أن تكذبوه ، فيحقيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين ، هذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة ، وهو جداهم بالتي هي أحسن .

والثاني : قوله ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ و ﴿ لَنْ ﴾ لنفي المستقبل ، فثبت بالخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله ، كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول في سورة « سبحان » وهي سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء وهو كان

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٤ ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ قال عبد الملك بن ميسرة الزرادي عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود : هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في الساء الدنيا يعدها للكافرين . رماه ابن جرير وهذا لفظه ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في مستدركه وقال : على شرط الشيخين .

بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر ، وذكر فيها من مخاطبة للكفار بمكة ما يبين ذلك بقوله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(١) فعم بأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم ، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم ، لا يأتون بمثل هذا القرآن ، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك ، وهذا التحدي والدعاء ، هو لجميع الخلق ، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن ، وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ، ومن حين بعث وإلى اليوم الأمر على ذلك ، مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث ولما بعث إغماطه قليل .

وكان الكفار من أحرص الناس على ابطال قومه ، مجتهدين بكل طريق يمكن . تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسأله عنها ، كما سأله عن قصة يوسف ، وأهل الكهف ، وذو القرنين كما تقدم . وتارة يجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه ، وصاروا يضربون له الأمثال ، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما ، مع ظهور الفرق . فتارة يقولون : مجنون^(٢) . وتارة يقولون : ساحر^(٣) ، وتارة يقولون : كاهن^(٤) ، وتارة يقولون : شاعر^(٥) . إلى أمثال ذلك من الأقوال ، التي

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

(٢) قال تعالى حاكياً قولهم : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [سورة الحجر آية

(٦)

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِمَجْنُونٍ ﴾ [سورة الدخان آية ١٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [سورة الذاريات آية ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [سورة الذاريات آية ٥٢] .

(٤) قال تعالى ردّاً على قولهم : ﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْنُونٍ ﴾ [سورة الطور آية ٢٩] .

(٥) قال تعالى حاكياً قولهم : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [سورة الأنبياء آية = ٥] .

يعلمونها هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه .
 فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة ، مرة بعد مرة ، وهي تبطل دعوته ،
 فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها ، فإنه ، مع وجود هذا الداعي التام
 المؤكد - إذا كانت القدرة حاصلة ، وجب وجود المقدور ، ثم هكذا القول في
 سائر أرض الأرض .

فهذا القدر ، يوجب علما بيننا لكل أحد يعجز عن جميع أهل الأرض ،
 عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، بحيلة وبغير حيلة ، وهذا أبلغ من الآيات التي
 يكرر جنسها كاحياء الموتى ، فإن هذا لم يأت أحد بنظيره .

وجه إعجاز القرآن

وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو
 نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ، ولا من جهة صرف
 الدواعي عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط بل
 هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن
 جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أمر بها ، ومعانيه
 التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته ، وغير ذلك .
 ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي ، وعن الغيب
 المستقبل .

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية
 والأقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي
 هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (١) .

= وقال تعالى : ﴿ ويقولون ائنا تاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ [سورة الصافات آية ٣٦] .

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾ (١) وقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .
وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن ، هو حجة على إعجازه ولا يناقصر ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة ، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام ، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ، مثل قوله تعالى لذكريا : ﴿ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (٣) . فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل ، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم - جميعهم - عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة - من أبلغ الآيات الخارقة للعادة ، بمنزلة من يقول : إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم وأضربهم جميعهم ، وأجوعهم ، وهم قادرون على أن يشكو إلى الله أو إلى ولي الأمر وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكي ، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة .

ولو قدر أن واحداً صنف كتاباً ، يقدر أمثاله على تصنيف مثله ، أو قال شعراً ، يقدر أن يقولوا مثله وتحداهم كلهم ، فقال : عارضوني وإن لم تعارضوني فأنتم كفار ، مأواكم النار ، ودمائكم لي حلال ، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد .

فإذا لم يعارضوه ، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة .

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٩ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

(٣) سورة مريم آية رقم ١٠ .

والذي جاء بالقرآن ، قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعاً ، ومن آمن بي دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بي دخل النار ، وقد أبيع لي قتل رجالهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم ووجب عليهم - كلهم - طاعتي ومن لم يطعني ، كان من أشقى الخلق ، ومن آياتي هذا القرآن ، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتي بمثله .

فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين فإن كانوا قادرين ، ولم يعارضوه ، بل صرف الله دواعي قلوبهم ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه ، فإن سلب القدرة المعتادة ان يقول رجل : معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد . فهذا من أبلغ الخوارق .

وإن كانوا عاجزين ، ثبت أنه خارق للعادة ، فثبت كونه خارقاً للعادة على تقدير النقيضين ، النفي والاثبات ، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر .

فهذا غاية التنزيل ، وإلا فالصواب المقطوع به ، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته ، لا يقدرُونَ على ذلك ، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلام لكل من له أدنى تدبر ، كما قد أخبر في قوله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) .

وأيضاً فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة ، ولكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ، ولو كانوا قادرين لعارضوه . وقد انتدب غير واحد لمعارضته ، لكن جاء بكلام فضح به نفسه ، وظهر به تحقيق ما أخبر به

(١) سورة الإسراء اية رقم ٨٨ .

القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله مثل قرآن مسيلمة الكذاب^(١) كقوله : « يا صفدع بنت صفدعين ، نقي كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء وذنبك في الطين » .

وكذلك أيضاً يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له ، أنه كان قصده أن يصدقه الناس لا يكذبوه ، وكان - مع ذلك - من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به ، ينال مقصوده ، سواء قيل : إنه صادق أو كاذب ، فإن من دعا الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم ، ولم يزل حتى استجابوا له طوعاً وكرهاً ، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار هو من عظماء الرجال على أي حال كان ، فإقدامه - مع هذا القصد - في أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبراً ، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله لا في ذلك العصر ، ولا في سائر الأعصار المتأخرة لا يكون إلا مع جزمه بذلك وتيقنه له ، وإلا ، فمع الشك والظن ، لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح ، فيرجع الناس عن تصديقه .

(١) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي متنبئ من المعمرين وفي الأمثال « أكذب من مسيلمة » ولد ونشأ باليمامة بوادي حنيفة في نجد وتلقب في الجاهلية « بالرحمن » وعرف برحمان اليمامة ، ولما ظهر الإسلام وفتحت مكة جاء وفد من بني حنيفة قيل كان مسيلمة معهم إلا أنه تخلف مع الرجال خارج مكة فأسلم الوفد ، ولما رجعوا إلى ديارهم كتب مسيلمة إلى النبي ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . . . الخ فاجابه الرسول ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . فلما توفي الرسول ﷺ وارتدت العرب أرسل إليه أبو بكر جيشاً بقيادة خالد فقتل عام ١٢ هـ .

راجع ابن هشام ٣ : ٧٤ والروض الأنف ٢ : ٣٤٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٧ - ١٤٠ .

وإذا كان جازماً بذلك ، متيقناً له ، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك ، وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدر أن يأتوا بمثل كلامه ، إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر .

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً ، فإننا نعلم ذلك ، وإن لم يكن علمنا بذلك خارقاً للعادة ، ولكن يلزم من العلم بثبوت المعلوم ، وإلا كان العلم جهلاً - فثبت أنه - على كل تقدير - يستلزم كونه خارقاً للعادة ولو قال مُفتر : بل أنا أقول الذي أخبر بهذه الغيوب وأقى هذه العجائب كان جاهلاً أخرق ، ولا يدري ما يقول .

وقيل له فهذا أبلغ في الإعجاز ، وخرق العادة أن يكون مجنوناً ، قد أتى بهذه الغيوب والعجائب التي لا يقدر عليها أحد من العقلاء ولا المجانين .

الدليل التفصيلي

وأما التفصيل ، فيقال : نفس نظم القرآن وأسلوبه ، عجيب بديع ، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب ، فإنه ليس من جنس الشعر ، ولا الرجز ، ولا الرسائل ، ولا الخطابة ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس ، عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هنا ، عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق ، وبسط هذا وتفصيله طويل ، يعرفه من له نظر وتدبر ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ، أمر عجيب خارق للعادة ، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر لا نبي ولا غير نبي وكذلك ما أخبر به عن الملائكة ، والعرش ، والكرسي ، والجن ، وخلق آدم وغير ذلك ، ونفس ما أمر به القرآن ، من الدين والشرائع كذلك ونفس ما أخبر به من الأمثال وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية ، والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية ، التوراة والإنجيل والزبور ، وصحف

الأنبياء تفاوتاً عظيماً ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه ، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم ، فالإعجاز في معناه ، أعظم من الإعجاز في لفظه ، وجميع عقلاء بني آدم - عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه ، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه .

وما في التوراة والإنجيل ، لو قدر أنه مثل القرآن ، لا يقدر في المقصود ، فإن تلك كتب الله أيضاً ، ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي ، كما أتى المسيح بإحياء الموتى ، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره ، فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلًا لمعاني القرآن ، لا في الحقيقة ، ولا في الكيفية ، ولا في الكمية ؟ بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن ، وتدبر الكتب .

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة وظهر له إعجازه من هذا الوجه .

ومن لم يظهر له ذلك ، اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهره ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد .

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية ، فيها الظاهر البين لكل أحد كالحوادث المشهودة ، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر وغير ذلك . وفيما يختص به من عرفه ، مثل دقائق التشريح ، ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك ، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق والإقرار برسله ، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا ، فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً . فلما كانت حاجتهم إلى التنفس أكثر من حاجتهم إلى الماء وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل ، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً في كل زمان ومكان ، لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر لأن الحاجة إليه أشد فكذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات ثم دلائل النبوة .

فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج اليه العامة مثل تماثل الأجسام واختلافها ، وبقاء الأعراض أو فنائها ، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه ، ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء .

فصل

وسيرة الرسول ﷺ ، من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله ، وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده ، وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً : من صميم سلالة ابراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبي من بعد ابراهيم إلا من ذريته وجعل له ابنين : اسماعيل وإسحاق وذكر في التوراة هذا وهذا ، وبشر في التوراة بما يكون من ولد اسماعيل ، ولم يكن في ولد اسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره ، ودعا ابراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة قریش ، ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذي بناه ابراهيم ، ودعا الناس الى حجه ، ولم يزل محجوجاً من عهد ابراهيم - المذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف .

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ، ومن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شيء يعاب به ، لا في أقواله ، ولا في أفعاله ، ولا في أخلاقه ، ولا جرت عليه كذبة قط ، ولا ظلم ، ولا فاحشة ، وكان خلقه ، وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمياً من قوم أميين ، لا يعرف ، لا هو ، ولا هم ، ما يعرفه أهل الكتاب ، التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ شيئاً عن علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدع نبوة إلى أن أكمل الله له

أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر ، لم يكن في بلده وقومه ، من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ، ولا في عصر من الأعصار ، من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره .

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء ، وهم ضعفاء الناس ، وكذبه أهل الرياسة وعادوه وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم .

والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرغبة ، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم إياها ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه .

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى وهم صابرون محتسبون ، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم ، فتجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج اليهم يبلغهم الرسالة ، ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب للكذب ، وجفاء الجافي وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب ، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم ، وعرفوه ، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر ، الذي تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإن أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة ، فأمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم ، وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة ، وبها المهاجرون والأنصار ، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار أسلموا في الظاهر ، ثم حسن إسلام بعضهم ، ثم أذن له في الجهاد ، ثم أمر به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها

من الصدق والعدل ، والوفاء لا يحفظ له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد ، مع اختلاف الأحوال عليه ، من حرب وسلم وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة وظهوره على العدو تارة وظهور العدو عليه ، وهو - على ذلك كله - ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهان ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم ، وأعدلهم ، وأفضلهم .

حتى إن النصارى لما رأوهم - حين قدموا الشام - قالوا : ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض ، وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين وهو ﷺ - مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال - مات ﷺ ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعبيراً له إلا بغلته وسلاحه ، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير ، ابتاعها لأهله .

وكان بيده عقار ينفق منه على أهله ، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك .

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بُعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء ففيل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء ففيل : ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات فلم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع

غيره ، وحرّم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره ، وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر في التوراة والإنجيل ، والزبور ، نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب .

فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه . وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع . وأمتة أكمل الأمم في كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدّين من غيرهم .

وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله ، وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً .

وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم ، وسماحة أنفسهم بغيرهم ، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم .

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء بتكميله ، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة .

فكانت فضائل اتباع المسيح وعلمهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزبور ، وبعضها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا - لما غيروا دين المسيح - في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ ، فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً ، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود ، والتوراة ، والإنجيل والزبور إلا من جهته فهو الذي

أمرهم بأن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرؤا بجميع الكتب المنزلّة من عند الله ،
 ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل ، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به :
 ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ
 تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ (١) .

وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
 غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ لَا يَكْلَفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا
 كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ
 لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ (٢) .

وأتمه لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به ولا
 يتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به
 الله لكن ما قصّه علينا من أخبار الأنبياء وأعمهم واعتبروا به ، وما حدثهم به أهل
 الكتاب ، موافقاً لما عندهم ، صدقوه ، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه أمسكوا
 عنه ، وما عرفوا أية باطل ، كذبوه ، ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال
 متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم ، كان - عندهم - من أهل الإلحاد
 والابتداع ، وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون ،
 وهو الذي عليه أئمة المسلمين الذين هم في الأمة لسان صدق ، وعليه جماعة

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ - ٢٨٦ .

المسلمين ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة وهم الظاهرون إلى قيام الساعة الذين قال فيهم النبي ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة)^(١) وقد تنازع بعض المسلمين ، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموماً ، ودين محمد خصوصاً .

ومن خالف هذا الأصل كان - عندهم - ملحداً مذموماً ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا ديناً قام به أكابر علمائهم وعبادهم وقاتل عليه ملوكهم وكان به جمهورهم ، وهو دين مبتدع ، ليس هو دين المسيح ولا دين غيره من الأنبياء والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة .

وإنما دخل في البدع ، من قصر في اتباع الأنبياء علماً وعملاً .
ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، تلقى ذلك عنه أصحابه المسلمون أمته .

فكل علم نافع وعمل صالح ، عليه أمة محمد ﷺ آخذوه عن نبيهم ، مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية .
ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم ، فهل من الأصل المعلم . وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً ، وهذه الأمور توجب العلم الضروري

(١) الحديث عند الامام البخاري كتاب التوحيد ٢٩ باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لشيء إذا أردناه ﴾ .

٧٤٦٠ - حدثنا الحميدي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر حدثني عمير بن هاني أنه سمع معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : وذكره . ورواه الامام مسلم في إيمان ٢٤٧ وفي الامارة ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، وأبو داود في الفتن ١ ، والجهاد ٤ والترمذي في الفتن ٥١ ، وابن ماجه في المقدمة أو الدارمي في الجهاد ٣٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٩٣ : ٩٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ (حلي) .

بأنه كان صادقاً في قوله : إني رسول الله إليكم جميعاً لم يكن كاذباً مفترياً ، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقاً ، أو هو من شر الناس وأخبثهم ، إن كان كاذباً . وما ذكر من كمال علمه ودينه ، يناقض الشر والخبث والجهل ، فتبين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين ، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله :

(إني رسول الله) لأن الذي لم يكن صادقاً ، إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئاً والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً ، والثاني يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً ، وكمال عمله ينافي جهله ، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب ، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم ، وإذا انتفى هذا أو ذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق ، ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطُوقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (١) .

وقال تعالى عن الملك الذي جاء به :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (٢) .

ثم قال عنه :

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٣) . أي بمتهم ، أو بخيل كالذي لا يعلم إلا بجعل أو لمن يكرمه ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤)

(١) سورة النجم الآيات رقم ١ - ٤ .

(٢) سورة التكويد آية رقم ١٩ - ٢١ .

(٣) سورة التكويد آية رقم ٢٢ - ٢٤ .

(٤) سورة التكويد آية رقم ٢٥ - ٢٧ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ نَزَّلُوا عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ ^(٢) بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه ، فإن الشيطان يقصد الشر (وهو الكذب والفجور) لا يقصد الصدق والعدل فلا يقترن إلا بمن فيه كذب وفجور ، إما عمداً وإما خطأً فإن الخطأ في الدين من الشيطان أيضاً ، كما قال ابن مسعود ^(٣) - لما سئل عن مسألة - « أقول فيها برأي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » . فالرسول بريء من تنزل الشيطان عليه في العمد والخطأ ، بخلاف غير الرسول فإنه قد يخطئ ويكون خطؤه من الشيطان ، وإن كان خطؤه مغفوراً له ، فإذا لم يعرف له خبر أخبر به كان فيه مخطئاً ، ولا أمر به كان فيه فاجراً علم أن الشيطان لم ينزل عليه وإنما ينزل عليه مَلَكٌ كريم ، ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ^(٤) إلى آخر الآية .

في ترجمة القرآن

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

الترجمة والتفسير ثلاث طبقات :

(١) سورة الشعراء آية رقم ١٩٢ - ١٩٥ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن توفي عام ٣٢ .

راجع الإصابة ت ٤٩٥٥ وصفة الصفوة ١: ١٥٤ وحلية الأولياء ١: ١٢٤ وتاريخ الخميس

٢٥٧: ٢

(٤) سورة التكوين آية رقم ١٩ .

أحدها : ترجمة مجرد اللفظ مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء فهذا علم نافع إذ كثير من الناس يفيد المعنى باللفظ فلا يجرده عن اللفظين جميعاً .

والثاني : ترجمة المعنى وبيانه ، بأن يصور المعنى للمخاطب فتصوير المعنى له وتفهمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ كما يشرح للعربي كتاباً عربياً قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها ، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركب صور ذلك المعنى إما تحديداً وإما تقريباً .

الدرجة الثالثة : بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى إما بدليل مجرد وإما بدليل يبين علة وجوده وهنا قد يحتاج الى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذاك المعنى ، كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور ذلك المعنى ، وقد يكون نفس تصوره مفيداً للعلم بصدقه ، وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتاج إلى قياس ومثل ودليل آخر . وإذا عرف القرآن هذه المعرفة فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركون لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً ، وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(٢) ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨٩ .

كما أمر بذلك الرسول ، ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك ، وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمته لهم ، فيترجم لهم بحسب الإمكان والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة .

هل يترجم القرآن في الصلاة

وقد اختلف الفقهاء في أذكار الصلاة : هل تقال بغير العربية ؟ وهي ثلاث درجات أعلاها القرآن ثم الذكر الواجب غير القرآن كالتحرية بالإجماع وكالتحليل والتشهد عند من أوجبه . ثم الذكر الواجب من دعاء وتسبيح أو تكبير وغير ذلك . فأما القرآن فلا يقرأه بغير العربية (في الصلاة) سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور . وهو الصواب الذي لا ريب فيه بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز .

واختلف أبو حنيفة وأصحابه في القادر على العربية ، وأما الأذكار الواجبة فاختلف في منع ترجمة القرآن ، هل تترجم للعاجز عن العربية وعن تعلمها ؟ وفيه لأصحاب أحمد وجهان : أشبههما بكلام أحمد أنه لا يترجم وهو قول مالك وإسحاق^(١)

والثاني يترجم وهو قول أبي يوسف ومحمد والشافعي .
وأما سائر الأذكار ، فالمنصوص من الوجهين أنه لا يترجمها . ومتى فعل

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي أبو يعقوب بن راهويه . عالم خراسان ، وهو أحد كبار الحفاظ أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي وغيرهم له تصانيف منها (المسند) توفي عام ٢٣٨ هـ
راجع تهذيب ابن عساکر ٢ : ٤٠٩ - ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ .

بطلت صلاته . وهو قول مالك وإسحاق وبعض أصحاب الشافعي ، والمنصوص
عن الشافعي أنه يكره ذلك بغير العربية ولا يبطل .
ومن أصحابنا من قال : له ذلك إذا لم يحسن العربية .

فصل في معنى الصراط المستقيم

الصراط في لغة العرب : هو الطريق . يقال : هو الطريق الواضح .
ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه ، ومنه الصراط المنسوب
على جهنم ، وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار
سقطوا في جهنم .

ويقال : فيه معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه ،
وفيه ثلاث لغات هي ثلاث قراءات : الصراط ، والسرط ، والزراط . وهي
لغة عربية عربية ليست من المغرب ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا .
ويقال : أصله من سرط الشيء أسرطه سرطاً إذا ابتلغته ، واسترطته
ابتلغته ، فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود .

ومن أمثال العرب : لا تكن حلواً فتسترط ولا مرأ فتعفى من قولهم
(عفت الشيء) إذا أزلته من فيك لمرارته .

ويقال : فلان يسترط ما يأخذ من الدين .

وحكي عن يعقوب بن السكيت^(١) الأخذ سريط ، والفضاء صرايط

(١) هو يعقوب بن اسحاق ، أبو يوسف بن النكيت امام في اللغة والأدب أصله من خوزستان
(بين البصرة وفارس) تعلم ببغداد واتصل بالمتوكل العباسي فعهد اليه بتأديب أولاده وجعله في
عداد ندمائه ، ثم قتله لسبب مجهول عام ٢٤٤ هـ من كتبه اصلاح المنطق ، والألفاظ ،
والأضداد ، وسرقات الشعراء وغير ذلك كثير . راجع ابن خلكان ٢ : ٣٠٩ وابن النديم ٧٢ -
٧٣ .

والسرطاط الفالودج لأنه يسترط استراطاً ، وسيف سراطي أي قاطع فإنه ماضٍ
سريع المذهب في مضربه .

فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلى مطلوبه
بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع ، ولم يسم الله سبل
الشیطان سراطاً بل سماها سبلاً ، وخص طريقه باسم الصراط ، كقوله تعالى :
﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ
سَبِيلِهِ ﴾ (١) .

وفي المسند عن عبد الله بن مسعود قال « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ،
وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل
سبيل منها شيطان يدعو إليه ، من أجابه قذفه في النار ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا
صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٢) فسمى
سبحانه طريقه صراطاً وسمى تلك سبلاً ولم يسمها صراطاً كما سماها سبيلاً
وطريقه يسميه سبيلاً كما يسميه صراطاً . وقال تعالى عن موسى وهرون :
﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا
عَزِيزًا ﴾ (٤) .

وهذه الهداية الخاصة التي أعطاه إياها بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٣) سورة الصافات آية رقم ١١٧ - ١١٨ .

(٤) سورة الفتح آية رقم ١ - ٣ .

فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ويزيده الله هدىً بعد هدى ، وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ .
كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (١) .

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩ .

فصل في أقسام القرآن

وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور ، وإنما يقسم بنفسه المقدسة ، الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته .

فالقسم إما على جملة خبرية ، وهو الغالب ، كقوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (١)

وإما على جملة طلبية كقوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر وقد يراد به محض القسم ، والمقسم عليه ، يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية ، إذا أقسم على ثبوتها .

فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر ، والليل والنهار والسماء

(١) سورة الذاريات آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٩٢-٩٣ روى الترمذي الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ ، قال : حدثنا الفضل بن موسى عن شريك ، عن ليث عن بشير بن نهيك عن أنس بن مالك عن رسول الله - ﷺ - في قوله : « فورك لنسألهم أجمعين . عما كانوا يسألون » قال : عن قول « لا إله إلا الله » قال أبو عبد الله : معناه عن صدق لا إله إلا الله ووفائها .

والأرض ، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها ، وما أقسم عليه الرب عز وجل فهو من آياته ، فيجوز أن يكون مقسما به ، ولا ينعكس .

وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب ، وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو كثيراً كقوله تعالى ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ ^(١)

وقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ ^(٢)
﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ ^(٣)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا فَوْتَ ﴾ ^(٤)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ^(٥)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ ^(٦)

ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام ، لأن المراد أنك لو رأيته لرأيت هولاً عظيماً ، فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دل المحرم ، وهو أيضاً تنبيه .

فإذا أقسم به وفيه الحلال ، فإذا كان فيه الحرام كان أولى بالتعظيم ، وكذلك إذا أريد الحلول فإنه هو السلبي فالمعنى واحد .

(١) سورة التكاثر آية رقم ٥ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣١ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٥٠ وعجز الآية ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

(٤) سورة سبأ آية رقم ٥١ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ٢٧ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ٣٠ .

« القسم بالتين والزيتون »

وقد أقسم بـ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ^(١) و ﴿ الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ ^(٢) والجواب المذكور في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ ^(٣) وهو مكابدة أمر الدنيا والآخرة ، وهذه المكابدة تقتضي قوة صاحبها وكثرة تصرفه واحتياله .

فقال تعالى ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ ^(٤) فهذا الإنسان من جنس أولئك الأمم ، ومن جنس الذي قال ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ﴾ ^(٥) له قوة يكابد بها الأمور ، وكل أهلكه ، أفيظن مع هذا أنه لن يقدر عليه أحد فيجازيه بأعماله ؟ ويحسب أن ما أهلكه من المال لم يره أحد ، فيعلم ما أفعل .

والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء ، بل بهما يحصل كل شيء وإخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد فإنه إذا كان قادرا أمكن الجزاء ، وإذا كان عالماً أمكن الجزاء ، فبالعدل يقدر ما عمل ، ومن لم يكن قادرا عالماً لم يمكنه الجزاء ، فإن العاجز عن الشخص لا يمكنه جزاؤه ،

(١) سورة التين آية رقم ١ .

(٢) سورة التين آية رقم ٣ .

(٣) سورة البلد آية رقم ٤ .

(٤) سورة البلد آية رقم ٥ - ٧ .

(٥) سورة الحاقة آية رقم ٢٨ - ٢٩ تبدأ الآيات بقوله تعالى : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ وفي حديث أبي موسى - عن النبي - ﷺ - أنه قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجداول ، ومعاذير ، وأما الثالثة فعندها تتطير الصحف في الأيدي . فأخذ بيمينه وأخذ بشماله ، وكان عمر بن الخطاب يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر ، وهلك عني سلطانية . فيه قولان . أحدهما : ضلت عني حجتي ، قاله مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي . والثاني : زال عني ملكي ، قاله أبو زيد .

والذي له قدرة لكن لا يرى ما فعل إن جازاه بلا علم كان ظالماً معتدياً ، فلا بد له من العلم بما فعل .

ولهذا كان الحاكم يحتاج إلى الشهود ، والملوك يحتاجون إلى أهل الديوان ، يخبرونهم بمقادير الأموال وغيرها ليكون عملهم بعلم .

ذكر أنه خلق الإنسان في كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، « ولن » لنفي المستقبل .

يقول « أيحسب أن لن يقدر عليه في المستقبل أحد ولهذا كان ذلك الخائف من ربه ، الذي أمر أهله بإحراقه وذريانه يعلم أن الجزاء متعلق بالقدرة فقال « لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين » (١) .

وهو سبحانه يهدد بالقدرة لكون المقدور يقترب بها ، كما يهدد بالعلم لكون الجزاء يقع معه ، كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ (٢) فقال النبي ﷺ لما نزلت :

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٤ باب ٣٤٦٦-٣٤٧٨- عن قتادة عن عقبة بن عبد الغفار عن أبي سعيد - رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - أن رجلاً كان قبلكم رزقه الله مالاً فقال لبنيه لما حضر : أي أب كنت لكم ؟ قالوا خير أب . قال : فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف ففعلوا . فجمعه الله عز وجل فقال : ما حملك ؟ قال : مخافتك فتلقاه برحمته « وقال معاذ : حدثنا شعبة عن قتادة قال : سمعت عقبة بن عبد الغفار ، سمعت أبا سعيد الخدري عن النبي - ﷺ - . وأخرجه أيضاً في التوحيد ٣٥ - وأخرجه الامام مسلم في كتاب التوبة ٤ باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ٢٤ (٢٧٥٦) حدثنا روح ، حدثنا مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - (وذكره)

وأخرجه النسائي في الجنائز ١١٧ ، وابن ماجه في الزهد ٣٠ وصاحب الموطأ في الجنائز ٥١ ، واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

أعوذ بوجهك ، أعوذ بوجهك
﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ فقال : هاتان
أهون (١) . وذلك لأنه تكلم في ذكر القدرة ونوع المقدور .

كما يقول القائل : أين تهرب مني ؟ أنا أقدر أن أمسك .
وكذلك في العلم بالرؤية ، كقوله هنا : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ
أَحَدٌ ﴾ (٢)

وقوله تعالى في الذي ينهي عبداً إذا صلى :
﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِإِنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ (٣)

وقوله تعالى ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)

وقوله ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ ﴾ (٥) وقوله تعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبْرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
مُسْتَطَرٌّ ﴾ (٦)

وأمثال ذلك ، فذكر رؤيته الأعمال وعلمه بها وإحصائه لها يتضمن

(١) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

(٢) سورة البلد آية رقم ٧ .

(٣) سورة العلق آية رقم ١٤ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٨٠ .

(٦) سورة القمر آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

يقول الامام القرطبي « وكل شيء فعلوه في الزبر » أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم - وهذا بيان قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ « في الزبر » أي في اللوح المحفوظ ، وقيل في كتب الحفظة وقيل في أم الكتاب . [تفسير القرطبي ١٧ : ١٤٩] .

الوعيد بالجزاء عليها ، كما يقول القائل قد علمت ما فعلت ، وقد جاءني أخبارك كلها وأمثال ذلك ، فليس المراد الأخبار بقدرة مجردة وعلم مجرد ، لكن بقدرة وعلم يقترن بهما الجزاء إذ كان مع حصول العلم والقدرة يمكن الجزاء ، ويبقى موقوفاً على مشيئة المجازي ، لا يحتاج معه إلى شيء حيثئذ ، فيجب طلب النجاة بالاستغفار والتوبة إليه ، وعمل الحسنات التي تمحو السيئات

فصل

وهو سبحانه وتعالى لما أقسم بـ ﴿ الصّافات ﴾ و﴿ الذّاريات ﴾ و﴿ المرسلات ﴾ ذكر المقسم عليه فقال تعالى ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ ^(٣) ولم يذكره في النازعات ، فإن الصافات هي الملائكة ، وهو لم يقسم على وجودها ، كما لم يقسم على وجود نفسه إذ كانت الأمم معترفة بالصافات ، وكانت معرفته ظاهرة عندهم لا يحتاج إلى أقسام ، بخلاف التوحيد فإنه كما قال تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ^(٤) .

وكذلك الملائكة يقربها عامة الأمم ، كما ذكر الله عن قوم نوح وعاد

(١) سورة الصافات آية رقم ٤ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥ - ٦ .

(٣) سورة المرسلات آية رقم ٧ .

وهذه الآية جواب ما تقدم من أول السورة . أي ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم ، ثم بين وقت وقوعه فقال : فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت . قال المبرد : نسفت الشيء وانسفته إذا أخذته كله بسرعة ، وكان ابن عباس والكلبي يقول : سُويت بالأرض .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .

وثنمود وفرعون ، مع شركهم وتكذيبهم بالرسل ، إنهم كانوا يعرفون الملائكة .

قال قوم نوح : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ ^(١) وقال : ﴿ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ، إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ ^(٢) .

وقال فرعون : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ^(٣) .

وكذلك مشركو العرب ، قال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ ^(٤) وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ ^(٥) وقال تعالى عن الأمم مطلقاً ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةُ

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة فصلت الآيات ١٣ - ١٤ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٥٢ - ٥٣ . إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزى أهل الشرف . وقرأ حفص « أسورة » جمع سوار ، كخمار وأخمرة وقرأ أبي « أساور » جمع إسوار ، وابن مسعود « أساوير » الباقون « أساورة » جمع الأسورة فهو جمع الجمع ، ويجوز أن يكون « أساورة » جمع إسوار ، وألحقت الهاء في الجمع عوضاً عن الياء فهو مثل زناديق وزنادقة ، وبطاريق وبطارقة ، وشبهه .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٨ .

(٥) سورة الفرقان آية رقم ٧ .

يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١﴾ فكانت هذه الأمم المكذبة للرسول المشتركة بالرب مقرة بالله وملائكته ، فكيف بمن سواهم ؟ .

فعلم أن الإقرار بالرب وملائكته معروف عند عامة الأمم فلماذا لم يقسم عليه ، وإنما أقسم على التوحيد ؛ لأن أكثرهم مشركون .

وكذلك ﴿ الذاريات ﴾ و ﴿ الحاملات ﴾ و ﴿ الجاريات ﴾ هي أمور مشهودة للناس ، و ﴿ المقسمات أمرا ﴾ هم الملائكة ، فلم يكن فيما أقسم به ما أقسم عليه فذكر المقسم عليه ، فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٢)

و ﴿ المرسلات ﴾ سواء كانت هي الملائكة النازلة بالوحي ، والمقسم عليه الجزاء في الآخرة أو الرياح ، أو هذا وهذا ، فهي معلومة أيضا وأما « النازعات غرقا » فهي الملائكة القابضة للأرواح وهذا يتضمن الجزاء ، وهو من أعظم المقسم عليه قال تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ﴾ (٤) .

هو ولا يعين على عبادته إلا هو ، وهذا يقين يعطي الاستعانة والتوكل ، وهو يعين بالقدر الذي لم يقع ، فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل فأما ما وقع فإنما فيه الصبر والتسليم والرضى ، كما جاء في حديث عمار بن ياسر (٥) رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ « أسألك الرضا بعد

(١) سورة الاسراء آية رقم ٩٤ - ٩٥ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥ - ٦ .

(٣) سورة السجدة آية رقم ١١ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٦١ - ٦٢ .

(٥) هو عمار بن ياسر بن عامر الكناني المذبحي ، العنسي القحطاني أبو اليقظان صحابي من

القضاء» (١).

وقول « لا حول ولا قوة إلا بالله » يوجب الإعانة ولهذا سنّها النبي ﷺ
إذا قال المؤذن : حي على الصلاة ، فيقول المجيب لا حول ولا قوة إلا
بالله (٢) .

فإذا قال : حي على الفلاح ، قال المجيب : لا حول ولا قوة إلا بالله .

= الولاة الشجعان ذوي الرأي ، وهو أحد السابقين الى الإسلام والجهر به . هاجر الى المدينة ،
وشهد بدرًا واحدًا ، والخندق ، وبيعة الرضوان وكان النبي - ﷺ - يلقبه « الطيب المطيب »
وفي الحديث : ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرحدهما ، وهو أول من بنى مسجدًا في
الاسلام (بناه في المدينة وسماه قباء ، وولاه عمر الكوفة ، فأقام زمانًا وعزله عنها ، وشهد
الجمل ، وصفين مع علي ، وقتل في الثانية وعمره ثلاث وتسعون سنة له ٦٢ حديثاً . توفي
عام ٣٧ هـ . [راجع الاستيعاب بهامش الاصابة ٢ : ٤٦٩ والاصابة ت ٥٧٠٦ والمحبر ٢٨٩
و ٢٩٦ والطبري ٦ : ٢١ وحلية الأولياء ١ : ١٣٩ وذيل المذيل ١١ وصفة الصفوة ١ : ١٧٥
وتحلاصة تهذيب الكمال ١٣٧] .

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٩١ - حدثني أبي ، ثنا أبو المغيرة ثنا أبو بكر ،
ثنا خمرة بن حبيب بن صهيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت أن رسول الله - ﷺ - علمه
دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم - وهو حديث طويل وبعد هذا [وبرد العيش بعد
الموت ، ولذة النظر الى وجهك ، وشوقاً الى لقائك ، من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ،
أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم أو اعتدي أو يعتدي علي الخ ..] [وأخرجه النسائي في
السورة ٦٢]

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٧ باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن
سمعه ثم يصلي على النبي - ﷺ - ثم يسأل الله له الوسيلة ، ١٢ (٣٨٥) عن عمارة بن غزية
عن خبيب بن عبد الرحمن بن إساف ، عن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه
عن جده عمر بن الخطاب . قال . قال رسول الله - ﷺ - وذكره وأخرجه البخاري في كتاب
الأذان ٧ باب ما يقول إذا سمع المنادي ، ٦١٣ - قال يحيى وحدثني بعض اخواننا أنه قال :
لما قال حي على الصلاة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله وقال : هكذا سمعنا نيكم - ﷺ -
يقول »

وقال المؤمن لصاحبه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (١) .

ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء فقلوه : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، تقديره : ما شاء الله كان فلا يأمن ، بل يؤمن بالقدر ويقول : ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : هي كنز من كنوز الجنة (٢) .

و« الكنز » مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع ، وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى . ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم فإذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذي لا يأتي بها إلا هو . قال تعالى ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (٤) .

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعاء ٥٠ باب الدعاء إذا علا عقبه ٦٣٨٤ بسنده عن أبي موسى وذكره بلفظ : يا عبد الله بن قيس : قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة » وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ١٣ باب استحباب خفض الصوت بالذكر بسنده عن أبي موسى وذكره .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٢ .

(٤) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ (٢) وقال صاحب يس ﴿ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٣) ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده في غير موضع وفي الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده (٤) .

قال تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً ﴾ (٥) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٧ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة فقال (يردك) بدلاً من (يمسك) .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة يس آية رقم ٢٣ - ٢٤ .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ٢٩ باب ما جاء في الزهادة في الدنيا بسنده عن أبي ذر عن النبي - ﷺ - بلفظ « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق مما في يدي الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو إدريس الخولاني : اسمه عائذ الله بن عبد الله عمرو بن واقد منكر . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ١ باب الزهد في الدنيا ٤١٠٠ بسند ٥ عن أبي ذر الغفاري وذكره .

قال هشام : قال أبو إدريس الخولاني . يقول : مثل هذا الحديث في الأحاديث كمثله الأبريز في الذهب .

(٥) سورة الفرقان آية رقم ٥٨ .

والله تعالى أمر بعبادته والتوكل عليه ، قال تعالى ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ (٢) .

وقال موسى ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

وقال شعيب : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٤) .

وقال المؤمنون ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٦) .

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (٧) .

فاfterق الناس هنا أربعة أصناف : صنف لا يعبدونه ولا يتوكلون عليه ، وهم شرار الخلق . وصنف يقصدون عبادته بفعل ما أمر ، وترك ما حظر ، لكن لم يحققوا التوكل والاستعانة فيعجزون عن كثير مما يطلبونه ، ويجزعون

(١) سورة هود آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٨٤ .

(٤) سورة هود آية رقم ٨٨ .

(٥) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٦) سورة المزمل آية رقم ٨ - ٩ .

(٧) سورة الطلاق آية رقم ٢ - ٣ .

في كثير من المصائب .

ثم من هؤلاء من يكذب بالقدر ، ويجعل نفسه هو المبدع لأفعاله
فهؤلاء في الحقيقة لا يستعينونه ولا يطلبون منه صلاح قلوبهم ولا تقويمها ولا
هدايتها وهؤلاء مخذولون كما هم عند الأمة كذلك .

وقوم يؤمنون بالقدر قولاً واعتقاداً لكن لم تتصف به قلوبهم علماً
وعملاً ، كما اتصفت بقصد الطهارة والصلاة فهم أيضاً ضعفاء عاجزون
وصنف نظر إلى جانب القدرة والمشيئة ، وأن الله تعالى هو المعطي والمانع
والخافض والرافع ، فغلب عليهم التوجه إليه من هذه الجهة ، والاستعانة به
والافتقار إليه لطلب ما يريدونه ، فهؤلاء يحصل لأحدهم نوع سلطان وقدرة
ظاهرة أو باطنة وقهر لعدوه ، بل قتل له ونيل لأغراضه ، لكن لا عاقبة لهم ،
فإن العاقبة للتقوى ، بل آخرتهم آخرة ردية .

وليس الكلام في الكفار والظلمة المعرضين عن الله فإن هؤلاء دخلوا
في القسم الأول الذين لا عبادة لهم ولا استعانة .

ولكن الكلام في قوم عندهم توجه إلى الله وتآله ونوع من الخشية والذكر
والزهد ، لكن يغلب عليهم التوجه بإرادة أحدهم وذوقه ووجده وما يستحليه
وما يستحبه لا بالأمر الشرعي وهم أصناف : منهم : المعرض عن التزام
العبادات الشرعية مع ما يحصل له من الشياطين من كشف له أو تأثير ،
وهؤلاء كثير ، منهم يموت على غير الإسلام .

ومنهم من يقوم بالعبادات الشرعية الظاهرة كالصلاة والصيام والحج ،
وترك المحرمات ، لكن في أعمال القلوب لا يلتزم الأمر الشرعي بل يسعى
لما يحبه ويريده .

والله تعالى يقول ﴿ كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ ^(١) وهو

(١) سورة الإسراء آية رقم ٢٠ .

سبحانه يعطي السلطان والمال للبر والفاجر .

فقد يعطى أحد هؤلاء تصرفاً إما بقهر عدوه وإما بنصر وليه ، كما تعطى المملوك ، وقد يعطى نوعاً من المكاشفة إما بإخبار بعض الجن له ، وقد يعرف أنه من الجن . وقد لا يعرف ، وإما بغير ذلك .

وقد يقول الواحد من هؤلاء : أنا آخذ من الله وغيري يأخذ من محمد ﷺ ، فيرى بحاله في ذلك وتفرد أن ما أوتيته من التصرف والمكاشفة يحصل له بغير طريق محمد ﷺ وهو صادق في ذلك ، لكن هذه في الحقيقة وبال عليه ، فإن من تصرف بغير أمر الرسول ﷺ ، وأخذ ما لم يبيحه له الرسول فولى وعزل ، وأعطى ومنع بغير أمر الرسول ، وقتل وضرب بغير أمره ، وأكرم وأهان بغير أمره ، وجاءه خطاب في باطنه بالأمر والنهي ، فاعتقد أن الله أمره ونهاه من غير واسطة الرسول كانت حالته كلها من الشيطان وكان الشيطان هو الذي يأمره وينهاه فيأمره فيتصرف وهو يظن أنه يتصرف بأمر الله ، ولعمري هو يتصرف بأمر الله الكوني القدري بواسطة أمر الشيطان ، كما قال تعالى في السحرة ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١) .

= قال الزجاج : « كلاً » منصوب بـ « نمد » هؤلاء ، بدل من « كل » والمعنى : نمد هؤلاء ، وهؤلاء من عطاء ربك ، قال المفسرون : كلاً نعطي من الدنيا ، البر والفاجر ، والعطاء هنا : الرزق ، والمحظور الممنوع ، والمعنى : أن الرزق يعم المؤمن والكافر ، والآخرة للممتنعين خاصة .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

« ما هم » إشارة الى السحرة ، وقيل : اليهود ، وقيل الى الشياطين . « بضارين به » أي بالسحر « من أحد » أي أحداً ، ومن زائدة « إلا بإذن الله » أي بإراداته وقضائه لا بأمره ، لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضي على الخلق بها ، وقال الزجاج « إلا بإذن الله » إلا بعلم الله قال النحاس : وقول أبي اسحاق « إلا بإذن الله » إلا بعلم الله غلط ، لأنه إنما يقال في العلم أذن ، وقد أذنت أذنًا ، ولكن لما لم يحل فيما بينهم وبينه ، وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجازاً .

كما أن المؤمن يتصرف بأمر الله الكوني القدري ، لكن بواسطة أمر الرسول المبلغ له عن الله عز وجل . فالحلال عنده ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله بخلاف ذلك فإنه لا يأخذ عن الرسول الأمر والنهي الباطن ولا ما يفعله ويأمر به ، وهذا الضرب كثير في المشايخ أرباب القلوب والأحوال الذين ضعف علمهم بالكتاب والسنة ، ومتابعة الرسول ، وغلب عليهم ما يجده أحدهم في قلبه ، وما يؤمر به في باطنه ، سواء وافق الرسول أو خالفه .

ثم تفاوتوا في ذلك بحسب قربهم من الرسول وبعدهم منه ، فكثير منهم بعد عنه حتى صار يرى أنه يعاون الكفار على قتال المسلمين ، ويرى أن الله سبحانه أمره بذلك ، ويعتقد أن أهل الصفة ^(١) فعلوا ذلك .

ومنهم من يرى أن الرسول لم يرسل إليه وإلى أشكاله وإنما أرسل إلى العوام .

ومنهم من يعتقد أن الرسول كان خاضعاً لأهل الصفة وكانوا مستغنيين عنه .

(١) يقال أنهم الذين نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ سورة الأنعام آية رقم ٥٢ ، وأخرج هذا المعنى ابن ماجه في سننه عن خباب في قوله عز وجل ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ إلى قوله : ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينه بن حصن الفزاري ، فوجدا رسول الله - ﷺ - مع صهيب ، وبلال ، وعمار ، وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حوّل النبي - ﷺ - حقروهم ، فأتوه فخلوا به ، وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعداء ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم قالوا فاكتب لنا عليك كتاباً قال : فدعا بصحيفه ودعا علياً - رضي الله عنه - ليكتب ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل عليه السلام فقال : ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

إلى أمثال هذه الأصناف التي كثرت في هذه الأمة وهؤلاء كلهم يدعون علم الحقيقة ^(١) ، ويقولون : الحقيقة لون ، والشريعة ^(٢) لون آخر ، ويجمعهم شيان :

أن لهم تصرفاً وكشفاً خارجاً عن ما للعامة .
وأنهم معرضون عن وزن ذلك بالكتاب والسنة وتحكيم الرسول ﷺ في ذلك فهم بمنزلة الملوك لا يقول أحدهم إن الله أمرني بذلك ، ولا أني ولي الله ، ولا أن لي مادة من الله خارجة عن الرسول ، ولا أن الرسل لم تبعث إلى مثلي ، وإنما الملوك يقصدون أغراضهم ولا يجعلونها ديناً .

وهؤلاء يجعلون أغراضهم التي هي من أعظم الظلم والفساد ، بل والكفر ، يجعلون ذلك ديناً يدين به أولياء الله عندهم ، لأن هذه الأمور إنما تحصل لهم بنوع من الزهادة والعبادة ، ولكن ليس هو الزهد والعبادة التي بعث الله بها رسوله ، بل يشبهه حال أهل الكتاب والمشركون من عباد الهند والنصارى وأمثالهم .

ولهذا تظهر مشابھتهم لعباد المشركون وأهل الكتاب حتى إن من رأى عباد الهند ثم رأى مولهي بيت الرفاعي ^(٣) أنكر وجود هؤلاء في ديار الإسلام

(١) (٢) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إتباع عن تعريف الحق ، فالشريعة أن تعبد ، والحقيقة أن تشهد بالشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر سمعت الأستاذ علي الدقاق رحمه الله يقول :

قوله : « إياك نعبد » حفظ للشريعة « وإياك نستعين » إقرار بالحقيقة واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره ، والحقيقة - أيضاً - شريعة من حيث إن المعارف به ، سبحانه أيضاً وجبت بأمره .

(٣) هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسين أبو العباس ، مؤسس الطريقة الرفاعية ، ولد في =

وقال : هؤلاء مثل عباد المشركين من الهند سواء وأرفع من هؤلاء من يشبه عباد النصارى ورهبانهم^(١) في أمور كثيرة خارجة عن شريعة الإسلام .

فلما كان فيهم دين مبتدع من جنس دين المشركين وأهل الكتاب ظنوا ما يظنه أولئك من أن هذا دين صحيح ، وأنه دين يقرب إلى الله ، وأن أهله أولياء الله .

فإن جميع طوائف العلماء والعباد من جميع أهل الملل يظنون .

قال شيخ الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر وأعن برحمتك

لحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا

= قرية حسن (من أعمال واسط بالعراق) وتفقه وتأدب في واسط ، وتصفو ، فانضم إليه خلق كثير ، وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح وتوفي بها عام ٥٧٨ هـ صنف كتباً كثيرة : وفي كتاب « عجائب واسط » لابن المذهب أن عدد خلفاء الرفاعي وخلفائهم بلغ مئة وثمانين ألفاً في حال حياته ، وجمع بعض كلامه في رسالة سميت (رحيق الكوثر) [راجع ابن خلكان ١ : ٥٥ ومرة الزمان ٨ : ٣٧٠ والشعراني ١ : ١٢١] .

(١) الرهبانية من الرهبان ، كالرضوانية من الرضوان وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع وذلك أن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي نفر قليل فترهبوا وتبتلوا . قال الضحاك : إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم . فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناكم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع وقال قتادة : الرهبانية التي ابتدعوها رفض النساء ، واتخاذ الصوامع ، وفي خبر مرفوع « هي لحوقهم بالبراري والجبال » وفي تفسير القاسمي ١٦ : ٥٦٩٨ « لم يقوموا بما التزموه منها حق القيام من الترهّد والتخلي للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس ، والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم .

إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً .

أما بعد :

فقد سألتني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية ، تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل ، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل ، فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح ، والحق المبين .

والعلم إما نقل مصدق عن معصوم ، وإما قول عليه دليل معلوم ، وما سوى هذا فإما مزيف مردود ، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا مفقود .

وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الكريم الذي هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيف به الأهواء ، ولا تلبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الترديد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ^(١) . قال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن أَتَّبَعْ

(١) الحديث أخرجه الترمذي بسنده عن علي - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت يا رسول الله وما المخرج منها . ؟ قال كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وذكره .
قال الإمام القرطبي : الحارث : رماه الشعبي بالكذب وليس بشيء ولم يبين من الحارث كذب وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره ، ومن ها هنا - والله أعلم - كذبه الشعبي ، لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر ، وإلى أنه أول من أسلم . قال أبو =

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ آلر . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (٤) .

وقد كتبت هذه المقدمة المختصرة بحسب تيسير الله تعالى من إملاء
الفؤاد ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

= عمر بن عبد البر وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهمداني : حدثني الحارث وكان أحد الكذابين .

(١) سورة طه آيات من ١٢٣ - ١٢٦ .

(٢) سورة المائدة آيات من ١٥ - ١٦ .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ١ ، ٢ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

فصل

يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن ، كما بين لهم ألفاظه .

فقوله تعالى ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ^(١) يتناول هذا وهذا .

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي ^(٢) : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا .

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدد سنين .

قيل : ثمان سنين . ذكره مالك .

وذلك أن الله تعالى قال ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ^(٣)

وقال ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ^(٤)

(١) سورة النحل آية رقم ٤٤ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء وراجع طبقات القراء لابن الجزري ١٠ : ٤١٣ وكثيراً ما يذكر ابن تيمية هذا النص عن السلمي ليستدل به على أن السلف تعلموا القرآن وتعلموا معه العمل به .

(٣) سورة ص آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٨٢ - سورة محمد آية رقم ٢٤ .

وقال ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ ^(١)

وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن .

وكذلك قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) وعقل

الكلام متضمن لفهمه .

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ،
فالقرآن أولى بذلك ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم ،
كالطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه
نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ولهذا كان النزاع بين الصحابة في
تفسير القرآن قليلاً جداً ، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو
قليل بالنسبة إلى من بعدهم .

وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه
أكثر .

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد ^(٣) :
عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه ، وأسأله عنها .

ولهذا قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، ولهذا

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢ .

(٣) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي مولى بني محزوم : تابعي ، مفسر من أهل مكة ،
قال الذهبي : شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، قرأه عليه ثلاث مرات
يقف عند كل آية يسأله فيم نزلت ، وكيف نزلت ؟ . وتنقل في الأسفار ، واستقر في الكوفة .
ذهب إلى « بثر برهوت » بحضرموت ، وذهب إلى بابل يبحث عن هاروت وماروت أما كتابه
في التفسير فيتقيه المفسرون ، وسئل الأعمش عن ذلك ، فقال : كانوا يرون أنه يسأل أهل
الكتاب - يعني اليهود والنصارى ويقال : إنه مات وهو ساجد عام ١٠٤ هـ راجع طبقات الفقهاء
٤٥ ، وغاية النهاية ٢ : ٤١ ، وميزان الاعتدال ٣ : ٩ وحلية ٣ : ٢٧٩ .

يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري^(١) وغيرهما من أهل العلم ، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره .

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة ، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال .

(١) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله : حبر الإسلام ، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ - صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري . والتاريخ ، والضعفاء ، وخلق أفعال العباد ، والأدب المفرد ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ ونشأ يتيماً وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ في طلب الحديث فزار خراسان والعراق ومصر والشام وسمع من نحو ألف شيخ ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها صحيحه تروفي عام ٢٥٦ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ وتهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الأول ٦٧ والسبكي ٢ : ٢ والخميس ٢ : ٣٤٢ وآداب اللغة ٢ : ٢١٠ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٤١٩ - ٤٢٦ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٧١ - ٢٧٩ ومعجم المطبوعات ٥٣٤] .

فصل « اختلاف السلف في التفسير قليل »

الخلافا بين السلف في التفسير قليل ، و خلافاهم في الأحكام أكثر من خلافاهم في التفسير ، وغالب ما يضح عنهم من الخلافا يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان :

« أحدهما : أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة ، كما قيل في اسم السيف الصارم والمهند وذلك مثل أسماء الله الحسنى ، وأسماء رسوله ﷺ ، وأسماء القرآن ، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد ، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر ، بل الأمر كما قال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ^(١)

وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي

(١) سورة الإسراء آية رقم ١١٠ سبب نزول هذه الآية : أن المشركين سمعوا رسول الله - ﷺ - يدعو (يا الله يا رحمن) فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين ، قاله ابن عباس ، وقال مكحول تهجد رسول الله - ﷺ - ليلة فقال في دعائه : يا رحمن يا رحيم « فسمعه رجل من المشركين وكان باليامة رجل يسمى « الرحمن » فقال ذلك السامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليامة فنزلت الآية مبينة أنهما اسمان لمسمى واحد فإن دعوتهم بالله فهو ذاك ، وإن دعوتهم بالرحمن فهو ذلك .

تضمنها الاسم ، كالعليم ، يدل على الذات والعلم ، والقدير : يدل على الذات والقدرة ، والرحيم : يدل على الذات والرحمة .

ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون : لا يقال : هوحى ، ولا ليس بحى ، بل ينفون عنه النقيضين ، فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسماً هو علم محض كالمضمرات .

وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات .

فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقاً لغلاة الباطنية في ذلك ، وليس هذا موضع بسط ذلك . وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته ، وعلى ما في الاسم من صفاته .

ويدل أيضاً على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم . وكذلك أسماء النبي ﷺ ، مثل محمد ، وأحمد ، والمحي والحاشر ، والعاقب (١) ، وكذلك أسماء القرآن مثل : القرآن ، والفرقان ، والهدى ، والشفاء ، والبيان ، والكتاب وأمثال ذلك .

فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم ، وقد يكون الاسم علماً وقد يكون صفة كمن يسأل عن

(١) الحديث أخرجه صاحب الموطأ ٦١ كتاب أسماء النبي - ﷺ (١) باب أسماء النبي - ﷺ - حدثني مالك عن ابن شهاب ، عن محمد بن جبير بن مطعم أن النبي - ﷺ - قال : لي خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب .

قال ابن عبد البر : كذا أرسله يحيى وأكثر الرواة وأخرجه البخاري في كتاب التفسير ١ باب (يأتي من بعدي اسمه أحمد) ٤٨٩٦ بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه - رضي الله عنه وذكره . وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٤٢ ، ٤ : ٢٩١ ، ٢٩٨ .

قوله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ ^(١) ما ذكره ؟

فيقال له : هو القرآن مثلاً ، أو هو ما أنزله من الكتب فإن الذكر مصدر ، والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة إلى المفعول .

فيذا قيل : ذكر الله بالمعنى الثاني ، كان ما يذكر به مثل قول العبد سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه ، وهذا هو المراد في قوله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ لأنه قال قبل ذلك ﴿ فَإِذَا يَأْتِيَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ^(٢) وهده هو ما أنزله من الذكر ، وقال بعد ذلك ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ ^(٣) والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل ، أو هو ذكر العبد له فسواء قيل : ذكري كتابي ، أو كلامي أو هداي ، أو نحو ذلك كان المسمى واحداً .

وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمى مثل أن يسأل عن القدوس ، السلام ، المؤمن ، وقد علم أنه الله . لكن مراده ما معنى كونه قدوساً ، سلاماً مؤمناً ونحو ذلك . إذا عرف هذا فالسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه ، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر ، كمن يقول : أحمد هو الحاشر والمأحي والعاقب والقدوس هو الغفور والرحيم ، أي أن المسمى واحد لا أن هذه الصفة هي هذه الصفة .

ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس مثال ذلك تفسيرهم للمصراط المستقيم .

(١) سورة طه آية رقم ١٢٤ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٣ .

(٣) سورة طه آية رقم ١٢٥ - ١٢٦ .

فقال بعضهم هو « القرآن الكريم » أي اتباعه ، لقول النبي ﷺ في حديث علي الذي رواه الترمذي ، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة هو جبل الله الميتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ^(١) وقال بعضهم : هو « الإسلام » لقوله ﷺ في حديث النواس بن سميان الذي رواه الترمذي وغيره « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً على جنبي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو من فوق الصراط وداع يدعو على رأس الصراط .

قال : فالصراط المستقيم هو الاسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن » ^(٢) .

فهذان القولان متفقان ؛ لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » يشعر بوصف ثالث .

وكذلك قول من قال : هو السنة والجماعة وقول من قال : هو طريق

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء فليرجع إليه .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال عن رسول الله - ﷺ - ٢٨٥٩ - حدثنا علي بن حجر السعدي ، حدثنا بقة بن الوليد عن بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس ابن سميان الكلبي قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه « داران » بدلاً من « سوران » قال الترمذي : هذا حديث غريب . قال سمعت عبد الله بن عبد الرحمن يقول : سمعت زكريا بن عدي يقول : قال أبو اسحاق الفزاري ، خذوا عني بقية ما حدثكم عن الثقات ، ولا تأخذوا عن اسماعيل بن عياش ما حدثكم عن الثقات ولا غير الثقات . وأخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٨٢ ، ١٨٣ ثنا الحسن بن سوار أبو العلاء . ثنا ليث يعني ابن سعد عن معاوية بن صالح أن عبد الرحمن بن جبير حدثه عن أبيه عن النواس بن سميان الأنصاري عن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره .

العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

« الصنف الثاني » أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع - لا على سبيل الحد المطابق للحدود من عمومته وخصوصه ، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى « لفظ الخبز » فأري رغيفاً ، وقيل له : هذا .

فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده - مثال ذلك ما نقل في قوله :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ^(١) ﴾

فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات فالمقتصدون هم أصحاب اليمين ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ^(٢)

(١) سورة فاطر آية رقم ٣٢ وتكملة الآية ﴿ يَا ذَنْنَا اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ قد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال النحاس فمن أصح ما روي في ذلك ما روي عن ابن عباس « فمنهم ظالم لنفسه » قال : الكافر رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضاً وعن ابن عباس أيضاً فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، قال نجت فرقتان ويكون التقدير في العربية ، فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ، أي كافر ، وقال الحسن : أي فاسق ، ويكون الضمير الذي في « يدخلونها » يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم ، وعن عكرمة وقتادة والضحاك ، والفراء أن المقتصد المؤمن العاصي ، والسابق : التقى على الإطلاق ، قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً ﴾

(٢) سورة الواقعة آية رقم ١٠ - ١١ .

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات ، كقول القائل :
السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثناؤه ،
والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار .

ويقول الآخر : السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة
البقرة ، فإنه ذكر المحسن بالصدقة والظالم يأكل الربا ، والعاقل بالبيع ،
والناس في الأموال إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم فالسابق المحسن باداء
المستحبات مع الواجبات والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة ، والمقتصد الذي
يؤدي الزكاة المفروضة ، ولا يأكل الربا وأمثال هذه الأفاويل ، فكل قول فيه
ذكر نوع داخل في الآية ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على
نظيره ، فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطلق والعقل
السليم يتفطن للنوع ، كما يتفطن إذا أشير له إلى رقيق ، فليل له : هذا هو
الخبز وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا ، لا
سيما إن كان المذكور شخصاً كأسباب النزول المذكورة في التفسير ، كقولهم
إن آية الظهار ^(١) نزلت في امرأة أوس بن الصامت وإن آية اللعان ^(٢) نزلت
في عويمر العجلاني ، أو هلال بن أمية .

وإن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله ^(٣) وإن قوله ﴿ وَأَنْ أَحْكَمْ ﴾

(١) قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم
إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور .

(٢) آيات اللعان قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ
أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، وَالْخَامِسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنْ
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة النور الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩]

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿١﴾ نزلت في بني قريظة والنضير .

وإن قوله ﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ ﴾ (٢) نزلت في بدر .

وإن قوله ﴿ شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ ﴾ (٣) نزلت في قضية تميم الداري (٤) وعدي بن بداء .

وقول أبي أيوب إن قوله ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (٥) نزلت فينا معشر الأنصار - الحديث (٦) ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى ، أو في قوم من المؤمنين فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق .

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ١٦ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ .

(٤) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري أبورقية : صحابي نسبته إلى الدار بن هانيء من لخم أسلم سنة ٩ هـ وأقطعه النبي - ﷺ - قرية (الخليل بفلسطين) وكان يسكن المدينة ، ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان . فنزل بيت المقدس ، وهو أول من أسرج السراج بالمسجد ، كان راهب أهل عصره ، وعابد أهل فلسطين . روى له البخاري ومسلم ١٨ حديثاً وللمقرئزي فيه كتاب سماه « ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري مات في فلسطين » [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣٤٤ ، وكشف النقاب - خ - وصفة الصفوة ١ : ٣١٠] .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٩٥ .

(٦) الحديث أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم من طريق أسلم بن عمران قال : كنا بالقسطنطينية ، فخرج صف عظيم من الروم فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ثم رجع مقبلاً ، فصاح الناس : سبحان الله . ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب : أيها الناس إنكم تؤولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا بيننا سراً : إن أموالنا قد ضاعت فلو أننا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله هذه الآية فكانت التهلكة الاقامة التي أردناها .

والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا ؟ .

فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآية التي لها سبب معين وإن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزله ، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزله أيضاً .

ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء : إنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها . وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به : تارة أنه سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية . وإن لم يكن السبب كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . وقد تنازع العلماء في قول صاحب : نزلت هذه الآية في كذا هل يجري مجرى المسند ، كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ، فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله في المسند ، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه ، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند .

وإذا عرف هذا فقول أحدهم : نزلت في كذا لا ينافي قول الآخر : نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولهما كما ذكرناه في التفسير بالمثل ، وإذا ذكر أحدهم لها سبباً نزلت لأجله ، وذكر الآخر سبباً فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب ، أو تكون نزلت مرتين مرة لهذا السبب ، ومرة لهذا السبب .

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير تارة لتنوع الأسماء

والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه كالتمثيلات هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف .

ومن المتنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين ، إما لكونه مشتركاً في اللفظ كلفظ ﴿ قسورة ﴾ ^(١) الذي يراد به الرامي ، ويراد به الأسد .

ولفظ ﴿ عَسَسَ ﴾ ^(٢) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره وإما لكونه متواطئاً في الأصل ، لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين كالضمائر في قوله ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ^(٣) .

وكلفظ ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ ^(٤) وما أشبه ذلك .

فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك . فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة ، وهذا تارة وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معناه إذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء : المالكية والشافعية والحنبلية ، وكثير من أهل الكلام .

وإما لكون اللفظ متواطئاً فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني .

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعاني بالفاظ متقاربة لا مترادفة فإن الترادف في اللغة قليل ، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر ، وإما معدوم ، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي

(١) قال تعالى : ﴿ كَانَهُمْ حَمْرٌ مُسْتَفْرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَةٍ ﴾ سورة المدثر آية رقم ٥ - ٥١ .

(٢) سورة التكوير آية رقم ١٧ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٨ - ٩ .

(٤) سورة الفجر آية رقم ١ - ٣ .

جميع معناه ، بل يكون فيه تقريب لمعناه ، وهذا من أسباب إعجاز القرآن فإذا قال القائل ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾^(١) إن المور هو الحركة كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة وكذلك إذا قال ﴿الوحي﴾ الإعلام ، أو قيل ﴿أوحينا إليك﴾ ﴿أنزلنا إليك﴾ أو قيل ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢) أي أعلمنا ، وأمثال ذلك .

فهذا كله تقريب لا تحقيق ، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي ، والقضاء إليهم أخص من الإعلام ، فإن فيه إنزالاً وإيحاءً إليهم .

والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض ، كما يقولون في قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالٍ نَعَجْتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ﴾^(٣) أي : مع نعاجه .

(١) سورة الطور آية رقم ٩ قال أهل اللغة : مار الشيء يمور موراً أي تحرك وجاء وذهب كما تنكفأ النخلة العيدانة ، أي الطويلة والتمور مثله . وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض . مجاهد : تدور دوراً ، أبو عبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد الأعشى :

كَأَن مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْتَ وَلَا عَجَلَ
وَقِيلَ تَجْرِي جَرِيًّا ، وَمِنْهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :
وَمَا زَالَتْ الْقَتْلَى تَمُورُ دِمَاؤَهَا بِدَجَلَةٍ حَتَّى مَاءِ دَجَلَةٍ أَشْكَلَ
وقال ابن عباس : تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب ، وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض ، والمور أيضاً الطريق ، ومنه قول طرفة : فوق مور معبد .
والمور الموح ، وناقاة مواراة اليد أي سريعة ، والبعير يمور عضداه إذا تردد في عرض جنبه .
قال الشاعر :

على ظهر موار الملاط حصان

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٤ .

(٣) سورة ص آية رقم ٢٤ .

﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ^(١) أي : مع الله ، ونحو ذلك والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمن ، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه .

وكذلك قوله ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ^(٢) ضمن معنى يزيغونك ويصدونك وكذلك قوله ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَآيَاتِنَا﴾ ^(٣) ضمن معنى نجيناه وخلصناه .

وكذلك قوله ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ^(٤) ضمن يروى بها ونظائره كثيرة .

ومن قال « لا ريب » لا شك ، فهذا تقريب وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة ، كما قال : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ^(٥)

وفي الحديث : أنه مر بطبي حاقف ^(٦) فقال : « لا يريه أحد » فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة ، فالريب ضده ، ضمن الاضطراب والحركة .

(١) سورة الصف آية رقم ١٤ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٧٣ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٧٧ .

(٤) سورة الإنسان آية رقم ٦ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ٦٠ باب ، ٢٥١٨ بسنده عن أبي الحوراء السعدي قال قلت للحسن بن علي ما حفظت من رسول الله - ﷺ - قال : حفظت من رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه زيادة [فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة ، وفي الحديث قصة ، قال وأبو الحوراء السعدي أسمه ربيعة بن شيبان .

قال الترمذي : وهذا حديث حسن صحيح .

وأخرجه البخاري في البيوع ٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٥٣ (حلي)

(٦) حاقف : بمعنى نائم قد انحنى في نومه .

ولفظ « الشك » وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه .

وكذلك إذا قيل : ذلك الكتاب هذا القرآن فهذا تقريب ، لأن المشار إليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة ، ولفظ الكتاب يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً .

فهذه الفروق موجودة في القرآن .

فإذا قال أحدهم ﴿ أَنْ تُبْسَلَ ﴾ ^(١) أي تحبس وقال الآخر : ترتهن ، ونحو ذلك لم يكن من اختلاف التضاد ، وإن كان المحبوس قد يكون مرتهاً وقد لا يكون ، إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم .

وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً ، فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم ، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام .

ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاختلاف معلوم ، بل متواتر عند العامة أو الخاصة ، كما في عدد الصلوات ، ومقادير ركوعها ، ومواقيتها ، وفرائض الزكاة ، ونصبتها ، وتعيين شهر رمضان ، والطواف والوقوف ، ورمي الجمار ، والمواقيت وغير ذلك ثم اختلاف الصحابة في الجد والأخوة وفي المشاركة ونحو ذلك لا يوجب ريباً في جمهور

(١) هذا جزء من الآية رقم ٧٠ من سورة الأنعام وتامها ﴿ أَنْ تُبْسَلَ ﴾ أن تبسل نفس بما كسبت . الخ . عن مجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وعكرمة والسدي ، والإسبال : تسليم المرء للهلاك هذا هو المعروف في اللغة . أبسلت ولدي أرهنته ، قال عوف بن الأحوص بن جعفر : وإيسالي بني بغير جرم بعوناه ولا بدم مُراق وأنشد النابغة الجعدي :
ونحن رهنا بالآفاقه عامراً بما كان في السرداء رهناً فأبسلنا

مسائل الفرائض بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء ، والكلالة ، من الأخوة والأخوات ، ومن نسائهم كالأزواج ، فإن الله أنزل في الفرائض ثلاث آيات مفصلة ، ذكر في الأولى ^(١) الأصول والفروع ، وذكر في الثانية ^(٢) الحاشية التي ترث بالفرض ، كالزوجين وولد الأم ، ومن الثالثة ^(٣) الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الأخوة لأبوين أو لأب ، واجتماع الجد والأخوة نادر ، ولهذا لم يقع في الإسلام إلا بعد موت النبي ﷺ ، والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل ، أو لذهول عنه ، وقد يكون لعدم سماعه ، وقد يكون للغلط في فهم النص .

وقد يكون لاعتقاد معارض راجح ^(٤) .

فالمقصود هنا التعريف بجمل الأمر دون تفاصيله .

(١) وهي قوله : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنْثَى﴾ الخ سورة النساء آية رقم ١١ .

(٢) وهي قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ الخ الآية . النساء آية رقم ١٢ .

(٣) وهي قوله تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ .. الخ سورة النساء آية رقم ١٧٦ .

(٤) يحصر الإمام ابن تيمية أسباب الخلاف فيما يأتي أ - فساد النية لما في النفوس من البغي والحسد ، وإرادة العلو في الأرض بالفساد ونحو ذلك . فيجب لذلك ذم قول غيره أو فعله ، أو غلبته ، لتمييز عليه أو يجب قول من يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد ، أو صداقه أو نحو ذلك لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة له .

وتارة يكون سببه جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه ، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر ، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو في الدليل ، وإن كان عالماً بما في نفسه من الحق حكماً أو دليلاً ، والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال تعالى ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ الأحزاب آية ٧٢ .

وكذلك جعل الله مصدر الاختلاف البغي في قوله تعالى ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ سورة البقرة

فصل « الاختلاف في التفسير وأسبابه » النوع الأول سببه النقل

الاختلاف في التفسير على نوعين :

منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعبر بغير ذلك إذ العلم إما : نقل مصدق ، وإما : استدلال محقق والمنقول : إما عن المعصوم ، وإما عن غير المعصوم والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم ، وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه .

وهذا القسم الثاني من المنقول ، وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه فالكلام فيه من فضول الكلام .

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً ، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف ، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة وفي مقدار سفينة نوح ، وما كان خشبها .

وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر^(١) فهذا معلوم ، وما لم يكن كذلك بل كان مما

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

يؤخذ عن أهل الكتاب ، كالمقول عن كعب^(١) ووهب ، ومحمد بن اسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال :

« إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه »^(٢) وكذلك ما نقل عن بعض التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم صاحب فيما يقوله ، فكيف يقال : إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ .

والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك .

(١) هو كعب بن مانع بن ذي هجن الحميري أبو اسحاق تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر وقدم المدينة في دولة عمر . فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ، وخرج إلى الشام فسكن حمص وتوفي بها عام ٣٢ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٤٩ وحلية الأولياء ٥ : ٣٦٤ والإصابة ٧٤٩٨ والنجوم الزاهرة ١ : ٩٠]

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٣٨ - حدثنا يونس ، وغيره ، قال حدثنا حماد يعني ابن زيد ، ثنا مجالد عن عامر الشعبي ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله - ﷺ - بلفظ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق فإنه لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » .

وأما « القسم الأول » الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه والله الحمد ، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، والنقل الصحيح يدفع ذلك ، بل هذا موجود فيما مستنده النقل ، وفيما قد يعرف بأمر آخرى غير النقل .

(أهل المدينة هم أعلم الناس بالمغازي)

والمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم .

ولهذا قال الإمام أحمد : ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير ، والملاحم ، والمغازي . ويروى : ليس لها أصل أي إسناد ؛ لأن الغالب عليها المراسيل ، مثل ما يذكره عروة بن الزبير^(١) والشعبي^(٢) ، والزهري^(٣) ، وموسى بن عقبة^(٤) ، وابن اسحاق ومن بعدهم ، كيحيى بن

(١) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله أحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً بالدين صالحاً كريماً لم يدخل في شيء من الفتن ، توفي بالمدينة عام ٩٣ هـ وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه وبئر عروة منسوبة إليه « راجع ابن خلكان ١ / ٣١٦ ، صفة الصفوة ٢ / ٤٧ ، وحلية الأولياء ٢ / ١٧٦ »

(٢) هو : عامر بن شراحيل الشعبي الحميري أبو عمرو يضرب المثل بحفظه ولد عام ١٩ هـ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ وهو من رجال الحديث الثقات استقضاه عمر بن عبد العزيز وكان فقيهاً شاعراً نسبته إلى شعب وهو بطن من همدان « راجع تهذيب التهذيب ٥ / ٦٥ » والوفيات ١ / ٢٤٤ وتهذيب ابن عساکر ٧ / ١٣٨ وتاريخ بغداد ٢ / ٢٢٧ .

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري من بني زهرة بن كلاب من قريش أول من دوّن الحديث وأحد كبار الحفاظ والفقهاء تابعي من أهل المدينة ، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه ، توفي عام =

سعيد الأموي ، والوليد بن مسلم والواقدي ونحوهم في المغازي ، فإن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق . فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم ، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ، ولهذا عظم الناس كتاب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك ، وجعلوا الأوزاعي ^(١) أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار .

(أهل مكة أعلم الناس بالتفسير)

وأما « التفسير » فإن أعلم الناس به أهل مكة ؛ لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء ، وابن أبي رباح ، وعكرمة ^(٢) مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس : كطاووس ^(٣) ، وأبي الشعثاء ، وسعيد بن

= ١٢٤ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٢ ، وفيات الأعيان ١ / ٤٥١ تهذيب التهذيب ٩ / ٤٥٥]

(٤) هو موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي بالولاء ، أبو محمد ، مولى آل الزبير : عالم بالسيرة النبوية ، من ثقات رجال الحديث من أهل المدينة مولده ووفاته فيها عام ١٤١ هـ له كتاب المغازي قال الامام ابن حنبل عليكم بمغازي ابن عقبة فإنه ثقة . [راجع تهذيب ١٠ : ٢٦٠ وتذكرة ١ : ١٤٠]

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمى الأوزاعي من قبيلة الأوزاع أبو عمرو إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ، ولد في بعلبك عام ٨٨ هـ ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفي بها عام ١٥٧ هـ ، له كتاب السنن في الفقه والمسائل ، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عنها كلها [راجع ابن النديم ١ / ٢٢٢ ، تاريخ بيروت ١٥ ، حلية الأولياء ٦ / ١٣٥]

(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري أبو عبد الله مولى عبد الله بن عباس تابعي كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي طاف البلدان وروى عنه أكثر من سبعين تابعياً وذهب إلى نجدة الحروري فأقام عنده ستة أشهر ، وخرج إلى بلاد المغرب فأخذ عنه أهلها رأي الصفارية وعاد إلى المدينة فطلبه أميرها فتغيب ، مات عام ١٠٥ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٧ / ٢٦٣ ، حلية الأولياء ٣ / ٣٢٦ وميزان الاعتدال ٢ / ٢٠٨]

(٣) هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني أبو عبد الرحمن من كبار التابعين تفقهاً في =

جبير ، وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم .

وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل : زيد بن أسلم ، الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب .

(رأي ابن تيمية في الأحاديث المرسلة)

و« المراسيل » إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصداً ، أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً ، فإن النقل إما أن يكون صدقاً مطابقاً للخبر ، وإما أن يكون كذباً تعمد صاحبه الكذب ، أو أخطأ فيه فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقاً بلا ريب فإذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات ، وقد علم أن المخبرين لم يتواطئا على اختلاقه ، وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقاً بلا قصد علم أنه صحيح ، مثل شخص يحدث عن واقعة جرت ويذكر تفاصيل ما فيها من الأقوال والأفعال ، ويأتي شخص آخر قد علم أنه لم يواطىء الأول فيذكر مثل ما ذكره الأول ، من تفاصيل الأقوال والأفعال ، فيعلم قطعاً أن تلك الواقعة حق في الجملة ، فإنه لو كان كل منهما كذبها عمداً ، أو خطأ ، لم يتفق في العادة أن يأتي كل منهما بتلك التفاصيل التي تمنع العادة اتفاق الاثنين عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه ، فإن الرجل قد يتفق أن ينظم بيتاً وينظم الآخر مثله ، أو يكذب كذبة ، ويكذب الآخر مثلاً ، أما إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية وروي ، فلم تجر

= الدين ورواية للحديث ، أصله من الفرس ، مولده عام ٣٣ في اليمن توفي حاجاً بالمزدلفة عام ١٠٦ هـ صلى عليه عبد الملك بن مروان ، قال ابن عيينة متجنبوا السلطان ثلاثة أبو ذر وطاوس والثوري « راجع تهذيب التهذيب ٥ / ٨ ، صفة الصفوة ٢ / ١٦٠ وابن خلكان ١ / ٢٣٣ » .

العادة بأن غيره ينشئ مثلها لفظاً ومعنى ، مع الطول المفرط ، بل يعلم بالعادة أنه أخذها منه .

وكذلك إذا حدث حديثاً طويلاً فيه فنون ، وحدث آخر بمثله فإنه إما أن يكون واطأه عليه أو أخذه منه ، أو يكون الحديث صدقاً ، وبهذه الطريقة يعلم صدق عامة ما تتعدد جهاته المختلفة على هذا الوجه من المنقولات وإن لم يكن أحدها كافياً إما لإرساله ، وإما لضعف ناقله ، لكن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التي لا تعلم بهذه الطريق فلا يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ ، والدقائق ، ولهذا ثبتت بالتواتر غزوة بدر ، وأنها قبل أحد ، بل يعلم قطعاً أن حمزة ، وعلياً وعبيدة ، برزوا إلى عتبة ، وشيبة ، والوليد ، وأن علياً قتل الوليد ، وأن حمزة قتل قرنه ، ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أو شيبة ؟ .

وهذا الأصل ينبغي أن يعرف ، فإنه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث ، والتفسير ، والمغازي ، وما ينقل من أقوال الناس ، وأفعالهم ، وغير ذلك . ولهذا إذا روي الحديث الذي يتأتى فيه ذلك عن النبي ﷺ من وجهين ، مع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر جزم بأنه حق ، لا سيما إذا علم أن نقلته ليسوا ممن يتعمد الكذب ، وإنما يخاف على أحدهم النسيان والغلط ، فإن من عرف الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب ، وابن عمر ، وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم علم يقيناً أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ فضلاً عما هو فوقهم .

كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبرة باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس ، ويقطع الطريق ، ويشهد بالزور ، ونحو ذلك .

وكذلك التابعون بالمدينة ، ومكة ، والشام ، والبصرة ، فإن من عرف

مثل أبي صالح^(١) السمان ، والأعرج^(٢) ، وسليمان بن يسار^(٣) ، وزيد بن أسلم ، وأمثالهم ، علم قطعاً أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكذب في الحديث فضلاً عما هو فوقهم مثل : محمد بن سيرين^(٤) ، والقاسم بن محمد ، أو سعيد بن المسيب ، أو عبيدة السلماني ، أو علقمة ، أو الأسود ، أو نحوهم ، وإنما يخاف على الواحد من الغلط ، فإن الغلط والنسيان كثيراً ما يعرض للإنسان ، ومن الحفاظ من قد عرف الناس بعده عن ذلك جداً ، كما عرفوا حال الشعبي ، والزهري ، وعروة ، وقتادة ، والثوري ، وأمثالهم .

لا سيما الزهري في زمانه ، والثوري في زمانه ، فإنه قد يقول القائل : إن ابن شهاب الزهري لا يعرف له غلط مع كثرة حديثه وسعة حفظه .

(١) هو أزهر بن سعد الباهلي بالولاء أبو بكر السمان عالم بالحديث من أهل البصرة كان يتردد على المنصور العباس وله معه أخبار توفي عام ٢٠٣ هـ [راجع الوفيات ٦٢ ، وتهذيب التهذيب ١ / ٢٠٢ ، صفة الصفوة ١ / ٢١٠]

(٢) هو عبد الرحمن بن هرمز أبو داود من موالي بني هاشم عرف بالأعرج حافظ فاریء من أهل المدينة أدرك أبا هريرة وأخذ عنه ، وهو أول من برز في القرآن والسنة وكان خبيراً بأنساب العرب ، وافر العلم ثقة رابط بثغر الاسكندرية مدة ومات بها عام ١١٧ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ / ٩١ ، الجمع بين رجال الصحيحين ١ / ٢٨٨ وطبقات القراء ١ / ٣٨١ ومراة الجنان ١ / ٣٥٠] .

(٣) هو سليمان بن يسار أبو أيوب مولى ميمونة أم المؤمنين أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان سعيد بن المسيب إذا أتاه مستفتي يقول له : اذهب إلى سليمان فإنه أعلم من بقي اليوم ، ولد في خلافة عثمان عام ٣٤ هـ وتوفي عام ١٠٧ هـ ، قال ابن سعد في وصفه ثقة ، عالم ، فقيه ، كثير الحديث [راجع وفيات الأعيان ١ / ٢١٣]

(٤) هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء أبو بكر إمام وقته في علوم الدين بالبصرة تابعي من أشراف الكتاب ، مولده ووفاته في البصرة ، نشأ بزازا في أذنه صمم ، وتفقه وروى الحديث واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا واستكتبه أنس بن مالك وكان أبوه مولى لأنس ينسب له كتاب تعبیر الرؤيا توفي عام ١٠ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٩ / ٢١٤ ، ووفيات الأعيان ١ / ٤٥٣]

والمقصود أن الحديث الطويل إذا روي مثلاً من وجهين مختلفين من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطاً ، كما امتنع أن يكون كذباً ؛ فإن الغلط لا يكون في قصة طويلة متنوعة ، وإنما يكون في بعضها ، فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة ، ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غير مواطأة امتنع الغلط في جميعها ، كما امتنع الكذب في جميعها من غير مواطأة .

ولهذا إنما يقع في مثل ذلك غلط في بعض ما جرى في القصة مثل حديث اشتراء النبي ﷺ البعير من جابر ، فإن من تأمل طريقه علم قطعاً أن الحديث صحيح ، وإن كانوا قد اختلفوا في مقدار الثمن . وقد بين ذلك البخاري في صحيحه ، فإن جمهور ما في البخاري ومسلم مما يقطع بأن النبي ﷺ قاله ، لأن غالبه من هذا النحو ، ولأنه قد تلقاه أهل العلم بالقبول والتصديق ، والأمة لا تجتمع على خطأ فلو كان الحديث كذباً في نفس الأمر ، والأمة مصدقة له قابلة له لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب ، وهذا إجماع على الخطأ ، وذلك ممتنع وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ أو الكذب على الخبر فهو كتجويرنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظني أن يكون الحق في الباطن ، بخلاف ما اعتقدناه فإذا أجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطناً وظاهراً ، ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقاً له أو عملاً به أن يوجب العلم ، وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة (١)

(١) هو النعمان بن ثابت العالم الفقيه ولد في الكوفة سنة ٨٠ هـ وهو أول أئمة أهل السنة ميلاداً ، كان عالماً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله ، وكانت إمامته مستمدة من علمه وإنسانيته كان زعيم أهل الرأي وفي ذلك يقول إذا جاء الحديث عن الرسول ﷺ أخذناه وإذا جاء عن الصحابة تخيرنا وإذا جاءنا من التابعين زاحمناهم [الوفيات ٥ / ٤٣ والأئمة الأربعة ٣٨ أبو حنيفة للشيخ أبي زهرة ص ١٠٢]

ومالك^(١) والشافعي^(٢) وأحمد إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام ، أو أكثرهم يوافقون الفقهاء وأهل الحديث والسلف على ذلك ، وهو قول أكثر الأشعرية ، كأبي اسحاق ، وابن فورك ، وأما ابن عقيل وابن الجوزي وابن الخطيب والآمدي ونحو هؤلاء ، والأول هو الذي ذكره الشيخ أبو حامد^(٣) وأبو الطيب وأبو اسحاق وأمثاله من أئمة الشافعية ، وهو الذي ذكره القاضي عبد الوهاب وأمثاله من المالكية ؛ وهو الذي ذكره أبو يعلى ، وأبو الخطاب ، وأبو الحسن ابن الزاغوني وأمثالهم من الحنبلية ، وهو الذي ذكره شمس الدين السرخسي وأمثاله من الحنفية وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجباً للقطع به فالاعتبار في ذلك بإجماع أهل العلم بالحديث ، كما أن الاعتبار في الإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهي والإباحة .

(١) مالك - هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي إمام دار الهجرة وشيخ المدينة وعالم أهل الحجاز (٩٣ - ١٩٧ هـ) أقبل على الفقه والحديث إقبالاً هياً منه إماماً جليلاً من أئمة الاسلام تلمذ على كثير من أعلام عصره في المدينة مثل نافع بن أبي نعيم والزهرري ونافع مولى عبد الله بن عمر [راجع الوفيات ح ٣ / ٢٨٤ . صفة الصفوة ٢ / ٩٩]

(٢) هو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ثالث الأئمة المشهورين (١٥٠ - ٢٠٤) من حيث حياتهم الزمنية ولكنهم واسطة العقد بينهم من حيث الشخصية المتجددة المتطورة من حيث نظرتهم للقضايا الفقهية ، وتناولوه للمسائل الدينية جمع بين ثقة أهل الرأي وأهل الحديث بمقادير متعادلة ومهما كان أمر الاتفاق أو الاختلاف فإن شخصية الشافعي وعلمه وأدبه ودينه كان طرازاً فريداً في دنيا العلم والعلماء [راجع الأئمة الأربعة للشرباصي ص ١٠٥ الشافعي حياته وعصره لأبي زهرة ص ١١]

(٣) هو أبو حامد الغزالي (حجة الاسلام) من كبار الشافعية والأشاعرة ، ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٠٥ هـ مزج المنطق بعلوم المسلمين في كتابه (القسطاس المستقيم) كثيراً ما ينتقده ابن تيمية في مؤلفاته العديدة والتي من أهمها « الإحياء في علوم الدين » و « مقاصد الفلاسفة » و « تهافت الفلاسفة » و « المنقذ من الضلال » وغير ذلك . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ ، وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وتبين كذب المفترى ٢٩١ - ٣٠٦]

والمقصود هنا أن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول لكن هذا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين ، وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيء الحفظ ، وبالحديث المرسل ، ونحو ذلك ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ، ويقولون : إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره .

قال أحمد : قد أكتب حديث الرجل لاعتبره ، ومثل هذا بعد الله بن لهيعة ^(١) قاضي مصر ، فإنه كان من أكثر الناس حديثاً ومن خيار الناس ، لكن بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخر غلط ، فصار يعتبر بذلك ويستشهد به ، وكثيراً ما يقترون هو والليث بن سعد ^(٢) ، والليث حجة ثبت إمام .

وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ فإنهم أيضاً يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم أنه غلط فيها بأمور يستدلون بها ، ويسمون هذا علم علل الحديث ، وهو من أشرف علومهم بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه ، وغلطه فيه عرف إما بسبب ظاهر كما عرفوا أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو حلال ، وأنه صلى في البيت ركعتين .

وجعلوا رواية ابن عباس لتزوجها حراماً ، ولكونه لم يصل مما وقع فيه

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي المصري قاضي مصر وعالمها ومحدثها في عصره . قال ابن حنبل : ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة ، وقال النووي : ابن لهيعة الأصول والفروع عندنا ، تولى قضاء مصر سنة ١٥٤ هـ وتوفي سنة ١٧٤ هـ [راجع : الولاة والقضاة ص ٣٩٩٠ ، والنووي ١ : ٢٨٣ ، والأعلام ٢ : ٥٧٥ ط سنة ١٩٢٠]

(٢) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن مولى قيس بن رقام أصله من أصفهان ولد سنة ٩٢ أو ٩٤ هـ وتوفي يوم الخميس سنة ١٧٥ هـ أخذ عن ابن شهاب ، وقال عنه الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به . [راجع طبقات الفقهاء للشيرازي ٧٨ ،

الغلط .

وكذلك أنه اعتمر أربع عمر ، وعلموا أن قول ابن عمر : أنه اعتمر في رجب مما وقع فيه الغلط ، وعلموا أنه تمتع وهو آمن في حجة الوداع ، وأن قول عثمان لعلي :

« كنا يومئذ خائفين » مما وقع فيه الغلط ، وأن ما وقع في بعض طرق البخاري « أن النار لا تمتلىء حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر » مما وقع فيه الغلط وهذا كثير .

والناس في هذا الباب طرفان : طرف من أهل الكلام ونحوهم ممن هو بعيد عن معرفة الحديث وأهله ، لا يميز بين الصحيح والضعيف فيشك في صحة أحاديث ، أو في القطع بها مع كونها معلومة مقطوعاً بها عند أهل العلم به ، وطرف ممن يدعي اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظاً في حديث قد رواه ثقة أو رأى حديثاً بإسناد ظاهره الصحة يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته ، حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة ، أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم ، مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط .

وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق ، وقد يقطع بذلك فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضعاء من أهل البدع والغلو في الفضائل مثل حديث يوم عاشوراء وأمثاله مما فيه أن من صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبياً .

وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي^(١) والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة فيانه

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو اسحاق مفسر ، من أهل نيسابور ، له اشتغال بالتاريخ من كتبه عرائس المجالس في قصص الأنبياء والكشف والبيان في تفسير القرآن يعرف =

موضوع باتفاق أهل العلم .

والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع و« الواحدي » (٢) صاحبه كان أبصر منه بالعربية ، لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف .

و« البغوي » تفسيره مختصر من الثعلبي لكنه صان تفسيره من الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة .

والموضوعات في كتب التفسير كثيرة مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة (١) .

وحديث علي الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم .

ومثل ما روي في قوله ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٢) إنه علي .
﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ ﴾ (٣) أذنك يا علي .

= بتفسير الثعلبي ، توفي عام ٤٢٧ هـ [راجع ابن خلكان ١ / ٢٢ ، إنباء الرواة ١ / ١١٩
والبداية والنهاية ١٢ / ٤٠]

(٢) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي متوية أبو الحسن الواحدي مفسر عالم بالأدب نعتة الذهبي بإمام علماء التأويل ، كان من أولاد النجار ، أصله من ساوه بين الري وهمدان ، وفاته بنيسابور عام ٤٦٨ هـ له البسيط والوسيط والوجيز كلها في التفسير شرح ديوان المتنبي وله أسباب النزول وشرح الأسماء الحسنى [راجع النجوم الزاهرة ٥ / ١٠٤ ، مفتاح السعادة ٤٠٢ / ١]

(١) أخرج الدارقطني ، والحاكم ، والبيهقي ، عن أبي هريرة قال : كان رسول الله - ﷺ - يجهر (بسم الله الرحمن الرحيم) في الصلاة . وأخرج الطبراني ، والدارقطني ، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل ، والدارقطني والحاكم عن أنس قال سمعت رسول الله - ﷺ - يجهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)

(٢) سورة الرعد آية رقم ٧ .

(٣) سورة الحاقة آية رقم ١٢ .

فصل (النوع الثاني سببه اختلاف) طرق الاستدلال

وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ، فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق ^(١) ، ووكيع ، وعبد بن حميد ^(٢) وعبد الرحمن ^(٣) بن إبراهيم دحيم .

ومثل تفسير الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ^(٤) ، وبقي بن مخلد

(١) هو ابن همام أبو بكر الصنعاني من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء ، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث ، له الجامع الكبير في الحديث قال الذهبي : وهو خزانة علم ، وكتاب في تفسير القرآن ، توفي عام سنة ٢١١ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٦ / ٣١٠ وابن خلكان ١ / ٣٠٣ وطبقات الحنابلة ١٥٢ وميزان الاعتدال ٢ / ١٢٦]

(٢) هو : عبد بن حميد بن نصر الكسي أبو محمد من حفاظ الحديث قيل : اسمه عبد الحميد وخفف نسبته الى كس مدينة قرب سمرقند ، من كتبه مسند كبير وتفسير ، توفي عام ٢٤٩ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ / ١٠٤ والمستطرفة ٥٠] .

(٣) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو الأموي مولاه المسمى دحيم الدمشقي محدث الشام في عصره كان على مذهب الأوزاعي ولي قضاء الأردن وقضاء فلسطين ، وطلب لقضاء القضاة بمصر فعاجلته المنية توفي بفلسطين عام ٢٤٥ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ / ٥٨ ، تهذيب التهذيب ٦ / ١٣١]

(٤) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي أبو يعقوب بن راهويه عالم خراسان في عصره ، =

وأبي بكر بن المنذر ، وسفيان بن عيينة ، وسنين وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبي سعيد الأشج ، وأبي عبد الله ابن ماجه ، وابن مردويه -

إحداهما : قوم اعتقدوا معاني ، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

و« الثانية » قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه ، والمخاطب به .

ف « الأولون » راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

و« الآخرون » راعوا مجرد اللفظ ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ، ولسياق الكلام ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم ، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن ، كما يغلط في ذلك الآخرون وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق .

والأولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به . وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه ، أو إثباته من المعنى باطلاً فيكون خطأهم في الدليل والمدلول ، وقد يكون حقاً فيكون خطأهم في الدليل لا في المدلول .

وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث ،

= وهو أحد كبار الحفاظ طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الامام احمد بن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ، قال الدارمي : ساد اسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه توفي عام ٢٣٨ هـ [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ / ٤٠٩ وتهذيب التهذيب ١ / ٢١٦ ، وميزان الاعتدال ١ / ٨٥]

فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول - مثل طوائف من أهل البدع - اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم

تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها .

وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه ومن هؤلاء : فرق الخوارج ، والروافض ، والجهمية والمعتزلة ، والقدرية (١) ، والمرجئة ، وغيرهم وهذا كالمعتزلة مثلاً فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ ابراهيم بن اسماعيل ابن علي الذي كان يناظر الشافعي ومثل كتاب أبي علي الجبائي ، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، ولعلي بن عيسى الرماني والكشاف لأبي القاسم الزمخشري .

فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة .

وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم : التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢) .

و«توحيدهم» هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك ، قالوا : إن الله لا يُرى ، وإن القرآن مخلوق وإنه ليس فوق العالم ،

(١) القدرية : لا تطلق على فرقة بعينها ، وإنما يطلق ابن تيمية هذا اللفظ على المعتزلة ، وعلى كل من يرى أن العبد خالق لفعله بقدرته المستقلة عن قدرة الله ، وأحياناً يرجع هذا الرأي إلى غيلان الدمشقي ويرى أن المعتزلة أخذوا عنه القول بنفي القدر ، ولفظ القدرية من الألفاظ التي يرمي بها علماء الكلام بعضهم بعضاً ، وتحاول كل فرقة أن تبرئ نفسها من الانصاف به وتتهم به غيرها . فالمعتزلة يصفون به الجبرية والمشبهة ، والأشاعرة يطلقونه على المعتزلة [راجع شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٢ ، ٧٨٣ ، والتعريفات للجرجاني]

(٢) راجع شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار بن أحمد ، حققه وقدم له . الدكتور عبد الكريم عثمان وعلق عليه : أحمد بن الحسين بن أبي هاشم : الناشر : مكتبة وهبه - مصر .

وإنه لا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ، ولا بصر ولا كلام ، ولا مشيئة ولا صفة من الصفات .

وأما « عدلهم » فمن مضمونه أن الله لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها كلها ، ولا هو قادر عليها كلها ، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله ، لا خيرها ولا شرها ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً ، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئة ، وقد وافقهم على ذلك متأخروا الشيعة كالمفيد ، وأبي جعفر الطوسي وأمثالهما ، ولأبي جعفر هذا تفسير على هذه الطريقة ، لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الاثنى عشرية ^(١) ، فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك ولا من ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج « إنفاذ الوعيد في الآخرة » وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة ، ولا يخرج منهم أحداً من النار ولا ريب أنه قد رد عليهم طوائف من المرجئة والكرامية ^(٢) والكلابية وأتباعهم ، فأحسنوا تارة

(١) الاثنى عشرية : فرقة من فرق الشيعة الإمامية ، يقولون بأن الرسول - ﷺ - قد نص على إمامة علي من بعده ، ثم ساقوا الإمامة في أبنائه من بعده ، حتى محمد بن الحسن المهدي المنتظر ، وهو الإمام الثاني عشر ، والإمامة عندهم أهم أركان الدين ، ويقولون بعصمة الإمام ، ويلحقون الإمام بالنبي في العصمة ، وقد صنف ابن تيمية كتاباً في الرد على الشيعة ، وهو « منهاج السنة النبوية » في الرد على منهاج الكرامة لابن المطهر الحلي ، وقد نشر الجزء الأول منه بتحقيق الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم - أنظر الملل والنحل ١ : ٢٧٧ - ٢٧٩ ، والفرق بين الفرق ٢١ - ٢٤ ، ومقالات الاسلاميين للأشعري ١ / ٥ ، ١٦ - ١٧ .

(٢) الكرامية : هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ وهم يقولون بآثبات الصفات لله ، وبعضهم يبالغ في ذلك إلى حد التشبيه ، ويقولون : بالحكمة وإثبات القدر ويوافقون المعتزلة في القول بالمعرفة العقلية والتحسين والتقييح العقليين ، وهم يعتبرون من المرجئة .

[راجع لسان الميزان ٥ : ٣٥٣ - ٣٥٦ ، وميزان الاعتدال ٤ : ٢١ والفصل لابن حزم ٤ : ٥٤ ، والملل والنحل ١ : ١٨٠ - ١٩٣ والخطط للمقريزي ٢ : ٣٤٩ - ٣٥٧]

وأساءوا أخرى حتى صاروا في طرفي نقيض ، كما قد بسط في غير هذا الموضوع .

والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين :

تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن ، إما دليلاً على قولهم ، أو جواباً على المعارض لهم .

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشف ونحوه ، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك .

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ، ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة ، فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجه .

فتفسير الرافضة كقولهم ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ^(١) هما : أبو بكر وعمر .

و ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ^(٢) أي بين أبي بكر وعلي في الخلافة .

(١) سورة المسد آية رقم ١ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦٥ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ ^(١) هي عائشة و ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ ^(٢) طلحة والزبير . و ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ ^(٣) علي وفاطمة .
و ﴿ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ^(٤) الحسن والحسين .
و ﴿ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٥)
في علي بن أبي طالب .

و ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٦)
علي بن أبي طالب .

و ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ^(٧) هو علي .

ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم وهو : تصدقه بخاتمه في الصلاة .

وكذلك قوله ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ^(٨) نزلت في علي لما أصيب بحمزة .

ومما يقارب هذا من بعض الوجوه ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ . وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ

(١) سورة البقرة آية رقم ٦٧ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢ .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ١٩ .

(٤) سورة الرحمن آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة يس آية رقم ١٢ .

(٦) سورة النبا آية رقم ١ - ٢ .

(٧) سورة المائدة آية رقم ٥٥ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ١٥٧ .

بِالْأَسْحَارِ ﴿١﴾ إِنَّ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ : رَسُولُ اللَّهِ ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ أَبُو بَكْرٍ ،
﴿وَالْقَانَتِينَ﴾ : عُمَرُ ، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ : عَثْمَانُ ، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ :
عَلِيٌّ .

وفي مثل قوله ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ - أَبُو بَكْرٍ - ﴿أَشِدَّاءُ
عَلَى الْكُفَّارِ﴾ - عُمَرُ - ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ - عَثْمَانُ - ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا﴾ - عَلِيٌّ - (٢) .

وأعجب من ذلك قول بعضهم ﴿وَالَّتَيْنِ﴾ أَبُو بَكْرٍ ، ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ عُمَرُ
﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ عَثْمَانُ . ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ عَلِيٌّ .

وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه
بحال ، فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص .

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا﴾ (٣) كل ذلك نعت الذين معه ، وهي التي يسميها النحاة خبراً بعد
خبر .

والمقصود هنا : أنها كلها صفات لموصوف واحد وهم الذين معه ولا
يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد .

وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد
كقوله : إن قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٤) أريد بها عليٌّ
وحده .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٥٥ .

وقول بعضهم : إن قوله ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ (١) أريد بها أبو بكر وحده .

وقوله ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ (٢) أريد بها أبو بكر وحده ونحو ذلك .

وتفسير ابن عطية وأمثاله : اتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ؛ فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري (٣) ، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة ، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول ، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوا وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا وفي الجملة : من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم الى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك ، بل مبتدعاً وإن كان

(١) سورة الزمر آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ١٠ .

(٣) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر المؤرخ المفسر الإمام ولد في آمل طبرستان عام ٢٢٤ هـ واستوطن بغداد وتوفي بها عام ٣١٠ وعرض عليه القضاء فامتنع والمظالم فأبى له أخبار الرسل والملوك يعرف بتاريخ الطبري وجامع البيان في تفسير القرآن يعرف بتفسير الطبري واختلاف الفقهاء ، قال ابن الأثير أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وكان مجتهداً في أحكام الدين [راجع ارشاد الأريب ٦ / ٤٢٣ وتذكرة الحفاظ ٢ / ٣٥١ وطبقات السبكي ٢ / ١٣٥ ومفتاح السعادة ١ / ٢٠٥ والبداية والنهاية ١١ / ١٤٥] .

مجتهداً مغفوراً له خطأه ، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلتها وطرق الصواب .

ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، فمن خالف قولهم ^(١) وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً ، ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها ^(٢) إما عقلية ، وإما سمعية ، كما هو مبسوط في موضعه والمقصود هنا : التنبيه على مثار ^(٣) الاختلاف في التفسير وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وفسروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به ، وتأولوه على غير تأويله .

فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق ، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف ^(٤) تفسيرهم ، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث ^(٥) مبتدع ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق .

وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره .

وأما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية ، والوعاظ ، والفقهاء ، وغيرهم ، يفسرون القرآن بمعان صحيحة ، لكن القرآن لا يدل عليها مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي ^(٦) في حقائق

(١) في (ب) نهجهم بدلاً من (قولهم) .

(٢) في (ب) عنده بدلاً من (يذكرها) .

(٣) في (ب) مدار بدلاً من (مثار) .

(٤) في (ب) ضد بدلاً من (يخالف) .

(٥) في (ب) فضل بدلاً من (محدث) .

(٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

التفسير ، وإن كان فيما ذكره ما هو معان ^(١) باطلة ، فإن ذلك يدخل في القسم الأول ، وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً ^(٢) ، حيث يكون المعنى الذي قصدوه ^(٣) فاسداً .

(١) في (ب) باطل بدلاً من قوله (معان باطلة) .

(٢) سقط من (ب) الدليل والمدلول جميعاً .

(٣) في (ب) ذهبوا إليه بدلاً من (قصدوه) .

فصل أحسن طرق التفسير

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟
فالجواب : إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل
في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر من مكان فقد بسط في
موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له .
بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ^(١) كل ما حكم
به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا
أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ ^(٢) وقال تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣)
ولهذا قال رسول الله ﷺ :

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء فليرجع إليها وراجع أيضاً تذكرة الحفاظ ١ : ٣٢٩ ،
وتهذيب التهذيب ٩ : ٢٥ والوفيات ١ : ٤٤٧ وارشاد الأريب ٦ : ٣٦٧ - ٣٩٨ وغاية النهاية
٢ : ٩٥ وصفة الصفوة ٢ : ١٤٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٥٦ - ٧٣ وحلية الأولياء ٩ : ٦٣ ونزهة
الجليس ٢ : ١٣٥ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٣٥ - وتهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء
الأول ٤٤ - ٦٧ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٨٠ - ٢٨٤ .

(٢) سورة النساء الآية رقم ١٠٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٦٤ .

« ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنة . والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن ، لا أنها تتلى كما يتلى .

وقد استدلل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فمن السنة ، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : بَمَ تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي .

قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ (١) .

وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد .

وحينئذ إذ لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدركوا بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبرائهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، مثل : عبد الله بن مسعود . قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثنا أبو كريب قال : أنبأنا جابر بن نوح ، أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال عبد الله : يعني ابن مسعود والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٢٣٠ - ثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة عن أبي عون عن الحرث بن عمرو بن أخي المغيرة بن شعبة عن ناس من أصحاب معاذ من أهل حمص عن معاذ أن رسول الله - ﷺ حين بعثه إلى اليمن فقال : وذكره وأخرجه أبو داود في كتاب الأقضية

بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته (١) .

وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ومنهم الحبر البحر « عبد الله بن عباس » ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ، ببركة دعاء رسول الله ﷺ حيث قال :

« اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، أنبأنا وكيع أنبأنا سفيان عن الأعمش عن مسلم عن مسروق قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس (٢) ثم رواه عن يحيى بن داود ، عن اسحاق الأزرق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : نعم ترجمان للقرآن ابن عباس ثم رواه عن بNDAR ، عن جعفر بن عون ، عن الأعمش ، به كذلك ، فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة .

وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح ، وعمر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود وقال الأعمش عن أبي وائل : استخلف عليّ ابن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته

(١) ورد هذا الأثر في صحيح البخاري كتاب التفسير . باب القراء عن أصحاب رسول الله ﷺ - عن مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » . وذكره ابن جرير الطبري في تفسيره ١ : ٢٨ ، وابن كثير ٤ : ٢٧ كتاب فضائل القرآن .

(٢) هذا تخريج وافي لما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود في شأن الصحابي الجليل : عبد الله =

الروم ، والترک ، والديلم ، لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه اسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود ، وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال : «بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (١) .

رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو .

ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين (٢) من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك . ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام .

« أحدها » ما علمنا صحته مما بأدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

و« الثاني » ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

و« الثالث » ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجاوز حكايته لما تقدم .

وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك .

كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ،

= ابن عباس : حبر الأمة والذي قال فيه الرسول - ﷺ - اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء فليرجع إليه

(٢) الزاملة : بغير يستظهر به الرجل يحمل متاعه وطعامه عليه والزاملة : المعادلة على البعير ، وزملمه في ثوبه لفه ، وتزمل بشيابه تدثر .

وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحيها الله لآبراهيم ،
وتعيين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله
منها موسى . إلى غير ذلك مما أهتمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على
المكلفين في دنياهم ولا دينهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال
تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (١)

فقد اشتملت هذه (٢) الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم
ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين
الأولين وسكت عن الثالث (٣) ، فدل على صحته ، إذا لو كان باطلاً لرده كما
ردهما ، ثم أرشد الى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته (٤) ، فيقال في
مثل هذا :

﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾

فإنه ما يعلم (٥) بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا
قال ﴿ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ ، أي : لا تجهد نفسك فيما لا طائل
تحته ، ولا تسألهم عن (٦) ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب .

(١) سورة الكهف آية رقم ٢٢ .

(٢) سقط من (ب) لفظ (هذا)

(٣) في (ب) الآخر بدلاً من (الثالث) .

(٤) في (ب) فيه بدلاً من (تحته) .

(٥) في (ب) لا يعلم بدلاً من (ما يعلم) .

(٦) في (ب) عنه بدلاً من (عن ذلك) .

فهذا أحسن ما يكون في حكاية (١) الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف (٢) وثمرته ، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم ، فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي (٣) تركه ، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب ، أو جاهلاً فقد أخطأ ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعودة لفظاً ، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور (٤) والله الموفق للصواب .

(١) في (ب) معرفة بدلاً من (حكاية) .

(٢) في (ب) ثمرة الخلاف بدلاً من (فائدة الخلاف وثمرته) .

(٣) في (أ) بزيادة لفظ (الذي) .

(٤) الزور : الكذب قال تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ﴾ المجادلة آية ٢ .

وقال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ سورة الحج آية رقم ٣٠ .
والزور بالفتح أعلى الصدر وهو أيضاً ﴿ الزائرون ﴾ يقال رجل « زائر » وقوم « زور » .

فصل تفسير القرآن بأقوال التابعين

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ^(١) ، فإنه كان آية في التفسير ، كما قال محمد بن اسحاق : حدثنا أبان ابن صالح عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ، وبه إلى الترمذي قال : حدثنا الحسين بن مهدي البصري ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، وبه إليه قال : حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال : قال مجاهد : لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير

(١) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم : تابعي ، مفسر من أهل مكة قال الذهبي : شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، قرأه عليه ثلاث مرات ، وتنقل في الأسفار واستقر في الكوفة ، وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها . ذهب إلى بئر برهوت « بحضرموت » وذهب إلى بابل توفي عام ١٠٤ هـ . [راجع طبقات الفقهاء ٤٥ وإرشاد ٦ : ٢٤٢ وميزان الاعتدال ٣ : ٩ وحلية ٣ : ٢٧٩]

القرآن ومعه الواحه قال : فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ، ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة والضحاك بن مزاحم^(١) ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في ألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك ، والله الهادي .

وقال شعبة بن الحجاج^(٢) وغيره أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ، يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم

(١) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم : مفسر ، كان يؤدب الأطفال ويقال : كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي . قال الذهبي : كان يطوف عليهم على حمار ، وذكره ابن حبيب تحت عنوان « أشرف المعلمين وفقهاءهم » له كتاب في التفسير توفي عام ١٠٥ . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ٤٧١ وتاريخ الخميس ٢ : ٣١٨ والمحرر ٤٧٥]

(٢) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي مولى لهم ، الواسطي ثم البصري أبو بسطام : من أئمة رجال الحديث . حفظاً ودراية وثبوتاً ولد عام ٨٢ هـ بواسط ونشأ بها وسكن البصرة الى أن توفي عام ١٦٠ هـ ، وهو أول من فتن بالعراق عن أمر المحدثين ، وجانب الضعفاء والمتروكين . قال الإمام أحمد : هو أمة وحده في هذا الشأن ، وقال الشافعي : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق . له كتاب « الفرائد في الحديث » . [راجع تهذيب التهذيب ٤ : ٣٣٨ وحلية الأولياء ٧ : ١٤٤ وذيل المذيل ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٢٥٥]

ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن ، أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك .

تفسير القرآن بالرأي حرام

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام .

حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » (١) حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » وبه إلى الترمذي قال : حدثنا عبد بن حميد حدثني حسان بن هلال قال : حدثنا سهيل أخو حزم القطعي قال : حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (٢) .

قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم (٣) .

-
- (١) الحديث أخرجه الترمذي ٤٨ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ (١) باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ٢٩٥٠ - حدثنا محمود بن غيلان حدثنا بشر بن السري ، حدثنا سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .
- وفي رواية قال : اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . قال الترمذي : هذا حديث حسن .
- (٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ٢٩٥٢ - حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا حبان ابن هلال ، حدثنا سهيل بن عبد الله وهو ابن أبي حزم أخو حزم القطعي ، حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب بن عبد الله قال . قال رسول الله - ﷺ - وذكره .
- (٣) قال حرب عن أحمد روى أحاديث منكورة ، وقال اسحاق بن منصور عن ابن معين صالح ، =

وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم ، وأما الذي روى عن مجاهد وقادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم ، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلناه أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ ، والله أعلم .

وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين فقال : ﴿ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ^(١) فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ، لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، وتكلف ما لا علم له به ، والله أعلم .

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر ، قال : قال أبو بكر الصديق أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم ؟!

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ^(٢) : حدثنا محمود بن يزيد عن العوام

= وقال البخاري لا يتابع في حديثه يتكلمون فيه ، وقال مرة : ليس بالقوي عندهم ، وقال أبو حاتم : ليس بالقوي يكتب حديثه ولا يحتج به ، وأخوه حزم أتقن منه ، وقال النسائي ليس بالقوي . ووثقه العجلي . [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ٢٦١]

(١) سورة النور آية رقم ١٣ .

(٢) هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخراعي بالولاء الخراساني البغدادي ، أبو عبيد من كبار =

ابن حوشب عن ابراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ^(١) فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم - منقطع - ^(٢)

وقال أبو عبيد أيضا : حدثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر . وقال عبد بن حميد : حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرا : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه . وهذا كله محمول على أنهما - رضي الله عنهما - إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل ، لقوله تعالى ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَرَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ^(١)

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال : حدثنا ابن عليه عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها : فأبى أن يقول فيها ^(٤) - اسناده صحيح .

= علماء الحديث والأدب والفقهاء من أهل هراة ولد عام ١٥٧ هـ ورحل إلى بغداد فولى القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة ورحل إلى مصر سنة ٢١٣ هـ وإلى بغداد من كتبه « الغريب المصنف » في غريب الحديث ألفه في نحو أربعين سنة ، وهو أول من صنف في هذا الفن و« فضائل القرآن » توفي عام ٢٢٤ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٥ وتهذيب التهذيب ٧ : ٣١٥ وابن خلكان ١ : ٤١٨ وطبقات النحويين واللغويين ٢١٧ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٥٩]

- (١) سورة عبس آية رقم ٣١ .
- (٢) وإنما انقطع الاسناد لأن أبا بكر - رضي الله عنه - قد توفي سنة ١٣ هـ بينما ولد ابراهيم بن محمد سنة ٣٦ هـ فلم ير أبا بكر وبالتالي لم يرو عنه .
- (٣) سورة عبس آية رقم ٢٧ - ٣٠ .
- (٤) هذا من شدة تحرز الصحابة رضوان الله عليهم - أن يقول إنسان منهم برأيه في كتاب الله تعالى .

وقال أبو عبيد : حدثنا اسماعيل بن ابراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١) فقال له ابن عباس فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٢) ؟ فقال الرجل : إنما سألتك لتحديثي ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب يعني ابن ابراهيم حدثنا ابن عليه عن مهدي بن ميمون عن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب ابن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال : أخرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني ، أو قال : أن تجالسني . وقال مالك عن يحيى بن سعيد (٣) عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً .

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة وقال ابن شوذب : حدثني يزيد ابن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع .

(١) سورة السجدة آية رقم ٥ .

(٢) سورة المعارج آية رقم ٤ .

(٣) يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري البخاري أبو سعيد قاض من أكابر أهل الحديث من أهل المدينة ، قال الجمحي ما رأيت أقرب شبهاً بالزهري من يحيى بن سعيد ، ولولاهما للذهب كثير من السنن ولي القضاء بالمدينة في زمن بني أمية ، توفي بالهاشمية عام ١٤٣ هـ [راجع تهذيب التهذيب ١١ : ٢٢١ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٠١ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٥١ وتاريخ القضاء في الإسلام ١٧] .

وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن عبدة الضبي ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع .

وقال أبو عبيد : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط ^(١) .

وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن ، فاتق الله وعليك بالسراد .

وقال أبو عبيد : حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبيد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده ، حدثنا هشيم عن مغيرة عن ابراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه .

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر ، قال : قال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سألت عنها : ولكنها الرواية عن الله .

وقال أبو عبيد : حدثنا هشيم ، أنبأنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه .

(١) راجع هذه الآثار وكثير غيرها في تفسير محمد بن جرير الطبري تحت عنوان « ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي » . ١ : ٧٧ - ٧٩ .

ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (١) ولما جاء في الحديث المروي من طرق .

من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال : قال ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها .

وتفسير لا يعذر أحد بجهالته .

وتفسير يعلمه العلماء .

وتفسير لا يعلمه إلا الله

والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨٧ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٤ باب من سئل عن علم فكتمه ٢٦٤ - حدثنا أحمد

ابن الأزهر، ثنا الهيثم بن جميل حدثني عمرو بن سليم ، ثنا يوسف بن ابراهيم ، قال : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

في الزوائد : اسناد حديث أنس فيه يوسف بن ابراهيم قال البخاري : هو صاحب عجائب ، وقال ابن حبان : روي عن أنس من حديثه ما لا يخل بالرواية . ووافقوا على ضعفه وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ وأخرجه الترمذي ٣ باب ما جاء في كتمان العلم ٢٦٤٩ - حدثنا أحمد بن بديل بن قريش الياامي الكوفي ، حدثنا عبد الله بن نمير عن عمارة بن زاذان عن علي بن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

قال الترمذي : حديث أبي هريرة حديث حسن .

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بكتابه الذي هو الهدى ^(١) والشفاء والنور ، وجعله أحسن ^(٢) الحديث وأحسن القصص ^(٣) ، وجعله الصراط المستقيم لأهل العقل والتدبر ، ولأهل التلاوة والذكر ولأهل الاستماع والحال .

فالمعتصمون به علماً وحالاً وتلاوة وسمعاً باطنياً وظاهراً هم المسلمون حقاً ، خاصة أمة محمد ﷺ ثم لما انحرف من انحرف من أهل الكلام والحروف إلى كلام غيره ومن أهل السماع والصوت إلى سماع غيره كان الانحراف في أربع طوائف متجانسة .

قوم تركوا التعلم منه والنظر ^(٤) فيه والتدبر له إلى كلام غيره من كلام

(١) قال تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ سورة البقرة آية رقم ١ ، ٢ .
(٢) قال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٣) قال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٤) سقط من (ب) جملة (والنظر فيه) .

الصابئة ^(١) أو اليهود ، أو ما هو مولد من ذلك أو مجانس له ، أو نحو ذلك ، وهم منحرفة المتكلمة وبازائهم قوم أقاموا حروفه وحفظوه وتلوه من غير فقه فيه ، ولا فهم لمعانيه ، ولا معرفة للمقالات ^(٢) التي توافقه أو تخالفه ، ووجه بيانه لمساثلها ودلائلها وهم ظاهرية القراء والمحدثين ونحوهم ^(٣) ، وهذان الصنفان نظير متفقه لا يعرف الحديث أو صاحب حديث لا يتفقه فيه وكذلك متكلم لا يتدبر القرآن أو قارئ لا يعرف من القرآن أنواع الكلام الحق والباطل ، فهاتان فرقتان علميتان و« الثالثة » قوم تركوا استماع القلوب له والتنعم به ، وتحرك القلب عن محركاته وذوق حلاوته ووجود طعمه الى سماع أصوات تغيره من شعر أو ملاهي ^(٤) ، من أصوات الصابئة أو النصاري ، أو ما هو مولد عن ذلك ومجانس ^(٥) له ، أو نحو ذلك وهم منحرفة المتصوفة والمتفكرة .

وبازائهم قوم يصوتون به ويسمعون قراءته من غير تحرك عنه ، ولا وجد فيه ، ولا ذوق لحقائقه ومعانيه ^(٦) وهم ظاهرية العباد والمتطوعة والمتقرئة .

فهذان الصنفان صاحب حال تحرك الأصوات ^(٧) حاله وليست تلك الحركة والحال عن الصوت بالقرآن ، وصاحب مقال يميز بين الأقوال وينظر فيها ^(٨) ، وليس ذلك النظر والمقال عن القرآن ، وبازائهما صاحب عبادة

(١) سبق الكلام عن هذه الفرقة وراجع ما كتبه الشهرستاني في كتابه الملل والنحل عن هذه الجماعة .

(٢) في (ب) التأويلات بدلاً من (المقالات) .

(٣) في (ب) ومن على شاكلتهم بدلاً من (ونحوهم) .

(٤) في (ب) نحوه بدلاً من (ملاهي) .

(٥) في (ب) موافق بدلاً من (مجانس) .

(٦) سقط من (ب) لفظ : ومعانيه .

(٧) في (ب) تحركه الأصوات بدلاً من (تحرك الأصوات حاله) .

(٨) في (ب) يدقق بدلاً من (وينظر) .

ظاهرة معه استماع ظاهر القرآن وتلاوته .

وصاحب علم ظاهر معه حفظ حروف القرآن أو تفسير حروفه من غريبه وإعرابه (١) ، وأسباب نزوله ونحو ذلك فهذه الأقسام الأربعة الذين وقفوا مع ظاهر العلم والعمل المشروعين ، والذين خاضوا في باطن العلم والعمل ، لكن غير المشروعين جاء التفريط والاعتداء منهم .

ولهذا وقع بينهم التعادي (٢) ، فالأولون يرمون الآخرين بالبدعة والضلالة ، وقد صدقوا .

والآخرون ينسبون الأولين إلى الجهالة والعجز (٣) ، وقد صدقوا .

ثم قد يكون مع بعض الأولين كثير من العلم والعمل (٤) المشروع كما قد يكون مع بعض الآخرين كثير من العلم الباطن والحال الكامن ، كما قد روى الحسن البصري (٥) في مراسيله عن النبي ﷺ أنه قال : العلم علمان : علم في القلب ، وعلم في اللسان .

فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على عباده ، وقال يحيى بن سعيد التيمي أبو حيان فيما رواه الخلال (٦) في جامعه عن الثوري : العلماء ثلاثة :

(١) سقط من (ب) لفظ (وإعرابه) .

(٢) في (ب) وقعت بينهم (العداوة) .

(٣) في (ب) وعدم الفهم بدلاً من (والعجز)

(٤) سقط من (ب) (والعمل) .

(٥) هو أحمد بن محمد بن هارون ، أبو بكر الخلال : مفسر عالم بالحديث واللغة من كبار الحنابلة ، من أهل بغداد ، كانت حلقاته بجامع المهدي . قال ابن أبي يعلى : له التفاسير الدائرة ، والكتب السائرة وقال الذهبي : جامع علم أحمد ومرتبته من كتبه « تفسير الغريب » وطبقات أصحاب ابن حنبل وغير ذلك كثير . توفي عام ٣١١ هـ [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٨ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٧]

فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله .
وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله .
وعالم بالله ، وبأمر الله .

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه فصل

وأما سؤاله (١) عن إجراء القرآن على ظاهره فإنه إذا آمن بما وصف الله به (٢) نفسه ، ووصفه به رسوله من غير تحريف (٣) ولا تكيف فقد اتبع سبيل المؤمنين .

ولفظ الظاهر في عرف المتأخرين قد صار فيه اشتراك فإن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو من خصائص المخلوقين حتى يشبه الله بخلقه فهذا ضال بل يجب القطع بأن الله ليس كمثله شيء (٤) ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، فقد قال ابن عباس : ليس في الدنيا ممها في الجنة إلا الأسماء ، يعني أن موعود الله في الجنة من الذهب والحريير والخمر واللبن تخالف حقائقه حقائق (٥) هذه الأمور الموجودة في الدنيا ، فالله تعالى أبعد عن مشابهة مخلوقاته بما لا يدركه العباد ، ليست حقيقته كحقيقة شيء منها .

(١) في (ب) بزيادة لفظ (السائل) .

(٢) في (ب) بزيادة (سبحانه وتعالى) .

(٣) كما قال الإمام مالك - رضي الله عنه (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة) .

(٤) راجع ما كتبه الإمام الشوكاني عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

(٥) سقط من (ب) لفظ (حقائق) .

وأما إن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة ، لا يحرف الكلم عن ^(١) مواضعه ، ولا يلحد في أسماء الله تعالى ، ولا يقرأ القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنة ، بل يجري ذلك على ما اقتضته النصوص ، وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنة ، وأجمع عليه سلف الأمة ، فهذا مصيب في ذلك وهو الحق .

وهذه جملة لا يسع هذا الموضع تفصيلها ، والله أعلم وسئل رحمه الله :

عن قوله ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ^(٢) .

فاختلاف المفسرين في آية واحدة إن كان بالرأي فكيف النجاة ؟ وإن لم يكن بالرأي فكيف وقع الاختلاف ؟ والحق لا يكون في طرفي نقيض أفتونا .. ؟

فأجاب رحمه الله تعالى :

ينبغي أن يعلم ^(٣) أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين :

« أحدهما » ليس في تضاد وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقاً ، وإنما هو اختلاف تنوع أو اختلاف في الصفات أو العبادات ^(٤) .

(١) كما فعل اليهود وأتباع المسيح عليه السلام . حيث حرفوا كتب الله تعالى فأظهر الله تعالى كفرهم بقوله : أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون « البقرة آية رقم ٧٥ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء وراجع ما أخرجه الامام الترمذي في هذا الموضوع .

(٣) في (ب) بزيادة (السائل وغيره) .

(٤) في (ب) وغيرها بدلاً من (العبادات) .

وعامة (١) الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب ، فإن الله سبحانه إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ عبارة يدل بها على بعض صفاته ، وكل ذلك (٢) حق بمنزلة ما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء كل اسم منها يدل على صفة من صفاته فيقول بعضهم :

الصراط المستقيم : كتاب الله ، أو اتباع كتاب الله ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام ، أو دين الاسلام ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرجاء والحب وامثال (٣) المأمور واجتناب المحظور أو متابعة الكتاب والسنة ، أو العمل بطاعة (٤) الله أو نحو هذه الأسماء والعبارات .

ومعلوم أن المسمى واحد وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته (٥) ، كما إذا قيل : محمد هو أحمد وهو الحاشر ، وهو الماحي ، وهو العاقب ، وهو خاتم المرسلين (٦) ، وهونبي الرحمة ، وهونبي الملحمة . وكذلك إذا قيل : القرآن هو الفرقان والنور والشفاء والذكر الحكيم والكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت . وكذلك أسماء الله الحسنى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ (٧) وهو ﴿ الَّذِي خَلَقَ

(١) في (ب) وأكثر بدلاً من (وعامة) .

(٢) سقط من (ب) « وكل ذلك حق » .

(٣) في (ب) الأمور بدلاً من (المأمور) .

(٤) في (ب) بما أمر بدلاً من (بطاعة) .

(٥) في (ب) وصفاته بدلاً من (وعباراته) .

(٦) سقط من (ب) جملة (وهو خاتم المرسلين) .

(٧) سورة الحديد آية رقم ٣ .

فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿١﴾
﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ
اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ
الْمُتَكَبِّرُ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ (٢) وأمثال ذلك .

فهو سبحانه واحد صمد ، وأسماءه الحسنى تدل كلها على ذاته ، ويدل
هذا من صفاته على ما لا يدل عليه الآخر فهي متفقة في الدلالة على الذات ،
متنوعة في الدلالة على الصفات ، فالاسم يدل على الذات ، والصفة المعينة
بالمطابقة ، ويدل على أحدهما بطريق التضمن ، وكل اسم يدل على الصفة
التي دل عليها بالالتزام ؛ لأنه يدل على الذات المتكنى به جميع الصفات
فكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه ومنه قسم آخر وهو أن يذكر
المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التعيين والتمثيل ، لا على سبيل
الحد (٣) والحصص مثل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز ؟ فيشار له
إلى رغيف ، وليس المقصود مجرد عينه وإنما الإشارة إلى تعيين هذا
الشخص .

وهذا كما إذا سئلوا عن قوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ
سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ (٤)﴾ أو عن قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

(١) سورة الأعلى آية رقم ٢ - ٥ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢٢ - ٢٤ .

(٣) الحد في اللغة : المنع والفصل بين الشيئين ، ومنه كل شيء حده والحد أيضاً تأديب
المذنب ، وجمعه حدود ومنه أقيمت عليه الحد وحدود الله تعالى الأشياء التي بين تحريمها
وتحليلها .

والحد أيضاً النهاية التي ينتهي إليه تمام المعنى وما يوصل إليه التصور المطلوب ، وحد الشيء
الوصف المحيط بمعناه المميز له من غيره .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٣٢ .

مُحْسِنُونَ ﴿١﴾ أو عن ﴿الصَّالِحِينَ﴾ أو ﴿الظَّالِمِينَ﴾ ونحو ذلك من الأسماء العامة الجامعة التي قد يتعسر أو يتعذر على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه (٢) ، إذ لا يكون محتاجاً إلى ذلك فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل (٣) به غرضه وقد يستدل على نظائره .

فإن الظالم لنفسه هو تارك المأمور فاعل المحذور (٤) و«المقتصد» هو فاعل الواجب وتارك المحرم و«السابق» هو فاعل الواجب والمستحب وتارك المحرم والمكروه فيقول المجيب بحسب حاجة السائل الـ «ظالم» الذي يفوت الصلاة والذي لا يسبغ الوضوء ، أو الذي لا يتم (٥) الأركان ونحو ذلك والـ «مقتصد» الذي يصلي في الوقت كما أمر ، والـ «سابق بالخيرات» الذي يصلي الصلاة بواجباتها ومستحباتها ، ويأتي بالنوافل المستحبة معها ، وكذلك يقول مثل هذا في الزكاة والصوم والحج وسائر الواجبات .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : التفسير على أربعة أوجه (٦) :

تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، فمن ادعى علمه (٧) فهو كاذب . والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه : كما أخذوا عنه السنة ، وإن

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

(٢) في (ب) ضبط مجموعه بدلاً من (مجموع معناه) .

(٣) في (ب) ما يتم بدلاً من (ما يحصل به) .

(٤) في (ب) ما أمر به وفاعل ما خطر عليه .

(٥) في (ب) لا يقيم بدلاً من (لا يتم) .

(٦) في (ب) أنواع بدلاً من (أوجه) .

(٧) في (ب) علم هذا بدلاً من (ادعى علمه) .

كان من الناس من غير^(١) السنة فمن الناس من غير بعض معاني القرآن إذ لم يتمكن من تغيير لفظه .

و « أيضاً » فقد يخفى على بعض العلماء بعض معاني القرآن كما خفي عليه بعض السنة ، فيقع خطأ^(٢) المجتهدين من هذا الباب ، والله أعلم .

أقرب التفاسير الى الكتاب والسنة

سئل شيخ الاسلام

عن جندي نسخ بيده صحيح مسلم والبخاري والقرآن وهو ناو كتابة الحديث والقرآن العظيم ، وإن سمع بورك أو أقلام اشترى بألف درهم .

وقال : أنا إن شاء الله أكتب في جميع هذا الورق أحاديث الرسول والقرآن ، ويؤمل آمالاً بعيدة فهل يائثم أو لا ؟

وأي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة ؟ الزمخشري^(٣) أم القرطبي^(٤) ، أم البغوي^(٥) ، أو غير هؤلاء فأجاب :

الحمد لله ، ليس عليه إثم فيما ينويه ويفعله من كتابة العلوم الشرعية ، فإن كتابة القرآن والأحاديث الصحيحة والتفاسير الموجودة الثابتة من أعظم القربات والطاعات وأما « التفاسير » التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن

(١) في (ب) بدل بدلاً من (غير) .

(٢) وهذا لا يقدح فيه لقول الرسول - ﷺ - من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران .

(٣) يسمى الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . ويسمى محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ هـ .

(٤) يسمى الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . قامت بطبعه ، وزارة الثقافة المصرية عن نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

(٥) تفسير البغوي ويسمى (معالم التنزيل) .

جرير الطبري^(١) فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن بكير والكلبي ، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة ، كتفسير عبد الرزاق وعبد بن حميد ، ووکیع وابن أبي قتيبة ، وأحمد بن حنبل . واسحاق بن راهويه .

وأما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة « البغوي »^(٢) لكنه مختصر من « تفسير الثعلبي »^(٣) وحذف منه الأحاديث الموضوعة ، والبدع التي فيه ، وحذف أشياء غير ذلك .

وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره وتفسيره ، وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها .

وأما الزمخشري فتفسيره محشو بالبدعة ، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن ، وأنكر أن الله مريد للكائنات ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : مفتاح السعادة ٢ : ٣١٥ وتاريخ بغداد ٢ : ١٦٢ - ١٦٩ ، وفيات الأعيان ١ : ٥٧٧ - ٥٧٨ المنتظم لابن الجوزي ٦ : ١٧٠ - ١٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢ : ١٠٦ - ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ٢ : ٢٥١ - ٢٥٥ .

(٢) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الفقيه الشافعي ، والمحدث والمفسر المشهور بالفراء توفي سنة ٥١٦ هـ وهو من أقرب المفسرين وأجودهم رواية من السلف . تأثر بالثعلبي في تفسيره ، ونقل عنه بعد أن حذف منه الأحاديث الموضوعة ، ويعتبر البغوي من أئمة أهل السنة في زمانه [راجع الوفيات ١ : ٤٠٢ ، وطبقات الشافعية ٤ : ٢١٤ - ٢١٧ وتذكرة الحفاظ ٤ : ٢٥٧ ، والأعلام ٢ : ٢٨٤] .

(٣) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري صاحب التفسير ، كان إماماً في اللغة والتفسير . روى عن أبي طاهر بن خزيمة ، وأخذ عنه الواحدي توفي سنة ٤٢٧ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٦ ، وانباء الرواة ١ : ١١٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٤٠ ومعجم الأدباء ٥ : ٣٦ ، وطبقات المفسرين ٥ ، ومرآة الجنان ٣ : ٤٦ وشذرات الذهب ٣ : ١٣٠ ، واللباب ١ : ١٩٤ ومفتاح السعادة ٢ : ٦٧] .

وخالف لأفعال العباد ، وغير ذلك من أصول المعتزلة و« أصولهم خمسة »
يسمونها: التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر
بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

لكن معنى « التوحيد » عندهم يتضمن نفي الصفات ، ولهذا سمي ابن
التمومت (١) أصحابه الموحدين ، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومعنى « العدل » عندهم يتضمن التكذيب بالقدر وهو خلق أفعال
العباد ، وإرادة الكائنات والقدرة على شيء ، ومنهم من ينكر تقدم العلم
والكتاب لكن هذا قول أئمتهم ، وهؤلاء منصب الزمخشري فإن مذهبه مذهب
المغيرة بن علي وأبي هاشم وأتباعهم ومذهب أبي الحسين والمعتزلة الذين
على طريقته نوعان : مسايخية وخشبية .

وأما « المنزلة بين المنزلتين » فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً
بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافراً فنزلوه بين منزلتين .

و« إنفاذ الوعيد » عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون في النار لا
يخرجون منها بشفاعاة ولا غير ذلك كما تقوله الخوارج .

و« الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » يتضمن عندهم جواز الخروج
على الأئمة ، وقتالهم بالسيف ، وهذه الأصول حشا بها كتابه بعبارة لا يهتدي
أكثر الناس إليها ، ولا لمقاصده فيها مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، ومن

(١) هو محمد بن عبد الله بن تمومت المصمودي البربري ، أبو عبد الله المتلقب بالمهدي ،
صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب وواضع أسس الدولة المؤمنية
الكومية ، وهو من قبيلة « هرغة » من المصامدة من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى ولد
عام ٤٨٥ هـ ورحل إلى المشرق طالباً للعلم - حج وأقام بمكة وخرج منها إلى مصر فطرد منها
مات عام ٥٢٤ هـ . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ٣٧ وابن خلدون ٦ : ٢٢٥ وجدوه الاقتباس
١٢٨] .

قلة النقل عن الصحابة والتابعين وتفسير القرطبي ^(١) خير منه بكثير .

وأقرب الى طريقة الكتاب والسنة ، وأبعد عن البدع وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد لكن يجب العدل بينها ، وإعطاء كل ذي حق حقه و« تفسير ابن عطية » ^(٢) خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثاً ، وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها .

وتم تفاسير آخر كثيرة جداً كتفسير ابن الجوزي ^(٣) والماوردي ^(٤) .

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله القرطبي : من كبار المفسرين . صالح متعبد من أهل قرطبة . رحل الى الشرق واستقر بمنبة ابن خصيب (في شمالي أسبوط) وتوفي بها عام ٦٧١ من كتبه « الجامع لأحكام القرآن » « وقمع الحرص بالزهد والقناعة والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » والتذكار في أفضل الأذكار والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة » وكان ورعاً متعبداً يمشي بشوب واحد وعلى رأسه طاقية . [راجع نفح الطيب ١ : ٤٢٨ والديباج ٣١٧] .

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي من محارب قيس الغرناطي أبو محمد مفسر ، فقيه ، أندلسي ، من أهل غرناطة عارف بالأحكام والحديث ، له شعر ، مجلي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملتمين ، وتوفي بلورقة عام ٥٤٢ هـ له « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز في عشر مجلدات ، وبرنامج في ذكر مروياته وأسماء شيوخه ، وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ و ٥٤٦ هـ [راجع نفح الطيب ١ : ٥٨٥ ، وقضاء الأندلس ١٠٩ وبغية الملتمس ٣٧٦ والمعجم لابن الأبياء ٢٥٩ وكشف الظنون ٤٣٩ و ١٦١٣ وبغية الوعاه ، ٢٩٥]

(٣) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (أبو الفرج) الامام المحدث والفقيه والمتكلم والمفسر توفي سنة ٥٩٧ هـ اشتهر بالوعظ وسلامة الأسلوب ، من أهم كتبه « زاد المسير في علم التفسير ، وتيسير البيان في علم القرآن ، والمغني في التفسير . قال ابن رجب : إن هذا الكتاب أحد وثمانون جزءاً . [راجع ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ٣٢١ - ٣٢٢ ، وتاريخ ابن الوردي ٢ : ١٨٨ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١ : ٣٩٩ - ٤٣٣ والكامل لابن الأثير ١ : ٢٢٨ - ١٢ : ٦٧ ، والاعلام ٤ : ٨٩ - ٩٠ ودرة تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٧٠ هامش ٦ .]

(٤) هو علي بن محمد بن حبيب الفقيه الشافعي المعروف بالماوردي ، درس بالبصرة ، وبغداد =

أنزل القرآن على سبعة أحرف

وسئل عن :

قول النبي ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

ما المراد بهذه السبعة ؟

وهل هذه القراءات المنسوبة إلى نافع^(١) وعاصم^(٢) وغيرهما هي الأحرف السبعة ، أو واحد منها ؟ .

= سنين كثيرة ، وتولى منصب القضاء مرات عديدة ، وقيل انه لم يظهر تصانيفه في حياته إلا « الحاوي » فقد قرئ عليه كما قال ابن السبكي ، له مؤلفات كثيرة من أهمها « الحاوي » والاقناع ، وأدب الدنيا والدين ، ودلائل النبوة ، والأحكام السلطانية ، وقانون الوزارة وسياسة الملك ، توفي سنة ٤٥٠ هـ [راجع تاريخ بغداد ١٢ : ١٠٢ - ١٠٣ وفيات الأعيان ١ : ٤١٠ - ٤١١ ، ومعجم الأدباء ١٥ : ٥٢ - ٥٥ ، طبقات الشافعية ٣ : ٣٠٣ - ٣١٤ ، المنتظم لابن الجوزي ٨ : ١٩٩ - ٢٠٠ ، ومفتاح السعادة ٢ : ٣٣١] .

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو رويم مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب أحد القراء السبعة المشهورين إمام أهل المدينة وعالمها في القراءة رجع الى قراءته واختياره قرأ عليه مالك بن أنس وكان عارفاً بوجوه القراءات وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة رضوان الله عليهم قرأ القرآن على ابن قعقاع والزهري والأعرج ، قال ابن اسحاق : لما حضرت نافع الوفاة قال له أولاده : أوصنا ، قال : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم - توفي سنة ١٦٩ هـ أو سنة ١٧٠ وقيل غير ذلك . [انظر : غاية النهاية لابن الجوزي ٢ / ٣٣٠ - ٣٣٤ مفتاح السعادة ٢ : ٢١] .

(٢) هو عاصم بن بهدلة بن النجدود « فتح النون وضم الجيم » أبو بكر الأسدي شيخ القراء بالكوفة ، وأحد القراء السبعة ، وبهدلة اسم أمه ، جمع بين الفصاحة والالتقان والتحرير والتجويد ، كان من أحسن أهل الكوفة صوتاً بالقرآن ، وهو من التابعين وروى عن رفاة والحارث بن حسان ، أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي ، كان أحب القراءة إليه قراءة أهل المدينة . [راجع : غاية النهاية لابن الجوزي ١ : ٣٤٦ - ٣٤٩ مفتاح السعادة ٢ : ٣٧] .

وما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف ؟ .

وهل تجوز القراءة برواية الأعمش وابن محيصة وغيرهما من القراءات الشاذة أم لا ؟ .

وإذا جازت القراءة بها فهل تجوز الصلاة بها أم لا ؟ أفنونا مأجورين .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين .

هذه مسألة كبيرة ، وقد تكلم فيها أصناف العلماء من الفقهاء والقراء ، وأهل الحديث والتفسير والكلام وشرح الغريب وغيرهم حتى صنف فيها التصنيف المفرد ومن آخر ما أفرد في ذلك ما صنفه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي المعروف بابن أبي شامة ^(١) . صاحب « شرح الشاطبية » ^(٢) فأما ذكر أقاويل الناس وأدلتهم وتقرير الحق فيها مبسوطاً فيحتاج من ذكر الأحاديث الواردة في ذلك وذكر ألفاظها وسائر الأدلة

(١) هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي أبو شامة مؤرخ محدث باحث ، أصله من القدس ، ومولده عام ٦٦٥ هـ في دمشق ، وبها منشؤه ووفاته ، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفي ، ودخل عليه اثنان في صورة مستفتين فضرباه فمرض ومات عام سنة ٦٦٥ هـ ، من كتبه : تراجم رجال القرنين السادس والسابع . وله إبراز المعاني في شرح الشاطبية وغير ذلك - راجع بغية الدعاة ٢٩٧ - غاية النهاية ١ : ٣٦٥] .

(٢) نسبة إلى الامام الشاطبي وهو القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الشاطبي الضرير أحد أعلام القراءات المشهورين ، ولد سنة ٥٨٣ هـ بشاطبية « قرية بجزيرة الأندلس » ، قرأ وأتقن القراءات على المتقري ثم رحل الى بلنسية فعرض بها التيسير على أبي هذيل ، وأخذ عنه كتاب سيبويه ، ثم رحل للحج فسمع من أبي طاهر السلفي بالاسكندرية وأقام بمصر فترة ، وأكرمه القاضي الفاضل وعُرف له قدره توفي سنة ٥٩٠ هـ بالقاهرة ودفن بها [راجع وفيات الأعيان ١ / ٥٣٤ ، طبقات الشافعية ٤ : ٢٩٧ ، البداية والنهاية ١٣ : ١٠ حسن المحاضرة للسيوطي ١ : ٢٨٤ مفتاح السعادة ٢ : ٤٩] .

الى ما لا يتسع له هذا المكان ، ولا يليق بمثل هذا الجواب ، ولكن نذكر النكت الجامعة التي تنبه على المقصود بالجواب . فنقول : لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة التي ذكر أن النبي ﷺ [قال] إن القرآن أنزل عليها ليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر بن مجاهد ^(١) وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد فإنه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام ، إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره ، والحديث والفقه ، من الأعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية . فلما أراد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من أئمة قراء هذه الأمصار ليكون ذلك موافقا لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن ، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة ، أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم .

ولهذا قال من قال من أئمة القراء : لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة ^(٢) لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي ^(٣) إمام جامع البصرة ، وإمام قراء البصرة في زمانه في رأس المائتين .

(١) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد التميمي الحافظ البغدادى شيخ القراء في عصره أول من سبغ السبعة قرأ على ابن عبدوس وأخذ عنه كما قرأ على قنبر المكي ولد سنة ٢٤٥ هـ وتوفي سنة ٣٢٤ [راجع طبقات القراء ١ : ١٣٩] .

(٢) هو حمزة بن حبيب بن عمار بن اسماعيل الزيات التيمي أحد القراء السبعة المشهورين ، كان من موالى تيم فنسب إليهم ، وكان يحضر الزيت من الكوفة إلى حلوان ، ولد سنة ٨٠ هـ ، ومات بحلوان مما يلي بلاد الجبل بالعراق سنة ١٥٦ هـ ، انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول ، قال الثوري : ما قرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر : [انظر غاية النهاية في طبقات القراء للجذري ١ : ٢٦١ والفهرست ٤٤ ، مفتاح السعادة ٢ / ٣٩] .

(٣) هو يعقوب بن اسحاق بن زيد الحضرمي البصري ، أبو محمد ، أحد القراء العشرة ، مولده ووفاته بالبصرة عام ١١٧ - ٢٠٥ هـ كان إمامها ومقرئها ، وهو من بيت علم بالعربية والأدب ، =

ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً كما قال عبد الله بن مسعود (١) إنما هو كقول أحدكم : أقبل وهلم وتعال وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر ، لكن كلا المعنيين حق ، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض ، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ في هذا حديث : " أنزل القرآن على سبعة أحرف ، إن قلت : غفوراً رحيماً ، أو قلت : عزيزاً حكيماً ، فالله كذلك . ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة " (٢) وهذا كما في القراءات المشهورة

= له في القراءات رواية مشهورة وله كتب منها « الجامع » قال الزبيدي : جمع فيه عامة اختلاف وجوه القرآن ، ونسب كل حرف إلى من قرأه ، ومن كتبه « وجوه القراءات » و« وقف التمام » . [راجع إرشاد الأريب ٧ : ٣٢٠ وطبقات النحويين للزبيدي ٥١ ، وغاية النهاية ٢ : ٣٨٦ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٧٩]

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي : توفي عام ٣٢ هـ [راجع الاصابة ٤٩٥٥ ، وغاية النهاية ١ : ٤٥٨ والبدء والتاريخ ٥ : ٩٧ ، وصفة الصفوة ١ : ١٥٤ ، وحلية الأولياء ١ : ١٣٤ وفيه بعض خطبه ، وتاريخ الخميس ٢ : ٢٥٧ والبيان والتبيين ٢ : ٥٦] .
(٢) ورد الحديث في البخاري بروايات مختلفة ، ونصه كما في رواية عروة بن الزبير عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله - ﷺ - فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنها رسول الله - ﷺ - فكنت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلبيته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ .

قال أقرأنها رسول الله - ﷺ - فقلت : كذبت : فإن رسول الله - ﷺ - أقرأنها على غير ما قرأت . يقول عمر : فانطلقت به أقوده الى رسول الله - ﷺ - فقلت : اني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنها . فقال رسول الله - ﷺ - أرسله . أقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ . فقال رسول الله - ﷺ - كذلك أنزلت : ثم قال : أقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني . فقال رسول الله - ﷺ - كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه .

البخاري كتاب فضائل القرآن باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ٦ : ٢٢٧ - ٢٢٨ وكتاب التوحيد ، بدء الخلق . كما أخرجه أبو داود في كتاب الوتر ، والترمذي في كتاب القرآن ، =

ربنا باعد وبعّد ، « إِنْ أَنْ يَخَافَا إِلَّا يَقيِمَا ، وإِلَّا أَنْ يُخَافَا إِلَّا يَقيِمَا » .

﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلزُّوْلِ ﴾ ولِيُزول مِنْهُ الْجبال ، ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾
﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ ونحو ذلك .

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقاً من وجه متبايناً من وجه كقوله
﴿ يَخْدَعُونَ وَيُخَادِعُونَ ﴾ و﴿ يَكْذِبُونَ وَيَكْذِبُونَ ﴾ و﴿ لَمْسْتُمْ ﴾
و﴿ لَمْسْتُمْ ﴾ و﴿ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ و﴿ يَطْهَرْنَ ﴾ ونحو ذلك فهذه القراءات التي
يتغاير فيها المعنى كلها حق وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع
الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً ، لا
يجوز ترك موجب أحدهما لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض ، بل كما قال
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وأما ما اتحد لفظه ومعناه ، وإنما يتنوع صفة النطق به كالهمزات
والمدات والإمالات ، ونقل الحركات والإظهار والإدغام والاختلاس وترقيق
اللامات والراءات أو تغليظها ونحو ذلك مما يسمى القراءات الأصول ، فهذا
أظهر وأبين في أنه ليس فيهم تناقض ولا تضاد مما تنوع فيه اللفظ أو المعنى ،
إذ هذه الصفات المتنوعة في أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً ،
يعد ذلك فيما اختلف لفظه واتحد معناه ، أو اختلف معناه من المترادف
ونحوه .

ولهذا كان دخول هذا في حرف واحد من الحروف السبعة التي أنزل
القرآن عليها من أولى ما يتنوع فيه اللفظ أو المعنى وإن وافق رسم
المصحف ، وهو ما يختلف فيه النقط أو الشكل .

ولذلك لم يتنازع علماء الإسلام المتبوعين من السلف والأئمة في أنه لا
يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة في جميع أمصار المسلمين ، بل من ثبت

والنسائي في الافتتاح ، وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١٦ (حلي)

عنده قراءة الأعمش ^(١) شيخ حمزة أو قراءة يعقوب الحضرمي ، ونحوها ، كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائي ^(٢) ، فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الإجماع والخلاف بل أكثر العلماء الأئمة الذين أدركوا قراءة حمزة كسفيان بن عيينة ^(٣) وأحمد بن حنبل ، وبشر بن الحارث وغيرهم يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح المدنيين وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب بن اسحاق وغيرهم على قراءة حمزة والكسائي وللعلماء الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف عند العلماء ، ولهذا كان أئمة أهل العراق الذين ثبتت عندهم قراءات العشرة أو الأحد عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون ذلك في الكتب ، ويقرأونه في الصلاة وخارج الصلاة ، وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم .

وأما الذي ذكره القاضي عياض ^(٤) ومن نقل من كلامه من الإنكار على

(١) الأعمش هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي المشهور بالأعمش تابعي مشهور ، أصله من بلاد الري ، ولد بالكوفة سنة ٦١ هـ ، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ، روى نحوه ألف وثلاثمائة حديث قال عنه الذهبي كان الأعمش رأساً في العلم النافع والعمل الصالح [راجع الطبقات الكبرى ٦ : ٢٣٨ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٣٩٢] .

(٢) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز الأسدي فارسي الأصل المعروف بالكسائي انتهت إليه رئاسة الاقراء في عهده بالكوفة أخذ عنه حمزة ، روى عنه كثير من الأئمة كابن حنبل وغيره ، قال عنه الشافعي : من أراد أن يتبحر في العلم فهو عيال على الكسائي ، وقال يحيى ابن معين : ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي [انظر غاية النهاية للجزري ١ : ٥٣٥ - ٥٤٠ الفهرست ص ٩٧ - ٩٨ - مفتاح السعادة ٢ : ٤١] .

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي أبو محمد محدث الحرم المكي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ وتوفي عام ١٩٨ هـ وسبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) القاضي عياض - هو عالم المغرب أبو الفضل بن موسى ، ولد سنة ٤٧٦ هـ كان ثقة زاهداً ، ورعاً عابداً قوي العقيدة بعيداً عن البدع توفي سنة ٥٤٤ هـ وله ثمان وستون سنة ، ومن أهم مصنفاته (كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) محدث عالم بالرواية ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم ، تولى قضاء سبته ، ثم غرناطة وكانت وفاته بمراكش . [راجع =

ابن شنبوذ الذي كان يقرأ بالشواذ في الصلاة في أثناء المائة الرابعة ، وجرت له قصة مشهورة ، فإنما كان ذلك في القراءات الشاذة الخارجة عن المصحف كما سنبينه ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة ، ولكن من يكن عالماً بها أو لم تثبت عنده كمن يكون في بلد من بلاد الإسلام بالمغرب أو غيره ولم يتصل به بعض هذه القراءات فليس له أن يقرأ بما لا يعلمه ، فإن القراءة كما قال زيد بن ثابت سنة يأخذها الآخر عن الأول ، كما أن ما ثبت عن النبي ﷺ . من أنواع الاستفتاحات في الصلاة ، ومن أنواع صفة الأذان والإقامة ، وصفة صلاة الخوف وغير ذلك كله حسن يشرع العمل به لمن علمه ، وأما من علم نوعاً ولم يعلم غيره فليس له أن يعدل عما علمه إلى ما لم يعلمه ، وليس له أن ينكر على من بعلمه من ذلك ، ولا أن يخالفه ، كما قال النبي ﷺ « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » (١) .

وأما القراءة الشاذة الخارجة عن رسوم المصحف العثماني مثل قراءة ابن مسعود ، وأبي الدرداء رضي الله عنهما ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، والذكر والأثنى ﴾ كما قد ثبت ذلك في الصحيحين ، ومثل قراءة عبد الله ﴿ فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴾ وكقوله ﴿ إن كانت الأزقية واحدة ﴾ ونحو ذلك .

= مفتاح السعادة ٢ : ١٤٩ ووفيات الأعيان ٢ : ٧٤٩]

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤٤ كتاب الخصومات ١ باب ما يذكر في الأشخاص ، والخصومة بين المسلم واليهود ، ٢٤١٠ بسنده عن النزال بن سبرة ، سمعت عبد الله يقول : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من النبي ﷺ - خلافاً فأخذت بيده فأتيت به رسول الله ﷺ - فقال : كلاهما محسن . قال شعبة أظنه قال : وذكره . وأخرجه الترمذي في كتاب العلم ١ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ٢ - (٢٦٦٦) بسنده عن عبد الله بن عمرو وذكره ولفظه : « إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١ : ٤١٢ حلي .

فهذه إذا ثبتت عن بعض الصحابة فهل يجوز أن يقرأ بها في الصلاة على قولين للعلماء هما روايتان مشهورتان عن الإمام أحمد وروايتان عن مالك .

« احدهما » يجوز ذلك لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرأون بهذه الحروف في الصلاة .

و« الثانية » لا يجوز ذلك وهو قول أكثر العلماء ، لأن هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة ، فإنه قد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه به مرتين ، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصحف ، وكتبها أبو بكر وعمر في صحف ، أمر زيد بن ثابت بكتابتها ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار ، وجميع الناس عليها باتفاق من الصحابة علي وغيره (١) .

وهذا النزاع لا بد أن يكون على الأصل الذي سأل عنه السائل وهو أن القراءات السبعة . هل هي حرف من الحروف السبعة أم لا ؟ .

فالذي عليه جمهور العلماء من السلف والأئمة إنها حرف من الحروف السبعة ، بل يقولون : إن مصحف عثمان هو أحد الحروف السبعة ، وهو

(١) الأثر أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٧ باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ - ٤٩٩٨ - حدثنا خالد بن يزيد ، حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن ذكوان عن أبي هريرة قال : كان يعرض على النبي ﷺ - القرآن كل عام مرة ، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه ، وكان يعتكف في كل عام عشراً واعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه .

متضمن للعرضة الآخرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل ، والأحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول .

وذهب طوائف من الفقهاء والقراء وأهل الكلام إلى أن هذا المصحف مشتمل على الأحرف السبعة ، وقرر ذلك طوائف من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر الباقلاني ^(١) وغيره بناء على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة وقد اتفقوا على نقل هذا المصحف الإمام العثماني ، وترك ما سواه حيث أمر عثمان بنقل القرآن من الصحف التي كان أبو بكر وعمر كتبها القرآن فيها ، ثم أرسل عثمان بمشاورة الصحابة إلى كل مصر من أمصار المسلمين بمصحف وأمر بترك ما سوى ذلك .

« ترتيب السور اجتهادي »

قال هؤلاء : ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة ، ومن نصر قول الأولين يجيب تارة بما ذكر محمد بن جرير وغيره من أن القراءة على الأحرف السبعة لم يكن واجباً على الأمة وإنما كان جائزاً لهم مرخصاً لهم فيه ، وقد جعل إليهم الاختيار في أي حرف اختاروه ، كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً بل مفوضاً إلى اجتهادهم ، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد ، وكذلك مصحف غيره .

« ترتيب الآيات توقيفي »

وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم ، كما قدموا سورة على سورة ، لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً ، وأما ترتيب السور فمفوض إلى اجتهادهم .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

قالوا : فكذلك الأحرف السبعة ، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعاً سائغاً ، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور (١) .

ومن هؤلاء من يقول بأن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول

(١) ثبت في صحيح البخاري من رواية أنس - رضي الله عنه أن القرآن جمعه أربعة في عهد رسول الله - ﷺ - أحدهم زيد بن ثابت ولقد جمع زيد القرآن في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - بعد أن استحر القتل بالقراء يوم اليمامة - يقول زيد بن ثابت : أرسل إلي أبو بكر فقال - إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله - ﷺ - يقول أبو بكر : فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك . يقول زيد بن ثابت . قال لي أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله - ﷺ - فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن . فتبعت القرآن أجمعه من العصب واللحاف ، وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، ولم أجدها مع أحد غيره ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة وفي عهد عثمان بن عفان قدم إليه حذيفة بن اليمان بعد أن أفزعه اختلاف أهل العراق في القراءة .

فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك . فأرسلت حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان : إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا .

ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . [راجع صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن ٦ : ٢٢٥ - ٢٢٧ وابن كثير : فضائل القرآن ٤ : ١ - ٢٥]

الاسلام ، لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً ، فلما تذلت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرا عليهم وهو أرفق بهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرصة الأخيرة ، ويقولون : إنه نسخ ما سوى ذلك .

وهؤلاء يوافق قولهم قول من يقول : إن حروف أبي بن كعب وابن مسعود وغيرهما مما يخالف رسم هذا المصحف منسوخة .

وأما من قال عن ابن مسعود : أنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة ، وإنما هو كقول أحدكم : أقبل ، وهلم ، وتعال ، فاقروا كما علمتم « أو كما قال .

ثم من جوز القراءة بما يخرج عن المصحف مما ثبت عن الصحابة .

قال : يجوز ذلك ؛ لأنه من الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، ومن لم يجوزه فله ثلاثة مآخذ .

تارة يقول : ليس هو من الحروف السبعة ، وتارة يقول هو من الحروف المنسوخة ، وتارة يقول : هو مما انعقد إجماع الصحابة على الأعراض عنه ، وتارة يقول : لم ينقل إلينا نقلاً يثبت بمثله القرآن ، وهذا هو الفرق بين المتقدمين والمتأخرين .

ولهذا كان في المسألة قول ثالث ، وهو اختيار جدي أبي البركات (١)

(١) هو عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد. ابن تيمية الحراني ، مجتهد الدين ، فقيه حنبلي ، محدث ، مفسر ، ولد بخران ، ورحل إلى بغداد فأقام ست سنين وعاد إلى حران وتوفي بها عن نحو ٦٠ عاماً صنف ودرس ، وكان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي ، من كتبه « تفسير القرآن العظيم » و« المتقي في أحاديث الأحكام » والمحرر في الفقه ، وهو جد الامام ابن تيمية . [راجع جلاء العينين ١٨ والفوات ١ : ٢٧٤ والمقصد الأرشد وغاية النهاية ١ : ٣٨٥ ومجلة المنهل ٨ : ٢٢٢] .

أنه إن قرأ بهذه القراءات في القراءة الواجبة - وهي الفاتحة عند القدرة عليها - لم تصح صلاته ، لأنه لم يتيقن أنه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك ، وإن قرأ بها فيما لا يجب لم تبطل صلاته ، لأنه لم يتيقن أنه أتى في الصلاة بمبطل لجواز أن يكون ذلك من الحروف السبعة التي أنزل عليها . وهذا القول ينبنى على « أصل » وهو أن ما لم يثبت كونه من الحروف السبعة فهل يجب القطع بكونه ليس منها ؟ .

فالذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجب القطع بذلك ^(١) .

إذ ليس ذلك مما أوجب علينا أن يكون العلم به في النفي والإثبات قطعياً .

« اختلاف العلماء في البسمة »

وذهب فريق من أهل الكلام إلى وجوب القطع بنفيه حتى قطع بعض هؤلاء - كالقاضي أبي بكر - بخطأ الشافعي وغيره ممن أثبت البسمة آية من القرآن في غير سورة النمل ، لزعمهم أن ما كان من موارد ^(٢) الاجتهاد في القرآن فإنه يجب القطع ^(٣) بنفيه ، والصواب القطع بخطأ هؤلاء وأن البسمة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة في المصحف إذ لم يكتبوا فيه إلا القرآن وجردوه عما ليس منه كالتخميس والتعشير وأسماء السور ، ولكن مع ذلك لا

(١) قال ابن حجر واختلف في العرصة الأخيرة هل كانت بجميع الحروف المأذون في قراءتها ، أو بحرف واحد منها ؟ . .

وعلى الثاني : فهل هو الحرف الذي جمع عليه عثمان جميع الناس أو غيره ؟ وقد روى أحمد وابن أبي داود والطبري من طريق عبيدة بن عمرو السلماني : أن الذي جمع عليه عثمان الناس يوافق العرصة الأخيرة .

(٢) سقط من (ب) لفظ (موارد) .

(٣) سقط من (ب) لفظ (القطع) .

يقال هي من السورة التي بعدها (١) ، كما أنها ليست من السورة التي قبلها ، بل هي كما كتبت (٢) آية أنزلها الله في أول كل سورة وإن لم تكن من السورة ، وهذا أعدل الأقوال الثلاثة . في هذه المسألة .

وسواء قيل بالقطع في النفي أو الإثبات فذلك لا يمنع كونها من موارد الاجتهاد التي لا تكفير ولا تفسيق (٣) فيها للنافي ، ولا للمثبت ، بل قد يقال ما قاله طائفة من العلماء إن كل واحد من القولين حق ، وإنها آية من القرآن في بعض القراءات (٤) ، وهي قراءة الذين يفصلون بها بين السورتين ، وليست آية في بعض القراءات وهي قراءة الذين يصلون ولا يفصلون بها بين السورتين (٥) وأما قول السائل :

ما السبب الذي أوجب (٦) الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف ؟ فهذا مرجعه إلى النقل واللغة العربية لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله ، إذ ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد (٧) رأيه ، بل القراءة سنة متبعة وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الإمامي وقد قرأ بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم يكن واحدا منهما خارجاً عن (٨) المصحف .

ومما يوضح ذلك أنهم يتفقون في بعض المواضع على ياء أو ثاء ، ويتنوعون في بعض .

(١) في (ب) تليها بدلاً من (بعدها) .

(٢) سقط من (ب) جملة (كما كتبت) .

(٣) سقط من (ب) لفظ (ولا تفسيق) .

(٤) سقط من (ب) في بعض القراءات .

(٥) سقط من (ب) بين السورتين .

(٦) في (ب) أحدث بدلاً من (أوجب) .

(٧) في (ب) بزيادة (ما يمليه رأيه) .

(٨) في (ب) بزيادة (ما خط) .

كما اتفقوا في قوله تعالى ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) في موضع ، وتنوعوا في موضعين .

وقد بينا أن القراءتين كالآيتين . فزيادة القراءات كزيادة الآيات ، لكن إذا كان الخط واحداً واللفظ محتملاً كان ذلك أخصر في الرسم .

والاعتماد في نقل القرآن على حفظ (٢) القلوب لا على المصاحف ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : إن ربي قال لي أن أقم في قريش فأنذرهم فقلت : أي رب إذا يثلغوا رأسي - أي يشرخوا - فقال : إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظانا فابعث جندا أبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق أنفق عليك » (٣)

فأخبر أن كتابه لا يحتاج في حفظه الى صحيفة تغسل بالماء بل يقرأه في كل حال ، كما جاء في نعت أمته « أناجيلهم في صدورهم » .

بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ولا يقرأونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب .

وقد ثبت في الصحيح أنه جمع القرآن كله على عهد النبي ﷺ جماعة من الصحابة ، كالأربعة الذين من الأنصار ، وكعبد الله بن عمرو فتبين بما ذكرناه أن القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم (٤) ليست هي الأحرف

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٩ .

(٢) في (ب) ما وعته القلوب (بدلاً من على حفظ) .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ١٦ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٦٣ (٢٨٦٥) .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

السبعة التي أنزل القرآن عليها وذلك باتفاق علماء السلف والخلف^(١) .

وكذلك ليست هذه القراءات السبعة هي مجموع حرف واحد من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعبرين ، بل القراءات الثابتة عن أئمة القراء - كالأعمش ويعقوب ، وخلف وأبي جعفر يزيد ابن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ونحوهم - هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤلاء السبعة عند من ثبت ذلك عنده ، كما ثبت ذلك .

وهذا أيضاً مما لم يتنازع فيه الأئمة المتبوعون من أئمة الفقهاء والقراء وغيرهم ، وإنما تنازع الناس من الخلف في المصحف العثماني^(٢) الإمام الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، والأئمة بعدهم ، هل هو بما فيه من القراءات السبعة ، وتمام^(٣) العشرة وغير ذلك ، هل هو حرف من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، أو هو مجموع الأحرف السبعة ؟ على قولين مشهورين :

والأول : قول أئمة السلف والعلماء .

والثاني : قول طوائف من أهل الكلام والقراء وغيرهم^(٤) ، وهم متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافاً يتضاد^(٥) فيه المعنى ويتناقض ، بل يصدق بعضها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً ،

(١) أورد البخاري أن قتادة سأل أنس بن مالك فقال : من جمع القرآن على عهد رسول الله - ﷺ - فقال : أربعة كلهم من الأنصار . أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، وأبو زيد [راجع البخاري ٦ : ٢٣٠ - باب القراءة على عهد رسول الله] .

(٢) سقط من (ب) لفظ (العثماني) .

(٣) سقط من (ب) جملة (وتمام العشرة) .

(٤) في (ب) والصوفية بدلاً من (وغيرهم) .

(٥) في (ب) يتناقض بدلاً من (يتضاد) . وهو تحريف .

وسبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه^(١) ذلك لهم إذ مرجع ذلك إلى السنة والاتباع ، لا إلى الرأي والابتداع .

أما إذا قيل : إن ذلك هي الأحرف السبعة فظاهر وكذلك بطريق الأولى إذا قيل : إن ذلك حرف من الأحرف السبعة ، فإنه إذا كان قد سوغ^(٢) لهم أن يقرأوه على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ مع تنوع الأحرف في الرسم ، فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوعه^(٣) في اللفظ أولى وأحرى ، وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة^(٤) ولا منقوطة ، لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين كالتاء والياء ، والفتح والضم ، وهم يضبطون باللفظ كلا الأمرين ، ويكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المعقولين المفهومين ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعاً كما قال أبو عبد الرحمن السلمي^(٥) - وهو الذي روى عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه^(٦) » كما رواه البخاري في صحيحه ، وكان

(١) سقط من (ب) وتسويغه .

(٢) في (ب) ارتضى بدلاً من (سوغ) .

(٣) في (ب) وتبينه بدلاً من (وتنوعه) .

(٤) في (ب) بزيادة (بعلامات الاعراب) .

(٥) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٦) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢١ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه

- ٥٠٢٧ - حدثنا شعبة قال أخبرني علقمة بن مرثد سمعت سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن

السلمي عن عثمان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : وذكره .

وأخرجه أبو داود في الوتر ، والترمذي في ثواب القرآن ١٥ وابن ماجه في المقدمة ١٦ باب

فضل من تعلم القرآن وعلمه ٢١١ - بسنده عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ - وذكره .

يقرىء القرآن أربعين سنة .

قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : إنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا دخل في معنى قوله « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » تعليم حروفه ومعانيه جميعاً ، بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه ، وذلك هو الذي يزيد الإيمان ، كما قال جندب بن عبد الله (١) وعبد الله بن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الإيمان» وفي الصحيحين عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جنس قلوب الرجال ونزل القرآن (٢) ، وذكر الحديث بطوله ، ولا تتسع هذه

(١) هو جندب الخير الأزدي العامري قاتل الساحر - يكنى أبا عبد الله له صحبة يقال : إنه جندب بن زهير ، ويقال جندب بن عبد الله - روى عن النبي ﷺ - حد الساحر ضربه بالسيف . وعن سلمان الفارسي وعلي وعنه - حارثة بن وهب ، والحسن البصري ، وعثمان النهدي مات في خلافة معاوية ، وذكره ابن حبان في الثقات . [راجع تهذيب التهذيب ٢ : ١١٨ - ١١٩] .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الايمان ٦٤ باب رفع الأمانة والايمان من بعض القلوب ، وعرض الفتن على القلوب ٢٣٠ (١٤٣) بسنده عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ - حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن ، فعملوا من القرآن ، وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل نومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فقط فتراه منتبهاً وليس فيه شيء (ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله) فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبه خردل من إيمان » وأخرجه البخاري في كتاب الرقاق ٣٥ ، وكتاب الفتن ١٣ ، وكتاب الاعتصام ٣ ، وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن ١٧ باب ما جاء في رفع الأمانة ٢١٧٩ بسنده عن حذيفة بن اليمان وذكره . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

الورقة لذكر ذلك ، وإنما المقصود التنبيه على أن ذلك كله مما بلغه رسول الله ﷺ إلى الناس .

وبلغنا أصحابه عنه الإيمان والقرآن ، حروفه ومعانيه وذلك مما أوحاه الله إليه ، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ^(١)

وتجوز القراءة في الصلاة وخارجها بالقراءات الثابتة الموافقة لرسم المصحف ، كما ثبتت هذه القراءات ، وليست شاذة حينئذ . والله أعلم .

وسئل أيضاً :

عن جمع القراءات السبع .

هل هو سنة أم بدعة ، وهل جمعت على عهد رسول الله ﷺ أم لا ؟ .

وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية أم لا ؟

فأجاب :

الحمد لله ، أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول ، فمعرفة القرآن التي كان النبي ﷺ يقرأ بها ، أو يقرهم على القراءة بها ، أو يأذن لهم ، وقد أقرها بها سنة ، والعارف في القراءات ، الحافظ لها له مزية على من لم يعرف ذلك ، ولا يعرف إلا قراءة واحدة وأما جمعها في الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة ، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة .

وقال شيخ الإسلام :

في تحزيب القرآن ، وفي كم يقرأ ، وفي مقدار الصيام والقيام المشروع .

وأخرجه ابن ماجه في الفتن ٢٧ باب ذهاب الأمانة ٤٠٥٣ بسنده عن حذيفة وذكره .

وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٨٢ (حلي) .

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

عن عبد الله بن عمرو^(١) رضي الله عنهما قال : أنكحني أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد ابنته فيسألها عن بعْلِها فتقول : نعم الرجل لم يَطأ لنا فراشاً ، ولم يفتش لنا كفناً مذ أتيناها ، فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : ألقني به فلقيته بعد ، فقال : كيف تصوم ؟

قلت : كل ليلة ، قال : صم من كل شهر ثلاثة أيام واقراً القرآن في كل شهر ، قلت : إني أطيق أكثر من ذلك قال : صم ثلاثة أيام من كل جمعة ، قلت : إني أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين وصم يوماً ، قال : قلت : إني أطيق أكثر من ذلك قال : صم أفضل الصوم صوم داود ، صيام يوم وإفطار يوم واقراً القرآن في كل سبع ليال مرة ، قال : فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ، وذلك أني كبرت وضعفت فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار ، والذي يقرأه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، فإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ (٢) .

وقال بعضهم : في ثلاث وفي خمس ، وأكثرهم على سبع وفي لفظ

(١) هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، من قرش : صحابي من النساك من أهل مكة . كان يكتب في الجاهلية ، ويحسن السريانية وأسلم قبل أبيه ، فاستأذن رسول الله ﷺ - في أن يكتب ما يسمع منه فأذن له ، وكان كثير العبادة حتى قال له النبي ﷺ - إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً وإن لعينيك عليك حقاً - الحديث ، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين ، وشهد صفين مع معاوية وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة - عني في آخر عمره توفي عام ٦٥ هـ له ٧٠٠ حديث . [راجع طبقات ابن سعد ، القسم الثاني ، من الجزء الرابع ٨ - ١٣ والاصابة الترجمة ٤٨٣٨ وحلية الأولياء ١ : ٢٨٣ - والجمع بين رجال الصحيحين ٢٣٩] .

(٢) الحديث سبق تخريجه وهو في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن ٣٤ باب في كم يقرأ القرآن ؟ وقول الله تعالى : ﴿ فاقْرَأُوا مَا تيسر منه ﴾ ٥٠٥٢ ، ٥٠٥٤ بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وكذا أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

« اقرأ القرآن في شهر » قلت : إني أجد قوة . قال : فاقراه في سبع ولا تزيد على ذلك . رواه بكماله البخاري وهذا لفظه ، وروى مسلم الحديث بنحوه ، واللفظ الآخر مثله وفي رواية : ألم أخبر أنك تصوم الدهر ، وتقرأ القرآن كل ليلة فقلت : نعم يا نبي الله . وفيه قال : اقرأ القرآن في كل شهر قال : قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقراه في كل عشر ، قال : قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقراه في سبع ولا تزيد على ذلك قال : فشددت فشدد علي « وقال لي النبي ﷺ إنك لا تدري لعلك يطول بك عمرك ، قال : فصرت إلى الذي قال النبي ﷺ .

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « اقرأ القرآن في كل ثلاث » رواه أحمد وأبو داود .

قلت : هذه الرواية نبه عليها البخاري .

وقال بعضهم : في ثلاث . وهو معنى ما روي عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال : يا رسول الله اقرأ القرآن في ثلاث ؟ قال : نعم « وكان يقرأه حتى توفي .

رواه أحمد من طريق ابن لهيعة .

وذكر أن بعضهم قال : في خمس . وأكثرهم على سبع فالصحيح عندهم في حديث عبد الله بن عمرو أنه انتهى به النبي ﷺ إلى سبع ، كما أنه أمره ابتداء بقراءته في الشهر ، فجعل الحد ما بين الشهر إلى الأسبوع وقد روى أنه أمره ابتداء أن يقرأه في أربعين ، وهذا في طرف السعة يناظر الثلاث في طرف الاجتهاد .

وأما رواية من روى « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه » ^(١) فلا

(١) هي رواية قتادة عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله - ﷺ - « لا تفقه في قراءة في أقل من

تنافي رواية التسبيع ، فإن هذا ليس أمراً لعبد الله بن عمرو ولا فيه أنه جعل قراءته في ثلاث دائماً^(١) سنة مشروعة وإنما فيه الإخبار بأن من قرأه في أقل من ثلاث لم يفقه ومفهومه مفهوم العدد ، وهو مفهوم^(٢) صحيح أن من قرأه في ثلاث فصاعداً فحكمه نقيض ذلك ، والتناقض يكون بالمخالفة ولو من بعض الوجوه .

فإذا كان من يقرأه في ثلاث أحياناً^(٣) قد يفقهه حصل مقصود الحديث ولا يلزم إذا شرع فعل ذلك أحياناً لبعض الناس أن تكون المداومة على ذلك مستحبة ، ولهذا لم يعلم في الصحابة على عهده^(٤) من داوم على ذلك - أعني على قراءته دائماً فيما دون السبع ، ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يقرأه في كل سبع .

والمقصود بهذا الفصل أنه إذا كان التحزيب المستحب ما بين أسبوع إلى شهر - وإن كان قد روى ما بين ثلاث إلى أربعين - فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سوراً تامة . لا يحزبون السورة الواحدة ، كما روى أوس بن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة^(٥) ونزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له . قال : وكان

= ثلاث « يقول ابن كثير أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة وقال الترمذي : حسن صحيح وبرواية عمرة بنت عبد الرحمن قالت : سمعت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ - يختم القرآن في أقل من ثلاث ، ويعلق ابن كثير على هذا الحديث قائلاً : هذا حديث غريب جداً وفيه ضعف ، وضعفه الدارقطني . [راجع تفسير ابن كثير ٤ : ٤٩ - ٥٠ كتاب فضائل القرآن] .

(١) سقط من (ب) لفظ (دائماً) .

(٢) في (أ) بزيادة (وهو مفهوم صحيح) .

(٣) في (أ) بزيادة لفظ (أحياناً) .

(٤) في (ب) بزيادة (رسول الله ﷺ) .

(٥) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي أبو عبد الله أحد دهاة العرب ، وقادتهم =

كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائماً على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش ، ثم يقول : لا سواء كنا مستضعفين مستذلين بمكة ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا ، فلما كانت ليلة أبطاً عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت عنا الليلة قال : إنه طراً على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه (١) .

قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن ؟ .

قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل واحد رواه أبو داود ، وهذا لفظه .
وأحمد وابن ماجه .

وفي رواية للإمام أحمد قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ،

= صحابي ، يقال له « مغيرة الرأي » ولد في الطائف عام ٢٠ ق هـ دخل الاسكندرية وافداً على المقوقس أسلم عام ٥ هـ وشهد الحديبية واليمامة وفتح الشام وذهبت عينه باليرموك ، وشهد القادسية ، ونهاوند وغيرها وولاه عمر بن الخطاب على البصرة توفي عام ٥٠ هـ [راجع الاصابة ت ٨١٨١ وأسد الغابة ٤ : ٤٠٦ والطبري ٦ : ١٣١ والجمع بين الصحيحين ٤٩٩] .

(١) أورد ابن الأثير هذه القصة بأكملها في ترجمته لأوس بن حذيفة فقال قال حذيفة « قدمنا وفد ثقيف على رسول الله ﷺ - فنزل الأحلافيون على المغيرة بن شعبة وأنزل المالكيين قبته . وكان رسول الله ﷺ - يأتينا فيحدثنا بعد العشاء الأخيرة حتى يراوح بين قدميه من طول القيام ، وكان أكثر ما يحدثنا اشتكاء قريش يقول : كنا بمكة مستذلين مستضعفين فلما قدمنا المدينة انتصفنا من القوم فكانت الحرب سجال لنا وعلينا . يقول حذيفة : واحتبس عنا الرسول ليلة من الوقت الذي كان يأتينا فيه ثم أتانا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا الليلة عن الوقت الذي كنت تأتينا فيه ، فقال رسول الله ﷺ - إنه طراً على حزبي من القرآن فأحببت ألا أخرج حتى أقضيه . قال حذيفة : فلما أصبحنا سألنا أصحاب رسول الله ﷺ - عن أحزاب القرآن كيف تحزبونه ... الخ . [راجع سنن أبي داود وابن ماجه ، وابن الأثير في أسد الغابة ١ : ١٦٧ - ١٦٩] .

وسبع سور وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة وحزب المفصل من « ق » حتى يختم .

ورواه الطبراني في معجمه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ ، كيف كان رسول الله ﷺ يحزب القرآن ؟ .

فقالوا : كان رسول الله ﷺ يحزبه ثلاثاً وخمساً ، فذكره .

وهذا الحديث يوافق معنى حديث عبد الله بن عمرو في أن المسنون كان عندهم قراءته في سبع ، ولهذا جعلوه سبعة أحزاب ، ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة وفيه أنهم حزبوه بالسور ، وهذا معلوم بالتواتر فإنه قد علم أن أول ما جرى القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين ، وثلاثين ، وستين ، هذه التي تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب في أثناء السورة وأثناء القصة ، ونحو ذلك كان في زمن الحجاج^(١) وما بعده .

وروي أن الحجاج أمر بذلك .

ومن العراق فشا ذلك ، ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك .

وإذا كانت التجزئة بالحروف محدثة من عهد الحجاج بالعراق ، فمعلوم أن الصحابة قبل ذلك على عهد النبي ﷺ ، وبعده كان لهم تحزيب آخر ؛ فإنهم كانوا يقدرون تارة بالآيات فيقولون : خمسون آية ، ستون آية ، وتارة بالسور ، لكن تسبيعه بالآيات لم يروه أحد ، ولا ذكره أحد فتعين التحزيب

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي قائد داهية - سفاك خطيب ولد عام ٤٠ هـ ونشأ بالطائف ، وانتقل إلى الشام قلده عبد الملك عسكره وأمره بقتال عبد الله بن الزبير - قتله وفرق جموعه ولاء عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليه العراق والثورة قائمة فيه توفي عام ٩٥ هـ [راجع معجم البلدان ٨ : ٣٨٢ ووفيات الأعيان ١ : ١٢٣ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢١٠ وابن الأثير ٤ : ٢٢٢] .

بالسور فإن قيل : فترتيب سور القرآن ليس هو أمراً واجباً منصوباً عليه ^(١) ، وإنما هو موكول ^(٢) إلى الناس ، ولهذا اختلف ترتيب مصاحف الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا ^(٣) في كراهة تنكيس السور روايتان عن الإمام أحمد .

احدهما : يكره لأنه خلاف المصحف العثماني المتفق عليه و« الثانية » لا يكره كما يلقيه الصبيان ، إذ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قرأ بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران قيل : لا ريب أن قراءة سورة بعد سورة لا بد أن يكون مرثياً أكثر ما في الباب أن الترتيب يكون أنواعاً ، كما أنزل القرآن على أحرف ، وعلى هذا : فهذا ^(٤) التحزيب يكون تابعاً لهذا الترتيب ويجوز أيضاً ^(٥) أن يكون هذا التحزيب مع كل ترتيب ، فإنه ليس في الحديث تعيين السور .

« الأفضل ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم »

وهذا الذي كان عليه الصحابة هو الأحسن لوجوه : « أحدها » أن هذه التحزيبات المحدثّة تتضمن دائماً الوقوف على بعض الكلام المتصل بما بعده ، حتى يتضمن الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه ، فيحصل القارئ في اليوم الثاني مبتدئاً بمعطوف ، كقوله تعالى ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ^(٦) وقوله ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٧) وأمثال ذلك .

(١) سقط من (ب) جملة « منصوباً عليه » .

(٢) في (ب) أمره بدلاً من « موكول » .

(٣) في (أ) بزيادة « ولهذا » .

(٤) في (أ) بزيادة « فهذا » .

(٥) سقط من (ب) لفظ « أيضاً »

(٦) سورة النساء آية رقم ٢٤ وعجز الآية : ﴿ كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا =

ويتضمن الوقف على بعض القصة دون بعض - حتى كلام المتخاطبين -
حتى يحصل الابتداء في اليوم الثاني بكلام المجيب .. كقوله تعالى :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (١) .

ومثل هذه الوقوف لا يسوغ في المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما
بأجنبي (٢) ، ولهذا لو ألحق بالكلام عطف أو استثناء أو شرط ونحو ذلك بعد
طول الفصل بأجنبي (٣) لم يسغ باتفاق العلماء ، ولو تأخر القبول عن
الايجاب بمثل ذلك بين المتخاطبين لم يسغ ذلك بلا نزاع ، ومن حكى
عن (٤) أحمد خلاف ذلك فقد أخطأ ، كما أخطأ من نقل عن ابن عباس في
الأول خلاف ذلك ، وذلك أن المنقول عن أحمد أنه فيما إذا كان المتعاقدان
غائبين أو أحدهما غائب ، والآخر حاضراً فينقل الايجاب أحدهما إلى الآخر
فيقبل في مجلس البلاغ ، وهذا جائز ، بخلاف ما إذا كانا حاضرين ، والذي
في القرآن نقل كلام حاضرين متجاورين فكيف يسوغ أن يفرق هذا التفريق
لغير حاجة بخلاف ما إذا فرق في التلقين (٥) لعدم حفظ المتلقن ونحو ذلك .

« الثاني » أن النبي ﷺ كانت عادته الغالبة وعادة أصحابه أن يقرأ في

= بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما

تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً ﴿

(٧) سورة الأحزاب آية رقم ٣١ وعجز الآية ﴿ وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً
كريماً ﴾ .

(١) سورة الكهف آية رقم ٧٢ .

(٢) سقط من (ب) لفظ « بأجنبي »

(٣) سقط من (ب) لفظ « بأجنبي » .

(٤) في (ب) بزيادة لفظ « الإمام » .

(٥) سواء كان هذا التلقين للكبار أو الصغار ما دامت الغاية في النهاية والقصد هو استظهار كتاب
الله تعالى .

الصلاة بسورة ك « ق » ونحوها وكما كان عمر رضي الله عنه يقرأ بيونس و« يوسف » و« النحل » ولما قرأ ﷺ بسورة المؤمنين في الفجر أدركته سعة فركع في أثنائها وقال : إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأخفف ؛ لما أعلم من وجد أمه به « (١) » .

وأما القراءة بأواخر السور وأواسطها ، فلم يكن غالباً عليهم ، ولهذا يتورع في كراهة ذلك ، وفيه النزاع المشهور في مذهب أحمد وغيره ، ومن أعدل الأقوال قول من قال يكره اعتياد ذلك دون فعله أحياناً لئلا يخرج عما مضت به السنة ، وعادة السلف من الصحابة والتابعين .

وإذا كان كذلك فمعلوم أن هذا التحزيب والتجزئة فيه مخالفة السنة أعظم مما في قراءة آخر السورة ووسطها في الصلاة ، وبكل حال فلا ريب أن التجزئة والتحزيب الموافق لما كان هو الغالب على تلاوتهم أحسن .

و« المقصود » أن التحزيب بالسور التامة أولى من التحزيب بالتجزئة .

« الثالث » أن التجزئة المحدثه لا سبيل فيها إلى التسوية بين حروف الأجزاء ، وذلك لأن الحروف في النطق تخالف الحروف في الخط في الزيادة والنقصان ، يزيد كل منهما على الآخر من وجه دون وجه ، وتختلف الحروف من وجه (٢) ، وبيان ذلك بأمور « أحدها » أن ألفات الوصل ثابتة في الخط ، وهي في اللفظ تثبت في القطع وتحذف في الوصل ، فالعاد إن حسبها انتقض

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ٣٧ باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ١٩٢ - حدثنا محمد بن منهل الضرير حدثنا يزيد بن زريع ، ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . وأخرجه البخاري في كتاب الأذان ٦٥ باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ٧٠٧ - حدثنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه أبي قتادة عن النبي - ﷺ - وذكره ، وأخرجه الامام أحمد في المسند ١٠٩ : ٣ (حلي)

(٢) في (ب) بزيادة لفظ (آخر)

عليه حال القارىء إذا وصل وهو الغالب فيها ، وإن أسقطها انتقض عليه بحال القارىء القاطع ، وبالخط « الثاني » أن الحرف المشدد حرفان في اللفظ ، أولهما ساكن ، وهذا معروف بالحس واتفاق الناس ، وهما متماثلان في اللفظ ، وأما في الخط فقد يكونان حرفاً واحداً مثل ﴿ إياك ﴾ و﴿ إياك ﴾ وقد يكونان حرفين مختلفين مثل ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ أهدنا الصراط المستقيم ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ و﴿ حينئذ ﴾ ^(١) و﴿ قد سمع ﴾ ^(٢) فالعاد إن حسب اللفظ فالإدغام إنما يكون في حال الوصل دون حال القطع ويلزمه أن يجعل الأول من جنس الثاني ، وهذا مخالف لهذا الحرف للمعاد بها وإن حسب الخط كان الأمر أعظم اضطراباً ، فإنه يلزمه أن يجعل ذلك تارة حرفاً وتارة حرفين مختلفين وهذا وإن كان هو الذي يتجهى فالنطق بخلافه « الثالث » أن تقطيع حروف النطق من جنس تقطيع العروضيين ^(٣) ، وأما حروف الخط فيخالف هذا من وجوه كثيرة ، والناس في العادة إنما يتهجون الحروف مكتوبة لا منطوقة ، وبينهما فرق عظيم .

« الرابع » أن النطق بالحروف ينقسم إلى ترتيل وغير ترتيل ، ومقادير

(١) قال تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ سورة الواقعة آية رقم ٨٤ .

(٢) قال تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع

تجاوزكما إن الله سميع بصير ﴾ . سورة المجادلة آية رقم ١ .

(٣) علم العروض - هو العلم الخاص بأوزان الشعر وتفاعيله وقوافيه وكل ما يختص به ، واختلف في اشتقاقه ، فقليل سمي بذلك لاكتشاف الخليل إياه بمكة المسماة بالعروض أو توسعاً من عروض الشطر الأول ، أو لأن الشعر يعرض عليه ويشمل الاسم : علمي الأوزان الشعرية (العروض) والقوافي ومعظم مصطلحاتها مأخوذ من حياة العرب . وأقام العروضيون علمهم على ما تضمنه الكلمات من حروف متحركة وساكنة تتوالى في البيت فتؤدي إيقاعاً معيناً ، وصنفوا هذه الحروف الى أسباب وأوتاد وألفوا من اجتماع الأسباب والأوتاد ثمانية (تفعيلات) تقوم عليها جميع الأوزان : فعولن . فاعلن . مفاعيلن . فاعلاتن مستفعلن ، مفعولاتن ، مفاعلتن ، متفاعلتن .

المدات والأصوات من القراء غير منضبطة ، وقد يكون في أحد الحزبين من حروف المد أكثر مما في الآخر ، فلا يمكن مراعاة التسوية في النطق ، ومراعاة مجرد الخط لا فائدة فيه فإن ذلك لا يوجب تسوية زمان القراءة .

وإذا كان تحزيبه بالحروف إنما هو تقريب لا تحديد كان ذلك من جنس تجزئته بالسور هو أيضاً تقريب ، فإن بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعض في الحروف وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض ، والافتتاح بما فتح الله به السورة والاختتام بما ختم به ، وتكميل المقصود من كل سورة ما ليس في ذلك التحزيب .

وفيه أيضاً من زوال المفساد الذي في ذلك التحزيب ما تقدم التنبيه على بعضها ، فصار راجحاً بهذا الاعتبار .

ومن المعلوم أن طول العبادة وقصرها يتنوع بتنوع المضالح ، فتستحب إطالة القيام تارة ، وتخفيفه أخرى في الفرض والنقل بحسب الوجوه الشرعية من غير أن يكون المشروع هو التسوية بين مقادير ذلك في جميع الأيام ، فعلم أن التسوية في مقادير العبادات البدنية في الظاهر لا اعتبار به إذا قارنه مصلحة معتبرة ، ولا يلزم من التساوي في القدر التساوي في الفضل ، بل قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أن :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ^(١) ، وثبت في الصحيح أن فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ، ولا في القرآن مثلها ^(٢) .

(١) الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ٥٠١٣ - أخبرنا مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يرددها فلما أصبح جاء الى رسول الله - ﷺ - فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتناولها فقال رسول الله - ﷺ - « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب فضائل القرآن عن رسول الله - ﷺ - باب ما جاء في فضل

وثبت في الصحيح أن آية الكرسي أعظم آية في القرآن (١) وأمثال ذلك .

فإذا قرأ القارئ في اليوم الأول البقرة ، وآل عمران والنساء بكمالها ، وفي اليوم الثاني إلى آخر براءة وفي اليوم الثالث إلى آخر النمل ، كان ذلك أفضل من أن يقرأ في اليوم الأول إلى قوله ﴿ بليغا ﴾ (٢) وفي اليوم الثاني إلى قوله ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (٣) فعلى هذا إذا قرأه كل شهر كما أمر به النبي ﷺ عبد الله بن عمرو أولاً عملاً على قياس تحزيب الصحابة ، فالسورة التي تكون نحو جزء أو أكثر بنحو نصف أو أقل ييسير يجعلها حزباً ، كآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف .

وأما البقرة فقد يقال بجعلها حزباً وإن كانت بقدر حزبين وثلاث ، لكن الأشبه أنه يقسمها حزبين للحاجة ، لأن التحزيب لا بد أن يكون متقارباً ،

= فاتحة الكتاب ٣٠٣٦ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة - أن رسول الله - ﷺ خرج على أبي بن كعب فقال رسول الله - ﷺ - يا أبي وهو يصلي - فالتفت أبي فلم يجبه وصلى أبي فخفف ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ - فقال السلام عليك يا رسول الله - فقال رسول الله ﷺ - وعليك السلام . ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك ؟ فقال يا رسول الله إني كنت في الصلاة ، قال أفلم تجد فيما أوحى الله إلي ﴿ أن استجيئوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ﴾ قال : بلى ولا أعود إن شاء الله . قال اتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور مثلها . . ؟ قال : نعم يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها وإنما سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته . . .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أنس بن مالك .

(١) أخرج الترمذي في أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في سورة البقرة وآية الكرسي ٣٠٣٨ حدثنا محمود بن غيلان أخبرنا حسين الجعفي عن زائدة عن حكيم بن جبير عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة أي القرآن ، آية الكرسي .

(٢) الآية : ﴿ فأعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٠ .

بحيث يكون الحزب مثل الأجزاء ومثله مرة ودون النصف وأما إذا كان مرتين وشيئاً فهذا تضعيف وزيادة .

وعلى هذا فالإلى الأعراف سبعة أجزاء ، والأنفال جزء ، وبراءة جزء ، فإن هذا أولى من جعلها جزءاً ؛ لأن ذلك يفضي إلى أن يكون نحو الثلث في ثمانية ، والذي رجحناه يقتضي أن يكون نحو الثلث في تسعة ، وهذا أقرب إلى العدل ، وتحزيب الصحابة أوجب أن يكون الحزب الأول أكثر ، ويكون إلى آخر العنكبوت العشر الثاني سورتين سوريتين وأما يونس وهود فجزءان أيضاً أو جزء واحد لأنهما أول ذوات « السر » ويكون على هذا الثلث الأول سورة سورة ، والثاني سورتين سوريتين ، لكن الأول أقرب إلى أن يكون قريب الثلث الأول في العشر الأول ، فإن الزيادة على الثلث بسورة أقرب من الزيادة بسورتين وأيضاً فيكون عشرة أحزاب سورة سورة .

وهذا أشبه بفعل الصحابة (١) .

ويوسف والرعد جزء ، وكذلك إبراهيم والحجر ، وكذلك النحل وسبحان ، وكذلك الكهف ومريم ، وكذلك طه والأنبياء وكذلك الحج

(١) أخرج البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣٤ باب في كم يقرأ القرآن وقول الله تعالى ﴿ فاقراءوا ما تيسر منه ﴾ .

٥٠٥٢ - عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : انكحني أبي امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها فتقول : نعم الرجل من رجل لم يظأ لنا فراشاً ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيناها ، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي - ﷺ - فقال : القني به فلقيته بعد فقال : كيف تصوم ؟ قلت أصوم كل يوم قال وكيف تختم ؟ قلت : كل ليلة . قال : صم في كل شهر ثلاثة واقرا القرآن في كل شهر . قال : قلت أطيق أكثر من ذلك قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة قال : قلت أطيق أكثر من ذلك قال : أفطر يومين وصم يوماً . قال : قلت أطيق أكثر من ذلك قال : صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وإفطار يوم واقرا في كل سبع ليال مرة . فليتنى قبلت رخصة رسول الله - ﷺ - .

وفي رواية : أقرأ القرآن في شهر قلت : إني أجد قوة . حتى قال : فاقراء في سبع ولا تزد على ذلك ؟ .

والمؤمنون ، وكذلك النور والفرقان ، وكذلك ذات « طس » الشعراء والنحل والقصص ، وذات « الم » العنكبوت والروم ولقمان والسجدة جزء والأحزاب وسبأ وفاطر جزء و« يس » و« الصافات » و« ص » جزء ، والزمر وغافر ، وحمل السجدة جزء والخمس البواقى من آل « حم » جزء .

والثلث الأول أشبه بتشابه أوائل السور والثاني أشبه بمقدار جزء من تجزئة الحروف وهو المرجع ثم « القتال » و« الفتح » و« الحجرات » و« ق » و« الذاريات » جزء .

ثم الأربعة الأجزاء المعروفة .

وهذا تحزيب مناسب متشابه لتحزيب الصحابة رضي الله عنهم ، وهو مقارب لتحزيب الحروف ، وإحدى عشرة سورة حزب حزب .

إذ البقرة كسورتين ، فيكون إحدى عشر سورة . وهي نصيب إحدى عشرة ليلة . والله أعلم .

وسئل رحمه الله :

عن جماعة اجتمعوا في ختمة وهم يقرأون لعاصم وأبي عمرو فإذا وصلوا إلى سورة الضحى لم يهللوا ولم يكبروا إلى آخر الختمة ، ففعلهم ذلك هو الأفضل أم لا ؟ .

وهل الحديث الذي ورد في التهليل والتكبير صحيح بالتواتر أم لا ؟ .

فأجاب :

الحمد لله . نعم إذا قرأوا بغير حرف ابن كثير كان تركهم لذلك هو الأفضل ، بل المشروع والمسنون ، فإن هؤلاء الأئمة من القراء لم يكونوا يكبرون لا من أوائل السور ولا من أواخرها .

فإن جاز لقائل أن يقول : إن ابن كثير ^(١) نقل التكبير عن رسول الله ﷺ جاز لغيره أن يقول: إن هؤلاء نقلوا تركه عن رسول الله ﷺ؛ إذ من الممتنع أن تكون قراءة الجمهور التي نقلها أكثر من قراءة ابن كثير قد أضعافوا فيها ما أمرهم به رسول الله ﷺ فإن أهل التواتر لا يجوز عليهم كتمان ما تتوفر الهمم والدواعي إلى نقله ، فمن جوز على جماهير القراء أن رسول الله ﷺ أقرأهم بتكبير زائد ، فعصوا لأمر رسول الله ﷺ وتركوا ما أمرهم به استحق العقوبة البليغة التي تردعه وأمثاله عن مثل ذلك .

وأبلغ من ذلك البسمة ، فإن من القراء من يفصل بها ومنهم من لا يفصل بها ، وهي مكتوبة في المصاحف ، ثم الذين يقرأون بحرف من لا ييسمل لا ييسملون ، ولهذا لا ينكر عليهم ترك البسمة إخوانهم من القراء الذين ييسملون فكيف ينكر ترك التكبير على من يقرأ قراءة الجمهور ؟

وليس التكبير مكتوباً ^(٢) في المصاحف ، وليس هو في القرآن باتفاق المسلمين ، ومن ظن أن التكبير من القرآن فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .
بخلاف البسمة فإنها من القرآن حيث كتبت في مذهب الشافعي ^(٣) ،

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ذريح القرشي البصري ثم الدمشقي أبو الفداء . عماد الدين ، حافظ ، مؤرخ ، فقيه ، ولد في قرية من أعمال بصري بالشام عام ٧٠١ هـ وانتقل مع أبيه إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ورحل في طلب العلم ، وتوفي بدمشق عام ٧٧٤ هـ من كتبه « البداية والنهاية » في التاريخ على نسق الكامل لابن الأثير انتهى فيه إلى حوادث ٧٦٧ ، وشرح صحيح البخاري لم يكمله ، وطبقات الشافعية ، وتفسير القرآن الكريم ، وجامع المسانيد ، والباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث [راجع ذيلاً طبقات الحفاظ للحسيني والسيوطي ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٣ والبدر الطالع ١ : ١٥٣ وشذرات الذهب ٦ : ٢٣١ وآداب اللغة ٣ : ١٩٣] .

(٢) في (ب) مثبوتاً بدلاً من (مكتوباً) .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

وهو مذهب أحمد المنصوص عنه في غير موضع وهو مذهب أبي حنيفة (١) عند المحققين من أصحابه وغيرهم من الأئمة .

لكن مذهب أبي حنيفة وأحمد وغيرهما أنها من القرآن حيث كتبت البسملة وليست من السورة ، ومذهب مالك ليست من القرآن إلا في سورة النمل (٢) ، وهو قول في مذهب أبي حنيفة وأحمد .

ومع هذا فالنزاع فيها من مسائل الاجتهاد ، فمن قال : هي من القرآن حيث كتبت ، أو قال : ليست هي من القرآن إلا في سورة النمل كان قوله من الأقوال التي ساغ فيها الاجتهاد وأما التكبير فمن قال : إنه من القرآن فإنه ضال باتفاق الأئمة والواجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، فكيف مع هذا ينكر على من تركه ؟ .

ومن جعل تارك التكبير مبتدعاً أو مخالفاً للسنة أو عاصياً فإنه إلى الكفر أقرب منه إلى الإسلام ، والواجب (٣) عقوبته بل إن أضمر على ذلك بعد وضوح (٤) الحجة وجب قتله . ولو قدر (٥) أن النبي ﷺ أمر بالتكبير لبعض من أقرأه كان غاية ذلك يدل على جوازه ، أو استحبابه فإنه لو كان واجباً لما أهمله جمهور القراء ، ولم يتفق أئمة المسلمين على عدم وجوبه ، ولم ينقل أحد من أئمة الدين أن التكبير واجب ، وإنما غاية من يقرأ بحرف ابن كثير أن يقول : إنه مستحب ، وهذا خلاف البسملة ، فإن قراءتها واجبة عند من يجعلها من القرآن ومع هذا فالقراء يسوغون ترك قراءتها لمن لم ير الفصل

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٢) يقصد قول الله تعالى في سورة النمل : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية رقم ٣٠ .

(٣) سقط من (ب) جملة (والواجب عقوبته) .

(٤) في (أ) بزيادة جملة (وضوح الحجة) .

(٥) سقط من (ب) لفظ (قدر) .

بها ، فكيف لا يسوغ ترك التكبير لمن ليس داخلاً في قراءته ؟ !
وأما ما يدعيه بعض القراء من التواتر في جزئيات الأمور فليس هذا
موضع تفصيله .

وسئل عن يقول :

عن الإمام مالك ^(١) أنه قال : من كتب مصحفاً على غير رسم
المصحف العثماني فقد أثم ، أو قال : كفر .
فهل هذا صحيح ؟ وأكثر المصاحف اليوم على غير المصحف
العثماني .

فهل يحل لأحد كتابته على غير المصحف العثماني بشرط ألا يبدل
لفظاً ، ولا يغير معنى ، أم لا ؟ .

فأجاب :

أما هذا النقل عن مالك في تكفير من فعل ذلك فهو كذب على مالك ،
سواء أريد به رسم الخط أو رسم اللفظ ، فإن مالكاً كان يقول عن أهل
الشورى إن لكل منهم مصحفاً يخالف رسم مصحف عثمان .

وهم أجل من أن يقال فيهم مثل هذا الكلام .

وهم : علي بن أبي طالب ، والزبير ، وطلحة ، وسعد وعبد الرحمن بن
عوف مع عثمان .

(١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبد الله إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة
الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية ، مولده ووفاته في المدينة ٩٣ - ١٧٩ هـ كان
صلباً في دينه بعيداً عن الأمراء والملوك ، وشي به إلى جعفر عم المنصور العباسي فضربه سياطاً
انخلعت لها كتفه من كتبه « الموطأ » وله رسالة في الوعظ ، ورسالة في الرد على القدرية ،
وتفسير غريب القرآن . [راجع الديباج المذهب ١٧ - ٣٠ والوفيات ١ : ٤٣٩ وتهذيب
التهذيب ١٠ : ٥] .

وأيضاً : فلو قرأ رجل بحرف من حروفهم التي تخرج عن مصحف عثمان
ففيه روايتان. عن مالك وأحمد ، وأكثر العلماء يحتجون بما ثبت من ذلك عنهم ،
فكيف يكفر فاعل ذلك ؟ ! .

وأما اتباع رسم الخط بحيث يكتب بالكوفي فلا يجب عند أحد من
المسلمين ، وكذلك اتباعه فيما كتبه بالواو والألف هو حسن لفظ رسم خط
الصحابة .

وأما تكفير من كتب ألفاظ المصحف بالخط الذي اعتاده فلا أعلم أحداً
قال بتكفير من فعل ذلك .

لكن متابعة خطهم أحسن .

هكذا نقل مالك وغيره .

والله أعلم .

وسئل :

عن قوم يقرأون القرآن ويلحنون فيه ، فأنكر عليهم منكر ، فقال قائل
منهم : كل لحنة بعشر حسنات ؟ فأجاب :

الحمد لله : إذا قدرُوا على تصحيح صححوا ، وإن عجزوا عن ذلك فلا
بأس بذلك حسب استطاعتهم .

وسئل :

عن رجل يتلو القرآن مخافة النسيان ، ورجاء الثواب فهل يؤجر على
قراءته للدراسة ، ومخافة النسيان أم لا ؟ وقد ذكر رجل ممن ينسب الى العلم أن
القارئ إذا قرأ للدراسة مخافة النسيان أنه لا يؤجر ، فهل قوله صحيح ، أم
لا ؟ . فأجاب :

بل إذا قرأ القرآن لله تعالى فإنه يثاب على ذلك بكل حال ولو قصد بقراءته
أنه يقرأه لثلاث ينسأه ، فإن نسيان القرآن من الذنوب ، فإذا قصد بالقرآن أداء
الواجب عليه من دوام حفظه للقرآن ، واجتناب ما نهى عنه من إهماله حتى
ينسأه فقد قصد طاعة الله ، فكيف لا يثاب ! .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتا
من صدور الرجال من النعم من عقلها .
وقال ﷺ « عرضت عليّ سيئات أمتي فرأيت من مساوئ أعمالها الرجل
يؤتيه الله آية من القرآن فينام عنها حتى ينساها » .
وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : ما اجتمع قوم في بيت من
بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم
السكينة وحفت بهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم
يسرع به نسبه » .
والله أعلم .

فصل في أسماء القرآن الكريم وصفاته *

القرآن ، الفرقان ، الكتاب ، المهدي ، النور ، الشفاء ، البيان ،
الموعظة ، الرحمة ، بصائر ، البلاغ ، الكريم ، المجيد ، العزيز ، المبارك ،
التنزيل ، المنزل ، الصراط المستقيم ، حبل الله ، الذكر ، الذكرى ، تذكرة
﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) ﴿ إِنَّهُ تَذْكُرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرَهُ ﴾ ^(٢) ﴿ مُصَدِّقُ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ^(٣) و ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ^(٤) المهيمن عليه ،
﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(٥) ، ﴿ تَبَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(٦) المتشابه المثاني ،
الحكيم ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ^(٧) محكم ، المفصل ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ ^(٨) ، البرهان ، ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ

* كل ما ذكره الشيخ ابن تيمية بعد ذلك من صفات وأسماء فهي حق وصدق ودلت عليها آيات
الكتاب العزيز وإذا كان ذلك كذلك فلا مزايدة لمتزيد ولا مقالة لقائل .
والواجب أن نتبع آيات الكتاب العزيز فهي المنهج والدستور لمن رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً
وبمحمد - ﷺ - نبياً ورسولاً .

- | | |
|-----------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة الحاقة آية رقم ٤٨ . | (٥) سورة يوسف آية رقم ١١١ . |
| (٢) سورة المدثر آية رقم ٥٤ - ٥٥ . | (٦) سورة النحل آية رقم ٨٩ . |
| (٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٢ . | (٧) سورة لقمان آية رقم ٢ . |
| (٤) سورة يوسف آية رقم ١١١ . | (٨) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ . |

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١﴾ على أحد القولين ، الحق ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ﴿٢﴾ عربي مبين ، أحسن الحديث ، أحسن القصص على قول ، كلام الله ﴿ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ﴿٣﴾ ، العلم ، ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ ﴿٤﴾ ، العلي الحكيم ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٥﴾ ، القيم ، ﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ ﴿٦﴾ ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا ﴾ ﴿٧﴾ ، وحى في قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَحْيُ يُوحَى ﴾ ﴿٨﴾ ، حكمة في قوله ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ ﴿٩﴾ ، وحكماً في قوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ ﴿١٠﴾ ونبأ على قول في قوله ﴿ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿١١﴾ ، ونذير على قول ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴾ ﴿١٢﴾ في حديث أبي موسى شافعاً مشفعاً وشاهداً مصدقاً ، وسماء النبي ﷺ « حجة لك أو عليك » وفي حديث الحارث عن علي « عصمة لمن استمسك به » .

وأما وصفه بأنه يقص وينطق ويحكم ويفتي ويبرر ويهدي فقال :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ ﴿١٥﴾ أي يفتيكم أيضاً ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

(٩) سورة القمر آية رقم ٤ - ٥ .

(١٠) سورة الرعد آية رقم ٣٧ .

(١١) سورة النبأ آية رقم ٢ .

(١٢) سورة النجم آية رقم ٥٦ .

(١٣) سورة النمل آية رقم ٧٦ .

(١٤) سورة الجاثية آية رقم ٢٩ .

(١٥) سورة النساء آية رقم ١٢٧ .

(١٦) سورة الإسراء آية رقم ٩ .

(١) سورة النساء آية رقم ١٧٤ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٠٨ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٤ .

(٦) سورة البينة آية رقم ٢ - ٣ .

(٧) سورة الكهف آية رقم ١ - ٢ .

(٨) سورة النجم آية رقم ٤ .

فصل

في الآيات الدالة على اتباع القرآن

في الآيات الدالة على اتباع القرآن .
قوله : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١) فإنه في التفسير المرفوع عن
النبي ﷺ كتاب الله .

(١) قال أبو جعفر : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم « هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وكذلك في لغة جميع العرب . فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوجَّ الموارد مستقيم
يريد : على طريق الحق ، ومنه قول الهذلي أبي ذؤيب :
صبحنا أرضهم بالخيل حتى تركناها أدق من الصراط

فصل

في إياك نعبد وإياك نستعين

وأما حديث فاتحة الكتاب فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ قال الله : أثني علي عبدي ، وإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله : مجدني عبدي . وإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال : « هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » ^(١) وثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس قال : « بينما

(١) الحديث رواه مالك في الموطأ ٨٤ - ٨٥ عن العلاء بن عبد الرحمن ، بهذا الاسناد « عن محمد بن اسحاق ، قال : حدثني العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب ، عن أبي السائب مولى زهرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره - مرفوعاً ، وكفى بمالك حجة في التوثق ، من رفعه لفظاً فوق رفعه حكماً ، وكذلك رواه مسلم ١ : ١٦٦ (٤ : ١٠١ - ١٠٤) من شرح النووي من طريق مالك ، ومن طريق سفيان بن عيينة ، ومن طريق ابن جريج ، ومن طريق أبي أويس - كلهم عن العلاء بن السائب ، به مرفوعاً - وزاد أبو أويس عن العلاء قال : سمعت من أبي ومن أبي السائب وكانا جليسي أبي هريرة . . فذكره مرفوعاً ، ونسبه السيوطي ١ : ٦ لسفيان بن عيينة في تفسيره ، وأبي عبيدة في فضائله ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري في جزء القراءة ، وأصحاب السنن الأربعة ، وابن حبان وغيرهم - وذكر ابن كثير ١ : ٢٤ - ٢٥ بعض طرقه مفصلة .

جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ، ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته «^(١) وفي بعض الأحاديث : « إن فاتحة الكتاب أعطيها من كنز تحت العرش »^(٢) .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب - صلاة المسافرين وقصرها ٤٣ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة ٢٥٤ - ٨٠٦ - حدثنا أبو الأحوص ، عن عمار بن رزيق ، عن عبد الله بن عيسى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضي الله عنه - وذكره .

(٢) روى الامام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، وشهد الله أنه لا إله إلا هو ، وقل اللهم مالك الملك .
هذه الآيات معلقات بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب . أسنده أبو عمرو الداني في كتاب البيان له .

وذكره الامام القرطبي في فضائل وأسماء سورة الفاتحة ١ : ١١١ .

فصل

فاتحة الكتاب

قال الله تعالى : في أم القرآن والسبع المثاني والقرآن العظيم : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذه السورة هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، وهي الشافية وهي الواجبة في الصلوات لا صلاة إلا بها ، وهي الكافية تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها عنها .

والصلاة أفضل الأعمال ، وهي مؤلفة من كلم طيب وعمل صالح ؛ أفضل كلمها الطيب وأوجبه القرآن وأفضل عملها الصالح وأوجبه السجود كما جمع بين الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها بقوله تعالى : ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ^(١) وختمها بقوله : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ^(٢) فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة وآخرها السجود .

ولهذا قال سبحانه في صلاة الخوف : ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ ^(٣) والمراد بالسجود الركعة التي يفعلونها وحدهم بعد مفارقتهم للإمام ، وما قبل القراءة من تكبير واستفتاح واستعاذة ، هي تحريم للصلاة ، ومقدمة لما بعده ، أول ما يتبدى به كالتقدمة ، وما يفعل بعد السجود من

(١) سورة العلق آية رقم ١ .

(٢) سورة العلق آية رقم ١٩ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٠٢ .

قعود ، وتشهد فيه التحية لله ، والسلام على عباده الصالحين والدعاء والسلام على الحاضرين ، فهو تحليل للصلاة ومعقبة لما قبله ، قال النبي ﷺ « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » (١) .

ولهذا لما تنازع العلماء أيما أفضل كثرة الركوع والسجود أو طول القيام أو هما سواء ؟ على ثلاثة أقوال عند أحمد وغيره : كان الصحيح أنهما سواء ، القيام فيه أفضل الأذكار ، والسجود أفضل الأعمال فاعتدلا ، ولهذا كانت صلاة رسول الله ﷺ معتدلة ، يجعل الأركان قريبا من السواء ، وإذا أطال القيام طولا كثيرا - كما كان يفعل في قيام الليل وصلاة الكسوف - أطال معه الركوع والسجود ، وإذا اقتصد فيه اقتصد في الركوع والسجود وأم الكتاب ، كما أنها القراءة الواجبة فهي أفضل سورة في القرآن . قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لم ينزل في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلهما ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » (٢) . وفضائلها كثيرة جدا .

(١) الحديث أخرجه الترمذي ٣ باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور (أبواب الطهارة) بسنده عن علي عن النبي - ﷺ وذكره - .

قال أبو عيسى : هذا الحديث أصبح شيء في هذا الباب وأحسن ، وعبد الله بن محمد بن عقيل هو صدوق ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه

قال أبو عيسى : وسمعت محمد بن اسماعيل يقول : كان أحمد بن حنبل واسحاق بن إبراهيم ، والحميدي يحتجون بحديث عبد الله بن محمد بن عقيل . قال محمد : وهو مقارب الحديث .

قال أبو عيسى : وفي الباب عن جابر وأبي سعيد . ورواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٣٥١ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسنها ٣ باب مفتاح الصلاة الطهور ٢٧٥ حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن أبيه قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث أخرجه صاحب الموطأ في كتاب الصلاة ٨ باب ما جاء في أم القرآن ٣٧ - عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب . أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز ، أخبره أن رسول =

وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري رواه ابن ماجه وغيره: أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع علمها في الأربعة . وجمع علم الأربعة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل ، وجمع المفصل في أم القرآن ، وجمع أم القرآن في هاتين الكلمتين ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وإن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع في هاتين الكلمتين الجامعتين (١) .

ولهذا ثبت في الحديث الصحيح حديث : إن الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ قال الله أثني عليّ عبدي ، وإذا قال ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله عز وجل : مجدني عبدي ، وفي رواية : فوض إليّ عبدي ، وإذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال : « فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » (٢) .

= الله - ﷻ - نادى أبي بن كعب وهو يصلي ، فلما فرغ من صلاته لحقه . فوضع رسول الله - ﷺ - يده على يده ، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد فقال : إني لأرجو أن لا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة . وذكره وأخرج البخاري مثل هذه القصة عن أبي سعيد المصملي في : ٦٥ كتاب التفسير ١ باب ما جاء في فاتحة الكتاب وأخرجه الترمذي في ٤٦ - كتاب فضائل القرآن (١) باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب ٨٧٥ ، بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

قال : وفي الباب عن أنس ، وفيه عن أبي سعيد بن المصملي .

(١) زيادة في ب .

(٢) الحديث رواه ابن جرير في تفسيره ٢٢٤ / ١ / ٢٠٠ - حدثني صالح بن مسمار المروزي ، قال : حدثنا زيد بن الحباب ، قال : حدثنا عنبسة بن سعيد ، عن مطرف بن طريف عن سعد ابن اسحاق بن كعب بن عجرة ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله - ﷺ - =

فقد ثبت بهذا النص أن هذه السورة منقسمة بين الله وبين عبده وأن هاتين الكلمتين منقسم السورة ، ف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مع ما قبله الله ، ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مع ما بعده للعبد وله ما سأل . ولهذا قال من قال من السلف : نصفها ثناء ونصفها مسألة ، وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء . وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في كل صلاة ، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبد وأن نستعينه ؛ إذ إيجاب القول الذي هو إقرار واعتراف ودعاء وسؤال هو إيجاب لمعناه ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له ، فإن هذا لا يجوز أن يقع ؛ بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة والاستعانة ، فإن ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب ، أو القلب والبدن ، بل أوجب دعاء الله عز وجل ومناجاته ، وتكليمه ومخاطبته بذلك ليكون الواجب من ذلك كاملاً صورة ومعنى بالقلب وبسائر الجسد .

وقد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً وغير إيجاب في مواضع ، كقوله في آخر سورة هود : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ^(١) وقول العبد الصالح شعيب : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ^(٢) وقول ابراهيم والذين معه : ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ^(٣) وقوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْذُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ ^(٤) .

وذكره - وذكره السيوطي ١ : ٦ ونسبه لابن جرير ، وابن أبي حاتم في تفسيريهما ، وذكره ابن كثير ١ : ٢٥ نقلاً عن الطبري .

(١) سورة هود آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ٨٨ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٤) سورة الرعد آية رقم ٣٠ .

فأمر نبيه بأن يقول : على الرحمن توكلت وإليه متاب ، كما أمره بهما في قوله ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ والأمر له أمر لأُمته وأمره بذلك في أم القرآن وفي غيرها لأُمته ليكون فعلهم ذلك طاعة لله وامثالاً لأمره ، ولا يتقدموا بين يدي الله ورسوله ، ولهذا كان عامة ما يفعله نبينا ﷺ والخالصون من أُمته من الأدعية والعادات وغيرها إنما هو بأمر من الله ، بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به وإن كان حسناً أو عفواً ، وهذا أحد الأسباب الموجبة لفضله وفضل أُمته على من سواهم ، وفضل الخالصين من أُمته على المشوبين الذين شابوا ما جاء به بغيره ، كالمنحرفين عن الصراط المستقيم .

وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عباداته وأذكاره ومناجاته ، مثل قوله في الأضحية « اللهم هذا منك ولك » ^(١) فإن قوله : « منك » هو معنى التوكل والاستعانة ، وقوله : « لك » هو معنى العبادة ، ومثل قوله في قيامه من الليل « لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا تموت ، والجن والإنس يموتون » ^(٢) إلى أمثال ذلك .

(١) الحديث رواه أبو داود ١٢٦٣ عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه وفيه : أن النبي - ﷺ : ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين وأن ما قاله عند ذلك « اللهم منك ولك عن محمد وأُمته » ورواه جامع الأصول ٤ : ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم - في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٢٦ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه - ١٩٩ - عن مالك بن أنس ، عن أبي الزبير ، عن طاوس ، عن ابن عباس - أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل « اللهم لك الحمد . أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد . أنت قيام السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن أنت الحق ، ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق وذكره ورواه الترمذي في كتاب الدعوات ٢٩ باب ما يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة ٣٤١٨ بسنده عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما وذكره . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقد روي من غير وجه عن ابن عمر عن النبي - ﷺ .

إذا تقرر هذا الأصل فالإنسان في هذين الواجبين لا يخلو من أحوال أربعة هي القسمة الممكنة ، إما أن يأتي بهما ، وإما أن يأتي بالعبادة فقط ، وإما أن يأتي بالاستعانة فقط ، وإما أن يتركهما جميعاً .

ولهذا كان الناس في هذه الأقسام الأربعة ، بل أهل الديانات هم أهل هذه الأقسام ، وهم المقصودون هنا بالكلام .

قسم يغلب عليه التأله لله ومتابعة الأمر والنهي والإخلاص لله تعالى ، واتباع الشريعة في الخضوع لأوامره وزواجره وكلماته الكونيات ، لكن يكون منقوصاً من جانب الاستعانة والتوكل فيكون إما عاجزاً وإما مفرطاً ، وهو مغلوب إما مع عدوه الباطن ، وإما مع عدوه الظاهر ، وربما يكثر منه الجزع مما يصيبه ، والحزن لما يفوته ، وهذا حال كثير ممن يعرف شريعة الله وأمره ، ويرى أنه متبع للشريعة وللعبادة الشرعية ، ولا يعرف قضاءه وقدره ، وهو حسن القصد طالب للحق ، لكنه غير عارف بالسبيل الموصلة والطريق المفضية .

وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل عليه ، وإظهار الفقر والفاقة بين يديه ، والخضوع لقضائه وقدره وكلماته الكونيات ، لكن يكون منقوصاً من جانب العبادة وإخلاص الدين لله ، فلا يكون مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وإن كان مقصوده ذلك فلا يكون متبعاً لشريعة الله عز وجل ومنهاجه ، بل قصده نوع سلطان في العالم ، إما سلطان قدرة وتأثير ، وإما سلطان كشف وإخبار ، أو قصده طلب ما يريده ، ودفع ما يكرهه ، بأي طريق كان ، أو مقصوده نوع عبادة وتأله بأي وجه كان همته في الاستعانة والتوكل المعينة له على مقصوده ، فيكون إما جاهلاً ، وإما ظالماً تاركاً لبعض ما أمره الله به ، راكباً لبعض ما نهى الله عنه ، وهذه حال كثير ممن يتأله ويتصوف ويتفقر ، ويشهد قدرة الله وقضائه ، ولا يشهد أمر الله ونهيه ، ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها إليه ، وإقامته لها ولا يشهد ما أمر به

وما نهى عنه وما الذي يحبه الله منه ويرضاه ، وما الذي يكرهه منه ويسخطه .

ولهذا يكثر في هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة مع انحلال عن^(١) بعض الشريعة ومخالفة لبعض الأمر ، وإذا أوغل الرجل منهم دخل في الإباحية والانحلال ، وربما صعد إلى فساد التوحيد فيخرج إلى الاتحاد والحلول المقيد ، كما قد وقع لكثير من الشيوخ ، ويوجد في كلام صاحب « منازل السائرين »^(٢) وغيره ما يفضي إلى ذلك .

وقد يدخل بعضهم في « الاتحاد المطلق والقول بوحدة الوجود » فيعتقد أن الله هو الوجود المطلق ، كما يقول صاحب « الفتوحات المكية »^(٣) في أولها :

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أنى يكلف^(٤)

(١) يراجع فتوى للامام الغزالي في هؤلاء الذين يتحللون من تكاليف الشريعة الإسلامية . وهذه الفتوى ذكرها « تاج الدين السبكي » المتوفى سنة ٧٧١ هـ في كتابه (طبقات الشافعية) وهي موجودة في كتاب « سيرة الغزالي للاستاذ عبد الكريم العثماني » وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الدكتور سليمان دنيا لكتاب « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » وذكرها الدكتور عبد الحليم محمود في مقدمة كتاب المنقذ من الضلال ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) هذا الكتاب للشيخ عبد الله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهروي ت سنة ٤٨١ هـ وهو كتاب في أحوال السلوك . وقد شرحه جماعة منهم الشيخ كمال الدين عبد الرزاق (الكاشي ت سنة ٧٣٠ هـ لغياث الدين محمد بن رشد الدين محمد بن محمد بن طاهر الوزير ، وشرحه شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ هـ وسماه مدارج السالكين - وهو شرح مبسوط ، وعلق عليه أبو طاهر محمد بن أحمد القيسي المتوفى سنة ٧٤٧ هـ .

(٣) الفتوحات المكية : في معرفة أسرار المالكية والملكية - مجلدات للشيخ محيى الدين محمد ابن علي المعروف بالطائفي ت سنة ٦٣٨ هـ واختصرها الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وسماه لواقع الأنوار القدسية المتقاة من الفتوحات المكية ، ثم لخص ذلك التلخيص ثانياً وسماه الكبريت الأحمر من علوم الشيخ الأكبر . الخ . [راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٢٣٨] .

(٤) هذه الأبيات لمحيى الدين بن عربي الصوفي والفيلسوف وهي تكاد تعبر عما يدعيه من « وحدة الوجود » راجع كتابه الفتوحات المكية ١ : ٢ ط بلاق .

وقسم ثالث معرضون عن عبادة الله وعن الاستعانة به جميعاً . وهم فريقان : أهل دنيا وأهل دين ، فأهل الدين منهم أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله ، ويستعينون غير الله بظنهم وهواهم . . ؟ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ ^(١) وأهل الدنيا منهم الذين يطلبون ما يشتهونه من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب .

وأعلم أنه يجب التفريق بين من قد يعرض عن عبادة الله والاستعانة به ، وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه .

(١) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

فصل

في معنى : الحمد لله رب العالمين

قال الله عز وجل في أول السورة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فبدأ بهذين الاسمين : الله ، والرب ، و« الله » هو الإله المعبود ، فهذا الاسم أحق بالعبادة ، ولهذا يقال : الله أكبر ، الحمد لله ، سبحان الله لا إله إلا الله ، و« الرب »^(١) هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي ، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة .

ولهذا يقال : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾^(٢) ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٣) ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾^(٤) ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾^(٥) ﴿ رَبَّنَا لَا

(١) الرب في كلام العرب منصرف على معان ، فالسيد المطاع فيهم يدعى رباً ومن ذلك قول لبيد ابن ربيعة :

وأهلكم يوماً ربُّ كندة وابنه وربُّ معدٍ بين خبث وعزْعر
يعني برب كندة : سيد كنده ومنه قول نابغة بني ذبيان :

تخب إلى النعمان حتى تناله فدى لك من ربِّ طريفي وتألدي
والرجل المصلح للشيء يُدعى رباً ومنه قول الفرزدق بن غالب :

كانوا كسائلة حقاً إذ حقنت سلاءها في أديم غير مربوب

(٢) سورة إبراهيم آية رقم ٤١ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة القصص آية رقم ١٦ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .

تَوَّأخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا ﴿١﴾ ، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب .

فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه ، وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله ، وهو عبادة الله ، والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه ، وهو أنه يربه ويتولاه ، مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية والربوبية تستلزم الألوهية أيضاً . والاسم « الرحمن » يتضمن كمال التعلقين ، وبوصف الحالين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٢) فذكر هنا الأسماء الثلاثة : ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ و ﴿ رَبِّي ﴾ و ﴿ إِلَهَ ﴾ وقال : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ كما ذكر الأسماء الثلاثة في أم القرآن ؛ لكن بدأ هناك باسم الله ؛ ولهذا بدأ في السورة بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة : لأن تلك السورة فاتحة الكتاب وأم القرآن ، فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية ، فإنها علة فاعلية للعلة الغائية وقد بسطت هذا المعنى في مواضع ؛ في أول « التفسير » وفي « قاعدة المحبة والإرادة » وفي غير ذلك .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٠ .

فصل

في (توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية)

ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود ، وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة ، كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له ، والإنابة إليه .

ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية ، وقد أخبر عنهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(١) ، وإنهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه وقال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(٢) فأخبر أنهم مقرون بربوبيته ، وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم ، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم .

وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوجدانية من جهة الربوبية ، وأما الرسل فهم دعاوا إليها من جهة الألوهية ، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة وأرباب الأحوال إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته ، لما يمدهم به في

(١) سورة الزخرف آية رقم ٨٧ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث ذكرت (لئن) بدون الواو .

(٢) سورة لقمان آية رقم ٣٢ .

الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون وهؤلاء من جنس الملوك ، وقد ذمّ الله عز وجل في القرآن هذا الصنف كثيراً ، فتدبر هذا فإنه تتكشف به أحوال قوم يكلمون في الحقائق ، ويعملون عليها ، وهم لعمري في نوع من الحقائق الكونية القدريّة الربوبية لا في الحقائق الدينية الشرعية الإلهية ، وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة (١) وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به والله سبحانه أعلم (٢) .

(١) راجع ما كتبه الامام ابن تيمية في كتاب (توحيد الربوبية) مجموع فتاوى الاسلام احمد بن تيمية المجلد الثاني : وكتاب شرح العقيدة الطحاوية الجزء الأول بتحقيقنا (توحيد الألوهية والربوبية) .

(٢) راجع ما كتبه ابن تيمية في هذا الموضوع . في الرسالة التدمرية والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

فصل

(الإنسان ليس له من نفسه إلا العدم)

وذلك أن الإنسان بل وجميع المخلوقات عباد الله تعالى فقراء إليه ممالك له ، وهو ربهم ومليكهم له ، وهو ربهم ومليكهم وإلههم ، لا إله إلا هو ، فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلاً ، بل نفسه وصفاته وأفعاله وما ينتفع به أو يستحقه وغير ذلك إنما هو من خلق الله ، والله عز وجل رب ذلك كله ومليكه ، وبارئته ، وخالقه ، ومصوره .

وإذا قلنا ليس له من نفسه إلا العدم، فالعدم^(١) ليس هو شيئاً يفتقر إلى فاعل موجود ، بل العدم ليس بشيء ، وبقاؤه مشروط بعدم فعل الفاعل ، لا أن عدم الفاعل يوجب ويقضي كما يوجب الفاعل المفعول الموجود ، بل قد يضاف عدم المعلول إلى عدم العلة ، وبينهما فرق ، وذلك أن المفعول الموجود إنما خلقه وأبدعه الفاعل ، وليس المعدوم أبدعه عدم الفاعل ، فإنه يفضي إلى التسلسل والدور^(٢) ؛ ولأنه ليس اقتضاء أحد العدمين للآخر بأولى

(١) العدم : فقدان الشيء ما تقتضيه طبيعته من الكمالات الثابتة لنوعه وطبيعته ، وهو عدم اضافي لا عدم مطلق ، ويطلق عند المنطقيين على وقوع النسبة بين محمول وموضوع ليس من شأنه أن يكون له ذلك المحمول ، ولا أن يؤدي انتفاؤه عنه إلى نقص في ماهيته .
والعدمي : هو المنسوب إلى العدم ، ويطلق على كل حد يدل فقدان الشيء لإحدى الصفات التي تقتضيها طبيعته كالعمى للإنسان ، وكل شيء مصيره إلى الزوال .
والقضية العدمية : هي التي محمولها أحسن المتقابلين .

(٢) الدور في اللغة : عود الشيء إلى ما كان عليه ، والدور في المنطق علاقة بين حدين يمكن تعريف كل منهما بالآخر ، أو علاقة بين قضيتين يمكن استنتاج كل منهما من الأخرى ، أو =

من العكس ، فإنه ليس أحد العدمين مميزاً لحقيقة استوجب بها أن يكون فاعلاً ، وإن كان يعقل أن عدم المقتضى أولى بعدم الأثر من العكس ، فهذا لأنه لما كان وجود المقتضى هو المفيد لوجود المقتضى صار العقل يضيف عدمه إلى عدمه إضافة لزومية ، لأن عدم الشيء إما أن يكون لعدم المقتضى أو لوجود المانع . وبعد قيام المقتضى لا يتصور أن يكون العدم إلا لأجل هاتين الصورتين أو الحالتين ؛ فلما كان الشيء الذي انعقد سبب وجوده يعوقه [ويمنعه] المانع المنافي وهو أمر موجود ، وتارة لا يكون سببه قد انعقد صار عدمه تارة ينسب إلى عدم مقتضيه ، وتارة إلى وجود مانعه ومنافيه .

وهذا معنى قول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ؛ إذ مشيئته هو الموجبة وحدها لا غيرها ، فيلزم من انتفائها انتفاؤه لا يكون شيء حتى تكون مشيئته ، لا يكون شيء بدونها بحال ، فليس لنا سبب يقتضي وجود شيء حتى تكون مشيئته مانعة من وجوده ، بل مشيئته هي السبب الكامل ، فمع وجودها لا مانع ، ومع عدمها لا مقتضى ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ^(١) . ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ ^(٢) . ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ^(٣) .

وإذا عرف أن العبد ليس له من نفسه خير أصلاً ، بل ما بنا من نعمة فمن الله ، وإذا مسنا الضر فإليه نجار ، والخير كله بيديه ، كما قال : ﴿ مَا

= علاقة بين شرطين يتوقف ثبوت أحدهما على ثبوت الآخر .

فالدور إذن هو توقف كل واحد من الشئيين على الآخر .

(١) سورة فاطر آية رقم ٢ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴿ (١) وقال : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٢) .

وقال النبي ﷺ في سيد الاستغفار الذي في صحيح البخاري : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٣) . وقال في دعاء الاستفتاح الذي في صحيح مسلم :

« لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، والخير بيديك ، والشر ليس إليك ، تباركت ربنا وتعاليت » (٤) .

وذلك أن الشر إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، فالمعدوم سواء كان عدم ذات أو عدم صفة من صفات كمالها أو فعل من أفعالها ، مثل عدم

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

(٣) الحديث أخرجه الامام البخاري في ٨٠ كتاب الدعوات ١٦ - باب ما يقول إذا أصبح ٦٣٢٣ - حدثنا عبد الله بن بريدة عن بشير بن كعب عن شداد بن أوس ، عن النبي - ﷺ - قال : وذكره وفيه زيادة [إذا قال حين يمسي دخل الجنة أو كان من أهل الجنة - وإذا قال حين يصبح فمات من يومه مثله] .

(٤) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٢٦ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٢٠١ (٧٧١) حدثنا يوسف الماجشون ، حدثني أبي عن عبد الرحمن الأعرج ، عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب ، عن رسول الله - ﷺ - أنه كان إذا قام الى الصلاة قال : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت . وذكره .

الحياة أو العلم ، أو السمع أو البصر ، أو الكلام أو العقل أو العمل الصالح على تنوع أصنافه ، مثل معرفة الله ومحبة وعبادته والتوكل عليه ، والإجابة إليه ورجائه وخشيته ، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، وغير ذلك من الأمور المحمودة الباطنة والظاهرة ، من الأقوال والأفعال ، فإن هذه الأمور كلها خيرات وحسنات ، وعدمها شر وسيئات : لكن هذا العدم ليس بشيء أصلاً ، حتى يكون له باريء وفاعل فيضاف إلى الله ، وإنما هو من لوازم النفس التي هي حقيقة الإنسان قبل أن تخلق وبعد أن خلقت - وقد خلقت ضعيفة ناقصة - فيها النقص والضعف والعجز فإن هذه الأمور عدمية ، فأضيف إلى النفس من باب إضافة عدم المعلول إلى عدم علته وعدم مقتضيه ، وقد تكون من باب إضافته إلى وجود منافيه من وجه آخر سنيينه إن شاء الله تعالى . و« نكتة الأمر » أن هذا الشر والسيئات العدمية ، ليست موجودة حتى يكون الله خالقها ، فإن الله خالق كل شيء .

والمعدومات تنسب تارة إلى عدم فاعلها ، وتارة إلى وجود مانعها فلا تنسب إليه هذه الشرور العدمية على الوجهين .

أما « الأول » فلأنه الحق المبين فلا يقال عدمت لعدم فاعلها ومقتضيها . وأما « الثاني » - وهو وجود المانع - فلأن المانع إنما يحتاج إليه إذا وجد مقتضى ، ولو شاء فاعلها لما منعه مانع ، وهو - سبحانه - لا يمنع نفسه ما شاء فعله : بل هو فعال لما يريد ؛ ولكن الله قد يخلق هذا سبباً ومقتضياً ومانعاً . فإن جعل السبب تاماً لم يمنعه شيء وإن لم يجعله تاماً منعه المانع لضعف السبب وعدم إعانة الله له ، فلا يعدم أمر إلا لأنه لم يشأه ، كما لا يوجد أمر إلا لأنه يشأه ، وإنما تضاف هذه السيئات العدمية إلى العبد لعدم السبب منه تارة ، ولوجود المانع منه أخرى . أما عدم السبب فظاهر ، فإنه ليس منه قوة ولا حول ولا خير ولا سبب خير أصالة ، ولو كان منه شيء لكان سبباً فأضيف إليه لعدم السبب ؛ ولأنه قد صدرت منه أفعال كان سبباً لها بإعانة

الله له ، فما لم يصدر منه كان لعدم السبب .

وأما وجود المانع المضاد له المنافي فلأن نفسه قد تضيق وتضعف وتعجز أن تجمع بين أفعال ممكنة في نفسها ، متنافية في حقه ، فإذا اشتغل بسمع شيء أو بصره ، أو الكلام في شيء أو النظر فيه أو إرادته ، أو اشتغلت جوارحه بعمل كثير اشتغلت عن عمل آخر ، وإن كان ذلك خيراً لضيقه وعجزه ؛ فصار قيام إحدى الصفات والأفعال به مانعاً وصاداً عن آخر .

والضيق والعجز يعود إلى عدم قدرته . فعاد إلى العدم الذي هو منه ، والعدم المحض ليس بشيء حتى يضاف إلى الله تعالى ، وأما إن كان الشيء موجوداً كالآلم وسبب الآلم فينبغي أن يعرف أن الشر الموجود ليس شراً على الإطلاق ، ولا شراً محضاً ، وإنما هو شر في حق من تألم به ، وقد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد .

ولهذا جاء في الحديث الذي رويناه مسلسلاً « آمنت بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره » (١) وفي الحديث الذي رواه أبو داود : لو أفنقت ملء الأرض ذهباً لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك » (٢) فالخير والشر هما بحسب العبد

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر - ٨٧ - حدثنا يحيى بن عيسى الخزار عن عبد الأعلى بن أبي المساور ، عن الشعبي ، قال : لما قدم عدي بن حاتم الكوفة أتياه في نفر من فقهاء الكوفة فقلنا له حدثنا ما سمعت من رسول الله - ﷺ - فقال : أتيت النبي - ﷺ - فقال : يا عدي بن حاتم أسلم تسلم - قلت : وما الاسلام ؟ . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتؤمن بالأقدار كلها الخ . في الزوائد : هذا إسناد ضعيف .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب في القدر ٤٦٩٩ حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن أبي سنان ، عن وهب بن خالد الحمصي ، عن ابن الدليمي ، قال : أتيت أبي ابن كعب فقلت له وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهب من قلبي فقال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم :

المضاف إليه كالحلو والمر سواء ، وذلك أن من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شراً ، ومن تنعم به فهو في حقه خير ، كما كان النبي ﷺ يعلم من قص عليه أخوه رؤيا أن يقول : « خيراً تلقاه وشرّاً توقاه ، خيراً لنا وشرّاً لأعدائنا » فإنه إذا أصاب العبد شر سر قلب عدوه ، فهو خير لهذا وشر لهذا : ومن لم يكن له ولياً ولا عدواً فليس في حقه لا خيراً ولا شراً ، وليس في مخلوقات الله ما لم يؤلم الخلق كلهم دائماً ، ولا ما لم يؤلم جمهورهم دائماً : بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم في أغلب الأوقات ، كالشمس والعافية ، فلم يكن في الموجودات التي خلقها الله ما هو شر مطلقاً عاماً .

فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص ، وفيه وجه آخر هو به خير وحسن ، وهو أغلب وجهيه ، كما قال تعالى : ﴿ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ ^(٤) .

وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئاً ما إلا لحكمة ؛ فتلك الحكمة وجه حسنه وخيره ، ولا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه : وبهذا يظهر معنى قوله : « والشر ليس إليك » وكون الشر لم يضاف إلى الله وحده ؛ بل إما بطريق العموم أو يضاف إلى السبب أو يحذف فاعله .

= كانت رجمته خيراً لهم من أعمالهم وذكره . وفيه قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك . قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال : مثل ذلك قال : ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ - مثل ذلك .

(١) سورة السجدة آية رقم ٧ وتكملة الآية ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٨ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٩١ وتكملة الآية ﴿ سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ .

فهذا الشر الموجود الخاص المقيد سببه : إما عدم وإما وجود ؛ فالعدم مثل عدم شرط أو جزء سبب ، إذ لا يكون سببه عدماً محضاً ، فإن العدم المحض لا يكون سبباً تاماً لوجوده : ولكن يكون سبب الخير واللذة قد انعقد ، ولا يحصل الشرط فيقع الألم ؛ وذلك مثل عدم فعل الواجبات الذي هو سبب الذم والعقاب ، ومثل عدم العلم الذي هو سبب ألم الجهل وعدم السمع والبصر والنطق الذي هو سبب الألم بالعمى والصمم والبكم وعدم الصحة والقوة ، الذي هو سبب الألم والمرض ، والضعف . فهذه المواضع ونحوها يكون الشر أيضاً مضافاً إلى العدم المضاف إلى العبد حتى يتحقق قول الخليل : ﴿ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ^(١) فإن المرض وإن كان المأ موجوداً فسيبه ضعف القوة ، وانتفاء الصحة الموجودة ، وذلك عدم هو من الإنسان المعدم بنفسه ، ولا يتحقق قول الحق ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٣) ونحو ذلك فيما كان سببه عدم فعل الواجب وكذلك قول الصحابي : وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان .

يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر والفسوق والعصيان إنما يفعلها العبد لجهله أو لحاجته ، فإنه إذا كان عالماً بمضرتها وهو غني عنها امتنع أن يفعلها ، والجهل أصله عدم ، والحاجة أصلها العدم .

فأصل وقوع السيئات منه عدم العلم والغنى ، ولهذا يقول في القرآن ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ ^(٤) ﴿ أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٥) ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا

(١) سورة الشعراء آية رقم ٨٠ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

(٤) سورة هود آية رقم ٢٠ .

(٥) هذا جزء من آية من سورة يس رقم ٦٢ وهي ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ .

آبَاءُهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿١﴾ إلى نحو هذه المعاني .

وأما الموجود الذي هو سبب الشر الموجود الذي هو خاص كالآلام ، مثل الأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار ، والفسوق الذي هو فعل المحرمات ونحو ذلك ، فإن ذلك سبب الذم والعقاب ، وكذلك تناول الأغذية الضارة ، وكذلك الحركات الشديدة المورثة للألم ، فهذا الوجود لا يكون وجوداً تاماً محضاً : إذ الوجود التام المحض لا يورث إلا خيراً ، كما قلنا إن عدم المحض لا يقتضي وجوداً ؛ بل يكون وجوداً ناقصاً إما في السبب وإما في المحل ، كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق والإقرار به ، وسبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه ، من النظر التام ، والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه .

وسبب عدم النظر والاستماع : إما عدم المقتضى فيكون عدماً محضاً ، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢) وهو تصور باطل ، وسببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل .

و« الحسد » (٣) أيضاً سببه عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه ؛ فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحسود ، أو يتفضل عليه . وكذلك الفسوق كالقتل والزنا وسائر القبائح ، إنما سببها حاجة النفس إلى الاشتفاء بالقتل والالتذاذ بالزنا ، وإلا فمن حصل غرضه بلا قتل أو نال

(١) سورة الصافات آية رقم ٦٩ - ٧٠ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٣ .

(٣) روى ابن ماجه في كتاب الزهد ٢٢ باب الحسد ٤٢٠٨ حدثنا اسماعيل بن خالد ، عن قيس ابن أبي حازم ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك ، والحاجة مصدرها العدم ، وهذا يبين - إذا تدبره الإنسان - أن الشر الموجود إذا أضيف إلى عدم أو وجود فلا بد أن يكون وجوداً ناقصاً ، فتارة يضاف إلى عدم كمال السبب أو فوات الشرط ، وتارة يضاف إلى وجود ، ويعبر عنه تارة بالسبب الناقص والمحل الناقص ، وسبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع ، والمانع لا يكون مانعاً إلا لضعف المقتضى ، وكل ما ذكرته واضح بين ، إلا هذا الموضع ففيه غموض يتبين عند التأمل وله طرفان :

« أحدهما » أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

والثاني « أن الموجود لا يكون سبباً للعدم المحض ، وهذا معلوم بالبديهة أن الكائنات الموجودة لا تصدر إلا عن حق موجود .

ولهذا كان معلوماً بالفطرة أنه لا بد لكل مصنوع من صانع كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(١) يقول : أخلقوا من غير خالق أم هم خلقوا أنفسهم ؟ .

ومن المتكلمين من استدل على هذا المطلوب بالقياس ^(٢) ، وضرب

(١) سورة الطور آية رقم ٣٥ ووجودهم هكذا من غير شيء ينكره منطق الفطرة ابتداء ، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل ، أم يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدعيه مخلوق ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والانشاء فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة ، وهو منطق واضح بسيط .

(٢) القياس : التقدير يقال قاس الشيء إذا قدره ، ويستعمل أيضاً في التشبيه أي في تشبيه الشيء بالشيء يقال : هذا قياس ذاك ، إذا كان بينهما تشابه .

والقياس اللغوي : رد الشيء إلى نظيره ، والقياس الفقهي : حمل فرع على أصله لعله مشتركة بينهما .

والقياس المنطقي : قول مؤلف من أقوال إذا وضعت لزم عنها بذاتها لا بالعرض قول آخر غيرها اضطراراً .

المثال ، والاستدلال عليه ممكن ، ودلائله كثيرة ، والفطرة عند صحتها أشد إقراراً به ، وهو لها أبداً ، وهي لها أشد اضطراباً من المثال الذي يقاس به . وقد اختلف أهل الأصول في العلة الشرعية ، هل يجوز تعليل الحكم الوجودي بالوصف العدمي فيها مع قولهم : إن العدمي يعلل بالعدمي ؟ فمنهم من قال : يعلل به ، ومنهم من أنكر ذلك ، ومنهم من فصل بين ما لا يجوز أن يكون علة للوجود في قياس العلة ، ويجوز أن تكون علته له في قياس الدلالة يجوز أن يكون العدم فيه علة وجزءاً من علة ؛ لأن عدم الوصف قد يكون دليلاً على وصف وجودي يقتضي الحكم .

وأما « قياس العلة » فلا يكون العدم فيه علة تامة : لكن يكون جزءاً من العلة التامة ، وشرطاً للعلة المقتضية التي ليست بتامة ، وقلنا : جزء من العلة التامة ، وهو معنى كونه شرطاً في اقتضاء العلة الوجودية وهذا نزاع لفظي ، فإذا حققت المعاني ارتفع ، فهذا في بيان أحد الطرفين وهو أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

وأما « الطرف الثاني » وهو أن الموجود لا يكون سبباً لوجود يستلزم عدماً^(١) فلأن العدم المحض لا يفتقر إلى سبب موجود ، بل يكفي فيه عدم السبب الموجود ؛ ولأن السبب الموجود إذا أثر فلا بد أن يؤثر شيئاً ، والعدم المحض ليس بشيء ، فالأثر الذي هو عدم محض بمنزلة عدم الأثر ؛ بل إذا أثر الإعدام فالإعدام أمر وجودي فيه عدم ، فإن جعل الموجود معدوماً

(١) العدم : ضد الوجود ، وهو مطلق أو إضافي ، فالعدم المطلق هو الذي لا يضاف إلى شيء ، والعدم الإضافي أو المقيد ، هو المضاف إلى شيء كقولنا : عدم الأمن ، وعدم الاستقرار ، وعدم التأثير .

والعدمي : هو المنسوب إلى العدم ، ويطلق على كل حد يدل على فقدان الشيء لأحدى الصفات التي تقتضيها طبيعته كالعمى للإنسان ، وكل شيء مصيره إلى الزوال ، كالسماة المظلة ، والأرض ، والمال ، والجاه ، والملك فهو عدمي . قال تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ .

والمعدوم موجوداً أمر معقول ، أما جعل المعدوم معدوماً فلا يعقل إلا بمعنى الإبقاء على العدم ، والإبقاء على العدم يكفي فيه عدم الفاعل ، والفرق معلوم بين عدم الفاعل وعدم الموجب في عدم العلة ، وبين فاعل العدم وموجب العدم ، وعلة العدم . والعدم لا يفتقر إلى الثاني ، بل يكفي فيه الأول فتبين بذلك الطرفان ، وهو أن العدم المحض الذي ليس فيه شوب وجود لا يكون وجوداً ما : لا سبباً ولا مسبباً ولا فاعلاً ولا مفعولاً أصلاً فالوجود المحض التام الذي ليس فيه شوب عدم لا يكون سبباً لعدم أصلاً ولا مسبباً عنه ولا فاعلاً له ولا مفعولاً ، أما كونه ليس مسبباً عنه ولا مفعولاً له فظاهر ، وأما كونه ليس سبباً له فإن كان سبباً لعدم محض فالعدم المحض لا يفتقر إلى سبب ^(١) موجود ، وإن كان لعدم فيه وجود فذاك الوجود لا بد له من سبب ولو كان سببه تاماً وهو قابل لما دخل فيه عدم ؛ فإنه إذا كان السبب تاماً والمحل قابلاً وجب وجود المسبب فحيث كان فيه عدم فلعدم ما في السبب أو في المحل فلا يكون وجوداً محضاً .

فظهر أن السبب حيث تخلف حكمه إن كان لفوات شرط فهو عدم ، وإن كان لوجود مانع فإنما صار مانعاً لضعف السبب ، وهو أيضاً عدم قوته وكماله ، فظهر أن الوجود ليس سبب العدم المحض ، وظهر بذلك القسمة الرباعية ، وهي أن الوجود المحض لا يكون إلا خيراً .

يبين ذلك أن كل شر في العالم لا يخرج عن قسمين إما ألم ^(٢) وإما

(١) السبب : الحبل ، وما يتوصل به إلى المقصود ، والجمع أسباب ، وأسباب السماء مراقبها ونواحيها ، أو أبوابها .

والفرق بين السبب والشرط أن السبب هو ما يكون الشيء محتاجاً إليه إما في ماهيته أو في وجوده ، على حين أن الشرط هو ما يتوقف عليه وجود الشيء كالوضوء للصلاة . والسبب عند الأصوليين ، ما كان طريقاً للوصول إلى الحكم من غير تأثير فيه ولا توقف الحكم عليه .

والسببية : هي العلاقة بين السبب والمسبب .

(٢) الألم : مصدر ألم يألم ، كعلم يعلم ، وهو مقابل للذة ، والألم واللذة هما من الأحوال =

سبب الألم ، وسبب الألم مثل الأفعال السيئة المقتضية للعذاب ، والألم الموجود لا يكون إلا لنوع عدم ، فكما يكون سببه تفرق الاتصال ، وتفرق الاتصال هو عدم التأليف والاتصال الذي بينهما ، وهو الشر والفساد .

وأما سبب الألم فقد قررت في « قاعدة كبيرة » أن أصل الذنوب هو عدم الواجبات لا فعل المحرمات ، وأن فعل المحرمات إنما وقع لعدم الواجبات ، فصار أصل الذنوب عدم الواجبات ، وأصل الألم عدم الصحة ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يعلمهم في خطبة الحاجة أن يقولوا : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » (١) فيستعيز من شر النفس الذي نشأ عنها من ذنوبها وخطاياها ، ويستعيز من سيئات الأعمال التي هي عقوباتها وآلامها ؛ فإن قوله : « ومن سيئات أعمالنا » قد يراد به السيئات في الأعمال وقد يراد به العقوبات ؛ فإن لفظ السيئات في كتاب الله يراد به ما يسوء الإنسان من الشر ، وقد يراد به الأعمال السيئة ، قال تعالى : ﴿ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ،

= النفسية الأولية فلا يعرفان بل تذكر خواصهما وشروطهما دفعاً للالتباس اللفظي .
والألم نوعان جسماني ونفساني ، فالألم الجسماني ينشأ عن احساسات جسمانية ذات مصدر محدود ، كاحتراق اليد ، وضرب الضرس ووجع العين .
والألم النفسي ينشأ عن تأثير الميول والأفكار والاعتقادات والآراء .

(١) خطبة الحاجة : رواه الترمذي في كتاب النكاح باب ما جاء في خطبة النكاح ١١٠٥ عن الأعمش عن أبي اسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : علمنا رسول الله - ﷺ - التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة . وهو إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، فمن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ويقرأ ثلاث آيات .
قال عبثر ففسره لنا سفيان الثوري : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . ﴿ واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام ﴾ إلى آخر الآية . ﴿ واتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ إلى آخر الآية . ورواه ابن ماجه في كتاب النكاح ١٩ باب خطبة النكاح ١٨٩٢ بسنده عن عبد الله بن مسعود .

وَأِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴿١﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ ﴿٢﴾ .

ومعلوم أن شر النفس هو الأعمال السيئة فتكون سيئات الأعمال هي الشر والعقوبات الحاصلة بها فيكون مستعيذاً من نوعي السيئات : الأعمال السيئة وعقوباتها ، كما في الاستعاذة المأمور بها في الصلاة :

« أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (٣) فأمرنا بالاستعاذة من العذاب عذاب الآخرة وعذاب البرزخ ، ومن سبب العذاب ، ومن فتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال ، وذكر الفتنة الخاصة بعد الفتنة العامة فتنة المسيح الدجال فإنها أعظم الفتن كما في الحديث الصحيح « ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة المسيح الدجال » (٤) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٤٨ .

(٣) أخرج الامام مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٢٥) باب ما يستعاذ منه في الصلاة بسنده أن عائشة زوج النبي - ﷺ - أخبرته أن النبي - ﷺ - كان يدعو في الصلاة « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات . اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم » . قالت : فقال له قائل : ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول الله . فقال : إن الرجل إذا غريم ، حدث فكذب . ووعد فأخلف » .

(٤) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٣٣ باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج ٤٠٧٧ بسنده عن أبي أمامة الباهلي قال : خطبنا رسول الله - ﷺ - فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه فكان من قوله أن قال : إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال . . وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم الخ .

فصل

العبد وكل مخلوق فقير الى الله

إذا ظهر أن العبد وكل مخلوق فقير إلى الله محتاج إليه ليس فقيرا إلى سواه فليس هو مستغنيا بنفسه ولا بغير ربه ، فإن ذلك الغير فقير أيضا محتاج إلى الله ، ومن المأثور عن أبي يزيد ^(١) - رحمه الله - أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق .

وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم ؛ فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولا وإلا فليس له من نفسه شيء ، قال سبحانه ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) .

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ويقال با يزيد : زاهد مشهور له أخبار كثيرة . قال المناوي : وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود ، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية توفي عام ٢٦١ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ٤٨١ ووفيات الأعيان ١ : ٢٤٠] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

واسم العبد يتناول معنيين :

« أحدهما » بمعنى العابد كرها كما قال : ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) ﴿ كُلُّ لَهُ قَائِتُونَ ﴾ ^(٤)

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ^(٥)
و« الثاني » بمعنى العابد طوعاً وهو الذي يعبد ويستعينه ، وهذا هو المذكور
في قوله :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ^(٦) وقوله :
﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ ^(٧) وقوله :
﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ^(٨) وقوله :
﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(٩) وقوله :
﴿ يَا عِبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ^(١٠) وقوله :
﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ^(١١) وقوله :
﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ ^(١٢) وقوله :

(١) سورة مريم آية رقم ٩٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١١٧ وسورة الأنعام آية رقم ١٠١ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١١٦ وسورة الروم آية رقم ٢٦ .

(٥) سورة الرعد آية رقم ١٥ .

(٦) سورة الفرقان آية رقم ٦٣ .

(١٠) سورة الزخرف آية رقم ٦٨ .

(٧) سورة الإنسان آية رقم ٦ .

(١١) سورة ص آية رقم ٤٥ .

(٨) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(١٢) سورة النجم آية رقم ١٠ .

(٩) سورة ص آية رقم ٨٣ .

﴿ نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ^(١) وقوله :
 ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
 يَدْعُوهُ ﴾ ^(٣)

وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة ، وأما الأولى فوصف لازم .
 إذا أريد بها جريان القدر عليه وتصريف الخالق له ، قال تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
 وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ^(٤) ؟

وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام استسلامهم له بالخضوع
 والذل ، لا مجرد تصريف الرب لهم ، كما في قوله :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ^(٥) ،

وهذا الخضوع والذل هو أيضاً لازم لكل عبد لا بد له من ذلك . وإن
 كان قد يعرض له أحياناً الإعراض عن ربه والاستكبار ، فلا بد له عند التحقيق
 من الخضوع والذل له : لكن المؤمن يسلم له طوعاً فيحبه ويطيع أمره ،
 والكافر إنما يخضع له عند رغبته ورهبته ، فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه ،
 كما قال :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ ^(٦) دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا

(١) سورة ص آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١٩ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٨٣ .

(٥) سورة الرعد آية رقم ١٥ .

(٦) الضر : ورد في القرآن واللغة على وجوه : ١ - بمعنى البلاء والشدة ﴿ والصابرين في البأساء
 والضراء ﴾ البقرة آية ١٧٧ .

عَنْهُ ضَرَّةٌ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرٍّ مَسَّةٌ ﴿١﴾ وقال :
﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ﴿٢﴾ .

وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتي له لا وجود له بدون ذلك ، والحاجة
ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات ، وبذلك هي أنها لخالقها وفاطرها إذ
لا قيام لها بدونه ، وإنما يفتقر الناس في شهود هذا الفقر والاضطرار وعزوبه
عن قلوبهم .

و« أيضاً » فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب
إجلال وتعظيم فهو غاية مطلوبة ومراده ومتتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا ،
وأصل الحركات الحب ، والذي يستحق المحبة لذاته هو الله ، فكل من أحب
مع الله شيئاً فهو مشرك ، وحبه فساد : وإنما الحب الصالح النافع حب الله
والحب لله ، والإنسان فقير إلى الله من جهة عبادته له ومن جهة استعانت به
للاستسلام والانقياد لمن أنت إليه فقير وهو ربك وإلهك . وهذا العلم والعمل
أمر فطري ضروري : فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها ، وتذل لمن أفتقرت
إليه ، وغناه من الصمدية ﴿٣﴾ التي انفرد بها ، فإنه ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

﴿٢﴾ بمعنى الفقر والفاقة : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴾ [الأنعام آية ١٧] ﴿ إن
أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ أي ما قدر من الفقر .

﴿٣﴾ بمعنى القحط والجذب وضيق المعيشة ﴿ مستهم البأساء والضراء ﴾ [سورة البقرة ٢١٤]
﴿ من بعد ضراء مستهم ﴾ يونس آية ٢١ .

﴿٤﴾ بمعنى اختلاف الرياح والأمواج وخوف الهلاك ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ﴾ [سورة
الاسراء آية ٦٧] .

﴿١﴾ سورة يونس الآية رقم ١٢

﴿٢﴾ سورة الاسراء آية رقم ٦٧

﴿٣﴾ في الصمد أربعة أقوال : أحدها : أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج رواه ابن عباس
عن رسول الله - ﷺ -

الثاني : أنه الذي لا جوف له قاله ابن عباس ، والحسن ومجاهد وابن جبير وعكرمة والضحاك
وقتادة والسدي .

وَالْأَرْضِ ﴿١﴾

وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والإنابة إليه ، فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينيب إليه ، وذلك قدر زائد على مسألته والافتقار إليه . فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئته ، قائمة بقدرته وكلمته ، محتاجة إليه ، فقيرة إليه ، مسلمة له طوعاً وكرهاً ، فإذا شهد العبد ذلك وأسلم له متوكلاً عليه مستعيناً به إما بحاله أو بقاله ، بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألته .

ثم هذا المستعين به السائل له إما أن يسأل ما هو مأمور به ، أو ما هو منهي عنه ، أو ما هو مباح له ؛ ف « الأول » حال المؤمنين السعداء الذين حالهم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٢) و « الثاني » حال الكفار والفساق والعصاة الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفاراً كما قال :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ^(٣) فهم مؤمنون بربوبيته ، مشركون في عبادته ، كما قال النبي ﷺ لحصين الخزاعي :

« يا حصين ، كم تعبد ؟ قال : سبعة آلهة : ستة في الأرض وواحد في السماء ، قال : فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء ، قال : أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك الله تعالى بها ، فأسلم ، فقال : قل :

= الثالث : أنه الدائم .

الرابع : الباقي بعد فناء الخلق حكامها الخطابي وقال : أصح الوجوه الأول ، لأن الاشتقاق يشهد له ، فإن أصل الصمد : القصد . يقال : أصمد صمد فلان ، أي أقصد قصده . فالصمد : السيد الذي يصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج .

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .

اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي « (١) رواه أحمد وغيره .

ولهذا قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢) .

أخبر سبحانه أنه قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، فهذا اخبار عن ربوبيته لهم ، وإعطائه سؤالهم ، وإجابة دعائهم ، فإنهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم ، وإن كانوا مع ذلك كفاراً من وجه آخر ، وفساقاً أو عصاة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَوْا بِمَنْ عَرَضْتُمْ لَهُ الْإِنْسَانَ كَقَبْلِهِ ﴾ (٣) وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ونظائره في القرآن كثيرة ثم أمرهم بأمرين فقال ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٥)

فـ « الأول » أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والاستعانة ، و « الثاني » الإيمان بربوبيته وألوهيته ، وأنه ربهم وإلههم . ولهذا قيل : إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد ، وعن كمال الطاعة ؛ لأنه عقب آية الدعاء

(١) ورواه أيضاً الترمذي في كتاب الدعوات ٧٠ باب (٣٤٨٣) - حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا أبو معاوية عن شبيب بن شيبه ، عن الحسن البصري عن عمران بن حصين قال : قال النبي - ﷺ - وذكره . قال الترمذي : هذا حديث غريب . وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٦٧ .

(٤) سورة يونس آية رقم ١٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

بقوله ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ .

والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته ، وأما إجابة دعائه وإعطاء سؤاله فقد يكون منفعة وقد يكون مضرة ، قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ بِالْإِشْرَارِ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى عن المشركين : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣) وقال : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٤) . وقال : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (٦) الآية .

وقال : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةً اللَّهُ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (٧) .

(١) سورة الإسراء آية رقم ١١ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١١ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٣٢ .

(٤) سورة الأنفال آية رقم ١٩ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٧٥ - ١٧٦ .

(٧) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .

وقال النبي ﷺ لما دخل على أهل جابر فقال :

« لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون »^(١) .

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب الجنائز ٤ باب في اغماض الميت والدعاء له إذا حضر ، ٧ (٩٢٠) حدثنا أبو اسحاق الفزاري عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن قبيصة بن ذؤيب عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله - ﷺ - على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ، ونور له فيه .

فصل

(العبد فقير إلى الله فيما يصلحه ويقصده)

فالعبد كما أنه فقير إلى الله دائماً في إعانته وإجابة دعوته وإعطاء سؤاله وقضاء حوائجه فهو فقير إليه في أن يعلم ما يصلحه وما هو الذي يقصده ويريده وهذا هو الأمر والنهي والشريعة ، وإلا فإذا قضيت حاجته التي طلبها وأرادها ولم تكن مصلحة له كان ذلك ضرراً عليه ، وإن كان في الحال له فيه لذة ومنفعة فالاعتبار بالمنفعة الخالصة أو الراجعة وهذا قد عرفه الله عباده برسله وكتبه : علموهم ، وزكوهم ، وامروهم بما ينفعهم ، ونهوهم عما يضرهم ، وبينوا لهم أن مطلوبهم ومقصودهم ومعبودهم يجب أن يكون هو الله وحده لا شريك له ؛ كما أنه هو ربهم وخالقهم ، وأنهم إن تركوا عبادته أو أشركوا به ^(١) غيره خسروا خسرانا مبيناً ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، وكل ما أوتوه من قوة ومعرفة وجاه ومال وغير ذلك - وإن كانوا فيه فقراء إلى الله مستعينين به عليه مقرين بربوبيته - فإنه ضرر عليهم ، ولهم بش المصير وسوء الدار . وهذا هو الذي تعلق به الأمر الديني الشرعي والإرادة الدينية الشرعية ، كما تعلق بالأول الأمر الكوني القدري والإرادة الكونية القدرية .

(١) قال الشاعر :

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين فأتارت على أحداقها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

والله سبحانه قد أنعم على المؤمنين بالإعانة والهداية ، فإنه بين لهم هداهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وأعانهم على اتباع ذلك علماً وعملاً كما مَنْ عليهم وعلى سائر الخلق بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم ، وَمَنْ على أكثر الخلق بأن عرفهم ربوبيته لهم وحاجتهم إليه ، وأعطاهم سؤاله ، وأجاب دعاءهم ، قال تعالى ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (١) فكل أهل السموات والأرض يسألونه فصارت الدرجات أربعة .

« قوم » لم يعبدوه ولم يستعينوه ، وقد خلقهم ورزقهم وعافاهم ، و« قوم » استعانوه فأعانهم ولم يعبدوه .

و« قوم » طلبوا عبادته وطاعته ولم يستعينوه ولم يتوكلوا عليه .

و« الصف الرابع » الذين عبدوه واستعانوه فأعانهم على عبادته وطاعته ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد بين سبحانه ما خص به المؤمنين في قوله .

﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٧ .

الذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير وهو الذي خلص قلوبهم من ذلك الشر : الكفر ، والفسوق ، والعصيان وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلاً منه ونعمة وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة .

وإن الإنسان ليعجل وهو لا يدري ما وراء خطواته ، وإن الإنسان يقترح لنفسه ولغيره ، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً » . ولو استسلم لله ودخل في السلم كافة ، ورضي اختيار الله له واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره ، وأرحم له وأعود عليه بالخير لاستراح وسكن ولأَمْضَى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أفضل المرسلين محمد وآله
وصحبه أجمعين .

فصل (في حاجة العبد الى هداية الله)

والعبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم ، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء : فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية ، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، وهذه الآية مما يبين فساد مذهب القدرية (١) .

وأما سؤال من يقول فقد هداهم فلا حاجة بهم إلى السؤال ، وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب ، وما أمر الله به ؛ فإن ﴿ الصُّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا بفعل ما نهى عنه ، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحذور ، فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد .

(١) أول من تكلم في القدر معبد بن خالد الجهني البصري ، قال أبو حاتم « قدم المدينة فافسد فيها ناساً » وقال الدارقطني « حديثه صالح ومذهبه رديء » ، وقال محمد بن شعيب عن الأوزاعي « أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له « سوسن » كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر أخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد . [راجع العبر ١ : ٩٢ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٢٢٥] .

بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم .

نعم : حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق ، والرسول حق ، ودين الإسلام حق ، وذلك حق ، ولكن هذا المجمل لا يغنيه إن لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذرّه من الجزئيات التي يحار فيها أكثر عقول الخلق ويغلب الهوى والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم . والإنسان خلق ظلوماً جهولاً ^(١) ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله ، وعدل ينافي ظلمه ، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ^(٢) فإذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره . و﴿ الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قد فسر بالقرآن ^(٣) ، وبالإسلام ^(٤) ، وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ،

(١) قال تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [سورة الأحزاب آية ٧٢] .

أخذ الإنسان على عاتقه حمل الأمانة ، وتعهّد بحملها وحده ، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات ، وقصور العلم ، وقصر العمر ، وحواجز الزمان والمكان ، دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد .
وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة ، ومن ثم كان ظلوماً لنفسه جهولاً لطاقته ، هذا بالقياس الى ضخامة ما زج بنفسه لحمله .

(٢) سورة الفتح الآيات ١ - ٢ .

(٣) في الصراط أربعة أقوال : أحدها . أنه كتاب الله ، رواه علي عن النبي - ﷺ -

(٤) الثاني : أنه دين الإسلام ، قاله ابن مسعود وابن عباس ، والحسن وأبو العالية في آخرين .

ف « القرآن » مشتمل على مهمات وأمور دقيقة ، ونواهٍ وأخبار وقصص وغير ذلك إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضال عنها ، وكذلك « الإسلام » وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة ، وكذلك « العبادة » وما اشتملت عليه .

فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه ، بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه ، فإذا انقطع رزقه مات ، والموت لا بد منه ، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده ، وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية ، وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيداً وكان القتل من تمام النعمة ، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق ؛ بل لا نسبة بينهما لأنه إذا هدى كان من المتقين ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (١) وكان ممن ينصر الله ورسوله ومن نصر الله نصره الله (٢) ، وكان من جند الله ، وهم الغالبون : ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض و« أيضاً » فإنه يتضمن الرزق والنصر ، لأنه إذا هدى ، ثم أمر وهدى غيره بقوله وفعله ورؤيته فالهدى (٣) التام أعظم ما يحصل به الرزق

= الثالث : أنه الطريق الهادي الى دين الله ، رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال مجاهد .
الرابع : أنه طريق الجنة نقل عن ابن عباس أيضاً .

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣ .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

(٣) الهدى : بضم الهاء وفتح الدال : الرشاد والدلالة يذكر ويؤنث هده هُدى .

قال ابن عطية : الهداية في اللغة : الإرشاد لكنها تنصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد وكلها إذا تؤملت رجعت اليه انتهى كلامه وهو صحيح ، ولم يذكر أهل اللغة فيها إلا أنها بمعنى الإرشاد والأصل عدم الاشتراك . وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أضرب :

الأول : الهداية التي عم بها كل مكلف من العقل والفتنة والمعارف الضرورية قال تعالى : =

والنصر فتبين أن هذا الدعاء جامع لكل مطلوب ، وهذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها ، وأن فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع ، فإذا تعينت الأفعال فهذا المقول أولى والله أعلم .
وصلّى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيراً .

= ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ .
الثاني : الهداية التي جعلت للناس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء وإنزال القرآن ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ .
الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعنى بقوله : ﴿ والذين اهتدوا زدناهم هدى ﴾ .
الرابع : الهداية في الآخرة الى الجنة وهو المعنى بقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ﴿ والحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ سورة الأعراف آية ٤٣ .

التفسيـر الكبير

للإمام العلامة تقي الدين

إبراهيم بن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ

رحمه الله تعالى

الجزء الثالث

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن حميرة

عضو اللجنة العامة الدائمة

بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

تفسير سورة البقرة

- ١ - عرض مجمل لما تضمنته من معانٍ
- ٢ - عرض بعض الآيات وتفسيرها



تفسير سورة البقرة (عرض مجمل لما تضمنته من معانٍ)

وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه « سورة البقرة » من تقرير أصول العلم وقواعد الدين : إن الله تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين ، فوصف حال أهل الهدى ^(١) ثم الكافرين ^(٢) ، ثم المنافقين ^(٣) ، فهذه « جمل خبرية » ثم ذكر « الجمل الطلبية » فدعا الناس إلى عبادته وحده ، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء ^(٤) وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقاً للعباد ، ثم قرر « الرسالة » وذكر « الوعد » و« الوعيد » ثم ذكر مبدأ النبوة والهدى « وما بثه في العالم من الخلق والأمر » ، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء ^(٥) وإسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم ، فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق ، فقص جنس دعوة الأنبياء .

-
- (١) قال تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ البقرة آية ٥ .
(٢) قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ .
(٣) قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ البقرة آية ٨ .
(٤) قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء ﴾ البقرة آية ٢٢ .
(٥) قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ البقرة آية ٣١ .

ثم انتقل إلى خطاب بني إسرائيل وقصة موسى معهم ، وضمن ذلك تقرير نبوته إذ هو قرين محمد ، فذكر آدم الذي هو أول ، وموسى الذي هو نظيره ، وهما اللذان احتجا ، وموسى قتل نفسا فغفر له ، وآدم أكل من الشجرة فتاب عليه ، وكان في قصة موسى ردّ على الصابئة ونحوهم ممن يقر بجنس النبات ولا يوجب اتباع ما جاءوا به وقد يتأولون أخبار الأنبياء ، وفيها ردّ على أهل الكتاب بما تضمنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، وتقرير نبوته ، وذكر حال من عدل عن النبوة إلى السحر^(١) ، وذكر النسخ الذي ينكره بعضهم^(٢) ، وذكر النصارى وأن الأمتين لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم^(٣) ، كل هذا في تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة .

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الإسلام التي على ملة إبراهيم ، فذكر إبراهيم الذي هو إمام ، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم وذكر استقباله ، وقرر ذلك ؛ فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم ؛ ولهذا يقال : أهل القبلة ، كما يقال « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم »^(٤) .

(١) قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ البقرة آية ١٠٢ .

(٢) قال تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ البقرة آية ١٠٦ .

(٣) قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ .

(٤) الحديث رواه الترمذي في كتاب الإيمان ٢ باب ما جاء في قول النبي - ﷺ - أمرت بقتالهم حتى يقولوا لا إله إلا الله وقيموا الصلاة ٢٦٠٨ - حدثنا ابن المبارك أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال قال رسول الله - ﷺ - وفيه أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذكره وفي الباب : عن معاذ بن جبل وأبي هريرة وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رواه يحيى بن أيوب عن حميد عن أنس =

وذكر من « المناسك » ما يختص بالمكان ، وذلك أن الحج له مكان وزمان ، و« العمرة » لها مكان فقط ، والعكوف والركوع والسجود شرع فيه ، ولا يتقيد به ، لا بمكان ، ولا بزمان ؛ لكن الصلاة تتقيد باستقباله ، فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة : من العكوف ، والصلاة ، والطواف ، والعمرة والحج ، والطواف يختص بالمكان فقط ، ثم اتبع ذلك ما يتعلق بالبيت من الطواف بالجبلين وأنه لا جناح فيه جواباً لما كان عليه الأنصار في الجاهلية من كراهة الطواف بهما لأجل اهلالهم لمناة ، وجواباً لقوم توقفوا عن الطواف بهما .

وجاء ذكر الطواف بعد العبادات المتعلقة بالبيت - بل وبالقلوب والأبدان والأموال - بعدما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلاة اللذين لا يقوم الدين إلا بهما ، وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسس على الصبر ، لأن ذلك من تمام أمر البيت ، لأن أهل الملل لا يخالفون فيه ، فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه ، وذكر الصبر على المشروع والمقدور ، وبين ما أنعم به على هذه الأمة من البشري للصابرين ، فإنها أعطيت ما لم تُعط الأمم قبلها ، فكان ذلك من خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلقة بالبيت ؛ ولهذا يقرن بين الحج والجهاد لدخول كل منهما في سبيل الله ، فأما الجهاد فهو أعظم سبيل بالنص والإجماع ، وكذلك الحج في الأصح كما قال : « الحج من سبيل الله » .

وبين أن هذا معروف عند أهل الكتاب بدمه لكاتم العلم ثم ذكر أنه لا يقبل ديناً غير ذلك . ففي أولها : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ ^(١) وفي أثنائها : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً ﴾ ^(٢) فـ « الأول » نهى عام و« الثاني » نهى خاص ، وذكرها بعد البيت ليشتهي عن قصد الأنداد المضاهية له وليته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك ، ووجد نفسه قبل ذلك ، وأنه ﴿ لَا

= نحو هذا ورواه النسائي في التحريم ١ ، وإيمان ٩ ، ١٥ وأبو داود في الجهاد ٩٥ وأحمد بن حنبل ٣ : ١٩٩ ، ٢٢٥ .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ .

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ ثم ذكر ما يتعلق بتوحيده من الآيات .

ثم ذكر الحلال والحرام ، وأطلق الأمر في المطاعم ؛ لأن الرسول بعث بالحنيفية ^(٢) وشعارها وهو البيت ، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة وفي الدماء بما شرعه من القصاص ، ومن أخذ الدية ، ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان ، فذكر الوصية المتعلقة بالموت ، ثم الصيام المتعلق برمضان ، وما يتصل به من الاعتكاف ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان فإنه يختص بالمسجد وبالزمان استحباباً أو وجوباً بوقت الصيام ووسطه أولاً بين الطواف والصلاة ؛ لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام والصلاة تشرع في جميع الأرض ^(٣) ، والعكوف بينهما .

ثم اتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل ، وأخبر أن المحرم « نوعان » . نوع لعينه كالميتة ، ونوع لكسبه كالربا والمغصوب ، فاتبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت تحريمه لعينه ، وذكر في أثناء عباداته الزمان المنتقل الحرام المنتقل ، ولهذا اتبعه بقوله :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ﴾ ^(٤) الآية .

وهي أعلام العبادات الزمنية ، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج لأن البيت تحجه الملائكة والجن ، فكان هذا أيضاً في

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٣ .

(٢) الحنيف - كامير - الصحيح الميل الى الاسلام الثابت عليه ، وكل من حج أو كان على دين ابراهيم - ﷺ - وحنفه تحنيفاً ، جعله أحنف ، وتحنف عمل عمل الحنيفية ، أو اختن أو اعتزل عبادة الأصنام .

(٣) روى ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها أبواب التيمم ٩٠ باب ما جاء في السبب ٥٦٧ بسنده عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٨٩ .

أن الحج مؤقت بالزمان كأنه مؤقت بالبيت المكاني ، ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحج ما يختص بالزمان مع أن المكان من تمام الحج والعمرة . وذكر « المحصر » ^(١) وذكر تقديم الإحلال المتعلق بالمال وهو الهدى عن الإحلال المتعلق بالنفس وهو الحلق ، وأن المتحلل يخرج من إحرامه فيحل بالأسهل فالأسهل ، ولهذا كان آخر ما يحل عين الوطء فإنه أعظم المحظورات ولا يفسد النسك بمحذور سواه .

وذكر « التمتع بالعمرة » إلى « الحج » لتعلقه بالزمان مع المكان فإنه لا يكون متمتعاً حتى يحرم بالعمرة في أشهر الحج ، وحتى لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام وهو الأفقي - فإنه الذي يظهر التمتع في حقه لترفهه بسقوط أحد السفرين عنه ، أما الذي هو حاضر فسيان عنده تمتع أو اعتمر قبل أشهر الحج ، ثم ذكر وقت الحج ، وأنه أشهر معلومات وذكر الإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة فإن هذا مختص بزمان ومكان ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ ^(٢) ولم يقل : (والعمرة) لأنها تفرض في كل وقت ، ولا ريب أن السنة فرض الحج في أشهره ومن فرض قبله خالف السنة ، فإما أن يلزمه ما التزمه كالنذر - إذ ليس فيه نقض للمشروع وليس كمن صلى قبل الوقت - وإما أن يلزم الإحرام ويسقط الحج ويكون معتمراً وهذان قولان مشهوران . ثم أمر عند قضاء المناسك ^(٣) بذكره وقضائها - والله أعلم - قضاء التفت والإحلال ؛

(١) المحصر : يكون من عدو من المشركين أو غيرهم يمنع الحاج من الوصول إلى البيت ، وحصره : ضيق عليه وأحاط به ، وبابه نصر ، والحصير : الضيق البخل ، والحصير : المحبس قال تعالى : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ والحصر : العي وهو أيضاً ضيق الصدر يقال : حصر صدره أي ضاق وبابهما طرب ، وأما قوله تعالى : ﴿ حصرت صدورهم ﴾ فأجاز الأخفش والكوفيون أن يكون الماضي حالاً ولم يجوزه سيبويه إلا مع قد ، وجعل حصرت صدورهم على جهة الدعاء عليهم ، وقال الأخفش حصرت الرجل فهو محصور : أي حبسته .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٧ .

(٣) النسك : العبادة ، والناسك : العابد ، وقد نسك ينسك بالضم نسكاً ، وتنسك : أي تعبد ، =

ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ ^(١) وهذا أيضاً من العبادات الزمانية المكانية . وهو ذكر الله تعالى مع رمي الجمار ومع الصلوات ، ودل على أنه مكاني قوله : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ^(٢) الآية وإنما يكون التعجيل والتأخير في الخروج من المكان : ولهذا تضاف هذه الأيام إلى مكانها فيقال : أيام منى ، وإلى عملها فيقال : أيام التشريق ، كما يقال : ليلة جمع ، وليلة مزدلفة ، ويوم عرفة ، ويوم الحج الأكبر ، ويوم العيد ويوم الجمعة فتضاف إلى الأعمال وأماكن الأعمال ، إذ الزمان تابع للحركة ، والحركة تابعة للمكان .

فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض ، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في موضعين : مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه ، وموضع ذكر فيه الأهلة فذكر ما يتعلق بزمانه ، وذكر أيضاً القتال في المسجد الحرام والمقاصدة في الشهر الحرام : لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج .

وذكر أن « البر » ^(٣) ليس أن يشقي الرجل نفسه ويفعل ما لا فائدة فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظل بسقف بيته حتى إذا أراد دخول بيته لا يأتيه إلا من ظهره فأخبر أن الهلال الذي جعل ميقاتاً للحج شرع مثل هذا ، وإنما تضمن شرع التقوى ، ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات ،

= والنسيكة : الذبيحة والجمع : نُسِكَ بضم نين ، والمنسك بفتح السين وكسرهما الموضع الذي تذبح فيه النساء وقرئ بهما قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ .

(١) (٢) سورة البقرة آية رقم ٢٠٣ .

(٣) البر : ضد العقوق ، وكذا « المبيرة » وجمع البر : أبرار وجمع البار : بررة ، وفلان يبر خالقه : أي يطيعه . وذكر الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ٥ باب تفسير البر والإثم ١٤ (٢٥٥٣) عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه ، عن النواس بن سمعان الأنصاري قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه .

وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك ، ، ثم ختمها بالدعاء العظيم^(١) المتضمن وضع الأصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة وطلب النصر على القوم الكافرين الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين .

والحمد لله رب العالمين .

(١) روى الترمذي في أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في آخر سورة البقرة ٣٠٤٣ - حدثنا أحمد ابن منيع ، أخبرنا جزير بن عبد الحميد عن منصور بن المعتمر ، عن إبراهيم بن يزيد عن عبد الرحمن بن يزيد عن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله - ﷺ - « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

قال شيخ الاسلام [في تفسير « بلى من كسب سيئة »]

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب التفسير »
إلا ما هو خطأ .

منها قوله : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ الآية ، ذكر أن
المشهور أن (السيئة) الشرك ^(١) ، وقيل الكبيرة يموت عليها قال عكرمة ،
قال محمد : هل الذنوب تحيط بالقلب .

قلت : الصواب ذكر أقوال السلف وإن كان فيها ضعيف فالحجة تبين
ضعفه ، فلا يعدل من ذكر أقوالهم لموافقتها قول طائفة من المبتدعة ، وهم
ينقلون عن بعض السلف أن هذه الآية أخطأ فيها الكاتب كما قيل في غيرها ،
ومن أنكر شيئاً من القرآن بعد تواتره استتيب فإن تاب وإلا قتل ، وأما قبل
تواتره عنده فلا يستتاب ؛ لكن يبين له ، وكذلك الأقوال التي جاءت الأحاديث

(١) السيئة ها هنا : الشرك في قول ابن عباس وعكرمة ، وأبي وائل وأبي العالية ، ومجاهد ،
وقتادة ، ومقاتل .

والسيئة الفعل القبيحة ، وهي ضد الحسنة ، والحسنة والسيئة ضربان : أحدهما بحسب اعتبار
العقل والشرع ، نحو المذكور في قوله تعالى : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء
بالسيئة فلا يجزى إلا مثله . والثاني بحسب اعتبار الطبع وذلك ما يستخفه الطبع وما
يستثقله نحو قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا
بموسى ومن معه ﴾ .

بخلافها : فقهاً وتصوفاً واعتقاداً ، وغير ذلك . وقول مجاهد صحيح ، كما في الحديث الصحيح : « إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء » ^(١) الخ ، والذي يغشى القلب يسمى « ريناً » ^(٢) و« طبعاً » و« ختماً » و« قفلاً » ونحو ذلك . فهذا ما أصر عليه ، و« إحاطة الخطيئة » إحداها به فلا يمكنه الخروج ، وهذا هو « البلى » بما كسبت نفسه ، أي : تحبس عما فيه نجاتها في الدارين : فإن المعاصي قيد وحبس نصاحبها عن الجولان في فضاء التوحيد ، وعن جنى ثمار الأعمال الصالحة .

ومن المتسبين إلى السنة من يقول : إن صاحب الكبيرة يعذب مطلقاً والأكثر على خلافه ، وأن الله سبحانه يزن الحسنات والسيئات وعلى هذا دل الكتاب والسنة وهو معنى الوزن ؛ لكن تفسير السيئة بالشرك هو الأظهر لأنه سبحانه غاير بين المكسوب والمحيط فلو كان واحداً لم يغاير ، والمشارك له خطايا غير الشرك أحاطت به لأنه لم يتب منها .

و« أيضاً » قوله ﴿ سيئة ﴾ نكرة ، وليس المراد جنس السيئات بالاتفاق . و« أيضاً » لفظ (السيئة) قد جاء في غير موضع مراداً به الشرك وقوله : ﴿ سيئة ﴾ أي حال سيئة أو مكان سيئة ونحو ذلك ، كما في قوله : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ^(٣) أي حالاً حسنة تعم الخير كله ، وهذا اللفظ يكون صفة ، وقد ينقل من الوصفية إلى الإسمية ؛ ويستعمل لازماً أو متعدياً يقال : ساء هذا الأمر أي قبح ، ويقال : ساءني هذا ، قال ابن عباس في قوله :

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٢٩ باب ذكر الذنوب ٤٢٤٤ حدثنا محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه [فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زادت زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾] ورواه الامام أحمد بن حنبل ٢ : ٢٩٧ .

(٢) الرين : الطبع والدنس والصدأ يعلو الشيء الجلي ران على قلبه رينه ورينا وريونا : غلب ، وكل ما غلبك فقد رانك ، وران بك ، وران عليك .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٠١ .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ (١) .

عملوا الشرك ؛ لأنه وصفهم بهذا فقط ، ولو آمنوا لكان لهم حسنات ، وكذا لما قال : (كسب سيئة) لم يذكر حسنة كقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى ﴾ (٢) وهو ما أمروا به ، كذلك (السيئة) تتناول المحظور فيدخل فيها الشرك .

-
- (١) سورة يونس آية رقم ٢٧ وتكملة الآية ﴿ وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .
- (٢) سورة يونس آية رقم ٢٦ وتكملة الآية ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

فصل (في معنى الغيب والشهادة)

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ، فَلَنَقْضِيَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ ^(٢) .
وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ^(٣) .

قال طائفة من السلف : « الغيب » هو الله ، أو من الإيمان بالغيب الإيمان بالله . ففي موضع نفي عن نفسه أن يكون غائباً ، وفي موضع جعله نفسه غيباً .

ولهذا اختلف الناس في هذه المسألة ، فطائفة من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم - كالقاضي ^(٤) وابن عقيل ^(٥) وابن الزاغوني ^(٦) - يقولون :

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٦ - ٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣ .

(٤) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى ت ٤٥٨ هـ . [راجع شذرات الذهب ٣ : ٣٠٦ ، والوافي بالوفيات ٣ : ٧ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦] .

(٥) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري أبو الوفاء ويعرف بابن عقيل عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته ت ٥١٣ [راجع جلاء العينين ٩٩ وشذرات الذهب ٤ : ٣٥ ولسان الميزان ٤ : ٢٤٣] .

(٦) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري أبو الحسين بن الزاغوني مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة =

بقياس الغائب على الشاهد ، ويريدون بالغائب الله ، ويقولون : قياس الغائب على الشاهد ثابت بالحد والعلة والدليل والشرط . كما يقولون في مسائل الصفات في إثبات العلم والخبرة والإرادة وغير ذلك ، وأنكر ذلك عليهم طائفة منهم الشيخ أبو محمد في رسالته إلى أهل رأس العين وقال : لا يسمى الله غائباً واستدل بما ذكر .

وفصل الخطاب بين الطائفتين أن اسم « الغيب ، والغائب » من الأمور الإضافية يراد به ما غاب عنا فلم ندركه ، ويراد به ما غاب عنا فلم يدركنا ، وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مغيباً مطلقاً لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا ، والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم مهيمن عليهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فليس هو غائباً وإنما [لما] لم يره العباد كان غيباً ؛ ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب ؛ فإن « الغائب » اسم فاعل من قولك غاب يغيب فهو غائب والله شاهد غير غائب ، وأما « الغيب » ^(١) فهو مصدر غاب يغيب غيباً ، وكثيراً ما يوضع المصدر موضع الفاعل كالعدل والصوم والزور ، وموضع المفعول كالخلق والرزق ودرهم ضرب الأمير .

= من أهل بغداد قال ابن رجب : كان متفتناً في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله من كتبه « الاقناع » و« الواضح » والخلاف الكبير وغير ذلك كثير توفي عام ٥٢٧ هـ [راجع شذرات الذهب ٤ : ٨٠ واللباب ١ : ٢١٦] .

(١) الغيب : ما غاب عنك . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ . قيل الغيب هو الله تعالى لأنه لا يرى في دار الدنيا وإنما ترى آياته الدالة عليه وقيل الغيب : ما غاب عن الناس مما أخبرهم به النبي - ﷺ - : من الملائكة ، والجنة ، والنار ، والحساب ، وقيل : الغيب القرآن . وقال ابن الأعرابي : الغيب ما كان غائباً عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب وأنشد بيت تميم بن أبي بن مقيل :

وللفؤاد وجيب تحت أبهره لدم الغلام وراء الغيب بالحجر

ولهذا يقرن الغيب بالشهادة ، وهي أيضاً مصدر ، فالشهادة ^(١) هي المشهود أو الشاهد ، والغيب هو إما المغيب عنه فهو الذي لا يشهد نقيض الشهادة وإما بمعنى الغائب الذي غاب عنا فلم نشهده فتسميته باسم المصدر فيه تنبيه على النسبة إلى الغير أي ليس هو بنفسه غائباً ، وإنما غاب عن الغير أو غاب الغير عنه .

وقد يقال اسم « الشهادة » و « الغيب » يجمع النسبتين ، فالشهادة ما شهدنا وشهدناه ، والغيب ما غاب عنا وغبنا عنه فلم نشهده ، وعلى كل تقدير فالمعنى في كونه غيباً هو انتفاء شهود ناله ، وهذه تسمية قرآنية صحيحة ، فلو قالوا : قياس الغيب على الشهادة لكانت العبارة موافقة ، وأما قياس الغائب ففيه مخالفة في ظاهر اللفظ ولكن موافقة في المعنى : فهذا حصل في إطلاقه التنازع .

(١) الشهادة : قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة . وقوله « أشهدوا خلقهم » الزخرف آية ١٩ يعني شهادة بمشاهدة البصيرة ثم قال : ستكتب شهادتهم ويسألون . تنبيهاً أن الشهادة تكون عن شهود وقوله : « لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » . أي تعلمون . والشهادة تختص بأولي العلم ، فأما الجاهل فمبعدون عنها وعلى هذا نبه بقوله : إنما يخشى الله من عباده العلماء « هؤلاء هم المعنيون بقوله « والصديقين والشهداء والصالحين » . سورة النساء آية رقم ٦٩ .

فصل (في قياس التمثيل وقياس الشمول) عند السلف والفقهاء واصطلاح المنطقيين

المثل ^(١) في الأصل هو الشبيه وهو نوعان ، لأن القضية المعينة إما أن تكون شبيهاً معيناً أو عاماً كلياً ، فإن القضايا الكلية التي تعلم وتقال هي مطابقة مماثلة لكل ما يندرج فيها ، وهذا يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح المنطقيين ، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين هو أيضاً يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح الفقهاء ، وهو الذي يسمى قياس التمثيل .

ثم من متأخري العلماء - كالغزالي ^(٢) وغيره - من ادعى أن حقيقة القياس إنما يقال على هذا ، وما يسميه تأليف القضايا الكلية قياساً فمجاز من جهة أنه لم يشبه فيه شيء بشيء ، وإنما يلزم من عموم الحكم تساوي أفراده فيه ، ومنهم من عكس كأبي محمد بن حزم ^(٣) ، فإنه زعم أن لفظ القياس

(١) المثل : عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة لبيان أحدهما الآخر ، ويصوره نحو قولهم : الصيف ضيعت اللبن . فإن هذا القول يشبه قولك : أهملت وقت الإمكان أمرك وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ سورة الحشر آية ٢١ [وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ سورة العنكبوت آية ٤٣] .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ، له نحو مئتي مصنف مولده عام ٤٥٠ هـ وتوفي عام ٥٠٥ هـ من كتبه إحياء علوم الدين والاقتصاد في الاعتقاد ، والمنقذ من الضلال . [راجع وفیات الأعيان ١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وشذرات الذهب ٤ :

[١٠

(٣) هو علي بن أحمد بن محمد بن حزم الظاهري أبو محمد : عالم الأندلس في عصره . وأخذ =

إنما ينبغي أن يكون في تلك الأمور العامة وهو القياس الصحيح .

والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما في القرآن ، كما سأذكره أن كلاهما قياس وتمثيل واعتبار ، وهو في قياس التمثيل ظاهر ، وأما قياس التكيل والشمول فلأنه يقاس كل واحد من الأفراد بذلك المقياس العام الثابت في العلم والقول ، وهو الأصل ، كما يقاس الواحد بالأصل الذي يشبهه ، فالأصل فيهما هو المثل ، والقياس هو ضرب ^(١) المثل ، وأصله - والله أعلم - تقديره فضرب المثل للشيء تقديره له ، كما أن القياس أصله تقدير الشيء بالشيء ، ومنه ضرب الدرهم وهو تقديره ، وضرب الجزية والخراج وهو تقديرهما ، والضريبة المقدرة والضرب في الأرض ، لأنه يقدر أثر الماشي بقدره ، وكذلك الضرب بالعصي لأنه تقدير الألم بالآلة ، وهو جمعه وتأليفه

= أئمة الإسلام ، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون الى مذهبه يقال لهم « الحزمية » ولد بقرطبة عام ٣٨٤ هـ وتوفي عام ٤٥٦ هـ . من كتبه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وطوق الحمامة وغير ذلك . [راجع نفح الطيب ١ : ٣٦٤ وأدب اللغة ٣ : ٩٦ وأخبار الحكماء ١٥٦]

(١) ورد الضرب في اللغة والقرآن على وجوه :

الضرب : الخفيف من المطر ، والضرب : الصفة والصنف من الأشياء ، والضرب : الرجل الخفيف اللحم قال طرفة بن العبد :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفوني خشاش كراس الحية المتوقد
والضرب : الاسراع في السير قال تعالى ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ . ﴿ وآخرون يضربون في الأرض ﴾ .

والضرب والالزام : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أي ألزموهما والضرب بالسيف وباليدين : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ والضرب : الوصف : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ سورة إبراهيم آية ٢٤ [أي وصف ﴿ نضربها للناس ﴾ . سورة العنكبوت ٤٣ والحشر ٢١] أي نضعها والضرب البيان : ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال ﴾ الفرقان آية ٣٩ [﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ أي بينا سورة إبراهيم آية ٤٥ .
وضرب الزمان مضى . قال ذو الرمة .

فلن تضرب الأيام يامى بيننا فلا ناشرُ سرّاً ولا متغير

وتقديره ، كما أن الضريبة هي المال المجموع والضريبة الخلق ، وضرب الدرهم جمع فضة مؤلفة مقدرة ، وضرب الجزية والخراج إذا فرضه وقدره على مر السنين ، والضرب في الأرض الحركات المقدرة المجموعة إلى غاية محدودة ، ومنه تضريب الثوب المحشو وهو تأليف خلله طرائق طرائق .

ولهذا يسمون الصورة القياسية الضرب ، كما يقال للنوع الواحد ضرب لتألفه واتفاقه ، وضرب المثل لما كان جمعاً بين علمين يطلب منهما علم ثالث كان بمنزلة ضراب الفحل الذي يتولد عنه الولد ، ولهذا يقسمون الضرب إلى ناتج وعقيم ، كما ينقسم ضرب الفحل للأنثى إلى ناتج وعقيم ، وكل واحد من نوعي ضرب المثل - وهو القياس - تارة يراد به التصوير وتفهم المعنى ، وتارة يراد به الدلالة على ثبوته والتصديق به ، فقياس تصور وقياس تصديق فتدبر هذا .

وكثيراً ما يقصد كلاهما ، فإن ضرب المثل يوضح صورة المقصود وحكمه . وضرب الأمثال في المعاني نوعان هما نوعا القياس :

« أحدهما » الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود أو مقدر وهي في القرآن بضع وأربعون مثلاً ، كقوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ ^(١) إلى آخره وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ ^(٣) الآية .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٤ .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ، فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (١)

فإن التمثيل بين الموصوفين الذين يذكرهم من المنافقين ، والمنفقين والمخلصين منهم والمرائين ، وبين ما يذكره سبحانه من تلك الأمثال هو من جنس قياس التمثيل ، الذي يقال فيه : مثل الذي يقتل بكودين القصار كمثل الذي يقتل بالسيف ، ومثل الهرة تقع في الزيت كمثل الفأرة تقع في السمن ونحو ذلك ، ومبناه على الجمع بينهما ، والفرق في الصفات المعبرة في الحكم المقصود إثباته أو نفيه ، وقوله : مثله كمثل كذا ، تشبيه للمثل العلمي بالمثل العلمي لأنه هو الذي يتوسطه يحصل القياس ، فإن المعتبر ينظر في أحدهما فيتمثل في علمه ، وينظر في الآخر فيتمثل في علمه ثم يعتبر أحد المثلين بالآخر فيجدهما سواء فيعلم أنهما سواء في أنفسهما لاستوائهما في العلم ، ولا يمكن اعتبار أحدهما بالآخر في نفسه حتى يتمثل كل منهما في العلم ، فإن الحكم على الشيء فرع على تصوره ؛ ولهذا والله أعلم يقال مثل هذا كمثل .

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع ، كقوله : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ (٢) ؟ إلى قوله ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) فإن هذا يحتاج إلى تفكر ؛ ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي أرضاه .

ونظير ذلك ذكر القصص ؛ فإنها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار ولا يمكن

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦٥ .

(٢) (٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٦ .

هناك تعديد ما يعتبر بها ، لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب ، فيقال فيها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^(١) ويقال عقب حكايتها : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ^(٢) ويقال : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ ^(٣) إلى قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ^(٤) . والاعتبار هو القياس بعينه كما قال ابن عباس لما سئل عن دية الأصابع فقال هي سواء واعتبروا ذلك بالأسنان أي قيسوها بها ، فإن الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع فكذلك الأصابع ، ويقال : اعتبرت الدراهم بالصبغة إذا قدرتها بها .

« النوع الثاني » الأمثال الكلية ، وهذه التي اشكل تسميتها أمثالاً ، كما أشكل تسميتها قياساً ، حتى اعترض بعضهم قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ﴾ ^(٥) فقال : أين المثل المضروب ؟ وكذلك إذا سمعوا قوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ^(٦) ييقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال ، وقد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعا وأربعين مثلاً .

وهذه « الأمثال » تارة تكون صفات ، وتارة تكون أقيسة ، فإذا كانت أقيسة فلا بد فيها من خبرين هما قضيتان وحكمان ، وأنه لا بد أن يكون أحدهما كلياً ؛ لأن الأخبار التي هي القضايا ^(٧) لما انقسمت إلى معينة ومطلقة

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢ .

(٣) (٤) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .

(٥) سورة الحج آية رقم ٧٣ .

(٦) سورة الروم آية رقم ٥٨ .

(٧) القضية في المنطق : قول يصح أن يقال لقائله أنه صادق أو كاذب أو هي كل قول فيه نسبة بين شيئين بحيث يتبعه حكم صدق أو كذب .

وكلية جزئية ، وكل من ذلك انقسم إلى خبر عن إثبات وخبر عن نفي ،
 فضرب المثل الذي هو القياس لا بد أن يشتمل على خبر عام وقضية كلية .
 وذلك هو المثل الثابت في العقل الذي تقاس به الأعيان المقصود حكمها ،
 فلولا عمومها لما أمكن الاعتبار لجواز أن يكون المقصود حكمه خارجاً عن
 العموم ؛ ولهذا يقال : لا قياس عن قضيتين جزئيتين^(١) - بل لا بد أن تكون
 إحداها كلية ، ولا قياس أيضاً عن سالتين ؛ بل لا بد أن تكون إحداها
 موجبة ، وإلا السلبان لا يدخل أحدهما في الآخر لا بد فيه من خبر يعم .
 وجملة ما يضرب من الأمثال ستة عشر ، لأن الأولى إما جزئية ، وإما كلية مثبتة
 أو نافية ، فهذه أربعة إذا ضربتها في أربعة صارت ستة عشر ، تحذف منها
 الجزئيتين سواء كانتا موجبتين أو سالتين ، أو إحداها سالبة والأخرى
 موجبة ، فهذه ست من ستة عشر ، والسالتين سواء كانتا جزئيتين أو كليتين ،
 أو إحداها دون الأخرى ؛ لكن إذا كانتا جزئيتين سالتين فقد دخلت في الأول
 يبقى ضربان محذوفان فيه من ستة عشر ، ويحذف منهما السالبة الكلية
 الصغرى مع الكبرى الموجبة الجزئية ؛ لأن الكبرى إذا كانت جزئية لم يجب
 أن يلاقيها السلب بخلاف الإيجاب ، فإن الإيجابين الجزئيين يلتقيان ،
 وكذلك الإيجاب الجزئي مع السلب الكلي يلتقيان لاندراج ذلك الموجب
 تحت السلب العام ، يبقى من الستة عشر ستة أضرب^(٢) فإذا كانت إحداها

(١) الموجبة الجزئية : هي التي يكون الحكم فيها إيجابياً ولكن على بعض الموضوع .

والسالبة الجزئية : هي التي يكون الحكم فيها سلباً ولكن عن بعض الموضوع .

والإيجاب مطلقاً : هو إيقاع النسبة أو إيجادها وفي القضية العملية هو الحكم بوجود محمول
 لموضوع .

والسلب مطلقاً : هو رفع النسبة الوجودية بين شيئين ، وفي الحملين هو الحكم بلا وجود
 محمول لموضوع .

(٢) الضرب المنطقي ، أحد الأعمال الفكرية المطبقة في الحدود والقضايا والنسب المنطقية .

والضرب : هو اختلاف القضايا في كل شكل من أشكال القياس بالكم والكيف مثل قولنا في =

موجبة كلية جاز في الأقسام الأربعة ، وإذا كانت سالبة كلية جاز أن تقارنها الموجبتان ، لكن تقدم مقارنة الكلية لها ، ولا بد في الجزئية أن تكون صغرى ، وإذا كانت موجبة جزئية جاز أن تقارنها الكليتان وقد تقدمتا ، وإذا كانت سالبة جزئية لم يجز أن يقارنها إلا موجبة كلية ، وقد تقدمت ، فيقر الناتج ستة ، والملغى عشرة وبالاختبارين تصير ثمانية .

فهذه الضروب العشرة مدار ثمانية منها على الإيجاب العام ، ولا بد في جميع ضروبه من أحد أمرين ، إما إيجاب وعموم ، وإما سلب وخصوص ، فتقيضان لا يفيد اجتماعهما فائدة ؛ بل إذا اجتمع النقيضان من نوعين كسالبة كلية ^(١) وموجبة جزئية ^(٢) فتفيد بشرط كون الكبرى هي العامة . فظهر أنه لا بد في كل قياس من ثبوت وعموم ، إما مجتمعين في مقدمة وإما مفترقين في المقدمتين .

وأيضاً مما يجب أن يعلم أن غالب الأمثال المضروبة ، والأقيسة إنما يكون الخفي فيها إحدى القضيتين ، وإما الأخرى فجلية معلومة ، فضارب المثل وناصب القياس إنما يحتاج أن يبين تلك القضية الخفية ، فيعلم بذلك المقصود لما قاربها في الفعل من القضية السلبية ، والجلية هي الكبرى التي هي أعم .

فإن الشيء كلما كان أعم كان أعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في

= الضرب الأول من الشكل الأول : كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حادث ، فكل جسم حادث فهو قياس مؤلف من كليتين موجبتين تتجان كلية موجبة . والمتج من ضروب القياس ١٩ ضرباً منها أربعة ضروب من الشكل الأول ، وأربعة ضروب من الشكل الثاني ، وستة ضروب من الشكل الثالث ، وخمسة ضروب من الشكل الرابع .

(١) السالبة الكلية : هي التي يكون الحكم فيها سلباً عن جميع أفراد الموضوع كقولنا : ليس ولا واحد من الناس بكامل .

(٢) سبق الحديث عنها .

العقل ، وخير الكلام ما قل ودل ؛ فلهذا كانت الأمثال المضروبة في القرآن تحذف منها القضية الجلية لأن في ذكرها تطويلاً وعباً ، وكذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين ^(١) يعد تطويلاً .

واعتبر ذلك بقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ^(٢) ما أحسن هذا البرهان ! فلو قيل بعده : وما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله لكان هذا من الكلام الغث الذي لا يناسب بلاغة التنزيل ، وإنما ذلك من تأليف المعاني في العقل مثل تأليف الأسماء من الحروف في الهجاء والخط إذا علمنا الصبي الخط نقول : « با » « سين » « ميم » صارت (بسم) فإذا عقل لم يصلح له بعد ذلك أن يقرأ تهجياً فيذهب ببهجة الكلام ؛ بل قد صار التأليف مستقراً وكذلك النحوي إذا عرف أن « محمد » رسول الله ، مبتدأ وخبر لم يلف كلما رفع مثل ذلك أن يقول : لأنه مبتدأ وخبر . فتأليف الأسماء من الحروف لفظاً ومعنى وتأليف الكلم من الأسماء ، وتأليف الأمثال من الكلم جنس واحد . ولهذا كان المؤلفون للأقيسة يتكلمون أولاً في مفردات الألفاظ والمعاني التي هي الأسماء . ثم يتكلمون في تأليف الكلمات من الأسماء الذي هو الخبر والقضية والحكم ثم يتكلمون في تأليف الأمثال المضروبة الذي هو « القياس » و« البرهان » ^(٣) و« الدليل » و« الآية » و« العلامة » . فهذا مما ينبغي أن يتفطن

(١) المقدمات مبادئ الاستدلال ، وتطلق على ما يتوقف عليه البحث أو على ما يجعل جزء قياس من القضايا ، أو على ما يتوقف عليه صحة الدليل والمقدمة : قول يوجب شيئاً لشيء أو يسلب شيئاً عن شيء ، جعلت جزء قياس .

وفي كل قياس اقتراني مقدمتان تشتركان في حد وتفترقان في حدين فتكون الحدود ثلاثة ، وهي الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، والمقدمة التي فيها الحد الأكبر تسمى الكبرى ، والتي فيها الحد الأصغر تسمى الصغرى .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢ .

(٣) البرهان : هو الحجة الفاصلة بينة ، يقال : برهن ، يبرهن ، برهنة ، إذا جاء بحجة قاطعة للدد الخصم ، وبرهن بمعنى بين ، وبرهن عليه أقام الحجة وفي الحديث : الصدق =

له ، فإن من أعظم كمال القرآن تركه في أمثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة
لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة ، ثم اتباع ذلك بالأخبار عن النتيجة
التي قد علم من أول الكلام أنها هي المقصود ؛ بل إنما يكون ضرب المثل
بذكر ما يستفاد ذكره ويتنفع بمعرفته ، فذلك هو البيان ، وهو البرهان ، وأما ما
لا حاجة إلى ذكره فذكره عي .

وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانين الجهال والمنطقيين الضلال حيث
قال بعض أولئك : الطريقة الكلامية البرهانية في أساليب البيان ليست في
القرآن إلا قليلاً ، وقال الثاني : إنه ليس في القرآن برهان تام ، فهؤلاء من
أجهل الخلق باللفظ والمعنى ، فإنه ليس في القرآن إلا الطريقة البرهانية
المستقيمة لمن عقل وتدبر .

و« أيضاً » فينبغي أن يعرف أن مدار ضرب المثل ونصب القياس على
العموم والخصوص والسلب والإيجاب ، فإنه ما من خير إلا وهو إما عام أو
خاص : سالب أو موجب ، فالمعين خاص محصور ، والجزئي أيضاً خاص
غير محصور ، والمطلق إما عام وإما في معنى الخاص .

فينبغي لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف « صيغ النفي والعموم » فإن
ذلك يجيء في القرآن على أبلغ نظام .

مثال ذلك أن صيغة « الاستفهام » بحسب من أخذ ببادئ الرأي أنها لا
تدخل في القياس المضروب ؛ لأنه لا يدخل فيه إلا القضايا الخيرية ، وهذه
طلبية ، فإذا تأمل وعلم أن أكثر استفهامات القرآن أو كثيراً منها إنما هي
استفهام إنكار معناه الذم والنهي إن كان إنكاراً شرعياً ، أو معناه النفي والسلب
إن كان إنكار وجود ووقوع ، كما في قوله :

= برهان .

والبرهان عند الأصوليين . ما فصل الحق من الباطل ، وميز الصحيح من الفاسد بالبيان الذي
فيه .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (١) ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٢) الآية وكذلك قوله :

﴿ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) وقوله في تعديد الآيات : ﴿ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ﴾ (٤) أي أفعل هذه إله مع الله ؟! والمعنى ما فعلها إلا الله ، وقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٥) وما معها .

وهذا الذي ذكرناه الذي جاء به القرآن هو ضرب الأمثال (٦) من جهة المعنى . وقد يعبر في اللغة بضرب المثل أو بالمثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة : لكن لا يستفاد منه الدليل

(١) سورة يس آية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٢٨ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٥٩ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٦٣ .

(٥) سورة الطور آية رقم ٣٥ .

(٦) أمثال القرآن قسمان : ظاهر مصرح به ، وكامن لا ذكر للمثل فيه ، فمن أمثلة الأول : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ . الآيات .

وأما الكامنة فقال الماوردي : سمعت أبا اسحاق ابراهيم بن مضارب يقول سمعت أبي يقول : سألت الحسين بن الفضل قلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله ﴿ خير الأمور أوساطها ﴾ قال : نعم في أربعة مواضع قوله ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ وقوله ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تجهز بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ . قلت فهل تجد في كتاب الله من جمل شيئاً عاداه .. ؟ قال : نعم في موضعين ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ .

قلت فهل تجد في كتاب الله ﴿ احذر شر من أحسنت إليه ﴾ ؟ قال : نعم . ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ .

على الحكم كأمثال القرآن ، وهو أن يكون الرجل قد قال كلمة منظومة أو
 منشورة لسبب اقتضاه فشاعت في الاستعمال ، حتى يصار يعبر بها عن كل ما
 أشبه ذلك المعنى الأول ، وإن كان اللفظ في الأصل غير موضوع لها ، فكأن
 تلك الجملة المثلية نقلت بالعرف من المعنى الخاص إلى العام كما تنقل
 الألفاظ المفردة فهذا نقل في الجملة مثل قولهم : « يداك أو كتنا ، وفوك نفخ »
 هو مواز لقولهم : « أنت جنيت هذا » لأن هذا المثل قيل ابتداء لمن كانت
 جنايته بالإيكاد والنفخ ، ثم صار مثلاً عاماً ، وكذلك قولهم : « الصيف
 ضيعت اللبن » مثل قولك « فرطت وتركت الحزم ، وتركت ما يحتاج إليه وقت
 القدرة عليه حتى فات » وأصل الكلمة قيلت للمعنى الخاص . وكذلك
 « عسى العويرا بؤسا » أي أتخاف أن يكون لهذا الظاهر الحسن باطن رديء ؟
 فهذا نوع من البيان يدخل في اللغة والخطاب ، فالمتكلم به حكمه حكم
 المبين بالعبارة الدالة ، سواء كان المعنى في نفسه حقاً أو باطلاً ، إذ قد يتمثل
 به في حق من ليس كذلك فهذا تطلبه في القرآن من جنس تطلب الألفاظ
 العرفية ، فهو نظر في دلالة اللفظ على المعنى لا نظر في صحة المعنى
 ودلالته على الحكم ، وليس هو المراد بقوله ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
 الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (١) فتدبر هذا فإنه يجلو عنك شبهة لفظية ومعنوية .

وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجودة في القرآن منها أجناساً ، وهي معلنة
 ببلاغة لفظه ونظمه وبراعة بيانه اللفظي ، والذين يتكلمون في علم البيان
 وإعجاز القرآن يتكلمون في مثل هذا ، ومن الناس من يكون أول ما يتكلم
 بالكلمة صارت مثلاً ، ومنهم من لا تصير الكلمة مثلاً حتى يتمثل بها الضارب
 فيكون هذا أول من تمثل بها . كقوله ﷺ : « الآن حمى الوطيس » (٢)

(١) سورة الروم آية رقم ٥٨ وسورة الزمر آية رقم ٢٧ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم - في كتاب الجهاد والسير ٢٨ باب في غزوة =

« مسعر حرب » ^(١) ونحو ذلك ؛ لكن النفي بصيغة الاستفهام المضمن معنى الإنكار هو نفي مضمن دليل النفي ، فلا يمكن مقابلته بمنع ، وذلك أنه لا ينفي باستفهام الإنكار إلا ما ظهر بيانه أو ادعى ظهور بيانه فيكون ضاربه إما كاملاً في استدلاله وقياسه وإما جاهلاً ، كالذي قال : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ^(٢) إذا تبين ذلك فالأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً ومنها ما لا يسمى بذلك ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ ^(٣) والذي يليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ^(٤)

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ ^(٥)

﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ ^(٦)

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٧)

﴿ لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ ﴾ ^(٨)

الآية ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ ^(٩) والذي بعده ليس فيه لفظ مثل ﴿ كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ^(١٠) في الثلاثة ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ ^(١١)

﴿ مَثَلٌ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(١٢) وقوله :

= حنين ٧٦ (١٧٧٥) بسنده عن كثير بن عباس بن عبد المطلب ولفظه : هذا حين حمى الوطيس ، قال : ثم أخذ رسول الله - ﷺ - حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قالوا : انهزموا ورب محمد الخ وأخرجه الامام أحمد في المسند ١ : ٢٠٧ (حلي) .

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشروط ١٥ ، وأبو داود في الجهاد ١٥٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٢١ (حلي) وفي لفظ (ويل أمه مسعر بن حرب)

(٢) سورة يس آية رقم ٧٨ .

- | | |
|-------------------------------|--|
| (٣) سورة البقرة آية رقم ١٧ . | (٨) سورة البقرة آية رقم ٢٦٤ . |
| (٤) سورة البقرة آية رقم ٢٦ . | (٩) سورة البقرة آية رقم ٢٦٥ . |
| (٥) سورة البقرة آية رقم ١٧١ . | (١٠) سورة آل عمران آية رقم ١١ وسورة الأنفال آية رقم ٥٢ . |
| (٦) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ . | (١١) سورة آل عمران آية رقم ١٣ . |
| (٧) سورة البقرة آية رقم ٢٦١ . | (١٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٧ . |

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ ﴾ (١) .
 ومن هذا الباب قوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ (٢) الآية . ويسمى جدالاً
 ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ (٣) - إلى قوله - ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بَيَاتِنًا ﴾ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (٤) الآية ﴿ مَثَلُ
 الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ ﴾ (٥)
 ﴿ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ ﴾ (٦) وقول يوسف .
 ﴿ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ (٧) ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ (٨)
 الآية . ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (٩) إلى قوله ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
 الْأَمْثَالَ ﴾ (١٠)

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (١١) .
 ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ (١٢)
 ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ (١٣) إلى آخره .
 ﴿ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٤)

-
- (١) سورة الأنعام آية رقم ٤٦ وأول الآية (قل)
 (٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٠ وسورة هود آية رقم ٣١ .
 (٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٦ .
 (٤) سورة يونس آية رقم ٢٤ .
 (٥) سورة هود آية رقم ٢٤ .
 (٦) سورة الرعد آية رقم ١٤ .
 (٧) سورة يوسف آية رقم ٣٩ .
 (٨) سورة الأنعام آية رقم ٥٠ وتكملتها ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ والرعد آية رقم ١٦ وتكملتها ﴿ أَمْ هَلْ
 تستوي الظلمات والنور ﴾ .
 (٩) سورة الرعد آية رقم ١٧ .
 (١٠) سورة الرعد آية رقم ١٧ .
 (١١) سورة الرعد آية رقم ٣٥ .
 (١٢) سورة إبراهيم آية رقم ١٨ .
 (١٣) سورة إبراهيم آية رقم ٢٤ .
 (١٤) سورة إبراهيم آية رقم ٤٥ .

﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (١)
﴿فَلَا تَضْرِبُوا اللَّهَ الْأَمْثَالَ﴾ (٢)
﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ (٣) والذي بعده .
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾ (٤)
﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ (٥) في موضعين .
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا﴾ (٦) بعد أدلة التوحيد والنبوة والتحدي بالقرآن .
﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ (٧) القصة .
﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٨)
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ
شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٩) ينبه على أنها براهين وحجج تفيد تصورا أو تصديقا .
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (١٠)
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ (١١)
﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (١٢) .
مثل نوره - إلى قوله - ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ (١٣)
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ (١٤) المثلين ، مثل نور
المؤمنين في المساجد وأولئك في الظلمات .

- | | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة النحل آية رقم ٦٠ . | (٨) سورة الكهف آية رقم ٤٥ . |
| (٢) سورة النحل آية رقم ٧٤ . | (٩) سورة الكهف آية رقم ٥٤ . |
| (٣) سورة النحل آية رقم ٧٥ . | (١٠) سورة الحج آية رقم ٣١ . |
| (٤) سورة النحل آية رقم ١١٢ . | (١١) سورة الحج آية رقم ٧٣ . |
| (٥) سورة الفرقان آية رقم ٩ . | (١٢) سورة النور آية رقم ٣٤ . |
| (٦) سورة الاسراء آية رقم ٨٩ . | (١٣) سورة ابراهيم آية رقم ٢٥ . |
| (٧) سورة الكهف آية رقم ٣٢ . | (١٤) سورة النور آية رقم ٣٩ . |

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ^(١) -
 ف (التفسير) يعم التصوير ، ويعم التحقيق بالدليل ، كما في تفسير
 الكلام المشروح -

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ^(٢) الآية .
 ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ ^(٣) .
 ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٤)
 ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٥)
 ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ
 بِآيَةٍ ﴾ ^(٦) الآية .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ ^(٧)
 ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ^(٨) وقوله :
 ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً ﴾ ^(٩)
 ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ^(١٠) إلى قوله
 ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا ﴾
 ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ ^(١١) إلى آخره لما أورده نقضا على
 قوله :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١٢)
 فهم الذين ضربوه جدلاً ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾ ^(١٣) إلى قوله :

- | | |
|--------------------------------|---|
| (١) سورة الفرقان آية رقم ٣٣ . | (٨) سورة يس آية رقم ٧٧ - ٧٨ . |
| (٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤١ . | (٩) سورة ص آية رقم ٢٣ . |
| (٣) سورة العنكبوت آية رقم ٤٣ . | (١٠) سورة الروم آية رقم ٥٨ . |
| (٤) سورة الروم آية رقم ٢٧ . | (١١) سورة الزخرف آية رقم ٥٧ . |
| (٥) سورة الروم آية رقم ٢٨ . | (١٢) سورة الأنبياء آية رقم ٩٨ . |
| (٦) سورة الروم آية رقم ٥٨ . | (١٣) سورة النحل آية رقم ٨٨ وسورة محمد آية رقم ١ |
| (٧) سورة يس آية رقم ١٣ . | |

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ ^(١)
 ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ﴾ ^(٢)
 ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ ^(٣)
 ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ
 اللَّهِ ﴾ ^(٤)

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ ^(٥)
 ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ^(٦) الْآيَةُ
 ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(٧)
 ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(٨)
 ﴿ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا
 مَثَلًا ﴾ ؟ ^(٩)
 ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ ^(١٠) كَالْفَرَاشِ ^(١١)
 ﴿ كَالْمَعْنِ ﴾ ^(١٢)

(١) سورة محمد آية رقم ٣ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٥ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الحشر آية رقم ٢١ .

(٥) سورة الحشر آية رقم ٢١ .

(٦) سورة الجمعة آية رقم ٥ .

(٧) سورة التحريم آية رقم ١٠ .

(٨) سورة التحريم آية رقم ١١ .

(٩) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

(١٠) سورة المعارج آية رقم ٤٣ .

(١١) سورة القارعة آية رقم ٤ وهي : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾

(١٢) سورة القارعة آية رقم ٥ وهي : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْمَعْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .

فصل

في تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا »

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب التفسير » إلا ما هو خطأ (فيها) .

منها قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ ^(١) الآيتين ، فهو سبحانه وصف أهل السعادة من الأولين والآخرين ، وهو الذي يدل عليه اللفظ ويعرف به معناه من غير تناقض ، ومناسبة لما قبلها ولما بعدها . وهو المعروف عند السلف ، ويدل عليه ما ذكره من سبب نزولها ^(٢) بالأسانيد الثابتة عن سفیان

(١) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

(٢) لعل ما يقصده الامام ابن تيمية ما رواه الواحدي في أسباب النزول ٦٢ - أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد الحافظ ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر الحافظ حدثنا أبو يحيى ، حدثنا سهل بن عثمان العسكري ، حدثنا يحيى بن أبي زائدة قال : قال ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : لما قص سلمان على النبي - ﷺ - قصة أصحاب الدير قال : هم في النار . قال سليمان : فأظلمت علي الأرض فنزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ إلى قوله ﴿ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . قال فكانما كشف عني جبل .

وأخبرنا محمد بن عبد العزيز المروزي ، أخبرنا محمد بن الحسين الحدادي ، أخبرنا أبو يزيد ، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عمرو عن أسباط عن السدي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ الآية قال : نزلت في أصحاب سليمان الفارسي لما قدم سلمان على رسول الله - ﷺ - جعل يخبر عن عبادتهم واجتهادهم وقال : يا رسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك تبث نبياً فلما فرغ سليمان من ثنائه عليهم قال رسول الله - ﷺ : يا سلمان هم من أهل النار ، فأرسل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ وتلا إلى =

عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال سليمان :

« سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكر من عبادتهم فنزلت الآية . ولم يذكر فيه أنهم من أهل النار ، كما روى بأسانيد ضعيفة وهذا هو الصحيح كما في مسلم « إلا بقايا من أهل الكتاب » .

والنبي ﷺ لم يكن يجيب بما لا علم عنده ، وقد ثبت أنه أثنى على من مات في الفترة ، كزيد بن عمرو^(١) وغيره ، ولم يذكر ابن أبي حاتم خلافاً عن السلف ؛ لكن ذكر عن ابن عباس ثم أنزل الله ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً ﴾^(٢) الآية ، ومراده أن الله يبين أنه لا يقبل إلا الإسلام من الأولين والآخرين ، وكثير من السلف يريد بلفظ النسخ رفع ما يظن أن الآية دالة عليه ؛ فإن من المعلوم أن من كذب رسولاً واحداً فهو كافر فلا يتناوله قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ الخ .

وظن بعض الناس : أن الآية فيمن بعث إليهم محمد ﷺ خاصة فغلطوا ، ثم افترقوا على أقوال متناقضة .

= قوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ .

ويقول ابن جرير في تفسيره وهو الذي يتفق مع ما ذهب اليه الامام ابن تيمية « فإن قال : وما معنى هذا الكلام ؟ .

قيل : إن معناه : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن بالله واليوم الآخر فلم أجزمهم عند ربهم .

ومعنى إيمان المؤمن : ثباته على إيمانه وتركه تبديله . [راجع تفسير الطبري ج ٢ ص ١٤٨] .

(١) هو زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي ابن عم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . لم يدرك الإسلام . وهو أحد الحكماء . وكان يكره عبادة الأصنام ، ولا يأكل مما ذبح عليها . ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها . فلم تعجبه اليهودية ولا النصرانية ، فعاد إلى مكة يعبد الله على دين إبراهيم ، وجاهر بعداء الأوثان ، فتألب عليه جمع من قريش ، فأخرجوه من مكة . توفي عام ١٧ ق . هـ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

فصل في تقسيم المذمومين من أهل الكتاب الى محرفين وأمينين

قسم الله من ذمه من أهل الكتاب إلى محرفين وأمينين ، حيث يقول :
﴿ أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا : أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ
رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟
وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ
يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَوَيْلٌ
لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة الآيات ٧٥ - ٧٩ ومعنى التحريف كما ذكره ابن جرير : « يجعلون الحلال فيها
حراماً ، والحرام فيها حلالاً ، والحق فيها باطلاً ، والباطل فيها حقاً ، إذا جاءهم المحق
برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب ، فهو فيه
محق ، وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق فقال لهم :
﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . سورة البقرة آية
[٤٤] .

قال أبو جعفر : وأرى أنه قيل للامي « أمي » نسبة له بأنه لا يكتب إلى « أمة » لأن الكتاب كان
في الرجال دون النساء فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه - في جهله بالكتابة
دون أبيه كما ذكرنا عن النبي - ﷺ - من قوله : إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » وكما قال =

وفي هذا عبرة لمن ركب سنتهم من أمتنا ؛ فإن المنحرفين في نصوص الكتاب والسنة كالصفات ونحوها من الأخبار والأوامر :

« قوم » يحرفونه إما لفظاً وإما معنى ، وهم النافون لما أثبتته الرسول ﷺ جحوداً ، وتعطيلاً ، ويدعون أن هذا موجب العقل الصريح القاضي على السمع .

و« قوم » لا يزيدون على تلاوة النصوص لا يفقهون معناها ويدعون أن هذا موجب السمع الذي كان عليه السلف ، وإن الله لم يرد من عباده فهم هذه النصوص ، فهم ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ ^(١) أي تلاوة ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ ثم يصنف أقوام علوماً يقولون : إنها دينية ، وإن النصوص دلت على عليها والعقل ، وهي دين الله ؛ مع مخالفتها لكتاب الله ، فهؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله بوجه من الوجوه . فتدبر كيف اشتملت هذه الآيات على الأصناف الثلاثة ، وقوله في صفة أولئك : ﴿ أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٢) حال من يكتهم النصوص التي يحتج بها منازعه ، حتى إن منهم من يمنع من رواية الأحاديث المأثورة عن الرسول ﷺ ولو أمكنهم كتمان القرآن لكتموه ، لكنهم يكتمون من وجوه دلالاته من العلوم المستنبطة منه ، ويعوضون الناس عن ذلك

= ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [سورة الجمعة آية ٢] .

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٨ والأمانى : من غير نوع الكتاب كما قال ربنا جل ثناؤه ﴿ وما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ (النساء ١٥٧) والظن من العلم بمعزل وكما قال ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ (سورة الليل ١٩ ، ٢٠) .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٦ وأصل الفتح في كلام العرب : النصر والقضاء والحكم يقال منه « اللهم افتح بيني وبين فلان » أي احكم بيني وبينه ، ومنه قول الشاعر :

ألا أبلغ بنى عصم رسولاً بأنني عن فتاحتكم غني .

قال أبو جعفر ، ويقال للقاضي « الفتح » ومنه قول الله عز وجل ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ سورة الأعراف آية : ٨٩ أي احكم بيننا وبينهم .

بما يكتبونه بأيديهم ويضيفونه إلى أنه من عند الله .

وسئل

عن معنى قوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ^(١) والله سبحانه لا يدخل عليه النسيان . فأجاب :

أما قوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ففيها قراءتان ^(٢) ، أشهرهما : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أي ننسيكم إياها : أي نسخنا ما أنزلناه ، أو اخترنا تنزيل ما نريد أن ننزله نأتكم بخير منه أو مثله ، والثانية : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ بالهمز أي نؤخرها ، ولم يقرأ أحد نساها ، فمن ظن أن معنى نساها بمعنى نساها فهو جاهل بالعربية والتفسير قال موسى عليه السلام : ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ ^(٣) و« النسيان » مضاف إلى العبد كما في قوله ﴿ سَتَقَرُّكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(٤) ولهذا قرأها بعض الصحابة : أو ﴿ تنساها ﴾ أي تنساها يا محمد ، وهذا واضح لا يخفى إلا على جاهل لا يفرق بين نساها بالهمز وبين نساها بلا همز والله أعلم .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) قال أبو جعفر : اختلفت القراءة في قوله ذلك : فقرأها أهل المدينة والكوفة « أَوْ نُنسِهَا » ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويل .

أحدهما أن يكون تأويله : ما ننسخ يا محمد من آية فتغير حكمها أو نُنسِها وقد ذكر أنها في مصحف عبدالله « ما نُنسِك من آية أو نُنسخها نجيء بمثلها » فذلك تأويل « النسيان » وهذا التأويل قال جماعة من أهل التأويل . وكان سعد بن أبي وقاص يقول : ما ننسخ من آية أو ننسها ، قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأها « أو تنسها » قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال الله تعالى ﴿ سَتَقَرُّكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ سورة الأعلى : ٦ ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ [الكهف آية ٢٤] .

(٣) سورة طه آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة الأعلى آية رقم ٦ - ٧ .

تفسير قوله تعالى : ولكم في القصاص حياة

في قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ ^(١) الآية وفيها قولان : (أحدهما) أن القصاص هو القود ، وهو أخذ الدية [بدل] القتل كما جاء عن ابن عباس أنه كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية فجعل الله في هذه الآية الدية فقال :

﴿ فَمَنْ عَفِيَ اللَّهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ ^(٢) والعفو هو أن يقبل الدية في العمد ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ^(٣) مما كان على بني إسرائيل ، والمراد على هذا القول أن يقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، قال قتادة : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغي ، وكان الحي إذا كان فيهم عدد وعدة فقتل عبدهم عبد قوم آخرين لن يقتل به إلا حراً تعزراً على غيرهم . وإن قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن يقتل بها إلا رجلاً ^(٤) فنزلت هذه الآية . وهذا قول أكثر الفقهاء ، وقد ذكر ذلك الشافعي وغيره .

ويحتج بها طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد على أن الحر لا يقتل بالعبد لقوله : ﴿ والعبد بالعبد ﴾ فينقض ذلك عليه بالمرأة فإنه قال ﴿ والأنثى بالأنثى ﴾ وطائفة من المفسرين لم يذكروا إلا هذا القول .

(١) (٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ ، روى البخاري والنسائي والدارقطني ، عن ابن عباس قال : كان في بني إسرائيل القصاص ، ولم تكن فيهم الدية . فقال الله لهذه الأمة كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء ، فالعفو أن يقبل الدية في العمد . ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ ﴿ مما كتب على من كان قبلكم ﴾ ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ . هذا لفظ البخاري .

(٤) ولذا قال الرسول - ﷺ - إن من اعتدى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة ، رجل قتل غير قاتله ، ورجل قتل في الحرم ، ورجل أخذ بدحول الجاهلية [الذحل] بفتح فسكون ، قيل : هو العدو ، وقيل : الثار وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح ، ونحو ذلك .

« القول الثاني » أن القصاص في القتل يكون بين الطائفتين المقتلتين قتال عصبية وجاهلية فيقتل من هؤلاء ومن هؤلاء أحرار وعبيد ونساء فأمر الله تعالى بالعدل بين الطائفتين بأن يقاص دية حر بدية حر . ودية امرأة بدية امرأة ، وعبد بعبد ، فإن فضل لإحدى الطائفتين شيء بعد المقاصة فلتتبع الأخرى بمعروف ، ولتؤد الأخرى إليها بإحسان ، وهذا قول الشعبي وغيره ، وقد ذكره محمد بن جرير الطبري وغيره و[علي] هذا القول فإنه إذا جعل ظاهر الآية لزمته إشكالات ؛

لكن المعنى [الثاني] هو مدلول الآية ومقتضاه ولا إشكال عليه ؛ بخلاف القول الأول يستفاد من دلالة الآية كما سننبه عليه إن شاء الله تعالى ، وما ذكرناه يظهر من وجوه .

(أحدهما) أنه قال : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ و« القصاص » مصدر قاصه يقاصه مقاصة وقصاصاً ، ومنه مقاصة الدينين أحدهما بالآخر و﴿ القصاص في القتلى ﴾ إنما يكون إذا كان الجميع قتلى ، كما ذكر الشعبي فيقاص هؤلاء القتلى بهؤلاء القتلى ، أما إذا قتل رجل رجلاً فالمقتول ميت فهنا المقتول لا مقاصة فيه ، ولكن القصاص أن يمكن من قتل القاتل لا غيره ، وفي اعتبار المكافآت فيه قولان للفقهاء ، قيل : تعتبر المكافآت فلا يقتل مسلم بذي ولا حر بعبد ^(١) وهو قول الأكثرين مالك والشافعي وأحمد ، وقيل لا تعتبر المكافآت كقول أبي حنيفة ، والمكافآت لا تسمى قصاصاً . وأيضاً فإنه قال : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ وإن أريد

(١) اختلف العلماء في تأويل الآية فقالت طائفة : جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه ، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ، فالآية محكمة وفيها اجمال يبينه قوله تعالى : وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس وبينه النبي - ﷺ - يسته لما قتل اليهودي بالمرأة ، قاله مجاهد ، وذكره أبو عبيد عن ابن عباس ، وروي عن ابن عباس أيضاً أنها منسوخة بآية « المائدة » وهو قول أهل العراق .

بالقصاص المكافآت فتلك لم تكتب ، وإن أريد به استيفاء القود فذلك مباح للولي ، إن شاء اقتص وإن شاء لم يقتص فلم يكتب عليه الاقتصاص ، وقد أورد هذا السؤال بعضهم وقال : هو مكتوب على القاتل أن يمكن من نفسه ، فيقال له : هو تعالى قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ وليس هذا خطاباً للقاتل وحده بل هو خطاب لأولياء المقتول بدليل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالسَّعْرِ وَأَدِّاءَ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ ثم لا يقال للقاتل : كتب عليكم القصاص في المقتول فإن المقتول لا قصاص فيه .

و« أيضاً » فنفس انقياد القاتل للولي ليس هو قصاصاً : بل الولي له أن يقتص وله أن لا يقتص ^(١) ، وإنما سمي هذا قوداً لأن الولي يقوده ، وهو بمنزلة تسليم السلعة إلى المشتري ، ثم قال تعالى : ﴿ الْحَرْ بِالْحَرْ ﴾ فكيف يقال مثل هذا قصده القاتل : بل هذا خطاب للأمة بالمقاصة والمعادلة في القتل والنيي ﷺ إنما قال : « كتب الله القصاص » لما كسرت الربيع سن جارية وامتنعوا من أخذ الأرسن ، فقال أنس بن النضر : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع ، فقال النبي ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم بالأرسن فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » ^(٢) كقوله تعالى : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصاصُ ﴾ يعني « كتاب الله » . أن

(١) لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر فرض عليهم النهوض بالقصاص ، وإقامة الحدود وغير ذلك ، لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ، ثم لا يتهاى للمؤمنين جميعاً أن يجتمعوا على القصاص ، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود ، وليس القصاص بلازم ، إنما اللازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتداء ، فلما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الديات ١٦ باب القصاص في السنن ٢٦٤٩ حدثنا خالد ابن الحرث وابن أبي عدي عن حميد ، عن أنس ، قال : كسرت الربيع عمة أنس ثنية جارية وذكره .

وأخرجه مسلم في كتاب القسامة ٥ باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها ٢٤ =

يؤخذ العضو بنظيره ، فهذا قصاص لأنه مساواة ، ولهذا كانت المكافآت في الأعضاء والجروح معتبرة باتفاق العلماء ، وإن قيل القصاص هو أن يقتل قاتله لا غيره فهو خلاف الاعتداء ، قيل : نعم ! وهذا قصاص في الأحياء لا في القتلى .

(الثاني) أنه قال : ﴿ في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ ومعلوم باتفاق المسلمين أن العبد يقتل بالعبد وبالحر ، والأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر ، والحر يقتل بالحر وبالأنثى أيضاً عند عامة العلماء وقيل : يشترط أن تؤدي تمام ديته ، وإذا كان كذلك فقوله : ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ إنما يدل على مقاصة الحر بالحر ومعادلته به ومقابلته به ، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وهذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر أيتعدلان أم يفضل لأحدهما على الآخر فضل ؟ أما في القتلى فلا يختص هذا باتفاق المسلمين .

(الثالث) أنه قال : ﴿ فَمَنْ عَفِيَ ^(١) لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ لفظ (عفي) هنا قد استعمل متعدياً : فإنه قال : (عفي) (شيء) ولم يقل : (عفا) (شيئاً) وهذا إنما يستعمل في الفعل كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ^(٢) ﴾ وأما العفو عن القتل فذاك يقال فيه عفوت عن

= (١٦٧٥) حدثنا حماد أخبرنا ثابت عن أنس وذكره وأخرجه البخاري في الصلح ٨ والتفسير سورة ٢ : ٢٣ والنسائي في القسامة ١٦ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٢٨ - ١٦٧ - ٢٨٤ (حلي) .

(١) سورة البقرة رقم ١٧٨ إن معنى « عفى » بذل والعفو في اللغة : البذل ولهذا قال الله تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾ أي ما سهل . وقال أبو الأسود الدؤلي خذي العفومني تستدعي مودتي .
وقال ﷺ : أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله يعني شهد الله على عباده ، فكانه قال : من بذل له شيء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف وقال قوم : وليؤد إليه القاتل باحسان فندبه تعالى إلى أخذ المال إذا سهل ذلك من جهة القاتل ، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة كما قال ذلك عقب ذكر القصاص في سورة المائدة : فمن تصدق به فهو كفارة له .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٩ .

القاتل . فولي المقتول بين خيرتين : بين أن يعفو عن القتل ويأخذ الدية فلم يعف له شيء ؛ بل هو عفا عن القتل وإذا عفا فيما أن يستحق الدية بنفسه أو بغير رضا القاتل على قولين :

وقد قال بعضهم : ﴿ من أخيه ﴾ أي من دم أخيه أي ترك له القتل ورضي بالدية ، والمراد القاتل يعني أن القاتل عفى له من دم أخيه المقتول أي ترك له القتل ، فيكون التقدير أن الولي عفى للقاتل من دم المقتول شيئاً وهذا كلام لا يعرف ، لا يقال : عَفَوْتُ لك شيئاً ولا يقال عفوت من دم القاتل وإنما الذي يقال : إنه عفا عن القاتل ، فأين هذا من هذا ؟ .

وأما على القول الأول فالمتقاصان إذا تعادل القتلى فمن عفى له أي فضل له من مقاصة أخيه مقاصة أخرى أي هذا الذي فضل له فضل كما يقال : أبقى له من جهة أخيه بقية ﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ فهذا المستحق للفضل يتبع المقاص الآخر بالمعروف ، وذلك يؤدي إلى هذا بإحسان .

﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ أي من أن كل طائفة تؤدي قتلى الأخرى فإن في هذا تثقيلاً عظيماً له ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ ^(١) فإنهم إذا تعادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم يبق واحدة تطلب الأخرى بشيء فحى هؤلاء وحى هؤلاء ، بخلاف ما إذا لم يتقاصوا فإنهم يتقاتلون وتقوم بينهم الفتن التي يموت فيها خلأ ، كما هو معروف في فتن الجاهلية والإسلام ، إنما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطائفتين وإلا فمع التعادل

(١) اتفق الأئمة على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه ، دون السلطان وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك .
وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من رعيته ، إذ هو واحد منهم . وثبت عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه أنه قال : « لرجل شكاً إليه أن عاملاً قطع يدي » « لئن كنت صادقاً لأقيدنك منه » .

والتناصف الذي يرضى به أولو الألباب لا تبقى فتنة .

وقوله ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ (١)

فطلب من الطائفة الأخرى مالاً أو قوماً أو أذاهم (٢) بسبب ما بينهم من الدم ﴿ فله عذاب أليم ﴾ وهذا كقوله :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (٣)

و « الأخوة » هنا كالأخوة هناك وهذا في قتلى الفتن .

وأما إذا قتل رجل رجلاً من غير فتنة فهم كانوا يعرفون أن القاتل يقتل لكن كانت الطائفة القوية تطلب أن تقتل غير القاتل ، أو من هو أكثر من القاتل ، أو اثنين بواحد ، وإذا كان القاتل منها لم تقتل به من هو دونه كما قيل : إنه كان بين قريظة والنضير لكن هذا لم تثر به الفتن بل فيه ظلم الطائفة القوية للضعيفة ، ولم يكن في الأمم من يقول : إن القاتل الظالم المتعدي مطلقاً لا يقتل ، فهذا لم يكن عليه أحد من بني آدم ؛ بل كل بني آدم مطبقون على أن القاتل في الجملة يقتل ، لكن الظلمة الأقوياء يفرقون بين قتيل وقتيل .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ .

(٢) اختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعي ، هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله ، وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة ، وقال قتادة ، وعكرمة ، والسدي ، وغيرهم ، عذابه أن يقتل البتة ، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو ، وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - لا أعفى من قتل بعد أخذ الدية .

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٩ - ١٠ .

وقول من قال : إن قوله :

﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ معناه أن القاتل إذا عرف أن يقتل كف فكان في ذلك حياة له وللمقتول (١) . يقال له : هذا معنى صحيح ؛ ولكن هذا مما يعرفه جميع الناس ، وهو مفروز في جبلتهم ، وليس في الأدميين من يبيح قتل أحد من غير أن يقتل قاتله ؛ بل كلهم مع التساوي يجوزون قتل القاتل ولا يتصور أن الناس إذا كان كل من قدر على غيره قتله وهو لا يقتل يرضى بمال ، وإذا كان هذا المعنى من أوائل ما يعرفه الأدميون ويعلمون أنهم لا يعيشون بدونه صار هذا مثل حاجتهم إلى الطعام والشراب والسكنى ، فإتزان أجل من أن يكون مقصوده التعريف بهذه الأمور البديهية ؛ بل هذا مما يدخل في معناه ، وهو أنه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنه يسقط حُرْبُ بَحْرٍ وعبد بعبد وأثنى بأثنى ، فجعل دية هذا كدية هذا ودم هذا كدم هذا متضمن لمساواتهم في الدماء والديات وكان بهذه المقاصة لهم حياة من الفتن التي توجب هلاكهم ، كما هو معروف ، وهذا المعنى مما يستفاد من هذه الآية ، فعلم أن دم الحر وديته كدم الحر وديته فيقتل به وإذا علم أن المتقاص يقع للتساوي في الديات علم أن للمقتول دية ، ولفظ القصاص (٢) يدل على

(١) إذا كف القصاصُ الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها ، وكان في هذا الكف حياة ، حياة مطلقة لا حياة فرد ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة . . بل حياة شاملة عاملة للكون كله وللأحياء أجمعين .

(٢) والقصاص : هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء ، الاعتداء بالقتل ابتداء ، والاعتداء في الثأر أخيراً .

وبغير هذا الرباط لا تقوم شريعة ، ولا يفلح قانون ، ويتحرج متحرج ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الانسان . وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود في عهد النبي - ﷺ - وعهد الخلفاء ، ومعظمها كان مصحوباً باعتراف الجاني نفسه طائعاً مختاراً - لقد كانت هناك التقوى ، وكانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر . الى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكونات القلوب .

المعادلة والمساواة فيدل على أن الله أوجب العدل والإنصاف في أمر القتلى ، فمن قتل غير قاتله فهو ظالم والمقتول وأولياؤه إذا امتنعوا من إنصاف أولياء المقتول فهم ظالمون ، هؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل ، هؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل .

وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في قوله :

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ^(١) وإذا دلت على العدل في القود بطريق اللزوم والتنبية ذهب الإشكال ، ولم يقل : فلم لا قال : والعبد بالعبد والحر ؟ فإنه لم يكن المقصود أنه يقاص به في القتلى ، ومعلوم أنه إنما يقاص الحر بالحر لا بالمرأة والمرأة بالمرأة لا بالحر والعبد بالعبد فظهرت فائدة التخصيص به والمقابلة في الآية .

ودلت الآية حينئذ على أن الحر يقتل بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى إذا كانا متساويين في الدم ، وبدله هو الدية ، ولم ينتف أن يقتل عبد بحر وأنثى بذكر ولا لها مفهوم ينفي ذلك ؛ بل كما دلت على ذلك بطريق التنبية والفحوى والأولى كذلك تدل على هذا أيضاً ؛ فإنه إذا قتل العبد بالعبد فقتله بالحر أولى ، وإذا قتلت المرأة بالمرأة فقتلها بالرجل أولى .

وأما قتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى فالآية لم تتعرض له لا بنفي ولا إثبات ولا لها مفهوم يدل عليه . لا مفهوم موافقة ولا مخالفة ؛ فإنه إذا كان في المقاصة يقاس الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى لتساوي الديات دل ذلك على قتل النظر بالنظر والأدنى بالأعلى .

يبقى قتل الأعلى الكثير الدية بالأدنى القليل الدية ليس في الآية تعرض

(١) سورة الإسراء آية رقم ٣٣ .

له ، فإنه لم يقصد بها ابتداء القود ، وإنما قصد المقاصة في القتل لتساوي ديّاتهم .

فإن قيل : دية الحر كدية الحر ودية الأنثى كدية الأنثى ويبقى العبيد قيمتهم متفاضلة ؟ .

قيل : عبيدهم كانوا متقاربين القيمة ، وقوله : ﴿ العبد بالعبد ﴾ قد يراد به بالعبد المماثل به ، كما يقال : ثوب بثوب وإن كان أحدهما أغلى قيمة فذاك مما عفى له ، وقد يعفى إذا لم تعرف قيمتهم وهو الغالب فإن المقتولين في الفتن عبيدهم الذين يقاتلون معهم ، وهم يكونون تربيتهم عندهم لم يشتروهم ، فهذا يكون مع العلم بتساوي القيمة ومع الجهل بتفاضلها فإن المجهول كالمعدوم ولو أتلّف كل من الرجلين ثوب الآخر ولا يعلم واحد منهما قيمة واحد من الثوبين قيل ثوب بثوب ، وهذا لأن الزيادة محتملة من الطرفين : يحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ، ويحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ، وليس ترجيح أحدهما أولى من الآخر ، والأصل براءة ذمة كل واحد من الزيادة فلا تشتغل الذمة بأمر مشكوك فيه لو كان الشك في أحدهما فكيف إذا كان من الطرفين ؟ .

فظهر حكمة قوله : ﴿ والعبد بالعبد ﴾ وظهر بهذا أن القرآن دل على ما يحتاج الخلق إلى معرفته والعمل به ، ويحقن به دماؤهم ويحيون به ، ودخل في ذلك ما ذكره الآخرون من العدل في القود .

ودلت الآية على أن القتل يؤخذ لهم ديّات ، فدل على ثبوت الدية على القاتل وأنها مختلفة باختلاف المقتولين ، وهذا مما من الله به على أمة محمد ﷺ حيث أثبت القصاص والدية .

وأما كون العفو هو قبول الدية في العمد ، وأنه يستحق العافي بمجرد عفو فالآية لم تتعرض لهذا .

ودلت هذه الآية على أن الطوائف المقتتلة تضمن كل منهما ما أتلفته الأخرى من دم ومال بطريق الظلم لقوله : ﴿ من أخيه ﴾ بخلاف ما أتلفته المسلمون للكفار والكفار للمسلمين .

وأما القاتل بتأويل « كقتال أهل الجمل وصفين » فلا ضمان فيه أيضاً بطريق الأولى عند الجمهور ، فإنه إذا كان الكفار المتأولون لا يضمنون فالمسلمون المتأولون أولى أن لا يضمنوا .

ودلت الآية على أن هذا الضمان على مجموع الطائفة يستوي فيه الردة والمباشر ، لا يقال : انظروا من قتل صاحبكم هذا فطالبوه بدينه بل يقال ديتهم عليكم كلكم فإنكم جميعاً قتلتموه : لأن المباشر إنما تمكن بمعاونة الرد له وعلى هذا دل قوله :

﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ (١)

فإن أولئك الكفار كان عليهم مثل صداق هذه المرأة التي ذهبت إليهم فإذا لم يؤدوه أخذ من أموالهم التي يقدر المسلمون عليها ، مثل امرأة جاءت منهم يستحقون صداقها ، فيعطى المسلم زوج تلك المرتدة صداقها من صداق هذه المسلمة المهاجرة التي يستحقه الكفار لكونها أسلمت وهاجرت وفوتت زوجها بضعها كما فوتت المرتدة بضعها لزوجها وإن كان زوج المهاجرة

(١) سورة الممتحنة آية رقم ١١ قال ابن عباس يقول : إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة وليس بينكم وبينهم عهد ، ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فاعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمس . وقال الزهري : يعطى من مال الفيء وقال الأعمش : هي منسوخة ، وقال عطاء : بل حكمها ثابت . والآية نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ارتدت وتركت زوجها عياض بن غنم القرش ولم ترتد امرأة من قریش غيرها ، ثم عادت إلى الإسلام ، وحكى الثعلبي عن ابن عباس : هن ست نسوة رجعن عن الإسلام ولحقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين .

ليس هو الذي تزوج بالمرتدة . لأن الطائفة لما كانت ممتنعة يمنع بعضها بعضاً صارت كالشخص الواحد .

ولهذا لما قتل خالد من قتل من بني جذيمة وداهم النبي ﷺ من عنده ؛ لأن خالداً نائبه وهو لا يمكنهم من مطالبته وحبسه لأنه متأول وكذلك عمرو بن أمية وقتله خالد بن الوليد لأنه قتل هذا على سبيل الجهاد لا لعداوة تخصه ، وقد تنازع الفقهاء في خطأ ولي الأمر هل هو في بيت المال أو على ذمته ؟ على قولين :

ولهذا كان ما غنمته السرية يشاركها فيه الجيش وما غنمه الجيش شاركته فيه السرية ، لأنه إنما يغنم بعضهم بظهر بعض ، فإذا اشتركوا في المغرم اشتركوا في المغنم ، وكذلك في العقوبة يقتل الردء والمباشر من المحاربين عند جماهير الفقهاء ، كما قتل عمر رضي الله عنه ربيعة المحاربين . وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد ، وهو مذهب مالك في القتل قوداً وفي السراق أيضاً .

وبيان دلالة الآية على ذلك أن المقتولين إذا حبس حر بحر وعبد بعبد وأنثى بأنثى فالحر من هؤلاء ليس قاتله هو ولي الحر من هؤلاء ؛ بل قد يكون غيره ، وكذلك العبد من هؤلاء ليس قاتله هو سيد العبد من هؤلاء ؛ بل قد يكون غيره ؛ لكن لما كانوا مجتمعين متناصرين على قتال أولئك ومحاربتهم كان من قتله بعضهم فكلهم قتله ، وكلهم يضمونونه ؛ ولهذا ما فضل لأحد الطائفتين يؤخذ من مال الأخرى .

فإن قيل : إذا كان مستقراً في فطر بني آدم أن القاتل الظالم لنظيره يستحق أن يقتل وليس في الآدميين من يقول إنه لا يقتل فما الفائدة في قوله تعالى :

﴿ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا - أي في التوراة - أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ

بِالْعَيْنِ ﴿١﴾ . الآية . إذا كان مثل هذا الشرع يعرفه العقلاء كلهم ؟ قيل لهم : فائدته بيان تساوي دماء بني اسرائيل ، وإن دماءهم متكافئة ليس لشريفهم مزية على ضعيفهم ، وهذه الفائدة الجليلة التي جاءت بها شرائع الأنبياء ، فأما الطوائف الخارجون عن شرائع الأنبياء فلا يحكمون بذلك مطلقاً ؛ بل قد لا يقتلون الشريف ، وإذا كان الملك عادلاً فقد يفعل بعض ذلك ، فهذا الذي كتبه الله في التوراة من تكافؤ دمائهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، فحكم أيضاً في المؤمنين به من جميع الأجناس باتفاق العلماء .

وبهذا ظهر الجواب عن احتجاج من احتج بآية التوراة على أن المسلم يقتل بالذمي لقوله :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ (٢)

« وشرع من قبلنا شرع لنا » فإنه يقال : الذي كتب عليهم أن النفس منهم بالنفس منهم ، وهم كلهم كانوا مؤمنين ، لم يكن فيهم كافر ، ولم يكن في شريعتهم إبقاء كافر بينهم لا بجزية ولا غيرها ، وهذا مثل شرع محمد ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ، وليس في الشريعتين أن دم الكافر يكافئ دم المسلم ؛ بل جعل الإيمان هو الواجب للمكافآت دليل على انتفاء ذلك في

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٥ ويقال في سبب نزول هذه الآية : كانت دية النضير أكثر ، وكان النضير لا يقتل بالقرظي ، ويقتل به القرظي فلما جاء الإسلام راجع بنو قريظة رسول الله - ﷺ - فيه فحكم بالاستواء ، فقالت بنو النضير قد حططت منا ، فنزلت هذه الآية وتعلق أبو حنيفة وغيره بهذه الآية فقال : يقتل المسلم بالذمي لأنه نفس بنفس ، وقد روى أبو داود والترمذي والنسائي عن علي - رضي الله عنه - أنه سئل هل خصك رسول الله - ﷺ - بشيء ؟ فقال : لا ، إلا ما في هذا ، وأخرج كتاباً من قراب سيفه وإذا فيه : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهد » . وقالت الشافعية : هذا خبر عن شرع من قبلنا وشرع من قبلنا ليس شرعاً لنا .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٥ .

الكافر - سواء كان ذمياً أو مستأنساً - لانتفاء الإيمان الواجب للمكافأة فيه ؛
نعم ! يحتج بعمومه على العبد .

وليس في العبد نصوص صريحة صحيحة كما في الذمي ؛ بل ما روي
« من قَتَلَ عبده قتلناه به » (١) وهذا لأنه إذا قتله ظالماً كان الإمام ولي دمه ؛
لأن القاتل كما أنه لا يرث المقتول إذا كان حراً فكذلك لا يكون ولي دمه إذا
كان عبداً ، بل هذا أولى كيف يكون ولي دمه وهو القاتل ؟ بل لا يكون ولي
دمه ؛ بل ورثة القاتل السيد ، لأنهم ورثته وهو بالحياة ولم يثبت له ولاية حتى
تنتقل إليهم فيكون وليه الإمام وحينئذ فللإمام قتله ، فكل من قتل عبده كان
للإمام أن يقتله . و« أيضاً » فقد ثبت بالسنة والآثار أنه إذا مثل بعبده عتق
عليه (٢) ، وهذا مذهب مالك وأحمد وغيرهما ، وقلته [أشد] أنواع المثل فلا
يموت إلا حراً ؛ لكن حرّيته لم تثبت في حال الحياة حتى يرثه عصبته ، بل
حرّيته تثبت حكماً ، وهو إذا كان عتق كان ولاؤه للمسلمين ، فيكون الإمام

(١) الحديث رواه أبو داود في الديات ٧ ، ورواه ابن ماجه في الديات ٢٣ باب هل يقتل الحر
بالعبد ٢٦٦٣ - حدثنا وكيع عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن ، عن سمرة بن
جندب قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره . ورواه الترمذي في كتاب الديات ١٨ باب ما جاء
في الرجل يقتل عبده ، ١٤١٤ - حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن الحسن عن سمرة
قال : قال رسول الله ﷺ - قال الترمذي . هذا حديث حسن غريب ، وقد ذهب بعض أهل
العلم منهم الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح : ليس بين الحر والعبد قصاص من النفس ،
ولا فيما دون النفس ، وهو قول أحمد وإسحاق وقال بعضهم إذا قتل عبده لا يقتل به ، وإذا
قتل عبد غيره قتل به وهو قول سفيان الثوري وأهل الكوفة . والحديث رواه أيضاً أحمد بن
حنبل في المسند ٥ : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ (حلي) .

(٢) روى الامام مسلم في كتاب الايمان ٨ باب صحة الممالك وكفارة من لطم عبده ٢٩
(١٦٥٧) حدثنا أبو عوانة عن فراس ، عن ذكوان أبي صالح عن زاذان أبي عمر قال : أتيت
ابن عمر وقد اعتق مملوكاً قال : فأخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال : ما فيه من الأجر ما
يسوي هذا إلا أنا سمعت رسول الله ﷺ - يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن
يعتقه .

ورواه الامام أحمد في مسنده ، ٢ : ٤٥ ، ٦١ (حلي) .

هو وليه ، فله قتل قاتل عبده .

وقد يحتج بهذا من يقول : إن قاتل عبد غيره لسيده قتله ، وإذا دل الحديث على هذا كان هذا القول هو الراجح ، والقول الآخر ليس معه نص صريح ولا قياس صحيح ، وقد قال الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : من قُتل ولا ولي له كان الإمام ولي دمه ، فله أن يقتل ، وله أن يعفو على الدية ؛ لا مجاناً .

يؤيد هذا أن من قال : لا يقتل حر بعبد يقول : إنه لا يقتل الذمي الحر بالعبد المسلم . قال الله تعالى في كتابه :

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ ﴾ ^(١) فالعبد المؤمن خير من الذمي المشرك فكيف لا يقتل به ؛ والعبد المؤمن مثل الحرائر المؤمنات ، كما دلت عليه هذه الآية ، وهو قول جماهير السلف والخلف ، وهذا قوي على قول أحمد فإنه يجوز شهادة العبد كالحُر ، بخلاف الذمي ، فلماذا لا يقتل الحر بالعبد وكلهم مؤمنون ، وقد قال النبي ﷺ « المؤمنون تتكافأ دماؤهم » ^(٢)

تفسير قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ ^(٣)

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الديات ١١ ، ٣١ والجهاد ١٤٧ والنسائي في كتاب القسامة

١٠ ، ١٤ وأخرجه ابن ماجة في كتاب الديات ٣١ باب المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ٢٦٨٣

حدثنا المعمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس - عن النبي - ﷺ -

قال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد

على أفصاهم .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٧ . روى الطبري بسنده عن السدي : أن رسول الله - ﷺ - بعث

من باب بدل الاشتمال ، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه فلم قدم الشهر وقد قلت : إنهم يقدمون ما بيانه أهم وهم به أعنى ؟ .

قيل : السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم انتهاكه وانتهاك حرمة ، وكان اهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال ، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر ، فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه مطابقاً لما ذكرنا من القاعدة .

فإن قيل : فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر ، وهلا اكتفى بضميره فقال : هو كبير ؟ وأنت إذا قلت : سألته عند زيد هو في الدار كان أوجز من أن تقول أزيد في الدار ؟ .

قيل : في إعادته بلفظ الظاهر بلاغة بديعة ، وهو تعليق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموماً ولو أتى بالمضمر فقال : هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه . وليس الأمر كذلك ؛ وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام .

ونظير هذه القاعدة قوله ﷺ - وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال - :

= سرية - وكانوا سبعة نفر - وأمر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي . وكتب مع ابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن ملل ، فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه أن سر حتى تنزل نخله فقال لأصحابه . من كان يريد الموت فليمض وليوص ، فإني موص وماض لأمر رسول الله - ﷺ - فسار وتحلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان أضلاً راحلة لهما . وسار ابن جحش الى بطن نخله فإذا هم بالحكم بن كيسان ، وعبد الله بن المغيرة وانفلت المغيرة وقتل عمرو بن الحضرمي ، قتله واقد بن عبد الله ، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله - ﷺ - فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين وما غنموا من الأموال أراد أهل مكة أن يفادوا بالأسيرين ، فقال النبي - ﷺ - حتى ننظر ما فعل صاحبانا فلما رجع سعد وصاحبه فأدى بأسيرين ففجر عليه المشركون وقالوا محمد يزعم أنه تبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب فنزل قول الله تعالى .

« هو الطهور ماؤه » (١) فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله : « نعم توضؤوا به » لثلاثتهم اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص ، فعدل عن قوله : « نعم توضؤوا » إلى جواب عام يقتضي تعليق الحكم والطهور به بنفس مائه من حيث هو ، فأفاد استمرار الحكم على الدوام ، وتعلقه بعموم الأمة وبطل توهم قصره على السبب فتأمله فإنه بديع .

فكذلك في الآية لما قال : ﴿ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ فجعل الخبر بـ ﴿ كَبِيرٌ ﴾ واقعاً عن ﴿ قَاتِلْ فِيهِ ﴾ فيتعلق الحكم به على العموم : ولفظ « المضممر » لا يقتضي ذلك .

وقريب من هذا قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (٢) ولم يقل أجرحهم ، تعليقاً لهذا الحكم بالوصف وهو كونهم مصلحين ، وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور .

وقريب منه وهو ألطف معنى قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ (٣) ولم يقل فيه تعليقاً بحكم الاعتزال بنفس الحيض ، وإنه هو

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب الطهارة ٣ باب الطهور للوضوء ١٢ - عن صفوان بن سليم ، عن سعيد بن سلمة من آل بني الأندلق عن المغيرة بن أبي بردة ، وهو من بني عبد الدار ، أنه سمع أبا هريرة يقول : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفترض به فقال رسول الله - ﷺ - وذكره .

ورواه أبو داود في ١ - كتاب الطهارة ٤١ باب الوضوء بماء البحر والترمذي في ١ - كتاب الطهارة ، ٥٢ باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور والنسائي في ١ - كتاب الطهارة ٤٧ - باب ماء البحر . وابن ماجه في ١ كتاب الطهارة ٣٨ - باب ما جاء في الوضوء بماء البحر .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٧٠ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٢٢ .

سبب الاعتزال وقال : ﴿ قُلْ هُوَ أَذَى ﴾ ولم يقل : (المحيض أذى) لأنه جاء على الأصل ؛ ولأنه لو كرره لثقل اللفظ به لتكرره ثلاث مرات ، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمرا ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضاً بخلاف قوله : ﴿ قُلْ هُوَ أَذَى ﴾ فإنه أخبار بالواقع ، والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً ، بخلاف تعليق الحكم به فإنه إنما يعلم بالشرع .

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَام عَنْ نِكَاحِ الْكِتَابِيَّةِ

عن قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ (١)

وقد أباح العلماء التزويج بالنصرانية واليهودية ، فهل هما من المشركين أم لا ؟؟ . فأجاب الحمد لله . نكاح الكتابية جائز بالآية التي في المائدة قال تعالى :

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ،
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ ﴾ (٢)

وهذا مذهب جماهير السلف والخلف من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وقد روي عن ابن عمر : أنه كره نكاح النصرانية ، وقال : لا أعلم شركاً أعظم ممن تقول : إن ربها عيسى بن مريم .

وهو اليوم مذهب طائفة من أهل البدع ، وقد احتجوا بالآية التي في

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٥ .

سورة البقرة ويقول **﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾** ^(١) والجواب من آية البقرة من ثلاثة أوجه .

(أحدها) أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين ، فجعل أهل الكتاب غير المشركين بدليل قوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ^(٢) .

فإن قيل : فقد وصفهم بالشرك بقوله :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٣)

قيل : أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك ، فإن الله إنما بعث الرسل بالتوحيد ، فكل من آمن بالرسول والكتب لم يكن في أصل دينهم شرك ؛ ولكن النصارى ابتدعوا الشرك ، كما قال : **﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾** فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلاجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لم

(١) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الحج آية رقم ١٧ الذين آمنوا : أي صدقوا بمحمد - ﷺ - والذين هادوا : معناه صاروا يهوداً نسبوا الى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام فقلبت العرب الذال دالاً لأن الأعجمية إذا عرّبت غيرت عن لفظها . سموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب ، والهائد : التائب قال الشاعر : « إني امرؤ من حبه هائد » . أي تائب وفي التنزيل : إنا هدنا إليك : أي تبنا والنصارى : جمع ، واحد نصراني ، وقيل : نصران باسقاط الباء ، وهذا قول سيبويه ، والأثنى نصرانه : كندمان وندمانه .

والصابئين : جمع صابئ ، وقيل : صابٍ ولذلك اختلفوا في همزه وهمزة الجمهور إلا نافعاً . فمن همزه جعله من صباب النجوم إذا طلعت ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ في اللغة : من خرج ومال من دين الى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم : قد صبا .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٣١ .

يأمر الله به ، وحيث ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة التي جاءت بالتوحيد لا بالشرك .

إذا قيل : أهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين ؛ فإن الكتاب الذي أضيفوا إليه لا شرك فيه ، كما إذا قيل : المسلمون وأمة محمد لم يكن فيهم من هذه الجهة لا اتحاد ، ولا رفض ، ولا تكذيب بالقدر ، ولا غير ذلك من البدع ، وإن كان بعض الداخلين في الأمة قد ابتدع هذه البدع ؛ لكن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة ، فلا يزال فيها من هو متبع لشريعة التوحيد ؛ بخلاف أهل الكتاب ، ولم يخبر الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم مشركون بالاسم ؛ بل قال : ﴿ عَمَّا يَشْرُكُونَ ﴾ بالفعل ، وآية البقرة قال فيها :

﴿ المشركين ﴾ و ﴿ المشركات ﴾ بالاسم ، والاسم أوكد من الفعل .
(الوجه الثاني) أن يقال : إن شملهم لفظ ﴿ المشركين ﴾ في سورة البقرة كما وصفهم بالشرك فهذا متوجه بأن يفرق بين دلالة اللفظ مفرداً أو مقروناً فإذا أفردوا دخل فيهم أهل الكتاب ، وإذا قرنوا بأهل الكتاب لم يدخلوا فيهم ، كما قيل : مثل هذا في اسم الفقير والمسكين ونحو ذلك ، فعلى هذا يقال : آية البقرة عامة ، وتلك خاصة ، والخاص يقدم على العام . (الوجه الثالث) أن يقال : آية المائدة ناسخة لآية البقرة ، لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء ، وقوله جاء في الحديث المائدة

وقال شيخ الاسلام رحمه الله
(الصدقة وما يقترن بها من أحوال)

لما ذكر سبحانه ما يبطل الصدقة من المن والأذى ومن الرياء ومثله بالتراب على الصفوان إذا أصابه المطر ، ولهذا قال :

﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(١) لأن الإيمان بأحدهما لا ينفع هنا ،
بخلاف قوله في النساء :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(٢)

فإنه في معرض الذم ، فذكر غايته وذكر ما يقابله وهم الذين ينفقون
أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم .

فالأول الإخلاص .

و « التثبيت » هو الثبوت كقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيًا ﴾ ^(٣) كقوله : ﴿ وَتَبْتَئِلُ إِلَيْهِ تَتَيْلًا ﴾ ^(٤)

ويشبهه - والله أعلم - أن يكون هذا من باب قدم وتقدم كقوله : ﴿ لَا
تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ^(٥) فتبتل وتثبت لازم بمعنى ثبت لأن الثبوت هو
القوة والمكينة ، وضده الزلزلة ، والرجفة ، فإن الصدقة من جنس القتال ،
فالجبان يرجف ، والشجاع يثبت ، ولهذا قال النبي ﷺ « وأما الخيلاء التي
يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند الحرب ، واختياله بنفسه عند
الصدقة » ^(٦) لأنه مقام ثبات وقوة . فالخيلاء تناسبه ، وإنما الذي لا يحبه الله

(١) الآية هي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ
رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَاصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ . [البقرة آية رقم
٢٦٤] .

(٢) سورة النساء الآيات من ٣٦ - ٣٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٦٦ .

(٤) سورة المزمل آية رقم ٨ .

(٥) سورة الحجرات آية رقم ١ .

(٦) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الخيلاء في الحرب ٢٦٥٩ حدثنا مسلم بن إبراهيم

المختال الفخور البخيل الأمر بالبخل ، فأما المختال مع العطاء أو القتال فيجبه .

وقوله ﴿ من أنفسهم ﴾ أي ليس المقوى له من خارج كالذي يثبت وقت الحرب لإمساك أصحابه له ، وهذا كقوله :

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ^(١) بل تثبته ومغفرته من جهة نفسه وقد ذكر الله سبحانه في البقرة والنساء والأقسام الأربعة في العطاء إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم في النساء ، أو يعطي مع الكراهة والمن والأذى فلا يكون بتثبيت وهو المذموم في البقرة ، أو مع الرياء فهو المذموم في السورتين ، ففي القسم الرابع : ابتغاء رضوان الله وتثبيتاً من أنفسهم .

ونظيره « الصلاة » أما أن لا يصلي ، أو يصلي رياء ، أو كسلان ، أو يصلي مخلصاً ، والأقسام الثلاثة الأولى مذمومة ، وكذلك الزكاة ونظير ذلك « الهجرة » و« الجهاد » فإن الناس فيها أربعة أقسام ، وكذلك .

﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ^(٢) في الثبات والذكر ، وكذلك :

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ^(٣)

وموسى بن اسماعيل ، والمعنى واحد ، قالوا : ثنا أبان ، قال : ثنا يحيى ، عن محمد بن إبراهيم ، عن ابن جابر بن عتيك عن جابر بن عتيك أن نبي الله - ﷺ - كان يقول : من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريية وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريية ، وإن من الخيلاء ما يبغض الله ومنها ما يحب الله : فلما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال واختياله عند الصدقة ، وأما التي يبغضه الله فاختياله في « البغي » قال موسى : والفخر .

(١) سورة الشورى آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة البلد آية رقم ١٧ .

في الصبر والمرحمة أربعة أقسام وكذلك ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ^(١) فهم في الصبر والصلاة فعامة هذه الأشفاع التي في القرآن : إما عملان ، وإما وصفان في عمل : انقسم الناس فيها قسمة رباعية ، ثم إن كانا عمليين منفصلين كالصلاة والصبر ، والصلاة والزكاة ونحو ذلك نفع أحدهما ولو ترك الآخر ، وإن كانا شرطين في عمل كالإخلاص ^(٢) والتثبت لم ينفع أحدهما فإن المن والأذى محبط ، كما أن الرياء محبط ، كما دل عليه القرآن ، ومن هذا تقوى الله وحسن الخلق ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والبر والتقوى والحق والصبر ، وأفضل الإيمان السماحة والصبر بخلاف الإشفاع في الذم كالإفك والإثم والاختيال والفخر والشح والجبن ، والإثم والعدوان ؛ فإن الذم ينال أحدهما مفرداً ومقروناً لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته ، فقد لا تحصل المنفعة إلا بتمامه والشر يطلب عدمه لمضرته وبعض المضار يضر في الجملة غالباً ، ولهذا فرق في الأسماء بين الأمر والنهي ، والإثبات والنفي ، فإذا أمر بالشيء اقتضى كماله ، وإذا نهى عنه اقتضى النهي عن جميع أجزائه ، ولهذا حيث أمر الله بالنكاح - كما في المطلقة ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره ، وكما في الإحصان - فلا بد من

(١) سورة البقرة آية رقم ٤٥ وسورة البقرة ١٥٣ والأولى بزيادة (الواو) .

(٢) اخلاص المسلمين : أنهم تبرأوا مما يدعيه اليهود من التشبيه والنصارى من التثليث ، فحقيقة الاخلاص : التعري من دون الله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ سميت سورة الاخلاص ، لأنها خالصة التوحيد وسبب خلاص أهله .

وقد ورد في القرآن على وجوه : الأول : في حق الكفار عند مشاهدتهم البلاء ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ الثاني : في أمر المؤمنين ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ الثالث : في أن المؤمنين لم يؤمروا إلا به ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ﴾ .
الرابع في حق الأنبياء ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ﴾ .

الخامس في المنافقين إذا تابوا : ﴿ وأخلصوا دينهم لله ﴾ .

السادس أن الجنة لم تصلح إلا لأهله ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

الكمال بالعقد والدخول ، وحيث نهى عنه كما في ذوات المحارم فالنهي عن كل منهما على انفراده ، وهذا مذهب مالك وأحمد المنصوص عنه أنه إذا حلف ليتزوجن لم يبر إلا بالعقدة والدخول بخلاف ما إذا حلف لا يتزوج فإنه يحنث بالعقدة ، وكذلك إذا حلف لا يفعل شيئاً حنث بفعل بعضه بخلاف إذا حلف ليفعلنه ، فإن دلالة الاسم على كل وبعض تختلف باختلاف النفي والإثبات .

ولهذا لما أمر الله بالطهارة والصلاة ، والزكاة والحج كان الواجب الإتمام كما قال تعالى : ﴿ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ^(٢) ولما نهى عن القتل والزنا والسرقة والشرب كان ناهياً عن إبعاض ذلك ؛ بل وعن مقدماته أيضاً ، وإن كان الاسم لا يتناولها في الإثبات ولهذا فرق في الأسماء النكرات بين النفي والإثبات ، والأفعال كلها نكرات ، وفرق بين الأمر والنهي بين التكرار وغيره ، وقال ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ » ^(٣) .

وإنما اختلف في المعارف المنفية على روايتين ، كما في قوله : « لا تأخذ الدراهم ولا تكلم الناس » .

(١) هذا من جزء من آية ١٢٤ من سورة البقرة ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٣٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١ باب اتباع سنة رسول الله - ﷺ - ٢ - عن الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤأهم واختلافهم على أنبيائهم وذكره . وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ٣٧ باب توقيفه - ﷺ - وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك ، ١٣٠ (١٣٣٧) بسنده عن أبو سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب قالوا : كان أبو هريرة يحدث أنه سمع رسول الله - ﷺ - وذكره ، وأخرجه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٨٨ عن أبي الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - وذكره .

وقال شيخ الاسلام
أبو العباس تقي الدين بن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه

فصل

في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ ﴾

في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

قد ثبت في صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : لما أنزل الله ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ اشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب . وقالوا : أي رسول الله كلفنا من العمل ما لا نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ؛ وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابيين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ قولوا : « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » (٢) .

فلما قرأها القوم وذلك بها ألستهم أنزل الله في أثرها :

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٤١٢ ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٧ باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ١٩٩ (١٢٥) عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال وذكره .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٢) قال : نعم !

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا ﴾ (٣) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴿ قال : نعم !

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال : نعم !

﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) قال : نعم !

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه وقال : قد فعلت ، قد فعلت ، بدل نعم (٥) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ الأصر : في اللغة : العهد ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْتَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي ﴾ والأصر : الضيق ، والذنب ، والثقل ، وقال سعيد بن جبير : الإصر : شدة العمل ، وما غلظ على بني إسرائيل من البول ونحوه ، قال الضحاك : كانوا يحملون أمورا شداً وهذا نحو قول مالك والربيع ، ومنه قول النابغة

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الأصر عنهم بعدما عرفوا

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٥) الحديث رواه الامام مسلم - في كتاب الإيمان ٥٧ باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا

ولهذا قال كثير من السلف والخلف : إنها منسوخة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ كما نقل ذلك عن ابن مسعود ، وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس في رواية عنه ، والحسن ، والشعبي وابن سيرين ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل ، والكلبي ، وابن زيد ، ونقل عن آخرين أنها ليست منسوخة ، بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم ، فيأخذ من يشاء ويغفر لمن يشاء ، كما نقل ذلك عن ابن عمر ، والحسن ، واختاره أبو سليمان الدمشقي والقاضي أبو يعلى ، وقالوا : هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ ^(١) .

= ما يطاق ، ٢٠٠ (١٢٦) حدثنا وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان مولى خالد قال : سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ [البقرة آية ٢٨٤] قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي - ﷺ - « قولوا سمعنا وأطعنا وأسلمنا قال : فآلقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ قال : قد فعلت .

(١) قال الامام القرطبي بعد أن ذكر أقوال العلماء في ثلاث نقاط : الرابع : أنها محكمة عامة غير منسوخة والله محاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوا مما ثبت في نفوسهم ، وأضمره ، ونووه وأرادوه ، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق ، ذكره الطبري عن قوم ، وأدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا . روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يقول : إني أخبركم بما اكنتم في أنفسكم فأما المؤمنون فيخبرهم ثم يغفر لهم ، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب فذلك قوله ﴿ يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ وهو قوله : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ من الشك والنفاق وقال الضحاك : يعلمه الله يوم القيامة بما كان يسره ليعلم أنه لم يخف عليه وفي الخبر : إن الله تعالى يقول يوم القيامة ﴿ هذا يوم تبلى فيه البرائر وتخرج الضمائر ﴾ وأن كتابي « لم يكتبوا إلا ما ظهر من أعمالكم وأنا المطلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يخبروه ولا كتبوه فأنا أخبركم بذلك وأحاسبكم عليه فاغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء » فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين - وهذا أصح ما في الباب يدل عليه حديث النجوي على ما يأتي : لا يقال فقد ثبت عن النبي ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت بها أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به » . فلما نقول : ذلك محمول على أحكام الدنيا مثل الطلاق والعتاق والبيع التي لا يلزمه حكمها ما لم يتكلم به .

و« فصل الخطاب » . أن لفظ النسخ مجمل ، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه ، من عموم أو إطلاق ، أو غير ذلك ، كما قال من قال : إن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ نسخ بقوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وليس بين الآيتين تناقض لكن قد يفهم بعض الناس من قوله : ﴿ حَقَّ تقاته ﴾ ﴿ وحق جهاده ﴾ الأمر بما لا يستطيعه العبد فينسخ ما فهمه هذا ، كما ينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ، وإن لم يكن نسخ ذلك نسخ ما أنزله ، بل نسخ ما ألقاه الشيطان ، إما من الأنفس أو من الأسماع أو من اللسان .

وكذلك ينسخ الله ما يقع في النفوس من فهم معني ، وإن كانت الآية لم تدل عليه لكنه محتمل ، وهذه الآية من هذا الباب ؛ فإن قوله :

﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ الآية إنما تدل على الله يحاسب بما في النفوس لا على أنه يعاقب على كل ما في النفوس ، وقوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ يقتضي أن الأمر إليه في المغفرة والعذاب لا إلى غيره ، ولا يقتضي أنه يغفر ويعذب بلا حكمة ولا عدل كما قد يظنه من يظنه من الناس ، حتى يجوزوا أنه يعذب على الأمر اليسير من السيئات مع كثرة الحسنات وعظمها ، وأن الرجلين اللذين لهما حسنات وسيئات يغفر لأحدهما مع كثرة سيئاته وقلة حسناته ويعاقب الآخر على السيئة الواحدة مع كثرة حسناته ، ويجعل درجة ذاك في الجنة فوق درجة الثاني . وهؤلاء يجوزون أن يعذب الله الناس بلا ذنب ، وأن يكلفهم ما لا يطيقون ويعذبهم على تركه ، والصحابة إنما هربوا وخافوا أن يكون الأمر من هذا الجنس ، فقالوا : لا طاقة لنا بهذا ، فإنه إن كلفنا ما لا نطيع عذبنا فنسخ الله هذا الظن ، وبين أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون إنه يكلف العبد ما لا يطيقه ويعذبه عليه ، وهذا القول لم يعرف عن أحد من السلف والأئمة ؛ بل أقوالهم

تناقض ذلك حتى أن سفيان بن عيينة ^(١) سئل عن قوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ قال : إلا أيسرها ، ولم يكلفها طاقتها ، قال البغوي : وهذا قول حسن ؛ لأن الموسع ما دون الطاقة وإنما قاله طائفة من المتأخرين لما ناظروا المعتزلة في « مسائل القدر » . وسلك هؤلاء مسلك الجبري جهم ^(٢) وأتباعه ، فقالوا هذا القول وصاروا فيه على مراتب ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

قال ابن الأنباري ^(٣) في قوله :

﴿ وَلَا تُحْمَلْنَ مَا لَا قُوَّةَ لَنَا بِهِ ﴾ أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه ^(٤) .

قال : فخاطب العرب على حسب ما تعقل ؛ فإن الرجل منهم يقول

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي ، من الموالى ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة ، وتوفي بها عام ١٩٨ هـ قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز له الجامع في الحديث وكتاب في « التفسير » [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧] .

(٢) هو جهم بن صفوان أبو محرز رأس الجهمية قال الذهبي : الضال المبدع هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً - قبض عليه نصر بن سيار فطلب جهم استبقاءه فقال نصر : لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت وأمر بقتله فقتل عام ١٢٨ هـ .

(٣) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار قيل : كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد من القرآن ولد في الأنبار على الفرات عام ٢٧١ هـ وتوفي ببغداد عام ٣٢٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٥٠٣ ونزهة الألباب ٢٣٠ وبغية الوعاة ٩١ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٥٧]

(٤) قال قتادة : معناه لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا ، وقال الضحاك : لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق ، وقال نحوه ابن زيد ، وقال ابن جريج : لا تمسخنا قردة ولا خنازير ، وقال سلام بن سابور : الذي لا طاقة لنا به : الغلظة ، وحكاها النقاش عن مجاهد وعطاء ، وروى أبو الدرداء كان يقول في دعائه وأعوذ به من غلظة ليس لها عدة ، وقال السدي : هو التغليظ والأغلال التي كانت على بني اسرائيل .

للرجل ما أطبق النظر إليك وهو مطبق لذلك ، لكنه ثقیل علیه النظر إليه ، قال : ومثله قوله :

﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ (١)

قلت ليست هذه لغة العرب وحدهم ، بل هذا مما اتفق عليه العقلاء . و« الاستطاعة في الشرع » هي ما لا يحصل معه التكلف ضرر راجح كاستطاعة الصيام والقيام ، فمتى كان يزيد في المرض أو يؤخر البرء لم يكن مستطيعاً ، لأن في ذلك مضرة راجحة بخلاف هؤلاء فإنهم كانوا لا يستطيعون السمع لبغض الحق وثقله عليهم : إما حسداً لقائله ، وإما اتباعاً للهوى ورين (٢) الكفر والمعاصي على القلوب ، وليس هذا عذراً فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن .

والمقصود أن السلف لم يكن فيهم من يقول : إن العبد لا يكون مستطيعاً إلا في حال فعله ، وأنه قبل الفعل لم يكن مستطيعاً ، فهذا لم يأت الشرع به قط ، ولا اللغة ، ولا دلّ عليه عقل : بل العقل يدل على نقيضه كما قد بسط في غير هذا الموضوع .

والرب تعالى يعلم أن العبد لا يفعل الفعل مع أنه مستطيع له (٣) ،

(١) سورة هود آية رقم ٢٠ .

(٢) الرين : الطبع والذنس يقال : ران ذنبه على قلبه من باب باع قال أبو عبيد في قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي غلب وقال الحسن - رضي الله عنه : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

(٣) يقول ابن حزم : أما اللغة : فإن الاستطاعة إنما هي مصدر استطاع يستطيع استطاعة ، والمصدر : هو فعل الفاعل وصفته ، كالضرب الذي هو فعل الضارب والحمرة التي هي صفة الأحمر ، والأحمرار الذي هو صفة المحمر وما أشبه هذا ، والصفة والفعل عرضان بلا شك في الفاعل منا وفي الموصوف والمصادر هي أحداث المسمين بالأسماء باجماع من أهل كل لسان ، فإذا كانت الاستطاعة في اللغة التي نتكلم بها نحن وهم إنما هي صفة في المستطيع

والمعلوم أنه لا يفعله ، ولا يريد أنه لا يقدر عليه ، والعلم يطابق المعلوم ، فالله يعلم ممن استطاع الحج والقيام والصيام أنه مستطيع ، ويعلم أن هذا مستطيع بفعل استطاعه ، فالمعلوم هو عدم الفعل لعدم إرادة العبد ؛ لا لعدم استطاعته ، كالمقدورات له التي يعلم أنه لا يفعلها لعدم إرادته لها لا لعدم قدرته عليها ، والعبد قادر على أن يفعل ، وقد علم الله أنه لا يفعل مع القدرة ؛ ولهذا يعذبه لأنه إنما أمره بما استطاع لا بما لا يستطيع ، ومن لم يستطيع لم يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

وإذا قيل : فيلزم أن يكون قادراً على تغيير علم الله لأن الله علم أنه لا يفعل ، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله .

قيل : هذه مغالطة ^(١) ، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا يلزم فيها تغيير العلم ، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه ؛ بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعرف علم الله إلا بما ظهر ، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بشيء بغير العلم ؛ بل هو قادر على فعل ما لم يقع ، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا أنه لا يقع .

= فبالضرورة تعلم أن الصفة هي غير الموصوف .

وإذن : فالاستطاعة عرض من الأعراض تقبل الأشد والأضعف فتقول استطاعة أشد من استطاعة ، واستطاعة أضعف من استطاعة وأيضاً فإن الاستطاعة لها ضد وهو العجز ، والأضداد لا تكون إلا أعراضاً وهذا كله أمر يعرف بالمشاهدة ولا ينكره إلا أعمى القلب .

(١) يقول ابن حزم : ويقال للمعتزلة أنتم تقولون معنا بأن الله تعالى لم يزل عليمًا بأن كل كائن فإنه سيكون على ما هو عليه إذا كان ولم يزل الله تعالى يعلم أن فلاناً سيظل فلاناً في وقت كذا فتحمل منه بولد يخلقه الله تعالى من فيهما الخارج منهما عند جماعة إياها وأنه يعيش إثماني سنة ويملك ويفعل ويصنع ، فإذا قلتم إن ذلك الفلان يقدر قدرة تامة على ترك ذلك الوطأ الذي لم يزل الله تعالى يعلم أنه سيكون وأنه يخلق ذلك الولد منه فقد قطعتم بأنه قادر على إبطال علم الله عز وجل ، وهذا كفر ممن أجازه .

وإذا قيل : فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم .

قيل ليس الأمر كذلك ؛ بل العبد يقدر على وقوعه ^(١) ، وهو لم يوقعه ، ولو أوقعه ، لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فإذا وقع كان الله عالمًا أنه سيقع ، وإذا لم يقع كان الله عالمًا بأنه لا يقع البتة ، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه ، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال .

ومما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شيء إلا الرب ؛ فإن الأمور نوعان :

« نوع » علم الله أنه سيكون و« نوع » علم الله أنه لا يكون . فـ « الأول » لا بد من وقوعه . و« الثاني » لا يقع البتة ، فما علم الله أنه سيقع يعلم أنه يقع بمشيئته وقدرته ، وما علم أنه لا يقع يعلم أنه لا يشاؤه ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

(١) قال ابن حزم : وقد نص الله تعالى على ذلك بقوله : سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون إلى قوله : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين » .

فأكذبهم الله تعالى في نفيهم عن أنفسهم الاستطاعة التي هي صحة الجوارح وارتفاع الموانع ثم نص تعالى على أنه قال : أقعدوا مع القاعدين وهذا أمر تكوين لا أمر بالقعود لأنه تعالى ساقط عليهم لقعودهم وقد نص تعالى على أنه « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » فقد ثبت يقيناً أنهم مستطيعون بظاهر الأمر بالصحة في الجوارح ، وارتفاع الموانع وأن الله تعالى كون فيهم قعودهم فبطل أن يتم استطاعتهم لخلاف فعلهم الذي ظهر منهم وقال عز وجل : من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

فبين عز وجل بياناً جلياً أن من أعطاه الهدى اهتدى ومن أضله فلا يهتدي فصح يقيناً أن بوقوع الهدى له من الله تعالى وهو التوفيق يفعل العبد ما يكون به مهتدياً .

وأما « المعتزلة » فعندهم أنه يشاء ما لا يكون وما يكون ما لا يشاء ،
وأولئك « المجبرة » في جانب ، وهؤلاء في جانب وأهل السنة وسط .

وما يفعل العباد باختيارهم يعلم سبحانه أنهم فعلوه بقدرتهم ومشيتهم
وما لم يفعلوه مع قدرتهم عليه يعلم أنهم لم يفعلوه لعدم إرادتهم له ، لا لعدم
قدرتهم عليه ، وهو سبحانه الخالق للعباد ولقدرتهم وإرادتهم وأفعالهم ، وكل
ذلك مقدور للرب ، وليس هذا مقدوراً بين قادرين بل القادر المخلوق هو
وقدرته ومقدوره مقدور للخالق مخلوق له .

و« المقصود هنا » أن قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْضِفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ^(١) حق ،
والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه ، فمن فهم أن الله
يكلف نفساً ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه ومن فهم منها أن المغفرة
والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه ، فقلوه :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاًّ وَشَعَهَا ﴾ ^(٢) رد للأول ، وقوله : ﴿ لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ^(٣) رد للثاني ، وقوله : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٤) كقوله في آل عمران ﴿ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٥) وقوله :
﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٦) ونحو ذلك .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٢٩ .

(٦) سورة المائدة آية رقم ٤٠ .

وقد علمنا أنه لا يغفر أن يشرك به ، وأنه لا يعذب المؤمنين ، وأنه يغفر لمن تاب ، كذلك قوله : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ ^(١) الآية .

ودلت هذه الآية على أنه سبحانه يحاسب بما في النفوس ، وقد قال عمر : زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و« المحاسبة » تقتضي أن ذلك يحسب ويحصي .

وأما « المغفرة والعذاب » فقد دلّ الكتاب والسنة على أن من في قلبه الكفر وبغض الرسول وبغض ما جاء به أنه كافر بالله ورسوله وقد عفى الله لهذه الأمة - وهم المؤمنون حقاً ، الذين لم يرتابوا - عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل كما هو في الصحيحين ^(٢) من حديث أبي هريرة وابن عباس ، وروي عن النبي ﷺ « أن الذي يهم بالحسنة تكتب له ، والذي يهم بالسيئة لا تكتب عليه حتى يعملها » ^(٣) إذا كان مؤمناً من عاداته عمل الحسنات وترك السيئات فإن ترك السيئة لله كتبت له حسنة ، فإذا أبدى العبد

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٢) روى الامام البخاري في كتاب الايمان ١٥ والطلاق ١١ والامام مسلم في كتاب الايمان ٢٠١ - ٥٨ باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ٢٠١ - حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به . ورواه ابن ماجه في كتاب الطرق ١٤ باب من طلق في نفسه ولم يتكلم به بسنده عن أبي هريرة . وذكره .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ٣١ باب من هم بحسنة أو سيئة ٦٤٩١ حدثنا أبو رجاء العطاردي عن ابن عباس - رضي الله عنهما عن النبي ﷺ - فيما يروي عن ربه عز وجل . قال : قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة . وأخرجه الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٩ باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ، ٢٠٦ بسنده عن أبي هريرة ، ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ٢٧٩ ، ٣١٠ ، ٣٦١ (حلي)

ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم والعقاب وإن أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمناً لترك الإيمان بالله والرسول مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقباً على ما أخفاه في نفسه من ذلك ؛ لأن ترك الإيمان الذي لا نجاة ولا سعادة إلا به ، وأما إن كان وسواساً والعبد يكرهه فهذا صريح الإيمان ، كما هو مصرح به في الصحيح وهذه « الوسوسة » هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيمان ، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك فقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١) .

و« الوسع » فعل بمعنى المفعول أي ما يسعه ، لا يكلفها ما تضيق عنه فلا تسعه ، وهو المقدور عليه المستطاع ، وقال بعض الناس : إن « الوسع » اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ، وليس كذلك ؛ بل ما يسع الإنسان هو مباح له ، وما لم يسعه ليس مأموراً به ، فما يسعه قد يؤمر به ، وأما ما لا يسعه فهو المباح يقال : يسعني أن أفعل كذا ، ولا يسعني أن أفعل كذا ، والمباح هو الواسع ، ومن باحة الدار ، فالمباح لك أن تفعله هو يسعك ولا تخرج عنه ، ومنه يقال : رحم الله من وسعته السنة فلم يتعدها إلى البدعة : أي فيما أمر الله به وما أباحه ما يكفي المؤمن المتبع في دينه ودنياه لا يحتاج أن يخرج عنه إلى ما نهى عنه . وأما ما كلفت به فهو ما أمرت بفعله ، وذلك يكون مما تسعه أنت لا مما يسعه هو ، وقد يقال : لا يسعني تركه ؛ بل تركه محرم وقد قال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ (٢)

وهو أول الحرام وقال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (٣)

وهي آخر الحلال ، وقال :

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٢٩ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وهذا التغيير نوعان :

(أحدهما) أن يبدو ذلك فيبقى قولاً وعملاً يترتب عليه الذم والعقاب
(الثاني) أن يغيروا الإيمان الذي في قلوبهم بضده من الريب والشك
والبغض ، ويعزموا على ترك فعل ما أمر الله به ورسوله ، فيستحقون العذاب
هنا على ترك المأمور ، وهناك على فعل المحذور .

وكذلك ما في النفس مما يناقض محبة الله والتوكل عليه والإخلاص له
والشكر له يعاقب عليه ؛ لأن هذه الأمور كلها واجبة ، فإذا خلا القلب عنها
واتصف بأضدادها استحق العذاب على ترك هذه الواجبات ، وبهذا التفصيل
تزول شبه كثيرة ، ويحصل الجمع بين النصوص فإنها كلها متفقة على ذلك ،
فالمنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يعاقبون على أنهم لم تؤمن
قلوبهم ؛ بل أضمرت الكفر ، قال تعالى :

﴿ يَقُولُونَ بِاللَّيْسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢)

وقال : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ (٣)

(١) سورة الأنفال آية رقم ٥٣ إن هذه الآية : تقرر عدل الله في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة
وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ويستحقوا أن يغير
ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقندروها ولم يشكروها ، ومن
الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري
عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير
الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم التي يختارونها لأنفسهم .

(٢) سورة الفتح آية رقم ١١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠ .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ﴾ (١)

فالمنافق لا بد أن يظهر في قوله وفعله ما يدل على نفاقه وما أضمره ،
كما قال عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات
وجهه وفلتات لسانه ، وقد قال تعالى عن المنافقين :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاهُمْ ﴾ (٢)

ثم قال : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (٣)

وهو جواب قسم محذوف أي : والله لتعرفهم في لحن القول !
فمعرفة المنافق في لحن القول لا بد منها ، وأما معرفته بالسيماء فموقوفة
على المشيئة .

ولما كانت هذه الآية : ﴿ إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ (٤)

خبراً من الله : ليس فيها إثبات إيمان للعبد ، بخلاف الآيتين بعدها ،
كما قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه »
متفق عليه (٥) ، وهما قوله :

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٥) الحديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي ١٢ باب ٣٩٩٦ - ٤٠٠٨ حدثنا أبو عوانة عن
الأعمش عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن علقمة عن أبي مسعود البديري - رضي الله
عنه قال : وذكره . وفي فضائل القرآن ١٠ ، ٢٧ ، ٢٤ والامام مسلم في كتاب صلاة
المسافرين وقصرها ٤٣ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، والحث على قراءة الآيتين
من آخر البقرة . بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد قال : لقيت أبا مسعود عند البيت : فقلت
حديث بلغني عنك في الآيتين في سورة البقرة وذكره ، والترمذي في ثواب القرآن ٤ ، وابن

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) إلى آخرها .
 وكلام السلف يوافق ما ذكرناه ، قال ابن عباس : هذه الآية لم تنسخ ولكن الله
 إذا جمع الخلائق يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم تطلع
 عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو
 قوله : ﴿ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ^(٢)

يقول : يخبركم به الله ، وأما أهل الشرك والريب فيخبرهم بما أخفوه
 من التكذيب وهو قوله :

﴿ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٣)

وقد روى عن ابن عباس : أنها نزلت في كتمان الشهادة ، وروى ذلك
 عن عكرمة والشعبي ، وكتمان الشهادة من باب ترك الواجب ، وذلك ككتمان
 العيب الذي يجب إظهاره ، وكتمان العلم الذي يجب إظهاره ، وعن مجاهد
 أنه الشك واليقين ، وهذا أيضاً من باب ترك الواجب ؛ لأن اليقين واجب ،
 وروي عن عائشة : ما أعلنت فإن الله يحاسبك به ، وأما ما أخفيت فما عجلت
 لك به العقوبة في الدنيا ، وهذا قد يكون مما يعاقب فيه العبد بالغم كما سئل
 سفيان بن عيينة عن غم لا يعرف سببه قال هو ذنب هممت به في شرك ولم
 تفعله فجزيت هما به .

فالذنوب لها عقوبات : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، وروي عنها
 مرفوعاً قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ إِنْ تُبْدُوا مَا فِي

= ما جه في إقامة الصلاة ١٨٣ باب ما جاء فيما يرجى أن يكفي من قيام الليل ١٣٦٨ - بسنده
 عن أبي مسعود . وذكره . والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢
 (حلي) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٢٩ .

أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴿ فَقَالَ يَا عَائِشَةُ : هذه مبايعة الله العبد مما يصيبه من النكبة والحمى ، حتى الشوكة والبضاعة يضعها في كفه فيفقدوها فيروع لها فيجدها في جيبه حتى أن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكبر ﴾ ^(١) قلت : هذا المرفوع هو والله أعلم بيان ما يعاقب به المؤمن في الدنيا وليس فيه أن كلما أخفاه يعاقب به ، بل فيه أنه إذا عوقب على ما أخفاه عوقب بمثل ذلك ، وعلى هذا دلت الأحاديث الصحيحة .

وقد روى الروياني في مسنده من طريق الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه العقوبة بذنبه حتى يوافيه بها يوم القيامة » ^(٢) وقد قال تعالى :

﴿ فَأَنبَأَكُمْ عَمَّا بِهِمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ٢٩٩١ - حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا الحسن بن موسى ، وروح بن عبادة عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أمية أنها سألت عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ وعن قوله : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ ﴾ فقالت : ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله - ﷺ - فقال : وذكره ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٦ : ٢١٨ (حلي)

(٢) ورواه أيضاً الترمذي في كتاب الزهد ٥٦ باب ما جاء في الصبر على البلاء ٢٣٩٦ - حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

قال الترمذي : وبهذا الاسناد عن النبي - ﷺ - قال : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ : لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾ .

فهؤلاء كانوا في ظنهم ظن الجاهلية ظناً ينافي اليقين بالقدر ، وظناً ينافي بأن الله ينصر رسوله ، فكان عقابهم على ترك اليقين ووجود الشك ، وظن الجاهلية ، ومثل هذا كثير .

ومما يدخل في ذلك نيات الأعمال ، فإنما الأعمال بالنيات ^(٢) ، وإنما لكل امرئ ما نوى . و« النية » هي مما يخفيه الإنسان في نفسه ، فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب ، وإن كان قصده رياء الناس استحق العقاب كما قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ^(٣) وقال :

﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ ^(٤) وفي حديث

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ١ باب كيف بدء الوحي الى رسول الله - ﷺ - حدثنا الحميدي عبد الله بن الزبير ، قال : حدثنا سفيان قال : حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري ، قال أخبرني محمد بن ابراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول : سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه على المنبر قال سمعت رسول الله - ﷺ - يذكره .

وفي إيمان ٤١ وكتاب النكاح ٥ والطلاق ١١ ومناقب الانصار ٤٥ والعنق ٦ ورواه الامام مسلم في كتاب الامارة ٤٥ باب قوله - ﷺ - إنما الأعمال بالنية ، ١٥٥ (١٩٠٧) حدثنا مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن ابراهيم عن علقمة بن وقاص عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكره وأبو داود في الطلاق ١١ والترمذي في فضائل الجهاد ١٦ والنسائي في الطهارة ٥٩ والطلاق ٢٤ وابن ماجه في الزهد ٢٦ باب النية بسنده عن علقمة بن وقاص أنه سمع عمر ابن الخطاب وهو يخطب الناس فقال سمعت رسول الله - ﷺ - يذكره ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٥ (حلي) .

(٣) سورة الماعون آية رقم ٤ - ٦ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٤٢ .

أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار في الذي تعلم وعلم ليقال : عالم قارئ والذي قاتل ليقال جرىء وشجاع والذي تصدق ليقال جواد كريم » ^(١) فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم ، وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم ؛ لم يقصدوا بذلك وجه الله وإن كانت صور أعمالهم صوراً حسنة ، فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب ، كما في الحديث : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فله من عمله النار » ^(٢) وفي الحديث الآخر :

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ٤٨ باب ما جاء في الرياء والسمعة ٢٣٨٢ - حدثنا سويد بن نصر ، أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا حيوة بن شريح ، أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفياء الأصبحي حدثه أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال : من هذا فقالوا أبو هريرة فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فلما سكوت وخلا قلت له أنشدك بحق ويحق لما حدثني حديثاً سمعته من رسول الله - ﷺ - عقلته وعلمته فقال أبو هريرة أفعل لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله - ﷺ - عقلته وعلمته . وذكره .

وقال الوليد أبو عثمان : فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفياء هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا : قال أبو عثمان - وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر ثم أفاق معاوية ومسح على وجهه وقال : صدق الله ورسوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٢) روى ابن ماجه بسنده عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - وذكره .

في الزوائد : اسناده ضعيف لضعف حماد وأبي كروب .

أما الحديث الآخر الذي رواه في المقدمة ٢٣ باب الانتفاع بالعلم والعمل به ٢٥٤ - حدثنا ابن أبي مريم أنبأنا يحيى بن أيوب عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله - أن النبي - ﷺ - قال : لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا تخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار ..

في الزوائد : رجال اسناده ثقات ، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم مرفوعاً وموقوفاً .

« من طلب علماً مما يبتغي به وجه الله لا يطلبه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » (١) .

وفي « الجملة » القلب هو الأصل ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك الأعضاء ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده ، وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه وأن النبي ﷺ قال : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » (٢) فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده ، فيكون هذا مما أبداه لا مما أخفاه .

وكلما أوجبه الله على العباد لا بد أنه يجب على القلب فإنه الأصل وإن وجب على غيره تبعاً ، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه ، وإنما يقصد الطاعة والامتثال القلب ، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به كالصلاة والزكاة والصيام ، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر ، وقصد الامتثال كان أول المعصية منه ؛ بل كان هو العاصي

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٣ باب الانتفاع بالعلم والعمل به ٢٥٢ حدثنا يونس ابن محمد ، وسريج بن النعمان قالا : حدثنا فليح بن سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ، أبي طوالة ، عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه [لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها] بدلاً من (لم يرح رائحة الجنة) .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الايمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه ٥٢ حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يقول سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراخ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعها ألا وإن لكل مسلم حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة الخ . ورواه الامام مسلم في كتاب المساقاة ٢٠٠ باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٠٧ (١٥٩٩) بسنده عن النعمان بن بشير وذكره ، ورواه ابن ماجه في ٣٦ - كتاب الفتن ١٤ - باب الوقوف عند الشبهات ٣٩٨٤ - بسنده عن النعمان بن بشير يقول على المنبر وأهوى باصبعه الى أذنيه . سمعت رسول الله - ﷺ - يقول - وذكره .

وغيره تبع له في ذلك ؛ ولهذا قال في حق الشقي : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (١) الآيات ، وقال في حق السعداء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٢) في غير موضع ، والمأمور نوعان :

« نوع » هو عمل ظاهر على الجوارح ، وهذا لا يكون إلا بعلم القلب وإرادته فالقلب هو الأصل فيه ، كالوضوء والاعتسال وكأفعال الصلاة : من القيام ، والركوع ، والسجود ، وأفعال الحج : من الوقوف ، والطواف ، وإن كانت أقوالاً فالقلب أخص بها ، فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقوله ، أو بما يقول ويقصده .

ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول ويقصده ، فأما المجنون والطفل الذي لا يميز فأقواله كلها لغو في الشرع لا يصح منه إيمان ولا كفر ، ولا عقد من العقود ، ولا شيء من الأقوال باتفاق المسلمين ، وكذلك النائم إذا تكلم (٣) في منامه فأقواله كلها لغو سواء تكلم المجنون والنائم بطلاق أو كفر أو غيره ، وهذا بخلاف الطفل فإن المجنون والنائم إذا أتلف ما لا ضمنه ، ولو قتل نفساً وجبت ديتها كما تجب دية الخطأ .

وتنازع العلماء في السكران مع اتفاقهم أنه لا تصح لقوله ﷺ : « مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر » وفرقوا بينهم في المضاجع » (٤) وهو معروف في السنن .

(١) سورة القيامة آية رقم ٣١ - ٣٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٧٧ .

(٣) روى الامام أحمد في المسند ١ : ١٤٠ حدثنا سعيد ، عن قتادة عن الحسن أن عمر بن الخطاب أراد أن يرجم مجنونة فقال له علي . . مالك ذلك . قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الطفل حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يبرأ أو يعقل فأدرا عنها عمر - رضي الله عنه .

(٤) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ١٨٠ ، ١٨٧ - ورواه أبو داود في كتاب الصلاة

وتنازعوا في عقود السكران كطلاقه ، وفي أفعاله المحرمة ، كالقتل والزنا هل يجري مجرى العاقل ، أو مجرى المجنون ، أو يفرق بين أقواله وأفعاله وبين بعض ذلك وبعض ؟ على عدة أقوال معروفة .

والذي تدل على النصوص والأصول وأقوال الصحابة : أن أقواله هدر - كالمجنون - لا يقع بها طلاق ولا غيره ؛ فإن الله تعالى قد قال : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ ^(١) فدل على أنه لا يعلم ما يقول ، والقلب هو الملك الذي تصدر الأقوال والأفعال عنه ، فإذا لم يعلم ما يقول لم يكن ذلك صادراً عن القلب ؛ بل يجري مجرى اللغو ^(٢) ، والشارع لم يرتب المؤاخذه إلا على ما يكسبه القلب من الأقوال والأفعال الظاهرة كما قال : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ^(٣) ولم يؤاخذ على أقوال وأفعال لم يعلم بها القلب ولم يتعمدها ، وكذلك ما يحدث به المرء نفسه لم يؤاخذ منه إلا بما قاله أو فعله ، وقال قوم : إن الله قد أثبت للقلب كسباً فقال : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ فليس لله عبد أسر عملاً أو أعلنه من حركة في جوارحه ، أو هم في قلبه إلا يخبره الله به ويحاسبه عليه ، ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

واحتجوا بقوله تعالى :

= باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ٤٩٥ - حدثنا مؤمل بن هشام - يعني اليشكري - حدثنا إسماعيل عن سوار أبي حمزة ، قال أبو داود ، وهو سوار بن داود أبو حمزة المزني الصيرفي عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه عن جده - قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(١) سورة النساء آية رقم ٤٣ .

(٢) اللغو واللغا : كفتى ، واللغوي : السقط ، وما لا يعتد به من الكلام وغيره .

وقوله تعالى ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ ﴾ أي ما لا عقد عليه ومن هذا أخذ الشاعر :

ولست بما أخوذ بلغو بقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم
وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أي قبيحاً من الكلام .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٢٥ .

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) وهذا القول ضعيف شاذ ؛ فإن قوله :

﴿ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (٢)

إنما ذكره لبيان أنه يؤاخذ في الأعمال بما كسب القلب لا يؤاخذ بلغو الإيمان ، كما قال : ﴿ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ (٣)

فالمؤاخضة لم تقع إلا بما اجتمع فيه كسب القلب مع عمل الجوارح ، فأما ما وقع في النفس ؛ فإن الله تجاوز عنه ما لم يتكلم به أو يعمل ، وما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب وعلمه فإنه لا يؤاخذ به .

و« أيضاً » فإذا كان السكران لا يصح طلاقه والصبي المميز تصح صلاته ثم الصبي لا يقع طلاقه فالسكران أولى ، وقد قال النبي ﷺ « لماعز » لما اعترف بالحد : « أَيْكَ جُنُونٌ (٤) ؟ قال : لا » ، ثم أمر باستنكاهه لئلا يكون سكران ، فدل على إن إقرار السكران باطل ، وقضية ماعز متأخرة بعد تحريم الخمر ، فإن الخمر حُرمت سنة ثلاث بعد أحد باتفاق الناس ، وقد ثبت عن

(١) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢٥ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٨٩ .

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب الحدود ٥ باب من اعترف على نفسه بالزنى ٢٢ (١٦٩٥) حدثنا يحيى بن يعلى (وهو ابن الحارث المحاربي) عن غيلان (وهو ابن جامع المحاربي) عن علقمة بن مرتد عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال : جاء ماعز بن مالك الى النبي - ﷺ - فقال يا رسول الله طهرني . فقال ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله طهرني . فقال رسول الله - ﷺ - : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه قال : فرجع غير بعيد . حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله - ﷺ - : فيم أطهرك ؟ . فقال من الزنى فسأل رسول الله - ﷺ - أبه جنون . . ؟ الخ . ورواه أبو داود في كتاب الحدود ٤٤٢١ - حدثنا أبو كامل ، ثنا يزيد بن زريع ، ثنا خالد - يعني الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس وذكره .

عثمان وغيره من الصحابة كعبد الله بن عباس أن طلاق السكران لا يقع ، ولم يثبت عند صحابي خلافة .

والذين أوقعوا طلاقه لم يذكروا إلا مأخذاً ضعيفاً ، وعمدتهم أنه عاص بإزالة عقله ، وهذا صحيح يوجب عقوبته على المعصية التي هي الشرب فيحد على ذلك ، وأما الطلاق فلا يعاقب به مسلم على المعصية ، ولو كان كذلك لكان كل من شرب الخمر أو سكر طلقت امرأته وإنما قال مَنْ قال : إذا تكلم به طلقت ، فهم اعتبروا كلامه لا معصيته ، ثم إنه في حال سكره قد يعتق ، والعنق قربة ، فإن صححوا عتقه بطل الفرق ، وإن ألغوه بإلغاء الطلاق أولى ، فإن الله يحب العتق ولا يحب الطلاق . ثم من علل ذلك بالمعصية لزمه طرد ذلك فيمن زال عقله بغير مسكر كالبنج ، وهو قول من يسوي بين البنج والسكران من أصحاب الشافعي وموافقيه كأبي الخطاب ^(١) ، والأكثر على الفرق ، وهو منصوص أحمد وأبي حنيفة وغيرهما ؛ لأن الخمر تشتهيها النفس وفيها الحد ؛ بخلاف البنج فإنه لا حد فيه ؛ بل فيه التعزير ^(٢) ، وعامة العلماء على أنه لا حد فيها إلا قولاً نقل عن الحسن ، فهذا فيمن زال عقله .

وأما إذا كان يعلم ما يقول ، فإن كان مختاراً قاصداً لما يقوله فهذا هو الذي يعتبر قوله ، وإن كان مكرهاً فإن أكره على ذلك بغير حق فهذا عند جمهور العلماء أقواله كلها لغو ، مثل كفره ، وإيمانه ، وطلاقه وغيره ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

(١) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني أبو الخطاب ، إمام الحنبلية في عصره ، أصله من كلواذي (من ضواحي بغداد) مولده عام ٤٣٢ هـ ووفاته عام ٥١٠ هـ ببغداد من كتبه « التمهيد في أصول الفقه » ، « الانتصار في المسائل الكبار » و « عقيدة أهل الأثر » وغير ذلك [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ ومخطوطات رباط الفتح ١ : ١٤١] .

(٢) التعزير : هو تأديب دون الحد ، وأصله من العزر ، وهو المنع [راجع التعريفات للجرجاني

وأبو حنيفة وطائفة يفرقون بين ما يقبل الفسخ وما لا يقبله ، قالوا : فما يقبل الفسخ لا يلزم من المكروه كالبيع ؛ بل يقف على إجازته له ، وما لا يقبل الفسخ كالنكاح والطلاق واليمين فإنه يلزم من المكروه . والجمهور ينازعون في هذا الفرق : في ثبوت الوصف ، وفي تعلق الحكم به ؛ فإنهم يقولون : النكاح ونحوه يقبل الفسخ ، وكذلك العتق يقبل الفسخ عند الشافعي وأحد القولين في مذهب أحمد ، حتى إن المكاتب قد يحكمون بعتقه ثم يفسخون العتق ويعيدونه عبداً ، والإيمان المنعقدة تقبل التحلة ، كما قال تعالى :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ ^(١)

وبسط الكلام على هذا له موضع آخر .

و« المقصود هنا » إن القلب هو الأصل في جميع الأفعال والأقوال فما أمر الله به من الأفعال الظاهرة فلا بدّ فيه من معرفة القلب وقصده وما أمر به من الأقوال وكل ما تقدم ، والمنهي عنه من الأقوال والأفعال إنما يعاقب عليه إذا كان بقصد القلب ، وأما ثبوت بعض الأحكام كضمان النفوس والأموال إذا أتلّفها مجنون أو نائم أو مخطيء أو ناس فهذا من باب العدل في حقوق العباد ، ليس هو من باب العقوبة .

فالمأمور به كما ذكرنا « نوعان » نوع ظاهر على الجوارح ، ونوع باطن في القلب . « النوع الثاني » ما يكون باطناً في القلب كالإخلاص وحب الله ورسوله والتوكل عليه والخوف منه ، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به

(١) سورة التحريم آية رقم ٢ .

وتحلة اليمين الاستثناء ، أي فرض الله لكم الاستثناء المخرج عن اليمين ثم عند قوم يجوز الاستثناء من الإيمان متى شاء وإن تحلل مدة وعند المعظم لا يجوز إلا متصلاً فكأنه قال : استثن بعد هذا فيما تحلف عليه ، وتحلة اليمين : تحليلها بالكفارة ، والأصل تحلة فأدمغت ، وتفعله من مصادر فعل كالتسمية والتوصية ، فالتحلة تحليل اليمين فكأن اليمين عقد والكفارة حل ، وقيل : التحلة : الكفارة أي أنها تحل للحالف ما حرم على نفسه .

الرسول ، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر فإنه محله ، وهذا النوع هو أصل النوع الأول ، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول ، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له لا يتم شيء من الأمور به طاهراً إلا بها ، وإلا فلو عمل أعمالاً ظاهرة بدون هذه كان منافقاً ، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالاً ظاهرة توافقها ، وهي أشرف من فروعها كما قال تعالى :

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) وكذلك تكذيب الرسول بالقلب وبغضه وحسده والاستكبار عن متابعتة أعظم إثماً من أعمال ظاهرة خالية عن هذا كالقتل والزنا والشرب والسرقه وما كان كفراً من الأعمال الظاهرة : كالسجود للأوثان ، وسب الرسول ونحو ذلك فإنما ذلك لكونه مستلزماً لكفر الباطن ، وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن ولم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفراً ، وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم في الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله ، كما ذكر أن بعض علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب

(١) سورة الحج آية رقم ٣٧ .

والتقوى وردت في القرآن على وجوه :

- ١ - بمعنى الخشية : قال تعالى في سورة النساء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ يعني اخشوا ربكم .
- ٢ - بمعنى اعبدوا : قال تعالى في سورة النحل : ﴿ أَنْ أَتَذَرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ يعني فاعبدون .
- ٣ - بمعنى لا تمصوا : قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يعني فلا تمصوه فيما أمركم به .
- ٤ - بمعنى وحدوا : قال تعالى : في سورة النساء ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يعني وحدوا الله . وفي سورة الحجرات ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ يعني الاخلاص ، وقوله تعالى في سورة الحج ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ يعني من إخلاص القلوب .

فعل نحو ذلك مع قوم من المشركين حتى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا على يديه ، ولم يظهر منافرتهم في أول الأمر .

وهنا « أصول » تنازع الناس فيها ، منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟ فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح ، فمن قال : إنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف ، فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن وإنما هو كافر . وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً في الباطن وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر ، وهذا باطل شرعاً وعقلاً كما قد بسط في غير هذا الموضع . وقد كفر السلف كوكيع ^(١) وأحمد وغيرهما من يقول بهذا القول ، وقد قال النبي ﷺ : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » ^(٢) . فبين إن صلاح

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي أبو سفيان ، حافظ للحديث ثبت كان محدث العراق في عصره ، ولد بالكوفة وأبوه ناظر على بيت المال فيها وتفقه وحفظ الحديث واشتهر وأراد الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة فامتنع ورعاً ، وكان يصوم الدهر توفي عام ١٩٧ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٨٢ وحلية الأولياء ٨ : ٣٦٨ ومفتاح السعادة ٢ : ١١٧]

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الامام مسلم في كتاب المساقاة ٢٠ باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٠٧ - حدثنا زكرياء عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير قال سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه « إن الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله محارمه وذكره .

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٤ باب الوقوف عند الشبهات ٣٩٨٤ بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ مسلم . وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٧٠ ، ٢٧٤ وعند الدارمي في البيوع (١)

القلب مستلزم لصلاح الجسد ، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح ، والقلب المؤمن صالح ، فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمناً ، حتى إن المكره إذا كان في إظهار الإيمان فلا بد أن يتكلم مع نفسه وفي السر مع من يآمن إليه .

ولا بد أن يظهر على صفحات وجهه وفتلات لسانه ، كما قال عثمان ، وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان .

وذلك أن الجسد تابع للقلب فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجهه ومقتضاه على البدن ولو بوجه من الوجوه ، وإن لم يظهر كل موجهه لمعارض فالمقتضى لظهور موجهه قائم ؛ والمعارض لا يكون لازماً للإنسان لزوم القلب له ؛ وإنما يكون في بعض الأحوال متعذراً إذا كتم ما في قلبه كمن آل فرعون^(١) ، مع أنه قد دعى إلى الإيمان دعاء ظهر به من إيمان قلبه ما لا يظهر من إيمان من أعلن إيمانه بين موافقيه وهذا في معرفة القلب وتصديقه .

ومنها قصد القلب وعزمه إذا قصد الفعل وعزم عليه مع قدرته على ما قصده هل يمكن أن لا يوجد شيء مما قصده وعزم عليه ؟ فيه قولان أحدهما أنه إذا حصل القصد الجازم مع القدرة وجب وجود المقدور وحيث لم يفعل

(١) المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ، قال السدي : كان ابن عم فرعون ، ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام واختاره ابن جرير ، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون اتفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعجل بالعقوبة لأنه منهم ، وقال ابن جرير : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال : ﴿ يا موسى إن الملأ يأمرون بك ليقتلوك ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ .

العبد مقدوره دل على أنه ليس هناك قصد جازم وقد يحصل قصد جازم مع العجز عن المقدور لكن يحصل معه مقدمات المقدور ، وقيل : بل قد يمكن حصول العزم التام بدون أمر ظاهر . وهذا النظر قول من قال ذلك في المعرفة والتصديق ، وهما من أقوال أتباع جهم الذين نصروا قوله في الإيمان ، كالقاضي أبي بكر وأمثاله فإنهم نصروا قوله وخالفوا السلف والأئمة وعامة طوائف المسلمين . وبهذا يتفصل النزاع في « مؤاخذه العبد بالهمة » فمن الناس : من قال : يؤاخذ بها إذا كانت عزمًا ، ومنهم من قال : لا يؤاخذ بها ، والتحقيق : إن الهمة إذا صارت عزمًا فلا بد أن يقترن بها قول أو فعل ؛ فإن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور .

والذين قالوا : يؤاخذ بها احتجوا بقوله « إذا التقى الجمعان سيفهما فالقاتل والمقتول في النار » (١) . الحديث ، وهذا لا حجة فيه ؛ فإنه ذكر ذلك في رجلين اقتتلا ، كل منهما يريد قتل الآخر ، وهذا ليس عزمًا مجرداً ؛ بل هو عزم مع فعل المقدور ، لكنه عاجز عن إتمام مراده ، وهذا يؤاخذ باتفاق المسلمين ، فمن اجتهد على شرب الخمر وسعى في ذلك بقوله وعمله ثم عجز فإنه آثم باتفاق المسلمين ، وهو كالشارب وإن لم يقع منه شرب ، وكذلك من اجتهد على الزنا والسرقة ونحو ذلك بقوله وعمله ثم عجز فهو آثم كالفاعل ، ومثل ذلك في قتل النفس وغيره ، كما جعل الداعي إلى الخير له مثل أجر المدعو ووزره لأنه أراد فعل المدعو ، وفعل ما يقدر عليه ، فالإرادة الجازمة ، مع فعل المقدور من ذلك ، فيحصل له مثل أجر الفاعل ووزره وقد

(١) الحديث رواه النسائي في التحريم ٢٩ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١١ باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما ٣٩٦٤ - حدثنا يزيد بن هارون عن سليمان التيمي وسعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن عن أبي موسى قال : قال رسول الله - ﷺ - إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه أراد قتل صاحبه .

في الزوائد : استاده صحيح ورجاله ثقات .

قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) الآية .

وفصل الخطاب في الآية أن ﴿ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ نوعان :

نوع لهم عزم تام على الجهاد ولو تمكنوا لما قعدوا ولا تخلفوا وإنما أقعدهم العذر ، فهو كما قال النبي ﷺ : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم سيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » (٢) . وهم أيضاً كما قال في حديث أبي كبشة الأنماري « هما في الأجر سواء » (٣) . وكما في حديث أبي موسى « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » (٤) . فأثبت له مثل ذلك العمل ؛ لأن عزمه تام وإنما منعه العذر .

و(النوع الثاني) من ﴿ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ الذين ليس لهم عزم على الخروج ، فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون وأولوا الضرر العازمون عزمًا جازماً على الخروج ، وقوله تعالى : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ (٥) سواء كان استثناء أو صفة دل على أنهم لا يدخلون مع القاعدين في نفي الاستواء ، فإذا

(١) سورة النساء آية رقم ٩٥ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ٣٥ باب من حبسه العذر عن الغزو ٢٨٣٩ - حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد هو ابن زيد عن حميد عن أنس - رضي الله عنه - وذكره ، وكتاب المغازي ٨١ وأبو داود في الجهاد ١٩ وابن ماجه في كتاب الجهاد ٦ باب من حبسه العذر عن الجهاد ٢٧٦٤ بسنده عن أنس بن مالك . وذكره . والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٣٠٠ .

(٣) (٤) روى الامام أحمد في المسند ٤ : ٤١٠ - حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا يزيد قال أنبأنا العوام بن حوشب ثنا ابراهيم بن اسماعيل السكسكي أنه سمع أبا بردة بن أبي موسى واصطحب هو ويزيد بن أبي كبشة في سفر وكان يزيد يصوم فقال له أبو بردة سمعت أبا موسى مراراً يقول : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٥) سورة النساء آية رقم ٩٥ .

فصل الأمر فيهم بين العازم وغير العازم بقيت الآية على ظاهرها ، ولو جعل قوله :

﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ (١)

عاماً في أهل الضرر وغيرهم لكان ذلك مناقضاً لقوله : ﴿ غير أولي الضرر ﴾ فإن قوله : ﴿ لا يستوي القاعدون ﴾ ﴿ والمجاهدون ﴾ إنما فيها نفي الاستواء ؛ فإن كان أهل الضرر كلهم كذلك لزم بطلان قوله : ﴿ غير أولي الضرر ﴾ ، ولزم أنه لا يساوي المجاهدين قاعد ولو كان من أولي الضرر ، وهذا خلاف مقصود الآية .

و« أيضاً » فالقاعدون إذا كانوا من غير أولي الضرر ، والجهاد ليس بفرض عين فقد حصلت الكفاية بغيرهم ؛ فإنه لا حرج عليهم في القعود بل هم موعودون بالحسنى كأولي الضرر وهذا مثل قوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ (٢) الآية . فالوعد بالحسنى شامل لأولي الضرر وغيرهم .

فإن قيل : قد قال في الأولى في فضلهم ﴿ درجة ﴾ ، ثم قال في فضلهم ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣)

كما قال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤)

(١) سورة النساء آية رقم ٩٥ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ١٠ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٩٦ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ١٩ .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يَشْرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ (١) .

فقلوه : ﴿ أعظم درجة ﴾ كما قال في السابقين ﴿ أعظم درجة ﴾ وهذا النصب على التمييز : أي درجتهم أعظم درجة ، وهذا يقتضي تفضيلاً مجملاً يقال : منزلة هذا أعظم وأكبر ، كذلك قوله : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢) : الآيات : ليس المراد به أنهم لم يفضلوا عليهم إلا بدرجة ، فإن في الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد وأبو هريرة : « إن في الجنة مائة درجة أعداها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » (٣) الحديث .

وفي حديث أبي سعيد : « من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة ، فعجب لها أبو سعيد فقال رسول الله ﷺ : وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فقال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » (٤)

(١) سورة التوبة آية رقم ٢٠ - ٢١ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٩٥ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ٤ باب درجات المجاهدين في سبيل الله حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة - رضي الله عنه وذكره وفيه ﴿ فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ﴾ أراه قال : ﴿ وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة ﴾ ورواه الترمذي في كتاب صفة الجنة ٤ باب ما جاء في صفة درجات الجنة ٢٥٢٩ بسنده عن أبي هريرة .

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب الامارة ٣١ باب بيان ما أعدده الله تعالى للمجاهدين في الجنة من الدرجات ١١٦ (١٨٨٤) حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره . ورواه أبو داود في الوتر ٢٦ ، والنسائي في الجهاد ١٨ .

فهذا الحديث الصحيح بين أن المجاهد يفضل على القاعد الموعود بالحسنى من غير أولي الضرر مائة درجة ، وهو يبطل قول من يقول : إن الوعد بالحسنى والتفضيل بالدرجة مختص بأولي الضرر ، فهذا القول مخالف للكتاب والسنة . وقد يقال : إن ﴿ درجة ﴾ منصوب على التمييز كما قال أعظم درجة أي فضل درجتهم على درجتهم أفضل. كما يقال : فضل هذا على هذا منزلاً ومقاماً ، وقد يراد (بالدرجة) جنس الدرج ، وهي المنزلة والمستقر لا يراد به درجة واحدة من العدد ، وقوله :

﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ ﴾ ^(١) منصوب (بفضّل) لأن التفضيل زيادة للمفضل ، فالتقدير زادهم عليهم أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة ، فهذا النزاع في العازم الجازم إذا فعل مقدوره هل يكون كالفاعل في الأجر والوزر أم لا ؟ وأما في استحقاق الأجر والوزر فلا نزاع في ذلك ، وقوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » ^(٢) فيه حرص كل واحد منهما على قتل صاحبه وفعل مقدوره ، فكلاهما مستحق للنار ويبقى الكلام في تساوي القعودين بشيء آخر .

وهكذا حال المقتتلين من المسلمين في الفتن الواقعة بينهم ، فلا تكون عاقبتهم إلا عاقبة سوء الغالب والمغلوب ، فإنه لم يحصل له دنيا ولا آخرة ، كما قال الشعبي ^(٣) : أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة

(١) سورة النساء آية رقم ٩٥ - ٩٦ وصدر الآية ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث فليرجع إليه في هذا الجزء من التفسير .

(٣) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري أبو عمرو من التابعين يضرب به المثل بحفظه ولد عام ١٩ هـ بالكوفة ومات سنة ١٠٣ هـ بالكوفة اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه وسميره ورسوله الى ملك الروم وهو من رجال الحديث الثقات . [راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٦٥ والوفيات ١ : ٢٤٤ وحلية الأولياء ٤ : ٢١٠ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ١٣٨] .

أشقياء ، وأما الغالب فإنه يحصل له حظ عاجل ثم ينتقم منه في الآخرة ، وقد يعجل الله له الانتقام في الدنيا ، كالغالبين في الحرية ^(١) وفتنة أبي مسلم الخراساني ^(٢) ونحو ذلك . وأما من قال : إنه لا يؤخذ بالعزم القلبي فاحتجوا بقوله ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها » ^(٣) وهذا ليس فيه أنه عاف لهم عن العزم ، بل فيه أنه عفا عن حديث النفس إلى أن يتكلم أو يعمل ، فدل على أنه ما لم يتكلم أو يعمل لا يؤخذ ؛ ولكن ظن من ظن أن ذلك عزمًا وليس كذلك ؛ بل ما لم يتكلم أو يعمل لا يكون عزمًا : فإن العزم لا بد أن يقترن به المقدور ، وإن لم يصل العازم إلى المقصود ، فالذي يعزم على القتل أو الزنا أو نحوه عزمًا جازمًا لا بد أن يتحرك ولو برأسه ، أو بمسن أو يأخذ آلة ، أو يتكلم كلمة ، أو يقول أو يفعل شيئاً ، فهذا كله ما يؤخذ به كزنا العين واللسان والرجل ، فإن هذا يؤخذ به ، وهو من مقدمات الزنا التام بالفرج ، وإنما وقع العفو عما ما لم يبرز خارجاً بقول أو فعل ولم يقترن به أمر ظاهر قط ، فهذا يعفى عنه لمن قام بما يجب على القلب من فعل المأمور به ، سواء كان المأمور به في القلب وموجه في الجسد أو كان

(١) موقعة الحرية معروفة في كتب التاريخ وذلك عندما استباح أحد القادة من المسلمين مدينة الرسول - ﷺ - وعمل في أهلها القتل والتعذيب .

(٢) هو عبد الرحمن بن مسلم : مؤسس الدولة العباسية ، وأحد كبار القادة قال الذهبي : كان ذا شأن عجيب ، شاب دخل خراسان ابن تسع عشرة سنة على حمار بإكاف وخرمة وعروة فما زال ينتقل حتى خرج من مرو بعد عشر سنين يقود كتائب أمثال الجبال فقلب دولة ، وأقام دولة وذلت له رقاب الأمم وراحت تحت سيفه ستمائة ألف أو يزيدون توفي عام ١٣٧ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٢٨٠ وابن الأثير ٥ : ١٧٥ والطبري ٩ : ١٥٩]

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٨ باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ٢٠١ - حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن زارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة وذكره ورواه الامام البخاري في كتاب الايمان ١٥ ، والطلاق ١١ والترمذي في الطلاق ٨ وتفسير سورة ٢ : ٣٧ وابن ماجه في الطلاق ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٥ ، ٣٩٣ ، ٤٢٥ ، ٤٧٤ .

المأمور به ظاهراً في الجسد وفي القلب معرفته وقصده ، فهؤلاء إذا حدثوا أنفسهم بشيء كان عفواً مثل هم ثابت بلا فعل ، ومثل الوسواس الذي يكرهونه وهم يثابون على كراهته ، وعلى ترك ما هموا به وعزموا عليه الله تعالى وخوفاً منه .

وقال الشيخ رحمه الله تعالى :

في خواتيم سورة البقرة

أعلم أن الله سبحانه وتعالى أعطى نبيه محمداً ﷺ وبارك ، خواتيم (سورة البقرة) من كنز تحت العرش ^(١) لم يؤت منه نبي قبله ، ومن تدبر هذه الآيات وفهم ما تضمنته من حقائق الدين ، وقواعد الإيمان الخمس ، والرد على كل مبطل ، وما تضمنته من كمال نعم الله تعالى على هذا النبي ﷺ وأمته ، ومحبة الله سبحانه لهم ، وتفضيله إياهم على من سواهم ، فاليهنة العلم ، ولو ذهبنا نستوعب الكلام فيها لخرجنا عن مقصود الكتاب ، ولكن لا بدّ من كلمات يسيرة تشير إلى بعض ذلك فنقول :

لما كانت (سورة البقرة) سنام القرآن ، وأكثر سوره أحكاماً وأجمعها لقواعد الدين : أصوله وفروعه ، وهي مشتملة على ذكر « أقسام الخلق » : المؤمنين والكفار ، والمنافقين ، وذكر أوصافهم وأعمالهم .

وذكر الأدلة الدالة على إثبات الخالق - سبحانه وتعالى - وعلى وحدانيته وذكر نعمه ، وإثبات نبوة رسوله ﷺ وتقرير المعاد ، وذكر الجنة والنار ، وما فيهما من النعيم والعذاب .

ثم ذكر تخليق العالم العلوي والسفلي .

(١) رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٥١ - حدثنا جرير عن منصور عن ربعي بن حراش عن عمه خذنه عن أبي ذر قال : قال رسول الله - ﷺ « أني أوتيتهما من كنز من بيت تحت العرش ولم يؤتتهما نبي قبلي يعني الآيتين من آخر سورة البقرة » .

ثم ذكر خلق آدم عليه السلام ^(١) ، وإنعامه عليه بالتعليم وإسجاد ملائكته له وإدخاله الجنة ، ثم ذكر محنته مع إبليس ، وذكر حسن عاقبة آدم عليه السلام ثم ذكر « المناظرة » مع أهل الكتاب من اليهود ، وتوبيخهم على كفرهم وعنادهم ثم ذكر النصارى والرد عليهم ، وتقرير عبودية المسيح ، ثم تقرير النسخ ، والحكمة في وقوعه .

ثم بناء البيت الحرام ^(٢) وتقرير تعظيمه ، وذكر بانيه والثناء عليه ، ثم تقرير الحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وتسفيه من رغب عنها ووصية نبيه بها ، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى آخر السورة ، فختمها الله تعالى بآيات جوامع مقررة لجميع مضمون السورة ، فقال تعالى :

﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٣) .

فأخبر تعالى أن ما في السموات وما في الأرض ملكه وحده لا يشاركه فيه مشارك وهذا يتضمن انفراده بالملك الحق والملك العام لكل موجود ، وذلك يتضمن توحيد ربوبيته وتوحيد إلهيته ، فتضمن نفي الولد والصاحبة والشريك لأن ما في السموات وما في الأرض إذا كان ملكه وخلقه لم يكن له فيهم ولد ولا صاحبة ولا شريك ^(٤) .

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ سورة البقرة آية رقم ١٢٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٤) راجع ما يأتي بعد ذلك من الآيات فإنها تدل على ذلك وايضاً قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ =

وقد استدَلَّ سبحانه بعيد هذا الدليل في سورة الأنعام ، وسورة مريم ، فقال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١)

وقال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ (٢)

ويتضمن ذلك أن الرغبة والسؤال والطلب والافتقار لا يكون إلا إليه وحده ؛ إذ هو المالك لما في السموات والأرض .

ولما كان تصرفه سبحانه في خلقه لا يخرج عن العدل والإحسان وهو تصرف بخلقهِ وأمرهِ ، وأخبر أن ما في السموات وما في الأرض ملكه ، فما تصرف خلقاً وأمرأً إلا في ملكه الحقيقي ، وكانت سورة البقرة مشتملة من الأمر والخلق على ما لم تشتمل عليه سورة غيرها - أخبر تعالى أن ذلك صدر منه في ملكه قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٣) .

فهذا متضمن لكل علمه سبحانه وتعالى بسرائر عبادهِ وظواهرهم ، وأنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمهِ ، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكهِ فعلمهُ عام وملكهُ عام .

ثم أخبر تعالى عن محاسبته لهم بذلك ، وهي تعريفهم ما أبدوه أو أخفوه فتضمن بذلك علمه بهم وتعريفهم إياه ، ثم قال :

= اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ . سورة التوبة آية رقم ٣١ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠١ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٩٢ - ٩٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ (١)

فتضمن بذلك قيامه عليهم بالعدل والفضل ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء عدلاً ، وذلك يتضمن الثواب والعقاب المستلزم للأمر والنهي المستلزم للرسالة والنبوة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) فتضمن ذلك أنه لا يخرج شيء عن قدرته البتة ، وأن كل مقدور واقع بقدره ، ففي ذلك رد على المجوس الثنوية (٣) ، والفلاسفة ، والقدرية المجوسية ، وعلى كل من أخرج شيئاً من المقدورات عن خلقه وقدرته - وهم طوائف كثيرون - فتضمنت الآية إثبات التوحيد وإثبات العلم بالجزئيات والكلديات وإثبات الشرائع والنبوات ، وإثبات المعاد والثواب والعقاب وقيام الرب على خلقه بالعدل والفضل ، وإثبات كمال القدرة وعمومها ، وذلك يتضمن حدوث العالم بأسره ؛ لأن القديم لا يكون مقدوراً ولا مفعولاً .

ثم إن إثبات كمال علمه وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلي وله من كل صفة اسم حسن ، فيتضمن إثبات صفاته الحسنى ، وكمال القدرة يستلزم أن يكون فعالاً لما يريد ، وذلك يتضمن تنزيهه من كل ما يضاد كماله ،

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٣) هذه فرقة من الفرق : يزعم أصحابها أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس ، فإنهم قالوا بحدوث الظلام ويتساويهما في القدم واختلافهما في الجوهر والطبع والعقل ، والحيز والمكان ، والأجناس والأبدان والأرواح .

من هؤلاء الثنوية : ماني بن فاتك الفارسي الذي ظهر بمذهب المانوية في عهد سابور بن أردشير بعد المسيح فأسس ديناً بين -المجوسية والنصرانية وكان يقول بنوة عيسى عليه السلام دون موسى زعم ماني أن العالم مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شيء لا من أصل قديم [راجع دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ : ص ٧٧٠ - ٧٧٣] .

فيتضمن تنزيهه من الظلم المنافي لكمال غناه وكمال علمه ؛

إذ الظلم إنما يصدر عن محتاج أو جاهل ، وأما الغنى عن كل شيء العالم بكل شيء سبحانه فإنه يستحيل منه الظلم ، كما يستحيل عليه العجز المنافي لكمال قدرته ، والجهل المنافي لكمال علمه .

فتضمنت الآية هذه المعارف كلها بأوجز عبارة وأفصح لفظ وأوضح معنى . وقد عرفت بهذا أن الآية لا تقتضي العقاب على خواطر النفوس المجردة ، ؛ بل إنما تقتضي محاسبة الرب عبده بها ، وهي أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الأخص ، وبعد محاسبته بها يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وعلى هذا فالآية محكمة لا نسخ فيها ، ومن قال من السلف نسخها ما بعدها فمراده بيان معناها والمراد منها ، وذلك يسمى نسخاً في لسان السلف ، كما يسمون الاستثناء نسخاً .

ثم قال تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (١)

فهذه شهادة الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بإيمانه بما أنزل إليه من ربه ، وذلك يتضمن إعطاءه ثواب أكمل أهل الإيمان - زيادة على ثواب الرسالة والنبوة - لأنه شارك المؤمنين في الإيمان ، ونال منه أعلى مراتبه ، وامتناز عنهم بالرسالة والنبوة ، وقوله : ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٢) يتضمن أنه كلامه الذي تكلم به ، ومنه نزل لا من غيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٣)

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

وقال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١)

وهذا أحد ما احتج به أهل السنة على المعتزلة القائلين بأن الله لم يتكلم بالقرآن ، قالوا : فلو كان كلاماً لغير الله لكان منزلاً من ذلك المحل لا من الله : فإن القرآن صفة لا تقوم بنفسها ؛ بخلاف قوله :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ ^(٢) .

قال : تلك أحيان قائمة بنفسها ، فهي منه خلقاً ، وأما « الكلام » فوصف قائم بالمتكلم فلما كان منه فهو كلامه ؛ إذ يستحيل أن يكون منه ولم يتكلم به .

ثم شهد تعالى للمؤمنين بأنهم آمنوا بما آمن به رسولهم ، ثم شهد لهم جميعاً بأنهم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فتضمنت هذه الشهادة إيمانهم بقواعد الإيمان الخمسة ^(٣) التي لا يكون أحد مؤمناً إلا بها ، وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الخمسة في أول السورة ووسطها وآخرها ، فقال في أولها :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ^(٤) . والإيمان بالله يدخل في الإيمان بالغيب وفي الإيمان بالكتب والرسول ، فتضمنت الإيمان بالقواعد الخمس .

وقال في وسطها :

(١) سورة الواقعة آية رقم ٨٠ والهاقة آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٣) في الحديث الذي رواه ابن ماجة في المقدمة ٩ باب في الإيمان ٦٣ بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٤ .

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (١) ثم حكى عن أهل الإيمان أنهم قالوا :

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٢) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فلا
ينفعنا إيماننا بمن آمنّا به منهم كما لم ينفع أهل الكتاب ذلك ؛ بل نؤمن
بجميعهم ونصدقهم ولا نفرق بينهم ؛ وقد جمعتهم رسالة ربهم فنفرق بين من
جمع الله بينهم ونعادي رسله ، ونكون معادين له ، فباينوا بهذا الإيمان جميع
طوائف الكفار المكذبين لجنس الرسل ، والمصدقين لبعضهم المكذبين
لبعضهم .

وتضمن إيمانهم بالله إيمانهم بربوبيته ، وصفات كماله ، ونعوت
جلاله ، وأسمائه الحسنى ، وعموم قدرته ومشيتته ، وكمال علمه وحكمته ،
فباينوا بذلك جميع طوائف أهل البدع والمنكرين لذلك أو لشيء منه ، فإن
كمال الإيمان بالله يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه ، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ،
فباينوا بهذين الأمرين جميع طوائف الكفر ، وفرق أهل الضلال الملحدين في
أسماء الله وصفاته .

ثم قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فهذا إقرار منهم ببركني الإيمان الذي لا
يقوم إلا بها ، وهما السمع (٣) المتضمن للقبول ؛ لا مجرد سمع الإدراك

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٣) قد ورد السمع في التنزيل على وجوه :

الأول : بمعنى الإفهام : « إنك لا تسمع الموتى » . أي لا تفهمهم .

الثاني : بمعنى إجابة الدعاء : إنك سمع الدعاء .

الثالث : بمعنى فهم القلب « أو ألقى السمع وهو شهيد » .

الرابع : بمعنى سماع جارحة الأذن « سمعوا لها تغيظاً وزفيراً » .

(سمعنا وعصينا) أي سمعنا بالأذان . وعصينا بالجنان .

المشترك بين المؤمنين والكفار ؛ بل سمع الفهم والقبول ، و« الثاني » الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامثال الأمر ، وهذا عكس قول الأمة الغضبية ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ .

فتضمنت هذه الكلمات كمال إيمانهم ، وكمال قبولهم ؛ وكمال انقيادهم ، ثم قالوا : ﴿ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ^(١) لما علموا أنهم لم يوفوا مقام الإيمان حقه مع الطاعة والانقياد الذي يقتضيه منهم ، وأنهم لا بد أن تميل بهم غلبات الطباع ودواعي البشرية إلى بعض التقصير في واجبات الإيمان ، والله لا يلم شعث ذلك إلا مغفرة الله تعالى لهم ، سألوه غفرانه الذي هو غاية سعادتهم ، ونهاية كمالهم ؛ فإن غاية كل مؤمن المغفرة من الله تعالى ، فقالوا :

﴿ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا ﴾ ثم اعترفوا أن مصيرهم ومردهم إلى مولاهم الحق لا بد لهم من الرجوع إليه فقالوا :

﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ . فتضمنت هذه الكلمات إيمانهم به ودخولهم تحت طاعته وعبودته واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم إلى مغفرته واعترافهم بالتقصير في حقه وإقرارهم برجوعهم إليه .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ^(٢) فنفى بذلك ما توهموه من أنه يعذبهم بالخطرات التي لا يملكون دفعها ، وأنها داخلة تحت تكليفه ، فأخبرهم أنه لا يكلفهم إلا وسعهم ، فهذا هو البيان الذي قال فيه

= الخامس : بمعنى سمع الحق تعالى : المنزه عن الجارحة والآلة : المقدس عن الصماخ والمحارة ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً والله سميع عليم ﴾ .

وقد يكون السميع بمعنى المسمع قال عمرو بن معد يكرب - رضي الله عنه :
أمن ريحانة الداعي السميع يزورقني وأصحابي هجوع

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

ابن عباس وغيره فنسخها الله عنهم بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وقد تضمن ذلك أن جميع ما كلفهم به أمراً ونهياً فهم مطيقون له قادرون عليه وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون ، وفي ذلك رد صريح على من زعم خلاف ذلك والله تعالى أمرهم بعبادته ، وضمن أرزاقهم ، فكلفهم من الأعمال ما يسعونه وأعطاهم من الرزق ما يسعهم ، فتكليفهم يسعونه وأرزاقهم تسعهم ، فهم في الوسع في رزقه وأمره : وسعوا أمره ، ووسعهم رزقه ففرق بين ما يسع العبد وما يسعه العبد ، وهذا هو اللائق برحمته وبره وإحسانه وحكمته وغناه ؛ لا قول من يقول إنه كلفهم ما لا قدرة لهم عليه البتة ولا يطيقونه ثم يعذبهم على ما لا يعملونه .

وتأمل قوله عز وجل : ﴿ إلا وسعها ﴾ كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه ؛ لا في ضيق وحرَج ومشقة ؛ فإن الوسع يقتضي ذلك ، فاقترضت الآية أنما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرَج بخلاف ما يقدر عليه الشخص فإنه قد يكون مقدوراً له ولكن فيه ضيق وحرَج عليه ، وأما وسعه الذي هو منه في سعة فهو دون مدى الطاقة والمجهود ؛ بل لنفسه فيه مجال وامتسع وذلك منافٍ للضيق والحرَج .

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(١)

(١) سورة الحج آية رقم ٧٨ .

والحرَج : مصدر بزنة فعل وأصله مجتمع الشجر ، وتصور منه ضيق ما بينهما فليل للضيق حرَج ، وللائم حرَج ، وقد حرَج صدره يحرَج كعلم يعلم . وقد ورد في القرآن على ثلاثة معان :

الأول بمعنى الشك والريب ﴿ فلا يكن في صدرك حرَج ﴾ قيل : هو نهى وقيل : دعاء ، وقيل : حكم ﴿ في أنفسهم حرَجاً مما قضيت ﴾ أي شكاً . الثاني : بمعنى الضيق ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرَج ﴾ ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرَج ﴾ يجعل صدره

بل ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (١)

قال سفيان بن عيينة في قوله ﴿إِلَّا وَسْعَهَا﴾ إلا يسرها لا عسرها ولم يكلفها طاقتها ، ولو كلفها طاقتها لبلغ المجهود .

فهذا فهم أئمة الإسلام وأين هذا من قول من قال إنه كلفهم ما لا يطيقونه البتة ولا قدرة لهم عليه ؟ ثم أخبر تعالى أن ثمرة هذا التكليف وغايته عائدة عليهم ، وأنه تعالى يتعالى عن انتفاعه بكسبهم وتضرره باكتسابهم بل لهم كسبهم ونفعه ، وعليهم اكتسابهم وضربه فلم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ؛ بل رحمة وإحساناً وتكرماً ، ولم ينههم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم بل حمية وحفظاً وصيانة وعافية .

وفيه أيضاً أن نفساً لا تعذب باكتساب غيرها ، ولا تثاب بكسبه ، ففيه معنى قوله : ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٢) ، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٣)

وفيه أيضاً إثبات كسب النفس المنافي للجبر وفيه أيضاً اجتماع الحكمة فيه ، فأما كسب خيراً أو اكتسب شراً ، لم يبطل اكتسابه كسبه ، كما يقول أهل الأحباط والتخليل ، فإنهم يقولون : إن عليه ما اكتسب وليس له ما كسب ، فالآية رد على جميع هذه الطوائف فتأمل كيف أتى فيما لها بالكسب الحاصل ، ولو لأدنى ملابسة ، وفيما عليها بالاكتساب الدال على الاهتمام

= ضيقاً حرجاً ، أي ضيقاً بكفره

الثالث : بمعنى الإثم ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ﴿أي إثم ، والمتحرج : المتجنب عن الحرج .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٥ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٣٩ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٦٤ .

والحرص والعمل : فإن اكتسب أبلغ من كسب (١) ، ففي ذلك تنبيه على غلبة الفضل للعدل والرحمة للغضب .

ثم لما كان ما كلفهم به عهداً منه ووصايا ، وأوامر تجب مراعاتها والمحافظة عليها ، وأن لا يخل بشيء منها ؛ ولكن غلبات الطباع البشرية تأتي إلا النسيان والخطأ والضعف والتقصير أرشدهم الله تعالى إلى أن يسألوه مسامحته إياهم في ذلك كله ، ورفع موجه عنهم بقولهم :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ (٢)

أي لا تكلفنا من الأصار التي يثقل حملها ما كلفته من قبلنا ؛ فإننا أضعف أجساداً وأقل احتمالاً .

ثم لما علموا أنهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم ، كما أنهم غير منفكين عما يأمرهم به وينهاهم عنه سألوه التخفيف في قضائه وقدره ، كما سألوه التخفيف في أمره ونهيه فقالوا :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَالًا طَاقَةً لَنَا بِهِ ﴾ (٣)

فهذا في القضاء والقدر والمصائب وقولهم :

(١) الكسب : يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ، والاكتساب لا يقال إلا فيما استفاده لنفسه ، وكل اكتساب كسب وليس كل كسب اكتساباً وقوله تعالى : ﴿ انفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ أي جمعتهم وفي الحديث « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » .
وقد ورد في القرآن في فعل الصالحات والسيئات . فمما استعمل في الصالحات قوله تعالى : ﴿ أوكسبت في إيمانها خيراً ﴾ . ومما استعمل في العكس ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ .
والاكتساب قد ورد فيهما أيضاً ففي الصالحات قوله تعالى ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ وقوله ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ (١)
في الأمر والنهي والتكليف فسألوه التخفيف في النوعين .

ثم سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء ؛ فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة ، ولا يصفو عين في الدنيا والآخرة إلا بها ، وعليها مدار السعادة والفلاح ، فالعفو متضمن لإسقاط حقه قبلهم ومسامحتهم به ، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم ؛ بخلاف العفو المجرد ؛ فإن العافي قد يعفو ولا يقبل على من عفا عنه ولا يرضى عنه ، فالعفو ترك محصن ، والمغفرة إحسان وفضل وجود والرحمة (٢) متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر ، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير ، والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته وإظهار دينه ، وإعلاء كلمته ، وقهر أعدائه ، وشفاء صدورهم منهم ، وإذهاب غيظ قلوبهم ، وحزازات نفوسهم ، وتوسلوا في خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذي لا مولى لهم سواه ، فهو ناصرهم ، وهاديهم ، وكافيهم ، ومعينهم ، ومجيب دعواتهم ، ومعبودهم .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) الرحمة : رقة تقتضي الإحسان للمرحوم ، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة ، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة ، نحو: رحم الله فلاناً وإذا وصف به الباري تعالى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وفضل ، ومن الأدمين رقة وعطف .

وقد ورد الرحمة في القرآن على وجوه :

الأول بمعنى منشور القرآن : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ .

الثاني : بمعنى سيد الرسل ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

الثالث : بمعنى توفيق الطاعة والإحسان ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ﴾ .

الرابع : بمعنى نبوة المرسلين : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ .

الخامس : بمعنى الإسلام والإيمان : ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ .

فلما تحققت قلوبهم بهذه المعارف وانقادت وذلت لعزة ربها ومولاها
وإجابتها جوارحهم أعطوا كلما سألوه من ذلك ، فلم يسألوا شيئاً منه إلا قال الله
تعالى : قد فعلت (١) ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ذلك .

فهذه كلمات قصيرة مختصرة في معرفة مقدار هذه الآيات العظيمة
الشان ، الجليلة المقدار ، التي خص الله بها رسوله محمداً ﷺ وأمته من كنز
تحت العرش .

وبعد ففيها من المعارف وحقائق العلوم ما تعجز عقول البشر عن
الإحاطة به ، والله المرغوب إليه أن لا يحرمنا الفهم في كتابه إنه رحيم ودود
(وقال رحمه الله)

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

فصل

(في فضل دعاء آخر سورة البقرة)

في الدعاء المذكور في آخر (سورة البقرة) وهو قوله :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى آخرها . قد ثبت في صحيح مسلم : « أنه قال قد فعلت » ^(١) وكذلك في صحيحه من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « أعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » ^(٢) وفي صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ » ^(٣) قال :

(١) الحديث رواه الامام مسلم - في كتاب الايمان ٥٧ - باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ٢٠٠ (١٢٦) حدثنا وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان مولى خالد قال : سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (البقرة آية ٢٨٤) قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ﷺ - قولوا سمعنا وأطعنا وأسلمنا . قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى ﴿ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا ﴾ قال : قد فعلت .

(٢) ورواه أيضاً الامام أحمد في المسند ٥ : ١٥١ بسنده عن المعرور بن سويد عن أبي ذر بلفظ قال رسول الله ﷺ - أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي .

(٣) سورة النجم آية رقم ١٦ .

فراش من ذهب ، قال : فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً ، أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن مات من أمته - لا يشرك بالله شيئاً - المقحّمات ^(١) .

قال بعض الناس إذا كان هذا الدعاء قد أجيب فطلب ما فيه من باب تحصيل الحاصل ، وهذا لا فائدة فيه ، فيكون هذا الدعاء عبادة محضة ليس المقصود به السؤال ، وهذا القول قد قاله طائفة في جميع الدعاء أنه إن كان المطلوب مقدراً فلا حاجة إلى سؤاله وطلبه ، وإن كان غير مقدّر لم ينفع الدعاء - دعوت أو لم تدع - فجعلوا الدعاء تعبداً محضاً ، كما قال ذلك طائفة أخرى في التوكل . وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع ، وذكرنا قول من جعل ذلك إمارة أو علامة بناء على أنه ليس في الوجود سبب يفعل به ، بل يقترن أحد الحادثين بالآخر ، قاله طائفة من القدرية النظار ، وأول من عرف عنه ذلك الجهم بن صفوان ومن وافقه ، وذكرنا أن « القول الثابت » هو الصواب وهو أن الدعاء والتوكل والعمل الصالح سبب في حصول المدعوبه من خير الدنيا والآخرة والمعاصي سبب ، وإن الحكم المعلق بالسبب قد يحتاج إلى وجود الشرط وانتقاء الموانع ، فإذا حصل ذلك حصل المسبب بلا ريب .

والمقصود هنا الكلام في الدعاء الذي قد علم أنه أجيب ، فقال بعض

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٧٦ باب في ذكر سورة المنتهى ٢٧٩ - (١٧٣) حدثنا أبو أسامة ، حدثنا مالك بن مغول ، وحدثنا ابن نمير ، وزهير بن حرب جميعاً عن عبد الله بن نمير وألفاظهم متقاربة قال ابن نمير ، حدثنا أبي حدثنا مالك بن مغول عن الزبير بن عدي ، عن طلحة عن مرة عن عبد الله . قال : لما أسرى برسول الله ﷺ - وذكره .

والمقحّمات : الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها ، والتقحم : الوقوع في المهالك . ومعنى الكلام من مات من هذه الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحّمات .

الناس هذا تعبد محصن لحصول المطلوب بدون دعائنا ، فلا يبقى سبباً ولا علامة وهذا ضعيف .

أما أولاً فإن العمل الذي لا مصلحة للعبد فيه لا يأمر الله به ، وهذا بناء على قول السلف : إن الله لم يخلق ولم يأمر إلا لحكمة ، كما لم يخلق ولم يأمر إلا لسبب . والذين ينكرون الأسباب والحكم يقولون بل يأمر بما لا منفعة فيه للعباد البتة وإن أطاعوه وفعلوا ما أمرهم به ، كما بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع . والمقصود أن كلما أمر الله به أمر به لحكمة ، وما نهي عنه نهي لحكمة ، وهذا مذهب أئمة الفقهاء قاطبة وسلف الأمة وأئمتها وعامتها فالتعبد المحض بحيث لا يكون فيه حكمة لم يقع ، نعم ! قد تكون الحكمة في الأمور به ، وقد تكون في الأمر ، وقد تكون في كليهما ، فمن الأمور به ، ما لو فعله العبد بدون الأمر حصل له منفعة : كالعدل ، والإحسان إلى الخلق وصلة الرحم ، وغير ذلك . فهذا إذا أمر به صار فيه « حكمتان » حكمة في نفسه ، وحكمة في الأمر فيبقى له حسن من جهة نفسه ومن جهة أمر الشارع ، وهذا هو الغالب على الشريعة ، وما أمر الشارع به بعد إن لم يكن إنما كانت حكمته لما أمر به . وكذلك ما نسخ زالت حكمته وصارت في بدله كالقبلة .

وإذا قدر أن الفعل ليست فيه حكمة أصلاً فهل يصير بنفس الأمر فيه حكمة الطاعة ؟ وهذا جائز عند من يقول بالتعبد المحصن وإن لم يقل بجواز الأمر لكل شيء : لكن يجعل من باب الابتلاء والامتحان ، فإذا فعل صار العبد به مطيعاً ، كنهيمهم عن الشرب إلا من اغترف غرفة بيده (١) .

(١) قال تعالى : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ سورة البقرة آية ٢٤٩ قال قتادة : النهر الذي ابتلاه الله به هو نهر بين الأردن وفلسطين - ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه مطيع فيما عدا ذلك ، ومن غلبته شهوته في الماء وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد =

والتحقيق أن الأمر الذي هو ابتلاء وامتحان يحصن عليه من غير منفعة في الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود ، وإن لم يفعله كإبراهيم لما أمر بذبح ابنه ^(١) ، وكحديث أقرع وأبرص وأعمى ^(٢) لما طلب منهم إعطاء ابن السبيل فامتنع الأبرص والأقرع فسلبا النعمة ، وأما الأعمى فبذل المطلوب ، فقليل له إمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك ، وهذا هو الحكمة الناشئة من نفس الأمر والنهي لا من نفس الفعل ، فقد يؤمر العبد وينهى وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له وبذله للمطلوب ، كما كان المطلوب من إبراهيم تقديم حب الله على حبه

= أخرى ، ورخص للمطيعين في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال . ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : حسب المرء لقيمات يقمن صلبه .

(١) قال تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين ونادياه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ . سورة الصافات الآيات ١٠٢ - ١٠٦ .

قال الشوكاني : البلاء والابتلاء الاختبار ، والمعنى : إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره الله في طاعته بذبح ولده ، وقيل المعنى : إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من الذبح وفداه بالكبش ، ويقال : أبلاه الله إبلاء وإبلاء إذا أنعم عليه والأول أولى ، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير والشر ومنه قوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ قال أبو زيد : هذا في البلاء الذي نزل به في أن يذبح ولده قال : وهذا من البلاء المكروه .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، ٥١ باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني اسرائيل ، ٣٤٦٤ - حدثنا همام ، حدثنا اسحاق بن عبد الله ، قال : حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع النبي - ﷺ - وحدثني محمد ، حدثنا عبد الله بن رجاء أخبرنا همام عن اسحاق بن عبد الله ، قال أخبرني عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة - رضي الله عنه - حدثه - وذكره .

ورواه الامام مسلم في كتاب الزهد والرفاق ١٠ (٢٩٦٤) حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا همام . حدثنا اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة ، أن أبا هريرة حدثه ، أنه سمع النبي - ﷺ - يقول وذكره .

لابنه حتى تتم خلته به قبل ذبح هذا المحبوب لله ، فلما أقدم عليه وقوى عزمه بإرادته لذلك تحقق بأن الله أحب إليه من الولد وغيره ، ولم يبق في قلبه محبوب يزاحم محبة الله .

وكذلك أصحاب طالوت ابتلوا بالامتناع من الشرب ليحصل من إيمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة ، والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر وأما رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة فالفعل في نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله .

وقد بين النبي ﷺ هذا بقوله في الحديث الذي في السنن « إنما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله » ^(١) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما ، فبين النبي ﷺ أن هذا له حكمة ، فكيف يقال لا حكمة بل هو تعبد وابتلاء محصن .

وأما فعل مأمور في الشرع ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا حكمة إلا مجرد الطاعة والمؤمنون يفعلونه فهذا لا أعرفه ، بل ما كان من هذا القبيل نسخ بعد العزم كما نسخ إيجاب الخمسين صلاة إلى خمس .

و« المعتزلة » تنكر الحكمة الناشئة من نفس الأمر ؛ ولهذا لم يجوزوا النسخ قبل التمكن ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي الحسن التميمي ^(٢) وبنوه على أصلهم ، وهو أن الأمر عندهم كاشف

(١) ورد الحديث في سنن الترمذي (كتاب الحج) والدارمي (كتاب المناسك) ورواه الامام أحمد ابن حنبل في المسند ٦ : ١٤١ (حلي) وانظر ما ذكره البخاري ٢ : ١٩٣ - ١٩٥ في فضل السعي بين الصفا والمروة .

(٢) هو عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث أبو الحسن التميمي فقيه حنبلي له اطلاع على مسائل الخلاف صنف كتاباً في الأصول والفرائض قال ابن الجوزي « قد تعصب عليه الخطيب يعني صاحب تاريخ بغداد وهذا شأنه في أصحاب أحمد توفي عام ٣٧١ هـ [راجع المتنظم ٧ : ١١٠ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤٦١]

عن حسن الفعل الثابت في نفسه لا مثبت لحسن الفعل ، وإن الأمر لا يكون إلا بحسن ، وغلطوا في المقدمتين فإن الأمر وإن كان كاشفاً عن حسن الفعل فالفعل بالأمر يصير له حسن آخر غير المحسن الأول ، وإذا كان مقصود الأمر الامتحان للطاعة فقد يأمر بما ليس بحسن في نفسه وينسخه قبل التمكن إذا حصل المقصود من طاعة المأمور وعزمه وانقياده ، وهذا موجود في أمر الله وأمر الناس بعضهم بعضاً .

والجهمية تنكر أن يكون في الفعل حكمة أصلاً في نفسه ولا في نفس الأمر بناء على أصلهم أنه لا يأمر لحكمة ، وعلى أن الأفعال بالنسبة إليه سواء ليس بعضها حسناً وبعضها قبيحاً ، وكلا الأصليين قد وافقهم عليه الأشعرية (١) ومن اتبعهم من الفقهاء ؛ كأصحاب الشافعي ومالك وأحمد وغيرهم ، وهما أصلاً مبتدعان فإن مذهب السلف والأئمة أن الله يخلق لحكمة ويأمر لحكمة ومذهب السلف والأئمة أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ويرضى ذلك ، ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان ؛ وإن كان قد شاء وجود ذلك وقد بسط هذا في موضع آخر . وقد قال تعالى :

﴿ اَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ (٢) فإن نفس السجود خضوع لله ولو فعله الإنسان لله مع عدم علمه أنه أمر به انتفع كالسحرة الذين سجدوا قبل الأمر بالسجود .

وكذلك قول العبد حط عنا خطايانا دعاء لله وخضوع ، وقد قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٣) وهذه الأفعال المدعوبة في آخر البقرة أمور مطلوبة للعباد .

(١) هم اتباع أبو الحسن الأشعري صاحب كتاب (مقالات الاسلاميين) وكتاب (الإبانة) .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٥٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

وقد أجيب بجواب آخر وهو أن الله تعالى إذا قدر أمراً فإنه يقدر أسبابه والدعاء من جملة أسبابه ، كما أنه لما قدر النصر يوم بدر وأخبر النبي ﷺ قبل وقوعه أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النبي ﷺ ودعاؤه ، وكذلك ما وعده به ربه من الوسيلة ^(١) ، وقد قضى بها له ، وقد أمر أمته بطلبها له ، وهو سبحانه قدرها بأسباب منها ما سيكون من الدعاء .

وعلى هذا فالداخل في السبب هو ما وقع من الدعاء المأمور به والله أعلم بذلك ، فيثيب هذا الداعي على ما فعله من الدعاء بجعله تمام السبب ، ولا يكون على هذا الدعاء سبباً في اختصاصه بشيء من ذلك ؛ بل في حصوله لمجموع الأمة ؛ لكن هو يثاب على الدعاء لكونه من جملة الأسباب ، وهذا لأن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يكفر عنه من الذنوب مثلها ، وإما أن يدفع عنه من البلاء مثلها ، قالوا يا رسول الله ! إذن نكثر ،

(١) قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً (٥٦) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً (٥٧) ﴾ قيل : نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير فهم المعنيون بقوله :

ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خالفوا من كان يدعونه في دينه فقال ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وقدم المعمول لأنه يفيد الحصر : يعني يبتغون إلى ربهم الوسيلة لا إلى غيره ، وأعظم الوسائل إلى الله تعالى التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وخلق الخلق لأجله ، ومن التوسل إليه التوسل بأسمائه وصفاته كما قال تعالى : ﴿ والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات كقوله : ﴿ - اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الخالق المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله : ﴿ سبحانه الله عما يشركون ﴾ .

قال : الله أكثر^(١) » فالداعي بهذا كالداعي بالوسيلة يحصل له من الأجر ما يخصه ، كالداعي للأمة ولأخيه الغائب ، ودعاؤه من أسباب الخير التي بها رحمة الأمة ، كما يثاب على سؤاله الوسيلة للنبي ﷺ بأن تحل عليه الشفاعة يوم القيامة .

وهنا « جواب ثالث » وهو أن كل من دعا بهذا الدعاء حصل له من المدعو المطلوب ما لا يحصل بدون المطلوب من الدعاء ، فيكون الدعاء به كدعائه بسائر مطالبه من المغفرة والرحمة ، وليس هو كدعاء الغائب للغائب ؛ فإن الملك يقول هناك : ولك بمثله ، فيدعوله الملك بمثل ما دعا به للغائب .

وهنا هو داع لنفسه وللمؤمنين .

وبيان هذا أن الشرع وإن كان قد استقر بموت النبي ﷺ ، وقد أخبر أن الله تجاوز لأمته عن الخطأ والنسيان^(٢) ، وقد أخبر أن الرسول يضع عن أمته إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وسأل ربه لأمته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم^(٣) فأعطاه ذلك ، لكن ثبوت هذا الحكم في حق آحاد

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في المسند ٣ : ١٨ (حلي) حدثنا أبو عامر حدثنا علي عن أبي المتوكل عن أبي سعيد أن النبي ﷺ - قال : وذكره

(٢) روى ابن ماجه في كتاب الطلاق ١٦ باب طلاق المكره والناس ٢٠٤٥ حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس - عن النبي ﷺ - قال : (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

في الزوائد : إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع . والظاهر أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن نمير في الطريق الثاني ، وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان يدلّس .

(٣) روى الامام أحمد في المسند ٥ : ٢٤٧ بسنده عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه قال : صلى رسول الله - ﷺ - صلاة فأحسن فيها القيام والخشوع والركوع والسجود قال : إنها صلاة رغب

الأمة قد لا يحصل إلا بطاعة الله ورسوله ، فإذا عصى الله ذلك الشخص العاصي عوقب عن ذلك بسلب هذه النعمة وإن كانت الشريعة لم تنسخ .

يبين هذا أن في هذا الدعاء سؤال الله بالعفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكفار ، ومعلوم أن هذا ليس حاصلاً لكل واحد من أفراد الأمة ، بل منهم من يدخل النار ، ومنهم من ينصر عليه الكفار ، ومنهم من يسلب الرزق لكونهم فرطوا في طاعة الله ورسوله فيسلمون ذلك بقدر ما فرطوا أو قصرُوا ، وقول الله : « قد فعلت » يقال فيه شيان :

(أحدهما) أنه قد فعل ذلك بالمؤمنين المذكورين في الآية ، والإيمان المطلق يتضمن طاعة الله ورسوله ، فمن لم يكن كذلك نقص إيمانه الواجب فيستحق من سلب هذه النعم بقدر النقص ، ويعوق الله عليه ملاذ ذلك ، ولم يستحق من الجزاء ما يستحق من قام بالإيمان الواجب (الثاني) أن يقال هذا الدعاء استجيب له في جملة الأمة ، ولا يلزم من ذلك ثبوته لكل فرد ، وكلا الأمرين صحيح ؛ فإن ثبوت هذا المطلوب لجملة الأمة حاصل ، ولولا ذلك لأهلكوا بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « سألت ربي لأمتي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » (١) . وقال : يا محمد : إني إذا قضيت قضاءً لم يرد (٢) .

= ورهب سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين وروى عني واحدة ، سألته أن لا يبعث على أمتي عدواً من غيرهم فيجتاحهم ، فأعطانيه ، وسألته أن لا يبعث عليهم سنة تغتالهم فأعطانيه وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فردها عليّ .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب الفتن ١٣ باب سؤال النبي - ﷺ - ثلاثاً في أمته - ٢٢٦٦ - حدثنا محمد بن بشار ، أخبرنا وهب بن جرير ، حدثنا أبي قال : سمعت النعمان بن راشد عن الزهري ، عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن خباب بن الأثر عن أبيه قال : صلى =

وكذلك في الصحيحين : « لما نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ (١)

قال النبي ﷺ أعوذ بوجهك
﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال أعوذ بوجهك
﴿ أَوْ يَلْسَنُكُمْ شَيْعًا وَيَذِقَ بَعْضُكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ ﴾

قال : هاتان أهون (٢) ، وهذا لأنه لا بد أن تقع الذنوب من هذه الأمة ولا بد أن يختلفوا ؛ فإن هذا من لوازم الطبع البشري ، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك .

ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتال والذنوب دليلاً على نقصها ؛ بل هي أفضل الأمم ، وهذا الواقع بينهم من لوازم البشرية وهو في غيرها أكثر وأعظم ، وخير غيرها أقل والخير فيها أكثر ، والشر فيها أقل ، فكل

= رسول الله - ﷺ - صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله - صليت صلاة لم تكن تصليتها قال أجل إنها صلاة رغبة ورهبة وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن سعد وابن عمر .
(٢) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب الفتن ٢٢٦٧ - حدثنا قتيبة أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال رسول الله - ﷺ - إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربتها وإن أمتي سيبلى ملكها ما زوى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال : « يا محمد إني قضيت قضاء فإنه لا يرد » . الخ .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٦٥
(٢) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن ، ومن سورة الأنعام ٥٠٦٠ ، حدثنا ابن أبي عمر ، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار ، سمع جابر بن عبد الله يقول لما نزلت هذه الآية وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام وفي الاعتصام ١١ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠٩ (حلي) .

خير في غيرها فهو فيها أعظم ، وكل شر فيها فهو في غيرها أعظم .

وأما حصول المطلوب للآحاد منها فلا يلزم حصوله لكل عاص ؛ لأنه لم يقم بالواجب ، ولكن قد يحصل للعاصي من ذلك بحسب ما معه من طاعة الله تعالى ، أما حصول المغفرة والعفو والرحمة بحسب الإيمان والطاعة فظاهر ؛ لأن هذا من الأحكام القدريّة الخلقية من جنس الوعد والوعيد وهذا يتنوع بتنوع الإيمان والعمل الصالح .

وأما دفع المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، ودفع الأضرار ، فإن هذا قد يشكل لأنه من باب الأحكام الشرعية احكام الأمر والنهي .

فيقال : الخطأ والنسيان المرفوع عن الأمة مرفوع عن عصاة الأمة : فإن العاصي لا يَأْتُم بالخطأ والنسيان ؛ فإنه إذا أكل ناسياً أتم صومه سواء كان مطيعاً في غير ذلك أو عاصياً ، فهذا هو الذي يشكل وعنه جوابان .

(أحدهما) أن الذنوب والمعاصي قد تكون سبباً لعدم العلم بالحنيفية السمحة فإن الإنسان قد يفعل شيئاً ناسياً أو مخطئاً ويكون لتقصيره في طاعة الله علماً وعملاً ، لا يعلم أن ذلك مرفوع عنه ؛ إما لجهله ، وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان ، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به ، كمن يبطل الصوم بالنسيان وآخرون بالخطأ ، وكذلك الإحرام ، وكذلك الكلام في الصلاة ، وكذلك إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أو مخطئاً ، فإذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وخفي ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة إلا هؤلاء فيفتونه بما يقتضي مؤاخذته بالخطأ والنسيان ، فلا يكون مقتضى هذا الدعاء حاصلاً في حقه لعدم العلم لا لنسخ الشريعة .

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع ، كقوله :

﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ؛ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ ^(١) وقال :
﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ^(٢) وقال :
﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ^(٣) وقال :
﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ ^(٤) وقال :
﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ^(٥)

وهذا كما أنه حرم على بني إسرائيل طيبات أحلت لهم لأجل ظلمهم وبغيهم فشرعة محمد لا تنسخ ولا تعاقب أمته كلها بهذا ، ولكن قد تعاقب ظلمتهم بهذا ، بأن يحرموا الطيبات ، أو بتحريم الطيبات : إما تحريماً كونياً بأن لا يوجد غيظهم وتهلك ثمارهم ، وتقطع الميرة عنهم ، أو أنهم لا يجدون لذة مأكلاً ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس ونحوه كما كانوا يجدونها قبل ذلك ، وتسلب عليهم الغصص وما ينقص ذلك ويعوقه ، ويجرعون غصص المال والولد والأهل ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٦) وقال :
﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟ ﴾

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٨٨ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ - ١١٠ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٠ .

(٥) سورة الصف آية رقم ٥ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٥٥ .

بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ وقال :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٢)

فيكون هذا كابتناء أهل السبت بالحيتان (٣) .

وأما أن يعاقبوا باعتقاد تحريم ما هو طيب حلال لخفاء تحليل الله ورسوله عندهم ، كما قد فعل ذلك كثير من الأمة اعتقدوا تحريم أشياء فروج عليهم بما يقعون فيه من الإيمان والطلاق ، وإن كان الله ورسوله لم يحرم ذلك ؛ لكن لما ظنوا أنها محرمة عليهم عوقبوا بحرمان العلم الذي يعلمون به الحل ، فصارت محرمة عليهم تحريماً كونياً ، وتحريماً شرعياً في ظاهر الأمر ؛ فإن المجتهد عليه أن يقول ما أدى إليه اجتهاده فإذا لم يؤد اجتهاده إلا إلى تحريم هذه الطيبات لعجزه عن معرفة الأدلة الدالة على الحل كان عجزه سبباً للتحريم في حق المقصرين في طاعة الله .

وكذلك اعتقدوا تحريم كثير من المعاملات التي يحتاجون إليها كضمان البساتين والمشاركات وغيرها ، وذلك لخفاء أدلة الشرع فثبت التحريم في حقهم بما ظنوه من الأدلة ، وهذا كما أن الإنسان يعاقب من يخفى عليه من الطعام الطيب والشراب الطيب ما هو موجود وهو مقدور عليه لو علمه ؛ لكن لا يعرف بذلك عقوبة له ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (٤) ، وقد

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٥٥ - ٥٦ .

(٢) سورة التغابن آية رقم ١٥ .

(٣) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَأَسْأَلُكُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . آية رقم ١٦٣ .

(٤) روى ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٩٠ حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان قال : قال رسول الله - ﷺ - لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها .
في الزوائد : سألت شيخنا أبا الفضل القرافي عن هذا الحديث . فقال : حسن .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ^(١) فهو سبحانه إنما ضمن الأشياء على وجهها واستقامتها للمتقين ، كما ضمن هذا للمتقين .

فتبين أن المقصرين في طاعته من الأمة قد يؤخذون بالخطأ والنسيان ومن غير نسخ بعد الرسول ، لعدم علمهم بما جاء به الرسول من التيسير ولعدم علم من عندهم من العلماء بذلك ؛ ولهذا يوجد كثير ممن لا يصلي [في السفر قصراً] يرى الفطر في السفر حراماً فيصوم في السفر مع المشقة العظيمة عليه ، وهذا عقوبة له لتقصيره في الطاعة ؛ لكنه مما يكفر الله به من خطايه ما يكفره ، كما يكفر خطايا المؤمنين بسائر مصائب الدنيا .

وكذلك منهم من يعتقد الترييع في السفر واجباً فيربع فيبتلي بذلك لتقصيره في الطاعة ، ومنهم من يعتقد تحريم أمور كثيرة من المباحات التي بعضها مباح بالاتفاق ، وبعضها متنازع فيه ؛ لكن الرسول لم يحرمه ؛ فهؤلاء الذين اعتقدوا وجوب ما لم يوجبه الله ورسوله ، وتحريم ما لم يحرمه حمل عليهم إصرأ ، ولم توضع عنهم جميع الأصار والأغلال وإن كان الرسول قد وضعها ، لكنهم لم يعلموها وقد يتلون بمطاع يلزمهم ذلك فيكون آصاراً وأغلالاً من جهة مطاعهم : مثل حاكم ، ومُفَتٍ ، وناظر وقف ، وأمير ينسب ذلك إلى الشرع ؛ لاعتقاده الفاسد أن ذلك من الشرع ، ويكون عدم علم مطاعهم تيسير الله عليهم عقوبة في حقهم لذنوبهم ، كما لو قدر أنه سار بهم في طريق يضرهم ، وعدل بهم عن طريق فيه الماء والمرعى لجهله ، لا لتعمده مضرتهم ، أو أقام بهم في بلد غالي الأسعار مع إمكان المقام ببلد آخر .

وهذا لأن الناس كما قد يتلون بمطاع يظلمهم ويقصد ظلمهم يتلون أيضاً بمطاع يجهل مصلحتهم الشرعية والكونية ، فيكون جهل هذا من أسباب

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣ .

عقوبتهم ، كما أن ظلم ذلك من أسباب مضرتهم ، فهؤلاء لم ترفع عنهم
الآصار والأغلال لذنوبهم ومعاصيهم ، وإن كان الرسول ليس في شرعه آصار
وأغلال ، فلهذا تسلط عليهم حكام الجور والظلم ، وتساق إليهم الأعداء ،
وتقاد بسلاسل القهر والقدر ، وذلك من الآصار والأغلال التي لم ترفع عنهم ،
مع عقوبات لا تحصى ؛ وذلك لضعف الطاعة في قلوبهم وتمكن المعاصي
وحب الشهوات فيها ، فإذا قالوا :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ ^(١)
دخل فيه هذا .

وأما قوله : ﴿ وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ فعلى قولين : قيل : هو
من باب التحميل القدري ، لا من باب التكليف الشرعي ، أي : لا تبتلينا
بمصائب لا نطيق حملها ، كما يبتلي الإنسان بفقر لا يطيقه ، أو مرض لا
يطيقه ، أو حدث ، أو خوف ، أو حب أو عشق لا يطيقه ، ويكون سبب ذلك
ذنوبه .

وهذا مما يبين أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقاً .

وقوله : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ^(٢) و ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ^(٣) قول حق ، وقال تعالى في قصة قوم
لوط :

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ^(٤) فما من أحد يبتلي

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٣) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ وقد جاءت في المطبوعة محرفة حيث ذكرت (من) الأولى بدون
(الفاء) .

(٤) سورة الذاريات رقم ٣٧ .

بجنس عملهم إلا ناله شيء من العذاب الأليم ، حتى تعتمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الإنسان ، وإن قويت حتى صارت غراماً وعشقاً زاد العذاب الأليم ، سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه ؛ فإن كان عاجزاً فهو في عذاب أليم من خوف فراقه ، ومن السعي في تأليفه وأسباب رضاه ، فإن نزل به الموت أو افتقر تضاعف عليه العذاب ، وإن صار إلى غيره استبدلاً به أو مشاركة قوي عذابه ، فإن هذا الجنس يحصل فيه من العذاب ما لا يحصل في عشق البغايا وما يحصل مثله في الحلال ، وإن حصل في الحلال نوع عذاب كان أخف من نظيره وكان ذلك سبب ذنوب أخرى . فإذا دعى الإنسان بهذا الدعاء يخص نفسه ويعم المسلمين فله من ذلك أعظم نصيب ، كيف لا وقد قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة ما قرأ بهما أحد في ليلة إلا كفته » ^(١) وكيف لا تكفيانه وما دعا به من ذلك لم يحصل له إلا ما حصل لسائر المؤمنين الذين لم يقرأوها فإن الداعي بهذا الدعاء له منه نصيب يخصصه كسائر الأدعية . ومما يبين ذلك أن الصحابة إنما استجيب لهم هذا الدعاء لما التزموا الطاعة لله مطلقاً بقولهم : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ثم أنزل هذا الدعاء فدعوا به فاستجيب لهم .

ولهذا كانوا في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله ﷺ وكانوا فيها على عهد أبي بكر خيراً مما كانوا فيها على عهد عمر ، فلما كانوا في زمن

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٨٣ باب ما جاء فيما يرجى أن يكفي من قيام الليل ١٣٦٨ - حدثنا حفص بن غياث وأسابط بن محمد قالاً حدثنا الأعمش عن ابراهيم ، عن عبد الرحمن بن يزيد عن علقمة ، عن أبي مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . قال حفص : في حديثه : قال عبد الرحمن ، فقلت أبا مسعود وهو يطوف فحدثني به . وأخرجه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٤٣ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، والحث على قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة ٢٥٦ بسنده عن أبي مسعود الأنصاري ، وأخرجه الامام البخاري في المغازي ١٢ ، وفضائل القرآن ١٠ ، ٢٧ ، ٣٤ ، وأبو داود في رمضان ٩ ، والترمذي في ثواب القرآن ٤ والدارمي في الصلاة ١٧٠ وفضائل القرآن ١٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ . (حلي) .

عمر حدث من بعضهم ذنوب أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم كمنعهم من متعة الحج ، وكإيقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة ، وكتغليظ العقوبة في الخمر ، وكان أطوعهم لله وأزهدهم مثل أبي عبيدة ^(١) ينقاد له عمر ما لا ينقاد لغيره ، وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها ، حتى تنازعوا فيها وهم مؤتلفون متحابون ، كل منهم يقر الآخر على اجتهاده .

فلما كان في آخر خلافة « عثمان » زاد التغير والتوسع في الدنيا ، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر ، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان فصاروا في فتنة عظيمة قد قال تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ^(٢) أي هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط ؛ بل تصيب الظالم والساکت عن نهيه عن الظلم كما قال النبي ﷺ « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » ^(٣) .

وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات ، وصاروا يختصمون في متعة الحج ونحوها مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر ، فطائفة تمنع

(١) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي الأمير القائد فاتح الديار الشامية ، أحد العشرة المبشرين بالجنة قال ابن عساکر : داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة توفي عام ١٨ هـ - [راجع طبقات ، والاصابة ، وحلية الأولياء ١ : ١٠٠ والبدء والتاريخ ٥ : ٨٧ وابن عساکر ٧ : ١٥٧] .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢٠ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠٥ حدثنا عبد الله بن نمير وأبو أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإننا سمعنا رسول الله - ﷺ - يقول ﴿ إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه ﴾ قال أبو أسامة : مرة أخرى : فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول وذكره .

المتعة مطلقاً كابن الزبير ، وطائفة تمنع الفسخ كبنى أمية وأكثر الناس ، وصاروا يعاقبون من تمتع ، وطائفة أخرى توجب المتعة ، وكل منهم لا يقصد مخالفة الرسول ، بل خفي عليهم العلم ، وكان ذلك سببه ما حدث من الذنوب ، كما قال ﷺ : « خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحما رجلان فرفعت ، ولعل ذلك أن يكون خيراً لكم » أي قد يكون إخفاؤها خيراً لكم لتجتهدوا في ليالي العشر كلها ؛ فإنه قد يكون إخفاء بعض الأمور رحمة لبعض الناس .

والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض إلى شر عظيم من خفاء الحكم ولهذا صنف رجل كتاباً سماه « كتاب الاختلاف » فقال أحمد : سمه « كتاب السعة » وإن الحق في نفس الأمر واحد ، وقد يكون من رحمة الله ببعض الناس خفاؤه لما في ظهوره من الشدة عليه ، ويكون من باب قوله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ (١)

وهكذا ما يوجد في الأسواق من الطعام والثياب قد يكون في نفس الأمر مغصوباً ، فإذا لم يعلم الإنسان بذلك كان كله له حلالاً لا إثم عليه فيه بحال ؛ بخلاف ما إذا علم ، فخفاء العلم بما يوجب الشدة قد يكون رحمة كما أن خفاء العلم بما يوجب الرخصة قد يكون عقوبة ، كما أن رفع الشك قد يكون رحمة وقد يكون عقوبة . والرخصة رحمة ، وقد يكون مكروه النفس أنفع كما في الجهاد :

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ (٢) .

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠١ وتكملة الآية ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلِ الْقُرْآنُ تَبْدِلُكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

والمقصود هنا أن من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه بل يكون سبباً لنسيان ما علم ، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك .

والله سبحانه كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما :

﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغْداً حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (١) .

فكل عداوة كانت في ذريتهما وبلاء ومكروه وتكون إلى قيام الساعة وفي النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى .

فالإنسان إذا كان مقيماً على طاعة الله باطناً وظاهراً كان في نعيم الإيمان والعلم وارد عليه من جهاته ، وهو في جنة الدنيا ، كما في الحديث :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر » (٢) . وقال : (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٥ ، وجاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث خلط بين الآية في سورة البقرة رقم ٣٥ والآية في سورة الأعراف رقم ١٩ حيث أن الأولى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغْداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ والثانية : ﴿ فَكَلَّا مِنْهَا شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوْسَوْسَ لَهَا الشَّيْطَانُ ﴾

(٢) رواه أحمد والترمذي والبيهقي عن أنس . قال في الجامع الكبير وهو حسن غريب ، وعند الترمذي عن أبي هريرة إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة . ؟ قال : المساجد ، قيل : وما الرتع . ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ورواه الطبراني عن ابن عباس بلفظ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قيل يا رسول الله وما رياض الجنة . ؟ قال : مجالس العلم ، وقال في الجامع الكبير ورواه ابن شاهين عن أبي هريرة بلفظ : إذا مررتم برياض الجنة فاجلسوا إليهم قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال أهل الذكر » الحديث رواه البخاري في ٢٠ كتاب الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٥ باب فضل ما

الجنة) . فإنه كان يكون هنا في رياض العلم والإيمان .

وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى فلا يزال في علو ما دام كذلك ، فإذا أذنب هبط قلبه إلى أسفل ، فلا يزال في هبوط ما دام كذلك ، ووقعت بينه وبين أمثاله عداوة ، فإن أراد الله به خيراً ثاب وعمل في حال هبوط قلبه إلى أن يستقيم فيصعد قلبه ، قال تعالى :

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) فتقوى القلوب هي التي تنال الله كما قال :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ^(٢) فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحم والدماء فإنها لا تنال الله .

و « الباطنية » ^(٣) المنكرون لخلق العالم في ستة أيام ، ومعاد الأبدان الذين يجعلون للقرآن تأويلاً يوافق قولهم ، عندهم مأثم « جنة » إلا لذة ما تتصف بها النفس من العلم والأخلاق الحميدة ، ومأثم « نار » إلا ألم ما تتصف به النفس من الجهل والأخلاق الذميمة السيئة ، فنار النفوس ألمها القائم بها كحسراتها لفوات العلم ، أو لفوات الدنيا المحبوبة لها وحجبها إنما هي ذنوبها .

وهذا الكلام مما يذكره أبو حامد في « المظنون » به على غير أهله ^(٤) ،

= بين القبر والمنبر ، ومسلم في ١٥ - كتاب الحج ٩٢ باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة حديث ٥٠١ ورواه صاحب الموطأ في كتاب القبلة ٥ باب ما جاء في مسجد النبي - ﷺ ١٠ ، ١١ عن مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر عن عباد بن تميم ، عن عبد الله بن زيد المازني وذكره .

(١) سورة الحج آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٣) كتب الامام الغزالي كتاباً مستفيضاً سماه (فضائح الباطنية)

(٤) قال السبكي في طبقاته ذكر ابن الصلاح أنه منسوب الى أبي حامد الغزالي وقال : معاذ الله أن =

لكن قد يقول هذا : ليس هو عذاب القبر المذكور في الأجسام ؛ بل ذلك أمر آخر مما بينه أهل السنة ، ولا نعيم عندهم إلا ما يقوم بالنفس من هذا ، ولهذا ليس عندهم نعيم منفصل عن النفس ولا عذاب .

وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً ؛ فإن الناس في الدنيا يثابون ويعاقبون بأمور منفصلة عنهم ، فكيف في دار الجزاء ولكن الذي أثبتوه من هذا وهذا [منه] ما هو حق ، ولكن الباطل جحدهم ما جحدوه مما أخبر الله به ورسوله ، فهؤلاء عندهم أن آدم لم يكن إلا في جنة العلم وهبوطه انخفاض درجته في العلم ، وهذا كذب ، ولكن ما أثبتوه من الحق حق ، وقصة آدم تدل عليه بطريق الاعتبار الذي تسميه الصوفية الإشارة ؛ لا أنه هو المراد بالآية ؛ لكن قد دل عليه آيات أخر تدل على أن من كذب بالحق عوقب بأن يطبع على قلبه فلا يفهم العلم أو لا يفهم المراد منه ، وأنه يسلط عليه عدوه ويجد ذلاً ، كما قال تعالى عن اليهود :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ (١)

﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢)

= يكون له وبين سبب كونه مختلفاً موضوعاً عليه - والأمر كما قال ، وقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات ، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟ انتهى .

أوله : الحمد لله على موجب ما هدانا إلى حمده الخ وهو أجوبة مسائل تسع شغل عنها الغزالي ، وفي التاسعة فصول كثيرة قال : يشمل على أربعة أركان في معرفة الربوبية ، الثاني في معرفة الملائكة ، الثالث : في حقائق المعجزات ، الرابع : فيما بعد الموت . وصنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي كتاباً في رده وتوفي سنة ٧٥٠ هـ [راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٧١٣] .

(١) سورة البقرة آية رقم ٦١ .

(٢) هذا جزء من سورة البقرة آية رقم ٦١ وتكملة الآية ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

ولا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات ، و« اللذة » التي تبقى بعد الموت وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له ، وهو الإيمان به ، وهم يجعلون ذلك الوجود المطلق .

وأيضاً فنفس العلم به إن لم يكن معه حب له وعبادة له بل كان مع حب لغيره كائناً من كان فإن عذاب هذا قد يكون من أعظم العذاب في الدنيا والآخرة ، وهم لا يجعلون كمال اللذة إلا في نفس العلم .

و« أيضاً » فاقصّارهم على اللذة العقلية خطأ ، والنصارى زادوا عليهم السمع والشم ، فقالوا : يتمتعون بالأرواح المتعشقة والنفحات المطربة ولم يثبتوا هم ولا اليهود الأكل والشرب ولا النكاح - وهي لذة اللمس - والمسلمون أثبتوا جميع أنواع اللذات : سمعاً ، وبصراً وشمّاً وذوقاً ولمساً ، للروح والبدن جميعاً وكان هذا هو الكمال ؛ لا ما يثبته أهل الكتاب ومن هو شر منهم من الفلاسفة الباطنية ، وأعظم لذات الآخرة لذة النظر إلى الله سبحانه ، كما في الحديث الصحيح : « فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه »^(١) وهو ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا ، فأطيب ما في الدنيا معرفته ، وأطيب ما في الآخرة النظر إليه سبحانه ؛ ولهذا كان التجلي يوم الجمعة في الآخرة على مقدار صلاة الجمعة في الدنيا .

= وكانوا يعتدون ﴿ .

(١) روى ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٧ - حدثنا حجاج حدثنا حماد عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب قال : تلا رسول الله - ﷺ هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [سورة يونس آية ٢٦] وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى منادى : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون وما هو . ؟ ألم يثقل الله موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه . فوالله . ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر يعني اليه ولا أقر لأعينهم .

وأبو حامد يذكر في كتبه هو وأمثاله « الرؤية » وأنها أفضل أنواع النعيم ، ويذكر كشف الحجب ، وأنهم يرون وجه الله ^(١) ، ولكن هذا كله يريد به ما تقوله الجهمية والفلاسفة ؛ فإن « الرؤية » عندهم ليست إلا العلم ، لكن كما أن الإنسان قد يرى الشيء بعينه ، وقد يمثل له خياله إذا غاب عنه فهكذا العلم ، ففي الدنيا ليس عندهم من العلم إلا مثال كالخيال في الحساب ، وفي الآخرة يعلمونه بلا مثال ، وهو عندهم « وجود لا داخل العالم ولا خارجه » و« كشف الحجاب » عندهم رفع المانع الذي في الإنسان من الرؤية ، وهو أمر عديمي فحقيقته جعل العبد عالماً ، وهذا كله مما تقول به الفلاسفة والباطنية وهؤلاء إنما يأمررون بالزهد في الدنيا لينقطع تعلق النفس بها وقت [فراق] النفس ، فلا تبقى النفس مفارقة لشيء يحبه ؛ لكن أبو حامد لا يبيح محظورات الشرع قط ، بل يقول قتل واحد من هؤلاء خير من قتل عدد كثير من الكفار . وأما هؤلاء فالفواصل عندهم إلى العلم المطلوب قد يبيحون له محظورات الشرائع حتى الفواحش والخمر وغيرها إذا كانوا ممن يعتقد تحريم الخمر ، وإلا فغالب هؤلاء لا يوجبون شريعة الإسلام ؛ بل يجوزون التهود والتنصر وكل من كان من هؤلاء واصلاً إلى علمهم فهو سعيد .

وهكذا تقول الاتحادية منهم : كابن سبعين ^(٢) ؛ وابن هود ^(٣) ،

(١) روى ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٥ - بسنده عن أبي موسى . قال : قام فينا رسول الله - ﷺ - بخمس كلمات فقال إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

(٢) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الأشبيلي المرسي من القائلين بوحدة الوجود . صنف كتاب « الحروف الوضعية في الصور الفلكية » وشرح كتاب إدريس عليه السلام الذي وضعه في علم الحرف ، وكفره كثير من الناس ، له مريدون وأتباع يعرفون بالسبعينية . قال الذهبي : اشتهر عن ابن سبعين أنه قال : لقد تحجر ابن أمانة واسعاً بقوله « لا نبي بعد » مات عام ٦٦٩ هـ [راجع جلاء العينين ٥١ وفوات الوفيات ١ : ٢٤٧ ونفح =

والتلمساني^(١) ، ونحوهم ، ويدخلون مع النصارى بيعهم ، ويصلون معهم إلى الشرق ، ويشربون معهم ومع اليهود الخمر ، ويميلون إلى دين النصارى أكثر من دين المسلمين لما فيه من إباحة المحظورات ؛ ولأنهم أقرب إلى الاتحاد والحلول ، ولأنهم أجهل فيقبلون ما يقولونه أعظم من قبولهم لقول المسلمين ، وعلماء النصارى جهال إذا كان فيهم متفلسف عظموه ، وهؤلاء يتفلسفون .

والواحد من هؤلاء يفرح إذا قيل له لست بمسلم ؛ ويحكي عن نفسه - أنه دخل إلى بعض ديارات النصارى ليأخذ منهم ما يأكله هو ورفيقه ، فأخذ بعضهم يتكلم في المسلمين ، ويقول : يقولون : كذا وكذا ، فقال له آخر :

= الطيب ١ : ٤٢١] .

(٣) هو الحسن بن عضد الدولة على أخى المتوكل على الله ملك الأندلس بن يوسف بن هود الجذامي المرسي أبو علي . فيلسوف متصوف مولده في مرسية عام ٦٣٣ وكان أبوه نائب السلطنة فيها . تصوف واشتغل بالطب والحكمة . توفي بدمشق عام ٦٩٩ هـ كان يصييه ذهول ، ويرى اليهود كتاب « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون ، وجاءه عماد الدين الواسطي (من علماء عصره) فقال له : أريد أن تسلكني فقال : من أي الطرق . ؟ من الموسوية ، أو العيسوية ، أو المحمدية . ؟ وله شعر غريب منه .

علم	قوم	بي	جهل	إن	شأنى	لأجل
أنا	عبد	أنا	رب	أنا	عز	أنا
أنا	دنيا	أنا	أخرى	أنا	بعض	أنا
أنا	معشوق	لذاتي	لست	عنه	الدهر	أسلو

وصفه الذهبي بالإلحاد والضلالة ، وقال ابن أبي جحلة : ابن هود ، شيخ اليهود عقدوا له العقود على ابنة العنقود . [راجع شذرات الذهب ٥ : ٤٤٦ وفي فوات الوفيات ١ : ١٢٧ مات سنة ٦٩٧ هـ] .

(١) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين ، صوفي من مشاهيرهم أصله من الأندلس ، أقام بفاس وسكن (بجاية) وكثر أتباعه توفي بتلمسان وقد قارب الثمانين أو تجاوزها عام ٥٩٤ هـ [راجع شذرات الذهب ٤ : ٣٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٣٩٩] .

لا تتكلم في المسلمين فهذا واحد منهم فقال ذلك المتكلم هذا وجهه وجه مسلم أي ليس هذا بمسلم ، فصار يحكيها المارديني ^(١) أن النصراني قال عنه ليس هذا بمسلم ، ويفرح بقول النصراني ويصدقه فيما يقول ، أي ليس هذا بمسلم . والمتفلسفة يصرحون بهذا ، يقولون : قلنا : كذا وكذا ، وقال المسلمون : كذا وكذا ، وربما قالوا قلنا : كذا وقال المليون : أي أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وكتبهم مشحونة بهذا ، ولا بد لأحدهم عند أهل الملل أن يكون على دينهم .

لكن دخولهم في هذا كدخولهم في سياسة الملوك ، كما كانوا مع الترك الكفار ، وكانوا مع « هولاكو » ملك المغول الكفار ، ومع « القان » الذي هو أكبر منه خليفة « جنكيزخان » ببلاد الخطا ، وانتساب الواحد منهم هناك إلى الإسلام انتساب إلى إسلام يرضاه ذلك الملك بحسب غرضه ، كما كان « النصير الطوسي » ^(٢) وأمثاله مع « هولاكو » ملك الكفار ، وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها ، وأخذ كتب الناس : ملكها ووقفها ، وأخذ منها ما يتعلق بغرضه ، وأفسد الباقي ، وبنى الرصد ووضعها

(١) هناك المارديني الأب : وهو : عثمان بن ابراهيم بن مصطفى المارديني ويقال له ابن التركماني فقيه من العارفين بالتفسير انتهت إليه رئاسة الحنفية بالديار المصرية وتوفي عام ٧٣١ هـ .
وهناك المارديني الابن : وهو : علي بن عثمان بن ابراهيم بن مصطفى المارديني ، أبو الحسن . قاض حنفي ، من علماء الحديث واللغة من أهل مصر ، له كتب منها المنتخب في علوم الحديث « والمؤتلف والمختلف » وكتاب « الضعفاء والمتروكين » و « الجواهر النقي في الرد على البيهقي وتخريج أحاديث الهداية توفي عام ٧٥٠ هـ » [راجع الفوائد البهية ١٢٣ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٢٤٦] .

(٢) محمد بن محمد بن الحسن ، أبو جعفر نصير الدين الطوسي ، فيلسوف علت منزلته عند « هولاكو » فكان يطيعه فيما يشير به عليه ، ولد بطوس (قرب نيسابور) عام ٥٩٧ هـ وابتنى بمراغة قبة ، واتخذ خزانة ملاءها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، من كتبه (ترييع الدائرة) و « تحرير أصول أقليدس » و « تلخيص المحصل » مختصر المحصل للفخر الرازي و « حل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا » وغير ذلك توفي عام ٦٧٢ هـ [راجع فوات الوفيات ٢ : ١٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٢٦١] .

فيه ، وكان يعطي من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والطونية ، ويعطي في رصده الفيلسوف والمنجم والطبيب اضعاف ما يعطي الفقيه ، ويشرب هو وأصحابه الخمر في شهر رمضان ولا يصلون .

وكذلك كان بالشام ومصر طائفة مع تصوفهم وتألههم وتزهدهم يشرب أحدهم الخمر في نهار رمضان ، وتارة يصلون وتارة لا يصلون ، فإنهم لا يدينون بإيجاب واجبات الإسلام وتحريم محرماته عليهم ؛ بل يقولون : هذا للعامة والأنبياء ، وأما مثلنا فلا يحتاج إلى الأنبياء ، ويحكمون عن بعض الفلاسفة أنه قيل له : قد بعث نبي فقال : لو كان الناس كلهم مثلي ما احتاجوا إلى نبي ، ومثل هذه الحكاية يحكيها من يكون رئيس الأطباء ولا يعرف الزندقة ولا يدري مضمون هذه الكلمة ما هو لجهله بالنبوات ، وقيل لرئيسهم الأكبر في زمن موسى عليه السلام ألا تأتيه فتأخذ عنه ؟ فقال : نحن قوم مهديون فلا نحتاج إلى من يهدينا .

وأما ما ذكره من حصول اللذة في القلب والنعيم بالإيمان بالله والمعرفة به فهو حق ، وهو سبب دخول الجنة ، وقد قال ﷺ : « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين » (١) وما ذاك إلا لأنه في شهر رمضان تنبعث القلوب إلى الخير والأعمال الصالحة التي بها وبسببها تفتح أبواب الجنة ، ويمتنع من الشرور التي بها تفتح أبواب النار ، وتصفد الشياطين فلا يتمكنون أن يعملوا ما يعملونه في الإفطار ، فإن المصنف هو المقيد لأنهم إنما يتمكنون من بني آدم بسبب الشهوات ، فإذا كفوا عن الشهوات صفدت الشياطين .

(١) الحديث : رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وله طرق وألفاظ أخر منها ما رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي وابن حبان عن أبي هريرة : إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النيران فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادي مناد كل ليلة يا باغي الخير أقبل ، يا باغي الشر أقصر ، والله عتقاء من النار ، وذلك كل ليلة . [راجع كشف الخفا : ١ : ٩٢] .

والجنة والنار التي تفتح وتغلق غير ما في القلوب ؛ ولكن ما في القلوب
سبب له ودليل عليه وأثر من آثاره ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ
نَارًا ﴾ ^(١) وقال ﷺ : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في
بطنه نار جهنم » ^(٢) . فقيل : يأكلون ويشربون ما سيصير ناراً ، وقيل : هو
سبب النار والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) سورة النساء آية رقم ١٠ .

(٢) الحديث رواه البخاري ٧٤ - كتاب الأشربة ٢٨ باب آنية الفضة ٥٦٣٤ - حدثني مالك بن أنس
عن نافع عن زيد بن عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن أم
سلمة زوج النبي - ﷺ - وذكره . ورواه ابن ماجه في كتاب الأشربة ١٧ باب الشرب في آنية
الفضة بسنده عن أم سلمة زوج النبي - ﷺ - وذكره ، ورواه الامام مالك في كتاب صفة النبي
ﷺ - ٧ باب النهي عن الشرب في آنية الفضة والنفخ في الشراب ١١ بالسند السابق ، ومسلم
في ٣٧ كتاب اللباس والزينة ١ باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة ، حديث ^(١) .

تفسير سورة آل عمران

- ١ - فصل في معنى قوله : شهد الله
- ٢ - فصل في قوله : قائماً بالقسط .



وقال شيخ الاسلام

أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدّس الله روحه ونور ضريحه

فصل

في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (١) :

قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ ﴿ شهد ﴾ فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة : أي حكم وقضى . وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج : أي بين . وقالت طائفة : أي أعلم . وكذلك قالت طائفة معنى شهادة الله الإخبار والإعلام ، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار ، وعن ابن عباس أنه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ، ولم يكن سماء ولا أرض ، ولا بر ولا بحر فقال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة ؛ وذلك أن الشهادة (٢) تتضمن كلام الشاهد

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٢) الشهادة قول صادر عن علم بمشاهدة بصر أو بصيرة وقوله تعالى ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ يعني بمشاهدة البصيرة ثم قال ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ تنبيهاً أن الشهادة تكون عن شهود . وشهدت يقال على ضربين أحدهما جار مجرى العلم وبلغظه تقام الشهادة ، يقال : أشهد بكذا ولا يرضى منه الشاهد أن يقال : أعلم بل يحتاج أن يقول أشهد والثاني يجري مجرى القسم فيقول : أشهد بالله أن زيدا منطلق .

وقوله وخبره عما شهد به ، وهذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقول ويذكره ، وإن لم يكن معلماً به لغيره ، ولا مخبراً به لسواه ، فهذه أول مراتب الشهادة .

ثم قد يخبره ويعلمه بذلك ، فتكون الشهادة إعلماً لغيره وإخباراً له ، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به ، سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ؟ ﴾ (١)
سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ﴾ (٢) الآية .
ففي كلا الموضعين إنما أخبروا خبراً مجرداً ، وقد قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ (٣)

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « عدلت شهادة الزور الإشرار بالله » (٤) قالها مرتين أو ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية وإنما في الآية : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٥) وهذا يعم كل قول زور بأي لفظ كان ، وعلى أي صفة وجد ، فلا يقوله العبد ولا يحضره ولا يسمعه من قول غيره . ﴿ الزور ﴾ هو الباطل الذي قد أزور عن الحق والاستقامة أي تحول ، وقد سماه النبي ﷺ شهادة الزور ، وقد قال في المظاهرين من نسائهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنْ

(١) سور الزخرف آية رقم ١٩ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٨١ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٠ - ٣١ .

(٤) الحديث عند ابن ماجه في كتاب الأحكام ٣٢ باب شهادة الزور ٢٣٧٢ حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا سفيان العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي ، عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى النبي ﷺ - الصبح فلما انصرف قام قائماً . فقال : وذكره . وأخرجه أبو داود في الأقضية ١٥ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٧٨ - ٢٢٣ ، (حلي) .
(٥) سورة الحج آية رقم ٣٠ وجاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت بدون (الواو) .

الْقَوْلُ وَزُوراً ﴿١﴾ .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : « شهد عندي رجال مرضيون - وأرضاهم عندي عمر - أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس ، وهؤلاء حدثوه أنه نهى عن ذلك ؛ ولم يقولوا : نشهد عندك ، فإن الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ في التحديث ، وإن كان أحدهم قد ينطق به ، ومنه قولهم في ماعز ^(٢) ، فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه النبي ﷺ ، ولفظه كان إقراراً ولم يقل : أشهد . ومنه قوله تعالى :

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٣) وشهادة المرء على نفسه هي إقراره ، وهذا لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء ، وإنما تنازعوا في الشهادة عند الحكام هل يشترط فيها لفظ أشهد ؟ على قولين في مذهب أحمد ، وكلام أحمد يقتضي أنه لا يعتبر ذلك ، وكذلك مذهب مالك ، و« الثاني » يشترط ذلك كما يحكى عن مذهب أبي حنيفة والشافعي .

و« المقصود هنا » الآية ، فالشهادة تضمنت مرتبتين :

« إحداهما » تكلم الشاهد وقوله وذكره لما شهد في نفسه به .

و« الثاني » إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به ؛ فمن قال : حكم وقضى فهذا من باب اللزام ، فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر .

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢ .

(٢) أخرج الامام مسلم وأبو داود عن بريدة - رضي الله عنه قال : إن ماعز بن مالك الأسلمي أتى النبي ﷺ - فقال : يا رسول الله : إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني زنيت فرده الثانية . الخ [راجع صحيح الامام مسلم ١٦٩٤ في الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا ، وأبو داود رقم ٤٤٣٢ ، ٤٤٣٣ في الحدود باب رجم ماعز بن مالك] .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٣٥ .

ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم ،
 فقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ^(١) وقال :
 ﴿ أَنْ أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ ^(٢) وقال :
 ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ^(٣)
 الآية . وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فإِيَّايَ
 فَارْهَبُونِ ﴾ ^(٤) وقال :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٥) ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ ﴾ ^(٦) .

وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ، ويحرم عليهم
 عبادة ما سواه فقد حكم وقضى : أنه لا إله إلا هو .

ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ؛ وذلك أنه إذا شهد أنه
 لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد ، وأنه وحده
 الإله الذي يستحق العبادة ، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما
 سواه ، فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي كما إذا استفتى
 شخص شخصاً فقال له قائل :

(١) سورة الإسراء آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٢ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال ﴿ فاعبدون ﴾ بدلاً
 من ﴿ فاتقون ﴾ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٥١ .

(٥) سورة التوبة آية رقم ٣١ .

(٦) سورة البينة آية رقم ٥ .

هذا ليس بمفت ، هذا هو المفتي ، ففيه نهى عن استفتاء الأول وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني .

وكذلك إذا تحاكم إلى غير حاكم ، أو طلب شيئاً من غير ولي الأمر ، ففيل له : ليس هذا حاكماً ولا هذا سلطاناً ؛ هذا هو الحاكم وهذا هو السلطان ، فهذا النفي والإثبات يتضمن الأمر والنهي ، وذلك أن الطالب إنما يطلب من عنده مراده ومقصوده ، فإذا ظنه شخصاً ففيل له : ليس مرادك عنده وإنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده عند هذا دون ذاك .

والعابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة فإذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس بإله إنما الإله هو الله وحده كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمراً بعبادته .

و« أيضاً » فلو لم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الإله يقتضي أنه يستحق العبادة ، فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمراً بما يستحقه .

وليس المراد هنا « بالإله » من عبده عابد بلا استحقاق ، فإن هذه الآلهة كثيرة (١) ؛ ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ (٢) وقال :

(١) لقد عبد العرب الكواكب وأهلوا النجوم وسجدوا نذر صنم والأوثان وعبدوا الملائكة والجن وغير ذلك كثير والمتصفح لكتاب الله تعالى يجد أن البشرية تردت في أشياء كثيرة وعبدت غير الإله الحق . وكان كل نبي أو رسول يأتي إليهم يدعوهم إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد . قال تعالى : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ (١)
فالآلهة التي جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ، لكن هي لا تستحق العبادة
فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لا يحسن
شيئاً من ذلك .

ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده « تعس عبد الدينار وعبد
الدرهم » (٢) . فإن بعض الناس قد آله ذلك محبة وذلاً وتعظيماً ، كما قد بسط
في غير هذا الموضع .

فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه .
و« أيضاً » فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، فيقال :
للجمل الخبرية قضية ، ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى وانتفاء هذا
المعنى ، وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار قد حكم بثبوت ما أثبتته
ونفي ما نفاه حكماً خبرياً ، قد يتضمن حكماً طلبياً .

(١) سورة الحج آية رقم ٦٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ٧٠ وكتاب الرقاق ١٠ باب ما يتقى من فتنة
المال ، وقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ ﴾ ٦٤٣٥ بسنده عن أبي هريرة رضي
الله عنه بزيادة [والقطيفة والخميصة إن أعطى رضي وإن لم يعط لم يرض . وأخرجه ابن
ماجه في كتاب الزهد ٨ باب في المكثرين ٤١٣٥ حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي حصين عن
أبي صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفي لفظ « تعس
وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » .

فصل (في معنى شهادة الرب)

وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة .

فالقول هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأوحاه إلى عباده كما قال : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ ^(١) إلى غير ذلك من الآيات وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إله إلا هو بقوله وكلامه ؛ وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه ولهذا قال تعالى :

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي ﴾ ^(٢) .

وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل ، وإن لم يكن هناك خبر عن الله ، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد ، فإن الدليل (يبين) المدلول عليه ويظهره فهو بمنزلة المخبر به الشاهد به ، كما قيل : سل الأرض من فجر أنهارها وغرس أشجارها ، وأخرج ثمارها ، وأحيا نباتها ، وأغطش ليلها ، وأوضح نهارها ؛ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

(١) سورة النحل آية رقم ٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٤ .

وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه ؛ فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها
فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو ، وهو سبحانه الشاهد المبين
بها أنه لا إله إلا هو ، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة . قال ابن
كيسان ^(١) : ﴿ شهد الله ﴾ بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمة عند خلقه أنه
لا إله إلا هو .

(١) هناك صالح بن كيسان المدني مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وكان من
فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه وهو أحد الثقات في رواية الحديث قال ابن ناصر
الدين : عاش أكثر من مئة سنة وتوفي عام ١٤٠ هـ ولعل هذا هو الذي يعنيه الامام ابن تيمية .
وهناك محمد بن أحمد بن ابراهيم أبو الحسن المعروف بابن كيسان عالم بالعربية من أهل
بغداد من كتبه « تلقيب القوافي والمهذب في النحو ، وغريب الحديث ، ومعاني القرآن وتوفي
عام ٢٩٩ هـ » [راجع ارشاد الأريب ٦ : ٢٨٠ وطبقات النحويين واللغويين ١٧٠] .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

وقوله : ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ^(١) هو نصب على الحال ، وفيه وجهان :
قيل : هو حال من ﴿ شهد ﴾ أي شهد قائماً بالقسط .
وقيل : من ﴿ هو ﴾ أي لا إله إلا هو قائماً بالقسط ، كما يقال :
لا إله إلا هو وحده ، وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ يجوز أن يعمل فيه كلا العاملين على مذهب
الكوفيين ، في أن المعمول الواحد يعمل فيه عاملان ، كما قالوا في قوله :
﴿ هَآؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ ﴾ ^(٢) و ﴿ أَتُونِي أَقْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴾ ^(٣) و ﴿ عَنِ الْيَمِينِ
وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ^(٤) ونحو ذلك . وسيبويه وأصحابه يجعلون لكل عامل
معمولاً ، ويقولون حذف معمول أحدهما لدلالة الآخر عليه ، وقول الكوفيين
أرجح ، كما قد بسطته في غير هذا الموضع .

وعلى المذهبين فقوله : ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ يخرج على هذا ، إما كونه يشهد
قائماً بالقسط ؛ فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل ، كما في قوله :

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) سورة الحاقة آية رقم ١٩ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ٩٦ .

(٤) سورة ق آية رقم ١٧ وصدر الآية ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ ^(١) فالقيام بالقسط يكون في القول ، وهو القول العدل . ويكون في الفعل ، فإذا قيل : شهد ﴿ قائماً بالقسط ﴾ : أي : متكلماً بالعدل مخبراً به أمراً به : كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل من كل شهادة ، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم ، وهذه الشهادة أعظم الشهادات .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما يوافق ذلك ، فذكر ابن السائب ^(٢) : أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة ، فقالا : أنت محمد ؟ قال نعم ، قالا : وأحمد ؟ قال نعم ، قالا : نسألك عن شهادة فإن أخبرتنا بها آمنا بك . فقال : سلاني . فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله ، فنزلت هذه الآية ^(٣) .

(١) سورة النساء آية رقم ١٣٥ وعجز الآية ﴿ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

(٢) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي ، أبو النضر نسابة ، راوية ، عالم بالتفسير ، والأخبار وأيام العرب من أهل الكوفة مولده بالكوفة ووفاته بها عام ١٤٦ هـ قال ابن النديم : حكى أن سليمان بن علي العباس والي البصرة استقدمه إليها وأجلسه في داره فجعل يملئ على الناس تفسير آيات من القرآن ، حتى إذا بلغ إلى آية في سورة « براءة » ففسرها على خلاف المعروف فقالوا لا نكتب هذا التفسير ، فقال محمد : والله لا أمليت حرفاً حتى يكتب تفسير هذه الآية على ما أنزل الله . فرفع ذلك إلى سليمان بن علي فقال : اكتبوا ما يقول ودعوا ما سوى ذلك . وصنف كتاباً في « تفسير القرآن » وهو ضعيف الحديث : قال النسائي : حدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير ، وأما في الحديث ففيه مناكير . وقيل كان سبياً من أصحاب عبد الله بن سبأ . [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣] .

(٣) يقول ابن الجوزي في تفسيره في سبب نزولها قولان ، أحدهما : أن فقيراً وغنياً اختصما إلى

ولفظ « القيام بالقسط » كما يتناول القول يتناول العمل ، فيكون التقدير : يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم ؛ فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً ، فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد ، وأن غيره لا يستحق العبادة وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء ، وأن المشركين به في النار ، فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة ، وكان قوله : ﴿ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ تنبيهاً على جزاء المخلصين والمشركين ، كما في قوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (١)

قال طائفة من المفسرين منهم البغوي (٢) نظم الآية :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ ومعنى قوله : ﴿ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ أي بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم بأمر فلان أي يديره ويتعاهد أسبابه وقائم بحق فلان أي مجاز له ، فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال .

وإذا اعتبر القسط في الإلهية كان المعنى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ أي هو وحده الإله قائماً بالقسط ، فيكون وحده مستحقاً للعبادة مع كونه قائماً بالقسط ، كما يقال : أشهد ألا إله إلا الله إلهاً واحداً واحداً صمداً ، وهذا الوجه أرجح ؛ فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له ، مع أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط .

= النبي - ﷺ - فكان ميله مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني فنزلت هذه الآية ، هذا قول السدي (رواه الواحدي في أسباب النزول) ص ١٦١ والثاني أنها متعلقة بقصة ابن أبيرق فهي خطاب للذين جادلوا عنه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي [راجع ابن جرير ٩ : ٤٠٣] .
(١) سورة الرعد آية رقم ٣٣ .

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوي ، حافظ للحديث من العلماء أصله من « بغشور » بين هراة ومرو النسبة إليها بغوي ولد عام ٢١٣ هـ ببغداد وتوفي بها عام ٣١٧ هـ له « معالم التنزيل في التفسير » ومعجم الصحابة . [راجع ميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١] .

« الوجه الأول » لا يدل على هذا ؛ ولأن كونه قائماً بالقسط كما شهد به أبلغ من كونه حال الشاهد ، وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ويعمل بالعدل ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (١) وقال هود : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه .

وقال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ (٤) الآية وقال : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ ! ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٥) فأخبر أنه خالق منعم عالم ، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئاً ولا تنعم بشيء ، ولا تعلم شيئاً ، وأخبر أنها ميتة ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه ؟ ولهذا كان هذا أعظم الظلم والإفك .

ومن هذا الباب قوله تعالى :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦) ؟ فقوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة هود آية رقم ٥٦ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٧٦ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٣٥ .

(٥) سورة النحل الآيات من ١٧ إلى ٢١ .

(٦) سورة النمل آية رقم ٥٩ .

حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ ﴿ ١ ﴾

كلاهما مثل بين الله فيه أنه لا يستوي هو وما يشركون به ، كما ذكر نظير ذلك في غير موضع ، وإن كان هذا الفرق معلوماً بالضرورة لكل أحد ؛ لكن المشركون مع اعترافهم بأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه وبينها في المجنة والدعاء والعبادة ونحو ذلك .

و« المقصود هنا » أن الرب سبحانه على صراط مستقيم ، وذلك بمنزلة قوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ؛ ليقوم الناس بالقسط ، والصراط (٢) المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل ، والله سبحانه أعلم .

(١) سورة النحل آية رقم ٧٥ - ٧٦ .

(٢) أصل الصراط في كلام العرب : الطريق ، قال عامر بن الطفيل :
شحننا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط
وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم
وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم قال ابن عطية : وهذا ضعيف جداً وقرئ :
السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كان الطريق يستتر من يسلكه .

فصل

في تفسير قوله تعالى :

﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(١)

ذكر عن جعفر بن محمد^(٢) أنه قال : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم ، أي قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها ، فقال : ﴿ شهد الله أنه لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة وأولو العلم ، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها ، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي ، فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

فالأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه بشهادته لنفسه ، وهذه خبر عن الله بالتوحيد . وختمها بقوله : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ والعزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة . تقول العرب : عز يعز بفتح العين إذا صلب وعز يعز

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) هو جعفر بن محمد بن المعتمر أبو العباس فقيه من رجال الحديث كان خطيب نسف (من بلاد ما وراء النهر) وتوفي بها عام ٤٣٢ هـ له الدعوات في الحديث « فضائل القرآن » والشماثل والدلائل ، والمسلسلات في الحديث ، ورجال الحديث يأخذون عليه رواية الموضوعات من غير تبين . [راجع الفوائد البهية ٥٧ والرسالة المستطرفة ٣٩ ، والجواهر المضيئة ١ : ١٨٠] .

بكسرها إذا امتنع ، وعز يُعز بضمها إذا غلب . فهو سبحانه في نفسه قوي متين ، وهو منيع لا ينال ، وهو غالب لا يغلب .

والحكيم^(١) يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله ، فإذا أمر بأمر كان حسناً ، وإذا أخبر بخبر كان صادقاً ، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً ، فهو حكيم في إراداته وأفعاله وأقواله .

(١) لفظ الحكيم ورد في القرآن على خمسة أوجه :

الأول : بمعنى الأمور المقضية على وجه الحكمة قال تعالى ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ سورة الدخان آية ٤ .

الثاني : بمعنى اللوح المحفوظ قال تعالى : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ [سورة الزخرف آية رقم ٤] الثالث : بمعنى الكتاب المشتمل على قبول المصالح ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ [أول سورة يونس] الرابع : بمعنى القرآن العظيم المبين لأحكام الشريعة ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ الخامس : المخصوص بصفة الله عز وجل تارة مقروناً بالعلو والعظمة ﴿ إنه عليّ حكيم ﴾ وتارة مقروناً بالعلم والدراية ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ [يوسف آية ٨٣] وتارة مقروناً بكمال الخبرة ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ [أول سورة هود] وتارة مقروناً بكمال العزة قال تعالى ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ [سورة النساء آية رقم ١٥٨] .

فصل

في نظم هذه الآية : ﴿ للتوحيد والعدل والحكمة والقدرة ﴾

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنه قائم بالقسط ، وأنه العزيز الحكيم ؛ فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك ، وتضمنت عدله المنافي للظلم ، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه ، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ، ففيها إثبات التوحيد ، وإثبات العدل ، وإثبات الحكمة ، وإثبات القدرة والمعتزلة قد تحتج بها على ما يدعونه من التوحيد والعدل والحكمة ولا حجة فيها لهم ؛ لكن فيها حجة عليهم ، وعلى خصومهم الجبرية أتباع الجهم بن صفوان ؛ الذين يقولون : كل ما يمكن فعله فهو عدل ، وينفون الحكمة ، فيقولون : يفعل لا لحكمة فلا حجة فيها لهم ؛ فإنه أخبر أنه لا إله إلا هو ، وليس في ذلك نفي الصفات ، وهم يسمون نفي الصفات توحيداً ؛ بل الإله هو المستحق للعبادة ، والعبادة لا تكون إلا مع محبة المعبود .

والمشركون جعلوا لله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، فدل ذلك على أن المؤمنين يحبون الله أعظم من محبة المشركين لأندادهم ؛ فعلم أن الله محبوب لذاته ، ومن لم يقل بذلك لم يشهد في الحقيقة أن لا إله إلا هو .

والجهمية والمعتزلة يقولون : إن ذاته لا تحب ، فهم في الحقيقة منكرون إلهيته ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وقيامه بالقسط مقرون بأنه لا إله إلا هو ؛ فذكر ذلك على أنه لا يماثله أحد في شيء من أموره ، والمعتزلة تجعل القسط منه مثل القسط من المخلوقين فما كان عدلاً من المخلوقين كان عدلاً من الخالق ، وهذا تسوية منهم بين الخالق والمخلوق ؛ وذلك قدح في أنه لا إله إلا هو .

والجهمية عندهم أي شيء أمكن وقوعه كان قسطاً ، فيكون قوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ كلاماً لا فائدة فيه ولا مدح ؛ فإنه إذا كان كل مقدور قسطاً كان المعنى أنه قائم بما يفعله ، والمعنى أنه فاعل لما يفعله ، وليس في هذا مدح ، ولا هو المفهوم من كونه قائماً بالقسط ؛ بل المفهوم منه أنه يقوم بالقسط لا بالظلم مع قدرته عليه ، لكنه سبحانه مقدس منزله أن يظلم أحداً ، كما قال : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ^(١) وقد أمر عباده أن يكونوا قوامين بالقسط ، وقال : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ^(٢) فهو يقوم عليها بكسبها لا بكسب غيرها ، وهذا من قيامه بالقسط . وقال ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ ^(٣) الآية .

وأيضاً فمن قيامه بالقسط وقيامه على كل نفس بما كسبت أنه لا يظلم مثقال ذرة ، كما قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ^(٤) إلى آخرها .

والمعتزلة تحبط الحسنات العظيمة الكثيرة بكبيرة واحدة وتحبط إيمانه وتوحيده بما هو دون ذلك من الذنوب ، وهذا مما تفردوا به من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه ، فهم ينسبون الله إلى الظلم لا إلى العدل ، والله أعلم .

(١) سورة الكهف آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٣ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة الزلزلة آية رقم ٧ .

فصل

في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وفيه الرد على الجبرية والقدرية

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إثبات لعزته وحكمته ، وفيها رد على الطائفتين الجبرية والقدرية : فإن الجبرية - أتباع جهم - ليس له عندهم في الحقيقة حكمة ولهذا لما أرادت الأشعرية أن تفسر حكمته فسروها إما بالقدرة ، وإما بالعلم وإما بالإرادة (١) .

ومعلوم أنه ليس في شيء من ذلك إثبات لحكمته ، فإن القادر والعالم والمريد قد يكون حكيماً وقد لا يكون ، والحكمة أمر زائد على ذلك وهم يقولون : إن الله لا يفعل لحكمة ، ويقولون أيضاً الفعل لغرض إنما يكون ممن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ؛ وذلك ينفي عن الله . والمعتزلة أثبتوا أنه يفعل لحكمة ، وسموا ذلك غرضاً : هم وطائفة من المثبتة ؛ لكن قالوا : الحكمة أمر منفصل عنه لا يقوم به ، كما قالوا في كلامه وإرادته ؛ فاستطال عليهم المجبرة بذلك ، فقالوا : الحكيم من يفعل لحكمة تعود إلى نفسه ، فإن لم تعد إلى نفسه لم يكن حكيماً بل كان سفيهاً .

فيقال للمجبرة : ما نفيتم به الحكمة هو بعينه حجة من نفي الإرادة من

(١) يراجع ما كتبه الأشعري في كتابه (اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع) باب الكلام في الإرادة وأنها تعم سائر المحدثات ص ٤٧ ط جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر .

المتفلسفة ونحوهم ، قالوا : الإرادة لا تكون إلا لمن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ، وإثبات إرادة بدون هذا لا يعقل ، وأنتم تقولون : نحن موافقون للسلف وسائر أهل السنة على إثبات الإرادة ، فما كان جواباً لكم عن هذا السؤال فهو جواب سائر أهل السنة لكم حيث أثبتتم إرادة بلا حكمة يراد الفعل لها ، وقد بسط هذا في غير هذا الوضع ، وبين ما في لفظ هذه الحجة من الكلمات المجملة والله أعلم .

فصل في أن شهادة أولى العلم تتضمن الشهادة بالوحدانية

وإثبات شهادة أولى العلم يتضمن أن الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين ، الملائكة والبشر ، وهذا متفق عليه يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويشهدون بما شهد به لنفسه ^(١) .

وزعم طائفة من الاتحادية أنه لا يُوحَّد أحد الله وأنشدوا :
ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد ^(٢)
وهؤلاء حقيقة قولهم من جنس قول النصارى في المسيح ^(٣) ، يدعون أن حقيقة التوحيد أن يكون الموحد هو الموحد فيكون الحق هو الناطق على لسان العبد والله الموحد لنفسه لا العبد ، وهذا في زعمهم هو السر الذي كان الحلّاج ^(٤) يعتقد ، وهو بزعمهم قول خواص العارفين ؛ لكن لا يصرحون

(١) قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) هذا البيت لمحيي الدين بن عربي صاحب كتاب « الفتوحات المكية » وقد تكلمنا عنه في غير هذا الموضع بما يغني عن إعادته .

(٣) قالت النصارى : اللاهوت اتحد بالانسوت . أي أن جسد عيسى عليه السلام اتحد بخالقه في صورة واحدة . ﴿ قاتلهم الله أنا يؤفكون ﴾ ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ .

(٤) هو الحسين بن منصور الحلّاج ، أبو مغيث بعده البعض في زمرة الملحدين أصله من بيضاء

به . وحقيقة قولهم : أنهم اعتقدوا في عموم الصالحين ما اعتقدته النصارى في المسيح ؛ لكن لم يمكنهم إظهاره ، فإن دين الإسلام يناقض ذلك مناقضة ظاهرة ، فصاروا يشيرون إليه ، ويقولون : إنه من السر المكتوم ومن علم الأسرار الغيبية فلا يمكن أن يباح به ، وإنما هو قول ملحد وهو شر من قول النصارى ، فإن النصارى إنما قالوا ذلك في المسيح لم يقولوه في جميع الصالحين .

وقد بسط الكلام على ذلك في غير موضع ، إذ المقصود التنبيه على ما في هذه الآية من أصول الإيمان ، والتوحيد وإبطال قول المبتدعين .

= فارس ونشأ بواسط العراق ، وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ كان يظهر مذهب الشيعة للملوك (العباسيين) ومذهب الصوفية للعامة ، وهو في تضاعيف ذلك يدعي حلول الالهية فيه . أمر المقتدر العباس بالقبض عليه فسجن وعذب وضرب قال ابن خلكان : وقطعت أطرافه الأربعة ثم حُز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً أُلقيت في نهر دجلة ، ونصب الرأس على جسر بغداد .

وقال ابن النديم : كان محتالاً يتعاطى مذاهب الصوفية ويدعى كل علم ، جسور على السلاطين مرتكباً للعظائم ، يروم إقلاب الدول ويقوم بالحلول : [راجع الفهرست ١ : ١٩٠]
والبداية والنهاية ١١ : ١٣٢ ولسان الميزان ٢ : ٣١٤] .

فصل

« يتضمن تعريف العباد أن خالقهم قد شهد »

وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، ودلالته لهم ، وتعريفهم بما شهد به لنفسه ، فلا بد أن يعرفهم أنه شهد ، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن العلم بها لم ينتفع بذلك ولم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ، ولم تقم بها حجة .

ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(١) أي عنده شهادة من الله وكتمها ، وهو العلم الذي بينه الله ، فإنه خير من الله وشهادة منه بما فيه .

وقد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لإبراهيم وأهل بيته ، وكتموا إسلامهم ، وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد ﷺ ، وبصفته وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ^(٢) . وقال تعالى :

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٥٩ وقد نزلت في علماء أهل الكتاب وكتمانهم آية الرجم وأمر محمد - =

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

والشهادة لا بد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه ، لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ؛ ولهذا ذم من يكتم ويحرف ، فقال تعالى : ﴿ يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ؛ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال : « الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا إِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورْكُ لِهَما فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكُتِمَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » (٣) .

= (راجع تفسير الطبري ٣ : ٣٥٠ والدر المنثور ١ : ١٦١)

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٦ وقد نزلت في مؤمني أهل الكتاب : عبد الله بن سلام وأصحابه . قال عبد الله بن سلام : لأنا كنت أشد معرفة برسول الله - ﷺ مني بابني فقال له عمر بن الخطاب ، وكيف ذاك يا بن سلام ؟ قال : لأنني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً يقيناً وأنا لا أشهد بذلك على ابني ، لأنني لا أدري ما أحدث النساء فقال عمر : وفقك الله يا بن سلام [راجع الحديث مفصلاً في الدر المنثور ١ : ١٤٧] .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٥ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب البيوع ١٠ باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين ٤٣ (١٥٣١) حدثنا يحيى بن يحيى . قال : قرأت على مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ قال وذكره . وأخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات ١٧ باب البيعان بالخيار ما لم يفترقا ٢١٨١ حدثنا محمد بن رمح المصري ، أنبأنا الليث بن سعد عن نافع عن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله - ﷺ وذكره ، وأخرجه الامام أحمد في المسند ٢ : ٤ ، ٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ ، ١٢٥ (حلي) وأخرجه البخاري في البيوع ١٩ ، ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ وصاحب الموطأ في البيوع ٧٩

فصل

يتضمن أن شهادة الله للعباد تكون بالسمع والبصر

وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ؛ ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقين : بالسمع والبصر ، فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يُعَين آياته المخلوقة الفعلية ؛ وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك ، وذلك حاصل بآياته ، فإن آياته هي دلالته وبراهينه التي بها يعرف العباد خبره وشهادته ، كما عرفهم بها أمره ونهيه ، وهو عليم حكيم ؛ فخبره يتضمن أمره ونهيه ، وفعله يبين حكمته . فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية ، ولا بد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه ؛ وذلك قد عرفه بآياته التي آيد بها الأنبياء ودل بها على صدقهم ، فإنه لم يبعث نبياً إلا بآية تبين صدقه ، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز ، كما قال :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ^(١) أي بالآيات البينات ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) بِالْبَيِّنَاتِ ، وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

(١) سورة الحديد آية رقم ٢٥ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٤٣ .

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ . وقال ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (٣) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :
« ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ،
وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم
القيامة » (٤) .

فالآيات والبراهين التي أرسل الله بها الرسل دلالات الله على صدقهم
دل بها العباد ، وهي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه ، والذي بلغوه فيه
شهادته لنفسه فيما أخبر به ؛ ولهذا قال بعض النظار : إن المعجزة تصديق
الرَّسُول ، وهي تجري مجرى المرسل ، صدقت فهي تصديق بالفعل ، تجري
مجرى التصديق بالقول : إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه
وتصديقه إخبار بصدق ، وشهادة له بالصدق ، وشهادة له بأنه أرسله ، وشهادة
له بأن كلما يبلغه عنه كلامه .

(١) سورة النحل آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٨٤ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري ٦٦ - كتاب فضائل القرآن (١) باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل
٤٩٨١ - حدثنا الليث ، حدثنا سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال :
قال النبي - ﷺ - وذكره . وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٧٠ باب وجوب الإيمان
برسالة نبينا محمد - ﷺ - إلى جميع الناس ونسخ الملل الأخرى ٢٣٩ (١٥٢) بسنده عن أبي
هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال وذكره . وأخرجه الامام أحمد في المسند ٢ : ٢٤١ ، ٤٥١ ،
(حلي) .

وهو سبحانه اسمه المؤمن ، وهو في أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه .

وأما الطريق الثاني فهو أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق ؛ كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ ﴾ (١) .

أي أو لم يكف بشهادته المخبرة بما علمه ، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به ، فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً وإن لم ير المشهود به ، وشهادته قد علمت بالآيات التي دل بها على صدق الرسول فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة ، التي تدل على أن القرآن حق ، بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى . وكلامه .

وكذلك ذكر الكتاب المنزل ، فقال ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فإنه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره ، فإنه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به . وقوله : ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (٣) سواء أريد به أنه بين في

(١) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤٦ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٤٩ .

صدورهم أو أنه محفوظ في صدورهم ، أو أريد به الأمران وهو الصواب ، فإنه محفوظ في صدور العلماء ، بين في صدورهم ، يعلمون أنه حق ، كما قال : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ (١) وقال : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ (٢) ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٤) . فيها بيان ما يوجب السعادة للمؤمنين وينجيهم من العذاب .

ثم قال : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٥) فإنه إذا كان عالماً بالأشياء ، كانت شهادته بعلم ، وقد بين شهادته بالآيات الدالة على صدق الرسول ، ومنها القرآن . والله أعلم .

(١) سورة سبأ آية رقم ٦ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ١٩ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة العنكبوت الآيات من ٥٠ إلى ٥٢ .

(٥) سورة العنكبوت الآيات ٥٢ ..

فصل

« صدق الله معلوم بالفطرة لكل مخلوق »

وأما كونه سبحانه صادقاً فهذا معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد ^(١) ؛ فإن الكذب من أبغض الصفات عند بني آدم ، فهو سبحانه منزّه عن ذلك ، وكل إنسان محمود يتنزّه عن ذلك ؛ فإن كل أحد يذم الكذب فهو وصف ذم على الإطلاق .

وأما عدم علم الإنسان ببعض الأشياء ، فهذا من لوازم المخلوق ، ولا يحيط علماً بكل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كالكذب ؛ فلهذا يبين الرب علمه بما يشهد به ، وأنه أصدق حديثاً من كل أحد ، وأحسن حكماً وأصدق قيلاً ؛ لأنه سبحانه أحق بصفات الكمال من كل أحد ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٢) وهو يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته .

و﴿ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ^(٣) وهم أهل الكتاب فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ؛ فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أوتي به كالأمر

(١) قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ سورة النساء آية رقم ٨٧ .

وقال تعالى : ﴿ وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ سورة النساء آية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٢٧ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

بعبادة الله وحده ^(١) ، والنهي عن الشرك ، والإخبار بيوم القيامة ، والشرائع الكلية ، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته ، ورسالته ، وكتابه ، وهذان الطريقتان بهما تثبت نبوة النبي ﷺ ، وهي الآيات والبراهين الدالة على صدقه أو شهادة نبي آخر قد علم صدقه له بالنبوة .

فذكر هذين النوعين بقوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ^(٢) فتلك يعلم بها صدقة بالنظر العقلي في آياته وبراهينه ، وهذه يعلم بها صدقة بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله .

وكذلك قوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلْ : اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ^(٣) فقوله : ﴿ قُلْ اللّهُ ﴾ ^(٤) فيها وجهان :

قيل : هو جواب السائل ، وقوله (شهيد) خبر مبتدأ : أي هو شهيدٌ وقيل : هو مبتدأ ، وقوله : ﴿ شَهِيداً ﴾ خبره فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام ، و« الأول » على قراءة من يقف على قوله ﴿ قُلْ اللّهُ ﴾ و« الثاني » على قراءة من لا يقف ، وكلاهما صحيح ؛ لكن الثاني أحسن وهو أتم .

وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة ، فلما قال : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ علم أن الله أكبر شهادة من كل شيء ، فقليل له : ﴿ قُلْ : اللّهُ شَهِيدٌ

(١) قال تعالى : ﴿ وَالِى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله هود آية ٥٠ ﴾

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ هود آية ٦١

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ هود آية ٨٤ .

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله ﴾ النحل آية ٣٦ .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ المؤمنون آية ٢٣ .

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله ﴾ العنكبوت آية ١٦ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

بيني وبينكم ﴿ ولما قال : ﴿ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ كان في هذا ما يغني عن قوله : إن الله أكبر شهادة . وذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله ﴿ أكبر شهادة ﴾ بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم ؛ فإن هذا مما يعلم بالنص والاستدلال ، فينظر هل شهد الله بصدقه وكذبهم في تكذيبه ؟ أم شهد بكذبه وصدقهم في تكذيبه ؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ، وبما بين أنه رسول صادق .

ولهذا أعقبه بقوله : ﴿ وأوجي إليّ هذا القرآن لأنذرکم به ومن بلغ ﴾ ^(١) فإن هذا القرآن فيه الإنذار ، وهو آية شهد بها أنه صادق وبالآيات التي يظهرها في الآفاق وفي الأنفس ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

وقوله في هذه الآية : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ ^(٢) وكذلك قوله : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ ^(٣) وكذلك قوله : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ ^(٤) وكذلك قوله :

﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ ^(٥) فذكر سبحانه أنه شهيد بينه وبينهم ولم يقل شاهد علينا ولا شاهد لي لأنه ضمن الشهادة الحكم ، فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم ، والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة ؛ فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة ، وأما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه ، ويعامل المحق بما يستحقه والمبطل بما يستحقه .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ٤٣ والاسراء آية رقم ٩٦ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٥٢ .

(٥) سورة الأحقاف آية رقم ٨ .

وهكذا شهادة الله بيد الرسول ومتبعيه ، وبين مكذبيه ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة ، ويحكم له أيضاً بالنجاة والنصر ، والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ^(١) فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التي تبين أنه حق ، ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفه ، ويكون منصوراً كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ ^(٢) فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك في قوله : ﴿ شهد الله ﴾ قال مجاهد والفراء وأبو عبيدة ^(٣) ﴿ شهد الله ﴾ أي حكم وقضى ، لكن الحكم في قوله ﴿ بيني وبينكم ﴾ أظهر ، وقد يقول الإنسان لآخر : فلان شاهد بيني وبينك ، أي يتحمل الشهادة بما بينا ، فالله يشهد بما أنزله ويقولوه وهذا مثل الشهادة على أعمال العباد ، ولكن المكذبون ما كانوا ينكرون التكذيب ، ولا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة ، فيكون الشهيد يتضمن الحكم أثبت وأشبه بالقرآن والله أعلم .

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٥ .

(٣) هو معمر بن المثنى البصري أبو عبيدة النحوي ، من أئمة العلم بالأدب واللغة ، مولده ووفاته في البصرة ، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه . قال الجاحظ لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه وكان أبا ضيا شعبياً من حفاظ الحديث . قال ابن قتيبة كان يبغض العرب وصنف في مثالهم كتباً له مؤلفات كثيرة منها « نقائص جرير والفرزدق » و « مجاز القرآن » و « معاني القرآن » وطبقات الشعراء . توفي عام ٢٠٩ هـ [راجع وفيات ٢ : ١٠٥ وتذكرة ١ : ٣٣٨] .

فصل

« شهادة الله تعالى بما أنزله على رسله »

وكذلك قوله : ﴿ لَكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ ^(١) فإن شهادته بما أنزل إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه ، وأنه أنزله بعلمه ، فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبراً عن دونه ، وهذا كقوله :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) وليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له ، فإن جميع الأشياء معلومة له ، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق ؛ لكن المعنى أنزله فيه علمه ، كما يقال فلان يتكلم بعلم ، ويقول بعلم ؛ فهو سبحانه أنزله بعلمه ، كما قال : ﴿ قُلْ أُنْزِلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) ولم يقل تكلم به بعلمه ؛ لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض .

فإذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ تضمن أن القرآن المنزل إلى الأرض فيه علم الله ، كما قال :

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٤ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٦ .

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (١) وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه ، منه نزل ولم ينزل من عند غيره ؛ لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم - ونفسه هي ذاته المقدسة - إلا أن يعلمه الله بذلك ، كما قال المسيح عليه السلام :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٢) ، وقالت الملائكة : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (٣) وقال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (٤) وقال :

﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ (٥) فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به .

وأما ما أظهره لعباده فإنه يعلمه من يشاء ، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه ؛ لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به ، بل هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه وهو سبحانه قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ (٦) فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل على أنه كلامه ، وأن الرسول صادق . وكذلك قال هود :

﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٧) لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله :

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ١١٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٥) سورة الجن آية رقم ٢٦ - ٢٧ .

(٦) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٧) سورة هود آية رقم ١٣ .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ ^(١) ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ففجزوا عن ذا وذاك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله ففجزوا فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله ؛ وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله ، نزله بعلمه ، لم ينزله بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله وقوله : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٢) لأن فيه [من] الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله ، لكن تضمن من الأخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله ، فمن هنا نستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله .

وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأمهم وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير

(١) سورة الطور آية رقم ٣٤ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦ والسر ما يكتف في النفس من الحديث ، وساره أوصاه بأن يسره وتसार القوم وقوله تعالى ﴿ وأسروا الندامة ﴾ أي كتموها ، وقيل معناه أظهرها بدليل قوله تعالى : ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب ﴾ وفي الحديث : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته « ومن دعائه : يا عالم السر ، ويا دائم البر ، ويا كاشف الضر ، أصلح سرنا ، وأدم برنا واكشف ضرنا . يا مولانا وقوله : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ فسروه بالصوم والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة قال الشاعر :

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت مني الضلوع من الأسرار والخبر
لكنك أول من أنسي سرائره إذ كنت من نشرها يوماً على خطر
وقد ورد السر في القرآن على أوجه :

الأول : بمعنى النكاح ﴿ لا تواعدوهن سرّاً ﴾ أي نكاحاً .
الثاني : بمعنى ضد العلانية ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ ومعناه أن السر ما تكلم به في خفاء وأخفى منه ما أضمر ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ وله نظائر .

جهته ، وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم وإخباره بأمور هي سر عند أصحابها ، كما قال :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ إلى قوله : ﴿ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(١) فقوله :

﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٢) استدلال بإخباره ، ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال هو ﴿ إفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ أَنْزَلَهُ ﴾ استدلال على أنه حق ، وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ؛ ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله .

(١) سورة التحريم آية رقم ٣ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٤ .

فصل

« في أن شهادة الله تتضمن ما يجعله في القلوب من العلم
وما تنطق به الألسنة »

ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم ، وما تنطق به الألسن من ذلك ، كما في الصحيح أن النبي ﷺ مر عليه بجنائز فأتُّوا عليها خيراً ، فقال : « وَجِبَتْ وَجِبَتْ » ومرَّ عليه بجنائز فأتُّوا عليها شراً ، فقال : « وَجِبَتْ وَجِبَتْ » قالوا يا رسول الله ! ما قولك : وجبت وجبت ؟ قال : هذه الجنائز أثبتتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنائز أثبتتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، « أنتم شهداء الله في الأرض » ^(١) فقلوه : « شهداء الله » أضافهم إلى الله تعالى .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز ٨٥ باب ثناء الناس على الميت ١٣٦٧ - حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، قال : سمعت أنس بن مالك - رضي الله عنه يقول وذكره وأخرجه الترمذي في كتاب الجنائز ٦٣ باب ما جاء في الثناء الحسن على الميت ١٠٥٨ - حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حميد عن أنس وذكره .
قال الترمذي : حديث أنس حديث حسن صحيح وفي الباب عن عمر وكعب بن عجرة وأبي هريرة ، وأخرجه مسلم في ١١ - كتاب الجنائز حديث ٦٠ ورواه ابن ماجه في كتاب الجنائز ٢٠ باب ما جاء في الثناء على الميت ١٤٩٢ بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - وفي الزوائد : رواه النسائي إلا قوله « في مناقب الخير ومناقب الشر » وأصله في الصحيحين من حديث أنس ، ويوافقه حديث عمر ، ورواه الترمذي والنسائي ، وإسناد ابن ماجه صحيح ، ورجاله رجال الصحيحين .

والشهادة تضاف تارة إلى من يشهد له . وإلى من يشهد عنده ، فتقبل شهادته كما يقال : شهود القاضي وشهود السلطان ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم ، وقد يدخل في ذلك من يشهد عليه بما تحمله من الشهادة ، ليؤديها عند غيره ، كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقاريهم .

فشهداء الله الذين يشهدون بما جعله وفعله ويؤدون الشهادة عنه ، فإنهم إذا رأوا من جعله الله براً تقياً يشهدون أن الله جعله كذلك ، ويؤدون عنه الشهادة ، فهم شهداء الله في الأرض ، وهو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به ، وينطقون به ، وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك ، فهذا أيضاً من شهادته وقد قال تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ^(١) وفسر النبي ﷺ البشـرى ^(٢) بالرؤيا الصالحة ، وفسرها بثناء الناس وحمدهم ، والبشـرى خبر بما يسر ، والخبر شهادة بالبشـرى من شهادة الله تعالى ، والله سبحانه أعلم .

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ

عن قوله تعالى ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ ^(٣)

المراد به : آمنه عند الموت من الكفر عند عرض الأديان ؟ أم المراد به إذا أحدث حدثاً لا يقتض منه ما دام في الحرم ؟ .

فأجاب التفسير المعروف في أن الله جعل الحرم بلداً آمناً قدراً وشرعاً ،

(١) سورة يونس آية رقم ٦٤ .

(٢) عن أبي الدرداء قال : سألت رسول الله - ﷺ عن قوله تعالى ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فقال : ما سألتني أحد عنها غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له . أخرجه الترمذي في جامعه وقال الزهري وعطاء وقتادة : هي البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمن في الدنيا عند الموت .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ .

فكانوا في الجاهلية يسفك بعضهم دماء بعض خارج الحرم ، فإذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجروا حرمة ففي الإسلام كذلك وأشد . لكن لو أصاب الرجل حداً خارج الحرم ثم لجأ إليه فهل يكون آمناً لا يقام عليه الحد فيه أم لا ؟ فيه نزاع . وأكثر السلف على أنه يكون آمناً ، كما نقل عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما وهو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما (١) .

وقد استدلووا بهذه الآية ويقول النبي ﷺ « إن الله حرم مكة يوم خلق الله السموات والأرض ، وأنها لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ ، فقولوا : إنما أحلها الله لرسوله ولم يحلها لك » (٢) .

(١) روي عن الثوري عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس من أصاب حداً في الحرم أقيم عليه فيه ، وإن أصابه في الحل ، ولجأ إلى الحرم لم يكلم ولم يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد .

وهو قول الشعبي ، فهذه حجة الكوفيين وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية ، وهو جبر الأمة وعالمها ، والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النعم على كل من كان بها جاهلاً ولها منكر من العرب كما قال تعالى : أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٥١ باب ٤٢٩٣-٤٢٩٥ حدثنا الليث عن المقبري ، عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث لمكة ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله - ﷺ - الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، انه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : وذكره . وأخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك ١٠٣ باب فضل مكة ٣١٠٩ - حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن اسحاق ، ثنا أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم بن نياق عن صفية بنت شعبة قالت سمعت رسول الله - ﷺ - يخطب عام الفتح فقال : وذكره وفيه زيادة [فقال العباس إلا الأذخر ، فإنه للبيوت والقبور ، فقال رسول الله - ﷺ - ، إلا الأذخر .

في الزوائد : هذا الحديث وإن كان صريحاً في سماعها من النبي - ﷺ - لكن في إسناده أبان ابن صالح وهو ضعيف .

ومعلوم أن الرسول إنما أبيح له فيها دم من كان مباحاً في الحل وقد بين
أن ذلك أبيح له دون غيره .

والمراد بقوله ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ ﴾ الحرم كله .

وأما عرض الأديان وقت الموت فيبتلى به بعض الناس دون بعض ومن
لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام ، كما جاء في الحديث « مَنْ
ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ثم لم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو
نصرانياً » ^(١) والله أعلم .

وأخرجه الترمذي ٧ - كتاب الحج (١) باب ما جاء في حرمة مكة ٨٠٩ بسنده عن أبي شريح
العدوي : أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة وذكره .

قال الترمذي : حديث أبي شريح حديث حسن صحيح ، وأبو شريح الخزاعي اسمه خويلد بن
عمرو ، وهو العدوي وهو الكعبي .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الحج ٣ باب ما جاء في التغليب في ترك الحج ٨١٢ -
حدثنا محمد بن يحيى القطعي البصري ، حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هلال بن عبد الله ،
مولي ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي ، حدثنا أبو اسحاق الهمداني عن الحارث ، عن علي
قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه زيادة [والله على الناس حج البيت من استطاع إليه
سبيلاً] .

فصل في سبب نزول

قوله تعالى :
﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١)

هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين : كابن عباس ، وسيد
ابن جبير ، وعكرمة ، والنخعي ، وأهل اللغة كالفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ،
وابن الأنباري ، وعبارة الفراء : يخوفكم بأوليائه ، كما قال : ﴿ لِيُنذِرَ بَأْساً
شَدِيداً مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ ^(٢) ببأس شديد . وقوله : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ ^(٣) وعبارة
الزجاج : يخوفكم من أوليائه . قال ابن الأنباري : والذي نختاره في الآية
يخوفكم أوليائه . تقول العرب : أعطيت الأموال أي أعطيت القوم الأموال
فيحذفون المفعول الأول ويقتصرون على ذكر الثاني ، وهذا لأن الشيطان
يخوف الناس أوليائه تخويفاً مطلقاً ، ليس له في تخويف ناس بناس ضرورة
فحذف الأول ليس مقصوداً ، وهذا يسمى حذف اختصار ، كما يقال : فلان
يعطي الأموال والدراهم .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٥ وراجع ما كتبه القرطبي عند تفسيره لهذه الآية الجزء الرابع ص

(٢) سورة الكهف آية رقم ٢ .

(٣) سورة غافر آية رقم ١٥ .

وقد قال بعض المفسرين : يخوف أوليائه المنافقين ، ونقل هذا عن الحسن والسدي ، وهذا له وجه سنذكره ؛ لكن الأول أظهر ، لأن الآية إنما نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ، كما قال قبلها :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ (١) الآيات . ثم قال :

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) فهي إنما نزلت فيمن خَوْفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّاسِ . وقد قال : ﴿ يَخَوْفُ أَوْلِيَائَهُ ﴾ ثم قال : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ والضمير عائد إلى أولياء الشيطان الذين قال فيهم ﴿ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ قبلها .

وأما ذلك القول فالذي قاله فسرهما من جهة المعنى ، وهو أن الشيطان إنما يخوف أوليائه بالمؤمنين ؛ لأن سلطانه على أوليائه بخوف يدخل عليهم المخاوف دائماً ، فالمخاوف منصببة إليهم محيطة بقولهم ، وإن كانوا ذوي هيئات وعدد وعُدَد فلا تخافوهم .

وأما المؤمنون فمنهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار ، أو أنهم

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٧٥ ولأرباب الإشارات في الخوف مرجعها إلى مراقبة الله تعالى . قال الأستاذ أبو علي الدقاق . دخلت على أبي بكر بن فورك رحمه الله عائداً فلما رأيته دمعت عيناه ، فقلت له : إن الله يعافيك ويشفيك فقال لي أترى أنني أخاف من الموت ؟ .. إنما أخاف مما وراء الموت ، وفي سنن ابن ماجه عن أبي ذر قال قال رسول الله - ﷺ - إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظن السماء وحق لها أن تظن ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفراشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ، والله لوددت أنني كنت شجرة تعضد ، خرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب ، ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال : « لوددت أنني كنت شجرة تعضد » والله أعلم .

أرادوا المفعول الأول : أي يخوف المنافقين أوليائه ، وإلا فهو يخوف الكفار كما يخوف المنافقين ، ولو أنه أريد أن يخوف أوليائه : أي يجعلهم خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ، وهو قوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ .

وأيضاً فهذا فيه نظر ؛ فإن الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ : لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ ^(١) وقال تعالى :

﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ^(٢) ولكن الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين والشيطان لا يختار ذلك . قال تعالى : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) . وقال : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأْلَمِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ ^(٥) وفي حديث قرطبة أن جبريل قال : « إني ذاهب إليهم فمزلزل بهم الحصن » . فتخويف الكفار والمنافقين وإرعابهم هو من الله نصرة للمؤمنين .

ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام ، فهم يوالون العدو ، فصاروا بذلك منافقين ، وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم كما قال تعالى :

(١) سورة الأنفال آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٠ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ١٣ .

(٤) سورة الأنفال آية رقم ١٢ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٥١ .

﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ ^(١)
، قال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ﴾ ^(٢) فكلا القولين صحيح من حيث المعنى ؛ لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين كما دل عليه سياق الآية ولفظها . والله أعلم .

وإذا جعلهم الشيطان مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم فجعله خائفاً .

فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أوليائه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم . ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُوا ﴾ ^(٣) بل يجب عليه أن يخاف الله ، فخوف الله أمر به ، وخوف الشيطان وأوليائه نهى عنه .

وقال تعالى : ﴿ لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخِشُوا ﴾ ^(٤) فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، والذين يبلغون رسالات الله يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله . وقال : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة التوبة آية رقم ٥٦ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ١٩ - ٢٠ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٥٠ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٤٠ .

وبعض الناس يقول : يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، وهذا كلام ساقط لا يجوز ؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ، ولا يخاف أحداً لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله ، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل أن يُخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف (١) منه قد نهى الله عنه والله أعلم .

(١) الخوف أجل منازل السالكين وأنفعها للقلب ، وهو فرض على كل أحد قال الله تعالى ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة آل عمران آية رقم ١٧٥ [وقال ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيَنَّكُمْ آيَاتُهُ فَتَتَّقُونَ ﴾ البقرة آية ٤١] ومدح الله تعالى أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال : إِنْ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) في مسند الامام أحمد وجامع الترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت قلت يا رسول الله ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ﴾ أهو الذي يسرق ويشرب الخمر ويزني ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه .

فصل قال شيخ الإسلام

فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح في هذه السورة المكية التي أنزلها في أول الأمر بمكة في السور التي ذكر فيها أصول الدين التي اتفق عليها الأنبياء ثم ذكرها في سورة آل عمران ، وهي من السور المدنية التي يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين لما قدم عليه نصارى بخران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ^(١) عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ^(٢) رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ^(٣) ۝ وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يَمْسُهُ

(١) المراد بعمران هذا : هو والد مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام. قال محمد بن اسحاق : هو عمران بن ياشم بن ميثا بن حزقيا بن ابراهيم بن غرايا بن ناوش بن أجر بن هسوا بن نازم بن مقاسط بن إيشا بن إياز بن رخييم بن سليمان بن داود عليها السلام ، فعيسى عليه السلام من ذرية ابراهيم عليه السلام .

(٢) امرأة عمران هذه أم مريم عليها السلام وهي حنة بنت فاقوذ .

(٣) سورة آل عمران الآيات من ٣٣ - ٣٦ .

الشیطان فیستهل صارخاً من الشیطان إلا مریم وابنها^(١) ثم یقول أبو هريرة :
اقرأوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِذُّهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٢) .

قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٣) .

ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ^(٤) وَسَيِّدًا وَحَصُورًا^(٥) وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ . وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ

(١) قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ وذكره أخرجه من حديث عبد الرزاق ، ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرّج عن بقية عن الزبيدي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٣٧ .

(٤) أي يعيسى بن مریم ، وقال الربيع بن أنس هو أول من صدق يعيسى بن مریم . وقال ابن جرير قال ابن عباس في قوله (مصدقاً بكلمة من الله) قال : كان يحيى وعيسى ابني خالة وكانت أم يحيى لتقول لمریم : إني أجِدُ الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه له في بطن أمه .

(٥) روى عن ابن مسعود ، وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر ، وأبي الشعثاء ، وعطية العوفي أنهم قالوا : الحصور : الذي لا يأتي النساء .

182

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ^(١) . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ^(٢) .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين :
أحدهما مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ،

(١) روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جداً - قال البيهقي : حدثنا أبو عبد الله الحافظ أبو سعيد ، ومحمد بن موسى بن الفضل قالوا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده ، قال يونس - وكان نصرانياً فأسلم - أن رسول الله ﷺ كتب إلى أسقف نجران وأهل نجران وذكره .
ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث اسرائيل عن أبي اسحاق عن صلة عن ابن مسعود بنحوه .

(٢) سورة آل عمران الآيات من ٣٨ - ٦٨ .

وهي سورة ﴿كهيعص﴾ (١) .

والثانية مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم ، كما نزلت في « براءة » مجاهدتهم فأخبر في السورة المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً . فقالت : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ (٢) .

قال أبو وائل : علمت أن المتقى ذو نية ، أي : تقواه ينهيه عن الفاحشة وأنها خافت من أن يكون قصده الفاحشة ، فقالت : ﴿ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ : أي تتقي الله وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٣) وفي القراءة الأخرى ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ فأخبر هذا الروح الذي تمثل له بشراً سوياً أنه رسول ربها ، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها ، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ، ولهذا قال جماهير العلماء : إنه جبريل عليه السلام فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس ، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم وروح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد ، وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ، ولا سمى كلامه ، ولا شيئاً من صفاته ابناً ، وهذا أحد ما تبين من ضلال الناصري وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت به الأنبياء ، فإن أصل تثليثهم مبني على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم : (عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح

(١) سورة مريم آية رقم ١ .

(٢) سورة مريم آية رقم ١٨ .

(٣) سورة مريم آية رقم ١٩ .

القدس) فيقال لهم : هذا إذا كان قد قاله المسيح ، وليس في لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء وأنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا ابناً ولا روح قدس ، ولا يسمون كلمته ابناً ، ولا يسمونه نفسه ابناً ، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يسمون المصطفى للكرم ابناً ، وهذا موجود في حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل : أنت ابني بكري : أي بني إسرائيل ، وروح القدس : يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره ، فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره ، وأن المسيح قال لهم : « أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم » فسماه أباً للجميع ، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الابن ، ولا يوجد عندهم لفظ الابن إلا اسماً للمصطفى المكرم لا اسماً لشيء من صفات الله القديمة حتى يكون الابن صفة الله تولدت منه ، وإذا كان كذلك كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون أنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية ، ولا بروح القدس حياة الله ، بل المراد بالابن ناسوت المسيح وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي والملك الذي أنزل به ، فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله والملك الذي نزل به وبهذا الذي نزل به ، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم ، وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شيء من اللاهوت ، لكنه ظهر فيه نور الله ، وكلام الله وروح الله كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسول .

ومعلوله أن غيره أيضاً - فيما ينقلونه عن الأنبياء - يسمى ابناً وروح القدس حلت فيه ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على أن كلام الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضه بعضاً ، وأنه ليس مع النصارى حجة سمعية ولا عقلية توافق ما ابتدعوه ، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه ، وعندهم في الإنجيل أنه قال : « إن

الساعة^(١) لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الآب وحده فيين أن الابن لا يعلم الساعة ، فعلم أن الابن ليس هو القديم الأزلي وإنما هو المحدث الزماني .

(١) قال تعالى ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ الأحزاب آية رقم ٦٣ وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ .

فصل موقف الأمم من الرسل

وأما قوله تعالى : ﴿ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ إِلَىٰ سَمَاءٍ مُّطَهَّرَةٍ مِنْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (١)
فهذا حق كما أخبر الله به ، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يدللهم الله فوق اليهود ، وأيضاً فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة .

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به ، بل لما بدل النصارى دينه وبعث الله محمداً ﷺ بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمداً وأُمَّته فوق النصارى إلى يوم القيامة ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بآبِنِ مَرْيَمَ لأَنَا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي » (٢) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٥ .

اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ إِلَىٰ سَمَاءٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أي يميتك ، وقال محمد بن إسحاق عن لا يتهم عن وهب بن منبه قال : توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه ، وقال ابن جرير : توفيه هو رفعه . وقال الاكثرون المراد بالوفاة هنا : النوم كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ الله يتوفى الأنس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ وكان رسول الله ﷺ يقول : إذا قام من النوم : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا » الحديث .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٤٨ باب قول الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب =

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٢) فكل من كان أتم إيماناً بالله ورسله كان أحق بنصر الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٣) .

وقال في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٤) .

(الْيَهُودُ كَذَّبُوا الرُّسُلَ)

واليهود كذبوا المسيح ومحمداً ﷺ كما قال الله فيهم : ﴿ بَشَرًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ (٥) فالغضب الأول تكذيبهم للمسيح ،

= مريم إذ انتبذت من أهلها ﴿ .

٣٤٤٢ - حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ وذكره ، ورواه الإمام مسلم في فضائل الصحابة ١٤٣ - ١٤٥ وأبو داود في السنة ١٣ ، واحد بن حنبل في المسند ٣١٩ : ٢ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، ٥٤١ (حلي) .

(١) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٥١ - ٥٣ .

(٣) سورة غافر آية رقم ٥١ .

(٤) سورة الصافات آية رقم ١٧١ - ١٧٣ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٩٠ .

والثاني : محمداً ﷺ . والنصارى لم يكذبوا المسيح وكانوا منصورين على اليهود ، والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحداً من رسله ، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

المسلمون أتباع جميع الرسل

وإذا كان المسلمون هم المتبعون لرسول الله ﷺ كلهم المسيح وغيره ، وكان الله قد وعد الرسل وأتباعهم قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » (٣) .

وقال أيضاً : « سألت ربي أن لا يُسلَّطَ على أمتي عدوٌّ من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها » (٤) . الحديث فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم » .

٧٣١١ - حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسماعيل عن قيس « عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ وذكره ، وفي التوحيد ٢٩ وفي المناقب ٢٨ ورواه الامام مسلم - في إيمان ٢٤٧ وفي إمارة ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ورواه الترمذي في الفتن ٥١ ، وابن ماجه في المقدمة ١ ، والدارمي في الجهاد ٣٨ ، واحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٣١٩ (حلي) .

(٤) الحديث في المسند ٥ : ٢٤٧ (حلي) .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى ، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ، لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢) .

ثم قال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ (٣) .

ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ - ١١٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ - ١١٢ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ .

اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿١﴾ صفة لليهود وكذلك قوله : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ ﴿٢﴾ .

فَقَوْلُهُ : عَقِبَ ذَلِكَ : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ ﴿٣﴾ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَتَنَاوَلًا لليهود ، ثُمَّ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ وَالنَّصَارَى عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ كَفَرَهُمْ بِالْمَسِيحِ وَمُحَمَّدٍ ﷺ ، لَيْسَ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالْإِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَالآيَةُ إِذَا تَنَاوَلَتِ النَّصَارَى كَانَ حُكْمُهُمْ فِي ذَلِكَ حُكْمَ الْيَهُودِ وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَثْنَى عَلَى مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بَيَّاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ﴿٤﴾ .

وَقَدْ ذَكَرَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْآخِرَى فِي آلِ عِمْرَانَ ، نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ وَنَحْوِهِ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لَكِنَّهُ لَمْ تَمَكَّنْهُ الْمُهْجَرَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَا الْعَمَلُ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ لَكُونَ أَهْلُ بِلَدِهِ نَصَارَى لَا يُوَافِقُونَهُ عَلَى إِظْهَارِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا صَلَّى عَلَيْهِ لَمَّا مَاتَ لِأَجْلِ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَظْهَرُ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ فِي جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ ظَاهِرَةٍ ، كَمَا يَصِلِي الْمُسْلِمُونَ عَلَى جَنَائِزِهِمْ .

وَلِهَذَا جَعَلَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ كَوْنِهِ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي بِلَادِ الْحَرْبِ وَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْمُهْجَرَةِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ وَلَا يَمَكَّنُهُ الْعَمَلُ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ ، بَلْ يَعْمَلُ مَا يَمَكَّنُهُ وَيَسْقُطُ عَنْهُ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ١١٢ .

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ آيَةُ رَقْمِ ٦١ وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُحَرَّفَةً فِي الْمَطْبُوعَةِ حَيْثُ قَالَ ضُرِبَتْ بِدُونِ الْوَاوِ .

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ١١٣ .

(٤) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ١٩٩ .

مُؤْمِنَةٍ ﴿١﴾ ، فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار ، وهو في الباطن مؤمن ، كما كان مؤمن آل فرعون .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ ^(٢) مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ^(٣) . يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ

(١) سورة النساء آية رقم ٩٢ .

(٢) المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون قال السدي : كان ابن عم فرعون ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام ، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعّل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم ، وقال ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال ﴿ يا موسى إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ .

(٣) يوم التناد بتشديد الدال من ند البعير إذا تردى وذهب وقيل يوم التناد لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ... ؟ قالوا : نعم ﴾ ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ .

أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِي صَرِّحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ
عَمَلِهِ وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ
اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ
هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَتْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَا قَوْمِ
مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ .
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ﴿١﴾ فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب وأخبر

(١) سورة غافر آية رقم ٢٨ - ٤٦ وقد استدلل بهذه الآية على عذاب القبر في البرزخ . قال الامام
أحمد : ثنا هاشم هو ابن القاسم أبو النضر ، ثنا اسحاق بن سعيد هو ابن عمرو بن سعيد بن
العاص ، ثنا سعيد يعني أباه عن عائشة - رضي الله عنها أن يهودية كان تخدمها فلا تصنع عائشة
رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية وقال الله عذاب القبر . قالت عائشة -
رضي الله عنها فدخّل رسول الله ﷺ عليّ فقلت يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال
ﷺ لا من زعم ذلك .. ؟ قالت : هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت :
وقال الله عذاب القبر قال ﷺ كذبت يهودية ، وهم على الله أكذب ، لا عذاب دون يوم القيامة ،
ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه حمرة عيناه وهو
ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيراً
وضحكتم قليلاً أيها الناس استعذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق ، وهذا اسناد
صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه .

أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتُم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره ، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون . هؤلاء قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وامرأة الرجل من آله بدليل قوله : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٢) .

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسول محمد ﷺ ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٣) وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام ، كعجز النجاشي ، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم في الظاهر مسلمون ، وفيهم من هو منافق كافر في الباطن : إما يهودي ، وإما مشرك وإما معطل .

كذلك في أهل الكتاب والمشركون ، مَنْ هو في الظاهر منهم ، وهو في الباطن أهل الايمان بمحمد ﷺ يفعل ما يقدر على علمه وعمله ، ويسقط عنه ما يعجز عنه من ذلك .

وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشي قال النبي ﷺ : (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ) فقال بعض القوم : تأمرنا أن نستغفر لهذا العليج ، يموت بأرض الحبشة . فنزلت : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

(١) سورة التحريم آية رقم ١١ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٥٩ - ٦٠ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴿١﴾ ذكر ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم ، وذكر حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسين البصري أن رسول الله ﷺ قال : (استغفروا لأخيكم النجاشي) فذكر مثله .

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا : نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة ، واسمه أصححه وهو بالعربية : عطية . وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه « أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم .. فقالوا : ومن هو ؟ قال : النجاشي » فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع وزاد بعضهم : وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات واستغفر له ، وقال لأصحابه « استغفروا له » فقال المنافقون : أبصروا إلى هذا يصلي على علع حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢) .

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً ﷺ فآمن به كما نقل ذلك عن عطاء .
وذهبت طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم .
والقول الأول أجود ، فإن من آمن بمحمد ﷺ وأظهر الإيمان به وهو من

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٩٩ .

والحديث موجود في الصحيحين . وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال : وذكره . ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن عن النبي ﷺ ورواه ابن جرير من حديث أبي بكر الهذلي عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٩٩ .

أهل دار الإسلام ، يعمل بما يعملهُ المسلمون ظاهراً وباطناً فهذا من المؤمنين وإن كان قبل ذلك مشركاً يعبد الأوثان ، فكيف إذا كان كتابياً ؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام^(١) وسلمان الفارسي وغيرهما ، وهؤلاء لا يقال : إنهم من أهل الكتاب ، كما لا يقال في المهاجرين والأنصار : إنهم من المشركين وعباد الأوثان ، ولا ينكر أحد من المنافقين ولا غيرهم ، أن يصلي على واحد منهم ، بخلاف مَنْ هو في الظاهر منهم ، وفي الباطن من المؤمنين وفي بلاد النصرى من هذا النوع خلق كثير ، يكتُمون إيمانهم ، إما مطلقاً وإما يكتُمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم ، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ... ﴾ الآية . فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه ، كما يفعل كثير من الأحرار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله فيمنعونهم من الإيمان بمحمد ﷺ وأما قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٢) .

فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصرى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾^(٣) هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح ولا فيها مدح لمن كذب محمداً ﷺ .

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الاسرائيلي أبو يوسف صحابي قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب عليه السلام أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . وشهد مع عمر بن الخطاب فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية ، اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها وأقام بالمدينة الى أن مات عام ٤٣ هـ له ٢٥ حديثاً . راجع خلاصة تهذيب الكمال ٢٠٠ والاصابة برقم ٤٧٢٥ والاستيعاب ٣٨٢: ٢ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ - ١١٤ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٥٩ .

وهذا الكلام تفسير سياق الكلام ، فإنه قال تعالى : ﴿ كُتِّمَ خَيْرٌ أُمِّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) فقد جعلهم نوعين نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم لقوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يتناول من كان قبل مبعث محمد ﷺ كما يتناولهم لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٣) وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٤) وقوله عن ابراهيم الخليل : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ (٥) ثم قال : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمُ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٦) وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب من الله - الآية - وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيائهم واعتداؤهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد ﷺ كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٧ .

(٤) سورة الحديد آية رقم ٢٦ .

(٥) سورة الصافات آية رقم ١١٣ .

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١١١ - ١١٢ .

الَّذِي هُوَ أَذْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ
الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^(١) - ثم قال بعد ذلك -
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٢) .

فتناولت هذه الآية من كان من أهل الملل متمسكاً بها قبل النسخ بغير
تبديل ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم
قبل محمد ﷺ من الكفر قال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ
آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وهذا يتناول من كان متصفاً منهم بهذا قبل النسخ ، فإنهم كانوا على
الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ ، كما قال في الأعراف :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ . - إلى قوله -
وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ
عَرَضَ هَذَا الْأَذَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ مَا أَخَذُوهُ أَلَمْ يَأْخُذْ
عَلَيْهِمْ مِّثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ
الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . وَالَّذِينَ يُسْكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾^(٣) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٦١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٥٩ - ١٧٠ .

وقد قال تعالى مطلقاً : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ ^(١)
فهذا خبر من الله عمن كان متصفاً بهذا الوصف قبل مبعث محمد ﷺ ، ومن
أدرك من هؤلاء محمداً ﷺ فأمن به كان له أجره مرتين .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٨١ .

جاء في الآثار أن هذه الأمة في الآية هي الأمة المحمدية قال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية بلغنا
أن النبي ﷺ كان يقول : إذا قرأ هذه الآية « هذه لكم وقد أعطي القوم وقد أعطى اليوم بين
أيديكم مثلها » .

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال رسول الله ﷺ إن من أمتي قوماً على
الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل « وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال
رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم
حتى تقوم الساعة » .

وفي رواية « حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

فصل في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم دعوى النصارى في المسيح

قالوا : وقال أيضاً في موضع آخر : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾^(١) فأعنى بقوله : ﴿ مَثَلَ عِيسَى ﴾ إشارة إلى الناسوت المأخوذ من مريم الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح وإنما ذكر عيسى فقط .

وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباذعة فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولا مباذعة .

وكما أن جسد آدم ذاق الموت ، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت وقد يبرهن بقوله أيضاً قائلاً إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل .

وعلى هذا المثل نقول : في السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي إذ يقول : (أليس هذا الأب الذي خلقتك وبرأك واقتناك) ، قيل : وعلى لسان داود النبي : (بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع أفواههن) ، وليس يدل هذا القول على

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

ثلاثة خالقين ، بل خالق واحد : الأب ونطقه ، أي كلمته ، وروحه ، أي حياته .

الرد عليهم حقيقة القول في عيسى

والجواب من وجوه :

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١) .

كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته .

فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى .

وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى ، كما قال : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾^(٢) وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر .

وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى .

وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم .

وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١ .

﴿ وخلق منها زوجها ﴾ هي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرأها فأعجبته فأنس إليها وأنست إليه ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن مقاتل ، حدثنا وكيع عن أبي هلال عن قتادة عن ابن عباس قال : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمة في الأرض فاحبسوا نساءكم . وفي الحديث الصحيح . ان المرأة خلقت من ضلع وأن أعرض شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج .

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح فإذا كان سبحانه قادراً على أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان ؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم قال له كن فيكون ؟ لما نفخ فيه من روحه فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له : كن فيكون ، ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتاً وناسوتاً ، بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت ، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى ، لما قدم على النبي ﷺ نصارى نجران وناظروه في المسيح ، وأنزل الله فيه ما أنزل ، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء في غلوهم فيه ، وهؤلاء في ذمهم له .

وقال عقب هذه الآية : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وقد امثل النبي ﷺ قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوهم أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ثم كتب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا ﴾ إلى آخرها ، وكان أحياناً يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦١ - ٦٤ .

بقوله : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وهذا كله يبين أن المسيح عبد ليس بإله ، وأنه مخلوق كما خلق آدم وقد أمر أن يباهل (٢) من قال إنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ، ثم يتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، فإن كان النصرارى كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذباً حقت اللعنة عليه ، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق والنصارى لما لم يعلموا أنهم على حق نكلوا عن المباهلة : وقد قال عقب ذلك : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ ﴾ تكذيباً للنصارى الذين يقولون هو إله حق من إله حق ، فكيف يقال إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال في موضع آخر : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله : عيسى أشار إلى البشرية المأخوذة من مرية الطاهرة لأنه لم يذكر الناسوت ها هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليل أنه قال : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (٣) . فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولاً ليس

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٢) المباهلة : الملاعبة . نبهل ندعو باللعنة على الكاذب منا ، ولقد ذكر كثير من المؤرخين ، والمفسرين قصة المباهلة بين الرسول ، والنصارى في أمر المسيح ، ولقد أمر الله رسوله أن يدعو النصارى الى المباهلة لبيان لهم حقيقة أمر المسيح ، وأن يتوجه الفريقان باللعنة على الكاذب في ذلك يقول ابن اسحاق ، فلما أتى رسول الله الخبر من الله عنه ، والفصل والقضاء بينه وبينهم ودعاهم إلى ذلك فقالوا له يا أبا القاسم : دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧٥ .

هو بآله ، وأنه ابن مريم والذي هو ابن من مريم هو الناسوت ، وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أُنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .
وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٣) .

الوجه الثاني

أن ما ذكره من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك ، وأن المسيح لم يمت بعد ، وما ذكره من أنه صُلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين ، إن ناسوته لم يصلب وليس فيه لاهوت وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكفي في مقابلتها المنع .

الوجه الثالث

ولكن نصول في الوجه الثالث : إنهم في إتحاد اللاهوت بالناسوت

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٧ .

يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن ، وهذا تشبيه اليعقوبية^(١) ، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم ، وهذا تشبيه الملكانية^(٢) وغيرهم ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء إلا وصل إلى اللبن ، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وكذلك النار التي في الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التي فيه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب للنفس فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذي ادَّعَوْه .

وهذا لازم على القول بالاتحاد ، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد .

الوجه الرابع

أن هؤلاء الضَّلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً

(١) اليعقوبية : أصحاب يعقوب قالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو وعنه أخبرنا القرآن الكريم ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ فمنهم من قال : المسيح هو الله ، ومنهم قال : ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الحق لا على طريق حلول جزء فيه ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة بل صار هو هو . راجع الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) الملكانية : أصحاب ملكا الذي ظهر بالروم ، واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية ، قالوا : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح ، وتدرعت بناسوته ، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم ، ويعنون بروح القدس أقنوم الحياة ولا يسمون العلم قبل تدرعه به ابناً بل المسيح مع ما تدرع به ابن فقال بعضهم إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر اللبن أو الماء اللبن وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالوصوف والصفة وعن هذا صرحوا بآثبات التثليث وأخبر عنهم القرآن ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقالت : الملكانية : المسيح ناسوت كلي لا جزئي ، وهو قديم أزلي من قديم أزلي ، ولقد ولدت مريم عليها السلام لهاً أزلياً ، والقتل والصلب وقع على الناسوت . الخ .

راجع الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ج ٢ ص ٦٢ .

يُشير في جوف امرأة ، وجعلوه له مسكناً ، ثم جعلوا أخايب خلق الله أمسكوه
وبصقوا في وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين وهو في
ذلك يستغيث بالله ويقول : « إلهي إلهي لم تركتني » وهم يقولون الذي كان
يسمع الناس كلامه هو اللاهوت ، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة ،
ويقولون هما شخص واحد ويقول بعضهم : لهما مشيئة واحدة وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعي
المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به ،
وأيضاً فهم يقولون : إن اللاهوت والناسوت شخص واحد فمع القول بأنهما
شخص واحد إما أن يكون مستغيثاً وإما أن يكون مستغاثاً به وإما أن يكون
داعياً وإما أن يكون مدعواً ، فإذا قالوا : إن الداعي هو غير المدعو لزم أن
يكون اثنين لا واحداً وإذا قالوا : هما واحد فالداعي هو المدعو .

الوجه الخامس

أن يقال لا يخلو الأمر أن يقولوا : إن اللاهوت كان قادراً على
دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادراً
لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، وأن يكون رب العالمين
مقهوراً مأسوراً مع قوم من شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتقص برب
العالمين وهذا أعظم من قولهم : إن الله ولدأ وأنه بخیل وأنه فقير « ونحو ذلك
مما سب به الكفار رب العالمين . وإن قالوا كان قادراً فإن كان ذلك من عدو
أن الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك فسنة الله في مثل ذلك نصر رسله
المستغيثين به فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ، وهذا بخلاف من قتل
من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت
عندهم استغاث وقال : (إلهي إلهي لماذا تركتني) وإن كان هو قد فعل ذلك
مكراً ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق
فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب ألا يجزع ولا يهرب لما

في ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جرع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم : مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت بل لو شاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين ، وقد اتفقا على المكر بالعدو لم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يجعل الصواع^(١) في رحله ، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع في رحله ؟ كما جزع إخوته حيث لم يعلموا ، وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون ، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح ، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية .

الوجه السادس

قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم ، لأن عندهم أقنوم الكلمة فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع

قولهم : وقد برهن بقوله رأينا أيضاً في موضع آخر قائلاً : إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم واتحدت بإنسان كامل .
فيقال لهم : أما قول الله في القرآن فهو حق ، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله

(١) الصاع : المطمئن من الأرض . قال المسيب بن علس : مرحت يداها للنجاء كأنما . . تكرو بكفى
لاعب في صاع والصاع : الذي يكال به ، وهو أربعة أمداد والجمع أصوع وان شئت أبدلت من
الواو المضمومة همزة .
والصواع : لغة في الصاع ، ويقال هو إناء يشرب فيه .

تعالى قال : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى منها أنه قال : ﴿ بكلمة منه ﴾ وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات يقتضي أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى . ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢) .

كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣) .

وقال تعالى في سورة كهيعص : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤) .

فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهذا تفسير كونه كلمة منه ، وقال اسمه المسيح عيسى بن مريم ، أخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه وجيهه في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وهذه كلها صفات مخلوق ، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك ، وقالت مريم : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم لا ولد الله سبحانه وتعالى .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٤٥ - ٤٧ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٣٤ .

وقال في سورة النساء : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ (١) .

فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم ، وأن يقولوا على الله غير الحق وبين أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح^١ وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسوله ، فبين أنه رسوله ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : انتَهُوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال : ﴿ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ فتره نفسه وعظمها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) فأخبر أن ذلك ملك ليس له فيه

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ - ١٧٣ .

قال الامام احمد : حدثنا هشيم ، قال زعم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن أبي مسعود عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله . ثم رواه هو وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن الزهري كذلك ، ولفظه « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال علي بن المديني : هذا حديث حسن صحيح مسند ، وهكذا رواه البخاري عن الحميدي عن سفيان بن عيينة عن الزهري به ولفظه « فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٧١ .

شيء من ذاته ، ثم قال : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ^(١) أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله تبارك وتعالى ، فمع ذلك البيان الواضح الجلي ، هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به ، وأن قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ المراد أنه حياته أو روح متفصلة من ذاته .

ثم نقول أيضاً : أما قوله وكلمته ، فقد بين مراده أنه خلقه بـ « كُنْ » وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقاً لقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ويقال : درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمراً ، والمقدور قدرة وقدرأ والمعلوم علماً ، والمرحوم به رحمة .

كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ^(٤) .

وقال النبي ﷺ « يقول الله للجنة : أنتِ رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي ، ويقول للنار : أنتِ عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي » ^(٥) . وقال :. إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة « أنزل منها رحمة واحدة فيها تتراحم الخلق ويتعاطفون ، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ،

(١) سورة النساء آية رقم ١٧٢ .

(٢) سورة لقمان آية رقم ١١ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٣٨ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١ .

(٥) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٢٥ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٧٤٤٩ - حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن صالح بن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة . عن النبي - ﷺ قال اختصمت الجنة والنار إلى زبيها فقالت الجنة : يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، وقالت النار يعني أوثرت بالتكبرين فقال الله تعالى الجنة وذكره .

فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها الخلق»^(١) ويقال للمطر والآيات هذه قدرة عظيمة ، ويقال : غفر الله لك علمه فيك ، أي معلومة فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الامام احمد في كتاب (الرد على الجهمية) وذكره غيره - أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة فقالت النصارى : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق ، وقالت الجهمية : المسيح كلمة الله وهو مخلوق ، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقاً وأجاب أحمد وغيره : بأن المسيح نفسه ليس هو كلاماً ، فإن المسيح إنسان وبشر مولود من امرأة وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر « ولا مولود من امرأة .

ولكن المسيح خلق بالكلام ، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟ .

وقد قيل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وما من عاقل إذا سمع قوله تعالى في المسيح عليه السلام إنه كلمته ألقاها إلى مريم ألا يعلم أنه المراد أن المسيح نفسه كلام الله ، ولا أنه صفة لله ولا خالق ، ثم يقال للنصارى : فلو قدر أن المسيح نفس الكلام ، فالكلام ليس بخالق ، فإن القرآن كلام الله ، وليس بخالق ، والتوراة كلام وليست بخالقة ، وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق ، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقاً ، فكيف وليس هو الكلام ، وإنما خلق بالكلمة ، وخص باسم الكلمة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره ، بل خرج عن العادة

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ١٩ باب الرجاء مع الخوف ٦٤٦٩ حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ وذكره ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة ١٨ - ٢١ - والترمذي في الدعوات ٩٩ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ واحمد بن حنبل في المسند ٤٣٣ : ٢ - ٥١٤ ، ٥٥ : ٣ ، ٥٦ ، ٤٣٩ : ٥ (حلي) .

فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله : ﴿ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ لا يوجب ان يكون منفصلاً من ذات الله كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (٢) .
وقوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ (٤) .

فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة ، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم وهي مخلوقة .

فالمسيح الذي هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً وقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٥) .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا

(١) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٤) سورة البينة آية رقم ١ - ٣ .

(٥) سورة مريم آية رقم ١٧ - ١٩ .

(٦) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

آيَةُ لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فَأخْبِرْ أَنَّهُ نَفَخَ فِي مَرْيَمَ مِنْ رُوحِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ نَفَخَ فِي
 آدَمَ مِنْ رُوحِهِ وَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهَا رُوحَهُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ، قَالَتْ
 إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
 غُلَامًا زَكِيًّا ، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ :
 كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا
 فَحَمَلَتْهُ ﴿٢﴾ .

فهذا الروح الذي أرسله الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً مخلوق وهو روح
 القدس الذي خلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقاً فكيف
 الفرع الذي حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾
 خص المسيح بذلك لأنه نفخ في أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ،
 وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأنها حبلت به من نفخ
 الروح فلهذا سمي روحاً منه .

ولهذا قال طائفة من المفسرين روح منه أي رسول منه فسماه باسم
 الروح (الذي هو) الرسول الذي نفخ فيها ، فكما يسمى « كلمة » يسمى
 روحاً لأنه كون بالكلمة ، لا كما يخلق الآدميون غيره ويسمى روحاً ، لأنه
 حبلت به أمه بنفخ الروح الذي نفخ فيها لم تحبل من ذكر كغيره من
 الآدميين ، وعلى هذا فيقال لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمي روحاً
 بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ثم ينفخ فيه من الروح بعد
 مضي أربعة أشهر . والنصارى يقولون في أمانتهم : (تجسد من مريم ، ومن
 روح القدس) ولو اقتصرنا على هذا ، وفسرنا روح القدس بالملك الذي نفخ

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمر بن علي حدثنا أبو عاصم الضحاك
 ابن مجلز عن شعيب يعني ابن بشير عن عكرمة . عن ابن عباس في قوله : للعالمين « قال : الجن
 والانس .

(٢) سورة مريم آية رقم ١٧- ٢٢ .

فيها ، وهو روح الله لكان هذا موافقاً لما أخبر الله به ، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله .

وجعلوه رباً وتناقضوا في ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغي فيه أقنومان : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

وهم يقولون : ليس فيه إلا أقنوم الكلمة ، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالكلمة يسمى « روحاً » لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقد قال في القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(١) ، وقال : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ^(٢) .

وقد قال أئمة المسلمين وجمهورهم (القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ) وقال : في المسيح ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ قيل : هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقاً ، وإن كان صفة مضافة إلى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة ، وكذلك ما منه إن كان عيناً قائمة أو صفة قائمة تعيد بغيرها كما في السموات والأرض والنعم والروح الذي أرسلها إلى مريم وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ كان مخلوقاً وإن كان صفة لا تقوم بنفسها ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقاً ، فإن ذلك قائم بالله وما يقوم بالله لا يكون مخلوقاً والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى ، وأنه ليس لهم في ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كما ليس لهم حجة في سائر كتب الله وإنما تمسكوا بآيات متشابهات وتركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ^(٣) ، والآية نزلت في النصارى فهم مرادون من الآية

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

قطعاً ثم قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ ، وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله إلا الله ، ويقول ، الراسخون في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله .

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ ويقول : الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه وكلا القولين ماثور عن طائفة من السلف ، وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾^(١) أي قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ومعرفة معانيه .

والراسخون في العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصري : لم ينزل الله آية إلا وهو يجب أن تعلم فيما ذا نزلت ، وما عني بها ، وقد يعني بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر وقت الساعة ، ونزول عيسى ونحو ذلك .

فهذا التأويل لا يعلمه إلا الله وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالف ذلك للدليل يقترب به ، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ، ولا هو معنى التأويل في كتاب الله عز وجل ولكن طائفة من المتأخرين خصصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل في كتاب الله يراد به ما

(١) سورة الحشر آية رقم ١٠ .

قال ابن جرير : حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا أبو ثور عن معمر عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ - حَتَّى بَلَغَ - عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقَرْبَى ﴾ الآية ثم قال هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى - حَتَّى بَلَغَ - لِلْفُقَرَاءِ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ثم قال : لئن عشت لياتين الراعي وهو بسرد حميم نصيره فيها لم يعرق فيها جبينه ، .

يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ (١) .

ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٤) وهذا مبسوط في موضع آخر .
والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا في ظاهر النصوص ولا باطنها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ (٥) .

والكلمة عندهم في جوهر ، وهي رب لا يخلق بها الخالق بل هي الخالقة لكل شيء كما قالوا في كتابهم : (إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم) والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم ، والرب سبحانه هو الخالق ، والكلمة التي ألقاها ليست خالقة ، إذ الخالق لا يلقيه شيء ، بل هو يلقي غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، ودينية .
فالكونية : كقوله للشيء كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه الذي جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول في غير هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (٦)

-
- (١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .
 - (٢) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .
 - (٣) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .
 - (٤) سورة النساء آية رقم ٥٩ .
 - (٥) سورة النساء آية رقم ١٧١ .
 - (٦) سورة النساء آية رقم ٩٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (٢) .

وأما لقيته القول فتلقاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به وإن لم يحفظه كمن ألقى إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام ، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها هي قول ﴿ كن ﴾ لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت في مريم كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلت في سائر من ألقى كلامه ، كما لا تحصل صفة كل منكم فيمن يلقي إلى كلامه .

(١) سورة النحل آية رقم ٨٦ .

(٢) سورة الممتحنة آية رقم ١ .

كان سبب نزول صدور هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : اللهم عم عليهم خبرنا ، فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً فاطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه فبعث في إثر المرأة فأخذ الكتاب منها . وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته .

فصل في الرد على أن في عيسى طبيعتين

وأما قولهم : وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان :
طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .
وطبيعة ناسوتية : التي أخذها من مريم العذراء واتحدت به ، فيقال لهم
كلام النصارى في هذا الباب مضطرب مختلف مناقض ، وليس لهم في ذلك قول
اتفقوا عليه ، ولا قول معقول ، ولا قول دل عليه كتاب ، بل هم فيه فرق
وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى ، كاليقونية والملكانية والنسطورية ونقل الأقوال
عنهم في ذلك مضطربة ، كثيرة الاختلاف .

ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولاً ، وذلك
أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد كما هو مذكور في أمانتهم لم
ينطق به شيء من كتب الأنبياء ولا يوجد لا في كلام المسيح ولا الحواريين ولا
أحد من الأنبياء ولكن عندهم في الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون
في فهمها ، ثم القائلون منهم بالأمانة ، وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية
والنسطورية واليقونية مختلفون في تفسيرها ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره
على الوجه الصحيح .

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره ، فمنهم من يراعي
لفظ أمانتهم ، وإن صرح بالكفر الذي يظهر فساد له لكل أحد كاليقونية ومنهم
من يستر بعض ذلك كالنسطورية ، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء

وهؤلاء ، ولما ابتدعوا ما ابتدعوه من التثليث والحلول كان فيهم من يخالفهم في ذلك .

وقد يوجد نقل الناس لمقالاتهم مختلفاً وذلك بحسب قول الطائفة التي ينقل ذلك الناقل قولها ، والقول الذي يحكيه كثير من نظائر المسلمين يوجد كثير منهم على خلافه كما نقلوا عنهم ما ذكره أبو المعالي^(١) وصاحبه أبو القاسم الأنصاري وغيرهما أن القديم واحد بالجواهر ، ثلاثة بالأقنوم وأنهم يعنون بالأقنوم . الوجود والحياة ، والعلم .

ونقلوا عنهم أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الذات موجودين بل هما صفتان نفسيتان للجواهر ، قالوا ولو مثل مذهبهم بمثال لقليل . إن الأقانيم عندهم تنزل منزلة الأحوال والصفات النفسية عند مثبتيها من المسلمين ، فإن سوادية اللون ولونيته صفتان نفسيتان للمرض ، قال وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود وبالأبن المسيح والكلمة ، وربما سمو العلم كلمة والكلمة علماً ، ويعبرون عن الحياة بالروح ، قال : ولا يريدون بالكلمة الكلام فإن الكلام عندهم من صفات الفعل ، ولا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح واتحاده به ابناً ، بل المسيح

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ، ركن الدين الملقب بامام الحرمين اعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ولد في جوين عام ٤١٩ هـ من نواحي نيسابور ورحل إلى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس جامعاً طرق المذاهب ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك « المدرسة النظامية فيها وكان يحضر دروسه أكابر العلماء له مصنفات كثيرة منها غياث الأمم والنيات الظلم » . والعقيدة النظامية في الأركان الإسلامية ، والبرهان في أصول الفقه ، ونهاية المطلب في دراية المذهب في فقه الشافعية ، والشامل في أصول الدين ، ونهاية المطلب في دراية المذهب ، والشامل في أصول الدين على مذهب الاشاعرة وغير ذلك كثير .

راجع وفيات الأعيان ١: ٢٨٧ والفهرس التمهيدي ٢٠٩ و ٥٥١ والسبكي ٣: ٢٤٩ ومفتاح السعادة ١: ٤٤٠ ثم ٢: ١٨٨ وتبين كذب المفترى ٢٧٨ - ٢٨٥ وفي قرة العين بشرح ورفات امام الحرمين سخ للحطاب : جاور بمكة والمدينة أربع سنين فلقب بإمام الحرمين ، ويلقب بضياء الدين ، وتوفي بقرية يقال لها ، « بشتغال » من أعمال نيسابور .

عندهم مع ما تدرع به ابن ، قالوا ومن مذهبهم أن الكلمة اتحدت بالمسيح وتدرعت بالناسوت ثم اختلفوا في معنى الاتحاد .

فمنهم من فسرته بالاختلاط والامتزاج ، وهذا مذهب طوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، قالوا : إن الكلمة خالطت جسد المسيح ، ومازجته كما مازج الخمر الماء أو اللبن ، قالوا : وهذا مذهب الروم ومعظمهم الملكانية . قالوا : فمازجت الكلمة جسد المسيح فصارت شيئاً واحداً وصارت الكثرة قلة .

وذهبت طائفة من اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحماً ودماً وقالوا : وصارت شرذمة من كل صنف إلى أن المراد بالاتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت كظهور الصورة في المرآة ، والنقش في الخاتم .

ومنهم من قال : ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله على العرش عند المسلمين ، وذهب كثير من الطوائف إلى أن المراد بالاتحاد الحلول .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(١) .

يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لا غير ممن لم يأتهم
بما جاء به .

فيقال لهم من فسر مراد متكلم أي متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف
مراده فهو كاذب مفتر عليه ، وإن كاد المتكلم من آحاد العامة ، ولو كان المتكلم
من المتبئين الكذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم
يجز أن يكذب عليه ، فيقال : أراد كذا وكذا ، فإن الكذب حرام قبيح على كل
أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً ، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل
من خبر حاله علماً ضرورياً أنه لم يرد ذلك بل يعلم هذا ضرورياً أنه أراد العموم
فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ صيغة عامة وصيغة ﴿ مَنْ ﴾
الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ^(٢) .

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم . فإن هذا في

(١) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

(٢) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .

سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لما قدم على النبي ﷺ وفد نجران النصارى ، وروى أنهم كانوا ستين راكباً وفيهم السيد والأهيم والعاقب ، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها . وقد قال قبل هذا الكلام بدم دين النصارى الذين ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه حتى صار دينهم مركباً من حق وباطل ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، والمسيح قرر أكثر شرع التوراة ، وغير المعنى ، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْمَاءٌ مِمَّا سَمَوْا بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي يَدْعُونَ بِهَا الْأَلْهَامَ فَمَنْ أَتَأْتِيهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُكْمِ وَالنَّبُوءَةِ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) . فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر ، فمن اتخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر ، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) . ثم قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٣) .

قال ابن عباس وغيره من السلف : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٨١ .

لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه والآية تدل على ما قالوا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ - يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ النَّبِيِّينَ - لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابِهِ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ ^(١) وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم ، واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم كقوله تعالى : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصروهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ^(٢) . ومن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ ^(٦) .

ومنه قوله : ﴿ وَلئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(٧) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٨١ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٢ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٧٥ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ .

(٥) سورة النور آية رقم ٥٣ .

(٦) سورة فاطر آية رقم ٤٢ .

(٧) سورة لقمان آية رقم ٢٥ .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ (١) .
 وقوله : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .
 وقوله : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ (٣) .
 وقوله : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (٤) .
 وقوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) .
 وقوله : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٦) .
 وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَنَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكُمْ إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٧) .
 وقوله : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ (٨) وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخْرَنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ (٩) .

ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام (- والله - لئن أخرجوا لا يخرجون معهم - والله - ولئن قتلوا لا ينصرونهم) ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل للذكور عليه اختصاراً وإيجازاً ولا سيما فيما يكثر استعماله كالقسم وقوله : ﴿ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ

(١) سورة التوبة آية رقم ٦٥ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٩ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٦٠ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ٨٦ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٧٣ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٣٢ .

(٧) سورة الروم آية رقم ٥٨ .

(٨) سورة العنكبوت آية رقم ١٠ .

(٩) سورة هود آية رقم ٨ .

وَحِكْمَةٍ ﴿١﴾ هِيَ مَا الشَّرْطِيَّةُ وَالتَّقْدِيرُ ، أَي : شَيْءٌ أُعْطِيَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، وَلَا تَكْتَفُوا بِمَا عِنْدَكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ وَلَا يُحْمِلْنَكُمْ مَا آتَيْتُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ عَلَى أَنْ تَتْرَكُوا مَتَابَعَتَهُ ، بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَوْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ فَلَا تَسْتَغْنُوا بِمَا آتَيْتُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِنْ أَدْرَكَ مُحَمَّدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَاعَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ كِتَابٌ وَحِكْمَةٌ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَيَنْصُرَهُ كَمَا قَالَ : ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ (٢) وَقَدْ أَقْرَأَ الْأَنْبِيَاءَ هَذَا الْمِيثَاقَ وَشَهِدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٣) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٥) .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ٨١ تَكْمِلَةُ الْآيَةِ ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تَصْدُقُوا بِيَاظِلٍ وَإِمَّا أَنْ تَكْذِبُوا بِحَقِّهِ وَإِنَّهُ وَاللَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حُلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي «وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ «لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيًّا لَمَا وَسَعَهَا إِلَّا اتِّبَاعِي» .

(٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ٨١ .

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ٨١ .

(٤) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ٨٢ .

(٥) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آيَةُ رَقْمِ ٨٣ .

وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

قالت طائفة من السلف : لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى : نحن مسلمون ، فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٣﴾ فقالوا لا نحج ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٤﴾ .

فكل مَنْ لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دلّ عليه القرآن ، واليهود والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى في حديث مرفوع الى النبي ﷺ « مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً تَبْلُغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحْجْ فَلَيُمُتْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا » ﴿٥﴾ .

وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب ، وقد اتفق المسلمون على أن مَنْ جَحَدَ وجوب مباني الاسلام الخمس : الشهادتين ، والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت فهو كافر .

وأيضاً فقد قال تعالى في أول سورة آل عمران : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

(١) سورة آل عمران آية رقم ٨٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ .

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المناسك ٦ باب ما يوجب الحج ٢٨٩٦ بسنده عن ابن عمر وذكره . بلفظ : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة ولفظ يعني ﴿ من استطاع الى سبيل ﴾ ورواه الترمذي في الحج ٤ وفي التفسير سورة ٣ .

بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١﴾ .

فقد أمره تعالى بعد قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ أن يقول أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ . وأن يقول للذين أُوتُوا الكتاب وهم اليهود والنصارى والأمينين ، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أَسْلَمْتُمْ فالعَرَبُ الأميون يدخلون في لفظ الأمين باتفاق الناس .

وأما مَنْ سواهم : فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبنية أنه أرسل إلى جميع الناس .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢) .

فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأمين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين ، وإن لم يسلموا فقد قال : ﴿ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أي تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم ، فدل بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأمين ، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأمين وفي الصحيحين عن النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ - ٢٠ .

قال الامام احمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثني جبير بن عمرو القرشي ، حدثنا أبو سعيد الأنصاري عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال : سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب ، وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر . فقال : حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن المتوكل المسقلاني حدثنا عمر ابن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصاري ، حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده عن الزبير قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية ﴿ شهد الله لا إله إلا هو والملائكة ﴾ قال : وأنا أشهد أي رب .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ .

إلى هرقل ملك النصارى : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من أتبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك برعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجره مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (١) .

الإسلام دين جميع الأنبياء

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الاسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلى الحواريين ، وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٢) . وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان .

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله إلا الأرض : ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون . فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته ، وجعل جميع الأدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

قال النبي ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه الامام مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام .

(٣) سورة يونس آية رقم ٧١ - ٧٢ .

وأما الخليل فقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(١) .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) .

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ، ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتنَّ إلا وهم مسلمون . وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ^(٤) .

وقد قال تعالى عن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ - ١٣٢ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٦٧ - ٦٨ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠١ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٨٤ .

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَظْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفَرُّغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

قال تعالى في قصة سليمان : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

و ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى عن بلقيس التي آمنت بسليمان : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) .

وقال عن أنبياء بني اسرائيل : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ (٧) .

وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُّسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٨) .

(١) سورة الشعراء آية رقم ٥٠ - ٥١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٢٦ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٣٠ - ٣١ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٣٨ .

(٥) سورة النمل آية رقم ٤٢ .

(٦) سورة النمل آية رقم ٤٤ .

(٧) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .

(٨) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(١) .

فهؤلاء الأنبياء كلهم وأتباعهم ، كلهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين وهذا مما يبين أن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ^(٣) .

لا يختص بمن بعث إليه محمد ﷺ ، بل هو حكم عام في الأولين والآخرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٩ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١١١ - ١١٢ .

﴿ وهو محسن ﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة فإن كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل .

تفسير سورة النساء



فصل في ما يتعلق بشهوات الأدميين

وقال شيخ الاسلام

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ
تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ (١) فذكر ما يتعلق بشهوات الأدميين من سائر ما تشتهيه
أنفسهم حتى النساء والمردان ، وقال : العبد يجب عليه إذا وقع في شيء من
ذلك أن يجاهد نفسه وهواه وتكون مجاهدته لله تعالى وحده .

ثم قال : وميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم ، وقد
يبتلى كثير منهم بالميل إلى الذكران كالمردان ، وإن لم يكن بفعل الفاحشة
الكبرى كان بما هو دون ذلك من المباشرة ، وإن لم تكن كان بالنظر ،
ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فإذا ابتلى المسلم
ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى ، وهو مأمور بهذا
الجهاد ، وليس هو أمراً حرمه على نفسه فيكون في طاعة نفسه وهواه ؛ بل هو
حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه ، فتكون المجاهدة للنفس في طاعة الله
ورسوله . وفي حديث أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً .

(١) سورة النساء آية رقم ٢٧ .

« من عشق فعفَّ وكنتم وصبر ثم مات فهو شهيد »^(١) وأبو يحيى في حديثه نظر ؛ لكن المعنى الذي ذكر فيه دلّ عليه الكتاب والسنة ، فإن الله أمره بالتقوى والصبر ، فمن التقوى أن يعفَّ عن كل ما حرم الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد أو رجل . والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله فإن هذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيان :

« أحدهما » أن يكتُم بئهِ وألمه ، ولا يشكو إلى غير الله ، فمتى شكَا إلى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانين ؛ لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد ؛ بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين .

فإن شكَا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفي ، وهذا حسن ، وإن شكَا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكَا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة كما أن المصاب يشكي مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ، ولا الاستعانة على معصية ، فهذا ينقص صبره ، لكن لا يَأْثُم مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم

(١) قال صاحب كشف الخفا : رواه الخطيب في ترجمة محمد بن داود الأصبهاني عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ فهو شهيد ، ورواه جعفر السراج في مصارع العشاق عن سويد بلفظ « من عشق فظفر فعف مات شهيداً » ورواه ابن المزيان عن أبي بكر الأزرق عن سويد موقوفاً ، وقال ابن شيخه حدثه به مرفوعاً فعاتبه فيه فأسقط الرفع ثم صار بعد يرويه موقوفاً ، وقد رواه الزبير بن بكار عن مجاهد مرفوعاً بسند صحيح وذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج فقال : فإن أهلك هوى أهلك شهيداً وإن تمنن بقيت قرير عين روى هذا لنا قوم ثقات نأوا بالصدق عن كذب ومين وقال في الدرر حديث : من عشق فعف فكنتم فمات فهو شهيد له طرق عن ابن عباس ، وأخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور ، والخطيب في تاريخ بغداد وابن عساكر في تاريخ دمشق ، والدليمي بلا سند عن أبي سعيد رفعه : العشق من غير رية كفارة للذنوب ، قال : وله طرق عند البيهقي .

كالمصاب الذي يتسخط .

و« الثاني » أن يكتّم ذلك فلا يتحدث به مع الناس ؛ لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة ، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشتهت وتمنت وتتيّمت ، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيّه كان ذلك داعياً له إلى الفعل ، والنساء متى رأين البهائم تنزوا الذكور منها على الإنثاء ملّن إلى الباءة ؛ والمجامعة والرجل إذا سمع من يفعل مع المردان والنساء أو رأى ذلك أو تخيله في نفسه دعاه ذلك إلى الفعل ، وإذا ذكر الإنسان طعاماً اشتهاه ومال إليه ، وإن وصف له ما يشتهيّه من لباس أو امرأة أو مسكن أو غير ذلك مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حنّ إليه .

فكلما كان في نفس الإنسان محبته إذا تصوره تحركت المحبة والطلب إلى ذلك المحبوب المطلوب ، إما إلى وصفه وإما إلى مشاهدته ، وكلاهما يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخیل بالسمع والرؤية أو التفكير في بعض الأمور المتعلقة به ؛ فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى تخيلة أخرى فتحرّكت داعية المحبة ، سواء كانت المحبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس إلى الحج إذا ذكر الحجاز ، وتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلي ونحو ذلك ؛ لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهباً إلى المحبوب فصار ذكرها يذكر المحبوب ، وكذلك إذا ذكر رسول الله ﷺ تذكر به وتحركت محبته .

فالمبتلي بالفاحشة والعشق . إذا ذكر ما به لغيره تحركت النفوس إلى جنس ذلك ؛ لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة ؛ فإذا تصورت جنس ذلك تحركت إلى المحبوب ، ولهذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة (١) .

(١) قال تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا =

فصل

في تفسير معنى النشوز في الآية

وسُئِلَ الشيخ رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَاَنْشُرُوا ﴾ ^(٢) إلى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ بين لنا شيخنا هذا النشوز من ذاك ؟ فأجاب : الحمد لله رب العالمين « النشوز » في قوله تعالى :

﴿ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾

هو أن تنشز عن زوجها فتتفر عنه ، بحيث لا تطيعه إذا دعاها للفراش أو تخرج من منزله بغير إذنه ، ونحو ذلك مما فيه امتناع عما يجب عليها من طاعته .

وأما النشوز في قوله : ﴿ إِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَاَنْشُرُوا ﴾ فهو النهوض

= والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . سورة النور آية رقم ١٩ .

والفاحشة : الفعل القبيح المفرط القبح ، وقيل الفاحشة في هذه الآية القول السيء .

(١) سورة النساء آية رقم ٣٤ .

(٢) سورة المجادلة آية رقم ١١ .

والقيام والارتفاع ، وأصل هذه المادة هو الارتفاع ^(١) والغلظ ومنه النشز من الأرض وهو المكان المرتفع الغليظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ ^(٢) أي نرفع بعضها إلى بعض ، ومن قرأ ﴿ نُنْشِزُهَا ﴾ أراد نحييها ، فسمى المرأة العاصية ناشزاً لما فيها من الغلظ والارتفاع عن طاعة زوجها ، وسمى النهوض نشوزاً ، لأن القاعد يرتفع عن الأرض . والله أعلم .

(١) النشز بالفتح ، والنشز بالتحريك المكان المرتفع وجمع النشز في القلة أنشز مثال فُلْس وأفلس قال منظور بن حبة :

كَأَنَّهُ فِي الرَّمْلِ مَا حَلَزَا أَمَارَ مَسْحَاةٍ يَشُقُّ الْأَنْشِزَا
وجمع الكثرة نشوز ، وأما النشاز بالفتح فهو المكان المرتفع . وإنشاز عظام الميت رفعها إلى مواضعها وتركيب بعضها على بعض ومنه قوله تعالى ﴿ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ قال ثعلب : وهذه هي القراءة المختارة .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٩ .

فصل في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ، الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ (١) في النساء ، وفي الحديد ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ (٢) .

قد تؤولت في البخل بالمال والمنع ، والبخل بالعلم ونحوه ، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك ، كما تأولوا قوله : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣) النفقة من المال ، والنفقة من العلم ، وقال معاذ (٤) في العلم : تعلمه لمن لا يعلمه صدقة . وقال أبو الدرداء (٥) :

(١) سورة النساء آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٣ ، ٢٤ وهي محرفة في المطبوعة وصحتها « والله لا يحب ... » وإن كان يقصد سورة النساء ٣٧ فهي « إن الله لا يحب ... » .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣ .

(٤) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي ، أبو عبد الرحمن صحابي جليل ، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي - ﷺ .

- وشهد العقبة مع الأنصار السبعين ، وشهد بدرأ وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - بعثه رسول الله قاضياً ومرشداً لأهل اليمن توفي عام ١٨ هـ [راجع ابن سعد ٣ : ١٣٠ والإصابة ت ٨٠٣٩ وأسد الغابة ٤ : ٣٧٦] .

ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون وقد نفعهم الله بها . أو كما قال . وفي الأثر نعمة العطية ونعمت الهدية الكلمة من الخبر يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له ، أو كما قال : وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء ؛ ولهذا كان الله ، وملائكته وحيتان البحر ، وطير الهواء ، يصلون على معلم الناس الخير ، كما أن كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون ، وبسط هذا كثير في فضل بيان العلم وذم ضده والغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به ، فالبخيل به الذي منعه ، والمختال إما أن يختال فلا يطلبه ولا يقبله ، وإما أن يختال على بعض الناس فلا يبذله ، وهذا كثيراً ما يقع عند بعض الناس إنه يبخل بما عنده من العلم ، ويختال به ، وأنه يختال عن أن يتعدى من غيره ، وضد ذلك التواضع في طلبه ، وبذله ، والتكرم بذلك .

(٥) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً بالمدينة ثم انقطع للعبادة ولما ظهر الاسلام اشتهر بالشجاعة والنسك وفي الحديث عويمر حكيم أمي « و » نعم الفارس عويمر « توفي عام ٣٢ هـ . [راجع الإصابة ت ٦١١٩ وحلية الأولياء ١ : ٢٠٨] .

فصل

سر الجمع بين الخيلاء والبخل في موضع وبين العطاء والتقوى في موضع

قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل ، كما في قوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ، الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ ^(١) في النساء والحديد وضد ذلك الإعطاء والتقوى المتضادة للتواضع ، كما قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ^(٣) وهذا الأصلان هما جماع الدين العام ، كما يقال التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله .

فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع ، وذلك أصل التقوى والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم ، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له ، والتواضع له ، والذل له وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر . والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم ، وذلك مضاد للبخل .

(١) سورة النساء آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة الليل آية رقم ٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

ولهذا وغيره كثر في القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة في آيات من كتاب الله .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة ^(١) بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاءً له ، كما قال عبد الله بن مسعود : ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنت في السوق ، وهذا المعنى - وهو دعاء الله أي قصده والتوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع - هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة كصلاة القائم والقاعد والمضطجع . والقارئ والأمي والناطق والأخرس وإن تنوعت حركاتها وألفاظها ، فإن إطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطىء المنافي للاشتراك والمجاز ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك ، ومنهم من ادعى المجاز ، بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي ، أو مزيدة ، أو على غير ذلك ، وليس الأمر كذلك ؛ بل اسم الجنس العام المتواطىء المطلق إذا دل على نوع أو عين ، كقولك هذا الإنسان وهذا الحيوان ، أو قولك : هات الحيوان الذي

(١) الصلاة الدعاء ، والرحمة والاستغفار ، وحسن الشاء من الله تعالى على رسوله ، وعبادة فيها ركوع وسجود ، وصلاة الله للمسلمين هي في التحقيق تزكيتهم لهم ، وهي من الملائكة والناس : الدعاء والاستغفار ، والصلاة : من العبادات التي لم تنفك شريعة منها ، وإن اختلفت صورها بحسب شرع وشرع ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ . وقال بعضهم : أصل الصلاة من الصلى ، ومعنى صلى الرجل أزال عن نفسه بهذه العبادة الصلى الذي هو نار الله الموقدة ، ويسمى موضع العبادة الصلاة ، ولذلك سميت الكنائس : صلوات قال تعالى : ﴿ لهدمت صوامع وبيع وصلوات ﴾ . وقد وردت الصلاة في القرآن على وجوه .

- الأول : بمعنى الدعاء : ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ .
- الثاني : بمعنى الاستغفار : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ .
- الثالث : بمعنى الرحمة : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ .
- الرابع : بمعنى الخوف : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ .
- الخامس : بمعنى صلاة العيد : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

عندك وهي غنم ، فهنا اللفظ قد دل على شيئين : على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد ، وعلى ما يختص به هذا النوع أو العين . فاللفظ المشترك الموجود في جميع التصاريف على القدر المشترك ، وما قرن باللفظ من لام التعريف مثلاً أو غيرها دل على الخصوص والتعيين ، وكما أن المعنى الكلي المطلق لا وجود له في الخارج فكذلك لا يوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة .

فإن الكلام إنما يفيد بعد العقد والتركيب ، وذلك تقييد وتخصيص كقولك أكرم الإنسان ، أو الإنسان خير من الفرس . ومثله قوله : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ ^(١) ونحو ذلك ومن هنا غلط كثير من الناس في المعاني الكلية ، حيث ظنوا وجودها في الخارج مجردة عند القيود وفي اللفظ المتواطىء حيث ظنوا تجرده في الاستعمال عن القيود والتحقيق : أنه لا يوجد المعنى الكلي المطلق في الخارج إلا معيناً مقيداً ، ولا يوجد اللفظ الدال عليه في الإستعمال إلا مقيداً مخصصاً ، وإذا قدر المعنى مجرداً كان محله الذهن ، وحينئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود في الإستعمال مجرداً .

و«المقصود هنا» ان اسم الصلاة فيه عموم وإطلاق ، ولكن لا يستعمل إلا مقروناً بقيد إنما يختص ببعض موارده كصلواتنا ، وصلاة الملائكة والصلاة من الله سبحانه وتعالى ، وإنما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا ، مع علمهم بأن هذا ليس مثل هذا ، فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكون صلاته مثل صلاته وإن كان بينهما قدر متشابه ، كما قد حققنا هذا في الرد على الاتحادية والجهمية والمتفلسفة ونحوهم .

ومن هذا الباب أسماء الله وصفاته التي يسمى ويوصف العباد بما يشبهها

(١) قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمُ اقْمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . سورة لقمان آية ١٧ .
وقال تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ سورة الاسراء آية رقم ٧٨ .

كالحي والعليم والقدير ونحو ذلك .

وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : كل معروف صدقة ^(١) ، ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « على كل مسلم صدقة » ^(٢) .

وأما الزكاة المالية المفروضة فإنما تجب على بعض المسلمين في بعض الأوقات والزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة ، كما قال النبي ﷺ ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » قالوا : فإن لم يستطع ؟ قال : « يكف نفسه عن الشر » ^(٣) . وأما قوله في الحديث الصحيح حديث أبي ذر وغيره : « كل سُلَامَى ^(٤) من الناس عليه صدقة

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ٣٣ باب كل معروف صدقة ٦٠٢١ حدثنا أبو غسان ، قال : حدثني محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنها عن النبي - ﷺ - وذكره . وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ٤٥ باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر ١٩٧٠ - بسنده عن جابر بن عبد الله وذكره وفيها زيادة [وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرع من دلوك في إناء أخيك] وفي الباب عن أبي ذر قال الترمذي : هذا حديث حسن ، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ١٦ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٥٢ (١٠٠٥) بسنده عن حذيفة في حديث قتيبة قال : قال نبيكم - ﷺ - وقال ابن أبي شيبة وذكره . وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٤٤ ، ٣٦٠ ، ٤ : ٢٠٧ (حلي) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب ٣٣ باب كل معروف صدقة ٦٠٢٢ حدثنا شعبة ، حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه زيادة [قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل . ؟ قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يفعل . ؟ قال : فليأمر بالخير أو قال بالمعروف قال : فإن لم يفعل ؟ قال : فليمسك عن الشر فإنه له صدقة] . وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ١٦ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ، ٥٥ (١٠٠٨) بسنده عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي - ﷺ - بالزيادة السابقة عند البخاري . وعند الامام أحمد في المسند ٤ : ٣٩٥ (حلي) .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الزكاة ١٦ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع =

كل يوم تطلع فيه الشمس» قال : تعدل بين الإثنين صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة» فهذا - إن شاء الله - كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق ، فإنه بمثل هذا العامل يحصل الرزق والنصر والهدى ، فيكون ذلك من الصدقة على الخلق ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة وجنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة والصدقة ، ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة وصدقة ؟ وكذلك كل دعاء للغير واستغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضاً ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكلّ الله به مَلَكًا ، كلما دعا له بدعوة قال المَلَكُ الموكّل به : آمين ولك بمثل » (١) .

= من المعروف ٥٦ (١٠٠٩) حدثنا عبد الرزاق بن همام ، حدثنا معمر بن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد - رسول الله - ﷺ - فذكر أحاديث منها وقال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٣ باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ٨٦ (٢٧٣٢) حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا أبي عن طلحة بن عبيد الله بن كريب ، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وأخرجه أبو داود في كتاب الوتر ٢٩ .

فصل في قول الناس : الآدمي جبار ضعيف

قول الناس : الآدمي جبار ضعيف ، أو فلان جبار ضعيف ، فإن ضعفه يعود إلى ضعف قواه ، من قوة العلم والقدرة ، وأما تجبره فإنه يعود إلى اعتقاداته وإراداته ، أما اعتقاده فإنه يتوهم في نفسه أنه أمر عظيم فوق ما هو ولا يكون ذلك ، وهذا هو الاختيال والخيلاء^(١) والمخيلة ، وهو أن يتخيل عن نفسه ما لا حقيقة له ، ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظماً ونشراً وطلبه للمدح الباطل ، فإنه يورث هذا الاختيال .

وأما الإرادة فإرادة أن يتعظم ويعظم ، وهو إرادة العلو في الأرض والفخر على الناس ، وهو أن يريد من العلو ما لا يصلح له أن يريده ، وهو الرئاسة والسلطان ، حتى يبلغ به الأمر إلى مزاحمة الربوبية كفرعون^(٢) ، ومزاحمة النبوة ، وهذا موجود في جنس العلماء والعباد والأمراء وغيرهم .

وكل واحد من الاعتقاد والإرادة يستلزم جنس الآخر ؛ فإن من تخيل أنه عظيم أراد ما يليق بذلك الاختيال ، ومن أراد العلو في الأرض فلا بد أن

(١) الخيلاء : التكبر عن تخيل فضيلة تراءى للانسان من نفسه وفي الحديث : قال النبي - ﷺ - لأبي بكر - رضي الله عنه « إنك لست تصنع ذلك خيلاء » .

(٢) قال تعالى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ . سورة القصص آية رقم ٣٨ .

يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره ، حتى يطلب ذلك .

ففي الإرادة يتخيله مقصوداً ، وفي الاعتقاد يتخيله موجوداً ، ويطلب توابعه من الإرادات .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ^(١) وقال النبي ﷺ « الكبر بطر الحق وغمط الناس » ^(٢) فالفخر يشبه غمط الناس ، فإن كلاهما تكبر على الناس ، وأما بطر الحق - وهو جحده ودفعه - فيشبه الاختيال الباطل ، فإنه تخيل أن الحق باطل بجحده ودفعه .

ثم هنا وجهان :

« أحدهما » أن يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات وهو أن يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها ، فيجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها ، ويتخيل الباطل الذي يوافق هواها وعلوها ، ويجعل الفخر وغمط الناس من باب الإرادات ، فإن الفاخر يريد أن يرفع نفسه ويضع غيره وكذلك غامط الناس .

يؤيد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال : « أنه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » ^(٣) فبين أن التواضع المأمور به ضد البغي

(١) سورة لقمان آية رقم ١٨ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ٦١ باب ما جاء في الكبر ١٩٩٩ - حدثنا محمد بن المثنى ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، قالوا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا شعبة عن أبان بن تغلب عن فضيل بن عمرو عن إبراهيم عن علقمة ، عن عبد الله عن النبي - ﷺ - وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وأخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٤٢٧ (حلي) .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ١٦ باب الصفات التي يعرف =

والفخر . وقال في الخيلاء التي يبغضها الله : « الاختيال في الفخر والبغي » فكان في ذلك ما دل على أن الاستطالة على الناس ، إن كانت بغير حق فهي بغي » ، إذ البغي مجاوزة الحد . وإن كانت بحق فهي الفخر ؛ لكن يقال على هذا : البغي يتعلق بالإرادة فلا يجوز أن يجعل هو من باب الاعتقاد وقسيمه من باب الإرادة ، بل البغي كله في الأعمال والفخر في الأقوال ، أو يقال : البغي بطل الحق والفخر غمط الناس .

« الوجه الثاني » أن يكونا جميعاً متعلقين بالاعتقاد والإرادة ، لكن الخيلاء غمط الحق يعود إلى الحق في نفسه ، الذي هو حق الله وإن لم يتعلق به حق آدمي ، والفخر وغمط الناس يعود إلى حق آدميين ؛ فيكون التنوع لتمييز حق آدميين مما هو حق الله لا يتعلق آدميين ؛ بخلاف الشهوة في حال الزنا ، وأكل مال الغير ، فلما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ، الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ (١)

والبخل منع النافع : قيد هذا بهذا ، وقد كتبت فيما قبل هذا من التعاليق : الكلام في التواضع والإحسان والكلام في التكبر والبخل .

= بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٦٤ حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين ، عن مطر ، حدثني قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار أخيه بني مجاشع قال : قام فينا رسول الله - ﷺ - ذات يوم خطيباً فقال : « إن الله أمرني » وساق الحديث بمثل حديث هشام عن قتادة وزاد فيه وذكره .

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٢٣ باب البغي بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

في الزوائد : هذا إسناد حسن لاختلاف في اسم سنان بن سعد أو سعد بن سنان .

وأخرجه أبوداود في الأدب ٤٠ .

(١) سورة النساء آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

فصل

في تفسير قوله تعالى :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾

قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(١) الآية بعد قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) لو اقتصر على الجمع أعرض العاصي عن ذم نفسه والتوبة من الذنب ، والاستعاذة من شره ، وقام بقلبه حجة إبليس ، فلم تزده إلا طرداً ، كما زادت المشركين ضلالاً حين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ ^(٣) ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والإيمان بالقدر ، واللجوء إلى الله في الهداية ، كما في خطبته ﷺ : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره » فيشكره ويستعينه على طاعته ويستغفره من معصيته ، ويحمده على إحسانه . ثم قال : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا » ^(٤) إلى آخره . لما استغفر من

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٨ وتكملتها ﴿ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح ١٩ باب خطبة النكاح ١٨٩٢ - حدثنا عيسى بن يونس ، حدثني أبي عن جدي أبي اسحاق عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : أوتي رسول الله ﷺ - جوامع الخير ، وخواتمه أو قال : فواتح الخير فعلمنا خطبة الصلاة وخطبة الحاجة وذكره . وذكره الترمذي في كتاب النكاح ١٧ باب ما جاء في خطبة النكاح ١١٠٥ - حدثنا قتيبة ، حدثنا عبث بن القاسم عن الأعمش ، عن أبي اسحاق عن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : وذكره .

قال أبو عيسى : حديث عبد الله حديث حسن رواه الأعمش عن أبي اسحاق عن أبي الأحوص =

المعاصي استعاده من الذنوب التي لم تقع . ثم قال : « ومن سيئات أعمالنا » أي ومن عقوباتها . ثم قال : « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ » الخ . شهادة بأنه المتصرف في خلقه ، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد ، هذا كله مقدمة بين يدي الشهادتين ، فإنما يتحققان بحمد الله وإعانتة ، واستغفاره واللجوء إليه ، والإيمان بأقداره ، فهذه الخطبة عقد نظام الإسلام والإيمان .

الحسنات من الله تعالى

وقال كون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه :
« الأول » أن النعم تقع بلا كسب .

« الثاني » أن عمل الحسنات من إحسان الله إلى عبده ، فخلق الحياة وأرسل الرسل وحبب إليهم الإيمان ، وإذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك ، وإذا علمت أن الشر لا يحصل إلا من نفسك تبت فزال .
« الثالث » أن الحسنة تضاعف .

« الرابع » أن الحسنة يحبها ويرضاها ، فيحب أن ينعم ويحب أن يطاع ؛ ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم إليه والشر إلى محله ، كما قال إمام الحنفاء : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ^(١) « الخامس » أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها بكل اعتبار ، وأما السيئة فما قدرها إلا لحكمة .

« السادس » أن الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة لأنها إما فعل مأمور أو ترك محذور ، والترك أمر وجودي ، فتركه لما عرف أنه ذنب

= عن عبد الله - عن النبي - ﷺ ورواه الإمام أحمد في المسند ١ : ٣٩٢ ، ٤٢٣ (حلي) ورواه النسائي في الجمعة ٢٤ ، وفي النكاح ٣٩ .
(١) سورة الشعراء آية رقم ٧٨ - ٨٠ .

وكراهته له ومنع نفسه منه أمور وجودية ، وإنما يثاب على الترك على هذا الوجه .

وقد جعل النبي ﷺ البغض ^(١) في الله من أوثق عرى الإيمان وهو أصل الترك ، وجعل المنع لله من كمال الإيمان وهو أصل الترك . وكذلك براءة الخليل ^(٢) من قومه المشركين ومعبودهم ليست تركاً محضاً ؛ بل صادراً عن بغض وعداوة . وأما السيئات فمنشؤها من الظلم والجهل . وفي الحقيقة كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو تم العلم بها لم يفعلها ؛ فإن هذا خاصة العقل ، وقد يغفل عن هذا كله بقوة وارد الشهوة ، والغفلة ، والشهوة أصل الشر كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ ^(٣) الآية : « السابع » أن ابتلاءه له بالذنوب عقوبة له على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه .

« الثامن » أنما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام الله عليه ؛ فيرجع في ذلك إلى الله ، ولا يرجو إلا هو ، فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره ، وإنما يستحق من الشكر جزاء على ما يسره الله على يديه ؛ ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله ، فإنه المنعم بما لا يقدر عليه مخلوق ، ونعم المخلوق منه أيضاً ، وجزاؤه على الشكر والكفر لا يقدر أحد على مثله .

(١) روى الامام أحمد في المسند بسنده عن عمرو بن الجموح أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : لا يحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب الله تعالى ويبغض الله ، فإذا أحب الله تبارك وتعالى وأبغض الله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله وأن أوليائي من عبادي وأحبابي من خلقي الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم .

(٢) قال تعالى : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنني بريء مما تشركون ﴾ . الأنعام آية رقم ٧٨ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

فإذا عرف أن ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١) .

صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده ، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له ، والشر انحصر سببه في النفس ؛ فعلم من أين يؤتى فتاب واستعان بالله ، كما قال بعض السلف : لا يرجوَّ عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه وقد تقدم قول السلف ابن عباس وغيره : إنما أصابهم يوم أحد مطلقا كان بذنوبهم لم يستثن أحد ، وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ؛ لئلا يظن أنه عام مخصوص .

« التاسع » أن السيئة إذا كانت من النفس والسيئة خبيثة : كما قال تعالى ﴿ الْحَيِّثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ (٣) وقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (٤) والأقوال والأفعال صفات للفاعل ، فإذا اتصفت النفس بالخبت فمحلها ما يناسبها ، فمن أراد أن يجعل الحيات يعاشرن الناس كالسنائير لم يصلح ؛ بل إذا كان في النفس خبت ظهرت حتى تصلح للجنة ، كما في حديث أبي سعيد الذي في الصحيح وفيه : « حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » (٥) .

(١) سورة فاطر آية رقم ٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٢٦ .

(٣) سورة إبراهيم آية رقم ٢٦ .

(٤) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب المظالم (١) وفي كتاب الرقاق ٤٨ باب القصاص يوم القيامة ، وهي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور ، ٦٥٣٥ - حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا وذكره .

ورواه الامام أحمد في المسند ٣ : ١٢ ، ٦٢ ، ٧٤ (حلي)

فإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ ^(١) ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ^(٢) الخ .

وعلم أن الرب عليم حكيم ، رحيم عدل ، وأفعاله على قانون العدل والإحسان ، كما في الصحيح « يمين الله ملأى » ^(٣) . إلى قوله : والقسط بيده الأخرى » وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل .

إلى أن قال : ومن سلك مسلكهم غايته إذا عظم الأمر والنهي أن يقول - كما نقل عن الشاذلي - ^(٤) يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية تستلزم

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة آية رقم ٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣ فيما أنكرت الجهمية ١٩٧ - حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا محمد بن اسحاق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : يمين الله ملأى لا يغيضها شيء سحاء الليل والنهار ويبيده الأخرى الميزان يرفع القسط ويخفض قال : أرايت ما أنفق منذ خلق الله السموات والأرض ؟ .. فإنه لم يتقص عما في يديه شيئاً .

وأخرجه الترمذي في تفسير سورة (٥) ٣ - وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٢ / ٣١٣ ، ٥٠٠ (حلي) .

(٤) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز الشاذلي المغربي أبو الحسن ، رأس الطائفة الشاذلية « من المتصوفة » وصاحب الأوراد المسماة (حزب الشاذلي) ولد في غمازة من قرى أفريقية عام ٥٩١ هـ وتفقّه وتصوف بتونس ، وسكن (شاذلة) فنسب إليها وسكن الاسكندرية وتوفي بصحراء (عيذاب) في طريقه إلى الحج عام ٦٥٦ هـ يتنسب إلى الإدارة أصحاب المغرب .

قال الذهبي نسب مجهول لا يصح ولا يثبت كان أولى به تركه . [راجع نكت الهميان ٢١٣ وطبقات الشعرا ٢ : ٤] .

تعطيل الأمر والنهي ، مما يوجب أن يجوز عنده أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء كما في حزب الشاذلي . وآخرون من عوامهم يجوزون أن يكرم الله بكرامات الأولياء لمن هو فاجر وكافر ، ويقولون : هذه موهبة ، ويظنونها من الكرامات وهي من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسحرة والكهان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ (١) ، وصح قوله : « لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » (٢) .

فعدل كثير من المنتسبين إلى الإسلام إلى أن نبذ القرآن وراء ظهره واتباع ما تتلو الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ونهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ؛ بل يعظم من يأتي ببعض الخوارق .

ثم ميزهم من يعرف أنه من الشياطين ؛ لكن يعظمه لهواه ، ويفضله على طريقة القرآن ، وهؤلاء كفار ، قال الله تعالى فيهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ (٣) الخ .

قال : وفي قوله تعالى : ﴿ مِنْ نَفْسِكَ ﴾ من الفوائد : إن العبد لا يطمئن إلى نفسه ، ولا يشتغل بلام الناس وذمهم ؛ بل يسأل الله أن يعينه على طاعته ؛

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٤ باب قول النبي - ﷺ - « لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » ٧٣٢٠ - حدثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي - ﷺ - وذكره وأخرجه الامام مسلم في كتاب العلم ٣ باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٦ - (٢٦٦٩) حدثني سويد بن سعيد ، حدثنا حفص بن ميسرة حدثني بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٣) سورة النساء آية رقم ٥١ .

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه دعاء الفاتحة ، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة ، ويدخل فيه من أنواع الحلجات ما لا يمكن حصره ، وببينه أن الله سبحانه لم يقص علينا قصة في القرآن إلا لنعبر ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ؛ فلولا أن في النفوس ما في نفوس المكذبين للرسول لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ؛ ولكن الأمر كما قال تعالى :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾^(١) وقوله :
﴿ اتَّوَاصُوا ﴾^(٢) وقوله : ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾^(٣) ؛ ولهذا في الحديث « لتسلكن سنن من كان قبلكم »^(٤) .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به ، وطلب أن يكون شريكاً له ، وكلا هذين وقع .

وقال بعضهم ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف أحوال الناس رأى ما يبغض نظيره وأتباعه حسداً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله من يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى ؛ ولهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون .

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١١٨ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث عند الامام البخاري والامام مسلم - وذكره ابن ماجه في كتاب الفتن

١٧ باب افتراق الامم - ٣٩٩٤ - حدثنا يزيد بن هارون عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله - ﷺ - ولفظه : لتبعن سنة من كان قبلكم باعاً ببيع ، وذراعاً بذراع ، وشبراً بشبر ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم فيه .

قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن إذا ؟

في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

وقال الشيخ الامام العالم العلامة

شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة الحرّانی ، تغمده الله تعالى برحمته .

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

فصل

في توضيح أقوال العلماء ورجال الفرق والرد عليهم

في قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(١) وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة .

هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ ^(٢) الآيات .

إلى أن ذكر صلاة الخوف ، وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول . والتحاكم إلى الله وإلى الرسول ، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول . فكانت تلك الآيات : تبيننا للإيمان بالله وبالرسول ، ولهذا قال فيها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(٣) وهذا جهاد عما جاء به الرسول ،

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٦٥ .

وشجر معناه اختلف واختلط ، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه ويقال لعصى الهودج : شجار

لتداخل بعضها في بعض قال الشاعر :

نفس فداؤك والرماح شواجر
والقوم ضنك للقاء قيام =

وقد قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(١) وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يَشْرَهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ ﴾ ^(٣) - الآية .

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

وقال طرفة

وهم الحكام أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر الشجر
وقالت طائفة : نزلت في الزبير مع الأنصاري ، وكانت الخصومة في سقي البستان فقال عليه السلام : اسق أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك . فقال الخصم : أراك تحابي ابن عمك ، فتلون وجه الرسول - ﷺ - وقال للزبير اسق ثم احبس الماء حتى يبلغ الجدر : والحديث رواه البخاري عن علي بن عبد الله بن محمد بن جعفر عن معمر ، ورواه مسلم عن قتيبة عن الزهري . [راجع تفسير القرطبي ٥ : ٢٦٧ وتفسير الطبري وأسباب النزول للواحدي رقم ٦٥] .

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٤ .

(٣) سورة التوبة الآيات رقم ١٩-٢١ .

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١﴾ .

وذكر بعد آيات الجهاد إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، ونهيه عن ضد ذلك ، وذكره فضل الله عليه ورحمته في حفظه وعصمته من إضلال الناس له وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وذم من شاق الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين ، وتعظيم أمر الشرك وشديد خطره وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء - إلى أن بين أن أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التي شرعها لا بالبدع والأهواء وهل أهل ملة إبراهيم ، الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٢) فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم ، وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على السن رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة ، وبين أن ترك الجهاد : لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدرتهم الموت ، ولو كانوا في بروج مشيدة ، فلا ينالون بترك الجهاد منفعة ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة ، فقال تعالى :

(١) سورة الصف آية رقم ١٠ - ١٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (١) .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون وقيل : نافقوا لما كتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جبن وفشل . فكان في قلوبهم مرض كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ ، طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ - الآية (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٣) .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَا لِلْهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟ ﴾ (٤) .

(١) سورة النساء آية رقم ٧٧ .

« قل متاع الدنيا قليل » والمتاع منفعة الدنيا والاستمتاع بلذاتها وسماء قليلاً لأنه لا بقاء له . وقال النبي - ﷺ - « مثلي ومثل الدنيا كراكب قال قيلولة تحت شجرة ثم راح وتركها » .

(٢) سورة محمد آية رقم ٢٠ - ٢١ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ١٢ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٧٨ :

قال الامام القرطبي بعد أن وضع أقوال العلماء في معنى البروج وفي لسان العرب وقول عامر =

فالضمير في قوله ﴿ وإن تصبهم ﴾ يعود إلى من ذكر ، وهم الذين ﴿ يخشون الناس ﴾ أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما في مواضع كثيرة وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود ، وقيل : كانوا منافقين وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء ، والمعنى يعم كل من كان كذلك ، ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأمر بالجهاد : أولى . ثم إذا تناول الذم هؤلاء : فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى .

والذي عليه عامة المفسرين : أن ﴿ الحسنة ﴾ و ﴿ السيئة ﴾ يراد بهما النعم والمصائب . ليس المراد : مجرد ما يفعله الإنسان باختياره باعتباره من الحسنات أو السيئات .

= ابن الطفيل للنبي - ﷺ - هل لك في حصن حصين ومنعة . . ؟
 قال : هذه الآية ترد على القدرية في الأجل لقوله تعالى ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .
 فعرفهم بذلك أن الأجل متى انقضت فلا بد من مفارقة الروح الجسد ، كان ذلك بقتل أو موت أو غير ذلك مما أجرى الله العادة بزهرها به .
 وقالت المعتزلة : إن المقتول لو لم يقتله القاتل لعاش . . ؟؟

فصل

« حقيقة الحسنات والسيئات في كتاب الله » .

ولفظ ﴿ الحسنات ﴾ و ﴿ السيئات ﴾ في كتاب الله : يتناول هذا وهذا قال الله تعالى عن المنافقين ﴿ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إِن تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا : قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِذَا أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٤) .

وقال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ (٥) ذكر هذا بعد قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ

(١) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٦٨ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٤٨ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ١٣١ .

مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١﴾

وأما الأعمال المأمور بها والمنهي عنها : ففي مثل قوله تعالى :
﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا
مِثْلُهَا ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى
لِلَّذَاكِرِينَ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٤) .

وهنا قال ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ
نَفْسِكَ ﴾ (٥) ولم يقل : وما فعلت وما كسبت كما قال :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (٦)
وقال تعالى : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ (٧)
وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ (٨)
﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ (٩)
وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ
قَرِيْباً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ (١٠) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ (١١) .
وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ
وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاْجِعُونَ ﴾ (١٢) .

-
- | | |
|--------------------------------|--------------------------------------|
| (١) سورة الأعراف آية رقم ١٣٠ . | (٧) سورة المائدة آية رقم ٤٩ . |
| (٢) سورة القصص آية رقم ٨٤ . | (٨) سورة التوبة آية رقم ٥٢ . |
| (٣) سورة هود آية رقم ١١٤ . | (٩) سورة التوبة آية رقم ٥٢ . |
| (٤) سورة الفرقان آية رقم ٧٠ . | (١٠) سورة الرعد آية رقم ٣١ . |
| (٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ . | (١١) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ . |
| (٦) سورة الشورى آية رقم ٣٠ . | (١٢) سورة البقرة آية رقم ١٥٥ - ١٥٦ . |

فلهذا كان قول ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ و ﴿ مِنْ سَيِّئَةٍ ﴾ متناول لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب التي تسوءه .

تفسير السلف لهذه الآية

فالآية متناولة لهذا قطعاً ، وكذلك قال عامة المفسرين قال أبو العالية ^(١) : ﴿ إِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ قال : هذه في السراء ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ ^(٢) قال : وهذه في الضراء .

وقال السدي : ﴿ إِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ قالوا والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان ﴿ قالوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ قالوا - والسيئة : الضرر في أموالهم ، تشاؤماً بمحمد - قالوا : ﴿ هذه من عندك ﴾ يقولون : بتركنا ديننا ، وأتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله ﴿ قل كل من عند الله ﴾ الحسنة والسيئة ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ ﴾ ^(٣) قال : القرآن .

وقال الوالبي ^(٤) عن ابن عباس ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ﴾ ^(٥) قال : ما فتح الله عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبي أيضاً عن ابن عباس ﴿ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ قال : ما أصابك من الغنيمة والفتح فمن الله . قال : « والسيئة » ما أصابه يوم أحد . إذ شج في وجهه ، وكسرت رباعيته .

(١) سبق الترجمة لهذا العالم الجليل في الجزء الأول في كلمة وافية فليرجع إليها .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٨ .

(٤) لم نعثر على ترجمة له على كثرة تفتيشنا وبحثنا عنه في كتب التراجم والطبقات ولعل الله سبحانه وتعالى يقض لنا بعض الباحثين ليدلنا عليه .

(٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وقال : أما « الحسنه » فأنعم الله بها عليك ، وأما « السيئه » فابتلاك الله بها .

وروي أيضاً عن حجاج عن عطية ^(١) عن ابن عباس ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ قال : هذا يوم بدر ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ قال : هذا يوم أحد ، يقول : ما كان من نكبة فمن ذنبك وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة ^(٢) عن اسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح ﴿ فمن نفسك ﴾ قال : فبذنبك وأنا قدرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره .

وروي أيضاً عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ^(٣) . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء .

(١) هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي الكوفي أبو الحسن روى عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وابن عباس وابن عمر ، وزيد بن أرقم ، وعكرمة ، وعدي بن ثابت ، وعبد الرحمن بن جندب وغيرهم وروى عنه ابناء الحسن وعمرو والأعمش والحجاج بن أرطاة وعمرو بن قيس وغيرهم . قال البخاري قال لي علي عن يحيى عطية وأبو هارون وبشر بن حرب عندي سواء ، وقال مسلم بن الحجاج قال أحمد وذكر عطية العوفي فقال : هو ضعيف الحديث ، ثم قال بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي ويسأله عن التفسير . وقال أبو حاتم ضعيف ، وقال النسائي ضعيف له ترجمة في التهذيب ٧ : ٢٢٤ .

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي أبو محمد ، محدث الحرم المكي من الموالى ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ وسكن مكة وتوفي بها عام ١٩٨ هـ كان حافظاً ثقة ، واسع العلم ، كبير القدر قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وحج سبعين سنة له « الجامع » في الحديث ، وكتاب في التفسير [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٢٧٠] .

(٣) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري ، أبو عبد الله : زاهد من كبار التابعين ، له كلمات في الحكمة مأثورة ، وأخبار ثقة فيما رواه من الحديث . ولد في حياة النبي - ﷺ - ثم كانت إقامته بالبصرة ووفاته بها عام ٨٧ هـ [راجع حلية الأولياء ٢ : ١٩٨ - ٢١٢ والتهذيب ١٠ : ١٧٣ وفيه الخلاف في تاريخ وفاته وفي وفيات الأعيان ٢ : ٩٧ مات سنة ٨٧ هـ] .

﴿ إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ أي من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر . وقد أمروا به . وإليه يصيرون . وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس ﴿ إن تصبهم حسنة ﴾ الخصب والمطر ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ الجذب والبلاء .

وقال ابن قتيبة ^(١) ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ قال : الحسنة النعمة ، والسيئة البلية . وقد ذكر أبو الفرج ^(٢) في قوله « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » ثلاثة أقوال .

أحدها : أن « الحسنة » ما فتح الله عليهم يوم بدر . و« السيئة » ما أصابهم يوم أحد . قال : رواه ابن أبي طلحة - وهو الوالي - عن ابن عباس .

قال : والثاني « الحسنة » الطاعة . و« السيئة » المعصية . قاله أبو العالية .

والثالث « الحسنة » النعمة . و« السيئة » البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن أبي العالية نحوه . وهو أصح .

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد ، من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين ، ولد ببغداد عام ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ثم ولي القضاء مدة توفي ببغداد عام ٢٧٦ هـ من كتبه « تأويل مختلف الحديث » ومشكل القرآن ، والمشتبه من الحديث والقرآن وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧] .

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج علامة عصره في التاريخ والحديث كثير التصانيف له نحو ثلاث مئة مصنف ولد عام ٥٠٨ هـ وتوفي عام ٥٩٧ هـ من تصانيفه الأذكى وأخبارهم ، والمدهش ، ودقائق العربية ، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبدلية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٧] .

« رأي الامام ابن تيمية »

قلت : هذا هو القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الذاري عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثاني : فهو لم يذكر إسناده . ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد . وكثير منها ضعيف . بل كذب لا يثبت عن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية فأما الصنف الأول : فهي تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثاني : فليس مراداً دون الأول قطعاً . ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة في حقه من الله أصابته . وما يقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التي عملت السيئة . وإذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذي أوجب الجزاء : أولى أن يكون من نفسه .

فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه . مع أن الجميع مُقدر كما تقدم ، وقد روي عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ ﴿ فيمن نفسك ﴾ ، وأنا قدرتها عليك .

فصل عوامل ارتكاب العبد للمعصية الثانية

والمعصية الثانية : قد تكون عقوبة الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي ﷺ - في الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب . فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (١) .

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٧ باب اجتناب البدع والجدل ٤٦ - بسنده عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود مطولاً مع اختلاف في لفظه [وأنه يقال للصادق صدق وبر ويقال للكاذب كذب وفجر] .

وأخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ٢٩ باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ١٠٣ (٢٦٠٧) بسنده عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود ، وفيه عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ٤٦ باب ما جاء في الصدق والكذب ١٩٧١ - بسنده عن عبد الله بن مسعود أيضاً وذكره قال : وفي الباب عن أبي بكر الصديق ، وعمر ، وعبد الله بن الشخير وابن عمر .

وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه البخاري في الأدب ٦٩ ، وأبو داود في =

« الحسنه ثواب على حسنة سابقة »

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنه الثانيه قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئه الثانيه قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ، وَإِذَا لَا تَأْنِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ، وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيَهُمْ اللَّهُ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (٧) .

= الأدب ٨٠ والدارمي في الرقاق ٧ وصاحب الموطأ في الكلام ١٦ .
والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ٣٨٤ ، ٤٠٥ ، ٢٣٢ (حلي) .

(١) سورة النساء آية رقم ٦٦ - ٦٨ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٦٩ .

(٣) سورة محمد آية رقم ٤ - ٦ .

(٤) سورة الروم آية رقم ١٠ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ١٥ - ١٦ .

(٦) سورة الحديد آية رقم ٢٨ .

(٧) سورة الأعراف آية رقم ١٥٤ .

وقال تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)
 وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي
 آذَانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
 فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
 الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦)

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ،
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّهِمْ - كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ
 وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (٧)

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ
 لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٨)

-
- | | |
|--------------------------------------|------------------------------------|
| (١) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ . | (٥) سورة يوسف آية رقم ٢٢ . |
| (٢) سورة فصلت آية رقم ٤٤ . | (٦) سورة القصص آية رقم ١٤ . |
| (٣) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ - ٢٠٢ . | (٧) سورة محمد آية رقم ١ - ٣ . |
| (٤) سورة يوسف آية رقم ٢٤ . | (٨) سورة الأحزاب آية رقم ٧٠ ، ٧١ . |

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

قال أبو عثمان النيسابوري (٢) : من أمر السنة على نفسه - قولاً وفعلاً - نطق بالحكمة . ومن أمر الهوى على نفسه - قولاً وفعلاً - نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (٣) قلت : وقد قال في آخر السورة ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ، أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ - إلى قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨) .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ - ١١٠ .

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٥٥ .

(٧) سورة الصف آية رقم ٥ - ٧ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ٨٨ .

(١) سورة النور آية رقم ٥٤ .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

(٣) سورة النور آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة النور آية رقم ٦٣ .

وقال تعالى أيضاً ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٣)

وقال تعالى في النوعين :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ : إِنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعْتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ، وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٢٥ - ٢٦ .

(٤) سورة الأنفال آية رقم ١٢ - ١٣ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٥١ .

الْجَلَاءَ لَعَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾

وقال تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٢﴾

وقال تعالى : ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣﴾

وقال تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَن مِنْهُمْ قِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤﴾

وقال تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ، أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى : الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٥﴾

وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

(١) سورة الحشر آية رقم ٢ - ٤ .

(٢) سورة آل عمران الآيات رقم ١١١ - ١١٢ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٨٠ - ٨١ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٨٢ .

(٥) سورة محمد آية رقم ٢٢ - ٢٦ .

مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ، وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ .
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ ﴿١﴾

وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ .
فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا . إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى : في ضد هذا ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ . وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا - إلى قوله - وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَاقْتُلُوا الْأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (٣)

وتوليهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم وهذا
باب واسع .

(١) سورة التوبة آية رقم ٧٥ - ٧٧ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٨٣ .

(٣) سورة الفتح آية رقم ٢٠ - ٢٢ .

فصل الذنوب التي يعملها العبد من نفسه وإن كانت مقدرة عليه

وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت - وهي مضرة - جاز أن يقال هي مما أصابه من السيئات وهي بذنوب تقدمت . وعلى كل تقدير : فالذنوب التي يعملها : هي من نفسه ، وإن كانت مقدرة عليه ، فإنه إذا كان الجزاء الذي هو مسبب عنها من نفسه فعمله الذي هو ذلك الجزاء : من نفسه بطريق الأولى ، وكان النبي ﷺ يقول في خطبته « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » ^(١) وقال له أبو بكر رضي الله عنه : علمني دعاء . فقال : « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه . أشهد ألا إله إلا أنت ؛ أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم . قُلْهُ إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك » ^(٢) .

فقد تبين أن قوله ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ يتناول العقوبات على الأعمال ويتناول الأعمال . مع أن الكل بقدر الله .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ٩٥ باب ٣٥٢٩ - حدثنا اسماعيل بن عياش عن محمد بن زياد عن أبي راشد الحيراني . قال أتيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت له =

فصل ضلال القدرية في فهمهم للآية

وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه :

منها : أنهم يقولون : فعل العبد - حسنة كان ، أو سيئة - هو منه ، لا من الله . بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات . لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات ، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات . وليس واحد منهما من أحداث الرب عندهم .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر ، لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات ، بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

لكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة ما يكون جزاءاً ، كما يقوله أهل السنة .

= حدثنا مما سمعت من رسول الله - ﷺ - فالقى إلى صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله - ﷺ - قال فنظرت فيها فإذا فيها وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٩٨ ، ١٠١ والدارمي في الاستئذان ٥٤ وأحمد بن حنبل في المسند ١ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، ٢ : ١٩٦ ، ٢٩٧ (حلي) .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله ، ولا كل السيئات بل بعض هذا وبعض هذا .

الثاني : أنه قال ﴿ كل من عند الله ﴾ فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله . وهم لا يقولون بذلك في الأعمال ، بل في الجزاء . وقوله - بعد هذا - ﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ و ﴿ من سيئة ﴾ مثل قوله ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ وقوله ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ .

الثالث : أن الآية أريد بها : النعم ، والمصائب ، كما تقدم وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفي أعمالهم التي استحقوا بها العقاب . فإن قوله ﴿ كل من عند الله ﴾ هو النعم والمصائب ، ولأن قوله ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ . حجة عليهم . وبيان أن الإنسان هو فاعل السيئات . وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليه بالحسنات - عملها وجزائها - فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله : فالنعم من الله . سواء كانت ابتداءً أو كانت جزاءً وإذا كانت جزاء - وهي من الله - فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضاً من الله . أنعم بها الله على العبد . وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه - لكان كل ذلك من نفسه . والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنة . كما في الحديث الصحيح الإلهي : عن الله « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه » ^(١) وقال تعالى : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحریم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) حدثنا مروان (يعني ابن محمد الدمشقي) حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن زيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر ، عن النبي - ﷺ - فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال وذكره . وفيه [يا عبادي كلکم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدکم ، يا عبادي کلکم جائع إلا من أطعمته .. الخ] قال سعيد : كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبته .

أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ : أُنَى هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴿^(١)﴾

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ^(٢)

وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٥)

وقال تعالى : ﴿ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٦)

وقال تعالى للمؤمنين ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ . أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ ^(٧)

وقد أمروا أن يقولوا في الصلاة ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٣٦ .

(٣) سورة الروم آية رقم ٤١ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٠١ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٧٦ .

(٦) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٧) سورة الحجرات آية رقم ٧ .

فصل ليس في كلام الله تعالى ضلال أو إشكال

وقد ظن طائفة : أن في الآية إشكالاً ، أو تناقضاً في الظاهر ، حيث قال : ﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ثم فرق بين الحسنات والسيئات . فقال ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ . وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ .

وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية . وليس في الآية تناقض ، لا في ظاهرها ، ولا في باطنها ، لا في لفظها ومعناها ، فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، الناكسين عن الجهاد ، ما ذكره بقوله :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ (١)
هذا يقولونه لرسول الله ﷺ ، أي بسبب ما أمرتنا به من دينك ، والرجوع عما كنا عليه : أصابتنا هذه السيئات . لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات هي المصائب والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها

وقولهم ﴿ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ . تتناول مصائب الجهاد التي توجب الهزيمة لأنه أمرهم بالجهاد . وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطير . أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك ، كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه ،

(١) سورة النساء آية رقم ٧٨ .

وكما قال أهل القرية للمرسلين ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ ^(١) وكما قال الكفار من ثمود لصالح ، ولقومه : ﴿ أَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ ^(٢) فكانوا يقولون عما يصيبهم - من الحرب ، والزلازل والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو - هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك . ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السماوية إنها منك . أي بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك : أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ ^(٣) فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بعث به مسبباً لشر أصابه : إما من السوء . وإما من آدمي . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا ﴿ هذه من عندك ﴾ بمعنى : أنك أنت الذي أحدثتها ، فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لم يحدث شيئاً من ذلك ولم يكن قولهم ﴿ من عندك ﴾ خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول ﷺ . ومن فهم هذا تبين له أن قوله ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ لا يناقض قوله ﴿ كل من عند الله ﴾ بل هو محقق له . لأنهم - هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة - يجعلون ما جاء به الرسول ، والعمل به : سبباً لما قد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

(١) سورة يس آية رقم ١٨ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة الحج آية رقم ١١ .

والفتنة والبلاء يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً وقوله تعالى : ﴿ أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام ﴾ إشارة إلى ما قاله الله تعالى ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ البقرة آية

١٥٥

وقد ورد في القرآن على وجوه كثيرة .

وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمر الله به ولو كان مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل ، لكن يقدحون في القضية المعينة فيقولون : هذا بسوء تدبير الرسول ، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول (١) يوم أحد - إذ كان رأيهم مع رأي النبي ﷺ أن لا يخرجوا من المدينة - فسأله ﷺ ممن كان له رغبة في الجهاد : أن يخرج ، فوافقهم ، ودخل بيته ولبس لأمته (٢) . فلما لبس لأمته ندموا وقالوا للنبي ﷺ أنت أعلم ، فإن شئت أن لا نخرج فلا نخرج ، فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » (٣) يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج ، لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحج .

(١) بمعنى العذاب : ﴿ ذوقوا فنتنكم ﴾ =

(٢) بمعنى الشرك : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ .

(٣) بمعنى الكفر : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة ﴾ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴿ أي كفرتم .

(٤) بمعنى الاثم : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ أي إثم .

(٥) بمعنى البلاء والمحنة ﴿ أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ إلى غير ذلك .

(١) هو عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي المشهور بابن سلول ، وسلول جدته لأبيه ، من خزاعة رأس المنافقين في الإسلام . من أهل المدينة أظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقيّة ولما تهيأ النبي - ﷺ - لغزوة أحد انخزل أبي ومعه ثلاثمائة رجل وله في ذلك أخبار كثيرة توفي عام ٩ هـ [راجع تاريخ الخميس ٢ : ١٤٠] .

(٢) لأمته بسكون الهمزة هي الدرع ، وقيل الأداة بفتح الهمزة وتخفيف الدال وهي الآلة من درع وبيضة وغيرهما من السلاح والجمع لأم بسكون الهمزة مثل ثمرة وقمر ، وقد تسهل وتجمع أيضاً لؤم بضم ثم فتح على غير قياس ، واستلام للقتال إذا لبس سلاحه كاملاً .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٨ باب قول الله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ وشاورهم في الأمر .

قال : وأن المشاورة قبل العزم والتبيين لقوله تعالى ﴿ فإذا عزمتم فتوكل على الله ﴾ فإذا عزم الرسول - ﷺ - لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله . وشاور النبي - ﷺ - أصحابه يوم أحد في المقام والخروج فرأوا له الخروج فلما لبس لأمته وعزم قالوا : أقم . فلم يمل إليهم بعد العزم وذكره . وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٥١ (حلي) .

فصل أقوال العلماء في تفسيرهم للآية

والمفسرون ذكروا في قوله ﴿ وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدي ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا تشاؤما بدينه .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ^(١) . قال : بسوء تدبيرك - يعني : كما قاله عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد - وهم كالذين ﴿ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ ^(٢) .

فبكل حال : قولهم ﴿ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الإيمان والجهاد . وجعل ذلك : هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين ، كما أصابتهم يوم أحد ، وتارة تصيب عدوهم فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء ، كما قال أصحاب القرية للمرسلين ﴿ إِنَّا نَطْطِرْنَا بِكُمْ ﴾ وكما قال

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي ، روى عن أبيه وابن المنكدر وصفوان بن سليم وغيرهم . وعنه ابن وهب ، وعبد الرزاق ووكيع والوليد بن مسلم وغيرهم .

قال أبو طالب عن أحمد ضعيف ، وقال أبو حاتم سألت أحمد عن أولاد زيد أنهم أحب إليك قال أسامة . قلت وعبد الرحمن . قال كذا ليس مثله وضعف أمره قليلاً وقال البخاري وأبو حاتم ضعفه علي بن المديني . له ترجمة في التهذيب ٦ : ١٧٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٨ .

تعالى عن آل فرعون ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى عن قوم صالح ﴿ قَالُوا : أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ . قَالَ : طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ . بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (٢)

ولما قال أهل القرية ﴿ إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ . أَلْأَنْ ذُكِّرْتُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٣) .

قال الضحاك : في قوله ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابكم من أمر فمن الله ، بما كسبت أيديكم .

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس « معاييكم »
وقال قتادة : « عملكم عند الله » .

وفي رواية غير علي : « عملكم عند الله ﴾ ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (٤) أي تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبي حاتم وغيره . وعن ابن اسحاق قال : قالت الرسل ﴿ طائركم معكم ﴾ : أي أعمالكم . فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها ، لأنهم كانوا يقولون :

إِنَّمَا أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا مِنَ الْمَصَائِبِ بِذُنُوبِ الرِّسْلِ وَاتِّبَاعِهِمْ . فَبَيْنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ : أَنْ طَائِرَهُمْ - وَهُوَ الْأَعْمَالُ وَجَزَاؤُهَا - هُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ . فَهُوَ مَعَهُمْ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ وَمَا قَدِيرٌ مِنْ جَزَائِهَا مَعَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٣١ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة يس آية رقم ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٤٧ .

أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴿١﴾ وهو من الله ؛ لأن الله تعالى قدر تلك المصائب جزاءً أعلى أفعالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفي هذا يقال إنهم : إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال في هذه الآية - لما كان المنافقون والكفار ومن في قلبه مرض يقول : هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا بين سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا ردٌ على من أعرض عن طاعة الرسول ﷺ لثلاث تصييه تلك المصائب . وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٣ .

فصل

ما يصيب المسلم ليس بسبب وحي الرسول ولكن بذنوبه

والمقصود : أن ما جاء به الرسول ﷺ سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبته ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة ، ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم . لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ (١) .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلازل : ليس هو بسبب نفس

(١) يقول الله سبحانه وتعالى في شأن هذه الغزوة ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ .

والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه قال : ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله - ﷺ - يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ، ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها . وفي الوقت نفسه يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره وراء هذه الآلام التي تعرضوا لها ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة ﴿ ثم صرفكم عنهم ليتليكم ﴾ لقد كان قدر الله وراء أفعال البشر ، فلما أن ضعفوا أو تنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ، ولكن مدبراً من الله ليتليهم . وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها بلا تعارض بين هذا وذلك فكل حادث سبب ووراء كل سبب تدبير من اللطيف الخبير .

إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليميز طيبه من خبيثه والنفوس فيها شر . والامتحان يحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢) ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه ﴿ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ . بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (٣) ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : « ما من غازية يغزون في سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، وإن أصيبوا وأخفقوا : تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل صالح ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا خَمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

وشواهد هذا كثيرة .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٥٤ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ١٢٠ .

فصل في تنفيذ أقوال الأدعياء والكافرين

والمقصود : أن قوله ﴿ إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله ﴾

فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب ^(١) بسبب ما جاءهم به الرسول وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله . والمصيبة من عند محمد ، أي بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله لا من عند محمد ، محمد لا يأتي لا بنعمة ولا بمصيبة ولهذا قال بعد هذا ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ^(٢) ؟ قال السدي وغيره : هو القرآن . فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه : تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل والصدق والتوحيد ، لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب . فإنهم إذا فهموا ما في القرآن علموا : أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

(١) يقول الرسول ﷺ : « من يُرد الله به خيراً يصيب منه » أي من أراد به خيراً ابتلاه بالمصائب ليثيبه عليها ، يقال : مصيبة ومصابة وقد أجمعت العرب على هز المصائب وأصلها الواو كأنهم شبهوا الأصل بالزائد ، ويجمع أيضاً على مصاوب على الأصل ، وقال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فمما كسبت أيديكم ﴾ الشورى آية ٢٠ .

وأصاب جاء في الخير والشر قال تعالى : ﴿ إن تصيبك حسنة تسؤهم وإن تصيبك مصيبة ﴾ سورة التوبة آية ٥٠ وقال بعضهم الإصابة في الخير اعتباراً بالصوب ، أي المطر ، وفي الشر اعتباراً باصابة السهم .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٨ .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به : يعلم بالأمر به حسنه ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه . بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسول وأتباعهم . ومما يوضح ذلك : أنه لما قال ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ . قال بعدها ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ^(١) فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً ، ولم يضره جُحد هؤلاء لرسالة بما ذكروه من الشبه التي هي عليهم لا لهم بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته ، والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولاً . فكان ختم الكلام بهذا إبطالاً لقولهم : إن المصائب من عند الرسول ، ولهذا قال بعد هذا :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ ^(٢) .

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ الرسول : تارة يقال للقول المتحمل كقول نفيلة الأشجعي :
الا أبلغ أبا حفص رسولاً فدى لك من أخي ثقة إزاري
والرسول يقال للواحد والجمع قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ وقال ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ ولم يقل (رسل) .

والرسول يذكر ويراد به الرسالة قال كثير :
لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بليلى ولا أرسلتهم برسول
أي برسالة ، وأما الرسول بمعنى الرسل فكقول أبي ذؤيب
الكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر
أي وخير الرسل .

والمراسيل : الأبل الخفاف التي تعطيك ما عندها عفواً الواحدة رسالة قال كعب بن زهير :
أمت سعاد بأرض لا تبليغها إلا العتاق النجيبات المراسيل
وقوله تعالى : ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ أي الرياح وقيل : الملائكة ، وقيل : الخيل .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٠ .

فصل

إبطال قول الجهمية في تصورهم للثواب والعقاب

وكان فيما ذكره أبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم ، ممن يقول : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب ، وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم بل بما يضرهم ، فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر . فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها وهي حجة على الفريقين .

فإن قال نفاة القدر : إنما قال في الحسنة ﴿ هي من الله ﴾ وفي السيئة ﴿ هي من نفسك ﴾ لأنه يأمر بهذا وينهى عن هذا باتفاق المسلمين . قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر ، فما أمر به فقد شاء وما لم يأمر به لم يشأه ، فكانت مشيئته وأمره حاضرة على الطاعة دون المعصية ، فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا : الحسنة من الله ، والسيئة من عندك أرادوا من عندك يا محمد ، أي بسبب دينك فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر . وإذا كان قد أريد : أن الطاعة والمعصية ^(١) - مما قد قيل - كان قوله ﴿ كلُّ من عند الله ﴾ حجة عليكم كما تقدم .

(١) يقول الامام القرطبي : إنما تكون الحسنة الطاعة والسيئة المعصية في نحو قوله : « من جاء =

وقوله بعد هذا ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ لا ينافي ذلك ، بل « الحسنه » أنعم الله بها وبثوابها ، و« السيئة » هي من نفس الإنسان ناشئة وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (١) فمن المخلوقات ما له شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وأنتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من أحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلاً وهذا فاعلاً ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها ؟ وهذا مخالف للقرآن .

= بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها .
وأما في هذه الآية فهي من الخصب والجذب والرخاء والشدة على نحو ما جاء في آية الأعراف ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ . بالسنين بالجذب سنة بعد سنة ، حبس المطر عنهم فنقصت ثمارهم وغلت أسعارهم « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » أي يتشاءمون ويقولون هذا من أجل اتباعنا لك وطاعتنا إياك فرد الله عليهم بقوله : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ يعني أن طائر البركة والشؤم من الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى لا صنع فيه لمخلوق [تفسير القرطبي ٥ : ٢٨٦ - ٢٨٧] .

(١) سورة الفلق آية رقم ٢ .

فصل

نعم الله على عباده بلا سبب وعقابه لا يكون إلا بذنب

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة ، فلم فرق بين الحسنات ، التي هي النعم ^(١) ، والسيئات التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟ . قيل : لفرق بينهما :

« الفرق الأول » أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب أصلاً ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر ، وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشئ للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً ، ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل . وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

« الفرق الثاني » أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ ^(٢) .

(١) وضع الامام القرطبي هذه القضية توضيحاً لا مزيد بعده لمتزيد ورد على القدرية في تصوراتهم عن هذه الآية .

وأشار في نهاية كلمته الى أنه نص على هذه المقالة الإمام أبو الحسن شيبب بن ابراهيم بن محمد ابن حيدرة في كتابه المسمى « بحر الغلاصم في إفحام المخاصم » .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٤٣ .

وفي الحديث الصحيح « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » (١)

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة : هو من نعمته ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به : هو من نعمته .

ولهمهم الإيمان ، وهدايتهم إليه : وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين : هو من نعمته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ (٢)

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً ، ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به ، وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء فقلوه ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » (٣) فلا تكون إلا بذنب العبد ، وذنبه من نفسه وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

(١) سبق تخريج هذا الحديث وقلنا إنه جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) بسنده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ - فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . الخ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٧ - ٨ .

(٣) السيئة : الفعلة القبيحة ، وهي ضد الحسنة ، وأصلها سيوثة فقلبت الواو ياء ثم أدغمت فقل سيء ، وأفعال سيئة ، وفلان يحبط الحسنى بالسوءى ، وقد ساء عمله .

فصل على العبد أن يشكر إذا أنعم عليه ويتوب إذا أخطأ

فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله فشكر الله فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه .

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه : استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته « الحمد لله » ^(١) فيشكر الله . ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستعين به من الشر الذي في النفس ومن عقوبة عمله ، فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعين بالله من شر النفس : أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله . فاستعان على الطاعة وأسبابها واستعاذ به من المعصية وعقابها .

(١) هذا الحديث سبق تخريجه. الترمذي في كتاب النكاح ١٧ باب ما جاء في خطبة النكاح ١١٠٥ - حدثنا قتيبة ، حدثنا عبثر بن القاسم عن الأعمش ، عن أبي اسحاق ، عن أبي الأحوص عن عبد الله وذكره .

والذي ذكره الترمذي (إن الحمد لله) وفي نهايته ويقرأ ثلاث آيات .
قال عبثر : ففسره لنا سفيان الثوري : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾
﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيماً ﴾ ﴿ اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه : يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله ﴿ قل كل من عند الله ﴾ .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها في ﴿ من عند الله ﴾ .

ثم بين الفرق الذي يتفعلون به . وهو أن هذا الخير : من نعمة الله فاشكروه يزدكم ، وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَنْزِلْنَا آيَاتِهِ ، ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْكَ حَكِيمٌ خَيْرٌ : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَإِنْ اسْتَغْفَرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (٢)

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين ، كآدم وغيره . وإذا أصر ، واحتج بالقدر : فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن

(١) سورة الأنفال آية رقم ٣٣ .

والغفر : الستر . اللهم غفراً ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه النار أو العذاب .

ومن دعاء الأعراب : اللهم أسألك الغفيرة ، والناقة الغزيرة ، والعزفي العشيرة قال : كل الذنوب فلإن الله يغفرها إن شيع المرء إخلاص وإيمان وكل كسر فلإن الله يجبره وما لكسر قناة الدين جبران (٢) سورة هود آية رقم ١ - ٣ .

الجميع من عند الله ، تنبيهاً على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله ﷺ بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترب على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم » (١) فيستغفر مما مضى ، ويستعيذ مما يستقبل فيكون من حزب السعداء . وإذا علم أن الحسنه من الله - الجزاء والعمل - سأل أن يعينه على فعل الحسنات بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وبقوله ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقوله ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (٢) ونحو ذلك . وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق فإنه يحصل من هذا التسوية . فأعرض العاصي والمذنب عن ذم نفسه وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه أن يحتج على الله بالقدر ، وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه ، بل تزيده عذاباً وشقاءً ، كما زادت إبليس لما قال ﴿ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٣) وقال ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) .

وكالذين يقولون يوم القيامة ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) وكالذين قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٦)

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الحجر آية رقم ٣٩ .

(٥) سورة الزمر آية رقم ٥٧ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

وشرك الإنسان في الدين ضربان : أحدهما : الشرك العظيم ، وهو إثبات شريك الله تعالى الله عن ذلك يقال : أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفر والثاني : شرك صغير ، وهو مراعاة غير الله =

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجميع .

= معه في بعض الأمور وذلك كالرياء والنفاق المشار إليه بقوله : جعلنا له شركاء فيما آتاهما » [سورة الأعراف آية ١٩٠] وقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [سورة يوسف آية ١٠٦] أي واقعون في شرك الدنيا أي حبالها قال ومن هذا قول رسول الله - ﷺ - [الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا]

فصل

الحسنة يضاعفها الله وينميها والسيئة لا يضاعفها

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويشب على الهم بها والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤخذ على الهم بها^(١) ، فيعطي صاحب الحسنة : من الحسنات فوق ما عمل ، وصاحب السيئة : لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٢) .

الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحس بها من كل وجه كما تقدم ، فما من وجه من وجوها : إلا وهو يقتضي الإضافة إليه وأما السيئة : فهو إنما يخلقها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه . فإن الرب لا يفعل شيئاً قط . بل فعله كله حسن وحسنات وفعله كله خير .

(١) أخرج الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٩ باب إذ هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ، ٢٠٤ ، بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه ، عن رسول الله - ﷺ - قال : قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم اكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة .

وكذلك الترمذي في تفسير سورة ٦ ، ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٢٧ ، ٢٤٢ (حلي) .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٠ .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح « والخير بيدك . والشر ليس إليك » فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس وهو شر جزئي إضافي . فأما شر كلي ، أو شر مطلق : فالرب منزّه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس إليه .

وأما الشر الجزئي الإضافي : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١) .

وإما أن يضاف إلى السبب كقوله ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (٢) .
وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْداً ﴾ (٣) ؟

وهذا الموضوع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل فرقة كذّبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون ، لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .

وفرقة : لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة بل قالت : إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة . وما تم فعل تنزهه عنه . بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله .

وجوّزوا أن يأمر بكل كفر ومعصية وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن يعذب الأنبياء ، وينعم الفراعنة والمشرّكين وغير ذلك ، ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

(١) سورة الفرقان آية رقم ٢ .

(٢) سورة الفلق آية رقم ٢ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١٠ .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول . قال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا ^(١) السَّيِّئَاتِ : أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ؟ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ ^(٣) وقال تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ ﴾ ^(٤) ونحو ذلك مما يوجب أنه يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء وأن من جاوز عليه التسوية بينهما : فقد أتى بقول منكر وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان : لا يكون فيه حكمة . بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة : يكون شراً كلياً عاماً . بل الأمور العامة الكلية ؛ لا تكون إلا خيراً ومصلحة للعباد كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضي : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها أنبياءه الصادقين . فإن هذا شر عام للناس يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هذا كالملك الظالم ، والعدو . فإن الملك الظالم : لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه : فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة

(١) الاجتراح : اكتساب الإثم ، وأصله من الجراحة ، كما أن الاقتراف من قرف القرحة : أي أخذ قشرتها .

(٢) سورة البجائية آية رقم ٢١ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٣٥ - ٣٦ .

(٤) سورة ص آية رقم ٢٨ .

لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول - أي يدعي - أنه نبي ^(١) فلو أیده الله تأييد الصادق : للزم أن يسوي بينه وبين الصادق فيستوي الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا مما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبي ﷺ : بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج ^(٢) . وأمر بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبتون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لا بد أن يهلكهم لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ ^(٤) فأن خبر : أنه - بتقدير الافتراء - لا بد أن يعاقب من افترى عليه .

(١) أدعياء النبوة في كل عصر ومصر أكثر من أن يحصيهم العد والحصر منهم : بيان بن سميان التميمي صلبه وأحرقه خالد بن عبد الله القسري ومنهم : منصور العجلي الملقب بالكسف . ومنهم : بزيع الحائك ومعمار بائع الحنطة ، وعمير التبان بالكوفة وعمار الملقب بخدش قتله أسد بن عبد الله أخو خالد بن عبد الله القسري . [راجع ما كتبه ابن حزم في هذا الموضوع عند حديثه عن شنع الفرق ص ١٨٤ وما بعدها ج ٤ من كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل] .

(٢) راجع كلمة عن الخوارج وشنعهم في كتاب الفصل لابن حزم فقد تكلم عنهم بما فيه الكفاية ج ٤ : ١٨٨ - ١٩٢ .

(٣) سورة الحاقة آية رقم ٤٤ - ٤٦ . والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٢٤ .

فصل

مناقشة النافين لحكمة الله تعالى والأسباب التي بها يفعل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلَّت القدرية النفاة ^(١) والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره : جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام وبين الشر الإضافي والشر المطلق ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزّه عن تلك الأفعال ، فأنا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

فقال المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص . وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو يفعل ما يفعل بالخبر ، خبر الأنبياء عنه ، وإلا فمهما قدر ؛ جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله ، ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضي التخصيص

(١) القدرية النفاة في رأي الإمام ابن تيمية هم المعتزلة ولهم آراء وتهويمات في قضية العدل الالهي والحكمة الإلهية .

ببعض الأفعال دون بعض ، بل ليس إلا مشيئة نسبتها إلى جميع الحوادث سواء ، ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقليل لهم ؛ فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز ، فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق ، فيلزم - مع الكفر بالأنبياء - أن لا يعلم الفرق ، لا يسمع ولا يعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها ، بأن تجويز إثبات الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار ، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفتين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً في الجبر - ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التي بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها - هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم الصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة ؛ مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصل الشر لا يضاف الى الله إلا على وجوه ثلاث

والمقصود هنا الكلام على قوله ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وأن هذا يقتضي ، أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة . هو سبحانه : الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » ^(١) وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ^(٢) وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب ١٨ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٥٩٩٩ - حدثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه قال : قدم على النبي - ﷺ : سبي فإذا امرأة تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي - ﷺ - وذكره .

وأخرجه مسلم في كتاب التوبة ٤ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ٢٢ (٢٧٥٤) بسنده عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة بسنده عن ابن عمر بلفظ ﴿ أوليس الله بأرحم بعباده من الأم بولدها ﴾ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٥٥ باب قول الله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد في =

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وقد قال سبحانه ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) ثم قال : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه ، فهي من موجب نفسه المقدسة ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذي خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة . فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده ولا يأتيه الشر إلا من نفسه ، فما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه .

وقوله ﴿ وما أصابك ﴾ إما أن تكون كاف الخطاب له ﷺ - كما قال ابن عباس وغيره - وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ (٥) .

= لوح محفوظ ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ ٧٥٥٤ - حدثنا محمد بن اسماعيل حدثنا معتمر ، سمعت أبي يقول ، حدثنا قتادة أن أبا رافع حدثه أنه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله - ﷺ يقول : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق وذكره . وأخرجه مسلم في كتاب التوبة ٤ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ١٤ (٢٧٥١) بسنده عن أبي هريرة وذكره .

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٥ بسنده عن أبي هريرة بلفظ « إن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ﴿ إن رحمتي تغلب غضبي ﴾ »

وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ (حلي) .

(١) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٩ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٥٠ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٩٨ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

ولما أن تكون لكل واحد واحد من الأدميين ، كقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ؟ ﴾ ^(١) .

لكن هذا ضعيف . فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه ، وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه ، فلو أريد ذكرهم : لقليل (ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة) . لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم ^(٢) ، وإذا كان هذا حكمه : كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى ، كما في مثل قوله ﴿ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ ^(٣) وقوله تعالى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ^(٤) وقوله ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ^(٥)

« خطاب القرآن نوعان »

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظ به لكن يتناول غيره بطريق الأولى كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ؟ ﴾ ^(٦) ثم قال ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ ^(٧) ونوع : قد يكون خطابه خطاباً به لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين الخطاب له والمراد غيره .

(١) سورة الانفطار آية رقم ٦ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الشفاعة ٤٣٠٨ حدثنا هشيم أنبانا علي بن زيد ابن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله - ﷺ - أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ١ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٦٥ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٩٤ .

(٦) سورة التحريم آية رقم ١ .

(٧) سورة التحريم آية رقم ٢ .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك . بل هو المقدم . فالخطاب خطاب لجميع الجنس البشري . وإن كان هو لا يقع منه ما نهى عنه ، ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولي الأمير للأمير : سافر غداً إلى المكان الفلاني . أي أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شيء فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ الخطاب له ﷺ وجميع الخلق داخلون في هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ ^(١) فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب . كما قال ﷺ « بلغوا عني ولو آية » ^(٢) وقال : نَصَّرَ الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ^(٣) وقال : « ليلبلغ الشاهد الغائب » ^(٤) وقال : « إن العلماء ورثة

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٣٤٦١ حدثنا حسان بن عطية عن أبي كبشة عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : وذكره وفيه زيادة [وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار] . وأخرجه الترمذي في كتاب العلم ١٣ باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ٢٦٦٩ - بسنده عن عبد الله بن عمرو .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ (حلي) والدارمي في المقدمة ٤٦ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب العلم ٧ باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٢٦٥٧ حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو داود . أنبأنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يحدث عن أبيه قال : قال سمعت رسول الله - ﷺ - وذكره قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقد رواه عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله . وأخرجه أبو داود في الغلم ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٤٣٧ ، ٥ : ١٨٣ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم ٩ باب قول النبي - ﷺ - « رب مبلغ أوعى من سامع » ٦٧ حدثنا ابن عون عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ذكر النبي - ﷺ - قعد على بعير وأمسك بخطامه - أو بزمامه - قال : أي يوم هذا . ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمي =

الأنبياء» (١) وقد قال تعالى في القرآن ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ (٢) .

والمقصود هنا أن « الحسنه » مضافة إليه سبحانه من كل وجه . و« السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها ، كما خلق « الحسنه » فلهذا قال ﴿ كل من عند الله ﴾ . ثم إنه إنما خلقها لحكمة ، ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل . لأن المراد بقوله ﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ - ﴿ ومن سيئة ﴾ النعم والمصائب ، كما تقدم لكن إذا كانت المصيبة من نفسه - لأنه أذنب - فالذنب

= سوى لمسه ، قال : أليس يوم النحر قلنا بلى قال : فاي الشهور هذا . ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : أليس ابذي الحجة . ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دمائمكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . وذكره ثم قال [فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه « وفي الأضاحي ٥ ، والحج ١٣٢ والصيد ٨ ، والفتن ٨ والمغازي ٥١ ، ٧٧ والتوحيد ٢٤ .

وأخرجه مسلم في كتاب القسامة ٢٩ ، ٣٠ ، وأبو داود في التطوع ١٠ ، والترمذي ٧ - في كتاب الحج عن رسول الله - ﷺ باب ما جاء في حرمة مكة وفيه (وليبلغ الشاهد الغائب) وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣١ ، ٣٣ ، ٥ : ٤ : ٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٩ (حلي)

(١) الحديث رواه أحمد والأربعة وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً بزيادة إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم - الحديث . وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما وحسنه حمزة الكتاني ، وضعفه غيرهم لاضطراب سنده ، ولكن له شواهد ، ولذا قال الحافظ له طرق يعرف بها أن للحديث أصلاً ، ورواه الديلمي عن البراء بن عازب بلفظ الترجمة وزيادة (يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا . وقال النجم وروى أبسوي يعلى عن علي : العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثي وورثة الأنبياء .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب . وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله ﴿ كل من عند الله ﴾ كما تقدم . لأنها لا تضاف إلى الله مفردة . بل إما في العموم ، كقوله ﴿ كل من عند الله ﴾ . وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع » ، المعطى المانع ، المعزل المذل « أو مقيدة ، كقوله ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَقِمُونَ ﴾ (١) .

وكل ما خلقه مما فيه شر جزئي إضافي - ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك . مثل إرسال موسى إلى فرعون ، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه . وذلك شر بالإضافة إليهم لكن حصل به - من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون - ما هو خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به . كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى بعد ذكر قصته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ (٣) .

وكذلك محمد ﷺ : شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب . وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه . ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

(١) سورة السجدة آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ - ٥٦ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٦ .

العبارة بالفتح : الدمعة ، ومنه عابر سبيل ، وعبر القوم : ماتوا كأنهم عبروا قطرة الدنيا ، وأما العبارة فمختصة بالكلام العابر الهواء من لسان المتكلم إلى سمع السامع ، والاعتبار والعبارة بالكسر : الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد ، والتعبير : مختص بتفسير الرؤيا ، وهو العابر من ظاهرها إلى باطنها ، وهو أخص من التأويل والتأويل يقال فيه وفي غيره ، وقد عبر الرؤيا يعبرها عبراً وعبارة . قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُم لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [سورة يوسف آية ٤٣] .

ولذلك من شقي به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ . فأهلك الله بالجهاد طائفة واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله وهم دائماً يهتدي منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد . فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافي ، لما في ذلك من الخير والحكمة أيضاً . إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلاً ، بل هو شر بالإضافة .

فصل

الثواب على فعل الحسنة حباً لها وعلى ترك السيئة كرهاً لها

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية ، أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقته ، ليس في الحسنات أمر عديم غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودي . وكل موجود وحادث فالله هو الذي يحدثه . وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهي عنه ، والترك : أمر وجودي . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات - كالعدل والصدق - حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محباً لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى :

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ ^(١)

(١) سورة الحجرات آية رقم ٧ .

وقال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (٢)

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال :

« ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يَحِبُّ الْمَرْءَ لَا يَحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ - بعد إذ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ - كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ » (٣) وفي السنن عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ « أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ : الْحُبُّ فِي اللَّهِ ، وَالْبَغْضُ فِي اللَّهِ » (٤) .

وفيها عن أبي إمامة عن النبي ﷺ « مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ وَأَبْغَضَ اللَّهَ ، وَأَعْطَى اللَّهَ ، وَمَنَعَ اللَّهَ ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » (٥) وفي الصحيح عن أبي سعيد

(١) سورة النازعات آية رقم ٤٠ - ٤١ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ١٥ باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ٦٧ - حدثنا عبد الوهاب عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس عن النبي - ﷺ - قال وذكره ، وأخرجه البخاري في كتاب الإيمان ٩ باب حلاوة الإيمان ١٦ - بسنده عن أنس عن النبي - ﷺ -

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٢٨٦ بسنده عن البراء بن عازب قال : كنا جلوساً عند النبي - ﷺ - . فقال : أي عرى الإسلام أوسط ... ؟ قالوا : الصلاة قال : حسنة وما هي بها قالوا : الزكاة قال : حسنة وما هي بها . قالوا صيام رمضان قال : حسن وما هو به قالوا : الحج قال حسن وما هو به . قالوا الجهاد : قال حسن وما هو به . قال : إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ٦٠ باب ٢٥٢١ حدثنا عبد الله بن يزيد ، =

الخدري عن النبي ﷺ قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١)

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، لما ذكر الخلو ف - قال « من جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٢) وقد قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣) . وقال على لسان الخليل ﴿ إِنِّي

= حدثنا سعيد بن أبي أيوب عن أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه وذكره قال الترمذي : هذا حديث حسن . وأخرجه أبو داود في كتاب البسنة ١٥ .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٢٠ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، ٧٨ - ٤٩ عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب ، وهذا حديث أبي بكر قال أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال الصلاة قبل الخطبة فقال : قد ترك ما هنالك فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول وذكره . وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن ١١ باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو اللسان أو بالقلب ٢١٧٢ بسنده عن طارق بن شهاب .

وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي في إيمان ١٧ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠ ، ٤٩ (حلي)

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الإيمان ٢٠ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ٨٠ (٥٠) بسنده عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره » ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون وذكره .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

بِرَاءٍ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١﴾ وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ؟ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) وقال : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ، قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ومن عابديه : هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاته أوليائه : أمور موجودة في القلب وعلى اللسان والجوارح . وهي تحقيق قول ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلاً صادقاً . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته . فلا يعبد إلا الله . ويحب أن يعبده ويبغض عبادة غيره ويحب التوكل عليه وخشيته ودعائه ويبغض التوكل على غيره وخشيته ودعائه .

فهذه كلها أمور موجودة في القلب . وهي الحسنات التي يثيب الله عليها وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يحبها ولا يبغضها - فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات . ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها . فكأنه لم يفعلها فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون (٤) والبهيمة لا ثواب ولا عقاب . ولكن إذا قامت عليه

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ - ٧٧ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) روى ابن ماجه بسنده في كتاب الطلاق ١٥ باب طلاق المعتوه والصغير والنائم ٢٠٤١ عن الأسود عن عائشة . أن رسول الله ﷺ قال :

« رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق »

قال أبو بكر : في حديثه « وعن المبلي حتى يبرأ » .

الحجة بعلمه تحريمها . فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها ، وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصل

التنازع في الترك هل وجودي أو عدمي . . ؟

وقد تنازع الناس في الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة - كأبي هاشم بن الجبائي ^(١) - إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه ويسمون « المذمية » لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

والأكثرون يقولون : الترك أمر وجودي . فلا يثاب من ترك المحظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه وهو أن يأمره الرسول ﷺ بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودي . ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره فيعاقب على ذلك .

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أن يكون عابداً لغيره يعبد غيره فيكون مشركاً ، وليس في بني آدم قسم ثالث ، بل إما مُوحد ، أو مشرك

(١) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي من أبناء أبان مولى عثمان ، عالم بالكلام من كبار المعتزلة ، له آراء انفرد بها وتبعته فرقة سميت « البهشية » نسبة الى كنيته ، وله مصنفات في الاعتزال كما لأبيه من قبله ولد عام ٢٤٧ هـ وتوفي عام ٣٢١ هـ [راجع المقرئ ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٢٩٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٧٦ وميزان الاعتدال ٢ : ١٣٢] .

أو من خلط هذا كالمبدلين من أهل الملل : النصاري ومن أشبههم من الضلال ، المنتسبين إلى الإسلام . قال الله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٢) لما قال إبليس ﴿ لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٤) إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ .

فإبليس لا يغوي المخلصين ، ولا سلطان له عليهم . إنما سلطانه على الغاوين وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ صفتان لموصوف واحد فكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه . قال تعالى ﴿ أَلَمْ

(١) سورة النحل آية رقم ٩٨ - ١٠٠ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) السلاطة : التمكن من القهر ، سلطته فتسلط قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ ﴾ [سورة النساء آية ٩٠] ومنه سمي السلطان ، قيل : هو جمع سليط وفي الحديث [السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم] وقال : « من اقترب من أبواب السلطان افتتن » وقال الشاعر :

دع السلطان فالسلطان ليث ولا تتعرضن له فتضرس
وكن في مجلس السلطان أعمى وكن عن مجلس السلطان أحرص

أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ : أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ
اعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ ١ ﴾ .

وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد
الملائكة والأنبياء . وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ يَقُولُ
لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ
دُونِهِمْ . بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ولهذا تتمثل
الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ويخاطبونهم فيظنون أن الذي
خاطبهم ملك أو نبي ، أو ولي ، وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكاً من
الملائكة ، كما يصيب عباد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات (٣) ،
يسمون أسماء ، يقولون : هي أسماء الملائكة مثل منطرون وغيره ، وإنما
هي أسماء الجن . وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء
والملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظنه النبي ، أو الصالح الذي
دعاه . وإنما هو شيطان تصور في صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف
صورة ذلك المدعو .

(١) سورة يس آية رقم ٦٠ ، ٦١ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ٤٠ ، ٤١ .

(٣) كان علم الطلاسم يشتغل به المصريون القدماء والبابليون والكلدانيون والسريانيون ، وكان له
عندهم المؤلفات الكثيرة .

قال ابن خلدون في مقدمته « ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية من
أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفتنوا فيه ، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل
مصاحف الكواكب السبعة وكتاب « طمطم » الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرهم . ثم
ظهر بالمشرق جابر بن حيان فاستخرجها ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها وفي
صناعة السيمياء لأنها من توابعها ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في
التعالميم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه
« غاية الحكيم » ولم يكتب أحد في هذه العلم بعده انتهى [راجع دائرة معارف القرن
العشرين ٥ : ٧٧٠]

وهذا كثير يجري لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ، ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم ، ويستغيثون بهم ، فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث في صورة آدمي إما راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المستغيث : إنه ذلك النبي ، والصالح ، أو أنه سره أورو حانيته ، أو رقيقته أو المعنى تشكّل ، أو يقول : إنه ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره : الميت فمن دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك ، فظن أنه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك ، وأنه هو الذي شفع له ، أو هو الذي أجاب دعوته ، وإنما هو الشيطان ، ليزيده غُلُوًّا في كفره وضلاله فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو في الحقيقة عابد للشيطان .

فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن ، وإما عابد للشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ - ٣٩

(٢) المجوس : هم عبدة النيران القائلين أن للعالم أصليين نور وظلمة قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان وواحد للرحمن وقيل المجوس في الأصل التجوس لتدينهم باستعمال النجاسات والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين ، والأيم والأين .

وَالْمَجُوسَ ^(١) وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢﴾ .

فبنوا آدم منحصرون في الأصناف الستة ، ويسط هذا له موضوع آخر .

(١) الحج آية رقم ١٧ .

فصل الثواب والعقاب يكون على أمر وجودي

والمقصود هنا أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات ، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك أمر وجودي ، وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله أمر وجودي ، قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ

عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١)

وقال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ^(٢)

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ^(٣)

وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ! وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٤)

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ - إِلَى قَوْلِهِ - أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٥)

(١) سورة القصص آية رقم ٨٤ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٧ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٤٦ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٢٦ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٢٧ .

وقال تعالى : ﴿ تُمْ كَانْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى ، أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب . وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملأ ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمات ، ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها ، مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف - حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه - فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع ذلك ، فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم (٢) فأعتقده : أثيب على اعتقاده ، وإذا ترك ذلك - مع دعاء النفس إليه - أثيب ثواباً آخر كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها . والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها ، فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيها لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغال بالطاعات التي هي ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

(١) سورة الروم آية رقم ١٠ .

(٢) الحرم بوزن القفل الإحرام قالت عائشة - رضي الله عنها « كنت أطيب رسول الله - ﷺ - لحله وحرمة أي عند إحرامه ، والحرمة : ما لا يحل انتهاكه وكذا : المحرمة بضم الراء وفتحها . ومن الشهور : أربعة حرم أيضاً وهي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد وكانت العرب لا تستحل فيها القتال . والحرام : ضد الحلال والحرمة بالكسر : الغلظة ، وفي الحديث : الذين تدرکہم الساعة تبعث عليهم الحرمة ويسلبون الحياة » ومكة : حرم الله ، والحرمان : مكة والمدينة ، والتحريم ضد التحليل وحریم البر وغيرها ما حوّلها من مرافقها وحقوقها ، وأحرم بالحج والعمرة : لأنه يحرم عليه ما كان حلالاً . والإحرام أيضاً بمعنى التحريم وقوله تعالى : للسائل والمحروم . قال ابن عباس - رضي الله عنه هو : المحارف .

وإذا تبين هذا : فالחסنات التي يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك وكرهته من السيئات فهو الذي حجب الإيمان إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصل منشأ ارتكاب السيئات الجهل والظلم

وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم . فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو لبغض نفسه لها . وفي الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل . وإلا فلو كان عالماً علماً ناقصاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ولم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضرراً راجحاً كالسقوط من مكان عال ، أو في نهر يغرقه ، أو المرور بجانب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمي ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه . ومن لم يعلم أن هذا يضره - كالصبي والمجنون ، والساهي والغافل - فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره - مع علمه بما فيه من الضرر - فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح ، فلا بد من رجحان الخير ، إما في الظن وإما في المظنون ، كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للريح . فإنه لو جزم بأنه يفرق أو يخسر لما سافر لكنه يترجح عنده السلامة والريح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن . وكذلك الذنوب : إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق وكذلك الزاني : إذا جزم بأنه يرجم ، ولم يزن والشارب يختلف حاله فقد يقدم على جلد أربعين

وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة بل يجوز أن تنتهي إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك الأحاديث (١) كما هو مذكور في غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله ، بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته . بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً فيبقى غافلاً غير مستحضر للتحريم ؛ والغفلة من أضداد العلم .

(١) أخرج الترمذي في كتاب الحدود ١٥ باب ما جاء من شرب الخمر فأجلدوه ومن عاد في الرابعة فاقتلوه .

١٤٤٤ - حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن معاوية قال : قال رسول الله - ﷺ - من شرب الخمر فأجلدوه ، فإن عاد في الرابعة فاقتلوه . قال : وفي الباب : عن أبي هريرة ، والشريد ، وشرحبيل بن أوس وجريز وأبي الرمد البلوي وعبد الله بن عمرو .

قال الترمذي : ثم أتى النبي - ﷺ - بعد ذلك برجل قد شرب الخمر في الرابعة فضربه ولم يقتله ، وكذلك روى الزهري عن قبيصة بن ذؤيب عن النبي ﷺ نحو هذا . قال : فرفع القتل وكانت رخصة ، والعمل على هذا الحديث عند عامة أهل العلم لا نعلم بينهم اختلافاً في ذلك في القديم والحديث وما يقوي هذا ما روي عن النبي - ﷺ - من أوجه كثيرة أنه قال : لا يحل دم امرئ مسلم - يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله - إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والشيب الزاني ، والتارك لدينه .

فصل عوامل الشر: الغفلة والشهوة

فالغفلة ^(١) والشهوة أصل الشر . قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ^(٢) والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً ، بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهي ، وذو حجة .
ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي منافع لا مضار كما فعل إبليس بآدم وحواء فقال :

(١) الغفلة : سهو يعتري من قلة التحفظ واليقظ ، غفل عنه غفولاً وأغفلة ، والتغافل ، والتغفل : تعمد الغفلة ، والمغفل : من لا فطنة له ، والغفل : بالضم من لا يرجى خيره ، ولا يخشى شره والغفول : العظيم الغفلة : قال الشاعر :

فنومك بين رمسك قد يطول	تيقظ من منامك يا غفول
عسى تمس وقد نزل الرسول	تأهب للمنية حين تغدو

(٢) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سَوَاتِرُهَا ﴾ (١)

وقال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢) .

ولهذا قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سِدْقًا رَّحْمَنٍ نَّفِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٣) .
وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

وقوله ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ هو بتوسيط تزيين الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير ، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ ، وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ (٦)

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً ، ولهذا قال : الصحابة رضي

(١) سورة طه آية رقم ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٨ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٠٨ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٣٧ .

الله عنهم « كل من عصى الله فهو جاهل » ، وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ ^(١) كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ : أَنَّهُ عَنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية ، فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

« أقوال السلف في هذه الآية »

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ ^(٣) فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال : أجمع أصحاب محمد رسول الله ﷺ على أن كل من عصى ربه فهو في جهالة ^(٤) ، عمداً كان أو لم يكن وكل من عصى الله فهو جاهل ، وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً - من شيخ أو شاب - فهو بجهالة . وقال من عصى ربه فهو جاهل ، حتى ينزع عن معصيته .

(١) سورة النساء آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٧ .

(٤) الجهل على ثلاثة أضرب . الأول : خلو النفس من العلم ، هذا هو الأصل ، وقد جعل بعض المتكلمين الجهل معنى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام كما جعل العلم معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام الثاني : اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه .

الثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً . وعلى ذلك قول الله تعالى : ﴿ اتَّخَذْنَا هَزْوَاً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فجعل فعل الهزو جهلاً .

وقال أيضاً : هو إعطاء الجهالة العمد ، وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأ ، أو إثمًا عمدًا : فهو جاهل . حتى ينزع منه . « رواه ابن أبي حاتم . ثم قال : وروي عن قتادة ، وعمرو بن مرة ^(١) ، والثوري ونحو ذلك « خطأ ، أو عمدًا » .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ، ولكن من جهالته : حين دخل فيه . وقال عكرمة الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصري ^(٢) : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها فإنها جهالة .

قلت ومما يبين ذلك : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(٣) وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ ﴾ ^(٤) وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله . وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ يقتضي أن كل من خشى الله فهو عالم ، فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضي أيضاً أن العالم من يخشى الله ، كما قال السلف .

(١) هو : عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق بن الحارث روى عن عبد الله بن أبي أوفى ، وأبي وائل ومرة الطيب وسعيد بن المسيب وغيرهم ، روى عنه ابنه عبد الله وأبو اسحاق السبيعي والأعمش ومنصور وغيرهم قال البخاري عن علي له نحو مائتي حديث وقال سعيد زكاه أحمد بن حنبل وقال ابن معين ثقة وله ترجمة في التهذيب ٨ : ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٩ .

قال ابن مسعود « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلاً » . ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين . حصر الأول في الثاني وهو مضطرد وحصر الثاني في الأول نحو قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ (١) وقوله ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾ (٢) وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (٣) .

وذلك أنه لما أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم ، وهذا كالاستثناء . فإنه من النفي : إثبات ، عند جمهور العلماء ، كقولنا « لا إله إلا الله » وقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ (٤) وقوله :

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (٥) وقوله :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٦) .

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه . لم يثبت له ما ذكر ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى . فيقولون نفي الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

(١) سورة يس آية رقم ١١ .

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة السجدة آية رقم ١٥ ، ١٦ .

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .

(٦) سورة الفرقان آية رقم ٣٣ .

والصواب : قول الجمهور . أن هذا كقوله :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) فإنه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويشتتها لها . لكن أثبتها للجنس ، أو لكل واحد من العلماء ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمون ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ؟

ففي هذه الآية وأمثالها : هو مقتض . فهو عام . فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف . فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات ، وكل عاص فهو جاهل ، ليس بتمام العلم بين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم ، وإذا كان كذلك ، فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل هو مثل عدم القدرة وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

والعدم (٢) : لا فاعل له ، وليس هو شيئاً ، وإنما الشيء الموجود والله تعالى خالق كل شيء ، فلا يجوز أن يضاف العدم المحصن إلى الله لكن قد يقترب به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه إلى الحسنات ، وترك السيئات . والنفس بطبعها متحولة ، فإنها حية ، والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « أصدق الأسماء » : حارث

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٢) العدم : ضد الوجود ، وهو مطلق أو إضافي ، فالعدم المطلق هو الذي لا يضاف إلى شيء ، والعدم الإضافي أو المقيد هو المضاف إلى شيء كقولنا : عدم الأمن ، وعدم الاستقرار ، وعدم التأثير . والعدم : فقدان الشيء ما تقتضيه طبيعته من الكمالات الثابتة لنوعه وطبيعته وهو عدم إضافي لا عدم مطلق ، ويطلق عند المنطقيين على وقوع النسبة بين محمول وموضوع ليس شأنه أن يكون له ذلك المحمول ، ولا يؤدي انتفاؤه عنه في نقص في ماهيته كقولنا : ليس زيد جالساً .

وهمام^(١) ، فكل آدمي حارث وهمام أي عامل كاسب ، وهو همام ، أي يهم ويريد فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء في الحديث « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة وللقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً^(٢) .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها ، فإذا هداها الله : علمها ما ينفعها وما يضرها ، فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب باب في تغيير الأسماء ٤٩٥٠ حدثنا هشام بن سعيد الطالقاني أخبرنا محمد بن المهاجر الأنصاري قال : حدثني عقيل عن أبي وهب الجشمي - وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها : حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة . ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٣٤٥ (حلي) .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٨٨ - حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن يزيد الرقاش عن غنيم بن قيس عن أبي موسى الأشعري . قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره ولفظه [مثل القلب مثل الريشة تقلبها الرياح بفلاة] ورواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٤٠٨ بسنده عن أبي كبشة قال سمعت أبا موسى يقول على المنبر قال رسول الله - ﷺ (ولفظه) [إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهراً لبطن الخ]

فصل أصل السعادة في اتباع الفطرة وما جاءت به الرسل

والله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين : هما أصل السعادة : أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : « اقرأوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ (١) قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (٢)

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب القدر ٦ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، ٢٢ (٢٦٥٨) حدثنا محمد بن حرب عن الزبيدي عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أنه كان يقول قال رسول الله - ﷺ - وذكره . وأخرجه البخاري في كتاب القدر ٣ باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٦٥٩٩ أخبرنا اسحاق بن ابراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الجنائز ٨٠ والتفسير سورة ٣٠ : ١ ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٣١٥ ، ٣٤٦ (حلي) .

(٢) سورة الروم آية رقم ٣٠ .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال « يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له تعبده لا تشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى ، شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا : إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ؟ ﴾ (١) .

وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع .

الثاني : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الأعراف الآيات رقم ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) سورة العلق الآيات رقم ١ - ٥ .

(٣) سورة الرحمن الآيات رقم ١ - ٤ .

وقال تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ^(٢) .

ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبه له ، وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل في فطرته محبة لذلك . لكن قد يعرض الإنسان - بجاهليته وغفلته - عن طلب علم ما ينفعه .

وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريده : أمر عديم ، لا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

« النفس لا بد لها من مراد تطلبه »

لكن النفس كما تقدم : الإرادة والحركة من لوازمها ، فإنها حية حياة طبيعية : لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة . وكان ما لها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة . ولا هي ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى ، سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ ^(٣)

فالجزاء من جنس العمل . لما كان في الدنيا : ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها بل كانت حياته من جنس حياة البهائم ، ولم يكن ميتا عديم الإحساس ^(٤) : كان في الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة هو حصول ما

(١) سورة الأعلى الآيات رقم ١-٣ .

(٢) سورة البلد آية رقم ١٠ .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ٩-١٣ .

(٤) الحس ، والحسيس : الصوت الخفي ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ ، (وَحَسْوَهُمْ) استأصلوهم قتلاً وبابه رد . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ﴾ وحس

يتنفع به الحي ويستلذ به ، والحي لا بد له من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة ، لم يحصل له مقصود الحياة ، فإن الألم ليس مقصوداً . كمن هو حي في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء ، فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ولا يحصل له . فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل إذ هو حارث همام . فإن عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته فذلك من تمام إنعام الله عليها ، وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبد . وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل ، ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود . فعبدت غيره . وهذا هو الشر الذي تعذب عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هواها .

والقدرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريداً لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول . أي قابلاً لأن يريد هذا وهذا . وأما كونه مريداً لهذا المعين . وهذا المعين ، فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً . فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شيء ، وهو الذي ألهم النفس - التي سواها - فجورها وتقواها .

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه :

« اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » (١) وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره ،

= (الدابة) فرجتها وبابه أيضاً رد ، والمجسة بكسر الميم : الفرجون ، والحواس : المشاعر الخمس ، وأحسن الشيء : وجد حسه ، قال الأخفش : أحسن معناه : ظن ووجد ومنه قوله

تعالى ﴿ فلما أحسن عيسى منهم الكفر ﴾

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٨ =

وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار . ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائية ^(١) ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلية ^(٢) .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحكمة هو باعتبارها خيراً . لا شر وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتهوم مذهب جهنم : أن الله يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه لأحد لا لحكمة ولا رحمة والأخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون في الأرض كان هذا ذمّاً لهم ، وكان باطلاً . وإذا قيل : يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا من حالهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم . أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، وهو أرحم الراحمين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها

= باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٧٣ (٢٧٢٢) حدثنا أبو معاوية عن عاصم عن عبد الله بن الحارث ، وعن أبي عثمان النهدي عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ - يقول : كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهزم وعذاب القبر وذكره وفيه زيادة أيضاً [اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها .] ورواه النسائي في الاستعاذة ٦٥ ، ١٣ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٧١ ، ٦ : ٢٠٩ (حلي) .

(١) العلة في اللغة : اسم لعارض يتغير به وصف المحل بحلوله لا عن اختيار (كشف اصطلاحات الفنون) ومنه سمي المرض علة ، لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف ، وكل أمر يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال أو بانضمام الغير إليه ، فهو علة لهذا الأمر ، والأمر معلول له (كليات أبي البقاء) .

والعلة عند الأصوليين : ما يجب به الحكم . والعلة عند الحكماء : ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً ومؤثراً فيه (تعريفات الجرجاني) والعلة الغائية : وهي التي يكون وجود الشيء لأجلها كالجلوس على السرير فهي الغاية التي من أجلها وجد .

(٢) العلة الفاعلة : وهي ما تكون مؤثرة في المعلول ، موجدة له ، كالنجار الذي يصنع السرير .

والخير كله بيديه . والشر ليس إليه . بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ونعمة جسيمة - كان هذا حقاً . وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحد ولا له فيها حكمة ولا رحمة ، ويعذب الناس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه . بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس . وبسط القول في بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينا بعض ما في خلق جهنم وإبليس والسيئات : من الحكمة والرحمة ، وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين . ومالك يوم الدين ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذي لا يحصي العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون . الذي يستحق الحمد والحب والرضا لذاته وإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لما له في نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده . هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

وقد ذكرنا - في غير هذا الموضع - ما قيل : من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمده ويشكروه عليه ، وهو من آلائه . ولهذا قال في آخر سورة النجم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ ^(١) وفي سورة الرحمن يذكر ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ^(٢) ونحو ذلك . ثم يقول عقب

(١) سورة النجم آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الرحمن آية رقم ٢٦ ، ٢٨ .

ذلك ﴿ فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج بن الجوزي ﴿ فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي من هذه الأشياء المذكورة ، لأنها كلها ينعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته ، وفي رزقه إياكم ما به قوامكم وهذا قالوه في سورة الرحمن (٢) .

وقالوا في قوله ﴿ فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ (٣) ؟ فَبَايَ نعم ربك التي تدل على وحدانيته تشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب قلت : قد ضمن ﴿ تمارى ﴾ معنى تكذب . ولهذا عداه بالياء . فإن التماري تفاعل من المراء . يقال : تمارينا في الهلال ، والمراء في القرآن كفر ، وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال ﴿ تمارى ﴾ أي يمارون . ولم يقل : تميرا . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للإنسان قيل للوليد بن المغيرة (٤) . فإنه قال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى : أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٥) ثم التفت إليه فقال ﴿ فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ ؟ تكذب . كما قال ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

(١) سورة الرحمن آية رقم مكررة في كثير من آيات السورة .

(٢) راجع ما كتبه ابن الجوزي في تفسير هذه الآية فهو في غاية النفاسة وسعة العلم (زاد المسير ٨ : ١١٠ - ١١٢)

(٣) سورة النجم آية رقم ٥٥ .

(٤) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم ، أبو عبد شمس من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش ومن زنادقها يقال له « العدل » لأنه كان أعدل قريش كلها كانت قريش تكسو البيت جميعها والوليد يكسوه وحده ، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية وضرب ابنه هشام على شربها توفي عام ١ هـ [راجع الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦ واليعقوبي ١ : ٢١٥ والنويري ١٦ : ٢٧٣] .

(٥) سورة النجم آية رقم ٣٦ - ٣٨ .

صَلِّصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ ﴿١﴾ .

ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته . فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالثقلين المخاطبين بقوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ ﴾ من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذي يسعدون به في الدنيا والآخرة ، فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التي بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم ، وإهلاك عدوهم - كما ذكره في سورة النجم ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ، وَالْمُؤَنَفَكَةُ أَهْوَىٰ ، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ (٢) تدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ ﴾ (٣) قيل : هو محمد ، وقيل : هو القرآن ، فإن الله سمي كلا منهما بشيراً ونذيراً ، فقال في رسول الله ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٥) وقال تعالى في القرآن ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٦) وهما متلازمان وكل من

(١) سورة الرحمن آية رقم ١٤ - ١٦ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٥٠ الى ٥٤ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٥٦ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٨٨ .

(٥) سورة الفتح آية رقم ٨ .

(٦) سورة فصلت آية رقم ٣ - ٤ .

هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله ﴿ مِنَ النَّذْرِ ﴾ أي من جنسها ، أي رسول من الرسل المرسلين .
ففي المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^(١) وقال تعالى :
﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْتُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ ^(٢) .

« الصبر والشكر على السراء والضراء »

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينة ، وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ، ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها :

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) .

وقد قال في الحديث « والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٢) سورة ق آية رقم ٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

له» (١) . وإذا كان هذا وهذا ، فكلاهما من نعم الله عليه . وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر ، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء ، كما قال بعض السلف : أبتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفي الحديث : « أعوذ بك من فتنة الفقر ، وشرف فتنة الغنى » (٢) . والفقر يصلح عليه خلق كثير ، والغنى : لا يصلح عليه إلا أقل منهم . ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ، لأن فتنة الفقر أهون وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر . لكن لما كان في السراء اللذة . وفي الضراء الألم . اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ ، وَلَئِنْ أَدْقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَةٍ : لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٣) ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر ، فإن صبر هذا وشكر هذا : واجب إذا تركه استحق العقاب .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الزهد والرقائق ١٣ باب المؤمن أمره كله يسر ٦٤ (٢٩٩٩) حدثنا سليمان ، حدثنا ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . وأخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٣٢ (حلي) حدثنا بهز وحجاج قالوا حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء ١٤ باب التعوذ من شر الفتن وغيرها بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله - ﷺ - كان يدعو بهذه الكلمات وفيه [اللهم فإني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ، وفتنة القبر وعذاب القبر ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر] الخ .

(٣) سورة هود آية رقم ٩ - ١١ .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عند فضول الشهوات وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر - الذي هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره في الشكر : مما يغفر له ، لما يأتي به من الصبر . فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم وهذا حال يعسر على كثير من الناس ، وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا : أن الله تعالى : منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإينعام به في الابتداء لأكثر الناس ، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الإنسان : فهي من نفسه ، ومع هذا فهي - مع حسن العاقبة - نعمة ، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان ، ولهذا كان من أحسن الدعاء « اللهم لا تجعلني عبرة لغيري ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني » (١) .

وفي دعاء القرآن ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) و﴿ لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٣) كما فيه ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ (٤) أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم ، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى و« الآلاء » في اللغة : هي النعم وهي تتضمن القدرة .

(١) الحديث لم نعثر عليه على كثرة تفتيشنا في كتب الحديث ونرجو من الله أن يرشدنا الى من يدلنا عليه .

(٢) سورة يونس آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٥ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٧٤ .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبهم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي ﷺ قال « قرأ علينا رسول الله ﷺ الرحمن حتى ختمها ثم قال : ما لي أراكم سكوتاً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم الآية من مرة - ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ - إلا قالوا : « ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » (١) .

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى . وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد . فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل ، وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول : الحمد أعم من الشكر (٢) ، من

(١) الحديث رواه الترمذي ٢ : ١٦١ ، والحاكم في المستدرک ٢ : ٤٧٣ من حديث الوليد بن مسلم - ثنا زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر - رضي الله عنه - وصححه ووافقه الذهبي . وقال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . قلت وزهير بن محمد هذا وإن أخرج له الشيخان فقد قال البخاري كما في التهذيب ٣ : ٣٤٩ : ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير ، وما روى عنه أهل البصرة ، فإنه صحيح ، قلت : وهذا الحديث مما رواه عنه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام .

(٢) يقول الفيروزآبادي : الحمد : الشاء بالفضيلة ، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره ومما يكون منه وفيه بالتسخير ، فقد يمدح الإنسان =

جهة أسبابه فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة ، والشكر أعم من جهة أنواعه . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة . والحمد لله على كل حال ، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم ، والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا .

وكذلك كل ما يخلقه : ففيه له حكمة ^(١) . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه ، بل ما ثم إلا نفع الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذي يفعل ما لا ينتفع به ، ولا ينفع به أحداً . فهذا لا يحمد .

= بطول قامته وصباحة وجهه كما يمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه ، والحمد يكون في الثاني دون الأول . والشكر : لا يقال إلا في مقابلة نعمة ، فكل شكر حمد ، وليس كل حمد شكراً ، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً [راجع بصائر ذوي التمييز ٢ : ٤٩٩] .

(١) الحكمة : العدل ، والعلم والحلم ، والنبوة ، والقرآن ، والانجيل ، وطاعة الله ، والفقه في الدين ، والعمل به ، أو الخشية ، أو الفهم أو الورع أو العقل أو الإصابة في القول ، والتفكير في أمر الله واتباعه والحكمة : فمن الله - تعالى - معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام والاتقان ، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات . وقد وردت في القرآن على وجوه :

الأول : بمعنى النبوة والرسالة ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة ﴾
الثاني : بمعنى القرآن والتفسير والتأويل وإصابة القول ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ . البقرة آية ٢٦٩ .

الثالث : بمعنى فهم الدقائق والفقه في الدين ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ أي فهم الأحكام .
الرابع : بمعنى الوعظ والتذكير ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ﴾ أي المواعظ الحسنة .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام إذ كان عندهم يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين . وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(١) فله الوجدانية في إلهيته ، وله العدل . وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يشتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري لا يثبت عدلاً ولا حكمة ، ولا توحيد إلهيته بل توحيد ربوبيته والمعتزلي أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهيته ولا عدلاً في الحسنات والسيئات ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها ليس بحكيم بل سفيه .

وقد قال تعالى ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية ، كما قيل في الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه وفي الصحيح « أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٥ .

الركوع يقول « ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (١) هذا لفظ الحديث « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق ما قال العبد » . وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول سديد . فإن العبد يقول الحق والباطل . بل حق ما يقوله الرب . كما قال تعالى ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقْوَلُ ﴾ (٢) . وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر ، فهو أول الشكر .

والحمد - وإن كان على نعمته وعلى حكمته - فالشكر بالأعمال : هو على نعمته وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته ، فقد صار مجموع الأمور داخلاً في الشكر .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر ، ولم يعظم أمر الحمد مجرداً . إذ كان نوعاً من الشكر .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام ، ١٩٤ - حدثنا شعبة عن الحكم قال غلب على الكوفة رجل (قد سماه) زمن بن الأشعث فأمر أبا عبيدة بن عبد الله أن يصلي بالناس فكان يصلي فإذا رفع رأسه من الركوع قام قدر ما أقول . وذكره . وذكره الترمذي في أبواب الصلاة ١٩٧ باب ما يقول الرجل إذا رفع رأسه من الركوع ٢٦٦ - حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون ، حدثني عمي عن عبد الرحمن الأعرج عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب قال : وذكره .

قال : وفي الباب عن ابن عمر ، وابن عباس ، وابن أبي أوفى وأبي جحيفة وأبي سعيد . قال الترمذي : حديث علي حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ١٨ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ٨٧٨ بسنده عن ابن أبي أوفى . والحديث لم يروه البخاري وانظر نيل الأوطار ٢ : ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) سورة ص آية رقم ٨٤ .

- وشرع الحمد - الذي هو الشكر المقول - أمام كل خطاب مع التوحيد .
ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد . والخطب الشرعية لا بدَّ فيها من الشكر
والتوحيد والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر
والتنزيه والتعظيم ولا إله إلا الله . والله أكبر ، فيها التوحيد والتكبير .

ولكن لفظه « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أي الحمد أحق
ما قال العبد . أو هذا - وهو الحمد - أحق ما قال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ما قاله العباد (١) ، ولهذا أوجب قوله في
كل صلاة ، وأن نفتتح به الفاتحة . وأوجب قوله في كل خطبة وفي كل أمر
ذي بال والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع
المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم
بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده
ويحمدوه . وأما إذا قيل : بل يخلق ما هو شر محض ، لا نفع فيه ، ولا
رحمة ، ولا حكمة لأحد ، وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلاً على مثل لا فرق
عنده بين أن يرحم أو يعذب ، وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى

(١) روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي -
ﷺ - قال : إذا قال العبد : الحمد لله قال : صدق عبدي الحمد لي « وروى مسلم عن أنس بن
مالك . قال : قال رسول الله - ﷺ : إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمد الله عليها
أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .

وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها ، وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك
قال : قال رسول الله - ﷺ : ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان الذي أعطاه
أفضل مما أخذ وفي نواذر الأصول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ : لو أن الدنيا
كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك « قال أبو
عبد الله : معناه أنه قد أعطى الدنيا ، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت
هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية .

الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده . وهو - مع هذا - يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة - ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية - : لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس . ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر في كلامه ما يقتضي هذا ومن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله ، ويجعلون الرب ظالماً لهم . وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ^(٣) .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض ، أو قصر في حقه لكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتد عليه .

ولو قال : إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدر . فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر .

(١) سورة الزخرف آية رقم ٧٦

(٢) سورة هود آية رقم ١٠١ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٤٦ .

وهو سبحانه الحكيم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها . ويؤت من لدنه أجراً عظيماً وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فقوله « أحق ما قال العبد » يقتضي : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . فله الحمد على كل حال ، لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذي يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى ، وإن كاد العباد لا يعلمون .

وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابعة .

فإذا قيل : فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان ، وكانت الحكمة التي خلقها بخلق الإنسان لا تحصل ، وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ ﴾ ^(١) وما لم تعلمه الملائكة فكيف يعلمه آحاد الناس .

ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(٣)

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٠ .

والسفك : الصب . سفكت الدم أسفكه سفكاً : صببته وكذلك الدمع حكاه ابن فارس والجوهري . والسفك : السفاح ، وهو القادر على الكلام قال المهدوي : ولا يستعمل السفك إلا في الدم ، وقد يستعمل في نثر الكلام يقال : سفك الكلام إذا نثره وواحد الدماء دم محذوف اللام وقيل أصله دمي وقيل : دمي ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه ، والمحذوف منه ياء وقد نطق به على الأصل قال الشاعر :

فلو أنا على حجر دُبِحنا جرى الدميان بالخبر اليقين

(٢) سورة المعارج آية رقم ١٩ - ٢١ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٣٧ .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ورحمة عميقة فكان ذلك خيراً ورحمة . وإن كان فيه شر إضافي كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثاني من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس . فإنها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبه . وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك ، وهذا كله من فضل الله وإحسانه ، لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات - من شياطين الإنس والجن - مالت إلى ذلك وفعلت السيئات ، فكان فعلها للسيئات ، مركباً من عدم ما ينفع وهو الأفضل ، ووجود هؤلاء الذين حيروها ، والعدم لا يضاف إلى الله . وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة . فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض ^(١) الذي لا خير فيه : هو عدم المحض ، والعدم لا يضاف إلى الله ، فإنه ليس شيئاً . والله خالق كل شيء : كانت السيئات منها باعتبار [أن] ذاتها في نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التي تحصل منها - مع عدم ما يصلحها - تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين . إن

(١) الشر : السوء والفساد ، يقال رجل شر أي ذو شر ، وهو شر الناس أي أسوأهم وأكثرهم فساداً .

والشر : ضد الخير ، لأن الخير يطلق على الوجود ، أو على حصول كل شيء على كماله ، على حين أن الشر يطلق على عدم أو على نقصان كل شيء عن كماله . وللشر ثلاثة معان : الشر الطبيعي ويطلق على كل نقص ، مثل الضعف والتشويه في الخلقة ، والمرض .

والشر الأخلاقي : ويطلق على الأفعال المذمومة وعلى مبادئها من الأخلاق . والشر الفلسفي : ويطلق على نقصان كل شيء عن كماله ، أو على الحابس للكمال عن مستحقه وهو إما أن يكون بالذات أو بالعرض ، والشر المطلق : هو العدم المطلق .

اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التي لا يجاوزهن برُّ ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله ، وأنه إن لم يهده فهو ضال . وإن لم يتب عليه فهو مصر وإن لم يغفر له فهو هالك : خضع لعزته وحكمته .. فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهي عنه وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول ، وهذا من أتباع الشيطان ، ولا يزيده ذلك إلا شراً ، وقد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه وإحسانه إلى عباده ، ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ، لأن حكمه عدل لا يفعل إلا خيراً وعدلاً ، ولأنه لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له « إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » (١) .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه - من الجمد والثناء - ولأنه محسن المؤمن .

وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه ﷺ قال : « لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له » (٢) وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث . إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما في قوله ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٣) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

ولهذا قال « إن أصابته سراء شكر . فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » فجعل القضاء ^(١) : ما يصيبه من سراء وضراء ، هذا ظاهر لفظ الحديث ، فلا إشكال عليه .

وشهوده بفقره وحاجته إليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو . فيحصل للمؤمن - بسبب الذنب - من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك ، فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو في ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب فيتوب الله عليه فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى « أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا يؤيسهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم » أي محبهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين « وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم أبتليهم » الوجه الثاني : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا . فقد قال النبي ﷺ « من سرتة حسنته وساءتة سيئته فهو مؤمن » ^(٢) فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره . فيشكر الله عليه .

(١) القضاء من الله أخص من القدر ، لأنه الفصل بين التقدير ، والقدر هو التقدير ، والقضاء : هو التفصيل والقطع ، وذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل ، والقضاء بمنزلة الكيل ، ولهذا قال أبو عبيد لعمر لما أرادوا الفرار من الطاعون من الشام : أتضر من القضاء ؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله ، تنبيهاً أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله فإذا قضى فلا يندفع ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ سورة مريم آية ٢١ . واستقضى علينا فلان واستقضاه السلطان . قال :

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضي الأمر داهن في القضاء فويل ثم ويل ثم ويل لقاضي الأرض من قاضي الساء ^(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الترمذي في كتاب الفتن ٧ باب ما جاء في لزوم الجماعة =

وإذا قضى عليه سيئة : فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها إذا لم يتب منها ، فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها وإن لم يتب ابتلي بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ، فيكون ذلك خيراً له . والرسول ﷺ قال « لا يقضي الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه . فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات : (إن العبد لعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله ، لا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة) .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، بالمصائب لأكفر عنهم المصائب .

وفي قوله تعالى ﴿ من نفسك ﴾ من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجيء إلا منها ولا يشتغل بلام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه ، فإن ذلك من السيئات التي أصابته وهي إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله . ويسأل الله أن يعينه على طاعته فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

= ٢١٦٥ - حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا النضر بن اسماعيل أبو المغيرة ، عن محمد بن سودة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : خطبنا عمر بالجابية فقال : يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ - فينا فقال : أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يغشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ، ويشهد الشاهد ولا يستشهد إلا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد من أراد بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن » .

ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ١٨ ، ٢٦ ، ٣ : ٤٤٦

الضَّالِّينَ ﴿١﴾ فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه ، فلماذا يسئَل الهدى (٢) .

وإن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه وإلا كان العلم حجة

(١) قال بعض العلماء : فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجهته في هذه السورة نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعوه الداعي لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به . وفي الحديث : ليس شيء أكرم على الله من الدعاء .

(٢) الهدى : بضم الهاء وفتح الدال : الرشاد والدلالة ، يذكر ويؤنث هداه هدى ، وهدياً .

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أضرب :

الأول : الهداية التي عم بها كل مكلف من العقل والفتنة والمعارف الضرورية بل عم بها كل شيء حسب احتماله كما قال تعالى ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه آية ٥٠] .

الثاني : الهداية التي جعلت للناس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء وإنزال القرآن قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ .

الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى . وهو قوله تعالى ﴿ والذين اعتدوا زادهم هدى ﴾ [سورة محمد آية ١٧]

الرابع : الهداية في الآخرة إلى الجنة وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ سورة الأعراف آية ٤٣ .

عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم - صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة لفرط حاجتهم إليه فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبار أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء ، ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة ، فيعلم أن الله - بفضله ورحمته - جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر .

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعبر بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضى للحكم .

فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسول - فرعون ومن قبله - لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ولكن الأمر كما قال الله تعالى ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ^(١) وكما قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٣ .

مَجْنُونٌ ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿٣﴾ .

ولهذا قال النبي ﷺ « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » (٤) .

وقال : « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يا رسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين في الصحيحين (٥) .

ولما كان في غزوة حنين كان للمشركين شجرة - يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين فقال بعض الناس « يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر . قلت كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١١٨ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٤) والحديث رقم ٧٣٢٠ حدثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ - وذكره ورواه الامام مسلم في كتاب العلم ٣ باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٦ - (٢٦٦٩) حدثنا حفص بن ميسرة ، حدثني زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٤ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٤ باب قول النبي ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ٧٣١٩ - حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة - رضي الله عنه عن النبي ﷺ - بلفظ لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم فقال ومن الناس إلا أولئك .

آلهة . إنها السنن . لتركن سنن من كان قبلكم » (١) .

وقد بين القرآن : أن السيئات من النفس . وإن كانت بقدر الله .

فأعظم السيئات : جحود الخالق . والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونداً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٢) وقال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٣) وقال لموسى ﴿ لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَهِاءُ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ ﴾ (٤) و ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ (٥) .

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفي نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا أو هذا ، إن لم يعن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمّر .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الفتن ١٨ باب ما جاء لتركن سنن من كان قبلكم ٢١٨٠ - حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ، حدثنا سفيان عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أن رسول الله - ﷺ - لما خرج إلى خيبر وذكره . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٢١٨ ، ٢٤٠ (حلي) .

(٢) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

(٥) سورة الزحرف آية رقم ٥٤ . وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (استخف) بدلاً من (فاستخف) .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

فالنفس ^(١) مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده : ما يهواه ويريده ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ^(٢) والناس عنده في هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم ، يقولون « يا رباعي » أي صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً ، ومن لم يوافق هواهم : كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هي حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء - وإن كانوا يقرون بالصانع - لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى . وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده ، فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع

(١) النفس : الروح يقال : خرجت نفسه ، أي روحه قال :

نجاً سالم والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا والنفس أيضاً الدم ، والنفس : الجسد ، والنفس : العين أصابته نفس أي عين ، والنفس العائن ، والنفس : العند قال تعالى ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ المائدة آية ١١٦ أي تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك .

ونفس الشيء عنه يؤكد به يقال : رأيت فلاناً نفسه ، وجاءني الملك نفسه والنفس بالتحريك ، واحد الأنفاس . وفي الحديث « أجد نفس ريكم من قبل اليمن » .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٤٣ .

في أغراضه وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية الله ، ويكون من أطاعه في هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون . وسائر المكذبين للرسول .

وإن كان عالماً - أو شيخاً - أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس . فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به : أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى . قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ (٣) .

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون ، وسلط عليهم من انتقم به منهم . فقال تعالى عن فرعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤) وقال تعالى عنهم ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٥) ولهذا قال تعالى ﴿تِلْكَ

(١) سورة البقرة آية رقم ٩١ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٤ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ١٤ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٤ .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ٤ .

الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴿١﴾ والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ويشكروه ، ويعبدوه وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك ، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٣) .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يفرقوا فيه ، فقال ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤) وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ، فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥) .

قال قتادة : أي دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشرعة مختلفة وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروي عن سعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك . وقال الحسن بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه ستكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

(١) سورة القصص آية رقم ٨٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة الأنبياء . آية رقم ٩٢ .

(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٥١ - ٥٣ .

و « الأمة » ^(١) الملة ، والطريقة ، كما قال تعالى ﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَأَنَا عَلَى أَثَارِهِم مُّهْتَدُونَ - مُقْتَدُونَ ﴾ ^(٢) كما يسمى « الطريق » إماماً لأن السالك فيه يأتّم به ، فكذاك السالك يؤّمه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير الذي يأتّم به الناس ، كما أن الإمام هو الذي يأتّم به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً . وأخبر أنه ﴿ كان أمة ﴾ .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً . لا يتفرون فيه كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » ^(٣) وقد قال الله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ . وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ^(٤)

(١) الأمة لغة : الرجل الجامع للخير ، والإمام الجماعة ، وجماعة أرسل إليهم رسول . وقد ورد في نص القرآن على وجوه .

١- بمعنى الصف المصفوف (ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) أي صفوف .

٢- بمعنى السنين الخالية : (وادكر بعد أمة) أي بعد سنين الثالث بمعنى الرجل الجامع للخير : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ .

الرابع : بمعنى الدين والملة : إن هذه أمتكم أمة واحدة ، ﴿ وإنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ .

الخامس : بمعنى الكفار خاصة ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾

السادس : بمعنى أهل الإسلام ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٢٢ - ٢٣ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ٤٠ باب فضائل عيسى عليه السلام ١٤٥ - حدثنا

عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله -

ﷺ - فذكر أحاديث منها وقال رسول الله - ﷺ - « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى

والآخرة قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : « الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد

فليس بيننا نبي » .

ورواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٤٨ باب قول الله ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت

من أهلها ﴾ ٣٤٤٣ بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله وذكره ورواه الإمام أحمد في المسند

٢ : ٣١٩ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، (حلي) ورواه أبو داود في السنة ١٣ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

فمن كان من المطاعين - من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك - متبعاً للرسول : أمر بما أمروا به . ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه . فإن الله يحب ذلك . فيحب ما يحبه الله تعالى . وهذا قصده في نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده وأن يكون الدين كله لله . وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود . فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون . ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد إلا إياه . وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعادة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ولا يُستعان إلا به .

فالْمُؤْمِنُ المتبع للرسول : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسول ليكون الدين كله لله . لا له . وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه ، وسر بوجود مطلوبه . وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى ويعلم أن الله قد مَنَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا ، أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أي شيء .

ولهذا فرضت عليهم قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور ولم ينزل في التوراة ولا في إنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، فإن فيها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) .

(١) نعبد : معناه نطيع والعبادة : الطاعة والتذلل ، وطريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين ، قاله =

فالمؤمن يرى أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ، لأنه إياه يستعين فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل له ما عمل الله ، كما قال الأبرار ﴿ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (١) ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم أن الله هو المان عليه ، إذ استعمله في الإحسان وأن المنة لله عليه وعلى ذلك الشخص ، فعليه هو : أن يشكر الله ، إذ يسره لليسرى وعلى ذلك : أن يشكر الله ، إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن إلى غيره ليمنّ عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمن عليه . فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ، ولا عمل لله ، ولا عمل بالله . فهو المرائي .

وقد أبطل الله صدقة المنان (٢) ، وصدقة المرائي . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا . لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ

= الهروي ، ونطق المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى ، إذ سائر الناس يعبدون سواء من الأصنام وغير ذلك .

وإياك نستعين : أي نطلب العون والتأييد والتوفيق . قال السلمي في حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغاني يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين ، فقد برىء من الجبر والقدر

(١) سورة الإنسان آية رقم ٩ .

(٢) من عليه منة : امتن قال الله تعالى : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بِلِ اللَّهِ مِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ ﴾ الحجرات آية ١٧ [ومنة الله عليهم بالفعل وهو هدايته إياهم وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أثقلهم بالنعمة الثقيلة .

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ^(١) أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ^(٢) .

قال قتادة : ﴿ تَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ احتساباً من أنفسهم . وقال الشعبي : يقيناً ، وتصديقاً من أنفسهم ، وكذلك قال الكلبي ، قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم ، على يقين بالثواب ، وتصديق بوعده الله . يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله ، مصداقاً بوعده الله له : طالب من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمن عليه ، كما لو قال رجل لآخر : أعط ممالكك هذا الطعام وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على الممالك ، لا سيما إذا كان يعلم : أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

(١) المعروف من كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر وفيها خمس لغات (ربوة) بضم الراء وبها قرأ ابن كثير وحمة والكسائي ونافع وأبو عمرو ، و « ربوة » بفتح الراء وبها قرأ عاصم وابن عامر والحسن « وربوة » بكسر الراء وبها قرأ ابن عباس وأبو إسحاق السبيعي ، (ورباوة) بالفتح وبها قرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن قال الشاعر :

من مُنْزَلِي فِي رَوْضَةٍ بِرِبَاوَةٍ بَيْنَ النَّخِيلِ إِلَى بَقِيعِ الْفَرْقَدِ
(رباوة) بالكسر وبها قرأ الأشهب العقيلي قال الفراء ويقال : برباوة ، وبرباوة وكله من الرابية ، وفعله ربا يربو . والوايل : المطر الشديد قال الشاعر :

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِبَاضِ الْحَزَنِ مَعْشِبَةٌ خُضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا وَابِلٌ هَطْلٌ
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

فصل

ما يتلى به العبد من الذنوب هو عقوبة له على عدم فعل
ما خلق له

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يتلى به العبد من الذنوب الوجودية - وإن كان خلقاً لله - فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له . وفطرة عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودله على الفطرة ، كما قال النبي ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة »^(١) وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) . فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به - من معرفة الله وحده ، وعبادته وحده - عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي .

قال تعالى للشيطان ﴿ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾^(٣) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾^(٤) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الروم آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٦٣ - ٦٥ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٩ - ١٠٠ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (١) .

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب ، كما قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢) .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك . وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق له ، وفطر عليه : عوقب على ذلك . وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمي ، لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي ، لكن بفعل السيئات ، لا بالعقوبات - التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه - بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان . والأكثر أن يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك وهذا أمر وجودي .

وطائفة - منهم : أبو هاشم (٣) - قالوا : بل يعاقب على هذا العدم ، بمعنى أنه يعاقب عليه كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٣) سبق الترجمة له قريباً في هذا الجزء .

ومما ذكر في هذا الوجه : هو أمر وسط ، وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله . فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة وهو أولاً : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره بأن يتوب منه أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعود من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب إلا على ذنبه . ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

وعلى هذا فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه . فإنه - وإن كان الله خالق أفعال العباد - فخلقه للطاعات ^(١) : نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة ، وهو - مع هذا - عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً . ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات ، فهذا ليس مضافاً إليه ، وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأمرهم بها . فكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر

(١) الطوع : الانقياد ، وضد الكره قال تعالى : ﴿ اتبياً طوعاً أو كرهاً والطاعة مثله ﴾ لكن أكثر ما يقال في الائتمار فيما أمر وقوله تعالى ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ أي أطيعوا أي ليكن منكم طاعة معروفة بلا إثم وهو لي طائع ، وأطاع الله طاعة ، وهو مطيع ، ومطواع ومطواعه قال الشاعر :
إذا سدت سدت مطوعة .
ومها وكلت إليه كفاه

وهو من ناس مطاوع ، وهو من المطوعة : أي من الذين يتطوعون للجهاد وقال الله تعالى في صفة النبي - ﷺ : ﴿ إنه لقول رسول كريم إلى قوله (مطاع ثم أمين) سورة التكوين الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

والمعاصي يجعله جزاءً لذلك العمل . كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَزَاغُوا أَزَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٢) وقال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (٣) .

هذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالاً ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور . وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلققت فيهم ، لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولا بذلهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات ، عدلاً من الله . حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له - وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً - فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

الرد على القدرية والمجبرة

وهذا الوجه - إذا حقق - يقطع مادة كلام القدرية المكذبة والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله (٤) ، ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة الصدف آية رقم ٥ .

(٣) سورة الليل آية رقم ٨ - ١٠ .

(٤) يراجع كتاب « خلق أفعال العباد » للإمام البخاري بتحقيقنا ط دار عكاظ بجدة عام ١٩٨٢ م .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم في تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم : عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به . فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى : ﴿ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ (١) .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون : ما خلق شيئاً من الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لثلا يكون ظالماً .

فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله ثم ما يكون جزاء على ذلك : فالله محدثه . وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة .

وهذا الذي ذكرناه : يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله بل يحدثه العبد ، لثلا يكون الجزاء عليه ظالماً .

وما ذكرناه يوجب أن الله خالق كل شيء . فما حدث شيء إلا بمشيئته وقدرته لكن أول الذنوب الوجودية : هو المخلوق . وذاك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٣ .

واختلف العلماء في لفظ «كلتا وكلا» هل هو مفرد أو مثني . فقال أهل البصرة : هو مفرد لأن كلا وكلتا في تأكيد الاثنين نظير (كل) في المجموع وهم اسم مفرد غير مثني فإذا ولي اسماً ظاهراً كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة . فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب تقول : رأيت كليهما ومررت بكليهما كما تقول : عليهما . وقال الفراء : هو مثني وهو مأخوذ من كل فخفت اللام وزيدت الألف للثنائية ، وكذلك كلتا للمؤنث ولا يكونان إلا مضافين .

وهذا العدم لا يجوز إضافته إلى الله . وليس بشيء ، حتى يدخل في قولنا ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(١) وما أحدثه من الذنوب الوجودية فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم ، وسائرهما : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لا يخلص الله العمل : فلا يزال مشركاً ، ولا يزال الشيطان مسلطاً عليه . ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه - بأن استعمله ابتداءً فيما خلق له ^(٢) ، وهذا لم يستعمله - هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله :

﴿ وَالله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٣) .

ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كما خصَّ بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية ، وغير ذلك من حكمته .

وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

(١) . سورة الزمر آية رقم ٦٢ .

يقول الامام القرطبي في قوله (خالق كل شيء) عموم معناه الخصوص ، أي خلق العالم ، ولا يدخل في ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته ، ومثله « ورحمتي وسعت كل شيء » ولم تسع إبليس ولا من مات كافراً ومثله « تدمر كل شيء » ولم تدمر السموات والأرض .

(٢) أخرج الترمذي في كتاب القدر ٨ باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار ٢٢٢٩ - أخبرنا علي بن حجر ، أخبرنا اسماعيل بن جعفر عن حميد عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ : إن الله إذا أراد بعبد خيراً استعمله فقل كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت .

قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠٥ .

فصل الموجب للعذاب عدم الإيمان

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان : قوله تعالى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ^(١) وهذا من تمام قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ^(٢) الآية فذكر : أن هذا التقلب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة . وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وقد تركوا الإيمان ، وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان وما ذكر شرط في التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول ، فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح - من أكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك .

وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه . ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودي لا ضدًا له إلا ذلك .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ ، ١١٠ .

فصل ما يضاف الى النفس وما يضاف إلى الله

الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء في كون هذه تضاف إلى النفس ، وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التي تصيب الإنسان - وهي مصائب الدنيا والآخرة - ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه ، فأنحصرت في نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فإنه لا تنحصر أسبابه ، لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليه ^(١) ، وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل ، بل يضاعفه له ، ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه فيرجع فيها إلى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه . ويعلم أن النعم كلها من الله ^(٢) . وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما تقدم . فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير ، كشكر

(١) قال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ الصافات آية رقم ٩٦ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ [سورة النحل آية رقم ٥٣] .

الوالدين ^(١) وشكر من أحسن إليك من غيرهما . فإنه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » ^(٢) لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه : أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعمة العظيمة التي لا يقدر عليها مخلوق ، ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضاً . قال تعالى :

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) وقال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ ^(٤) .

وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .
فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق كما قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ^(٥) ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا . وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ ^(٦) .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « على المرء المسلم : السمع والطاعة في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر

(١) قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي غَمَامِينَ أَنْ أُشْكِرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ سورة لقمان آية رقم ١٤ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب البر والصلة ٣٥ باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ٢٠٢٠ - حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا الربيع بن مسلم ، حدثنا محمد بن زياد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

ورواه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٣ ، ٣٨٨ (حلي)

(٣) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

(٤) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٨ .

(٦) سورة لقمان آية رقم ١٥ .

بمعصية فلا سمع ولا طاعة» ^(١) . وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف » ^(٢) . وقال « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » ^(٣) وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ^(٤) . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

« النعم كلها من الله تعالى »

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من عند الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله ، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو . وأنه ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ^(٥) صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ٤٠ باب لا طاعة في معصية الله ٢٨٦٣ حدثنا محمد ابن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ بعث علقمة ابن مجزز على بعث وذكره .

و٢٨٦٤ بسنده عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ قال : وذكره ورواه البخاري في كتاب الجهاد ١٠٨ والأحكام ٤ وأبو داود في الجهاد ٨٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٤٢ ورواه الامام مسلم في كتاب الإمامة ٨ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣٨ (١٨٣٩ بسنده عن ابن عمر عن النبي - ﷺ وذكره .

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الامارة ٨ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣٩ (١٨٤٠) بسنده عن أبي عبد الرحمن عن علي أن رسول الله - ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً فأوقد ناراً وقال أدخلوها النخ وذكره . ورواه البخاري في الأحكام ٤ والآحاد ٨٨ ، والمغازي ٥٩ ، وأبو داود في الجهاد ٨٧ ، والنسائي في البيعة ٢٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٢ ، ٩٤ ، ١٢٤ (حلي) .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ٤٠ باب لا طاعة في معصية ٢٨٦٣ بسنده عن أبي سعيد الخدري وذكره .

في الزوائد : اسناده صحيح .

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في الامارة ٣٩ ، وأبو داود في الجهاد ٨٧ والنسائي في البيعة ٣٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٢٩ ، ١٣١ ، ٤ : ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ (حلي)

(٥) سورة فاطر آية رقم ٢ .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر - الذي لا يستحقه غيره - صار علمه بأن الحسنات من الله يوجب له الصدق في شكر الله ، والتوكل عليه . ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً . لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل ، وما كان لعمله فيه مدخل : فإن الله هو المنعم به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله . ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس . فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى . فاستغفر ربه مما فعل وتاب . واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف « لا يرجو عبد إلا ربه ولا يخاف عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً ، سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب . ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سطوته بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدق العبد بقوله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(١) علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه . حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف - ابن عباس وغيره - أن ما أصابهم يوم أحد من الغم والفشل : إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياها » (١) .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٤ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ٥٢ (٢٥٧٣) بسنده عن أبي سعيد وأبي هريرة : أنهما سمعا رسول الله - ﷺ - وذكره ، ورواه البخاري في المرض ٣ . ورواه الترمذي في أبواب الجنائز ١ باب ما جاء في ثواب المرض ٩٧٣ - عن محمد بن عمرو بن عطاء عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه صاحب الموطأ في كتاب العين ٣ باب ما جاء في أجر المريض ٦ - وحدثني مالك عن يزيد بن خصيفة عن عروة بن الزبير أنه قال سمعت عائشة - زوج النبي - ﷺ - تقول : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

فصل النفس الخبيثة لا تصلح للمكان الطيب

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة وصفها بالخبث في مثل قوله ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ (١) . قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا : كَلِمَةً طَيِّبَةً - وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ (٢) وقال الله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٣) والأقوال والأفعال صفات القائل الفاعل

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها . فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يعاشرون الناس كالسنائير لم يصلح . ومن أراد : أن يجعل الذي يكذب شاهداً على الناس لم يصلح .

(١) سورة النور آية رقم ٢٦ وبعد هذا قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ مِيرُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ . أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات وقال القراء : مِيرُونَ : يعني متزهين مما رموا به . قال بعض أهل التحقيق إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة براه الله على لسان صبي في المهد وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن ، فما رضي لها ببراءة صبي ولا نبي ، حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ و ٢٦ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

وكذلك من أراد أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم . أو يجعل العاجز الجبان مقاتلاً عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذي لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب : فمثل هذا يوجب الفساد في العالم . وقد يكون غير ممكن . مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء . فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة . كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ « إن المؤمنين إذا نجوا من النار - أي عبروا الصراط - وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا . فإذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة ^(١) . وهذا مما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « يخلص المؤمنون من النار » فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا . حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدي بمنزلة في الجنة منه بمنزلة كان في الدنيا ^(٢) .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب ، فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

(١) (٢) الحديثان رواهما البخاري في كتاب المظالم ١ وكتاب الرقاق ٤٨ ورواهما الإمام أحمد ابن حنبل في المسند ٣ : ١٣ ، ٦٣ ، ٧٤ (حلي)

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي ، الأول الآخر ، فسيبها دائم فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع في السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ ^(٢) .

وعلم أن الرب عليم حلیم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان . وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغْضِيهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَالْقَسْطُ بِيَدِهِ الْآخَرَى يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ » ^(٣) .

وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ولا وضع للأشياء مواضعها ، فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه . وهو سبحانه قد شهد ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الزكاة ١١ باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ٣٧ - حدثنا معمر بن راشد عن همام بن منه أخى وهب بن منه ، قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ - فذكر أحاديث منها وقال : قال رسول الله ﷺ . إن الله قال لي : أنفق أنفق عليك ، وقال رسول الله ﷺ - وذكره . وفيه « وعرشه على الماء وبهده الأخرى القبض يرفع ويخفض » ورواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٧ - بسنده عن أبي هريرة - عن النبي ﷺ وذكره ، ورواه البخاري في كتاب التفسير سورة ١١ ، والتوحيد ١٩ ، ٢٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ، ٥٠٠ (حلي) .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

ولهذا يقولون : لا ندري ما يفعل بمن فعل السيئات ، بل يجوز عندهم : أن يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم : أن يُعذب الجميع ، ويجوز أن يعذب ويغفر بلا موازنة ، بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ^(١) ، لا بتوبة ولا حسنات ماحية ولا غير ذلك وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس في الكتاب والسنة ما يبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ^(٢) بأن المراد بالكبائر قد يكون هو الكفر وحده . كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ^(٣) .

وقد ذكر هذه الأمور القاضي أبو بكر بن الباقلاني ^(٤) وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهنم بن صفوان في القدر وفي الوعيد ، وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة في القدر والوعيد فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء . وسلكوا مسلك

(١) كيف يدعي عاقل هذا ويقول به والله سبحانه وتعالى يقول : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ؟ . . .

(٢) سورة النساء آية رقم ٣١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

(٤) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر : قاض ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه رئاسة مذهب الأشاعرة ولد في البصرة عام ٣٣٨ هـ وسكن بغداد فتوفي بها عام ٤٠٣ هـ وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يد ملكها من كتبه (اعجاز القرآن) و(دقائق الكلام) و(الملل والنحل) وكشف أسرار الباطنية ، وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٢٩٤] .

نفاة القدر في هذا وقالوا في الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها . بل يكون عذابه مؤبداً ، فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته - عندهم - لا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده في النار ، فخالفوا المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه في القدر . وناقضهم جهنم في هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهنم . مع انتسابهم إلى أهل السنة والحديث واتباع السلف ، وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة ^(١) الغلاة كجهنم وأتباعه .

الجهنم وأتباعه ينفون الصفات والقدر

وجهنم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع في الأسماء والصفات فغلا في نفي الأسماء والصفات ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنة ^(٢) والفلاسفة

(١) المرجئة : ثلاثة أصناف : صنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية المعتزلة ، كغيلان وأبي شمر ، ومحمد بن شبيب البصري ، وهؤلاء داخلون في مضمون الخبر الوارد في لعن القدرية ، والمرجئة يستحقون اللعن من وجهين وصنف منهم قالوا بالإرجاء بالإيمان ، وبالجبر في الأعمال على مذهب جهنم بن صفوان فهم إذاً من جملة الجهمية ، والصنف الثالث منهم خارجون عن الجبرية والقدرية وهم فيما بينهم خمس فرق . وإنما سموا مرجئة لأنهم أخرجوا العمل عن الإيمان ، والإرجاء بمعنى التأخير وروي عن النبي - ﷺ أنه قال : لعنت المرجئة على لسان سبعين نبياً « قيل : من المرجئة يا رسول الله ؟ قال : الذين يقولون الإيمان كلام » [راجع الفرق بين الفرق ص ٢٠٢] .

(٢) أنظر في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٨٣ ، ومقالات الاسلاميين ١ : ١٦٤ ، والملل ١ : ١٢٩ والسفاري ١ : ٨٠ وخطط المقرئ ٢ : ٣٥٧ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٨١ وتاريخ ابن الأثير في حوادث ٢٧٨ وسنة ٢٨٦ ، وسنة ٢٨٩ وسنة ٣٠١ وسنة ٣١١ وسنة ٣١٧ ، وقد حكى ابن خلكان أن القاضي أبا بكر الباقلاني ألف كتاباً سماه « كشف أسرار الباطنية » ذكر فيه أحوالهم وما يذهبون إليه ، ثم أنظر فرق المسلمين والمشركون لفخر الدين الرازي ص ٧٦ وما بعدها .

ونحوهم . ووافق المعتزلة في نفي الصفات دون الأسماء . والكلائية (١) -
ومن وافقهم من السالمية (٢) - ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث
والصوفية - وافقوه على نفي الصفات الاختيارية دون نفي أصل الصفات .

والكرامية (٣) ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام ما لا
يتناهى وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وفعلاً لما يشاء إذا
شاء لامتناع حوادث لا أول لها ، وهو من هذا الأصل - الذي هو نفي
وجود ما لا يتناهى في المستقبل - قال بفناء الجنة والنار - وقد وافقه أبو
الhezil (٤) إمام المعتزلة على هذا . لكن قال بتناهي الحركات . فالمعتزلة في
الصفات مخانيث الجهمية .

(١) الكلائية هم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد محمد بن كلاب (بضم الأولى وتشديد الثانية)
القطان توفي سنة ٢٤٠ بقليل تأثر به أبو الحسن الأشعري إمام المذهب قال عنه ابن حزم
إنه شيخ قديم للأشعرية .

(٢) السالمية : أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة ٢٩٧ هـ وابنه الحسن
أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وقد تتلمذ على سهل بن عبد الله التستري ،
ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب ، ويجمع السالمية في
مقالاتهم بين آراء أهل السنة والمعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية فيها شيء من
الاتحاد ، ولا يوجد عن هذه الفرقة دراسات كما لا يوجد لأحد منها كتب ولا مؤلفات إلا ما
ينقل عنهم خلال كتب الفرق والطبقات [راجع شذرات الذهب ٣ : ٣٦ والفرق بين الفرق
١٥٧ - ٢٠٢ ودائرة المعارف الإسلامية (مقالة السالمية) لما سينيون وانظر درء تعارض العقل
والنقل ١ : ١٣] .

(٣) رئيسهم هو أبو عبد الله محمد بن كرام السجستاني ، شيخ الطائفة الكرامية ويختلف العلماء
في ضبط كرام والأكثر على أنه بفتح الكاف وتشديد الراء (وانظر اللباب ٣ : ٣٢ ، ولسان
الميزان ٥ : ٣٥٣ والقاموس المحيط .

وانظر في شأن هذه الفرقة التبصير ص ٦٥ والملل والنحل ١ : ١٠٨ والسفاريني ١ : ٩١
والفرق بين الفرق ٢١٥ - ٢١٥ .

(٤) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي مولى عبد القيس أبو الهذيل العلاف من
أئمة المعتزلة ، ولد في البصرة عام ١٣٥ هـ واشتهر بعلم الكلام له مقالات في الاعتزال
ومجالس ومناظرات ، وكان حسن الجدل قوى الحجة ، كف بصره في آخر عمره وتوفي

وأما الكلاية فيثبتون الصفات في الجملة . وكذلك الأشعريون (١) ولكنهم - كما قال الشيخ أبو اسماعيل الأنصاري - الجهمية الإناث وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا ، لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنها مخانيثهم من بعض الوجوه ، وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كثيرة جداً .

والشهرستاني (٢) يذكر عن شيوخهم ، أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة لأن الشهرستاني إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية في الصفات ونحوها مع المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث ، فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية . وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفي الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم الجهمية . وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

= بسامراء عام ٢٣٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ ومروج الذهب ٢ : ٢٩٨ ولسان الميزان ٥ : ٤١٣] .

(١) هم أتباع علي بن اسماعيل بن اسحاق ، أبو الحسن الأشعري صاحب مقالات الإسلاميين ت ٣٢٤ هـ .

(٢) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني ، من فلاسفة الاسلام ، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة ولد في شهرستان عام ٤٧٩ هـ وانتقل الى بغداد سنة ٥١٠ هـ فأقام ثلاث سنين وعاد الى بلده ، وتوفي بها . تخطب في الاعتقاد وبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم كما قال ياقوت من كتبه « الملل والنحل » ونهاية الأقدام في علم الكلام ، والارشاد الى عقائد العباد توفي عام ٥٤٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ ولسان الميزان ٥ : ٢٦٣] .

« القول بالقدر وأول القائلين به »

وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد ^(١) . وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصري ^(٢) في أوائل المائة الثانية . وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ^(٣) بعد موت معاوية ^(٤) ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم - وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته وعقب

(١) هو عمر بن عبيد بن باب التيمي أبو عثمان البصري ، شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين كان جده من سبي فارس ، وأبوه نساباً ثم شرطياً للحجاج في البصرة قال فيه المنصور العباس .

كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد
له رسائل وخطب « الرد على القدرية » و« التفسير » توفي عام ١٤٤ هـ [راجع وفيات الأعيان ٣٨٤ : ١ البداية والنهاية ١٠ : ٧٨ وميزان الاعتدال ٢ : ٢٩٤] .

(٢) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد تابعي ، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ولد بالمدينة عام ٢١ هـ وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف توفي عام ١١٠ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان وميزان الاعتدال ١ : ٢٥٤ وحلية الأولياء ٢ : ١٣١] .

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبو بكر ، فارس قرشي في زمنه ، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة ببيع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ جعل قاعدة ملكه المدينة ، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة له في كتب الحديث ٣٣ حديثاً قتل محاصراً عام ٧٣ هـ [راجع ابن الأثير ٤ : ١٣٥ وفوات الوفيات ١ : ٢١٠ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٠١] .

(٤) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية مؤسس الدولة الأموية ولد بمكة عام ٢٠ ق هـ وتوفي عام ٦٠ هـ وهو أحد كتاب الوحي . [راجع منهاج السنة ٢ : ٢٠١ - ٢٢٦ واليعقوبي ٢ : ١٩٢ والخميس ٢ : ٢٩١ والمسعودي ٢ : ٤٢] .

ذلك تولى الحجاج ^(١) العراق سنة بضع وسبعين .

فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة - بعد موت الحسن وتكلم في المنزلة بين المنزلتين وقالوا بإنفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

نشأة القول بنفي الصفات

إلى أن ظهر الجعد بن درهم ^(٢) ، وهو أولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري ^(٣) وقال « أيها الناس ، ضحوا . تقبل الله ضحاياكم ، فإني

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي أبو محمد : قائد ، داهية ، سفك ولد عام ٤٠ هـ ونشأ في الطائف . قلده عبد الملك أمر عسكره وأمره بقتال عبد الله بن الزبير فقتله وفرق جموعه فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ، ثم أضاف إليه العراق . بنى مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة) توفي عام ٩٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٢٣ والمسعودي ٢ : ١٠٣ - ١١٩ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢١٠ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٤٨] .

(٢) الجعد بن درهم ، من الموالي : مبتدع له أخبار في الزندقة . سكن الجزيرة وأخذ عنه مروان ابن محمد لما ولي الجزيرة في أيام هشام بن عبد الملك قال الذهبي : مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى . فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر ، وكان مروان يلقب بالجعدي لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وقيل : كان الجعد زنديقاً ، قتله خالد القسري عام ١١٨ هـ [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥] .

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري أبو الهيثم أمير العراقيين ، وأحد خطباء العرب وهو يمني الأصل من أهل دمشق ولي مكة عام ٨٩ هـ للوليد بن عبد الملك ، ثم ولاه هشام العراقيين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥ هـ عزله هشام ١٢٠ هـ وولي مكانه يوسف بن عمر الثقفي فقتله عام ١٢٦ هـ وكان خالد يرمي بالزندقة . [راجع تهذيب ابن عساكر ٥ : ٩٧ - ٨٠ والوفيات ١ : ١٦٩ وتهذيب التهذيب وابن الأثير ٤ : ٢٠٥ ثم ١٠١ : ١] .

مضح بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأي جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلاماً في رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق مثل إبراهيم بن طهمان وخارجه بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك ، وأمثالهم - وقد تكلم في ذمهم وابن الماجشون ^(١) وغيرهما وكذلك الأوزاعي وحماد بن زيد وغيرهم . وإنما اشتهرت مقالاتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة . فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا . فإن كان قد أقام بخراسان مدة . واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثمانين عشرة ومائتين . وفيها مات ، وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين ، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام . فلما ردّ عليهم ما احتجوا به عليه ، وبين أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانهم إياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه . فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

وكان أحمد بن داود ^(٢) قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن

(١) هو عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة أبو عبد الله الماجشون من أئمة المحدثين توفي ببغداد سنة ١٦٤ هـ ومن أهم كتبه (الإبانة) ويقع في أربعة عشر جزء مخطوط بدار الكتب . [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ٣٤٣ - ٣٤٤ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٠٦ - ٢٠٧ . وشذرات الذهب ١ : ٢٥٩ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٤٣٦ - ٤٣٩ وطبقات ابن سعد ٥ : ٤١٤ والاعلام ١٤٥ : ١٤٦ .]

(٢) هو أحمد بن أبي ذؤاد بن جرير بن مالك الأيادي المكنى بأبي عبد الله من مشاهير القضاة في =

من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث ،
ومن أكابر التجارية أصحاب حسين النجار .

وأئمة السنة - كابن المبارك ، وأحمد بن اسحاق ، والبخاري وغيرهم -
يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين - من أصحاب أحمد وغيرهم - يظنون أن
خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسي - وإن كان قد مات قبل محنة
أحمد ، وابن أبي داود ونحوهما - كانوا معتزلة وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق - وكانت
الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار
ابن عمرو^(١) ، والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق . وبسط هذا له
موضع آخر . والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة .
أحدهما :

نفي الصفات ، والثاني : الغلو في القدر والإرجاء ، فجعل الإيمان

= العصر العباسي ، وهو رأس الفتنة بالقول بخلق القرآن ، ولد بالبصرة عام ١٦٠ هـ وتوفي سنة
٢٤٠ هـ ببغداد وقال عنه الذهبي كان جهمياً بغيضاً حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق
القرآن [راجع وفيات الأعيان ١ : ٦٢ - ٧٥ والنجوم الزاهرة ٢ : ٣٠٠ - ٣٠٢ تاريخ بغداد
٤ : ١٤١ ، لسان الميزان ١ : ١٧١ والبداية والنهاية ١٠ : ٣١٩ والاعلام ١ : ١٢٠ وانظر
أيضاً مناظرته للامام احمد بن حنبل في كتاب الحيدة لعبد العزي الكتاني] .

(١) هو ضرار بن عمرو القاضي ، إليه تنسب طائفة الضرارية ، وهم يشبهون النجارية الى حد كبير
في قولهم بنفي الصفات وخلق الأفعال ويطلقون القول بالتولد ، وينكرون القول بوجوب
المعرفة بالعقل قبل ورود الشرع ويقول ابن حجر : إن ضرار بن عمر وكان له مقالات خبيثة
[أنظر عنه : لسان الميزان ٣ : ٢٠٢ ، الملل والنحل ١ : ١٤٢ - ١٤٤ ، الفرق بين الفرق
ص ١٢٩ - ١٣٠ أصول الدين ص ٣٣٩ - التبصر في الدين ص ٦٢ مقالات الأشعري ١ :
٢٨١ التنبيه والرد للملطي ص ٤٣] .

مجرد معرفة القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذا مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

وأما الأشعري : فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات - لا الإرادة ولا غيرها - فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي . فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب وأما الأشعري فهو يثبت الصفات - كالإرادة - فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟

فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريد .

وذكر أبو المعالي الجويني ^(١) : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم . أشك في بعضهم .

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية - ومشايخ المعرفة والحقيقة فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له في مسائل الصفات ، كأبي اسماعيل الأنصاري الهروي ، صاحب كتاب « ذم الكلام » فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لنفيهم الصفات ، وله كتاب « تكفير الجهمية » ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة والحديث . وربما كان يلعنهم .

(١) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ولد بنيسابور سنة ٤١٩ هـ وتوفي بها سنة ٤٧٨ هـ من كبار أئمة الأشاعرة تتلمذ عليه الغزالي ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفقه من أهمها « الشامل » و « الارشاد » و « اللمع والعقيدة النظامية » وطبعت هذه الكتب محققة . أنظر عنه تبين كذب المقترى ص ٢٧٨ - ٢٨٥ وطبقات الشافعية ٤ : ٢٤٩ - ٢٨٢ ، وشذرات الذهب ٣ : ٣٥٨ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤١ ، والأعلام ٤ : ٢٠٦ .

وقد قال له بعض الناس - بحضرة نظام الملك ^(١) - أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر نبي ، وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية لا يثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هي المشيئة ، لأن العارف المحقق - عنده - هو من يصل إلى مقام الفناء . فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة له . وهذا هو الحكم عنده . و« الحسنه » و« السيئة » يفترقان في حظ العبد لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والالتفات الى هذا هو من حظوظ النفس . ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد ^(٢) كما ذكر ذلك في غير موضع .

(١) هو الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي ، أبو علي ، الملقب بقوام الدين ، نظام الملك وزير حازم عالي الهمة أصله من نواحي طوس تأدب بآداب العرب ، وسمع الحديث الكثير ، واشتغل بالأعمال السلطانية فاتصل بالسلطان الب أرسلان فاستوزره فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين ومات الب أرسلان فخلفه ولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك . قال ابن عقيل : كانت أيامه دولة أهل العلم . اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند عام ٤٨٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٣ وابن الأثير ١٠ : ٧٠] .

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز أبو القاسم : صوفي من العلماء بالدين مولده ومنشأه ووفاته ببغداد عام ٢٩٧ هـ أصل أبيه من نهاوند ، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير ، وعرف الجنيد بالخرزاز لأنه كان يعمل الخرز . قال أحد معاصريه : ما رأيت عيناى مثله . قال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه ، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة من كلامه : طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به » [راجع روضة الناظرين والكمال لابن الأثير وفيات الأعيان ١ : ١١٧ وحلية ١٠ : ٢٥٥] .

وبين لهم الجنيد الفرق الثاني ، وهو أنهم - مع مشاهدة المشيئة العامة لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه ، وبين لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء وهذه الأعمال ، ولا يبغض هؤلاء وهذه الأعمال ، بل جميع الحوادث : هو يحبها كما يريد ، كما قاله الأشعري ، وإنما الفرق : أن هؤلاء يعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعري ^(١) لما أثبت الفرق بين هذا وهذا بالنسبة الى المخلوق - كان أعقل منهم .

فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا يفرق بين هذا وهذا . وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

أما في حق العبد : فيلزمهم أن تستوي عنده جميع الحوادث وهذا محال قطعاً . وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء . أما الفناء عن جميعها : فممتنع . فإنه لا بد أن يفرق كل حي بين ما يؤلمه وبين ما يلذه . فيفرق بين الخبز والتراب والماء والشراب .

(١) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق ، أبو الحسن من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري مؤسس مذهب الأشاعرة - كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ولد عام ٢٦٠ هـ وتوفي عام ٣٢٤ هـ . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقرئزي ٢ : ٢٥٩ ، وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧ ودائرة المعارف الإسلامية ٢ : ٢١٨ وفي تبين كذب المفتري ١٢٨ - ١٤٠ أسماء كثير من مصنفاته] .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعي الإيمانى الرحمانى الذى به فرق الله بين أوليائه وأعدائه . وظنوا أنهم مع الجمع القدرى .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لا بد للعبد من أن يفرق . فإن لم يفرق بالفرق الشرعى - فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه وبين ما يرضاه وما يسخطه - وإلا فرق بالفرق الطبعى بهواه وشيطانه . فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير فى المعاصى ، وآخرون فى الفسوق ، وآخرون فى الكفر . حتى جوزوا عبادة الأصنام .

ثم كثير منهم من ينتقل الى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيـد وأئمة الدين فى التوحيد . فلم يفرقوا بين القديم والمحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود . كما قد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربى الحاتمي ^(١) ، وابن سبعين ^(٢) ، والقونوي ، والتلمساني ، والبلباني ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب فى

(١) هو أبو بكر محبى الدين بن علي بن محمد الحاتمي الطائى المعروف بابن عربى وأحياناً بابن العربى ، ولد بمرسية ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ وله مصنفات كثيرة أشهرها (الفتوحات المكية - فصوص الحكم) [راجع ترجمته ومصنفاته فى نفح الطيب ٣٠١ - ٣٨٤ وشذرات الذهب ٥ : ١٩٠ والطبقات الكبرى للشعراني ١ : ١٦٢ وميزان الاعتدال ٣ : ٦٥٩ - ٦٦٠ ولسان الميزان ٥ : ٣١١ - ٣٥١ وفوات الوفيات ٣ : ٤٧٨ - ٨٤٢] .

(٢) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين ويكنى بأبى محمد ولد سنة ٦١٣ وتوفى عام ٦٦٩ هـ له مجموعة رسائل فى التصوف طبعت أخيراً بتحقيق عبد الرحمن بدوي (ط القاهرة) [راجع ترجمته فى شذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ - ٣٣٠ والطبقات الكبرى للشعراني ١ : ١١٧ ، ولسان الميزان ٣ : ٣٩٢ ، وفوات الوفيات ١ : ٥١٦ - ٥١٨ ونفح الطيب ٧ : ٣٩٥ - ٤٩٦] .

القدر من أهل الكلام والمتصوفة ، الذين وافقوا جهماً في هذا الأصل . وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه ، بخلاف الأرجاء . فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ويمكن فعله ، من غير مراعاة حكمته ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته . ولهذا تجد من اتبعهم : غير معظم للأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله ، أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه ، فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ما شاء فقد أحبه . وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته : أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور . بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله - كالأشعري - في أنه في نفس الأمر : لا حسن ولا سيئ . وإنما الحسن والقبح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً . وذلك فرق يعود إلى حظ العبد . وهؤلاء يدعون الفناء عن الحفظ .

فتارة : يقولون في امتثال الأمر والنهي : إنه من مقام التلبس ، أو ما يشبه هذا . كما يوجد في كلام أبي اسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين . وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أي العامة ، كما يقوله الشيخ المغربي ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

ومن يسلك مسلكهم غايته - إذا عظم الأمر والنهي - أن يقول : كما نقل عن الشاذلي^(١) - يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك

(١) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز الشاذلي المغربي ، أبو الحسن . رأس الطائفة الشاذلية ، من المتصوفة وصاحب الأوراد المسماة (حزب الشاذلي) ولد في غمازة من قرى (إفريقية) عام ٥٩١ - وتفقه وتصوف بتونس ، وسكن شاذلة فنسب إليها . توفي بصحراء

موجوداً ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي ، مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد في جواب الشاذلي . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

الفرق بين الكرامة والشعوذة

وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً ، ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء ، ما هي متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام ، ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء ، وتكون كراماتهم ، من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والكهان ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِإِذِلِّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ (١) .

وقد قال النبي ﷺ « لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » (٢) .

= (عذاب) في طريقه الى الحج عام ٦٥٦ هـ ينتسب الى الادارسة أصحاب المغرب . قال الذهبي : نسب مجهول لا يصح ولا يثبت ، كان أولى به تركه . [راجع طبقات الشعرا ٢ : ٤ ونور الأبصار ٢٣٤] .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم - ممن أضلّه الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام - إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره واتبع ما تتلوه الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته . بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان ، بإعانة الشياطين وهي تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان ، ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار كالذين قال الله تعالى فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ؟ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ، لَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (١) .

وهؤلاء ضاهوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ (٢) الآية .

ومنها من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة والتصوف . حتى جوزوا عبادة الكواكب (٣) ، والأصنام (٤) ، لما رأوه فيها من

(١) سورة النساء آية رقم ٥١ - ٥٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

(٣) قال تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ . سورة فصلت آية رقم ٣٧ .

(٤) يقص القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام مع الأصنام قائلاً : ﴿ وَاْتَلِ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، =

الأحوال العجيبة ، التي تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ولا كفرهم به وبكتابه إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس وتعظيمهم لهم ، لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول ﷺ ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن ، لأجل مصلحة الجمهور ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء ، وهذا مما ضاهوا به فارس والروم وغيرهم ، فإن فارس كانت تعظم الأنوار وتسجد للشمس وللنار . والروم كانوا - قبل النصرانية - مشركين يعبدون الكواكب والأصنام فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ، فإن أولئك ضاهوا أهل الكتاب فيما بدل أو نسخ ، وهؤلاء ضاهوا من لا كتاب له من المجوس والمشركون ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصليين ^(١) ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول ^(٢) والنفوس .

= إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ﴿ سورة الشعراء آية رقم ٦٩ - ٧٣ .

(١) يقصد بالأصليين النور والظلمة أو إله الخير ، وإله الشر إلى غير ذلك من الخرافات الذي لا يقبلها عقل . [راجع الملل والنحل للشهرستاني وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم] .

(٢) نظرية العقول العشرة والتي يتولد من كل عقل فيها نفس وفلك إلى أن نصل إلى العقل الفعال أو فلك القمر من الخرافات التي اخترعها العقل اليوناني الذي لا يهتدي بعقل ولا يحد من جماحه دين . [راجع الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي للدكتور محمد البهي] .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هي إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس .

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكان للرب وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان ، وقد علم النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقول - إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه - « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٢) مع قوله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٣) وقوله ﴿ لَا مَلَأُ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية في فرعون ، ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله كالمتبعين وغيره .

« أول شرك وقع في قوم نوح »

وأصل الشرك في بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فإنهم لما ماتوا ، عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

(١) سبق تخريج هذا الحديث

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(٤) سورة ص آية رقم ٨٥ .

فهذا أول شرك كان في بني آدم ، وكان في قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض . يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ ^(١) وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه ، وأنه يحب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب - فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء ، لا يحب شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبد وحده لا يشرك به شيئاً وبين من

(١) سورة نوح آية رقم ٢٣ - ٢٤ قال القرطبي : قالت العرب لأولادهم وقومهم : لا تذرنا ودًّا ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام . وقال عروة بن الزبير : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه ود وسواع ويغوث ، ويعوق ونسر . وكان ود أكبرهم وأبرهم به .

قال محمد بن كعب : كان لآدم عليه السلام خمس بنين : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكان عبداً فمات واحد منهم فحزنوا عليه ، فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه . قالوا : افعل . فصوره في المسجد من صُفْرٍ ورصاص ، ثم مات آخر فصوره ، حتى ماتوا كلهم فصورهم ، وتنقصت الأشياء كما تنقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين . فقال لهم الشيطان مالكم لا تعبدون شيئاً قالوا : وما نعبد . ؟ قال : آلِهَتكم وآلهة آبائكم ألا ترون في مُصْلاكم فعبدوها من دون الله حتى بعث الله نوحاً فقالوا : ﴿ لَا تَدْرُونَ آلِهَتكم وَلَا تَدْرُونَ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ﴾ الآية .

يعبد معه آلهة أخرى . وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ليس معها حكمة ولا رحمة ولا عدل ، ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

ثم إذا جَوَّزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح ، ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق ، وجَوَّزوا الخوارق مطلقاً ، وحكموا في ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالاً منكراً .

فقال بعضهم : إن الولي يعطي قول « كن » ^(١) وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن . كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه . قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير ذلك . وزاد ابن عربي : إن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات . والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

(١) هذه الأشياء لا يقبلها عقل آمن بالله تعالى وصدق برسوله ﷺ الذي يقول عن نفسه كما حكى القرآن الكريم « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » الأعراف ١٨٨ هذا ما يقوله الرسول ﷺ الذي يوحى إليه - ويقول له الله تعالى « ليس لك من الأمر شيء » فكيف يملك الولي أقول « كن » وكيف لا يمتنع عليه شيء . . . ؟ إن هذا إلا افتراء ؟؟ .

الولي كما وصفه الرسول - ﷺ - فيما يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن من عبادي عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى : قيل يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نجهم قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه « أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر ، خمص البطون من الجوع يبس الشفاه من الذوي » .

فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .
وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله ، ويقدر على كل ما يقدر
الله عليه .

وَادْعُوا أَنْ هَذَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ مِنَ
الْحَسَنِ إِلَى ذَرِيَّتِهِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ ، حَتَّى انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ ،
ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ خَاطِبِنِي بِذَلِكَ مَنْ هُوَ مِنْ أَكْبَرِ أَصْحَابِهِمْ .

وَحَدَّثَنِي الثَّقَةُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ مُحَمَّدًا هُوَ اللَّهُ . وَحَدَّثَنِي
بَعْضُ الشَّيُوخِ ، الَّذِينَ لَهُمْ سُلُوكٌ وَخَبْرَةٌ : أَنَّهُ كَانَ هُوَ وَابْنُ هُودٍ فِي مَكَّةَ
فَدَخَلَا الْكَعْبَةَ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ هُودٍ ^(١) - وَأَشَارَ إِلَى وَسْطِ الْكَعْبَةِ - هَذَا مَهْبِطُ
النُّورِ الْأَوَّلِ ، وَقَالَ لَهُ : لَوْ قَالَ لَكَ صَاحِبُ هَذَا الْبَيْتِ : أَرِيدُ أَنْ أَجْعَلَكَ إِلَهًا
مَاذَا كُنْتَ تَقُولُ لَهُ ؟ قَالَ : فَقَفْتُ شَعْرِي مِنْ هَذَا الْكَلَامِ وَانْخَسْتُ - أَوْ كَمَا
قَالَ :

« حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ آدَابُهُ وَحُدُودُهُ »

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْكِي عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ^(٢) : أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ الزَّنْجَ
الْبَصْرَةَ قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ . فَقَالَ : هَاهُ ، إِنْ بِلَدِكُمْ هَذَا مِنْ لَوْ سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَزِيلَ
الْجِبَالَ عَنْ أَمَاكِنِهَا لِأَزَالِهَا . وَلَوْ سَأَلُوهُ : أَنْ لَا يَقِيمَ الْقِيَامَةَ لَمَّا أَقَامَهَا ، لَكُنْهُمْ
يَعْلَمُونَ مَوَاضِعَ رِضَاهُ ، فَلَا يَسْأَلُونَهُ إِلَّا مَا يَحِبُّ .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل - وهو الذي نختر أن يكون حقاً -

(١) سبق الترجمة له فيما سبق .

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد : أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين
في علوم الإخلاص والرياضيات وعبود الأفعال « له كتاب في تفسير القرآن » مختصر وكتاب
« رقائق المحبين » وغير ذلك توفي عام ٢٨٣ هـ . [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ والوفيات ١ :
٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ والشعراني ١ : ٦٦ والمنأوي ١ : ٢٣٧] .

أو تكون غلطاً منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون ، ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم يجبههم مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك ، بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في ألا يكون لكن الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله : أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضي بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى - من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير - ما هو دون هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه^(١) ، وكما سأله نوح عليه السلام . نجاة ابنه . ف قيل له ﴿ يَا نُوحُ ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . فَلَا تَسْأَلُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(٢) .

وأفضل الخلق محمد ﷺ : قيل له في شأن عمه أبي طالب ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ ﴾^(٣) وقيل له في المنافقين ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾^(٤) وقد قال تعالى عموماً ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾^(٥) وقال ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾^(٦) .

فمن هذا الذي لو سأل الله ما يشاءه هو أعطاه إليه ؟ ! .

(١) قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ سورة الشعراء آية رقم ٨٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٦ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١١٣ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٦) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .

وسيد الشفعاء محمد ﷺ يوم القيامة . أخبر أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويشني عليه فيقال له : أي محمد ، ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع . قال : فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ^(١) » وقد قال تعالى ﴿ اذْعُوا رَبُّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(٢) .

وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ^(٤) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « ما من داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم : إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : « إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » ^(٥) .

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان ٣٢٢ (١٩٣) ٨٤ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها - حدثنا أبو عوانة عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره ورواه الترمذي في أبواب صفة القيامة ١٠ باب ما جاء في الشفاعة ٢٥٥١ - حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا أبو حيان التميمي عن أبيه عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة قال : وذكره .

قال الترمذي . وفي الباب عن أبي بكر الصديق ، وأنس ، وعقبة بن عامر ، وأبي سعيد .

وهذا حديث حسن صحيح .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

(٤) سورة غافر آية رقم ٦٠ .

(٥) الحديث رواه الامام مالك في كتاب القرآن ٨ باب ما جاء في الدعاء حدثني عن مالك ، عن = زيد بن أسلم : أنه كان يقول وذكره .

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب أو مثله ، وهذا غاية الإجابة ، فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً ، أو مفسداً للداعي أو لغيره والداعي جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه ، والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها والكريم الرحيم إذا سئل شيئاً بعينه وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له ، فإنه يعطيه من ماله نظيره ، والله المثل الأعلى - وكما فعل النبي ﷺ - لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم - فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس وربيعه بن الحارث بن عبد المطلب

وقد روي في الحديث « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء »^(١) وهذا أحق .

= قال ابن عبد البر : مثل هذا يستحيل أن يكون رأياً واجتهاداً ، وإنما هو توقيف ، وهو خير محفوظ عن النبي - ﷺ .

ورواه الترمذي في كتاب التفسير ومن سورة الصافات ٣٢٨١ حدثنا أحمد بن عبده الضبي أخبرنا المعتمر بن سليمان أخبرنا ليث بن أبي سليم عن بشر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . بلفظ « ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً له لا يفارقه وإن دعا رجل رجلاً ثم قرأ قول الله عز وجل ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون مالكم لا تنصرون ﴾ وقال الترمذي . هذا حديث غريب .

(١) الحديث رواه الترمذي في أبواب الدعوات عن رسول الله - ﷺ - باب ما جاء في فضل الدعاء ٣٤٢٩ - أخبرنا أبو داود الطيالسي أخبرنا عمران القطان عن قتادة عن سعيد عن أبي الحسن عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمران القطان وعمران القطان هو أبو داود ويكنى أبا العوام . ورواه ابن ماجه ٣٤ كتاب الدعاء (١) باب فضل الدعاء ٣٨٢٩ حدثنا عمران القطان عن قتادة عن سعيد بن أبي الحسن عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - وذكره .

فصل الشرك يكون في الالتجاء لغير الله تعالى

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ (١) أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات - والحسنات تدخل فيها كل نعمة - إلا من الله . وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو . كما قال تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ﴾ (٢) .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٣) وهذا إخبار عن حالهم ، والجوار يتضمن رفع الصوت والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر . وأما في حال النعمة : فهو ساكن إما شاكراً وإما كفوراً ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٤) .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٥٣ - ٥٤ .

البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف العبد - بعد ذلك - الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلْ : اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ اللَّهُ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ نسي ما كان يدعو إليه ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله لدفعه عنه ، كما قال في سورة الأنعام ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ : أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ . فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (٤) .

فَدَمَّ اللَّهُ سبحانه حزينين : حزبا لا يدعونه في الضراء ، ولا يتوبون إليه ، وحزبا يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضر عنهم : أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان : - كالمعطلة ، والمشركة - حزب إذا نزل بهم الضر

(١) سورة الروم آية رقم ٣٤ .

(٢) سورة الأنعام ٦٣ - ٦٤ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٤٠ - ٤١ .

لم يدعوا الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ، فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ^(١) ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا؟ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ؟ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ، وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ^(٤) وقال تعالى ﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٥) وحزب يتضرعون إليه في حال الضراء ، ويتوبون إليه ، فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانُ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ ، أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٦) وقال تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ ^(٧) وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ^(٨) وقال في المشركين ما تقدم ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٩) والممدوح : هو القسم الثالث ، وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه ، ويشبتون على عبادته ، والتوبة إليه في حال السراء ، فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام ، فقال تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ، فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي

-
- | | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة الأنعام آية رقم ٤٢ . | (٦) سورة يونس آية رقم ١٢ . |
| (٢) سورة الأنعام آية رقم ٤٣ . | (٧) سورة فصلت آية رقم ٥١ . |
| (٣) سورة المؤمنون آية رقم ٧٦ . | (٨) سورة الاسراء آية رقم ٦٧ . |
| (٤) سورة التوبة آية رقم ١٢٦ . | (٩) سورة النحل آية رقم ٥٣ - ٥٤ . |
| (٥) سورة السجدة آية رقم ٢١ . | |

الظُّلُمَاتِ ؛ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ : إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي . إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ . فَفَزِعَ مِنْهُمْ . قَالُوا : لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ، وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ، قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنْ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَنْبَغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٣) وقال تعالى عن آدم وحواء ﴿ فَذَلَاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا ، وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ؟ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤) وقال ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

وقال تعالى عن المؤمنين الذي قتل نبيهم ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) سورة ص آية رقم ٣٤ - ٣٥ .

(٣) سورة ص آية رقم ٢١ - ٢٥ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٢ - ٢٣ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٣٧ .

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ ، إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَأَسْرَأْنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ، فَاتَاهُمُ اللَّهُ
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ .

وقوله ﴿ قتل ﴾ أي النبي قتل . هذا أصح القولين ، وقوله ﴿ معه ربيون ﴾
كثير ﴿ جملة في موضع الخبر صفة للنبي - صفة بعد صفة - أي كم من نبي ﴾
معه ربيون كثير قتل ، ولم يقتلوا معه ، فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم
معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير وقتل في الجملة . وأولئك الربيون
﴿ مَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ (٢) .

و« الربيون » (٣) الجموع الكثيرة . وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذي يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد
لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ
عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٤) وهي التي
تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي ﷺ ، وقال : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٦ - ١٤٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٤٦ .

(٣) الربيون : بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقراءة علي - رضي الله عنه بضمها وابن عباس بفتحها
ثلاث لغات . والربيون : الجماعات الكثيرة عن مجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة واحدهم
ربى بضم الراء وكسرها منسوب الى الربة بكسر الراء أيضاً وضمها وهي الجماعة ، وقال عبد
الله بن مسعود الربيون الألوف الكثيرة ، وقال ابن زيد ، الربيون : الاتباع والأول أعرف
باللغة ، ومنه يقال للخرقة التي تجمع فيها القداح ربه ورُبه والرباب قبائل تجمعت وقال إبان
ابن ثعلب الربى : عشرة آلاف وقال الحسن : هم العلماء الصبر . ابن عباس ومجاهد وقتادة
والربيع والسدي : الجمع الكثير ، قال حسان :

وَإِذَا مَعْشَرٌ تَجَافَوْا عَنِ الْحَقِّ حَمَلْنَا عَلَيْهِمُ رِبِيًّا

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤ .

محمداً فإن محمداً قد مات ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ » .

فإنه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس - المؤمنين والكافرين - وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ولما يليق به الشيطان في قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقي يقوم دينه . وأنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك ، فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء ^(١) . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال . بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير ، فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب - فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم - وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا . ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ^(٢) . وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين . سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من الثبوت ، وما يعطيهم من عنده من النصر . فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم ، قال تعالى لما أنزل الملائكة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ . وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٣) . وقال تعالى ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ . وَاللَّهُ

(١) قال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة آية ٩١ .

وقال تعالى : ﴿ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ﴾ آل عمران آية ١١٢ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ١٠ .

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان - وإن كانت بقضاء الله وقدره - وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه . وأن لا يتوكل إلا عليه وحده . فلا يأتي بالحسنات إلا هو . فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

وهذه الأمور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه في الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » (٢) . فهذا حمد ، وهو شكر الله تعالى ، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد ، ثم يقول بعد ذلك « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (٣) .

وهذا تحقيق لوحدانيتها : لتوحيد الربوبية ، خلقاً ، وقدرأً ، وبداية وهداية هو المعطى المانع ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية - شرعاً وأمرأً ونهياً - وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختاً ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » . أي لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حفظه وعظمته وغناه .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٨ .

(٢) (٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ٨٧٩ حدثنا شريك عن أبي عمر قال سمعت أبا جحيفة يقول : ذكرت الجلود عند رسول الله - ﷺ - وهو في الصلاة فقال رجل : جد فلان في الخيل ، وقال آخر جد فلان في الإبل ، وقال آخر جد فلان في الغنم ، وقال آخر : جد فلان في الرقيق - فلما قضى رسول الله - ﷺ - صلاته ورفع رأسه من آخر الركعة قال : وذكره في الزوائد : في إسناده أبو عمر ، وهو مجهول لا يعرف حاله .

ولهذا قال « لا ينفعه منك » ولم يقل « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أو هم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجدة إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي ، كالذين أوتوا النبوة والملك لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء ، فقد يظن ذو الجدة - الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده - أنه كذلك ، فقال « ولا ينفع ذا الجدة منك » ضمن « ينفع » بمعنى « ينجي ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب ، بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله ولا ينفعه جده منك . فلا ينجيه ولا يخلصه فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) وقوله ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٢) وقوله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٣) وقوله ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٤) .

فقوله « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » توحيد الربوبية الذي يقتضي : أنه سبحانه : هو الذي يسأل ويدعي ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه ، كما يحتج به في القرآن على المشركين فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد - توحيد الربوبية - ومع هذا يشركون بالله فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله ، ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه فيتخذونهم شفعاء وقرباناً كما قال تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٢٣ .

(٣) سورة هود آية رقم ٨٨ .

(٤) سورة المزمل آية رقم ٨ ، ٩ .

(٥) سورة يونس آية رقم ١٨ .

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢) .

وهذا التوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن لا نعبد إلا بما أحبه وما رضى به . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاته وأوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره بل يقتضي أن يكون رسوله ﷺ أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول - لأجل أنه رسول الله - يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه ، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفي صحيح البخاري أن عمر قال « يا رسول الله ، والله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال فوالذي بعثك بالحق : إنك لأحب إلي من نفسي قال : الآن يا عمر » (٣) .

وقد قال تعالى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ

(١) سورة الزمر آية رقم ٣ .

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

(٣) هذا الحديث رواه أبو داود في كتاب الوتر ، ورواه الامام الترمذي في كتاب الزهد ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٤١ (حلي) ورواه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول عند ذكر مناقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٦ .

وَرَسُولِهِ وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾ .

فإن لم يكن الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى العبد من الأهل والمال - على اختلاف أنواعه - فإنه داخل تحت هذا الوعيد . فهذا التوحيد - توحيد الإلهية - يتضمن فعل المأمور وترك المحظور ومن ذلك الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، إلا الله وحده ، فيقتضي أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به كما قال تعالى في النوعين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢) وقال ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (٣) .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركون ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة . فمن لم يأت به كان من المشركون الخالدين . فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ، ويحبونهم كما يحبونه ، فكان ذلك التوحيد - الذي هو توحيد الربوبية - حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ، ولا رازق إلا هو ، فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

« الشفاعة تكون لمن ارتضاه ربه »

فإن قالوا « ليشفع » فقد قال الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا

(١) سورة التوبة آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢٣ .

بِإِذْنِهِ ﴿١﴾ فلا يشفع من له شفاعه - من الملائكة والنبين - إلا بإذنه وأما قبورهم وما نصب عليها من قباب وأنصاب - أو تماثيلهم - التي مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرقومة - فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم فهذا باطل عقلاً وشرعاً ، فإنها لا شفاعه لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التي عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى : فما بقي الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، فإن المخلوق يشفع عنده نظيره - أو من هو أعلى منه ، أو دونه - بدون إذن المشفوع إليه ، ويقبل المشفوع إليه ولا به شفاعته : إما لرغبته إليه أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه وإما لرهبته منه ، وإما لمحبتة إياه ، وإما للمعارضة بينهما والمعاونة وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعه الشفيع : هي التي حركت إرادة المشفوع إليه ، وجعلته مريداً للشفاعة ، بعد أن لم يكن مريداً لها ، كأمر الأمر الذي يؤثر في المأمور ، فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً لفعله . وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محركاً له إلى فعل ما سأل به .

فالشفيع كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب ، فهو أيضاً قد شفع للمشفوع إليه . فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلاً للمطلوب ، فقد شفع الطالب والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فالأمر كله إليه وحده ، فلا شريك له بوجه . ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك في آية الكرسي ، التي فيها تقرير التوحيد ، فقال ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ (١) وسيد الشفعاء ﷺ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

يوم القيامة . إذ سجد وحمد ربه ، يقال له : « ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع فيحد له حداً ^(١) » وقال لرسوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ^(٢) وقال ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ^(٣) . فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه ، فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » ^(٤) .

وإذا دعاه الداعي ، وشفع عنده الشفيع ، فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة لم يكن هذا مؤثراً فيه ، كما يؤثر المخلوق في المخلوق ، فإنه

= في البخاري في باب بقية من أبواب الرؤية « إن المؤمنين يقولون : ربنا إن لإخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ، وهذه شفاعة فيمن يقرب أمره ، وكما يشفع الطفل المحببني على باب الجنة ، وهذا إنما هو في قراباتهم ومعارفهم ، وإن الأنبياء يشفعون فيمن حصل في النار من عصاة أمهم بذنوب دون قربي ولا معرفة إلا بنفس الإيمان ثم تبقى شفاعة أرحم الراحمين في المستغفرين في الخطايا والذنوب الذين لم تعمل فيهم شفاعة الأنبياء وأما شفاعة محمد - ﷺ - في تعجيل الحساب فخاصة له .

وقد بين الامام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري : ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم : سلم سلم . قيل يا رسول الله وما الجسر . ؟ قال : دحض مزالة فيها خطاطيف وكلايب وحسكه تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين والبرق والريح وكأجاويد الخيل والركاب فجاج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فهو الذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة الله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين في النار . الخ

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٢٨ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء وهو عند البخاري ٢ : ١٤٠ كتاب الزكاة باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ورواه مسلم في ٢ : ٤٤٦ كتاب البر باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام .

سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه عليه ، وهو الذي وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته . وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات .

قال يحيى بن سعيد القطان ^(١) : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ، فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقته : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له ، فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة .

وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه .

فإن «الإذن» نوعان : إذن بمعنى المشيئة والخلق ، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله في السحر ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) فإن ذلك بمشيئة الله وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر .

(١) هو يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي أبو سعيد ، من حفاظ للحديث . ثقة ، حجة من أقران مالك وشعبة من أهل البصرة كان يفتي بقول أبي حنيفة ، وأورد له البلخي سقطات ولم يعرف له تأليف توفي عام ١٩٨ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٧٤ وتهذيب ١١ : ٢١٦ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٣٥] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

والقدرية تنكر هذا « الإذن » وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله .
وكذلك قوله ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيِّ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١) فإن
الذي أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو
خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثاني : قوله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى
اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ (٢) وقوله ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ
اللَّهِ ﴾ (٣) فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والخرج
عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ (٤) هو هذا الإذن الكائن
بقدره وشرعه ، ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر ، فإن السحر وانتصار الكفار
على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً
عليها ، ومشياً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله
وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه لا هذا
الإذن ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبيح ذلك باتفاق المسلمين وعندهم : إنه لم
يشأ ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرون بالقدر يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن
القدرى ، وإن لم يأذن لهم بإباحة وجوازا .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٦٦ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥ : ٤٦ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

ومن كان مكذباً بالقدر - مثل كثير من النصارى - يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدري ولا شرعي .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدري .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعي : فقد شفع عنده بغير إذن قدري ولا شرعي . فالداعي المأذون له في الدعاء : مؤثر في الله عندهم ، لكن بإباحته .

والداعي غير المأذون له : إذا أجاب دعاءه ، فقد أثر فيه عندهم لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره ، والله تعالى يقول ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (١) .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعي ، وإن كان خالقاً لفعله - كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، وشفاعة النبي ﷺ لعبد الله بن أبي بن سلول حين صلى عليه بعد موته . وقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ قد قلتم : إنه يعم النوعين . فإنه لو أراد الإذن القدري لكان كل شفاعة داخلة في ذلك كما يدخل في ذلك كل كفر وسحر ، ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه ، ولو أراد الإذن الشرعي فقط : لزم قول القدرية . وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعي ؟ .

قيل : المنفي من الشفاعة بلا إذن : هي الشفاعة التامة ، وهي المقبولة ، كما في قول المصلي « سمع الله لمن حمده » أي استجاب له ، وكما في قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) وقوله ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾ (٣) وقوله ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٤) ونحو ذلك .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة ق آية رقم ٤٥ .

فإن الهدى والإنذار ، والتذكير ، والتعليم ، لا بد فيه من قبول المتعلم فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود . وإلا قيل : علمته فلم يتعلم ، كما قيل ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ ^(١) فكذلك الشفاعة . فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع إليه ، وهي الشفاعة التامة . فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه . وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٢) وكما نهى الله النبي ﷺ عن الصلاة على المنافقين . وقال له ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ^(٣) وقال له : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ^(٤) . ولهذا قال على لسان المشركين ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ ^(٥) فالشفاعة المطلوبة : هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً . فلا بد أن يأذن فيها ولا بد أن يجعل العبد شافعاً . فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما في الداعي هو الذي أمره بالدعاء ، وهو الذي يجعل الداعي داعياً فالأمر كله لله ، خلقاً وأمرأ . كما قال ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ^(٦) .

وقد روي في حديث - ذكره ابن أبي حاتم وغيره - أنه قال : « فمن يثق به فليدعه » أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

(١) سورة فصلت آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٨٤ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

(٥) سورة الشعراء آية رقم ١٠٠ ، ١٠١ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ .

ولما كان المراد بالشفاعة المثبته : هي الشفاعة المطلقة . وهي المقصود بالشفاعة وهي المقبولة ، بخلاف المردودة ، فإن أحداً لا يريدها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه ، ولو علم الشافع والشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها ، والشفاعة المقبولة : هي النافعة ، بين ذلك في مثل قوله ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ^(٢) فنفي الشفاعة المطلقة وبين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له . وهو الإذن الشرعي بمعنى : أباح له ذلك وأجازه كما قال تعالى ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ ^(٣) وقوله ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ^(٤) وقوله ﴿ لَيْسْتَ أَذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ^(٥) ونحو ذلك .

وقوله ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ هو اذن للمشفوع له ، فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه قال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ^(٦) وفيه قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : ﴿ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ، فهو الذي تنفعه الشفاعة وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين . لا يذكرون غيره لأنه لم

(١) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٠٩ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٩ .

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ .

(٥) سورة النور آية رقم ٥٨ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٠٨ - ١٠٩ .

يقول « لا تنفع إلا لمن أذن له » ولا قال « لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال ﴿ لا تنفع الشفاعة إلا مَنْ أذن له ﴾ فهي لا تنفع ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (١) .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له . بل لو أريد هذا لقليل : لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له ، وإنما قال ﴿ لمن أذن له ﴾ وهو المشفوع له الذي تنفعه الشفاعة .

وقوله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢) لم يعد إلى « الشفعاء » بل عاد إلى المذكورين في قوله ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (٣) . ثم قال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾ ثم بين أن هذا منتف ﴿ حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ﴾ ، فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟ وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين ، وكذلك قال السلف في هذه الآية .

قال قتادة في قوله ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (٤) قال :

(١) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة سبأ آية رقم ٢٢ .

(٤) سورة طه آية رقم ١٠٩ .

كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ ^(١) هو شفاعته يوم القيامة . وقوله ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ إن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض .

قال البغوي ^(٢) ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ أذن الله له أن يشفع له ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أي ورضي قوله . قال ابن عباس : يعني قال « لا إله إلا الله » قال البغوي : فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن . وقد ذكروا القولين في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ وقدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا .

منهم البغوي فإنه لم يذكر هنا في الاستثناء إلا المشفوع له .

وقال هناك : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ في الشفاعة قال تكذيباً لهم ، حيث قالوا ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين في قوله ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٤) وستكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

(١) سورة الاسراء آية رقم ٧٩ .

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوي حافظ للحديث من العلماء ، أصله من بغشور (بين هراة ومرو الروذ النسبة إليها بغوي) مولده عام ٢١٣ هـ ببغداد ووفاته بها عام ٣١٧ هـ ، كان محدث العراق في عصره (له معالم التنزيل في التفسير) (معجم الصحابة والجعديات في الحديث) [راجع ميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١] .

(٣) سورة يونس آية رقم ١٨ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية ، وهم يعم النوعين .
 وذلك : أنه سبحانه قال ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ و ﴿ الشَّفَاعَةُ ﴾ مصدر شفع شفاعه ، والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة ، ويمثله الذي يسمى لفظه « المفعول به » تارة كما يقال : أعجبني دق الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم فالأول كقوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ أَنْمَّا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) ونحو ذلك .

والثاني : كقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ^(٤) فالساعة هنا معلومة ، لا عالمة . وقوله حين قال فرعون ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ^(٥) .

قال موسى ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ ^(٦) ومثل هذا كثير . فالشفاعة مصدر ، لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة تعم شفاعه كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء والشفاعة للمذنبين . فقوله ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ يتناول النوعين مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا من الشفعاء . ومن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا من المشفوع له . وهي تنفع المشفوع له فتخلصه من العذاب وتنفع الشافع ، فتقبل منه ويكرم بقبولها ويثاب عليه .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٤ .

(٤) سورة لقمان آية رقم ٣٤ .

(٥) سورة طه آية رقم ٥١ .

(٦) سورة طه آية رقم ٥٢ .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَقَالَ : صَوَاباً ﴿٢﴾ فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم :
هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة ، وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه . كقوله ﴿٣﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا
بِإِذْنِهِ ؟ ﴿٤﴾ .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله ﴿٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴿٦﴾ ثم قال ﴿٧﴾ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وهنا
اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً والمستثنى يتناول
مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول « لا ينفع الزرع إلا في وقته » فهو يتناول
زرع الحارث وزرع الأرض ، لكن هنا قال ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴿١٠﴾
والاستثناء مفرغ ، فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال ﴿١١﴾ لا
تنفع الشفاعة إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴿١٢﴾ فإذا لم يكن في الكلام حذف ، كان
المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون
المعنى أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف - تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له
الرحمن - كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه يضاف إلى
بعضهم لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله
﴿١٣﴾ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴿١٤﴾ أي من يؤمن و﴿١٥﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ

(١) سورة النبا آية رقم ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ .

الَّذِي يَنْعَقُ ﴿١﴾ أي مثل داعي الذين كفروا كمثل الناقق ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به أي الذي ينطق به . والمعنى في ذلك كله ظاهر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ إذا كان من هذا الباب لم يحتج : إن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة وفي الآية الأخرى ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ من هؤلاء وهؤلاء . لكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه . فيكون الإذن للطائفتين والنفع للمشفوع له كأحد الوجهين ، أو لا تنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء . فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين فالشافع ينتفع بالشفاعة . وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا . ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » (٢) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧١ قال الطبري : المراد تمثيل الكافرين في دعائهم آلهتهم كمثل الذي ينطق بشيء بعيد فهو لا يسمع من أجل البعد ، فليس للناقق من ذلك إلا النداء الذي يتعبه وينصبه ففي هذا يشبه الكفار بالناقق الصائح والأصنام بالمنعوق به .
والنعيق : زجر الغنم والصياح بها يقال : نطق الراعي بغنمه ينطق نعيقاً ونعاقاً ونعقناً أي صاح بها وزجرها قال الأخطل :

انعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك في الخلاء ضللاً
قال القتبي : لم يكن جرير راعي ضأن ، وإنما أراد بني كليب يعيرون برعي الضأن ، وجرير منهم فهو في جهلهم . والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل ويقولون : أجهل من راعي الضأن .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب البر والصلة والآداب ٤٤ باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام ١٤٥ (٢٦٢٧) حدثنا علي بن مسهر وحفص بن غياث عن بريد بن عبد الله ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى قال كان رسول الله ﷺ - إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : وذكره . ولفظه (ما أحب) بدلاً من (ما شاء) .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمداً ﷺ : هو الشفاعة التي يختص بها . وهي المقام المحمود الذي يحمد به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لا تحتاج الآية الى حذف ، بل يكون معناها يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ (١) ولذلك جاء في الصحيح : أن النبي ﷺ قال : « يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء ، يا صفية عمّة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله من شيء ، يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء » (٢) .

وفي الصحيح أيضاً « لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء أو شاة لها يعار أو رقاع تخفق فيقول : أغثني أغثني فأقول : قد أبلغتكَ ، لا أملك لك من الله من شيء » (٣) فيعلم من هذا أن قوله « ولا

= ررواه الترمذي في كتاب العلم ١٤ باب ما جاء أن الدال على الخير كفاعله ٢٨١٢ بسنده عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ - وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه البخاري في الزكاة ٢١ وفي الأدب ٣٦ ، ٣٧ والتوحيد ٣١ وأبو داود في الأدب ١١٧ وأحمد ابن حنبل في المسند ٤ : ٤٠٠ ، ٤٠٩ (حلي) .

(١) سورة النبأ آية رقم ٣٨ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٨٩ باب في قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتكَ الأقربين ﴾ ٣٤٨ حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة قال لما أنزلت هذه الآية وأنذر عشيرتكَ الأقربين ٢٦ الشعراء آية ٢١٤ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم ونخص وذكره ورواه البخاري في الزكاة ٣ والمناقب ١٢ ورواه الترمذي في كتاب الزهد ٥ باب ما جاء في إنذار النبي ﷺ - قومه ٢٤١٢ بسنده عن عائشة - رضي الله عنها وذكره وفي التفسير سورة ٢٦ ، ١ ، ٢ والنسائي في الزكاة ٦ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ (حلي) .

(٣) الحديث رواه البخاري في الحيل ١٥ ، والزكاة ٣ والهبة ١٧ والجهاد ١٨٩ وأيمان ٣ وأحام ٢٤ ورواه الامام مسلم في كتاب الامارة ٦ باب غلظ تحريم الغلول ٢٤ - حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبي حيان عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ - ذات يوم فذكر الغلول فمظمه وعظم أمره ثم قال وذكره ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٤٢٦ ، ٥ : ٢٢٧ ، ٤٢٣ .

يملكون من دونه الشفاعة» (١) و﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (٢) على مقتضاه .
وأن قوله في الآية ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ ﴾ كقوله ﷺ « لا أملك لكم من الله من شيء » (٣) وهو كقول ابراهيم لأبيه ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٤) .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ ، لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (٥) فإن هذا مثل قوله ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (٦) ففي الموضعين : اشترط إذنه . فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضي الله قوله ، فإن الله إنما يرضى الثواب .

« أقوال السلف في معنى : لا يملكون » منه خطاباً

وقد ذكروا في تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب (٧) : لا يملكون شفاعة إلا بإذنه .

والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » قال كلاماً ، هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم - أو أعلم - التابعين بالتفسير .

(١) هذه ليست بآية وآية مريم ٨٧ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ .

(٢) سورة النبا آية رقم ٣٧ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٥) سورة النبا آية رقم ٣٧ ، ٣٨ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٠٩ .

(٧) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ^(١) ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها ، وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفي قوله ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ لم يذكر استثناء ، فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذ المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه في قوله ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ أن هذا عام مطلق . فإن أحداً - ممن يدعي من دونه - لا يملك الشفاعة بحال ، ولكن الله إذا أذن لهم شفّعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار ، لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم قال ابن عطية ^(٢) : قوله ﴿ لا يملكون ﴾ الضمير للكفار ، أي لا يملكون - من إفضاله وإكماله - أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية

(١) هو مجاهد بن جبر : أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم تابعي : مفسر من أهل مكة . قال الذهبي . شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس قرأه عليه ثلاث مرات ، يقف عند كل آية يسأله فيما نزلت وكيف كانت وتنقل في الأسفار واستقر في الكوفة ، أما كتابه في التفسير فيتقيه المفسرون ، وسئل الأعمش عن ذلك فقال : كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب ويقال إنه مات وهو ساجد عام ١٠٤ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ٣ : ٩ وحلية ٣ : ٢٧٩ وفي الجمع بين رجال الصحيحين ٥١٠ قال عثمان بن الأسود : مات سنة ١٠٣ هـ] .

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي أبو محمد ، مفسر ، فقيه أندلسي من أهل غرناطة عارف بالأحكام والحديث ، ولي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش المسلمين ، توفي بلورقة عام ٥٤٢ هـ « له المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » . [راجع نفع الطيب ١ : ٥٨٥ وقضاة الأندلس ١٠٩] .

أخرى ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ، فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (١) وفي حديث التجلي الذي في الصحيح - لما ذكر مروهم على الصراط - قال ﷺ « ولا يتكلم أحد إلا الرسل ، ودعوى الرسل : اللهم سلم سلم » (٢) « فهذا في وقت المرور على الصراط ، وهو بعد الحساب والميزان فكيف بما قبل ذلك . وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولي العزم ، وكل يقول « إن ربي قد غضب اليوم لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله . وإنني فعلت كذا وكذا ، نفسي ، نفسي ، نفسي » (٣) ، فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم ؟

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة وبعد أن ذكر الكافرين ، فقال ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ، وَكَأَسَاءَ دِهَاقًا ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (٤) ثم قال ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (٥) فقد أخبر : أن الروح والملائكة ، يقومون صفًّا ، لا يتكلمون ، وهذا هو تحقيق قوله ﴿ لا يملكون منه خطابًا ﴾ والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً أي لا أقدر من أمره على شيء ، وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه . ولو بالسؤال .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب ، فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، قال

(١) سورة طه آية رقم ١٠٨ .

(٢) (٣) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٤) سورة النبا آية رقم ٣١ - ٣٨ .

(٥) سورة النبا آية رقم ٣٨ .

تعالى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً ﴿إِلَّا مَنْ أذنَ له الرحمن وقال صواباً﴾ قال : حقاً في الدنيا وعملاً به ، رواه - والذي قبله - عبد بن حميد (٢) - وروي عن عكرمة ﴿وقال صواباً﴾ قال : الصواب قول لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : مَنْ أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح . وقوله في سورة طه ﴿لا تتفع الشفاعة إلا مَنْ أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة ، وهي الشفاعة في الحسنات وفي دخول الجنة ، كما في الصحيحين « أن الناس يهتمون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يرحنا من مقامنا هذا (٣) ؟ فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفي حديث الشفاعة « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » (٤) .

فهذه شفاعة في أهل الجنة ، ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد ﷺ ، ويشفع غيره في العصاة .

(١) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٢) هو عبد بن حميد بن نصر الكسي ، أبو محمد : من حفاظ الحديث . قيل اسمه عبد الحميد ، وخفف . نسبته الى كسي (مدينة قرب سمرقند) من كتبه مسند كبير ، وتفسير ، توفي عام ٢٤٩ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٤ والمستطرفة ٥٠] .

(٣) هذا جزء صغير من حديث كبير رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٨٤ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ٣٢٧ - حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا أبو حيان عن أبي زرعة عن أبي هريرة وذكره .

(٤) هذا جزء من الحديث السابق والذي سبق تخريجه (وفيه) (وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب) .

فقلوه ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾
يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموماً ، وفي أهل الجنة ، وفي
المستحقين للعذاب ، وهو سبحانه في هذه وتلك : لم يذكر العمل ، إنما قال
﴿وقال صواباً﴾ وقال ﴿ورضي له قولاً﴾ لكن قد قال الدليل على أن
«القول الصواب المرضي» لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ،
لكن نفس القول مرضي ، فقد قال الله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾^(١) .

وقد ذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما في قوله ﴿وَلَا يَمْلِكُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)
قولين . أحدهما أن المستثنى هو الشافع ، ومحل ﴿من﴾ الرفع . والثاني هو
المشفوع له .

قال أبو الفرج : في معنى الآية قولان ، أحدهما : أنه أراد بـ ﴿الذين
يدعون﴾^(٣) من دونه ﴿آلهتهم﴾ . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة فقال ﴿إلا
من شهد بالحق﴾ وهو شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وهم يعلمون﴾ . بقلوبهم
ما شهدوا به بألسنتهم ، قال : وهذا مذهب الأكثرين منهم قتادة .

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٣) قال الامام الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية : قرأ الجمهور «يدعون» بالتحية ، وقرأ السلمي
وابن وثاب بالفوقية ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي التوحيد ﴿وهم يعلمون﴾ أي هم على علم
وبصيرة بما شهدوا به ، والاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً والمعنى ﴿إلا من شهد بالحق﴾
وهم المسيح وعزير والملائكة فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها ، وقيل هو منقطع والمعنى
(لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً أي لا يملكون
الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق) ، قال سعيد بن جبير وغيره : معنى الآية : أنه لا
يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة ، وقال قتادة : لا يشفعون
لعابديها ، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية وقيل مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل
الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله ، ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام .

والثاني : أن المراد بـ ﴿ الذين يدعون ﴾ عيسى وعزيراً والملائكة الذين عبدتهم المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ وهي كلمة الإخلاص ﴿ وهم يعلمون ﴾ أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق ﴾ هم عيسى وعزير والملائكة ، فإنهم عبدوا من دون الله ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون ﴿ من ﴾ في محل رفع وقيل ﴿ من ﴾ في محل خفض .

وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعني : أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : وقد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم . روى بإسناده المعروف - على شرط الصحيح - عن مجاهد - قوله ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ عيسى وعزير والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ يعلم الحق هذا لفظه ، جعل « شفع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوي : فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم ، ويكون على هذا يقال : شفعتة وشفعت له ، كما يقال نصحته ، ونصحت له . و« شفع » أي صار شافعاً للطالب أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ . أن الله ربهم .

وروى بإسناده عن قتادة ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ الملائكة وعيسى وعزير ، أي أنهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

« رأى الإمام ابن تيمية »

قلت : كلا القولين معناه صحيح ، لكن التحقيق في تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع ، ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً ، لا يستثنى من ذلك أحد عند الله ، فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد ، ولا قال : لا يشفع لأحد بل قال ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ .

وكل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفعاء ﷺ لم يُعبد كما عُبد المسيح ^(١) وهو - مع هذا - له شفاعة ليست لغيره ، فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلاً ، فإن معنى كلامه : أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد ، وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية بطله أيضاً .

وأيضاً فقوله ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ ^(٢) يتناول

(١) قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ [سورة المائدة آية رقم ١١٦ - ١١٧] .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

كل معبود من دونه . ويدخل في ذلك الأصنام ، فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا .

قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ ﴾ (١) .

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في هذا أطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم . وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) .

فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب ، فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً فإن في القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه : نفاها مطلقاً . فإن قوله ﴿ من دونه ﴾ إما أن يكون متصلاً بقوله ﴿ يملكون ﴾ أو بقوله

(١) سورة يونس آية رقم ١٨ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٦ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ - ٢٨ .

﴿ يدعون ﴾ أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه .
أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا ، وهذا أظهر . لأنه قال ﴿ ولا
يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ فأخر الشفاعة وقدم ﴿ من دونه ﴾ .

ومثل هذا كثير في القرآن ﴿ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ويعبدون من دون
الله كقوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ وَلَا
تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ^(٣) .

بخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه .

فإن هذا لا نظير له في القرآن ، واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال : لا
يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك لا يقال
في هذا المعنى ﴿ من دونه ﴾ فإن الشفاعة هي من عنده فكيف تكون من
دونه ، ولكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً فإذا قيل ﴿ الذين يدعون ﴾ مطلقاً دخل فيه الرب تعالى . فإنهم
كانوا يدعون الله ويدعون معه غيره ، ولهذا قال ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٨ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٨ .

(٣) سورة يونس آية رقم ١٠٦ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ .

روى الامام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله :
أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تدعوا لله ندأ وهو خلقك . قال : ثم أي ؟ قال : أن
تقتل ولدك مخافة أن يطعم . قال ثم أي ؟ قال أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل الله تعالى
تصديقها :

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل
ذلك يلقى أثاماً ﴾ والأثام في كلام العرب العقاب وبه قرأ ابن زيد وقراءة هذه الآية ومنه قول
الشاعر :

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه وهذا أجود من الذي قبله ، لكن يرد عليه ما يرد على الأول .

ومما يضعفها « أن الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال ﴿ لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ فنفي ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب . وإن كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة ، فإن المالك للشيء : هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه . فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال ، ولا يقال في هذا إلا « بإذنه » إنما يقال ذلك في الفعل ، فيقال ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ .

وأما في الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها . فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكا لها ، بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقا ورباً . وهذا كما قال ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظهير ﴾ ^(١) فنفي الملك مطلقاً ، ثم قال ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فنفي نفع الشفاعة إلا لمن استثناه لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد ، لا شريك له في الملك قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا ﴾ ^(٢) .

ولهذا - لما نفى الشفعاء من دونه - نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء وإنما

= جزى الله ابن عروة حيث أمسى عقوباً والعقوب له أثام أي جزاء وعقوبة .

(١) سورة سبأ آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ١ - ٢ .

يقع الاستثناء : إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ^(١) وكما قال تعالى ﴿ وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ^(٢) وكما قال تعالى ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ^(٣) فلما قال ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ نفى الشفاعة مطلقاً . وإذا ذكر ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ لم يقل ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ كقوله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ ^(٤) وقوله ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ ^(٥) .

فمن تدبر القرآن : تبين له أنه كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ، مُثَانِي ﴾ ^(٦) يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً ليس بمختلف ولا بمتناقض ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ^(٧) .

وهو ﴿ مثنائي ﴾ يعني الله فيه الأقسام ، ويستوفيهما .

والحقائق : إنها متماثلة وهي « المتشابه » وإما مماثلة وهي الأصناف والأقسام والأنواع ، وهي « المثنائي » .

و« التثنية » يراد بها : جنس التعديد من غير اقتصار على اثنين فقط . كما في قوله تعالى ﴿ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ ^(٨) يراد به مطلق العدد ، كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد : جنس العدد ، وتقول : هو يقول كذا ويقول كذا . وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان ^(٩) رضي الله

(٥) سورة يونس آية رقم ٣ .

(٦) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٧) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

(٨) سورة الملك آية رقم ٤ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٥١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٧٠ .

(٣) سورة السجدة آية رقم ٤ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٩) هو حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي أبو عبد الله ، واليمان لقب لأبيه . صحابي من الولاة =

عنهما عن النبي ﷺ أنه « جعل يقول بين السجدين : رب اغفر لي ، رب اغفر لي » لم يرد : أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد أنه جعل يثني هذا القول ، ويردده ، ويكرره ، كما كان يثني لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم « إنه ركع نحواً من قيامه . يقول في ركوعه : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم وذكر أنه سجد نحواً من قيامه ، يقول في سجوده : رب اغفر لي رب اغفر لي وقد صرح في الحديث الصحيح أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها وذكر « أنه كان يقول : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي الأعلى (١) فعلم أنه أراد بثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاقتصار على مرتين ، فإن « الإثنين » أول العدد الكثير ، فذكر أول الأعداد ، يعني أن عدد هذا اللفظ ، لم يقتصر على مرة واحدة ، فالثنية التعديد ، والتعديد يكون للأقسام المختلفة .

وليس في القرآن تكرار محض ، بل لا بد من فوائد في كل خطاب .

فـ « المتشابه » في النظائر المتماثلة و« الثاني » في الأنواع وتكون الثنية في المتشابه ، أي هذا المعنى قد ثنى في القرآن لفوائد أخر . و« المثاني » نعم هذا أو هذا . وفتاحة الكتاب : هي السبع المثاني (٢) لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

= الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبي - ﷺ - في المنافقين ، لم يعلمهم أحد غيره ، ولما ولي عمر سأله أفي عمالي أحد من المنافقين ؟ فقال : نعم ، واحد . قال : من هو ؟ قال : لا أذكره ، وحدث حذيفة بهذا الحديث بعد حين توفي بالمدائن عام ٣٦ هـ له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً . [راجع ابن عساكر ٤ : ٩٣ وتهذيب التهذيب ٢١٩ والاصابة ١ : ٣١٧ ، وحلية الأولياء ١ : ٣٧٠ وتاريخ الاسلام ٢ : ١٥٢ والمنادي ١ : ٥٠] .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) اختلف العلماء في السبع المثاني . فقيل الفتحة ، قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة ، =

« الشفاعة لمن شهد بالحق »

والمقصود هنا أن قوله ﴿ لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ قد تم الكلام هنا ، فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة من دون الله الشفاعة البتة ، ثم استثنى ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ ، فهذا استثناء منقطع ، والمنقطع يكون في المعنى المشترك بين المذكورين ، فلما نفى ملكهم للشفاعة بقيت الشفاعة بلا مالك لها كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون في أحد ؟ فقال نعم ﴿ من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون فالملائكة والأنبياء والصالحون ، وإن كانوا لا يملكون الشفاعة - لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا ، وهم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله ، فيشهدون بالحق وهم يعلمون ، لا يشفعون

= والربيع بن أنس ، وأبو العالية والحسن وغيرهم . وروي عن النبي ﷺ - من وجوه ثابتة من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلى ، وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني .
قال : هذا حديث حسن صحيح ، وهذا نص وقال الشاعر :
نشدتكم بمنزل القرآن
أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس : هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء والمائدة ، والأنعام والأعراف ، والأنفال ، والتوبة معاً إذ ليس بينهما التسمية .
قال سيباً من المثاني : السبع الطوال ، وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثبتت فيها ، وقيل : المثاني القرآن كله قال الله تعالى ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك وقال ابن عباس وقيل له : مثاني ، لأن الأنبياء والقصص ثبتت فيه ، وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله - ﷺ :
فقد كان نورا ساطعاً يهتدي به
يخص بتنزيل المثاني المعظم
أي القرآن

إلا لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيخوخ كما جاء الحديث الصحيح :
« إن الرجل يسأل في قبره ؟ ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول :
هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا
أدري . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » ^(١) فلهذا قال ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

وقد تقدم قول ابن عباس : يعني من قال « لا إله إلا الله » يعني خالصاً
من قلبه .

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما
تكون في أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت في صحيح البخاري : أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ « من
أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال يا أبا هريرة : لقد ظننت أن لا يسألن
عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد
الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال « لا إله إلا الله » خالصاً من قبل نفسه ^(٣) .

فبين أن المخلص لها من قبل نفسه ، هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره
ممن يقولها بلسانه وتكذبها أقواله وأعماله .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر برواية أنس عن رسول
الله - ﷺ أنه قال إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ،
أنه ملكان فيقعدانه فيقولون ما كنت تقول في هذا الرجل (لمحمد) ﷺ ، فأما المؤمن
فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من
الجنة .

قال : وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا أدري : كنت أقول
ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت « وأنظر الامام مسلم . في كتاب الجنائز .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري ٨ : ١٤٦ (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ، وكذا أورده
البخاري في كتاب العلم ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٧٢ (حلي) .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا أن لا إله إلا الله كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

فإذا شهدوا - وهم يعلمون - كانوا من أهل الشفاعة شافعين ومشفوعاً لهم .

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال -

في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة ، « حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد من أشدة الله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار - وذكر تمام الحديث - » (٢)

« سبب نزول الآية »

وسبب نزول الآية - على ما ذكره - مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزي - سبب نزولها : أن النضر بن الحارث (٣)

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) هذا حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الايمان ٨١ باب معرفة طريق الرؤية ٢٩٩ حدثنا أبي عن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله - ﷺ - يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ - هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله - قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال « فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة وذكره » .

(٣) هو النضر بن الحارث : علقمة بن كلفة بن عبد مناف من بني عبد الدار من قريش - صاحب

ونفرا معه قالوا : « إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد . فنزلت هذه الآية قاله مقاتل . وعلى هذا فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذي يوجب أن يشفعوا لكم ، فإن أحداً ممن يدعي من دون الله لا يملك الشفاعة ولكن من شهد بالحق وهم يعلمون » . فإن الله يشفع فيه . فالذي تنال به الشفاعة : هي الشهادة بالحق وهي شهادة أن لا إله إلا الله . لا تنال بتولي غير الله ؛ لا الملائكة ، ولا الأنبياء ولا الصالحين .

فمن وإلى أحداً من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره ، فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك . فهذا القول والعبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة يحرم عليهم الشفاعة ، فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين - ليشفعوا لهم - كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم : به حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وكثير من أهل الضلال : يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظن ذلك المشركون الأولون وكما يظنه

= لواء المشركين بيدركان من شجعان قريش ووجوهها ومن شياطينها (كما يقول ابن اسحاق) له اطلاع على كتب الفرس وغيرهم .

وهو ابن خالة النبي - ﷺ - ولما ظهر الاسلام استمر على عقيدة الجاهلية وآذى رسول الله - ﷺ - كثيراً وكان إذا جلس النبي - ﷺ - مجلساً للتذكير بالله والتحذير من مثل ما أصاب الأمم الخالية - جلس النضر بعده يحدث قريشاً بأخبار ملوك فارس ورسولهم ويقول : أنا أحسن حديثاً منه توفي عام ٢ هـ . [راجع الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦ ومعجم البلدان ١ : ١١٢ ومطالع البدور ١ : ٢٣٢ وجمهرة الأنساب ١١٧ ونهاية الأرب للنويري ١٦ : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣١] .

النصارى ، ومن ضل من المتسبين إلى الإسلام الذين يدعون غير الله ، ويحجون الى قبره أو مكانه وينذرون له ، ويحلفون به ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعاً لهم . قال تعالى : ﴿ قُلْ اذْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (١) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير ، والملائكة فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجب دعاءهم ، ثم قال ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٢) فبين أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين وقد قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة الاسراء آية رقم ٥٦ - ٥٧ .

في صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون فبقي الذين كانوا يعبدون نفرًا من الجن فأسلم الجن والانس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون فزلت « الآية » ومنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل العرب ، ذكره الماوردي ، وقال ابن عباس ومجاهد عزير وعيسى يبتغون ويطلبون من الله الزلفة والقربة ويتضرعون الى الله تعالى في طلب الجنة وهي الوسيلة أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة الى ربهم ، والهاء والميم في « ربهم » تعود على العابدين أو المعبودين .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٥٧ .

(٣) آل عمران آية رقم ٨٠

وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت في غير هذا الموضوع .

فكثير منهم يظن أن الشفاعة هي بسبب إتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي^(١) وغيره . ويقولون : من كان أكثر صلاة على النبي (ﷺ) كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص وأكثر تعظيماً له كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط بل هذا قول المشركين الذين قالوا : تتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه ، كان ذلك سبباً لشفاعته . وليس الأمر كذلك .

« رأي ابن تيمية »

بل الشفاعة سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين ، والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة . فإن الشفاعة من الله مبدأها ، وعلى الله تمامها ، فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، وهو الذي يأذن للشافع ، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له .

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التي بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته هم أهل التوحيد والإخلاص له . فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعملاً وبراءة وموالاتة ومعاداة ، وكان أحق بالرحمة .

والمذنبون الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فخفت موازينهم فاستحقوا النار ، من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه

(١) سبق الترجمة له في كلمة ضافية في هذا الجزء .

بذنوبه ، ويميته الله في النار إماتة فتحرقه النار إلا موضع السجود . ثم يخرج به الله من النار بالشفاعة ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله على تحقيق كلمة الإخلاص وهي « لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم كما ظنه الجاهليون . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

« دعاء الرسول جامع للتوحيد والحمد »

والمقصود هنا أن النبي (ﷺ) كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ^(١) . أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

ثم يقول : « اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » .

كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال : كان رسول الله (ﷺ) إذا رفع رأسه من الركوع ، قال : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام

حدثنا شعبة عن الحكم قال غلب على الكوفة رجل قد سماه زمن بن الأشعث فأمر أبا عبيدة ابن عبد الله أن يصلي بالناس فكان يصلي فإذا رفع رأسه من الركوع قام قدر ما أقول : وذكره .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى (رضي الله عنه) قال :
كان رسول الله (ﷺ) إذا رفع رأسه من الركوع ، قال : « سمع الله لمن
حمده . اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت
من شيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من
الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي (ﷺ) أنه كان يقول :
« اللهم لك الحمد » . وقال : « وملء الأرض وملء ما بينهما » .

ولم يذكر في بعض الروايات لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما
العلو والسفل مطلقاً ، فيدخل في ذلك الهواء وغيره . فإنه عال بالنسبة إلى ما
تحتة ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه . فقد يجعل من السماء ، كما يجعل
السحاب سماء . وكذا قال في القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(١) .

ولم يقل : « وما بينهما » كما يقول :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ^(٢) .

فتارة يذكر قوله : ﴿ وما بينهما ﴾ فيما خلقه في ستة أيام ، وتارة لا
يذكره ، وهو مراد . فإن ذكره ، كان إيضاحاً وبياناً . وإن لم يذكره ، دخل في
لفظ « السموات والأرض » . ولهذا كان النبي (ﷺ) تارة يقول : ملء
السموات وملء الأرض ولا يقول : « وما بينهما » . وتارة يقول : « وما
بينهما » . وفيها كلها : « وملء ما شئت من شيء بعد » . وفي رواية أبي

(١) سورة الحديد آية رقم ٤

(٢) سورة السجدة آية رقم ٤

سعيد : « أحق ما قال العبد . . . » إلى آخره . وفي رواية ابن أبي أوفى الدعاء بالطهارة من الذنوب .

ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . .
فالحمد بإزاء النعمة . والاستغفار بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى:

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (١)

ففي سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » (٢) .
وفي حديث أبي سعيد : « الحمد رأس الشكر والتوحيد » كما جمع بينهما في
أم القرآن ، فأولهما تحميد ، وأوسطهما توحيد ، وآخرها دعاء . وكما في
قوله :

« هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب
العالمين » .

وفي حديث الموطأ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : « لا إله
إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء
قدير » . من قالها ، كتب الله له ألف حسنة ، وحط عنه ألف سيئة ، وكانت له
حرزاً من الشيطان يومه ذلك ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) حديث سيد الاستغفار رواه البخاري في كتاب الدعوات باب ما يقول إذا أصبح ، وهو عن
شداد بن أوس - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ قال : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني
وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك
علي وأبوء بذنبي فاغفر لي . الخ .

مثلها ، أو زاد عليه . ومن قال في يوم مائة مرة : « سبحان الله وبحمده » ، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » .

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة . وفيها التوحيد والتحميد .
فقوله : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله : « لك الملك
ولك الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد والتحميد والإستغفار في مواضع مثل
حديث كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا
أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » فيه التسييح والتحميد والتوحيد والإستغفار .
من قالها في مجلس إذا كان مجلس لفظ ، كانت كفارة له . وإن كان مجلس
ذكر ، كانت كالطابع له .

وفي حديث أيضاً « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

ففي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة بن عمر بن
الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال : قال رسول الله (ﷺ) :

ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : « أشهد أن لا إله
إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ، إلا فتحت
له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

وفي حديث آخر أنه يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا
إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » ^(١) .

وقد روي عن طائفة من السلف في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه نحو
هذه الكلمات .

(١) روى الامام مسلم - هذا الحديث ١ : ١١٨ (كتاب الطهارة ، باب ذكر المستحب عقب
الوضوء) .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، فأنت خير الراحمين . لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب عليّ ، إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء فيها التسبيح والتحميد والتوحيد والإستغفار .

فالتسبيح والتحميد والتوحيد لله . فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو . والاستغفار من ذنوب النفس التي تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد والاستغفار في غير موضع كقوله :

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (١) .

وفي قوله :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ، وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ (٢) .

وفي قوله :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (٣) .

(١) سورة محمد آية رقم ١٩ .

(٢) سورة هود آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٦ .

وفي حديث رواه ابن أبي عاصم وغيره : يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بالإستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك بثت فيهم الأهواء . فهم يذنبون لا يستغفرون . لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^(١) .

« ولا إله إلا الله » تقتضي الإخلاص والتوكل . والإخلاص يقتضي الشكر ، فهي أفضل الكلام . وهي أعلى شعب الإيمان . كما ثبت في الصحيحين عن النبي (ﷺ) أنه قال : الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة . أعلاها قول : « لا إله إلا الله » . وأدناها إمطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان .

ف « لا إله إلا الله » هي قطب رحى الإيمان . وإليها يرجع الأمر كله . والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

وهي معنى « لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » هي من معنى « لا إله إلا الله » و « الحمد لله » في معناها . و « سبحان الله والله أكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

(١) الحديث رواه الامام البخاري ١ : ١٢ كتاب الإيمان (باب الحياء من الإيمان والحديث من رواية أبي هريرة عن الرسول - ﷺ - قال : الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء من الإيمان وراجع أيضاً أبو داود (السنة) والترمذي في كتاب البر والنسائي في كتاب الإيمان ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٥٦ (حلي) .

فصل

ضلال بعض المتأخرين في قولهم ﴿ فمن نفسك ﴾ على سبيل الإنكار وقد ظن بعض المتأخرين أن معنى قوله : ﴿ فمن نفسك ﴾ أي « أفمن نفسك » ؟ وأنه إستفهام على سبيل الإنكار . ومعنى كلامه أن الحسنات والسيئات كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية . فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان . أي بذنوبه . وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك أبو بكر بن فورك ^(١) . فإنه قال : معناه أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

« الرد على ابن فورك »

قلت : وإضممار الاستفهام - إذا دل عليه الكلام - لا يقتضي جواز إضمماره في الخبر المخصوص من غير دلالة . فإن هذا يناقض المقصود ، ويستلزم أن كل من أراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر في خبره استفهاماً ، ويجعله استفهام إنكار .

(١) سبق الترجمة له .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم (عليه السلام) : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ^(١) أهذا ربي ؟ .

قال ابن الأنباري : هذا القول شاذ ؛ لأن حرف الاستفهام لا يضمم إذا كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله :

﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ؟ ﴾ ^(٢)

وهذا لا حجة فيه ، لأنه قد تقدم الإستفهام في أول الجملة في الجملة الشرطية :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ خُلْدًا ﴾ ^(٣) .

فلم يحتج إلى ذكره ثانية ، بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ ﴾ ^(٤) .

وقوله :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ ﴾ ^(٥)

وقوله :

﴿ أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟ ﴾ ^(٦)

(١) سورة الأنعام آية رقم ٧٦ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٣٤ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٣٤ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٨٧ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ١٠٠ .

وهذا من فصيح الكلام وبلغه ، واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر ، أم بثمان؟
وقوله :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيلاً؟
تقديره : أكذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما بعد « أم بثمان » و« أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة في البيت الأول . وأما الثاني فلإن كانت « أم » هي المتصلة ، فكذلك . وإن كانت هي المنفصلة ، فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم أن النفس لا تأثير لها في وجود السيئات ، وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : إن المعاصي علامة محضة على العقوبة لإقترانها بها ، لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وللعقل .

« الله لا يعذب عباده إلا بذنب »

والقرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب . فقال هنا :

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (١)

وقال لهم في شأن أحد :

﴿ أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ : أُنْزِلْ هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٢)

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ^(١)

وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً :

﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ ^(٣) مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ^(٣)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ^(٤)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال تعالى :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٦) .

(١) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٥٠ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٥) سورة القصص آية رقم ٥٩ .

(٦) سورة الروم آية رقم ٤١ .

وقال تعالى :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٢)

وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما
أهلكها بذلك العذاب :

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴾ (٤)

وقال تعالى عن أهل سبا :

﴿ فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ . . . ﴾ (٥)

إلى قوله :

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ؟ ﴾ (٦)

(١) سورة السجدة آية رقم ٢١ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٣٤ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١١٧ .

(٥) سورة سبا آية رقم ١٧ .

(٦) سورة سبا آية رقم ١٦ .

وقال تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٢)

وفي الحديث الصحيح الالهي :

« يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً ، فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه » (٣) .

وفي سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى :

﴿وَأِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

والحمد لله وحده . وصلى الله على عبد الله ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم . ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

(١) سورة هود آية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ١٥ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ١٤ باب ما يدعوه الرجل إذا أصبح وإذا أمسى

٣٨٧٢ - حدثنا الوليد بن ثعلبة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله - ﷺ -

وذكره . ورواه الامام البخاري في كتاب الدعوات ١٥ ورواه أبو داود في كتاب الأدب ١٠١

ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٢٢ ، ١٣٥ ، ٥ : ٣٥٦ (حلي والاية سورة

الطور آية رقم ٤٧)

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه ليس ديناً أحسن من الإسلام

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (١) .

فنفى أن يكون دين أحسن من هذا الدين ، وأنكر على من أثبت ديناً أحسن منه ، لأن هذا استفهام انكار ، وهو انكار نهى وذم لمن جعل ديناً أحسن من هذا .

قال قتادة والضحاك وغيرهما : إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم (٢) .

وقال المسلمون : نحن أولى بالله تعالى منكم ونبينا خاتم النبيين ،

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٢) في أسباب النزول للواحدي : أخبرنا أبو بكر التميمي ، قال أخبرنا أبو محمد بن حيان ، قال حدثنا أبو يحيى ، قال : حدثنا سهيل ، قال : حدثنا بن مسهر عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح ، قال :

جلس أهل الكتاب - أهل التوراة وأهل الانجيل - وأهل الأديان كل صنف يقول لصاحبه : نحن خير منكم ، فنزلت هذه الآية .

راجع الدر المشور ٢ : ٢٢٦ وتفسير الطبري ٦ : ٢٣١

وكتابتنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فانزل الله تعالى : ﴿ ليس بأمانيكُم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾ (١) الآية .

وروى سفيان عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق ، قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ ليس بأمانيكُم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ﴾ قال أهل الكتاب : نحن وأنتم سواء . حتى نزلت : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ (٢) . الآية .

ونزلت فيهم أيضاً ﴿ ومن أحسن ديناً ﴾ الآية (٣) وقد روى عن مجاهد قال : قالت قريش ، لانبعث ولا نحاسب ، وقال أهل الكتاب ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ (٤) فأنزل الله عز وجل : ﴿ ليس بأمانيكُم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾ وهذا يقتضي أنها خطاب للكفار من الأُميين وأهل الكتاب لاعتقادهم أنهم لا يعذبون العذاب الدائم ، والأول أشهر في النقل وأظهر في الدليل ، لأن السورة مدنية بالاتفاق ، فالخطاب فيها مع المؤمنين كسائر السور المدنية .

وأيضاً فإنه قد استفاض من وجوه متعددة أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوء يجز به ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي - ﷺ - حتى بين لهم النبي - ﷺ - أن مصائب الدنيا من الجزاء ، وبها يجزي المؤمن فعلم أنهم مخاطبون بهذه الآية لا مجرد الكفار .

وأيضاً قوله بعد هذا ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ (٥) الآية . وقوله ﴿ ومن أحسن ديناً ﴾ يدل على أن هناك تنازعاً في

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٤ وتكملة الآية ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾

(٣) راجع تفسير الطبري ٦ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ والدر المنثور ٢ : ٢٢٥ -

(٤) سورة البقرة آية رقم ٨٠ .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٢٤ .

تفضيل الأديان ، لا مجرد إنكار عقوبة بعد الموت .

وأيضاً : فما قبلها وما بعدها خطاب مع المؤمنين وجواب لهم ، فكان المخاطب في هذه الآية هو المخاطب في بقية الآيات .

فإن قيل : الآية نص في نفي دين أحسن من دين هذا المسلم ، لكن من أين له أنه ليس دين مثله ؟ فإن الأقسام ثلاثة : إما أن يكون ثم دين أحسن منه . أو دونه ، أو مثله ، وقد ثبت أنه لا أحسن منه فمن أين في الآية أنه لا دين مثله ؟ ونظيرها في قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

قيل : لو قلنا في هذا المقام : إن الآية لم تدل إلا على نفي الأحسن لم يضر هذا ؛ فإن الخطاب له مقامات ، قد يكون الخطاب تارة بإثبات صلاح الدين ، إذا كان المخاطب يدعي أو يظن فساده ، ثم في مقام بأن يقع النزاع في التفاضل فيبين أن غيره ليس أفضل منه . ثم في مقام ثالث يبين أنه أفضل من غيره . وهكذا إذا تكلمنا في أمر الرسول ، ففي مقام نبين صدقه وصحة رسالته وفي مقام بأن نبين أن غيره ليس أفضل منه ، وفي مقام ثالث نبين أنه سيد ولد آدم ؛ وذلك أن الكلام يتنوع بحسب حال المخاطب .

ثم نقول : يدل على أن هذا الدين أحسن وجوه .

(١) سورة فصلت آية رقم ٣٣ قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن - هو رسول الله - ﷺ - وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولي الله هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه ، وقالت عائشة - رضي الله عنها وعكرمة ، وقيس بن أبي حازم ومجاهد نزلت في المؤذنين . قال فضيل بن رفيدة : كنت مؤذناً لأصحاب عبد الله بن مسعود . فقال لي عاصم بن هبيرة : إذا أذنت فقلت : الله أكبر ، الله أكبر لا إله إلا الله . فقل وأنا من المسلمين ، ثم قرأ هذه الآية . قال ابن العربي : الأول أصح ، لأن الآية مكية والأذان مدني . وقال قيس بن أبي حازم : هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله . والله أعلم .

« أحدها » أن هذه الصيغة وإن كانت في أصل اللغة لنفي الأفضل لدخول النفي على أفعل ، فإنه كثيراً ما يضمم بعرف الخطاب ، يفضل - المذكور المجرور بمن مفضلاً عليه في الإثبات ، فإنك إذا قلت : هذا الدين أحسن من هذا كان المجرور بمن مفضلاً عليه والأول مفضلاً . فإذا قلت لا أحسن من هذا ، أو من أحسن من هذا ؟ أوليس فيهم أفضل من هذا ، أو ما عندي أعلم من زيد أو ما في القوم أصدق من عمرو ، أو ما فيهم خير منه ، فإن هذا التأليف يدل على أنه أفضلهم وأعلمهم وخيرهم ؛ بل قد صارت حقيقة عرفية في نفي فضل الداخل في أفعل ، وتفضيل المجرور على الباقي ، وأنها تقضي نفي فضلهم وإثبات فضله عليهم ، وضمنت معنى الاستثناء ، كأنك قلت : ما فيهم أفضل إلا هذا ، أو ما فيهم المفضل إلا هذا ، كما أن [إن] إذا كفت بما النافية صارت متضمنة للنفي والإثبات .

وكذلك الاستثناء ؛ وإن كان في الأصل للإخراج من الحكم فإنه صار حقيقة عرفية في مناقضة المستثنى منه ، فالاستثناء من النفي إثبات ، ومن الإثبات نفي ، واللفظ يصير بالاستعمال له معنى غير ما كان يقتضيه أصل الوضع . وكذلك يكون في الأسماء المفردة ^(١) تارة ، ويكون في تركيب الكلام أخرى ، ويكون في الجمل المنقولة كالأمثال السائرة جملة فيتغير الاسم المفرد بعرف ^(٢) الاستعمال عما كان عليه في الأصل ، إما بالتعميم وإما بالتخصيص وإما بالتحويل ؛ كلفظ الدابة والغائط والرأس ، ويتغير التركيب بالاستعمال عما كان يقتضيه نظائره كما في زيادة حرف النفي في الجمل السلبية وزيادة ^(٣) النفي في كاد وينقل الجملة عن معناها الأصلي إلى غيره كالجمل المتمثل بها ، كما في قولهم « يداك أوكتا وفوك نفخ » و« عسى الغوير يؤساً » .

(١) سقط من (ب) لفظ المفردة .

(٢) في (أ) بزيادة لفظ (بعرف)

(٣) سقط من (ب) لفظ (وزيادة)

« الوجه الثاني » أنه إذا كان لا دين أحسن من هذا فالغير^(١) إما أن يكون مثله أو دونه ، ولا يجوز أن يكون مثله ؛ لأن الدين إذا ماثل الدين وسواه في جميع الوجوه كان هو إياه^(٢) ، وإن تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل والتساوي بين الدينين المختلفين فإن اختلافهما يمنع تماثلهما ؛ إذ الاختلاف ضد التماثل ، فكيف يكونان مختلفين متماثلين ؟ واختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع ؛ فإن أحد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق واجب والآخر يقول : إنها باطل محرم^(٣) فمن المحال استواء هذين الاعتقادين . وكذلك الاقتصادان ، فإن هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد والأعمال والآخر يقصده بما يضاد ذلك وينافيه ، وليس كذلك تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم ؛ فإن دينهم واحد ، كل منهم يعتقد ما يعتقد الآخر ، ويعبده بالدين الذي يعبده ، ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا ؛ بل نقول أبلغ من هذا أن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لا بد أن يكون أحدهما أحسن عند الله فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل ، فذاك الصواب هو أحسن عند الله ، وإن كان أحدهما يقر الآخر . فالإقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولاً مرجوحاً ، وإنما يمنع أن يكون محرماً .

وإذا كان هذا في أدق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول ؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين ولا بين العقلاء أن المصيب في نفس الأمر واحد ، وإنما تنازعوا في المخطيء هل يغفر له أو لا يغفر^(٤) ؟ وهل يكون مصيباً بمعنى أداء

(١) في (ب) فغيره من الأديان بدلاً من (فالغير)

(٢) في (ب) هو نفسه بدلاً من (هو إياه)

(٣) والأمثلة على ذلك كثيرة فالإسلام هو دين التوحيد ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا هو ﴾ وتحريف النصرانية تجعلها تنادي بالتثليث (الأب ، والابن ، وروح القدس) وغير ذلك كثير .

(٤) إذا كان مجتهداً في الفروع فالمجتهد في الفروع مثاب عند الله كما أخير بذلك رسول الله - ﷺ - =

الواجب وسقوط اللوم لا بمعنى صحة الاعتقاد ؟ فإن هذا لا يقوله عاقل : أن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صواباً .

فتلخيص الأمر أن هذا المقام إنما فيه تفضيل قول وعمل على قول وعمل ، فالأقوال والأعمال المختلفة لا بد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة ؛ بل ومن قال بأن كل مجتهد مصيب قد لا ينزع أن أحدهما أحسن وأصوب ، ولا يدعي تماثلها . وإن ادعاه فلم يدعه إلا في دق الفروع ، مع أن قوله ضعيف مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف .

وأما الحل فلم يدع مدع تساوى الأقسام فيه ، وهذا بخلاف التنوع المحض ، مثل قراءة سورة وقراءة سورة أخرى ، وصدقة بنوع وصدقة بنوع آخر . فإن هذا قد يتماثل ؛ لأن الدين واحد في ذلك من كل وجه ، وإنما كلامنا في الأديان المختلفة ، وليس هنا خلاف بحال .

وإذا ثبت أن الدينين المختلفين لا يمكن تماثلهما لم يحتج إلى نفي هذا في اللفظ لانتفائه بالعقل . وكذلك لما سمعوا قوله : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ ^(١) كان في هذا ما يخاف انتقاصهم إياه .

= المجتهد إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر .

أما الاجتهاد في الأصول فاعتقد - والله أعلم - أنه لا يجوز اعتماداً على قول الله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

(١) سورة القلم آية رقم ٤٨ وتكملة الآية ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ وصاحب الحوت « يعني ذا النون - وهو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان فحينئذ نادى في الظلمات (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) خرجت الكلمة تحن حول العرش فقالت الملائكة يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال الله تبارك وتعالى : أما تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال هذا يونس . قالوا يا رب عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة . قال : نعم . قالوا : أفلا ترحم ما كان يعمل في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ فأمر الله الحوت فالقاه بالعراء ولهذا قال تعالى ﴿ فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن أبي وائل عن عبد الله . =

هذا مع أن نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة شاهدة بتفضيل النبيين على بعض وبعض الرسل على بعض ، قاضية لأولي العزم بالرجحان ، شاهدة بأن محمداً ﷺ سيد ولد آدم (١) ، وأكرم الخلق على ربه لكن تفضيل الدين الحق أمر لا بد من اعتقاده ولهذا ذكره الله في الآية . وأما تفضيل الأشخاص فقد لا يحتاج إليه في كل وقت ، فالدين الواجب لا بد من تفضيله ؛ إذ الفضل يدخل في الوجوب ، وإذا وجب الدين به دون خلافه فلائنه يجب اعتقاد فضله أولى .

وأما الدين المستحب : فقد لا يشرع اعتقاد فعله إلا في حق من شرع له فعل ذلك المستحب ، وإلا فمن الناس من يضربه إذا سلك سبيلاً من سبل السلام الإسلامية أن يرى غيره أفضل منها ؛ لأنه يتشوق إلى الأفضل فلا يقدر عليه ، والمفضول يعرض عنه .

وكما أنه ليس من مصلحته أن يعرف أفضل من طريقته إذا كان يترك طريقته ولا يسلك تلك ، فليس أيضاً من الحق أن يعتقد أن طريقته أفضل من غيرها بل مصلحته أن يسلك تلك الطريقة المفضية به إلى رحمة الله تعالى ، فإن بعض المتفقهة يدعون الرجل إلى ما هو أفضل من طريقته عندهم ، وقد يكونون مخطئين فلا سلك الأول ولا الثاني . وبعض المتصوفة المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض ، وطريقته أفضل الطرق وكلاهما انحراف (٢) ؛

= قال : قال رسول الله - ﷺ : لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى .
ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري ، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الشفاعة ٤٣٠٨ - أنبأنا علي بن زيد بن جدعان عن أبي نصره ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله - ﷺ « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأول مشفع ولا فخر ، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر »

وأخرجه أبو داود في السنة ١٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٥ (حلي) .

(٢) وهذا كثير في البلاد العربية والإسلامية والمطلع على أصحاب الطرق الصوفية في تلك البلاد يرى العجب العجائب ، وكيف أن المريد يطيع شيخه في كل شيء فلا يتزوج ولا يسافر ، ولا يذهب

بل يؤمر كل رجل أن يأتي من طاعة الله ورسوله بما استطاعه ولا ينقل من طاعة الله ورسوله بطريقته ، وإن كان فيها نوع نقص أو خطأ ولا يبين له نقصها إلا إذا نقل إلى ما هو أفضل منها ، وإلا فقد ينفر قلبه عن الأولى بالكلية حتى يترك الحق الذي لا يجوز تركه ، ولا يتمسك بشيء آخر ، وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استقصاؤه وهو مبني على أربعة أصول :

« أحدها » معرفة مراتب الحق والباطل ، والحسنات والسيئات والخير والشر ليعرف خير الخيرين وشر الشرين .

« الثاني » معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب ، وما يستحب من ذلك وما لا يستحب .

« الثالث » معرفة شروط الوجوب والاستحباب من الإمكان والعجز ، وإن الوجوب والاستحباب قد يكون مشروطاً بإمكان العلم والقدرة .

« الرابع » معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم ؛ ليؤمر كل شخص بما يصلحه أو بما هو الأصلح له من طاعة الله ورسوله ، ونهى عما ينفع نبيه عنه ، ولا يؤمر بخير يوقعه فيها هو شر من المنهي عنه مع الاستغناء عنه .

وهذا القدر الذي دلت عليه هذه الآية - من أن دين من أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم^(١) ، هو أحسن الأديان ، أمر متفق عليه بين المسلمين - معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ؛ بل من يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين^(٢) .

= للجهد ، ولا يفلح الأرض ، ولا يذهب إلى المصنع ، ولا يقوم بتعليم أولاده ، ولا التصرف في ماله إلا بإذن شيخه ، وقد يكون هذا الشيخ منحرف يتبع شيطانه فتحدث من المأسي ومن الانحراف عن الدين ما لا يحمد عقباه .

(١) الآية : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ . سورة النساء آية رقم ١٢٥

(٢) الآية : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ . سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه ومبين وجه الحكم فإنه بين هذه الآية وجه التفضيل بقوله ﴿أسلم وجهه لله﴾ وبقوله : ﴿وهو محسن﴾ فإن الأول بيان نيته وقصده ومعبوده وإلهه ، وقوله ﴿وهو محسن﴾ فانتفى بالنص نفي ما هو أحسن منه ، وبالعقل ما هو مثله ، فثبت أنه أحسن الأديان .

« الوجه الثالث » أن النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل فلم يقل لهما : إن الدينين سواء ، ولا نهوا عن تفضيل أحدهما ؛ لكن حسمت مادة الفخر والخيلاء والغرور الذي يحصل من تفسير أحد الدينين ؛ فإن الإنسان إذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك إلى الكبر والخيلاء والفخر ؛ فقليل للجميع : ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ سواء كان دينه فاضلاً أو مفضولاً ؛ فإن النهي عن السيئات والجزاء عليها واقع لا محالة (قال تعالى) ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ إلى قوله : ﴿لَوَاقِعٌ﴾ (١) .

فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون على السيئات ولا يغني عنهم فضل دينهم وفسر لهم النبي ﷺ أن الجزاء قد يكون في الدنيا بالمصائب بين بعد ذلك فساد دين الكفار من المشركين وأهل الكتاب بقوله : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (٢) الآية . فين أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الإيمان ، وأن كان قد يجزى به صاحبه في الدنيا بلا إيمان

(١) سورة الذاريات الآيات من ١ - ٦ .

قال شعبة بن الحجاج عن سماك بن خالد بن عرعة أنه سمع علياً رضي الله عنه ، وشعبة أيضاً عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل أنه سمع علياً رضي الله عنه - وثبت أيضاً من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله - ﷺ - إلا أنباتكم بذلك فقام إليه ابن الكواء فقال يا أمير المؤمنين : ما معنى قوله تعالى ﴿والذاريات ذروا﴾ قال علي رضي الله عنه : الريح قال : ﴿فالخاملات وقرا﴾ قال رضي الله عنه : السحاب . قال ﴿فالجاريات يسرا﴾ قال رضي الله عنه : السفن . قال ﴿فالمقسمات أمرا﴾ قال رضي الله عنه : الملائكة .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٤ .

فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات ، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة إلا مع الإيمان ، ثم بين بعد هذا فضل الدين الإسلامي الحنفي بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا ﴾ فجاء الكلام في غاية الإحكام .

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه نبي النبي ﷺ أن يفضل بين الأنبياء التفضيل الذي فيه انتقاص المفضول والغض منه كما قال ﷺ « لا تفضلوا بين الأنبياء »^(١) وقال : « لا تفضلوني على موسى » ببيان لفضله ، وبهذين يتم الدين .

فإذا كان الله هو المعبود وصاحبه قد أخلص له وانقاد ، وعمله فعل الحسنات ، فالعقل يعلم أنه لا يمكن أن يكون دين أحسن من هذا بخلاف دين من عند غير الله وأسلم وجهه له ، أو زعم أنه يعبد الله لا بإسلام وجهه ؛ بل يتكبر كاليهود ، ويشرك كالنصارى ، أو لم يكن محسناً بل فاعلاً للسيئات دون الحسنات ، وهذا الحكم عدل محض ، وقياس وقسط ، دل القرآن العقلاء على وجه البرهان فيه .

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ٤٢ باب من فضائل موسى - ﷺ - ١٥٩ - ٢٣٧٣ عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة قال : بيننا يهودي يعرض سلعة له أعطى بها شيئاً كرهه أو لم يرضه شك عبد العزيز قال : لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال : تقول : والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر . قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال : تقول . والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله بين أظهرنا ؟ قال فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ - فقال يا أبا القاسم : إن لي ذمة وعهداً وقال : فلان لطم وجهي فقال رسول الله - ﷺ - لما لطمت وجهه قال : قال يا رسول الله والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا قال : فغضب الله - ﷺ - حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال : وذكره . ورواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٣٥ باب قول الله تعالى ١٣٩ الصفات (وان يونس لمن المرسلين) بلفظ : « لا تفضلوا بين أولياء الله » فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث فإذا موسى أخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي »

وهكذا غالب ما بينه القرآن ، فإنه يبين الحق والصدق ، ويذكر أدلته وبراهينه ؛ ليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر ، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة ، إن دلالاته سمعية خبرية ، وأنها واجبة لصدق الخبر ؛ بل دلالاته أيضاً عقلية برهانية ، وهو مشتمل من الأدلة والبراهين على أحسنها وأتمها بأحسن بيان ، لمن كان له فهم وعقل ، بحيث إذا أخذ ما في القرآن من ذلك ، وبين لمن لم يعلم أنه كلام الله أو لم يعلم صدق الرسول ، أو يظن فيه [ظناً] مجرداً عما يجب من قبول قول المخبر ، كان فيه ما يبين صدقه وحقه ، ويبرهن عن صحته .

فصل وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴾ ^(١) فقلوه : ﴿ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ مثل قوله في سورة البقرة : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٢) قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين معناه تخونون أنفسكم ، زاد بعضهم : تظلمونها . فجعلوا الأنفس مفعول ﴿ تختانون ﴾ وجعلوا الإنسان قد خان نفسه أي ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أبيرق ^(٣) - أو بجماع امرأته ليلة الصيام كما فعل بعض الصحابة ^(٤) - وهذا

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٧

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .

(٣) وقصته أنه سرق درعاً من جار له يقال له : قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى الى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل يهودي يقال له زيد بن السمين ، فالتصمت الدرع عند طعمه فلم توجد عنده وحلف لهم والله ما أخذها وما له به من علم . فقال أصحاب الدرع : بلى والله قد أدلج علينا فأخذها ، وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق ، فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودي فأخذوه فقال : دفعها إلي طعمة بن أبيرق ، وشهد له أناس من اليهود على ذلك ، فقالت بنو ظفر - وهو قوم طعمه - انطلقوا بنا إلى رسول الله - ﷺ ، فكلّموه في ذلك وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهودي منهم رسول الله - ﷺ - أن يفعل - وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودي ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ الآية كلها . وهذا قول جماعة من المفسرين .

القول فيه نظر ؛ فإن كل ذنب يذنبه الإنسان فقد ظلم فيه نفسه ، سواء فعله سراً أو علانية .

وإذا كان اختيان النفس هو ظلمها أو ارتكاب ما حرم عليها كان كل مذنب مختاناً لنفسه ، وإن جهر بالذنوب ، وكان كفر الكافرين وقتالهم للأنبياء وللمؤمنين اختياناً لأنفسهم ، وكذلك قطع الطريق والمحاربة ، وكذلك الظلم الظاهر ، وكان ما فعله قوم نوح وهود وصالح وشعيب اختياناً لأنفسهم ومعلوم أن هذا اللفظ لم يستعمل في هذه المعاني كلها ، وإنما استعمل في خاص من الذنوب مما يفعل سراً ، وحتى قال ابن عباس في قوله : ﴿ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ عني بذلك فعل عمر ، فإنه روى أنه لما جاء الأنصاري فشكى أنه بات تلك الليلة ولم يتعش لما نام قبل العشاء وكان من نام قبل الأكل حرم عليه الأكل ، فيستمر صائماً ، فأصبح يتغلب ظهراً لبطنه ، فلما شكوا حاله إلى النبي ﷺ قال عمر : يا رسول الله إني أردت أهلي الليلة فقالت إنها قد نامت فظننتها لم تنم فواقعتها ، فأخبرتني أنها كانت قد نامت ، قالوا : فأنزل الله في همر : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ^(١) وقد قيل : إن الجماع ليلة الصيام

= وهناك أقوال أخرى لجماعة آخرين في الدر المنثور ٢ : ٢١٥ - ٢١٩ والمستدرک ٤ : ٣٨٥ - ٣٨٨ ، وتفسير الطبري ٩ : ١٧٦ - ١٨٣ وتفسير الفخر الرازي ٣ : ٣٠٧ والقرطبي ٥ : ٣٧٥ - ٣٧٦ وتفسير ابن كثير ١ : ٥٥٠ - ٥٥٢ ، والبحر المحيط ٣ : ٣٤٣ وصحيح الترمذي ١١ : ١٦٤ - ١٦٨ ، والروض الأنف ٢ : ٢٨ - ٢٩ .

(٤) يقال إن قيس بن صرفة - وهو شيخ من الأنصار - جاء أهله وهو صائم - فقال : عشوني : فقالوا حتى نسخن لك طعاماً ، فوضع رأسه فنام فجاءوا بالطعام فقال : قد كنت نمت . وكانوا إذا نام الرجل قبل الأكل والجماع حرماً عليه - وجاء عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله إني أردت أهلي الليلة فقالت : إنها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها . فأخبرتني أنها قد نامت فأنزل الله تعالى في عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .

الرفث : كناية عن الجماع لأن الله عز وجل كريم يكنى قاله ابن عباس والسدي . وقال الزجاج : الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته ، وقال الأزهري أيضاً ، وقال، =

كانوا منهيين عنه مطلقاً ، بخلاف الأكل ، فإنه كان مباحاً قبل النوم . وقد روى أن عمر جامع امرأته بعد العشاء قبل النوم وأنه لما فعل أخذ يلوم نفسه ، فأق النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! . أعتذر إلى الله من نفسي هذه الخائنة ، إني رجعت إلى أهلي بعدما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي ، فقال النبي ﷺ « ما كنت تجديراً بذلك يا عمر » وجاء طائفة من الصحابة فذكروا مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية .

فهذا فيه أن نفسه الخاطئة سولت له ذلك ، ودعته إليه ، وأنه أخذ يلومها بعد الفعل ، فالنفس هنا هي الخائنة الظالمة ، والإنسان تدعوه نفسه في السر إذا لم يره أحد إلى أفعال لا تدعو إليها علانية ، وعقله ينهيه عن تلك الأفعال ، ونفسه تغلبه عليها .

ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفى عن المخون كالذي يخون أمانته فيخون من ائتمنه إذا كان لا يشاهده ، ولو شاهده لما خانته . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ ^(٢) وقالت امرأة العزيز : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ^(٤) .

= ابن عرفة الرفث ها هنا الجماع ، والرفث التصريح بذكر الجماع والاعراب به قال الشاعر :

ويرين من أنس الحديث زوانياً ويهن عن رفث بالرجال نفار

(١) سورة الأنفال آية رقم ٢٧ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ١٣ .

وقيل الرفث أصله قول الفحش يقال : رفث وأرفث إذا تكلم بالقبيح ومنه قول الشاعر :

ورب أسراب حجيح كظم عن اللفا ورفث التكلم .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة غافر آية رقم ١٩ .

وقال النبي ﷺ لما قام : أما فيكم رجل يقوم إلى هذا فيضرب عنقه ؟ فقال له وجل : هلا أومضت إلي ؟ فقال : « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » (١) قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (٢) وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » (٣) وفي حديث آخر « على كل خلق يطبع المؤمن إلا الخيانة والكذب » (٤) ومثل هذا كثير .

وإذا كان كذلك فالإنسان كيف يخون نفسه ، وهو لا يكتمها ما يقوله ويفعله سراً عنها ؛ كما يخون من لا يشهده من الناس ؟ كما يخون الله والرسول إذا لم يشاهده فلا يكون ممن يخاف الله بالغيب ، ولم خصت هذه الأفعال بأنها خيانة للنفس دون غيرها ؟ فالأشبه والله أعلم - أن يكون قوله : ﴿ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ مثل قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ (٥) .

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الحدود « باب الحكم فيمن ارتد » ٤٣٥٩ - عن مصعب بن سعد عن سعد . قال : لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان ، فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ - فقال يا رسول الله بايع عبد الله بن سعد بن أبي سرح . فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حيث رأي كفت يدي عن بيعته فيقتله . . ؟ فقالوا : ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك . . ؟ قال : وذكره .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٢٥ باب بيان خصال المنافق ١٠٧ - بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه وذكره ، ورواه البخاري في كتاب إيمان ٢٤ باب علامة المنافق بسنده عن أبي هريرة . وفي كتاب الأدب ١٩ ، والترمذي في الإيمان ١٤

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٢٥٢ - (حلي) ثنا وكيع ، قال سمعت الأعمش ، قال : حدثت عن أبي إمامة قال قال رسول الله ﷺ - وذكره .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ والآية ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾

والبصريون يقولون في مثل هذا : إنه منصوب على أنه مفعول له ويخرجون قوله : ﴿ سَفَهَ ﴾ عن معناه في اللغة ، فإنه فعل لازم ، فيحتاجون أن ينقلوه من اللزوم إلى التعدية بلا حجة .

وأما الكوفيون - كالفراء ^(١) وغيره ومن تبعهم - فعندهم أن هذا منصوب على التمييز ، وعندهم أن المميز قد يكون معرفة كما يكون نكرة وذكروا لذلك شواهد كثيرة من كلام العرب ، مثل قولهم : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره . وكان الأصل سفهت نفسه ورشد أمره ، ومنه قولهم : غبن رأيه وبطرت نفسه ، فقوله تعالى : ﴿ بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا ﴾ ^(٢) من هذا الباب . فالمعيشة نفسها بطرت فلما كان الفعل نصبه على التمييز قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ ﴾ ^(٣) فقوله : ﴿ سفه نفسه ﴾ معناه إلا من سفهت نفسه أي كانت سفيهة ، فلما أضاف الفعل إليه نصبها على التمييز كما في قوله : ﴿ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا ﴾ ^(٤) ونحو ذلك . وهذا اختيار ابن قتيبة وغيره ؛ لكن ذاك نكرة وهذا معرفة .

وهذا الذي قاله الكوفيون أصح في اللغة والمعنى ؛ فإن الإنسان هو السفيه

(١) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الديلمي . مولى بني أسد المعروف بالفراء أمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة ، وفنون الأدب كان يقال : الفراء أمير المؤمنين في النحو ، ومن كلام ثعلب « لولا الفراء ما كانت اللغة ، ولد بالكوفة عام ١٤٤ هـ وانتقل إلى بغداد ، وعهد إليه المأمون بتربية ابنه فكان أكثر مقامه بها فإذا جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة - توفي في طريقه إلى مكة وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها عارفاً بالنجوم والطب يميل إلى الاعتزال من كتبه : المقصور والمحدود ، والمعاني ، ويسمى « معاني القرآن » و« المذكر والمؤنث » واختلاف أهل الكوفة والبصرة ، والشام في المصاحف . وغير ذلك كثير ، كانت وفاته عام ٢٠٧ هـ .

راجع ارشاد الأديب ٧ : ٢٧٦ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٢٨ وابن النديم ٦٦ - ٦٧ ومفتاح السعادة ١٤٤ : ١ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٥٨ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٤ .

نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) ﴿ وَلَا تَوُتُوا السُّفَهَاءَ ﴾ ^(٢) فكذلك قوله : ﴿ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي تحتان أنفسكم ، فالأنفس هي التي اختانت ، كما أنها هي السفيهة . وقال : اختانت ولم يقل خانت ، لأن الإفتعال فيه زيادة فعل على ما في مجرد الخيانة ، قال عكرمة : والمراد بالذين يحتانون أنفسهم ابن أبيرق الذي سرق الطعام والقماش ، وجعل هو وقومه يقولون : إنما سرق فلان لرجل آخر .

فهؤلاء اجتهدوا في كتمان سرقة السارق ورمي غيره بالسرقة كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ فكانوا خائنين للصاحب والرسول وقد اكتسبوا الخيانة .

وكذلك الذين كانوا يجامعون بالليل وهم يجتهدون في أن ذلك لا يظهر عنهم حين يفعلونه ، وإن أظهروه فيما بعد عند التوبة ، أما عند الفعل فكانوا يحتاجون من ستر ذلك وإخفائه ما لا يحتاج إليه الخائن وحده أو يكون قوله : ﴿ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي يخون بعضكم بعضاً ، كقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٣) وقوله ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ ^(٥) فإن السارق وأقواماً

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٥ .

والسفهاء جمع ، واحدة سفيه ، وهو الخفيف العقل من قولهم ثوب سفيه ، إذا كان خفيف النسج ، وقال المورج : السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم ، وقال قطرب : الظلوم الجهول والله أعلم .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٥٤ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٨٥ ﴿ وَتَكْمَلُهَا ﴾ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تضادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴿ .

(٥) سورة النور آية رقم ١٢ .

خانوا إخوانهم المؤمنين، والمجامع إن كان جامع امرأته وهي لا تعلم أنه حرام فقد خانها والأول أشبه والصيام مبناه على الأمانة ، فإن الصائم يمكنه الفطر ولا يدري به أحد فإذا أفطر سراً فقد خان أمانته ، والفطر بالجماع المستور خيانة كما أن أخذ المال سراً وإخبار الرسول والمظلوم ببراءة السقيم وسقم البريء خيانة ، فهذا كله خيانة ، والنفس هي التي خانت فإنها تحب الشهوة والمال والرئاسة وخان^(١) واختان مثل كسب واكتسب فجعل الإنسان مختاناً .

ثم بين أن نفسه هي التي تختان ، كما أنها هي التي تضر ؛ لأن مبدأ ذلك من شهوتها ، ليس هو مما يأمر به العقل والرأي ، ومبدأ السفه منها لحفتها وطيشها والإنسان تأمره نفسه في السر بأمور ينهاها عنه العقل والدين فتكون نفسه اختانته وغلبته ، وهذا يوجد كثيراً في أمر الجماع والمال ، ولهذا لا يؤتمن على ذلك أكثر الناس ، ويقصد بالائتمان من لا تدعوه نفسه إلى الخيانة في ذلك . قال سعيد بن المسيب : لو ائتمنت على بيت مال لأدبت الأمانة ، ولو ائتمنت على امرأة سوداء لحفت أن لا أؤدي الأمانة فيها . وكذلك المال لا يؤتمن عليه أصحاب الأنفس الحريصة على أخذه كيف اتفق .

وهذا كله مما يبين أن النفس تخون أمانتها ، وإن كان الرجل ابتداءً لا يقصد الخيانة ، فتحمله على الخيانة بغير أمره ، وتغلبه على رأيه ولهذا يلوم المرء

(١) خانته خونا وخيانة ومخانة ، واختانه فهو خائن ، وخائنة وخوان ، والجمع : خيانه وخونه ، وخوان قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد ، إلا أن الخيانة يقال إعتباراً بالعهد والأمانة والنفاق يقال اعتباراً بالدين ، ثم يتداخلان ، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، ونقيض الخيانة الأمانة قال تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ فالإختيان مراودة الخيانة ولم يقل تخونوا أنفسكم ، لأنه لم يكن منهم الخيانة ، بل كان منهم الإختيان ، فالإختيان تحريك شهوة الإنسان لتحري الخيانة وذلك هو المشار اليه بقوله تعالى : ﴿ إن النفس لأماره بالسوء ﴾ [سورة يوسف آية رقم ٥٣] وخائنة الأعين ما يسار من النظر إلى ما لا يحل أو أن ينظر نظرة بريئة . نسبة إلى الخون ونقصه .

راجع بصائر ذوي التمييز ٢ : ٥٨٢

نفسه على ذلك ويذمها ، ويقول هذه النفس الفاعلة الصانعة ؛ فإنها هي التي
اختانت .

فصل

ودل قوله : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أنه لا يجوز الجدل عن الخائن ، ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة ، لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس فلا يجوز المجادلة عنها ، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ^(٣) وقد قال تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ ^(٤) فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها ، وهو يبصرها بخلاف ذلك ، وقال تعالى : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ ^(٦) .

(١) سورة غافر آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة القيامة آية رقم ١٤ - ١٥ .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ١٤ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢٠٤ .

والألد : الشديد الخصومة ، وهو رجل ألد ، وامرأة لداء ، وهم أهل للد ، والألد مشتق من

وقد قال النبي ﷺ « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »^(١) فهو يجادل عن نفسه بالباطل ، وفيه لدد : أي ميل واعوجاج عن الحق . وهذا على نوعين : أحدهما : أن تكون مجادلته وذبه عن نفسه مع الناس ، و« الثاني » و« الثاني » فيما بينه وبين ربه بحيث يقيم أذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسناً ، وهي خائنة ظالمة ، لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر ، قال شداد بن أوس^(٢) . إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية ، قال أبو داود : هي حب الرياسة وهذا من شأن النفس حتى إنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾^(٣) ، ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ

= اللديدين ، وهما صفحتا العنق ، أي في أي جانب أخذ من الخصومة غلب . قال الشاعر :
والد ذي حنق علي كأنما تغلي عدواة صدره في مرجل
وقال آخر :

إن تحت التراب غرماً وخرماً وخصيماً الد ذا مغلاق
(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير وكتاب الأحكام ٣٤ باب الألد الخصم ٧١٨٨ - حدثنا يحيى ابن سعيد عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكة يحدث عن عائشة - رضي الله عنها قالت : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

وأخرجه الامام مسلم في كتاب العلم ٢ باب الألد الخصم ٥ (٢٦٦٨) حدثنا وكيع عن ابن جريج ، عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .
والنسائي في القضاء وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٥٥ ، ٦٣ ، ٢٠٥ . (حلي) .

(٢) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري أبو يعلى صحابي من الأمراء ولاء عمر إمارة حمص ، ولما قتل عثمان اعتزل وعكف على العبادة كان فصيحاً حليماً حكيماً . قال أبو الدرداء لكل أمة فقيه ، وفقه هذه الأمة شداد بن أوس . توفي عام ٥٨ هـ في القدس عن ٧٥ سنة وله في كتب الحديث ٥٠ حديثاً .

راجع الاصابة ت ٣٨٤٢ وتهذيب ٤ : ٣١٥

(٣) سورة المجادلة آية رقم ١٨ .

(٤) سورة المجادلة آية رقم ١٩

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ،
ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا
عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١﴾ .

وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة ، حتى
يشهد عليه سمعه وبصره وجوارحه . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ
يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ
كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب والإيمان الفاجرة
وصفهم الله بذلك في غير موضع . وفي قصة تبوك لما رجع النبي ﷺ وجاء
المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ، فلما
جاء كعب (٣) قال : والله يا رسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك
الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه : إني أوتيت جدلاً ؛ ولكن أخاف إن
حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ ؛ ولئن
حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي
من عذر ، والله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال
النبي ﷺ أما هذا فقد صدق ، يعني والباقي يكذبون ثم إنه هجره مدة ، ثم

(١) سورة الأنعام آية ٢٢ - ٢٤ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٢٢ .

(٣) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين البصري الأنصاري السلمي الخزرجي : صحابي ، من
أكابر الشعراء ، من أهل المدينة اشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ -
وشهد الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان ، وأنجده يوم الثورة وحرص الأنصار على نصرته ولما
قتل عثمان قعد عن نصرة علي فلم يشهد حروبه ، وعمي في آخر عمره وعاش سبعاً وسبعين
سنة توفي عام ٥٠ هـ له ٨٠ حديثاً .

راجع الأغاني ١٥ : ٢٩ والإصابة ت ٧٤٣٥ وخلاصة تذهيب الكمال ٢٧٣ وشرح الشواهد
١٢٣ وخزانة البغداد ١ : ٢٠٠ .

تاب الله عليه ببركة صدقه (١) .

فلاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز ، بل إن أذنب سرّاً
بينه وبين الله اعترف لربه بذنبه ، وخضع له بقلبه ، وسأله مغفرته وتاب إليه
فإنه غفور رحيم تواب ، وإن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهراً ، وإن أظهر
جميلاً وأبطن قبيحاً تاب في الباطن من القبيح . فمن أساء سرّاً ، أحسن
سرّاً ، ومن أساء علانية أحسن علانية ف ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ
ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

(١) راجع ما كتبه ابن هشام في تاريخه (سيرة ابن هشام) بشأن غزوة تبوك ودور المنافقين في هذه
الغزوة ٤ : ٩٤٣ - ٩٦٤ هـ ودور كعب بن مالك وما فعله مع نفسه وحديث المقاطعة مع أقرب
المقرين إليه في المرجع السابق ٩٥٨ - ٩٦٠ .
(٢) سورة هود آية رقم ١١٤ .

التفسيـر الكبير

للامام العلامة تقي الدين

ابن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ

رحمه الله تعالى

الجزء الرابع

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن عبيدة

عضو اللجنة العلمية الدائمة

بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

فصل سورة المائدة وقال شيخ الاسلام قدس الله روحه

سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحرير ، والأمر والنهي ؛ ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال : هي آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها « (١) ولهذا افتتحت بقوله : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ والعقود هي العهود ، وذكر فيها من التحليل والتحرير والإيجاب ما لم يذكر في غيرها ، والآيات فيها متناسبة مثل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) .

وقد اشتهر في التفسير أن هذه الآية نزلت بسبب (٣) الذين أرادوا التبتل من الصحابة ، مثل عثمان بن مظعون والذين اجتمعوا معه ، وفي الصحيحين

(١) الحديث أورده السيوطي في الدر المنثور ٢ : ٢٥٢ - من رواية حبيب وعطية .
(٢) (٣) سورة المائدة آية رقم ٨٧ وهناك رواية أخرى ذكرها الواحدي أخبرنا أبو عثمان بن أبي عمرو المؤذن قال : أخبرنا محمد بن أحمد بن حمدان قال : حدثنا الحسين بن نصر بن سفيان قال : أخبرنا إسحاق بن منصور قال : أخبرنا أبو عاصم عن عثمان بن سعد ، قال أخبرني عكرمة عن ابن عباس : أن رجلاً أتى النبي ﷺ - وقال : اني إذا أكلت هذا اللحم انتشرت الى النساء ، وإنني حرمت على اللحم . فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ونزلت ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الآية . سورة المائدة آية رقم ٨٨ .
راجع صحيح الترمذي ١١ : ١٧٩ ، والدر المنثور ٦ : ٣٠٧ ، وتفسير الطبري ١٠ : ٥٢٠ وتفسير القرطبي ٦ : ٢٦٠ .

حديث أنس في الأربعة الذين قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم لا أنام . وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبي ﷺ : « لكني أصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » ^(١) . فيشبهه والله أعلم أن يكون قوله : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ فيمن حرم الحلال على نفسه بقول أو عزم على تركه ، مثل الذي قال : لا أتزوج النساء ولا آكل اللحم ، وهي الرهبانية المبتدعة ، فإن الراهب لا ينكح ولا يذبح .

وقوله : ﴿ لا تعتدوا ﴾ فيمن قال : أقوم لا أنام ، وقال : أصوم لا أفطر ؛ لأن الاعتداء مجاوزة الحد ، فهذا مجاوز للحد في العبادة المشروعة ، كالعدوان في الدعاء في قوله : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(٢) وقال النبي ﷺ : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور » ^(٣) فالاعتداء في العبادات وفي الورع ، كالذين تخرجوا من أشياء ترخص فيها النبي ﷺ وفي « الزهد » كالذين حرموا الطيبات وهذان القسمان ترك ، فقوله ﴿ ولا تعتدوا ﴾ إما أن يكون مختصاً بجانب الأفعال

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح ١ باب الترغيب في النكاح لقوله تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ الآية ٥٠٦٣ بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه وذكره ، وأخرجه الامام مسلم في كتاب النكاح ٥ (١٤٠١) حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن نقرأ من أصحاب النبي ﷺ وذكره ،

وأخرجه النسائي في النكاح ٤ ، والدارمي في النكاح ٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٥٧ ، ٦ : ٣٨٨ (حلي)

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في الدعاء ١٢ باب كراهية الاعتداء في الدعاء ٣٨٦٤ - ثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا سعيد الجريري ، عن أبي نعام أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال : أي بني سل الله الجنة وعُدْ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ - وذكره .

وأخرجه أبو داود في الوتر ٢٣ والطهارة ٤٥ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٤ : ٨٦ ، ٨٧ ، ٥ : ٥٥ (حلي) .

العبادية ، وإما أن يكون العدوان يشمل العدوان في العبادة والتحريم ، وهذان النوعان هما اللذان ذم الله المشردين بهما في غير موضع حيث عبدوا عبادة لم يأذن الله بها ، وحرّموا ما لم يأذن الله به ، فقوله : ﴿ لَا تَحْرَمُوا ﴾ ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ يتناول القسمين .

والعدوان هنا كالعدوان في قوله : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ^(١) إما أن يكون أعم من الإثم ، وإما أن يكون نوعاً آخر ، وإما أن يكون العدوان في مجاوزة حدود المأمورات واجبها ومستحبها ، ومجازرة حد المباح ، وإما أن يكون في ذلك مجاوزة حد التحريم أيضاً ، فإنها ثلاثة أمور : مأمور به ومنهى عنه ومباح .

ثم ذكر بعد هذا قوله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ سَالِّغُوا فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ ﴾ ^(٢) الآية . ذكر هذا بعد النهي عن التحريم ، لبيان المخرج من تحريم الحلال إذا عقد عليه يمينا بالله أو يمينا أخرى ، وبهذا يستدل على أن تحريم الحلال يمين .

(١) سورة المائدة آية رقم ٢ وصدر الآية ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢٥ ، وسورة المائدة آية رقم ٨٩ قال أبو هريرة : إذا حلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه إياه ، فإذا ليس هو ، فهو اللغو ، وليس فيه كفارة ، ونحوه عن ابن عباس ، وروي أن قوماً تراجعوا القول عند رسول الله ﷺ - وهم يرمون بحضرته - فحلف أحدهم لقد أصبت وأخطأت يا فلان ، فإذا الأمر بخلاف ذلك . فقال الرجل : حنث يا رسول الله . فقال النبي - ﷺ : « إيمان الرماة لغو لا حنث فيها ولا كفارة » وفي الموطأ قال مالك : أحسن ما سمعت في هذا أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه ، والذي يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه أثم كاذب ليرضي به أحداً أو يعتذر لمخلوق ؟ ويقطع به مالا ، فهذا أعظم من أن يكون فيه كفارة ، وإنما الكفارة على من حلف ألا يفعل الشيء المباح له فعله ثم يفعله ، أو أن يفعله ثم لا يفعله . وروي عن ابن عباس - إن صح عنه - قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان ، وقاله طاوس . وروي عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ قال : « لا يمين في غضب » . أخرجه مسلم .

ثم ذكر بعد ذلك ما حرمه من الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام فبين به ما حرمه ، فإن نفى التحريم الشرعي يقع فيه طائفة من الإباحية كما يقع في تحريم الحلال طائفة من هؤلاء يكونون في حال اجتهدهم ورياضتهم تحريمية ، ثم إذا وصلوا بزعمهم صاروا إباحية ، وهاتان آفتان تقع في المتعبدة والمتصوفة كثيراً ، وقرن بينهما حكم الإيمان ، فإن كلاهما يتعلق بالفم داخلاً وخارجاً ؛ كما يقرن الفقهاء بين كتاب الإيمان والأطعمة وفيه رخصة في كفارة الأيمان مطلقاً ، خلافاً لما شدد فيه طائفة من الفقهاء من جعل بعض الأيمان لا كفارة فيها ، فإن هذا التشديد مضاد للتحريم فيكون الرجل ممنوعاً من فعل الواجب أو المباح بذلك التشديد ، وهذا كله رحمة من الله بنا دون غيرنا من الأمم التي حرم عليهم أشياء عقوبة لهم ولا كفارة في أيمانهم ، ولم يطهرهم من الرجس كما طهرنا ، فتدبر هذا فإنه نافع .

فصل

قال شيخ الإسلام : الحمد لله رب العالمين . قال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ ^(١) وَالْمَوْقُوذَةُ ^(٢) وَالْمُتَرَدِّيَةُ ^(٣) وَالنَّطِيحَةُ ^(٤) وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ عائد إلى ما تقدم من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكلية السبع عند عامة العلماء الشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم . فما أصابه الموت قبل أن يموت أبيح . لكن تنازع العلماء فيما يذكى من ذلك . فمنهم من قال : ما يتقن موته لا يذكى كقول مالك ورواية عن أحمد .

ومنهم من يقول : ما يعيش معظم اليوم ذكى .

(١) المنخنقة : وهي التي تحتنق فتموت بغير تذكية ، وقيل إن الجاهلية كانوا يخنقون الشاة ، فإذا ماتت أكلوها .

(٢) الموقوذة : وهي المضروبة بالخشب أو غيره حتى تموت ، أو ترمى بالحجارة أو غيرها حتى تموت . يقال : وقذه يوقذه وقذاً ، إذا ضربه حتى أشرف على الهلاك .

(٣) المتردية : وهي التي تقع من مكان عال أو في بئر فتموت .

(٤) والنطيحة : هي التي تنطحها غيرها فتموت بالنطح ، وهاء التأنيث تدخل في الفعل بمعنى الفاعل ، فإذا كان بمعنى المفعول استوى فيه المذكر والمؤنث .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٣ .

ومنهم من يقول ما كانت فيه حياة مستقرة ذكي . كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد . ثم من هؤلاء من يقول : الحياة المستقرة ما يزيد على حركة المذبوح .

ومنهم من يقول : ما يمكن أن يزيد على حياة المذبوح . والصحيح أنه إذا كان حياً فذكي ، حل أكله ، ولا يعتبر في ذلك حركة مذبوح ، فإن حركات المذبوح لا تنضبط ، بل فيها ما يطول زمانه وتعظم حركته ، وفيها ما يقل زمانه وتضعف حركته . وقد قال النبي (ﷺ) : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا » (١) .

فمتى جرى الدم الذي يجري من المذبوح الذي ذبح وهو حي حل أكله .

والناس يفرقون بين دم ما كان حياً ودم ما كان ميتاً ، فإن الميت يحمد دمه ويسود . ولهذا حرم الله الميتة لإحتقان الرطوبات فيها . فإذا جرى منه الدم الذي يخرج من المذبوح الذي ذبح وهو حي ، حل أكله . وأن تيقن أنه يموت فإن المقصود ذبح . وما فيه حياة فهو حي . وإن تيقن أنه يموت بعد ساعة ، فعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تيقن أنه يموت ، وكان حياً جازت وصيته وصلاحه وعهوده ، وقد أفى غير واحد من الصحابة (رضي الله عنهم) بأنها إذا مصعت بذنبها أو طرفت بعينها أو ركضت برجلها بعد الذبح ، حلت . ولم

(١) الحديث ذكره الامام مسلم في كتاب الأضاحي ٤ باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام ٢٠ (١٩٦٨) حدثنا محمد بن المثني المغزى ، حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان ، حدثني أبي عن عباية بن رفاعه بن رافع بن خديج قلت : يا رسول الله إنا لاقوا العدو غداً وليست معنا مدى قال - ﷺ - أعجل أو أرني : ما أنهر الدم وذكر اسم الله فكل ليس السن والظفر . وأخرجه الامام البخاري في الشركة ٣ ، ١٦ ، وكتاب الجهاد ١٩١ ، وكتاب الذبائح ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ وأخرجه أبو داود في الأضاحي ١٥ ، والامام الترمذي في كتاب الصيد ١٨ ، والنسائي ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ وابن ماجه في كتاب الذبائح ٥ باب ما يذكى به ٣١٧٨ - بسنده عن عباية بن رفاعه عن جده رافع بن خديج وذكره ، وأخرجه الامام أحمد في المسند ٣ : ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤ : ١٤٠ ، ١٤٢ (حلي) .

يشترطوا أن تكون حركتها قبل ذلك أكثر من حركة المذبوح . وهذا قاله الصحابة ، لأن الحركة دليل على الحياة . والدليل لا ينعكس . فلا يلزم إذا لم يوجد هذا منها أن تكون ميتة ، بل قد تكون حية وإن لم يوجد منها مثل ذلك . والإنسان قد يكون نائماً فيذبح وهو نائم ولا يضطرب ، وكذلك المغمى عليه يذبح ولا يضطرب ، وكذلك الدابة قد تكون حية فتذبح ولا تضطرب لضعفها عن الحركة وإن كانت حية . ولكن خروج الدم الذي لا يخرج إلا من مذبوح ، وليس هو دم الميت ، دليل على الحياة . والله أعلم .

فصل

وتحوز زكاة المرأة والرجل ، وتذبح المرأة وإن كانت حائضاً ، « فإن حيضتها ليست في يدها »^(١) وذكاة المرأة باتفاق المسلمين . وقد ذبحت امرأة شاة فأمر النبي (ﷺ) فأكلها .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الحيض (باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقرآن القرآن فيه . عن الأعمش عن ثابت بن عبيد عن القاسم ابن محمد عن عائشة قالت قال لي رسول الله ﷺ ناوليني الخمرة من المسجد قالت : فقلت : إني حائض فقال : وذكره . ورواه أبو داود في الطهارة ١٠٣ والترمذي في الطهارة ١٠١ والنسائي في الطهارة ١٧٢ والحيض ١٨ والدارمي في الوضوء ١٠٨ والمسنند ٣ : ٧٠ .

فصل

والتسمية على الذبيحة مشروعة ، لكن قيل هي مستحبة ، كقول الشافعي . وقيل واجبة مع العمد ، وتسقط مع السهو ، كقول أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد في المشهور عنه . وقيل : تجب مطلقاً ، فلا تؤكل الذبيحة بدونها ، سواء تركها عمدًا أو سهواً كالرواية الأخرى عن أحمد ، اختارها أبو الخطاب وغيره . وهو قول غير واحد من السلف . وهذا أظهر الأقول . فإن الكتاب والسنة قد علق الحل بذكر اسم الله في غير موضع ، كقوله :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) .

وقوله :

(١) سورة المائدة آية رقم ٤ روى ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد المحاربي ، حدثنا مجالد عن الشعبي ، عن عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول الله : إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فما يحل لنا فيها ؟ قال : يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكلين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه . ثم قال : ما أرسلت من كلب وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك ، قلت : وإن قتل . قال : وإن قتل ما لم يأكل . قلت : يا رسول الله وإن خالطت كلابنا كلاباً غيرها . . ؟ قال : فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك قال : قلت إنا قوم نرمي فما يحل لنا . . ؟ قال : ما ذكرت اسم الله عليه وخزقت فكل . . . وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً : إذا أرسلت كلبك المعلم فاذكر اسم الله عليه ، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله عليه .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (١)

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (٢)

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (٣)

وفي الصحيحين أنه قال : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا » (٤) .

وفي الصحيح أنه قال لعدي : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فقتل ، فكل . وإن خالط كلبك كلاب آخر ، فلا تأكل . فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره » (٥) .

وثبت في الصحيح أن الجن سألوه الزاد لهم ولدوا بهم فقال : لكم كل عظم وذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً ، وكل بكرة علف لدوابكم » (٦) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٨ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٩ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٢١ قيل إن مشركي العرب قالوا للمسلمين : تزعمون أنكم تعبدون الله . فما قتل الله فلا تأكلونه - يعنون الميتة ، وما قتلتهم أنتم - يعنون الذبيح - تزعمون أنه حلال . فالله أفضل وأحسن صنعاً أم أنتم ؟ فأنزل الله « لكل أمة جعلنا منسكاً هم نسكوه فلا يُنَازَعُكَ في الأمر » سورة الحج آية رقم ٦٧ . فكل ذبيحة لم يذكر اسم الله عليه فهي حرام .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب الذبائح ١ ، ٢ ، ٩ ، ورواه الامام مسلم في كتاب الصيد والذبائح (١) باب الصيد بالكلاب المعلمة ٥ حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن سعيد ابن مسروق ، حدثنا الشعبي ، قال سمعت عدي بن حاتم (وكان لنا جاراً ودخيلاً وريبطاً بالهجرين) أنه سأل النبي - ﷺ - وقال وذكره . ورواه أبو داود في كتاب الأضاحي ٢٢ والترمذي في الصيد ٦ والنسائي في الصيد ٢ ، ٧ ، ٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٥٦ ، ٢٨٠ (جلي) .

(٦) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٣٣ باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ١٥٠ - ٤٥٠ عن داود عن عامر ، قال سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ - ليلة الجن . . ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل =

قال النبي (ﷺ) : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن » (١) .

فهو (ﷺ) : لم يبيح للجن المؤمنين إلا ما ذكر اسم الله عليه ، فكيف بالإنس ؟ ولكن إذا وجد الإنسان لحماً قد ذبحه غيره ، جاز له أن يأكل منه ويذكر اسم الله عليه ، لحمل أمر الناس على الصحة والسلامة . كما ثبت في الصحيح أن قوماً قالوا : يا رسول الله إن ناساً حديثي عهد بالاسلام يأتونا باللحم ولا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لم يذكروا ؟ فقال : « سمو أتم وكلوا » (٢) .

= شهد أحد منكم مع رسول الله - ﷺ - ليلة الجن ؟ قال : لا . ولكننا كنا مع رسول الله - ﷺ - ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب . فقلنا استطير أو اغتيل قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء قال : فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال : أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال : وذكره .

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب الطهارة باب كراهية ما يستنجى به حدثنا هناد ، حدثنا حفص ابن غياث عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود . قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

وفي الباب عن أبي هريرة ، وسلمان ، وجابر ، وابن عمر .

(٢) الحديث ذكره ابن ماجه في كتاب الذبائح ٤ باب التسمية عند الذبح ٣١٧٤ ثنا عبد الرحيم بن سليمان ، عن هشام بن عروة عن أبيه . عن عائشة أم المؤمنين أن قوماً قالوا : وذكره وفيه (وكانوا حديثي عهد بالكفر)

فصل

أما عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك كالحافز ونحوه ،
وشعرها وريشها ووبرها ، ففي هذين النوعين للعلماء ثلاثة أقوال :
أحدها - نجاسة الجميع كقول الشافعي في المشهور . وذلك رواية عن
أحمد .

والثاني - أن العظام ونحوها نجسة . والشعور ونحوها طاهرة . وهذا هو
المشهور من مذهب مالك وأحمد .

والثالث - أن الجميع طاهر كقول أبي حنيفة . وهو قول في مذهب مالك
وأحمد . وهذا القول هو الصواب . لأن الأصل فيها الطهارة ، ولا دليل على
النجاسة .

وأيضاً فإن هذه الأعيان هي من الطيبات ، ليست من الخبائث فتدخل في
آية التحليل . وذلك لأنها لم تدخل فيما حرمه الله من الخبائث لا لفظاً ولا
معنى . أما اللفظ فكقوله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ ^(١) .

(١) سورة المائدة آية رقم ٣ .

يقول ابن كثير : هي ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطيد وما ذاك إلا لما فيها =

لا يدخل فيها الشعور وما أشبهها . وذلك لأن الميت ضد الحي ، والحياة نوعان : حياة الحيوان ، وحياة النبات . فحياة الحيوان خاصتها الحس والحركة الإرادية ، وحياة النبات النمو والإغذاء .

وقوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ إنما هو بما فارقت الحياة الحيوانية دون النباتية . فإن الزرع والشجر إذا يبس لم ينجس باتفاق المسلمين . وقد تموت الأرض ولا يوجب ذلك نجاستها باتفاق المسلمين . وإنما الميتة المحرمة ما كان فيها الحس والحركة الإرادية . وأما الشعر فإنه ينمو ويغتذي ويطول كالزرع ليس فيه حس ولا يتحرك بإرادة . ولا تحله الحياة الحيوانية حتى يموت بمفارقتها ولا وجه لتنجيسه .

وأيضاً فلو كان الشعر جزءاً من الحيوان لما أبيح أخذه في حال الحياة . فإن النبي (ﷺ) سئل عن قوم يحبون أسنمة الإبل وأليات الغنم ، فقال : « ما أبين من البهيمة وهي حية فهو ميت » رواه أبو داود (١) وغيره . وهذا متفق عليه بين العلماء . فلو كان حكم الشعر حكم السنام والإلية لما جاز قطعه في حال الحياة . فلما اتفق العلماء على أن الشعر والصوف إذ جز من الحيوان كان حلالاً طاهراً علم أنه ليس مثل اللحم .

وأيضاً فقد ثبت أن النبي (ﷺ) أعطى شعره لما حلق رأسه للمسلمين .

= من المضرة ، لما فيها من الدم المحتقن فهي ضارة للدين والبدن ، فلهذا حرّمها الله عز وجل ، ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها لما رواه مالك في موطئه والشافعي وأحمد في مسنديهما ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي وابن ماجه في سننهم ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - سئل عن ماء البحر فقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتة .

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الصيد ٣ باب في صيد قطع منه قطعة ٢٨٥٨ بسنده عن أبي واقد بلفظ « قال النبي - ﷺ - ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة » وأخرجه الترمذي أتم منه في الصيد حديث ١٤٨٠ باب ما قطع من الحي فهو ميت وقال : هذا حديث حسن غريب وأخرجه ابن ماجه عن ابن عمر في الصيد حديث ٣٢١٦ باب ما قطع من البهيمة وهي حية .

وكان النبي (ﷺ) يستنجي ويستجمر . فمن سوى بين الشعر والبول والعذرة فقد أخطأ خطأ مبيناً .

وأما العظام ونحوها فإذا قيل : إنها داخلة في الميتة لأنها تنجس . قيل لمن قال ذلك : لم تأخذوا بعموم اللفظ . فإن ما لا نفس له سائلة كالذباب والعقرب والخنفساء لا ينجس عندكم وعند جمهور العلماء مع أنها ميتة موتاً حيوانياً .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي (ﷺ) قال : « إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليقله ، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء » (١) .

ومن نجس هذا قال في أحد القولين : إنه لا ينجس المائعات الواقعة فيه لهذا الحديث . وإذا كان كذلك علم أن علة نجاسة الميتة إنما هو إحتباس الدم فيها . فما لا نفس له سائلة ليس فيه دم سائل . فإذا مات لم يحتبس فيه الدم فلا ينجس . فالعظم ونحوه أولى بعدم التنجيس من هذا . فإن العظم ليس فيه دم سائل ولا كان متحركاً بالإرادة إلا على وجه التبع .

فإذا كان الحيوان الكامل الحساس المتحرك بالإرادة لا ينجس لكونه ليس فيه دم سائل . فكيف ينجس العظم الذي ليس فيه دم سائل ؟ .

ومما يبين صحة قول الجمهور أن الله إنما حرم علينا الدم المسفوح كما قال تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ (٢) .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الطب ٣١ باب يقع الذباب في الإناء ٣٥٠٥ - بسنده عن أبي هريرة - عن النبي - ﷺ وذكره . ورواه البخاري في بدء الخلق ١٧ وكتاب الطب ٥٨ ، وأبو داود في الأطعمة ٤٨ والنسائي في الفرع ١١ وأحمد بن حنبل في المسند : ٢ : ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤٠ ، ٣٥٥ (حلي) .

ومعنى أمقله : يقال : فعلت الشيء أمقله مقلأ إذا غمسته في الماء ونحوه .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٥ قال أبو بكر بن مردويه ، والحاكم في مستدركه ، حدثنا محمد بن علي

فإذا عفى عن الدم غير المسفوح مع أنه من جنس الدم حيث علم أن الله سبحانه فرق بين الدم الذي يسيل وبين غيره . فلهذا كان المسلمون يصنعون اللحم في المرق وخيوط الدم في القدر تبين ويأكلون ذلك على عهد رسول الله (ﷺ) كما أخبرت بذلك عائشة (رضي الله عنها) . ولولا هذا لاستخرجوا الدم من العروق كما يفعل اليهود (١) .

والله تعالى حرم ما مات حتف أنفه أو لسبب غير جارح محدد كالموقوذة والمتردية والنطيحة . وحرم (ﷺ) ما صيد بغيره من المعراض ، وقال : إنه وقيد . والفرق بينهما إنما هو سفح الدم ، فدل على أن سبب التنجيس هو احتقان الدم واحتباسه . وإذا سفح بوجه خبيث بأن يذكر عليه غير اسم الله ، كان الخبث هنا من وجه آخر . فإن التحريم تارة لوجود الدم ، وتارة لفنائه التذكية كذكاة المجوس والمردت ، والذكاة في غير المحل .

فإذا كان كذلك فالعظم والظفر والقرن والظلف وغير ذلك ليس فيه دم سفوح . فلا وجه لتنجيسه ، وهذا قول جمهور السلف .

قال الزهري (٢) : كان خيار هذه الأمة يتمشطون بأمشاط من عظام

= ابن دحيم ، حدثنا أحمد بن حازم حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، حدثنا محمد بن شريك ، عن عمرو بن دينار عن أبي الشعثاء عن ابن عباس . قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ، ويتركون أشياء تعذراً فبعث الله نبيه ، وأنزل كتابه وأحل وحرم حرامه ، فما أحل الله فهو حلال ، وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو وقرأ هذه الآية ﴿ قل لا أجد فيها أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه ﴾ الآية ، وهذا لفظ ابن مردويه ورواه أبو داود متفرداً به عن محمد بن داود بن صبيح عن أبي نعيم به وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(١) قال ابن جرير حدثنا المنثي ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا هاد عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم عن عائشة - رضي الله عنها أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً ، والحمرة والدم يكونان على القدر .

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ، من بني زهرة بن كلاب من قریش ، أول من دون الحديث ، وأحد كبار الحفاظ والفقهاء تابعي من أهل المدينة ، كان يحفظ ألفين ومئتين حديث ، نصفها مسند . نزل بالشام واستقر بها وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله : عليكم =

الغليل ، وقد روى في العاج حديث معروف لكن فيه نظر ليس هذا موضعه ،
فأنا لانتحتاج إلى الاستدلال بذلك .

وأيضاً فقد ثبت في الصحيح عن النبي (ﷺ) أنه قال في شاة ميمونة :
هلا أخذتم اهابها فانتفعتم به ! قالوا : إنها ميتة . قال : « إنما جرم أكلها » ^(١) .

وليس في البخاري ذكر الدباغ ، ولم يذكره عامة أصحاب الزهري عنه ،
ولكن ذكره ابن عيينة ، ورواه مسلم في صحيحه . وقد طعن الإمام أحمد في
ذلك وأشاد إلى غلط ابن عيينة فيه . وذكر أن الزهري وغيره كانوا يبيحون
الانتفاع بجلود الميتة بلا دباغ لأجل هذا الحديث .

وحيثئذ فهذا النص يقتضي جواز الإنتفاع بها بعد الدبغ بطريق الأولى .
لكن إذا قيل : ان الله حرم بعد ذلك الإنتفاع بالجلود حتى تدبغ ، أو قيل : إنها
لا تطهر بالدباغ ، لم يلزم تحريم العظام ونحوها ؛ لأن الجلد جزء من الميتة فيه
الدم كما في سائر أجزائه . والنبي (ﷺ) جعل ذكاته دباغه ؛ لأن الدبغ يشف
رطوبته ، فدل على أن سبب التنجيس هو الرطوبات ، والعظم ليس فيه نفس
سائلة ، وما كان فيه منها فإنه يحف وييس ، وهي تبقى وتحفظ أكثر من الجلد ،
فهي أولى بالطهارة من الجلد . والعلماء تنازعوا في الدباغ هل يطهر ؟ فذهب
مالك وأحمد في المشهور عنهما أنه لا يطهر . ومذهب الشافعي وأبي حنيفة
والجمهور أنه يطهر . وإلى هذا القول رجع الإمام أحمد كما ذكر ذلك عنه
الترمذي .

= بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة منه قال ابن الجزري مات بشغب آخر حد
الحجاز ، وأول حد فلسطين عام ١٢٤ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ١٠٢ ووفيات الأعيان
١ : ٤٥١ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٤٥ .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في الحيض باب طهارة جلود الميتة - حدثنا ابن وهب أخبرني يونس عن
ابن شهاب عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ذكره - ورواه أبو داود في
اللباس ٣٨ والنسائي في الفرع ٥ واحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ (حلي) .

وحديث ابن حكيم يدل على أن النبي (ﷺ) نهاهم أن ينتفعوا من الميتة
بأهاب ولا عصب بعد أن كان أذن لهم في ذلك . لكن هذا قد يكون قبل
الدباغ ، فيكون قد رخص ، فإن حديث الزهري بين أنه قد رخص في جلود
الميتة قبل الدباغ ، فيكون قد رخص لهم في ذلك لما نهاهم عن الإنتفاع بها قبل
الدباغ ، نهاهم (ﷺ) عن ذلك . ولهذا قال طائفة من أهل اللغة : إن الإهاب
اسم كم لا يدبغ ، ولهذا قرن معه العصب . والعصب لا يدبغ .

فصل

وأما لبن الميتة وأنفحتها ففيه قولان مشهوران للعلماء :

أحدهما - أن ذلك طاهر . كقول أبي حنيفة وغيره ، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد .

والثاني - أنه نجس كقول الشافعي ، والرواية الأخرى عن أحمد . وعلى هذا النزاع إنبنى نزاعهم في جبن المجوس . فإن ذبائح المجوس حرام عند جمهور السلف والخلف . وقد قيل إن ذلك مجمع عليه بين الصحابة . فإذا صنعوا جبناً - والجبن يصنع بالأنفحة - كان فيه هذان القولان .

والأظهر أن أنفحة الميتة ولبنها طاهر . لأن الصحابة لما فتحوا بلاد العراق أكلوا من جبن المجوس . وكان هذا ظاهراً سائغاً بينهم . وما ينقل عن بعضهم من كراهة ذلك ففيه نظر . فإنه من نقل بعض الحجازيين وفيه نظر ، وأهل العراق كانوا أعلم بهذا . فإن المجوس كانوا ببلادهم ولم يكونوا بأرض الحجاز .

ويدل على ذلك أن سلمان الفارسي ^(١) كان نائب عمر بن الخطاب على

(١) هو سلمان الفارسي : صحابي من مقدميهم ، كان يسمى نفسه سلمان الإسلام أصله من مجوس أصبهان . عاش طويلاً واختلفوا فيما كان يسمى به في بلاده وقالوا : نشأ في قرية جيان ، ورحل إلى الشام ، وقرأ كتب الفرس والروم . دل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب قال عليه السلام : سلمان منا آل البيت . روى له البخاري ومسلم ٦٠ حديثاً توفي عام ٣٦ هـ . =

المدائن . وكان يدعو الفرس إلى الإسلام ، وقد ثبت عنه أنه سئل عن شيء من السمن والجبن والفراء ، فقال : الحلال ما حلله الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه . وقد رواه أبو داود مرفوعاً إلى النبي (ﷺ) . ومعلوم أنه لم يكن السؤال عن جبن المسلمين وأهل الكتاب ، فإن هذا أمر بين ، وإنما كان السؤال عن جبن المجوس . فدل ذلك على أن سلمان كان يفتي بحلها . وإذا كان ذلك روي عن النبي (ﷺ) ، انقطع النزاع بقول النبي (ﷺ) .

وأيضاً فاللبن والأنفحة لم يموتا . وإنما نجسها من نجسها لكونها في وعاء نجس ، فتكون مائعاً في وعاء نجس . فالنجس مبني على مقدمتين : على أن المائع لاقي وعاء نجساً ، وعلى أنه إذا كان كذلك صار نجساً ، فيقال أولاً : لا نسلم أن المائع ينجس بملاقاة النجاسة . وقد تقدم أن السنة دلت على طهارته لا على نجاسته . ويقال ثانياً : الملاقاة في الباطن لا حكم لها كما قال تعالى : يخرج ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ ^(١) ولهذا يجوز حمل الصبي الصغير في الصلاة مع ما في باطنه . والله أعلم .

= [راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٥٣ - ٦٧ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٨٨ والإصابة ت ٣٣٥٠ وحلية الأولياء ١ : ١٨٥ .

(١) سورة النحل آية رقم ٦٦ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ، ودم في باطن الحيوان فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ ﴾ ^(١) سئل شيخ الإسلام عن جماعة من المسلمين إشتد نكيرهم على من أكل من ذبيحة يهودي أو نصراني مطلقاً . ولا يدري ما حالهم ، هل دخلوا في دينهم قبل نسخه وتحريفه ، وقبل مبعث النبي (ﷺ) أم بعد ذلك ، بل يتناكبون وتقر مناكحتهم عند جميع الناس ، وهم أهل ذمة يؤدون الجزية ولا يعرف من هم ولا من هم آبائهم ، فهل للمنكرين عليهم منعهم من الذبح للمسلمين ، أم لهم الأكل من ذبائحهم كسائر بلاد المسلمين ؟

أجاب (رضي الله عنه) : ليس لأحد أن ينكر على أحد أكل من ذبيحة

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ في الصحيح عن عبد الله بن معفل قال أدلى بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته ، وقلت لا أعطي اليوم من هذا أحداً والتفت فإذا النبي - ﷺ - يتبسم ، فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر ، واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم . وأجل من هذا في الدلالة ما ثبت في الصحيح أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله - ﷺ - شاة مصلية وقد سموا ذراعها وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهش منه نهشه فأخبر الذراع أنه مسموم فلفظه وأثر ذلك في ثنایا رسول الله - ﷺ - وفي أبهره ، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات فقتل اليهودية التي سمتها ، وكان اسمها زينب ، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألهم هل نرعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا . . . ؟

اليهود والنصارى في هذا الزمان ، ولا يحرم ذبحهم للمسلمين . ومن أنكر ذلك فهو جاهل مخطئ ، مخالف لإجماع المسلمين . فإن أصل هذه المسألة فيها نزاع مشهور بين علماء المسلمين ، ومسائل الإجتهد لا يسوغ فيها الإنكار إلا ببيان الحجة ، وإيضاح المحجة ، لا الإنكار المجرد المستند إلى محض التقليد ، فإن هذا فعل أهل الجهل والأهواء . كيف والقول بتحريم ذلك في هذا الزمان وقبله قول ضعيف جداً ، مخالف لما علم من سنة رسول الله (ﷺ) ، ولما علم من حال أصحابه والتابعين لهم باحسان ، وذلك لأن المنكر لهذا لا يخرج عن قولين :

إما أن يكون ممن يحرم ذبائح أهل الكتاب مطلقاً كما يقول ذلك من يقوله من الرافضة . وهؤلاء يحرمون نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم ، وهذا ليس من أقوال أحد من أئمة المسلمين المشهورين بالفتيا ، ولا من أقوال أتباعهم ، وهو خطأ مخالف للكتاب والسنة والإجماع القديم . فإن الله تعالى قال في كتابه :

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (١) .

فإن قيل : هذه الآية معارضة بقوله :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ (٢)

وبقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ (٣)

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ وتكملة الآية ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ في الصحيح عن الزهري عن عروة عن المسورين مروان بن =

قيل : الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها - أن الشرك المطلق في القرآن لا يدخل فيه أهل الكتاب ، وإنما يدخلون في الشرك المقيد . قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

فجعل المشركين قسماً غير أهل الكتاب . وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ﴾ (٢)

فجعلهم قسماً غيرهم .

فأما دخولهم في المقيد ، ففي قوله تعالى :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

فوصفهم بأنهم مشركون .

وسبب هذا أن أصل دينهم الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل ليس فيه شرك كما قال تعالى :

= الحكم أن رسول الله - ﷺ - لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأُنزل الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ إِلَى قَوْلِهِ : وَلَا تَمْسُكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ فطلق عمر بن الخطاب - يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية ، وقال أبو ثور عن الزهري : أنزلت هذه الآية على رسول الله - ﷺ - وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من آتاه منهم رده عليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهن .

(١) سورة البينة آية رقم ١ .

(٢) سورة الحج آية رقم ١٧ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٣١ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٣)

ولكنهم بدلوا وغيروا ، فابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به الله سلطاناً ، فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا لا باعتبار أصل الدين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ هو تعريف للكوافر المعروفات اللاتي كن في عصم المسلمين ، وأولئك كن مشركات لا كتابيات من أهل مكة ونحوها .

والوجه الثاني - إذا قدر أن لفظ المشركات ولفظ الكوافر يعني الكتابيات ، فأية المائدة خاصة وهي متأخرة نزلت بعد سورة البقرة والممتحنة بإتفاق العلماء كما في الحديث : « المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » .

والخاص المتأخر يقضي على العام المتقدم بإتفاق علماء المسلمين ، لكن الجمهور يقولون أنه مفسر له ، فتبين أن صورة التخصيص لم ترد باللفظ العام ، وطائفة يقولون أن ذلك نسخ بعد أن شرع .

الوجه الثالث - إذا فرضنا النصين خاصين ، فأحد النصين حرم ذبائحهم

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

ونكاحهم ، والآخر أحلهما ، فالنص المحلل لهما هنا يجب تقديمه لوجهين :

أحدهما - أن سورة المائدة هي المتأخرة باتفاق العلماء ، فتكون ناسخة للنص المتقدم . ولا يقال إن هذا نسخ للحكم مرتين ؛ لأن فعل ذلك قبل التحريم لم يكن بخطاب شرعي لحل ذلك ، بل كان لعدم التحريم ، بمنزلة شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك . والتحريم المبتدأ لا يكون نسخاً لاستصحاب حكم الفعل . ولهذا لم يكن تحريم النبي (ﷺ) لكل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير ^(١) ناسخاً لما دل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ . . . ﴾ ^(٢) الآية ، من أن الله (عز وجل) لم يحرم قبل نزول الآية إلا هذه الأصناف الثلاثة . فإن هذه الآية نفت تحريم ما سوى الثلاثة إلى حين نزول هذه الآية ، ولم يثبت تحليل ما سوى ذلك ، بل كان ما سوى ذلك عفواً ، لا تحليل فيه ولا تحريم ، كفعل الصبي والمجنون ، وكما في الحديث المعروف : « الحلال ما حلله الله في كتابه ، والحرام ما حرمه الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه » ^(٣) .

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الصيد والذبائح ٣ باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا الحكم وأبو بشر عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس ، أن رسول الله - ﷺ - نهى عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير . ورواه أبو داود في كتاب الأطعمة ٢٣ ، والترمذي في الصيد ١١٠٩ ، والنسائي في الصيد ٨٦ وابن ماجه في كتاب الصيد ١٣ باب أكل كل ذي ناب من السباع ٣٢٣٢ أنبأنا سفيان بن عيينة عن الزهري ، أخبرني أبو إدريس عن أبي ثعلبة الخشني أن النبي - ﷺ - وذكره . قال الزهري : ولم أسمع بهذا حتى دخلت الشام ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٤٧ ، ٢٤٤ ، ٢٨٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ (حلي)

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٥ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأطعمة ٦٠ باب أكل الجبن والسمن ٣٣٦٧ ثنا سيف بن هارون ، عن سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي . قال : سئل رسول الله - ﷺ - عن السمن والجبن والفراء قال : وذكره ورواه الترمذي في كتاب اللباس

وهذا محفوظ عن سلمان الفارسي موقوفاً عليه أو مرفوعاً إلى النبي ﷺ .

ويدل على ذلك أنه قال في سورة المائدة :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ ^(١)

فأخبر أنه أحلها ذلك اليوم ، وسورة المائدة مدنية بالإجماع ، وسورة الأنعام مكية بالإجماع . فعلم أن تحليل الطيبات كان بالمدينة لا بمكة .
وقوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ ﴾ ^(٢) . إلى آخرها . فثبت نكاح الكتابيات ، وقبل ذلك كان إما عفواً على الصحيح ، وإما محرماً ثم نسخ . يدل عليه أن آية المائدة لم ينسخها شيء .

الوجه الثاني - أنه قد ثبت حل طعام أهل الكتاب بالكتاب والسنة والإجماع ، والكلام في نسائهم كالكلام في ذبائهم . فإذا ثبت حل أحدهما ، ثبت حل الآخر ، وحل أطعمتهم ليس له معارض أصلاً . ويدل على ذلك أن حذيفة بن اليمان ^(٣) تزوج يهودية ، ولم ينكر عليه أحد من

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤ - ٥ .

(٣) حذيفة بن اليمان من نجباء أصحاب محمد - ﷺ - وهو صاحب السر ، واسم اليمان حسيل . ويقال : حسيل بن جابر العسي اليماني . له في الصحيحين اثنا عشر حديثاً ، وفي البخاري ثمانية ، وفي مسلم سبعة عشر حديثاً شهد هو وابنه حذيفة أحداً فاستشهد يومها قتله بعض الصحابة غلطاً ولم يعرفه قال الواقدي : أخى رسول الله - ﷺ - بين حذيفة وعمار ، وكذا قال ابن اسحاق . وكان النبي قد أسر إلى حذيفة أسماء المنافقين ، وقد ناشده عمر أننا من المنافقين ؟ فقال : لا ولا أركى أحداً بعدك . وحذيفة هو الذي ندبه رسول الله - ﷺ - ليلة الأحزاب ليجس له خبر العدو ، وعلى يده فتح الدينور عنوة . مات حذيفة بالمدائن سنة ست وثلاثين . وقد شاخ .

الصحابة ، فدل على أنهم كانوا مجتمعين على جواز ذلك .

فإن قيل : قوله تعالى :

﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ .

محمول على الفواكه والحبوب ، قيل : هذا خطأ لوجوه :

أحدها - أن هذه مباحة من أهل الكتاب والمشركون والمجوس ، فليس من تخصيصها بأهل الكتاب فائدة .

الثاني - أن إضافة الطعام إليهم يقتضي أنه صار طعاماً بفعلهم ، وهذا إنما يستحق في الذبائح التي صارت لحماً بذكاتهم ، فأما الفواكه فإن الله خلقها مطعومة لم تصر طعاماً بفعل آدمي .

الثالث : أنه قرن حل الطعام بحل النساء ، وأباح طعامنا لهم كما أباح طعامهم لنا ، ومعلوم أن حكم النساء مختص بأهل الكتاب دون المشركون ، وكذلك حكم الطعام والفاكهة والحب لا يختص بأهل الكتاب .

الرابع - أن لفظ الطعام عام ، وتناوله اللحم ونحوه أقوى من تناوله للفاكهة ، فيجب إقرار اللفظ على عمومته لا سيما وقد قرن به قوله تعالى :

﴿ وطعامكم حل لهم ﴾

ونحن يجوز لنا أن نطعمهم كل أنواع طعامنا ، فكذلك يحل لنا أن نأكل أنواع طعامهم .

وأيضاً فقد ثبت في الصحاح ، بل بالنقل المستفيض أن النبي (ﷺ) أهدت له اليهودية عام خيبر شاة مشوية فأكل منها لقمة ثم قال : « إن هذه تخبرني أن فيها سماً »^(١) .

(١) الحديث رواه أبو داود في الأطعمة ٢٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٨ (حلي) ورواه الإمام البخاري في المغازي ٤١ والدارمي في المقدمة ١١ .

ولولا أن ذبائحهم حلال لما تناول من تلك الشاة .

وثبت في الصحيح أنهم لما غزوا خيبر أخذ بعض الصحابة جراباً فيه شحم ، قال : قلت لا أطعم اليوم من هذا أحداً فالتفت ، فإذا رسول الله (ﷺ) يضحك ولم ينكر عليه ، وهذا مما استدل به العلماء على جواز أكل جيش المسلمين من طعام أهل الحرب قبل القسمة .

وأيضاً فإن رسول الله (ﷺ) أجاب دعوة يهودي إلى خبز شعير واهالة سنخة ، رواه الإمام أحمد . والاهالة من الودك الذي يكون من الذبيحة ومن السمن ونحوه الذي يكون في أوعيتهم التي يطبخون فيها في العادة . ولو كانت ذبائحهم محرمة ، لكانت أوانيهم كأواني المجوس ونحوهم . وقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه نهى عن الأكل في أوعيتهم حتى رخص أن يغسل .

وأيضاً فقد استفاض أن أصحاب رسول الله (ﷺ) لما فتحوا الشام والعراق ومصر كانوا يأكلون من ذبائح أهل الكتاب : اليهود والنصارى . وإنما امتنعوا من ذبائح المجوس ، ووقع في جبن المجوس من النزاع ما هو معروف بين المسلمين ؛ لأن الجبن يحتاج إلى الأنفحة ، وفي أنفحة الميتة نزاع معروف بين العلماء . فأبو حنيفة يقول بطهارتها ، ومالك والشافعي يقولان بنجاستها ، وعن أحمد روايتان .

فصل

المأخذ الثاني - الإنكار على من يأكل ذبائح أهل الكتاب هو كون هؤلاء الموجودين لا يعلم أنهم من ذرية من دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل ، وهو المأخذ الذي دل عليه كلام السائل ، وهو المأخذ الذي تنازع فيه علماء المسلمين أهل السنة والجماعة . وهذا مبني على أصل ، وهو أن قوله تعالى :

﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ .

هل المراد به من هو بعد نزول القرآن متدين بدين أهل الكتاب ، أو المراد به من كان آباؤه قد دخلوا في دين أهل الكتاب قبل النسخ والتبديل ؟ على قولين للعلماء : فالقول الأول - هو قول جمهور المسلمين من السلف والخلف ، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك .

وأحد القولين في مذهب أحمد ، بل هو المنصوص عنه صريحاً .
والثاني - قول الشافعي وطائفة من أصحاب أحمد .

وأصل هذا القول أن علياً وابن عباس تنازعا في ذبائح بني تغلب ، فقال علي : « لا تباح ذبائحهم ولا نسأؤهم ، فإنهم لم يتمسكوا من النصرانية إلا

بشرب الخمر» . وروي عنه : تغزوهم لأنهم لم يقوموا بالشروط التي شرطها عليهم عثمان ، فإنه شرط عليهم أن لا (١) وغير ذلك من الشروط .

وقال ابن عباس : بل تباح لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (٢)

وعامة المسلمين من الصحابة وغيرهم لم يحرموا ذبائهم . ولا يعرف ذلك إلا عن علي وحده . وقد روى معنى قول ابن عباس عن عمر بن الخطاب .

فمن العلماء من رجح قول عمر وابن عباس ، وهو قول الجمهور كأبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وصححها طائفة من أصحابه ، بل هي آخر قولي ، بل عامة المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم على هذا القول .

وقال أبو بكر الأثرم (٣) : ما علمت أحداً من أصحاب النبي (ﷺ) كرهه إلا علياً . وهذا قول جماهير فقهاء الحجاز والعراق وفقهاء الحديث والرأي كالحسن وإبراهيم النخعي (٤) والزهري وغيرهم ، وهو الذي نقله عن

(١) بياض بالأصل .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٥١ .

(٣) هو أحمد بن محمد بن هانئ الطائي أو الكلبي ، الاسكافي أبو بكر الأثرم من حفاظ الحديث ، أخذ عن الامام أحمد وآخرين ، له كتاب في علل الحديث ، وآخر : في « السنن » توفي عام ٢٦١ هـ .

راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٣٥ وتاريخ بغداد ٥ : ١١٠ وطبقات ابن أبي يعلى ١ : ٦٦ - ٧٤ .

(٤) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعي من منذج من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية وحفظاً للحديث من أهل الكوفة مات محققاً من الحجاج قال فيه ابن الصلاح الصفي ، فقيه العراق كان إماماً مجتهداً له مذهب ، ولما بلغ الشعبي موته قال : والله ما ترك بعده مثله . كانت وفاته عام ٩٦ هـ .

أحمد أكثر أصحابه .

وقال إبراهيم بن الحارث : كان آخر قولي أحمد على أنه لا يرى
بذبايحهم بأساً .

ومن العلماء من رجح قول علي ، وهو قول الشافعي وأحمد في إحدى
الروايتين عنه . وأحمد إنما اختلف اجتهداه في بني تغلب ، وهم الذين تنازع
فيهم الصحابة ، فأما سائر اليهود والنصارى من العرب مثل تنوخ وبهراء وغيرها
من اليهود ، فلا أعرف عن أحمد في حل ذبايحهم نزاعاً ، ولا عن الصحابة
ولا عن التابعين وغيرهم من السلف . وإنما كان النزاع بينهم في بني تغلب
خاصة ، ولكن من أصحاب أحمد من جعل فيهم روايتين كبني تغلب .
والحل مذهب الجمهور كأبي حنيفة ومالك . وما أعلم للقول الآخر قدوة من
السلف .

ثم هؤلاء المذكورون من أصحاب أحمد قالوا بأنه من كان أحد أبويه
غير كتابي بل مجوسياً لم تحل ذبيحته ومناكحة نسائه . وهذا مذهب الشافعي
فيما إذا كان الأب مجوسياً ، وأما الأم فله فيها قولان ، فإن كان الأبوان
مجوسيين حرمت ذبيحته عند الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد . وحكى
ذلك عن مالك ، وغالب ظني أن هذا غلط على مالك فإني لم أجده من كتب
أصحابه . وهذا تفريع على الرواية المخرجة عن أحمد في سائر اليهود
والنصارى من العرب . وهذا مبني على إحدى الروايتين عنه في نصارى بني
تغلب ، وهي الرواية التي اختارها هؤلاء . فأما إذا جعل الروايتين في بني
تغلب دون غيرهم من العرب ، أو قيل إن النزاع عام ، وفرعنا على القول
بحل ذبايح بني تغلب ونسائهم كما هو قول الأكثرين ، فإنه على هذه الرواية
لا عبرة بالنسب ، بل لو كان الأبوان جميعاً مجوسيين أو وثنيين والولد من أهل

= راجع طبقات ابن سعد ٦ : ١٨٨ - ١٩٩ وحلية الأولياء ٤ : ٢١٩ وتاريخ الإسلام ٣ : ٣٣٥
وطبقات القراء ١ : ٢٩ .

الكتاب ، فحكمه حكم أهل الكتاب على هذا القول بلا ريب ، كما صرح بذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وأبي حنيفة وغيرهم .

ومن ظن من أصحاب أحمد وغيرهم أن تحريم نكاح من أبواه مجوسيان أو أحدهما مجوس قول واحد من مذهبه فهو مخطيء خطأ لا ريب فيه ؛ لأنه لم يعرف أصل النزاع في هذه المسألة . ولهذا كان من هؤلاء من يتناقض فيجوز أن يقر بالجزية من دخل في دينهم بعد النسخ والتبديل ، ويقول مع هذا بتحريم نكاح نصراني العرب مطلقاً . ومن كان أحد أبويه غير كتابي كما فعل ذلك طائفة من أصحاب أحمد ، وهذا تناقض .

والقاضي أبو يعلى ^(١) وإن كان قد قال هذا القول هو وطائفة من أتباعه فقد رجع عن هذا القول في الجامع الكبير ، وهو آخر كتبه . فذكر فيمن إنتقل إلى دين أهل الكتاب من عبدة الأوثان كالروم وقبائل من العرب وهم تنوخ وبهراء ومن بني تغلب هل تجوز مناكحتهم وأكل ذبائحهم ، وذكر أن المنصوص عن أحمد أنه لا بأس بنكاح نصارى بني تغلب ، وأن الرواية الأخرى مخرجة على الروايتين عنه من ذبائحهم ، واختار أن المنتقل إلى دينهم حكمه حكمهم سواء كان إنتقاله بعد مجيء شريعتنا أو قبلها ، وسواء انتقل إلى دين المبدلين أو دين لم يبدل ، ويجوز مناكحته وأكل ذبيحته .

(١) هو محمد بن يعلى بن محمد بن خلف بن الفراء ، أبو يعلى . عالم عصره في الأصول والفروع ، وأنواع الفنون ، من أهل بغداد ارتفعت مكانته عند القادر والقائم العباسيين وولاه القائم قضاء دار الخلافة وحران وحلوان ، وكان قد امتنع واشتراط أن لا يحضر أيام الموكب ولا يخرج في الاستقبالات ، ولا يقصد دار السلطان ، فقبل القائم شرطه له تصانيف كثيرة ، منها « الإيمان » والأحكام السلطانية وأربع مقدمات في أصول الديانات ، وكتاب الطب ، وغير ذلك كثير توفي عام ٤٥٨ هـ .

راجع طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢ : ١٩٣ - ٢٣٠ ومختصره للنابلسي ٣٧٧ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦ وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ : ٧ والمنهج الأحمد واسمه فيه : محمد بن الحسن من خطأ النسخ .

وإذا كان هذا فيمن أبواه مشركان من العرب والروم فمن كان أحد أبويه مشركاً فهو أولى بذلك . هذا هو المنصوص عن أحمد ، فإنه قد نص على أنه من دخل في دينهم بعد النسخ والتبديل كمن دخل في دينهم في هذا الزمان ، فإنه يقر بالجزية ^(١) .

قال أصحابه : وإذا أقرناه بالجزية حلت ذبائحهم ونسائهم . وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وغيرهما .

وأصل النزاع في هذه المسألة ما ذكرته من نزاع علي وغيره من الصحابة في بني تغلب والشافعي وأحمد من إحدى الروايتين عنه ، والجمهور أحلوها ، وهي الرواية الأخرى عن أحمد .

ثم الذين كرهوا ذبائح بني تغلب تنازعوا في مأخذ علي فظن بعضهم أن علياً إنما حرم ذبائحهم ونسائهم لكونه لم يعلم أن آبائهم دخلوا في دين أهل الكتاب قبل النسخ والتبديل ، وبنوا على هذا أن الإعتبار في أهل الكتاب بالنسب لا بنفس الرجل ، وأن من شككنا في أجداده هل كانوا من أهل الكتاب أم لا ؟ أخذنا بالاحتياط فحقنا دمه بالجزية احتياطاً وحرماناً ذبيحته ونسائه احتياطاً . وهذا مأخذ الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد .

(١) بمناسبة ذكر الجزية جاء إلى ذهني قول الله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . فالآية تشترط إعطاء الجزية ، وتشترط أيضاً أن يعطيها وهو صاغر . وعن قهر وغلبة . كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه ، ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تلك الشروط المعروفة - مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية - عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - حين صالح نصارى من أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر الخطاب - رضي الله عنه - من نصارى مدينة كذا وكذا : إنكم لما قدمتم علينا ساللناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا : الخ . [راجع تفسير ابن كثير ٢ : ٣٤٧ - ٣٤٨ .

وقال آخرون : بل علي لم يكره ذبائح بني تغلب إلا لكونهم ما تدينوا
بدين أهل الكتاب في واجباته ومحظوراته ، بل أخذوا منه حل المحرمات
فقط . ولهذا قال : « إنهم لم يتمسكوا من دين أهل الكتاب إلا بشرب
الخمير » . وهذا المأخذ من قول علي هو المنصوص عن أحمد وغيره وهو
الصواب .

وبالجملة فالقول بأن أهل الكتاب المذكورين في القرآن هم من كان
دخل جده في ذلك قبل النسخ والتبديل قول ضعيف . والقول بأن علي بن
أبي طالب (رضي الله عنه) أراد ذلك قول ضعيف ، بل الصواب المقطوع به
أن كون الرجل كتابياً أو غير كتابي هو حكم مستقل بنفسه لا بنسبه ، وكل من
تدين بدين أهل الكتاب فهو منهم ، سواء كان أبوه أو جده ، دخل في دينهم
أو لم يدخل ، وسواء كان دخوله قبل النسخ والتبديل أو بعد ذلك ، وهذا
مذهب جمهور العلماء كأبي حنيفة ومالك . وهو المنصوص الصريح عن
أحمد ، وإن كان بين أصحابه في ذلك نزاع معروف ، وهذا القول هو الثابت
عن الصحابة (رضي الله عنهم) ، ولا أعلم بين الصحابة في ذلك نزاعاً .

وقد ذكر الطحاوي^(١) أن هذا إجماع قديم ، واحتج بذلك في هذه
المسألة على من لا يقر الرجل في دينهم بعد النسخ والتبديل كمن هو في
زماننا إذا انتقل إلى دين أهل الكتاب ، فإنه تؤكل ذبيحته ، وتنكح نسأؤه .
وهذا يبين خطأ من يناقض منهم .

(١) هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي ، أبو جعفر فقيه انتهت إليه رئاسة
الحنفية في مصر ، ولد عام ٢٣٩ هـ في طحا من صعيد مصر ، وتفقه على مذهب الشافعي ثم
تحول حنفياً ورحل إلى الشام سنة ٢٦٨ هـ فاتصل بأحمد بن طالون توفي بالقاهرة عام
٣٢١ هـ من تصانيفه : شرح معاني الآثار في الحديث مجلدان ، ومشكل الآثار أربعة أجزاء
في الحديث ، وأحكام القرآن ، والمختصر في الفقه والاختلاف بين الفقهاء - وهو كبير لم
يتمه ومناقب الامام أبي حنيفة .

راجع طبقات الحفاظ للسيوطي ، والفهرست لابن النديم . وابن خلكان ١ : ١٩ والبداية
والنهاية ١١ : ١٧٤ والمكتبة الأزهرية ١ : ٥٦٤ وهداية العارفين ١ : ٥٨ .

وأصحاب هذا القول الذي هو قول الجمهور يقولون : من دخل هو أو أبواه أو جده في دينهم بعد النسخ والتبديل أقر بالجزية سواء دخل في زماننا هذا أو قبله . وأصحاب القول الآخر يقولون : متى علمنا أنه لم يدخل إلا بعد النسخ والتبديل لم تقبل منه الجزية كما يقوله بعض أصحاب أحمد من أصحاب الشافعي ، والصواب قول الجمهور ، والدليل عليه من وجوه :

أحدها - أنه قد ثبت أنه كان من أولاد الأنصار جماعة يهودوا قبل مبعث النبي (ﷺ) بقليل كما قال ابن العباس : إن المرأة كانت مقلتاً . والمقلات التي لا يعيش لها ولد ، كثيرة القلت . والقلت الموت والهلاك . كما يقال : امرأة مذكارة وميناث إذا كانت كثيرة الولادة للذكور والإناث . والسما الكثيرة الموت .

قال ابن عباس : فكانت المرأة تنذر إن عاش لها ولدان تجعل أحدهما يهودياً لكون اليهود كانوا أهل علم وكتاب ، والعرب كانوا أهل شرك وأوثان . فلما بعث الله محمداً كان جماعة من أولاد الأنصار يهودوا فطلب آبائهم أن يكرهوهم على الإسلام ، فأنزل الله تعالى .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾ (١) الآية .



(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٦ وقال محمد بن اسحاق ، عن محمد بن أبي محمد الجرجسي ، عن زيد بن ثابت عن عكرمة ، أو عن سعيد عن ابن عباس قوله : لا إكراه في الدين . قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي - ﷺ - ألا استكرههما فإنهما قد أبايا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك . رواه ابن جرير ، وروى السدي نحو ذلك ، وزاد وكانا قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زبياً فلما عزموا على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما وطلب من رسول الله - ﷺ - أن يبعث في آثارهما فنزلت هذه الآية ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عوف ، أخبرنا شريك عن أبي هلال ، عن أسبق . قال : كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب فكان يعرض علي الإسلام فأبى فيقول (لا إكراه في الدين) ويقول يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين . وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ، ومن يدخل في دينهم قبل النسخ والتبديل ، وقال

فقد ثبت أن هؤلاء كان آباؤهم موجودين تهودوا ، ومعلوم أن هذا دخول بأنفسهم في اليهودية قبل الإسلام وبعد مبعث المسيح (صلوات الله عليه) ، وهذا بعد النسخ والتبديل . ومع هذا نهى الله (عز وجل) عن إكراه هؤلاء الذين تهودوا بعد النسخ والتبديل على الإسلام وأقرهم بالجزية . وهذا صريح في جواز عقد الذمة لمن دخل بنفسه في دين أهل الكتاب بعد النسخ والتبديل . فعلم أن هذا القول هو الصواب دون الآخر .

ومتى ثبت أنه يعقد له الذمة ثبت أن العبرة بنفسه لا بنسبه ، وأنه تباح ذبيحته وطعامه باتفاق المسلمين ، فإن المانع لذلك لم يمنعه الأبناء على أن هذا الصنف ليسوا من أهل الكتاب فلا يدخلون . فإذا ثبت بنص السنة أنهم من أهل الكتاب دخلوا في الخطاب بلا نزاع .

الوجه الثاني - أن جماعة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وحولها كانوا عرباً ودخلوا في دين اليهود ، ومع هذا فلم يفصل النبي (ﷺ) في أكل طعامهم وحل نسائهم وإقرارهم بالذمة بين من دخل أبواه بعد مبعث عيسى (عليه السلام) ومن دخل قبل ذلك ، ولا بين المشكوك في نفسه ، بل حكم في الجميع حكماً واحداً عاماً . فعلم أن التفريق بين طائفة وطائفة ، وجعل طائفة لا تفر بالجزية ، وطائفة تفر ولا تؤكل ذبائحهم ، وطائفة يقرون وتؤكل ذبائحهم ، تفريق ليس له أصل في سنة رسول الله (ﷺ) الثابتة عنه .

وقد علم بالنقل الصحيح المستفيض أن أهل المدينة كان فيهم يهود كثير من العرب وغيرهم من بني كنانة وحمير وغيرهما من العرب . ولهذا قال النبي (ﷺ) لمعاذ^(١) لما بعثه إلى اليمن : « إنك تأتي قوماً أهل كتاب » وأمره أن

= آخرون بل هي منسوخة بآية القتال ، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف - دين الإسلام - فإن أبى أحد منهم الدخول ، ولم يذل الجزية قوتل حتى يقتل . وهذا معنى الإكراه قال تعالى : ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ .

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو ، بن أوس الأنصاري الخزرجي ، أبو عبد الرحمن ، صحابي =

يأخذ من كل حالم ديناراً وعدله مغافر . ولم يفرق بين من دخل أبوه قبل النسخ أو بعده ، وكذلك وفد نجران وغيرهم من النصارى الذين كان فيهم عرب كثيرون أقرهم بالجزية . وكذلك سائر اليهود والنصارى من قبائل العرب لم يفرق رسول الله (ﷺ) ولا أحد من خلفائه وأصحابه بين بعضهم وبعض ، بل قبلوا منهم الجزية وأباحوا ذبائحهم ونساءهم ، وكذلك نصارى الروم وغيرهم لم يفرقوا بين صنف وصنف . ومن تدبر السيرة النبوية علم كل هذا بالضرورة وعلم أن التفريق قول محدث لا أصل له في الشريعة .

الوجه الثالث - أن كون الرجل مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً ونحو ذلك من أسماء الدين فهو حكم يتعلق بنفسه لا باعتقاده وإرادته وقوله وعمله ، لا يلحقه هذا الاسم بمجرد إتصاف آبائه بذلك ، لكن الصغير حكمه من أحكام الدنيا حكم أبويه لكونه لا يستقل بنفسه ، فإذا بلغ وتكلم بالإسلام أو بالكفر كان حكمه معتبراً بنفسه باتفاق المسلمين ، فلو كان أبواه يهوداً أو نصارى فأسلم كان من المسلمين باتفاق المسلمين ، ولو كانوا مسلمين فكفر كان كافراً باتفاق المسلمين . فان كفر برده لم يقر عليه لكونه مرتداً لأجل آبائه .

وكل حكم علق بأسماء الدين من إسلام وإيمان وكفر ونفاق ورده وتهود وتنصر إنما يثبت لمن إتصف بالصفات الموجبة لذلك . وكون الرجل من المشركين أو أهل الكتاب هو من هذا الباب ، فمن كان بنفسه مشركاً فحكمه حكم أهل الشرك ، وإن كان أبواه غير مشركين . ومن كان أبواه

= جليل ، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ - أسلم وهو فتى ، وأخى النبي - ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب ، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين وشهد بدرأً وأحد والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ ، وبعثه رسول الله بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن ، ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في فتح الشام له ١٥٧ حديثاً توفي عقيماً بناحية الأردن ومن كلام عمر - رضي الله عنه « لولا معاذ لهلك عمر » ينوه بعلمه . وفاته ١٨ هـ .

راجع ابن سعد ٣ : ١٢٠ والإصابة ت ٨٠٣٩ وأسد الغابة ٤ : ٣٧٦ ومجمع الزوائد ٩ : ٣١٠ وصفة الصفوة ١ : ١٩٥ .

مشركون وهو مسلم فحكمه حكم المسلمين لا حكم المشركين . فكذلك إذا كان يهودياً أو نصرانياً وآبأؤه مشركين فحكمه حكم اليهود والنصارى . أما إذا تعلق عليه حكم المشركين مع كونه من اليهود والنصارى لأجل كون آبائه قبل النسخ والتبديل كانوا مشركين فهذا خلاف الأصول .

الوجه الرابع - أن يقال : قوله تعالى :

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ...﴾ (١) وقوله :

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا...﴾ (٢)

وأمثال ذلك إنما هو خطاب لهؤلاء الموجودين وإخبار عنهم ، المراد بالكتاب هو الكتاب الذي بأيدهم الذي جرى عليه من النسخ والتبديل ما جرى ، ليس المراد به من كان متمسكاً به قبل النسخ والتبديل فإن أولئك لم يكونوا كفاراً ولا هم ممن خوطبوا بشرائع القرآن ، ولا قيل لهم في القرآن : يا أهل الكتاب ، فإنهم قد ماتوا قبل نزول القرآن . وإذا كان كذلك فكل من تدين بهذا الكتاب

(١) سورة البينة آية رقم ١ وتكملة الآية ﴿منفكين حتى تأتئهم البينة﴾ قال ابن جرير فسر الله البينة بقوله : رسول من الله يتلو صفحاً مطهرة يعني محمداً - ﷺ - وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ يقول الإمام القرطبي : أسلمتم : إستفهام معناه التقرير ، وفي ضمنه الأمر ، أي أسلموا ، وكذا قال الطبري وغيره ، وقال الزجاج : أسلمتم : تهديد ، وهذا حسن لأن المعنى أسلمتم أم لا ؟ .

وجاءت العبارة في قوله ﴿فقد اهتدوا﴾ بالماضي مبالغة في الأخبار بوقوع الهدى لهم وتحصيله . والبلاغ مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل أي إنما عليك أن تبلغ ، وقيل : إنه مما نسخ بالجهاد ، وقال ابن عطية وهذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ، وإما على ظاهر نزول هذه الآيات في وفد نجران فإنما المعنى فإنما عليك أن تبلغ ما أنزل إليك بما فيه من قتال وغيره .

الموجود عند أهل الكتاب فهو من أهل الكتاب وهم كفار تمسكوا بكتاب مبدل منسوخ وهم مخلصون في نار جهنم كما يخلص سائر أنواع الكفار . والله تعالى مع ذلك سوغ اقرارهم بالجزية وأحل طعامهم ونساءهم .

الوجه الخامس - أن يقال : هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب بالقرآن هم كفار وإن كان أجدادهم كانوا مؤمنين ، وليس عذابهم في الآخرة بأخف من عذاب من كان أبوه من غير أهل الكتاب ، بل وجود النسب الفاضل هو إلى تغليظ كفرهم أقرب منه إلى تخفيف كفرهم . فمن كان أبوه مسلماً وإرتد كان كفره أغلظ من كفر من أسلم هو ثم إرتد . ولهذا تنازع الناس فيمن ولد على الفطرة إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام هل تقبل توبته ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . وإذا كان كذلك فمن كان أبوه من أهل الكتاب قبل النسخ والتبديل ثم أنه لما بعث الله عيسى ومحمداً (صلى الله عليهما) كفر بهما وبما جاء به من عند الله واتبع الكتاب المبدل المنسوخ كان كفره من أغلظ الكفر . ولم يكن كفره أخف من كفر من دخل بنفسه في هذا الدين المبدل ، ولا له بمجرد نسبه حرمة عند الله ولا عند رسوله ، ولا ينفعه دين آبائه إذا كان هو مخالفاً لهم ، فإن آباءه كانوا إذ ذاك مسلمين ، فإن دين الله هو الإسلام في كل وقت . فكل من آمن بكتب الله ورسوله في كل زمان فهو مسلم ، ومن كفر بشيء من كتب الله فليس مسلماً في أي زمان كان

وإذا لم يكن لأولاد بني إسرائيل إذا كفروا مزية على أمثالهم من الكفار الذين ماثلوهم في إتباع الدين المبدل المنسوخ ، علم بذلك بطلان الفرق بين الطائفتين وإكرام هؤلاء بإقرارهم بالجزية وحل ذبائحهم ونسائهم دون هؤلاء ، وأنه فرق مخالف لأصول الإسلام ، وإنه لو كان الفرق بالعكس كان أولى . ولهذا يوبخ الله بني إسرائيل على تكذيبهم بمحمد (ﷺ) ما لا يوبخه غيرهم من أهل الكتاب لأنه تعالى أنعم على أجدادهم نعماً عظيمة في الدين والدنيا (١)

(١) قال تعالى في شأن بني إسرائيل : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا تَصَدَّقْتُ بِالْغَنِيِّ وَأَوَفُوا

فكفروا نعمته وكذبوا رسله وبدلوا كتابه وغيروا دينه ﴿فَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١) .

فهم مع شرف آبائهم وحق دين أجدادهم من أسوأ الكفار عند الله وهو أشد غضباً عليهم من غيرهم ، لأن من كفرهم من الإستكبار والحسد والمعادنة والقسوة وكتمان العلم ، وتحريف الكتاب ، وتبديل النص ، وغير ذلك ما ليس في كفر هؤلاء ، فكيف يجعل هؤلاء الأرجاس الأنجاس الذين هم من أبغض الخلق إلى الله مزية على سائر إخوانهم الكفار ، مع أن كفرهم إما مماثل لكفر إخوانهم الكفار ، وإما أغلظ منه إذ لا يمكن أحداً أن يقول : إن كفر الداخلين أغلظ من كفر هؤلاء مع تماثلهما في الدين بهذا الكتاب الموجود .

الوجه السادس - أن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب ، هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل . فإن الله تعالى قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) .

= بمهدي أوف بعهدي وإياي فارهبون ، وامنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴿ سورة البقرة آية رقم ٤٠ - ٤١ . وإسرائيل : هو يعقوب عليه السلام - روى أبو دلود الطيالسي : حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب قال حدثني عبد الله بن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود نبي الله - ﷺ - فقال لهم : هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب . ؟ قالوا اللهم نعم . فقال النبي - ﷺ - اللهم اشهد .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٢ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١٣ قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا أحمد بن محمد ، حدثنا عبد الله

وقال النبي (ﷺ) : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . الناس من آدم ، وآدم من تراب » (١) .

ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه ولا يذم أحداً بنسبه ، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ويذم بالكفر والفسوق والعصيان .

وقد ثبت أنه (ﷺ) في الصحيح أنه قال : « أربع من أمر الجاهلية في أمي لن يدعوهن ، الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالنجوم » (٢) .

فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية ، فإذا كان المسلم لا فخر له على المسلم بكون أجداده كانوا مؤمنين ، وإذا لم تكن مع التماثل في الدين فضيلة لأجل النسب ، علم أنه لا فضل لمن كان من اليهود والنصارى آبائه مؤمنين متمسكين بالكتاب الأول قبل النسخ والتبديل على من كان أبوه داخلاً فيه بعد النسخ والتبديل . وإذا تماثل دينها تماثل حكمهما في الدين . والشرعية إنما علفت بالنسب أحكاماً ، مثل كون الخلافة من قريش ، وكون ذوي القربى لهم الخمس ، وتحريم الصدقة على آل محمد (ﷺ) ونحو ذلك ، لأن النسب

= ابن المبارك، عن عبد الملك بن عيسى الثقفي عن يزيد مولى المنبث عن أبي هريرة - رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثرة في المال ، منسأة في الأثر . ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(١) أحمد بن حنبل ٥ : ٤١١ (المسند : حلي) .

(٢) الحديث عند الامام الترمذي في أبواب الجنائز باب ما جاء في كراهية النوح . حدثنا محمود ابن غيلان ، حدثنا أبو داود أنبأنا شعبة والمسعودي عن علقمة بن مرثد عن أبي الربيع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره مع تأخير وتقديم وتغيير في الألفاظ : مطرنا بنوء كذا وكذا بدلاً من (والاستسقاء بالنجوم) وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه الامام أحمد في المسند ، ٢ : ٥٢٦ (حلي) .

الفاضل مظنة أن يكون أهله أفضل من غيرهم ، كما قال النبي (ﷺ) : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » (١).

والمظنة تعلق الحكم بما إذا خفيت الحقيقة أو انتشرت ، فأما إذا ظهر دين الرجل الذي به تتعلق الأحكام وعرف نوع دينه وقدره ، لم يتعلق بنسبه الأحكام الدينية . ولهذا لم يكن لأبي لهب (٢) مزية على غيره لما عرف كفره كان أحق بالذم من غيره ، ولهذا جعل لمن يأتي بفاحشة من أزواج النبي (ﷺ) ضعفين من العذاب ، كما جعل لمن يقنت منهن لله ورسوله أجرين من الثواب (٣) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ٤٤ باب من فضائل يوسف عليه السلام ١٦٨ (٢٣٧٨) بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قيل : يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال « يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله خليل عليه السلام » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فمن معادن العرب تسألوني ؟ . خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا . ؟ . وأخرجه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٨ ، ١٤ ، ١٩ ، مناقب ١ ، ٣٥ وتفسير سورة ١٢ . وأحمد بن حنبل ٤ : ١٠١ (حلي)

(٢) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من قريش ، عم رسول الله ﷺ - وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية ، ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام ، كان غنياً عتياً كبير عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه فأذى أنصاره وحرص عليهم وقاتلهم وفي الآية « تبت يدا أبي لهب وتب » مات عام ٢ هـ بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها .

راجع ابن الأثير ٢ : ٢٥ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٣٩٣ - ٣٩٦ وتاريخ الاسلام للذهبي ١ : ٨٤ و ١٦٩ والروض الأنف ١ : ٢٦٥ ثم ٢ : ٧٨ و ٧٩ وامتناع الأسماع ١ : ٢٢ .

(٣) قال تعالى : ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾ سورة الأحزاب الآيات ٣٠ - ٣١

لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ، فأتين في مكان لا يشاركن فيه أحد ولا تشاركن فيه ، أحد ، ولكن ذلك إنما يكون بالتقوى ، فليست المسألة مجرد قرابة من النبي - ﷺ - بل لا بد من القيام بحق هذه القرابة في ذات أنفسكن .

وذلك هو الحق الصارم الحاسم الذي يقوم عليه هذا الدين ، والذي يقرره رسول الله ﷺ =

فدو الأنساب الفاضلة إذا أساءوا كانت إساءتهم أغلظ من إساءة غيرهم ،
وعقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم . فكفر من كفر من بني إسرائيل إن لم يكن
أشد من كفر غيرهم وعقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم ، فلا أقل من المساواة
بينهم ، ولهذا لم يقل أحد من العلماء إن من كفر وفسق من قريش والعرب تخفف
عنه العقوبة في الدنيا أو في الآخرة ، بل إما أن تكون عقوبتهم أشد عقوبة من
غيرهم في أشهر القولين ، أو تكون عقوبتهم أغلظ من القول الآخر ، لأن من
أكرمه بنعمته ورفع قدره إذا قابل حقوقه بالمعاصي وقابل نعمه بالكفر ، كان
أحق بالعقوبة ممن لم ينعم عليه كما أنعم عليه .

الوجه السابع - أن يقال أصحاب رسول الله (ﷺ) لما فتحوا الشام والعراق
ومصر وخراسان وغيرهم كانوا يأكلون ذبائحهم ، لا يميزون بين طائفة وطائفة .
ولم يعرف عن أحد من الصحابة الفرق بينهم بالأنساب ، وإنما تنازعوا في بني
تغلب خاصة لأمر يختص بهم كما أن عمر ضعف عليهم الزكاة ، وجعل جزيتهم
مخالفة لجزية غيرهم ، ولم يلحق بهم سائر العرب ، وإنما ألحق بهم من كان
بمنزلتهم .

الوجه الثامن - أن يقال هذا القول مستلزم أن لا يحل لنا طعام جمهور من
أهل الكتاب لأننا لا نعرف نسب كثير منهم ولا نعلم قبل أيام الإسلام أن أجداده
كانوا يهوداً أو نصارى قبل النسخ والتبديل . ومن المعلوم أن حل ذبائحهم
ونسائهم ثبت بالكتاب والسنة والإجماع . فإذا كان هذا القول مستلزماً رفع ما

= وهو ينادي أهله ألا يغرمهم مكانهم من قرابته فإنه لا يملك لهم من الله شيئاً « يا فاطمة ابنة
محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب . يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني
من مالي ما شئتم » . أخرجه الإمام مسلم .

وفي رواية أخرى « يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم
من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا
أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله
شيئاً إلا أن لكم رحماً سابلها ببلاها » . رواه مسلم والترمذي .

ثبت بالكتاب والسنة والإجماع ، علم أنه باطل .

الوجه التاسع - أن يقال ما زال المسلمون في كل عصر ومصر يأكلون ذبائحهم ، فمن أنكر ذلك فقد خالف إجماع المسلمين .

وهذه الوجوه كلها لبيان رجحان القول بالتحليل ، وأنه مقتضى الدليل .
فأما أن مثل هذه المسألة أو نحوها من مسائل الاجتهاد يجوز لمن تمسك فيها بأحد القولين أن ينكر على الآخر بغير حجة ودليل ، فهذا خلاف إجماع المسلمين ، فقد تنازع المسلمون في جبن المجوس والمشركين ، وليس لمن رجح أحد القولين أن ينكر على صاحب القول الآخر إلا بحجة شرعية .

وكذلك تنازعوا في متروك التسمية وفي ذبائح أهل الكتاب إذا سموا عليها غير الله ، وفي شحم الثرب والكليتين وذبحهم لذوات الظفر كالإبل والبط ونحو ذلك مما حرمه الله عليهم ، وتنازعوا في ذبح الكتابي للضحايا ونحو ذلك من المسائل ، وقد قال بكل قول طائفة من أهل العلم المشهورين ، فمن صار إلى قول مقلد لقائله لم يكن له أن ينكر على من صار إلى القول الآخر مقلداً لقائله ، لكن إن كان مع أحدهما حجة شرعية ، وجب الإنقياد للحجج الشرعية إذا ظهرت .

ولا يجوز لأحد أن يرجح قولاً على قول بغير دليل ، ولا يتعصب لقول على قول ، ولا لقائل على قائل بغير حجة ، بل من كان مقلداً لزم حل التقليد فلم يرجح ، ولم يزيّف ، ولم يصوب ، ولم يخطئ . ومن كان عنده من العلم والبيان ما يقوله سمع ذلك منه فقبل ما تبين أنه حق ، ورد ما تبين أنه باطل ، ووقف ما لم يتبين فيه أحد الأمرين . والله تعالى قد فاوت بين الناس في قوى الأذهان كما فاوت بينهم في قوى الأبدان^(١) .

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ . سورة البقرة آية رقم ٢٤٧ .

وهذه المسألة ونحوها فيها من أغوار الفقه وحقائقه ما لا يعرفه إلا من عرف
أقاويل العلماء وما أخذهم . فأما من لم يعرف إلا قول عالم واحد ، وحجته ،
دون قول العالم الآخر وحجته ، فإنه من العوام المقلدين ، لا من العلماء الذين
يرجحون ويزيفون . والله تعالى يهدينا وأخواننا لما يحبه ويرضاه ، وبالله التوفيق .
والله أعلم .

فصل

قوله تعالى :

﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (١).

فيه قراءتان مشهورتان : النصب والخفض .

فمن قرأ بالنصب فإنه معطوف على الوجه واليدين ، والمعنى فاغسلوا

(١) سورة المائدة آية رقم ٦ وصدر الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ قال بعض العلماء الآية أمر بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب وفي حق المتطهر ندب ، وقد قيل : إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نسخ وقال الإمام أحمد بن حنبل - حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان النبي - ﷺ - يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه - وصلّى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله قال : إني عمداً فعلته يا عمر .

وهكذا رواه مسلم ، وأهل السنة من حديث سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد ، ووقع في سنن ابن ماجه عن سفيان عن محارب بن دثار بدل علقمة بن مرثد كلاهما عن سليمان بن بريدة به ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي ، حدثنا الفضل بن المبرق قال : رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد فإذا بال أو أحدث توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين .

فقلت أبا عبد الله أشيء تصنعه برأيك . . ؟ قال : بل رأيت النبي - ﷺ - يصنعه فأنأصنعه كما رأيت رسول الله - يصنعه وكذا رواه ابن ماجه عن اسماعيل بن توبة عن زياد البكائي به .

وجوهكم وأيديكم وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم .

ومن قرأ بالخفص فليس معناه وامسحوا أرجلكم كما يظنه بعض الناس
لأوجه :

أحدها - إن الذين قرأوا ذلك من السلف قالوا : عاد الأمر إلى الغسل .

الثاني - أنه لو كان عطفاً على الرؤوس لكان المأمور به مسح الأرجل لا
المسح بها . والله إنما أمر في الوضوء والتيمم بالمسح بالعضو ، لا مسح العضو
فقال تعالى :

﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ .

وقال :

﴿ فَتَيْمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ (١) .

ولم يقرأ القراء المعروفون في آية التيمم : ﴿ وأيديكم ﴾ بالنصب كما قرأوا
في آية الوضوء . فلو كان عطفاً لكان الموضعان سواء . وذلك أن قوله :
﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ يقتضي
إلصاق المسوح . لأن الباء للإلصاق . وهذا يقتضي إيصال الماء والصعيد إلى
أعضاء الطهارة . وإذا قيل : إمسح رأسك ورجلك ، لم يقتضِ إيصال الماء إلى
العضو ، وهذا يبين أن الباء حرف جاء لمعنى لا زائدة كما يظنه بعض الناس

(١) سورة المائدة آية رقم ٦ وتكملتها : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم
وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ روى البخاري قال : حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن
وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه عن أبيه عن عائشة قالت :
سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله - ﷺ - ونزل فتني رأسه في
حجري راقداً فاقبل أبو بكر فلكرني لكرزة شديدة وقال : حبست الناس في قلادة فتمنيت الموت
لمكان رسول الله - ﷺ - فني وقد أوجعني ثم إن النبي - ﷺ - استيقظ ، وحضرت الصبح
فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾
إلى آخر الآية فقال أسيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة
هم .

وهذا خلاف قوله :

معاوى إننا بشر فاسجع فلسنا بالجال ولا الحديد
فإن الباء هنا مؤكدة . فلو حذفت لم يخل المعنى . والباء في آية الطهارة إذا
حذفت إختل المعنى فلم يجوز أن يكون العطف على محل المجرور بها بل على لفظ
المجرور بها أو على ما قبله .

الثالث - أنه لو كان عطفاً على المحل لقراءة في آية التيمم :
فامسحوا بوجوهكم وامسحوا أيديكم . فكان في الآية ما يبين فساد مذهب
الشارح بأنه قد دلت عليه ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ بالنصب لأن
اللفظين سواء ، فلما إتفقوا على الجر في آية التيمم مع إمكان العطف على المحل
لو كان صواباً علم أن العطف على اللفظ ولم يكن في آية التيمم منصوب
معطوف على اللفظ كما في آية الوضوء .

الرابع - أنه قال : ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ ولم يقل : إلى الكعاب . فلو
قدر أن العطف على المحل كالقول الآخر ، وإن التقدير أن في كل رجلين كعبين
وفي كل رجل كعب واحد ، ل قيل : إلى الكعاب ، كما قيل : ﴿ إلى المرافق ﴾ ،
لما كان في كل يد مرفق . وحيث أن الكعبان هما العظمان الناتئان في جانبي
الساق ، ليس هو معقد الشراك مجمع الساق والقدم ، كما يقوله من يرى المسح
على الرجلين . فإذا كان الله تبارك وتعالى إنما أمر بطهارة الرجلين إلى الكعبين
الناتئين ، والماسح يمسح إلى مجمع القدم والساق علم أنه مخالف القرآن .

الوجه الخامس - أن القراءتين كالآيتين ، والترتيب في الوضوء إما واجب
وإما مستحب مؤكداً للإستحباب ، فإذا فصل ممسوح بين مغسولين ، وقطع
النظير عن النظير ، دل ذلك على الترتيب المشروع في الوضوء .

الوجه السادس : أن السنة تفسر القرآن وتدلل عليه وتعبر عنه وهي قد
جاءت بالغسل .

الوجه السابع - أن التيمم جعل بدلاً عن الوضوء عند الحاجة ، فحذف
شطر أعضاء الوضوء ، وخف الشطر الثاني ، وذلك فإنه حذف ما كان ممسوحاً
ومسح ما كان مغسولاً . وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ :
﴿ وأرجلكم ﴾ بالخفض فهي لا تخالف السنة المتواترة ، إذ القراءتان كالأيتين .
والسنة الثابتة لا تخالف كتاب الله ، بل توافقه وتصدقه ، ولكن تفسره وتبينه لمن
قصر فهمه عن فهم القرآن ، فإن القرآن فيه دلالات خفية تخفى على كثير من
الناس ، وفيه مواضع ذكرت مجملة تفسرها السنة وتبينها .

والمسح إسم جنس يدل على إلصاق الممسوح به بالمسوح ، ولا يدل على
لفظه وجريانه لا بنفي ولا إثبات .

قال أبو زيد الأنصاري^(١) وغيره : العرب تقول : تمسحت للصلاة فتسمى
الوضوء كله مسحاً . ولكن من عادة العرب وغيرهم إذا كان الاسم عاماً تحته
نوعان ، خصوا أحد نوعيه باسم خاص ، وأبقوا الاسم العام للنوع الآخر ، كما
في لفظ الدابة فإنه عام للإنسان وغيره من الدواب ، لكن للإنسان اسم يخصه ،
فصاروا يطلقونه على غيره .

وكذلك لفظ الحيوان ولفظ ذوي الأرحام ، يتناول لكل ذي رحم ، لكن
للوارث بفرض أو تعصيب اسم يخصه .

وكذلك لفظ المؤمن يتناول من آمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله ، ومن آمن
بالجبت^(٢) والطاغوت فصار لهذا النوع اسم يخصه وهو الكافر . وأبقى اسم الإيمان

(١) هو محمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري البصري ، أبو عبد
الله : قاضي من الفقهاء العارفين بالحديث ، ولي قضاء البصرة ثم قضاء بغداد ، ورجع إلى
البصرة قاضياً فمات فيها . روى له الأئمة الستة في كتبهم : توفي عام ٢١٥ هـ . [راجع ميزان
الاعتدال ٣ : ٨٢ وتهذيب التهذيب ٩ : ٢٧٤ وتاريخ بغداد ٥ : ٤٠٨ والفوائد البهية ١٧٩ .

(٢) قال تعالى : ﴿ ألم ترى إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ،
ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذي آمنوا سبيلاً ﴾ سورة النساء آية رقم ٥١ واختلف

مختصاً بالأول ، وكذلك لفظ البشارة ونظائر ذلك كثيرة .

ثم أنه مع القرينة تارة ، ومع الإطلاق أخرى ، يستعمل اللفظ العام في معنيين ، كما إذا أوصى لذوي رحمة ، فإنه يتناول أقاربه من مثل الرجال والنساء ، فقوله تعالى في آية الوضوء :

﴿ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ﴾ يقتضى إيجاب مسمى المسح بينهما ، وكل واحد من المسح الخاص الخالي عن الإسالة ، والمسح الذي معه إسالة يسمى مسحاً ، فاقتضت الآية القدر المشترك في الموضعين ، ولم يكن في لفظ الآية ما يمنع كون الرجل يكون المسح بها هو المسح الذي معه إسالة ، ودل على ذلك قوله : ﴿ إلى الكعيين ﴾ فأمر بمسحها إلى الكعيين .

وأيضاً فإن المسح الخاص هو إسالة الماء مع الغسل فهما نوعان : المسح العام الذي هو إيصال الماء ، ومن لغتهم في مثل ذلك أن يكفي بأحد اللفظين كقولهم : علفتها تبناً وماء بارداً . والماء سقي لا علف . وقوله :

ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً
والرمح لا يتقلد . ومنه قوله تعالى :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَخُورُ عَيْنٍ ﴾ (١) .

= العلماء في لفظ : الجبت : فهو السحر ، وهو الشيطان وهو الأصنام وعن الشعبي الكاهن . وروى الإمام أحمد في مسنده فقال : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف بن حيان أبو العلاء ، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه ، وهو قبيصة بن مخارق أنه سمع النبي - ﷺ - قال : إن العياقة ، والطرق ، والطيرة من الجبت . وقال عوف : العياقة زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض ، والجبت . قال الحسن ، رنة الشيطان ، وهكذا رواه أبو داود في سننه ، والنسائي وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عوف الأعرابي به .

(١) سورة الواقعة الآيات من ١٧ - ٢٢ .

فكذلك إكتفى بذكر أحد اللفظين وإن كان مراده الغسل ، ودل عليه قوله : ﴿ إلى الكعيبين ﴾ .

والقراءة الأخرى مع السنة المتواترة .

ومن يقول يمسحان بلا إسالة يمسحهما إلى الكعاب لا إلى الكعيبين ، فهو مخالف لكل واحدة من القراءتين ، كما أنه مخالف للسنة المتواترة ،^(١) وليس معه لا ظاهر ولا باطن ولا سنة معروفة ، وإنما هو غلط من فهم القرآن وجهل بمعناه وبالسنة المتواترة .

وذكر المسح بالرجل مما يشعر بأن الرجل يمسح بها بخلاف الوجه واليد ، فإنه لا يمسح بهما بحال ، ولهذا جاء في المسح على الخفين اللذين على الرجلين ما لم يسيء مثله في الوجه واليد . ولكن دلت السنة مع دلالة القرآن على المسح بالرجلين .

ومن مسح على الرجلين فهو مبتدع مخالف للسنة المتواترة وللقرآن ، ولا يجوز لأحد أن يعمل بذلك مع إمكان الغسل ، والرجل إذا كانت ظاهرة وجب غسلها ، وإذا كانت في الخف كان حكمها مما بينته السنة كما في آية الفرائض . فإن السنة بينت حال الوارث إذا كان عبداً أو كافراً أو قاتلاً ونظائره متعددة . والله سبحانه أعلم .

(١) في الصحيحين من رواية أبي عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله - ﷺ - في سفرة سافرنها فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنأدى بأعلى صوته « أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار » وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة ، وفي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي - ﷺ - أنه قال : « أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار » وروى الليث بن سعد عن حيوة بن شريح عن عقبة بن مسلم عن عبد الله بن الحرث بن حرز أنه سمع رسول الله ﷺ - يقول : « ويل للأعقاب ويطون الأقدام من النار » . رواه البيهقي والحاكم .

﴿ فصل ﴾

﴿ في مجادلة أهل الكتاب في أمر المسيح ﴾

قال شيخ الإسلام : قال تعالى :
﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وقال تعالى أيضاً :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَا وَاوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ
وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَذَابُ أَلِيمٍ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ
أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ اتَّبِعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا
لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا
تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا

(١) سورة المائدة آية رقم ١٧ .

وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١﴾ .

وقال تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ

(١) سورة المائدة الآيات من ٧٢ - ٧٧ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس ، قال : وقد كان قائم قام عليهم فأخذ بالكتاب والسنة زماناً فأتاه الشيطان ، فقال إنما تركب أثراً أو أمراً قد عمل قبلك فلا تحمد عليه ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك وادع إليه ، واجبر الناس عليه ففعل ، ثم أذكر بعد فعله زماناً فأراد أن يتوب منه فخلع سلطانه وملكه وأراد أن يتعبد فلبث في عبادته أياماً فأق فقبل له لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك . ولكن ضل فلان ، وفلان وفلان في سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة فكيف لك بهداهم فلا توبة لك أبداً ففيه وفي أشباهه سمعنا هذه الآية ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ .

(٢) سورة النساء الآيات من ١٧١ - ١٧٥ .

قَوْهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ
اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهَيْنَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ
فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا
دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

فقد قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ في موضعين .

وقال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ (٣) . وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ (٤) . وقال تعالى :

(١) سورة التوبة الآيات من ٣٠ - ٣١ ذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن
العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزيز يبكي على بني
إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينية فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا
إمرأة تبكي عند قبر وهي تقول وامطعاه واكاسياه . فقال لها ويحك من كان يطعمك قبل
هذا .. ؟ قالت : الله ، قال : فإن الله حي لا يموت . قالت يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل
بني إسرائيل .. ؟ قال : الله . قالت : فلما تبكي عليهم .. ؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به .
وكتب لهم التوراة فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله .

(٢) سورة المائدة الآيات من ١١٦ - ١١٧ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧٣ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٧١ قال أبو علي : التقدير ولا تقولوا هو ثالث ثلاثة . فحذف المبتدأ =

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾^(١) فذكر الله عنهم هذه الأقوال الثلاثة . والنصارى قالت الأقوال الثلاثة . لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم وقولهم : ﴿ ثالث ثلاثة ﴾ قول النسطورية . وقولهم : إنه ﴿ ابن الله ﴾ قول الملكانية . ومنهم من يقول : قوله : ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ قول اليعقوبية ، وقولهم : والابن وروح القدس .

وظن ابن جرير الطبري^(٢) أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبية والنسطورية والملكية ، كما ذكره طائفة من المفسرين كابن جرير الطبري والثعلبي وغيرهما ، ثم تارة يحكون عن اليعقوبية أن عيسى هو الله ، وعن النسطورية أنه ابن الله ، وعن المريوسية أنه ثالث ثلاثة ، وتارة يحكون عن النسطورية أنه ثالث ثلاثة ، وعن الملكية أنه الله ، ويفسرون قولهم : ﴿ ثالث ثلاثة ﴾ بالأب والابن وروح القدس . والصواب أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة الملكية ، واليعقوبية ، والنسطورية . فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة الأب والإبن وروح القدس ، فتقول : إن الله ثالث ثلاثة ، وتقول عن المسيح أنه الله ، وتقول أنه ابن الله ، وهم متفقون على إتحاد

= والمضاف . والنصارى مع فرقههم مجموعون على التثليث ويقولون : إن الله جوهر واحد ، وله ثلاثة أقانيم فيجعلون كل أقنوم إلهاً ويعنون بالأقانيم الوجود ، والحياة والعلم ، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس ، فيعنون بالأب الوجود ، وبالروح وبابن المسيح . في كلامهم فيه تخطيط بيانه في أصول الدين .

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر : المؤرخ المفسر الامام ولد في آمل طبرستان عام ٢٢٤ هـ واستوطن بغداد وتوفي بها عام ٣١٠ هـ وعرض عليه القضاء فامتنع والمظالم فأبى له أخبار الرسل والملوك يعرف بتاريخ الطبري ، وجامع البيان في تفسير القرآن ، واختلاف الفقهاء وغير ذلك كثير ، وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠ ومفتاح السعادة ١ : ٤٠٥ و ٤١٥] .

اللاهوت والناسوت ، وأن المتحد هو الكلمة ، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك . وهو قولهم : نؤمن بالله واحد أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق مولود. غير مخلوق .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ﴾ . وقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ . فقد فسره بالتثليث المشهور عنهم المذكور في أمانتهم ، ومن الناس من يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ قول اليعقوبية . وقولهم : ﴿ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ هو قول النصارى الذين يقولون بالأب والإبن . وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة ، وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب . وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من دون الله .

قال السدي ^(١) في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ قال : قالت النصارى : إن الله هو المسيح وأمه . فذلك قوله : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبي صخر قال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ قال : هو قول اليهود : ﴿ عَزِيزاً ابْنُ اللَّهِ ﴾ . وقول النصارى : ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ . فجعلوا الله ثالث ثلاثة . وهذا ضعيف . وقد ذكر سعيد بن البطريق في أخبار النصارى أن منهم طائفة - يقال

(١) السدي : هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي تابعي ، حجازي الأصل سكن الكوفة قال فيه ابن تغري بردى : صاحب التفسير والمغازي والسير وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس توفي عام ١٢٨ هـ .

راجع النجوم الزاهرة ١ : ٣٠٨ واللباب ١ : ٥٣٧ وفيه وفاته سنة ١٢٧ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ١١٦ .

لهم المرسية - يقولون : إن مريم إله وإن عيسى إله . فقد يقال : إن هذا قول هؤلاء ، كما أن القول بأن عزيزاً ابن الله قول طائفة من اليهود .

وأما الأول فمتوجه . فإن النصارى المتفقين على الأمانة كلهم يقولون : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ . والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك ، فقال تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ (١) .

فذكر سبحانه في هذه الآية التثليث والإِتحاد ونهاهم عنهما ، وبين أن المسيح إنما هو رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . وقال : ﴿ فآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ . ولم يذكر هنا أمه .

وقوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ قال معمر عن قتادة : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ وهو قوله : ﴿ كن ﴾ فكان . وكذلك قال

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ .

الغلو : التجاوز في الحد ومنه غلا الشعر يغلو غلاء ، وغلا الرجل في الأمر غلواً ، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرع الشباب فجاوزت لداتها ويعني بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر ولذلك قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئين وقال الشاعر

وأوف ولا تسوف حقك كله وصافح فلم يستوف قط كريم
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقال آخر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تتركب ذلواً ولا صعباً
وفي صحيح البخاري عنه عليه السلام : لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى وقولوا عبد الله ورسوله .

قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى . وكذلك قال الإمام أحمد بن حنبل في مصنفه الذي صنّفه في كتبه في الرد على الجهمية ، وذكره عنه الخلال والقاضي أبو يعلى .

قال أحمد : ثم إن الجهم إدعى أمراً آخر فقال : إنا وجدنا في كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق . قلنا : أي آية ؟

قال : قول الله : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ (١)

فقلنا : إن الله منعكم الفهم في القرآن ، عيسى (عليه السلام) تجري عليه الفاظ لا تجري على القرآن ، لأن عيسى يجري عليه نسبه ومولود وطفل وصبي وغلام يأكل ويشرب ، وهو يخاطب بالأمر والنهي ، يجري عليه الوعد والوعيد ، وهو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم ، ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى . هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قول عيسى ؟ ولكن المعنى في قوله (جل ثناؤه) : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ (٢) ، فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له : ﴿ كُنْ ﴾ فكان عيسى بـ ﴿ كُنْ ﴾ وليس عيسى هو الـ ﴿ كُنْ ﴾ ولكن بالـ ﴿ كُنْ ﴾ كان عيسى . فالـ ﴿ كُنْ ﴾ من الله قوله ، وليس الـ ﴿ كُنْ ﴾ مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى ، وذلك

(١) (٢) سورة النساء آية رقم ١٧١ قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، حدثنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا عمير بن هاني ، حدثنا جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت عن النبي - ﷺ - قال : من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً - عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » وكذا رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن ابن جابر به ومن وجه آخر قال الأوزاعي به فقوله في الآية والحديث « روح منه » كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ أي من خلقه ومن عنده ، وليست « من » للتبعيض كما تقول النصارى بل هي لا ابتداء الغاية .

راجع ابن كثير ١ : ٥٩٠

أن الجهمية قالوا : « عيسى روح الله وكلمته » لأن الكلمة مخلوقة .

قالت النصارى : روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما يقال : هذه الخرقه من هذا الثوب .

وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة .

قال أحمد : وأما قوله (جل ثناؤه) : ﴿ وروح منه ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (١) .

يقول من أمره . وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقها الله ، كما يقول عبد الله وسماء الله . وفي نسخة روح يملكها الله خلقها الله .

وقال الشعبي (٢) في قوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ : الكلمة حين قال له : ﴿ كن ﴾ فكان عيسى بـ ﴿ كن ﴾ وليس عيسى هو الـ ﴿ كن ﴾ ولكن بالـ ﴿ كن ﴾ كان .

وقال الليث (٣) عن مجاهد : ﴿ وروح منه ﴾ قال : رسول منه . يريد

(١) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٢) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري أبو عمرو راوية من التابعين ، يضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ بالكوفة ومات بها عام ١٠٣ هـ اتصل بعبد الملك بن مروان - وهو من رجال الحديث الثقات ، استقضاه عمر بن عبد العزيز ، وكان فقيهاً شاعراً واختلف في اسم أبيه ، فقيل : شراحيل ، وقيل : عبد الله نسبته الى شعب ، وهو بطن من همدان . راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٦٥ والوفيات ١ : ٢٤٤ وحلية الأولياء ٤ : ٣١٠ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ١٣٨ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢٢٧ .

(٣) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي بالولاء ، أبو الحارث إمام أهل مصر في عصره ، حديثاً وفقهاً . قال ابن تغري بردي ، كان كبير الديار المصرية ورئيسها ، وأمير من بها في عصره ، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته . أصله من خراسان ومولده في قلقشنده عام ٩٤ هـ ووفاته بالقاهرة عام ١٧٥ هـ قال الإمام الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، أخباره كثيرة وله تصانيف .

مجاهد قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ... ﴾ (١)

والمعنى أن عيسى خلق من هذه الروح وهو جبريل روح القدس سمي روحاً كما سمي كلمة لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون في أمانتهم : تجسد من مريم ومن روح القدس ، لأنه جاء كذلك في الكتب المتقدمة ، لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب . وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئاً من صفاته روح القدس ، بل روح القدس في غير موضع من كلام الأنبياء (عليهم) السلام يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء كالوحي ، والهدى ، والتأييد ، ويراد بها الملك ، وهكذا في تفسير ابن السائب (٢) عن أبي صالح عن ابن عباس أن عيسى بن مريم استقبل رهطاً من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة ، فقفزوه وأمه . فلما سمع عيسى ذلك قال : « اللهم أنت ربي وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقتني ولم أتهم من تلقاء نفسي » . وذكر تمام الحديث .

وقد قال تعالى :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

= راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٣٨ وتهذيب التهذيب ٨ : ٤٥٩ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٠٧ وصبح

الأعشى ٣ : ٣٩٩ والنجوم الزاهرة ٢ : ٨٢ وميزان الاعتدال ٢ : ٣٦١

(١) سورة مريم آية ١٧ - ١٩ .

(٢) هو هشام بن محمد أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي ، أبو المنذر مؤرخ ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها كآبيه كثير التصانيف من أهل الكوفة ووفاته بها عام ٢٠٤ هـ من كتبه ، الأنساب ، والأصنام وافتراق العرب وغير ذلك .

راجع ابن النديم ١ : ٩٥ وابن خلدون ٢ : ٢٦٢ ووفيات الأعيان ٢ : ١٩٥ - ١٩٦ ولسان

الميزان ٦ : ١٩٦ وتاريخ بغداد ١٤ : ٤٥ وتاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ٤٧

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ .

وقال تعالى :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (١) .

فهذا يوافق قوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ (٢) .

وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا أنهم سواء صدقوا محمداً أو كذبوه فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين . فإنه إن كان نبياً صادقاً فقد بلغ عنه الله في هذا الكتاب كفر النصارى في غير موضع ودعاهم إلى الإيمان به ، وأمر بجهادهم . فمن علم أنه نبي - ولو إلى طائفة معينة - فيجب تصديقه في كل ما أخبر به . وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم . فإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الإحتجاج بشيء من الكتب ولا الإحتجاج بشيء من المعقول ، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل . وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل ، لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقاً ، كما أن المسيح (عليه السلام) لما حكم بكفر من كذبه من اليهود كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلاً . فكل ما عارض قول النبي (ﷺ) المعصوم فهو باطل . وإن كذبوا

(١) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

(٢) سورة مريم آية رقم ١٧ - ١٩ .

قال ابن جرير : حدثني أبو كريب ، حدثنا أبو بكر عن عاصم قال : قال أبو وائل وذكر قصة مريم فقال : قد علمت أن التقى ذو نهبة حين قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا « قال إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً » . هكذا قرأ أبو عمر بن العلاء أحد مشهوري القراء وقرأ آخرون « لأهب لك غلاماً زكياً » وكلا القراءتين له وجه حسن ومعنى صحيح وكل تستلزم الأخرى .

محمداً تكذيباً عاماً مطلقاً وقالوا : ليس هو نبي أصلاً ، ولا أرسل إلى أحد ، لا إلى العرب ، ولا إلى غيرهم ، بل كان من الكذابين . إمتنع مع هذا أن يصدقوه نبوة غيرهم . فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأولى . فإذا قالوا : علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا . قيل لهم : معجزات محمد (ﷺ) أعظم ، وتواترها أبغ ، والكتاب الذي جاء به محمد (ﷺ) أكمل ، وأتمه أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، وموسى جاء بالعدل ، وعيسى جاء بتكميلها بالفضل ، وهو (ﷺ) قد جمع في شريعته بين العدل والفضل . فإن ساغ لقائل أن يقول : « هو مع هذا كاذب مفتر » ، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك ، فيبطل بتكذيبهم محمداً (ﷺ) . جميع ما معهم من النبوات إذا حكم أحد الشيئين حكم مثله ، فكيف بما هو أولى منه ؟ فلو قال قائل : « إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبياً » ، أو « أن داود وسليمان ويوشع ويحيى كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبياً » ، أو قال ما يقوله السامرة : « إن يوشع كان نبياً ومن بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء » ، أو قال ما يقوله اليهود : « إن داود وسليمان وشيعا وحقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء والمسيح بن مريم لم يكن نبياً » . كان هذا قولاً متناقضاً معلوم البطلان . فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة ، وأكمل نبوة ممن أثبتوها له . ودلائل نبوة الأكمل أفضل ، فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل ؟ وصار هذا كما لو قال قائل : إن زفر^(١) وابن القاسم^(٢)

(١) هو زفر بن الهذيل بن قيس العنبري من تميم ، أبو الهذيل ، فقيه كبير من أصحاب الامام أبي حنيفة أصله من أصبهان أقام بالبصرة وولي قضاءها وتوفي بها عام ١٥٨ هـ وهو أحد العشرة الذين دونوا الكتب . جمع بين العلم والعبادة ، وكان من أصحاب الحديث فغلب عليه الرأي وهو قياس الحنفية .

راجع الجواهر المضئية ١ : ٢٤٣ ثم ٢ : ٥٣٤ وشذرات الذهب ١ : ٢٤٣ والانتقاء ١٧٣ .

(٢) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري أبو عبد الله ، ويعرف بابن =

والمزني ^(١) والأثرم ^(٢) كانوا فقهاء ، وأبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء . أو قال : إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة ، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة . أو قال : إن صاحب الملكي والمسيحي ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء ، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء . أو قال : إن كوشيار والخرقي ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة ، وبطيالموس ^(٣) ونحوه لم يكن له علم بالهيئة .

ومن قال : إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، ومحمد بن عبد الله لم يكن نبياً . فتناقضه أظهر ، وفساد قوله أبين من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال : إن موسى وعيسى رسولان ، والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ، ومحمداً ليس برسول ، والقرآن لم ينزل من الله .

= القاسم ، فقيه ، جمع بين الزهد والعلم - تفقه بالامام مالك ونظرته ، ولد عام ١٣٢ هـ بمصر وتوفي بها عام ١٩١ هـ له المدونة وهي من أجل كتب المالكية رواها عن الامام مالك .
راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٦ وحسن المحاضرة ١ : ١٢١ والمكتبة الأزهرية ١ : ٤٠٣

(١) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل ، أبو إبراهيم المزني صاحب الامام الشافعي من أهل مصر ، كان زاهداً عالماً مجتهداً قوي الحجة ، وهو إمام الشافعيين من كتبه « الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » و « الترغيب في العلم » نسبته إلى مزينة من مضر قال الشافعي : المزني ناصر مذهبي . توفي عام ٢١٤ هـ .

راجع وفيات الأعيان ١ : ٧١ والانتقاء ١١١ .

(٢) سبق الترجمة له .

(٣) كلوديوس بطليموس : رياضي فلكي جغرافي يوناني مصري يقال إنه ولد في « ببلوسيوم » ونشأ في الاسكندرية في القرن الثاني للميلاد وقلما يعرف شيء عن أخبار حياته ونظامه الفلكي العظيم يحتوي على كل ما عرفه من المراقبات الفلكية ، وأهم قسم من كتابه هذا قائمة كواكب مأخوذة من قائمة « ابرخوس » وكتابه المعروف عند اليونان بالاستكسس الرياضي ، وعند العرب « بالمجسطس » يبحث عن العلاقة بين الأرض والسماء هو تأثير الكواكب في الأرض ، ورأيه في الشمس والقمر الذي بدونه لا يمكن معرفة الكواكب ، وفلك الثوابت وتعيين أفلاك السيارات ترجم هذا الكتاب في خلافة المأمون نحو سنة ٨٢ م .
راجع دائرة معارف البستاني ج ٥ ص ٤٨٤ .

فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد (ﷺ) ، وما جاء به من قبله وتدبر كتابه والكتب التي قبله ، وآيات نبوته ، وآيات نبوة هؤلاء ، وشرائع دينه ، وشرائع دين هؤلاء ، وهذه الجملة مفصلة مشروحة في غير هذا الموضع ، لكن المقصود هنا التنبيه على مجامع جوابهم ، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من إحتجوا به من الأنبياء . فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم . ولا حجة لهم أيضاً على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بأخبار محمد أنهم أنبياء . فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم . وأيضاً فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم ، فكذلك تعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى . فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد في كلمة مما جاء به .

فصل في عقوبة المحاربين وقطاع الطريق

قال الله تعالى فيهم :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وقد روى الشافعي (رحمه الله) في سننه عن ابن عباس (رضي الله عنه) في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال ، قتلوا وصلبوا . وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال . قتلوا ولم يصلبوا . وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا ، قطعت

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٣ روى البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة واسمه . عبد الله بن زيد الجرمي البصري عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله - ﷺ - فبايعوه على الاسلام فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم - فشكوا إلى رسول الله - ﷺ - ذلك فقال : ألا تخرجوا مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها . فقالوا : بلى . فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا ، فقتلوا الراعي وطردهوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فبعث في آثارهم فأدركوا فجاء بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا « لفظ مسلم ، وفي لفظ لهما : من عكل أو عرنية في لفظ : وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون فلا يسقون ، وفي لفظ لمسلم : ولم يحسمهم ، وعند البخاري قال أبو قلابة فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله . ورواه مسلم من طريق هشيم عن عبد العزيز بن صهيب وحמיד عن أنس فذكر نحوه .

أيديهم وأرجلهم من خلاف . وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً ، نفوا من الأرض .

وهذا قول كثير من أهل العلم كالشافعي وأحمد ، وهو قريب من قول أبي حنيفة (رحمه الله) .

ومنهم من قال : للإمام أن يجتهد فيهم فيقتل من رأى قتله مصلحة وإن كان لم يقتل ، مثل أن يكون رئيساً مطاعاً فيهم ، ويقطع من رأى قطعه مصلحة وإن كان لم يأخذ المال ، مثل أن يكون ذا جلد وقوة في أخذ المال . كما أن منهم من يرى أنه إذا أخذوا المال قتلوا وقطعوا وصلبوا . والأول قول الأكثر . فمن كان من المحاربين قد قتل ، فإنه يقتله الإمام حداً لا يجوز العفو عنه بحال بإجماع العلماء ، ذكره ابن المنذر . ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول ، بخلاف ما لو قتل رجلاً لعداوة بينهما أو خصومة أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة ، فإن هذا دمه لأولياء المقتول ، إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا عفووا ، وإن أحبوا أخذوا الدية ، لأنه قتله لغرض خاص .

وأما المحاربون فإنما يقتلون لأخذ أموال الناس ، فضررهم عام بمنزلة السراق ، فكان قتلهم حداً لله . وهذا متفق عليه بين الفقهاء ، حتى لو كان المقتول غير مكافئ للقاتل ، مثل أن يكون القاتل حراً والمقتول عبداً ، أو القاتل مسلماً والمقتول ذمياً أو مستأمناً ، فقد اختلف الفقهاء هل يقتل في المحاربة ؟ والأقوى أنه يقتل ، لأنه قتل للفساد العام حداً ، كما يقطع إذا أخذ أموالهم ، وكما يحبس بحقوقهم . وإذا كان المحاربون الحرامية جماعة فالواحد منهم باشر القتل بنفسه والباقيون له أعوان وردء^(١) له ، فقد قيل : إنه يقتل المباشر فقط ، والجمهور على أن الجميع يقتلون ولو كانوا مائة . وأن الردء والمباشر سواء وهذا هو المأثور عن الخلفاء والراشدين . فإن عمر بن

(١) الردء : هو العون والمساعد للفرد والجماعة . قال الله تعالى : وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني ، أي معيناً ومساعداً له في الدعوة الذي يريد القيام بها .

الخطاب (رضي الله عنه) قتل ربيئة المحاربين . والربيئة هو الناظر الذي يجلس على مكان عال ينظر منه لهم من يجيء ولأن المباشر إنما يمكن من قتله بقوة الردء ومعونته . والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض حتى صاروا ممتنعين فهم مشتركون في الثواب والعقاب كالمجاهدين . فإن النبي (ﷺ) قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، ويرد متسريهم على قعدهم » (١) . يعني أن جيش المسلمين إذا تسرت منه سرية فغنمت مالا فإن الجيش يشاركها فيما غنمت لأنها بظهره وقوته تمكنت ، ولكن تنفل عنه نفلاً ، فإن النبي (ﷺ) كان ينفل (٢) السرية إذا كانوا في بدايتهم الربع بعد الخمس ، فإذا رجعوا إلى أوطانهم وتسرت سرية نفلهم الثلث بعد الخمس . وكذلك لو غنم الجيش غنيمة شاركتها السرية ، لأنها في مصلحة الجيش كما قسم النبي (ﷺ) لطلحة والزبير يوم بدر ، لأنه كان قد بعثهما في مصلحة الجيش . فأعوان الطائفة الممتنعة وأنصارها منها فيما لهم وعليهم ، وهكذا المقتتلون على باطل لا تأويل فيه مثل المقتتلين على عصبية ودعوى وجاهلية كقيس ويمن ونحوهما ظالمتان ، كما قال النبي (ﷺ) « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل : يا رسول الله : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : « أراد قتل صاحبه » . أخرجاه في الصحيحين .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الديات ٣١ باب المسلمون تتكافأ دماؤهم ٢٦٨٣ عن حنث عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ - وذكره .

ورواه الامام مسلم في كتاب الحج ٨٥ باب فضل المدينة ٤٧٠ عن سفيان عن الأعمش بهذا الأسناد وفيه اختلاف : ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة . والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف .

ورواه البخاري في الجزية ١٠ ، ١٧ ، والإعتصام ٥ ، والفرائض ٢١ وأبو داود في المناسك ٩٥ ، والجهاد ١٤٧ ، والديات ١١ والترمذي في الولاء ٣ ، والنسائي في القسامة ١٠ ، ١٤ .

(٢) نفل ينفل نفلاً ، والنفل : الغنيمة ومعنى ينفل السرية : أي يعطيها من النافلة : أي الغنيمة التي حصل عليها من الحرب .

وتضمن كل طائفة ما أتلفته الأخرى من نفس ومال ، وإن لم يعرف عين القاتل ، لأن الطائفة الواحدة الممتنع بعضها ببعض كالشخص الواحد .

وأما إذا أخذوا المال فقط ولم يقتلوا - كما قد يفعله الأعراب كثيراً - فإنه يقطع من كل واحد يده اليمنى ورجله اليسرى عند أكثر العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم . وهذا معنى قول الله تعالى :

﴿ أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ ^(١) ...

تقطع اليد التي يبطش بها والرجل التي يمشي عليها ، وتحسم يده ورجله بالزيت المغلي ونحوه لينحسم الدم فلا يخرج فيفضي إلى تلفه . وكذلك تحسم يد السارق بالزيت . وهذا الفعل قد يكون أزجر من القتل ، فإن الأعراب وفسقة الجند وغيرهم إذا رأوا دائماً من هو بينهم مقطوع اليد والرجل ذكروا بذلك جرمه فارتدعوا ، بخلاف القتل فإنه قد ينسى ، وقد يؤثر بعض النفوس الأبية قتله على قطع يده ورجله من خلاف ، فيكون هذا أشد تنكيلاً له ولأمثاله .

وأما إذا شهروا السلاح ولم يقتلوا نفساً ولم يأخذوا مالاً ثم أغمدوه ، أو

(١) جزء من آية من سورة المائدة رقم ٣٣ تكملة الآية ﴿ من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ، من شهر السلاح في فئة الإسلام ، وأخاف السبيل ثم ظفر به ، وقدر عليه ، فإمام المسلمین فيه بالخيار ، إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله ، وكذا قال سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير ، وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله ومستند القول : أن ظاهر « أو » للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في جزاء الصيد ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ وقوله تعالى في كفارة الفدية ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ وقوله في كفارة اليمين ﴿ فإطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾ هذه كلها على التخيير فكذلك فلتكن هذه . والله أعلم .

هربوا ، أو تركوا الحراب فإنهم ينفون . فقيل : نفيتهم تشريدهم فلا يتركون يأوون في بلد . وقيل : هو حبسهم . وقيل : هو ما يراه الإمام أصلح من نفي أو حبس أو نحو ذلك .

والقتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه ، لأن ذلك أوحى ^(١) أنواع القتل . وكذلك شرع الله قتل ما يباح قتله من الأدميين والبهائم إذا قدر عليه على هذا الوجه .

وقال النبي (ﷺ) : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء : فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته ^(٢) » وقال : « إن أعف الناس قتلة أهل الإيمان » .

وأما الصلب المذكور فهو رفعهم على مكان عال ليأراهم الناس ويشتهر أمرهم ، وهو بعد القتل عند جمهور العلماء . ومنهم من قال : يصلبون ثم يقتلون وهم مصلبون . وقد جوز بعض العلماء قتلهم بغير السيف حتى قال : يتركون على المكان العالي حتى يموتوا حتف أنوفهم بلا قتل .

فأما التمثيل في القتل فلا يجوز إلا على وجه القصاص . وقد قال عمران بن حصين ^(٣) (رضي الله عنهما) : « ما خطبنا رسول الله (ﷺ)

(١) أوحى : بمعنى أسرع أنواع القتل والحديث الذي روي عن رسول الله ﷺ : إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصيد والذبائح ١١ باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ، وتحديد الشفرة - ٥٧ - (١٩٥٥) عن خالد الحذاء عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث عن شداد بن أوس وذكره ، ورواه أبو داود في كتاب الأضاحي ١١ ، والنسائي في الضحايا ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ وابن ماجه في كتاب الذبائح ٣ باب إذا ذبحتهم فأحسنوا الذبح ٣١٧٠ بسنده عن شداد بن أوس وذكره . ورواه الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ (حلي) .

(٣) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف ، القدوة الإمام صاحب رسول الله ﷺ - أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت سنة سبع ، وله عدة أحاديث ، ولي قضاء البصرة ، وكان عمر بعثه إلى أهل البصرة ليفقههم ، فكان الحسن يحلف ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران بن =

خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة حتى الكفار إذا قتلناهم فإننا لا نمثل بهم بعد القتل ولا نجد آذانهم وأنوفهم ، ولا نبقر بطونهم ، إلا أن يكونوا فعلوا ذلك بنا ، فنفعل بهم ما فعلوا . والترك أفضل كما قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (١)

قيل : إنها نزلت لما مثل المشركون بحمزة وغيره من شهداء أحد (رضي الله عنهم) ، فقال النبي (ﷺ) : « لئن أظفرنني الله بهم لأمثلن بضعفي ما مثلوا بنا » فأنزل الله هذه الآية . وإن كانت قد نزلت قبل ذلك بمكة مثل قوله :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ . . . (٢)

= حصين . وقال : ما مسست ذكرى بيمين منذ بايعت بها رسول الله - ﷺ - واعتزل الفتنة ولم يحارب مع علي - ﷺ - ، وتوفي عمران سنة اثنتين وخمسين - رضي الله عنه . مسنده مائة وثمانون حديثاً اتفق الشيخان على تسعة أحاديث ، وانفرد البخاري بأربعة أحاديث ومسلم بتسعة .

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٦ - ١٢٧ .

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار . قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة ، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة - رضي الله عنه ومثل به . فقال رسول الله - ﷺ - لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب قط فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ إلى آخر السورة ، وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم ، وقد روي هذا من وجه آخر متصل .

روى الواحدي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - لما أشرف على حمزة فرآه صريعاً فلم ير شيئاً أوجع لقلبه منه وقال : والله لأقتلن منهم سبعين رجلاً فنزلت الآية ، وانظر ما رواه ابن عباس في سبب نزول هذه الآية في أسباب النزول للنيسابوري ١٦٣ - ١٦٥ ، ولباب النقول للسيوطي ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٨٥ .

وقوله :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) .

وغير ذلك من الآيات التي نزلت بمكة ، ثم جرى بالمدينة سبب يقتضي
الخطاب فأنزلت مرة ثانية . فقال النبي (ﷺ) : « بل نصبر » .

وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الخصيب (رضي الله عنه) قال : كان
النبي (ﷺ) إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوفى حاجة نفسه أوصاهم
بتقوى الله تعالى ، وبمن معه من المسلمين خيراً ، ثم يقول : « اغزوا بسم الله
وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا
تقتلوا وليداً » (٢) .

(١) سورة هود آية رقم ١١٤ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث
الذي رواه الإمام أحمد ، وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : كنت إذا
سمعت من رسول الله - حديثاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني عنه أحد
استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله - ﷺ -
يقول : ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له » . وفي الصحيحين عن أمير
المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله - ﷺ - ثم قال : هكذا رأيت رسول
الله - ﷺ - يتوضأ ، وقال : من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر
له ما تقدم من ذنبه » .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب الجهاد ٢ باب تأمير الامراء على
البعوث ٢ (١٧٣١) حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان
رسول الله - ﷺ - إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من
المسلمين خيراً ثم قال : وذكره .

وفيه إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فأقبل
منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام الخ ورواه أبو داود في الجهاد ٨٣ والترمذي في الديات
١٤ وابن ماجه في الجهاد ٣٨ والدارمي في الجهاد والسيره والموطأ في الجهاد ١١ ، وأحمد بن حنبل
في المسند ١ : ٣٠٠ ، ٤ ، ٢٤٠ ، ٥ : ٣٥٨ (حلي) .

ولو شهروا السلاح في البنيان لا في الصحراء لأخذ المال فقد قيل : إتهم ليسوا محاربين ، بل هم بمنزلة المختلس والمتهب ، لأن المطلوب يدركه الغوث إذا إستغاث بالناس .

وقال أكثرهم : إن حكمهم في البنيان والصحراء واحد . وهذا قول مالك في المشهور عنه ، والشافعي ، وأكثر أصحاب أحمد ، وبعض أصحاب أبي حنيفة ، بل هم في البنيان أحق بالعقوبة منهم في الصحراء ؛ لأن البنيان محل الأمن والطمأنينة ، ولأنه محل تناصر الناس وتعاونهم ، فإقدامهم عليه يقتضي شدة المحاربة والمغالبة ، ولأنهم يسلبون الرجل في داره جميع ماله ، والمسافر لا يكون معه غالباً إلا بعض ماله . وهذا الصواب لا سيما هؤلاء المحترفون الذين تسميهم العامة في الشام ومصر المنسر ، وكانوا يسمون ببغداد « العيارين » .

ولو حاربوا بالعصي والحجارة والمقدوفة بالأيدي ، أو المقاليع ونحوها فهم محاربون أيضاً . وقد حكى عن بعض الفقهاء : « لا محاربة إلا بالمحدد » . وحكى بعضهم الإجماع على أن المحاربة تكون بالمحدد والمثقل .

وسواء كان فيه خلاف أو لم يكن ، فالصواب الذي عليه جماهير المسلمين أن من قاتل على أخذ المال بأي نوع كان من أنواع القتال ^(١) فهو محارب قاطع ، كما أن من قاتل المسلمين من الكفار - بأي نوع كان من أنواع القتال - فهو حربي ، ومن قاتل الكفار من المسلمين بسيف أو رمح أو سهم أو حجارة أو عصا فهو مجاهد في سبيل الله .

وأما إذا كان يقتل النفوس سراً لأخذ المال ، مثل الذي يجلس في خان يكرهه لأبناء السبيل ، فإذا إنفرد بقوم منهم قتلهم وأخذ أموالهم ^(٢) ، أو يدعو

(١) سقط من (ب) جملة (بأي نوع كان من أنواع القتال) .

(٢) لقد كثر هذا النوع وخصوصاً في هذا القرن ولقد ساعدت الاختراعات الحديثة هؤلاء على =

إلى منزله من يستاجر له لخيطة أو طب أو نحو ذلك فيقتله ويأخذ ماله ، وهذا يسمى القتل غيلة ، ويسميه بعض العامة المعرجين . فإذا كان أخذ المال فهل هو كالمحاربين أو يجري عليهم حكم القود ؟ فيه قولان للفقهاء : أحدهما - أنهم كالمحاربين ، لأن القتل بالحيلة كالقتل مكابرة ، كلاهما لا يمكن الإحتراز منه ، بل قد يكون ضرر هذا أشد لأنه لا يدري به .

والثاني - أن المحارب هو المجاهر بالقتال ، وأن هذا المغتال يكون أمره إلى ولي الدم .

والأول أشبه بأصول الشريعة ، بل قد يكون ضرر هذا أشد لأنه لا يدري به .

واختلف الفقهاء أيضاً فيمن يقتل السلطان كقتله عثمان ، وقاتل علي (رضي الله عنهما) ^(١) : هل هم كالمحاربين فيقتلون حداً ، أو يكون أمرهم إلى أولياء الدم ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره ، لأن في قتله فساداً .

= مهمتهم فهم يستعملون العقاقير المنومة والمخدرة مع ضحاياهم ثم يسلبون منهم أموالهم وكل ما لديهم فلو وجدت الحدود الرادعة لقطعت أيديهم وأرجلهم واستراح المجتمع من شرهم .

(١) نحن هنا أمام حادثتين كان لهما أعمق الأثر السيء في تاريخ المسلمين الأول الفتنة الكبرى والتي أثارها اليهود بقيادة عبد الله بن سبأ عندما أوعز لجيوش المسلمين المتجه إلى إعلاء كلمة الله أن تعود إلى المدينة لكي تقوم من أمر الخلافة في زعمهم - فكانت الكارثة وكانت الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان رضي الله - والذي ارتكب هذه الجريمة البشعة جماعة مسلحة وليس واحداً - أما جريمة مقتل علي رضي الله عنه - فلم يكن هناك جماعة مسلحة ، ولم يكن هناك ثورة عارمة كما حدث في الجريمة الأولى ، وإنما كان هناك ثلاث كما تروي كتب التاريخ تعاهدوا فيما بينهم على قتل ثلاثة - لكي يريحوا المسلمين من الخلافات والمنازعات فنفذ أحدهم جريمته في علي - رضي الله عنه - وسلم الآخرين . فهنا والله أعلم - الوضع يختلف - وإن كان الجميع يدخل في نطاق قول الله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ﴾ . وصدق الله العظيم .

فصل

وهذا كله إذا قدر عليه ، فأما إذا طلبهم السلطان أو نوابه لإقامة الحد بلا عدوان فامتنعوا عليه ، فإنه يجب على المسلمين قتالهم باتفاق العلماء حتى يقدر عليهم كلهم . ومتى لم ينقادوا إلا بقتال يفضي إلى قتلهم كلهم ، قوتلوا ، وإن أفضى إلى ذلك سواء كانوا قد قتلوا أو لم يقتلوا . ويقتلون في القتال كيفما أمكن في العنق وغيره .

ويقاتل من قاتل معهم ممن يحميهم ويعينهم . فهذا قتال ، وذاك إقامة حد ، وقاتل هؤلاء أوكد من قتال الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسلام ، فإن هؤلاء قد تحزبوا لفساد النفوس والأموال ، وهلاك الحرث والنسل ، ليس مقصودهم إقامة دين ولا ملك .

وهؤلاء كالمحاربين الذين يأوون إلى حصن أو مغارة أو رأس جبل أو بطن واد ونحو ذلك ، يقطعون الطريق على من مر بهم . وإذا جاءهم جند ولي الأمر يطلبهم للدخول في طاعة المسلمين والجماعة لإقامة الحدود قاتلوهم ودفعوهم ، مثل الأعراب الذين يقطعون الطريق على الحاج ، أو غيره من الطرقات أو الجبلية الذين يعتصمون برؤوس الجبال أو المغارات لقطع الطريق ، وكالأحلاف الذين تحالفوا لقطع الطريق بين الشام والعراق . ويسمون ذلك النهيضة ، فإنهم يقاتلون كما ذكرنا . ولكن قتالهم ليس بمنزلة قتال الكفار ، إذا لم يكونوا كفاراً ، ولا تؤخذ أموالهم إلا أن يكونوا أخذوا أموال الناس بغير حق ، فإن عليهم ضمانها ، فيؤخذ منهم بقدر ما أخذوا ، وإن لم نعلم عين الأخذ ،

وكذلك لو علم عينه فان الردء والمباشر سواء كما قلنا ، لكن إذا عرف عينه كان قرار الضمان عليه ، ويرد ما يؤخذ منه على أرباب الأموال ، فإن تعذر الرد عليهم كان لمصالح المسلمين من رزق الطائفة المقاتلة لهم وغير ذلك ، بل المقصود من قتالهم التمكن منهم لإقامة الحدود ومنعهم من الفساد . فإذا جرح الرجل منهم جرحاً مثخناً لم يجهز عليه حتى يموت ، إلا أن يكون قد وجب عليه القتل . وإذا هرب وكفانا شره لم ننبهه ، إلا أن يكون عليه حد ، أو نخاف عاقبته ، ومن أسر منهم أقيم عليه الحد الذي يقام على غيره . ومن الفقهاء من يشدد فيهم حتى يرى غنيمة أموالهم وتخسيسها ، وأكثرهم يأبون ذلك . فأما إذا تحيزوا إلى مملكة طائفة خارجة عن شريعة الإسلام وأعانوهم على المسلمين ، قوتلوا كقتالهم .

وأما من كان لا يقطع الطريق ، ولكنه يأخذ خفارة أو ضريبة من أبناء السبيل على الرؤوس والدواب والأحمال ونحو ذلك ، فهذا مكاس^(١) ، عليه عقوبة الماكسين . وقد اختلف الفقهاء في جواز قتله ، وليس هو من قطاع الطريق ، فإن الطريق لا ينقطع به مع أنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة حتى قال النبي (ﷺ) في الغامدية : لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » (٢) .

(١) المكاسون : طائفة كانت تأخذ أموالاً من البائع والمشتري في الأسواق في الجاهلية بدون وجه حق .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الحدود ٢١ باب من قتل دون ماله فهو شهيد ٢٥٨٠ ثنا سفيان عن الزهري عن طلحة بن عبد الله بن عوف عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عن النبي - ﷺ - وذكره ورواه الامام مسلم في كتاب الإيمان ٦٢ باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهتر الدم في حقه وأن من قتل دون ماله فهو شهيد ، ٢٢٦ - بسنده عن سليمان الأحول أن ثابتاً مولى عمر بن عبد الرحمن أخبره أنه لما كان بين عبد الله ابن عمرو وبين عنبسه بن أبي سفيان ما كان تيسروا للقتال فركب خنظل بن العاص الى عبد الله ابن عمرو فوعظه خالد فقال عبد الله بن عمرو وذكره . ورواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٧٩ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٥ (حلي)

ويجوز للمظلومين الذين تراد أموالهم قتل المحاربين باجماع المسلمين . ولا يجب أن يبذل لهم من المال لا قليل ولا كثير إذا أمكن قتالهم ، فإن النبي (ﷺ) قال : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون حرمة فهو شهيد » .

وهذا الذي يسميه الفقهاء الصائل ، وهو الظالم بلا تأويل ولا ولاية . فإذا كان مطلوبه المال ، جاز منعه بما يمكن . فإذا لم يندفع إلا بالقتال قوتل ، وإن ترك القتال وأعطاهم شيئاً من المال جاز . وأما إذا كان مطلوبه الحرمه - مثل أن يطلب الزنا بمحارم الانسان ، أو يطلب من المرأة أو الصبي المملوك أو غيره الفجور به - فإنه يجب عليه أن يدفع نفسه بما يمكن ولو بالقتال (١) . ولا يجوز التمكين منه بحال ، بخلاف المال فإنه يجوز التمكين منه ، لأن بذل المال جائز ، وبذل الفجور بالنفس أو بالحرمه غير جائز .

وأما إذا كان مقصوده قتل الإنسان جاز له الدفع عن نفسه ، وهل يجب عليه قتله أم لا ؟ على قولين للعلماء في مذهب أحمد وغيره . وهذا إذا كان للناس سلطان ، فأما إذا كان - والعياذ بالله - فتنة مثل أن يختلف سلطانان للمسلمين ويقتتلان على الملك ، فهل يجوز للإنسان إذا دخل أحدهما بلد الآخر وجرى السيف أن يدفع عن نفسه في الفتنة أو يستسلم فلا يقاتل فيها ؟ على قولين لأهل العلم في مذهب أحمد وغيره . فإذا ظفر السلطان بالمحاربين الحرامية وقد أخذوا الأموال التي للناس - فعليه أن يستخرج منهم الأموال التي للناس ، ويردها عليهم مع إقامة الحد على أبدانهم .

وكذلك السارق ، فإن امتنعوا عن إحضارهم المال - بعد ثبوتهم عليهم - عاقبهم بالحبس والضرب حتى يمكنوا من أخذه بإحضاره أو توكيل من يحضره

(١) لقول الرسول ﷺ من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد .

والاخبار بمكانه ، كما يعاقب كل ممتنع من حق وجب عليه أدائه ، فإن الله قد أباح للرجل في كتابه أن يضرب امرأته ^(١) إذا نشزت فامتنعت من الحق الواجب عليها حتى تؤديه . فهؤلاء أولى وأحرى . وهذه المطالبة والعقوبة حق لرب المال ، فإن أراد هبتهما المال ، أو المصالحة عليه ، أو العفو عن عقوبتهم فله ذلك ، بخلاف إقامة الحد عليهم ، فإنه لا سبيل إلى العفو عنه بحال .

وليس للإمام أن يلزم رب المال بترك شيء من حقه ، وإن كانت الأموال قد تلفت بالأكل وغيره عندهم أو عند السارق ، فقل : يضمنونها لأربابها كما يضمن سائر الغارمين . وهو قول الشافعي وأحمد (رضي الله عنهما) . وتبقى مع الإعسار في ذمتهم إلى ميسرة ^(٢) ، وقيل : لا يجتمع العزم والقطع . وهو قول أبي حنيفة (رحمه الله) ، وقيل : يضمنونها مع اليسار فقط دون الإعسار . وهو قول مالك (رحمه الله) .

ولا يحل للسلطان أن يأخذ من أرباب الأموال جعلاً عن طلب المحاربين وإقامة الحد ، وارتجاع أموال الناس منهم ، ولا على طلب السارقين ، لا لنفسه ولا للجنود الذين يرسلهم في طلبهم . بل طلب هؤلاء من نوع الجهاد في سبيل الله ، فيخرج فيه جند المسلمين ، كما يخرج في

(١) قال تعالى : ﴿ واللّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴾ . سورة النساء آية رقم ٣٤ .

والنشوز الارتفاع ، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعروضة عنه الميغضة له فتمتئ ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرّم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال وقد قال رسول الله - ﷺ - لو كنت امرأة أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها . وروى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه . قال قال رسول الله - ﷺ - ! إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » ورواه مسلم ولفظه : إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح .

(٢) قال تعالى : ﴿ وإن كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ .

غيره من الغزوات التي تسمى البيكار ، وينفق على المجاهدين في هذا من المال الذي يتفق منه على سائر الغزاة . فإن كان لهم أقطاع أو عطاء يكفيهم ، وإلا أعطاهم تمام كفاية غزوهم من مال المصالح من الصدقات . فإن هذا من سبيل الله ^(١) . فإن كان على أبناء السبيل ^(٢) المأخوذون زكاة مثل التجار الذين قد يؤخذون فأخذ الإمام زكاة أموالهم وأنفقها في سبيل الله كنفقة الذين يطلبون المحاربين جاز . ولو كانت لهم شوكة قوية تحتاج إلى تأليف فأعطى الإمام من الفياء والمصالح أو الزكاة لبعض رؤسائهم يعينهم على إحضار الباقين ، أو لترك شره فيضعف الباقون ونحو ذلك ، جاز . وكان هؤلاء من المؤلفة قلوبهم . وقد ذكر مثل ذلك غير واحد من الأئمة كأحمد وغيره . وهو ظاهر بالكتاب والسنة وأصول الشريعة .

ولا يجوز أن يرسل الإمام من يضعف عن مقاومة الحرامية ولا من يأخذ مالا من المأخوذون التجار ونحوهم من أبناء السبيل ، بل يرسل من الجند الأقوياء الأمناء ، إلا أن يتعذر ذلك ، فيرسل الأمثل فالأفضل . فإن كان بعض نواب السلطان أو رؤساء القرى ونحوهم يأمرهم الحرامية بالأخذ في الباطن أو الظاهر حتى إذا أخذوا شيئا قاسمهم ودافع عنهم ^(٣) ، وأرضى المأخوذون

(١) قال تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ﴾ سورة التوبة آية رقم ٦٠ . وفي سبيل الله : الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان ، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق : والحج من سبيل الله للحديث .

(٢) ابن السبيل : هو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده ، وإن كان له مال « لأبي داود عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله وابن السبيل ، أو جار فقير فيهدي إليك أو يدعوك » .

(٣) لقد انتشر هذا الوباء الخطير في كثير من بلاد المسلمين أن رجل الأمن يساعد اللصوص ولقد صدق الشاعر عندما تساءل فقال :

بالمال نصلح ما نخشى تغييره فكيف بالمال إن حلت به الغير
كيف ... ؟

ببعض أموالهم أو لم يرضهم ، فهذا أعظم جرماً من مقدم الحرامية ، لأن ذلك يمكن دفعه بدون ما يندفع به هذا . والواجب أن يقال فيه ما يقال في الردء والعون لهم .

أ- فان قتلوا ، قتل هو على قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وأكثر أهل العلم .

ب- وإن أخذوا المال ، قطعت يده ورجله .

ح- وإن قتلوا وأخذوا المال ، قتل وصلب . وعلى قول طائفة من أهل العلم : يقطع ويقتل ويصلب . وقيل : يخير بين هذين ، وإن كان لم يأذن لهم ، لكن لما قدر عليهم قاسمهم الأموال وعطل بعض الحقوق والحدود .

ومن آوى محارباً أو سارقاً أو قاتلاً ونحوهم ممن وجب عليه حد أو حق لله تعالى أو لآدمي ، ومنعه ممن يستوفي منه الواجب بلا عدوان ، فهو شريكه في الجرم وقد لعنه الله ورسوله .

روى مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) :

« لعن الله من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً » (١) .

وإذا ظفر بهذا الذي آوى المحدث ، فإنه يطلب منه إحضاره أو الإعلام به ، فإن امتنع عوقب بالحبس والضرب مرة بعد مرة حتى يمكن من ذلك

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الأضاحي ٨ باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله ٤٣ (١٩٧٨) حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا منصور بن حيان حدثنا أبو الطفيل عامر ابن واثلة قال كنت عند علي بن أبي طالب فأتاه رجل فقال ما كان النبي - ﷺ - يسر إليك قال : فغضب وقال ما كان النبي - ﷺ - يسر إلي شيئاً يكتمه الناس غير أنه قد حدثني بكلمات أربع قال : فقال ما هن؟ أمير المؤمنين قال : قال : لعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض . . ورواه النسائي في الضحايا ٣٤ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٠٨ ، ١١٨ ، ١٥٢ .

المحدث ، كما ذكرنا أنه يعاقب الممتنع من أداء المال الواجب . فما وجب حضوره من النفوس والأموال يعاقب من منع حضورها . ولو كان رجلاً يعرف مكان المال المطلوب بحق ، أو الرجل المطلوب بحق ، وهو الذي يمنعه ، فإنه يجب عليه الإعلام به والدلالة عليه . ولا يجوز كتمانها ، فإن هذا من باب التعاون على البر والتقوى . وذلك واجب ، بخلاف ما لو كان النفس أو المال مطلوباً بباطل ، فإنه لا يحل الإعلام به ، لأنه من التعاون على الإثم والعدوان ، بل يجب الدفع عنه لأن نصر المظلوم واجب ، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . قلت : يا رسول الله ، أنصره مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : « تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه » (١) .

وروى مسلم نحوه عن جابر . وفي الصحيحين عن البراء ابن عازب (رضي الله عنه) قال : « أمرنا رسول الله (ﷺ) بسبع ، ونهانا عن سبع : أمرنا بعيادة المريض ، وإتباع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، وإجابة الدعوة ، ونصره المظلوم . ونهانا عن خواتيم الذهب ، وعن الشرب بالفضة ، وعن المياثر ، وعن لبس الحرير ، والقس ، والديباج ، والإستبرق » (٢) .

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب المظالم ٤ وكتاب الاكراه ٧ ورواه الامام الترمذي في الفتن ٦٨ والدارمي في كتاب الرقاق ٤٠ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٩٩ ، ٢٠١ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجنائز ٢ والمظالم ٥ والنكاح ٧١ وكتاب الأشربة ٢٨ وكتاب اللباس ٢٦ ، ٤٥ وكتاب الأدب ١٢٤ والاستئذان ٨ ورواه الامام مسلم في كتاب اللباس والزينة ٢ باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء ، وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء ، وإباحة العلم ونحوه للرجل ما لم يزد على أربع أصابع . ٣ - ٢٠٦٦) عن أشعث بن أبي الشعثاء وحدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا أشعث ، حدثني معاوية بن سويد بن مقرن قال : دخلت على البراء بن عازب فسمعتة يقول أمرنا رسول الله - ﷺ - بسبع ونهانا عن سبع وذكره . ورواه الترمذي في كتاب الأدب . ٤٥ .

فإن امتنع هذا العالم به من الإعلام بمكانه جاز عقوبته بالحبس وغيره حتى يخبر به ، لأنه امتنع من حق واجب عليه لا تدخله النيابة ، فعوقب كما تقدم . ولا تجوز عقوبته على ذلك إلا إذا عرف أنه عالم به . وهذا مطرد في ما تتولاه الولاية والقضاة وغيرهم في كل من امتنع من واجب من قول أو فعل . وليس هذا مطالبة للرجل بحق وجب على غيره ، ولا عقوبة على جنائية غيره حتى يدخل في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ^(١) .

ومن قول النبي (ﷺ) : « ألا لا يحني جان إلا على نفسه » ^(٢) .

وإنما ذلك مثل أن يطالب بمال قد وجب على غيره وهو ليس وكيلًا ولا ضامنًا ولا له عنده مال ، أو يعاقب الرجل بجريمة قريبه أو جاره من غير أن يكون قد أذنب لا بترك واجب ولا بفعل محرم ، فهذا الذي لا يحل ، فأما هذا فإنما يعاقب على ذنب نفسه ، وهو أن يكون قد علم مكان الظالم الذي يطلب حضوره لاستيفاء الحق ، أو مكان المال الذي قد تعلق به حقوق المستحقين ،

(١) سورة فاطر آية رقم ١٨ وتكملة الآية ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾ . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ ويقول تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في المناسك ٧٦ باب الخطبة يوم النحر ٣٠٥٥ عن شبيب بن غرقدة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول في حجة الوداع يا أيها الناس ألا أي يوم أحرم ثلاث مرات قالوا : يوم الحج الأكبر قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا لا يحني جان إلا على نفسه ، ولا يحني والد على ولده ولا مولود على والده ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً ، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى بها الخ . ورواه الترمذي في كتاب الفتن ٢ والتفسير سورة ٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٤ (حلي) .

فيمتنع من الإعانة والنصرة الواجبة عليه في الكتاب والسنة والإجماع ، إما محاباة وحمية لذلك الظالم - كما قد يفعل أهل المعصية بعضهم ببعض - وإما معاداة أو بغضاً للمظلوم ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١) .

وإما إعراضاً عن القيام لله ، والقيام بالقسط الذي أوجبه الله ، وجبناً وفشلاً وخذلاناً لدينه كما يفعله التاركون لنصر الله ورسوله ودينه وكتابه ، الذين إذا قيل لهم انفروا في سبيل الله إناقلوا إلى الأرض ، وعلى كل تقدير فهذا الضرب يستحق العقوبة باتفاق العلماء . ومن لم يسلك هذه السبل عطل الحدود ، وضع الحقوق ، وأكل القوى الضعيف ، وهو يشبه من عنده مال الظالم المماطل من عين أو دين ، وقد إمتنع من تسليمه لحاكم عادل يوفي به دينه ، أو يؤدي منه النفقة الواجبة عليه لأهله أو أقاربه أو مماليكه أو بهائمهم . وكثيراً ما يجب على الرجل حق بسبب غيره ، كما تجب عليه النفقة بسبب حاجة قريبه ، وكما تجب الدية على عاقلة القاتل .

وهذا الضرب من التعزير عقوبة لمن علم أن عنده مالاً أو نفساً يجب إحضاره ، وهو لا يحضره ، كالقطاع والسراق ومماثهم ، أو علم أنه خبير به وهو لا يخبر بمكانه .

فأما إن إمتنع من الإخبار والإحضار لثلا يعتدي عليه الطالب أو يظلمه فهذا محسن . وكثيراً ما يشتبه أحدهما بالآخر ويجتمع شبهه وشهرته . والواجب تمييز الحق من الباطل . وهذا يقع كثيراً في الرؤساء من أهل البداية والحاضرة . وإذا إستجار بهم مستجير ، أو كان بينهما قرابة أو صداقة فانهم يرون الحمية الجاهلية والعزة بالاثم والسمعة عند الأوباش أنهم ينصرونه وإن كان ظالماً مبطلاً

(١) سورة المائدة آية رقم ٨ .

على الحق المظلوم، لا سيما إن كان المظلوم رئيساً يناوئهم ويناوئونه ، فيرون في تسليم المستجير بهم إلى من يناوئهم ذلاً أو عجزاً . وهذا على الإطلاق جاهلية محضة ، وهم من أكبر أسباب فساد الدين والدنيا .

وقد ذكر أنه إنما كان سبب حرب من حروب الأعراب ، كحرب البسوس التي كانت بين بني بكر وتغلب إلى نحو هذا . وكذا سبب دخول الترك المغول دار الإسلام ، واستيلائهم على ملوك ما وراء النهر وخراسان كان سببه نحو هذا . ومن أذل نفسه لله أعزها . ومن بذل الحق من نفسه فقد أكرم نفسه ، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم . ومن اعتر بالظلم في منع وفعل الإثم فقد أذل نفسه وأهانها . قال الله تعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وقال تعالى عن المنافقين :

﴿ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ، وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى في صفة هذا الضرب :

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٢) سورة المنافقون آية رقم ٨ وفي سبب نزول هذه الآية قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن الحكم عن محمد بن كعب القرظي ، عن زيد بن أرقم قال كنت مع رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك فقال عبد الله بن أبي لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال فأتيت النبي - ﷺ - فأخبرته قال : فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك قال : فلا تني قومي ، وقالوا ما أردت إلى هذا ؟ قال : فانطلقت فتمت كتيباً حزيناً قال : فأرسل إلى نبي الله - ﷺ - فقال : إن الله قد أنزل عذرك وصدقك . قال فتزلت هذه الآية ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ .

ورواه البخاري عند هذه الآية عن آدم بن أبي إياس عن شعبة ثم قال : وقال ابن أبي زائدة عن الأعمش عن عمرو عن ابن أبي ليلى عن زيد عن النبي - ﷺ - ورواه الترمذي ، والنسائي عنده أيضاً من حديث شعبة به .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١) .

وإنما الواجب على من إستجار به مستجير ان كان مظلوماً ينصره ، ولا يثبت أنه مظلوم بمجرد دعواه ، فطالما اشتكى الرجل وهو ظالم ، بل يكشف خبره من خصمه وغيره ، فإن كان ظالماً رده عن الظلم بالرفق إن أمكن اما من صلح أو حكم بالقسط ، وإلا بالقوة . وإن كان كل منها ظالماً كأهل الأهواء ، من قيس وعين ونحوهم ، وأكثر المتداعين من أهل الأمصار والبادي ، أو كانا جميعاً غير ظالمين - لشبهة أو تأويل أو غلط وقع فيما بينهما - سعى بينهما بالإصلاح أو الحكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣)

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٩ - ١٠ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١١٤ روى ابن مردويه حدثنا محمد بن زيد بن حنشل قال : دخلنا على سفيان الثوري نعوذه فدخل علينا سعيد بن حسان فقال له الثوري الحديث الذي كنت حدثتني عن أم صالح رده علي ، فقال حدثني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت قال رسول الله ﷺ - كلام ابن آدم كله عليه لا إلا ذكر الله عز وجل أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر . فقال سفيان أو ما سمعت الله في كتابه يقول : لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر =

وقد روى أبو داود في السنن ، « عن النبي (ﷺ) أنه قيل له :
أمن المعصية أن ينصر الرجل قومه في الحق ؟

قال : لا . قال : ولكن من المعصية أن ينصر الرجل قومه في
الباطل . » (١) .

وقال : « خيركم الدافع عن قومه ما لم يَأْثُم » (٢) .

وقال : « مثل الذي ينصر قومه بالباطل كبعير تردى في بئر فهو يحجر
بذنبه » (٣) .

وقال : « من سمعتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا
تكنوا » (٤) .

وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن - من نسب ، أو بلد ، أو
جنس ، أو مذهب ، أو طريقة - فهو من عزاء الجاهلية . بل لما إختصم رجلان
من المهاجرين والأنصار فقال المهاجري : يا للمهاجرين ! وقال الأنصاري : يا

= بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس « فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول ﴿ يوم يقوم
الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما
سمعت الله يقول في كتابه ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ الخ فهو هذا بعينه ، وقد روى
هذا الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن حنبل عن سعيد بن حسان به ،
ولم يذكر أقوال الثوري إلى آخرها ثم قال الترمذي : حديث غريب لا يعرف إلا من حديث ابن
حنبل .

(١) الحديث رواه أبو داود في السنن وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٠٧ (حلي)

(٢) ورد هذا الحديث بلفظ مختلف في سنن أبي داود « كتاب الأدب » ولفظه « خيركم الدافع عن
عشيرته . . الخ » الحديث .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب « الأدب »

(٤) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٣٦ (حلي)

للأنصار ! قال النبي (ﷺ) : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » ؟ (١)
وغضب لذلك غضباً شديداً .

(١) هذا جزء من حديث طويل عند البخاري في كتاب المناقب ٨ باب ما ينهى عن دعوى الجاهلية
٣٥١٨ - أخبرنا محمد بن يزيد أخبرنا ابن جريج قال أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع جابراً رضي
الله عنه يقول : غزونا مع النبي - ﷺ - وقد تاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من
المهاجرين رجل لعاب فكسر أنصارياً فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا وقال
الإنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين فخرج النبي - ﷺ - فقال : ما بال دعوى
أهل الجاهلية ... ؟

فصل

وأما السارق فيجب قطع يده اليمنى بالكتاب والسنة والإجماع . قال الله تعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

ولا يجوز بعد ثبوت الحد بالبينة - أو بالإقرار - تأخيرها لا بحبس ولا مال يفتدى به ولا غيره ، بل تقطع يده في الأوقات المعظمة وغيرها ، فإن إقامة الحد من العبادات ، كالجهاد في سبيل الله . فينبغي أن يعرف أن إقامة الحدود رحمة من الله بعباده ، فيكون الوالي شديداً في إقامة الحد ، لا تأخذه رأفة في دين الله

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٨ - ٣٩ يقال : إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش قطعوا رجلاً يقال له دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال سرقه قوم فوضعوه عنده ، وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجدة الحنفي قال سألت ابن عباس عن قوله « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » أخاص أم عام . ؟ فقال بل عام وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده ، وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة .

فيعطله ، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات ، لا شفاء غيظه وإرادة العلو على الخلق ، بمنزلة الوالد إذا أدب ولده ، فإنه لو كف عن تأديب ولده كما تشير به الأم رقة ورأفة لفسد الولد ، وإنما يؤدبه رحمة به ، وإصلاحاً لحاله ، مع أنه يود ويؤثر أن لا يحوجه إلى تأديب ، وبمنزلة الطبيب الذي يسقي المريض الدواء الكريه ، وبمنزلة قطع العضو المتآكل والحجم وقطع العروق بالفصاد ونحو ذلك ، بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الكريه ، وما يدخله على نفسه من المشقة لينال به الراحة .

فهكذا شرعت الحدود ، وهكذا ينبغي أن تكون نية الوالي في إقامتها ، فإنه متى كان قصده صلاح الرعية والنهي عن المنكرات بجلب المنفعة لهم ، ودفع المضرة عنهم ، وإبتغى بذلك وجه الله تعالى وطاعة أمره ، ألان الله له القلوب ، وتيسرت له أسباب الخير ، وكفاه العقوبة البشرية ، وقد يرضى المحدود إذا أقام عليه الحد . وأما إذا كان غرضه العلو عليهم ، وإقامة رياسته ليعظموه أو ليلذلوا له ما يريد من الأموال ، انعكس عليه مقصوده .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز ^(١) (رضي الله عنه) قبل أن يلي الخلافة كان نائباً للوليد بن عبد الملك ^(٢) على مدينة النبي (ﷺ) وكان قد ساسهم

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي ، أبو حفص الخليفة الصالح ، والملك العال ، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين وهو من ملوك الدولة مروانية ولد عام ٦١ هـ وتوفي عام ١٠١ هـ ولي الخلافة بعهد سليمان بن عبد الملك بالشام سنة ٩٩ هـ مدة خلافته سنتان ونصف يقال : دس له السم .

راجع فوات الوفيات ٢ : ١٠٥ وتهذيب التهذيب ٧ : ٤٧٥ وحلية الأولياء ٥ : ٢٥٣-٢٥٤
(٢) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي الدمشقي الذي أنشأ جامع بني أمية . بويع بعهد من أبيه ، وكان مترفاً ، قليل العلم ، نهمته في البناء وفتح بوابة الأندلس ، وبلاد الترك ، وكان لحنة ، وحرص على النحو أشهراً فيما نفع ، وغزا الروم مرات في دولية أبيه وحج ، وقيل : كان يختم في ثلاث ، وختم في رمضان سبع عشرة ختمة . مات في جمادى الآخر سنة ست وتسعين ، وله إحدى وخمسون سنة ، وكان في الخلافة عشر سنين سوى أربعة أشهر وقبره بباب صغير .

سياسة صالحة ، فقدم الحجاج من العراق وقد ساءهم سوء العذاب ، فسأل أهل المدينة عن عمر : كيف هيئته فيكم ؟ قالوا : ما نستطيع أن ننظر إليه . قال : كيف محبتكم له ؟ قالوا : هو أحب إلينا من أهلنا . قال : فكيف أدبه فيكم ؟ قالوا : ما بين الثلاثة الأسواط إلى العشرة . هذه هيئته ، وهذه محبته ، وهذا أدبه . هذا أمر من السماء .

وإذا قطعت يده حسمت واستحب أن تعلق في عنقه . فإن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى . فإن سرق ثالثاً ورابعاً ففيه قولان للصحابه ومن بعدهم من العلماء : أحدهما - تقطع أربعته في الثالثة والرابعة ، وهو قول أبي بكر (رضي الله عنه) ، ومذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين .

والثاني - أنه يجبس ، وهو قول علي (رضي الله عنه) والكوفيين وأحمد في روايته الأخرى .

وإنما تقطع يده إذا سرق نصاباً وهو ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم عند جمهور العلماء من أهل الحجاز وأهل الحديث وغيرهم كمالك والشافعي وأحمد . ومنهم من يقول : دينار أو عشرة دراهم . فمن سرق ذلك قطع بالإتفاق . وفي الصحيحين عن ابن عمر (رضي الله عنهما) « أن رسول الله (ﷺ) قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم » (١) .

= راجع المعارف ٣٥٩ وتاريخ يعقوبي ٣ : ٢٧ ، والطبري ٦ : ٤٩٥ ومروج الذهب ٣ : ٣٦٥ وتاريخ ابن عساکر ١٧ : ٤٢٠ وتاريخ ابن الأثير ٥ : ٨ وتاريخ الاسلام ٤ : ٦٥ والعبير ١ : ١١٤ وفوات الوفيات ٤ : ٢٥٤ كانت قديماً إذا قطعت وضعت في زيت مغلي حتى يجف الدم . أما الآن فهناك الوسائل الحديثة الطبية التي تغني عن ذلك . ولكن أين تطبيق حدود الله ؟ .. ومن من الملوك والرؤساء يعد العدة ويبيع نفسه لله ويطبق شرع الله من ... ؟

(١) الحديث عند البخاري في كتاب الحدود ١٣ باب قول الله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ ٦٧٩٥ حدثني مالك بن أنس عن نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ وذكره .

وفي لفظ لمسلم « قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم » . والمجن الترس^(١) .

وفي الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال رسول الله (ﷺ) : « تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً »^(٢) .

وفي رواية لمسلم : « لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً » .

وفي رواية للبخاري قال : « اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيها هو أدنى من ذلك » .

وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم . والدينار إثنا عشر درهماً .

ولا يكون السارق سارقاً حتى يأخذ المال من حرز . فأما المال الضائع من صاحبه ، والثمر الذي يكون في الشجر في الصحراء بلا حائط ، والماشية التي لا راعي عندها ، ونحو ذلك ، فلا قطع فيه . لكن يعزر الآخذ ، ويضاعف عليه الغرم ، كما جاء به الحديث .

وقد اختلف أهل العلم في التضعيف ، ومن قال به أحمد وغيره ، قال رافع بن خديج : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « لا قطع في ثمر ولا في

(١) الحديث عند الامام مسلم في كتاب الحدود باب ٥ ، ٦ .

(٢) الحديث عند البخاري في كتاب الحدود ١٣ باب قول الله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾

٦٧٩٠ - عن ابن وهب ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن عروة بن الزبير وعمره عن عائشة - عن النبي - ﷺ وذكره .

الإسلام حريص جد الحرص على أطراف الإنسان ، ولكن اليد لما خانت هانت ، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله :

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
فأجاب القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها وأرخصها صيانة المال فانهم حكمة الباري

كثّر « (١) . والكثّر جمار النخل . رواه أهل السنن .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده (رضي الله عنه) ، قال :
« سمعت رجلاً من مزينة يسأل رسول الله (ﷺ) قال : يا رسول الله ، جئت
أسألك عن الضالة من الإبل ، قال : معها حذاؤها (٢) وسقاؤها (٣) : تأكل
الشجر وترد الماء فدعها حتى يأتيها باغيها ، قال : فالضالة من الغنم ؟ قال :
لك أو لأخيك أو للذئب ، تجمعها حتى يأتيها باغيها . قال : « فالحريرة التي
تؤخذ من مراتعها ؟ قال : فيها ثمنها مرتين ، وضرب نكال . وما أخذ من
عطنه (٤) ففيه القطع إذا بلغ ما يؤخذ من ذلك ثمن المجن . قال يا رسول الله ،
فالثمار وما أخذ منها من أكمامها (٥) ؟ قال : من أخذ منها بفمه ولم يتخذ
خبنة (٦) فليس عليه شيء ، ومن احتمل فعله ثمنه مرتين وضرب نكال . وما
أخذ من أجرانه ففيه القطع إذا بلغ ما يؤخذ من ذلك ثمن المجن ، وما لم يبلغ
ثمن المجن ففيه غرامة مثليه ، وجلدات نكال (٧) . رواه أهل السنن . لكن

(١) الحديث عند أبي داود في كتاب الحدود ١٣ ، والترمذي في الحدود ١٩ والنسائي في الحدود ١٣ ،
وابن ماجه في الحدود ٢٧ ، والدارمي في الحدود ٧ والموطأ في الحدود ٣٢ وأحمد بن حنبل في
المسند ٣ : ٤٦٣ ، ٤ : ١٤٠ ، ١٤٢ (حلي) .

(٢) حذاؤها بكسر المهملة ثم ذال معجمة ، والمراد هنا خفها

(٣) سقاؤها : هو بكسر أوله والمراد بذلك أجوافها لأنها تشرب فتكتفي به أياماً .

(٤) العطن : مبرك الإبل حول الحوض .

(٥) الأكمام : جمع كم وهو وعاء الطلع للنخل .

(٦) الخبنة : وضع الشيء المسروق خلصة في السراويل .

(٧) الحديث عند البخاري في كتاب العلم ٢٨ باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره ،

٩١ حدثنا سليمان بن بلال المدني عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن يزيد مولى المنبث عن زيد

ابن خالد الجهني أن النبي - ﷺ - سأله رجل عن اللقطة وذكره . وأيضاً في كتاب المساقاة ١٢ ،

وكتاب اللقطة ٢ - ٤ ، ٩ ، ١١ وكتاب الطلاق ٢٢ ورواه الامام مسلم في اللقطة ١ ، ٢ ،

٥ ، وأبو داود في اللقطة ، والترمذي في الأحكام ٣٥ وابن ماجه في اللقطة ١ ، والموطأ في

الأقضية ٤٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٨٠ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٤ : ١١٥ ، ١١٧

(حلي)

هذا سياق النسائي ، ولذلك قال النبي (ﷺ) : « ليس على المتهب ولا على المختلس ولا الخائن قطع » (١) .

فالمتهب الذي ينهب الشيء ، والناس ينظرون ، والمختلس الذي يجتذب الشيء ، فيعلم به قبل أخذه ، وأما الطرار وهو البطاط الذي يبط الجيوب والمناديل والأكمام ونحوها ، فإنه يقطع على الصحيح .

(١) الحديث عند ابن ماجه في الحدود ٢٦ ، وأبو داود في الحدود ١٤ ، والترمذي في الحدود ١٨ والنسائي في السارق ١٣ والدارمي في الحدود ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٨٠ (حلي) .

فصل

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ^(١) .

قال عامة المفسرين كابن عباس ومجاهد وعطاء والفراء : الوسيلة :
القربة .

قال قتادة : تقربوا إلى الله بما يرضيه .

قال أبو عبيدة : توسلت إليه أي تقربت .

وقال عبد الرحمن بن زيد : تحببوا إلى الله . والتحبب والتقرب إليه إنما هو
بطاعة رسوله . فالإيمان بالرسول وطاعته هو وسيلة الخلق إلى الله ، ليس لهم
وسيلة يتوسلون بها البتة إلا الإيمان برسوله وطاعته . وليس لأحد من الخلق
وسيلة إلى الله تبارك وتعالى إلا توسله بالإيمان بهذا الرسول الكريم وطاعته .
وهذه يؤمر بها الإنسان حيث كان من الأمكنة ، وفي كل وقت . وما حض من
العبادات بمكان كاللحج ، أو زمان كالصوم والجمعة ، فكل في مكانه وزمانه .

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٥ « الوسيلة » قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس أي
القربة ، وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن ، وقاتدة ، وعبد الله بن كثير ، والسدي ، وابن زيد
وغير واحد ، وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته ، والعمل بما يرضيه وقرأ : أولئك الذين
يدعون يتبعون إلى ربهم الوسيلة » وأنشد ابن جرير قول الشاعر :
إذا غفل الواشنون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل

وليس لنفس الحجرة من داخل فضلاً عن جدارها من خارج إختصاص شيء في شرع العبادات ولا فعل شيء منها . فالقرب من الله أفضل منه بالبعد منه باتفاق المسلمين . والمسجد خص بالفضيلة في حياته (ﷺ) قبل وجود القبر . فلم تكن فضيلة مسجده لذلك ، ولا استحب هو (ﷺ) ولا أحد من أصحابه ولا علماء أمته أن يجاور أحد عند قبر ، ولا يعكف عليه ، لا قبره المكرم ولا قبر غيره . ولا أن يقصد السكنى قريباً من قبر ، أي قبر كان . وسكنى المدينة النبوية هو أفضل في حق من تتكرر طاعته لله ورسوله فيها أكثر . كما كان الأمر لما كان الناس مأمورين بالهجرة إليها . فكانت الهجرة إليها والمقام بها أفضل من جميع البقاع ، مكة وغيرها ، بل كان ذلك واجباً من أعظم الواجبات : فلما فتحت مكة قال النبي (ﷺ) : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » (١) .

وكان من أتى من أهل مكة وغيرهم ليهاجر ويسكن المدينة يأمره أن يرجع إلى مدينته ، ولا يأمره بسكنائها . كما كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يأمر الناس عقب الحج أن يذهبوا إلى بلادهم لئلا يضيّقوا على أهل مكة . وكان يأمر كثيراً من أصحابه وقت الهجرة أن يخرجوا إلى أماكن أخرى لولاية مكان وغيره . وكانت طاعة الرسول بالسفر إلى غير المدينة أفضل من المقام عنده بالمدينة حين كانت دار الهجرة ، فكيف بها بعد ذلك ؟ إذ كان الذي ينفع الناس طاعة الله ورسوله . وأما ما سوى ذلك فإنه لا ينفعهم لا قرابة ولا مجاورة ولا غير ذلك .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الجهاد والسير ١ باب فضل الجهاد والسير وقول الله تعالى ﴿ إِنْ لَمْ يَنْتَهِبُوا مِنْكُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَكُمْ الْخِزْيَاءُ ﴾ الخ الآية .
 ٢٧٨٣ حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا سفيان قال : حدثني منصور عن مجاهد عن طاوس ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : رسول الله - ﷺ - وذكره . وفيه زيادة (وإذا استغفرتهم فانفروا) .

كما ثبت عنه في الحديث الصحيح أنه قال : « يا فاطمة بنت محمد ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا عباس عم رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً » (١) .

وقال (ﷺ) : « إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين » (٢) .

وقال : « إن أوليائي المتقون حيث كانوا ومن كانوا » .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٢ باب وأنذر عشيرتك الأقربين ٤٧٧١ - حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرنا سعيد بن المسيب ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حتى أنزل الله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال : يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً وذكره ورواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان باب في قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ١٤ باب تبذل الرحم ببلالها ٥٩٩ - حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن اسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم أن عمرو بن العاص - رضي الله عنه قال : سمعت النبي - ﷺ - جهاراً غير سر يقول : إن آل أبي - قال عمرو في كتاب محمد بن جعفر بياض - ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالح المؤمنين « زاد عنه بن عبد الواحد عن بيان عن قيس عن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي - ﷺ - ولكن لهم رحم أهلها ببلالها : يعني أصلها بصلتها .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله فصل

قوله : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ ^(١) قيل :
اللام لام كي ، أي يسمعون ليكذبوا ويسمعون لينقلوا إلى قوم آخرين لم
يأتوك ، فيكونون كذابين ونمامين جواسيس ، والصواب أنها لام التعدي ، مثل
قوله : « سمع الله لمن حمده » فالسمع مضمن معنى القبول أي قابلون
للكذب ويسمعون من قوم آخرين لم يأتوك ويطيعونهم ، فيكون ذمالهم على
قبول الخبر الكاذب وعلى طاعة غيره من الكفار والمنافقين ، مثل قوله :
﴿ وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ ﴾ ^(٢) أي هم
يطلبون أن يفتنوكم وفيكم من يسمع منهم فيكون قد ذمهم على اتباع الباطل
في نوعي الكلام خبره وإنشائه ، فإن باطل الخبر الكذب ، وباطل الإنشاء
طاعة غير الرسل وهذا بعيد ثم قال : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ
لِلسُّحْتِ ﴾ ^(٣) فذكر أنهم في غذائي الجسد والقلب يغتذون الحرام ، بخلاف

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٤٢ .

والسحت في اللغة : أصله الهلاك والشدة ، قال الله تعالى : فيسحتكم بعذاب « وقال
الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلف =

من يأكل الحلال ولا يقبل إلا الصدق ، وفيه ذم لمن يروج عليه الكذب ويقبله ، أو يؤثره لموافقته هواه ويدخل فيه قبول المذاهب الفاسدة ، لأنها كذب لا سيما إذا اقترن بذلك قبولها لأجل العوض عليها ، سواء كان العوض من ذي سلطان أو وقف أو فتوح أو هدية أو أجرة أو غير ذلك ، وهو شبيهه بقوله : ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(١) أهل البدع وأهل الفجور الذين يصدقون بما كذب به على الله ورسوله وأحكامه ، والذين يطيعون الخلق في معصية الخالق .

ومثله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يَقُولُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ ^(٢) فإنما تنزلت بالسمع الذي يخلط

= وسمى المال الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات أي يذهبها ويستأصلها وقال الفراء أصله كلب الجوع يقال رجل مسحوت المعدة أي أكل

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٤ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ - ٢٢٣ روى البخاري من حديث الزهري أخبرني يحيى بن عروة ابن الزبير أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة رضي الله عنها - سألت ناس النبي - ﷺ عن الكهان فقال : إنهم ليسوا بشيء » قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً . فقال النبي - ﷺ - تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة . وروى البخاري أيضاً حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، قال : سمعت عكرمة ، سمعت أبا هريرة يقول : إن النبي - ﷺ - قال : إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنها سلسلة على صفوان . فإذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقئها إلى من تحته ثم يلقئها الآخر إلى من تحته حتى يلقئها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقئها وربما ألغها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » تفرد به البخاري ، وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار قريباً من هذا » والله أعلم .

فيه بكلمة الصدق ألف كلمة من الكذب على من هو كذاب فاجر ، فيكون سماعاً للكذب من مسترقة السمع .

ثم قال في السورة : ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ (١) فقول الإثم وسماع الكذب وأكل السحت أعمال متلازمة في العادة وللحكام منها خصوص ، فإن الحاكم إذا ارتشى سمع الشهادة المزورة ، والدعوى الفاجرة ، فصار سماعاً للكذب أكثراً للسحت قائلاً للإثم . ولهذا خير نبيه ﷺ بين الحكم بينهم وبين تركه ؛ لأنه ليس قصدهم قبول الحق وسماعه مطلقاً ؛ بل يسمعون ما وافق أهواءهم وإن كان كذباً ، وكذلك العلماء الذين يقولون الروايات المكذوبة .

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٣ .

فصل

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ﴾ . الى قوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ؟ ﴾ (١) .

يعلم من هذا أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس وبعد مجيء بختنصر ، وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد - ﷺ - فيها حكم الله .

والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله - ﷺ - وإن قيل : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك .

فإن هذا غير معلوم لنا ، وهو أيضاً متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ وإشاعة ذلك عند الاتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك ، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب إنما

(١) - سورة المائدة آية رقم ٤١ - ٤٣ .

يختلف في اليسير من ألفاظها ، فتبدل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن أحد أن يجزم بنفيه ، ولا يقدر أحد من اليهود والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة في العالم بالكتابين متفقة الألفاظ ، إذ هذا لا سبيل لأحد الى علمه والاختلاف اليسير في ألفاظ هذه الكتب موجود في الكثير من النسخ كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث ، أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ ، وهذا بخلاف القرآن المجيد الذي حفظت ألفاظه في الصدور ، وبالنقل المتواتر لا يحتاج أن يحفظ في كتاب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) وذلك أن اليهود قبل النبي - ﷺ - وعلى عهده وبعده منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة . وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة ، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها ، ولو كان هذا ممكناً لكان ذلك من الوقائع العظيمة التي تتوفر الدواعي على نقلها ! وكذلك في الانجيل قال تعالى : ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ فِيهِ ﴾ ^(٢)

فعلم أن في هذا الإنجيل حكماً أنزله الله تعالى ، ولكن الحكم هو من باب الأمر والنهي ، وذلك لا يمنع أن يكون التغيير في باب الأخبار ، وهو الذي وقع فيه التبديل لفظاً ، وأما الأحكام التي في التوراة ، فما يكاد أحد يدعى التبديل في ألفاظها ، وقد ذكر طائفة من العلماء أن قوله تعالى في الإنجيل : ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ فِيهِ ﴾ .

هو خطاب لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل لا الموجودين بعد مبعث محمد - ﷺ - .

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقراءة من قرأ : ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ ﴾ بكسر اللام كقراءة حمزة ، فإن هذه لام كي ، فإنه تعالى قال :

(١) سورة الحجر آية رقم ٩ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٧ .

﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ، وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(١) فإذا قرأ ﴿ وليحكم ﴾ كان المعنى وآتيناه الإنجيل لكذا وكذا ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله في الإنجيل الحق ولا يدل على أن الإنجيل الموجود في زمن الرسول هو ذلك الإنجيل .

وأما قراءة الجمهور ﴿ وليحكم أهل الإنجيل ﴾ فهو أمر بذلك . فمن العلماء من قال : هو أمر لمن كان الإنجيل الحق موجوداً عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه ، وعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿ وليحكم ﴾ أمراً لهم قبل مبعث محمد - ﷺ . وقال آخرون : لا حاجة الى هذا التكليف ، فإن القول في الإنجيل كالقول في التوراة .

وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسُّحْرِ فَلِإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، ^(٢) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٦ - ٤٧ .

(٢) قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس . قال : قال ابن عباس أنزلها الله في الطائفتين من اليهود =

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴿١﴾ .

فهذا قد صرح بأن أولئك الذين تحاكموا الى النبي - ﷺ - من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله ثم تولوا عن حكم الله وقال بعد ذلك : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾

وهذه لام الأمر ، وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد . وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع ، وإنما يكون الأمر أمراً لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر ، فعلم أنه أمر لمن كان موجوداً حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل ، والله أنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمد - ﷺ - كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح .

= وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق فكانوا على ذلك حتى قدم النبي - ﷺ - فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً فأرسلت العزيزة الى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق ، فقالت الذليلة وهل كان في حيين دينهما واحد ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض إنما أعطيناكم هذا خوفاً منكم لنا وفرقاً منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم فكادت الحرب تبيح بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله - ﷺ - بينهم - ثم دسوا له بعض أراء المنافقين فأعلم الله رسوله بذلك - فنزلت هذه الآية .

(١) سورة المائدة من ٤١ - ٤٦ .

وما نسخه فقد أمروا فيه باتباع المسيح ، وقد أمروا في الانجيل باتباع محمد ﷺ - لمن حكم من أهل الكتاب بعد مبعث محمد ﷺ - بما أنزله الله في التوراة والإنجيل ولم يحكم بما يخالف حكم محمد ﷺ - إذ كانوا مأمورين في التوراة والإنجيل باتباع محمد ﷺ - كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٢) . فجعل القرآن مهيمناً . والمهيمن : الشاهد الحاكم المؤتمن فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يبدل ولهذا قال : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾ .

وقد ثبت في الصحاح والسنن والمسانيد هذا . ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما أنه قال : إن اليهود جاءوا الى رسول الله - ﷺ - فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا فقال لهم رسول الله - ﷺ - ما

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ . قال ابن جرير حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو . فقلت أخبرني عن صفة رسول الله - ﷺ - في التوراة قال : أجل . والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِراً وَنَذِيراً ﴾ وحرزاً للأمين ، أنت عبدي ورسولي ، اسمك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً ، وأعيناً عمياً . قال عطاء ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته : قال قلوباً غلوفياً ، وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً . وقد رواه البخاري في صحيحه عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن علي فذكر بإسناده نحوه . وزاد بعد قوله : ليس بفظ ولا غليظ « لا صحاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح » .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٨ .

تجدون في التوراة في شأن الرجم . . ؟

قالوا : نفضحهم ويجلدون .

فقال عبد الله بن سلام : كذبتُم . إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم . فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبد الله : ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم .

فقالوا : صدق يا محمد . فأمر بهما النبي - ﷺ ، فرجما ^(١) . وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال : أتى رسول الله - ﷺ - بيهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق حتى جاء يهودي . فقال : ما تجدون في التوراة على من زنى . . ؟

قالوا : نسود وجوههما ويطاف بهما .

قال : فأتوا بالتوراة فأتوها إن كنتم صادقين .

قال : فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال عبد الله بن سلام : مره فليرفع يده فرفعها . فإذا تحتها آية الرجم .

قالوا : صدق فيها آية الرجم ، ولكننا نتكاته بيننا ، وأن أحبارنا أحدثوا التحميم والتحية . فأمر رسول الله - ﷺ - برجمهما فرجما ^(٢) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المناقب ٢٦ باب قول الله تعالى ﴿ يعترفون كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ . ٣٦٣٥ أخبرنا مالك بن أنس عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه أن اليهود جاءوا الى رسول الله - ﷺ - وذكره . وفيه زيادة قال عبد الله : قرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقبها الحجارة »

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الحدود ٢٤ باب الرجم في البلاط ٦٨١٩ - حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان ، حدثني عهد الله بن دينار عن ابن عمر - رضي الله عنها قال أتى رسول الله - ﷺ - بيهودي ويهودية - وذكره - وفي سنن أبي داود في كتب الأقضية .

وأخرج مسلم عن البراء بن عازب - رضي الله عنه أنه قال : مر علي رسول الله - ﷺ - يهودي محمم مجلود فدعاهم . فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم .. ؟

قالوا : نعم . فدعى رجلاً من علمائهم . فقال : أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم .. ؟

قالوا : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا . فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والضعيف فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم .

فقال رسول الله - ﷺ - اللهم أني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم ^(١) .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ - إِلَى قَوْلِهِ - فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - إِلَى الظَّالِمُونَ - إِلَى - الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٢) قال هي في الكفارة كلها .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال : رجم النبي - ﷺ - رجلاً من أسلم ، ورجلاً من اليهود ^(٣) .

وأما السنن ففي سنن أبي داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر - رضي

(١) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية - حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن البراء بن عازب وذكره . وانفرد بإخراجه مسلم دون البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤١ - ٤٧ .

(٣) وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان حدثنا مجالد بن سعيد الهمداني عن الشعبي عن جابر بن عبد الله - قال : وذكره . ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث مجالد به نحوه ، ثم رواه أبو داود عن الشعبي وإبراهيم النخعي مرسلاً .

الله عنهما أنه قال : أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله - ﷺ الى القف فأتاهم في بيت المدارس فقالوا : يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم بينهم ، فوضعوا لرسول الله - ﷺ - وسادة فجلس عليها ثم قال : ائتوني بالتوراة فأتي بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك ثم قال : ائتوني بأعلمكم فأني بشاب ثم ذكر قصة الرجم (١) .

وأخرجه أيضاً أبو داود وغيره عن أبي هريرة أنه قال : « زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا الى هذا النبي ، فإنه بنى بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، فقلنا نبي من أنبيائك .

قالوا : فأتوا النبي - ﷺ - وهو جالس في المسجد في أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة - منهم - زنيا - فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم ، فقام على الباب فقال أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن . . ؟

قالوا : نحمم ونحبيه ، ونجلده - والتحية أن يحمل الزانيان على حمار ويقابل أقفيتهما ويطاف بهما . قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبي - ﷺ - ساكتاً أنشده . فقال : اللهم إذ أنشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم .

فقال النبي - ﷺ - فما أول ما ارتخصتم أمر الله . . ؟ قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه . وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم .

قال النبي - ﷺ - فإني أحكم بما في التوراة ، فأمر بهما فرجما « (٢) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأفضية . قال أبو داود : حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني ، حدثنا =

قال الزهري : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ (١) .

وكان النبي - ﷺ - منهم ، وأيضاً فقد تحاكموا إليه في القود الذي كان بين بني قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل بعض إحدى القبيلتين قتيلاً من الأخرى فيقتلونه ولم يضعفوا الدية ، وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به وأضعفوا الدية . قال أبو داود سليمان بن الأشعث في سننه : حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن علي بن صالح ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به ، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودى مائة وسق من تمر .

فلما بعث النبي - ﷺ - قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا : ادفعوه إلينا نقتله فقالوا : بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ (٢) .

والقسط : النفس بالنفس ثم نزلت : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ ﴾ (٣) قال أبو داود : قريظة والنضير من ولد هارون . وبسط هذا له موضع آخر ، وعلى كل قول ، فقد أخبر الله عز وجل أن في التوراة الموجودة بعد المسيح عليه السلام حكم الله ، وأن أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذي في التوراة مع كفرهم بالمسيح ، وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذي جاء به الكتاب ، ولم

= ابن وهب ، حدثنا هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه عن ابن عمر - رضي الله عنه وذكره .
ورواه أحمد أيضاً وابن جرير .

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٥٠ وتكملة الآية ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوفنون ﴾ .

ينسخه الرسول الثاني .

وهذا من التبديل الثاني الذي ذموا عليه ، ودل على أن في التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكماً أنزله الله أمروا أن يحكموا به ، وهكذا يمكن أن يقال في الإنجيل .

ومعلوم أن الحكم الذي أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة . لم ينسخه الإنجيل ولا القرآن ، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما لم ينسخه القرآن ، وذلك أن الدين الجامع أن يعبد الله وحده ويأمر بما أمر الله به ويحكم بما أنزله الله في أي كتاب أنزله ولم ينسخه فإنه يحكم به .

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة أن شرع من قبلنا شرع لنا (١) ما لم يرد شرعنا بخلافه ، ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله في القرآن وفيه الناسخ ، والمنسوخ . فهكذا القول في جنس الكتب المنزلة .

قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ (٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ

(١) قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ .

سورة الشورى آية رقم ١٣

(٢) اختلف العلماء في معنى (شرعة و منهجاً) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن يوسف بن أبي اسحاق عن أبيه عن التميمي عن ابن عباس (لكل جعلنا منكم شرعة) قال : سيلاً ، وحدثنا أبو سعيد ، حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي اسحاق عن ابن عباس (ومنهجا) قال سنة ، وكذا روى العوفي عن ابن عباس (شرعة ومنهجا) سيلاً وسنة وكذا روي عن مجاهد وعكرمة ، والحسن البصري ، وقتادة والضحاك ، والسدي وأبي =

بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ
يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ
فِيُضِيبُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ، وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ
أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ
أَذَلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ
لَوْمَةً لَائِمَ ذَلِكَ فَضَلَّ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ،
وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١﴾ .

= اسحاق السبيعي أنهم قالوا في قوله شرعة ومنهاجاً) أي سبيلاً وسنة ، وعن ابن عباس أيضاً
ومجاهد أي وعطاء الخرساني عكسه « شرعة ومنهاجاً » أي سنة وسبيلاً ، والأول أنس فإن الشرعة
وهي الشريعة أيضاً - هي ما يتبدأ فيه إلى الشيء - ومنه يقال شرع في كذا أي ابتدأ فيه ، وكذا
الشريعة - وهي ما يشرع فيها إلى الماء أما المنهاج : فهو الطريق الواضح السهل ، والسنن
الطرائق ، وهذا أخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع
المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد - كما ثبت في صحيح البخاري - عن أبي هريرة - رضي الله
عنه - أن رسول الله - ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد « يعني بذلك
التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا
من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل
أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت ﴾ والله أعلم .

(١) سورة المائدة الآيات ٤٨ - ٥٦ .

فقد أمر نبيه محمداً - ﷺ - أن يحكم بما أنزل الله إليه وحذره اتباع أهوائهم وبين أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية حيث قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وأخبره تعالى أنه جعل لكل من أهل التوراة ، والإنجيل والقرآن شرعة ومنهاجاً وأمره تعالى بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس لأحد في وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله والذي أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسول . وهم متفقون في أصول الدين وقواعد الشريعة ، وإن تنوعوا في الشريعة والمنهاج بين ناسخ ومنسوخ فهو شبيه بتنوع حال الكتاب ، فإن المسلمين كانوا أولاً مأمورين بالصلاة لبيت المقدس ، ثم أمروا أن يصلوا الى المسجد الحرام ، وفي كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله عز وجل . وكذلك موسى عليه السلام ، كان مأموراً بالسبت محرماً عليه ما حرمه الله في التوراة ، وهو متبع ما أنزله الله عز وجل والمسيح - ﷺ - أحل بعض ما حرمه الله في التوراة ، وهو متبع ما أنزل الله عز وجل ، فليس في أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ كما أنه ليس في أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ بل إذا كان ناسخ ومنسوخ بالذي أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ فمن حكم بالمنسوخ (فقد حكم) بغير ما أنزل الله ، ومما يوضح هذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيزِدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فإن هذا يبين أن هذا أمر لمحمد - ﷺ - أن يقول لأهل الكتاب الذي بعث إليهم : أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم . فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله وأنهم

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٨ .

مأمورون باقامته إذ كان ذلك مما قرره محمد - ﷺ ، ولم ينسخه ، ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبي ولم ينسخه النبي الثاني بل أقره كان الله أمراً به على لسان نبي بعد نبي ، ولم يكن في بعثه الثاني ما يضاد وجوب اتباع ما أمر به النبي الأول ، وقرره النبي الثاني . ولا يجوز أن يقال : إن الله ينسخ بالكتاب الثاني جميع ما شرعه بالكتاب الأول ، إنما المنسوخ قليل بالنسبة الى ما اتفقت عليه الكتب والشرائع . وأيضاً ففي التوراة والانجيل ما يدل على نبوة محمد - ﷺ - فإذا حكم أهل التوراة والانجيل بما أنزل الله فيهما ، حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد - ﷺ - وهذا يدل على أن في التوراة والانجيل ما يعلمون أن الله أنزله ، إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله ولا يعلمون ما أنزل الله ، والحكم إنما يكون في الأمر والنهي ، والعلم ببعض معاني الكتب لا ينافي عدم العلم ببعضها ، وهذا متفق عليه في المعاني ، فإن المسلمين ، واليهود والنصارى متفقون على أن في الكتب الالهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ^(١) ، وأنه أرسل الى الخلق رسلاً من البشر ، وأنه أوجب العدل وحرّم الظلم والفواحش والشرك ، وأمثال ذلك من الشرائع الكلية وأن فيها الوعد بالثواب والوعيد بالعقاب بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر وقد تنازعوا في بعض معانيها واختلفوا في تفسير ذلك كما اختلفت اليهود والنصارى في المسيح المبشر به النبوات ، هل هو المسيح بن مريم عليه السلام ، أو مسيح آخر ينتظر ؟ والمسلمون يعلمون أن الصواب في هذا مع النصارى ، لكن لا يوافقهم على ما أحدثوا فيه من الافك والشرك .

(١) قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .
 والأعراف آية ٥٩ .

وقال تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ .
 وقال تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . الأعراف آية رقم ٧٣ .

وقال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ سورة الأعراف آية رقم ٨٥ .

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخيرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل ، لا سيما إذا كان في نفس الكتاب ما يدل على المبدل وقد يقال إن ما بدل من ألفاظ التوراة والانجيل ففي نفس التوراة والانجيل ما يدل على تبدله فهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول : إنه لم يبدل شيء من ألفاظها ، فإنهم يقولون : إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التوراة والانجيل قبل مبعث محمد - ﷺ لم يعلم الحق من الباطل فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب فلا يذمون حيثئذ على ترك اتباعهما . والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيها واستشهد بهما في مواضع . وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قليل ، والأكثر لم يبدل ، والذي لم يبدل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود تبين غلط ما خالفها ، ولها شواهد ونظائر متعددة ، يصدق بعضها بعضاً ، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة ، وسائر نصوص الكتب يناقضها ، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي - ﷺ - فإنه إذا وقع في سنن أبي داود والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة كان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي - ﷺ - ما يبين ضعف تلك ، بل وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط ، وفي نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها ، مثل ما روي : أن الله خلق التربة يوم السبت ، وجعل خلق المخلوقات في الأيام السبعة ، فإن هذا الحديث قد بين أئمة الحديث ، كیحیی بن معین ^(١) ، وعبد الرحمن بن مهدي ^(٢) ،

(١) یحیی بن معین بن عون بن زیاد المري بالولاء أبو زکریا من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله ، نعتة الذهبي بسيد الحفاظ ، وقال العسقلاني إمام الجرح والتعديل . وقال ابن حنبل : أعلمنا بالرجال ، ومن كلامه كتبت بيدي ألف ألف حديث . له التاريخ والعلل في الرجال رواية أبي الفضل العباس بن محمد بن حاتم ، ومعرفة الرجال ، والكنى والأسماء ، وكان أبوه على خراج الري ولد عام ٢٣٣ هـ وخلف له أبوه ثروة كبيرة فانفقها في طلب الحديث ، وتوفي بالمدينة حاجاً عام ٧٧٥ هـ . راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٦ وتهذيب ٢٧٠ - ٢٧١ ووفيات الأعيان ٢ : ٢٧٤ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٧٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العبدي البصري اللؤلؤي أبو سعيد من كبار حفاظ =

والبخاري وغيرهم أنه غلط ، وأنه ليس في كلام النبي - ﷺ - بل صرح البخاري في تاريخه الكبير أنه من كلام كعب الأحبار ، كما قد بسط في موضعه ، والقرآن يدل على غلط هذا ، وبين أن الخلق في ستة أيام وثبت في الصحيح أن آخر الخلق كان يوم الجمعة فيكون أول الخلق يوم الأحد ، وكذلك ما روي أنه - ﷺ - صلى الكسوف بركوعين أو ثلاثة ، فإن الثابت المتواتر عن النبي - ﷺ - ، في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمرو وغيرهم أنه « صلى كل ركعة بركوعين » ولهذا لم يخرج البخاري إلا ذلك ، وضعف الشافعي والبخاري ، وأحمد ، فإن النبي - ﷺ - إنما صلى الكسوف مرة في أخذ الروایتين عنه وغيرهم . حديث الثلاثة والأربع .

فإن النبي - ﷺ - إنما صلى الكسوف مرة واحدة ، وفي حديث الثلاث والأربع أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه ، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان في نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط ، والبخاري إذا روى الحديث بطرق في بعضها غلط في بعض الألفاظ ذكر معه الطرق التي تبين ذلك الغلط ، كما قد بسطنا الكلام على ذلك في موضعه .

فكذلك إذا قيل ، إنه وقع تبديل في بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان في الكتب ما يبين ذلك الغلط ، وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة في العالم من زمن محمد - ﷺ - بكل لسان من التوراة والإنجيل والزبور بدلت ألفاظها ، فإن هذا لا أعرف أحداً من السلف قاله . وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك ، كما في بعض المتأخرين من يجوز الاستنجاء بكل ما في العالم من نسخ التوراة والإنجيل .

= الحديث وله فيه تصانيف حدث ببغداد ولد عام ١٣٥ هـ ببغداد وتوفي بها عام ١٩٨ هـ وقيل في البصرة قال الشافعي : لا أعرف له نظير في الدنيا .
راجع تهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٩ وحلية الأولياء ٩ : ٣ وتاريخ بغداد ١٠ : ٢٤٠ واللباب ٣ :

فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما رأى بيد كعب الأخبار نسخة من التوراة قال : يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران فاقراها فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به ، ولم يجزم عمر - رضي الله عنه بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها .

والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين في زمن النبي - ﷺ - فيهما ما أنزله الله عز وجل ، والجزم بتبديل ذلك في جميع النسخ التي في العالم متعذر ، ولا حاجة بنا الى ذكره ، ولا علم لنا بذلك ولا يمكن أحد من أهل الكتاب أن يدعي أن كل نسخة في العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد ، فإن هذا مما لا يمكن أحد من البشر أن يعرفه باختياره ، وامتحانه ، وإنما يعلم مثل هذا بالوحي ، وإلا فلا يمكن أحد من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة في العالم بل نسخة من جميع الألسنة بالكتب الأربعة والعشرين ، وقد رأيناها مختلفة في الألفاظ اختلافاً بيناً ، والتوراة هي أصح الكتب وأشهرها عند اليهود ، والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى ، حتى في نفس الكلمات العشر ، ذكر في نسخة السامرة منها - من أمر استقبال الطور - ما ليس في نسخة اليهود والنصارى وهذا مما يبين أن التبديل وقع في كثير من نسخ هذه الكتب ، فإن عند السامرة نسخاً معتمدة تخالف بعضها بعضاً ، مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ والمعاني يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود عليه السلام ، وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منها في التوراة (١) .

فإن قيل : فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة ، فلماذا ذم أهل الكتاب

(١) يراجع ما كتبه ابن حزم عن اضطرابات الانجيل والتوراة والتعريف الذي وقع فيها والتناقضات الموجودة في الأناجيل الأربعة « في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » بتحقيقنا .

عن ترك الحكم بما أنزل الله منها . . ؟ قيل النسخ لم يقع إلا في قليل من الشرائع ، وإلا فلاخبار عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وغير ذلك فلم تنسخ .

وكذلك الدين الجامع ، والشرائع الكلية لا نسخ فيها ، وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول ، لأن أهل الكتاب كفروا من جهتين ، من جهة تبديلهم الكتاب الأول ، وترك الإيمان ، والعمل ببعضه ، ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثاني وهو القرآن كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

فبين أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء ، كما كفروا حين مبعثه بما أنزل عليه . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ، قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمهم على ترك اتباع ما أنزله في

(١) سورة البقرة آية رقم ٩١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٨٤ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٤٨ - ٤٩ .

التوراة والانجيل وعلى ترك اتباع ما أنزله في القرآن ، وبين كفرهم بالكتاب الأول ، وبالكتاب الثاني ، وليس في شيء من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول ، كما ليس فيه أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ في الكتاب الثاني .

فصل

قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ، وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١)

فهذا ثناء منه على المسيح ، والانجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل الله^(٢) فيه ، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والانجيل فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِّلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾^(٣) أي قائلون للكذب مصدقون مستجيبيون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لما يخالفك وأنت رسول الله .

ولفظ « السميع » يراد به الاحساس بالصوت ، ويراد به فهم المعنى ، ويراد به قبوله فيقال : فلان سمع ما يقول فلان . أي يصدقه أو يطيعه ويقبل

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٦ - ٤٧ .

(٢) سقط من (ب) لفظ (الجلالة) .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

عنه بقوله : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ . أي : مصدقون به وإلا مجرد سماع صوت الكاذب ، وفهم كلامه ليس مذموماً على الإطلاق ، وكذلك سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . أي مستجيبون لهم مطيعون لهم كما قال في حق المنافقين ، وفيكم سماعون لهم أي : مستجيبون مطيعون لهم . ومن قال : إن المراد به الجاسوس فهو غلط كغلط من قال : سماعون لهم : هو الجواسيس ، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم الى من لا يعرفه ، ومعلوم أن النبي - ﷺ - كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم ، ولم يكن يقصد أن يكتم يهود المدينة ما يقوله ويفعله . خلاف من كان يأتيتهم من اليهود وهم يصدقون الكذب ، ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم يأتوه ، والله نهى نبيه - ﷺ - أن يحزنه المسارعون في الكفر من هاتين الطائفتين المنافقتين الذين أظهروا الإيمان به ، ولم تؤمن قلوبهم ، ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم ، وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه بل إن حكم بما يهوونه قبلوه ، وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه ، لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه .

قال تعالى : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ (١) .

أي لم يأتك أولئك القوم الآخرون يقولون . أي يقول السماعون : ﴿ إِنَّ أَوْتَيْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

والحكم يفتقر الى الصدق والعدل فلا بد أن يكون الشاهد صادقاً

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

والحاكم عادلاً ، وهؤلاء يصدقون الكاذبين من الشهود ويتبعون حكم المخالفين للرسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم بل إن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فلا تحكم .

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك ، إذ هو العدل .

قال تعالى : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .

ثم قال : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

فهذا ثناؤه على التوراة ، واخباره أن فيها حكم الله ، وأنه أنزل التوراة ، ﴿ وفيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾

وهذا أعظم مما ذكره في الإنجيل فإنه قال في الإنجيل : ﴿ وآتيناه

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٢ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٣ - ٤٥ .

الإنجيل فيه هدى ونور ﴿ .

وقال فيه : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وقال في التوراة : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ (١)

وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الكافرون ﴾ (٢)

فهو سبحانه مع اخباره بانزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الانجيل . كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ (٣)

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمداً - ﷺ عليهما وسلم تسليماً ، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى ، فكذلك أيضاً ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً - ﷺ - وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل ، واتبعوا المبدل المنسوخ .

واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيهما ذكر مدح للنصارى ، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل . فعلم اتفاق أهل الملل كلها المسلمون ، واليهود ، والنصارى ، على أنه ليس فيما ذكر في القرآن من ذكر التوراة والإنجيل ، وموسى

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٤ وتكملة الآية ﴿ والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله

فأولئك هم الكافرون ﴾

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .

وعيسى ، مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً ﷺ ، ولا مدح لدينهم
المبدل قبل مبعثه ، فليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل ، ولا بدين
منسوخ ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ . . ؟

فصل

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) وهذه حال من قاتل المرتدين وأولهم الصديق ومن اتبعه الى يوم القيامة فهم الذين جاهدوا المرتدين كأصحاب مسيلمة الكذاب وما نعى الزكاة وغيرهما وهم الذين فتحوا الأمصار وغلبوا فارس والروم ، وكانوا أزهد الناس ، كما قال عبد الله بن مسعود لأصحابه :

« أنتم أكثر صلاة وصياماً من أصحاب محمد ، وهم كانوا خيراً منكم .
قالوا : لم يا أبا عبد الرحمن . . ؟ »

قال : لأنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة . فهؤلاء هم الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، بخلاف الرافضة فإنهم أشد الناس خوفاً من لوم اللائم ومن عدوهم وهم كما قال الله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢)

(١) سورة المائدة آية رقم ٥٤ .

(٢) سورة المنافقون آية رقم ٤ قال الامام أحمد ، حدثنا يزيد عبد الملك بن قدامة الجمحي عن =

ولا يعيشون في أهل القبلة إلا من جنس اليهود في أهل الملل . ثم يقال : من هؤلاء الذين زهدوا في الدنيا ولم تأخذهم في الله لومة لائم ممن لم يبايع أبا بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم ، وبايع علياً . . ؟ فإنه من المعلوم أن في زمن الثلاثة لم يكن أحد منحازاً عن الثلاثة ، مظهراً لمخالفتهم ومبايعه علي ، بل كل الناس كانوا مبايعين لهم ، فغاية ما يقال أنهم كانوا يكتمون تقديم علي ، وليست هذه حال من لا تأخذه في الله لومة لائم . وأما في حال ولاية علي ، فقد كان رضي الله عنه من أكثر الناس لوماً لمن معه على قلة جهادهم ونكولهم عن القتال فأين هؤلاء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم من هؤلاء الشيعة . . ؟

وإن كذبوا على أبي ذر من الصحابة ، وسلمان ، وعمار ، وغيرهم فمن المتواتر أن هؤلاء كانوا من أعظم الناس تعظيماً لأبي بكر وعمر واتباعاً لهما ، وإنما ينقل عن بعضهم التعنت على عثمان لا على أبي بكر وعمر ، وسيأتي الكلام على ما جرى لعثمان - رضي الله عنه . ففي خلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، لم يكن أحد يسمى من الشيعة ، ولا تضاف الشيعة الى أحد (١) الى أحد ، لا عثمان ولا غيرهما ، فلما قتل عثمان تفرق المسلمون فمال قوم الى عثمان ، ومال قوم الى علي ، واقتتل الطائفتان ، وقتل حينئذ شيعة عثمان شيعة علي .

وفي صحيح مسلم عن سعد بن هشام أنه أراد أن يغزو في سبيل الله وقدم المدينة ، فأراد أن يبيع عقاراً (له) بها فيجعله في السلاح والكراع ويجاهد الروم حتى الموت ، فلما قدم المدينة لقي أناساً من أهل المدينة

= إسحاق بن بكير أبي الفرات عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : إن للمنافقين علامات يعرفون بها تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهب ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل صخب بالنهار .

(١) سبق أن تكلمنا عن الشيعة في كلمة وافية .

فنهوه عن ذلك وأخبروه أن رهطاً ستة أرادوا ذلك في حياة النبي - ﷺ - فنهاهم
نبي الله - ﷺ - وقال : أليس لكم بي أسوة . . ؟ » فلما حدثوه بذلك راجع
امرأته وقد كان طلقها وأشهد على رجعتها ، فأتى ابن عباس - رضي الله
عنهما - وسأله عن وتر رسول الله - ﷺ - فقال له ابن عباس : ألا أدلك على
أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله - ﷺ - ؟

قال : من . . ؟ قال : عائشة - رضي الله عنها ، فأتها فاسألها ، ثم ائتني
فاخبرني بردها عليك .

قال : فانطلقت إليها ، فأتيت على حكيم بن أفلح ، فاستلحقته إليها .
فقال : ما أنا بقاربها لأنني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً فأبت فيهما
إلا مضياً .

قال : فأقسمت عليه ، فجاء فانطلقنا إلى عائشة - رضي الله عنها وذكر
الحديث (١) . وقال معاوية لابن عباس : أنت على ملة علي . . ؟

فقال : لا على ملة علي ، ولا على ملة عثمان ، أنا على ملة رسول الله -

ﷺ .

وكانت الشيعة أصحاب علي يقدمون عليه أبا بكر وعمر ، وإنما كان
النزاع في تقدمه على عثمان ، ولم يكن حينئذ يسمى أحد لا إمامياً ولا رافضياً
وإنما سموا رافضة ، وصاروا رافضة لما خرج زيد بن علي بن الحسين بالكوفة
في خلافة هشام فسألته الشيعة عن أبي بكر وعمر ، فترحم عليهما فرفضه
قوم . فقال رفضتموني ، رفضتموني ، فسموا رافضة . وتولاه قوم فسموا زيدية

(١) هذا جزء من حديث طويل ورد في صحيح مسلم في : باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو
مرض ٢ : ١٦٨ - ١٧٠ ويوجد خلاف في النص الذي أورده ابن تيمية وما جاء في لفظ
مسلم .

وحكيم بن أفلح : حجازي روى عن ابن مسعود ، وعائشة - رضي الله عنها وذكره ابن حبان
في الثقات .

لانتسابهم إليه (١) .

ومن حينئذ انقسمت الشيعة الى رافضة إمامية وزيدية ، وكلما زادوا في البدعة زادوا في الشر ، فالزيدية خير من الرافضة : أعلم ، وأصدق وأزهد ، وأشجع .

ثم بعد أبي بكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وهو الذي لم تكن تأخذه في الله لومة لائم ، وكان أزهد الناس باتفاق الخلق كما قيل فيه : رحم الله عمر لقد تركه الحق ماله من صديق .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ منها قوله : ﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ (٢) والصواب عطفه على قوله : ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ فعل ماضٍ معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية ؛ لكن المتقدمة الفاعل الله مظهراً أو مضمراً ، وهذا الفعل اسم من عبد الطاغوت وهو الضمير في عبد ، ولم يعد حرف ﴿ من ﴾ لأن هذه الأفعال لصنف واحد وهم اليهود .

(١) يراجع ما كتبه صاحب الفرق بين الفرق في نشأة الرافضة - فهو لا يخرج كثيراً عما كتبه الامام ابن تيمية . وأيضاً ما كتبه الأشعري في كتابه « مقالات الاسلاميين » عند حديثه على نشأة الرافضة .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٦٠ والآية : ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

والطاغوت مؤنثه من طغى يطفئ - وحكى الطبري يطفئ إذا جاوز الحد بزيادة عليه . ووزنه فعلوت ، ومذهب سيبويه أنه اسم مذكر مفرد كأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير ، ومذهب أبي علي أنه مصدر كرهوت وجبروت ، وهو يوصف به الواحد والجمع . وقلبت لاهه الى موضع العين وقيل أصل طاغوت في اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق .

فصل في بطلان الاستدلال بالمتشابه

قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيْنَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١) .

فذكر القيسيين والرهبان ، لثلاثا يقال : إن هذا قيل عن غيرنا فدل هذا على أفعالنا وحسن نياتنا ، ونفى عنا اسم الشرك بقوله : اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة .

والجواب أن يقال تمام الكلام : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ، فَأَتَانَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) .

(١) سورة المائدة آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٨٣ - ٨٥ القسيس وقس واحد القيسيون وقد يجمع على قسوس ، والرهبان : جمع راهب ، وهو العابد مشتق من الرهبة وهي الخوف ، كراكب وركبان ، وفارس وفرسان . قال ابن جرير وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهايين مثل قريبا وقرايين =

فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد - ﷺ - الذين قال فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وهم الشهداء الذين قال فيهم : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

ولهذا قال ابن عباس وغيره ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ قال : محمد - ﷺ - وأُمته .

وكل من شهد للرسول بالتصديق فهو من الشاهدين كما قال الحواريون : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٢) .

وأما قوله في أول الآية : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ . فهو كما أخبر سبحانه وتعالى ، فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من

= جردان وجراذين وقد يجمع على رهابنه ، ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشي ونزل
(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٧ - ٧٨ .

عداوة النصارى . والنصارى أقرب مودة لهم ، وهذا معروف من أخلاق اليهود ، فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس في النصارى . وفي النصارى من الرحمة والمودة ما ليس في اليهود ، والعداوة أصلها البغض فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم فكيف يبغضهم للمؤمنين .

وأما النصارى فليس في الدين الذي يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فساداً فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم المؤمنين بجميع الكتب والرسول . . ؟

وليس في هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب ، وإنما فيه أنهم أقرب مودة . وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ .

أي بسبب هؤلاء . وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيراً من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة والضمير وإن عاد الى المتقدمين فالمراد به جنس المتقدمين لا كل واحد منهم ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١) .

وكان جنس الناس قالوا لهم : إن جنس الناس ، قد جمعوا ويمتنع العموم فإن القائل من الناس ، والمقول له من الناس ، والمقول عنه من الناس ، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس : إنه قد جمع لكم جميع الناس .

(١) سورة ال عمران آية رقم ١٧٣ .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ^(١) .

أي جنس اليهود قال هذا ، لم يقل هذا كل يهودي . ومن هذا أن في النصرارى من رقة القلوب التي توجب لهم الإيمان ما ليس في اليهود ، وهذا حق ، وأما قولهم : ونفى عنا اسم الشرك فلا ريب أن الله فرق بين المشركين وأهل الكتاب في عدة مواضع ، ووصف من أشرك منهم في بعض المواضع بل قد ميز بين الصابئين والمجوس ، وبين المشركين في عدة مواضع ، وكلا الأمرين حق ، فالأول كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ^(٤) . وأما وصفهم بالشرك ففي قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

فنزّه نفسه عن شركهم وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك ، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد ، والنهي عن الشرك كما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ^(٦) وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٢) سورة البينة آية رقم ١ .

(٣) سورة الحج آية رقم ١٧ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٨٢ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٦) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١﴾ .

فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه ، ومن قبله من الرسل إنما دعوا الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي التوراة من ذلك ما يعظم وصفه لم يأمر أحد من الأنبياء بأن يعبد ملك ولا نبي ولا كوكب ولا وثن ، ولا أن تسأل الشفاعة الى الله من ميت ولا غائب ، ولا نبي ، ولا ملك ، فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة ويقول : اشفعوا لنا عند الله ، ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين ويقول : اشفعوا لنا الى الله ولا تصور تماثيلهم لا مسجدة ذات ظل ، ولا مصورة في الحيطان ، ولا يجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قرينة وطاعة سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل ، أو تعظيمهم والاستشفاع بهم ، وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالى ، وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها وقصدوا دعاء التماثيل ، ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها كما فعله جهال المشركين ، وإن كان في هذا جميعه إنما يعبدون الشيطان ، وإن كانوا لا يقصدون عبادته ، فإنه يتصور لهم في صورة ما يظنون أنها صورة الذي يعظمونه ويقول : أنا الخضر ، أنا المسيح ، أنا جرجس ، أنا الشيخ فلان . كما قد وقع هذا لغير واحد من المنتسبين الى المسلمين والنصارى ، وقد يدخل الشيطان في بعض التماثيل فيخاطبهم ، وقد يقضي بعض حاجاتهم فيهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديماً وحديثاً ، وفعل النصارى وأشباههم ما فعلوه من الشرك .

وأما الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه فنهوا عن هذا كله ولم يشرع أحد منهم شيئاً من ذلك فالنصارى لا يأمرؤن بتعظيم الأوثان المجسدة ، ولكن بتعظيم التماثيل المصورة ، فليسوا على التوحيد المحض ، وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان ، ويكذبون الرسل ، فلهذا جعلهم الله نوعاً غير المشركين تارة ، وذمهم على ما أحدثوه من الشرك تارة . وإذا أطلق لفظ

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

الشرك فطائفة من المسلمين تدخل فيه جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم
كقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ
حَتَّى يُؤْمِنُوا ﴾ ^(١) .

فمن الناس من يجعل اللفظ عاماً لجميع الكفار لا سيما النصارى ثم من
هؤلاء من ينهى عن نكاح هؤلاء كما كان عبد الله بن عمر ينهى عن نكاح
هؤلاء ويقول لا أعظم شركاً من أن يقول : عيسى ربنا .
وهذا قول طائفة من الشيعة وغيرهم .

وأما جمهور السلف والخلف فيجوزون نكاح الكتابيات ويبيحون ذبائحهم
لكن إذا قالوا : لفظ المشركين عام ، قالوا : هذه الآية مخصوصة أو منسوخة
بآية المائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ
وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي
أُخْدَانٍ ﴾ ^(٢) . وطائفة أخرى تجعل لفظ المشركين إذا أطلق لا يدخل فيه أهل
الكتاب وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله . فهذا متفق عليه بين
المسلمين كما نطق به القرآن كما أن المسلمين متفقون على أن قوله :
﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم
مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ .

لأن النصارى لم يدخلوا في لفظ الذين أشركوا كما لم يدخلوا في لفظ
اليهود . وكذلك قوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب
والمشركين ﴾ . ونحو ذلك . وهذا لأن لفظ الواحد تنوع دلالاته بالأفراد ،

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٥ .

والاقتران فيدخل فيه مع الأفراد ، والتجريد ما لا يدخل فيه عند الاقتران ،
كلفظ المعروف والمنكر في قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ ﴾ (١)

فإنه يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف ، وجميع ما نهى عنه فإنه
منكر . وفي قوله : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ
مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢)

فهنا قرن الصدقة بالمعروف والإصلاح بين الناس .

وكذلك المنكر في قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ ﴾ (٣) .

قرن الفحشاء بالمنكر وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤)

قرن الفحشاء بالمنكر والبغي .

وكذلك لفظ البر والإيمان ، وإذا أفرد دخل فيه الأعمال والتقوى كقوله
تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (٥) وقال : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٦) . وقوله : ﴿ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٧) . وقوله : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي ﴾ (٨) .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١٤ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٠ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ .

(٦) سورة الانفطار آية رقم ١٣ .

(٧) سورة الأنفال آية رقم ٢ وتكملتها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(٨) سورة الفتح آية رقم ٥ .

وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (١) .

وقد يقرنه بغيره كقوله : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٣)

وكذلك لفظ الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما دخل فيه لفظ الآخر .
وقد يجمع بينهما في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ (٤) .
فيكونان هنا صنفين ، وفي تلك المواضع صنف واحد ، فكذلك لفظ الشرك في مثل قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (٥) يدخل فيه جميع الكفار أهل الكتاب وغيرهم عند عامة العلماء ، لأنه أفرد وجرده ، وإن كانوا إذا قرن بأهل الكتاب كانا صنفين .

وفي صحيح مسلم - عن بريدة أن النبي - ﷺ : كان إذا أرسل أميراً على سرية ، أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، وأوصاه بمن معه من المسلمين خيراً وقال لهم :

« اغزوا بسم الله في سبيل الله ، في دعة قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا

(١) سورة الأنفال آية رقم ٢ عند تفسير هذه الآية قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد البكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله - ﷺ - فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : أنظر ماذا تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك . . ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : يا حارث عرفت فالزم . ثلاثاً .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٧٧ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٦٠ .

(٥) سورة التوبة آية رقم ٢٨ .

تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى إحدى خلال ثلاث فإنهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم .

فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين وليس لهم في الغنمة والفبيء نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ^(١) .

وهذا الحديث كان بعد نزول آية الجزية ، وهي إنما نزلت عام تبوك لما قاتل النبي - ﷺ - النصارى بالشام ، واليهود باليمن .
وهذا الحكم ثابت في أهل الكتاب باتفاق المسلمين كما دل عليه الكتاب والسنة ولكن تنازعوا في الجزية هل تؤخذ من غير أهل الكتاب . . ؟
وهذا مبسوط في موضعه .

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب ٨٢ ، والترمذي في كتاب الديات باب ١٤ وفي كتاب السير ٤٧ وفي كتاب فضائل القرآن ١٧ ورواه ابن ماجه في كتاب الجهاد باب ٣٨ والدارمي في السير باب ٥ ، والموطأ في كتاب الجهاد ١١ ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند : ٢ : ٥٢٤ ، ٤ : ٢٤٠ ، ٥ : ٣٥٢ ، ٣٥٨ (حلي)

فصل

في ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان .

قالوا في سورة المائدة عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

فساوى بهذا القول بين سائر الناس : اليهود والمسلمين وغيرهم .
والجواب أن يقال أولاً : لا حجة لكم في هذه الآية على مطلوبكم ، فإنه
يسوي بينكم وبين اليهود والصابئين ، وأنتم مع المسلمين متفقون على أن
اليهود كفار من بعث المسيح إليهم فكذبوه .

وكذا الصابئون من حيث بعث إليهم رسول فكذبوه ، فهم كفار ، فإن
كان في الآية مدح لدينكم الذي أنتم عليه بعد مبعث محمد - ﷺ - ففيها مدح
دين اليهود أيضاً ، وهذا باطل عندكم وعند المسلمين .

وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين
النصارى بعد النسخ والتبديل .

وكذلك يقال لليهودي إن احتج بها على صحة دينه .

وأيضاً فإن النصارى يكفرون اليهود فإن كان دينهم حقاً لزم كفر اليهود

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٩ .

وإن كان باطلاً لزم بطلان دينهم فلا بد من بطلان أحد الدينين فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما ، وقد سوت بينهما .

فعلم أنها لم تمدح واحداً منهما بعد النسخ والتبديل ، وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد - ﷺ - والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل ، والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام ، وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل . والصابئون ^(١) : وهم الصابئون الحنفاء كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق قبل التبديل والنسخ .

فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم ، وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم الى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة ، وهو عمرو بن لحي ، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك وتحريم ما لم يحرمه الله ، ولهذا قال النبي - ﷺ - رأيت عمرو بن لحي يجرق قصبه - أي أمعاه - في النار » ^(٢) .

وهو أول من بحر البحيرة وسبب السوائب ، وغير دين إبراهيم .

(١) الصابئون : طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين ، قاله مجاهد ، وعنه من اليهود والمجوس . وقال سعيد بن جبير : من اليهود والنصارى ، وعن الحسن والحكم : إنهم كالمجوس ، وقال قتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون الى غير القبلة ، ويقرأون الزبور ، وقال وهب بن منبه : هم قوم يعرفون الله وحده وليست لهم شريعة يعملون بها ولم يحدثوا كفراً وقيل يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون الى اليمن كل يوم خمس صلوات وقيل غير ذلك .

(٢) الحديث عند البخاري في كتاب المناقب ٩ باب قصة خزاعة ٣٥٧١ عن الزهري قال سمعت سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمتنع درها للطواغيت ولا يجلبها أحد من الناس ، والسائبة التي يسيبونها لألتهم فلا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة - قال النبي - ﷺ - وذكره . ورواه الإمام مسلم في الكسوف ٩ ، ١٠ ، والجنة ٥٠ ، ٥١ ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٧٥ ، ٣٦٦ ، ٣ : ٣١٨ ، ٣٥٣ ، ٣٧٤ ، ٥ : ١٣٧ .

وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين ابراهيم
كانوا من السعداء المحمودين ، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح
وابراهيم ونحوهم الذين مدحهم الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١)

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ، ولا باليوم
الآخر وعمل صالحاً كما قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٩ .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله فصل

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (١)
الآية . ومن المشهور في التفسير : أنها نزلت بسبب جماعة من الصحابة كانوا قد عزموا على الترهّب ، وفي الصحيحين عن أنس : « أن رجلاً سألوا أزواج النبي ﷺ ، عن عبادته في السر ، فتقالوا ذلك » (٢) وذكر الحديث وفي الصحيحين عن سعد قال : ردّ النبي ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا » (٣) وعن عكرمة أن علي بن أبي طالب وابن مسعود وعثمان

(١) سورة المائدة آية رقم ٨٧ .

(٢) الحديث عند الامام مسلم - في كتاب النكاح ٥ - ١٤٠١ وليس فيه لفظ (فتقالوا ذلك) فقال بعضهم لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم لا أكل اللحم ، وقال بعضهم لا أنام على الفراش . الخ .

وفي البخاري في كتاب النكاح ١ باب الترغيب في النكاح عن أنس بن مالك واللفظ للبخاري .

(٣) الحديث عند الامام مسلم في كتاب النكاح (١) باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ٨ - عن ابن شهاب أنه قال : أخبرني سعيد بن المسيب ، أنه سمع سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه يقول - وذكره .

وعند البخاري في كتاب النكاح ٨ باب ما يكره من التبتل والخصاء ٥٠٧٣ - حدثنا ابراهيم بن سعد أخبرنا ابن شهاب سمع سعيد بن المسيب يقول سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : وذكره .

ابن مظعون والمقداد ، وسالما مولى أبي حذيفة في أصحاب لهم تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح^(١) ، وحرمو الطيبات من الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية^(٢) ، وكذلك ذكر سائر المفسرين ما يشبه هذا المعنى .

وقد ذمَّ الله الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وذم الذين يتبعون الشهوات ، والذين يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، ويريدون ميل المؤمنين ميلاً عظيماً ، وذم الذين اتبعوا ما أترفوا فيه ، والذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وأكثر الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات شربة الخمر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾^(٣) فجمعوا بين الشهوة المحرمة

(١) المسوح - جمع مسح بكسر فسكون وهو كساء من شعر يلبسه الرهبان .

(٢) راجع الترمذي ٤ : ٩٧ وابن جرير ١٠ : ٥٢٠ وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب ، وروى البخاري ٨ : ٢٠٧ عن عبد الله بن مسعود . قال : كنا نغزومع النبي - ﷺ ، وليس معنا نساء ، فقلنا ألا نخضع ؟ فنهانا عن ذلك ، فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالشوب ثم قرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩١ قال الامام الواحدي : أخبرنا أبو سعيد بن أبي بكر المطوعي ، قال : حدثنا أبو عمرو ومحمد بن أحمد الخيري ، قال حدثنا أحمد بن علي الموصلي ، قال : حدثنا أبو خيثمة ، قال : حدثنا الحسن أبو موسى . قال : حدثنا زهير ، قال : حدثنا سماك ابن حرب ، قال : حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال :

أتيت على نفر من المهاجرين والأنصار ، فقالوا تعال نطعمك ونسقيك خمرأ ، وذلك قبل أن تحرم الخمر ، فأتيتهم في حش - والحش البستان - فإذا رأس جزور مشوي عندهم ودن خمر ، فأكلت وشربت معهم ، وذكرت الأنصار والمهاجرين ، فقلت : المهاجرين خير من الأنصار ، فأخذ رجل أحد لحبي الرأس فضربني به فجذع أنفي فأتيت رسول الله - ﷺ - فأخبرته فأنزل الله في [يعني نفسه] شأن الخمر ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ الآية .

راجع الدر المنثور ٢ : ٣١٥ وتفسير الطبري ١٠ : ٥٦٩ والناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ٤٠ ، وتفسير الخازن ٢ : ٧٤ ورواه الامام مسلم عن أبي خيثمة ٧ : ١٢٦

وترك ذكر الله وإضاعة الصلاة ، وكذلك غيرهم من أهل الشهوات .

ثم نهى سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات ، وعن الاعتداء في تناولها وهو مجاوزة الحد ، وقد فسر الاعتداء في الزهد والعبادة بأن يحرموا الحلال ويفعلوا من العبادة ما يضرهم فيكونوا قد تجاوزوا الحد وأسرفوا وقيل : لا يحملنكم أكل الطيبات على الإسراف وتناول الحرام من أموال الناس فإن آكل الطيبات والشهوات المعتدي فيها لا بد أن يقع في الحرام لأجل الإسراف في ذلك .

والمقصود بالزهد ترك ما يضر العبد في الآخرة ، وبالعبادة فعل ما ينفع في الآخرة ، فإذا ترك الإنسان ما ينفعه في دينه وينفعه في آخرته وفعل من العبادة ما يضر فقد اعتدى وأسرف وإن ظن ذلك زهداً نافعاً وعبادة نافعة قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والنخعي : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ أي لا تجبوا أنفسكم ، وقال عكرمة لا تسيروا بغير سيرة المسلمين : من ترك النساء ، ودوام الصيام والقيام ، وقال مقاتل : لا تحرموا الحلال ، وعن الحسن لا تأتوا ما نهى الله عنه ، وهذا ما أريد به لا تحرموا الحلال ولا تفعلوا الحرام فيكون قد نهى عن النوعين ؛ لكن سبب نزول الآية وسياقها يدل على قول الجمهور ، وقد يقال هذا مثل قوله : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ ^(١) وقوله في تمام الآية : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ ^(٢) الآية . وكذلك الأحاديث الصحيحة كقول أحدهم : لا أتزوج النساء ، وقول الآخر لا آكل اللحم . كما في حديث أنس المتقدم ، وهذا مما يدل على أن صوم الدهر مكروه ، وكذلك مداومة قيام الليل .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣١ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٨٨ .

فصل

وهذا الذي جاءت به شريعة الإسلام هو الصراط المستقيم ، وهو الذي يصلح به دين الإنسان ، كما قال النبي ﷺ : « أعدل الصيام صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً » ^(١) وفي رواية صحيحة : « أفضل » والأفضل هو الأعدل الأقوم ، وهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهي وسط بين هذين الصنفين : أصحاب البدع وأصحاب الفجور أهل الإسراف والتقشف الزائد ولهذا كان السلف يحذرون من هذين الصنفين . قال الحسن : هو المبتدع في دينه والفاجر في دنياه ، وكانوا يقولون : احذروا صاحب الدنيا أغوته

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم - في كتاب الصيام ٣٥ باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به ، أو فوت به حقاً ١٨١ (١١٥٩) بسنده عن سعيد بن المسيب وأبو سلمة ابن عبد الرحمن أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أخبر رسول الله - ﷺ أنه كان يقول لأقومن الليل ولأصومن النهار ما عشت فقال رسول الله ﷺ - أنت الذي تقول ذلك . ؟ . فقلت له : قد قلت يا رسول الله . فقال رسول الله - ﷺ - فإنك لا تستطيع ذلك . فصم وأفطر ، ونم ، وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر قال : قلت : فإنني أطيق أكثر من ذلك قال « صم يوماً وأفطر يومين » قال : قلت : فإنني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله . قال : صم يوماً وأفطر يوماً وذلك صيام داود عليه السلام وهو أعدل انصيام . . قال قلت فإنني أطيق أفضل من ذلك قال رسول الله - ﷺ - لا أفضل من ذلك .

وأخرجه البخاري في كتاب حديث الأنبياء ٣٧ وأبو داود في الصوم ٥٣ والنسائي في الصيام ٧٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

دنياه ، وصاحب هوى متبع لهواه ، وكانوا يأمرؤن بمجانبة أهل البدع والفجور
ف « القسم الأول » أهل الفجور ، وهم المترفون المنعمون ، أوقعهم في
الفجور ما هم فيه .

و « القسم الثاني » المترهبون ، أوقعهم في البدع غلوهم وتشديدهم
هؤلاء : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ ﴾ ^(١) وهؤلاء خاضوا كما خاض الذين من
قبلهم وذلك أن الذين يتبعون الشهوات المنهى عنها أو يسرفون في المباحات
ويتركون الصلوات والعبادات المأمور بها يستحوذ عليهم الشيطان والهوى
فينسيهم الله والدار الآخرة ويفسد حالهم ، كما هو مشاهد كثيراً منهم .

والذين يحرمون ما أحل الله من الطيبات - وإن كانوا يقولون : إن الله لم
يحرم هذا : بل يلتزمون أن لا يفعلوه ، إما بالنذر وإما باليمين ، كما حرم كثير
من العباد والزهاد أشياء - يقول أحدهم : لله عليّ أن لا أكل طعاماً بالنهار
أبداً ، ويعاهد أحدهم أن لا يأكل الشهوة الملائمة ، ويلتزم بقصده وعزمه وإن
لم يحلف ولم ينذر ، فهذا يلتزم أن لا يشرب الماء ، وهذا يلتزم أن لا يأكل
الخبز ، وهذا يلتزم أن لا يشرب الفقاع ، وهذا يلتزم أن لا يتكلم قط وهذا
يجب نفسه ، وهذا يلتزم أن لا ينكح ولا يذبح . وأنواع هذه الأشياء من
الرهبانية التي ابتدعوها على سبيل مجاهدة النفس ، وقهر الهوى والشهوة . ولا
ريب أن مجاهدة النفس مأمور بها ، وكذلك قهر الهوى والشهوة ، كما ثبت
عن النبي ﷺ أنه قال : « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والكيس من
دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على
الله » ^(٢)

(١) سورة التوبة آية رقم ٦٩ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣١ باب ذكر الموت والاستعداد له ٤٢٦٠ - ثنا بقية
ابن الوليد ، حدثني ابن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب ، عن أبي يعلى شداد بن أوس قال :
قال رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ١٢٤ (جلي) ورواه
الترمذي في فضائل الجهاد باب فضل الجهاد ٢ باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً ١٦٧١ =

لكن المسلم المتبع لشريعة الإسلام هو المحرم ما حرمه الله ورسوله ، فلا يحرم الحلال ولا يسرف في تناوله ؛ بل يتناول ما يحتاج إليه من طعام أو لباس أو نكاح ، ويقتصد في ذلك ، ويقتصد في العبادة ، فلا يحمل نفسه ما لا يطيق .

فهذا تجده يحصل له من مجاهدات النفس وقهر الهوى ما هو أنفع له من تلك الطريق المتدعة الوعرة القليلة المنفعة ، التي غالب من سلوكها ارتد على حافره ، ونقض عهده ، ولم يرعها حق رعايتها ، وهذا يثاب على ذلك ما لا يثاب على سلوك تلك الطريق ، وتزكو به نفسه ، وتسير به إلى ربه ، ويجد بذلك من المزيد في إيمانه ما لا يجده أصحاب تلك الطريق ، فإنهم لا بد أن تدعوهم أنفسهم إلى الشهوات المحرمة ، فإنه ما من بني آدم إلا من أخطأ أو همّ بخطيئة إلا يحى ابن زكريا ^(١) وقد قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ ^(٢) . قال طاوس ^(٣) في أمر النساء وقلة صبره عنهن كما تقدم ، فميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم ، وقد يتلى كثير منهم بالميل إلى الذكران ، كما هو المذكور عنهم ؛ فيبتلي بالميل إلى المردان ، وإن لم

= بسنده عن فضالة بن عبيد ، بلفظ « المجاهد من جاهد نفسه » .

قال الترمذي في الباب عن عقبه بن عامر ، وجابر وقال : حديث فضالة بن عبيد : حديث حسن صحيح .

(١) الحديث أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٥٤ - ثنا عفان ثنا حماد بن سلمة ، قال أنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره وفيه زيادة [وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى عليه السلام]

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٨ .

(٣) هو طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء أبو عبد الرحمن من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية للحديث وتقشفاً في العيش وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك أصله من الفرس ، مولده ومنشأه في اليمن توفي حاجاً عام ١٠٦ هـ راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٨ وصفة الصفوة ٣ : ١٦٠

يفعل الفاحشة الكبرى ابتلى بما هو دون ذلك من المباشرة والمشاهدة ، ولا يكاد أن يسلم أحدهم من الفاحشة إما في سره وإما بينه وبين الأُمرد ، ويحصل للنفس من ذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فإذا ابتلى المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه في الله ، وهو مأمور بهذا الجهاد ليس أمراً أوجبه وحرمه هو على نفسه ، فيكون في طاعة نفسه وهواه ؛ بل هو أمر حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه ، فيصير بالمجاهدة في طاعة الله ورسوله .

وفي حديث رواه أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً :
« من عشق فعفَّ وكنتم وصبر ثم مات فهو شهيد » ^(١) . وأبو يحيى في حديثه

(١) الحديث رواه الخطيب في ترجمة محمد بن داود الأصبهاني عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ فهو شهيد ، ورواه جعفر السراج في مصارع العشاق عن سويد بلفظ : من عشق فظفر فعف فمات مات شهيداً ورواه ابن المرزبان عن أبي بكر الأزرق ثم صار بعد يرويه موقوفاً وهو مما أنكره يحيى بن معين وغيره على سويد ، حتى أن الحاكم قال في تاريخه : يقال إن يحيى لما ذكر هذا الحديث قال : لو كان لي فرس ورمح غزوت سويداً قال في المقاصد : لكنه لم يفرد به ، وقد رواه الزبير بن بكار عن مجاهد مرفوعاً بسند صحيح ، وذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج فقال :

فإن أهلك هوى أهلك شهيداً وإن تمنى بقيت قرير عين
روى هذا لنا قوم ثقات نأوا بالصدق عن كذب ومين
وقال في الدرر : حديث من عشق فعف فكنتم فهو شهيد له طرق عن ابن عباس ، وأخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور ، والخطيب في تاريخ بغداد ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، والدليمي بلا سند عن أبي سعيد رفعه : العشق من غير ريبة كفارة للذنوب . وعند الطبراني في الأوسط ، والنسائي عن ابن عباس أن النبي - ﷺ - بعث سرية فغنموا ، وفيهم رجل ، فقال : اللهم إني لست منهم ، عشقت امرأة فلحقته فدعوني أنظر إليها نظرة ، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم فنظروا فإذا امرأة أدجاء فقال لها أسلمي حبش قبل نفاذ العيش . ثم قدموه فضربوا عنقه ، فجاءت المرأة فوقفت عليه فشبهت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فلما قدموا على رسول الله - ﷺ - أخبروه بذلك . فقال رسول الله - ﷺ - أما كان فيكم رجل رحيم . . . ؟؟؟
وأخرجه الخرائطي والدليمي وغيرهما : ولفظ بعضهم : من عشق فعف فكنتم ، فصبر فمات فهو شهيد ، وله طرق عند البيهقي .

نظر ، لكن المعنى الذي ذكره دل عليه الكتاب والسنة ، فإن الله أمر بالتقوى والصبر فمن التقوى أن يعف عن كل ما حرمه الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ومن حركة بيد ورجل ، ومن الصبر أن يصبر عن شكوى ما به إلى غير الله عز وجل . فإن هذا هو الصبر الجميل .

وأما الکتمان فیراد به شيئان :

« أحدهما » أن يكتم بثه وألمه ، فلا يشكو إلى غير الله ، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الکتمانين ؛ لكن هذا لا يقدر عليه كل أحد ؛ بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين : فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب الأديان ، ومضرات النفوس ومنافعها ؛ ليعالج نفسه بعلاج الإيمان ؛ فهذا بمنزلة المستفتي ، وهذا حسن .

وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة ، كما يشكو المصاب مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الاستعانة على مصيبته ، فهذا ينقص صبره ؛ ولكن لا يَأثم مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم ، كالمصاب الذي يتسخط .

و« الثاني » أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس ؛ لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة ، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت ، وتشتهت وتمنت وتتيمت ، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهي كان ذلك داعياً له إلى الفعل والتشبه به ، والنساء متى رأين البهائم تنزوا الذكور منها على الإناث ملئن إلى الباءة والمجامعة ، والرجل إذا سمع من يفعل مع المردان والنساء ورأى ذلك أو تخيله في نفسه دعاه ذلك إلى الفعل وإذا ذكر للإنسان طعام اشتهاه ومال إليه ، وإن وصف له ما يشتهي من لباس أو امرأة أو مسكن أو غيره مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حنَّ إليه ، وكل ما في نفس الإنسان محبته إذا تصوّره تحركت المحبة والطلب إلى ذلك المحبوب المطلوب ؛ إما إلى وصفه وإما إلى مشاهدته ، وكلاهما

يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخیل بالسمع أو الرؤية أو الفكر في بعض الأمور المتعلقة به ، فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى ما تخيلته فتحركت داعية المحبة سواء كانت محبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس إلى الحج إذا ذكر الحجاز ، أو كان أوان الحج ، أو رأى من يذهب إلى الحج من أهله وأقاربه ، أو أصحابه أو غيرهم ، ولو لم يسمع ذلك ويراه لما تحرك ولا حدث منه داعية قوته إلى ذلك ، فتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلي ونحو ذلك ؛ لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهباً إلى محبوبه ، فصار ذكرها يذكره بالمحبيب .

وكذلك أصحاب المتاجر والأموال ، إذا سمع أحدهم بالمكاسب تحركت داعية إلى ذلك ، وكذلك أهل الفرج والتزه إذا رأوا من يقصد ذلك تحركوا إليه وهذه الدواعي كلها مركوزة في نفوس بني آدم والإنسان ظلوم جهول .

وكذلك ذكر آثار رسول الله ﷺ تذكر به وتحرك محبته ، فالمبتلي بالفاحشة والعشق إذا ذكر ما به لغيره تحركت نفس ذلك الغير إلى جنس ذلك ؛ لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة ، فإذا تصورت جنساً تحرك إليها المحبوب .

ولهذا نهى الله تعالى عن إشاعة الفاحشة ، وكذلك أمر بستر الفواحش ، كما قال النبي ﷺ : « من ابتلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله » ^(١) . وقال : « كل أمتي مُعافى

(١) الحديث أخرجه الإمام مالك في كتاب الحدود ٢ باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا ١٢ حدثني مالك عن زيد بن أسلم ، أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول الله - ﷺ - فدعا له رسول الله - ﷺ - بسوط مكسور فقال : فوق هذا « فأتى بسوط جديد ، لم تقطع ثمرته . فقال : دون هذا فأتى بسوط قد ركب به ولان . فأمر به رسول الله - ﷺ - فجلد ثم قال : أيها الناس . قد آن له أن تنتهوا عن حدود الله وذكره .

إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يبني الرجل على الذنب قد ستره الله فيصبح يتحدث به « (١) فما دام الذنب مستوراً فعقوبته على صاحبه خاصة ، وإذا ظهر ولم ينكر كان ضرره عاماً ، فكيف إذا كان في ظهوره تحريك لغيره إليه .

ولهذا كره الإمام أحمد وغيره إنشاء الأشعار : الغزل الرقيق ، لأنه يحرك النفوس إلى الفواحش ؛ فلهذا أمر من يتلى بالعشق أن يعف ويكتم ويصبر ، فيكون حينئذ ممن قال الله فيه : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) والمقصود أنه يثاب على هذه المجاهدة ، والمجاهد من جاهد نفسه في الله وأما المبتدعون في الزهد والعبادة السالكون طريق الرهبان فإنهم قد يزهدون في النكاح ، وفضول الطعام ، والمال ونحو ذلك . وهذا محمود ؛ لكن عامة هؤلاء لا بد أن يقعوا في ذنوب من هذا الجنس ، كما نجد كثيراً منهم يتلى بصحبة الأحداث ، وإرفاق النساء ، فيبتلون بالميل إلى الصور المحرمة من النساء والصبيان ما لا يتلى به أهل السنة المتبعون للشرعة المحمدية وحكاياتهم في هذا أكثر من أن يحكي بسطها في كتاب ، وعندهم من الفواحش الباطنة والظاهرة ما لا يوجد عند غيرهم ، وخيار من فيهم يميل إلى الأحداث والغناء والسماع ؛ لما يجدون في ذلك من راحة النفوس ، ولو اتبعوا السنة لاستراحوا من ذلك .

قال أبو سعيد الخراز لما قال له الشيطان في المنام : لي فيكم لطيفتان

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم - في كتاب الزهد والرقائق ٨ باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه ٥٢ - بسنده عن ابن شهاب عن عمه قال : قال سالم : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : وذكره .

وأخرجه البخاري في كتاب الأدب ٦٠ باب ستر المؤمن على نفسه ٦٠٦٩ عن ابن أخي شهاب عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله قال سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ - وذكره .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

السماع وصحبة الأحداث ، قال أبو سعيد : قل من ينجو منها من أصحابنا حتى لقوة محبة نفوسهم صار ذلك ممتزجاً بطريقهم إلى الله . فإن أحدهم يجد في نفسه عند مشاهدة الشاهد من الرغبة فيما اعتاده من العبادة والزهادة ما لا يجدها بدون ذلك ، وعنده في نفسه عند سماع القصائد من الشوق والرغبة والنشاط ما لا يجده عند سماع القرآن ، فصاروا في شبهة وشهوة لم يكتف الشيطان منهم بوقوعهم في الأمور المحرمة ، التي تفتنهم حتى جعلهم يعتبرون ذلك عبادة ، كالذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ، وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الآية (١) . وهؤلاء هم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

وإذا وقعوا في السماع وقعوا فيه بشوق ورغبة قوية ، ومحبة تامة ، وبذلوا فيه أنفسهم وأموالهم ، فقد يبذلون فيه نساءهم وأبنائهم ويدخلون في الديانة لأغراضهم ، فيأتي أحدهم بولده فيهبه للشيخ يفعل ما أراد هو ومن يلوذ به ، ويسمونه حواراً ، وإن كان حسن الصورة استأثر به الشيخ دونهم ، ويعد أهله ذلك بركة حصلت له من الشيخ ، ويرتفع الحياء بين أم الصبي وأبيه وبين الفقراء .

وإذا صلوا صلوا صلاة المنافقين ، يقومون إليها وهم كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ، فقد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ومع هذا فهم قد يزهدون في بعض الطيبات التي أحلها الله لهم ، ويجتهدون في عبادات وأذكار ، لكن مع بدعة وأفعال لا تجوز مما تقدم ذكره ، فتلك البدعة هي التي أوقعتهم في اتباع الشهوات وإضاعة الصلوات ، لأن الشريعة مثالها مثال سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ، وهؤلاء تخلفوا عنها

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة ، وقال الحسن : هي الشرك والكفر ، واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم ، وبأن الله أمرهم بها ، وقال الحسن : والله أمرنا بها « قالوا : ولو كره الله ما نحن عليه لقلنا عنه » ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ بين أنهم متحكمون ، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادعوا .

فغرقوا بحبهم ، ويتوب الله على من تاب .

والسالكون للشريعة المحمدية إذا ابتلوا بالذنوب لم تكن التوبة عليهم من الآصار والأغلال ؛ بل من الحنيفية السمحة ، وأما أهل البدع فقد تكون التوبة عليهم آصاراً وأغلالاً ، كما كانت على من قبلنا من الرهبان فإنهم إذا وقع أحدهم في الذنب لم يخلص من شره إلا ببلاء شديد من أجل خروجه عن السنة . وهؤلاء قد يظن أحدهم أنه لا يمكنه السلوك إلى الله تعالى إلا ببدعة . وكذلك أهل الفجور المترفين قد يظن أحدهم أنه لا يمكنه فعل الواجبات إلا بما يفعله من الذنوب ، ولا يمكنه ترك المحرمات إلا بذلك وهذا يقع لبشر كثير من الناس .

منهم من يقول : إنه لا يمكن أداء الصلوات واجتناب الكلام المحرم - من الغيبة وغيرها - إلا بأكل الحشيشة .

ويقول الآخر : إن أكلها يعينه على استنباط العلوم وتصفية الذهن حتى يسميها بعضهم معدن الفكر والذكر ، ومحركة العزم الساكن ، وكل هذا من خدع النفس ومكر الشيطان بهؤلاء وغيرهم ، وإنها لعمى الذهن ، ويصير أكلها أبكم مجنوناً لا يعي ما يقول .

وكذلك في هؤلاء من يقول : إن محبته لله ورغبته في العبادة وحركته ووجدته وشوقه وغير ذلك لا يتم إلا بسماع القصائد ، ومعاشرة الشاهد من الصبيان وغيرهم ، وسماع الأصوات والنغمات ، ويزعمون أنهم بسماع هذه الأصوات ورؤية الصور المحركات تتحرك عندهم من دواعي الزهد والعبادة ما لا تتحرك بدون ذلك ، وأنهم بدون ذلك قد يتركون الصلوات ، ويفعلون المحرمات الكبار ، كقطع الطريق ، وقتل النفوس ويظنون أنهم بهذا تتراض نفوسهم وتلتذ بذلك لذة تصدها عن ارتكاب المحارم والكبائر ، وتحملها على الصلاة والصوم والحج .

وهذا مستند كثير من الشيوخ الذين يدعون الناس إلى طريقهم بالسماع

المبتدع على اختلاف ألوانه وأنواعه ، منهم من يدعو إليه بالدف والرقص ، ومنهم من يضيف إلى ذلك الشبابات ، ومنهم من يعمل بالنساء والصبيان ، ومنهم من يعمل بالدف والكف ، ومنهم من يعمل بأذكار واجتماع ، وتسبيحات وقيام وإنشاد أشعار وغير ذلك من سائر أنواعه وألوانه .

وربما ضموا إليه من معاشرة النساء والمردان ونحو ذلك ، ويقولون هؤلاء الذين توبناهم وقد كانوا لا يصلون ، ولا يحجون ، ولا يصومون ، بل كانوا يقطعون الطريق ، ويقتلون النفس ، ويزنون ، فتوبناهم عن ذلك بهذا السماع ، وما أمكن أحدهم استتابتهم بغير هذا .

وقد يعترفون أن ما فعلوه بدعة منهي عنها أو محرمة ؛ ولكن يقولون ما أمكننا إلا هذا ، وإن لم نفعل هذا القليل من المحرم حصل الوقوع فيما هو أشد منه تحريماً ، وفي ترك الواجبات ما يزيد إثمه على إثم هذا المحرم القليل في جنب ما كانوا فيه من المحرم الكثير .

ويقولون: إن الإنسان يجد في نفسه نشاطاً وقوة في كثير من الطاعات إذا حصل له ما يحبه ، وإن كان مكروهاً حراماً ، وإما بدون ذلك فلا يجد شيئاً ولا يفعله ، وهو أيضاً يمتنع عن المحرمات ، وإذا عوض بما يحبه وإن كان مكروهاً ، وإلا لم يمتنع ، وهذه الشبهة واقعة لكثير من الناس ، وجوابها مبني على ثلاث مقامات :

« أحدها » أن المحرمات قسман :

« أحدهما » ما يقطع بأن الشرع لم يبيح منه شيئاً لا لضرورة ولا لغير ضرورة : كالشرك والفواحش ، والقول على الله بغير علم ، والظلم المحصن ، وهي الأربعة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣

فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع ، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ، ولم يبح منها شيئاً قط ، ولا في حال من الأحوال ، ولهذا أنزلت في هذه السورة المكية ، ونفى التحريم عما سواها ؛ فإنما حرمه بعدها كالدّم والميتة ولحم الخنزير حرمه في حال دون حال ، وليس تحريمه مطلقاً .

وكذلك « الخمر » يباح لدفع الغصة بالاتفاق ، ويباح لدفع العطش في أحد قولي العلماء ، ومن لم يبيحها قال : إنها لا تدفع العطش ، وهذا مأخذ أحمد فحينئذ فالأمر موقوف على دفع العطش بها . فإن علم أنها تدفعه أبيحت بلا ريب ، كما يباح لحم الخنزير لدفع المجاعة ، وضرورة العطش الذي يرى أنه يهلكه أعظم من ضرورة الجوع ، ولهذا يباح شرب النجاسات عند العطش بلا نزاع ، فإن اندفع العطش وإلا فلا إباحة في شيء من ذلك . وكذلك « الميسر » فإن الشارع أباح السبق فيه بمعنى الميسر للحاجة في مصلحة الجهاد . وقد قيل إنه ليس منه ، وهو قول من لم يبح العوض من الجانبين مطلقاً إلا المحلل ، ولا ريب أن الميسر أخف من أمر الخمر ، وإذا أبيحت الخمر للحاجة فالميسر أولى ، والميسر لم يحرم لذاته إلا لأنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويوقع العداوة والبغضاء . فإذا كان فيه تعاون على الرمي الذي هو من جنس الصلاة وعلى الجهاد الذي فيه تعاون ، وتتألف به القلوب على الجهاد زالت هذه المفسدة . وكذلك بيع الغرر^(١) هو من جنس الميسر ، ويباح منه

= والفواحش : الأعمال المفرطة في القبح ، ما ظهر منها وما بطن ، وروى روح بن عبادة عن زكريا بن اسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : ما ظهر منها نكاح الأمهات في الجاهلية ، « وما بطن » الزنى وقال قتادة : سرها وعلايتها وهذا فيه نظر ، فإنه ذكر الإثم والبيغي فدل أن المراد بالفواحش بعضها وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنى والله أعلم . والإثم : قال الحسن : الخمر . قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول
وقال آخر :

نشرب الإثم بالصواع جهاراً وترى المسك بيننا مستعاراً
(١) الغرر بفتحين الخطر ، ونهى رسول الله - ﷺ عن بيع الغرر وهو مثل بيع السمك في الماء والطيور

أنواع عند الحاجة ورجحان المصلحة .

وكذلك « الربا » ^(١) حرم لما فيه من الظلم ، وأوجب ألا يباع الشيء إلا بمثله ، ثم أبيح بيعه بجنسه حرصاً عند الحاجة ، بخلاف غيرهما من المحرمات ، فإنها تحرم في حال دون حال ، ولهذا - والله أعلم - نفى التحريم عما سواها ، وهو التحريم المطلق العام ، فإن المنفي من جنس المثبت ، فلما أثبت فيها التحريم العام المطلق نفاه عما سواها .

و «المقام الثاني» أن يفرق بين ما يفعل في الإنسان ، ويأمر به ويبيحه ، وبين ما يسكت عن نهى غيره عنه وتحريمه عليه ، فإذا كان من المحرمات ما لو نهى عنه حصل ما هو أشد تحريماً منه لم ينه عنه ، ولم يبيحه أيضاً . ولهذا لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه ؛ ولهذا حرم الخروج على ولاة الأمر بالسيف لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرمات ، وترك واجب أعظم مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب ، وإذا كان قوم على بدعة أو فجور ، ولو أنهم نهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه من ذلك ولم يمكن منعهم منه ، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة لم ينهوا عنه .

= في الهواء ، والغرور بالفتح الشيطان قال تعالى ﴿ ولا يفرنكم بالله الغرور ﴾ والغرار بالكسر نقصان لبن الناقة ، وفي الحديث ﴿ لا غرار في الصلاة ﴾ وهو أن لا يتم ركوعها وسجودها .

(٢) الربا في اللغة : هو الزيادة ، قال الله تعالى ﴿ ٢٢ : ٥ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ وقال ﴿ ١٦ : ٩٢ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي أكثر عدداً ، يقال أربى فلان على فلان إذا زاد عليه .

وهو في الشرع : الزيادة في أشياء مخصوصة . وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع . أما الكتاب فقول الله تعالى (٢ : ٢٧٥) وحرم الربا وما بعدها من الآيات .

وأما السنة : فروي عن النبي - ﷺ - أنه قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل : يا رسول الله ما هي ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ، متفق عليه وروى عن النبي - ﷺ - أنه لعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه ، متفق عليه .

بخلاف ما أمر الله به الأنبياء وأتباعهم من دعوة الخلق ؛ فإن دعوتهم يحصل بها مصلحة راجحة على مفسدتها ، كدعوة موسى لفرعون ونوح لقومه فإنه حصل لموسى من الجهاد وطاعة الله ، وحصل لقومه من الصبر والاستعانة بالله ما كانت عاقبتهم به حميدة وحصل أيضاً من تفريق فرعون وقومه ما كانت مصلحته عظيمة .

وكذلك نوح حصل له ما أوجب أن يكون ذريته هم الباقين ، وأهلك الله قومه أجمعين ، فكان هلاكهم مصلحة .

فالممنهي عنه إذا زاد شره بالنهي ، وكان النهي مصلحة راجحة كان حسناً ، وأما إذا زاد شره وعظم وليس في مقابلته خير يفوته لم يشرع ، إلا أن يكون في مقابلته مصلحة زائدة ، فإن أدى ذلك إلى شر أعظم منه لم يشرع مثل أن يكون الأمر لا صبر له ، فيؤذي فيجزع جزءاً شديداً يصير به مذنباً ، ويتنقص به إيمانه ودينه فهذا لم يحصل به خير لا له ولا لأولئك ؛ بخلاف ما إذا صبر واتقى الله وجاهد ، ولم يتعد حدود الله بل استعمل التقوى والصبر ؛ فإن هذا تكون عاقبته حميدة .

وأولئك قد يتوبون فيتوب الله عليهم ببركته ، وقد يهلكهم ببيغهم ويكون ذلك مصلحة ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وأما الإنسان في نفسه فلا يحل له أن يفعل ، الذي يعلم أنه محرم لظنه أنه يعينه على طاعة الله ، فإن هذا لا يكون إلا مفسدة ، أو مفسدته راجحة على مصلحته ، وقد تنقلب تلك الطاعة مفسدة ، فإن الشارع حكيم ، فلو علم أن في ذلك مصلحة لم يحرمه ، لكن قد يفعل الإنسان المحرم ثم يتوب ، وتكون مصلحته أنه يتوب منه ويحصل له بالتوبة خشوع ورقة ، وإنابة إلى الله تعالى ؛ فإن الذنوب قد يكون فيها مصلحة مع التوبة منها ، فإن الإنسان قد يحصل له

(١) سورة الأنعام آية رقم ٤٥ .

[بعدم] الذنوب كبر وعجب وقسوة ، فإذا وقع في ذنب أذله وكسر قلبه ، ولين قلبه بما يحصل له من التوبة .

ولهذا قال سعيد بن جبیر^(١) : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، ويفعل السيئة فيدخل بها الجنة ، وهذا هو الحكمة في ابتلاء من ابتلى بالذنوب من الأنبياء والصالحين ، وأما بدون التوبة فلا يكون المحرم إلا مفسدته راجحة ، فليس للإنسان أن يعتقد حل ما يعلم أن الله حرمه قطعاً ، وليس له أن يفعله قطعاً فإن غلبته نفسه وشيطانه فوقع فيه تاب منه ، فإن تاب فصار بالتوبة خيراً مما كان قبله ، فهذا من رحمة الله به حين تاب عليه وإلا فلو لم يتب لفسد حاله بالذنوب ، وليس له أن يقول أنا أفعل ثم أتوب ، ولا يبيع الشارع له ذلك ، لأنه بمنزلة من يقول أنا أطعم نفسي ما يمرضني ثم أداوى ، أو أكل السم ثم أشرب الترياق .

والشارع حكيم ، فإنه لا يدري هل يتمكن من التوبة أم لا ؟ وهل يحصل الدواء بالترياق وغيره أم لا ؟ وهل يتمكن من الشرب أم لا ؟ لكن لو وقع هذا وكانت آخرته إلى التوبة النصوح كان الله قد أحسن إليه بالتوبة وبالعفو عما سلف من ذنوبه ، وقد يكون مثل هذا ليس صلاحه إلا في أن يذنب ويتوب ولو لم يفعل ذلك كان شراً منه لو لم يذنب ويتوب لكن هذا أمر يتعلق

(١) هو سعيد بن جبیر الأسدي بالولاء الكوفي أبو عبد الله : تابعي كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر ثم كان ابن عباس إذ أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألوني وفيكم ابن أم دهماء ؟ . يعني سعيداً .

قتله خالد القسري بواسطة الحجاج عام ٩٥ هـ قال الامام أحمد : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر الى علمه وفي آخر ترجمته في وفيات الأعيان أنه كان يلعب بالشطرنج استدياراً .

راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٠٤ ، وطبقات ابن سعد ٦ : ١٨٧ وتهذيب التهذيب ٤ : ١١ وحلية الأولياء ٤ : ٢٧٢ وابن الأثير ٤ : ٢٢٠ والمعارف ١٩٧ والطبري ٨ : ٩٣ وفيه مقتل سنة ٩٤ هـ وقيل في آخرها والبدء والتاريخ ٦ : ٣٩ .

بخلق الله وقدره وحكمته ، لا يمكن أحد أن يأمر به الإنسان لأنه لا يدري أن ذلك خير له ، وليس ما يفعله خلقاً - لعلمه وحكمته - يجوز للرسول وللعباد أن يفعلوه ويأمرؤا به . وقصة الخضر مع موسى لم تكن مخلفة لشرع الله وأمره ، ولا فعل الخضر ما فعله لكونه مقدراً كما يظنه بعض الناس ؛ بل ما فعله الخضر هو مأمور به في الشرع بشرط أن يعلم من مصلحته ما علمه الخضر ؛ فإنه لم يفعل محرماً مطلقاً ؛ ولكن خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار ، فإن إتلاف بعض المال لصالح أكثره هو أمر مشروع دائماً . وكذلك قتل الإنسان الصائل لحفظ دين غيره أمر مشروع ، وصبر الإنسان على الجوع مع إحسانه إلى غيره أمر مشروع .

فهذه القضية تدل على أنه يكون من الأمور ما ظاهره فساد فيحرمه من لم يعرف الحكمة التي لأجلها فعل ، وهو مباح في الشرع باطنياً وظاهراً لمن علم ما فيه من الحكمة التي توجب حسنه وإباحته .

وهذا لا يجيء في الأنواع الأربعة ، فإن الشرك والقول على الله بلا علم ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والظلم : لا يكون فيها شيء من المصلحة ، وقتل النفس ، أبيح في حال دون حال ، وكذلك الصبر على المجاعة ؛ ولذلك قال : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(١) . فإخلاص الدين له والعدل واجب مطلقاً في كل حال ، وفي كل شرع فعلى العبد أن يعبد الله مخلصاً له الدين ، ويدعوه مخلصاً له ، لا يسقط هذا عنه بحال ، ولا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد ، وهم أهل « لا إله إلا الله » فهذا حق الله على كل عبد من عباده ، كما في الصحيحين من حديث معاذ أن النبي ﷺ قال له : « يا معاذ ! أتدري ما حق الله على عباده ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً » ^(٢) الحديث .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٩ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الإمام مسلم - في كتاب الإيمان ١٠ باب الدليل على أن من =

فلا ينجون من عذاب الله إلا من أخلص لله دينه وعبادته ، ودعاه مخلصاً له الدين ، ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته وعبادة غيره ، كفرعون وأمثاله ، فهو أسوأ حالاً من المشرك ؛ فلا بد من عبادة الله وحده ، وهذا واجب على كل أحد ، فلا يسقط عن أحد البتة ، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره .

ولكن لا يعذب الله أحداً حتى يبعث إليه رسولاً ، وكما أنه لا يعذبه فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة ، ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه ، فمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا امتحن في الآخرة ولا يدخل النار إلا من اتبع الشيطان ، فمن لا ذنب له لا يدخل النار ولا يعذب الله بالنار أحداً إلا بعد أن يبعث إليه رسولاً ، فمن لم تبلغه دعوة رسول إليه كالصغير والمجنون ، والميت في الفترة المحضة فهذا يمتحن في الآخرة كما جاءت بذلك الآثار .

فيجب الفرق في الواجبات والمحرمات - والتمييز بينهما هو اللازم لكل أحد على كل حال ، وهو العدل في حق الله وحق عباده بأن يعبدوا الله مخلصاً له الدين ، ولا يظلم الناس شيئاً ، وما هو محرم على كل أحد في كل حال لا يباح منه شيء ، وهو الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم - وبين

= مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، ٤٨ (٣٠) بسنده عن معاذ بن جبل قال : كنت ردف النبي - ﷺ - ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل . فقال يا معاذ بن جبل : قلت لبيك رسول الله - ﷺ - وسعديك . ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ بن جبل : قلت لبيك رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة ثم قال : يا معاذ بن جبل : قلت لبيك رسول الله وسعديك . قال : وذكره وفيه زيادة [ثم قال : يا معاذ بن جبل قلت : لبيك رسول الله وسعديك قال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال : قلت الله ورسوله أعلم : قال : أن لا يعذبهم » .

ورواه البخاري مختصر في كتاب التوحيد ١ باب ما جاء في دعاء النبي - ﷺ - أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى ٧٣٧٣ بسنده عن الأسود بن هلال عن معاذ بن جبل وذكره وفي كتاب اللباس ١٠١ والجهاد ٤٦ والاستئذان ٣٠ والرقاق ٣٧ والترمذي في كتاب الايمان ١٨ وابن ماجه في الزهد ٣٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥ ، ٣ : ٢٦٠ ، ٢٦١ (حلي)

ما سوى ذلك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ^(١) فهذا محرم مطلقاً لا يجوز منه شيء ، ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ^(٢) فهذا فيه تقييد ، فإن الوالد إذا دعا الولد إلى الشرك ليس له أن يطيعه بل له أن يأمره وينهاه ، وهذا الأمر والنهي للوالد هو من الإحسان إليه ، وإذا كان مشركاً جاز للولد قتله ، وفي كراهته نزاع بين العلماء .

قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ ^(٣) فهذا تحريم خاص ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ^(٤) هذا مطلق ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ ^(٥) هذا مقيد ، فإن يتامى المشركين أهل الحرب يجوز غنيمه أموالهم ؛ لكن قد يقال : هذا أخذ وقربان بالتي هي أحسن ، إذا فسر الأحسن بأمر الله ورسوله ، ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ ^(٦) هذا مقيد بمن يستحق ذلك ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ ^(٧) هذا مطلق .

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ ^(٨) فالوفاء واجب ؛ لكن يميز بين عهد الله وغيره ، ويفرق بين ما يسكت عنه الإنسان وبين ما يلفظ به ، ويفعله ويأمر

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥١ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥١ .

روى البخاري في كتاب التفسير ٧ باب ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٤٦٣٤ - حدثنا شعبة عن عمرو عن أبي وائل عن عبد الله - رضي الله عنه قال : لا أحد أغبر من

الله ، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا شيء أحب إليه المدح من الله ، ولذلك

مدح نفسه . قلت : سمعته من عبد الله . . ؟ قال : نعم . قلت ورفع : قال : نعم .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٥٢ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٥٢ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٥٢ .

(٧) سورة الأنعام آية رقم ١٥٢ .

به ، ويفرق بينما قدر الله ، فحصل بسببه خير وبين ما يؤمر به العبد فيحصل
بسببه خير .

فصل في كفارة اليمين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية .

كفارة اليمين هي المذكورة في سورة المائدة . قال تعالى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ (١) .

فمتى كان واحداً فعليه أن يكفر باحدى الثلاث ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، وإذا اختار أن يطعم عشرة مساكين فله ذلك ، ومقدار ما يطعم مبني على أصل وهو أن اطعامهم هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف . . ؟ فيه

(١) سورة المائدة آية رقم ٨٩ قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثقفي حدثنا عبيد بن الحسن بن يوسف ، حدثنا محمد بن معاوية ، حدثنا زياد بن عبد الله بن الطفيل بن سخبرة بن أخي عائشة لأمه ، حدثنا عمر بن يعلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال كفر رسول الله - ﷺ - بصاع من تمر وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر ، ورواه ابن ماجه عن العباس بن يزيد عن زياد بن عبد الله البكاء عن عمر بن عبد الله ابن يعلى الثقفي عن المنهال بن عمرو به قال الامام ابن كثير : لا يصح هذا الحديث لحال عمر ابن عبد الله هذا فإنه مجمع على ضعفه ، وذكروا أنه كان يشرب الخمر ، وقال الدارقطني : متروك ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن داود يعني ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : مدأ من بر يعني لكل مسكين ومعه إدامه ثم قال : وروى عن ابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعطاء وعكرمة ، وأبي الشعثاء وغير ذلك .

قولان للعلماء . منهم من قال هو مقدر بالشرع وهؤلاء على أقوال .
منهم من قال يطعم كل مسكين صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير أو
نصف صاع من بر كقول أبي حنيفة وطائفة .
ومنهم من قال يطعم كل واحد نصف صاع من تمر أو شعير أو ربع صاع
من بر وهو مد كقول أحمد وطائفة .
ومنهم من قال بل يجزىء في الجميع مد من الجميع كقول الشافعي
وطائفة .

والقول الثاني أن ذلك مقدر بالعرف لا بالشرع ، فيطعم أهل كل بلد من
أوسط ما يطعمون أهلهم قدرأً ونوعاً .

وهذا معنى قول مالك . قال إسماعيل بن اسحاق : كان مالك يرى في
كفارة اليمين أن المد يجزي بالمدينة ، قال مالك : وأما البلدان فإن لهم عيشاً
غير عشنا فأرى أن يكفروا بالوسط من عيشهم لقول الله تعالى ﴿ من أوسط ما
تطعمون أهليكم أو كسوتهم ﴾ .

وهو مذهب داود وأصحابه مطلقاً .

والمنقول عن أكثر الصحابة والتابعين هذا القول ، ولهذا كانوا يقولون
الأوسط خبز ولبن ، خبز وسمن ، خبز وتمر ، والأعلى خبز ولحم ، وقد بسطنا
الآثار عنهم في غير هذا الموضع . وبيننا أن هذا القول هو الصواب الذي يدل
عليه الكتاب والسنة والاعتبار ، وهو قياس مذهب أحمد وأصوله ، فإن أصله
أن ما لم يقدره الشارع فإنه يرجع فيه الى العرف .

وهذا لم يقدره الشارع فيرجع فيه الى العرف لا سيما مع قوله تعالى :
﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ .

فإن أحمد لا يقدر طعام المرأة ، والولد ، ولا المملوك ، ولا يقدر أجرة

الأجير المستأجر بطعامه وكسوته في ظاهر مذهبه ، ولا يقدر الضيافة الواجبة عنده قولاً واحداً ، ولا يقدر الضيافة المشروطة على أهل الذمة للمسلمين في ظاهر مذهبه . هذا مع أن هذه واجبة بالشرط . فكيف يقدر طعاماً واجباً بالشرع ، بل ولا يقدر الجزية في أظهر الروايتين عنه ، ولا الخراج ، ولا يقدر أيضاً الأطعمة الواجبة مطلقاً سواء وجبت بشرع أو شرط ، ولا غير الأطعمة مما وجبت مطلقاً فطعام الكفارة أولى أن لا يقدر .

والأقسام ثلاثة . فما له حد في الشرع أو اللغة رجع في ذلك إليهما ، وما ليس له حد فيهما رجع فيه الى العرف . ولهذا لا يقدر للعقود ألفاظاً بل أصل في هذه الأمور من جنس أصل مالك كما أن قياس مذهبه أن يكون الواجب في صدقة الفطر نصف صاع من بر ، وقد دل على كلامه أيضاً كما قد بين في موضع آخر ، وإن كان المشهور عنه تقدير ذلك بالصاع كالتمر والشعير . وقد تنازع العلماء في الأدم ، هل هو واجب أو مستحب . . ؟ على قولين والصحيح أنه إن كان يطعم أهله بأدم أطعم المساكين بأدم ، وإن كان إنما يطعمهم بلا أدم لم يكن عليه أن يفضل المساكين على أهله ، بل يطعم المساكين من أوسط ما يطعم أهله .

وعلى هذا فمن البلاد من يكون أوسط طعام أهله مداً من حنطة ، كما يقال عن أهل المدينة ، وإذا صنع خبزاً جاء نحو رطلين بالعراقي وهو بالدمشقي خمسة أواق ، وخمسة أسباع أوقية .

فإن جعل بعضه أدماً كما جاء عن السلف كان الخبز نحواً من أربعة أواق وهذا لا يكفي أكثر أهل الأمصار ، فلهذا قال جمهور العلماء يطعم في غير المدينة أكثر من هذا ، إما مدان أو مد ونصف على قدر طعامهم فيطعم من الخبر إما نصف رطل بالدمشقي وإما ثلثا رطل ، وإما رطل وإما أكثر ، وإما مع الأدم ، وإما بدون الأدم على قدر عادتهم في الأكل في كل وقت . فإن عادة الناس تختلف بالرخص والغلاء ، واليسار والأعسار ، وتختلف بالشتاء

والصيف ، وغير ذلك .

وإذا حسب ما يوجبه أبو حنيفة خبزاً كان رطلاً وثلاثاً بالدمشقي فإنه يوجب نصف صاع عنه ثمانية أرطال وأما ما يوجبه من التمر والشعير فيوجب صاعاً ثمانية أرطال وذلك بقدر ما يوجبه الشافعي ست مرات وهو بقدر ما يوجبه أحمد بن حنبل ثلاث مرات .

والمختار أن يرجع في ذلك الى عرف الناس وعاداتهم فقد يجزىء في بلد ما أوجبه أبو حنيفة ، وفي بلد ما أوجبه أحمد ، وفي بلد آخر ما بين هذا وهذا على حسب عادته عملاً بقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ . وإذا جمع عشرة مساكين ، وعشاهم خبزاً أو أدماً من أوسط ما يطعم أهله أجزاه ذلك عند أكثر السلف ، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين وغيرهم ، وهو أظهر القولين في الدليل ، فإن الله تعالى أمر بالاطعام ولم يوجب التملك ، وهذا اطعام حقيقة ، ومن أوجب التملك احتج بحجتين . احدهما : أن الطعام الواجب مقدر بالشرع ، ولا يعلم إذا أكلوا أن كل واحد يأكل قدر حقه .

وجواب الأولى انا لا نسلم أنه مقدر بالشرع ، وإن قدر أنه مقدر به ، فالكلام إنما هو إذا أشبع كل واحد منهم غذاء وعشاء ، وحينئذ فيكون قد أخذ كل واحد قدر حقه وأكثر ، وأما التصرف بما شاء ، فالله تعالى لم يوجب ذلك إنما أوجب الإطعام ، ولو أراد ذلك لأوجب مالاً من النقد ونحوه وهو لم يوجب ذلك .

والزكاة : إنما أوجب فيها التملك لأنه ذكرها باللام بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ^(١)

(١) سورة التوبة آية رقم ٦٠ عن ابن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنها أتيا النبي - ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيها البصر فرأهما جليدين فقال : إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب . رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي . وأما المساكين فعن أبي =

ولهذا حيث ذكر الله التصرف كقوله : ﴿ وفي الرقاب - الى - وفي سبيل الله ﴾ . فالصحيح أنه لا يجب التملك بل يجوز أن يعتق من الزكاة ، وإن لم يكن تملكاً للمعتق . ويجوز أن يشتري منها سلاحاً يعين به في سبيل الله وغير ذلك ، ولهذا قال من قال من العلماء : الاطعام أولى من التملك لأن المملك قد يبيع ما أعطيته ولا يأكله . بل قد يكتنزه ، فإذا أطعم الطعام حصل مقصود الشارع قطعاً ، وغاية ما يقال : إن التملك قد يسمى إطعاماً كما يقال أطعم رسول الله - ﷺ - الجدة السدس وفي الحديث « ما أطعم الله نبياً طعمة إلا كانت لمن يلي الأمر من بعده » . لكن يقال : لا ريب أن اللفظ يتناول الإطعام المعروف بطريق الأولى ولأن ذلك إنما يقال إذا ذكر المطعم فيقال أطعمه كذا ، فإما إذا أطلق وقيل أطعم هؤلاء المساكين ، فإنه لا يفهم منه إلا نفس طعام لكن لما كانوا يأكلون ما يأخذونه سمي التملك للطعام اطعاماً لأن المقصود هو الإطعام .

أما إذا كان المقصود مصرفاً غير الأكل فهذا لا يسمى إطعاماً عند الإطلاق .

= هريرة - رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمر والتمرتان . قالوا فما المسكين يا رسول الله . . ؟ قال : الذي لا يجد غني يغنيه ، ولا يفتن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً . رواه الشيخان .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله فصل

قوله تعالى علواً كبيراً ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (١) لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا نهياً ولا إذناً ، كما في الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ ، فقال « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (٢) .

وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً في تأويلها « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة نفسك » (٣) وهذا يفسره حديث أبي سعيد في مسلم : « من رأى منكم منكراً

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠٥ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢٠ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠٥ - عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية (٥ : ١٠٥) ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ، وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : وذكره .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢١ باب قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ .

٤٠١٤ - عن عمرو بن جارية عن أبي أمية الشعباني . قال أتيت أبا ثعلبة الخشني قال : قلت =

فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ^(١) فإذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر ، بل يؤذن الناهي لغلبة الشح والهوى والعجب سقط التغيير باللسان في هذه الحال ، وبقي بالقلب ، و« الشح » هو شدة الحرص التي توجب البخل والظلم ، وهو منع الخير وكراهيته ، و« الهوى المتبع » في إرادة الشر ومحبه و« الإعجاب بالرأي » في العقل والعلم ، فذكر فساد القوى الثلاث التي هي العلم والحب والبغض ، كما في الحديث الآخر : « ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » ^(٢) وبإزائها الثلاث المنجيات : « خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنى ، وكلمة الحق في الغضب والرضا » وهي التي سألتها في الحديث الآخر : « اللهم إني أسألك

= كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية : ٥ : ١٠٥ ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ . قال : سألت عنها خبيراً . سألت عنها رسول الله - ﷺ فقال : بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ورأيت أمراً لا يدان لك به ، فعليك خويفة نفسك ، فإن من ورائكم أيام الصبر . الصبر فيهن على مثل قبض الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عمله .

وأخرجه أبو داود في الملاحم ١٧ والترمذي في التفسير سورة : ٥ / ١٨ .

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٢٠ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ٧٨ - (٤٩) حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة كلاهما عن قيس بن سالم ، عن طارق بن شهاب وذكره .

وأخرجه البخاري في كتاب العلم ٢٨ باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره .

(٢) رواه العسكري عن ابن عباس مرفوعاً والنميري وقتادة بزيادة عن أنس مرفوعاً ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، وذكره ، وروى الطبراني عن ابن عمر ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات وثلاث درجات ، فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات ، فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية ، وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في السبرات ونقل الأقدام الى الجماعات ، وأما الدرجات فاطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام وله شواهد .

خشيتك في السر والعلانية ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى » ^(١) . فخشية الله بإزاء اتباع الهوى ، فإن الخشية تمنع ذلك ، كما قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴾ ^(٢) والقصد في الفقر والغنى بإزاء الشح المطاع ، وكلمة الحق في الغضب والرضا بإزاء إعجاب المرء بنفسه ، وما ذكره الصديق ظاهر ؛ فإن الله قال ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۖ أَيُّ الزُّمُوهَا أَقْبَلُوا عَلَيْهَا ، وَمَنْ مَّصَلَحَ النَّفْسَ فَعَلَ مَا أَمَرَتْ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَقَالَ ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ^(٣) وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وأدى الواجب من الأمر والنهي وغيرهما ؛ ولكن في الآية فوائد عظيمة . « أحدها » أن لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً .

« الثاني » أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم ، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى ، والحزن على ما يضر عبث ، وهاذان المعنيان المذكوران في قوله : ﴿ وَأَصْبِرْ ۖ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ^(٤)

« الثالث » أن لا يركن إليهم ، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات ، كقوله : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٥) فنهاء عن الحزن عليهم والرغبة فيما

(١) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٢٦٤ عن شريك عن أبي هاشم عن أبي مجلز قال : صلى بنا عمار صلاة فأوجز فيها فانكروا ذلك عليه فقال : ألم أتم الركوع والسجود . ؟ قالوا : بلى . أما أني قد دعوت فيهما بدعاء كان رسول الله - ﷺ - به وذكره مع تغيير في بعض الألفاظ . وذكره النسائي في السهو ٦٢ .

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٠٥ وصدر الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٢٧ .

(٥) سورة الحجر آية رقم ٨٨ .

عندهم في آية ونهاه عن الحزن عليهم والرغبة منهم في آية . فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم إما راغباً وإما راهباً .

« الرابع » أن لا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم ، أو نهيهم أو هجرهم ، أو عقوبتهم ؛ بل يقال لمن اعتدى عليهم عليك نفسك لا يضررك من ضل إذا اهتديت ، كما قال : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ ﴾ ^(١) الآية . وقال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) فإن كثيراً من الأمرين الناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم ، وهذا باب يجب التثبت فيه ، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين .

« الخامس » أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع ، من العلم والرفق والصبر ، وحسن القصد ، وسلوك السبيل القصد ، فإن ذلك داخل في قوله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ وفي قوله : ﴿ إذا اهتديتم ﴾ .

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيها المعنى الآخر ، وهو إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً وإعراضه عما لا يعنيه ، كما قال صاحب الشريعة : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ^(٤) ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه

(١) سورة المائدة آية رقم ٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٠ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٩٣ .

(٤) الحديث أخرجه صاحب الموطأ في كتاب حسن الخلق (١) باب ما جاء في حسن الخلق عن مالك ، عن ابن شهاب ، عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال : وذكره . والحديث حسن بل صحيح .

أخرجه الترمذي ، وابن ماجه من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة . فأخرجه الترمذي في ٢٤ كتاب الزهد ١١ باب حدثنا سليمان بن عبد الجبار البغدادي ، وابن ماجه في =

حاجة من أمر دين غيره ودنياه ، لا سيما إن كان التكلم لحد أو رئاسة .

وكذلك العمل فصاحبه إما معتد ظالم ، وإما سفيه عايب ، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، ويكون من باب الظلم والعدوان .

فتأمل الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء ، وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات والقرآن ، محنة أحمد وغيره ، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة ، وكما بغت الناصبة على علي وأهل بيته وكما قد تبغي المشبهة على المنزهة ، وكما قد يبغي بعض المستنة إما على بعضهم وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به ، وهو الإسراف المذكور في قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ (١) .

وبإزاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق ، أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في هذه الأمور كلها ، فما أحسن ما قال بعض السلف : ما أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين - لا يبالي بأيهما ظفر - غلو أو تقصير .

فالمعين على الإثم والعدوان بإزائه تارك الإعانة على البر والتقوى ، وفاعل المأمور به وزيادة منهى عنها بإزائه تارك المنهي عنه وبعض المأمور به والله يهدينا الصراط المستقيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

= ٣٦ كتاب الفتن ١٢ باب كف اللسان في الفتنة .

وأخرجه الامام أحمد في المسند ١ : ٢٠١ (حلي)

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .

قال شيخ الإسلام رحمه الله فصل

الذي يدل عليه القرآن في سورة المائدة في آية الشهادة في قوله ﴿فَيَقْسَمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ ^(١) أي بقولنا ، ولو كان ذا قربي حذف ضمير كان لظهوره أي ولو كان المشهود له ، كما في قوله : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ^(٢) وكما في قوله : ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن زياد ، حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق عن أبي النضر عن باذان يعني أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ قال برىء الناس منها غيري ، وغير عدي بن براء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة معه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله ، قال تميم ، فلما مات أخذنا ذلك الجاه فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجاه فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره ، قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله - ﷺ - المدينة نائمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فوثبوا عليه فأمرهم النبي - ﷺ - أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ .

وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي ، وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحرابي عن محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق به ذكره .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥٢ .

شَهَدَاءَ اللَّهِ ﴿^(١)﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿إِنْ يَكُنْ غَيِّبًا أَوْ فَقِيرًا﴾ أَيِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ الشَّهَادَةَ الْمَزُورَةَ يَتَنَاضُ عَلَيْهَا ، وَإِلَّا فَلَيْسَ أَحَدٌ يَشْهَدُ شَهَادَةً مَزُورَةً بِلَا عَوْضٍ - وَلَوْ مَدْحٍ - أَوْ اتِّخَاذِ يَدٍ . وَآفَةُ الشَّهَادَةِ : أَمَّا الِإِلَى ، وَإِنَّمَا الْإِعْرَاضُ : الْكَذِبُ وَالْكَتْمَانُ فَيَحْلِفَانِ لَا نَشْتَرِي بِقَوْلِنَا ثَمَنًا : أَيِ لَا نَكْذِبُ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ، أَوْ لَا نَشْتَرِي بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا ، لِأَنَّهَا كَانَا مُؤْتَمِنِينَ ، فَعَلَيْهِمَا عَهْدٌ بِتَسْلِيمِ الْمَالِ إِلَى مُسْتَحَقِّهِ ؛ فَإِنَّ الْوَصِيَّةَ عَهْدٌ مِنَ الْعَهْدِ .

وقوله بعد ذلك ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ ﴿^(٢)﴾ أَعْمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الشَّهَادَةِ أَوْ الْأَمَانَةِ ، وَسَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَمَانَةِ فَيُثْبِتُ اسْتِشْهَادًا وَائْتِمَانًا ، لَكِنْ ائْتِمَانُهُمَا لَيْسَ خَارِجًا عَنِ الْقِيَاسِ ؛ بَلْ حُكْمُهُ ظَاهِرٌ ، فَلَمْ يَحْتَجْ فِيهِ إِلَى تَنْزِيلٍ ، بِخِلَافِ اسْتِشْهَادِهِمَا ، وَالْمَعْثُورُ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الْإِثْمِ ظُهُورُ بَعْضِ الْوَصِيَّةِ عِنْدَ مَنْ اشْتَرَاهَا مِنْهَا بَعْدَ أَنْ وَجَدَ ذِكْرَهَا فِي الْوَصِيَّةِ ، وَسُئِلَا عَنْهَا فَأَنْكَرَاهَا .

وقوله : ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ﴾ ﴿^(٣)﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُتَضَمِّنًا مَعْنَى بَغْيِ عَلَيْهِمَ ، وَعَدَى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ كَمَا يُقَالُ فِي الْغَضَبِ : غَضِبْتُ عَلَى مَالِي ؛ وَلِهَذَا قِيلَ : ﴿لشَّهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ ﴿^(٤)﴾ أَيِ كَمَا اعْتَدَوْا ثُمَّ قَوْلُهُ : ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ ﴿^(٥)﴾ .

وحديث ابن عباس في البخاري صريح في أن النبي ﷺ حكم بمعنى ما في القرآن ، فرد اليمين على المدعين بعد أن استحلف المدعى عليهم لما

(١) سورة النساء آية رقم ١٣٥ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ١٠٧ .

(٣) (٤) سورة المائدة آية رقم ١٠٧ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ١٠٨ .

عشر على أنهما استحقا إثماً ، وهو إخبار المشتريين أنهم اشتروا « الجام »
منهما بعد قولهما ما رأيناه ، فحلف النبي ﷺ اثنين من المدعين الأوليان
وأخذوا « الجام » من المشتري وسلم إلى المدعي ، وبطل البيع ، وهذا لا
يكون مع إقرارهما بأنهما باعا الجام ؛ فإنه لم يكن يحتاج إلى يمين المدعين
لو اعترفا بأنه جام الموصى ، وأنهما غصباه وباعاه ، بل بقوا على إنكار قبضه
مع بيعه أو ادعوا مع ذلك أنه أوصى لهما به وهذا بعيد .

فظاهر الآية أن المدعى عليه المتهم بخيانة ونحوها - كما اتهم
هؤلاء - إذا ظهر كذبه وخيانتة كان ذلك لوثاً يوجب رجحان جانب المدعي ،
فيحلف ويأخذ كما قلنا في الدماء سواء ، والحكمة فيهما واحدة ، وذلك أنه
لما كانت العادة أن القتل لا يفعل علانية بل سراً فيتعذر إقامة البينة ولا يمكن
أن يؤخذ بقول المدعي مطلقاً أخذ بقول من يترجح جانبه ، فمع عدم اللوث
جانب المنكر راجح ، أما إذا كان قتل ولوث قوي جانب المدعي فيحلف .
وكذلك الخيانة والسرقة يتعذر إقامة البينة عليها في العادة ، ومن يستحل أن
يسرق فقد لا يتورع عن الكذب ، فإذا لم يكن لوث فالأصل براءة الذمة ، أما
إذا ظهر لوث بأن يوجد بعض المسروق عنده فيحلف المدعي ويأخذ ،
وكذلك لو حلف المدعى عليه ابتداءً ثم ظهر بعض المسروق عند من اشتراه
أو انتهبه أو أخذه منه ، فإن هذا اللوث في تغليب الظن أقوى ؛ لكن في الدم
قد يتيقن القتل ويشك في عين القاتل فالدعوى إنما هي بالتعيين .

وأما في الأموال : فتارة يتيقن ذهاب المال وقدره ، مثل أن يكون معلوماً
في مكان معروف . وتارة يتيقن ذهاب مال لا قدره ، بأن يعلم أنه كان هناك
مال وذهب ، وتارة يتيقن هتك الحرز ولا يدري أذهب بشيء أم لا ؟ هذا في
دعوى السرقة ، وأما في دعوى الخيانة فلا تعلم الخيانة فإذا ظهر بعض المال
المتهم به عند المدعى عليه أو من قبضه منه ظهر اللوث بترجيح جانب
المدعي ، فإن تحليف المدعى عليه حينئذ بعيد .

وقول النبي ﷺ : « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم ، ولكن اليمين على المدعى عليه » ^(١) جمع فيه الدماء والأموال فكما أن الدماء إذا كان مع المدعي لوث حلف فكذلك الأموال ، كما حلفناه مع شاهده ، فكما يغلب على الظن صدقه فهو بمنزلة شاهده ، كما جعلنا في الدماء الشهادة المزورة لنقص نصابها أو صفاتها لوثاً ، وكذلك في الأموال جعل الشاهد مع اليمين ، فالشاهد المروور مع لوث وهو لكن ينبغي أن تعتبر في هذا حال المدعي والمدعى عليه في الصدق والكذب ، فإن باب السرقة والخيانة لا يفعله إلا فاسق ، فإن كان من أهل ذلك لم يكن إذا لم يكن إلا عدلاً ، وكذلك المدعي قد يكذب ، فاعتبار العدالة والفسق في هذا يدل عليه قول الأنصاري : كيف نرضى بإيمان قوم كفار ؟ نعلم أن المتهم إذا كان فاجراً فللمدعي أن لا يرضى بيمينه ، لأنه من يستحل أن يسرق يستحل أن يحلف .

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرهن ٦ باب إذا اختلف الراهن والمرتهن ونحوه فالبينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ٢٥١٤ حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال كتبت الى ابن عباس فكتب إليّ وذكره . وأخرجه الترمذي في الأحكام ١٢ باب ما جاء في أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ١٣٤٠ بسنده عن واثل بن حجر . وذكره .

قال : وفي الباب عن عمر وابن عباس ، وعبد الله بن عمر والأشعث بن قيس . وقال : حديث واثل بن حجر ، حديث حسن صحيح ، وأخرجه ابن ماجه في الأحكام ٧ باب البينة على المدعي ، واليمين على المدعى عليه ٢٣٢١ بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما .

فصل في معنى روح القدس

قال تعالى :

﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ اِذْ اَيْدُتَكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ ﴾ (١) .

فيقال هذا مما لا ريب فيه . ولا حجة لكم فيه ، بل هو حجة عليكم .
فإن الله أيد المسيح (عليه السلام) بروح القدس ، كما ذكر ذلك في هذه
الآية . وقال تعالى في البقرة :

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ
بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٣) .

(١) سورة المائدة آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٨٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ « وروح القدس » قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة ، حدثنا منجاب
ابن الحارث ، حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس « وأيدناه بروح القدس »
قال : هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى ، وقال ابن جرير حدثت عن =

وهذا ليس مختصا بالمسيح ، بل قد أيد غيره بذلك . وقد ذكروا هم أنه قال لداود :

« روحك القدس لا تنزع مني » .

وقد قال نبينا (ﷺ) لحسان بن ثابت : « اللهم أیده بروح القدس » .

وفي لفظ : « روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » ^(١) وكلا اللفظين في الصحيح .

وعند النصارى أن الحواريين حلت فيهم روح القدس ، وكذلك عندهم روح القدس حلت في جميع الأنبياء .

وقد قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٢) .

وقد قال تعالى في موضع آخر :

= المنجاب فذكره ، وقال ابن أبي حاتم ، وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضاً قال : وهو الأسم الأعظم وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالاً : القدس هو الله تعالى ، وروحه جبريل .

(١) قال ابن الزناد عن أبيه عن أبي هريرة عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - اللهم أيد حسان بروح القدس ، كما نافح عن نبيك « فهذا من البخاري تعليقاً ، وقد رواه أبو داود في سننه عن ابن سيرين والترمذي عن علي بن حجر ، وإسماعيل بن موسى الفزاري ثلاثتهم عن أبي عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه ، وهشام بن عروة كلاهما عن عائشة به . قال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) سورة النحل آية رقم من ٩٨ - ١٠٢ .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ . . . (١)

وقال :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٢) فقد تبين أن روح القدس هنا جبريل . وقال تعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (٣) .

وقال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٤) .

وقال تعالى :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٥)

وقال :

﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (٦) .

(١) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٩٧ .

(٣) سورة المجادلة آية رقم ٢٢ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٢ .

(٦) سورة غافر آية رقم ١٥ .

فهذه الروح التي أوحاها ، والتي تنزل بها الملائكة على من يشاء من عباده غير الروح الأمين التي تنزل بالكتاب ، وكلاهما يتسمى روحاً ، وهما متلازمان ، فالروح التي ينزل بها الملك مع الروح الأمين التي ينزل بها روح القدس يراد بها هذا وهذا . وبكلا القولين فسر المفسرون قوله في المسيح :

﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ .

ولم يقل أحد أن المراد بذلك حياة الله ، ولا اللفظ يدل على ذلك ، ولا استعمل فيه ، وهم إما أن يسلموا أن روح القدس في حق غيره ليس المراد بها حياة الله . فإذا ثبت أن لها معنى غير الحياة ، فلو استعمل في حياة الله أيضاً ، لم يتعين أن يراد بها ذلك في حق المسيح . فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح ، وأما أن يدعو أن المراد بها حياة الله في حق الأنبياء والحواريين . فان قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللاهوت حالاً في جميع الأنبياء والحواريين ، وحينئذ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح .

ويلزمهم أيضاً أن يكون في المسيح لاهوتان : لاهوت ^(١) الكلمة ولاهوت الروح . فيكون قد إتحد به اقنومان ، ثم في قوله تعالى : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ يمتنع أن يراد بها حياة الله ، فان حياة الله صفة قائمة بذاته لا تقوم بغيره ، ولا تختص ببعض الموجودات غيره . وأما عندهم فالمسيح هو الله الخالق . فكيف يؤيد بغيره ، وأيضاً فالمتحد بالمسيح هو الكلمة دون

= اختلف العلماء في يوم التلاق : فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما - يوم التلاق : اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر الله منه عباده ، وقال ابن جريج : قال ابن عباس - رضي الله عنهما يلتقي فيه آدم وآخر ولده ، وقال ابن زيد يلتقي فيه العباد ، وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد ، وسفيان بن عيينة : يلتقي أهل السماء وأهل الأرض ، والخالق والخلق ، وقال ميمون بن مهران يلتقي الظالم والمظلوم ، وقد يقال : إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر .

(١) سبق الحديث عن كلمة « لاهوت » و« كلمة ناسوت » عند النصارى وأيضاً تعريف الأقباط الثلاثة عندهم .

الحياة ، فلا يصح تأييده بها .

فتبين أنهم يريدون أن يحرفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب
المتقدمة ، وأن كلامهم في تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنس
واحد .

فصل عيسى عبد الله ورسوله

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ
قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

(١) سورة المائدة اية رقم ١١٦ - ١١٧ .

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة قال انطلقت أنا وسفيان الثوري الى المغيرة بن النعمان
فأملى على سفيان وأنا معه فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا . قال : سمعت سعيد بن جبير
يحدث عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله - ﷺ - بموعظة فقال : يا أيها الناس إنكم
محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وأن أول الخلائق
يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول :
أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وكنت عليهم
شهِيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن
تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزالوا
مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . ورواه البخاري عند هذه الآية عن أبي الوليد ، وعن
شعبة ، وعن محمد بن كثير عن سفيان الثوري كلاهما عن المغيرة بن النعمان به .

فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به بقوله : ﴿ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ وكان عليهم شهيداً ما دام فيهم ، وبعد وفاته كان
الله الرقيب عليهم . فاذا كان بعضهم قد غلط في النقل عنه أو في تفسير
كلامه ، أو تعمد تغيير دينه ، لم يكن على المسيح (عليه السلام) من ذلك
درك . وإنما هو رسول عليه البلاغ المبين .

وقد أخبر الله سبحانه أن أول ما تكلم به المسيح أن : ﴿ قَالَ إِنِّي
عَبْدُ اللَّهِ أَنَا الْكَتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (١) .

ثم طلب لنفسه السلام فقال :

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٢) .

والنصارى يقولون : علينا منه السلام . كما يقوم الغالية فيمن يدعون فيه
الإلهية كالنصيرية في علي ، والحاكمية في الحاكم . الوجه الثاني - أن يقال :
ان الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قتل ، وإنما قال :

﴿ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْ يَدَيْكَ وَأَفْعَلْ بِلِقَاءِ رَبِّكَ مَا تَشَاءُ ﴾ (٣)

وقال المسيح :

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴾ (٤) .

وقال تعالى :

﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتِّلْهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

(١) سورة مريم آية رقم ٣٠ - ٣٢ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٣٣ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٥٥ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ١١٧ .

وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ
مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي
شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ
أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأُكِّلِهِمْ
أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿١﴾ .

فَذَمَّ اللَّهُ الْيَهُودَ بِأَشْيَاءَ مِنْهَا :

﴿ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾

حيث زعموا أنها بغى . ومنها قولهم :

﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ .

قال تعالى :

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٥ - ١٦١ وفي قضية الرفع : قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أحمد بن
سنان ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس
قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه ، وفي البيت اثنا عشر رجلاً
من الحواريين - يعني - فخرج عليهم من عين البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر
بي اثني عشر مرة بعد أن آمن بي قال : ثم قال أيكم يلقي عليه شيهي فيقتل مكاني ويكون
معي في درجتي . فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام ذلك
الشاب ، فقال له : اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب . فقال : أنا فقال : هو أنت ذاك ،
فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلب
من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثني عشر مرة بعد أن آمن به
وافترقوا ثلاث فرق فقلت فرقة كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء البعويية .
وقالت فرقة كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة كان فينا
عبد الله ورسوله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ،
ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه .

﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾

وأضاف هذا القول إليهم وضمهم عليه ، ولم يذكر النصارى لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود ، ولم يكن أحد من النصارى شاهداً معهم ، بل كان الحواريون خائفين غائبين فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهدة اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح . والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوا عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقاً كثيراً يمتنع تواطؤهم على الكذب .

قال تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ فنفى عنه القتل ،

ثم قال :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ (١) ،

وهذا عند أكثر العلماء معناه قبل موت المسيح .

وقد قيل : قبل موت اليهود . وهو ضعيف . كما قيل : انه قبل موت محمد (ﷺ) وهو أضعف . فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به ، فان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرر .

وإن قيل : المراد به الإيمان الذي يكون بعد الغرغرة لم يكن في هذا فائدة . فان كل أحد بعد موته يؤمن بالغيب الذي كان يجحده . فلا اختصاص للمسيح به ، ولأنه قال : ﴿ قبل موته ﴾ ولم يقل : « بعد موته » (٢) ، ولأنه لا فرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمد (صلوات الله عليه

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٩ .

(٢) قال ابن أبي حاتم - حدثنا أبي حدثنا علي بن عثمان اللاحي ، حدثنا جويرية بن بشير قال سمعت رجلاً قال للحسن يا أبا سعيد قول الله عز وجل ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ قال قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى ، وهو باعته قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر ، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد ، وهذا القول هو الحق .

وسلامه) . واليهودي الذي يموت على اليهودية فيموت كافراً بمحمد والمسيح (عليهما الصلاة والسلام) ، ولأنه قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ فعل مقسم عليه . وهذا إنما يكون في المستقبل . فدل ذلك على أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا ، ولو أريد قبل موت الكتابي لقال : « وان من أهل الكتاب إلا من يؤمن به » لم يقل ﴿ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ .

وأيضاً فانه قال : ﴿ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ وهذا يعم اليهود والنصارى . فدل ذلك على أن جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح ، وذلك إذا نزل آمنت اليهود والنصارى بأنه رسول الله ليس كاذباً كما يقول اليهود ، ولا هو الله كما تقوله النصارى .

والمحافظة على هذا العموم أولى من أن يدعى أن كل كتابي ليؤمن به قبل أن يموت الكتابي ، فإن هذا يستلزم إيمان كل يهودي ونصراني ، وهذا خلاف الواقع . وهو لما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ ودل على أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو علم أنه أريد بالعموم عموم من كان موجوداً حين نزوله أي لا يتخلف منهم أحد عن الإيمان به ، لا إيمان من كان منهم ميتاً . وهذا كما يقال : إنه لا يبقى بلد إلا دخله الدجال (٢) إلا مكة والمدينة أي في المدائن الموجودة حينئذ . وسبب إيمان أهل الكتاب به حينئذ ظاهر . فإنه يظهر لكل أحد أنه رسول مؤيد ليس بكذاب ولا هورب العالمين .

فالله تعالى ذكر إيمانهم به إذا نزل إلى الأرض ، فانه تعالى لما ذكر

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٩ .

(٢) روى البخاري في كتاب التوحيد ١٧ باب قول الله تعالى ﴿ وَلَتَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي ﴾ ٧٤٠٨ بسنده عن قتادة قال : سمعت أنساً - رضي الله عنه عن النبي ﷺ : ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعداء الكذاب . وفي رواية : وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبه طافية .

رفعه إلى الله بقوله : ﴿ إني متوفيك ورافعك إلي ﴾ .

وهو ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويموت حينئذ ، أخبر : ﴿ إن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

في الصحيحين أن النبي (ﷺ) قال : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً ، واماماً مقسطاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٣) .

(١) سورة الزخرف آية رقم ٥٩ - ٦٥ قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ ﴾ أي أمانة ودليل على وقوع الساعة ، قال مجاهد ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ ﴾ أي آية للساعة . خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، وهكذا روي عن أبي هريرة ، وابن عباس ، وأبي العالية ، وأبي مالك ، وعكرمة ، والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٤٩ باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام .
٣٤٨٨ - أخبرنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - والذي نفسي بيده وذكره ورواه أيضاً البخاري في كتاب المظالم ٣١ ، وكتاب البيوع ١٠٢ ورواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٣٤٢ - ٣٤٣ ، وأبو داود في الملاحم ١٤ والترمذي في الفتن ٥٤ ، وابن ماجه في الفتن ٣٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٢ ، ٢٩٠ ، ٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٣٧ ، ٤٨٢ (حلي)

(٣) سورة النساء آية رقم ١٥٧ - ١٥٨ .

بيان أن الله رفعه حياً وسلمه من القتل ، وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت . وكذلك قوله : ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره .

معنى التوفي

ولفظ التوفي في لغة العرب معناه : الإستيفاء والقبض ، وذلك ثلاثة أنواع :

أحدها - توفي النوم .

والثاني - توفي الموت .

والثالث - توفي الروح والبدن جميعاً .

فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس . ويخرج منهم الغائط والبول . والمسيح (عليه السلام) توفاه الله وهو في السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشرب واللباس والنوم والغائط والبول ونحو ذلك .

الوجه الثالث - قولهم أنه عني بموته عن موت الناسوت كان ينبغي لهم أن يقولوا على أصلهم : عني بتوفيته عن توفي الناسوت . وسواء قيل : « موته أو توفيته » ، فليس هو شيئاً غير الناسوت ، فليس هناك شيء غيره لم يتوف الله تعالى قال :

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ ^(١) .

فالمتوفى هو المرفوع إلى الله .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٥ وتكملة الآية ﴿ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ .

وقولهم : « إن المرفوع هو اللاهوت » مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن ، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى . والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى . وكذلك قوله في الآية الأخرى : ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه ﴾ هو تكذيب لليهود في قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ واليهود لم يدعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا لله لاهوتاً في المسيح ، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ، بل عن اليهود الذين لا يشبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ ^(١) فأثبت رفع الذي قالوا إنهم قتلوه . وإنما هو الناسوت ، فعلم أنه هو الذي نفى عنه القتل وهو الذي رفع . والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام في القبر إما يوماً وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد الى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى : ﴿ وما قتلوه يقيناً ﴾ معناه أن نفى قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم في شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل ، إذ لا حجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون : إنه لم يصلب ، فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود . وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره كما دل عليه القرآن . وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس : أنا أعرفه . فعرفوه . وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علماً بل ظناً قول ضعيف .

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٧ - ١٥٨ وصدر الآية ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ﴾ .

الوجه الرابع - أنه قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتَوْفِكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته ﴿ إِنِّي رَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ . وكذلك قوله : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ ^(١) فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه . وإذا قالوا : « هو الكلمة » فهم مع ذلك أنه الإله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ونحوهما مما هو كلام الله الذي قال فيه :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ ^(٢)

بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين . ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس - قوله : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٣) ، دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح ، فإن قوله : ﴿ كُنْتُ أَنتَ ﴾ يدل على الحصر ، كقوله : « إن كان هذا هو الحق » ونحو ذلك . فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيباً على أتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم ، المحصي أعمالهم ، المجازي عليها ، والمسيح ليس برقيب ، فلا يطلع على أعمالهم ولا يحصيها ، ولا يجازيهم بها .

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٨ وتكملة الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾

(٢) سورة فاطر آية رقم ١٠ وتكملة الآية ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١١٧ .

فصل فساد قول النصارى في أن المسيح خالق

قالوا : وقد سماه الله أيضاً في هذا الكتاب خالقاً حيث قال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ ^(١)

فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذة من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبي : « بكلمة الله خلقت السموات والأرض ، ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه » .

وهذا مما يوافق رأينا واعتقادنا في السيد المسيح لذكره لأنه حيث قال : « وتخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » أي بإذن اللاهوت الكلمة المتحدة في الناسوت .

والجواب : ان جميع ما يحتجون به من هذه الآيات وغيرها فهو حجة

(١) سورة المائدة آية رقم ١١٠ عن ابن أبي حاتم حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا محمد بن طلحة يعني ابن مصرف عن أبي بشر عن أبي الهذيل . قال : كان عيسى بن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى - صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ وفي الثانية ﴿ ألم تنزل ﴾ السجدة فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم ، يا خفي يا دائم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد . وكان إذا أصابته شدة دعا بسبعة آخر : يا حي ، يا قيوم ، يا الله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام يا نور السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم يا رب » قال ابن كثير : وهذا أثر عظيم جداً .

عليهم لا لهم ، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشيء من كتب الله وكلام أنبيائه ، كان في نفس ما احتجوا به ما يدل على فساد قولهم ، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما نطق به أنبيأؤه ، فإنه جعل ذلك هدى وبياناً للخلق وشفاء لما في الصدور ، فلا بد أن يكون في كلام الأنبياء (صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين) من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل والصدق والكذب . لكن الناس لا يؤتون من قبل أنفسهم ، لا من قبل أنبياء الله تعالى .

أما من كونهم لم يتدبروا القول الذي قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه .

وأما من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض ، فيضلون من جهة ما لم يؤمنوا به ، كما قال تعالى عن النصارى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

وأما من جهة نسبتهم إلى الأنبياء ما لم يقولوه من أقوال كذبت عليهم ، ومن جهة ترجمة أقوالهم بغير ما تستحقه من الترجمة وتفسيرها بغير ما تستحقه من التفسير الذي دل عليه كلام الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض ، ويؤخذ كلامه ههنا وههنا ، وتعرف ما عادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به وتعرف المعاني التي عرف أنه أرادها في موضع آخر ، فإذا عرف عرفه وعادته في معانيه وألفاظه كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده .

وأما إذا استعمل لفظه في معنى لم تجر عادته باستعماله فيه ، وترك استعماله في المعنى الذي جرت عادته باستعماله فيه ، وحمل كلامه على خلاف المعنى الذي قد عرف أنه يريد به بذلك اللفظ يجعل كلامه متناقضاً ، ويترك كلامه على ما يناسب سائر كلامه كان ذلك

(١) سورة المائدة آية رقم ١٤ .

تحريفاً لكلامه عن موضعه ، وتبديلاً لمقاصده ، وكذباً عليه . فهذا أصل من ضل في تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم . فإذا عرف هذا فنقول .

الرد عليهم

الجواب عما ذكره هنا من وجوه :

أحدها - أن الله لم يذكر عن المسيح خلقاً مطلقاً ، ولا خلقاً عاماً كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى . فأول ما أنزل الله على نبيه محمد (ﷺ) :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ... ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٢)

فذكر نفسه بأنه الخالق الباري المصور ولم يصف قط شيئاً من

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢٢ - ٢٤ نريد هنا أن نتكلم على أقوال العلماء في « الرحمن الرحيم » بمناسبة قوله تعالى : ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ قال بعضهم : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم ، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا ، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك . وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن الميرد أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي ، وقال أبو اسحاق الزجاج في معاني القرآن ، وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربي والرحمن عربي ، فلهذا جمع بينهما . قال أبو اسحاق ، وهذا القول مرغوب عنه ، وقال القرطبي ، والدليل على أنه مشتق ما أخرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : قال الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » قال : وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشتاق .

المخلوقات بهذا ، لا ملكاً ولا نبياً . وكذلك قال تعالى :

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ
بَغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ
وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ووصف نفسه بأنه رب العالمين (٣) وبأنه مالك يوم الدين (٤) وأنه له
الملك وله الحمد (٥) ، وأنه الحي القيوم (٦) ، لا تأخذه سنة ولا نوم (٧) ،
وأنه على كل شيء قدير (٨) ، وبكل شيء عليم (٩) ، ونحو ذلك من خصائص
الربوبية ، ولم يصف شيئاً من مخلوقاته لا ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلأ بشيء
من الخصائص التي يختص بها التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالى .

وأما المسيح (عليه السلام) فقال فيه : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ (١٠) .

وقال المسيح عن نفسه : ﴿ أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ

(١) سورة الزمر آية رقم ٦٢ - ٦٣ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠٠ - ١٠١ .

(٣) قال تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

(٤) قال تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ .

(٥) سورة التغابن آية رقم ١ : ﴿ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ﴾

(٦) قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ .

(٧) قال تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾

(٨) قال تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ .

(٩) قال تعالى : ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ .

(١٠) سورة المائدة آية رقم ١١٠ .

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾

فلم يذكر إلا خلق شيء معين خاص بإذن الله ، فكيف يكون هذا الخلق هو ذاك ؟

الوجه الثاني - أنه خلق من الطين كهيئة الطير . والمراد به تصويره بصورة الطير . وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس ، فانه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير ، وغير الطير من الحيوانات ، ولكن التصوير محرم ، بخلاف تصوير المسيح فإن الله أذن له فيه .

والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيراً بإذن الله (عز وجل) . ليس المعجزة بمجرد خلقه من الطين . فإن هذا مشترك . ولقد لعن النبي (ﷺ) المصورين وقال : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » (٢)

الوجه الثالث - ان الله أخبر أن المسيح إنما فعل التصوير وهو مجرم والنفخ بإذنه تعالى ، وأخبر المسيح (عليه السلام) أنه فعله بإذن الله ، وأخبر الله أن هذا من نعمته التي أنعم بها على المسيح (عليه السلام) . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى له : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا

(١) سورة آل عمران آية رقم ٤٩ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب اللباس ٨٩ باب عذاب المصورين يوم القيامة .
٥٩٥٠ - حدثنا الحميدي قال : حدثنا سفيان ، حدثنا الأعمش عن مسلم قال : كنا عند مسروق في دار يسار بن نمير فرأى في صفته تماثيل فقال سمعت رسول الله - ﷺ - وذكره . وفي رواية أخرى بسنده عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٥٩ .

فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١﴾ .

وهذا كله صريح في أنه ليس هو الله ، وإنما هو عبد الله ، فعل ذلك
بإذن الله ، كما فعل مثل ذلك غيره من الأنبياء . وصريح بأن الإذن غير
المأذون له ، والمعلم ليس هو المعلم ، والمنعم عليه وعلى والدته ليس هو
إياه ، كما ليس هو والدته .

الوجه الرابع - انهم قالوا : أشاروا بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في
الناسوت ، ثم قالوا في قوله ﴿ بإذن الله ﴾ : أي بإذن الكلمة المتحدة في
الناسوت . وهذا يبين تناقضهم وافتراءهم على القرآن ؛ لأن الله أخبر في
القرآن أن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله . ففرق بين المسيح
وبين الله ، وبين أن الله هو الإذن للمسيح ، وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن
اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق . وهو الإذن ، فجعلوا الخالق
هو الإذن . وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن .

الوجه الخامس - أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتاج إلى أن يأذن
لنفسه ، فانهم يقولون : هو إله واحد وهو الخالق ، فكيف يحتاج أن يأذن
لنفسه وينعم على نفسه ؟

الوجه السادس - أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام أو
الكلام الذي هو صفة للذات فإن كان هو الكلام ، فالكلام صفة لا تكون
ذاتاً قائمة بنفسها خالقة ، ولو لم تتحد بالناسوت . واتحادها بالناسوت دون
الموصوف ممتنع لو كان الإتحاد ممكناً ، فكيف وهو ممتنع ؟ .

فقد تبين امتناع كون الكلمة تكون خالقه من وجوه ، وإن كان الخالق
هو الذات المتصفة بالكلام فذاك هو الله الخالق لكل شيء ، رب العالمين .
وعندهم هو الأب ، والمسيح عندهم ليس هو الأب ، فلا يكون هو الخالق

(١) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

لكل شيء ، والقرآن يبين أن الله هو الذي أذن للمسيح حتى خلق من الطين كهيئة الطير ، فتبين أن الذي خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله ، ولا صفة من صفاته ، فليس المسيح هو الله ، ولا ابن قديم أزلي لله ، ولكن عبده فعل بإذنه .

الوجه السابع - قولهم : فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذة من مريم لأنه كذا قال على لسان داود النبي : « بكلمة الله خلقت السموات والأرض » .

فيقال لهم : هذا النص عن داود حجة عليكم ، فإن داود (عليه السلام) قال : « بكلمة الله خلقت السموات والأرض » ولم يقل إن كلمة الله هي الخالقة كما قلتم أنتم إنه أشار بالخالق إلى كلمة الله . والفرق بين الخالق للسموات والأرض وبين الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض أمر ظاهر معروف ، كالفرق بين القادر والقدرة ، فإن القادر هو الخالق ، وقد خلق الأشياء بقدرته ، وليست القدرة هي الخالقة . وكذلك الفرق بين المريد والإرادة . فإن خلق الأشياء بمشيئته . وليست مشيئته هي الخالقة . وكذلك الدعاء والعبادة هو للإله الخالق لا لشيء من صفاته . فالناس كلهم يقولون : يا الله يا ربنا يا خالقنا ارحمنا واغفر لنا . ولا يقول أحد : يا كلام الله اغفر لنا يا الله تعالى يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه ، وليست صفاته هي الخالقة .

الوجه الثامن - أن قول داود (عليه السلام) : « بكلمة الله خلقت السموات والأرض يوافق ما جاء في القرآن والتوراة وغير ذلك من كتب الأنبياء أن الله يقول للشيء : ﴿ كن فيكون ﴾ . وهذا في القرآن في غير موضع وفي التوراة قال الله : « ليكون كذا ليكون كذا » .

الوجه التاسع - قولهم : « لأنه ليس خالق إلا الله ، وكلمته وروحه » إن أرادوا بكلمته كلامه ، وبروحه حياته ، فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته ،

فلم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله . فمن حمل كلام أحد من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله ، فقد كذب عليه . ثم يقال : هذا كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته ، وحيث أن الخالق هو الله وحده ، وصفاته داخله في مسمى اسمه ، لا يحتاج أن تجعل معطوفة على اسمه بواو التشريك التي تؤذن بأن الله له شريك في خلقه ، فإن الله لا شريك له . ولهذا لما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(١) دخل كل ما سواه في مخلوقاته ، ولم تدخل صفاته كعلمه وقدرته ومشئته وكلامه ؛ لأن هذه داخله في مسمى اسمه ، ليست أسماؤه مباينة له ، بل أسماؤه الحسنی متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه الصفات ، لا يجوز أن يراد بأسمائه ذات مجردة عن صفات الكمال ، فإن تلك حقيقة لها ، ويمتنع وجود ذات مجردة عن صفة فضلاً عن وجود ذاته تعالى ، مجردة عن صفات كماله ، التي هي لازمة لذاته يمتنع تحقق ذاته دونها .

ولهذا لا يقال : الله وعلمه خلق ، والله وقدرته خلق . وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح ، أو شيئاً اتحد بناسوت المسيح ، فالمسيح (عليه السلام) كله مخلوق كسائر الرسل . والله وحده هو الخالق . وإن شئت قلت : ان أريد بالروح والكلمة ما هو صفة لله ، فتلك داخله في مسمى إسمه . وإن أريد ما ليس بصفة فذلك مخلوق له كالناسوت .

الوجه العاشر - أن داود (عليه السلام) لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح لأن المسيح عند جميع الناس هو إسم للناسوت ، وهو عندهم اسم اللاهوت والناسوت لما اتحد . والاتحاد فعل حادث عندهم . فقبل الاتحاد

(١) سورة الرعد آية رقم ١٦ والآية : ﴿ قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ فهل يستوي من عبد هذه الألهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو نور من ربه ولهذا قال : قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ... »

لم يكن هناك ناسوت ولا ما يسمى مسيحياً . فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح ، ولكن غايتهم أن يقولوا : أراد الكلمة التي إتحدت فيها بعد المسيح . لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح ، كما نطق به القرآن بقوله : ﴿ يُشْرِكْ بِكَلِمَةِ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١)

فالكلمة التي ذكرها وأنها هي التي بها خلقت السموات والأرض ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله . فاحتجاجهم بهذا على هذا إحتجاج باطل ، بل تلك الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض لم يكن معها ناسوت حين خلقت باتفاق الأمم . والمسيح لا بد أن يدخل في الناسوت ، فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٤٥ اختلف العلماء في معنى « كلمة » المسيح . فقال بعض السلف لكثرة سياحته ، وقيل لأنه كان مسيح القدمين لا أحمص لهما ، وقيل : لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برى بإذن الله تعالى .
وأما كلامه : وهو صبي . قال محمد بن اسحاق ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد ابن شرحبيل عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى ، وصاحب جريج . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو الصقر : يحيى بن محمد بن قزعة حدثنا الحسين - يعني المروزي ، حدثنا جرير - يعني ابن أبي حازم عن محمد عن أبي هريرة - عن النبي - ﷺ - قال : لم يتكلم في المهد إلا ثلاث : عيسى ، وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر . والله أعلم .

(سورة الأنعام)

سئل رضي الله عنه :

عن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلاً مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ^(٣) هل المحو والإثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح « إن الله تعالى كتب كتاباً فهو عنده على عرشه » ^(٤) الحديث . وقد جاء : « جَفَّ الْقَلَمُ » ^(٥) فما معنى

(١) سورة الأنعام آية رقم ٢ .

(٢) سورة فاطر آية رقم ١١ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ٣٩ .

(٤) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في كتاب القدر ١٧ باب ٢١٥٥ حدثنا يحيى بن موسى ، حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا عبد الواحد بن سليم قال قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له : يا أبا محمد إن أهل البصرة يقولون في القدر ، قال : يا بني أتقرأ القرآن ؟ قلت نعم . قال : فاقرا الزخرف . قال : فقرأت ﴿ حم والكتاب المبين : إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ فقال : أتدري ما أم الكتاب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنه كتاب كتبه الله الخ .

قال الترمذي : وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

(٥) الحديث أخرجه البخاري في كتاب القدر ٢ باب جف القلم على علم الله وقوله : ﴿ وأضله الله على علم ﴾

ذلك في المحو والإثبات ؟ .

وهل شرع في الدعاء أن يقول : « اللهم إن كنت كتبتني كذا فامحني واكتبني كذا فإنك قلت : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ ؟ وهل صح أن عمر كان يدعو بمثل هذا ؟ وهل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصلة الرحم ، كما جاء في الحديث ؟ أفئتنا مأجورين فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين .

أما قوله سبحانه : ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ فالأجل الأول هو أجل كل عبد ؛ الذي ينقضي به عمره ، والأجل المسمى عنده هو أجل القيامة العامة ولهذا قال : ﴿ مسمى عنده ﴾ فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، كما قال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ^(١) بخلاف ما إذا قال :

= وقال أبو هريرة : قال لي النبي - ﷺ : جف القلم بما أنت لاق ، وقال ابن عباس لها سابقون : سبقت لهم السعادة .

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٩١ بسنده عن سراقه بن جعشم . قال : قلت : يا رسول الله . العمل فيما جف به القلم وجرت به المقادير أم في أمر مستقبل قال « بل فيما جف به القلم وجرت به المقادير ، وكل ميسر لما خلق له .

في الزوائد : في إسناده مقال . وأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان ١٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٧٦ ، ١٩٧ (حلي)

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ قيام الساعة عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ولا تأتي إلا بغتة . قال البخاري : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب أنبأنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً ، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة والرجل قد انصرف بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة ، وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة ، والرجل قد رفع أكلته الى فيه فلا يطعمها . وقال مسلم في صحيحه : حدثني زهير بن حرب ، حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة يبلغ به . قال : تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته فما يضل الإناء الى =

﴿ مسمى ﴾ كقوله ﴿ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (١) إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده ، فقد يعرفه العباد وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد ، وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال : « حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق - إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات : فيقال : أكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح » (٢) فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده . وأما أجل القيامة المسمى القيامة عنده فلا يعلمه إلا هو .

وأما قوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ (٣) فقد قيل : إن المراد الجنس ، أي ما يعمر من عمر إنسان ، ولا ينقص من عمر إنسان ، ثم التعمير والتقصير يُراد به شيان :

« أحدهما » أن هذا يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما أن المعمر يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما أن التعمير زيادة بالنسبة إلى

= فيه حتى تقوم الساعة ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه ، حتى تقوم الساعة ، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم » .

(١) هذا جزء من آية من سورة البقرة رقم ٢٨٢ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ٦ باب ذكر الملائكة ٣٢٠٨ حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن زيد بن وهب قال : عبد الله : حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق قال : وذكره . وعند مسلم في كتاب القدر ، وعند أبي داود في كتاب السنة ، والترمذي في كتاب القدر ، وابن ماجه في المقدمة .

(٣) سورة فاطر آية رقم ١١ ﴿ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . الجميع مكتوب عند الله تعالى : نقله ابن جرير عن أبي مالك ، وإليه ذهب السدي ، وعطاء الخراساني ، واختار ابن جرير الأول .

آخر . وقد يراد بالنقص النقص من العمر المكتوب ، كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « من سره أن يُيسر له في رزقه ، وينسأ له في أثره فليصل رحمه » ^(١) وقد قال بعض الناس : إن المراد به البركة في العمر ، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمل غيره إلا في الكثير ، قالوا : لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان . فيقال لهؤلاء تلك البركة ، وهي الزيادة في العمل ، والنفع ، هي أيضاً مقدرة مكتوبة ، وتتناول لجميع الأشياء .

والجواب المحقق : أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب ، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب . ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ : « إن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم فرأى فيهم رجلاً له بصيص ، فقال من هذا يا رب ؟ فقال : ابنك داود ، قال فكم عمره ؟ قال أربعون سنة ، قال : وكم عمري ؟ قال ألف سنة ، فقال فقد وهبت له من عمري ستين سنة ، فكتب عليه كتاب ، وشهدت عليه الملائكة ، فلما حضرته الوفاة قال قد بقي من عمري ستون سنة . قالوا : وهبتها لابنك داود . فأنكر ذلك ، فأخرجوا الكتاب ، قال النبي ﷺ فبني آدم فنسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته » ^(٢) وروى أنه كمل لأدم عمره . ولداود عمره .

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ، ثم جعله ستين وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال : اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً ،

(١) الحديث عند البخاري في كتاب البيوع ١٣ باب من أحب البسط في الرزق ٦٧ ٢٠ - حدثنا حسان ، حدثنا يونس قال محمد - هو الزهري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله - ﷺ يقول : وذكره ، وعند مسلم في كتاب البر ، وأبو داود في الزكاة وعند الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٥٦ (حلي)

(٢) الحديث رواه الترمذي في سننه كتاب التفسير - ومن تفسير سورة الأعراف ، ورواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٥١ (حلي) وأيضاً ٢٦٩ ، ٣٧١ (حلي)

فإنك تمحو ما تشاء وتثبت (١) .

والله سبحانه عالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك ، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله ، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها ؛ فلهذا قال العلماء : إن المحو والإثبات في صحف الملائكة ، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالماً به ، فلا محو فيه ولا إثبات . وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين ، والله سبحانه وتعالى أعلم ؟
وقال أيضاً :

(١) قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن أبي حكيمة عصمة عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب - رضي الله رضي الله عنه قال : وهو يطوف بالبيت وهو يبكي : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة .

فصل

ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة مناظرة ابراهيم^(١) ، عليه السلام وفي قصة احتيال يوسف^(٢) ، ولهذا قال السلف : بالعلم ، فإن سياق

(١) مناظرة ابراهيم عليه السلام هي المذكورة في سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ : أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين ابراهيم وغروذ بعد خروج ابراهيم من النار ، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة فوفد ابراهيم في جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط ابراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام فلما قرب من أهلهم عمد إلى كتيب من التراب فملأ منه عدليه ، وقال أشغل أهلي عني إذا قدمت إليهم فلما قدم وضع رجليه وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملأين طعاماً طيباً فعملت طعاماً فلما استيقظ ابراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال : أنى لكم هذا . . . ؟ قالت : من الذي جئت به فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل . »

(٢) وقصة يوسف في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، =

الآيات يدل عليه ، فقصه إبراهيم في العلم بالحجة ، والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين ، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصل منفعة المطلوب ، فالأول علم بما يدع المضار في الدين ، والثاني علم بما يجلب المنافع ، أو يقال : الأول هو العلم الذي يدفع المضرة عن الدين ويجلب منفعته ، والثاني علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها أو يقال قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة ضد الحاجة إليها وقصة يوسف في علم الأفعال ضد الحاجة إليها ، فالحاجة جلب المنفعة ودفع المضرة قد تكون إلى القول ، وقد تكون .

ولهذا كان المقصرون عن علم الحجج والدلالات ، وعلم السياسة والإمارات مهوورين مع هذين الصنفين ، تارة بالاحتياج اليهم إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل أو الدنيا بالظلم ، وتارة بالاحتياج اليهم إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك ، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين والدنيا ، وتارة يعيشون في ظلهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ، ولا وال يظلمهم وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدافعة لأهل البدع والسياسة الدافعة للظلم .

ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء ، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما ، فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما : أهل الرياسة العلمية ، وأهل الرياسة القدرية ، ولهذا قال طائفة من السلف كالثوري وابن عيينة وغيرهما ما معناه : أن من نجا من فتنة البدع وفتنة السلطان فقد نجا من الشر كله ، وقد بسطت القول في هذا في الصراط

= ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ يوسف . ٣٦ - ٤٠ .

المستقيم عند قوله : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ (١) .

(١) سورة التوبة آية رقم ٦٩ .

فصل

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (١)

فتخصيص هذا بالإيمان كتخصيص هذا بمزيد علم وقوة وصحة وجمال ومال .

قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (٢) .

وإذا خص أحد الشخصين بقوة وطبيعة تقتضي غذاء صالحاً ، خصه بما يناسب ذلك من الصحة والعافية . وإن لم يعط الآخر ذلك ، نقص عنه وحصل له ضعف ومرض .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٥٣ في تفسير هذه الآية : أن رسول الله - ﷺ - كان غالب من اتبعه في أول بعثته - ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه الأشراف إلا قليل كما قال قوم نوح لنوح : وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، الآية وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سألته عن تلك المسائل فقال له فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفائهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم . فقال هم أتباع الرسل .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣٢ .

والظلم وضع الشيء في غير موضعه . فهو لا يضع العقوبة إلا في المحل الذي يستحقها ، لا يضعها على محسن أبداً .

وفي الصحيح عن النبي (ﷺ) أنه قال : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء ^(١) الليل والنهار ، أرأيتُم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يمينه ، والقسط بيده الأخرى يقبض ويبسط » ^(٢) .

فبين أنه سبحانه وتعالى يحسن ويعدل ولا يخرج فعله عن العدل والاحسان . ولهذا قيل : « كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل » .

ولهذا يخبر أنه تعالى يعاقب الناس بذنوبهم ، وأن إنعامه عليهم إحسان منه ، كما في الحديث الصحيح الإلهي : يقول الله تعالى : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكُم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ^(٣) .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(٤) .

أي ما أصابك من نعم تحبها كالنصر والرزق فالله أنعم بذلك عليك . وما أصابك من نقم تكرها فبذنوبك وخطاياك . فالحسنات والسيئات هنا أراد بها النعم والمصائب - كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ

(١) الحديث عند الإمام البخاري في كتاب التوحيد ٢٢ باب ﴿ وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم ﴾ .

٧٤١٩ حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن همام ، حدثنا أبو هريرة عن النبي - ﷺ - قال وذكره وفيه زيادة ﴿ وعرشه على الماء ﴾ وبدل يقبض ويبسط « يرفع ويخفض »

(٢) في اللسان : سح الدمع والمطر والماء يسح سحاً وسحوحاً أي سال من فوق واشتد انصبابه ، وفي الحديث : يمين الله سحاء : أي دائمة الصب والهطل بالعباءة . والله أعلم .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب البر باب ٥٥ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١﴾ .

وكما قال تعالى : ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَمَسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٣) .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٤) .

وأخبر أن ما يصيب به الناس من الخير فهو رحمة منه أحسن بها إلى عباده ، وما أصابه به من العقوبات فبذنوبهم ، وتمام الكلام على هذا مبسوط في مواضع آخر .

وكذلك الحكمة أجمع المسلمون على أن الله تعالى موصوف بالحكمة ، لكن تنازعوا في تفسير ذلك ، فقالت طائفة : الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده ، ولم يشبوا إلا العلم والإرادة والقدرة .

وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم : بل هو حكيم في خلقه وأمره . والحكمة ليست مطلق المشيئة . إذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيماً . ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة ، بل الحكمة تتضمن ما في

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ .

(٤) سورة الروم آية رقم ٣٦ وفي الآية إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله وفقه فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : « ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور » . وإذا أصابه شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ كما ثبت في صحيح البخاري : عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة .

والقول باثبات هذه الحكمة ليس هو قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فقط ، بل هو قول جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسير والفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم . فائمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في الأحكام الشرعية . وإنما ينازع في ذلك طائفة من نفاة القياس وغير نفاته . وكذلك ما في خلقه من المنافع والحكم والمصالح لعباده معلوم .

وأصحاب القول الأول كجهم بن صفوان^(١) وموافقيه كالأشعري^(٢) ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم يقولون : ليس في القرآن لام التعليل في أفعال الله ، بل ليس فيه إلا لام العاقبة . وأما الجمهور فيقولون : بل لام التعليل داخلة في أفعال الله وأحكامه .

والقاضي أبو يعلى^(٣) وأبو الحسن بن الزاغوني^(٤) ونحوهما من أصحاب أحمد ، وإن كانوا قد يقولون بالأول فهم يقولون بالثاني أيضاً في غير موضع . وكذلك أمثالهم من الفقهاء أصحاب مالك والشافعي وغيرهما .

وأما ابن عقيل^(٥) في بعض المواضع ، وأبو حازم بن القاضي أبي

(١) سبق الترجمة له في الجزء الثاني .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليها .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

(٤) أبو الحسن بن الزاغوني : هو علي بن عبد الله بن نصر السري ، وقد اختلف المؤرخون وأصحاب السير في اسمه توفي عام ٥٢٧ هـ .

راجع الذيل على طبقات الحنابلة ١ : ١٨٠ - ١٨٤ .

(٥) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي أبو الوفاء ، ويعرف بابن عقيل ، عالم العراق ، وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته ، كان قوي الحجة اشتغل بمذهب المعتزلة في حياته ، وكان يعظم الحلاج فأراد الجماعة قتله فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم أظهر التوبة حتى تمكن من الظهور له تصانيف أعظمها كتاب الفنون ، والفرق ، والفصول في فقه

يعلى ، وأبو الخطاب الصغير فيصرحون بالتعليل والحكمة في أفعال الله موافقة لمن قال ذلك من أهل النظر .

والحنفية هم من أهل السنة وقائلين بالقدر وجمهورهم يقولون بالتعليل والمصالح .

والكرامية^(١) وأمثالهم هم أيضاً من القائلين بالقدر المثبتين لخلافة الخلفاء ، المفضلين لأبي بكر وعمر وعثمان ، وهم أيضاً يقولون بالتعليل والحكمة ، وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد يقولون بالتعليل والحكمة وبالتحسين والتقييح العقليين ، كأبي بكر القفال^(٢) وأبي علي بن أبي هريرة^(٣) وغيرهم من أصحاب الشافعي ، وأبي الحسن التيمي^(٤) وأبي

= الحنابلة ، والرد على الأشاعرة ، ولد عام ٤٣١ هـ وتوفي عام ٥١٣ هـ

راجع جلاء العينين ٩٩ وشذرات الذهب ٤ : ٣٥ ولسان الميزان ٤ : ٢٤٣ .

(١) الكرامية : هم أتباع محمد بن كرام أبو عبد الله السجستاني المتوفى في القدس سنة ٢٥٥

(راجع شذرات الذهب ٢ : ١٢١) والكرامية يوافقون السلف في إثبات الصفات ، ولكنهم

يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم وهم يوافقون السلف أيضاً في إثبات القدر والقول

بالحكمة ، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله تعالى بالعقل ، وفي أن العقل

يحسن ويقبح في الشرع ، كما يعددهم الأشعري وابن حزم من المرجئة ، لقولهم أن

الإيمان : هو الاقرار والتصديق باللسان دون القلب .

راجع مقالات الاسلاميين ١ : ٢٥٥ وكتاب الفصل لابن حزم ٤ : ٢٠٤ وكتاب الملل والنحل

١ : ٩٩ - ١٠٤ ، والفرق بين الفرق ١٣٠ - ١٣٧ والتبصير في الدين للأسفراييني ٦٥ - ٧٠

وانتقادات فرق المسلمين والمشركين ٦٧ .

(٢) هو محمد بن علي بن اسماعيل الشافعي القفال أبو بكر من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث

واللغة والأدب من أهل ما وراء النهر ، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء وعنه

انتشر مذهب الشافعي في بلاده مولده عام ٢٩١ هـ ووفاته عام ٣٦٥ هـ في الشاس (وراء نهر

سيحون) رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام من كتبه أصول الفقه ، ومحاسن

الشرعية ، وشرح رسالة الشافعي .

راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٥٨ وتهذيب الأسماء واللغات ٢ : ٢٨٢ وطبقات السبكي ٢ :

١٧٦ ومفتاح السعادة ١ : ٢٥٢ ثم ٢ : ١٧٨ وفيه وفاته سنة ٣٣٥

(٣) هو الحسن بن الحسين بن أبي هريرة أبو علي : فقيه انتهت إليه إمامة الشافعية في العراق . =

الخطاب (١) من أصحاب أحمد .

وفي الجملة النزاع في تعليل أفعال الله وأحكامه مسألة لا تتعلق بالإمامة أصلاً . وأكثر أهل السنة على إثبات الحكمة والتعليل .

ولكن الذين أنكروا ذلك - من أهل السنة - إحتجوا بحجتين . إحداهما أن ذلك يستلزم التسلسل . فإنه إذا فعل لعة فتلك العلة أيضاً حادثة ، فتفتقر إلى علة ، إن وجب أن يكون لكل حادث علة . وإن عقل الأحداث بلا علة ، لم يحتج إلى إثبات علة . فهم يقولون : إن أمكن الأحداث بغير علة ، لم يحتج إلى علة ، ولم يكن ذلك عبثاً . وإن لم يكن وجود الأحداث إلا لعة فالقول في حدوث العلة كالقول في حدوث المعلول ، وذلك يستلزم التسلسل .

الحجة الثانية - أنهم قالوا : من فعل لعة كان مستكملاً بها ، لأنه لو لم يكن حصول العلة أولى من عدمها ، لم تكن علة . والمستكمل بغيره ناقص بنفسه . وذلك ممتنع على الله .

وأوردوا على المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة حجة تقطعهم على أصولهم فقالوا : العلة التي فعل لأجلها إن كان وجودها وعدمها بالنسبة إليه سواء ، إمتنع أن تكون علة . وإن كان وجودها أولى ، فإن كانت منفصلة عنه ، لزم أن يستكمل بغيره . وإن كانت قائمة به لزم أن يكون مجزئاً للحوادث .

وأما المجوزون للتعليل فهم متنازعون . فالمعتزلة وأتباعهم من الشيعة

= كان عظيم القدر مهيباً له مسائل في الفروع ، وشرح مختصر المزني مات ببغداد عام ٣٤٥ هـ

راجع وفيات الأعيان ١ : ١٣٠

(٤) سبق الترجمة له

(١) سبق الترجمة له في الجزء الثاني من هذا الكتاب وانظر الذيل لابن رجب ١ : ١٦ - ١٢٧

وفيه أنه توفي عام ٥١٠ هـ

ثبت من التعليل ما لا يعقل ، وهو أنه فعل لعل منفصلة عن الفاعل مع كون وجودها وعدمها بالنسبة إليه سواء . وأما أهل السنة القائلون بالتعليل فإنهم يقولون : إن الله يحب ^(١) ويرضى ^(٢) كما دل على ذلك الكتاب والسنة . ويقولون : إن المحبة والرضا أخص من الإرادة - وأما المعتزلة وأكثر أصحاب الأشعري فيقولون : ان المحبة والرضا والإرادة سواء - فجمهور أهل السنة يقولون : إن الله لا يحب الكفر ^(٣) والفسوق والعصيان ولا يرضاه ، وإن كان داخلاً في مراده كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة ، وهو وإن كان شراً بالنسبة إلى الفاعل ، فليس كل ما كان شراً بالنسبة إلى شخص يكون عديم الحكمة ، بل لله في المخلوقات حكم قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها .

(١) قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾

(٢) قال تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

وقال أيضاً : ﴿ وَلَا يَرْضَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾

(٣) قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَبِيبُ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ .

فصل

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . سورة الأنعام ٥٤ .

لم يمنع هذا أن يكون كل منهم متصفاً بهذه الصفة ولا يجوز أن يقال :
إنهم لو عملوا سوءاً بجهالة ثم تابوا من بعده وأصلحوا لم يغفر إلا لبعضهم .

ولهذا تدخل من هذه في النفي لتحقيق نفي الجنس ، كما في قوله
تعالى :

(١) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ قال الامام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا به أبو هريرة . قال : قال رسول الله - ﷺ - لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي . أخرجاه في الصحيحين وهكذا رواه الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة - عن النبي - ﷺ ، ورواه موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة وكذا رواه الليث وغيره عن محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - بذلك وقد روى ابن مردويه من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش أن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم عتقاء الله .

﴿ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾^(١) .
وقوله تعالى :

﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢) .
وقوله :

﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾^(٣) .

ولهذا إذا دخلت في النفسي تحقيقاً أو تقديراً أفادت نفي الجنس قطعاً ،
فالتحقيق ما ذكر ، والتقدير كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(٤) .

وقوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾^(٥) سورة بقرة ٢ .

ونحو ذلك ، بخلاف ما إذا لم تكن من موجودة ، كقولك : ما رأيت
رجلاً . فإنها ظاهرة لنفي الجنس . ولكن قد يجوز أن ينفي بها الواحد من
الجنس كما قال سيبويه^(٦) : يجوز أن يقال : ما رأيت رجلاً بل رجلين ،
فتبين أنه يجوز إرادة الواحد وإن كان الظاهر نفي الجنس ، بخلاف ما إذا

(١) سورة الطور آية رقم ٢١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٦٢ .

(٣) سورة الحاقة آية رقم ٤٧ .

(٤) هذا جزء من آية من سورة آل عمران رقم ٦٢ وهي : إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا
الله وإن الله لهو العزيز الحكيم .

(٥) هذا جزء من آية من سورة البقرة رقم ٢ وهي : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ .

(٦) هو عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، أبو بشر الملقب بسيبويه إمام النحاة ، وأول من
بسط علم النحو ولد في إحدى قرى شيراز عام ١٤٨ هـ وقدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد
ففاقه وصنف كتابه المسمى « كتاب سيبويه في النحو » لم يصنع قبله ولا بعده مثله ، ورحل
الى بغداد فناظر الكسائي وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم وعاد الى الأهواز فتوفي بها عام
١٨٠ هـ وسيبويه بالفارسية (راحة التفاح)

راجع ابن خلكان ١ : ٣٨٥ والبداية والنهاية ١٠ : ١٧٦ وتاريخ بغداد ١٢ : ١٩٥

دخلت « من » فإنه ينفي الجنس قطعاً .

ولهذا لو قال لعبيده : من أعطاني منكم ألفاً فهو حر . فأعطاه كل واحد ألفاً . ، عتقوا كلهم . وكذلك لو قال لنسائه : من أبرأني منكن من صداقها فهي طالق . فأبرأه كلهن ، طلقن كلهن .

فإن المقصود بقوله : ﴿ منكم ﴾ بيان جنس المعطى والمبرىء ، لا إثبات هذا الحكم لبعض العبيد والأزواج .

فإن قيل : فهذا كما لا يمنع أن يكون كل المذكور متصفاً بهذه الصفة ، فلا يوجب ذلك أيضاً . فليس في قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ^(١) ما يقتضي أن يكونوا كلهم كذلك .

قيل : نعم ، ونحن لا ندعي أن مجرد هذا اللفظ دل على أن جميعهم موصوفون بالإيمان والعمل الصالح ، ولكن مقصودنا أن من لا ينافي شمول هذا الوصف لهم ، فلا يقول قائل : إن الخطاب دل على أن المدح شملهم وعمهم بقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٢) إلى آخر الكلام .

ولا ريب أن هذا مدح لهم بما ذكر من الصفات - وهو الشدة على الكفار والرحمة بينهم ، والرجوع والسجود يتغنون فضلاً من الله ورضواناً ، والسيما في وجوههم من أثر السجود ، وأنهم يتدثون من ضعف إلى كمال القوة والإعتدال كالزرع ، والوعد بالمغفرة ، والأجر العظيم - ليس على مجرد هذه الصفات ، بل على الإيمان والعمل الصالح . فذكر ما به يستحقون الوعد .

(١) سورة النور آية رقم ٥٥ وتكملة الآية ﴿ ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

(٢) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

وإن كانوا كلهم بهذه الصفة . ولولا ذكر ذلك لكان يظن أنهم . بمجرد ما ذكر يستحقون المغفرة والأجر العظيم ، ولم يكن فيه بيان سبب الجزاء ، بخلاف ما إذا ذكر الإيمان والعمل الصالح ، فإن الحكم إذا علق باسم مشتق مناسب كان ما منه الإشتقاق سبب الحكم .

فصل

في قول إبراهيم : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾

ظن هؤلاء أن قول إبراهيم (عليه السلام) : ﴿ هَذَا رَبِّي فَلِمَا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾^(١) .

أراد به : هذا خالق السموات والأرض القديم الأزلي ، وأنه استدل على حدوثه بالحركة .

وهذا خطأ من وجوه : ^(٢)

أحدها - أن قول الخليل : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ - سواء قاله على سبيل التقدير لتقريع قومه ، أو على سبيل الاستدلال والترقي ، أو غير ذلك - ليس المراد به : هذا رب العالمين القديم الأزلي ، الواجب الوجود بنفسه ، ولا كان قومه يقولون : إن الكواكب أو القمر أو الشمس رب العالمين الأزلي الواجب الوجود

(١) هذا جزء من آية من سورة الأنعام رقم ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ وهي كالاتي : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ .

(٢) راجع ما كتبه الامام ابن تيمية في الرد على هذا الاستدلال بقصة ابراهيم عليه السلام في كتاب منهاج السنة ١ : ١٤١ - ١٤٣ ، ٢ : ١٤٢ - ١٤٥ (ط دار العروبة) وراجع أيضاً شرح حديث النزول ص ١٩٤ - ١٩٧ .

بنفسه ولا قال هذا أحد من أهل المقالات المعروفة التي ذكرها الناس : لا من مقالات أهل التعطيل والشرك الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب ، ولا من مقالات غيرهم . بل قوم إبراهيم (عليه السلام) كانوا يتخذونها أرباباً يدعونها ويتقربون إليها بالبناء عليها والدعوة لها ، والسجود والقرايين وغير ذلك . وهو دين المشركين الذي صنف الرازي كتابه على طريقتهم وسماه « السر المكتوم في دعوة الكواكب والنجوم والسحر والطلاسم والعزائم » (١) .

وهذا دين المشركين من الصابئين كالكشدانيين (٢) والكنعانيين واليونانيين وأرسطو وأمثاله من أهل هذا الدين ، وكلامه معروف في السحر الطبيعي الروحاني ، والكتب المعروفة بذخيرة الإسكندر بن فيلبس الذي يؤرخون به ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة .

وكانت اليونان مشركين يعبدون الأوثان ، كما كان قوم إبراهيم مشركين يعبدون الأوثان . ولهذا قال الخليل :

﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

(١) الكتاب ذكره ابن خلكان وابن حجر ، ومنه نسخ خطية في مكتبات برلين ولبدن وباريس ، والمتحف البريطاني وغيرها .

راجع وفيات الأعيان ٣ : ٣٨١ ولسان الميزان ٤ : ٤٢٦ ، والاعلام ٧ : ٢٠٣ .

(٢) في تاج العروس « للزبيدي مادة : كشد : الكشدانيون بالضم طائفة من عبدة الكواكب . (ط الإمام) القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ السبعينية ص ٦٩ - ٧٧ ويرد ابن تيمية هنا على رأي الجهمية والمعتزلة والأشاعرة خاصة الامام الرازي في كتاب : نهاية العقول .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ - ٧٧ .

وأمثال ذلك مما يبين تبرؤه مما يعبدون غير الله . وهؤلاء القوم عامتهم من نفاة صفات الله وأفعاله القائمة به ، كما هو مذهب الفلاسفة المشائين ^(١) ، فانهم يقولون : إنه ليس له صفة ثبوتية ، بل صفاته إما سلبية وإما إضافية ، وهو مذهب القرامطة الباطنية القائلين بدعوة الكواكب والشمس والقمر والسجود لها . كما كان على ذلك من كان عليه من بني عبيد ملوك القاهرة وأمثالهم .

فالشرك الذي نهى عنه الخليل وعادى أهله عليه كان أصحابه هم أئمة هؤلاء النفاة للصفات والأفعال . وأول من أظهر هذا النفي في الإسلام : الجعد بن درهم ^(٢) ، معلم مروان بن محمد .

قال الإمام أحمد : وكان يقال : انه من أهل حران ، وعنه أخذ الجهم ابن صفوان مذهب نفاة الصفات . وكان بحران أئمة هؤلاء الصابئة الفلاسفة ، بقايا أهل هذا الدين أهل الشرك ونفي الصفات والأفعال ، ولهم مصنفات في دعوة الكواكب ، كما صنفه ثابت بن قرة ^(٣) وأمثاله من الصابئة الفلاسفة أهل حران ، وكما صنفه أبو معشر البلخي ^(٤) وأمثاله ، وكان لهم بها هيكل العلة

(١) سبق الكلام على جماعة « المشائين » في الجزء الثاني .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٣) هو ثابت بن قرة بن زهرون الحراني الصابئ ، أبو الحسن : طبيب حاسب فيلسوف ، ولد ونشأ بحران (بين دجلة والفرات وحدث له مع أهل مذهبه (الصابئة) أشياء أنكروها عليه في المذهب فحرم عليه رئيسهم دخول الهيكل ، فخرج من حران ، وقصد بغداد فاشتغل بالفلسفة والطب فبرع ، واتصل بالمعتضد الخليفة العباسي ، فكانت له عنده منزلة رفيعة وصنف نحو ١٥٠ كتاباً منها « الذخيرة في علم الطب » والمباني الهندسية ، والشكل والقطاع ، ومساحة المخروط وغير ذلك كثير توفي في بغداد عام ٢٨٨ هـ .

راجع طبقات الأطباء ١ : ٢١٥ - ٢٢٠ وحكماء الاسلام ٢٠ ومجلة المجمع العلمي ١٧ - ٧٩ وابن خلكان ١ : ١٠٠

(٤) هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي أبو معشر عالم فلكي مشهور كان أولاً من أصحاب الحديث ، وتعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره ، وضربه المستعين العباسي أسواطاً =

الأولى ، وهيكل العقل الفعال ، وهيكل النفس الكلية ، وهيكل زحل ، وهيكل المشتري ، وهيكل المريخ ، وهيكل الشمس ، وهيكل الزهرة ، وهيكل عطارد ، وهيكل القمر ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

الوجه الثاني - أنه لو كان المراد بقوله : ﴿ هذا ربي ﴾ أنه رب العالمين ، لكانت قصة الخليل حجة على نقيض مطلوبهم ، لأن الكوكب والقمر والشمس ما زال متحركاً من حين بزوغه إلى عند أفوله وغروبه . وهو جسم متحرك متحيز صغير . فلو كان مراده هذا للزم أن يقال : إن إبراهيم لم يجعل الحركة والانتقال مانعة من كون المتحرك المنتقل رب العالمين ، بل ولا كونه صغيراً بقدر الكوكب والشمس والقمر . وهذا - مع كونه لا يظنه عاقل ممن هو دون إبراهيم (صلوات الله وسلامه عليه) - فان جوزوه عليه ، كان حجة عليهم ، لا لهم .

الوجه الثالث - ان الأفول هو المغيب والإحتجاب ، ليس هو مجرد الحركة والانتقال ، ولا يقول أحد - لا من أهل اللغة ولا من أهل التفسير - ان الشمس والقمر في حال مسيرهما في السماء أنهما آفلان ، ولا يقول للكواكب المريئية في السماء ، في حال ظهورها وجريانها : أنها آفلة . ولا يقول عاقل لكل من مشى وسافر وسار وطار : أنه أفل .

الوجه الرابع - أن هذا القول الذي قالوه لم يقله أحد من علماء السلف أهل التفسير ، ولا من أهل اللغة ، بل هو من التفسيرات المبتدعة في الإسلام ، كما ذكر ذلك عثمان بن سعيد الدارمي^(١) وغيره من علماء السنة ،

لأنه أخبر بشيء قبل حدوثه فحدث ، فكان يقول : أصبت فعوقبت . قال القفطي في وصفه : عالم أهل الاسلام بأحكام النجوم ، وكان أعلم الناس بتاريخ الفرس وأخبار سائر الأمم ، وعمر طويلاً وجاوز المئة من كتبه « الطبائع » و« المدخل الكبير » و« مواليد الرجال والنساء » و« هيئة الفلك » وغير ذلك كثير . توفي عام ٢٧٢ هـ .

راجع الفهرست لابن النديم ١ : ٢٧٧ والقفطي ١٠٦ وابن خلكان ١ : ١١٢ ودائرة المعارف

الإسلامية ١ : ٤٠٤

(١) يقول الدارمي في كتابه « رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد » ص =

وبينوا أن هذا من التفسير المبتدع .

وبسبب هذا الابتداع أخذ ابن سينا وأمثاله لفظ الأفول بمعنى الإمكان .
كما قال في إشارات^(١) : قال قوم : إن هذا الشيء المحسوس موجود لذاته
واجب لنفسه ، لكن إذا تذكرت ما قيل في شرط واجب الوجود ، لم تجد هذا
المحسوس واجباً ، وتلوت قوله تعالى : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ فإن الهوى في
حظيرة الإمكان أفول ما . فهذا قوله .

ومن المعلوم بالضرورة من لغة العرب أنهم لا يسمون كل مخلوق
موجود آفلاً ، ولا كل موجود بغيره آفلاً ، ولا كل موجود يجب وجوده بغيره ،
لا بنفسه آفلاً ، ولا ما كان من هذه المعاني التي يعينها هؤلاء بلفظ الإمكان ،
بل هذا أعظم إفتراء على القرآن واللغة من تسمية كل متحرك آفلاً ، ولو كان
الخليل أراد بقوله : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ سورة الأنعام ٧٦ . هذا المعنى ،
لم ينتظر مغيب الكوكب والشمس والقمر . ففساد قول هؤلاء المتفلسفة في
الإستدلال بالآية أظهر من فساد قول أولئك .

وأعجب من هذا قول من قال في تفسيره : « إن هذا قول
المحققين »^(٢) . واستعارته لفظ « الهوى والحظيرة » لا يوجب تبديل اللغة
المعروفة في معنى الأفول . فإن وضع هو لنفسه وضِعاً آخر ، فليس له أن يتلو

= ٥٥ (ط السنة المحمدية ١٣٥٨) واحتججت أيها المريسي في نفي التحرك عن الله والزوال
بحجج الصبيان فزعمت أن ابراهيم حين رأى كوكباً وشمساً وقمرأ قال : هذا ربي فلما أفل
قال : لا أحب الأفلين . ثم قلت : ففى ابراهيم المحبة عن كل اله زائل يعني أن الله إذا
نزل من سماء الى سماء أو نزل يوم القيامة لمحاسبة العباد فقد أفل وزال فلو قاس هذا القياس
تركي طمطماني أو ذو أعجمية ما زاد على ما قست إلا قبحاً وسماجة . الخ .

(١) سبق الترجمة لابن سينا وكتابه الاشارات قام بتحقيقه استاذنا الدكتور سليمان دنيا وقامت بطبعه
دار المعارف بمصر .

(٢) يقول الرازي في تفسيره : مفاتيح الغيب ١٣ : ٥٢ وأيضاً قال بعض المحققين « الهوى ، في
حظيرة الإمكان أفول » .

عليه كتاب الله تعالى فيبدله أو يحرفه .

وقد إبتدعت القرامطة الباطنية تفسيراً آخر ، كما ذكره أبو حامد (١) في بعض مصنفاته كمشكاة الأنوار (٢) وغيرها : ان الكواكب والشمس والقمر هي النفس ، والعقل الفعال ، والعقل الأول ، ونحو ذلك . وشبهتهم في ذلك أن إبراهيم (عليه السلام) أجل من أن يقول لمثل هذه الكواكب : إنه رب العالمين . بخلاف ما ادعوه من النفس ، ومن العقل الفعال الذي يزعمون أنه رب كل ما تحت فلك القمر ، والعقل الأول الذي يزعمون أنه مبدع العالم كله .

وقول هؤلاء - وإن كان معلوم الفساد بالضرورة من دين الإسلام - فابتداع أولئك طرق مثل هؤلاء على هذا الإلحاد . ومن المعلوم بالإضطرار من لغة العرب أن هذه المعاني ليست هي المفهوم من لفظ الكوكب والقمر والشمس .

وأيضاً فلو قدر أن ذلك يسمى كوكباً وقمرأً وشمساً بنوع من التجوز ، فهذا غاية أن يسوغ للإنسان أن يستعمل اللفظ في ذلك ، لكنه لا يمكنه أن يدعي أن أهل اللغة التي نزل بها القرآن كانوا يريدون هذا بهذا ، والقرآن نزل بلغة الذين خاطبهم الرسول (ﷺ) ، فليس لأحد أن يستعمل ألفاظه في معان بنوع من التشبيه والإستعارة ثم يحمل كلام من تقدمه على هذا الوضع الذي أحدثه هو .

وأيضاً فانه قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ (٣) ﴾

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) قام بتحقيقه واخراجه الدكتور أبو العلا عفيفي

راجع ص ٦٧ - ٦٨ وانظر مفاتيح الغيب ١٣ : ٥٥ وسيورد الامام ابن تيمية نص كلام الإمام الغزالي .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٦ .

فذكره منكرًا لأن الكواكب كثيرة ، ثم قال :

﴿ فَلِمَا رَأَى الْقَمَرَ ﴾ ^(١) .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ ﴾ ^(٢) .

بصيغة التعريف لكي يبين أن المراد القمر المعروف والشمس المعروفة ، وهذا صريح بأن الكواكب متعددة ، وأن المراد واحد منها ، وأن الشمس والقمر هما هذا المعروفان . وأيضاً فإنه قال :

﴿ لَا أَحَبُّ الْآفَلِينَ ﴾

والأفول هو المغيب والإحتجاب . فإن أريد بذلك المغيب عن الأبصار الظاهرة ، فما يدعونه من العقل والنفس لا يزل محتجباً عن الأبصار لا يرى بحال ، بل وكذلك واجب الوجود عندهم لا يرى بالأبصار بحال ، بل تمتنع رؤيته بالأبصار عندهم .

وإن أراد المغيب عن بصائر القلوب ، فهذا أمر نسبي إضافي ، فيمكن أن تكون تارة حاضرة في القلب ، وتارة غائبة عنه ، كما يمكن مثل ذلك في واجب الوجود ، فالأفول أمر يعود إلى حال العارف بها ، لا يكسبها صفة نقص ، ولا كمال . ولا فرق في ذلك بينها وبين غيرها .

وأيضاً فالعقول عندهم عشرة ، والنفوس تسعة بعدد الأفلاك .

فلو ذكر القمر والشمس فقط لكانت شبهتهم أقوى ، حيث يقولون : نور القمر مستفاد من نور الشمس ، كما أن النفس متولدة عن العقل ، مع ما في ذلك - لو ذكروه - من الفساد ، أما مع ذكر كوكب من الكواكب فقولهم هذا من أظهر الأقوال للقراطة الباطنية فساداً ، لما في ذلك من عدم الشبه والمناسبة التي تسوغ في اللغة إرادة مثل هذا .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٧٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ .

فصل الأنبياء أفضل الخلق

قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) سورة الأنعام ٨٤ - ٨٧ .

فأخبر أنه اجتباهم وهداهم .

والأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين ، وبعدهم الصديقون والشهداء والصالحون . فلولا وجوب كونهم من المقربين الذين هم فوق أصحاب اليمين ، لكان الصديقون أفضل منهم أو من بعضهم .

والله تعالى قد جعل خلقه ثلاثة أصناف ، فقال تعالى في تقسيمهم في الآخرة :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ

(١) سورة الأنعام الآيات من ٨٤ - ٨٧ .

المُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿^(١) سورة الواقعة ٧ - ١٢ .

وقال في تقسيمهم عند الموت :

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴾ ^(٢) سورة الواقعة ٨٨ - ٩٤ .

وكذلك ذكر في سورة الإنسان والمطففين هذه الأصناف الثلاثة .

والأنبياء أفضل الخلق ، وهم أصحاب الدرجات العلى في الآخرة ، فيمتنع أن يكون النبي من الفجار ، بل ولا يكون من عموم أصحاب اليمين ، بل من أفضل السابقين المقربين ، فإنهم أفضل من عموم الصديقين والشهداء والصالحين ، وإن كان النبي أيضاً يوصف بأنه صديق وصالح وقد يكون شهيداً ، لكن ذلك أمر يختص بهم لا يشركهم فيه من ليس بنبي كما قال عن الخليل :

﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٣) سورة العنكبوت ٢٧ .

وقال يوسف : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ^(٤) سورة يوسف ١٠١ .

فهذا مما يوجب تنزيه الأنبياء أن يكونوا من الفجار والفساق . وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها .

(١) سورة الواقعة من ٧- ١٢ .

(٢) سورة الواقعة من ٨٨ - ٩٤ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٢٧ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠١ .

وأما من جوز أن يكون غير النبي أفضل منه ، فهو من أقوال بعض ملاحدة المتأخرين من غلاة الشيعة والصوفية والمتفلسفة ونحوهم .

وما يحكى عن الفضلية^(١) من الخوارج أنهم جوزوا الكفر على النبي ، فهذا بطريق اللازم لهم ؛ لأن كل معصية عندهم كفر ، وقد جوزوا المعاصي على النبي ، وهذا يقتضي فساد قولهم بأن كل معصية كفر ، وقولهم بجواز المعاصي عليهم ، وإلا فلم يلتزموا أن يكون النبي كافراً ، ولازم المذهب لا يجب أن يكون مذهباً .

وطوائف أهل الكلام الذين يجوزون بعثة كل مكلف ، من الجهمية والأشعرية ومن وافقهم من اتباع الأئمة الأربعة كالقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل ، وغيرهم ، متفقون أيضاً على أن الأنبياء أفضل الخلق ، وأن النبي لا يكون فاجراً . لكن يقولون : هذا لم يعلم بالعقل ، بل علم بالسمع ، بناء على ما تقدم من أصلهم من أن الله يجوز أن يفعل كل ممكن .

وأما الجمهور الذين يشتون الحكمة والأسباب فيقولون : نحن نعلم بما علمناه من حكمة الله أنه لا يبعث نبياً فاجراً وأن ما ينزل على البر الصادق لا يكون إلا ملائكة ، لا تكون شياطين كما قال تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾^(٢)

(١) الفضلية : فرقة من الخوارج ذكرهم ابن حزم في كتابه الفصل ٤ : ١٩٠ وسماههم الفضلية - فقال : وقال الفضيلية من الصفرية من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله بلسانه ولم يعتقد ذلك بقلبه بل اعتقد الكفر أو اليهودية أو الدهرية ، أو النصرانية فهو مسلم عند الله مؤمن ولا يضره إذا قال الحق بلسانه ما اعتقد بقلبه .

وذكر الأشعري في المقالات : ١ : ١٨٣ كلمة عنهم وسماههم « الفضلية » وتحدث عنهم حديثاً قريباً من قول ابن حزم ، وذكر الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل ١ : ١٢٤ من رجال الخوارج : الفضل بن عيسى الرقاشي .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٢ - ١٩٤ .

إلى قوله :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ .
يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي
كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(١) سورة الشعراء ٢٢١ -
٢٢٦ .

فهذا مما بين الله به الفرق بين الكاهن والنبى وبين الشاعر والنبى ، لما
زعم المفترون أن محمداً (ﷺ) شاعر وكاهن .

وفي الصحيحين من حديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبى (ﷺ)
لما أتاه الوحي في أول الأمر وخاف على نفسه ، قبل أن يستيقن أنه ملك ،
قال لخديجة : « لقد خشيت على نفسي » ، قالت : « كلا ، والله لا يخزيك
الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري
الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » ^(٢) فاستدلت (رضي
الله عنها) بحسن عقلها على أن من يكون الله قد خلقه بهذه الأخلاق الكريمة ،
التي هي من أعظم صفات الأبرار الممدوحين أنه لا يخزيه فيفسد الشيطان
عقله ودينه . ولم يكن معها قبل ذلك وحي تعلم به إنتفاء ذلك ، بل علمته
بمجرد عقلها الراجح .

وكذلك لما ادعى النبوة من ادعاها من الكذابين مثل مسيلمة الكذاب
والعنسي وغيرهما ، مع ما كان يشبهه من أمرهم ، لما كان ينزل عليهم من
الشيطان ويوحون إليهم ، حتى يظن الجاهل أن هذا من جنس ما ينزل على
الأنبياء ويوحى إليهم ، فكان ما يبلغ العقلاء وما يرونه من سيرتهم من الكذب

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ - ٢٢٦ .

(٢) هذا جزء من حديث بدء الوحي رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ١ : ٣ - ٤ وباب كيف
كان بدء الوحي ٦ : ١٧٣ - ١٧٤ وكتاب التفسير ، سورة اقرأ ورواه الإمام مسلم في كتاب
الإيمان باب بدء الوحي .

الفاحش والظلم ونحو ذلك يبين لهم أنه ليس بنبي ، إذ قد علموا أن النبي لا يكون كاذباً ولا فاجراً .

وفي الصحيحين عن النبي (ﷺ) لما قال له ذو الخويصرة : « إعدل يا محمد فإنك لم تعدل » ، فقال له النبي (ﷺ) : لقد خبت وخسرت : إن لم أعدل ، ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ ^(١) . والرواية الصحيحة بالفتح أي أنت خاسر خائب إن لم أعدل ان ظننت أنني ظالم مع إعتقادك أنني نبي . فإنك تجوز أن يكون الرسول الذي آمنت به ظالماً ، وهذا خيبة وخسران ، فان ذلك ينافي النبوة ويقدح فيها .

وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلُّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٢) سورة آل عمران ١٦١ .

وفيه قراءتان : يغل ويغل ، أي ينسب إلى الغلول . بين سبحانه أنه ما لأحد أن ينسبه إلى الغلول ، كما أنه ليس له أن يغل ، فدل على أن النبي لا يكون غالاً .

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب المناقب ٢٥ باب علامات النبوة في الإسلام .

٣٦١٠ - أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري - رضي الله عنه قال : وذكره وفيه فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته ، وصيامه مع صيامه الخ . ورواه الإمام مسلم في كتاب الزكاة (باب ذكر الخوارج وصفاتهم)

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦١ نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها فأكثرها في ذلك فأنزل الله ﴿ وما كان لنبي أن يغلل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ وكذا رواه أبو داود والترمذي جميعاً عن قتيبة عن عبد الواحد بن زياد به ، وقال الترمذي : حسن غريب . ورواه بعضهم عن خصيف عن مقسم يعني مرسلاً ، ورواه ابن مردويه من طريق أبي عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال اتهم المنافقون رسول الله - ﷺ - بشيء فأنزل الله ﴿ وما كان لنبي أن يغلل ﴾ .

ودلائل هذا الأصل عظيمة ، لكن مع وقوع الذنب الذي هو بالنسبة إليه ذنب - وقد لا يكون ذنباً من غيره مع تعقبه بالتوبة والإستغفار - لا يقدح في كون الرجل من المقربين السابقين ولا الأبرار ، ولا يلحقه بذلك وعيد في الآخرة ، فضلاً عن أن يجعله من الفجار .

وقد قال تعالى في عموم وصف المؤمنين :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى . الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ ^(١) سورة النجم ٣١-٣٢ .

وقال :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

(١) سورة النجم آية رقم ٣١ - ٣٢ اختلف العلماء في معنى اللمم فقيل : هي صغار الذنوب ، ومحقرات الأعمال . وقال الامام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي - ﷺ - قال : إن الله تعالى كتب عن ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .

أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به ، وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر عن الأعمش عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العينين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم ، وكذا قال مسروق والشعبي ، وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابه الطائفي . قال سألت أبا هريرة عن قول الله ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ قال : القبله ، والغمزه ، والنظرة ، والمباشرة ، فإذا مس الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (الا اللمم) إلا ما سلف ، وكذا قال زيد بن أسلم وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ قال الذي يلم بالذنب ثم يدعه . قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما... ؟

أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ . وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١﴾ سورة آل عمران ١٣٣ - ١٣٦ .

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) سورة الزمر ٣٣ - ٣٥ .

وقال :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدُّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣٣ - ١٣٦ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٣٣ - ٣٥ .

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ١٥ - ١٦ قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا المعتمر ابن سليمان عن الحكم بن أبان عن الغطريف عن جابر بن زيد عن ابن عباس - رضي الله عنهما عن رسول الله - ﷺ عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال : يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتص بعضها من بعض فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة . قال فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا قال قلت فإن ذهبت الحسنة قال ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصديق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني عن المعتمر بن سليمان باسناده مثله ، وزاد عن الروح الأمين . قال : قال الرب جل جلاله يؤتى بحسنات العبد =

سورة الأحقاف ١٥ ، ١٦ .

وقد قال في قصة إبراهيم (عليه السلام) :

﴿ فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(١)
سورة العنكبوت ٢٦ .

وقال في قصة شعيب (عليه السلام) :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ ^(٢) . سورة الأعراف ٨٨ ، ٨٩ .

وقال في سورة إبراهيم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) سورة إبراهيم ١٣ .

وقد ذم الله تعالى وتبارك فرعون بكونه رفض نبوة موسى بما تقدم من قتله نفساً بغير حق فقال :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ . قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٤) سورة

= وسيئاته فذكره . قال ابن كثير : وهو حديث غريب واسناده جيد لا بأس به .

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٨٨ - ٨٩ .

(٣) سورة إبراهيم آية رقم ١٣ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ١٨ - ٢١ .

وكان موسى (ﷺ) قد تاب من ذلك كما أخبر الله تعالى عنه وغفر له بقوله :

﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١)

سورة القصص ١٥ ، ١٦ .

فإن قيل : فإذا كان قد غفر له ، فلماذا يمتنعون من الشفاعة يوم القيامة لأجل ما بدا منهم ، فيقول آدم إذا طلبت منهم الشفاعة : إني نهيت عن أكل الشجرة وأكلت منها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة لم أؤمر بها . والخليل يذكر تعريضاته الثلاث التي سماها كذباً وكانت تعريضاً . وموسى يذكر قتل النفس .

قيل : هذا من كمال فضلهم وخوفهم وعبوديتهم وتواضعهم ، فإن من فوائد ما يتاب منه أنه يكمل عبودية العبد ويزيده خوفاً وخضوعاً ، فيرفع الله بذلك درجته ، وهذا الإمتناع مما يرفع الله به درجاتهم ، وحكمة الله تعالى في ذلك أن تصير الشفاعة لمن غفر الله ما تقدم ذنبه وما تأخر .

ولهذا كان ممن امتنع ولم يذكر ذنباً المسيح ، وإبراهيم أفضل منه ، وقد ذكر ذنباً ، ولكن قال المسيح : لست هناكم اذهبوا إلى عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وتأخر المسيح عن المقام المحمود الذي خص به محمد (ﷺ) هو من فضائل المسيح ومما يقربه إلى الله ؛ (صلوات الله عليهم أجمعين) .

فعلم أن تأخرهم عن الشفاعة لم يكن لنقص درجاتهم عما كانوا عليه ،

(١) سورة القصص آية رقم ١٥ - ١٦ .

بل لما علموه من عظمة المقام المحمود الذي يستدعى من كمال مغفرة الله للعبد ، وكمال عبودية العبد لله ما اختص به من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولهذا قال المسيح : اذهبوا إلى محمد عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فإنه إذا غفر له ما تأخر لم يخف أن يلام إذا ذهب إلى ربه ليشفع . وإن كان لم يشفع إلا بعد الإذن . بل إذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه لم يكن يحسنها قبل ذلك ، فيقال له : أي محمد : إرفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . وهذا كله في الصحيحين وغيرهما (١) .

وأما من قيل له : تقدم ولم يعرف أنه غفر له ما تأخر فيخاف أن يكون

(١) روى ابن تيمية حديث الشفاعة بمعناه - وقد رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان (باب أدنى أهل الجنة منزلة) عن أبي هريرة - رضي الله عنه وفي البخاري ٦ : ٨٤ « فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيته : نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح إنك أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً : اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فيقول : إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وأنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبي الله وخليته من أهل الأرض . اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيّاً ، اشفع لنا ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً نفسي ، نفسي ، نفسي اذهبوا إلى غيري . اذهبوا إلى محمد - ﷺ - فيأتون محمداً - ﷺ - فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر : اشفع لنا إلى ربك . ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فانطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه ، واشفع تشفع ، فارفع رأسي فأقول : أمي أمي .. أمي يا رب .. الحديث .

ذهابه إلى الشفاعة - قبل أن يؤذن له في الشفاعة - ذنباً ، فتأخر لكمال خوفه من الله تعالى . ويقول : أنا قد أذنبت وما غفر لي فأخاف أن أذنب ذنباً آخر . فإن النبي (ﷺ) قال : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » (١) .

ومن معاني ذلك أنه لا يؤتى من وجه واحد مرتين ، فإذا ذاق ما في الذنب من الألم وزال عنه ، خاف أن يذنب ذنباً آخر ، فيحصل له مثل ذلك الألم ، وهذا كمن مرض من أكلة ثم عوفي ، فإذا دعى إلى أكل شيء ، خاف أن يكون مثل ذلك الأول لم يأكله ؛ يقول : قد أصابني بتلك الأكلة ما أصابني ، فأخاف أن تكون هذه مثل تلك . ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ٨٣ باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٦١٣٣ حدثنا الليث عن عقيل عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة - رضي الله عنه وذكره . ورواه الإمام مسلم في الزهد ٦٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١١٥ ، ٣٧٩ .

فصل

قال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) فإن قوله : ﴿ بَدِيعَ السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما ، كما ذكر مثل ذلك في البقرة . وليس المراد أنهما بديعة سمواته وأرضه ، كما تحتمله العربية لولا السياق ، لأن المقصود نفي ما زعموه من خرق البنين والبنات له ، ومن كونه اتخذ ولداً .

وهذا ينتفي بضده كونه أبدع السموات ، ثم قال :

﴿ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟ ﴾ وذكر ثلاثة أدلة على نفي ذلك : أحدها - كونه ليس له صاحبة . فهذا نفي الولادة المعهودة . وقوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ نفي للولادة العقلية ، وهي التولد ، لأن خلق كل شيء ينافي تولدها عنه . وقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يشبه - والله أعلم - أن يكون لما ادعت النصراني أن المتحد به هو الكلمة التي يفسرونها بالعلم ، والصابئة القائلون بالتولد والعلة ، لا يجعلونه عالماً بكل شيء - ذكر أنه بكل شيء علیم - لإثبات هذه

(١) سورة الأنعام الآيات رقم ١٠٠ - ١٠١ .

الصفة له ، رداً على الصابئة ، ونفيها عن غيره رداً على النصارى .

وإذا كان كذلك فقول من قال بتولد العقول والنفوس - التي يزعمون أنها الملائكة - أظهر في كونهم يقولون أنه ولد الملائكة ، وأنهم بنوه وبناته ، فالعقول بنوه ، والنفوس بناته من قول النصارى .

ودخل في هذا من تفلسف من المنتسبة إلى الإسلام ، حتى أني أعرف كبيراً لهم سأل عن العقل والنفوس : فقال بمنزلة الذكر والأنثى . فقد جعلهم كالإبن والبنت ، وهم يجعلونهم متولدين عنه تولد المعلول عن العلة ، فلا يمكنه أن يفك ذاته عن معلوله ولا معلوله عنه ، كما لا يمكنه أن يفصل نفسه عن نفسه ، بمنزلة شعاع الشمس مع الشمس وأبلغ .

وهؤلاء يقولون : إن هذه الأرواح التي ولدها متصلة بالأفلاك والشمس والقمر والكواكب ، كاتصال اللاهوت بجسد المسيح ، فيعبدهونها كما عبدت النصارى المسيح ، إلا أنهم أكفر من وجوه كثيرة . وهم أحق بالشرك من النصارى . فإنهم يعبدون ما يعلمون أنه منفصل عن الله ، وليس هو إياه ولا صفة من صفاته . والنصارى يزعمون أنهم ما يعبدون إلا ما إتحد بالله ، لا لما ولده من المعلولات .

ثم من عبد الملائكة والكواكب وأرواح البشر وأجسادهم إتخذ الأصنام على صورهم وطبائعهم . فكان ذلك أعظم أسباب عبادة الأصنام .

ولهذا كان الخليل أمام الحنفاء مخاطباً لهؤلاء الذين عبدوا الكواكب والشمس والقمر ، والذين عبدوا الأصنام مع إشراكهم وإعترافهم بأصل الجميع .

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير موضع ، وأولئك هم الصابئون المشركون الذين ملكهم غمروذ ، وعلماءهم الفلاسفة من اليونانيين وغيرهم الذين كانوا بأرض الشام والجزيرة والعراق وغيرها ، وجزائر البحر قبل النصارى ، وكانوا بهذه البلاد في أيام بني إسرائيل ، وهم الذين كانوا يقاتلون بني إسرائيل ، فيغلبون

تارة ، ويغلبون تارة . وسنحارب وبخت نصر ونحوهما هم ملوك الصابئة بعد
الخليل . والنمرود الذي كان في زمانه .

فتبين بذلك ما في القرآن من الرد لمقالات المتقدمين قبل هذه الأمة والكفار
والمنافقين فيها من إثبات الولادة لله ، وإن كان كثير من الناس لا يفهم دلالة القرآن
على هذه المقالات لأن ذلك يحتاج إلى شيئين : إلى تصور مقالتهم بالمعنى ، لا
بمجرد اللفظ ، وإلى تصور معنى القرآن ، والجمع بينهما . فتجد المعنى الذي
عنوه قد دل القرآن على ذكره وإبطاله .

وأما إتحاد الولد فيفسر بعين الولادة . وهو من باب الأفعال ، لا من باب
الصفات كما يقوله طائفة من النصارى في المسيح .

فصل

فهذا نفى كونه - سبحانه - والداً لشيء ، أو متخذاً لشيء ولداً ، بأي وجه من وجوه الولادة ، أو اتخاذ الولد أياً كان .

وأما نفى كونه مولوداً : فيتضمن نفى كونه متولداً بأي نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره : فهو رد على من قال : المسيح هو الله . ورد على الدجال الذي يقول : إنه الله . ورد على من قال في بشر : إنه الله ، من غالية هذه الأمة في علي وبعض أهل البيت ، أو بعض المشايخ ، كما قال قوم ذلك في علي وطائفة من أهل البيت ، وقالوه في الأنبياء أيضاً ، وقاله قوم في الحلاج (١) ، وقوم في الحاكم بمصر (٢) : وقوم في الشيخ عدي ، وقوم في يونس العيني ، وقوم يعمونه في المشايخ ، ويصوبون هذا كله .
فقله سبحانه : ﴿ لم يولد ﴾ نفى لهذا كله . فإن هؤلاء كلهم مولودون .

(١) سبق الترجمة له في كلمة في الجزء الثاني .

(٢) هو منصور (الحاكم بأمر الله) ابن نزار (العزيز بالله) ابن معد (المعز لدين الله ابن اسماعيل ابن محمد العبيدي الفاطمي أبو علي متأله غريب الأطوار من خلفاء الدولة الفاطمية ولد في القاهرة عام ٣٧٥ هـ وسلم عليه بالخلافة في مدينة بليس بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦ وعمره إحدى عشرة سنة فدخل القاهرة في اليوم الثاني . توفي عام ٤١١ هـ .

راجع ابن إياس ١ : ٥٠ وخطط المقرئ ٢ : ٢٨٥ والنجوم الزاهرة ٤ : ١٧٦ - ٢٤٦ ودائرة المعارف البريطانية ٨ : ٦٠٣

والله لم يولد . ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال : ﴿ ابن مريم ﴾ بخلاف سائر الأنبياء ، كقوله :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ (٣) وقوله : ﴿ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ (٥)

وقوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (٦) وفي ذلك فائدتان :

(١) سورة المائدة آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ .

(٢) هذا جزء من آية من سورة المائدة رقم ٧٥ وتكملة الآية ﴿ وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أن يؤفكون ﴾

(٣) هذا جزء من آية من سورة المائدة رقم ١١٠ وتكملة الآية ﴿ إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهينة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبريء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى باذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جتتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

(٤) هذا جزء من آية من سورة المائدة رقم ١١٦ وتكملة الآية : ﴿ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾ .

(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٥٠ .

(٦) هذا جزء من آية من سورة النساء ١٥٧ وتكملة الآية ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكنه شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ﴾ .

إحداهما - بيان أنه مولود والله لم يولد .

والثانية - نسبته إلى مريم ، بأنه ابنها ليس هو ابن الله . وأما قوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ ^(١) الآية . وقوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ^(٢) : فانه حكى قولهم الذي قالوه ، وهم قد نسبوه إلى الله أنه ابنه . فلم يضمنوا ذلك قولهم المسيح ابن مريم .

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ^(٣) نفى للشركاء والأنداد ، يدخل فيه كل من جعل شيئاً كفواً لله في شيء من خواص الربوبية ، مثل خلق الخلق ، والإلهية كالعبادة له ، ودعائه ونحو ذلك .

فهذه نكت تبين اشتغال كتاب الله على إبطال قول من يعتقد في أحد من البشر الألوهية باتحاد أو حلول أو غير ذلك .

(١) هذا جزء من آية من سورة النساء آية رقم ١٧٢ وتكملة الآية ﴿ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ .

(٢) هذا جزء من آية من سورة التوبة رقم ٣٠ وتكملة الآية ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتِلِهِمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُونَ ﴾ .

(٣) سورة الصمد آية رقم ٤ .

فصل

قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ^(١) سورة الأنعام ١٠٣ .

أولاً : النزاع في هذه المسألة بين طوائف الإمامية كما النزاع فيها بين غيرهم . فالجهمية والمعتزلة والخوارج وطائفة من غير الامامية تنكرها . والامامية لهم فيها قولان : فجمهور قدمائهم يثبت الرؤية ، وجمهور متأخريهم ينفونها . وقد تقدم أن أكثر قدمائهم يقولون بالتجسيم .

قال الأشعري : وكل المجسمة إلا نفرأ قليلاً يقول بإثبات الرؤية ، وقد يثبت الرؤية من لا يقول بالتجسيم .

قلت : وأما الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين كمالك ^(٢) والثوري والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه مرفوعاً : إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار حجاب النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه . وفي الكتب المتقدمة إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : « يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده أي تدعثر وقال تعالى : ﴿ فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ .

(٢) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة =

وإسحاق وأبي حنيفة وأبي يوسف وأمثال هؤلاء ، وسائر أهل السنة والحديث والطوائف المنتسبين إلى السنة والجماعة كالكلاية والكرامية والأشعرية والسالمية وغيرهم ، فهؤلاء كلهم متفقون على إثبات الرؤية لله تعالى ، والأحاديث بها متواترة عن النبي (ﷺ) عند أهل العلم بحديثه .

وكذلك الآثار بها متواترة عن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وقد ذكر الإمام أحمد وغيره من الأئمة العالمين بأقوال السلف أن الصحابة والتابعين لهم باحسان متفقون على أن الله يرى في الآخرة بالابصار ، ومتفقون على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا (ﷺ) خاصة . منهم من نفى رؤيته بالعين في الدنيا ، ومنهم من أثبتها . وقد بسطت هذه الأقوال والأدلة من الجانبين في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا نقل إجماع السلف على إثبات الرؤية بالعين في الآخرة ونفيها في الدنيا ؛ إلا الخلاف في النبي (ﷺ) خاصة . وأما احتجاجه واحتجاج النفاة أيضاً بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ سورة الأنعام ١٠٣ ، فالآية حجة عليهم لا لهم ؛ لأن الإدراك إما أن يراد به مطلق الرؤية أو الرؤية المقيدة بالإحاطة . والأول باطل ، لأنه ليس كل من رأى شيئاً يقال : إنه أدركه ، كما لا يقال : أحاط به ، كما سئل ابن عباس (رضي الله عنهما) عن ذلك فقال : ألسنت ترى السماء ؟ قال : بلى . قال : أكلها ترى ؟ قال : لا . ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال : إنه

الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية ولد عام ٩٣ هـ ووفاته عام ١٧٩ بالمدينة ، كان صلباً في دينه بعيداً عن الأمراء والملوك ، وشي به إلى جعفر عم المنصور العباسي فضر به سياطاً وانخلت لها كتفه ووجه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه فقال مالك : يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله - ﷺ إجلال العلم - فالعلم يؤتى ، صنف الموطأ ، وله رسالة في الوعظ ورسالة في الرد على القدرية .

راجع الوفيات ١ : ٤٣٩ ، وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥ وصفة الصفوة ٢ : ٩٩ وحلية ٦ : ٣١٦ ومعجم المطبوعات ١٦٠٩ .

أدركها، وإنما يقال: أدركها، إذا أحاط بها رؤية. ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك ، وإنما ذكرنا هذا بياناً لسند المنع ، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية . وإن كل من رأى شيئاً يقال في لغتهم : انه أدركه . وهذا لا سبيل إليه . وكيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك عموم وخصوص ، أو اشترك لفظي . فقد تقع رؤية بلا إدراك . وقد يقع إدراك بلا رؤية . فإن الإدراك يستعمل في إدراك العلم وإدراك القدرة . فقد يدرك الشيء بالقدرة وإن لم يشاهد . كالأعمى الذي طلب رجلاً هارباً منه فأدركه ولم يره . وقد قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (١) سورة الشعراء ٦١ ، ٦٢ .

نفى موسى الإدراك مع إثبات الترائي ، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك . والإدراك هنا هو إدراك القدرة . أي ملحقون محاط بنا . وإذا إنتفى هذا الإدراك فقد تنتفى إحاطة البصر أيضاً .

ومما يبين ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه سبحانه وتعالى ، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح ، لأن النفي المحض لا يكون مدحاً إن لم يتضمن أمراً ثبوتياً ، ولأن المعدوم أيضاً لا يرى ، والمعدوم لا يمدح ، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه . وهذا أصل مستمر ، وهو أن العدم المحض الذي لا يتضمن ثبوتاً لا مدح فيه ولا كمال ، فلا يمدح الرب نفسه به ، بل ولا يصف نفسه به ، وإنما يصفها بالنفي المتضمن معنى ثبوت كقوله : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (٣) .

(١) سورة الشعراء آية رقم ٦١ - ٦٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ وهو جزء منها .

(٣) هذا جزء من آية من سورة البقرة رقم ٢٥٥ .

وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣)

وقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (٤)

ونحو ذلك من القضايا السلبية التي يصف الرب تعالى بها نفسه ، وإنها تتضمن إتصافه بصفات الكمال الثبوتية مثل كمال حياته وقيوميته وملكه وقدرته وعلمه وهدايته وإنفاده بالربوبية والإلهية ونحو ذلك . وكل ما يوصف به العدم المحض فلا يكون إلا عدماً محضاً ، ومعلوم أن العدم المحض يقال فيه : إنه لا يرى . فعلم أن نفي الرؤية عدم محض ، ولا يقال في العدم المحض : لا يدرك . وإنما يقال هذا فيما لا يدرك لعظمته لا لعدمه .

وإذا كان المنفي هو الإدراك ، فهو سبحانه وتعالى لا يحاط به رؤية ، كما لا يحاط به علماً . ولا يلزم من نفي إحاطة العلم والرؤية نفي العلم والرؤية ، بل يكون ذلك دليلاً على أنه يرى ولا يحاط به ، كما يعلم ولا

(١) هذا جزء من آية من سورة البقرة رقم ٢٥٥ .

(٢) هذا جزء من آية من سورة البقرة رقم ٢٥٥ .

(٣) هذا جزء من آية من سورة سبأ آية رقم ٣ ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ يقول الإمام ابن كثير هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لها إنما أمر الله رسوله - ﷺ - أن يقسم بربه العظيم على وقوع الميعاد ، فلجأه في سورة يونس عليه السلام وهي قوله : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ والثانية هذه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثِرَ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْثِرَنَّكُمْ لَتُنَبِّئَنَّكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ قال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

(٤) سورة ق آية رقم ٣٨ .

يحاط به . فإن تخصيص الإحاطة بالنفي يقتضي أن مدرك الرؤية ليس بمنفي، وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم . وقد روي معناه عن ابن عباس (رضي الله عنهما) وغيره . وقد روي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي (ﷺ) . ولا تحتاج الآية إلى تخصيص ولا خروج عن ظاهر الآية ، فلا نحتاج أن نقول : لا نراه في الدنيا ، أو نقول : لا تدركه الأبصار ، بل المبصرون . أو لا تدركه كلها بل بعضها ، ونحو ذلك من الأقوال التي فيها تكلف . ثم نحن في هذا المقام يكفينا أن نقول : الآية تحتل ذلك ، فلا يكون فيها دلالة على نفي الرؤية ، وإذا أردنا أن نثبت دلالة الآية على الرؤية مع نفيها للدراك الذي هو الإحاطة أقمنا الدلالة على أن الإدراك في اللغة ليس هو مرادفاً للرؤية . بل هو أخص منها ، وأثبتنا ذلك باللغة وأقوال المفسرين من السلف . وبأدلة أخرى سمعية وعقلية .

قال شيخ الاسلام رحمه الله

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ .

منها قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) والآية بعدها أشكلت قراءة الفتح على كثير بسبب أنهم ظنوا أن الآية بعدها جملة مبتدأة ، وليس كذلك ؛ لكنها داخلة في خبر أن والمعنى : إذا كنتم لا تشعرون أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنا أفعل بهم هذا : لم يكن قسمهم صدقاً ؛ بل قد يكون كذباً ، وهو ظاهر الكلام المعروف أنها « أن » المصدرية ، ولو كان ،

(١) سورة الأنعام وهذا جزء من آية رقم ١٠٩ وأول الآية : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وعند تفسير هذه الآية قال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظي . قال كلم رسول الله - ﷺ - قريش . فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك . فقال رسول الله - ﷺ - أي شيء تحبون أن أتاكم به . ؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً . فقال لهم : فإن فعلت تصدقوني . ؟ قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لتتبعنك أجمعين .

فقام رسول الله - ﷺ - يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال له ما شئت إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب نائبهم =

﴿ونقلب﴾ الخ كلاماً مشدداً لزم أن كل من جاءته آية قلب فؤاده ، وليس كذلك بل قد يؤمن كثير منهم .

= فقال رسول الله - ﷺ : بل يتوب تائبهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ .

قال شيخ الاسلام رحمه الله فصل

قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(١) . ذكر هذا بعد قوله ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ؟ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ؟ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ^(٢) ثم قال : ﴿ وَتَمَّتْ

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٢ - ١١٤ وفي تفسير هذه الآية : قال الإمام أحمد حدثنا وكيع ، حدثنا المسعودي أنبأنا ابن أبي عمر الدمشقي عن عبيد بن الحبحاس عن أبي ذر قال أتيت النبي - ﷺ - وهو في المسجد فجلست فقال : يا أبا ذر هل صليت . ؟ قلت : لا قال : قم فصل قال فقامت فصليت ثم جلست فقال يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن . قال قلت يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : نعم « وذكر تمام الحديث بطوله ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث جعفر بن عون ، ويعلى بن عبد ، وعبيد الله ابن موسى ، ثلاثهم عن المسعودي به .

وقال ابن جرير : حدثنا المثنى حدثنا الحجاج ، حدثنا حماد عن حميد بن هلال حدثني رجل من أهل دمشق عن عوف بن مالك ، عن أبي ذر أن رسول الله - ﷺ - قال : يا أبا ذر هل =

كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (١) فأخبر في هاتين الآيتين أنه لا مبدل لكلمات الله ، وأخبر في الأولى أنها تمت صدقاً وعدلاً ، وقد تواتر عند النبي ﷺ أنه كان يستعيز ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات ، وفي بعض الأحاديث « التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » (٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤) فأخبر في هذه الآية أيضاً أنه لا مبدل لكلمات الله عقب قوله : ﴿ فصبروا على ما كذبوا وأودوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ وذلك بيان أن وعد الله الذي وعده رسله من كلماته التي لا مبدل لها ، لما قال في أوليائه ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ﴾ .

= تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت : يا رسول الله هل للإنس من شياطين .. ؟ قال : نعم .

(١) سورة الكهف آية رقم ٢٧ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء ١٠ باب ٣٣٦٦ ، ٣٣٧١ حدثنا جرير ، عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : كان النبي - ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق وذكره . ورواه الإمام مسلم في كتاب الذكر ٥٤ ، وأبو داود في الطب ١٩ ، والسنة ٣٩ ، والأدب ٩٨ ، ورواه الترمذي في الطب ١٨ والدعوات ٤٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٨١ ، ٢٩٠ ٣٧٥ (حلي)

(٣) سورة يونس آية رقم ٦٢ - ٦٤ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٣٤ .

فإنه ذكر أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فوعدهم بنفي المخافة والحزن ، وبالبشرى في الدارين . وقال بعد ذلك : ﴿ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ فكان في هذا تحقيق كلام الله الذي هو وعده ، كما قال : ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) وقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ^(٣) فإخلاف ميعاده تبديل لكلماته وهو سبحانه لا مبدل لكلماته .

يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ^(٤) .

فأخبر سبحانه أنه قدم إليهم بالوعد ، وقال : ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ﴾ وهذا يقتضي أنه صادق في وعده أيضاً وأن وعده لا يبدل .

وهذا مما احتج به القائلون بأن فساق الملة لا يخرجون من النار وقد تكلمنا عليهم في غير هذا الموضع ، لكن هذه الآية تضعف جواب من يقول : إن إخلاف الوعد جائز ، فإن قوله ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ﴾ بعد قوله ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ دليل على أن وعده لا يبدل ، كما لا يبدل وعده .

لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعد ، وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها ، كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٤٧ وتكملتها ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾

(٢) سورة الروم آية رقم ٦ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٩٤ .

(٤) سورة ق آية رقم ٢٨ - ٢٩ .

شيء منها ، وقد قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ^(١) والله أعلم .

(١) سورة الفتح آية رقم ١٥ وتكملة الآية ﴿ قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله - ﷺ - في عمرة الحديبية إذ ذهب النبي - ﷺ - وأصحابه - رضي الله عنهم الى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم الى المغنم وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم فأمر الله تعالى رسوله - ﷺ - أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم .

فصل في ذبائح أهل الكتاب

قال شيخ الإسلام : قال الله (عز وجل) :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (١)

وقال : ﴿ وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغير الله ﴾ (٢)

فكل ما ذبح لغير الله فلا يؤكل لحمه .

وروى حنبل عن عطاء في ذبيحة النصراني يقول إسم المسيح ؟ قال :

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢١ اختلف الأئمة في ذلك اختلافاً كبيراً قال ابن أبي حاتم - حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : هي الميتة ثم رواه عن أبي زرعة عن يحيى ابن أبي كثير عن ابن لهيعة عن عطاء - وهو ابن السائب به ، وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور بن يزيد عن الصلت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكروهم أبو حاتم بن جبان في كتاب الثقات . قال : قال رسول الله - ﷺ : ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله « وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله « واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا يا رسول الله : إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا . ؟ فقال : سمو أنتم وكلوا « . قالوا : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها والله أعلم .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٣ .

كل . قال حنبل : سمعت أبا عبد الله يسأل عن ذلك ؟ قال : لا تأكل . قال الله : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . فلا أرى هذا ذكاته . ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ .

فاحتجاج أبي عبد الله بالآية دليل على أن الكراهة عنده كراهة تحريم ، وهذا قول عامة قدماء الأصحاب .

قال الخلال في باب التوقي : لأكل ما ذبحت النصارى وأهل الكتاب لأعيادهم وذبائح أهل الكتاب لكنائسهم : كل من روى عن أبي عبد الله روى الكراهة فيه ، وهي متفرقة في هذه الأبواب .

وما قاله حنبل في هاتين المسألتين ذكر عن أبي عبد الله : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾

فإنما الجواب من أبي عبد الله فيما أهل لغير الله به . وأما التسمية وتركها ، فقد روى عنه جميع أصحابه : أنه لا بأس بأكل ما لم يسموا عليه ، إلا في وقت ما يذبحون لأعيادهم وكنائسهم . فانه في معنى قوله تعالى :

﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ .

وعند أبي عبد الله : أن تفسير : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ إنما عنى به الميتة . وقد أخرجته في موضعه . ومقصود الخلال : أن نهى أحمد : لم يكن لأجل ترك التسمية فقط . فإن ذلك عنده لا يحرم . وإنما كان لأنهم ذبحوه لغير الله ، سواء كانوا يسمون غير الله أو لا يسمون الله ولا غيره ، ولكن قصدهم الذبح لغير الله .

لكن قال ابن أبي موسى : ويجتنب أكل كل ما ذبحه اليهود والنصارى لكنائسهم وأعيادهم ، ولا يؤكل ما ذبح للزهرة .

والرواية الثانية - أن ذلك مكروه غير محرم . وهذا الذي ذكره القاضي وغيره ، وأخذوا ذلك - فيما أظنه - مما نقله عبد الله بن أحمد . قال : سألت

أبي عمن ذبح للزهرة ؟ قال : لا يعجبني . قلت : أحرام أكله ؟ قال : لا أقول حراماً ، ولكن لا يعجبني ، وذلك أنه أثبت الكراهة دون التحريم .

ويمكن أن يقال : إنما توقف عن تسميته محرماً ؛ لأن ما اختلف في تحريمه وتعارضت فيه ، كالجمع بين الأختين ونحوه ، هل يسمى حراماً ؟ على روايتين كالروایتين عنده في أن ما اختلف في وجوبه ، هل يسمى فرضاً ؟ . على روايتين .

ومن أصحابنا من أطلق الكراهة ولم يفسر : هل أراد التحريم أو التنزيه ؟

قال أبو الحسن الأمدي ^(١) : ما ذبح لغير الله مثل الكنائس والزهرة والشمس والقمر . فقال أحمد : هو مما أهل به لغير الله أكرهه . كل ما ذبح لغير الله والكنائس وما ذبحوا في أعيادهم أكرهه . فأما ما ذبح أهل الكتاب على معنى الذكاة فلا بأس به . وكذلك مذهب مالك يكره ما ذبحه النصارى لكنائسهم أو ذبحوا على اسم المسيح أو الصليب أو أسماء من مضى من أجيالهم ورهبانهم .

وفي المدونة : وكره مالك أكل ما ذبحه أهل الكتاب لكنائسهم ، أو لأعيادهم من غير تحريم . وتأول قول الله :

﴿ أَوْ فِسْقاً أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ ^(٢) .

قال ابن القاسم ^(٣) : وكذلك ما ذبحوا وسموا عليه اسم المسيح . وهو

(١) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن ، أبو الحسن البغدادي الأمدي ، فقيه حنبلي ببغداد الأصل والمولد . نزل ثغر آمد ببديار بكر سنة ٤٥٠ هـ وتوفي بها عام ٤٦٧ واليه نسبته له « عمدة الحاحز وكفاية المسافر في الفقه ، نحو أربع مجلدات » .

راجع ابن رجب ١ : ١١ وكشف الظنون ١١٦٦

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٥ .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

بمنزلة ما ذبحوا لکنائسهم . ولا أرى أن يؤكل .

ونقلت الرخصة في ذبائح الأعياد ونحوها عن طائفة من الصحابة (رضي الله عنهم) ، وهذا في ما لم يسموا عليه غير الله . فان سموا غير الله في عيدهم أو غير عيدهم حرم في أشهر الروایتين . وهو مذهب الجمهور . وهو مذهب الفقهاء الثلاثة فيما نقله غير واحد . وهو قول علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة . منهم : أبو الدرداء ^(١) ، وأبو أمامة ، والعرباض بن سارية ، وعبادة بن الصامت ^(٢) . وهو قول أكثر فقهاء الشام وغيرهم .

والثانية - لا يحرم وإن سموا غير الله . وهو قول عطاء ، ومجاهد ، ومكحول ، والأوزاعي ، والليث .

نقل ابن منصور : أنه قيل لأبي عبد الله : سئل سفيان : عن رجل ذبح ولم يذكر اسم الله متعمداً ؟ قال : أرى أن لا يؤكل . قيل له : أرايت إن كان

(١) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء صحابي من الحكماء الفرسان القضاة كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ثم انقطع للعبادة ، ولما ظهر الاسلام اشتهر بالشجاعة والبنسك ، وفي الحديث : « عويمر حكيم أمي » . و « نعم الفارس عويمر » وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه قال ابن الجوزي كان من العلماء الحكماء وهو أحد الذين جمعوا القرآن مات بالشام عام ٣٢ هـ روى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثاً .

راجع الاصابة ٦١١٩ والاستيعاب ٣ : ١٥ وحلية الأولياء ١ : ٢٠٨ وغاية النهاية ١ : ٦٠٦
(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلب . أبو الوليد الأنصاري أحد النقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدرين . سكن بيت المقدس . ولقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - قال محمد بن كعب القرظي : جمع القرآن في زمن النبي - ﷺ - خمسة من الأنصار معاذ ، وعبادة ، وأبي ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء . مات عبادة بالرملة سنة أربع وثلاثين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . له في البخاري ومسلم ستة وانفرد البخاري بحديثين ، ومسلم بحديثين .

راجع طبقات ابن سعد ٣ : ٥٤٦ - ٦٢١ ، والتاريخ الكبير ٦ : ٩٢ والاستيعاب ٢ : ٨٠٧ ، وأسد الغابة ٣ : ١٦٠ وتاريخ الاسلام ٢ : ١١٨ ، وتهذيب التهذيب ٥ : ١١١ - ١١٢ والاصابة ٥ : ٣٢٢

يرى أنه يجزى عنه ، فلم يذكر ؟ قال : أرى أنه لا يؤكل .

قال أحمد : المسلم فيه اسم الله ، يؤكل . ولكن قد أساء في ترك التسمية - النصارى : أليس يذكرون غير اسم الله ؟ .

ووجه الاختلاف أن هذا قد دخل في قوله (عز وجل) :

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ (١) .

وفي عموم قوله تعالى : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ ، لأن هذه الآية تعم كل ما نطق به لغير الله . يقال : أهلت بكذا ، إذا تكلمت به ، وإن كان أصله الكلام الرفيع . فإن الحكم لا يختلف برفع الصوت وخفضه ، وإنما لما كانت عادتهم رفع الصوت في الأصل ، خرج الكلام على ذلك . فيكون المعنى : وما تكلم به لغير الله . وما نطق به لغير الله .

ومعلوم أن ما حرم أن تجعل غير الله مسمى ، فكذلك منوياً . إذ هذا مثل النيات في العبادات . فإن اللفظ بها وإن كان أبلغ ، لكن الأصل القصد .

ألا ترى أن المتقرب بالهدايا والضحايا ، سواء قال : إذبحه لله ، أو سكت . فإن العبرة بالنية . وتسميته الله على الذبيحة غير ذبحها لله . فإنه يسمى على ما يقصد به اللحم . وأما القربان فيذبح لله سبحانه . ولهذا قال النبي (ﷺ) في قربانه : اللهم منك ولك (٢) . بعد قوله : بسم الله والله أكبر . لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) والكافرون

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ .

(٢) ورد الحديث في أبي داود ٣ : ١٢٦ برواية جابر - رضي الله عنه وفيه : اللهم منك ولك عن محمد وأمثه . وراجع أيضاً جامع الأصول في أحاديث الرسول ٤ : ١٤٨ - ١٤٩ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٦٢ .

يصنعون بالهتهم كذلك . فتارة يسمون آلهتهم على الذبائح وتارة يذبحونها قرباناً إليهم ، وتارة يجمعون بينهما . وكل ذلك - والله أعلم - يدخل فيما أهل لغير الله به . فإن من سمى غير الله فقد أهل به لغير الله . فقلوه : « باسم كذا » إستعانة به . وقوله : « لكذا » عبادة له . ولهذا جمع الله بينهما في قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

وأيضاً فإنه سبحانه حرم ما ذبح على النصب ، وهي كل ما ينصب ليعبد من دون الله .

وأما إحتجاج أحمد على هذه المسألة بقوله تعالى :

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾

فحيث إشتطت التسمية في ذبيحة المسلم ، هل تشترط في ذبيحة الكتابي ؟ وعلى روايتين . وإن كان الخلال هنا قد ذكر عدم الإشتراط ، فاحتجاجة بهذه الآية يخرج على إحدى الروايتين . فلما تعارض العموم الحاضر ، وهو قوله تعالى :

﴿ وما أهل لغير الله به ﴾

والعموم المبيح ، وهو قوله :

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ ^(١)

اختلف العلماء في ذلك .

والأشبه بالكتاب والسنة ما دل عليه أكثر كلام أحمد من الحظر . وإن كان من متأخري أصحابنا من لا يذكر هذه الرواية بحال ، وذلك لأن عموم قوله تعالى : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ ، ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ عموم محفوظ لم تخصص منه صورة ، بخلاف طعام الذين أوتوا الكتاب . فإنه يشترط

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ .

له الزكاة المبيحة . فلو ذكى الكتابي في غير المحل المشروع لم تبح ذكاته ،
ولأن غاية الكتابي أن تكون ذكاته كالمسلم . والمسلم لو ذبح لغير الله أو ذبح
باسم غير الله ، لم يبح ، وإن كان يكفر بذلك . فكذلك الذمي ؛ لأن قوله
تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ (١)
سواء .

وهم وإن كانوا يستحلون هذا ، ونحن لا نستحله ، فليس كل ما
استحلوه يحل لنا .

ولأنه قد تعارض دليلان حازر ومبيح . فالحاضر أولى أن يقدم . ولأن
الذبح لغير الله أو باسم غيره قد علمنا يقيناً أنه ليس من دين الأنبياء (عليهم
السلام) ، فهو من الشرك الذي أحدثوه . فالمعنى الذي لأجله حلت ذبائحهم
منتف في هذا . والله تعالى أعلم .

فإن قيل : أما إذا سموا عليه غير الله بأن يقولوا : باسم المسيح ،
ونحوه ، فتحريمه ظاهر . أما إذا لم يسموا أحداً ، ولكن قصدوا الذبح
للمسيح ، أو للكوكب ونحوهما ، فما وجه تحريمه ؟ قيل : قد تقدمت
الإشارة إلى ذلك ، وهو أن الله سبحانه قد حرم ما ذبح على النصب . وذلك
يقضي تحريمه ، وإن كان ذابحه كتابياً ؛ لأنه لو كان التحريم لكونه وثنيّاً ، لم
يكن فرق بين ذبحه على النصب وغيرها ، ولأنه لما أباح لنا طعام أهل الكتاب
دل على أن طعام المشركين حرام . فتخصيص ما ذبح على الوثن يقتضي
فائدة جديدة .

وأيضاً فإنه ذكر تحريم ما ذبح على النصب ، وما أهل به لغير الله ، وقد
دخل فيما أهل به لغير الله ما أهل به أهل الكتاب لغير الله . فكذلك كل ما
ذبح على النصب . فإذا ذبح الكتابي على ما قد نصبوه من التماثيل في

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ .

الكنائس ، فهو مذبح على النصب .

ومعلوم أن حكم ذلك لا يختلف بحضور الوثن وغيته . فإنما حرم لأنه قصد بذبحه عبادة الوثن وتعظيمه . وهذه الأنصاب قد قيل : هي من الأصنام . وقيل : هي غير الأصنام . قالوا : كان حول البيت ثلاثمائة وستون حجراً ، كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ، ويشرحون اللحم عليها ، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها ، ويذبحون عليها ، وكانوا إذا شاؤوا أبدلوا هذه الحجارة بحجارة هي أعجب إليهم منها . ويدل على ذلك قول أبي ذر في حديث إسلامه : « حتى صرت كالنصب الأحمر » ، يريد أنه كان يصير أحمر من تلوثه بالدم .

وفي قوله : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قولان :

أحدهما - أن نفس الذبح كان يكون عليها كما ذكرناه . فيكون ذبحهم عليها تقرباً إلى الأصنام . وهذا على قول من يجعلها غير الأصنام . فيكون الذبح عليها لأجل أن المذبح عليها مذبح للأصنام ، أو مذبح لها . وذلك يقتضي تحريم كل ما ذبح لغير الله . ولأن الذبح في البقعة لا تأثير له إلا من جهة الذبح لغير الله ، كما كرهه النبي (ﷺ) من الذبح في مواضع أصنام المشركين ومواضع أعيادهم . وإنما يكره المذبح في البقعة المعينة لكونها محل شرك . فإذا وقع الذبح حقيقة لغير الله ، كانت حقيقة التحريم قد وجدت فيه .

والقول الثاني - أن الذبح على النصب أي لأجل النصب كما قيل : « أولم رسول الله (ﷺ) على زينب بخبز ولحم » . وأطعم فلان على ولده ، وذبح فلان على ولده ، ونحو ذلك . ومنه قوله تعالى :

﴿ لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَذَاكُمْ ﴾ ^(١)

(١) سورة الحج آية رقم ٣٧ تكملة الآية ﴿ وبشر المحسنين ﴾ وقد ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، =

وهذا ظاهر على قول من يجعل النصب نفس الأصنام . ولا منافاة بين كون الذبح لها ، وبين كونها كانت تلوث بالدم .

وعلى هذا القول فالدلالة ظاهرة . وإختلاف هذين القولين في قوله تعالى : ﴿ عَلَى النَّصَبِ ﴾ نظير الإختلاف في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ (٢)

فانه قد قيل : المراد بذكر اسم الله عليها إذا كانت حاضرة . وقيل : بل يعم ذكره لأجلها في مغيبها وشهودها ، بمنزلة قوله تعالى : ﴿ لَتَكْبَرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَذَاكُمْ ﴾ (٣) .

وفي الحقيقة مآل القولين إلى شيء واحد في قوله تعالى : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ كما قد أومأنا إليه .

وفيها قول ثالث ضعيف : أن المعنى على اسم النصب . وهذا ضعيف ؛ لأن هذا المعنى حاصل من قوله تعالى : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ فيكون تكريراً . لكن اللفظ يحتمله . كما روى البخاري في صحيحه عن

والثوري ، إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً اعتماداً على هذه الآية ، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه باسناد رجاله كلهم ثقات عن أبي هريرة مرفوعاً : من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا . وقال الشافعي وأحمد لا تجب الأضحية بل هي مستحبة لما جاء في الحديث : ليس في المال حق سوى الزكاة » وقد تقدم أنه عليه السلام - ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم » . والله أعلم .

(١) سورة الحج آية رقم ٣٤ وتكملة الآية ﴿ فَالْهَكُم إِلَهَ وَاحِدٍ فَلَهُ اسْلَمُوا وَبَشَرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾

(٢) سورة الحج آية رقم ٢٨ وتكملة الآية ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٧ .

موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه كان يحدث عن رسول الله (ﷺ) : أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح - وذلك قبل أن ينزل على رسول الله (ﷺ) الوحي - فقدمت إلى رسول الله (ﷺ) سفرة فيها لحم ، فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه (١) .

(١) البلدح : بفتح الباء والذال بينهما لام ساكنة : واد في طريق التنعيم قريباً من مكة .

فصل

قال شيخ الإسلام : « الجن مأمورون ومنهون » كالإنس وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل ، كما قال تعالى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (١)

وهذا بعد قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢)

قال غير واحد من السلف : أي كثير من أغويتم من الإنس

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ ومما يؤكد الرسالة الى الجن قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى أهلهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ﴾ (٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٨

وأضللتهم .

قال البغوي (١) : قال بعضهم : استمتع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهيئونها ويسهل سبيلها عليهم . واستمتع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي .

قال محمد بن كعب (٢) هو طاعة بعضهم لبعض ، وموافقة بعضهم بعضاً .

وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري (٣) ، قال : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس . وعن محمد بن كعب قال : هو الصحابة في الدنيا .

وقال ابن السائب (٤) : استمتع الإنس بالجن استعاذتهم بهم ، واستمتع الجن بالإنس ان قالوا قد أسرنا الانس مع الجن حتى عاذوا بنا .

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوي حافظ للحديث من العلماء أصله من بغشور (بين هراة ومرو الروذ) النسبة إليها (بغوي) مولده عام ٢١٣ هـ ووفاته عام ٣١٧ هـ ببغداد كان محدث العراق في عصره ، له معجم الصحابة جزآن منه . والجعديات في الحديث ، ورسالة في الظاهرية .

راجع معجم البلدان ببغشور واللباب ١ : ١٣٣ وميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١ وتذكرة الحفاظ ٢ : ٢٤٧

(٢) سبق الترجمة له .

(٣) الحسن البصري بن يسار أبو سعيد تابعي ، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء العظماء الشجعان النساك . ولد بالمدينة عام ٢١ هـ وشب في كنف علي ابن أبي طالب واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية وسكن البصرة وتوفي بها عام ١١٠ هـ .

راجع تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان وميزان الاعتدال ١ : ٢٥٤ وحلية الأولياء ٢ : ١٣١ وآمالى المرتضى ١ : ١٠٦ .

(٤) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

فيزدادون شرفاً في أنفسهم وعظماً في نفوسهم . وهذا كقوله :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (١) .

قلت : الإستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به . ينال به ما يطلبه ويريده ويهواه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء ، بعضهم لبعض . كما قال :

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (٢) ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور ، والإناث بالإناث . ويدخل في هذا الإستمتاع بالإستخدام وأئمة الرياسة ، كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومعاليكهم . ويدخل في ذلك الإستمتاع بالأموال كاللباس ، ومنه قوله :

﴿ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ (٣)

وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته ، ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة ، ولهذا قال الفقهاء : أعلى المتعة خادم وأدناها كسوة

(١) سورة الجن اية رقم ٦ في تفسير « رهقا » قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى ابن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبي ، حدثنا الزبير بن حرب عن عكرمة . قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخيل والجنون فذلك قول الله عز وجل ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٤ وتكملة الآية ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاظَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

قال مجاهد نزلت هذه الآية في نكاح المتعة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : نهى رسول الله - ﷺ - عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٣٦ .

يجزي فيها الصلاة .

وفي الجملة استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس ، قال تعالى :

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٢)

قال مجاهد في المودات التي كانت لغير الله ، قال الخليل : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (٣) قال تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (٤)

فالمشرك يعبد ما يهواه . واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه . وقد وقع في الإنس والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضهم . فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والإنس تطيع الجن ، فتارة يسجد له ، وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة يمكنه

(١) سورة الزخرف آية رقم ٦٧ روى الحافظ بن عساكر في ترجمة هشام بن أحمد عن هشام بن عبد الله بن كثير ، حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقعة عن معافي حدثنا حكيم بن نافع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذي أحببته في «

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٦ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٢٥ .

(٤) سورة الجاثية آية رقم ٢٣ .

من نفسه فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات منهم من يريد من الإنسان الذي يخدمه ما يريد نساء الإنسان من الرجال . وهذا كثير في رجال الجن ونسائهم . فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنسان ما يناله الإنسان ، وقد يفعل ذلك بالذكران .

وصرع الجن للإنسان هو لأسباب ثلاثة :

تارة يكون الجنى يحب المصروع فيصرعه ليطمئن به ، وهذا الصرع يكون أرق من غيره وأسهل .

وتارة يكون الإنسان آذاهم إذا بال عليهم أو صب عليهم ماء حار ، أو يكون قتل بعضهم أو غير ذلك من أنواع الأذى ، هذا أشد الصرع . وكثيراً ما يقتلون المصروع .

وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبث سفهاء الإنسان بأبناء السبيل .

ومن استمتع الإنسان بالجن استخدامهم في الأخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان . فإن في الإنسان من له غرض في هذا لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك . فإن كان القوم كفاراً - كما كانت العرب - لم تبال بأن يقال : إنه كاهن كما كان العرب كهاناً . وقدم النبي (ﷺ) المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان . وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم . وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان ، فإنه لا يخدم الإنسان بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسان بأن يطيعه الإنسان في بعض ما يريده . إما في شرك ، وإما في فاحشة ، وإما في أكل حرام ، وإما في قتل بغير حق . فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولهم لذة في الشر والفتن ، يحبون ذلك ، وإن لم يكن فيه منفعة لهم . وهم يقومون بأمر السارق أن يسرق ويذهب إلى أهل المال ، فيقولون : فلان سرق متاعكم . ولهذا يقال : القوة الملكية والبهيمية والسبعية

والشيطانية . فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح . والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب . والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذي . وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب . والشهوة والغضب خالقا لمصلحة ومنفعة . لكن المذموم هو العدوان فيهما . وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه ويحب ذلك . كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا يتنفع بزوال النعمة عن المحسود ، لكن يبغض ذلك ، وقد يكون بغضه لفوات غرضه وقد لا يكون .

ومن استمتع الإنس بالجن : استخدمهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة . فقد يأتون ببعض ذلك . وقد يدلونه على كنز وغيره . واستمتع الجن بالإنس إستعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية . ومن استمتع الإنس بالجن استخدمهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش . فتارة يتمثل الجني في صورة الإنس ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه . وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به : يا سيدي فلان . فينقل الجن ذلك الكلام الى الشيخ بمثل صوت الإنس ، حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنس بعينه . ثم ان الشيخ يقول : نعم . ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتي الجن بمثل ذلك الصوت والفعل ، يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه ، وهو الذي فعل ذلك . حتى أن تابع الشيخ قد تكون يده في إناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام ، فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه . والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء ، فيضع يده فيه ، حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء . فإذا حضر المريد ، ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه . ويكون بينهما مسافة شهر ، والشيخ في موضعه ويده لم تطل . ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريكة حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند

الآخر . وإنما كان عنده ما مثله الجني وخيله . وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله ، أو علة في النساء ، أو غير ذلك ، فإن الجني قد يمثل ذلك ، فيريهِ صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لكم كذا وكذا . ثم إن كان صاحب المال معظماً وأراد أن يدلّه على سرقة مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال ، فيذهبون إليه ، فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ، ولا يكون عليه لأن الذي سرق المال معه أيضاً جني يخدمه . والجن يخاف بعضهم من بعض ، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً . فإذا دلّ الجني عليه جاء إليه أولياء السارق فأذوه ، وأحياناً لا يدلّ لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه ، كما يصيب معرف اللصوص من الإنس . تارة يعرف السارق ، ولا يعرف به ، إما لرغبة ينالها منه ، وإما لرهبة وخوف منه . وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه ، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

والجن مكلفون كتكليف الإنس . ومحمد (ﷺ) مرسل إلى الثقلين الجن والإنس . وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين . وأما مؤمنهم ففيهم قولان ، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة . وقد روي أنهم يكونون في ربضها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس ، عكس الحال في الدنيا . وهو حديث رواه الطبراني في معجمه الصغير ، يحتاج النظر في إسناده .

وقد احتج ابن أبي ليلى وأبو يوسف ^(١) على ذلك بقوله تعالى :

(١) هو عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني أبو يوسف شيخ المعتزلة في عصره له تفسير كبير في ثلاث مئة جزء سماه (حقائق ذات بهجة) أصله من قزوين أقام بمصر أربعين سنة وسكن طرابلس وزار دمشق وكان يسميها بلد النصب لوجود بعض النواصب فيها وهم المتدينون ببغض علي - رضي الله عنه توفي ببغداد عام ٤٨٨ هـ .
راجع طبقات المفسرين ١٨ والنجوم الزاهرة ٥ : ١٥٦ ودول الإسلام ٢ : ١٢ وكتاب الروضتين ١ : ٢٨ ولسان الميزان ٤ : ١١ .

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ (١) .

وقد ذكر الجن والإنس الأبرار والفجار في الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعي وغيره بقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٢) وقد قال تعالى في الأحقاف :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ (٣) .
وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ (٤) ثم قال : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٥) ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علواً ، ودرجات أهل النار تذهب سفلاً ، وقد قال تعالى عن قول الجن :

﴿ مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ (٦) وقالوا :
﴿ وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ . فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا
وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ، فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (٧) .
فيهم الكفار والفساق والعصاة . وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ وتكملة الآية ﴿ وليوفىهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾

(٢) سورة الرحمن آية رقم ٥٦ .

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٤) سورة الأحقاف آية رقم ١٦ .

(٥) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

(٦) سورة الجن آية رقم ١١ .

(٧) سورة الجن آية رقم ١٤ - ١٥ .

العلم كما في الإنس . وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس .
فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ،
والفساق مع الفساق ، وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع .

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء . منهم من
يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا
علم . وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين ، وإنما هو من أفعال
الشياطين .

ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة ، إما إحضار ماله ، أو دلالة على
مكان فيه مال ليس له مالك معصوم أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا
كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك .

والنوع الثالث أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله ، كما يستعمل الإنس
في مثل ذلك . فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه
ورسوله . كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذه حال نبينا (ﷺ) وحال من اتبعه
واقتردى به من أمته . وهم أفضل الخلق ، فإنهم يأمرون الإنس والجن بما
أمرهم الله به ورسوله . وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله ، إذ
كان نبينا محمد (ﷺ) مبعوثاً بذلك إلى الثقلين : الإنس والجن . وقد قال
الله له :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣١ .

وعمر (رضي الله عنه) لما نادى : يا سارية الجبل . قال : إن الله جنوداً يبلغون صوتي .

وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحى الجن . فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية ، وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر ، وإلا نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة . وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه ، فيقول : يا فلان فيعان على ذلك . فيقول الواسطة بينهما : يا فلان . وقد يقول لمن هو بعيد عنه : يا فلان إحبس الماء ، تعال إلينا ، وهو لا يسمع صوته . فيناديه الواسطة بمثل ذلك : يا فلان إحبس الماء ، أرسل الماء ، إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه . وهذا حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشاً فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر . فقال عمر : من أين لكم هذا ؟ قالوا : شخص صفته كيت وكيت ، فأخبرنا . فقال عمر : ذاك أبو الهيثم . يريد الجن ، وسيجيء بريد الإنسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى الناس يتحدثون به . فان الجن تسمعه وتخبر به الناس ، والذين يستخدمون الجن في المباحات يشبه استخدام سليمان . لكن أعطى ملكاً لا ينبغي لأحد بعده ، وسخرت له الإنس والجن . وهذا لم يحصل لغيره . والنبي (ﷺ) لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته ، قال : « فأخذته فزعمته حتى سال لعبه على يدي ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد ، ثم ذكرت دعوة أخى سليمان فأرسلته » .

فلم يستخدم النبي الجن أصلاً ، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم الرسالة ، وبابعهم كما فعل بالإنس . والذي أوتيهِ (ﷺ) أعظم مما أوتيهِ سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله

وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبداً رسولاً على أن يكون نبياً ملكاً . فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك . وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد . فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين ، وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء ، وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة . وما لأولياء الشيطان من ذلك من السحرة والكهان والكفار من المشركين ، وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الداخلين في الإسلام ، جعلوا الخوارق جنساً واحداً ، وقالوا : كلها يمكن أن تكون معجزة إذا إقترنت بدعوى النبوة والإستدلال بها والتحدي بمثلها .

وإذا ادعى عن النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة ، فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك وأن يقيض له من يعارضه . ولو عارض واحد من هؤلاء النبي ، لأعجزه الله . فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي كان معتاداً للناس . قالوا إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة فهذه هي المعجزات عندهم ، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا : « المعجزات هي خرق العادة » ، لكن أنكروا كرامات الصالحين . وأنكروا أن يكون السحر والكهانة من جنس الشعبة بحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك . وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي . قالوا : فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع ، وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها تكون للسحرة ما هو مثلها ، وتناقضوا في ذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان ، وما يفعله الشياطين من العجائب ، وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح . فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء . وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ، ثم يقولون : الولي إذا تولى لا يعترض عليه .

فمنهم من يراه مخالفاً لما علم بالإضطراب من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة ، وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك ، وفعل الفواحش والفحش والتفحش في المنطق ، وظلم الناس ، وقتل النفس بغير حق ، والشرك بالله ، وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلاً من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين ، يضل به الناس ويغويهم .

ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك : فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق ، وأنا أتوبك لي ، وأصير شيخك ، وأنت تتوب الناس لي ، ويلبسه ، فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه ، فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ، ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدد من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره في النوم ، فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول : أنا الشيخ فلان . فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره .

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت ، فيأتونه في صورة ذلك الشيخ ، وقد يخلصونه مما يكره ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه . أو أن ملكاً تصور بصورته وجاءه . ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين ، والملائكة لا تجيب مشركاً .

وتارة يأتون إلى من هو خال في البرية ، وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً ، وقد إنقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت فيأتيه في صورة إنس ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويطعمه ويدله على الطريق ويقول : من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ويكون في موضع . كما جرى مثل هذا لي . كنت في مصر في قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص : أنا ابن تيمية ، فلم يشك ذلك الأمير أنني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردین ، وأرسل بذلك ملك ماردین إلى ملك

مصر رسولاً ، وكنت في الحبس ، فاستعظموا ذلك ، وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يجبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاءوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الإسلام ، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين ، أطعمتهم ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أنني أنا الذي فعلت ذلك .

قال لي طائفة من الناس : فلم لا يجوز أن يكون ملكاً ؟ قلت : لا . إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال : أنا ابن تيمية . وهو يعلم أنه كاذب في ذلك .

وكثير من الناس من رأى من قال : إني أنا الخضر ، وإنما كان جنياً ، ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكاراً لموت الخضر ، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر ، وكل من الطائفتين مخطيء . فإن الذين رأوا من قال : « إني أنا الخضر » هم كثيرون صادقون ، والحكايات متواترات ، لكن أخطأوا في ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنياً . ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى . فكثيراً ما يأتيهم في كنائسهم من يقول : إنه الخضر . وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من يقول : إنه الخضر . وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع ، يبين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر ، وأنه غلط في ظنه ، إنه الخضر ، وإنما كان جنياً . وقد يقول : أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان . فكل هذا قد وقع والنبي (ﷺ) قال : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي » .

قال ابن عباس : في صورته التي كان عليها في حياته . وهذه رؤيا في المنام ، وأما في اليقظة فمن ظن أن أحداً من الموتى يجيء بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة ، فمن جهله أتى .

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما

يظنون أنه أتى الى الحواريين ^(١) وكلمهم ووصاهم ، وهذا مذكور في أناجيلهم وكلها تشهد بذلك . وذاك الذي جاء كان شيطانياً قال : أنا المسيح . ولم يكن هو المسيح نفسه . ويجوز أن يشبهه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين .

ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه . ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه ، فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء .

فأصحاب الحلاج ^(٢) لما قتل كان يأتهم من يقول : أنا الحلاج . فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له : الدسوقي ^(٣) ، بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله ، فرأيت بخط الجن . وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن . وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي وكان يقول : إنتقل ثم مات . وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن ، وقيل : كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته ، فيعتقدون أنه هو .

وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد ابن الحنفية ^(٤) ،

(١) الحواريون : قيل : كانوا قصارين ، وقيل سموا بذلك لبياض ثيابهم وقيل : صيادين . والصحيح أن الحواري الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير - رضي الله عنه فقال النبي - ﷺ - لكل نبي حوارٍ وحواري الزبير .

(٢) سبق الحديث عن الحلاج والترجمة له في الجزء الثاني من هذا الكتاب وهي ترجمة وافية إن شاء الله .

(٣) ترجمنا للشيخ الدسوقي في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٤) هو محمد بن الإمام علي بن أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب أخو الحسن والحسين وأمه من سبي البمامة زمن أبي بكر الصديق ، وهي خولة بنت جعفر الحنفية .

قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته ، وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنيّاً . فهذا باب واسع واقع كثيراً . وكلمنا كان القوم أجهل كان عندهم أكثر . ففي المشركين أكثر مما في النصارى . وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام . وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ، ويتوب بسببها ناس ، يكونوا أضل من أصحابها ، فينقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه ، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس ، قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون ، ويصيرون خيراً مما كانوا . وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً وقد قال النبي (ﷺ) : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاف لهم » ^(١) وهذا كان كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي ؛ فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل ، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق ، وإن كانت في نفسها باطلة

= ولد في العام الذي مات فيه أبو بكر ، ورأى عمر ، وروى عنه وعن أبيه وأبي هريرة ، وعثمان ، وعمار بن ياسر ، ومعاوية وغيرهم .

وقد على معاوية ، وعبد الملك بن مروان وكانت الشيعة في زمانه تتغالى فيه وتدعي بامامته ولقبوه المهدي ويزعمون أنه لم يموت . مات عام إحدى وثمانين وله من العمر خمس وستون سنة . [راجع طبقات ابن سعد ٥ : ٩١ وتاريخ البخاري ١ : ١٨٢ والبدء والتاريخ ٥ : ٧٥ والحلية ٣ : ١٧٤ وتاريخ ابن عساكر ١٥ : ٣٦٤ ووفيات الأعيان ٤ : ١٦٩ والبداية والنهاية ٩ : ٣٨ وتهذيب التهذيب ٩ : ٣٥٤ .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ١٨٢ باب إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ٣٠٦٢ حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : شهدنا مع رسول الله - ﷺ - فقال لرجل ممن يدعي الإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال . قاتل الرجل قتلاً شديداً فأصابته جراحة ، ف قيل : يا رسول الله الذي قلت إنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتلاً شديداً وقد مات . فقال النبي - ﷺ - إلى النار . قال فكاد بعض الناس أن يرتاب فيبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يموت ، ولكن به جراحاً شديداً ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك فقال : الله أكبر ، أشهد أني عبد الله ورسوله ، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . . ورواه مسلم في الإيمان ١٧٨ ، وابن ماجه في الفتن ٣٥ واحمد بن حنبل ٢ : ٣٠٩ ، ٥ : ٤٥ .

فغيرها أبطل منها ، والخير والشر درجات ، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه . وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك ، وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً . وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون أثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين . وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب . وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير . وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام . والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذباً ، وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين ، دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانتهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد هدايته أدخل الإيمان في قلبه . والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتعليلها . والنبي (ﷺ) دعا الخلق بغاية الإمكان ، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان .

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١)

وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها ، وهي بدعة أهل السنة . وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع . ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج . فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة ، وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

يتولون علياً . ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر . ولكن حكي عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل ^(١) إحدى الطائفتين ، ولا أعلم عنها . وقالوا : إنه قال : لو شهد علي والزبير ^(٢) لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه . ولو شهد علي مع آخر ، ففي قبول شهادته قولان . وهذا القول شاذ فيهم . والذي عليه عامتهم تعظيم علي .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية ^(٣) وأبي موسى ^(٤) وعمر وبن العاص لأجل علي ، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة ، فإنهم يقولون : ان هؤلاء تابوا من قتاله . وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ، ويعظمون الذنوب . فهم يتحرون الصدق كالخوارج ، لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً إتخاذ دار غير دار الإسلام

(١) هي الواقعة المشهورة في تاريخ الإسلام بين الإمام علي وطلحة والزبير وكانت معهم أم المؤمنين عائشة على جمل .

(٢) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي أبو عبد الله الصحابي الشجاع . أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من سل سيفه في الإسلام وهو ابن عمه النبي - ﷺ - أسلم وله ١٢ سنة وشهد بدرأً وأحدأ وغيرهما ، وكان على بعض الكراديس في اليرموك . وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل بوادي السباع على ٧ فراسخ من البصرة له ٣٨ حديثاً . [راجع تهذيب ابن عساكر ٥ : ٣٥٥ والجمع ١٥ وصفة الصفوة ١ : ١٣٢ وحلية الأولياء ١ : ٨٩ وتاريخ الخميس ١ : ١٧٢ .

(٣) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي ولد عام ٣٠ ق هـ وتوفي عام ٦٠ هـ . [راجع ابن الأثير ٤ : ٢ ومنهاج السنة ٢ : ٢٠١ والبيهقي ٢ : ١٩٢ والخبز ٢ : ٢٩١ - ٢٩٦ والبدء والتاريخ ٥٠٦ والمسعودي ٢ : ٤٢] .

(٤) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب أبو موسى من بني الأشقر من قحطان : صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين وأحد الحكمين الذين رضيهما علي ومعاوية بعد حرب صفين ولد في زبيد باليمن عام ٣١ ق هـ وقدم مكة عند ظهور الإسلام فأسلم . وهاجر إلى أرض الحبشة ثم استعمله الرسول - ﷺ - على زبيد وعدن ، وولاه عمر بن الخطاب البصرة عام ١٧ هـ . توفي عام ٤٤ هـ . [راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٧٩ والإصابة ٤ : ٤٨٨٩ وغاية النهاية ١ : ٤٤٢ وصفة الصفوة ١ : ٢٢٥] .

كالخوارج . ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول . ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض . وهم قصدتهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته . وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس ، لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس ، فجعلوا من التوحيد نفي الصفات وإنكار الرؤية ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا في ذلك الجهمية وجعلوا من العدل أنه لا يشاء ما يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيئته وخلقته لإثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها ، لم يعرفوا ما فيها من الحكمة . وكذلك هم الخوارج قالوا بانفاذ الوعيد ليشبوا أن الرب صادق لا يكذب إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمتى لم يقل بذلك ، لزم كذبه ، وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسيف ، قصدوا به طاعة الله ورسوله كما يقصده الخوارج والزيدية ، فغلطوا في ذلك .

وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات ، قصدوا به إثبات النبوة ونصرها ، وغلطوا فيما سلكوه ، فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق ، وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء ، والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم . وبينوا ما بينوه من تناقضهم ، وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة ، فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما إنتفع به خلق كثير . فإن الأشعري^(١) كان من المعتزلة ، وبقي على مذهبهم أربعين سنة ، يقرأ على أبي علي الجبائي^(٢) ، فلما إنتقل عن مذهبهم كان

(١) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان بين الأئمة المجتهدين ولد في البصرة عام ٢٦٠ هـ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم له مصنفات منها « مقالات الاسلاميين » والابانة عن أصول الديانة توفي عام ٣٢٤ هـ . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقرئزي ٢ : ٣٥٩ ، وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧] .

(٢) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي : من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره وإليه نسبة الطائفة « الجبائية » له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب نسبتها إلى حي

خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم . وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية . وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعري في شيء منها ، بل ناقضهم في جميع أصولهم ، ومال في مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه . وكثير من الطوائف كالنجارية ^(١) أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمر ، ويخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف ، والخوارق والصوفية يذمونها ويعيبونها ، وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود ، وهم إلى اليهود أقرب . كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ، فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة ، فهم ضالون . واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين . وروي بإسناد عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق ،

= (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة ودفن بجى عام ٣٠٣ هـ له تفسير حافل مطول رد عليه الأشعري [راجع المقرئ ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٥ ومفتاح السعادة ٢ : ٢٥ .

(١) صاحبها الحسين بن محمد بن عبد الله النجار الرازي ، أبو عبد الله ، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة ، وإليه نسبتها ، كان حاكماً ، وقيل كان يعمل الموازين من أهل قم ، وهو من متكلمي المجبرة ، وله مع النظام عدة مناظرات وأكثر المعتزلة في الرأي وجهاتها من النجارية ، وهم يوافقون أهل السنة في مسألة القضاء والقدر ، واكتساب العباد وفي الوعد والوعيد ، وإمامة أبي بكر ، ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات وخلق القرآن ، وفي الرؤية وهم ثلاث فرق « البرغوثية » والزعفرانية ، والمستدركة ، له كتب منها « البدل في الكلام » و« المخلوق » و« إثبات الرسل » و« القضاء والقدر » وغير ذلك توفي عام ٢٢٠ هـ

راجع فهرست ابن النديم : واللباب ٣ : ٢١٥ والامتناع والمؤانسة ١ : ٥٨ والمقرئ ٢٠ :

٣٥٠

الضالين : وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه ، يقول : فاهمنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ، ولا تضلنا كما أضللت النصارى ، فتعذبنا كما تعذبهم . يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك .

قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين . وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود . ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله ، فيعظمون العلم وطريقه ، وهو الدليل والسلوك في طريقه وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد ، وطريق أهل الإرادة . فهؤلاء يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر . وهذه هي القوة العلمية ، ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول . فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة ، وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعي ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة ، فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به ، وبين النظر البدعي الباطل المنهى عنه .

وكذلك الصوفية ، عظموا جنس الإرادة ، إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا في الباب ، ولم يميز كثير منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الإرادة البدعية ، بل أقبلوا على طريق الإرادة ، طريقة النظر .

وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ، ولهذا صار هؤلاء يميل إليهم النصارى ويميلون إليهم ، وأولئك يميل إليهم اليهود

ويميلون إليهم . وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض ، وكذلك بين أهل الكلام والرأي ، وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض .

هذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين . آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الأعراف
قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى
فصل

حجة إبليس في قوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ^(١) هي باطلة ، لأنه عارض النص بالقياس ، ولهذا قال بعض السلف : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس ، ويظهر فسادها بالعقل من وجوه خمسة . « أحدها » أنه ادعى أن النار خير من الطين ، وهذا قد يمنع ، فإن الطين فيه السكنة والوقار ، والاستقرار ، والثبات والإمساك ونحو ذلك ، وفي النار الخفة والحدة والطيش والطين فيه الماء والتراب .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٢ وصدر الآية ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ ﴾ قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ القياس فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس . قال ابن سيرين « وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . وقالت الحكماء : أخطأ عدو الله من حيث فضل الناس على الطين ، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق ، ويرى بعض العلماء أن النار أقل من الطين لأسباب كثيرة بعضها ذكره الإمام ابن تيمية والبعض الآخر ذكره العلماء . من ذلك « أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر ، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وأن في النار تراباً . ومنها : أن التراب مسجد وظهور كما جاء في صحيح الحديث . والنار تخويف وعذاب كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَخْوَفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ وقال ابن عباس كانت الطاعة أولى بابليس من القياس فعصى ربه ، وهو أول من قاس برأيه ، والقياس في مخالفة النص مردود .

« الثاني » أنه وإن كانت النار خيراً من الطين فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل أفضل ، فإن الفرع قد يختص بما لا يكون في أصله ، وهذا التراب يخلق منه الحيوان والمعادن والنبات ما هو خير منه ، والاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله على أصله حجة فاسدة احتج بها إبليس ، وهي حجة الذين يحتجون بأنسابهم وقد قال النبي ﷺ : « من قصر به عمله لم يبلغ به نسه » (١)

« الثالث » أنه وإن كان مخلوقاً من طين فقد حصل له بنفخ الروح المقدسة فيه ما شرف به ، فلهذا قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢) فعلق السجود بأن ينفخ فيه من روحه ، فالموجب للتفضيل هذا المعنى الشريف الذي ليس لإبليس مثله .

« الرابع » أنه مخلوق بيدي الله تعالى ، كما قال تعالى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ (٣) وهو كالأثر المروي عن النبي ﷺ مرسلأ ، وعن عبد الله بن عمرو في تفضيله على الملائكة حيث قالت الملائكة : « يارب ! قد خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون وينكحون ؛ فاجعل لنا الآخرة كما جعلت لهم الدنيا فقال : لا أفعل ، ثم أعادوا ، فقال : لا أفعل ثم أعادوا فقال : وعزتي لا أجعل صالح من خلقت بيدي كمن قلت له : كن فكان » .

« الخامس » أنه لو فرض أنه أفضل فقد يقال : إكرام الأفضل للمفضول ليس بمستنكر (٤) .

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٧ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ، ٢٢٥ - بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ، قال رسول الله - ﷺ « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة ص آية رقم ٧٥ .

(٤) راجع ما كتبه ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير في علم التفسير آية ١٢ سورة الأعراف ج ٣ : ١٧٤ .

فصل

سئل شيخ الإسلام رحمه الله

عن : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (١)
الآية الكريمة ، هل ذلك عام لا يراهم أحد أم يراهم بعض الناس دون
بعض ؟ وهل الجن والشياطين جنس واحد ولد إبليس أم جنسين ولد إبليس
وغير ولده ؟ .

فأجاب شيخ الإسلام ، أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله ورضي عنه
آمين . فقال :

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٧ قال بعض العلماء : في هذا دليل على أن الجن لا يرون لقوله :
من حيث لا ترونهم ، وقيل : جائز أن يروا لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم
حتى ترى .

قال النحاس : من حيث لا ترونهم « يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي ليكون ذلك
دلالة على نبوته ، لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يرون فيه ، وإنما يرون إذا نقلوا عن
صورهم . وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله عليهم . قال
القشيري : أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم . وفي الخبر : إن الشيطان
يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِي يُوَسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ . وقال
عليه السلام « إن للملك لمة ، وللشيطان لمة - أي بالقلب - فلما لمة الملك فيإبعاد بالخير
وتصديق بالحق ، وأما لمة الشيطان فيإبعاد بالشر وتكذيب بالحق » .

الحمد لله : الذي في القرآن أنهم يرون الإنس من حيث لا يراهم
الإنس ، وهذا حق يقتضي أنهم يرون الإنس في حال لا يراهم الإنس فيها ،
وليس فيه أنهم لا يراهم أحد من الإنس بحال ؛ بل قد يراهم الصالحون وغير
الصالحين أيضاً ، لكن لا يرونهم في كل حال ، والشياطين هم مرءة الإنس
والجن ، وجميع الجن ولد إبليس ، والله أعلم .

فصل

قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ﴾ (١) الآية .

وفيها قراءتان : إحداهما بالنصب فيكون لباس التقوى أيضاً منزلاً ، وأما قراءة الرفع فلا ، وكلتاهما حق . وقد قيل : خلقتاه ، وقد قيل أنزلنا أسبابه ، وقيل ألهمناهم كيفية صنعته ، وهذه الأقوال ضعيفة فإن النبات الذي ذكروا لم يجيء فيه لفظ أنزلنا ، ولم يستعمل في كل ما يصنع أنزلنا ، فلم يقل أنزلنا الدور ، وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك . وهو لم يقل أنا أنزلنا كل لباس ورياش . وقد قيل إن الريش والرياش المراد به اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحد مثل اللبس واللباس .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٦ قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أصبغ عن أبي العلاء الشامي قال لبس أبو أمامة ثوباً جديداً فلما بلغ ترقوته . قال الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى ، وأنجمل به في حياتي ، ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه يقول : قال رسول الله - ﷺ : من استجد ثوباً فلبسه فقال حين بلغ ترقوته الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأنجمل به في حياتي ، ثم عمد الى الثوب الخلق فتصدق به ، كان في ذمة الله وفي جوار الله ، وفي كنف الله حياً وميتاً رواه الترمذي وابن ماجه من رواية يزيد ابن هارون عن أصبغ - هو ابن زيد الجهني . وقد وثقه يحيى بن معين وغيره ، وشيخه أبو العلاء الشامي لا يعرف إلا بهذا الحديث .

وقد قيل هما المال ، والخصب ، والمعاش ، وارتاش فلان حسنت حالته . والصحيح أن الرياش هو الأثاث والمتاع . قال أبو عمرو والعرب تقول أعطاني فلان ريشه أي كسوته وجهازه . وقال غيره : الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفرش ونحوها .

وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص . قال أبو زيد : جملاً وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر وهو ما يروش به ويدفع عنه الحر والبرد ، وجمال الطائر ريشه ، وكذلك ما يبيت فيه الإنسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك . والقرآن مقصوده جنس اللباس الذي يلبس على البدن وفي البيوت . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه .

قوله : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ ﴾ ^(١) والفاحشة أريد بها كشف السوءات ، فيستدل به على أن في الأفعال السيئة من الصفات ما يمنع أمر الشرع بها ، فإنه أخبر عن نفسه في سياق الإنكار عليهم أنه لا يأمر بالفحشاء ، فدل ذلك على أنه منزّه عنه فلو كان جائزاً عليه لم يتنزه عنه .

فعلم أنه لا يجوز عليه الأمر بالفحشاء ؛ وذلك لا يكون إلا إذا كان الفعل في نفسه سيئاً ، فعلم أن كلما كان في نفسه فاحشة فإن الله لا يجوز عليه الأمر به ، وهذا قول من يثبت للأفعال في نفسها صفات الحسن

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ قال ابن الجوزي في هذه الآية أقوال ثلاثة :

أحدها : أنهم الذين كانوا يطوفون في البيت عراة ، والفاحشة كشف العورة رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وزيد بن أسلم ، والسدي .
والثاني : أنهم الذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام وتلك الفاحشة روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

والسوء ، كما يقوله أكثر العلماء كالتيميمين وأبي الخطاب ^(١) ؛ خلاف قول من يقول : إن ذلك لا يثبت قط إلا بخطاب وكذلك قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ^(٢) علل النبي عنه بما اشتمل عليه من أنه فاحشة ، وأنه ساء سبيلاً ، فلو كان إنما صار فاحشة وساء سبيلاً بالنهي لما صح ذلك ؛ لأن العلة تسبق المعلول لا تتبعه ، ومثل ذلك كثير في القرآن . وأما في الأمر فقلوه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) دليل على أنه أمر به ، لأنه خير لنا ؛ ولأن الله علم فيه ما لم نعلمه .

ومثله قوله في آية الطور ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(٤) دليل على أمر بالطهور ، لما فيه من الصلاح لنا وهذا أيضاً في القرآن كثير .

(١) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوزاني أبو الخطاب . إمام الحنبلية في عصره ، أصله من « كلواذى » (من ضواحي بغداد) مولده ٤٣٢ هـ ووفاته ٥١٠ هـ ببغداد من كتبه « التمهيد » في أصول الفقه ، والانتصار في المسائل الكبار ، و« رؤوس المسائل » و« التهذيب » و« عقيدة أهل الأثر » : وله اشتغال بالأدب ، ونظم .

راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ وطبقات الحنابلة ٤٠٩ ، والذيل على الطبقات ١ : ١٤٣ ومروءة الزمان ٨ : ٦٦ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٣٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٦ .

فصل

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ^(١) لم يقل عند كل مشهد ، وقال : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ ^(٢) ولم يقل : (إنما يعمر) مشاهد الله ، بل عمار المشاهد يخشون بها غير الله ويرجون غير الله .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ^(٣) ولم يقل وأن المشاهد لله .

وقال : ﴿ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ ^(٤)

ولم يقل : ومشاهد .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٧ - ١٨ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١٨ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٤٠ .

وقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ (١) .

وأيضاً فقد علم بالنقل المتواتر . (بل علم) بالاضطرار من دين الاسلام أن الرسول - ﷺ - شرع لأمته عمارة المساجد بالصلوات والاجتماع للصلوات الخمس ، ولصلاة الجمعة والعيدین وغير ذلك ، وأنه لم يشرع لأمته أن يبنوا على قبر نبي ، ولا رجل صالح ، لا من أهل البيت ولا غيرهم . لا مسجداً ولا مشهداً .

ولم يكن على عهده - ﷺ - في الإسلام (مشهد مبني على قبر ، وكذلك على عهد خلفائه الراشدين ، وأصحابه الثلاثة ، وعلي بن أبي طالب ومعاوية ، لم يكن على عهدهم مشهد مبني لا على قبر النبي ولا غيره ، لا على قبر ابراهيم الخليل ولا على غيره .

بل لما قدم المسلمون الى الشام غير مرة ، ومعهم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب وغيرهم . ثم لما قدم عمر لفتح بيت المقدس ثم لما قدم لوضع الجزية على أهل الذمة ومشارطتهم ، ثم لما قدم الى سرغ (٢) ففي جميع هذه المرات لم يكن أحدهم يقصد السفر الى قبر الخليل . ولا كان هناك مشهد ، بل كان هناك البناء المبني على المغارة .

(١) سورة النور الآيات رقم ٣٦ - ٣٧ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة : نهى الله سبحانه وتعالى عن اللغو فيها ، وكذا قال عكرمة وأبو صالح ، والضحاك ، ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسفيان بن حسين وغيرهم من العلماء المفسرين . وقد ذكر أن كعباً كان يقول : مكتوب في التوراة : إن يبوتي في الأرض المساجد ، وإنه من توضع فأحسن وضوءه ثم زارني في بيتي أكرمتي ، وحق على المزور كرامة الزائر رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره .

(٢) هو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيرة وتبوك من منازل حاج الشام .

راجع معجم البلدان مادة : سرغ .

وكان مسدوداً بلا باب له ، مثل حجرة النبي - ﷺ .

ثم لم يزل الأمر هكذا في خلافة بني أمية وبني العباس الى أن ملك النصارى تلك البلاد في أواخر المائة الخامسة . فبنوا ذلك البناء واتخذوه كنيسة ونقبوا باب البناء فلهذا تجد الباب منقوباً لا مبنياً . ثم لما استنقذ المسلمون منهم تلك الأرض اتخذها من اتخذها مسجداً .

بل كان الصحابة إذا رأوا أحداً بنى مسجداً على قبر نهروه عن ذلك ، ولما ظهر قبر دانيال بتستر كتب فيه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه الى عمر - رضي الله عنه - فكتب إليه عمر أن تحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً وتدفعه بالليل في واحد منها لثلاث يفتتن الناس به (١) .

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا رآهم يتتابون مكاناً يصلون فيه لكونه موضع نبي ينهاتهم عن ذلك ، ويقول : إنما هلك من كان قبلكم باتخاذ آثار أنبيائهم مساجد ، من أدركته الصلاة فيه فليصل ، وإلا فليذهب . فهذا وأمثاله كانوا يحققون به التوحيد الذي أرسل الله به الرسول إليهم ويتبعون في ذلك سنة النبي - ﷺ .

والإسلام مبني على أصليين : أن لا تعبد إلا الله ، وأن نعبد بما شرع لا نعبده بالبدع .
فالنصارى خرجوا عن الأصلين ، وكذلك المبتدعون من هذه الأمة من الرافضة وغيرهم .

وأيضاً فإن النصارى يزعمون أن الحواريين (٢) الذين اتبعوا المسيح

(١) هذه الواقعة ذكرها الطبري عند كلامه على فتح السوس في حوادث السنة السابعة عشر ، كما ذكرها البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) في الكلام على فتح السوس ص ٣٨٦ ط (١) القاهرة ١٣١٩ / ١٩٠١ م .

(٢) الحواريون : قيل كانوا قصارين ، وقيل سمو بذلك لبياض ثيابهم ، وقيل : صيادين .
والصحيح أن الحواري : الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - لما ندب الناس =

أفضل من ابراهيم ، وموسى ، وغيرهما من الأنبياء والمرسلين .

ويزعمون أن الحواريين رسل شافهمم الله بالخطاب لأنهم يقولون : إن الله هو المسيح ، ويقولون أيضاً ان المسيح ابن الله .

والرافضة تجعل الأئمة الاثني عشر أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وغالبتهم يقولون انهم أفضل من الأنبياء لأنهم يعتقدون فيهم الالهية كما اعتقدته النصارى في المسيح .
والنصارى يقولون : إن الدين مسلم للأحبار والرهبان فالحلال ما حللوه والحرام ما حرموه ، والدين ما شرعوه .

والرافضة تزعم أن الدين مسلم الى الأئمة فالحلال ما حللوه ، والحرام ما حرموه ، والدين ما شرعوه .

وأما من دخل في غلو الشيعة كالاسماعيلية الذين يقولون بالهية الحاكم^(١) ونحوه من أئمتهم ويقولون : إن محمد بن اسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله ، وغير ذلك من مقالات الغالية من الرافضة ، فهؤلاء شر من أكثر الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ، وهم يتسبون الى الشيعة يتظاهرون بمذاهبهم .

فإن قيل : ما وصفت به الرافضة من الغلو والشرك والبدع موجود كثير منه في كثير بن المتسبين الى السنة ، فإن في كثير منهم غلو في مشايخهم واشراكاً بهم وابتداعاً لعبادات غير مشروعة ، وكثير منهم يقصد قبر من يحسن الظن به : إما ليسأله حاجاته ، وإما ليسأل الله تعالى به (حاجة) وإما لظنه أن الدعاء عند قبره أجوب منه في المساجد ، وفيهم من يفضل زيارة قبور شيوخهم على الحج ، ومنهم من يجد عند قبر من يعظمه من الرقة والخشوع

= يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ، ثم ندب فانتدب الزبير - رضي الله عنه فقال النبي - ﷺ - لكل نبي حواري وحواري الزبير » .

(١) سبق الترجمة له .

ما لا يجده في المساجد والبيوت ، وغير ذلك مما يوجد في الشيعة .
ويروون أحاديث مكذوبة من جنس أكاذيب الرافضة مثل قولهم ، لو
أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه الله به ، وقولهم : إذا أعيتكم الأمور فعليكم
بأصحاب القبور ، وقولهم : قبر فلان هو الترياق المجرب .
ويروون عن بعض شيوخهم أنه قال لصاحبه : إذا كان لك حاجة فتعال
إلى قبري واستغث بي ونحو ذلك . فإن في المشايخ من يفعل بعد مماته كما
كان يفعل في حياته ، وقد يستغيث الشخص بواحد منهم فيتمثل له الشيطان
في صورته إما حياً وإما ميتاً ، وربما قضى حاجته أو قضى بعض حاجته كما
يجري نحو ذلك للنصارى مع شيوخهم ، ولعباد الأصنام من العرب والهند
والترك وغيرهم . قيل هذا كله مما نهى الله عنه ورسوله ، وكل ما نهى الله عنه
ورسوله فهو مذموم نهى عنه ، سواء كان فاعله منتسباً إلى السنة أو إلى
التشيع ، ولكن الأمور المذمومة المخالفة للكتاب والسنة في هذا وغيره هي
في الرافضة أكثر منها في أهل السنة ، فما يوجد في أهل السنة من الشر ففي
الرافضة أكثر منه وما يوجد في الرافضة من الخير ففي أهل السنة أكثر منه .

وهذا حال أهل الكتاب مع المسلمين ، فما يوجد في المسلمين شر إلا
وفي أهل الكتاب أكثر منه . ولا يوجد في أهل الكتاب خير إلا وفي المسلمين
أعظم منه . ولهذا يذكر سبحانه وتعالى مناظرة الكفار من المشركين ، وأهل
الكتاب بالعدل فإذا ذكروا عيباً في المسلمين لم يبرئهم منه ، لكن يبين أن عيوب
الكفار أعظم .

كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ
كَبِيرٌ ﴾ ثم قال : ﴿ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ . (١)

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٧ قال السدي عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس - وعن مرة
عن ابن مسعود - وذلك أن رسول الله - ﷺ - بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن
جحش الأسدي وفيهم عمار بن ياسر ، وحذيفة ، وعتبة بن ربيعة ، وسعد بن أبي وقاص ، =

وهذه الآية نزلت لأن سرية من المسلمين ذكر أنهم قتلوا ابن الحضرمي في آخر يوم من رجب ، فعابهم المشركون بذلك فأنزل الله هذه الآية .

فصل

وقال الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية :

على قول الله عز وجل : ﴿ اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ؛ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١) . هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ؛ فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما ؛ وهما متلازمان . فإن دعاء المسألة

= وعتبة بن غزوان السلمي ، حليف لبني نوفل وسهيل بن بيضاء ، وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعي ، حليف لعمر بن الخطاب ، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن نخلة ففتح الكتاب فإذا فيه : أن سر حتى تنزل بطن نخلة فقال لأصحابه : من كان يريد الموت فليمض وليوص فإنني موصي ، وماض لأمر رسول الله ﷺ - فسار فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة أضلا راحلة لهما فتخلفا يطلبانها وسار ابن جحش الى بطن نخلة فإذا هو بالحكم بن كيسان ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وانفلت وقتل عمرو ، قتله واقد ابن عبد الله ، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ - فلما رجعوا الى المدينة بأسيرين ، وما أصابوا من المال أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين عليه - وقالوا إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله ، وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب . فقال المسلمون : إنما قتلناه في جمادي ، وأنزل الله يعير أهل مكة : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ إلى آخر الآية .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ - ٥٦ والنضرع : التذلل والخضوع ، والخفية خلاف العلانية . قال الحسن : كانوا يجتهدون في الدعاء ولا تسمع إلا همساً ومن هذا حديث أبي موسى : اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً »
والاعتداء فيه قولان : أحدهما : أنه الاعتداء في الدعاء ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن يدعو على المؤمنين بالشر ، كالخزي والندامة قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل ، والثاني : أن =

هو طلب ما ينفع الداعي ، وطلب كشف ما يضره ودفعه وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر .

ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرراً ولا نفعاً .
وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ (٢)
فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعبادهم .

وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع ، والضر فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة ، ويدعو خوفاً ورجاء دعاء العبادة ، فعلم أن النوعين متلازمان ، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة . وعلى هذا فقوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٣) يتناول نوعي الدعاء ، وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألني ، وقيل : أثيبه إذا عبدني ، والقولان متلازمان ، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ؛ بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً ، فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع ، وقل ما يفطن له ، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً ، فهي من هذا القبيل . مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ (٤) فسر « الدلوك » بالزوال ، وفسر بالغروب ، وليس بقولين ؛ بل اللفظ يتناولهما معاً ؛ فإن الدلوك هو الميل ، ودلوك الشمس ميلها . ولهذا

= يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء قال أبو مجلز . الثالث : أنه الجهر في الدعاء قاله ابن السائب .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

(١) سورة يونس آية رقم ١٠٦ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٧٨ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٨ .

الميل مبتدأ ومنتهى ، فمبتدأه الزوال ، ومنتهاه الغروب ، واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار .

ومثاله أيضاً تفسير « الغاسق » بالليل ، وتفسيره بالقمر ، فإن ذلك ليس باختلاف ، بل يتناولهما لتلازمهما ، فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ ^(١) أي دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته ، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول ومحل الأول مضافاً إلى الفاعل ، وهو الأرجح من القولين .

وعلى هذا فالمراد به نوعي الدعاء ، وهو في دعاء العبادة أظهر أي ما يعبا بكم لولا أنكم ترجونه ، وعبادته تستلزم مسألته ، فالنوعان داخلان فيه ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ^(٢) فالدعاء يتضمن النوعين ، وهو في دعاء العبادة أظهر ؛ ولهذا أعقبه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ^(٣) الآية . ويفسر الدعاء في الآية بهذا وهذا وروى الترمذي عن النعمان بن بشير ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - على المنبر - إن الدعاء هو العبادة . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي

(١) سورة الفرقان آية رقم ٧٧ ويرى العلماء أن في الدعاء أربعة أقوال : أحدها : لولا إيمانكم .

رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . الثاني : لولا عبادتكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

الثالث : لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه . قاله مجاهد ، والمراد نفع الخلق لأن الله تعالى غير محتاج .

الرابع : لولا توحيدكم حكاه الزجاج ، وعلى قول الأكثرين ليس في الآية إضمار وقال ابن قتية فيها إضمار تقديره ما يعبا بعباديتكم لولا ما تدعونه من الشريك والولد ويوضح ذلك قوله (فسوف يكون لزاماً يعني العذاب ومثله قوله الشاعر) :

من شاء دلى النفس في هوة ضنك ولكن من له بالمضيق
أي بالخروج من المضيق .

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٠ .

(٣) سورة غافر آية رقم ٦٠ .

استجب لكم ﴿ الآية ، قال الترمذي حديث حسن صحيح ^(١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ ^(٢) الآية . وقوله : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ﴾ ^(٣) الآية . وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٤) الآية . وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو في دعاء العبادة أظهر ؛ لوجوه ثلاثة : -

« أحدها » أنهم قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ^(٥) فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم .

« الثاني » أن الله تعالى : فسر هذا الدعاء في موضع آخر كقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ، أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ^(٦) وقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ^(٧) . وقوله تعالى : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٨) فدعائهم لآلهتهم هو عبادتهم .

(١) قال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زر عن يسيع الكندي عن النعمان ابن بشير - رضي الله عنه - قال رسول الله - ﷺ : إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ادعوني استجب لكم » وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وابن أبي حاتم وابن جرير كلهم من حديث الأعمش به وقال الترمذي : حسن صحيح ، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير أيضاً من حديث شعبة عن منصور والأعمش كلاهما عن زر به ،

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١١٧ .

(٤) سورة فصلت آية رقم ٤٨ .

(٥) سورة الزمر آية رقم ٣ .

(٦) سورة الشعراء آية رقم ٩٢ - ٩٣ .

(٧) سورة الأنبياء آية رقم ٩٨ .

(٨) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

« الثالث » أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء ، فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة . وقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(١) هو دعاء العبادة والمعنى اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره . وأما قول ابراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ^(٢) فالمراد بالسمع ههنا السمع الخاص ، وهو سمع الإجابة والقبول ، لا السمع العام ؛ لأنه سميع لكل مسموع ، وإذا كان كذلك فالدعاء دعاء العبادة ودعاء الطلب ، وسمع الرب تعالى له إثابته على الثناء ، وإجابته للطلب فهو سميع هذا وهذا

وأما قول زكريا عليه السلام : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ ^(٣) فقد قيل : انه دعاء المسألة ، والمعنى : أنك عودتني إجابتك ولم تشقني بالرد والحرمان ؛ فهو توسل إليه سبحانه وتعالى بما سلف من إجابته وإحسانه وهذا ظاهر ههنا .
وأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ ^(٤) الآية : فهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة ، وهو سبب النزول . قالوا : كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة : « يا الله » ومرة « يا رحمن » فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية . وأما قوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٥) فهذا دعاء العبادة المتضمن للسلوك لرغبة ورهبة ، والمعنى : إنا كنا نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم الله عذاب السموم ، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره ؛ فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض . ﴿ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ﴾ ^(٦) : أي لن نعبد غيره وكذا

(١) سورة غافر آية رقم ١٤ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٣٩ .

(٣) سورة مريم آية رقم ٤ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١١٠ .

(٥) سورة الطور آية رقم ٢٨ .

(٦) سورة الكهف آية رقم ١٤ .

قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ (١) الآية .

وأما قوله : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ (٢) فهذا دعاء المسألة يكتبهم الله ويخزيهم يوم القيامة بأرائهم ، إن شركاءهم لا يستجيبون لهم دعوتهم ، وليس المراد عبدوهم ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ (٣) . إذا عرف هذا : فقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (٤) يتناول نوعي الدعاء ؛ لكنه ظاهر في دعاء المسألة ، متضمن دعاء العبادة ولهذا أمر بإخفائه وإسراره ، قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، أي ما كانت إلا همساً بينهم وبين ربهم عز وجل ؛ وذلك أن الله عز وجل يقول : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وأنه ذكر عبداً صالحاً ورَضِيَ بفعله . فقال : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (٥) . وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة :

« أحدها » أنه أعظم إيماناً ؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي .

وثانيها ، أنه أعظم في الأدب والتعظيم ، لأن الملوك لا ترفع الأصوات

(١) سورة الصافات آية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ٥٢ وعجز الآية ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٥٥

(٥) سورة مريم آية رقم ٣ .

روى إسماعيل ، قال حدثنا مسدد ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد ابن عبد الرحمن - وهو ابن كيشه عن سعد بن أبي وقاص - عن النبي ﷺ - قال : إن خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي ، وهذا عام قال يونس بن عبيد كان الحسن يرى أن يدعو الإمام في القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت ، وتلا يونس ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ قال بابن العربي : وقد أسرَّ مالك القنوت ، وجهر به الشافعي ، والجهر به أفضل لأن النبي - ﷺ - كان يدعو به جهرًا .

[عندهم] ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، والله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به . وثالثها « أنه أبلغ في التضرع والخشوع ، الذي هو روح الدعاء ولبه مقصوده فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل ، قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته ؛ حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكيتته وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه ، فلا يطاوعه بالنطق وقلبه يسأل طالباً مبتهلاً ، ولسانه لشدة ذلته ساكتاً ، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً . » ورابعها « أنه أبلغ في الإخلاص . »

و « خامسها » أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه .

« وسادسها » - وهو من النكت البديعة جداً - أنه دال على قرب صاحبه للقریب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ؛ ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ ^(١) فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل ، وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه . وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح : لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال : « أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » ^(٢) وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ

(١) سورة مريم آية رقم ٣ .

(٢) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، حدثنا خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري . قال : كنا مع رسول الله ﷺ - في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال : فدنا منا فقال : وذكره وفيه زيادة (يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة) لا حول ولا قوة إلا بالله ﷻ

دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١﴾ وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ، ليس قرباً عاماً من كل أحد ، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه « وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (٢) وقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ (٣) فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب .

« وسابعها » أنه ادعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته ، فإنه قد يمل اللسان وتضعف قواه ، وهذا نظير من يقرأ ويكرر ، فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له ؛ بخلاف من خفض صوته .

« وثامنها » أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات ؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد ، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره ، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بد ، ومانعته وعارضته ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته ؛ فيضعف أثر الدعاء ، ومن له تجربة يعرف هذا ، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة .

« وتاسعها » أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد ، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلّت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ (٤) الآية . وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله تعالى قد

أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي ، واسمه : عبد الرحمن ابن علي عنه بنحوه .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في الصلاة ٢١٥ . والنسائي في المواقيت ٣٥ والتطبيق ٧٨ . والترمذي في الدعوات ١١٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤٢١ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٥ .

تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى ، ولا يطلع عليه أحد ، والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله عز وجل ، وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب ، ولا سيما فعله للمهتدي السالك فإذا تمكن أحدهم وقوي ، وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه - بحيث لا يخشى عليه من العواصف ، فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليقتردي به ويؤتم به - لم يبال وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهله .

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء ، والمحبة والإقبال على الله تعالى ، فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين ، وهذه فائدة شريفة نافعة .

« وعاشرها » أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى ، متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب ، كما قال النبي ﷺ « أفضل الدعاء الحمد لله » ^(١) فسمي الحمد لله دعاء وهو ثناء محض ؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب ، فالحامد طالب للمحسوب ، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب ؛ فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب ، فهو دعاء حقيقة بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه « والمقصود » أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه . وقد

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب ٥٥ باب فضل الحامدين ٣٨٠٠ بسنده عن جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله ، وأخرجه الترمذي مرفوعاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في ٤٥ كتاب الدعوات ١٢٢ باب في دعاء يوم عرفه ، وأخرجه الامام مالك في الموطأ كتاب القرآن ٨ باب ما جاء في الدعاء ٣٢ - عن مالك عن زياد بن أبي زياد عن طلحة بن عبيد الله بن كريب عن رسول الله ﷺ - قال : وذكره ، وأخرجه في الحج ٢٤٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٢٧ ، ٥١٥ (حلي) .

قال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ ^(١) فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه ، قال مجاهد وابن جريج ^(٢) أمروا أن يذكره في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح ، وتأمل كيف قال في آية الذكر : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ ﴾ الآية . وفي آية الدعاء : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ^(٣) فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل ، والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء .

وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها ، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف ، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ؛ ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته ، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره ؛ لأنها توجب التواني والانسياط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل .

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة ، فقال له الشيخ أليس الفقهاء يقولون : إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط ؟ فقال له : بلى . فقال له : فقلب المرید أعز عليه من عشرة دراهم - أو كما قال - وهو إذا خرج ضاع قلبه ، فحفظه لقلبه عذر مسقط

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٥ .

(٢) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد ، وأبو خالد فقيه الحرم المكي ، كان إمام أهل الحجاز في عصره ، وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة ، رومي الأصل ، من موالي قريش ، مكي المولد عام ٨٠ هـ توفي عام ١٥٠ هـ بمكة . قال الذهبي . كان ثباً لكنه بدلس .

راجع تذكرة الحفاظ ١ : ١٦٠ وصفة الصفوة ٢ : ١٢٢ وابن خلكان ١ : ٢٨٦ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤٠ ودول الاسلام للذهبي ١ : ٧٩ وطبقات المدلسين ١٥

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ .

للجمعة في حقه . فقال له : هذا غرور بك ، الواجب الخروج إلى أمر الله عز وجل . فتأمل هذا الغرور العظيم كيف أدى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة ، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام ، كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه من خاصة الخاصة (١) .

وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ، ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجى ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن .

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما كلها شيء كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته ؛ لئلا تخرج عن الطريق والرجاء حاد يحدوها يطلب لها اليسر ، والحب قائدها وزمامها الذي يشوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردّها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وضلت عنها .

فما حفظت حدود الله ومحارمه ، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه (٢) ورجائه (٣) ومحبته (٤) ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فساداً لا يرجى

(١) كثير من هؤلاء الأعداء الذين يتبعون هواهم ويجرون خلف شياطينهم - يستمعون لوسوستهم ، وينفذون أوامرهم حتى ينسلخوا من دينهم قال تعالى : أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾ . سورة محمد آية ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن آية رقم ٤٦) وقال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ سورة النازعات آية رقم ٤٠ .

(٣) قال تعالى : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ﴾ سورة الاسراء آية رقم ٥٧ .

(٤) قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ سورة آل عمران آية رقم ٣١ .

صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر ، والخفية بالدعاء ، مع دلالة على اقتران الخفية بالدعاء والخيفة بالذكر أيضاً ، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء ؛ لأن الدعاء مبنى عليه ، فإن الداعي ما لم يطمع . في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ؛ إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع ، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع ، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(١) قيل المراد إنه لا يجب المعتدين في الدعاء ، كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن معقل أنه سمع ابنه يقول « اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها » فقال : يا بني ! سل الله الجنة وتعوذ به من النار ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء » ^(٢) .

وعلى هذا فالإعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤال من المعونة على المحرمات ، وتارة يسأل ما لا يفعله الله ، مثل أن يسأل تخليده إلى يوم القيامة ، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية ؛ من الحاجة إلى الطعام والشراب ، ويسأله بأن يطلعه على غيبه ، أو أن يجعله من المعصومين ، أو

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ - والمعتدي هو المجاوز للحد ، ومرتكب الحظر . وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه ، وروي عن النبي - ﷺ - أنه قال : سيكون قوم يعتدون في الدعاء » أخرجه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة . حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا سعيد الجريري ، عن أبي نعيم أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال : أي بني ، سل الله الجنة وعذبه من النار ، فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : سيكون قوم يعتدون في الدعاء » .
والاعتداء في الدعاء على وجوه : منها : الجهر الكثير والصياح ، ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة . والله أعلم .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

يُهب له ولدا من غير زوجة ، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله .

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدعاء .

ويعد : فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء بالدعاء مراداً بها فهو من جملة المراد ﴿ الله لا يحب المعتدين ﴾ ^(١) في كل شيء : دعاء كان أو غيره ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وعلى هذا : فيكون أمر بدعائه وعبادته ، وأخبر أنه لا يحب العدوان وهم يدعون معه غيره ، فهؤلاء أعظم المعتدين عدواناً ، فإن أعظم العدوان الشرك ، وهو وضع العبادة في غير موضعها ، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلاً في قوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع ؛ بل دعاء هذا كالمستغني المدلى على ربه ، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد .

ومن الإعتداء أن يعبد به بما لم يشرع ، ويثني عليه بما لم يثن به على نفسه ، ولا إذن فيه ، فإن هذا اعتداء في دعائه : الثناء والعبادة وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب .

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين :

« أحدهما » محبوب للرب سبحانه وهو الدعاء تضرعاً وخفية .

« الثاني » مكروه له مسخوط وهو الاعتداء ، فأمر بما يحبه وندب إليه

(١) سورة البقرة آية رقم ١٩٠ ومن الاعتداء ارتكاب المناهي كما قال الحسن البصري ، من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع « رواه الامام أحمد .

وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير ، وهو لا يحب فاعله ، ومن لا يحبه الله فأى خير يناله ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ ﴾ عقب قوله ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم ؛ فقسمت الآية الناس إلى قسمين : داع لله تضرعاً وخفية ، ومعتد يترك ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ^(١) قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي ، والداعي إلى خير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله [مفسد] فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم الفساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله ومخالفة أمره . قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ^(٢) قال عطية في الآية : ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ، ويهلك الحدث

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٦ قال الضحاك : معناه لا تعوروا الماء المعين ، ولا تقطعوا الشجر المثمر وقد ورد : قطع الدنانير من الفساد في الأرض ، وقد قيل : تجارة الحكام من الفساد في الأرض وقال القشيري : المراد ولا تشركوا فهو نهي عن الشرك ، وسفك الدماء ، والهرج في الأرض ، وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل ، وتقدير الشرائع ، ووضوح ملة - محمد - ﷺ - قال ابن عطية : وقائل هذه المقالة - قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر .

(٢) سورة الروم آية رقم ٤١ .
اختلف العلماء في معنى الفساد . فقال قتادة والسدي : الفساد الشرك وهو أعظم الفساد ، وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : فساد البر : قتل ابن آدم أخاه ، وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً وقيل الفساد القحط ، وقلة النبات ، وذهاب البركة ، ونحوه قاله ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا . قال النحاس وهو أحسن ما قيل في الآية وعنه أيضاً : أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم ، وقال عطية : فإذا قل المطر قل الغوص عنده وأخفق الصيادون ، وعميت دواب البحر ، وقيل الفساد : كساد الأسعار وقلة المعاش ، وقيل الفساد : المعاصي وقطع السبيل ، والظلم .

بمعاصيكم ، وقال غير واحد من السلف : إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم ، فتقول : اللهم العنهم فبسببهم أجذبت الأرض ، ، وقحط المطر . و« بالجملة » فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ ، هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ فإنه أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة ، فإن الله أصلح الأرض برسوله ﷺ ودينه ، وبالأمر بالتوحيد ، ونهى عن فسادها بالشرك به ، ومخالفة رسوله ﷺ .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ ، وكل شر في العالم وقتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك ؛ فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله ، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه ، وفي غيره عموماً وخصوصاً ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ^(١) إنما ذكر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع ، فأمر أولاً بدعائه تضرعاً وخفية ، ثم أمر أيضاً أن يكون الدعاء خوفاً وطمعاً .

وفصل الجملتين بجملتين :

« إحداهما » خبرية ومتضمنة للنهي وهي قوله : ﴿ إنه لا يحب

المعتدين ﴾

و« الثانية » طلبية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ^(٢) والجملتان مقررتان للأولى ، مؤكدتان لمضمونها . ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضاده أمر بدعائه خوفاً وطمعاً ، لتعلق قوله : ﴿ إنه لا

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٦ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٦ .

يحب المعتدين ﴿ بقوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ .

ولما كان قوله : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهي الحب والخوف والرجاء : عقبها بقوله ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١) أي : إنما تنال من دعاء خوفاً وطمعاً ، فهو المحسن والرحمة قريب منه ؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة .

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابل الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ . وانتصاب قوله : ﴿ تضرعاً وخفية ﴾ ﴿ وخوفاً وطمعاً ﴾ على الحال ، أي ادعوه متضرعين إليه ، مختفين خائفين مطيعين . وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم ، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته ، ورحمته قريب من المحسنين ، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعاً وخفية ، وخوفاً وطمعاً . فقرر مطلوبكم منه ، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه ، وإن أحسستم أحسستم لأنفسكم ، وقوله تعالى ﴿ إن رحمة ^(٢) الله قريب من المحسنين ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمانه وتعليله بمفهومه ، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ، ودلالته بإيمانه وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان ، وهو السبب في قرب الرحمة منهم ، ودلالته بمفهومه على بعده من غير المحسنين .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٦ .

(٢) قال الفراء : رأيت العرب تؤثث القرية في النسب ، لا يختلفون في ذلك ، فإذا قالوا : دارك بنا قريب ، أو فلانة منا قريب ، من القرب والبعد ، ذكروا وأنثوا ، وذلك أنهم جعلوا القريب خلفاً من المكان كقوله ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ سورة هود آية ٨٣ [وقوله تعالى ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ الأحزاب آية ٦٣] ولو أنث ذلك لكان صواباً قال عروة .

عشية لا عفراء منك قريبة فتدنو ولا عفراء منك بعيد
وإني لتغشاني لذكراك فترة لها بين جلدي والعظام دبيب

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة ؛ وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة ، لأنها إحسان من الله عز وجل أرحم الراحمين ، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان ؛ لأن الجزء من جنس العمل وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته ، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة ، بعد يبعد وقرب بقرب ، فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته .

والله سبحانه يحب المحسنين ، ويبغض من ليس من المحسنين ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه ، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه ، والإحسان ههنا هو فعل المأمور به ، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه ، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى ، والإقبال إليه والتوكل عليه ^(١) ، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة ، وحياء ومحبة وخشية .

فهذا هو مقام « الإحسان » ^(٢) كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان ؛ فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » ^(٣) فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريب من صاحبه ؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟! يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه ، قال ابن عباس -

(١) قال تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ سورة آل عمران آية رقم ١٥٩ .

وقال تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ سورة الفرقان آية رقم ٥٨ .

(٢) الإحسان لما فسرهُ رسول الله - ﷺ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك «

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان ٣٧ باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والاسلام والإحسان ٥٠ - حدثنا مسدد ، قال : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا أبو حيان التميمي عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : وذكره ورواه مسلم في الإيمان ١ ، ٥ ، ٧ ، والنسائي في الإيمان ٥ ، ٦ .

رضي الله عنهما - هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ثم قال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة « (١) . آخر الكلام على الآيتين والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم .

(١) الحديث : رواه البغوي في تفسيره : وفي إسناده ضعف ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦ : ١٤٩ وزاد نسبه للحكيم الترمذي في « نواتر الأصول » والديلمي في مسند « الفردوس » وابن النجار في تاريخه عن أنس بن مالك - رضي الله عنه . وقال السيوطي : في « الدر » ٦ : ١٤٩ أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه عن ابن عمر . قال : قال رسول الله - ﷺ - في قوله : هل جزاء الإحسان إلا الإحسان « وذكره : قال وأخرج عبد ابن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قوله : هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » قال رسول الله - ﷺ - « هل جزاء من أنعمت عليه ممن قال : لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة » .

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

قوله سبحانه : ﴿ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ، أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟ ! قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ^(١) ظاهره دليل على أن شعيباً والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم ؛ لقولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ولقول شعيب : ﴿ أ ﴾ نعود فيها ﴿ ولو كنا كارهين ﴾ ولقوله : ﴿ قد افترينا على الله كذباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ فدل على أنهم كانوا فيها . ولقوله : ﴿ بعد إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ .

فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها ؛ ولقوله : ﴿ وما يكون لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ولا يجوز أن يكون الضمير عائداً على قومه ؛ لأنه صرح فيه بقوله : ﴿ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ إلى آخرها ، وهذا يجب أن يدخل فيه المتكلم ، ومثل هذا في سورة ابراهيم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨٨ ، ٨٩ .

لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ الآية .

(١) سورة ابراهيم آية رقم ١٣ .

فصل

وقال شيخ الإسلام :

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ . [فيها] ومنها قوله : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ الآية وما في معناها .

التحقيق أن الله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب ، كما في حديث هرقل ^(١) . ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم ، إذا كان معروفاً بالصدق والأمانة ، وفعل ما يعرفون وجوبه ، وترك ما يعرفون قبحه . قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ^(٢) فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب ، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم ؛ ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحاً .

وقد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرائع ، وإن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر والرسل قبل

(١) حديث هرقل ذكره الإمام البخاري في كتاب التفسير - باب من تفسير سورة آل عمران ، وذكره الإمام مسلم - برواية مطولة عن ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الجهاد . باب كتاب النبي - ﷺ - إلى هرقل .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ١٥ .

الوحي لا تعلمه فضلاً عن أن تقربه . قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ (١) الآية . وقال : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (٢) فجعل إنذارهم بالتوحيد كالإنذار بيوم التلاق ، وكلاهما عرفوه بالوحي . وما ذكر أنه ﷺ بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي ، فإنه سيد ولد آدم ، والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره ، من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى ، وبالنصر والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم .

ولهذا يضيف الله الأمر إليهما في مثل قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (٣) الآية . ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا ، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٤) الآية . وذلك أن نوحاً أول رسول بعث إلى المشركين ، وكان مبدأ شركهم . من تعظيم الموتى الصالحين . وقوم إبراهيم مبدأه من عبادة الكواكب ، ذاك الشرك الأرضي ، وهذا السماوي ؛ ولهذا سُدَّ ﷺ ذريعة هذا وهذا .

(١) سورة النحل آية رقم ٢ قال العلماء المراد بالروح ستة أقوال أحدها : الوحي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه النبوة ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

الثالث : أن المعنى تنزل الملائكة بأمره رواه العوفي عن ابن عباس فعلى هذا يكون المعنى ، أن أمر الله كله روح قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد .

والرابع : أنه الرحمة قاله الحسن وقتادة .

والخامس : أن أرواح الخلق : لا ينزل ملك إلا ومعه روح ، قاله مجاهد

والسادس : أنه القرآن ، قاله ابن زيد . فعلى هذا سماه روحاً ، لأن الدين يحيا به ، كما أن الروح تحيي البدن ، وقال بعضهم الباء في قوله بالروح بمعنى : مع ، فالتقدير : مع الروح .

(٢) سورة غافر آية رقم ١٥ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٣٣ .

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله .

قد أخبر الله بأنه بارك في أرض الشام في آيات منها قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (١) .

ومنها قوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ومنها قوله : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ (٣) .

ومنها قوله ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ (٤) وهي قرى الشام وتلك قرى اليمن ، والتي بينهما قرى الحجاز ونحوها وبادت .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٧١ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٨١ .

(٤) سورة سبا آية رقم ١٨ .

ومنها قوله : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ^(١)

(١) سورة الاسراء آية رقم ١ قال بعض العلماء : سمي الأقصى لبعده ما بينه وبين المسجد الحرام ، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ثم قال « الذي باركنا حوله » قيل بالثمار وبمجارى الأنهار ، وقيل : بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين ، وبهذا جعله مقدساً ، وروى معاذ بن جبل عن النبي - ﷺ - أنه قال « يقول الله تعالى : يا شام أنت صفوتي من بلادى ، وأنا سائق إليك صفوتي من عبادى » .

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

قال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (١) فأمر بذكر الله في نفسه ، فقد يقال : هو ذكره في قلبه بلا لسانه ؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ وقد يقال وهو أصح : بل ذكر الله في نفسه باللسان مع القلب ، وقوله : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٢)

وفي الصحيح عن عائشة قالت نزلت في الدعاء ، وفي الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يجهر بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ، ومن أنزل عليه ، فقال الله : لا تجهر بالقرآن فيسمعه المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت به عن أصحابك فلا يسمعه » (٣)

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٥ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ١١٠ .

(٣) الحديث أخرجه الامام الطبري ١٥ : ١٨٤ وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١ : ٢١٥ - ثنا هشام عن منصور عن ابن سيرين عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه زيادة [القرآن حتى يأخذه عنك وابتغ بين ذلك سبيلا] .

وأخرجه البخاري في كتاب التفسير ١٤ باب ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ ٤٧٢٢ - حدثنا هشيم ، حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما في قوله =

عن الجهر والمخافة . فالمخافة هي ذكره في نفسه ، والجهر المنهى عنه هو الجهر المذكور في قوله : ﴿ ودون الجهر ﴾ فإن الجهر هو الإظهار الشديد يقال : رجل جهوري الصوت ورجل جهير وكذلك قول عائشة في الدعاء ، فإن الدعاء كما قال تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ فالإخفاء قد يكون بصوت يسمعه القريب هو المناجاة ، والجهر مثل المناداة المطلقة وهذا كقوله ﷺ لما رفع أصحابه أصواتهم بالتكبير فقال : « أيها الناس » اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته (١) .

ونظير قوله : ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ قوله ﷺ فيما روى عن ربه « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » (٢) وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه ، فإنه جعله قسيم الذكر في الملأ ، وهو نظير قوله : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ والدليل على ذلك أنه قال : ﴿ بالغدو والآصال ﴾ ومعلوم أن ذكر الله المشروع بالغدو والآصال في الصلاة وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب ، مثل صلاتي الفجر والعصر ، والذكر المشروع عقب الصلاتين ، وما أمر به النبي ﷺ وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال .

= تعالى ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال نزلت ورسول الله ﷺ - مخف بمكة وذكره .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الذكر ٢ : ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ورواه البخاري في كتاب التوحيد ١٥ باب قول الله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ٧٤٠٥ - حدثنا الأعمش ، سمعت أبا صالح ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ - وذكره . وفيه زيادة « وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » . ورواه الترمذي في كتاب الدعوات ١٣١ - وابن ماجه في كتاب الأدب ٥٣ ، ٥٨ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥١ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٤ ، ٤٨٠ (حلي) .

والأصال .

وقد يدخل في ذلك أيضاً ذكر الله بالقلب فقط ، لكن يكون الذكر في النفس كاملاً وغير كامل ؛ فالكامل باللسان مع القلب وغير الكامل بالقلب فقط .

ويشبه ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ^(١) فإن القائلين بأن الكلام المطلق كلام النفس استدلوا بهذه الآية ، وأجاب عنها أصحابنا وغيرهم بجوابين .
« أحدهما » أنهم قالوا بالسنتهم قولاً خفياً .

« والثاني » أنه قيده بالنفس ، وإذا قيد القول بالنفس فإن دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق ، وهذا كقوله ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » ^(٢) فقوله حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به دليل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق ، وأنه ليس باللسان . وقد احتج بعض هؤلاء بقوله : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ^(٣) وجعلوا القول المسر في القلب دون اللسان لقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ وهذه حجة ضعيفة جداً ؛ لأن قوله : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ يبين أن القول يسر به تارة ويجهر به أخرى ، وهذا إنما هو فيما يكون في القول الذي هو بحروف مسموعة .

وقوله بعد ذلك : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى فإنه إذا كان عليماً بذات الصدور فعلمه بالقول المسر والمجهور

(١) سورة المجادلة آية رقم ٨ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب العتق ٦ باب الخطأ والنسيان ٢٥٢٨ حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مسعر عن قتادة ، عن زرارة بن أوفى عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ وذكره .

(٣) سورة الملك آية رقم ١٣ .

به أولى .

ونظيره قوله : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الرعد آية رقم ١٠ .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (١)

قد روى مالك في موطأه عن زيد بن أسلم عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أنه أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قالوا بلى شهدنا ﴿ الآية ﴾ . فقال عمر ابن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره يمينه فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية . فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله : فقيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٧٢ .

قال الامام جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني السري بن يحيى ، أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ - أربع غزوات . قال فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ - فاشتد عليه ثم قال : ما بال أقوام يتناولون الذرية . فقال رجل يا رسول الله اليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : إن خياركم أبناء المشركين إلا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما توال كذلك حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها .

تبارك وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار» (١) .

وهذا الحديث إنما رواه أهل السند والمسند كأبي داود والترمذي والنسائي ، وقال (الترمذي) حديث حسن وقد قيل إن إسناده منقطع ، وأن راويه مجهول ومع هذا فقد رواه مالك في الموطأ مع أنه أبلغ من غيره لقوله ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية . ومن العجب أن الآجري يروي في كتاب الشريعة له من طريق مالك والثوري والليث وغيرهم ، فلو تأمل أبو المعالي (٢) وذووه الكتاب الذي أنكروه لوجدوا فيه ما يخصهم ، ولكن أبو المعالي مع فرط ذكائه وحرصه على العلم وعلو قدره في فنه كان قليل المعرفة بالآثار النبوية ، ولعله لم يطالع الموطأ بحال حتى يعلم ما فيه ، فإنه لم يكن له بالصحيحين البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي والترمذي وأمثال هذه السنن علم أصلاً فكيف بالموطأ ونحوه ، وكان مع حرصه على الاحتجاج في مسائل الخلاف في الفقه إنما عمدته سنن أبي الحسن الدارقطني (٣) ، وأبو

(١) ورواه أبو داود عن القعني والنسائي عن قتيبة ، والترمذي في تفسيرهما عن اسحاق بن موسى عن معن وابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب ، وابن جرير عن روح ابن عباد ، وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الامام مالك بن أنس به . قال الترمذي : وهذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم ، وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جعثم القرشي عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم ابن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ فذكره .

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (إمام الحرمين) من كبار الأشاعرة تتلمذ عليه الغزالي ، ومن أهم كتبه : الشامل في أصول الدين ، الإرشاد ، العقيدة النظامية ، اللمع ، وغير ذلك كثير . توفي عام ٤٧٨ هـ .

راجع شذرات الذهب ٣ : ٣٥٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤١ - ٣٤٣ - الاعلام ٤ : ٢٠٦ .

(٣) هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي أبو الحسن . الدارقطني الشافعي إمام عصره في الحديث ،

الحسن مع تمام إمامته في الحديث فإنه إنما صنف هذه السنن كي يذكر فيها الأحاديث المستغربة في الفقه ويجمع طرقها ، فإنها هي التي يحتاج فيها إلى مثله ، فأما الأحاديث المشهورة في الصحيحين وغيرهما فكان يستغني عنها في ذلك ، فلهذا كان مجرد الاكتفاء بكتابه في هذا الباب يورث جهلاً عظيماً بأصول الإسلام ، واعتبر ذلك بأن كتاب أبي المعالي الذي هو نخبة عمره (نهاية المطلب) في دراية المذهب ليس فيه حديث واحد معزو إلى صحيح البخاري إلا حديث واحد في البسمة ، وليس ذلك الحديث في البخاري كما ذكره ، ولقلة علمه وعلم أمثاله بأصول الإسلام اتفق أصحاب الشافعي على أنه ليس لهم وجه في مذهب الشافعي ، فإذا لم يسوغ أصحابه أن يعتقد بخلافهم في مسألة من فروع الفقه كيف يكون حالهم في غير هذا ، وإذا اتفق أصحابه على أنه لا يجوز أن يتخذ إماماً في أصول الدين مع العلم بأنه إنما نبل قدره عند الخاصة والعامة بتبحره في مذهب الشافعي رضي الله عنه ، لأن مذهب الشافعي مؤسس على الكتاب والسنة وهذا الذي ارتفع به عند المسلمين ، غايته فيه أنه يوجد منه نقل جمعه أو بحث تفتن له ، فلا يجعل إماماً فيه كالأئمة الذين لهم وجوه فكيف بالكلام الذي نص الشافعي وسائر الأئمة على أنه ليس بعد الشرك بالله ذنب أعظم منه ، وقد بينا أن ما جعله أصل دينه في الإرشاد (١) والشامل (٢) وغيرهما هو بعينه من الكلام الذي

= وأول من صنف القراءات وعقد لها أبواباً ، ولد بدار القطن (من أحياء بغداد عام ٣٠٦ هـ ورحل إلى مصر فساعد وزير كافور الأخشيدي على تأليف مسنده ، وعاد إلى بغداد فتوفي بها عام ٣٨٥ هـ من تصانيفه كتاب السنن ، والعلل الواردة في الأحاديث النبوية ، والمؤتلف والمختلف ، والضعفاء وغير ذلك .

راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٣١ ومفتاح السعادة ٢ : ١٤ وتاريخ بغداد ١٢ : ٣٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٨٨ - ٩٠ .

(١) كتاب الإرشاد قام بنشره وتحقيقه الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد .

(٢) كتاب الشامل حقق أخيراً عن طريق الأستاذ الدكتور علي سامي النشار وقامت بطبعه مطبعة المعارف بالاسكندرية .

نصت عليه الأئمة ، ولهذا روى عنه ابن طاهر أنه قال وقت الموت « لقد خضت البحر الخضم وخلت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن إن لم يدركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها أنا أموت على عقيدة أُمي أو عقائد عجائز نيسابور ^(١) » .

(وقال) أبو عبد الله الحسن بن العباس الرستمي حكى لنا الإمام أبو الفتح محمد بن علي الطبري الفقيه . قال : دخلنا على الإمام أبي المعالي الجويني نعوده في مرضه الذي مات فيه بنيسابور فاقعد فقال لنا « اشهدوا على أبي رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح عليهم السلام ، وإنني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور وعامة المتأخرين من أهل الكلام سلخوا خلفه من تلامذته وتلامذة تلامذته وتلامذة تلامذته ومن بعدهم ولقلة علمه بالكتاب والسنة وكلام سلف الأمة يظن أن أكثر الحوادث ليست في الكتاب والسنة والإجماع ما يدل عليها ، وإنما يعلم حكمها بالقياس كما يذكر ذلك في كتبه ، ومن كان له علم بالنصوص ودلالاتها على الأحكام علم أن قول أبي محمد بن حزم ^(٢) وأمثاله أن النصوص تستوعب جميع الحوادث أقرب إلى الصواب من هذا القول ، وإن كان في طريقة هؤلاء من الأعراض عن بعض الأدلة الشرعية ما قد يسمى قياساً جلياً ، وقد يجعل من دلالة اللفظ مثل

(١) راجع هذا النص في كتاب « تلبس إبليس » لابن الجوزي فقد جاء به كاملاً وأيضاً « الملل والنحل » للشهرستاني .

(٢) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد ، عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام ، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه يقال لهم « الحزمية » . ولد بقرطبة عام ٣٨٤ هـ وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزراء وتدير المملكة فزهد فيها وانصرف إلى العلم والتأليف ، فكان من صدور الباحثين فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة بعيداً عن المصانعة وانتقد كثيراً من العلماء والفقهاء من تصانيفه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وله المحل ، وجمهرة أنساب العرب وغير ذلك كثير توفي عام ٤٥٦ هـ

راجع نفح الطيب ١ : ٣٦٤ وآداب اللغة ٣ : ٩٦ وأخبار الحكماء ١٥٦ وإرشاد الأريب ٥ : ٨٦-٩٧ ولسان الميزان ٤ : ١٩٨ .

فحوى الخطاب ، والقياس في معنى الأصل وغير ذلك ، ومثل الجمود على الاستصحاب الضعيف ، ومثل الأعراض عن متابعة أئمة من الصحابة ومن بعدهم ما هو معيب عليهم ، وكذلك القدح في أعراض الأئمة لكن الغرض أن قول هؤلاء في استيعاب النصوص للحوادث وأن الله ورسوله قد بين للناس دينهم هو أقرب إلى العلم والإيمان الذي هو الحق ممن يقول ان الله لم يبين للناس حكماً أكثر مما يحدث لهم الأعمال ، بل وكلهم فيها إلى الظنون المتقابلة والآراء المتعارضة ، ولا ريب أن سبب هذا كله ضعف العلم بالآثار النبوية والآثار السلفية ، وإلا لو كان لأبي المعالي وأمثاله بذلك علم راسخ وكانوا قد عضوا عليه بضرس قاطع لكانوا ملحقين بأئمة المسلمين لما كان فيهم من الاستعداد لأسباب الاجتهاد ، ولكن اتبع أهل الكلام المحدث والرأي الضعيف للظن وما تهوى الأنفس الذي ينقص صاحبه إلى حيث جعله الله مستحقاً لذلك ، وإن كان له من الاجتهاد في تلك الطريقة ما ليس لغيره ، فليس الفضل بكثرة الاجتهاد ولكن بالهدى والسداد كما جاء في الأثر ما ازداد مبتدع اجتهداً إلا ازداد من الله بعداً وقد قال النبي ﷺ في الخوارج « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية » (١)

ويوجد لأهل البدع من أهل القبلة لكثير من الرافضة والقدرية

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء ٦ باب قول الله تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم أعبدوا الله ﴾

٣٣٤٤ - عن سفيان عن أبيه عن ابن أبي نعم عن أبي سعيد - رضي الله عنه قال : بعث علي - رضي الله عنه إلى النبي - ﷺ - بذهبية فقسما بين الأربعة : الأقرع بن حابس ثم المجاشعي ، وعيينة بن بدر الفزاري ، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامري أحد بني كلاب فغضبت قریش والأنصار قالوا : يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا قال : إنما أتألفهم . فأقبل رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناقي الجبين كثر اللحية مخلوق . فقال : اتق الله يا محمد . فقال : من يطع الله إذا عصيت . ؟ إيامني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني وذكره ، ورواه أيضاً في كتاب المناقب ٢٥ ، والمغازي ٦١ .

والجهمية وغيرهم من الاجتهاد ما لا يوجد لأهل السنة في العلم والعمل ، وكذلك لكثير من أهل الكتاب والمشركين ، لكن إنما يراد الحسن من ذلك كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ لِيَلْبِزَكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١) قال أخلصه وأصوبه ، فقيل له : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وأما الشافعي رضي الله عنه فقد روى الأحاديث التي تتعلق بفرض كتابه مثل حدوث النزول وحديث معاوية بن الحكم السلمي الذي فيه قول رسول الله ﷺ للجارية أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » (٢) وقد رواه مسلم في صحيحه ، بل روى في كتابه الكبير الذي اختصر منه مسنده من الحديث ما هو من أبلغ أحاديث الصفات ورواه بإسناد فيه ضعف ، فقال : أخبرنا إبراهيم بن محمد قال : حدثني موسى بن عبيدة حدثني أبو الأزهر معاوية بن اسحاق بن طلحة بن عبيد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول : « أتى جبريل بمرأة بيضاء فيها نكتة إلى النبي ﷺ ،

= ورواه مسلم في كتاب الزكاة ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ وأبو داود في السنة ٢٨ والترمذي في الفتن ٢٤ وابن ماجه في المقدمة ١٢ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٨ ، ٩٢ ، ١٣١ (حلي)

هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي ، أبو علي : شيخ الحرم المكي ، من أكابر العباد الصالحاء ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق منهم الامام الشافعي ولد في سمرقند عام ١٠٥ هـ ودخل الكوفة وهو كسر وأصله منها ثم سكن مكة وتوفي بها عام ١٨٧ هـ من كلامه : من عرف الناس استراح .

راجع طبقات الصوفية ٦ : ١٤ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٢٥

(١) سورة الملك آية رقم ٢ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب المساجد ٣٣ ، وأبو داود في الصلاة ١٦٧ ، وإيمان ١٦ ورواه النسائي في السهو ٢٠ والدارمي في النذور ١٠ وصاحب الموطأ في العتق ٨ ، ٩ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٩١ ، ٣ : ٤٥٢ ، ٤ : ٢٢٢ (حلي) .

فقال النبي ﷺ : ما هذه ؟ قال : « هذه الجمعة ، فضلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له » ^(١) وهو عندنا يوم المزيّد ! قال النبي ﷺ يا جبريل وما يوم المزيّد ؟ قال : إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفيح فيه كتب مسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله عز وجل ما شاء من ملائكته وحوله منابر من نور عليها مقاعد للنبين ، وحفت تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، عليها الشهداء والصديقون ويجلس من ورائهم على تلك الكتب فيقول الله عز وجل لهم أنا ربكم قد صدقتكم وعدي فاسألوني أعطكم ، فيقولون ربنا نسألك رضوانك فيقول : قد رضيت عنكم ، ولكم على ما تمنيتم ولدي مزيّد .

فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من خير وهو اليوم الذي استوى ربكم على العرش فيه ، وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة ^(٢) .

وأما ما رواه الثوري والليث بن سعد وابن جريج والأوزاعي وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة ونحوهم من هذه الأحاديث فلا يحصيه إلا الله ، بل هؤلاء عليهم مدار هذه الأحاديث من جهتهم أخذت وحماد بن سلمة الذي قال إن مالكا احتذى موطأه على كتابه هو قد جمع أحاديث الصفات لما أظهرت الجهمية إنكارها ، حتى أن حديث «خلق آدم على صورته» أو صورة الرحمن قد رواه هؤلاء الأئمة ، رواه الليث بن سعد عن ابن عجلان ورواه سفهان بن عيينة عن أبي الزناد ، ومن طريقه رواه مسلم في صحيحه ، ورواه الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن النبي ﷺ مرسلًا .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الجمعة ٣٧ باب الساعة التي في الجمعة ٩٣٥ - حدثنا عبد الله بن سلمة عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه أيضاً في كتاب الدعوات ٦٢ والامام مسلم في الجمعة ١٣ - ١٦ وأبو داود في الصلاة ٢٠١ ، وابن ماجه في الاقامة ٩٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨٤ (حلي)

ولفظه : « خلق آدم على صورة الرحمن » ^(١) مع أن الأعمش رواه مسنداً ، فإذا كان الأئمة يروون مثل هذا الحديث وأمثاله مرسلأ فكيف يقال إنهم كانوا يمتنعون عن روايتها ؟

والحديث هو في الصحيحين من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة وفي صحيح مسلم من حديث قتادة عن أبي أيوب عن أبي هريرة ، وقد روي عن ابن القاسم قال : سألت مالكا عن من يحدث الحديث « إن الله خلق آدم على صورته » والحديث « إن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة » ^(٢) « وأنه يدخل في النار يده حتى يخرج من أراد » فأنكر ذلك إنكاراً شديداً ونهى أن يتحدث به أحد .

« قلت » هذان الحديثان كان الليث بن سعد يحدث بهما ، فالأول حديث الصورة حدث به عن ابن عجلان ، والثاني هو في حديث أبي سعيد الخدري الطويل وهذا الحديث قد أخرجه في الصحيحين من حديث الليث ،

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الاستئذان ١ باب بدء السلام ٦٢٢٧ حدثنا يحيى بن جعفر حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ قال : وذكره وفيه زيادته (طوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يميونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال : السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه : ورحمة الله . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن ، ورواه مسلم في كتاب البر ١١٥ والجنة ٢٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٤ ، ٢٥١ (حلي)

(٢) الحديث عند البخاري في كتاب التفسير ٢ - باب يوم يكشف عن ساقه ٤٩١٩ - حدثنا آدم ، حدثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد رضي الله عنه - قال : سمعت النبي - ﷺ - وذكره . وفيه زيادة (فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رثاء وسمعه ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً) . ورواية (يكشف ربنا عن ساقه) - وهو من رواية سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم - فأخرجها الإسماعيلي كذلك ثم قال : في قوله : عن ساقه « نكره ، ثم أخرجه من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم - بلفظ « يكشف عن ساق » قال الإسماعيلي هذا أصح لموافقتها لفظ القرآن في الجملة .

والأول قد أخرجاه في الصحيحين من حديث غيره ، وابن القاسم إنما سأل مالكا لأجل تحديث الليث بذلك ، فيقال إما أن يكون ما قاله مالك مخالفاً لما فعله الليث ونحوه أوليس بمخالف ، بل يكره أن يتحدث بذلك لمن يفتنه ذلك ولا يحمله عقله كما قال ابن مسعود : ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » وقد كان مالك يترك رواية أحاديث كثيرة لكونه لا يأخذ بها ولم يتركها غيره ، فله في ذلك مذهب ، فغاية ما يعتذر لمالك أن يقال كره أن يتحدث بذلك حديثاً يفتن المستمع الذي لا يحمل عقله ذلك .

وأما إن قيل أنه كره التحدث بذلك مطلقاً فهذا مردود على من قاله ، فقد حدث بهذه الأحاديث من هم أجل من مالك عند نفسه وعند المسلمين كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وابن عباس وعطاء بن أبي رباح وقد حدث بها نظراؤه كسفيان الثوري والليث بن سعد وابن عيينة ، والثوري أعلم من مالك بالحديث وأحفظه له ، وهو أقل غلطاً فيه من مالك وإن كان مالك ينقى من يحدث عنه ، وأما الليث فقد قال فيه الشافعي كان أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه . ففي الجملة هذا كلام في حديث مخصوص أما أن يقال إن الأئمة أعرضوا عن هذه الأحاديث مطلقاً فهذا بهتان عظيم .

سورة الأنفال

أسباب النزول *

في سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن رسول الله - ﷺ - قال يوم بدر « من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » .

فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان ، فسارعوا الى القتل والغنائم ، فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم ، فإن كنا لكم رداءً ، فأبوا ، فاختصموا الى رسول الله - ﷺ - ، فنزلت سورة « الأنفال » رواه عكرمة عن ابن عباس (١) .

والثاني : أن سعد بن أبي وقاص أصاب سيفاً يوم بدر ، فقال : يا رسول الله هبه لي : فنزلت هذه الآية ، رواه مصعب بن سعد عن أبيه .

(*) هذا من عمل المحقق .

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو العباس . حبر الأمة ، الصحابي الجليل ، ولد بمكة عام ٣ ق هـ ونشأ في بدء عصر النبوة ، فلازم رسول الله - ﷺ - وروى عنه الأحاديث الصحيحة ، وشهد مع علي الجمل ، وصفين ، وكف بصره في آخره عمره فسكن الطائف وتوفي بها عام ٦٨ هـ ، له في الصحيحين ١٦٦٠ حديثاً قال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

راجع الاصابة ت ٤٧٧٣ وصفة الصفوة ١ : ٣١٤ وحلية ١ : ٣١٤ وتاريخ الخميس ١ : ١٦٧ ونكت الميمان ١٨٠ .

وفي رواية أخرى عن سعد قال : قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه
فأتيت رسول الله - ﷺ - فقال : « اذهب فاطرحه في القبض » فرجعت ، وبني
ما لا يعلمه إلا الله ، فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت « سورة الأنفال » فقال :
« اذهب فخذ سيفك » وقال السدي : اختصم سعد وناس آخرون في ذلك
السيف ، فسألوا النبي - ﷺ - فأخذه النبي - ﷺ - منهم فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن الأنفال كانت خالصة لرسول الله - ﷺ - ليس لأحد منها
شيء فسألوه أن يعطيهم منها شيئاً فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن
ابن عباس .

فصل

وقال شيخ الإسلام :

قال سبحانه في قصة بذر ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ (١) فوعدهم بالإمداد بألف وعداً مطلقاً وأخبر أنه جعل إمداد الألف بشرى ولم يقيده ، وقال في قصة أحد : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٢) فإن هذا أظن فيه قولين :

(١) سورة الأنفال آية رقم ٩ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٢٤ - ١٢٥ .

قال ابن قتيبة : ومعنى مسومين : معلمين بعلامة الحرب ، وهو من السيء مأخوذ ، والسومة العلامة التي يعلم بها الفارس نفسه . قال علي - رضي الله عنه - وكان سيء خيل الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض في أذنائها ونواصيها . وقال أبو هريرة : المعن الأحمر ، وقال مجاهد : كانت أذنان خيولهم مجزورة وفيها المعن ، وقال هشام بن عروة كانت الملائكة على خيل بلق ، وعليهم عمائم صفر ، وروى ابن عباس عن رجل من بني غفار قال : حضرت أنا وابن عم لي بدرأ ، ونحن على شركتنا فأقبلت سحابة ، فلما دنت من الخيل سمعنا فيها حممة الخيل ، وسمعنا فارساً يقول : أقدم حيزوم ، فأما صاحبي فمات مكانه ، وأما أنا فكنت أهلك ثم انتعشت .
رواه ابن هشام في السيرة ١ : ٦٣٣ ورواه ابن جرير في التفسير .

« أحدهما » أنه متعلق بأحد؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (١) الآية ، ولأنه وعد مقيد ، وقوله فيه : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ (٢) يقتضي خصوص البشـرى بهم .

وأما قصة بدر فإن البشـرى بها عامة فيكون هذا كالدليل على ما روي من أن ألف بدر باقية في الأمة ، فإنه أطلق الإمداد والبشـرى وقدم ﴿ به ﴾ على ﴿ لكم ﴾ عناية بالألف ، وفي أحد كانت العناية بهم لو صبروا فلم يوجد الشرط .

والمراد من قوله « أحدهما » أنه متعلق بأحد؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ، ولأنه وعد مقيد ، وقوله فيه : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ يقتضي خصوص البشـرى بهم .

وأما قصة بدر فإن البشـرى بها عامة فيكون هذا كالدليل على ما روي من أن ألف بدر باقية في الأمة ، فإنه أطلق الإمداد والبشـرى وقدم ﴿ به ﴾ على ﴿ لكم ﴾ عناية بالألف ، وفي أحد كانت العناية بهم لو صبروا فلم يوجد الشرط .

(١) سورة آل عمران ١٢٧ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٢٦ .

فصل

وقال رحمه الله :

في قوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ ^(١) الآية ثلاثة أقوال :

« أحدها » أنه مبني على أن الفعل المتولد ليس من فعل الأدمي بل من فعل الله والقتل هو الإزهاق ، وذاك متولد ، وهذا قد يقوله من ينفي التولد وهو ضعيف ؛ لأنه نفى الرمي أيضاً ، وهو فعل مباشر ولأنه قال ﴿ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ﴾ ^(٣) فأثبت القتل ولأن القتل هو الفعل الصالح للإزهاق ليس هو الزهوق ؛ بخلاف الإمامة .

« الثاني » أنه مبني على خلق الأفعال ، وهذا قد يقوله كثير من

(١) سورة الأنفال آية رقم ١٧ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٩٣ روى النسائي : أخبرنا الحسن بن اسحاق المروزي . ثقة قال : حدثني خالد بن خدّاش ، قال : حدثنا حاتم بن اسحاق عن بشير بن المهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال قال رسول الله ﷺ - قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا وروى عن عبد الله بن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ - أول ما يحاسب به العبد الصلاة ، وأول ما يقضي بين الناس في الدماء ، وروى إسماعيل بن اسحاق عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه سأله سائل فقال : يا أبا العباس ، هل للقاتل توبة . ؟ فقال له ابن عباس كالتعجب من مسأله : ماذا تقول . ؟ مرتين أو ثلاثاً ثم قال ابن عباس : ويحك أتى له توبة . .

الصوفية ، وأظنه مأثوراً عن الجنيد سلب العبد الفعل نظراً إلى الحقيقة ، لأن الله هو خالق كل صانع وصنعتة ، وهذا ضعيف لوجهين :

« أحدهما » أنه وقد قلنا بخلق الفعل فالعبد لا يسلبه ، بل يضاف الفعل إليه أيضاً ، فلا يقال ما آمنت ولا صليت ، ولا صمت ، ولا صدقت ، ولا علمت ، فإن هذا مكابرة ؛ إذ أقل أحواله الإنصاف وهو ثابت .

وأيضاً فإن هذا لم يأت في شيء من الأفعال المأمور بها إلا في القتل والرمي ببدر ، ولو كان هذا العموم خلق الله أفعال العباد لم يختص ببدر .

« الثالث » أن الله سبحانه خرق العادة في ذلك ، فصارت رؤوس المشركين تطير قبل وصول السلاح إليها بالإشارة ، وصارت الجريدة تصير سيفاً يقتل به .

وكذلك رمية رسول الله ﷺ أصابت من لم يكن في قدرته أن يصيبه ، فكان ما وجد من القتل وإصابة الرمية خارجاً عن قدرتهم المعهودة ، فسلبوه لانتفاء قدرتهم عليه ، وهذا أصح ، وبه يصح الجمع بين النفي والإثبات ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ أي ما أصبت ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ إذ طرحت ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ^(١)

(١) سورة الأنفال آية رقم ١٧ .

في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال . أحدها : أن النبي - ﷺ - قال لعلي : ناولني من حصاء فناوله ، فرمى به في وجهه القوم فما بقي منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة . وقيل أخذ قبضة من تراب فرمى بها وقال : شأنت الوجوه « فما بقي مشرك إلا شغل بعينه يعالج التراب الذي فيها ، فنزلت .

الثاني : أن أبي بن خلف أقبل يوم أحد إلى النبي - ﷺ - يريد فاعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله ، وطعنه النبي - ﷺ - بحرته ، فسقط أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه وهو يجور خوار الثور ، فقالوا إنما هو خدش ، فقال : والذي نفسي بيده ، لو كان الذي بي بأهل الحجاز لما أتوا جميعاً . فمات قبل أن يقدم مكة . فنزلت هذه الآية .

الثالث : أن رسول الله - ﷺ - رمى يوم خيبر بسهم فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي حقيق وهو على فراشه . فنزلت هذه الآية ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين .

أصاب .

وهكذا كل ما فعله الله من الأفعال الخارجة عن القدرة المعتادة بسبب
ضعيف ، كاتباع الماء وغيره من خوارق العادات ، أو الأمور الخارجة عن قدرة
الفاعل ، وهذا ظاهر ، فلا حجة فيه لا على الجبر ولا على نفي التولد .

فصل

وقال رحمه الله :

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ^(١) والكلام عليها من وجهين :

« أحدهما » في الاستغفار الدافع للعذاب .

و« الثاني » في العذاب المدفوع بالاستغفار

أما « الأول » : فإن العذاب إنما يكون على الذنوب ، والاستغفار
يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب فيندفع العذاب كما قال تعالى :
﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْآيَاتُ أَنْ يَقُولَ لَإِبْرَاهِيمَ اخْبِرْ بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّكَ مُبْرَأٌ مِّنْ آلِ هَارَانَ وَمَا يَكْفُرُ بِهِمْ آلُ هَارَانَ أَغْلَبٌ ﴾
الله إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ ، وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ
مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٢﴾

فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ،
ثم إن كان لهم فضل أوتوا الفضل .

وقال تعالى عن نوح : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ
وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى قوله

(١) سورة الأنفال آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ١ - ٣ .

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ^(١)
 الآية . وقال تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
 عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ ^(٢) وذلك أنه قال تعالى : ﴿ وَمَا
 أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ^(٣) وقال تعالى :
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
 كَسَبُوا ﴾ ^(٤)

وقال تعالى : ﴿ أَوْ لِمَا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟
 قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٥)

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(٦) وقال تعالى :
 ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(٧)

وأما العذاب المدفوع فهو يعم العذاب السماوي ، ويعم ما يكون من
 العباد ، وذلك أن الجميع قد سماه الله عذاباً ، كما قال تعالى في النوع
 الثاني : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ
 أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ ^(٨) وقال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
 وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٩) وكذلك : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى

(١) سورة نوح آية رقم ٢ - ١١

(٢) سورة هود آية رقم ٥٢ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٥٥ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

(٦) سورة الروم آية رقم ٣٦ .

(٧) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ٤٩ .

(٩) سورة التوبة آية رقم ١٤ .

الْحُسْنَيْنِ ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴿١﴾ إِذْ التَّقْدِيرُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِعَذَابٍ بِأَيْدِينَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ (٢) .

وعلى هذا فيكون العذاب بفعل العباد ، وقد يقال : التقدير ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ (٣) أَوْ يُصِيبُكُمْ بِأَيْدِينَا ؛ لَكِنِ الْأَوَّلُ هُوَ الْأَوْجَهُ ؛ لِأَنَّ الْإِصَابَةَ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لَا تَدُلُّ عَلَى إِهْنَاءِ إِصَابَةٍ بِسُوءٍ ؛ إِذْ قَدْ يُقَالُ : أَصَابَهُ بِخَيْرٍ وَأَصَابَهُ بِشَرٍّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يُرْذَكْ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٤) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ (٦) وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَفِظُ الْإِصَابَةِ يَدُلُّ عَلَى الْإِصَابَةِ بِالْشَرِّ لَا كُنْتُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ ﴾ .

وقد قال تعالى أيضاً : ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟! مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٧)

(١) سورة التوبة آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٤ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٥) سورة الروم آية رقم ٤٨ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٥٦ .

(٧) سورة النساء آية رقم ٧٨-٧٩ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ رَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنِ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ ^(٢) ومن ذلك أنه يقال في بلال ونحوه : كانوا من المعذبين في الله ويقال : إن أبا بكر اشترى سبعة من المعذبين في الله . وقال ﷺ : (السفر قطعة من العذاب) ^(٣) .

وإذا كان ذلك كذلك فقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ^(٤) مع ما قد ثبت في الصحيحين عن جابر عن النبي ﷺ : أنه لما نزل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك : ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : هاتان أهون ^(٥) يقتضي أن لبسنا شيْعًا وإذاقة بعضنا بأْس بعض هو من العذاب الذي يندفع بالاستغفار كما قال : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ^(٦) وإنما نتقي الفتنة بالاستغفار من الذنوب والعمل الصالح وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ ^(٧) قد يكون العذاب من

(١) سورة النور آية رقم ٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٥ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب العمرة ١٩ باب السفر قطعة من العذاب ١٨٠٤ - حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا مالك عن سمي عن أبي صالح ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : وذكره . وفيه يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله . » ورواه أيضاً في كتاب الجهاد ١٣٦ والأطعمة ٣٠ ورواه مسلم في الامارة ١٧٩ والدارمي في الاستئذان ٤٠ وصاحب الموطأ في الاستئذان ٣٩ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٦ ، ٤٤٥ ، ٤٩٦ .

(٤) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٣٩ .

(٧) سبق تخريج هذا الحديث .

عنده ، وقد يكون بأيدي العباد ، فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يتلهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع ؛ فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض .

وكذلك قوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١)

يدخل في العذاب الأدنى ما يكون بأيدي العباد ، كما قد فسر بوقعة بدر بعض ما وعد الله به المشركين من العذاب .

(١) سورة السجدة آية رقم ٢١ .

سورة التوبة

فصل

سئل شيخ الاسلام رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (١) فسماء هنا كلام الله ، وقال في مكان آخر ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (٢) فما معنى ذلك ؟ فإن طائفة ممن يقول بالعبارة يدعون أن هذا حجة لهم ، ثم يقولون : أنتم تعتقدون أن موسى - صلوات الله عليه - سمع كلام الله عز وجل حقيقة من الله من غير واسطة ، وتقولون : إن الذي تسمعون كلام الله حقيقة ، وتسمعون من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين هذا وهذا ؟ وتقولون : إن القرآن صفة لله تعالى وأن صفات الله تعالى قديمة ، فإن قلتم أن هذا نفس كلام الله تعالى فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وإن قلتم : غير ذلك قلتم بمقالتنا ، ونحن نطلب منكم في ذلك جواباً نعتمد عليه إن شاء الله تعالى : فأجاب : الحمد لله رب العالمين ، هذه الآية حق كما ذكر الله ، وليست إحدى الآيتين معارضة

(١) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٢) سورة التكوين آية رقم ١٩ هذا جواب القسم ، والرسول الكريم جبريل ، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والمعنى إنه لقول رسول عن الله « كريم » على الله ، وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام ثم عداه عنه بقوله : تنزيل من رب العالمين ، ليعلم أهل التحقيق في التصديق . أن الكلام لله عز وجل . وقيل : هو محمد عليه الصلاة والسلام (ذي القوة) من جعله جبريل فقوته ظاهرة ، فروى الضحاك عن ابن عباس قال من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه .

للأخرى بوجه من الوجوه ، ولا في واحدة منهما حجة لقول باطل ، وإن كان كل من الآيتين قد يحتج بها بعض الناس على قول باطل ، وذلك أن قوله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ فيه دلالة على أنه يسمع كلام الله من التالي المبلغ وأن ما يقرأه المسلمون هو كلام الله ، كما في حديث جابر في السنن : « ان النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي » ^(١) وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم : ﴿ أَلَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ^(٢) قالوا له : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي : ولكنه كلام الله .

وقد قال تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ، وَبَيْنَ شُهُودًا ، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ، سَأَرَهْقُهُ صُعُودًا ، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ^(٣) فمن قال : إن هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهياً لقول الوحيد الذي أصلاه الله صقر ، ومن المعلوم لعامة العقلاء

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الروم آية رقم ١ - ٣ .

(٣) سورة المدثر الآيات من ١١ - ٢٥ .

وعنيداً أي معانداً للنبي ﷺ - وما جاء به ، يقال : عاند فهو عنيد مثل جالس فهو جليس ، قاله مجاهد . وعند يعند بالكسر أي خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عنيد وعاند ، والعاوند : البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد والجمع عند مثل راعع وركع ، وأنشد أبو عبيدة قول الحارثي :

إذا ركبت فاجعلاني وسطاً إنني كبير لا أطيق العُنْدَا
وقال أبو صالح : « عنيداً » معناه مباعداً قال الشاعر :

أرانا على حال تفرق بيننا نوى غربه إن الفراق عنود

أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي ﷺ « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى » . إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا : هذا حديث رسول الله ﷺ ، وهذا كلام رسول الله ﷺ ، ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئاً منشئاً : لا لمن أداه راوياً مبلغاً ، فإذا كان مثل هذا معلوماً في تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل في تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى أن لا يجعل كلاماً لغير الخالق جل وعلا .

وقد أخبر تعالى بأنه منزل منه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ حَمَّ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٢) ﴿ حَمَّ تَنْزِيلٍ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ^(٣) فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به الى رسول الله ﷺ من البشر ، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ، وكلاهما مبلغ له كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(٤) وقال ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٥) وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء ، كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتالين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئاً من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ^(٦) إلى قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ - وَاللَّهُ

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ١ - ٢ .

(٣) سورة الجاثية آية رقم ١ - ٢ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٦٧ .

(٥) سورة الجن آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

(٦) سورة النحل آية رقم ٩٨ .

روى جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ - حين افتتح الصلاة قال : اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه » وروى سعيد بن جبير - أن النبي ﷺ - كان =

أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ - قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿ ١ 〉 .

كان بعض المشركين يزعم أن النبي ﷺ تعلمه من بغض الأعاجم الذين بمكة إما عبد الله بن الحضرمي (٢) وإما غيره ، كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى ﴿ لسان الذي يلحدون إليه ﴾ - أي يضيفون إليه التعليم لسان - ﴿ أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ فكيف يتصور أن يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي ؟ وقد أخبر أنه نزل به روح القدس من ربك بالحق ، فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه . إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه ، وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على أن القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه .

ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي ﷺ أو غيره من الناس ، أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول لبيد (٣) :

يتعوذ في صلاته قبل القراءة ، قال الكيا الطبري : ونقل عن بعض السلف التعوذ بعد القراءة مطلقاً احتجاجاً بقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾

(١) سورة النحل آية رقم ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) اختلف المفسرون في ذلك اختلافاً بيناً فهو غلام الفاكهة بن المغيرة واسمه جبر وهو أعجمي ، وهو مرة جبر النصراني وقال عكرمة اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي كان رسول الله يلقنه القرآن ذكره الماوردي . وذكر الثعلبي عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية ، وعن المهدي عن عكرمة - غلام لبني عامر بن لؤي واسمه يعيش ، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كذا ذكر الماوردي والثعلبي إلا أن الثعلبي قال :

يقال لأحدهما نبت ويكنى أبا فكيهة والآخر جبر ، وكان صيقلين يعملان السيوف والله أعلم .

(٣) هو لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري ، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية =

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مشوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
أو قوله :-

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهذا الشعر قاله منشؤه لفظه ومعناه ، وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه ، ثم إذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم أنه شعر ذلك المنشئ وكلامه ونظمه وقوله ، مع أن هذا التالي أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه . وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول ، وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشئ ، والشعر شعر المنشئ لا شعر المنشد - والمحدث عن النبي ﷺ إذا روى قوله « إنما الأعمال بالنيات » بلغه بحركته وصوته ، مع أن النبي ﷺ تكلم به بحركته وصوته ، وليس صوت المبلغ صوت النبي ﷺ ولا حركته كحركته ، والكلام كلام رسول الله ﷺ لا كلام المبلغ له عنه .

فإذا كان هذا معلوماً معقولاً فكيف لا يعقل أن يكون ما يقرأ القارئ إذا

= من أهل عالية نجد أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ وكان من المؤلفات قلوبهم - وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً قيل هو :

ما عاتب المرء الكريم كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح
وسكن الكوفة ، وعاش عمراً طويلاً وهو أحد أصحاب المعلقات له ديوان صغير توفي عام

٤١ هـ

راجع خزائن الأدب للبغدادي ١ : ٣٣٧ - ٣٣٩ ومطالع البدور ١ : ٥٢ والشعر والشعراء ٢٣١ -

٢٤٣ .

قرأ ﴿ الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾ أن يقال هذا الكلام كلام الباري وإن كان الصوت صوت القاريء . فمن ظن أن الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتر مخالف لصريح المعقول ، وصحيح المنقول ، قائل قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ! بل قد أنكر الإمام أحمد وغيره على من قال : لفظي بالقرآن مخلوق (١) . وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف ، فكيف من قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم ؟ فابتداع هذا وضلاله أوضح . فمن قال : إن لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته ، أو فعله أو شيئاً من ذلك فهو ضال مبتدع .

وهؤلاء قد يحتجون بقوله : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ويقولون هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، فهذا غير مخلوق ، ونحن لا نسمع إلا صوت القاريء ، وهذا جهل منهم ، فإن سماع كلام الله ، بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة ويكون بواسطة الرسول المبلغ له قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَبِشْرُ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيّاً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢)

ومن قال : إن الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران أو أنا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلاً وضلالاً .

ولو قال قائل : إنا نسمع كلام النبي - ﷺ - كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحاً فكيف من يقول أنا أسمع كلام الله منه كما سمعه

(١) راجع ما كتبه الإمام البخاري بشأن هذه القضية في كتابه : خلق أفعال العباد . ومقدمة هذا الكتاب بتحقيقنا - طبعة . دار عكاظ « المملكة العربية السعودية » عام ١٩٨٠ م .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥١ هذه الآية تدل على مقامات الوحي بالنسبة الى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي - ﷺ - شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل كما جاء في الصحيح لابن حبان أن رسول الله - ﷺ - قال : إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ، وقوله تعالى أو من وراء حجاب كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام .

موسى ؟ وإن كان الله كلم موسى تكليماً بصوت سمعه موسى ، فليس صوت المخلوقين صوتاً للخالق . وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والأرض صوته كجر السلسلة على الصفا ، وأمثال ذلك كما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها أن صفة المخلوق هي صفة الخالق ، بل ولا مثلها ، بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق ، وبين صفة المخلوق ، فليس كلامه مثل كلامه ولا معناه مثل معناه ، ولا حرفه مثل حرفه ، ولا صوته مثل صوته ، كما أنه ليس علمه مثل علمه ، ولا قدرته مثل قدرته ، ولا سمعه مثل سمعه ، ولا بصره مثل بصره . فإن الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله . ولما استقر في فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع كلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه أوضح من أن يحتاج إلى الاطناب .

وقد بين أئمة السلف والسنة والعلم - كالإمام أحمد ، والبخاري صاحب الصحيح في كتابه « خلق أفعال العباد »^(١) وغيرهما من أئمة السنة من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره ما لا يخالفهم فيه أحد من العلماء أهل العقل والدين .

(١) هذا الكتاب قمنا بتحقيقه وتخريج أحاديثه وكتبنا مقدمة وافية له وقامت بطبعه : دار اللواء بالرياض ، ثم دار عكاظ بجدة بالملكة العربية السعودية . وطبع ضمن مجموعة (عقائد السلف) بتحقيق الأستاذ علي سامي النشارط منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٥ م .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فهذا فقد ذكره في موضعين . فقال في الحاقة : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴾ (١) فالرسول هنا محمد ﷺ ، وقال في التكوين : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ ، عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ (٢) فالرسول هنا جبريل فأضافه إلى الرسول من البشر تارة ، وإلى الرسول من الملائكة تارة ، باسم الرسول ولم يقل : إنه لقول ملك ولا نبي ، لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ عن غيره ، لا منشئ له من عنده ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) فكان قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ بمنزلة قوله لتبليغ رسول ، أو مبلغ من رسول كريم ، أو جاء به رسول كريم ، أو مسموع عن رسول كريم ؛ وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئاً منه أو أحدثه رسول كريم ، إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولاً فيما أنشأه وأبتدأه وإنما يكون رسولاً فيما بلغه وأداه ، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقاً .

(١) سورة الحاقة آية رقم ٤٠ - ٤٢ .

(٢) سورة التكوين آية رقم ١٩ - ٢٣ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ١٨ وصدر الآية ﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

و (أيضاً) فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها ، فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول لأجل احداث لفظه ونظمه ، ولو جاز أن تكون الإضافة هنا لأجل احداث الرسول له أو لشيء منه لجاز أن نقول إنه قول البشر ، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سفر .

فإن قال قائل : فالوحيد جعل الجميع قول البشر ، ونحن نقول أن الكلام العربي قول البشر ، وأما معناه فهو كلام الله .

فيقال لهم : هذا نصف قول الوحيد ، ثم هذا باطل من وجوه أخرى .
وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة ، وأنتم تجعلون ذلك المعنى واحداً ، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وتجعلون ذلك المعنى إذا عُبِّرَ عنه بالعربية كان قرآناً ، وإذا عُبِّرَ عنه بالعبرانية كان تورا ، وإذا عُبِّرَ عنه بالسريانية كان انجيلاً وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين ؛ فإن التوراة إذا عربناها ، لم يكن معناها معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة .

و (أيضاً) فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين ، وإغما يشتركان في مسمى الكلام ، ومسمى كلام الله ، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع ، فهذا الكلام ، وهذا الكلام ، وهذا الكلام كله يشترك في أنه كلام الله اشتراك الأشخاص في أنواعها ، كما أن (هذا) الانسان وهذا الانسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان وليس في الخارج شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا ، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والانجيل والقرآن ، وهو معنى آية الدين وآية الكرسي .

ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال : إن أصوات العباد وأفعالهم قديمة أزلية ، فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلهما ، والزم الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

والشهداء والصالحين .

وبسبب هاتين البدعتين الحمقاويين ثارت الفتن وعظمت الإلحاح ، وإن كان من أصحاب القولين قد يفسرونها بما قد يلتبس على كثير من الناس كما فسّر من قال : إن الصوت المسموع من العبد أو بعضه قديم ! (و) أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه .

وأما « أفعال العباد » فرأيت بعض المتأخرين يزعم أنها قديمة خيرها وشرها ، وفسّر ذلك بأن الشرع قديم ، والقدر قديم وهي مشروعة مقدرة ، ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله ، والمشروع الذي هو المأمور به والنهي عنه ، ولم يفرق بين القدر الذي هو علم الله وكلامه ، وبين المقدور الذي هو مخلوقاته ، والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطرار أن الأمر والخبر نوعان للكلام لفظه ومعناه ، ليس الأمر والخبر صفات لموصوف واحد - فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواعاً له فقد خالف ضرورة العقل ؛ وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم أن الوجود واحد ؛ إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين ؛ فإن انقسام « الموجود » إلى القديم ، والمحدث ، والواجب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والقائم بنفسه والقائم بغيره ، كانقسام « الكلام » إلى الأمر والخبر ، أو إلى الإنشاء والإخبار ، أو إلى الأمر والنهي والخير - ، فمن قال الكلام معنى واحد هو الأمر والخبر فهو كمن قال : الوجود واحد هو الخالق والمخلوق ، أو الواجب والممكن . وكما أن حقيقة هذا تؤول إلى تعطيل الخالق ، فحقيقة هذا تؤول إلى تعطيل كلامه وتكليمه .

وهذا حقيقة قول فرعون الذي أنكر الخالق وتكليمه لموسى ؛ ولهذا آل الأمر بمحقق هؤلاء^(١) إلى تعظيم فرعون وتوليّه وتصديقه في قوله : ﴿ أنا ربكم

(١) يشير بذلك الامام ابن تيمية الى قول ابن عربي بايمان فرعون في كتابه فصوص الحكم ، وانظر موقف ابن تيمية بالتفصيل في مجموعة الرسائل والمسائل (رسالة في حقيقة قول الاتحادية . ورسالة في الرد على ابن عربي في قوله بايمان فرعون) .

الأعلى ﴿ بل إلى تعظيمه على موسى وإلى الإستحقاق بتكليم الله لموسى كما قد بسط في غير هذا الموضع .

(وأيضاً) فيقال : ما تقول في كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره - كما قد ينقل كلام النبي ﷺ والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة أو المبلغين - أن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ أو كلام المبلغ عنه ؟ .

فإن قال : كلام المبلغ لزم أن يكون القرآن كلاماً من سمع منه ، فيكون القرآن المسموع كلام ألف ألف قارئ لا كلام الله تعالى ، وأن يكون قوله : « إنما الأعمال بالنيات » ونظائر ، كلام كل من رواه لا كلام الرسول ، وحينئذ فلا فضيلة للقرآن في : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فإنه على قول هؤلاء قبول كل منافق قرأه ، والقرآن يقرأه المؤمن والمنافق كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها »^(١) . وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد بل قول ألف ألف بشر وأكثر من ذلك ، وفساد

(١) الحديث لابن ماجه في كتاب الزهد ٢٦ باب النية ٤٢٢٧ أنبأنا الليث بن سعد قال أنبأنا يحيى بن سعيد أن محمد بن ابراهيم التيمي أخبره أنه سمع علقمة بن وقاص أنه سمع عمر بن الخطاب - وهو يخاطب الناس فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول وذكره وفيه زيادة (ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله وإلى رسوله فهجرته الى الله وإلى رسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه) .

ورواه الامام البخاري في بدء الوحي ١ وإيمان ٤١ والنكاح ٥ والطلاق ١١ ومناقب الأنصار ٤٥ والعنق ٦ والحيل ١ ورواه الامام مسلم في اماره ١٥٥ وأبو داود في الطلاق ١١ والامام الترمذي في فضائل الجهاد ١٦ والطهارة ٥٩ والطلاق ٢٤ وإيمان ١٩ واحمد بن حنبل في المسند ١: ٢٥ ، ٥٣ (حلي) .

هذا في العقل والدين واضح .

وإن قال : كلام المبلغ عنه علم أن الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله ، ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال إنه شيطان بين الله أنه تبليغ ملك كريم ؛ لا تبليغ شيطان رجيم ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ (١) .

وبيّن في هذه الآية ، أن الرسول البشري ، الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون ، وما هو على الغيب بمتهم وذكره باسم « صاحب » لما في ذلك من النعمة به علينا إذ كنا لانطبق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ، وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (٣) كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (٤) وبيّن أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي انهما مبلغان فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله .

فلما كان الرسول البشري يقال : إنه مجنون أو مُفْتَرٍ نَزَّهه عن هذا وهذا ، وكذلك في السورة الأخرى قال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) وهذا مما يبيّن أنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه ، فإنه قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (٦) فجمع بين

(١) سورة التكويد الآيات رقم ١٩ - ٢٥ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢٨ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩ .

(٤) سورة النجم آية رقم ١ - ٢ .

(٥) سورة الحاقة آية رقم ٤٠ - ٤٣ .

(٦) سورة الشعراء آية رقم ١٩٢ - ١٩٣ .

قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ والضميران عائدان إلى واحد ، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلاً من رب العالمين ، بل كان يكون تنزيلاً من الرسول ، ومن جعل الضمير في هذا عائداً إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع أنه ليس في الكلام ما يقتضي اختلاف الضميرين ، ومن قال إن هذه عبارة عن كلام الله - فقل له : هذا الذي تقرأه أهو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك ؟ - أم هو نفس تلك العبارة ؟ . فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله ، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً ؛ فإنه متى قال ان محمداً سمعه من جبريل جميعه ، وجبريل سمعه من الله جميعه ، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه فقد قال الحق - وبعد هذا فقلوه عبارة لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه كما سنبينه .

وإن قلت : ليس هذا عبارة عن تلك العبارة ، بل هو نفس تلك العبارة ، فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل فحينئذ هذا يبطل أصل قولك .

واعلم أن أصل القول بالعبارة « أن أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاب »^(١) هو أول من قال في الاسلام : ان معنى القرآن كلام الله وحروفه ليست كلام الله ، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة ، وكان قد ذهب إلى اثبات الصفات لله تعالى ، وخالف المعتزلة في ذلك ، وأثبت العلو لله على العرش ومبايئته المخلوقات ، وقرر ذلك تقريراً هو أكمل من تقرير أتباعه بعده ، وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره ، هل يقال له حكاية

(١) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) توفي بعد سنة ٢٤٠ بقليل ، وأشار ابن تيمية في مواضع إلى أنه شيخ للأشاعرة ، كما أشار إلى ذلك ابن حزم : أنظر عنه : لسان الميزان ٣/ ٢٩٠ - ٢٩١ ، طبقات الشافعية ٥١/ ٢ مقالات الاسلاميين ٣٢٥/ ١ ، الخطط للمقرئزي ٣٥٨/ ٢ ، نهاية الأقدام ١٨١ ، الملل والنحل ١/ ٥٨٥ ، البدء والتاريخ ١٥٠/ ٥ .

عنه أم لا ؟ . واكثر المعتزلة قالوا : هو حكاية عنه ، فقال ابن كُلاب : القرآن العربي حكاية عن كلام الله ؛ ليس بكلام الله .

فجاء بعده « أبو الحسن الأشعري »^(١) فسلك مسلكه في اثبات اكثر الصفات وفي مسألة القرآن أيضاً ، واستدرك عليه قوله إن هذا حكاية ، وقال : الحكاية إنما تكون مثل المحكى فهذا يناسب قول المعتزلة ؛ وإنما يناسب قولنا أن نقول هو عبارة عن كلام الله ؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة ، فأنكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور .

« أحدهما » قولهم : ان المعنى كلام الله ، وان القرآن العربي ليس كلام الله ، وكانت المعتزلة تقول : هو كلام الله وهو مخلوق ، فقال هؤلاء : هو مخلوق وليس بكلام الله ؛ لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك « الحركة » . وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية في قولهم : إن كلام الله مخلوق خلقه في بعض الأجسام - قالوا لهم لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه ، فكانت الشجرة هي القائلة : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

فقال أئمة الكُلائية : إذا كان القرآن العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله ، فقال طائفة من متأخريهم : بل نقول : الكلام مقول بالإشتراك بين المعنى المجرد

(١) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق أبو الحسن من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري توفي عام ٣٢٤ هـ .

وراجع طبقات الشافعية ٢: ٢٤٥ والمقريزي ٢: ٣٥٩ وابن خلكان ١: ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١: ١٨٧ ودائرة المعارف الاسلامية ٢: ٢١٨ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٣٠ وصدر الآية ﴿ فلما آتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى ﴾ .

وبين الحروف المنظومة ، فقال لهم المحققون : فهذا يطل أصل حجتكم على المعتزلة : فإنكم إذا سلّمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره أمكن المعتزلة أن يقولوا ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره .

« الثاني » قولهم : إن ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر وهو معنى التوراة ، والانجيل والقرآن ، وقال أكثر العقلاء : هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل .

« الثالث » أن ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله ، و « مسألة القرآن » لها طرفان (أحدهما) تكلم الله به وهو أعظم الطرفين (والثاني) تنزيله إلى خلقه ؛ والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول ، وقد بسطنا الكلام في ذلك في عدة مواضع ، وبيننا مقالات أهل الأرض كلهم في هذه المسائل ، وما دخل في ذلك من الاشتباه ، وماخذ كل طائفة ، ومعنى قول السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق وأنهم قصدوا به إبطال قول من يقول : إن الله لم يقم بذاته كلام ؛ ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس ببائن عنه ، وذكرنا اختلاف المتسبين إلى السنة هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وقول من قال من أئمة السنة لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا به أنه فارق ذاته وحل في غيره ؛ فإن كلام المخلوق ، بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنقل إلى غيره فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته ؟! بل قالوا : منه بدأ . أي : هو المتكلم به ردّاً على المعتزلة والجهمية وغيرهم الذين قالوا : بدأ من المخلوق الذي خلق فيه ، وقولهم : إليه يعود . أي : يسري عليه فلا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في الصدور منه آية .

والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل .

فصل

وأما قول القائل : أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة ، وتقولون ان الذي تسمعون كلام الله حقيقة وتسمعون منه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك ؟ .

فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق . فإن كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبي ﷺ منه بغير واسطة - كسماع الصحابة منه - وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة^(١) وأبي سعيد^(٢) وابن عمر^(٣) وابن عباس^(٤) ، وكل من السامعين سمع كلام النبي ﷺ حقيقة ، وكذلك من

(١) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي الملقب بأبي هريرة: صحابي كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له . نشأ يتيماً ضعيفاً في الجاهلية وقدم المدينة ورسول الله ﷺ بخير فأسلم سنة ٧ هـ ولزم صحبة النبي - فروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً نقلها عن أبي هريرة أكثر من ٨٠٠ رجل بين صحابي وتابعي وولي أمر المدينة مدة ولما صارت الخلافة الى عمر استعمله على البحرين توفي عام ٥٩ هـ . راجع الإصابة الكنى ت ١١٧٩ وصفة الصفوة ١: ٢٨٥ وحلية الأولياء ١: ٣٧٦ .

(٢) سبق الترجمة له .

(٣) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عبد الرحمن : صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية كان جريئاً جهرأ نشأ في الاسلام وهاجر الى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة ومولده ١٠ ق هـ بمكة أفق الناس في الاسلام ستين سنة ولما قتل عثمان عرض عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى وغزا افريقيا مرتين توفي عام ٧٣ هـ .

راجع الاصابة ٤٨٢٥ وتهذيب الأسماء ١: ٢٧٨ وطبقات ابن سعد ٤: ١٠٥ - ١٣٨ وحلية ١: ٢٩٢ وصفة الصفوة ١: ٢٢٨ .

(٤) سبق الترجمة له في الجزء الثاني .

سمع شعر حسان^(١) بن ثابت أو عبد الله بن رواحة^(٢) أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا ، وهو في الموضعين شعر حسان لا شعر غيره ، والإنسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم أن ذلك الشاعر أنشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة وإن كان المبلغ يرويّه بحركة نفسه وأصوات نفسه .

فإذا كان هذا الفرق معقولاً في كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه فكيف لا يعقل ذلك في سماع كلام الله وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب فهو إلى تأديب المجانين أقرب منه إلى خطاب العقلاء ، وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو أن المداد قديم فهذا لا يقوله ذو حس سليم ؛ بل ما بين لוחي المصحف كلام الله ، وكلام الله ثابت في مصاحف المسلمين لا كلام غيره ، فمن قال : إن الذي في المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره فهو ملحد مارق .

ومن زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره كما كتب في المصاحف ، أو أن المداد قديم أزلي فهو أيضاً ملحد مارق ؛ بل كلام المخلوقين يكتب في الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم ، فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله تعالى ؟!

و « الشبهة » تنشأ في مثل هذا من جهة أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد . مثال ذلك أن الإنسان يقول : رأيت الشمس والقمر والهلal إذا رآه بغير واسطة « وهذه الرؤية المطلقة » وقد يراه في ماء أو مرآة فهذه

(١) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

(٢) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري من الخزرج أبو محمد ، صحابي يعد من الأمراء والشعراء والراجزين كان يكتب في الجاهلية ، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار وكان أحد النقباء الاثني عشر وشهد بدرأ وأحداً والخندق والحديبية ، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة ، وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة . توفي عام ٨ هـ .

« رؤية مقيدة » فإذا أطلق قوله رأيته أو ما رأيته حمل على مفهوم اللفظ المطلق ، وإذا قال : لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد ، واللفظ يختلف معناه بالاطلاق والتقييد ، فإذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾^(١) كان هذا المجموع دالاً على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس .

ومن قال هذا مجاز فقد غلط ؛ فإن هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقترب باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعية هي من تمام الكلام ؛ ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفي مفهومها بخلاف استعمال لفظ الأسد في الرجل الشجاع مع أن قول القائل : هذا اللفظ حقيقة ، وهذا مجاز نزاع لفظي ، وهو مستند من أنكر المجاز في اللغة أو في القرآن ، ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة ، ولم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الأئمة إلا في كلام الامام أحمد فإنه قال فيما كتبه من « الرد على الزنادقة والجهمية »^(٢) هذا من مجاز القرآن . وأول من قال ذلك مطلقاً أبو عبيدة معمر بن المثنى^(٣) في كتابه الذي صنفه في « مجاز القرآن » ثم إن هذا كان معناه عند الأولين مما يجوز في

(١) سورة العنكبوت آية رقم ١٤ وتكملة الآية ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

(٢) قمنا بتحقيق هذا الكتاب وطبعته دار اللواء بالرياض .

(٣) هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري أبو عبيدة النحوي من أئمة العلم بالأدب واللغة مولده عام ١١٠ هـ استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه قال الجاحظ لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه وكان اباضياً شعوبياً من حفاظ الحديث قال ابن قتبية كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم كتباً وللمات لم يحضر جنازته أحد لشدة نقده معاصريه . له نحو ٢٠٠ مؤلف منها نقائض جرير والفرزدق ، ومجاز القرآن ، ومآثر العرب ، وطبقات الفرسان وغير ذلك كثير توفي عام ٢٠٩ هـ .

راجع وفيات الأعيان ٢: ١٠٥ والمشرق ١٥: ٦٠٠ وتذكرة ١: ٣٣٨ وبغية الوعاة ٣٩٥ وميزان الاعتدال ٣: ١٨٩ .

اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجائز ، وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ، ثم إنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة .

والمقصود أن القائل إذا قال : رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك في الماء والمرآة ، فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة ، وإذا قال قائل : ما رأى ذلك بل رأس مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا مانعاً لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه في الماء أو المرآة ، وهذه الرؤية في الماء أو المرآة حقيقة مقيدة ، وكذلك قول النبي ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي »^(١) هو كما قال ﷺ رآه في المنام حقاً ، فمن قال : ما رآه في المنام حقاً فقد أخطأ ، ومن قال : إن رؤيته في اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ ، ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك .

وكذلك ما سمعه منه من الكلام في المنام هو سماع منه في المنام وليس هذا كالسماع منه في اليقظة وقد يرى الرائي في المنام أشخاصاً ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك ، وإنما رأى مشاهم ، ولكن يقال رآهم في المنام حقيقة ، فيحترز بذلك عن الرؤيا التي هي حديث النفس .

فإن « الرؤيا ثلاثة أقسام » رؤيا بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، وقد ثبت هذا التقسيم في الصحيح عن النبي ﷺ ؛ ولكن الرؤيا يظهر لكل أحد من الفرق بينهما وبين اليقظة ما لا يظهر في غيرها ، فكما أن الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك حتى أن المرئي يختلف باختلاف المرآة ، فإذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك ، وإن كانت صغيرة أو مستطيلة

(١) ورد الحديث في البخاري (كتاب العلم) ، وفي مسلم : (تعبير الرؤيا) وأبو داود (كتاب الأدب) ، الترمذي (كتاب الرؤيا) ، ابن ماجه (كتاب الرؤيا) ، ابن حنبل ٣/٣٣٢ .

رأى كذلك ، فكذاك في « السماع » يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ، ففي الموضوعين المقصود سماع كلامه ، كما أن هناك في الموضوعين يقصد رؤية نفس النبي ؛ لكن إذا كان بواسطة اختلف باختلاف الوسائط فيختلف باختلاف أصوات المبلغين كما يختلف المرئي باختلاف المرايا - قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) .

فجعل « التكليم ثلاثة أنواع » الوحي المجرد ، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ، والتكليم بواسطة ارسال الرسول كما كلم الرسل بارسال الملائكة ، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بارسال محمد ﷺ .

والمسلمون متفقون على أن الله أمرهم بما أمرهم به في القرآن ونهاهم عما نهاهم عنه في القرآن ، وأخبرهم بما أخبرهم به في القرآن فأمره ونهيه وأخبره بواسطة الرسول ، فهذا تكليم مقيد بالإرسال وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لأتمته ، وهذا القرآن كلام الله مبلغاً عنه مؤداً عنه ، وموسى سمع كلامه مسموعاً منه لا مبلغاً عنه ولا مؤداً عنه ، وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة .

والنبي ﷺ يروي عن ربه ، ويخبر عن ربه ، ويحكي عن ربه ، فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله راوياً حاكياً عنه ، فلو قال من قال : إن القرآن « حكاية » أن محمداً حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله لكان قد قصد معنى صحيحاً : لكن يقصدون - ما يقصده القائل بقوله : فلان يحكي فلاناً أي يفعل مثل فعله وهو - أنه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) .

(١) سورة الشورى آية رقم ٥١ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٨٨ .

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها ، فلما كان مقصود الرائي أن يرى الوجه مثلاً فرآه في المرآة حصل مقصوده ، وقال رأيت الوجه ، وإن كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرآة - وكذلك من كان مقصوده أن يسمع القول الذي قاله غيره ، الذي ألف ألفاظه وقصد معانيه ، فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود ، وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يتخلف باختلاف الصائتين ، والقلوب إنما تشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود ، كما في « الاسم والمسمى » فإن القائل إذا قال : جاء زيد وذهب عمرو ولم يكن مقصوده إلا الإخبار بالمجيء عن « المسمى » ولكن بذكر الاسم أظهر ذلك .

فمن ظن أن الموصوف بالمجيء والاتيان هو لفظ زيد ، أو هو لفظ عمر وكان مبطلاً ، فكذلك إذا قال القائل : هذا كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو ، وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالي وصوته فمن ظن أن المشار إليه هو صوت القارئ وحركته كان مبطلاً ؛ ولهذا قرأ أبو طالب المكي^(١) على الامام احمد رضي الله عنه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾^(٢) وسأله هل هذا كلام الله ، وهل هو مخلوق ؟ فأجابه بأنه كلام الله وإنما غير مخلوق ، فنقل عنه أبو طالب - خطأ منه - أنه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فاستدعاه وغضب عليه وقال أنا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ قال : لا . ولكن قرأت عليك : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وقلت لك :

(١) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب واعظ زاهد ، فقيه من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة ورحل الى البصرة فاتهم بالاعتزال وسكن بغداد فوعظ فيها فحفظ عنه الناس أقوالاً هجره من أجلها وتوفي ببغداد عام ٣٨٦ هـ له قوت القلوب في التصوف قال الخطيب البغدادي : ذكر فيه أشياء منكورة مستشعة في الصفات وعلم القلوب ، وأربعون حديثاً أخرجه لنفسه .

راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٩١ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٧ وتاريخ بغداد ٣ : ٨٩ ولسان الميزان

٣٠٠ : ٥ .

(٢) سورة الصمد آية رقم ١ .

هذا غير مخلوق ، فقلت : نعم ، قال فلم تحكي عني ما لم أقل ؟ لا تقل هذا ؛ فإن هذا لم يقله عالم - وقصته مشهورة حكاها عبد الله^(١) وصالح وحنبل والمروزي وفوزان وبسطها الخلال^(٢) في « كتاب السنة » وصنف المروزي في « مسألة اللفظ » مصنفاً ذكر فيه أقوال الأئمة .

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه ؛ فإن الإشارة إذا اطلقت انصرفت إلى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به ؛ لا إلى ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم ، فإذا قيل : لفظي جعل نفس الوسائط غير مخلوقة وهذا باطل ، كما أن من رأى وجهها في مرآة فقال أكرم الله هذا الوجه وحيّاه ، أو قبحه ، كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة ، لا على الشعاع المنعكس فيها ، وكذلك إذا رأى القمر في الماء فقال : قد أبدر أو لم يبدر فإنما مقصوده القمر الذي في السماء لا خياله ، وكذلك من سمعه يذكر رجلاً فقال : هذا رجل صالح أو رجال فاسق علم أن المشار إليه هو الشخص المسمى بالاسم ؛ لا نفس الصوت المسموع من الناطق - فلو قال : هذا الصوت أو صوتي بفلان صالح أو فاسق فسد المعنى .

وكان بعضهم يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فبرأى في منامه وضارب يضربه وعليه فروة فأوجعه بالضرب ، فقال له : لا تضربني ، فقال : أنا ما أضربك ،

(١) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي أبو عبد الرحمن حافظ للحديث من أهل بغداد له « الزوائد » على كتاب الزهد لأبيه زاد به . المسند زاوية على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث ومسند أهل البيت في مجموع قديم بالتيمورية .
راجع تهذيب ١٤١: ٥ والطبقات لابن أبي يعلى ١٨٠: ١ .

(٢) هو أحمد بن محمد بن هارون أبو بكر الخلال : مفسر عالم بالحديث واللغة من كبار الخنابلة من أهل بغداد كانت خلقته بجامع المهدي قال ابن أبي يعلى ، له التفاسير الدائرة والكتب السائرة وقال الذهبي : جامع علم أحمد وحرثته من كتبه تفسير الغريب وطبقات اصحاب ابن حنبل وغير ذلك . توفي عام ٣١١ هـ .

[راجع طبقات الخنابلة ١٢: ٢ والبداية والنهاية ١٤٨: ١١ وتذكرة الحفاظ ٧: ٣] .

وإنما أضرب الفروة ، فقال : إنما يقع الضرب عليّ ، فقال هكذا إذا قلت :
لفظي بالقرآن مخلوق ، فالخلق إنما يقع على القرآن . يقول : كما أن المقصود
بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة ، فإذا قلت : مخلوق وقع ذلك على المقصود ،
كما إذا سمعت قائلاً يذكر رجلاً فقلت : أنا أحب هذا وأنا أبغض هذا انصرف
الكلام الى المسمى المقصود بالاسم لا إلى صوت الذاكر ؛ ولهذا قالوا الأئمة :
القرآن كلام الله غير مخلوق كيفما تصرف ؛ بخلاف أفعال العباد وأصواتهم فإنه
من نفى عنها الخلق كان مبتدعاً ضالاً .

فصل

وأما قول القائل : تقولون ان القرآن صفة الله وان صفات الله غير مخلوقة ، فإن قلتم ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحللول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وإن قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا .

فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله ، فإن منشأ الشبهة أن قول القائل : هذا كلام الله يحصل أحكامه واحدة ، سواء كان كلامه مسموعاً منه أو كلامه مبلغاً عنه .

ومن هنا تختلف طوائف من الناس .

« طائفة » قالت : هذا كلام الله ، وهذا حروف وأصوات مخلوقة فكلام

الله مخلوق .

و« طائفة » قالت : هذا مخلوق وكلام الله ليس بمخلوق ، فهذا ليس

كلام الله .

و« طائفة » قالت : هذا كلام الله وكلام الله ليس بمخلوق . وهذا الفاظنا

وتلاوتنا ؛ فألفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة .

ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق في المشار إليه في هذا ، فأنت تقول

هذا الكلام الذي تسمعه من قائله صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم ،

وكذلك إذا سمعته من ناقله تقول هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام

حكيم ، فالشار إليه في الموضوعين واحد ، وتقول أيضاً : إن هذا صوت حسن ، أو كلام من وسط القلب فالشار إليه هنا ليس هو المشار إليه هناك ، بل أشار إلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإذا كتب الكلام في صفحتين كالمصحفين تقول في كل منهما هذا قرآن كريم ، وهذا كتاب مجيد ، وهذا كلام الله ، فالشار إليه واحد ، ثم تقول هذا خط حسن ، وقلم النسخ أو الثلث ، وهذا الخط أحمر أو أصفر والمشار إليه هذا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر .

فإذا ميز الانسان في المشار إليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق وعلم أن من قال هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق ان المشار إليه الكلام من حيث هو مع قطع النظر عما به وصل إلينا من حركات العباد وأصواتهم ، ومن قال : هذا مخلوق وأشار به إلى مجرد صوت العبد وحركته لم يكن له في هذا حجة على أن القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارئ من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق ، من اعتقد ذلك فقد أخطأ وضل .

ويقال لهذا : هذا الكلام الذي أشرت إليه كان موجوداً قبل أن يخلق هذا القارئ ، فهب أن القارئ لم تخلق نفسه ولا وجدت لا أفعاله ولا أصواته فمن أين يلزم أن يكون الكلام نفسه الذي كان موجوداً قبله يعدم بعدمه ويحدث بحدوثه ؟ . فإشارته بالخلق إن كانت إلى ما يختص به هذا القارئ من أفعاله وأصواته فالقرآن غني عن هذا القارئ وموجود قبله ، فلا يلزم من عدم هذا عدمه ، وإن كانت إلى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل إلى محمد ، وبلغه محمد لأمتة وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يمتنع أن يكون مخلوقاً ، فإنه لو كان مخلوقاً لكان كلاماً لمحلله الذي خلق فيه ولم يكن كلاماً لله ، ولأنه لو كان سبحانه إذا خلق كلاماً كان كلامه ، كان ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود ، بل كل كلام في الوجود ، وهذا قول الحلولية الذين يقولون :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه^(١)

ومن قال : القرآن مخلوق فهو بين أمرين - إما أن يجعل كل كلام في الوجود كلامه ، وبين أن يجعله غير متكلم بشيء أصلاً ، فيجعل العباد المتكلمين اكمل منه ، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات : كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، فيكون قد فر من اثبات صفات الكمال له حذراً في زعمه من التشبيه فوصفه بالنقص وشبهه بالجامد والموات .

وكذلك قول القائل : هذا نفس كلام الله ، وعين كلام الله ، وهذا الذي في المصحف هو عين كلام الله ، ونفس كلام الله ، وأمثال هذه العبارات هذه مفهومها عند الاطلاق في فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره ، وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فإن من ينقل كلام غيره ويكتبه في كتاب قد يزيد فيه وينقص ، كما جرت عادة الناس في كثير من مكاتبات الملوك وغيرها - فإذا جاء كتاب السلطان ف قيل : هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص : يعني لم يزد فيه الكاتب ولا نقص وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة في مسألة من تصنيفه قيل : هذا الكلام كلام فلان بعينه : يعني لم يزد فيه ولم ينقص كما قال النبي ﷺ : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه »^(٢) .

فقوله فبلغه كما سمعه لم يرد به أن يبلغه بحركاته وأصواته التي سمعه بها ، ولكن أراد أن يأتي بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص فيكون قد بلغه كما سمعه . فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله ﷺ ، ويكون قد سمع

(١) هذا البيت لمحيي الدين بن عربي قاله في الفتوحات المكية ٢/١ ط بولاق .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٨ باب من بلغ علماً ٢٣٠ ثنا محمد بن فضيل ثنا ليث بن ابي سليم عن يحيى بن عباد ابي هبيرة الأنصاري عن ابيه عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ وذكره وفيه زيادة (قرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه زاد فيه علي بن محمد « ثلاث لا يُغفل عليهن قلب امرئ مسلم ، اخلاص العمل لله والنصح لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم » .
ورواه أبو داود في العلم ١٠ والترمذي في العلم ٧ والدارمي في المقدمة ٢٤ واحمد بن حنبل في المسند .
١ : ٤٣٧ ، ٣ : ٢٢٥ ، ٤ : ٨٢ ، ٥ : ١٨٣ (حلي) .

كلام رسول الله ﷺ كما قاله . وذلك معنى قولهم هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه ، لا يريدون أن هذا هو صوته وحركاته ، وهذا لا يقوله عاقل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء ، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجىء أصحابه إلى «القرمطة» في السمعيات ، و«السفسطة» في العقلیات .

ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة ، فإذا رأى الناس كلاماً صحيحاً ، فإن من تكلم بكلام وسمع منه ونقل عنه أو كتبه في كتاب لا يقول عاقل إن نفس ما قام بالتكلم من المعاني التي في قلبه والألفاظ القائمة بلسانه ، فارقت وانتقلت عنه إلى المستمع والمبلغ عنه ، ولا فارقت وحلت في الورق : بلا ولا يقول إن نفس ما قام به من المعاني والألفاظ هو نفس المداد الذي في الورق ؛ بل ولا يقول إن نفس ألفاظه التي هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه ، فهذه الأمور كلها ظاهرة لا يقولها عاقل في كلام المخلوق إذا سمع وبلغ أو كتب في كتاب ، فكيف يقال ذلك في كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه أو كتبه سبحانه كما كتب التوراة لموسى ، وكما كتب القرآن في اللوح المحفوظ ، وكما كتبه المسلمون في مصاحفهم .

وإذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعناه ؛ بل شعر بمخلوق كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة وليبد وأمثالهم من الشعراء ، ويقول الناس : هذا شعر حسان بعينه ، وهذا هو نفس شعر حسان ، وهذا شعر ليبد بعينه كقوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومع هذا فيعلم كل عاقل أن رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حتى حلت بهم بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين فكيف يتوهم متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل في مخلوقاته ، وأن ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات الباري حلت فيه ؟! وهم لا

يقولون مثل ذلك في المخلوق بل يمثلون العلم بنور السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم ، كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوءاً ، كما يقال : إن الهوى ينقلب ناراً بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير أن تتغير تلك النار التي في المصباح ، والمقرىء والمعلم يقرىء القرآن ويعلم العلم ولم ينقص مما عنده شيء ؛ بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده .

ولهذا يقال : فلان ينقل علم فلان ، وينقل كلامه ، ويقال : العلم الذي كان عند فلان صار الى فلان وأمثال ذلك ، كما يقال : نقلت ما في الكتاب ونسخت ما في الكتاب ، أو نقلت الكتاب أو نسخته ، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التي في الكتاب الأول عدمت منه وحلت في الثاني ؛ بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام ، وذلك يحصل بأن يجعل في الثاني مثل ما في الأول فيبقى المقصود بالأول منقولاً منسوخاً وإن كان لم يتغير الأول ، بخلاف نقل الأجسام وتوابعها ، فإن ذلك إذا نقل من موضع إلى موضع زال عن الأول .

وذلك لأن الأشياء لها وجود في أنفسها وهو وجودها العيني ، ولها ثبوتها في العلم ، ثم في اللفظ المطابق للعلم ، ثم في الخط ، وهذا الذي يقال : وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ووجود في البنان : وجود عيني ، ووجود علمي ، ولفظي ورسمي ؛ ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(١) فذكر الخلق عموماً وخصوصاً ، فالخط يطابق اللفظ ، واللفظ يطابق العلم ، والعلم هو المطابق للمعلوم .

ومن هنا غلط من غلط فظن أن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق ،

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥ .

فظن أن قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ ^(١) كقوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ ^(٢) فجعل اثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كاثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط : اثبات القرآن كاثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام ، وأما اثبات اسم الرسول فهذا كاثبات الأعمال ، أو كاثبات القرآن في زبر الأولين ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٤) فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ؛ ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ ﴿ الزبر ﴾ و « الكتب » زبر . يقال : زبرت الكتاب إذا كتبه والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب فالقرآن نفسه ليس عند بني اسرائيل ولكن ذكره ، كما أن محمداً نفسه ليس عندهم ولكن ذكره ، فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف ، فإن نفس القرآن أثبت فيها ، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بيناً ، وهذا مبسوط في موضعه .

و (المقصود هنا) أن نفس الموجودات وصفاتها إذا انتقلت من محل إلى محل حلت في ذلك المحل الثاني ، وأما العلم بها والخبر عنها فيأخذها الثاني عن الأول مع بقاءه في الأول ، وإن كان الذي عند الثاني هو نظير ذلك ومثله ؛ لكن لما كان المقصود بالعلمين واحداً في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه ، ولم يكن للناس غرض في تعدد التابع ، كما في الاسم مع المسمى ؛ فإن اسم الشخص وإن ذكره أناس متعددون ودعا به أناس متعددون فالناس يقولون إنه اسم واحد لمسمى واحد ، فإذا قال المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، وقال ذلك هذا المؤذن وهذا

(١) سورة الواقعة آية رقم ٧٧ - ٧٨ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ .

(٣) سورة القمر آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ١٩٦ .

المؤذن ، وقاله غير المؤذن فالناس يقولون ان هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله كما أن المسمى هو الله ورسوله .

وإذا قال : ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ اَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) ففي الجميع المذكور هو اسم الله وإن تعدد الذكر والذاكر ، فالخبر الواحد من المخبر الواحد من مخبره ، والأمر الواحد بالمأمور به من الأمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسماه ، هذا في المركب نظير هذا في المفرد ، وهذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وإن تعدد من يذكر ذلك الاسم والخبر ، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم . وأما قول القائل : إن قلت : إن هذا نفس كلام الله فقد قلت بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد . مثاله مثال رجل ادعى ان النبي ﷺ يحل بذاته في بدن الذي يقرأ حديثه فأنكر الناس ذلك عليه ، وقالوا إن النبي ﷺ لا يحل في بدن غيره . فقال : أنتم تقولون : إن المحدث يقرأ كلامه وإن ما يقرأه هو كلام النبي ﷺ فإذا قلت ذلك فقد قلت بالحلول ، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد .

والناس متفقون على اطلاق القول بأن كلام زيد في هذا الكتاب وهو الذي سمعناه كلام زيد ، ولا يستجيز العاقل اطلاق القول بأنه هو نفسه في هذا المتكلم ، أو في هذا الورق وقد نطقت النصوص بأن القرآن في الصدور كقول النبي ﷺ استذكروا القرآن فلهو أشد تفلاً من صدور الرجال من النعم في عقلها » ^(٥) .

(١) سورة العلق آية رقم ١ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤١ .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ١ .

(٤) سورة هود آية رقم ٤١ .

(٥) الحديث أورده الامام مسلم في كتاب المسافرين ٢٢٨ والدارمي في فضائل القرآن ٤٨ والرقاق ٣٢ =

وقوله : الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الحرب» (١)
وأمثال ذلك وليس هذا عند عاقل . مثل أن يقال الله في صدورنا وأجوافنا ولهذا
لما ابتدئ شخص يقال له الصوري بأن من قال القرآن في صدورنا فقد قال بقول
النصارى ، ف قيل لأحمد قد جاءت جهمية رابعة أي جهمية الخلقية واللفظية
والواقفية وهذه الرابعة . اشتد نكيره لذلك وقال : هذا أعظم من الجهمية وهو
كما قال .

فإن الجهمية ليس فيهم من ينكر أن يقال القرآن في الصدور ولا يشبه هذا
بقول النصارى بالحلول إلا من هو والابن وروح القدس إله واحد وإن الكلمة
التي هي اللاهوت تدرعت الناسوت ، وهو عندهم إله يخلق ويرزق ، ولهذا
كانوا يقولون إن الله هو المسيح ابن مريم ويقولون : المسيح ابن الله ولهذا كانوا
متناقضين ، فإن الذي تدرع المسيح ان كان هو الإله الجامع للأقانيم فهو الأب
نفسه ، وإن كان هو صفة من صفاته فالصفة لا تخلق ولا ترزق وليست إلهاً ،
والمسيح عندهم إله . ولو قال النصارى إن كلام الله في صدر المسيح كما هو في
صدور سائر الأنبياء والمؤمنين لم يكن في قولهم ما ينكر .

فالحلولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر ، كما
قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة أتباع المشايخ أو يقولون بحلوله في
كل شيء كما قالت الجهمية أنه بذاته في كل مكان ، وهو سبحانه ليس في
مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وكذلك من قال باتحاده
بالمسيح أو غيره أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها أو قال : وجوده وجود المخلوقات
أو غير ذلك .

= ورواه البخاري في فضائل القرآن ٢٣ ورواه الامام احمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٢ ، ٤١٧ ،
٤٢٣ ، ٤٣٩ ، ٤٦٣ ، ٤ : ٣٩٧ ، ٤١١ (حلي) .

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب ثواب القرآن ، ورواه الامام الدارمي (كتاب فضائل القرآن)
والامام احمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٢٢ (حلي) .

فأما قول القائل : إن كلام الله في قلوب انبيائه وعباده المؤمنين وأن الرسل بلغت كلام الله والذي بلغته هو كلام الله ، وأن الكلام في الصحيفة ونحو ذلك فهذا لا يسمى حلولاً ومن سماه حلولاً لم يكن بتسميته لذلك مبطلاً للحقائق . وقد تقدم أن ذلك لا يقتضي مفارقة صفة المخلوق له وانتقالها الى غيره . فكيف صفة الخالق تبارك وتعالى ..؟! .

ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس في اثبات لفظ الحلول ونفيه عنه هل يقال : إن كلام الله حال في المصحف أو حال في الصدور ..؟

وهل يقال : كلام الناس المكتوب حال في المصحف أو حال في قلوب حافظيه ونحو ذلك ..؟ فمنهم طائفة نفت الحلول كالقاضي أبي يعلى^(١) وأمثاله . وقالوا : ظهر كلام الله في ذلك ولا نقول حل ، لأن حلول صفة الخالق في المخلوق أو حلول القديم في المحدث ممتنع .

وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال في المصحف كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي^(٢) الملقب بشيخ الاسلام . وغيره وقالوا : ليس هذا هو الحلول المحذور الذي نفينا ، بل نطلق القول بأن الكلام في الصحيفة ولا يقال بأن الله في الصحيفة أو في صدر الإنسان ، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الغراء أبو يعلى ، عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون من أهل بغداد ارتفعت مكانته عند القادر والقائم العباسيين وولاه القائم قضاء دار الخلافة والحريم ، وحران ، وحلوان من تصانيفه : الأحكام السلطانية وأحكام القرآن ، وعيون المسائل ، وأربع مقدمات في أصول الديانات . توفي عام ٤٥٨ .
[راجع طبقات الحنابلة ٢: ١٩٣ - ٢٣٠ وتاريخ بغداد ٢: ٢٥٦ وشذرات الذهب ٣: ٣٠٦] .

(٢) هو عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي أبو اسماعيل شيخ خراسان في عصره من كبار الحنابلة من ذرية أبي أيوب الأنصاري ، كان بارعاً في اللغة حافظاً للحديث عارفاً بالتاريخ والانساب مظهراً للسنّة داعياً إليها امتحن وأوذى وسمع يقول : عرضت على السيف خمس مرات من كتبه « ذم الكلام وأهله » والفاروق في الصفات ، وكتاب الأربعين في السنة ومنازل السائرین توفي عام ٤٨١ هـ .
[راجع الذيل على طبقات الحنابلة ١: ٦٤] .

في ذلك دون حلول ذاته .

وطائفة ثالثة كأبي علي بن أبي موسى وغيره . قالوا : لا نطلق الحلول نفياً ولا إثباتاً لأن إثبات ذلك يوهم انتقال صفة الرب الى المخلوقات ونفي ذلك يوهم نفي نزول القرآن الى الخلق فنطلق ما اطلقته النصوص ، ونمسك عما في اطلاقه محذور لما في ذلك من الاجمال .

وأما قول القائل ان قلتم (إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول ، وإن قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا فجواب ذلك أن المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فإذا زالت لم يبق منكر أحدها : من يقول إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد والله خلقه في غيره .

الثاني : قول من يقول ان كلام الله ليس إلا معنى واحداً هو الأمر والنهي والخبر وأن الكتب الإلهية تختلف باختلاف العبارات لا باختلاف المعاني فيجعل معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد ، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي ، كمن يقول : إن معاني أسماء الله الحسنى بمعنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته .

الثالث : قول من يقول : إن ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله وأن القرآن كلام التالين لا كلام رب العالمين ، فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها . وأما قول من قال : إن القرآن العربي كلام الله بلغه عنه رسول الله ﷺ ، وأنه تارة يسمع من الله ، وتارة من رسله مبلغين عنه ، وهو كلام الله حيث تصرف ، وكلام الله تكلم به لم يخلقه في غيره ، ولا يكون كلام الله مخلوقاً ولو قرأه الناس وكتبوه وسمعوه ، وقال مع ذلك إن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه . وإذا نفى الحلول وأراد به أن صفة الموصوف لا تفارقه وتنقل إلى غيره فقد أصاب هذا المعنى .

لكن عليه مع ذلك أن يؤمن أن القرآن العربي كلام الله تعالى وليس هو

ولا شيء منه كلاماً لغيره ، ولكن بلغته عنه رسله وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه . ومع العلم بأن شيئاً من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا من كلام الخالق أدلى وأظهر والله أعلم .

وقال : -

قد يستدل بقوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ ^(١) على أن الولد يكون مؤمناً بإيمان والده ؛ لأنه لم يذكر الولد في استحبابه الكفر على الإيمان ، مع أنه أولى بالذكر ، وما ذاك إلا أن حكمه مخالف لحكم الأب والأخ ، وهو الفرق بين المحجور عليه لصغره ، وجنونه ، وبين المستقل ، كما استدل سفيان بن عيينة ^(٢) وغيره بقوله : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ^(٣) أن بيت الولد مندرج في بيوتكم ؛ لأنه وماله لأبيه .

ويستدل بقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ؟ ﴾ ^(٤) على أن إسلام الوليد صحيح ؛ لأنه جعله من جملة القائلين

(١) سورة التوبة آية رقم ٢٣ .

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي من الموالي ، ولد بالكوفة ، وسكن مكة وتوفي بها عام ١٩٨ هـ كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر . قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وكان أعور وحج سبعين سنة قال علي بن حرب كنت أحب أن جارية في غنج ابن عيينة إذا حدث ، له الجامع في الحديث وكتاب في التفسير .

راجع تذكرة الجفاظ ١ : ٢٤٢ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٢٧٠ وذيل المذيل ١٠٨ والشعراني ١ : ٤٠ وتاريخ بغداد ٩ : ١٧٤ .

(٣) سورة النور آية رقم ٦١ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٧٥ .

قول من يطلب الهجرة ، وطلب الهجرة لا يصح إلا بعد الإيمان ، وإذا كان له قول في ذلك معتبر كان أصلاً في ذلك ، ولم يكن تابعاً ؛ بخلاف الطفل الذي لا تميز له ؛ فإنه تابع لا قول له .

فصل

سئل رحمه الله : عن قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (١) كلهم قالوا ذلك أم بعضهم ؟ وقول النبي ﷺ : يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم « ما كنتم تعبدون » ؟ فيقولون العزير ، الحديث هل الخطاب عام أم لا ؟ فأجاب : الحمد لله المراد باليهود جنس اليهود ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ (٢) لم يقل جميع الناس ، ولا قال : إن جميع الناس قد جمعوا لكم ؛ بل المراد به الجنس .

وهذا كما يقال الطائفة الفلانية تفعل كذا ، وأهل الفلاني يفعلون كذا وإذا قال بعضهم فسكت الباقون ولم ينكروا ذلك فيشتركون في إثم القول والله أعلم وقال :

في الكلام على قوله : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٧٣ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦٥ .

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك قال الطبري وغيره عن قتادة : بينا النبي - ﷺ - يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا : أنظروا هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر ، فأطلعه الله سبحانه على ما في قلوبهم وما يتحدثون به فقال : « احبسوا على الركب » ثم أتاهم فقال : قلتم كذا وكذا . فحلفوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب يريدون

تدل على أدا الاستهزاء بالله كفر، وبالرسول كفر [و] من جهة الاستهزاء بالله وحده كفر بالضرورة ، فلم يكن ذكر الآيات والرسول شرطاً ؛ فعلم أن الاستهزاء بالرسول كفر ، وإلا لم يكن لذكره فائدة وكذلك الآيات .

و« أيضاً » فلاستهزاء بهذه الأمور متلازم ، والضالون مستخفون بتوحيد الله تعالى يعظمون دعاء غيره من الأموات ، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ رَأَوُكَ إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ (١) الآية فاستهزؤوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك ، وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد ؛ لما في أنفسهم من عظيم الشرك . وهكذا تجد من فيه شبه منهم إذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك ؛ لما عنده من الشرك ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (٢) فمن أحب مخلوقاً مثل ما يحب الله فهو مشرك ، ويجب الفرق بين الحب في الله والحب مع الله . فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله وعبادته ، ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذباً ، ولا يجترىء أن يحلف بشيخه كاذباً .

وكثير من طوائف متعددة ترى أحدهم يرى أن استغاثته بالشيخ إما عند قبره أو غير قبره أنفع له من أن يدعو الله في المسجد عند السحر ، ويستهزىء بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد وكثير منهم يخربون المساجد ويعمرون

= كنا غير مجدين . وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر قال : رأيت قائل هذه المقالة وديعة بن ثابت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله - ﷺ يماشيها - والحجارة تنكبه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . والنبي - ﷺ - يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون »

(١) سورة الفرقان آية رقم ٤١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ .

المشاهد فهل هذا إلا من استخفافهم بالله وبآياته ورسوله ؟! وتعظيمهم الشرك .
 وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم مضاهات
 لمشركي العرب ، الذين ذكرهم الله في قوله : ﴿ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ
 الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ ^(١) الآية . فيفضلون ما يجعل لغير الله على ما
 يجعل الله ويقولون : الله غني والهتنا فقيرة .

وهؤلاء إذا قصد أحدهم القبر يعظمه يبكي عنده ويخشع ويتضرع ما لا
 يحصل له مثله في الجمعة ، والصلوات الخمس ، وقيام الليل ، فهل هذا إلا
 من حال المشركين لا الموحدين ، ومثل هذا أنه إذا سمع أحدهم سماع
 الآيات حصل له من الخشوع والحضور ما لا يحصل له عند الآيات ؛ بل
 يستقلونها ويستهنئون بها ، وبمن يقرأها مما يحصل لهم به أعظم نصيب من
 قوله : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ^(٢) والذين يجعلون دعاء
 الموتى أفضل من دعاء الله : منهم من يحكي أن بعض المريدين استغاث بالله
 فلم يغثه ، واستغاث بشيخه فأغاثه ، وأن بعض المأسورين دعا الله فلم
 يخرجهم ، فدعا بعض الموتى ؛ فجاءه فأخرجه إلى بلاد الإسلام . وآخر قال :
 قبر فلان الترياق المجرب . ومنهم إذا نزل به شدة لا يدعو إلا شيخه قد لهج
 به كما يلهج الصبي بذكر أمه . وقد قال تعالى للموحدين : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ
 مِنْاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ ^(٣) وقد قال شعيب ﴿ يَا

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٣٦ وعجز الآية ﴿ فقالوا هذا الله بزعيمهم وهذا لشركائنا فما كان
 لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان الله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾
 والزعيم : الكذب قال شريح القاضي : إن لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا . وكانوا
 يكذبون في هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه
 قال : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام الى قوله
 تعالى : ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولاهم سفهاً بغير علم ﴾

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٠٠ .

قَوْمَ ! ارْهَطِيْ اَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللّٰهِ ﴿٤﴾ وَقَالَ تَعَالٰى : ﴿ لَأَنْتُمْ اَشَدُّ رَهْبَةً فِىْ صُدُوْرِهِمْ مِّنَ اللّٰهِ ﴾ (١) .

(١) سورة هود آية رقم ٩٢ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٣ .

فصل توبة الأنبياء عليهم السلام

سئل شيخ الاسلام :
عن معنى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ﴾ (١) الآية ، والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد والنبى ﷺ
معصوم من الكبائر والصغائر .

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية : الحمد لله ، الأنبياء صلوات الله
وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها وهم بما
أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ، ويعظم حسناتهم فإن الله يحب

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٧ .

روى الترمذي : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد
الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لم أتخلف عن النبي ﷺ - في غزوة غزاها حتى
كانت غزوة تبوك إلا بداراً ولم يعاتب النبي - ﷺ - أحداً تخلف عن بدر ، إنما خرج يريد العير
فخرجت قريش مغوئين لغيرهم ، فالتقوا عن غير موعد كما قال الله تعالى : ولعمري إن أشرف
مشاهد رسول الله - ﷺ - في الناس لبدر ، وما أحب أني كنت شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة حين
توافقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف بعد عن النبي - ﷺ - حتى كانت تبوك ، وهي آخر غزوة
غزاها ، وأذن النبي - ﷺ - بالرحيل ، فذكر الحديث بطوله .

قال : فانطلقت الى النبي - ﷺ - فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون ، وهو يستتير
كاستنارة القمر ، وكان إذا سر بالأمر استنار ، فجلست بين يديه فقال :
« أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم أتى عليك منذ ولدتك أمك » فقلت يا نبي الله ، أمن عند
الله أم من عندك ؟ قال : بل من عند الله - ثم تلا هذه الآية ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ - حَتَّى بَلَغَ - إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

التواابين ويحب المتطهرين ، وليست التوبة نقصاً ؛ بل هي من أفضل الكمالات ، وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (١) فغاية كل مؤمن هي التوبة ثم التوبة تتنوع كما يقال « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار : عن آدم ونوح ، وإبراهيم ، وموسى وغيرهم . فقال آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) وقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) وقال الخليل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٤) وقال هو وإسماعيل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

وقال موسى : ﴿ أَنْتَ وَلَيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ، وَارْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) .

وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء والله تعالى ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٨) وفي أواخر ما أنزل الله على نبيه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٩)

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٧٢ - ٧٣ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة هود آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة إبراهيم آية رقم ٤١ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٢٨ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٥٥ - ١٥٦ .

(٧) سورة الأعراف آية رقم ١٤٣ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ٢٢٢ .

(٩) سورة النصر كاملة .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول في افتتاح الصلاة :
 « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم
 نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من
 خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد » (١)

وفي الصحيح أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح : « اللهم أنت
 الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي ، واعترفت
 بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٢) وفي
 الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « اللهم اغفر لي ذنبي
 كله ، دقه وجله ، وعلايته وسره ، أوله وآخره » (٣) وفي الصحيحين عنه
 ﷺ أنه كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما
 أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل
 ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، وما
 أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا
 أنت » (٤) ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٥)
 فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم وأكبر طاعاتهم وأجل

(١) الحديث عند البخاري في كتاب الأذان ٨٩ باب ما يقول بعد التكبير ٧٤٤ حدثنا موسى بن
 اسماعيل ، قال : حدثنا عبد الواحد بن زياد ، قال : حدثنا عمارة بن القعقاع ، قال : حدثنا
 أبو زرعة ، قال : حدثنا أبو هريرة ، قال كان الرسول - ﷺ يسكت بين التكبير وبين القراءة
 إسكاته وذكره . ورواه الإمام مسلم في الصلاة ٢٠٤ وابن ماجه في الإقامة ١ ، وأحمد بن
 حنبل ٢ : ٢٣١ ، ٤٩٤ ، ٤ : ٣٥٤ (حلي)

(٢) سبق تخريج هذا الحديث

(٣) سبق تخريج هذا الحديث

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

(٥) سورة محمد آية رقم ١٩ .

عبادتهم التي ينالون بها أجل الثواب ، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب .

فيذا قال القائل : أي حاجة بالأنبياء إلى العبادات والطاعات ؟ كان جاهلاً ؛ لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم ، فكيف يقال : إنهم لا يحتاجون إليها ، فهي أفضل عبادتهم وطاعتهم . وإذا قال القائل : فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب ، والاستغفار كذلك قيل له : الذنب الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة ، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة كما قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر ؛ فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء ، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب ، ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصاً ولا عيباً ؛ بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيماناً ، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم ؛ فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها .

ولهذا قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١)

(١) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ - ٧٠ .

روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تدعو الله نداً وهو خلقك قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حيلة جارك فأنزل الله تعالى تصديقاً ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ =

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ « أن الله يحاسب عبده يوم القيامة ، فيعرض عليه صغار الذنوب ويخفى عنه كبارها فيقول : فعلت يوم كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يا رب ! وهو مشفق من كبارها أن تظهر ، فيقول إني قد غفرتها لك ، وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة ، فهناك يقول رب إن لي سيئات ما أراها بعد » (١) . فالعبد المؤمن إذا تاب وبدل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها ، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له ؛ بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له ، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية ، فمن نسي القرآن ثم حفظه خير من حفظه الأول لم يضره النسيان ، ومن مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض .

والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه ؛ ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع ، والخشوع لله والإجابة إليه ، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة كمن ذاق الجوع والعطش ، والمرض ، والفقر والخوف ، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن ، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته ، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه ، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

وينبغي أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن ، ولا يكمل أحد

= والآثم في كلام العرب العقاب وبه قرأ ابن زيد وفتادة هذه الآية ومنه قول الشاعر :
جزى الله ابن عروة حيث أمسى عقوقاً والعقوق له أثم
أي جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو ، وعكرمة ومجاهد ، إن « أثماً » وإد في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة قال الشاعر :
لقيت المهالك في حربنا وبعد المهالك تلقى أثاماً
وقال السدي : جبل فيها . قال :
وكان مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذي المجاز له أثم
(١) سبق تخريج هذا الحديث .

ويحصل له كمال القرب من الله ، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها ومحمد ﷺ أكمل الخلق وأكرمهم على الله وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات ؛ فهو أفضل المحبين لله وأفضل المتوكلين على الله وأفضل العابدين له ، وأفضل العارفين به ، وأفضل التائبين إليه ، وتوبته أكمل من توبة غيره ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وبهذه المغفرة نال الشفاعة يوم القيامة ، كما ثبت في الصحيح : « إن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم ، فيقول : إني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، نفسي ، نفسي ، نفسي . ويطلبونها من نوح فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة لم أؤمر بها . نفسي ، نفسي ، نفسي . ويطلبونها من الخليل ، ثم من موسى ثم من المسيح فيقول : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال : فيأتوني ، فأنتقل ، فإذا رأيت ربي خرت له ساجداً ، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقول : أي محمد ! ارفع رأسك ، وقل تسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : أي رب أمتي ! فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة » (١) فالمسيح - صلوات الله عليه وسلامه - دلهم على محمد ﷺ وأخبر بكمال عبوديته لله ، وكمال مغفرة الله له ، إذ ليس بين المخلوقين نسب إلا محض العبودية والافتقار من العبد ومحض الجود والإحسان من الرب عز وجل .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل » (٢) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ١٨ باب القصد والمداومة على العمل ، ٦٤٦٣ - حدثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ، ورواه الامام مسلم في كتاب المناقبين ٧١ - ٧٣ - ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ورواه ابن ماجه في الزهد ٢٠ ، والدارمي في الرقاق ٢٤ والامام أحمد بن حنبل في المسند =

وثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول : « يأيتها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (١) وثبت عنه في الصحيح أنه قال : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » (٢)

فهو ﷺ لكمال عبوديته لله ، وكمال محبته له ، وافتقاره إليه ، وكمال توبته واستغفاره ؛ صار أفضل الخلق عند الله ، فإن الخير كله من الله وليس للمخلوق من نفسه شيء ، بل هو فقير من كل وجه ، والله غني عنه من كل وجه ، محسن إليه من كل وجه ، فكلما ازداد العبد تواضعاً وعبودية ازداد إلى الله قرباً ورفعة ، ومن ذلك توبته واستغفاره . وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٣) رواه ابن ماجه والترمذي .

= ٢ : ٢٣٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٣١٩ (حلي)

- (١) الحديث عند مسلم في الصلاة ٢٣٠ والنسائي في السارق ٣ ، وابن ماجه في الحدود ٢٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٨٢ ، ٣٤١ حلي
- (٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر ٤١ ، ورواه أبو داود في الوتر ٢٦ .
- (٣) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب القيامة ٤٩ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٠ ، والدارمي في الرقاق ١٨ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٩٨ (حلي)

سورة يونس

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ ^(٢) . وقوله : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ ^(٥) دليل على توقيت ما فيها من التوقيت للسنين والحساب ، فقوله : ﴿ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ^(٦) إن علق بقوله : ﴿ وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ﴾ ^(٧) كان الحكم مختصاً بالقمر ، وإن أعيد إلى أول الكلام تعلق بهما ، ويشهد للأول قوله في الأهلة فإنه موافق لذلك ، ولأن كون الشمس ضياءً والقمر نوراً لا يوجب علم عدد السنين والحساب ،

(١) سورة يونس آية رقم ٥ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٩٦ .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ٥ .

(٤) سورة يس آية رقم ٣٩ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٨٩ .

(٦) سورة يونس آية رقم ٥ .

(٧) سورة يونس آية رقم ٥ .

بخلاف تقدير القمر منازل فإنه هو الذي يقتضي علم عدد السنين والحساب ، ولم يذكر انتقال الشمس في البروج .

ويؤيد ذلك قوله : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ^(١) الآية فإنه نص على أن السنة هلالية وقوله : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ ^(٢) يؤيد ذلك ، لكن يدل على الآخر قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ^(٣) .

وهذا - والله أعلم - لمعنى تظهر به حكمة ما في الكتاب ، وما جاءت به الشريعة من اعتبار الشهر والعام الهلالي دون الشمس ، إن كل ما حد من الشهر والعام ينقسم في اصطلاح الاسم إلى عددي وطبيعي فأما الشهر الهلالي فهو طبيعي ، وسنته عددية .

وأما الشهر الشمسي : فعددي ، وسنته طبيعية ، فأما جعل شهرنا هلالياً فحكمته ظاهرة ، لأنه طبيعي وإنما علق بالهلال دون الاجتماع لأنه أمر مضبوط بالحس لا يدخله خلل ، ولا يفتقر إلى حساب بخلاف الاجتماع ، فإنه أمر خفي يفتقر إلى حساب ، وبخلاف الشهر الشمسي لو ضبط .

وأما السنة الشمسية فإنها وإن كانت طبيعية ، فهي من جنس الاجتماع ليس أمراً ظاهراً للحس ، بل يفتقر إلى حساب سير الشمس في المنازل ، وإنما الذي يدركه الحس تقريب ذلك ، فإن انقضاء الشتاء ودخول الفصل الذي تسميه العرب الصيف ويسميه غيرها الربيع أمر ظاهر ، بخلاف محاذاة الشمس لجزء من أجزاء الفلك يسمى برج كذا أو محاذاتها لإحدى نقطتي

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٧ .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ١٢ .

الرأس أو الذنب ، فإنه يفتقر إلى حساب .

ولما كانت البروج اثني ^(١) عشر فمتى تكرر الهلالي اثني عشر فقد انتقل فيها كلها ، فصار ذلك سنة كاملة تعلقت به أحكام ديننا من المؤقتات شرعاً ، أو شرطاً ، إما بأصل الشرع كالصيام والحج وإما بسبب من العبد كالعدة ومدة الإيلاء ، وصوم الكفارة والنذر ، وإما بالشرط كالأجل في الدين والخيار ، والإيمان وغير ذلك .

وقال :

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ [فيها] .

منها قوله : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ ^(٢) ظن طائفة أن ﴿ ما ﴾ نافية ، وهو خطأ ، بل هي استفهام ، فإنهم يدعون معه شركاء ، كما أخبر عنهم في غير موضع ، فالشركاء يوصفون في القرآن بأنهم يدعون ، لأنهم يتبعون وإنما يتبع الأئمة ولهذا قال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ^(٣) ولو أراد النفي لقال إن يتبعون إلا من ليسوا شركاء ، بل بين أن المشرك لا علم معه إن هو إلا الظن والحرص كقوله : ﴿ قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) تكلمنا عن البروج في الجزء الثاني في كلمة وافية .

(٢) سورة يونس آية رقم ٦٦ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ١٠ .

التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين

إبن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ

رحمه الله تعالى

الجزء الخامس

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن حميرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة

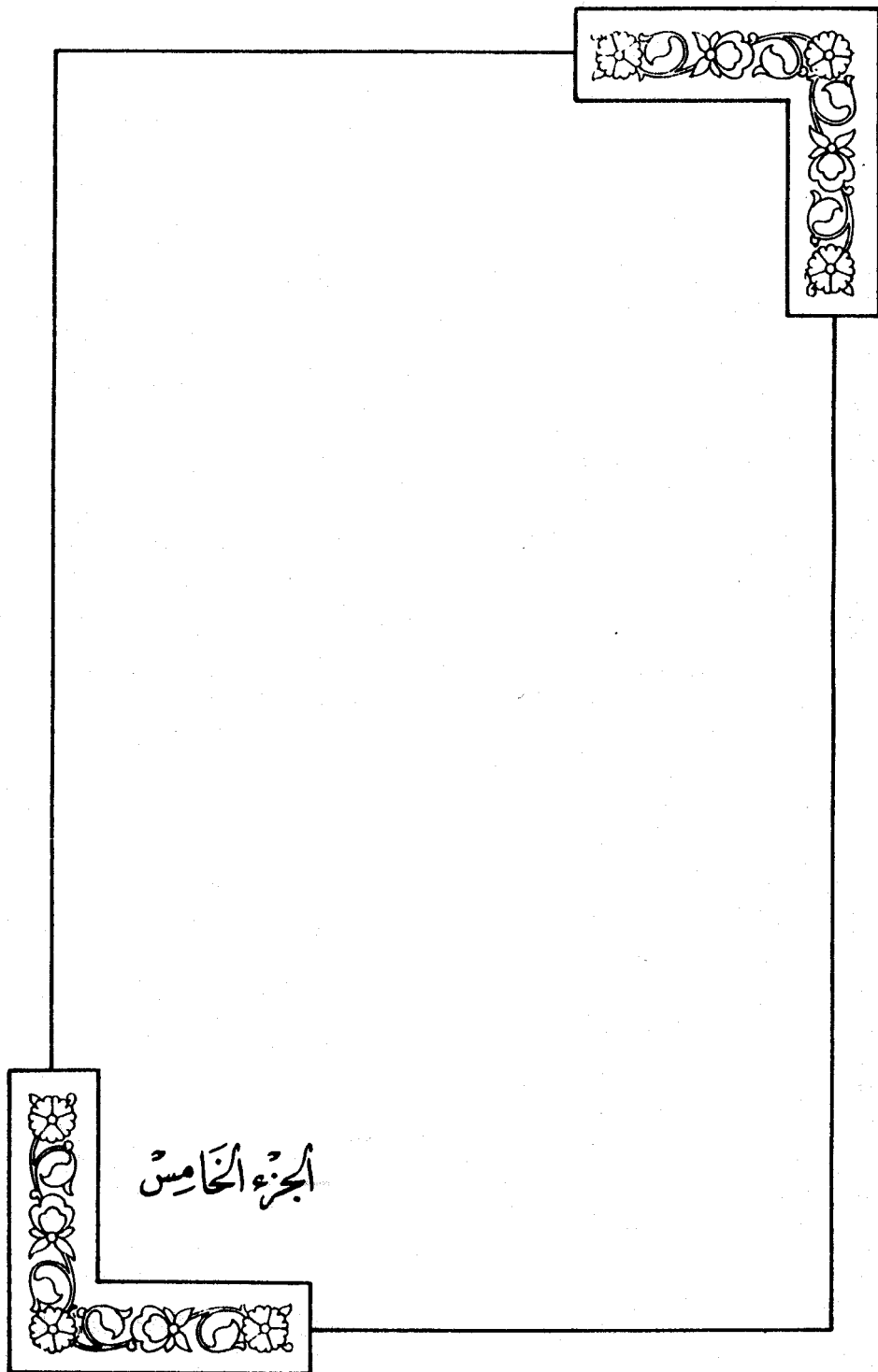
بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان



الجزء الخامس

سورة هود

فصل

وقال :

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (١)
وهذا يعم جميع من هو على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، فالبينة العلم
النافع ، والشاهد الذي يتلوه العمل الصالح ، وذلك يتناول الرسول ومن اتبعه
إلى يوم القيامة ، فإن الرسول على بينة من ربه ومتبعيه على بينة من ربه .
وقال في حق الرسول : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ (٢) وقال في حق
المؤمنين : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣) فذكر هذا بعد أن ذكر الصنفين في أول السورة فقال : ﴿ الَّذِينَ

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة محمد آية رقم ١٤ .

في معنى هذه الآيات أنشد مصعب بن عبد الله بن الزبير لنفسه وكان شاعراً محسناً رضي الله
عنه :

وكان الموت أقرب ما يليني	أأقعد بعدما رجفت عظامي
وأجعل دينه غرضاً لديني	أجادل كل معترض خصيم
وليس الرأي كالعلم اليقين	فأتارك ما علمت لرأي غيري
يصرف في الشمال وفي اليمين	وما أنا والخصومة وهي شيء
يلحن بكل فج أو وجين =	وقد سنت لنا سنن قوام

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ - كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ
بَالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ
رَبِّهِمْ ﴿ الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ^(١)

وقال أبو الدرداء ^(٢) : لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما
جاءت به أنبياءهم من البينات والهدى ، وقال تعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ^(٣)
فمن اتبعه يدعو إلى الله على بصيرة ، والبصيرة هي البينة ، وقال : ﴿ أَوْ مَنْ
كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ ^(٤) الآية . فالنور الذي
يمشي به في الناس هو البينة والبصيرة وقال ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ

= وكان الحق ليس به خفاء أغر كغرة الفلق المبين
وما عوض لنا منهاج جهم بمنهاج ابن آمنة الأمين
فأما ما علمت فقد كفاني وأما ما جهلت فجنبوني
(١) سورة محمد آية رقم ١٤ .

(٢) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء صحابي من الحكماء
الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ثم انقطع للعبادة ، ولما ظهر الاسلام
اشتهر بالشجاعة والنسك وفي الحديث « عويمر حكيم أمي » ، « ونعم الفارس عويمر »
« وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب - وهو أول قاض بها قال ابن الجزري كان
من العلماء الحكماء - وهو أحد الذين جمعوا القرآن ، حفظاً على عهد النبي - ﷺ - بلا
خلاف - مات بالشام عام ٣٢ هـ وروى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثاً .

راجع الاصابة ت ٦١١٩ والاستيعاب بهامشها ٣ : ١٥ وحلية الأولياء ١ : ٣٠٨ والتاج ٢ :
٣٤٦ وغاية النهاية ١ : ٦٠٦ وفيه هو عويمر بن زيد أو ابن عبد الله أو ابن ثعلبة أو ابن عامر
ابن غنم « وصفة الصفوة ١ : ٢٥٧

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢ .

والأرض ﴿ (١) الآية .

قال أبي بن كعب (٢) وغيره : هو مثل نور المؤمن وهو نوره الذي في قلب عبده المؤمن الناشئ عن العلم النافع والعمل الصالح ، وذلك بينة من ربه . وقال : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٣) ، وهو الهدى المذكور في قوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ (٤) واستعمل في هذا حرف الاستعلاء لأن القلب لا يستقر ولا يثبت إلا إذا كان عالماً موقناً بالحق . فيكون العلم والإيمان صبغة له ينصبغ بها كما قال : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ؟ ! ﴾ (٥) ويصير مكانة له ، كما قال : ﴿ قُلْ : يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) والمكان والمكانة قد يراد به ما يستقر الشيء عليه وإن لم يكن محيطاً به كالسقف مثلاً ، وقد يراد به ما يحيط به .

فالمهتدون لما كانوا على هدى من ربهم ونور وبينة وبصيرة صار مكانة لهم استقروا عليها ، وقد تحيط بهم ، بخلاف الذين قال فيهم : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ (٧) فإن هذا ليس ثابتاً مستقراً مطمئناً ، بل هو كالواقف على حرف الوادي وهو جانبه ، فقد يطمئن إذا أصابه خير وقد ينقلب على

(١) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٢) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد من بني النجار توفي عام ٢١ هـ راجع ترجمة له في طبقات ابن سعد ٣ القسم الثاني ٥٩ وغاية النهاية ١ : ٣١ وصفة الصفوة ١ : ١٨٨ وحلية ١ : ٢٥٠ والجمع ٣٩ وفيه وفاته سنة ٢٢ هـ والكواكب الدرية ١ : ٤٥

(٣) سورة الزمر آية رقم ٢٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٣٨ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٣٥ .

(٧) سورة الحج آية رقم ١١ .

وجهه ساقطاً في الوادي .

وكذلك فرق بين من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان وبين ﴿ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (١) وكذلك الذين كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها ، وشواهد هذا كثير .

فقد تبين أن الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة وهدى ونور ، وهو الإيمان الذي في قلوبهم ، والعلم والعمل الصالح ، ثم قال : ﴿ وَيَتْلَوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (٢) والضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ عائد إلى الله تعالى ، أي : ويتلو هذا الذي هو على بينة من ربه شاهد من الله ، والشاهد من الله كما أن البينة التي هو عليها المذكورة من الله أيضاً .

وأما قول من قال : « الشاهد » من نفس المذكور وفسره بلسانه ، أو بعلي بن أبي طالب (٣) ، فهذا ضعيف ، لأن كون شاهد الإنسان منه لا يقتضي أن يكون الشاهد صادقاً ، فإنه مثل شهادة الإنسان لنفسه ؛ بخلاف ما إذا كان الشاهد من الله ، فإن الله يكون هو الشاهد ، وهذا كما قيل في قوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٤) إنه علي فهذا ضعيف لأن شهادة قريب له قد اتبعه على دينه ولم يهتد إلا به لا تكون برهاناً للصدق ولا حجة على الكفر ، بخلاف شهادة من عنده علم الكتاب الأول فإن هؤلاء شهادتهم برهان ورحمة ، كما قال في هذه السورة : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ (٦)

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٩ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٣) قال محمد بن علي بن الحنفية : قلت لأبي أنت الشاهد . ؟ فقال وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله - ﷺ -

(٤) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٥) سورة الأحقاف آية رقم ١٢ .

(٦) سورة الأحقاف آية رقم ١٠ .

وقال : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١) الآية ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٢) وهذا الشاهد من الله هو القرآن . ومن قال : إنه جبريل لم يقل شيئاً من تلقاء نفسه ، بل هو الذي بلغ القرآن عن الله ، وجبريل يشهد أن القرآن منزل من الله ، وأنه حق ، كما قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (٣) والذي قال هو جبريل . قال : يتلوه ، أي يقرأه كما قال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٤) أي إذا قرأه جبريل فاتبع ما قرأه . وقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (٥) .

ومن قال : الشاهد لسانه وجعل الضمير المذكور عائداً على القرآن ولم يذكر ، لأنه جعل البيئة هي القرآن ، ولو كانت البيئة هي القرآن لما احتاج إلى ذلك وقد قال : على بيئة من ربه فقد ذكر أن القرآن من الله ، وقد علم أنه نزل به جبريل على محمد ، وكلا [هما] بلغه وقرأه ، فقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ جبريل أو محمد تكرر لا فائدة فيه ولهذا لم يذكر مثل ذلك في القرآن . وأيضاً : فكونه على القرآن لم نجد لذلك نظيراً في القرآن ، فإن القرآن كلام الله واحد لا يكون عليه ، وإذا [كان] المراد على الإيمان بالقرآن والعمل به ، فهذا الذي ذكرناه : إن البيئة هي الإيمان بما جاء به الرسول ، وهو إخباره أنه رسول الله ، وأن الله أنزل القرآن عليه .

ولما أنزلت هذه السورة وهي مكية ، لم يكن قد نزل من القرآن قبلها إلا بعضه ، وكان المأمور به حينئذ هو الإيمان بما نزل منه ، فمن آمن حينئذ بذلك ومات على ذلك كان من أهل الجنة . وأيضاً فتسمية جبريل شاهداً لا

(١) سورة يونس آية رقم ٩٤ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٤) سورة القيامة آية رقم ١٨ .

(٥) سورة النجم آية رقم ٥ .

نظير له في القرآن ، وكذلك تسمية لسان الرسول شاهداً ، وتسمية علي شاهداً لا يوجد مثل ذلك في الكتاب والسنة ، بخلاف شهادة الله ، فإن الله أخبر بشهادته لرسوله في غير موضع ، وسمى ما أنزله شهادة منه في قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (١) فدل على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه .

وهو سبحانه يحكم ويشهد ، ويفتي ويقص ، ويشر ، ويهدي بكلامه ، ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتي ويقص ويهدي ويشر وينذر ، كما قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ (٢) ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ (٣) وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤) وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (٥) وقال : ﴿ قُلِ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (٦) وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٧) .

وكذلك سمي الرسول هادياً فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٨) كما سماه بشيراً ونذيراً ، وسمى القرآن بشيراً ونذيراً فذلك لما كان هو يشهد للرسول والمؤمنين بكلامه الذي أنزله ، وكان كلامه شهادة منه : كان كلامه شهادة منه كما كان يحكي ويفتي ، ويقص ويشر وينذر .

ولما قيل لعلي بن أبي طالب حكمت مخلوقاً قال : ما حكمت مخلوقاً

-
- (١) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .
 - (٢) سورة النساء آية رقم ١٢٧ .
 - (٣) سورة النساء آية رقم ١٧٦ .
 - (٤) سورة النمل آية رقم ٧٦ .
 - (٥) سورة يوسف آية رقم ٣ .
 - (٦) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .
 - (٧) سورة الاسراء آية رقم ٩ .
 - (٨) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

وإنما حكمت القرآن ، فإن الذي يحكم به القرآن هو حكم الله والذي يشهد به القرآن هو شهادة الله عز وجل . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقد كان إماماً ، وأخذ التفسير عن أبيه زيد ، وكان زيد إماماً فيه ، ومالك وغيره أخذوا عنه التفسير ، وأخذه عنه عبد الله بن وهب ^(١) صاحب مالك ، وأصبح بن الفرج الفقيه . قال - في قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(٢) : قال رسول الله : « كان على بينة من ربه » والقرآن يتلوه شاهد أيضاً ؛ لأنه من الله .

وقد ذكر الزجاج فيما ذكره من الأقوال : ويتلو رسول الله القرآن ، وهو شاهد من الله ، وقال أبو العالية : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هو محمد ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ القرآن ، قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية ^(٣) ، ومجاهد ، وأبي صالح ، وإبراهيم ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وخصيف ، وابن عيينة نحو ذلك . وهذا الذي قالوه صحيح ؛ ولكن لا يقتضي ذلك أن المتبعين له ليسوا على بينة من

(١) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء ، المصري ، أبو محمد فقيه من الأئمة من أصحاب الإمام مالك - جمع بين الفقه والحديث والعبادة له كتب منها « الجامع في الحديث مجلدان » والموطأ في الحديث عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم منزله مولده ووفاته بمصر ١٢٥ هـ - ١٩٧ هـ

راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٧٩ وتهذيب ٦ : ٧١ والوفيات ١ : ٢٤٩ والانتقاء ٤٨ والمكتبة الأزهرية ١ : ٤٠٢

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٣) هو محمد بن علي بن أبي طالب ، الهاشمي القرشي ، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام ، وهو أخو الحسن والحسين غير أن أمهما فاطمة الزهراء ، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية ينسب لها تمييزاً له عنهما وكان يقول : الحسن والحسين أفضل مني وأنا أعلم منهما ، كان واسع العلم ورعاً أسود اللون ولد عام ٢١ بالمدينة وتوفي بها عام ٨١ هـ .

راجع طبقات ابن سعد ٥ : ٦٦ ووفيات الأعيان ١ : ٤٤٩ وصفة الصفوة ٢ : ٤٢ وحلية الأولياء ٣ : ١٧٤

ربهم ؛ بل هم على بينة من ربهم وقد قال الحسن البصري : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال : المؤمن على بينة من ربه ، ورواه ابن أبي حاتم وروى عن الحسين بن علي ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ يعني محمداً شاهد من الله ؛ وهي تقتضي أن يكون الذي على البينة من شهد له .

وقول القائل : من قال هو محمد كقول من قال هو جبريل ، فإن كلاهما بلغ القرآن ، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس فاصطفي جبريل من الملائكة ، واصطفي محمداً من الناس ، وقال في جبريل : ﴿ إِنَّهُ لِقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ^(١) وقال في محمد : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ^(٢) وكلاهما رسول من الله ؛ كما قال ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ، رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ ^(٣) ، فيها كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿ فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به ، وهو يشهد أن ما جاء به هو كلام الله ، وأما شهادتهم بما شهد به القرآن فهذا قدر مشترك بين كل من آمن بالقرآن فإنه يشهد بكل ما شهد به القرآن ؛ لكونه آمن به ، سواء كان قد بلغه أو لم يبلغه .

ولهذا كان إيمان الرسول بما جاء به تبليغه له ، وهو مأمور بهذا وبهذا وله أجر على هذا وهذا ، كما قال : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) ولهذا كان يقول أشهد أني عبد الله ورسوله فشهادة جبريل ومحمد بما شهد به القرآن من جهة إيمانهما به ، لا من جهة كونهما مرسلين به ، فإن الإرسال يتضمن شهادتهما أن الله قاله ، وقد يرسل غير رسول بشيء فيشهد الرسول أن هذا كلام المرسل وإن لم يكن المرسل صادقاً ولا حكيماً ، ولكن علم أن جبريل ومحمد يعلمان [أن] الله صادق حكيم ، فهما

(١) سورة التكويد آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الحاقة آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة البينة آية رقم ١ - ٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

يشهدان بما شهد الله به وكذلك الملائكة والمؤمنون يشهدون بأن ما قاله الله فهو حق ، وأن الله صادق حكيم ، لا يخبر إلا بصدق ، ولا يأمر إلا بعدل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (١)

فقد تبين أن شهادة جبريل ومحمد هي شهادة القرآن ، وشهادة القرآن هي شهادة الله تعالى ، والقرآن شاهد من الله ، وهذا الشاهد يوافق ويتبع ذلك الذي على بينة من ربه ؛ فإن البينة والبصيرة والنور والهدى الذي عليه النبي ﷺ والمؤمنون قد شهد القرآن المنزل من الله بأن ذلك حق ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ معناه يتبعه ، كما قال ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ (٢) أي يتبعونه حق اتباعه ، وقال : ﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا ﴾ (٣) أي تبعها ، وهذا قضاؤه إذا تبعه . وقد قال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٤) فهذا الشاهد يتبع الذي على بينة من ربه فيصدقه ، ويزكيه ، ويؤيده ويثبت ، كما قال ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئُ بِهِ فَوَادِّكَ ﴾ (٦) وقال : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (٧)

وقد سمي الله القرآن - سلطاناً في غير موضع ، فإذا كان السلطان المنزل من الله يتبع هذا المؤمن كان ذلك مما يوجب قوته وتسلطه علماً

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٥ .

حكى الرمانى عن قتادة : لا مبدل لها فيما حكم به ، أي أنه وإن أمكنه التغيير والتبديل في الألفاظ كما غير أهل الكتاب التوراة والإنجيل فإنه لا يعتد بذلك ، ودلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٢١ .

(٣) سورة الشمس آية رقم ٢ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(٥) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٦) سورة هود آية رقم ١٢٠ .

(٧) سورة المجادلة آية رقم ٢٢ .

وعملًا ، وقال : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ ^(٢)
الآية .

وقال جندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر : تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ، فهم كانوا يتعلمون الإيمان ، ثم يتعلمون القرآن ، وقال بعضهم في قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ ^(٣) قال : نور القرآن على نور الإيمان ، كما قال : ﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ ^(٤) وقال السدي في قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعهما ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه .

فتبين أن قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يعني هدى الإيمان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي من الله يعني القرآن شاهد من الله يوافق الإيمان ويتبعه ، وقال : ﴿ يَتْلُوهُ ﴾ لأن الإيمان هو المقصود ؛ لأنه إنما يُراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته . ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة ، بل صاحبه منافق كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ

(١) سورة الاسراء آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢٤ .

(٣) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

القرآن كمثّل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها (١) .

ولهذا جعل الإيمان ﴿ بينة ﴾ وجعل القرآن شاهداً ؛ لأن البينة من البيان ، و« البينة » هي السبيل البينة ، وهي الطريق البينة الواضحة ، وهي أيضاً ما يبين بها الحق ، فهي بينة في نفسها ، مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد ؛ فتكون كالهدى كما يقال : فلان على هدى وعلى علم ؛ فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل ، ومنه قوله : ﴿ أَوْ لَمْ تأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ (٢) أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها ، أو الأمر البين فيها ، وقد سمي الرسول بينة كما قال : ﴿ حَتَّى تأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ، رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ ﴾ (٣) فإنه يبين الحق ، والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه ، والشاهد المقصود به شهادته للمشهود له ، فهو يشهد للمؤمن بما هو عليه ، وجعل الإيمان من الله كما جعل الشاهد من الله ، لأن الله أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال ، كما في الصحيحين عن حذيفة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » .

وأيضاً : فالإيمان ما قد أمر الله به .

وأيضاً فالإيمان إنما هو ما أخبر به الرسول ، وهذا أخبر به الرسول لكن

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ١٧ باب فضل القرآن على سائر الكلام ٥٠٢٠ - حدثنا همام حدثنا قتادة ، حدثنا أنس بن مالك عن أبي موسى الأشعري عن النبي - ﷺ - وذكره . ورواه في التوحيد ٥٧ ، ورواه الامام مسلم في المسافرين ٢٤٣ وأبو داود في الأدب ١٦ ، والترمذي في الأدب ٧٩ ، وابن ماجه في المقدمة ١٦ والدارمي في فضائل القرآن ٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٩٧ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، (حلي) .

(٢) سورة طه آية رقم ١٣٣ .

(٣) سورة البينة آية رقم ١ - ٢ .

الرسول له وحيان ، وحي تكلم الله به يتلى ، ووحى لا يتلى فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ (١) الآية ، وهو يتناول القرآن والإيمان . وقيل الضمير في قوله : ﴿ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢) يعود إلى الإيمان ، ذكر ذلك عن ابن عباس ، وقيل : إلى القرآن . وهو قول السدي ، وهو يتناولهما ، وهو في اللفظ يعود إلى الروح الذي أوحاه ، وهو الوحي الذي جاء بالإيمان والقرآن . فقد تبين أن كلاهما من الله نور وهدى منه ، هذا يعقل بالقلب ، لما قد يشاهد من دلائل الإيمان ، مثل دلائل الربوبية والنبوة ، وهذا يسمع بالأذان ، والإيمان الذي جعل للمؤمن هو مثل ما وعد الله به في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٣) أي أن القرآن حق ، فهذه الآيات متأخرة عن نزول القرآن ، وهو مثل ما فعل من نصر رسوله والمؤمنين يوم بدر ، وغير يوم بدر ، فإنه آيات مشاهدة ، صدقت ما أخبر به القرآن ، ولكن المؤمنون كانوا قد آمنوا قبل هذا .

وقيل : نزول أكثر القرآن الذي ثبت الله به لنبيه وللمؤمنين ولهذا قال : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤) فهو يشهد لرسوله بأنه صادق بالآيات الدالة على نبوته ، وتلك آمن بها المؤمنون ثم أنزل من القرآن شاهداً له ، ثم أظهر آيات معينة تبين لهم أن القرآن حق .

(١) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

والآفاق : النواحي ، واحداً أفق وأفق مثل عُسْرَ وَعُسْرَ ورجل أفقي بفتح الهمزة والفاء إذا كان من آفاق الأرض . حكاه أبو نصر وبعضهم يقول : أفقي بضمها وهو القياس وأنشد غير الجوهري :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع
(٤) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

فالقرآن وافق الإيمان ، والآيات المستقبلية وافقت القرآن والإيمان ولهذا قال : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (١) فقلوه : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ يعود الضمير إلى الشاهد الذي هو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ (٢) الآية ، ثم قال : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (٣) الآية ، فقلوه : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ الضمير يعود إلى القرآن ، أي : من قبل القرآن ، كما قاله ابن زيد . وقيل : يعود إلى الرسول ، كما قاله مجاهد ، وهما متلازمان .

وقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ ﴾ فيه وجهان : قيل : هو عطف مفرد ، وقيل : عطف جملة . قيل المعنى ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ، ويتلوه أيضاً من قبله كتاب موسى ، فإنه شاهد بمثل ما شهد به القرآن وهو شاهد من الله ، وقيل : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ جملة ولكن مضمون الجملة فيها تصديق القرآن ، كما قال في الأحقاف . وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يدل على أن قوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ تتناول المؤمنين ، فإنهم آمنوا بالكتاب الأول والآخر ، كما تتناول النبي ﷺ ، وأولئك يعود إليهم الضمير ، فإنهم مؤمنون به بالشاهد من الله ، فالإيمان به إيمان بالرسول والكتاب الذي قبله .

(١) سورة الأحقاف رقم ١٢ .

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ١٠ .

قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سلام شهد على اليهود أن رسول الله - ﷺ - مذكور في التوراة وأنه نبي من عند الله - وفي الترمذي عنه - ونزلت في آيات من كتاب الله . نزلت في : وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . وقال مسروق : هو موسى والتوراة لا ابن سلام لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية وقال ، وقوله ﴿ وكفرتكم ﴾ به مخاطباً لقريش . وقال الشعبي : هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة لأن ابن سلام إنما أسلم قبل وفاة النبي - ﷺ - - بعامين (والسورة مكية)

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ١٢ .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ (١) وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وغيرهما عن أيوب عن سعيد بن جبير قال : ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجه إلا وجدت تصديقه في كتاب الله ؛ حتى بلغني أنه قال : « لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أرسلت به » إلا دخل النار . قال سعيد : فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ (٢) والأحزاب هم أصناف الأمم ، الذين تحزبوا وصاروا أحزاباً ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ (٣)

وقد ذكر الله طوائف الأحزاب في مثل هذه السورة وغيرها ، وقد قال تعالى عن مكذبي محمد ﷺ : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ (٤) وهم الذين قال فيهم ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُبِينٌ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥) .

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٣) سورة غافر آية رقم ٥ .

(٤) سورة ص آية رقم ١١ .

(٥) سورة الروم الآيات من ٣٠ - ٣٢ .

في الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ - ما من مولود إلا يولد على الفطرة - في رواية - على هذه الملة أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة : وقرأوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ في رواية : حتى تكونوا أنتم تجدعونها . قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً قال : الله أعلم بما كانوا عاملين « لفظ الإمام مسلم .

وقال عن أحزاب النصارى : ﴿ قَاتَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) الآيات وأما من قال : الضمير في قوله ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعود على أهل الحق قال : إنه موسى وعيسى ومحمد ، فإنه أراد بهم من كان مؤمناً بالكتابين قبل نزول القرآن فلم يتقدم لهم ذكر ، والضمير في قوله ﴿ بِهِ ﴾ مفرد ، ولو آمن مؤمن بكتاب موسى دون الإنجيل بعد نزوله وقيام الحجة عليه به لم يكن مؤمناً .

وهذان القولان حكاهما أبو الفرج ولم يسم قائلهما ، والبغوي وغيره لم يذكرنا نزاعاً في أنهم من آمن بمحمد ، ولكن ذكروا قولاً أنهم من آمن به من أهل الكتاب ، وهذا قريب ، ولعل الذي حكى قولهم أبو الفرج أرادوا هذا ، وإلا فلا وجه لقولهم . ومن العجب أن أبا الفرج ذكر بعد هذا في الأحزاب أربعة أقوال : « أحدها » أنهم جميع الملل ، قاله سعيد بن جبير . و« الثاني » اليهود والنصارى ، قاله قتادة . و« الثالث » قريش ، قاله السدي .

و« الرابع » بنو أمية وبنو المغيرة ، قال [أي] أبي طلحة بن عبد العزى قاله مقاتل .

وهذه الآية تقتضي أن الضمير يعود إلى القرآن في قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ وكذلك : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إنه القرآن ودليله قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾^(٢) وهذا هو القرآن بلا ريب ، وقد قيل : هو الخبر المذكور ، وهو أنه من يكفر به من الأحزاب ، وهذا أيضاً هو القرآن ، فعلم أن المراد هو الإيمان بالقرآن ، والكفر به باتفاقهم ، وأنه من قال في أولئك أنهم غير من آمن بمحمد لم يتصور ما قال .

وقد تقدم في قوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾^(٣) وجهان ، هل هو

(١) سورة مريم آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٧ .

عطف جملة أو مفرد ؛ لكن الأكثرون على أنه مفرد ، وقال الزجاج المعنى :
وكان من قبل هذا كتاب موسى دليل على أمر محمد فيتلون كتاب موسى عطفاً
على قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(١) أي ويتلو كتاب موسى ؛ لأن موسى
وعيسى بشراً بمحمد في التوراة والإنجيل ونصب إماماً على الحال .

قلت : قد تقدم أن الشاهد يتلو على من كان على بينة من ربه ، أي
يتبعه شاهداً له بما هو عليه من البينة ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ
رَبِّهِ ﴾ ؟ كمن لم يكن ، قال الزجاج ؛ وترك المعادلة لأن فيها بعده دليلاً عليه ، وهو
قوله : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ ^(٢) قال ابن
قتيبة : لما ذكر قبل هذه الآية قوماً ركنوا إلى الدنيا وأرادوها جاء بهذه الآية
وتقدير الكلام : أفمن كانت [هذه] حاله كمن يريد الدنيا ؟ فاكتمى من
الجواب بما تقدم إذ كان دليلاً عليه ، وقال ابن الأنباري ^(٣) : إنما حذف
لانكشاف المعنى ، وهذا كثير في القرآن .

قلت : نظير هذه الآية من المحذوف : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ
حَسَنًا ﴾ ^(٤) كمن ليس كذلك ، وقد قال بعد هذا : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ
الْأَحْزَابِ ﴾ ^(٥) وهذا هو القسم الآخر المعادل لهذا الذي هو على بينة من
ربه ، وعلى هذا يكون معناها ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ
سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ^(٦) ويكون أيضاً معناها : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى
بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي بصيرة في دينه ، كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وهذا

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ٢٤ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٨ .

(٥) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٦) سورة محمد آية رقم ١٤ .

كقوله : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ^(١) الآية . وكقوله ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي ؟ ﴾ ^(٣) الآية .

والمحذوف في مثل هذا النظم قد يكون غير ذلك ، كقوله : ﴿ أَوْ مَنْ يُشَاءُ فِي الْحِلْيَةِ ؟ ﴾ ^(٤) أي تجعلون له من ينشأ في الحلية ، ولا بد من دليل على المحذوف ، وقد يكون المحذوف ، مثل أن يقال : أَفَمَنْ هذه حاله يُدْمُ أو يطعن عليه أو يعرض عن متابعتة ، أو يفتن أو يعذب كما قال : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٥) .

وقد قيل في هذه الآية أن المحذوف : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ فرأى الباطل حقاً ؟ والقيح حسناً كمن هداه الله فرأى الحق حقاً والباطل باطلاً والقيح قبيحاً والحسن حسناً ؟ وقيل : جوابه تحت قوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ ^(٦) لكن يرد عليه أن يقال : الاستفهام ما معناه إلا أن تقدر ، أي هذا تقدر أن تهديه ، أوريك ؟ أو تقدر أن تجزيه كما قال : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ^(٧) ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ^(٨) الآية . وعلى هذا يكون معناها كمعنى قوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ ^(٩) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة محمد آية رقم ١٤ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٣٥ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ١٨ .

(٥) سورة فاطر آية رقم ٨ .

(٦) سورة فاطر آية رقم ٨ .

(٧) سورة الفرقان آية رقم ٤٣ .

(٨) سورة الجاثية آية رقم ٢٣ .

(٩) سورة محمد آية رقم ١٤ .

وعلى هذا فالمعنى هنا : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ ^(١) يذم ويخالف ويكذب ونحو ذلك ، كقوله ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ؟ ﴾ ^(٢) وحذف جواب الشرط ، وكقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ، أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ ^(٣) .

فقد يبين أن معنى الآية من أشرف المعاني وهذا هو الذي ينتفع به كل أحد ، وإن الآية ذكرت من كان على بينة من ربه ، من الإيمان الذي شهد له القرآن ، فصار على نور من ربه وبرهان من ربه على ما دلت عليه البراهين العقلية والسمعية ، كما قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ ^(٤) فالنور المبين المنزل يتناول القرآن . قال قتادة : بينة من ربكم ، وقال الثوري : هو النبي ﷺ ، وقال البغوي : هذا قول المفسرين ولم أجده منقولاً من غير الثاني ، ولا ذكره ابن الجوزي عن غيره .

وذكر في البرهان ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الحجة ، والثاني أنه الرسول ، وذكر أنه القرآن عن قتادة ، والذي رواه ابن أبي حاتم عن قتادة بالإسناد الثابت أنه بينة من الله ، والبينة والحجة تتناول آيات الأنبياء التي بعثوا بها ، فكل ما دل على نبوة محمد ﷺ فهو برهان ، قال تعالى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(٥) وقال لمن قال : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ ^(٦) .

ومحمد هو الصادق المصدق ، قد أقام الله على صدقه براهين كثيرة

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ٢٨ والأنعام ٥٧ .

(٣) سورة العلق آية رقم ١١ - ١٣ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٧٤ .

(٥) سورة القصص آية رقم ٣٢ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

وصار محمد نفسه برهاناً ، فأقام من البراهين على صدقه ؛ فدليل الدليل دليل ، وبرهان البرهان برهان ، وكل آية له برهان ، والبرهان اسم جنس لا يراد به واحد ، كما في قوله : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) ولو جاؤوا بعده ببراهين كانوا ممثليين . « والمقصود » أن ذلك البرهان يعلم بالعقل أنه دال على صدقه وهو بينة من الله كما قال قتادة ، وحجة من الله ، كما قال مجاهد والسدي : المؤمن على تلك البينة ويتلوه شاهد من الله وهو النور الذي أنزله مع البرهان ، والله أعلم .

(١) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

فصل

وأما من قال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إنه محمد ﷺ ، كما قاله طائفة من السلف ، فقد يريدون بذلك التمثيل لا التخصيص ، فإن المفسرين كثيراً ما يريدون ذلك ، ومحمد هو أول من كان بَيِّنَةً من ربه ، وتلاه شاهد منه ، وكذلك الأنبياء ، وهو أفضلهم وإمامهم ، والمؤمنون تبع له ، وبه صاروا على بنية من ربهم . والخطاب قد يكون لفظ له ومعناه عام ، كقوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ ^(١) ﴿ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ^(٢) ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ ^(٣) ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ ^(٤) ونحو ذلك ، وذلك أن الأصل فيما خاطب به النبي ﷺ في كل ما أمر به ونهي عنه وأبيح له سار في حق أمته كمشاركة أمته له في الأحكام

(١) سورة يونس آية رقم ٩٤ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦٥ .

(٣) سورة الشرح آية رقم ٧ .

(٤) سورة سبأ آية رقم ٥٠ وتكملة الآية ﴿ وإن اهتديت فيما يوحى إلي ربي إنه سميع قريب ﴾ .

أي الخير كله من عند الله وفيما أنزله الله عز وجل من الوحي والحق المبين ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه .

وغيرها ، حتى يقوم دليل التخصيص ، فما ثبت في حقه من الأحكام ثبت في حق الأمة إذا لم يخص ، هذا مذهب السلف والفقهاء ، ودلائل ذلك كثيرة كقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ ^(١) الآية ، ولما أباح له الموهوبة قال : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) الآية .

فإذا كان هذا مع كون الصيغة خاصة فكيف تجعل الصيغة العامة له وللمؤمنين مختصة به ؟ ولفظ ﴿ من ﴾ أبلغ صيغة العموم ؛ لا سيما إذا كانت شرطاً أو استفهاماً ، كقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ^(٥) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ؟ ﴾ ^(٦)

« وأيضاً » فقد ذكر بعد ذلك قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ ^(٧) وذكر بعد هذا : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ وقد تقدم قبل هذا ذكر الفريقين ، وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى جماعة ، ولم يقدم قبل هذا ما يصلح أن يكون مشاراً إليه إلا ﴿ من ﴾ والضمير يعود تارة إلى لفظ ﴿ من ﴾ وتارة إلى معناها كقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ^(٨) ،

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٨ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢ .

(٦) سورة محمد آية رقم ١٤ .

(٧) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٨) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ وتكملة الآية ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك بمجادلونك يقولونك كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى ﴾ ^(٢) ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ^(٣) الآية .

وأما الإشارة إلى معناها فهو أظهر من الضمير . فقلوه : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ دليل على أن الذي على بينة من ربه كثيرون لا واحد قال ابن أبي حاتم : ثنا عامر بن صالح عن أبيه عن الحسن البصري : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال : المؤمن على بينة من ربه ، وهذا الذي قاله الحسن البصري هو الصواب ، والرسول هو أول المؤمنين ، كما قال : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة يونس آية رقم ٤٢ وتكملة الآية ﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٤ وتكملة الآية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٩٧ وتكملة الآية ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وقد اختلف العلماء في الحياة الطيبة . روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ، ووهب بن منبه وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها السعادة ، والصحيح أنها الحياة الطيبة لأنها تشمل كل ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد ، حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني شرحبيل بن أبي شريك عن عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله - ﷺ قال : قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه « ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ به ، وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجهني عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله - ﷺ يقول : قد أفلح من هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به » .

وقال الترمذي : هذا حديث صحيح . وقال الإمام أحمد ، حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً « انفرد باخراجه مسلم .

(٤) سورة يونس آية رقم ١٠٤ .

ومن قال : إن الشاهد من الله هو محمد كما رواه ابن أبي حاتم ، ثنا الأشج ، ثنا أبو أسامة عن عوف عن سليمان الغلابي ، عن الحسين بن علي : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(١) ، يعني محمداً شاهداً من الله فهنا معنى كونه شاهداً من الله هو معنى كونه رسول الله وهو يشهد للمؤمنين بأنهم على حق ، وإن كان يشهد لنفسه بأنه رسول الله فشهادته لنفسه معلومة قد علم أنه صادق فيها بالبراهين الدالة على نبوته ، وأما شهادته للمؤمنين فهو إنها إنما تعلم من جهته بما بلغه من القرآن ، ويخبر به عن ربه ، فهو إذا شهد كان شاهداً من الله .

وأما شهادته عليهم بالإيمان والتصديق وغير ذلك فكما في قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ ^(٢) ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ ^(٣) لكن من قال هذا فقد يريد بالبيئة القرآن ، فإن المؤمن متبع للقرآن ومحمد شاهد من الله يتلوه كما تلاه جبريل .

ومن قال إن الشاهد لسان محمد فهو إنما أراد بهذا القول التلاوة أي : إن لسان محمد يقرأ القرآن وهو شاهد منه أي من نفسه فإن لسانه جزء منه ، وهذا القول ونحوه ضعيف . والله أعلم هذا إن ثبت ذلك عمن نقل عنه ، فإن هذا وضده ينقلان عن علي بن أبي طالب .

وذلك أن طائفة من جهال الشيعة ظنوا أن علياً هو الشاهد منه أي من النبي ﷺ ، كما قال له : « أنت مني وأنا منك » وهذا قاله لغيره فقد ثبت في الصحيحين أنه قال « الأشعريون » هم مني وأنا منهم . وقال عن جليبيب : « هذا مني وأنا منه » . وكل مؤمن هو من النبي ﷺ ، كما قال الخليل :

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٤١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ^(١) وقال : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ^(٢) ورووا هذا القول عن علي نفسه ، وروي عنه بإسناد أجود منه أنه قال : كذب من قال هذا ، قال ابن أبي حاتم : ذكر عن حسين بن زيد الطحان ، ثنا إسحاق بن منصور ، ثنا سفيان ، عن الأعمش عن المنهال ، عن عباد بن عبد الله قال : قال علي : ما من قريش أحد إلا نزلت فيه آية ، قيل فما أنزل فيك ؟ قال ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهذا كذب علي علي قطعاً ، وإن ثبت النقل عن عباد هذا فإن له منكرات عنه ، كقوله : أنا الصديق الأكبر أسلمت قبل الناس بسبع سنين .

وقد رووا عن علي ما يعارض ذلك ، قال ابن أبي حاتم « ثنا أبي ثنا عمرو بن علي الباهلي ، ثنا محمد بن شواص ، ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، عن عروة ، عن محمد بن علي - يعني ابن الحنفية - قال : قلت لأبي : يا أبة ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ ^(٣) : إن الناس يقولون : إنك أنت هو ، قال : وددت لو أني أنا هو » ولكنه لسانه ؟ قال ابن أبي حاتم : وروي عن الحسن وقتادة ونحو ذلك .

قلت : وقد تقدم عن الحسين ابنه إن ﴿الشاهد منه﴾ هو محمد ﷺ ،

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٤٩ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٧ وتكملة الآية : ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كُتِبَ لَهُمُ مَا عَمِلُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْلَفُ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْهَمَهُمُ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْهُمْ وَبَيَّنَّا لَهُمْ آيَاتِهِمْ فَآمَنُوا وَتَوَلَّى سَوَاسِ الْأَرْضِ لَمَّا تَوَلَّيْنَا الْكَعْبَةَ عَلَى الْكَلْبِ فَأَمَرْنَا الَّذِينَ تُبَدِّلُ السَّمْعَ أَنْ يَنْبَغِ لَهُمْ وَأَنَّهُمْ يَفْهَمُونَ﴾ . وعند تفسير هذه الآية قال الإمام ابن كثير وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء .. ؟ الحديث وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ - قال : يقول الله تعالى : ﴿إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحمرت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً﴾ .

وإنما تكلم علماء أهل البيت في أنه محمد رداً على من قال من الجهلة : إنه علي ؛ فإن هذه السورة نزلت بمكة ، وعلي كان إذ ذاك صغيراً لم يبلغ ، وكان ممن اتبع الرسول ولو كان ابن رسول الله ليس ابن عمه لم تكن شهادته تنفع ، لا عند المسلمين ولا عند الكفار ، بل مثل هذه الشهادة فيها تهمة القرابة .

ولهذا كان أكثر العلماء على أن شهادة الوالد وشهادة الولد لوالده لا تقبل ، فكيف يجعل مثل هذا حجة لنبوة محمد ﷺ مؤكداً لها ؟ ولذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ^(١) إنه علي ، وهم مع كذبهم هم أجهل الناس ، فإنهم نسبوا الله والرسول إلى الاحتجاج بما لا يحتج به إلا جاهل ، فأرادوا تعظيم علي فنسبوا الله والرسول إلى الجهل ، وعلي إنما فضيلته باتباعه للرسول ، فإذا قدح في الأصل بطل الفرع .

وأما قول من قال من المفسرين : إن « الشاهد » جبريل عليه السلام فقد روى ذلك عكرمة عن ابن عباس ، ذكره ابن أبي حاتم عنه ، وعن أبي العالية ، وأبي صالح ، ومجاهد في إحدى الروايات عنه وإبراهيم وعكرمة والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك ، وهؤلاء جعلوا ﴿ يَتْلُوهُ ﴾ بمعنى يقرأه ، أي : ويتلو القرآن الذي هو البينة : شاهد من الله هو ، وقيل : بل معنى قولهم : إن القرآن يتلوه جبريل هو شاهد محمد ﷺ ، أي الذي يتلوه جاء من عند الله .

وقد تقدم بيان ضعف هذا القول ، فإن كل من فسر يتلوه بمعنى يقرأه جعل الضمير فيه عائداً إلى القراءة ، وجعل الشاهد غير القرآن .

والقرآن لم يتقدم له ذكر إنما قال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ^(٢).

(١) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

والبيئة لا يجوز أن يكون تفسيرها بحفظ القرآن ، فإن المؤمنين كلهم على بيئة من ربهم وإن لم يحفظوا القرآن ؛ بخلاف البصيرة في الدين فإنه من لم يكن على بصيرة من ربه لم يكن مؤمناً حقاً ، بل من القائلين - لمنكر ونكير - آه آه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ^(١) . والقرآن إنما مدح من كان على بيئة من ربه ، فهو على هدى ونور وبصيرة سواء حفظ القرآن أو لم يحفظه ، وإن أريد اتباع القرآن فهو الإيمان وأكثر القرآن لم يكن نزل حين نزول هذه الآية ، وقد تقدم إنما يختص به جبريل ومحمد فهو تبليغ الرسالة عن الله وصدقهما في ذلك وأما كون رسالة الله حقاً فهذا هو المشهود به [من] كل رسول ، وهما لا يختصان بذلك بل يؤمنان به كما يؤمن كل ملك وكل مؤمن ، وشهادتهما بأن النبي والمؤمنين على حق من هذا الوجه الثاني المشترك ولو قال : ويبلغه وينزل به رسول من الله لكان ما قالوه متوجهاً ، كما قال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ ^(٢) ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ ^(٣) ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) أما كونه شاهداً يقرأه فهذا لا نظير له في القرآن .

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام البخاري في كتاب الجنائز ٦٧ باب الميت يسمع خفق النعال ١٣٣٨ - حدثنا ابن زريع ، حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : العبد إذا وضع في قبره وتولي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فأقعدها فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل - محمد - ﷺ - فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله - فيقال : أنظر الى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبي - ﷺ - فيراهما جميعاً ، وأما الكافر - أو المنافق فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقه من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » ورواه أبو داود في السنة ٢٤ والنسائي في الجنائز ١١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤ ، ١٢٦ ، ٤ : ٢٩٦ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٩٧ .

و« أيضاً » فالشاهد الذي هو من الله هو الكلام ، فإن الكلام نزل منه كما يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، ويقال في الرسول أنه منه ، كما قال رسول من الله ، ويقال في الشخص الشاهد فيقال فيه هو من شهداء الله ، وأما كونه يقال فيه شاهد من الله إنها برهان من الله ، وآيات من الله في الآيات التي يخلقها الله تصديقاً لرسوله فهذا يحتاج استعماله إلى شاهد .

والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة في القرآن ، فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت لا يعدل عن لغته المعروفة مع وجودها وإنما يحتاج إلى غير لغته في لفظ لم يوجد له نظير في القرآن ، كقوله : ﴿ وَيَ كَأَنَّ اللَّهَ ﴾ ^(١) ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ^(٢) ﴿ وَكَأَسَا دِهَاقًا ﴾ ^(٣) ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ^(٤) و﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ ^(٥) ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة في القرآن والذين قالوا هذه الأقوال : إنما أتوا من جهة قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ فظنوا أن تلاوته هي قراءته ، ولم يتقدم للقرآن ذكر ، ثم جعل هذا يقول جبريل تلاه ، وهذا يقول محمد وهذا يقول لسانه . والتلاوة قد وجدت في القرآن واللغة المشهورة بمعنى الاتباع وكثير من المفسرين لا يذكر في هذه الآية القول الصحيح ، فيبقى الناظر الفطن حائراً ، ولم يذكر في الذي على بينة من ربه إلا أنه الرسول ، ويذكر في الشاهد عدة أقوال . ثم من العجب أن يقول : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أولئك أصحاب محمد وقيل : المراد الذين أسلموا من أهل الكتاب ، وهو على ما فسرهم لم يتقدم لهم ذكر ، فكيف يشار إليهم بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وأبو الفرج ذكر قولاً أنهم المسلمون ، ولم يذكر أن الآية تعم النبي والمؤمنين ، ولما ذكر قول من قال : إنهم المسلمون قال :

(١) سورة القصص آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة ص آية رقم ٣ .

(٣) سورة النبا آية رقم ٣٤ .

(٤) سورة عبس آية رقم ٣١ .

(٥) سورة النجم آية رقم ٢٢ .

وهذا يخرج على قول الضحاك في البينة أنها رسول الله .

وقد ذكر في « البينة » أربعة أقوال : إنها الدين ذكره أبو صالح عن ابن عباس ، وإنها رسول الله قاله الضحاك ، وأنها القرآن ، قاله ابن زيد ، وأنها البيان ، قاله مقاتل .

ثم قال : فإن قلنا المراد من كان على بينة من ربه المسلمون فالمعنى أنهم يتبعون الرسول وهو البينة ويتبع هذا النبي شاهد منه يصدقه ، والمسلمون إذا كانوا على بينة فهي الإيمان بالرسول ، ليست البينة ذات الرسول ، والرسول ليس هو مذكوراً في كلامه ، فقلوه : ﴿ يَتْلُوهُ ﴾ لا بد أن يعود إلى منه لكن إعادته إلى البينة أولى وفسر البينة بالرسول ، وجعل الشاهد يشهد له بصدقه ، ثم الشاهد جبريل أو غيره ، فلو قال : الشاهد هو القرآن يشهد للمؤمنين ، فإنه يتبعهم كما يتبعونه كان قد ذكر الصواب . وهو قد ذكر أقوالاً كثيرة لم يذكرها غيره ، وذكر في يتلوه قولين : « أحدهما » يتبعه . و« الثاني » يقرأه . وهما قولان مشهوران . وذكر في ﴿ ه ﴾ يتلوه قولين : إنها ترجع إلى النبي . و« الثاني » أنها ترجع إلى القرآن .

والتحقيق : إنها ترجع إلى ﴿ من ﴾ أو ترجع إلى البينة ، والبينة يراد بها القرآن فيكون المعنى أن الشاهد من القرآن ، وإذا رجع الضمير إلى ﴿ مِنْ ﴾ فإن جعل مختصاً بالنبي ﷺ - وهو القول الذي تقدم بيان فساده - عاد الضمير إلى البينة - وإن كان ﴿ من ﴾ تتناول كل من كان على بينة من ربه من المؤمنين ، ورسول الله أولى المؤمنين تناول الجميع .

ومما يوضح ذلك أن رسول الله جاء بالرسالة من الله ، وهذا يختص به ، وتصديق هذه الرسالة والإيمان بها واجب على الثقلين ، والرسول هو أول من يجب عليه الإيمان بهذه الرسالة التي أرسله الله بها ، ولهذا قال في سورة يونس : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾
وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ (٢) إلى غير ذلك من
الآيات .

فهو ﷺ يتعلق به أمران عظيمان .

« أحدهما » إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله ، وهذا مختص به .
و« الثاني » تصديقه فيما جاء به ، وأن ما جاء به من عند الله حق يجب
اتباعه ، وهذا يجب عليه وعلى كل أحد ، فإنه قد يوجد فيمن يرسله المخلوق
من يصدق في رسالته ؛ لكنه لا يتبعها ، إما لظنه في المرسل ، وإما لكونه
يعصيه ، وإن كان قد أرسل بحق ، فالملوك كثيراً ما يرسلون رسولاً يكتب
وغيرها يبلغ الرسل رسالتهم فيصدقون بها . ثم قد يكون الرسول أكثر مخالفة
لمرسله من غيره من المرسل إليهم ، ولهذا ظن طائفة منهم القاضي أبو بكر (٣)
أن مجرد كونه رسولاً لله لا يستلزم المدح ، ثم قال : إن هذا قد يقال فيمن
قبل الرسالة وبلغها ، وفيمن لم يقبل ، لكن هذا غلط ، فإن الله لا يرسل
رسولاً إلا وقد اصطفاه ، فيبلغ رسالات ربه . ورسل الله هم أطوع الخلق لله
وأعظم إيماناً بما بعثوا به ، بخلاف المخلوق فإنه يرسل من يكذب عليه ،
ومن يعصيه ، ومن لا يعتقد وجوب طاعته والخالق منزّه عن ذلك .

لكن هؤلاء الذين قالوا هذا يجوزون على الرب أن يرسل كل أحد بكل
شيء ، ليس في العقل عندهم ما يمنع ذلك ، وإنما يتزهون الرسل عما أجمع

(١) سورة يونس آية رقم ١٠٤ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤ وتكملة الآية ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر : قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه
الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة عام ٣٣٨ وسكن بغداد وتوفي بها عام ٤٠٣ هـ
كان جيد الاستنباط سريع الجواب من كتبه « اعجاز القرآن » و« الأنصاف والفرق بين المعجزة
والكرامة ، وكشف أسرار الباطنية »

راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٢٩٤ .

المسلمون على تزيههم عنه عندهم ، [مما] ثبت بالسمع لا من جهة كونه رسولاً ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين أن هذا الأصل خطأ .

ولما كان هو ﷺ يتعلق به الأمران . في « الأول » يقال : آمنت له كما قال تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ ^(٣) .

وفي « الثاني » يقال : آمنت بالله فعلينا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء له ، والله تعالى ذكر هذين . فذكر « أولاً » ما يثبت نبوته وصدقه بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ، وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ^(٤) كما تقدم التنبيه على ذلك . ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول شيان : إما الجهل وإما فساد القصد ، ذكر ما يزيد الجهل ، وهو الآيات الدالة على صدقه ثم ذكر أهل فساد القصد بقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّتَهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَاهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥) فهؤلاء أهل فساد القصد .

(١) سورة يونس آية رقم ٨٣ تكملة الآية ﴿ على خوف من فرعون وملانهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المفسرين ﴾ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦١ تكملة الآية ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٣ - ١٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ١٥ - ١٦ قال أنس بن مالك ، والحسن : نزلت في اليهود وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونيته وطلبتة جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة ، وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا وقال

فهذان الأمران هما المانعان للخلق من اتباع هذا [الرسول] كما أنه في البقرة ذكر ما يوجب العلم وحسن القصد ، فقال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فلما أثبت هذين الأصلين : أخذ بعد هذا في بيان الإيمان به وحال من آمن ومن كفر ، فقال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ؟ الآية . ثم قال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) وهذا يتناول كل كافر ممن كذب على الله بادعاء الرسالة كاذباً ويتناول كل من كذب رسولاً صادقاً فقال : إن الله لم يرسل هذا ، ولم يأمر بهذا ، فكذب على الله ، وهذا إنما يقع ممن فسد قصده بحب الدنيا وإرادتها ، وممن أحب الرئاسة وأراد العلو في الأرض من أهل الجهل .

= تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَمِعَ لَهَا سَعِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا ، كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا ، انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٨ وتكملة الآية ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ قال الامام أحمد حدثنا بهز وعفان قالا أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال كنت أخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة . . ؟ قال سمعته يقول : إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا . . ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه أنه هالك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول « الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » الآية .

أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله يُدني المؤمن منه يوم القيامة حتى يلقي عليه كنفه ، ويقول فعلت يوم كذا كذا وكذا ، ويوم كذا كذا وكذا ، فيقول : نعم ، فيقول : إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه » .

وأما الكفار والمنافقون : ف ﴿ يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) ثم ذكر تعالى الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، ثم ذكر مثل الفريقين ، فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها ، وعرف مقصود القرآن : تبين له المراد ، وعرف الهدى والرسالة ، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج .

وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين ، لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية ، فإن هؤلاء أكثر غلطاً من المفسرين المشهورين ؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه ، كما يقصد ذلك المفسرون .

وأعظم غلطاً من هؤلاء وهؤلاء من لا يكون قصده معرفة مراد الله بل قصده تأويل الآية بما يدفع خصمه عن الاحتجاج بها وهؤلاء يقعون في أنواع من التحريف ولهذا جوز من جوز منهم أن تتأول الآية بخلاف تأويل السلف وقالوا : إذا اختلف الناس في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث ؛ بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين ، وهذا خطأ ، فإنهم إذا أجمعوا على أن المراد بالآية إما هذا وإما هذا كان القول بأن المراد غير هذين القولين خلافاً لإجماعهم ؛ ولكن هذه طريق من يقصد الدفع لا يقصد معرفة المراد وإلا فكيف يجوز أن تضل الأمة عن فهم القرآن ويفهمون

(١) سورة هود آية رقم ١٨ الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث قتادة ورواه الإمام أحمد في المسند حدثنا بهز بن عфан قال أخبرنا همام ، حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز وذكره ٣ :

(١٠٥) (حلي)

منه كلهم غير المراد (ويأتي) ^(١) متأخرون يفهمون المراد ، فهذا هذا والله أعلم .

(١) سقط من (أ) لفظ (ويأتي)

فصل

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ^(١) كما تقدم هو كقوله :
﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ
زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ^(٣) ؟ وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ
رَبِّهِمْ ﴾ ^(٥) :

فإن هذا النوع يبين أن المؤمن على أمر من الله فاجتمع في هذا اللفظ

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة محمد آية رقم ١٤ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٥ قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح
المصري ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثني عبيد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم
واسمه سليمان بن عبد الله عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ وقيل له يا رسول الله إنا نقرأ
من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد نياس أو كما قال . قال : أفلا أخبركم عن أهل
الجنة ، وأهل النار قالوا : بلا يا رسول الله قال : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين ﴾ الى قوله - ﴿ المفلحون ﴾ هؤلاء أهل الجنة . قالوا : إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم
قال : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ﴾ الى قوله ﴿ عظيم ﴾ هؤلاء أهل النار . قالوا : لسنا
هم يا رسول الله . قال : أجل .

حرف الاستعلاء وحرف ﴿ من ﴾ لا ابتداء الغاية ، وما يستعمل فيه حرف ابتداء الغاية فيقال : هو من الله على نوعين ، فإنه إما أن يكون من الصفات التي لا تقوم بنفسها ولا بمخلوق ، فهذا يكون صفة له ، وما كان عيناً قائمة بنفسها أو بمخلوق فهي مخلوقة . فالأول كقوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٢) كما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود .

« والنوع الثاني » كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٤) و﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٥) وكما يقال : إلهام الخير وإيحاؤه من الله ، وإلهام الشر وإيحاؤه من الشيطان ، والوسوسة من الشيطان فهذا نوعان .

تارة يضاف باعتبار المسبب ، وتارة باعتبار العاقبة والغاية ، فالحسنات هي النعم ، والسيئات هي المصائب كلها من عند الله ، لكن تلك الحسنات أنعم الله بها على العبد ، فهي منه إحساناً وتفضلاً ، وهذه عقوبة ذنب من نفس العبد ، فهي من نفسه باعتبار أن عمله السيء كان سببها ، وهي عقوبة له ؛ لأن النفس أرادت تلك الذنوب ووسوست بها وتارة يقال باعتبار حسنات

-
- (١) سورة السجدة آية رقم ١٣ وتكملة الآية ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .
(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ وتكملة الآية ﴿ بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ .
(٣) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .
(٤) سورة النحل آية رقم ٥٣ تكملة الآية ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ .
(٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ تكملة الآية ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ .

قال السدي ، والحسن البصري وابن جريج وابن زيد ﴿ فمن نفسك ﴾ أي بذنبك . . وذكر لنا أن النبي - ﷺ - قال : لا يصيب رجلاً خدش عود ، ولا عشرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله أكثر ، وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في الصحيح : « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها »

العمل وسيئاته ، وما يلقي في القلب من التصورات والإرادات ، فيقال للحق : هو من الله ألهمه العبد ، ويقال للباطل : إنه من الشيطان وسوس به ، ومن النفس أيضاً لأنها إرادته كما قال عمر وابن عمر وابن مسعود فيما قالوه باجتهادهم : إن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمننا ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه وهذا لفظ ابن مسعود في حديث بروع بنت واشق ، قال : إن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، لأنه حكم بحكم فإن كان موافقاً لحكم الله فهو من الله لأنه موافق لعلمه وحكمه فهو منه باعتبار أنه سبحانه ألهمه عبده لم يحصل بتوسط الشيطان والنفس ، وإن كان خطأ فالشيطان وسوس به ، والنفس أرادته وسوست به وإن كان ذلك مخلوقاً فيه ، والله خلقه فيه ؛ لكن الله لم يحكم به ، وإن لم يكن ما وقع لي من إلهام الملك كما قال ابن مسعود : إن للملك بقلب ابن آدم لمة ، وللشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق » فالتصديق من باب الخير والإيعاد بالخير والشر من باب الطلب والإرادة . قال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

فهذه حسنات العمل من الله عز وجل بهذين الاعتبارين ، « أحدهما » أنه يأمر بها ويحبها ، وإذا كانت خيراً فهو يصدقها ويخبر بها ، فهي من علمه وحكمه ، وهي أيضاً من إلهامه لعبده وإنعامه عليه لم تكن بواسطة النفس والشيطان ؛ فاختصت بإضافتها إلى الله من جهة أنها من علمه وحكمه ، وأن النازل بها إلى العبد ملك كما اختص القرآن بأنه منه كلام ، وقرآن مسيلمه بأنه من الشيطان ، فإن ما يلقيه الله في قلوب المؤمنين من الإلهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله وكذلك ما يريهم إياه في المنام ، قال عبادة بن الصامت : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه ، وقال عمر :

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦٨ .

اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم يتجلبى لهم أمور صادقة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ (١) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ (٢) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا ﴾ (٣) وقال : ﴿ فَالْتَمِهَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٤) على قول الأكثرين ، وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها ، والتقية تقواها ، فالإلهام عنده هو البيان بالأدلة السمعية والعقلية .

وأهل السنة يقولون : كلا النوعين من الله ، هذا الهدى المشترك وذاك الهدى المختص ، وإن كان قد سماه إلهاماً كما سماه هدى ، كما في قوله : ﴿ وَأَمَّا نُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (٥) وكذلك قد قيل في قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٦) أي بينا له طريق الخير والشر وهو هدى البيان العام المشترك . وقيل : هدينا المؤمن لطريق الخير ، والكافر لطريق الشر : فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى ، كما جعل أولئك البيان إلهاماً . وكذلك قوله ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٧) قيل هو

(١) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٧ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٥ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ٨ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ١٧ .

(٦) سورة البلد آية رقم ١٠ « كما قال ابن تيمية : الخير والشر وكذا روي عن علي وابن عباس ومجاهد ، وعكرمة وأبي وائل وأبي صالح ، ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخرساني في آخرين .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية عن أبي رجاء ، قال سمعت الحسن يقول ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله - ﷺ كان يقول : « يا أيها الناس إنهما النجدان نجد الخير ونجد الشر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » .

(٧) سورة الإنسان آية رقم ٣ قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن خيثم عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله أن النبي - ﷺ قال لكعب بن عجرة : أعاذك الله من إمارة السفهاء . قال وما إمارة السفهاء . ؟ قال : امراء يكونون من بعدي لا يهتدون =

الهدى المشترك ، وهو أنه يبين له الطريق التي يجب سلوكها والطريق التي لا يجب سلوكها ، وقيل بل هدى كلا من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ .

لكن تسمية هذا هدى قد يعتذر عنه بأنه هدى مقيد لا مطلق كما قال : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ^(١) وكما قال : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِثِّ وَالطَّاغُوتِ﴾ ^(٢) وأنه ﴿يَقُولُ الْحَقُّ﴾ و﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فهو موافق لقوله وأمره لعلمه وحكمه ، كما أن القرآن وسائر كلامه كذلك وباعتبار أنه أنعم على العبد بواسطة جنده بالملائكة .

ويقال لضد هذا - وهو الخطأ - هذا من الشيطان والنفس ؛ لأن الله لا يقوله ولا يأمر به ؛ ولأنه إنما ينكته في قلب الإنسان الشيطان ونفسه تقبله من الشيطان ؛ فإنه يزين لها الشيء فتطيعه فيه ، وليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ؛ ولكن يفوته به نوع من الحسنات كالنسيان ، فإنه من الشيطان ، والاحتلام من الشيطان ، والنعاس عند الذكر والصلاة من الشيطان ، والصعق عند الذكر من الشيطان ، ولا إثم على العبد فيما غلب عليه إذا لم يكن ذلك بقصد منه أو بذنب . فقلوه : ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ ^(٣) وشبهها مما تقدم ذكره : من هذا الباب ، وكذلك قوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ^(٤) فإن المؤمنين على تصديق ما أخبر الله به ، وفعل ما أمر الله ابتداء وتبليغاً

= بهداي ، ولا يستنون بسنتي فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون على حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون على حوضي يا كعب بن عجرة : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت النار أولى به ، يا كعب الناس غايدان فمبتاع لنفسه فمعتقها وبائع نفسه فموقعها ، .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٢١ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٥١ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .

(٤) سورة محمد آية رقم ٣ .

كالقرآن ، وقد قال : « إن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال » فهي تنزل في قلوب المؤمنين من نوره وهده ، وهذه حسنات دينية وعلوم دينية حق نافعة في الدنيا والآخرة ، وهو الإيمان الذي هو إفضال المنعم ، وهو أفضل النعم .

وأما قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(١) فقد دخل في ذلك نعم الدنيا كلها ، كالعافية والرزق ، والنصر ، وتلك حسنات يتلي الله العبد بها . كما يتليها بالمصائب ، هل شكر أم لا ؟ وهل يصبر أم لا ؟ كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ^(٣) ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ﴾ ^(٤) الآيات .

وقد يقال في الشيء إنه من الله وإن كان مخلوقاً إذا كان مختصاً بالله كآيات الأنبياء ، كما قال لموسى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(٥) وقلب العصا حية ، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء مخلوق لله ، لكنه منه لأنه دل به وأرشد إلى صدق نبيه موسى ، وهو تصديق منه وشهادة منه له بالرسالة والصدق ، فصار ذلك من الله بمنزلة البينة من الله ، والشهادة من الله ، وليست هذه الآيات مما تفعله الشياطين والكهان ، كما يقال : هذه علامة من فلان ، وهذا دليل من فلان ، وإن [لم] يكن ذلك كلاماً منه .

وقد سمى موسى ذلك بينة من الله فقال : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةٍ مِنْ

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ وتكملة الآية ﴿ لعلهم يرجعون ﴾

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٣٥ وتكملة الآية ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ وصدر الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ .

وقد روي عن الشافعي - رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى تهيأ للآخرى مثلها فكان قد

(٤) سورة الفجر آية رقم ١٥ وتكملة الآية ﴿ فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ﴾

(٥) سورة القصص آية رقم ٣٢ وتكملة الآية ﴿ إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

رَبِّكُمْ ﴿١﴾ ، فقلوه : ﴿ بينة من ربكم ﴾ ، كقلوه : ﴿ فذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ .

وهذه البينة هي هنا حجة وآية ودلالة مخلوقة تجري مجرى شهادة الله وإخباره بكلامه ، كالعلامة التي يرسل بها الرجل إلى أهله وكيله ، قال سعيد ابن جبير في الآية : هي كالأخاتم تبعث به فيكون هذا بمنزلة قوله صدقوه فيما قال ، أو أعطوه ما طلب .

فالقرآن والهدى منه ، وهو من كلامه وعلمه وحكمه الذي هو قائم به غير مخلوق ، وهذه الآيات دليل على ذلك ، كما يكتب كلامه في المصاحف ؛ فيكون المراد المكتوب به الكلام يعرف به الكلام ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (٢) ولهذا يكون لهذه الآيات المعجزات حرمة : كالناقة وكالماء النابع بين أصابع النبي ﷺ ونحو ذلك . والله سبحانه أعلم .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٠٥ وتكملة الآية ﴿ فأرسل معي بني اسرائيل ﴾ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ نعم ما نفدت كلمات الله تعالى وكما قال : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(١) الآية ، وما بعدها إلى قوله : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ذكر سبحانه الفرق بين أهل الحق والباطل ، وما بينهما من التباين والاختلاف مرة بعد مرة ، ترغيباً في السعادة وترهيباً من الشقاوة .

وقد افتتح السورة بذلك فقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ^(٢)

نذير ينذر بالعذاب لأهل النار وبشير يبشر بالسعادة لأهل الحق . ثم ذكر حال الفريقين في السراء والضراء ، فقال : ﴿ وَلَئِنْ ^(٣) أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّسَّةٍ

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ١ - ٢ .

(٣) سورة هود آية رقم ٩ - ١١ ﴿ أَوَلَيْكَ لَهْم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ كما جاء في الحديث : والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ، ولا وصب ، ولا حزن ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها . وفي الصحيحين : والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ .

لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١﴾ . ثم ذكر بعد هذا قصص الأنبياء وحال من اتبعهم ومن كذبهم كيف سعد هؤلاء في الدنيا والآخرة ، وشقي هؤلاء في الدنيا والآخرة فذكر ما جرى لهم إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ ^(١) ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا . ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ ^(٢) فإنه قد يقال : غاية ما أصاب هؤلاء أنهم ماتوا والناس كلهم يموتون ، وأما كونهم أهلكوا كلهم وصارت بيوتهم خاوية وصاروا عبرة يذكرون بالشر ويلعنون ، إنما يخاف ذلك من آمن بالآخرة ، فإن لعنة المؤمنين [لهم] بالآخرة وبغضهم لهم كما جرى لآل فرعون هو مما يزيدهم عذاباً ، كما أن لسان الصدق وثناء الناس ودعاءهم للأنبياء ، واتباعهم لهم هو مما يزيدهم ثواباً .

فمن استدل بما أصاب هؤلاء على صدق الأنبياء فأمن بالآخرة خاف عذاب الآخرة ، وكان ذلك له آية ، وأما من لم يؤمن بالآخرة ويظن أن من مات لم يبعث فقد لا ييالي بمثل هذا ، وإن كان يخاف هذا من لا يخاف الآخرة ؛ لكن كل من خاف الآخرة كان هذا حاله وذلك له آية .

وقد ختم السورة بقوله : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ ^(٣) إلى آخرها ، كما افتتحها بقوله : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(٤) فذكر التوحيد والإيمان بالرسول ، فهذا دين الله في الأولين والآخرين ، قال أبو

(١) سورة هود آية رقم ١٠٠ - ١٠٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٠٣ وتكملة الآية : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢١ .

(٤) سورة هود آية رقم ٢ .

العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون ، ماذا كنتم تُعبدون ، ومَآذَا
أجبتكم المرسلين ولهذا قال : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ
الْمُرْسَلِينَ ؟ ﴾ (١) و﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ ﴾ (٢) هو الشرك في
العبادة ، وهذان هما الإيمان والإسلام ، وكان النبي ﷺ يقرأ تارة في ركعتي
الفجر سورتي الإخلاص ، وتارة بآيتي الإيمان والإسلام ، فيقرأ قوله : ﴿ آمَنَّا
بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ (٣) الآية فأولها الإيمان وآخرها الإسلام ويقرأ في
الثانية : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا
الله ﴾ (٤) فأولها إخلاص العبادة لله وآخرها الإسلام له . وقال : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا
أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٥) ففيها
الإيمان والإسلام في آخرها وقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ .
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (٦) .

(١) سورة القصص آية رقم ٦٥ النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان
جوابكم للمرسلين إليكم ، وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسأل العبد في قبره . من ربك ،
ومن نبيك ، وما دينك . ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأما الكافر
فيقول هاء ، هاء لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان في هذه
أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، ولهذا قال تعالى ﴿ فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم
لا يتساءلون ﴾ . سورة القصص آية ٦٦ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٦٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ وتكملة الآية ﴿ وَلَا تَشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ
دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٤٦ .

(٦) سورة الزخرف آية رقم ٦٩ - ٧٠ قال المعتمر بن سليمان عن أبيه إذا كان يوم القيامة ، فإن
الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فرغ فينادي مناد ﴿ يا عبادي لا خوف عليكم اليوم
ولا أنتم تحزنون ﴾ فيرجوها الناس كلهم قال فيتبعها ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمون ﴾ .

فصل

وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ (١) فقد فصله بعد إحكامه ، بخلاف من تكلم بكلام لم يحكمه ، وقد يكون في الكلام المحكم ما لم يبينه لغيره ، فهو سبحانه أحكم كتابه ثم فصله وبينه لعباده كما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) فهو سبحانه بينه وأنزله على عباده بعلم ليس كمن يتكلم بلا علم .

وقد ذكر براهين التوحيد والنبوة قبل ذكر الفرق بين أهل الحق والباطل ، فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ إلى قوله ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) فلما تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله مفتریات هم وجميع من يستطيعون من دونه : كان في مضمون تحديه أن هذا لا يقدر أحد على الإتيان بمثله من دون الله ، كما قال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٥) .

(١) سورة هود آية رقم ١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٣ - ١٤ .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ٨٨ قال ابن مسعود - رضي الله عنه - يطرق الناس ريح حمراء يعني في

وحينئذ : فعلم أن [ذلك] من خصائص من أرسله الله ، وما كان مختصاً بنوع فهو دليل عليه ؛ فإنه مستلزم له ، وكل ملزوم دليل على لازمه كآيات الأنبياء كلها فإنها مختصة بجنسهم وهذا القرآن مختص بجنسهم ومن بين الجنس خاتمهم لا يمكن أن يأتي به غيره ، وكان ذلك برهاناً بيناً على أن الله أنزله ، وأنه نزل بعلم الله هو الذي أخبر بخبره ، وأمر بما أمر به كما قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ ^(١) الآية . وثبوت الرسالة ملزوم لثبوت التوحيد وأنه لا إله إلا الله من جهة أن الرسول أخبر بذلك ، ومن جهة أنه لا يقدر أحد على الإتيان بهذا القرآن إلا الله ، فإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ، إلى غير ذلك من وجوه البيان فيه ، كما قد بسط ونبه عليه في غير هذا الموضع ؛ ولا سيما هذه السورة ، فإن فيها من البيان والتعجيز ما لا يعلمه إلا الله ، وفيها من المواعظ والحكم والترغيب والترهيب ما لا يقدر قدره إلا الله .

و« المقصود هنا » هو الكلام على قوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ حيث سأل السائل عن تفسيرها ؛ وذكر ما في التفاسير من كثرة الاختلاف فيها ، وأن ذلك الاختلاف يزيد الطالب عمى عن معرفة المراد الذي يحصل به الهدى والرشاد ، فإن الله تعالى إنما نزل القرآن ليهتدى به لا ليختلف فيه ، والهدى إنما يكون إذا عرفت معانيه ، فإذا حصل الاختلاف المضاد لتلك المعاني التي لا يمكن الجمع بينه وبينها لم يعرف الحق . ولم تفهم الآية ومعناها ، ولم يحصل به الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب .

= آخر الزمان من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن بهذه الآية - وقد روى ابن اسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاؤوا رسول الله - ﷺ فقالوا له إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به فأنزل الله - هذه الآية - قال ابن كثير - وفي هذا نظر لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة فאלله أعلم » .

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

قال أبو عبد الرحمن السلمي ^(١) : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . وقال الحسن البصري ^(٢) : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا نزلت ، وماذا عنى بها ، وقد قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ^(٣) وتدبر الكلام إنما ينتفع به إذا فهم . وقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٤) .

فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم ، وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين ؛ والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل ، والعقل يتضمن العلم والعمل فمن عرف الخير والشر فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلاً ؛ ولهذا لا يعد عاقلاً إلا من فعل ما ينفعه ، واجتنب ما يضره ، فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقي نفسه في المهالك ، وقد يفر عما ينفعه .

وسئل رحمه الله :

عن قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيَا الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(٥) وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ^(٦) .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الثاني .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الثاني .

(٣) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٥) سورة هود آية رقم ١٠٨ .

(٦) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٤ وتكملة الآية ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعْيِدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ . قال البخاري : حدثنا مقدم بن محمد ، حدثني عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله

عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ - قال : إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات يمينه ، انفرد به من هذا الوجه البخاري ، وقال ابن أبي حاتم - حدثنا أبي ، حدثنا =

فأجاب : الحمد لله . قال طوائف من العلماء إن قوله : ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة وسقفه عرش الرحمن » ^(١) وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ^(٢) هي أرض الجنة .

وعلى هذا فلا منافاة بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التي هي سقف الجنة ؛ إذ كلما علا فإنه يسمى في اللغة سماء . كما يسمى السحاب سماء ، والسقف سماء .

و« أيضاً » فإن السموات إن طويت وكانت كالمهل ، واستحالت عن صورتها فإن ذلك لا يوجب عدمها وفسادها ، بل أصلها باق ، بتحويلها من حال إلى حال ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ ^(٣) وإذا بدلت فإنه لا يزال سماء دائمة ، وأرض دائمة . والله أعلم .

= محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي ، حدثنا محمد بن سلمة عن أبي الواصل ، عن أبي المليح الأزدي عن أبي الجوزاء الأزدي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال : يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة .

(١) الحديث رواه الإمام الترمذي في أبواب « الجنة » وابن ماجه في كتاب الزهد .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٥ .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ٤٨ .

سورة يوسف

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

قول يوسف ﷺ لما قالت له امرأة العزيز : ﴿ هَيْتَ ^(١) لَكَ ؟ قَالَ :
مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(٢) .

(١) « هيت لك » قرأه كثير بفتح الهاء وإسكان التاء ، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهم معناه أنها تدعوه الى نفسها ، وقال علي بن أبي طلحة ، والعوفي عن ابن عباس هيت لك تقول : هلم لك ، وكذا قال زر بن حبیش وعكرمة والحسن وقتادة قال عمرو بن عتبة عن الحسن ، وهي كلمة بالسريانية أي عليك ، وقال السدي هيت لك أي هلك لك وهي بالقبطية ، وقال مجاهد ، هي لغة غربية تدعوه بها . وقال البخاري ، وقال عكرمة : هيت لك أي هلم لك بالهورانية هكذا ذكره معلقاً وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير ، حدثني أحمد بن سهل الواسطي ، حدثنا قرة بن عيسى ، حدثنا النضر بن عزيبي الخدري ، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله (هيت لك) قال : هلم لك قال : هي بالهورانية . وقال أبو القاسم بن سلام ، وكان الكسائي يحب هذه القراءة يعني هيت لك ، ويقول : هي لغة لأهل حوران وقعت الى أهل الحجاز ومعناها تعالى .

وقال أبو عبيد سألت شيخاً عالماً من أهل حوران فذكر أنها لغتهم يعرفها واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر : لعلني بن أبي طالب - رضي الله عنه :

أبسلغ أمير المؤمنين أذى العراق إذا أتينا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا
يقول : فتعال واقترب .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

المراد بربه في أصح القولين هنا سيده ، وهو زوجها الذي اشتراه من مصر الذي قال لامرأته : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (١) قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . فلما وصى به امرأته فقال لها ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ قال يوسف : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ ولهذا قال : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ والضمير في ﴿ إنه ﴾ معلوم بينهما ، وهو سيدها .

وأما قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (٣) فهذا خبر من الله تعالى أنه رأى برهان ربه ، وربه هو الله كما قال لصاحبي السجن : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ ربي ﴾

(١) سورة يوسف آية رقم ٢١ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢١ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال : معنى ابن عباس وسعيد ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والحسن وقتادة ، وأبي صالح والضحاك ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه بفمه ، وقيل عنه في رواية فضرِب في صدر يوسف ، وقال العوفي عن ابن عباس رأى خيال الملك يعني سيده ، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم إنما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع عن أبي مودود ، سمعت محمد بن كعب القرظي قال : رفع يوسف رأسه إلى السقف فإذا كتاب في حائط البيت ﴿ لا تقرّبوا الرّزى إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ وكذا رواه أبو معشر المدني عن محمد بن كعب ، وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن أبي صخر قال : سمعت القرظي يقول في البرهان الذي رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ إن عليكم لحافظين ﴾ ﴿ وما تكون في شأن ﴾ الآية وقوله ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

مثل قوله لصاحب الرؤيا : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ^(١) قال تعالى : ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ ^(٢) قيل أنسى يوسف ذكر ربه لما قال ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ .

وقيل : بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه ، وهذا هو الصواب ، فإنه مطابق لقوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ قال تعالى : فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » والضمير يعود إلى القريب ، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ، ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه ؛ بل كان ذاكر لربه . وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه وقال لهما : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ : أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) .

وقال لهما قبل ذلك : ﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ ^(٤) أي في الرؤيا ﴿ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ ^(٥) يعني التأويل ﴿ ذَلِكَمَّا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ^(٦) .

فبذا يذكر ربه عز وجل ، فإن هذا مما علمه ربه ، لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله ، وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة ،

(١) (٢) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣٩ - ٤٠ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٣٧ - ٣٨ .

واتبع ملة آباءه أئمة المؤمنين - الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره - إبراهيم واسحق ويعقوب ، فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه . ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ . أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خُمْرًا ﴾ (١) الآية ، ثم لما قضى تأويل الرؤيا : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (٢) فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه ؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه . أي الذكر المضاف إلى ربه والمنسوب إليه ، وهو أن يذكر عنده يوسف ، والذين قالوا ذلك القول ، قالوا : كان الأولى أن يتوكل على الله ، ولا يقول أذكرني عند ربك . فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين . فيقال : ليس في قوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ما يناقض التوكل ، بل قد قال يوسف : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (٣) كما أن قول أبيه ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ (٤) بل يناقض توكله ، بل قال : ﴿ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٥) .

و« أيضاً » فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين ، والمخلص لا يكون مخلصاً مع توكله على غير الله ، فإن ذلك شرك ، ويوسف لم يكن مشركاً لا في عبادته ولا توكله ، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله :

(١) سورة يوسف آية رقم ٤١ قال الثوري عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم بن عبد الله قال : لما قالوا ما قالوا وأخبرهما ، قالوا : ما رأينا شيئاً فقال : قضى الأمر الذي فيه تستفتيان » ورواه محمد ابن فضل عن عمارة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود به ، وكذا فسر مجاهد ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم وحاصله من تحلم بباطل وفسره فإنه يلزم تأويله والله تعالى أعلم . وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبي - ﷺ - قال : الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٦٧ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٦٧ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ٦٧ .

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده . وقوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ مثل قوله لربه : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضاً للتوكل ، ولا هو من سؤال الإمارة المنهى عنه ، فكيف يكون قوله للفتى : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ مناقضاً للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ؛ ليعلم حاله ليتبين الحق ؛ ويوسف كان من أثبت الناس .

ولهذا بعد أن طلب ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ قال : ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إِنَّ رَبِّي بِكِدِّهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ^(٢) فيوسف يذكر ربه في هذه الحال ، كما ذكره في تلك . ويقول : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ﴾ فلم يكن في قوله له : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ترك الواجب ، ولا فعل لمحرم ، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين ، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قيل هذا ظلماً له ، مع علمهم ببراءته من الذنب .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ ^(٣) ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ، ليتم بذلك صبره

(١) سورة يوسف آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٠ في هذه الآية نرى صلابة يوسف عليه السلام ورفضه الخروج من السجن ، ولهذا وردت السنة بمدحه . ففي المسند والصحيحين ، من حديث الزهري ، عن سعيد ، وأبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى » الآية . ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » وفي لفظ لأحد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - في قوله : فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » فقال رسول الله - ﷺ - « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣٥ .

وتقواه ، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال . ولهذا قال : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعاً من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى ، وفاته الأفضل باتفاق الناس .

لكن تنازع العلماء هل يمكن الإكراه على الفاحشة على قولين : قيل : لا يمكن ، كقول أحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهما ، قالوا لأن الإكراه يمتنع الانتشار .

والثاني : يمكن وهو قول مالك والشافعي ، وابن عقيل وغيره من أصحاب أحمد ، لأن الإكراه لا ينافي الانتشار ، فإن الإكراه لا ينافي كون الفعل اختياراً ، بل المكروه يختار دفع أعظم الشرين بالتزام أدناهما ، وأيضاً : فالانتشار بلا فعل منه ؛ بل قد يفيد ويضجع فتباشره المرأة فتنتشر [شهوته] فتستدخل ذكره . فعلى قول الأولين لم يكن يحل له ما طلبت منه بحال ، وعلى القول الثاني فقد يقال الحبس ليس بإكراه يبيح الزنا ، بخلاف ما لو غلب على ظنه أنهم يقتلونه أو يتلفون بعض أعضائه ، فالنزاع إنما هو في هذا ، وهم لم يبلغوا به إلى هذا الحد ، وإن قيل كان يجوز له ذلك لأجل الإكراه لكن يفوته الأفضل .

وأيضاً : فالإكراه إنما يحصل أول مرة ثم يباشر ، وتبقى له شهوة وإرادة في الفاحشة .

ومن قال : الزنا لا يتصور فيه الإكراه يقول : فرق بين ما لا فعل له - كالمقيد - وبين من له فعل ، كما أن المرأة إذا أضجعت وقيدت حتى فعل بها الفاحشة لم تأثم بالاتفاق ، وإن أكرهت حتى زنت ففيه قولان هما روايتان عن أحمد ، لكن الجمهور يقولون لا تأثم وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

يُكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ وهؤلاء يقولون : فعل المرأة لا يحتاج إلى انتشار ، وإنما هو كالإكراه على شرب الخمر ، بخلاف فعل الرجل وبسط هذا له موضع آخر .

و« المقصود » أن يوسف لم يفعل ذنباً ذكره الله عنه ، وهو سبحانه لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنباً إلا ذكر استغفاره منه ، ولم يذكر عن يوسف استغفاراً من هذه الكلمة ، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفاحشة ، فعلم أنه لم يفعل ذنباً في هذا ولا هذا ، بل هم همماً تركه الله ، فأثيب عليه حسنة ، كما قد بسط هذا في موضعه .

وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة ، كما في قوله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به خطياه » (٢) ولما أنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ (٣) قال أبو بكر : يا رسول الله : جاءت قاصمة الظهر ، وأينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : « أألسن تحزن ؟

(١) سورة النور آية رقم ٣٣ صدر الآية ﴿ ولا تكثرها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾

قال السدي : نزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليوافقها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية إلى أبي بكر - رضي الله عنه فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي - ﷺ - فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبي من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المرض ١ باب ما جاء في كفارة المرض ٥٦٤١ ، ٥٦٤٢ حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا زهير بن محمد عن محمد بن عمرو بن حلحلة عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري ، وعن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - وذكره ، ورواه الإمام مسلم في كتاب البر ٥٢ ، والترمذي في الجنايز ١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٠٣ ، ٣٣٥ ، ٣ : ٤ ، ١٨ ، ٢٤ (حلي) .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

ألست تنصب ، ألست تصيبك الأولى ؟ فذلك مما تجزون به » ^(١) .

فتبين أن قوله : ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ ^(٢) أي نسي الفتى ذكر ربه أن يذكر هذا لربه ، ونسي ذكر يوسف ربه ، والمصدر يضاف الى الفاعل والمفعول ، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه ، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه ، هذا الذكر الخاص ، فإنه وإن كان يسقي ربه خمرًا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه ، وأنساه الشيطان تذكير ربه ، وإذكار ربه كما قال : ﴿ اذْكُرْنِي ﴾ أمره بإذكار ربه ، فأنساه الشيطان إذكار ربه ، فإذكار ربه أن يجعله ذاكرًا ، فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرًا ليوسف ، والذكر هو مصدر وهو اسم ، فقد يضاف من جهة كونه اسماً ، فيعم هذا كله ، أي أنساه الذكر المتعلق بربه ، والمضاف إليه . ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا - وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ - أَنَا أُتَّبِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ دليل على أنه كان قد نسي فادكر .

فإن قيل : لا ريب أن يوسف سمى السيد ربا في قوله : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ و﴿ ارجع إلى ربك ﴾ ونحو ذلك . وهذا كان جائزاً في شرعه ، كما جاز في شرعه أن يسجد له أبواه وإخوته ، وكما جاز في شرعه أن يؤخذ السارق عبداً وإن كان هذا منسوخاً في شرع محمد ﷺ وقوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّيْ

(١) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا إسماعيل عن أبي بكر بن أبي زهير .

قال : أخبرت أن أبا بكر - رضي الله عنه قال يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية . ؟ .

ورواه سعيد بن منصور عن خلف بن خليفة عن إسماعيل بن أبي خالد به ، ورواه الحاكم من طريق سفيان الثوري عن إسماعيل به ، وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن زياد الجصاص عن علي بن زيد عن مجاهد عن ابن عمر قال سمعت أبا بكر يقول : وذكره ، ورواه أبو بكر البزار في مسنده عن الفضل بن سهل عن عبد الوهاب بن عطاء به مختصراً .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٤٥ .

أَحْسَنَ مَثَوَايَ ﴿١﴾ إن أراد به السيد فلا جناح عليه ، لكن معلوم أن ترك الفاحشة خوفاً لله واجب ولورضي سيدها ، ويوسف عليه السلام تركها خوفاً من الله . ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (٢) قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) وقال يوسف أيضاً : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤)

فدل على أنه كان معه من خوف الله ما يزرعه عن الفاحشة ، ولورضي بها الناس ، وقد دعا ربه عز وجل أن يصرف عنه كيدهن . وقوله : ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (٥) بصيغة جمع التذكير وقوله : ﴿ كيدهن ﴾ بصيغة جمع التأنيث ، ولم يقل مما يدعيني إليه ، دليل على الفرق بين هذا وهذا ، وأنه كان من الذكور من يدعوه مع النساء إلى الفحشاء بالمرأة ، وليس هناك إلا زوجها ، وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة ، أو عديمها ، وكان يحب امرأته ويطيعها ، ولهذا لما اطلع على مراودتها قال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٦) فلم يعاقبها ، ولم يفرق بينها وبين يوسف حتى لا تتمكن من مراودته ، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد محبة منه لامرأته ، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة .

ومع هذا فشاعت القصة واطلع عليها الناس من غير جهة يوسف حتى تحدثت بها النسوة في المدينة ، وذكروا أنها تراود فتاها عن نفسه ، ومع

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٣ - ٣٤ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ٣٣ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٢٩ .

هذا : ﴿ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكُنًا ، وَآتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾
وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ؛ ليقيم عذرهما على مرادته ، وهي تقول
لهن : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ
لَمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١)

وهذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مرادته ، والخلوة به مع علم
الزوج بما جرى ، وهذا من أعظم الدياثة ، ثم إنه لما حبس فإنما حبس
بأمرها ، والمرأة لا تتمكن من حبسه إلا بأمر الزوج ، فالزوج هو الذي
حبسه ، وقد روى أنها قالت : هذا القبطي هتك عرضي فحبسه ، وحبسه
لأجل المرأة معاونة لها على مطلبها لدياثته ، وقلة غيرته ، فدخل هو في من
دعاء يوسف إلى الفاحشة . فعلم أن يوسف لم يترك الفاحشة لأجله ، ولا
لخوفه منه بل قد علم يقيناً أنه لم يكن يخاف منه ، وأن يوسف لو أعطاهما ما
طلبت لم يكن الزوج يدري ، ولو درى فلعله لم يكن ينكر ، فإنه قد درى
بالمرادة والخلوة التي هي مقتضية لذلك في الغالب فلم ينكر ، ولو قدر أنه
هم بعقوبة يوسف فكانت هي الحاكمة على الزوج القاهرة له . وقد قال النبي
ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من
إحداكن » (٢) ولما راجعنه في إمامة الصديق قال : «إنكن لأنتن صواحب

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٢ إستعصم : امتنع قال بعضهم لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته
الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال ثم قالت تتوعدنه ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره
ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

(٢) الحديث عند البخاري في كتاب الحيض ٦ باب ترك الحائض الصوم ٣٠٤ حدثنا سعيد بن
أبي مريم ، قال أخبرنا محمد بن جعفر ، قال أخبرني زيد هو ابن أسلم عن عياض بن عبد
الله عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله - ﷺ - في أضحى - أو في فطر - إلى
المصلى فمر على النساء فقال يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار ، فقلن وبم يا
رسول الله . ؟ قال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الزكاة =

يوسف « (١) ولما أنشدته الأعشى : (٢)

وهن شر غالب لمن غلب

استعداد ذلك منه وقال : وهن شر غالب لمن غلب . فكيف لا تغلب مثل هذا الزوج وتمنعه من عقوبة يوسف ؟ وقد عهد الناس خلقاً من الناس تغلبهم نساؤهم ؛ من نساء التتر وغيرهم ، يكون لامراته غرض فاسد في فتاه أو فتاهها ، وتفعل معه ما تريد وإن أراد الزوج أن يكشف أو يعاقب منعه ودفعته ، بل وأهانته وفتحت عليه أبواباً من الشر بنفسها ، وأهلها وحشمها ، والمطالبة بصداقها وغير ذلك ، حتى يتمنى الرجل الخلاص منها رأساً برأس ، مع كون الرجل فيه غيرة فكيف مع ضعف الغيرة ؟ .

فهذا كله يبين أن الداعي ليوسف إلى ترك الفاحشة كان خوف الله لا خوفاً من السيد . فلهذا قال : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) قيل هذا مما يبين محاسن يوسف ، ورعايته لحق الله وحق المخلوقين ، ودفعه الشر بالتي هي أحسن ، فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان ، كل منهما مستقل بالتحريم . فالفاحشة حرام لحق الله ولورضي الزوج ، وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه ، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط ، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك ، ولو جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها

= ٤٤ - وعند الإمام مسلم في إيمان ١٣٢ ورواه أبو داود في كتاب السنة ١٥ ، والترمذي في إيمان ٦ وابن ماجه في الفتن ١٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

(١) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٦٤ .

(٢) هو عبد الله بن خارجة بن حبيب (أو خبيب) من بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، شاعر اشتهر في أيام بني مروان بالشام له مدح في بشر بن مروان ، وعبد الملك بن مروان ، وسليمان بن عبد الملك ، توفي عام ١٠٠ هـ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

ويلاعنها، ويسعى في عقوبتها بالرجم ، بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن ، بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء ، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها ، وهو عنده أعظم من أخذ ماله . ولهذا يجوز له قتله دفعاً عنها باتفاق العلماء إذا لم يندفع إلا بالقتل بالاتفاق ، ويجوز في أظهر القولين قتله وإن اندفع بدونه كما في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . لما أتاه رجل بيده سيف فيه دم ، وذكر أنه وجد رجلاً تفخذ امرأته فضربه بالسيف ، فأقره عمر على ذلك وشكره ، وقبل قوله أنه قتله لذلك إذ ظهرت دلائل ذلك .

وهذا كما لو اطلع رجل في بيته فإنه يجوز له أن يفقأ عينه ابتداء وليس عليه أن ينذره ، هذا أصح القولين ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « لو اطلع رجل في بيتك ففقأت عينه ما كان عليك شيء » (١) وكذلك قال في الذي عض يد غيره فترع يده فانقلعت أسنان العاض .

وهذا مذهب فقهاء الحديث ، وأكثر السلف ، وفي المسألتين نزاع ليس هذا موضعه ، إذ المقصود أن الزاني بامرأة غيره ظالم للزوج وللزوج حق عنده ، ولهذا ذكر النبي ﷺ أن من زنى بامرأة المجاهد فإنه يمكن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء (٢) . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني بحليلة جارك » (٣) فذكر الزنا بحليلة الجار ، فعلم أن للزوج

(١) الحديث عند الإمام أحمد في المسند ٢ : ٥٢٧ (حلي) وعند أبي داود في الأدب ١٢٧ ، وعند النسائي في القسامة ٤٧ .

(٣) الحديث عند البخاري في كتاب التوحيد ٤٠ باب قول الله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ . ٧٥٢٠ - حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير بن منصور عن أبي وائل عن عمرو بن شريح عن عبد الله قال : سألت النبي - ﷺ - وذكره ، ورواه أيضاً في التفسير سورة ٢ ، ٣ ، ٣٥ ، ورواه أبو داود في الأدب ٢٠ ، والديات ١ ، وفي الحدود ١٩ ، ورواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ١٤١ ، ١٤٢ ، وأبو داود في الطلاق ٥٠ ، والترمذي في التفسير سورة ٢٥ - ١ ، ٢ ،

حقاً في ذلك ، وكان ظلم الجار أعظم ، للحاجة إلى المجاورة .

وإن قيل : هذا قد لا يمكن زوج المرأة أن يحترز منه ، والجار عليه حق زائد على حق الأجنبي ، فكيف إذا ظلم في أهله والجيران يأمن بعضهم بعضاً ، ففي هذا من الظلم أكثر مما في غيره ، وجاره يجب عليه أن يحفظ امرأته من غيره ، فكيف يفسدها هو . فلما كان الزنا بالمرأة المزوجة له علتان كل منهما تستقل بالتحريم ، مثل لحم الخنزير الميت : علل يوسف ذلك بحق الزوج ، وإن كان كل من الأمرين مانعاً له ، وكان في تعليقه بحق الزوج فوائد . « منها » أن هذا مانع تعرفه المرأة وتعذر به ، بخلاف حق الله تعالى فإنها لا تعرف عقوبة الله في ذلك . و« منها » أن المرأة قد ترتدع بذلك ، فترعى حق زوجها ، إما خوفاً وإما رعاية لحقه ، فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده فالمرأة أولى بذلك ، لأنها خائنة في نفس المقصود منها ، بخلاف المملوك فإن المطلوب منه الخدمة ، وفاحشته بمنزلة سرقة المرأة من ماله .

و« منها » إن هذا مانع مؤيس لها فلا تطمع فيه لا بنكاح ولا بسفاح ، بخلاف الخلية من الزوج ، فإنها تطمع فيه بنكاح حلال . و« منها » أنه لو علل بالزنا فقد تسعى هي في فراق الزوج . والتزوج به ، فإن هذا إنما يحرم لحق الزوج خاصة ، ولهذا إذا طلقت امرأته باختياره جاز لغيره أن يتزوجها ، ولو طلقها ليتزوج بها - كما قال سعد بن الربيع ^(١) لعبد الرحمن بن عوف ^(٢) إن

= والنسائي في التحريم ١٤ ، وعند الإمام أحمد في المسند ١ : ٣٨٠ - ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ ، (حلي) .

(١) هو سعد بن الربيع بن عمرو ، من بني الحارث بن الخزرج : صحابي من كبارهم ، كان أحد النقباء يوم العقبة وشهد موقعة بدر واستشهد يوم أحد عام ٣ هـ .

راجع جمهرة الأنساب ٢٤٠ ونهاية الأرب ١١٦ و ٢٣٨ وصفة الصفوة ١ : ١٩١ والاصابة الترجمة ٣١٤٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث أبو محمد الزهري القرشي : صحابي =

لي امرأتين فاختر أيتهما شئت حتى أطلقها وتزوجها - لكنه بدون رضاه لا يحل ، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس منا من خيب امرأة على زوجها ، ولا عبداً على مولاه » (١) وقد حرم النبي ﷺ أن يخاطب الرجل على خطبة أخيه ، ويستام على سوم أخيه (٢) ، فإذا كان بعد الخطبة وقبل العقد لا يحل له أن يطلب التزوج بامرأته فكيف بعد العقد ، والدخول والصحبة ؟ .

فلو علل بأن هذا زنا محرم ربما طمعت في أن تفارق الزوج وتزوجه ، فإن كيدهن عظيم وقد جرى مثل هذا ، فلما علل بحق سيده وقال : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ يثبت من ذلك ، وعلمت أنه يراعي حق الزوج ، فلا يزاحمه في امرأته البتة ، ثم لو قدر مع هذا أن الزوج رضي بالفاحشة وأباح

= من أكابره ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم ، وأحد السابقين إلى الاسلام قيل : هو الثامن اسمه في الجاهلية عبد الكعبة وسماه رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن جرح يوم أحد ٢١ جراحة له ٦٥ حديثاً ووفاته بالمدينة عام ٣٢ هـ .

راجع صفة الصفوة ١ : ١٣٥ وحلية الأولياء ١ : ٩٨ وتاريخ الخميس ٢ : ٢٥٧ والاصابة ت ٥١٧١ .

(١) الحديث عند الامام أحمد في المسند ٢ : ٣٩٧ ، ٥ : ٣٥٢ ، ٣٥٥ وأبو داود في الأدب ١٢٦ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب البيوع ٥٨ باب لا يبيع على بيع أخيه ولا يسوم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يترك ، ٢١٤٠ حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان ، حدثنا الزهري ، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : وذكره وفيه زيادة « ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في أناتها » . ورواه أيضاً في كتاب النكاح ٤٥ باب لا يخاطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع . بسنده عن ابن عمر . ورواه الإمام مسلم في البيوع ٨ ، والنكاح ٣٨ ، ٣٩ - ٥٢ - ٥٤ - ٥٦ ، وأبو داود في النكاح ١٧ والترمذي في النكاح ٣٨ - والنسائي في البيوع ١٩ ، وابن ماجه في النكاح ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٥٣ ، ٢٣٨ ، ٢٧٤ (حلي) ورواه صاحب الموطأ في النكاح ١ ، ١٢ ، ٢ .

امراته لم يكن هذا مما يبيحها لحق الله ولحقه أيضاً ، فإنه ليس كل حق للإنسان له أن يسقطه ، ولا يسقط بإسقاطه ، وإنما ذاك فيما يباح له بذله ، وهو ما لا ضرر عليه في بذله ، مثل ما يعطيه من فضل مال ونفع .

وأما ما ليس له بذله فلا يباح بإباحته ، كما لو قال له : علمني السحر والكفر والكهانة ! وأنت في حل من إضلائي ، أو قال له : بعني رقيقاً وخذ ثمني ، وأنت في حل من ذلك .

وكذلك إذا قال : إفعل بي أو بابني أو بامرأتي أو بإمائي الفاحشة لم يكن هذا مما يسقط حقه فيه بإباحته ، فإنه ليس له بذل ذلك ، ومعلوم أن الله يعاقبها على الفاحشة وإن تراضيا بها ، لكن المقصود أن في ذلك أيضاً ظلماً لهذا الشخص لا يرتفع بإباحته ، كظلمه إذا جعله كافراً أو رقيقاً ، فإن كونه يفعل به الفاحشة أو بأهله فيه ضرر عليه لا يملك إباحته كالضرر عليه في كونه كافراً ، وهو كما لو قال له : أزل عقلي وأنت في حل من ذلك ، فإن الإنسان لا يملك بذل ذلك ، بل هو ممنوع من ذلك ، كما يمنع السفیه من التصرف في ماله أو إسقاطه حقوقه ، وكذلك المجنون والصغير ، فإن هؤلاء محجور عليهم لحقهم . ولهذا لو أذن له الصبي أو السفیه في أخذ ماله لم يكن له ذلك . ومن أذن لغيره في تكفيره أو تجنيته أو تخنيته والإفحاش به وبأهله فهو من أسفه السفهاء ، وهذا مثل الربا ، فإنه وإن رضي به المرابي وهو بالغ رشيد لم يباح ذلك ، لما فيه من ظلمه ، ولهذا له أن يطالبه بما قبض منه من الزيادة ، ولا يعطيه إلا رأس ماله ، وإن كان قد بذله باختياره ، ولو كان التحريم لمجرد حق الله تعالى لسقط برضاه ، ولو كان حقه إذا أسقطه سقط لما كان له الرجوع في الزيادة ، والإنسان يحرم عليه قتل نفسه أعظم مما يحرم عليه قتل غيره ، فلو قال لغيره : اقتلني لم يملك منه أعظم مما يملك هو من نفسه . ولهذا يوم القيامة يتظلم من الأكابر ، وهم لم يكرهوهم على الكفر ، بل باختيارهم كفروا . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾

يَقُولُونَ : يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ، وَقَالُوا : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وقال : ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ : رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ : لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ﴿٣﴾ وكذلك الناس يلعنون الشيطان ، وإن كان لم يكرههم على الذنوب ، بل هم باختيارهم أذنبوا .

فإن قيل : هؤلاء يقولون لشياطين الإنس والجن : نحن لم نكن نعلم أن في هذا علينا ضرراً ، ولكن أنتم زيتتم لنا هذا وحسبتموه حتى فعلناه ، ونحن كنا جاهلين بالأمر ، قيل : كما نعلم أن الجاهل بما عليه في الفعل من الضرر لا عبرة برضاه وإذنه ، وإنما يصح الرضاء والإذن ممن يعلم ما يأذن فيه ويرضى به ، وما كان على الإنسان فيه ضرر راجح لا يرضى به إلا لعدم علمه وإلا فالنفس تمتنع بذاتها من الضرر الراجح .

ولهذا كان من اشترى المعيب والمدلس والمجهول السعر ولم يعلم بحاله غير راض به ، بل له الفسخ بعد ذلك ، كذلك الكفر والجنون والفاحشة بالأهل لا يرضى بها إلا من لم يعلم بما فيها من الضرر عليه ، فإذا أذن فيها لم يسقط حقه ، بل يكون مظلوماً ، ولو قال : أنا أعلم ما فيها من العقاب وأرضى به كان كذباً ، بل هو من أجهل الناس بما يقوله .

ولهذا لو تكلم بكلام لا يفهم معناه ، وقال نويت موجه عند الله لم يصح ذلك في أظهر القولين ، مثل أن يقول : « بهشم » ولا يعرف معناها ، أو

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٦٦ - ٦٨ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٢٩ .

يقول : أنت طالق إن دخلت الدار وينوي موجبها من العربية ، وهو لا يعرف ذلك ، فإن النية والقصد والرضا مشروط بالعلم ، فما لم يعلمه لا يرضى به ، إلا إذا كان راضياً به مع العلم ، ومن كان يرضى بأن يكفر ويجن وتفعل الفاحشة به وبأهله ، فهو لا يعلم ما عليه في ذلك من الضرر ، بل هو سفيه ، فلا عبرة برضاه وإذنه ، بل له حق عند من ظلمه وفعل به ذلك غير ما لله من الحق ، وإن كان حق هذا دون حق المنكر المانع .

ولهذا قال يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) يقول : متى أفسدت امرأته كنت ظالماً بكل حال ، وليس هذا جزاء إحسانه إليّ .

والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضاً ، وإن كانوا فعلوه بتراضيههم ، قال طاوس ^(٢) : ما اجتمع رجلان على غير ذات الله إلا تفرقا عن تقال ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ^(٣) . وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً لمجرد كونه عصى الله ، بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

(٢) هو طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء ، أبو عبد الرحمن من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية للحديث ، وتقشفاً في العيش وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك ، أصله من الفرس ومولده عام ٣٣ هـ في اليمن ، توفي حاجاً بالمزدلفة عام ١٠٦ هـ وكان هشام بن عبد الملك حاجاً تلك السنة ، فصلى عليه وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء . قال ابن عينة : فتجنبوا السلطان ثلاثة . أبوذر ، وطاوس ، والثوري .

راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٨ وصفة الصفوة ٢ : ١٦٠ وحلية الأولياء ٤ : ٣ وابن خلكان ١ :

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٢٥ .

كالصريم ، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ﴾ ^(١) أي يلوم بعضهم بعضاً . وقال : ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ^(٢) .

فالمخاللة إذا كانت على غير مصلحة الاثنين كانت عاقبتها عداوة ، وإنما تكون على مصلحتها إذا كانت في ذات الله ، فكل منها وإن بذل للآخر إعانة على ما يطلبه واستعان به بإذنه فيما يطلبه ، فهذا التراضي لا اعتبار به ، بل يعود تباعضاً وتعادياً وتلاعناً ، وكل منها يقول للآخر : لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا ، فهلاكي كان مني ومنك .

والرب لا يمنعهما من التباغض والتعادي والتلاعن ، فلو كان أحدهما ظالماً للآخر فيه لنهي عن ذلك . ويقول كل منهما للآخر : أنت لأجل غرضك أوقعتني في هذا ؛ كالزانيين كل منهما يقول للآخر ، لأجل غرضك فعلت معي هذا ، ولو امتنعت لم أفعل أنا هذا ، لكن كل منهما له على الآخر مثل ما للآخر عليه ؛ فتعادلا .

ولهذا إذا كان الطلب والمراودة من أحدهما أكثر كان الآخر يتظلمه ويلعنه أكثر ، وإن تساوى في الطلب تقاوما ، فإذا رضي الزوج بالديانة فإنما هو لإرضاء الرجل أو المرأة لغرض له آخر ؛ مثل أن يكون محباً لها ، ولا تقيم معه إلا على هذا الوجه ، فهو يقول للزاني بها : أنت لغرضك أفسدت علي امرأتي ، وأنا إنما رضيت لأجل غرضها ، فأنت لما أفسدت علي امرأتي وظلمتني فعلت

(١) سورة القلم آية رقم ٣٠ ذكر بعض السلف أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير كان من قرية يقال لها خروان على ستة أميال من صنعاء ، وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهما قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهما يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ، ويدخر لغياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات ، وورثه بنوه قالوا لقد كان أبونا أحق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم كلية رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٦٧ .

معي ما فعلت . ومن ذلك أنه لو قال : إني أخاف الله أن يعاقبني ونحو ذلك
لقلت : أنت إنما تترك غرضي لغرضك في النجاة ، وأنا سيدتك فينبغي أن
تقدم غرضي على غرضك ، فلما قال : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ ^(١) علل
بحق سيده الذي يجب عليه وعليها رعاية حقه .

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

فصل

وفي قول يوسف : ﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(١) عبرتان :

« إحداهما » : إختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي .

و« الثانية » طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ، ويصرفه إلى طاعته ، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الأمرين بالذنوب ، وصار من الجاهلين .

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة ، وفيه صبر على المحنة والبلاء ، والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة .

وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣ وتمشياً مع عفة يوسف عليه السلام وصبره على هذا البلاء . ورد في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ قال : سبعة يظلهم في ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ لما قال فرعون : ﴿ سَنُقْتُلْ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (٢) ، قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾ .

وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣) ومنه قول يوسف عليه السلام : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) وهو نظير قوله : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (٥) : وقوله : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٦) .

فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف عليه السلام : اتقى الله بالعفة عن الفاحشة ، وصبر على أذاهم له بالمرادة والحبس ، واستعان الله ودعاه ، حتى يثبتته على العفة فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن ، وصبر على الحبس . وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ (٧) وكما قال تعالى :

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٢٨ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٢٧ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٤١ - ٤٢ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ .

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ .

(٧) سورة العنكبوت آية رقم ١٠ قال ابن عباس يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله ، وكذا قال غيره من علماء السلف وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لِمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لِبَشِ الْمَوْتَى وَلِبَشِ الْعَشِيرِ ﴾^(١) فإنه لا بد من أذى لكل من كان في الدنيا ، فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله ، بل اختار المعصية ، كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير . ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾^(٢) ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله ، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين ، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً ، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التمتع بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً .

فيوسف عليه السلام خاف الله من الذنوب ، ولم يخف من أذى الخلق وجسهم إذا طاع الله ؛ بل أثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية ، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة ، وأكرمتها المرأة بالمال والرياسة ، وزوجها في طاعتها ، فاختار يوسف الذل والحبس ، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة ، مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية . بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق ، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك . وقد قيل : إنها قالت لزوجها إنه هتك عرضي لم يمكنها أن تقول له راودني ، فإن زوجها قد عرف القصة ، بل كذبت عليه كذبة

(١) سورة الحج آية رقم ١١ - ١٣ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٤٩ روي عن ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد أنها نزلت في الجذ بن قيس ، وقد كان الجذ بن قيس هذا من أشرف بني سلمة ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ - قال لهم : من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : الجذ بن قيس على أننا نبخله فقال رسول الله ﷺ وأي داء أدوا من البخل ؟ ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور .

تزوج على زوجها ، وهو أنه قد هتك عرضها بإشاعة فعلها ، وكانت كاذبة على يوسف لم يذكر عنها شيئاً ، بل كذبت أولاً وآخرأ ، كذبت عليه بأنه طلب الفاحشة ، وكذبت عليه بأنه أشاعها ، وهي التي طالبت وأشاعت ، فإنها قالت للنسوة : فذلكن الذي لمتني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، فهذا غاية الإشاعة لفاحشتها لم تستر نفسها .

والنساء أعظم إخباراً بمثل ذلك ، وهن قبل أن يسمعن قولها قد قلن في المدينة : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ فكيف إذا اعترفت بذلك وطلبت رفع الملام عنها ؟ وقد قيل : إنهن أعنها على المراودة ، وعذلتها على الامتناع ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ^(٢) فدل على أن هناك كيداً منهن ، وقد قال هن الملك : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٣) فهن لم يراودنه لأنفسهن ، إذ كان ذلك غير ممكن ، وهو عند المرأة في بيتها وتحت حجرها ، لكن قد يكن أعن المرأة على مطلوبها .

وإذا كان هذا في فعل الفاحشة فغيرها من الذنوب أعظم ، مثل الظلم العظيم للخلق ، كقتل النفس المعصومة ، ومثل الإشراك بالله ، ومثل القول على الله بغير علم . قال تعالى : -

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٥١ .

الْحَقُّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا . وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ . فهذه أجناس المحرمات التي لا تباح بحال ، ولا في شريعة ، وما سواها - وإن حرم في حال - فقد يباح في حال .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (١)

فألهم : اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد : ألهم همان ، هم خطرات وهم إصرار ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي - ﷺ - أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة . وإن عملها كتبت له سيئة واحدة ، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ، ولا تكتب عليه سيئة ، ويوسف - ﷺ - هم هماً تركه الله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه . وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو ألهم وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله . فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٢) وأما ما ينقل من أنه حل سراويله

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ أورد الحافظ أبو بكر بن مرداويه ههنا حديث عمرو بن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه . قال : جاءت امرأة الى النبي - ﷺ - وبها طيف فقالت يا رسول الله : ادع الله أن يشفيني فقال : إن شئت دعوت الله فشفاك وإن شئت صبرت ولك الجنة ، فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، ولكن ادع الله أن لا أتكشف فدعا لها فكانت لا تتكشف وأخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شاباً كان يتعبد في المسجد فهويته امرأة فدعته الى نفسها فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ =

وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده ، وأمثال ذلك فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء ، وقدحاً فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله ، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا - ﷺ حرفاً واحداً . وقوله ﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (١) فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ . قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) فهذا كله كلام امرأة العزيز ، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه .

ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ .

أي لم أخنه في حال مغيبه عني ، وإن كنت في حال شهوده راودته فحينئذ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٣) .

= طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴿ فخر مغشياً عليه .

(١) سورة يوسف آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٠ - ٥٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٥٤ .

وقد قال كثير من المفسرين : إن هذا من كلام يوسف ، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول ، وهو قول في غاية الفساد ، ولا دليل عليه بل الأدلة تدل على نقيضه ، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضوع .

فصل

واختيار النبي ﷺ له ولأهله الاحتباس في شعب بني هاشم بضع سنين ، لا يبائعون ولا يشارون ، وصبياتهم يتضاغون من الجوع ، قد هجرهم وقلاهم قومهم ، وغير قومهم ، هذا أكمل من حال يوسف عليه السلام (١) .

فإن هؤلاء كانوا يدعون الرسول إلى الشرك ، وأن يقول على الله غير الحق ، يقول : ما أرسلني ولا نهى عن الشرك . وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، لِيُتَفَتَّرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُهُ ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ، إِذَا لَا أَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ، وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ، سُنَّةً مِمَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا

(١) قصة شعب بني هاشم . والوثيقة التي كتبها قريش ، والصبر الشديد والآلام القوانن الذي تعرض له رسول الله - ﷺ - في تلك الفترة العصيبة من بداية الدعوة الإسلامية - ويقابل هذا الاغراء الكبير والنعيم الوافر الذي كانت تعده قريش للرسول - ﷺ - إذا رجع عن هذه الدعوة وتركهم وأصنامهم - ولكن الرسول - ﷺ - آثر الجوع والحرمان والتكليل لأصحابه حتى يظهر الله هذا الأمر . كما قال كلمته المشهورة : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

راجع قصة شعب بني هاشم ووثيقة المقاطعة في سيرة ابن هشام الجزء الأول

قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا . وَلَا تَجِدُ لِسِتِّنَا تَحْوِيلًا ﴿١﴾

وكان كذب هؤلاء على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف ، فإنهم قالوا : إنه ساحر ، وإنه كاهن ، وإنه مجنون ، وإنه مفتر ، وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف ، لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد ، فإن يوسف كذب عليه في أنه زنى ، وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة ، فكان الكذب على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف . وكذلك الكذب على أولي العزم ، مثل نوح وموسى ، حيث يقال عن الواحد منهم : إنه مجنون ، وإنه كذاب ، يكذب على الله ، وما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس ، فإن يوسف حبس وسكت عنه ، والنبي ﷺ وأصحابه كانوا يؤذون بالأقوال والأفعال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة . وهذا معنى الحبس ، فإنه ليس المقصود بالحبس سكناه في السجن ، بل المراد منعه من التصرف المعتاد ، والنبي ﷺ لم يكن له حبس ، ولا لأبي بكر ، بل أول من اتخذ السجن عمر ، وكان النبي ﷺ يسلم الغريم إلى غريمه ويقول : « ما فعل أسيرك » فيجعله أسيراً معه ، حتى يقضيه حقه ، وهذا هو المطلوب من الحبس . والصحابة - رضي الله عنهم - منعوهم من التصرف بمكة أذى لهم ، حتى خرج كثير منهم إلى أرض الحبشة ، فاختاروا السكنى بين أولئك النصارى عند ملك عادل على السكنى بين قومهم ، والباقون أخرجوا من ديارهم وأموالهم أيضاً مع ما آذوهم به ، حتى قتلوا بعضهم وكانوا يضربون بعضهم ويمنعون بعضهم ما يحتاج إليه ، ويضعون الصخرة على بطن أحدهم في رمضان مكة (٢) ، إلى غير ذلك من أنواع

(١) سورة الاسراء آية رقم ٧٣ - ٧٧ .

(٢) إن التاريخ يحدثنا حديثاً مستفيضاً عن هؤلاء الصحابة الأول الذين اعتنقوا الاسلام وكيف أن قريشاً كانت تصب عليهم العذاب صباً كما فعلت مع أساء . أم عمار بن ياسر الذي صب أبو =

الأذى . وكذلك المؤمن من أمة محمد ﷺ يختار الأذى في طاعة الله على الإكرام مع معصيته ، كأحمد بن حنبل اختار القيد والحبس والضرب على موافقة السلطان ، وجنده ، علي أن يقول على الله غير الحق في كلامه (١) ، وعلى أن يقول ما لا يعلم أيضاً ، فإنهم كانوا يأتون بكلام يعرف أنه مخالف للكتاب والسنة ، فهو باطل ، وبكلام مجمل يحتاج إلى تفسير ، فيقول لهم الإمام أحمد : ما أدري ما هذا ؟ فلم يوافقهم على أن يقول على الله غير الحق ، ولا على أن يقول على الله ما لا يعلم .

= جهل عليها صنوفاً عدة من النكار والتعذيب حتى فارقت الحياة ولم تتلفظ بكلمة واحدة ضد دين الله ولا رسوله محمد - ﷺ - وكذلك ما فعل ببلال مؤذن الرسول - ﷺ - وهو يقول أحد أحد . غير الرسول على آل ياسر ويشاهد بنفسه الهول الأكبر الذي يتعرض له هؤلاء فيقول لهم : صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة » .

(١) وأيضاً الامام أحمد بن حنبل تعرض لسياط العباسيين وألقي به في السجن ، ويتوجه إليه الخليفة ليقول كلمة واحدة ، كلمة يتلفظ بها حتى يرفع عنه السوط والسيف . ولكن الرجل الأمة أحس في هذه اللحظة أنه لا يملك من أمر نفسه شيء ، وإنما هي حياة الأمة لا حياة أحمد بن حنبل فلو غير أو بدل لماتت الأمة الإسلامية وعاش أحمد بن حنبل ، ولكنه اختار الثانية - وهو أن يموت أحمد بن حنبل حتى تعيش الأمة الإسلامية ويسلم لها معتقدها ودينها .

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله بعد كلام [يهيم أحدهم] بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله تعالى ، فكان يوسف ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

ثم إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان شاباً عزيزاً أسيراً في بلاد العدو ، حيث لم يكن هناك أقارب أو أصدقاء فيستحي منهم إذا فعل فاحشة ، فإن كثيراً من الناس يمنعه من مواجهة القبائح حيأؤه ممن يعرفه ، فإذا تغرب فعل ما يشتهي ، وكان أيضاً خالياً لا يخاف مخلوقاً ، فحكم النفس الأمارّة - لو كانت نفسه كذلك - أن يكون هو المتعرض لها ، بل يكون هو المتحيل عليها ، كما جرت به عادة كثير ممن له غرض في نساء الأكابر إن لم يتمكن من الدعوة ابتداء ، فإما إذا دعي ولو كانت الداعية خدامة لكان أسرع مجيب ، فكيف إذا كانت الداعية سيدهة الحاكمة عليه ، التي يخاف الضرر بمخالفتها ؟!

ثم إن زوجها الذي عادته أن يزجر المرأة لم يعاقبها ، بل أمر يوسف بالإعراض ، كما ينعر الديوث ثم إنها استعانت بالنساء وحبسته . وهو يقول : ﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ ﴾

إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١﴾ .

فليتدبر اللبيب هذه الدواعي التي دعت يوسف إلى ما دعتة ، وإنه مع توفرها وقوتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك ، ولا من ينجيهِ من المخلوقين ، ليتبين له أن الذي ابتلى به يوسف كان من أعظم الأمور ، وأن تقواه وصبره عن المعصية - حتى لا يفعلها [مع] ظلم الظالمين له ، حتى لا يجيبهم - كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات ، وأن نفس يوسف عليه الصلاة والسلام كانت من أزكى الأنفس ، فكيف أن يقول : ﴿ وَمَا أْبْرَىٰ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ والله يعلم أن نفسه بريئة ليست أماراة بالسوء بل نفس زكية من أعظم النفوس زكاء ، والهـم الذي وقع كان زيادة في زكاء نفسه وتقواها ، وبحصوله مع تركه لله لتثبت له به حسنة من أعظم الحسنات التي تزكي نفسه .

« الوجه السادس » أن قوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (٢) إذا كان معناه على ما زعموه أن يوسف أراد أن يعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته على قول أكثرهم ؛ أو ليعلم الملك أو ليعلم الله لم يكن هنا ما يشار إليه ، فإنه لم يتقدم من يوسف كلام يشير به إليه ، ولا تقدم أيضاً ذكر عفافه واعتصامه ، فإن الذي ذكره النسوة قولهن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٣) وقول امرأة العزيز : ﴿ أَنَا رَأَوْدُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٤) وهذا فيه بيان كذبها فيما قالت أولاً ، ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو .

فقول القائل : إن قوله ﴿ ذَلِكَ ﴾ من قول يوسف ، مع أنه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل لا يصح بحال .

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٢ .

(٣) (٤) سورة يوسف آية رقم ٥١ .

« الوجه السابع » أن المعنى على هذا التقدير - لو كان هنا ما يشار إليه من قول يوسف أو عمله - إن عفتي عن الفاحشة كان ليعلم العزيز أني لم أخنه ، ويوسف عليه الصلاة والسلام إنما تركها خوفاً من الله ، ورجاء لثوابه ، ولعلمه بأن الله يراه ، لا لأجل مجرد علم مخلوق . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(١) فأخبر أنه رأى برهان ربه وأنه من عباده المخلصين .

ومن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك لم يكن هذا لأجل برهان من ربه ولم يكن بذلك مخلصاً فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله آحاد الناس لم يكن له ثواب من الله ، بل يكون ثوابه على من عمل لأجله . فإن قيل : فقد قال يوسف أولاً : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(٢) .

قيل : إن كان مراده بذلك سيده : فالمعنى أنه أحسن إلي ، وأكرمني ، فلا يحل لي أن أخونه في أهله ، فإني أكون ظالماً ولا يفلح الظالم ، فترك خيانتته في أهله خوفاً من الله لا ليعلم هو بذلك .

فإن قيل : مراده تأتي إظهار براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ، فالمعلل إظهار براءته لا نفس عفافه .

قيل : لم يكن مراده بإظهار براءته مجرد علم واحد ، بل مراده علم الملك

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٤ وفي تفسير هذه الآية حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة - رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ - يقول الله تعالى : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرائي فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

وغيره ، ولهذا قال للرسول : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ^(١) ولو كان هذا من قول يوسف لقال : ذلك ليعلموا أي بريء وأني مظلوم .

ثم هذا لا يليق أن يذكر عن يوسف ، لأنه قد ظهرت براءته ، وحصل مطلوبه ، فلا يحتاج أن يقول ذلك لتحصيل ذلك ، وهم قد علموا أنه إنما تأخر لتظهر براءته ، فلا يحتاج مثل هذا أن ينطق به .

« الوجه الثامن » أن الناس عادتهم في مثل هذا يعرفون بما عملوه من لذللك عنده قدر ، وهذا يناسب لو كان العزيز غيوراً ، وللعفة عنه جزاء كثير ، والعزيز قد ظهر عنه من قلة الغيرة وتمكين امرأته من حبة مع الظالمين مع ظهور براءته ما يقتضي أن مثل هذا ينبغي في عادة الطباع أن يقابل على ذلك بمواقعة أهله ، فإن النفس الأمانة تقول في مثل هذا : هذا لم يعرف قدر إحساني إليه ، وصوني لأهله ، وكف نفسي عن ذلك ، بل سلطها ومكنها . فكثير من النفوس لو لم يكن في نفسها الفاحشة إذا رأت من حاله هذا تفعل الفاحشة ؛ إما نكاية فيه ومجازاة له على ظلمه ، وإما إهمالاً له لعدم غيرته وظهور ديائته ، ولا يصبر في مثل هذا المقام عن الفاحشة إلا من يعمل لله خائفاً منه ، وراجياً لثوابه ، لا من يريد تعريف الخلق بعمله .

« الوجه التاسع » إن الخيانة ضد الإمانة ، وهما من جنس الصدق والكذب ، ولهذا يقال : الصادق الأمين ، ويقال : الكاذب الخائن . وهذا حال امرأة العزيز ؛ فإنها لو كذبت على يوسف في مغيبه ، وقالت راودني لكانت كاذبة وخائنة ، فلما اعترفت بأنها هي المراودة كانت صادقة في هذا الخبر أمانة فيه ، ولهذا قالت : ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٢) فأخبرت بأنه صادق في تبرئته

(١) سورة يوسف آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥١ وأول الآية ﴿ قال ما خطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن خضخص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

نفسه دونها .

فأما فعل الفاحشة فليس من باب الخيانة والأمانة . ولكن هو [من] باب الظلم والسوء والفحشاء ، كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى عن يوسف : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) ولم يقل هنا الخائنين - ثم قال تعالى :- ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(٢) ولم يقل لنصرف عنه الخيانة . فليتدبر اللبيب هذه الدقائق في كتاب الله تعالى .

« الوجه العاشر » أن في الكلام المحكي الذي أقره الله تعالى : ﴿ إن النفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ وهذا يدل على أنه ليس كل نفس أماره بالسوء ، بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأماره بالسوء .
وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال : تكون أماره بالسوء ^(٣) ، ثم تكون لوامة ، أي تفعل الذنب ثم تلوم عليه ^(٤) ، أو تلوم فتتردد بين الذنب والتوبة ، ثم تصير مطمئنة ^(٥) .

و« المقصود هنا » أن ما رحم ربي من النفوس ليست بأماره ، وإذا كانت النفوس منقسمة إلى مرحومة وأماره فقد علمنا قطعاً أن نفس امرأة العزيز من النفوس الأماره بالسوء ، لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة ، وراودت وافترت ، واستعانت بالنسوة وسجنت وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء .

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأماره بالسوء ﴾ .

(٤) قال تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ . روى ابن جرير عن أبي كريب ، عن وكيع عن إسرائيل به وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان عن ابن جريج عن الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير في قوله : ولا أقسم بالنفس اللوامة . قال تلوم على الخير والشر .

(٥) قال تعالى ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ﴾ . سورة الفجر آية رقم

وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فإن لم تكن نفسه من النفوس المرحومة عن أن تكون أمانة فما في الأنفس مرحوم ، فإن من تدبر قصة يوسف علم أن الذي رحم به وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون ، ولولا ذلك لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة ، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي أبعد عن أن تكون مرحومة من نفس يوسف ، وعلى هذا التقدير : فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة ، فما في النفوس مرحومة ، فإذا كل النفوس أمانة بالسوء ، وهو خلاف ما في القرآن . ولا يلتفت إلى الحكاية المذكورة عن مسلم بن يسار ^(١) : أن أعرابية دعت إلى نفسها ، وهما في البادية ، فامتنع وبكى ، وجاء أخوه وهو يبكي فبكى وبكت المرأة ، وذهبت فنام فرأى يوسف في منامه ، وقال : أنا يوسف الذي هممت ، وأنت مسلم الذي لم تهمل ، فقد يظن من يسمع هذه الحكاية أن حال مسلم كان أكمل وهذا جهل لوجهين :-

« أحدهما » أن مسلماً لم يكن تحت حكم المرأة المراودة ولا لها عليه حكم ، ولا لها عليه قدرة أن تكذب عليه ، وتستعين بالنسوة وتحبسه ، وزوجها لا يعينه ولا أحد غير زوجها يعينه على العصمة ، بل مسلم لما بكى ذهبت تلك المرأة ، ولو استعصمت لكان صراخه منها أو خوفها من الناس يصرفها عنه ، وأين هذا مما ابتلي به يوسف عليه الصلاة والسلام ؟

« الثاني » أن ألهم من يوسف لما تركه الله كان له به حسنة ، ولا نقص عليه ، وثبت في الصحيحين من حديث السبعة الذين « يظلهم » الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ ^(٢) وهذا مجرد الدعوة ، فكيف بالمراودة والإستعانة والحبس ؟ .

(١) هو مسلم بن يسار الأموي بالولاء أبو عبد الله ، فقيه ناسك من رجال الحديث ، أصله من مكة - سكن البصرة ، فكان مفتياً وتوفي بها عام ١٠٨ هـ .

راجع تهذيب التهذيب ١٠ : ١٤٠ وحلية الأولياء ٢ : ٢٩٠

(٢) الحديث عند البخاري في كتاب الأذان ٣٦ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل =

ومعلوم أنها كانت ذات منصب ، وقد ذكر أنها كانت ذات جمال وهذا هو الظاهر ، فإن امرأة عزيز مصر يشبه أن تكون جميلة ، وأما البدوية الداعية لمسلم فلا ريب أنها دون ذلك ، ورؤياه في المنام وقوله : أنا يوسف الذي هممت وأنت مسلم الذي لم تهم غايته أن يكون بمنزلة أن يقول ذلك له يوسف في اللحظة ، وإذا قال هذا : كان هذا خيراً له ومدحاً وثناء ، وتواضعاً من يوسف ، وإذا تواضع الكبير مع من دونه لم تسقط منزلته .

« الوجه الحادي عشر » أن هذا الكلام فيه - مع الاعتراف بالذنب - الاعتذار بذكر سببه ، فإن قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ فيه اعتراف بالذنب ، وقولها : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ إشارة تطابق لقولها : ﴿ أنا راودته ﴾ أي أنا مقرة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي ، ثم بينت السبب فقالت : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ فنفس من هذا الباب ، فلا ينكر صدور هذا مني ، ثم ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة ، فقالت : إن ربي غفور رحيم .

فإن قيل : فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب ، وأن الله قد يغفر لصاحبه . قلت : نعم ، والقرآن قد دل على ذلك . حيث قال زوجها : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ﴾ فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل على أنهم كانوا يرون ذلك ذنباً ويستغفرون منه ، وإن كانوا مع ذلك مشركين ، فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش ، ويستغفرون الله

المساجد ٦٦٠ - حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا يحيى عن عبيد الله قال : حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ - وذكره . ورواه صاحب الموطأ في الشعر ١٤ - والترمذي في الزهد ٥٣ والنسائي في الأقضية ٢ وقد نظم السبعة العلامة أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل فيما أنشده أبو اسحاق التنوخي إذناً عن أبي الهدي أحمد بن أبي شامة عن أبيه سماعاً من لفظه قال :

وقال النبي المصطفى ان سبعة يظلمهم الله الكريم بظله
عجب عفيف ، ناشئ متصدق وبك مصل والإمام بعدله .

منها . حتى أن النبي ﷺ لما بايع هند بنت عتبة ^(١) بن ربيعة بيعة النساء على أن لا تشرك بالله شيئاً ، ولا تسرق ولا تزني . قالت : أوتزني الحرة ؟ وكان الزنا معروفاً عندهم في الإماماء .

ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحرية في مقابلة الرق ، وأصل اللفظ هو العفة ، ولكن العفة عادة من ليست أمة ، بل قد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي ، أنه رأى في الجاهلية قرداً يزني بقردة ، فاجتمعت القردة عليه حتى رجته ^(٢) .

وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقين ، أنه رأى في جامع نوعاً من الطير قد باض ، فأخذ الناس بيضة ، وجاء ببيض جنس آخر من الطير ، فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير الجنس ، فجعل الذكر يطلب جنسه ، حتى اجتمع منهن عدد فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها ومثل هذا معروف في عادة البهائم .

والفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها وكراهتها ، وأولئك القوم كانوا يقرون بالصانع مع شركهم ، ولهذا قال لهم يوسف : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا

(١) هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، صحابه قرشية ، عالية الشهرة ، وهي أم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول الفاكهة بن المغيرة المخزومي في خبر طويل من طرائف أخبار الجاهلية وكانت فصيحة جريئة ، صاحبة رأي وحزم ، ونفس أبيّة تقول الشعر الجيد ، وكانت لها تجارة في خلافة عمر بن الخطاب وشهدت اليرموك وحرضت على قتال الروم وأخبارها كثيرة توفيت عام ١٤ هـ .

راجع طبقات ابن سعد ٨ : ١٧٠ والروض الأنف ٢ : ٢٧٧ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ٢٧ باب القسامة في الجاهلية ٣٨٤٩ - حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا هشيم عن حصين ، عن عمرو بن ميمون قال : وذكره ولفظ البخاري (قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجتها معهم) .

أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ،
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾
« الوجه الثاني عشر » أن يقال : إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر عن نبي من
الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه ، ولهذا كان الناس في عصمة الأنبياء على قولين :
إما أن يقولوا بالعصمة من فعلها ، وإما أن يقولوا بالعصمة من الإقرار عليها ،
لا سيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة . فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقر
فيه على خطأ ، فإن ذلك يناقض مقصود الرسالة ، ومدلول المعجزة .

وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك ، ولكن المقصود هنا أن الله لم
يذكر في كتابه عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه ، كما ذكر في قصة آدم
وموسى ، وداود وغيرهم من الأنبياء .

وبهذا يجيب من ينصر قول الجمهور الذين يقولون بالعصمة من الإقرار
على من ينفي الذنوب مطلقاً ، فإن هؤلاء من أعظم حججهم ما اعتمده
القاضي (٢) عياض وغيره ، حيث قالوا : نحن مأمورون بالتأسي بهم في
الأفعال ، وتجوز ذلك يقدح في التأسي ! فأجيبوا بأن التأسي إنما هو فيما أقروا
عليه ، كما أن النسخ جائز فيما يبلغونه من الأمر والنهي ، وليس تجوز ذلك مانعاً
من وجوب الطاعة لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ ، فعدم النسخ يقرر الحكم ،
وعدم الإنكار يقرر الفعل ، والأصل عدم كل منهما .

ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يذكر الله تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع

(١) سورة يوسف الآيات رقم ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الخامس في كلمة وافية .

المرأة ما يتوب منه ، أو يستغفر منه أصلاً ، وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة ، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها ، مثل ما يذكرون أنه حل السراويل ، وقعد منها مقعد الخائن ونحو هذا ، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ ، ولا مستند لهم إلا النقل عن بعض أهل الكتاب وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضبهم منهم ، كما قالوا في سليمان ما قالوا ، وفي داود ما قالوا ^(١) ، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه ، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه .

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره ، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصرأً وإما تائباً ، والإصرار ممتنع ، فتعين أن يكون تائباً ، والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفاراً كما ذكر عن غيره من الأنبياء ، فدل ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة والمساعي المشكورة كما أخبر الله عنه بقوله تعالى : -

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيُصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٢) وإذا كان الأمر في يوسف كذلك ، كان ما ذكر من قوله : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف ، فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول ، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه ، وفيه الاغتيال لنبي كريم ، وقول الباطل فيه بلا دليل ،

(١) راجع في ذلك العهد القديم المسمى « بالتوراة » وراجع أيضاً ما كتبه الامام ابن حزم في كتابه الفصل عند تناوله للتوراة والانجيل وبيان ما فيها من تحريف وتضليل وإدعاء على أنبياء الله بغير حق . وإذا كان هؤلاء الأبالسة قد أباحوا لأنفسهم قتل الأنبياء وقتلهم فعلاً كما أخبر القرآن بذلك أيستعصي عليهم الادعاء وتلطّيح سمعتهم ورميهم بالبهتان والفسق . . ؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

ونسبته إلى ما نزهه الله منه ، وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البهت . الذين كانوا يرمون موسى بما برأه الله منه ، فكيف بغيره من الأنبياء ؟ وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن ، وجعل تفسير القرآن تابعاً لهذا الاعتقاد .

وأعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض ، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه : قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب ، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ، ومغفرة الله لهم ، ورفع درجاتهم بذلك ، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه ، وأضافوا إليهم ذنباً وعيوباً نزههم الله عنها ، وهؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن ، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط ^(١) ، مهتدياً إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .

قال النبي ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » ^(٢) وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : يا رسول الله ؟ اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ^(٣)

(١) قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

والوسط : هنا الخيار والأجود كما يقال قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها وكان رسول الله - ﷺ - وسطاً في قومه : أي أشرفهم نسباً ومنه الصلاة الوسطى : التي هي أفضل الصلوات - وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها .

(٢) الحديث عند الامام الترمذي في التفسير سورة ١ ، ٢ وعند الامام أحمد في المسند ٤ : ٣٧٨ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني اسرائيل ٣٤٥٦ - حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا غسان ، قال : حدثني زيد بن أسلم - عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : وذكره . ورواه أيضاً في الاعتصام بسنده عن أبي هريرة ١٤ باب قول النبي - ﷺ - « لتبعن سنن من كان قبلكم » ورواه الامام مسلم في العلم ٦ ، وابن ماجه في كتاب الفتن ١٧ - وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ،

وفي الحديث الآخر الذي في الصحيح « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع » قالوا يا رسول الله فارس والروم ؟ قال : « ومن الناس إلا هؤلاء ؟ » (١) .

ولا ريب أنه صار عند كثير من الناس من علم أهل الكتاب ومن فارس والروم ما أدخلوه في علم المسلمين ودينهم وهم لا يشعرون ، كما دخل كثير من أقوال المشركين من أهل الهند واليونان وغيرهم ، والمجوس والفرس والصابئين من اليونان وغيرهم في كثير من المتأخرين لا سيما في جنس المتفلسفة والمتكلمة .

ودخل كثير من أقوال أهل الكتاب اليهود والنصارى في طائفة هم أمثل من هؤلاء ، إذ أهل الكتاب كانوا خيراً من غيرهم .

ولما فتح المسلمون البلاد كانت الشام ومصر ونحوهما مملوءة من أهل الكتاب ، النصارى واليهود ، فكانوا يحدثونهم عن أهل الكتاب بما بعضه حق ، وبعضه باطل ، فكان من أكثرهم حديثاً عن أهل الكتاب كعب الأحبار ، وقد قال معاوية - رضي الله عنه - ما رأينا في هؤلاء الذين يحدثونا عن أهل الكتاب أصدق من كعب ، وإن كنا لنبلوا عليه الكذب أحياناً (٢) .

= ٣٦٧ ، ٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٧ (حلي) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام ١٤ باب قول النبي - ﷺ - لتبعن سنن من كان قبلكم .

٧٣١٩ - حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي - ﷺ - وذكره . وفيه لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٥ باب قول النبي - ﷺ - (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء) ٧٣٦١ قال أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين ، الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا - مع ذلك - لنبلوا عليه الكذب .

ومعلوم أن عامة ما عند كعب أن ينقل ما وجدته في كتبهم ، ولو نقل ناقل ما وجدته في الكتب عن نبينا ﷺ لكان فيه كذب كثير ، فكيف بما في كتب أهل الكتاب مع طول المدة ، وتبدل الدين ، وتفرق أهله ، وكثرة أهل الباطل فيه .

وهذا باب ينبغي للمسلم أن يعتني به ، وينظر ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين هم أعلم الناس بما جاء به ، وأعلم الناس بما يخالف ذلك من دين أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين ، فإن هذا أصل عظيم .

ولهذا قال الأئمة - كأحمد بن حنبل وغيره - أصول السنة هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ .

ومن تأمل هذا الباب وجد كثيراً من البدع أحدثت بآثار أصلها عنهم ، مثل ما يروى في فضائل بقاع في (١) الشام ، من الجبال والغيان ، ومقامات الأنبياء ونحو ذلك ، مثل ما يذكر في جبل قاسيون ، ومقامات الأنبياء التي فيه ، وما في إتيان ذلك من الفضيلة حتى إن بعض المفترين من الشيوخ جعل زيارة مغارة فيه ثلاث مرات تعدل حجة ويسمونها مقامات الأنبياء . والآثار التي تروى في ذلك لا تصل إلى الصحابة ، وإنما هي عنهم ممن أخذها عن أهل الكتاب ، وإلا فلو كان لهذا أصل لكان هذا عند أكابر الصحابة الذين قدموا الشام ، مثل بلال بن رباح (٢) ، ومعاذ بن جبل (٣) ، وعبادة بن

(١) راجع في ذلك - وما يحدث في تلك البقاع من هوس وتضليل وإتيان المحرمات - مقدمة كتاب فتح المجيد بتحقيقنا - مطبعة - فيصل الحلبي - القاهرة .

(٢) هو بلال بن رباح الحبشي أبو عبد الله ، مؤذن رسول الله ﷺ - وخازنه على بيت ماله ، من مولدي السراة ، وأحد السابقين للإسلام ، وفي الحديث بلال سابق الحبشة « وكان شديد السمرة نحيفاً طويلاً خفيف العارضين ، له شعر كثيف ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ - ولما توفي رسول الله ﷺ - أذن بلال ، ولم يؤذن بعد ذلك وأقام حتى خرجت البعوث إلى

الصامت (١) ، بل ومثل أبي عبيدة بن الجراح (٢) أمين الأمة وأمثالهم ، فقد دخل الشام من أكابر الصحابة أفضل ممن دخل بقية الأمصار غير الحجاز ، فلم ينقل عن أحد منهم اتباع شيء من آثار الأنبياء ، لا مقابرهم ولا مقاماتهم ، فلم يتخذوها مساجد ، ولا كانوا يتحرون الصلاة فيها ، والدعاء عندها ، بل قد ثبت عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه كان في سفر ، فرأى قوماً يتتابون مكاناً يصلون فيه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ ، فقال : ومكان صلى فيه رسول الله ﷺ ؟ ؟ أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، من أدركته الصلاة فيه فليصل وإلا فليمض .

ولما دخل البيت المقدس وأراد أن يبنى مصلى المسلمين : قال لكعب : أين أبنيه ؟ قال : ابنه خلف الصخرة . قال : خالطتك يهودية يا بن اليهودية ، بل أبنيه أمامها ، ولهذا كان عبد الله بن عمر إذا دخل بيت المقدس

= الشام فسار معهم ، وتوفي بدمشق عام ٢٠ هـ روى له البخاري ومسلم ٤٤ حديثاً راجع طبقات ابن سعد وفيه عن مجاهد « أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ، وأبو بكر وبلال وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وسمية أم عمار » .

(٣) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي جليل ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله - ﷺ - أسلم وهو فتى وأخى النبي - ﷺ - بينه وبين جعفر بن أبي طالب ، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين ، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - توفي عام ١٨ هـ . [راجع ابن سعد ٣ : ١٢٠ والاصابة ت ٨٠٣٩ وأسد الغابة ٤ : ٣٧٦ وحلية الأولياء ١ : ٢٢٨]

(١) عبادة بن الصامت سبق الترجمة له في الجزء السادس

(٢) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال النهري القرشي ، الأمير القائد ، فاتح ديار الشامية ، والصحابي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . قال ابن عساكر : داهيتا قریش أبو بكر وأبو عبيدة وكان لقبه أمين الأمة ، ولد بمكة عام ٤٠ ق هـ . وهو من السابقين إلى الإسلام توفي بطاعون عمواس عام ١٨ هـ . [راجع طبقات ابن سعد ، والاصابة وحلية الأولياء ١ : ١٠٠ والبدء والتاريخ ٥ : ٨٧] .

صلى في قبله ، ولم يذهب إلى الصخرة . وكانوا يكذبون ما ينقله كعب : أن الله قال لها : أنت عرشي الأدنى ، ويقولون : من وسع كرسيه السموات والأرض كيف تكون الصخرة عرشه الأدنى ؟! ولم تكن الصحابة يعظمونها ، وقالوا : إنما بنى القبة عليها عبد الملك بن مروان لما كان محارباً لابن الزبير ، وكان الناس يذهبون إلى الحج فيجتمعون به ، عظم الصخرة ليشتغلوا بزيارتها عن جهة ابن الزبير ، وإلا فلا موجب في شريعتنا لتعظيم الصخرة ، وبناء القبة عليها وسترها بالأنطاع والجوخ ، ولو كان هذا من شريعتنا : لكان عمر وعثمان ومعاوية رضي الله عنهم أحق بذلك من بعدهم ، فإن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ وأعلم بستته ، واتبع لها ممن بعدهم .

وكذلك الصحابة لم يكونوا يتأبون قبر الخليل ﷺ بل ولا فتحوه ، بل ولا بنوا على قبر أحد من الأنبياء مسجداً ، فإنهم كانوا يعلمون أن النبي ﷺ قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » (١) .

ولما ظهر قبر دانيال بتستر كتب فيه أبو موسى إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فكتب إليه عمر ، إذا كان بالنهار فاحفر ثلاثة عشر قبراً ثم أدفنه بالليل في واحد منها ، وعفر قبره لئلا يفتتن به الناس ، وقد تأملت الآثار التي تروى في قصد هذه المقامات ، والدعاء عندها أو الصلاة ، فلم أجد لها عن

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب المغازي ٨٣ باب مرض النبي - ﷺ ووفاته . ٤٤٤٣ ، ٤٤٤٤ - وأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عائشة - وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهم قالوا : لما نزل برسول الله - ﷺ - طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك يقول : وذكره ورواه مسلم في المساجد ١٩ ، ٢٣ وأبو داود في الجنائز ٧٢ ، والنسائي في المساجد ١٣ ، والجنائز ١٠٦ والدارمي في الصلاة ١٢٠ وصاحب الموطأ في المدينة ١٧ - وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢١٨ ، ٢ : ٢٦٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٦٦ ، ٣٩٦ ، ٤٥٤ ، ٥١٨ ، ٥ : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٦ : ٣٤ ، ٨٠ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ (حلي)

الصحابة أصلاً ، بل أصلها عمن أخذ عن أهل الكتاب .

فمن أصول الإسلام أن تتميز ما بعث الله به محمداً ﷺ من الكتاب والحكمة ، ولا نخلطه بغيره ، ولا نلبس الحق بالباطل كفعل أهل الكتاب ، فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام ديناً .

وقد قال النبي ﷺ « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » ^(١) وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ قوله تعالى : - ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ^(٢) وجماع ذلك بحفظ أصليين :

« أحدهما » تحقيق ما جاء به الرسول ﷺ ، فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة ، والتفسيرات الباطلة ، بل يعطى حقه من معرفة نقله ، ودلالته .

و« الثاني » أن لا يعارض ذلك بالشبهات لا رأياً ولا رواية . قال الله تعالى فيما يأمر به بني إسرائيل وهو عبرة لنا : ﴿ آمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ٦ ، والإمام أحمد في المسند : ٤ : ١٢٦ (حلي) .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ قال الامام أحمد بن حنبل : حدثنا الأسود بن عامر شاذان ، حدثنا أبو بكر هو ابن عياش عن عاصم هو ابن أبي النجود عن أبي وائل عن عبد الله - وهو ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : خط رسول الله ﷺ خطاً بيده - ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً . وخط عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ وكذا رواه الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي بكر بن عياش به وقال : صحيح ولم يخرجاه .

مَعَكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فلا يكتُم الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ، ولا يلبس بغيره من الباطل ، ولا يعارض بغيره . قال الله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى : -

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ (٣)

وهؤلاء الأقسام الثلاثة هم أعداء الرسل ، فإن أحدهم إذا أتى بما يخالفه ، إما أن يقول : إن الله أنزله علي فيكون قد افترى على الله ، أو يقول : أوحى إليه ولم يسم من أوحاه ، أو يقول : أنا أنشأته ، وأنا أنزل مثل ما أنزل الله ، فإما أن يضيفه إلى الله أو إلى نفسه أو لا يضيفه إلى أحد .

وهذه الأقسام الثلاثة هم من شياطين الإنس والجن ، الذي يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، قال الله تعالى : -

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٤) والله أعلم - والحمد لله

(١) سورة البقرة آية رقم ٤١ - ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٣ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٣٠ - ٣١ .

سئل رضي الله عنه

عن قوله تعالى : ﴿ قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ^(١) ؟ وهل الدعوة عامة تتعين في حق كل مسلم ومسلمة أم لا ؟ وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في هذه الدعوة أم لا وإذا كانا داخلين أو لم يكونا فهل هما من الواجبات على كل فرد من أفراد المسلمين كما تقدم أم لا ؟ وإذا كانا واجبين فهل يجبان مطلقاً مع وجود المشقة بسببهما أم لا ؟ وهل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقتصر من الجاني عليه إذا آذاه في ذلك لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق أم لا ؟ وإذا كان له ذلك فهل تركه أولى مطلقاً أم لا ؟؟

فأجاب - رضي الله عنه وأرضاه - الحمد لله رب العالمين .

الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله ، بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا ، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، والدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه .

فإن هذه الدرجات الثلاث التي هي « الإسلام » و« الإيمان » و« الإحسان » داخله في الدين ، كما قال في الحديث الصحيح : « هذا

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

يقول الله تعالى لرسوله - ﷺ - قل يا محمد الى الثقلين الجن والأنس : هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة الى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو الى الله بها على بصيرة .

جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» (١) بعد أن أجابه عن هذه الثلاث ، فبين أنها كلها من ديننا .

و« الدين » مصدر ، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول ، يقال دان فلان فلاناً إذا عبده وأطاعه ، كما يقول دانه إذا أذله ، فالعبد يدين الله أي يعبده ويطيعه ، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع ، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع - كما قال تعالى : ﴿ وَفَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (٢) فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه ، وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له ، كما بعث الله بذلك رسله ، وأنزل به كتبه ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٢ باب ﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ الْمُنَافِقَةَ ﴾ ٤٧٧٧ - حدثني اسحاق عن جرير ، عن أبي حيان ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ما الإيمان . . ؟ وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الإيمان ٣٧ ، والامام مسلم في إيمان ٥٧ ، وأبو داود في السنة ١٦ والترمذي في إيمان ٤ وابن ماجه في المقدمة ٩ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، ٣ : ١٠٧ (حلي) .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٩ قال البخاري حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى ، حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه . . ؟ فقال : يا بني أخي أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ إلى آخره قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَفَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله - ﷺ - إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، ﷻ رأى أنه لا يوافقه فيها يريد قال : فما قولكم في علي وعثمان . . . ؟ .

قال ابن عمر : أما قولي في علي وعثمان ، أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه .
وأما علي فابن عم رسول الله - ﷺ - وختنه وأشار بيده ، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون .

إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ؟ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ (٣) وقال تعالى : -

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤)

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد . الأنبياء إخوة لعلات ، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ، إنه ليس بيني وبينه نبي » (٥) فالدين واحد وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم . كما قال تعالى : - ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٦) .

فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية ، فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسله وبالיום الآخر ، والعملية كالأعمال العامة

(١) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٤٨ باب ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ ٣٤٤٢ - أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة - رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ - وذكره ورواه مسلم في الفضائل ١٤٣ - ١٤٤ .

(٦) سورة المائدة آية رقم ٤٨ .

المذكورة في الأنعام والأعراف ، وسورة بني اسرائيل ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(١) إلى آخر الآيات الثلاث . وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ^(٢) إلى آخر الوصايا . وقوله : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) فهذه الأمور هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع ، كعامة ما في السور المكية ، فإن السور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله . إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة ، وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسله ، ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل الله بها الدين : كالقبلة ، والحج ، والصيام ، والاعتكاف ، والجهاد ، وأحكام المناكح ونحوها . وأحكام الأموال بالعدل كالبيع ، والإحسان كالصدقة ، والظلم كالربا ، وغير ذلك مما هو من تمام الدين .

ولهذا كان الخطاب في السور المكية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ لعموم الدعوة إلى الأصول ، إذ لا يدعي إلى الفرع من لا يقر بالأصل ، فلما هاجر النبي

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥١ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٩ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

قال الإمام أحمد ، حدثنا معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - : لا أحد أغبر من الله ، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله . أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن شقيق عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود .

ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان ، وكان بها أهل الكتاب خوطب هؤلاء وهؤلاء ، فهؤلاء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وهؤلاء ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ أو ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ ولم ينزل بمكة شيء من هذا ، ولكن في السور المدنية خطاب ، ﴿ يا أيها الناس ﴾ كما في سورة النساء وسورة الحج وهما مدنيتان ، وكذا في البقرة .

وهذا يعم ^(١) على قول الحبر ابن عباس ، لأن الحكم المذكور يشمل جنس الناس ، والدعوة بالاسم الخاص لا تنافي الدعوة بالاسم العام . فالؤمنون داخلون في الخطاب ﴿ يا أيها الناس ﴾ وفي الخطاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فالدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به ، والنهي عن كل ما نهى الله عنه ، وهذا هو الأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر . والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة ، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه ، أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر . قال تعالى : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ ^(٢) .

ودعوته إلى الله هي بإذنه لم يشرع ديناً لم يأذن به الله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً

(١) في الأصل : يعكر ، ولعله تحريف من الناسخ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦ - ١٥٧ قال الإمام أحمد - حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان عن أبي عثمان ، عن سلمان ، عن النبي - ﷺ : إن الله عز وجل مائة رحمة يترحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها وآخر تسعين إلى يوم القيامة . تفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من حديث سليمان هو ابن طرخان ، وداود بن أبي هند كلاهما عن أبي عثمان ، واسمه عبد الرحمن ابن مل عن سلمان هو الفارسي عن النبي - ﷺ - به .

مُنِيرًا ﴿١﴾ خلاف الذين ذمهم في قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٢) وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً ، قُلْ : ءَآلَهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ؟ ﴾ (٣)

ومما يبين ما ذكرناه : أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة ، وتارة بالدعوة إلى سبيله ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٤) وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين :
« أحدهما » المقصود المراد .

و « الثاني » الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود ، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله ، وتارة إلى سبيله ، فإنه سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة .

والعبادة : اسم يجمع غاية الحب له ، وغاية الذل له ، فمن ذل لغيره مع بغضه لم يكن عابداً ، ومن أحبه من غير ذل له لم يكن عابداً ، والله سبحانه يستحق أن يحب غاية المحبة ، بل يكون هو المحبوب المطلق ، الذي لا يحب شيء إلا له ، وأن يعظم ويذل له غاية الذل ، بل لا يذل شيء إلا من أجله ، ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم فإن الشرك يوجب نقص المحبة .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٥) أي أشد حُباً لله من هؤلاء لأندادهم .

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٢١ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٥٩ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي =

وقال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ ﴾ ^(١) وكذلك الاستكبار يمنع حقيقة الذل لله ، بل يمنع حقيقة المحبة لله ، فإن الحب التام يوجب الذل والطاعة فإن المحب لمن يحب مطيع .

ولهذا كان الحب درجات أعلاها « التتيم » وهو التعبد ، وتيم الله أي عبد الله ، فالقلب المتيم هو العبد لمحبوبه ، وهذا لا يستحقه إلا الله وحده .

والإسلام أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، كما ينبىء عنه قول : « لا إله إلا الله » فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، وكلاهما ضد الإسلام ، والشرك غالب على النصارى ومن ضاهاهم من الضلال والمنتسبين إلى الأمة .

وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذا الموضوع في مواضع متعددة . وذلك يتعلق بتحقيق الألوهية لله وتوحيده ، وامتناع الشرك ، وفساد السموات والأرض بتقدير إله غيره ، والفرق بين الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ، وبيان أن العباد فطروا على الإقرار به ومحبه وتعظيمه ، وأن القلوب لا تصلح إلا بأن تعبد الله وحده ، ولا كمال لها ولا صلاح ولا لذة ولا سرور ولا فرح ولا سعادة بدون ذلك ، وتحقيق الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع الذي في تحقيقه تحقيق مقصود الدعوة النبوية ، والرسالة الإلهية ، وهو لب القرآن وزبدته ، وبيان التوحيد العلمي القولي ، المذكور في قوله ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ^(٢) والتوحيد القصدي العملي

= الذنب أعظم .. ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة الصمد آية رقم ١ و ٢ .

المذكور في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) وما يتصل بذلك ، فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها . لكن المقصود في الحواب ذكر ذلك على طريق الإجمال ، إذ لا يتسع الجواب لتفصيل ذلك ، وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب ، من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به ، وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر ، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ، ويترك ما أبغضه الله ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة ، كالتصديق بما أخبر به الرسول ﷺ من أسماء الله وصفاته ، والمعاد وتفصيل ذلك ، وما أخبر به عن سائر المخلوقات ، كالعرش ، والكرسي ، والملائكة ، والأنبياء وأمهم ، وأعدائهم ، وكإخلاص الدين لله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، وكالتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، وخشية عذابه ، والصبر لحكمه ، وأمثال ذلك ، وكصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، وكالجهاد في سبيله بالقلب واليد واللسان .

إذا تبين ذلك ، فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه ، وهم أمته يدعون إلى الله ، كما دعا إلى الله .

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به ، ونهيهم عما ينهى عنه ، وإخبارهم بما أخبر به ، إذ الدعوة تتضمن الأمر ، وذلك يتناول الأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر .

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ هذه السورة ، سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون - وهي أمرة بالإخلاص فيه . فقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ - إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة - فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ - أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ من الأصنام والأنداد .

وقد وصف أمته بذلك في غير موضع ، كما وصفه بذلك فقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢) الآية وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة ، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقيين ، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقيين . قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣)

فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله ، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة ، فأتمته لا تجتمع على ضلالة ، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله ، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره سقط عنه ، وما عجز لم يطالب به ، وأما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا ، وقد تقسّط

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ في مسند الإمام أحمد ، وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ، ومستدرک الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال : قال رسول الله - ﷺ - أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل « وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذي ، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد ونحوه ، وإنما حازت الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد - ﷺ . قال الإمام أحمد - حدثنا عبد الرحمن حدثنا ابن زهير ، عن عبد الله - يعني ابن محمد بن عقييل عن محمد بن علي وهو ابن الحنفية سمع علي بن أبي طالب - رضي الله عنه يقول : قال رسول الله - ﷺ - أعطيت ما لم يعط أحداً من الأنبياء فقلنا يا رسول الله ما هو ؟ قال : نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد ، وجعل التراب لي طهوراً ، وجعلت أمتي خير الأمم » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، واسناده حسن .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٧١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤ .

الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى ، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب ، وهذا إلى عمل ظاهر واجب ، وهذا إلى عمل باطن واجب ، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة ، وفي الوقوع أخرى .

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ، لكنها فرض على الكفاية ، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقدّر به غيره ، وهذا شأن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتبليغ ما جاء به الرسول ، والجهاد في سبيل الله ، وتعليم الإيمان والقرآن .

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعي إليه ، وذلك هو الأمر به ، إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به ، واستدعاء له ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله ، فهو أمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر .

وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين ، وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان . كالصلوات الخمس ، بل كوجوب الجهاد . والقيام بالواجبات : من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها ، كما جاء في الحديث : « ينبغي لمن أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر ، والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود ، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي ، فإنه كثيراً ما يحصل له الأذى بذلك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ ^(١) وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة ، كما قال تعالى : في

(١) سورة لقمان آية رقم ١٧ .

أول المدثر ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَيَتَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢) وقال : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (٤) وقال : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (٥) وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله : ﴿ لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٦) والمؤمنون

(١) سورة المدثر من آية ٢ - ٧ .

(٢) سورة الطور آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة ق آية رقم ٣٩ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٣٤ .

(٥) سورة القلم آية رقم ٤٨ صاحب الحوت : هو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر ، والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير فحينئذ نادى في الظلمات ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ ذكر البخاري عند تفسير هذه الآية . قال : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد حدثه أن رسول الله - ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عباد بن بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أبي ، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركون عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا . فسلم رسول الله - ﷺ - ثم وقف فنزل ودعاهم الى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه . فقال عبد الله بن رواحة . رضي الله عنه بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإننا =

كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر به من المعروف ، وينهون عما نهى الله عنه من المنكر ، فيؤذيههم المشركون وأهل الكتاب ، وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه وقال لهم : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » وقد قال يوسف عليه السلام : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر يتناول الصبر على المصائب التي منها أذى المأمور المنهي للأمر الناهي . لكن للأمر الناهي أن يدفع عنه ما يضره ، كما يدفع الإنسان عن نفسه الصائل ، فإذا أراد المأمور المنهي ضربه أو أخذ ماله ونحو ذلك وهو قادر على دفعه فله دفعه عنه ، بخلاف ما إذا وقع الأذى وتاب منه ، فإن هذا مقام الصبر والحلم ، والكمال في هذا الباب حال نبينا ﷺ ، كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت « ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له ، ولا امرأة ، ولا دابة ، ولا شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله » (٢) فقد تضمن خلقه العظيم أنه لا ينتقم لنفسه إذا نيل منه ، وإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله ، ومعلوم أن

= نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتأثرون فلم يزل النبي ﷺ - يخفضهم حتى سكتوا فنزل قول الله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ .

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المناقب ٢٣ باب صفة النبي - ﷺ ٣٥٦٠ أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة - رضي الله عنها أنها قالت « ما خير رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الحدود ١٠ باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله . وفي الأدب ٨٠ باب قول النبي - ﷺ - يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف والتسري على الناس ورواه مسلم في الفضائل ٧٧ - ٧٩ والموطأ في حسن الخلق ٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٢٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٨٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٦٢ ، ٢٨١ (حلي)

أذى الرسول من أعظم الحرمات ، فإن من آذاه فقد آذى الله ، وقتل سابه واجب باتفاق الأمة ، سواء قيل إنه قتل لكونه ردة ، أو لكونه ردة مغالطة أوجبت أن صار قتل الساب حداً من الحدود . والمنقول عن النبي ﷺ في احتماله وعفوه عمن كان يؤذيه كثير كما قال تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ^(١) فالأمر الناهي إذا أُوذِيَ وكان آذاه تعدياً لحدود الله وفيه حق لله يجب على كل أحد النهي عنه ، وصاحبه مستحق للعقوبة ، لكن لما فيه حق الأدمي كان له العفو عنه ، كما له أن يعفو عن القاذف والقاتل وغير ذلك ، وعفوه عنه لا يسقط من ذلك العقوبة التي وجبت عليه لحق الله ، لكن يكمل لهذا الأمر الناهي مقام الصبر والعفو الذي شرع الله لمثله ، حتى يدخل في قوله تعالى : - ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ^(٢) وفي قوله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ^(٣) ثم هنا فرق لطيف : أما الصبر فإنه مأمور به مطلقاً ، فلا ينسخ ، وأما العفو والصفح فإنه جعل إلى غاية وهو أن : ﴿ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ فلما أتى بأمره : بتمكين الرسول ونصره - صار قادراً على الجهاد لأولئك ، والزامهم بالمعروف ، ومنعهم عن المنكر - صار يجب عليه العمل باليد في ذلك ما كان عاجزاً عنه ، وهو مأمور بالصبر في ذلك ، كما هو مأموراً بالصبر أولاً .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٩ قال : محمد بن اسحاق ، حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد ابن جبير أو عكرمة عن ابن عباس . قال : كان حيي بن أخطب ، وأبوياسر بن أخطب من أشد اليهود للعرب حسداً إذ خصهم الله برسوله - ﷺ - وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا فانزل الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ ﴾ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠٩ .

والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، فمقصوده إقامة دين الله لا استيفاء الرجل حظه ، ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله ، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، حتى إن الكفار إذا أسلموا أو عاهدوا لم يضمنوا ما أتلّفوه للمسلمين من الدماء والأموال ، بل لو أسلموا وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين كان ملكاً لهم عند جمهور العلماء ، كمالك وأبي حنيفة وأحمد . وهو الذي مضت به سنة رسول الله ﷺ ، وسنة خلفائه الراشدين . فالأمر الناهي إذا نيل منه وأوذي ، ثم إن ذلك المأمور المنهي تاب وقبل الحق منه : فلا ينبغي له أن يقتص منه ، ويعاقبه على أذاه ، فإنه قد سقط عنه بالتوبة حق الله كما يسقط عن الكافر إذا أسلم حقوق الله تعالى . كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « الإسلام يهدم ما كان قبله ، والتوبة تهدم ما كان قبلها » (١) والكافر إذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله : دخل في ذلك ما اعتدى به على المسلمين في نفوسهم وأموالهم ، لأنه ما كان يعتقد ذلك حراماً ، بل كان يستحله ، فلما تاب من ذلك غفر له هذا الاستحلال ، وغفرت له توابعه . فالمأمور المنهي إن كان مستحلاً لأذى الأمر الناهي كأهل البدع والأهواء ، الذين يعتقدون أنهم على حق ، وأن الأمر الناهي لهم معتد عليهم ، فإذا تابوا لم يعاقبوا بما اعتدوا به على الأمر الناهي من أهل السنة ، كالرافضي الذي يعتقد كفر الصحابة أو فسقهم وسبهم على ذلك ، فإن تاب من هذا الاعتقاد وصار يحبهم ويتولاهم لم يبق لهم عليه حق ، بل دخل حقهم في حق الله ثبوتاً وسقوطاً ، لأنه تابع لاعتقاده .

ولهذا كان جمهور العلماء - كأبي حنيفة ومالك وأحمد في أصح الروايتين والشافعي في أحد القولين على - أن أهل البغي المتأولين لا يضمنون ما أتلّفوه على أهل العدل بالتأويل ، كما لا يضمن أهل العدل ما أتلّفوه على

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الإيمان باب ١٩٢ .

أهل البغي بالتأويل باتفاق العلماء .

وكذلك أصح قولي العلماء في المرتدين ، فإن المرتد والباغي المتأول والمبتدع كل هؤلاء يعتقد أحدهم أنه على حق ، فيفعل ما يفعله متأولاً ، فإذا تاب من ذلك كان كتوبة الكافر من كفره ، فيغفر له ما سلف مما فعله متأولاً ، وهذا بخلاف من يعتقد أن ما يفعله بغي وعدوان كالمسلم إذا ظلم المسلم ، والذمي إذا ظلم المسلم ، والمرتد الذي أتلف مال غيره ، وليس بمحارب بل هو في الظاهر مسلم أو معاهد ، فإن هؤلاء يضمنون ما أتلّفوه بالاتفاق .

فالمأمور المنهي إذا كان يعتقد أن أذى الأمر الناهي جائز له فهو من المتأولين وحق الأمر الناهي داخل في حق الله تعالى ، فإذا تاب سقط الحقان ، وإن لم يتب كان مطلوباً بحق الله المتضمن حق الأدمي ، فيما أن يكون كافراً ، وإما أن يكون فاسقاً وإما أن يكون عاصياً ، فهؤلاء كل يستحق العقوبة الشرعية بحسبه ، وإن كان مجتهداً مخطئاً فهذا قد عفى الله عنه خطؤه ، فإن كان قد حصل بسبب اجتهاده الخطأ أذى للأمر الناهي بغير حق كالحاكم إذا اجتهد فأخطأ ، وكان في ذلك ما هو أذى للمسلم ، أو كالشاهد ، أو كالمفتي . فإذا كان الخطأ لم يتبين لذلك المجتهد المخطيء كان هذا مما ابتلى الله به هذا الأمر الناهي . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾^(١) فهذا مما يترفع عنه الإثم في نفس الأمر ، وكذلك الجزاء على وجه العقوبة ، ولكن قد يقال : قد يسقط الجزاء على وجه القصاص الذي يجب في العمد ، ويثبت الضمان الذي يجب في

(١) سورة الفرقان آية رقم ٢٠ في صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله - ﷺ - يقول

الله تعالى : ﴿ إِنِّي مِتْلِكَ وَمِتْلِي بِكَ ﴾ .

وفي المسند عن رسول الله - ﷺ - لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة .

وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام : خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً

فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

الخطأ ؛ كما تجب الدية في الخطأ ، وكما يجب ضمان الأموال التي يتلفها الصبي والمجنون في ماله ، وإن وجبت الدية على عاقلة القاتل خطأ ، معاونة له ، فلا بد من استيفاء حق المظلوم خطأ ، فكذلك هذا الذي ظلم خطأ ، لكن يقال : يفرق بين ما كان الحق فيه لله ، وحق الآدمي تبع له ، وما كان حقاً لآدمي محضاً أو غالباً ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد من هذا الباب موافق لقول الجمهور الذين لا يوجبون على أهل البغي ضمان ما أتلّفوه لأهل العدل بالتأويل ، وإن كان ذلك خطأ منهم ليس كفراً ولا فسقاً . وإذا قدر عليهم أهل العدل لم يتبعوا مدبرهم ، ولم يجهزوا على جريحهم ، ولم يسبوا حريمهم ، ولم يغنموا أموالهم ، فلا يقاتلونهم على ما أتلّفوه من النفوس والأموال إذا أتلّفوا مثل ذلك ، أو تملكوا عليهم .

فتبين أن القصاص ساقط في هذا الموضع ، لأن ١٨٠ من باب الجهاد الذي يجب فيه الأجر على الله ، وهذا مما يتعلق بحق العبد الأمر الناهي . وأما قول السائل : هل يقتصر منه لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق ؟ فيقال : متى كان فيما فعله إفساد لجانب الحق كان الحق في ذلك لله ورسوله ، فليفعل فيه ما يفعل في نظيره ، وإن لم يكن فيه أذى للأمر الناهي .

والمصلحة في ذلك تتنوع ، فتارة تكون المصلحة الشرعية القتال ، وتارة تكون المصلحة المهادنة ، وتارة تكون المصلحة الإمساك والاستعداد بلا مهادنة ، وهذا يشبه ذلك ، لكن الإنسان تزين له نفسه أن عفوه عن ظالمه يجريه عليه ، وليس كذلك ، بل قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال : « ثلاث إن كنت لحالفاً عليهن ، ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما نقصت صدقة من مال ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » (١) .

فالذي ينبغي في هذا الباب أن يعفو الإنسان عن حقه ، ويستوفي حقوق

(١) الحديث رواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ١٤٥ (حلي) ٢ : ٢٣٥ (حلي)

الله بحسب الإمكان . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ^(١) قال إبراهيم النخعي ^(٢) : كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفووا . قال تعالى ﴿ هم ينتصرون ﴾ يمدحهم ، بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ، ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزاً وذللاً ، بل هذا مما يذم به الرجل ، والممدوح العفو مع القدرة ، والقيام لما يجب من نصر الحق ، لا مع إهمال حق الله وحق العباد ، والله تعالى أعلم

(١) سورة الشورى آية رقم ٣٩ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفووا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿ لا تشرب عليكم اليوم يفر الله لكم ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم . وكما عفا رسول الله - ﷺ - عن أولئك نفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ، ونزلوا من جبل التنعيم فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام وكذلك عفوه - ﷺ - عن غوث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اختلط سيفه - وهو نائم فاستيقظ - ﷺ - وهو في يده صلتاً فانتهره فوضعه من يده ، وأخذ رسول الله - ﷺ - السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه ، وكذلك عفا - ﷺ - عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام - ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه - وكذلك عفوه - ﷺ - عن المرأة اليهودية وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن سلمة التي سمت الذراع يوم خيبر ، فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال - ﷺ - ما حملك على ذلك ؟ قالت أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك فأطلقها عليه الصلاة والسلام .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الثاني .

فصل

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ^(١) الآية : قراءتان في هذه الآية ، بالتخفيف والتثقيل ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالتثقيل وتنكر التخفيف ، كما في الصحيح عن الزهري قال : أخبرني عروة عن عائشة قالت له - وهو يسألها عن قوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ مخففة قالت - معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بريها - قلت : فما هذا النصر - ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ بمن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك ، لعمرى لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن .

وفي الصحيح أيضاً عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكة يقول قال ابن عباس : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ خفيفة ذهب بها هنالك وتلا : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فلقيت عروة فذكرت ذلك له ، فقال : قالت عائشة : معاذ الله ، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يكون ،

(١) سورة يوسف آية رقم ١١٠ .

ولكن لم يزل البلاء بالرسول حتى ظنوا خافوا أن يكون من معهم يكذبهم ، فكانت تقرأها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ ^(١) مثقلة .

فعائشة جعلت استيأس الرسول من الكفار للمكذبين ، وظنهم التكذيب من المؤمنين بهم ، ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها ، وقد تأولها ابن عباس ، وظاهر الكلام معه ، والآية التي تليها إنما فيها استبطاء النصر وهو قولهم : ﴿ متى نصر الله ؟ ﴾ فإن هذه كلمة تبطئ لطلب التعجيل .

وقوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ قد يكون مثل قوله : ﴿ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ ^(٢) والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح ، كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم ، ويسمون الاعتقاد المرجوح وهما . بل قد قال النبي ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » ^(٣) وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ^(٤) فالاعتقاد المرجوح هو ظن ، وهو وهم ، وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المعفو عنه ، كما قال النبي ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل » ^(٥) وقد يكون من باب

(١) سورة يوسف آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٥٢ .

(٣) الحديث عند البخاري في كتابا الوصايا ٨ باب قول الله عز وجل ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ ٢٢ النساء وذكره ورواه أيضاً في كتاب النكاح ٤٥ والفرائض ٢ وكتاب الأدب ٥٧ - ٥٨ ورواه الإمام مسلم في البر ٢٨ والترمذي في البر ٥٦ ، وصاحب الموطأ في حسن الخلق ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٤٦٥ (حلي)

(٤) سورة النجم آية رقم ٢٨ .

(٥) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب العتق ٦ باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه .

٢٥٢٨ - حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مسعر عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ - وذكره . ورواه في الطلاق ١١ وإيمان ١٥ ، ورواه الإمام مسلم في إيمان ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ورواه أبو داود في الطلاق ١٥ وابن ماجه في =

الوسوسة التي هي صريح الإيمان كما ثبت في الصحيح أن الصحابة قالوا يا رسول الله : « إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحرق حتى يصير حممة ، أو يخر من السماء إلى الأرض : أحب إليه من أن يتكلم به . قال : « أو قد وجدتموه » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان » ^(١) وفي حديث آخر : « إن أحدنا ليجد ما يتعاضم أن يتكلم به : قال : « الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة » ^(٢) ..

فهذه الأمور التي هي تعرض ثلاثة أقسام : منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان ، وإن كان لا يزيله ، واليقين في القلب له مراتب ، ومنه ما هو عفو بعفى عن صاحبه ، ومنه ما يكون يقترن به صريح الإيمان .

ونظير هذا : ما في الصحيح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يرحم الله لوطاً ! لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ، ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال له ربه : ﴿ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ^(٣) وقد ترك البخاري ذكر قوله : « بالشك » لما خاف فيها من توهم بعض الناس .

ومعلوم أن إبراهيم كان مؤمناً كما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى ﴾ ولكن طلب طمأنينة قلبه ، كما قال : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

= الطلاق ١٤ ، ١٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٩٨ ، ٤٢٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٩١ (حلي)

(١) الحديث رواه مسلم في الإيمان ٢٠٩ ، وأبو داود في الأدب ١٠٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٩٦ - ٤٤١ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٢١١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٠ .

فالتفاوت بين الإيمان والاطمئنان سماه النبي ﷺ شكاً لذلك بإحياء الموتى ، كذلك الوعد بالنصر في الدنيا : يكون الشخص مؤمناً بذلك ، ولكن قد يضطرب قلبه فلا يطمئن ، فيكون فوات الاطمئنان ظناً أنه قد كذب ، فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد ، وهذه الأمور لا تقدح في الإيمان الواجب ، وإن كان فيها ما هو ذنب فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك ، كما في أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث .

وفي قصص هذه الأموز عبرة للمؤمنين بهم ، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك ، ولا يياسوا إذا ابتلوا بذلك ، ويعلمون أنه قد ابتلى به من هو خير منهم ، وكانت العاقبة إلى خير ، فليتيقن المرتاب ، ويتوب المذنب ويقوى إيمان المؤمنين فيها يصح الإساءة بالأنبياء كما في قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ (١) .

وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت ، ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأودوا كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (٢) ولنا لأنه أسوة في ذلك ما هو كثير في القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ وقال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٢١ هذه الآية الكريمة أصل كبير في التماسي برسول الله - ﷺ - في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي - ﷺ - يوم الأحزاب - في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه عز وجل - لهذا قال تعالى : للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٣٤ .

لَهُمْ ﴿^(١)﴾ وقال : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ ^(٣) وإذا كان الاتساء بهم مشروعاً في هذا وفي هذا فمن المشروع التوبة من الذنب ، والثقة بوعده الله ، وإن وقع في القلب ظن من الظنون وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب ، كما هو المناسب للاتساء والافتداء دون ما كان المتبوع معصوماً مطلقاً ، فيقول التابع : أنا لست من جنسه ، فإنه لا يذكر بذنب ، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والافتداء ، لما أتى به من الذنب الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة ، بخلاف ما إذا قيل : إن ذلك مجبور بالتوبة ، فإنه تصح معه المتابعة ، كما قيل : أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر ، ومن أشبه أباه ما ظلم .

والله تعالى قص علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب ، وأما ما ذكره سبحانه أن الافتداء بهم في الأفعال التي أقرروا عليها فلم ينهوا عنها ، ولم يتوبوا منها ، فهذا هو المشروع ، فأما ما نهوا عنه وتابوا منه فليس بدون المنسوخ من أفعالهم ، وإن كان ما أمروا به أبيض لهم ، ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة ، فما لم يؤمروا به أخرى وأولى . وأيضاً فقله : ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ ^(٤) فذكونون ظنوا في الموعد به ما ليس هو فيه بطريق الاجتهاد

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٤٣ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢٠ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١١٠ روى الامام البخاري في كتاب التفسير ٦ باب ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ ٤٦٩٥ - حدثنا ابراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة - رضي الله عنها . قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ قال : قلت : اكتبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا . قلت فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن قالت : أجل لعمرى . لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : وظنوا أنهم كذبوا قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت : فما هذه =

منهم ، فتبين الأمر بخلافه ، فهذا جائز عليهم كما سنبينه ، فإذا ظن بالموعود به ما ليس هو فيه ، ثم تبين الأمر بخلافه ظن أن ذلك كذب ، وكان كذباً من جهة ظن في الخبر ما لا يجب أن يكون فيه . فأما الشك فيما يعلم أنه أخبر به فهذا لا يكون ، وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى . ومما ينبغي أن يعلم أنه سبحانه ذكر هنا شيئين : « أحدهما » استيثاس الرسل ، و« الثاني » ظن أنهم كذبوا ، وقد ذكرنا لفظ « الظن » فأما لفظ ﴿ استيأسوا ﴾ فإنه قال سبحانه : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ ولم يقل يش الرسل ، ولا ذكر ما استيأسوا منه ، وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة : ﴿ فَلَمَّا اسْتِیْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوثِقًا مِنْ اللَّهِ ، وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ^(١) وقد يقال الاستيثاس ليس هو الإيأس ، لوجوه :

« أحدها » إن إخوة يوسف لم ييأسوا منه بالكلية ، فإن قول كبيرهم : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له ، وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا ليوسف منهم ، وإلا فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك . وأيضاً : فـ « اليأس » يكون في الشيء الذي لا يكون ، ولم يجيء ما يقتضي ، فإنهم ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ، أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ ، إِنَّا إِذَا لَطَالُمُونَ ﴾ ^(٢) فامتنع من تسليمه إليهم ، ومن المعلوم أن هذا

= الآية . . ؟ قالت : هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم . فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر . حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم . جاءهم نصر الله عند ذلك .

(١) سورة يوسف آية رقم ٨٠ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٧٨ - ٧٩ .

لا يوجب القطع بأنه لا يسلم إليهم ، فإنه يتغير عزمه ونيته ، وما أكثر تقلب القلوب ، وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير الحكم إلى غيره ، وقد يتخلص بغير اختياره ، والعادات قد جرت بهذا على مثل من عنده من قال لا يعطيه ، فقد يعطيه ، وقد يخرج من يده بغير اختياره ، وقد يموت عنه فيخرج والعالم مملوء من هذا .

« الوجه الثاني » قال لهم يعقوب : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين فهذا هو « الوجه الثالث » أيضاً وهو أنه أخبر ﴿ أنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله ، وأن يقعوا في الاستيئاس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا يئأسون من روح الله ، وهذه السورة تضمنت ذكر المستيئسين ، وأن الفرح جاءهم بعد ذلك ، لئلا يئأس المؤمن ، ولهذا فيها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) فذكر استيئاس الإخوة من أخي يوسف وذكر استيئاس الرسل يصلح أن يدخل فيه ما ذكره ابن عباس ، وما ذكرته عائشة جميعاً .

« الوجه الرابع » أن الاستيئاس استفعال من اليأس ، والاستفعال يقع على وجوه : يكون لطلب الفعل من الغير ، فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية ، يقال : استخرجت المال من غيري ، وكذلك استفهمت ، ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيئاس ، فإن أحداً لا

(١) سورة يوسف آية رقم ٨٧ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ١١١ وتكملة الآية ﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

يطلب اليأس ويستدعيه ، ولأن استيأس فعل لازم لا متعدي . ويكون للاستفعال لصيرورة المستفعل على صفة غيره ، وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم : استحجر الطين ، أي صار كالحجر ، واستنوق الفحل ، أي صار كالناقة ، وأما النظر فيما استيأسوا منه ، فإن الله تعالى ذكر ذلك في قصة إخوة يوسف حيث قال : ﴿ فَلَمَّا اسْتِأْسُوا مِنْهُ ﴾ ^(١) .

وأما الرسل فلم يذكر ما استيأسوا منه ، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس ، فليس لأحد أن يقيده بأنهم استيأسوا مما وعدوا به وأخبروا بكونه ، ولا ذكر ابن عباس ذلك .

وثبت أن قوله : ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ لا يدل على ظاهره فضلاً عن باطنه : أنه حصل في قلوبهم مثل تساوي الطرفين فيما أخبروا به ، فإن لفظ الظن في اللغة لا يقتضي ذلك ، بل يسمى ظناً ما هو من أكذب الحديث عن الظان ، لكونه أمراً مرجوحاً في نفسه ، واسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه ، وعدم تصديقه وسكينة وعدم سكينة ، ليست هذه الأمور بمجرد العلم فقط ، كما يحسب ذلك بعض الناس ، كما نبهنا [عليه] في غير هذا الموضع . إذ المقصود هنا الكلام على قوله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ فإذا كان الخبر عن استيئاسهم مطلقاً فمن المعلوم أن الله إذا وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق - كما هو غالب إخباراته - لم يقيد زمانه ولا مكانه ، ولا سته ، ولا صفته ، فكثيراً ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحق ، بل اعتقدوها بأسباب أخرى ، كما اعتقد طائفة من الصحابة إخبار النبي ﷺ لهم أنهم يدخلون المسجد الحرام ، ويطوفون به ، أن ذلك يكون عام

(١) سورة يوسف آية رقم ٨٠ وتكملة الآية ﴿ خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ .

الحديبية^(١) ، لأن النبي ﷺ خرج معتمراً ، ورجا أن يدخل مكة ذلك العام ، ويطوف ويسعى ، فلما استياسوا من دخوله مكة ذلك العام - لما صدهم المشركون ، حتى قاضاهم النبي ﷺ على الصلح المشهور - بقي في قلب بعضهم شيء ، حتى قال عمر للنبي ﷺ : ألم تخبرنا أننا ندخل البيت ونطوف ؟ قال : « بلى » . أفأخبرت أنك تدخله هذا العام ؟ قال : لا . قال : « فإنك داخله ومطوف »^(٢) وكذلك قال له أبو بكر .

وكان أبو بكر رضي الله عنه أكثر علماً وإيماناً من عمر حتى تاب عمر . مما صدر منه ، وإن كان عمر - رضي الله عنه - محدثاً كما جاء في الحديث الصحيح ، أنه ﷺ قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر »^(٣) فهو - رضي الله عنه - المحدث الملهم ، الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ، ولكن مزية التصديق الذي هو أكمل متابعة للرسول ، وعلماً وإيماناً بما جاء به ، درجته فوق درجته ، فلهذا كان الصديق أفضل الأمة ، صاحب المتابعة للأثار النبوية ، فهو معلم لعمر ، ومؤدب

(١) روى البخاري في كتاب المغازي ٣٥ باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ .

٤١٥٤ حدثنا سفيان قال عمرو : سمعت جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما قال : قال لنا رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية : أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة « تابعه الأعمش (سمع سالماً سمع جابراً ألفاً وأربعمائة) .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٣٣٠ ، ٣٣١ (حلي)

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل الصحابة - ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي - رضي الله عنه .

٣٦٨٩ - حدثنا يحيى بن قزعة ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر » . وفي رواية عن أبي هريرة - رضي الله عنه (لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر) ورواه البخاري في الأنبياء ٥٤ ، والامام مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٣٣ - ورواه الامام الترمذي في المناقب ١٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٥٥ (حلي) .

للمحدث منهم الذي يكون له من ربه إلهام وخطاب كما كان أبو بكر معلماً لعمر ومؤدباً له حيث قال له : أفأخبرك أنك تدخله هذا العام ؟ قال : لا ، قال إنك آتية ومطوف . فبين له الصديق أن وعد النبي ﷺ مطلق غير مقيد بوقت ، وكونه سعى في ذلك العام وقصده لا يوجب أن يعني ما أخبر به ، فإنه قد يقصد الشيء ولا يكون ، بل يكون غيره ، إذ ليس من شرط النبي ﷺ أن يكون كما قصده ، بل من تمام نعمة ربه عليه أن يقيده عما يقصده إلى أمر آخر هو أنفع مما قصده ، كما كان صلح الحديبية أنفع للمؤمنين من دخولهم ذلك العام بخلاف خبر النبي ﷺ ، فإنه صادق لا بد أن يقع ما أخبر به ويتحقق . وكذلك ظن النبي كما قال في تأبير النخل : « إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله فإنني لن أكذب على الله » (١) فاستيأس عمر وغيره من دخول ذلك هو استيأس مما ظنوه موعوداً به ، ولم يكن موعوداً به .

ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئاً فيكون الأمر بخلاف ما [ظنوه] فقد يظنون فيما وعدوه تعييناً وصفات ولا يكون كما ظنوه ، فيأسسون مما ظنوه في الوعد ، لا من تعيين الوعد ، كما قال النبي ﷺ : « رأيت أن أبا جهل قد أسلم ؛ فلما أسلم خالد ظنوه هو ، فلما أسلم عكرمة علم أنه هو » .

وروى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ مر بقوم يلحقون : فقال : « لو لم تفعلوا هذا لصلح » قال : فخرج سبباً فمر بهم فقال : « ما لفحلکم ؟ » قالوا : قلت : كذا وكذا . قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم » (٢) وروي أيضاً عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة بن عبيد الله . قال : مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل ، فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ » فقال : يلحقونه

(١) الحديث رواه الامام مسلم في الفضائل باب ١٤٠ ورواه الامام النسائي في الرهون ١٥ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ١٢٣ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ١٤١

يجعلون الذكر في الأثني فتلقح ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظن يغني ذلك شيئاً » فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنني ظننت ظناً فلا تؤاخذني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإنني لن أكذب على الله » (١) .

فإذا كان النبي ﷺ يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن الله أن نأخذ به فإنه لن يكذب على الله ، فهو أتقانا لله ، وأعلمنا بما يتقى ، وهو أحق أن يكون آخذاً بما يحدثنا عن الله ، فإذا أخبره الله بوعده كان علينا أن نصدق به ، وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا ، ولم يكن لنا أن نشك فيه ، وهو - بأبي - أولى وأحرى أن لا يشك فيه ، لكن قد يظن ظناً ، كقوله : « إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن » وإن كان أخبره به مطلقاً فمستنده ظنون ، كقوله في حديث ذي الديدن : « ما قصرت الصلاة ولا نسيت » (٢) .

وقد يظن الشيء ثم يبين الله الأمر على جليته ، كما وقع مثل ذلك في أمور كقوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٣) نزلت في الوليد بن

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٣ : ١٥٣ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الصلاة ٨٨ باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، ٤٨٢ - حدثنا ابن شميل أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ - إحدى صلاتي العشي - قال ابن سيرين : سماها أبو هريرة ولكن نسيت أنا قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم - فقام الى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنه غضبان ووضع يده اليمنى على اليسرى وشبك بين أصابعه ، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى ، وخرجت السرعة من أبواب المسجد ، فقالوا : قصرت الصلاة . وفي القوم أبو بكر وعمر . فهابا أن يكلماه - وفي القوم رجل في يده طول يقال له ذو الديدن قال : يا رسول الله أنسيت أم قصرت الصلاة قال : وذكره . ورواه البخاري في الأذان ٦٩ وفي كتاب السهو ٤ ، ٥ ورواه الإمام مسلم في المساجد ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ والنسائي في السهو ٢٢ وابن ماجه في الإقامة ١٣٤ وصاحب الموطأ في النداء ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٧٧ ، ٢٣٥ ، ٤٢٣ ، ٤٦٠ (حلي) .

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٦ .

عقبة كما استعمله النبي ﷺ [وهم أن] تغزوهم لما ظن صدقه ، حتى أنزل الله هذه الآية . وكذلك في قصة بني أبيرق التي أنزل الله فيها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً ﴾ (١) وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذي كان يسرق ، وأخرجوا البريء ، فظن النبي ﷺ صدقهم ، حتى تبين الأمر بعد ذلك . وقال في حديث قصر الصلاة : « لم أنس ولم تقصر » فقالوا : بلى قد نسيت . وكان قد نسي ، فأخبر عن موجب ظنه واعتقاده ، حتى تبين الأمر بعد ذلك ، وروى عنه أنه قال : « إني لا أنسى لأسن » وأيضاً فقوله في القرآن : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٢) شامل للنبي ﷺ وأمه ، حيث قال في صدر الآيات : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٣) الآيات .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عيسى الأنصاري عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « بينا جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » (٤) .

وفي صحيح مسلم عن آدم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ دخل في

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٤) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب المسافرين ٢٥٤ ، ورواه النسائي في الانتباه ٢٥ .

قلوبهم منها شيء لم يدخل مثله، فقال النبي : « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » (١) قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٢) الآيات إلى قوله : ﴿ أَوْ أخطأنا ﴾ قال قد فعلت ، إلى آخر السورة قال : قد فعلت » (٣) وفي صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ الله ما في السموات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم بركوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ! كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها . قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم : أنزل الله عز وجل في أثرها : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ إلى قوله ﴿ وإليك المصير ﴾ فلما

(١) قال الامام أحمد - حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم ، حدثني أبو عبد الرحمن يعني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة - قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ - ﴿ الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ - فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله - أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما أقربها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله .

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ ورواه مسلم منفرداً به من حديث يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة فذكر مثله .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

فعلوا ذلك نسخها سبحانه ، فأنزل الله ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ إلى قوله ﴿ قبلنا ﴾ قال : « نعم » ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : نعم . إلى آخر السورة ، قال : نعم ^(١) .

والذي عليه جمهور أهل الحديث والفقه أنه يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد ، لكن لا يقرون عليه ، وإذا كان في الأمر والنهي فكيف في الخبر ؟ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فأحسب أنه صادق ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » ^(٢) فنفس ما يعد الله به الأنبياء والمؤمنين حقاً لا يمترون فيه ، كما قال تعالى في قصة نوح ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ إلى آخر الآية ، وبمثل هذا الظن قد يكون من إلقاء الشيطان المذكور في قوله ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ إلى قوله ﴿ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(٣) وقد تكلمنا على هذه الآية في غير هذا الموضع . وللناس فيها قولان مشهوران : بعد اتفاقهم على أن التمني هو التلاوة والقرآن كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله :

(١) رواية الامام مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب وإسحاق بن ابراهيم ثلاثهم عن وكيع به . ورواية الامام أحمد بن حنبل : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن آدم بن سليمان . سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ وذكره .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب المظالم ١٦ باب اثم من خاصم في باطل وهو يعلمه ، ٢٤٥٨ قال : حدثني ابراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أن زينب بنت أم سلمة أخبرته أن أمها أم سلمة رضي الله عنها - زوج النبي - ﷺ - أخبرتها عن رسول الله ﷺ - أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : وذكره . ورواه في الأحكام ٢٩ ، ٣١ - ورواه الامام مسلم في كتاب الأفضية ٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٠٨ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٥٢ إلى ٥٤ .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ^(١) . وأما من أول النهي على تمنى القلب فذاك فيه كلام آخر ؛ وإن قيل : إن الآية تعم النوعين ؛ لكن الأول هو المعروف المشهور في التفسير ، وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعاً ، لقوله بعد ذلك : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ^(٢) . وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي ، لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه النخل ونحوها ، وهذا يوافق ما ذكرناه . وإذا كان التمني لا بد أن يدخل فيه القول ففيه قولان . « الأول » أن الإلقاء هو في سمع المستمعين ولم يتكلم به الرسول وهذا قول من تأويل الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه .

و « الثاني » - وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم - أن الإلقاء في نفس التلاوة ، كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه ، كما وردت به الآثار المتعددة ، ولا محذور في ذلك إلا إذا أقر عليه ، فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته فلا محذور في ذلك ، وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة ، إلا إذا أقر عليه . ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ ، كما قال : « فإذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به ، فإنني لن أكذب على الله » ولولا ذلك لما قامت الحجة به ، فإن كونه رسول الله يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن الله ، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه ، فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله ، وأقر عليه لم يكن كما يخبر به عن الله .

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا ، وقصدوا خيراً ، وأحسنوا في ذلك ، لكن يقال لهم : ألقى ثم أحكم ، فلا محذور في ذلك ، فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه فإنه إذا موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به ليس أعظم من إخباره برفعه .

ولهذا قال في النسخ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ (١) فظنهم أنهم قد كذبوا هو يتبع ما يظنونه من معنى الوعد وهذا جائز لا محذور فيه ، إذا لم يقرؤا عليه ، وهذا وجه حسن ، وهو موافق لظاهر الآية ولسائر الأصول من الآيات والأحاديث ، والذي يحقق [ذلك] أن باب الوعد والوعيد ليس بأعظم من باب الأمر والنهي . فإذا كان من الجائز في باب الأمر والنهي أن يظنوا شيئاً ، ثم يتبين الأمر لهم بخلافه ، فلأن يجوز ذلك في باب الوعد والوعيد بطريق الأولى والأخرى ، حتى أن باب الأمر والنهي إذ تمسكوا فيه بالاستصحاب لم يقع في ذلك ظن خلاف ما هو عليه الأمر في نفسه ، فإن الوجوب والتحريم الذي لا يثبت إلا بخطاب إذا نفوه قبل الخطاب كان ذلك اعتقاداً مطابقاً للأمر في نفسه ، وباب الوعد إذا لم يخبروا به قد يظنون انتفاءه ، كما ظن الخليل جواز المغفرة لأبيه حتى استغفر له ، ونهينا عن الاقتداء ، كما قال النبي ﷺ لأبي طالب : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » (٢) وحتى استأذن ربه في الاستغفار لأمه فلم يؤذن له في ذلك » (٣)

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٣ تكملة الآية ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ قال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل قال أنزل على النبي - ﷺ قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا إلى الكعبة وقد رواه مسلم من وجه آخر

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز ٨٠ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله =

وحتى صلى على المنافقين قبل أن ينهى عن ذلك وكان يرجو لهم المغفرة حتى أنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا وَاوَاهُ حَلِيمٌ ﴾ ^(١) وقال عن المنافقين : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ ^(٢) الآية . وقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ^(٣) فإذا كان صلى على المنافقين واستغفر لهم راجياً أن يغفر لهم قبل أن يعلم ذلك .

ولهذا سوغ العلماء أن يروى في باب الوعد والوعيد من الأحاديث ما لم يعلم أنه كذب ، وإن كان ضعيف الإسناد ، بخلاف باب الأمر والنهي فإنه لا يؤخذ فيه إلا بما ثبت أنه صدق ، لأن باب الوعد والوعيد إذا أمكن أن يكون الخبر صدقاً وأمکن أن يكون الخبر كذباً لم يجز نفيه ، لا سيما بلا علم ، كما

= ١٣٦٠ - أخبرنا يعقوب بن إبراهيم ، قال حدثني أبي عن صالح عن ابن شهاب . قال أخبرني سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره « أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة . جاءه رسول الله - ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، قال رسول الله - ﷺ : لأبي طالب : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله - فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية . يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب . . ؟ فلم يزل رسول الله - ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب : آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله - ﷺ : وذكره . ورواه مسلم في الإيمان ٣٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٤٣٣ ، والنسائي في الجنائز ١٠٢ .

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنائز ١٠٥ - ١٠٦ ، وأبو داود في الجنائز ٧٧ والنسائي في الجنائز ١٠١ ، وابن ماجه في الجنائز ٤٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤٤١ (حلي) .

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٣ - ١١٤ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٨٤ .

(٣) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

لم يجز الجزم بثبوته بلا علم ، إذ لا محذور فيه ، منابت الناس اللفظ
تعيين الوعد والوعيد ، فلا يجوز منع ذلك بمنع الحديث إذا أمكن أن يكون
صدقاً ، لأن في ذلك إبطال لما هو حق ، وذلك لا يجوز .

ولهذا قال النبي ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » ^(١) وهذا
الباب وهو « باب الوعد والوعيد » هو في الكتاب بأسماء مطلقة للمؤمنين ،
والصابرين ، والمجاهدين ، والمحسنين ، فما أكثر من يظن من الناس أنه من
أهل الوعد ، ويكون اللفظ في ظنه أنه متصف بما يدخل في الوعد لا في
اعتقاد صدق الوعد في نفسه .

وهذا كقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٣)
الآيتين . فقد يظن الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحق للنصر ،
وأن جند الله الغالبون ، ويكون الأمر بخلاف ذلك .

وقد يقع من النصر الموعود به ما لا يظن أنه من الموعود به ، فالظن
المخطيء فهم ذلك كثير جداً أكثر من باب الأمر والنهي مع كثرة ما وقع من
الغلط في ذلك ، وهذا مما لا يحصر الغلط فيه إلا الله تعالى ، وهذا عام

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني إسرائيل :
٣٤٦١ - حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد ، أخبرنا الأوزاعي ، حدثنا حسان بن عطية عن
أبي كبشة عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : بلغوا عني ولو آية وذكره وفيه زيادة
(ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) ورواه الإمام مسلم في الزهد ٧٢ ، والإمام
الترمذي في كتاب العلم ١٣ ، وابن ماجه في المقدمة ٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٩ -
٤٦ (حلي) .

(٢) سورة غافراية رقم ٥١ .

(٣) سورة الصافات آية رقم ١٧١ .

لجميع الأدميين ، لكن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يقرون ، بل يتبين لهم ، وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا .

ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه ﷺ بتصديق الوعد والإيمان ، وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت ، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتصافه بصفة الوعد ، كما قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ ^(٢) الآية . والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة . والله تعالى أعلم

(١) سورة الروم آية رقم ٦٠ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٧٧ .

فصل

وسئل الشيخ الإمام العالم العامل الخبر الكامل ، شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين « ابن تيمية » أيده الله وزاده من فضله العظيم عن « الصبر الجميل » في قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^(١) و « الصفح الجميل » و « الهجر الجميل » وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس . . ؟

فأجاب رحمه الله :

الحمد لله أما بعد : الله أمر نبيه بالهجر الجميل . والصفح الجميل والصبر الجميل ، فالهجر الجميل هجر بلا أذى ، والصفح الجميل ، صفح بلا عتاب ، والصبر الجميل : صبر بلا شكوى . قال يعقوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾^(٢) مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^(٣) فالشكوى الى الله لا تنافي الصبر الجميل ، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان^(٤) .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٨ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٨٦ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٨ .

(٤) لم نعر على هذا الأثر على كثرة تفتيشنا في كتب الآثار .

« ومن دعاء النبي ﷺ : « اللهم إليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي اللهم الى من تكلمي . . ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك لك العتبى حتى ترضى » (١) .

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقرأ في صلاة الفجر : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

ويكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف .
بخلاف الشكوى إلى المخلوق . قرىء على الامام أحمد في مرض موته أن طاووساً كره أنين المريض وقال إنه شكوى . فما أن حتى مات وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال أما ازالة ما يضره أو حصول ما ينفعه . والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (٢) .

وقال ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » (٣) .

ولا بد للإنسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحذور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور . فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٤) .

(١) هذا الدعاء قاله الرسول ﷺ عندما خرج من الطائف هارباً وخرج عليه السفهاء يقذفونه بالحجارة ويضربونه بعد أن فر من أهل مكة .

(٢) سورة الشرح آية رقم ٧ ، ٨ .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب القيامة ٩٥ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١١٨ - ١٢٠ .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ لَتَبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢) .

وقد قال يوسف : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤) ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين ، المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحذور ، والصبر والرضا بالأمر المقدور وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة بل ومن السالكين فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد (الحقيقة الكونية) دون (الدينية) فيرى أن الله خالق كل شيء وربّه ، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويبغضه وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي الصادق والمتنبئ الكاذب ، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله وأعداؤه والملائكة المقربون والمردة الشياطين .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(٤) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسيني أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين ولد في جيلان عام ٤٧١ هـ وانتقل إلى بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ برع في أساليب الوعظ والتصوف تفقه وسمع الحديث وتصدر للتدريس والافتاء توفي ببغداد عام ٥٢٨ هـ له كتب منها الغنية لطالب طريق الحق ، والفتح الرباني .

راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧١ ، وفوات الوفيات ٢ : ٢ .

فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه الحقيقة الكونية وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه ، وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار ، وأهل الجنة ، وأهل النار ، وهو توحيد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته رسوله وفعل ما يحبه ويرضاه ، وهو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو أمر استحباب، وترك ما نهى الله عنه ورسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية وإلا فهو من جنس المشركين وهو شر من اليهود والنصارى .

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٢) .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (٣) . قال بعض السلف : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره . فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٦١ .

(٢) سورة المؤمنون من ٨٤ - ٨٩ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .

والنصارى ، فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ (١) .

وأما الذي يشهد « الحقيقة الكونية » وتوحيد الربوبية الشامل للخلقة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر ويسلك هذه الحقيقة فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله ، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى لكن من الناس من قد لمحو الفرق في بعض الأمور دون بعض بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وهواه فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه .

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس .

ومن أقرّ بهما وجعل الرب متناقضاً فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه . فهذا التقسيم في القول والاعتقاد .

وكذلك هم في « الأحوال والأفعال » فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على ما يصيبه من المقدور فهو عند الأمر والنهي والدين والشرعة ويستعين بالله على ذلك كما قال تعالى :

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٠ - ١٥١ .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) .

وإذا أذنب استغفر وتاب لا محتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات بل يؤمن بالقدر ولا محتج به كما في الحديث الصحيح الذي فيه : سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت « (٢) .

فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى ، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها كما قال بعضهم أطعك بفضلك ، والمنة لك وعصيتك بعلمك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي إلا غفرت لي » .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه « (٣) .

وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة ، لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر . وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ١٤ باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ٣٨٧٢ عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٣) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) عن ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ وذكره ورواه ابو داود في كتاب الأطعمة ٤٨ وابن ماجه في الأطعمة ٢٢ واحمد بن حنبل في المسند . ٥٢٧ ، ٣٤٤ ، ٢١٣ : ٢ .

الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه والمؤمن يعبد الله ويستعينه .

والقسم الرابع : شر الأقسام وهو من لا يعبد ولا يستعينه فلا هو مع الشريعة الأمرية ولا من القدر الكوني ، وانقسامهم الى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك ، وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك ، فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام .

أحدهما : أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

والثاني : الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه .

الثالث : قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام .

والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس ، وكذلك أهل المحبة للصورة المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهونونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال

بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من الأمور وفعلوه من المحظور وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب كالمرض والفقر وغير ذلك ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

وأما القسم الرابع : فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا ولا يصبرون إذا ابتلوا بل كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ (١) فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا إن قهرتهم ذلوا لك وناقوك وحابوك واسترجعوك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً وأقلهم رحمة واحساناً وعفواً كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد ، مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم فالاعتبار بالحقائق « فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢) .

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الاسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهره منه بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الاسلامية من التتار .

(١) سورة المعارج آية رقم ١٩ - ٢١ .

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ حلي ورواه الامام مسلم في البر ١٠ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ٣٣ عن أسامة (وهو ابن زيد أنه سمع ابا سعيد مولى عبد الله بن عامر بن كريز يقول سمعت ابا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ وذكره .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » (١) .

وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق ، والكمال هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر ، فكلما كان اتباع لما يأمر الله به ورسوله ، وأعظم موافقة لله فيما يحميه ويرضاه وصبراً على ما قدره وقضاه . كان أكمل وأفضل ، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام ٢ ورواه الامام مسلم في الجمعة ٤٣ ورواه ابن ماجه في المقدمة ٧ والدارمي في المقدمة ٢٣ واحمد بن حنبل في المسند ٣: ٣١٩ ، ٣١٩ ، ٣٧١ (حلي) .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .

صُدُّوهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ مُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١﴾ .

وقال إخوة يوسف له : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ . ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُضِّمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٣) .
وفي اتباع ما أوحى إليه : التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ . وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (٧) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٨ - ١٢٠ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(٣) سورة يونس آية رقم ١٠٩ .

(٤) سورة هود آية رقم ١١٤ - ١١٥ .

(٥) سورة غافر آية رقم ٥٥ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٣٠ .

(٧) سورة البقرة آية رقم ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر (١) .

وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴾ (٢) . وفي الرحمة الإحسان الى الخلق بالزكاة وغيرها : فإن القسمة أيضاً رباعية إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين مثل كثير من النساء ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع والمحمود هو الذي يصبر ويرحم كما قال الفقهاء في المتولي ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف لينا من غير ضعف فبصبره يقوى وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ، فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى كما قال النبي ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

وقال : « من لا يرحم لا يرحم » (٣) .

وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » (٤) .

وقال : الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (٥) . والله أعلم .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٥٣ .

(٢) سورة البلد آية رقم ١٧ .

(٣) الحديث رواه البخاري في التوحيد ٢ والامام مسلم في الفضائل ٦٦ والترمذي في البر ١٦ والزهد ٤٨ واحمد بن حنبل في المسند ٣ ، ٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ (حلي) .

(٤) الحديث رواه الترمذي في البر ١٦ واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠١ ، ٤٤٢ ، ٤٦١ ، ٥٣٩ (حلي) .

(٥) الحديث رواه أبو داود في الأدب ٥٨ والترمذي في البر ١٦ باب ما جاء في رحمة الناس ١٩٨٩ عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو قتال : قال رسول الله ﷺ وذكره وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

سورة الرعد

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ، قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ ^(١) قيل المراد سموهم بأسماء حقيقة لها معان تستحق بها الشرك له والعبادة ، فإن لم تقدرُوا بطل ما تدعونه .

وقيل : إذا سميتُمها آلهة فسموها باسم الإله ، كالخالق والرازق ، فإذا كانت هذه كاذبة عليها فكذلك اسم الآلهة ، وقد حام حول معناها كثير من المفسرين ، فما شفوا غليلاً ولا أرووا غليلاً ، وإن كان ما قالوه صحيحاً .

فتأمل ما قبل الآية وما بعدها يطلعك على حقيقة المعنى ، فإنه سبحانه يقول : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ ﴾ ^(٢) وهذا استفهام تقرير يتضمن إقامة الحجة عليهم . ونفي كل معبود مع الله ، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت بعلمه وقدرته ، وجزائه في الدنيا والآخرة ، فهو رقيب عليها ، حافظ لأعمالها ، مجاز لها بما كسبت من خير وشر . فإذا جعلتم أولئك شركاء فسموهم إذا بالأسماء التي يسمى بها القائم على كل

(١) سورة الرعد آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٢٢ .

نفس بما كسبت ، فإنه سبحانه يسمى بالحي القيوم ^(١) ، المحيي المميت ^(٢) ، السميع البصير ، الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ^(٣) ، ووجود كل شيء به ، فهل تستحق آلهتكم اسماً من تلك الأسماء ؟ فإن كانت آلهة حقاً فسموها باسم من هذه الأسماء ، وذلك بهت بين ، فإذا انتفى عنها ذلك علم بطلانها كما علم بطلان مسماها .

وأما إن سموها بأسمائها الصادقة عليها كالحجارة ، وغيرها من مسمى الجمادات ، وأسماء الحيوان التي عبدوها من دون الله ، كالبقر وغيرها ، وبأسماء الشياطين الذين أشركوهم مع الله جل وعلا ، وبأسماء الكواكب المسخرات تحت أوامر الرب ، والأسماء الشاملة لجميعها أسماء المخلوقات : المحتاجات ، المدبرات ، المقهورات .

وكذلك بنو آدم عبادة بعضهم بعضاً ، فهذه أسماؤها الحققة وهي تبطل إلهيتها ^(٤) ؛ لأن الأسماء التي من لوازم الإلهية مستحيلة عليها ؛ فظهر أن تسميتها آلهة من أكبر الأدلة على بطلان إلهيتها ، وامتناع كونها شركاء لله عز وجل .

(١) قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ .

(٢) قال تعالى : ﴿ هو الذي أحياكم ثم يميّتكم ثم إليه ترجعون ﴾ .

(٣) قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ .

(٤) كما قال فرعون : ﴿ وقال فرعون : يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وقال أيضاً

﴿ فاجعل لي صرحاً لعلي اطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ .

سورة القصص آية رقم ٣٨ .

سورة الحجر

فصل

وقال شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني - قدس الله روحه ، ونور ضريحه ورحمه :

في آيات ثلاث متناسبة متشابهة اللفظ والمعنى يخفى معناها على أكثر الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ

(١) سورة الحجر اية رقم ٤١ - ٤٢ قد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن وهب - حدثنا يزيد بن قسيط . قال : كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم فإذا أراد النبي أن يستنبيء ربه عن شيء خرج الى مسجده فصلى ما كتب الله له ثم سأل ما بدا له فبينما نبي في مسجده إذ جاء عدو الله يعني إبليس حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبي - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم - فقال عدو الله أخبرني بأي شيء تنجو مني ؟ فقال النبي بل أخبرني بأي شيء تغلب بني آدم قال النبي يقول الله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك . قال عدو الله صدقت بهذا تنجو مني فقال النبي أخبرني بأي شيء تغلب بني آدم قال : آخذه عند الغضب والهوى .

فَقَضْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ﴿٢﴾ فلفظ هذه الآيات فيه أن السبيل الهادي هو على الله . وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي (٣) في الآية الأولى ثلاثة أقوال بخلاف الآيتين الآخرين ، فإنه لم يذكر فيهما إلا قولاً واحداً ، فقال في تلك الآية : اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال .

« أحدها » : أنه يعني بقوله هذا : الإخلاص ، فالمعنى أن الإخلاص طريق إلى مستقيم و ﴿عليّ﴾ بمعنى «إلى» .

و« الثاني » : هذا طريق علي جوازه ، لأنني بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم ، وهو خارج مخرج الوعيد ، كما تقول للرجل تخاصمه « طريقك علي » فهو كقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ﴿٤﴾ .

و« الثالث » هذا صراط علي استقامته ، أي أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان . قال : وقراً قتادة ، ويعقوب : ﴿هذا صراط عليّ﴾ أي رفيع .

قلت : هذه الأقوال الثلاثة قد ذكرها من قبله ، كالثعلبي (٥) ، والواحدي (٦) ، والبغوي ، وذكروا قولاً رابعاً . فقالوا - واللفظ للبغوي وهو مختصر الثعلبي .

قال الحسن : معناه صراط إليّ مستقيم . وقال مجاهد : الحق يرجع إليّ

(١) سورة النحل آية رقم ٩ .

(٢) سورة الليل آية رقم ١٢ : ١٣ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سورة الفجر آية رقم ١٤ .

(٥) سبق الترجمة له .

(٦) سبق الترجمة له .

وعليه طريقه لا يعرج على شيء .

وقال الأخفش ^(١) : يعني على الدلالة على الصراط المستقيم . وقال الكسائي ^(٢) : هذا على التهديد والوعيد ، كما يقول الرجل لمن يخاصمه « طريقك علي » أي لا تفلت مني ، كما قال تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

وقيل معناه علي استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية . فذكروا الأقوال الثلاثة ، وذكروا قول الأخفش « على الدلالة على الصراط المستقيم » وهو يشبه القول الأخير ، لكن بينهما فرق . فإن ذلك يقول : علي استقامته بإقامة الأدلة ، فمن سلكه كان علي صراط مستقيم ، والآخر يقول : علي أن أدل الخلق عليه بإقامة الحجج ففي كلا القولين أنه بين الصراط المستقيم بنصب الأدلة ، لكن هذا جعل الدلالة عليه ، وهذا جعل عليه استقامته - أي بيان استقامته - وهما متلازمان ، ولهذا - والله أعلم - لم يجعله أبو الفرج قولاً رابعاً . وذكروا القراءة الأخرى عن يعقوب وغيره : أي رفيع . قال البغوي : وعبر بعضهم عنه « رفيع أن ينال ، مستقيم أن يمال » .

(١) هو علي بن سليمان بن الفضل أبو المحاسن ، المعروف بالأخفش الأصغر ، نحوي من العلماء من أهل بغداد أقام بمصر سنة ٢٨٧ - ٣٠٠ هـ وخرج إلى حلب ، ثم عاد إلى بغداد ، وتوفي بها - وهو ابن ٨٠ سنة له تصانيف منها شرح سيبويه ، والأنواء ، والمهذب ، وكان ابن الرومي مكثراً من هجوه . [راجع بغية الوعاة ٣٣٨ ووفيات الأعيان ١ : ٣٣٣ وطبقات النحويين ، وأنباء الرواة ٢ : ٢٧٦]

(٢) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء الكوفي أبو الحسن الكسائي إمام في اللغة والنحو والقراءة من أهل الكوفة ولد في إحدى قراها وتعلم وقرأ النحو بعد الكبر وتنقل في البادية وسكن بغداد وتوفي بالري عن سبعين عاماً وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين ، أصله من أولاد الفرس ، وأخبره مع علماء الأدب في عصره كثيرة من كتبه (معاني القرآن) و(المصادر) و(الحروف) والمتشابه في القرآن ، وغير ذلك كثير توفي عام ١٨٩ هـ . [راجع غاية النهاية ١ : ٥٣٥ وابن خلكان ١ : ٢٣٠ وتاريخ بغداد ١١ : ٤٠٣] .

« قلت » : القول الصواب هو قول أئمة السلف - قول مجاهد ونحوه - فإنهم أعلم بمعاني القرآن . لا سيما مجاهد - فإنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عن كل آية وأسأله عنها » . وقال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، والأئمة كالشافعي ، وأحمد والبخاري ^(١) ، ونحوهم ، يعتمدون على تفسيره ، والبخاري في صحيحه أكثر ما ينقله عن التفسير ينقله عنه . والحسن البصري أعلم التابعين بالبصرة ، وما ذكروه عن مجاهد ثابت عنه ، رواه الناس كابن أبي حاتم وغيره من تفسير ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله ﴿ هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء ، وذكر عن قتادة أنه فسرهما على قراءته - وهو يقرأ ﴿ عليّ ﴾ - فقال : أي رفيع مستقيم . وكذلك ذكر ابن أبي حاتم عن السلف أنهم فسروا آية النحل . فروى عن طريق ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله ﴿ قصد السبيل ﴾ قال : طريق الحق على الله ، قال : وروي عن السدي ^(٢) أنه قال : الإسلام ، وعطاء قال : هي طريق الجنة . فهذه الأقوال - قول

(١) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله ، حبر الإسلام ، والحافظ للحديث ، - صاحب الجامع الصحيح . المعروف بصحيح البخاري والتاريخ ، والضعفاء في رجال الحديث ، وخلق أفعال العباد ، والأدب المفرد ، ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ - يتيماً وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ هـ في طلب الحديث فزار خراسان ، والعراق ، ومصر ، والشام وسمع من نحو ألف شيخ وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق بروايته وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً على هذا النحو توفي عام ٢٥٦ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ والوفيات ١ : ٤٥٥ وتاريخ بغداد ٢ : ٣٦ - ٤] .

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي تابعي ، حجازي الأصل ، سكن الكوفة . قال فيه ابن تغري بردي ، صاحب التفسير والمغازي والسير وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس توفي عام ١٢٨ هـ [راجع النجوم الزاهرة ١ : ٣٠٨ واللباب ١ : ٥٣٧ وفيه وفاته سنة ١٢٧]

مجاهد ، والسدي ، وعطاء - في هذه الآية هي مثل قول مجاهد ، والحسن ، في تلك الآية .

وذكر ابن أبي حاتم من تفسير العوفي ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول : على الله البيان - أن يبين الهدى والضلالة . وذكر ابن أبي حاتم في هذه الآية قولين ، ولم يذكر في آية الحجر إلا قول مجاهد فقط .

وابن الجوزي لم يذكر في آية النحل إلا هذا القول الثاني ، وذكره عن الزجاج ، فقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ القصد : استقامة الطريق - يقال : طريق قصد ، وقاصد ، إذا قصد ربك إلى ما تريد . قال الزجاج : المعنى ، وعلى الله تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين . وكذلك الثعلبي والبغوي ، ونحوهما ، لم يذكروا إلا هذا القول ، لكن ذكروه باللفظين .

قال البغوي : يعني بيان طريق الهدى من الضلالة ، وقيل : بيان الحق بالآيات والبراهين .

قال : والقصد : الصراط المستقيم . ﴿ ومنها جائر ﴾ يعني ومن السبيل ما هو جائز عن الاستقامة معوج ، فالقصد من السبيل : دين الإسلام ، والجائر منها : اليهودية والنصرانية ، وسائر ملل الكفر . قال جابر بن عبد الله ^(١) : قصد السبيل : بيان الشرائع والفرائض . وقال عبد الله بن

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي - ﷺ - وروى عنه جماعة من الصحابة له ولأبيه صحبة ، غزا تسع عشرة غزوة ، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم ، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً توفي عام ٧٨ هـ . [راجع الإصابة ١ : ٢١٣ وذيل =

المبارك (١) ، وسهل بن عبد الله (٢) : قصد السبيل : السنة ﴿ ومنها جائر ﴾ : الأهواء والبدع . دليله : قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٣) ولكن البغوي ذكر فيها القول الآخر ، ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ (٤) - عن الفراء ، كما سيأتي ، فقد ذكر القولين في الآيات الثلاث تبعاً لمن قبله ، كالثعلبي وغيره .

والمهدي ذكر في الآية الأولى قولين من الثلاثة ، وذكر في الثانية ما رواه العوفي ، وقولاً آخر فقال :

قوله : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي على أمري وإرادتي . وقيل : هو على التهديد ، كما يقال « عليّ طريقك وإليّ مصيرك » .

وقال في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ (٥) قال ابن عباس : أي بيان الهدى من الضلال وقيل : السبيل : الإسلام ، ﴿ ومنها جائر ﴾ أي ومن

= المذيل ٢٢ وكشف النقاب وتهذيب الأسماء ١ : ١٤٢ [

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء المروزي أبو عبد الرحمن الحافظ شيخ الإسلام المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ، ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه والعبرية وأيام الناس ، والشجاعة والسخاء ، كان من سكان خراسان ومات بهيت (على الفرات) عام ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم له كتاب في الجهاد ، وهو أول من صنف فيه ، والرقائق) .

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد : أحد أئمة الصوفية ابن يونس التستري أبو محمد ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات ، وعيوب الأفعال له كتاب في « تفسير القرآن » مختصر ، وكتاب رقائق المحبين وغير ذلك توفي عام ٢٨٣ هـ [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ والوفيات ١ : ٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ والشعراني ١ : ٦٦ والمنائوي ١ : ٢٣٧] .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٤) سورة الليل آية رقم ١٢ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٩ .

السييل جائر أي عادل من الحق ، وقيل المعنى ﴿ وعنهما جائر ﴾ أي عن السيل ، فـ ﴿ من ﴾ بمعنى « عن » .

وقيل : معنى قصد السيل : سيركم ورجوعكم ، والسييل واحدة بمعنى الجمع .

قلت : هذا قول بعض المتأخرين - جعل « القصد » بمعنى « الإرادة » أي عليه قصدكم للسييل في ذهابكم ورجوعكم ، وهو كلام من لم يفهم الآية ، فإن « السيل القصد » هي السيل العادلة ، أي عليه السيل القصد و« السيل » اسم جنس ، ولهذا قال ﴿ ومنها جائر ﴾ أي عليه القصد من السيل ، ومن السيل جائر . فأضافه الى اسم الجنس إضافة النوع إلى الجنس ، أي « القصد من السيل » كما تقول « ثوب خز » ولهذا قال : ﴿ ومنها جائر ﴾ وأما من ظن أن التقدير « قصدكم السيل » فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجوه متعددة .

وابن عطية ^(١) لم يذكر في آية الحجر إلا قول الكسائي ، وهو أضعف الأقوال ، وذكر المعنى الصحيح تفسيراً للقراءة الأخرى ، فذكر أن جماعة من السلف قرأوا ﴿ عليّ مستقيم ﴾ من العلو والرفعة . قال : والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الاخلاص - لما استثنى إبليس من أخلص ، قال الله له :

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي ، من محارب قيس الغرناطي ، أبو محمد : مفسر ، فقيه أندلسي من أهل غرناطة ، عارف بالأحكام والحديث ، له شعر ، ولي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين ، وتوفي بلورقة عام ٥٤٢ هـ له المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، والمجموع في ذكر مروياته وأسماء شيوخه وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ - ٥٤٦ هـ . [راجع نفح الطيب ١ : ٥٩٣ وقضاة الأندلس ١٠٩ ، وبغية الملتبس ٣٧٦ ، والمعجم لابن الأبار ٢٥٩ ، وكشف الظنون ٤٣٩ و١٦١٣ وبغية الوعاة . [٢٩٥]

هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله . قال :
وقرأ جمهور الناس ﴿ عليّ مستقيم ﴾ والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى
انقسام الناس إلى غاو ومخلص ، لما قسم إبليس هذين القسمين قال الله
« هذا طريق علي » أي هذا أمر إلي مصيره » ، والعرب تقول « طريقك في
هذا الأمر على فلان » أي إليه يصير النظر في أمرك . وهذا نحو قوله ﴿ إنَّ
رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾^(١) قال : والآية على هذه القراءة خبر يتضمن وعيداً .

« قلت » : هذا قول لم ينقل عن أحد من علماء التفسير - لا في هذه
الآية ولا في نظيرها ، وإنما قاله الكسائي لما أشكل عليه معنى الآية الذي
فهمه السلف ، ودل عليه السياق والنظائر .

وكلام العرب لا يدل على هذا القول ، فإن الرجل وإن كان يقول لمن
يتهدده ويتوعده « علي طريقك » فإنه لا يقول : إن طريقك مستقيم » وأيضاً
فالوعيد إنما يكون للمسيء ، لا يكون للمخلصين ، فكيف يكون قوله هذا
« إشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص » وطريق هؤلاء غير طريق
هؤلاء ؟ هؤلاء سلكوا الطريق المستقيم التي تدل على الله ، وهؤلاء سلكوا
السبيل الجائرة .

وأيضاً فإنما يقول لغيره في التهديد « طريقك علي » من لا يقدر عليه في
الحال لكن ذاك يمر بنفسه عليه وهو متمكن منه ، كما كان أهل المدينة
يتوعدون أهل مكة بأن « طريقكم علينا » كما تهددوهم بأنكم آوئتم محمداً
وأصحابه ، كما قال أبو جهل لسعد بن معاذ^(٢) لما ذهب سعد إلى مكة « لا

(١) سورة الفجر آية رقم ١٤ .

(٢) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، الأوسي الأنصاري صحابي من الأبطال من
أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، وحمل لواءهم يوم بدر ، وشهد أحداً ، فكان ممن

أراك تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم » فقال « لئن منعني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه - طريقك على المدينة » أو نحو هذا .

فذكر أن طريقهم في متجرهم إلى الشام عليهم ، فيتمكنون حينئذ من جزائهم . ومثل هذا المعنى لا يقال في حق الله تعالى ، فإن الله قادر على العباد حيث كانوا ، كما قالت الجن ﴿ وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ ^(١) وقال ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٢) .

وإذا كانت العرب تقول ما ذكره : يقولون « طريقك في هذا الأمر على فلان » أي إليه يصير أمرك ، فهذا يطابق تفسير مجاهد وغيره من السلف ، كما قال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء ، فطريق الحق على الله ، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله فيه ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ^(٣) كما فسرت به القراءة الأخرى . فالصراط في القراءتين هذا الصراط المستقيم الذي أمر الله المؤمنين أن يسألوه إياه في صلاتهم فيقولوا ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ^(٤) وهو الذي وصى به في قوله ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

= ثبت فيها ، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسماً ، ورمي بسهم يوم الخندق فمات من أثر جراحه ودفن بالبقيع ، وعمره سبع وثلاثون سنة ، وحزن عليه النبي - ﷺ - وفي الحديث « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » [راجع صفة الصفوة ١ : ١٨٠ وطبقات ابن سعد ٣ : ٢ القسم الثاني ، والإصابة الترجمة ٣١٩٧]

(١) سورة الجن آية رقم ١٢ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤١ .

(٤) سورة الفاتحة الآيات ٦ - ٧ .

فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ .

وقوله هذا إشارة إلى ما تقدم ذكره وهو قوله ﴿إِلَّا عِبَادَكَ وَهُنَالِ الْمُخَلَصِينَ﴾ (٢) فتعبد العباد له بإخلاص الدين له : طريق يدل عليه ، وهو طريق مستقيم ، ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٣) وابن عطية ذكر أن هذا معنى الآية في تفسير الآية الأخرى مستشهداً به ، مع أنه لم يذكره في تفسيرها ، فهو بفطرته عرف أن هذا معنى الآية ، ولكنه لما فسرها ذكر ذلك القول ، كأنه هو الذي اتفق أن رأي غيره قد قاله هناك . فقال - رحمه الله .

وقوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ وهذه أيضاً من أجل نعم الله تعالى ، أي على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه - وذلك بنصب الأدلة وبعث الرسل ، وإلى هذا ذهب المتأولون . قال : ويحتمل أن يكون المعنى أن من سلك السبيل القاصد فعلى الله طريقه ، وإلى الله مصيره ، فيكون هذا مثل قوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ وضد قول النبي ﷺ «والشر ليس إليك» (٤) أي لا يفضي إلى رحمتك ، وطريق قاصد معناه : بين مستقيم قريب ، ومنه قول الراجز :

بعيد عن نهج الطريق القاصد

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(٤) الحديث (والخير كله في يديك والشر ليس إليك) رواه الإمام مسلم في كتاب المسافرين

٢٠١ والنسائي في الافتتاح ١٧ .

قال : والألف واللام في « السبيل » للعهد ، وهي سبيل الشرع وليست للجنس ، ولو كانت للجنس لم يكن منها جائر وقوله ﴿ ومنها جائر ﴾ يريد طريق اليهود والنصارى ، وغيرهم كعباد الأصنام ، والضمير في ﴿ منها ﴾ يعود على ﴿ السبيل ﴾ التي يتضمنها معنى الآية ، كأنه قال « ومن السبيل جائر » فأعاد عليها وإن كان لم يجر لها ذكر لتضمن لفظة ﴿ السبيل ﴾ بالمعنى لها .

قال : ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ منها ﴾ على « سبيل الشرع » المذكورة ، ويكون « من » للتبعض ، ويكون المراد فرق الضلالة من أمة محمد - كأنه قال : ومن بنيات الطرق من هذه السبيل ومن شعبها جائر . « قلت » : سبيل أهل البدع جائزة خارجة عن الصراط المستقيم فيما ابتدعوا فيه ، ولا يقال إن ذلك من السبيل المشروعة .

وأما قوله « إن قوله : ﴿ قصد السبيل ﴾ هي سبيل الشرع ، وهي سبيل الهدى ، والصراط المستقيم ، وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر ، فهذا أحد الوجهين في دلالة الآية ، وهو مرجوح ، والصحيح الوجه الآخر أن ﴿ السبيل ﴾ اسم جنس ، ولكن الذي على الله هو القصد منها ، وهي سبيل واحد ، ولما كان جنساً قال ﴿ ومنها جائر ﴾ والضمير يعود على ما ذكر بلا تكلف .

وقوله « لو كان للجنس لم يكن منها جائر » ليس كذلك ، فإنها ليست كلها عليه ، بل إنما عليه القصد منها ، وهي سبيل الهدى ، والجائر ليس من القصد ، وكأنه ظن أنه إذا كانت للجنس يكون عليه قصد كل سبيل ، وليس كذلك ، بل إنما عليه سبيل واحدة ، وهي الصراط المستقيم - هي التي تدل عليه ، وسائرهما سبل الشيطان ، كما قال ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ »

فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ (١) .

وقد أحسن - رحمه الله - في هذا الاحتمال ، وفي تمثيله ذلك بقوله :
﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

وأما آية الليل - قوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ (٣) - - فابن عطية مثلها بهذه الآية ، لكنه فسرها بالوجه الأول فقال : -

ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً ، أي تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك ، كما قال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ثم كل أحد يتكسب ما قدر له ، وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان ، ولو كان كذلك لم يوجد كافر .

قلت « : وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي - وذكره عن الزجاج . قال الزجاج : إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

وهذا التفسير ثابت عن قتادة ، رواه عبد بن حميد (٤) . قال : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن قتادة : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ . علينا بيان حاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته ، وكذلك رواه ابن أبي حاتم في تفسير سعيد ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤١ .

(٣) سورة الليل آية رقم ١٢ .

(٤) هو عبد بن حميد بن نصر الكشي أبو محمد : من حفاظ الحديث قيل اسمه عبد الحميد ، وخفف ، نسبته إلى كيس (من بلاد السند) من كتبه تفسير للقرآن الكريم ، ومسند في سفر ضخّم رأيته في القرويين بفاس ناقص الأول ، ورأيت في مكتبة الفاتيكاني (٥٠٢ عربي) مخطوطة باسم المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي « توفي عام ٢٤٩ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٤ والمستطرفة ٥٠ ومعجم البلدان ٧ : ٢٥١ وبرنامج القرويين ٥٧ وتذكرة النوادر ٣٧] وكتاب الأعلام للزركلي .

عن قتادة في قوله : « إن علينا للهدى : يقول : على الله البيان - بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

لكن قتادة ذكر أن البيان الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، فتبين به حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

وأما الثعلبي ، والواحدي ، والبغوي ، وغيرهم ، فذكروا القولين ، وزادوا أقوالاً أخر فقالوا - واللفظ للبغوي :

﴿ إن علينا للهدى ﴾ . يعني البيان ، قال الزجاج . علينا أن نبين طريق الطريق من طريق الضلالة ، وهو قول قتادة ، قال : على الله بيان حلاله وحرامه .

وقال الفراء : يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله تعالى : - ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . قال : وقيل معناه إن علينا للهدى والإضلال كقوله ﴿ بيدك الخير ﴾ « قلت » : هذا القول هو من الأقوال المحدثه التي لم تعرف عن السلف ، وكذلك ما أشبهه ، فإنهم قالوا : معناه بيدك الخير والشر ، والنبي ﷺ في الحديث الصحيح يقول « والخير بيديك والشر ليس إليك » ^(١) والله تعالى خالق كل شيء - لا يكون في ملكه إلا ما يشاء - والقدر حق لكن فهم القرآن ، ووضع كل شيء موضعه ، وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالقدر ، هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وقد ذكر المهدي الأقوال الثلاثة ، فقال : إن علينا للهدى والضلال . فحذف قتادة . المعنى : إن علينا بيان الحلال والحرام .

وقيل : المعنى إن علينا أن نهدي من سلك سبيل الهدى . قلت : هذا هو قول الفراء ، لكن عبارة الفراء أبين في معرفة هذا القول . فقد تبين أن

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل إلا على الله ، ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم ، والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين .

وأما الثاني . فقد يقول طائفة : ليس على الله شيء - لا بيان هذا ، ولا هذا ، فإنهم متنازعون هل أوجب على نفسه ، كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ^(٣) .

وإذا كان عليه بيان الهدى من الضلال وبيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول : إن عليه إرسال الرسل ، وإن ذلك واجب عليه ، فإن البيان لا يحصل إلا بهذا .

وهذا يتعلق بأصل آخر ، وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبه مشيئته وحكمته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاءه وجب وجوده وما لم يشأ امتنع وجوده ، وبسط هذا له موضع آخر .
ودلالة الآيات على هذا فيها نظر .

وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعاً ، وأنه أرشد بها إلى [الطريق] المستقيم ، وهي الطريق القصد ، وهي الهدى إنما تدل عليه - وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه . لكن نشأت الشبهة من كونه قال ﴿ عَلَيْنَا ﴾ بحرف الاستعلاء . ولم يقل « إلينا » والمعروف أن يقال لمن يشار إليه أن يقال « هذه الطريق إلى فلان » ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول « طريقنا على فلان » وذكر هذا المعنى بحرف الاستعلاء ، وهو من محاسن

(١) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة هود آية رقم ٦ .

القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء .

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْ بِهِ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ (٣) أي إلينا مرجعهم ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ﴾ (٤) وقال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ، وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُتَبَيَّنُّ ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦) .

فأي سبيل سلكها العبد فالإلى الله مرجعه ومنتهاه ، لا بد له من لقاء الله ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (٧)

(١) سورة الإنشقاق آية رقم ٦ .

(٢) سورة فاطر آية رقم ١٨ .

(٣) سورة الغاشية آية رقم ٢٥ .

(٤) سورة الأنعام الآيات رقم ٦٠ - ٦١ .

(٥) سورة النجم آية رقم ٣٦ - ٤٢ .

(٦) سورة يونس آية رقم ٤٦ .

(٧) سورة النجم آية رقم ٣١ .

قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا داود بن الجارود عن أبي السبيل عن حذيفة بن أسيد عن النبي - ﷺ - قال : عرضت علي أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها فقال رجل يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ .

وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى ، وهو الصراط المستقيم ،^(١) هو الذي يسعد أصحابه ، وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته ، فيكون الله وليهم دون الشيطان ، وهذه سبيل من عبد الله وحده وأطاع رسله ، فلهذا قال ﴿ إن علينا للهدى ﴾ ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ﴿ قال هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ فالهدى ، وقصد السبيل والصراط المستقيم ، إنما يدل على عبادته وطاعته - لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان .

فالكلام تضمن معنى « الدلالة » إذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة ، فإن الجزاء يعم الخلق كلهم ، بل المقصود بيان ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله - ما الذي يدل على ذلك ؟ فكأنه قيل : الصراط المستقيم يدل على الله - على عبادته وطاعته .

وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون « هذه الطريق على فلان » إذا كانت تدل عليه ، وكان هو الغاية المقصود بها ، وهذا غير كونها « عليه » بمعنى أن صاحبها يمر عليه ، وقد قيل :

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو عليّ طريقها وهو كما قال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله . فالمقصود بالسبيل هو : الذي يدل ويوقع عليه ، كما يقال : إن سلكت هذه السبيل وقعت على المقصود ، ونحو ذلك ، وكما يقال « على الخير سقطت » فإن الغاية المطلوبة إذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها ، ويرمي نفسه عليها .

= فقال : صوروا لي في الطين حتى أني لأعرف بالإنسان منهم من أحكم بصاحبه » ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن عقبة بن مكرم عن يونس بن بكير عن زياد بن المنذر عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد به نحوه .

(١) قال تعالى : ﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض إنك على صراط مستقيم ﴾ . سورة الزخرف آية والشورى : ٥٣ .
وقال تعالى : ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ سورة النساء آية رقم ١٧٥ .

وأيضاً . فسالك طريق الله متوكل عليه ، فلا بد له من عبادته ومن التوكل عليه .

فإذا قيل « عليه الطريق المستقيم » تضمن أن سالكه عليه يتوكل وعليه تدله الطريق ، وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط ، لا يعدل عن ذلك ، إلى نحو ذلك من المعاني التي يدل عليها حرف الإستعلاء دون حرف الغاية .

وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم ، فعليه الصراط المستقيم ، وهو على صراط مستقيم - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . والله أعلم .

سورة النحل

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله

اللباس له منفعتان :

إحدهما : الزينة بستر السوء .

والثانية : الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو .

فذكر اللباس في « سورة الأعراف » لفائدة الزينة وهي المعتبرة في الصلاة والطواف ، كما دل عليه قوله : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ^(٣) رداً على

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣١ تكملة الآية ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

هذه الآية رد على المشركين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل وكانت المرأة تقول : اليوم يبدو بعضه أو كله . وما بدا منه فلا أحله .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٦ وتكملة الآية ﴿ وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣٢ وتكملة الآية : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم

ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب الذي قدم بها غير الحمس ، ومن أكل ما سلوه من الأدهان .

وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ ^(١) ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم ، ولما كانت تلك فائدة كمالية قرننها بالأمر الشرعي ، وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزوين ، وهذه من باب دفع المضرة ، فالناس إلى هذه أحوج .

فأما قوله : ﴿ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ ولم يذكر « البرد » فقد قيل لأن التنزيل كان بالأرض الحارة فهم يتخفون به ، وقيل : حذف الآخر للعلم به ، ويقال هذا من باب التنبيه ، فإنه إذا امتن عليهم بما يقي الحر فالامتنان بما يقي البرد أعظم ، لأن الحر أذى ، والبرد بؤس ، والبرد الشديد يقتل ، والحر قل أن يقع فيه هكذا ، فإن باب التنبيه والقياس كما يكون في خطاب الأحكام يكون في خطاب الآلاء وخطاب الوعد والوعيد كما قلته في قوله ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ ^(٢) مثله من يقول : لا تنفروا في البرد فإن جهنم أشد زمهريراً « ومن اغبرت قدماء في سبيل الله حرمها الله على النار » ^(٣)

= القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴿ .

(١) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٨١ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الجمعة ١٨ باب المشي الى الجمعة وقول الله جل ذكره ﴿ فاسمعوا الى ذكر الله ﴾

٩٠٧ حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا يزيد بن أبي مريم ، قال : حدثنا عباية بن رفاعة قال : أدركني أبو عيسى وأنا أذهب الى الجمعة فقال سمعت النبي ﷺ يقول . ورواه أيضاً في كتاب الجهاد ١٦ باب من أغبرت قدماء في سبيل الله وذكره . ورواه الترمذي في فضائل الجهاد ٧ والنسائي في الجهاد ٩ والدارمي في الجهاد ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤٤٤ ، ٤٧٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٦ : ٤٤٤ .

فالوحل والثلج أعظم ونحو ذلك .

وفي الآية شرع لباس مجن الحرب ، ولهذا قرن من قرن باب اللباس والتحلي بالصلاة ، لأن للحرب لباساً مختصاً مع اللباس المشترك ، وطابق قولهم اللباس والتحلي قوله : ﴿يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ^(١) وأحسن من هذا أنه قد تقدم ذكر وقايته البرد في أول السورة بقوله : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ^(٢) فيقال لم فرق هذا ؟ فيقال والله أعلم : المذكور في أول السورة النعم الضرورية التي لا يقومون بدونها ، من الأكل ، وشرب الماء القراح ، ودفع البرد ، والركوب الذي لا بد منه في النقلة ، وفي آخرها ذكر كمال النعم ، : من الأشربة الطيبة ، والسكون في البيوت ، وبيوت الأدم ، والاستظلال بالظلال ، ودفع الحر والباس بالسراويل ، فإن هذا يستغنى عنه في الجملة ، ففي الأول الأصول ، وفي الآخر الكمال ، ولهذا قال : ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ^(٣) و« أيضاً » : فالمساكن لها منفعتان : إحداهما السكون فيها لأجل الاستتار ، فهي كلباس من هذا الوجه . والثاني : وقاية الأذى من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك ، فجمع الله الامتنان بهذين فقال : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ^(٤) هذه بيوت المدر ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ^(٥) هذه بيوت العمود ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوٌ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ ^(٦) يدخل فيه أهبة البيت من البسط والأوعية والأغطية ونحوها . وقال : ﴿مِنْ بَيْتِكُمْ سَكَنًا﴾

(١) سورة فاطر آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

(٦) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

ولم يقل من المدر بيوتاً كما قال : ﴿ من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ لأن السكن بيان منفعة البيت فيه تظهر النعمة ، واتخاذ البيوت من المدر معتاد ، فالنعمة بظهور أثرها ، بخلاف الأنعام ، فإن الهداية إلى اتخاذ البيوت من جلودها أظهر من الهداية إلى نفس اتخاذ البيوت .

وأما فائدة الوقاية فقال : ﴿ وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ ^(١) فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصنعه الأدميون ، وقوله : ﴿ ومن الجبال أكناناً ﴾ لأن الجبل يكن الإنسان من فوقه ويمينه ويساره وأسفل منه ، ليس مقصوده الاستظلال ، بخلاف الظلال فإن مقصودها الاستظلال ، ولهذا قرن بهذه ما في السراويل من منفعة الوقاية ، فجمع في هذه الآية بين وقاية اللباس المتثقل مع البدن ووقاية الظلال الثابتة على الأرض ، ولهذا كانوا في الجاهلية يسوون بينهما في حق المحرم ، فكما نهى عن تغطية الرأس نهوه عن الدخول تحت سقف حتى أنزل الله ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ ^(٢) وجاز للمحرم أن يستظل بالثابت من الخيام والسجر ، وأما الشيء المتثقل معه المتصل كالمحمل ففيه ما فيه لتردده بين السراويل وبين المستقر من الظلال والأكنة .

كما أنه قبل هذه الآيات ذكر أصناف الأشربة من اللبن والخمر والعسل ^(٣) ، وذكر في أول السورة المراكب والأطعمة ، وهذه مجامع

(١) سورة النحل آية رقم ٨١ قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي - ﷺ - فقرأ عليه رسول الله - ﷺ - ﴿ وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بَيْوتِكُمْ مَّسْكِنًا ﴾ فقال الأعرابي : نعم قال : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ الآية قال الأعرابي . نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي نعم حتى بلغ ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ قولي الأعرابي فأنزل الله ﴿ يعرفون نعمه الله ثم ينكرونها ﴾

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٩ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً

المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمراكب .

وقال شيخ الإسلام

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ ﴾ (١) الآيتين لفظ « الانزال » في القرآن يرد « مقيداً » بأنه منه كالقرآن ، وبالإنزال من السماء ، ويراد به العلو كالمطر و« مطلقاً » فلا يختص بنوع ، بل يتناول إنزال الحديد من الجبال ، والإنزال من ظهور الحيوان ، وغير ذلك ، فقوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بيان لنزول جبريل به من الله ، كقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (٢) أي أنه مؤتمن لا يزيد ولا ينقص فإن الخائن قد يغير الرسالة .

وفيها دلالة على أمور : -

منها : بطلان قول من زعم خلقه في جسم كالجهمية من المعتزلة وغيرهم ، فإن السلف يسمون من قال بخلقه ونفى الصفات والرؤية جهمياً ، فإن جهماً أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات وبالع في ذلك ، فله مزية المبالغة والابتداء بكثرة إظهاره ، وإن كان جعد (٣) سبقه إلى بعض

= سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

(١) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ .

الروح الأمين - هو جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفي ، والسدي ، والضحاك والزهري وابن جريج - وهذا مما لا نزاع فيه قال الزهري : وهذا كقوله ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين : لا تأكله الأرض .

(٣) هو الجعد بن درهم من الموالى مبتدع له أخبار في الزندقة ، سكن الجزيرة الفراتية ، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة في أيام هشام بن عبد الملك فنسب إليه ، أو كان =

ذلك ، لكن المعتزلة وإن وافقوه في البعض فهم يخالفونه في مثل مسائل الإيمان والقدر وبعض الصفات ، وجههم يقول إن الله لا يتكلم أو يتكلم مجازاً وهم يقولون يتكلم حقيقة ، ولكن قولهم في المعنى قوله ، وهو ينفي الأسماء كالباطنية والفلاسفة .

ومنها : بطلان قول من زعم أنه فاض من العقل الفعال أو غيره ، وهذا أعظم كفراً وضلاً من الذي قبله .

ومنها إبطال قول الأشعرية أن كلام الله معنى وهذا العربي خلق ليدل عليه ، سواء قالوا : خلق في بعض الأجسام : أو ألهمه جبريل ، أو أخذه من اللوح ، فإن هذا لا بد له من متكلم تكلم به أولاً ، وهذا يوافق قول من قال إنه مخلوق ، لكن يفارقه من وجهين : -

أحدهما : أن أولئك يقولون المخلوق كلام الله وهؤلاء يقولون إنه كلام مجازاً ، وهذا أشر من قول المعتزلة ، بل هو قول الجهمية المحضة ، لكن المعتزلة يوافقونهم في المعنى .

الثاني : أنهم يقولون لله كلام قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته ، فإن الكلائية ^(١) خير منهم في الظاهر ، لكن في الحقيقة لم يثبتوا كلاماً له غير المخلوق .

والمقصود أن الآية تبطل هذا و« القرآن » اسم للعربي ، لقوله : ﴿ فإذا

= الجعد مؤدبه في صغره ، ومن أراد ذم مروان لقبه بالجعدي نسبة إليه قال الذهبي : عداؤه في التابعين . مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى ، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر عام ١١٨ هـ .)

وقال ابن تغري بردي في كلامه على مروان : كان يعرف بالجعدي نسبة الى مؤدبه جعد بن درهم وقال الديار بكري : مؤدبه وأستاذه . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن

الأثير ٥ : ١٦٠ والتاج ٢ : ٣٢١ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥]

(١) سبق الترجمة لهم .

قَرَأَتِ الْقُرْآنَ ﴿^(١)﴾ وَأَيْضاً فَقَوْلُهُ : ﴿ نَزَلَهُ ﴾ عَائِدٌ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ﴿^(٢)﴾ فَالَّذِي نَزَلَهُ اللَّهُ هُوَ الَّذِي نَزَلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ، وَأَيْضاً قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ ﴿^(٣)﴾ الْآيَةُ . وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يَعْلَمُ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ بَشَرٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ - الْخ ، فَعَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُؤَلَّفْ نَظْمًا بَلْ سَمِعَهُ مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ ، وَرُوحُ الْقُدُسِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهُ ، لَمْ يُؤَلَّفْهُ هُوَ .

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ ﴿^(٤)﴾ وَ﴿ الْكِتَابَ ﴾ اسْمٌ لِلْقُرْآنِ بِالضَّرُورَةِ وَالِاتِّفَاقِ ، فَإِنَّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ يَفْرُقُونَ بَيْنَ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ ، وَلَفْظُ ﴿ الْكِتَابَ ﴾ يَرَادُ بِهِ الْمَكْتُوبُ فِيهِ ، فَيَكُونُ هُوَ الْكَلَامُ ، وَيَرَادُ بِهِ مَا يَكْتُبُ فِيهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ ﴿^(٥)﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ ﴿^(٦)﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ﴿^(٧)﴾ إِخْبَارٌ مُسْتَشْهَدٌ بِهِمْ فَمَنْ لَمْ يَقْرَبْهُ مِنْهُ فَهَمْ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره : أنه أنزل في ليلة

(١) سورة النحل آية رقم ٩٨ وتكملتها ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٠١ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٠٣ وتكملة الآية ﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

قال ابن جرير : حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مسلم بن عبد الله الملائي عن مجاهد عن ابن عباس قال : كان رسول الله - ﷺ - يعلم فينا بمكة وكان فيها رجل اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله - ﷺ - يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٥) سورة الواقعة آية رقم ٧٨ .

(٦) سورة الاسراء آية رقم ١٣ .

(٧) سورة الانعام آية رقم ١١٤ .

القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح قبل نزوله ، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل ، أو بعده ، فإذا أنزل جملة إلى بيت العزة فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، والله يعلم ما كان وما يكون ، وما لا يكون لو كان كيف يكون وهو قد كتب المقادير وأعمال العباد قبل أن يعملوها ، ثم يأمر بكتابتها بعد أن يعملوها ، فيقابل الكتابة المتقدمة والمتأخرة فلا يكون بينهما تفاوت ، هكذا قال ابن عباس وغيره . فإذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف لا يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم ؟ .

ومن قال : إن جبريل أخذه عن الكتاب لم يسمعه من الله فهو باطل من وجوه : - منها : أنه سبحانه كتب التوراة لموسى بيده ، فبنو إسرائيل أخذوا كلامه من الكتاب الذي كتبه ، ومحمد عن جبريل عن الكتاب فهم أعلى بدرجة ، ومن قال : إنه ألقى إلى جبريل معاني وعبر بالعربي فمعناه أنه ألهمه إلهاماً ، وهذا يكون لأحد المؤمنين كقوله : ﴿ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي ﴾ ^(١) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ ^(٢) فيكون هذا أعلى من أخذ محمد ﷺ -

وأيضاً : فإنه سبحانه قال : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ^(٣) وهذا يدل على أمور : على أنه يكلم العبد تكليماً زائداً على الوحي الذي هو قسم التكليم الخاص .

فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص فالتكليم

(١) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٧ تكلمة الآية ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

(٣) سورة النساء الآيات ١٦٣ - ١٦٤ .

العام هو المقسوم في قوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا . أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ^(١) الآية ،
فالتكليم المطلق قسم الوحي الخاص ، لا قسماً منه ، وكذلك الوحي يكون
عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص ، كقوله : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ ^(٢) ويكون
قسماً له كما في الشورى ، وهذا يبطل قول من قال : إنه معنى واحد قائم
بالذات ، فإنه لا فرق بين العام وما لموسى ، وفرق سبحانه في « الشورى »
بين الإنحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال رسول فيوحي بإذنه ما
يشاء .

(١) سورة الشورى آية رقم ٥١ في الصحيح أن رسول الله - ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً ، كذا جاء الحديث ، وكان قتل يوم أحد ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا .

(٢) سورة طه آية رقم ١٣ .

سورة الإسراء

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ (١)
الآيتين ، لما ذكر أن من السلف من ذكر أنهم من الملائكة ، ومنهم من ذكر
أنهم من الإنس ، ومنهم من ذكر أنهم من الجن .

لفظ السلف يذكرون جنس المراد من الآية على التمثيل ، كما يقول
الترجمان لمن سأله عن الخبز فيريه رغيفاً ، والآية هنا قصد بها التعميم لكل ما
يدعى من دون الله ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين - سواء
كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تناول من دعا الملائكة

(١) سورة الإسراء رقم ٥٦ - والآية ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين
يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان
محذوراً ﴾ روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن ابراهيم عن أبي معمر عن
عبد الله في قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ﴾ قال ناس من الجن
كانوا يعبدون فأسلموا ، وفي رواية قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم
الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » . وقال قتادة عن معبد بن عبد الله الروماني عن عبد الله بن عتبة
عن ابن مسعود في قوله ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون
نفرأ من الجن فأسلم الجنيون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون باسلامهم فنزلت هذه
الآية .

وفي رواية ابن مسعود كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره

والجن ، ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم ، ومع ذلك فقد نهى عن دعائهم ، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، ولا يرفعونه بالكلية ، ولا يحولونه من موضع إلى موضع ، أو من حال إلى حال ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ^(١) كان أحدهم إذا نزل بواد يقول : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، فقالت الجن : الإنس تستعيز بنا ، فزادوهم رهقاً ، وقد نص الأئمة - كأحمد وغيره - على أن لا تجوز الاستعاذة بمخلوق وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق ، لما ثبت عنه ﷺ : أنه استعاذ بكلمات الله ، وأمر بذلك ، فإذا كان لا يجوز ذلك ، فلأن لا يجوز أن يقول : أنت خير مستعاذ يستعاذ به أولى . فالاستعاذة والاستجارة ، والاستغاثة ، كلها من نوع الدعاء ، أو الطلب ، وهي ألفاظ متقاربة .

. ولما كانت الكعبة بيت الله الذي يدعى ويذكر عنده ، فإنه سبحانه يستجار به هناك ، وقد يستمسك بأستار الكعبة كما يتعلق المتعلق بأذيال من يستجير به ، كما قال عمرو بن سعيد : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخزية . وفي الصحيح : « يعوذ عائذ بهذا البيت » ^(٢) . والمقصود أن

(١) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب العلم ٣٧ - باب ليلغ العلم الشاهد الغائب قاله ابن عباس - عن النبي - ﷺ -

١٠٤ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، قال : حدثني الليث ، قال : حدثني سعيد عن أبي شريح أنه قال لعمر بن سعيد - وهو يبعث البعوث الى مكة - ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قال به النبي - ﷺ - الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به - حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجراً ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ - فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليلغ الشاهد الغائب . فقيل لأبي شريح ما قال عمرو ؟ =

كثيرا من الضالين يستغيثون بمن يحسنون به الظن ، ولا يتصور أن يقضي لهم أكثر مطالبهم ، كما أن ما تخبر به الشياطين من الأمور الغائبة [يكذبون] في أكثره ، بل يصدقون في واحدة ، ويكذبون في أضعافها ، ويقضون لهم حاجة واحدة ويمنعونهم أضعافها ، يكذبون فيما أخبروا به وأعانوا عليه ، لإفساد حال الرجال في الدين والدنيا ويكون فيه شبهة للمشركين ، كما يخبر الكاهن ونحوه .

والله سبحانه جعل الرسول مبلغاً لأمره ونهيه ووعدته ووعدته ، وهؤلاء يجعلون الرسل والمشائخ يدبرون العالم بقضاء الحاجات وكشف الكربات ، وليس هذا من دين المسلمين ، بل النصراني تقول هذا في المسيح وحده بشبهة الاتحاد والحلول ، ولهذا لم يقلوه في إبراهيم وموسى وغيرهم ، مع أنهم في غاية الجهل في ذلك ، فإن الآيات التي بعث بها موسى أعظم ، ولو كان هذا ممكناً لم يكن للمسيح خاصية به ، بل موسى أحق .

ولهذا كنت أتزل مع علماء النصراني إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقاً ، بل أبين لهم أن ما جاء به موسى من الآيات أعظم ، فإن كان حجة في دعوى الإلهية فموسى أحق ، وأما ولادته من غير أب فهو يدل على قدرة الخالق ، لا على أن المخلوق أفضل من غيره .

= قال : أنا أعلم منك يا أبا شريح ، ولا يعيد عاصياً ، ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بخزية ،

سورة الكهف

فصل

حديث علي رضي الله عنه المخرج في الصحيحين لما طرقة رسول الله ﷺ وفاطمة وهما نائمان فقال : « ألا تصليان ؟ فقال علي : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يمسكها ، وإن شاء أن يرسلها ، فولى النبي ﷺ وهو يضرب بيده على فخذه ويعيد القول ويقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ^(١) هذا الحديث نص في ذم من عارض الأمر بالقدر فإن قوله : إنما أنفسنا بيد الله . . . الخ استناد إلى القدر في ترك امتثال الأمر ، وهي في نفسها كلمة حق ، لكن لا تصلح لمعارضة الأمر ، بل معارضة الأمر بها ، من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ^(٢)

وهؤلاء أحد أقسام القدريّة ، وقد صنفهم في غير هذا الموضع .
فالمجادلة الباطلة ^(٣) .

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٤ .

الحديث رواه الإمام البخاري في التفسير ١ - باب ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .
٤٧٢٤ - حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب . قال : أخبرني علي بن حسين أن حسين بن علي أخبره عن علي - رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - ذكره .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٥٤ .

(٣) انقطع الكلام عند هذا الحد ولعل الله سبحانه وتعالى يوفقنا الى جمعه وترتيبه .

سورة مريم فصل

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -

سورة مريم ، مضمونها : تحقيق عبادة الله وحده ، وأن خواص الخلق هم عباده ، فكل كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة ، وتضمنت الرد على الغالين الذين زادوا في النسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى بطريق الولادة والرد على المفرطين في تحقيق العبادة وما فيها من الكرامة وجحدوا نعم الله التي أنعم بها على عباده المصطفين .

افتتحها بقوله ﴿ذَكَرْ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا﴾ ^(١) وندائه ربه نداء خفياً ، وموهبته له يحيى ، ثم قصة مريم وابنها .

وقوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ^(٢) الخ . بين فيها الرد على الغلاة في المسيح ، وعلى الجفافة النافين عنه ما أنعم الله به ^(٣) عليه ، ثم أمر نبيه بذكر ابراهيم وما دعا إليه من عبادة الله وحده ^(٤) ، ونهيه إياه عن عبادة الشيطان ،

(١) سورة مريم آية رقم ٢ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٣٠ وتكملة الآية ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فهو عبد الله لا ابن الإله وهو نبي ورسول لا إله له التصريف في الكون .

(٣) من النعم عليه قول الله تعالى ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ سورة مريم آية ٣١ .

(٤) قال ابراهيم عليه السلام ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا

وموهبته له اسحاق ويعقوب وأنه جعل له لسان صدق عليا ، وهو الشئاء الحسن ، وأخبر عن يحيى وعيسى وابراهيم بئر الوالدين مع التوحيد وذكر موسى وموهبته له أخاه هارون نبياً .

كما وهب يحيى لذكريا ، وعيسى لمريم ، واسحاق لابراهيم فهذه السورة سورة المواهب ، وهي ما وهبه الله لأبنائه من الذرية الطيبة ، والعمل الصالح ، والعلم النافع ثم ذكر ذرية آدم لأجل أدريس ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ ^(١) وهو ابراهيم ومن ذرية ابراهيم واسرائيل . إلى آخر القصة . ثم قال : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ﴾ ^(٢) الآية .

فهذه حال المفرطين في عبادة الله ، ثم استثنى التائبين وبين أن الجنة لمن تاب ، وأن جنات عدن وعدّها الرحمن عباده بالغيب ، وهم أهل تحقيق العبادة ، ثم قال : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ ^(٣) ثم قال : ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ ^(٤) .

ثم ذكر حال منكري المعاد ، وحال من جعل له الأولاد ، وقرن بينهما فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة .
« كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له »

= أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ﴿ سورة مريم ٤٢ و ٤٤ .

(١) سورة مريم رقم ٥٨ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٥٩ إضاعة الصلاة واتباع الشهوات يحدث قرب قيام الساعة - وذهاب صالحى أمة محمد - ﷺ - ينزوبعضهم على بعض في الأزقة .

وكذا روى ابن جريج عن مجاهد مثله . وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة يعنون في آخر الزمان . وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا الحسن الأشيب ، حدثنا شريك عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ قال هم في هذه الأمة يتراكون تراكب الأنعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ولا يستحيون من الناس في الأرض » .

(٣) سورة مريم آية رقم ٦٣ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٦٥ .

ذلك» (١) الحديث .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (٢)

ثم ذكر إقسامه على حشدهم والشیاطین ، وإحضارهم حول جهنم جثياً .

وفيها دلالة على أن المخبر عن خبر يحصل في المستقبل لا يكون إلا بطريقين :

إما إطلاعه على الغيب ، وهو العلم بما سيكون وإما أن يكون قد اتخذ عند الرحمن عهداً ، والله موف بعهد فالأول علم بالخبر ، والثاني علم بالأمـر .

الأول علم بالكلمات الكونية ، والثاني علم بالكلمات الدينية وهذا الذي أقسم أنه يأتي يوم المعاد ما ذكر كاذب في قسمه ، فإنه ليس له اطلاع على الغيب ، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً .

وهذا كما قيل في إجابة الدعاء ، أنه تارة يكون لصحة الاعتقاد ، وهو مطابقة الخبر ، وتارة لكمال الطاعة وهو موافقة الأمر كقوله :

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ (٣) .

فذكر حال من تمنى على الله الباطل بلا علم بالواقع ، ولا اتخاذ عهد

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٢ باب قوله ﴿ الله الصمد ﴾ ٤٩٧٥ - حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ قال الله تعالى : « كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يعيدني كما بداني ، وليس أول الخلق بأهون من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد » . ورواه أيضاً في الجنايز ١١٧ ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٣٥٣١٧ ، ٣٩٤ (حلي)

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

بالمشروع .

ثم ذكر حال الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، فنفى الولادة عن نفسه ، ورد على من أثبتها ، وأثبت المودة رداً على من أنكرها فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (١) .

أي يحبهم ، ويحبهم إلى عباده .

وقد وافق ذلك ما في الصحيحين : إذا أحب الله العبد نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء (٢) ويوضع له القبول في الأرض .

وقال في البغض عكس ذلك .

وفي قول ابراهيم ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (٣) وقوله في موسى ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (٤) .

وما ذكره للمؤمنين من المودة إثبات لما ينكره الجاحدون من محبة الله وتكليمه ، كما في الأول نفى لما يشبهه المفترون من اتخاذ الولد .

سئل رضي الله عنه .

عن قوله عز وجل : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا

(١) سورة مريم آية رقم ٩٦ .

(٢) الحديث أخرجه الامام الترمذي في كتاب التفسير سورة ١٩ ، ٧ ورواه البخاري في كتاب التوحيد ٣٣ باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ، وقال معمر : وإنك لتلقى القرآن أي يلقى عليك ٧٤٨٥ - حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن - هو ابن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه أيضاً في كتاب بدء الخلق ٦ ، وكتاب الأدب ٤١ ، ورواه الامام مسلم في البر ١٥٧ وصاحب الموطأ في الشعر ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٧ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ، ٥ : ٢٠٩ ، ٢٦٣ (حلي) .

(٣) سورة مريم آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٥٢ .

الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿١﴾ هل ذلك فيمن أضع وقتها فصلها في غير وقتها ؟ أم فيمن أضعها فلم يصلها ؟

وقوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٢) .

هل هو عن فعل الصلاة أو السهو فيها كما جرت العادة من صلاة الغفلة الذين لا يعقلون من صلاتهم شيئاً أفتونا مأجورين .

فأجاب رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين : بل المراد بهاتين الآيتين من أضع الواجب في الصلاة لا مجرد تركها ، هكذا فسرهما الصحابة والتابعون ، وهو ظاهر الكلام ، فإنه قال :

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٣) فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها ، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها ، وقد قال طائفة من السلف : بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة ، وكلا المعنيين حق ، والآية تتناول هذا وهذا ، كما في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً (٤) .

(١) سورة مريم آية رقم ٥٩ .

(٢) سورة الماعون - ٤ ، ٥ وفي تفسير هذه الآية (ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ قال :

تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً)

(٣) سورة الماعون الآية رقم ٤ ، ٥ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث قال ابن جريج : حدثني زكريا بن أبان المصري حدثنا عمرو بن طارق ، حدثنا عكرمة بن ابراهيم ، حدثني عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن الذين هم عن صلاتهم =

فبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن صلاة المنافق تشتمل على التأخير عن الوقت الذي يؤمر بفعلها فيه ، وعلى النقر الذي لا يذكر الله فيه إلا قليلاً ، وهكذا فسروا قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ (١) .

بأن إضاعته تأخيرها عن وقتها وإضاعة حقوقها ، وجاء في الحديث « أن العبد إذا قام إلى الصلاة بطهورها وقراءتها وسجودها - أو كما قال - سعدت ولها برهان كبرهان الشمس تقول له : حفظك الله كما حفظتني وإذا لم يتم طهورها وقراءتها وسجودها - أو كما قال - فإنها تلف كما يلف الثوب وتقول له : ضيعك الله كما ضيعتني » .

قال سلمان الفارسي : الصلاة مكيال من وفي وفي له ومن طفف فقد علمتم ما قال في المطففين .

وفي سنن أبي داود عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال : إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا نصفها ، إلا ثلثها ، إلا ربعها إلا خمسها ، إلا سدسها ، إلا سبعها ، إلا ثمنها إلا تسعها ، إلا عشرها » .

وقد تنازع العلماء فيمن غلب عليه الوسواس في صلاته ، هل عليه الإعادة على قولين . لكن الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا إعادة عليه واحتجوا بما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال :

« إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل ، فإذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضي التشويب أقبل حتى

= ساهون . قال : هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها . قلت : وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً وتأخيرها عن أول الوقت ، كذا رواه الحافظ أبو يعلى عن سنان بن فروخ عن عكرمة بن إبراهيم به .

(١) سورة مريم آية رقم ٥٩ .

يخطر بين المرء ونفسه ، فيقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل لن يدري كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل أن يسلم » (١) .

فقد عم بهذا الكلام ولم يأمر أحداً بالإعادة و« الثاني » عليه الإعادة وهو قول طائفة من العلماء : من الفقهاء والصوفية من أصحاب أحمد وغيره كأبي عبد الله بن حامد وغيره لما تقدم من قوله ولم يكتب له منها إلا عشرها .

والتحقيق أنه لا أجر له إلا بقدر الحضور لكن ارتفعت عنه العقوبة التي يستحقها تارك الصلاة وهذا معنى قولهم : تبرأ ذمته بها . أي لا يعاقب على الترك ، لكن الثواب على قدر الحضور كما قال ابن عباس : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها ، فلهذا شرعت السنن الرواتب جبراً لما يحصل من النقص في الفرائض والله أعلم .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأذان ٤ باب فضل التأذين ٦٠٨ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، قال أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة - أن رسول الله - ﷺ قال : وذكره . ورواه أيضاً في العمل في الصلاة ١٨ وفي كتاب السهو ٦ وفي كتاب بدء الخلق ١١ ، ورواه الإمام مسلم في الصلاة ١٩ ، والمساجد ٨٣ ، وأبو داود في الصلاة ٣١ ، والنسائي في الأذان ٢٠ ، ٣٠ ، والدارمي في الصلاة ١١ ، ١٧٤ ، وصاحب الموطأ في النداء ٦ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ، ٣٩٨ ، ٤١١ ، ٤٦٠ ، ٥٠٣ ، ٥٢٢ ، ٥٣١ (حلي)

سورة طه

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

سورة طه ، مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه فهي سورة كتبه ، كما أن مريم سورة عباده ورسله افتتحها بقوله ﴿ مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، - إلى قوله - تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا ﴾ (١) ثم ذكر قصة موسى ، ونداء الله له ومناجاته إياه وتكليمه له ، وقصته من أبلغ أمر الرسل ، فلهذا ثبت في القرآن لأنه حصل له الخطاب والكتاب ، وأرسل إلى فرعون الجاحد المرتاب ، المكذب للربوبية والرسالة ، وهذا أعظم الكافرين عناداً ، واستوفى القصة في هذه السورة إلى قوله ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٢) .

(١) سورة طه الآيات ٢ الى ٤ قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسين بن محمد بن شيبه الواسطي - حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري أنبأنا إسرائيل عن سالم الأبطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال طه : يا رجل وهكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، ومحمد بن كعب ، وأبي مالك ، وعطية العوفي ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن أبي أنس قالوا : طه : بمعنى يا رجل . وفي رواية عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير والنووي أنها كلها بالنبطية معناها يا رجل ، وقال أبو صالح : هي معربة وأسند القاضي عياض في كتابه الشفاء من طريق عبد بن حميد في تفسيره : حدثنا هاشم بن القاسم ، عن ابن جعفر عن الربيع ابن أنس قال : كان النبي - ﷺ قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله (طه) يعني طأ الأرض يا محمد - وهذا وجه غريب ، والله أعلم .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٤ .

ثم ذكر قصة آدم ؛ لأنها أول النبوات .

وتضمنت السورة ذكر موسى وآدم لما بينهما من المناسبة مما يقتضي ذكرهما ، ولما بينهما من المناظرة ، فإن موسى نظير آدم في الأمر الذي صار لكل منهما ، كما أن المسيح نظير آدم في الخلق .

وقوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ ^(١) الآيات . وهذا يشابه ما في القرآن في غير موضع من ذكر نبوة آدم ثم نبوة موسى بعده ، وأمر بني اسرائيل ثم أمر نبيه بالصلاة التي في القرآن ، كما جمع بين الأمرين بالقراءة والسجود في أول سورة أنزلت ، وختمها بالرسول المبلغ لكل ما أمر به كما افتتحها بذكر التنزيل عليه .

(١) سورة طه آية رقم ١٢٣ .

فصل « في طريق العلم والعمل »

وقال :

قال الله تعالى لموسى وهارون ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (١) .

وقال في السورة بعينها ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (٢) .

فذكر من كل واحدة من الرسالتين العظيمتين رسالة موسى ورسالة محمد - أن ذلك لأجل التذكّر أو الخشية ولم يقل ﴿ لِيَتَذَكَّرَ وَيَخْشَى ﴾ ولا قال : ليتقون ويحدث لهم ذكراً ، بل جعل المطلوب أحد الأمرين ، وهذا مطابق لقوله :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٣) ونحو ذلك .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نعم العبد صهيبي ، لو لم يخف الله لم يعصه .

(١) سورة ضه آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة ضه آية رقم ٩٩ - ١١٣ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

وذلك يرجع إلى تحقيق قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (١) .

وقوله : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٢)

وقوله ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٣)

وقوله ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٤)

وقوله ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٥)

وقوله : ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (٦) الآية . ونحو ذلك . وسبب ذلك أن الخير إما بمعرفة الحق واتباعه [و] في العلم والعمل جميعاً صلاح القول والعمل : العلم والإرادة ، وأصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له ما لم يحصل معارض مانع ، فالعلم بالحق يوجب اتباعه إلا لمعارض راجح ، مثل اتباع الهوى بالاستكبار ونحوه ، كحال الذين قال الله فيهم ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِي

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٧ .

(٢) سورة العصر آية رقم ٣ .

(٣) سورة ص آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٥ .

(٥) سورة القمر آية رقم ٤٧ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٢٣ - ١٢٤ واختلف العلماء في المعيشة الضنك قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح عن ابن حجية واسمه عبد الرحمن ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ في قول الله عز وجل ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال (ضمة القبر له) وفي رواية يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه .

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴿١﴾ .

وقال ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (٢) .

وقال ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣) .

ولهذا قال ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٤) ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التي فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق اتبعته وأحبته . إذ الحق نوعان :

حق موجود فالواجب معرفته والصدق في الإخبار عنه ، وضد ذلك الجهل والكذب .

وحق مقصود وهو النافع للإنسان ، فالواجب إرادته والعمل به ، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه .

ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهل ، ومحبة الصدق دون الكذب ، ومحبة النافع دون الضار وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك ، كما أنه في صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار ، فإذا انتهى ما يضره أو كره ما ينفعه فلمرض في الجسد ، وكذلك أيضاً إذا اندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك : أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح ، كما أن الجسد إذا اندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب ، فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع :

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٤٦ .

(٢) سورة النمل آية رقم ١٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة ص آية رقم ٢٦ .

سبب للآخر ، وذلك . سبب لصالح حال الإنسان وضدهما سبب لضعف ذلك ، فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب ، وإذا كان كذلك فصالح بني آدم الإيمان والعمل الصالح ، ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيثان :

أحدهما : الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالاً والثاني : اتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس . فيكونون غواة مغضوباً عليهم .

ولهذا قال ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (١)

وقال « عليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » (٢) فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي ، وبالهدى الذي هو خلاف الضلال ، وبهما يصلح العلم والعمل جميعاً ، ويصير الإنسان عالماً عادلاً لا جاهلاً ولا ظالماً .

وهم في الصلاح على ضربين .

تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به ، فهذا هو الذي يدعى بالحكمة ، وهو الذي يتذكر ، وهو الذي يحدث له القرآن ذكراً .

والثاني : أن يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهي النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة ، وهذا هو القسم

(١) سورة النجم آية رقم ١ ، ٢ .

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن الأخنس أخبرنا الوليد بن عبد الله عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو ، قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله - ﷺ - أريد حفظه فنهتني قريش عن ذلك فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله - ﷺ - ، ورسول الله - ﷺ - بشر يتكلم في الغضب فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق . ورواه أبو داود عن مسدد ، وأبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به .

(٢) الحديث رواه أبو داود في السنة ٥ ، والترمذي في كتاب العلم ١٦ وابن ماجه في المقدمة ٦ ، والدارمي في المقدمة ١٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٢٦ ، ١٢٧ (حلي)

الثاني المذكور في قوله ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ وفي قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

وقد قال في السورة في قصة فرعون : ﴿إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (١) .

فجمع بين التزكي والهدى والخشية ، كما جمع بين العلم والخشية في قوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٢)

وفي قوله ﴿وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَبُونَ﴾ (٣)

وفي قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا وَإِذَا لَا آتِيَانَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَاهُم صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٤)

وذلك لما ذكرناه من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر ، والذكر الذي يحدثه القرآن ، ومن الخشية المانعة من اتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان ، وهو مستلزم للآخر إذا قوي على ضده ، فإذا قوي العلم والتذكر دفع الهوى ، وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم ، وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية ، كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعاً ولهذا كان فساده بانتفاء كل منهما ، فإذا انتفى العلم الحق كان ضالاً غير

(١) سورة النازعات آية رقم ١٧ - ١٩ .

(٢) سورة فاطر آية رقم ٢٨ وأقوال العلماء في الخشية كثيرة قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير ، وقال ابن لهيعة عن ابن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس قال العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئاً وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله ، وقال سعيد بن جبير : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٥٤ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٦٦ - ٦٨ .

مهتد ، وإذا انتفى اتباعه كان غاوياً مغضوباً عليه .

ولهذا قال ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) وقال ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا
يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ^(٢)

وقال في ضد ذلك ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ ^(٣)

وقال ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٤)

وقال ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ^(٥)

وقال ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ^(٦)

وقال في ضده :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَعْمَى ﴾ ^(٧) وقال ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٨)

وقال في ضده ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ ^(٩) قال ابن عباس :

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٧ .

(٢) سورة النجم آية رقم ١ - ٤ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١١٩ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٢٣ .

(٧) سورة طه آية رقم ١٢٤ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ٥ .

(٩) سورة القمر آية رقم ٤٧ وبعدها ﴿ يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ قال

أحمد حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن إسماعيل السهمي عن محمد بن عباد

ابن جعفر عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي - ﷺ يخاصمونهم في القدر فنزلت =

« تكفل الله لمن قرأ القرآن. واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة » فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة وبين الضلال والشقاوة ، بين حسنة الدنيا والآخرة ويقرن بين العلم النافع والعمل الصالح كما يقرن بين ضديهما وهو الضلال والغي : اتباع الظن وما تهوى الأنفس والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض ، وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي والاستعاذة كان الذم والنهي لكل منهما : من الضلال والغي : من الجهل والظلم : من الضلال والغضب ولأن كلاً منهما صار مكروهاً مطلوب العدم لا سيما وهو مستلزم للآخر ، وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما ، وقد يطلب كل منهما ، وقد يحمد أحدهما ، وقد يحمد كل منهما ؛ لأن كلاً منهما خير مطلوب محمود ، وهو سبب لحصول الآخر ، لكن كمال الصلاح يكون بوجودهما جميعاً . وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما ، ولم يعارضه معارض ، والداعي للخلق الأمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين فيطلب أحدهما لأنه مطلوب في نفسه ، وهو سبب للآخر ، فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعاً ، فقد يثقل ذلك عليه ، والأمر ببناء والنهي هدم ، والأمر هو يحصل العافية بتناول الأدوية ، والنهي من باب الحماية ، والبناء والعافية تأتي شيئاً بعد شيء ، وأما الهدم فهو أعجل ، والحماية أعم ، وإن كان قد يحصل فيهما ترتيب أيضاً ، فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سبباً وطريقاً إلى حصول المقصود مع حصول الآخر .

= ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ ﴿ إن كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وهكذا رواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري به ، وقال البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ما نزلت هذه الآيات ﴿ إن المعرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ إلا في أهل القدر . والله أعلم .

فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (١) وَقَوْلُهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (٢) طَلَبَ وَجُودَ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ تَبْلِيغَ الرِّسَالَةِ وَجَاءَ بِصِيغَةٍ : «لَعَلَّ» تَسْهِيلاً لِلْأَمْرِ وَرَفْقاً وَبَيَاناً ؛ لِأَنَّ حَصُولَ أَحَدِهِمَا طَرِيقٌ إِلَى حَصُولِ الْمَقْصُودِ فَلَا يَطْلُبَانِ جَمِيعاً فِي الْإِبْتِدَاءِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : إِنْ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا ، وَإِنْ مِنْ عَقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا لَا سِيَّمَا أَصُولُ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ سَائِرَهَا ، مِثْلُ الصَّدَقِ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْخَيْرِ ، كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصَدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقاً ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَاباً» (٣) وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿هَلْ

(١) سورة طه آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٣ .

وَفِي هَذَا يَقُولُ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ وَيُرْوَى بِلَامِيَّةِ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مِنْ وَرَحْمَةٍ فَقُلْتُ لَهُ فَاذْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوا فَقُولُوا لَهُ هَلْ أَنْتَ سَوِيَّتْ هَذِهِ وَقُولُوا لَهُ أَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ وَقُولُوا لَهُ أَنْتَ سَوِيَّتْ وَسَطَهَا وَقُولُوا لَهُ مَنْ يَخْرِجُ الشَّمْسَ بِكَرَّةٍ وَقُولُوا لَهُ مَنْ يَنْبِتُ الْحَبَّ فِي الشَّرَى وَيَخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رَعْوَسِهِ (٣) الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ ٦٩ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ .

٦٠٩٤ - حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ : إِنْ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَذَكَرَهُ . وَرَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْبِرِّ ١٠٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْبِرِّ ٤٦ وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْمَقْدَمَةِ ٧ ، وَالدَّعَاءُ ٥ وَالدَّارِمِيُّ فِي الرِّقَاقِ ٧ ، وَالْمَوْطَأُ فِي الْكَلَامِ ١٦ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي الْمُسْنَدِ : ١ : ٣ ، =

أَنْبِئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١﴾

وقال ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ (٢) ولهذا يذكر أن بعض المشايخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال : يا بني أنا أمرك بخصلة واحدة فاحفظها لي ، ولا آمرك الساعة بغيرها التزم الصدق وإياك والكذب ، وتوعده على الكذب بوعيد شديد فلما استلزم ذلك الصدق دعاه إلى بقية الخير ، ونهاه عما كان عليه ، فإن الفاجر لا حد له في الكذب .

= ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ٣٨٤ ، ٤٠٥ ، ٤٣٣ (حلي)

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) سورة الجاثية آية رقم ٧ - ٨ .

فصل

قال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى -

في قوله تعالى ﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرَٰنِ﴾ ^(١) فإن هذا مما أشكل على كثير من الناس ، فإن الذي في مصاحف المسلمين ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ بالألف وبهذا قرأ جماهير القراء وأكثرهم يقرأ ﴿إِنْ﴾ مشددة ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿إِنْ﴾ مخففة ، لكن ابن كثير يشدد نون ﴿هَٰذَا﴾ دون حفص ، والإشكال من جهة العربية على القراءة المشهورة ، وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ، وأبي بكر عن عاصم وجمهور القراء عليها ، وهي أصح القراءات لفظاً ومعنى .

وهذا يتبين بالكلام على ما قيل فيها .

فإن منشأ الإشكال : أن الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء ، وفي حال الرفع بالألف ، وهذا متواتر من لغة العرب ، لغة القرآن وغيرها في الأسماء المبنية كقوله :

﴿وَلَا بُؤْيُوهٖ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ ^(٢) .

ثم قال : ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلَأُمُّهُ الثَّلَاثُ﴾ ^(٣)

(١) سورة طه آية رقم ٦٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١١ .

وقال : ﴿ وَرَفَعَ أَبُوتَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(١)

وقال ﴿ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ ^(٢) .

ونم يقل : الكعبان .

وقال ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ^(٣) .

ولم يقل : اثنان .

وقال ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ^(٤)

وقال ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأَنْثَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ ﴾ ^(٥)

ولم يقل : اثنان ، ولا الذكران ولا اثنيان وقال ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحَيْنِ ﴾ ^(٦) ولم يقل زوجان .

وقال : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ ^(٧) ولم يقل : اثنتان .

ومثل هذا كثير مشهور في القرآن وغيره فظن النحاة أن الأسماء المبهمة المبنية مثل هذين والذين تجري هذا المجرى ، وأن المبنى في حال الرفع يكون بالألف ، ومن هنا نشأ الإشكال وكان أبو عمرو إماماً في العربية فقرأ بما

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٦ .

(٣) سورة يس آية رقم ١٣ - ١٤ .

(٤) سورة هود آية رقم ٤٠ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٤٣ .

(٦) سورة الذاريات آية رقم ٤٩ .

(٧) سورة النساء آية رقم ١١ .

يعرف من العربية « إن هذين لساحران » .

وقد ذكر أن له سلفاً في هذه القراءة ، وهو الظن به أنه لا يقرأ إلا بما يرويه ، لا بمجرد ما يراه ، وقد روى عنه أنه قال : إني لأستحيي من الله أن أقرأ : ﴿ إِنَّ هَذَانِ ﴾ وذلك لأنه لم ير لها وجهاً من جهة العربية ، ومن الناس من خطأ أبا عمرو من هذه القراءة ، ومنهم الزجاج قال : لا أجزى قراءة أبي عمرو ، خلاف المصحف .

وأما القراءة المشهورة الموافقة لرسم المصحف فاحتج لها كثير من النحاة بأن هذه لغة بني الحارث بن كعب ، وقد حكى ذلك غير واحد من أئمة العربية .

قال المهدي : بنو الحارث بن كعب يقولون : ضربت الزيدان ، ومررت بالزيدان ، كما تقول : جاءني الزيدان .

قال المهدي : حكى ذلك أبو زيد والأخفش والكسائي والفراء .

وحكى أبو الخطاب أنها لغة بني كنانة .

وحكى غيره أنها لغة لختعم .

ومثله قول الشاعر :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هاوي التراب عقيم
وقال ابن الأنباري ^(١) : هي لغة لبني الحارث بن كعب وقريش .

قال الزجاج : وحكى أبو عبيدة ^(٢) عن أبي الخطاب وهو رأس من

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الشيباني ، أبو عبد الله ، سيده الدولة ابن الأنباري - كاتب الإنشاء بديوان الخلافة ببغداد خمسين سنة كان ذا رأي وتدبير ، علت مكانته عند الخلفاء والسلاطين ، وناب في الوزارة وأنفذ رسولاً الى ملوك الشام وخراسان ، وكان فاضلاً أديباً بينه وبين الحريري (صاحب المقامات) مراسلات مدونة توفي عام ٥٥٨ هـ [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٣٦٤ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٤٧]

(٢) هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري ، أبو عبيدة النحوي من أئمة العلم بالأدب واللغة . =

رؤوس الرواة - أنها لغة لكنانة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب
والخفض على لفظ واحد ، وأنشدوا
فأطرق إطراق الشجاع ولو يجد مساعاً لناباه الشجاع لصمماً

وقال : ويقول هؤلاء : ضربته بين أذناه قلت : بنو الحارث بن كعب
هم أهل نجران . ولا ريب أن القرآن لم ينزل بهذه اللغة بل المثنى من
الأسماء المبنية في جميع القرآن هو بالياء في النصب والجر كما تقدمت
شواهد ، وقد ثبت في الصحيح عن عثمان أنه قال : إن القرآن نزل بلغة
قريش^(١) ، وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف هم وزيد : إذا
اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم ، ولم يختلفوا
إلا في حرف ، وهو التابوت فرفعوه إلى عثمان ، فأمر أن يكتب بلغة قريش
رواه البخاري في صحيحه^(٢) .

وعن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام
في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في
القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن
يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني

مولده ووفاته في البصرة ، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من
كتبه قال الجاحظ : لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه . وكان إباحياً شعوبياً ، من
حفاظ الحديث قال ابن قتيبة : كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم كتباً ، ولما مات لم
يحضر جنازته أحد ، لشدة نقده معاصريه . له نحو ٢٠٠ مؤلف منها نقائض جرير والفرزدق ،
ومجاز القرآن ، ومعاني القرآن توفي عام ٢٠٩ هـ . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ١٠٥ ومجلة
المجمع العلمي ٧ : ٥٥٣]

- (١) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب
٤٩٨٤ - حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري وأخبرني أنس بن مالك قال : فأمر
عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وذكره .
(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب جمع القرآن ٤٩٨٧ - بسنده عن أنس
ابن مالك وذكره .

إلينا بالصحف ننسخها من المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ^(١) ، وعبد الله بن الزبير ^(٢) ، وسعيد بن العاص ^(٣) وعبد الرحمن بن الحارث ^(٤) بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وهذه الصحيفة التي أخذها من عند حفصة هي التي أمر أبو بكر وعمر

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي أبو خارجة صحابي من أكابرهم ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة عام ١١ ق هـ ونشأ بمكة ، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين ، وهاجر مع النبي - ﷺ - وهو ابن ١١ سنة وتعلم وتفقه في الدين ، وكان عمر يستخلفه على المدينة إذا سافر وكان ابن عباس على سعة علمه يأتيه إلى منزله للأخذ منه وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي - ﷺ - من الأنصار له في كتب الأحاديث ٩٢ حديثاً [راجع صفة الصفوة ١ : ٢٩٤ والعبر للذهبي ١ : ٢٩٤ والإصابة ٢٨٨٠] .

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبو بكر فارس قريش في زمنه وأول مولود في المدينة بعد الهجرة شهد فتح أفريقيا زمن عثمان وبويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ عقب موت يزيد بن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام وجعل قاعدة ملكه المدينة حتى سيروا إليه الحجاج الثقفي فقتل عام ٧٣ هـ مدة خلافته تسع سنين ، وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة ، له في كتب الحديث ٣٣ حديثاً . [راجع ابن الأثير ٤ : ١٣٥ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٠١ وحلية الأولياء ١ : ٣٢٩ وصفة الصفوة ١ : ٣٢٢]

(٣) هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين ربي في حجر عمر بن الخطاب ، وولاه عثمان الكوفة وهو شاب . وعهد إليه معاوية بولاية المدينة . فتولاها إلى أن مات ٥٩ هـ اعتزل فتنة الجمل وصفين . [راجع الإصابة ٣٢٦١ وطبقات ابن سعد ٥ : ١٩ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٣١ - ١٤٥ وتاريخ الإسلام ٢ : ٢٦٦]

(٤) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي المدني ، أبو محمد ، تابعي ثقة ، جليل القدر من أشرف قريش ، وهو أحد الأربعة الذين عهد إليهم عثمان بن عفان بنسخ المصاحف لتوزيعها على الأمصار توفي بالمدينة عام ٤٣ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ١٥٦ والإصابة ٦١٩٥] .

بجمع القرآن فيها لزيد بن ثابت وحديثه معروف في الصحيحين وغيرهما ، وكانت بخطه ، فلهذا أمر عثمان أن يكون هو أحد من ينسخ المصاحف من تلك الصحف ، ولكن جعل معه ثلاثة من قریش ليكتب بلسانهم ، فلم يختلف لسان قریش والأنصار إلا في لفظ « التابوه » « والتابوت » فكتبوه « التابوت » بلغة قریش .

وهذا يبين أن المصاحف التي نسخت كانت مصاحف متعددة ، وهذا معروف مشهور ، وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ إنه غلط من الكاتب ، أو نقل ذلك عن عثمان ، فإن هذا ممتنع لوجوه :

منها : تعدد المصاحف واجتماع جماعة على كل مصحف ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرأون القرآن ، ويعتبرون ذلك بحفظهم والإنسان إذا نسخ مصحفاً غلط في بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظه القرآن وسائر المصاحف فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفاً ثم نسخ سائر الناس عنه من غير اعتبار للأول ، والثاني أمكن وقوع الغلط في هذا ، وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة ، ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم ، ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قریش . فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا ﴿ إن هذان ﴾ وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم أو ﴿ المقيمین الصلاة ﴾ وهم يعلمون أن ذلك لحن كما زعم بعضهم .

قال الزجاج في قوله : ﴿ المقيمین الصلاة ﴾ قول من قال : إنه خطأ - بعيد جداً : لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقراءة ، فكيف يتركون شيئاً يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم .

وقال ابن الأنباري : حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ، ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً يصلحه من بعده قلت : ومما يبين كذب ذلك : أن عثمان لو قدر ذلك فيه ، فإنما رأى ذلك في نسخة واحدة ، فإما أن تكون جميع

المصاحف اتفقت على الغلط وعثمان قد رآه في جميعها وسكت : فهذا ممتنع عادة وشرعاً من الذين كتبوا ، ومن عثمان ، ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف ورأوا ما فيها ، وهم يحفظون القرآن ، ويعلمون أن فيه لحناً لا يجوز في اللغة ، فضلاً عن التلاوة ، وكلهم يقر هذا المنكر لا يغيره أحد ، فهذا مما يعلم بطلانه عادة ، ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة ، بل يأمرهم بكل معروف ، وينهون عن كل منكر أن يدعوا في كتاب الله منكراً لا يغيره أحد منهم ، مع أنهم لا غرض لأحد منهم في ذلك .

ولو قيل لعثمان : مر الكاتب أن يغيره لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه .

فهذا ونحوه مما يوجب القطع بخطأ من زعم أن في المصحف لحناً أو غلطاً ، وأن نقل ذلك عن بعض الناس ممن ليس قوله حجة ، فإلخفاً جائز عليه فيما قاله بخلاف الذين نقلوا ما في المصحف وكتبوه وقرأوه فإن الغلط ممتنع عليهم في ذلك ، وكما قال عثمان إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه ببلغة قريش ^(١) وكذلك قال عمر لابن مسعود أقرئ الناس ببلغة قريش ، ولا تقرئهم ببلغة هذيل ؛ فإن القرآن لم ينزل ببلغة هذيل .

وقوله تعالى في القرآن ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ^(٢) يدل على ذلك فإن قومه هم قريش كما قال ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ ^(٣) وأما كنانة فهم جيران قريش ، والناقل عنهم ثقة ، ولكن الذي

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب (قرأنا عربياً - بلسان عربي مبين) .

٤٩٨٤ - حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، وأخبرني أنس بن مالك قال : وذكره .

(٢) سورة إبراهيم آية رقم ٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦٦ .

ينقل ينقل ما يسمع ، وقد يكون سمع ذلك في الأسماء المبهمة المبنية فظن أنهم يقولون ذلك في سائر الأسماء بخلاف من سمع بين أذناه ، و« لناباه » فإن هذا صريح في الأسماء التي ليست مبهمة ، وحينئذ فالذي يجب أن يقال إنه لم يثبت أنه لغة قريش ، بل ولا لغة سائر العرب أنهم ينطلقون في الأسماء المبهمة إذا تليت بالياء ، وإنما قال ذلك من قاله من النحاة قياساً ، جعلوا باب التشية في الأسماء المبهمة كما هو في سائر الأسماء ، وإلا فليس في القرآن شاهد يدل على ما قالوه ، وليس في القرآن اسم مبهم مبني في موضع نصب أو خفض إلا هذا ولفظه ﴿ هذان ﴾ فهذا نقل ثابت متواتر لفظاً ورسماً .

ومن زعم أن الكاتب غلط فهو الغالط غلطاً منكراً ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، فإن المصحف منقول بالتواتر وقد كتبت عدة مصاحف ، وكلها مكتوبة بالألف ، فكيف يتصور في هذا غلط .

وأيضاً فإن القراءة إنما قرأوا بما سمعوه من غيرهم ، والمسلمون كانوا يقرأون « سورة طه » على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وهي من أول ما نزل من القرآن ، قال ابن مسعود بنو اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادي . رواه البخاري عنه .

وهي مكية باتفاق الناس .

قال أبو الفرج وغيره : هي مكية باجماعهم ، بل هي من أول ما نزل ، وقد روي : أنها كانت مكتوبة عند أخت عمر ، وأن سبب إسلام عمر كان لما بلغه إسلام أخته ، وكانت السورة تقرأ عندها .

فالصحابة لا بد أن قد قرأوا هذا الحرف ، ومن الممتنع أن يكونوا كلهم قرأوه بالياء كأبي عمر ، فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلا بالياء ، ولم تكتب إلا بالياء فعلم أنهم أو غالبهم كانوا يقرأونها بالألف كما قرأها الجمهور ، وكان الصحابة بمكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة يقرأون هذه السورة في الصلاة وخارج الصلاة ، ومنهم سمعها التابعون ومن التابعين

سمعها تابعوهم ، فيمتنع أن يكون الصحابة كلهم قرأوها بالياء مع أن جمهور القراء لم يقرأوها إلا بالالف ، وهم أخذوا قراءتهم عن الصحابة ، أو عن التابعين عن الصحابة ، فهذا مما يعلم به قطعاً أن عامة الصحابة إنما قرأوها بالالف كما قرأ الجمهور ، وكما هو مكتوب .

وحينئذ فقد علم أن الصحابة إنما قرأوا كما علمهم الرسول ، وكما هو لغة للعرب ، ثم لغة قريش فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الأسماء المبهمة تقول « إن هذان ، ومررت بهذان تقولها في الرفع والنصب والخفض بالالف ، ومن قال : إن لغتهم أنها تكون في الرفع بالالف طوبى بالشاهد على ذلك والنقل عن لغتهم المسموعة منهم نثراً ونظماً ، وليس في القرآن ما يشهد له ولكن عمدته القياس .

وحينئذ فنقول : قياس هذا بغيرها من الأسماء غلط ، فإن الفرق بينهما ثابت عقلاً وسماعاً أما النقل والسمع فكما ذكرناه ، وأما العقل والقياس فقد تفتن للفرق غير واحد من حذاق النحاة فحكى ابن الأنباري وغيره عن القراء قال : ألف التثنية في ﴿ هذان ﴾ هي ألف هذا ، والنون فرقت بين الواحد والاثنين ، كما فرقت بين الواحد والجمع نون الذين ، وحكاه المهدوي وغيره عن القراء ولفظه قال : إنه ذكر أن الألف ليست علامة التثنية بل هي ألف هذا ، فردت عليها نوناً ، ولم أغيرها كما زدت على الياء من الذي فقلت الذين في كل حال .

قال : وقال بعض الكوفيين : الألف في هذا مشبهة يفعلان فلم تغير كما « لم » تغير .

قال : وقال الجرجاني ^(١) : لما كان اسماً على حرفين أحدهما حرف

(١) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، أبو بكر ، واضع أصول البلاغة ، كان من أئمة اللغة من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) له شعر رقيق من كتبه أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، والجمال في النحو ، والمغني في شرح الإيضاح ، واعجاز

مد ولين ، وهو كالحركة ، ووجب حذف إحدى الألفين في الثنية لم يحسن حذف الأولى ، لثلا يبقى الاسم على حرف واحد فحذف علم الثنية ، وكان النون يدل على الثنية ، ولم يكن لتغيير النون الأصلية الألف وجه ، فثبت في كل حال كما يثبت في الواحد .

قال المهدوي : وسأل اسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال :

لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع جرت الثنية على ذلك مجرى الواحد ، إذ الثنية يجب أن لا تغير ، فقال اسماعيل : ما أحسن ما قلت لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به ، فقال له ابن كيسان : فليقل القاضي حتى يؤنس به ، فتبسم .

قلت : بل تقدمه الفراء وغيره ، والفراء ^(١) في الكوفيين مثل سيبويه ^(٢) في البصريين ، لكن اسماعيل كان اعتماده على نحو البصريين ، والمبرد كان خصيصاً به .

وبيان هذا القول : أن المفرد « ذا » فلو جعلوه كسائر الأسماء لقالوا في الثنية : « ذوان » ولم يقولوا : ذان كما قالوا عصوان ورجوان ونحوهما من الأسماء الثلاثية و« ها » حرف تنبيه ، وقد قالوا فيما حذفوا لامه : أبوان فردته الثنية إلى أصله ، وقالوا في غير هذا ويدان وأما ذا فلم يقولوا ذوان ، بل قالوا كما فعلوا في ذي وذات التي بمعنى صاحب فقالوا : هو ذو علم ، وهما ذوا علم كما قال ﴿ ذَوَاتَا أَفْتَانٍ ﴾ ^(٣) وفي اسم الإشارة قالوا ، ذان ، وتان ، كما

= القرآن ، والعمدة في تصريف الأفعال توفي عام ٤٧١ هـ [راجع فوات الوفيات ١ : ٢٩٧ ومفتاح السعادة ١ : ١٤٣ وبغية الوعاة ٣١٠ وآداب اللغة ٣ : ٤٤ وطبقات الشافعية ٣ : ٢٤٢] .

(١) سبق الترجمة له .

(٢) سبق الترجمة له .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ٤٨ .

قال ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ ^(١) فإن «ذا» بمعنى صاحب هو اسم معرب ، فتغير إعرابه في الرفع والنصب والجر ، ف قيل : ذو ذا وذى وأما المستعمل في الإشارة والأسماء الموصولة والمضمرات هي مبنية ، لكن أسماء الإشارة لم تفرق لا في واحده ولا في جمعه بين حال الرفع والنصب والخفض ، ف كذلك في تثنيته .

بل قالوا : قام هذا ، وأكرمت هذا ، ومررت بهذا وكذلك هؤلاء في الجمع ، ف كذلك المثني ، قال هذان ، وأكرمت هذان ، ومررت بهذان ، فهذا هو القياس فيه أن يلحق مثناه بمفرده وبمجموعه لا يلحق بمثنى غيره الذي هو أيضاً معتبر بمفرده ومجموعه فالأسماء المعربة ألحق مثناها بمفردها ومجموعها تقول : رجل ورجلان ، ورجال فهو معرب في الأحوال الثلاثة : يظهر الإعراب في مثناه ، كما ظهر في مفردة ومجموعه .

فتبين أن الذين قالوا : إن مقتضى العربية أن يقال : «إن هذين» ليس معهم بذلك نقل عن اللغة المعروفة في القرآن التي نزل بها القرآن بل هي أن يكون المثني من أسماء الإشارة مبنياً في الأحوال الثلاثة على لفظ واحد كمفرد أسماء الإشارة ومجموعها وحينئذ فإن قيل : إن الألف هي ألف المفرد زيد عليها النون أو قيل : هي علم للتثنية وتلك حذفت ، أو قيل بل هذه الألف تجمع هذا ، وهذا معنى جواب ابن كيسان وقول الفراء مثله في المعنى ، وكذلك قول الجرجاني وكذلك قول من قال : إن الألف فيه تشبه ألف يفعلان ثم يقال : قد يكون الموصول كذلك كقوله ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ﴾ ^(٢) فإن ثبت أن لغة قريش أنهم يقولون رأيت اللذين فعلا ، ومررت باللذين فعلا ، وإلا فقد يقال : هو بالألف في الأحوال الثلاثة ؛ لأنه اسم مبني ، والألف فيه بدل الياء في اللذين ، وما ذكره الفراء وابن كيسان وغيرهما يدل على هذا ،

(١) سورة القصص آية رقم ٣٢ وتكملة الآية ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً ﴾

فإن الفراء شبه هذا بالذين ، وتشبيه اللذان به أولى ، وابن كيسان علل بأن المبهم مبني لا يظهر فيه الإعراب فجعل مثناه كمفرده ومجموعه ، وهذا العلم يأتي في الموصول .

يؤيد ذلك أن المضمرات من هذا الجنس ، والمرفوع والمنصوب لها ضمير متصل ومنفصل ، بخلاف المجرور فإنه ليس له إلا متصل ؛ لأن المجرور لا يكون إلا بحرف أو مضاف لا يقدم على عامله فلا ينفصل عنه فالضمير المتصل في الواحد الكاف من أكرمتك ومررت بك ، وفي الجمع أكرمتكم ومررت بكم ، وفي التثنية زيدت الألف في النصب والجر فيقال أكرمتكما ومررت بكما ، كما نقول في الرفع ففي الواحد والجمع فعلت وفعلتم ، وفي التثنية فعلتما بالألف وحدها زيدت علماً على التثنية في حال الرفع والتصب والجر كما زيدت في المنفصل في قوله « إياكما وأنتما » .

فهذا كله مما يبين أن لفظ المثنى في الأسماء المبنية في الأحوال الثلاثة نوع واحد : لم يفرقوا بين مرفوعه وبين منصوبه ومجروره كما فعلوا ذلك في الأسماء المعربة وأن ذلك في المثنى أبلغ منه في لفظ الواحد والجمع إذ كانوا في الضمائر يفرقون بين ضمير المنصوب والمجرور وبين ضمير المرفوع في الواحد والمثنى ، ولا يفرقون في المثنى وفي لفظ الإشارة والموصول ، ولا يفرقون بين الواحد والجمع وبين المرفوع وغيره ، ففي المثنى بطريق الأولى ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

فصل

ذكر شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في موضع آخر وذكر فيها هذا الاعتراض

وقد يعترض على ما كتبناه أولاً بأنه جاء أيضاً في غير الرفع بالياء كسائر الأسماء قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ (١)

ولم يقل اللذان أضلانا .

كما قيل في الذين إنه بالياء في الأحوال الثلاثة وقال تعالى في قصة موسى ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ (٢) ولم يقل هاتان و « هاتان » تبع لابتني وقد يسمى عطف بيان وهو يشبه الصفة كقوله ﴿ وَإِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (٣)

لكن الصفة تكون مشتقة أو في معنى المشتق وعطف البيان يكون بغير ذلك كأسماء الأعلام وأسماء الإشارة ، وهذه الآية نظير قوله ﴿ إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَٰنِ ﴾ (٤) وأما قوله ﴿ أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا ﴾ (٥) فقد يفرق بين اسم

(١) سورة فصلت آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٢٧ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ .

(٤) سورة طه آية رقم ٦٣ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ٢٩ .

الإشارة والموصول بأن اسم الإشارة على حرفين بخلاف الموصول فإن الاسم هو «الذا» عدة حروف ، وبعده يزداد على الجمع فتكسر الذال وتفتح النون ، وعلم التنبيه تفتح الذال وتكسر النون والألف فقلت في النصب والجر ؛ لأن الاسم الصحيح إذا جمع جمع التصحيح كسر آخره في النصب وفي الجر ، وفتحت نونه ، وإذا ثني فتح آخره ، وكسرت نونه في الأحوال الثلاثة .

وهذا يبين أن الأصل في التنبيه هي الألف وعلى هذا فيكون في إعرابه لغتان جاء بهما القرآن تارة يجعل كاللذان ، وتارة يجعل كاللذين ، ولكن في قوله ﴿إِحْدَى ابْنَيْ هَاتَيْنِ﴾ (١) .

كان هذا أحسن من قوله «هاتان» لما فيه من اتباع لفظ المثنى بالياء فيهما ، ولو قيل : هاتان لأشبهه ، كما لو قيل «إن ابنتي هاتان فإذا جعل بالياء علم تابع مبين عطف بيان لتمام معنى الاسم ، لاخير تتم به الجملة . وأما قوله ﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرٌ﴾ (٢)

فجاء اسماً مبتدأ : اسم إن ، وكان مجيئه بالألف أحسن في اللفظ من قولنا «إن هذين لساحران لأن الألف أخف من الياء ، ولأن الخبر بالألف فإذا كان كل من الاسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة وهذا معنى صحيح ، وليس في القرآن ما يشبه هذا من كل وجه وهو الياء .

فتبين أن هذا المسموع والمتواتر ليس في القياس الصحيح ما يناقضه ، لكن بينهما فروق دقيقة والذين استشكلوا هذا إنما استشكلوه من جهة القياس ، لا من جهة السماع ، ومع ظهور الفرق يعرف ضعف القياس .

وقد يجيب من يعتبر كون الألف في هذا هو المعروف في اللغة بأن يفرق بين قوله ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ وقوله ﴿إِحْدَى ابْنَيْ هَاتَيْنِ﴾ أن هذا تنبيه مؤنث ،

(١) سورة القصص آية رقم ٢٧ .

(٢) سورة طه رقم ٦٣ .

وذاك تثنية مذكر ، والمذكر الفرد منه « ذا » بالألف ، فزيدت فوق نون للتثنية وأما المؤنث فمفردة « ذي » أو « ذه » أو ته وقوله ﴿ إِحْدَى ابْنَيْ هَاتَيْنِ ﴾ ^(١) تثنية تي بالياء ، فكان جعلها بالياء في النصب والجر أشبه بالمفرد بخلاف تثنية المذكر ، وهو « ذا » ، فإنه بالألف ، فإقراره بالألف أنسب وهذا فرق بين تثنية المؤنث وتثنية المذكر . والفرق بينه وبين اللذين قد تقدم .

وحينئذ فهذه القراءة هي الموافقة للسمع والقياس ولم يشتهر ما يعارضها من اللغة التي نزل بها القرآن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِحْدَى ابْنَيْ هَاتَيْنِ ﴾ هو كقول النبي ﷺ « من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون » ^(٢) . ومثله في الموصول قول ابن عباس لعمر : أخبرني عن المرأتين اللتين قال الله فيهما : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ ^(٣) الآية آخره والحمد لله وحده .

(١) سورة القصص آية رقم ٢٧ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في المساجد ٧٨ ، والنسائي في المساجد ١٧ - وابن ماجه في الإقامة ٥٨ ، والأطعمة ٥٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٥ ، ٢٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة التحريم آية رقم ٤ روى الامام أحمد في مسنده حيث قال : ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن ابن عباس . قال لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي - ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالأداة فبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضاً فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي - ﷺ اللتان قال الله تعالى ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ فقال عمر : وأعجبا لك يا ابن عباس ، قال الزهري كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه قال : هي عائشة وحفصة قال ثم أخذ يسوق الحديث : قال : كنا معشر قريش قوماً تغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قومياً تغلبهم نسأؤهم فطفق نسأؤنا يتعلمن من نسائهم : قال وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال ففضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ - ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم الى الليل . قال فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت أتراجعين رسول الله - ﷺ ؟ قالت : نعم . قلت : وتهجره =

سورة الأنبياء

فصل

وقال رحمه الله :

سورة الأنبياء : سورة الذكر ، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر ،
افتتحها بقوله ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴾ (١) الآية .

وقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ (٣) .

= إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت نعم . قلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر أفتأمن
إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت : لا تراجعني رسول الله -
ﷺ ، ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي
أجمل - وأحب إلى رسول الله - ﷺ - منك - يريد عائشة - قال وكان لي جار من الأنصار ، وكنا
نتناوب النزول إلى رسول الله - ﷺ - ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره ، وآتيه بمثل
ذلك قال : وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب
بأبي ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم . فقلت وما ذاك أجاءت غسان .. ؟ قال
لا بل أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله - ﷺ - نساءه فقلت قد خابت حفصة وخسرت قد
كنت أظن هذا كائناً الخ . وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري
به وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٤٣ والأنبياء آية رقم ٧ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ١٠ .

وقوله ﴿ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي ﴾ ^(١) .

وقوله ﴿ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) .

وقوله ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ ^(٣) .

وقوله ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ ^(٤) .

وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ ^(٥) يعني - والله أعلم - انصر أهل

الحق . أو انصر الحق ، وقيل : افصل الحق بيننا وبين قومنا ، وكان الأنبياء يقولون ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ ^(٦) . وأمر محمداً أن يقول ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ ^(٧) .

وروى مالك عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ ^(٨) .

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٤ وتكملة الآية ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ يعني أن كل الأنبياء جاؤوا بكلمة التوحيد . كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٤٨ والآية ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ﴾ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٥٠ .

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٥ .

(٥) سورة الأنبياء آية رقم ١١٢ وتكملة الآية ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٨٩ .

(٧) سورة الأنبياء آية رقم ١١٢ .

(٨) سورة الأنبياء آية رقم ١١٢ ﴿ واحكم بالحق ﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك . وعن مالك عن زيد بن أسلم - كان رسول الله ﷺ - إذا شهد غزوة قال ﴿ رب احكم بالحق ﴾

سورة الحج فصل

وقال الشيخ رحمه الله :

سورة الحج فيها مكى ومدني ، وليلي ونهاري ، وسفري وحضري ،
وشتائي وصيفي ، وتضمنت منازل المسير إلى الله ، بحيث لا يكون منزلة ولا
قاطع يقطع عنها ، ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة ، الأعمى والمريض والقاسي
والمخبت الحي المطمئن إلى الله .

وفيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بين لمن تدبره ،
وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً وصلاة وزكاة وحجاً وصياماً ، قد
تضمن ذلك كله قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ
وَفَاعِلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) فيدخل في قوله ﴿ وافعِلُوا الخير ﴾ كل
واجب ومستحب فخصص في هذه الآية وعمم ثم قال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ
جِهَادِهِ ﴾ ^(٢) فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيراً إلا جمعته ولا شراً إلا نفته .

(١) سورة الحج آية رقم ٧٧ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٨ تكملة الآية ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة
أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا
شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم
النصير ﴾ . روى النسائي عند تفسير هذه الآية أنبأنا هشام بن عمار ، حدثنا محمد بن شعيب
أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبي سلام أنه أخبره قال أخبرني الحارث

قال شيخ الإسلام : قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴿ (١) في أثناء آيات المعاد وعقبها بآية المعاد ثم اتبعه بقوله :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ إلى قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ (٢) فيه بيان حال المتكلمين وحال المتعبدین المجادلين بلا علم ، والعابدین بلا علم ، بل مع الشك لأن هذه السورة سورة الملة الابراهيمية الذي جادل بعلم وعبد الله بعلم ، ولهذا ضمنت ذكر الحج ، وذكر الملل الست .

فقوله يجادل في الله بلا علم ذم لكل من جادل في الله بغير علم وهو دليل على أنه جائر بالعلم ، كما فعل ابراهيم بقومه ، وفي الأولى ذم المجادل بغير علم ، وفي الثانية بغير علم ولا هدى ولا كتاب مغير .

وهذا والله أعلم من باب عطف الخاص على العام أو الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، ليبين أن الذي يجادل بالكتاب أعلاهم ، ثم بالهدى فالعلم اسم

= الأشعري عن رسول الله - ﷺ - قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جنى جهنم » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وإن صلى قام : نعم . وإن صام وصلى . فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله .

(١) سورة الحج آية رقم ٣ - ٤ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٨ - ١١ .

تكملة الآية ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبْ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ .

قال البخاري : حدثنا ابراهيم بن الحارث ، حدثنا يحيى بن أبي بكير ، حدثنا اسرائيل عن أبي الحصين ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وتنجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء .

جامع ، ثم منه ما يعلم بالدليل القياس فهو أدنى أقسامه فيخص باسم العلم ويفرد ما عداه باسمه الخاص ، فإما معلوم بالدليل القياسي وهو علم النظر ، وإما ما علم بالهداية الكشفية كما للمتحدثين وللمتفرسين ولسائر المؤمنين .

وهو الهدى . وإما ما نزل من عند الله من الكتب وهو أعلاها فأعلاها العلم المأثور عن الكتب^(١) . ثم كشوف الأولياء^(٢) . ثم قياس المتكلمين وغيرهم من العلماء^(٣) .

وقال : في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ . يَدْعُو لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِمَّنْ نَفَعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾^(٤)

فإن آخر هذه الآية قد أشكل على كثير من الناس كما قال طائفة من المفسرين كالثعلبي والبعوي واللفظ للبعوي قال : هذه الآية من مشكلات القرآن وفيها أسئلة أولها :

(١) وأعلاها : الكتاب المحفوظ الذي قال الله تعالى فيه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .
(٢) الأولياء في نظر القرآن هم المؤمنون المتقون : كما قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وفيهم يقول الرسول - ﷺ - إن يكن في امتي محدثون فعمرو منهم .

(٣) وهم علماء الكلام الذين يعبدون مرة ويخطئون مرات .
(٤) سورة الحج آية رقم ١١ - ١٣ وفي الفتنة أقوال للمفسرين . فبعضهم اعتبر الفتنة : البلاء أي وإن أصابته أوجاع المدينة وولدت امرأته جارية ، وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً وذلك الفتنة - وهكذا ذكر قتادة ، والضحاك ، وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه . أقام على العبادة وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختيار أو ضيق ترك دينه ورجع الى الكفر » .

قالوا : قد قال الله تعالى في الآية الأولى ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ أي : لا يضره ترك عبادته .

وقوله ﴿لَنْ ضَرَّهُ﴾ أي ضر عبادته قلت : هذا جواب .

وذكر صاحب الكشاف ^(١) جواباً غير هذا فقال : فإن قلت : الضر والنفع متفتيان عن الأصنام مثبتان لهما في الآيتين ، وهذا تناقض .

قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم : وذلك أن الله سفه الكافر بأنه يعبد حماداً لا يملك ضرراً ولا نفعاً ، وهو يعتقد فيه لجهله وضلاله . أنه يستشفع به ، حين يستشفع به ثم قام يوم القيامة هذا الكافر بدعاء وصراخ حين رأى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها له ﴿لَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَشَرِ الْمَوْتَى وَلِبَشَرِ الْعَشِيرِ﴾ ^(٢) أو كرر يدعوك أنه قال : ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ .

ثم قال : ﴿لَنْ ضَرُّهُ﴾ بكونه معبوداً ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ بكونه شافعياً . ﴿لِبَشَرِ الْمَوْتَى﴾ .

قلت : فقد جعل ضره بكونه معبوداً ، وذكر تضرره بذلك ، وفي الآخرة .

وقد قال السدي ^(٣) ما يتضمن الجوابين في تفسيره المعروف قال : ﴿ما لا

(١) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، جار الله أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، ولد في زغش عام ٤٦٧ هـ وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلُقب بجار الله ، وتقل في البلدان ثم عاد إلى الجرجانية فتوفي بها عام ٥٣٨ هـ من أشهر كتبه «الكشاف» في تفسير القرآن ، وأساس البلاغة ، والمفصل ، ورؤوس المسائل والمتقى من شرح شعر المتنبي للواحدي ، ونكت الأعراب في غريب الأعراب ، وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ٣ : ٨١ وإرشاد الأريب ٧ : ١٤٧ ولسان الميزان ٦ : ٤ ومفتاح السعادة ١ : ٤٣١ والفهرس

التمهيدي ٢٥٩ - ٣٠٣]

(٢) سورة الحج آية رقم ١٣ .

(٣) سبق الترجمة له .

يضره ﴿ قال : لا يضره إن عصاه . ﴿ وما لا ينفعه ﴾ قال : لا ينفعه الصنم
إن أطاعه . ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ ﴾ قال : ضره في الآخرة من أجل عبادته إياه في
الدنيا .

قلت : وهذا الذي ذكر من الجواب كلام صحيح ، لكن لم يبين فيه وجه
نفي التناقض .

فنقول : قوله « ما لا يضره وما لا ينفعه » هو نفي لكون المدعو المعبود
من دون الله يملك نفعاً أو ضرراً وهذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة والبشر
والجن والكواكب والأوثان كلها ^(١) ، فإنما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره
ضرراً ولا نفعاً ، كما قال تعالى في سياق نفيه عن عبادة المسيح .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَاوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ^(٢) .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ
يَتَّهَوْا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ
أَنَّى يُؤفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٣) وقد قال لخاتم الرسل : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا

(١) وهذه هي الأشياء التي كانت تعبد من دون الله - قال تعالى ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر
واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

وقال عن الأصنام : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ﴾

(٢) سورة المائدة آية رقم ٧٢ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧٣ - ٧٦ .

رَشْدًا ﴿١﴾ .

وقال على العموم : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾

وقال ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (٢) وقال ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣) وقال صاحب ينس :

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَلْتُخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِنْ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ (٤)

وقوله ﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ ﴾ (٥) وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ﴿ نفي علم كما في قوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ (٦) فهو لا يقدر أن يضر أحداً سواء عبده أو لم يعبد ولا ينفع أحداً سواء عبده أو لم يعبد ، وقول من قال : لا ينفع إن عبد ولا يضر إن لم يعبد بيان لانتفاء الرغبة والرغبة من جهته بخلاف الرب الذي يكرم عابديه ، ويرحمهم ، ويهين من لم يعبد ويعاقبه .

والتحقيق أنه لا ينفع ولا يضر مطلقاً فإن الله سبحانه وسعت رحمته كل شيء وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبدوه .

(١) سورة الجن آية رقم ٢١ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

(٤) سورة يس آية رقم ٢٢ - ٢٥ .

(٥) سورة الحج آية رقم ١٢ .

(٦) سورة طه آية رقم ٨٩ .

فنفعه للعباد لا يختص بعابديه ، وإن كان في هذا تفصيل ليس هذا موضعه ، وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبد ، وهو سبحانه الضار النافع ، قادر على أن يضر من يشاء ، وإن كان ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمة في حقهم ، كما قال أيوب ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ (٢) .

وقال أيضاً لرسوله محمد ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ (٤) .

وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من الضرر بمن لا يوصف بمعضية من الأطفال والمجانين والبهائم ، لما في ذلك من الحكمة والنعمة والرحمة كما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

فإن المقصود هنا أن نفي الضر والنفع عن سواه عام لا يجب أن يخص هذا بمن عبده ، وهذا بمن لم يعبد ، وإن كان هذا التخصيص حقاً باعتبار صحيح ، وجواب من أجاب بأن معناه لا يضر ترك عبادته وضره بعبادته أقرب من نفعه مبني على هذا التخصيص .

وإذا كان كذلك فنقول : المنفي قدرة من سواه على الضر والنفع .

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٨٣ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٨٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ وأول الآية ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

وأما قوله ﴿ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ فنقول أولاً : المنفي هو فعلهم بقوله ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ﴾ والمثبت اسم مضاف إليه فإنه لم يقل : يضر أعظم مما ينفع ، بل قال : ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ والشئ يضاف إلى الشئ بأدنى ملاسة فلا يجب أن يكون الضر والنفع المضافين من باب إضافة المصدر إلى الفاعل ، بل قد يضاف المصدر من جهة كونه اسماً كما تضاف سائر الأسماء وقد يضاف إلى محله وزمانه ومكانه ، وسبب حدوثه وإن لم يكن فاعلاً كقوله ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (١) ولا ريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلق يقتضي الإضافة ، كأنه قيل : لمن شره أقرب من خيره ، وخسارته أقرب من ربحه فتدبر هذا .

ولو جعل هو فاعل الضر بهذا ؛ لأنه سبب فيه لا لأنه هو الذي فعل الضرر ، وهذا كقول الخليل عن الأصنام ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ (٢) .

فنسب الإضلال إليهن ، والإضلال هو ضرر لمن أضلته .

وكذلك قوله ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (٣) وهذا كما يقال : أهلك الناس الدرهم والدينار وأهلك النساء الأحمران الذهب والحريير . وكما يقال

(١) سورة سبا آية رقم ٣٣ وتكملة الآية ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَعْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٣٦ .

قال عبدالله بن وهب : حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سودة حدثه عن عبد الرحمن بن جرير عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ الآية وقول عيسى عليه السلام ﴿ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : اللهم أمّتي ، اللهم أمّتي ، وبكى فقال الله اذهب يا جبريل إلى محمد وربك أعلم - وسله ما يبكيك . ؟ فاتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ - ما قال فقال الله : اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمّتك ولا نسوؤك .

(٣) سورة هود آية رقم ١٠١ .

للمحبيب المعشوق الذي تضر محبته وعشقه إنه عذب هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعشره وإن كان ذاك المحبوب قد لا يكونه شاعراً بحال هذا البتة ، وكذلك يقال في المحسود : إنه يعذب حاسدية وإن كان لا شعور له بهم . وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ أنه قال «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم»^(١) ، فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم ، وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها ، وإن كانت مفعولاً بها لا اختيار لها ، فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه إما لكونه جماداً ، وإما لكونه عبداً مطيعاً لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن ، فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر ، لكن هو السبب في دعاء الداعي له وعبادته إياه ، وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره ، فهذا الضر المضاف إليه غير الضر المنفى عنه ، فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدنيا والآخرة .

وإن كان عذاب الآخرة أشد ، فالمشركون الذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدنيا ما جعله الله عبرة لأولي الأبصار .

(١) الحديث رواه البخاري في الجهاد (كتاب الجزية والموادعة) باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة ٣١٥٨ - حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، قال حدثني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة أنه أخبره أن عمرو بن عوف الأنصاري - وهو حليف لبني عامر بن لؤي ، وكان شهيداً أخبره أن رسول الله - ﷺ - بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتهما ، وكان رسول الله - ﷺ - هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافقت صلاة الصبح مع النبي - ﷺ - فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له فقبس رسول الله ﷺ - حين رآهم وقال : أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء قالوا : أجل يا رسول الله . قال أبشروا وأملوا ما يسركم وذكره . ورواه مسلم في الزهد ٦ والترمذي في القيامة ٢٨ ، وابن ماجه في الفتن ١٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٣٧ (حلي) .

قال الله تعالى ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (١) .

فبين أنهم لم تنفعهم بل ما زادتهم إلا شراً . وقد قيل في هذا كما قيل في الضر ، قيل : ما زادتهم عبادتها ، وقيل : إنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شراً ، وهذا كقوله :

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (٢) .

والتتبيب عبر عنه الاكثرون بأنه التخير ، كقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٣) . وقيل : التشيير والإهلاك .

وقيل : ما زادوهم إلا شراً .

وقوله ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (٤) .

فعل ماض يدل على أن هذا كان في الدنيا ، وقد يقال : فالشر كله من جهتهم فلم قيل : فما زادوهم ؟ فيقال : بل عذبوا على كفرهم بالله ولو لم يعبدوهم فلما عبدوهم مع ذلك ازدادوا بذلك كفراً وعذاباً فما زادوهم إلا خسارة وشرّاً ، ما زادوهم ربحاً وخيراً .

(١) سورة هود الآيات ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٨١ - ٨٢ .

(٣) سورة المسد آية رقم ١ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٠١ قال مجاهد وقتادة وغيرهما أي غير تخسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .

سورة المؤمنون

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى

في قوله ﴿أَيُعِدُّكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (١) .

طال الفصل بين أن واسمها وخبرها ، فأعاد ﴿أن﴾ لتقع على الخبر لتأكيد به ، ونظير هذا قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ (٢) .

لما طال الكلام أعاد ﴿أن﴾ . .

هذا قول الزجاج وطائفة .

وأحسن من هذا أن يقال : كل واحدة من هاتين الجملتين جملة شرطية مركبة من جملتين جزئيتين فأكدت الجملة الشرطية « بأن » على حد تأكيدها في قول الشاعر

إِنْ مِنْ يَدْخُلُ الْكَنِيسَةَ يَوْماً يَلْقَى فِيهَا جَاذِراً وَظَبَاءً

ثم أكدت الجملة الجزائية بأن إذ هي المقصودة على حد تأكيدها في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٣) ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة الجزاء قوله تعالى ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٣ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٠ .

أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ ^(١) ﴿ فلا يقال في هذا إن أعيدت لطول الكلام ، ونظيره قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ ^(٢) .

ونظيره ﴿ إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٣) .

فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين ألا ترى تأكيد قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بـ ﴿ أَنْ ﴾ غير تأكيد « من عمل سوءاً بجهالة فإنه غفور رَحِيمٌ » له بـ ﴿ أَنْ ﴾ وهذا ظاهر لا خفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب . وأما قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ^(٤) .

فهذا ليس من التكرار في شيء ، فإن قولهم خبر « كان » قدم على اسمها ، و﴿ أَنْ قَالُوا ﴾ في تأويل المصدر ، فهما اسم كان وخبرها . والمعنى : وما كان لهم قول إلا قول ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ^(٥) .

ونظير هذا قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ ^(٦) .

والجواب قول ، وتقول : ما لفلان قول إلا قول لا حول ولا قوة إلا بالله « فلا تكرر أصلاً وأما قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ^(٧) .

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(٢) سورة طه آية رقم ٧٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٨٢ .

(٧) سورة الروم آية رقم ٤٩ .

فهي من أشكل ما أورد ، ومما أعضل على الناس فهمها .

فقال كثير من أهل الأعراب والتفسير : إنه على التكرير المحض والتأكيد .

قال الزمخشري ﴿ من قبله ﴾ من باب التوكيد كقوله تعالى ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ^(١) .

ومعنى التوكيد فيه : الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم بأسهم ، وتمادى إبلاسههم ، فكان الاستبشار بذلك على قدر اهتمامهم بذلك .

هذا كلامه ، وقد اشتمل على دعوتين باطلتين : إحداهما : قوله : إنه من باب التكرير . والثانية تمثيله ذلك بقوله تعالى ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ^(٢) فإن ﴿ في ﴾ الأولى على حد قولك : زيد في الدار ، أي حاصل ، أو كائن .

وأما الثانية : فمعمولة للخلود وهو معنى آخر غير معنى مجرد الكون ، فلما اختلف العاملان ذكر الحرفين ، فلو اقتصر على أحدهما كان من باب

(١) سورة الحشر آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ ويقال : إن جريجاً الراهب العابد اتهمته امرأة بغى بنفسها وادعت أن حملها منه ، ورفعت أمرها إلى ولي الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : مالكم مالكم . . ؟ قالوا : يا عدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال يا غلام من أبوك . . ؟ قال أبي الراعي وكانت قد أمكتته من نفسها فحملت منه فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا نعيد صومعتك من ذهب قال : لا بل أعيدوها من طين كما كانت وقوله تعالى ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين .

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٧ .

الحذف لدلالة الآخر عليه ، ومثل هذا لا يقال له تكرار .

ونظير هذا أن تقول : زيد في الدار نائم فيها أو ساكن فيها ونحوه ، مما هو جملتان مقيدتان بمعنيين .

وأما قوله ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ ^(١) فليس من التكرار بل تحته معنى دقيق .

والمعنى فيه : وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل هذا النزول لمبلسين ، فهنا قبلتان ، قبلية لنزوله مطلقاً ، وقبلية لذلك النزول المعين أن لا يكون متقدماً على ذلك الوقت ، فيئسوا قبل نزوله يأسين ، يأساً لعدمه مرئياً ، ويأساً لتأخره عن وقته ، فقبل الأولى ظرف لليأس ، وقبل الثاني ظرف للمجيء والإنزال .

ففي الآية ظرفان معمولان وفعالان مختلفان عاملان فيهما ، وهما الإنزال والإبلاس ، فأحد الظرفين متعلق بالإبلاس ، والثاني متعلق بالنزول وتمثيل هذا : أن تقول - إذا كنت معتاداً للعطاء من شخص فتأخر عن ذلك الوقت ثم أتاك به : قد كنت آيساً .

(١) سورة الروم آية رقم ٤٩ .

سورة النور

قال الشيخ الرباني ، والصدّيق الثاني إمام الأئمة ، ومفتي الأمة ، وبحر العلوم وبدر النجوم ، وسند الحفاظ ، وفارس المعاني والألفاظ ، وفريد العصر ، وأوحد الدهر وشيخ الإسلام ، وإمام الأئمة الأعلام وعلامة الزمان ، وترجمان القرآن وعلم الزهاد ، وأوحد العباد وقامع المبتدعين ، وآخر المجتهدين البحر الزاخر ، والصارم الباتر ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن ، عبد الحلّيم بن شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات ، عبد السلام بن محمد عبدالله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر علي بن عبدالله بن تيمية الحراني .

قدس الله روحه ، ونور ضريحه ورحمه ، ورضي عنه وأرضاه :

فصل في معان مستنبطة من سورة النور

قال تعالى ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) .

ففرضها بالبينات والتقدير لحدود الله التي من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه ، ومن قرب من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود ، وبين فيها فريضة الشهادة على الزنا ، وأنها أربع شهادات وكذلك فريضة شهادة المتلاعنين كل منهما يشهد أربع شهادات بالله ، ونهى فيها عن تعدي حدوده في الفروج والأعراض والعورات وطاعة ذي السلطان سواء كان في منزله أو في ولايته ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه ، إذ الحقوق نوعان : نوع لله فلا يتعدى حدوده ، ونوع للعباد فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك ، وليس لأحد أن يفعل

(١) سورة النور آية رقم ١ ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ - فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً - يعني أجيراً - على هذا فزنا بامرأته فافتديت ابني بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وإن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى : الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فارجمها .

شيئاً في حق غيره إلا بإذن الله ، وإن لم يأذن المالك فيأذن الله هو الأصل ، وإذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه . ولهذا ضمنها الاستئذان في المساكن والمطاعم والاستئذان في الأمور الجامعة كالصلاة والجهاد ونحوهما ، ووسطها بذكر النور الذي هو مادة كل خير ، وصلاح كل شيء ، وهو ينشأ عن امتثال أمر الله ، واجتناب نهيه ، وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء ، فإن حفظ الحدود بتقوى الله يجعل الله لصاحبه نوراً كما قال تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (١) ففسد النور الظلمة ، ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (٢) .

وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة ، وظلم العبد نفسه من الظلم ، فإن للسيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق كما روي ذلك عن ابن عباس .

يوضح ذلك أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور، ومثل أعمال الكفار

(١) سورة الحديد آية رقم ٢٨ قال سعيد بن جبیر لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ (أي ضعفين) من رحمته وزادهم ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني هدى . وفي رواية النسائي عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية التي في القصص ، وكما في حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - ﷺ - ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبیه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ، [أخرجاه في الصحيحين] .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٩ - ٤٠ .

بالظلمة .

و« الإيمان » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه و« الكفر » اسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه ، وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان ، وبعض فروع الكفر من المعاصي ، كما لا يكون مؤمناً إذا كان معه أصل الكفر وبعض فروع الإيمان ولغض البصر اختصاص بالنور - كما سنذكر إن شاء الله تعالى - وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فذلك « الرآن » الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ رواه الترمذي وصححه ^(١) . وفي الصحيح أنه قال « إنه ليغان ^(٢) على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » ^(٣) والغين حجاب رقيق أرق من الغيم ، فأخبر أنه يستغفر الله استغفاراً يزِيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير ريناً وقال حذيفة : إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء ، فكلما ازداد العبد إيماناً

(١) الحديث عند الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٣١ ، والامام الترمذي في التفسير سورة ٨٣ عن طريق محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة - عن النبي ﷺ ، وقال الترمذي حسن صحيح ولفظ النسائي : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب وصقل قلبه فلإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الرآن الذي قال الله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وعند أحمد : حدثنا صفوان بن علي أخبرنا ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة وذكره .

(٢) الرين يعترى قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقربين .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٢ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٤١ - (٢٧٠٢) حدثنا يحيى بن يحيى وقتيبة بن سعيد وأبو الربيع العتكي جميعاً عن حماد قال : يحيى أخبرنا حماد بن زيد عن ثابت عن أبي بردة عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره . ورواه أبو داود في الوتر ٢٦ .

ازداد قلبه بياضاً فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقاً وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد قلبه سواداً ، فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربرداً .

وقال ﷺ « إن النور إذا دخل القلب انشرح وانفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة يا رسول الله ؟ قال : نعم ، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » . وفي خطبة الإمام أحمد التي كتبها في الرد على الجهمية والزنادقة قال :

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه حيران قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله ، وفي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، نعوذ بالله من شبه المضلين . قلت : وقد قرن الله سبحانه في كتابه في غير موضع بين أهل الهدى والضلال ، وبين أهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا ، كقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ ^(١) وقال ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى

(١) سورة فاطر الآيات ١٩ - ٢١ هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات كقوله تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله =

والبصير والسميع ﴿١﴾ الآية . وقال في المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ ﴿٢﴾ الآيات .

وقال ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿٣﴾ الآية وقال ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ﴿٤﴾ والآيات في ذلك كثيرة . وهذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده يظهر في الآخرة ، كما قال تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ﴿٥﴾ الآية . فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة ، كما ذكره في سورة النور عقيب أمره بغض البصر ، وأمره بالتوبة في قوله ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦﴾ .

وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج وما يتعلق بالنساء .

وقال في سورة الحديد ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ﴿٧﴾ الآيات إلى قوله في المنافقين . ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ

= في الظلمات ليس بخارج منها ﴿ . وقال عز وجل غير ذلك في كثير من الآيات .

(١) سورة هود آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧ وتكملة الآيات ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في

ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴿

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٧ وتكملة الآية ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا

أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿

(٤) سورة ابراهيم آية رقم ١ .

(٥) سورة التحريم آية رقم ٨ وتكملة الآية ﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل

شيء قدير ﴿

(٦) سورة النور آية رقم ٣١ .

(٧) سورة الحديد آية رقم ١٢ وتكملة الآية ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين

فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴿ .

هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبَشِ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ .

فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذي كان المؤمنون يمشون به ويطلبون الاقتباس من نورهم فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم وبين المؤمنين ، كما أن المنافقين لما فقدوا النور في الدنيا كان ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) فقله تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ (٣) الآية فأمر بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين وذلك بشهادته على نفسه ، أو بشهادة المؤمنين عليه لأنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ عَقُوبَتُهَا ظَاهِرَةً ، كما جاء في الأثر « مَنْ أَذْنَبَ سِرًّا فَلْيَتَبَّ سِرًّا ، وَمَنْ أَذْنَبَ عَلَانِيَةً فَلْيَتَبَّ عَلَانِيَةً » .

وليس من الستر الذي يحبه الله تعالى ، كما في الحديث من ستر مسلماً ستره الله (٤) - بل ذلك إذا ستر كان ذلك إقراراً لمنكر ظاهر .

(١) سورة الحديد آية رقم ١٥ وأول الآية ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ماواكم النار هي مولاكم وبش المصير ﴾ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧ .

(٣) سورة النور آية رقم ٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب المظالم ٣ لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، ٢٤٤٢ - حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أن سالماً أخبره أن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما أخبره أن رسول الله - ﷺ - قال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه - ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » ورواه الإمام مسلم في البر ٥٨ ، ٧٢ والذكر ٣٨ ، وأبو داود في الأدب ٣٨ ، ٦٠ والترمذي في الحدود ٣ والبر ١٩ والقرآن ١٠ وابن ماجه في المقدمة ١٧ ، والحدود ٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٩١ ، ٢٥٢ ، ٢٩٦ ، ٣٨٩ ، ٥١٤ ، ٥٠٠ ، ٤٠٤ (حلي) .

وفي الحديث « إن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة ، فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن .

ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة ، كما روي ذلك عن الحسن البصري وغيره ، لأنه لما أعلن ذلك استحق عقوبة المسلمين له ، وأعلن ذلك أن يذم عليه لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته ، ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغتر به الناس ، وربما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه ، ويزداد أيضاً هو جرأة وفجوراً ومعاصي ، فإذا ذكر بما فيه انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته ومخالطته .

قال الحسن البصري : أترغبون عن ذكر الفاجر ؟ أذكروه بما فيه كي يحذره الناس » وقد روي مرفوعاً .

و« الفجور » اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله .

ولهذا كان مستحقاً للهجرة إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجوراً أو تهتكاً أو مخالطة لمن هذا حاله بحيث لا يبالي بطعن الناس عليه فإن هجره نوع تعزير له فإذا أعلن السيئات أعلن هجره ، وإذا أسر أسر هجره إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات ، وهجرة السيئات هجرة ما نهى الله عنه ، كما قال تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ ^(٢) . وقال ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة المدثر آية رقم ٥ .

(٢) سورة المزمل آية رقم ١٠ .

(٣) سورة النساء آية ١٤٠ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم معهم في المكان =

وقد روي عن عمر بن الخطاب أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر ، وذهب به أخوه إلى أمير مصر عمرو بن العاص ليجلده الحد ، جلده الحد سراً ، وكان الناس يجلدون علانية ، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو ينكر عليه ذلك ، ولم يعتد عمر بذلك الجلد حتى أرسل إلى ابنه فأقدمه المدينة فجلده الحد علانية ولم ير الوجوب سقط بالحد الأول ، وعاش ابنه بعد ذلك مدة ثم مرض ومات ولم يمت من ذلك الجلد ولا ضربه بعد الموت ، كما يزعمه الكذابون .

= الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقرتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فلماذا قال تعالى ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ في المآثم كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » .

فصل في عدم الرأفة في إقامة الحدود

قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ^(١) الآية نهى تعالى عما يأمر به الشيطان في العقوبات عموماً ، وفي أمر الفواحش خصوصاً ، فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة والرأفة التي يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش والرأفة بهم ، حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الرأفة في الديانة وقلة الغيرة إذا رأى من يهوى بعض المتصلين به أو يعاشره عشرة منكراً ، أو رأى له محبة أو ميلاً وصباية وعشقاً ، ولو كان ولده رأف به ، وظن أن هذا من رحمة الخلق ولين الجانب بهم ، ومكارم الأخلاق وإنما ذلك ديانة ومهانة وعدم دين وضعف إيمان وإعانة على الإثم والعدوان وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر .

(١) سورة النور آية رقم ٢ قال الإمام ابن كثير : إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل وكذا روي عن سعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وقد جاء في الحديث « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب » وفي الحديث الآخر : لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن عبدالله الأودي ، حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عبيدالله بن عبدالله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلها . قال نافع أراه قال ظهرها . قال : قلت ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال : يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها ولا أن أجعل جلدها في رأسها وقد أوجعت حين ضربتها .

وتدخل النفس به في القيادة التي هي أعظم الديانة ، كما دخلت عجوز^(١) السوء مع قومها من استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك ، وكانت في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط ، ومن الباطن منافقة على دين قومها ، لا تقلى عملهم كما قلاه لوط ، فإنه أنكره ونهاهم عنه وأبغضه ، وكما فعل النسوة اللواتي بمصر مع يوسف ، فإنهن أعن امرأة العزيز على ما دعت به إليه وذلك بعد قولهن ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٢) ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب ، فإن الشهوة توجب السكر ، كما قال تعالى عن قوم لوط ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(٣) .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « العيان تزنيان وزناهما النظر »^(٤) الحديث إلى آخره .

فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث كالنظر والاستمتاع والمخاطبة ، ومنهم من يرتقي إلى اللمس والمباشرة ، ومنهم من يقبل وينظر وكل ذلك حرام وقد نهانا الله عز وجل أن

(١) يقصد بها زوجة لوط عليه السلام قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعَدُهُمُ الصَّبْحُ أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٧٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الاستئذان ١٢ باب زنا الجوارح دون الفرج ٦٣٤٣ - حدثنا سفيان عن ابن طاوس ، عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لم أر شيئاً أشبه باللمس من قول أبي هريرة . (وحدثني محمود أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمس مما قال أبو هريرة عن النبي - ﷺ - إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان المنطق ، والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه .) ورواه أيضاً في القدر ٩ ورواه الامام مسلم في القدر ٢٠ ، ٢١ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٤١١ ، ٤٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ (حلي) .

تأخذنا بالزناة رافة بل نقيم عليهم الحد فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك؟!

بل ينبغي شأن الفاسقين وقليلهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره وذلك أن المحب العاشق وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة ذلك المحبوب وكلامه فليس دواؤه في أن يعطي نفسه محبوبها وشهوتها من ذلك ، لأنه مريض ، والمريض إذا اشتهى ما يضره ، أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رافة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعناه على ما يضره أو يهلكه وعلى ترك ما ينفعه ، فيزداد سقمه فيهلك ، وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض ، فليس الرافة به والرحمة أن يمكن مما يهواه من المحرمات ، ولا يعان على ذلك ، ولا أن يمكن من ترك ما ينفعه من الطاعات التي تزيل مرضه قال تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) أي فيها الشفاء وأكبر من ذلك .

بل الرافة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً مثل : الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات ، وأن يحمى عما يقوي داءه ويزيد علته وإن اشتهاه ولا يظن الظان أنه إذا حصل له استمتاع بمحرم يسكن بلاؤه ، بل ذلك يوجب له انزعاجاً عظيماً ، وزيادة في البلاء والمرض في المال ، فإنه وإن سكن بلاؤه وهذا ما به عقيب استمتاعه أعقبه ذلك مرضاً عظيماً عسيراً لا يتخلص منه ، بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء الذي ترامى به إلى الهلاك والعطب ، ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقي وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب ، وهي من رحمة الله بعباده ، ورأفته بهم ، الداخلة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٧ .

فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمرضى فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه وإن كان لا يريد إلا الخير ، إذ هو في ذلك جاهل أحقق كما يعمل بعض النساء والرجال الجاهل بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم من ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير رأفة بهم ، فيكون ذلك سبب فسادهم ، وعداوتهم ، وهلاكهم .

ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وذوقه ما ذاقوه من قوة الشهوة وبرودة القلب والدياسة ، فيترك ما أمر الله به من العقوبة ، وهو من ذلك من أظلم الناس وأذيتهم في حق نفسه ونظرائه ، وهو بمنزلة جماعة من المرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم فوجد كبيرهم مرارته ، فترك شربه ، ونهى عن سقيه للباقيين ومنهم من تأخذه الرأفة لكون أحد الزانين محبوباً له ، إما أن يكون محباً لصورته وجماله بعشق أو غيره ، أو لقرابة بينهما ، أو لمودة أو لإحسانه إليه ، أو لما يرجو منه من الدنيا أو غير ذلك ، أو لما في العذاب من الألم الذي يوجب رقة القلب ويتأول : إنما يرحم الله من عباده الرحماء ^(١) . ويقول الأحقق : الراحمون يرحمهم

= قال الامام مسلم في صحيحه : حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة ، قال قيل يا رسول الله أدع على المشركين . قال : إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة . انفراد بإخراجه مسلم - وفي الحديث الآخر « إنما أنا رحمة مهداة » رواه عبدالله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً . قال ابراهيم الحربي وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر أبا هريرة ، وكذا قال البخاري ، وقد سئل عن هذا الحديث . فقال كان عند حفص بن غياث مراسلاً . قال الحافظ ابن عساكر ، وقد رواه مالك بن سعيد بن الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٢٥ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ إِنْ رَحِمَ اللَّهُ قَرِيبَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٧٤٤٨ - حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عاصم عن أبي عثمان عن أسامة قال : كان ابن لبعض بنات النبي - ﷺ يقض فأرسلت إليه أن يأتيها فأرسل : إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل إلى أجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه فأقسمت عليه فقام رسول الله ﷺ - وقمت معه ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وعبادة بن الصامت فلما دخلنا ناولوا رسول =

الرحمن ^(١) ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ^(٢) وغير ذلك ، وليس كما قال : بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه ، بل قد ورد في الحديث « لا يدخل الجنة ديوث » .

فمن لم يكن مبغضاً للفواحش ، كارهاً لها ولأهلها ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها لم يكن مريداً للعقوبة عليها ، فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه قال تعالى ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ الآية ^(٣) فإن دين الله هو طاعته وطاعة رسوله المبني على محبته ومحبة رسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ، ما لم تكن مضية لدين الله .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء ^(٤) ، وقال : لا يرحم الله من لا يرحم الناس ^(٥) وقال : من لا يرحم لا يرحم ^(٦) .

= الله - ﷺ الصبي ونفسه تقلقل في صدره حسبه قال : كأنها شنة فبكى رسول الله - ﷺ - فقال سعد بن عبادة أتبعني . فقال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء . ورواه الإمام مسلم في الجناز ٩ ، ١١ وأبو داود في الجناز ٢٤ ، والأدب ٥٨ ، والنسائي في الجناز ٢٢ وابن ماجه في الجناز ٥٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، (حلي) .

(١) الحديث رواه أبو داود في الأدب ٥٨ والترمذي في البر ١٦ .

(٢) الحديث رواه الترمذي في البر ١٦ .

(٣) سورة النور آية رقم ٢ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

(٥) سبق تخريج هذا الحديث .

(٦) الحديث عند الامام البخاري في كتاب الأدب ١٨ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته . ٥٩٩٧ -

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري ، حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة -

رضي الله عنه قال : قيل رسول الله - ﷺ - الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي

جالساً . فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله - ﷺ -

ثم قال : من لا يرحم لا يرحم . ورواه الإمام مسلم في الفضائل ٦٥ وأبو داود في الأدب =

وفي السنن : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض
يرحمكم من في السماء (١) .

فهذه الرحمة حسنة مأمور بها أمر ايجاب أو استحباب بخلاف الرأفة في
دين الله فإنها منهي عنها . والشيطان يريد من الإنسان الاسراف في أموره
كلها ، فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه
الله ، ولا يغار لما يغار الله منه ، وإن رآه مائلاً إلى الشدة زين له الشدة في
غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به
الله ورسوله ، ويتعدى في الشدة فيزيد الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله
ورسوله فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان وهو مذموم مذنب في
ذلك .

ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود ، وهو
من إسرافه في أمره فالأول مذنب ، والثاني مسرف « والله لا يُحِبُّ
المُسْرِفِينَ » (٢) فليقولوا جميعاً ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ
بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٤) . فالمؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ما يحبه الله

= ١٤٥ والترمذي في البر ١٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٢: ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٩ ، ٥١٤
(حلي) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الآية رقم ١٤١ في سورة الأنعام وهي ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات
والنخل والزروع مختلفا اكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا
حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وليس فيها لفظ الجلالة .

والثانية في سورة الأعراف آية رقم ٣١ ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .
بدون لفظ الجلالة أيضاً .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٥٩ والآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم
فلإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير =

ورسوله ، وينهي عما يبغضه الله ورسوله ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه فتارة تغلب عليه الرافة هوى ، وتارة تغلب عليه الشدة هوى ، فيتبع ما يهواه في الجانبين بغير هدى من الله .

﴿ وَمَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

فإن الزنا من الكبائر ، وأما النظر والمباشرة فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر ، فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة ، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش فإن دوام النظر بالشهوة ، وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه .

ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل : أن لا يأتي كبيرة ، ولا يصبر على صغيرة ، وفي الحديث المرفوع « لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (٢) ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان ، والله تعالى ، إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة ، وعن قوم لوط المشركين ، والعاشق المتميم يصير عبداً لمعشوقه ، منقاداً له ، أسير القلب له وقد جمع النبي ﷺ ذكر الحدود إن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فيما رواه أبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال : من مسلم ما ليس فيه . . ؟ حبس في ردغة الخبال

= وأحسن تأويلاً ﴿ .

(١) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ .

حتى يخرج مما قال « (١) » .

فالشافع في تعطيل الحدود مضاد لله من أمره ، لأن الله أمر بالعقوبة على تعدي الحدود ، فلا يجوز أن تأخذ المؤمن رافة بأهل البدع والفجور والمعاصي والظلمة .

وجماع ذلك كله فيما وصف الله به المؤمنين حيث قال ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وقال ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

فإن هذه الكبائر كلها من شعب الكفر ، ولم يكن المسلم كافراً بمجرد ارتكاب كبيرة ، ولكنه يزول عنه اسم الإيمان الواجب ، كما في الصحاح عنه ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٣) .

الحديث إلى آخره ، ففيهم من نقص الإيمان ما يوجب زوال الرافة والرحمة بهم ، واستحقوا بتلك الشعبة من الشدة بقدر ما فيها ، ولا منافاة بين أن يكون الشخص الواحد يرحم ويحب من وجه ويعذب ، ويعذب ويبغض من وجه آخر ويثاب من وجه ، ويعاقب من وجه ، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الشخص الواحد يجتمع فيه الأمران ، خلافاً لما يزعمه الخوارج ونحوهم من المعتزلة ، فإن عندهم أن من استحق العذاب من أهل القبلة لا يخرج من النار فأوجبوا خلود أهل التوحيد .

وقال : من استحق العذاب لا يستحق الثواب ولهذا جاء في السنة أن

-
- (١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأقضية ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٧ (حلي) .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٥٤ والآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَائمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .
(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن باب ٣ .

من أقيم عليه الحد والعقوبات ، ولم يأخذ المؤمنين به رافة أن يرحم من وجه آخر فيحسن إليه ويدعي له .

وهذا الجانب أغلب في الشريعة ، كما أنه الغالب في صفة الرب سبحانه كما في الصحيحين : « إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش . إن رحمتي تغلب غضبي » (١) .

وفي رواية « سبقت غضبي » .

وقال ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (٢) وقال ﴿ اْعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنی وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه .

ومن هذا الباب ما أمر الله به من الغلظة على الكفار والمنافقين فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤) وقال ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (٥) الآيات إلى قوله في

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٥٥ باب قول الله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ ٧٥٥٣ - قال خليفة بن خياط حدثنا معتمر سمعت أبي عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده - غلبت او قال : سبقت رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش . وفي بدء الخلق اورواه الإمام مسلم في التوبة ١٤ - ١٦ وابن ماجه في الزهد ٣٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢: ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦ (حلي) .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٩ - ٥٠ ..

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٨ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٧٣ .

(٥) سورة الممتحنة آية رقم ١ .

قصة ابراهيم ﴿ حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحَدُّهُ ﴾ ^(١) وكذلك آخر المجادلة .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن الحسن عن حطان بن عبدالله عن عبادة ابن الصامت أن النبي ﷺ قال « خذوا عني » « قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » ^(٢) البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ^(٣) .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد أنه ﷺ اختصم إليه رجلان ، فقال أحدهما : يا رسول الله : اقض بيننا بكتاب الله ، وقال الآخر - وهو أفضقه منه - يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله واثذن لي : أن ابني كان عسيفاً على هذا ، وأنه زنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة ووليدة وإني سألت أهل العلم فقالوا : على ابنك جلد مائة وتغريب عام ، فقال النبي ﷺ لأقضين بينكما بكتاب الله : أما المائة شاة والوليدة فرد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، فاعترفت فرجمها ^(٤) . فهذه المرأة أحد من رجمه النبي ﷺ ورجم أيضاً اليهوديين على باب مسجده . ورجم ماعز بن مالك ، ورجم الغامدية ورجم غير هؤلاء .

وهذا الحديث يوافق ما في الآية من بيان السبيل الذي جعله الله لهم ،

(١) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٥ ﴿ حَتَّى يَتُوفَا هُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ .

(٣) الحديث عند ابن ماجه في الحدود ٧ باب وراجع تخريجه فيما يأتي عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا ﴾ .

(٤) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الصلح ٥ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢٦٩٥ - ٢٦٩٦ - حدثنا الزهري عن عبيدالله بن عبدالله عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني - رضي الله عنهما قالا جاء أعرابي فقال يا رسول الله وذكره . ورواه في الأحكام ٣٩ ، وشروط ٩ ، أيمن ٣ ، حدود ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ورواه الإمام مسلم في الحدود ٢٥ ، وأبو داود في الحدود ٢٥ ، والترمذي في الحدود ٨ وصاحب الموطأ في الحدود ٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١١٥ ، ١١٦ .

وهو جلد مائة وتغريب عام في البكر ، ومن الثيب الرجيم .

لكن الذي في هذا الحديث هو الجلد والنفي للبكر من الرجال وأما الآية ففيها ذكر الإمساك في البيوت للنساء خاصة ومن فقهاء العراق من لا يوجب مع الحد تغريباً ، ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة ، كما أن أكثرهم لا يوجبون مع رجم جلد مائة ، ومنهم من يوجبهما جميعاً ، كما فعل علي بسراحة الهمدانية حيث جلدها ثم رجمها وقال : جلدها بكتاب الله ، ورجمها بسنة نبيه .

رواه البخاري ، وعن أحمد في ذلك روايتان .

وهو سبحانه ذكر في سورة النساء ما يختص بالنساء من العقوبة بالإمساك في البيوت إلى الممات ، أو إلى جعل السبيل ، ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا ﴾ ^(١) فإن الأذى يتناول الصنفين ، وأما الإمساك فيختص بالنساء ، فالنساء يؤذين ويحبسن بخلاف الرجال فإنه لم يأمر فيهم بالحبس ، لأن المرأة يجب أن تصان وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل ، ولهذا خصت بالاحتجاب ، وترك إبداء الزينة ، وترك التبرج فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت ما لا يجب في حق الرجل ، لأن ظهور

(١) سورة النساء اية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهَا إِنْ كَانَ تَوَاباً رَحِيماً ﴾ . وهذه الآية منسوخة بما جاء في سورة النور بالجلد أو الرجم . وكذا روي عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن وعطاء الخراساني ، وأبي صالح ، وقتادة ، وزيد بن أسلم والضحاك أنها منسوخة قال الامام أحمد ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطان بن عبدالله الرقاشي عن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ - إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سري عنه قال « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً » الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة . وقد رواه مسلم - وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن عن حطان عن عبادة بن الصامت عن النبي - ﷺ - ولفظه : خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

النساء سبب الفتنة والرجال قوامون عليهن . وقوله ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ ^(١) دل على شيئين على أن نصاب الشهادة على الفاحشة أربعة ، وعلى أن الشهداء بها على نسائنا يجب أن يكونوا منا ، فلا تقبل شهادة الكافر على المسلمين وهذا لا نزاع فيه ، وإنما النزاع في قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض وفيه قولان عن أحمد :

أشهرهما عنده وعند أصحابه أنها لا تقبل كمذهب مالك والشافعي .
والثانية : أنها تقبل ، اختارها أبو الخطاب ^(٢) من أصحاب أحمد ، وهو قول أبي حنيفة ، وهو أشبه بالكتاب والسنة وقد قال النبي ﷺ : « لا تجوز شهادة أهل ملة على أهل ملة إلا أمتي فإن شهادتهم تجوز على من سواهم » ^(٣) فإنه لم ينف شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض ، بل مفهوم ذلك جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض ، ولكن فيه بيا أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم لقوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ^(٤) .

وفي آخر الحج قبلها .

(١) سورة النساء آية رقم ١٥ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الشهادات ٣٩ باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ، وقال الشعبي : لا تجوز شهادة أهل الملل بعضهم على بعض لقوله عز وجل ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ سورة المائدة آية رقم ١٤ - ومعنى الآية . « فالفينا بينهم العدواة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة » ولذلك

طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معيها ، فالملكية تكفر اليعقوبية وكذلك الآخرون وكذلك النسطورية والأريونيسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ، ويوم القيامة يقدم الإشهاد .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمنه . فيؤتى بكم فتشهدون أنه بلغ (١) « وكذلك في الصحيحين من حديث أنس في شهادتهم على تلك الجنائز وأنهم أثنوا على إحداهما خيراً ، وعلى الأخرى شراً ، فقال : أنتم شهداء الله في أرضه » (٢) الحديث .

ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة بخلاف أهل البدع والأهواء ، كالخوارج والروافض فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التي جعلها الله لأهل السنة .

قال النبي ﷺ فيهم « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

وقد استدل من جوز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية التي في المائدة وهي قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٩ باب وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ٧٣٤٩ - حدثنا أبو أسامة حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - يجاء بنوح يوم القيامة وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الأنبياء ٣ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٤ ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٢ ، ٥٨ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجنائز ٨٥ باب ثناء الناس على الميت ١٣٦٧ - حدثنا شعبة ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال : سمعت أنس بن مالك - رضي الله عنه يقول : وذكره . ورواه الإمام مسلم في الجنائز ٦٠ والترمذي في الجنائز ٦٣ والنسائي في الجنائز ٥٠ ، وابن ماجه في الجنائز ٢٠ ، والزهد ٢٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦١ ، ٤٩٩ ، ٥٢٨ ، ٣ : ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٧ (حلي) .

أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴿١﴾
الآية ثم قال : من أخذ بظاهر هذه الآية من أهل الكوفة : دلت هذه الآية على
قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين فيكون في ذلك تنبيه ودلالة على قبول
شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولى ، ثم نسخ الظاهر لا يوجب نسخ
الفحوى والتنبيه .

وهذه الآية الدالة على نصوص الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث
الموافقين للسلف في العمل بهذه الآية وما يوافقها من الحديث أوجه
وأقوى ، فإن مذهبه قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في
السفر لأنه موضع ضرورة ، فإذا جازت شهادتهم لغيرهم فعلى بعضهم أجوز
وأجوز .

ولهذا يجوز في الشهادة للضرورة ما لا يجوز في غيرها كما تقبل شهادة
النساء فيما لا يطلع عليه الرجال ، حتى نص أحمد على قبول شهادتين في
الحدود التي تكون في مجامعهن الخاصة ، مثل الحمامات ، والعرسات ،
ونحو ذلك فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى أن تقبل شهادة
بعضهم على بعض إذا حكمنا بينهم ، والله أمرنا أن نحكم بينهم ، والنبي ﷺ
رجم الزانيين من اليهود (٢) من غير سماع إقرار منهما ، ولا شهادة لمسلم

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ .

(٢) روى البخاري في كتاب المناقب ٢٦ باب قول الله تعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .
٣٦٣٥ بسنده عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما أن اليهود جازؤا إلى رسول الله - ﷺ -
فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله - ﷺ - ما تجدون في التوراة في شأن
الرجم فقالوا : نفضحهم ويجلدون فقال عبدالله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا
بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبدالله
ابن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر
بهما رسول الله - ﷺ - فرجما ، قال عبدالله : فرأيت الرجل يجنا على المرأة يقبها الحجارة .

عليهما ، ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك . والله أعلم . ثم إن في تولي مال بعضهم بعضاً نزاع ، فهل يتولى الكافر العدل في دينه مال ولده الكافر ؟ .

على قولين في مذهب أحمد وغيره .

والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض ، وقد مضت سنة النبي ﷺ بذلك وسنة خلفائه . وقوله تعالى ﴿ فَادْءُوهُمَا ﴾ أمر بالأذى مطلقاً ، ولم يذكر كيفيته وصفته ولا قدره ، بل ذكر أنه يجب إيذاؤهما ولفظ « الأذى » يستعمل في الأقوال كثيراً كقوله : ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَى ﴾ ^(١) .

وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ^(٢) « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ ^(٣) .

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ ^(٤) .

وقول النبي ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله » ^(٥) .

ونظائر ذلك كثيرة ذكرناها في « كتاب الصارم المسلول وهذا كما قال

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٥٨ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٦١ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٣ - باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ

المتين ﴾ .

٧٣٧٨ - حدثنا عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش عن سعيد بن جبيرة عن أبي عبد الرحمن

السلمي عن أبي موسى الأشعري قال : قال النبي - ﷺ - وذكره وفيه زيادة (يدعون له الولد ،

ثم يعافهم ويرزقهم) ورواه في كتاب الأدب ٧١ ورواه الإمام مسلم في المنافقين ٤٩ - ٥٠

وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ (حلي) .

ﷺ في شارب الخمر : « عاقبوه وآذوه » .

وقال ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ ^(١) والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء فالمذنب لا يزال يؤذى وينهى ويوعظ ويوبخ ويغلظ له في الكلام إلى أن يتوب ويطيع الله ، وأدنى ذلك هجره فلا يكلم بالكلام الطيب ، كما هجر النبي ﷺ والمؤمنون الثلاثة الذين خلفوا حتى ظهرت توبتهم وصلاحهم ، وهذه آية محكمة لا نسخ فيها ، فمن أتى الفاحشة من الرجال والنساء ، فإنه يجب إيذاؤه بالكلام الزاجر له عن المعصية إلى أن يتوب ، وليس ذلك محدوداً بقدر ولا صفة إلا ما يكون زاجراً له ، داعياً إلى حصول المقصود ، وهو توبته وصلاحه .

وقد علقه تعالى على هذين الأمرين : التوبة والإصلاح فإذا لم يوجدوا فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجوداً فيؤذى ، والآية دلت على وجوب الإعراض عن الأذى في حق من تاب وأصلح ، فأما من تاب بترك فعل الفاحشة ولم يصلح فقد تنازع الفقهاء ، هل يشترط في قبول التوبة صلاح العمل ؟

على قولين في مذهب أحمد وغيره .

وهذه تشبه قوله تعالى ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة النساء آية رقم ١٦ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥ وتكملة الآية ﴿ وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ .

إلى قوله ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ (١) .

فأمر بقتالهم ، ثم علق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح ، وهو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكف عنهم ، ثم إن صلوا وزكوا وإلا عوقبوا بعد ذلك على ترك الفعل لأن الشارع في التوبة شرع الكف عن أذاه ، ويكون الأمر فيه موقوفاً على التمام ، وكذلك التائب من الفاحشة يشرع الكف عن أذاه إلى أن يصلح فإن أصلح وجب الإعراض عن أذاه وإن لم يصلح لم يجب الكف عن أذاه ، بل يجوز أو يجب أذاه .

وهذه الآية مما يستدل بها على التعزير بالأذى ، والأذى وإن كان يستعمل كثيراً في الكلام في مرتكب الفاحشة فليس هو مختصاً به ، كما قال النبي ﷺ لمن بصق في القبلة : إنك قد آذيت الله ورسوله (٢) وكذلك قال في حق فاطمة ابنته « يريني ما رابها ويؤذيني ما آذاها » (٣) .

(١) سورة التوبة آية رقم ٥ .

قد جاء في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ - أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . الحديث . وقال أبو اسحاق عن أبي عبيدة عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزل فلا صلاة له . وقال الامام أحمد - حدثنا علي بن اسحاق أنبأنا عبدالله بن المبارك أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ - قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن لمحمد رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماءهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . ورواه البخاري في صحيحه ، وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث عبدالله بن المبارك به .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الصلاة ٢٢ ، والنسائي في الجمعة ٢٠ وابن ماجه في الإقامة ٨٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٥٦ ، ١٨٨ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في فضائل الصحابة ٩٣ باب من فضائل فاطمة حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس ، وقتيبة بن سعيد كلاهما عن الليث بن سعد . قال ابن يونس : حدثنا ليث ، حدثنا عبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشي أن المسور بن مخرمة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ - علي المنبر - وهو يقول : إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا

وكذلك قال لمن أكل الثوم والبصل « إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » (١) .

وقال لصاحب السهام « خذ بنصالها لئلا تؤذي أحداً من المسلمين » (٢) .

وقد قال تعالى ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ (٤) هل يكون من توبته اعترافه بالذنب فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحده إقراره وكذب الشهود على إقراره أو ثبت بشهادة شهود هل يعد بذلك تائباً ؟ فيه نزاع .

فذكر الإمام أحمد أنه لا توبة لمن جحد ، وإنما التوبة لمن أقر وتاب .

= . ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم وذكره . ورواه الترمذي في المناقب ٦٠ وابن ماجه في النكاح ٥٦ .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المساجد ٧٢ باب نهى من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها . حدثنا كثير بن هشام عن هشام الدستوائي عن أبي الزبير عن جابر قال : نهى رسول الله - ﷺ - عن أكل البصل ، والكراث فغلبتنا الحاجة فأكلنا منها فقال من أكل من هذه الشجرة فلا يقرين مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الأنس . والنسائي في المساجد ١٦ وابن ماجه في الأطعمة ٥٩ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الفتن ٧ باب قول النبي - ﷺ - « من حمل علينا السلاح فليس منا » .

٧٠٧٤ - حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر أن رجلاً مر في المسجد بأسهم بدا نصولها فامر أن يأخذ بنصولها لا يخدش مسلماً . ورواه مسلم في البر ١٢٠ - ١٢٣ ، ١٢٤ ، وأبو داود في الجهاد ٦٥ والنسائي في المساجد ٢٦ وابن ماجه في الأدب ٥١ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٠٨ ، ٤ : ٢٩١ ، ٤٠٠ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٨ (حلي) .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ . .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٦ .

واستدل بقصة علي بن أبي طالب أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة ، فاعترف منهم ناس فتابوا فقبل توبتهم ، وجحد منهم جماعة فقتلهم وقد قال النبي ﷺ لعائشة : إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه رواه البخاري (١) .

فمن أذنب سرّاً فليتب سرّاً ، وليس عليه أن يظهر ذنبه ، كما في الحديث « من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله » (٢) .

وفي الصحيح : كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يبیت الرجل على الذنب قد ستره الله عليه فيكشف ستر الله عنه (٣) .

فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة ومع الجحود لا تظهر التوبة ، فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب .

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب التفسير ٦ باب لولا إذ سعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون .

٤٧٥٠ حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة - رضي الله عنهما : زوج النبي - ﷺ - حين قال أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا : وذكره . ورواه الإمام مسلم في التوبة ٥٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ١٩٦ ، ٢٦٤ (حلي) .

(٢) الحديث رواه صاحب الموطأ في الحدود ١٢ .

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري ٦٠ باب ستر المؤمن على نفسه ٦٠٦٩ حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن أخي ابن شهاب عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله قال : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره . ورواه الإمام مسلم في الزهد ٥٢ باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه وذكره .

ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو فجوراً ، فإن هذا أظهر حال الضالين ، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم ، ومن أذاه منعه - مع القدرة - من الإمامة والحكم والفتيا ، والرواية ، والشهادة ، وأما بدون القدرة فليفعل المقدور عليه .

فصل في إيذاء الدين يأتون الفاحشة

وقوله ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا﴾ ^(١) فأمر بإيذائهما ولم يعلق ذلك على استشهاد أربعة كما علق ذلك في حق النساء وإمساكهن في البيوت ولم يأمر به هنا كما أمر به هناك ، وليس هذا من باب حمل المطلق على المقيد ، لأن ذلك لا بد أن يكون الحكم واحداً مثل الاعتاق ، فإذا كان الحكم متفقاً في الجنس دون النوع كإطلاق الأيدي في التيمم وتقييدها في الوضوء إلى المرافق ، وإطلاق ستين مسكيناً في الإطعام وتقييد الاعتاق بالإيمان مع أن كلاهما عبادة مالية يراد بها نفع الخلق ، ومن ذلك نزاع بين العلماء .

ولم يحمل المسلمون من الصحابة والتابعين المطلق على المقيد في قوله ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ ^(٢) الآية .

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ^(٣) .

قال الصحابة والتابعون وسائر أئمة الدين : الشرط في الربائب خاصة ،

(١) سورة النساء آية رقم ١٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٢٢ .

وقالوا : أبهّموا ما أبهّم الله والمبهم هو المطلق ، والمشروط فيه هو المؤقت المقيد فأمهات النساء وحلائل الآباء والأبناء يحرمين بالعقد والربائب لا يحرمن إلا إذا دخلن بأمهاتهن ، لكن تنازعوا ، هل الموت كالدخول ؟ .

على قولين في مذهب أحمد ، وذلك لأن الحكم مختلف والقيد ليس متساوياً في الأعيان ، فإن تحريم جنس ليس مثل تحريم جنس آخر يخالفه ، كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير لما كان أجناساً فليس تقييد الدم بكونه مسفوحاً يوجب تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحاً ، وهنا القيد كون الربيبة مدخولاً بأمها ، والدخول بالأم لا يوجد مثله في الحليلتين ، وأم المرأة ، إذ الدخول في الحليلة بها نفسها ، وفي أم المرأة ببنتها .

وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد في نصب الشهادة ، بل لما ذكر الله في آية الدين : ﴿ رَجُلَيْنِ فِرْجُلٍ وَامْرَأَتَانِ ﴾ ^(١) وفي الرجعة ﴿ رَجُلَيْنِ ﴾

أقروا كلاً منهما على حاله ، لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع ، واختلاف السبب يؤثر في نصاب الشهادة وكما في إقامة الحد في الفاحشة وفي القذف بها اعتبر فيه أربعة شهداء فلا يقاس بذلك عقود الإيمان والابضاع وذكر في حد القذف ثلاثة أحكام :

جلد ثمانين ، وترك قبول شهادتهم أبداً ، وأنهم فاسقون ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) وأن التوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقدوف ، وترفع الفسق بلا تردد ، وهل ترفع المنع من قبول الشهادة ؟ .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ ﴿ مَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٩ .

فأكثر العلماء قالوا ترفعه .

وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة بين الناس لم يرجم لما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه لما ذكر حديث الملاعة وقول النبي ﷺ : « إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها ، وإن جاءت به يشبه الرجل الذي رماها به فقد صدق عليها ، فجاءت به على النعت المكروه . فقال النبي ﷺ « لولا الإيمان لكان لي ولها شأن » (١) فقل لابن عباس : أهذه التي قال فيها رسول الله ﷺ لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها ؟

فقال : لا ، تلك امرأة كانت تعلن سوء في الإسلام فقد أخبر أنه لا يرجم أحداً إلا بينة ولو ظهر عن الشخص سوء ودل هذا الحديث على أن الشبه له تأثير في ذلك ، وإن لم يكن بينة ، وكذلك ثبت عنه أنه لما مر عليه بتلك الجنابة فأنثوا عليها خيراً إلى آخره قال « أنتم شهداء الله في أرضه » (٢) وفي المسند عنه أنه قال « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار ، قيل : يا رسول الله ، وبم ذلك ؟ قال : بالثناء الحسن ، والثناء السيء ، فقد جعل

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب اللعان - قال أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن القاسم بن محمد عن ابن عباس أنه قال : ذكر التلاعن عند رسول الله - ﷺ - فقال عاصم بن عدي في ذلك قولاً ثم انصرف فاتاه رجل من قومه يشكو إليه أنه وجد مع أهله رجلاً فقال عاصم ما ابتليت بهذا إلا لقولي فذهب به إلى رسول الله ﷺ - فأخبره بالذي وجد عليه أمرته وكان ذلك الرجل مصفراً قليل اللحم . فقال رسول الله - ﷺ - اللهم بين فوضعت شبيهاً بالرجل الذي ذكر زوجها أنه وجده عندها فلاعن رسول الله - ﷺ - بينهما فقال رجل لابن عباس في المجلس أهي التي قال رسول الله ﷺ - لو رجمت أحداً بغير بينة رجمت هذه . فقال ابن عباس لا تلك امرأة كانت تظهر في الإسلام سوء .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز ٨٥ باب ثناء الناس على الميت ١٣٦٧ - حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال سمعت أنس بن مالك - رضي الله عنه يقول : مروا بجنابة فأنثوا عليها خيراً ، فقال النبي - ﷺ - وجبت ثم مروا بأخرى فأنثوا عليها شراً فقال : وجبت . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما وجبت . . ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيراً فوجب له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجب له النار وذكره .

الاستفاضة حجة وبينة في هذه الأحكام ، ولم يجعلها حجة في الرجم وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر عند أحمد ، وكذلك شهادة الصبيان في الجراح إذا أدوها قبل التفرق في إحدى الروايتين ، وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة والصبي في لحاف أو في بيت مرحاض ، أو رآهما مجردين ، أو محلولي السراويل ، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك من وجود اللحاف قد خرج عن العادة إلى مكانهما ، أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره فرآه فأطفأه ، فإن اطفأه دليل على استخفافه بما يفعل فإذا لم يكن ما يستخفي به إلا ما شهد به الشاهد كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به .

فهذا الباب باب عظيم النفع في الدين ، وهو مما جاءت به الشريعة التي أهملها كثير من القضاة والمتفقهة زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا ، أو إقرار مسموع ، وهذا خلاف ما تواترت به السنة ، وسنة الخلفاء الراشدين ، وخلاف ما فطرت عليه القلوب التي تعرف المعروف وتنكر المنكر ويعلم العقلاء أن مثل هذا لا تأباه سياسة عادلة فضلاً عن الشريعة الكاملة .

ويدل عليه قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (١) ففي الآية دلالات .

(١) سورة الحجرات آية رقم ٦ .

ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله - ﷺ - على صدقات بني المصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مستنده من رواية ملك بني المصطلق ، وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار ، وألد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين - رضي الله عنها . قال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثني أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول : قدمت على رسول الله - ﷺ - فدعاني إلى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت يا رسول الله ارجع إليهم فأدعهم إلى الاسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي دفعت زكاته ، وترسل إلي يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما =

أحدها : قوله ﴿ إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ ، بل من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين . ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس لأنه علل الأمر بأنه إذا جاءنا فاسق بنبأ خشية أن نصيب قوماً بجهالة ، فلو كان كل من أصيب بنبأ كذلك لم يحصل الفرق بين العدل والفاسق بل هذه دلالة واضحة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهي عنها مطلقاً ، وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات ، فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك ، فإنها نزلت في اخبار واحد بأن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقص العهد .

وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه ، فقد استبان الأمر وزال الأمر بالثبوت ، فتجاوز إصابة القوم وعقوبتهم بخبر الفاسق مع قرينة إذا تبين بهما الأمور ، فكيف خبر الواحد العدل مع دلالة أخرى ، ولهذا كان أصح القولين أن مثل هذا لوث في باب القسامة ، فإذا انضاف إيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه . وقوله ﴿ أَنْ تُصَيِّبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ فجعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم ، فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور ، وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ

= جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد رسول الله - ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله فدعا برواة قومه فقال لهم إن رسول الله - ﷺ - كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما عندي من الزكاة وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا بنا نأتي رسول الله - ﷺ وبعث رسول الله الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق - أي خاف - فرجع حتى أتى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله : إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي فغضب رسول الله - ﷺ - وبعث البعث إلى الحارث فلما غشيهما قال لهم إلى من بعثتم . . ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا إن رسول الله - ﷺ - بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله قال : رضي الله عنه - لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بته ولا أتاني - فنزل قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ ﴾ .

بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَقَالَ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ﴿٢﴾ وَأَيْضاً
فإنه علل ذلك بخوف الندم ، والندم إنما يحصل على عقوبة البريء من
الذنب كما في سنن أبي داود « ادروا الحدود بالشبهات ، فإن الإمام إن
يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة (٣) فإذا دار الأمر بين أن
يخطيء فيعاقب بريئاً أو يخطيء فيعفو عن مذنب كان هذا الخطأ خير
الخطأين أما إذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنباً فإنه لا يندم ، ولا
يكون فيه خطأ والله أعلم .

(١) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(٣) الحديث رواه أبو داود في الصلاة ١١٤ ، ورواه الامام الترمذي

فصل في التغريب

وقد ذكر الشافعي وأحمد أن التغريب جاء في السنة في موضعين أحدهما :

أن النبي ﷺ قال في الزاني إذا لم يحصن جلد مائة وتغريب عام ^(١) .
والثاني : نفي المخشئين فيما روته أم سلمة : أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنث ، وهو يقول لعبد الله أخيها : إن فتح الله لك الطائف غداً أدلك على ابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان .

فقال النبي ﷺ « أخرجوهم من بيوتكم » ^(٢) رواه الجماعة إلا الترمذي .
وفي رواية في الصحيح « لا يدخلن هؤلاء عليكم » وفي رواية « أرى

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الشهادات والصلح ورواه الامام مسلم في كتاب الحدود ، والترمذي في الحدود والنسائي في كتاب القضاء ، وابن ماجه في كتاب الحدود والدارمي في الحدود ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤٧٦ (حلي) .
في الحدود » .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب اللباس ٦٢ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، ٥٨٨٧ - حدثنا زهير ، حدثنا هشام بن عروة أن عروة أخبره أن زينب بنت أم سلمة أخبرته أن أم سلمة أخبرتها أن النبي ﷺ - وذكره . ورواه في الخصومات ٥ ، وأحكام ٥٢ وأبو داود في الأدب ٥٣ .

هذا يعرف « مثل هذا لا يدخلن عليكم بعد اليوم » (١) .

قال ابن جريج : المخنث هو هيت . وهكذا ذكره غيره .

وقد قيل : إنه هنب ، وزعم بعضهم أنه مانع وقيل : هوان .

وروى الجماعة إلا مسلماً أن النبي ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء (٢) .

وقال : « أخرجوهم من بيوتكم ، وأخرجوا فلاناً وفلاناً : يعني المخنثين » (٣) .

وقد ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة - بهم وهيت ومانع - على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى ، إنما كان تخنيثهم وتأنيثهم لينا في القول ، وخضاباً في الأيدي والأرجل ، كخضاب النساء ولعباً كلعبن .

هل يقتل المخنث أم يغرب .. ؟

وفي سنن أبي داود عن أبي يسار القرشي عن أبي هاشم عن أبي هريرة « أن النبي ﷺ أتى بمخنث وقد خضب رجله ويديه بالحناء فقال : ما بال هذا ؟

فقيل : يا رسول الله يتشبه بالنساء ، فأمر به فنفي إلى النقيع (٤) .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب اللباس ٦٢ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت .
٥٨٨٦ - حدثنا معاذ بن فضالة ، حدثنا هشام عن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب النكاح ، وبمعناه رواه الامام مسلم في كتاب السلام ، ورواه صاحب الموطأ في كتاب النداء والوصية .

(٣) ورد الحديث في البخاري (كتاب اللباس . والحدود) ورواه الترمذي في كتاب الأدب ، ورواه الدارمي في كتاب الاستئذان ، ابن حنبل ١ / ٢٩٥ .

(٤) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب ٥٣ .

فقيل : يا رسول الله ألا نقتله ؟

فقال : إني نهيت عن قتل المصلين ^(١) .

قال أبو أسامة حماد بن أسامة : والنقيع ناحية عن المدينة ، وليس بالبقيع . وقيل : إنه الذي حماه النبي ﷺ لا بل الصدقة ، ثم حماه عمر . وهو على عشرين فرسخاً من المدينة . وقيل عشرين ميلاً ونقيع الخضعات موضع آخر قرب المدينة ، وقيل : هو الذي حماه عمر ، والنقيع موضع يستنقع فيه الماء ، كما في الحديث « أول جمعة جمعت بالمدينة في نقيع الخضعات » ^(٢) .

فإذا كان النبي ﷺ قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه والاستمتاع به وبما يشاهدونه من محاسنه ، وفعل الفاحشة الكبرى به شر من هؤلاء ^(٣) وهو أحق بالنفي من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم ، فإن المخنث فيه إفساد للرجال والنساء ، لأنه إذا تشبه بالنساء فقد تعاشره النساء ، ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدهن ، ولأن الرجال إذا مالوا

(١) ورد الحديث في مسند أبي داود (كتاب الأدب) .

(٢) لم نثر على هذا الحديث على كثرة البحث والتقصي ولعل الله يجمعنا ويوفقنا إليه .

(٣) أعني الذين يفعل بهم أفعال قوم لوط - ولقد انتشرت هذه الأفعال في أواخر هذا القرن الذي نعيش فيه بل إن بعض الدول التي تدعي التمدن والرقى - تريد أن تسن قانوناً يحمي هؤلاء الفسقة بحجة أن هذا عمل شخصي ومنعه يعتبر قيد على الحرية الشخصية . وقامت أبواق السوء بالدعاية له وهللت الصحافة المأجورة لهذا الاكتشاف العظيم .؟؟ ألا وهو اتيان الأفعال التي سبقهم إليها قوم لوط فماذا كانت النتيجة قديماً ؟ جاء الأمر إلى لوط عليه السلام « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » .
هذا ما حدث قديماً أما حديثاً فتصل الأنبياء تبعاً أن هؤلاء قد أصابهم الله بأمراض خطيرة يقف الطب أمامها عاجزاً لا يفعل شيئاً فلا يجد الفاجر منهم إلا أن يقتل نفسه لأنه لا يستطيع أن يتحمل أهوال المرض . فجهم ماوهم وبش المصير .

إليه فقد يعرضون عن النساء ، ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هي ، وتتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين وقد تختار هي مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال .

وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به كما يفعل بالنساء - بمشاهدته ومباشرته وعشقه فإذا أخرج من بين الناس وسافر إلى بلد آخر ساكن فيه الناس ، ووجد هناك من يفعل به الفاحشة فهنا يكون نفية بحبسه في مكان واحد ليس معه فيه غيره ، وإن خيف خروجه فإنه يقيد إذ هذا هو معنى نفية وإخراجه من بين الناس .

ولهذا تنازع العلماء في نفي المحارب من الأرض هل هو طرده بحيث لا يأوي في بلد ، أو حبسه أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا ففي مذهب أحمد ثلاث روايات الثالثة أعدل وأحسن ، فإن نفية بحيث لا يأوي في بلد لا يمكن ، لتفرق الرعية واختلاف مهمهم ، بل قد يكون بطرده يقطع الطريق ، وحبسه قد لا يمكن ؛ لأنه يحتاج إلى مؤنة إلى طعام وشراب وحارس ، ولا ريب أن النفي أسهل إن أمكن .

وقد روي .. أن هيتاً لما اشتكى الجوع أمره النبي ﷺ أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما بقيته إلى الجمعة الأخرى .

ومعلوم أن قوله ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ (١) لا يتضمن نفية من جميع الأرض ، وإنما هو نفية من بين الناس ، وهذا حاصل بطرده وحبسه وهذا الذي جاءت به الشريعة من النفي هو نوع من الهجرة أي هجرة ، وليس هذا كنفي الثلاثة الذين خلفوا (٢) ، ولا هجرة كهجرهم ، فإنه منع الناس من

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .

(٢) الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك والذين قال الله فيهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ . سورة التوبة آية رقم ١١٨ .

مخالطتهم ومخاطبتهم حتى أزواجهم ، ولم يمنعهم من مشاهدة الناس وحضور مجامعهم في الصلاة وغيرها ، وهذا دون النفي المشروع مجموع من الأمرين ، وذلك أن الله خلق آدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضاً على مصلحة دينهم ودنياهم فمن كان بمخالطته للناس لا يحصل منه عون على الدين ، بل يفسدهم ويضرهم في دينهم ودنياهم استحق الإخراج من بينهم ، وذلك أن مضره بلا مصلحة ، فإن مخالطته لهم فيها فسادهم وفساد أولادهم ، فإن الصبي إذا رأى صبياً مثله يفعل شيئاً تشبه به ، وسار بسيرته مع الفساق فإن الاجتماع بالزناة واللوطيين فيه أعظم الفساد والضرر على النساء والصبيان والرجال ، فيجب أن يعاقب اللوطي والزاني بما فيه تفريقه وإبعاده وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها ، وكذلك هجران الدعاة إلى البدع وهجران الفساق ، وهجران من يخالط هؤلاء كلهم أو يعاونهم ، وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه ، فإنه يعاقب بهجرهم له لما لم يعاونهم على البر والتقوى ، فالزناة واللوطية ، وتارك الجهاد ، وأهل البدع وشربة الخمر هؤلاء كلهم ومخالطتهم مضره على دين الاسلام وليس فيهم معاونة لا على بر ولا تقوى ، فمن لم يهجرهم كان تاركاً للمأمور فاعلاً للمحظور .

فهذا ترك المأمور من الاجتماع ، وذلك فعل المحظور منه ، فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه فإن العقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور كما قال الفقهاء : إنما يشرع التعزير في معصية ليس فيها حد ، فإن كان فيها كفارة فعلى قولين في مذهب أحمد وغيره .

قال : وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير

= وقد ذكر الامام أحمد قصتهم كاملة في المسند : حدثنا يعقوب بن ابراهيم ، حدثنا ابن أخي الزهري - محمد بن عبدالله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهري ، أخبرني عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن عبيدالله بن كعب بن مالك ، وكان قائد كعب من بني حنن عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك وذكره .

ذلك فإنه يفعل منه بحسب الاستطاعة فإذا لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين فإنه يجاهد من يقدر على جهاده ، وكذلك إذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين . فإنه يعاقب من يقدر على عقوبته فإذا لم يكن النفي والحبس عن جميع الناس كان النفي والحبس على حسب القدرة مثل أن يحبس بدار لا يباشر إلا أهلها لا يخرج منها ، أو أن لا يباشر إلا شخصاً أو شخصين ، فهذا هو الممكن ، فيكون هو المأمور به ، وإن أمكن أن يجعل في مكان قد قل فيه القبيح ولا يعدم بالكلية كان ذلك هو المأمور به فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فالقليل من الخير خير من تركه ودفع بعض الشر خير من تركه كله ، وكذلك المرأة المتشبهة بالرجال تحبس شبهاً بحالها إذا زنت سواء كانت بكراً أو ثيباً ، فإن جنس الحبس مما شرع في جنس الفاحشة ، ومما يدخل في هذا أن عمر ابن الخطاب نفى نصر بن حجاج^(١) من المدينة ومن وطنه إلى البصرة لما سمع تشبيب النساء به وتشبهه بهن ، وكان أولاً قد أمر بأخذه شعره ليزيل جماله الذي كان يفتن به النساء ، فلما رآه بعد ذلك من أحسن الناس وجنتين غمه ذلك فنفاه إلى البصرة ، فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها ، لكن كان في النساء من يفتتن به فأمر بإزالة جماله الفاتن ، فإن انتقاله

(١) هو نصر بن حجاج بن علاط (بكسر العين وتخفيف اللام) السلمي ثم البهزي شاعر من أهل المدينة كان جميلاً قالت إحدى نساء المدينة

يا ليت شعري عن نفس أراهقة مني ولم أقض ما فيها من الحاج

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وسمع البيتين أمير المؤمنين عمر . فقال : لا أرى رجلاً في المدينة تهتف به العواتق في خدورهن وطلبه . فجاء فأمر به فحلق شعر رأسه ثم نفاه إلى البصرة ولنصر أبيات في حلق جمته ، وأطال ابن أبي الحديد في خبره فذكر له قصة مع امرأة أخرى في البصرة نفاه بسببها أبو موسى الأشعري إلى فارس وأن دهقانة أعجبت به في فارس فكتب أميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي بخبره إلى عمر . فجاءه : جزوا شعره وشمروا قميصه وألزموه المساجد ، ولما قتل عمر . عاد نصر إلى المدينة . [راجع رغبة الأمل ٥ : ١٣٩ - ١٤٠ وشرح النهج لابن أبي

الحديد ٣ : ١٤٤ ١٤٦]

عن وطنه مما يضعف همته وبدنه ، ويعلم أنه معاقب ، وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه ، وليس من باب المعاقبة ، وقد كان عمر ينفي في الخمر إلى خير زيادة في عقوبة شاربها .

فصل

في تهيج الشهوات

ومن أقوى ما يهيج الفاحشة إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالأصوات المطربة ، فإن المغني إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش ، فعندها يهيج مرضه ويقوي بلاءه وأن كان القلب في عافية من ذلك جعل فيه مرضاً كما قال بعض السلف : الغناء رقية الزنا ^(١) .

ورقية الحية هي ما تستخرج بها الحية من جحرها .

ورقية العين والحممة هي ما تستخرج به العافية .

ورقية الزنا هو ما يدعو إلى الزنا .

(١) الغناء يطلق على رفع الصوت ، وعلى الترنم الذي تسميه العرب : النصب بفتح النون وسكون المهملة ، وعلى الحداء ، ولا يسمى فاعله مغنياً وإنما يسمى بذلك من ينشد بتمطيط وتكسير وتهيج وتشويق بما فيه تعريض بالفواحش أو تصريح . قال القرطبي : وهو الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ، وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه . قال : وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير ، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان ، حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقيع بقوم منهم أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال : وهذا من آثار الزندقة ، وقول أهل المخرفة ، والله المستعان .

ويخرج من الرجل هذا الأمر القبيح والفعل الخبيث كما أن الخمر أم الخبائث .

قال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل .

وقال تعالى لإبليس ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ ^(١) . واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء - كما قال من قال من السلف - وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك ، فإن هذه الأصوات كلها توجب انزعاج القلب والنفس الخبيثة إلى ذلك وتوجب حركتها السريعة ، واضطرابها حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة والنفس متحركة فإن سكنت فبإذن الله ، وإلا فهي لا تزال متحركة .

وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس ، لا تزال تتحرك عليه ، وفي الحديث المرفوع .. القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً ^(٢) .

وفي الحديث الآخر : مثل القلب ، مثل ريشة بفلاة من الأرض تحركها الريح ^(٣) .

وفي صحيح البخاري عن سالم عن ابن عمر قال : كانت يمين رسول الله ﷺ : لا ومقلب القلوب ^(٤) وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أنه

(١) سورة الإسراء آية رقم ٦٤ .

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٦ : ٤ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٤١٩ (حلي) .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الايمان والنذور ، ٣ باب كيف كانت يمين النبي - ﷺ - ٦٦٢٨ - حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان عن موسى بن عقبة عن سالم - عن ابن عمر قال : وذكره ورواه في التوحيد ١١ والترمذي في النذور ١٣ وابن ماجه في الكفارات أو صاحب الموطأ في النذور ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٢٧ (حلي) .

سمع النبي ﷺ يقول :

اللهم مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك (١) . وفي الترمذي :
عن أبي سفيان قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت
قلبي على دينك ، قال : فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل
تخاف علينا ؟ قال : نعم القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف
يشاء (٢) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم - في كتاب القدر ١٧ - قال زهير ، حدثنا عبدالله بن يزيد
المقرئ ، قال : حدثنا حيوة ، أخبرني أبو هانيء أنه سمع أبا عبد الرحمن أنه سمع عبدالله
ابن عمرو بن العاص يقول إنه سمع رسول الله ﷺ - يقول : إن قلوب بني آدم بين أصبعين
من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث عند الامام الترمذي في كتاب القدر ٧ والدعوات ٨٩ ، ١٢٤ ، وابن ماجه في الدعاء
٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٨٢ ، ٤١٨ ، ٩١ : ٦ ، ٢٥١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ .

فصل

في تحريم الزواج من الزاني والزانية

وقوله تعالى ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

لما أمر الله تعالى بعقوبة الزانين حرم مناكحتهما على المؤمنين هجراً لهما ، ولما معهما من الذنوب والسيئات . كما قال تعالى ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ﴾ (٢) وجعل مجالس ذلك فاعل المنكر مثله بقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ (٣) وهو زوج له وقد قال تعالى ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ (٤) . أي عشاءهم وقرناءهم وأشباههم ونظراءهم ولهذا يقال : المستمع شريك المغتاب . ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر وكان فيهم جليس لهم صائم فقال « ابدءوا به في الجلد . ألم تسمع الله يقول ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ (٥) فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم للمنكر يكون مجالسهم مثلاً لهم فكيف بالعشرة الدائمة .

(١) سورة النور آية رقم ٣ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٥ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٤٠ .

(٤) سورة الصافات آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٤٠ .

والزوج يقال له العشير ، كما في الحديث من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال : رأيت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن ، قيل : يكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان » (١) .

فأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك .

أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها وأما الزاني ففجوره يدعو به إلى ذلك وإن لم يكن مشركاً وفي الآية دليل على أن الزاني ليس بمؤمن مطلق الإيمان وإن لم يكن كافراً مشركاً كما في الصحيح : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢) وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح إلا زانية أو مشركة . ثم قال تعالى ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) فعلم أن الإيمان يمنع من ذلك ويזجر ، وأن فاعله إما مشرك وإما زان ، ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك ، وذلك أن الزانية فيها إفساد فراش الرجل ، وفي مناكحتها معاشرة الفاجرة دائماً ومصاحبته ، والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه وهذا المعنى موجود في الزاني ، فإن الزاني إن لم يفسد

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الحيض ٦ باب ترك الحائض الصوم - ٣٠٤ قال أخبرنا محمد بن جعفر قال أخبرني زيد بن أسلم عن عياض بن عبد الله عن أبي سعيد الخدري قال خرج رسول الله - ﷺ - في أضحية أو في فطر إلى المصلى - فمر على النساء فقال : يا معشر النساء تصدقن . وذكره . ورواه الإمام مسلم في إيمان ١٣٢ - والعديد ٤ ، والنسائي في العديد ١٩ وابن ماجه في الفتن ١٩ والدارمي في الوضوء ١٠٤ والصلاة ٢٢٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٠٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٣ : ٣١٨ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المظالم ٣٠ باب النهي بغير إذن صاحبه ٢٤٧٥ - حدثني الليث ، حدثنا عقيل عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ - وذكره . وفيه زيادة (ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يتهب نهباً يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينهبها وهو مؤمن) ورواه الإمام مسلم في الإيمان ١٠٠ ، ١٠٤ ! والترمذي في إيمان ١١ ، والنسائي في الأشربة ٤٢ ، وابن ماجه في الفتن ٣ ، والدارمي في الأشربة ١١ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٢٩ (حلي) .

(٣) سورة النور آية رقم ٣ .

فراش امرأته كان قرين سوء لها ، كما قال الشعبي ^(١) من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها .

وهذا مما يدخل به على المرأة ضرر في دينها وديناها ، فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش ، ونكاح الزاني أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم على المرأة ، فتبقى المرأة الحرة العفيفة في أسر الفاجر الزاني يقصر من حقوقها ويتعدى عليها .

ولهذا اتفق الفقهاء على اعتبار الكفاءة في الدين وعلى ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة .

واختلفوا في صحة النكاح بدون ذلك ، وهما قولان مشهوران في مذهب أحمد وغيره ، فإن من نكح زانية مع أنها تزني فقد رضي بأن يشترك هو وغيره فيها ، ورضي لنفسه بالقيادة والديانة ، ومن نكحت زان وهو يزني بغيرها فهو لا يصون ماءه حتى يضعه فيها ، بل يرميه فيها وفي غيرها من البغايا فهي بمنزلة الزانية المتخذة خدنا فإن مقصود النكاح حفظ الماء في المرأة وهذا الرجل لا يحفظ ماءه ، والله سبحانه شرط في الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين فقال ﴿ وَأَجَلٌ لَّكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ ^(٢) .

وهذا المعنى مما لا ينبغي إغفاله فإن القرآن قد نصه وبينه بياناً مفروضاً

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري أبو عمرو : راوية من التابعين . يضرب المثل بحفظه . ولد عام ١٩ هـ بالكوفة ومات فجأة بها عام ١٠٣ هـ وهو من رجال الحديث الثقات استقضاه عمر بن عبد العزيز ، وكان فقيهاً شاعراً ، واختلفوا في اسم أبيه فقيل شراحيل ، وقيل عبدالله نسبته إلى شعب ، وهو بطن من همدان . [راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٦٥ والوفيات ١ : ٢٤٤ وحلية الأولياء ٤ : ٣١٠ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ١٣٨ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢٢٧]

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٤ .

كما قال تعالى ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ ^(١) فأما تحريم نكاح الزانية فقد
تكلم فيه الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم ، وفيه آثار عن السلف ، وإن
كان الفقهاء قد تنازعوا فيه وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه .

(١) سورة النور آية رقم ١ .

فصل

في التوبة شرط للزواج

وقد ادعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ ^(١) وزعموا أن البغي من المحصنات ، وتلك الآيات حجة عليهم فإن أقل ما في الإحصان العفة ، وإذا اشترط فيه الحرية فذاك تكميل للعفة والإحصان ، ومن حرم نكاح الأمة لثلا يرق ولده كيف يبيح البغي التي تلحق به من ليس بولده ، وأين فساد فراشه من رق ولده ؟!

«إلا زانية أو مشركة» والزانية لا يطأها إلا زان أو مشرك وهذا أبلغ في الحجة عليهم فمن وطىء زانية أو مشركة بنكاح فهو زان وكذلك من وطئها زان ، فإن ذم الزاني بفعله الذي هو الزنا حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزاني دون قرينه .

وهذه المسألة مبسطة في كتب الفقه . والمقصود قوله ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ ^(٢) فإن هذا يدل على أن الزاني لا يتزوج إلا زانية

(١) سورة النساء آية رقم ٢٤ وهي ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَنْكِحُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣ .

أو مشركة ، وأن ذلك حرام على المؤمنين .

وليس هذا لمجرد كونه فاجراً بل لخصوص زناها بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً ، كما جعل الزوج زانياً إذا تزوج زانية ، هذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنا ، وإذا كانا مشركين فينبغي أن يعلم ذلك .

ومضمونه أن الرجل الزاني لا يجوز نكاحه حتى يتوب وذلك بأن يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة إذا كانت زانية لا تحصن فرجها من غير زوجها ، بل يأتيها هو وغيره كان الزوج زانياً هو وغيره يشتركون في وطئها . كما تشترك الزناة في وطء المرأة الواحدة ، ولهذا يجب عليه نفى الولد الذي ليس منه .

فمن نكح زانية فهو زان أي تزوجها ، ومن نكحت زانياً فهي زانية أي تزوجته ، فإن كثيراً من الزناة قصرُوا أنفسهم على الزواني فتكون المرأة خدنًا وخليلاً له لا يأتي غيرها ، فإن الرجل إذا كان زانياً لا يعف امرأته وإذا لم يعفها تشوقت هي إلى غيره فزنت به ، كما هو الغالب على نساء الزواني ، أو من يلوط بالصبيان فإن نساءه يزنين ليقضين إربهن ووطرهن ويراغمن أزواجهن بذلك حيث لم يعفوا أنفسهم عن غير أزواجهن ، ولهذا يقال : عفوا تعف نسأؤكم وأبناؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان^(١) ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، فإن الرجل إذا رضي أن ينكح زانية رضي بأن تزني امرأته ، والله تعالى قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة ، فالمرء يحب لنفسه ما يحب للآخر .

فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانياً فقد رضيت عمله . وكذلك إن رضي الرجل أن ينكح زانية فقد رضي عملها ومن رضي الزنا كان بمنزلة الزاني ،

(١) يقال في المثل : كما تدين تدان . وقد ورد هذا في حديث مرفوع [أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن النبي - ﷺ - بهذا - وهو مرسل رجاله ثقات . ورواه عبد الرزاق بهذا الإسناد أيضاً عن أبي قلابة عن أبي الدرداء موقوفاً ، وأبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء ، وله شواهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه] .

فإن أصل الفعل هو الإرادة ، ولهذا جاء في الأثر : من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها أو فعلها : وفي الحديث . . المرء على دين خليله « (١) .

وأعظم الخلّة خلّة الزوجين .

وأيضاً : فإن الله قد جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف ، فيستعظم الرجل أن يظاً الرجل امرأته أعظم من غيرته على نفسه أن يزني ، فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغياً وهو ديوث كيف يكره أن يكون هوزان ؟ !

ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعف عن الزنا ؛ فإن الزاني له شهوة في نفسه ، والديوث ليس له شهوة في زنا غيره ، فإذا لم يكن معه إيمان يكره به زنا غيره بزوجه كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنا ؟ !

فمن استحل أن يترك امرأته تزني استحل أعظم الزنا ومن أعان على ذلك فهو كالزاني ، ومن أقر على ذلك مع إمكان تغييره فقد رضي به ، ومن تزوج غير تائبة فقد رضي أن تزني إذ لا يمكنه منعها من ذلك فإن كيد النساء عظيم .

ولهذا جاز للرجل إذا أتت امرأته بفاحشة مبينة أن يعضلها (٢) لتفتدي

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب الزهد ٤٥ وأبو داود في كتاب الأدب ١٦ والإمام أحمد ابن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ (حلي) .

(٢) العضل : هو أن يطلق الرجل امرأته طليقة أو طليقتين فتتقضي عدتها ثم يبدوله أن يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك . وفي ذلك نزل قول الله تعالى ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته فقال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبيد الله بن سعيّد ، حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنا عباد بن راشد ، حدثنا الحسن ، قال : حدثني معقل بن يسار قال : كانت لي أخت تخطب لي فزوجتها فطلقها =

نفسها منه ، وهو نص أحمد وغيره ؛ لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه ، فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب ، ولا يسقط المهر بمجرد زناها ، كما دل عليه قول النبي ﷺ للملاعن لما قال : مالي ، قال : لا مال لك عندها إن كنت صادقاً عليها فهو بما استحلتت من فرجها ، وإن كنت كاذباً عليها فهو أبعد لك ، لأنها إذا زنت قد تتوب ، ولكن زناها يبيح له إعضالها حتى تفتدي منه نفسها إن اختارت فراقه أو تتوب .

وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته إلا إذا أعجبه ذلك الغير ، فلا يزال يزني بما يعجبه فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة التي لا هي أيم ولا ذات زوج فيدعوها ذلك إلى الزنا ، ويكون الباعث لها على ذلك مقابلة زوجها على وجه القصاص مكايده له ومغايلة فإنه ما لم يحفظ غيبها لم تحفظ غيبه ، ولها في بضعه حق كما له في بضعها حق . فإذا كان من العادين لخروجه عما أباح الله له لم يكن قد أحصن نفسه وأيضاً : فإن داعية الزاني تشتغل بما يختاره من البغايا فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة ولا غيرته كافية في إحصائه المرأة ، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدناً ، وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها .

وعلى هذا فالمرأة المساحقة زانية كما جاء في الحديث « زنا النساء سحاقهن » (١) .

والرجل الذي يعمل عمل قوم لوط بمملوك أو غيره هو زان والمرأة

= زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل فنزلت . وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير ، وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يساربه ، وصححه الترمذي أيضاً .

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق - باب المتعة التي لم يفرض لها ، عن ابن عمر رضي الله عنهما حديث ٢١٦٣ ، ورواه الإمام مسلم في كتاب اللعان ، وأبو داود كتاب النكاح . ورواه الإمام الترمذي (النكاح) ، والنسائي (اللعان) ورواه الدارمي في كتاب النكاح ، ورواه الامام مالك في الموطأ في كتاب اللعان ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٥١١ (حلي) .

الناكحة له زانية ، فلا تنكحه إلا زانية أو مشركة ولهذا يكثّر في نساء اللوطية من تزني بغير زوجها وربما زنت بمن يتلوط هو به مراغبة له وقضاء لوطرها ، وكذلك المرأة المزوجة بمخنث ينكح كما تنكح هي متزوجة بزان ، بل هو أسوأ الشخصين حالاً ، فإنه مع الزنا صار مخنثاً ملعوناً على نفسه للتخنيث غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط فإن النبي ﷺ لعن من يعمل عمل قوم لوط ، وثبت عنه في الصحيح أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال « أخرجوهم من بيوتكم » ^(١) وكيف يجوز للمرأة أن تتزوج بمخنث قد انتقلت شهوته إلى دبره ؟ فهو يؤتى كما تؤتى المرأة ، وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزاني بغير امرأته عنها ، فإذا لم تكن له غيره على نفسه ضعفت غيرته على امرأته وغيرها ، ولهذا يوجد من كان مخنثاً ليس له كبير غيره على ولده ومملوكه ومن يكفله .

والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطي كانت على دينه فتكون زانية وأبلغ ، فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه ، فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها .

ولفظ هذه الآية وهو قوله تعالى ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ﴾ ^(٢) الآية . يتناول هذا كله إما بطريق عموم اللفظ ، أو بطريق التنبية ، وفحوى الخطاب الذي هو أقوى من مدلول اللفظ ، وأدنى ذلك أن يكون بطريق القياس كما قد بيناه في حد اللوطي ونحوه ، والله أعلم .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة النور آية رقم ٣ .

فصل

نفي الخبائث عن نساء الأنبياء

وقوله تعالى ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (١) فأخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين ، فلا تكون خبيثة لطيب فإن ذلك خلاف الحصر ، فلا تنكح الزانية الخبيثة إلا زانياً خبيثاً .

وأخبر أن الطيبين للطيبات فلا يكون الطيب لامرأة خبيثة ، فإن ذلك خلاف الحصر ، إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين فلا تبقى خبيثة لطيب ولا طيب لخبيثة .

وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين فلا تبقى طيبة لخبيث ، فجاء الحصر من الجانبين موافقاً لقوله . ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) .

(١) سورة النور آية رقم ٢٦ .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - نزلت في عائشة وأهل الإفك ، وهكذا روي عن مجاهد ، وعطاء وسعيد بن جبير ، والشعبي ، والحسن بن أبي الحسن البصري ، وجيب بن أبي ثابت والضحاك ، واختاره ابن جرير ووجهه أن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والزهارة منهم ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣ .

ولهذا قال من قال من السلف : ما بغت امرأة بني قط ، فإن هذه السورة نزل صدرها بسبب أهل الإفك وما قالوه في عائشة ، ولهذا لما قيل فيها ما قيل ، وصارت شبهة استشار النبي ﷺ من استشاره في طلاقها قبل أن تنزل براءتها ، إذ لا يصح له أن تكون امرأته غير طيبة .

وقد روي « أنه لا يدخل الجنة ديوث » ^(١) والديوث الذي يقر السوء في أهله . ولهذا كانت الغيرة على الزنا مما يحبها الله وأمر بها حتى قال النبي ﷺ « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني » ^(٢) ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولهذا أذن الله للقاذف إذا كان زوجها أن يلاعن فيشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين وجعل ذلك يدفع عنه حد القذف ، كما لو أقام على ذلك أربعة شهود ، لأنه محتاج إلى قذفها لأجل ما أمر الله به من الغيرة ، ولأنها ظلمته بإفساد فراشه وإن كانت قد حبلت من الزنا فعليه اللعان لينفي عنه النسب الباطل لئلا يلحق به ما ليس منه .

(١) ورد الحديث في النسائي في كتاب الزكاة (باب المنان إذا أعطى)

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٣٢٦ (حلي) ورواه الإمام البخاري في (كتاب النكاح - باب الغيرة - وفي كتاب الحدود) ورواه الإمام مسلم في كتاب اللعان ورواه الامام الدارمي (كتاب النكاح) .

فصل التفريق بين المتلاعنين

وقد مضت سنة النبي ﷺ بالتفريق بين المتلاعنين سواء حصلت الفرقة بتلاعنهما أو احتاجت إلى تفريق الحاكم ، أو حصلت عند انقضاء لعان الزوج لأن أحدهما ملعون أو خبيث فاقترانهما بعد ذلك يقتضي مقارنة الخبيث الملعون للطيب .

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين « حديث المرأة التي لعنت ناقة لها فأمر النبي ﷺ فأخذ ما عليها وأرسلت ، وقال : لا تصحبنا ناقة ملعونة » .

وفي الصحيحين عنه أنه لما اجتاز بديار ثمود قال « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لئلا يصيبكم ما أصابهم » (١) .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الصلاة ٥٣ باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب .
٤٣٣ - حدثنا إسماعيل بن عبدالله قال : حدثني مالك عن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما أن رسول الله - ﷺ قال : وذكره .
ورواه الإمام مسلم في كتاب الزهد ٣٨ باب « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين » . أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب وهو يذكر الحجر مساكن ثمود قال سالم بن عبدالله إن عبدالله بن عمر قال مررنا مع رسول الله - ﷺ - على الحجر فقال لنا رسول الله - ﷺ - وذكره .

فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب .

وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي : لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ، ماقثاً لهم ، شائناً ما هم فيه بحسب الإمكان ، كما في الحديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »^(١) . وقال تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ ﴾^(٢) . الآية .

وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار . وذلك أن مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين : أحدهما أن يكون مكرهاً عليه .

والثاني : أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة ، أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة ، وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما وهو الأمر الذي أكره عليه قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾^(٤) ثم قال ﴿ وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٥) .

= ورواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٩ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٧ (حلي) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٠ باب كون النهي عن المنكر من الايمان ، وأن الايمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ٧٨ - (٤٩) بسنده عن طارق بن زياد عن أبي سعيد وذكره ، ورواه أبو داود في الصلاة ٢٣٢ وابن ماجه في الإقامة ١٥٥ والفتن ٢٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢ ، ٥ ، ٣ : ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٣ (حلي) .

(٢) سورة التحريم آية رقم ١١ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٠٦ .

(٤) سورة النور آية رقم ٣٣ .

(٥) سورة النور آية رقم ٣٣ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝ (١) .

وقال ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُبْقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ۝ (٢) الآية فقد دلت هذه الآية على النهي عن مناكحة الزاني والمناكحة نوع خاص من المعاشرة والمزاوجة والمقارنة والمصاحبة ، ولهذا سمي كل منهما زوجاً وصاحباً وقريناً وعشيراً للآخر .

والمناكحة في أصل اللغة المجامعة والمضامة فقلوبهما تجتمع إذا عقد العقد بينهما ، ويصير بينهما من التعاطف والتراحم ما لم يكن قبل ذلك حتى تثبت بذلك حرمة المصاهرة في غير الريبة لمجرد ذلك والتوارث وعدة الوفاة وغير ذلك . وأوسط ذلك اجتماعهما خاليين في مكان واحد وهو المعاشرة المقررة للصداق ، كما قضى به الخلفاء وآخر ذلك اجتماع المباشرة ، وهذا وإن اجتمع بدون عقد نكاح فهو اجتماع ضعيف ، بل اجتماع القلوب أعظم من مجرد اجتماع البدنين بالسفاح ودل قوله ﴿ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ۝ (٣) على ذلك من جهة المعنى ،

(١) سورة النساء آية رقم ٩٧ - ٩٩ .

قال أبو داود حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثني يحيى بن حبان ، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود ، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب حدثني حبيب بن سليمان عن أبيه سليمان بن سمرة عن سمرة بن جندب أما بعد . قال رسول الله ﷺ - من جامع المشرک وسكن معه فإنه مثله ، وقال السدي ، لما أسر العباس وعقيل ، ونوفل قال رسول الله ﷺ - للعباس : إند نفسك وابن أخيك . فقال : يا رسول الله ألم نصل إلى قبلك ، ونشهد شهادتك . قال يا عباس : إنكم خاصمتم فخصمتم ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ۝ رواه ابن أبي حاتم .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٥ .

(٣) سورة النور آية رقم ٢٦ .

ومن جهة اللفظ ، ودل أيضاً على النهي عن مقارنة الفجار ومزاوجتهم ، كما دل على هذا غير ذلك من النصوص :

مثل قوله ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ ^(١) أي : وأشباههم ونظراءهم . والزوج أعم من النكاح المعروف . قال تعالى ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ أَوْ يَزْوَاجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ ^(٢) .

وقال ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ^(٣) وقال ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ^(٤) و﴿ كريم ﴾ ^(٥) .

وقال ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ^(٦) وقال ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ^(٧) وقال ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ^(٨) وقال ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ^(٩) .

وقال ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ﴾ ^(١٠) وإن كان في الآية نص على الزوجة التي هي صاحبة ، وفي الولد منها .

فمعنى ذلك في كل مشابه ومقارن ومشارك وفي كل فرع وتابع .

فالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن

(١) سورة الصافات آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٤٩ - ٥٠ .

(٣) سورة التكوين آية رقم ٧ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٥ وسورة ق آية رقم ٧ .

(٥) سورة الشعراء آية رقم ٧ وسورة لقمان آية رقم ١٠ .

(٦) سورة الذاريات آية رقم ٤٩ .

(٧) سورة الرعد آية رقم ٣ .

(٨) سورة النبأ آية رقم ٨ .

(٩) سورة هود آية رقم ٤٠ .

(١٠) سورة التغابن آية رقم ١٤ .

له ولي من الذل .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿ (١) .

فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله ، ويدل على ذلك الحديث الذي في السنن « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » (٢) .

وفيها « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » (٣) « ومن الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ثم إن زنت فليبيعها ولو بضفير » (٤) والضفير الحبل ، وشك الراوي هل أمر ببيعها في الثالثة أو الرابعة ، وهذا أمر من النبي ﷺ ببيع الأمة بعد إقامة الحد عليها مرتين أو ثلاثاً، ولو بأدنى مال .

(١) سورة الفرقان آية رقم ١ ، ٢ .

(٢) الحديث رواه الدارمي في الأظعمة ٢٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٨ ، ٦٥ (حلي) .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب ١٦ ، والإمام الترمذي في الزهد ٤٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب العتق ١٧ باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبيدي وأمتي ، ٢٥٥٥ ، ٢٥٥٦ - حدثنا مالك بن اسماعيل ، حدثنا سفيان عن الزهري ، حدثني عبيد الله سمعت أبا هريرة - رضي الله عنه وزيد بن خالد ، عن النبي - ﷺ - قال : وذكره . وفي الحدود ٣٥ ، والبيوع ١٦ ورواه الإمام مسلم في الحدود ٣٢ ، وأبو داود في الحدود ٣٢ ، والترمذي في الحدود ٨ وابن ماجه في الحدود ١٤ ، والدارمي في الحدود ١٨ ، وصاحب الموطأ في الحدود ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٩ ، ٣٧٦ ، ٤٢٢ ، ٤ : ١١٦ ، ١١٧ ، ٣٤٣ ، ٦ : ٦٥ (حلي) .

قال الإمام أحمد : إن لم يبعها كان تاركاً لأمر النبي ﷺ .

والإماء اللاتي يفعلن هذا تكون عامتهن للخدمة لا للتمتع .

وإذا وجب إخراج الأمة الزانية عن ملكه ، فكيف بالزوجة الزانية ،
والعبد والمملوك نظير الأمة . ويدل على ذلك كله ما رواه مسلم في صحيحه
عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه لعن من أحدث حدثاً ، أو آوى
محدثاً» (١) .

فهذا يوجب لعنة كل من آوى محدثاً سواء كان إحداثه بالزنا أو السرقة ،
أو غير ذلك ، وسواء كان الإيواء بملك يمين أو نكاح أو غير ذلك ، لأن أقل ما
في ذلك تركه إنكار المنكر .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٦ باب إثم من آوى محدثاً
رواه علي عن النبي - ﷺ - ٧٣٠٦ - حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عاصم ، قال : قلت لأنس :
أحرم رسول الله - ﷺ - المدينة . قال : نعم ما بين كذا إلى كذا وذكره . ورواه الإمام مسلم
في كتاب الحجج ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٨ ،
(حلي) .

فصل

الإختبار والامتحان للمصاحبة

والمؤمن محتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه بنكاح وغيره .
قال تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ ^(١) الآية وكذلك المرأة التي زنا بها الرجل ، فإنه لا يتزوج بها إلا
بعد التوبة في أصح القولين . كما دل عليه الكتاب والسنة والآثار ، لكن إذا
أراد أن يمتحنها هل هي صحيحة التوبة أم لا ؟ .

فقال عبدالله بن عمر وهو المنصوص عن أحمد : أنه يراودها عن
نفسها ، فإن أجابته لم تصح توبتها وإن لم تجبه فقد تابت .

وقالت طائفة : هذا الإمتحان فيه طلب الفاحشة منها ، وقد تنقض
التوبة ، وقد تأمره نفسه بتحقيق فعل الفاحشة ويزين لهما الشيطان ذلك ولا

(١) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ وتكملة الآية ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ
لَا مِنْ حَلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا
آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ
اللَّهِ يُحْكِمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ويقال في سبب نزول هذه الآية : أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هاجرت إلى المدينة
فخرج أخوها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما فنقض
الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل الله
آية الامتحان .

سيما إن كان يحبها وتحبه ، وقد تقدم له معها فعل الفاحشة مرات وذاقته وذاقها ، فقد تنقض التوبة ولا تخالفه فيما أراده منها .

ومن قال بالأول قال : الأمر الذي يقصد به امتحانها لا يقصد به نفس الفعل ، فلا يكون أمراً بما نهى الله عنه ، ويمكنه أن لا يطلب الفاحشة بل يعرض بها وينوي شيئاً آخر ، والتعريض للحاجة جائز ، بل واجب في مواضع كثيرة . وأما نقضها توبتها فإذا جاز أن تنقض التوبة معه جاز أن تنقضها مع غيره .

والمقصود أن تكون ممتنعة ممن يراودها ، فإذا لم تكن ممتنعة منه لم تكن ممتنعة من غيره . وأما تزيين الشيطان له الفعل فهذا داخل في كل أمر يفعله الإنسان من الخير يجد فيه محبته ، فإذا أراد الإنسان أن يصاحب المؤمن ، أو أراد المؤمن أن يصاحب أحداً ، وقد ذكر عنه الفجور وقيل : إنه تاب منه ، أو كان ذلك مقولاً عنه سواء كان ذلك القول صدقاً أو كذباً : فإنه يمتحنه بما يظهر به بره أو فجوره وصدقه أو كذبه وكذلك إذا أراد أن يولي أحداً ولاية امتحنه كما أمر عمر بن عبد العزيز^(١) غلامه أن يمتحن ابن أبي موسى لما أعجبه سمته ، فقال له : قد علمت مكاني عند أمير المؤمنين فكم تعطيني إذا أشرت عليه بولايتك ؟ فبذل له مالاً عظيماً ، فعلم عمر أنه ليس ممن يصلح للولاية ، وكذلك في المعاملات ، وكذلك الصبيان والمماليك الذين عرفوا أو قيل عنهم الفجور ، وأراد الرجل أن يشتريه بأنه يمتحنه فإن المخنث كالبغي وتوبته كتوبتها ، ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس وتارة تكون بالجرح والتعديل ، وتارة تكون بالاختبار والامتحان .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

فصل

في التثبت قبل القذف ورمي المحصنات

وكما عظم الله الفاحشة عظم ذكرها بالباطل وهو القذف ، فقال بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ ^(١) .

ثم ذكر رمي الرجل امرأته ، وما أمر فيه من التلاعن ثم ذكر قصة أهل الإفك ، وبين ما في ذلك من الخير للمقذوف المكذوب عليه ، وما فيه من الإثم للقاذف ، وما يجب على المؤمنين إذا سمعوا ذلك أن يظنوا بإخوانهم من المؤمنين الخير ويقولون هذا إفك مبين ، لأن دليله كذب ظاهر ثم أخبر أنه قول بلا حجة فقال ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة النور آية رقم ٤ وتكملة الآية ﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ . هذه الآية أوجبت على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة ، (الثاني) أن ترد شهادته أبداً (الثالث) أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس .

(٢) سورة النور آية رقم ١٣ والآية التي قبلها ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفك بين ﴾ سورة النور آية رقم ١٢ .

وقيل إن هذه الآية نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن =

ثم أخبر أنه لولا فضله عليهم ورحمته لَعَذَّبَهُمْ بِمَا تَكَلَّمُوا بِهِ .
 وقوله ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) فهذا بيان لسبب العذاب ، وهو تلقي الباطل بالأسنة والقول بالأفواه ، وهما نوعان محرمان القول بالباطل والقول بلا علم ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فالأول تحضيض على الظن الحسن ، وهذا نهى لهم عن التكلم بالقذف ، ففي الأول قوله : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٣) ويقول النبي ﷺ : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث (٤) .
 وكذا قوله ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ (٥) .

= زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة - رضي الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب . . ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله أفضل منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾

(١) سورة النور آية رقم ١٥ .

(٢) سورة النور آية رقم ١٦ .

البهتان : بهته بهتاً أخذته بغته قال الله تعالى ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ وتقول أيضاً بهته بهتاً وبهتا وبهتاناً فهو بهات ، أي قال عليه ما لم يفعله فهو مبهوت .

والبهية : البهتان يقال : يا للبهية ، بكسر اللام ، وهو استغاثته ، وبهت الرجل بالكسر إذا دهش وتحير ، وبهت بالضم مثله ، وأفصح منهما بهت كما قال تعالى : ﴿ فَبَهْتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ قاله الكسائي

(٣) سورة الحجرات آية رقم ١٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الوصايا ٨ باب قول الله عز وجل ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ ﴾ النساء ٢٢ .

وذكره . ورواه أيضاً في النكاح ٤٥ ، والفرائض ٢ وأدب ٥٧ ، ٥٨ ورواه الإمام مسلم في البر ٢٨ والترمذي في البر ٥٦ ، وصاحب الموطأ في حسن الخلق ١٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٤٦٥ (حلي) .

(٥) سورة النور آية رقم ١٢ .

دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لعائشة : « ما أظن فلاناً وفلاناً يدريان من أمرنا هذا شيئاً » .

فهذا يقتضي جواز بعض الظن كما احتج البخاري بذلك ، لكن مع العلم بما عليه المراء المسلم من الايمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر .

وفي الآية نهى عن تلقي مثل هذا باللسان ونهى عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ^(١) والله تعالى جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ما لم يجعله في شيء من المعاصي لأنه جعل فيها الرجم ، وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط ، وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة ، والرمي غيرها فيه الاجتهاد ، ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين عند كثير منهم ، كما قال علي « لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى ، وكما قال عبد الرحمن بن عوف : إذا شرب هذى ، وإذا هذى افتري ، وحد الشرب ثمانون وحد المفترى ثمانون . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(٢) الآية .

وهذا ذم لمن يحب ذلك ، وذلك يكون بالقلب فقط ، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة ^(٣) ، أو يخبر بها محبة لوقوعها

(١) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة النور آية رقم ١٩ .

(٣) الفحشاء : الفاحشة ، وكل شيء جاوز حده فهو فاحش ، وقد فحش الأمر بالضم فحشاً ، وتفاحش . ويسمى الزنا فاحشة وقول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المنشدد
يعني الذي جاوز الحد في البخل ، وأفحش عليه في المنطق ، أي قال : الفحش فهو فحاش .

في المؤمنين : إما حسداً أو بغضاً ، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها ، وكلاهما محبة للفاحشة وبغضاً للذين آمنوا ، فكل من أحب فعلها ذكرها وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يرغب فيها . وكذلك ذكرها غيبة محرمة ، سواء كان بنظم أو نثر ، وكذلك التشبه بمن يفعلها منهى عنه مثل الأمر بها ، فإن الفعل يطلب بالأمر تارة ، وبالإخبار تارة ، فهذان الأمران للفجرة الزناة اللوطية مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين ، أولئك يعتبرون من الغيرة بهم وهؤلاء يعتبرون من الاغترار ، فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيهم قدوة وأسوة .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ ^(١) قيل : أراد الغناء : وقيل : أراد قصص الملوك من الكفار من الفرس .

(١) سورة لقمان آية رقم ٦ .

روى ابن جرير حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يزيد بن يونس عن أبي صخر عن ابن معاوية البجلي عن سعيد بن جبيرة عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - وهو يسأل عن هذه الآية . ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله . فقال عبدالله بن مسعود الغناء والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات . حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حميد الخراط عن عمار ، عن سعيد بن جبيرة عن أبي الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قال : الغناء وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبيرة ، ومجاهد ومكحول ، وعمرو بن شعيب . وقال الحسن البصري . الغناء والمزامير .

فصل

في معرفة المنكر وإنكاره ومعرفة المعروف وإتيانه

وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها عن معصيته من خبر أو أمر فهو من طاعته وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن طاعته فهو من معصيته ، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة مثل النهي عنها وعنهم ، والذم لها ولهم ، وذكر ما يبغضها وينفر عنها ، وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك ، وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم ، فهذا كله حسن يجب تارة ، ويستحب أخرى ، وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها من العشق على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه ، والبغض لما يبغضه وهذا كما أن الله قص علينا في القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين ، وقصص الفجار والكفار لنعبر بالأمرين ، فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم ، ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم .

وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر الفاحشة وعلائقها على الوجه الذم ما فيه عبرة .

قال تعالى ﴿ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الْفَآحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) إلى آخر القصة في مواضع من كتابه ، فهذا لوط

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٢٨ .

خاطب أهل الفاحشة وهو رسول الله - بتقريعهم بها بقوله . ﴿ أَتَأْتُونَ
الْفَاحِشَةَ ﴾ وهذا استفهام إنكار ونهي ، إنكار ذم ونهي كالرجل يقول للرجل :
أتفعل كذا وكذا ؟ أما تتقي الله ؟ ثم قال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ
دُونِ النِّسَاءِ ﴾ (١) .

وهذا استفهام ثانٍ فيه من الذم والتوبيخ ما فيه وليس هذا من باب
القذف واللمز . وكذلك قوله ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) إلى آخر
القصة ، فقد واجههم بدمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة ثم إن أهل الفاحشة
توعدهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية ، وهذا حال أهل الفجور إذا كان
بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه ، وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية
بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى ، حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنث
فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا ، وهو سبحانه أخرج المتقين من
بينهم عند نزول العذاب .

وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا
عَنْ نَفْسِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) .

وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي
قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (٤) . وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهار النفوس عن
معصية الله والتمسك بالتقوى وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله : ﴿ لَقَدْ
كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٥) ومع هذا فمن الناس والنساء من
يحب سماع هذه السورة لما فيها من ذكر العشق وما يتعلق به لمحبه لذلك

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨١ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٦٠ .

(٣) سورة يوسف الآيات رقم ٢٣ - ٣٤ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٥٠ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

ورغبته في الفاحشة حتى إن من الناس من يقصد اسماعها للنساء وغيرهن لمحبتهن للسوء ، ويعطفون على ذلك ولا يختارون أن يسمعوها ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك ، حتى قال بعض السلف ، كما حصلته في سورة يوسف أنفقت في سورة النور ، قد قال تعالى ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ثم قال ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢) وقال ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣) . فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة ويغض سماع ذلك إعراضاً عن دفع هذه المحبة وإزالتها فهو مذموم .

ومن هذا الباب ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب في معصية الله وصدعن سبيل الله . ومن هذا الباب سماع كلام أهل البدع والنظر في كتبهم لمن يضره ذلك ويدعوه إلى سبيلهم وإلى معصية الله ، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والله تعالى ذم هؤلاء في مثل قوله :

﴿ يُوجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (٤) وفي مثل قوله ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ (٥) ومثل قوله ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٦) الآية وما بعدها .

ومثل قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

(١) سورة الاسراء آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢٤- ١٢٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١١٢ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٢٤ .

(٥) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ .

يُغَيِّرْ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴿١﴾ وقوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ﴿٢﴾
ومثل قوله ﴿وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٣﴾ .

ومثل قوله ﴿وَأَنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ
الله﴾ ﴿٤﴾ .

ومثل هذا كثير في القرآن ، فأهل المعاصي كثيرون في العالم بل هم أكثر كما
قال تعالى ﴿وَأَنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله﴾ ﴿٥﴾ الآية .
وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولاً وعملاً ما لا يعلمه إلا
الله ، وأهلها يدعون الناس إليها ، ويقهرون من يعصيههم ، ويزينونها لمن
يطيعهم ، فهم أعداء الرسل وأندادهم فرسل الله يدعون الناس إلى طاعة الله
ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة ، ويجاهدون عليها ، وينهونهم عن معاصي
الله ، ويحذرونهم منها بالرغبة والرهبة ، ويجاهدون من يفعلها ، وهؤلاء
يدعون الناس إلى معصية الله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة قولاً وفعلًا
ويجاهدون على ذلك .

قال تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ
الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٦﴾ .

ثم قال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

(١) سورة لقمان آية رقم ٦ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٦٧ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٤٦ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١١٦ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١١٦ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٦٧ .

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ . . . أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ (٢) .

ومثل هذا في القرآن كثير ، والله سبحانه قد أمرنا بالمعروف والنهي عن
المنكر ، والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته ، فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه
الأمر به ، والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته . فمن لا يعلمه لا يمكنه النهي
عنه . وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر فإن حب الشيء
وفعله ، وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما ، حتى يصح القصد
إلى فعل المعروف وترك المنكر .

فإن ذلك مسبوق بعلمه ، فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا
بغض ، ولا فعل ولا ترك . لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلم علماً
مفصلاً يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلاً .

ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة
الصلاة والصيام والحج والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إذا
أمر بأوصاف فلا بد من العلم بشيئها ، فكما أنا لا نكون مطيعين إذا علمنا
عدم الطاعة فلا نكون مطيعين إلا إذا لم نعلم وجودها ، بل الجهل بوجودها

(١) سورة التوبة آية رقم ٧١ .

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في
الصحيح : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً « وشبك بين أصابعه . وفي الصحيح
أيضاً (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى
له سائر الجسد بالحمى والسهر) . وقوله ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ كقوله
تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٦ .

كالعلم بعدمها ، وكون كل منهما معصية ، فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية بعضها بجنسه فإن لم نعلم المماثلة كان كما لو علمنا المفاضلة .

وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكفي بمعرفته في بعض المواضع مجملاً .

فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره ، وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك ، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها من الحجج ، وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك ، وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) وأول ذلك أن نذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها ، والنهي عنها وبيان ما فيها من الفساد ، فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والفساق والعصاة من أقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها وبيان فسادها وضررها والتحذير منها ، كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان ، ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح والحب وبيان صلاحه ومنفعته ، والترغيب فيه ، وذلك نحو قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي

(١) سورة العصر الآيات رقم ١ - ٣ .

ذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصن . قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله - ﷺ - إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ .

لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (٢) الآيات .

وهذا كثير جداً فالذي يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم ، إما كافر وإما فاجر بحسب قوله وفعله ، وليس منهم من هو بعكسه وليس عليه عذاب في تركه ، لكنه لا يثاب على مجرد عدم ذلك ، وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته ، وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله .

وهذا العلم والقصد والبغي هو من الإيمان الذي يثاب عليه ، وهو أدنى الإيمان كما قال النبي ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » (٣) إلى آخره وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكرهاته وذلك لا يكون إلا بعد العلم به وبقبحه ، ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ، ثم يكون باليد ، والنبي ﷺ قال : وذلك أضعف الإيمان « فيمن رأى المنكر فأما إذا رآه فلم يعلم أنه

(١) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٥ .

قال ابن جرير : حدثني علي ، حدثنا عبدالله ، حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ قال إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول منه لعظمة الله وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ - لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله فمن قالها عند موته وجبت له الجنة فقالوا يا رسول الله فمن قالها في صحته . . ؟ قال : تلك أوجب وأوجب ثم قال : والذي نفسي بيده ، لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن . هكذا رواه ابن جرير ، ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٧٨ ، وأبو داود في الصلاة ٢٣٢ ، والملاحم ١٧ والنسائي في كتاب الإيمان ١٧ وابن ماجه في الإقامة ١٥٥ وكتاب الفتن ٢٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢ ، ٣٠٥ : ٢٠ ، ١٩ ، ٥٣ (حلي) .

منكر ، ولم يكرهه لم يكن هذا الإيمان موجوداً في القلب في حال وجوده ورؤيته ، بحيث يجب بغضه وكراهته ، والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا ، وإذا لم يكن المنكر موجوداً لم يجب ذلك ، ويثاب من أنكره عند وجوده . ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره ، وكذلك ما يدخل في ذلك من الأقوال والأفعال ، المنكرات قد يعرض عنها كثير من الناس إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فتدبر هذا ، فإنه كثيراً ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران بغض الكفر وأهله ، وبغض الفجور وأهله ، وبغض نهيمهم وجهادهم ، كما يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ، ولا يجاهد عليه بالنفس والمال ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .

قال الإمام أحمد ، حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، حدثنا عمرو بن الحارث عن أبي السمع عن أبي الهيثم عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال : إن النبي - ﷺ - قال : المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه الله عز وجل .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٤ .

وقوله ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (١) الآية .

وكثير من الناس بل أكثرهم كراحتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراحتهم للمنكرات ، لا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات فربما مالوا إليها تارة وعنهما أخرى ، فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة ، ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى في هجر السيئات وصارت نفسه مطمئنة تاركة للمنكرات والمكروهات لا تحب الجهاد ومصابرة العدو على ذلك ، واحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال ، فإن هذا شيء آخر دال في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (٢) الآيات إلى قوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ (٣) .

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢٢ .

(٢) (٣) سورة النساء آية رقم ٧٧ - ٨٥ .

قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن عبد العزيز عن أبي زرعة ، وعلي بن رمحة قالاً : حدثنا علي بن الحسن عن الحسين بن واقد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه أتوا النبي - ﷺ - بمكة فقالوا : يا نبي الله كنا في عزة ، ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة قال : إني أمرت بالعفو فلا تقتاتلوا القوم ، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية ، ورواه النسائي ، والحاكم وابن مردويه من حديث علي بن الحسن بن شقيق به .

فصل

المعين على الإثم داخل فيه والمعين على الخير داخل فيه

والشفاعة الإعانة ، إذ المعين قد صار شفعا للمعان ، فكل من أعان على بر أو تقوى كان له نصيب منه ، ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كفل منه ، وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان ، ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين كما قال تعالى قبل ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ ^(١) ومن هنا يظهر الفرق في السمع والبصر من الإيمان وآثاره ، والكفر وآثاره ، والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر والفاجر ، فإن المؤمنين يسمعون أخبار أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم ، كرواية الصحابة النبي ﷺ وسمعهم لما بلغه عن الله ، والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل ، كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ ^(٢) .

وقال ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

(١) سورة النساء آية رقم ٧١ - ٧٦ .

(٢) سورة القلم آية رقم ٥١ .

مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴿١﴾ .

وقال ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

وقال ﴿ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ (٣)

وقال تعالى في حق المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا سُماً وَعُمِيَاناً ﴾ (٤) وقال في حق الكفار ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ (٥) والآيات في هذا كثير جداً .

وكذلك النظر إلى زينة الحياة الدنيا فتنة فقال تعالى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٦) .

وفي التوبة ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ﴾ (٧) الآية وقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ (٨) الآية وقال ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٩) .

وقال ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (١٠) الآيات . وقال

(١) سورة محمد آية رقم ٢٠ .

(٢) سورة هود آية رقم ٢٠ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧١ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٧٣ .

(٥) سورة المدثر آية رقم ٤٩ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٣١ .

(٧) سورة التوبة آية رقم ٨٥ .

(٨) سورة النور آية رقم ٣٠ .

(٩) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

(١٠) سورة الغاشية آية رقم ١٧ .

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١) .

وقال ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) الآية . وكذلك قال الشيطان ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ (٣) وقال ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ ﴾ (٤) الآيات وقال ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ (٥) الآية فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها منهي عنه ، والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكير والاعتبار مأمور به مندوب إليه ، وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدفع شر أولئك وإزالته فمأمور به ، وكذلك رؤية الاعتبار شرعاً في الجملة فالعين الواحدة ينظر إليها نظراً مأموراً به إما للاعتبار ، وإما لبغض ذلك ، والنظر إليه لبغض الجهاد منهي عنه ، وكذلك الموالاة والمعاداة وقد تحصل للعبد فتنة بنظر منهي عنه ، وهو يظن أنه نظر عبرة ، وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة ، كالذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا دُنا لِي وَلَا تَفْتِنِي ﴾ (٦) الآية فأنها نزلت في الجعد بن قيس لما أمره النبي ﷺ أن

(١) سورة يونس آية رقم ١٠١ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ٩ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٤٨ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٦١ .

(٥) سورة الأنفال آية رقم ٤٣ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٤٩ .

قال محمد بن اسحاق عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم . قالوا : قال رسول الله - ﷺ - ذات يوم وهو في جهاده للجعد بن قيس أخي بني سلمة ، هل لك يا جعد العام في جلاذ بني الأصفر . ؟ فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن فاعرض عنه رسول الله - ﷺ - وقال : قد أذنت لك . ففي الجعد بن قيس نزلت هذه الآية .

وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لهم : من سيدكم يا بني سلمة . ؟

قالوا : الجعد بن قيس على أنا نبخله . فقال رسول الله - ﷺ - وأي داء أدوا من البخل ؟ ؟ =

يتجهز لغزو الروم فقال : إني مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم فائذن لي في القعود . قال تعالى : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول ، وأما ما يكون من الفعل بالجوارح فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا داخل في هذا ، بل يكون عذابه أشد ، فإن الله قد توعد بالعذاب على مجرد محبة أن تشيع الفاحشة بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة . وهذه المحبة قد لا يقترن بها قول ولا فعل ، فكيف إذا اقترن بها قول أو فعل ؟

بل على الإنسان أن يبغض ما أبغضه الله من فعل الفاحشة والقذف بها وإشاعتها في الذين آمنوا ومن رضي عمل قوم حشر معهم كما حشرت امرأة لوط معهم ولم تكن تعمل فاحشة اللواط ، فإن ذلك لا يقع من المرأة ، لكنها لما رضيت فعلهم عمها العذاب معهم .

فمن هذا الباب قيل : من أعان على الفاحشة وإشاعتها مثل القواد الذي يقود النساء والصبيان إلى الفاحشة لأجل ما يحصل له من رئاسة أو سحت يأكله ، وكذلك أهل الصناعات التي تنفق بذلك مثل المغنين ، وشربة الخمر وضممان الجهات السلطانية وغيرها ، فإنهم يحبون أن تشيع الفاحشة ليتمكنوا من دفع من ينكرها من المؤمنين بخلاف ما إذا كانت قليلة خفيفة خفية ، ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته منهي عنه محرم بخلاف عكسه فإنه واجب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (٢) أي أن ما فيها من طاعة الله وذكره

= ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور .

(١) سورة التوبة آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥ .

قال ابن جرير ، وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن جويبر =

وامتثال أمره أكبر من ذلك .

وقال في الخمر والميسر ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ (١) .

أي يوقعهم ذلك في معصيته التي هي العداوة والبغضاء ، وهذا من أعظم المنكرات التي تنهي عنه الصلاة ، والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر كما هو الواقع ، فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالاً كان أو حراماً فالله تعالى لم يذكر الجماع ، لأن الخمر لا تدعو إلى الحرام بعينه من الجماع فيأتي شارب الخمر ما يمكنه من الجماع سواء كان حلالاً أو حراماً والسكر يزيل العقل الذي كان يميز السكران به بين الحلال والحرام ، والعقل الصحيح ينهى عن مواجهة الحرام ، ولهذا يكثر شارب الخمر من مواجهة الفواحش ما لا يكثر من غيرها حتى ربما يقع على ابنته وابنه ومحارمه ، وقد يستغني بالحلال إذا أمكنه ، ويدعو شرب الخمر إلى أكل أموال الناس بالباطل

= عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبي - ﷺ - أنه قال : لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله عن العلاء بن المسيب عن ذكره ، عن ابن عباس في قوله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً . فهذا موقف .

(١) سورة المائدة آية رقم ٩١ .

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عن عمر بن الخطاب - أنه قال لما نزل تحريم الخمر . قال اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في البقرة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ فكان منبأدي رسول الله - ﷺ - إذا قال حي على الصلاة نادى . لا يقرب الصلاة سكران . فدعي عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً : فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى ﴿ فهل أنتم متتهون ﴾ قال عمر : انتهينا . وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن إسرائيل عن أبي إسحاق . عمرو بن عبد الله السبيعي .

من سرقة ومحاربة ، وغير ذلك لأنه يحتاج إلى الخمر وما يستتبعه من مأكول وغيره من فواحش وغناء .

وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال حتى يتكلم شاربه بما في باطنه ، وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار يسقونهم الخمر ، وربما يشربون معهم ما لا يسكرون به وأيضاً فالخمر تصد الإنسان عن علمه وتديبره ومصلحته في معاشه ومعاده وجميع أموره التي يدبرها برأيه وعقله ، فجميع الأمور التي تصد عنها الخمر من المصالح وتوقعها من المفاسد داخله في قوله تعالى ﴿ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ (١) .

وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هي منتهى قصد الشيطان ، ولهذا قال النبي ﷺ ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين (٢) .

وقد ذكرناه في غير هذا الموضع أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب توقع العداوة والبغضاء ، وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من معصية الله ، والشيطان يأمر بالمعصية ليقع فيما هو أعظم منها ، ولا يرضى بغاية ما قدر على ذلك .

وأيضاً فالعداوة والبغضاء شر محض لا يحبها عاقل بخلاف المعاصي ، فإن فيها لذة كالخمر والفواحش ، فإن النفوس تريد ذلك والشيطان يدعو إليها النفوس حتى يوقعها من شر لا تهواه ولا تريده ، والله تعالى قد بين ما يريده

(١) سورة المائدة آية رقم ٩١ .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الأدب ٥٠ والترمذي في القيامة ٥٦ وصاحب الموطأ في كتاب حسن الخلق ٧ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٦٥ ، ١٦٧ ، ٤٤٥ .

الشيطان بالخمير والميسر ولم يذكر ما يريده الإنسان ، ثم قال في سورة النور : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) .

وقال في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فنهى عن اتباع خطواته - وهو اتباع أمره بالإقتداء والاتباع ، وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم ، وقال فيها : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ (٣) .

فالشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والله يعد المغفرة والفضل ، ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال عن نبيه ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤) وقال عن أمته ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٥)

(١) سورة النور آية رقم ٢١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٨ .

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو زرعة ، حدثنا هناد بن السري ، حدثنا أبو الأحوص عن عطاء ابن السائب عن مرة الهمداني عن عبدالله بن رسته ، عن هارون الفروي عن أبي ضمرة عن ابن شهاب عن عبيدالله بن عبدالله عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - : إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ وهكذا رواية الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعاً عن هناد بن السري ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى الموصلي عن هناد به وقال الترمذي : حسن غريب

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ هذه الآية تناول صفة الرسول ﷺ - كما روى الإمام أحمد ، =

وذكر مثل ذلك في مواضع كثيرة ، فتارة يخص اسم المنكر بالنهي ، وتارة يقرنه بالفحشاء ، وتارة يقرن معهما البغي ، وكذلك المعروف تارة يخصه بالأمر وتارة يقرن به غيره كما في قوله تعالى :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١)

وذلك لأن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الأفراد والتركيب ، لفظ الفقير والمسكين فإن أحدهما إذا أمرر كان عاماً لما يدلان

= حدثنا إسماعيل عن الحريري عن أبي صخر العقيلي ، حدثني رجل من الأعراب . قال : جلبت حلوبة الى المدينة في حياة الرسول - ﷺ - فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلاسمعن منه . قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهما حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتان وأحسنها . فقال رسول الله - ﷺ - أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي . ؟ فقال برأسه هكذا أي لا . فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله - ﷺ - فقال « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم تولى كفته والصلاة عليه - « هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن انس .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤ .

(١) سورة النساء آية رقم ١١٤ روى ابن مردويه - حدثنا محمد بن زيد بن حنشل قال : دخلنا على سفيان الثوري نعوذه ، فدخل علينا سعيد بن حسان فقال له الثوري الحديث الذي كنت حدثتني عن أم صالح رده علي فقال : حدثتني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيسة قالت : قال رسول الله - ﷺ - كلام ابن آدم كله عليه لا إلا ذكر الله عز وجل ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر . فقال سفيان أو ما سمعت الله في كتابه يقول : لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) فهذا هو بعينه أو ما سمعت الله تعالى يقول : يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً فهو هذا بعينه .

أو ما سمعت الله يقول ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ . فهو هذا بعينه وقد روى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن حنشل عن سعيد بن حسان به ، ولم يذكر أقوال الثوري الى آخرها .

عليه عند الاقتران بخلاف اقترانهما فإنه يكون معنى كل منهما ليس هو معنى الآخر بل أخص من معناه عند الأفراد ، وأيضاً فقد يعطف على الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التخصيص ثم قد قيل : إن ذلك المخصص يكون مذكوراً بالمعنى العام والخاص .

فإذا عرف هذا فاسم ﴿ المنكر ﴾ يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه ، وهو المبغض ، واسم ﴿ المعروف ﴾ يعم كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به ، فحيث أفردا بالذكر فإنهما يعلمان كل محبوب في الدين ومكروه وإذا قرن المنكر بالفحشاء فإن الفحشاء مبناها على المحبة والشهوة والمنكر . هو الذي تنكره القلوب ، فقد يظن أن ما في الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول في المنكر ، وإن كانت مما تنكرها القلوب فإنها تشتهيها النفوس ، و﴿ المنكر ﴾ قد يقال إنه يعم معنى الفحشاء ، وقد يقال : خصت لقوة المقتضى لما فيها من الشهوة ، وقد يقال : قصد بالمنكر ما ينكر مطلقاً ، والفحشاء لكونها تشتهي وتحب ، وكذلك البغي قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء ، ومنشؤه من قسوة الغضب ، كما أن الفحشاء منشؤها عن قوة الشهوة ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها .

فالفواحش والبغي مقرونان بالمنكر ، وأما الإشراك والقول على الله بلا علم فإنه منكر محض ، ليس في النفوس ميل إليهما ، بل إنما يكونان عن عناد وظلم ، فهما منكر وظلم محض بالفطرة .

فهذه الخصال فساد في القوة العلمية والعملية فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان ، أو إلى من يتبع خطوات الشيطان ، فإن من أتى الفحشاء والمنكر سواء فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه مطيعه عابد له وإن كان الآتي هو الأمر فالأمر بالفعل أبلغ من فعله ، فمن أمر بها

غيره رضيها لنفسه . ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد مزامير الشيطان والمغني هو مؤذنه الذي يدعو إلى طاعته ، فإن الغناء رقية الزنا ، وكذلك من اتباع خطوات الشيطان القول على الله بلا علم .

﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ .

وهذه حال أهل البدع والفجور ، وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمردان وإحضارهم في سماع الغناء ، ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين .

ثم إنه سبحانه نهى المظلوم بالقذف أن يمنع ما ينبغي له فعله من الإحسان إلى ذوي قرابته والمساكين وأهل التوبة ، وأمره بالعفو والصفح ، فإنهم كما يحبون أن يغفر الله لهم فليعفوا وليصفحوا وليغفروا ولا ريب أن صلة الأرحام واجبة ، وإيتاء المساكين واجب وإعانة المهاجرين واجب ، فلا يجوز ترك ما يجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه وإساءته في عرضه ، كما لا يمنع الرجل ميراثه وحقه من الصدقات والفيء بمجرد ذنب من الذنوب ، وقد يمنع من ذلك لبغض الذنوب .

وفي الآية دلالة على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوي الأرحام - الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب - فإنه قد ثبت في الصحيح عن عائشة في قصة الإفك أن أبا بكر الصديق حلف أن لا ينفق على مسطح بن أثاثة ^(١) ، وكان أحد الخائضين في الإفك من شأن عائشة وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر ، وقد جعله الله من ذوي القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم والنهي يقتضي التحريم ، فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل كان الفعل واجباً ، لأن الحلف على ترك العجائز جائز .

(١) ترجم له فيما بعد في كلمة وافية . [وراجع الاصابة ت ٧٩٣٧ وأسد الغابة ٤ : ٣٥٤ ونسب قريش ٩٥] .

فصل خصائص الشهود لاقامة الحد

قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (١)

وقال فيها ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) وقال فيها ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ (٣).

فذكر عدد الشهود وأطلق صفتهم ، ولم يقيدهم بكونهم منا ولا ممن نرضى ولا من ذوي العدل ، كما قيد صفة الشهود في غير هذا الموضع ولهذا تنازع العلماء ، هل شهادة الأربعة التي يجب بها الحد على الزاني مثل شهادة أهل الفسوق والعصيان وغيرهم ، هل تدرأ الحد عن القاذف ؟ على قولين في مذهب أحمد .

أحدهما : أنها تدرأ الحد عن القاذف وإن لم توجب حد الزنا على المقذوف كشهادة الزوج على امرأته أربع شهادات بالله ، فإن ذلك يدرأ حد القذف ولا يجب الحد على امرأته لمجرد ذلك ، لأنها تدفع العذاب عنها

(١) سورة النور آية رقم ٤ .

(٢) سورة النور آية رقم ٦ .

(٣) سورة النور آية رقم ١٣ .

بشهادتها أربع شهادات ، ولو لم تشهد فهل تحد أو تحبس حتى تقرر أو تلاعن ، أو يخلى سبيلها ؟ فيه نزاع مشهور بين العلماء ، فلا يلزم من درء الحد عن القاذف وجوب حد الزنا على المقدوف فإن كلاهما حد ، والحدود تدرأ بالشبهات .

والأربع شهادات للقاذف شبهة قوية ، ولو اعترف المقدوف مرة أو مرتين أو ثلاثاً درء الحد عن القاذف ولم يجب الحد عنها عند أكثر العلماء ، ولو كان المقدوف غير محصن - مثل أن يكون مشهوراً بالفاحشة - لم يحد قاذفه حد القذف ، ولم يحد هو حد الزنا لمجرد الاستفاضة ، وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد وقد اعتبر نصاب حد الزنا بأربعة شهداء .

وكذلك تعتبر صفاتهم ، فلا يقام حد الزنا على مسلم إلا بشهادة مسلمين ، لكن يقال : لم يقيدهم بأن يكونوا عدولاً مرضيين كما قيدهم في آية الدين بقوله ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ (١) .

وقال في آية الوصية ﴿ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ (٢) .

وقال في آية الرجعة ﴿ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ (٣) فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهؤلاء هم الممثلون ما أمرهم الله به بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ (٤) الآية .

وفي قوله ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (٥) وقوله ﴿ وَلَا

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ .

(٣) سورة الطلاق آية رقم ٢ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٣٥ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٥٢ .

تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴿١﴾ .

وقوله ﴿ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ (٢)

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ (٣)

فهم يقومون بالشهادة بالقسط لله فيحصل مقصود الذي استشهده .

« الوجه الثاني » إن كون شهادتهم مقبولة مسموعة لأنهم أهل العدل والرضى ، فدل على وجوب ذلك في القبول والأداء ، وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله .

﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٤) الآية . لكن هذا نص في أن الفاسق الواحد يجب التبين في خبره .

وأما الفاسقان فصاعداً فالدلالة عليه تحتاج إلى مقدمة أخرى ، وما ذكروه من عدد الشهود لا يعتبر في الحكم باتفاق العلماء في مواضع وعند جمهورهم قد يحكم بلا شهود في مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك ، ويحكم بشاهد ويمين كما مضت سنة رسول الله ﷺ فإنه قضى بشاهد ويمين .

رواه أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة ، ورواه مسلم من حديث ابن عباس « أن رسول الله ﷺ قضى بشاهد ويمين » (٥) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ .

(٣) سورة المعارج آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة الحجرات آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ أَنْ تَصِيحُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ .

(٥) الحديث رواه أبو داود في الأفضية ٢١ ، والإمام الترمذي في أحكام ١٣ وابن ماجه في الأحكام ٣١ ، وصاحب الموطأ في الأفضية ٥ ، ٦ ، ٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٠٥ ، ٥ : ٢٨٥ (حلي) .

ورواه غيرهما ، ويدل على هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هذا القيد ،
لا من آية الزنا ولا من آية القذف ، بل قال :

﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ ^(١) .

وقال ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ^(٢) وإنما
أمر بالتثبت عند خبر الفاسق الواحد ، ولم يأمر به عند خبر الفاسقين ، فإن
خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد ما لا يوجبه خبر الواحد .

ولهذا قال العلماء : إذا استراب الحاكم من الشهود فرقهم وسألهم عن
مكان الشهادة وزمانها وصفتها وتحملها ، وغير ذلك مما يتبين به اتفاقهم
واختلافهم .

(١) سورة النساء آية رقم ١٥ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤ .

فصل حكم شهادة القاذف التائب وغيره

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ ^(١) فهذا نص في أن هؤلاء القذفة لا تقبل لهم شهادة أبداً واحداً كانوا أو عدداً ؛ بل لفظ الآية ينظم العدد على سبيل الجمع والبدل ؛ لأن الآية نزلت في أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقه والتفسير ، وكان الذين قذفوا عائشة عدداً ولم يكونوا واحداً لما رأوها قد قدمت بصحبة صفوان بن المعطل السلمي ^(٢) بعد قفول العسكر وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها عذمت ، فرفع أصحاب الهودج هودجها معتقدين أنها فيه لخفتها ، ولم تكن فيه ، فلما رجعت لم تجد أحداً من الجيش فمكثت مكانها ، وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش فلما رآها أعرض بوجهه عنها وأزاح راحلتها حتى ركبها ، ثم ذهب بها إلى العسكر فكانت خلوته بها للضرورة ، كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة ، كسفر الهجرة مثل ما قدمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ^(٣) مهاجرة ، وقصة عائشة .

(١) سورة النور آية رقم ٤ .

(٢) هو صفوان بن المعطل بن رخصة السلمي الذكواني ، أبو عمرو ، صحابي ، شهد الخندق ، والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بأرمينية ، وقيل في سميساط ، وهو الذي قال أهل الإفك فيه وفي عائشة ما قالوا . روى عن النبي - ﷺ حديثين توفي عام ١٩ هـ [راجع ابن عساكر ٦ : ٤٣٨ واللباب ١ : ٤٤٣] .

(٣) هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية : صحابية ، هي أول من هاجر إلى المدينة بعد =

وقد دلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا متفرقين .
ودلت أيضاً على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور ، فإنه
كان من جماعتهم مسطح بن أثاثة^(١) وحسان بن ثابت كما في الصحيح عن عائشة
وكان منهم حمنة بنت جحش وغيرها ، ومعلوم أنه لم يرد النبي ﷺ ولا المسلمون
بعده شهادة أحد منهم لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببراءتها ، ومن لم يتب حينئذ
فإنه كافر مكذب بالقرآن ، وهؤلاء ما زالوا مسلمين ، وقد نهى الله عن قطع صلتهم ،
ولوردت شهادتهم بعد التوبة لاستفاض ذلك كما استفاض رد عمر لشهادة أبي بكر ،
وقصة عائشة كانت أعظم من قصة المغيرة ، لكن من رد شهادة القاذف بعد التوبة قد
يقول : أرد شهادة من حد في القذف وهؤلاء لم يحدوا ، والأولون يجيبون بأجوبة
« أحدها » أنه قد روي في السنن أن النبي ﷺ لم يرد شهادة أولئك .

و« الثاني » أن هذا الشرط غير معتبر في ظاهر القرآن وهم لا يقولون
به ، كما هو مقرر في موضعه .

و« الثالث » أن الذين اعتبروا الحد اعتبروه وقالوا قد يكون القاذف صادقاً
وقد يكون كاذباً ، فإعراض المقذوف عن طلب حد القذف قد يكون لصدق

= هجرة النبي ﷺ - أسلمت قديماً ولما علمت بهجرة الرسول ﷺ - خرجت ماشية من مكة
إلى المدينة تتبعه ، ولحقها أخوان لها لإعادتها فلم ترجع ، وكانت عذراء فتزوجها في المدينة
زيد بن ثابت واستشهد في غزوة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها الزبير بن العوام ثم تزوجت عبد
الرحمن بن عوف ثم تزوجها عمرو بن العاص وهي أخت عثمان لأمة توفيت نحو ٣٣ هـ
[راجع الإصابة . كتاب النساء رقم ٤٧٥ : ١ والاستيعاب بهامش الإصابة ٤ : ٤٤٨] .

(١) هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف من قريش أبو عباد صحابي من الشجعان
الأشراف كان اسمه عوفاً ولقب بمسطح فغلب عليه أمه بنت خالة أبي بكر ، وكان أبو بكر
يمونه لقربته منه فلما كان حديث أهل الأفك في أمر عائشة جلده النبي ﷺ - مع من
خاضوا فيه ، وحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه فنزلت الآية ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة
أن يأتوا أولي القربى ﴾ فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه ، وأطعمه رسول الله ﷺ - بخير
خمسین وسقاً ، وهو ممن شهد معه بدرأً وأحدأً ، والمشاهد كلها [راجع الإصابة ت ٧٩٣٧
وأسد الغابة ٤ : ٣٥٤ ونسب قريش ٩٥] .

القاذف ، فإذا طلب الحد ولم يأت القاذف بأربعة شهداء ظهر كذبه ، ومعلوم أن الذين قذفوا عائشة ظهر كذبهم أعظم من ظهور كل أحد .

فإن الله هو الذي برأها بكلامه الذي أنزله من فوق سبع سموات يتلى ، فإذا كانت شهادتهم بعد توبتهم مقبولة فشهادة غيرهم ممن شهد على غيرها بالقذف أولى بالقبول .

وقصة عمر بن الخطاب التي حكم فيها بين المهاجرين والأنصار في شأن المغيرة ^(١) لما شهد عليه ثلاثة بالزنا وتوقف الرابع عن الشهادة فجلد أولئك الثلاثة ورد شهادتهم دليل على الفصلين جميعاً ، كما دلت قصة عائشة على قبول شهادتهم بعد التوبة والجلد لأن اثنين من الثلاثة تابا فقبل عمر والمسلمون شهادتهما والثالث وهو أبو بكر مع كونه من أفضلهم لم يتب ، فلما لم يتب لم يقبل المسلمون شهادته ، وكان من صالحى المسلمين وقد قال عمر : تب أقبل شهادتك ، لكن إذا كان القرآن قد بين أن القذفة إن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم أبداً ، ثم قال بعد ذلك :

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ ^(٢) .

فمعلوم أن قوله ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وصف ذم لهم زائد على ما ذكره من رد شهادتهم .

(١) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ، أبو عبدالله أحد دهاة العرب ، وقادتهم وولاتهم . صحابي يقال له مغيرة الرأي ، ولد في الطائف ٢٠ق.هـ. وبرحها في الجاهلية مع جماعة من بني مالك فدخل الاسكندرية وافداً على المقوقس ثم وعاد إلى الحجاز فلما ظهر الإسلام تردد في قبوله الى أن كانت سنة ٥ هـ فأسلم - وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام وذهبت عينه باليرموك ، وشهد القادسية ، ونهاوند ، وولاه عمر بن الخطاب البصرة . ففتح عدة بلاد وعزله ثم ولاه الكوفة وأقره عثمان على الكوفة ثم عزله . ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها المغيرة وحضر مع الحكمين . ثم ولاه معاوية الكوفة فلم يزل فيها الى أن مات عام ٥٠ هـ . [راجع الاصابة ت ٨١٨١ وأسد الغابة ٤ : ٤٠٦ والطبري ٦ : ١٣١ ورغبة الأمل ٤ : ٢٠٢] .

(٢) سورة النور آية رقم ٤ - ٥ .

فصل في عدالة الشهود

وأما تفسير « العدالة » المشروطة في هؤلاء الشهود فإنها الصلاح في الدين والمروءة، والصلاح في آداء الواجبات وترك الكبيرة والإصرار على الصغيرة و« الصلاح في المروءة » استعمال ما يجمله ويزينه ، واجتناب ما يندسه ويشينه . فإذا وجد هذا في شخص كان عدلاً في شهادته ، وكان من الصالحين الأبرار ، وأما أنه لا يستشهد أحد في وصية أو رجعة في جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة ، فليس في كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك ، بل هذا صفة المؤمن الذي أكمل إيمانه بأداء الواجبات ، وإن كان المستحبات لم يكملها ، ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين . ثم إن القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها ، بل قد يجب على الإنسان من حقوق الله وحقوق عباده ما لا يحصىه إلا الله تعالى مما يكون تركه أعظم إثماً من شرب الخمر والزنا ، ومع ذلك لم يجعلوه قادحاً في عدالته .

إما لعدم استشعار كثرة الواجبات ، وإما لالتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات ، وليس الأمر كذلك في الشريعة .

وبالجملة هذا معتبر في باب الثواب والعقاب والمدح والذم ، والموالة والمعادة ، وهذا أمر عظيم . وأما قول من يقول : الأصل في المسلمين العدالة فهو باطل ، بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(١) ومجرد التكلم بالشهادتين لا

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٧٢ .

يوجب انتقال الإنسان عن الظلم والجهل إلى العدل .

و« باب الشهادة » مداره على أن يكون الشهيد مرضياً ، أو يكون ذا عدل يتحرى القسط والعدل في أقواله وأفعاله والصدق في شهادته وخبره ، وكثيراً ما يوجد هذا مع الإخلال بكثير من تلك الصفات ، كما أن الصفات التي اعتبروها كثيراً ما توجد بدون هذا ، كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيراً ، لكن يقال : إن ذلك مظنة الصدق والعدل ، والمقصود من الشهادة ، ودليل عليها وعلامة لها ، فإن النبي ﷺ قال في الحديث المتفق على صحته « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة » ^(١) الحديث إلى آخره فالصدق مستلزم للبر ، كما أن الكذب ، مستلزم للفجور ، فإذا وجد الملزوم وهو تحري الصدق وجد اللازم وهو البر ، وإذا انتفى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق . وإذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم ، وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب .

فلهذا استدل بعدم بر الرجل على كذبه ، وبعدم فجوره على صدقه .

فالعدل الذي ذكره الفقهاء من انتفى فجوره ، وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة ، وإذا انتفى ذلك فيه انتفى كذبه الذي يدعوه إلى هذا الفجور والفاسق هو من عدم بره ، وإذا عدم بره عدم صدقه ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعي إلى البر يستلزم البر ، والداعي إلى الفجور يستلزم الفجور ، فالخطأ كالنسيان ، والعمد كالكذب . والله أعلم .

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الأدب ٦٩ باب قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ وما ينهى عن الكذب .
٦٠٩٤ - حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - وذكره .

فصل في لعن قذفة أمهات المؤمنين

وقال شيخ الإسلام رحمه الله -

في قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) - في طرده الكلام على ما يتعلق بهذه الآية وغيرها فقال - وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه :

« أحدها : أن هذه الآية في أزواج النبي ﷺ خاصة في قول كثير من

(١) سورة النور آية رقم ٢٣ .

في سبب نزول هذه الآية : قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن حراش ، عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ قال : نزلت في عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حبان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال : حدثنا أحمد بن عبدة الضبي ، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها . قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك ، قالت : فبينما رسول الله - ﷺ - جالس عندي إذ أوحى إليه . قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالساً يمسح على وجهه وقال : يا عائشة ابشري « قالت : فقلت بحمد الله لا بحمدك فقراً : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ - حتى بلغ - أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم .

أهل العلم فروى هشيم عن العوام بن حوشب : ثنا شيخ من بني كاهل ، قال : فسر ابن عباس سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية .

﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ إلى آخر الآية قال : هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ، وهي مبهمة ليس فيها توبة .

ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ^(١) إلى قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لأولئك توبة .

قال : فهم رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسرهم وقال أبو سعيد الأشج : حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوام عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ ﴾ نزلت في عائشة خاصة ، واللعن من المنافقين عامة فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمهات المؤمنين لما في قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعييه فإن قذف المرأة أذى لزوجها ، كما هو أذى لابنها لأنه نسبة له إلى الديانة وإظهار لفساد فراشه فإن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيماً ، ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إذا زنت ، ودرأ الحد عنه باللعان ، ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال ، ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقدوف .

ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوصتين عنه إلى أن من قذف امرأة محصنة كالأمة والذمية ولها زوج أو ولد محصن حد لقذفها ، لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين .

والرواية الأخرى عنه وهي قول الأكثرين أنه لا حد عليه لأنه أذى لهما لا

(١) سورة النور آية رقم ٤ ، ٥ وتكملة الآية ﴿ فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

قذف لهما ، والحد التام إنما يجب بالقذف ، وفي جانب النبي ﷺ أذى كقذفه ، ومن يقصد عيب النبي ﷺ بعيب أزواجه فهو منافق ، وهذا معنى قول ابن عباس : اللعنة في المنافقين عامة . وقد وافق ابن عباس جماعة ، فروى الإمام أحمد والأشج عن خصيف قال : سألت سعيد بن جبير فقلت : الزنا أشد أو قذف المحصنة ؟ قال : لا ، بل الزنا ، قال : قلت : فإن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(١) فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة .

وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

فقال : هذه الآية لأهات المؤمنين خاصة . وروى الأشج بإسناده عن الضحاك في هذه الآية قال « هن نساء النبي ﷺ » .

وقال معمر عن الكلبي : إنما عني بهذه الآية أزواج النبي ﷺ ، فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق كما قال الله تعالى . أو يتوب ووجه هذا أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف فتكون اللام في قوله ﴿ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ لتعريف المعهود ، والمعهود هنا أزواج النبي ﷺ ، لأن الكلام في قصة الإفك ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة ، أو يقصر اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك .

ويؤيد هذا القول : أن الله سبحانه رتب هذا الوعيد على قذف محصنات غافلات مؤمنات ، وقال في أول السورة ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ ^(٢) الآية .

فرتب الحد ورد الشهادة والفسق على مجرد قذف المحصنات فلا بد أن

(١) سورة النور آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤ .

يكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات وذلك - والله أعلم - لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان ، لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة ، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهرة الإيمان .

ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(١) فتخصيصه متولى كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم .

وقال ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٢) فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف ، وإنما يمس متولى كبره فقط .

وقال هنا ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ فعلم أن الذي رمى أمهات المؤمنين يعيب بذلك رسوله ﷺ ، وتولى كبر الإفك ، وهذه صفة المنافق ابن أبي ، والله أعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضاً موافقة لتلك الآية ،

(١) الذي تولى كبره إنما هو عبدالله بن أبي سلول - قبحه الله ولعنه ، وقيل : المراد به حسان بن ثابت . قال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قزعة ، حدثنا سلمة بن علقمة ، حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
أشتمه ولست له بكفء فشركما خيركما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء
فقيل يا أم المؤمنين أليس هذا لغواً ؟ قالت : لا إنما اللغو ما قيل عند النساء قيل أليس الله يقول : ﴿ والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ قالت : أليس قد ذهب بصره ، وكنع بالسيف ؟ تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمي حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله .

(٢) سورة النور آية رقم ١٤ .

لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ لعن صاحبه في الدنيا والآخرة ولهذا قال ابن عباس : ليس فيها توبة ؛ لأن مؤذي النبي ﷺ لا تقبل توبته ، أو يريد إذا تاب من القذف حتى يسلم اسلاماً جديداً وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به أذى النبي ﷺ ، أو بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة ، فإنه ما بغت امرأة نبي قط . ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي ﷺ ما أخرجاه في الصحيحين من حدث الإفك عن عائشة قالت : فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول قالت . فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني ^(١) من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک ، فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ - لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت ^(٢) .

(١) من يعذرني : من ينصرتني . والعذير الناصر ، وقيل : المراد من ينتقم لي منه ؟ ويؤيده قول سعد : أنا أعذرک .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الإمام البخاري في كتاب التفسير ٦ باب ﴿ لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

٤٧٥٠ - حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب ، قال أخبرني عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من حديث عائشة - رضي الله عنهما - زوج النبي ﷺ - حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها =

وفي رواية أخرى صحيحة أن هذه الآية في أزواج رسول الله ﷺ خاصة .

ويقول آخرون : يعني أزواج المؤمنين عامة .

وقال أبو سلمة : قذف المحصنات من الموجبات ، ثم قرأ ﴿ إن الذين يرمون المحصنات ﴾ الآية .

وعن عمر بن قيس قال : قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة « رواهما الأشج وهذا قول كثير من الناس ووجهه ظاهر الخطاب ، فإنه عام فيجب اجراؤه على عمومه إذ لا موجب لخصوصه ، وليس هو مختصاً بنفس السبب بالاتفاق ، لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي ﷺ داخل في العموم ، وليس هو من السبب ولأنه لفظ جمع ، والسبب في واحدة هنا ؛ ولأن قصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل ، فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك ، وقد علم أن شيئاً منها لم يقصر على سببه ، والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد ورد الشهادة والتفسيق وهنا ذكر العقوبة الواقعة من الله سبحانه ، وهي اللعنة في الدارين ، والعذاب العظيم ، وقد روي عن النبي ﷺ من غير

= الله مما قالوا وذكره ، ورواه أيضاً في كتاب الشهادات ١٥ ، وكتاب الإيمان ١٣ ، ١٨ ، وكتاب الإعتصام ٢٨ ، وكتاب التوحيد ٣٥ ، ٥٢ ، ورواه الإمام مسلم في كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف . حدثنا حبان بن موسى ، أخبرنا عبدالله بن المبارك ، أخبرنا يونس بن يزيد الأيلي ، وحدثنا اسحاق بن ابراهيم الحنظلي ومحمد بن رافع ، وعبد ابن حميد . قال ابن رافع حدثنا ، وقال الآخران أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر والسياق حديث معمر من رواية عبد وابن رافع ، قال يونس ومعمر جميعاً عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة - زوج النبي - ﷺ - حين قال لها أهل الإفك ما قالوا . فبرأها الله مما قالوا ، وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني وبعض حديثهم يصدق بعضاً وذكره .

وجه وعن أصحابه : « إن قذف المحصنات من الكبائر » (١) .

وفي لفظ في الصحيح « قذف المحصنات الغافلات المؤمنات » ثم اختلف هؤلاء ، فقال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة إذ كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة ، وقالوا : إنما خرجت تفجر ، فعلى هذا يكون فيمن قذف المؤمنات قذفاً يصدهن به عن الإيمان ، ويقصد بذلك ذم المؤمنين لينفر الناس عن الإسلام كما فعل كعب بن الأشرف ، وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر وهو بمنزلة من سب النبي ﷺ . وقوله : إنها نزلت زمن العهد ، يعني - والله أعلم - أنه عني بها مثل أولئك المشركين المعاهدين ، وإلا فهذه الآية نزلت ليالي الإفك ، وكان الإفك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق ، والهدنة كانت بعد ذلك بسنين ، ومنهم من أجراها على ظاهرها وعمومها ، لأن سبب نزولها قذف عائشة ، وكان فيمن قذفها مؤمن ومنافق ، وسبب النزول لا بد أن يندرج في العموم ، ولأنه لا موجب لتخصيصها والجواب على هذا التقدير أنه سبحانه قال هنا : ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (٢) على بناء الفعل للمفعول ولم يسم اللاعن .

وقال في الآية الأخرى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (٣) وإذا لم يسم الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الوصايا ٢٣ باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ

الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾

٢٧٦٦ - حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال : حدثني سليمان بن بلال عن ثور بن زيد المدني

عن أبي الغيث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : وذكره ولفظه (وقذف

المحصنات المؤمنات الغافلات) عدن من السبع الموبقات .

ورواه أيضاً في الحدود ٤٤ والإمام مسلم في كتاب الإيمان ١٤٤ ، وأبو داود في الوصايا ١٠ ،

والنسائي في الوصايا ١٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

والناس ، وجاز أن يلعنهم الله في وقت ، ويلعنهم بعض خلقه في وقت ، وجاز أن الله يتولى لعنة بعضهم وهو من كان قذفه طعناً في الدين . ويتولى خلقه لعنة الآخرين .

وإذا كان اللاعن مخلوقاً فلعله قد يكون بمعنى الدعاء عليهم ، وقد يكون بمعنى أنهم يبعدونهم عن رحمة الله . ويؤيد هذا أن الرجل إذا قذف امرأته تلاعنا . وقال الزوج في الخامسة : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين « فهو يدعو على نفسه إن كان كاذباً في القذف أن يلعه الله ، كما أمر الله ورسوله أن يياهل من حاجة في المسيح بعدما جاءه من العلم بأن يتهلوا فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين .

فهذا مما يلعن به القاذف ، ومما يلعن به أن يجلد وأن ترد شهادته ، ويفسق ، فإنه عقوبة له وإقصاء له عن مواطن الأمن والقبول ، وهي من رحمة الله وهذا بخلاف من أخبر الله أنه لعنه في الدنيا والآخرة فإن لعنة الله له توجب زوال النصر عنه من كل وجه وبعده عن أسباب الرحمة في الدارين .

ومما يؤيد الفرق أنه قال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (١) .

ولم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار ، كقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٤) .

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٠٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٩٠ .

﴿ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٤)

وأما قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥) . فهي - والله أعلم - فيمن جحد الفرائض واستخف بها ، على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له .

وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيداً للمؤمنين في قوله ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٦) .

في قوله ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧) .

وقوله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضَيْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٨) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٨ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة الجاثية آية رقم ٩ .

(٤) سورة المجادلة آية رقم ٥ .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٤ .

(٦) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .

(٧) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .

(٨) سورة النور آية رقم ١٤ .

وفي المحارب ﴿ ذَلِكْ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وفي القاتل ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ (٤) .

وذلك لأن الإهانة إذلال وتحقير وخزي ، وذلك قدر زائد على ألم العذاب ، فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان ، فلما قال في هذه الآية :

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٥) علم أنه من جنس العذاب الذي توعد به الكفار والمنافقين ولما قال هناك ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ جاز أن يكون من جنس العذاب في قوله ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

وما يبين الفرق أيضاً أنه سبحانه قال هناك . ﴿ وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾

والعذاب إنما أعد للكافرين ، فإن جهنم لهم خلقت ، لأنهم لا بد أن يدخلوها وما هم منها بمخرجين « وأهل الكبائر من المؤمنين يجوز أن يدخلوها

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٩٣ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٩٤ .

(٤) سورة الحج آية رقم ١٨ عند تفسير هذه الآية : قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن شيبان الرمي ، حدثنا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال قيل لعلي إن ها هنا رجلاً يتكلم في المشيئة فقال له علي : يا عبد الله خلقتك الله كما يشاء أو كما شئت . قال : بل كما شاء ، قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ، قال : بل إذا شاء قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت . قال بل إذا شاء ، قال فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء قال بل حيث يشاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف .

(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

إذا غفر الله لهم ، وإذا دخلوها فإنهم يخرجون منها ولو بعد حين ، قال سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) فأمر الله سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله ، وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين ، فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعلوا المعاصي ، مع أنها معدة للكافرين لا لهم .

ولذلك جاء في الحديث : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما أقوام لهم ذنوب فيصيبهم سفع من النار ثم يخرجهم الله منها » ^(٢) .

وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء وإن كان لا يدخلها الأبناء بعمل آبائهم ، ويدخلها قوم بالشفاعة ، وقوم بالرحمة ، وينشئ الله لما فضل منها خلقاً آخر من الدار الآخرة فيدخلهم إياها ، وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجبه ويستحقه ، ولمن هو أولى الناس به ، ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبعية أو لسبب آخر ، والله أعلم .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣١ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٢٥ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

٧٤٥٠ حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : وذكره ولفظه « ليصين أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته » يقال لهم (الجهنميون) ورواه أيضاً في كتاب الرقاق ٥١ باب صفة الجنة والنار بسنده عن أنس بن مالك بلفظ « يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سفع ، فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميون » .

وقال شيخ الإسلام

فصل

في الاستئذان والدخول

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ إلى قوله ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (١) وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : إنما جعل الاستئذان من أجل النظر (٢) .

والنظر المنهي عنه هو نظر العورات ، ونظر الشهوات وإن لم تكن من العورات .

والله سبحانه ذكر الاستئذان على نوعين ، ذكر من هذه الآية أحدهما وفي الآيتين في آخر السورة . النوع الثاني وهو استئذان الصغار والمماليك كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا

(١) سورة النور آية رقم ٢٧ - ٣٠ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الاستئذان ١١ باب الاستئذان من أجل البصر .

٦٢٤١ - حدثنا علي بن عبدالله ، حدثنا سفيان قال الزهري حفظته لما أنك ها هنا عن سهل بن سعد قال : اطلع رجل من حجر في حجر النبي - ﷺ - ومع النبي - ﷺ - مِذْرَى يَحْكُ بِهِ رَأْسَهُ فَقَالَ : لَوْ أَعْلِمْتُ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ ، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر .
ورواه الامام مسلم في الأدب ٤١ ، والترمذي في الاستئذان ١٧ والامام أحمد بن حنبل في المسند . ٣٣٠ : ٥ ، ٣٣٥ .

الْحُلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴿١﴾ .

فأمر باستئذان الصغار والماليك حين الاستيقاظ من النوم ، وحين إرادة النوم ، وحين القائلة فإن في هذه الأوقات تبدو العورات ، كما قال تعالى ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ .

وفي ذلك مما يدل على أن المملوك المميز، والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما .

وأما دخول هؤلاء في غير هذه الأوقات بغير استئذان فهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٢) .

وفي ذلك دلالة على أن الطوافين يرخص فيهم ما لا يرخص في غير الطوافين عليكم والطوافات والطواف من يدخل بغير إذن كما تدخل الهرة وكما يدخل الصبي والمملوك ، وإذا كان هذا في الصبي المميز فغير المميز أولى .

ويرخص في طهارته ، كما قال ذلك طائفة من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم من الصبيان والهرة وغيرهم : أنهم إن أصابتهم نجاسة أنها تطهر بمرور

(١) سورة النور آية رقم ٥٨ .

(٢) سورة النور آية رقم ٥٨ .

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير ، حدثني عبدالله بن لهيعة ، حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ إلى آخر الآية ، والآية التي في سورة النساء ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾ الآية ، والآية التي في الحجرات ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

الريق عليها ، ولا تحتاج إلى غسل ، لأنهم من الطوافين ، كما أخبر به الرسول من الهرة (١) مع علمه أنها تأكل الفأرة ، ولم تكن بالمدينة مياه تردها السنابير ليقال طهر فمها بورودها الماء ، فعلم أن طهارة هذه الأفواه لا تحتاج إلى غسل ، فلاستئذان في أول السورة قبل دخول البيت مطلقاً ، والتفريق في آخرها لأجل الحاجة لأن المملوك والصغير يحتاج إلى دخول البيت في كل ساعة فشق استئذانه بخلاف المحتلم .

(١) ورد الخبر في ذلك عن كبشة بنت كعب بنت مالك ، وكانت تحت ابن أبي قتادة : ان أبا قتادة دخل عليها فسكبت له وضوءاً ، فجاءت هرة تشرب منه فأصغى لها الإناء حتى شربت منه ، قالت كبشة فرآني انظر فقال : أتعجبين يا ابنة أخي ؟ قلت : نعم . قال : إن رسول الله - ﷺ - قال : إنها ليست بنجس ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات رواه الخمسة . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

فصل في غرض البصر وحفظ الفرج

وقال تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ ^(١) الآية إلى قوله : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .

فأمر الله سبحانه الرجال والنساء بالغض من البصر وحفظ الفروج ، كما أمرهم جميعاً بالتوبة ، وأمر النساء خصوصاً بالاستتار وأن لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ومن استثناه الله تعالى في الآية ، فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة ، فهذا لا جناح عليها في إبدائها إذا لم يكن في ذلك محذور آخر . فإن هذه لا بد من إبدائها وهذا قول ابن مسعود وغيره ، وهو المشهور عن أحمد وقال ابن عباس : الوجه واليدين من الزينة الظاهرة وهي الرواية الثانية عن أحمد ، وهو قول طائفة من العلماء كالشافعي وغيره .

وأمر سبحانه النساء بإرخاء الجلابيب لئلا يعرفن ولا يؤذين وهذا دليل على القول الأول ، وقد ذكر عبيدة السلماني ^(٣) وغيره أن نساء المؤمنين كن

(١) . (٢) سورة النور آية رقم ٣٠ - ٣١ .

(٣) هو عبيدة بن عمرو ، ويقال ابن قيس بن عمرو السلماني أبو عمر . أسلم قبل وفاة الرسول - ﷺ بستين ولم يلقه ، قاله هشام عن محمد عنه وغيره ، وروي عن علي وابن مسعود وابن الزبير ، روى عنه عبدالله بن سلمة المرادي ، وإبراهيم النخعي ، وأبو اسحاق السبيعي ومحمد =

يدين عليهن الجلابيب من فوق رؤوسهن حتى لا يظهر إلا عيونهن لأجل رؤية الطريق وثبت في الصحيح أن المرأة المحرمة تنهى عن الانتقاب والقفازين وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن ، وذلك يقتضي ستر وجوههن وأيديهن .

وقد نهى الله تعالى عما يوجب العلم بالزينة الخفية بالسمع أو غيره فقال ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ ^(١) .

وقال ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ^(٢) . فلما نزل ذلك عمد نساء المؤمنين إلى خمرهن فشققهن وأرخينها على أعناقهن .

والجيب هو شق في طول القميص ، فإذا ضربت المرأة بالخمار على الجيب سترت عنقها ، وأمرت بعد ذلك أن ترخي من جلبابها ، والإرخاء إنما يكون إذا خرجت من البيت فأما إذا كانت في البيت فلا تؤمر بذلك وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما دخل بصفية قال أصحابه : إن أرخى عليها الحجاب فهي من

= ابن سيرين وغيرهم ، قال الشعبي : كان شريح أعلمهم بالقضاء ، وكان عبيدة يوازيه وقال أشعث عن محمد بن سيرين : أدركت الكوفة وبها أربعة ممن يعد في الفقه فمن بدأ بالبخارث ثنى بعبيدة أو العكس ، أرخه ابن حبان في الثقات مات سنة ٧٢ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٨٤ : ٧] .

(١) سورة النور آية رقم ٣١ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣١ .

ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ، ولا بغير شهوة أصلاً ، واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي من حديث الزهري عن نبهان مولى أم سلمة أنه حدثه أن أم سلمة حدثته أنها كانت عند رسول الله - ﷺ وميمونة قالت : فيبينا نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله - (احتجبا منه) فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا . ؟ فقال رسول الله - ﷺ - أو عميان أنتما ؟ أو ألسنتا تبصرانه ؟ ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحراهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من وراءه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت .

أمهات المؤمنين ، وإن لم يضرب عليها الحجاب فهي مما ملكت يمينه ، فضرب عليها الحجاب (١) ، وإنما ضرب الحجاب على النساء لثلاث تروى وجوههن وأيديهن .

والحجاب مختص بالحرائر دون الإماء ، كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ وخلفائه أن الحرة تحتجب ، والأمة تبرز .

وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة مختمرة ضربها وقال : أتشبهين بالحرائر ، أي لكاع ، فيظهر من الأمة رأسها ويدها ووجهها .

وقال تعالى ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَغْفِقْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ (٢)
فرخص للعجوز التي لا تطمع في النكاح أن تضع ثيابها فلا تلقي عليها جلبابها ولا تحتجب ، وإن كانت مستثناة من الحرائر لزوال المفسدة الموجودة في غيرها كما استثنى التابعين غير أولي الأربة من الرجال في إظهار الزينة لهم ؛ لعدم الشهوة التي تتولد منها الفتنة ، وكذلك الأمة إذا كان يخاف بها الفتنة كان عليها أن ترخي من جلبابها ، وتحتجب ، ووجب غض البصر عنها ومنها .

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب النكاح ١٣ باب اتخاذ السراري ومن اعتق جارية ثم تزوجها .

٥٠٨٥ - حدثنا اسماعيل بن جعفر عن حميد عن أنس - رضي الله عنه - قال : أقام النبي - ﷺ - بين خيبر والمدينة ثلاثاً يبيي عليه بصفية بنت حيي . فدعوت المسلمين إلى وليمته . فما كان فيها خبز ولا لحم أمر بالانطاع فالتقى فيها من التمر والأقط والسمن ، فكانت وليمته فقال المسلمون إحدى أمهات المؤمنين أو مما ملكت يمينه ؟ فقالوا إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه . فلما ارتحل وطى لها خلفه ومد الحجاب بينها وبين الناس .

(٢) سورة النور آية رقم ٦٠ .

فصل

في غرض البصر وترك الشبهات . .

وليس في الكتاب والسنة إباحة النظر إلى عامة الاماء ولا ترك احتجابهن وابداء زينتھن، ولكن القرآن لم يأمرهن بما أمر الحرائر، والسنة فرقت بالفعل بينهن وبين الحرائر ولم تفرق بينهن وبين الحرائر بلفظ عام بل كانت عادة المؤمنين أن تحتجب منهم الحرائر دون الاماء واستثنى القرآن من النساء الحرائر القواعد، فلم يجعل عليهن احتجاباً، واستثنى بعض الرجال وهم غير أولي الإربة، فلم يمنع من ابداء الزينة الخفية لهم لعدم الشهوة في هؤلاء وهؤلاء، فإن يستثنى بعض الاماء أولى وأحرى، وهن من كانت الشهوة والفتنة حاصلة بترك احتجابها وابداء زينتھا. وكما أن المحارم أبناء أزواجهن ونحوه ممن فيه شهوة وشغف لم يجز ابداء الزينة الخفية له، فالخطاب خرج عاماً على العادة، فما خرج عن العادة خرج به عن نظائره فإذا كان في ظهور الأمة والنظر إليها فتنة وجب المنع من ذلك كما لو كانت في غير ذلك، وهكذا الرجل مع الرجال والمرأة مع النساء: لو كان في المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال لكان الأمر بالغرض للناظر من بصره متوجهاً، كما يتوجه إليه الأمر بحفظ فرجه فالإماء والصبيان إذا كن حساناً تختشي الفتنة بالنظر إليهم كان حكمهم كذلك، كما ذكر ذلك العلماء.

قال المروزي^(١): قلت لأبي عبدالله - يعني أحمد بن حنبل الرجل ينظر إلى

(١) هو محمد بن نصر المروزي، أبو عبدالله، إمام في الفقه والحديث، كان من أعلم الناس =

المملوك ، قال : إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه ، كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلاء وقال المروزي : قلت لأبي عبد الله : رجل تاب ، وقال لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية إلا أنه لا يدع النظر ؛ فقال : أي توبة هذه ؟ قال جرير : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال : اصرف بصرك (١) .

وقال ابن أبي الدنيا (٢) : حدثني أبي وسويد قالوا : حدثني إبراهيم بن هراسة عن عثمان بن صالح ، عن الحسن بن ذكوان قال : لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صوراً كصور النساء ، وهم أشد فتنة من العذارى . وهذا الاستدلال والقياس والتنبيه بالأدنى على الأعلى ، وكان يقول : لا يبيت الرجل في بيت مع الغلام الأمرد .

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن أبي سهل الصعلوكي قال : سيكون في هذه الأمة قوم يقال لهم : اللوطيون على ثلاثة أصناف :

= باختلاف الصحابة فمن بعدهم في الأحكام ولد ببغداد عام ٢٠٢ هـ ونشأ بنيسابور ، ورحل رحلة طويلة استوطن بعدها سمرقند ، وتوفي بها عام ٢٩٤ هـ له كتب كثيرة منها « القسامة » في الفقه ، قال أبو بكر الصيرفي : لو لم يكن له غيره لكان من أفقه الناس ، و« المسند » في الحديث وكتاب « ما خالف به أبو حنيفة علياً وابن مسعود ، واختصر المقرئ في ثلاثة من كتبه طبع في جزء واحد [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٠١ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٨٩ وتاريخ بغداد ٣ : ٣١٥] .

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب الأدب ٢٨ باب ما جاء في نظرة الفجأة ٢٧٧٦ - حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا هشيم ، أخبرنا يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ - وذكره . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا القرشي الأموي مولا لهم البغدادي ، أبو بكر : حافظ للحديث مكثر من التصنيف أدب الخليفة المعتضد العباسي في حدائثه ثم أدب ابنه المكتفي له مصنفات اطلع الذهبي على ٢٠ كتاباً منها ثم ذكر أسماءها كلها فبلغت ١٦٤ كتاباً وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس إن شاء أضحك جليسه ، وإن شاء أبكاه توفي عام ٢٨١ هـ [راجع تذكرة ٢ : ٢٢٤ وتهذيب ٦ : ١٢ وفوات ١ : ٢٣٦ وفهرست ابن النديم ١ : ١٨٥] .

صنف ينظرون ، وصنف يصفاحون ، وصنف يعملون ذلك العمل .

وقال ابراهيم النخعي ^(١) : كانوا يكرهون مجالسة الأغنياء وأبناء الملوك ، وقال : مجالستهم فتنة ، إنما هم بمنزلة النساء .

ووقفت جارية لم ير أحسن وجهاً منها على بشر الحافي ^(٢) فسألته عن باب حرب ، فأطرق رأسه ، فرد عليه الغلام السؤال فغمض عينيه ، فقيل له : يا أبا نصر : جاءتك جارية فسألتك فأجبته ، وجاءك هذا الغلام فسألك فلم تكلمه ؟

فقال : نعم ، يروى عن سفيان ^(٣) الثوري أنه قال : مع الجارية شيطان ، ومع الغلام شيطانان ، فخشيت على نفسي شيطانيه وروى أبو الشيخ القزويني بإسناده عن بشر أنه قال : احذروا هؤلاء الأحداث .

وقال فتح الموصلي : صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال كلهم أوصاني عند مفارقتي له : اتق صحبتة الأحداث اتق معاشرته الأحداث ، وكان سفيان الثوري لا يدع أمرد يجالسه ، وكان مالك بن أنس يمنع دخول المرد مجلسه

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعي ، من مذحج من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية وحفظاً للحديث ، من أهل الكوفة مات مخفياً من الحجاج ، قال فيه الصلاح الصفدي فقيه العراق ، كان إماماً مجتهداً له مذهب ولما بلغ الشعبي موته قال : والله ما ترك بعده مثله . [راجع طبقات ابن سعد ٦ : ١٨٨ - ١٩٩ وتهذيب التهذيب وحلية الأولياء ٤ : ٢١٩ وتاريخ الإسلام ٣ : ٣٣٥ وطبقات القراء ١ : ٢٩] .

(٢) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي أبو نصر ، المعروف بالحافي من كبار الصالحين ، له في الزهد والورع أخبار ، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل « مرو » سكن بغداد وتوفي بها . قال المأمون لم يبق في هذه الكورة أحد يستحي منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث . توفي عام ٢٢٧ هـ [راجع روضات الجنات ١ : ١٢٣ ووفيات الأعيان ١ : ٩٠ وتاريخ بغداد ٧ : ٦٧ - ٨٠ وابن عساكر ٣ : ٢٢٨ وصفة الصفوة ٢ : ١٨٣] .

(٣) سبق الترجمة له . وراجع : دول الاسلام ١ : ٨٤ وابن النديم ١ : ٢٢٥ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ : ٢٥٧ ، والمعارف ٢١٧ وحلية الأولياء ٦ : ٣٥٦ ثم ٧ : ٣ وتهذيب التهذيب ٤ : ١١١ - ١١٥ .

للسماع ، فاحتال هشام فدخل في غمار الناس مستتراً بهم ، وهو أمرد فسمع منه ستة عشر حديثاً ، فأخبر بذلك مالك فضربه ستة عشر سوطاً ، فقال هشام : ليتني سمعت مائة حديث وضربني مائة سوط ، وكان يقول : هذا علم إنما أخذناه عن ذوي اللحي والشيخ فلا يحمله عنا إلا أمثالهم .

وقال يحيى بن معين ^(١) : ما طمع أمرد أن يصحبني ولا أحمد بن حنبل في طريق .

وقال أبو علي الروذبالي : قال لي أبو العباس أحمد بن المؤدب يا أبا علي من أين أخذ صوفية عصرنا هذا الأنس بالأحداث ، وقد تصحبهم السلامة في كثير من الأمور ، فقال : هيهات قد رأينا من هو أقوى منهم إيماناً إذا رأى الحدث قد أقبل نفر منه كفراره من الأسد وإنما ذاك على حسب الأوقات التي تغلب الأحوال على أهلها فيأخذها تصرف الطباع ، ما أكثر الخطأ ، ما أكثر الغلط .

قال الجنيد بن محمد ^(٢) : جاء رجل إلى أحمد بن حنبل معه غلام أمرد حسن الوجه ، فقال له : من هذا الفتى ؟ فقال الرجل : ابني ، فقال : لا تجيء به معك مرة أخرى فلامه بعض أصحابه في ذلك ، فقال أحمد : على هذا رأينا أشياء ، وبه أخبرونا عن أسلافهم وجاء حسن بن الرازي إلى أحمد ومعه غلام

(١) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد المري بالولاء ، البغدادي أبو زكريا من أئمة الحديث ، ومؤرخي رجاله نعتة الذهبي بسيد الحفاظ وقال العسقلاني : إمام الجرح والتعديل ، وقال أحمد ابن حنبل : أعلمنا بالرجال . ومن كلامه كتبت بيدي ألف ألف حديث . له التاريخ والعلل . والكنى والأسماء . كان والده على خراج الري وخلف له ثروة كبيرة فأنفقها في طلب الحديث . توفي بالمدينة حاجاً عام ٢٣٣ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٦ وتهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ٢ : ٢١٤ وطبقات الخنابلة ٢٦٨ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٧٧] .

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي توفي عام ٢٩٧ (سبق الترجمة له) [وراجع : وفيات الأعيان ١ : ١١٧ وحلية الأولياء ١٠ : ٢٥٥ وصفة الصفوة ٢ : ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٧ : ٢٤١ وطبقات السبكي ٢ : ٢٨ - ٣٧ وطبقات الخنابلة ٨٩ والمناوي ١ : ٢١٢] .

حسن الوجه فتحدث معه ساعة ، فلما أراد أن ينصرف قال له أحمد : يا أبا علي لا تمشي مع هذا الغلام في طريق ، فقال : يا أبا عبدالله إنه ابن أختي قال : وإن كان لا يائتم الناس فيك .

وروى ابن الجوزي ^(١) بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : إذا رأيتم الرجل يلمح بالنظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه .

وقد روى في ذلك أحاديث مسندة ضعيفة . وحديث مرسل أجود منها ، وهو ما رواه أبو محمد الخلال : ثنا عمر بن شاهين ، ثنا محمد بن أبي سعيد المقرئ ثنا أحمد بن حماد المصيصي : ثنا عباس بن مجوز ثنا أبو أسامة عن مجالد عن سعيد عن الشعبي قال : قدم وفد عيد القيس ^(٢) على رسول الله ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضوء فأجلسه النبي ﷺ وراء ظهره ، وقال : كانت خطيئة داود في النظر « هذا حديث منكر ^(٣) .

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي توفي عام ٥٩٧ هـ وسبق الترجمة له وراجع في ترجمته ١ وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٧ وآداب اللغة ٣ : ٩١ .

(٢) روى ابن سعد في طبقاته قال : أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي قال : حدثني قدامة بن موسى عن عبد العزيز بن رمانة عن عروة بن الزبير قال : وحدثني عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم ، فقدم عليه عشرون رجلاً رأسهم عبدالله بن عوف الأشج ، وفيهم الجارود منقذ بن حيان وهو ابن أخت الأشج ، وكان قدومهم عام الفتح : فقبل يا رسول الله هؤلاء وفد عبد القيس قال : مرحباً بهم نعم القوم عبد القيس . فهم عشرون رجلاً وليس فيهم غلمان فهذا حديث منكر كما قال الامام ابن تيمية . قال : فجاءوا في ثيابهم ورسول الله ﷺ ، في المسجد فسلموا عليه ، وسألهم رسول الله ﷺ - أيكم عبدالله الأشج ؟ قال : أنا يا رسول الله - وكان رجلاً دميماً فنظر إليه رسول الله ﷺ - فقال : إنه لا يستسقي في مسول الرجال إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه وقلبه .

فقال رسول الله ﷺ - فيك خصلتان يحبهما الله ، فقال عبدالله ، وما هما ؟ قال : الحلم والأناة ، قال شيء حدث أم جبلت عليه ؟ قال : بل جبلت عليه .

(٣) قال الشوكاني تعليقاً على الخبر : لا أصل له في اسناده مجاهيل ، أنظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٢٠٦ .

وأما المسندة فمنها ما رواه ابن الجوزي بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : من نظر إلى غلام أمرد بريئة حبسه الله في النار أربعين عاماً ، وروى الخطيب البغدادي بإسناده عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا تجالسوا أبناء الملوك ، فإن الأنفس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق إلى غير ذلك من الأحاديث الضعيفة ^(١) .

وكذلك المرأة مع المرأة ، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه وابن أخيه وابن أختها ومملوكها عند من يجعله محرماً ، متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجه الاحتجاب بل وجب .

وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ ^(٢) فقد تحصل الزكاة والطهارة بدون ذلك ، لكن هذا أزكى ، وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة لما يوجد في ذلك من شهوة القلب واللذة بالنظر كان ترك النظر والاحتجاب أولى بالوجوب ، ولا زكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة ، لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار ودون ذلك ومن المباشرة من الغير له وكشفه للغير ، ونظر الغير إليه ، فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه ولهذا قال ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال له : يا رسول الله : عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ فقال : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما

(١) ما كان أغنانا وأغنى الشيخ ابن تيمية عن إيراد هذه الأحاديث الضعيفة ، وفي الأحاديث الصحيحة غناء أي غناء ؟؟

(٢) سورة النور ٣٠ والآية ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ .

روى مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه قال : سألت النبي - ﷺ - عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري . وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضاً وقال الترمذي : حسن صحيح .

ملكتم يمينكم. قال : فإذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها ، قال : فإذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : فالله أحق أن يستحي منه الناس » (١) .

وقد نهى النبي ﷺ « أن تبأشر المرأة المرأة في شعار واحد ، وأن يباشر الرجل الرجل في شعار واحد » (٢) .

ونهى عن المشي عراة .
ونهى عن أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، وأن تنظر المرأة إلى عورة المرأة (٣) .

وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر » (٤) .

وفي رواية :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من انث أمتي فلا تدخل الحمام إلا بمئزر » (٥) .

(١) الحديث رواه أبو داود في الحمام ٢ ، والإمام الترمذي في الأدب ٢٢، ٢٩ ، وابن ماجه في كتاب النكاح ٢٨ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣ (حلي) وهذا الحديث حسنه الترمذي ، وصححه الحاكم وأخرجه ابن أبي شيبة بالزيادة التي أوردها المصنف .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١ : ٣٠٤ ، ٣١٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣

٢ : ٣٢٦ ، ٤٤٧ ، ٤٩٧ ، ٣ : ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ . ورواه أبو داود في كتاب الأدب ٣٨ .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في الأدب ٣٨ وابن ماجه في الطهارة ١٣٧ ، وأحمد بن حنبل ٣ : ٦٣ والامام مسلم في الحيض ٧٤ .

(٤) الحديث رواه الامام النسائي في الغسل ٢ ، وابن ماجه في الأدب ٣٨ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٢١ ، ٣٣٩ (حلي) .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي في الاستئذان ، والحاكم في الأدب عن جابر وقال الترمذي : حسن =

وقال العلماء : يرخص للنساء في الحمام عند الحاجة كما يرخص للرجال مع غرض البصر وحفظ الفرج .

وذلك مثل أن تكون مريضة أو نفساء ، أو عليها غسل لا يمكنها إلا في الحمام ، وأما إذا اعتادت الحمام وشق عليها تركه ، فهل يباح لها على قولين : في مذهب أحمد وغيره :

أحدهما : لا يباح ، والثاني : يباح وهو مذهب أبي حنيفة واختاره ابن الجوزي .

= غريب ، وقال الحاكم : على شرط مسلم ، وأقره الذهبي ، وفيه مقال يطول . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢١١ / ٦ وفي النسائي كتاب الغسل ، وابن ماجه في الأدب ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٢١ .

فصل

في غرض البصر عن بيوت الآخرين

وكما يتناول غرض البصر عن عورة الغير وما أشبهها من النظر إلى المحرمات فإنه يتناول الغرض عن بيوت الناس ، فبيت الرجل يستر بدنه كما تستره ثيابه وقد ذكر سبحانه غرض البصر وحفظ الفرج بعد آية الاستئذان ، وذلك أن البيوت سترة كالثياب التي على البدن ، كما جمع بين اللباسين في قوله تعالى ﴿ وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيْكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيْكُمْ بِأَسْكُنُمْ ﴾ (١) .

فكل منهما وقاية من الأذى الذي يكون سموماً مؤذياً كالحر والشمس والبرد ، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك .

وقد ذكر في أول سورة النحل أصول النعم ، وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات ، وذكر في أثنائها تمام النعم ، وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات ثم قال : ﴿ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُوْنَ ﴾ (٢) وفي

(١) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨١ قال عبدالله بن المبارك ، وعباد بن العوام بن حنظلة السدوسي عن شهر ابن حوشب عن ابن عباس أنه كان يقرأها (تسلمون) بفتح اللام يعني من الجراح . رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد وأخرجه ابن جرير من الوجهين بورود هذه القراءة . وقال عطاء الخراساني إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب .

الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا طلع في بيتك أحد ولم تأذن له فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح» (١).

وهذا الخاص يفسر العام الذي في الصحيح عن عبد الله بن مغفل «أنه رأى رجلاً يحذف قال: لا تحذف فإن رسول الله ﷺ نهى عن الحذف وقال: إنه لا يصاد به صيد، ولا ينكأ به عدو ولكنها تكسر السن وتفقد العين» (٢).

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد «أن رجلاً اطلع في حجرة باب النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ مدرى يحك بها رأسه، فقال: لو أعلم أنك تنظر إلي لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» (٣).

وقد ظن طائفة من العلماء أن هذا من باب دفع الصائل، لأن الناظر معتد بنظره فيدفع كما يدفع سائر البغاة، ولو كان الأمر كما قالوا لدفع بالأسهل فالأسهل، ولم يجز قلع عينه ابتداء إذا لم يذهب إلا بذلك، والنصوص تخالف ذلك، فإنه أباح أن تحذفه حتى تفقد عينه قبل أمره بالانصراف وكذلك قوله «لو

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الديات ١٥ باب من أخذ حقه أو اقتص دون السلطان .
٦٨٨٨ حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد إن الأعرج حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : إنه سمع رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه النسائي في القسامة ٤٨ والإمام أحمد ٢ : ٢٤٣ ، ٤٢٨ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الذبائح والصيد ٥ باب الحذف والبنفقة ٥٤٧٩ - حدثنا وكيع ويزيد بن هارون - واللفظ ليزيد - عن كهمس بن الحسن عن عبد الله بن بريدة عن عبد الله ابن مغفل أنه رأى رجلاً يحذف فقال له لا تحذف فإن رسول الله - ﷺ - نهى عن الحذف وذكره ، ورواه في الأدب ١٢٢ ورواه الامام مسلم في الصيد ٥٤ - ٥٦ وأبو داود في الأدب ١٦٦ ، وابن ماجه في الصيد ١١ والدارمي في المقدمة ٤٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٨٦ ، ٥ : ٥٤ - ٥٧ (حلي) .

(٣) الحديث رواه أبو داود في الأدب ١٢٧ ، والترمذي في الاستئذان ١٧ والنسائي في القسامة ٤٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٧٨ ، ١٩١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٥ : ٣٣٥ (حلي) .

أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك » .

فجعل نفس النظر مبيحاً للطعن في العين ، ولم يذكر الأمر له
بالانصراف .

وهذا يدل على أنه من باب المعاقبة له على ذلك حيث جنى هذه
الجنابة على حرمة صاحب البيت فله أن يفقأ عينه بالحصا والمدرى .

فصل

في أن النظر الى العورات حرام

والنظر إلى العورات حرام داخل في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ ﴾ ^(١) . وفي قوله ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ ^(٢) فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المباشرة بالفرج أو الدبر ، وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك . وكما في قصة لوط ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ^(٤) وقوله ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ ^(٥) فالفاحشة أيضاً تتناول كشف العورة وإن لم يكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ ^(٦)

وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عراة ، وكانوا يقولون : لا نطوف بثياب عصينا الله فيها ، إلا الحمس فإنهم كانوا يطوفون في ثيابهم ، وغيرهم إن حصل له ثياب من الحمس طاف فيها ، وإلا طاف عرياناً . وإن طاف بثيابه حرمت عليه فآلقاها ، فكانت تسمى لقاء ، وكذلك المرأة إذا لم يحصل لها ثياب

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥١ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٨٠ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٥٤ .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ٣٢ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ .

جعلت يدها على فرجها ويدها الأخرى على دبرها وطافت وتقول
اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وقد سمي الله ذلك فاحشة وقوله في سياق ذلك ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ ^(١) يتناول كشف العورة أيضاً وإبداءها ،
ويؤكد ذلك أن إبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاً وتفحشاً ،
فكشف الأعضاء ، والفعل للبصر ، ككشف ذلك للسمع . وكل واحد من
الكشفين يسمى وصفاً كما قال عليه السلام « لا تنعت المرأة المرأة لزوجها حتى
كأنه ينظر إليها » ^(٢) .

ويقال : فلان يصف فلاناً . وثوب يصف البشرة ثم إن كل واحد من
إظهار ذلك للسمع والبصر يباح للحاجة ، بل يستحب إذا لم يحصل المستحب أو
الواجب إلا بذلك ، كقول النبي ﷺ لما عَزَّ « أنكتها » ^(٣) وكقوله « من تعزى
بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » والمقصود أن الفاحشة تتناول
الفعل القبيح وتتناول إظهار الفعل وأعضائه ، وهذا كما أن ذلك يتناول ما

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب النكاح ١١٨ باب لا تبشر المرأة المرأة فتنتعنها لزوجها .
٥٢٤٠ - حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن منصور عن أبي وائل عن عبدالله بن
مسعود - رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ - وذكره .

ورواه أبو داود في النكاح ٤٣ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ،
٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ (حلي) .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الحدود ٢٨ باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو
غمزت ؟ .

٦٨٢٤ - حدثني عبدالله بن محمد الجعفي ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبي قال : سمعت
يعلى بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال لما أبي ماعز بن مالك النبي -
ﷺ - قال له : لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ؟ قال : لا يا رسول الله . قال :
أنكتها . ؟ - لا يكتي - قال : فعند ذلك أمر برجمه .

فحش وإن كان بعقد نكاح كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١) .

فأخبر أن هذا النكاح فاحشة .

وقد قيل : إن هذا من الفواحش الباطنة فظهر أن الفاحشة تتناول العقود الفاحشة كما تتناول المباشرة بالفاحشة ، فإن قوله : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ بتناول العقد والوطء ، وفي قوله ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال ، وأمر تعالى بحفظ الفرج مطلقاً بقوله ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ (٢) ويقول ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ (٣) الآيات .

وقال : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ (٤) محفظ الفرج مثل قوله ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ (٥) وحفظها هو صرفها عما لا يحل .

وأما الأبصار فلا بد من فتحها والنظر بها ، وقد يفجأ الإنسان ما ينظر إليه بغير قصد ، فلا يمكن غضها مطلقاً ، ولهذا أمر الله تعالى عباده بالغض منها ، كما أمر لقمان ابنه بالغض من صوته . وأما قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ (٦) الآية .

فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسوله مطلقاً فهم مأمورون بذلك في مثل ذلك ينهاون عن رفع الصوت عنده ﷺ ، وأما غض الصوت مطلقاً عند رسول الله ﷺ فهو غض خاص بمدوح ، ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقاً في

(١) سورة النساء آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة المعارج آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٣٥ .

(٥) سورة التوبة آية رقم ١١٢ .

(٦) سورة الحجرات آية رقم ٣ .

كل حال ، ولم يؤمر العبد به بل يؤمر برفع الصوت في مواضع : إما أمر إيجاب أو استحباب ، فلهذا قال :

﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ ^(١) فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه ، فبالسمع يدخل القلب ، وبالصوت يخرج منه ، كما جمع العضوين في قوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ ^(٢) فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور ، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور ، هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه .

ثم قال تعالى ﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ^(٣) وقال ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ^(٤)

وقال ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ^(٥) .

وقال في آية الاستئذان ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ ^(٦) .

وقال ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ ﴾ ^(٧) .

وقال ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ^(٨) .

(١) سورة لقمان آية رقم ١٩ .

(٢) سورة البلد آية رقم ٨ - ٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٣٢ وجاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث قال : ذلك .

(٤) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٣٣ .

(٦) سورة النور آية رقم ٢٨ .

(٧) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ .

(٨) سورة المجادلة آية رقم ١٢ .

وقال النبي ﷺ : اللهم طهر قلبي من خطاياي بالماء والثلج والبرد « (١) .

وقال في دعاء الجنائز « . . واغسله بماء وثلج وبرد ، ونقه من خطاياها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » (٢) .

فالتطهارة ، والله أعلم - هي من الذنوب التي هي رجس ، والزكاة تتضمن معنى التطهارة التي هي عدم الذنوب ، ومعنى النماء بالأعمال الصالحة ، مثل المغفرة والرحمة ، ومثل النجاة من العذاب والفوز بالثواب ، ومثل عدم الشر وحصول الخير ، فإن التطهارة تكون من الأرجاس والأنجاس ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (٣) وقال ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ (٤) وقال ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٥) .

وقال عن المنافقين ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ (٦) وقال عن قوم لوط ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٧) .

وقال اللوطية عن لوط وأهله ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٨) .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الدعوات ٤٦ باب التعوذ من فتنة الفقر ٦٣٧٧ - أخبرنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي - ﷺ - يقول : وذكره ورواه مسلم في الصلاة ٢٠٤ والمساجد ١٤٧ وابن ماجه في الاقامة ١ والدعاء ٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣١ ، ٤٩٤ ، ٤ : ٣٥٤ ، ٣٨١ ، ٦ ، ٥٧ ، ٢٠٧ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في الجنائز ٨٥ ، ٨٦ والنسائي في الجنائز ٧٧ وابن ماجه في الجنائز ٢٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٢٣ ، ٢٨ (حلي) .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٣٠ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٩٠ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٩٥ .

(٧) سورة الأنبياء آية رقم ٧٤ جاءت الآية محرفة في المطبوعة بزيادة (وأهله) .

(٨) سورة الأعراف آية رقم ٨٢ .

قال مجاهد : عن أدبار الرجال .

ويقال : « في دخول الغائط أعوذ بك من الخبث والخبائث »^(١) .

ومن الرجس النجس الخبيث المخبث ، وهذه النجاسة تكون من الشرك والنفاق والفواحش والظلم ونحوها ، وهي لا تزول إلا بالتوبة عن ترك الفاحشة وغيرها ، فمن تاب منها فقد تطهر وإلا فهو متنجس وإن اغتسل بالماء من الجنابة ، فذاك الغسل يرفع حدث الجنابة ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه ، فإن تلك نجاسة لا يرفعها الإغتسال بالماء ، وإنما يرفعها الاغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات .

وهذا معنى ما رواه ابن أبي الدنيا وغيره : ثنا سويد بن سعيد ، ثنا مسلم ابن خالد ، عن اسماعيل بن كثير ، عن مجاهد قال « لو أن الذي يعمل - يعني عمل قوم لوط - اغتسل بكل قطرة في السماء ، وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً » ورواه ابن الجوزي .

وروى القاسم بن خلف^(٢) في « كتاب ذم اللواط » بإسناده عن الفضيل ابن عياض^(٣) أنه قال : لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة نزلت من السماء للقي

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الوضوء ٩ باب ما يقول عند الخلاء ١٤٢ حدثنا آدم قال : حدثنا شعبة عن عبد العزيز بن صهيب قال : سمعت أنساً يقول : كان النبي - ﷺ - إذا دخل الخلاء وذكره .

تابعه ابن عرعة عن شعبة . وقال غندر عن شعبة (إذا أتى الخلاء) وقال موسى عن حماد « إذا دخل » وقال سعيد بن زيد ، حدثنا عبد العزيز (إذا أراد أن يدخل)

(٢) هو قاسم بن خلف بن فتح بن عبد الله بن جبير أبو عبد الله الجبيري : قاض أندلسي من علماء المالكية أصله من طرطوسة ، ولد عام ٣١٢ وتفقّه في قرطبة ورحل إلى المشرق فغاب ١٣ عاماً وعلت مكانته عند الحكم المستنصر فأسكنه معه في الزهراء وولي قضاء بلنسية وطرطوسة زمناً ثم اتهم بمؤالة عبد الله بن عبد الرحمن الناصر فحبس في « المطبق » فبقي عشر سنوات توفي في نهايتها عام ٣٧٨ هـ له كتاب في التوسط بين مالك وابن القاسم فيما خالف به ابن القاسم مالكا .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع (طبقات الصوفية ٦ - ١٤ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٢٥ =

الله غير طاهر .

وقد روى أبو محمد الخلال عن العباس الهاشمي ذلك مرفوعاً (١) .

وحديث ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزها إلا أن يتوبا (٢) ، ورفع مثل هذا الكلام منكر ، وإنما هو معروف من كلام السلف .

وكذلك روي عن أبي هريرة وابن عباس قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته « من نكح امرأة في دبرها أو غلاماً أو رجلاً حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ، ويحبط الله عمله ، ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، ويجعل في تابوت من نار ويسمر عليه بمسامير من حديد ، فتشك تلك المسامير في وجهه وجسده » (٣) قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب ، وذلك لأن تارك اللواط متطهر كما دل عليه القرآن ، ففاعله غير متطهر من ذلك فيكون متنجساً ، فإن ضد الطهارة النجاسة .

= وتهذيب ٨ : ٢٩٤ والجواهر المضية ١ : ٤٠٩ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٤ وحلية الأولياء ٨ : ٨٤ وابن خلكان ١ : ٤١٥ .

(١) الخبر أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، وأسندته الديلمي عن أنس مرفوعاً بلفظ (لو اغتسل اللوطي بماء البحر لم يجيء يوم القيامة إلا جنباً وأسندته أيضاً عن أبي هريرة بلفظ مختلف مع اتفاق في المعنى ، قال في المقاصد : وكل ما في معناه باطل ونقل ابن الجوزي ، تعليقاً على حديث أنس - قول الخطيب : الرجال المذكورون في إسناد هذا الحديث كلهم ثقة غير أبي سهل ، وهو الذي ضعفه . [راجع كشف الخفا والألباس للعجلوني ٢١٩ / ٢ والموضوعات لابن الجوزي ١١٢ / ٣] .

(٢) الخبر رواه روح بن مسافر عن حماد عن ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود وأورده ابن حبان في ترجمة روح بن مسافر وقال : كان من يروي الموضوعات عن الأثبات لا تحل الرواية عنه كما أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال : هذا موضوع ثم نقل رأي ابن حبان . [راجع المجروحون لابن حبان ١٢٩٩ والموضوعات لابن الجوزي ١١٢ / ٣] .

(٣) الحديث عند الترمذي في كتاب الرضاع ١٢ باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن . ١١٦٦ بلفظ « ولا تأتوا النساء في أعجازهن » وعند ابن ماجه في كتاب النكاح ٢٩ باب =

فصل في أنواع النجاسة

لكن النجاسة أنواع مختلفة ، تختلف أحكامها .

ومن ها هنا غلط بعض الناس من الفقهاء ، فإنهم لما رأوا ما دل عليه القرآن من طلب طهارة الجنب بقوله ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهِّرُوا ﴾ ^(١) قالوا : فيكون الجنب نجساً ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «إن المؤمن لا ينجس» ^(٢) لما انخس منه وهو جنب وكره أن يجالسه ، فهذه النجاسة التي نفاها النبي ﷺ هي نجاسة الطهارة بالماء التي

= النهي عن إتيان النساء في أدبارهن بسنده عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ قال (لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها » .

(١) سورة المائدة آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الغسل ٢٣ باب عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس ٢٨٣ - حدثنا علي بن عبدالله ، حدثنا يحيى قال : حدثنا حميد ، قال : حدثنا بكر عن أبي رافع عن أبي هريرة أن النبي ﷺ - لقيه في بعض طريق المدينة وهو جنب فأنخست منه ، فذهب فاغتسل ثم جاء فقال : أين كنت يا أبا هريرة ؟ قال : كنت جنباً فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة . فقال : سبحان الله . وذكره .

ورواه في الجائز ٨ والإمام مسلم في الحيز ١١٥ - ١١٦ ، وأبو داود في الطهارة ٩١ والترمذي في الطهارة ٨٩ والنسائي في الطهارة ١٧١ وابن ماجه في الطهارة ٨٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٥ ، ٢٨٢ ، ٤٧١ ، ٥ : ٣٨٤ ، ٤٠٢ (حلي) .

ظنها أبو هريرة ، والجنابة تمنع الملائكة أن تدخل بيتاً فيه جنب .

وقال أحمد: إذا وضع الجنب يده في ماء قليل أنجس الماء ، فظن بعض أصحابه أنه أراد النجاسة الحسية ، وإنما أراد الحكمية ، فإن الفرع لا يكون أقوى من الأصل ، ولا يكون الماء أعظم من البدن ، بل غايته أن يقوم به المانع الذي قام بالبدن ، والجنب ظاهره ممنوع من الصلاة فيكون الماء كذلك طاهراً لا يتوضأ به للصلاة . وأما الزكاة فهي متضمنة النماء والزيادة كالزرع وإن كانت الطهارة قد تدخل في معناها ، فإن الشيء إذا تنظف مم يفسره زكى ونما وصلح وزاد في نفسه كالزرع ينفي من الدغل قال الله تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ أَتَلْتَنَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ (٢) وقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٣) .

وقال ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ (٤) فإن الرجوع عمل صالح يزيد المؤمن زكاة وطهارة وقال ﴿ ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (٥) فإن ذلك مجانبه لأسباب الريبة ، وذلك من نوع مجانبه الذنوب والبعد عنها ومباعدتها فأخبر أن ذلك أطهر لقلوب الطائفتين . وأما الآية التي نحن فيها وهي قوله ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ (٦) .

(١) سورة النور آية رقم ٢١ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٧٤ .

(٣) سورة الشمس آية رقم ٩ .

(٤) سورة النور آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ .

(٦) سورة النور آية رقم ٣٠ .

فالغض من البصر وحفظ الفرج يتضمن البعد عن نجاسة الذنوب ، ويتضمن الأعمال الصالحة التي يزكو بها الإنسان ، وهو أزكى ، والزكاة تتضمن الطهارة ، فإن فيها معنى ترك السيئات ومعنى فعل الحسنات ، ولهذا تفسر تارة بالطهارة وتارة بالزيادة والنماء ، ومعناها يتضمن الأمرين وإن كان قرن الطهارة معها في الذكر مثل قوله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ ^(١) فالصدقة توجب الطهارة من الذنوب ، وتوجب الزكاة التي هي العمل الصالح ، كما أن الغض من البصر ، وحفظ الفرج هو أزكى لهم ؛ وهما يكونان باجتنب الذنوب وحفظ الجوارح ، ويكونان بالتوبة والصدقة التي هي الإحسان ، وهذان هما التقوى والإحسان ، و ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ^(٢) .

وقد روى الترمذي وصححه « أن النبي ﷺ سئل ما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : الأجوفان : الفم والفرج ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : تقوى الله وحسن الخلق » ^(٣) فيدخل في تقوى الله حفظ الفرج وغض البصر ، ويدخل في حسن الخلق الإحسان إلى الخلق والامتناع من إيذائهم ، وذلك يحتاج إلى الصبر ، والإحسان إلى الخلق يكون عن الرحمة ، والله تعالى يقول : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ^(٤) . وهو سبحانه ذكر الزكاة هنا كما قدمها من قوله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ ^(٥) .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

(٣) ورد الحديث في سنن ابن ماجه ٢ : ١٤٨٨ ، وفي البخاري (كتاب الرقاق) عن سهل بن سعد « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة ، وذكر المنذري في الترغيب والترهيب عدة روايات للحديث ٤ : ٦١ - ٦٤ وفي المسند ٥ : ٣٣٣ (حلي) وذكر النبهاني في الفتح الكبير ٣ : ٢٤٦ أن الحديث رواه الامام ابن حبان ، والحاكم في المستدرک .

(٤) سورة البلد آية رقم ١٧ .

(٥) سورة النور آية رقم ٢١ .

فإن اجتناب الذنوب يوجب الزكاة التي هي زوال الشر وحصول الخير ،
والمفلحون هم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات ، كما وصفهم في أول
سورة البقرة فقال :

﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) الآيات وقال ﴿ قَدْ
أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ^(٢) .

فإذا كان قد أخبر أن هؤلاء مفلحون وأخبر أن المفلحين هم المتقون
﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ^(٣) وأخبر
أن من زكى نفسه فهو مفلح دل ذلك على أن الزكاة تنتظم الأمور المذكورة في
أول سورة البقرة .

وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(٤) وقوله ﴿ فَلَا تَزَكُوا
أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ^(٥) فالتزكية من العباد لأنفسهم هي إخبارهم عن
أنفسهم بكونها زاكية واعتقاد ذلك ، لا نفس جعلها زاكية ، وقال تعالى عن
إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ^(٦) وقال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٧) الآية
وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ ^(٨) الآية .

(١) سورة البقرة آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٤٩ .

(٥) سورة النجم آية رقم ٣٢ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ١٢٩ .

(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

(٨) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

فامتن سبحانه على العباد بإرساله في عدة مواضع فهذه أربعة أمور أرسله بها ، تلاوة آياته عليهم وتزكيتهم ، وتعليمهم الكتاب والحكمة .

وقد أفرد تعليمه الكتاب والحكم بالذكر مثل قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ ^(٢) وذلك أن التلاوة عليهم وتزكيتهم أمر عام لجميع المؤمنين ، فإن التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم وهذا لا بد منه لكل مؤمن ، وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها ، وتليت عليهم ، فالأول سمعهم ، والثاني : طاعتهم ، والمؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا ، الأول علمهم ، والثاني عملهم .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٤ .

فصل

في حقيقة الإيمان

والإيمان قول وعمل، فإذا سمعوا آيات الله وعوها بقلوبهم وأحبوها وعملوا بها، ولم يكونوا كمن قال فيهم ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١) وإذا عملوا بها زكوا بذلك وكانوا من المفلحين المؤمنين .

والله قال ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٢) .

وقال في ضدهم ﴿الْأَغْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ (٣) فأخبر أنهم أعظم كفراً ونفاقاً وجهلاً، وذلك ضد الإيمان والعلم، فاستماع آيات الله والتزكي بها أمر واجب على كل أحد، فإنه لا بد لكل عبد من سماع رسالة سيده التي أرسل بها رسوله إليه وهذا هو السماع الواجب الذي هو أصل الإيمان ولا بد من التزكي بفعل المأمور وترك المحظور فهذان لا بد منهما .

وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على كل

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧١ .

(٢) سورة المجادلة آية رقم ١١ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٩٧ .

أحد بعينه أن يكون عالماً بالكتاب لفظه ومعناه ، عالماً بالحكمة جميعها ، بل المؤمنون كلهم مخاطبون بذلك ، وهو واجب عليهم ، كما هم مخاطبون بالجهاد ، بل وجوب ذلك أسبق وأؤكد من وجوب الجهاد ، فإنه أصل الجهاد ، ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون .

ولهذا كان قيام الرسول والمؤمنين بذلك قبل قيامهم بالجهاد ، فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه ، وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه ومقصود الرسالة فعل الواجبات والمستحبات جميعاً ولا ريب أن استماع كتاب الله والإيمان به وتحريم حرامه ، وتحليل حلاله ، والعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه واجب على كل أحد ، وهذا هو التلاوة المذكورة في ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ (١) .

فأخبر عن الذين يتلونه حق تلاوته أنهم يؤمنون به ، وبه قال سلف الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم .

وقوله ﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ (٢) كقوله ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (٣) .
﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ (٤) .

وأما حفظ جميع القرآن وفهم جميع معانيه ومعرفة جميع السنة فلا يجب على كل أحد ، لكن يجب على العبد أن يحفظ من القرآن ويعلم معانيه

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢١ .

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير ، وقال سعيد عن قتادة : هم أصحاب رسول الله - ﷺ . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، وعبد الله بن عمران الأصبهاني قال : أخبرنا يحيى بن يمان ، حدثنا أسامة بن زيد عن أبيه عن عمر بن الخطاب ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٨ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ .

ويعرف من السنة ما يحتاج إليه ، وهل يجب عليه أن يسمع جميع القرآن ؟ فيه خلاف ولكن هذه المعرفة الحكمية التي تجب على كل عبد ليس هو علم الكتاب والحكمة التي علمها النبي ﷺ أصحابه وأمته ، بل ذلك لا يكون إلا بمعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من الألفاظ والمعاني والأفعال والمقاصد ولا يجب هذا على كل أحد .

وقوله تعالى ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (١) دليل على أن الزكاة هي التقوى والتقوى تنتظم الأمرين جميعاً ، بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات ، إذ الإنسان حارث همام ، ولا يدع إرادة السيئات وفعلها إلا بإرادة الحسنات وفعلها ، إذ النفس لا تخلو عن الإرادتين جميعاً ، بل الإنسان بالطبع يريد فعال وهذا دليل على أن هذا يكون سببه الزكاة والتقوى التي بها يستحق الإنسان الجنة كما في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال « من تكفل لي بحفظ ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » (٢) .

ومن تزكى فقد أفلح فيدخل الجنة ، والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر ، فإذا حصل الخير وزال الشر - من العلم والعمل - حصل له نور وهدى ومعرفة وغير ذلك ، والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية ، وغير

(١) سورة النجم آية رقم ٣٢ .

قال الامام مسلم في صحيحه : حدثنا عمر الناقد ، حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الليث عن يزيد ابن أبي حبيب عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتي برة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة إن رسول الله - ﷺ - نهى عن هذا الاسم وسميت برة فقال رسول الله - ﷺ - « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا : بما نسميها . ؟ قال : سموها زينب . وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الامام أحمد حيث قال : حدثنا عفان ، حدثنا وهب ، حدثنا خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : مدح رجل رجلاً عند النبي - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - « وملك قطع عني صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً والله حسبي ولا أزكي على الله أحداً أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » .

(٢) الحديث رواه أبو داود في كتاب الزكاة ٢٧ والامام الترمذي في الزهد ٦١ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٧٥ ، ٢٧٦ (حلي) .

ذلك . هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتى بالمأمورات ويحصل له ذلك أيضاً
قدرة وسلطاناً ، وهذه صفات الكمال : العلم ، والعمل والقدرة ، وحسن
الإرادة ، وقد جاءت الآثار بذلك ، وأنه يحصل لمن غض بصره نور في قلبه
ومحبة ، كما جرب ذلك العالمون العاملون

وفي مسند أحمد حدثنا عتاب عن عبدالله - وهو ابن المبارك - أنا يحيى
ابن أيوب ، عن عبيدالله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي
أمامة عن النبي ﷺ « قال ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره
إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » (١) .

ورواه أبو بكر بن الأنباري في أماليه من حديث ابن أبي مريم ، عن
يحيى بن أيوب به ، ولفظه « من نظر إلى امرأة فغض بصره عند أول دفعة رزقه
الله عبادة يجد حلاوتها » .

وقد رواه أبو نعيم في الحلية : حدثنا ابراهيم بن محمد بن الحسن ،
حدثنا محمد بن يعقوب قال : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا أبو مهدي سعيد بن
سنان ، عن أبي الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر : قال : قال رسول الله
ﷺ ، النظرة الأولى خطأ ، والثانية عمد ، والثالثة تدبر ، نظر المؤمن إلى
محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركه خشية الله ورجاء ما
عنده أثابه الله تعالى بذلك عبادة تبلغه لذتها رواه أبو جعفر الخرائطي في
« كتاب اعتلال القلوب » ثنا علي بن حرب ، ثنا اسحاق بن عبد الواحد ثنا
هشيم ، ثنا عبد الرحمن بن اسحاق ، عن محارب بن دثار ، عن جبلة ، عن
حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : النظر إلى المرأة سهم مسموم من
سهام إبليس ، من تركه خوفاً من الله أثابه الله ايماناً يجد حلاوته في
قلبه » (٢) .

(١) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ٢٦٤ .

(٢) رواه الحاكم وصححه ، وأقره العراقي ، وضعفه المنذري عن حذيفة ، وأخرجه الطبراني عن ابن

وقد رواه أبو محمد الخلال من حديث عبد الرحمن بن اسحاق عن النعمان بن سعد ، عن علي ، وفيه ذكر السهم ورواه أبو نعيم : ثنا عبدالله بن محمد هو أبو الشيخ ثنا ابن عفير ، قال : ثنا شعيب بن سلمة ثنا عصمة بن محمد ، عن موسى يعني ابن عقبة عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « ما من عبد يكف بصره عن محاسن امرأة ولو شاء أن ينظر إليها لنظر إلا أدخل الله قلبه عبادة يجد حلاوتها وروى ابن أبي الفوارس من طريق ابن الجوزي عن محمد بن المسيب ، ثنا عبدالله ، قال : حدثني الحسن عن مجاهد ، قال : غض البصر عن محارم الله يورث حب الله .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبدالله البجلي ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري ^(١) ورواه الإمام أحمد عن هشيم بن يونس به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضاً .

وقال الترمذي : حسن صحيح .

وفي رواية قال « أطرق بصرك » أي انظر إلى الأرض ، والصرف أعم ، فإنه قد يكون إلى الأرض ، أو إلى جهة أخرى .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري ، حدثنا شريك عن

= مسعود . قال : قال رسول الله ﷺ - عن ربه عز وجل : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه ، ومن شواهد ما عند البيهقي وغيره ، قال المنذري ورواهم لا أعلم فيهم مجروحاً عن ابن مسعود : الاثم حزاز القلوب ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع . والله أعلم .

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي . قال الخطابي في تعليقه على الحديث بعد أن أورد الرواية الأخرى (أطرق بصرك) فقال : الإطراق أن يقبل ببصره إلى صدره ، والصرف أن يقبل به إلى الشق الآخر أو الناحية الأخرى . راجع مسلم بشرح النووي ٨٦٧ / ٤ ومختصر السنن للمنذري ٣ : ٧٠ .

ربيعة الإيادي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ لعلي : يا علي لا تتبع النظرة النظرة . فإن لك الأولى وليست لك الأخرى » (١) .

ورواه الترمذي من حديث شريك ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه .

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إياكم والجلوس على الطرقات قالوا : يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نقعد فيها فقال رسول الله ﷺ : إن أبيت فاعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟

قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٢) .

ورواه أبو القاسم البغوي (٣) عن أبي أمامة قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : اكفلوا لي ستاً أكفل لكم الجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ،

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب النكاح ٤٣ والدارمي في كتاب الأدب ٢٨ ، والرقاق ٣ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المظالم ٢٢ باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات .

٢٤٦٥ - حدثنا معاذ بن فضالة ، حدثنا أبو عمر حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : وذكره .

ورواه أيضاً في كتاب الاستئذان ٢ والإمام مسلم في اللباس ١١٤ وأبو داود في الأدب ١٢ وأحمد ابن حنبل في المسند ٣ : ٣٦ ، ٤٧ ، ٦١ (حلي)

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ابن المرزبان ، أبو القاسم البغوي حافظ للحديث ، من العلماء ، أصله من بغشور (بين هراة ومرو الروذ - النسبة إليها بغوي مولد عام ٢١٣ هـ ووفاته عام ٣١٧ في بغداد ، كان محدث العراق في عصره ، له معجم الصحابة جزآن منه) العاشر والحادى عشر في مجلد كتب سنة ٦١٧ في الرباط (٣٤١ ك) والجعديات في الحديث ، وحكايات شعبة وعمرو بن مرة . [راجع معجم البلدان : بغشور ، واللباب ١ : ١٣٣] وميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١ والرسالة المستترقة ٥٨ وفي تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٤٧ وفاته سنة ٣١٠ هـ ومخطوطات الظاهرية ٢١٩ .

وإذا أوْتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم »

فالنظر داعية إلى فساد القلب .

قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب ، فلهذا أمر الله بحفظ الفروج ، كما أمر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك .

وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً ، « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ، ولتقيمن وجوهكم ، أو لتكسفن وجوهكم » .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن زهير التستري قال : قرأنا على محمد ابن حفص بن عمر الضرير المقرئ حدثنا يحيى بن أبي كثير ، حدثنا هزيم بن سفيان عن عبد الرحمن بن اسحاق ، عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه ، عن ابن مسعود قال « قال رسول الله ﷺ : إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، فمن تركه من مخافة الله أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه .

وفي حديث أبي هريرة الصحيح عن النبي ﷺ « زنا العينين النظر » (١) .

وذكر الحديث ، رواه البخاري تعليقاً ومسلم مسنداً وقد كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى المردان وكانوا يتهمون من فعل ذلك في دينه .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاستئذان ١٢ باب زنا الجوارح دون الفرج ٦٣٤٣ - حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لم أر شيئاً أشبه باللحم من قول أبي هريرة ، وحدثني محمود أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللحم مما قال أبو هريرة عن النبي - ﷺ وذكره .

ورواه أيضاً في كتاب القدر ٩ والامام مسلم في القدر ٢٠ ، ٢١ وأبو داود في النكاح ٤٣ وأحد ابن حنبل في المسند ٢٧٦ : ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ (حلي) .

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب
من الرجال بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً.

فصل

في فضائل غض البصر قربة لله تعالى

قال شيخ الإسلام : وأما النور والعلم والحكمة فقد دل عليه قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

فهي لكل محسن ، وفي هذه السورة ذكر آية النور بعد غض البصر وحفظ الفرج ، وأمره بالتوبة مما لا بد منه أن يدرك ابن آدم من ذلك .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي (٢) : سمعت أبا الحسين الوراق يقول : من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدي بها ، ويهدي بها إلى طريق مرضاته ، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل ، فإذا كان النظر إلى محبوب فتركه الله عوضه الله ما هو أحب إليه منه ، وإذا كان النظر بنور العين مكروهاً ، أو إلى مكروه فتركه الله أعطاه الله نوراً في قلبه وبصراً

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٢ .

(٢) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري أبو عبد الرحمن من علماء المتصوفة . قال الذهبي : شيخ الصوفية ، وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم ، قيل كان يضع الأحاديث للصوفية ، بلغت تصانيفه مئة أو أكثر منها « حقائق التفسير » ، وطبقات الصوفية ، ومناهج العارفين ، ورسالة الملامية وغير ذلك كثير توفي عام ٤١٢ هـ [راجع طبقات الصوفية مقدمة كتبها نور الدين شريعة ١٦ - ٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٥١ وميزان الاعتدال ٣ : ٤٦ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٨] .

يصر به الحق قال شاه الكرمانى : من غرض بصره عن المحارم وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وعود نفسه أكل الحلال ، وكف نفسه عن الشهوات ، لم تخطئ له فراسة وإذا صلح علم الرجل فعرف الحق وعمله واتبع الحق صار زكياً تقياً مستوجباً للجنة .

ويؤيد ذلك حديث أبى أمانة المشهور من رواية البغوي حدثنا طالوت ابن عباد ، حدثنا فضالة بن جبير سمعت أبا أمانة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اكفلوا لي بست أكفل لكم الجنة ، إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » فقد كفل بالجنة لمن أتى بهذه الست خصال فالثلاثة الأولى : تبرئة من النفاق ، والثلاثة الأخرى : تبرئة من الفسوق ، والمخاطبون مسلمون فإذا لم يكن منافقاً كان مؤمناً ، وإذا لم يكن فاسقاً كان تقياً فيستحق الجنة .

ويوافق ذلك ما رواه ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدني ، حدثني عمر بن سهل المازني قال : حدثني عمر بن محمد بن صهبان ، حدثني صفوان بن سليم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » (١) .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ (٢) يتناول النظر إلى الأموال واللباس والصور وغير ذلك من متاع الدنيا ، أما اللباس والصور فهما اللذان لا ينظر الله إليهما ، كما

(١) الحديث رواه الدارمي في الجهاد باب في الذي يسهر في سبيل الله حارساً بسنده عن أبى ربحانة وذكره مع اختلاف في اللفظ ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ١٣٤ - ١٣٥ بسنده عن أبى ربحانة وذكره مع اختلاف في اللفظ عما هو مذكور هنا .

(٢) سورة طه آية رقم ١٣١ .

في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

وقد قال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِثًا ﴾ (٢) وذلك أن الله يمتع بالصور كما يمتع بالأموال ، وكلاهما من زهرة الحياة الدنيا ، وكلاهما يفتن أهله وأصحابه وربما أفضى به إلى الهلاك دنیا وأخرى والهلکی رجلان ، فمستطيع وعاجز ، فالعاجز مفتون بالنظر ومد العين اليه ، والمستطيع مفتون فيما أوتي منه ، غارق قد أحاط به ما لا يستطيع انقاذ نفسه منه .

وهذا المنظور قد يعجب المؤمن ، وإن كان المنظور منافقاً أو فاسقاً كما يعجبه المسموع منهم قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يَخْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

فهذا تحذير من الله تعالى من النظر إليهم واستماع قولهم ، فلا ينظر إليهم ولا يسمع قولهم فإن الله سبحانه قد أخبر أن رؤياهم تعجب الناظرين إليهم ، وإن قولهم يعجب السامعين .

ثم أخبر عن فساد قلوبهم وأعمالهم بقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ (٤) .
فهذا مثل قلوبهم وأعمالهم .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٩ باب القناعة ٤١٤٣ ثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رفعه إلى النبي ﷺ - وذكره ، ورواه الإمام مسلم في كتاب البر ٣٢ وأحد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ (حلي) .

(٢) سورة مريم آية رقم ٧٤ .

(٣) سورة المنافقون آية رقم ٤ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٤ .

وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) الآية .
وقد قال تعالى في قصة قوم لوط : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(٢) .

والتوسم من السمة ، وهي العلامة ، فأخبر سبحانه أنه جعل عقوبات المعتدين آيات للمتوسمين .

وفي الترمذي عن النبي ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(٣) فدل ذلك على أن من اعتبر بما عاقب الله به غيره من أهل الفواحش كان من المتوسمين وأخبر تعالى عن اللوطية أنه طمس أبصارهم ، فكانت عقوبة أهل الفواحش طمس الأبصار ، كما قد عرف ذلك فيهم ، وشوهد منهم ، وكان ثواب المعتبرين بهم التاركين لأفعالهم إعطاء الأنوار ، وهذا مناسب لذكر آية النور عقيب غض الأبصار ، وأما القدرة والقوة التي يعطيها الله لمن اتقاه وخالف هواه فذلك حاصل معروف ، كما جاء « إن الذي يترك هواه يفرق الشيطان من ظله » .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » ^(٤) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٤ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٧٥ .

(٣) قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير العبدى عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره - ورواه الترمذي وابن جرير من حديث عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً وقال الترمذي : لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ٧٦ باب الحذر من الغضب لقول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَاسَ الثَّمَنِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ .

٦١١٤ - حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب (عن أبي هريرة - رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره .
ورواه الإمام مسلم في البر ١٠٦ - ١٠٨ ، وصاحب الموطأ في حسن الخلق ١٢ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٢ ، ٢ : ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٥١٧ .

وفي رواية : « أنه مر يقوم يحذفون حجراً » فقال : ليس الشدة في هذا ، وإنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظاً ، ثم يكظمه الله « أو كما قال وهذا ذكره في الغضب ، لأنه معتاد لبني آدم كثيراً ، ويظهر للناس ، وسلطان الشهوة يكون في الغالب مستوراً عن أعين الناس ، وشيطانها خاف ، ويمكن في كثير من الأوقات الاعتياض بالحلال عن الحرام ، وإلا فالشهوة إذا اشتعلت واستولت قد تكون أقوى من الغضب .

وقد قال تعالى ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾^(١) أي ضعيفاً عن النساء لا يصبر عنهن .

وفي قوله ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾^(٢)

ذكروا منه العشق ، والعشق يفضي بأهله إلى الأمراض والإهلاك ، وإن كان الغضب قد يبلغ ذلك أيضاً ، وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة ، كقوله في سورة هود ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾^(٣) وقوله ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٥) .

وإذا كان الذي قد يهجر السيئات بغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله ، فما ظنك بالذي لم يحم حول السيئات ، ولم يعرها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها ؟

بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها لتركوا السيئات فهل هذا وذاك سواء ،

(١) سورة النساء آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة هود آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٨ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٣٩ .

بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك ، وحاله أعظم وأعلى ونوره أتم وأقوى ، فإن السيئات تهواها النفوس ، ويزينها الشيطان ، فتجتمع فيها الشبهات والشهوات .

فإذا كان المؤمن قد حجب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله ، وما يتبع ذلك ، وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى ، وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به ، حيث دفع بالعلم الجهل وبإرادة الحسنات إرادة السيئات ، وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط . والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضاً حتى يدفع جهله بالظلم ، وإرادته السيئات بإرادة الحسنات ونحو ذلك .

والجهاد تمام الإيمان وسنام العمل ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١) .

وقال ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) الآية .

وقال ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ (٣) الآية .

فكذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين ، كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٤) فهذا في العلم والنور .

وقال ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٥) إلى قوله ﴿ صِرَاطًا

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٩ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٦٩ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٦٦ .

مُسْتَقِيمًا ﴿ فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضاً ، وهو من الجهاد والخروج من ديارهم هو الهجرة ، ثم أخبر أنهم إذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً . ففي الآية أربعة أمور :

الخير المطلق ، والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة والأجر العظيم ، وهداية الصراط المستقيم .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١)

وقال ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ (٢) إلى قوله : ﴿ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

وقال ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٣) وأما أهل الفواحش الذين لا يغضون أبصارهم ولا يحفظون فروجهم ، فقد وصفهم الله بضد ذلك من السكرة والعمه ، والجهالة ، وعدم العقل ، وعدم الرشد والبغض ، وطمس الأبصار ، هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق ، والعدوان ، والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام ، فقال عن قوم لوط ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٤) فوصفهم بالجهل ، وقال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٥) وقال ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (٦) وقال ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ (٧) وقال ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٨) .

(١) سورة محمد آية رقم ٧ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٥٥ .

(٥) سورة الحجر آية رقم ٧٢ .

(٦) سورة هود آية رقم ٧٨ .

(٧) سورة القمر آية رقم ٣٧ .

(٨) سورة الأعراف آية رقم ٨١ .

وقال ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١) وقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٢) وقال ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ إلى قوله : ﴿انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣) إلى قوله ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤) وقوله ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٥) .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨٤ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٧٤ .

(٣) سورة العنكبوت الآيات من ٢٩ - ٣٠ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٣٤ .

(٥) سورة الذاريات آية رقم ٣٤ .

فصل

في دعوة المؤمنين الى التوبة

في قوله في آخر الآية ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

فوائد جلية : منها أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر وحفظ الفرج ، وترك إبداء الزينة ، وما يتبع ذلك ، فمستقل ومستكثر ، كما في الحديث : « ما من أحد من بني آدم إلا أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا » (٢) وذلك لا يكون إلا عن نظر ، وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٣) .

وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أباي ، فاستغفروني

(١) سورة النور آية رقم ٣١ .

(٢) قال الامام أحمد حدثنا عفان ، حدثنا حماد أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ قال : وذكره قال ابن كثير - وهذا ضعيف لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة والله أعلم .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب القيامة ٤٩ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٠ والدارمي في كتاب الرقاق ١٨ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٩٨

أغفر لكم»^(١) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال « ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة » إن النبي ﷺ قال « إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق »^(٢) الحديث إلى آخره . وفيه « والنفس تتمنى ذلك وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » أخرجه البخاري تعليقاً من حديث طاووس عن أبي هريرة .

ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا يدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام ، واليدان زناهما البطش والرجلان زناهما الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه »^(٣) .

وقد روى الترمذي حديثاً واستغربه عن ابن عباس في قوله ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال رسول الله ﷺ « إن تغفر اللهم تغفر جما ، وأي عبد لك لا ألما »^(٤) ومنها أن أهل الفواحش الذين لم يعضوا أبصارهم ولم يحفظوا

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث أنس ، وقال الترمذي ، غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة ، وقال الحاكم : صحيح ، وقال الذهبي : بل فيه لين ، وقال في موضع آخر . لكن انتصر بن القطان لتصحيح الحاكم ، وأورده الدارمي في الرقاق .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء وراجع البخاري كتاب الاستئذان ومسلم في القدر وأبو داود في النكاح وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٧٦ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب القدر باب قدر على ابن آدم حفظه من الزنا وغيره . حدثنا اسحاق بن ابراهيم وعبد بن حميد واللفظ لاسحاق ، قال أخبرنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي ﷺ - قال : وذكره .

(٤) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب التفسير سورة ٥٣ ورواية الترمذي عن أحمد بن عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من =

فروجهم مأمورون بالتوبة ، وإنما أمروا بها لتقبل منهم ، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

وسواء كانت الفواحش مغلظة لشدتها وكثرتها كإتيان ذوات المحارم ، وعمل قوم لوط أو غير ذلك وسواء تاب الفاعل أو المفعول به ، فمن تاب تاب الله عليه ، بخلاف ما عليه طائفة من الناس فإنهم إذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئاً أيسره من رحمة الله ، حتى يقول أحدهم من عمل من ذلك شيئاً لا يفلح أبداً ، ولا يرجون له قبول توبة ،

ويروى عن علي أنه قال : منا كذا وكذا ، والمعفوليس منا .

ويقولون : إن هذا لا يعود صالحاً ولو تاب مع كونه مسلماً مقراً بتحريم ما فعل .

ويدخلون في ذلك من استكره على فعل شيء من هذه الفواحش .

ويقولون : لو كان لهذا عند الله خير ما سلط عليه من فعل به مثل هذا واستكرهه ، كما يفعل بكثير من المماليك طوعاً وكرهاً ، وكذلك من في معنائهم من صبيان الكتاتيب وغيرهم ، ونسوا قوله تعالى ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لْتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

= حديث زكريا بن اسحاق ، وكذا قال الجوار لا نعلمه يروى متصلاً إلا من هذا الوجه وساقه ابن أبي حاتم والبخاري .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٤ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة النور آية رقم ٣٣ .

وهؤلاء قد لا يعلمون صورة التوبة ، وقد يكون هذا حالاً وعملاً لأحدهم ، وقد يكون اعتقاداً ، فهذا من أعظم الضلال والغي ، فإن القنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى ، وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش فإن هذا أمن مكر الله بأهلها ، وذاك قنط أهلها من رحمة الله .

فصل

خصائص الداعية الى الله

والفقيه كل الفقيه هو الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرتهم على معاصي الله .

وهذا في أصل الذنوب الإرادية نظير ما عليه أهل الأهواء والبدع ، فإن أحدهم يعتقد تلك السيئات حسنات فيأمن مكر الله ، وكثير من الناس يعتقد أن توبة المبتدع لا تقبل ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال « كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال : أنا محمد ، وأنا أحمد والمقفى والحاشرونبي التوبة ، ونبي الرحمة » (٢) .

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب المناقب ١٧ باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ -

٣٥٣٢ - حدثنا ابراهيم بن المنذر ، قال : حدثني معن عن مالك عن ابن شهاب عن محمد بن

جبير بن مطعم عن أبيه - رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره .

ورواه أيضاً في التفسير سورة ٦١ ورواه الإمام مسلم في الفضائل ١٢٤ ، ١٢٥ ، والإمام

الترمذي في كتاب الأدب ٦٧ والدارمي في المقدمة ٨ والرقاق ٥٩ وصاحب الموطأ في أسماء

النبي ١ ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ،

٤٠٥ ، ٦ ، ٢٥ .

وفي حديث آخر « أنا نبي الرحمة ، وأنا نبي الملحمة ، وذلك أنه بعث بالملحمة وهي : المقتلة لمن عصاه ، وبالتوبة لمن أطاعه ، وبالرحمة لمن صدقه واتبعه ، وهو رحمة للعالمين ، وكان من قبله من الأنبياء لا يؤمر بقتال وكان الواحد من أممهم إذا أصاب بعض الذنوب يحتاج مع التوبة إلى عقوبات شديدة ، كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ . فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) .

وقد روي عن أبي العالية وغيره أن أحدهم كان إذا أصاب ذنباً أصبحت الخطيئة والكفارة مكتوبة على بابه ، فأنزل الله في حق هذه الأمة ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٢) .

فخص الفاحشة بالذكر مع قوله ﴿ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ والظلم يتناول الفاحشة وغيرها تحقيقاً لما ذكرناه من قبول التوبة من الفواحش مطلقاً ، من الذين يأتيانها من الرجال والنساء جميعاً .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » (٣) .

وفي الصحيح عنه أنه قال « من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب

(١) سورة البقرة آية رقم ٥٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة .

حدثنا محمد بن المثنى - حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى عن النبي ﷺ - قال إن الله عز وجل وذكره .

الله عليه «^(١)»

وفي السنن عنه أيضاً أنه قال « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »^(٢) .

وعنه ﷺ قال « قال الشيطان : وعزتك يا رب ، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب تعالى « وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني ، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني »^(٣) وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطيئة ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »^(٤) والذي يمنع توبة أحد هؤلاء إما بحاله ، وإما بقاله ولا يخلو من أحد أمرين أن يقول : إذا تاب أحدهم لم تقبل توبته ، وإما أن يقول أحدهم : لا يتوب الله علي أبداً .

أما الأول فباطل بكتاب الله وسنة نبيه وإجماع المسلمين ، وإن كان قد تكلم بعض العلماء في توبة القاتل ، وتوبة الداعي إلى البدع ، وفي ذلك

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في الذكر ٤٣ ورواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٢٧٥ ، ٣٩٥ ، ٤٢٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ (حلي) .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الجهاد ٢ والدارمي في السير ٦٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٩٩ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا يونس ، ثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

(٤) الحديث عند الإمام الترمذي في كتاب الدعوات ٩٩ باب في فضل التوبة والاستغفار ، وما ذكر من رحمة الله لعباده ، ٣٥٤٠ حدثنا عبدالله بن اسحاق الجوهرى البصري ، حدثنا أبو عاصم حدثنا كثير بن فائد ، حدثنا سعيد بن عبيد قال : سمعت بكر بن عبدالله المزني يقول : حدثنا أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ - وذكره .
قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

نزاع في مذهب أحمد، وفي مذهب مالك أيضاً نزاع ذكره صاحب التمثيل والبيان في « الجامع » وغيره وتكلموا أيضاً في توبة الزنديق ، ونحو ذلك . فهم قد يتنازعون في كون التوبة في الظاهر تدفع العقوبة ، إما لعدم العلم بصحتها ، وإما لكونها لا تمنع ما وجب من الحد ، ولم يقل أحد من الفقهاء إن الزنديق ونحوه إذا تاب فيما بينه وبين الله توبة صحيحة لم يتقبلها الله منه .

وأما القتال والمضل فذاك لأجل تعلق حق الغير به والتوبة من حقوق العباد لها حال آخر ، وليس هذا موضع الكلام فيها وفي تفصيلها ، وإنما الغرض أن الله يقبل التوبة من كل ذنب ، كما دل عليه الكتاب والسنة ^(١) . والفواحش خصوصاً ما علمت أحداً نازع في التوبة منها ، والزاني والمزني به مشتركان في ذلك إن تابا تاب الله عليهما ، ويبين التوبة خصوصاً من عمل قوم لوط من الجانبين ما ذكره الله في قصة قوم لوط فإنهم كانوا يفعلون الفاحشة بعضهم ببعض ، ومع هذا فقد دعاهم جميعهم إلى تقوى الله والتوبة منها فلو كانت توبة المفعول به أو غيره لا تقبل لم يأمرهم بما لا يقبل ، قال تعالى ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ

(١) قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ . سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

قال الامام أحمد حدثنا حسن ثنا ابن لهيعة ثنا أبو قبيل قال : سمعت أبا عبد الرحمن المزني يقول : سمعت ثوبان مولى رسول الله - ﷺ يقول « ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ إلى آخر الآية فقال رجل يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت رسول الله - ﷺ - ثم قال : ألا ومن أشرك ثلاث مرات . تفرد به الإمام أحمد .

وقال الامام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد - رضي الله عنهما قالت سمعت رسول الله ﷺ يقرأ (إنه عمل غير صالح) وسمعت رسول الله ﷺ يقول (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعاً ، ولا يبالي (إنه هو الغفور الرحيم) ورواه أبو داود ، والترمذي من حديث ثابت .

رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ (١) .

فأمرهم بتقوى الله المتضمنة لتوبتهم من هذه الفاحشة ، والخطاب وإن كان للفاعل فإنه إنما خص به ، لأنه صاحب الشهوة والطلب في العادة بخلاف المفعول به ، فإنه لم تخلق فيه شهوة لذلك في الأصل ، وإن كانت قد تعرض له لمرض طارئ أو أجر يأخذه من الفاعل ، أو لغرض آخر . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) سورة الشعراء آية رقم ١٦٠ - ١٦٣ .

فصل

في « الذين يرمون المحصنات الغافلات » وأقوال العلماء فيها

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه ، ونور ضريحه في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) في طرده الكلام على ما يتعلق بهذه الآية وغيرها فقال :
وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه :

« أحدها » أن هذه الآية في أزواج النبي ﷺ خاصة في قول كثير من أهل العلم فروى هشيم عن العوام بن حوشب ، ثنا شيخ من بني كاهل قال :
فسر ابن عباس سورة النور فلما أتى على هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى آخر الآية قال : هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ، وهي مبهمة ليس فيها توبة (٢) ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ، ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ (٣)
فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لأولئك توبة ، قال : فهم رجل أن يقوم فيقبل

(١) سورة النور آية رقم ٢٣ .

(٢) الخبر أورده ابن جرير ، وهو فيما نقله ابن كثير عنه في تفسير الآية [راجع هذا التفسير ٢٧٦ / ٣] .

(٣) سورة النور آية رقم ٤ - ٥ .

رأسه من حسن ما فسر .

وقال أبو سعيد الأشج : حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام ، عن سعيد ابن المسيب عن ابن عباس ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات ﴾ نزلت في عائشة خاصة ، واللعنة في المنافقين عامة .

فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمّهات المؤمنين ؛ لما في قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعييه فإن قذف المرأة أذى لزوجها ، كما هو أذى لابنها لأنه نسبة له إلى الديانة وإظهار لفساد فراشه فإن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيماً .

ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إذا زنت ودرأ الحد عنه باللعان ، ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال .

ولعل ما يلحق يعرض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقذوف .

ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوشتين عنه إلى أن من قذف امرأة غير محصنة كالأمة والذمية ، ولها زوج أو ولد محصن حد لقذفها ؛ لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين .

والرواية الأخرى عنه ، وهي قول الأكثرين أنه لا حد عليه ؛ لأنه أذى لهما ، لا قذف لهما ، والحد التام إنما يجب بالقذف ، وفي جانب النبي ﷺ أذى كقذفه ، ومن يقصد عيب النبي ﷺ بعيب أزواجه فهو منافق وهذا معنى قول ابن عباس : اللعنة في المنافقين عامة . وقد وافق ابن عباس جماعة ، فروى الإمام أحمد والأشج عن خصيف قال : سألت سعيد بن جبير فقلت : الزنا أشد ، أو قذف المحصنة ؟ قال : لا ، بل الزنا .

قال : قلت : فإن الله تعالى يقول ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ .

فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة . وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ .

فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة .

وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ .

قال : هذه الآية لأمهات المؤمنين خاصة وروى الأشج بإسناده عن الضحاك في هذه الآية قال : هن نساء النبي ﷺ وقال معمر عن الكلبي : إنما عنى بهذه الآية أزواج النبي ﷺ ، فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق ، كما قال الله تعالى . « أويتوب » .

ووجه هذا أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف فتكون اللام في قوله ﴿ المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ لتعريف المعهود ، والمعهود هنا أزواج النبي ﷺ ؛ لأن الكلام في قصة الإفك ، ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة ، أو يقصر اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك .

ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعد على قذف محصنات غافلات مؤمنات وقال في أول السورة ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ ^(١) الآية . فرتب الحدود والشهادة ، والفسق على مجرد قذف المحصنات ، فلا بد أن يكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات ، وذلك والله أعلم لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة ، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في

(١) سورة النور آية رقم ٤ .

الغالب ظاهر الإيمان ، ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

فتخصيصه متولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم .
وقال ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف وإنما يمس متولي كبره فقط .

وقال هنا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فعلم أن الذي رمى أمهات المؤمنين يعيب بذلك رسوله ﷺ ، وتولى كبر الإفك ، وهذه صفة المنافق ابن أبي (٣) ، والله أعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضاً موافقة لتلك الآية ، لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ لعن صاحبه في الدنيا والآخرة .

ولهذا قال ابن عباس : ليس فيها توبة ؛ لأن مؤذ النبي ﷺ لا تقبل توبته أو يريد إذا تاب من القذف حتى يسلم إسلاماً جديداً .

وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للذم ، إذا قصد به أذى النبي ﷺ ، أو بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة ، فإنه ما بغت امرأة نبي قط .

ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي ﷺ ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت « فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه عن أهل بيتي ، فوالله ما علمت

(١) سورة النور آية رقم ١١ .

(٢) سورة النور آية رقم ١٤ .

(٣) هو عبدالله بن أبي مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي المشهور بابن سلول توفي عام ٩ هـ =

على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » (١) .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية ، وقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير ، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت ، لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

وفي رواية أخرى صحيحة أن هذه الآية في أزواج رسول الله ﷺ خاصة .

ويقول آخرون : يعني أزواج المؤمنين عامة . وقال أبو سلمة : قذف المحصنات من الموجبات ثم قرأ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ الآية وعن عمر بن قيس قال : « قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة » رواه الأشنج (٢) .

وهذا قول كثير من الناس ، ووجهه ظاهر الخطاب فإنه عام فيجب إجراؤه على عمومته إذ لا موجب لخصوصه وليس هو مختصاً بنفس السبب بالاتفاق ، لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي ﷺ داخل في العموم ، وليس هو من السبب ، ولأنه لفظ جمع ، والسبب في واحدة هنا ولأن قصر عمومات

= [وراجع في ترجمته : تاريخ الخميس ٢ : ١٤٠ وامتاع السماع ١ : ٩٩ و ١٠٥ و ١٢٠ ، ١٦٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ وطبقات ابن سعد القسم الثاني من الجزء الثالث ٩٠] .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذه السورة .

(٢) الخبر أخرجه البزار في مسنده كما أخرجه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة بن اليمان قال =

القرآن على أسباب نزولها باطل فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك ، وقد علم أن شيئاً منها لم يقصر على سببه .

والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد ورد الشهادة والتفسيق ، وهنا ذكر العقوبة الواقعة من الله سبحانه وهي اللعنة في الدارين والعذاب العظيم وقد ورد عن النبي ﷺ من غير وجه عن أصحابه أن قذف المحصنات من الكبائر .

وفي لفظ في الصحيح « قذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (١) .

ثم اختلف هؤلاء فقال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة إذ كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا : إنها خرجت تفجر فعلى هذا يكون فيمن قذف المؤمنات قذفاً يصدن به عن الإيمان ، يقصد بذلك ذم المؤمنين لينفر الناس عن الإسلام ، كما فعل كعب ابن الأشرف وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر ، وهو بمنزلة النبي ﷺ .

وقوله : إنها نزلت زمن العهد ، يعني والله أعلم أنه عني بها مثل أولئك المشركين المعاندين ، وإلا فهذه الآية نزلت ليالي الإفك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق ، والهدنة كانت بعد ذلك بستين . ومنهم من أجراها على ظاهرها وعمومها لأن سبب نزولها قذف عائشة ، وكان فيمن قذفها مؤمن ومنافق ، وسبب النزول لا بد أن يندرج في العموم ، ولأنه لا موجب

= الهيثمي : فيه ليث بن سليم وهو ضعيف وهو يحسن حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .
[راجع الجامع الصغير بشرح الفيض ٤٧٤ / ٢ ، وتفسير ابن كثير ٢٧٧ / ٣] .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الحدود ٤٤ باب رمي المحصنات والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ٦٨٥٧ بسنده عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ وذكره .

(٢) هو كعب بن الأشرف الطائي من بني نبهان ، شاعر جاهلي توفي عام ٣ هـ [راجع الروض =

لتخصيصها ، والجواب على هذا التقدير أنه سبحانه قال هنا : ﴿ لَعَنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ على بناء الفعل للمفعول ولم يسم اللاعن . وقال في الآية الأخرى . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (١) وإذا لم يسم الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة والناس وجاز أن يلعنهم الله في وقت ويلعنهم بعض خلقه في وقت ، وجاز أن الله يتولى لعنة بعضهم ، وهو من كان قذفه طعناً في الدين ، ويتولى خلقه لعنة الآخرين ، وإذا كان اللاعن مخلوقاً فلعنه قد يكون بمعنى الدعاء عليهم ، وقد يكون بمعنى أنهم يبعدونهم عن رحمة الله .

ويؤيد هذا أن الرجل إذا قذف امرأته تلاعنا . وقال الزوج في الخامسة لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فهو يدعو على نفسه إن كان كاذباً في القذف أن يلعنه الله كما أمر الله ورسوله أن يباهل من حاجة في المسيح بعدما جاءه من العلم بأن يتهلوا فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين ، فهذا مما يلعن به القاذف ، ومما يلعن به أن يجلد وأن ترد شهادته ويفسق فإنه عقوبة له ، واقضاء له عن مواطن الأمن والقبول ، وهي من رحمة الله ، وهذا بخلاف من أخبر الله أنه لعنه في الدنيا والآخرة ، فإن لعنة الله توجب زوال النصر عنه من كل وجه وبعده عن أسباب الرحمة في الدارين .

ومما يؤيد الفرق أنه قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٢) .

ولم يجيء اعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

= الأنف ٢ : ١٢٣ وامتاع الأسماع ١ : ١٠٧ ، وابن الأثير ٢ : ٥٣ ، والطبري ٣ : ٢ : والمحبر ١١٧ ، ٢٨٢ و ٣٩٠ .

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١﴾ وقوله ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٢) وقوله :

﴿ فَبَاؤُوا بِغَضَبِ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٣) . وقوله :
﴿ أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٤) وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥) . ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٦) . ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٧) . ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٨) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٩) فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له ، وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيداً للمؤمنين في قوله ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠) . وقوله : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١) .

(١) سورة النساء آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٩٠ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٧٨ .

(٥) سورة الحج آية رقم ٥٧ .

(٦) سورة الجاثية آية رقم ٩ .

(٧) سورة المجادلة آية رقم ٥ .

(٨) سورة المجادلة آية رقم ١٦ .

(٩) سورة النساء آية رقم ١٤ .

(١٠) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .

(١١) سورة النور آية رقم ١٤ .

وفي المحارب ﴿ ذَلِكْ لَهُمْ حِزْبِي فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وفي القاتل : ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٢) وقوله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) وقد قال سبحانه ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ (٤) وذلك لأن الاهانة اذلال وتحقير وخزي . وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان . فلما قال في هذه الآية ﴿ وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ علم أنه من جنس العذاب الذي توعده به الكفار والمنافقين ، ولما قال هناك ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) جاز أن يكون من جنس العذاب في قوله ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

ومما يبين به الفرق أيضاً سبحانه قال هناك ﴿ وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ والعذاب إنما أعد للكافرين ، فإن جهنم لهم خلقت لأنهم لا بد أن يدخلوها وما هم منها بمخرجين .

وأهل الكبائر من المؤمنين يجوز أن يدخلوها إذا غفر الله لهم ، وإذا دخلوها فإنهم يخرجون منها ولو بعد حين . قال سبحانه ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٦) .

فأمر سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله ، وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين . فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٩٣ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٩٤ .

(٤) سورة الحج آية رقم ١٨ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٣١ .

وفعلوا المعاصي مع أنها معدة للكافرين لا لهم ، ولذلك جاء في الحديث :
 أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون . وأما أقوام لهم
 ذنوب فيصيبهم سفع من نار ثم يخرجهم الله منها ^(١) وهذا كما أن الجنة
 أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء وإن كان يدخلها الأبناء بعمل
 آبائهم ويدخلها قوم بالشفاعة ، وقوم بالرحمة وينشئ الله لما فضل منها خلقاً
 آخر في الدار الآخرة فيدخلهم إياها وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجهه
 ويستحقه ، ولمن أولى الناس به ، ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبعية أو
 لسبب آخر ، والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام :

عن قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا
 فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
 يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ
 مِنْهَا ﴾ ^(٢) الآية .

والحديث عن النبي ﷺ في ذكر زنا الأعضاء كلها « وماذا على الرجل
 إذا مس يد الصبي الأمرد ، فهل هو من جنس النساء ينقض الوضوء أم لا ؟ » .

وما على الرجل إذا جاءت إلى عنده المردان .

ومد يده إلى هذا وهذا ويتلذذ بذلك . وما جاء في التحريم من النظر إلى
 وجه الأمرد الحسن ؟ وهل هذا الحديث المروي : أن النظر إلى الوجه المليح
 عبادة ^(٣) « صحيح » أم لا ؟ وإذا قال أحد : أنا ما أنظر إلى المليح الأمرد لأجل

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٠ - ٣١ .

(٣) نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية أنه سئل عن حديث النظر إلى الوجه الجميل عبادة ، فأجاب
 بأنه كذب باطل عن رسول الله ﷺ - لم يروه أحد باسناد صحيح ، بل هو من الموضوعات ومثله =

شيء ولكنني إذا رأيته قلت : سبحان الله تبارك الله أحسن الخالقين ، فهل هذا القول صواب أم لا ؟ أفوتونا مأجورين .

فأجاب : قدس الله روحه ، ونور ضريحه ورحمه ورضي عنه ، ونفع بعلمه وحشرنا في زمرة :

الحمد لله إذا مس الأمر لشهوة ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره .

أحدهما : انه كمس النساء لشهوة ينقض الوضوء ، وهو المشهور في مذهب مالك ، وذكره القاضي أبو يعلى^(١) من شرح المذهب ، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي و« الثاني » أنه لا ينقض ، وهو المشهور من مذهب الشافعي والقول الأول أظهر ، فإن الوطء في الدبر يفسد العبادات التي تفسد بالوطء في القبل ، كالصيام والإحرام والإعتكاف ، ويوجب الغسل كما يوجبه هذا ، فتكون مقدمات هذا في باب العبادات كمقدمات هذا ، فلو مس الأمر لشهوة ، وهو محرم فعليه دم ، كما عليه لو مس أجنبية لشهوة ، وكذلك إذا مس الأمر لشهوة وجب أن يكون كما لو مس الأمر لشهوة وجب أن يكون كما لو مس المرأة لشهوة في نقض الوضوء والذي لا ينتقض الوضوء بمسه يقول : إنه لم يخلق محلاً لذلك ، فيقال :

لا ريب أنه لم يخلق لذلك ، وأن الفاحشة اللوطية من أعظم المنكرات ، لكن هذا القدر لم يعتبر في بعض الوطء فلو وطأ في الدبر تعلق به ما ذكر من الأحكام ، وإن كان الدبر لم يخلق محلاً للوطء ، مع أن نفرة الطباع من الوطء في الدبر أعظم من نفرتها عن الملامسة ، ونقض الوضوء باللمس يراعى فيه حقيقة الحكمة وهو أن يكون المس لشهوة عند الأكثرين ، كمالك وأحمد وغيرهما ، يراعى كما يراعى مثل ذلك في الإحرام

= النظر الى الخضرة يزيد في البصر ، والنظر الى المرأة الحسناء يزيد في البصر ، فإنه موضوع كما

قاله الصنعاني [راجع كشف الحفاء : ٤٣٩] .

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

والإعتكاف ، وغير ذلك .

وعلى هذا القول فحيث وجد اللبس لشهوة تعلق به الحكم حتى لو مس بنته وأخته وأمه لشهوة انتقض وضوءه فكذلك من الأمرد .

وأما الشافعي وأحمد من رواية فيعتبر المظنة وهو أن النساء مظنة الشهوة . فينتقض الوضوء سواء كان بشهوة أو بغير شهوة ، ولهذا لا ينتقض مس المحارم لكن لو مس ذوات محارمه لشهوة فقد وجدت حقيقة الحكمة ، وكذلك إذا مس الأمرد لشهوة ، والتلذذ بمس الأمرد - كمصافحته ونحو ذلك - حرام بإجماع المسلمين كما يحرم التلذذ بمس ذوات المحارم والأجنبية كما أن الجمهور على أن عقوبة اللوطي أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية ، فيجب قتل الفاعل والمفعول به سواء كان أحدهما محصناً أو لم يكن ، وسواء كان أحدهما مملوكاً للآخر أو لم يكن^(١) كما جاء ذلك في السنن عن النبي ﷺ ، وعمل به أصحابه من غير نزاع يعرف بينهم ، وقتله بالرجم كما قتل الله قوم لوط ، وبذلك جاءت الشريعة في قتل الزاني أنه بالرجم ، فرجم النبي ﷺ معاذ بن مالك ، والغامدية ، واليهوديين ، والمرأة التي أرسل إليها أنيسا ، وقال : اذهب إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها^(٢) فرجمها والنظر الى وجه الأمرد بشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة ، سواء كانت الشهوة شهوة الوطء ، أو كانت شهوة التلذذ بالنظر ، كما يتلذذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية ، كان معلوماً لكل أحد أن هذا حرام فكذلك النظر

(١) الخبر في ذلك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ، رواه الخمسة إلا النسائي ، كما أخرجه الحاكم والبيهقي ، وقال الحافظ رجاله موثقون إلا أن فيه اختلاف . الترمذي : إنما يعرف هذا الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ - من هذا الوجه ، وفي الباب عن أبي هريرة عند ابن ماجه والحاكم أن النبي - ﷺ - قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أو لم يحصنا ، وإسناده ضعيف . راجع المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧ : ١٢٢ .

(٢) راجع المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧ : ٩١ .

إلى وجه الأمر باتفاق الأئمة . .

وهو قول القائل : إن النظر إلى وجه الأمر عبادة ، كقوله « إن النظر إلى وجوه النساء الأجانب ، والنظر إلى محارم الرجل كبت الرجل وأمه وأخته عبادة ، ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرم عبادة فهو بمنزلة من جعل الفواحش عبادة . قال الله تعالى . . : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . قُلْ إِنْ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومعلوم أنه قد يكون في صور النساء الأجنبية وذوات المحارم من الإعتبار والدلالة على الخالق من جنس ما في صور المردان ، فهل يقول مسلم إن للإنسان أن ينظر على هذا الوجه إلى صور النساء نساء العالمين ، وصور محارمه ، ويقول : إن ذلك عبادة ، بل من جعل مثل هذا النظر عبادة فإنه كافر مرتد ، يجب أن يستتاب فإن تاب ، وإلا قتل .

وهو بمنزلة من جعل إعانة طالب الفاحشة عبادة أو جعل تناول يسير الخمر عبادة ، أو جعل السكر من الحشيشة عبادة ، فمن جعل المعاونة بقيادة أو غيرها عبادة ، أو جعل شيئاً من المحرمات التي يعلم تحريمها في دين

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ .

كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ويتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش وهم الخمس يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحسن ثوباً طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يليقه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحسن ثوباً طاف عرياناً وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله
واكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر شرعي فانكر الله تعالى عليهم ذلك فقال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ .

الإسلام عبادة ، فإنه لمستتاب فإن تاب وإلا قتل .

وهو مضاه به للمشركين ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ،
وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١)

وفاحشة أولئك إنما كانت طوافهم بالبيت عراة وكانوا يقولون : لا نطوف
في الثياب التي عصينا الله فيها ، فهؤلاء إنما كانوا يطوفون عراة على وجه
اجتناب ثياب المعصية ، وقد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن جعل جنس
الفاحشة المتعلقة بالشهوة عبادة ؟ ! .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت ﴿والذين إذا﴾ .

فصل في تحريم النظر الى العورات

والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر ، وهو نوعان : غرض البصر عن العورة ، وغضه عن محل الشهوة فالأول : كغض الرجل بصره عن عورة غيره ، كما قال النبي ﷺ . . « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل . ولا المرأة إلى عورة المرأة »^(١) .

ويجب على الإنسان أن يستر عورته ، كما قال لمعاوية بن حيدة . . « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك »^(٢) .

قلت : فإذا كان أحدنا مع قومه قال . . « إن استطعت أن لا تريها أحداً فلا يرينها » .

قلت : فإذا كان أحدنا خالياً ؟

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الحيض باب تحريم النظر إلى العورات حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا زيد بن الحباب عن الضحاك بن عثمان قال أخبرني زيد بن أسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : وذكره . وفيه زيادة (ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد) .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الحمام ، وفي كتاب الأدب ٢٢ ، والترمذي في كتاب الأدب ٢٢ ، وابن ماجه في النكاح ٢٨ واحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٥ (حلي) .

قال : « فالله أحق أن يستحي منه من الناس »^(١) ويجوز كشفها بقدر الحاجة ، كما تكشف عند التخلي وكذلك إذا اغتسل الرجل وحده - بحيث يجد ما يستره - فله أن يغتسل عرياناً ، كما اغتسل موسى عرياناً وأيوب ، وكما في اغتسال النبي ﷺ يوم الفتح ، واغتساله في حديث ميمونة .

وأما النوع الثاني من النظر - كالنظر الى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية - فهذا أشد من الأول كما أن الخمر أشد من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وعلى صاحبها الحد ، وتلك المحرمات إذا تناولها مستحلاً لها كان عليه التعزير ، لأن هذه المحرمات لا تشتهيها النفوس كما تشتهي الخمر ، وكذلك النظر إلى عورة الرجل لا يشتهي كما يشتهي النظر إلى النساء ونحوهن وكذلك النظر الى الأمرد بشهوة هو من هذا الباب وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك كما اتفقوا على تحريم النظر الى الأجنبية وذوات المحارم بشهوة والخالق سبحانه يسبح [له] عند رؤية مخلوقاته كلها، وليس خلق الأمرد بأعجب في قدرته من خلق ذي اللحية ولا خلق النساء بأعجب في قدرته من خلق الرجال فتخصيص الإنسان بالتسبيح بحال نظره إلى الأمرد دون غيره كتخصيصه بالتسبيح بالنظر إلى المرأة دون الرجل ، وما ذاك لأنه أدل على عظمة الخالق عنده ولكن لأن الجمال يغير قلبه وعقله ، وقد يذهله ما رآه ، فيكون تسبيحه لما حصل من نفسه من الهوى ، كما أن النسوة لما رأين يوسف ﴿ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾^(٢).

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)^(٣) .

(١) الحديث رواه أبو داود في الحمام حديث ٩ والترمذي في الأدب ٢٢ ، ٣٩ وابن ماجه في النكاح ٢٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٤ (حلي) .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣١ .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب البر ٢٣ وابن ماجه في كتاب الزهد ٩ ، والإمام أحمد بن حنبل =

فإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال ، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال فكيف يفضل الشخص بما لم يفضله الله به ، وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَمْدُنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۖ ﴾ (١).

وقال في المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدٌ يَعْسَبُونَ كُلٌّ صِحْحَةٌ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ۖ ﴾ (٢).

فإذا كان هؤلاء المنافقون الذين تعجب الناظر أجسامهم لما فيه من البهاء والرواء والزينة الظاهرة ، وليسوا ممن ينظر إليه لشهوة قد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن ينظر إليه لشهوة .

وذلك أن الإنسان قد ينظر إليه لما فيه من الإيمان والتقوى وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته ، وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور فهذا حسن ، وقد ينظر إليه من جهة استحسان خلقه ، كما ينظر إلى الخيل والبهايم وكما ينظر إلى الأشجار والأنهار والأزهار ، فهذا أيضاً إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرئاسة والمال فهو مذموم بقوله : ﴿ وَلَا تَمْدُنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۖ ﴾ (٣).

= في المسند ٢ : ٢٨٥ : ٥٣٩ (حلي) .

(١) سورة طه آية رقم ١٣١ .

(٢) سورة المنافقون آية رقم ٤ قال الإمام أحمد : حدثني يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قدامة الجمحي عن إسحاق بن بكير أبي الفرات عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهيبة وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار وقال يزيد بن مرة : صخب بالنهار .

(٣) سورة طه آية رقم ١٣١ .

وأما إن كان على وجه لا ينتقص الدين ، وإنما فيه راحة النفس فقط كالنظر إلى الأزهار ، فهذا من الباطل الذي لا يستعان به على الحق .

وكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حراماً بلا ريب ، سواء كانت شهوة تمتع بالنظر أو كان نظراً بشهوة الوطء ، وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأشجار والأزهار ، وما يجده عند نظره إلى النسوان والمردان .

فلهذا الفرقان افترق الحكم الشرعي فصار النظر الى المردان ثلاثة أقسام :

أحدها : ما تقتزن به الشهوة فهو محرم بالإتفاق والثاني : ما يجزم أنه لا شهوة معه كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن ، وابنته الحسنة ، وأمه الحسنة فهذا لا يقتزن به شهوة إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس ، ومتى اقترنت به الشهوة حرم ، وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان ، كما كان الصحابة وكالأئمة الذين لا يعرفون هذه الفاحشة ، فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره وصبي أجنبي لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة لأنه لم يعتد ذلك ، وهو سليم القلب من قبل ذلك ، وقد كانت الإماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات مكشفات الرؤوس ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب ، فلو أراد الرجل أن يترك الإماء التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات كما كان أولئك الإماء

= قال ابن أبي حاتم ذكر عن وكيع بن الجراح ، حدثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع - صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ، ولم يكن عند النبي ﷺ أمر يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود .

« يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب قال : لا . إلا برهن - فأتيت النبي ﷺ - فأخبرته فقال : أما والله إني لأمين من في السماء ، وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه » . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ سورة طه آية رقم ١٣١ .

يمشّين كان هذا من باب الفساد .

وكذلك المردان الحسان لا يصلح أن يخرجوا من الأمكنة والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم إلا بقدر الحاجة ، فلا يمكن الأمرد الحسن من التبرج ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب ، ولا من رقصه بين الرجال ، ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس والنظر إليه كذلك .

وإنما وقع النزاع بين العلماء في القسم الثالث من النظر وهو النظر إليه بغير شهوة، لكن مع خوف ثورانها ففيه وجهان في مذهب أحمد ، أحدهما وهو المحكي عن نص الشافعي وغيره أنه لا يجوز و« الثاني » يجوز لأن الأصل عدم ثورانها ، فلا يحرم بالشك بل قد يكره ، والأول هو الراجح كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز ، وإن كانت الشهوة منتفية ، لكن لأنه يخاف ثورانها ، ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية ؛ لأنه مظنة الفتنة ، والأصل أن كلما كان سبباً للفتنة فإنه لا يجوز ، فإن الذريعة إلى الفساد سدها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة ولهذا كان النظر الذي قد يفضي إلى الفتنة محرماً إلا إذا كان لحاجة راجحة ، مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما ، فإنه يباح النظر للحاجة مع عدم الشهوة وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة فلا يجوز ومن كرر النظر إلى الأمرد ونحوه وأدامه ، وقال : إني لا أنظر لشهوة كذب في ذلك ، فإنه إذا لم يكن له داع يحتاج معه إلى النظر لم يكن النظر إلا لما يحصل في القلب من اللذة بذلك .

وأما نظر الفجأة فهو عفو إذا صرف بصره كما ثبت في الصحاح عن جرير قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة قال « اصرف بصرك »^(١) وفي السنن أنه قال لعلي (رضي الله عنه) : يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك

(١) الحديث رواه ابو داود في النكاح ٤٣ والدارمي في الإستئذان ١٥ .

الأولى وليست لك الثانية^(١) .

وفي الحديث الذي في المسند وغيره « النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، وفيه من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره عنها أورث الله قلبه حلاوة عبادة يجدها إلى يوم القيامة ، أو كما قال^(٢) .

ولهذا يقال : إن غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها ، كالمرأة ، والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر .

« أحدها » حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه الله ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والنفس تحب النظر إلى هذه الصور ، لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفاء فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصور تخطف أحدهم وتصرعه كما يصرعه السبع .

ولهذا قال بعض التابعين : ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه من حدث جميل يجلس إليه .

وقال بعضهم : اتقوا النظر إلى أولاد الملوك فإن فتنتهم كفتنة العذارى .

وما زال أئمة العلم والدين كأئمة الهدى وشيوخ الطريق - يوصون بترك صحبة الأحداث حتى يروي عنه فتح الموصلي أنه قال : صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الأحداث .

وقال بعضهم : ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأتنان .

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب النكاح ٤٣ والترمذي في كتاب الأدب ٢٨ والدارمي في الرقاق ٣ واحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ (حلي) .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

ثم النظر يولد المحبة فيكون علاقة لتعلق القلب بالمحبيب ، ثم صباية لانصباب القلب إليه ، ثم غراماً للزومه للقلب ، كالغريم الملازم لغريمه ، ثم عشقا إلى أن يصير تتيماً ، والمتميم المعبد ، وتيم الله عبد الله ، فيبقى القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً ولا صادقاً .

وهذا إنما يتبلى به أهل الأعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك ، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام :

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (١).

فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء ، ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومرادتها له واستعانتها عليه بالسوء وعقوبتها له بالحبس على العفة عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقاً لقوله . .
﴿لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢).

قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٣).

والغي هو اتباع الهوى .

وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى ومن أمر بعشق الصور من المتفلسفة - كابن سينا وذويه ، أو من الفرس ، كما يذكر عن بعضهم من جهال المتصوفة - فإنهم أهل ضلال ، فهم مع مشاركة اليهود في الغي ، والنصارى في الضلال زادوا على الأمتين في ذلك ، فإن هذا وإن ظن أن فيه منفعة للعاشق كتلطيف نفسه وتهذيب أخلاقه ، أو للمعشوق من السعي في

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة ص آية رقم ٨٢ - ٨٣ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

مصالحه ، وتعليمه وتأديبه ، وغير ذلك فمضرة ذلك أضعاف منفعته ، وأين إثم ذلك من نفعه ؟ !

وإنما هذا كما يقال : إن في الزنا منفعة لكل منهما بما يحصل له من اللذة والسرور ، ويحصل لها من الجعل وغير ذلك ، وكما يقال : إن من شرب الخمر منافع بدنية ونفسية ، وقال تعالى في الخمر والميسر : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ ^(١) وهذا قبل التحريم دع ما قاله عند التحريم وبعده ، فإن التعبد بهذه الصورة من جنس الفواحش وباطنه من باطن الفواحش ، وهو من باطن الإثم .

قال الله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) .

وليس بين ائمة الدين نزاع في أن هذا ليس بمستحب كما أنه ليس بواجب ، فمن جعله ممدوحاً وأثنى عليه فقد خرج عن إجماع المسلمين واليهود والنصارى ، بل وعما عليه العقلاء من بني آدم من جميع الأمم ، وهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

الْجَنَّةُ هِيَ الْمَأْوَى ﴿١﴾

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (٢)

وأما من نظر إلى المردان ظاناً أنه ينظر إلى مظاهر الجمال الإلهي وجعل هذا طريقاً له إلى الله ، كما يفعله طوائف من المدعين للمعرفة فقلوه هذا أعظم كفراً من قول عباد الأصنام ، ومن كفر قوم لوط ، فهؤلاء من شر الزنادقة المرتدين ، الذين يجب قتلهم بإجماع كل أمة ، فإن عباد الأصنام قالوا . . ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (٣).

وهؤلاء يجعلون الله سبحانه موجوداً في نفس الأصنام وحالاً فيها ، فإنهم لا يريدون بظهوره وتجليه في المخلوقات أنها أدلة عليه ، وآيات له بل يريدون أنه سبحانه ظهر فيها وتجلي فيها .

ويشبهون ذلك بظهور الماء في الصوفة ، والزبد في اللبن ، والزيت في الزيتون ، والدهن في السمس ، ونحو ذلك مما يقتضي حلول نفس ذاته في مخلوقاته ، أو اتحاده بها . فيقولون في جميع المخلوقات نظير ما قاله النصراني في المسيح خاصة ثم يجعلون المردان مظاهر الجمال فيقرون هذا

(١) سورة النازعات آية رقم ٤٠

(٢) سورة ص آية رقم ٢٦ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٣ قال قتادة والسدي ، ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد إلا ليقربونا إلى الله زلفى أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تليتهم إذا حجوا في جاهليتهم لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى افراة العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولاً أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

وقال أيضاً : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

الشرك الأعظم طريقاً إلى استحلال الفواحش ، بل إلى استحلال كل محرم ، كما قيل لأفضل مشايخهم التلمساني^(١) ، إذا كان قولكم بأن الوجود واحد هو الحق ، فما الفرق بين أُمي وأختي وبنتي ، حتى يكون هذا حلال وهذا حرام ؟ .

قال : الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ، فقلنا : حرام عليكم .

ومن هؤلاء الحلولية والإتحادية من يخص الحلول والإتحاد ببعض الأشخاص ، إما ببعض الأنبياء كال المسيح ، أو ببعض الصحابة كقول الغالية في علي ، أو ببعض الشيوخ كالحلاجية ونحوهم أو ببعض الملوك ، أو ببعض الصور ، كصور المردان .

ويقول أحدهم : إنما أنظر إلى صفات خالقي وأشهد بها في هذه الصورة ، والكفر في هذا القول أبين من أن يخفى على من يؤمن بالله ورسوله ولو قال مثل هذا الكلام في نبي كريم لكان كافراً فكيف إذا قاله في صبي أمرد ؟ .

فقيح الله طائفة يكون معبودها من جنس موطئها .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٢) .

(١) هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني ، غفيف الدين شاعر كومي الأصل (من قبيلة كومة) تنقل في بلاد الروم ، وسكن دمشق فباشر فيها بعض الأعمال ، وكان يتصوف ويتكلم على اصطلاح القوم يتبع طريقة ابن العربي في أقواله وأفعاله ، واتهمه فريق برقة الدين والميل الى مذهب التصيرية ، وصنف كتباً كثيرة منها (شرح مواقف النفري) وشرح فصوص الحكم لابن عربي ، وشرح منازل السائرين للهروي توفي عام ٦٩٠ هـ . راجع النجوم الزاهرة ٨ : ٢٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٣٢٦ وشذرات الذهب ٥ : ٤١٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٠

فإذا كان من اتخذ الملائكة والنبين أرباباً مع اعترافهم بأنهم مخلوقون
الله كفاراً فكيف بمن اتخذ بعض المخلوقات أرباباً ؟ ! مع أن الله فيها ، أو
متحد بها ، فوجوده وجودها ، ونحو ذلك من المقالات وأما الفائدة الثانية في
غض البصر : فهو نور القلب والفراسة ، قال تعالى عن قوم لوط ﴿ لَعْمَرُك
إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١) .

فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمى البصيرة ، وسكر القلب ، بل
جنونه كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة فمتى يفيق من به سكران
وقيل أيضاً :

قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين
وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر ، فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) وكان شجاع بن شاه الكرمانى (٣) لا تخطيء له فراسة ،
وكان يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض
بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات وذكر خصلة سادسة أظنه : هو
أكل الحلال لم تخطيء له فراسة ، والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو
من جنس عمله ، فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة
والكشف ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب .

الفائدة الثالثة : قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل الله له سلطان
البصيرة مع سلطان الحجة ، فإن في الأثر : الذي يخالف هواه يفرق الشيطان
من ظله .

(١) سورة الحجر آية رقم ٧٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) لم نعثر على ترجمة له على طول البحث والتقصي .

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه فإن الله جعل العزة لمن أطاعه ، والذلة لمن عصاه .

قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

ولهذا كان في كلام الشيوخ الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ، ولا يجدونه إلا في طاعة الله ، وكان الحسن البصري (٣) يقول . . وإن هملجت بهم البراذين ، وطققت بهم ذلل البغال ، فإن ذل المعصية في رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه ، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه ففيه قسط ، من فعل من عاداه بمعاصيه .

ومن دعاء القنوت : « إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت » .

ثم الصوفية المشهورون عند الأمة - الذين لهم لسان صدق في الأمة - لم يكونوا يستحسنون مثل هذا ، بل ينهون عنه ولهم في الكلام في ذم صحبة الأحداث ومن الرد على أهل الحلول ، وبيان مباينة الخالق ما لا يتسع هذا الموضع لذكره .

وإنما استحسنه من تشبه بهم ممن هو عاص أو فاسق أو كافر ، فيتظاهر بدعوى الولاية لله ، وتحقيق الإيمان والعرفان ، وهو من شر أهل العداوة لله ، وأهل النفاق والبهتان .

(١) سورة المنافقون آية رقم ٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٩ .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

والله تعالى يجمع لأولياته المتقين خير الدنيا والآخرة .
ويجعل لأعدائه الصفقة الخاسرة والله سبحانه أعلم ؟ .

فصل اعتراض وجوابه

قال المعترض في أسماء [الله] الحسنی : النور ، الهادي يجب تأويله قطعاً إذ النور كيفية قائمة بالجسمية ، وهو ضد الظلمة ، وجل الحق سبحانه أن يكون له ضد ، ولو كان نوراً لم تجز اضافته الى نفسه وهو غير جائز ، وقوله : ﴿ الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

قال المفسرون يعني هادي أهل السموات والأرض هو ضعيف لأن ذكر الهادي بعده يكون تكراراً ، وقيل منور السموات بالكواكب ، وقيل بالأدلة والحجج الباهرة ، والنور جسم لطيف شفاف فلا يجوز على الله والتأويل مروى عن ابن عباس ، وأنس ، وسالم ، وهذا يبطل دعواه أن التأويل يبطل الظاهر ، ولم ينقل عن السلف ، ولو كان نوراً حقيقة كما يقول المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ ^(٢) .

ومعلوم أنه - ﷺ - لم يكن السراج المعروف ، وإنما سمي سراجاً بالهدى الذي جاء به ووضوح أدلته بمنزلة السراج المنير .

وروي عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية ، والحسن ، يعني

(١) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥ - ٤٦ .

منور السموات والأرض شمسها وقمرها ونجومها ، ومن كلام العارفين : النور هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده ، ونور أسرار المحبين بتأييده وقيل : هو الذي أحيا قلوب العارفين بنور معرفته ، ونفوس العابدين بنور عيادته .

والجواب : أن هذا الكلام وأمثاله ليس باعتراض علينا ، وإنما هو ابتداء نقص حرمة منهم لما يظن أنه يلزمنا أو يظن أنا نقوله على الوجه الذي حكاه ، وقد قال تعالى :

﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (١) .

وقال النبي - ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (٢) وإذا كان في الكلام أخبار عن الغير بأنه يقول أقوالاً باطلة في العقل والشرع ، وفيه رد تلك الأقوال كان هذا كذباً وظلماً ، فنعوذ بالله من ذلك ثم مع كونه ظلماً لنا . يا ليتة كان كلاماً صحيحاً مستقيماً ، فكنا نحلله من حقنا ، ويستفاد ما فيه من العلم ، ولكن فيه من تحريف كتاب الله والالحاد في آياته وأسمائه ، والكذب ، والظلم ، والعدوان الذي يتعلق بحقوق الله مما فيه ، لكن عفونا عن حقنا فحق الله إليه لا الى غيره . ونحن نذكر من القيام بحق الله ، ونصر كتابه ودينه ، ما يليق بهذا الموضوع ، فإن هذا الكلام الذي ذكره فيه من التناقض والفساد ما لا أظن تمكنه من ضبطه من وجوه .

أحدها : أنه قال في أوله النور كيفية قائمة بالجسمية ثم قال في آخره جسم لطيف شفاف فذكر في أول الكلام أنه عرض وصفه ، وفي آخره جسم وهو جوهر قائم بنفسه .

الثاني : أنه ذكر عن المفسرين أنهم تأولوا ذلك بالهادي وضعف ذلك ،

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٢ .

(٢) الحديث رواه الامام أحمد ، البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي راجع الجامع الصغير

بشرح الفيض ١١٢ / ٣

ثم ذكر في آخره أن من كلام العارفين أن النور هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده وأسرار المحبين بتأييده ، وأحيا قلوب العارفين بنور معرفته . وهذا هو معنى الهادي الذي ضعفه أولاً فيضعفه أولاً ويجعله من كلام العارفين ، وهي كلمة لها صولة في القلوب ، وإنما هو من كلام بعض المشايخ الذين يتكلمون بنوع من الوعظ الذي ليس فيه تحقيق ، فإن الشيخ أبا عبد الرحمن ذكر في تحقيق التفسير من الإشارات التي بعضها كلام حسن مستفاد ، وبعضها من المنقول الباطل المردود فإن اشارات المشايخ الصوفية التي يشيرون بها ، تنقسم الى اشارة حالية ، وهي اشارتهم بالقلوب ، وذلك هو الذي امتازوا به ، وليس هذا موضعه ، وينقسم الى الاشارات المتعلقة بالأقوال مثل ما يأخذونها من القرآن ، ونحوه فتلك الاشارات هي من باب الاعتبار ، والقياس ، والحق ما ليس بمنصوص بالمنصوص ، مثل الاعتبار والقياس الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام ، لكن هذا يستعمل في الترغيب ، والترهيب ، وفصائل الأعمال ودرجات الرجال ، ونحو ذلك . فإن كانت الاشارة اعتبارية من جنس القياس الصحيح كانت حسنة مقبولة ، وإن كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمه ، وإن كان تحريفاً للكلام على غير تأويله ، كانت من جنس كلام القرامطة ، والباطنية ، والجهمية ، فتدبر هذا فإني قد أوضحت هذا في قاعدة الاشارات .

الوجه الثالث : في تناقضه ، فإنه قال : التأويل منقول عن ابن عباس وأنس ، وسالم ، ولم يذكر إلا ثلاثة أقوال : أحدها أنه هادي أهل السموات والأرض ، وقد ضعف ذلك فإن كان المنقول هو هذا الضعيف فيا خيبة المسعى إذ لم ينقل عن السلف في جميع كلامه الى هنا شيئاً عن السلف إلا هذا الذي ضعفه وأوهاه ، وإن كان المنقول عن هؤلاء الثلاثة أنه منور السموات بالكواكب كان متناقضاً من وجه آخر ، وهو أنه قد ذكر فيما بعد أن هذا روي عن ابن عباس في رواية أخرى ، وأبي العالية ، والحسن ، أنه منورها بالشمس ، والقمر ، والنجوم ، وهذا يوجب أن يكون المنقول عن ابن

عباس والاثنين أولاً غير المنقول عنه في رواية أخرى ، وعمن ليس معه في الأولى ، وإن كان نوره بالحجج الباهرة والأدلة كان متناقضاً فإن هذا هو معنى الهادي إذا نصبه للأدلة والحجج هي من هدايته . وهو قد ضعف هذا القول . فما أدري من أيهما العجب . . ؟ أمن حكايته القولين اللذين أحدهما داخل في معنى الآخر . . ؟ أم من تضعيفه لقول السائل الذي يوجب تضعيف الاثنين ، وهو لا يدري أنه قد ضعفهما جميعاً . . ؟

فيجب على الإنسان أن يعرف معنى الأقوال المنقولة ويعرف أن الذي يضعفه هو الذي عظمه .

الوجه الرابع : أنه قد تبين أنه لم ينقل عن ابن عباس ، وأنس ، وسالم ، إلا القول الذي ضعفه ، أو ما يدخل فيه ، فإنه إن كان قولهم : الهادي فقد صرح بضعفه ، وإن كان مقيم الأدلة ، فهو من معنى الهادي ، وإن كان المنور بالكواكب ، فقد جعله قولاً آخر ، وإن كان ما ذكره عن بعض العارفين ، فهو أيضاً داخل في الهادي ، وإذا كان قد اعترف بضعف ما حكاه عن ابن عباس ، وأنس ، وسالم لم يكن فيه حجة علينا .

فتبين أن ما ذكره عن السلف إما أن يكون مبطلاً في نقله ، أو مفترياً بتضعيفه ، وعلى التقديرين لا حجة علينا بذلك .

الوجه الخامس : أنه أساء الأدب على السلف إذ يذكر عنهم ما يضعفه وأظهر للناس أن السلف كانوا يتأولون ليحتج بذلك على التأويل في الجملة وهو قد اعترف بضعف هذا التأويل .

ومن احتج بحجة ، وقد ضعفها ، وهو لا يعلم أنه ضعفها فقد رمى نفسه بسهمه ، ومن رمى بسهم البغي صرع به ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

الوجه السادس : قوله هذا يبطل دعواه أن التأويل دفع الظاهر ولم ينقل

عن السلف فإن هذا القول لم أقله ، وإن كنت قلته فهو لم ينقل إلا ما عرف أنه ضعيف ، والضعيف لا يبطل شيئاً ، فهذه الوجوه في بيان تناقضه وحكايته عنا ما لم نقله .

وأما بيان فساد الكلام فنقول : أما قوله يجب تأويله قطعاً فلا نسلم أنه يجب تأويله ، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم ، وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم ، وهو قول أبي سعيد بن كلاب ذكره في الصفات .

ورد على الجهمية تأويل اسم النور ، وهو شيخ المتكلمين الصفاتية الأشعرية الشيخ الأول وحكاه عنه أبو بكر بن فورك في كتاب « مقالات ابن كلاب » والأشعري ، ولم يذكرا تأويله إلا عن الجهمية المذمومين باتفاق ، وهو أيضاً قول أبي الحسن الأشعري ذكره في الموجز .

وأما قوله : إن هذا ورد في الأسماء الحسنى ، فالحديث الذي ذكر فيه ذلك هو حديث الترمذي ^(١) روى الأسماء الحسنى في جامعة من حديث الوليد بن مسلم ، عن شعيب ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه . ورواها ابن ماجه في سننه من طريق مغلذ بن زياد القطواني عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة .

وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي - ﷺ - وإنما كل منهما من كلام بعض السلف ، فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه ، ولهذا اختلف أعيانها عنه فروي عنه في إحدى الروايات من الأسماء بدل ما ذكر في الرواية

(١) حديث الترمذي : « إن الله عز وجل تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » أخرجه في الدعوات وابن حبان ، والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان .

الأخرى لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة ، وهذا تارة ، واعتقدوا هم وغيرهم أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ليست شيئاً معيناً بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة ، أو أنها وإن كانت معينة فالاسمان اللذان يتفقان معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه كالأحد والواحد ، فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه رواها عثمان ابن سعيد « الأحد » بل « الواحد » و« المعطي » بدل « المغني » وهما متقاربان ، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خليلد بن دعلج^(١) عن قتادة عن ابن سيرين عن أبي هريرة ثم قال هشام :

« وحدثنا الوليد ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك ، وقال : كلها في القرآن » هو الله الذي لا إله إلا هو » مثل ما ساقها الترمذي ، لكن الترمذي رواها عن طريق صفوان بن صالح عن الوليد عن شعيب ، وقد رواها ابن أبي عاصم ، وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع . وهذا كله مما يبين لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي - ﷺ - في بعض الطرق ، وليست من كلامه ، ولهذا جمعها قوم آخرون على غير هذا الجمع واستخرجوها من القرآن ، منهم سفيان بن عيينه والامام أحمد ابن حنبل وغيرهم ، كما ذكرت ذلك فيما تكلمت به قديماً على هذا ، وهذا كله يقتضي أنها عندهم مما يقبل البديل فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين .

قالوا : ومنهم الخطابي قوله : إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها التقيد بالعدد عائد الى الأسماء الموصوفة بأنها هي هذه الأسماء فهذه الجملة وهي قوله « من أحصاها دخل الجنة » صفة للتسعة والتسعين ليست جملة

(١) قال ابن حيان عنه : كان كثير الخطأ فيما يروي عن قتاد وغيره ، وضعفه أحمد ويحيى وقال النسائي : ليس بثقة ، وقال أبو حاتم صالح ليس بالمتين ، وقال ابن عدي عامة حديثه تابعه عليه (راجع المجروحين لابن حيان ٢٨٥ / ١ الميزان ٦٦٣ / ١)

مبتدأة ، ولكن موضعها النصب ، ويجوز أن تكون مبتدأة والمعنى لا يختلف ، والتقدير أن لله أسماء بقدر هذا العدد من أحصائها دخل الجنة . كما يقول القائل : إن مائة غلام أعددتهم للعتق ، وألف درهم أعددتها للحج ، فالتقييد بالعدد هو في الموصوف بهذه الصفة لا في أصل استحقاقه لذلك العدد ، فإنه لم يقل أن أسماء الله تسعة وتسعين . قال : ويدل على ذلك قوله في الحديث الذي رواه أحمد في المسند : اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ^(١) .

فهذا يدل على أن لله أسماء فوق تسعة وتسعين يحصيها بعض المؤمنين وأيضاً فقوله : إن لله تسعة وتسعين « تقييد بهذا العدد بمنزلة قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ^(٢) .

فلما استقلوها قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ^(٣) .

فإن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى .

وذلك أن هذا لو كان قد قيل منفرداً لم يفد النفي إلا بمفهوم العدد الذي هو دون مفهوم الصفة ، والنزاع فيه مشهور ، وإن كان المختار عندنا أن التخصيص بالذكر بعد قيام المقتضى للعموم يفيد الاختصاص بالحكم فإن العدول عن وجوب التعميم إلى التخصيص إن لم يكن للاختصاص بالحكم ، وإلا كان تركاً للمقتضى بلا معارض ، وذلك ممتنع ، فقوله : « إن لله تسعة وتسعين » قد يكون للتحصيل بهذا العدد فوائد غير الحصر ومنها ذكر أن احصاءها يورث الجنة . فإنه لو ذكر هذه الجملة منفردة واتبعها بهذه منفردة

(١) الحديث رواه الامام أحمد من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه عن رسول الله - ﷺ أنه قال : وذكره ، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه بمثله .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

لكان حسناً ، فكيف والأصل في الكلام الاتصال ، وعدم الانفصال فتكون الجملة الشرطية صفة لا ابتدائية ، فهذا هو الراجح في العربية مع ما ذكر من الدليل . ولهذا قال :

« إنه وتر يحب الوتر » ^(١) . ومحبه لذلك تدل على أنه متعلق بالاحصاء أي يجب أن يحصى من أسمائه هذا العدد ، وإذا كان أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين أمكن أن يكون إحصاء تسعة وتسعين اسماً يورث الجنة مطلقاً على سبيل البدل فهذا يوجه قول هؤلاء وإن كان كثيراً .

وكثير من الناس من يجعلها أسماء معينة ، ثم من هؤلاء من يقول ليس إلا تسعة وتسعين اسماً فقط وهو قول ابن حزم ^(٢) وطائفة ، والأكثر منهم يقولون ، وإن كانت أسماء الله أكثر لكن الموعود بالجنة لمن أحصاها هي معينة ، وبكل حال فتعيينها ليس من كلام النبي - ﷺ - باتفاق أهل المعرفة ، ولكن روي في ذلك عن السلف أنواع .

من ذلك ما ذكره الترمذي ، ومنها غير ذلك ، فإذا عرف هذا فقله في أسمائه الحسنى ، النور ، الهادي « لو نازعه منازع في ثبوت ذلك عن النبي - ﷺ - لم تكن له حجة .

ولكن جاء ذلك في أحاديث صحاح ، مثل قوله في الحديث الذي في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - أنه كان يقول :

« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » ^(٣) .

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه بسنده عن أبي هريرة وذكر أيضاً في الصحيحين .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) لفظ الحديث في البخاري (كان النبي - ﷺ - إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض » .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : سألت رسول الله - ﷺ هل رأيت ربك . . ؟

فقال : نور أني أراه »

أو قال : رأيت نورا « (١)

فالذي في القرآن والحديث الصحيح اضافة النور بقوله : نور السماوات والأرض « أو « نور السموات والأرض ومن فيهن » .

وأما قوله إن النور كيفية قائمة . فنقول : النور المخلوق محسوس لا يحتاج الى بيان كيفية لكنه نوعان أعيان وأعراض ، فالأعيان هو نفس جرم النار حيث كانت نور السراج ، والمصباح الذي في الزجاجه وغيره وهي النور الذي ضرب الله به المثل ، ومثل القمر ، فإن الله سماه نوراً فقال : ﴿ جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ (٢) .

ولا ريب أن النار جسم لطيف شفاف ، وأعراض مثل ما يقع من شعاع الشمس والقمر والنار على الأجسام الصقيلة وغيرها ، فإن المصباح إذا كان في البيت أضاء جوانب البيت فذلك النور والشعاع الواقع على الجدر والسقف والأرض هو عرض ، وهو كيفية قائمة بالجسم . وقد يقال ليس الصفة القائمة بالنار والقمر ونحوهما نوراً فيكون الاسم على الجوهر تارة ، وعلى صفة أخرى ، ولهذا يقال لضوء النهار نور ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (٣) .

ومن هذا تسمية الليل ظلمة والنهار نوراً فإنهما عرضان ، وقد قيل هما جوهران ، وليس هذا موضع بسط ذلك ، فتبين أن اسم النور يتناول هذين ،

(١) الحديث رواه الامام مسلم .

(٢) سورة يونس آية رقم ٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١ .

والمعترض ذكر أولاً حد العرض ، وذكر ثانياً حد الجسم فتناقض ، وكأنه أخذ ذلك من كلامي ولم يهتدوا لوجه الجمع وكذلك اسم الحق يقع على ذات الله تعالى ، وعلى صفاته القدسية القديمة كقول النبي - ﷺ -

« أنت الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ومحمد حق » .

وأما قول المعترض النور ضد الظلمة ، وجل الحق أن يكون له ضد ، فيقال له لم تفهم معنى الضد المنفي عن الله ، فإن الضد يراد به ما يمنع ثبوت الآخر كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض ، ويقول الناس الضدان لا يجتمعان ويمتنع اجتماع الضدين ، وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في الأعراض ، وأما الأعيان فلا تضاد فيها ، فيمتنع عند هذا أن يقال لله ضد أو ليس له ضد ، ومنهم من يقول : يتصور التضاد فيها ، والله تعالى ليس له ضد يمنع ثبوته ، ووجوده بلا ريب بل هو القاهر ، الغالب ، الذي لا يغلب .

وقد يراد بالضد المعارض لأمره وحكمه ، وإن لم يكن مانعاً من وجود ذاته كما قال النبي - ﷺ :

« من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره » (١) رواه أبو داود . وتسمية المخالف لأمره وحكمه ضداً كتسميته عدواً ، وبهذا الاعتبار فالمعادون المضادون لله كثيرون فأما على التفسير الأول فلا ريب أنه ليس في نفس الأمر مضاداً لله ، لكن المضاد يقع في نفس الكافر فإن الباطل ضد الحق ، والكذب ضد الصدق ، فمن اعتقد في الله ما هو منزّه عنه كان هذا ضدّاً للإيمان الصحيح به .

(١) الحديث رواه الامام أحمد ، والحاكم عن ابن عمر - رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن أبي شيبة من وجه صحيح عن ابن عمر أيضاً موقوفاً عليه ، وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً

وأما قوله النور ضد الظلمة ، وجل الحق أن يكون له ضد فيقال له :
والحي ضد الميت ، والعليم ضد الجاهل ، والسميع والبصير ، والذي يتكلم
ضد الأصم الأعمى الأبكم .

وهكذا سائر ما سمي الله به من الأسماء لها أضداد ، وهو منزّه عن أن
يسمى بأضدادها فجل الله يكون ميتاً أو عاجزاً ، أو فقيراً ، ونحو ذلك .
وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته مثل وجود الميت ،
والجاهل والفقير ، والظالم فهذا كثير بل غالب أسمائه لها أضداد
موجودة في الموجودين ولا يقال لأولئك أنهم أضداد الله ،
ولكن يقال إنهم موصوفون بضد صفات الله ، فإن
التضاد بين إنما يكون في المحل الواحد لا في محلين . فمن كان موصوفاً
بالموت ضادته الحياة ، ومن كان موصوفاً بالحياة ضاده الموت ، والله سبحانه
يمنتع أن يكون ظلمة أو موصوفاً بالظلمة كما يمنتع أن يكون ميتاً أو موصوفاً
بالموت ، فهذا المعترض أخذ لفظ الضد بالاشتراك ، ولم يميز بين الضد
الذي يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله . وبين أن يكون في مخلوقاته ما
هو موصوف بضد صفاته ، وبين ما يضاده في أمره ونهيه ، فالضد الأول هو
المنتع وأما الآخران فوجودهما كثير ، لكن لا يقال إنه ضد الله ، فإن
المتصف بضد صفاته لم يضاده ، والذين قالوا النور ضد الظلمة ، قالوا يمنتع
اجتماعهما في عين واحدة ، ولم يقولوا إنه يمنتع أن يكون شيء موصوف بأنه
نور وشيء آخر موصوف بأنه ظلمة فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط .

وأما قوله : لو كان نوراً لم يجز اضافته الى نفسه في قوله ﴿ مثل نوره ﴾
فالكلام عليه من طريقين .

أحدهما أن نقول النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمي الله نور
السموات والأرض ، وقد أخبر النص أن الله نور ، وأخبر أيضاً أنه يحتجب
بالنور فهذه ثلاثة أنوار في النص ، وقد تقدم ذكر الأول .

وأما الثاني : قوله ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ^(١) وفي قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ^(٢) وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » ^(٣) . ومنه قوله - ﷺ - في دعاء الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك » ^(٤) رواه الطبراني وغيره .

ومنه قول ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه . ومنه قوله ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي - ﷺ - قال :

« قام فينا رسول الله - ﷺ - بأربع كلمات فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » ^(٥) .

فهذا الحديث ذكر فيه حجابه فإن تردد الراوي في لفظ النار والنور لا

(١) سورة الزمر آية رقم ٦٩ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ١٧٦ ثنا معاوية بن عمرو ثنا ابراهيم بن محمد أبو اسحاق الفزاري ثنا الأوزاعي ، حدثني ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن الديلي قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إن الله عز وجل : وذكره . ورواه الترمذي في كتاب الايمان ١٨ .

(٤) راجع تفسير ابن كثير ٣ : ٣٩٠ وسيرة ابن هشام ، والجامع الصغير للامام السيوطي .

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيها أنكرت الجهمية ١٩٥ عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة ، عن أبي موسى . قال : قام فينا رسول الله - ﷺ - وفيه (بخمس كلمات) بدلاً من أربع وذكره ، ورواه الامام مسلم في ايمان ٢٩٣ ، ٢٩٤ وأحمد بن حنبل في امسند ٤ : ٢٠١ ، ٤٠٥ (حلي) .

يمنع ذلك فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها نار ونور كما سمي الله نار المصباح نوراً بخلاف النار المظلمة كنار جهنم فتلك لا تسمى نوراً .

فالأقسام ثلاثة : اشراق بلا احراق ، وهو النور المحصن كالقمر ، وإحراق بلا اشراق وهي النار المظلمة ، وما هو نار ونور كالشمس ، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين ، وإذا كان كذلك صح أن يكون نور السموات والأرض وأن يضاف إليه النور ، وليس المضاف هو عين المضاف إليه .

والطريق الثاني أن يقال هذا يرد عليكم لا يختص بمن يسميه بما سمي به نفسه وبينه فأنت إذا قلت هاد أو منور أو غير ذلك فالمسمى نوراً هو الرب نفسه ليس هو النور المضاف إليه ، فإذا قلت هو الهادي فنوره الهدى ، جعلت أحد النورين عيناً قائمة ، والآخر صفة ، فهكذا يقول من يسميه نوراً ، وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين كان تخصيص أحدهما بأنه مضاف ظلماً ولدداً في المحاجة أو جهلاً وضلالاً عن الحق .

وأما ما ذكره من الأقوال فلا ريب أن الناس فيها من الأقوال أكثر مما ذكره ، والموجود بأيدي الأمة من الروايات الصادقة والكاذبة ، والآراء المصيبة والمخطئة لا يحصيه الا الله والكلام في تفسير أسماء الله وصفاته وكلامه فيه من الغث والسمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين ، وإنما الشأن في الحق والعلم والدين .

وقد كتبت قديماً في بعض كتبي لبعض الأكابر أن العلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول - ﷺ - فالشأن في أن نقول علماً وهو النقل والصدق والبحث المحقق فإن ما سوى ذلك وأن زخرف مثله بعض الناس خرف فروق وإلا فباطل مطلق مثلما ذكره في هذه الآية وغيرها .

وهذه الكتب التي يسميها كثير من الناس كتب التفسير فيها كثير من

التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم ، وقول على الله ورسوله بالرأي
المجرد بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية .

فالمفسرون الذين ينقل عنهم لم يسمهم ، ومع هذا فقد ضعف قولهم
بالباطل فإن القوم فسروا النور في الآية بأنه الهادي ، ولم يفسروا النور في
الأسماء الحسنى ، والحديث عن النبي - ﷺ - فلا يصح تضعيف قولهم بما
ضعفه ، ونحن ما ذكرنا ذلك لبيان تناقضه ، وأنه لا يحتج علينا بشيء يروج
على ذي لب ، فإن التناقض أول مقامات الفساد ، وهذا التفسير قد قاله طائفة
من المفسرين .

وأما كونه ثابتاً عن ابن عباس أو غيره ، فهذا مما لم يثبت ، ومعلوم أن
في كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب شيء كثير من رواية
الكلبي عن أبي صالح وغيره ، فلا بد من تصحيح النقل لتقوم الحجة فليراجع
كتب التفسير التي يحرر فيها النقل مثل تفسير محمد بن جرير الطبري (١)
الذي ينقل فيه كلام السلف بالاسناد ، وليعرض عن تفسير مقاتل بقي بن
مخلد الأندلسي وعبد الرحمن بن ابراهيم دحيم الشامي ، وعبد بن حميد
الكشي ، وغيرهم إن لم يصعد الى تفسير الامام اسحاق بن راهويه ، وتفسير
الامام أحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة الذين هم أعلم أهل الأرض
بالتفسير الصحيحة عن النبي - ﷺ - وآثار الصحابة والتابعين كما هم أعلم
الناس بحديث النبي ﷺ ، وآثار الصحابة والتابعين في الأصول والفروع ،
وغير ذلك من العلوم ، فأما أن يثبت أصلاً يجعله قاعدة بمجرد رأي فهذا إنما
ينفق على الجهال بالدلائل الأغشام في المسائل ، ومثل هذه المنقولات التي
لا يميز صدقها من كذبها ، والمعقولات التي لا يميز صدقها من خطئها ضل
من ضل من أهل المشرق في الأصول والفروع والفقه والتصوف .

وما أحسن ما جاء هذا في آية النور التي قال الله تعالى فيها :

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ ^(١)

نسأل الله تعالى يجعل لنا نوراً .

ثم نقول : هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٢) أي هادي أهل السموات والأرض لا يضرنا ولا يخالف ما قلناه ، فإنهم قالوه في تفسير الآية التي ذكر النور فيها مضافاً لم يذكره في تفسير نور مطلق كما أدعيت أنت من ورود الحديث به ، فأين هذا من هذا . . ؟

ثم قول من قال من السلف « هادي أهل السموات والأرض » لا يمنع أن يكون في نفسه نوراً ، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر من الأسماء أو بعض أنواعه ، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات المسمى بل قد يكونان متلازمين ، ولا دخول لبقية الأنواع فيه ، وهذا قد قررناه غير مرة في القواعد المتقدمة ، ومن تدبره علم أن أكثر أقوال السلف في التفسير متفقة غير مختلفة .

مثال ذلك قول بعضهم في الصراط المستقيم إنه الاسلام ، وقول آخر إنه القرآن وقول آخر إنه السنة والجماعة ، وقول آخر إنه طريق العبودية ، فهذه كلها صفات له متلازمة لا مباينة وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن والرسول بأسمائه بل بمنزلة أسماء الله الحسنى .

ومثال الثاني قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ ^(٣) فذكر منهم صنفاً من الأصناف والعبد يعم الجميع ، فالظالم لنفسه المخل ببعض الواجب ، والمقتصد القائم به ، والسابق

(١) سورة النور آية رقم ٤٠ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٣٢ .

المتقرب بالنوافل بعض الفرائض وكل من الناس يدخل في هذا بحسب طريقه ، والتفسير والترجمة ببيان النوع والجنس ليقرب الفهم على المخاطب كما قال الأعجمي : ما الخبز . . . ؟

فقليل له : هذا . وأشير الى الرغبة ، فالغرض من الجنس لا هذا الشخص فهكذا تفسير كثير من السلف ، وهو من جنس التعليم ، فقول من قال : نور السموات والأرض هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح ، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هادياً لهم ، أما أنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم ، وأما أنهم أرادوا ذلك فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال : «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه » وقد تقدم عن النبي - ﷺ - من ذكر وجهه ، وفي رواية النور ما فيه كفاية ، فهذا بيان معنى غير الهداية ، وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها ، فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نوراً . . . ؟

ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء كقوله ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ^(١) ونحو ذلك الوجوه .

أحدها : أن النور لم يضاف قط إلى الله إذا كان صفة لأعيان قائمة فلا يقال في المصابيح إنها نور الله ، ولا في الشمس والقمر وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه » . وفي الدعاء المأثور عن النبي - ﷺ : أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » ^(٢) .

الثاني أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في الدنيا ، وليس من نور إلا هو خلق من خلق الله . وكذلك من قال : منور

(١) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ وسورة هود آية رقم ٦٤ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

السموات والأرض لا ينافي أنه نور ، وكل منور نور ، فهما متلازمان ، ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح ، وهو في نفسه نور وهو منور لغيره ، فإذا كان نوره في القلوب هو نور وهو منور ، فهو في نفسه أحق بذلك ، وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور .

وأما قول من قال : معناه منور السموات بالكواكب فهذا إن أراد به قائله أن ذلك من معنى كونه نور السموات والأرض وليس له معنى إلا هذا ، فهو مبطل لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض ، والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ^(١) . فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين . نور الإيمان ، والعلم المراد من الآية لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب ، وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى ، وأبي العالية والحسن بعد المطالبة بصحة النقل ، والظن ضعفه عن ابن عباس ، لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور أما أن يقولوا قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٢) .

ليس معناه إلا التنوير بالشمس والقمر ، والنجوم فهذا باطل قطعاً .

وقد قال ﷺ - « أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » ^(٣) .

(١) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ٨٠ باب ما جاء في دعاء الرجل إذا قام من الليل .

١٣٥٥ ثنا سفيان بن عيينة ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس عن ابن عباس - قال : كان رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه البخاري في التهجد ١ ، والدعوات ٩ ، والتوحيد ٨ ، ٢٤ ، ٣٥ ورواه الامام مسلم في المسافرين ١٩٩ وأبو داود بالوتر ٢٥ ، والصلاة ١١٩ ، والترمذي في الدعوات ٢٩ ، والنسائي عند قيام الليل ٩ والدارمي في الصلاة ١٦٩ وصاحب الموطأ في القرآن ٣٤ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٨٥ ، ٤ : ٣٦٩ (حلي) .

ومعلوم أن العميان لاحظ لهم في ذلك ، ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لاحظ له في ذلك ، والموتى لا نصيب لهم من ذلك ، وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك ، فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، كيف وقد روي أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر .

وأما قوله قد قيل بالأدلة والحجج فهذا بعض معنى الهادي ، وقد تقدم الكلام على قوله . هذا يبطل قوله إن التأويل دفع للظاهر ، ولم ينقل عن السلف فإن هذا الكلام مكذوب على [قائله] وقد ثبت تناقض صاحبه . وأنه لم يذكر عن السلف إلا ما اعترف بضعفه .

وأما الذي أقوله الآن وأكتبه ، وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتي ، وإنما أقوله في كثير من المجالس . أن جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها .

وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة ، وما روه من الحديث ، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير فلم أجد إلى ساعتني ، هذه عن أحد من الصحابة أنه أول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف ، بل عنهم من تقرير ذلك وتبينه وبيان أن ذلك من صفات الله تعالى ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله ، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيء كثير . وتمام هذا : أني لم أجدهم تنازعوا إلا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ (١) .

فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة .

(١) سورة القلم آية رقم ٤٢ .

وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين . ولا ريب أن ظاهر القرآن يدل على أن هذه من الصفات ، فإنه قال : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ ذكره في الاثبات لم يضيفها الى الله ، ولم يقل عن ساقه ، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر ، ومثل هذا ليس بتأويل ، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف ، ولكن كثيراً من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له ثم يريدون صرفه عنه ويجعلون هذا تأويلاً ، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة .

وأما قوله لو كان نوراً حقيقة كما تقوله المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام ، فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول ، فإن المشبهة يقولون : « أنه نور كالشمس ، والله تعالى ليس كمثله شيء » . فإنه ليس كشيء من الأنوار كما أن ذاته ليست كشيء من الذوات لكن ما ذكره له حجة عليهم ، فإنه يمكن أن يكون نوراً يحجبه عن خلقه كما قال في الحديث : « حجاب النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (١) لكن هذا غلط في النقل ، وهو إضافة هذا القول الى المشبهة ، فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضاً كالمريس (٢) ، فإنه كان يقول : إنه نور وهو كبير الجهمية وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نور حقيقة .

فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة ، وهذه لغة الجهمية المحضه يسمون كل من أثبت الصفات مشبهاً . فقد قدمنا أن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ذكرا أن نفي كونه نوراً في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة ، وأنهما اثبتا أنه نور وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما .

فكيف بأهل الحديث ، وأئمة السنة . . ؟ وأول هؤلاء المؤمنون بالله

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وبأسمائه وصفاته ورسول الله - ﷺ - وقد أجاب النبي - ﷺ - على هذا السؤال الذي عارض به المعترض فقال - ﷺ - «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه» فأخبر أنه حجب عن المخلوقات بحجابه النور أن تدركها سبحات وجهه وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه فهذا الحجاب عن احراق السبحات يبين ما يراد في هذا المقام .

وأما ما ذكره ابن عباس في روايته الأخرى فمعناه بعض الأنوار الحسية وما ذكره من كلام العارفين فهو بعض معاني هدايته لعباده ، وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسرها بذكر بعض الأنواع يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين لا على سبيل الحصر والتحديد فقد تبين أن جميع ما ذكر من الأقوال يرجع الى معنيين من معاني كونه نور السموات والأرض ، وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور . [والله أعلم] .

التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين

إبْن تَيْمِيَّة

وُلِدَ سَنَةَ ٦٦١ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٧٢٨ هـ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

الجزء السادس

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن حميرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة
بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

طلب من: دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

سورة الفرقان

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - :

فصل

الكبائر وقوى الإنسان الثلاث

أكبر الكبائر ثلاث :

الكفر ، ثم قتل النفس بغير الحق ، ثم الزنا كما رتبها الله في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ (١) .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟

قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك

قلت : ثم أي ؟ .

قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قلت : ثم أي ؟

قال : أن تزاني بحليلة جارك (٢) .

ولهذا الترتيب وجه معقول ، وهو أن قوى الإنسان ثلاث : قوة العقل ،

(١) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ .

(٢) الحديث رواه الأمام البخاري في كتاب التفسير ، ورواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ، وأبو داود في كتاب الطلاق ، والإمام الترمذي في كتاب (التفسير) والنسائي في الإيمان ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٠ (حلي) .

وقوة الغضب وقوة الشهوة .

فأعلاها القوة العقلية - التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب ، وتشركه فيها الملائكة كما قال أبو بكر عبد العزيز من أصحابنا وغيره : خلق للملائكة عقول بلا شهوة . وخلق للبهايم شهوة بلا عقل ، وخلق للإنسان عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة - ومن غلبت شهوته عقله فالبهايم خير منه .

ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة ، ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة .

ومن الطبائعين من يقول : القوة الغضبية هي الحيوانية لاختصاص الحيوان بها دون النبات ، والقوة الشهوية هي النباتية لإشتراك الحيوان والنبات فيها ، واختصاص النبات بها دون الجماد .

لكن يقال : إن أراد أن نفس الشهوة مشتركة بين النبات والحيوان فليس كذلك ، فإن النبات ليس فيه حنين ولا حركة إرادية ولا شهوة ولا غضب ، وإن أراد أن نفس النمو والإغذاء فهذا تابع للشهوة وموجبها وله نظير في الغضب ، وهو أن موجب الغضب وتابعه هو الدفع والمنع ، وهذا معنى موجود في سائر الأجسام الصلبة القوية ، فذات الشهوة والغضب مختص بالحي وأما موجبها من الإعتداء والدفع فمشارك بينهما ، وبين النبات القوي ، ففوق الدفع والمنع موجود في النبات الصلب القوي دون اللين الرطب ، فتكون قوة الدفع مختصة ببعض النبات ، لكنه موجود في سائر الأجسام الصلبة فبين الشهوة والغضب عموم وخصوص .

وسبب ذلك أن قوى الأفعال في النفس إما جذب وإما دفع ، فالقوة الجاذبة الجالية للملائم هي الشهوة وجنسها من المحبة والإرادة ، ونحو ذلك .

والقوة الدافعة المانعة للمنافي هي الغضب وجنسها : من البغض والكراهة ، وهذه القوة باعتبار القدر المشترك بين الإنسان والبهائم هي مطلق الشهوة والغضب وباعتبار ما يختص به الإنسان العقل والإيمان والقوى الروحانية المعترضة .

فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة بالإيمانية ، ولهذا لا يوصف به من لا تميز له .

والقتل ناشئ عن القوة الغضبية وعدوان فيها ، والزنا عن القوة الشهوانية .

فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية والزنا اعتداء وفساد في القوى الشهوانية .

ومنه وجه آخر ظاهر ، أن الخلق خلقهم الله لعبادته وقوام الشخص بجسده ، وقوام النوع بالنكاح والنسل فالكفر فساد المقصود الذي له خلقوا ، وقتل النفس فساد النفوس الموجودة ، والزنا فساد في المنتظر من النوع ، فذاك إفساد الموجود وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد مالا موجوداً ، أو منع المنعقد أن يوجد ، وإعدام الموجود أعظم فساداً ، فلهذا كان الترتيب كذلك .

ومن وجه ثالث أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد والقتل افساد للجسد الحامل له ، واتلاف الموجود ، وأما الزنا فهو فساد في صفة الوجود لا في أصله لكن هذا يختص بالزنا ومن هنا يتبين أن اللواط اعظم فساداً من الزنا .

فصل في خصائص البشر

وباعتبار القوى الثلاث انقسمت الأمم التي هي أفضل الجنس الإنساني ، وهم العرب والروم والفرس فإن هذه الأمم هي التي ظهرت فيها الفضائل الإنسانية وهم سكان وسط الأرض طولاً وعرضاً ، فأما من سواهم كالسودان والترك ونحوهم فتبع .

فغلب على العرب القوة العقلية النطقية ، واشتق اسمها من وصفها ، فقليل لهم : عرب من الأعراب وهو البيان والإظهار ، وذلك خاصة القوة المنطقية . وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعام والنكاح ونحوهما ، واشتق اسمها من ذلك فقليل لهم : الروم فإنه يقال : رمت هذا أرومه ، إذا طلبته واشتهيته وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والإستعلاء والرياسة ، واشتق اسمها من ذلك فقليل : فرس .

كما يقال فرسه يفرسه إذا قهره وغلبه .

ولهذا توجد هذه الصفات الثلاث غالبية على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها .

ولهذا كانت العرب أفضل الأمم ، وتليها الفرس لأن القوة الدفعية أرفع ، وتليها الروم .

فصل في أنواع الفضائل

وباعتبار هذه القوى كانت الفضائل ثلاثاً :

فضيلة العقل ، والعلم ، والإيمان التي هي كمال القوة المنطقية ،
وفضيلة الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية ، وكمال الشجاعة هو الحلم
كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند
الغضب »^(١).

والحلم والكرم ملزومان في قرن ، كما أن كمال القوة الشهوية العفة ،
فإذا كان الكريم عفيفاً ، والسخي حليماً اعتدل الأمر .

وفضيلة السخاء والجود التي هي كمال القوة الطلبية الحبية ، فإن
السخاء يصدر عن اللين والسهولة ورطوبة الخلق ، كما تصدر الشجاعة عن
القوة والصعوبة ويس الخلق ، فالقوة الغضبية هي قوة النصر والقوة الشهوية
قوة الرزق ، وهما المذكوران في قوله ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ
خَوْفٍ ﴾^(٢).

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب حسن الخلق ١٢ وحدثني عن مالك عن ابن شهاب ، عن
سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكره .

وأخرجه البخاري في ٧٨ كتاب الأدب ٧٦ باب الحذر من الغضب ومسلم في ٤٥ - كتاب البر
والصلة والأداب ٣٠ باب فضل من يمسك نفسه عند الغضب حديث ١٠٧ .

(٢) سورة قريش آية رقم ٤ .

والرزق والنصر مقترنان في الكتاب والسنة وكلام الناس كثيراً .
وأما الفضيلة الرابعة التي يقال لها العدالة فهي صفة منتظمة للثلاث ،
وهو الاعتدال فيها ، وهذه الثلاث الأخيرات هي الأخلاق العملية ، كما جاء
من حديث سعد لما قال فيه العبيسي إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في
القضية ، ولا يخرج في السرية .

فصل في تقسيم الأمم

وباعتبار القوى الثلاث كانت الأمم الثلاث : المسلمون واليهود والنصارى .

فإن المسلمين فيهم العقل والعلم والإعتدال في الأمور ، فإن معجزة نبينهم هي علم الله وكلامه وهم الأمة الوسط .

وأما اليهود فأضعفت القوة الشهوية فيهم ، حتى حرم عليهم من المطاعم والملابس ما لم يحرم على غيرهم ، وأمروا من الشدة والقوة بما أمروا به ، ومعاصيهم غالبها من باب القسوة والشدة لا من باب الشهوة .

والنصارى أضعفت فيهم القوة الغضبية فنهوا عن الإنتقام والإنتصار ، ولم تضعف فيهم القوة الشهوية ، فلم يحرم عليهم من المطاعم ما حرم على من قبلهم ، بل أجل لهم بعض الذي حرم عليهم ، وظهر فيهم من الأكل والشرب والشهوات ما لم يظهر في اليهود ، وفيهم من الرقة والرأفة والرحمة ما ليس في اليهود ، فغالب معاصيهم من باب الشهوات لا من باب الغضب . وغالب طاعاتهم من باب النصر لا من باب الرزق .

ولما كان في الصوفية والفقهاء عيسوية مشروعة أو منحرفة كان فيهم من الشهوات ، ووقع فيهم من ميل إلى النساء والصبيان والأصوات المطربة ما يذمون به .

ولما كان في الفقهاء موسوية مشروعة أو منحرفة كان فيهم من الغضب ،
ووقع فيهم من القسوة والكبر ، ونحو ذلك ما يذمون به .

فصل

في القوة الشهوية والغضبية

جنس القوة الشهوية الحب ، و جنس القوة الغضبية البغض ، والغضب والبغض متفقان في الإشتقاق الأكبر ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله » فإن هاتين القوتين هما الأصل .
وقال : « من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان » .

فالحب ، والبغض هما الأصل والعطاء عن الحب وهو السخاء ، والمنع عن البغض ، وهو الشجاعة فأما الغضب فقد يقال : هو خصوص في البغض وهو الشدة التي تقوم في النفس التي يقترن بها غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا هو الغضب الخاص ، ولهذا تعدل طائفة من المتكلمين عن مقابلة الشهوة بالغضب إلى مقابلتها بالنفرة ، ومن قابل الشهوة بالغضب فيجب أن لا يريد الغضب الخاص ، فإن نسبة هذا إلى النفرة نسبة الطمع إلى الشهوة ، فأما الغضب العام فهو القسوة الدافعة البغضية المقابلة للقوة الجاذبة الحبية .

فصل

فعل المأمور به صادر عن القوة الإرادية الحبية الشهوية ، وترك المنهى عنه صادر عن القوة الكراهية البغضية الغضبية النفرية ، والأمر بالمعروف صادر عن المحبة والإرادة ، والنهي عن المنكر صادر عن البغض والكراهة ، وكذلك الترغيب في المعروف ، والترهيب عن المنكر والحض على هذا ، والزجر عن هذا .

ولهذا لا تكف النفوس عن الظلم إلا بالقوة الغضبية الدفعية ، وبذلك يقوم العدل والقسط في الحكم ، والقسم ، وغير ذلك .

كما أن الإحسان يقوم بالقوة الجذبية الشهوية ، فإن اندفاع المكروه بدون حصول المحبوب عدم ، إذ لا محبوب ولا مكروه ، وحصول المحبوب والمكروه وجود فاسد إذ قد حصلاً معاً ، وهما متقابلان في الترجيح ، فربما يختار بعض النفوس ، هذا أو يختار بعضها هذا ، وهذا عند التكافؤ ، وأما المكروه اليسير مع المحبوب الكثير ، فيترجح فيه الوجود ، كما أنه المكروه الكثير مع المحبوب اليسير يترجح فيه العدم .

لكن لما كان المقتضى لكل واحد من المحبوب والمكروه الذي هو الخير والشر موجوداً ، وبتقدير وجودهما يحصل النصر كالرزق مع الخوف ، صار يعظم في الشرع والطبع دفع المكروه ، أما في الشرع بالتقوى ، فإن

اسمها في الكتاب والسنة والإجماع عظيم ، والعاقبة لأهلها والثواب لهم وأما في الطبع فتعظيم النفوس لمن نصرهم بدفع الضرر عنهم من عدو أو غيره ، فإن أهل الرزق معظمون لأهل النصر أكثر من تعظيم أهل النصر لأهل الرزق ، وذلك - والله أعلم - لأن النصر بلا رزق ينفع ، فإن الأسباب الجالبة للرزق موجودة تعمل عملها ، وأما الرزق بلا نصر فلا ينفع ، فإن الأسباب الناصرة تابعة ، وفي هذا نظر فقد يقال : هما متقابلان فإن أهل النصر يحبون أهل الرزق أكثر مما يحب أهل الرزق لأهل النصر فإن الرزق محبوب ، والنصر معظم .

وقد يقال : بل النصر أعظم كما تقدم ، فإن اندفاع المكروه محبوب أيضاً ، وهو لا يحصل إلا بقوة الدفع التي هي أقوى من قوة الجذب ، فاختص الناصر بالتعظيم لدفعه المعارض ، وأما الرازق فلا معارض له ، بل له موافق ، فالناصر محبوب معظم ، وقد يقابل هذا بأن يقال : وفوات المحبوب مكروه أيضاً ، والمحبوب لا يحصل إلا بقوة الجذب ، ولا نسلم أن قوة الدفع أقوى ، بل قد يكون الجذب أقوى ، بل الجذب في الأصل أقوى ؛ لأنه المقصود بالقصد الأول والدفع خادم تابع له ، وكما أن الدافع دفع المعارض فالجاذب حصل المقتضى ، وترجيح المانع على المقتضى غير حق ، بل المقتضى أقوى بالقول المطلق ، فإنه لا بد منه في الوجود .

وأما المانع وإنما يحتاج إليه عند ثبوت المعارض ، وقد لا يكون معارض ، فالمقتضى والمحبة هو الأصل والعمدة في الحق الموجود ، والحق المقصود ، وأما المانع والبغضة فهو الفرع والتابع .

ولهذا كتب الله في الكتاب الموضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي .

ولهذا كان الخير في أسماء الله وصفاته ، وأما الشر ففي الأفعال كقوله :

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (١).

وقوله : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

يبقى أن يقال : فلم عظمت التقوى ؟

فيقال : إنها هي تحفظ الفطرة وتمنع فسادها ، واحتاج العبد إلى رعايتها لأن المحبة الفطرية لا تحتاج إلى محرك . ولهذا كان أعظم ما دعت إليه الرسل الإخلاص والنهي عن الإشراك ؛ لأن الإقرار الفطري حاصل لوجود مقتضيه ، وإنما يحتاج إلى إخلاصه ، ودفع الشرك عنه .

ولهذا كانت حاجة الناس إلى السياسة الدافعة لظلم بعضهم عن بعض ، والجلابة لمنفعة بعضهم بعضاً كما أوجب الله الزكاة النافعة وحرّم الربا الضار ، وأصل الدين هو عبادة الله الذي أصله الحب والإنابة والإعراض عما سواه ، وهو الفطرة التي فطر عليها الناس .

وهذه المحبة التي هي أصل الدين : انحرف فيها فريق من منحرفة الموسوية من الفقهاء والمتكلمين حتى أنكروها وزعموا أن محبة الله ليست إلا إرادة عبادته ، ثم كثير منهم تاركون للعمل بما أمروا به ، فيأمرّون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وهذا فاش فيهم وهو عدم المحبة والعمل .

وفريق من منحرفة العيسوية من الصوفية والمتعبدین خلطوها بمحبة ما يكرهه ، وأنكروا البغض والكراهية ، فلم ينكروا شيئاً ، ولم يكرهوه ، أو قصروا في الكراهة والإنكار ، وأدخلوا فيها الصور والأصوات ، ومحبة الأنداد .

ولهذا كان لغواة الأولين وصف الغضب واللعنة الناشئ عن البغض ،

(١) سورة الحجر آية ٤٩ - ٥٠ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٩٨ .

لأن فيهم البغض دون الحب ، وكان لضلال الآخرين وصف الضلال والغلو ،
لأن فيهم محبة لغير معبود صحيح ، ففيهم طلب وإرادة ومحبة ، ولكن لا إلى
مطلوب صحيح ولا مراد صحيح ، ولا محبوب صحيح ، بل قد خلطوا وغلوا
وأشركوه ، ففيهم محبة الحق والباطل وهو وجود المحبوب والمكروه ، كما في
الآخرين بغض الحق والباطل ، وهو دفع المحبوب والمكروه ، والله سبحانه
يهدينا صراطه المستقيم .

فيحمد من هؤلاء محبة الحق والإعتراف به ، ومن هؤلاء بغض الباطل
وإنكاره .

سورة النمل

قال شيخ الإسلام :

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها .

منها قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ ^(١) الآية .

المشهور عن السلف أن الحسنة : لا إله إلا الله وأن السيئة الشرك .

وعن السدي قال : ذلك عند الحساب ألغى بدل كل حسنة عشر سيئات ، فإن بقيت سيئة واحدة فجزاؤه النار إلا أن يغفر الله له .

قلت : تضعيف الحسنة إلى عشر وإلى سبعمئة ثابت في الصحاح وأن السيئة مثلها ، وأن الهم بالحسنة حسنة ، والهم بالسيئة لا يكتب .

فأهل القول الأول قالوه لأن أعمال البر داخله في التوحيد فإن عبادة الله بما أمر به كما قال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ^(٢) الآية .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ ^(٣) الآية .

(١) سورة النمل آية رقم ٨٩ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١١٢ .

(٣) سورة إبراهيم آية رقم ٢٤ .

فالكلمة الطيبة التوحيد ، وهي كالشجرة ، والأعمال ثمارها في كل وقت ، وكذلك السيئة هي العمل لغير الله وهذا هو الشرك ، فإن الإنسان حارث همّام لا بد له من عمل ، ولا بد له من مقصود يعمل لأجله ، وإن عمل لله ولغيره فهو مشرك .

والذنوب من الشرك فإنها طاعة للشيطان ، قال : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(١) الآية .

وقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ ^(٢) الآية .

وفي الحديث : « وشر الشيطان وشركه » .

لكن إذا كان موحداً وفعل بعض الذنوب نقص توحيده كما قال « لا يزنّي الزاني » الخ .

ومن ليس بمؤمن فليس بمخلص .

وفي الحديث : تعس عبد الدينار وعبد الدرهم . الخ .

وحديث أبي بكر . . « قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم » . الخ .

لكن إذا لم يعدل بالله غيره فيحبه مثل حب الله .

بل الله أحب إليه ، وأخوف عنده ، وأرجى من كل مخلوق ، فقد خلص من الشرك الأكبر .

(١) سورة إبراهيم آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة يس آية رقم ٦٠ .

سورة الأحزاب

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ ^(١) .

دليل على مثل معنى الحديث الصحيح : «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك مالا فلو رثته ، ومن ترك كلاً أو ضياعاً فعلي» ^(٢) .

حيث جعله الله أولى بهم من أنفسهم . ثم جعل الأقارب بعضهم أولى ببعض ؛ لأن كونه أولى بهم من أنفسهم يقتضي أن يكون أولى بهم من أولي أرحامهم وذلك لا يقتضي ملك مالهم أحياء فكذلك أمواتاً ، وإنما يقتضي حمل الكل والضياع من ماله ، وهو الخمس ، أو خمسه أو مال الفيء كله ، على الخلاف المعروف .

وفيه دليل على أن الأولوية المقتضية للميراث المذكورة في قوله ﷺ :
فلا أولى رجل ذكر .

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٦ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الكفالة ، ورواه الإمام مسلم في كتاب الجمعة ، ورواه أبو داود في كتاب البيوع ، والإمام الترمذي في الجنائز ، والنسائي في العيدين ، وابن ماجه في المقدمة والإمام احمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢١٨ (حلي) .

مشروطة بالإيمان ، وهذه الآية المقيدة تقضي على تلك المطلقة في الأنفال لثلاثة أوجه :

أحدها : أن هذه في سورة الأحزاب بعد الخندق وتلك في الأنفال عقب بدر .

الثاني : أن هذا مطلق ومقيد في حكم واحد ، وسبب واحد ، والحكم هنا متضمن للإباحة والإستحقاق ، والتحريم على الغير ، وإيجاب الإعطاء .

الثالث : أن آية الأنفال ذكر فيها الأولوية بعد أن قطع المولات بين المؤمنين والكافرين أيضاً ، فهي دليل ثان وهاتان الآيتان تفسر المطلق في آية المواريث ، ويكون هذا تفسير القرآن بالقرآن ، وإن كان قوله : « لا يرث الكافر المسلم » موافقاً له .

فأما ميراث المسلم من الكافر ففيه الخلاف الشاذ فنستفيد من الآيتين أيضاً مع الحديث ، ويدخل في الآيتين سائر الولايات من المناكح والأموال والعقل والموت .

وفي قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ . دليل على الوصية كآيات النساء .

قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ ^(١) الآية دليل على أن ما أبيح له كان مباحاً لأتمته ؛ لأنه أخبر أن التزويج كان لمنع الحرج عن الأمة في مثل ذلك التزويج ، فلولا أن فعله المباح له يقتضي الإباحة لأتمته لم يحسن التعليل ، وهذا ظاهر .

وأيضاً فإنه إذا كان ذلك في تزويجه امرأة الدعي الذي كان يعتقد أن

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٧ .

تزوجها حرام ، ففي ما لا شبهة فيه أولى وأيضاً إذا كان هذا في النكاح الذي خص فيه من المباحات بما لم تشركه أمته ، كالنكاح بلا عدد ، وتزوج الموهوبة بلا مهر ، وقد بين أن إباحة عقدة النكاح دليل على إباحة ذلك لأمته ، ففيما لم يظهر خصوصية فيه كالنكاح أولى وهذا يدل على أن سائر ما أبيح له مباح لأمته ، إلا ما خصه الدليل من المعاملات والأطعمة واللباس ، ونحو ذلك .

وأيضاً فيدل على هذا الأصل قوله : في سياق ما أحله له ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ ^(١) من وجهين :

أحدهما : أنه لما أحل له الواهبة قال : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ليبين اختصاصه بذلك ، فعلم أنه حيث سكت عن الإختصاص كان الإشتراك ثابتاً ، وإلا فلا معنى لتخصيص هذا الموضع ببيان الإختصاص .

الثاني : أنه ما أحله من الأزواج ومن المملوكات ومن الأقارب أطلق ، وفي الموهوبة قيدها بالخلوص له ، فعلم أن سكوته عن التقييد في أولئك دليل الإشتراك .

فإن قيل : السكوت لا يدل على واحد منهما ، والتقييد بالخلوص ينفي الإشتراك فتكون فائدته أن لا يظن الإشتراك بدليل منفصل ، فإن التحليل له لا يدل على الإختصاص قطعاً ، لكن هل يدل على الإشتراك أم لا يدل على واحد منهما ؟ .

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥٠ .

هذا موضع التردد ، فإذا قيد بالخلوص دل على الإختصاص .

قيل : لو لم يدل على الإشتراك لم يثبت الحكم في حق الأمة لانتفاء دليله ، كما أن ما سكت عنه من المحرمات لم يثبت الحكم لانتفاء دليله .

وهنا إما أن يقال : كانوا يستحلونه على الأصل وليس كذلك ، لأن الفروج محظورة إلا بالتحليل الشرعي فكان يكون محظوراً عليهم فلا يحتاج إلى إخلاصه له ، لو لم يكن الخطاب المطلق يقتضي الإشتراك والعموم ، وأنه من باب الخاص في اللفظ العام في الحكم .

وأصل هذا أن اللفظ في اللغة قد يصير بحسب العرف الشرعي ، أو غيره أخص أو أعم ، فالخطاب له وإن كان خاصاً في اللفظ لغة فهو عام عرفاً ، وهو مما نقل بالعرف الشرعي من الخصوص إلى العموم .

كما ينقل مثل ذلك في مخاطبات الملوك ونحو ذلك وهو كثير ، كما أن العام قد يصير بالعرف خاصاً وأيضاً فإنه يبنى ذلك على أصل دليل الخطاب وأن التخصيص بالذكر مع العام المقتضي للتعميم يدل على التخصيص بالحكم ، فلما خص خطاب الموهوبة بذكر الخلوص دل على انتفاء الخلوص عن الباقي وإنما انتفاء الخلوص عن الباقي بعدم ذكر الخلوص مع إثبات التحليل للرسول ﷺ ، فعلم أن إثبات التحليل له مع عدم تخصيصه به يقتضي العموم .

وعلى هذا فالخطاب الذي مخرجه في اللغة خاص ثلاثة أقسام :

إما أن يدل على العموم ، كما في العام عرفاً ، مثل خطاب الرسول ، والواحد من الأمة ، ومثل تنبيه الخطاب كقوله : لا أشرب لك الماء من عطش ومثقال حبة ، وقطار ، ودينار .

وإما أن يدل على اختصاص المذكور بالحكم ونفيه عما سواه ، كما في مفهوم المخالفة إذا كان المقتضي للتعميم قائماً ، وخص أحد الأقسام بالذكر

وإما أن لا يدل على واحد منها لفظاً ثم يوجد العموم من جهة المعنى ، إما من جهة قياس الأولى ، وإما من جهة سائر أنواع القياس .

ويجب الفرق بين تنبيه الخطاب ، وبين قياس الأولى فإن الحكم في ذاك مستفاد من اللفظ عمهما عرفاً [و] خطأ [با] وهنا مستفاد من الحكم بحيث لو دل على الحكم فعل أو إقرار ، أو خطاب يقطع معه بأن المتكلم لم يرد إلا الصورة ، لكان ثبوت الحكم لنوع يقتضي ثبوته لما هو أحق به منه ؛ فالعموم هنا معنوي محض ، وهناك لفظي ومعنوي ، فتدبر هذا فإنه فصل بين المتنازعين من أصحابنا وغيرهم في التنبيه هل هو مستفاد من اللفظ ، أو هو قياس جلي ؟ .

لتعلم أنه قسمان :

والفرق أن المستفاد من اللفظ يريد المتكلم به العموم ويمثل بواحد تنبيهاً كقول النحوي : ضرب زيد عمراً بخلاف المستفاد من المعنى .

والآية المتقدمة وهي قوله : ﴿ زَوْجَانِكهَا لَكِي لَا ﴾ تدل على أن أفعاله ﷺ تقتضي الإباحة لأتمته ، مع القطع بأن الفعل في نفسه لا يعم لفظاً ووضعاً ، وإنما يعم بما ثبت من أن الأصل الإشتراك والإيتاء ، ويدل على ذلك أيضاً قوله في السورة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الآية . فإن فيها التأسى فيما أصابه .

ومتى ثبت الحكم في الإيتاء به في حكمه عندما أصابه كان كذلك فيما فعله ، إذا المصاب عليه فيه واجبات ومحرمات ، فدللت هذه الآية على أن الأصل مشاركته في الإيجاب والحظر ، كما دلت تلك على أن الأصل مشاركته في الإحلال .

قوله : ﴿ قُلْ لَأَرْوِجَكْ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيشِهِنَّ ﴾ ^(١) الآية .

دليل على أن الحجاب إنما أمر به الحرائر دون الإماء لأنه خص أزواجه وبناته ، ولم يقل وما ملكت يمينك وإمائك وإماء أزواجك وبناتك . ثم قال : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ والإماء لم يدخلن في نساء المؤمنين ، كما لم يدخل في قوله ﴿ نسائهن ﴾ ما ملكت أيمانهن ، حتى عطف عليه في آيتي النور والأحزاب .

وهذا قد يقال : إنما ينبنى على قول من يخص ما ملكت اليمين بالإناث .

وإلا فمن قال : هي فيهما أو في الذكور ففيه نظر وأيضاً فقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ وقوله ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ إنما أريد به المهورات دون المملوكات ، فكذلك هذا فتاة الجلابيب في الأردية عند البروز من المساكن وآية الحجاب عند المخاطبة في المساكن ، فهذا مع ما في الصحيح من أنه لما اصطفى صفية بنت حيى ، وقالوا : إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين ، وإلا فهي مما ملكت يمينه ، دل على أن الحجاب كان مختصاً بالحرائر .

وفي الحديث دليل على أن أموة المؤمنين لأزواجه دون سراريه .

والقرآن ما يدل إلا على ذلك ، لأنه قال : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ .

وقال :

﴿ ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ﴾ وهذا أيضاً دليل ثالث من الآية ؛ لأن الضمير في قوله : ﴿ وإذا سألتموهن ﴾ عائد إلى أزواجه ، فليس للمملوكات ذكر في الخطاب ، لكن إباحة سراريه من بعده فيه نظر .

فصل

« في ألفاظ الطلاق واختلاف العلماء فيها »

من قال أن السراح والفراق صريح في الطلاق لأن القرآن ورد بذلك ، وجعل الصريح ما استعمله القرآن فيه ، كما يقوله الشافعي والقاضي وغيرهما من الأصحاب ، فقلوه ضعيف لوجهين :

أحدهما : أن هذا الأصل لا دليل عليه ، بل هو فاسد فإن الواقع أن الناس ينطقون بلغاتهم التي توافق لغة العرب ، أو تخالفها من عربية أخرى عربياً مقررة أو مغيرة لفظاً أو معنى ، أو من عربية مولدة ، أو عربية معربة ، تلقيت عن العجم ، أو عن عجمية ؛ فإن الطلاق ونحوه يثبت بجميع هذه الأنواع من اللغات إذ المدار على المعنى ، ولم يحرم ذلك عليهم أو حرم عليهم فلم يلتزموه ، فإن ذلك لا يوجب وقوع ما لم يوقعوه .

وأيضاً فاستعمال القرآن لفظاً في معنى لا يقتضي أن ذلك اللفظ لا يحتمل غير ذلك المعنى .

« الوجه الثاني » وهو القاصم أن هذه الألفاظ أكثر ما جاءت في القرآن في غير الطلاق ، مثل قوله : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن ﴾ (١) .

فهذا بعد التطبيق البائن الذي لا عدة فيه أمر بتسريحهن مع التمتع ،

١ - سورة الأحزاب آية رقم ٤٩

ولم يرد به إيقاع طلاق ثان ، فإنه لا يقع ولا يؤمر به وفاقاً ، وإنما أراد التخلية بالفعل وهو رفع الحبس عنها ، حيث كان النكاح فيه الجمع ملكاً وحكماً ، والجمع حساً وفعلاً بالحبس وكلاهما موجه ، وهما متلازمان ، فإذا زال الملك أمر بإزالة اليد ، كما يقال في الأموال الملك والحياسة فالتقبض في الموضوعين تابع للعقد ، فإذا رفع العقد إما بإزالة اليد التي هي القبض .

وقوله : ﴿ فتعالين امتعن وأسرحكن ﴾ .

لا يستدل به على أن التسريح هو التطليق ، فإنه قد يريد به التخلية الفعلية ، حيث قرنه بالمتاع لكن التخلية الفعلية مستلزمة للتطليق ، أو يريد به الأمرين ، ولم يرد به الطلاق وحده ، لأن ذلك لا يفيدهن بل يضرهن .

وكذلك قوله : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾ .

كذلك ، فإن بالرجعية إذا قاربت انقضاء العدة لا يؤمر فيها بتطليق ثان ، إذا لم يرتجعها ، وإنما يؤمر بتخلية سبيلها ، وهو التسريح والفراق بالأبدان بحيث لا يحبسهن ، ولا يستولي عليهن ، كرفع اليد عن الأموال .

قوله :

﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ (٢) .

نص في أنه لا حرج فيما أخطأ به من دعاء الرجل إلى غير أبيه ، أو إلى غير مولاه .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥ .

ثم قد يستدل به على رفع الجناح في جميع ما أخطأ به الإنسان من قول أو عمل .

إما بالعموم لفظاً ، ويقال : ورود اللفظ العام على سبب مقارن له في الخطاب لا يوجب قصره عليه .

وإما بالعموم المعنوي بالجامع المشترك من أن الأخطاء لا تأثير له في القلب ، فيكون عمل جارحة بلا عمد قلب ، والقلب هو الأصل ، كما قال :
« إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد » .

وإذا كان الأصل لم يعمل شيئاً لم يضر عمل الفروع دونه ، لأنه صالح لا فساد فيه ، فيكون الجسد كله صالحاً ، فلا يكون فاسداً ، فلا يكون في ذلك إثم ، إذ الإثم لا يكون إلا عن فساد في الجسد ، وتكون هذه الآية ردفاً لقوله

﴿ لا تأخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ ^(١) قال : قد فعلت .

ويؤيده قوله في الإيمان ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ ^(٢) .

﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان ﴾ فإنه إذا كان اليمين بالله - وفيها ما فيها - لا يؤاخذ فيها إلا ما كسب القلب ، فغيرها من الأقوال كذلك وأولى .

وإذا كان ما حلف عليه من اليمين يظنه كما حلف عليه فتبين بخلافه ، هو من الخطأ الذي هو اللغو لأن قلبه لم يكسب مخالفة ، كما لو أنه أخبر

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢٥ .

بذلك من غير يمين لم يكن عليه إثم الكاذب ، كما لو دعا الرجل لغير أبيه ومولاه خطأ .

وإذا لم يكن بلا يمين عليه إثم الكاذب لم يكن مع اليمين عليه حكم الحالف المخالف ، إذ اليمين على الماضي حين يؤكد بالقسم ، فكذلك ما حلف عليه من المستقبل ، وفعل المحلوف عليه ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً جاهلاً بأنه المحلوف عليه ، لم يكسب قلبه مخالفة ولا حشاً كما أنه لو وعد بذلك من غير يمين لم يكن مخالفاً ولو أمر به فتركه كذلك لم يكن عاصياً .

وهذا دليل يتناول الطلاق وغيره ، إما من جهة العموم المعنوي ، أو المعنوي واللفظي .

وأى فرق بين أن يقارن اللغو عقد اليمين ، أو يقارن الحنث فيها .

وقوله : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ ^(١) أي هذا سبب المؤاخذه ؛ لا أنه موجب لها بالإتفاق فيوجد الخطأ في سببها وشرطها .

ومن قال : لا لغو في الطلاق فلا حجة معه ؛ بل عليه ، لأنه لو سبق لسانه بذكر الطلاق من غير عمد القلب ، لم يقع به وفاقاً .

وأما إذا قصد اللفظ به هازلاً فقد عمد قلبه ذكره ، كما لو عمد ذكر اليمين به .

(١) سورة المائدة آية رقم ٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده - والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

« سورة الزمر »

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه .

فصل

قد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ ^(١) والمراد بالقول القرآن ، كما فسر به بذلك سلف الأمة وأئمتها ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٢) واللام لتعريف القول المعهود ، فإن السورة كلها إنما تضمنت مدح القرآن واستماعه وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع ، وبيننا فساد قول من استدل بهذه على سماع الغنا وغيره ، وجعلها عامة ، وبيننا أن تعميمها في كل قول باطل بإجماع المسلمين .

وهنا سؤال مشهور وهو أنه قال : ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ فقد قسم القول إلى حسن وأحسن ، والقرآن كله متبع وهذا حجتهم . فيقال : الجواب من ثلاثة أوجه : إلزام وحل .

(١) سورة الزمر آية رقم ١٨ .

قال ابن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به ، وقيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، وقيل يستمعون عزماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص . وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي « اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم ، واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨ .

« الأول » أن هذا مثل قوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(١) ومثل قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ ^(٢) فقد أمر المؤمنين باتباع أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسن التوراة ، وهذا أبلغ من تلك الآية ، فإن تلك إنما فيها مدح باتباع الأحسن ، ولا ريب أن القرآن فيه الخبر والأمر بالحسن والأحسن ، واتباع القول إنما هو العمل بمقتضاه ، ومقتضاه فيه حسن وأحسن ، ليس كله أحسن وإن كان القرآن في نفسه أحسن الحديث ، ففرق بين حسن الكلام بالنسبة إلى غيره من الكلام ، وبين حسنه بالنسبة إلى مقتضاه المأمور والمخير عنه .

« الوجه الثاني » أن يقال : إنه قال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٣) والقرآن تضمن خبراً وأمراً ، فالخبر عن الأبرار والمقربين ، وعن الكفار والفجار ، فلا ريب أن اتباع الصنفين حسن ، واتباع المقربين أحسن ، والأمر يتضمن الأمر بالواجبات والمستحبات ، ولا ريب أن الاقتصار على فعل الواجبات حسن وفعل المستحبات معها أحسن ، ومن اتبع الأحسن فاقتدى بالمقربين وتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض كان أحق بالبشرى .

وعلى هذا فقوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٤) ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ ^(٥) هو أيضاً أمر بذلك ، لكن الأمر

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٥ .

قال السدي : الأحسن ما أمر الله به في كتابه ، وقال ابن زيد : يعني المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه ، وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ١٧ - ١٨ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٥٥ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥ .

يُعمّر الأمر الإيجاب والاستحباب ، فهم مأمورون بما في ذلك من واجب أمر إيجاب ، وبما فيه من مستحب أمر استحباب ، كما هم مأمورون مثل ذلك في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ^(٢) والمعروف يتناول القسمين . وقوله : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) وهو يعم القسمين : وقوله : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ ^(٤) وأمثال ذلك .

(١) سورة النحل آية رقم ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ وتكملة الآية ﴿ وَبَيْنَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ لَهْمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٧ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٧٧ .

وقال رحمه الله

فصل

في أنواع السماع

أصل السماع الذي أمر الله به ، هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ ، سمع فقه وقبول ، ولهذا انقسم الناس فيه أربعة أصناف : صنف معرض ممتنع عن سماعه ، وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنى ، وصنف فقهه ولكنه لم يقبله ، والرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول .

ف « الأول » كالذين قال فيهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا . لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(١).

و « الصف الثاني » من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنى ، قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا

(١) سورة فصلت آية رقم ٢٦ .

معنى الغوا فيه . قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحا في وجهه حتى لا يدري ما يقول . وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن ، وقال مجاهد : المعنى والغوا فيه : باللكاء والتصفيق ، والتخليط في المنطق حتى يصير لغوا ، قال الهروي : عارضوه بكلام لا يفهم . والله أعلم .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧١

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ؟ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً ﴾ ﴿٣﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴿٤﴾ .

وقوله : ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ يتناول من لم يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية ، ومن فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد في الخارج ، وهو : « الأعيان » و « الأفعال » و « الصفات » المقصودة بالأمر والخبر ، بحيث يراها ولا يعلم أنها مدلول الخطاب : مثل من يعلم وصفاً مذموماً ويكون هو متصفاً به ، أو بعضاً من جنسه ولا يعلم أنه داخل فيه وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿٥﴾ قال ذلك بعد قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ، وَلَا تَكُونُوا

(١) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٤٢ - ٤٤ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٤٥ - ٤٧ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٥٧ .

(٥) سورة الأنفال آية رقم ٢٢ - ٢٣ .

كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١﴾ فقولوه : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ ﴿٢﴾ لم يرد به مجرد إسماع الصوت لوجهين .

« أحدهما » أن هذا السماع لا بد منه ولا تقوم الحجة على المدعويين إلا به . كما قال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ ﴿٣﴾ وقال : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ ﴿٤﴾ وقال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ﴿٥﴾ .

و « الثاني » أنه وحده لا ينفع ، فإنه قد حصل لجميع الكفار الذين استمعوا القرآن وكفروا به كما تقدم ، بخلاف إسماع الفقه فإن ذلك هو الذي يعطيه الله لمن فيه خير ، وهذا نظير ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ﴿٦﴾ وهذه الآية والحديث يدلان على أن من لم يحصل له السماع الذي يفقهه معه القول فإن الله لم يعلم فيه خيراً ، ولم يرد به خيراً ، وأن من علم الله فيه خيراً أو أراد به خيراً فلا بد أن يسمعه

(١) سورة الأنفال آية رقم ٢٠ - ٢١ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٥) سورة الإسراء آية رقم ١٥ .

(٦) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٠ باب قول النبي ﷺ - لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم .

٧٣١٢ - حدثنا اسماعيل ، حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أخبرني حميد . قال : سمعت رسول الله ﷺ - يقول وذكره ، وفيه زيادة (وإنما أنا قاسم ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتي أمر الله . » ورواه الامام مسلم في كتاب الامارة ١٧٥ ، وكتاب الزكاة ٩٨ - ١٠٠ والامام الترمذي في كتاب العلم ٤ ، وابن ماجه في المقدمة ١٧ ، والدارمي في المقدمة ٢٤ ، ورقاق ١ ، وصاحب الموطأ في القدر ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ١ ، ٣٠٦ ، ٢ : ٢٣٤ ، ٤ : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، (حلي) .

ويفقهه ، إذ الحديث قد بين أن كل من يرد الله به خيراً يفقهه ، فالأول مستلزم للثاني ، والصيغة عامة ، فمن لم يفقهه لم يكن داخلياً في العموم فلا يكون الله أراد به خيراً ، وقد انتفى في حقه اللازم فيتنفي المزوم وكذلك قوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾^(١) بين أن الأول شرط للثاني : شرطاً نحوياً ، وهو ملزوم وسبب ، فيقتضي أن كل من علم الله فيه خيراً أسمعته هذا الإسماع ، فمن لم يسمعه إياه لم يكن قد علم فيه خيراً ، فتدبر كيف وجب هذا السماع ، وهذا الفقه ، وهذا حال المؤمنين ، بخلاف الذين يقولون بسماع لا فقه معه ، أو فقه لا سماع معه أعني هذا السماع .

وأما قوله : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾^(٢) فقد يشكل على كثير من الناس ، لظنهم أن هذا السماع المشروط هو السماع المنفي في الجملة الأولى ، الذي كان يكون لو علم فيهم خيراً ، وليس في الآية ما يقتضي ذلك ، بل ظاهرها وباطنها ينفي ذلك فإن الضمير في قوله : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ عائد إلى الضميرين في قوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ وهؤلاء قد دل الكلام على أن الله لم يعلم فيهم خيراً فلم يسمعهم إذ ﴿ لو ﴾ يدل على عدم الشرط دائماً وإذا كان الله ما علم فيهم خيراً فلو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، بمنزلة اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا وهم « الصنف الثالث » . ودلت الآية على أنه ليس لكل من سمع وفقه يكون فيه خير ، بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه فلا ينتفع به ، فلا يكون فيه خير ، ودلت أيضاً على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن فيه خير ، فإنه هو الذي ينتفع به ، فأما من ليس ينتفع به فلا يطلب تفهيمه .

و « الصنف الثالث » من سمع الكلام وفقهه ، لكنه لم يقبله ولم يطع

(١) سورة الانفال آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة الانفال آية رقم ٢٣ .

أمره : كاليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْأَسْتِثِمِ ، وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ ^(٢) أي تلاوة .

فهؤلاء من « الصنف الأول » الذين يسمعون ويقرأون ولا يفقهون ، ويعقلون - إلى قوله : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) كما قال في تلك الآية : ﴿ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٥) وقال في النساء : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ ^(٦) إلى آخر القصة ، فأخبر

(١) سورة النساء آية رقم ٤٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٥ - ٧٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٣ - وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث جاءت (وإذا أخذ الله) .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٨٧ - ٨٨ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٤٦ .

(٦) سورة النساء آية رقم ١٥٥ - ١٥٦ .

بذنوبهم التي استحقوا بها ما استحقوه ومنها قولهم ﴿ قلوبنا غلف ﴾ .

فعلم أنهم كاذبون في هذا القول قاصدون به الامتناع من الواجب ولهذا قال : ﴿ بل لعنهم الله ﴾ و ﴿ طبع الله عليها بكفرهم ﴾ فهي وإن سمعت الخطاب وفقهته لا تقبله ولا تؤمن به ، لا تصديقاً له ولا طاعة ، وإن عرفوه كما قال : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ^(١) .

ف ﴿ غلف ﴾ جمع أغلف ، وأما ﴿ غلف ﴾ بالتحريك فجمع غلاف . والقلب الأغلف بمنزلة الأقف ، فهم ادعوا ذلك وهم كاذبون في ذلك ، واللجنة الإبعاد عن الرحمة ، فلو عملوا به لرحموا ، ولكن لم يعملوا به ، فكانوا مغضوباً عليهم ملعونين ، وهذا جزاء من عرف الحق ولم يتبعه ، وفقه كلام الرسل ولم يكن موافقاً له بالإقرار تصديقاً وعملاً .

و « الصنف الرابع » الذين سمعوا سماع فقه وقبول ، فهذا هو السماع المأمور به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلُّوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ ^(٤) الآيات . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٦ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٨٣ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١ - ٢ .

(٤) سورة الأحقاف آية رقم ٢٩ - ٣١ .

قَبْلَهُ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ، وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٣﴾ وقال تعالى : ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ﴿٤﴾ وكذلك قوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ﴿٥﴾ ومثل قوله : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٦﴾ فالبيان يعم لك من فقهه والهدى والموعظة للمتقين . وقوله : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٧﴾ وقوله : ﴿ آلَمْ ، ذَلِكَ الْكِتَابُ ، لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٨﴾ .

وهنا لطيفة تزيل إشكالاً يفهم هنا ، وهو أنه ليس من شرط هذا المتقي المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن فإن هذا أولاً ممتنع ، إذ لا يكون مؤمناً متقياً من لم يسمع شيئاً من القرآن ، وثانياً أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمه تقدماً زمانياً ،

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٠٧ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٨٢ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ٤٤ .

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ .

(٧) سورة الجاثية آية رقم ٢٠ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ١ ، ٢ .

كاستقبال القبلة في الصلاة ، وثالثاً أن المقصود أن يبين شيئين :

« أحدهما : - أن الانتفاع به بالاهتداء والاتعاظ والرحمة هو وإن كان موجباً له ، لكن لا بد مع الفاعل من القابل . إذ الكلام لا يؤثر فيمن لا يكون قابلاً له ، وإن كان من شأنه أن يهدى ويعظ ويرحم وهذا حال كل كلام . . »

« الثاني » أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون ويستدل بعدم الإهتداء به على عدم الإيمان والتقوى - كما يقال المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء ، وإن لم يكونوا أطباء قبل تعلمه ، بل بتعلمه ، وكما يقال : كتاب سيبويه^(١) كتاب عظيم المنفعة للنحاة ، وإن كانوا إنما صاروا نحاة بتعلمه ، وكما يقال : هذا مكان موافق للرماة والركاب .

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو بشر الملقب سيبويه إمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو ، ولد في إحدى قرى شيراز عام ١٤٨ هـ وقدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد ففاه وصنف كتابه المسمى « كتاب سيبويه في النحو » لم يصنع قبله ولا بعده مثله ، ورحل الى بغداد فناظر الكسائي وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم توفي عام ١٨٠ هـ راجع وفيات الاعيان ١ : ٣٨٤ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٧٨ .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

في مصادر المياه في الأرض

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١).

فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع ، والينابيع جمع ينبوع وهو منبع الماء ، كالعين والبئر ، فدل القرآن على أن ماء السماء تنبع منه الأرض ، والاعتبار يدل على ذلك ، فإنه إذا كثر ماء السماء كثرت الينابيع ، وإذا قل قلت .

وماء السماء ينزل من السحاب ، والله ينشئه من الهواء الذي في الجو ، وما يتصاعد من الأبخرة .

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء ، ولا هذا أيضاً معلوماً بالاعتبار ، فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال ، ويكون فيها ابخرة يخلق منها الماء ، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل ، كما إذا أخذ إناء فوضع فيه ثلج ، فإنه يبقى ما أحاط به ماء وهو هواء استحال ماء ، وليس ذلك من ماء السماء ، فعلم أنه ممكن أن يكون في الأرض ماء ليس من السماء ، فلا يجزم بأن جميع المياه من ماء السماء ، وإن كان غالبها من ماء السماء . والله أعلم .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢١ .

وقال شيخ الإسلام

تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد
السلام ابن تیمیة الحرانی قدس الله روحه

فصل

في قبول توبة العاصين وأصحاب الذنوب

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ۖ ﴾ (١) .

وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآية في حق التائبين ، وأما آيتا النساء قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) فلا يجوز أن تكون في حق التائبين ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة ، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضاً بنصوص القرآن واتفاق المسلمين ، وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد ، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق ، هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره ، وما عداه لم يجزم بمغفرته ، بل علقه بالمشيئة فقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣) .

وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيد به من الخوارج

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

والمعتزلة ، فهي ترد أيضاً على المرجئة الواقفية ، الذين يقولون : يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ، ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء ، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك ﴾ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هي لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك ، لكنها لبعض الناس ، وحيث فمن غفر له لم يعذب ، ومن لم يغفر له عذب ، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة ، وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضهم يغفر له ، لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أولاً اعتبار بالموازنة ؟ فيه قولان للمتسبين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم ، بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل ، وأيضاً فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن قوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾^(١) فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى ، وإن عظمت الذنوب وكثرت فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله ، وإن عظمت ذنوبه ، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله ، قال بعض السلف إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجريهم على معاصي الله .

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له ، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه ، وإما بأن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة ، بل هو مغلوب معها ، والشيطان قد استحوذ عليه فهو ييأس من توبة نفسه ، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له ، وهذا يعترى كثيراً من الناس ، والقنوط يحصل

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

بهذا تارة وبهذا تارة : فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به مائه ، ثم دل على عالم فاتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته^(١) .

والحديث في الصحيحين . والثاني كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة ، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فيأس من أن يتوب .

وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها ، والصواب الذي عليه أهل السنة والجمهور أن التوبة ممكنة من كل ذنب ، ويمكن أن الله يغفره ، وقد فرضوا في ذلك من توسط أيضاً مغصوبة ، ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم ، فقل هذا لا طريق له إلى التوبة ، والصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته .

أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان وتسليمه إلى مستحقه ليس منهياً عنه ولا محرماً ، بل الفقهاء متفقون على أن من غصب داراً وترك فيها قماشه وماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها فإنه يؤمر بالخروج منها ، وبإخراج أهله وماله منها ، وإن كان ذلك نوع تصرف فيها ، لكنه لأجل إخلائها .

والمشرك إذا دخل الحرم أمر بالخروج منه وإن كان فيه مرور فيه ، ومثل هذا حديث الأعرابي المتفق على صحته لما بال في المسجد فقام الناس إليه . فقال النبي ﷺ : « لا تزرموه » أي لا تقطعوا عليه بوله ، وأمرهم أن يصبوا على بوله دلواً من ماء ،^(٢) فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه خيراً من أن

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٤ باب ٣٤٧٠ - حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن أبي عدي عن شعبة عن قتادة عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً وذكره .

ورواه الإمام مسلم في كتاب التوبة ٤٦ ، ٤٧ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الديات باب ٢ واحمد ابن حنبل في المسند ٣ : ٢٠ ، ٤٢ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الأدب ٣٥ باب الرفق في الأمر كله ٦٠٢٥ - حدثنا عبد الله =

يقطعوه ، فيلوث ثيابه وبدنه ، ولو زنا رجل بامرأة ثم تاب لنزع ، ولم يكن مذنباً بالنزع ، وهل هو ووطء ؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد ، فلو حلف أن لا يطاء امرأته بالطلاق الثلاث ، فالذين يقولون : إنه يقع به الطلاق الثلاث إذا وطئها تنازعوا هل يجوز له وطؤها ؟ على قولين : هما روايتان عن أحمد .

« أحدهما » يجوز كقول الشافعي - و« الثاني » لا يجوز كقول مالك ، فإنه يقول : إذا أجزت الوطء لزم أن يباشرها في حال النزع وهي محرمة ، وهذا إنما يجوز للضرورة لا يجوز ابتداء ، وذلك يقول النزع ليس بمحرم .

وكذلك الذين يقولون إذا طلع عليه الفجر وهو مولج فقد جامع ، لهم في النزع قولان : في مذهب أحمد وغيره ، وأما على ما نصرناه فلا يحتاج إلى شيء من هذه المسائل ، فإن الحالف إذا حنث يكفر يمينه ولا يلزمه الطلاق الثلاث ، وما فعله الناس حال التبين من أكل وجماع فلا بأس به . لقوله : « حتى » .

والمقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحد ، ولا يقنط أحداً من رحمة الله ، فإن الله نهى عن ذلك ، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً .

فإن قيل قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ ^(١) معه عموم على وجه الإخبار ، فدل على أن الله يغفر كل ذنب ، ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له ، ولا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة والتواتر والقرآن والإجماع . إذ كان الله أهلك أمماً

= ابن عبد الوهاب ، حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس بن مالك أن أعرابياً بال في المسجد وذكره وقوله (لا تترموه) بضم أوله وسكون الزاي وكسر الراء من الأزام أي لا تقطعوا عليه بوله ، يقال : زرم البول إذا انقطع وأزرمته قطعته وكذلك يقال في الدمع .
والحديث رواه مسلم في الطهارة ٩٨ ، ١٠٠ والنسائي في الطهارة ١٤ ، والبيهقي ٣ وابن ماجه في الطهارة ٧٨ ، واحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٩١ ، ٢٢٦ ، (حلي) .
(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

كثيرة بذنوبها ، ومن هذه الأمة من عذب بذنوبه إما قدراً وإما شرعاً في الدنيا قبل الآخرة .

وقد قال تعالى: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ^(٢) فهذا يقتضي أن هذه الآية ليست على ظاهرها : بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعاً . أي ذلك مما قد يفعله أو أنه يغفره لكل تائب ، لكن يقال : فلم أتى بصيغة الجزم والإطلاق في موضع التردد والتقييد ؟ قيل بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب ، ولم يذكر أنه يغفر لكل مذنّب ، بل قد ذكر في غير موضع أنه لا يغفر لمن مات كافراً ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ^(٣) .

وقال في حق المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ^(٤) لكن هذا اللفظ العام في الذنوب هو مطلق في المذنبين ، فالمذنّب لم يتعرض له بنفي ولا إثبات ، لكن يجوز أن يكون مغفوراً له ، ويجوز أن لا يكون مغفوراً له ، إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له ، وإن أصر على ما يناقضها لم يغفر له .

وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة : الكفر والشرك وغيرهما ؛ يغفرها لمن تاب منها ، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى ، بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره في الجملة .

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعاً ، وفيها رد على طوائف ، رد على من يقول إن الداعي إلى البدعة لا تقبل توبته ، ويحتجون بحديث

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .

(٣) سورة محمد آية رقم ٣٤ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

إسرائيلي ، فيه : « أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟ » وهذا يقوله طائفة ممن يتنسب إلى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك ، كأبي علي الأهوازي وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، وما يحتاج به وما لا يحتاج به ، بل يروون كل ما في الباب محتجين به .

وقد حكى هذا طائفة قولاً في مذهب أحمد أو رواية عنه ، وظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعي إلى الكفر ، وتوبة من فتن الناس عن دينهم .

وقد تاب قادة الأحزاب : مثل أبي سفيان بن حرب^(١) ، والحارث بن هشام^(٢) وسهيل بن عمرو^(٣) ، وصفوان بن أمية^(٤) ، وعكرمة بن أبي جهل^(٥) ، وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل ، وكانوا من أحسن

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس توفي عام ٣١ هـ . راجع الاغاني ٦ : ٨٩ والاصابة ٤٠٤١ : ٦ وابن عساكر ٦ : ٣٨٨

(٢) هو الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ابو عبد الرحمن صحابي يضرب المثل ببنااته في الحسن والشرف وغلاء المهر ، مدحه كعب بن الأشرف ، وشهد بدرأ مع المشركين فانهمز فغيره حسان بن ثابت فاعتذر بأبيات هي احسن ما قيل في الاعتذار من الفرار واسلم يوم فتح مكة مات بالشام مجاهداً عام ١٨ هـ وهو أخو أبي جهل [راجع الاصابة ١ : ٢٩٣ والاستيعاب ٣٠٧ : ١]

(٣) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري . خطيب قريش وأحد ساداتها في الجاهلية أسره المسلمون يوم بدر وافتدي فأقام على دينه الى يوم فتح مكة فاسلم وسكنها ثم سكن المدينة وهو الذي تولى أمر الصلح بالحدبية مات في الطاعون في الشام عام ١٨ هـ . راجع الاصابة ٣٥٦٦ وصفة الصفوة ١ : ٣٠٧ .

(٤) هو صفوان بن أمية . بن خلف بن وهب الجمحي القرشي المكي أبو وهب صحابي . فصيح جواد . أسلم يوم الفتح ، وكان من المؤلفة قلوبهم وشهد اليرموك ومات بمكة عام ٤١ هـ له في كتب الحديث ١٣ حديثاً . راجع تهذيب التهذيب ٤ : ٤٢٤ والاصابة من ٤٠٦٨ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٤٢٧ .

(٥) هو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي القرشي ، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام ، كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة وحسن اسلامه - فشهد الوقائع وولي الأعمال لأبي بكر واستشهد في اليرموك وعمره ٦٢ سنة =

الناس إسلاماً وغفر الله لهم . قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّهَوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [عمر بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين ، وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله ؟؟ » (٢) .

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن ، فأسلم أولئك الجن والإنس يعبدونهم ، ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم ، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً .

وأيضاً فالداعي إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه ، لكونه قبل من هذا واتبعه ، وهذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم ، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم ، وأما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد ، ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى ، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع ، وصاروا دعاة إلى الإسلام والسنة ، وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

ومن ذلك توبة قاتل النفس ، والجمهور على أنها مقبولة ، وقال ابن عباس لا تقبل ، وعن أحمد روايتان ، وحديث قاتل التسعة والتسعين في

= عام ١٣ هـ ، وفي الحديث : لا تؤذوا الأحياء بسبب الموق . قال المبرد : فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة . راجع تهذيب الأسماء ١ : ٣٣٨ والاصابة ت ٥٦٤٠ وتاريخ الإسلام للذهبي ١ : ٣٨٠ .

(١) سورة الانفال آية رقم ٣٨ .

(٢) الحديث عند الامام احمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٩٨ - ١٩٩ - حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ثنا يعقوب بن إبراهيم قال ثنا أبي عن أبي اسحاق قال حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن أبي حبيب بن أبي أوس قال : حدثني عمرو بن العاص من فيه وذكره وفيه زيادة (وأن الهجرة نجب ما كان قبلها) .

الصحيحين دليل على قبول توبته ، وهذه الآية تدل على ذلك ، وآية النساء إنما فيها وعيد في القرآن كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾^(١) ومع هذا فهذا إذا لم يتب ، وكل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس ، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقاً به وإن تاب ؟ هذا في غاية الضعف ، ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ، بل التوبة تسقط حق الله والمقتول مطالبة بحقه ، وهذا صحيح في جميع حقوق الأدميين حتى الدين ، فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين »^(٢) لكن حق الأدمي يعطاه من حسنات القاتل .

فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول ، فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها ، وهذا الذي قاله قد يقع من بعض الناس ، فيبقى الكلام فيمن تاب وأخلص ، وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم ، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به ؟ وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس ، لكن هذا كله لا ينافي موجب الآية ، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب ، الشرك

(١) سورة النساء آية رقم ١٠ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الامارة باب من قتل في سبيل الله كفر خطاياهم إلا الدين . حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبي قتادة انه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله ، والإيمان بالله أفضل الأعمال فقال يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي ؟ فقال له رسول الله ﷺ : نعم . إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال : رسول الله ﷺ كيف قلت . . ؟ قال : أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي فقال رسول الله ﷺ : نعم . وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين ، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك .

والقتل والزنا ، وغير ذلك من حيث الجملة ، فهي عامة في الأفعال مطلقة في الأشخاص .

ومثل هذا قوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ^(١) عام في الأشخاص مطلق في أحوال الأرجل ، إذ قد تكون مستورة بالخف واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ ^(٢) عام في الأولاد عام في الأحوال ، إذ قد يكون الولد موافقاً في الدين ومخالفاً وحرّاً وعبداً واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله : ﴿ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ﴾ عام في الذنوب مطلق في أحوالها ، فإن الذنب قد يكون صاحبه تائباً منه ، وقد يكون مصراً ، واللفظ لم يتعرض لذلك ، بل الكلام يبين أن الذنب يغفر في حال دون حال ، فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب ، ونهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة ، فقال : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣) فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها ، كالتي كذبت بآياته واستكبرت وكانت من الكافرين ، ومثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها .

فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَرَادُوا

(١) سورة التوبة آية رقم ٥ وقد جاءت الآية في المطبوعة معرفة حيث ذكرت (اقتلوا) بدون الفاء .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٥٤ - ٥٩ .

كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ﴿٢﴾ قيل : إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٣﴾ وقوله : ﴿ كيف يهدي الله ؟ ﴾ أي أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين ، ولهذا قال : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً ، لا يحصل له الهدى إلى أي دين ارتد « والمقصود » أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا .

وكذلك قال في قوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ ﴾ ﴿٤﴾ ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد ، قال : ﴿ ثُمَّ

(١) سورة آل عمران آية رقم ٩٠ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٨٦ - ٨٩ .

قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد البصري ، حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجل من الانصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة . ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم - وهكذا رواه النسائي ، والحاكم وابن حبان من طريق داود بن أبي هند وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٠٦ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر عن عبد الكريم =

إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ، ثم ذكر
من لا تقبل توبته ومن مات كافراً : فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ
ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ^(٢) وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا
فيهم أقوالاً : قيل لنفاقهم ، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه ،
وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت ، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء
الخراساني والسدي : لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت ، فيكون هذا
كقوله : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ
الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ^(٣).

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ
ازْدَادُوا كُفْرًا ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ^(٤) قال مجاهد
وغیره من المفسرين : إزدادوا كفراً ثبتوا عليه حتى ماتوا .

= الجزري عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى
قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ كيف تجد قلبك ؟ قال :
مطمئناً بالإيمان . فقال النبي ﷺ « إن عادوا فعد » ورواه البيهقي بأبسط من ذلك وفيه أنه سب
النبي ﷺ وذكر آهتهم بخير فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما تركت حتى سيبتك
وذكرت آهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان فقال : إن عادوا فعد .
وفي ذلك أنزل الله ﴿ الا من اكراه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

(١) سورة النحل آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٩٠ - ٩١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٨ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

قلت : وذلك لأن التائب راجع عن الكفر ، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر ، فقلوه : ﴿ ثم ازدادوا ﴾ بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر واستمروا على الكفر وداموا على الكفر ، فهم كفروا بعد إسلامهم ، ثم زاد كفرهم ما نقص ، فهؤلاء لا تقبل توبتهم وهي التوبة عند حضور الموت ، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره ، فلم يزد بل نقص ، بخلاف المصر إلى حين المعينة ، فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلاً عن هدمه .

وفي الآية الأخرى قال : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ^(١) وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ، قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره ، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافراً حبط إيمانه ، فعوقب بالكفر الأول والثاني كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قيل : يا رسول الله أتؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر ^(٢) فلو قال : إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ ^(٣) بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك ، وهو المرتد التائب ، فهذا إذا كفر وازداد كفراً لم يغفر له كفره السابق أيضاً ، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفراً فلا يدخلون في الآية .

والفقهاء إذا تنازعوا في قبول التوبة ممن تكررت رذته أو قبول توبة

(١) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الإيمان باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية حدثنا محمد بن عبد الله بن غير حدثنا أبي ووكيع ، وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة واللفظ له : حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قلنا يا رسول الله أتؤاخذ بما عملنا في الجاهلية . ؟ قال : من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٩٠ .

الزندق ، فذاك إنما هو في الحكم الظاهر ، لأنه لا يوثق بتوبته ، أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله في الباطن فإنه يدخل في قوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

ونحن حقيقة قولنا أن التائب لا يعذب لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لا شرعاً ولا قدراً ، والعقوبات التي تقام من حد أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأنه زنا أو سرق أو شرب ، فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها ، ولو درى الحد بإظهار هذا لم يقم حد ، فإنه كل من تقام عليه البينة يقول قد ثبت ، وإن كان تائباً في الباطن كان الحد مكفراً وكان مأجوراً على صبره ، وأما إذا جاء هو بنفسه فاعترف وجاء تائباً ، فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد في ظاهر مذهب أحمد ، نص عليه في غير موضع . وهي من مسائل التعليق ، واحتج عليها القاضي بعدة أحاديث ، وحديث الذي قال « أصبت حداً فأقمه علي فأقيمت الصلاة » يدخل في هذا لأنه جاء تائباً ، وإن شهد على نفسه كما شهد به ماعز والغامدية واختار إقامة الحد أقيم عليه وإلا فلا ، كما في حديث ماعز « فهلا تركتوه ؟ » والغامدية ردها مرة بعد مرة . فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا ، ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذي يذنب سراً ، وليس على أحد أن يقيم عليه حداً ، لكن إذا اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائباً ، وهذا كقتل الذي ينغمس في العدو هو مما يرفع الله به درجته كما قال النبي ﷺ : « لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له . » (٢) وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ؟ ! » .

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الحدود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير ، وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير (وتقارباً في لفظ الحديث) حدثنا أبي ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه وذكره .

وقد قيل في ماعز إنه رجع عند الإقرار ، وهذا هو أحد القولين فيه في مذهب أحمد وغيره ، وهو ضعيف والأول أجود ، وهؤلاء يقولون : سقط الحد لكونه رجع عن الإقرار ، ويقولون رجوعه عن الإقرار مقبول ، وهو ضعيف ، بل فرق بين من أقر تائباً ومن أقر غير تائب ، فإسقاط العقوبة بالتوبة - كما دلت عليه النصوص - أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار ، والإقرار شهادة منه على نفسه ، ولو قبل الرجوع لما قام حد بإقرار ، فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقاً فالرجوع الذي هو فيه كاذب أولى .

آخره ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله

فصل في المستثنين في قوله ﴿إلا ما شاء الله﴾

عن قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(١) قال المفسرون : مات من الفزع وشدة الصوت ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٢) أخبرنا أبو الفتح

= ورواه الترمذي في الحدود ٢٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٩٩ (حلي) ولفظ الحديث كما جاء عند الامام مسلم - فجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني وإنه ردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً فوالله إني لحبلى قال إما لا فاذهي حتى تلدي فلما ولدت أنته بالصبي في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال : اذهبي حتى تقطميها فلما قطمته جاءت بالصبي في يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبي الله قد قطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتتضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال : مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

(١ - ٢) سورة الزمر آية رقم ٦٨ .

محمد بن علي الكوفي الصوفي ، أنا أبو الحسن علي بن الحسن التميمي ، ثنا محمد بن اسحاق الرملي ، ثنا هشام بن عمار ، ثنا اسماعيل بن عباس عن عمر بن محمد ، عن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، عن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية ، : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(١) من الذي لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء متقلدين سيوفهم حول العرش ، وهذا قول سعيد بن جبير ، وعطاء [و] ابن عباس ، وقال مقاتل والسدي والكلبي : هو جبريل وميكائيل وأسرافيل ، وملك الموت ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ﴾ يعني الخلق كلهم قيام على أرجلهم ﴿ ينظرون ﴾ ما يقال لهم ، وما يؤمرون به ، هذا كلام الواحدي في « كتاب الوسيط » بينا لنا حقيقة الصعوق ، هل يطلق على الموت في حق المذكورين ؟ وحقيقة الاستثناء ؟

« الجواب »

فأجاب : الحمد لله . الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة ، وحتى عزرائيل ملك الموت ، وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ ، والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك ، وقدرة الله عليه ، وإنما يخالف في ذلك طوائف من المتفلسفة أتباع أرسطو

= قال الامام احمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود . قال : سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو - رضي الله عنها - إنك تقول الساعة تقوم الى كذا وكذا قال لقد همت أن لا أحدثكم شيئاً إنما قلت سترون بعد قليل أمراً عظيماً ثم قال عبد الله بن عمرو - رضي الله عنها - قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال في أمي فيمكث فيهم اربعين لا أدري اربعين يوماً أو اربعين شهراً أو اربعين عاماً وأربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى أن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه « الخ .

(١) سورة الزمر آية : ٦٨ .

وأمثالهم ، ممن زعم أن الملائكة هي العقول والنفوس ، وأنه لا يمكن موتها بحال ، بل هي عندهم آلهة وأرباب هذا العالم .

والقرآن وسائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون ، كما قال سبحانه : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا - سُبْحَانَهُ - بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ^(٣) والله سبحانه وتعالى قادر على أن يميتهم ثم يحييهم ، كما هو قادر على إماتة البشر والجن ، ثم إحيائهم ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ^(٤) وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه ومن غير واحد من أصحابه ، أنه قال : « إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة غشي » وفي رواية « إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا » وفي رواية « سمعت الملائكة كجر السلسلة على صفوان . فيصعقون ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا . قال : ربكم ؟ قالوا : الحق . فينادون : الحق ، الحق » ^(٥) .

فقد أخبر في هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعوق الغشي فإذا جاز عليهم صعوق الغشي جاز عليهم صعوق الموت ، وهؤلاء المتفلسفة لا

(١) سورة النساء آية رقم ١٧٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ - ٢٨ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٢٦ .

(٤) سورة الروم آية رقم ٢٧ .

(٥) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٣٢ باب قول الله تعالى : ﴿ حتى إذا فزع

عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ ٧٤٨١ حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة ، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال : وذكره .

يجوزون لا هذا ولا هذا ، وصعوق الغشي هو مثل صعوق موسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ ذَكَاً وَخَرَّ مُوسَى صَعْقاً ﴾ (١) .

والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات :

نفخة الفزع ، ذكرها في سورة النمل في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢) ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٣) .

وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم ، ولا يمكن الجزم بكل من استثناءه الله ، فإن الله أطلق في كتابه .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى آخذاً بساق العرش ، فلا أدري هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناءه الله ؟ » (٤) وهذه الصعقة قد قيل إنها رابعة ،

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٤٣ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٧ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٦٨ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٣٥ باب قول الله تعالى ١٣٩ - ﴿ وإن يونس لمن المرسلين - الى قوله - فتمتحنهم الى حين ﴾ .

٣٤١٤ - حدثنا يحيى بن بكير عن الليث عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبد الله بن الفضل عن الأعرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال « بينا يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه فقال : تقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، والنبي ﷺ بين أظهرنا . . ؟ فذهب إليه فقال يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً . فما بال فلان لطم وجهي . . ؟ فقال : لم لطمت وجهه فذكره . فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه ثم قال : وذكره .

وقيل إنها من المذكورات في القرآن ، وبكل حال ، النبي ﷺ : قد توقف في موسى هل هو داخل في الإستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟ .

فإذا كان النبي ﷺ لم يجزم بكل من استثناه الله لم يمكننا أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة ، وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يخبر به ، وهذا العلم لا ينال الا بالخبر ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

سورة الشورى

وقال الشيخ رحمه الله

قد كتبت بعض ما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ^(١) فمدحهم على الانتصار تارة وعلى الصبر أخرى .

و « المقصود هنا » ان الله لما حمدهم على هذه الصفات من الإيمان والتوكل ومجانبة الكبائر والاستجابة لربهم ، وإقام الصلاة ، والاشتغال في أمرهم ، وانتصارهم إذا أصابهم البغي ، والعفو والصبر ونحو ذلك : كان هذا دليلاً على أن ضد هذه الصفات ليس محموداً بل مذموماً ، فإن هذه الصفات مستلزمة لعدم ضدها ، فلو كان ضدها محموداً لكان عدم المحمود محموداً ،

(١) سورة الشورى الآيات من ٣٦ - ٤٣ .

قال الامام أحمد : حدثنا يحيى يعني ابن سعيد القطان عن ابن عجلان حدثنا سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : إن رجلاً شتم أبا بكر - رضي الله عنه - والنبي ﷺ جالس فجعل النبي ﷺ يعجب ويتسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر - رضي الله عنه - فقال : يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت . قال : إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم اكن لاقعد مع الشيطان ثم قال يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها الا أغره الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح الله باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة . « وكذا رواه أبو داود عن عبد الأعلى بن حماد عن سفیان بن عيينة .

وعدم المحمود لا يكون محموداً إلا أن يخلفه ما هو محمود ، ولأن حمدتها والثناء عليها طلب لها ، وأمر بها ، ولو أنه أمر استحباب ، والأمر بالشئ نهى عن ضده قصداً أو لزوماً ، وضد الانتصار العجز ، وضد الصبر الجزع ، فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجده في حال كثير من الناس ، حتى بعض المتدينين إذا ظلموا أو أرادوا منكراً فلا هم ينتصرون ولا يصبرون ، بل يعجزون ويعجزون .

وفي سنن أبي داود من رواية عوف بن مالك ، أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ ، فقال المقضى عليه ؛ حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : « حسبي الله ونعم الوكيل »^(١) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن غلبك أمر فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان »^(٢) لا تعجز عن مأمور ولا تجزع عن مقدور .

ومن الناس من يجمع كلا الشرين - فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والإستعانة بالله ، والأمر يقتضي الوجوب ، وإلا فالاستحباب ، ونهى عن

(١) الحديث رواه الامام احمد بن حنبل في المسند ٦ : ٢٤ - ٢٥ حدثنا عبد الله ، حدثني أبي حدثنا حيوة بن شريح وإبراهيم بن أبي العباس قالنا ثنا بقية قال حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن سيف عن عوف بن مالك انه حدثهم أن النبي ﷺ وذكره . ورواه أبو داود في الأقضية ٢٨ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب القدر ٣٤ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله تعالى وتفويضه المقادير لله حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وابن غير قال : حدثنا عبد الله بن إدريس عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

ورواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٦٦ ، ٣٧٠ (حلي) .

العجز وقال : « إن الله يلوم على العجز » والعاجز ضد الذين ينتصرون ،
والأمر بالصبر والنهي عن الجزع معلوم في مواضع كثيرة .

وذلك لأن الانسان بين أمرين : أمر أمر بفعله فعله أن يفعله ويحرص
عليه ، ويستعين بالله والله ينجز ، وأمر أصيب به من غير فعله فعله أن يصبر
عليه ، ولا يجزع منه ، ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع^(١) أو غيره « الأمر
أمران ، أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه » وهذا
في جميع الأمور ، لكن عند المؤمن الذي فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه
له ، فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وقد
أمره بكل خير فيه له حيلة ، وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله .

واسم الحسنات والسيئات يتناول القسمين ، فالأفعال مثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ
بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾^(٢) ومثل
قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾^(٣) ومثل قوله :
﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٤) ومثل قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾^(٥) والمصائب المقدرة خيرها وشرها مثل قوله :

(١) هو عبد الله بن المقفع ، من أئمة الكتاب ، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق ، أصله
من الفرس ، ولد في العراق مجوسياً (مزدكياً) وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح)
وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي ، وترجم له « كتب ارسطوطاليس الثلاثة في المنطق وكتاب
المدخل الى علم المنطق المعروف (بایساغوجي) وترجم عن الفارسية كتاب (كلیلة ودمنة) وله
مصنفات كثيرة اتهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلب عام ١٤٢ هـ قال
الخليل بن أحمد : ما رأيت مثله وعلمه أكثر من عقله ، [راجع أمراء البيان ٩٩ - ١٥٨ وأخبار
الحكماء ١٤٨ ولسان الميزان : ٣٦٦ وفي البداية والنهاية ١٠ : ٩٦ قال المهدي : ما وجد كتاب
زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ، ومطبع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، قالوا : ونسي الجاحظ] .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٠ .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٧ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٤٠ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٨١ .

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١) إلى آيات كثيرة من هذا الجنس .

والله أعلم .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

سورة الزخرف

وقال :

فصل

قوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾^(١) يشبه قوله : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾^(٢) فيشبه والله أعلم أن يكون ضرب المثل أنهم جعلوا المسيح ابنه ، والملائكة بناته ، والولد يشبه أباه ، فجعلوه الله شبيهاً ونظيراً ، أو يكون المعنى في المسيح أنه مثل لآلهتهم ، لأنه عبد من دون الله .

فعلى الأول يكون ضاربه كضارب المثل للرحمن وهم النصارى والمشركون ، وعلى الثاني يكون ضاربه هو الذي عارض به قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾^(٣) فلما قال ابن الزبعرى^(٤) : لأخصمن محمداً ، فعارضه بالمسيح وناقضه به كان قد ضربه مثلاً قال الآلهة

(١) سورة الزخرف آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٧ . ٥٨ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٩٨ .

(٤) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي القرشي أبو سعد ، شاعر قريش في الجاهلية ، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة فهرب إلى نجران . فقال فيه « حسان » أبياتاً فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة مات عام ١٥ هـ . راجع الأغاني ١ ، ٤ ، ١٤ وسمط اللالي ٣٨٧ ، ٨٣٣ وامتناع الأسماع ١ : ٣٩١ .

عليه ، ويترجح هذا بقوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾^(١) فعلم أنهم هم الذين ضربوه لا النصارى .

فإن « المثل » يقال على الأصل وعلى الفرع « والمثل » يقال على المفرد ويقال على الجملة التي هي القياس ، كما قد ذكرت فيما تقدم أن ضرب المثل هو القياس ، أما قياس التمثيل فيكون المثل هو المفرد وأما قياس الشمول فيكون تسميته ضرب مثل كتسميته قياساً ، كما بينته في غير هذا الموضع ، من جهة مطابقة المعاني الذهنية للأعيان الخارجية ومماثلتها لها ، ومن جهة مطابقة ذلك المفرد المعين للمعنى العام الشامل للأفراد ، ولسائر الأفراد ، فإن الذهن يرتسم فيه معنى عام يماثل الفرد المعين ، وكل فرد يماثل الآخر ، فصار هذا المعنى يماثل هذا ، وكل منهما يماثل المعنى العام الشامل لهما .

وبهذا والله أعلم سمي ضرب مثل وسمي قياساً ، فإن الضرب الجمع ، والجمع في القلب واللسان وهو العموم والشمول ، فالجمع والضرب والعموم والشمول في النفس معنى ولفظاً ، فإذا ضرب مثلاً فقد صيغ عموماً مطابقاً ، « أو صيغ مفرداً مشابهاً ، فتدبر هذا فإنه حسن إن شاء الله .

ولك أن تقول : كل إخبار يمثل صورته المخبر في النفس فهو ضرب مثل ، لأن المتكلم جمع مثلاً في نفسه ونفس المستمع بالخبر المطابق للمخبر ، فيكون المثل هو الخبر وهو الوصف كقوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾^(٢) وقوله : ﴿ ضَرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾^(٣) .

وبسط هذا اللفظ واشتماله على محاسن الأحكام والأدلة قد ذكرته في غير هذا الموضع .

(١) سورة الزخرف آية رقم ٥٨ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٥ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٣ .

سورة الأحقاف

سأل رجل آخر

فصل

عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾^(١) فقال : ما سمعنا بنص القرآن والحديث أن ما قبل كتابنا إلا الإنجيل ، فقال : الآخر : عيسى إنما كان تبعاً لموسى ، والإنجيل إنما فيه توسع في الأحكام تيسير مما في التوراة ، فأنكر عليه رجل وقال : كان لعيسى شرع غير شرع موسى ، واحتج بقوله : لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا^(٢) قال فما الحكم في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾^(٣) ؟ فقال : ليست هذه حجة . فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله .

قد أخبر الله في القرآن أن عيسى قال لهم : ﴿ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾^(٤) فعلم أنه أحل البعض دون الجميع ، وأخبر عن المسيح أنه

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٢ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة الصف آية رقم ٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٥٠ تكملة الآية ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ .

قال بعض العلماء فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة - وهو الصحيح ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ وكشف لهم عن الغطاء في ذلك .

علمه التوراة والإنجيل بعلمه : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ^(١).

ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له
منه ، ألا ترى أنا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل ، وإن كان كثير من
شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين
من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في
التوراة ، وبهذا يحصل التباين بين الشرعتين .

ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها ، كما يحفظون
الإنجيل ، ولهذا لما سمع النجاشي القرآن ، قال : إن هذا والذي جاء به
موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، وكذلك ورقة بن نوفل ، قال للنبي ﷺ لما
ذكر له النبي ﷺ ما يأتيه قال - هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى .

وكذلك قالت الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ ^(٢) وقال
تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
مُوسَى ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُوا : سَاحِرَانِ
تَظَاهَرَا ﴾ ^(٣) أي موسى ومحمد ، وفي القراءة الأخرى ﴿ سَحَرَانِ تَظَاهَرَا ﴾
أي التوراة والقرآن .

وكذلك قال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِذْ قَالُوا : مَا أُنزِلَ اللَّهُ عَلَى
بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ : مَنْ أُنزِلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾
إلى قوله : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ^(٤) فهذا وما
أشبهه مما فيه اقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكره من أن

(١) سورة آل عمران آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٤٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٩١ - ٩٢ .

التوراة هي الأصل ، والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام ، وإن كان مغايراً لبعضها .

فلهذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾^(١) وقال : ﴿ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾^(٢) فيذكر الثلاثة تارة ، ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة لسر : [وهو] أن الإنجيل من وجه أصل ، ومن وجه تبع ، بخلاف القرآن مع التوراة ، فإنه أصل من كل وجه ، بل هو مهيم على ما بين يديه من الكتاب ، وإن كان موافقاً للتوراة في أصول الدين ، وكتبه من الشرائع . والله أعلم .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣ - ٤ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١١١ .

سورة ق

سئل رحمه الله .

فصل

عن قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ ، وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ ^(١) ما المزيد .

فأجاب :

قد قيل إنها تقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ أي ليس فيّ محتمل للزيادة ، والصحيح أنها تقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ على سبيل الطلب أي هل من زيادة تزداد فيّ ، والمزيد ما يزيده الله فيها من الجن والإنس ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه » ^(٢) ويروى

(١) سورة ق آية رقم ٣٠ .

(٢) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد ، عن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها الى بعض وتقول قط قط .

ثم رواه مسلم من حديث قتادة بنحوه ، ورواه أبان العطار ، وسليمان التيمي عن قتادة بنحوه . وقال البخاري : حدثنا محمد بن موسى القطان ، حدثنا أبو سفيان الحميري سعيد بن يحيى بن مهدي ، حدثنا عوف عن محمد ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - رفعه وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان .

طريق أخرى : قال البخاري ، وحدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ وصدره : تحاجت الجنة والنار =

« عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط .

فإذا قالت حسبي حسبي كانت قد اكتفت بما ألقى فيها ، ولم تقل بعد ذلك هل من مزيد ، بل تمتلىء بما فيها لانزواه بعضها إلى بعض ، فإن الله يضيقها على من فيها لسعتها ، فإنه قد وعدا ليملاؤها من الجنة والناس أجمعين ، وهي واسعة فلا تمتلىء حتى يضيقها على من فيها .

قال : « وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً فيدخلهم الجنة ، فبين أن الجنة لا يضيقها سبحانه ، بل ينشئ لها خلقاً فيدخلهم الجنة ، لأن الله يدخل الجنة من لم يعمل خيراً ، لأن ذلك من باب الإحسان ، وأما العذاب بالنار فلا يكون إلا لمن عصى ، فلا يعذب أحداً بغير ذنب .
والله أعلم .

= فقالت النار أوشرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم . قال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فيها فتقول قط قط الخ .

سورة المجادلة

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

فصل

قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾^(١) خص سبحانه رفعه بالأقذار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان ، وهم الذين استشهد بهم في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَالْمَلَائِكَةُ ، وَأُولُوا الْعِلْمِ ، قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾^(٢) .

وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول ، هو الحق بقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾^(٣) فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها ، كما قال تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾^(٤) .

قال زيد بن أسلم : بالعلم ، فرفع الدرجات والأقذار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان ، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين ، وآخر لا ينام الليل ، وآخر لا يفطر ، وغيرهم أقل عبادة منهم ، وأرفع قدراً في قلوب الأمة ، فهذا كرز بن وبرة^(٥) ، وكهمس ، وابن طارق ، يختمون القرآن

(١) سورة المجادلة آية رقم ١١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٣) سورة سبأ آية رقم ٦ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٧٦ .

(٥) هو كرز بن وبرة الحارثي ، أبو عبد الله تابعي من أهل الكوفة ، يضرب به المثل في التباعد ، دخل =

في الشهر تسعين مرة ، وحال ابن المسيب ^(١) وابن سيرين ^(٢) والحسن وغيرهم في القلوب أرفع .

وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف ، ويهجر الشهوات ، ويتقشف ، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب ، وأحلى عند النفوس ، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة وصفائها ، وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك ، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم ، ووده ومحبته ، وأن يكون الدين كله لله ، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ ، وابتهاجها وسرورها ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يُفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ^(٤) الآية . ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان ، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به ، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ، ووضع الفرح في غير موضعه .

فإذا استقر في القلب ، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده ، وبره به ، وإحسانه إليه على الدوام ، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه ، فلا يزال مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف .

هذا في « باب معرفة الأسماء والصفات » وأما في « باب فهم القرآن »

= جرجان غازياً مع يزيد بن المهلب سنة ٩٨ هـ ثم سكنها وتوفي بها عام ١١٠ هـ . راجع تاريخ جرجان ٢٩٥ - ٣١٦ .

(١) سبق الترجمة له .

(٢) سبق الترجمة له .

(٣) سورة الرعد آية رقم ٣٦ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٥٨ .

فهو دائم التفكير في معانيه ، والتدبر لألفاظه واستغنائها بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس ، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن ، فإن شهد له بالتركية قبله وإلا رده ، وإن لم يشهد له بقبول ولا ردّ وقفه ، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه .

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن ، إما بالوسوسة في خروج حروفه ، وترقيقها ، وتفخيمها ، وإمالتها ، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط ، وغير ذلك ، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه ، وكذلك شغل النطق بـ ﴿ أنذرتهم ﴾ ، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو ، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك ، وكذلك مراعاة النغم ، وتحسين الصوت .

وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان . وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ، ونتائج أفكارهم .

وكذلك تأويل القرآن على قول من قلده دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه ، وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره .

وكذلك يظن من لم يقدر القرآن قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد ، والأسماء والصفات ، وما يجب لله وينزه عنه ، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمنهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة ، وهؤلاء أغلظ الناس حجاً عن فهم كتاب الله تعالى .
والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة الطلاق

وقال :

فصل

في ايجاد المخارج وتوسيع الرزق بالتقوى

وأما قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾^(١) فقد بين فيها أن المتقي يرفع الله عنه المضرة بما يجعله له من المخرج ، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق ، والرزق اسم لكل ما يفتدى به الإنسان ، وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة وقد قال بعضهم : ما افتقر تقي قط ، قالوا : ولم ؟ قال : لأن الله يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ؟! ﴾ .

وقول القائل : قد نرى من يتقي وهو محروم ، ومن هو بخلاف ذلك وهو مرزوق .

فجوابه : أن الآية اقتضت أن المتقي يرزق من حيث لا يحتسب ، ولم

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ - ٣ .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد أنا كهمس بن الحسن ، حدثنا أبو السليل عن أبي ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو على هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة . ؟ قلت الى السعة والدعة انطلق فأكون حمامة من حمام مكة قال : كيف تصنع إذا أخرجت من مكة . ؟ قلت الى السعة والدعة الى الشام والأرض المقدسة قال : وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام . ؟ قلت إذا والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي . قال أو خير من ذلك . قلت أو خير من ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع وإن كان عبداً حبشياً . » .

تدل على أن غير المتقي لا يرزق ، بل لا بد لكل مخلوق من الرزق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(١) حتى أن ما يتناوله العبد من الحرام هو داخل في هذا الرزق ، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة ، ويرزقون رزقاً حسناً ، وقد لا يرزقون إلا بتكلف ، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون ، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة ، ولا يكون خبيثاً ، والتقي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق ، وإنما يحمى من فضول الدنيا رحمة به وإحساناً إليه ، فإن توسيع الرزق قد يكون مضرّة على صاحبه ، وتقديره يكون رحمة لصاحبه .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا ﴾^(٢) أي : ليس الأمر كذلك ، فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرماً ، ولا [كل] من قدر عليه رزقه يكون مهاناً ، بل قد يوسع عليه رزقه إملاء واستدراجاً ، وقد يقدر عليه رزقه حماية وصيانة له ، وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لما له من ذنوب وخطايا ، كما قال بعض السلف : إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ، وفي الحديث عن النبي ﷺ « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب »^(٣) .

وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات ، والاستغفار سبب للرزق والنعمة ، وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَارًا فَخَلَقْنَا مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِنَّا جَعَلْنَا الْمُصَافِينَ فَخْرًا ﴾

(١) سورة هود آية رقم ٦ .

(٢) سورة الفجر آية رقم ١٥ - ١٧ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأدب ٥٧ باب الاستغفار ٣٨١٩ بسنده عن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) وذكره ، ورواه أبو داود في كتاب الوتر ٢٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٤٨٠ (حلي) .

كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (١) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (٢) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ (٣) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (٥) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٦) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ، إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُوراً ﴾ (٧) . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٨) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩) .

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه يتلى عباده بالحسنات والسيئات ،
فالحسنات هي النعم ، والسيئات هي المصائب ، ليكون العبد صباراً

-
- (١) سورة هود آية رقم ١ - ٣ .
 - (٢) سورة نوح آية رقم ١٠ - ١٢ .
 - (٣) سورة الجن آية رقم ١٦ - ١٧ .
 - (٤) سورة الأعراف آية رقم ٩٦ .
 - (٥) سورة المائدة آية رقم ٦٦ .
 - (٦) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .
 - (٧) سورة هود آية رقم ٩ وصدر الآية ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُوراً ﴾ .
 - (٨) سورة النساء آية رقم ٧٩ .
 - (٩) سورة الأنعام آية رقم ٤٢ - ٤٣ .

شكوراً ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده ! لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الزهد ١٣ باب المؤمن امره كله خير ١٥٦٤ - ٢٩٩٩) حدثنا هدا بن خالد الأزدي وشيبان بن فروخ جميعاً عن سليمان بن المغيرة ، حدثنا سليمان ، حدثنا ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ وذكره ، ورواه الامام احمد بن حنبل ، في المسند ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٦ : ١٥ ، ١٦ (حلي) .

وقال أيضاً : -

فصل

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ^(١) ، قد روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال « لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم » وقوله : « مخرجاً » عن بعض السلف : أي من كل ما ضاق على الناس وهذه الآية مطابقة لقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٢) الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها ، وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها ، فإن تقوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربة متكافئة متلازمة ، والتوكل عليه هو الاستعانة به ، فمن يتقي الله مثال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : ومن يتوكل على الله مثال : ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما قال : ﴿ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ^(٥) . . .

ثم جعل للتقوى فائدتين : أن يجعل له مخرجاً ، وأن يرزقه من حيث لا

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ - ٣ .

(٢) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢٣ .

(٤) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ٨٨ .

يحتسب ، والمخرج هو موضع الخروج ، وهو الخروج ، وإنما يطلب الخروج من الضيق والشدة ، وهذا هو الفرج والنصر والرزق فبين أن فيها النصر والرزق ، كما قال : ﴿ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ^(١) ولهذا قال النبي ﷺ : « وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم ، وصلاتهم ، واستغفارهم » هذا لجلب المنفعة ، وهذا لدفع المضرة .

وأما التوكل فبين أن الله حسبه أي كافيه ، وفي هذا بيان التوكل على الله من حيث أن الله يكفي المتوكل عليه ، كما قال : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ؟ ﴾ ^(٢) خلافاً لمن قال : ليس في التوكل إلا التفويض والرضا ، ثم إن الله بالغ أمره ، ليس هو كالعاجز : ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ وقد فسروا الآية بالمخرج من ضيق الشبهات بالشاهد الصحيح ، والعلم الصريح ، والذوق ، كما قالوا يعلمه من غير تعليم بشر ، ويفطنه من غير تجربة ، ذكره أبو طالب المكي ، ^(٣) كما قالوا في قوله : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ ^(٤) إنه نور يفرق به بين الحق والباطل ، كما قالوا : بصراً ، والآية تعم المخرج من الضيق الظاهر والضيق الباطن قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(٥) وتعم ذوق الأجساد وذوق القلوب ، من العلم

(١) سورة قريش آية رقم ٤ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٣٦ .

(٣) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب : واعظ زاهد فقيه من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة ، ورحل الى البصرة فاتهم بالاعتزال وسكن بغداد فوعظ فيها ، فحفظ عنه الناس أقوالاً هجروه من أجلها ، وتوفي ببغداد عام ٣٨٦ هـ له قوت القلوب في التصوف قال الخطيب البغدادي : ذكر فيه أشياء منكرة مستنعة في الصفات ، راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٩١ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٧ وتاريخ بغداد ٣ : ٨٩ ولسان الميزان ٥ : ٣٠٠ .

(٤) سورة الأنفال آية رقم ٢٩ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .

والإيمان ، كما قيل مثل ذلك في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ^(١) وكما قال : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ^(٢) وهو القرآن والإيمان .

(١) سورة البقرة آية رقم ٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢ .

سورة التحريم

وسئل رحمه الله :

عن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾^(١) هل هذا اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أم لا ؟ واين معنى قوله ﴿ نَصُوحاً ﴾ ؟ .

فأجاب الحمد لله ، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وغيره من الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم) : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب

(١) سورة التحريم آية رقم ٨ .

قال الامام احمد : ثنا سفيان عن عبد الكريم ، أخبرني زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن مغفل . قال : دخلت مع أبي عبد الله بن مسعود . فقال : أنت سمعت النبي ﷺ يقول : الندم توبة ؟ قال : نعم . وقال مرة نعم سمعته يقول : الندم توبة ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن سفيان بن عيينة عن عبد الكريم وهو ابن مالك الجزري به .

وقال ابن أبي حاتم . ثنا الحسن بن عرفة حدثني الوليد بن بكر أبو خباب عن عبد الله بن محمد العبدى عن أبي سنان البصري عن أبي قلابة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب قال : قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة : منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة ، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله ، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً .

قال زر فقلت لابي بن كعب فما التوبة النصوح . ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك . فقال : هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندايمك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً .

ثم لا يعود إليه . و « نصوح » هي صفة للتوبة وهي مشتقة من النصح والنصيحة .

وأصل ذلك هو الخلوص ، يقال : فلان ينصح لفلان إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها ، وفلان يغشه إذا كان باطنه يريد السوء ، وهو يظهر إرادة الخير كالدرهم المغشوش ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ^(١) أي أخلصوا لله ورسوله قصدهم وجههم ، ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح « الدين النصيحة » ثلاثاً قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » .

فإن أصل الدين هو حسن النية وإخلاص القصد ، ولهذا قال ﷺ : « ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » ^(٢) أي هذه الخصال الثلاث لا يحقد عليها قلب مسلم ، بل يحبها ويرضاها .

فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش ، وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه ، فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب ، فهذه التوبة النصوح ، وهي واجبة بما أمر الله تعالى ، ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى ، ثم إذا عاد استحق العقوبة ، فإن تاب تاب الله عليه أيضاً .

ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر ؛ بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن علي عن النبي ﷺ أنه قال :

(١) سورة التوبة آية رقم ٩١ .

(٢) دوتر ٢٦ ، ت دعوات ١٠٦ .

« إن الله يحب العبد المفتن التواب »^(١).

وفي حديث آخر : « لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار » وفي حديث آخر : « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة »^(٢) ومن قال من الجهال : إن « نصوح » اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أمر الناس أن يتوبوا كتوبته : فهذا رجل مفتر كذاب ، جاهل بالحديث والتفسير ، جاهل باللغة ومعاني القرآن ، فإن هذا امرؤ لم يخلقه الله تعالى ، ولا كان في المتقدمين أحد اسمه نصوح ولا ذكر هذه القصة أحد من أهل العلم ، ولو كان كما زعم الجاهل لقبل توبوا إلى الله توبة نصوح وإنما قال : ﴿ توبة نصوحاً ﴾ والنصوح هو التائب . ومن قال : إن المراد بهذه الآية رجل أو امرأة اسمه « نصوح » وإن كان على عهد عيسى أو غيره فإنه كاذب ، يجب أن يتوب من هذه ، فإن لم يتب وجبت عقوبته بإجماع المسلمين .
والله أعلم .

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١ : ٨٠ حدثنا عبد الله حدثني عبد الأعلى بن حماد النرسي ، ثنا داود بن عبد الرحمن ، ثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي عن أبي عمرو البجلي عن عبد الملك بن سفيان الثقفي عن أبي جعفر محمد بن علي ، عن محمد بن الحنفية عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٢) الحديث رواه الإمام الترمذي في كتاب الدعوات ١٠٧ باب ٣٥٥٩ حدثنا حسين بن يزيد الكوفي ، حدثنا أبو يحيى الجماني ، حدثنا عثمان بن واقد عن أبي نضيرة عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نضيرة وليس أسنده بالقوي .

سورة الملك

وقال رحمه الله تعالى : -

فصل

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟ ﴾^(١) دلت على علمه بالأشياء من وجوه تضمنت البراهين المذكورة لأهل النظر العقلي : « أحدها » أنه خالق لها ، والخلق هو الإبداع بتقدير ، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها .

« الثاني » أنه مستلزم للإرادة والمشيئة ، فيلزم تصور المراد ، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام .

« الثالث » أنها صادرة عنه ، وهوسببها التام ، والعلم بالأصل يوجب العلم بالفرع ، فعلمه بنفسه يستلزم علم كل ما يصدر عنه .

« الرابع » أنه لطيف يدرك الدقيق ، خبير يدرك الخفي ، وهذا هو المقتضى للعلم بالأشياء ، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام .

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ .

سورة القلم

وقال شيخ الإسلام رحمه الله - :

فصل

سورة ﴿ ن ﴾ هي سورة ﴿ الخلق ﴾ الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ . قال الله تعالى فيها : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١) قال ابن عباس : على دين عظيم ، وقاله ابن عيينة ، وأخذه أحمد عن ابن عيينة ، فإن الدين والعادة والخلق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات وإن تنوعت في الصفات ، كما قيل في لفظ الدين : فهذا دينه أبداً وديني .

وجمع بعض الزنادقة بينهما في قوله :

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

﴿ ن ﴾ أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون ، فإن القلم به يكون الكتاب الساطر للكلام : المتضمن للأمر والنهي والإرادة ، والعلم المحيط بكل شيء ، فالأقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره ، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه .

« أحدهما » الإحاطة بالحوادث قبل كونها ، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه ، فإخباره عنه أحكم وأصدق .

(١) سورة القلم آية رقم ٤ .

« الثاني » أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس ، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس ، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوباً . فليس كل معلوم مقولاً ، ولا كل مقول مكتوباً ، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتاب دون الكلام فقط أو دون العلم فقط .

والمقسم عليه ثلاث جمل : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ^(١) ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ^(٢) ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(٣) سلب عنه النقص الذي يقدح فيه ، وأثبت له الكمال المطلوب في الدنيا والآخرة ، وذلك أن الذي أتى به إما أن يكون حقاً أو باطلاً ، وإذا كان باطلاً فلإما أن يكون مع العقل أو عدمه ، فهذه الأقسام الممكنة في نظائر هذا .

« الأول » أن يكون باطلاً ولا عقل له فهذا مجنون لا ذم عليه ولا يتبع .

« الثاني » أن يكون باطلاً وله عقل ، فهذا يستحق الذم والعقاب .

« الثالث » أن يكون حقاً مع العقل ، فنفي عنه الجنون أولاً ، ثم أثبت له الأمر الدائم الذي هو ضد العقاب ، ثم بين أنه على خلق عظيم ،

(١) سورة القلم آية رقم ٢ .

(٢) سورة القلم آية رقم ٣ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٤ .

قال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبي إياس ، حدثنا أبي حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن عن سعيد بن هشام قال أتيت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فقلت لها أخبريني بخلق النبي ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن أما تقرأ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ . وقد روى أبو داود ، والنسائي من حديث الحسن نحوه .

وقال ابن جرير : حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفيير قال : حججت فدخلت على عائشة - رضي الله عنها - فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن وهكذا رواه أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي ، ورواه النسائي في التفسير عن اسحاق بن منصور عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية ابن صالح به .

وذلك يبين عظم الحق الذي هو عليه بعد أن نفى عنه البطلان .

وأيضاً : فالناس نوعان : إما معذب ، وإما سليم منه ، والسليم ثلاثة أقسام : إما غير مكلف ، وإما مكلف قد عمل صالحاً : مقتصداً ، وإما سابق بالخيرات . فجعل القسم مرتباً على الأحوال الثلاثة ليبين أنه أفضل قسم السعداء ، وهذا غاية كمال السابقين بالخيرات ، وهذا تركيب بديع في غاية الإحكام .

ثم قال : ﴿ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ^(١) الآيات ، فتضمن أصليين :

« أحدهما » أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين فكان فيه فوائد :

« منها » أن النهي عن طاعة المرء نهى عن التشبه به بالأولى ، فلا يطاع المكذب والحلاف ، ولا يعمل بمثل عملهما كقوله : ﴿ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ ^(٢) وأمثاله فإن النهي عن قبول قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به .

« ومنها » أن ذلك أبلغ في الإكرام ، والإحترام ، فإن قوله : لا تكذب ، ولا تحلف ، ولا تشتم ، ولا تهمز ، : ليس هو مثل قوله لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق ، لما فيه من تشريفه وبراءته .

« ومنها » أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة ، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم ، فليأخذ حذره ، فإنه محتاج إلى مخالفتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى .

« ومنها » أنهم يبدون مصالح فيما يأمرهم به ، فلا تطع من كان هكذا ولو أبداها ، فإن الباعث لهم على ما يأمرهم به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم ، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسداً لم يقبل من الأمر ، فإن الأمر

(١) سورة القلم آية رقم ٨ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٤٨ .

مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها ، فإذا كان جاهلاً لم يعلم المصلحة ، وإذا كان الخلق فاسداً لم يردّها وهذا معنى بليغ .

« الأصل الثاني » أنه ذكر قسمين المكذبين وذوي الأخلاق الفاسدة وذلك لوجوه :

« أحدها » أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح فضده التكذيب والعمل الفاسد .

« والثاني » أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فكما أن مأمورون بقبول هذه الوصية والإيضاء بها ، فقد نهينا عن قبول ضدها وهو التكذيب بالحق والترك للصبر ، فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر ، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها ، ولهذا ختم السورة به . وقال : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾^(١) فكان في سورة العصر ما بين هنا ، فنهاه عن طاعة الذي في خسر ، ضد الذي للمؤمنين الأمرين بالحق والصبر ، والذي في خسر هو الكذاب المهين ، فهو تارك للحق والصبر .

« الأصل الثالث » أن صلاح الإنسان في العلم النافع والعمل الصالح ، وهو الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله ، والعمل الصالح جماع العدل ، وجماع ما نهى الله عنه الناس : هو الظلم ، كما قرر في غير هذا . قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(٢) والتكذيب بالحق صادر إما عن جهل ، وإما عن ظلم وهو الجاحد المعاند ، وصاحب الأخلاق الفاسدة إنما يوقعه فيها أحد أمرين : إما الجهل بما فيها وما في ضدها فهذا جاهل ، وإما الميل والعدوان وهو الظلم ، .

(١) سورة فصلت آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٧٢ .

فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها ، أو محتاج إليها متلذذ بها وهو الظالم ، فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين .

وقوله : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُوا ﴾^(١) الآية أخبر أنهم يحبون إدهانه ليدهنوا ، فهم لا يأمرونه نصحاً ، بل يريدون منه الإدهان ويتوسلون بإدهانه إلى إدهانهم ، ويستعملونه لأغراضهم في صورة الناصح ، وذلك لما نشأ من تكذيبهم بالحق ، فإنه لم يبق في قلوبهم غاية يتتهون إليها من الحق ، لا في الحق المقصود ولا الحق الموجود ، لا خبراً عنه ، ولا أمراً به ، ولا اعتقاداً ، ولا اقتصاداً .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَطْغُ كُلُّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾^(٢) الخ - ذكر أربع آيات كل آيتين جمعت نوعاً من الأخلاق الفاسدة المذمومة . وجمع في كل آية بين النوع المتشابه خبراً وطلباً ، فالحلاف مقرون بالمهين ، لأن الحلاف هو كثير الحلف ، وإنما يكون على الخبر أو الطلب ، فهو إما تصديق أو تكذيب ، أو حض أو منع ، وإنما يكثر الرجل ذلك في خبره إذا احتاج أن يصدق ويوثق بخبره ، ومن كان كثير الحلف كان كثير الكذب في العهد محتاجاً إلى الناس ، فهو من أذل الناس ﴿ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ حلاف في أقواله ، مهين في أفعاله .

وأما الهماز المشاء بنميم :^(٣) فالهمز أقوى من اللمز وأشد - سواء كان همز الصوت أو همز حركة - ومنه « الهمزة » وهي نبرة من الحلق مثل التهوع ،

(١) سورة القلم آية رقم ٩ وتكملة الآية (فيدهنون) .

(٢) سورة القلم آية رقم ١٠ .

(٣) ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمش بالنميمة ، وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم من طرق عن مجاهد به . وقال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن ابراهيم عن همام أن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يدخل الجنة قتات » .

ومنه الهمز بالعقب ، كما في حديث زمزم : « إنه همز جبريل بعقبه »
والفعال : مبالغة في الفاعل ، فالهماز المبالغ في العيب نوعاً وقدرًا ، القدرة
من صورة اللفظ ، وهو الفعال ، والنوع من مادة اللفظ وهو الهمزة ، والمشاء
بنميم هو من العيب ، ولكنه عيب في القفا ، فهو عيب الضعيف العاجز ،
فذكر العياب بالقوة ، والعياب بالضعف ، والعياب في مشهد ، والعياب في
مغيب .

وأما ﴿ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ ﴾^(١) فإن الظلم نوعان : ترك الواجب وهو
منع الخير ، وتعد على الغير وهو المعتدي ، وأما الأثيم مع المعتدي فكقوله :
﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾^(٢) .

وأما العتل الزنيم : فهو الجبار اللفظ الغليظ الذي قد صار من شدة
تجبره وغلظه معروفًا بالشر ، مشهوراً به ، له زنة كزنة الشاة . ويشبهه - والله
أعلم - أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد ، وهو
في الأقوال وما يتبعها ، والمناع المعتدي الأثيم العتل الزنيم من جنس وهو في
الأفعال وما يتبعها من الأقوال ، فالأول الغالب على جانب الأعراض ، والثاني
الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك ، ووصفه بالظلم
والبخل والكبر كما في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ،
الَّذِينَ يَخْلُونُ ﴾^(٣) الآية .

وقوله : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾^(٤) فيه إطلاق يتضمن الوسم في
الآخرة وفي الدنيا أيضاً ، فإن الله جعل للصالحين سيما ، وجعل للفاجرين
سيماً قال تعالى : ﴿ سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾^(٥) وقال يظهر :

(١) سورة القلم آية رقم ١٢ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٢ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

(٤) سورة القلم آية رقم ١٦ .

(٥) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾^(١) الآية ، فجعل الإرادة والتعريف بالسيما الذي يدرك بالبصر معلقاً على المشيئة ، وأقسم على التعريف في لحن القول وهو الصوت الذي يدرك بالسمع ، فدل على أن المنافقين لا بد أن يعرفوا في أصواتهم وكلامهم الذي يظهر فيه لحن قولهم ، وهذا ظاهر بين لمن تأمله في الناس ، من أهل الفراسة في الأقوال وغيرها مما يظهر فيها من النواقص والفحش وغير ذلك .

وأما ظهور ما في قلوبهم على وجوههم فقد يكون وقد لا يكون ، ودل على أن ظهور ما في باطن الانسان على فلتات لسانه أقوى من ظهوره على صفحات وجهه ، لأن اللسان ترجمان القلب ، فإظهاره لما أكنه أوكد ، ولأن دلالة اللسان قالية ، ودلالة الوجه حالية ، والقول أجمع وأوسع للمعاني التي في القلب من الحال ، ولهذا فضل من فضل - كابن قتيبة^(٢) وغيره - السمع على البصر .

والتحقيق : أن السمع أوسع ، والبصر أخص وأرفع ، وإن كان إدراك السمع أكثر فإدراك البصر أكمل ، ولهذا أقسم أنه لا بد أن يدركهم بسمعه ، وأما إدراكه إياهم بالبصر بسيماهم فقد يكون وقد لا يكون ، فأخبر سبحانه أنه لا بد أن يوسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطوميه ، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز ، الذي يسبق البصر إليه عند مشاهدته ، لتكون السيمة ظاهرة من أول ما يرى ، وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة ، الذين ودعهم الناس اتقاء

(١) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد من أئمة الأدب ومن المصنفين الكثيرين ، ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها وتوفي ببغداد عام ٢٧٦ هـ . من كتبه تأويل مختلف الحديث ، وأدب الكاتب ، والمعارف ، وكتاب المعاني وعيون الأخبار ، والامامة والسياسة ، والرد على الشعوبية . وغير ذلك كثير .
راجع وفيات الأعيان ١: ٢٥١ ولسان الميزان ٣: ٣٥٧ وآداب اللغة ٢: ١٧٠ ودائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٦٠ .

شرهم وفحشهم فإن لهم سيما من شر يعرفون بها ، وكذلك الفسقة وأهل الريب . وقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ ^(١) الخ . فيه بيان حال البخلاء ، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال ، إما إغراقاً وإما إحراقاً ، وإما فهما ، وإما مصادرة ، وإما في شهوات الغي وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء ، الذين يمنعون الحق ، وليس إقدام في صنائع المعروف ، وهو قوله : ﴿ مناع للخير ﴾ وهو أحد نوعي الظلم ، كما أخبروا به عن نفوسهم في قولهم : ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ ^(٢) وكما قال ﷺ « مطل الغنى ظلم » ^(٣) .

وتضمن عقوبة الظالم المانع للحق ، أو متعدي الحق ، كما يعاقب الله مانع الزكاة وهو مناع الخير ، وآكل الربا والميسر : الذي هو أكل المال بالباطل ، وكل منهما أخبر الله في كتابه أنه يعاقبه بنقيض قصده ، فهنا أخبر بعقوبة تارك الحقوق ، وفي البقرة بعقوبة المرابي ، وهذه العقوبة تتناول من يترك هذا الواجب ، وفعل هذا المحرم من المحتالين ، كما أخبر في هذه السورة ، وكما هو المشاهد في أهل منع الحقوق المالية ، والحيل الربوية ، من العقوبات والمثلثات .

فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإففاق فيه فبخل

(١) سورة القلم آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ﴾ .

(٢) سورة القلم آية رقم ٣١ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الحوالة ١ باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة . ؟ .

٢٢٨٧ - حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : وذكره . ورواه أيضاً في الاستقراض ١٢ والامام مسلم في المساقاة ٣٣ ، وأبو داود في البيوع ١٠ والامام الترمذي في البيوع ٦٨ والنسائي في البيوع ١٠٠ ، وابن ماجه في الصدقات ٨ وصاحب الموطأ في البيوع ٨٤ والدارمي في البيوع ٤٨ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٧١ : ٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ (حلي) .

عاقبه بباب من الشر ، يذهب فيه أضعاف ما بخل به ، وعقوبته في الآخرة مدخرة ، ثم اتبع ذلك بعقوبة المتكبر الذي هو من نوع العتل الزنيم ، الذي يدعى إلى السجود والطاعة فيأبى ، ففيها عقوبة تارك الصلاة ، وتارك الزكاة ، فتارك الصلاة هو المعتدي الأثيم ، العتل الزنيم ، وتارك الزكاة الظالم البخيل .

وختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (١) وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية ، والصبر على الأول أشد ، وصاحب الحوت ذهب مغاضباً لربه لأجل الأمر السماوي ولهذا قال : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ (٢) الخ فأخرها منعطف على أول ما في قوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض ، والغضب ، والأذى ، فالصبر على ذلك نوع من الحلم ، وهو احتمال أذى الخلق ، وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم .

وما ذكره في قصة أهل الجنة من أمر السماء والجود ، وما ذكره هنا من الحلم والصبر : هو جماع الخلق الحسن ، كما جمع بينهما في قوله : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (٤) الآية ، كما قيل .

بحلم وبذل ساد في قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير
فالإحسان إلى الناس بالمال والمنفعة واحتمال أذاهم ، كالسخاء
المحمود كما جمع بينهما في قوله : ﴿ خُذِ الْعَقْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ

(١) سورة القلم آية رقم ٤٨ وتكملة الآية ﴿ وَلَا تَكُنْ كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

(٢) سورة القلم آية رقم ٥١ وتكملة الآية ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٢ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٣٤ وتكملة الآية ﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١﴾ ففي أخذ العفو من أخلاقهم احتمال أذاهم ، وهو نوعان : ترك مالك من الحق عليهم ، فأخذ العفو أن لا تطلب ما تركوه من حقك ، وأن لا تنهأهم فيما تعدوا فيه الحد فيك ، وإذا لم تأمرهم ولم تنههم فيما يتعلق . (٢) .

وقال :

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ [فيها] .

منها قوله : ﴿ بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ (٣) حار فيها كثير ، والصواب المأثور عن السلف . قال مجاهد : الشيطان ، وقال الحسن : هم أولى بالشيطان من نبي الله ، فبين المراد ، فإنه يتكلم على اللفظ كعادة السلف في الاختصار مع البلاغة وفهم المعنى - وقال الضحاك : المجنون . فإن من كان به الشيطان ففيه الجنون ، وعن الحسن : الضال ، وذلك أنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه ويهذي ، بل لأن النبي ﷺ خالف أهل العقل في نظرهم ، كما يقال ما لفلان عقل .

ومثل هذا رموا به اتباع الأنبياء كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا : : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾ (٤) ومثله في هذه الأمة كثير يسخرون من المؤمنين ،

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٩٩ .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً : حدثنا يونس ، حدثنا سفيان هو ابن عيينه - عن أبي قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه محمداً ﷺ ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ قال رسول الله ﷺ ما هذا يا جبريل . . ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » .

(٢) آخر ما وجد منها .

(٣) سورة القلم آية رقم ٦ .

(٤) سورة المطففين آية رقم ٣٢ .

ویرمونهم بالجنون والعظائم التي هم أولى بها منهم ، قال الحسن لقد رأيت رجالاً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا هؤلاء شياطين ، ولو رأوا خياركم لقالوا هؤلاء لا خلاق لهم ، ولو رأوا شراركم لقالوا هؤلاء قوم لا يؤمنون بيوم الحساب ، وهذا كثير في كلام السلف ، يصفون أهل زمانهم وما هم عليه من مخالفة من تقدم ، فما الظن بأهل زماننا .

والذين لم يفهموا هذا ، قالوا الباء زائدة ، قاله ابن قتيبة وغيره ، وهذا كثير كقوله : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ ﴾^(١) ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴾^(٢) الْآيَاتِ ﴿ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾^(٣) . الآية .

-
- (١) سورة القمر آية رقم ٢٦ .
(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ .
(٣) سورة هود آية رقم ٣٨ .

وقال :

فصل

« في هول يوم القيامة »

ولجماعة من الفضلاء كلام في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾^(١) لم ابتدأ بالأخ ومن عادة العرب أن يبدأ بالأهم ؟ فلما سئلت عن هذا قلت : إن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى وتارة بالأدنى ، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء ، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائفة ، فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد ، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة ، فابتدىء بنفي الأبعد منتقلاً منه إلى الأقرب ، فقليل أولاً ، ﴿ يفر المرء من أخيه ﴾ فعلم أن ثم شدة توجب ذلك ، وقد يجوز أن يفر من غيره ، ويجوز أن لا يفر ، فقليل ﴿ وأمه وأبيه ﴾ فعلم أن الشدة أكبر من ذلك ، بحيث توجب الفرار من الأبوين .

ثم قيل ﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾^(٢) فعلم أنها طامة بحيث توجب الفرار مما لا يفر منهم إلا في غاية الشدة وهي الزوجة والبنون ، ولفظ صاحبتة أحسن من زوجته .

قلت : فهذا في الخبر ونظيره في الأمر ، قوله : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ

(١) سورة عبس آية رقم ٣٤ - ٣٥ .

(٢) سورة عبس آية رقم ٣٦ .

صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ ﴿^(١)﴾ وقوله : ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ ^(٢) فَإِنَّ الْوَاجِبَاتِ نَوْعَانِ عَلَى التَّرْتِيبِ ، فَيَقْدَمُ فِيهِ الْأَعْلَى عَلَى الْأَعْلَى ، كَمَا فِي كَفَّارَةِ الظَّهَارِ وَالْقَتْلِ وَالْيَمِينِ ، وَعَلَى التَّخْيِيرِ فَابْتَدَأَ فِيهَا بِأَخْفِهَا لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ كَانَ مَجْزِيًّا لَا نَقْصَ فِيهِ وَإِنْ ذَكَرَ الْأَعْلَى بَعْدَهُ لِلتَّرْغِيبِ فِيهِ لَا لِلْإِجَابِ ، فَانْتَقَلَ الْقَلْبُ مِنَ الْعَمَلِ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى أُولَى مِنْ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْأَعْلَى ثُمَّ يَذْكَرَ لَهُ الْأَدْنَى فَيُزْدِرِيهِ الْقَلْبُ .

ولهذا لما ذكر في جزاء الصيد الأعلى ابتداء كان لنا في ترتيبه روايتان ، وإذا نصرنا المشهور قلنا قدم فيه الأعلى ، لأن الأدنى بقدرته في قوله : ﴿أَوْ كَفَّارَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ ^(٣) . ولهذا لما ابتدأ بالأثقل في حدود المحاربين لم يكن عندنا على التخيير ، ولا على الترتيب ، بل بحسب الجرائم ، وليس في لفظ الآية ما يقتضي التخيير كما يتوهمه طائفة من الناس ، فإنه لم يقل الواجب أو الجزاء هذا أو هذا أو هذا ، كما قال ، فكفارته هذا أو هذا أو هذا وكما قال : ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾ وإنما قال : إنما جزاؤهم هذا أو هذا أو هذا ، فالكلام فيه نفي وإثبات : تقديره : ما جزاؤهم إلا أحد الثلاثة كما قال : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ ^(٤) أي ما هي إلا لهؤلاء .

وقد تقرر أن مثل هذا الخطاب يثبت للمذكور ما نفاه عن غيره ، فلما نفى الجواز لغير الأصناف أثبت الجواز لا الوجوب ولا الاستحقاق ، كما فهمه من اعتقد وجوب الاستيعاب من ظاهر الخطاب ، وهنا نفى أن يكون ما سوى أحد هذه جزاء ، فأثبت أن يكون جزاء المحارب أحد هذه العقوبات ، والمحاربون جملة ليسوا واحداً ، فظهر الفرق بين هذه الآية وبين الآيتين من

(١) سورة البقرة آية رقم ١٩٦ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٨٩ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٥ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٦٠ .

وجوه : « أحدها » أن المحاربين ذكروا باسم الجمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي توزيع الأفراد على الأفراد ، فلو قيل : جزاء المعتدين إما القتل ، وإما القطع ، وإما الجلد ، وإما الصلب ، وإما الحبس : لم يقتض هذا التخيير في كل معتد بين هذه العقوبات ، بل توزيع العقوبات على أنواعهم ، كذلك إذا قيل : جزاء المحاربين كذا ، أو كذا ، أو كذا ، أو كذا بخلاف قوله : ﴿ فكفارته ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ ﴾ ^(١) .

« الثاني » أن المقصود نفي جواز ما سوى ، وإثبات ضده ، وهي جواز المذكور في الجملة ، وذلك أعم من أن يكون مخيراً أو معيناً ، بخلاف ما إذا لم يكن المقصود إلا مجرد الإثبات ، فإن إثباته بصيغة التخيير يدل عليه . وهذا معروف في مواد الإثبات المحضة ، أو مواد الحصر ، كما قال ﷺ للخصم المدعي : « شاهدك أو يمينه » ^(٢) وفي لفظ : « ليس لك منه إلا ذلك » فحصر طريق الحق ، وليس الغرض التخيير .

وكذلك يقال : الواجب في القتل القصاص أو الدية ، ولا تصح الصلاة إلا بوضوء أو تيمم ، ولا بد يوم الجمعة من الظهر أو الجمعة ، ولا يترك في دار الإسلام إلا مسلم أو معاهد ، وسبب ذلك أنه إذا كان بعض المقصود

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٤ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الشهادات ٢٠ باب اليمين على المدعى عليه في الأموال والحدود . وقال النبي ﷺ (شاهدك أو يمينه) .

٢٦٦٩ - ٢٦٧٠ - حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل . قال عبد الله « من حلف على يمين يستحق بها مالاً لقي الله وهو عليه غضبان ثم أنزل الله تصديق ذلك (٧٧ آل عمران) ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ - إِلَى - عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم ان الأشعث بن قيس خرج إلينا فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدثناه بما قال ، فقال : صدق ، لفي أنزلت كان بيني وبين رجل خصومة في شيء فاخصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال « شاهدك أو يمينه . فقلت له : إنه إذن يحلف ولا يبالي فقال النبي ﷺ من حلف على يمين يستحق بها مالاً وهو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان فانزل الله تصديق ذلك ثم اقترأ هذه الآية .

ورواه أيضاً في الديات ٢٣ ، ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٢١ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢١١ (حلي) .

الذي دل عليه اللفظ نفس ما سوى الأمور المذكورة ، كان مدلوله إثباتاً يقتضي النفي ، وهو الوجود المشترك من هذه الأمور ، والقدر المشترك بينها أعم من أن يكون معيناً أو مخيراً ، وأما إذا أثبت ابتداء فلو لم تكن مخيرة بل معينة ، ولم يدل اللفظ عليه كان تليسياً .

« الوجه الثالث » وهو لطيف أن يقال : مفهوم ، أو ، إثبات التقسيم المطلق ، كما قلنا : إن الواو مفهومها التشريك المطلق بين المعطوف والمعطوف عليه ، فأما الترتيب : فلا ينفيه ، ولا يثبت ، إذ الدال على مجرد المشترك لا يدل على المميز ، فكذلك ﴿ أو ﴾ هي للتقسيم المطلق وهو ثبوت أحد الأمرين مطلقاً ، وذلك أعم من أن يثبت على سبيل التخيير بينه وبين الآخر ، أو على سبيل الترتيب ، أو على سبيل التوزيع ، وهو ثبوت هذا في حال ، وهذا في حال ، كما أنهم قالوا : هي هي في الطلب يراد بها الإباحة تارة ، كقولهم : تعلم النحو أو الفقه ، والتخيير أخرى ، كقولهم : كل السمك أو اللبن ، وأرادوا بالإباحة جواز الجمع ، وهي في نفسها تثبت القدر المشترك ، وهو أحد الاثنين ، إما مع إباحة الآخر أو حظره ، فلا تدل عليه بنفسها ، بل من جهة المادة الخاصة ، ولهذا جمعنا بين القتل والصلب ، وبينه وبين القطع على رواية ، فإن ﴿ أو ﴾ لا تنفي ذلك ، فإذا كان حرف أو يدل على مجرد إثبات أحد المذكورات ، فهنا مسلكان :

« أحدهما » أن يقال : إذا كانت في مادة الإيجاب أفادت التخيير ، وإذا كانت في مادة الجواز أفادت القدر المشترك ، كما هو مشهور عن النحاة المتكلمين في معاني الحروف أنهم يقولون : يراد بها تارة الإذن في أحد الشئين مع حظر الآخر ، وتارة الإذن في أحدهما وإن ضم إليه الآخر ، كما ذكره من الأمثلة .

وحينئذ فهذه الآية في مادة الجواز ، لأن المنفى هو الجواز ، فيكون المثبت هو الجواز كما ذكرناه في آية الصدقات ، بخلاف آية الكفارة فإنها في

مادة الوجوب . « المسلك الثاني » أن يقال : لا فرق بين المادتين ، الجواز والوجوب ، بل وفي الوجوب قد يباح الجمع ، كما لو كفر بالجميع مع الغنى ، لكن يقال : دلالتها في الجميع على التفريق المطلق ضد دلالة « الواو » .

ثم إن لم يدل دليل على ترتيب ولا تعيين : جاز فعل كل واحد من الخصال ، لعدم ما يدل على التعيين والترتيب ، لا للدليل المنافي لذلك ، كما في قوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ^(١) فإن الرقبة المعنية يجري عتقها ، كنبوت القدر المشترك فيها ، وعدم ما يوجب المعين ، لا للدليل دل على نفس المعين ، وإن دل دليل على التعيين ، والترتيب : قلنا به ، كما نقول بتقييد المطلق ، وليس تقييد المطلق رفعاً لظاهر اللفظ ، بل ضم حكم آخر إليه ، وهذا مسلك حسن في هذا الموضع ونظائره ، فإنه يجب الفرق بين ما يثبت به اللفظ وبين ما ينفى به ، فإذا قلنا في المحاربين بالتعيين لدليل خبري أو قياسي كان كالقول بالترتيب في الوضوء ، والأيمان في الرقبة ونحوهما .

(١) سورة النساء آية رقم ٩٢ تكملة الآية ﴿ مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

اختلف في سبب نزول هذه الآية فقال مجاهد وغير واحد نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمته وهي أسماء بنت مخزومة وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الاسلام وهو الحرث ابن يزيد الغامدي فأضمر له عياش السوء فأسلم ذلك الرجل وهاجر ، وعياش لا يشعر فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله فأنزل الله هذه الآية . قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : نزلت في أبي الدرداء لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الايمان حين رفع عليه السيف فاهوى به اليه فقال كلمته فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال : إنما قالها متعوذاً . فقال له : هل شققت عن قلبه ؟ وذكرت هذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء . والله اعلم .

سورة التكوير وقال شيخ الإسلام فصل في النهي على القتل بعامة

قوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ^(١) دليل على أنه لا يجوز قتل النفس إلا بذنوب منها ، فلا يجوز قتل الصبي والمجنون ، لأن القلم مرفوع عنهما ، فلا ذنب لهما ، وهذه العلة لا ينبغي أن يشك فيها في النهي عن قتل صبيان أهل الحرب ، وأما العلة المشتركة بينهم وبين النساء فكونهم ليسوا من أهل القتال على الصحيح الذي هو قول الجمهور ، أو كونهم يصيرون للمسلمين .

فأما التعليل بهذا وحده في الصبي فلا ، والآية تقتضي ذم قتل كل من لا ذنب له من صغير وكبير ، وسؤالها تويخ قاتلها ، وقوله في السورة : ﴿ إِنَّهُ

(١) سورة التكوير آية رقم ٩، ٨ .

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني أبو الأسود وهو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل عن عروة عن عائشة عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة . قالت : حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول : لقد هممت أن أنهي عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً ثم سأله عن العزل فقال رسول الله ﷺ - ذلك الواد الخفي وهو الموءودة سئلت - ورواه مسلم من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ وهو عبد الله بن يزيد عن سعيد بن أبي أيوب ، ورواه أيضاً ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن اسحاق السيلخي عن يحيى بن أيوب ، ورواه مسلم أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث مالك بن أنس ثلاثتهم عن أبي الأسود به .

لَقَوْلَ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿^(١) إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ ^(٢)﴾ هُوَ جبريل ، وهو نظير ما في سورة الشعراء أنه تنزلت به الملائكة لا الشياطين ، بخلاف الإفاك ونحوه فإنه تنزل به الشياطين ، فوقع الفرق بين النبي ﷺ والافاك، والشاعر، والكاهن، وبين الملك والشیطان ، والعلماء ورتة الأنبياء .

وقال شيخ الإسلام

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) أخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته ، ومع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم ، إذ أكثر ما فيه أن جعلهم مشائين ، ولا يقع الفعل منهم حتى يشاؤه منهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(٤) ومع هذا فلا بد من إرادة الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم ، فهنا أربع إرادات : إرادة البيان ، وإرادة المشيئة ، وإرادة الفعل ، وإرادة الاعانة - والله أعلم .

(١) سورة التكويد آية رقم ١٩ .

(٢) سورة التكويد آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة التكويد آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة المدثر آية رقم ٥٥ - ٥٦ تكملة الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

سورة الأعلى

قال الشيخ رحمه الله : -

فصل (١)

في رؤية الله تعالى يوم القيامة

قال ابن فورك^(٢) في كتابه الذي كتبه إلى أبي اسحاق الاسفرائيني^(٣) يحكي ما جرى له قال : وجرى في كلام السلطان : أليس تقول : إنه يرى لا في جهة ؟ فقلت : « نعم - يرى لا في جهة ، كما أنه لم يزل يرى نفسه لا في جهة ، ولا من جهة ، ويراه غيره على ما يرى ورأى نفسه ، والجهة ليست بشرط في الرؤية ، وقلت أيضاً : « المرئيات المعقولة فيما بيننا هكذا نراها في جهة ومحل ، والقضاء بمجرد المعهود لا يمكن دون السير والبحث ، لأننا كما لا نرى إلا في جهة ومحل كذلك لم نر إلا متلونا ذا قدر وحجم يحتمل المساحة ، والثقل ، ولا يخلو من حرارة ورطوبة أو ييوسة إذا لم يكن عرضاً لا يقبل التثنية والتأليف وغير ذلك ، ومع هذا فلا عبرة بشيء من هذا » .

(١) أول الكلام محله كتاب الأسماء والصفات ولأجل تفسيره للسورة وغيره أثبتناه هنا .

(٢) سبق الترجمة له في هذا الكتاب في كلمة وافية .

(٣) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران أبو اسحاق ، عالم بالفقه والأصول كان يلقب بركن الدين . قال ابن تغري بردي وهو أول من لقب من الفقهاء نشأ في اسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج الى نيسابور وبيت له فيها مدرسة عظيمة فدرس فيها ورحل الى خراسان وبعض أنحاء العراق فاشتهر له كتاب (الجامع) في أصول الدين خمس مجلدات ، ورسالة في أصول الفقه ، وكان ثقة في رواية الحديث وله مناظرات مع المعتزلة . مات في نيسابور عام ٤١٨ هـ .

قال : ثم بلغني أن السلطان ذلك اليوم واللييلة وثاني يوم يكرر على نفسه في مجلسه : « كيف يعقل شيء لا في جهة ؟ » وما شغل القلب في أول الأمر وتربى عليه فإن قلعه صعب ، والله المعين ، غير أنه فرحت الكرامية بما كان منه في ذلك ، فلما رجعت إلى البيت فإذا أنا برقعة فيها مكتوب : « الأستاذ ! - أدام الله سلامته - على مذهبه أن الباري ليس في جهة ، فكيف يرى لا في جهة ؟ » .

فكتبت : « خبر الرؤية صحيح ، وهي واجبة كما بشرهم النبي ﷺ ، وفيه دلالة على أن الله يرى لا في جهة ، لأنه ﷺ قال « لا تضامون في رؤيته »^(١) ومعناه : لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته ، فإنه لا في جهة » وكلاماً طويلاً من كل وجه ملأت ظهر الرقعة وبطنها منه .

فلما ردت إليه أنفذها إلى حاكم البلد ، وهو أبو محمد الناصحي ، واستفتاه فيما قلته ، فجمع قوماً من الحنفية ، والكرامية ، فكتب هو - أعزك الله - بأن من قال بأن الله لا يرى في جهة مبتدع ضال ، وكتب أبو حامد المعتزلي مثله ، وكتب إنسان بسطامي مؤدب في دار صاحب الجيش مثله ، فردوا عليه ، فأنفذ إلي ما في ذلك المحضر الذي فيه خطوطهم ، وكتب إلي رقعة وقال فيها « إنهم كتبوا هكذا ، فما تقول في هذه الفتاوى ؟ » . فقلت : إن هؤلاء القوم يجب أن يسألوا عن مسائل الفقه التي يقال فيها بتقليد العامي للعالم ، فأما معرفة الأصول والفتاوى فيها فليس من شأنهم ، وهم

= راجع وفيات الأعيان ٤: ١ وشذرات الذهب ٣: ٢٠٩ ، وطبقات السبكي ٣: ١١١ .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة ١٦ باب فضل صلاة العصر .

٥٥٤ - حدثنا الحميدي ، قال : حدثنا مروان بن معاوية ، قال : حدثنا إسماعيل عن قيس عن جرير قال : كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر - يعني البدر - فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ قال إسماعيل : افعلوا لا تفوتكم .

يقولون : إنا لا نحسن ذلك .

قلت : قول هؤلاء : « إن الله يرى من غير معاينة ومواجهة » قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة ، وجمهور العقلاء على أن فساد هذا معلوم بالضرورة .

والأخبار المتواترة عن النبي ﷺ ترد عليهم ، كقوله في الأحاديث الصحيحة : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر لا تضارون في رؤيته »^(١) وقوله لما سأله الناس : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل ترون الشمس صحوا ليس دونها سحب ؟ » . قالوا : نعم ، « وهل ترون القمر صحوا ليس دونه سحب ؟ » قالوا : نعم . قال : « فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر »^(٢) .

فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي ، فإن الكاف - حرف التشبيه - دخل على الرؤية ، وفي لفظ للبخاري « يرونه عياناً » . ومعلوم أنا نرى الشمس والقمر عياناً مواجهة ، فيجب أن نراه كذلك ، وأما رؤية ما لا نعاين ولا نواجهه فهذه غير متصورة في العقل ، فضلاً عن أن تكون كرؤية الشمس والقمر .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٣٤ باب قول الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ .

٧٤٣٧ - حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة ان الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ... ؟ فقال رسول الله ﷺ وذكره .

وفيه زيادة (كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو متافقوها - شك ابراهيم - فيأتينهم الله فيقول : أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا - فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتينهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم . فيقولون انت ربنا فيتبعونه ويضرب السراط بين ظهري جهنم الخ .

ولهذا صار حذاقهم إلى إنكار الرؤية ، وقالوا : قولنا هو قول المعتزلة في الباطن ، فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا ننازع فيه المعتزلة .

وأما قوله : إن الخبر يدل على أنهم يرونه لا في جهة ، وقوله : « لا تضامون » معناه لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته فإنه لا في جهة فهذا تفسير للحديث بما لا يدل عليه ، ولا قاله أحد من أئمة العلم ، بل هو تفسير منكر عقلاً وشرعاً ولغة .

فإن قوله « لا تضامون » يروى بالتخفيف . أي : لا يلحقكم ضيم في رؤيته كما يلحق الناس عند رؤية الشيء الحسن كالهلال ، فإنه قد يلحقهم ضيم في طلب رؤيته حين يرى ، وهو سبحانه يتجلى تجلياً ظاهراً فيرونه كما ترى الشمس والقمر بلا ضيم يلحقكم في رؤيته وهذه الرواية المشهورة .

وقيل « لا تضامون » بالتشديد ، أي : لا ينضم بعضكم إلى بعض كما يتضام الناس عند رؤية الشيء الخفي كالهلال ، وكذلك « تضارون » و « تضارون »^(١) .

فإما أن يروى بالتشديد ويقال : « لا تضامون » أي لا تضمكم جهة واحدة فهذا باطل ، لأن التضام انضمام بعضهم إلى بعض ، فهو « تفاعل » كالتماس ، والتراد ، ونحو ذلك ، وقد يروى « لا تضامون » بالضم والتشديد ، أي لا يضام بعضكم بعضاً .

وبكل حال فهو من « التضام » الذي هو مضامة بعضهم بعضاً ، ليس هو أن شيئاً آخر لا يضمكم ، فإن هذا المعنى لا يقال فيه « لا تضامون » فإن لم يقل « لا يضمكم شيء » .

ثم يقال : الراؤون كلهم في جهة واحدة لا على الأرض ، وإن قدر أن

(١) راجع ما كتبه ابن حجر العسقلاني كتابه فتح الباري ٢: ٣٣ ، ١٣ : ٢٢٤ وما بعدها ٢٢٧ .

المرئي ليس في جهة فكيف يجوز أن يقال « لا تضمكم جهة واحدة » وهم كلهم على الأرض - أرض القيامة - أو في الجنة . وكل ذلك جهة ، ووجودهم أنفسهم لا في جهة ومكان ممتنع حساً وعقلاً .

وأما قوله « هو يرى لا في جهة فكذلك يراه غيره ، فهذا تمثيل باطل ، فإن الانسان [يمكن أن يرى] بدنه ، ولا يمكن أن يرى غيره إلا أن يكون بجهة منه ، وهو أن يكون أمامه سواء كان عالياً أو سافلاً .

وقد تحرق له العادة فيرى من خلفه ، كما قال النبي ﷺ « إني لأراكم من بعدي ^(١) » وفي رواية « من بعد ظهري » وفي لفظ للبخاري « إني لأراكم من ورائي » وفي لفظ في الصحيحين « إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي » لكن هم بجهة منه ، وهم خلفه ، فكيف تقاس رؤية الرائي لغيره على رؤيته لنفسه ؟ .

ثم تشبيه رؤيته هو برؤيتنا نحن تشبيه باطل ، فإن بصره يحيط بما رآه بخلاف أبصارنا .

وهؤلاء القوم أثبتوا ما لا يمكن رؤيته وأحبوا نصر مذهب أهل السنة والجماعة والحديث ، فجمعوا بين أمرين متناقضين ، فإن ما لا يكون داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه يمتنع أن يرى بالعين لو كان وجوده في الخارج

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأذان ٧١ باب تسوية الصفوف عند الإقامة بعدها .

٧١٨ - حدثنا أبو معمر قال : حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس أن النبي ﷺ قال : وذكره .

ورواه أيضاً ٧٢ باب إقبال الامام على الناس عند تسوية الصفوف بسنده عن أنس بن مالك .

ورواه أيضاً ٧٦ باب الزاق المنكب بالمنكب والقدم بالقدم في الصف وقال النعمان بن بشير : رأيت الرجل منا يلزق كعبه بكعب صاحبه بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أيضاً .

ورواه الامام النسائي في التطبيق ٦٠ وفي كتاب السهو ١٠٢ ورواه صاحب الموطأ في السفر ٧٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢: ٣ (حلي) .

ممكناً ، فكيف وهو ممتنع ؟ وإنما يقدر في الأذهان من غير أن يكون له وجود في الأعيان ، فهو من باب الوهم والخيال الباطل . ولهذا فسروا الإدراك بالرؤية في قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾^(١) كما فسرتها المعتزلة ، لكن عند المعتزلة هذا خرج مخرج المدح فلا يرى بحال ، وهؤلاء قالوا : لا يرى في الدنيا دون الآخرة .

والآية تنفي الإدراك مطلقاً [دون الرؤية كما قال ابن كلاب^(٢)] وهذا أصح ، وحينئذ فتكون الآية دالة على إثبات الرؤية ، وهو أنه يرى ولا يدرك ، فيرى من غير إحاطة ولا حصر ، وبهذا يحصل المدح ، فإنه وصف لعظمته أنه لا تدركه أبصار العباد وإن رآته ، وهو يدرك أبصارهم .

قال ابن عباس ، وعكرمة بحضرته ، لمن عارض بهذه الآية : « ألسنت ترى : السماء ؟ » قال « بلى » قال : « أفكلها ترى ؟ » .

وكذلك قال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾^(٣) وهؤلاء يقولون : علمه شيء واحد لا يمكن أن يحاط بشيء منه دون شيء ، فقالوا : ولا يحيطون بشيء من معلومه ، وليس الأمر كذلك ، بل نفس العلم جنس يحيطون منه بما شاء ، وسائرهم لا يحيطون به .

وقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾^(٤) والراجح من القولين أن الضمير عائد إلى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وإذا لم يحيطوا بهذا علماً وهو بعض مخلوقات الرب فإن لا يحيطوا علماً بالخالق أولى وأحرى . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾^(٥) وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٢) سبق الترجمة له في هذا الجزء بكلمة وافية .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٤) سورة طه آية رقم ١١٠ .

(٥) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴿١﴾ - الآية .

فإذا قيل : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (٢) أي لا تحيط به ، دل على أنه يوصف بنفي الإحاطة به مع إثبات الرؤية ، وهذا ممتنع على قول هؤلاء ، فإن هذا إنما يكون بزعمهم فيما ينقسم ، فيرى بعضه من بعض ، فتكون هناك رؤية بلا إدراك وإحاطة ، وعندهم لا يتصور أن يرى إلا رؤية واحدة متماثلة ، كما يقولونه في كلامه : انه شيء واحد لا يتبعض ولا يتعدد ، وفي الايمان به : إنه شيء واحد لا يقبل الزيادة والنقصان . وأما الإدراك والإحاطة الزائدة على مطلق الرؤية فليس انتفاؤه لعظمة الرب عندهم ، بل لأن ذاته لا تقبل ذاك كما قالت المعتزلة : انها لا تقبل الرؤية .

وأيضاً فهم والمعتزلة لا يريدون أن يجعلوا للأبصار إدراكاً غير الرؤية . سواء أثبتت الرؤية أو نفيت ، فإن هذا يبطل قول المعتزلة بنفي الرؤية ، ويبطل قول هؤلاء باثبات رؤية بلا معاينة ومواجهة .

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - مرفوعاً « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار . . . حجاب النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » وفي الكتب المتقدمة ان الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهد . . أي تدعثر وقال تعالى : ﴿ فلما تجلج ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ .

ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء فأما جلالة وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس وتنزه فلا تدركه الأبصار ، ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ .

فصل

أقوال الفرق في صفات الله تعالى

هذا مع أن ابن فورك هو ممن يثبت الصفات الخبرية كالوجه واليدين ، وكذلك المجيء والإتيان ، موافقة لأبي الحسن ، فإن هذا قوله وقول متقدمي أصحابه .

فقال ابن فورك فيما صنف في أصول الدين ، فإن سألت الجهمية عن الدلالة على أن القديم سميع بصير ، قيل لهم : قد اتفقنا على أنه من تستحيل عليه الآفات ، والحي إذا لم يكن مأووفاً بآفات تمنعه من إدراك المسموعات والمبصرات كان سميعاً بصيراً .

وإن سألت فقلت : « أين هو ؟ » فجوابنا « إنه في السماء » كما أخبر في التنزيل عن نفسه بذلك فقال - عز من قائل - ﴿ أُمِيتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾^(١) .

وإشارة المسلمين بأيديهم عند الدعاء في رفعها إليه ، وأنك لو سألت صغيرهم وكبيرهم فقلت « أين الله ؟ » لقالوا : « إنه في السماء » ولم ينكروا لفظ السؤال بـ « أين » لأن النبي ﷺ سأل الجارية التي عرضت للعتق فقال « أين الله ؟ » فقالت : « في السماء » مشيرة بها . فقال النبي ﷺ : « إعتقها »

(١) سورة الملك آية رقم ١٦ تكلمة الآية ﴿ أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ... ﴾ .

فإنها مؤمنة»^(١) ولو كان ذلك قولاً منكراً لم يحكم بإيمانها ، ولأنكره عليها ، ومعنى ذلك أنه فوق السماء ، لأنني « في » بمعنى « فوق » قال الله تعالى : ﴿ فَسَيُحْوَ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٢) أي فوقها . قال : وإن سألت « كيف هو ؟ » قلنا له : « كيف » سؤال عن صفته ، وهو ذو الصفات العلى - هو العالم الذي له العلم ، والقادر الذي له القدرة ، والحي الذي له الحياة ، الذي لم يزل منفرداً بهذه الصفات لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء .

« قلت » فهذا الكلام هو موافق لما ذكره الأشعري^(٣) في كتاب « الإبانة » ولما ذكره ابن كلاب كما حكاه عنه ابن فورك ، لكن ابن كلاب يقول : إن العلو والمباينة من الصفات العقلية ، وأما هؤلاء فيقولون : كونه في السماء صفة خبريه كالمجيء والإتيان ، ويطلقون القول بأنه بذاته فوق العرش ، وذلك صفة ذاتية عندهم .

والأشعري يبطل تأويل من تأول الاستواء بمعنى الإستيلاء والقهر بأنه لم يزل مستولياً على العرش وعلى كل شيء والاستواء مختص بالعرش . فلو كان بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال « هو مستولياً على كل شيء وعلى الأرض وغيرها » كما يقال : « إنه مستول عليها » ولما اتفق المسلمون على أن الاستواء مختص بالعرش ، فهذا الاستواء الخاص ليس بمعنى الإستيلاء العام ، وأين للسلطان جعل الاستواء بمعنى الغلبة والقهر وهو الاستيلاء ؟ .

(١) الحديث عند مسلم في المساجد ٣٣ وأبو داود في الصلاة ٦٧ إيمان ١٦ والنسائي في السهو ٢٠ الدارمي في النذور ١٠ والموطأ : عتق ٨ ، ٩ ، واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٩١ ، ٣ : ٤٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٧ : ٥ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٢٢٢ : ٤ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢ .

(٣) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق أبو الحسن من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري توفي عام ٣٢٤ هـ سبق الترجمة له .

راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقرئزي ٢ : ٣٥٩ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧ ودائرة المعارف الاسلامية ٢ : ٢١٨ وفي اللباب ١ : ٥٢ .

فيشبهه - والله أعلم - أن يكون اجتهاده مختلفاً في هذه المسائل كما اختلف اجتهاد غيره ، فأبو المعالي كان يقول بالتأويل ، ثم حرمه ، وحكى اجماع السلف على تحريمه ، وابن عقيل^(١) له أقوال مختلفة ، وكذلك لأبي حامد ، والرازي^(٢) وغيرهم .

ومما بين اختلاف كلام ابن فورك أنه في مصنف آخر قال : فإن قال قائل : « أين هو ؟ » فقول : ليس بذئ كيفة فنخبر عنها إلا أن يقول : « كيف صنعه ؟ » فمن صنعه أنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وهو الصانع للأشياء كلها .

فهنا أبطل السؤال عن الكيفية ، وهناك جوزه وقال : الكيفية هي الصفة ، وهو ذو الصفات ، وكذلك السؤال عن الماهية . قال في ذلك المصنف : وإن سألت الجهمية فقلت « ما هو ؟ » يقال لهم : « ما » يكون استفهاماً عن جنس أو صفة في ذات المستفهم ، فإن أردت بذلك سؤالاً عن صفته فهو العلم ، والقدرة ، والكلام ، والعزة والعظمة .

وقال في الآخر : فإن [قال] قائل « حدثونا عن الواحد الذي تعبدونه ما

(١) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري ، أبو الوفاء ويعرف بابن عقيل ، عالم العراق ، وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته ، كان قوي الحجة اشتغل بمذهب المعتزلة في حديثه ، وكان يعظم الحلاج فأراد الحنابلة قتله فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم أظهر التوبة حتى تمكن من الظهور توفي عام ٥١٣ هـ .

راجع جلاء العينين ٩٩ وشذرات الذهب ٣٥ : ٤ .

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين البكري أبو عبد الله ، فخر الدين الرازي : الامام المفسر أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل وهو قرشي النسب أصله من طبرستان ، ومولده في الري عام ٥٤٤ هـ ويقال له ابن خطيب الري ، رحل الى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وتوفي في هراة عام ٦٠٦ هـ من كتبه (معالم أصول الدين) ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، ومفاتيح الغيب . وغير ذلك كثير .

راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ والوفيات ١ : ٤٧٤ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ - ٤٥١ ولسان الميزان ٤ : ٤٢٦ .

هو؟ « قيل : إن أردت بقولك « ما هو؟ » أي : أشيروا إليه حتى أدركه بحواسي ، فليس بحاضر للحواس ، وإن أردت بقولك : « ما هو؟ » أي : دلوني عليه بعجائب صنعته وآثار حكمته ، فالدلالة عليه قائمة . وإن أردت بقولك « ما اسمه؟ » فنقول : هو الله الرحمن الرحيم ، القادر السميع البصير .

[وهو] في هذا المصنف اثبت أنه على العرش بخلاف ما كان عليه قبل العرش ، فقال : فإن قال « فحدثونا عنه أين كان قبل أن يخلق؟ » قيل : « أين » تقتضي مكاناً ، والأمكنة مخلوقات ، وهو سبحانه لم يزل قبل الخلق والأماكن لا في مكان ولا يجري عليه وقت ولا زمان .

فإن قال : « فعلى ما هو اليوم؟ » قيل له : مستو على العرش كما قال سبحانه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾^(١) .

وقال : فإن قال قائل : « لم يزل الباري قادراً عالماً حياً سميعاً بصيراً؟ » قيل : « نعم » فإن قال : « فلم أنكرتم أن يكون لم يزل خالقاً؟ » قيل له : إن أردت بقولك « لم يزل خالقاً » أي لم يزل الخلق معه في قدمه ، فهذا خطأ ، لأن معنى الخلق أنه لم يكن ثم كان ، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً ، وإن أردت بقولك أن الخالق لم يزل وكان قادراً على أن

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

يقوم الامام ابن كثير : نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي ، والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر الى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه وليس كمثله شيء ﴿ وهو السميع البصير ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري . قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيها وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلاله ، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى . والله أعلم .

يخلق الخلق ، فكذلك نقول ، لأن الخالق لم يزل والخلق لم يكن ثم كان ، وقد كان لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق فهذا الجواب .

قال : فإن قيل « إذا قلتم أنه الآن خالق فما أنكرتم أن يكون لم يزل خالقاً ؟ » قيل له : لا يلزم ذلك . وذلك أنه الآن مستو على عرشه ، فلا يجب أن يكون لم يزل مستوياً على عرشه ، فكذلك ما قلناه يناسبه .

فإن قيل « الاستواء منه فعل ، ويستحيل أن يكون الفعل لم يزل » . فإن قيل : والخلق منه فعل ، ويستحيل أن يكون الخلق لم يزل .

فهذا الكلام [ليس] إلا بيان الذين يقولون : إنه استوى على العرش بعد أن لم يكن ، ويقولون بقدّم صفة التكوين والخلق ، وأنه لم يزل خالقاً فألزمهم : « أنا نقول في الخلق ما نقوله نحن وأنتم في الاستواء » . وهذا جواب ضعيف من وجوه :

« أحدها » : أنه في الحقيقة ليس عنده أنه استوى بعد أن لم يكن ، كما قد بحثه مع السلطان ، بل هو الآن كما كان ، فلا يصح القياس عليه .

« الثاني » : أنه قد سلم أنه لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق ، وهذا يقتضي إمكان وجود المقدور في الأزل ، فإنه إذا كان المقدور ممتنعاً لم تكن هناك قدرة ، فكيف يجعله لم يزل قادراً مع امتناع أن يكون المقدور لم يزل ممكناً ؟ بل المقدور عنده كان ممتنعاً ثم صار ممكناً بلا سبب حادث اقتضى ذلك .

« الثالث » : أن قوله : « لأن معنى الخلق أنه لم يكن ثم كان ، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً ؟ » فيقال : بل كل مخلوق فهو محدث مسبوق بعدم نفسه ، وما ثم قديم أزلي إلا الله وحده .

وإذا قيل : « لم يزل خالقاً » فإنما يقتضي قدّم نوع الخلق ، و« دوام خالقيته » لا يقتضي قدّم شيء من المخلوقات ، فيجب الفرق بين أعيان

المخلوقات الحادثة بعد أن لم تكن ، فإن هذه لا يقول عاقل إن منها شيئاً أزلياً ، ومن قال بقديم شيء من العالم - كالفلك أو مادته - فإنه يجعله مخلوقاً بمعنى أنه كان بعد أن لم يكن ، ولكن إذ أوجده القديم .

ولكن لم يزل فعلاً خالقاً ، [ودوام خالقيته] من لوازم وجوده فهذا ليس قولاً بقديم شيء من المخلوقات ، بل هذا متضمن لحدوث كل ما سواه ، وهذا مقتضى سؤال السائل له .

« الوجه الرابع » أن يقال : العرش حادث كائن بعد أن لم يكن ، لم يزل مستوياً عليه بعد وجوده ، وأما الخلق فالكلام في نوعه ، ودليله على امتناع حوادث لا أول لها قد عرف ضعفه ، والله أعلم .

وكان ابن فورك في مخاطبة السلطان قصد إظهار مخالفة الكرامية ، كما قصد بنيسابور القيام على المعتزلة في استتابتهم ، وكما كفرهم عند السلطان ، ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد ، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره ، فإنما هو ظلم نفسه . وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق ، يتبعون الرسول فلا يتدعون ، ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول عذروه . وأهل البدع - مثل الخوارج -^(١) يتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم ويستحلون دمه ، وهؤلاء كل منهم يرد بدعة الآخرين ، ولكن هو أيضاً مبتدع ، فيرد بدعة ببدعة ، وباطلاً بباطل .

(١) يطلق بعض المؤرخين كلمة الخوارج على أولئك الذين اعتزلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما قبل التحكيم ورضي به لأنهم في نظر هؤلاء نقضوا بيعة في أعناقهم ، وخرجوا عن إمامة مشروعة . ويطلقها فريق من المتكلمين في أصول العقائد والديانات وهم يقصدون بها الخروج من الدين استناداً إلى قول الرسول ﷺ « إن ناساً من أمتي يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية » .

والفريق الثالث : يطلقها ويقصد بها الجهاد في سبيل الله استناداً إلى قوله تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ سورة النساء الآية ١٠٠ .

وكذلك ما حكاه من مناظراتهم له عند الوزير مجلساً بعد مجلس هو من هذا الباب ، فإن المعتزلة والكرامية يقولون حقاً وباطلاً وسنة وبدعة ، [كما أنه هو] . وأيضاً كذلك يقول حقاً وباطلاً [موافقة] لأبي الحسن ، وأبو الحسن^(١) سلك في مسألة الأسماء ، والأحكام ، والقدر مسلك الجهم بن صفوان^(٢) ، مسلك المجبرة ومسلك غلاة المرجئة - فهؤلاء قدرية مجبرة ، والمعتزلة قدرية نافية ، فوقع بينهم غاية التضاد في مسائل التعديل والتجوير ونحوها .

والله يحب الكلام بعلم وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي ﷺ « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة - رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة »^(٣) .

وقد حرم سبحانه الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ . وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٥) .

وأمر بالعدل على أعداء المسلمين فقال : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

(١) يقصد علي بن اسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام ٣ باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ٢٣١٥ - عن ابن بريده عن أبيه عن رسول الله ﷺ وذكره ، ورواه أبو داود في كتاب الأقضية ٢ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ٣٦ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَى ۖ ﴿٣﴾ .

(١) سورة المائدة آية رقم ٨ .

فصل

في صفات الله تعالى

وهو سبحانه وصف نفسه بالعلو ، وهو من صفات المدح له بذلك والتعظيم ، لأنه من صفات الكمال ، كما مدح نفسه بأنه العظيم ، والعليم ، والقدير ، والعزیز ، والحليم ، ونحو ذلك ، وأنه الحي القيوم ، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنی ، فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه .

فلا يجوز أن يوصف بضد الحياة والقيومية والعلم والقدرة ، مثل الموت والنوم والجهل والعجز واللغوب ، ولا بضد العزة وهو الذل ، ولا بضد الحكمة وهو السفه .

فكذلك لا يوصف بضد العلو وهو السفول ، ولا بضد العظيم وهو الحقير ، بل هو سبحانه منزّه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له ، فثبوت صفات الكمال له ينفي اتصافه بأضدادها وهي النقائص .

وهو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفات الكمال . فهو منزّه عن النقص المضاد لكماله ، ومنزه عن أن يكون له مثل في شيء من صفاته ، ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين ، وقد دل عليهما سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ^(١) فاسمه ﴿ الصمد ﴾ يجمع معاني صفات الكمال ، كما قد بسط

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ ، ٢ .

ذلك في تفسير هذه السورة وفي غير موضع ، وهو كما في تفسير أبي طلحة^(١) عن ابن عباس ، أنه المستوجب لصفات السؤدد - العليم الذي قد كمل في علمه - الحكيم الذي قد كمل في حكمته ، إلى غير ذلك مما قد بين .

وقوله « الأحد » يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير ، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(٢) .

وقد ذكرنا في غير موضع ان ما وصف الله تعالى به نفسه من الصفات السلبية فلا بد أن يتضمن معنى ثبوتياً ، فالكمال هو في الوجود والثبوت ، والنفي مقصوده نفي ما يناقض ذلك ، فإذا نفى النقيض الذي هو العدم والسلب لزم ثبوت النقيض الآخر الذي هو الوجود والثبوت .

وبينا هذا في آية الكرسي وغيرها مما في القرآن كقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾^(٣) . فإنه يتضمن كمال الحياة والقيومية ، وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾^(٤) يتضمن كمال الملك ، وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾^(٥) يقتضي اختصاصه بالتعليم دون ما سواه ، والوحدانية تقتضي الكمال ، والشركة تقتضي النقص ، وكذلك قوله : ﴿ وَلَا يُؤْذُهُ

(١) هو زيد بن سهل بن الأسود البخاري الأنصاري : صحابي من الشجعان الرماة المعدودين في الجاهلية والاسلام ولد في الجاهلية والاسلام مولده في المدينة ، ولما ظهر الاسلام كان من كبار أنصاره فشهد العقبة وبردأ وأحدأ والخندق وسائر المشاهد وكان جهر الصوت ، وفي الحديث لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل ، وكان رديف رسول الله ﷺ يوم خيبر ، وتوفي بالمدينة عام ٣٤ هـ وقيل ركب البحر غازياً فمات فيه .

راجع طبقات ابن سعد ٣ : ٦٤ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٠ وتاريخ بغداد ٨ : ٤٣٩ .

(٢) سورة الإخلاص آية رقم ٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

حَفْظُهُمَا ﴿١﴾ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴿٣﴾ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴿٤﴾. وأمثال ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن علوه من صفات المدح اللازمة له ، فلا يجوز اتصافه بضد العلو البتة ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء »^(٥) ولم يقل [« تحتك »] . وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير هذا الموضع . وإذا كان كذلك فالمخالفون للكتاب والسنة وما كان عليه السلف لا يجعلونه متصفاً بالعلو دون السفول ، بل إما أن يصفوه بالعلو والسفول أو بما يستلزم ذلك ، وإما أن ينفوا عنه العلو والسفول ، وهم نوعان .

فالجهمية القائلون بأنه بذاته في كل مكان ، أو بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، لا يصفونه بالعلو دون السفول ، فإنه إذا كان في مكان ، فالأمكنة منها عال وسافل ، فهو في العالي عال ، وفي السافل سافل . بل إذا قالوا إنه في كل مكان فجعلوا الأمكنة كلها محال له - ظروفاً وأوعية جعلوها في الحقيقة أعلى منه ، فإن المحل يحوي الحال ، والظرف والوعاء يحوي المظروف الذي فيه ، والحاوي فوق المحوي .

والسلف والأئمة وسائر علماء السنة إذا قالوا « إنه فوق العرش ، وإنه في

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة ق آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٤) سورة سبأ آية رقم ٣ .

(٥) الحديث رواه الإمام مسلم في الدعوات ٦١ ورواه أبو داود في الأدب ٩٨ ، والترمذي في الدعوات ١٩ ، وابن ماجه في الدعاء ٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٣٨١: ٢ ، ٤٠٤ .

السماء فوق كل شيء » لا يقولون إن هناك شيئاً يحويه أو يحصره أو يكون محلاً له أو ظرفاً ووعاء - سبحانه وتعالى عن ذلك بل هو فوق كل شيء ، وهو مستغن عن كل شيء ، وكل شيء مفتقر إليه ، وهو عال على كل شيء ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته ، وكل مخلوق مفتقر إليه ، وهو غني عن العرش وعن كل مخلوق .

وما في الكتاب والسنة من قوله : ﴿ أُمِيتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾^(١) ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن ﴿ السماء ﴾ هي نفس المخلوق العالي - العرش فما دونه فيقولون : قوله ﴿ في السماء ﴾ بمعنى « على السماء » كما قال : ﴿ وَلَا صَلْبَنُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾^(٢) أي « على جذوع النخل » وكما قال : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣) أي « على الأرض » ولا حاجة إلى هذا ، بل « السماء » اسم جنس للعالي ، - لا يخص شيئاً ، فقوله : ﴿ في السماء ﴾ أي « في العلودون السفلى » وهو العلي الأعلى ، فله أعلى العلو ، وهو ما فوق العرش ، وليس هناك غيره - العلي الأعلى سبحانه وتعالى .

والقائلون بأنه في كل مكان هو عندهم في المخلوقات السفلية القدرة الخبيثة ، كما هو في المخلوقات العالية ، وغلاة هؤلاء الاتحادية الذين يقولون « الوجود واحد » كابن عربي الطائي^(٤) صاحب « فصوص الحكم »

(١) سورة الملك آية رقم ١٦ .

(٢) سورة طه آية رقم ٧١ وتكملة الآية ﴿ ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن العربي أبو بكر الخاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر : فيلسوف ولد في مرسية عام ٥٦٠ هـ قام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز وأنكر عليه أهل الديار المصرية شطحات صدرت عنه ، فعمل بعضهم على إراقة دمه ، كما أريق دم الحجاج وأشباهه توفي عام ٦٣٨ هـ .

راجع فوات الوفيات ٢: ٢٤١ ومرآة الجنان ٤: ٢٠١ وجذوة الاقتباس ١٧٥ ومفتاح السعادة ١: ١٨٧ وميزان الاعتدال ٣: ١٠٨ وعنوان الدراية ٩٧ ولسان الميزان ٥: ٣١١ وجامع كرامات =

و« الفتوحات المكية » يقولون « الموجود الواجب القديم هو الموجود المحدث الممكن » .

ولهذا قال ابن عربي في « فصوص الحكم » :

« ومن أسمائه الحسنی « العلي » على من ، وما ثم إلا هو ؟ ، وعن ماذا ، وما هو إلا هو ؟ فعلوه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات ، فالمسمى « محدثات » هي العلية لذاتها وليست إلا هو .

إلى أن قال :

« فالعلي لنفسه هو الذي يكون له جميع الأوصاف الوجودية والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، وليس ذلك إلا المسمى الله » .

فهو عنده الموصوف بكل ذم ، كما هو الموصوف بكل مدح .

وهؤلاء يفضلون عليه بعض المخلوقات ، فإن من المخلوقات ما يوصف بالعلو دون السفول كالسماوات ، وما كان موصوفاً بالعلو دون السفول كان أفضل مما لا يوصف بالعلو ، أو يوصف بالعلو والسفول .

وقد قال فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ^(١) قال ابن عربي : « ولما كان فرعون في منصب التحكم والخليفة بالسيف جاز في العرف الناموسي أن قال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ أي ، وإن كان أن الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته من الحكم فيكم ، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه ، بل أقروا له بذلك ، وقالوا له : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي

= الأولياء ١١٨: ١ ونفح الطيب ٤٠٤: ١ وشذرات الذهب ١٩٠: ٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٢٣١: ١ .

(١) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿١﴾ فالدولة لك . فصح قول فرعون : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

فبهذا وأمثاله يصححون قول فرعون : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وينكرون أن يكون الله عالياً ، فضلاً عن أن يكون هو الأعلى ، ويقولون « على من يكون أعلى » أو عماذا يكون أعلى ؟ .

وهكذا سائر الجهمية يصفون بالعلو - على وجه المدح - ما هو عال من المخلوقات ، كالسماء ، والجنة ، والكواكب ، ونحو ذلك ، ويعلمون أن العالي أفضل من السافل ، وهم لا يصفون ربهم بأنه الأعلى ، ولا العلي ، بل يجعلونه في السافلات كما هو في العاليات .

والجهمية الذين يقولون « ليس هو داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه البتة ، هم أقرب إلى التعطيل والعدم ، كما أن أولئك أقرب إلى الحلول والاتحاد بالمخلوقات ، فهؤلاء يثبتون موجوداً لكنه في الحقيقة المخلوق لا الخالق ، وأولئك ينفون فلا يثبتون وجوداً البتة ، لكنهم يثبتون وجود المخلوقات ويقولون إنهم يثبتون وجود الخالق .

وإذا قالوا : نحن نقول : « هو عال بالقدرة أو بالقدر » قيل : هذا فرع ثبوت ذاته وأنتم لم تثبتوا موجوداً يعرف وجوده فضلاً عن أن يكون قادراً أو عظيم القدر .

وإذا قالوا : كان الله قبل خلق الأمكنة والمخلوقات موجوداً ، وهو الآن على ما عليه كان لم يتغير ، ولم يكن هناك فوق شيء ولا عالياً على شيء فكذلك هو الآن ، قيل : هذا غلط ، ويظهر فسادہ بالمعارضة ثم بالحل وبيان فسادہ .

أما « الأول » فيلزمهم أن لا يكون الآن عالياً بالقدرة ولا بالقدر كما كان

(١) سورة طه آية رقم ٧٢ .

في الأزل ، فإنه إذا قدر وجوده وحده فليس هناك موجود يكون قادراً عليه ولا قاهراً له ولا مستولياً عليه ، ولا موجوداً يكون هو أعظم قادراً منه .

فإن كان مع وجود المخلوقات لم يتجدد له علو عليها كما زعموا ، فيجب أن يكون بعدها ليس قاهراً لشيء ولا مستولياً عليه ، ولا قاهراً لعباده ، ولا قدره أعظم من قدرها ، وإذا كانوا يقولون هم وجميع العقلاء إنه مع وجود المخلوق يوصف بأمور إضافية لا يوصف بها إذا قدر موجوداً وحده علم أن التسوية بين الحالين خطأ منهم .

وقد اتفق العقلاء على جواز تجدد النسب والإضافات مثل المعية ، وإنما النزاع في تجدد ما يقوم بذاته من الأمور الاختيارية ، وقد بين في غير هذا الموضع أن النسب والإضافات مستلزمة لأمر ثبوتية ، وأن وجودها بدون الأمور الثبوتية ممتنع .

والإنسان إذا كان جالساً فتحول المتحول عن يمينه بعد أن كان عن شماله قيل « إنه عن شماله » فقد تجدد من هذا فعل به تغيرت النسبة والإضافة ، وكذلك من كان تحت السطح فصار فوقه فإن النسبة بالتحية والفوقية تجدد لما تجدد فعل هذا .

وإذا قيل « نفس السقف لم يتغير » قيل قد يمنع هذا ويقال : ليس حكمه إذا لم يكن فوقه شيء كحكمه إذا كان فوقه شيء ، وإذا قيل عن الجالس « إنه لم يتغير » . قيل : قد يمنع هذا ويقال : ليس حكمه إذا كان الشخص عن يساره كحكمه إذا كان عن يمينه ، فإنه يحجب هذا الجانب ويوجب من التفات الشخص وغير ذلك ما لم يكن قبل ذلك .

وكذلك من تجدد له أخ أو ابن أخ بإيلاء أبيه أو أخيه قد وجد هنا أمور ثبوتية ، وهذا الشخص يصير فيه من العطف والحنو على هذا الولد المتجدد ما لم يكن قبل ذلك ، وهي الرحم والقربة . وبهذا يظهر الجواب الثاني ، وهو أن يقال :

العلو والسفول ونحو ذلك من الصفات المستلزمة للإضافة ، وكذلك الاستواء ، والربوبية ، والخالقية ، ونحو ذلك ، فإذا كان غيره موجوداً فإما أن يكون عالياً عليه وإما أن لا يكون ، كما يقولون هم : إما أن يكون عالياً عليه بالقهر أو بالقدر أو لا يكون ، خلاف ما إذا قدر وحده ، فإنهم لا يقولون إنه حينئذ قاهر ، [أو قادر ،] أو مستول عليه ، فلا يقال إنه عال عليه ، وإن قالوا : « إنه قادر وقاهر » كان ذلك مشروطاً بالغير ، وكذلك علو القدر ، قيل : وكذلك علو ذاته ما زال عالياً بذاته لكن ظهور ذلك مشروط بوجود الغير ، والإلزامات مفحمة لهم .

وحقيقة قولهم إنه لم يكن قادراً في الأزل ثم صار قادراً ، يقولون لم يزل قادراً مع امتناع المقدور ، وإنه لم يكن الفعل ممكناً فصار ممكناً فيجمعون بين النقيضين .

فصل

وأما الذين يصفونه بالعلو والسفول فالذين يقولون : هو فوق العرش وهو أيضاً في كل مكان ، والذين يقولون : إذا نزل كل ليلة فإنه يخلو منه العرش ، أو غيره من المخلوقات أكبر منه ، ويقولون : لا يمتنع أن يكون الخالق أصغر المخلوق ، كما يقول شيوخهم : إنه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق ، فهؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء ، بل ولا هو على - قولهم - الكبير المتعال ، ولا هو العلي العظيم .

وقد بسط الرد على هؤلاء في مسألة النزول « لما ذكر قول أئمة السنة مثل حماد بن زيد^(١) وإسحاق بن راهويه ، وغيرهما : « إنه ينزل ولا يخلو منه العرش » ذكر قول من أنكر ذلك من المتأخرين المنتسبين إلى الحديث والسنة ، وبين فساد قولهم شرعاً وعقلاً . وهؤلاء في مقابلة الذين ينفون النزول .

وإذا قيل : حديث النزول ونحوه ظاهر ليس [يحتمل التأويل] فهذا

(١) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهمي ، مولاهم البصري أبو اسماعيل : شيخ العراق في عصره ، من حفاظ الحديث المجودين يعرف بالأزرق أصله من سبي سجستان ، مولده ووفاته في البصرة وكان ضريباً طراً عليه العمى ، يحفظ أربعة آلاف حديث . خرج حديثه الأئمة الستة . راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢١١ وتهذيب التهذيب ٣ : ٩ وحلية الأولياء ٦ : ٢٥٧ والمناوي ١ : ١٠١ وتهذيب الأسماء ١ : ١٦٧ واللباب ١ : ٣٦ ونكت الهميان ١٤٧ .

صحيح إذا أريد بالظاهر ما يظهر لهؤلاء ونحوهم [من أنه ينزل إلى أسفل]
 فيصير تحت العرش كما ينزل الإنسان من سطح داره إلى أسفل ، وعلى قول
 هؤلاء ولا يبقى حينئذ العلي ولا الأعلى ، بل يكون تارة أعلى وتارة
 أسفل - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام ، ومن نزوله
 إلى الأرض لما خلقها ، ومن نزوله لتكليم موسى ، وغير ذلك ، كله من باب
 واحد ، كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ
 الْغَمَامِ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ هَلْ
 يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ ^(٣) .

والنفاة المعطلة ينفون المجيء والإتيان بالكلية ويقولون : ما ثم إلا ما
 يحدث في المخلوقات ، والحيلولية يقولون : إنه يأتي ويجيء بحيث يخلو منه
 مكان ويشغل آخر ، فيخلو منه ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه ،
 فإذا أتى وجاء لم يصير على قولهم العلي الأعلى ، ولا كان هو العلي العظيم ،
 لا سيما إذا قالوا : إنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه - سبحانه
 وتعالى على ما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً عظيماً .

وكذلك قوله : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(٤) إن كان قد قال أحد : إنه
 في جوف السماء فهو شر قولاً من هؤلاء ، ولكن هذا ما علمت به قائلًا معيناً
 منسوباً إلى علم حتى أحيكه قولاً .

ومن قال : « إنه في السماء » فمراده أنه في العلو ، ليس مراده أنه في
 جوف الأفلاك ، إلا أن [بعض] الجاهل يتوهم ذلك ، وقد ظن طائفة أن هذا

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(٢) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .

(٤) سورة الملك آية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ فإذا هي تمور ﴾ .

ظاهر اللفظ .

« الظاهر » ولا ريب أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق ، لكن هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه ، أو هو مدلول اللفظ في اللغة ، هو مما لا يسلم لهم كما قد يبسط في مواضع .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) فاستثنى نفسه ، والعالم ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع ، لأن المستثنى مرفوع ، ولو كان منقطعاً لكان منصوباً ، والمرفوع على البدل ، والعامل فيه هو العامل في المبدل منه ، وهو بمنزلة المفرغ ، كأنه قال « لا يعلم الغيب إلا الله » فيلزم أنه داخل في ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

وقد قدمنا أن لفظ « السماء » يتناول كل ما سما ، ويدخل فيه السموات والكرسي ، والعرش ، وما فوق ذلك ، لأن هذا في جانب النفي ، وهو لم يقل هنا « السموات السبع » بل عم بلفظ ﴿ السموات ﴾ .

وإذا كان لفظ « السماء » قد يراد به السحاب ، ويراد به الفلك ، ويراد به ما فوق العالم ، ويراد به العلو مطلقاً ، فـ ﴿ السموات ﴾ جمع « سماء » وكل من فيها يسمى « سماء » وكل من فيها يسمى « أرضاً » لا يعلم الغيب إلا الله .

وهو سبحانه قال ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ ﴾ ولم يقل « ما » فإنه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه بـ ﴿ مَنْ ﴾ لتكون « أبلغ » ، فإنهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله .

وهذا هو الغيب المطلق عن [جميع المخلوقين] الذي قال فيه ﴿ فَلَا

(١) سورة النمل آية رقم ٦٥ .

يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا^(١). [والغيب المقيد ما علمه] بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه ، فإنما هو غيب عمن غاب عنه ، ليس هو غيباً عمن شهدوه ، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا ، فيكون غيباً مقيداً ، أي غيباً عمن غاب عنه من المخلوقين ، لا عمن شهدوه ، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة .

وقوله : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٢) أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً ومعيناً وما شهدوه ، فهو سبحانه يعلم ذلك كله .

والنفاة للعلو ونحوه من الصفات معترفون بأنه ليس مستندهم خبر الأنبياء - لا الكتاب ، ولا السنة ، ولا أقوال السلف - ولا مستندهم فطرة العقل وضرورته ، ولكن يقولون : معنا النظر العقلي ، وأما أهل السنة المثبتون للعلو فيقولون : إن ذلك ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، مع فطرة الله التي فطر العباد عليها وضرورة العقل ، ومع نظر العقل واستدلالة .

لكن الذين يقولون بأنه ينزل ولا يبقى فوق العرش ، وأنه يكون في جوف المخلوقات ، ونحو هؤلاء ، قد يقولون إن مستندهم في ذلك السمع ، وهو ما فهموه من القرآن أو من الأحاديث الصحيحة أو غير الصحيحة ، أو من أقوال السلف وهم أخطأوا من حيث نظروا - اقتصروا على فهمه من نص واحد ، كفهمهم من حديث النزول ، - ولم يتدبروا ما في الكتاب والسنة مما يصفه بالعلو والعظمة ونحو ذلك مما ينافي أن يكون شيء أعلى منه أو أكبر منه .

ويتدبروا أيضاً دلالة النص ، مثل نزوله إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر^(٣) بأن الليل يختلف ، فيكون ليل أهل المشرق ونصفه وثلثه الآخر

(١) سورة الجن آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٧٣ وتكملة الآية ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ .

(٣) أورد البخاري في كتاب التهجد ١٤ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل بسنده عن أبي هريرة =

قبل ذلك في المغرب بقريب من يوم ، فيلزم على قولهم أنه لا يزال تحت العرش ، وهو قد أخبر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض ، وما ذكروه يتنافي استواءه على العرش ، وأنه ليس فوق العرش ، كما قد بسط في مواضع .

= - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فاستجيب له ، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » .

ورواه عن ابي هريرة أيضاً سعيد بن مرجانة ، وأبو صالح عن مسلم وسعيد المقبري ، وعطاء مولى أم صبية بالمهملة مصغراً - وأبو جعفر المدني ، ونافع بن جبير بن مطعم كلهم عند النسائي . وفي الباب عن علي وابن مسعود ، وعثمان بن أبي العاص ، وعمرو بن عبسة عند أحمد ، وعن جبير بن مطعم ورفاعة الجهني عند النسائي وعن أبي الدرداء ، وعبادة بن الصامت وابن الخطاب غير منسوب عند الطبراني وعن عقبة بن عامر ، وجابر ، وجد عبد الحميد بن سلمة عند الدارقطني في كتاب السنة .

فصل في الأعلى والعظيم

« الأعلى » على وزن أفعل التفضيل ، مثل الأكرم ، والأكبر ، والأجمل ، ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان « أعل هبل ، أعل هبل » ! فقال النبي ﷺ « ألا تحبونه ؟ » قالوا : وما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل ؟^(١) وهو مذكور بأداة التعريف « الأعلى » مثل ﴿ وربك الأكرم ﴾ بخلاف ما إذا قيل « الله أكبر » فإنه منكّر .

ولهذا معنى يخصه يتميز به ، ولهذا معنى يخصه يتميز به ، كما بين العلو والكبرياء ، والعظمة ، فإن هذه الصفات وإن كانت متقاربة ، بل

(١) قال ابن سعد في طبقاته : أخبرنا الحسن بن موسى الأشيب ، وعمرو بن خالد المصري قالا : أخبرنا زهير بن معاوية ، أخبرنا أبو اسحاق عن البراء بن عازب قال : ... فأقبل أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ... ؟ ثلاث مرات ، قال : فنهاهم رسول الله - ﷺ - أن يجيبوه ثم قال : أفي القوم ابن ابي قحافة ... ؟ أفي القوم ابن الخطاب ... ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب . قال أبو اسحاق : اتهم ، قال الحسن بن موسى أي ليس فوقهم أحد . ثم أقبل أبو سفيان على أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتهمهم . فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد بقي لك ما يسوءك قال : فقال يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ثم إنكم ستجدون في القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤني ثم جعل يرتجز ويقول أعل هبل ، أعل هبل فقال رسول الله ﷺ : ألا تحبونه ... ؟ . قالوا يا رسول الله بماذا نجيبه ... ؟ قال : قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ : ألا تحبونه ... ؟ قالوا : وبماذا نجيبه يا رسول الله ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم .

متلازمة ، فينبها فروق لطيفة ، ولهذا قال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى « العظمة إزارى والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما عذبتة »^(١) فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء وهو أعلى من الإزار . ولهذا كان شعائر الصلاة ، والآذان ، والأعياد والأماكن العالية ، هو التكبير ، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ .

ولم يجيء في شيء من الأثر بدل قول « الله أكبر » « الله أعظم » ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير ، فلو قال : « الله أعظم » لم تنعقد به الصلاة لقول النبي ﷺ « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم »^(٢) وهذا قول مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأبي يوسف ، وداود ، وغيرهم ، ولو أتى بغير ذلك من الأذكار - مثل سبحان الله ، والحمد لله - لم تنعقد به الصلاة .

ولأن التكبير مختص بالذكر في حال الارتفاع ، كما أن التسبيح مختص بحال الانخفاض ، كما في السنن عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا ، وإذا هبطنا سبحنا ، فوضعت الصلاة على ذلك .

ولما نزل قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾^(٣) قال : « اجعلوها في

الطبقات الكبرى ٢ : ٤٧ - ٤٨ .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ١٦ باب البراءة من الكبر والتواضع ٤١٧٤ بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ وذكره مع تغير في بعض الألفاظ بدلاً من عذبتة (القيته في جهنم) وفي لفظ (القيته في النار) ، ورواه أبو داود في اللباس ٢٥ واحمد بن حنبل في المسند ٣٧٦ : ٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ (حلي) .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الطهارة ٣١ والصلاة ٧٣ ، والترمذي في الطهارة ٣ ، والمواقيت ٦٢ ، وابن ماجه في الطهارة ٣٢ والدارمي في الوضوء ٢٢ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٢٣ ، ١٢٩ (حلي) .

(٣) سورة الواقعة آية رقم ٧٤ .

ركوعكم» ولما نزل ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١) قال : « اجعلوها في سجودكم »^(٢) وثبت عنه أنه كان يقول في ركوعه « سبحان ربي العظيم » وفي سجوده « سبحان ربي الأعلى » ولم يكن يكبر في الركوع والسجود ، لكن قد كان يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل ، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » يتأول القرآن - أي يتأول قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فكان يجمع بين التسبيح والتحميد .

وكذلك قد كان يقرن بالتسبيح في الركوع والسجود التهليل ، كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت : افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة ، فظننت أنه ذهب إلى بعض نساءه ، فتحسست ثم رجعت ، فإذا هو راكع أو ساجد يقول « سبحانك وبحمدك ، لا إله إلا أنت » فقلت : بأبي أنت وأمي ! إني لفي شأن وإنك لفي شأن^(٣) فعن هذه الأحاديث كلها أنه كان يسبح في الركوع والسجود ، لكن قد يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل ، وقد يقرن به الدعاء ، ولم ينقل أنه كبر في الركوع والسجود .

وأما قراءة القرآن فيهما فقد ثبت عنه أنه قال « إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً »^(٤) رواه مسلم من حديث علي ، ومن حديث ابن عباس . وذلك

(١) سورة الأعلى آية رقم ١ .

(٢) قال الامام احمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى يعني ابن أيوب الغافقي ، حدثنا عمي اياس بن عامر : سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : اجعلوها في ركوعكم » فلما نزلت ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : « اجعلوها في سجودكم » ورواه ابو داود ، وابن ماجه من حديث ابن المبارك عن موسى بن أيوب به .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود : حدثني حسن بن علي الحلواني ، ومحمد بن رافع قالوا : حدثنا عبد الرزاق اخبرنا ابن جريج . قال : قلت لعطاء كيف تقول أنت في الركوع قال : أما سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت فأخبرني ابن ابي مليكة عن عائشة رضي الله عنها وذكره .

(٤) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصلاة باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود . =

أن القرآن كلام الله فلا يتلى إلا في حال الارتفاع ، والتكبير أيضاً محله حال الارتفاع .

وجمهور العلماء على أنه يشرع التسبيح في الركوع والسجود ، وروي عن مالك أنه كره المداومة على ذلك لئلا يظن وجوبه ، ثم اختلفوا في وجوبه ، فالمشهور عن أحمد ، وإسحاق ، وداود ، وغيرهم وجوبه ، وعن أبي حنيفة ، والشافعي ، استحبابه .

والقائلون بالوجوب ، منهم من يقول : يتعين « سبحان ربي العظيم » و « سبحان ربي الأعلى » للأمر بهما ، وهو قول كثير من أصحاب أحمد ومنهم من يقول : بل يذكر بعض الأذكار المأثورة .

والأقوى أنه يتعين التسبيح ، إما بلفظ « سبحان » وإما بلفظ « سبحانك » ونحو ذلك ، وذلك أن القرآن سماها « تسبيحاً » فدل على وجوب التسبيح فيها ، وقد بينت السنة أن محل ذلك الركوع والسجود ، كما سماها الله « قرآناً » وقد بينت السنة أن محل ذلك القيام ، وسماها « قياماً » و « سجوداً » و « ركوعاً » و بينت السنة علة ذلك ومحلّه .

وكذلك التسبيح - يسبح في الركوع والسجود ، وقد نقل عن النبي ﷺ أنه كان يقول « سبحان ربي العظيم » و « سبحان ربي الأعلى » وأنه كان يقول « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي » و « سبحانك وبحمدك . لا إله إلا أنت » وفي بعض روايات أبي داود « سبحان ربي العظيم وبحمده » وفي استحباب هذه الزيادة عن أحمد روايتان .

= حدثنا سعيد بن منصور وأبو بكر بن أبي شيبة ، وزهير بن حرب قالوا : حدثنا سفيان بن عيينه أخبرني سليمان بن سحيم عن إبراهيم بن عبد الله بن معبد عن أبيه عن ابن عباس قال : كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر . فقال : ايها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ألا وأني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فاما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم » .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده « سبح قدوس ، رب الملائكة والروح »^(١) وفي السنن أنه كان يقول « سبحان ذي الجبروت ، والملكوت ، والكبرياء ، والعظمة »^(٢) فهذه كلها تسبيحات .

والمنقول عن مالك أنه [كان يكره المداومة على ذلك . فإن] كان كراهة المداومة على « سبحان ربي الأعلى والعظيم » فله وجه ، وإن كان كراهة المداومة على جنس التسبيح فلا وجه له ، وأظنه الأول ، وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على « سبحان ربي العظيم » لثلا يظن أنها فرض ، وهذا يقتضي أن مالكا أنكر أن تكون فرضاً واجباً .

وهذا قوي ظاهر ، بخلاف جنس التسبيح ، فإن أدلة وجوبه في الكتاب . والسنة كثيرة جداً ، وقد علم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بالفاظ متنوعة .

وقوله : « اجعلوها في ركوعكم وفي سجودكم » يقتضي أن هذا محل لامثال هذا الأمر ، لا يقتضي أنه لا يقال إلا هي مع ما قد ثبت إنه كان يقول غيرها .

والجمع بين صيغتي تسبيح بعيد ، بخلاف الجمع بين التسبيح ، والتحميد ، والتهليل والدعاء ، فإن هذه أنواع ، والتسبيح نوع واحد فلا يجمع فيه بين صيغتين .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود . حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن بشر العبدى ، حدثنا سعيد بن ابي عروبة عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ان عائشة نبأته أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده « سبح قدوس رب الملائكة والروح » .

(٢) الحديث رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة ١٤٧ ورواه النسائي في كتاب التطبيق ١٢ ، ٢٥ ، ٧٣ ، ٨٦ ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣٨٨ : ٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٢٤ : ٦ .

وأيضاً قد ثبت في الصحيح أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع
وهن من القرآن - سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر »^(١) فهذا
يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها ، فإن جعل التسبيح نوعاً واحداً
فـ « سبحان الله » و « سبحان ربي الأعلى » سواء ، وإن جعل متفاضلاً
فـ « سبحان الله » أفضل بهذا الحديث .

وأيضاً فقله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ فسبح باسم ربك
العظيم ﴾ أمر بتسبيح ربه ، ليس أمراً بصيغة معينة . فإذا قال « سبحان الله
وبحمده » « سبحانك اللهم وبحمدك فقد سبح ربه الأعلى والعظيم ، فإن الله
هو الأعلى ، وهو العظيم ، واسمه « الله » يتناول معاني سائر الأسماء بطريق
التضمن ، وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه ، ففي اسمه « الله »
التصريح بالإلهية ، واسمه « الله » أعظم من اسمه « الرب » وفي صحيح مسلم
عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل : أي الكلام أفضل ؟ فقال : ما اصطفى
الله لملائكته أو لعباده - سبحان الله وبحمده »^(٢) .

فالقيام ، فيه التحميد [و] في الاعتدال من الركوع ، وفي الركوع
والسجود التسبيح ، وفي الانتقال التكبير ، وفي القعود التشهد وفيه التوحيد ،
فصارت الأنواع الأربعة في الصلاة .

-
- (١) الحديث رواه البخاري في كتاب الايمان والنذور ١٩ باب اذا قال والله لا أتكلم اليوم فصل ، أو
قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته . وقال النبي ﷺ أفضل الكلام أربع وذكره .
قال ابن حجر : هذا من الأحاديث التي لم يصلها البخاري في موضع آخر وقد وصله النسائي من
طريق ضرار بن مرة عن أبي صالح عن أبي سعيد وإبي هريرة مرفوعاً بلفظه ، وأخرجه مسلم من
حديث سمره بن جندب لكن بلفظ (أحب) بدل (أفضل) وأخرجه ابن حبان من هذا الطريق
بلفظ (أفضل) ولحديث أبي هريرة طريق أخرى أخرجه النسائي وصححها ابن حبان من طريق
أبي حمزة السكري عن الأعمش عن أبي صالح عنه بلفظ (خير الكلام أربع لا يضرك بأيهن
بدأت فذكره وأخرجه أحمد عن وكيع عن الأعمش فأبيهم الصحابي . وأخرجه النسائي من طريق
سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن السلولي عن كعب الأحبار .
(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٦ .

والفاتحة أيضاً فيها التحميد والتوحيد ، فالتحميد والتوحيد ركن يجب في القراءة ، والتكبير ركن في الافتتاح ، والشهد الآخر ركن في [القعود كما هو] المشهور عن أحمد ، وهو مذهب الشافعي ، وفيه الشهد المتضمن للتوحيد .

يبقى التسبيح ، و « أحمد يوجه في الركوع والسجود ، وروي عنه أنه ركن ، وهو قوي لثبوت الأمر به في القرآن والسنة ، فكيف يوجب الصلاة على النبي ﷺ ولم يجيء أمر بها في الصلاة خصوصاً ولا يوجب التسبيح مع الأمر به في الصلاة ، ومع كون الصلاة تسمى « تسبيحاً » وكل ما سميت به الصلاة من أعضائها فهو ركن فيها ، كما سميت « قياماً » و « ركوعاً » و « سجوداً » و « قراءة » وسميت أيضاً « تسبيحاً » ولم يأت عن النبي ﷺ ما ينفي وجوبه في حال السهو كما ورد في الشهد الأول أنه لما تركه سجد للسهو ، لكن قد يقال : لما لم يأمر به المسيء في صلاته دل على أنه واجب ليس بركن ، وبسط هذه المسائل له موضع آخر .

والمقصود هنا أن التسبيح قد خص به حال الانخفاض ، كما خص حال الارتفاع بالتكبير ، فذكر العبد في حال انخفاضه وذله ما يتصف به الرب [مقابل] ذلك ، فيقول في السجود « سبحان ربي الأعلى » وفي الركوع « سبحان ربي العظيم » .

و « الأعلى » يجمع معاني العلو جميعها ، وأنه الأعلى : بجميع معاني العلو ، وقد اتفق الناس على أنه علا على كل شيء بمعنى أنه قاهر له ، قادر عليه ، متصرف فيه ، كما قال : ﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ^(١) .

وعلى أنه عال عن كل عيب ونقص فهو عال عن ذلك ، منزّه عنه ، كما

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ، أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ، وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ، قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾^(١) فقرن تعالىه عن ذلك بالتسبيح .

وقال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢) .

وقالت الجن : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾^(٣) .

وفي دعاء الاستفتاح : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك » وفي الصحيحين أنه كان يقول في آخر استفتاحه : « تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك »^(٤) .

فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون وعما يشركون ، فهو متعال عن الشركاء والأولاد ، كما أنه سبحانه عن ذلك .

وتعالى سبحانه عن الشريك هو تعالىه عن السمي ، والند ، والمثل فلا يكون شيء مثله .

(١) سورة الاسراء آية رقم ٣٩ - ٤٣ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ - ٩٢ .

(٣) سورة الجن آية رقم ٣ .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المسافرين ٢٠١ ، وأبو داود في الصلاة ١١٩ ، ١٢٠ والوتر

ورواه الترمذي في الوتر ١٠ والنسائي في الافتتاح ١٧ ، وقيام الليل ٥١ ، وابن ماجه اقامة ١١٧

والدارمي في الصلاة ٣٣ ، ٢١٤ والامام احمد بن حنبل في المسند ١ : ١٩٩ ، ٢٠٠ (حلي) .

وقد ذكروا من معاني العلو الفضيلة ، كما يقال : الذهب أعلى من الفضة . ونفي المثل عنه يقتضي أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله ، وهو يتضمن أنه أفضل وخير من كل شيء ، كما أنه أكبر من كل شيء وفي القرآن : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) ويقول : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴾^(٢) ويقول : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ﴾^(٣) وقالت السحرة : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾^(٤) .

وهو سبحانه يبين ان المعبودين دونه ليسوا مثله في مواضع كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدَّبُرُ الْأُمُورَ . فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ، فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ . قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ، فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذْكُرُونَ ، وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا

(١) سورة النمل آية رقم ٥٩ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٧ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٣٥ .

(٤) سورة طه آية رقم ٧٣ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٣١ - ٣٦ .

تُعَلِّمُونَ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ
غَيْرُ أَحْيَاءٍ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١﴾ .

وكذلك قوله في أثناء السورة :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا
حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ، وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ
كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) فهو سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون
ما يعبد من دونه وأنه لا مثل له ، ويبين ما اختص به من صفات الكمال
وانتفاؤها عما يعبد من دونه ، ويبين أنه يتعالى عما يشركون وعما يقولون من
إثبات الأولاد والشركاء له .

وقال : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلًا ﴾ (٣) وهم كانوا يقولون إنهم يشفعون لهم ، ويتقربون بهم . لكن كانوا
يشتون الشفاعة بدون إذنه ، فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة ، وهذا نوع من
الشرك ، فلهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

(١) سورة النحل آية رقم ١٧ - ٢١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٧٥ - ٧٦ .

قال ابن جرير : حدثنا الحسن بن الصباح البزار ، حدثنا يحيى بن اسحاق الكسحيين ، حدثنا
حماد ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن ابراهيم عن عكرمة عن يعلى بن أمية عن ابن
عباس في قوله ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ قال نزلت في رجل من قريش
وعبده يعني قوله ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ وفي قوله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ - الى قوله -
وهو على صراط مستقيم ﴾ قال : هو عثمان بن عفان ، قال والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت
بخير : قال : مولى لعثمان بن عفان .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

الشَّفَاعَةُ ﴿١﴾ فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله .

كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٢) . يقول : لابتغت الحوائج من الله ، وعن معمر ، عن قتادة : ﴿ لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ لابتغوا التقرب إليه مع أنه ليس كما يقولون ، وعن سعيد ، عن قتادة : « لو كان معه آلهة كما يقولون » يقول : لو كان معه آلهة إذا عرفوا له فضله ومزيته عليهم ولابتغوا إليه ما يقربهم إليه ، وروى عن سفيان الثوري : لتعاطوا سلطانه .

وعن أبي بكر الهذلي ، عن سعيد بن جبير : (٣) سبيلاً إلى أن يزيلوا ملكه ، والهذلي ضعيف .

فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والأولاد ، فليس كمثله شيء ، وهذا يقتضي ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه .

وأنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال ، بل هو متعال عن أن يماثله شيء ، وتضمن أنه عال على كل ما سواه ، قاهر له ، قادر عليه ، نافذة مشيئته فيه ، وأنه عال على الجميع فوق عرشه ، فهذه ثلاثة أمور في اسمه « العلي » .

(١) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

(٣) هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي أبو عبد الله : تابعي كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشي لأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر ثم كان ابن عباس ، إذ أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسالونني وفيكم ابن أم دهماء ؟ يعني سعيداً ، ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان ، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن فذهب سعيد إلى مكة فقبض عليه واليها (خالد القسري) وارسله إلى الحجاج فقتله بواسط عام ٩٥ هـ .

راجع وفيات الأعيان ١: ٢٠٤ وطبقات ابن سعد ٦: ١٧٨ وتهذيب التهذيب ٤: ١١ وحلية الأولياء ٤: ٢٧٢ والمعارف ١٩٧ .

واثبات علوه - علوه على ما سواه ، وقدرته عليه وقهره - يقتضي ربوبيته له ، وخلق له ، وذلك يستلزم ثبوت الكمال ، وعلوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال .

وهذا وهذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات والنفي ، ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال ، وفي النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال ، وينزه عن أن يكون له مثل في صفات الكمال ، كما قد دلت على هذا سورة الإخلاص - ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ - اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (١) .

وتعالى عن الشركاء يقتضي اختصاصه بالإلهية ، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده ، كما قال : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٢) أي وإن كانوا - كما يقولون - يشفعون عنده بغير إذنه ويقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب والإله دونهم ، وكانوا يبتغون إليه سبيلاً بالعبادة له والتقرب إليه . هذا أصح القولين ، كما قال : ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٣) : وقال : ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ (٤) وقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (٥) .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٦) فتعالى عن أن يكون معه إله غيره ، أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه ، فهذا هو الذي كانوا يقولون .

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ ، ٢ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة الانسان آية رقم ٢٩ - ٣٠ .

(٤) سورة المدثر آية رقم ٥٤ - ٥٥ وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (إنها) بدلاً من (إنه) .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ٥٧ .

(٦) سورة الاسراء آية رقم ٤٣ .

ولم يكونوا يقولون إن آلهتهم تقدر أن تمنعه أو تغالبه ، بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق ، وإن كانوا هم لم يقولوا ذلك ، كما قال : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (١) .

فقد تبين ان اسمه « الأعلى » يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص ، وعن أن يكون له مثل ، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .

أي لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود والتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع - وهو انه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزا ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا .

فصل

والأمر بتسبيحه يقتضي أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء ، وإثبات صفات الكمال له ، فإن [التسبيح] يقتضي التنزيه والتعظيم ، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها ، فيقتضي ذلك تنزيهه ، وتحميده ، وتكبيره ، وتوحيده .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، ثنا ابن نفيل الحراني ، ثنا النضر بن عربي قال : سألت رجلاً ميموناً بن مهران^(١) عن « سبحان الله » فقال : « اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء » .

وقال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا حفص بن غياث ، عن حجاج عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قال « سبحان » قال : تنزيه الله نفسه من

(١) هو ميمون بن مهران الرقي ، أبو أيوب ، فقيه من القضاة كان مولى لأمراء بالكوفة واعتقته فنشأ فيها ثم استوطن الرقة من بلاد الجزيرة الفراتية ، فكان عالماً بالجزيرة وسيدها واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها ، وكان على مقدمة الجند الشامي ، مع معاوية بن هشام بن عبد الملك لما عبر البحر غازياً إلى قبرص سنة ١٠٨ هـ وكان ثقة في الحديث كثير العبادة توفي عام ١١٧ هـ .

راجع تذكرة الحفاظ ١: ٩٣ وحلية الأولياء ٤: ٨٢ والكامل لابن الأثير ٥: ٥٢ وتاريخ الإسلام للذهبي ٥: ٨ وفي المحبر ٤٧٨ من أشرف المعلمين وفقهائهم « ميمون بن مهران مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز » .

السوء ، وعن الضحاك عن ابن عباس في قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾^(١) قال : عجب . وعن أبي الأشهب ، عن الحسن قال : « سبحان » اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه .

وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس : أنه تنزيه نفسه من سوء « وروي في ذلك حديث مرسل ، وهو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات ، كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة . ونفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال ، وفيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران « اسم يعظم الله به ويحاشى به من سوء » وروى عبد بن حميد^(٢) : حدثنا أبو نعيم ، ثنا سفيان ، عن عثمان بن عبد الله بن موهب ، عن موسى بن طلحة قال : سئل النبي ﷺ عن التسبيح ، فقال : « إنزاهه عن سوء » . وقال حدثنا الضحاك بن مخلد ، عن شبيب عن عكرمة ، عن ابن عباس : « سبحان الله » قال : تنزيهه .

حدثنا كثير بن هشام ، ثنا جعفر بن برقان ، ثنا يزيد بن الأصم قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : « لا إله إلا الله » نعرفها أنه لا إله غيره ، و « الحمد لله » نعرفها أن النعم كلها منه وهو المحمود عليها ، و « الله أكبر » نعرفها أنه لا شيء أكبر منه ، فما « سبحان الله » ؟ فقال ابن عباس : وما ينكر منها ؟ هي كلمة رضيها الله لنفسه ، وأمر بها ملائكته ، وفزع إليها الأخيار من خلقه .

(١) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٢) هو عبد بن حميد بن نصر الكشي أبو محمد : من حفاظ الحديث قيل اسمه عبد الحميد ، وخفف نسبته إلى كيس (من بلاد السند) من كتبه تفسير للقرآن الكريم ، ومسند في سفر ضخمة يوجد في مكتبة الفاتيكان (٥٠٢ عربي) مخطوطة باسم (المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي ومصنفها لعله يوسف بن حسن بن المبرد توفي عام ٢٤٩ هـ .

راجع تذكرة الحفاظ ١٠٤ : ٢ والمستطرفة ٥٠ والتبيان ومعجم البلدان ٧ : ٢٥١ وبرنامج القرويين

٥٧ وتذكرة النوادر ٣٧

فصل

قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾^(١) العطف يقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر وأن بينهما مغايرة إما في الذات وإما في الصفات .

وهو في الذات كثير ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾^(٢) .

وأما في الصفات فمثل هذه الآية ، فإن الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى ، لكن هذا الاسم والصفة ليس هو ذاك الاسم والصفة ، ومثله قوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾^(٣) ومثله قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾^(٤) وقوله : ﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(١) سورة الأعلى آية رقم ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الحج آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

(٤) سورة البقرة الآيات رقم ٣ ، ٤ .

وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١﴾ وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿٢﴾ وقوله : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ ﴿٣﴾ الآيات .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ﴿٤﴾ الآيات فإنه [من صدق و] صبر ولم يسلم ولم يؤمن لم يكن ممن أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا .

وكثيراً ما تأتي الصفات بلا عطف ، كقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الْمَلِكُ ، الْقُدُّوسُ ، السَّلَامُ ، الْمُؤْمِنُ ، الْمُهَيَّمِنُ ﴾ ﴿٥﴾ وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ﴾ ﴿٦﴾ . وقد تجيء خبراً بعد خبر ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ﴿٧﴾ ولو كان ﴿ فعال ﴾ صفة لكان معرفاً بل هو خبر بعد خبر ، وقوله : ﴿ هو الأول والآخر ﴾ خبر بعد خبر . لكن بالعطف بكل من الصفات .

وأخبار المبتدأ قد تجيء بعطف وبغير عطف ، وإذا ذكر بالعطف كان كل اسم مستقلاً بالذكر ، وبلا عطف يكون الثاني من تمام الأول بمعنى ومع العطف لا تكون الصفات إلا للمدح والثناء أو للمدح ، وأما بلا عطف فهو في النكرات للتمييز ، وفي المعارف قد يكون للتوضيح . ﴿ الذي خلق فسوى ،

-
- (١) سورة النساء آية رقم ١٦٢ .
 - (٢) سورة المؤمنون آية رقم ١ - ٣ .
 - (٣) سورة المعارج آية رقم ٢٢ - ٢٤ .
 - (٤) سورة الأحزاب آية رقم ٣٥ .
 - (٥) سورة الحشر آية رقم ٢٣ .
 - (٦) سورة الناس آية رقم ١ - ٣ .
 - (٧) سورة البروج آية رقم ١٤ - ١٦ .

والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى ﴿ وصف بكل صفة من هذه الصفات ، ومدح بها ، وأثنى عليه بها ، وكانت كل صفة من هذه الصفات مستوجبة لذلك .

فصل

قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾^(١) فأطلق الخلق والتسوية ولم يخص بذلك الإنسان ، كما أطلق قوله بعد ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ لم يقيده ، فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات ، وقد بين موسى عليه السلام شموله في قوله : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾^(٢).

وقد ذكر المقيد بالإنسان في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾^(٣).

وقد ذكر المطلق والمقيد في أول ما نزل من القرآن ، وهو قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾^(٤) وفي جميع هذه الآيات - مطلقها ومقيدها والجامع بين المطلق والمقيد - قد ذكر خلقه ، وذكر هدايته وتعليمه بعد الخلق ، كما قال في هذه السورة : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ

(١) سورة الأعلى آية رقم ٢ .

(٢) سورة طه آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة الانفطار آية رقم ٦ - ٧ .

(٤) سورة العلق الآيات رقم ١ - ٥ .

فَهْدَى ﴿١﴾ .

لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها ، فلا بد أن تهدي إلى تلك الغاية التي خلقت لها ، فلا تتم مصلحتها وما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها .

وهذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة وغاية تصل إليها ، كما قال ذلك السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء .

وقالت طائفة - كجهم وأتباعه - إنه لم يخلق شيئاً لشيء ، ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء - أتباع الأئمة وهم يثبتون أنه مريد ، وينكرون أن تكون له حكمة يريد بها .

وطائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته وحكمته ، وينكرون إرادته ، وكلاهما تناقض ، وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء في غير هذا الموضع وأن منتهاهم جحد الحقائق .

فإن هذا يقول : « لو كان له حكمة يفعل لأجلها لكان يجب [أن يريد] الحكمة وينتفع بها ، وهو منزّه عن ذلك » وذاك يقول : « لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة ، فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك » وأرسطو^(٢) وأتباعه يقولون : « لو فعل شيئاً لكان الفعل لفرض ، وهو منزّه عن ذلك » .

فيقال لهؤلاء : هذه الحوادث المشهودة ألها محدث أم لا ؟ فإن قالوا

(١) سورة الأعلى آية رقم ٢ - ٣ .

(٢) هو أشهر فلاسفة اليونان الأقدمين . دعاه الفلاسفة عن جدارة بأمير الفلسفة ، وهو يعتبر مع هذا أكبر عقل ظهر في السابقين ولد في اسطاغيرا من مقدونيا سنة ٣٨٤ ق . م وتوفي سنة ٣٢٢ ق . م تعاطى في بدايته صناعة الطب طلباً للعيش والى فيه كتاباً أسس الصحة والمرض ثم شخص إلى أتينا في عصر ازدهار الفلسفة وكان شيخها افلاطون فالتحق به نحواً من عشرين سنة ثم اعتزله . يلقب أرسطو بالمعلم الأول ، لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية . راجع دائرة معارف القرن العشرين ١ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

« لا » فهو غاية المكابرة ، وإذا جوزوا حدوث الحوادث بلا محدث فتجوزها بمحدث لا إرادة له أولى .

وإن قالوا « لها محدث » ثبت الفاعل ، وإذا ثبت الخالق المحدث فيما أن يفعل بإرادة أو بغير إرادة . فإن قالوا « يفعل بغير إرادة » كان ذلك أيضاً مكابرة فإن كل حركة في العالم إنما صدرت عن إرادة .

فإن الحركات إما طوعية ، وإما قسرية ، وإما إرادية ، لأن مبدأ الحركة ، إما أن يكون من المتحرك ، أو من سبب خارج ، وما كان منها فإما أن يكون مع الشعور ، أو بدون الشعور ، ممّا كان سببه من خارج فهو القسري ، وما كان سببه منها بلا شعور فهو الطبيعي ، وما كان مع الشعور فهو الإرادي ، فالقسري تابع للقاسر ، والذي يتحرك بطبعه ، كالماء والهواء والأرض ، هو ساكن في مركزه ، لكن إذا خرج عن مركزه قسراً طلب العود إلى مركزه ، فأصل حركته القسر ، ولم تبق حركة أصلية إلا الإرادية ، فكل حركة في العالم فهي عن إرادة .

فكيف تكون جميع الحوادث والحركات بلا إرادة؟

وأيضاً ، فإذا جوزوا أن تحدث الحوادث العظيمة عن فاعل غير مرید فجواز ذلك عن فاعل مرید أولى .

وإذا ثبت أنه مرید قيل : إما أن يكون أرادها لحكمة ، وأما أن يكون أرادها لغير حكمة . [فإن قالوا « لغير حكمة » كان] مكابرة . فإن الإرادة لا تعقل . لا تعقل إلا إذا كان المرید قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل .

وأيضاً ، فإذا جوزوا أن يكون فاعلاً مریداً بلا حكمة فكونه فاعلاً مریداً لحكمة أولى بالجواز .

وأما قولهم : « هذا لا يعقل إلا في حق من ينتفع ، وذلك يوجب الحاجة ، والله منزّه عن ذلك » .

فإن أرادوا أنه يوجب احتياجه إلى غيره أو شيء من مخلوقاته ، فهو ممنوع وباطل ، فإن كل ما سواه محتاج إليه من كل وجه ، وهو الصمد الغني عن كل ما سواه ، وكل سواه محتاج إليه ، وهو القيوم القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه ، فكيف يكون محتاجاً إلى غيره ؟ .

وإن أرادوا أنه تحصل له بالخلق حكمة هي أيضاً حاصلة بمشيئته فهذا لا محذور فيه ، بل هو الحق .

وإذا قالوا « الحكمة هي اللذة » قيل : لفظ « اللذة » لم يرد به الشرع ، وهو موهوم ومجمل ، لكن جاء الشرع بأنه « يحب » و « يرضى » و « يفرح بتوبة التائبين » ونحو ذلك ، فإذا أريد ما دل عليه الشرع والعقل فهو حق . وإن قالوا : « الحكمة إما أن تراد لنفسها أو لحكمة » . قيل : المرادات نوعان - ما يراد لنفسه ، وما يراد لغيره ، وقد يكون الشيء غاية وحكمة بالنسبة إلى مخلوق وهو مخلوق لحكمة أخرى فلا بد أن ينتهي الأمر إلى حكمة يريدها الفاعل لذاتها .

والمعتزلة ومن وافقهم ، كابن عقيل^(١) وغيره ، تثبت حكمة لا تعود إلى ذاته ، وأما السلف فإنهم يثبتون حكمة تعود إليه ، كما قد بين في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا ذكر قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾^(٢) والتسوية : جعل الشيء سواء كما قال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾^(٤) و ﴿ سواء ﴾ وسط ، لأنه معتدل بين الجوانب .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ١٩ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ .

وذلك أنه لا بد في الخلق والأمر من العدل ، فلا بد من التسوية بين المتماثلين ، فإذا فضل أحدهما فسد المصنوع ، كما في مصنوعات العباد إذا بنوا بنياناً فلا بد من التسوية بين الحيطان ، إذ لورفع حائط على حائط رفعاً كثيراً فسد . ولا بد من التسوية بين جذوع السقف ، فلو كان بعض الجذوع قصيراً عن الغاية وبعضها فوق الغاية فسد . وكذلك إذا بنى صفاً فوق صفاً لا بد من التسوية بين الصفوف ، وكذلك الدرج المبنية ، وكذلك إذا صنع لسقي الماء جداول ومساكب فلا بد من العدل والتسوية فيها ، وكذلك إذا صنعت ملابس للآدميين فلا بد من أن تكون مقدرة على أبدانهم لا تزيد ولا تنقص ، وكذلك ما يصنع من الطعام لا بد أن تكون أخلاطه على وجه الاعتدال ، والنار التي تطبخه كذلك ، وكذلك السفن المصنوعة .

ولهذا قال الله لداود : ﴿ وَقَدَّرْ فِي السَّرْدِ ﴾^(١) أي لا تدق المسمار فيقلق ، ولا تغلظه فيقصم ، واجعله بقدر .

فإذا كان هذا في مصنوعات العباد - وهي جزء من مصنوعات الرب - فكيف بمخلوقاته العظيمة التي لا صنع فيها للعباد ، كخلق الإنسان وسائر البهائم ، وخلق النبات ، وخلق السموات والأرض والملائكة .

فالفلك الذي خلقه وجعله مستديراً ما له من فروج ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾^(٢) .

(١) سورة سبأ آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾ . وعن ابن عباس السرد : هو حلق الحديد ، وقال بعضهم يقال : درع مسرودة إذا كانت مسمورة الخلق واستشهد بقول الشاعر :

وعليها مسرودتان مضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

(٢) سورة الملك آية رقم ٣ - ٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ^(٢) .

فهو سبحانه سواها كما سوى الشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات ، فعدل بين أجزائها ، ولو كان أحد جانبي السماء داخلاً أو خارجاً لكان فيها فروج ، وهي الفتوق والشقوق ، ولم يكن سواها ، كمن بنى قبة ولم يسوها ، وكذلك لو جعل أحد جانبيها أطول أو أنقص ، ونحو ذلك .

فالعدل والتسوية لازم لجميع المخلوقات والمصنوعات ، فمتى لم تصنع بالعدل والتسوية بين المتماثلين وقع فيها الفساد .

وهو سبحانه ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ قال أبو العالية في قوله ﴿ خلق فسوى ﴾ قال سوى خلقهن ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الذاريات آية رقم ٧ .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن ابراهيم ، حدثنا ابن عليه ، حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه قال : إن من ورائكم الكذاب المضل وإن رأسه من ورائه حبكاً حبكاً . يعني بالحبك الجعودة ، وعن أبي صالح (ذات الحبك) الشدة وقال خصيف : ذات الحبك ذات الصفاقة .

(٢) سورة ق آية رقم ٦ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ١٢ وقد جاءت هذه الآية في المطبوعة محرفة حيث قال (فسواهن) بدلاً من (فقضاهن) .

فصل

هداية الله الى خلقه

ثم إذا خلق المخلوق فسوى ، فإن لم يهده إلى تمام الحكمة التي خلق لها فسد ، فلا بد أن يهدي بعد ذلك إلى ما خلق له .

وتلك الغاية لا بد أنها معلومة للخالق ، فإن العلة الغائية هي أول في العلم والإرادة ، وهي آخر في الوجود والحصول .

ولهذا كان الخالق لا بد أن يعلم ما خلق ، فإنه قد أراده ، وأراد الغاية التي خلقه لها ، والإرادة مستلزمة للعلم ، فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به .

والصانع إذا أراد أن يصنع شيئاً فقد علمه وأراده ، وقدر في نفسه ما يصنعه ، والغاية التي ينتهي إليها ، وما الذي يوصله إلى تلك الغاية ، والله سبحانه قدر وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء »^(١) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في القدر باب حجاج موسى وآدم عليهما السلام حدثني أبو الطاهر احمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح حدثنا ابن وهب أخبرني أبو هاني الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : وذكره .

وفي البخاري عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » - وفي رواية « ثم خلق السموات والأرض »^(١)

فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة ، كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب . فقال ما أكتب ؟ فقال : أكتب ما يكون إلى يوم القيامة »^(٢) .

وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جداً .

روى ابن [أبي] حاتم عن الضحاك أنه سئل عن قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(٣) فقال : قال ابن عباس : إن الله قدر المقادير بقدرته ودبر الأمور بحكمته ، وعلم ما العباد صاثرون إليه ، وما هو خالق وكائن من خلقه ، فخلق الله لذلك جنة وناراً ، فجعل الجنة لأوليائه وعرفهم وأحبهم وتولاهم ووفقهم وعصمهم ، وترك أهل النار استحوذ عليهم إبليس وأضلهم وأزلهم .

فخلق لكل شيء ما يشاكلة في خلقه - ما يصلحه من رزقه في بر أو في بحر ، فجعل للبعير خلقاً لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب ،

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ١ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ . ٣١٩١ - بسنده عن عمران بن حصين - رضي الله عنها - قال : دخلت على النبي ﷺ وعلقت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم قالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا جئنا نسألك عن هذا الأمر قال : وذكره . ورواه الترمذي في التفسير سورة ، ٣ ، ١١ ، ٩ ، واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ، ٥٠١ ، ٤ : ٤٣١ .

(٢) الحديث رواه الترمذي في التفسير سورة ٦٨ .

(٣) سورة القمر آية رقم ٤٩ .

وكذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها في خلقها ، فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف .

قال ابن أبي حاتم : ثنا يحيى بن زكريا بن مهران القزاز نا حبان بن عبيد قال : سألت الضحاك عن هذه الآية : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(١) . قال الضحاك ، قال ابن عباس ، فذكره .

وقال : حدثنا أبو سعيد الأشح ، ثنا طلحة بن سنان ، عن عاصم ، عن الحسن قال : من كذب بالقدر فقد كذب بالحق ، خلق الله خلقاً ، وأجل أجلاً ، وقدر رزقاً ، وقدر معصية ، وقدر بلاء ، وقدر عافية ، فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن .

وقد حدثنا الحسن بن عرفة ، ثنا مروان بن شجاع الجزري ، عن عبد الملك بن جريج ، عن عطاء بن أبي رباح قال « أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه . فقلت له : قد تكلم في القدر . فقال : أو [قد] فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : فالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(٢) أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم ، إن رأيت أحداً فقأت عينيه بأصبعي هاتين .

وقال أيضاً : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا سهل الخياط ، ثنا أبو صالح الحداني ، نا حبان بن عبيد الله قال : سألت الضحاك عن قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾^(٣) قال : قال ابن عباس : إن الله خلق العرش فاستوى عليه ، ثم خلق القلم فأمره ليجري بإذنه - وعظم القلم كقدر ما بين السماء والأرض -

(١) سورة القمر آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة القمر آية رقم ٤٨ - ٤٩ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٢ .

فقال القلم : بما ، يا رب أجري ؟ فقال : « بما أنا خالق وكائن في خلقي
من قطر أو نبات أو نفس أو أثر - يعني به العمل - أو رزق أو أجل » فجرى
القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأثبتته الله في الكتاب المكنون عنده تحت
العرش .

فصل

الله تعالى قدر المقادير لخلقه

فقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾^(١) يتضمن أنه قدر ما سيكون للمخلوقات ، وهداها إليه ، علم ما يحتاج إليه الناس والدواب من الرزق فخلق ذلك الرزق وسواه ، وخلق الحيوان وسواه وهداه إلى ذلك الرزق ، وهدى غيره من الأحياء أن يسوق إليه ذلك الرزق .

وخلق الأرض ، وقدر حاجتها إلى المطر ، وقدر السحاب وما يحمله من المطر ، وخلق ملائكة هداهم ليسوقوا ذلك السحاب إلى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره ، وقدر ما نبت بها من الرزق ، وقدر حاجة العباد إلى ذلك الرزق ، وهداهم إلى ذلك الرزق ، وهدى من يسوق ذلك الرزق إليهم .

وقد ذكر المفسرون أنواعاً من تقريره وهدايته ، فروى ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وغيرهما ، بالإسناد الثابت عن مجاهد في قوله : ﴿ قدر فهدى ﴾ قال : الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتها ، وكذلك رواه عبد ابن حميد في تفسيره ، قال : هدى الإنسان للسعادة والشقاوة ، وهدى الأنعام لمراتها .

وقال حدثنا يونس ، عن شيبان عن قتادة : ﴿ الذي قدر فهدى ﴾ قال : « لا والله . ما أكره الله عبداً على معصية قط ولا على ضلالة ، ولا رضيها له

(١) سورة الأعلى آية رقم ٣ .

ولا أمره ، ولكن رضي لكم الطاعة فأمركم بها ، ونهاكم عن معصيته .

(قلت) : فتادة ذكر هذا عند هذه الآية ليبين أن الله قدر ما قدره من السعادة والشقاوة ، كما قال الحسن وقتادة ، وغيرهما من أئمة المسلمين ، فإنهم لم يكونوا متنازعين ، فما سبق من سبق تقدير الله ، وإنما كان نزاع بعضهم في الإرادة وخلق الأفعال .

وإنما نازع في التقدير السابق والكتاب أولئك الذين تبرأ منهم الصحابة كابن عمر وابن عباس وغيرهما .

وذكر قتادة أن الله لم يكره أحداً على معصيته وهذا صحيح ، فإن أهل السنة المثبتين للقدر متفقون على أن الله لا يكره أحداً على معصيته كما يكره الوالي والقاضي وغيرهما للمخلوق على خلاف مراده . يكرهونه بالعقوبة والوعيد ، بل هو سبحانه يخلق إرادة العبد للعمل وقدرته وعمله وهو خالق كل شيء .

وهذا الذي قاله قتادة قد يظن فيه أنه من قول القدرية ، وأنه لسبب مثل هذا اتهم قتادة بالقدر ، حتى قيل : إن مالكا كره لمعمر أن يروي عنه التفسير لكونه اتهم بالقدر .

وهذا القول حق ، ولم يعرف أحد من السلف قال « إن الله أكره أحداً على معصيته » .

بل أبلغ من ذلك أن لفظ « الجبر » منعوا من إطلاقه ، كالأوزاعي والثوري ، والزيدي ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم . نهوا عن أن يقال « إن الله جبر العباد » وقالوا : إن هذا بدعة في الشرع ، وهو مفهم للمعنى الفاسد .

قال الأوزاعي وغيره : إن السنة جاءت بـ « جبل » ولم تأت بـ « جبر » فإن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس « إن فيك لخلقين يحبهما الله - الحلم

والأناسة» فقال : أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما ؟ فقال : « بل خلقين جبلت عليهما » قال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله^(١).

وقال الزبيدي وغيره : إنما يجبر العاجز - يعني الجبر الذي هو بمعنى الإكراه - كما تجبر المرأة على النكاح ! والله أجل وأعظم من أن يجبر أحداً - يعني أنه يخلق إرادة العبد فلا يحتاج إلى إجباره .

فالزبيدي وطائفة نفوا « الجبر » وكان مفهومه عندهم هذا .

وأما الأوزاعي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما فكرهوا أن يقال « جبر » وأن يقال « لم يجبر » لأن « الجبر » قد يراد به الإكراه والله لا يكره أحداً . وقد يراد به أنه خالق الإرادة ، كما قال محمد بن كعب ، « الجبار هو الذي جبر العباد على ما أراد » . و « الجبر » بهذا المعنى صحيح .

وقول مجاهد في قوله : ﴿ قدر فهدى ﴾ : « الإنسان للسعادة والشقاوة » يبين أن هذا عنده مما دخل في قوله : ﴿ قدر فهدى ﴾ أي هدى السعداء إلى السعادة التي قدرها ، وهدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدره .

(١) الحديث رواه ابن سعد في طبقاته قال أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي حدثني قدامة بن موسى عن عبد العزيز بن رمانة عن عروة بن الزبير قال : وحدثني عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم ، فقدم عليه عشرون رجلاً رأسهم عبد الله بن عوف الأشج وفيهم الجارود ومنقذ بن حيان وهو ابن أخت الأشج وكان قدومهم عام الفتح فقبل يا رسول الله هؤلاء وفد عبد القيس قال مرحباً بهم نعم القوم عبد القيس قال : ونظر رسول الله ﷺ إلى الأفق صبيحة ليلة قدموا وقال : لياتين ركب من المشركين لم يكرهوا على الإسلام قد انضوا الركاب وأفنوا الراد بصاحبهم علامة . اللهم اغفر لعبد القيس اتوني لا يسألوني مالا هم خير أهل المشرق . قال : فجأؤوا في ثيابهم ورسول الله ﷺ في المسجد فسلموا عليه ، وسألهم رسول الله ﷺ أيكم عبد الله الأشج ؟ . قال : أنا يا رسول الله - وكان رجلاً دميماً - فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال : انه لا يستسقى في مسوك الرجال إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه وقلبه فقال رسول الله ﷺ وذكره

وهكذا قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ ^(١) قال : السعادة والشقاوة .

وقال عكرمة : سبيل الهدى ، رواهما عبد بن حميد .
وكذلك روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ^(٢) قال : الشقاوة والسعادة .

وقد قال هو وجماهير السلف : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : أي الخير والشر . رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود . ثم قال : وروي عن علي بن أبي طالب ، وابن عباس في إحدى ^(٣) ، [رواياته] ، وشقيق بن سلمة ، وأبي صالح ، ومجاهد ، والحسن ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وشرحبيل بن سعيد ، وابن سنان الرازي ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وعمر بن قيس الملائي ، نحو ذلك .

وروي عن محمد بن كعب القرظي قال : الحق والباطل .
وهذا كلام مجمل فيه ما هو متفق عليه ، وهو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل ، ونصبه من الدلائل والآيات ، وأعطاهم من العقول - طريق الخير والشر - كما في قوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ ^(٤) .

وأما إدخال الهدى الذي هو الإلهام في ذلك ، بمعنى أنه هدى المؤمن إلى أن يؤمن ويعمل صالحاً إلى أن يسعد بذلك ، وهدى الكافر إلى ما يعمله إلى أن يشقى بذلك ، فهذا منهم من يدخله في الآية ، كمجاهد وغيره ويدخله في قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ وعكرمة وغيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية وإن كانوا مقرين بالقدر .

(١) سورة الانسان آية رقم ٣ .

(٢) سورة البلد آية رقم ١٠ .

(٣) سقط من الأصل لفظ [رواياته] .

(٤) سورة فصلت آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ فَاسْتَجَبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

ومن قال : ﴿ هدى ﴾ بمعنى بين فقط ، فقد هدى كل عبد إلى نجد الخير والشر جميعاً ، أي بين له طريق الخير والشر .

ومن أدخل في ذلك السعادة والشقاوة يقول : في هذا تقسيم ، أي هذه الهداية عامة مشتركة ، وخص المؤمن بهداية إلى نجد الخير ، وخص الكافر بهداية إلى نجد الشر .

ومن لم يدخل ذلك في الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا أيها الناس : إنما هما النجدان - نجد الخير ، ونجد الشر ، فما يجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟ » .

ويحتجون بأن إلهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى ، بل سماه ضلالاً ، والله امتن بأنه هدى .

وقد يجيب الآخر بأن يقول : هو لا يدخل في الهدى المطلق ، لكن يدخل في الهدى المقيد ، كقوله : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾^(١) وكما في لفظ البشارة ، قال : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٢) ولفظ الإيمان فقال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾^(٣) .

وهذان القولان في قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾^(٤) قيل : هو البيان العام ، وقيل : بل ألهم الفاجر الفجور والتقي التقوى .

وهذا في تلك الآية أظهر ، لأن الإلهام استعماله مشهور في إلهام القلوب ، لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة .

(١) سورة الصافات آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٥١ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ٨ .

وقد علم النبي ﷺ حصيناً الخزاعي^(١) لما أسلم أن يقول « اللهم !
ألهمني رشدي وقني شر نفسي » ولو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان
هذا حاصلًا للمسلم والكافر .

قال ابن عطية : و ﴿ سوى ﴾ معناه عدل وأتقن حتى صارت الأمور
مستوية ، دالة على قدرته ووحدانيته .

وقرأ جمهور القراء ﴿ قدر ﴾ بتشديد الدال ، فيحتمل أن يكون من
القدر والقضاء ، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء .

قلت : هما متلازمان ، لأن التقدير الأول يسمى تقديرًا ، لأن ما يجري
بعد ذلك يجري على قدره ، فهو موازن له ومعادل له .

قال : وقرأ الكسائي^(٢) وحده بتخفيف الدال ، فيحتمل أن يكون بمعنى
القدرة ، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة .

قلت : وهذا قول الأكثرين أنهما بمعنى واحد .

قال ابن عطية : وقوله ﴿ فهدى ﴾ عام لوجوه الهدايات في الإنسان
والحيوان ، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات ، فقال القراء :
معناه هدى وأضل ، واكتفى بالواحد لدلالاتها على الأخرى ، قال ، وقال
مقاتل والكلبي : هدى إلى وطء الذكور للإناث . وقيل هدى المولود عند
وضعه إلى مص الثدي . وقال مجاهد : هدى الناس للخير والشر ، والبهائم
للمراتع .

قال ابن عطية : « وهذه الأقوال مثالات ، والعموم في الآية أصوب في

(١) هو حصين بن عبيد ، والد عمران بن حصين الخزاعي ، روى عنه ابنه عمران بن حصين حديثاً
مرفوعاً في إسلامه ، وفي الدعاء .

راجع الاستيعاب ١ : ٣٥٣ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع غاية النهاية ١ : ٥٣٥ وابن خلكان ١ : ٣٣٠ وتاريخ بغداد

١١ : ٤٠٣ وأنباء الرواة ٢ : ٢٥٦ .

كل تقدير وفي كل هداية .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي^(١) هذه الأقوال وغيرها ، فذكر سبعة أقوال : قدر السعادة والشقاوة ، وهدى للرشد والضلالة ، قاله مجاهد ، وقيل : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها إليه ، قاله عطاء ، وقيل : قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج ، قاله السدي ، وقيل : قدرهم ذكراً وإنثاً وهدى الذكور لإتيان الإناث ، قاله مقاتل ، وقيل : قدر فهدى وأضل ، فحذف « وأضل » لأن في الكلام ما يدل عليه ، حكاه الزجاج ، وقيل : قدر الأرزاق وهدى إلى طلبها ، وقيل ، قدر الذنوب فهدى إلى التوبة ، حكاهما الثعلبي .

قلت : القول الذي حكاه الزجاج هو قول الفراء ، وهو من جنس قوله : ﴿ إِن نَفَعْتَ وَإِنْ لَمْ تَنْفَعْ ﴾ ومن جنس قوله : ﴿ سَرَابِيلُ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلٌ ﴾^(٢) وقد تقدم ضعف مثل هذا ، ولهذا لم يقله أحد من المفسرين .

والأقوال الصحيحة هي من باب المثالات ، كما قال ابن عطية . وهكذا كثير من تفسير السلف - يذكرون من النوع مثلاً لينبهوا به على غيره ، أو لحاجة المستمع إلى معرفته ، أو لكونه هو الذي يعرفه ، كما يذكرونه مثل ذلك في مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾^(٣) وقوله : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ ﴾^(٤) وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾^(٥) وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع فيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٣٠٧ وذيل الروضتين ٢١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨١ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (والبرد) بدلاً من (وسراويل تقيكم بأسكم) .

(٣) سورة الفتح آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الجمعة آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٥٤ .

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴿١﴾ .

وكذلك تفسير : ﴿ وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ﴾^(٢) ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾^(٣) وغير ذلك ، وقوله : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٤) وأمثال ذلك كثير من تفسيرهم هو من باب المثال .

ومن ذلك قولهم : إن هذه الآية نزلت في فلان وفلان « فبهذا يمثل بمن نزلت فيه - نزلت فيه أولاً وكان سبب نزولها - لا يريدون به أنها آية مختصة به ، كآية اللعان ، وآية القذف ، وآية المحاربة ، ونحو ذلك . لا يقول مسلم إنها مختصة بمن كان نزولها بسببه .

واللفظ العام وإن قال طائفة إنه يقتصر على سببه فمرادهم على النوع الذي هو سببه - لم يريدوا بذلك أنه يقتصر على شخص واحد من ذلك النوع .

فلا يقول مسلم إن آية الظهار لم يدخل فيها إلا أوس بن الصامت^(٥) ، وآية اللعان لم يدخل فيها إلا عاصم بن عدي ، أو هلال بن أمية^(٦) : وأن ذم الكفار لم يدخل فيه إلا كفار قريش ، ونحو ذلك ، مما لا

(١) سورة فاطر آية رقم ٣٢ .

(٢) سورة الفجر آية رقم ٣ .

(٣) سورة البروج آية رقم ٣ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٢١ .

(٥) هو أوس بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري ، شهد بدرًا وأحدًا وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وبقي الى زمن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، وهو الذي ظاهر من امرأته فوطئها قبل أن يكفر . فأمره رسول الله ﷺ أن يكفر بخمسة عشر صاعاً من شعر على ستين مسكيناً . روى عنه حسان بن عطية وهو أخو عبادة بن الصامت .

راجع الاستيعاب ١ : ١١٨ .

(٦) هو هلال بن أمية الأنصاري الواقفي من بني واقف ، شهد بدرًا ، وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا =

يقوله مسلم ولا عاقل .

فإن محمداً ﷺ قد عرف بالاضطرار من دينه أنه مبعوث إلى جميع
الإنس والجن ، والله تعالى خاطب بالقرآن جميع الثقليين ، كما قال :
﴿لَا نُنذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(١) فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني فقد أنذره
الرسول به ، والإنذار هو الإعلام بالمخوف ، والمخوف - هو العذاب - ينزل
بمن عصى أمره ونهيه .

فقد أعلم كل من وصل إليه القرآن أنه إن لم يطعه وإلا عذبه الله
تعالى ، وأنه إن أطاعه أكرمه الله تعالى .

وهو قد مات ، فإنما طاعته باتباع ما في القرآن مما أوجبه الله وحرمه ،
وكذلك ما أوجبه الرسول وحرمه بسنته ، فإن القرآن قد بين وجوب طاعته ،
وبين أن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وقال لأزواج نبيه : ﴿وَاذْكُرْنَ مَا
يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٢) .

= عن غزوة تبوك ، فنزل فيهم القرآن ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وهو الذي قذف امرأته
بشريك بن السحاء . روى ابن وهب قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب قال الثلاثة الذين
خلفوا كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

راجع الاستيعاب ٤ : ١٥٤٢ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٤ .

فصل

في تقدير أرزاق البهائم والحيوانات

ثم قال : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَ ثَمَرَهُ أَخْوَى ﴾ ^(١) هو سبحانه لما ذكر قوله : ﴿ قدر فهدى ﴾ دخل في ذلك ما قدره من أرزاق العباد [والبهائم] وهداهم إليها ، فهدى من يأتي بها إليهم ، وذلك من تمام إنعامه على عباده ، كما جاء في الأثر : إن الله يقول : « إني والجن والإنس لفي نأ عظيم - أخلق ويعبدون غيري ، وأرزق ويشكرون سواي » .

وهذا المعنى قد روي في قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ ^(٢) أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بإنعام الله ، وإضافة الرزق إلى غيره كالأنواء ، كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر - قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا » ^(٣) قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ - حتى بلغ -

(١) سورة الأعلى آية رقم ٤ - ٥ .

(٢) سورة الواقعة آية رقم ٨٢ .

(٣) الحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن غول بن ابراهيم النهدي وابن جرير عن محمد بن المثني عن عبد الله بن موسى ، وعن يعقوب بن ابراهيم عن يحيى بن أبي بكير ثلاثتهم عن اسرائيل به مرفوعاً ، وكذا رواه الترمذي عن احمد بن منيع عن حسين بن محمد وهو المروزي به وقال - حسن غريب . وقد رواه سفيان الثوري عن عبد الأعلى ولم يرفعه .

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿١﴾ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين - ينزل الله الغيث فيقولون : الكواكب كذا وكذا - وفي رواية « بكواكب كذا وكذا » (٢) .

وروى ابن المنذر في تفسيره : ثنا محمد بن علي - يعني الصائغ ، ثنا سعيد هو ابن منصور ، ثنا هشيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وتجعلون ﴾ شكركم ﴿ أنكم تكذبون ﴾ يعني الأنواء ، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً وكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا . فأنزل الله ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم ، عن عطاء الخراساني ، عن عكرمة ، في قول الله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : تجعلون رزقكم من عند غير الله تكديباً ، وشكراً [لغيره] .

لكن قوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ (٣) خص به إخراج المرعى ، وهو ما ترعاه الدواب ، وذكر أنه جعله غثاء أحوى ، وهذا فيه ذكر أقوات البهائم ، لكن أقوات الأدميين أجل من ذلك ، وقدرها هي وأقوات البهائم في قوله ﴿ قدر فهدى ﴾ .

وأيضاً ، فالذي يصير غثاء أحوى لم تقتت به البهائم ، وإنما تقتات به قبل ذلك .

= ورواه ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وذكره . ورواه صاحب الموطأ عن صالح بن كيسان عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجني وذكره .

(١) سورة الواقعة آية رقم ٧٥ - ٨٢ .

(٢) قال الامام مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادي وعمرو بن سواد ، حدثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث أن أبا يونس حدثه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ وذكره .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ٤ .

فهو - والله أعلم - خص هذا بالذكر لأنه مثل الحياة الدنيا .
إذا كانت هذه السورة تضمنت أصول الإيمان - الإيمان بالله واليوم
الآخر ، والإيمان بالرسول والكتب التي جاؤوا بها ، وذلك يتضمن الإيمان
بالملائكة ، وفيها العمل الصالح الذي ينفع في الآخرة والفساد الذي يضر
فيها .

فذكر سبحانه المرعى عقب ما ذكره من الخلق والهدى ليبين مآل بعض
المخلوقات ، وأن الدنيا هذا مثلها .

وقد ذكر الله ذلك في الكهف ، ويونس ، والحديد ، قال تعالى :
﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ . وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَارْزَنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَاللَّهُ
يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ
وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ
مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٣) .

(١) سورة الكهف آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٢٤ - ٢٥ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٠ .

وقد جعل إهلاك المهلكين حصاداً لهم ، فقال : ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ
الْقُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ
سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ^(٢) .

فقوله : ﴿ والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ﴾ هو مثل للحياة
الدنيا ، وعاقبة الكفار ، ومن اغتر بالدنيا ، فإنهم يكونون في نعيم وزينة
وسعادة ، ثم يصيرون إلى شقاء في الدنيا والآخرة ، كالمرعى الذي جعله غثاء
أحوى .

(١) سورة هود آية رقم ١٠٠ .

(٢) سورة التين آية رقم ٤ - ٦ . وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال (في رددناه) بدلاً من
(ثم رددناه) .

فصل

قوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ، سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾^(١).

فقوله ؛ ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ كقوله : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) وقوله : ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ و ﴿ إِنْ ﴾ هي للشرطية .

وحكى الماوردي^(٣) أنها بمعنى « ما » وهذه تكون « ما » المصدرية وهي بمعنى الظرف ، أي : ذكر ما نفعت ، ما دامت تنفع ، ومعناها قريب من معنى الشرطية .

وأما إن ظن ظان أنها نافية فهذا غلط بين ، فإن الله لا ينفي نفع الذكرى

(١) سورة الأعلى الآيات من ٩-١٢ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (إن) بدلاً من (فإن) .

(٣) هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي أقضى قضاة عصره من العلماء الباحثين أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة . ولد بالبصرة عام ٣٦٤ هـ وانتقل الى بغداد ، وولي القضاء في أيام القائم بأمر الله العباسي وكان يميل الى مذهب الاعتزال ، وله المكانة الرفيعة عند الخلفاء نسبتة الى بيع ماء الورد ووفاته ببغداد عام ٤٥٠ هـ من كتبه أدب الدنيا والدين ، والأحكام السلطانية ، والنكت والعيون والحاوي في فقه الشافعية وغير ذلك كثير .
راجع السبكي ٣: ٣٠٣ والوفيات ١: ٣٢٦ والشذرات ٣: ٢٨٥ وآداب اللغة ٢: ٣٣٣ .

مطلقاً وهو القائل : ﴿ قَتَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ، وَذَكَّرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ ﴾^(١) ثم قال : ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

وعن [مجاهد] ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ إن قبلت الذكرى .

وعن مقاتل : فذكر وقد نفعت الذكرى .

وقيل : ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع . قاله طائفة ، أولهم الفراء ، واتبعه جماعة ، منهم النحاس ، والزهرائي ، والواحدي ، والبغوي ، ولم يذكر غيره . قالوا : وإنما لم يذكر الحال الثانية كقوله : ﴿ سراييل تقيكم الحر ﴾ وأراد الحر والبرد .

وإنما قالوا هذا لأنهم قد علموا أنه يجب عليه تبليغ جميع الخلق وتذكيرهم سواء آمنوا أو كفروا . فلم يكن وجوب التذكير مختصاً بمن تنفعه الذكرى ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾^(٣) وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾^(٤) وقال : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ، وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٥) وقال : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(٦) .

وهذا الذي قالوه [له] معنى صحيح ، وهو قول الفراء وأمثاله ، [لكن] لم يقله أحد من مفسري السلف ، ولهذا كان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء وأمثاله ما ينكره ، ويقول : كنت أحسب الفراء رجلاً صالحاً حتى رأيت كتابه في معاني القرآن .

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٤ - ٥٥ .

(٣) سورة الغاشية آية رقم ٢١ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٤٤ .

(٥) سورة القلم آية رقم ٥١ - ٥٢ .

(٦) سورة الفرقان آية رقم ١ .

وهذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر ، وهو معلوم بالإضطرار من أمر الرسول ، فإن الله بعثه مبلغاً ومذكراً لجميع الثقلين الإنس والجن ، لكن ليس هو معنى هذه الآية .

بل معنى هذه يشبه قوله : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ^(٤) .

فالقُرآن جاء بالعام والخاص ، وهذا كقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ ونحو ذلك . وسبب ذلك أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل ، وله قابل ، فالمعلم المذكر يعلم غيره ، ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر ، وقد لا يتعلم ولا يتذكر ، فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير ، وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل ، دون المحل القابل ، فيقال في مثل هذا : علمته فما تعلم ، وذكرته فما تذكر ، وأمرته فما أطاع .

وقد يقال « ما علمته وما ذكرته » لأنه لم يحصل تاماً ، ولم يحصل مقصوده ، فينفي لانتفاء كماله وتمامه ، وانتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب .

فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به ، وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا .

(١) سورة ق آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة يس آية رقم ١١ .

(٤) سورة التكوير آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

وهذا هو الهدى المذكور في قوله : ﴿ وَأَمَّا نُمُودُ فَنَهْدِيَنَاهُمْ فَاسْتَجِبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾^(١) فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك ، وهو كالإنذار العام والتذكير العام . وهنا قد هدى المتقين وغيرهم ، كما قال : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾^(٢) .

وأما قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(٣) فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الاهتداء ، كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(٤) وقوله : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾^(٥) وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾^(٦) وقوله : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾^(٧) وهذا كثير في القرآن .

وكذلك الإنذار ، قد قال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾^(٨) وقال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾^(٩) . وقال في الخاص : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴾^(١٠) ، ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾^(١١) فهذا الإنذار الخاص ، وهو التام النافع الذي انتفع به المنذر ،

(١) سورة فصلت آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٧ .

(٣) سورة الفاتحة آية رقم ٦ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٣٠ .

(٦) سورة النحل آية رقم ٣٧ .

(٧) سورة المائدة آية رقم ١٦ .

(٨) سورة مريم آية رقم ٩٧ .

(٩) سورة يونس آية رقم ٢ .

(١٠) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(١١) سورة يس آية رقم ١١ .

والإنذار هو الإعلام بالمخوف ، فعلم المخوف فخاف ، فأمن وأطاع .

وكذلك التذكير عام وخاص ، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد ، وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ : إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) ثم قال : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ^(٤) فذكر العام والخاص .

والتذكر هو الذكر التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به .

وغير هؤلاء قال تعالى فيهم : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ ^(٦) فقد أتاهم وقامت به الحجة ، ولكنهم لم يصغوا إليه بقلوبهم فلم يفهموه ، أو فهموه فلم يعملوا به ، كما قال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ^(٧) .

والخاص هو التام النافع ، وهو الذي حصل معه تذكر لمذكر ، فإن هذا ذكرى كما قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ، سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ ^(٨) أي يجنب الذكرى ، وهو إنما جنب الذكرى الخاصة .

(١) سورة ص آية رقم ٨٦ - ٨٧ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٤ وسورة ص آية رقم ٨٧ .

(٤) سورة التکویر آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة الأنبياء آية رقم ٢ - ٣ .

(٦) سورة الشعراء آية رقم ٥ .

(٧) سورة الأنفال آية رقم ٢٣ .

(٨) سورة الأعلى آية رقم ٩ - ١١ .

وأما المشترك الذي تقوم به الحجة فقد ذكر هو وغيره بذلك وقامت الحجة عليهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾^(١) وقال : ﴿ لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾^(٢) وقال عن اهل النار : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾^(٤) .

وأما تمثيلهم ذلك بقوله : ﴿ سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾^(٥) أي وتقيكم البرد ، فعنه جوابان : -

أحدهما : أنه ليس هناك حرف شرط علق به الحكم بخلاف هذا الموضوع فإنه إذا علق الأمر بشرط وكان مأموراً به في حال وجود الشرط كما هو مأمور به في حال عدمه كان ذكر الشرط تطويلاً للكلام قليلاً للفائدة وإيضالاً للسامع .

وجمهور الناس على أن مفهوم الشرط حجة ، ومن نازع فيه يقول : سكت عن غير المعلق ، لا يقول : إن اللفظ دل على المسكوت كما دل على المنطوق ، فهذا لا يقوله أحد .

الثاني : أن قوله ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ على بابيه ، وليس في الآية ذكر البرد ، وإنما يقول « إن المعطوف محذوف » هو الفراء وأمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم وفهمهم لنوع من علم العربية

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٥ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .

(٣) سورة الملك آية رقم ٨ - ٩ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٨١ .

عندهم ، وكثيراً لا يكون ما فسروا به مطابقاً . وليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد ، ولكن الله ذكر في هذه السورة إنعامه على عباده ، وتسمى « سورة النعم » فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحياة إلا بها ، وذكر في أثنائها تمام النعم .

وكان ما بقي البرد من أصول النعم ، فذكر في أول السورة في قوله : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْافِعٌ ﴾^(١) . فالدفء ما يدفئ ويدفع البرد .

والبرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر ، فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر ، فإن الموت منه غير معتاد ، ولهذا قال بعض العرب البرد بؤس ، والحر أذى .

فلما ذكر في أثنائها تمام النعم ذكر الظلال وما بقي الحر ، وذكر الأسلحة وما بقي القتل ، فقال : ﴿ وَالله جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾^(٢) .

فذكر أنه يتم نعمته كما بين ذلك في هذه الآيات فقال : « كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾^(٣) .

وفرق بين الظلال والأكنان ، فإن الظلال يكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكن ، بخلاف ما في الجبال من الغيران فإنه يظل ويكن . فهذا في الأمكنة ، ثم قال في اللباس : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾^(٤) فهذا في اللباس ، واللباس والمساكن كلاهما تقي الناس ما

(١) سورة النحل آية رقم ٥ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٨١ .

يؤذيهم من حر وبرد وعدو ، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين .

وفي البيوت خاصة يسكنون ، كما قال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ (١) فلما ذكر البيوت المسكونة أمتن بكونه جعلها سكناً يسكنون فيها من تعب الحركات ، وذكر أنه جعل لهم بيوتاً أخرى يحملونها معهم ويستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم ، فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة التي تحمل .

فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم .

فقوله : ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ - كما قال مفسروا السلف والجمهور - على بابها ، قال الحسن البصري : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجه .

أحدها : أنه لم يخص قوماً دون قوم لكن قال : ﴿ فَذَكَرْ ﴾ وهذا مطلق بتذكير كل أحد ، وقوله : ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ لم يقل « إِنْ نَفَعَتِ كُلُّ أَحَدٍ » بل أطلق النفع . فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع . والتذكر المطلق العام ينفع . فإن من الناس من يتذكر فينتفع به ، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك ، فيكون غيره لغيره ، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً ، ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة ، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره ، فتحصل بالذكرى منفعة .

فكل تذكير ذكر به النبي ﷺ للمشركين حصل به نفع في الجملة ، وإن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة .

(١) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

فإن قيل : فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع ، فأى فائدة في التقييد ؟ .

قيل : بل منه ما لم ينفع أصلاً ، وهو ما لم يؤمر به ، وذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن ، كأبي لهب^(١) ، فإنه بعد أن أنزل الله قوله : ﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾^(٢) فإنه لا يخص بتذكير أحد بل يعرض عنه . وكذلك كل من لم يصغ إليه ولم يستمع لقوله فإنه يعرض عنه ، كما قال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾^(٣) ، ثم قال : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) فهو إذا بلغ قوماً الرسالة فقامت الحجة عليهم ، ثم امتنعوا من سماع كلامه أعرض عنهم ، فإن الذكرى حينئذ لا تنفع أحداً .

وكذلك من أظهر أن الحجة قامت عليه وأنه لا يهتدى فإنه لا يكرر التبليغ عليه .

الوجه الثاني : أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع ، كما هو أمر بالتذكير المشترك .

وهذا التام النافع يخص به المؤمنين المتتبعين ، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل ، وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به ويذكرهم بمعانيه ، ويذكرهم [بما] نزل قبل ذلك .

(١) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من قريش عم النبي ﷺ وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام ، كان غنياً عتياً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، فأذى انصاره وحرض عليهم وقتلهم وفيه نزل قول الله تعالى ﴿ تَبَتَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ﴾ مات بعد وقعة بدر عام ٢ هـ .

راجع ابن الأثير ٢: ٢٥ وتاريخ الاسلام للذهبي ١: ٨٤ و ١٦٩ والروض الأنف ١: ٢٦٥ ثم ٧٨ و ٧٩ .

(٢) سورة المسد آية رقم ٣ .

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

بخلاف الذين قال فيهم : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ ^(١) فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت عليهم وهم معرضون عن التذكرة لا يسمعون . ولهذا قال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ، أَوْ يَذْكَرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ ^(٢) فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر .

وقال : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى - إلى قوله - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ^(٣) فذكر التذكر والتزكي ، كما ذكرهما هناك ، وأمره أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض عنه ، فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذلك . فيكون مأموراً أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيراً يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة ، كما قال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ . فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ، وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ

(١) سورة المدثر الآيات من ٤٩ - ٥١ .

(٢) سورة عبس الآيات من ١ - ١٠ .

قال أبو يعلى وابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي حدثني أبي قال : هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ من ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني قالت وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين قالت فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول « أتري بما أقول بأساً ؟ » فيقول لا ، ففي هذا أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ وقد روى الترمذي هذا الحديث عن سعيد بن يحيى الأموي بإسناده مثله ثم قال : وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة عن أبيه قال : أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عائشة .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ١٠ - ١٤ .

(٤) سورة الذريات آية رقم ٥٤ - ٥٥ .

سَبِيلًا ﴿^(١)﴾ وفي الصحيحين عن ابن عباس : قال : « كان رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسيبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن جاء به ، فقال الله له : ﴿ ولا تجهر به فيسمعه المشركون ، ولا تخافت به عن أصحابك ﴾ ^(٢) فنهى عن أن يسمعه إسماعاً يكون ضرره أعظم من نفعه .

وهكذا كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته ، والمصلحة هي المنفعة ، والمفسدة هي المضرة ، فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة ، وهو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة ، وهذا يدل على الوجه الأول والثاني ، فحيث كان الضرر راجحاً فهو منهي عما يجلب ضرراً راجحاً .

والنفع أعم في قبول جميعهم ، فقبول بعضهم نفع ، وقيام الحجة على من لم يقبل نفع ، وظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع ، وبِقَاؤُهُ عند من سمعه حتى بلغه إلى من لم يسمعه نفع ، فهو ﷺ ما ذكر قط إلا ذكرى نافعة ، لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحاً .

وهذا مذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف أن ما أمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة ، وأما ما كانت مضرته راجحة فإن الله لا يأمر به .

وأما جهم ومن وافقه من الجبرية فيقولون : إن الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة البتة ، بل يكون ضرراً محضاً إذا فعله المأمور به ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك

(١) سورة الإسراء آية رقم ١١٠ .

(٢) قال الامام احمد : حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة . وأخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس به ، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس وزاد فلما هاجر الى المدينة سقط ذلك يفعل أي ذلك شاء .

المتكلمين - أبي الحسن [الأشعري وغيره - في] مسائل القدر ، فنصر مذهب
جهم والجبرية .

الوجه الثالث : أن قوله : ﴿ الذكرى ﴾ يتناول التذكر والتذكير ، فإنه
قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى ﴾^(١) فلا بد أن يتناول ذلك تذكيره .

ثم قال : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾^(٢) . والذي يتجنبه
الأشقى هو الذي فعله من يخشى ، وهو التذكر ، فضمير الذكرى هنا
يتناول التذكر ، وإلا فمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد .

لكن قد يراد بتجنبها أنه لم يستمع إليها ولم يصغ ، كما قال : ﴿ لَا
تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾^(٣) والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ ،
وتمكنهم من الاستماع والتدبر ، لا بنفس الاستماع ، ففي الكفار من تجنب
سماع القرآن واختار غيره ، كما يتجنب كثير من المسلمين سماع أقوال أهل
الكتاب وغيرهم ، وإنما ينتفعون إذا ذكروا فتذكروا ، كما قال : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ
يَخْشَى ﴾^(٤) .

فلما قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى ﴾ فقد يراد بالذكرى نفس
تذكيره - تذكر أو لم يتذكر - ، وتذكيره نافع لا محالة كما تقدم وهذا يناسب
الوجه الأول .

وقد ذكر بعضهم أن هذا يراد به توبيخ من لم يتذكر من قريش ، قال ابن
عطية : اختلف الناس في معنى قوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى ﴾ فقال
الفراء والنحاس والزهراوي : معناه « وإن لم تنفع » فاقصر على الاسم الواحد
لدلالته على الثاني .

(١) سورة الأعلى آية رقم ٩ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ١٠ - ١١ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٢٦ .

(٤) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .

قال : وقال بعض الحذاق : قوله ﴿ إِن نَفَعَت الذِّكْرَى ﴾ اعتراض بين الكلامين على وجه التوبيخ لقريش . أي . إِن نَفَعَت الذِّكْرَى في هؤلاء الطغاة العتاة ، وهذا كمنحوق قول الشاعر : -

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي
وهذا كله كما تقول لرجل : « قل لفلان واعذله إن سمعك » ، إنما هو توبيخ للمشار إليه .

« قلت » : هذا القائل هو الزمخشري وهذا القول فيه بعض الحق ، لكنه أضعف من ذاك القول من وجه آخر ، فإن مضمون هذا القول أنه مأمور بتذكير من لا يقبل ولا ينتفع بالذكرى دون من يقبل ، كما قال : « إِن نَفَعَت الذِّكْرَى في هؤلاء الطغاة العتاة » وكما أنشده في البيت .

ثم البيت الذي أنشده خبر عن شخص خاطب آخر فيقول : - لقد أسمعت لو كان من تناديه حياً ، وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذِرُونَ ﴾ ^(٣) فهذا يناسب معنى البيت ، وهو خبر خاص .

وأما الأمر بالانذار فهو مطلق عام ، وإن كان مخصوصاً فالمؤمنون أحق بالتخصيص ، كما قال : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) ليس الأمر مختصاً بمن لا يسمع .

(١) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٠ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة ق آية رقم ٤٥ .

(٥) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

كيف وقد قال بعد ذلك : ﴿ سِذْكَرُ مِنْ يَخْشَى . وَيتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾
فهذا الذي يخشى هو ممن أمره بتذكيره ، وهو ينتفع بالذكرى . فكيف لا
يكون لهذا الشرط فائدة إذا ذم من لم يسمع ؟ .

وأما قول القائل « قل لفلان واعذله إن سمعك » فهذا وأمثاله يقوله
الناس لمن يظنون أنه لا يقبل ولكن يرجون قبوله ، فهم يقصدون توبيخه على
تقدير الرد ، لا على تقدير القبول ، فيقولون : « قل له إن كان يسمع منك »
و « قل له إن كان يقبل » و « انصحه إن كان يقبل النصيحة » . وهو كله من هذا
الباب ، فهو أمر بالنصيحة التامة المقبولة إن كان يقبلها ، وأمر بأصل النصح
وإن رده وذم له على هذا التقدير .

وكذلك قوله : ﴿ فَذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ﴾ أمر بتذكير كل أحد ، فإن
انتفع كان تذكره تاماً نافعاً ، وإلا حصل أصل التذكير الذي قامت به الحجة ،
ودل ذلك على ذمه واستحقاقه التوبيخ .

مع أنه سبحانه إنما قال : ﴿ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ﴾ ولم يقل : ذكر من
تنفعه الذكرى فقط . كما في قوله : ﴿ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدَ ﴾^(١) فهناك الأمر بالتذكير خاص .

وقد جاء عاماً وخاصاً كخطاب القرآن بـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وهو عام
وبـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خاص لمن آمن بالقرآن .

فهناك قال : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) وهنا قال : ﴿ سِذْكَرُ
مَنْ يَخْشَى ، وَيتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾^(٣) ولم يقل « سيتنفع من يخشى » فإن
النفع الحاصل بالتذكير أعم من تذكر من يخشى .

فإنه إذا ذكر قامت الحجة على الجميع ، والأشقى الذي تجنبها حصل

(١) سورة ق آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ١٠ - ١١ .

بتذكيره قيام الحجة عليه واستحقاقه لعذاب الدنيا والآخرة ، وفي ذلك الله حكم ومنافع هي نعم على عباده ، فكل ما يقضيه الله تعالى هو من نعمته على عباده ولهذا يقول عقب تعديد ما يذكره : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) .

ولما ذكر ما ذكره في سورة النجم وذكر إهلاك مكذبي الرسل قال : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ (٢) فإهلاكهم من آلاء ربنا . وآلؤه نعمه التي تدل على رحمته ، وعلى حكمته ، وعلى مشيئته ، وقدرته وربوبيته سبحانه وتعالى .

ومن نفع تذكير الذي يتجنبها أنه لما قامت عليه الحجة واستحق العذاب خف بذلك شر عن المؤمنين ، فإن الله يهلكهم بعذاب من عنده أو بأيديهم ، وبهلاكه ينتصر الإيمان ويتنشر ، ويعتبر به غيره ، وذلك نفع عظيم .

وهو أيضاً يتعجل موته فيكون أقل لكفره ، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين ، فبه تصل الرحمة إلى كل أحد بحسب الإمكان . وأيضاً ، فإن الذي يتجنبها بتجنبه استحق هذا الوعيد المذكور ، فصار ذلك تحذيراً لغيره من أن يفعل مثل فعله ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ (٣) وقال تعالى عن فرعون : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافاً وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

(١) سورة الرحمن الآيات ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٦٦ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٥٦ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

فصل

وقوله : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾^(١) يقتضي أن كل من يخشى يتذكر ، والخشية قد تحصل عقب الذكر ، وقد تحصل قبل الذكر وقوله ﴿ من يخشى ﴾ مطلق . ومن الناس من يظن أن ذلك يقتضي أنه لا بد أن يكون قد خشي أولاً حتى يذكر ، وليس كذلك ، بل هذا كقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾^(٢) وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾^(٣) وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾^(٤) .

وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه ، لم يكن وعيد قبل سماع القرآن وكذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾^(٥) وهو إنما اتبع الذكر وخشي الرحمن بعد أن أنذره الرسول .

وقد لا يكونون خافوها قبل الإنذار ولا كانوا متقين قبل سماع القرآن ، بل به صاروا متقين .

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة ق آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة يس آية رقم ١١ .

(٥) سورة يس آية رقم ١١ .

وهذا كما يقول القائل : ما يسمع هذا إلا سعيد ، وإلا مفلح ، وإلا من رضي الله عنه ، وما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله ، ونحو ذلك ، وإن كانت هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الإسلام وسماع القرآن .

ومثل هذا قوله : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ^(١) وقد قال في نظيره ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ ^(٢) وإنما يشقى بتجنبها وهذا كما يقال : إنما يحذر من يقبل ، وإنما ينتفع بالعلم من عمل به . فمن استمع القرآن فآمن به وعمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم ، ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين ، ولم يكن ممن اهتدى به . بل هو كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ^(٣) ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين ، فلما سمعوه صار هدى وشفاء ، بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار في حقه هدى وشفاء ، وكان من المؤمنين به بعد سماعه .

وهذا كقوله في النوع المذموم : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ^(٤) ولا يجب أن يكونوا فاسقين قبل ضلالهم ، بل من سمعه فكذب به صار فاسقاً وضل .

وسعد بن وقاص وغيره أدخلوا في هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج . وكان سعد يقول : هم من ﴿ الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ولم يكن علي وسعد ، وغيرهما من الصحابة يكفرونهم .

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢٠ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ١١ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٤٤ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٦ - ٢٧ .

وسعد أدخلهم في هذه الآية لقوله : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ وهم ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه وتأويله على غير ما أراد الله ، فتمسكوا بمتشابهه ، وأعرضوا عن محكمه وعن السنة الثابتة التي تبين مراد الله بكتابه ، فخالفوا السنة وإجماع الصحابة مع ما خالفوه من محكم كتاب الله تعالى .

ولهذا أدخلهم كثير من السلف في الذين ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ^(١) الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً ﴾ ^(٢) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود الآية ، وقد دلت على أن كل من يخشى فلا بد أن يتذكر ، فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية ، وقد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكر . وهذا المعنى ذكره قتادة . فقال : والله ! ما خشي الله عبد قط إلا ذكره .

﴿ ويتجنبها الأشقى ﴾ قال قتادة : فلا والله ! لا يتكبر عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً له ولأهله إلا شقياً بين الشقاء .

والخشية في القرآن مطلقة تتناول خشية الله وخشية عذابه في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ، إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥٩ .

(٣) سورة النازعات الآيات رقم ٤٢ - ٤٥ .

(٤) سورة ق آية رقم ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ، يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السُّمُومِ ﴾ (٢) .

(١) سورة الشورى آية رقم ١٧ - ١٨ .

(٢) سورة الطور آية رقم ٢٦ - ٢٧ .

فصل

- الكلام على قوله : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾^(١) وفي هذه الآية قال : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾^(٢).

وقال في قصة فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾^(٣) فعطف الخشية على التذكر .

وقال : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾^(٤).

وفي قصة الرجل الصالح المؤمن الأعمى قال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ، أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾^(٥).

وقال في ﴿ حَمَّ ﴾ المؤمن : ﴿ ذَلِكَمُ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا . فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ . هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ

(١) سورة ق آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .

(٣) سورة طه آية رقم ٤٤ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٦٢ .

(٥) سورة عبس الآيات رقم ٣ - ٤ .

وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا . وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١﴾ فقال : ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ .

والإنابة جعلها مع الخشية في قوله : ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ (٢) .

وذلك لأن الذي يخشى الله لا بد أن يرجوه ويطمع في رحمته ، فينيب إليه ويحبه ، ويحب عبادته وطاعته ، فإن ذلك هو الذي ينجيهِ مما يخشاه ، ويحصل به ما يحبه .

والخشية لا تكون ممن قطع بأنه معذب ، فإن هذا قطع بالعذاب - يكون معه القنوط ، واليأس ، والإبلاس ، ليس هذا خشية وخوفاً ، وإنما يكون الخشية والخوف مع رجاء السلامة ولهذا قال : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ ﴾ (٣) .

فصاحب الخشية لله ينيب إلى الله ، كما قال : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ (٤) وهذا يكون مع تمام الخشية والخوف .

فأما في مبادئها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب والذنب الذي يقتضيه ، فيشتغل بطلب النجاة والسلام ، ويعرض عن طلب الرحمة والجنة .

(١) سورة غافر الآيات رقم ١٢ - ١٣ .

(٢) سورة ق آية رقم ٣٢ - ٣٤ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ٢٢ .

(٤) سورة ق الآيات من ٣١ - ٣٤ .

وقد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها وتقابلها ، فينجو بذلك من النار ولا يستحق الجنة ، بل يكون من أصحاب الأعراف ، وإن كان مآلهم إلى الجنة فليسوا ممن أزلت لهم الجنة - أي قربت لهم - إذ كانوا لم يأتوا بخشية الله والإنابة إليه واستجمل بعد ذلك .

فصل في الخشية والتذكر

وأما قوله في قصة فرعون : ﴿لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(١) وقوله : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَزَكَّى . أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَتَهُ الذِّكْرَى﴾^(٢) فلا يناقض هذه الآية ، لأنه لم يقل في هذه الآية ﴿سيخشى من يذكر﴾ بل ذكر أن كل من خشي فإنه يتذكر - إما أن يتذكر فيخشى ، وإن كان غيره يتذكر فلا يخشى ، وإما أن تدعوه الخشية إلى التذكر ، فالخشية مستلزمة للتذكر ، فكل خاش متذكر .

كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٣) فلا يخشاه إلا عالم ، فكل خاش لله فهو عالم ، هذا منطوق الآية .

وقال السلف وأكثر العلماء إنها تدل على أن كل عالم فإنه يخشى الله ، كما دل غيرها على أن كل من عصى الله فهو جاهل .

كما قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن قوله : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾^(٤) فقالوا لي : « كل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال مجاهد ، والحسن البصري ، وغيرهم من العلماء

(١) سورة طه آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة عبس آية رقم ٣ - ٤ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٧ .

التابعين ومن بعدهم .

وذلك أن الحصر في معنى الاستثناء ، والاستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء ، فنفي الخشية عمن ليس من العلماء ، وهم العلماء به الذين يؤمنون بما جاءت به الرسل ، يخافونه .

قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) وأثبتها للعلماء .

فكل عالم يخشاه ، فمن لم يخش الله فليس من العلماء ، بل من الجهال ، كما قال عبد الله بن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً » وقال رجل للشعبي : « أيها العالم » فقال : « إنما العالم من يخشى الله ! » .

فكذلك قوله : ﴿ سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ ^(٢) يقتضي أن كل من يخشاه فلا بد أن يكون ممن تذكر .

وقد ذكر أن الأشقي يتجنب الذكرى ، فصار الذي يخشى ضد الأشقي ، فلذلك يقال « من تذكر خشي » .

والتحقيق أن التذكر سبب الخشية ، فإن كان تاماً أوجب الخشية كما أن العلم سبب الخشية ، وعلى هذا فقوله في قصة فرعون ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ^(٣) جعل ذلك نوعية لما في ذلك من الفوائد .

(١) سورة الزمر آية رقم ٩ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .

(٣) سورة طه آية رقم ٤٤ .

أحدها : أنه إذا تذكر أنه مخلوق وأن الله خالقه ، وليس هو إلهاً ورباً كما ذكر ، وذكر إحسان الله إليه ، فهذا التذكر يدعوه إلى اعترافه بربوبية الله وتوحيده وإنعامه عليه ، فيقتضي الإيمان والشكر وإن قدر أن الله لا يعذبه .

فإن مجرد كون الشيء حقاً ونافعاً يقتضي طلبه وإن لم يخف ضرراً بعدمه ، كما يسارع المؤمنون إلى فعل التطوعات والنوافل لما فيها من النفع وإن كان لا عقوبة على تركها ، كما يحب الإنسان علوماً نافعة وإن لم يتضرر بتركها ، وكما قد يحب محاسن الأخلاق ومعالي الأمور لما فيها من المنفعة واللذة في الدنيا والآخرة ، وإن لم يخف ضرراً بتركها . فهو إذا تذكر آلاء الله وتذكر إحسانه إليه ، فهذا قد يوجب اعترافه بحق الله وتوحيده وإحسانه إليه ويقتضي شكره لله وتسليم قوم موسى إليه ، وإن لم يخف عذاباً ، فهذا قد حصل بمجرد التذكر .

قال : ﴿ أو يخشى ﴾ ونفس الخشية إذا ذكر له موسى ما توعدده الله به من عذاب الدنيا والآخرة فإن هذا الخوف قد يحمله على الطاعة والانقياد ولو لم يتذكر .

وقد يحصل تذكر بلا خشية ، وقد يحصل خشية بلا تذكر ، وقد يحصلان جميعاً ، وهو الأغلب . قال تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾^(١) وأيضاً فذكر الإنسان يحصل بما عرفه من العلوم قبل هذا فيحصل بمجرد عقله ، وخشيته تكون بما سمعه من الوعيد ، فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به ، والثاني يكون ممن له أذن يسمع بها .

وقد تحصل الذكرى الموجبة للخير بهذا وبهذا ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ

(١) سورة طه آية رقم ٤٤ .

مَحِيصٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿١﴾ .

الفائدة الثانية : أن التذكر سبب الخشية ، والخشية حاصلة عن التذكر ، فذكر التذكر الذي هو السبب ، وذكر الخشية التي هي النتيجة - وإن كان أحدهما مستلزماً للآخر - كما قال - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) وكما قال أهل النار - : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٣) فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر .

فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعاً يعقل به ما قالوه ينجو ، وإلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه ، كما قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ : آفَافاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤) وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّهْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) وقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

وكذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع ، وقد اعترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ

(١) سورة ق آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة ق آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة الملك آية رقم ١٠ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٤٦ .

(٥) سورة محمد آية رقم ١٦ .

(٦) سورة يونس آية رقم ٤٢ .

(٧) سورة يوسف آية رقم ٢ .

شَيْءٍ ﴿١﴾ وكذلك الاعتبارين بآثار المعذبين الذين قال فيهم : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ﴿٢﴾ إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل والناجين الذين صدقوهم ، فسمعوا قول الرسل وصدقوهم .

الفائدة الثالثة : أن الخشية أيضاً سبب للتذكر كما تقدم ، فكل منهما قد يكون سبباً للآخر ، فقد يخاف الإنسان فيتذكر ، وقد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها ، ويتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله .

فإن قيل : مجرد ظن المخوف قد يوجب الخوف ، فكيف قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ﴿٣﴾ ؟

قيل : النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن ، وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة ، وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يترك هواه ، ولهذا قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى في ذم الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِّينَ ﴾ ﴿٥﴾ ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون . ولهذا أقسم الرب على وقوع العذاب والساعة .

وأمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة وعلى أن القرآن حق فقال :

(١) سورة الملك آية رقم ٩ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٤٦ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة النازعات آية رقم ٤٠ .

(٥) سورة الجاثية آية رقم ٣٢ .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴿١﴾ ﴾ وقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ﴿٢﴾ وقال : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ ﴾ ﴿٣﴾ .

(١) سورة التغابن آية رقم ٧ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ٣ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٥٣ .

فصل في الإنابة والتذكر

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾^(١) فهو حق كما قال . فإن المتذكر إما أن يتذكر ما يدعو إلى الرحمة والنعمة والثواب كما يتذكر الإنسان ما يدعو إلى السؤال - فينيب ، وإما أن يتذكر ما يقتضي الخوف والخشية فلا بد له من الإنابة حيثئذ لينجو مما يخاف ، ولهذا قيل في فرعون ﴿ لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ ﴾ فينيب ، ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ وكذلك قال له موسى ﴿ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾^(٢) فجمع موسى : بين الأمرين لتلازمهما .

وقال في حق الأعمى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾^(٣) فذكر الانتفاع بالذكرى ، كما قال : ﴿ وَذَكَّرْ ، فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) والنفع نوعان : حصول النعمة ، واندفاع النقمة ، ونفس اندفاع النقمة نفع وإن لم يحصل معه نفع آخر ، ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع ، وكلاهما نفع ، فالنفع تدخل فيه الثلاثة ، والثلاثة تحصل بالذكرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَكَرْ ، فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال :

(١) سورة غافر آية رقم ١٣ .

(٢) سورة النازعات آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٣) سورة عبس آية رقم ٣ - ٤ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

﴿ وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتتفعه الذكرى ﴾ .

وأما ذكر التزكي مع التذكر فهو كما ذكر في قصة فرعون الخشية مع التذكر .

وذلك أن التزكي هو الإيمان والعمل الصالح الذي تصير به نفس الإنسان زكية ، كما قال في هذه السورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾^(١) : وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾^(٢) . وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾^(٣) وقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾^(٤) وقال موسى لفرعون : ﴿ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ، وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾^(٥) . وعطف عليه ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾^(٦) لوجوه :

أحدها : أن التزكي يحصل بامثال أمر الرسول وإن كان صاحبه لا يتذكر علوماً عنه ، كما قال : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾^(٧) ثم قال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾^(٨) فالتلاوة عليهم والتزكية عام لجميع المؤمنين ، وتعليم الكتاب والحكمة خاص ببعضهم ، وكذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول ، وأما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها ! فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه .

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٤ - ١٥ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٩ - ١٠ .

(٣) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

(٤) سورة فصلت آية رقم ٦ - ٧ .

(٥) سورة النازعات آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٦) سورة عبس آية رقم ٤ .

(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

(٨) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

الوجه الثاني : أن قوله : ﴿أو يذكر فتنتفعه الذكرى﴾ يدخل فيه النفع قليله وكثيره ، والتركي أخص من ذلك .

الثالث : أن التذكر سبب التركي ، فإنه إذا تذكر خاف ورجا فتزكى ، فذكر الحكم وذكر سببه ، ذكر العمل وذكر العلم ، وكل منهما مستلزم للآخر .

فإنه لا يتزكى حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول ، كما قال : ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾^(١) فلا بد لكل مؤمن من خشية وتذكر .

وهو إذا تذكر فإنه ينتفع ، وقد تتم المنفعة فيتزكى .
وقوله : ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾^(٢) فيه أيضاً نحو هذه الوجوه :

فإن الشاكر قد يشكر الله على نعمه وإن لم يخف ، والتذكر قد يقتضي الخشية .

وأيضاً فإن التذكر يقتضي الخوف من العقاب وطلب الثواب فيعمل للمستقبل ، والشكر على النعم الماضية .

وأيضاً فالتذكر تذكر علوم سابقة ، ومنها تذكر نعم الله عليه ، فهو سبب للشكر ، تذكر السبب والمسبب .

وأيضاً فإن الشكر يقتضي المزيد من النعم ، والتذكر قد يكون لهذا ، وقد يكون خوفاً من العذاب .

وقد يكون الأمر بالعكس ، فالشاكر قد يشكر الشكر الواجب لثلاث يكون كفوراً فيعاقب على ترك الشكر بسلب النعمة وعقوبات أخرى ، والمتذكر قد

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٢ .

يتذكر ما أعدده الله لمن أطاعه فيطيعه طلباً لرحمته .

وأيضاً فالتذكر قد يكون لفعل الواجبات التي يدفع بها العقاب ، والشكور يكون للمزيد من فضله ، كما في الصحيحين أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه ، فقليل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟^(١) .

وقال ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت : إما محسن فيزداد إحساناً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعيب »^(٢) فال مؤمن دائماً في نعمة من ربه تقتضي شكراً ، وفي ذنب يحتاج إلى استغفار . وهو في سيد الاستغفار يقول : « أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »^(٣) .

وقد علم تحقيق قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾^(٤) فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكراً ، وما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضي تذكراً لذنوبه يوجب توبة واستغفاراً .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتابه إقامة الصلاة ٢٠٠ باب ما جاء في طول القيام في الصلوات ١٤٢٠ بسنده عن أبي هريرة . قال كان رسول الله ﷺ وذكره .

وفي الزوائد : اسناد حديث أبي هريرة قوي ، احتج مسلم بجميع رواته ورواه أصحاب الكتب الستة سوى أبي داود من حديث المغيرة والترمذي من حديث جابر .

(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري في كتاب المرض ١٩ باب تمني الموت ٥٦٧٣ بسنده عن عبد الرحمن بن عوف أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لن يدخل أحداً عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسدّدوا وقاربوا وذكره .

ورواه النسائي في الجنائز ١ والدارمي في الرقاق ٤٥ واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٣ ، ٣٠٩ (حلي) .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وقد جعل الله ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾^(١) فيتوب ويستغفر من ذنوبه ، ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ لربه على نعمه ، وكل ما يفعله الله بالعبد من نعمة ، وكل ما يخلفه الله ، فهو نعمة الله عليه ، فكلما نظر إلى ما فعله ربه شكر ، وإذا نظر إلى نفسه استغفر .

والتذكير قد يكون تذكر ذنوبه وعقاب ربه ، وقد يدخل فيه تذكر آلائه ونعمه ، فإن ذلك يدعو إلى الشكر قال تعالى : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(٢) في غير موضع ، فقد أمر بذكر نعمه ، فالمتذكر يتذكر نعم ربه ، ويتذكر ذنوبه .

وأيضاً فهو ذكر الشكور لأنه مقصود لنفسه ، فإن الشكر ثابت في الدنيا والآخرة ، وذكر التذكر لأنه أصل للاستغفار ، والشكر ، وغير ذلك ، فذكر المبدأ وذكر النهاية ، وهذا المعنى يجمع ما قيل ، والله سبحانه أعلم .

(١) سورة الفرقان آية رقم ٦٢ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٩ وتكملة الآية ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ فَارِسِلْنَا عَلَيْهِمْ رِجَالاً وَجُنُوداً لَمْ تَرْوَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ .

فصل

والتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره ، كما قال : ﴿ أُولَٰمُ نُعَمَّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾^(١) أي قامت الحجة عليكم بالنذير الذي جاءكم ، وبتعميركم عمراً يتسع للتذكر .

وقد أمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع ، كقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾^(٢) .

والمطلوب بذكرها شكرها ، كما قال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، فَادْكُرُونِي أذكركم واشكروا لي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾ يتناول كل من خوطب

(١) سورة فاطر آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٣١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٥٠ - ١٥٢ .

بالقرآن . وكذلك قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) . فالرسول من أنفس من خوطب بهذا الكلام ، إذ هي كاف الخطاب .

ولما خوطب به أولاً قريش ، ثم العرب ، ثم سائر الأمم ، صار يخص ويعم بحسب ذلك .

وفيه ما يخص قريشاً كقوله : ﴿ لَا يَلَا فُ قُرَيْشٍ ، إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ^(٣) .

وفيه ما يعم العرب ويخصهم كقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ ^(٤) والأميون يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب . ثم قال : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ^(٥) فهذا يتناول كل من دخل في الإسلام بعد دخول العرب فيه إلى يوم القيامة ، كما قال ذلك مقاتل ابن حيان ^(٦) ، وعبد الرحمن بن زيد وغيرهما .

فإن قوله ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ أي في الدين دون النسب ، إذ لو كانوا منهم في النسب لكانوا من الأميين .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٢٨ .

(٢) سورة قريش آية رقم ١ ، ٢ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٤٤ .

(٤) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

(٥) سورة الجمعة آية رقم ٣ .

(٦) هو مقاتل بن حيان النبطي أبو بسطام البلخي الخراز مولى بكر بن وائل . روى عن عمته عمرة ، وسعيد بن المسيب ، وأبي بردة بن أبي موسى وعكرمة وسالم بن عبد الله وغيرهم ، وعنه أخوه مصعب بن حيان وعلقمة بن مرثد وعبد الله بن المبارك وغيرهم . قال اسحاق بن منصور عن يحيى بن معين ثقة ، وقال أبو داود ثقة ، وقال النسائي ليس به بأس مات قبل الخمسين ومائة تقريباً .

راجع تهذيب التهذيب ١٠ : ٢٧٩ .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ (١) .

وقد ثبت في الصحيح أن هذه الآية لمانزلت سئل النبي ﷺ عنهم فقال : « لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » (٢) فهذا يدل على دخول هؤلاء - لا يمنع دخول غيرهم من الأمم .

وإذا كانوا هم منهم فقد دخلوا في قوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٣) فالمنة على جميع المؤمنين - عربهم وعجمهم ، سابقهم ولحقهم ، والرسول منهم لأنه إنسي مؤمن ، وهو من العرب أخص لكونه عربياً جاء بلسانهم ، وهو من قريش أخص .

والخصوص يوجب قيام الحجة ، لا يوجب الفضل ، إلا بالإيمان والتقوى لقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤) .

ولهذا كان الأنصار أفضل من الطلقاء من قريش ، وهم ليسوا من ربيعة ولا مضر ، بل من قحطان .

وأكثر الناس على أنهم من ولد هود ، ليسوا من ولد إبراهيم . وقيل إنهم من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال : « ارموا ، فإن أباكم كان رامياً » (٥) وأسلم من خزاعة ، وخزاعة من ولد إبراهيم .

(١) سورة الأنفال آية رقم ٧٥ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

(٤) سورة الحجرات آية رقم ١٣ .

(٥) الحديث رواه البخاري ٧٨ باب التحريض على الرمي ٣٨٩٩ حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن يزيد بن أبي عبيد قال سمعت سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون فقال النبي ﷺ ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا=

وفي هذا كلام ليس هذا موضعه ، إذ المقصود أن الأنصار أبعد نسباً من كل ربيعة ومضر مع كثرة هذه القبائل . [مع هذا هم أفضل] من جمهور قریش ، إلا من السابقين الأولين من المهاجرين - وفيهم قرشي وغير قرشي .

ومجموع السابقين ألف وأربعمائة غير مهاجري الحبشة .

فقوله : « لقد جاءكم » يخص قریشاً ، والعرب ، ثم يعم سائر البشر لأن القرآن خطاب لهم ، والرسول من أنفسهم ، والمعنى ليس بملك لا يطبقون الأخذ منه ، ولا جني .

ثم يعم الجن لأن الرسول أرسل إلى الإنس والجن ، والقرآن خطاب للثقلين ، والرسول منهم جميعاً ، كما قال : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ ﴾^(١) فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الإنس .

فإن الإنس والجن مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين . فإنهم يأكلون ويشربون ، وينكحون وينسلون ، ويغتذون وينمون بالأكل والشرب . وهذه الأمور مشتركة بينهم ، وهم يتميزون بها عن الملائكة ، ! فإن الملائكة لا تأكل ولا تشرب ، ولا تنكح ولا تنسل .

فصار الرسول من أنفس الثقلين باعتبار القدر المشترك بينهم الذين تميزوا به عن الملائكة ، حتى كان الرسول مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة .

وكذلك قوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾^(٢) هو كقوله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ

= وأنا مع بني فلان . قال : فامسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله ﷺ ما لكم لا ترمون .. ؟ قالوا : كيف نرمي وأنت معهم .. ؟ فقال النبي ﷺ « ارموا فأنا معكم كلكم » .
ورواه ابن ماجه في الجهاد ١٩ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٦٤ ، ٤ : ٥٠ (حلي) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

الكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴿١﴾ وقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

ثم قال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (٣) والمقصود أنه أمر بذكر النعم وشكرها .

وقال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٤) في غير موضع . وقال للمؤمنين : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ ﴾ (٥) فذكر النعم من الذكر الذي أمروا به .

ومما أمروا به تذكُّر قصص الأنبياء المتقدمين ، كما قال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ (٧) ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ (٨) ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ (٩) وقال : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ (١٠) ، ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (١١) ، ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ ﴾ (١٢).

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٥١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٥٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٤٧ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٨٦ .

(٦) سورة مريم آية رقم ٤١ .

(٧) سورة مريم آية رقم ٥١ .

(٨) سورة مريم آية رقم ٥٤ .

(٩) سورة مريم آية رقم ٥٦ .

(١٠) سورة ص آية رقم ١٧ .

(١١) سورة ص آية رقم ٤٥ .

(١٢) سورة ص آية رقم ٤٨ .

ومما أمروا به تذكـرة ما وعدوا به من الثواب والعقاب . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ (١) .

ومما أمروا بتذكـره آيات الله التي يستدلون بها على قدرته وعلى المعاد ، كقوله : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ، أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ (٢) وقد قال لموسى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ (٣) . وهي تتناول أيام نعمه ، وأيام نقمه ليذكروا ويعتبروا .

ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٤) فإن ذكر النعم يدعو إلى الشكر ، وذكر النقم يقتضي الصبر على فعل المأمور وإن كرهته النفس ، وعن المحذور وإن أحبته النفس ، لئلا يصيبه ما أصاب غيره من النعمة .

(١) سورة ص آية رقم ٤٦ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٦ - ٦٧ .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ٥ .

(٤) سورة ابراهيم آية رقم ٥ .

فصل

أهل النار لا يموتون ولا يحيون

وقوله : ﴿ وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾^(١) وقد ذكر في سورة الليل قوله : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾^(٢) وهذا الصلى قد فسرہ النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال : بخطاياهم - فأماتهم ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضباطر ضباطر ، فبشوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة ! أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل »^(٣) فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية . وفي رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال : ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، ثنا أبي ، ثنا سليمان التيمي ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ،

(١) سورة الأعلى آية رقم ١١ - ١٣ .

(٢) سورة الليل آية رقم ١٤ - ١٦ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان باب اثبات الشفاعة واخراج الموحدين من النار .
حدثني نصر بن علي الجهضمي حدثنا بشر يعني ابن الفضل عن ابي مسلمة عن ابي نضرة عن ابي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .
وأخرجه ابن ماجه في الزهد ٣٧ والدارمي في الرقاق ٩٦ واحمد بن حنبل في المسند ١١ : ٣ ، ٢٥ ، ٧٩ (حلي) .

أن رسول الله ﷺ خطب ، فأتى على هذه ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾^(١) فقال النبي ﷺ « أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون » وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون ، فيؤتى بهم إلى نهر يقال له الحياة ، أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغشاء في حميل السيل^(٢) .

فقد بين النبي ﷺ « [أن] هذا المصلى لأهل النار الذين هم أهلها ، وأن الذين ليسوا عن أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحماً ، ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل .

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ - بل متواتر - في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وغيرهما .

وفيها الرد على طائفتين . على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون : « إن أهل التوحيد يخلدون فيها » وهذه الآية حجة عليهم ، وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة « أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد » فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك .

وفيه رد على من يقول « يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحداً النار » كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة ، ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة - وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن وغيرهم ، كالقاضي^(٣) أبي

(١) سورة طه آية رقم ٧٤ - سورة الأعلى آية رقم ١٣ .

(٢) قال الامام أحمد بن حنبل : حدثنا اسماعيل أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

وقال ابن أبي حاتم ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال : حدثنا أبي حدثنا حبان سمعت سليمان التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿ إنه من أت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وذكره .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ - ٤٠

بكر وغيره ، فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم .

والقول بـ « أن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد » ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه ، لكن حكى عن مقاتل بن سليمان وقال : احتج من قال ذلك بهذه الآية .

وقد اجبوا بجوابين : -

أحدهما : جواب طائفة ، منهم الزجاج^(١) ، قالوا : هذه نار مخصوصة . لكن قوله بعدها ﴿ وَسُجِّنْهَا الْأَتَقَى ﴾^(٢) لا يبقى فيه كبير وعد ، فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها .

وجواب آخرين قالوا : لا يصلونها صلى خلود ، وهذا أقرب : وتحقيقه أن المصلى هنا هو الصلى المطلق ، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائماً .

فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلى ، ليس هو الصلى المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله ، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود ، والله أعلم .

= وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ .

(١) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد عام ٢٤١ هـ ومات في بغداد عام ٣٣١ هـ كان في فتوته يخرط الزجاج ومال الى النحو فعلمه المبرد وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدباً لابنه القاسم ، فدلّه المبرد على الزجاج ، فطلبه الوزير فأدب له ابنه الى ان ولي الوزارة مكان أبيه ، فجعله القاسم من كتابه فأصاب في أيامه ثروة كبيرة وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره . من كتبه (معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (خلق الإنسان) والأمال في الأدب واللغة وغير ذلك كثير .

راجع معجم الأدباء ١ : ٤٧ وآداب اللغة ٢ : ١٨١ وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩ وابن خلكان ١ : ١١ .

(٢) سورة الليل آية رقم ١٧ .

فصل

التزكية ذكرت في كتب الله السابقة

جمع الله سبحانه بين إبراهيم وموسى - ﷺ وعلى سائر المرسلين - في أمور ، مثل قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (١) .

وفي حديث أبي ذر الطويل قلت : يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله ؟ . قال : « مائة كتاب وأربعة كتب : ثلاثين صحيفة على شيت ، وخمسين على إدريس ، وعشر على إبراهيم ، وعشر على موسى قبل التوراة ، وأنزل التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان » وقال في الحديث : فهل عندنا شيء مما في صحف إبراهيم ؟ فقال : « نعم » وقرأ قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (٢) .

فإن التزكي هو التطهر والتبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس ، كما قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٣) ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة ، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين - إزالة الشر ،

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ١٤ - ١٩ .

(٣) سورة الشمس آية رقم ٩ .

وزيادة الخير ، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان . وذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله ، وعبادته وحده لا شريك له ، الذي هو أصل الإيمان ، وهو قوله : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ^(١) فهذه الثلاث - قد يقال - تشبه الثلاث التي يجمع الله بينها في القرآن في مواضع ، مثل قوله في أول البقرة ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ^(٢) ومثل قوله : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ^(٣) ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ^(٤) .

وقد يقال : تشبه الثنتين المذكورتين في قوله ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ^(٥) - الآية ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ^(٦) .

لكن هنا التزكي في الآية أعم من الانفاق ، فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك .

فأول التزكي التزكي من الشرك ، كما قال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ،
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ ^(٧) وقال : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ^(٨) .
والتزكي من الكبائر ، الذي هو تمام التقوى ، كما قال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ^(٩) . وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٥ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ١١ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

(٦) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٧) سورة فصلت آية رقم ٦ - ٧ .

(٨) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

(٩) سورة النجم آية رقم ٣٢ .

اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿١﴾^(١) فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى .

ومنه التزكي بالطهارة ، وبالصدقة والإحسان ، كما قال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٢) .

و ﴿ ذكر اسم ربه ﴾ قد يعني به الإيمان بالله ، و « الصلاة » : العمل ، فقد يذكر اسم ربه من لا يصلي .

ومن الفقهاء من يقول : هو ذكر اسمه في أول الصلاة ، ولهذا - والله أعلم - قدم التزكي في هذه الآية .

وكان طائفة من السلف إذا أدوا صدقة الفطر قبل صلاة العيد يتأولون بهذه الآية ، وكان بعض السلف - أظنه يزيد بن أبي حبيب^(٣) يستحب أن يتصدق أمام كل صلاة لهذا المعنى .

ولما قدم الله الصلاة على النحر في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾^(٤) وقدم التزكي على الصلاة في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾^(٥) كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة في عيد الفطر ، وان الذبح بعد الصلاة في عيد النحر .

ويشبهه - والله أعلم - أن يكون الصوم من التزكي المذكور في الآية . فإن

(١) سورة النساء آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

(٣) هو يزيد بن سويد الأزدي بالولاء المصري أبو رجاء مفتي أهل مصر في صدر الاسلام ، وأول من أظهر علوم الدين والفقه بها قال الليث : يزيد عالمنا وسيدنا ، كان نوبياً أسود ، أصله من دنقله وفي ولاته للأزد ونسبته اليهم أقوال وكان حجة حافظاً للحديث توفي عام ١٢٨ هـ .

راجع تذكرة ١ : ١٢١ وتهذيب ١١ : ٣١٨ وتاريخ الاسلام للذهبي ٥ : ١٨٤ .

(٤) سورة الكوثر آية رقم ٢ .

(٥) سورة الأعلى آية رقم ١٤ - ١٥ .

الله يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(١) فمقصود الصوم التقوى ، وهو من معنى التزكي .

وفي حديث ابن عباس : « فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين »^(٢) فالصدقة من تمام طهرة الصوم ، وكلاهما متقدم على صلاة العيد . فجمعت هاتان الكلمتان الترغيب فيما أمر الله به من الإيمان والعمل الصالح وفي قوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾^(٣) الإيمان باليوم الآخر .

وهذه الأصول المذكورة في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٤) .

وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾^(٥) وقال أيضاً : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ، أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴾^(٦) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٣ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزكاة ٢١ باب صدقة الفطر ١٨٢٧ حدثنا عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان ، واحمد بن الأزهر قالا : ثنا مروان بن محمد ، ثنا أبو يزيد الخولاني عن سيار بن عبد الرحمن الصديقي عن عكرمة عن ابن عباس قال : وذكره ، وفيه زيادة (فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات) .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ١٦ - ١٧ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

(٥) سورة الأعلى آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٦) سورة النجم آية رقم ٣٣ - ٤١ .

وأيضاً ، فإن إبراهيم صاحب الملة وإمام الأمة قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ﴾ ^(٤) وقال : - ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ ^(٥) .

وموسى صاحب الكتاب والكلام والشريعة ، الذي لم ينزل من السماء كتاب أهدي منه ومن القرآن .

ولهذا قرن بينهما في مواضع ، كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً - إلى قوله - وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ ^(٦) وقوله : ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ - إلى قوله - قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ ﴾ ^(٧) وقول الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ^(٨) وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ ^(٩) وقول النجاشي : - « إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٢٠ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٢٤ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ٩١ - ٩٢ .

(٧) سورة القصص آية رقم ٤٨ - ٤٩ .

(٨) سورة الأحقاف آية رقم ٣٠ .

(٩) سورة الأحقاف آية رقم ١٠ .

وقيل في موسى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾^(١) وفي إبراهيم
﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾^(٢) وأصل الخلّة عبادة الله وحده ، والعبادة غاية
الحب والذل وموسى صاحب الكتاب والكلام .

ولهذا كان الكفار بالرسول ينكرون حقيقة خلّة إبراهيم وتكليم موسى :
ولما نبغت البدع الشركية في هذه الأمة أنكر ذلك الجعد بن درهم^(٣) فقتله
المسلمون لما ضحى به أمير العراق خالد بن عبد الله^(٤) وقال : « ضحوا تقبل
الله ضحاياكم ، فإنني مضح بالجعد بن درهم - إنه زعم أن الله لم يتخذ
إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً » ثم نزل فذبحه .

ولما بعث الله نبيه ﷺ بعثه إلى أهل الأرض وهم في الأصل
صنفان - أميون وكتايبون ، والأميون كانوا ينتسبون إلى إبراهيم ، فإنهم ذريته ،
وخزان بيته ، وعلى بقايا من شعائره ، والكتايبون أصلهم كتاب موسى ، وكلا
الطائفتين قد بدلت وغيّرت . فأقام ملة إبراهيم بعد اعوجاجها ، وجاء بالكتاب
المهيمن ، المصدق لما بين يديه ، المبين لما اختلف فيه وما حُرف وكنم من
الكتاب الأول .

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٣) سبق الترجمة له وراجع ميزان الاعتدال ١: ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥: ١٦٠ والتاج ٢: ٣٢١
ولسان الميزان ٢: ١٠٥ واللباب ١: ٢٣٠ والنجوم الزاهرة ١: ٣٢٢ وتاريخ الخميس ٢: ٣٢٢ .

(٤) سبق الترجمة له وراجع الأغاني ١٩: ٥٣ - ٦٤ وتهذيب ابن عساكر ٥: ٦٧ - ٨٠ والوفيات
١: ١٦٩ وابن خلدون ٣: ١٠٥ وابن الأثير ٤: ٢٠٥ ثم ٥: ١٠١ .

فصل

أصل الدين بين ابراهيم وموسى عليهما السلام

وإبراهيم وموسى قاما بأصل الدين - الذي هو الإقرار بالله ، وعبادته وحده لا شريك له ، ومخاصمة من كفر بالله .

فأما إبراهيم فقال الله فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ : إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وذكر الله عنه أنه طلب منه إرادة إحياء الموتى ، فأمره الله بأخذ أربعة من الطير .

فقرر امر الخلق والبعث - المبدأ والمعاد - الايمان بالله واليوم الآخر .

وهما اللذان يكفر بهما - أو بأحدهما - كفار الصابئة والمشركين من الفلاسفة ونحوهم الذين بعث الخليل إلى نوعهم .

فإن منهم من ينكر وجود الصانع ، ومنهم من ينكر صفاته ، وفيهم من ينكر خلقه ويقول : إنه علة ، وأكثرهم ينكرون إحياء الموتى ، وهم مشركون

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

يعبدون الكواكب العلوية والأصنام السفلية .

والخليل صلوات الله عليه رد هذا جميعه ، فقرر ربوبية ربه كما في هذه الآية ، وقرر الإخلاص له ونفي الشرك كما في سورة الأنعام وغيرها . وقرر البعث بعد الموت .

واستقر في ملته محبته لله ومحبة الله له ، باتخاذ الله له خليلاً . ثم إنه ناظر المشركين بعبادة من لا يوصف بصفات الكمال . فقال لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ ^(١) وقال : لأبيه وقومه : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ : قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ - إِلَى قَوْلِهِ - فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ^(٢) إلى آخر الكلام .

وقال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٤) .

فإبراهيم دعا إلى الفطرة ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو الإسلام العام ، والإقرار بصفات الكمال لله ، والرد على من سلبها .

فلما عابهم بعبادة من لا علم له ولا يسمع ولا يبصر قال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبِّي

(١) سورة مريم آية رقم ٤٢ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٠ - ٨١ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٩ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ - ٢٨ .

لَسْمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١﴾ .

ولما عابهم بعبادة من لا يغني شيئاً فلا ينفع ولا يضر قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٢) .

فإن الإنسان يحتاج إلى جلب المنفعة لقلبه وجسمه ، ودفع المضرة عن ذلك ، وهو أمر الدين والدنيا .

فمنفعة الدين الهدى ، ومضرته الذنوب ، ودفع المضرة المغفرة ، ولهذا جمع بين التوحيد والإستغفار في مواضع متعددة .

ومنفعة الجسد الطعام والشراب ، ومضرته المرض ، ودفع المضرة الشفاء وأخبر أن ربه يحيي ويميت ، وأنه فطر السموات والأرض وإحيأه فوق كماله بأنه حيٌّ . وأنه فطر السموات والأرض يقتضي إمسакها وقيامها الذي هو فوق كماله بأنه قائم بنفسه ، حيث قال عن النجوم : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٣) فإن الآفل هو الذي يغيب تارة ويظهر تارة ، فليس هو قائماً على عبده في كل وقت ، والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ويتخذونها أوثاناً يكونون في وقت البروغ طالبين سائلين ، وفي وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم ، فلا يجتلبون منفعة ولا يدفعون مضرة ، ولا ينتفعون إذ ذاك بعبادة .

(١) سارة إبراهيم آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٨ - ٨٢ .

أسند المرض الى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه الى نفسه أدباً كما قال تعالى أمراً للمصلي أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الى آخر السورة فأسند الأنعام والهداية الى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدباً وأسند الضلال الى العبيد كما قالت الجن ﴿ وانا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ .

(٣) سورة الأنعام الآيات ٧٦ .

فبين ما في الآلهة التي تعبد من دون الله من النقص ، وبين ما لربه فاطر السموات والأرض من الكمال بأنه الخالق ، الفاطر ، العليم ، السميع ، البصير ، الهادي ، الرازق ، المحيي ، المميت .

وسمى ربه بالأسماء الحسنى الدالة على نعوت كماله ، فقال : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) وقال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) وقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (٣) فوصف ربه بالحكمة والرحمة المناسب لمعنى الخلقة ، كما قال ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

وموسى عليه السلام خاصم فرعون الذي جحد الربوبية والرسالة وقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٤) و ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ (٥) وقصته في القرآن مثناة مبسطة لا يحتاج هذا الموضع إلى بسطها .

وقرر أيضاً أمر الربوبية وصفات الكمال لله ونفي الشرك ولما اتخذ قومه العجل بين الله لهم صفات النقص التي تنافي الألوهية فقال : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٦) وقال : ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢٩ قال الامام أحمد : أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرياض بن سارية . قال : قال رسول الله ﷺ إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنبجل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي ابراهيم ، وبشارة عيسى عليه السلام بي ورؤيا امي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين . « وفي رواية أخرى (ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٣٦ .

(٣) سورة مريم آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٥) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٤٨ .

مُوسَىٰ فَنَسِيَ ، أَفَلَا يَرُونَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .
وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ
الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ .

فوصفه بأنه وإن كان قد صوت صوتاً هو خوار فإنه لا يكلمهم ولا يرجع
إليهم قولاً ، وأنه لا يهديهم سبيلاً ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً . وكذلك
ذكر الله سبحانه على لسان محمد في الشرك عموماً وخصوصاً ، فقال :
﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا
أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمثَالِكُمْ
فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلْ
ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُوا ﴾ (٢) واستفهم استفهام إنكار وجحود
لطرق الإدراك التام وهو السمع والبصر ، والعمل التام وهو اليد والرجل ، كما
أنه سبحانه لما أخبر فيما روى عنه رسوله عن أحبابه المتقربين إليه بالنوافل
فقال : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت
سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله
التي يمشي بها » (٣) .

(١) سورة طه آية رقم ٨٨ - ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف الآيات من ١٩١ - ١٩٥ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الرقاق ٣٨ باب التواضع ٦٥٠٢ - حدثني محمد بن عثمان
ابن كرامة ، حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني شريك بن عبد الله بن ابي
نمر عن عطاء عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته
بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه . وذكره .

فصل

أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبتته الله لنفسه

وأهل السنة والجماعة المتبعون لإبراهيم وموسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - يثبتون ما أثبتوه من تكليم الله ، ومحبه ، ورحمته ، وسائر ماله من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى .

وينزهونه عن مشابهة الأجساد التي لا حياة فيها ، فإن الله قال : ﴿ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾^(١) وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾^(٢) وقال : ﴿ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ ﴾^(٣) فوصف الجسد بعدم الحياة ، فإن الموات لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يغني شيئاً .

وأما أهل البدع والضلالة من الجهمية ونحوهم ، فإنهم سلكوا سبيل أعداء إبراهيم وموسى ومحمد ، الذين أنكروا أن يكون الله كلم موسى تكليماً واتخذ إبراهيم خليلاً ، وقد كلم الله محمداً ، واتخذ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ورفع فوق ذلك درجات .

وتابعوا فرعون الذي قال : ﴿ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ

(١) سورة ص آية رقم ٣٤ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٨ .

(٣) سورة طه آية رقم ٨٨ .

الأسباب . أسباب السموات فاطَّلَعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأُظَنُّهُ كَاذِبًا ﴿١﴾ وتابعوا
المشركين الذين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ،
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ ﴿٢﴾ وتابعوا الذين ألحدوا في أسماء الله .

فهم يجحدون حقيقة كونه الرحمن ، أو أنه يرحم ، أو يكلم ، أو يود
عباده أو يودونه ، أو أنه فوق السموات ، ويزعمون أنه من أثبت له هذه
الصفات فقد شبهه بالأجسام الحسية ، وهي الحيوان كالإنسان وأن هذا تشبيه
لله بخلقه .

فهم قد شبهوه بالأجساد الميتة فيما هو نقص وعيب ، وتشبيهه دلت
الكتب الإلهية والفطرة العقلية أنه عيب ونقص - بل يقتضي عدمه .

وأما أهل الإثبات فلو فرض أن فيما قالوه تشبيهاً ما فليس هو تشبيهاً
بمنقوص معيب ، ولا هو في صفة نقص أو عيب ، بل في غاية ما يعلم أنه
الكمال ، وأن لصاحبه الجلال والإكرام .

فصار أهل السنة يصفونه بالوجود وكمال الوجود ، وأولئك يصفونه بعدم
كمال الوجود ، أو بعدم الوجود بالكلية ، فهم ممثلة معطلة - ممثلة في العقل
والشرع ، معطلة في العقل والشرع .

أما في العقل فلأنهم مثلوه بالعدم والأجساد الموات .

وأما في الشرع فإنهم مثلوا ما جاءت به الرسل من صفاته بنفس صفات
المخلوقات ، وإن كان هذا التمثيل الذي ادعوا أنه معنى النصوص أقل تمثيلاً

(١) سورة غافر آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٠ .

قال ابن كثير : معنى هذا الكلام : أي لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه
الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب : اكتب بسم الله الرحمن
الرحيم . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم
ولهذا أنزل الله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

من تمثيلهم الذي ادعوه .

وأما تعطيلهم في العقل فإنه تعطيل للصفات - تعطيل مستلزم لعدم الذات ، ولهذا ألجئ كثير منهم الى نفي الذات بالكلية ، وصاروا على طريقة فرعون - لا يقرون إلا بوجود المخلوقات ، وإن كانوا قد ينافقون فيقرون بالفاظ لا معنى لها ، أو بعبادات لا معبود لها .

وأما تعطيلهم للشرع فإنهم جحدوا ما في كتب الله من المعاني وحرفوا الكلم عن مواضعه ، أو قالوا : نحن كالأميين لا نعلم الكتاب إلا أمانى ، أو قالوا : قلوبنا غلف .

وقالوا لما جاء به الرسول من الكتاب والسنة نظير ما قالته الكفار ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾^(١) ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾^(٢) .

وهكذا قال هؤلاء : لا نفقه كثيراً مما يقول الرسول ، وقالوا كما قال الذين يستمعون للرسول ، فإذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴾^(٣) .

وصاروا كالذين قيل فيهم : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾^(٤) .

(١) سورة فصلت آية رقم ٥ .

(٢) سورة هود آية رقم ٩١ .

(٣) سورة محمد آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٤٥ - ٤٦ .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم حدثنا سفيان عن =

فتدبر ما ذكره الله عن أعداء الرسل من نفي فقههم وتكذيبهم تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله وعن تدبر كتابه ، واتبع ما تتلوه الشياطين وما توحيه إلى أوليائها ، والله يهدينا صراطاً مستقيماً .

ولهذا كانت هذه الجهمية المعطلة المشابهون للكفار والمشركين من الصابئة وغيرهم ، الجاحدة لوجود الصانع أو صفاته ، ترمي أهل العلم والإيمان والكتاب والسنة ، تارة بأنهم يشبهون اليهود لما في التوراة وكتب الأنبياء من الصفات ، ولما ابتدعه بعض اليهود من التشبيه المنفي عن الله ، وتارة بأنهم يشبهون النصارى لما أثبتته النصارى من صفة الحياة والعلم ، ولما ابتدعته من أن الأقانيم جواهر ، وأن أقنوم الكلمة اتحد بالناسوت .

وهذا الرمي موجود في كلامهم قبل الإمام أحمد بن حنبل وفي زمنه ، وهو موجود في كلامه وكلام أصحابه - حكاية ذلك ، ذكره في كتاب « الرد على الجهمية والزنادقة » ، وأنهم قالوا « إذا أثبت الصفات فقد قلتم بقول النصارى » ورد ذلك . وفي مسائله : أن طائفة قالوا له : من قال « القرآن غير مخلوق أو هو في الصدور » فقد قال بقول النصارى .

وهكذا الجهمية ترى الصفاتية بأنهم يهود هذه الأمة ، وهذا موجود في كلام متقدمي الجهمية ومتأخريهم ، مثل ما ذكره أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الجهمي^(١) الجبري ، وإن كان قد يخرج إلى حقيقة الشرك وعبادة

= الوليد بن كثير عن يزيد بن تدرس عن أساء بنت أبي بكر - رضي الله تعالى عنها - قالت لما نزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول : مذمما أتينا ودينه قلينا ، وأمره عصينا ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه فقال أبو بكر - رضي الله عنه - لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال : إنها لن تراني ﴿ وقرأ قرآنا اعتصم به منها ﴾ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴿ قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ .

(١) سبق الترجمة له . وراجع طبقات الأطباء ٢: ٢٣ والوفيات ١: ٤٧٤ ومفتاح السعادة

الكواكب والأوثان في بعض الأوقات ، وصنف في ذلك كتابه المعروف في السحر وعبادة الكواكب والأوثان . مع أنه كثيراً ما يحرم ذلك وينهى عنه متبعاً للمسلمين وأهل الكتب والرسالة .

وينصر الإسلام وأهله في مواضع كثيرة ، كما يشكك أهله ويشكك غير أهله في أكثر المواضع ، وقد ينصر غير أهله في بعض المواضع ، فإن الغالب عليه التشكيك والحيرة ، أكثر من الجزم والبيان .
وهؤلاء لهم أجوبة .

أحدها : أن مشابهة اليهود والنصارى ليست محذوراً إلا فيما خالف دين الإسلام ، ونصوص الكتاب والسنة والإجماع ، وإلا فمعلوم أن دين المرسلين واحد ، وأن التوراة والقرآن خرجا من مشكاة واحدة .

وقد استشهد الله بأهل الكتاب في غير موضع ، حتى قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ (١) .

فإذا أشهد أهل الكتاب على مثل قول المسلمين كان هذا حجة ودليلاً ، وهو من حكمة إقرارهم بالجزية ، فيفرح بموافقة المقالة المأخوذة من الكتاب والسنة لما يآثره أهل الكتاب عن المرسلين قبلهم ، ويكون هذا من أعلام النبوة ، ومن حجج الرسالة ، ومن الدليل على اتفاق الرسل .

(١) سورة الأحقاف الآية رقم ١٠ .

قال مالك عن أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام - رضي الله عنه - قال وفيه نزلت ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث مالك به وكذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما - ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ويوسف ابن عبد الله بن سلام ، وهلال بن يساف والسدي والثوري ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا انه عبد الله بن سلام .

الثاني : أن المشابهة التي يدعونها ليست صحيحة ، فإن أهل السنة لا يوافقون اليهود والنصارى فيما ابتدعوه من الدين والإعتقاد ، ولهذا قلت في بيان فساد قول ابن الخطيب^(١) : إنه لم يفهم مقالة أهل الحديث والسنة من الحنبلية وغيرهم ، ولم يفهم مقالة النصارى وأوضح ذلك في موضعه ، كما بين الإمام أحمد الفرق بين مقالة أهل السنة وبين مقالة النصارى المبتدعة ، وكما يبين الفرق بين مقالة أهل السنة ومقالة اليهود المبتدعة .

الثالث : أنه إذا فرض مشابهة أهل الإثبات لليهود أو النصارى فأهل النفي والتعطيل مشابهون للكفار والمشركين من النصارى وغيرهم ، ومعلوم قطعاً أن مشابهة أهل الكتابين خير من مشابهة من ليس من أهل الكتاب - من الكفار بالربوبية والنبوات ونحوهم ، ولهذا قيل : المشبه أعشى ، والمعطى أعمى .

ولهذا فرح المؤمنون على عهد نبي الله ﷺ بانتصار النصارى على المجوس ، كما فرح المشركون بانتصار المجوس على النصارى فتدبر هذا ، فإنه نافع في مواضع . والله أعلم .

ولهذا كانت المعتزلة ونحوهم من القدرية مجوس هذه الأمة .
وهم يجعلون الصفاتية^(٢) نصارى الأمة ويميلون إلى اليهود لموافقتهم لهم في أمور كثيرة أكثر من النصارى ، كما يميل طائفة من المتصوفة والمتفكرة إلى النصارى أكثر من اليهود .

فإذا كان الصفاتية إلى النصارى أقرب وضدهم إلى المجوس والمشركين أقرب تبين أن الصفاتية أتباع النبي ﷺ وأصحابه الذين فرحوا بانتصار

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي توفي عام ٦٠٦ هـ وسبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) الصفاتية : الذين يثبتون الصفات لله تعالى (راجع كتاب بهذا الاسم (الصفاتية) للإمام ابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم) .

الروم^(١) - النصرارى - على فارس المجوس - وأن المعطلة هم إلى المشركين أقرب - الذين فرحوا بانتصار المجوس على النصرارى .

(١) روى الامام أحمد بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنها - في قوله تعالى ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ قال غلبت وغلبت قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : أما إنهم سيغلبون . فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : الا جعلتها الى دون قال - لعشر . قال سعيد بن جبير : البضع ثم ظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله ﴿الم غلبت الروم﴾ .

هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبي اسحاق الفزاري عن سفيان الثوري به وقال الترمذي حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب

سورة الغاشية

وقال شيخ الإسلام

فصل

قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ؟ وَجُوهُ يَوْمئِذٍ خَاشِعَةٌ ، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ﴾ (١) .
فيها قولان :-

أحدهما : أن المعنى وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى يوم القيامة نارا حامية ، ويعني بها عباد الكفار كالرهبان ، وعباد اليهود ، وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج .

و « القول الثاني » أن المعنى أنها يوم القيامة تخشع أي تذل وتعمل وتنصب ، قلت هذا هو الحق لوجوه - :

« أحدها » : أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه ، أي : وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية ، وعلى الأول لا يتعلق إلا بقوله ﴿ تصلى ﴾ .

(١) سورة الغاشية الآيات من ١ - ٥ .

قال الحافظ أبو بكر البرقاني : حدثنا ابراهيم بن محمد المزكي ، حدثنا محمد بن اسحاق السراج ، حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول مر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدار راهب قال : فناداه يا راهب فأشرف قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكي فقليل له يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله تعالى ﴿ عاملة ناصبة تصلى نارا حامية ﴾ فذاك الذي ابكاني .

ويكون قوله ﴿ خاشعة ﴾ صفة للوجوه قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى متأخرة ، والتقدير . وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصل ناراً حامية ، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه .

ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة أما مع اللبس فلا يجوز ، لأنه يلتبس على المخاطب ، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير ، بل القرينة تدل على خلاف ذلك ، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان ، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق .

« الوجه الثاني » أن الله قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة ، فقال بعد ذلك : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ ^(١) ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا . إذ هذا ليس بمدح ، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين لا اختلافهما ، وحيث لا يكون الأشقياء وصفت وجوههم بحالها في الآخرة .

« الثالث » أن نظير هذا التقسيم قوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ تَطْنُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ ^(٣) وهذا كله وصف للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا .

« الرابع » أن وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن وإنما في القرآن ذكر العلامة ، كقوله : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ

(١) سورة الغاشية الآيات من ٨ - ١٠ .

(٢) سورة القيامة الآيات ٢٢ - ٢٥ .

(٣) سورة عبس الآيات من ٣٨ - ٤٢ .

(٤) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

لَأَرِنَاكَهُمْ ، فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴿١﴾ وقوله : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ ﴿٢﴾ وذلك لأن العمل والنصب ليس قائماً بالوجود فقط ، بخلاف السيماء والعلامة .

« الخامس » أن قوله : ﴿ خاشعة عاملة ناصبة ﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم ، فإن هذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباد المؤمنين وعباد الكفار ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ، ولو أريد المختص لقليل خاشعة للأوثان مثلاً ، عاملة لغير الله ، ناصبة في طاعة الشيطان ، وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصاً بالكفار ، ولا كونه مذموماً ، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً ، ولا عيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن .

« السادس » أن هذا الوصف مختص ببعض الكفار ولا موجب للتخصيص ، فإن الذين لا يتعبدون من الكفار أكثر ، وعقوبة فساقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة ، فإن من كف منهم عن المحرمات المتفق عليها ، وأدى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ، ويقتلون النفس التي حرم الله [إلا] بالحق ويزنون .

فإذا كان الكفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر

(١) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٢ .

قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه وفي الحديث « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلابيها إن خيراً فخير وإن شراً فشر » قال الامام أحمد حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن سلمة عن عياض بن عياض عن ابيه عن أبي مسعود عقبة بن عمرو - رضي الله عنه - قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين فمن سميت فليقم ثم قال - قم يا فلان قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً ثم قال : إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله » .

كان هذا التخصيص عكس الواجب .

« السابع » أن هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والنسك ابتداء ، ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة وليس في الخطاب تقييد كان هذا سعيًا في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه .
والله أعلم .

سورة البلد

قال شيخ الإسلام رحمه الله

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟ ﴾^(١) الهداية محلها القلب ، وهذه الأعضاء الثلاثة التي هي دائمة الحركة والكسب ، إما للإنسان وإما عليه ، بخلاف ما يتحرك من داخل فإنه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب ، وبخلاف بقية الأعضاء الظاهرة ، فإن السكون أغلب ، وحركتها قليلة بالنسبة إلى هذه ، وهذه الثلاثة التي يروى عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال : من كان صمته فكراً ، ونطقه ذكراً ، ونظره عبرة - وفي حديث عند ابن أبي حاتم في صفة النبي ﷺ أنه كان كثير الصمت ، دائم الفكر ، متواصل الأحزان فالصمت والفكر للسان والقلب ، وأما الحزن فليس المراد به الحزن الذي هو الألم على فوت مطلوب أو حصول مكروه فإن ذلك منهي عنه ولم يكن من حاله ، وإنما أراد به الاهتمام والتيقظ لما يستقبله من الأمور ، وهذا مشترك بين القلب والعين .

وفيه أيضاً في الصحيحين حديث ابن عباس أنه كان إذا قام من الليل

(١) سورة البلد آية رقم ٨ - ١٠ .

قال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال الخير والشر وكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي وائل وإبي صالح ، ومحمد بن كعب ، والضحاك وعطاء الخراساني في آخرين .

يصلي ينظر إلى السماء ، ويقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران (١) .
فيجمع بين الذكر والنظر والفكر ، فالنظر أي نظر القلب ونظر العين والذكر
أيضاً لا بد مع ذكر اللسان من ذكر القلب .

ولما كان النظر مبدأ والذكر منتهى ، لأن النظر يتقدم الإدراك ، والعلم
والذكر يتأخر عن الإدراك والعلم ، ولهذا كان المتكلمة في النظر المقتضى
للعلم ، وكان المتصوفة في الذكر المقرر للعلم قدم آلة النظر على آلة الذكر ،
وختم بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر .

وذكر سبحانه اللسان والشفيتين ، لأنهما العضوان الناطقان ، فأما الهواء
والحلق والنطع واللهوات والأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض
بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك ، فأما اللسان والشفتان منفصلة ، ثم الشفتان
لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع : الباء ، والفاء ، والميم ، والواو .

(١) قال البخاري رحمه الله : حدثنا سعيد بن مريم ، حدثنا محمد بن جعفر أخبرني شريك بن عبد
الله بن أبي نمر عن كريب عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : بت عند خالتي ميمونة
فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد . فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء
فقال : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار ﴾ الآيات
ثم قام فتوضأ واستن ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى
بالناس الصبح .

وهكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن إسحاق الصنعاني عن أبي مريم به ، ثم رواه البخاري من
طرق عن مالك عن مخزومة بن سليمان عن كريب أن ابن عباس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج
النبي ﷺ وهي خالته قال : فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في
طولها فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله
ﷺ من منامه فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده « ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل
عمران ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي قال ابن عباس - رضي الله
عنها - فقامت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقامت إلى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى
على رأسي وأخذ بأذني اليمنى ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين
ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى
الصبح » . وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك به . ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من
وجوه أخر عن مخزومة بن سليمان به .

فأما الباء والفاء فهما الحرفان السببيان ، فإن الباء أبداً تفيد الإلصاق والسبب . وكذلك الفاء تفيد التعقيب والسبب ، وبالأسباب تجتمع الأمور بعضها ببعض .

وأما الميم والواو فلهما الجمع والإحاطة ، ألا ترى أن الميم ضمير لجمع المخاطبين في الأنواع الخمسة : ضميري الرفع والنصب المتصلين والمنفصلين ، وضمير الخفض في مثل قوله : « أنتم » و « علمتم » و « إياكم » و « علمكم » و « ربكم » وضمير لجمع الغائبين في الأنواع الخمسة أيضاً والمضمر أياً كان ، إما متكلم أو مخاطب أو غائب ، واحد أو اثنان أو جمع ، مرفوع أو منصوب ، أو مجرور ، فقد أحاطت بالجميع مطلقاً ، أما الجمع المطلق فبنفسها ، وأما الجمع المقدر باثنين فبزيادة علم التنثية ، وهو الألف في مثل أنتما وعلمتما ، وكذلك الباقي .

ولهذا زيدت الواو في الجمع المطلق ف قيل عليهموا ، وأنتموا ، كما زيدت الألف في التنثية ، ومن حذفها حذفها تخفيفاً ، ولأن ترك العلامة علامة ، فصارت الميم مشتركة ، ثم الفارق الألف أو عدمها مع الواو .

وأما الواو فلها جموع الضمائر الغائبة في مثل قالوا ونحوها ، وأما المتصلة مثل إياكم وهم ، فعلى اللغتين ، فلما صارت الواو تمام المضمر المرفوع المنفصل ، والياء تمام المؤنث : صارت للمؤنث مطلقاً في جميع أحواله ، لأنه تلو المذكر ، والمفرد مذكروه ومؤنثه قبل المثنى والمجموع فإن المفرد قبل المركب ، ثم الألف صارت علم التنثية مطلقاً في المظهر والمضمر كما أن الواو علم لجمع المذكر ، وجعل الياء علمي النصب والجر في المظهر من المثنى والمجموع ، لأن المظهر قبل المضمر وأقوى منه ، فكانت أحق أن تكون فيه من الألف ، فحين ما كان أقوى كانت الواو وحين ما كان أوسط كان الياء .

وأما الجموع الظاهرة فالواو هي علم الجمع المذكر الصحيح ، كما أن

الألف علم التنئية ، ولهذا ينطق بها حيث لا إعراب ، لكن في حال النصب والخفض قلبتا يائين لأجل الفرق ، وذلك لأن الأسماء الظاهرة لها الغيبة دون الخطاب في جميع العربية ، وذلك لأن الواو أقوى حروف العلة ، والضممة بعضها ، وهي أقوى الحركات ، لما فيها من الجمع ، وكونها آخرًا ، فجعلت للجمع والألف أخف حروف العلة ، فجعلت للإثنين لأن الياء كانت قد صارت للمؤنث في المفرد المرفوع الذي هو الأصل في قولك : ^(١) وجاءت الميم في مثل اللهم إشعار بجميع الأسماء ، وذلك لأن حرف الشفة لما كان جامعاً للقوة من مبدأ مخارج الحروف إلى متنهاها بمنزلة الخاتم الآخر ، الذي حوى ما في المتقدم وزيادة كان جامعاً لقوى الحروف فجعل جامعاً للأسماء مظهرها ومضمرها وجامعاً بين المفردات والجمل ، فالواو والفاء عاطفان ، والفاء رابطة جملة بجملة .

ولما كانت النون قريبة من الفيهة فهي أنفية جعلت لجمع المؤنث ، لأن دون جمع المذكر ، وثنى العينين والشفيتين لأن العينين هما ربيضة القلب ، وليس من الأعضاء أشد ارتباطاً بالقلب من العينين ، ولهذا جمع بينهما في قوله : ﴿ وَنَقَلَبُ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ ﴾ ^(٢) ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ^(٣) ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ ^(٤) ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ^(٥) ولأن كليهما له النظر ، فنظر القلب الظاهر بالعينين ، والباطن به وحده ، وكذلك اللسان هو الذكر والشفتان أنثاه .

(١) بياض بالأصل .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٠ .

(٣) سورة النور آية رقم ٣٧ .

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ١٠ .

(٥) سورة النازعات آية رقم ٩ .

سورة الشمس
قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
قدس الله روحه
فصل

في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا ، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها ، وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ، وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ^(١) . وضمير التأنيث في « جلاها » و « يغشاها » لم يتقدم ما يعود عليه إلا الشمس ، فيقتضي أن النهار يجلي الشمس ، وأن الليل يغشاها ، و « التجلية » الكشف والإظهار ، و « الغشيان » التغطية واللبس ، ومعلوم أن الليل والنهار ظرفاً الزمان ، والفعل إذا أضيف إلى الزمان فقليل هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد ، أو يبرد أو ينبت الأرض ، ونحو ذلك ، فالمقصود أن ذلك يكون فيه ، لما يوصف الزمان بأنه عصيب ، وشديد ، ونحس ، وبارد ، وحار ، ورطب ومكروه - والمراد وصف ما فيه ، فكون الشيء فاعلاً وموصوفاً هو بحسب ما يليق به - كل شيء بحسبه .

فالنهار يجلي الشمس ، والليل يغشاها ، وإن كان ظهور الشمس هو سبب النهار ، ومغييها سبب الليل ، وقد ذكر ذلك بقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا ﴾ فأضاف الضحى إليها ، والضحى يعم النهار كله ، كما قال ﴿ أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الشمس الآيات رقم ١ - ٤ .

(٢) سورة النازعات الآيات من ٢٧ - ٢٩ .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (١) .

فقد قيل : إن « ما » مصدرية ، والتقدير : والسماء وبناء الله إياها ، والأرض وطحو الله إياها ، ونفس وتسوية الله إياها ، لا بد من ذكر الفاعل في [الجملة] ، لا يصلح أن يقدر المصدر هنا مضافاً إلى الفعل فقط ، فيقال « وبنائها » لأن الفاعل مذكور في الجملة في قوله ﴿ وما بناها ﴾ ﴿ وما طحاها ﴾ فإن الفعل لا بد له من فاعل في الجملة ، ومفعول أيضاً . فلا بد أن يكون في التقدير الفاعل والمفعول ، لكن إذا كانت مصدرية كانت ﴿ ما ﴾ حرفاً ليس فيها ضمير ، فيكون ضمير الفاعل في ﴿ بناها ﴾ عائداً على غير مذكور بل إلى معلوم ، والتقدير : والسماء وما بناها الله وهذا خلاف الأصل ؛ وخلاف الظاهر .

والقول الثاني : إنها موصولة ، والتقدير : الذي بناها ، والذي طحاها . و ﴿ ما ﴾ فيها عموم وإجمال - يصلح لما لا يعلم ، ولصفات من يعلم ، كقوله تعالى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٢) وقوله ﴿ فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (٣) .

وهذا المعنى يجيء في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ (٤) .

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً ، فإن القسم بالفاعل يتضمن الأقسام بفعله ، بخلاف الإقسام بمجرد الفعل ، وأيضاً فالأقسام التي في القرآن عامتها بالذوات الفاعلة وغير الفاعلة ، يقسم

= (٣) سورة الضحى آية رقم ١ - ٢ .

(١) سورة الشمس آية رقم ٥ - ٨ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٣ .

(٤) سورة الليل آية رقم ٣ .

بنفس الفعل ، كقوله : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾^(١) وكقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ ، ﴿ والمرسلات ﴾ ونحو ذلك .

وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات ، وتارة بربها وخالقها ، كقوله ﴿ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢) وكقوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾^(٣) وتارة يقسم بها وبربها .

وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله ، وأقسم بمخلوق دون فعله ، فأقسم بفاعله .

فإنه قال : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾^(٤) فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار ، وآثارها وأفعالها ، كما فرق بينهما في قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾^(٥) . وقال : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٦) فإن بأفعال هذه الأمور وآثارها تقوم مصالح بني آدم وسائر الحيوان .

وقال : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ولم يقل : « ونهارها » ولا « ضياءها » لأن « الضحى » يدل على النور والحرارة جميعاً ، وبالألوان والحرارة تقوم مصالح العباد .

ثم أقسم بالسماء والأرض ، وبالنفس ، ولم يذكر معها فعلاً ، فذكر فاعلها ، فقال : ﴿ وما بناها ﴾ ، ﴿ وما طحاها ﴾ و﴿ ونفس وما سواها ﴾ .

فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس ، لأنها تفعل البر والفجور ، وهو

(١) سورة الصافات الآيات رقم ١ - ٣ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الليل آية رقم ٣ .

(٤) سورة الشمس الآيات ١ - ٤ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ٣٧ .

(٦) سورة الأنبياء آية رقم ٣٣ .

سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته . لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله : ﴿ وَمَا سِوَاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (١) فإذا كان قد بين أنه خالق فعل العبد الذي [هو] أظهر الأشياء فعلاً واختياراً وقدرة فلأن يكون خالق فعل الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، بطريق الأولى والأخرى .

وأما السماء والأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار .

والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار ، والنفوس أشرف الحيوان المخلوق ، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسباً ، وكان إقسامه بصانعها تنبيهاً على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار .

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات ، وبأعيانها ، وما فيها من الآثار والمنافع لبني آدم .

وختم القسم بالنفس التي هي آخر المخلوقات ، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات ، وبيّن أنه خالق جميع أفعالها ، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها .

(١) سورة الشمس آية رقم ٧ - ٨ .

قال الامام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا عاصم الأحول عن عبد الله ابن الحارث عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله ﷺ يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والهزم والجبن والبخل وعذاب القبر ، اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها . اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن » .

رواه مسلم من حديث أبي معاوية عن عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث ، وأبي عثمان النهدي ، عن زيد بن أرقم به .

وهو سبحانه مع ما ذكر من عموم خلقه لجميع الموجودات على مراتبها حتى أفعال العبد المنقسمة إلى التقوى والفجور [و] بين انقسام الأفعال إلى الخير والشر ، وانقسام الفاعلين إلى مفلح وخائب ، سعيد وشقي ، وهذا يتضمن الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، فكان في ذلك رد على القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه وإلهامه ، وعلى القدرية المشركية الذين يطلون أمره ونهيه ووعدته ووعيدته ، إحتجاجاً بقضائه وقدره .

وقد قيل في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ^(١) : إن الضمير عائد إلى « الله » أي « قد أفلح من زكَّاهَا الله ، وقد خاب من دسَّاهَا الله » وهذا مخالف للظاهر ، بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن ، إذ كان الأحسن « قد أفلحت من زكَّاهَا الله ، وقد خابت من دسَّاهَا ، وهذا ضعيف .

وأيضاً فقلوه ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ بيان للقدر ، فلا حاجة إلى ذكره مرة ثانية عقب ذلك في مثل هذه السورة القصيرة .

ولهذا لم يذكر عن النبي ﷺ في إثبات القدر إلا هذه الآية دون الثانية ، كما في صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال ، قال لي عمران بن حصين : رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم . قال . فقال : [أ] فلا يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزع من ذلك فزعاً شديداً وقلت : [كل شيء] خلق الله ومملك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فقال لي : يرحمك الله : إني لم أرد بما سألتك إلا لأحرز عقلك . فإن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله ؟ رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضى عليهم ومضى فيهم [من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به

(١) سورة الشمس آية رقم ٩ - ١٠ .

مما أتاهم به نبههم وثبتت الحجة عليهم ؟ .

فقال : « لا » بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم] ، وتصديق ذلك في كتاب الله [عز وجل] ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ^(١) فبين النبي ﷺ أن تصديق ما أخبر به من القضاء قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ^(٢) .

والذي في الحديث هو القدر السابق من علم الله وكتابه وكلامه ، وهذا إنما تنكره غالبية القدرية ، وأما [الذي] في القرآن فهو خلق الله أفعال العباد وهذا أبلغ ، فإن القدرية المجوسية تنكره .

فالذي في القرآن يدل على ما في الحديث وزيادة ، ولهذا جعله النبي ﷺ مصداقاً له ، وذلك من وجوه .

أحدها : أنه إذا علم أن الله هو الملهم للفجور والتقوى - ولم يكن في ذلك ظلم كما تقوله القدرية الإبليسية ، ولا مخالفة للأمر والنهي والوعد والوعيد كما تقوله القدرية المشركية - [فـ] الإقرار بأن الله كتب ذلك وقدره قبل وجوده مما لا نزاع فيه عند الإنسان من جهة القدر ، ولهذا قد أقر بالقدر السابق جمهور القدرية الذين ينكرون خلق الأفعال ، ولم يثبت أحد من القدرية أن الله خالق أفعال العباد وينكره من جهة القدر أن الله خالق ذلك .

الوجه الثاني : أنه إذا ثبت أن الله خالق فعل العبد ، وأنه الملهم للفجور والتقوى ، كان ذلك من جملة مصنوعاته ، والشبهة التي عرضت للقدرية - التي سأل المزيان للنبي ﷺ - إنما هي في أعمال العباد التي عليها

(١) الحديث عند مسلم في كتاب القدر - حدثنا اسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا عذرة بن ثابت عن يحيى بن عقال عن يحيى بن يعمر عن أبي الأسود الدؤلي قال :

قال لي عمران بن الحصين وذكره .

ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٤٣٨ (حلي) .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٨ .

الثواب والعقاب خاصة ، ولم ينكروا من جهة القدر أن الله قدر ما يخلقه هو قبل وجوده ، وإنما أنكر من أنكر منهم إذا اشتبه أمر أفعال العباد .

وهؤلاء يقولون إن الله يقدر الأمور قبل وجودها إلا أفعال العباد والسعادة والشقاوة ، فإن ذلك لا ينبغي أن يعلمه حتى يكون ، لأن أمر الأمير بما يعلم أن المكلف لا يطيعه فيه ، بل يكون ضرراً عليه ، مستقيح عندهم ، وقد حكى طوائف من المصنفين في أصول الفقه وغيرهم الخلاف في ذلك عن المعتزلة ، وقالوا : يجوز أن الله يأمر العبد بما يعلم أنه لا يفعله ، خلافاً للمعتزلة ، لأن في جنس المعتزلة من يخالف في ذلك وأكثرهم لا يخالف في ذلك ، وإنما يخالف فيه طائفة منهم .

فإذا كان القرآن قد أثبت أنه الملهم للنفس فجورها وتقواها كان ذلك من جملة مفعولاته ، فلا تبقى شبهة القدريّة أنه قدر ذلك قبل وجوده ، كما لا شبهة عندهم في تقديره لما يخلقه من الأعيان والصفات .

وأما من أنكر تقديره العلم من منكرة الصفات أو بعضها فأولئك لهم مأخذ آخر ، ليس مأخذهم أمر الصفات .

الوجه الثالث : أنه قد كان ألهم الفجور والتقوى ، وهو خالق فعل العبد ، فلا بد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه ، كما قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾^(١) لأن الفاعل المختار يريد ما يفعله ، والإرادة مستلزمة لتصور المراد وذلك هو العلم بالمراد المفعول .

وإذا كان خلقه للشيء مستلزماً لعلمه به فذلك أصل القدر السابق وما علمه الله سبحانه بقوله وبكتبه فلا نزاع فيه ، وهذا بين في جميع الأشياء - في هذا وغيره .

فإنه سبحانه إذا ألهم الفجور والتقوى فالملهم إن [لم] يميز بين

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ تكلمة الآية ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ .

الفجور والتقوى ويعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجور . والذي يريد أن يفعله هذا تقوى ، لم يصح منه إلهام الفجور والتقوى ، فتظهر بهذا حسن ما ذكره النبي ﷺ من تصديق الآية لما أخبر به النبي ﷺ من القدر السابق .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ كما يدل على القدر فيدل على الشرع ، فإنه لو قال « فَأَلْهَمَهَا أفعالها » كما يقول الناس « خالق أفعال العباد » لم يكن في ذلك تمييز بين الخير والشر ، والمحبوب والمكروه ، والمأمور به والمنهى عنه ، بل كان فيه حجة للمشركين ، - من المباحية والجبرية - الذين يدفعون الأمر والنهي ، والحسن والقبح ، فإنه خلق أفعال العباد ، فلما قال ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ كان الكلام تفريقاً بين الحسن والمأمور به والقيح المنهى عنه ، وأن الأفعال منقسمة إلى حسن وسيء ، مع كونه تعالى خالق الصنفين .

وهذه طريقة القرآن في غير موضع - يذكر المؤمن والكافر وأفعالهما الحسنة والسيئة [و] وعده ووعيده ، ويذكر أنه خالق الصنفين ، كقوله ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(١) ونحو ذلك .

وهذا الأصل ضلت فيه الجبرية والقدرية .

فإن القدرية المجوسية قالوا : إن الأفعال تنقسم إلى حسن وقبيح

(١) سورة فاطر آية رقم ٨ تكلمة الآية ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

قال ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبي حدثنا محمد بن عوف الحمصي ، حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني أو ربيعة عن عبد الله بن الديلي قال : أتيت عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ومن أخطأ منه ضل فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل » .

لصفات قائمة بها ، والعبد هو المحدث لها بدون قدرة الله وبدون خلقه .

فقالت الجبرية : بل العبد مجبور على فعله ، والجبر حق يوجب وجود أفعاله عند وجود الأسباب التي يخلقها الله ، وامتناع وجودها عند عدم شيء من الأسباب وإذا كان مجبوراً يمتنع أن يكون الفعل حسناً أو قبيحاً لمعنى يقوم به .

وهذه طريقة أبي عبد الله الرازي ونحوه من الجبرية النافين لانقسام الفعل في نفسه إلى حسن وقبيح ، والأولى طريقة أبي الحسين البصري^(١) ونحوه من القدرية القائلين بأن فعل العبد لم يحدثه إلا هو ، والعلم بذلك ضروري أو نظري ، وأن الفعل ينقسم في نفسه إلى حسن وقبيح ، والعلم بذلك ضروري .

وأبو الحسين هو إمام المتأخرين من المعتزلة ، وله من العقل والفضل ما ليس لأكثر نظرائه ، لكن هو قليل المعرفة بالسنن ، ومعاني القرآن ، وطريقة السلف .

وهو وأبو عبد الله الرازي في هذا الباب في طرفي نقيض ، ومع كل منهما من الحق ما ليس مع الآخر ، فأبو الحسين يدعي أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري ، والرازي يدعي [أن العلم] بأن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ، ويمتنع عند عدمه ضروري كذلك ، بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري .

ثم يعتقد كل فريق أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من

(١) هو محمد بن علي الطيب ، أبو الحسين البصري ، أحد أئمة المعتزلة ولد في البصرة ، وسكن بغداد وتوفي بها عام ٤٣٦ هـ قال الخطيب البغدادي له تصانيف وشهرة . من كتبه : المعتمد في أصول الفقه ، وتصفح الأدلة ، وغرر الأدلة ، وشرح الأصول الخمسة كلها في الأصول وكتاب في الإمامة ، وشرح أسماء الطبيعي .
راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ وتاريخ بغداد ٣ : ١٠٠ ولسان الميزان ٥ : ٢٩٨ وكشف الظنون ١٢٠٠ و ١٧٣٢ .

الضرورة ، وليس الأمر كذلك ، بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ومصيب في ذلك ، وإنما وقع غلظه في إنكاره ما مع الآخر من الحق ، فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث ممكن الوجود بمشيئة الله تعالى .

ولهذا كان مذهب أهل السنة المحضة أن العبد فاعل لفعله حقيقة ، كما أدعاه أبو الحسين من الضرورة ؟ لا يقولون : ليس بفاعل حقيقة ، أو ليس بفاعل ، كما يقوله المائلون إلى الجبر مثل طائفة أبي عبد الله الرازي^(١) ، يقولون مع ذلك : إن الله هو الخالق لهذا الفاعل وفعله ، وهو الذي جعله فاعلاً حقيقة ، وهو خالق أفعال العباد ، كما يقوله أهل الإثبات من الأشعرية - طائفة الرازي وغيرهم ، لا كما يقوله القدرية - مثل أبي الحسين وطائفته : إن الله لم يخلق أفعال العباد .

ولهذا نص الأئمة - كالإمام أحمد ومن قبله من الأئمة كالأوزاعي^(٢) وغيره - على انكار اطلاق القول بالجبر نفياً وإثباتاً ، فلا يقال « إن الله جبر العباد » ولا يقال « لم يجبرهم » فإن لفظ « الجبر » فيه اشتراك وإجمال ، فإذا قيل « جبرهم » [أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم ، وإذا قيل « لم يجبرهم »] أشعر بأنهم يفعلون ما يشاؤون بغير اختياره ، وكلاهما خطأ ، وقد بسطنا القول في هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن هذين الفريقين اعتقدوا تنافي القدر والشرع ، كما اعتقد ذلك المجوس والمشركون . فقالوا : إذا كان خالقاً للفعل امتنع أن يكون الفعل في نفسه حسناً له ثواب ، أو قبيحاً عليه عقاب ، ثم قالت

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع ابن النديم ٢٢٧: ١ والوفيات ٢٧٥: ١ وتاريخ بيروت

١٥ وحلية الأولياء ١٣٥: ٦ والمعارف ٢١٧ ، والشذرات ٢٤١: ١ .

القدرية : لكن الفعل منقسم ، فليس خالقاً للفعل ، وقالت الجبرية : لكنه خالق ، فليس الفعل منقسماً .

ولكن الجبرية المقرون بالرسل يقرون بالانقسام من جهة أمر الشارع ونهيه فقط ، ويقولون : له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه ، وينهى عما يشاء لا لأجل معنى فيه ، ويقولون في خلقه وفي أمره جميعاً : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأما من غلب عليه رأي أو هوى فإنه ينحل عن ربة الشارع إذا عاين الجبر ، ويقولون ما يقوله المشركون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾^(١) .

ومن أقر بالشرع ، والأمر والنهي ، والحسن والقبح دون القدر وخلق الأفعال - كما عليه المعتزلة - فهو من القدرية المجوسية الذين شابهوا المجوس ، وللمعتزلة من مشابهة المجوس واليهود نصيب وافر .

ومن أقر بالقضاء والقدر وخلق الأفعال وعموم الربوبية ، وأنكر المعروف والمنكر ، والهدى والضلال ، والحسنات والسيئات ، ففيه شبه من المشركين والصابئة .

وكان الجهم بن صفوان^(٢) ومن اتبعه كذلك لما ناظر أهل الهند ، كما كان المعتزلة كذلك لما ناظروا المجوس - الفرس - والمجوس أرجح من المشركين .

فإن من أنكر الأمر والنهي ، أو لم يقر بذلك ، فهو مشرك صريح

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ وتكملة الآية ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون الا الظن وإن أنتم الا تحرصون﴾ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وراجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ ، والكامل لابن الأثير حوادث سنة ١٢٨ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ وخطط المقرئ ٢ : ٣٤٩ و ٣٥١ والحوار العين ٢٥٥ وفيه : قتل بمر وقتله سلم بن أحوز على شط نهر بلخ .

كافر - أكفر من اليهود والنصارى والمجوس - كما يوجد ذلك في كثير من المتكلمة والمتصوفة - أهل الإباحة ونحوهم .

ولهذا لم يظهر هؤلاء ونحوهم في عصر الصحابة والتابعين لقرب عهدهم بالنبوة ، وإنما ظهر أولئك القدرية المجوسية لأن مذهبهم فيه تعظيم للأمر والنهي والثواب والعقاب ، فهم أقرب إلى الكتاب والسنة والرسول والدين من هؤلاء المعطلة للأمر والنهي ، فإن هؤلاء من شر الخلق .

وأما القدرية الإبلسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه ، لكن يقولون : هذا فيه جهل وظلم ، فإنه بتناقضه يكون جهلاً وسفهاً ، وبما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلماً .

وهذا حال إبليس ، فإنه قال ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١) فأقر بأن الله أغواه ، ثم جعل ذلك عنده داعياً يقتضي أن يغوي هو ذرية آدم .

وإبليس هو أول من عادى الله ، وطغى في خلقه وأمره ، وعارض النص بالقياس ولهذا يقول بعض السلف : أول من قاس إبليس ، فإن الله أمره بالسجود لآدم ، فاعترض على هذا الأمر بأني خير منه ، وامتنع من السجود ، فهو أول من عادى الله ، وهو الجاهل الظالم - الجاهل بما في أمر الله من الحكمة ، الظالم باستكباره الذي جمع فيه بين بطل الحق وغمط الناس .

ثم قوله لربه ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَفْعَلَنَّ ﴾ جعل فعل الله - الذي هو إغواؤه له - حجة له ، وداعياً إلى أن يغوي ابن آدم ، وهذا طعن منه في فعل الله وأمره ، وزعم منه أنه قبيح ، فأنأ أفعل القبيح أيضاً ، فقاس نفسه

(١) سورة الحجر آية رقم ٣٩ .

على ربه ، ومثل نفسه بربه .

ولهذا كان مضاهياً للربوبية ، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ : « إن إبليس ينصب عرشه على البحر ، ثم يبعث سراياه ، فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة ، فيجيء الرجل فيقول : ما زلت به حتى فعل كذا ، ثم يجيء الآخر فيقول : ما زلت به حتى فرقت بينه وبين زوجته فيلتزمه ويدنيه منه ويقول : أنت أنت^(١) .

والقدرية قصدوا تنزيه الله عن السفه ، وأحسنوا في هذا القصد ، فإنه سبحانه مقدس عما يقول الظالمون - من إبليس وجنوده - علواً كبيراً ، حكم ، عدل ، لكن ضاق ذرعهم وحصل عندهم نوع جهل اعتقدوا معه أن هذا التنزيه لا يتم إلا بأن يسلبوه قدرته على أفعال العباد ، وخلقه لها ، وشمول إرادته لكل شيء ، فناظروا إبليس وحزبه في شيء ، واستحوذ عليهم إبليس من ناحية أخرى .

وهذا من أعظم آفات الجدل في الدين بغير علم أو بغير الحق ، وهو الكلام الذي ذمه السلف ، فإن صاحبه يرد باطلاً بباطل وبدعة ببدعة .

فجاء طوائف ممن ناظرهم من أهل الإثبات فقرروا أن الله خالق كل شيء ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير ، فضاق ذرعهم وعلمهم ، واعتقدوا أن هذا لا يتم إن لم ننكر محبة الله ، ورضاه ، وما خص به بعض الأفعال دون بعض من الصفات الحسنة والسيئة ، وننكر حكمته ، ورحمته - فيجوز عليه كل فعل ، لا ينزه عن ظلم ولا غيره من الأفعال . وزاد قوم في ذلك حتى عطلوا الأمر والنهي والوعد

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المنافقون ٦٦ باب حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء واسحاق ابن ابراهيم (واللفظ لأبي كريب) قالوا اخبرنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

ورواه الامام احمد في المسند ٣: ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ (حلي) .

والوعيد رأساً ، ومال هؤلاء إلى الإرجاء ، كما مال الأولون إلى الوعيد ، فقالت الوعيدية : كل فاسق خالد في النار ، لا يخرج منها أبداً ، وقالت الخوارج : هو كافر . وغالية المرجئة أنكرت عقاب أحد من أهل القبلة ، ومن صرح بالكفر أنكر الوعيد في الآخرة رأساً ، كما يفعله طوائف من الاتحادية ، والمتفلسفة ، والقرامطة^(١) ، والباطنية ، وكان هؤلاء الجبرية المرجئة أكفر بالأمر والنهي والوعد والوعيد من المعتزلة الوعيدية القدرية .

وأما مقتصدة المرجئة الجبرية الذين يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد ، وأن من أهل القبلة من يدخل النار ، فهؤلاء أقرب الناس إلى أهل السنة ، وقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال « لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً أنا آخرهم »^(٢) .

لكن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية والمرجئة ونحوهم في الشريعة - علمها وعملها ، فكلامهم في أصول الفقه وفي اتباع الأمر والنهي خير من كلام المرجئة من الأشعرية وغيرهم ، فإن كلام هؤلاء في أصول الفقه قاصر جداً ، وكذلك هم مقصرون في تعظيم الطاعات والمعاصي . ولكن هم

(١) القرامطة : دعوة اسماعيلية متطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ م في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حدان القرميطي ، وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب والأنباط والزنج المستعبدين وانتهى الأمر بهؤلاء أن جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف .
مبادئهم : قالوا الصلاة مولاة اعمالهم ، وأن الحج زيارته وخدمته ، أما الصوم فهو الامساك عن إفشاء سره وقالوا من عرف معنى العبادة سقط عنه فرائضها ، فهذه الأفكار تتنافى تماماً مع مبادئ الاسلام ، فهذه الفرقة لم يبق لها أثر في العالم الاسلامي .

(٢) هناك حديث ذكره ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٩٢ بسنده عن جابر بن عبد الله . قال رسول الله ﷺ : إن مجوس هذه الأمة المكذبون باقدار الله ، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم .
والحديث المذكور فيه زيادة (وإذا كان يوم القيامة وجع الناس في صعيد واحد نادى منادي يسمع الأولين والآخرين ابن خصماء الله فيقوم القدرية) .
رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو متروك ورواه أبو يعلى في الكبير باختصار في رواية بقية بن الوليد عن حبيب بن عمرو وبقية مدنس وحبيب مجهول .

في أصول الدين أصلح من أولئك ، فإنهم يؤمنون من صفات الله وقدرته
وخلقه بما لا يؤمن به أولئك ، وهذا الصنف أعلى .

فلهذا كانت المرجئة في الجملة خيراً من القدرية ، حتى إن الإرجاء
دخل فيه الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم ، بخلاف الاعتزال ، فإن ليس فيه
أحد من فقهاء السلف وأئمتهم .

فصل

في الرد على المكذبين بالقدر

فإذا كان الضلال في القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر والخلق ، وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد ، وتارة بتظلم الرب ، كان في هذه السورة رداً على هذه الطوائف كلها .

فقوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾^(١) إثبات للقدر بقوله ﴿ أَلْهَمَهَا ﴾ ، وإثبات لفعل العبد . بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية ، وإثبات للتفريق بين الحسن والقيبح ، والأمر والنهي ، بقوله ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .

وقوله بعد ذلك ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾^(٢) إثبات لفعل العبد ، والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه ، وخيبة من دساها ، وهذا صريح في الرد على القدرية المجوسية ، وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد - وهم المكذبون بالحق .

وأما المظلّمون للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾^(٣) والتسوية : التعديل . فبين أنه عادل في تسوية النفس التي أَلْهَمَهَا

(١) سورة الشمس آية رقم ٨ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٩ - ١٠ .

(٣) سورة الشمس آية رقم ٧ .

فجورها وتقواها .

وذكر بعد ذلك عقوبة من كذب رسله وطغى ، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله ، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا فإن الله ينتقم منه ، ولا يخاف عاقبة انتقامه ، كما انتقم من إبليس وجنوده ، وأن تظلمه من ربه وتسفيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً .

« فإن العباد لن يبلغوا ضر الله فيضروه ، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه ، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً ، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً » (١) .

ولهذا لما سأل عمران بن حصين (٢) أبا الأسود (٣) الدؤلي عن ذلك ليحذر عقله « هل يكون ذلك ظلماً »؟ فذكر أن ذلك ليس منه ظلماً ، وخاف من قوله ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾ وذكر حديث النبي ﷺ ، واستشهاد به هذه الآية .

وقد تبين أن القدرية الخائضين بالباطل إما أن يكونوا مكذبين لما أخبر به الرب من خلقه أو أمره ، وإما أن يكونوا مظلّمين له في حكمه ، وهو

(١) هذا جزء من حديث رواه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) عن ربيعة بن يزيد ، عن أبي ادريس الخولاني ، عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : وذكره .

(٢) هو عمران بن حصين بن عبيد ، أبو نجيد الخزاعي من علماء الصحابة ، اسلم عام خيبر سنة ٧ هـ وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة وبعثه عمر بن الخطاب الى أهل البصرة ليفقههم ، وولاه زياد قضاءها وتوفي بها عام ٥٢ هـ وهو ممن اعتزل حرب صفين ، له في كتب الحديث ١٣٠ حديثاً .

راجع تذكرة الحفاظ ١: ٢٨ ، وتهذيب التهذيب ٨: ١٢٥ وصفة الصفوة ١: ٢٨٣ وطبقات ابن سعد ٧: ٤ وفي المدمش لابن الجوزي : عمران بن الحصين .

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني واضع علم النحو ، كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب من التابعين . رسم له علي بن =

سبحانه الصادق العدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(١) فإن الكلام إما إنشاء وإما إخبار ، فالإخبار صدق ، لا كذب - والإنشاء - أمر التكوين ، وأمر التشريع - عدل ، لا ظلم ، والقدرية المجوسية كذبوا بما أخبر به عن خلقه وشرعه من أمر الدين ، والأبليسية جعلوه ظالماً في مجموعهما ، أو في كل منهما .

وقد ظهر بذلك أن المفترقين المختلفين من الأمة إنما ذلك بتركهم بعض الحق الذي بعث الله به نبيه وأخذهم باطلاً يخالفه ، واشتراكهم في باطل يخالف ما جاء به الرسول ، وهو من جنس مخالفة الكفار للمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ^(٢) .

فإذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتبعين للرسول نسوا حظاً مما ذكروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء ، واختلّفوا فيما بينهم في حق آخر جاء به الرسول ، فأمن هؤلاء ببعضه وكفروا ببعضه ، والآخرين يؤمنون بما كفر به هؤلاء ويكفرون بما يؤمن به هؤلاء ..

وهنا كلا الطائفتين المختلفتين المفترقتين مذمومة ، وهذا شأن عامة الافتراق والاختلاف في هذه الأمة وغيرها ، وهذا من ذلك فإنهم اشتركوا [في] أن كون الرب خالقاً لفعل العبد ينافي كون فعله منقسماً إلى حسن وقبيح ، وهذه المقدمة اشتركوا فيها جداً من غير أن تكون حقاً في نفسها أو عليها حجة مستقيمة .

= أبي طالب شيئاً من أصول النحو فكتب فيه أبو الأسود وأخذته عنه جماعة سكن البصرة في خلافة عمر ، وولي أمارتها في أيام علي ، استخلفه عبد الله بن عباس عليها لما شخص إلى الحجاز ولم يزل في الامارة إلى أن قتل علي ، وكان قد شهد معه صفين . مات بالبصرة عام ٦٩ هـ . راجع الخضرى على ابن عقيل ١١: ١ وصبح الأعشى ٣: ١٦١ ووفيات الأعيان ١: ٢٤٠ والأصابة ٤٣٢٢ وتهذيب ابن عساكر ٧: ١٠٤ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة البقرة الآيات من ٢٥٣ .

وهي إحدى المقدمتين التي يعتمدها الرازي في مسألة التحسين والتقييح ، فإنه اعتقد في « محصله » وغيره على أن العبد مجبور على فعله ، والمجبور لا يكون فعله قبيحاً ، فلا يكون شيء من أفعال العباد قبيحاً .

وهذه الحجة بنفي ذلك أصلها حجة المشركين المكذبين للرسول - الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) فإنهم نفوا قبح الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بآيات القدر .

لكن هؤلاء الذين يحتجون بالجبر على نفي الأحكام إذا أقروا بالشرع لم يكونوا مثل المشركين من كل وجه ، ولهذا لم يكن المتكلمون المقرون بالشرعية كالمشركين ، وإن كان فيهم جزء من باطل المشركين .

لكن يوجد في المتكلمين والمتصوفة طوائف يغلب عليهم الجبر حتى يكفروا حينئذ بالأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب - إما قولاً ، وإما حالاً وعملاً ، وأكثر ما يقع ذلك في الأفعال التي توافق أهواءهم - يطلبون بذلك إسقاط اللوم والعقاب عنهم ، ولا يزيدهم ذلك إلا ذمّاً وعقاباً - كالمستجير من الرمضاء بالنار - .

فإن هذا القول لا يطرد العمل به لأحد إذ لا غنى لبني آدم - بعضهم من بعض - من إرادة شيء والأمر به ، وبغض شيء والنهي عنه ، فمن طلب أن يسوي بين المحبوب والمكروه ، والمرضي والمسخط ، والعدل والظلم ، والعلم والجهل ، والضلال والهدى ، والرشد والغي ، فإنه لا يستمر على ذلك أبداً ، بل إذا حصل له ما يكرهه ويؤذيه فر إلى دفع ذلك ، وعقوبة فاعله بما قدر عليه حتى يعتدي في ذلك .

فهم من أظلم الخلق في تفريقهم بين القبيح من الظلم والفواحش منهم ومن غيرهم ، ومن يهوونه ومن لا يهوونه ، واحتجاجهم بالقدر لأنفسهم دون خصوصهم .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

وتجد أحدهم عند فعل ما يحمد عليه يغلب على قلبه حال أهل القدر ، فيجعل نفسه هو المحدث لذلك دون الله ، وينسى نعمة الله عليه في إلهامه إياه تقواه ، وهذا من أظلم الخلق ، كما قال أبو الفرج بن الجوزي^(١) : أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى - أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل العدل ضد ذلك ، إذا فعلوا حسنة شكروا الله عليها لعلمهم بأن الله هو الذي حجب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وأنه هو الذي كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) .

فاتبعوا أباهم حيث أذنب : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(٣) . ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٤) .

ويقول أحدهم « أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي » كما قال النبي ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب [إلا أنت]^(٥) » وكما في الحديث الصحيح أيضاً : « إن الله تعالى

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح

السعادة ١ : ٣٠٧ وآداب اللغة ٣ : ٩١ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٣٥ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٧ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٣ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب الدعوات ١٦ باب ما يقول إذا أصبح ٦٣٢٣ حدثنا مسدد ،

حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حسين حدثنا عبد الله بن بريدة ، عن بشير بن كعب عن شداد بن =

يقول : يا عبادي ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه ^(١) ويقولون بموجب قوله قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(٢) .

قال ابن القيم ^(٣) رحمه الله :
ذكر سبحانه في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة ، فقال شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية :

هذا - والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم ، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ، ومدين ، وقوم لوط وغيرهم .

ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجهلون » . ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ ^(٤) .

= أوس عن النبي ﷺ وذكره . ورواه أبو داود في كتاب الأدب باب ١٠١ ، والترمذي في كتاب الدعوات ١٥ وابن ماجه في كتاب الدعاء ١٤ واحمد بن حنبل في المسند ١٢٢: ٤ ، ٨٢٥ ، ٣٥٦: ٦ (حلي) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ١٥ باب تحريم انطمة ٢٥٥ (٢٥٧٧) عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى وذكره .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٩

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد أبو عبد الله شمس الدين من أركان الإصلاح ولد عام ٦٩١ هـ وتوفي عام ٧٥١ هـ تتلمذ لشيخ الاسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه من كتبه (الطرق الحكمية) وشفاء العليل وأحكام أهل الذمة « والصواعق المرسلة » . وغير ذلك كثير .

(٤) سورة فصلت آية رقم ١٧ .

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة كاللواط ، وبخس المكيال والميزان ، والفساد في الأرض ، كما في سورة هود ، والشعراء ، وغيرهما ، فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها ، وفي عاد - مع الشرك - التجبر ، والتكبر ، والتوسع في الدنيا ، وشدة البطش ، وقولهم « من أشد منا قوة » ، وفي أصحاب مدين - مع الشرك - الظلم في الأموال ، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض ، والعلو .

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم ، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء ، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم ، فجمع لهم بين الهلاك ، والرجم بالحجارة من السماء ، وطمس الأبصار ، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها ، والخسف بهم إلى أسفل سافلين ، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم ، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان .

وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال ، فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنوبهم - مع الشرك - عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم فمن انتهك محارم الله ، واستخف بأوامره ونواهيه ، وعقر عباده وسفك دماءهم ، كان أشد عذاباً .

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً ، وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد ، وسفك الدماء بغير حق ، وأقام الفتن ، واستهان بحرمات الله ، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون .

سورة العلق

وقال الشيخ رحمه الله

فصل

في بيان أن الرسول ﷺ أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين وهي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع وتوحيده وصدق رسوله ﷺ ، وعلى المعاد إمكاناً ووقوعاً .

وقد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غير مرة ، وأن الرسول ﷺ بين الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلى دينهم ، وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأن الذين ابتدعوا أصولاً تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم ، لا أصول دينه وهي باطلة عقلاً وسمعاً ، كما قد بسط في غير موضع ، وبين أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدين قاصرون أو مقصرون في معرفة ما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية .

فطائفة قد ابتدعت أصولاً تخالف ما جاء به من هذا وهذا .

وطائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه ، وصاروا ينتسبون إلى السنة لسلامتهم من بدعة أولئك ، ولكن هم مع ذلك لم يتبعوا السنة على وجهها ، ولا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية .

بل الذي يخبر به من السمعيات مما يخبر به عن ربه وعن اليوم الآخر غايتهم أن يؤمنوا بلفظه من غير تصور لما أخبر به ، بل قد يقولون مع هذا إنه نفسه لم يكن يعلم معنى ما أخبر به ، لأن ذلك عندهم هو تأويل

المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

وأما الأدلة العقلية فقد لا يتصورون أنه أتى بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به ، كالأدلة الدالة على التوحيد والصفات ، ومنهم من يقر بأنه جاء بهذا - مجملًا ، ولا يعرف أدلته ، بل قد يظن أن ما يستدل به - كالأستدلال بخلق الإنسان على حدوث جواهره - هو دليل الرسول .

وكثير من هؤلاء يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل كالمعاد ، وحسن التوحيد والعدل والصدق ، وقبح الشرك والظلم والكذب ، والقرآن بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك ، وينكر على من لم يستدل بها ، ويبين أنه بالعقل يعرف المعاد ، وحسن عبادته وحده وحسن شكره ، وقبح الشرك ، وكفر نعمه ، كما قد بسطت الكلام على ذلك في مواضع .

وكثير من الناس يكون هذا في فطرته وهو ينكر تحسين العقل وتقييحه إذا صنف في أصول الدين على طريقة الثقة الجبرية - أتباع جهم .

وهذا موجود في عامة ما يقوله المبطلون - يقولون بفطرتهم ما يناقض ما يقولونه في اعتقادهم البدعي .

وقد ذكر أبو عبد الله - ابن الجدل الأعلى - أنه سمع أبا الفرج بن الجوزي ينشد في مجلس وعظه البيتين المعروفين :

هب ، البعث لم تأتنا رُسُلُه وجاحمة النار لم تُضرم
أليس من الواجب المستحق حياء العباد من المنعم ؟

فقد صرح في هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم . وهذا تصريح بان شكره واجب مستحق ولو لم يكن وعيد ، ولا رسالة أخبرت بجزاء ، وهو يبين ثبوت الوجوب والاستحقاق وان قدر أنه لا عذاب .

وهذا فيه نزاع قد ذكرناه في غير هذا الموضع ، وبيننا أن هذا هو

الصحيح ، ونتيجة فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي التي كان فيها وإن كان لا يعاقب بالضرر .

وبين أن الوجوب والاستحقاق يعلم بالبديهة ، فتارك الواجب وفاعل القبيح وإن لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم وأسبابه ما يكون جزاءه . وهذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها - أن يسلبها .

فالشكر قيد النعم ، وهو موجب للمزيد ، والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب ، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد .

مع أنه لا بد من إرسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب ، فإنه ماثم دار إلا الجنة أو النار . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾^(١) وهذا مبسوط في مواضع .

والمقصود هنا أن بيان هذه الأصول وقع في أول ما أنزل من القرآن فإن أول ما أنزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾^(٢) عند جماهير العلماء ، وقد قيل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾^(٣) روي ذلك عن جابر ، والأول أصح ، فإن [ما] في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ نزلت عليه وهو في غار حراء ، وأن « المدثر » نزلت بعد .

وهذا هو الذي ينبغي ، فإن قوله ﴿ اقْرَأْ ﴾ أمر بالقراءة ، لا بتبليغ الرسالة ، وبذلك صار نبياً ، وقوله ﴿ قم فأنذر ﴾ أمر بالإندار ، وبذلك صار رسولاً منذراً .

ففي الصحيحين من حديث الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت :

(١) سورة التين الآيات من ٤ - ٦ .

(٢) سورة العلق آية رقم ١ .

(٣) سورة المدثر آية رقم ١ .

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يَأْتِي غَار حراء فيَتَحَنَّن فِيهِ - وهو التعبَد - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَد قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لَذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حراء .

فجاء الملك فقال « اقرأ » .

قال : « ما أنا بقارئ » .

قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال « اقرأ » : فقلت « ما أنا بقارئ » .

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال ﴿ اقرأ ﴾ .

فقلت « ما أنا بقارئ » .

فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(١) .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : « زملوني » . زملوني [فزملوه] حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - « لقد خشيت على نفسي » !

ف قالت له خديجة : « كلا ! والله لا يخزيك الله أبداً - إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد

(١) سورة العلق الآيات من ١ - ٥ .

العزى - ابن عم خديجة . وكان امراً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبري ، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي .

فقال له خديجة : « يا بن عم ! اسمع من ابن أخيك » .

فقال له ورقة : « يا بن أخي ! ماذا ترى ؟ » .

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس^(١) الذي أنزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً؟^(٢) ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « أو مخرجي هم ؟ » .

قال : « نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً » .

ثم لم ينشب^(٣) ورقة أن توفي ، وفتر الوحي^(٤) .

قال ابن شهاب الزهري : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن ، قال أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي :

(١) الناموس صاحب السر كما جزم به المؤلف في أحاديث الأنبياء وزعم ابن ظفر أن الناموس صاحب سر الخير ، والجالسوس صاحب سر الشر ، والأول الصحيح الذي عليه الجمهور .

(٢) الجذع : بفتح الجيم والذال المعجمة : هو الصغير من البهائم كأنه تمى أن يكون عند ظهور الدعاء الى الاسلام شاباً ليكون أمكن لنصره .

(٣) لم ينشب : بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث ، واصل النشوب التعلق ، أي لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الوحي ٣ باب حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة ام المؤمنين وذكره ، ورواه أيضاً في بدء الخلق ٧ والتفسير سورة ٩٦ ، ١ ورواه الامام مسلم في ايمان ٢٥٦ والامام احمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٢٥ ، ٣٧٧ ، ٦ : ٢٣٣ .

« فينما أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجثت حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني ، زملوني ، فزملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالرَّجَزُ فَاهْجُرْ ﴾ .

فهذا يبين أن « المدثر » نزلت بعد تلك الفترة ، وأن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولاً ، فكان قد رأى الملك مرتين .

وهذا يفسر حديث جابر الذي روي من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير ، قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن . قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ قلت : يقولون ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك [و] قلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ - قال : « جاورت بحراء ؟ فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء بارداً ، فدثروني وصبوا علي ماء بارداً » (١) .

قال : فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (٢) .

فهذا الحديث يوافق المتقدم ، وإن « المدثر » نزلت بعد أن هبط من الجبل وهو يمشي ، وبعد أن ناداه الملك حينئذ ، وقد بين في الرواية

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٧٤ سورة المدثر ١ باب ٤٩٢٢ - حدثني يحيى ، حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن وذكره .

(٢) سورة المدثر ١ - ٣ .

الأخرى أن هذا الملك هو الذي جاءه بحراء ، وقد بينت عائشة أن « اقرأ » نزلت حينئذ في غار حراء ، لكن كأنه لم يكن علم أن « اقرأ » نزلت حينئذ ، بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك ، وقد يراه ولا يسمع منه ، لكن في حديث عائشة زيادة علم ، وهو أمره بقراءة « اقرأ » .

وفي حديث الزهري أنه سمى هذا « فترة الوحي » وكذلك في حديث عائشة « فترة الوحي » فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى ، وسمى ما بين الرؤيتين « فترة الوحي » كما بينته عائشة ، وإلا فإن كان جابر سماه « فترة الوحي » فكيف يقول إن الوحي لم يكن نزل ؟ .

وبكل حال فالزهري عنده حديث عروة ، عن عائشة ، وحديث أبي سلمة ، عن جابر ، وهو أوسع علماً وأحفظ من يحيى بن أبي كثير لو اختلفا ، لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمة عن الأولى ، فأخبر جابر بعلمه ولم يكن علم ما نزل قبل ذلك ، وعائشة أثبتت وبينت .

والآيات - آيات ﴿ اقرأ ﴾ و﴿ المدثر ﴾ - تبين ذلك ، والحديثان متصادقان مع القرآن ومع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو المناسب .

وإذا كان أول ما أنزل : ﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾^(١) ففي الآية الأولى إثبات الخالق تعالى ، وكذلك في الثانية .

وفيها وفي الثانية الدلالة على إمكان النبوة ، وعلى نبوة محمد ﷺ .

أما الأولى فإنه قال ﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ فذكر الخلق مطلقاً ، ثم خص خلق الإنسان أنه خلقه من علق ، وهذا أمر معلوم لجميع الناس - كلهم يعلمون أن الإنسان يحدث في بطن أمه ، وأنه يكون من علق ، وهؤلاء بنو آدم .

(١) سورة العلق الآيات من ١ - ٥ .

وقوله ﴿الإنسان﴾ هو اسم جنس يتناول جميع الناس ، ولم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين ، فإن المقصود بهذه الآية بيان الدليل على الخالق تعالى ، والاستدلال إنما يكون بمقدمات يعلمها المستدل ، والمقصود بيان دلالة الناس وهدايتهم ، وهم كلهم يعلمون أن الناس يخلقون من العلق .

فأما خلق آدم من طين فذاك إنما علم بخبر الأنبياء ، أو بدلائل آخر ، ولهذا ينكره طائفة من الكفار - الدهرية وغيرهم - الذين لا يقرون بالنبوات .

وهذا بخلاف ذكر خلقه في غير هذه السورة ، فإن ذاك ذكره لمن يثبت النبوة ، وهذه السورة أول ما نزل ، وبها تثبت النبوة فلم يذكر فيها ما علم بالخبر ، بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل والمشاهدة ، والأخبار المتواترة لمن لم ير العلق .

وذكر سبحانه خلق الإنسان من العلق - وهو جمع « علقة » وهي القطعة الصغيرة من الدم - لأن ما كان قبل ذلك كان نطفة ، والنطفة قد تسقط في غير الرحم كما يحتلم الإنسان ، وقد تسقط في الرحم ثم يرميها الرحم قبل أن تصير علقة ، فقد صار مبدأ لخلق الإنسان ، وعلم أنها صارت علقة ليخلق منها الإنسان .

وقد قال في سورة القيامة : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (١) ؟ فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب ، ولهذا قال في موضع آخر : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ (٢) ففي القيامة استدل بخلق من

(١) سورة القيامة الآيات من ٣٧ - ٤٠ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٥ وتكملة الآية ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى

نطفة ، فإنه معلوم لجميع الخلق ، وفي الحج ذكر خلقه من تراب ، فإنه قد علم بالأدلة القطعية ، وذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة .

وأما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى ابتداء فذكر أنه خلق الإنسان من علق ، وهو من العلقه - الدم ، يصير مضغة ، وهو قطعة لحم كاللحم الذي يمزغ بالفم ، ثم تخلق فتصور ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾^(١) فإن الرحم قد يقذفها غير مخلقة ، فبين للناس مبدأ خلقهم ، ويرون ذلك بأعينهم .

وهذا الدليل - وهو خلق الإنسان من علق - يشترك فيه جميع الناس ، فإن الناس هم المستدلون ، وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية .

فالإنسان هو الدليل وهو المستدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴾^(٢) وقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾^(٣) وهذا كما قال في آية أخرى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾^(٤) .

وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه ويذكره كلما تذكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه ، فيستدل به على المبدأ والمعاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ، أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾^(٥) وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ

= ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنتبت من كل زوج بهيج .

- (١) سورة الحج آية رقم ٥ .
- (٢) سورة الذاريات آية رقم ٢١ .
- (٣) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .
- (٤) سورة الطور آية رقم ٣٥ .
- (٥) سورة مريم آية رقم ٦٦ - ٦٧ .

يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾ .

وكذلك قال زكريا لما تعجب من حصول ولد على الكبر فقال : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ؟ قَالَ كَذَلِكَ ، قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٢) ولم يقل « إنه أهون عليه » كما قال في المبدأ والمعاد : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (٣) .

وقال سبحانه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٤) بعد أن قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . فأطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق ، ثم عين خلق الإنسان فكان كلما يعلم حدوثه داخلاً في قوله ﴿ الذي خلق ﴾ .

وذكر بعد الخلق التعليم - الذي هو التعليم بالقلم ، وتعليم الإنسان ما لم يعلم ، فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة .

ولم يقل هنا « هدى » فيذكر الهدى العام المتناول للإنسان وسائر الحيوان ، كما قال في موضع آخر : ﴿ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (٥) وكما قال موسى ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٦) لأن هذا التعليم الخاص يستلزم الهدى العام ، ولا ينعكس ، وهذا أقرب إلى إثبات النبوة ، فإن النبوة نوع من التعليم .

وليس جعل الإنسان نبياً بأعظم من جعله العلقة إنساناً ، حياً ، عالماً ،

(١) سورة يس آية رقم ٧٨ - ٧٩ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٨ - ٩ .

(٣) سورة الروم آية رقم ٢٧ .

(٤) سورة العلق آية رقم ٢ .

(٥) سورة الأعلى الآيات من ١ - ٣ .

(٦) سورة طه آية رقم ٥٠ .

ناطقاً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، قد علم أنواع المعارف ، كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته ، والقادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد ؟ والقادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذاك التعليم وهو بكل شيء عليم ، ولا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء ؟ .

وقال سبحانه أولاً ﴿ علم بالقلم ﴾ فأطلق التعليم والمعلم ، فلم يخص نوعاً من المعلمين ، فيتناول تعليم الملائكة وغيرهم من الإنس والجن ، كما تناول الخلق لهم كلهم .

وذكر التعليم بالقلم لأنه يقتضي تعليم الخط ، والخط يطابق اللفظ ، وهو البيان والكلام ، ثم اللفظ يدل على المعاني المعقولة التي في القلب فيدخل فيه كل علم في القلوب .

وكل شيء له حقيقة في نفسه ثابتة في الخارج عن الذهن ، ثم يتصوره الذهن والقلب ، ثم يعبر عنه اللسان ، ثم يخطه القلم ، فله وجود عيني ، وذهني ، ولفظي ، ورسمي - وجود في الأعيان ، والأذهان ، واللسان ، والبنان ، لكن الأول هو هو ، وأما الثلاث فإنها مثال مطابق له ، فالأول هو المخلوق ، والثلاثة معلمة ، فذكر الخلق والتعليم ليتناول المراتب الأربع ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

وقد تنازع الناس في الماهيات هل هي مجعولة أم لا ؟ وهل ماهية كل شيء زائدة على وجوده ؟ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين الصواب في ذلك ، وأنه ليس إلا ما يتصور في الذهن ، ويوجد في الخارج .

فإذا أريد الماهية ما يتصور في الذهن . وبالوجود ما في الخارج أو

(١) سورة العلق الآيات من ١ - ٥ .

بالعكس ، فالماهية غير الوجود إلا كان ما في الأعيان مغايراً لما في الأذهان .

وإن أريد بالماهية ما في الذهن ، أو الخارج ، أو كلاهما ، وكذلك بالوجود ، فالذي في الخارج من الوجود هو الماهية الموجودة في الخارج ، وكذلك ما في الذهن من هذا هو هذا ، ليس في الخارج شيئان . وهو سبحانه علم ما في الأذهان ، وخلق ما في الأعيان ، وكلاهما مجعول له . لكن الذي في الخارج جعله جعلاً خلقياً ، والذي في الذهن جعله جعلاً تعليمياً ، فهو الذي ﴿ خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ وهو : ﴿ الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وقوله : ﴿ علم بالقلم ﴾ يدخل فيه تعليم الملائكة الكاتين ، ويدخل فيه تعليم كتب الكتب المنزلة ، فعلم بالقلم أن يكتب كلامه الذي أنزله كالطوراة والقرآن ، بل هو كتب الطوراة لموسى .

وكون محمد كان نبياً أمياً هو من تمام كون ما أتى به معجزاً خارقاً للعادة ، ومن تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُنْطَلِقُونَ ﴾ ^(١) فغيره يعلم ما كتبه غيره ، وهو علم الناس ما يكتبونه ، وعلمه الله ذلك بما أوحاه إليه .

وهذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية وبرهان على نبوته ، فإنه لا يقدر عليه الإنس والجن ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ^(٢) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٨٨ .

صَادِقِينَ ﴿١﴾ وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ فَآتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢).

(١) سورة يونس آية رقم ٣٨ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٣ - ١٤ .

فصل

في الاستدلال على وجود الخالق تعالى

وقد بسطنا في غير هذا الموضع طرق الناس في إثبات الصانع والنبوة [و] أن كل طريق تتضمن ما يخالف السنة فإنها باطلة في العقل كما هي مخالفة للشرع .

والطريق المشهورة عند المتكلمين هو الاستدلال بحدوث الاعراض على حدوث الأجسام .

وقد بينا الكلام على هذه في غير موضع ، وأنها مخالفة للشرع والعقل ، وكثير من الناس يعلم أنها بدعة في الشرع ، لكن لا يعلم فسادها في العلم ، وبعضهم يظن أنها صحيحة في العقل والشرع ، وأنها طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد بين فساد هذا في غير موضع .

والمقصود هنا أن طائفة من النظار - مثبتة الصفات - أرادوا سلوك سبيل السنة ولم يكن عندهم إلا هذه الطريق .

فاستدلوا بخلق الإنسان ، لكن لم يجعلوا خلقه دليلاً كما في الآية ؛ بل جعلوه مستدلاً عليه ، وظنوا أنه يعرف بالبديهة والحس حدوث أعراض النطفة ، وأما جواهرها . فاعتقدوا أن الأجسام كلها مركبة من الجواهر

المنفردة ، وأن خلق الإنسان وغيره إنما هو إحداث أعراض في تلك الجواهر بجمعها وتفريقها ، ليس هو إحداث عين .

فصاروا يريدون أن يستدلوا على أن الإنسان مخلوق ، ثم إذا ثبت أنه مخلوق قالوا : إن له خالقاً .

واستدلوا على أنه مخلوق بدليل الأعراض ، وأن النطفة والعلقة والمضغة لا تنفك من أعراض حادثة . إذ كان عندهم جواهر تجمع تارة وتفرق أخرى ، فلا تخلو عن اجتماع وافتراق ، وهما حادثان ، فلم يخل الإنسان عن الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها .

وهذه هي الطريقة التي سلكها الأشعري في « اللمع في الرد على أهل البدع » وشرحه أصحابه شروحاً كثيرة ، وكذلك في « رسالته إلى أهل الثغر » وذكر قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾^(١) فاستدل على أن الإنسان مخلوق بأنه مركب من الجواهر التي لا تخلو من اجتماع وافتراق ، فلم تخل من الحوادث فهي حادثة .

وهذه الطريقة هي مقتضية من كون الأجسام كلها كذلك .

وتلك هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهمية ، والمعتزلة ، ومن اتبعهم من المتأخرين المنتسبين إلى المذاهب الأربعة وغيرهم من أصحاب أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، كما ذكرها القاضي ، وابن عقيل ، وغيرهما ، وذكرها أبو المعالي الجويني^(٢) ، وصاحب « التتمة » ،

(١) سورة الواقعة آية رقم ٥٨ - ٥٩ .

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ، سبق الترجمة له . وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ ، والسبكي ٣ : ٢٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٠ ثم ٢ : ١٨٨ وتبيين كذب المفتري ٢٧٨ - ٢٨٥ .

وغيرهما ، وذكرها أبو الوليد الباجي^(١) ، وأبو بكر بن العربي^(٢) ، وغيرهما ، وذكرها أبو منصور الماتريدي^(٣) ، والصابوني^(٤) . وغيرهما .

لكن هؤلاء الذين استدلوا بخلق الإنسان فرضوا ذلك في الإنسان ظناً أن هذه طريقة القرآن ، وطولوا في ذلك ودققوا حتى استدلوا على كون عين الإنسان وجواهره مخلوقة ، لظنهم أن المعلوم بالحسن وبديهة العقل إنما هو حدوث أعراض ، لا حدوث جواهر . وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب ، والمطر ، والزرع ، والثمر ، والإنسان والحيوان ، فإنما يحدث فيه أعراضاً ، وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفرقها .

وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة ، ولا بضرورة العقل ، وإنما يعلم ذلك إذا استدل كما استدلوا . فقالوا : هي

(١) هو سليمان بن خلف بن سعد القرطبي أبو الوليد الباجي . سبق الترجمة له . وراجع : الديباج المذهب ١٢٠ والوفيات ٢١٥: ١ والفوات ١٧٥: ١ ونفع الطيب ٣٦١: ١ وتهذيب ابن عساكر ٢٤٨: ٦ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي أبو بكر بن العربي . قاض من حفاظ الحديث ، ولد في أشبيلية ، ورحل إلى المشرق ، وبرع في الأدب ، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين ، وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير مات بقرب فاس ودفن بها عام ٥٤٣ هـ من كتبه : أحكام القرآن ، والقبس في شرح موطأ ابن أنس ، والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كثير .

راجع طبقات الحفاظ للسيوطي ووفيات الأعيان ٤٨٩: ١ ونفع الطيب ٣٤٠: ١ وقضاة الأندلس ١٥٠ .

(٣) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي - سبق الترجمة له توفي عام ٣٣٣ هـ .

راجع الفوائد البهية ١٩٥ ومفتاح السعادة ٢١: ٢ والجواهر المضيئة ١٣٠ .

(٤) هو اسماعيل بن غيد الرحمن بن أحمد بن اسماعيل أبو عثمان الصابوني مقدم أهل الحديث في بلاد خراسان ، لقبه أهل السنة فيها بشيخ الاسلام فلا يعنون عند اطلاقهم هذه اللفظة غيره ، ولد عام ٣٧٣ ومات في نيسابور عام ٤٤٩ هـ يجيد الفارسية إجادته العربية له كتاب « عقيدة السلف » والفصول والغايات .

راجع طبقات الشافعية ١٧٧: ٣ وتهذيب ابن عساكر ٢٧: ٣ - ٢٣ .

أعراض حادثة في جواهر ، وتلك الجواهر لم تخل من الأعراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض .

ثم قالوا : وما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وهذا بنوه على أن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة ، وقالوا : إن الأجسام لا يستحيل بعضها إلى بعض .

وجمهور العقلاء من السلف ، وأنواع العلماء ، وأكثر النظائر ، يخالفون هؤلاء فيما يشبتون من الجوهر الفرد ، ويشبتون استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ، ويقولون بأن الرب لا يزال يحدث الأعيان ، كما دل على ذلك القرآن .

ولهذا كانت هذه الطريق باطلة عقلاً وشرعاً ، وهي مكابرة للعقل . فإن كون الإنسان مخلوقاً محدثاً كائناً بعد أن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس ، وكل أحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد أن لم يكن وأن عينه حدثت كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾^(٢) ليس هذا مما يستدل عليه ، فإن أبين وأوضح مما يستدل به عليه لو كان صحيحاً . فكيف إذا كان باطلاً .

وقولهم : إن الحادث اعراض فقط ، وأنه مركب من الجواهر الفردة ، قولان باطلان لا يعلم صحتهما ، بل يعلم بطلانهما .

ويعلم حدوث جوهر الإنسان وغيره من المادة التي خلق منها وهي العلق

(١) سورة مريم آية رقم ٩ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٧ .

كما قال ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (١).

وكونه مركباً من جواهر فردة ليس صحيحاً ، ولو كان صحيحاً لم يكن معلوماً إلا بأدلة دقيقة لا تكون هي أصل الدين الذي هو مقدمات أولية ، فإن تلك المقدمات يجب أن تكون بينة أولية معلومة بالبدئية .

فطريقهم تضمن جحد المعلوم ، وهو حدوث الأعيان الحادثة ، وهذا معلوم للخلق ، وإثبات ما ليس بمعلوم ، بل هو باطل ، ولأن الأحداث لها إنما [هو] جمع وتفريق للجواهر ، وأنه إحداث أعراض فقط .

ولهذا كان استدلالهم بطريقة الجواهر والأعراض على هذا الوجه مما أنكره عليهم أئمة الدين ، وبينوا أنهم مبتدعون في ذلك ، بل بينوا ضلالهم شرعاً وعقلاً ، كما بسط كلام السلف والأئمة عليهم في غير هذا الموضع ، إذ هو كثير .

فالقرآن استدل بما هو معلوم للخلق من أنه ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وهؤلاء جاؤوا إلى هذا المعلوم فزعموا أنه غير معلوم ، بل هو مشكوك فيه ، ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلوماً ، فذكروا دليلاً باطلاً لا يدل على حدوثه ، بل يظن أنه دليل وهو شبهة ، ولها لوازم فاسدة .

فأنكروا المعلوم بالعقل ، ثم الشرع ، وادعوا طريقاً معلومة بالعقل وهي باطلة في العقل ، والشرع . فضاهاوا الذين قال الله فيهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢).

وكذلك في إثبات النبوات وإمكانها ، وفي إثبات المعاد وإمكانه ، عدلوا عن الطريق الهادية - التي توجب العلم اليقيني التي هدى الله بها عباده - إلى طريق تورث الشك والشبهة والحيرة ، ولهذا قيل : غاية المتكلمين المبتدعين

(١) سورة العلق آية رقم ٢ .

(٢) سورة الملك آية رقم ١٠ .

الشك ، وغاية الصوفية المبتدعين الشطح .

ثم لها لوازم باطلة مخالفة للعقل والشرع ، فألزموا لوازمها التي أوجبت لهم السفسطة في العقليات ، والقرمطة في السمعيات ، وتكلموا في دلائل النبوة والمعاد ، ودلائل الربوبية بأمور . وزعموا أنها أدلة وهي عند التحقيق ليست بأدلة ، ولهذا يطعن بعضهم في أدلة بعض .

وإذا استدلوا بدليل صحيح فهو مطابق لما جاء به الرسول وإن تنوعت العبادات .

ولهذا قد يستدل بعضهم بدليل - إما صحيح وإما غير صحيح - فيطعن فيه آخر ، ويزعم أنه يذكر ما هو خير منه ، ويكون الذي يذكره دون ما ذكره ذاك . وهذا يصيهم كثيراً في الحدود - يطعن هؤلاء في حد هؤلاء ، ويذكرون حداً مثله أو دونه .

وتكون الحدود كلها من جنس واحد ، وهي صحيحة إذا أريد بها التمييز بين المحدود وغيره ، وأما من قال : إن الحدود تفيد تصوير ماهية المحدود ، كما يقوله أهل المنطق ، فهؤلاء غالطون ضالون ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وإنما الحد معرف للحدود ، ودليل عليه ، بمنزلة الاسم ، لكنه يفصل ما دل عليه الاسم بالاجمال فهو نوع من الأدلة ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

إذ المقصود هنا التنبيه على الفرق بين الطريق المفيد للعلم واليقين - كالتي بينها القرآن - وبين ما ليس كذلك من طرق أهل البدع الباطلة شرعاً وعقلاً .

فصل

الأعراض دليل الحدوث عند المتكلمين

وهؤلاء الذين بنوا أصل دينهم على طريقة الأعراض والاستدلال بها على حدوث الأجسام اضطربوا كثيراً ، كما قد بسط في مواضع ، ولا بد لكل منهم مع مخالفته للشرع المنزل من السماء إلى أن يخالف أيضاً صريح العقل ويكابّر ، فيكون ممن لا يسمع ولا يعقل .

فإن القول له لوازم ، فإذا كان باطلاً فقد يستلزم أموراً باطلة ظاهرة البطلان ، وصاحبه يريد إثبات تلك اللوازم ، فيظهر مخالفته للحس والعقل .

كالذين أثبتوا الجواهر المنفردة وقالوا إن الحركات في نفسها لا تنقسم إلى سريع وبطيء ، إذ كانت الحركة عندهم منقسمة كأنقسام المتحرك ، وكذلك الزمان وأجزاء الزمان ، والحركة والمتحرك عندهم واحد لا ينقسم ، فإذا كان المتحركان سواء وحركة أحدهما أسرع قالوا : إنما ذاك لتخلل السكنات ، وادعوا أن الرحا والدولاب وكل مستدير إذا تحرك فإن زمان حركة المحيط والطورق الصغير واحد مع كثرة أجزاء المحيط ، فيجب أن تكون حركتها أكثر ، فيكون زمانها أكثر ، وليس هو بأكثر ، فادعوا أنها تنفك ثم تتصل ، وهذه مكابرة من جنس « طفرة النظام »^(١) .

(١) هو إبراهيم بن سيار بن هاني البصري أبو اسحاق النظام من أئمة المعتزلة . قال الجاحظ :
الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن صح ذلك فأبوا اسحاق من هؤلاء =

وكذلك الذئيع قالوا بأن العرض لا يبقى زمانين خالفوا الحسن وما يعلمه العقلاء بضرورة عقولهم ، فإن كل أحد يعلم أن لون جسده الذي كان لحظة هو هذا اللون ، وكذلك لون السماء والجبال ، والخشب ، والورق ، وغير ذلك .

ومما ألجأهم إلى هذا ظنهم أنهما لو كانا باقين لم يمكن إعدامهما ، فإنهم في إفساء الله الأشياء إذا أراد أن يفيئها ، كما حاروا في إحداثها ، وحيرتهم في الإفساء أظهر . هذا يقول : يخلق فناء لا في محل ، فيكون ضدّاً لها ، فتفنى بضدها ، وهذا يقول : يقطع عنها الأعراض مطلقاً ، أو البقاء الذي لا تبقى إلا به ، فيكون فناؤها لفوات شرطها .

ومن أسباب ذلك ظنهم ، أو ظن من ظن منهم ، أن الحوادث لا تحتاج إلى الله إلا حال إحداثها ، لا حال بقائها ، وقد قالوا إنه قادر على إفنائها . فتكلفوا هذه الأقوال الباطلة .

وهؤلاء لا يحتجون على بقاء الرب بافتقار العالم إليه ، بل بأنه قديم ، وما وجب قدمه امتنع عدمه ، وإلا فالباقي حال بقائه لا يحتاج إلى الرب عندهم .

وهؤلاء شر من الذين سألوا موسى : هل ينام ربك ؟ فضرب الله لهم المثل بالقاروريتين لما أرق موسى ليالي ، ثم أمره بإمساك القاروريتين فلما أمسكهما غلبه النوم فتكسرتا ، فبين الله له لو أخذته سنة أو نوم لتدكدك العالم^(١) .

= الضلال - وصدق فيما قال : رأس الفرقة النظامية - قد الفت كتب في الرد على ضلاله وكفره - وفي لسان الميزان أنه متهم بالزندقة .

راجع تاريخ بغداد ٦ : ٩٧ واللباب ٣ : ٢٣٠ وخطط المقرئ ١ : ٣٤٦ .

(١) قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنا الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس - في قوله ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله عز وجل ... ؟ =

وعلى رأي هؤلاء لو أخذته سنة أو نوم لم يعدم الباقي ، لكن منهم من يقول : هو محتاج إلى إحداث الأعراض متوالية ، لأن العرض عنده لا يبقى زمانين ، فمن هذا الوجه يقول : إذ لو أخذته سنة أو نوم لم تحدث الأعراض التي تبقى بها الأجسام ، لا لأن الأجسام في نفسها مفتقرة إليه في حال بقائها عنده .

وكذلك يقولون : إن الإرادة لا تتعلق بالقديم ، ولا بالباقي ، وكذلك القدرة عندهم لا تتعلق بالباقي ، ولا العجز يصح أن يكون عجزاً عن الباقي والقديم عندهم . لأن العجز عندهم إنما يكون عجزاً عما تصح القدرة عليه .

وهؤلاء يقولون : علة الافتقار إلى الخالق مجرد الحدوث ، وآخرون من المتفلسفة يقولون : هو مجرد الإمكان ، ويدعون أن القديم الأزلي الذي لم يزل ولا يزال هو مفتقر إلى الصانع . فهذا يدعي أن الباقي المحدث لا يفتقر ، وهذا يدعي أن الباقي القديم يفتقر ، وكلا القولين فاسد ، كما قد بسط في مواضع .

= فأوحى الله الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثاً فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرها قال : فجعل ينعس وهما في يده في كل يد واحدة قال : فجعل ينعس وينبه وينعس وبينه حتى نعس نعسة فضرب إحداها بالأخرى فكسرها . قال معمر : إنما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول فكذلك السموات والأرض في يده . وهكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق فذكره قال ابن كثير : وهو من أخبار بني اسرائيل - وهو عما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل ، وأنه منزه عنه .

« وروى ابن جرير : حدثنا اسحاق بن أبي اسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي عكرمة عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : وقع في نفس موسى هل ينام الله . . ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وكادت يدها يلتقيان فيستقيظ فيحبس إحداها على الأخرى حتى نام نومه فاصطفقت يدها فانكسرت القارورتان . قال ضرب الله عز وجل مثلاً أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً ، والأظهر أنه إسرائيلي .

والحق أن كل ما سوى الله حادث ، وهو مفتقر إليه دائماً ، وهو يغييه ويعدمه ، كما ينشئه ويحدثه ، كما يحدث الحوادث من التراب وغيره ثم يفنيها ويحيلها إلى التراب وغيره .

وهؤلاء ادعى كثير منهم أن كل ما سوى الله يعدم ثم يعاد . وبعضهم قال : هذا ممكن ، لكنه موقوف على الخبر ، والخبر لم يتعرض لذلك بنفي ولا إثبات ، وهذا هو المعاد عندهم .

وهذا لم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا دل عليه عقل ، بل الكتاب والسنة يبين أن الله يحيل العالم من حال إلى حال ، كما يشق السماء ، ويجعل الجبال كالعهن ، ويكور الشمس ، إلى غير ذلك مما أنخبر الله في كتابه - لم يخبر أن جميع الأشياء تعدم ثم تعاد .

ثم منهم من يقول : إنها تعدم بعد ذلك لامتناع وجود حوادث لا آخر لها ، كما تقوله الجهمية ، وهذا مما أنكره عليهم السلف والأئمة ، كما قد ذكر في غير هذا الموضع .

وهؤلاء إنما قالوا هذا طرداً لقولهم بامتناع دوام جنس الحوادث ، وقالوا : ما وجب أن يكون له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء ، كما قد بسط هذا وبين فساد هذا الأصل .

فصل

في أطوار الخلق والبعث

وهو سبحانه تارة يذكر خلق الإنسان مجملاً ، وتارة يذكره مفصلاً ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ - فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(١) ثم ذكر المعادين الأصغر والأكبر فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ ^(٢) .

ومن الناس من يقول : لم دخلت لام التوكيد في الموت وهو مشاهد ، ولم تدخل في البعث وهو غيب فيحتاج إلى التوكيد ؟ وذلك - والله أعلم - أن المقصود بذكر الموت والبعث هو الإخبار بالجزاء والمعاد ، وأول ذلك هو الموت . فنبه على الإيمان بالمعاد ، والاستعداد لما بعد الموت .

وهو انما قال « تبعثون » فقط ، ولم يقل « تجازون » لكن قد علم ان البعث للجزاء .

وأيضاً ، ففيه تنبيه على قهر الإنسان وإذلاله . يقول : بعد هذا كله أنك تموت ، فتد إلى أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

(١) سورة المؤمنون الآيات رقم ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١٥ - ١٦ .

كما قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (١) .

وهذا الرد هو بالموت ، فإنه يصير في أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كما قال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ (٢) وقال : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيٍّ ﴾ (٣) .

وفي قوله ﴿ أسفل سافلين ﴾ قولان . قيل : الهرم . وقيل : العذاب بعد الموت ، وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعاً ، فإنه جعله في أسفل سافلين إلا المؤمنين . والناس نوعان : الكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين ، والمؤمن في عليين .

وأما القول الأول ففيه نظر ، فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين ، بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم ، وكثير من المؤمنين يهرم ، وإن كان حال المؤمن في الهرم أحسن حالاً من الكافر ، فكذلك في الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر وتخصيصه بالكفار ضعيف .

ولهذا قال بعضهم إن الاستثناء منقطع على هذا القول ، وهو أيضاً ضعيف ، فإن المنقطع لا يكون في الموجب ، ولو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعي في أي استثناء شاء أنه منقطع ، وأيضاً فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول ، والمؤمنون بعض نوع الإنسان .

وقد فسر ذلك بعضهم - على القول الأول - بأن المؤمنين يكتب له ما كان يعمل إذا عجز ، قال إبراهيم النخعي (٤) : إذا بلغ المؤمن من الكبر ما

(١) سورة التين آية رقم ٤ - ٦ .

(٢) سورة المطففين آية رقم ٧ .

(٣) سورة المطففين آية رقم ١٨ .

(٤) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعي من مذبح من أكابر التابعين صلاحاً =

يعجز عن العمل كتب الله له ما كان يعمل ، وهو قوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾^(١) وقال ابن قتيبة^(٢) : المعنى « إلا الذين آمنوا » في وقت القوة والقدرة فإنهم في حال الكبر غير منقوصين وإن عجزوا عن الطاعات ، فإن الله يعلم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير فهو يجري لهم أجر ذلك .

فيقال : وهذا أيضاً ثابت في حال الشباب إذا عجز الشاب لمرض أو سفر ، كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »^(٣) .

وفسر بعضهم بما روي عن ابن عباس أنه قال : من قرأ القرآن فإنه لا يرد إلى أرذل العمر ، فيقال : هذا مخصوص بقارئ القرآن ، والآية استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء قرأوا القرآن أو لم يقرأوه وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها »^(٤) .

= وصدق رواية وحفظاً للحديث من أهل الكوفة . مات مختفياً من الحجاج عام ٩٦ هـ قال فيه الصلاح الصفدي فقيه العراق . كان اماماً مجتهداً له مذهب ، ولما بلغ الشعبي موته قال : والله ما ترك بعده مثله .

راجع طبقات ابن سعد ٦ : ١٨٨ - ١٩٩ .

(١) سورة التين آية رقم ٦ .

(٢) سبق الترجمة له وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ والأنباري ٢٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٦٠ .

(٣) الحديث رواه الامام احمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٩٤ حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ثنا وكيع واسحاق يعني الأزرق قالنا ثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ وذكره مع اختلاف في بعض الألفاظ ورواه أبو داود في الجنايز ١ .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين ٣٧ باب فضيلة حافظ القرآن ٢٤٣ (٧٩٧) عن قتادة عن أنس عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ وذكره . وفيه زيادة ومثل =

وأيضاً فيقال : هرم الحيوان ليس مخصوصاً بالإنسان ، بل غيره من الحيوان إذا كبر هرم .

وأيضاً ، فالشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب ، ولو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا رداً إلى أسفل سافلين ، فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف كقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَمَنْ نَعْمَرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ ^(٢) فهو يعيده إلى حال الضعف ، ومعلوم ان الطفل ليس هو في أسفل سافلين فالشيخ كذلك وأولى .

وإنما في أسفل سافلين من يكون في سجين ، لا في عليين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ ^(٣) .

ومما يبين ذلك قوله ؛ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾ ^(٤) فإنه يقتضي ارتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء ، ولو كان المذكور إنما هو رده إلى الهرم دون ما بعد الموت لم يكن هناك تعرض للدين والجزاء . بخلاف ما إذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد إلى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح ، فإن هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت - فيكرم المؤمنين ، ويهين الكافرين .

وأيضاً ، فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة - بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، وهي المواضع التي جاء منها محمد ، والمسيح ، وموسى ، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين .

= المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنظلة ليس لها ريح وطعمها مر . ورواه البخاري في الأطعمة ٣٠ وفضائل القرآن ١٧ ، ٣٦ والتوحيد ٥٧ والترمذي في الأدب ٧٩ .

(١) سورة الروم آية رقم ٥٤ .

(٢) سورة يس آية رقم ٦٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٤٥ .

(٤) سورة التين آية رقم ٧ .

وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد ، بل على الأمور الغائبة التي تؤكد بالإقسام ، فإن إقسام الله هو على أبناء الغيب .

وفي نفس المقسم به - وهو إرسال هؤلاء الرسل - تحقيق للمقسم عليه - وهو الثواب والعقاب بعد الموت - لأن الرسل أخبروا به .

وهو يتضمن أيضاً الجزاء في الدنيا كإهلاك من أهلكهم من الكفار ، فإنه ردهم إلى أسفل سافلين بهلاكهم في الدنيا ، وهو تنبيه على زوال النعم إذا حصلت المعاصي ، كمن رد في الدنيا إلى أسفل جزاء على ذنوبه .

وقوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ^(١) - أي الجزاء - يتناول جزاءه على الأعمال في الدنيا ، والبرزخ ، والآخرة ، إذ كان قد أقسم بأماكن هؤلاء المرسلين الذين أرسلوا بالآيات البينات الدالة على أمر الله ونهيه ، ووعدته ووعدته - مبشرين لأهل الإيمان ، منذرين لأهل الكفر ، وقد أقسم بذلك على أن الإنسان بعد أن جعل في أحسن تقويم إن آمن وعمل صالحاً كان له أجر غير ممنون وإلا كان في أسفل سافلين .

فتضمنت السورة بيان ما بعث به هؤلاء الرسل الذين أقسم بأماكنهم ، والإقسام بمواضع محنتهم تعظيم لهم ، فإن موضع الإنسان إذا عظم لأجله كان هو أحق بالتعظيم ، ولهذا يقال في المكاتبات « إلى المجلس ، والمقر - ونحو ذلك - السامي ، والعالي » ، ويذكر بخضوع له وتعظيم والمراد صاحبه .

فلما قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ^(٢) دل على أن ما تقدم قد بين فيه ما يمنع التكذيب بالدين .

وفي قوله ﴿ يكذبك ﴾ قولان : قيل : هو خطاب للإنسان كما قال مجاهد وعكرمة ، ومقاتل ، ولم يذكر البغوي غيره . قال عكرمة ، يقول : فما

(١) سورة التين آية رقم ٧ .

(٢) سورة التين آية رقم ٧ .

يكذبك بعد بهذه الأشياء التي فعلت بك ، وعن مقاتل : فما الذي يجعلك
مكذباً بالجزاء ، وزعم أنها نزلت في عباس^(١) بن أبي ربيعة .

والثاني أنه خطاب للرسول ، وهذا أظهر ، فإن الإنسان إنما ذكر مخبراً
عنه - لم يخاطب ، والرسول هو الذي أنزل عليه القرآن ، والخطاب في هذه
السورة له ، كقوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾^(٢) وقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ
صَدْرَكَ ﴾^(٣) وقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾^(٤) .

والإنسان إذا خوطب قيل له ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَرِيمِ ﴾^(٥) ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾^(٦) .

وأيضاً فبتقدير أن يكون خطاباً للإنسان يجب أن يكون خطاباً للجنس ،
كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾^(٧) ، وعلى قول هؤلاء إنما هو خطاب
للكافر خاصة - المكذب بالدين ..

وأيضاً فإن قوله ﴿ يكذبك بعد بالدين ﴾ . أي يجعلك كاذباً ، هذا هو
المعروف من لغة العرب ، فإن استعمال « كذب غيره » أي نسبه إلى الكذب
وجعله كاذباً « مشهور ، والقرآن مملوء من هذا ، وحيث ذكر الله تكذيب

(١) هو عياش بن أبي ربيعة واسم أبي ربيعة : عمرو بن المغيرة بن عبد الله يكنى أبا عبد الرحمن ،
وقيل : يكنى أبا عبد الله - هو أخو أبي جهل بن هشام لأمه ، أمهم أم الجلاس ، واسمها أسماء
بنت مخزبة كان إسلامه قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم وهاجر عياش رضي الله
عنه إلى أرض الحبشة مع امرأته أسماء بنت سلمة ، وولد له بها ابن عبد الله ثم هاجر إلى المدينة
فجمع بين المهجرتين .

راجع الاستيعاب ٣ : ١٢٣٠ - ١٢٣١ - ١٢٣٢ .

(٢) سورة الضحى آية رقم ٣ .

(٣) سورة الشرح آية رقم ١ .

(٤) سورة العلق آية رقم ١ .

(٥) سورة الانفطار آية رقم ٦ .

(٦) سورة الانشقاق آية رقم ٦ .

(٧) سورة الانشقاق آية رقم ٦ .

المكذبين للرسل ، أو التكذيب بالحق ، ونحو ذلك فهذا مراده .

لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال ﴿ يكذبك بعد بالدين ﴾ فذكر المكذب بالدين - فذكر المكذب والمكذب به جميعاً . وهذا قليل - جاء نظيره في قوله ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ - فأما أكثر المواضع فإنما يذكر أحدهما - إما المكذب كقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(١) وإما المكذب به ، كقوله ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ ^(٢) . وأما الجمع بين ذكر المكذب والمكذب به فقليل .

ومن هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للإنسان وفسر معنى قوله ﴿ فما يكذبك ﴾ : فما يجعلك مكذباً .

وعبارة آخرين : فما يجعلك كذاباً ، قال ابن عطية : وقال جمهور من المفسرين : المخاطب الإنسان الكافر ، أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين - تجعل لله أنداداً ، وتزعم أن لا بعث - بعد هذه الدلائل ؟ . « قلت » وكلا القولين غير معروف في لغة العرب ، أن يقول « كذبك ، أي جعلك مكذباً » ، بل « كذبك : جعلك كذاباً » .

وإذا قيل « جعلك كذاباً » . أي كاذباً فيما يخبر به ، كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم ، وهذا يقول : جعلك كاذباً بالدين ، فجعل كذبه أنه أشرك وأنه أنكر المعاد ، وهذا ضد الذي ينكر .

ذاك جعله مكذباً بالدين وهذا جعله كاذباً بالدين ، والأول فاسد من جهة العربية ، والثاني فاسد من جهة المعنى ، فإن الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر ، والكافر كذب به ، لم يكذب هو به .

وأيضاً ، فلا يعرف في المخبر أن يقول « كذبت به » بل يقال « كذبت » .

(١) سورة الشعراء آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ .

وأيضاً ، فالمعروف في « كذبه » أي نسبه إلى الكذب ، لا أنه جعل الكذب فيه ، فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة ، بل المعروف خلافه . وهو لم يقل « فما يكذبك » ولا قال « فما كذبك » .

ولهذا كان علماء العربية على القول الأول . قال ابن عطية : واختلف في المخاطب بقوله ﴿ فما يكذبك ﴾ فقال قتادة ، والفراء ، والاختفش ، هو محمد ﷺ ، قال الله له : « فما الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث - وهو الدين - بعد هذه العبرة التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت ؟ » . قال : ويحتمل أن يكون الدين على هذا التأويل جميع شرعه ودينه .

« قلت » : وعلى أن المخاطب محمد ﷺ في المعنى قولان ، أحدهما قول قتادة ، قال : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ أي استيقن ، فقد جاءك البيان من الله ، وهكذا روى عنه ابن أبي حاتم باسناد ثابت .

وكذلك ذكره المهدوي : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ أي استيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين ، فالخطاب للنبي ﷺ وقال : معناه عن قتادة . قال : وقيل المعنى : فما يكذبك أيها الشاك - يعني الكافر - في قدرة الله ؟ أي شيء يحملك على ذلك بعدما تبين لك من قدرته ؟ قال وقال الفراء : فما يكذبك بالثواب والعقاب ؟ وهو اختيار الطبري^(١) .

« قلت » : هذا القول المنقول عن قتادة هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ ، كما روى الناس - ومنهم ابن أبي حاتم ، عن

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر ، المؤرخ المفسر الإمام ، ولد عام ٢٢٤ هـ في أمل (طبرستان) واستوطن بغداد وتوفي بها ، وعرض عليه القضاء فامتنع ، والمظالم فأبى ، له (أخبار الرسل والملوكة) يعرف بتاريخ الطبري ، وجامع البيان في تفسير القرآن ، واختلاف الفقهاء وغير ذلك كثير ، كانت وفاته عام ٣١٠ هـ .

راجع تذكرة الحفاظ ٢: ٣٥١ والوفيات ١: ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢: ١٣٥ ومفتاح السعادة ١: ٢٥٥ و ٤١٥ ، ثم ٢: ١٧٦ والبداية والنهاية ١١: ١٤٥ وميزان الاعتدال ٣: ٣٥ وتاريخ بغداد ٢: ١٦٢ .

الثوري : عن منصور قال ، قلت لمجاهد : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ عنى به النبي ﷺ ؟ قال : معاذ الله ؟ عنى به الإنسان .

وقد أحسن مجاهد في تنزيه النبي ﷺ ان يقال له ﴿ فما يكذبك ﴾ أي استيقن ، ولا تكذب ، فإنه لو قيل له « لا تكذب » لكان ذلك من جنس أمره بالإيمان والتقوى ، ونهيه عما نهى الله عنه ، وأما إذا قيل ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ فهو لم يكذب بالدين ، بل هو الذي أخبر بالدين وصدق به ، فهو ﴿ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ ^(١) فكيف يقال له : ﴿ ما يكذبك بعد بالدين ﴾ ؟ فهذا القول فاسد لفظاً ومعنى . واللفظ الذي رأيت منقولاً بالإسناد عن قتادة ليس صريحاً فيه ، بل يحتمل أن يكون أراد به خطاب الإنسان ، فإنه قال : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ قال : « استيقن ، فقد جاءك البيان » . وكل إنسان مخاطب بهذا ، فإذا كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح .

لكن هم حكوا عنه أن هذا خطاب للرسول ﷺ وعلى هذا فهذا المعنى باطل ، فلا يقال للرسول « فأى شيء يجعلك مكذباً بالدين ؟ » وإن ارتأت به النفس ، لأن هذا فيه دلائل تدل على فساد ، ولهذا استعاذ منه مجاهد .

والصواب ما قاله الفراء ، والاختش ، وغيرهما ، وهو الذي اختاره أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، وغيره من العلماء كما تقدم .

وكذلك ذكره أبو الفرج بن الجوزي عن الفراء ، فقال : إنه خطاب للنبي ﷺ ، والمعنى : فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له أننا خلقنا الإنسان على ما وصفنا ، قاله الفراء .

قال : وأما ﴿ الدين ﴾ فهو الجزاء « قلت » : وكذلك قال غير واحد ، كما روى ابن أبي حاتم عن النضر بن عري : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ أي بالحساب .

(١) سورة الزمر آية رقم ٣٣ .

ومن تفسير العوفي عن ابن عباس : أي بحكم الله ، قلت : قال « بحكم الله » لقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾^(١) وهو سبحانه يحكم بين المصدق بالدين والمكذب به .

وعلى هذا ، قوله ﴿ فما ﴾ وصف للأشخاص ، ولم يقل « فمن » لأن « ما » يراد به الصفات دون الأعيان ، وهو المقصود ، كقوله : ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾^(٢) وقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾^(٣) ، وقوله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾^(٤) ، كأنه قيل : فما المكذب بالدين بعد هذا ؟ أي من هذه صفته ونعته هو جاهل ظالم لنفسه ، والله يحكم بين عباده فيما يختلفون فيه من هذا النبأ العظيم .

وقوله « بعد » قد قيل إنه « بعد ما ذكر من دلائل الدين » وقد يقال : لم يذكر إلا الإخبار به ، وأن الناس نوعان : في أسفل سافلين ، ونوع لهم أجر غير ممنون .

فقد ذكر البشارة والندارة ، والرسل بعثوا مبشرين ومنذرين ، فمن كذبك بعد هذا فحكمه إلى الله أحكم الحاكمين وأنت قد بلغت ما وجب عليك تبليغه .

وقوله ﴿ فما يكذبك ﴾ ليس نفيًا للتكذيب ، فقد وقع ، بل قد يقال إنه تعجب منه ، كما قال : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾^(٥) .

وقد يقال إن هذا تحقير لشأنه وتصغير لقدره لجهله وظلمه ، كما يقال :

(١) سورة التين آية رقم ٨ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٣ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ٧ .

(٥) سورة الرعد آية رقم ٥ .

« من فلان ؟ » و « من يقول هذا إلا جاهل ؟ » لكنه ذكره بصيغة « ما » فإنها تدل على صفته ، وهي المقصودة ، إذ لا غرض في عينه ، كأنه قيل « فأَي صنف وأي جاهل يكذبك بعد بالدين ؟ فإنه من الذين يردون إلى أسفل سافلين » وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ ^(١) يدل على أنه الحاكم بين المكذب بالدين والمؤمن به ، والأمر في ذلك له سبحانه وتعالى .

والقرآن لا تنقضي عجائبه ، والله سبحانه بين مراده بياناً أحكمه ، لكن الاشتباه يقع على من لم يرسخ في علم الدلائل الدالة ، فإن هذه السورة وغيرها فيها عجائب لا تنقضي .

منها أن قوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾ ^(٢) ذكر فيه الرسول المكذب والدين المكذب به جميعاً ، فإن السورة تضمنت الأمرين ، تضمنت الإقسام بأماكن الرسل المبينة لعظمتهم ، وما أتوا به من الآيات الدالة على صدقهم الموجبة للإيمان ، وهم قد أخبروا بالمعاد المذكور في هذه السورة .

وقد أقسم الله عليه كما يقسم عليه في غير موضع ، وكما أمر نبيه أن يقسم عليه في مثل قوله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ^(٤) .

فلما تضمنت هذا وهذا ذكر نوعي التكذيب ، فقال ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾ . والله سبحانه أعلم .

وأيضاً ، فإنه لا ذنب له في ذلك ، والقرآن مراده أن يبين أن هذا الرد

(١) سورة التين آية رقم ٨ .

(٢) سورة التين آية رقم ٧ .

(٣) سورة التغابن آية رقم ٧ .

(٤) سورة سبا آية رقم ٣ .

جزاء على ذنوبه ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾^(١) كما قال : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾^(٢) .

لكن هنا ذكر الخسر فقط ، فوصف المستتين بأنهم تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ مع الإيمان والصلاح ، وهناك ذكر أسفل سافلين ، وهو العذاب ، والمؤمن المصلح لا يعذب ، وإن كان قد ضيع أموراً خسرها - لو حفظها لكان رابحاً غير خاسر ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أنه سبحانه يذكر خلق الإنسان مجملًا ومفصلاً .

وتارة يذكر إحياءه ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٣) وهو كقول الخليل عليه السلام ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾^(٤) .

فإن خلق الحياة ولوازمها وملزوماتها أعظم وأدل على القدرة ، والنعمة والحكمة .

(١) سورة العصر آية رقم ٣ .

(٢) سورة العصر آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

فصل

الإنسان بين خلقه وتكريم الله له

قوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾^(١) سمي ووصف نفسه بالكرم ، وبأنه الأكرم ، بعد إخباره أنه خلق ليتبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة ، كما قال في موضع آخر : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾^(٢) وكما قال موسى عليه السلام ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾^(٣) وكما قال الخليل عليه السلام ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾^(٤) .

فالخلق يتضمن الابتداء ، والكرم تضمن الانتهاء ، كما قال في أم القرآن ، ﴿ رب العالمين ﴾ ثم قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ .

ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد ، لا يراد به مجرد الإعطاء بل الاعطاء من تمام معناه ، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن ، والكرم كثرة الخير ويسرته .

ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تسموا العنب الكرم ، فإنما الكرم قلب

(١) سورة العلق الآيات من ٣ - ٥ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة طه آية رقم ٥٠ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٧٨ .

المؤمن»^(١).

وهم سموا العنب « الكرم » لأنه أنفع الفواكه - يؤكل رطباً ويابساً ،
ويعصر فيتخذ منه أنواع :-

وهو اعم وجوداً من النخل - يوجد في عامة البلاد، والنخل لا يكون إلا
في البلاد الحارة ، ولهذا قال في رزق الإنسان ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى
طَعَامِهِ . أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ، وَعِنَباً
 وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ، مَتَاعاً لَكُمْ
 وَلَأَنْعَامُكُمْ ﴾^(٢) فقدم العنب ، وقال في صفة الجنة ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ،
 حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴾^(٣).

ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم وقال « الكرم قلب المؤمن»
فإنه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيراً من قلب المؤمن .

والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم ، قال تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا
إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾^(٤) قال ابن قتيبة : من كل
جنس حسن . وقال الزجاج : الزوج النوع ، والكريم المحمود ، وقال
غيرهما ، ﴿ من كل زوج ﴾ صنف وضرب ، ﴿ كريم ﴾ حسن ، من النبات
مما يأكل الناس والأنعام : يقال « نخلة كريمة » إذا طاب حملها ، و « ناقة

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ١٠٢ باب قول النبي ﷺ « إنما الكرم قلب المؤمن » .
٦١٨٣ - حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره .
ورواه الامام مسلم في ألفاظ ٦ - ١٠ ، ١٢ ، وأبو داود في كتاب الأدب ٧٤ ، والدارمي في
الأشربة ١٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢: ٢٢٩ ، ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٣١٦ ، ٤٦٤ ، ٤٧٦ ،
٥٠٩ (حلي) .

(٢) سورة عبس آية رقم من ٢٤ - ٣٢ .

(٣) سورة النبأ آية رقم ٣١ - ٣٢ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٧ .

كريمة « إذا كثر لبنها .

وعن الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ،
ومن دخل النار فهو لئيم .

والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه ، وفيهم من
يهينه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) ، وقال تعالى :
﴿ وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يُفَعِّلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) .

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « وإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة
المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (٣) وكرائم الأموال : التي تكرم
على أصحابها لحاجتهم إليها وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها .

وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف لها ، فدل أنه
الأكرم وحده ، بخلاف ما لو قال « وربك أكرم » فإنه لا يدل على الحصر ،
وقوله ﴿ الأكرم ﴾ يدل على الحصر .

ولم يقل « الأكرم من كذا » بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير
مقيد ، فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه .

قال ابن عطية : ثم قال له تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ على جهة
التأنيس ، كأنه يقول : امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب ، بل هو

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٣ .

(٢) سورة الحج آية رقم ١٨ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الزكاة ٤١ - باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة
١٤٥٨ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه أيضاً في كتاب التوحيد ١ باب ما جاء في
دعاء النبي ﷺ أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى ، ٧٣٧٢ بسنده عن ابن عباس أيضاً .
ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٩ - ٣١ وأبو داود في الزكاة ٥ والترمذي في الزكاة ٦ ،
والنسائي في الزكاة ٤٦ ، وابن ماجه في الزكاة ١ والدارمي في الزكاة ١ ، ٩ واحمد بن حنبل في
المسند ١ : ٢٣٣ (حلي) .

الأكرم الذي لا يلحقه نقص ، فهو ينصرك ويظهرك .

(قلت) وقد قال بعض السلف : « لا يهدين أحدكم الله ما يستحي أن يهديه لكريمه ، فإن الله أكرم الكرماء » أي هو أحق من كل شيء بالإكرام ، إذ كان أكرم من كل شيء .

وهو سبحانه ذو الجلال والإكرام ، فهو المستحق لأن يحل ، ولأن يكرم ، والإجلال يتضمن التعظيم ، والإكرام يتضمن الحمد والمحبة .

وهذا كما قيل في صفة المؤمن : إنه رزق حلاوة ومهابة .

وفي حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ : « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه »^(١) .

وهذا لأنه سبحانه له الملك وله الحمد .

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن أهل السنة يصفونه بالقدرة الإلهية ، والحكمة ، والرحمة ، وهم الذين يعبدونه ، ويحمدونه ، وأنه يجب أن يكون هو المستحق لأن يعبد دون ما سواه ، والعبادة تتضمن غاية الذل وغاية الحب . وأن المنكرين لكونه يحب من الجهمية ومن وافقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد ، كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة ، ولا رحمة يقتضي أنه لا يحمد .

فهم إنما يصفونه بالقدرة والقهر ، وهذا إنما يقتضي الإحلال فقط لا يقتضي الإكرام والمحبة ، والحمد ، وهو سبحانه الأكرم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيءُ وَيُعِيدُ ﴾^(٢) ثم قال ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ،

(١) الحديث رواه ابن سعد في طبقاته وهو كبير كثير أخبرنا مالك بن اسماعيل أبو غسان النهدي ، أخبرنا جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي ، حدثني رجل بمكة عن ابن أبي هالة التميمي عن الحسن بن علي قال : سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي ، وكان وصافاً عن حلية رسول الله ﷺ ، وأنا اشتبه أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به فقال : كان رسول الله ﷺ وذكره .

(٢) سورة البروج آية رقم ١٢ - ١٣ .

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١﴾ وقال شعيب ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿٢﴾ .

وفي أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق ، وبأنه الأكرم ، والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقاً - مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقاً - لا يصفونه بالكرم ، ولا الرحمة ، ولا الحكمة .

وإن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها ، بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن ، ثم يلحدون في أسمائه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فتارة يقولون : الحكمة هي القدرة ، وتارة يقولون : هي المشيئة ، وتارة يقولون : هي العلم .

وأن الحكمة ، وإن تضمنت ذلك واستلزمته ، فهي أمر زائد على ذلك ، فليس كل من كان قادراً أو مريداً كان حكيماً ، ولا كل من كان له علم يكون حكيماً ، حتى يكون عاملاً بعلمه .

قال ابن قتيبة وغيره : الحكمة هي العلم والعمل به ، وهي أيضاً : القول الصواب ، فتتناول القول السديد ، والعمل المستقيم الصالح .

والرب تعالى أحكم الحاكمين ، وأحكم الحكماء .

والإحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه ، وهم مع سائر الطوائف يستدلون بالإحكام على العلم ، وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيماً يفعل لحكمة .

وهم يقولون إنه لا يفعل لحكمة ، وإنما يفعل بمشيئة تخص أحد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص ، وهذا مناقض للحكمة ، بل هذا سفه .

(١) سورة البروج آية رقم ١٤ - ١٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ٩٠ .

وهو قد نزه نفسه عنه في قوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا لَّآتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (١) .

وقد أخبر أنه إنما خلق السموات والأرض ، وما بينهما بالحق ، وأنه لم يخلقهما باطلاً ، وأن ذلك ظن الذين كفروا ، وقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ (٢) وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٣) أي مهملاً ، لا يؤمر ولا ينهى ، وهذا استفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب .

والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه ، ولا تنزهه عن فعل وإن كان من منكرات الأفعال ، ولا تنعته بلوازم كرمه ، ورحمته ، وحكمته ، وعدله - فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك ، ولا يفعل ما يصاد ذلك .

بل تجوز كل مقدور أن يكون وأن لا يكون ، وإنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعي أو عادة مطردة مع تناقضهم في الاستدلال بالخبر - أخبار الرسل وعادات الرب ، كما بسط هذا في مواضع ، مثل الكلام على معجزات الأنبياء ، وعلى إرسال الرسل ، والأمر والنهي ، وعلى المعاد ، ونحو ذلك ، مما يتعلق بأفعاله وأحكامه الصادرة عن مشيئته ، فإنها صادرة عن حكمته وعن رحمته ، ومشيئته مستلزمة لهذا وهذا - لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها (٤) . فهم في الحقيقة

(١) سورة الأنبياء آية رقم ١٧ - ١٨ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ .

(٣) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأدب ١٨ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته .

٥٩٩٩ - حدثنا ابن أبي مريم حدثنا أبو غسان قال حدثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي =

لا يقولون بأنه الأكرم .

والإرادة التي يثبتونها لم يدل عليها سمع ولا عقل ، فإنه لا تعرف إرادة ترجح مراداً على مراد بلا سبب يقتضي الترجيح ، ومن قال من الجهمية والمعتزلة « إن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح » فهو مكابر .

وتمثيلهم ذلك بالجائع إذا أخذ أحد الرغيفين ، والهارب إذا سلك أحد الطريقين - حجة عليهم ، فإن ذلك لا يقع إلا مع رجحان أحدهما ، إما لكونه أيسر في القدرة ، وإما لأنه الذي خطر بباله وتصوره ، أو ظن أنه أنفع ، فلا بد من رجحان أحدهما بنوع ما إما من جهة القدرة ، وإما من جهة التصور والشعور ، وحينئذ يرجح إرادته ، والآخر لم يرده ، فكيف يقال إن إرادته رجحت أحدهما بلا مرجح ؟ أو إنه رجح إرادة هذا على إرادة ذاك بلا مرجح ؟ وهذا ممتنع يعرف امتناعه من تصوره حق التصور .

ولكن لما تكلموا في مبدأ الخلق بكلام ابتدعوه - خالفوا به الشرع والعقل - احتاجوا إلى هذه المكابرة ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، وبذلك تسلط عليهم الفلاسفة من جهة أخرى - فلا الإسلام نصرؤا ، ولا للفلاسفة كسروا .

ومعلوم بصريح العقل أن القادر إذا لم يكن مريداً للفعل ولا فاعلاً ، ثم صار مريداً فاعلاً فلا بد من حدوث أمر اقتضى ذلك .

والكلام هنا في مقامين . أحدهما في جنس الفعل والقول - هل صار فاعلاً متكلاً بمشيئته بعد أن لم يكن ، أو ما زال فاعلاً متكلاً بمشيئته ، وهذا مبسوط في مسائل الكلام والأفعال - في مسألة القرآن وحدث العالم .

= إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي ﷺ أترون هذه طارحة ولدها في النار . . . ؟ قلنا : لا وهي تقدر على أن لا تطرحه ، وذكره .

ورواه الامام مسلم في التوبة باب ٢٢ وأبو داود في كتاب الجنائز ١ باب وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب .

والثاني إرادة الشيء المعين وفعله ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١) وقوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾^(٥) وقوله : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾^(٦) .

وهو سبحانه إذا أراد شيئاً من ذلك فللناس فيها أقوال .

قيل : الإرادة قديمة أزلية واحدة ، وإنما يتجدد تعلقها بالمراد ، ونسبتها إلى الجميع واحدة ، ولكن من خواص الإرادة أنها تخصص بلا مخصص ، فهذا قول ابن كلاب ، والأشعري ، ومن تابعهما .

وكثير من العقلاء يقول : إن هذا فساد معلوم بالإضطرار ، حتى قال أبو البركات : ليس في العقلاء من قال بهذا .

وما علم أنه قول طائفة كبيرة من أهل النظر والكلام ، وبطلانه من جهات : من جهة جعل إرادة هذا غير إرادة ذاك ، ومن جهة أنه جعل الإرادة تخصص لذاتها ، ومن جهة أنه لم يجعل عند وجود الحوادث شيئاً حدث حتى تخصص أو لا تخصص ، بل تجددت نسبة عدمية ليست وجوداً ، وهذا ليس

(١) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٨٢ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الرعد آية رقم ١١ .

(٥) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٦) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

بشيء ، فلم يتجدد شيء ، فصارت الحوادث تحدث وتتخصص بلا سبب حادث ، ولا مخصص .

والقول الثاني : قول من يقول بإرادة واحدة قديمة مثل هؤلاء ، لكن يقول : تحدث عند تجدد الأفعال إرادات في ذاته بتلك المشيئة القديمة ، كما تقول الكرامية وغيرهم .

وهؤلاء أقرب من حيث أثبتوا إرادات الأفعال ، ولكن يلزمهم ما لزم أولئك من حيث أثبتوا حوادث بلا سبب حادث ، وتخصصات بلا مخصص ، وجعلوا تلك الإرادة واحدة تتعلق بجميع الإرادات الحادثة وجعلوها أيضاً تخصص لذاتها ، لم يجعلوا عند وجود الإرادات الحادثة شيئاً حدث حتى تخصص تلك الإرادات الحدوث .

والقول الثالث قول الجهمية والمعتزلة الذين ينفون قيام الإرادة به ، ثم إما أن يقولوا بنفي الإرادة ، أو يفسرونها بنفس الأمر والفعل ، أو يقولوا بحدوث إرادة ، لا في محل كقول البصريين .

وكل هذه الأقوال قد علم أيضاً فسادها .
والقول الرابع : أنه لم يزل مريداً بإرادات متعاقبة ، فنوع الإرادة قديم وأما إرادة الشيء المعين فإنما يريد في وقته .

وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها ، ثم بعد ذلك يخلقها ، فهو إذا قدرها علم ما سيفعله ، وأراد فعله في الوقت المستقبل ، لكن لم يرد فعله في تلك الحال ، فإذا جاء وقته أراد فعله ، فالأول عزم والثاني قصد .

وهل يجوز وصفه بالعزم فيه قولان . أحدهما : المنع ، كقول القاضي أبي بكر ، والقاضي أبي يعلى ، والثاني : الجواز وهو أصح . فقد قرأ جماعة من السلف ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(١) بالضم ، وفي الحديث الصحيح من

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩ وأول الآية ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا =

حديث أم سلمة : ثم عزم الله لي^(١) ، وكذلك في خطبة مسلم : فعزم لي .

وسواء سمي « عزمًا » أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها ، وأراد أن يفعلها في وقتها ، فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين ، ونفس الفعل ، ولا بد من علمه بما يفعله .

ثم الكلام في علمه بما يفعله هل هو العلم المتقدم بما سيفعله ، وعلمه بأن قد فعله هل هو الأول ، فيه قولان معروفان - والعقل والقرآن يدل على أنه قدر زائد ، كما قال « لنعلم » في بضعة عشر موضعاً ، وقال ابن عباس : إلا لنرى .

وحينئذ ، بإرادة المعين تترجح لعلمه بما في المعين من المعنى المرجح لإرادته ، فالإرادة تتبع العلم .

وكون ذلك المعين متصفاً بتلك الصفات المرجحة إنما هو في العلم والتصور ، ليس في الخارج شيء .

ومن هنا غلط من قال « المعدوم شيء » حيث أثبتوا ذلك المراد في الخارج ، ومن لم يثبت شيئاً في العلم ، أو كان ليس عنده إلا إرادة واحدة وعلم واحد ، ليس للمعلومات والمرادات صورة علمية عند هؤلاء فهؤلاء نفوا كونه شيئاً في العلم والإرادة ، وأولئك أثبتوا كونه شيئاً في الخارج .

وتلك الصورة العلمية الإرادية حدثت بعد أن لم تكن ، وهي حادثة بمشيئته وقدرته ، كما يحدث [الحوادث] المنفصلة بمشيئته وقدرته . فيقدر

= القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الجنائز وحدثننا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبي ، حدثنا سعد بن سعيد أخبرني عمر يعني ابن كثير عن ابن سفيانة مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول بمثل حديث أبي اسامة وزاد فقالت فلما توفي أبو سلمة قلت من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ ثم عزم الله لي فيقلتها قالت فتزوجت رسول الله ﷺ .

ما يفعله ، ثم يفعله .

فتخصيصها بصفة دون صفة وقدر دون قدر هو للأمر المقتضية لذلك في نفسه ، فلا يريد إلا ما تقتضي نفسه إرادته بمعنى يقتضي ذلك ، ولا يرجح مراداً على مراد إلا لذلك .

ولا يجوز أن يرجح شيئاً لمجرد كونه قادراً ، فإنه كان قادراً قبل إرادته ، وهو قادر على غيره ، فتخصيص هذا بالإرادة لا يكون بالقدرة المشتركة بينه وبين غيره .

ولا يجوز أيضاً أن تكون الإرادة تخصص مثلاً على مثل بلا مخصص . بل إنما يريد المرید أحد الشئین دون الآخر لمعنى في المرید والمراد - لا بد أن يكون المرید إلى ذلك أمیل ، وأن يكون في المراد ما أوجب رجحان ذلك الميل .

والقرآن والسنة تثبت القدر ، وتقدير الأمور قبل أن يخلقها ، وأن ذلك في كتاب ، وهذا أصل عظيم يثبت العلم والإرادة لكل ما سيكون ويزيل إشكالات كثيرة ضل بسببها طوائف في هذا المكان - في مسائل العلم والإرادة .

فالإيمان بالقدر من أصول الإيمان ، كما ذكره النبي ﷺ في حديث جبريل - قال : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »^(١) ، وقد تبرأ ابن عمر وغيره من الصحابة من المكذبين بالقدر .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة .

ورواه في التفسير سورة ٣١ ، ٢ ورواه الامام مسلم في الايمان ٥ ، ٧ وابن ماجه في المقدمة ٩ ، وصاحب الموطأ في العتق ٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١٠٧: ٣ ، ٤٢٦ ، ٤٥٢: ٣ ، ١١٤: ٤ (حلي) .

ومع هذا فطائفة من أهل الكلام وغيرهم لا تثبت القدر إلا علماً أزلياً وإرادة أزلية فقط ، وإذا أثبتوا الكتابة قالوا إنها كتابة لبعض ذاك .

وأما من يقول إنه قدرها حينئذ ، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء »^(١) فقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

وهو كقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٣) وقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(٥) . وقوله : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٦) .

والكتاب في نفسه لا يكون أزلياً . وفي حديث رواه حماد بن سلمة ، عن الأشعث بن عبد الرحمن الجرمي ، [عن أبي قلابة] عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن شداد بن أوس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي سنة أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة »^(٧) رواه الترمذي ، وقال غريب . وهو سبحانه أنزل القرآن ليلة القدر

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٦٧ .

(٣) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٤) سورة طه آية رقم ١٢٩ .

(٥) سورة الصافات آية رقم ١٧١ - ١٧٣ .

(٦) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .

(٧) الحديث رواه الترمذي . قال : حدثنا بندار ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد بن سلمة عن أشعث بن عبد الرحمن الجرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن النعمان بن =

من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا .

وكثير من الكتب المصنفة في أصول الدين والكلام يوجد فيها الأقوال المبتدعة دون القول الذي جاء به الكتاب والسنة .

فالشهرستاني^(١) مع تصنيفه في الملل والنحل يذكر في مسألة الكلام والإرادة وغيرهما أقوالاً ليس فيها القول الذي دل عليه الكتاب والسنة وإن كان بعضها أقرب .

وقبله أبو الحسن كتابه في اختلاف المصلين من أجمع الكتب ، وقد استقصى فيه أقاويل أهل البدع ، ولما ذكر قول أهل السنة والحديث ذكره مجملاً ، غير مفصل ، وتصرف في بعضه ، فذكره بما اعتقده هو ، أنه قولهم من غير أن يكون ذلك منقولاً عن أحد منهم . وأقرب الأقوال إليه قول ابن كلاب .

فأما ابن كلاب^(٢) فقوله مشوب بقول الجهمية ، وهو مركب من قول أهل السنة وقول الجهمية ، وكذلك مذهب الأشعري^(٣) في الصفات . وأما في القدر والإيمان فقوله قول جهم .

= بشير عن النبي ﷺ قال : وذكره . وفيه زيادة (ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) ثم قال : هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد ، أبو الفتح الشهرستاني من فلاسفة الاسلام كان اماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة يلقب بالأفضل ولد في شهرستان عام ٤٧٩ هـ وانتقل الى بغداد عام ٥١٠ هـ فاقام ثلاث سنين وعاد الى بلده فتوفي بها عام ٥٤٨ هـ من كتبه الملل والنحل ، ونهاية الاقدام في علم الكلام والارشاد الى عقائد العباد وغير ذلك كثير . راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ ومفتاح السعادة ١ : ٢٦٤ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليه .

(٣) هو علي بن إسماعيل بن اسحاق أبو الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ت ٣٢٤ هـ وسبق الترجمة له . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقريزي ٢ : ٣٥٩ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧]

وأما ما حكاه عن أهل السنة والحديث وقال « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب » فهو أقرب ما ذكره .

وبعضه ذكره عنهم على وجهه ، وبعضه تصرف فيه وخلطه بما هو من أقوال جهم في الصفات والقدر ، إذ كان هو نفسه يعتقد صحة تلك الأصول .

وهو يجب الانتصار لأهل السنة والحديث وموافقتهم فأراد أن يجمع بين ما رآه من أولئك وبين ما نقله عن هؤلاء ، ولهذا يقول فيه طائفة : إنه خرج من التصريح إلى التمويه ، كما يقوله طائفة : إنهم الجهمية الإناث ، وأولئك الجهمية الذكور .

وأتباعه الذين عرفوا رأيه في تلك الأصول ووافقوه أظهروا من مخالفة أهل السنة والحديث ما هو لازم لقولهم ، ولم يهابوا أهل السنة والحديث ويعظموا ويعتقدوا صحة مذاهبهم كما كان هو يرى ذلك .

والطائفتان - أهل السنة والجهمية - يقولون إنه تناقض ، لكن السني يحمد موافقته لأهل الحديث ويذم موافقته للجهمية ، والجهمي يذم موافقته لأهل الحديث ويحمد موافقته للجهمية .

ولهذا كان متأخروا أصحابه ، كأبي المعالي ^(١) ونحوه ، أظهر تجهماً وتعطيلاً من متقدميهم ، وهي مواضع دقيقة يغفر الله لمن أخطأ فيها بعد اجتهاده .

لكن الصواب ما أخبر به الرسول ، فلا يكون الحق في خلاف ذلك قط والله أعلم .

ومن أعظم الأصول التي دل عليها القرآن في مواضع كثيرة جداً ، وكذلك الأحاديث ، وسائر كتب الله ، وكلام السلف ، وعليها تدل المعقولات

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

الصريحة ، هو إثبات الصفات الاختيارية ، مثل أنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته ، وكذلك يقوم بذاته فعلة الذي يفعله بمشيئته .

فإثبات هذا الأصل يمنع ضلال الطوائف الذين كذبوا به ، والقرآن والحديث مملوء ، وكلام السلف والأئمة مملوء ، من إثباته .

فالحق المحض ما أخبر به الرسول ﷺ ، فلا يكون الحق في خلاف ذلك ، لكن الهدى التام يحصل بمعرفة ذلك وتصوره فإن الاختلاف تارة ينشأ من سوء الفهم ونقص العلم ، وتارة من سوء القصد .

والناس يختلفون في العلم والإرادة - في تعدد ذلك وإيجاده . ومعلوم أن ما يقوم بالنفس من إرادة الأمور ، لا يمكن أن يقال فيه . العلم بهذا هو العلم بهذا ، ولا إرادة هذا هو إرادة هذا فإن هذا مكابرة وعناد .

وليس تمييز العلم عن العلم ، والإرادة عن الإرادة ، تمييزاً مع انفصال أحدهما عن الآخر ، بل نفس الصفات المتنوعة - كالعلم ، والقدرة ، والإرادة - إذا قامت بمحل واحد لم ينفصل بعضها عن بعض ، بل محل هذا هو محل هذا ، كالطعم واللون والرائحة القائمة بالأترجة الواحدة وأمثالها من الفاكهة وغيرها .

فإذا قيل « هي علوم وإرادات » لم ينفصل هذا عن هذا بفصل حسي ، بل هو نوع واحد قائم بالنفس ، وإذا علم هذا بعد علمه بذلك فقد زاد هذا النوع وكثر - وإن شئت قلت : عظم ، فلا يزيد فيه زيادة الكمية عن زيادة الكيفية .

بل يقال « علم كثير ، وعلم عظيم » بأن تكون العظمة ترجع إلى قوته وشرف معلومه ، ونحو ذلك ، كما قال النبي ﷺ لأبي بن كعب : « أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم » ؟ قال ﴿ لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ فقال

« ليهنك العلم ، أبا المنذر ؟ » (١) .

وكتب سلمان (٢) إلى أبي الدرداء (٣) : ليس الخير أن يكثر مالك وولذك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك .

وانضمام العلم إلى العلم ، والإرادة إلى الإرادة ، والقدرة إلى القدرة ، هو شبيه بانضمام الأجسام المتصلة ، كالماء إذا زيد فيه ماء ، فإنه يكثر قدره ، لكن هو كم متصل لا منفصل ، بخلاف الدراهم .

فإذا قيل : « تعددت العلوم والإرادات » فهو إخبار عن كثرة قدرها وأنها أكثر وأعظم مما كانت ، لا أن هناك معدودات منفصلة كما قد يفهم بعض الناس .

ولهذا كان العلم اسم جنس ، فلا يكاد يجمع في القرآن ، بل يقال : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (٤) ، فيذكر الجنس ، وكذلك الماء ، ليس في القرآن ذكر مياه ، بل إنما يذكر جنس الماء :

(١) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح عن أبي هو ابن كعب أن النبي - ﷺ - سأله وذكره وفيه زيادة (والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش) .
وقد رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريري به وليس عنده زيادة (والذي نفسي بيده الخ) .

(٢) هو سلمان الفارسي : صحابي من مقدميهم كان يسمى نفسه سلمان الإسلام ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً واختلفوا فيما كان يسمى به في بلاده ، وقالوا : نشأ في قرية جيان ، ورحل إلى الشام فالموصل فنصيبين ، فعمورية ، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب وأسلم - اشترك في حفر الخندق وقال الرسول - ﷺ - سلمان منا أهل البيت توفي عام ٣٦ هـ - [راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٥٣ - ٦٧ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٨٨ والاصابة ت ٣٣٥٠]

(٣) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي سبق الترجمة له . [وراجع الاصابة ت ٦١١٩ وحلية الأولياء ١ : ٢٠٨] .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ^(١) ؛ ونحو ذلك .

والعلم يشبه بالماء ، كقوله ﷺ : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ^(٢) . . . الحديث » ؛ وقد قال : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا - إِلَى قَوْلِهِ - كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ ^(٣) .

وما خلقه الرب تعالى فإنه يراه ، ويسمع أصوات عبادِهِ ، والمعدوم لا يرى باتفاق العقلاء .

والسالمية كأبي طالب المكي ^(٤) وغيره لم يقولوا : إنه يرى قائماً بنفسه ، وإنما قالوا : يراه الرب في نفسه وإن كان هو معدوماً في ذات الشيء المعدوم ، فهم يجعلون الرؤية لما يقوم بنفس العالم من صورته العلمية ما هو عدم محض ، وهم وإن كانوا غلطوا في بعض ما قالوه فلم يقولوا : إن العدم المحض الذي ليس بشيء يرى ، فإن هذا لا يقوله عاقل ، وفي الحقيقة إذا رُؤِيَ شيء فإنما رُؤِيَ مثاله العلمي ، لا عينه .

وأبو الشيخ الأصبهاني لما ذكرت هذه المسألة أمر بالإمساك عنها . فقبل أن يوجد لم يكن يرى ، وبعد أن يعدم لا يرى ، وإنما يرى حال وجوده ، وهذا هو الكمال في الرؤية .

وكذلك سمع أصوات العباد هو عند وجودها ، لا بعد فنائها ، ولا قبل حدوثها . قال تعالى : ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

(١) سورة الفرقان آية رقم ٤٨ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب العلم ٢٠ باب فضل العلم ٧٩ حدثنا محمد بن العلاء قال :

حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبدالله عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي - ﷺ - وذكره .

ورواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٩٩ (حلي) .

(٣) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليها .

وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ وَقَالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٤ .

فصل

من خصائص الرسالة الهداية والرحمة

الرسول ﷺ بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين ، فإنه كما أرسله بالعلم والهدى ، والبراهين العقلية والسمعية ، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس ، والرحمة لهم بلا عوض ، وبالصبر على أذاهم واحتماله ، فبعثه بالعلم ، والكرم ، والحلم - عليم هاد ، كريم محسن ، حلیم صفوح .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ^(٣) ونظائره كثيرة .

وقال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ^(٤) ، وقال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(٥) ؛ وقال : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ

(١) سورة الشورى آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ١ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٥٧ .

(٥) سورة سبأ آية رقم ٤٧ .

عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿١﴾ ، فهو يعلم ويهدي ويصلح القلوب ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض .

وهذا نعت الرسل كلهم - كل يقول : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ ولهذا قال صاحب يس : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

وهذه سبيل من اتبعه ، كما قال : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (٣) .

وأما المخالفون لهم فقد قال عن المنتسبين إليهم مع بدعة : ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٤) . فهؤلاء أخذوا أموالهم ومنعوه سبيل الله ، ضد الرسل ، فكيف بمن هو شر من هؤلاء من علماء المشركين ، والسحرة ، والكهان ؟ فهم أوكل لأموالهم بالباطل وأصد عن سبيل الله من الأحرار والرهبان .

وهو سبحانه قال : ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ﴾ . فليس كلهم كذلك ، بل قال في موضع آخر : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٥) .

وقد قال في وصف الرسول : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٦) . وفيها قراءتان . فمن قرأ « بضنين » ، أي ما هو بمتهم على الغيب ، بل هو

(١) سورة الأنعام آية رقم ٩٠ .

(٢) سورة يس آية رقم ٢٠ - ٢١ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٣٤ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٨٢ .

(٦) سورة التكوين آية رقم ٢٤ .

صادق أمين فيما يخبر به ، ومن قرأ ﴿ بضنين ﴾ ، أي ما هو ببخيل ، لا يبذله إلا بعوض ، كالذين يطلبون العوض على ما يعلمونه .

فوصفه بأنه يقول الحق فلا يكذب ، ولا يكتم ، وقد وصف أهل الكتاب بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ، وأنهم يشترون به ثمناً قليلاً .

ومع هذا وهذا قد أمره الله بالصبر على أذاهم ، وجعله كذلك يعطيهم ما هم محتاجون إليه غاية الحاجة بلا عوض ، وهم يكرهونه ويؤذونه عليه .

وهذا أعظم من الذي يبذل الدواء النافع للمرضى ، ويسقيهم إياه بلا عوض ، وهم يؤذونه ، كما يصنع الأب الشفيق ، وهو أب المؤمنين . وكذلك نعت أمته بقوله ﴿ كُتِّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ^(١) . قال أبو هريرة : كنتم خير الناس للناس - تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة فيجاهدون - يبذلون أنفسهم وأموالهم - لمنفعة الخلق وصلاحهم ، وهم يكرهون ذلك لجهلهم ، كما قال أحمد في خطبته : « الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ! » ^(٢) - إلى آخر كلامه .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .

قال الامام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا شريك عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل الى النبي ﷺ - وهو على المنبر فقال يا رسول الله - أي الناس خير؟ قال : خير الناس أقرامهم وأتقاهم لله وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم .

ورواه أحمد في مسنده ، والنسائي في سننه والحاكم في مستدركه من حديث سماك عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس .

(٢) راجع كتاب (الرد على الجهمية والزنادقة) للامام أحمد بن حنبل بتحقيقنا ص ٨٥ ط دار =

فهذا هذا ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وهو سبحانه يجزي الناس بأعمالهم ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، فهو ينعم على الرسول بإنعامه جزاء على إحسانهم ، والجميع منه ، فهو الرحمن الرحيم الجواد الكريم الحنان المنان ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وله الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفافها ، وهو يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات ، وقد قيل أيضاً : وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات ويحب السماحة ولو بكف من تمرات .

والقرآن أخبر أنه يحب المحسنين ، ويحب الصابرين ، وهذا هو الكرم والشجاعة .

فصل في حقيقة الأكرم

وقوله ﴿الأكرم﴾ يقتضي اتصافه بالكرم في نفسه ، وأنه الأكرم ، وأنه محسن إلى عباده ، فهو مستحق للحمد لمحاسنه وإحسانه . وقوله : ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال . قيل : أهل أن يجل وأن يكرم ، كما يقال إنه « أهل التقوى » ، أي المستحق لأن يتقي ، وقيل : أهل أن يجل في نفسه [و] أن يكرم أهل ولايته وطاعته ، وقيل : أهل أن يجل في نفسه وأهل أن يكرم .

ذكر الخطابي الاحتمالات الثلاثة ، ونقل ابن الجوزي كلامه فقال : قال أبو سليمان الخطابي ^(١) : الجلال مصدر الجليل ، يقال : جليل بين الجلالة والجلال ، والإكرام مصدر أكرم - يكرم - إكراماً ، والمعنى إنه يكرم أهل ولايته وطاعته ، وأن الله يستحق أن يجل ويكرم - ولا يجحد ولا يكفر به ، قال : ويحتمل أن يكون المعنى : يكرم أهل ولايته ويرفع درجاتهم .

(قلت): وهذا الذي ذكره البغوي فقال : ﴿ ذو الجلال ﴾ العظمة

(١) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان ، فقيه محدث من أهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) رضي الله عنهما - له معالم السنن في شرح سنن أبي داود ، وبيان اعجاز القرآن ، وإصلاح غلط المحدثين وغريب الحديث توفي عام ٣٨٨ هـ . [راجع الوفيات ١ : ١٦٦ وبتيمة الدهر ٤ : ٢٣١] .

والكبرياء ﴿ والإكرام ﴾ يكرم أنبياءه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته .

قال الخطابي : وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين - وهو الجلال - مضافاً إلى الله بمعنى الصفة له ، والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ ^(١) فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة ، والآخر إلى العباد وهي التقوى . قلت : القول الأول هو أقربها إلى المراد ، مع أن الجلال هنا ليس مصدر جل جلاله ، بل هو اسم مصدر أجل إجلالاً ، كقول النبي ﷺ : « إن من إجلال الله إكرام ذي الشبهة ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه ، و [إكرام] ذي السلطان المقسط . فجعل إكرام هؤلاء من جلال الله ، أي من اجلال الله ، كما قال : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ ^(٢) ، وكما يقال : كلمه كلاماً ، وأعطاه عطاء ، والكلام والعطاء اسم مصدر التكليم والإعطاء . والجلال قرن بالإكرام ، وهو مصدر المتعدي ، فكذلك الإكرام . ومن كلام السلف : « أجلوا الله أن تقولوا كذا » وفي حديث موسى : يا رب ، إني أكون على الحال التي أجلك أن أذكرك عليها . قال : أذكرني على كل حال .

وإذا كان مستحقاً للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفاً في نفسه بما يوجب ذلك ، كما إذا قال : الإله هو المستحق لأن يؤله ، أي يعبد ، كان هو في نفسه مستحقاً لما يوجب ذلك ، وإذا قيل : ﴿ هو أهل التقوى ﴾ كان هو في نفسه متصفاً بما يوجب أن يكون هو المتقي .

ومنه قول النبي ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول « ربنا ولك الحمد : ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا

(١) سورة المدثر آية رقم ٥٦

(٢) سورة نوح آية رقم ١٧ .

مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (١) .
أي هو مستحق لأن يثنى عليه وتمجد نفسه .

والعباد لا يحصون ثناء عليه ، وهو كما أثنى على نفسه ، كذلك هو
أهل أن يجل وأن يكرم ، وهو سبحانه يجل نفسه ويكرم نفسه والعباد لا
يحصون إجلاله وإكرامه .

والإجلال من جنس التعظيم ، والإكرام من جنس الحب ، والحمد
وهذا كقوله : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ (٢) . فله الإجلال والملك ، وله
الإكرام والحمد .

والصلاة مبناها على التسبيح في الركوع والسجود ، والتحميد والتوحيد
في القيام والقعود ، والتكبير في الانتقالات ، كما قال جابر « كنا مع رسول الله
ﷺ ، فكنا إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا ، فوضعت الصلاة على
ذلك » (٣) . رواه أبو داود .

وفي الركوع يقول : « سبحان ربي العظيم » . وقال النبي ﷺ : إني
نهيت أن أقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً (٤) ، أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما
السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء ، فَمَنْ أن يستجاب لكم .

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام
١٩٤ حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري ، حدثنا أبي حدثنا شعبة عن الحكم قال : غلب على
الكوفة رجل (قد سماه) زمن ابن الأشعث فأمر أبا عبيدة بن عبد الله أن يصلي بالناس فكان
يصلي . فإذا رفع رأسه من الركوع قام قدر ما أقول وذكره .

ورواه الترمذي في المواقيت ٨٢ والدعوات ٣٢ والنسائي في التطبيق ٣٥ وابن ماجه في الاقامة
١٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٤٨ .

(٢) سورة التغابن آية رقم ١ .

(٣) الحديث رواه أبو داود في الصلاة ، ورواه الدارمي في الاستئذان ٤٣ ، وأحمد بن حنبل في
المسند ٣ : ٣٣٣ (حلي) .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

وإذا رفع رأسه حمد فقال : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » فيحمده في هذا القيام كما يحمده في القيام الأول إذا قرأ أم القرآن ، فالتحميد والتوحيد مقدم على مجرد التعظيم ، ولهذا اشتملت الفاتحة على هذا - أولها تحميد ، وأوسطها تمجيد ، ثم في الركوع تعظيم الرب ، وفي القيام يحمده ، ويثني عليه ، ويمجده .

فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محموداً وكونه معبوداً ، فإنه يحب أن يحمد ويعبد ، ولا بد مع ذلك من التعظيم ، فإن التعظيم لازم لذلك .

وأما التعظيم فقد يتجرد عن الحمد والعبادة على أصل الجهمية ، فليس ذلك بمأمور به ، ولا يصير العبد به لا مؤمناً ، ولا عابداً ، ولا مطيعاً . وأبو عبد الله بن الخطيب الرازي (١) يجعل الجلال للصفات السلبية ، والإكرام للصفات الثبوتية ، فيسمي هذه « صفات الجلال » وهذه « صفات الإكرام » وهذا إصطلاح له ، وليس المراد هذا في قوله : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٣) .

وهو في مصحف أهل الشام « تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام » وهي قراءة ابن عامر ، فالاسم نفسه بذوى بالجلال والإكرام ، وفي سائر المصاحف - وفي قراءة الجمهور - ﴿ ذِي الْجَلَالِ ﴾ فيكون المسمى نفسه .

وفي الأولى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ فالمذوي وجهه سبحانه ، وذلك يستلزم أنه هو ذو الجلال والإكرام ، فإنه إذا كان وجهه ذا

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة الرحمن آية رقم ٢٧ .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ٧٨ .

الجلال والإكرام كان ذلك تنبيهاً ، كما أن اسمه إذا كان ذا الجلال والإكرام كان تنبيهاً على المسمى .

وهذا يبين أن المراد أنه يستحق أن يجل ويكرم .

فإن الاسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى . والاسم نفسه لا يفعل شيئاً - لا إكراماً ولا غيره - ولهذا ليس في القرآن إضافة شيء من الأفعال والنعم إلى الاسم .

ولكن يقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ^(١) ، ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ ^(٢) ونحو ذلك ، فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة ، والعبد يسبح اسم ربه الأعلى فيقول « سبحان ربي الأعلى » . ولما نزل قوله ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قل : « اجعلوها في سجودكم » ^(٣) فقالوا : « سبحان ربي الأعلى » .

فكذلك كان النبي ﷺ لا يقول : « سبحان اسم ربي الأعلى » لكن قوله « سبحان ربي الأعلى » هو تسبيح لاسمه يراد به تسبيح المسمى ، لا يراد به تسبيح مجرد الاسم ، كقوله : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ^(٤) فالداعي يقول « يا الله » « يا رحمن » ومراده المسمى - وقوله ﴿ أَيًّا مَا ﴾ أي الاسمين تدعوا ودعاء الاسم هو دعاء مسماه .

(١) سورة الأعلى آية رقم ١ .

(٢) سورة الرحمن آية رقم ٧٨ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في الإقامة ٢٠ باب التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧ بسنده عن عقبة ابن عامر الجهني يقول لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال لنا رسول الله - ﷺ اجعلوها في ركوعكم فلما نزلت ﴿ سبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال لنا رسول الله - ﷺ ﴿ اجعلوها في سجودكم ﴾ ورواه أبو داود في الصلاة ١٤٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٥٥ (حلي) .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١١٠ .

وهذا هو الذي أراده من قال من أهل السنة إن الاسم هو المسمى ،
أرادوا به أن الاسم إذا دعي وذكر يراد به المسمى ، فإذا قال المصلي « الله
أكبر » فقد ذكر اسم ربه ، ومراده المسمى .

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج ، فإن فساد
هذا لا يخفى على من تصوره ، ولو كان كذلك كان من قال « ناراً » احترق
لسانه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن الجلال والاكرام مثل الملك والحمد ، كالمحبة والتعظيم ،
وهذا يكون في الصفات الثبوتية والسلبية ، فإن كل سلب فهو متضمن
للثبوت ، وأما السلب المحض فلا مدح فيه .

وهذا مما يظهر به فساد قول من جعل أحدهما للسلب والآخر للإثبات ،
لا سيما إذا كان من الجهمية الذين ينكرون محبته ، ولا يثبتون له صفات
توجب المحبة والحمد ، بل إنما يثبتون ما يوجب القهر ، كالقدرة . فهؤلاء
آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وألحدوا في أسمائه وآياته بقدر ما كذبوا به من
الحق ، كما بسط هذا في غير هذا الموضع .

فصل

القرآن الكريم خطاب للبشرية كلها

قوله تعالى في أول ما أنزل ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١) .
وقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (٢) .

ذكر في الموضوعين بالإضافة التي توجب التعريف ، وأنه معروف عند المخاطبين ، إذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق ، وأن المخلوق مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق ، لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ، ومعرفته فطرية ، مغروزة في الفطرة ، ضرورية ، بديهية ، أولية .

وقوله ﴿ اقْرَأْ ﴾ وإن كان خطاباً للنبي ﷺ أولاً فهو خطاب لكل أحد ، سواء كان قوله ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ هو خطاب للإنسان مطلقاً ، والنبي ﷺ أول من سمع هذا الخطاب ، أو من النوع ، أو هو خطاب للنبي ﷺ خصوصاً ، كما قد قيل في نظائر ذلك .

مثل قوله ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٣) قيل خطاب له ، وقيل خطاب للجنس ، وأمثال ذلك . فإنه وإن

(١) سورة العلق آية رقم ١ .

(٢) سورة العلق آية رقم ٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

قيل إنه خطاب له فقد تقرر أن ما خوطب به من أمر ونهي فالأمة مخاطبة به ما لم يقم دليل التخصيص .

وبهذا يبين أن قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١) يتناول غيره ، حتى قال كثير من المفسرين : الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره ، أي هم الذين أريد منهم أن يسألوا لما عندهم من الشك ، وهو لم يرد منه السؤال إذ لم يكن عنده شك .

ولا شك أن هذا لا يمنع أن يكون هو مخاطباً ومراداً بالخطاب ، بل هذا صريح اللفظ ، فلا يجوز أن يقال إن الخطاب لم يتناوله ، ولأن ليس في الخطاب أنه أمر بالسؤال مطلقاً ، بل أمر به إن كان عنده شك ، وهذا لا يوجب أن يكون عنده شك ، ولا أنه أمر به مطلقاً ، بل أمر به إن كان هذا موجوداً ، والحكم المعلق بشرط عدم عند عدمه . وكذلك كثير من المفسرين يقول في قوله ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٢) وفي قوله ﴿ وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (٣) ونحو ذلك : إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره ، أي غيره قد يكون ممترياً ومطيعاً لأولئك فنهى ، وهو لا يكون ممترياً ولا مطيعاً لهم .

ولكن بتقدير أن يكون الأمر كذلك فهو أيضاً مخاطب بهذا ، وهو منهي عن هذا ، فالله سبحانه قد نهاه عما حرمه من الشرك ، والقول عليه بلا علم ، والظلم والفواحش ، وبنهى الله له عن ذلك وطاعته لله في هذا استحق عظيم الثواب ، ولولا النهي والطاعة لما استحق ذلك . ولا يجب أن يكون المأمور المنهي ممن يشك [في] طاعته ، ويجوز عليه أن يعصى الرب ، أو يعصيه

(١) سورة يونس آية رقم ٩٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٤٧ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٤٨ .

مطلقاً ولا يطيعه - بل الله أمر الملائكة مع علمهم أنهم يطيعونه ، ويأمر الأنبياء مع علمه أنهم يطيعونه ، وكذلك المؤمنون كل ما أطاعوه فيه قد أمرهم به مع علمه أنهم يطيعونه .

ولا يقال : لا يحتاج إلى الأمر - بل الأمر صار مطيعاً مستحقاً لعظيم الثواب .

ولكن النهي يقتضي قدرته على المنهي عنه ، وأنه لو شاء لفعله لثاب على ذلك إذا تركه ، وقد يقتضي قيام السبب الداعي إلى فعله فينهى عنه ، فإنه بالنهي وإعانة الله له على الامتناع يمتنع مما نهى عنه إذا قام السبب الداعي له إليه .

وكذلك قد قيل في قوله : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(١) إنه أمر للرسول والمراد به هو والمؤمنون ! وقيل هو أمر لكل مكلف .

فقوله في هذه السورة ﴿ اقْرَأْ ﴾ كقوله في آخرها ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(٣) هذا متناول لجميع الأمة ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٤) فإنه كان خطاباً للمؤمنين كلهم .

وكذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ^(٥) لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار ، وهذا فرض على الكفاية ، فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه وينذروا كما أُنذر . قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ^(٦)

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١١ .

(٢) سورة العلق آية رقم ١٩ .

(٣) سورة الضحى آية رقم ٩-١١ .

(٤) سورة المزمل آية رقم ١-٢ .

(٥) سورة المدثر آية رقم ١-٢ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ١٢٢ .

والجن لما سمعوا القرآن ﴿ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ^(١) وإذا كان كذلك فكل إنسان في قلبه معرفة بربه ، فإذا قيل له : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ عرف ربه الذي هو مأمور أن يقرأ باسمه ، كما يعرف أنه مخلوق ، والمخلوق يستلزم الخالق ويدل عليه .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس ، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة ، وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حذاق النظر ، أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة ، وتارة بالنظر ، كما اعترف بذلك غير واحد من أئمة المتكلمين .

وهذه الآية أيضاً تدل على أنه ليس النظر أول واجب ، بل أول ما أوجب الله على نبيه ﷺ ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ لم يقل « انظر واستدل حتى تعرف الخالق » .

وكذلك هو أول ما بلغ هذه السورة ، فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء ولم يؤمروا فيها بالنظر والاستدلال .

وقد ذهب كثير من أهل الكلام إلى أن اعتراف النفس بالخالق واثباتها له لا يحصل إلا بالنظر .

ثم كثير منهم جعلوا ذلك نظراً مخصوصاً ، وهو النظر في الأعراض وأنها لازمة للأجسام فيمتنع وجود الأجسام بدونها .

قالوا : وما لا يخلو عن الحوادث ، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث . ثم منهم من اعتقد أن هذه المقدمة بينة لنفسها ، بل ضرورية ، ولم يميز بين الحادث المعين والمحدود وبين الجنس المتصل شيئاً بعد شيء إما لظنه أن هذا ممتنع ، أو لعدم خطوره بقلبه ، لكن وإن قيل هو ممتنع فليس

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٢٩ .

العلم بذلك بديهيًا .

وإنما العلم البديهي أن الحادث الذي له مبدأ محدود كالحادث والحوادث المقدرة من حين محدود فتلك ما لا يسبقها فهو حادث ، وما لا يخلو منها لم يسبقها فهو حادث ، فإنه إذا لم يسبقها كان معها أو متأخراً عنها ، وعلى التقديرين فهو حادث .

وأما إذا قدر حوادث دائمة شيئاً بعد شيء ، فهذا إما أن يقال هو ممكن ، وإما أن يقال هو ممتنع ، لكن العلم بامتناعه يحتاج إلى دليل ، ولم نعلم طائفة معروفة من العقلاء قالوا : إن العلم بامتناع هذا بديهي ضروري ، ولا يفتقر إلى دليل .

بل كثير من الناس لا يتصور هذا تصوراً تاماً . بل متى تصور الحادث قدر [في] ذهنه مبدأ ، ثم يتقدم في ذهنه شيء قبل ذلك ، ثم شيء قبل ذلك ، لكن إلى غايات محدودة بحسب تقدير ذهنه ، كما يقدر الذهن عدداً بعد عدد ، ولكن كل ما يقدره الذهن فهو منته .

ومن الناس من إذا قيل له « الأزل » أو « كان هذا موجوداً في الأزل » ، تصور ذلك ، وهذا غلط ، بل « الأزل » ما ليس له أول ، كما أن « الأبد » ليس له آخر ، وكل ما يوميء إليه الذهن من غاية في « الأزل » وراءها وهذا لبسطه موضع آخر .

والمقصود هنا أن هؤلاء الذين قالوا : معرفة الرب لا تحصل إلا بالنظر ، ثم قالوا : لا تحصل إلا بهذا النظر ، هم من أهل الكلام - الجهمية المقدرية ومن تبعهم ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وجمهور العلماء من المتكلمين وغيرهم ، على خطأ هؤلاء في إيجابهم هذا النظر المعين ، وفي دعواهم أن المعرفة موقوفة عليه ، إذ قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا على الأمة ولا أمرهم به ، بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة . ثم هذا النظر - هذا الدليل - للناس فيه

ثلاثة أقوال .

قيل : إنه واجب ، وأن المعرفة موقوفة عليه ، كما يقوله هؤلاء .

وقيل : بل يمكن حصول المعرفة بدونه ، لكنه طريق آخر إلى المعرفة ، وهذا بقوله كثير من هؤلاء ممن يقول بصحة هذه الطريقة لكن لا يوجبها ، كالخطابي ، والقاضي أبي يعلى ، وأبي جعفر السمناني ^(١) قاضي الموصل شيخ أبي الوليد الباجي - وكان يقول : إيجاب النظر بقية بقيت على الشيخ أبي الحسن الأشعري من الاعتزال ، وهؤلاء الذين لا يوجبون هذا النظر .

ومنهم من لا يوجب النظر مطلقاً ، كالسمناني ، وابن حزم وغيرهما .
ومنهم من يوجهه في الجملة ، كالخطابي ، وأبي الفرج المقدسي .

والقاضي أبو يعلى يقول بهذا تارة ، وبهذا تارة ، بل ويقول تارة بإيجاب النظر المعين ، كما يقوله أبو المعالي ، وغيره .

ثم من الموجبين للنظر من يقول : هو أول الواجبات ، ومنهم من يقول : بل المعرفة الواجبة به ، وهو نزاع لفظي ، كما أن بعضهم قال : أول الواجبات القصد إلى النظر ، كعبارة أبي المعالي ، ومن هؤلاء من قال : بل الشك المتقدم كما قاله أبو هاشم .

وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها في موضع آخر . وبين أنها كلها غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة بل وباطلة في العقل أيضاً .

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد السمني أبو جعفر ، ولد عام ٣٦١ هـ وهو قاض حنفي أصله من سمنان العراق . نشأ ببغداد . وولي القضاء بالموصل إلى أن توفي عام ٤٤٤ هـ ، وكان مقدم الأشعرية في وقته ، وشنع عليه ابن حزم ، له تصانيف في الفقه . [راجع تبين كذب المفتري ٢٥٩ والجواهر المضيئة ٢ : ٢١ ونكت الهميان ٢٣٧] .

وهذه الآية مما يستدل به على ذلك ، فإن أول ما أوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين هو ما أمر به في قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١) . والذين قالوا : المعرفة لا تحصل إلا بالنظر ، قالوا : لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها ، كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر ، وغيره .

فيقال لهم : وليس فيما قصص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحداً أوجبها ، بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم ، ولكن أكثر الرسل افتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وقومهم كانوا مقرين بالخالق ، لكن كانوا مشركين يعبدون غيره ، كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ .

ومن الكفار من أظهر جحود الخالق ، كفرعون حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه من الكاذبين ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٣) . وقال لموسى : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ (٤) . وقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه كاذباً ﴾ (٥) .

ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن قال : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ اتَّخِذْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، قَوْمٌ فَرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ، قَالَ كَلَّا ، فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا

(١) سورة العلق آية رقم ١ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

(٥) سورة غافر آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ، فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ .

قال فرعون إنكاراً وجحداً : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ قال موسى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (٢) - الآيات .

وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ هو سؤال عن ماهية الرب ، كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول « ما الإنسان ؟ ما الملك ؟ ، ما الجني ؟ وسحو ذلك . قالوا : ولما لم يكن للمسؤول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قوله : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل .

فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد ، لم يسأل عن ماهية رب أقر بشوته ، بل كان منكراً له جاحداً ، ولهذا قال في تمام الكلام ﴿ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ واني لأظنه كاذباً ﴾ . فاستفهامه كان إنكاراً وجحداً ، يقول : ليس للعالمين رب يرسلك ، فمن هو هذا ؟ - إنكاراً له .

فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين ، وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده ، وأنكم إنما تتجدون بألستكم ما تعرفونه بقلوبكم ، كما

(١) سورة الشعراء الآيات من ١٠ - ٢١ .

(٢) سورة الشعراء الآيات رقم ٢٣ - ٢٥ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

قال موسى في موضع آخر لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ ﴾ (١) وقال الله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا
أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

ولم يقل فرعون « ومن رب العالمين ؟ » ، فإن « من » ؟ سؤال عن عينه
يسأل بها من عرف جنس المسؤول عنه أنه من أهل العلم وقد شك في عينه ،
كما يقال لرسول عرف أنه جاء من عند إنسان « من أرسلك ؟ » .

وأما ﴿ ما ؟ ﴾ فهي سؤال عن الوصف ، يقول : أي شيء هو هذا ؟
وما هو هذا الذي سميته ﴿ رب العالمين ﴾ قال ذلك منكراً له جاحداً . فلما
سأل جحداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر ، وأظهر من أن يشك فيه
ويرتاب فقال : ﴿ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٣) .

ولم يقل « موقنين بكذا وكذا » بل أطلق ، فأبي يقين كان لكم بشيء من
الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب ، كما قالت الرسل لقومهم : ﴿ أَفَبِي اللَّهِ
شَكٌّ ؟ ﴾ (٤) .

وإن قلت : لا يقين لنا بشيء من الأشياء ، بل سلبنا كل علم ، فهذه
دعوى السفسطة العامة ، ومدعيها كاذب ظاهر الكذب ، فإن العلوم من لوازم
كل إنسان ، فكل إنسان عاقل لا بد له من علم ، ولهذا قيل في حد « العقل »
إنه علوم ضرورية ، وهي التي لا يخلو منها عاقل .

فلما قال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٥)
وهذا من افتراء المكذبين على الرسول - لما خرجوا عن عاداتهم التي هي

(١) سورة الإسراء آية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة النمل آية رقم ١٤ .

(٣) سورة الدخان آية رقم ٧ .

(٤) سورة إبراهيم آية رقم ١٠ .

(٥) سورة الشعراء آية رقم ٢٧ .

محمودة عندهم نسبهم إلى الجنون ، ولما كانوا مظهرين للجحد بالخالق ،
أو للاسترابة والشك فيه - هذه حال عامتهم ودينهم ، وهذا عندهم دين
حسن ، وإنما إلههم الذي يطيعونه فرعون - قال : ﴿ إِن رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ
إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

فبين له موسى إنكم الذين سلبتم العقل النافع ، وأنتم أحق بهذا
الوصف فقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .
فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية ، وأعظمها في الفطرة الإقرار
بالخالق ، فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن به ، واليقين بشيء هو
من لوازم العقل ، بين ثانياً أن الإقرار به من لوازم العقل .

ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه ، فإن لم يعمل به
صاحبه قيل : إنه ليس له عقل ، ويقال أيضاً لمن لم يتبع ما أيقن به : إنه
ليس له يقين ، فإن اليقين أيضاً يراد به العلم المستقر في القلب ، ويراد به
العمل بهذا العلم ، فلا يطلق « الموقن » إلا على من استقر في قلبه العلم
والعمل .

وقوم فرعون لم يكن عندهم اتباع لما عرفوه ، فلم يكن لهم عقل ولا
يقين وكلام موسى يقتضي الأمرين : إن كان لك يقين فقد عرفته ، وإن كان
لك عقل فقد عرفته ، وإن ادعيت أنه لا يقين لك ولا عقل لك ، فكذلك
قومك ، فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان . ومن يكون هكذا لا يصلح
له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية ، مع أن هذا باطل منكم ، فإنكم موقنون
به ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِظْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا ﴾ (٢) .

ولكم عقل تعرفونه به ، ولكن هواكم يصدكم عن اتباع موجب العقل ،
وهو إرادة العلو في الأرض والفساد ، فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار ، كما

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة النمل آية رقم ١٤ .

قال أصحاب النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

وقال تعالى عند الكفار : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢) .

قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٣) والخفيف هو السفيف الذي لا يعمل بعلمه ، بل يتبع هواه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه : إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق ، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه ، فلم يكلفوا أولاً بنفس المعرفة ، ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة ، إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقربه ، وكل مولود يولد على الفطرة ، لكن عرض للفطرة ما غيرها ، والإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته .

ولهذا قال الله في خطابه لموسى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ (٤) ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه ، ويعرف إنعامه عليه ، وإحسانه إليه ، وافتقاره إليه - فذلك يدعوه إلى الإيمان ، ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ ما ينذره به من العذاب - فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان . كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٥) فالحكمة تعريف الحق ، فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة ، ومن نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب .

(١) سورة الملك آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٤٤ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة طه آية رقم ٤٤ .

(٥) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى اتباعه ، فإن الحق محبوب في الفطرة ، وهو أحب إليها ، وأجل فيها ، وألذ عندها ، من الباطل الذي لا حقيقة له . فإن الفطرة لا تحب ذاك .

فإن لم يدعه الحق والعلم به خوف عاقبة الجحود والعصيان ، وما في ذلك من العذاب ، فالنفس تخاف العذاب بالضرورة ، فكل حي يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع .

فمن الناس من يتبع هواه ، فيتبع الأدنى دون الأعلى ، كما أن منهم من يكذب بما خوف به ، أو يتغافل عنه ، حتى يفعل ما يهواه ، فإنه إذا صدق به واستحضره لم يبعث نفسه إلى هواها ، بل لا بد من نوع من الغفلة والجهل حتى يتبعه ، ولهذا كان كل عاص لله جاهلاً ، كما قد بسط هذا في مواضع .

إذ المقصود هنا التنبيه على أن قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فيه تنبيه على أن الرب معروف عند المخاطبين ، وأن الفطر مقرة به .

وعلى ذلك دل قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ^(١) - الآية ، كما قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع .

وكذلك قول الرسل : ﴿ أفي الله شك ﴾ هو نفي . أي ليس في الله شك ، وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك فهذا استفهام تقرير .

فإن حرف الاستفهام إذا دخل على حرف النفي كان تقريراً ، كقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ^(٢) ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ ^(٣) ، ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٧٢ .

(٢) سورة الشرح آية رقم ١ .

(٣) سورة البلد آية رقم ٨ .

نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿١﴾ ، ومثله كثير ، بخلاف استفهام فرعون ، فإنه استفهام إنكار لا تقرير ، إذ ليس هناك إلا أداة الاستفهام فقط ، ودل سياق الكلام على أنه إنكار .

فإن قيل : إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتاً في كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار - نظار المسلمين وغيرهم - وهم يدعون أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية ؟ .

فيقال أولاً : أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام (٢) الذي اتفق السلف على ذمه - من الجهمية والقدرية - وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم ، ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية ، فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء المسلمين وليس كذلك إنما صدر أولاً عن أئمة الدين وعلماء المسلمين .

الثاني : أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه ، فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به ، فوجود الشيء في الإنسان وغيره غير علم الإنسان به .

(١) سورة التوبة آية رقم ٧٠ تكملة الآية ﴿ قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

(٢) يروى عن أحمد بن سنان قال : كان الوليد بن أبان الكرابيسي خالي فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني ؟ قالوا : لا . قال : فتهموني ؟ قالوا : لا . قال : فإني أوصيكم أتقبلون ؟ قالوا : نعم . قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم وكان أبو المعالي الجويني يقول : لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم ، وركبت البحر الأعظم ، وغصت في الذي نهوا عنه كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد ، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق . عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطف بره ، فأموت على دين العجائز ، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الاخلاص ، فالويل لابن الجويني .

وهذا كصفات بدنه ، فإن منها ما لا يراه كوجهه وقفاه ، ومنها ما يراه إذا
تعتمد النظر إليه كبطنه وفخذيه وعضديه ، وقد يكون بهما آثار من خيلان وغير
خيلان ، وغير ذلك من الأحوال ، وهو لم يره ولم يعرفه ، لكن لو تعمد رؤيته
لرآه ، ومن الناس من لا يستطيع رؤية ذلك لعارض عرض لبصره من العشي
أو العمى ، أو غير ذلك .

كذلك صفات نفسه قد يعرف بعضها ، وبعضها لا يعرفه ، لكن لو تعمد
تأمل حال نفسه لعرفه ، ومنها ما لا يعرفه ولو تأمل لفساد بصيرته وما عرض
لها .

والذي يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لا تتصور إلا بإرادة تقوم بنفس
الإنسان ، وكل من فعل فعلاً اختيارياً وهو يعرفه فلا بد أن يريد ، كالذي
يأكل ويشرب ويلبس وهو يعرف أنه يفعل ذلك ، فلا بد أن يريد ، فالفعل
الاختياري يمتنع أن يكون بغير إرادة ، وإذا تصور الفعل الذي يفعله ، وقد
فعله لزم أن يكون مريداً له وقد تصوره ، وإذا كان مريداً له وقد تصوره امتنع
أن لا يريد ما تصوره وفعله .

فالإنسان إذا قام إلى صلاة يعلم أنها الظهر فمن الممتنع أن يصلي
الظهر وهو يعلم هذا لم ينسه ولا يريد صلاة الظهر .

وكذلك الصيام إذا تصور أن غداً من رمضان وهو يريد لصوم رمضان
امتنع أن لا ينوي صومه .

وكذلك إذا أهل بالحج وهو يعلم أنه مهل به امتنع أن لا يكون مريداً
للحج .

وكذلك الوضوء إذا علم أنه يتوضأ للصلاة وهو يتوضأ امتنع أن لا يكون
مريداً للوضوء ، ومثل هذا كثير - نجد خلقاً كثيراً من العلماء - دع العامة -
يستدعون النية بألفاظ يقولونها ، ويتكلفون ألفاظاً ، ويشكون في وجودها مرة

بعد مرة ، ويخرجون إلى ضرب من الوسوسة التي يشبه أصحابها المجانين .

والنية هي الإرادة ، وهي القصد ، وهي موجودة في نفوسهم لوجودها في نفس كل من يصلي في ذلك المسجد والجامع ، ومن توضاً في تلك المطهرة ، أولئك يعلمون هذا من نفوسهم ولم يحصل لهم وسواس^(١) ، وهؤلاء ظنوا أن النية في قلوبهم - يطلبون حصولها من قلوبهم .

وهم يعلمون أن التلفظ بها ليس بواجب ، وإنما الفرض وجود الإرادة في القلب ، وهي موجودة ، ومع هذا يعتقدون أنها ليست موجودة ، وإذا قيل لأحدهم « النية حاصلة في قلبك » لم يقبل لما قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته .

وكذلك حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن ، لا يمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمناً ، وتظهر علامات حبه لله ولرسوله إذا أخذ أحد يسب الرسول ويطعن عليه ، أو يسب الله ويذكره بما لا يليق به ، فال مؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سب أبوه وأمه .

ومع هذا فكثير من أهل الكلام والرأي أنكروا محبة الله ، وقالوا : يمتنع أن يكون محباً أو محبوباً ، وجعلوا هذا من أصول الدين ، وقالوا : خلافاً

(١) أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتعوذ من شر الوسواس الخناس وقال بعض المفسرين : الوسواس الخناس : هو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخيال ، والمعصوم من عصمه الله . وقد ثبت في الصحيح « أنه ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ . . . قال : نعم . إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » . وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي - ﷺ - وهو معتكف وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي - ﷺ - أسرع فقال رسول الله - ﷺ - على رسلكما إنها صفية بنت حيي » .

فقالا : سبحان الله يا رسول الله . فقال : إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال شراً - .

للحلولية ، كأنه لم يقل بأن الله يحب إلا الحلولية . ومعلوم أن هذا دين الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، وأهل الايمان أجمعين ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، كما قد بسطناه في مواضع .

فهذه المحبة لله ورسوله موجودة في قلوب أكثر المنكرين لها ، بل في قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له .

وهكذا المعرفة موجودة في قلوب هؤلاء ، فإن هؤلاء الذين أنكروا محبته هم الذين قالوا : معرفته لا تحصل إلا بالنظر - فأنكروا ما في فطرهم وقلوبهم من معرفته ومحبته .

ثم قد يكون ذلك الإنكار سبباً إلى امتناع معرفة ذلك في نفوسهم ، وقد يزول عن قلب أحدهم ما كان فيه من المعرفة والمحبة - فإن الفطرة قد تفسد - فقد تزول ، وقد تكون موجودة ولا ترى ، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وقد قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » (٣) ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ

(١) سورة الحج آية رقم ٤٦ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٣٠ - ٣١ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب القدر ٣ باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٦٥٩٩ - أخبرنا اسحاق بن ابراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره .

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿١﴾ .

والفطرة تستلزم معرفة الله ، ومحبته ، وتخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد - وهو التوحيد ، وهذا معنى قول « لا إله إلا الله » كما جاء مفسراً : « كل مولود يولد على هذه الملة - وروي « على ملة الاسلام » . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، أن النبي ﷺ قال : يقول الله تعالى : « إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » (٢) فأخبر أنه خلقهم حنفاء ، وذلك يتضمن معرفة الرب ، ومحبته ، وتوحيده ، فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية ، وهي معنى قول « لا إله إلا الله » فإن في هذه الكلمة الطيبة التي هي ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣) ، فيها إثبات معرفته والإقرار به ، وفيها إثبات محبته ، فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يكون مألوهاً ، وهذا أعظم ما يكون من المحبة ، وفيها أنه لا إله إلا هو ففيها المعرفة ، والمحبة ، والتوحيد . وكل مولود يولد على الفطرة ، وهي الحنيفية التي خلقهم عليها ، ولكن أبواه يفسدان ذلك - فيهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، ويشركانه ، كذلك يجهمانه - فيجعلانه منكراً لما في قلبه من

= ورواه الامام مسلم في كتاب القدر ٢٢ باب ، ٢٣ ، ٢٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٤٦ ، ٣١٥ .

(١) سورة الروم آية رقم ٣٠ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي وفيه زيادة (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال : إنما بعثتك لا ابتليك وابتلي بك وانزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان ، وإن الله أمرني أن أحرق قریشاً فقلت رب إذا يتلغوا رأسي فيدعوه خبزه قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نزعك وانفق فستفق عليك ، وابتعث جيشاً نبعث خمسه مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مشط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال* .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ .

معرفه الرب ومحبه وتوحيده ، ثم المعرفة يطلبها بالدليل ، والمحبة ينكرها بالكلية ، والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره من لا يعرفه ، وإنما ثبت توحيد الخلق ، والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد وهذا الشرك .

فهما يشركانه ، [و] يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، وقد بسط الكلام على هذا الحديث وأقوال الناس فيه في غير هذا الموضع . وأيضاً مما يبين أن الإنسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها ، أن كثيراً من الناس يكون في نفسه حب الرياسة كامن لا يشعر به ، بل إنه مخلص في عبادته وقد خفيت عليه عيوبه ، وكلام الناس في هذا كثير مشهور ، ولهذا سميت هذه « الشهوة الخفية » قال شداد بن أوس : يا بقايا العرب ! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية ، قيل لأبي داود السجستاني (١) : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرياسة : فهي خفية تخفى على الناس ، وكثيراً ما تخفى على صاحبها .

بل كذلك حب المال والصورة ، فإن الإنسان قد يحب ذلك ولا يدري . بل نفسه ساكنة ما دام ذلك موجوداً ، فإذا فقدته ظهر من جزع نفسه وتلفها ما دل على المحبة المتقدمة ، والحب مستلزم للشعور ، فهذا شعور من النفس بأمور وحب لها ، والإنسان قد يخفى ذلك عليه من نفسه ، لا سيما والشیطان يغطي على الإنسان أموراً .

وذنبه أيضاً تبقى ريناً على قلبه قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ ، رَانَ عَلَىٰ

(١) هو سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير الأزدي السجستاني أبو داود إمام أهل الحديث في زمانه أصله من (سجستان) رحل رحلة كبيرة وتوفي بالبصرة عام ٢٧٥ هـ .
له السنن ، وهو أحد الكتب الستة جمع فيه ٤٨٠٠ حديث انتخبها من ٥٠٠ , ٠٠٠ حديث وله المراسيل في الحديث ، وكتاب الزهد وغير ذلك كثير . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٥٢]
وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٢٤٤ وطبقات الحنابلة ١١٨ وتاريخ بغداد ٩ : ٥٥ وابن خلكان ١ : ٢١٤] .

قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١﴾ . وفي الترمذي وغيره عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي قال الله : ﴿ كَلَّا بَلْ ، رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٤) . فالمتقون إذا أصابهم هذا الطيف الذي يطيف بقلوبهم يتذكرون ما علموه قبل ذلك ، فيزول الطيف ويبصرون الحق الذي كان معلوماً ، ولكن الطيف يمنعهم عن رؤيته .

قال تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (٥) . فإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في غيهم ، ﴿ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ لا تقصر الشياطين عن المدد والإمداد ، ولا الإنس عن الغي ، فلا يبصرون مع ذلك .

(١) سورة المطففين آية رقم ١٤ - ١٥ .

(٢) انرين يعتري قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقربين والحديث رواه ابن جرير ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه من طرق ، عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة - عن النبي ﷺ - وذكره . وقال الترمذي : حسن صحيح ، ولفظ النسائي : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هونزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي قال الله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ سورة المطففين آية رقم ١٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٨ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٢ .

الغي ما هو معلوم لهم ، مستقر في فطرهم ، لكنهم ينسونه .
ولهذا كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها ، وتقويته ،
وإمداده ، ونفي المغير للفطرة ، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة ، وتكميلها ، لا
بتغيير الفطرة وتحويلها ، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة .

فصل

نسيان الإنسان لربه نسيان لنفسه

وهذا النسيان - نسيان الإنسان لنفسه ولما في نفسه - حصل بنسيانه لربه ولما أنزله - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(١) ، وقال تعالى في حق المنافقين : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(٤) يقتضي أن نسيان الله كان سبباً لنسيانهم أنفسهم ، وأنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم .

ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم وغفلتهم وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم ، كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم ، فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكراً ينفعها ويصلحها وأنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم .

(١) سورة الحشر آية رقم ١٩ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٧ .

(٣) سورة طه آية رقم ١٢٦ .

(٤) سورة الحشر آية رقم ١٩ .

وهذا عكس ما يقال « من عرف نفسه عرف ربه » وبعض الناس يروي هذا عن النبي ﷺ ، وليس هذا من كلام النبي ﷺ ولا هو في شيء من كتب الحديث ، ولا يعرف له إسناد .

ولكن يروى في بعض الكتب المتقدمة - إن صح - « يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك » وهذا الكلام سواء كان معناه صحيحاً أو فاسداً لا يمكن الاحتجاج بلفظه ، فإنه لم يثبت عن قائل معصوم ، لكن إن فسر بمعنى صحيح عرف صحة ذلك المعنى ، سواء دل عليه هذا اللفظ أو لم يدل .

وإنما القول الثابت ما في القرآن ، وهو قوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (١) . فهو يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس .

وحينئذ ، فمن ذكر الله ولم ينسه يكون ذاكراً لنفسه ، فإنه لو كان ناسياً لها - سواء ذكر الله أو نسيه - لم يكن نسيانها مسبباً عن نسيان الرب ، فلما دلت الآية على أن نسيان الإنسان نفسه مسبب عن نسيانه لربه دل على أن الذاكر (٢) لربه لا يحصل له هذا النسيان لنفسه .

والذكر يتضمن ذكر ما قد علمه ، فمن ذكر ما يعلمه من ربه ذكر ما يعلمه من نفسه ، وهو قد ولد على الفطرة التي تقتضي أنه يعرف ربه ويحبه ويوحده ، فإذا لم ينس ربه الذي عرفه ، بل ذكره على الوجه التي يقتضي محبته ومعرفته وتوحيده ، ذكر نفسه ، فأبصر ما كان فيها قبل من معرفة الله ومحبه وتوحيده .

(١) سورة الحشر آية رقم ١٩ .

(٢) في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ - يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة .

وأهل البدع - الجهمية ونحوهم - لما أعرضوا عن ذكر الله - الذكر المشروع الذي كان في الفطرة وجاءت به الشريعة ، الذي يتضمن معرفته ومحبه وتوحيده - نسوا الله من هذا الوجه ، فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه ، ففسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري ، والمحبة الفطرية ، والتوحيد الفطري . وقد قال طائفة من المفسرين : ﴿ نسوا الله ﴾ أي تركوا أمر الله ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ أي حظوظ أنفسهم حيث لم يقدموا لها خيراً ، هذا لفظ طائفة منهم البغوي ، ولفظ آخرين منهم ابن الجوزي : حين لم يعملوا بطاعته ، وكلاهما قال : ﴿ نسوا الله ﴾ أي تركوا أمر الله . ومثل هذا التفسير يقع كثيراً في كلام من يأتي بمجمل من القول يبين معنى دلت عليه الآية ولا يفسرها بما يستحقه من التفسير ، فإن قولهم « تركوا أمر الله » هو تركهم للعمل بطاعته ، فصار الأول هو الثاني ، والله سبحانه قال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(١) فهنا شيان : نسيانهم لله ، ثم نسيانهم لأنفسهم الذي عوقبوا به .

فإن قيل : هذا الثاني هو الأول لكنه تفصيل مجمل كقوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ ^(٢) وهذا هو هذا قيل : هو لم يقل « نسوا الله ففسوا حظ أنفسهم » حتى يقال هذا هو هذا بل قال ﴿ نسوا

(١) سورة الحشر آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٤ .

« بياتاً أي ليلاً ، أو هم قائلون (من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال تعالى : ﴿ أَفَأَمَّنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أو آمن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) .

وروى ابن جرير بسنده عن رسول الله - ﷺ من قوله ﴿ ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم ﴾ حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبدالله ابن مسعود قال رسول الله - ﷺ : ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم « قال قلت لعبد الملك كيف يكون ذلك قال : فقرأ هذه الآية ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

الله فأنساهم أنفسهم ﴿ فثم إنساء منه لهم أنفسهم ، ولو كان هذا هو الأول
لكان قد ذكر ما يعذرهم به ، لا ما يعاقبهم به .

فلو كان الثاني هو الأول لكان : ﴿ نسوا الله ﴾ أي تركوا العمل
بطاعته ، فهو الذي أنساهم ذلك ، ومعلوم فساد هذا الكلام لفظاً ومعنى .

ولو قيل : ﴿ نسوا الله ﴾ أي نسوا أمره « فأنساهم العمل بطاعته ، أي
تذكرها ، لكان أقرب ، ويكون النسيان الأول على بابيه ، فإن من نسي نفس
أمر الله لم يطعه .

ولكن هم فسروا نسيان الله بترك أمره ، وأمره الذي هو كلامه ليس
مقدوراً لهم حتى يتركوه ، إنما يتركون العمل به ، فالأمر بمعنى المأمور به .
إلا أن يقال : مرادهم بترك أمره هو ترك الإيمان به ، فلما تركوا الإيمان
أعقبهم بترك العمل ، وهذا أيضاً ضعيف ، فإن الإيمان الذي تركوه إن كان هو
ترك التصديق فقط فكفى بهذا كفراً وذنباً ، فلا تجعل العقوبة ترك العمل به ،
بل هذا أشد ، وإن كان المراد بترك الإيمان ترك الإيمان تصديقاً وعملاً فهذا
هو ترك الطاعة كما تقدم .

وهؤلاء أتوا من حيث أرادوا أن يفسروا نسيان العبد بما قيل في نسيان
الرب ، وذاك قد فسر بالترك ، ففسروا هذا بالترك ، وهذا ليس بجيد ، فإن
النسيان المناقض للذكر جائز على العبد بلا ريب ، والإنسان يعرض عما أمر
به حتى ينساه ، فلا يذكره ، فلا يحتاج أن يجعل نسيانه تركاً مع استحضار
وعلم .

وأما الرب تعالى فلا يجوز عليه ما يناقض صفات كماله سبحانه
وتعالى . وفي تفسير نسيانه الكفار بمجرد الترك نظر .

ثم هذا قيل في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ ^(١) أي
تركت العمل بها . وهنا قالوا ﴿ نسوا الله ﴾ ولا يقال في حق الله « تركوه » .

(١) سورة طه آية رقم ١٢٦ ومثله قوله تعالى ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ .
قال الامام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عيسى بن
قائد عن رجل عن سعد بن عبادة رضي الله عنه ، عن النبي - ﷺ - قال : ما من رجل قرأ
القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم « ثم رواه الامام أحمد من حديث يزيد بن أبي
زياد عن عيسى بن قائد عن عبادة بن الصامت عن النبي - ﷺ - فذكر مثله سواء .

فصل

الخالق لا يكون إلا قادراً

قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ^(١) بيان لتعريفه بما قد عرف من الخلق عموماً ، وخلق الإنسان خصوصاً ، وأن هذا مما تعرف به الفطرة كما تقدم .

ثم إذا عرف أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادراً ، بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة قادرة ، حتى أفعال الجمادات ، كهبوط الحجر والماء وحركة النار هو بقوة فيها ، وكذلك حركة النبات هي بقوة فيه ، وكذلك فعل كل حي من الدواب وغيرها هو بقوة فيها ، وكذلك الإنسان وغيره .

والخلق أعظم الأفعال ، فإنه لا قدر عليه إلا الله ، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة ، وليس لها نظير من قدر المخلوقين .

وأيضاً فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة ، فكل من الخلق والتعليم يستلزم القدرة .

وكذلك كل منهما يستلزم العلم ، فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالماً بما علمه إياه ، وإلا فمن الممتنع أن يعلم غيره ما لا يعلمه هو ، فمن

(١) سورة العلق آية رقم ١ - ٢ .

علم كل شيء - الإنسان وغيره - ما لم يعلم أولى أن يكون عالماً بما علمه ، والخلق أيضاً يستلزم العلم ، كما قال تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) وذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة ، فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بإرادة تخصص هذا عن ذاك ، والإرادة تستلزم العلم ، فلا يريد المرید إلا ما شعر به وتصور في نفسه ، والإرادة بدون الشعور ممتنعة .

وأيضاً فنفس الخلق - خلق الإنسان - هو فعل لهذا الإنسان الذي هو من عجائب المخلوقات ، وفيه من الأحكام والاتقان ما قد بهر العقول ، والفعل المحكم المتقن لا يكون إلا من عالم بما فعل ، وهذا معلوم بالضرورة .

فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه ، ومن هذا الوجه .

وقد قال في سورة الملك ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) . وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها باللطف الوجوه ، كما قال يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ (٣) ، وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة ، والعلم بالطريق الموصول وكذلك الخبرة . وبسط هذا يطول ، إذ المقصود هنا التنبيه على ما في الآيات التي هي أول ما أنزل .

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ .

(٢) سورة الملك آية رقم ١٤ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ تكملة الآية ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة .

قال عبدالله بن شداد وإليها ينتهي أقصى الرؤية رواه ابن جرير وقال أيضاً حدثنا عمر بن علي ، حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا هشام عن الحسن قال : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة فغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة فمات وله عشرون ومائة سنة . وقال قتادة : كان بينهما خمس وثلاثون سنة ، وقال محمد بن اسحاق ذكروا والله أعلم أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة قال : وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه . والله أعلم .

ثم إذا ثبت أنه قادر عالم فذلك يستلزم كونه حياً ، وكذلك الإرادة تستلزم الحياة .

والحي إذا لم يكن سمياً بصيراً متكلماً كان متصفاً بضد ذلك من العمى والصمم والخرس ، وهذا ممتنع في حق الرب تعالى ، فيجب أن يتصف بكونه سمياً بصيراً متكلماً .

والإرادة إما أن تكون لغاية حكيمة ، أولاً ، فإن لم تكن لغاية حكيمة كانت سفهاً ، وهو متزه عن ذلك ، فيجب أن يكون حكيماً .

وهو إما أن يقصد نفع الخلق والإحسان إليهم ، أو يقصد مجرد ضررهم وتعذيبهم ، أو لا يقصد واحداً منهما ، بل يريد ما يراه سواء كان كذا أو كذا ، والثاني شرير ظالم يتنزه الرب عنه ، والثالث سفيه عابث ، فتعين أنه تعالى رحيم ، كما أنه حكيم ، كما قد بسط في مواضع .

فصل

وسائل إثبات صفات الكمال لله تعالى

إثبات صفات الكمال له طرق ، أحدها ما نبهنا عليه من أن الفعل مستلزم للقدرة ولغيرها ، فمن النظر من يثبت أولاً القدرة ، ومنهم من يثبت أولاً العلم ، ومنهم من يثبت أولاً الإرادة ، وهذه طرق كثير من أهل الكلام .

وهذه يستدل عليها بجنس الفعل ، وهي طريقة من لا يميز بين مفعول ومفعول ، كجهم بن صفوان ومن اتبعه .

وهؤلاء لا يثبتون حكمة ، ولا رحمة ، إذ كان جنس الفعل لا يستلزم ذلك ، لكن هم أثبتوا بالفعل المحكم المتقن العلم ، وكذلك ثبت بالفعل النافع الرحمة ^(١) ، وبالغايات المحمودة الحكمة ^(٢) .

ولكن هم متناقضون في الاستدلال بالإحكام والإتقان على العلم ، إذ كان ذلك إنما يدل إذا كان فاعلاً لغاية يقصدها ، وهم يقولون إنه يفعل لا لحكمة ، ثم يستدلون بالإحكام على العلم ، وهو تناقض . كما تناقضوا في

(١) قال تعالى : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ﴾ قال : ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الأعراف آية رقم ١٥٦ .

(٢) قال تعالى : ﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ . سورة هود آية رقم ٤٥ وقال تعالى : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ . سورة التين آية رقم ٨ .

المعجزات حيث جعلوها دالة على صدق النبي ، إما للعلم الضروري بذلك ، وإما لكونه لو لم تدل لزعم العجز ، وهي إنما تدل إذا كان الفاعل يقصد إظهارها ليدل بها على صدق الأنبياء ، فإذا قالوا إنه لا يفعل شيئاً لشيء تناقضوا .

وأما الطريق الأخرى في إثبات الصفات [و] هي الاستدلال بالآثر على المؤثر ، وأن من فعل الكامل فهو أحق بالكمال .

والثالثة طريقة قياس الأولى ، وهي الترجيح والتفضيل ، وهو أن الكمال إذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو للواجب القديم الخالق أولى .

والقرآن يستدل بهذه ، وهذه ، وهذه .

فلاستدلال بالآثر على المؤثر أكمل ، كقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ ﴾ (١) ، قال الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (٢) .

وهكذا ، كل ما في المخلوقات من قوة وشدة تدل على أن الله أقوى وأشد ، وما فيها من علم يدل على أن الله أعلم ، وما فيها من علم وحياة يدل على أن الله أولى بالعلم والحياة .

وهذه طريقة يقر بها عامة العقلاء ، حتى الفلاسفة يقولون : كل كمال في المعلول فهو من العلة .

وأما الاستدلال بطريق الأولى فكقوله ﴿ وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ (٣) ومثل قوله : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٤) وأمثال

(١) سورة فصلت آية رقم ١٥ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ١٥ ..

(٣) سورة النحل آية رقم ٦٠ .

(٤) سورة الروم آية رقم ٢٨ .

ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث المخلوق الممكن فهو لتقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل .

وذاك من جهة أنه هو جعله كاملاً وأعطاه تلك الصفات . واسمه « العلي » يفسر بهذين المعنيين - يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً ، فهو أحق بصفات الكمال ، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة ، فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدورون ، وهذا يتضمن كونه خالقاً لهم ورباً لهم .

وكلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء ، فلا شيء فوقه ، كما قال النبي ﷺ : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » (١) .

فلا يكون شيء قبله ، ولا بعده ، ولا فوقه ، ولا دونه ، كما أخبر النبي ﷺ وأثنى به على ربه ، وإلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصاً ، وكان ذلك أعلى منه . وإن قيل : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، كان ذلك تعطيلاً له ، فهو منزّه عن هذا .

وهذا هو العلي الأعلى ، مع أن لفظ « العلي » و« العلو » لم يستعمل في القرآن عند الإطلاق إلا في هذا - وهو مستلزم لذينك - لم يستعمل في مجرد القدرة ، ولا في مجرد الفضيلة .

ولفظ « العلو » يتضمن الاستعلاء ، وغير ذلك من الأفعال إذا عدي

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

حدثني زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سهيل قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته وذكره .

ورواه ابن ماجه في الدعاء ٢ ، ١٠ ، ١٥ وأبو داود في الأدب ٩٨ والترمذي في الدعوات ١٩ ، ٦٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٨١ ، ٤٠٤ ، ٥٣٦ (حلي) .

بحرف الاستعلاء دل على العلو ، كقوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(١) فهو يدل على علوه على العرش .

والسلف فسروا « الاستواء » بما يتضمن الارتفاع فوق العرش ، كما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية في قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ قال : ارتفع . وكذلك رواه ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم - رواه من حديث آدم بن أبي إياس ، عن أبي جعفر ، عن أبي الربيع ، عن أبي العالية : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ قال : ارتفع .

وقال البخاري : وقال مجاهد في قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ علا على العرش ، ولكن يقال : « علا على كذا » . و « علا عن كذا » وهذا الثاني جاء في القرآن في مواضع ، لكن بلفظ « تعالى » كقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ^(٢) ، ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٣) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن كل واحد من ذكر أنه خلق ، وأنه الأكرم الذي علم بالقلم ، يدل على هاتين الطريقتين من إثبات الصفات ، كما دلنا على الطريقة الأولى - طريقة الاستدلال بالفعل .

فإن قوله ﴿ الأكرم ﴾ يقتضي أنه أفضل من غيره في الكرم ، والكرم اسم جامع لجميع المحاسن ، فيقتضي أنه أحق بجميع المحامد ، والمحامد هي صفات الكمال ، فيقتضي أنه أحق بالإحسان إلى الخلق والرحمة وأحق بالحكمة ، وأحق بالقدرة ، والعلم والحياة ، وغير ذلك .

وكذلك قوله ﴿ خلق ﴾ فإن الخالق قديم أزلي ، مستغن بنفسه ، واجب

(١) سورة يونس آية رقم ٣ وسورة الرعد آية رقم ٢ وسورة الفرقان آية رقم ٥٩ وسورة السجدة آية

رقم ٤ وسورة الحديد آية رقم ٤ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٣ .

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٩٢ .

الوجود بنفسه ، قيوم ، ومعلوم أنه أحق بصفات الكمال من المخلوق المحدث الممكن .

فهذا من جهة قياس الأولى ، ومن جهة الأثر فإن الخالق لغيره الذي جعله حياً عالماً قادراً سمياً بصيراً هو أولى بأن يكون حياً عالماً قديراً سمياً بصيراً .

﴿ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾^(١)
فجعله عليمًا ، والعليم لا يكون إلا حياً ، وكرمه أيضاً أن يكون قديراً سمياً بصيراً ، والأكرم الذي جعل غيره عليمًا هو أولى أن يكون عليمًا ، وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد .

فهذا استدلال بالمخلوق الخاص ، والأول استدلال بجنس الخلق ، ولهذا دل هذا على ثبوت الصفات بالضرورة من غير تكلف ، وكذلك طريقة التفضيل ، والأولى ، أن يكون الرب أولى بالكمال من المخلوق . وهذه الطرق لظهورها يسلكها غير المسلمين من أهل الملل وغيرهم كالنصارى ، فإنهم أثبتوا أن الله قائم بنفسه حتى يتكلم بهذه الطريق ، لكن سموه « جوهرًا » وضلوا في جعل الصفات ثلاثة ، وهي الأقانيم^(٢) .

فقالوا : وجدنا الأشياء تنقسم إلى جوهر وغير جوهر ، والجوهر أعلى النوعين ، فقلنا : هو جوهر ، ثم وجدنا الجوهر ينقسم إلى حي ، وغير حي ، ووجدنا الحي أكمل ، فقلنا : هو حي . ووجدنا الحي ينقسم إلى ناطق وغير ناطق ، فقلنا : هو ناطق .

وكذلك يقال لهم في سائر صفات الكمال : إن الأشياء تنقسم إلى قادر وغير قادر ، والقادر أكمل ، وقد بسط ما في كلامهم من صواب وخطأ في

(١) سورة العلق الآيات ٣ - ٥ .

(٢) تكلمنا فيما سبق عن الأقانيم الثلاثة عند النصارى في كلمة وافية .

الكتاب الذي سميناه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

والمقصود هنا التنبيه على دلالة هذه الآية - وهذه الآيات التي هي أول ما نزل - على أصول الدين .

وقوله ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(١) يدل على قدرته على تعليم الإنسان ما قد علمه ، مع كون جنس الإنسان فيه أنواع من النقص ، فإذا كان قادراً على ذلك التعليم فقد برهنته على تعليم الأنبياء ما علمهم أولى وأحرى ، وذلك يدخل في قوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فإن الأنبياء من الناس .

فقد دلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية ، فإن إمكان النبوات هو آخر ما يعلم بالعقل .

وأما وجود الأنبياء وآياتهم فيعلم بالسمع المتواتر ، مع أن قوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ يدخل فيه إثبات تعليمه للأنبياء ما علمهم ، فهي تدل على الإمكان والوقوع .

وقد ذكرنا في مواضع أن تنزيهه يرجع إلى أصليين .

تنزيهه عن النقص المناقض لكماله ، فما دل على ثبوت الكمال له فهو يدل على تنزيهه عن النقص المناقض لكماله .

وهذا مما يبين أن تنزيهه عن النقص معلوم بالعقل ، بخلاف ما قال طائفة من المتكلمين إن ذلك لا يعلم إلا بالسمع .

وقد بينا في غير هذا الموضع أن الطرق العقلية التي سلكوها من الاستدلال بالأعراض على حدوث الأجسام لا تدل على إثباته ، ولا على إثبات شيء من صفات الكمال ، ولا على تنزيهه عن شيء من النقائص ، فليس عند القوم ما يحيلون به عنه شيئاً من النقائص . وهم معترفون بأن

(١) سورة العلق آية رقم ٥ .

الأفعال يجوز عليه منها كل شيء بخلاف الصفات ، لكن طريقهم في الصفات فاسد متناقض ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

الثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال . والقرآن مملوء بإثبات هذين الأصلين - بإثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ، وتنزيهه عن التمثيل ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فصل

وقوله ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(٢) يدل على إثبات أفعاله وأقواله .

فالخلق فعله ، والتعليم يتناول تعليم ما أنزله ، كما قال ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ^(٣) وقوله ﴿ بِالْقَلَمِ ﴾ يتناول تعليم كلامه الذي يكتب بالقلم ، ونزوله في أول السورة التي أنزل فيها كلامه وعلم نبيه كلامه الذي يكتب بالقلم دليل على شمول الآية لذلك ، فإن سبب اللفظ المطلق والعام لا بد أن يكون مندرجاً فيه ، وإذا دل على أنه خلق وتكلم . وقد قال ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ . ومعلوم بالعقل وبالخطاب أن الإنسان المخلوق غير خلق الرب له ، وكذلك خلقه لغيره ، والذين نازعوا في ذلك إنما نازعوا لشبهة عرضت لهم ، كما قد ذكر بعد هذا وفي مواضع ، وإلا فهم لا يتنازعون أن ﴿ خَلَقَ ﴾ فعل له مصدر - يقال : خلق - يخلق - خلقاً . والإنسان مفعول المصدر - و« المخلوق » ليس هو المصدر

ولكن قد يطلق لفظ المصدر على المفعول ، كما يقال « درهم ضرب

(١) سورة العلق آية رقم ١ .

(٢) سورة العلق آية رقم ٤ - ٥ .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ١ - ٤ .

الأمير» . ومنه قوله « هذا خلق الله » والمراد هناك : هذا مخلوق الله . وليس الكلام في لفظ ﴿ خلق ﴾ المراد به « المخلوق » ، بل في لفظ « الخلق » المراد به « الفعل » الذي يسمى المصدر ، كما يقال : خلق - يخلق - خلقاً ، وكقوله ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ^(٣) .

وإذا كان الخلق فعله فهو بمشيئته ، إذ يمتنع أن يكون فعله بغير مشيئته ، وما كان بالمشيئة امتنع قدم عينه ، بل يجوز قدم نوعه .

وإذا كان الخلق للحادث لا بد له من مؤثر تام أوجب حدوثه لزم أنه لم يزل متصفاً بما يقوم به من الأمور الاختيارية ، لكن إن ثبت أنه كان قبل هذا المخلوق مخلوق آخر ثبت أنه متصف بخلق بعد خلق .

وكذلك الكلام ، هو متكلم بمشيئته ، ويمتنع أن لا يكون متكلماً ، ثم يصير متكلماً لوجهين :

أحدهما : أنه سلب لكماله ، والكلام صفة كمال .

والثاني : أنه يمتنع حدوث ذلك ، فإن من لا يكون متكلماً يمتنع أن يجعل نفسه متكلماً ، ومن لا يكون عالماً يمتنع أن يجعل نفسه عالماً ، ومن لا يكون حياً يمتنع أن يجعل نفسه حياً ، فهذه الصفات من لوازم ذاته .

وكذلك من لا يكون خالقاً يمتنع أن يجعل نفسه خالقاً ، فإنه إذا لم يكن قادراً على أن يخلق فجعله نفسه خالقة أعظم ، فيكون هذا ممتنعاً بطريق الأولى ، فإن جعل نفسه خالقة يستلزم وجود المخلوق . ولهذا لما كان قادراً

(١) سورة لقمان آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ٥١ .

على جعل الإنسان فاعلاً كان هو الخالق لما يفعله الإنسان ، فلو جعل نفسه خالقة كان هو الخالق لما جعلها تخلقه .

فإذا فرض أنه يمتنع أن يكون خالقاً في الأزل امتنع أن يجعل نفسه خالقة بوجه من الوجوه ، ويلزم من القول بامتناع الفعل عليه في الأزل امتناعه دائماً ، وقد دلت الآية على أنه خلق ، فعلم أنه ما زال قادراً على الخلق ، ما زال يمكنه أن يخلق ، وما زال الخلق ممكناً مقدوراً ، وهذا يبطل أصل الجهمية .

بل وإذا كان قادراً عليه فالموجب له ليس شيئاً بائناً من خارج ، بل هو من نفسه ، فيمتنع أن يجعل نفسه مريدة بعد أن لم تكن ، فيلزم أنه ما زال مريداً قادراً ، وإذا حصلت القدرة والإرادة وجب وجود المقدور . وأهل الكلام الذين ينازعون في هذا يقولون : لم يزل قادراً على ما سيكون .

فيقال لهم : القدرة لا تكون إلا مع إمكان المقدور ، وإذا كانت القدرة دائمة ، فهل كان يمكنه أن يفعل المقدور دائماً ؟ وهم يقولون : لا ، بل الإمكان - إمكان الفعل - حادث ، وهذا يناقض إثبات القدرة ، وإن قالوا : بل الإمكان حاصل ، تبين أنه لم يزل الفعل ممكناً ، فثبت إمكان وجود ما لا يتناهى من مقدور الرب . وحينئذ ، فإذا كان لم يزل قادراً ، والفعل ممكناً ، وهذا الممكن قد وجد ، فما لا يزال فالموجب لوجود جنس المقدور - كالإرادة - مثلاً ، إما أن يكون وجودها في الأزل ممتنعاً ، فيلزم امتناع الفعل ، وقد بينا أنه ممكن .

وأيضاً إذا كان وجودها ممتنعاً لم يزل ممتنعاً ، لأنه لا شيء هناك يجعلها ممكنة فضلاً عن أن تكون موجودة ، ومعلوم أن وجودها بعد أن لم تكن لا بد له من موجب ، وإذا كان وجودها في الأزل ممكناً ، فوجود هذا الممكن لا يتوقف على غير ذاته ، وذاته كافية في حصوله ، فيلزم أنه لم يزل مريداً .

وهكذا في جميع صفات الكمال متى ثبت إمكانها في الأزل لزم وجودها

في الأزل ، فإنها لو لم توجد لكانت ممتنعة ، إذ ليس في الأزل شيء سوى نفسه يوجب وجودها فإذا كانت ممكنة والمقتضى التام لها نفسه لازم وجوبها في الأزل .

وهذا مما يدل على أنه لم يزل حياً ، عليماً ، قديراً ، مريداً ، متكلماً ، فاعلاً ، إذ لا مقتضى لهذه الأشياء إلا ذاته ، وذاته وحدها كافية في ذلك ، فيلزم قدم النوع ، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، لكن إذا أفراد النوع تحصل شيئاً بعد شيء بحسب الإمكان والحكمة .

ولهذا قد بين في مواضع أنه ليس في نفس الأمر ممكن يستوي طرفا وجوده وعدمه ، بل إما أن يحصل المقتضي لوجوده فيجب ، أو لا يحصل فيمتنع . [فما] اتصف به الرب فاتصافه به واجب ، وما لم يتصف به فاتصافه به ممتنع ، وما شاء كان ووجب وجوده ، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده ، فالممكن مع مرجحه التام واجب ، وبدونه ممتنع .

ففي قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ^(١) وفي قوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ^(٢) دلالة على ثبوت صفات الكمال له ، وأنه لم يزل متصفاً بها .

وأقوال السلف في ذلك كثيرة ، وبهذا فسروا قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ ^(٣) ونحوه ، كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس - ورواه ابن أبي حاتم من عدة طرق - لما قيل له : قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ... ﴾ كأنه كان شيء ثم مضى ؟ فقال ابن عباس : هو سمي نفسه بذلك ، ولم يزل كذلك .

(١) سورة العلق آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة العلق آية رقم ٣ - ٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٥٨ .

هذا لفظ ابن أبي حاتم من طريق أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فقال ابن عباس : كذلك كان ولم يزل .

ومن رواية عمرو بن أبي قيس ، عن مطرف ، عن المنهال ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : أتاه رجل فقال : سمعت الله يقول ﴿ وكان الله . . . ﴾ كأنه شيء كان ؟ فقال ابن عباس : أما قوله ﴿ كان ﴾ فإنه لم يزل ولا يزال ، و﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ﴾ (١) .

ومن رواية عبد الرحمن بن مغرا ، عن مجمع بن يحيى ، عن عمه ، عن ابن عباس ، قال . قال يهودي : إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ فقال ابن عباس : إنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً .

وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفاً بخبر « كان » ، ولا يزال كذلك ، وأن ذلك حصل له من نفسه ، فلم يزل متصفاً في نفسه إذا كان من لوازم نفسه ، ولهذا لا يزال لأنه من نفسه . وقال أحمد بن حنبل : لم يزل الله عالماً ، متكلماً ، غفوراً ، وقال أيضاً : لم يزل الله متكلماً إذا شاء .

(١) سورة الحديد آية رقم ٣ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرياض بن سارية أنها أفضل من ألف آية .

وقال أبو داود حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة - يعني ابن عمار - حدثنا أبو زميل ، قال سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدري ؟ قال : ما هو ؟ قلت والله لا أتكلم به قال : فقال لي شيء من شك ؟ قال : وضحك قال : ما نجا من ذلك أحد قال : حتى أنزل الله تعالى : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك ﴾ . الآية . قال : وقال لي إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ . وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو بضعة عشر قولاً .

فصل

وكما أنه أول آية نزلت من القرآن تدل على ذلك فأعظم آية في القرآن تدل على ذلك ، لكن مبسوطاً دلالة أتم من هذا .

وهي آية الكرسي ، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب : يا أبا المنذر ! أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم ؟ فقال : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ فقال : « ليهنك العلم ، أبا المنذر » .

وهنا افتتحها بقوله ﴿ الله ﴾ ، وهو أعظم من قوله ﴿ وربك ﴾
ولهذا افتتح به أعظم سورة في القرآن فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . وقال : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ (٢) إذا كان
المشركون قد اتخذوا إلهاً غيره وإن قالوا بأنه الخالق ، ففي قوله ﴿ خلق ﴾ لم
يذكر نفي خالق آخر إذ كان ذلك معلوماً ، فلم يثبت أحد من الناس خالقاً آخر
مطلقاً خلق كل شيء ، وخلق الإنسان وغيره ، بخلاف الإلهية . قال تعالى
﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٣) . وقال تعالى :
﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

(١) سورة الفاتحة آية رقم ١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٦٨ .

يُرَادُ ﴿١﴾ ، وقال تعالى ﴿أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَتُّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٣) فابتنوا معه آلهة أخرى ، ولم يشبوا معه خالقاً آخر .

فقال في أعظم الآيات : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ . ذكره في ثلاثة مواضع من القرآن ، كل موضع فيه أحد أصول الدين الثلاثة - وهي التوحيد ، والرسول ، والآخرة .

هذه التي بعث بها جميع المرسلين ، وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٤) .

فقال هنا : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ (٥) - قرنهما بأنه لا إله إلا

هو .

وزاد في آل عمران ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (٦) ، وهذا إيمان بالكتب والرسول .

وقال في طه : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ، وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٧) .

-
- (١) سورة ص آية رقم ٦ .
 - (٢) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .
 - (٣) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .
 - (٤) سورة الأنعام آية رقم ١٥٠ .
 - (٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
 - (٦) سورة آل عمران آية رقم ٣ - ٤ .
 - (٧) سورة طه آية رقم ١٠٩ - ١١١ .

فصل

ومن أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية ، كقوله في هذه السورة ﴿ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ^(١) و﴿ الخلق ﴾ المذكور في مواضع كثيرة ، وكذلك غيره من الأفعال . وهو نوعان .

فعل إلى مفعول به ، مثل ﴿ خلق ﴾ فإنه يقتضي مخلوقاً ، وكذلك « رزق » ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(٢) وكذلك الهدي والإضلال ، والتعليم والبعث ، والإرسال والتكليم .

وكذلك ما أخبر به من قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ ^(٥) . وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ

(١) سورة العلق آية رقم ١ - ٢

(٢) سورة الروم آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ١٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٥) سورة الذاريات آية رقم ٤٧ .

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿١﴾ . وقوله في الآية الأخرى :
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ
وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٢) وهذا في القرآن [كثير] جداً .

والأفعال اللازمة ، كقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ (٣) ، ﴿ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٤) ، ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ
الْغَمَامِ ﴾ (٥) ، ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ
بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (٧) .
فأما النوع الأول ، فالمسلمون متفقون على إضافته إلى الله ، وأنه هو الذي
يخلق ويرزق ، ليس ذلك صفة لشيء من مخلوقاته . لكن هل قام به فعل هو
الخلق ، أو الفعل هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ؟ وهذا فيه قولان لمن
يثبت اتصافه بالصفات ، فأما من ينفي الصفات من الجهمية والمعتزلة فهم
ينفون قيام الفعل به بطريق الأولى .

لكن منهم من يجعل الخلق غير المخلوق ، ويجعل الخلق إما معنى
قام بالمخلوق ، ، أو المعاني المتسلسلة ، كما يقول معمر بن عباد (٨) ، أو

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٣ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .

(٧) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٨) هو معمر بن عباد السلمي : معتزلي من الغلاة من أهل البصرة سكن بغداد وناظر النظام ،
وكان أعظم القدريّة غلواً انفرد بمسائل منها أن الإنسان يدبر الجسد وليس بحال به ، والإنسان
عنده ليس بطويل ولا عريض ولا ذي لون وتأليف وحركة ولا حال ولا متمكن ، وإنما هو شيء
غير الجسد ، وهو حي عالم قادر مختار ومن أقواله : إن الله تعالى لم يخلق شيئاً غير الأجسام
فأما الأعراض فهي من اختراعات الأجسام إما بالطبع وإما بالاختيار وتنسب إليه طائفة تعرف
بالمعمرية . توفي عام ٢١٥ هـ [راجع خطط المقرئ ٢ : ٣٤٧ ولسان الميزان ٦ : ٧١ =

يجعل الخلق قائماً لا في محل ، كقول بعضهم ، إنه قول « كن » لا في محل ، وقول البصريين : إنه إرادة لا في محل ، وهذا فرار منهم عن قيام الحوادث به ، مع أن منهم من يلتزم ذلك ، كما التزمه أبو الحسين وغيره .

والجمهور المثبتون للصفات هم في الأفعال على قولين : - منهم من يقول : لا يقوم به فعل ، وإنما الفعل هو المفعول ، وهذا قول طائفة منهم الأشعري ومن وافقه من أصحابه وغير أصحابه ، كابن عقيل وغيره ، وهو أول قولي القاضي أبي يعلى .

وهؤلاء يقسمون الصفات إلى ذاتية ، ومعنوية وفعلية ، وهذا تقسيم لا حقيقة له ، فإن الأفعال عندهم لا تقوم به فلا يتصف بها ، لكن يخبر عنه بها .

وهذا التقسيم يناسب قول من قال : الصفات هي الأخبار التي يخبر بها عنه ، لا معاني تقوم به ، كما تقول ذلك الجهمية والمعتزلة ، فهؤلاء إذا قالوا : الصفات تنقسم إلى ذاتية وفعلية ، أرادوا بذلك ما يخبر به عنه من الكلام تارة يكون خبراً عن ذاته ، وتارة عن المخلوقات ليس عندهم صفات تقوم به ، فمن فسر الصفات بهذا أمكنه أن يجعلها ثلاثة أقسام - ذاتية ، ومعنوية ، وفعلية .

وأما من كان مراده بالصفات ما يقوم به فهذا التقسيم لا يصلح على أصلهم ، ولكن أخذوا التقسيم عن أولئك وهم مخالفون لهم في المراد بالصفات .

وهذا التقسيم موجود في كلام أبي الحسن ومن وافقه ، كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي ، والباقي وغيرهم .

= وانظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ٨٩ والمعتزلة لزهدي ج ٥٧ - ٦٧ .

والقول الثاني : إنه تقوم به الأفعال ، وهذا قول السلف وجمهور مثبتة الصفات .

ذكر البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد »^(١) أن هذا إجماع العلماء ، خالق ، وخلق ، ومخلوق ، وذكره البغوي قول أهل السنة ، وذكره أبو نصر محمد بن اسحاق الكلاباذي^(٢) في كتاب « التعرف بمذاهب التصوف » أنه قول الصوفية ، وهو قال الحنفية مشهور عندهم يسمونه « التكوين » ، وهو قول الكرامية ، والهشامية ، ونحوهما وهو قول القدماء من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وهو آخر قولي القاضي أبي [يعلى] .

ثم إذا قيل : الخلق غير المخلوق ، وإنه قائم بالرب ، فهو هو خلق قديم لازم لذات الرب مع حدوث المخلوقات ، كما يقوله أصحاب أبي حنيفة وغيرهم ؟ أو هو خلق حادث بذاته - حدث لما حدث جنس المخلوقات ؟ أم خلق بعد خلق ؟ على ثلاثة أقوال .

وهذا أو هذا هو الذي عليه أئمة السنة والحديث وجمهورهم ، وهو قول طوائف من أهل الكلام - من الكرامية والهشامية وغيرهم . فمن قال « إنه يتكلم بمشيئته واختياره كلاماً يقوم بذاته ، يمكنه أن يقول : إنه يفعل باختياره ومشئته فعلاً يقوم بذاته » .

والذين يقولون بقيام الأمور الاختيارية بذاته منهم من يصحح دليل الأعراض والاستدلال به على حدوث الأجسام ، كالكرامية ، ومتأخري الحنفية ، والمالكية ، والحنبلية ، والشافعية ، ومنهم من لا يصححه ، كأئمة

(١) راجع هذا الكتاب بتحقيقنا ط عكاظ السعودية عام ١٩٧٩ م .

(٢) هو محمد بن ابراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري أبو بكر من حفاظ الحديث من أهل بخارى ، له بحر الفوائد ويعرف بمعاني الأخبار ، جمع فيه ٥٩٢ حديثاً ، والتعرف لمذهب أهل التصوف توفي عام ٣٨٠ هـ . [راجع فهرست الكتبخانة ١ : ٢٧٥ وكشف الظنون ٢٢٥ وانظر بروكلمن الملحق ١ : ٣٦٠] .

السلف ، وأئمة السنة والحديث ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري وغيرهم .
وهذه المسألة يعبر عنها بـ « مسألة التأثير » هل هو أمر وجودي أم لا ؟ وهل
التأثير زائد على المؤثر والأثر أم [لا] ؟ وكلام الرازي في ذلك مختلف ،
كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

وعمدة الذين قالوا : إن الخلق هو المخلوق ، والتأثير هو وجود الأثر ،
لم يثبتوا زائداً أن قالوا : لو كان الخلق والتأثير زائداً على ذات المخلوق والأثر
لكان إما أن يقوم بمحل أولاً . والثاني باطل ، فإن المعاني لا تقوم بنفسها ،
وهذا رد على طائفة من المعتزلة قالوا : يقوم بنفسه . قالوا : وإذا قام بمحل
فإما أن يقوم بالخالق أو بغيره ، والثاني باطل ، لأنه لو قام بغيره لكان ذلك
الغير هو الخالق ، لا هو ، وهذا رد على طائفة ثانية يقولون : إنه يقوم
بالمخلوق .

وإذا قام بالخالق فإما أن يكون قديماً أو محدثاً ، ولو كان قديماً للزم قدم
المخلوق ، فإن الخلق والمخلوق متلازمان ، فوجود خلق بلا مخلوق ممتنع ،
وكذلك وجود تأثير بلا أثر .

وإن كان محدثاً فهو باطل لوجهين : أحدهما أنه يلزم قيام الحوادث
به ، والثاني : أن ذلك الخلق الحادث يفتقر إلى خلق آخر ويلزم التسلسل
ومعمر بن عباد^(١) التزم التسلسل ، وجعل للخلق خلقاً ، وللخلق خلقاً ،
لكن لا في ذات الله ، وجعل ذلك في وقت واحد .

فهذه عمدة هؤلاء ، وكل طائفة تخالفهم منعت مقدمة من مقدمات
دليلهم .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : خطط المقرئ ٢ : ٣٤٧ ولسان الميزان ٦ : ٧١
وفي اللباب ٣ : ١٦١ وهو صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة المنسوبة إليه وله فضائح ،
وانظر الملل والنحل للشهرستاني ، والمعتزلة لزهدى جار الله ٥٧ - ٦٧ .

فمن جوز أن يقوم بنفسه ، أو بالمخلوق ، منع تينك المقدمتين ، وأما الجمهور فكل أجاب بحسب قوله .

منهم من قال : بل الخلق والتكوين قديم ، كما أن الإرادة عندكم قديمة ، ومع القول بقدمها لم يلزم تقدم المراد ، كذلك الخلق والتكوين قديم ، ولا يلزم تقدم المخلوق ، وهذا لازم للكلاية من الأشعرية وغيرهم لا جواب لهم عنه .

لكن لا يلزم من نفي قدم إرادة معينة ، بل نفي قدم الإرادة ، كما يقوله الجهمية والمعتزلة ، أو يقول بقدم نوع الإرادة ، كما يقوله أئمة أهل الحديث ومن وافقهم من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم .

لكن صاحب هذا القول يقال له : التكوين القديم إما أن يكون بمشيئته وإما أن لا يكون بمشيئته ، فإن كان بغير مشيئته لزم أن يكون قد خلق الخلق بلا مشيئته ، وإن كان بمشيئته لزم أن يكون القديم مراداً وهذا باطل ، ولو صح لأمكن كون العالم قديماً - مع كونه مخلوقاً - بخلق قديم بإرادة قديمة ، ومعلوم أن هذا باطل ، ولهذا كان كل من قال : « القرآن قديم » يقولون : تكلم بغير مشيئته وقدرته .

فالمفعول المراد لا يكون إلا حادثاً ، وكذلك الفعل المراد لا يكون إلا حادثاً .

وأيضاً فهؤلاء المنازعون لهم يقولون : الإرادة مستلزمة للمراد ، والخلق مستلزم للمخلوق ، وما ذكر حجة على هؤلاء ، وهؤلاء ، فإن الإرادة والخلق من الأمور الإضافية ، وثبوت إرادة بلا مراد وخلق بلا مخلوق ممتنع . لكن المنازع يقول : توجد الإرادة والخلق ويتأخر المراد المخلوق . ؟

فيقال لهؤلاء - تقولون : توجد الإرادة ، أو الخلق مع الإرادة ، ولا يوجد لا المراد ولا المخلوق ، ثم بعد ذلك بما لا يتناهى من تقدير الأوقات

يوجد المراد المخلوق من غير سبب ، وهذا معلوم البطلان في بداية العقول ، فإن الإرادة أو الخلق كان موجوداً مع القدرة ، فإن كان هذا مؤثراً تاماً استلزم وجود الأثر ، ولزم وجود الأثر عند وجود المؤثر التام .

فإن المؤثر « ممكن » . والممكن يجب وجوده عند وجود المرجح التام ، إذ لو لم يكن كذلك كان جائزاً بعد وجود المرجح يقبل الوجود والعدم ، وحينئذ فيفتقر إلى مرجح ، وهذا يستلزم التسلسل ، ولا ينقطع التسلسل إلا إذا وجد المرجح التام الموجب .

وهنا تنازع الناس ، فقالت طائفة - مثل محمد بن الهيصم الكرامي ، ومحمود الخوارزمي - يكون الممكن أولى بالوقوع لكن لا ينتهي إلى حد الوجوب .

وقد قال أكثر المعتزلة والأشعرية : بل لا يصير أولى ، ولكن القادر أو القادر المريد ، يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

وآخرون عرفوا أن هذا لازم فاعترفوا بأنه عند وجود المرجح التام يجب وجود الأثر ، وعند الداعي التام مع القدرة يجب وجود الفعل ، كما اعترف بذلك أبو الحسين البصري ، والرازي ، والطوسي ، وغيرهم ، وكثير من قدماء المتكلمين يقولون بالإرادة الموجبة ، وأن الإرادة تستلزم وجود المراد .

والمتفلسفة أوردوا هذا على المتكلمين ، لكن بأن الأثر يقارن وجود التأثير فيكون معه بالزمن .

وكثير من الناس لا يعرف إلا هذا القول ، وذاك القول ، كالرازي وغيره ، فيبقون حيارى في هذا الأصل العظيم الذي هو من أعظم أصول الدين والعلم والكلام .

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير موضع ، وبيننا أن قولاً ثالثاً هو الصواب الذي عليه أئمة العلم ، وهو أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عقبه -

لا معه في الزمان ، ولا متراحياً عنه . فمن قال بالتراخي من أهل الكلام فقد غلط ، ومن قال بالاقتران - كالمفلسفة - فهم أعظم غلطاً ، ويلزم قولهم من المحالات ما قد بيناه في مواضع .

وأما هذا القول فعليه يدل السمع والعقل - قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(١) . والعقلاء يقولون : قطعته فانقطع ، وكسرتة فانكسر . « طَلَّقَ المرأة فطلقت ، وأعتق العبد فعتق » ، فالعتق والطلاق يقعان عقب الاعتاق والتطليق - لا يتراخى الأثر ، ولا يقارن ، وكذلك الانكسار والانقطاع مع القطع والكسر .

وهذا مما يبين أنه إذا وجد الخلق لزم وجود المخلوق عقبه ، كما يقال : كَوْنُ الله الشيء فتكون ، فتكونه عقب تكوين الله - لا مع التكوين ، ولا متراحياً .

وكذلك الإرادة التامة مع القدرة تستلزم وجود المراد المقدور . فهو يريد أن يخلق ، فيوجد الخلق بإرادته وقدرته ، ثم الخلق يستلزم وجود المخلوق ، وإن كان ذلك الخلق حادثاً بسبب آخر يكون هذا عقبه ، فإنما في ذلك وجود الأثر عقب المؤثر التام ، والتسلسل في الآثار ، وكلاهما حق ، والله أعلم .

وأما المخلوق فلا يكون إلا بائناً عنه - لا يقوم به مخلوق . بل نفس الإرادة مع القدرة تقتضي وجود الخلق ، كما تقتضي وجود الكلام .

(١) سورة يس آية رقم ٨٢ .

قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن نمير ، حدثنا موسى بن المسيب عن شهر عن عبد الرحمن عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : إن رسول الله - ﷺ - قال : إن الله تعالى يقول : يا عبادي كلکم مذهب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم ، وكلکم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد أفعل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون . «

ولا يفتقر الخلق إلى خلق آخر ، بل يفتقر إلى ما به يحصل - وهو الإرادة المتقدمة ، وإذا خلق شيئاً أراد خلق شيء آخر ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ومن قال : إن الخلق حادث - كالهشامية ^(١) والكرامية ^(٢) - قال : نحن نقول بقيام الحوادث .

ولا دليل على بطلان ذلك ، بل العقل والنقل ، والكتاب والسنة وإجماع السلف ، يدل على تحقيق ذلك ، كما قد بسط في موضعه .

ولا يمكن القول بأن الله يدبر هذا العالم إلا بذلك ، كما اعترف بذلك أقرب الفلاسفة إلى الحق ، كأبي البركات صاحب «المعتبر» وغيره .

وأما قولهم : يلزم أن للخلق خلقاً آخر ، فقد أجابهم من يلتزم ذلك - كالكرامية وغيرهم - بأنكم تقولون : إن المخلوقات المنفصلة تحدث بلا حدوث سبب أصلاً ، وحينئذ فالقول بحدوث الخلق الذي تحصل به المخلوقات بلا حدوث سبب أقرب إلى العقل والنقل .

وهذا جواب لازم على هذا التقدير - تقدير قيام الأمور الاختيارية .

(١) صاحبها عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي من أبناء أبيان مولى عثمان : عالم بالكلام من كبار المعتزلة ، له آراء انفرد بها ، وله مصنفات «الشامل» في الفقه ، وتذكرة العالم والعدة في أصول الفقه توفي عام ٣٢١ هـ [راجع المقرئ ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٢٩٢ والبداءة والنهاية ١١ : ١٧٦ وميزان الاعتدال ٢ : ١٣١ وتاريخ بغداد ١١ : ٥٥ وفيه أبوهاشم : شيخ المعتزلة ومصنف الكتب على مذهبهم] .

(٢) صاحبها محمد بن كرام السجستاني أمام الكرامية - من فرق الابتداع في الإسلام كان يقول : بأن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر ، ولد ابن كرام في سجستان وجاور بمكة خمس سنين وورد نيسابور ، فحبسه طاهر بن عبد الله ثم انصرف إلى الشام وعاد إلى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر مرة ثانية وخرج منها سنة ٢٥١ هـ إلى القدس فمات فيها عام ٢٥٥ هـ والسجزي نسبة إلى سجستان . [راجع الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٨ وتذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٦ والقاموس والتاج مادة كرم والأنس الخليل ١ : ٢٦٢ وميزان الاعتدال ٣ : ١٢٧] .

والكرامية يسمون ما قام به « حادثاً » ولا يسمونه محدثاً - كالكلام الذي يتكلم به - القرآن ، أو غيره - يقولون : هو حادث ، ويمنعون أن يقال هو « محدث » ، لأن « الحادث » يحدث بقدرته ومشئته ك « الفعل » ، وأما « المحدث » فيفتقر إلى إحداث فيلزم أن يقوم بذاته إحداث غير المحدث ، وذلك الإحداث يفتقر إلى إحداث ، فيلزم التسلسل .

وأما غير الكرامية من أئمة الحديث والسنة والكلام فيسمون ذلك « محدثاً » ، كما قال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ ^(١) وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » ^(٢) . والذي أحدثه هو النهي عن تكلمهم في الصلاة .

وقولهم : « إن المحدث يفتقر إلى إحداث ، وهلم جرا » هذا يستلزم التسلسل في الآثار ، مثل كونه متكلماً بكلام بعد كلام ، وكلمات الله لا نهاية لها ، وأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وهذا قول أئمة السنة ، وهو الحق الذي يدل عليه النقل والعقل .

وكذلك أفعاله ، فإن الفعل والكلام صفة كمال ، فإن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يخلق أكمل ممن لا يخلق ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ ! ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٤٢ باب قول الله تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ، وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ وقوله تعالى ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .

وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع العليم ﴾ . وقال ابن مسعود عن النبي ﷺ - إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » . ورواه أبو داود في الصلاة ١٦٦ والنسائي في السهو ٢٠ والكسوف ١٦ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٧٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٦٣ (حلي) .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٧ .

وحينئذ فهو ما زال متصفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الإكرام والجلال .

وبهذا تزول أنواع الإشكال ، ويعلم أن ما أخبرت به الرسل عن الله من أصدق الأقوال ، وأن دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول .

ولكن نشأ الغلط من جهل كثير من الناس بما أخبر به الرسول ، وسلوكهم أدلة برأيهم ظنوها عقلية وهي جهلية ، فغلطوا في الدلائل السمعية والعقلية ، فاختلفوا . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (١) .

وقد بسط الكلام على هذا في مواضع - في مسألة الكلام والأفعال - وذكر ما تيسر من كلام السلف والأئمة في هذا الأصل ، والمقصود هنا التنبيه على مآخذ الأقوال .

وهذا الموضع مما بينه أئمة السنة كالإمام أحمد وغيره ، فتكلم في الرد على الجهمية « على قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (٢) وبين أن « الجعل » من الله قد يكون « خلقاً » كقوله : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (٣) ، وقد يكون « فعلاً ليس بخلق » ، وقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ من هذا الباب .

وذلك أن الخلق ، ونحوه من الأفعال التي ليست خلقاً ، مثل تكلمه بالقرآن وغيره ، وتكلمه لموسى وغيره ، ومثل النزول ، والإتيان ، والمجيء ،

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٦

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١ تكلمة الآية ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ .

ونحو ذلك ، فهذه إنما تكون بقدرته ومشيئته ، وبأفعال آخر تقوم بذاته ، ليست خلقاً .

وبهذا يجب البخاري وغيره من أئمة السنة للكرامية إذا قالوا : « المحدث لا بد له من إحداث ؟ » فيقول : « نعم ، وذلك الإحداث فعل ليس بخلق » . و« التسلسل » نلتزمه .

فإن التسلسل الممتنع هو وجود المتسلسلات في آن واحد . كوجود خالق للخالق ، وخالق للخالق ، أو للخلق خلق وللخلق خلق ، في آن واحد ، وهذا ممتنع من وجوه ، منها وجود ما لا يتناهى في آخر واحد ، وهذا ممتنع مطلقاً ، ومنها أن كل ما ذكر يكون « محدثاً » لا « ممكناً » وليس فيها موجود بنفسه ينقطع به التسلسل ، وإذا كان أولى بالامتناع .

بخلاف ما إذا قيل « كان قبل هذا الكلام كلام ، وقبل هذا الفعل فعل » جائز عند أكثر العقلاء - أئمة السنة ، وأئمة الفلاسفة ، وغيرهم . فإذا قيل « هذا الكلام المحدث أحدثه في نفسه » كان هذا معقولاً ، وهو مثل قولنا « تكلم به » وهو معنى قوله ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ أي تكلمنا به عربياً ، وأنزلناه عربياً .

وكذلك فسره السلف كاسحاق بن راهويه ^(١) ، وذكره عن مجاهد قال : ﴿ جعلناه قرآناً عربياً ﴾ : قلنا عربياً ، ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ، عن اسحاق بن راهويه قال : ذكر لنا عن مجاهد وغيره من التابعين : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ : إنا قلناه ووصفناه ، وذكره عن أحمد بن حنبل ، عن الأشجعي ، عن سفيان الثوري في قوله ﴿ جعلناه قرآناً عربياً ﴾ : بيناه قرآناً عربياً .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ - ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ ، وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ وحلية الأولياء ٩ : ٢٣٤ وطبقات الحنابلة ٦٨ وتاريخ بغداد ٦ : ٣٤٥ .

والإنسان يفرق بين تكلمه وتحركه في نفسه وبين تحريكه لغيره ، وقد احتج سفيان بن عيينة ^(١) وغيره من السلف على أنه غير مخلوق بأن الله خلق الأشياء بـ ﴿ كن ﴾ فلو كانت ﴿ كن ﴾ مخلوقة لزم أن يكون خلق مخلوقاً بمخلوق ، فيلزم التسلسل الباطل .

وذلك أنه إذا لم يخلق إلا بـ ﴿ كن ﴾ فلو كانت ﴿ كن ﴾ مخلوقة لزم أن لا يخلق شيئاً ، وهو الدور الممتنع ، فإنه لا يخلق شيئاً حتى يقول ﴿ كن ﴾ ولا يقول ﴿ كن ﴾ حتى يخلقها ، فلا يخلق شيئاً ، وهذا تسلسل في أصل التأثير والفعل ، مثل أن يقال : لا يفعل حتى يفعل ، فيلزم ألا يفعل ، ولا يخلق حتى يخلق ، فيلزم أن لا يخلق . وأما إذا قيل : قال ﴿ كن ﴾ ، وقيل « كن » ، وقيل « كن » ، فهذا ليس بمتنع ، فإن هذا تسلسل في آحاد التأثير ، لا في جنسه ، كما أنه في المستقبل يقول « كن » بعد « كن » ويخلق شيئاً بعد شيء إلى غير نهاية .

فالمخلوقات التامة يخلقها بخلقها ، وخلقها فعله القائم به ، وذلك إنما يكون بقدرته ومشيئته .

وإذا قيل : هذا الفعل القائم به يفتقر إلى فعل آخر يكون هو المؤثر في وجوده غير القدرة والإرادة ، فإنه لو كان مجرد ذلك كافياً كفى في وجود المخلوق فلما كان لا بد له من خلق ، فهذا الخلق أمر حادث بعد أن لم يكن ، وهو فعل قائم به ، فالمؤثر التام فيه يكون مستلزماً له مستقبلاً له ،

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون بن هلال الكوفي ، أبو محمد محدث الحرم المكي من الموالي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة وتوفي بها ، كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وكان أعور وحج سبعين حجة . له الجامع في الحديث ، وكتاب في التفسير توفي عام ١٩٨ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ والرسالة المستطرفة ٣١ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٢٧٠ وذيل المذيل ١٠٨ والشعراني ١ : ٤٠ وتاريخ بغداد ٩ : ١٧٤] .

كالمؤثر التام في وجود الكلام الحادث بذاته . والمتكلم من الناس إذا تكلم فوجود الكلام - لفظه ومعناه - مسبق بفعل آخر، فلا بد من حركة تستعقب وجود الحروف التي هي الكلام ، فتلك الحركة هي التي تجعل الكلام عربياً أو عجمياً ، وهو فعل يقوم بالفاعل ، وذلك يجعل الحادث حدث بمؤثر تام قبله أيضاً .

وذات الرب هي المقتضية لذلك كله ، فهي تقتضي الثاني بشرط انقضاء الأول ، لا معه ، واقتضاؤها للثاني فعل يقوم به بعد الأول ، وهي مقتضية لهذا التأثير وهذا التأثير .

ثم إن هذا التأثير - وكل تأثير - هو سبب عما قبله وشرط لما بعده ، وليس في ذلك شيء مخلوق وإن كانت « حادثة » .

وإن قال قائل : أنا أسمي هذا « خلقاً » ، كان نزاعه لفظياً ، وقيل له : الذين قالوا « القرآن مخلوق » لم يكن مرادهم هذا ، ولا رد السلف والأئمة هذا ، إنما ردوا قول من جعله مخلوقاً بائناً عن الله ، كما قال الإمام أحمد : كلام الله من الله ليس بائناً عنه .

وقالوا : القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ .

قال أحمد : منه بدأ هو المتكلم به لم يبدأ من مخلوق ، كما قال من قال إنه مخلوق . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (١) .

ولهذا لا يقول أحد إنه خلق نزوله ، واستواءه ، ومجيئه ، وكذلك

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ تكملة الآية ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ كما قال تعالى ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ .

ولهذا جاء عن الرسول - ﷺ - أنه قال : « لا أشك ولا أسأل » .

تكليمه لموسى ، ونداؤه له - ناداه وكلمه بمشيئته وقدرته ، والتكليم فعل قام بذاته ، وليس هو الخلق ، كما أن الإنسان إذا تكلم فقد فعل كلاماً ، وأحدث كلاماً ، ولكن في نفسه ، لا مابيناً له .

ولهذا كان الكلام صفة فعل ، وهو صفة ذات أيضاً على مذهب السلف والأئمة .

ومن قال انه مخلوق يقول : إنه صفة فعل ، ويجعل الفعل بائناً عنه ، والكلام بائناً عنه ، ومن قال صفة ذات يقول : إنه يتكلم بلا مشيئته وقدرته .

ومذهب السلف أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه قائم به ، فهو صفة ذات وصفة فعل ، ولكن الفعل هنا ليس هو الخلق ، بل كما قال الإمام أحمد : الجعل جعلان - جعل هو خلق ، وجعل ليس بخلق . وهذا كله يستلزم قيام الأفعال بذاته ، وأنها تنقسم إلى قسمين : - أفعال متعدية كالخلق ، وأفعال لازمة كالتكلم والنزول ، والسلف يثبتون النوعين - هذا وغيره .

وأما جعل القرآن عربياً وإن كان متعدياً في صناعة العربية بمعنى أنه نصب مفعولاً ، ففي « الكلام » الفعل الذي هو « التكلم » متصلاً بالمفعول الذي هو « الكلام » - كلاهما قائم بالمتكلم .

ولهذا قد يراد بالمفعول المصدر ، إذا قلت « قال قولاً حسناً » فقد يراد « بالقول » المصدر فقط ، وقد يراد به « الكلام » فقط فيكون المفعول ، وقد يراد به المجموع فيكون مفعولاً به ومصدراً .

وكذلك « القرآن » هو في الأصل « قرأ قرآنًا » وهو الفعل والحركة ، ثم سمي الكلام المقروء « قرآنًا » . قال تعالى في الأول : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ^(١) وقال في الثاني : ﴿ إِنَّ هَذَا

(١) سورة القيامة آية رقم ١٧ - ١٨ .

الْقُرْآنُ ﴿١﴾

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين أن التلاوة والقراءة في الأصل مصدر « تلا تلاوة ، وقرأ قراءة ، كالقرآن » لكن يسمى به الكلام كما يسمى بالقرآن ، وحينئذ فتكون القراءة هي المقروء ، والتلاوة هو المتلو .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة المصدر الذي هو الفعل ، فلا تكون القراءة والتلاوة هي المقروء المتلو ، بل تكون مستلزمة له .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة مجموع الأمرين ، فلا تكون هي المتلو لأن فيها الفعل ، ولا تكون مباينة مغايرة للمتلو لأن المتلو جزؤها .

هذا إذا أريد بالقراءة والمقروء شيء واحد معين ، مثل قراءة الرب ومقروءه ، أو قراءة العبد ومقروءه ، وأما إذا أريد بالقراءة قراءة العبد وهي حركته ، وبالمقروء صفة الرب ، فلا ريب أن حركة العبد ليست صفة الرب .

ولكن هذا تكلف ، بل قراءة العبد مقروءة كمقروئه ، وقراءته للقرآن إذا عني بها نفس القرآن فهي مقروءة ، وإن عني بها حركته فليست مقروءة ، وإن عني بها الأمران فلا يطلق أحدهما .

ولهذا كان من المنتسبين إلى السنة من يقول : القراءة هي المقروء

= قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن أبي عوانة عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : كان رسول الله - ﷺ - يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفثيه قال : فقال لي ابن عباس أنا أحرك شفثي كما كان رسول الله - ﷺ - يحرك شفثيه ، وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفثي كما رأيت ابن عباس يحرك شفثيه فأنزل الله عز وجل ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ .

وقد رواه البخاري ومسلم من غير وجه عن موسى بن أبي عائشة به ولفظ البخاري : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل .

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩ تكملة الآية ﴿ يهدي للتي هي أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .

ومنهم من يقول : القراءة غير المقروء ، ومنهم من لا يطلق واحداً منهما ولكل قول وجه من الصواب عند التصور التام والإنصاف ، وليس فيها قول يحيط بالصواب ، بل كل قول فيه صواب من وجه وقد يكون خطأ من وجه آخر .

والبخاري ^(١) إنما يثبت خلق أفعال العباد ^(٢) - حركاتهم وأصواتهم ، وهذه القراءة هي فعل العبد يؤمر به وينهى عنه ، وأما الكلام نفسه فهو كلام الله ، ولم يقل البخاري إن لفظ العبد مخلوق ولا غير مخلوق كما نهى أحمد عن هذا وهذا .

والذي قال البخاري إنه مخلوق من أفعال العباد وصفاتهم لم يقل أحمد ولا غيره من السلف إنه غير مخلوق ، وإن سكتوا عنه لظهور أمره ، ولكونهم كانوا يقصدون الرد على الجهمية .

والذي قال أحمد إنه غير مخلوق - هو كلام الله لا صفة العباد - لم يقل البخاري إنه مخلوق .

ولكن أحمد كان مقصوده الرد على من يجعل كلام الله مخلوقاً إذا بلغ عن الله ، والبخاري كان مقصوده الرد على من يقول : أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة .

وكلا القصدين صحيح لا منافاة بينهما ، وقد بين ذلك ابن قتيبة ^(٣) في مسألة اللفظ ، ولكن المنحرفون إلى أحد الطرفين ينكرون على الآخر . والله سبحانه أعلم .

(١) راجع في ترجمته تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ ، وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ والوفيات ١ : ٤٥٥ وتاريخ بغداد ٢ : ٤ - ٣٦ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٤١٩ - ٤٢٦ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٧٩ ، ٢٧١ .

(٢) راجع كتابه خلق أفعال العباد بتحقيقنا مطبعة عكاظ بجدة عام ١٩٧٩ م .

(٣) سبق الترجمة له . وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ والأنباري ٢٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ والفهرس التمهيدي ٥٥١ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٦٠ ووقع اسمه فيها : محمد بن مسلم .

فصل

إثبات الصفات الخبرية

وأما الأفعال اللازمة - كالاستواء والمجيء - فالناس متنازعون في نفس إثباتها ، لأن هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق ، وإنما عرفت بالخبر ، فالأصل فيها الخبر ، لا العقل .

ولهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها - ممن يقول « الخلق غير المخلوق » . وممن يقول « الخلق هو المخلوق » ومن يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها .

والذين أثبتوا الصفات الخبرية لهم في هذه قولان : -

منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدي لجعلها أموراً حادثة في غيرها ، وهذا قول الأشعري ، وأئمة أصحابه ومن وافقهم ، كالقاضي أبي يعلى ، وابن الزاغوني ، وابن عقيل في كثير من أقواله .

فالأشعري يقول : الاستواء فعل فعله في العرش ، فصار به مستوياً على العرش ، وكذلك يقول في الإتيان ، والنزول ، ويقول : هذه الأفعال ليست من خصائص الأجسام ، بل توصف بها الأجسام والأعراض ، فيقال « جاء الحمى ، وجاء البرد وجاء الحر » ونحو ذلك . وهذا أيضاً قول القاضي أبي

بكر ، والقاضي أبي يعلى ، وغيرهما . وحملوا ما روي عن السلف ، كالأوزاعي وغيره ، أنهم قالوا في النزول : يفعل الله فوق العرش بذاته ، كما حكاه القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكر ، وكما حكيه عن الأشعري وغيره ، كما ذكر في غير موضع من كتبه .

ولكن عندهم هذا من الصفات الخبرية ، وهذا قول البيهقي ^(١) وطائفة وهو أول قولي القاضي أبي يعلى .

وكل من قال إن الرب لا تقوم به الصفات الاختيارية ، فإنه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سواء كان لازماً أو متعدياً ، لكن من أثبت من هؤلاء فعلاً قديماً كمن يقول بالتكوين وبهذا فإنه يقول : ذلك القديم قام به بغير مشيئته ، كما يقولون في إرادته القديمة .

والقول الثاني : أنها كما دلت عليه أفعال تقوم بذاته بمشيئته واختياره ، كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية . وهذا قول أئمة السنة ، والحديث ، والفقه ، والتصوف ، وكثير من أصناف أهل الكلام كما تقدم .

وعلى هذا ينبي نزاعهم في تفسير قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(٤) ونحو ذلك . فمن نفى هذه الأفعال يتأول إتيانه بإتيان أمره أو بأسه ، والاستواء على العرش بجعله القدرة والاستيلاء ، أو بجعله علو القدر .

(١) هو أحمد بن الحسين بن علي ، أبو بكر من أئمة الحديث توفي عام ٤٥٨ وسبق الترجمة له .
[وراجع شذرات الذهب ٣ : ٣٠٤ وطبقات الشافعية ٣ : ٣ ومعجم البلدان ٢ : ٣٤٦ وابن خلكان ١ : ٣٠ واللباب ١ : ١٦٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٤ : ٤٢٩] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ ، وسورة يونس آية رقم ٢ وسورة الفرقان آية رقم ٥٩ وسورة الحديد آية رقم ٤ .

فإن الاستواء للناس فيه قولان - هل هو من صاق الفعل أو الذات على قولين :-

والقائلون بأنه صفة ذات يتأولونه بأنه قدر على العرش ، وهو ما زال قادراً ، وما زال عالي القدر ، فلهذا ظهر ضعف هذا القول من وجوه :-

منها قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(١) فأخبر أنه استوى بحرف « ثم » .

ومنها أنه عطف فعلاً على فعل ، فقال : خلق ثم استوى .

ومنها أن ما ذكره لا فرق فيه بين العرش وغيره ، وإذا قيل إن العرش أعظم المخلوقات ، فهذا لا ينفي ثبوت ذلك لغيره ، كما في قوله ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٢) لما ذكر ربوبيته للعرش لعظمته ، والربوبية عامة ، جاز أن يقال ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(٣) ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٤) ، ، ويقال ﴿ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ^(٥) . والاستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع أنه مستول مقتدر على كل شيء من السماء والأرض وما بينهما ، فلو كان استواؤه على العرش هو قدرته عليه جاز أن يقال على السماء والأرض وما بينهما ، وهذا مما احتج به طوائف منهم الأشعري . قال : في إجماع المسلمين على أن الاستواء مختص بالعرش دليل على فساد هذا القول .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ وسورة يونس آية رقم ٣ . وسورة الرعد آية رقم ٢ وسورة الفرقان آية رقم ٥٩ . وسورة السجدة آية رقم ٤ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٨٦ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة المؤمنون آية رقم ٨٦ .

(٥) سورة الشعراء آية رقم ٤٧ - ٤٨ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال : (رب) بدون (الباء) .

وأيضاً فإنه ما زال مقتدرًا عليه من حين خلقه .

ومنها كون لفظ « الاستواء » في لغة العرب يقال على القدرة أو علو القدر ممنوع عندهم ، والاستعمال الموجود في الكتاب والسنة وكلام العرب يمنع هذا ، كما قد بسط في موضعه .

وتكلم على البيت الذي يحتجون به :

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهبraq^(١) وأنه لو كان صحيحاً لم يكن فيه حجة ، فإنهم لم يقولوا : استوى عمر على العراق لما فتحها ، ولا استوى عثمان على خراسان ، ولا استوى رسول الله ﷺ على اليمن .

وإنما قيل هذا البيت - إن صح - في بشر بن مروان^(٢) لما دخل العراق واستوى على كرسي ملكها ، فقيل هذا كما يقال : جلس على سرير الملك ، أو تخت الملك ، ويقال : فعد على الملك ، والمراد هذا .

وأيضاً فالآيات الكثيرة والأحاديث الكثيرة وإجماع السلف يدل على أن الله فوق العرش ، كما قد بسط في مواضع .

وأما الذين قالوا : الاستواء صفة فعل ، فهؤلاء لهم قولان هنا على ما نقدم - هل هو فعل بائن عنه لأن الفعل بمعنى المفعول ، أم فعل قائم به يحصل بمشيئته وقدرته .

(١) نعتقد والله أعلم أن صحة البيت :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهبraq

(٢) هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرش الأموي ، أمير كان سمحاً جواداً ، ولي إمرة العراقيين (البصرة والكوفة) لأخيه عبد الملك سنة ٧٤ هـ ، وهو أول أمير مات بالبصرة توفي عام ٧٥ هـ عن نيف وأربعين سنة . [راجع خزائن الأدب للبغدادي ٤ : ١١٧ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٤٨ والمعارف لابن قتيبة ١٢١]

الأول : قول ابن كلاب ، ومن اتبعه كالأشعري وغيره ، وهو قول القاضي ، وابن عقيل ، وابن الزاغوني ، وغيرهم .

والثاني : قول أئمة أهل الحديث والسنة ، وكثير من طوائف الكلام ، كما تقدم .

ولهذا صار للناس فيما ذكر الله في القرآن من الاستواء والمجيء ونحو ذلك ستة أقوال :

طائفة يقولون : تجري على ظاهرها ، ويجعلون إتيانه من جنس إتيان المخلوق ، ونزوله من جنس نزولهم ، وهؤلاء المشبهة الممثلة ، [و] من هؤلاء من يقول : إذا نزل خلا منه العرش ، فلم يبق فوق العرش .

وطائفة يقولون : بل النصوص على ظاهرها اللائق به ، كما في سائر ما وصف به في نفسه ، وهو ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، ويقولون : نزل نزولاً يليق بجلاله ، وكذلك يأتي إتياناً يليق بجلاله ، وهو عندهم ينزل ويأتي ولم ينزل عالياً وهو فوق العرش ، كما قال حماد بن زيد ^(١) : هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء ، وقال اسحاق ابن راهويه ^(٢) : ينزل ولا يخلو منه العرش ، ونقل ذلك عن أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد .

وتفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث ، وهو الذي

(١) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي مولاهم البصري أبو إسماعيل ، شيخ العراق في عصره ، من حفاظ الحديث المجودين يعرف بالأزرق أصله من سبي سجستان ولد عام ٩٨ هـ وتوفي بالبصرة عام ١٧٩ هـ يحفظ أربعة آلاف حديث ، خرج حديثه الأئمة الستة . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢١١ وتهذيب التهذيب ٣ : ٩ وحلية الأولياء ٦ : ٢٥٧ والمنأوي ١ : ١٠١ وتهذيب الأسماء ١ : ١٦٧] .

(٢) سبق الترجمة له وراجع : تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ - ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥] .

حكاه أبو عمر بن عبد البر ^(١) عنهم ، وهو قول عامة القدماء من أصحاب أحمد ، وقد صرح به ابن حامد وغيره .

والأول - نفي قيام الأمور الإختيارية - هو قول التميمي موافقة منه لابن كلاب ، وهو قول القاضي أبي يعلى وأتباعه .

وطائفتان يقولان : بل ينزل ، ولا يأتي ، كما تقدم ، ثم منهم من يتأول ذلك ، ومنهم من يفوض معناه .

وطائفتان وافقتان ، منهم من يقول : ما ندري ما أراد الله بهذا ومنهم من لا يزيد على تلاوة القرآن .

وعامة المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف يبطلون تأويل من تأول ذلك بما ينفي أن يكون هو المستوي الآتي ، لكن كثيراً منهم يرد التأويل الباطل ويقول : ما أعرف مراد الله بهذا . ومنهم من يقول : هذا مما نهى عن تفسيره ، أو مما يكتفى تفسيره . ومنهم من يقرره كما جاءت به الأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين .

قال أبو محمد البغوي ^(٢) الحسين بن مسعود الفراء الملقب بـ « محيي السنة » في تفسيره : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ ^(٣) قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف : أي ارتفع إلى السماء . وقال الفراء ، وابن كيسان ^(٤) ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع بغية الملتبس ٤٧٤ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤٨ وآداب اللغة ٣ : ٦٦ والصلة ٦١٦ والمغرب في حلى المغرب ٢ : ٤٠٧ والديباج ٣٥٧ وسماء يوسف بن عمر بن عبد البر .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ وتهذيب بن عساكر ٤ : ٣٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٤ : ٢٧ وسماء السيوطي في طبقات الحفاظ « الحسين بن محمد ابن مسعود » .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٩ وتكملة الآية ﴿ فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴾ . وسورة فصلت آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

(٤) هو صالح بن كيسان المدني مؤدب ابناء عمر بن عبد العزيز ، كان من فقهاء المدينة ، =

وجماعة من النحويين : أي أقبل على خلق السماء ، وقيل : قصد . وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي في تفسيره . قال : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أي غمد إلى خلقها .

وكذلك هو يرجح قول من يفسر الإتيان بإتيان أمره ، وقول من يتأول الاستواء ، وقد ذكر ذلك في كتب أخرى ، ووافق بعض أقوال ابن عقيل . قال : ابن عقيل ، له في هذا الباب أقوال مختلفة وتصانيف يختلف فيها رأيه واجتهاده .

وقال البغوي في تفسير قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال الكلبي ، ومقاتل : استقر ، وقال أبو عبيدة : صعد ، وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء .

وأما أهل السنة فيقولون : الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ^(١) كيف استوى ؟ فأطرق مالك رأسه ملياً ، وعلاه الرخصاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا ضالاً ، ثم أمر به فأخرج . قال : روي عن سفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك ، وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة : أمرؤها كما جاءت بلا كيف .

وقال في قوله ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ

= الجامعين بين الحديث والفقه وهو أحد الثقات في رواية الحديث . قال ابن ناصر الدين عاش أكثر من مئة سنة وتوفي عام ١٤٠ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٤ : ٣٩٩ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٧٨] .

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

الغَمَام ﴿^(١)﴾ : الأولى في هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهاها . ويكل علمها إلى الله ، ويعتقد أن الله منزّه عن سمات الحدث ، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة .

قال الكلبي : هذا من المكتوم الذي لا يفسر .

« قلت » : وقد حكى عنه أنه قال في تفسير قوله ﴿ ثم استوى ﴾ : استقر ، ففسر ذاك ، وجعل هذا من المكتوم الذي لا يفسر ، لأن ذاك فيه وصفه بأنه فوق العرش ، وهذا فيه إتيانه في ظلل من الغمام . قال البغوي : وكان مكحول ^(٢) ، والزهري ، والأوزاعي ، ومالك ، وعبدالله بن المبارك ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، وأحمد ، وإسحاق ، يقولون فيه وفي أمثاله : أمروها كما جاءت بلا كيف ، قال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءة والسكوت عنه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله .

وهذه الآية أغمض من آية الاستواء ، ولهذا كان أبو الفرج يميل إلى تأويل هذا وينكر قول من تأول الاستواء بالاستيلاء .

قال في تفسيره ، قال الخليل بن أحمد ^(٣) : ﴿ العرش ﴾ السرير ، وكل سرير للملك يسمى « عرشاً » وقلما يجمع العرش إلا في الاضطراب .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(٢) هو مكحول بن أبي مسلم بن شاذل ، أبو عبدالله الهذلي بالولاء فقيه الشام في عصره ، من حفاظ الحديث أصله من فارس ومولده بكابل ترعرع بها وشي ، وصار مولى لامرأة بمصر من هذيل فنسب إليها ، واعتق وتفقه ، ورحل في طلب الحديث إلى العراق فالمدينة وطاف كثيراً من البلدان واستقر في دمشق ، وتوفي بها عام ١١٢ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ١٠١ وحسن المحاضرة ١ : ١١٩ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٢٨٩ ووفيات الأعيان ٢ : ١٢٢ وميزان الاعتدال ٣ : ١٩٨] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وراجع وفيات الأعيان ١ : ١٧٢ وإنباء الرواة ١ : ٣٤١ والسيرافي ٣٨ والحوار العين ١١٢ .

« قلت » : وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : يسمى « عرشاً » لارتفاعه . « قلت » : والاشتقاق يشهد لهذا ، كقوله ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ ^(١) . وقوله ﴿ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ^(٢) ؛ وقول سعد : وهذا كافر بالعرش ، ومقعد الملك يكون أعلى من غيره ، فهذا بالنسبة إلى غيره عال عليه ، وبالنسبة إلى ما فوقه هو دونه ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، وسقفه عرش الرحمن » ^(٣) فدل على أن العرش أعلى المخلوقات ، كما بسط في مواضع آخر .

قال أبو الفرج : واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام . قال أمية بن أبي الصلت ^(٤) :

مجدوا الله ، فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٣٧ وصدر الآية ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤١ .

(٣) الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب الجهاد ٤ باب درجات المجاهدين في سبيل الله ، ٢٧٩٠ - عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ وذكره ، ولفظ البخاري (وفوقه عرش الرحمن) ورواه الامام الترمذي في أبواب الجنة ٤ .

(٤) هو أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف . قدم دمشق قبل الاسلام ، وكان مطلعاً على الكتب القديمة يلبس المسوح تعبداً ، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية ، ورحل إلى البحرين فأقام ثمانين سنين ظهر في أثنائها الإسلام ، وعاد إلى الطائف فسأل عن خبر محمد - ﷺ - فقيل له يزعم أنه نبي فخرج حتى قدم مكة وسمع منه آيات من القرآن ، وانصرف عنه فتبعته قریش تسأله عن رأيه فيه فقال : أشهد أنه على الحق قالوا : فهل تتبعه ؟ . فقال : حتى أنظر في أمره توفي عام ٥ هـ . [راجع خزانة البغدادى ١ : ١١٩ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ١١٥ والشعر والشعراء ١٧٦ وتهذيب الأسماء ١ : ١٢٦] .

بالبناء الأعلى الذي سبق لنا س ، وسوى فوق السماء سريرا
 شرق لا يناله بصر العين ترى دونه الملائك صورا
 قلت : يريد أنه ذكره من العرب من لم يكن مسلماً - أخذه عن أهل
 الكتاب ، فإن أمية ونحوه إنما أخذ هذا عن أهل الكتاب وإلا فالمشركون لم
 يكونوا يعرفون هذا .

قال أبو الفرج بن الجوزي ، وقال كعب ^(١) : إن السموات في العرش
 كقنديل معلق بين السماء والأرض .

قال : وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية . وقد
 شذ قوم فقالوا : العرش بمعنى الملك ، وهو عدول عن الحقيقة إلى التجوز
 مع مخالفة الأثر ، ألم يسمعوا قوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ^(٢) أفتراه
 كان الملك على الماء ؟ .

قال ، وبعضهم يقول : استوى بمعنى استولى ، ويستدل بقول الشاعر :

(١) هو كعب بن مانع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق : تابعي كان في الجاهلية من كبار
 علماء اليهود في اليمن ، وأسلم في زمن أبي بكر ، وقدم المدينة في دولة عمر ، فأخذ عنه
 الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ،
 وخرج إلى الشام فسكن حمص وتوفي بها عام ٣٢ هـ عن مئة وأربع سنين . [راجع تذكرة
 الحفاظ ١ : ٤٩ وحلية الأولياء ٥ : ٣٦٤ والاصابة ت ٧٤٩٨] .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (١) باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وهو الذي
 يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ٣١٩١ حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ،
 حدثنا الأعمش ، حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن
 حصين - رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي - ﷺ - وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من
 بني تميم فقال : أقبِلوا البشرى يا بني تميم . قالوا : قد بشرنا فأعظنا (مرتين) ثم دخل عليه
 ناس من أهل اليمن فقال : أقبِلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم . قالوا : قد
 قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر وذكره .

ورواه الترمذي في التفسير سورة ٥ : ٣ ، ١١ ، ٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ،
 ٥٠١ ، ٤ : ٤٣١ (خلي) .

حتى استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق
وقال الشاعر أيضاً :

قد قلما استويا بفضلهما على عرش الملوك جميعهم من غير زوره
قال : وهو منكر عند اللغويين . قال ابن الأعرابي : إن العرب لا تعلم
استوى بمعنى استولى ، ومن قال ذلك فقد أعظم .

قال : وإنما يقال « استولى فلان على كذا » إذا كان بعيداً عنه غير
متمكن ، ثم تمكن منه ، والله سبحانه وتعالى لم يزل مستولياً على الأشياء .

والبيتان لا يعرف قائلهما ، كذا قال ابن فارس ^(١) اللغوي ، ولو صحا
لم [يكن] حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستولياً - نعوذ بالله من
تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة . ؟

قلت : فقد تأول قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ ^(٢) . وأنكر
تأويل : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(٣) .

وهو في لفظ «الإتيان» قد ذكر القولين ، فقال : قوله : ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ
فِي ظِلٍّ ﴾ ، كان جماعة من السلف يمسكون عن مثل هذا وقد ذكر القاضي
أبو يعلى عن أحمد أنه قال : المراد به قدرته وأمره ، قال : وقد بينه في
قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ^(٤) .

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين ، من أئمة اللغة والأدب ، قرأ عليه
البيدع الهمداني والصاحب بن عباد وغيرهما من أعيان البيان ، أصله من قزوين ، وأقام مدة
في همدان ثم انتقل إلى الري فتوفي بها عام ٣٩٥ هـ من تصانيفه : مقاييس اللغة وجامع
التأويل في تفسير القرآن أربع مجلدات ، وله شعر حسن [راجع ابن خلكان ١ : ٣٥
والأنباري ٣٩٢ وآداب اللغة ٢ : ٣٠٩ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٤٧]

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٣ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٣٣ .

« قلت » : هذا الذي ذكره القاضي وغيره أن حنبلاً نقله عن أحمد في كتاب « المحنة » أنه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله « تجيء البقرة وآل عمران » ^(١) . قالوا : والمجيء لا يكون إلا لمخلوق ، فعارضهم أحمد بقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ ^(٢) ، ﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ ﴾ ^(٣) . وقال : المراد بقوله « تجيء البقرة وآل عمران » : ثوابهما ، كما في قوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ : أمره وقدرته .

وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبلي ، فإنه لا ريب أنه خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا ، وتأويل النزول والاستواء ، ونحو ذلك من الأفعال .

ولهم ثلاثة أقوال ، قيل : إن هذا غلط من حنبلي - انفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة ، مثل صالح ، وعبدالله ، والمروزي ، وغيرهم ، فإنهم لم يذكروا هذا ، وحنبلي ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة ، كالخلال ^(٤) وصاحبه ، قال أبو إسحاق بن شاقلا : هذا غلط من حنبلي لا شك فيه .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة حدثنا معاوية يعني ابن سلام عن زيد أنه سمع أبا سلام يقول حدثني أبو أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله - ﷺ يقول : اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما .

(٢) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .

(٤) هو أحمد بن محمد بن هارون أبو بكر ، الخلال ، مفسر عالم بالحديث واللغة ، من كبار الحنابلة ، من أهل بغداد كانت حلقاته بجامع المهدي قال ابن أبي يعلى ، له التفاسير الدائرة ، والكتب السائرة وقال الذهبي : جامع علم أحمد ومرتبته من كتبه « تفسير الغريب » وطبقات أصحاب ابن حنبلي ، والعلل ، والجامع لعلوم الامام أحمد في الحديث ، قيل لم يصنف في مذهبه مثله . نحو مئتي جزء . [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٨ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٧ ومناقب الامام أحمد ٥١٢ ومخطوطات الظاهرية ٢٦٥] .

وكذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول : « ينزل إلى السماء الدنيا » ^(١) أنه ينزل أمره ، لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهذا كذاب باتفاقهم ، وقد رويت من وجه آخر لكن الإسناد مجهول .

والقول الثاني : قال طائفة من أصحاب أحمد : هذا قاله إلزاماً للخصم على مذهبه لأنهم في يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله : « تأتي البقرة وآل عمران » أجابهم بأن معناه : يأتي ثواب البقرة وآل عمران ، كقوله ﴿ أن يأتيهم الله ﴾ أي أمره وقدرته ، على تأويلهم ، لا أنه يقول بذلك ، فإن مذهبه ترك التأويل .

والقول الثالث : أنهم جعلوا هذا رواية عن أحمد ، وقد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه ، لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل ، وقد ذكر الروائين ابن الزاغوني وغيره ، وذكر أن ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا . ورواية التأويل فسر ذلك بالعمد والقصد ، لم يفسره بالأمر والقدرة كما فسروا : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ .

فعلى هذا في تأويل ذلك - إذا قيل به - وجهان . وابن الزاغوني ، والقاضي أبو يعلى ونحوهما ، وإن كانوا يقولون بإمرار المجيء والإتيان على ظاهره ، فقولهم في ذلك من جنس قول ابن كلاب ، والأشعري ، فإنه أيضاً يمنع تأويل النزول والإتيان والمجيء ، ويجعله من الصفات الخبرية ، ويقول : إن هذه الأفعال لا تستلزم الأجسام ، بل يوصف بها غير الأجسام ، وكلام ابن الزاغوني في هذا النوع وفي استواء الرب على العرش هو موافق لقول أبي الحسن نفسه .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التهجد ١٤ ورواه الامام مسلم في المسافرين ١٦٨ - ١٧٠ وأبو داود في السنة ١٩ والترمذي في الصلاة ٢١١ والدعوات ٧٨ وابن ماجه في الاقامة ١٨٢ والدارمي في الصلاة ١٦٨ وصاحب الموطأ في القرآن ٣٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٤١٩ ، ٤٨٧ ، ٥٠٤ (حلي) .

هذا قولهم في الصفات الخبرية الواردة في هذه الأفعال . وأما علو الرب نفسه فوق العالم فعند ابن كلاب أنه معلوم بالعقل ، كقول أكثر المثبتة ، كما ذكر ذلك الخطابي ، وابن عبد البر ، وغيرهما ، وهو قول ابن الزاغوني ، وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى ، وكان القاضي أولاً يقول بقول الأشعري : أنه من الصفات الخبرية ، وهذا قول القاضي أبي بكر ، والبيهقي ونحوهما .

وأما أبو المعالي الجويني ، وأتباعه ، فهؤلاء خالفوا الأشعري وقدماء أصحابه في الصفات الخبرية ، فلم يثبتوها ، لكن منهم من نفاها فتأول الاستواء بالاستيلاء ، وهذا أول قولي أبي المعالي ، ومنهم من توقف في إثباتها ونفيها ، كالرازي ، والآمدني ، وآخر قولي أبي المعالي المنع من تأويل الصفات الخبرية ، وذكر أن هذا إجماع السلف ، وأن التأويل لو كان مسوغاً أو محتوماً لكان اهتمامهم به أعظم من اهتمامهم بغيره .

فاستدل بإجماعهم على أنه لا يجوز التأويل ، وجعل الوقف التام على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) ، ذكر ذلك في « النظامية في الأركان الإسلامية » .

وهذه طريقة عامة المنتسبين إلى السنة - يرون التأويل مخالفاً لطريقة السلف ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع ، وذكر لفظ « التأويل » وما فيه من الإجمال ، والكلام على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وأن كلا القولين حق .

فمن قال : لا يعلم تأويله إلا الله ، فأراد به ما يؤول إليه الكلام من الحقائق التي لا يعلمها إلا الله ، ومن قال : إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل ، فالمراد به تفسير القرآن الذي بينه الرسول والصحابه .

وإنما الخلاف في لفظ « التأويل » على المعنى المرجوح ، وأنه حمل

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

اللفظ على الاحتمال المرجوح دون الراجح لدليل يقترب به ، فهذا اصطلاح متأخر ، وهو التأويل الذي أنكره السلف والأئمة - تأويلات أهل البدع .

وكذلك يقول أحمد في « رده على الجهمية » : الذين تأولوا القرآن على غير تأويله ، وقد تكلم أحمد على متشابه القرآن وفسره كله . ومنه تفسير متفق عليه عند السلف ، ومنه تفسير مختلف فيه . وقد ذكر الجد أبو عبدالله في تفسيره من جنس ما ذكره البغوي ، لا من جنس ما ذكره ابن الجوزي ، فقال : -

أما الإتيان المنسوب إلى الله فلا يختلف قول أئمة السلف ، كمكحول والزهري ، والأوزاعي ، وابن المبارك ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد ، وأتباعهم ، أنه يمر كما جاء ، وكذلك ما شاكل ذلك مما جاء في القرآن ، أو وردت به السنة كأحاديث النزول ، ونحوها ، وهي طريقة السلامة ومنهج أهل السنة والجماعة - يؤمنون بظاهرها ويكلمون علمها إلى الله ويعتقدون أن الله منزّه عن سمات الحدث ، على ذلك مضت الأمة خلفاً بعد سلف كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ (١) .

وقال ابن السائب (٢) في قوله ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ (٣) : هذا

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي أبو النضر ، نسابة راوية ، عالم بالتفسير والأخبار ، وأيام العرب من أهل الكوفة ، شهد وقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث ، وصنف كتاباً في تفسير القرآن ، وهو ضعيف الحديث . قال النسائي : حدث عنه ثقات من الناس ، ورضوه في التفسير ، وأما في الحديث ففيه مناكير ، وقيل كان سبياً من أصحاب عبدالله ابن سبأ ، وهو أبو « هشام » صاحب كتاب الأصنام توفي عام ١٤٦ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ٤٩١ وميزان الاعتدال ٣ : ٦١] .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

من المكتوم الذي لا يفسر ، وذكر ما يشبه كلام الخطابي في هذا . فإن قيل « كيف يقع الإيمان بما لا يحيط من يدعي الإيمان به علماً بحقيقته ؟ » فالجواب : كما يصح الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والنار والجنة . ومعلوم أنا لا نحيط علماً بكل شيء من ذلك على جهة التفصيل ، وإنما كلفنا الإيمان بذلك في الجملة ، ألا ترى أننا لا نعرف عدة من الأنبياء وكثيراً من الملائكة ، ولا نحيط بصفاتهم ، ثم لا يقدر ذلك في إيماننا بهم ؟ وقد قال النبي ﷺ في صفة الجنة : يقول الله تعالى : أعددت لعبادي ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (١) .

« قلت » : لا ريب أنه يجب الإيمان بما أخبر به الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، وإن كان الشخص لم يفقه بالعربية ما قال ولا فهم من الكلام شيئاً ، فضلاً عن العرب ، فلا يشترط في الإيمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به ، هذا لا ريب فيه .

فكل من اشتبه عليه آية من القرآن ولم يعرف معناها وجب عليه الإيمان بها ، وأن يكل علمها إلى الله فيقول « الله أعلم » وهذا عليه بين السلف والخلف ، فما زال كثير من الصحابة يمر بآية ولفظ لا يفهمه فيؤمن به وإن لم يفهم معناه .

لكن هل يكون في القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس ، بل ولا الرسول ، عند من يجعل التأويل هو « معنى الآية » ويقول : إنه لا يعلمه إلا

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التوحيد ٣٥ باب قول الله تعالى ﴿ يريدون أن يدلوا كلام الله ﴾ .

- ٧٤٩٨ عن همام بن منبه عن أبي هريرة - رضي الله عنه عن النبي ﷺ - قال : وذكره ، وفي بدء الخلق ٨ وفي تفسير سورة ٣٢ ، ١ ورواه الإمام مسلم في إيمان ٣١٢ والجنة ٢ - ٥ والترمذي في الجنة ١٥ وابن ماجه في الزهد ٣٩ باب صفة الجنة وفيه زيادة (قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم ٣٢ / ١٧ ﴾ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قال : وكان أبو هريرة يقرأها : ﴿ من قرأت أعين ﴾ .

الله ، فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول ، ولا أحد من الأمة ، بل ولا جبريل ، هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معاني هذه الآيات لم يفهمه أحد من الناس .

وليس هذا بمنزلة ما ذكر في الملائكة ، والنبين ، والجنة ، فإننا قد فهمنا الكلام الذي خاطبنا به ، وأنه يدل على أن هناك نعيماً لا نعلمه ، وهذا خطاب مفهوم ، وفيه إخبارنا أن من المخلوقات ما لا نعلمه ، وهذا حق ، كقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ^(١) وقوله لما سأله عن الروح : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٢) فهذا فيه إخبارنا بأن الله مخلوقات لا نعلمها ، أو نعلم جنسهم . ولا نعلم قدرهم ، أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض .

وكل هذا حق ، لكن ليس فيه أن الخطاب المنزل الذي أمرنا بتدبره لا يفقه ، ولا يعلم معناه لا الرسول ولا المؤمنون ، فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء ، فإن الله قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٣) ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ ^(٥) . وقال : ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ^(٦) .

وفرق بين ما لم يخبر به أو أخبرنا ببعض صفاته دون بعض - فما لم يخبر به لا يضرنا ألا نعلمه - وبين ما أخبرنا به ، وهو الكلام العربي الذي جعل هدى وشفاء للناس ، وقال الحسن : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن

(١) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٤) سورة محمد آية رقم ٢٤ .

(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨ .

(٦) سورة محمد آية رقم ١٦ .

يعلم فيما أنزلت وما عنى بها ، فكيف يكون في مثل هذا الكلام ما لا يفهمه أحد قط ؟ .

وفرق بين أن يقال « الرب هو الذي يأتي إتياناً يليق بجلاله » أو يقال « ما ندري ، هل هو الذي يأتي أو أمره » فكثير من لا يجزم بأحدهما ، بل يقول : أسكت ، فالسكوت أسلم .

ولا ريب أنه من لم يعلم فالسكوت له أسلم ، كما قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »^(١) لكن هو يقول : إن الرسول وجميع الأمة كانوا كذلك - لا يدرون هل المراد به هذا أو هذا ، ولا الرسول كان يعرف ذلك . فقائل هذا مبطل متكلم بما لا علم له به ، وكان يسعه أن يسكت عن هذا - لا يجزم بأن الرسول والأئمة كلهم جهال يجب عليهم السكوت كما يحب عليه .

ثم إن هذا خلاف الواقع ، فأحاديث النبي ﷺ وكلام السلف في معنى هذه الآية ونظائرها كثير مشهور ، لكن قال علي رضي الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون . أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ » . وقال ابن مسعود : « ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » .

وإذا قال : بل كان [من] السلف من يجزم بأن المراد هو إتيانه نفسه ، فهذا

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ٣١ باب « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » .

٦٠١٨ عن أبي حصين عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وصدر الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه وذكره . ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٧٥ ، ٧٧ ، والترمذي في البر ٤٣ ، والقيامه . وابن ماجه في كتاب الفتن ١٢ باب كف اللسان في الفتنة ٣٩٧١ عن أبي حصين ، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه (أو ليسكت) بدلاً من (ليصمت) وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٤٧ ، ٤١٢ (حلي) .

جزم بأنهم عرفوا معناها ، وبطلان القول الآخر - لم يكونوا ساكتين حيارى ، ولا ريب أن مقدوره ومأموره مما يأتي أيضاً ، ولكن هو يأتي كما أخبر عن نفسه إتياناً يليق بجلاله . فإذا قيل : لا نعلم كيفية الاستواء ، كان هذا صحيحاً ، وإذا كان الخطاب والكلام مما لا يفهم أحد معناه - لا الرسول ، ولا جبريل ، ولا المؤمنون - لم يكن مما يتدبر ويعقل ، بل مثل هذا عبث ، والله منزّه عن العبث .

ثم هذا يلزمهم في الأحاديث ، مثل قوله : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء » ^(١) أفكان الرسول يقول هذا الحديث ونحوه وهو لا يفقه ما يقول ولا يفهم له معنى ؟ سبحان الله ! هذا بهتان عظيم ، وقدح في الرسول ، وتسليط للملحدين ، إذا قيل إن نفس الكلام الذي جاء به قد كان لا يفهم معناه قالوا : فغيره من العلوم العقلية أولى أن لا يفهم معناه .

والكلام إنما هو في صفات الرب ، فإذا قيل إن ما أنزل عليه من صفات الرب لم يكن هو ولا غيره يفهمه ، وهو كلام أمي عربي ينزل عليه ، قيل : فالمعاني المعقولة في الأمور الإلهية أولى أن لا يكون يفهمها ، وحينئذ فهذا الباب لم يكن موجوداً في رسالته ، ولا يؤخذ من جهته ، لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، قالت الملاحدة : فيؤخذ من طريق غيره .

فإذا قال لهم هؤلاء ، هذا غير ممكن لأحد ، منعوا ذلك وقالوا : إنما في القرآن أن ذلك الخطاب لا يعلم معناه إلا الله ، لكن من أين لكم أن الأمور الإلهية لا تعلم بالأدلة العقلية التي يقصر عنها البيان بمجرد الخطاب والخبر ؟ .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٨٢ باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل ١٣٦٦ عن ابن شهاب عن أبي سلمة وأبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : وذكره ، ورواه البخاري في التهجد ١٤ ومسلم في المسافرين ١٦٨ - ١٧٠ والترمذي في الصلاة ٢١١ والدعوات ٧٨ والموطأ في القرآن ٣٠ .

والملاحدة يقولون : إن الرسل خاطبت بالتخييل ، وأهل الكلام يقولون : بالتأويل ، وهؤلاء الظاهرية يقولون : بالتجهيل ، وقد بسط الكلام على خطأ الطوائف الثلاث ، وبين أن الرسول قد أتى بغاية العلم والبيان الذي لا يمكن أحداً من البشر أن يأتي بأكمل مما جاء به - ﷺ تسليمًا ، فأكمل ما جاء به القرآن ، والناس متفاوتون في فهم القرآن تفاوتاً عظيماً .

وقول ابن السائب : إن هذا من المكتوم الذي لا يفسر ، يقتضي أن له تفسيراً يعلمه العلماء ويكتُمونه .

وهذا على وجهين : إما أن يريد أنه يكتُم شيء مما بينه الرسول ﷺ عن جميع الناس فهذا من الكتمان المجرد الذي ذم الله عليه . وهذه حال أهل الكتاب . وعاب الذين يكتُمون ما بينه للناس من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب . وقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وهذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم ، ويجعلها بعضهم متشابهة ، وهي دلائل على نبوة محمد ﷺ ، وغير ذلك . فإن ألفاظ التوراة والإنجيل وسائر كتب الأنبياء - وهي بضعة وعشرون كتاباً عند أهل الكتاب - لا يمكنهم جحد ألفاظها ، لكن يحرفونها بالتأويل الباطل ، ويكتُمون معانيها الصحيحة عن عامتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ ﴾ (٢) .

فمن جعل أهل القرآن كذلك ، وأمرهم أن يكونوا فيه أميين لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة ، فقد أمرهم بنظير ما ذم الله عليه أهل الكتاب . وصبيغ بن عسل التميمي إنما ضربه عمر لأنه قصد باتباع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وهؤلاء الذين عابهم الله في كتابه لأنهم جمعوا شيئين - سوء القصد ،

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

والجهل ، فهم لا يفهمون معناه ويريدون أن يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ليقوعوا بذلك الشبهة والشك . وفي الصحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » (١) .

فهذا فعل من يعارض النصوص بعضها ببعض ليقوع الفتنة - وهي الشك والريب - في القلوب ، كما روي أنه خرج على القوم وهم يتجادلون في القدر ، هؤلاء يقولون : ألم يقل الله كذا ؟ ، وهؤلاء يقولون : ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقأ في وجهه حب الرمان ، ثم قال : « أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ أنظروا ما أمرتم به فافعلوه » (٢) . فكل من اتبع المتشابه على هذا الوجه فهو مذموم ، وهو حال من يريد أن يشكك الناس فيما علموه لكونه وإياهم لم يفهموا ما توهموا أنه يعارضه . هذا أصل الفتنة - أنه يترك المعلوم لغير معلوم - كالسفسطة التي تورث شبهاً يقدر بها فيما علم وتيقن ، فهذه حال من يفسد قلوب الناس وعقولهم بإفساد ما فيها من العلم والعمل - أصل الهدى ، فإذا شككهم فيما علموه بقوا حيارى . والرسول ﷺ قد أتى بالآيات البينات الدالة على صدقه ، والقرآن فيه الآيات المحكمات

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ١ باب (منه آيات محكمات . قال مجاهد : الحلال والحرام) .

٤٥٤٧ عن القاسم بن محمد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت تلا رسول الله - ﷺ - هذه الآية ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - إلى قوله - أولوا الألباب ﴾ قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

ورواه أبو داود في كتاب السنة ٢ والدارمي في المقدمة ١٦

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٨٥ عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده ، قال : خرج رسول الله ﷺ - على أصحابه وهم يختصمون في القدر - وذكره في الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ١٧٨ ، ١٩٦ (حلي) .

اللاتي هي أم الكتاب قد علم معناها ، وعلم أنها حق ، وبذلك يهتدي الخلق ويتفعون .

فمن اتبع المتشابه ابتغى الفتنة وابتغى تأويله - والأول قصدهم فيه فاسد ، والثاني ليسوا من أهله ، بل يتكلمون في تأويله بما يفسد معناه إذ كانوا ليسوا من الراسخين في العلم .

وإنما الراسخ في العلم الذي رسخ في العلم بمعنى المحكم ، وصار ثابتاً فيه لا يشك ولا يرتاب فيه بما يعارضه من المتشابه ، بل هو مؤمن به ، قد يعلمون تأويل المتشابه .

وأما من لم يرسخ في ذلك ، بل إذا عارضه المتشابه شك فيه فهذا يجوز أن يراد بالمتشابه ما يناقض المحكم ، فلا يعلم معنى المتشابه ، إذ لم يرسخ في العلم بالمحكم ، وهو يبتغي الفتنة في هذا وهذا ، فهذا يعاقب عقوبة تردعه ، كما فعل عمر بصبيغ .

وأما من قصده الهدى والحق فليس من هؤلاء ، وقد كان عمر يسأل ويسأل عن معاني الآيات الدقيقة ، وقد سأل أصحابه عن قوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ^(١) ، فذكروا ظاهر لفظها ، ولما فسرهما ابن عباس بأنها إعلام النبي ﷺ بقرب وفاته قال : « ما أعلم منها إلا ما تعلم » .

وهذا باطن الآية الموافق لظاهرها ، فإنه لما أمر بالاستغفار عند ظهور الدين ، والاستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال ، ويظهر الدين حصل مقصود الرسالة ، علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور آخر ، وفوق كل ذي علم عليم .

والاستدلال على الشيء بملزوماته ، والشيء قد يكون له لازم ، وللازم لازم ، وهلم جرا - فمن الناس من يكون أفطن بمعرفة اللوازم من غيره

(١) سورة النصر آية رقم ١ .

يستدل بالملزوم على اللازم ، ومن الناس من لا يتصور اللازم ، ولوتصوره لم يعرف الملزوم ، بل يقول : يجوز أن يلزم ، ويجوز ألا يلزم ، ويحتمل ، ويحتمل ، وتردد الاحتمال هو من عدم العلم ، وإلا فالواقع هو أحد أمرين ، فحيث كان احتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع وخفاء دليله ، وغيره قد يعلم ذلك ويعلم دليله .

ومن ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله ، فلا ينفي عن الناس إلا ما علم انتفاؤه عنهم ، وفوق كل ذي علم عليم أعلم منه ، حتى ينتهي الأمر إلى الله تعالى ، وهذا قد بسط في مواضع . ثم إنهم يقولون : المأثور عن السلف هو السكوت عن الخوض في تأويل ذلك ، والمصير إلى الايمان بظاهره ، والوقوف عن تفسيره ، لأننا قد نبينا أن نقول في كتاب الله برأينا ، ولم ينبهنا الله ورسوله على حقيقة معنى ذلك .

فيقال : أما كون الرجل يسكت عما لا يعلم فهذا مما يؤمر به كل أحد ، لكن هذا الكلام يقتضي أنهم لم يعلموا معنى الآية وتفسيرها وتأويلها ، وإذا كان لم يتبين لهم فمضمونه عدم علمهم بذلك ، وهو كلام شاك لا يعلم ما أريد بالآية .

ثم إذا ذكر لهم بعض التأويلات كتأويل من يفسره بإتيان أمره وقدرته أبطلوا ذلك بأن هذا يسقط فائدة التخصيص ، وهذا نفي للتأويل وإبطال له .

فإذا قالوا مع ذلك ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) أثبتوا تأويلاً لا يعلمه إلا الله وهم ينفون جنس التأويل .

ونقول ما الحامل على هذا التأويل البعيد ؟ ، وقد أمكن بدونه أن نثبت إتياناً ومجيئاً لا يعقل كما يليق به ، كما أثبتنا ذاتاً لها حقيقة لا تعقل ، وصفات

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ وتكملة الآية ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .

من سمع وبصر وغير ذلك لا تعقل ، ولأنه إذا جاز تأويل هذا وأن نقدر مضمراً محذوفاً من قدرة أو عذاب ونحو ذلك ، فما منعكم من تأويل قوله « ترون ربكم »^(١) كذلك ؟ .

وهذا كلام في إبطال التأويل وحمل للفظ على ما دل عليه ظاهره على ما يليق بجلال الله .

فإذا قيل مع هذا : إن له تأويلاً لا يعلمه إلا الله وأريد بالتأويل هذا الجنس كان تناقضاً ، كيف ينفي جنس التأويل ويثبت له تأويل لا يعلمه إلا الله .

فعلم أن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله لا يناقض حمله على ما دل عليه اللفظ ، بل هو أمر آخر يحقق هذا ويوافقه لا يناقضه ويخالفه كما قال مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول .

وإذا كان كذلك امكن أن من العلماء من يعلم من معنى الآية ما يوافق القرآن لم يعلمه غيره ، ويكون ذلك من تفسيرها ، وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم ، كمن يعلم أن المراد بالآية مجيء الله قطعاً لا شك في ذلك لكثرة ما دل عنده على ذلك ، ويعلم مع ذلك أنه العلي الأعلى يأتي إتياناً تكون المخلوقات محيطة به وهو تحتها ، فإن هذا مناقض لكونه العلي الأعلى .

والجد الأعلى أبو عبدالله رحمه الله قد جرى في تفسيره على ما ذكر من الطريقة ، وهذه عاداته وعادات غيره ، وذلك كلام ابن الزاغوني فقال ، قال الشيخ علي بن عبيدالله الزاغوني (٢) :

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيها أنكرت الجهمية ١٧٧ - عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبدالله ، قال كنا جلوساً عند رسول الله - ﷺ - فنظر إلى القمر ليلة البدر . قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ - ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ . سورة ق آية رقم ٣٩ .

(٢) هو علي بن عبيدالله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة =

وقد اختلف كلام إمامنا أحمد في هذا المجيء هل يحمل على ظاهره ، وهل يدخل التأويل ؟ على روايتين .

إحدهما : إنه يحمل على ظاهره من مجيء ذاته ، فعلى هذا يقول : لا يدخل التأويل ، إلا أنه لا يجب أن يحمل مجيئه بذاته إلا على ما يليق به ، وقد ثبت أنه لا يحمل إثبات مجيء هو زوال وانتقال يوجب فراغ مكان وشغل آخر من جهة أن هذا يعرف بالجنس في حق المحدث الذي يقصر عن استيعاب المواضع والمواطن ، لأنها أكبر منه وأعظم يفتقر مجيئه إليها إلى الانتقال عما قرب إلى ما بعد .

وذلك ممتنع في حق الباري تعالى ، لأنه لا شيء أعظم منه ، ولا يحتاج في مجيئه إلى انتقال وزوال ، لأن داعي ذلك وموجبه لا يوجد في حقه ، فأثبتنا المجيء صفة له ومنعنا ما يتوهم في حقه ما يلزم في حق المخلوقين لاختلافهما في الحاجة إلى ذلك ، ومثله قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (١) .

ومثله الحديث المشهور الذي رواه عامة الصحابة أن النبي ﷺ قال : « ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفر فأغفر له » (٢) . فنحن نثبت وصفه بالنزول إلى سماء الدنيا بالحديث ولا نتأول ما ذكره ولا نلحقه بنزول آدميين الذي هو زوال وانتقال من علو إلى أسفل ، بل نسلم للنقل كما ورد وندفع التشبيه لعدم موجبه ، ونمنع من التأويل لارتفاع نسبته . قال : وهذه الرواية هي المشهورة والمعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا .

= من أهل بغداد قال ابن رجب : كان مفتنًا في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله من كتبه (تاريخ) على السنين ، (والاقناع) ، (والواضح) وغير ذلك كثير ، توفي عام ٥٢٧ هـ [راجع الذيل على طبقات الحنابلة ١ : ٢١٦ واللباب ١ : ٤٨٩ وشذرات الذهب ٤ : ٨٠] .

(١) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

« قلت » : أما كون إتيانه ومجيئه ونزوله ليس مثل إتيان المخلوق ومجيئه ونزوله ، فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة ومن له عقل ، فإن الصفات والأفعال تتبع الذات المتصفة الفاعلة ، فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة أن تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها ، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته ، ولا ريب أنه العلي الأعلى العظيم ، فهو أعلى من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، فلا يكون وإتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به أو تكون أعظم منه وأكبر ، هذا ممتنع .

وأما لفظ « الزوال » و« الانتقال » فهذا اللفظ مجمل ، ولهذا كان أهل الحديث والسنة فيه على أقوال :

فعثمان بن سعيد الدارمي ^(١) وغيره أنكروا على الجهمية قوله : إنه لا يتحرك ، وذكروا أثراً أنه لا يزول ، وفسروا الزوال بالحركة ، فبين عثمان بن سعيد أن ذلك الأثر إن كان صحيحاً لم يكن حجة لهم ، لأنه في تفسير قوله : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ^(٢) ذكروا عن ثابت : دائم باق لا يزول عما يستحقه ، كما قال ابن اسحاق : لا يزول عن مكانته .

« قلت » : والكلبي بنفسه الذي روى هذا الحديث هو يقول : ﴿ استوى على العرش ﴾ : استقر ، ويقول : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ : صعد إلى السماء .

وأما « الانتقال » فابن حامد وطائفة يقولون : ينزل بحركة وانتقال . وآخرون من أهل السنة ، كالتميمي من أصحاب أحمد ، أنكروا هذا وقالوا :

(١) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني أبو سعيد ، محدث هراة ، له تصانيف في الرد على الجهمية ، منها النقض على بشر المريسي وله مسند كبير توفي بهراة عام ٢٨٠ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٧٧] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

بل ينزل بلا حركة وانتقال . وطائفة ثالثة ، كابن ^(١) بطة وغيره يفتون في هذا .

وقد ذكر الأقوال الثلاثة القاضي أبو يعلى في كتاب « اختلاف الروايتين والوجهين ونفي اللفظ بمجمله » ^(٢) .

والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص ، فثبت ما أثبت الله ورسوله باللفظ الذي أثبتته ، وينفي ما نفاه الله ورسوله كما نفاه ، وهو أن يثبت النزول ، والإتيان ، والمجيء ، وينفي المثل ، والسمي ، والكفاء ، والدند .

وبهذا يحتج البخاري وغيره على نفي المثل . يقال : ينزل نزولاً ليس كمثله شيء ، نزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين - نزولاً يختص به ، كما أنه في ذلك وفي سائر ما وصف به نفسه ليس كمثله شيء في ذلك ، وهو منزّه أن يكون نزوله كنزول المخلوقين ، وحركتهم ، وانتقالهم ، وزوالهم مطلقاً - لا نزول الأدميين ولا غيرهم .

فالمخلوق إذا نزل من علو إلى سفلى زال وصفه بالعلو وتبدل إلى وصفه بالسفول ، وصار غيره أعلى منه .

والرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط ، بل هو العلي الأعلى ، ولا يزال هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم ، وينزل إلى حيث شاء ، ويأتي كما شاء ، وهو في ذلك العلي الأعلى ، الكبير المتعالي ، عليّ

(١) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان أبو عبد الله العكبري المعروف بابن بطة ، عالم بالحديث ، فقيه من كبار الحنابلة من أهل عكبرا مولداً ووفاء ، رحل إلى مكة والثغور والبصرة وغيرها في طلب الحديث ثم لزم بيته أربعين سنة فصنف كتبه وهي تزيد على مئة منها (الشرح والإبانة) و (السنن) و (التفرد والعزلة) توفي عام ٣٨٧ هـ [راجع ايضاح المكنون ١ : ٨ وطبقات الحنابلة ٢ : ١٤٤ - ١٥٣ ومختصره للناقلي ٣٤٦ وفي كتاب أعيان الشيعة ٦ : ٥٦ ابن بطة اثنان حنبلي وهو ابن بطة بفتح الباء وشيعي وهو ابن بطة بضم الباء] .

(٢) قام بتحقيقه ودراسة عنه الشيخ عبد الكريم بن الاحم وحصل به على درجة الدكتوراه في الفقه الحنبلي .

في دنوه ، قريب في علوه .

فهذا وإن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا ، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

ولهذا قيل لأبي سعيد الخراز بم عرفت الله ؟ . قال : « بالجمع بين التقيضين » . وأراد أنه يجتمع له ما يتناقض في حق الخلق ، كما اجتمع له أنه خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها من الأعيان والأفعال ، مع ما فيها من الخبث ، وأنه عدل ، حكيم ، رحيم ، وأنه يمكن من مكنه من عباده من المعاصي مع قدرته على منعهم ، وهو في ذلك حكيم عادل ، فإنه أعلم الأعلام ، وأحكم الحاكمين ، وخير الفاتحين ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .

فأن لا يحيطوا علماً بما هو أعظم في ذلك أولى وأحرى ، وقد سألوا عن الروح . فقيل لهم : ﴿ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) . وفي الصحيحين أن الخضر قال لموسى لما نقر عصفور في البحر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر » (٢) .

فالذي ينفي عنه وينزه عنه إما أن يكون مناقضاً لما علم من صفاته

(١) سورة الاسراء آية رقم ٨٥ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب العلم ٤٤ باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله .

١٢٢ - حدثنا عبدالله بن محمد ، قال : حدثنا سفيان ، قال حدثنا عمرو قال : أخبرني سعيد ابن جبير قال : قلت لابن عباس أن نوحاً البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر . فقال كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب عن النبي - ﷺ وذكره . وما ذكره ابن تيمية جزء من الحديث الكبير .

ورواه البخاري في الأنبياء ٢٧ والتفسير سورة ١٨ ، ٢ ورواه مسلم في الفضائل ١٧٠ والترمذي في التفسير سورة ١٨ ، ١ .

الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه ، كما قال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (١) . وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (٢) . فجنس السنة والنوم ، والموت ، ممتنع عليه ، لا يجوز أن يقال في شيء من هذا « إنه يجوز عليه كما يليق بشأنه » لأن هذا الجنس يوجب نقصاً [في] كماله .

وكذلك لا يجوز أن يقال : هو يكون في السفلى ، لا في العلو ، وهو سفول يليق بجلاله ، فإنه سبحانه العلي الأعلى لا يكون قط إلا عالياً ، والسفول نقص هو منزعه عنه .

وقوله « وأنت الباطن فليس دونك شيء » (٣) لا يقتضي السفول إلا عند جاهل لا يعلم حقيقة العلو والسفول ، فيظن أن السموات وما فيها قد تكون تحت الأرض إما بالليل وإما بالنهار ، وهذا غلط ، كمن يظن أن ما في السماء من المشرق يكون تحت ما فيها مما في المغرب . فهذا أيضاً غلط ، بل السماء لا تكون قط إلا عالية على الأرض ، وإن كان الفلك مستديراً محيطاً بالأرض فهو العالي على الأرض علواً حقيقياً من كل جهة ، وهذا مبسوط في مواضع .

والنوع الثاني : أنه منزعه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته فالألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة في الإثبات تثبت ، والتي

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٥٨ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٣٨٣١ عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : أتت فاطمة النبي - ﷺ - تسأله خادماً فقال لها ما عندي ما أعطيك « فرجعت فأناها بعد ذلك فقال « الذي سألت أحب إليك أو ما هو خير منه ؟ فقال لها علي : قلبي : لا . بل ما هو خير منه ، فقالت : فقال : « قلبي وذكره في حديث طويل .

ورواه مسلم في الدعوات ٦١ وأبو داود في الأدب ٩٨ والترمذي في الدعوات ١٩ ، ٦٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٨١ ، ٤٠٤ ، ٥٣٦ (حلي) .

جاءت بالنفي تنفي ، والألفاظ المجملة كلفظ « الحركة » و « النزول »
و « الانتقال » يجب أن يقال فيها : إنه منزّه عن مماثلة المخلوقين من كل
وجه ، لا يماثل المخلوق - لا في نزول ، ولا في حركة ، ولا انتقال ، ولا
زوال ، ولا غير ذلك .

وأما إثبات هذا الجنس ، كلفظ « النزول » ، أو نفيه مطلقاً كلفظ
« النوم » و « الموت » فقد يسلك كلاهما طائفة إلى السنة . والمثبتة يقولون .
ثبت حركة ، أو حركة وانتقالاً ، أو حركة وزوالاً تليق به ، كالنزول والإتيان
اللائق به .

والنفاة يقولون : بل هذا الجنس يجب نفيه .

ثم منهم من ينفي جنس ذلك في حقه بكل اعتبار ، ولا يجوز عليه أن
يقوم به شيء من الأحوال المتجددة ، وهذه طريقة الكلابية ومن اتبعهم ممن
ينتسب إلى السنة والحديث .

ومنهم من لا ينفي في ذلك ما دل عليه النص ، ولا ينفي هذا الجنس
مطلقاً بما ذكره من أنه لا تقوم به الحوادث لما قد علم بالآيات والسنة والعقل
أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأنه يحب عبده المؤمن إذا اتبع رسوله ، إلى غير
ذلك من المعاني التي دل عليها الكتاب والسنة ، بل ينفي ما ناقض صفات
كمالهِ ، وينفي مماثلة مخلوق له ، فهذان هما اللذان يجب نفيهما ، والله
أعلم .

وكذلك إذا قال القائل : الله يجب تنزيهه عن سمات الحدث أو علامات
الحدث ، أو كل ما أوجب نقصاً وحدوثاً فالرب منزّه عنه ، فهذا كلام حق
معلوم متفق عليه .

لكن الشأن فيما تقول النافية ، إنه من سمات الحدث ، وآخرون
ينازعونهم ، لا سيما والكتاب والسنة تناقض قولهم ، قالت الجهمية : إن

قيام الصفات به ، أو قيام الصفات الاختيارية ، هو من سمات الحدث ، وهذا باطل عند السلف وأئمة السنة ، بل وجمهور العقلاء ، بل ما ذكره يقتضي حدوث كل شيء ، فإنه ما من موجود إلا وله صفات تقوم به ، وتقوم به أحوال تحصل بالمشيئة والقدرة ، فإن كان هذا مستلزماً للحدوث لزم حدوث كل شيء ، وأن لا يكون في العالم شيء قديم ، وهذا قد بسط في مواضع أيضاً .

وسمات الحدث التي تستلزم الحدوث مثل افتقار إلى الغير ، فكل ما افتقر إلى غيره فإنه محدث ، كائن بعد أن لم يكن ، والرب منزّه عن الحاجة إلى ما سواه بكل وجه ، ومن ظن أنه محتاج إلى العرش ، أو حملة العرش ، فهو جاهل ضال ، بل هو الغني بنفسه ، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه ، وهو الصمد الغني عن كل شيء ، وكل ما سواه يصمد إليه محتاجاً إليه - ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (١) .

ومن سمات الحدث النقائص ، كالجهل ، والعمى ، والصمم ، والبكم ، فإن كل ما كان كذلك لم يكن إلا محدثاً ، لأن القديم الأزلي منزّه عن ذلك ، لأن القديم الأزلي متصف بنقيض هذه الصفات ، وصفات الكمال لازمة له ، واللازم يمتنع زواله إلا بزوال الملزوم ، والذات قديمة أزلية ، واجبة بنفسها ، غنية عما سواها ، يستحيل عليها العدم والفناء بوجه من الوجوه ، فيستحيل عدم لوازمها ، فيستحيل اتصافها بنقيض تلك اللوازم ، فلا يوصف بنقيضها إلا المحدث ، فهي من سمات الحدث المستلزمة للحدوث ما اتصف بها .

وهذا يدخل في قول القائل « كل ما استلزم حدوثاً أو نقصاً فالرب منزّه عنه » . والنقص المناقض لصفات كماله مستلزم لحدوث المتصف به ، والحدوث مستلزم للنقص اللازم للمخلوق ، فإن كل مخلوق فهو يفتقر إلى

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٩ .

غيره ، كائن بعد أن لم يكن لا يعلم إلا ما علم ، ولا يقدر إلا ما أقدر ، وهو محاط به مقدور عليه .

فهذه النقائص اللازمة لكل مخلوق هي ملزومة للحدوث ، حيث كان حدوث كانت ، والحدوث أيضاً ملزوم لها ، فحيث كان محدث كانت هذه النقائص .

فقولنا « ما استلزم نقصاً أو حدوثاً فالرب منزّه عنه » حق .

والحدوث والنقص اللازمة للمخلوق متلازمان ، والرب منزّه عن كل منهما من جهتين : - من جهة امتناعه في نفسه ، ومن جهة أنه مستلزم للآخر ، وهو ممتنع في نفسه ، فكل منهما دليل ومدلول عليه باعتبارين - على أن الرب منزّه عنه ، وعن مدلوله الذي هو لازمه .

والحاجة إلى الغير والفقر إليه مما يستلزم الحدوث والنقص اللازم للمخلوق ، وقولي « اللازم » ليعم جميع المخلوقين ، وإلا فمن النقائص ما يتصف بها بعض المخلوقين دون بعض ، فتلك ليست لازمة لكل مخلوق .

والرب منزّه عنها أيضاً ، لكن إذا نزه عن النقص اللازم لكل مخلوق فعن ما يختص به بعض المخلوقين أولى وأحرى ، فإنه إذا كان مخلوق ينزه عن نقص ، فالخالق أولى بتنزيهه عنه ، وهذه طريقة « الأولى » كما دل عليها القرآن في غير موضع .

وقد ذكرنا في جواب « المسائل التدمرية » الملقب بـ « تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وبيان حقيقة الجمع بين القدر والشرع » أنه لا يجوز الاكتفاء فيما ينزه الرب عنه على عدم ورود السمع والخبر به فيقال : كل ما ورد به الخبر أثبتناه ، وما لم يرد به لم نثبت به بل نفيه ، وتكون عمدتنا في النفي على عدم الخبر .

بل هذا غلط لوجهين :

أحدهما : أن عدم الخبر هو عدم دليل معين ، والدليل لا ينعكس ، فلا يلزم إذا لم يخبر هو بالشيء أن يكون منتفياً في نفس الأمر ، والله أسماء سمي بها نفسه واستأثر بها في علم الغيب عنده ، فكما لا يجوز الإثبات إلا بدليل ، لا يجوز النفي إلا بدليل ، ولكن إذا لم يرد به الخبر ولم يعلم ثبوته يسكت عنه فلا يتكلم في الله بلا علم .

الثاني : أن أشياء لم يرد الخبر بتنزيهه عنها ولا بأنه منزّه عنها ، لكن دل الخبر على اتصافه بنقائضها فعلم انتفاؤها ، فالأصل أنه منزّه عن كل ما يناقض صفات كماله ، وهذا مما دل عليه السمع والعقل . وما لم يرد به الخبر إن علم انتفاؤه نفيانه ، وإلا سكتنا عنه ، فلا ثبت إلا بعلم ، ولا نفي إلا بعلم .

ونفي الشيء من الصفات وغيرها كنفى دليله طريقة طائفة من أهل النظر والخبر ، وهي غلط إلا إذا كان الدليل لازماً له ، فإن عدم اللازم عدم الملزوم .

وأما جنس الدليل فيجب فيه الطرد ، لا العكس ، فيلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه ، ولا ينعكس .

فالأقسام ثلاثة : - ما علم ثبوته أثبت ، وما علم انتفاؤه نفي ، وما لم يعلم نفيه ولا إثباته سكت عنه ، هذا هو الواجب ، والسكوت عن الشيء غير الجزم بنفيه أو ثبوته .

ومن لم يثبت ما أثبتته إلا بالألفاظ الشرعية التي أثبتها ، وإذا تكلم بغيرها استفسر واستفصل ، فإن وافق المعنى الذي أثبتته الشرع أثبتته باللفظ الشرعي ، فقد اعتصم بالشرع لفظاً ومعنى ، وهذه سبيل من اعتصم بالعروة الوثقى .

لكن ينبغي أن تعرف الأدلة الشرعية إسناداً ومقتناً ، فالقرآن معلوم ثبوت

الفاظه ، فينبغي أن يعرف وجوه دلالاته ، والسنة ينبغي معرفة ما ثبت منها ، وما علم أنه كذب .

فإن طائفة ممن انتسب إلى السنة ، وعظم السنة والشرع ، وظنوا أنهم اعتصموا في هذا الباب بالكتاب والسنة ، جمعوا أحاديث وردت في الصفات ، منها ما هو كذب معلوم أنه كذب ، ومنها ما هو إلى الكذب أقرب ، ومنها ما هو إلى الصحة أقرب ، ومنها متردد ، وجعلوا تلك الأحاديث عقائد ، وصنفوا مصنفات ، ومنهم من يكفر من يخالف ما دلت عليه تلك الأحاديث .

وبإزاء هؤلاء المكذبين بجنس الحديث ومن يقول عن أخبار الصحيحين وغيرها : هذه أخبار آحاد لا تفيد العلم .

وأبلغ من هؤلاء من يقول : دلالة القرآن لفظية سمعية ، والدلالة السمعية اللفظية لا تفيد اليقين ، ويجعلون العمدة على ما يدعونه من العقليات ، وهي باطلة فاسدة ، منها ما يعلم بطلانه وكذبه .

وهؤلاء أيضاً قد يكفرون من خالف ذلك ، كما فعل أولئك ، وكلا الطريقتين باطل ولو لم يكفر مخالفه ، فإذا كفر مخالفه صار من أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها ، كما فعلت الخوارج وغيرهم .

وقد بسط في غير هذا الموضع أن الأدلة التي توجب العلم لا تناقض قط ، ولا يناقض الدليل العقلي الذي يفيد العلم للدليل السمعي الذي يفيد العلم قط ، كما قد بينا ذلك في كتاب « درء تعارض العقل والنقل » (١) .

وهذه الأحاديث قد ذكر بعضها القاضي أبو يعلى (٢) في كتاب « إبطال

(١) هذا كتاب جيد وقد قام بتحقيقه ونشره الدكتور محمد رشاد سالم الأستاذ بجامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية بالرياض .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢ : ١٩٣ - ٢٣٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦ وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ : ٧ .

التأويل» ، مثل ما ذكر في حديث المعراج حديثاً طويلاً عن أبي عبيدة : « أن محمداً رأى ربه » .

وطائفة ممن يقول بأنه رأى ربه بعينه يكفرون من خالفهم لما ظنوا أنه قد جاء في ذلك أحاديث صحيحة ، كما فعل أبو الحسن علي بن شكر ، فإنه سارع إلى تكفير من يخالفه فيما يدعيه من السنة ، وقد يكون مخطئاً فيه ، إما لاحتجاجه بأحاديث ضعيفة ، أو بأحاديث صحيحة لكن لا تدل على مقصوده ، وما أصاب فيه من السنة لا يجوز تكفير كل من خالف فيه ، فليس كل مخطيء كافراً لا سيما في المسائل الدقيقة التي كثر فيها نزاع الأمة ، كما قد بسط هذا في مواضع .

وكذلك أبو علي الأهوازي له مصنف في الصفات قد جمع فيه الغث والسمين .

وكذلك ما يجمعه عبد الرحمن بن منده^(١) مع أنه من أكثر الناس حديثاً ، لكن يروي شيئاً كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ولا يميز بين الصحيح والضعيف ، وربما جمع باباً وكل أحاديثه ضعيفة ، كأحاديث أكل الطين وغيرها ، وهو يروي عن أبي علي الأهوازي .

وقد وقع ما رواه من الغرائب الموضوعة إلى حسن بن عدي فبنى على ذلك عقائد باطلة ، وادعى أن الله يرى في الدنيا عياناً ، ثم الذين يقولون بهذا

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق بن منده العبدى الأصبهاني أبو القاسم ، حافظ مؤرخ ، جليل القدر ، واسع الرواية ، له أصحاب وأتباع ، يعرفون بالعبد رحمانيه ينتمون إلى اعتقاده ، قال ابن ناصر الدين كان شديداً في السنة لكنه أفرط في تشدده حتى توهم فيه التجسيم . وصنف كتباً كثيرة ، وردوداً على أهل البدع من كتبه تاريخ أصبهان ، مولده عام ٣٨٣ ووفاته ٤٧٠ هـ بأصبهان قال الذهبي : له محاسن ، وهو في تواليه حاطب ليل يروي الغث والسمين . وهو مصنف كتاب (المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة) [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٦٠ وطبقات الحنابلة ٢ : ٢٤٢ والنجوم الزاهرة

من أتباعه يكفرون من خالفهم ، وهذا كما تقدم من فعل أهل البدع ، كما فعلت الخوارج .

ومن ذلك حديث عبدالله بن خليفة المشهور الذي يروي عن عمر عن النبي ﷺ ، وقد رواه أبو عبدالله محمد بن عبد الواحد المقدسي ^(١) في « مختاره » .

وطائفة من أهل الحديث ترده لاضطرابه ، كما فعل ذلك أبو بكر الاسماعيلي ، وابن الجوزي ، وغيرهم ، لكن أكثر أهل السنة قبلوه .

وفيه قال : « إن عرشه أو كرسيه وسع السموات والأرض ، وإنه يجلس عليه فما يفضل منه قدر أربع أصابع ، - أو فما يفضل منه إلا قدر أربع أصابع - وإنه ليئط به أطيظ الرجل الجديد براكبه » ^(٢) ولفظ « الأطيظ » قد جاء في حديث جبير بن مطعم الذي رواه أبو داود في السنن ، وابن عساكر عمل فيه جزءاً ، وجعل عمدة الطعن في ابن اسحاق ، والحديث قد رواه علماء السنة كأحمد ، وأبي داود ، وغيرهم ، وليس فيه إلا ما له شاهد من رواية أخرى ، ولفظ « الأطيظ » قد جاء في غيره .

وحديث ابن خليفة رواه الإمام أحمد وغيره مختصراً ، وذكر أنه حدث به وكيع .

لكن كثير ممن رواه بروه بقوله « إنه ما يفضل منه إلا أربع أصابع » .

(١) هو محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السعدي المقدسي الأصل الصالحي الحنبلي أبو عبدالله - ضياء الدين عالم بالحديث . مؤرخ من أهل دمشق مولداً ووفاة بنى فيها مدرسة دار الحديث الضيائية ، ووقف بها كتبه ، ورحل إلى بغداد ، ومصر وفارس ، وروى عن أكثر من ٥٠٠ شيخ من كتبه الأحكام في الحديث لم يتمه ، ثلاث مجلدات ، وفضائل الأعمال والأحاديث المختارة وغير ذلك كثير توفي عام ٦٤٣ هـ . [راجع القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ٧٦ ، وفوات الوفيات ٢ : ٢٣٨ والدارس ٢ : ٩٤ وشذرات الذهب ٥ : ٢٢٤]

(٢) الحديث رواه أبو داود في كتاب السنة ١٨ والدارمي في الرقاق ٨٠ .

فجعل العرش يفضل منه أربع أصابع ، واعتقد القاضي ، وابن الزاغوني ، ونحوهما ، صحة هذا اللفظ ، فأمروه وتكلموا على معناه بأن ذلك القدر لا يحصل عليه الاستواء ، وذكر عن ابن العايد أنه قال : هو موضع جلوس محمد ﷺ .

والحديث الذي رواه ابن جرير الطبري ^(١) في تفسيره وغيره ، ولفظه : « وإنه ليجلس عليه ، فما يفضل منه قدر أربع أصابع » بالنفي . فلو لم يكن في الحديث إلا اختلاف الروایتين - هذه تنفي ما أثبتت هذه ، ولا يمكن مع ذلك الجزم بأن رسول الله ﷺ أراد الإنبات ، وأنه يفضل من العرش أربع أصابع لا يستوي عليها الرب ، وهذا معنى غريب ليس له قط شاهد في شيء من الروايات ، بل هو يقتضي أن يكون العرش أعظم من الرب وأكبر وهذا باطل ، مخالف للكتاب والسنة والعقل .

ويقتضي أيضاً أنه إنما عرف عظمة الرب بتعظيم العرش المخلوق وقد جعل العرش أعظم منه ، فما عظم الرب إلا بالمقايضة بمخلوق ، وهو أعظم من الرب ، وهذا معنى فاسد ، مخالف لما علم من الكتاب والسنة والعقل .

فإن طريقة القرآن في ذلك أن يبين عظمة الرب ، فإنه أعظم من كل ما يعلم عظمته ، فيذكر عظمة المخلوقات ويبين أن الرب أعظم منها .

كما في الحديث الآخر الذي في سنن أبي داود ، والترمذي ، وغيرهما - حديث الأبيط - لما قال الأعرابي : إنا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله تعالى ، فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : « ويحك ، أتدري ما تقول ؟ أتدري ما الله ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إن عرشه على سمواته هكذا » - وقال بيده مثل القبة - « وإنه

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع إرشاد الأريب ٦ : ٤٢٣ وتذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٥ و٤١٥ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٥ .

ليط به أطيظ الرجل الجديد براكبه « (١) .

فبين عظمة العرش ، وأنه فوق السموات مثل القبة ، ثم بين تصاغره لعظمة الله ، وأنه يبط به أطيظ الرجل الجديد براكبه ، فهذا فيه تعظيم العرش وفيه أن الرب أعظم من ذلك ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني » (٢) وقال : لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن « (٣) ومثل هذا كثير .

وهذا وغيره يدل على أن الصواب في روايته النفي ، وأنه ذكر عظمة العرش ، وأنه مع هذه العظمة فالرب مستو عليه كله لا يفضل منه قدر أربع أصابع ، وهذه غاية ما يقدر به في المساحة من أعضاء الإنسان ، كما يقدر في الميزان قدره فيقال : ما في السماء قدر كف سحاباً ، فإن الناس يقدرون الممسوح بالباع والذراع ، وأصغر ما عندهم الكف ، فإن أرادوا نفي القليل والكثير قدروا به ، فقالوا : ما في السماء قدر كف سحاباً ، كما يقولون في النفي العام ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (٤) و﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ (٥) ، ونحو ذلك . فبين الرسول أنه لا يفضل من العرش شيء ، ولا هذا القدر اليسير الذي هو أيسر ما يقدر به ، وهو أربع أصابع ، وهذا معنى

(١) سبق تخريج هذا الحديث قريباً .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب النكاح ١٠٧ باب الغيرة قال ورأى عن المغيرة قال سعد ابن عباد : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح وذكره .

ورواه البخاري أيضاً في الحدود ٤٠ والتوحيد ٢٠ ورواه الامام مسلم في اللعان ١٦ ، ١٧ والدارمي في النكاح ٣٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٤٨ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٣٢٦ (حلي) ورواه الامام البخاري في كتاب النكاح ١٠٧ باب الغيرة ٥٢٢٢ - حدثنا همام عن يحيى عن أبي سلمة أن عروة بن الزبير حدثه عن أمه أسماء أنها سمعت رسول الله ﷺ - يقول : « لا شيء أغير من الله » .

(٤) سورة النساء آية رقم ٤٠ .

(٥) سورة فاطر آية رقم ١٣ .

صحيح موافق للغة العرب ، وموافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، موافق لطريقة بيان الرسول ، له شواهد ، فهو الذي يجزم بأنه في الحديث .

ومن قال « ما يفضل إلا مقدار أربع أصابع » فما فهموا هذا المعنى ، فظنوا أنه استثنى ، فاستثنوا ، فغلطوا ، وإنما هو تأكيد للنفي وتحقيق للنفي العام ، وإلا فأى حكمة في كون العرش يبقى منه قدر أربع أصابع خالية ، وتلك الأصابع أصابع من الناس ، والمفهوم من هذا أصابع الإنسان ، فما بال هذا القدر اليسير لم يستو الرب عليه ؟ .

والعرش صغير في عظمة الله تعالى ، وقد جاء حديث رواه ابن أبي حاتم في قوله ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ^(١) لمعناه شواهد تدل على هذا . فينبغي أنا نعتبر الحديث ، فنطابق بين الكتاب والسنة ، فهذا هذا ، والله أعلم .

قال حدثنا أبو زرعة ، ثنا منجاب بن حارث ، أنبأ بشر بن عمارة ، عن أبي رزق ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ، قال : « لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً » .

وهذا له شواهد ، مثل ما في الصحاح في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ^(٢) ، قال ابن عباس : ما السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن في يد الرحمن إلا كخرولة في يد أحدكم .

ومعلوم أن العرش لا يبلغ هذا ، فإن له حملة وله حول ، قال تعالى :

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ (١) .

وهذا قد بسط في موضع آخر في « مسألة الإحاطة » وغيرها . والله أعلم .

(١) سورة غافر آية رقم ٧ .

فصل

علماء الكلام أصلوا أصولاً تناقض الحق

فالرسول ﷺ بين الأصول الموصلة إلى الحق أحسن بيان ، وبين الآيات الدالة على الخالق سبحانه ، وأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ووحدانيته ، على أحسن وجه ، كما قد بسط في مواضع .

وأما أهل البدع من أهل الكلام والفلسفة ونحوهم فهم لم يثبتوا الحق ، بل أصلوا أصولاً تناقض الحق ، فلم يكفهم أنهم لم يهتدوا ولم يدلوا على الحق حتى أصلوا أصولاً تناقض الحق ، ورأوا أنها تناقض ما جاء به الرسول ﷺ ، فقدموها على ما جاء به الرسول . ثم تارة يقولون : الرسول جاء بالتخييل ، وتارة يقولون : جاء بالتأويل ، وتارة يقولون : جاء بالتجهيل .

فالفلاسفة ومن وافقهم أحياناً يقولون : خاطب الجمهور بالتخييل - لم يقصد إخبارهم بالأمر على ما هو عليه ، بل أخبرهم بخلاف ما الأمر عليه ليتخيلوا ما ينفعهم ، وهذا قول من يعرف بأنه كان يعرف الحق ، كابن سينا^(١) وأمثاله ، ويقولون : الذي فعله من التخييل غاية ما يمكن . ومنهم من يقول : لم يعرف الحق ، بل تخيل وخيل ، كما يقوله : الفارابي^(٢) وأمثاله ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : وفيات الأعيان ١ : ١٥٢ وتاريخ حكماء الإسلام ٢٧ -

٧٢ وخزانة البغدادي ٤ : ٤٦٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٠٣ وآداب اللغة ٢ : ٣٣٦

ولسان الميزان ٢ : ٢٩١ .

(٢) هو محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي ويعرف بالمعلم الثاني تركي الأصل مستعرب ولد =

ويجعاون، الفيلسوف أفضل من النبي ، ويجعلون النبوة من جنس المنامات .

وأما أكثر المتكلمين فيقولون : بل لم يقصد أن يخبر إلا بالحق ، لكن بعبارات لا تدل وحدها عليه ، بل تحتاج إلى التأويل ليعث الهمم على معرفته بالنظر والعقل ، ويبعثها على تأويل كلامه ليعظم أجرها .

والساحدة يسلكون مسلك التأويل ويفتحون باب القرمطة ، وهؤلاء يجوزون التأويل مع الخاصة .

وأما أهل التخيل فيقولون : الخاصة قد عرفوا أن مراده التخيل للعامة ، فالتأويل ممتنع .

والفريقان يسلكون مسلك العجم العوام عن التأويل ، لكن أولئك يقولون : لها تأويل يفهمه الخاصة .

وهي طريقة الغزالي في « الإلجام » استقبح أن يقال : كذبوا للمصلحة ، وهو أيضاً لا يرى تأويل الأعمال كالقرامطة ^(١) ، بل تأويل الخبر عن الملائكة وعن اليوم الآخر ، وكذلك طائفة من الفلاسفة ترى التأويل في ذلك ، وهذا مخالف لطريقة أهل التخيل .

= في فارياب عام ٢٦٠ هـ انتقل إلى بغداد ومصر والشام له نحو مئة كتاب منها الفصوص ، وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، وآراء أهل المدينة الفاضلة ، والمدخل إلى صناعة الموسيقى توفي عام ٣٣٩ هـ [راجع وفيات الأعيان ٢ : ٧٦ وطبقات الأطباء ٢ : ١٣٤ - ١٤٠ والبداية والنهاية ١١ : ٢٢٤ وأخبار الحكماء ١٨٢] .

(١) دعوة إسماعيلية متطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ هـ في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حدان القرمطي وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب والانباط والزنج المستعبدين وانتهى الأمر بهؤلاء أن جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف .

مبادئهم : قالوا : إن الصلاة مولاة إمامهم ، وأن الحج زيارته وخدمته ، أما الصوم فهو الإمساك عن إفشاء سره وقالوا : من عرف معنى العبادة سقط عنه فرائضها ، وهذه الأفكار معتقها مرتد عن الإسلام لأنه أنكر ما عرف من الدين بالضرورة . وهذه الفرقة اندثرت بالكامل ولم يبق لأصحابها أثر .

وقد ذكر الغزالي هذا عنهم في « الأحياء » لما ذكر إسرافهم في التأويل ، وذكره في مواضع ، كما حكى كلامه في « السبعينية » وغيرها والقسم الثالث الذين يقولون : هذا لا يعلم معناه إلا الله ، أو له تأويل يخالف ظاهره لا يعلمه إلا الله ، فهؤلاء يجعلون الرسول وغيره غير عالمين بما أنزل الله ، فلا يسوغون التأويل ، لأن العلم بالمراد عندهم ممتنع ، ولا يستجيزون القول بطريقة التخييل لما فيها من التصريح بكذب الرسول . بل يقولون : خوطبوا بما لا يفهمونه ليثابوا على تلاوته ، والإيمان بألفاظه وإن لم يفهموا معناه ، يجعلون ذلك تعبداً محضاً على رأي المجبرة الذين يجوزون التعبد بما لا نفع فيه للعامل ، بل يؤجر عليه .

والكلام على هؤلاء وفساد قولهم مذكور في مواضع ، والمقصود هنا أن الذي دعاهم إلى ذلك ظنهم أن المعقول يناقض ما أخبر به الرسول ﷺ ، أو ظاهر ما أخبر به الرسول ، وقد بسط الكلام على رد هذا في مواضع ، وبين أن العقل لا يناقض السمع ، وأن ما ناقضه فهو فاسد ، وبين بعد هذا أن العقل موافق لما جاء به الرسول ، شاهد له ، ومصدق له .

لا يقال : إنه غير معارض فقط ، بل هو موافق مصدق ، فأولئك كانوا يقولون : هو مكذب مناقض ، بين أولاً أنه لا يكذب ولا يناقض ، ثم بين ثانياً أنه مصدق موافق .

وأما هؤلاء فبين أن كلامهم الذي يعارضون به الرسول باطل لا تعارض فيه ، ولا يكفي كونه باطلاً لا يعارض ، بل هو أيضاً مخالف لصريح العقل ، فهم كانوا يدعون أن العقل يناقض النقل .

فبين أربع مقامات : أن العقل لا يناقضه ، ثم بين أن العقل يوافقه ، وبين أن عقلياتهم التي عارضوا بها النقل باطلة ، وبين أيضاً أن العقل الصريح يخالفهم .

ثم لا يكفي أن العقل يبطل ما عارضوا به الرسول ، بل يبين أن ما

جعلوه دليلاً على إثبات الصانع إنما يدل على نفيه ، فهم أقاموا حجة تستلزم نفي الصانع ، وإن كانوا يظنون أنهم يثبتون الصانع بها . والمقصود هنا أن كلامهم الذي زعموا أنهم أثبتوا به الصانع إنما يدل على نفي الصانع وتعطيله ، فلا يكفي فيه أنه باطل لم يدل على الحق ، بل دل على الباطل الذي يعلمون هم وسائر العقلاء أنه باطل .

ولهذا كان يقال في أصولهم « ترتيب الأصول في تكذيب الرسول » ويقال أيضاً هي « ترتيب الأصول في مخالفة الرسول والمعقول » جعلوها أصولاً للعلم بالخالق، وهي أصول تناقض العلم به، فلا يتم العلم بالخالق إلا مع اعتقاد نقيضها ، وفرق بين الأصل والدليل المستلزم للعلم بالرب وبين المناقض المعارض للعلم بالرب .

فالمفلسفة يقولون إنهم أثبتوا واجب الوجود ، وهم لم يثبتوه ، بل كلامهم يقتضي أنه ممتنع الوجود ، والجهمية والمعتزلة ونحوهم يقولون إنهم أثبتوا القديم المحدث للحوادث ، وهم لم يثبتوه ، بل كلامهم يقتضي أنه ما تم قديم أصلاً ، وكذلك الأشعرية والكرامية وغيرهم ممن يقول إنه أثبت العلم بالخالق ، فهم لم يثبتوه ، لكن كلامهم يقتضي أنه ماثم خالق .

وهذه الأسماء الثلاثة هي التي يظهرها هؤلاء - واجب الوجود ، والقديم ، والصانع أو الخالق ونحو ذلك .

ثم إنه من المعلوم بضرورة العقل أنه لا بد في الوجود من موجود واجب بنفسه قديم أزلي محدث للحوادث . فإذا كان هذا معلوماً بالفطرة والضرورة والبراهين اليقينية ، وكانت أصولهم التي عارضوا بها الرسول تناقض هذا ، دل على فسادها جملة وتفصيلاً .

وقد ذكرنا في مواضع أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مع كثرة دلائله وبراهينه .

ونقول هنا : لا ريب أنا نشهد الحوادث كحدوث السحاب ، والمطر ،
والزرع ، والشجر ، والشمس ، وحدوث الإنسان وغيره من الحيوان وحدوث
الليل والنهار ، وغير ذلك ، ومعلوم بضرورة العقل أن المحدث لا بد له من
محدث ، وأنه يمتنع تسلسل المحدثات بأن يكون للمحدث محدث ،
وللمحدث محدث ، إلى غير غاية ، وهذا يسمى تسلسل المؤثرات ،
والعلل ، والفاعلية ، وهو ممتنع باتفاق العقلاء ، كما قد بسط في مواضع ،
وذكر ما أورد عليه من الإشكالات ، حتى ذكر كلام الأمدى ^(١) ، والأبهري ^(٢)
مع كلام الرازي وغيرهم .

مع أن هذا بديهي ضروري في العقول ، وتلك الخواطر من وسوسة
الشیطان ، ولهذا أمر النبي ﷺ العبد إذا خطر له ذلك أن يستعذ بالله منه ،
وينتهي عنه ، فقال : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق
كذا ؟ فيقول : الله . فيقول : فمن خلق الله ؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليستعذ
بالله ولينته » ^(٣) .

ومعلوم أن المحدث الواحد لا يحدث إلا بمحدث ، فإذا كثرت الحوادث

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية [وراجع ابن خلكان ١ : ٣٣٩ والسبكي ٥ : ١٣٩ وميزان
الاعتدال ١ : ٤٣٩ وشذرات الذهب ٦ : ١٤٤]

(٢) هو محمد بن عبدالله بن محمد بن صالح ، أبو بكر التميمي الأبهري شيخ المالكية في العراق ،
سكن بغداد وسئل أن يلي القضاء فامتنع له تصانيف في شرح مذهب مالك والرد على مخالفيه منها
« الرد على المزني » ومن كتبه « الأصول » و« اجماع أهل المدينة » و« فضل المدينة على مكة » توفي
عام ٣٧٥ هـ [راجع تاريخ بغداد ٥ : ٤٦٢ والوافي بالوفيات ٣ : ٣٠٨ واللباب ١ : ٢٠] .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣ باب ما يكره من كثرة
السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه وقوله تعالى ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم ﴾ .

٧٢٩٦ - حدثنا ورقاء عن عبدالله بن عبد الرحمن سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول
الله - ﷺ - وذكره ورواه أيضاً في بدء الخلق ١١ ورواه الامام مسلم في إيمان ٢١٢ ، ٢١٤ ،
٢١٥ ، ٢١٧ ورواه أبو داود في كتاب السنة ١٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٨٢ ، ٣٣٠ ،
٣٣١ ، ٣٨٧ ، ٥٣٩ ، ١٠٢ ، ٤ ، ١٦٦ ، ٦ ، ٢٥٧ (حلي) .

وتسلسلت كان احتياجها إلى المحدث أولى ، وكلها محدثات ، فكلها محتاجة إلى محدث ، وذلك لا يزول إلا بمحدث لا يحتاج إلى غيره ، بل هو قديم أزلي بنفسه سبحانه وتعالى .

وإذا قيل : إن الموجود إما قديم وإما محدث ، والمحدث لا بد له من قديم ، فيلزم وجود القديم على التقديرين ، كان برهاناً صحيحاً ، وكذلك إذا قيل : إما ممكن وإما واجب ، وبين الممكن بأنه محدث كان من هذا الجنس . وأما إذا فسر الممكن بما يتناول القديم ، كما فعل ابن سينا وأتباعه كالرازي ، كان هذا باطلاً ، فإنه على هذا التقدير لا يمكن إثبات الممكن المفتقر إلى الواجب ابتداء ، والدليل لا يتم إلا بإثبات هذا ابتداء ، وإنما يمكن ذلك في أن المحدث لا بد له من محدث ، فإن هذا تشهد أفرادہ وتعلم بالعقل كلياته .

وأما إثبات قديم أزلي ممكن فهذا مما اتفق العقلاء على امتناعه ، وابن سينا وأتباعه وافقوا على امتناعه ، كما ذكره في المنطق تبعاً لسلفهم ، لكن تناقضوا أولاً ، فسلفهم وهم يقولون : الممكن العاصي والخاصي الذي يمكن وجوده وعدمه لا يكون إلا حادثاً ، لا يكون ضرورياً ، وكل ما كان قديماً أزلياً فهو ضروري عندهم .

وكذلك إذا قيل : الموجود إما أن يكون مخلوقاً وإما أن لا يكون مخلوقاً ، والمخلوق لا بد له من موجود غير مخلوق ، فثبت وجود الموجود الذي ليس بمخلوق على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الموجود إما غني عن غيره وإما فقير إلى غيره ، والفقير المحتاج إلى غيره لا تزول حاجته وفقره إلا بغنى عن غيره ، فيلزم وجود الغني عن غيره على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الحي إما حي بنفسه وإما حي حياته من غيره ، وما كانت حياته من غيره فذلك الغير أولى بالحياة ، فيكون حياً بنفسه ، فثبت وجود الحي بنفسه على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : العالم إما عالم بنفسه وإما عالم علمه غيره ، ومن علم غيره فهو أولى أن يكون عالماً ، وإذا لم يتعلم من غيره كان عالماً بنفسه ، فثبت وجود العالم بنفسه على التقديرين الحاصرين ، فإنه لا يمكن سوى هذين التقديرين والقسمين .

فإذا كان لا يمكن إلا أحدهما ، وعلى كل تقدير العالم بنفسه موجود ، والحي بنفسه موجود ، والغني بنفسه موجود ، والقديم الواجب بنفسه موجود ، لزم وجوده في نفس الأمر وامتناع عدمه في نفس الأمر وهو المطلوب .

وكذلك إذا قيل : القادر إما قادر بنفسه ، وإما قادر أقدره غيره ، ومن أقدر غيره فهو أولى أن يكون قادراً ، وإن لم تكن قدرته من غيره كانت قدرته من لوازم نفسه ، فثبت وجود القادر بنفسه الذي قدرته من لوازم نفسه ، وعلمه من لوازم نفسه ، وحياته من لوازم نفسه ، على كل تقدير .

وكذلك الحكيم إما أن يكون حكيماً بنفسه ، وإما أن تكون حكمته من غيره ، ومن جعل غيره حكيماً فهو أولى أن يكون حكيماً ، فيلزم وجود الحكيم بنفسه على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الرحيم إما أن تكون رحمته من نفسه ، وإما أن يكون غيره جعله رحيماً ، ومن جعل غيره رحيماً [ف] - هو أولى أن يكون رحيماً ، وتكون رحمته من لوازم نفسه ، فثبت وجود الرحيم بنفسه الذي رحمته من لوازم نفسه على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الكريم المحسن إما أن يكون كرمه وإحسانه من نفسه ، وإما أن يكون من غيره ، ومن جعل غيره كريماً محسناً فهو أولى أن يكون كريماً محسناً وذلك من لوازم نفسه ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه رأى امرأة من السبي إذا رأت طفلاً أرضعته رحمة له ، فقال : « أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟ » قالوا : لا ، يا رسول الله ! فقال : « الله أرحم بعباده من هذه

بولدها» (١) .

فيين أن الله أرحم بعباده من أرحم الوالدات بولدها ، فإنه من جعلها رحيمة أرحم منها .

وهذا مما يدل عليه قوله : ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (٢) ، وقولنا : « الله أكبر » فإنه سبحانه أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، وخير الفاتحين ، وخير الناصرين ، وأحسن الخالقين ، وهو نعم الوكيل ، ونعم المولى ونعم النصير .

وهذا يقتضي حمداً مطلقاً على ذلك ، وأنه كافي من توكل عليه ، وأنه يتولى عبده تولياً حسناً ، وينصره نصراً عزيزاً . وذلك يقتضي أنه أفضل وأكمل من كل ما سواه ، كما يدل على ذلك قولنا « الله أكبر » . وكذلك إذا قيل : المتكلم السميع البصير إما أن يكون متكلماً سميعاً بصيراً بنفسه وإما أن يكون غيره جعله سميعاً بصيراً متكلماً ، ومن جعل غيره متكلماً سميعاً بصيراً فهو أولى أن يكون متكلماً سميعاً بصيراً ، وإلا كان المفعول أكمل من الفاعل ، فإن هذه صفات كمال .

وكذلك يقال : العادل إما أن يكون عادلاً بنفسه ، والصادق إما أن يكون صادقاً بنفسه ، وإما أن يكون غيره جعله صادقاً عادلاً ، ومن جعل غيره صادقاً عادلاً فهو أولى أن يكون صادقاً عادلاً . فهذه كلها طرق صحيحة بينة .

فإن قيل : يعارض هذا بأن يقال : من جعل غيره ظالماً أو كاذباً ، فهو أيضاً ظالم كاذب ، وأهل السنة يقولون إنه جعل غيره كذلك وليس هو كذلك - سبحانه ، قيل : هذا باطل من وجهين .

أحدهما : أنه ليس كل من جعل غيره على صفة - أي صفة كانت - كان

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب التوبة ، حدثني الحسن بن علي الحلواني ، ومحمد بن سهل التميمي (واللفظ لحسن) حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا أبو غسان ، حدثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب - أنه قدم على رسول الله - ﷺ - بسبي وذكره .

(٢) سورة العلق آية رقم ٣ .

متصفاً بها ، بل من جعل غيره على صفة من صفات الكمال فهو أولى باتصافه
بصفة الكمال من مفعوله .

وأما صفات النقص فلا يلزم إذا جعل الجاعل غيره ناقصاً أن يكون هو
ناقصاً . فالقادر يقدر أن يعجز غيره ولا يكون عاجزاً ، والحي يمكنه أن يقتل
غيره ويميته ولا يكون ميتاً ، والعالم يمكنه أن يجهل غيره ولا يكون جاهلاً ،
والسميع والبصير والناطق يمكنه أن يعمي غيره ، ويصمه ، ويخرسه ، ولا يكون
هو كذلك .

فلا يلزم حينئذ أن من جعل غيره ظالماً وكاذباً أن يكون كاذباً وظالماً لأن
هذه صفة نقص .

فإن قيل : الكاذب والظالم قد يلزم غيره بالصدق والعدل أحياناً ، قيل :
هو لم يجعله صادقاً وعالماً وإنما أمره بذلك ، وهو فعله ذلك بنفسه ، ولم نقل :
كل من أمر غيره بشيء كان متصفاً بما أمر به غيره .

الثاني : أن الظلم أمر نسبي إضافي ، فمن أمر غيره أن يقتل شخصاً
فقتله هذا القاتل من غير جرم يعلمه كان ظالماً ، وإن كان ذلك الأمر إنما أمره به
لكونه قد قتل أباه ، والمأمور لم يفعله لذلك ، فلو فعله بطريق النيابة لم يكن
ظالماً ، فإن كان له معه غرض فقتله ظلماً ، ولكن الأمر كان مسحقاً لقتله .

وكذلك من أمر غيره بما هو كاذب من المأمور ، كأمر يوسف للمؤذن أن
يقول : ﴿ أَتَيْتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ^(١) يوسف عليه السلام قصد : إنكم
لسارقون يوسف من أبيه ، وهو صادق في هذا ، والمأمور قصد : إنكم لسارقون
الصواع ، وهو يظن أنهم سرقوه - فلم يكن متعمداً للكذب ، وإن كان خبيره
كاذباً .

(١) سورة يوسف آية رقم ٧٠ وصدر الآية ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ .

والرب تعالى لا تقاس أفعاله بأفعال عباده ، فهو يخلق جميع ما يخلقه
لحكمة ومصلحة ، وإن كان بعض ما خلقه فيه قبح ، كما يخلق الأعيان الخبيثة -
كالنجاسات وكالشياطين - لحكمة راجحة - وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دلائل إثبات الرب كثيرة جداً ، وهؤلاء الذين يزعمون
أن المعقول يعارض خبر الرسول - الذين يقولون إنهم أثبتوا واجب الوجود ، أو
القديم ، أو الصانع - هم لم يثبتوه ، بل حججهم تقتضي نفيه وتعطيله ، فهم
نافون له ، لا مثبتون له ، وحججهم باطلة في العقل ، لا صحيحة في العقل .

والمعرفة بالله ليست موقوفة على أصولهم ، بل تمام المعرفة سوقوف على
العلم بفساد أصولهم ، وإن سموها « أصول العلم والدين » فهي « أصول
الجهل وأصول دين الشيطان لا دين الرحمن » وحقيقة كلامهم « ترتيب الأصول
في مخالفة الرسول والمعقول » كما قال أصحاب النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ
مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ^(١) ، فمن خالف الرسول فقد خالف السمع
والعقل - خالف الأدلة السمعية والعقلية . أما القائلون بواجب الوجود ، فقد
بينوا في غير موضع أنهم لم يقيموا دليلاً على واجب الوجود .

وأن الرازي لما تبع ابن سينا لم يكن في كتبه إثبات واجب الوجود . فإنهم
جعلوا وجوده موقوفاً على إثبات « الممكن » الذي يدخل فيه القديم ، فما بقي
يمكن إثبات واجب الوجود على طريقهم إلا بإثبات ممكن قديم ، وهذا ممتنع في
بديهية العقل واتفاق العقلاء ، فكان طريقهم موقوفاً على مقدمة طالبة في صريح
العقل ، وقد اتفق العقلاء على بطلانها ، فبطل دليلهم ، ولهذا كان كلامهم في
« الممكن » مضطرباً غاية الاضطراب .

ولكن أمكنهم أن يستدلوا على أن المحدث لا بد له من قديم ، وهو
واجب الوجود . ولكن قد أثبتوا قديماً ليس بواجب الوجود ، فصار ما أثبتوه من

(١) سورة الملك آية رقم ١٠ .

القديم يناقض أن يكون هورب العالمين ، إذ أثبتوا قديماً ينقسم إلى واجب ، وإلى غير واجب .

وأيضاً فالواجب الذي أثبتوه قالوا : إنه يمتنع اتصافه بصفة ثبوتية ، وهذا يمتنع الوجوب ، لا يمكن الوجوب ، فضلاً عن أن يكون واجب الوجود ، كما قد بسط هذا في مواضع . وبين أن الواجب الذي يدعونه يقولون إنه لا يكون صفة ولا موصوفاً البتة ، وهذا إنما يتخيل في الأذهان لا حقيقة له في الأعيان .

والواجب إذا فسر بمبدع الممكنات فهو حق ، وهو اسم للذات المتصفة بصفاتهما ، وإذا فسر بالموجود بنفسه الذي لا فاعل له فالذات واجبة والصفات واجبة ، وإذا فسر بما لا فاعل له ولا محدث فالذات واجبة والصفات ليست واجبة ، وإذا فسر بما ليس صفة ولا موصوفاً فهذا باطل لا حقيقة له ، بل هو ممتنع الوجود ، لا يمكن الوجود ، ولا واجب الوجود ، وكلما أمعنوا في تجريده عن الصفات كانوا أشد إغفالاً في التعطيل ، كما قد بسط في مواضع .

وأما الذين قالوا إنهم أثبتوا القديم ، من الجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم من الأشعرية والكرامية الذين استدلوا بحدوث الأعراض ولزومها للأجسام ، وامتناع حوادث لا أول لها ، على حدوث الأجسام ، فهؤلاء لم يشبوا الصانع لما عرف من فساد هذا الدليل حيث ادعوا امتناع كون الرب متكليماً بمشيئته أو فعلاً لما يشاء ، بل حقيقة قولهم امتناع كونه لم يزل قادراً ، وأدلتهم على هذا الامتناع قد ذكرت مستوفاة في غير هذا الموضع ، وذكر كلامهم هم في بيان بطلانها .

وأما كونهم عطلوا الخالق فلأن حقيقة قولهم أن من لم يزل متكليماً بمشيئته فهو محدث ، فيلزم أن يكون الرب محدثاً ، لا قديماً ، بل حقيقة أصلهم أن ما قامت به الصفات والأفعال فهو محدث ، وكل موجود فلا بد له من ذلك ، فيلزم أن يكون كل موجود محدثاً ، ولهذا صرح أئمة هذا الطريق - الجهمية والمعتزلة - بنفي صفات الرب ، وبنفي قيام الأفعال وسائر الأمور الاختيارية بذاته ، إذ هذا

موجب دليلهم ، وهذه الصفات لازمة له ، ونفي اللازم يقتضي نفي الملزوم ، فكان حقيقة قولهم نفي الرب وتعطيله .

وهم يسمون الصفات أعراضاً ، والأفعال ونحوها حوادث ، فقالوا : الرب ينزه عن أن تقوم به الأعراض والحوادث ، فإن ذلك مستلزم أن يكون جسماً . قالوا : وقد أقمنا الدليل على حدوث كل جسم ، فإن الجسم لا ينفك من الأعراض المحدثه ولا يسبقها ، وما لم ينفك عن الحوادث ولم يسبقها فهو حادث .

وقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على مذهب السلف ، وأن الرب لم يزل متكلاً إذا شاء ، فيلزم على قولهم أنه لم يسبق الحوادث ولم ينفك عنها . ويجب على قولهم [كونه] حادثاً .

فالأصل الذي أثبتوا به القديم هو نفسه يقتضي أنه ليس بقديم ، وأنه ليس في الوجود قديم ، كما أن أولئك أصلهم يقتضي أنه ليس بواجب بذاته ، وأنه ليس في الوجود واجب بذاته .

والطريق التي قالوا بها يثبت الصانع مناقضة لاثبات الصانع ، وإذا قالوا : لا يمكن العلم بالصانع إلا بها ، كان الحق أن يقال : بل لا يمكن تمام العلم بالصانع إلا مع العلم بفسادها .

ولهذا كان كل من أقر بصحتها قد كذب بعض ما أخبر به الرسول مما هو من لوازم الرب ، ونفي اللازم يقتضي نفي الملزوم .

والذين زعموا أنهم يحتجون به على حدوث الأجسام من جنس ما زعم أولئك أنهم يحتجون به على إمكان الأجسام ، وكل منهما باطل ، ومقتضاه حدوث كل موجود وإمكان كل موجود ، وأنه ليس في الوجود قديم ولا واجب بنفسه .

فأصولهم تناقض مطلوبهم ، وهي طريقة مضلة ، لا هادية ، لكن كما قال

الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (١) .

وأما الذين يقولون : ثبت الصانع والخالق ، ويقولون : إنا نسلك غير هذه الطريق ، كلاستدلال بحدوث الصفات على الرب ، فإن هذه تدل عليه من غير احتياج إلى ما التزمه أولئك ، والرازي قد ذكر هذه الطريق .

وأما الأشعري نفسه فلم يستدل بها . بل « في اللمع » ، و« رسالته إلى الثغر » استدل بالحوادث على حدوث ما قامت به ، كما ذكره في النطفة بناء على امتناع حوادث لا أول لها ، ثم جعل حدوث تلك الجواهر التي ذكر أنه دل على حدوثها هو الدليل على ثبوت الصانع وهذه الطريق باطلة ، كما قد بين .

وأما تلك فهي صحيحة ، لكن أفسدوها من جهة كونهم جعلوا الحوادث المشهود لهم حدوثها هي الأعراض فقط ، كما قد بينا هذا في مواضع . ثم يقال : هؤلاء يثبتون خالقاً لا خلق له ، وهذا ممتنع في بداية العقول ، فلم يثبتوا خالقاً .

والكرامية ، وإن كانوا يقولون : الخلق غير المخلوق ، فهم يقولون بحدوث الخلق بلا سبب يوجب حدوثه ، وهذا أيضاً ممتنع ، فما أثبتوا خالقاً .

وأيضاً فهؤلاء وهؤلاء يقولون : الموجب للتخصيص بحدوث ما حدث دون غيره هو إرادة قديمة أزلية ، فالكرامية يقولون : هي المخصص لما قام به وما خلقه ، وهؤلاء عندهم لم يقم به شيء يكون مراداً ، بل يقولون : هي المخصص لما حدث .

والطائفتان ومن وافقهم يقولون : تلك الإرادة قديمة أزلية لم يزل على نعت واحد ، ثم وجدت الحوادث بلا سبب أصلاً . ويقولون : من شأنها أن تخصص مثلاً على مثل ، ومن شأنها أن تتقدم على المراد تقدماً لا أول له ، فوصفوا

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

الإرادة بثلاث صفات باطلة يعلم بصريح العقل أن الإرادة لا تكون هكذا ، وهي المقتضية للخلق والحدوث ، فإذا أثبتت فلا خلق ولا حدوث .

وكذلك القدرة التي أثبتوها وصفوها بما يمتنع أن يكون قدرة ، وهي شرط في الخلق ، فإذا نفوا شرط الخلق ، انتفى الخلق ، فلم يبق خالقاً ، فالذي وصفوا به الخالق يناقض كونه خالقاً ، ليس بل لازم لكونها خالقاً ، وهم جعلوه لازماً . لا مناقضاً .

أما الإرادة فذكروا لها ثلاثة لوازم ، والثلاثة تناقض الإرادة . قالوا إنها تكون ولا مراد لها ، بل لم يزل كذلك ثم حدث مرادها من غير تحول حالها ، وهذا معلوم الفساد ببديهة العقل ، فإن الفاعل إذا أراد أن يفعل فالمتقدم كان عزمًا على الفعل ، وقصداً له في الزمن المستقبل لم يكن إرادة للفعل في الحال ، بل إذا فعل فلا بد من إرادة الفعل في الحال ، ولهذا يقال : الماضي عزم ، والمقارن قصد ، فوجود الفعل بمجرد عزم من غير أن يتجدد قصد من الفاعل ممتنع . فكان حصول المخلوقات بهذه الإرادة ممتنعاً لو قدر إمكان حدوث الحوادث بلا سبب ، فكيف وذاك أيضاً ممتنع في نفسه ؟ فصار الامتناع من جهة الإرادة ، ومن جهة تعيينت بما هو ممتنع في نفسه .

الثاني : قولهم أن الإرادة ترجح مثلاً على مثل : فهذا مكابرة ، بل لا تكون الإرادة إلا لما ترجح وجوده على عدمه عند الفاعل ، إما لعلمه بأنه أفضل ، أو لكون محبته له أقوى ، وهو إنما يترجح في العلم لكون عاقبته أفضل ، فلا يفعل أحد شيئاً بإرادته إلا لكونه يحب المراد ، أو يحب ما يؤول إليه المراد بحيث يكون وجود ذلك المراد أحب إليه من عدمه ، لا يكون وجوده وعدمه عنده سواء .

الثالث : أن الإرادة الجازمة يتخلف عنها مرادها مع القدرة : فهذا أيضاً باطل . بل متى حصلت القدرة التامة والإرادة الجازمة وجب وجود المقدور وحيث لا يجب فإنما هو لنقص القدرة أو لعدم الإرادة التامة . والرب تعالى ما

شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وهو يخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أموراً لم يفعلها ، كما قال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ^(١) ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ ^(٣) . فبين أنه لو شاء ذلك لكان قادراً عليه ، لكنه لا يفعله لأنه لم يشأه ، إذ كان عدم مشيئته أرجح في الحكمة مع كونه قادراً عليه لو شاءه .

وقد بسط الكلام على ما يذكرونه في القدرة والإرادة - هم وغيرهم - في غير هذا الموضع ، وأن من هؤلاء من يقول : إنما يقدر على الأمور المباحية له دون الأفعال القائمة بنفسه ، كما يقول ذلك المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم . ومنهم من يقول : بل يقدر على ما يقوم به من الأفعال ، وعلى ما هو باين عنه ، كما يحكى عن الكرامية . والصواب الذي دل عليه القرآن والعقل أنه يقدر على هذا وهذا قال تعالى : ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ ^(٤) ، وقال : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ^(٥) وقال ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ^(٦) وقال ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ﴾ ^(٧) وهذا كثير في القرآن - أكثر من النوع الآخر .

فإن ما قاله الكرامية والهشامية أقرب إلى العقل والنقل مما قالت

(١) سورة السجدة آية رقم ١٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ١١٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ وتكملة الآية ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ .

(٤) سورة القيامة آية رقم ٤ .

(٥) سورة القيامة آية رقم ٤٠ .

(٦) سورة يس آية رقم ٨١ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المخطوطة حيث ذكرت ﴿ أليس ذلك

بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ .

(٧) سورة المؤمنون آية رقم ١٨ .

الجهمية ومن وافقهم ، وإن كان فيما حكوه عنهم خطأ من جهة نفهم القدرة على الأمور المباشرة .

والله تعالى قد أخبر أنه على كل شيء قدير ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأبي مسعود لما رآه يضرب غلامه : « الله أقدر عليك منك على هذا » . وفي القرآن : ﴿ فَإِنَّمَا نَذَبْنَاهُ بِكَ فَأِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ ^(١) وبسط هذا له مواضع أخر .

فجميع ما أخبر به الرسول ﷺ هو لازم في نفس الأمر ، وكل ما أثبتته من صفات الرب فهو لازم ، وإذا قدر عدمه لزوم عدم الملزوم ، فنفي ما أخبر به الرسول مستلزم للتعطيل . لكن من ذلك ما يظهر بالعقل مع تفاوت الناس في العقل ، ومنه ما يكفي فيه مجرد خبر الرسول ، فإن ما أخبر به الرسول فهو حق . وكل ما أثبت للرب فهو لازم الثبوت ، وما انتفى عنه فهو لازم الانتفاء فإذا قدر عدم اللازم لزوم عدم الملزوم .

لكن هذا كله لازم المذهب ، وهو يدل على بطلانه ، ولازم المذهب لا يجب أن يكون مذهباً ، بل أكثر الناس يقولون أقوالاً ولا يلتزمون لوازمها ، فلا يلزم إذا قال القائل ما يستلزم التعطيل أن يكون معتقداً للتعطيل ، بل يكون معتقداً للإثبات ، ولكن لا يعرف ذلك اللزوم وأيضاً فإذا كانت أصولهم التي بنوا عليها إثبات الصانع باطلة لم يلزم أن يكونوا هم غير مقرين بالصانع ، وإن كان هذا لازماً من قولهم . إذا قالوا : إنه لا يعرف إلا بهذه الطريق ، وقد ظهر فساد ، لزوم أن لا يعرف ، لكن هذا اللزوم يدل على فساد هذا النفي ، ولا يلزم أن لا يكونوا هم مقرين بالصانع لما قد بيناه في غير موضع أن الإقرار بالصانع ، ومعرفته ، ومحبته ، وتوحيده فطري ، يكون ثابتاً في قلب الإنسان ، وهو يظن أنه ليس في قلبه .

ولهذا كان عامة هؤلاء مقرين بالصانع ، معترفين به ، قبل أن يسلكوا

(١) سورة الزخرف آية رقم ٤١ - ٤٢ .

هذه الطريق النظرية ، سواء كانت صحيحة أو باطلة ، وهذا أمر يعرفونه من أنفسهم ، فعلم أنه لا يلزم من عدم سلوك هذه الطريق عدم المعرفة وقد اعترف كثير منهم بذلك ، كما قد بيناه في مواضع .

ومنهم من يقول : إن الطريق النظرية التي يسلكها زادته بصيرة وعلماً ، كما يقوله ابن حزم ^(١) وغيره ، وهو سلك طريقة الأعراض .

وكثير من الناس يقول : إن هذه الطريق لم تفدهم إلا شكاً وريباً وفطرة هؤلاء أصح ، فإنها طرق فاسدة .

ومنهم من يقول : لم يحصل لي بها شيء - لا علم ولا شك ، وذلك أنها لم تحصل له علماً ولا شكاً ، فلم يتبين له صحتها ولا فسادها . ومن الناس من لا يفهم مرادهم بها ، وأكثر أتباعهم لا يفهمونها ، بل يتبعونهم تقليداً وإحساناً للظن بهم .

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام ، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه يقال لهم « الحزمية » ولد بقرطبة عام ٣٨٤ وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدير المملكة من مصنفاته (الفصل في الملك والأهواء والنحل) و (جمهرة الأنساب) والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كثير توفي عام ٤٥٦ هـ . [راجع نفح الطيب ١ : ٣٦٤ وأخبار الحكماء ١٥٦ وإرشاد الأريب ٥ : ٨٦ - ٩٧ ولسان الميزان ٤ : ١٩٨ وبغية الملتبس ٤٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٣٦ - ١٤٤]

فصل لوازم القدرة والمشئة

ومما ينبغي أن يعرف أنا لا نقول إن الشيء لا يعرف إلا بإثبات جميع لوازمه ، هذا لا يقوله عاقل ، بل قد تعرف عامة الأشياء وكثير من لوازمها لا تعرف ، وقد يعلم المسلمون أن الرب على كل شيء قدير ، وأنه يفعل ما يشاء ، وهم لا يعرفون كثيراً من لوازم القدرة والمشئة ، لكن أهل الاستقامة كما لا يعرفون اللوازم فلا ينفونها ، فإن نفيها خطأ .

وأما عدم العلم بها كلها فهذا لازم لجميع الناس - فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وما سواه ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ^(١) وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ ^(٢) .

ولكن المقصود بيان أن المخالفين للرسول ﷺ - ولو في كلمة - لا بد أن يكون في قولهم من الخطأ بحسب ذلك . وأن الأدلة العقلية والسمعية المنقولة عن سائر الأنبياء توافق ما جاء به الرسول ﷺ ، وتناقض ما يقوله أهل البدع المخالفون للكتاب والسنة ، وإذا قالوا : إن العقل يخالف النقل . أخطأوا في

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ وقد جاءت محرفة في المطبوعة حيث ذكرت ﴿ لَا يُحِيطُونَ ﴾ بدون الواو .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٠ .

خمسة أصول : أحدها : أن العقل الصريح لا يناقضه ، الثاني : أنه يوافقه .
الثالث : أن ما يدعونه من العقل المعارض ليس بصحيح - الرابع : أن ما
ذكروه من المعقول المعارض هو المعارض للمعقول الصريح . الخامس : أن
ما أثبتوا به الأصول كمعرفة الباري وصفاته لا يثبتها بل يناقض إثباتها .

فصل علم الله تعالى وأخباره به

وذلك أن ما جاء به الرسول هو من علم الله ، فما أخبر به عن الله ،
فالله أخبر به ، وهو سبحانه يخبر بعلمه - يمتنع أن يخبر بنقيض علمه وما أمر
به فهو من حكم الله ، والله عليم حكيم .

قال تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ
يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا
بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ،
فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ . قال الزجاج ^(٣) : أنزله وفيه علمه ، وقال أبو
سليمان الدمشقي : أنزله من علمه ، وهكذا ذكر غيرهما .

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٣ - ١٤ .

(٣) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج عالم بالنحو واللغة ولد عام ٢٤١ هـ ومات
عام ٣١١ ببغداد كانت له مناقشات مع ثعلب وغيره من كتبه (معاني القرآن) (الاشتقاق)
(خلق القرآن) وغير ذلك كثير . [راجع معجم الأدباء ١ : ٤٧ وآداب اللغة ٢ : ١٨١
وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩ وابن خلكان ١ : ١١]

وهذا المعنى مأثور عن السلف ، كما روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرحمن القرآن . وكان إذا أقرأ أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله ، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ، ثم يقرأ ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (١) .

وكذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (٢) ، قالوا : أنزله وفيه علمه .

« قلت » : الباء قد تكون للمصاحبة ، كما تقول : جاء بأسياده وأولاده فقد أنزله متصمناً لعلمه ، مستصحباً لعلمه ، فما فيه من الخبر هو خبر بعلم الله ، وما فيه من الأمر فهو أمر بعلم الله ، بخلاف الكلام المنزل من عند غير الله ، فإن ذلك قد يكون كذباً وظلماً كقرآن مسيلمة ، وقد يكون صدقاً لكن إنما فيه علم المخلوق الذي قاله فقط ، لم يدل على علم الله تعالى إلا من جهة اللزوم . وهو أن الحق يعلمه الله .

وأما القرآن فهو متضمن لعلم الله ابتداء ، فإنما أنزل بعلمه لا بعلم غيره ، ولا هو كلام بلا علم .

وإذا كان قد أنزل بعلمه فهو يقتضي أنه حق من الله ، ويقتضي أن الرسول رسول من الله الذي بين فيه علمه ، قال الزجاج : « الشاهد » المبين لما شهد به ، والله يبين ذلك ويعلم مع ذلك أنه حق .

« قلت » : قوله : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ ﴾ (٣) شهادته هو بيانه وإظهاره - دلالاته وإخباره ، فالآيات البينات التي بين بها صدق الرسول تدل عليه - ومنها القرآن - هو شهادة بالقول .

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

وهو في نفسه آية ومعجزة تدل على الصدق كما تدل سائر الآيات ، والآيات كلها شهادة من الله ، كشهادة بالقول ، وقد تكون أبلغ . ولهذا ذكر هذا في سورة هود لما تحداهم بالإتيان بالمثل فقال : ﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) فإن عجز أولئك عن المعارضة دل على عجز غيرهم بطريق الأولى ، وتبين أن جميع الخلق عاجزون عن معارضته ، وأنه آية بينة تدل على الرسالة وعلى التوحيد .

وكذلك قوله : ﴿ لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٢) . [بعد] قوله : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - إِلَى قَوْلِهِ - لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) وقد ذكروا أن من الكفار من قال : لا نشهد لمحمد بالرسالة ، فقال تعالى : ﴿ لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٤) وأحسن من هذا أنه لما قال : ﴿ لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٥) - نفى حجة الخلق على الخالق - فقال : لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة ، فإن يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه فما للخلق على الله حجة ، بل له الحجة البالغة ، وهو الذي هدى عباده بما أنزله .

وعلى ما تقدم فقوله ﴿ أنزله بعلمه ﴾ أي فيه علمه بما كان وسيكون وما أخبر به ، وهو أيضاً مما يدل على أنه حق ، فإنه إذا أخبر بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله دل على أن الله أخبره به ، كقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ

(١) سورة هود آية رقم ١٣ - ١٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٣ - ١٦٥ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .

أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴿١﴾ - الآية . وقد قيل : أنزله وهو عالم به وبك - قال ابن جرير الطبري في آية النساء : أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه .

وذكر الزجاج في آية هود قولين : أحدهما : أنزله وهو عالم بإنزاله ، وعالم أنه حق من عنده ، الثاني : أنه أنزله بما أخبر فيه من الغيوب ، ودل على ما سيكون وما سلف .

« قلت » : هذا الوجه هو الذي تقدم .

وأما الأول فهو من جنس قول ابن جرير ، فإنه عالم به وبمن أنزل إليه ، وعالم بأنه حق ، وأن الذي أنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له . ولكون هذا كقوله : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) وقول من قال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (٣) أي على علم من الله باستحقاقه . « قلت » وهذا الوجه يدخل في معنى الأول فإنه إذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه ، وفيه الإخبار بحاله وحال الرسول ، وهذا الوجه هو الصواب ، وعليه الأكثرون ، ومنهم من لم يذكر غيره .

والأول وإن كان معناه صحيحاً فهو جزء من هذا الوجه .

وأما كون الثاني هو المراد بالآية فغلط ، لأن كون الرب سبحانه يعلم الشيء لا يدل على أنه محمود ولا مذموم . وهو سبحانه بكل شيء عليم ، فلا يقول أحد إنه أنزله وهو لا يعلمه .

لكن قد يظن أنه أنزل بغير علمه ، أي وليس فيه علمه ، وأنه من تنزيل الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ

(١) سورة الجن آية رقم ٢٦ - ٢٧ .

(٢) سورة الدخان آية رقم ٣٢ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٧٨ .

كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١﴾ والشیاطین ، هو یرسلهم وینزلهم ، لكن الكلام الذي یأتون به ليس منزلاً منه ، ولا هو منزل بعلم الله ، بل منزل بما تقوله الشیاطین من كذب وغيره .

ولهذا هو سبحانه إذا ذكر نزول القرآن قیده بأن نزوله منه كقوله : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ﴿٣﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ﴿٤﴾ . وهذا مما استدل به الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة على أن القرآن كلام الله - ليس بمخلوق خلقه في محل غيره ، فإنه كان يكون منزلاً من ذلك المحل لا من الله ، وقال إنه نزل بعلم الله ، وإنه من علم الله ، وعلم الله غير مخلوق .

وقال أحمد : كلام الله من الله ليس شيئاً منه ، ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . فقالوا : منه بدأ لم يبدأ من غيره ، كما تقول الجهمية . يقولون : بدأ من المحل الذي خلق فيه ، وهذا مبسوط في مواضع . والمقصود أنه إذا كان فيه علمه فهو حق ، والكلام الذي يعارضه به خلاف علم الله فهو باطل ، كالشرك الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٥﴾ .

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ١ وتكملة الآية ﴿ العزيز الحكيم ﴾ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٥) سورة يونس آية رقم ١٨ .

فصل

أصول الدين تأخذ من الكتاب والسنة

وهذا الذي ذكرته من أنه يجب الرجوع في أصول الدين إلى الكتاب والسنة ، كما بينته من أن الكتاب بين الأدلة العقلية التي بها تعرف المطالب الإلهية ، وبين ما يدل على صدق الرسول في كل ما يقوله هو - يظهر الحق بأدلتها السمعية والعقلية .

وبين أن لفظ « العقل والسمع » قد صار لفظاً مجملاً ، فكل من وضع شيئاً برأيه سماه « عقليات » والآخر يبين خطأه فيما قاله ، ويدعى العقل أيضاً ، ويذكر أشياء آخر تكون أيضاً خطأ ، كما قد بسط في مواضع .

وهو نظير من يحتاج في السمع بأحاديث ضعيفة أو موضوعة ، أو نصوص ثابتة لكن لا تدل على مطلوبه .

وكثير من أهل الكلام يجعل دلالة القرآن والأحاديث من جهة الخبر المجرد ومعلوم أن ذلك لا يوجب العلم إلا بعد العلم بصدق المخبر ، فلهذا يضطرون إلى أن يجعلوا العلوم العقلية أصلاً ، كما يفعل أبو المعالي^(١) ، وأبو حامد^(٢) ، والرازي^(٣) ، وغيرهم .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وأئمة المتكلمين يعترفون بأن القرآن بين الأدلة العقلية ، كما يذكر ذلك الأشعري وغيره ، وعبد الجبار ^(١) بن أحمد وغيره من المعتزلة .

ثم هؤلاء قد يذكرون أدلة يجعلونها أدلة القرآن ، ولا تكون هي إياها ، كما فعل الأشعري في « اللع » ^(٢) وغيره ، حيث احتج بخلق الإنسان ، وذكر قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(٣) . لكن هو يظن أن النطفة فيها جواهر باقية ، وأن نقلها في الأعراض يدل على حدوثها ، فاستدل على حدوث جواهر النطفة .

وليست هذه طريقة القرآن ، ولا جمهور العقلاء ، بل يعرفون أن النطفة حادثة بعد أن لم تكن ، مستحيلة عن دم الإنسان ، وهي مستحيلة إلى المضغة ، وأن الله يخلق هذا الجوهر الثاني من المادة الأولى بالاستحالة ويعدم المادة الأولى - لا تبقى جواهرها بأعيانها دائماً ، كما تقدم .

فالنظار - في القرآن ثلاث درجات ، منهم من يعرض عن دلائله العقلية ، ومنهم من يقر بها لكن يغلط في فهمها ، ومنهم من يعرفها على وجهها ، كما أنهم ثلاث طبقات في دلالته الخبرية ، منهم من يقول لم يدل على الصفات الخبرية ، ومنهم من يستدل به على غير ما دل عليه ومنهم من يستدل به على ما دل عليه . والأشعري وأمثاله برزخ بين السلف والجهمية ، أخذوا من هؤلاء كلاماً صحيحاً ، ومن هؤلاء أصولاً عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة . فمن الناس

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني أبو الحسين قاض أصولي ، كان شيخ المعتزلة في عصره وهم يقلبونه قاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره ، ولي القضاء بالري ومات بها عام ٤١٥ هـ .

له تصانيف كثيرة منها (تنزيه القرآن عن المطاعن) والمجموع في المحيط بالتكليف ، وشرح الأصول الخمسة ، والمغني في أبواب التوحيد والعدل وغير ذلك كثير . [راجع الرسالة المستطرفة ١٢٠ والسبكي ٣ : ١١٦ ولسان الميزان ٣ : ٣٨٦ وتاريخ بغداد ١١ : ١١٣] .

(٢) قام بتحقيقه الشيخ حموده غرابة أحد علماء الأزهر وقام بطبعه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٣) سورة الواقعة آية رقم ٥٨ - ٥٩ .

من مال إليه من الجهة السلفية ، ومن الناس من مال إليه من الجهة البدعية الجهمية كأبي المعالي وأتباعه ، ومنهم من سلك مسلكتهم كأئمة أصحابهم ، كما قد بسط في مواضع . إذا المقصود هنا أن جعل القرآن إماماً يؤتم به في أصول الدين وفروعه هو دين الإسلام ، وهو طريقة الصحابة ، والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين ، فلم يكن هؤلاء يقبلون من أحد قط أن يعارض القرآن بمعقول أو رأي يقدمه على القرآن ، ولكن إذا عرض للإنسان إشكال سأل حتى يتبين له الصواب . ولهذا صنف الإمام أحمد كتاباً في « الرد على الزنادقة والجهمية فيما شككت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله » (١) .

ولهذا كان الأئمة الأربعة وغيرهم يرجعون في التوحيد والصفات إلى القرآن والرسول - لا إلى رأي أحد ، ولا معقوله ، ولا قياسه .

قال الأوزاعي (٢) : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث .

وقال الشافعي في خطبة « الرسالة » (٣) الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه ، وفوق ما يصفه به خلقه .

وقال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وكان يكره ما أحدث من الكلام ، وروي عنه وعن أبي يوسف (٤) : من طلب الدين بالكلام تزندق .

(١) قمنا بتحقيق هذا الكتاب والتقديم له وقامت بطبعه دار اللواء بالرياض .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) قام بتحقيقه وتخريج أحاديثه فضيلة الشيخ أحمد محمود شاكر .

(٤) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي أبو يوسف صاحب الامام أبي حنيفة وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه توفي عام ١٨٢ . [راجع مفتاح السعادة ٢ : ١٠٠ - =

وقال الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في الأسواق ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام ، وقال : لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت أظنه ، ولأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له [من] أن يبتلى بالكلام .

وقد بسط تفسير كلامه وكلام غيره في مواضع ، وبين أن مرادهم بالكلام هو كلام الجهمية الذي نفوا به الصفات ، وزعموا أنهم يثبتون به حدوث العالم ، وهي طريقة الأعراض .

وقال أحمد أيضاً : علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح ، وكلام عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ^(١) مبسوط في هذا . وذكر أصحاب أبي حنيفة ، عن أبي يوسف ، عن أبي حنيفة قال : لا ينبغي لأحد أن ينطق في الله بشيء من رأيه ولكنه يصفه بما وصف به نفسه .

وقال أبو حنيفة : أتاننا من خراسان ضيفان . كلاهما ضالان : الجهمية والمشبهة .

وعن أبي عصمة قال : سألت أبا حنيفة : من أهل الجماعة ؟ قال : من فضل أبا بكر وعمر ، وأحب علياً وعثمان ، ولم يحرم نبذ الجر ، ولم يكفر أحداً بذنوب ، ورأى المسح على الخفين ، وآمن بالقدر خيره وشره من الله ، ولم ينطق في الله بشيء .

وروى خالد بن صبيح ، عن أبي حنيفة قال : الجماعة سبعة أشياء : أن

١٠٧ وابن النديم ٢٠٣ وأخبار القضاة لوكيع ٣ : ٢٥٤ ، والنجوم الزاهرة ٢ : ١٠٧ والبداية والنهاية ١٠ : ١٨٠ والجواهر المضية ٢ : ٢٢٠ وتاريخ بغداد ١٤ : ٢٤٢ وابن خلكان ٢ : ٣٠٣

(١) هو عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي ، مولا هم المدني أبو عبد الله فقيه ، من حفاظ الحديث الثقات ، له تصانيف كان وقوراً عاقلاً ثقة ، أصله من أصبهان نزل المدينة ثم قصد بغداد فتوفي فيها عام ١٦٤ هـ وصلى عليه الخليفة المهدي وهو يعد من فقهاء المدينة . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٠٦ وتهذيب ٦ : ٣٤٣ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤٣٦] .

يفضل أبا بكر وعمر ، وأن يحب عثمان وعلياً ، وأن يصلي على من مات من أهل القبلة بذنب ، وأن لا ينطق في الله شيئاً .

قلت : قوله في هاتين الروايتين « لا ينطق في الله شيئاً » قد بينه في رواية أبي يوسف وهو « أن لا ينطق في الله بشيء من رأيه ، ولكنه يصفه بما وصف به نفسه » .

فهذا ذم من الأئمة لكل من يتكلم في صفات الرب بغير ما أخبر به الرسول ، فكيف بالذين يجعلون الكتاب والسنة لا يفيد علماً ، ويقدمون رأيهم على ذلك ، مع فساده من وجوه كثيرة ؟ !

وروى هشام ، عن محمد ، عن أبي حنيفة وأبي يوسف ، وهو قول محمد قالوا : السنة التي عليها أمر الناس أن لا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ويخرج من الإسلام ، ولا يشك في الدين - يقول الرجل : لا أدري أمؤمن أنا أو كافر ، ولا يقول بالقدر ، ولا يخرج على المسلمين بالسيف ، ويقدم من يقدم من أصحاب النبي ﷺ ويفضل من فضل .

وذكروا عن أبي يوسف أنه قال : مذهب أهل الجماعة عندنا ، وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه ممن لم يأخذ من البدع والأهواء ، أن لا يشتم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا يذكر فيهم عيباً ، ولا يذكر ما شجر بينهم فيحرف القلوب عنهم ، وأن لا يشك بأنهم مؤمنون ، ولا يكفر أحداً من أهل القبلة ممن يقر بالإسلام ويؤمن بالقرآن ، ولا يخرج من الإيمان بمعصية إن كانت فيه ، ولا يقول بقول أهل القدر ، ولا يخاصم في الدين ، فإنها من أعظم البدع .

فهذا قول أهل السنة والجماعة ، ولا ينبغي لأحد أن يقول في هذا كيف ولم ؟ . ولا ينبغي أن يخبر السائل عن هذا إلا بالنهي له عن المسألة وترك المجالسة والمشى معه إن عاد ، ولا ينبغي لأحد من أهل السنة والجماعة أن يخالط أحداً من أهل الأهواء حتى يصاحبه ويكون خاصته ، مخافة أن يستزله

أو يستزل غيره بصحبة هذا . قال : والخصومة في الدين بدعة ، وما ينقض أهل الأهواء بعضهم على بعض بدعة محدثة ، لو كانت فضلاً لسبق إليها أصحاب رسول الله ﷺ واتباعهم ، فهم كانوا عليها أقوى ولها أبصر ، وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ ^(١) ، ولم يأمره بالجدال ، ولو شاء لأنزل حججاً وقال له : قل كذا وكذا . وقال أبو يوسف : دعوا قول أصحاب الخصومات وأهل البدع في الأهواء من المرجئة ، والرافضة ، والزيدية ^(٢) ، والمشيبة ، والشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمعتزلة ، والجهمية .

قالوا : وروي عن محمد . قال : أبو بكر وعمر أفضل من علي . قلت ما ذكر أبو يوسف في أمر الجدال هو يشبه كلام كثير من أئمة السنة - يشبه كلام الإمام أحمد وغيره ، وفيه بسط وتفصيل ليس هذا موضعه .

ولهذا كان بشير بن الوليد صاحب أبي يوسف يحب أحمد ، ويميل إليه ، فإن أبا يوسف كان أميل إلى الحديث من غيره . والله أعلم وأحكم .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ .

(٢) فرقة من فرق الشيعة فسبها يعود إلى زيد بن علي بن الحسين وهي أقرب الفرق الشيعية إلى السنة .

فالإمامة عندهم تكون عن طريق الخيار في نسل العلويين والفاطميين ، وأن إمامة علي تمت عن طريق الوصف لا عن طريق التشخيص الثابت منهم لا يتبرأون من أبي بكر وعمر بن الخطاب ولا يطعنون في خلافتها ، فهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وقد تأثروا إلى حد كبير في عقائدهم بمدرسة المعتزلة وأتباع الزيدية يوجدون في اليمن الجنوبية والشمالية وجنوب الجزيرة العربية .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

خصائص السور القصار

السور القصار في أواخر المصحف متناسبة ، فسورة « اقرأ » هي أول ما نزل من القرآن ، ولهذا افتتحت بالأمر بالقراءة ، وختمت بالأمر بالسجود ، ووسطت بالصلاة التي أفضل أقوالها وأولها بعد التحريم هو القراءة ، وأفضل أفعالها وأخرها قبل التحليل هو السجود ، ولهذا لما أمر بأن يقرأ أنزل عليه بعدها المدثر ، لأجل التبليغ ف قيل له : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ^(١) فبالأولى صار نبياً ، وبالثانية صار رسولاً ، ولهذا خوطب بالمدثر ، وهو المتدفىء من برد الرعب والفرع الحاصل بعظمة ما دهمه لما رجع إلى خديجة ترجف بواده ، وقال دثروني دثروني ^(٢) ، فكأنه نهى عن الاستدفاء وأمر بالقيام للإنذار ، كما خوطب في « المزمل » وهو المتلف للنوم لما أمر بالقيام إلى الصلاة ، فلما

(١) سورة المدثر آية رقم ٢ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٧٤ سورة المدثر ١ باب ٢، ٤٩٢٢ باب ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ٣ باب وربك فذكر ٤٩٢٤ حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حرب ، حدثنا يحيى ، قال : سألت أبا سلمة أي القرآن أنزل أول ؟ . . . فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فقلت (أنبت أنه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل أول ؟ . . . فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فقلت أنبت أنه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال : لا أخبرك إلا بما قال رسول الله - ﷺ قال رسول الله - ﷺ - جاورت في حراء فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت ، فظنرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض ، فأتيت خديجة فقلت : وذكره .

أمر في هذه السورة بالقراءة ذكر في التي تليها نزول القرآن ليلة القدر ، وذكر فيها ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ﴾ ^(١) ، وفي « المعارج » عروج الملائكة والروح ، وفي « النبأ » قيام الملائكة والروح ، فذكر الصعود والنزول والقيام ، ثم في التي تليها تلاوته على المنذرين حيث قال : ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ، فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ ^(٢) .

فهذه السور الثلاث منتظمة للقرآن أمراً به وذكرًا لنزوله ولتلاوة الرسول له على المنذرين ، ثم سورة « الزلزلة » و« العاديات » و« القارعة » و« التكاثر » متضمنة لذكر اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب ، وكل واحد من القرآن واليوم الآخر قيل هو النبأ العظيم .

ثم سورة « العصر » و« الهمزة » و« الفيل » و« لايلاف » و« أرأيت » و« الكوثر » و« الكافرون » و« النصر » و« تبت » متضمنة لذكر الأعمال حسنها وسيئها ، وإن كان لكل سورة خاصة .

وأما سورة « الإخلاص » و« المعوذتان » ففي الإخلاص الشاء على الله ، وفي المعوذتين دعاء العبد ربه ليعيذه ، والثناء مقرون بالدعاء ، كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الرب والعبد : نصفها ثناء للرب ، ونصفها دعاء للعبد ، والمناسبة في ذلك ظاهرة ، فإن أول الإيمان بالرسول : الإيمان بما جاء به من الرسالة وهو القرآن ، ثم الإيمان بمقصود ذلك وغايته وهو ما ينتهي الأمر إليه من النعيم والعذاب ، وهو الجزاء ، ثم معرفة طريق المقصود وسببه وهو الأعمال : خيرها ليفعل ، وشرها لترك .

ثم ختم المصحف بحقيقة الإيمان وهو ذكر الله ودعاؤه ، كما بنيت عليه أم القرآن ، فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق . والمنطق قسمان : خبر وإنشاء ، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبراً عن الله ، كنصف الفاتحة ،

(١) سورة القدر آية رقم ٤ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٢ - ٣ .

وسورة الإخلاص .

وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب وأنفعه وأوجه ما كان طلباً من الله ،
كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين .

التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين

إبن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ

رحمه الله تعالى

الجزء السابع

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن حميرة

عضو اللجنة العامة الدائمة

بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

سورة البينة

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

في قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١) .

فإن هذه السورة سورة جليلة القدر ، وقد ورد فيها فضائل ، وقد ثبت في الصحيح أن الله أمر نبيه أن يقرأها على أبي بن كعب ، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال لأبي : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن » . قال : آله سمانى لك ؟ قال : « آله سمالك لي » قال : فجعل أبي يبكي . وفي رواية أخرى : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك » . لم يكن الذين كفروا » . قال : سمانى لك ؟ قال : « نعم » فبكى (٢) ، وفي رواية للبخاري : وذكرت عند رب العالمين ؟ قال : « نعم » فذرفت عيناه قال قتادة : أنبت أنه قرأ عليه : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

(١) سورة البينة آية رقم ١ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري ٩٨ سورة ﴿ لم يكن ﴾ ١ باب ٤٩٥٩ حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر ، حدثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه - وذكره . وهناك رواية أخرى للبخاري حدثنا حسان بن حسان حدثنا همام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه وذكره .

وقد أخرجه الحاكم وأحمد والترمذي من طريق زر بن حبيش عن أبي بن كعب نفسه مطولاً ولفظه « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن قال : فقرأ عليه لم يكن الذين كفروا والجمع بين الروايتين حل المطلق على المقيد لقراءته لم يكن دون غيرها .

الْكِتَابِ ﴿١﴾ . وتخصيص هذه السورة بقراءتها على أبي يقتضي اختصاصها وامتيازها بما اقتضى ذلك .

وقوله : « أن أقرأ عليك » أي قراءة تبليغ وإسماع وتلقين ، ليس هي قراءة تلقين وتصحيح كما يقرأ المتعلم على المعلم ، فإن هذا قد ظنه بعضهم ، وجعلوا هذا من باب التواضع ، وجعل أبو حامد (٢) هذا مما يستدل به على تواضع المتعلم ، وليس هذا بشيء ، فإن هذه القراءة كان يقرأها على جبريل يعرض عليه القرآن كل عام ، فإنه هو الذي نزل عليه القرآن .

أما الناس فمنه تعلموه ، فكيف يصح قراءته على أحد منهم ، أو يقرأ كما يقرأ المتعلم ؟ . ولكن قراءته على أبي بن كعب كما كان يقرأ القرآن على الإنس والجن ، فقد قرأ على الجن القرآن ، وكان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويقرأه على الناس في الصلاة وغير الصلاة .

قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ (٥) ، وذكر مثل هذا في غير موضع ، فهو يتلو على المؤمنين آيات الله .

وأبي بن كعب أمر بتخصيصه بالتلاوة عليه لفضيلة أبي واختصاصه بعلم

(١) سورة البينة آية رقم ١ .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ، حجة الإسلام سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وكانت وفاته عام ٥٠٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ :

١٠١] .

(٣) سورة الانشقاق آية رقم ٢٠-٢١ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٥٨ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

القرآن ، كما ثبت في الصحاح عن عمر أنه قال : « أَبِي أَقْرَأُنا وَعَلِي أَقْضانا » (١) .

وفي الصحيح أنه قال لابن مسعود : « إقرأ عليَّ القرآن » . قال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إني أحب أن أسمع من غيري » (٢) . فقراءة ابن مسعود عليه في هذا الموضع لإسماعه إياه ، لا لأجل التصحيح والتلقين .

وفي معنى قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مُنْفَكِينَ ﴾ (٣) ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد لم يكونوا منفكين عن الكفر ؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث ، فلم يكونوا منفكين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث ؟

أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يُرسل إليهم رسول ؟

وممن ذكر هذا أبو الفرج بن الجوزي . قال : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ وهم عبدة الأوثان : ﴿ منفكين ﴾ أي منفصلين وزائلين . يقال : فككت الشيء فانفك ، أي انفصل . والمعنى : لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم حتى أتتهم

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٧ باب قوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ ٤٤٨١ حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : قال عمر - رضي الله عنه وذكره ، وأخرجه البغوي وعن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن النبي - ﷺ - أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأقضاهم علي . ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١١٣ (حلي) .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٩ باب فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ٤٥٨٢ عن سفيان عن سليمان عن ابراهيم عن عبيدة عن عبدالله عن عمرو بن مرة قال : قال لي النبي - ﷺ - وذكره .

(٣) سورة البينة آية رقم ١ .

البينة ، لفظه لفظ المستقبل ومعناه الماضي ، والبينة الرسول ، وهو محمد ﷺ بين لهم ضلالهم وجهلهم ، وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم به .

ولفظ البغوي ^(١) نحو هذا قال : لم يكونوا منتهين عن كفرهم وشركهم وقال أهل اللغة : ﴿ منفكين ﴾ منفصلين زائلين ، يقال : فككت الشيء فانفك ، أي انفصل ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ^(٢) لفظه مستقبل ومعناه الماضي ، أي حتى أتتهم البينة - الحجة الواضحة - يعني محمداً أتاهم بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ، ودعاهم إلى الإيمان ، فأنقذهم الله به من الجهل والضلالة . ولم يذكر غير هذا .

قال أبو الفرج : وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية : لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى يبعث ، فافترقوا .

وقال بعضهم : لم يكونوا منفكين عن حجج الله حتى أقيمت عليهم البينة . قال : والوجه هو الأول .

وذكر الثلاثة أبو محمد بن عطية ^(٣) ، لكن الثالث وجهه وقواه ، ولم يحكه عن غيره ، فقال : قوله : ﴿ منفكين ﴾ أي منفصلين متفرقين . تقول : انفك الشيء عن الشيء إذا انفصل عنه .

قال : و« ما انفك » التي هي من أخوات « كان » لا مدخل لها في هذه الآية ، فبين في هذه أن تكون هذه الصفة منفكة . قال : واختلف الناس

(١) هو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء توفي عام ٥١٠ هـ سبق الترجمة له في كلمة وافية .
[وراجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٤ : ٢٧] .

(٢) سورة البينة آية رقم ١ .

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي توفي عام ٥٤٢ هـ سبق الترجمة له في كلمة وافية . [وراجع نفح الطيب ١ : ٥٩٣ وقضاة الأندلس ١٠٩ وبغية الملتبس ٣٧٦ وكشف الظنون ٤٣٩ وبغية الوعاة ٢٩٥] .

عماذا ؟ فقال مجاهد وغيره : لم يكونوا منفيين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة ، وأوقع المستقبل موقع الماضي في ﴿ تأتيتهم ﴾ لأن بأس الشريعة وعظمها لم يجيء بعد .

وقال الفراء ^(١) وغيره : لم يكونوا منفيين عن معرفة نبوة محمد ﷺ والتأكد لأمره ، حتى جاءتهم البينة ففترقوا عند ذلك . قال : وذهب بعض النحويين إلى أن هذا المنفي المتقدم مع ﴿ منفيين ﴾ يجعلهم تلك هي مع « كان » ويروى التقدير في خبرها « عارفين أمر محمد » أو نحو هذا .

قال : وفي معنى الآية قول ثالث بارع المعنى . وذلك أن يكون المراد : لم يكونوا هؤلاء منفيين من أمر الله وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولا منذراً تقوم عليهم به الحجة وتتم على من آمن النعمة فكأنه قال : ما كانوا يتركون سدى . قال : ولهذا المعنى نظائر في كتاب الله .

وقد ذكر الثعلبي ^(٢) ثلاثة أقوال . لكن الثالث حكاه عن جعل مقصوده إهلاكهم بإقامة الحجة وجعل ﴿ منفيين ﴾ بمعنى هالكين .

فقال : لم يكونوا منفيين ومتهين عن كفرهم وشركهم ، وقال أهل اللغة : زائلين . تقول العرب : ما انفك فلان يفعل كذا ، أي ما زال . وأصل الفك : الفتح ، ومنه فك الكتاب ، وفك الخلخال . ﴿ حتى تأتيتهم البينة ﴾ الحجة الواضحة ، وهو محمد أتاهم بالقرآن ، فبين ضلالتهم وجهالتهم ، ودعاهم إلى الإيمان .

قال ، وقال ابن كيسان ^(٣) : معناه لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية . [وراجع إرشاد الأريب ٧ : ٢٧٦ ووفيات الأعيان ٢ : ٢٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ١٤٤ وغاية النهاية ٢ : ٣٧١ ونزهة اللبا ١٢٦] .

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو اسحاق مفسر من أهل نيسابور له اشتغال بالتاريخ من كتبه (عرائس المجالس) في قصص الأنبياء ، والكشف والبيان في تفسير القرآن توفي عام ٤٢٧ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٢٢ وإنباء الرواة ١ : ١١٩ والبداية والنهاية ١٢ : ٤٠] .

(٣) هو صالح بن كيسان المدني مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز كان من فقهاء المدينة الجامعين بين =

محمد في كتابهم حتى بعث ، فلما بعث تفرقوا فيه .

وقال : قال العلماء في أول السورة إلى قوله : ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ ^(١) : حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ﴿ وما تفرق ﴾ : حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم .

قال : وقال بعض أئمة اللغة : قوله ﴿ منفكين ﴾ أي هالكين ، من قولهم : إنفك صلا المرأة عند الولادة ، وهو أن يفصل ولا يلتئم فتهلك . ومعنى الآية : لم يكونوا هالكين مكذبين إلا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ..

وقد ذكر البغوي هذا والأول : قال والأول أصح . « قلت » : القول الثاني الذي حكاه عن ابن كيسان هو قول الفراء . وقد قدمه المهدوي على الأول فقال : ﴿ منفكين ﴾ من « انفك الشيء من الشيء » إذا فارقه . والمعنى لم يكونوا متفرقين إلا إذا جاءهم الرسول لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره وصفته ، وكفرهم بعد البينات . قال : ولا يحتاج ﴿ منفكين ﴾ على هذا التأويل إلى خير . ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ ^(٢) .

قال ، وقال مجاهد : المعنى لم يكونوا متتهين عما هم عليه ، وعن مجاهد أيضاً : لم يكونوا ليؤمنوا حتى تأتيهم البينة .

قال ، وقال الفراء : لم يكونوا تاركين ذكر ما عندهم من ذكر النبي حتى ظهر ، فلما ظهر تفرقوا واختلفوا .

قلت : هذا المعنى هو الذي قدمه ، لكن الفراء وابن كيسان جعل

= الحديث والفقه ، وهو أحد الثقات في رواية الحديث . قال ابن ناصر الدين : عاش أكثر من مئة

سنة وتوفي عام ١٤٠ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٤ : ٣٩٩ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٧٨] .

(١) سورة البينة آية رقم ٣ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٤ .

الانفكاك مفارقتهم وتركهم لذكره وخبره والبشارة به ، أي لم يكونوا مفارقين تاركين لما علموه من خبره حتى ظهر ، فانفكوا حينئذ . وذاك يقول : لم يكونوا منفكين ، أي متفرقين ، إلا إذا جاء الرسول ، لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره ، وهو معنى ما حكاه أبو الفرج : لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث فافترقوا .

فالانفكاك انفكاك بعضهم عن بعض ، أو انفكاكهم عما كان عندهم من علمه وخبره ، وهذا القول ضعيف - لم يرد بهذه الآية قطعاً ، فإن الله لم يذكر أهل الكتاب ، بل ذكر الكفار من المشركين وأهل الكتاب ، ومعلوم أن المشركين لم يكونوا يعرفونه ويذكرونه ويجدونه في كتبهم ، كما كان ذلك عند أهل الكتاب ، ولا كانوا قبل مبعثه على دين واحد ، متفقين عليه . فلما جاء تفرقوا .

فيمتنع أن يقال : لم يكن المشركون تاركين لمعرفة محمد وذكره والإيمان به ، ولم يكونوا مختلفين في ذلك ، ولا متفرقين فيه حتى بعث ، فهذا معنى باطل في المشركين .

ولا يستقيم هذا أيضاً في أهل الكتاب ، فإن الله إنما ذكر الكفار منهم ، فقال : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) ومعلوم أن الذين كانوا يعرفون نبوته ويقرون به ويذكرونه قبل أن يبعث لم يكونوا كلهم كفاراً ، بل كان الإيمان أغلب عليهم .

يبين هذا أنه إذا ذكر تفرق الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءتهم البينة ، فإنه يعمهم فيقول : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ ^(٢) . وأنه لا يقول : كان الكفار من أهل الكتاب متفقين على

(١) سورة البينة آية رقم ١ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٤ .

الحق حتى جاءتهم البينة .

وأيضاً فاستعمال لفظ « الانفكاك » في هذا غير معروف ، لا يعرف في اللغة له شاهد ، فتسمية الافتراق والاختلاف « انفكاً » غير معروف .

وأيضاً فهو لم يذكر لـ ﴿ منفكين ﴾ خيراً كما يقال : ما انفكوا يذكرون محمداً ، وما زالوا يؤمنون به ، ونحو ذلك ، وهذه التي هي من أخوات « كان » لا يقال فيها « ما كنت منفكاً » بل يقال « ما انفكت أفعل كذا » فهو يلي حرف « ما » .

وأيضاً فليس في اللفظ ما يدل على أن الانفكاك عن أمر محمد خاصة ، وأيضاً فهذا المعنى مذكور في قوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١) فلو أريد بهذه لكان تكريراً محضاً .

والقول الأول : أشهر عند المفسرين ، ومنهم من يذكر غيره ، كالبغيوي وغيره ، فإنه معروف عن مجاهد ، والربيع بن أنس ، كما في التفسير المعروف عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ منفكين ﴾ قال : منافقين لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق ، وقال الربيع بن أنس : لم يزالوا مقيمين على الشك والريبة حتى جاءتهم البينة والرسول . وهذا القول يتضمن مدحهم والثناء عليهم بعد مجيء البينة ، ولهذا احتاج من قاله إلى أن يقول : هذا فيمن آمن من الفريقين في أنه بيان لنعمة الله عليهم ، وجعلوا قوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ فيمن لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ .

وهذا أيضاً ضعيف ، فإن أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم ، كما أخبر الله بذلك في غير موضع ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

(١) سورة البينة آية رقم ٤ .

بَغِيًّا بَيْنَهُمْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾ . وقال :
﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا
فِيهِ ﴾ (٣) ، ثم قال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤)

فأخبر أن الله هدى المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فكان
الاختلاف قبل وجود أمة محمد ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٥) . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ
بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٦) ثم قال
تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكَ - لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ

(١) سورة الحائثية آية رقم ١٦ - ١٧ .

(٢) سورة الحائثية آية رقم ١٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٥) سورة النحل آية رقم ١٢٤ .

(٦) سورة يونس آية رقم ٩٣ .

(٧) سورة يونس آية رقم ٩٤ .

لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ، فقد أخبر تعالى أنه أرسل إلى أمم من قبل محمد ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، وهو - حين يبعث محمد - وليهم ، وأنه أنزل إليهم الكتاب ليبين لهم النبي اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصِلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، وَإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وقال لأمة محمد : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) . فهذا بين أنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد ، وقد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٤) . وقال عن اليهود : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ وَقَطَعْنَا هُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ (٦) . وقد جاءت الأحاديث في السنن والمسند من وجوه عن النبي ﷺ أنه قال : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة » (٧) . وإن كان بعض الناس - كابن حزم - يضعف هذه الأحاديث ، فأكثر أهل العلم قبلوها وصدقوها .

(١) سورة النحل آية رقم ٦٣ - ٦٤ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٧٦ - ٧٧ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٥ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ١٤ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٦٤ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

(٧) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٧ باب افتراق الأمم ٣٩٩١ - ثنا محمد بن بشر ، ثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه أبو داود في السنة ١ والامام الترمذي في الإيمان ١٨ ورواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٣٢٢ : ١٤٥ (حلي) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » (١) .

وفي الصحيحين عنه أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، فهدانا الله له . الناس لنا فيه تبع - غداً لليهود ، وبعد غد للنصارى » (٢) .

وهذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب اختلفوا وتفرقوا قبل إرسال محمد ﷺ ، بل اليهود اختلفوا قبل مجيء المسيح ، ثم لما جاء المسيح اختلفوا فيه ، ثم اختلف النصارى اختلافاً آخر . فكيف يقال : إن قوله ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٣) هو فيمن لم يؤمن بمحمد منهم ؟

وأيضاً فالذين كفروا بمحمد كفار ، وهم المذكورون في قوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٤) وهم تفرقوا واختلفوا فيما جاءت به الأنبياء قبل محمد ، وكفر من كفر منهم قبل إرسال محمد .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١ باب اتباع سنة رسول الله - ﷺ - ٢ - عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة - قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

ورواه الامام مسلم في الحجج ٤١٢ والنسائي في المناسك ١ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٩٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٣ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٤ باب ٣٤٦٦ ، ٣٤٨٦ حدثنا وهيب ، قال : حدثني طاوس عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : وذكره .

ورواه في الأيمان ١ والدييات ١٥ والتعبير ٤٠ والتوحيد ٣٥ ورواه الامام مسلم في الجمعة ١٩ - ٢١ والنسائي في الجمعة ١ والدارمي في المقدمة ٨ .

(٣) سورة البينة آية رقم ٤ .

(٤) سورة البينة آية رقم ١ .

وكان منهم من لم يكفر ، بل كان مؤمناً بالأنبياء كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٣) . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٤) .

وفي صحيح مسلم وغيره عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم - عربهم وعجمهم - إلا بقايا من أهل الكتاب ، وإن ربي قال لي : قم في قریش فأنذرهم ، فقلت : أي رب ! إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة ، فقال : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاناً ، فابعث جنداً نبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » ^(٥) والحديث أطول من هذا .

والمقصود هنا الكلام على الآية ، فنقول : القول الثالث وهو أصح الأقوال لفظاً ومعنى .

أما من جهة اللفظ ودلالته وبيانه ، فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان - يعني اختياره - ويقهر عليه إذا تخلص منه ، يقال : انفك منه ،

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ - ١١٤ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٦٦ .

(٥) الحديث رواه الامام مسلم في الجنة ٦٣ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٦٢

(حلي) .

كالأسير والرقيق المقهور بالرق والأسر ، يقال : فككت الأسير فانفك ، وفككت الرقبة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ (١) .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري : « عودوا المريض ، واطعموا الجائع ، وفكوا العاني » (٢) . وفي الصحيح أيضاً أن علياً لما سئل عما في الصحيفة فقال : فيها العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

ففكه : فصله عن يقهره ويستولي عليه بغير اختياره ، والتفريق بينهما .

ويقال : فلان ما يفك فلاناً حتى يوقعه في كذا وكذا ، والمتولي لا يفك هذا حتى يفعل كذا - يقال لمن لزم غيره واستولى عليه إما بقدرة وقهر ، وإما بتحسين وتزيين وأسباب ، حتى يصير بها مطيعاً له .

ويقال للمستولي عليه : هو ما ينفك من هذا ، كما لا ينفك الأسير والرقيق من المستولي عليه .

فقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ ﴾ (٣) ، أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم - يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم ، كما أن المنفك لا حجر عليه ، وهو لم يقل « مفكوكين » بل قال « منفكين » . وهذا أحسن ، فإنه نفى لفعالهم ، ولو قال « مفكوكين » كان التقدير : لم يكونوا مسيين مخلين ، فهو نفى لفعل غيرهم ، والمقصود أنهم

(١) سورة البلد آية رقم ١٢ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في الجهاد ١٧١ باب فكاك الأسير فيه عن أبي موسى عن النبي - ﷺ ٣٠٤٦ عن منصور عن أبي وائل عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره .

ورواه أيضاً في الأطعمة ١ والنكاح ٧١ والمرض ٤ ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٣ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٣٩٤ ، ٤٠٦ (حلي) .

(٣) سورة البينة آية رقم ١ .

لم يكونوا متروكين - لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا ترسل إليهم رسل ، بل يفعلون ما شاؤوا مما تهواه الأنفس .

والمعنى أن الله ما يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولا ، وهذا كقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ^(١) لا يؤمر ولا ينهى . أي أظن أن هذا يكون ؟ هذا ما لا يكون البتة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ، أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ ^(٢) وهذا استفهام إنكار ، أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل ، ومن كره إرسالهم ؟ فإن الأول تكذيب بوجودهم ، والثاني يتضمن بغضهم وكراهة ما جاؤوا به . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ﴾ ^(٣) وقال عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ ^(٤) . وأما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر ، ولكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولا ، وأنه يترك سدى مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، فهذا أيضاً مما ذمه الله ، إذا كان لا بد من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، كما أنه أيضاً لا بد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة .

ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون ، فقال تعالى :

(١) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣ - ٥ .

(٣) سورة محمد آية رقم ٩ .

(٤) سورة غافر آية رقم ٣٤ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ
فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ
الْجَمِيلَ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) وقال : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤) . وقال
عن أولي الألباب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ،
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٥) ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي ،
والثواب والعقاب ، والمعاد ، مما لا بد منه ، وينكر على من ظن أو حسب أن
ذلك لا يكون ، وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك ، وأنه يمتنع أن لا يقع . وهذا
متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسول من المسلمين وغيرهم من جهة
تصديق الخبر ، فإن الله أخبر بذلك ، وخبره صدق ، فلا بد من وقوع
مخبره ، وهو واجب بحكم وعده وخبره ، فإنه إذا علم أن ذلك سيكون ،
وأخبر أنه سيكون ، فلا بد أن يكون ، فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما
علمه وأخبر به ، وكتبه وقدره .

وأيضاً فإنه قد شاء ذلك ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا بد
أن يقع كل ما شاءه .

(١) سورة ص آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ .

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٨٥ - ٨٦ .

(٤) سورة الجاثية آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٩١ .

لكن هل يقال : إن المشيئة موجبة ، فيه نزاع ، وكذلك يقال : إن ذلك وجب لإيجابه له على نفسه ، أو لاقتضاء حكمته ذلك ، فيه أيضاً نزاع .

وما أقسم ليفعله فلا بد أن يقع ، والقسم متضمن معنى الخبر ، ومعنى الحض والطلب ، لكن في ثبوت الثاني في حق الله نزاع بين الناس ، كقوله : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(١) وقوله : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ^(٢) .

والذين قالوا إن حكمته أو حكمه أو مشيئته توجب ذلك يقولون : إن ذلك قد يعرف بالعقل ، فيقولون : إنه قد يعرف بالعقل أنه لا بد من إرسال الرسل ، وأن ذلك واجب في حكمه وحكمته ، وهذا قول كثير من الطوائف ، أو أكثرهم .

ومنهم من يقول : لا يعلم شيء من ذلك إلا بالخبر ، وهذا قول الجهمية والأشعرية ، وذاك قول المعتزلة ، والكرامية ، والحنفية ، أو أكثرهم .

وأما أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، فمنهم من يقول بهذا ، ولكن جمهور الفقهاء مع السلف يثبتون الحكمة والتعليل ، وإنما ينفي ذلك منهم من وافق الجهمية المجبرة ، كالأشعري ومن وافقه .

وكذلك جمهورهم يثبتون للأفعال صفات بها كانت حسنة أو سيئة قبيحة ، لا يجعلون حسنها وقبحها ترجيحاً لأحد الأمرين بلا مرجح بل لمحض المشيئة ، كما تقوله الجهمية ومن وافقهم .

هذا قول الأئمة والجمهور ، كما أن الأئمة والجمهور على إثبات القدر والإيمان به ، وأن الله خالق كل شيء ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم

(١) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٦٧ .

يكن ، لا يقولون بقول من أنكر القدر من المعتزلة ونحوهم ، ولا يقول من أنكر حكمة الرب من الجهمية المجبرة ونحوهم .

فلا يقولون بقول القدرية النفاة للقدر ، ولا يقول القدرية المجبرة الذين يستلزم قولهم إنكار الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والجزاء بالثواب والعقاب ، لا سيما من أفصح منهم بذلك ، أو قال : إن من شهد القدر سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد .

فآمنوا بما جاءت به الرسل في الجملة ، وأوجبوا ما أوجبه الله ، وحرّموا ما حرّمه الله ، وآمنوا بالجنة والنار ، واجتهدوا في متابعة الرسل ، لكن أخطأوا حيث نفوا القدر ، وظنوا أن إثباته يناقض الأمر والنهي [والوعد] والوعيد ، وأنه لا يتم إيمانهم بأن الله عادل صادق حتى يكذبوا بالقدر ، وبإخراج أهل الكبائر من النار ، ظناً منهم أن الله أخبر بأن كل من كان له ذنب يستحق به العذاب لا يخرج من النار ، ولا يرحمه أبداً ، فلم يجوزوا أن يعذب بذنبه ثم يرحم ، بل عندهم من كان له ذنب يستحق به العذاب لم يرحم أبداً .

وهم وإن كانوا لم يتعمدوا تكذيب الرسل فقولهم هذا يتضمن مخالفة الأخبار المتواترة عند أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ في خروج أهل الذنوب من النار ، وشفاعة الشفعاء فيهم ، ويتضمن أنهم آيسوا الخلق من رحمة الله مع تكذيبهم بعموم خلق الله ، ومشيتته وقدرته ، حيث زعموا أن من الحوادث ما لا يقدر عليه ولا يشاء ولا يخلقه .

وتشبهوا بالمجوس من هذا الوجه ، حتى قيل : القدرية مجوس هذه الأمة .

وقابلهم أولئك ، فتوقفوا في خبر الله مطلقاً ، حتى أنكروا صنفى العموم ، فلم يعلموا بخبره ما أخبر به من الوعد والوعيد . فلا يجزمون بالنجاة للصنف الذين يعلم الله أنهم آمنوا وعملوا الصالحات ، وكانوا من أعظم الناس طاعة لله ، إذا كان لأحدهم سيئة واحدة صغيرة ، ولا بالعذاب للصنف الذين

يعلم الله أنهم أفجر أهل القبلة وشرها ، بل يجوزون مع علم الله بهذا وبهذا أن يعذب أهل الحسنات الكبيرة على سيئة صغيرة عذاباً ما يعذبه أحداً من أهل القبلة ، وأن يدخل فجار أهل القبلة الجنة مع السابقين الأولين .

وبسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء له مقام آخر .

والمقصود هنا أن هذه السورة دلت على ما تدل عليه مواضع آخر من القرآن ، من أن الله يرسل الرسل إلى الناس تأمرهم وتنهاتهم - يرسلهم مبشرين ومنذرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ ^(١) يندرون الذين أساءوا عقوبات أعمالهم ، ويبشرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم ، ﴿ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ^(٢)

فقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ^(٣) بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم على ما هم عليه من الكفر ، بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيراً ونذيراً ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ ^(٤) .

ومما يبين ذلك أن « حتى » حرف غاية ، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها ، كما في قوله : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ^(٥) وقوله ﴿ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ ^(٦) وقوله : ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ ^(٧) ونظائر ذلك .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة البينة آية رقم ١ .

(٤) سورة النجم آية رقم ٣١ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢٢٢ .

(٧) سورة البقرة آية رقم ٢٣٠ .

فلو أريد أنهم لم يكونوا منتهين ويؤمنون حتى يتبين لهم الحق لزم أن يكونوا كلهم بعد مجيء البينة قد انتهوا وآمنوا . فإن اللفظ عام فيهم . وكذلك لو كان المراد أنهم كانوا متفقين على تصديق الرسول حتى بعث لزم أن يكونوا كلهم كانوا يعرفونه قبل إرساله إليهم ، وأنهم كلهم بعد إرساله تفرقوا واختلفوا ، وكلاهما باطل ، فكثير منهم أُميون لا يعلمون الكتاب إلا أُماني ، ولم يكونوا يعرفون ما في الكتب من بعثه ومن أمور آخر ، ولما بعث فقد آمن به خلق كثير منهم ، ولم يفرقوا كلهم عن الإيمان به .

وحينئذ فالآية لم تتضمن مدحهم مطلقاً ، كما ظن من ظن أن معناها أنهم لم ينتهوا ولم يؤمنوا حتى يتبين لهم الحق ، ولا تتضمن ذمهم مطلقاً ، كما ظن من ظن أنهم لما جاءهم الرسول تفرقوا واختلفوا بعد ما كانوا متفقين على التصديق ، بل تضمنت مدح من آمن منهم بالرسول ، وذم من لم يؤمن ، والإخبار أنه لا بد من إرسال الرسول إليهم ، فيؤمن به بعضهم ويكفر بعض .

قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١) .

ثم إن الذين آمنوا بالرسول لا بد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق والكاذب كما قال تعالى : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢)

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٢ - ٣ .

ثم قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

فالناس إذا أرسل إليهم أحد رجلين : إما رجل آمن بهم في الظاهر ، فلا بد أن يمتحن حتى يتبين الصادق من الكاذب . وإما رجل عمل السيئات ولم يؤمن ، فلا يفوت الله ، بل هو آخذه - سبحانه وتعالى .

ولهذا انقسم الناس في الرسل إلى ثلاثة أقسام - مؤمن باطن وظاهر ، وكافر مظهر للكفر ، ومنافق مظهر للإيمان مبطن للكفر ، ومن حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حصل هذا الانقسام ، وأنزل الله تعالى في أول البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين .

وأما حين كان بمكة وكان المؤمنون مستضعفين ، فلم يكن أحد يحتاج إلى النفاق ، بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس . ومنهم من يتكلم بالكفر مكرهاً مع طمأنينة قلبه بالإيمان ، وهذا مؤمن باطناً وظاهراً ، فإنه وإن أظهر الكفر لبعض الناس لما أكره عليه ، أو كتم عنه إيمانه ، فهو يتكلم بالإيمان في خلوته ومع من يأمنه ، ويعمل بما يمكنه ، وما عجز عنه فقد سقط عنه .

ولهذا قال العلماء ، منهم أحمد بن حنبل : لم يكن يمكنهم نفاق ، إنما كان النفاق بالمدينة .

ولكن كان بمكة من في قلبه مرض ، كما قال في السورة المكية : ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ (٢) .

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٤ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

وهو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للإيمان ما كان ليدعمهم حتى يميز الخبيث من الطيب ويمتحنهم ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (١) . وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهْمُ الْبُاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٣) وأمثال ذلك .

فكذلك الذين كفروا لم يكن ليركهم حتى يبعث إليهم الرسول بالآيات البينات . فهذا معنى قوله ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٤) . وهم إذا جاءتهم البينة منهم من يؤمن ، ومنهم من يكفر .

وإذا قيل : إن الآية تتضمن بعد ذلك المعنى الآخر ، وهو أنهم لم يكونوا ليَهْتَدُوا ويعرفوا الحق ويؤمنوا حتى تأتيتهم البينة ، إذ لا طريق لهم إلى معرفة الحق إلا برسول يأتي من الله أيضاً ، أو لم يكونوا متعطين وإن عرفوا الحق حتى يأتيهم من الله من يذكرهم ، فهذا المعنى لا يناقض ذاك .

بخلاف قول من قال : لم يكن المشركون وأهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد ولذكره ، ولم يكونوا متفرقين فيه ، بل متفقين على الإيمان به ، حتى جاءتهم البينة ، فتركوا الإيمان به وتفرقوا ، فإن هذا غير مراد قطعاً .
ومما يبين ذلك قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ولم يقل « حتى أتتهم »

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٩ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ .

(٤) سورة البينة آية رقم ١ .

وأولئك لما لم يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضع موضع الماضي ، وأن المراد : ما انفكوا عما كانوا عليه - إما من كفر ، وإما من إيمان - حتى أتتهم البينة - فلما قيل ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أشكل عليهم ، وقال بعضهم : لما تأتيهم كلها .

وأما على المعنى الصحيح فالموضع موضع المضارع ، كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (١) . فإن المراد : ما كانوا مفكوكين متروكين حتى تأتيهم البينة .

وهو سبحانه قال : ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ و﴿ لم ﴾ وإن كانت تقلب المضارع ماضياً فذاك إذا تجرد ، فقليل « لم يأت » و« لم يذهب » فمعناه « ما أتى » و« ما ذهب » .

وأما إذا قيل « لم يكن يفعل هذا » و﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ (٢) فالمقصود معنى الفعل الدائم مطلقاً ، وإذا قيل « لم يكن فلان آتياً حتى يذهب إليه فلان » بخلاف ما إذا قلت : لم يكن فلان قد أتى حتى ذهب إليه فلان . ولو قيل « ما كان فلان فاعلاً لهذا حتى يكون كذا » كان نحو ذاك بخلاف ما إذا قيل « ما كان فلان قد فعل حتى أتى فلان » . فنفي المضارع الذي خبره اسم فاعل وهو الدائم ، والمراد : لم يكونوا في الحال والاستقبال متروكين حتى تأتيهم البينة ، ولو قيل هنا « حتى أتتهم البينة » لم يكن موضعه .

وكذلك لو أراد الانتهاء عن الكفر والإيمان لقليل ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أي لم يكونوا يعرفون الحق حتى يأتيهم نبي يعرفهم ، أو لم يكونوا متعظين عاملين حتى يأتي من يعظهم ويذكرهم ، فليس هذا موضع الماضي ، بخلاف ما لو قيل « ما زالوا كافرين حتى أتاهم » .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

فالآية تتضمن الإخبار عن وجوب إثبات البينة ، وامتناع الانفكاك بدونها ، لم يقصد بها مجرد الخبر عن عدم الانفكاك ثم ثبوته في الماضي وهو كما لو قيل « لم يكونوا ينفكون حتى تأتيهم البينة » لكن هنا ذكر اسم الفاعلين ، فقيل ﴿ منفكين ﴾ .

وهو سبحانه لما ذكر أنه لا بد من إرسال الرسل إلى الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب لتقوم عليهم الحجة بذلك ذكر بعد هذا أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وقامت عليهم الحجة ، فبينات الله وحجته قامت على هؤلاء وهؤلاء .

وهو لم يعذب واحداً من الحزبين إلا بعد أن جاءتهم البينة ، وقامت عليهم الحجة ، كما في قصة ومن أرسل إليه ، فإن الله لم يدع فرعون وقومه حتى أرسل إليهم موسى ، ولم يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة . ثم لما آمن بنو إسرائيل بالكتب والرسل لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، فلم يكونوا معذورين في ذلك .

ولهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم ، فقيل : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (١) .

والناس الذين بعث إليهم محمد هم كذلك ، فمن كان كافراً لم يكن منفكاً حتى تأتيه البينة ، ومن آمن بمحمد من الأمم ثم تفرقوا واختلفوا فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة .

وما أمر الجميع ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (٢) .

والآية تضمنت مدح الرب وذكر حكمته وعدله وحجته في أنه لا يدعهم

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٥ .

حتى يرسل إليهم رسولاً ، كما قال لأهل الكتاب : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ (١) الآية ، لم تتضمن مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول ، فإن هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول ، لا أن يحمدا عليه حتى يأتي الرسول ، فإن هذا لا يقوله عاقل ، ولم يقله أحد ، لا سيما وأهل الكتاب قد قامت عليهم الحجة بأنبياء قبله .

ونظير هذا في اللفظ قوله : ﴿ وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْفُسَ ﴾ (٢) . ليس المراد : ما كنتم بالغيه في الماضي ، بل هذه حالهم دائماً .

فقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ يقتضي أن هذه حالهم دائماً .

وتضمنت السورة ذكر أصناف الخلق ، وما أمر الله به جميع العباد ، وأن ذلك أمر لا بد منه - لا بد من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب - وبيان السعداء أهل الجنة ، والأشقياء أهل النار .

فقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ (٣) جملة . فيه بيان إرسال [الرسول] إلى الجميع ، وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (٤) فيه إقامة الحجة على أهل الشرائع ، ودم تفرقهم واختلافهم ، وأن ذلك بعد أن جاءتهم البينة . وهاتان الجملتان نظيرهما قوله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ،

(١) سورة المائدة آية رقم ١٩ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٧ .

(٣) سورة البينة آية رقم ٢-١ .

(٤) سورة البينة آية رقم ٤ .

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿١﴾ ، ثم قال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ (٢) .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (٣) . ثم قال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾ (٤) . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾ (٥) في سورة « هود » وسورة « فصلت » .

ثم ذكر ما أمر به الجميع بقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (٦) . ثم ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ١٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ١١٠ وسورة فصلت آية رقم ٤٥ .

(٦) سورة البينة آية رقم ٥ .

فصل

وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَةُ ﴾ ^(١) . قال طائفة من المفسرين : هو تفرقهم في محمد بعد أن كانوا
مجتمعين على الإيمان به .

ثم من هؤلاء من جعل تفرقهم إيمان بعضهم وكفر بعض . قال
البغوي : ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب ، فقال : ﴿ وما تفرق الذين
أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ . أي البيان في كتبهم أنه نبي
مرسل . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد
حتى بعثه الله ، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا فأمن به بعضهم وكفر به
بعضهم .

وهكذا ذكر طائفة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صَدَقِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ ^(٢) قال أبو
الفرج ، قال ابن عباس : ما اختلفوا في أمر محمد ، لم يزالوا به مصدقين
حتى جاءهم العلم ، يعني القرآن ، وروي عنه : حتى جاءهم العلم ، يعني
محمدًا ، فعلى هذا يكون العلم هنا عبارة عن المعلوم ، وبيان هذا أنه لما

(١) سورة البينة آية رقم ٤ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٩٣ .

جاءهم اختلفوا في تصديقه ، فكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه بغياً وحسداً .

ومنهم من جعل المتفرقين كلهم كفاراً . قال ابن عطية : ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يفرقوا في أمر محمد إلا من بعد أن رأوا الآيات الواضحة ، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته ، فلما جاء من العرب حسدوه . وكذلك قال الثعلبي : ما تفرق الذين أوتوا الكتاب في أمر محمد فكذبوه إلا من بعد ما جاءتهم البينة - البيان في كتبهم أنه نبي مرسل . قال العلماء : من أول هذه السورة إلى قوله : ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ، ﴿ وما تفرق ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليه .

وكذلك قال أبو الفرج . قال : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني من لم يؤمن . ﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ ، وفيها ثلاثة أقوال : أحدها أنه محمد ، والمعنى لم يزلوا مجتمعين على الإيمان به حتى بعث . قاله الأكثرون :

والثاني : القرآن ، قاله أبو العالية (١) .

والثالث : ما في كتبهم من بيان نبوته ، ذكره الماوردي (٢) ،

« قلت » : هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين ، ولم يذكر الثعلبي ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليه .

(٢) هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي أقضى قضاة عصره من العلماء الباحثين ، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة . ولد في البصرة عام ٣٦٤ هـ وانتقل إلى بغداد ، وولي القضاء في بلدان كثيرة ثم جعل « أقضى القضاة » في أيام القائم بأمر الله العباسي وكان يميل إلى مذهب الاعتزال ، وله المكانة العريقة عند الخلفاء توفي ببغداد عام ٤٥٠ هـ من كتبه « أدب الدنيا والدين » و « الأحكام السلطانية » وغير ذلك كثير . [راجع السبكي ٣ : ٣٠٣ والوفيات ١ : ٣٢٦] .

والبغوي ، وغيرهما سواه .

وأبو العالية إنما قال : الكتاب ، لم يقل : القرآن . هكذا رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن الربيع بن أنس : ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ قال : قال أبو العالية : الكتاب ، ومراد أبي العالية ، جنس الكتاب ، فيتناول الكتاب الأول ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ ^(١) في موضعين من القرآن ، وقال تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ^(٢) . ثم قال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ ^(٣) .

وهذا التفسير معروف عن أبي العالية ، ورواه عن أبي بن كعب ^(٤) . ورواه ابن أبي حاتم وغيره عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، أنه كان يقرأها : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ ^(٥) وأن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف ، ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ . قال : أنزل الكتاب عند الاختلاف . ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ يعني بني إسرائيل . أوتوا الكتاب والعلم

(١) سورة هود آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٤) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد من بني النجار من الخزرج أبو المنذر صحابي أنصاري كان قبل الاسلام حبراً من أحبار اليهود مطلعاً على الكتب القديمة يكتب ويقرأ ، ولما أسلم كان من كتاب الوحي ، وشهد بدرأ ، وأحدأ ، والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - وشهد مع عمر وقعة الجابية له في الصحيحين وغيرهما ١٦٤ حديثاً توفي عام ٢١ هـ - [راجع طبقات ابن سعد ٣ القسم الثاني ٥٩ ، وغاية النهاية ١ : ٣١ وصفة الصفوة ١ : ١٨٨]

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث جاءت ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ .

﴿ من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ يقول بغياً على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس ، فبغى بعضهم على بعض ، وضرب بعضهم رقاب بعض ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِمَّنَ الْحَقُّ بِأَذْنِهِ ﴾ (١) ، يقول : فهدهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف - أقاموا على الإخلاص لله وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف ، واعتزلوا الاختلاف ، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة - كانوا شهداء على قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وآل فرعون ، إن رسلهم قد بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم . قلت : الاختلاف في كتاب الله نوعان : أحدهما يذم فيه المختلفين كلهم ، كقوله ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ (٣) ، والثاني يمدح المؤمنين ويذم الكافرين ، كقوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَّ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا ، وَلَكِنَّا اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَأَلْزَمَهُمُ اللَّهُ مَا أَفْعَلُوا قَطَعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٥) وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٦) . وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٦ .

(٣) سورة هود آية رقم ١١٨ - ١١٩ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

(٥) سورة الحج آية رقم ١٩ - ٢٣ .

(٦) سورة الحج آية رقم ١٧ .

واختلافهم ذم فيه الجميع ، ونهى عن التشبه بهم ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (١) . وقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

وذلك بأن تؤمن طائفة ببعض حق وتكفر بما عند الأخرى من الحق ، وتزيد في الحق باطلاً ، كما اختلف اليهود والنصارى في المسيح وغير ذلك .

وحينئذ نقول : من قال إن أهل الكتاب ما تفرقوا في محمد إلا من بعد ما بعث ، إرادة إيمان بعضهم وكفر بعضهم ، كما قاله طائفة فاللذموم هنا من كفر ، لا من آمن ، فلا يذم كل المختلفين ، ولكن يذم من كان يعرف أنه رسول ، فلما جاء كفر به حسداً أو بغياً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وإن أريد بالتفرق فيه أنهم كلهم كفروا به وتفرقت أقوالهم فيه فليس الأمر كذلك ، وقد بين القرآن في غير موضع أنهم تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد ﷺ ، فاختلف هؤلاء وتفرقهم في محمد ﷺ هو من جملة ما تفرقوا واختلفوا فيه . والله أعلم .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٩ .

سورة التكاثر

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

فصل

« سورة التكاثر » قيل فيها : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ ^(١) تنبيهاً على أن الزائر لا بد أن ينتقل عن مزاره ، فهو تنبيه على البعث .

ثم قال : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) فهذا خبر عن علمهم في المستقبل ، ولهذا روي عن علي أنه في عذاب القبر ، ثم قال : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ ^(٣) فهذا إشارة إلى علمهم في الحال ، والخبر محذوف : أي لكان الأمر فوق الوصف ، ولعلمتم أمراً عظيماً ، ولأهاكم عما أهاكم ، فإن الانتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين ، كما قال : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ^(٤) ومثل قول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحتكم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ^(٥) وحذف جواب لو كثير في القرآن

(١) سورة التكاثر آية رقم ١ .

(٢) سورة التكاثر آية رقم ٣-٤ .

(٣) سورة التكاثر آية رقم ٥ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٣٦ .

(٥) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام البخاري في كتاب الكسوف ٢ باب الصدقة في الكسوف

١٠٤٤ عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت « خسفت الشمس في عهد

رسول الله - ﷺ - فصلی رسول الله - ﷺ - بالناس فقام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم

قام فأطال القيام - وهو دون القيام الأول ثم ركع فأطال الركوع - وهو دون الركوع الأول ثم =

تعظيماً له وتفخيماً ، فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ ، إذ المخبر ليس كالمعانيين ، ولهذا اتبع ذلك بالقسم على الرؤية التي هي عين اليقين ، التي هي فوق الخبر الذي هو علم اليقين ، فقال ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ (١) وهذا الكلام جواب قسم محذوف مستقبل ، مع كون جواب لو محذوفاً كما تقدم ، في أحد القولين ، وفي الآخر هو متعلق بلو ، لكن يقال جواب لو إنما يكون ماضياً ، فيقال : لرأيتم الجحيم ، كقول النبي ﷺ : « لو تكونون على الحال التي تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم » (٢) ولو كان ماضياً فليس مما يؤكد بل يقال : لو يجيء لأجى . وجواب هذا أنه جواب قسم محذوف سد مسد جواب لو . كقوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (٣) وله نظائر في القرآن وكلام العرب ، فإن الكلام إذا اشتمل على قسم وشرط وكل منهما يقتضي جوابه أجيب الأول منهما ، وهو هنا القسم ، وهو المقصود .

= سجد فأطال السجود ثم فعل في الركعة الثانية مثل ما فعل في الأول ثم انصرف وقد انجلت الشمس فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا ثم قال يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد : وذكره . ورواه أيضاً في التفسير ٥ آية ١٢ والنكاح ١٠٧ والرقاق ٢٧ ، وأيمان ٣ ورواه الامام مسلم في الصلاة ١١٢ والكسوف ١ ، والفضائل ١٣٤ والنسائي في السهو ١٠٢ والكسوف ١١ ، ٢٣ ، والترمذي في الزهد ٩ وابن ماجه في الزهد ١٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٧ ، ٣١٣ ، ٤١٨ ، ٤٣٣ (حلي) .

- (١) سورة التكاثر آية رقم ٦ - ٧ .
(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في الزهد ٢٨ باب المداومة على العمل ٤٢٣٩ - عن سفيان عن الجريز عن أبي عثمان ، عن حنظلة الكاتب التميمي قال : كنا عند رسول الله - ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأننا رأي العين فقمتم إلى أهلي وولدي فضحك ولعبت قال فذكرت الذي كنا فيه فخرجت فقلت أبا بكر فقلت نافقت نافقت فقال أبو بكر إنا لنفعله فذهب حنظلة فذكره للنبي - ﷺ فقال : يا حنظلة : وذكره .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٢١ .

وعلى هذا القول يكون المعنى : والله لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم بقلوبكم ، والأول هو المشهور ، ومن المفسرين من لم يذكر سواه ، وهو الذي أثروه عن متقدميهم ، ويدل على صحته وأنه الحق أن قوله : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوْهَا - ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ ^(١) معطوف على ما قبله ، فيكون داخلًا في حيزه ، فلو كان الأول معلقًا بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك ، وهو باطل ، لأن رؤيتها عين اليقين ، والمسألة عن النعيم ليس معلقًا بأن يعلموها في الدنيا علم اليقين .

وأيضاً فتفسير الرؤية المطلقة برؤية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب .

وأيضاً فيكون الشرط هو الجواب ، فإن المعنى حينئذ لو علمتم علم اليقين لرأيتم بقلوبكم ، وذلك هو العلم ، فالمعنى لو علمتم لعلمتم ، وهذا لا يفيد ، ولو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم ، فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه أن يجعل مشاهداً له بقلبه . وأيضاً فهذا المعنى لو كان مفيداً لم يكن مما يستحق القسم عليه ، فإنه ليس بطائل .

وأيضاً فقوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ ^(٢) لم يذكر المعلوم ، حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم ، فإن أريد معلوم خاص ، فلا دليل في الشرط عليه ، حتى يصح الارتباط ، وإن أريد المعلوم العام وهو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها ، وهذا فيه نظر ، فقد يسأل ويقال : قوله : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) لم يذكر فيه المعلوم بل أطلق .

ومعلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئاً لم يكن علمه ، وجوابه : أن سياق الكلام يقتضي الوعيد والتهديد ، حيث افتتحه بقوله ﴿ أَهْلَاكُمُ النَّكَاتُ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة التكاثر آية رقم ٧ - ٨ .

(٢) سورة التكاثر آية رقم ٥ .

(٣) سورة التكاثر آية رقم ٣ - ٤ .

(٤) سورة التكاثر آية رقم ١ .

وأيضاً فمثل هذا الكلام قد صار في العرف يستعمل في الوعيد غالباً ، أو في الوعد ، وإذا كان العلم مقيداً بالسياق اللفظي وبالوضع العرفي فقله : ﴿ لو تعلمون ﴾ هو ذاك العلم ، أخبر بوقوعه مستقبلاً ، ثم علق بوقوعه حاضراً ، وقيد المعلق به بعلم اليقين ، فإنهم قد يعلمون ما بعد الموت ، لكن ليس علماً هو يقين .

سورة الهمزة قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

قوله : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(١) هو الطعان العياب كما قال : ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ
بِنَمِيمٍ﴾^(٢) وقال : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾^(٣) وقال : ﴿الَّذِينَ
يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) . والهمزة أشد ، لأن الهمز الدفع بشدة ،
ومنه الهمزة من الحروف ، وهي نفرة في الحلق ، ومنه : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ
مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾^(٥) ومنه قول النبي ﷺ : « أعوذ بالله من الشيطان
الرجيم ، من همزه ، ونفخه ، ونفثه »^(٦) وقال : «همزه الموتة» وهي الصرع ،

(١) سورة الهمزة آية رقم ١ .

(٢) سورة القلم آية رقم ١١ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٥٨ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٧٩ .

(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٩٧ .

(٦) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها ٢ باب الاستعاذة في الصلاة ٨٠٧ -

عن عمرو بن مرة عن عاصم العنزي ، عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال : رأيت رسول
الله - ﷺ - حين دخل في الصلاة قال : الله أكبر كبيراً . الله أكبر كبيراً ثلاثاً ، الحمد لله كثيراً ،
الحمد لله كثيراً ثلاثاً سبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً وذكره .

فالهمز مثل الطعن لفظاً ومعنى .

واللمز كالذم والعيب ، وإنما ذم من يكثر الهمز ، واللمز - فإن الهمزة واللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيراً ، و« الهمزة » و« اللمزة » الذي يفعل ذلك به ، كما في نظائره مثل الضحكة والضحكة ، واللعة واللعة وقوله : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ ^(١) وصفه بالطعن في الناس ، والعيب لهم ، ويجمع المال وتعيده ، وهذا نظير قوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ ﴾ ^(٢) في « النساء » و« الحديد » فإن الهمزة اللمزة يشبه المختال الفخور ، والجماع المحصى نظير البخل ، وكذلك نظيرهما : « قوله : ﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ ، مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، مُتَلِّبٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ ﴾ ^(٣) وصفه بالكبر والبخل ، وكذلك قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ ^(٤) فهذه خمس مواضع ، وذلك ناشئ عن حب الشرف والمال ، فإن محبة الشرف تحمل على انتقاص غيره بالهمز واللمز والفخر والخيلاء ، ومحبة المال تحمل على البخل ، وضد ذلك من أعطى فلم يبخل ، واتقى فلم يهمز ، ولم يلمز ، وأيضاً فإن المعطي نفع الناس ، والمتقي لم يضرهم ، ففنع ولم يضر ، وأما المختال الفخور البخل ، فإنه يبخله منعهم الخير ؛ وبفخره سامهم الضر ، فضرهم ولم ينفعهم ، وكذلك « الهمزة الذي جمع مالا » ونظيره قارون الذي جمع مالا ، وكان من قوم موسى فبغى عليهم .

ومن تدبر القرآن وجد بعضه يفسر بعضاً ، فإنه كما قال ابن عباس في

= قال عمرو : همزة الموتة ، ونفته الشعر ، ونفخه الكبر ، والموتة نوع من الجنون والصرع يعتري الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه كمال العقل .

(١) سورة الهمزة آية رقم ٢ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٣ - ٢٤ .

(٣) سورة القلم من ١١ - ١٣ .

(٤) سورة الليل آية رقم ٨ .

رواية الوالبي : مشتمل على الأقسام ، والأمثال ، وهو تفسير : « متشابهاً مثاني » .

ولهذا جاء كتاب الله جامعاً ، كما قال ﷺ : « أعطيت جوامع الكلم » ^(١) وقال تعالى : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ ^(٢) فالتشابه يكون في الأمثال ، والمثاني في الأقسام ، فإن التثنية في مطلق التعديد ، كما قد قيل في قوله : ﴿ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ ^(٣) وكما في قول حذيفة « كنا نقول بين السجدين : رب اغفر لي ، رب اغفر لي » وكما يقال : فعلت هذا مرة بعد مرة ، فتثنية اللفظ يراد به التعديد ، لأن العدد ما زاد على الواحد ، وهو أول التثنية ، وكذلك ثبت الثوب ، أعم من أن يكون مرتين فقط أو مطلق العدد ، فهو جميعه متشابه ، يصدق بعضه بعضاً ، ليس مختلفاً ، بل كل خبر وأمر منه يشابه الخبر ، لاتحاد مقصود الأمرين ، ولاتحاد الحقيقة التي إليها مرجع الموجودات .

فلما كانت الحقائق المقصودة والموجودة ترجع إلى أصل واحد ، وهو الله سبحانه ، كان الكلام الحق فيها خبراً ، وأمرأ متشابهاً ، ليس بمنزلة المختلف المتناقض ، كما يوجد في كلام أكثر البشر ، والمصنفون - الكبار منهم - يقولون شيئاً ثم ينقضونه ، وهو جميعه مثنان ، لأنه استوفيت فيه الأقسام المختلفة ، فإن الله يقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ^(٤) فذكر الزوجين مثاني ، والأخبار

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التعبير ١١ باب رؤيا الليل ٦٩٩٨ حدثنا محمد بن عبد الرحمن الطفاوي ، حدثنا أيوب عن محمد عن أبي هريرة قال : قال النبي - ﷺ - أعطيت مفاتيح الكلم - ونصرت بالرعب ، وبيننا أنا نائم البارحة إذ أتيت بمفاتيح خزائن الأرض حتى وضعت في يدي .

قال أبو هريرة : فذهب رسول الله - ﷺ - وأنتم تنتقلونها .

ورواه الإمام مسلم في المساجد ٥ - ٨ والأشربة ٧٢ ورواه الترمذي في السيرة وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ (حلي) .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الملك آية رقم ٤ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٤٩ .

عن الحقائق بما هي عليه بحيث يحكم على الشيء بحكم نظيره ، وهو حكم على المعنى الواحد المشترك خبراً أو طلباً خطاب متشابه ، فهو متشابه مثنان .

وهذا في المعاني مثل الوجوه والنظائر في الألفاظ فإن كل شيئين من الأعيان والأعراض وغير ذلك إما أن يكون أحدهما مثل الآخر ، أو لا يكون مثله فهي الأمثال ، وجمعها هو التأليف ، وإذا جاءت بلفظ واحد كانت نظائر ، وإن لم يكن مثله فهو خلافه سواء كان ضدّاً أو لم يكن ، وقد يقال : إما أن يجمعها جنس أولاً ، فإن لم يجمعها جنس فأحدهما بعيد عن الآخر ، ولا مناسبة بينهما ، وإن جمعها جنس فهي الأقسام ، وجمعها هو التصنيف ، ودلالة اللفظ الواحد على المعاني المختلفة تسمى الوجوه ، والكلام الجامع هو الذي يستوفي الأقسام المختلفة ، والنظائر المتماثلة جمعاً بين المتماثلين ، وفرقاً بين المختلفين . بحيث يبقى محيطاً ، وإلا فذكر أحد القسمين أو المثلين لا يفيد التمام ، ولا يكون الكلم محيطاً ، ولا الكلم جوامع ، وهو فعل غالب الناس في كلامهم .

والحقائق في نفسها : منها المختلف ، ومنها المؤتلف ، والمختلفان بينهما اتفاق من وجه ، واقتراق من وجه ، فإذا أحاط الكلام بالأقسام المختلفة ، والأمثال المؤتلفة كان جامعاً ، وباعتبار هذه المعاني كانت ضروب القياس العقلي المنطقي ثلاثة : الحملات والشرطيات المتصلة ، والشرطيات المنفصلة .

فالأول للحقائق المتماثلة الداخلة في القضية الجامعة .

والثاني للمختلفات التي ليست متضادة ، بل تتلازم تارة ، ولا تتلازم أخرى .

والثالث للحقائق المتضادة المتنافية ، إما وجوداً أو عدماً ، وهي النقيضان ، وإما وجوداً فقط ، وهو أعم من النقيضين ، وإما عدماً فقط ، وهو أخص من النقيضين .

فالحملات للمثلين ، والأمثال ، والشرطيات المنفصلة للمتضادين ،

والمتضادات ويسمى التقسيم ، والسبر ، والترديد ، والبياني ، والمتصلة
للخلافين غير المتضادين ، ويسمى التلازم .

سورة الكوثر وقال شيخ الإسلام

أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
رحمه الله

« سورة الكوثر » ما أجلها من سورة ؟ وأغزر فوائدها على اختصارها ،
وحقيقة معناها تعلم من آخرها ، فإنه سبحانه وتعالى بتر شائق رسوله من كل
خير ، فبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة ، وبتر حياته فلا ينتفع
بها ، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده ، ويبتر قلبه فلا يعي الخير ، ولا يؤهله لمعرفة
ومحبته ، والإيمان برسله ، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة ، ويبتره من
الأنصار فلا يجد له ناصرًا ، ولا عوناً ، ويبتره من جميع القرب والأعمال
الصالحة فلا يذوق لها طعمًا ، ولا يجد لها حلاوة ، وإن باشرها بظاهرها ، فقلبه
شارد عنها ، وهذا جزاء من شئنا بعض ما جاء به الرسول ﷺ ورده لأجل
هواه ، أو متبوعه ، أو شيخه ، أو أميره ، أو كبيره ، كمن شئنا آيات الصفات ،
وأحاديث الصفات وتأولها على غير مراد الله ورسوله منها ، أو حملها على ما يوافق
مذهبه ، ومذهب طائفته ، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت ، ولا
أحاديث الصفات قالها رسول الله ﷺ .

ومن أقوى علامات شئائه لها ، وكراهته لها أنه إذا سمعها حين يستدل
بها أهل السنة على ما دلت عليه من الحق اشمأز من ذلك ، وحاد ونفر عن
ذلك ، لما في قلبه من البغض لها والنفرة عنها ، فأبي شائق للرسول أعظم من

هذا ، وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغنا والقصائد والدفوف والشبابات إذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه ، فأى شأن أعظم من هذا ، وقس على هذا سائر الطوائف في هذا الباب . وكذلك من أثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة ، فلولا أنه شأى لما جاء به الرسول ما فعل ذلك ، حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه ، ويشغل بقول فلان وفلان ، ولكن أعظم من شأنه ورده : من كفر به وجحدته وجعله أساطير الأولين ، وسحراً يؤثر ، فهذا أعظم وألم ابتاراً وكل من شأنه له نصيب من الابتار ، على قدر شنائه له فهؤلاء لما شنؤه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معادياً لهم ، فبترهم منه ، وخص نبيه ﷺ بضد ذلك ، وهو أنه أعطاه الكوثر ، وهو من الخير الكثير الذي آتاه الله في الدنيا والآخرة . فمما أعطاه في الدنيا الهدى والنصر والتأييد وقرة العين والنفس وشرح الصدر ، ونعم قلبه بذكره وجهه بحيث لا يشبه نعيمه نعيم في الدنيا البتة ، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود ، وجعله أول من يفتح له ولأمته باب الجنة ، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد ، والحوض العظيم ، في موقف القيامة إلى غير ذلك ، وجعل المؤمنين كلهم أولاده وهو أب لهم ، وهذا ضد حال الأبر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به .

وقوله : ﴿ إِنَّ شَأْنَكَ ﴾ ^(١) أي مبغضك ، والأبتر المقطوع النسل ، الذي لا يولد له خير ، ولا عمل صالح فلا يتولد عنه خير ، ولا عمل صالح ، قيل لأبي بكر بن عياش : إن بالمسجد قوماً يجلسون ويجلس إليهم ، فقال : من جلس للناس ، جلس الناس إليه ، ولكن أهل السنة يموتون ، ويحيى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم ، لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ^(٢) وأهل

(١) سورة الكوثر آية رقم ٣ .

(٢) سورة الشرح آية رقم ٤ .

البدعة شنأوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله : ﴿ إِن شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (١) .

فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ، أو ترده لأجل هواك ، أو انتصاراً لمذهبك ، أو لشيخك ، أو لأجل اشتغالك بالشهوات ، أو بالدنيا ، فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله ، والأخذ بما جاء به ، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق ، واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعاً للرسول ، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع ، فاعلم ذلك واسمع ، وأطع واتبع ، ولا تتبدع ، تكن أبتراً مردوداً عليك عملك ، بل لا خير في عمل أبتراً من الأتباع ولا خير في عامله والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (٢) تدل هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معط كبير غني واسع ، وأنه تعالى وملائكته وجنده معه : صدر الآية « بيان » الدالة على التأكيد ، وتحقيق الخبر ، وجاء الفعل بلفظ الماضي الدال على التحقيق ، وأنه أمر ثابت واقع ، ولا يدفعه ما فيه من الإيذان ، بأن إعطاء الكوثر سابق في القدر الأول حين قدرت مقادير الخلائق ، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة ، وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم ، لما فيه من عدم التعيين ، وأتى بالصفة أي أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فوصفه بالكوثر ، والكوثر المعروف إنما هو نهر في الجنة ، كما قد وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة ، وقال ابن عباس الكوثر إنما هو الخير الكثير الذي أعطاه الله آياه ، وإذا كان أقل أهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات ، فما الظن بما

(١) سورة الكوثر آية رقم ٣ .

(٢) سورة الكوثر آية رقم ١ .

لرسول الله ﷺ مما أعده الله له فيها ، فالكوثر علامة وأمانة على تعدد ما أعده الله له من الخيرات ، واتصالها وزيادتها ، وسموا لمنزلة وارتفاعها ، وأن ذلك النهر وهو الكوثر أعظم أنهار الجنة وأطيبها ماء ، وأعذبها وأحلاها وأعلاها .

وذلك أنه أتى فيه بلام التعريف الدالة على كمال المسمى وتمامه ، كقوله : زيد العالم ، زيد الشجاع ، أي لا أعلم منه ولا أشجع منه ، وكذلك قوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ . دل على أنه أعطاه الخير كله كاملاً موفراً ، وإن نال منه بعض أمته شيئاً كان ذلك الذي ناله ببركة اتباعه ، والافتداء به ، مع أن له ﷺ مثل أجره من غير أن ينقص من أجل المتبع له شيء ففيه الإشارة إلى أن الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم ، فإنه هو السبب في هدايتهم ، ونجاتهم ، فينبغي بل يجب على العبد اتباعه والافتداء به ، وأن يمثل ما أمره به ويكثر من العمل الصالح صوماً وصلاةً وصدقةً وطهارةً ، ليكون له مثل أجره ، فإنه إذا فعل المحظورات فات الرسول مثل أجر ما فرط فيه من الخير ، فإن فعل المحظور مع ترك المأمور قوي وزره ، وصعبت نجاته لارتكابه المحظور وتركه المأمور ، وإن فعل المأمور وارتكب المحظور دخل فيمن يشفع فيه الرسول ﷺ لكونه ناله مثل أجر ما فعله من المأمور ، وإلى الله إياب الخلق ، وعليه حسابهم ، وهو أعلم بحالهم ، أي بأحوال عبادهم ، فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته ، والمحسن إنما أحسن بتوفيق الله له ، والمسيء لا حجة له ولا عذر .

والمقصود أن الكوثر نهر في الجنة وهو من الخير الكثير الذي أعطاه الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة ، وهذا غير ما يعطيه الله من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة ، فكل من قرأ أو علم أو عمل صالحاً أو علم غيره أو تصدق أو حج أو جاهد أو رابط أو تاب أو صبر أو توكل أو نال مقاماً من المقامات القلبية من خشية أو خوف ومعرفة وغير ذلك ، فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر ذلك العامل ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ^(١) أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين ، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله ، وإلى عدته وأمره ، وفضله ، وخلفه ، عكس حال أهل الكبر والنفرة ، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها ، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ، وتركاً لإعانة الفقراء وإعطائهم ، وسوء الظن منهم بربهم ، ولهذا جمع الله بينهما ، في قوله تعالى : - ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه .

والمقصود : أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ، لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر ، والخير الكثير ، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان ، بل الصلاة نهاية العبادات ، وغاية الغايات . كأنه يقول : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ الخير الكثير ، وأنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين ، شكراً لأنعمنا عليك . وهما السبب لأنعمنا عليك بذلك ، فقم لنا بهما ، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما ، وإنعام بعدهما ، وأجل العبادات المالية النحر ، وأجل العبادات البدنية الصلاة ، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات ، كما عرفه أرباب القلوب الحية ، وأصحاب الهمم العالية ، وما يجتمع له في نحره من إثارة الله ، وحسن الظن به وقوة اليقين ، والوثوق بما في يد الله أمر عجيب ، إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص ، وقد امثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر ، حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة ، وكان ينحر في الأعياد وغيرها .

(١) سورة الكوثر آية رقم ٢ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٢ .

وفي قوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ^(١) إشارة إلى أنك لا تتأسف على شيء من الدنيا ، كما ذكر ذلك في آخر « طه » و« الحجر » وغيرهما ، وفيها الإشارة إلى ترك الالتفات إلى الناس وما ينالك منهم ، بل صل لربك وانحر ، وفيها التعريض بحال الأبرر الشانئ ، الذي صلاته ونسكه لغير الله .

وفي قوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ^(٢) أنواع من التأكيد : أحدها : - تصدير الجملة بـ ﴿ إِنَّ ﴾ .

الثاني : - الإتيان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والإختصاص .

الثالث : - مجيء الخبر على أفعل التفضيل ، دون اسم المفعول .

الرابع : تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه ، وأنه أحق به من غيره ، ونظير هذا في التأكيد قوله : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ^(٣) .

ومن فوائدها اللطيفة الالتفات في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ^(٤) . الدالة على أن ربك مستحق لذلك ، وأنت جدير بأن تعبد ، وتنحرف له . والله أعلم .

(١) سورة الكوثر آية رقم ١-٢ .

(٢) سورة الكوثر آية رقم ٣ .

(٣) سورة طه آية رقم ٦٨ .

(٤) سورة الكوثر آية رقم ٢ .

سورة الكافرون قال الشيخ رحمه الله

فصل

في سورة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾

للناس في وجه تكرير البراءة من الجانبيين طرق حيث قال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(١) . ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(٢) ، منها قولان مشهوران ذكرهما كثير من المفسرين ، هل كرر الكلام للتوكيد ، أولنفي الحال والاستقبال ؟ .

قال أبو الفرج : في تكرار الكلام قولان : أحدهما أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم فيه ، قاله الفراء ، وقد أفعمنا هذا في سورة الرحمن ، قال ابن قتيبة : التكرير في سورة الرحمن للتوكيد . قال : وهذه مذاهب العرب أن التكرير للتوكيد والإفهام ، كما أن مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز ، لأن افتتاح المتعلم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاده في المقام على فن واحد ، يقول القائل : والله لا أفعله ، ثم والله لا أفعله ، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله ، كما يقول : والله أفعله ؟ باضمار ﴿ لَا ﴾ إذا أراد الاختصار ويقول للمرسل ، المستعجل : اعجل اعجل ! والرامي ارم ،

(١) سورة الكافرون آية رقم ٢ - ٣ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٤ - ٥ .

ارم ، قال الشاعر :
كم نعمة كانت لكم ، وكم وكم ؟

وقال الآخر : -

هل سألت جموع كند . مدة يوم ولوا أين أيننا^(١) ؟
وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانية ،
لأنها كلمة واحدة فغيروا منها حرفاً .
قال ابن قتيبة^(٢) : فلما عدد الله في هذه السورة إنعامه ، وذكر عباده
آلاءه ونبيهم على قدرته ، جعل كل كلمة فاصلة بين نعمتين لتفهمهم النعم
وتقريرهم بها ، كقولك للرجل ، ألم أنزلك منزلاً وكنت طريداً ؟ أفتنكر هذا ؟
ألم أحج بك وكنت صروراً ؟ أفتنكر هذا ؟
« قلت » : قال ابن قتيبة : تكرار الكلام في ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾
لتكرار الوقت ، وذلك أنهم قالوا : إن سرك أن ندخل في دينك عاماً ، فادخل
في ديننا عاماً ، فنزلت هذه السورة .

قلت : هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ وإن كان كلام العرب وغير
العرب ، فإن جميع الأمم يؤكدون إما في الطلب ، وإما في الخبر ، بتكرار
الكلام ، ومنه قول النبي ﷺ : « والله ؟ لأغزون قريشاً ، ثم والله ؟ لأغزون
قريشاً ، ثم والله ؟ لأغزون قريشاً ، ثم قال : إن شاء الله . ثم لم
يغزهم »^(٣) .

وروي عنه أنه في غزوة تبوك كان يقود به حذيفة^(٤) ، ويسوق به

(١) في هذا البيت نقص في أوله أدى إلى خلل عروضي ، ولعل صحته : أو هل سألت ... الخ
والبيت من البحر الكامل .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة توفي عام ٢٧٦ هـ سبق الترجمة له في كلمة وافية . [وراجع
وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ ، ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ ودائرة المعارف
الإسلامية ١ : ٢٦٠] .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الإيمان ١٧ .

(٤) هو حذيفة بن حسل بن جابر العبسي أبو عبدالله ، واليمان لقب توفي عام ٣٦ هـ [راجع ابن

عمار (١) ، فخرج بضعة عشر رجلاً حتى صعدوا العقبة ركبناً متلثمين وكانوا قد أرادوا الفتك برسول الله ﷺ ، فقال لحذيفة : قد ، قد ، ولعمار : سق ، سق .

فهذا أكثر ، لكن ليس في القرآن من هذا شيء ، فإن القرآن له شأن اختص به ، لا يشبهه كلام البشر - لا كلام نبي ، ولا غيره ، وإن كان نزل بلغة العرب ، فلا يقدر مخلوق أن يأتي بسورة ، ولا ببعض سورة مثله .

فليس في القرآن تكرار للفظ بعينه عقب الأول قط ، وإنما في سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية ، لم يذكر متوالياً ، وهذا النمط أرفع من الأول .

وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكرار ، كما ظنه بعضهم . ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ليس فيها لفظ تكرار إلا قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٣) وهو مع الفصل بينهما بجملته .

وقد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها : ألم تك فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تك عرياناً فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ، ألم تك حاملاً فعرفتك ؟ ونحو ذلك . وهذا أقرب من التكرار المتوالي ، كما في اليمين المكررة .

وكذلك ما يقوله بعضهم إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ ،

= عساكر ٤ : ٩٣ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢١٩ والاصابة ١ : ٣١٧ وحلية الأولياء ١ : ٢٧٠

وأسد الغابة والجمع ١٠٧ وفيه : واسم اليمان حسيل بن عمرو بن ربيعة [

(١) هو عمار بن ياسر بن عامر الكناني أبو اليقظان صحابي من الولاة الشجعان توفي عام ٣٧ هـ

وسبق الترجمة له [راجع الاستيعاب بهامش الاصابة ٢ : ٤٦٩ والاصابة ت ٥٧٠٦ والطبري

٦ : ٢١ وحلية الأولياء ١ : ١٣٩] .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

كقوله :

فألفى قولها كذباً وميناً

فليس في القرآن من هذا شيء ، ولا يذكر فيه لفظ زائد إلا لمعنى زائد وإن كان في ضمن ذلك التوكيد ، وما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضْهِجُنَّ نَادِمِينَ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٣) فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه ، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ، وقوة اللفظ لقوة المعنى ، والضم أقوى من الكسر ، والكسر أقوى من الفتح ، ولهذا يقطع على الضم لما هو أقوى مثل « الكره » و « الكره » فالكره هو الشيء المكروه .. كقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ ^(٤) والكره المصدر ، كقوله ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ ^(٥) والشيء الذي في نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره .

وكذلك « الذبح » و « الذبح » فالذبح : المذبوح ، كقوله : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(٦) ، والذبح : الفعل ، والذبح : مذبوح ، وهو جسد يذبح ، فهو أكمل من نفس الفعل .

قال أبو الفرج : والقول الثاني أن المعنى : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ في حالي هذه ، ﴿ ولا أنتم ﴾ في حالكم هذه ﴿ عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ في ما أستقبل ، وكذلك ﴿ أنتم ﴾ فنفى عنهم في الحال والاستقبال ، وهذا في قوم بأعيانهم أعلمه الله أنهم لا يؤمنون ، كما ذكرناه عن مقاتل ، فلا يكون حينئذ تكرار ، قال : وهذا قول ثعلب ، والزجاج .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ١١ .

(٦) سورة الصافات آية رقم ١٠٧ .

قلت : قد ذكر القولين جماعة ، لكن منهم من جعل القول الأول قول أكثر أهل المعاني ، فقالوا - واللفظ للبعوي : معنى الآية : لا أعبد ما تعبدون في الحال ، ولا أنا عابد ما عبدتم في الاستقبال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال ، وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون .

قال : وقال أكثر أهل المعاني : نزل بلسان العرب على مجاري خطابهم ، ومن مذاهبهم التكرار لإرادة للتوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز .

قلت : ومن المفسرين من لم يذكر غير الثاني - منهم المهدوي ^(١) وابن عطية . قال ابن عطية : لما كان قوله : ﴿ لا أعبد ﴾ محتملاً أن يراد به الآن ، ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته - جاء البيان بقوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ^(٢) ، أي أبداً ما حييت ، ثم جاء قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(٣) الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً ، كالذين كشف الغيب عنهم ، كما قيل لنوح : ﴿ إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ ^(٤) إما أن هذا فخطاب لمعينين ، وقوم نوح قد عموا بذلك .

قال : فهذا معنى التردد الذي في السورة ، وهو بارع الفصاحة ، وليس هو بتكرار فقط ، بل فيه ما ذكرته ، مع الإبلاغ والتوكيد ، وزيادة الأمر بياناً وتبريراً منهم .

قلت : هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على

(١) هو محمد بن ابراهيم المهدوي أبو عبدالله : فقيه من أهل المهديّة بالمغرب نزل بفاس وتوفي بها عام ٥٩٥ هـ عرفه صاحب جذوة الاقتباس بالفقيه العالم الصالح صاحب كتاب الهداية

[راجع جذوة الاقتباس ١٦٩] .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٤ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٤) سورة هود آية رقم ٣٦ .

التكرير ، لكن فيه نقص من جهة أخرى ، وهو جعلهم هذا خطاباً لمعينين ، فنقصوا معنى السورة من هذا الوجه .

وهذا غلط ، فإن قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) خطاب لكل كافر ، وكان يقرأ بها في المدينة بعد موت أولئك المعينين ، ويأمر بها ويقول هي براءة من الشرك ، فلو كانت خطاباً لأولئك المعينين ، أو لمن علم منهم أنه يموت كافراً ، لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه . وأيضاً فأولئك المعينون إن صح أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذ ذاك علم أنهم يموتون على الكفر .

والقول بأنه إنما خاطب بها معينين قول لم يقله من يعتمد عليه ، ولكن قد قال مقاتل بن سليمان ^(٢) : إنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد ، ونقل مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث ، كنقل الكلبي ^(٣) .

ولهذا كان المصنفون في التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن واحد منهما شيئاً ، كمحمد بن جرير ، وعبد الرحمن بن أبي حاتم ^(٤) ، وأبي بكر

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي أبو الحسن من أعلام المفسرين ، أصله من بلخ انتقل الى البصرة ، ودخل بغداد فحدث بها وتوفي بالبصرة عام ١٥٠ هـ كان متروك الحديث ، من كتبه « التفسير الكبير » و« نواذر التفسير » ، و« الرد على القدرية » وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ١١٢ وتهذيب ١٠ : ٢٧٩ وميزان الاعتدال ٣ : ١٩٦ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٦٠] .

(٣) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي توفي عام ١٤٦ هـ سبق الترجمة له . [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ وميزان الاعتدال ٣ : ٦١ والوافي بالوفيات ٣ : ٨٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٣٣] .

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن ادريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي أبو محمد ، حافظ للحديث من كبارهم كان منزله في درب حظلة بالري وإليهما نسبته له تصانيف

ابن المنذر^(١) ، فضلاً عن مثل أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه . وقد ذكر غيره هذا عن قريش مطلقاً ، كما رواه عبد بن حميد^(٢) عن وهب^(٣) بن منبه قال : قالت قريش للنبي ﷺ : إن سرك أن ندخل في دينك عاماً وتدخل في ديننا عاماً ، فنزلت ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى ختمها ، وعن ابن عباس ، قالت قريش : يا محمد ! لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك ، فنزلت السورة . وعن قتادة قال : أمره الله أن ينادي الكفار فناداهم بقوله ﴿ يا أيها ﴾ .

وروى ابن حاتم عن وهب بن منبه : قال كفار قريش ، فذكره ، وقال عكرمة : برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان ودين جميع الكفار ، وقال قتادة : أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين اقتبراً منهم .

وروى قتادة عن زرارة بن أوفى : كانت تسمى « المقشقشة » يقال قشقش فلان ، إذا برىء من مرضه ، فهي تبرىء صاحبها من الشرك . وبهذا بعثها النبي ﷺ في الحديث المعروف في المسند والترمذي من حديث إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن فروة بن نوفل عن أبيه عن النبي ﷺ قال

= منها « الجرح والتعديل » و« التفسير » و« الرد على الجهمية » توفي عام ٣٢٧ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٣ : ٤٦ وفوات الوفيات ١ : ٢٦٠ وطبقات الحنابلة ٢ : ٥٥] .

(١) هو محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ، أبو بكر : فقيه مجتهد من الحفاظ كان شيخ الحرم بمكة ، قال الذهبي : ابن المنذر صاحب الكتب التي لم يصنف مثلها منها « المبسوط » في الفقه ، و« الأوسط » في السنن « وتفسير القرآن » وغير ذلك كثير توفي عام ٣١٩ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٣ : ٤ والوفيات ١ : ٤٦١ وطبقات الشافعية ٢ : ١٢٦ ولسان الميزان ٥ : ٢٧] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) هو وهبة بن منبه الأنباري الصنعاني الذماري أبو عبدالله مؤرخ كثير الأخبار من الكتب القديمة ، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الاسرائيليات ، يعد في التابعين ، أصله من أبناء الفهرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن ، وأمه من حمير ولد عام ٣٤ هـ بصنعاء ومات بها عام ١١٤ هـ [راجع المعارف لابن قتيبة ٢٠٢ وتاريخ الاسلام للذهبي ٥ : ١٤ - ١٦ وشذرات الذهب ١ : ١٥٠] .

له : « مجيء ما جاء بك ؟ قال : جئت يا رسول الله لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي . قال : « إذا أخذت مضجعتك فاقراً ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك » .

رواه غير واحد عن أبي إسحاق ، وكان تارة يستنده ، وتارة يرسله ، رواه عنه زهير ، وإسرائيل مسنداً ، ورواه عنه شعبة ولم يذكر عن أبيه وقال « عن أبي إسحاق ، عن رجل ، عن فروة بن نوفل » ولم يقل « عن أبيه » قال الترمذي : وحديث زهير أشبه وأصح من حديث شعبة . قال : وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه ، فرواه عبد الرحمن بن نوفل ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ وعبد الرحمن بن نوفل هو أخو فروة بن نوفل .

قلت : وقد رواه عن أبي إسحاق ، اسماعيل بن أبي خالد ، قال : جاء رجل من أشجع إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله علمني كلاماً أقوله عند منامي . قال : « إنك لنا ظئر ، اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عند منامك ، فإنها براءة من الشرك » .

فقد أمر رسول الله ﷺ واحداً من المسلمين أن يقرأها ، وأخبره أنها براءة من الشرك ، فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين أولئك فقط ، لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد ، ومعلوم أن المقصود منها أن تكون براءة من كل شرك - اعتقادي وعملي .

وقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ^(١) خطاب لكل كافر وإن أسلم فيما بعد ، فدينه قبل الإسلام له كان والمؤمنون بريئون منه ، وإن غفره الله له بالتوبة منه ، كما قال لنبيه ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) فإنه بريء من معاصي أصحابه وإن تابوا منها ، وهذا كقوله : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ

(١) سورة الكافرون آية رقم ٦ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢١٦ .

فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيُّونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

وروى ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ثنا محمد بن موسى الجرشي ، ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى ، ثنا داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن قريشاً دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل فيهم ، ويزوجه ما شاء من النساء ، ويطأوا عقبه - أي يسودوه - فقالوا : هذا لك عندنا ، يا محمد ! وكف عن شتم آلهتنا ، فلا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة ، وهي لك ولنا فيها صلاح . قال : « ما هي ؟ » . قالوا : نعبد آلهتنا سنة - اللات والعزى - ونعبد إلهك سنة - قال : « حتى أنظر ما يأتيني من ربي » . فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ . ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ إلى آخرها . وأنزل الله عليه : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ، وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ خطاب لكل من عبد غير الله وإن كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد ، وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله .

وقوله في هذا الحديث : « حتى أنظر ما يأتيني من ربي » قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتي هي أحسن ليجعل حجته أن الذي عليه طاعته قد منع من ذلك ، فيؤخر الجواب حتى يستأمره ، وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه .

(١) سورة يونس آية رقم ٤١ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦٤ - ٦٦ .

وقد تخطب إلى الرجل ابنته فيقول : حتى أشاور أمها ، وهو يريد أن لا يزوجها بذلك ، ويعلم أن أمها لا تشير به ، وكذلك قد يقول النائب : حتى أشاور السلطان .

فليس في مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك . وقد كان جماعة من قريش من الذين يأمرونه وأصحابه أن يعبدوا غير الله ، ويقاثلونهم ، ويعادونهم عداوة عظيمة على ذلك ، ثم تابوا وأسلموا وقرأوا هذه السورة .

ومن النقلة من يعين ناساً غير الذين عينهم غيره ، منهم من يذكر أبا جهل وطائفة ، ومنهم من يذكر عتبة بن ربيعة وطائفة ، ومنهم من يذكر الوليد ابن المغيرة وطائفة ، ومنهم من يقول : طلبوا أن يعبدوا الله معه عاماً ويعبد آلهتهم معهم عاماً ، ومنهم من يقول : طلبوا أن يستلم آلهتهم .

ومنهم من يقول : طلبوا الاشتراك ، كما روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن اسحاق قال : حدثني سعيد بن ميناء مولى أبي البخري قال : لقي الوليد ابن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأميمة بن خلف ، رسول الله ﷺ ، فقالوا : هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه . فأنزل الله السورة .

وهذا منقول عن عبيد بن عمير ، وفيه أن القائل له عتبة ، وأميمة . فهذه الروايات متطابقة على معنى واحد ، وهو أنهم طلبوا منه أن يدخل في شيء من دينهم ، ويدخلوا في شيء من دينه ، ثم إن كانت كلها صحيحة فقد طلب منه تارة هذا وتارة هذا ، وقوم هذا وقوم هذا .

وعلى كل تقدير فالخطاب للمشركين كلهم - من مضى ، ومن يأتي إلى يوم القيامة .

وقد أمره الله بالبراءة من كل معبود سواه ، وهذه ملة إبراهيم الخليل ، وهو مبعوث بملته . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ (١) .

وقال الخليل أيضاً : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ . إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (٣) وقال لنيبه : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) . فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه ، وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب .

وقد ذكر المهدوي هذا القول ، وذكر معه قولين آخرين ، فقال : الألف واللام ترجع إلى معهود وإن كانت للجنس حيث كانت صفة ، لأن لامها مخاطبة لمن سبق في علم الله أن يموت كافراً ، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم .

وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير في المعنى ، ولا في اللفظ ، سوى موضع واحد منها ، فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى ، بل معنى ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ في الحال ، ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الحال ، ﴿ ولا أنا

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦-٢٨ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٤١ .

عابد ما عبدتم ﴿ في الاستقبال ﴾ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴿ في الاستقبال .

قال : فقد اختلف اللفظ والمعنى في قوله ﴿ لا أعبد ﴾ ، وما بعده ﴿ ولا أنا ﴾ ، وتكرر ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في اللفظ دون المعنى . قال : وقيل إن معنى الأول : ولا أنتم عابدون ما عبدت . ومعنى الثاني : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، فعدل عن لفظ ﴿ عبدت ﴾ للإشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل - قد يقع أحدهما موقع الآخر ، وأكثر ما يأتي ذلك في إخبار الله تعالى ، ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ والفعل مصدرًا ، وقيل إن معنى الآيات وتقديرها : قل يا أيها الكافرون ! لا أعبد الأصنام . الذي تعبدون ، ولا أنتم عابدون الذي أعبد ، لإشراككم به ، واتخاذكم معه الأصنام ، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون ، لأنكم تعبدونه شركين به ، فأننا لا أعبد ما عبدتم ، أي مثل عبادتكم ، فهو في الثاني مصدر ، وكذلك : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(١) هو في الثاني مصدر أيضاً ، معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد . قلت : القول الثالث هو في معنى الثاني ، لكن جعل قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(٢) معنيين : أحدهما بمعنى « ما عبدت » ، والآخر بمعنى ﴿ ما أعبد ﴾ ليطابق قوله لهم ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٣) ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ^(٤) .

فلما تبرأ من أن يعبد في الحال والاستقبال ما يعبدونه في الماضي والحال ، كذلك برأهم من عبادة ما يعبد في الحال والاستقبال ، لكن العبارة عنهم وقعت بلفظ الماضي ، قال هؤلاء : وإنما لم يقل في حقه : « ما عبدت » للإشعار بأن ما أعبد في الماضي هو الذي أعبد في المستقبل . قلت : أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم . لكن إذا أريد

(١) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

(٤) سورة الكافرون آية رقم ٤ .

بقوله : ﴿ ما عبدتم ﴾ [ما أريد] بقوله : ﴿ ما أعبد ﴾ - في أحد الموضعين الماضي - كان التقدير على ما ذكره : لا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم في الماضي ، فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبده في الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل . وكذلك إذا قيل : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(١) ، أي في الماضي ، فسواء أريد بما يعبدون الحال أو الاستقبال إنما نفى عبادة ما عبده في الماضي ، وهذا أنقص لمعنى الآية ، وكيف يتبرأ في المستقبل من عبادة ما عبده في الماضي فقط ؟ وكذلك هم ؟ .

وإن قيل : في المستقبل قد يعبدون الله بالانتقال عن الكفر ، فهو في الحال والاستقبال لا يعبد ما عبده ، قيل : فعلى هذا لا يقال لهؤلاء ولا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي ، بل قد يعبدون في المستقبل - إذا انتقلوا - ربه الذي عبده فيما مضى . وإن قيل : قول هؤلاء هو القول الثاني - لا أعبد في الحال ما تعبدون في الحال ، ولا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل قيل ولفظ الآية : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عُبِدْتُمْ ﴾ ، ليس لفظها « ولا أنا عابد ما تعبدون » . فقوله : ﴿ ما عبدتم ﴾ إن أريد به الماضي الذي أراده هؤلاء فسد المعنى ، وإن أريد به المستقبل بطل ما ذكره من أن المضارع بمعنى الماضي في قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(٢) . فإن الماضي هنا بمعنى المضارع ، فإذا كان المضارع مطابقاً له بقي مضارعاً - لم ينقل إلى الماضي - فيكون عكس المقصود .

والقول الرابع الذي ذكره قول من جعل ﴿ ما ﴾ مصدرية ، في الجملة الثانية دون الأخرى ، وهذا أيضاً ليس في الكلام ما يدل على الفرق بينهما ، وإذا جعلت في الجمل كلها مصدرية كان أقرب إلى الصواب مع أن هذا المعنى الذي تدل عليه ﴿ ما ﴾ المصدرية حاصل بقوله ﴿ ما ﴾ ، فإنه لم

(١) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

يقول : «ولا أنتم عابدون من أعبد» ، بل قال : ﴿ ما أعبد ﴾ . ولفظ ﴿ ما ﴾ يدل على الصفة بخلاف « من » فإنه يدل على العين ، كقوله : ﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ^(١) أي الطيب ، ﴿ والسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ^(٢) أي وبانيها ، ونظيره قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ﴾ ^(٣) ولم يقل « من تعبدون من بعدي » .

وهذا نظير [قوله] ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ سواء ، فالمعنى : لا أعبد معبودكم ، ولا أنتم عابدون معبودي .

فقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ يتناول شركهم ، فإنه ليس بعبادة الله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له وإن دعوه وصلوا له .

وأيضاً فما عبدوا ما يعبد ، وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص ، بل هذا يتناول عبادته وحده ، ويتناول الرب الذي أخبر به بما له من الأسماء والصفات ، فمن كذب به في بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبد من كل وجه .

وأيضاً فالشرائع قد تتنوع في العبادات ، فيكون المعبود واحداً وإن لم تكن العبادة مثل العبادة ، وهؤلاء لا يتبرأ منهم ، فكل من عبد الله مخلصاً له الدين فهو مسلم في كل وقت ، ولكن عبادته لا تكون إلا بما شرعه ، فلو قال : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي ، فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته ، وإنما البراءة من المعبود وعبادته .

(١) سورة النساء آية رقم ٣ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .

فصل

إذا تبين هذا فنقول : القرآن تنزيل من حكيم حميد ، وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت .

ولو أن رجلاً من بني آدم له علم ، أو حكمة ، أو خطبة ، أو قصيدة ، أو مصنف ، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التباير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة ، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى ، فكيف بكلام رب العالمين ، وأحكم الحاكمين ، لا سيما وقد قال فيه : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ^(١) .

فنقول : الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضي ، فيعم الحاضر والمستقبل ، كما قال سييويه ^(٢) : وبنوه لما مضى من الزمان ، ولما هو دائم لم ينقطع ، ولما لم يأت - بمعنى الماضي ، والمضارع ، وفعل الأمر ، فجعل المضارع لما هو من الزمان دائماً لم ينقطع ، وقد يتناول الحاضر والمستقبل .

فقوله : ﴿ لا أعبد ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

والزمان المستقبل ، وقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل ، كلاهما مضارع .

وقال في الجملة الثانية عن نفسه : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ، فلم يقل « لا أعبد » ، بل قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ ﴾ . ولم يقل « ما تعبدون » . بل قال : ﴿ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ . فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة الأولى .

والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى ، فإنه قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ بصيغة الماضي ، فهو يتناول ما عبده في الزمن الماضي ، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى ، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر ، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى .

فقوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ براءة من كل ما عبده في الأزمنة الماضية ، كما تبرأ أولاً مما عبده في الحال والاستقبال ، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان - ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، وقوله أولاً : ﴿ لَا أعبد ما تعبدون ﴾ لا يتناول هذا كله .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل ، ليس مضافاً ، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضاً ، لكنه جملة اسمية ، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى ، كما تقول : ما أفعل هذا ، وما أنا بفاعله . وقولك : « ما هو بفاعل هذا أبداً » أبلغ من قولك « ما يفعله أبداً » فإنه نفي عن الذات صدور هذا الفعل عنها ، بخلاف قولك « ما يفعل هذا » ، فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه ، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له ! بخلاف قوله « ما هو فاعلاً ، وما هو بفاعل » كما في قوله : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(١) سورة النحل آية رقم ٧١ .

بُـمُـصْـرِـخِي ﴿ ١ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى ﴾ (٣) . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ (٤) . ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٥) .

ولا يقال : الجملة الإسمية ترك الثبوت ، ونفي ذلك لا يقتضي نفي العارض ، فلن هذه الجملة في معنى الفعلية نفي ، لكونها عملت عمل الفعل ، لكنها دلت على اتصاف الذات بهذا ، فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنزيهاً للذات ونفياً لقبولها لذلك ، فالأول نفي الفعل في الماضي والمستقبل ، والثاني نفي قبوله في الماضي مع الحاضر والمستقبل .

فقوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبْدْتُمْ ﴾ ، أي نفسي لا تقبل ، ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط . فأني معبود عبدتموه في وقت ، فأنا لا أقبل أن أعبد في وقت من الأوقات .

ففي هذا من عموم عبادتهم في الماضي والمستقبل ، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة في جميع الأزمان ما ليس في الجملة الأولى ، تلك تضمنت نفي الفعل في الزمان غير الماضي ، وهذه تضمنت نفي إمكانه وقبوله لما كان معبوداً لهم ولو في بعض الزمان الماضي فقط .

والتقدير : ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبد أبداً .

ولكن لم ينف إلا ما يكون منه في الحاضر والمستقبل لأن المقصود

(١) سورة إبراهيم آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٨١ .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

برأته هو في الحال والاستقبال ، وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها .

فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبد المشركون في أي زمان كان ، وينفي جواز عبادته لمعبودهم ، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ ، فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً ، فإن مثل هذا الكلام لا يقال إلا فيما يستقبح من الأفعال ، كمن دعي إلى ظلم أو فاحشة فقال : « أنا أفعل هذا ؟ ما أنا بفاعل هذا أبداً » وهذا كقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ ﴾ (١) .

فهو يتضمن نفي الفعل بغضاً فيه وكراهة له ، بخلاف قوله : « لا أفعل » فقد يتركه الإنسان وهو يحبه لغرض آخر ، فإذا قال : « ما أنا عابد ما عبدتم » دل على البغض والكراهية والمقت لمعبودهم ولعبادتهم إياه وهذه هي البراءة .

ولهذا تستعمل في ضد الولاية فيقال : تول فلاناً ، وتبرأ من فلان ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ - الْآيَةَ .

وأما قوله عن الكفار : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فهو خطاب لجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد ، فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً ، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك ، فإنهم حينئذ مؤمنون ، لا كافرون . وإن كانوا منافقين فهم كافرون في الباطن فيتناولهم الخطاب .

وهذا كما يقال : قل يا أيها المحاربون ، والمخاصمون ، والمقاتلون ، والمعادون ، فهو خطاب لهم ما داموا متصفين بهذه الصفة . وما دام الكافر كافراً فإنه لا يعبد الله ، وإنما يعبد الشيطان ، سواء كان متظاهراً ، أو غير

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٥ .

متظاهرين به كاليهود .

فإن اليهود لا يعبدون الله ، وإنما يعبدون الشيطان ، لأن عبادة الله إنما تكون بما شرع وأمر ، وهُم وإن زعموا أنهم يعبدونه فتلك الأعمال المبدلة والمنهى عنها هو يكرها ويغضها ، وينهى عنها ، فليست عبادة .

فكل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافراً ، والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع ، فهو ما دام كافراً لا يعبد معبود محمد ﷺ - لا في الحاضر ولا في المستقبل .

ولم يقل عنهم « ولا تعبدون ما أعبد » ، بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة العاقرة بريئة من عبادة إله محمد ، لا يمكن أن تعبد ما دامت كافرة ، إذ لا تكون عابده إلا بأن تعبد وحده بما أمر به على لسان محمد ، ومن كان كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط .

وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله ، لم تقتصر على نفي الفعل .

ولم يحتج أن يقول فيهم : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » كما قال في نفسه : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ لوجهين :

أحدهما : - أن كل مؤمن فهو مأمور بقراءة هذه السورة ، ومنهم من كان معبوده غير الله ، فلو قال : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » لقالوا : بل نحن نعبد ما كنت تعبد لما كنت مشركاً ، بخلاف ما إذا قال : « ولا أنتم عابدون ما أعبد في هذا الوقت » ، ولم يقل « ما أنا عابد له » إذ نفسه قد لا تكون عابدة له مطلقاً ، وقد يجوز أن يعبد الواحد من الناس غير الله في المستقبل ، فلا يكون من لم يعبد ما يعبد في المستقبل مذموماً ، بخلاف المؤمن الذي يخاطب بهذه السورة غيره ، فإنه حين يقولها ما يعبد إلا الله ، فهو يقول للكفار : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ الآن وذكر النفي عن الكفار في

الجملتين لتقارب كل جملة جملة ، فلما قال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ^(١) ،
فنفي الفعل ، قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ^(٢) .

ثم لما زاد النفي بنفي جواز ذلك وبراءة النفس منه - ذكر ما يدل
على كراهته له وقبحه ، ونفى أن يعبد شيئاً مما عبده ولو في بعض الزمان -
قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ، بل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده ،
فليس لبراءتي ، وكمال براءتي وبعدي من معبودكم وكمال قربي إلى الله في
عبادتي له وحده لا شريك له ؛ يكون لكم نصيب من هذه العبادة ، بل أنتم
أيضاً في هذه الحال لا تعبدون ما أعبد - لا في الحال الأولى ، ولا في
الثانية .

ولو اقتصر في تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها
تبرئة لهم في هذه الحال الثانية ، فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى
الخاصة ، وحين البراءة الثانية العامة القاطعة .

وهم لم يختلف حالهم في الحالين ، بل هم فيهما لا يعبدون ما يعبد ،
فلم يكن في تغيير العبارة فائدة ، وإنما غيرت العبارة في حقه وحق المؤمنين
لتغيير المعنيين .

والإنسان يقوي يقينه وإخلاصه ، وتوحيده ، وبراءته من الشرك
وأهله ، وبغضه لما يعبدون ولعبادتهم ، فرفع درجته في ذلك ، وهو في ذلك
يقول للكفار « لا تعبدون ما أعبد » في هذه الحال - سواء كانوا هم قد زاد
كفرهم وبغضهم له أو لم يزد .

فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم ، ويخبرهم أنهم برآء منه ،
وتبريه منهم إنشاء ينشئه ، كما ينشئ المتكلم بالشهادتين ، وهذا يزيد
وينقص ، ويقوي ويضعف .

(١) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٣ وه .

وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه في هذه الحال ، لا ينشئ شيئاً لم يكن فيهم ، فخطاب المؤمن عن حالهم خبر عن حالهم ، والخبر مطابق للمخبر عنه ، فلم يتغير لفظ خبره عنهم ، إذا كانوا في كل وقت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد ، فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الأوقات - زادوا أو نقصوا .

ولا يجوز للمؤمن أن ينشئ زيادهم في كفرهم ، فإن ذلك محرم ، بل هو مأمور بدعائهم إلى الإيمان ، وليس له أن ينقصهم في خبره عما هم متصفون به ، فلم يكن في الإخبار عن حالهم زيادة فيما هم عليه ولا نقص ، فلم يغير لفظ الخبر في الحالين بلفظ واحد ، وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشئ قوة الإخلاص لله وحده ، وعبادته وحده ، والبراءة من كل معبود سواه وعبادته ، وبرأته منه ومن عابديه ، وقوله : ﴿ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وإن كان لفظها خيراً ففيها معنى الإنشاء كسائر ألفاظ الإنشاءات ، كقوله « أشهد أن لا إله إلا الله » ، وقوله : ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ (١) وقوله : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢) فكل هذه الأقوال فيها معنى الإنشاء لها ينشئه المؤمن في نفسه من زيادة البراءة من الشرك وهي المقشقة التي تقشش من الشرك ، كما يقشش المريض من المرض ، فإن الشرك والكفر أعظم أمراض القلوب ، فأمر المؤمن بقول يوجب في قلبه من البراءة من الشرك ما لم يكن في قلبه قبل ذلك ، وكلما قاله ازداد براءة من الشرك ، وقلبه شفاء من المرض ، وإن كان الكفرة المخاطبون لا يزدادون بالإخبار عنهم إلا كفرًا ، فالجملة الخبرية تطابق المخبر عنه ، والإنشاء يوجب إحداث ما لم يكن . فقول : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٣) . أي أنا ممتنع من هذا ، تارك له ، ثم قال : « ولا أنا عابد ما عبدتم » أي أنا بريء

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ١-٢ .

من هذا ، متنزّه عنه ، مزكّ لنفسي منه ، فإن الشرك أعظم ما تنجس به النفس ، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه ، فما أنا عابد قط ما عبدتم في وقت من الأوقات .

وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد ، بل أنتم بريئون مما أعبد ، وأنا بريء مما تعبدون ، مأمور بالبراءة منه ، وطالب زيادة البراءة منه ، ومجتهد في ذلك .

وأنا أخبر عنكم بأنكم بريئون مما أعبد ، إما لكونكم تأمرون بذلك وإما لكونكم تعبدونه ، فلا أخبر به ، فإنه كذب ، وإما لكونكم تجتهدون في البراءة وتبالغون فيها ، فيها تختلف فيه أحوالكم .

وأنا لا يسوغ لي أن أذكر ما يزيل براءتكم ، ولا أكذب عليكم فإنكم تنقصون منها إذا تبرأت ، بل التبري منها داع وباعث لمن له عقل أن ينظر في سبب هذه البراءة ، لا سيما في حق الرسول الذي خوطب أولاً بقوله ﴿ قل ﴾ .

فلينظر العاقل في سبب براءتي من الشرك وما أنتم عليه ، واختياري به عداوتكم ، والصبر على أذاكم ، واحتمالي هذه المكارة العظيمة ، بعد ما كنتم تعظمونني غاية التعظيم ، وتصفونني بالأمانة ، وتسمونني « الأمين » وتفضلونني على غيري ، ونسبي فيكم أفضل نسب وتعرفون ما جعل الله في من العقل والمعرفة ومكارم الأخلاق وحسن المقاصد وطلب العدل والإحسان ، وأني لا أختار لأحد منكم سوءاً ، ولا أريد أن أصيب أحداً بشر ، فاختياري للبراءة مما تعبدون ، وإظهاري لسبهم وشتهم . أهو سدى ليس له موجب أو وجه ؟ فانظروا في ذلك . ففي السورة دعاء وبعث للكفار إلى طلب الحق ومعرفته ، مع ما فيها من كمال البراءة منهم .

ومعانيها كثيرة شريفة يطول وصفها .

وقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) يتناول كل كافر ، فهو لا يعبد ما يعبده أحد من الكفار ، ولا مشركي العرب ، ولا غيرهم من المشركين والكفار أهل الكتاب - لا اليهود ولا النصارى ، ولا غيرهم من أصناف الكفار ، وذلك أنه قال : ﴿ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٢) . فذكر لفظ ﴿ ما ﴾ ولم يقل : « من تعبدون » . و﴿ ما ﴾ تدل على الصفة كما تقدم ، وما ذكره المهدوي وغيره من أنه قال : ﴿ ما أعبد ﴾ ولم يقل « من أعبد » - يقابل به « ولا أنا عابد [ما عبدتم] الذي يراد به الأصنام ، فضعيف جداً يغير اللغة ويخص عموم القرآن - وهو عموم مقصود - ويزيل المعنى الذي به تعلقت هذه البراءة .

فإن ﴿ ما ﴾ في اللغة إما لما لا يعلم ، ولصفات ما يعلم ، كما في قوله : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ ^(٥) ، وفي التسييح المأثور أنه يقال عند سماع الرعد : « سبحان ما سبحت له » ومثله كثير فقلوه : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ﴾ ^(٦) جار على أصل اللغة ، وأيضاً فقلوه : ﴿ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٧) خطاب للكفار مطلقاً ، فهو لا يعبد الملائكة ولا غير ذلك مما عبد من دون الله - وإن كان ما عبد أهل العلم والعقل فعبر عن ذواتهم بـ « من » فتخصيص البراءة من الشرك بشرك مشركي العرب غلط عظيم ، وإنما هي براءة من كل مشرك .

وكون الرب يتصف بما تتصف به الأصنام من عدم العلم ما لا يجوز

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ٧ وتكملة الآية ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .

(٥) سورة الليل آية رقم ٣ .

(٦) سورة الكافرون آية رقم ٣ .

(٧) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

عليه ، ولا تصح المقابلة في مثل ذلك ، بل المقصود ذكر الصفات والإخبار بمعبود الرسول والمؤمنين ليتبرأ من معبودهم ويبرئهم من معبوده . وإذا قال اليهود : نحن نقصد عبادة الله . كانوا كاذبين ، سواء عرفوا أنهم كاذبون أم لم يعرفوا ، كما يقول النصارى : إنا نعبد الله وحده وما نحن بمشركين ، وهم كاذبون ، لأنهم لو أرادوا عبادته لعبوده بما أمر به ، وهو الشرع ، لا بالمنسوخ المبدل .

وأيضاً فالرب الذي يزعمون أنهم يقصدون عبادته هو عندهم رب لم ينزل الإنجيل ولا القرآن ، ولا أرسل المسيح ولا محمداً ، بل هو عند بعضهم فقير ، وعند بعضهم بخيل ، وعند بعضهم عاجز ، وعند بعضهم لا يقدر أن يغير ما شرعه ، وعند جميعهم أنه أيد الكاذبين المفترين عليه الذين يزعمون أنهم رسله وليسوا رسله ، بل هم كاذبون سحرة ، قد أيدهم ونصرهم ، ونصر أتباعهم على أوليائه المؤمنين ، لأنهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس ، فالرب الذي يعبدونه هو دائماً ينصر أعداءه . فهم يعبدون هذا الرب ، والرسول والمؤمنون لا يعبدون هذا المعبود الذي تعبده اليهود ، فهو مخزّه عما وصفت به اليهود معبودها من جهة كونه معبوداً لهم - منزّه عن هذه الإضافة ، فليس هو معبوداً لليهود ، وإنما في جبلاتهم صفات ليست هي صفاته زينها لهم الشيطان ، فهم يقصدون عبادة المتصف بتلك الصفات ، وإنما هو الشيطان .

فالرسول والمؤمنون لا يعبدون شيئاً تعبده اليهود - وإن كانوا يعبدون من يعبدونه ، وهذا مما يظهر به فائدة ما ذكرنا .

وعلى هذا فقله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ^(١) خطاب لجميع الكفار كما دلت عليه الآية . وبهذا يظهر خطأ من قال إنه خطاب للمشركين

(١) سورة الكافرون آية رقم ٦ .

والنصارى دون اليهود ، كما في قول ابن زيد : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) قال للمشركين والنصارى ، واليهود لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء بما جاؤوا به من عند الله ، ويكفرون برسول الله ﷺ وبما جاء به ، وقتلوا طوائف الأنبياء ظلماً وعدواناً . قال : إلا العصابة التي تقول حيث خرج بخت نصر ، وقيل : من سموا عزيزاً « ابن الله » ولم يعبدوه ، ولم يفعلوا كما فعلت النصارى - قالت : المسيح ابن الله ، وعبدته .

فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب والنصارى صحيح ، لكنهم مع هذا لا يعبدون الله ، بل يستكبرون عن عبادته ، ويعبدون الشيطان ، لا يعبدون الله ، ومن قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطاً قبيحاً ، فكل من عبد الله كان سعيداً من أهل الجنة ، وكان من عباد الله الصالحين . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال للمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فأول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - وفي رواية : « فادعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا الله فأعلمهم ... » (٣) .

فلا يعبد إلا الله بعد أن أرسل محمداً وعرفت رسالته وبلغت . ولهذا اتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة ، ولو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم ، فإن

(١) سورة الكافرون آية رقم ٦ .

(٢) سورة يس آية رقم ٦٠ - ٦١ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الإيمان - حدثنا أمية بن بسطام العيشي حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا روح وهو ابن القاسم عن إسماعيل بن أمية عن يحيى بن عبد الله بن صفي عن أبي معبد عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - لما بعث معاذاً إلى اليمن : وذكره وفيه زيادة « أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فتر على فقرائهم فإذا أطاعوا فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم » .

الله لا يظلم أحداً .

وقبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به ، فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله ، إنما يعبد الشيطان ، ويعبد الطاغوت ، وقد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت ، وأنه لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

وهو اسم جنس يدخل فيه الشيطان ، والوثن ، والكهان ، والدرهم والدينار ، وغير ذلك ، وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ^(٢) - الآية .

وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى ، وكفرهم أغلظ ، وهم مغضوب عليهم ، ولهذا قيل : إنهم تحت النصارى في النار ، واليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه وعلى أمه بما هو أعظم من كفر النصارى ، ولهذا جعل الله النصارى فوقهم الى يوم القيامة .

فالنصارى مشركون يعبدون الله ويشركون به ، وأما اليهود فلا يعبدون الله ، بل هم معطلون لعبادته ، مستكبرون عنها - كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ، بل هم متبعون أهواءهم ، عابدون للشيطان .

فالنبي والمؤمنون لا يعبدون ما تعبد به اليهود ، وهم وإن وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزله عنه ، وليس في قلوبهم عبادة له

(١) سورة النساء آية رقم ٥١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

وحده ، فإن ذلك لا يكون إلا لمن عبدة بما أمره به . والسورة لم يقل فيها : « يا أيها المشركون » حتى يقال فيها إنها إنما تناولت من أشرك ، بل قال ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ فتناولت كل كافر ، سواء كان ممن يظهر الشرك ، أو كان فيه تعطيل لما يستحقه الله واستكبار عن عبادته ، والتعطيل شر من الشرك ، وكل معطل فلا بد أن يكون مشركاً .

والنصارى مع شركهم لهم عبادات كثيرة ، واليهود من أقل الأمم عبادة وأبعدهم عن العبادة لله وحده ، لكن قد يعرفون ما لا تعرفه النصارى ، لكن بلا عبادة وعمل بالعلم ، فهم مغضوب عليهم ، وأولئك ضالون ، وكلاهما قد برأ الله منهم رسوله والمؤمنين .

وفي هذه الأمة من يعرف ما لا تعرفه اليهود والنصارى بلا عمل بالعلم ، ففيهم شبه ، كما قال سفيان بن عيينة ^(١) : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى ، بل قد قال أبو هريرة : ما أقرب الليلة من البارحة ، أنتم أشبه الناس ببني إسرائيل ، بل في الحديث الصحيح : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ « وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : « ومن الناس إلا أولئك ؟ » ^(٢) .

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي ، من الموالى ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة وتوفي بها عام ١٩٨ هـ كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر . قال الشافعي ، لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وكان أعور وحج سبعين سنة له الجامع في الحديث ، وكتاب في التفسير . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ ، وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٢٧٠] .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٣٤٥٦ - عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - قال : وذكره . ورواه في الاعتصام ١٤ ، ورواه الإمام مسلم في العلم - ٦ وابن ماجه في كتاب الفتن ١٧ باب =

وقال : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة . وافترت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » (١) .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين فيه حال الفرقة الناجية الذين هم على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .
ومما يوضح ما تقدم أن قوله : ﴿ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبَدُ ﴾ معناه المعبود ، ولكن هو لفظ مطلق يتناول الواحد والكثير ، والمذكر والمؤنث ، فهو يتناول كل معبود لهم .

والمعبود هو الإله ، فكأنه قال : « لا أعبد إلهكم ، ولا تعبدون إلهي ، كما ذكر الله في قصة يعقوب . قال تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) ، واسم الإله والمعبود يتضمن إضافة إلى العابد ، وقال : ﴿ إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ، هو الذي يعبد هؤلاء - صلوات الله وسلامه عليهم - ويألهونه .

وإنما يعبد من كان على ملتهم ، كما قال يوسف ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى

= افتراق الأمم ٣٩٩٤ بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٢٥ ، ٣٢٧ (حلي)

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .

النَّاسِ - إلى قوله - ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .
 فتبين أن ملة آبائه هي عبادة الله ، وهي ملة إبراهيم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ
 يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ - إلى قوله - فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

وإذا كان كذلك فاليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم ، وإذا لم
 يكونوا على ملته لم يكونوا يعبدون إله إبراهيم ، فإن من عبد إله إبراهيم كان
 على ملته . قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - إلى قوله - وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣)
 فقوله : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يبين أن ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة
 إبراهيم .

وهذا بعد مبعث محمد لا ريب فيه ، فإنه هو الذي بعث بملة إبراهيم ،
 والطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهن من التبديل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ
 أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٤) وقال :
 ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٥) - الآية .
 وقال : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ (٦) .
 وقوله : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ (٧) يبين أن

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٧ - ٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ - ١٣٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٥ - ١٣٧ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦٨ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٦١ .

(٦) سورة النحل آية رقم ١٢٣ .

(٧) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ .

كل من رغب عنها فقد سفه نفسه ، وفيه من جهة الإعراب والمعنى قولان : -

أحدهما : وهو قول الفراء وغيره من نحاة الكوفة واختيار ابن قتيبة وغيره ، وهو معنى قول أكثر السلف - أن النفس هي التي سفهت . فإن ﴿ سفه ﴾ فعل لازم لا يتعدى ، لكن المعنى ، إلا من كان سفيهاً فجعل الفعل له ونصب النفس على التمييز لا النكرة ، كقوله : ﴿ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً ﴾ (١) .

وأما الكوفيون فعرفوا هذا وهذا . قال الفراء : نصب النفس على التشبيه بالتفسير ، كما يقال : ضقت بالأمر ذرعاً ، معناه : ضاق ذرعي به ، ومثله ﴿ واشتغل الرأس شيئاً ﴾ أي اشتغل الشيب في الرأس . قال : ومنه قوله : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره ، وكان الأصل : سفهت نفس زيد ، ورشد أمره ، فلما حول الفعل إلى زيد انتصب ما بعده على التمييز .

فهذه شواهد عرفها الفراء من كلام العرب ، ومثله قوله : غبن فلان رأيه ، وبطر عيشه ، ومثل هذا قوله ﴿ بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا ﴾ (٢) . أي بطرت نفس المعيشة ، وهذا معنى قول يمان بن رباب : حمق رأيه ونفسه ، وهو معنى قول ابن السائب : ضل من قبل نفسه ، وقول أبي روق : عجز رأيه عن نفسه .

والبصريون لم يعرفوا ذلك ، فمنهم من قال : جهل نفسه ، كما قاله ابن كيسان ، والزجاج ، قال : لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعلم خالقها .

وهذا الذي قاله ضعيف ، فإنه إن قيل إن المعنى صحيح فهو إنما قال ﴿ سفه ﴾ و ﴿ سفه ﴾ فعل لازم ، ليس بمتعدٍ ، و « جهل » فعل متعدٍ ، وليس

(١) سورة مريم آية رقم ٤ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٥٨ .

في كلام العرب « سفهت كذا » البتة بمعنى « جهلته » بل قالوا : سفه بالضم - سفاهة ، أي صار سفيهاً ، وسفه - بالكسر - أي حصل منه سفه ، كما قالوا في « فقه وفقه » . ونقل بعضهم : سفهت الشرب إذا أكثرته منه ، وهو يوافق ما حكاه الفراء ، أي صار شربه سفهاً ، فسفه شربه لما جاوز الحد .

وقال الأخفش (١) ، ويونس : نصب بإسقاط الخافض ، أي سفه في نفسه ، وقولهم « بإسقاط الخافض » ليس هو أصلاً فيعتبر به ، ولكن قد تنزع حروف الجر في مواضع مسموعة ، فيتعدى الفعل بنفسه ، وإن كان مقيساً في بعض الصور فـ ﴿ سفه ﴾ ليس من هذا ، لا يقال : سفهت أمر الله ، ولا دين الإسلام ، بمعنى : جهلته ، أي سفهت فيه ، وإنما يوصف بالسفه وينصب على التمييز ما خص به ، مثل نفسه أو شربه ، ونحو ذلك .

والمقصود أن كل من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه ، قال أبو العالية : رغب اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية ، وليست من الله ، وتركوا دين إبراهيم ، وكذلك قال قتادة : بدلوا دين الأنبياء ، واتبعوا المنسوخ .

فأما موسى والمسيح ومن اتبعهما فهم على ملة إبراهيم متبعون له ، وهو إمامهم ، وهذا معنى قوله : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) . فهو يتناول الذين اتبعوه قبل مبعث محمد وبعد مبعثه ، وقيل إنه عام ، قال الحسن البصري : كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى وممن بقي ، وقال الربيع بن أنس : هم المؤمنون الذين صدقوا نبي الله

(١) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط : نحوي : عالم باللغة والأدب من أهل بلخ سكن البصرة ، وأخذ العربية من سيبويه ، وصنف كتباً منها « تفسير معاني القرآن » وشرح أبيات المعاني ، والاشتقاق وغير ذلك كثير توفي عام ٢١٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٠٨ وإنباء الرواة ٢ : ٣٦ وبغية الوعاة ٢٥٨] .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٦٨ .

واتبعوه ، وكان محمد والذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم ، وهذا وغيره مما يبين أن اليهود والنصارى لا يعبدون الله ، وليسوا على ملة إبراهيم .

فإن قيل : فالمشرك يعبد الله وغيره بدليل قول الخليل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . فقد استثناء مما يعبدون ، فدل على أنهم كانوا يعبدون الله ، وكذلك قوله : ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ (٢) ، واستثناءه أيضاً ، وفي المسند وغيره حديث حصين الخزاعي لما قال له النبي ﷺ : « يا حصين ؟ كم تعبد اليوم ؟ » قال : سبعة آلهة - ستة في الأرض وواحد في السماء ، قال : « فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟ » قال : الذي في السماء (٣) .

قيل : هذا قول المشركين ، كما تقول اليهود والنصارى : نحن نعبد الله . فهم يظنون أن عبادته مع الشرك به عبادة ، وهم كاذبون في هذا . وأما قول الخليل ففيه قولان : قال طائفة : إنه استثناء منقطع ، وقال عبد الرحمن ابن زيد : كانوا يعبدون الله مع آلهتهم .

وعلى هذا فهذا لفظ مقيد . فإنه قال ﴿ ما تعبدون ﴾ . فسماء عبادة إذا عرف المراد ، لكن ليست هي العبادة التي هي عند الله عبادة ، فإنه كما قال تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك » (٤) . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ

(١) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ - ٧٧ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ - ٢٧ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث وراجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب عند ترجمة (حصين الخزاعي) .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في الزهد ٢١ باب الرياء والسمعة ٤٢٠٢ ثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : قال الله عز وجل وذكره .

أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١﴾ . سماه إيماناً مع التقييد ، وإلا فالمشرك الذي جعل مع الله إلهاً آخر لا يدخل في مسمى الإيمان عند الإطلاق ، وقد قال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ (٢) ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ فهذا مع التقييد ، ومع الإطلاق فالإيمان هو الإيمان بالله ، والبشارة بالخير .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٣) نفي العبادة مطلقاً ، ليس هو نفي لما قد يسمى عبادة مع التقييد ، والمشارك إذا كان يعبد الله ويعبد غيره فيقال : إنه يعبد الله وغيره ، أو يعبد مشركاً به . لا يقال : إنه يعبد مطلقاً ، والمعطل الذي لا يعبد شيئاً شر منه ، والعبادة المطلقة المعتدلة هي المقبولة ، وعبادة المشرك ليست مقبولة .

ومما يوضح هذا قوله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ (٤) الآية . قالوا فيها : ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ (٥) فهذا بدل من الأول في أظهر الوجهين ، فإن النكرة تبدل من المعرفة ، كما في قوله : ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٦) ، فذكرت معرفة وموصوفة ، كذلك قالوا : « نعبد إلهك » فعرفوه ، ثم قالوا « إلهاً واحداً » فوصفوه ، والبدل في حكم تكرير العامل أحياناً ، كما في قوله : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ (٧) فالتقدير :

= في الزوائد : اسناده صحيح ورجاله ثقات ورواه الامام مسلم في الزهد ٤٦ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤٦٦ ، ٤ : ٢١٥ (حلي) .

- (١) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .
- (٢) سورة النساء آية رقم ٥١ .
- (٣) سورة الكافرون آية رقم ٣ و ٥ .
- (٤) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .
- (٥) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .
- (٦) سورة العلق آية رقم ١٥ - ١٦ .
- (٧) سورة الأعراف آية رقم ٧٥ .

نعبد إلهك ، نعبد إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون . فجمعوا بين الخبرين بأمرين - بأنهم يعبدون إلهه ، وأنهم إنما يعبدون إلهاً واحداً ، فمن عبد إلهين لم يكن عبداً لإلهه وإله آبائه ، وإنما يعبد إلهه من عبد إلهاً واحداً .

ولو كان من عبداً لله وعبد معه غيره عبداً له لكانت عبادته نوعين - عبادة إشراك ، وعبادة إخلاص ، وإذا كان كذلك لم يكن قوله : « إلهاً واحداً بدلاً . لأن هذا كل من كل ، ليس هو بدل بعض من كل . فعلم أن إلهه وإله آبائه لا يكون إلا إلهاً واحداً . والوجه الثاني : قوله : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ نصب على الحال ، لكنها حال لازمة ، فإنه لا يكون إلا إلهاً واحداً ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً ﴾ ^(١) ، وهو لا يكون إلا مصدقاً ، ومنه ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ ^(٢) . ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ^(٣) . فمن عبد معه غيره فما عبده إلهاً واحداً ، ومن أشرك به فما عبده ، وهو لا يكون إلا إلهاً واحداً ، فإذا لم يعبده في الحال اللازمة له لم تكن له حال أخرى يعبده فيها ، فما عبده .

فإن قيل : المشرك يجعل معه آلهة أخرى ، فهو يعبد في حال ليس هو فيها الواحد ، قيل : هذا غلط منشأه أن لفظ « الإله » ^(٤) يراد به المستحق للالهية ، ويراد به ما اتخذته الناس إلهاً وإن لم يكن إلهاً في نفس الأمر ، بل هي أسماء سموها هم وآباؤهم ، فتلك ليست في نفسها آلهة ، وإنما هي آلهة في أنفس العابدين ، فإلهيتها أمر قدره المشركون ، وجعلوه في أنفسهم من غير أن يكون مطابقاً للخارج ، كالذي يجعل من ليس بعالم عالماً ، ومن ليس بحي حياً ، ومن ليس بصادق ولا عدل صادقاً وعدلاً فيقال : هذا عندك

(١) سورة البقرة آية رقم ٩١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٢١ .

(٤) سقط من المطبوعة (لفظ) .

صادق ، وعادل ، وعالم ، وتلك اعتقادات غير مطابقة ، وأقوال كاذبة غير لائقة (١) .

ولهذا يجعل سبحانه ذلك من باب الافتراء والكذب ، كما قال أصحاب الكهف : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٢) . وقال الخليل : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ؟ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٤) أي شيء يتبع الذين يشركون ؟ وإنما يتبعون الظن والخرص ، وهو الحزر . هذا صواب . وأن ما استفهامية ، وقد قيل إنها نافية ، وبعضهم لم يذكر غيره ، كأبي الفرج ، وهو ضعيف كما قد بين ذلك في غير هذا الموضع .

وقال هود : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٥) . وإذا كانت الهية ما سوى الله أمراً مختلقاً يوجد في الذهن واللسان لا وجود له في الأعيان ، وهو من باب الكذب والاعتقاد الباطل الذي ليس بمطابق ، وما عند عابديها من الحب والخوف والرجاء لها تابع لذلك الاعتقاد الباطل ، ائمن اعتقد في شخص أنه صادق فصدقه فيما يقول ، وبنى على إخباره أعمالاً كثيرة ، فلما تبين كذبه ظهر فساد تلك الأعمال كأتباع مسيلمة (٦) ، والأسود (٧) ، وغيرهما من أصحاب الزوايا والترهات ، وما

(١) في المطبوعة بزيادة جملة (غير لائقة) .

(٢) سورة الكهف آية رقم ١٥ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ١٧ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٦٦ .

(٥) سورة هود آية رقم ٥٠ .

(٦) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير الكذاب توفي عام ١٢ هـ سبق الترجمة له . [وراجع ابن هشام

٣ : ٧٤ والروض الأنف ٢ : ٣٤٠ والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٧ - ١٤٠] .

(٧) هو عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي ذو الخمار متنبئ مشعوذ من أهل اليمن كان

يشرعونه لأتباعهم مما لم يأذن به الله ، بخلاف الصادق والصدق .

ولهذا كانت كلمة التوحيد ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(١) ، وقال في كلمة الشرك ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ ^(٢) ، فليس [لها] أساس ثابت ، ولا فرع ثابت ، إذ كانت باطلة ، كأقوال الكاذبين وأعمالهم ، بل هي أعظم الكذب ، والافتراء مع الحب لها .

والشرك أعظم الظلم ، قال ابن مسعود ، قلت : يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ^(٣) .

فنفس تألهم لها ، وعبادتهم إياها ، وتعظيمها ، وحبها ، ودعائها ، واعتقادها آلهة ، والخبر عنها بأنها آلهة موجود ، كما كان اعتقاد الكاذبين موجوداً . وأما نفس اتصافها بالالهيّة فمفقود ، كاتصاف مسيلمة بالنبوة . فهنا حالان - حال للعابد ، وحال للمعبود ، فأما العابدون فكلهم في قلوبهم عبادة وتآله لمن عبدوه ، وأما المعبدون فالرحمن له الإلهية ، وما سواه لا إلهية له ، بل هو ميت لا يملك لعباديه ضرباً ولا نفعاً . ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ ^(٤) وهو في أصبح القولين

= بطاشاً جباراً أسلم لما أسلمت اليمن ، وارتد في أيام النبي - ﷺ - وادعى النبوة وأرى قومه أعاجيب استهواهم بها قتل عام ١١ هـ . [راجع ابن الأثير حوادث سنة ١١ هـ وتاريخ الخميس ٢ : ١٥٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٢ : ١٩٨] .

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٦ .

(٣) الحديث رواه البخاري في التفسير ٢ : ٢ ، ٢٥ والأدب ٢٠ والحدود ٢٠ والدييات ١ والتوحيد ٤٠ - ٤٦ ومسلم في الإيمان ١٤١ ، ١٤٢ وأبو داود في الطلاق ٥٠ والترمذي في التفسير سورة

٢٥ ، ١ ، ٣ والنسائي في إيمان ٦ والتحريم ٤ وأحمد بن حنبل ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ (حلي) .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

﴿ سَبِيلاً ﴾ بالتقرب بعبادته وذكره ، ولهذا قال بعدها : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (١) فأخبر عن
الخلائق كلها أنها تسبح بحمده ، وقد بسط هذا في موضع آخر .

فقوله : ﴿ نَعْبُدُ إِيَّاهُ - إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ إذا قيل إنه منصوب على الحال ،
فإما أن يكون حالاً من الفاعل العابد ، أو من المفعول المعبود ، فالأول : نعبد
في حال كوننا مخلصين لا نعبد إلا إياه ، والثاني : نعبد في الحال اللازمة له ،
وهو أنه إله واحد ، فنعبد مخلصين معترفين له بأنه الإله وحده دون ما سواه .

فإن كان التقدير هذا الثاني امتنع أن يكون المشرك عابداً له . فإنه لا
يعبد في هذه الحالة ، وهو سبحانه ليست له حال أخرى يعبد فيها . وإن كان
التقدير الأول فقد يمكن أن نعبد في حال أخرى نتخذ معه آلهة أخرى في
أنفسنا .

لكن قوله : ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ دليل على أنها حال من المعبود ، بخلاف ما
إذا قيل : نعبد مخلصين له الدين ، فإن هذه حال من الفاعل .

ولهذا يأتي هذا في القرآن كثيراً ، كقوله : ﴿ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ
الدِّينَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ (٣) ، فهذه حال من
الفاعل فإنه يكون تارة مخلصاً ، وتارة مشركاً ، وأما الرب تعالى فإنه لا يكون
إلا إلهاً واحداً .

والحال وإن كانت صفة للمفعول فهي أيضاً حال للفاعل ، فإنهم قالوا :
نعبد في هذه الحال ، فلزم أن عبادتهم له ليست في غير هذا الحال ، وبين

(١) سورة الإسراء آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ١٤ .

أن قوله : ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ . . . إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ ^(١) هي حال متعلقة بالفاعل والمفعول جميعاً - بالعابد والمعبود ، فإن العامل فيها - المتعلق بها - العبادة ، وهي فعل العابد ، والذي يقال له المفعول في العربية هو المعبود .

كما قيل في الجملة ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) . قيل : هي واو العطف . وقيل : واو الحال أي نعبد في هذه الحال . قالوا : وهي حال من فاعل ﴿ نعبد ﴾ أو مفعوله لرجوع الهاء إليه في ﴿ له ﴾ وهذا الترديد غلط ، إذ هي حال منهما جميعاً ، فإنهم إذا عبدوه وهم مسلمون ، فهم مسلمون حال كونهم عابدين ، وحال كونه معبوداً ، إذ كونهم عابدين وكونه معبوداً ليس مختصاً بمقارنة أحدهما دون الآخر .

فالظرف والحال هنا كلمة وليست مفرداً ، ولهذا اشتبه عليهم . فإن المفرد لا يمكن أن يكون في اللفظ صفة لهذا وهذا . فإذا قلت : ضربت زيداً قاعداً ، فالقعود حال للفاعل أو المفعول . وإذا قلت : ضربته والناس قعود ، فليس هذه الحال من أحدهما دون الآخر ، بل هي مقارنة للضرب المتعلق بها ، كأنه قال : ضربته في زمان قعود الناس . فهو ظرف للفعل المتعلق بالفاعل والمفعول ، بخلاف ما إذا قلت : ضربته في حال قعودي أو قعوده ، فهذا يختلف .

والآية فيها ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ . فهذه حال من المعبود بلا ريب ، فلزم أنهم إنما عبدوه في حال كونه إلهاً واحداً ، وهذه لازمة له .

وإذا قيل - المراد : في حال كونه معبوداً واحداً لا تتخذ معه معبوداً آخر ، فهذه حال ليست لازمة ، لكنه صفة للعابدين ، لا له ، قيل : هذا ليس

(١) الآية ﴿ اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ . سورة ص آية رقم ٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ والآية ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

فيه مدح له ، ولا وصف له بأنه يستحق الإلهية ، لكن فيها وصفهم فقط .

وأيضاً فقولوه : ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ كقولوه : ﴿ وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ^(١) فهو في نفسه إله واحد وإن جعل معه المشركون آلهة بالافتراء والحب ، فيجب أن يكون المراد ما دل عليه هذا الاسم .

ولو أرادوا ذلك المعنى لقالوا : نعبده مخلصين له الدين ، وهذا المعنى قد ذكروه في الجملة الثانية ، وهي قولهم : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ، لا سيما إذا جعلت حالاً ، أي نعبده إلهاً واحداً في حال إسلامنا له ، وإسلامهم له يتضمن إخلاص الدين له ، وخضوعهم ، واستسلامهم لأحكامه ، بخلاف غير المسلمين .

ولهذا قال آمراً للمؤمنين أن يقولوا : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) .

ثم قال : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ، قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ ^(٣) .

وفي هذه الآيات معان جليلة ليس هذا موضع استيفائها .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٣ وتكملة الآية ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٨ - ١٣٩ .

فصل

وهذا النزاع في قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) هل هو خطاب
لجنس الكفار كما قاله الأكثرون ، أو لمن علم أنه يموت كافراً كما قاله
بعضهم ، يتعلق بمسمى « الكافر » ومسمى « المؤمن » .

فطائفة تقول : هذا إنما يتناول من وافى القيامة بالإيمان ، فاسم المؤمن
عندهم إنما هو لمن مات مؤمناً ، فأما من آمن ثم ارتد فذاك ليس عندهم
بإيمان .

وهذا اختيار الأشعري ، وطائفة من أصحاب أحمد ، وغيرهم ، وهكذا
يقال : الكافر [من] مات كافراً .

وهؤلاء يقولون : إن حب الله وبغضه ، ورضاه وسخطه ، وولايته
وعداوته ، إنما يتعلق بالموافاة فقط ، فالله يحب من علم أنه يموت مؤمناً .
ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالة قديمة ويقولون : إن عمر حال كفره
كان ولياً لله .

وهذا القول معروف عن ابن كلاب ومن تبعه ، كالأشعري وغيره . وأكثر
الطوائف يخالفونه في ذلك فيقولون : بل قد يكون الرجل عدواً لله ثم يصير

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

ولياً لله ، ويكون الله يبيغضه ثم يحبه ، وهذا مذهب الفقهاء والعامة ، وهو قول المعتزلة ، والإكرامية ، والحنفية قاطبة ، وقدماء المالكية ، والشافعية ، والحنبلية .

[illegible]

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : تقول الأنبياء : « إن ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله » (٦) .

وفي دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس وغيره : « فإن كنت
رضيت عني فازدد عني رضي ، وإلا فمن الآن فارض عني » . وبعضهم حذف
« فارض عني » فظن بعض الفقهاء أنه « فمن الآن » أنه من « المنى » وهو
تصحيف ، وإنما هو من حروف الجر كما في تمام الكلام وإلا فمن الآن
فارض عني .

فبين أنه يزداد رضىً ، وأنه يرضى في وقت محدود ، وشواهد هذا كثيرة ، وهو مبسوط في مواضع .

(۱) سورة ال عمران اية رقم ۳۱ .

(۲) سورة الزمر آية رقم ۷ .

(۳) سورة النساء آية رقم ۱۳۷ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ .

(٦) سورة محمد آية رقم ٢٨ .

(٤) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام البخاري في كتاب الانبياء ٣ باب قول الله عز وجل ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ هود ٢٥ ، ٣٣٤٠ عن أبي زرعة عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : وذكره ورواه أيضاً في التفسير ١٧ - ٥ ورواه الإمام مسلم في الايمان ٣٢٧ والترمذي في القيامة ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤٣٥ ، ٤٣٦ (حلي) .

فصل

ونظير القول في ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) القولان في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٢) فإن للناس في هذه الآية قولين : -

أحدهما : أنها خاصة بمن يموت كافراً ، وهذا منقول عن مقاتل ، كما قال في قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، وكذلك نقل عن الضحاك ^(٣) ، قالاً : نزلت في مشركي العرب ، كأبي جهل ، وأبي طالب ، وأبي لهب ، ممن لم يسلم ، وقال الضحاك : نزلت في أبي جهل ، وخمسة من أهل بيته .

وطائفة من المفسرين لم يذكروا غير هذا القول ، كالثعلبي والبغوي وابن الجوزي ، قال البغوي : هذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله .

وقال ابن الجوزي ، قال شيخنا علي بن عبيدالله : وهذه الآية وردت بلفظ العموم والمراد بها الخصوص ، لأنها آذنت بأن الكفار حين إنذارهم لا

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

يؤمنون ، وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم ، ولو كانت على ظاهرها في العموم لكان خبر الله بخلاف مخبره ، فلذلك وجب نقلها إلى الخصوص .

والقول الثاني : أن الآية على مقتضاها ، والمراد بها أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى الكافر ما دام كافراً ، لا ينفعه الإنذار ولا يؤثر فيه ، كما قيل مثل ذلك في الآيات إنها غير موجبة للإيمان وقد جمع بينهما في قوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) . فالآيات أفقية ، وأرضية ، وقرآنية ، وهي أدلة العلم ، والإنذار يقتضي الخوف ، فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به ، فهذا تنفعه الحكمة ، والإنذار لمن يعرف الحق وله هوى يصده فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه ، وهو خوف العذاب ، وهذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة ، وآخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل ، فيجادل بالتّي هي أحسن .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾ (٣) . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ (٤) .

فالمراد أن الكافر ما دام كافراً لا يقبل الحق سواء أُنذر أم لم ينذر ، ولا يؤمن ما دام كذلك ، لأن على قلبه وسمعه وبصره موانع تصده عن الفهم والقبول ، وهكذا حال من غلب عليه هواه .

وهو سبحانه لم يقل : « إنهم لا يؤمنون » وقيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة ، أو حقت عليه الكلمة ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ

(١) سورة يونس آية رقم ١٠١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١١ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة يس آية رقم ١١ .

كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١﴾
 فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب
 الأليم ، كإيمان فرعون المذكور قبلها ، وموسى قد دعا عليه فقال : ﴿ رَبَّنَا
 أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ،
 قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ (٢) .

وأما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةَ ﴾ (٣) الآية . فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء . وآية البقرة مطلقة عامة ،
 فإنه ذكر في أول السورة أربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة
 الكافرين ، وبضع عشرة آية في المنافقين ، فبين حال الكافر المصر على كفره
 أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره . وليس كما قال : إن
 الله لا يهدي أحداً من هؤلاء ، فيسمع ويقبل ، ولكن هو حين يكون كافراً لا
 تتناوله الآية ، وهذا كما يقال في الكافر الحربي : لا يجوز أن تعقد له الذمة ،
 ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربياً . فالكفار ما داموا كفاراً هم
 بهذه المثابة ، لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم
 ما داموا كذلك ، وإن أنذروا ، وهذا كقوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ
 الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا
 يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) ، فهذا مثل كل كافر ما دام كافراً .

وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون [إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم
 وسمعهم وأبصارهم ، فإنهم لا يسمعون] لذلك المعنى المشتق منه وهو
 الكفر ، فما داموا هذه حالهم فهم كذلك ، ولكن تغير الحال ممكن ، كما
 قال : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وكما هو الواقع .

(١) سورة يونس آية رقم ٩٦ - ٩٧ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٨٨ - ٨٩ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١١١ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٧١ .

ومثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه وإنذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان أكمل الناس ، وأن الداعي وإن كان صالحاً ناصحاً مخلصاً فقد لا يستجيب المدعو - لا لتقص في الدعاء ، لكن لفساد في المدعو .

وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل ، كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه - لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك ، والنفخ يؤثر إن كان هناك قابل - لا يؤثر في الرماد . والدعاء ، والتعليم ، والإرشاد ، وكل ما كان من هذا الجنس ، له فاعل وهو المتكلم بالعلم والهدى والنذارة ، وله قابل وهو المستمع ، فإذا كان المستمع قابلاً حصل الإنذار التام ، والتعليم التام ، والهدى التام ، وإن لم يكن قابلاً قيل : علمته فلم يتعلم ، وهديته فلم يهتد ، وخاطبته فلم يصنع ، ونحو ذلك .

فقوله في القرآن : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) هو من هذا ، إنما يهتدي من يقبل الاهتداء ، وهم المتقون ، لا كل أحد ، وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم ، بل قد يكونون كفاراً ، لكن إنما يهتدي به من كان متقياً ، فمن اتقى الله اهتدى بالقرآن ، والعلم والإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن .

وهكذا قوله : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ ^(٢) الإنذار التام ، فإن الحي يقبله ، ولهذا قال : ﴿ وَيَحَقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣) فهم لم يقبلوا الإنذار . ومثله قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴾ ^(٤) .

وعكسه قوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٥) . أي كل من ضل به

(١) سورة البقرة آية رقم ٢ .

(٢) سورة يس آية رقم ٧٠ .

(٣) سورة يس آية رقم ٧٠ .

(٤) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٦ .

فهو فاسق ، فهو ذم لمن يضل به ، فإنه فاسق ، ليس أنه كان فاسقاً قبل ذلك .

ولهذا تأولها سعد بن أبي وقاص ^(١) في الخوارج ، وسماهم « فاسقين » ، لأنهم ضلوا بالقرآن ، فمن ضل بالقرآن فهو فاسق .

فقوله : ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من هذا الباب ، والتقدير : من ختم على قلبه وجعل على سمعه وبصره غشاوة فسواء عليك أنذرته أم لم تنذره هو لا يؤمن ، أي ما دام كذلك .

ولكن هذا قد يزول وفي صفة النبي ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ ^(٢) وحرزاً للأمين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك « المتوكل » لست بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح [به] أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ^(٣) .

وقد قال : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ

(١) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري ، أبو اسحاق الصحابي الأمير ، فاتح العراق ، ومداين كسرى وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ويقال له فارس الاسلام أسلم وهو ابن ١٧ سنة وشهد بدرأ وافتتح القادسية ونزل أرض الكوفة ، له في كتب الحديث ٢٧١ حديثاً توفي عام ٥٥ هـ [راجع الرياض النضرة ٢ : ٢٩٢ وتاريخ الخميس ١ : ٤٩٩ ، والتهذيب ٣ : ٤٨٣ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٩٣]

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٣ باب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ .
٤٨٣٨ حديثاً عبدالله بن مسلمة حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال بن أبي هلال عن عطاء بن يسار عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما وذكره .
ورواه أيضاً في البيوع ٥٠ والدارمي في المقدمة ٢ وفصائل القرآن ١ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٧٤ (حلي) .

عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ فدل على أن بعضهم يؤمنون ، ثم قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا - إلى قوله - إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ (٢) . فهذا هو الإنذار التام ، وهو الإنذار الذي يقبله المنذر وينتفع به .

وقوله ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ (٣) هو أصل الإنذار ، كما يقال في البليد والمشغول الذهن بأمور الدنيا والشهوات : سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم ولا يقبل الهدى ، ويقال في الذكي الفارغ : إنما يتعلم مثل هذا ، ثم المشغول قد يتفرغ ، وقد يصلح ذهن بعد فساده ، ويفسد بعد صلاحه لفساد قلبه وصلاحه .

وعلى هذا القول أكثر تفسير السلف ، كما ذكره ابن اسحاق ، وقد رواه ابن أبي حاتم وغيره . قال ابن إسحاق ، حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بما أنزل إليك ، وإن قالوا : إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) أي أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك ووجدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك ، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً ؟ .

فقد تبين أنهم لا يسمعون الإنذار لكفرهم بما عندهم وما جاءك من الحق ، ومعلوم أن منهم خلقاً تابوا بعد ذلك وآمنوا .

وروي عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية قال : آيتان في قادة

(١) سورة يس آية رقم ٦ - ٧ .

(٢) سورة يس آية رقم ٨ - ١١ .

(٣) سورة يس آية رقم ١٠ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت سواء بدون الواو .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٦ .

الأحزاب : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال : هم الذين ذكرهم الله في هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (١) .

« قلت » : جعلهم قادة الأحزاب لكونهم أضلوا الأتباع فأحلوهم دار البوار ، والأحزاب يوم الخندق قد أسلم عامة قاداتها ، وحسن إسلامهم ، مثل عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وأبي سفيان ، وهؤلاء أسلم منهم من أسلم عام الفتح ، وهم الطلقاء ، ومنهم من أسلم قبل ذلك ، والحزب الآخر غطفان ، وقد أسلموا أيضاً .

والآية لا بد أن تتناول كفار أهل الكتاب ، كما قال ابن اسحاق ، فإن السورة مدنية ، وإن تناولت مع ذلك المشركين ، فهي تعم كل كافر ، ومقاتل ، والضحاك ، يخصها ببعض مشركي العرب ، وابن السائب يقول : هي إنما نزلت في اليهود ، منهم حيي بن أخطب ، وكذلك ما ذكره ابن اسحاق ، عن ابن عباس ، أنها في اليهود ، وأبو العالية يقول : إنها نزلت في قادة الأحزاب .

والآية تعم هؤلاء كلهم وغيرهم ، كما أن آيات المؤمنين والمنافقين كان سبب نزولها [المؤمنين والمنافقين الموجودين وقت النزول ، وهي تعمهم] وغيرهم من المؤمنين والمنافقين إلى قيام الساعة . والمقصود أن قوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) كقوله : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٣) سورة الروم آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

لَا يَعْقِلُونَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿١﴾ .

وكل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك وتبليغك وحرصك على هدايتهم ليس موجب ذلك ، وإنما يحصل ذلك إذا شاء الله هدايتهم فشرح صدورهم للإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ (٢) ففيه تعزية لرسوله ﷺ وبينت الآية أن تبليغك وإن لم يهتدوا به ففيه مصالحة عظيمة وغير ذلك .

وفيه بيان أن الهدى هدى الله - ف ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (٣) وقد قال له : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤) . ففيه تقرير التوحيد ، وتقدير مقصود الرسالة .

وهو سبحانه أخبر عن لا يؤمن فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٦) ، ثم قال ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧) فخص في هذه الآية ، وفي تلك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ (٨) . وهم الذين حق عليهم القول ، أي حق عليهم ما قاله الله سبحانه ، وكتبه ، وقدره ، فجعل الموجب هو التقدير السابق ، وهو قوله .

والقول وإن كان قد يكون خبراً مجرداً بما سيكون ، وقد يكون قولاً

(١) سورة يونس آية رقم ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ١٧ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٥٦ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٩٦ - ٩٧ .

(٦) سورة يس آية رقم ٦ .

(٧) سورة يس آية رقم ٧ .

(٨) سورة يونس آية رقم ٩٦ .

يتضمن أشياء كاليمين المتضمنة للحض والمنع ، فقد ذكر في مواضع تقدم اليمين ، كقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ (١) ونحو ذلك .

فهو خبر عما قاله ، أو قاله وكتبه ، وهو التقدير الذي يتضمن أنه قدر ما يفعل ، وعلمه ، وكتبه ، كما تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، والقدر تضمن علمه بما سيكون ، ومشيته لوجود ما قدره وعلم أن سيخلقه . والقول قد يكون خبراً ، وقد يكون فيه معنى الطلب - الحض والمنع - بالقسم ، وإما لكتابته على نفسه ، كقوله ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) وقوله : « يا عبادي ! إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » (٤) . وأما قوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) ، فهذا مختص بالكفار ، وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال ، كما قال تعالى لإبليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٦) وقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (٧) أي إن عذابهم له أجل مسمى ، إما يوم القيامة ، وإما في الدنيا كيوم بدر ، وإما عقب الموت - وقد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة ، فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب

(١) سورة السجدة آية رقم ١٣ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .

(٣) سورة الروم آية رقم ٤٧ .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في الظلم - حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ - فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : وذكره . وهو حديث طويل جداً .

(٥) سورة الزمر آية رقم ٧١ .

(٦) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٧) سورة طه آية رقم ١٢٩ .

لزماً ، أي لازماً لهم ، فإن المقتضى له قائم تام ، وهو كفرهم .

وأما إذا أطلق القول على الكفار من غير تقييد فإنه لا يريد من [لا]
يؤمن منهم ، فإن اللفظ لا يدل على ذلك البتة .

وأيضاً فإن هذا لا فائدة فيه ، إذ كان أولئك غير معروفين ، وإنما هم
طائفة قد حق عليهم القول ، وهم لا يتميزون من غيرهم ، بل هو مأمور بإنذار
الجميع ، وفيهم من يؤمن ومن لا يؤمن ، فذكر اللفظ العام ، وإرادة أولئك
دون غيرهم - ليس فيه بيان للمراد الخاص ، وذكر المعنى الذي أوجب أنهم
لا يؤمنون قط ، ولا فيه تعليق بالحكم بالمعنى العام ، وكلام الله تعالى يسان
عن مثل ذلك .

وما ذكر من الموانع هي موجودة في كل من لم يقبل الإنذار ، سواء كان
كافراً. أم منافقاً أم فاسقاً أم غير ذلك ، لسبب يوجب ذلك ، فيمتنع قبول الإنذار
بسبب الموانع ، ولكن هذه الموانع قد تزول ، فإنها ليست لازمة لكل كافر .

وإذا كان المانع ما سبق من القول الذي حق عليهم فقد لا يزول أبداً ،
كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ
آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (١) .

وقد يذكر هذا وهذا .

وأما إذا اقتصر على ذكر الموانع التي فيهم ، ولم يذكر ما سبق من
القول ، فهذه الموانع يرجى زوالها ويمكن ما لم يذكر معها ما يقتضي امتناع
تغير حالهم وحصول الهدى .

(١) سورة يونس آية رقم ٩٦-٩٧ .

فصل

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ^(١) . جاء الخطاب فيها بـ ﴿ ما ﴾ ، ولم يجيء بـ « من » ، فقال : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ لم يقل « لا أعبد من تعبدون » ، لأن « من » لمن يعلم ، والأصنام لا تعلم .

[وهذا القول ضعيف جداً] فإن معبود المشركين يدخل فيه من يعلم كالملائكة والأنبياء والجن والإنس ، ومن لم يعلم ، وعند الاجتماع تغلب صيغة أولي العلم ، كما في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ ^(٢) .

فإذا أخبر عنهم بحال من يعلم عبر عنهم بعبادته ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا ﴾ ^(٣) . الآية فعبر عنهم بضمير الجمع المذكر ، وهو لأولي العلم .

وأما ما لا يعلم فجمعه مؤنث ، كما تقول : الأموال جمعتها ، والحجارة قذفتها . فـ ﴿ ما ﴾ هي لما لا يعلم ، ولصفات من يعلم ، ولهذا

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٩٤ - ١٩٥ .

تكون للجنس العام ، لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته ، كما قال : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ^(١) أي الذي طاب والطيب من النساء ، فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب ، وقصد هذه الصفة دون مجرد العين ، عبر بـ ﴿ مَا ﴾ .

ولو عبر بـ « من » كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف ، حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة ، كما إذا قلت : جاءني من يعرف ، ومن كان أمس في المسجد ، ومن فعل كذا ، ونحو ذلك ، فالمقصود الإخبار عن عينه والصلة للتعريف وإن كانت تلك الصفة قد ذهبت . ومنه قوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ^(٢) - على القول الصحيح إنها اسم موصول ، والمعنى : وبانيها ، وطاحيها ، ومسويها . [و] لما قال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ^(٣) - أخبر بـ « من » لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا .

فالقسم هناك بالموصوف بحيث أنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة ، فإنه لا توجد مبنية إلا بانيها ، ولا مطحية إلا بطاحيها ، ولا مسواة إلا بمسويها ، وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا ، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليس مستلزماً لذلك العمل . ونحو هذا قوله ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ^(٤) .

ولهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم في قوله ﴿ وَمَا رَبُّ

(١) سورة النساء آية رقم ٣ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٥ - ٧ .

(٣) سورة الشمس آية رقم ٩ - ١٠ .

(٤) سورة الليل آية رقم ٣ .

الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ كما يستفهم - على وجه - بها في قوله : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ .
وأما قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٢)
فالاستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التي تعبد ، فإن
المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق ، وإنما طلب بالاستفهام تعيينه
وتمييزه ، ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة .

وأما فرعون فكان منكراً للموصوف المسمى ، فاستفهم بصيغة ﴿ مَا ﴾
لأنه لم يكن مقراً به ، طالباً لتعيينه ، ولهذا كان الجواب في هذا الاستفهام
بقول موسى ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٣) ، وبقوله ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ ﴾ (٤) فأجاب أيضاً بالصفة ، وهناك قال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٥) ، فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى من غيره ، وكذلك
قوله : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ (٦) - إلى تمام الآيات .

فقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٧) يقتضي
تنزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم ، لأن كل ما عبده الكافر وجبت البراءة
منه ، لأن كل من كان كافراً لا يكون معبوده الإله الذي يعبده المؤمن ، إذ لو
كان هو معبوده لكان مؤمناً ، لا كافراً ، وذلك يتضمن أموراً .

أحدها : أن ذلك يستلزم براءته من أعيان من يعبدونهم من دون الله .

الثاني : أنهم إذا عبدوا الله وغيره فمعبودهم المجموع ، وهو لا يعبد

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة لقمان آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ١٦ وسورة الاسراء آية رقم ١٠٢ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٦ وسورة الصافات آية رقم ١٢٦ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٨٧ .

(٦) سورة المؤمنون آية رقم ٨٤ .

(٧) سورة الكافرون آية رقم ٢ - ٣ .

المجموع - لا يعبد إلا الله وحده ، فيعبده على وجه إخلاص الدين له ، لا على وجه الشرك بينه وبين غيره .

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين قول الخليل : ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) . بأن يقال : هنا نفى عبادة المجموع ، وذلك لا ينفي عبادة الواحد الذي هو الله ، والخليل تبرأ من المجموع ، وذلك يقتضي البراءة من كل واحد ، فاستثنى ، أو يقال : الخليل تبرأ من كل المعبودين - من الجميع - فوجب أن يستثنى رب العالمين . ولهذا لما وقع مستثنى في أول الكلام في قوله ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) لم يحتج إلى استثناء آخر .

وأما هذه السورة فإن فيها التبري من عبادة ما يعبدون ، لا من نفس ما يعبدون ، وهو بريء منهم ، ومن عبادتهم ، ومما يعبدون ، فإن ذلك كله باطل ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، يقول الله : « أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك » ^(٤) .

فعبادة الله كلها باطلة ، لا يقال : نصيب الله منها حق ، والباقي باطل ، بخلاف معبودهم ، فإن الله إله حق ، وما سواه آلهة باطلة . فلما تبرأ الخليل من المعبودين احتاج إلى استثناء رب العالمين ، ولما كان في هذه تبرؤه من أن يعبد ما يعبدون ، فكان المنفى هو العبادة ، تبرأ من عبادة المجموع الذين

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ - ٧٧ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من هذا .

يعبدهم الكافرون .

الثالث : إن كان النفي عن الموصوف بأنه معبودهم ، لا عن عينه ، فهو لا يعبد شيئاً من حيث هو معبودهم ، لأنه من حيث هو معبودهم هم مشركون به ، فوجبت البراءة من عبادته على ذلك الوجه ، ولو قال « من تعبدون » لكان يقال : إلا رب العالمين ، لأن النفي واقع على عين المعبود ، وليس إذا لم يعبد ما يعبدون متبرئاً منه ومعادياً له حتى يحتاج إلى الاستثناء ، بل هو تارك لعبادة ما يعبدون .

وهذا يتبين بالوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ نفى عنهم عبادة معبوده فهم إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده ، وكذلك هو إذا عبده مخلصاً له الدين لم يكن عابداً معبودهم .

الوجه الخامس : أنهم لو عينوا الله بما ليس هو الله ، وقصدوا عبادة الله معتقدين أن هذا هو الله ، كالذين عبدوا العجل ، والذين عبدوا المسيح ، والذين يعبدون الدجال ، والذين يعبدون ما يعبدون من دنياهم وهواهم ، ومن عبد من هذه الأمة ، فهم عند نفوسهم إنما يعبدون الله ، لكن هذا المعبود الذي لهم ليس هو الله . فإذا قال : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ كان متبرئاً من هؤلاء المعبودين ، وإن كان مقصود العابدين هو الله .

الوجه السادس : أنهم إذا وصفوا الله بما هو بريء منه ، كالصاحبة ، والولد ، والشريك ، وأنه فقير أو بخيل ، أو غير ذلك ، وعبده كذلك ، فهو بريء من المعبود الذي هؤلاء ، فإن هذا ليس هو الله ، كما قال النبي ﷺ : « ألا ترون كيف يصرف الله عني سب قريش ؟ يسبون مذمماً وأنا محمد »^(١) . فهم وإن قصدوا عينه لكن لما وصفوه بأنه مذموم كان سبهم

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المناقب ١٧ باب ما جاء في أسماء رسول الله - ﷺ -
٣٥٣٣ عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - =

واقعاً على من هو مذمم ، وهو محمد - ﷺ ، وذاك ليس هو الله . فالمؤمنون براء مما يعبد هؤلاء .

الوجه السابع : أن كل من لم يؤمن بما وصف به الرسول ربه فهو في الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول من تلك الجهة .

وقس على هذا فلتأمل هذه المعاني ، وتخلص وتهذب ، والله تعالى أعلم .

= وذكره ، ورواه النسائي في الطلاق ٢٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٩ (حلبي) .

سورة تبت

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه

« سورة تبت » نزلت في هذا وامراته ، وهما من أشرف بطنين في قريش ، وهو عم علي ، وهي عمة معاوية ، واللذان تداولا الخلافة في الأمة هذان البطنان : بنو أمية ، وبنو هاشم ، وأما أبو بكر وعمر فمن قبيلتين أبعد عنه - ﷺ - واتفق في عهدهما ما لم يتفق بعدهما .

وليس في القرآن ذم من كفر به - ﷺ - باسمه إلا هذا وامراته ، ففيه أن الأنساب لا عبرة بها ، بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم ، كما قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾ (١) الآية . قال النحاس : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (٢) دعاء عليه بالخسر ، وفي قراءة عبدالله : « وقد تب » وقوله : ﴿ وما كسب ﴾ أي ولده ، فإن قوله : ﴿ وما كسب ﴾ يتناوله ، كما في الحديث ولده من كسبه (٣) ، واستدل بها على جواز الأكل من مال الولد ، ثم أخبر أنه : ﴿ سَيَصْلَىٰ

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٠ .

(٢) سورة المسد آية رقم ١ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في التجارات (١) باب الحث على المكاسب ٢١٣٧ ثنا أبو معاوية ، ثنا الأعمش ، عن ابراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : قال رسول الله - ﷺ - إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه .

ورواه النسائي في البيوع ١ والدارمي في البيوع ٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣١ ، ٤٢ ، ١٢٧ ، ١٩٣ ، ٢٢٠ (حلي) .

نَاراً ﴿١﴾ أخبر بزوال الخير ، وحصول الشر ، و« الصلي » الدخول والاحتراق جميعاً ، وقوله : ﴿ حمالة الحطب ﴾ إن كان مثلاً للنميمة ، لأنها تضرم الشر ، فيكون حطب القلوب ، وقد يقال : ذنبها أعظم ، وحمل النميمة لا يوصف بالجبل في الجيد ، وإن كان وصفاً لحالها في الآخرة ، كما وصف بعلمها وهو يصلى ، وهي تحمل الحطب عليه ، كما أعانتها على الكفر ، فيكون من حشر الأزواج ، وفيه عبرة لكل متعاونين على الإثم أو على إثم ما ، أو عدوان ما .

ويكون القرآن قد عمم الأقسام الممكنة في الزوجين ، وهي أربعة : إما كإبراهيم وامرأته ، وإما هذا وامرأته ، وإما فرعون وامرأته ، وأما نوح وامرأته ، ولوط ، ويستقيم أن يفسر حمل الحطب بالنميمة ^(٢) بحمل الوقود في الآخرة كقوله : « من كان له لسانان » الخ . . . والله تعالى أعلم .

(١) سورة المسد آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ ذات لهب ﴾

(٢) قال مجاهد ، وعروة ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة والثوري والسدي حمالة الحطب ، كانت تمشي بالنميمة واختاره ابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك وابن زيد كانت تضع الشوك في طريق رسول الله - ﷺ .

تم بحمد الله وحسن توفيقه التفسير الكبير في مساء يوم الخميس ٤ جمادى الثاني ١٤٠٦ هـ الموافق ١٣ فبراير ١٩٨٦ م بمسقط - سلطنة عمان .

سورة الإخلاص

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه عما ورد في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) أنها تعدل ثلث القرآن .

وكذلك ورد في سورة الزلزلة و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٢) والفاحة هل ما ورد في هذه المعادلة ثابت في المجموع ، أم في البعض ؟
ومن روى ذلك ؟ *
وما ثبت من ذلك ؟

وما معنى هذه المعادلة ، وكلام الله واحد بالنسبة إليه عز وجل ؟
وهل هذه المفاضلة بتقدير ثبوتها - متعديّة إلى الأسماء والصفات ، أم لا ؟

والصفات القديمة ، والأسماء القديمة هل يجوز المفاضلة بينها مع أنها

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ١ وعن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله - ﷺ - من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن . رواه الطبراني في الصغير .
قال صاحب مجمع الزوائد : وفيه من لم أعرفهم .

ومن القائل بذلك ، وفي أي كتبه قال ذلك ؟ ووجه الترجيح في ذلك
بما يمكن من دليل عقلي ، ونقلني ؟
فأجاب رضي الله عنه :

الحمد لله ، أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح - كالبخاري ومسلم -
فأخرجوا فضل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(١) وروى عن الدارقطني ^(٢) أنه قال : لم
يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها .

وكذلك أخرجوا فضل « فاتحة الكتاب » قال ﷺ فيها « إنه لم ينزل في
التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها » ^(٣) لم يذكر فيها أنها تعدل جزءاً

(١) سورة الصمد آية رقم ١ .

(٢) هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي أبو الحسن الدارقطني الشافعي إمام عصره في الحديث ،
وأول من صنف القراءات وعقد لها أبواباً ولد بدار القطن عام ٣٠٦ هـ من أحياء بغداد ، ورحل
الى مصر فساعد وزير كافور الأخشيدي على تأليف مسنده ، وعاد الى بغداد فتوفي بها عام
٣٨٥ هـ من تصانيفه كتاب السنن ، والمجتبى من السنن المأثورة ، والمؤتلف والمختلف ،
والضعفاء وغير ذلك كثير توفي عام ٣٨٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ومفتاح السعادة :
١٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٩ - ٨٨ - ٩٠] .

(٣) قال الامام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن
عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله - ﷺ - على أبي بن كعب وهو يصلي
فقال : يا أبي فالتفت ثم لم يجبه ثم قال أبي فخفف أبي ثم انصرف الى رسول الله - ﷺ - فقال :
السلام عليك أي رسول الله فقال وعليك السلام ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تحييني فقال أي
رسول الله - ﷺ - إني كنت في الصلاة ، قال : أو لست تحب فيها أوحى الله الي ﴿ استجبوا لله
وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ قال : بلى يا رسول الله لا أعود قال : أتحب أن أعلمك سورة -
لم تنزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها . . ؟ قلت نعم .
فلما دنونا من الباب قلت : أي رسول الله ما السورة التي وعدتني . . ؟ قال : ما نقرأ في
الصلاة . . ؟ فقرأت عليه أم القرآن ، قال : والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في
الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ، إنها السبع المثاني .
ورواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من القرآن كما قال في ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ « إنها تعدل ثلث القرآن » .

ففي صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري قال :

قال رسول الله ﷺ لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلاث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : « أينما يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » ^(١) وفي صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن ؟

قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟

قال ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ^(٢) وروى مسلم أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن ، وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالتها ، فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده : إنها لتعدل ثلث القرآن » ^(٣) وأخرج عن أبي سعيد قال : أخبرني أخي قتادة بن النعمان أن

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب فضل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيه عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ - ٥٠١٥ - حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش حدثنا إبراهيم والضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عن شعبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ - قال : وذكره .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب فضل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيه =

رجلاً قام في زمن رسول الله ﷺ يقرأ من السحر ﴿ قل هو الله أحد ﴾ لا يزيد عليها الحديث « بنحوه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، قال : فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿ قل هو الله ﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء فذاك الذي أدخله ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن . وفي لفظ له قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أقرأ عليكم ثلث القرآن ، فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ الله الصمد ﴿ حتى ختمها ^(١) وأما حديث الزلزلة ، و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فروى الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن .

ومن قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ عدلت له نصف القرآن ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عدلت له ربع القرآن وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن . رواهما الترمذي ، وقال عن كل منهما : غريب ^(٢) . وأما حديث

= عمرة عن عائشة عن النبي - ﷺ - ٥٠١٣ عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري وذكره .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة قل هو الله أحد - عن يحيى قال ابن حاتم ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا يزيد بن كيسان ، حدثنا أبو حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) عن سلمة بن وردان أن أنس بن مالك صاحب رسول الله - ﷺ - حدثه أن رسول الله - ﷺ - سأل رجلاً من صحابته فقال : أي فلان هل تزوجت . . ؟ قال : لا . وليس عندي ما أتزوج به . قال : أليس معك ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قال : بلى . قال : ربع القرآن قال : أليس معك ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ قال : بلى . قال : ربع القرآن قال : أليس معك ﴿ إذا زلزلت ﴾ قال : بلى . قال : ربع القرآن . قال : أليس معك ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ قال : بلى . قال : =

« الفاتحة » فروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي ، قال : ألم يقل الله ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ ثم قال : لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم » (١) .

وفي السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب « ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها - قال - فإني أرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها . . وقال فيه : كيف تقرأ في الصلاة ؟ فقرأت عليه أم القرآن ، فقال والذي نفسي بيده ، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته » (٢) .

ورواه مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي سعيد مولى عامر بن كريز مرسلًا . وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ، ﴿ قل أعوذ برب

= ربيع القرآن قال : أليس معك « آية الكرسي » قال : بلى . قال : ربيع القرآن قال : تزوج ، تزوج ، ثلاث مرات . رواه الترمذي باختصار آية الكرسي . رواه أحمد ، وسلمة ضعيف . هكذا قال : صاحب مجمع الزوائد .

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٩ باب فضل فاتحة الكتاب ٥٠٠٦ حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شعبة ، قال : حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى قال : وذكره .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء . وفي الباب عن أنس بن مالك ، ورواه عبد الله بن الإمام أحمد عن إسماعيل بن أبي معمر عن أبي أسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب فذكره مطولاً ، وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن أبي عمار حسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب

الفلق ﴿ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴿ .

وفي لفظ قال لي رسول ﷺ أنزل علي آيات لم ير مثلهن قط ،
المعوذتان فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين ، كما
أخبر أنه لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ، ولا في القرآن
مثل الفاتحة ، وهذا مما يبين لنا فضل القرآن على بعض

فصل عن التفاضل بين كلام الله تعالى

وأما السؤال عن معنى هذه المعادلة مع الاشتراك في كون الجميع كلام الله ، فهذا السؤال يتضمن شيئين :

أحدهما : أن كلام الله هل بعضه أفضل من بعض ، أم لا ؟

والثاني : ما معنى كون ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن ؟ وما سبب ذلك ؟

فنقول :

أما الأول فهو مسألة كبيرة ، والناس متنازعون فيها نزاعاً منتشرأ ، فطوائف يقولون : بعض كلام الله أفضل من بعض ، كما نطقت به النصوص النبوية حيث أخبر عن الفاتحة أنه لم ينزل في الكتب الثلاثة مثلها .

وأخبر عن سورة الاخلاص أنها تعدل ثلث القرآن وعدلها لثلثه يمنع مساواتها لمقدارها في الحروف وجعل آية الكرسي أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في الصحيح أيضاً .

وكما ثبت ذلك في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب : يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم قال : فقلت : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ قال : فضرب في صدري وقال : ليهنك العلم أبا المنذر ^(١) ورواه ابن أبي شيبة في مسنده بإسناد مسلم ، وزاد فيه « والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لساناً وشفعتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

وروى أنها سيدة آي القرآن .

وقال في المعوذتين : لم ير مثلهن قط .

وقد قال تعالى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ^(٢) .

فأخبر أنه يأتي بخير منها أو مثلها ، وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى ، وأيضاً فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعاً كلام لله ، مع علم المسلمين بأن القرآن أفضل الكتب الثلاثة ، قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ^(٣) وقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(٤) وقال تعالى ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ^(٥) .

(١) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح عن أبي بن كعب أن النبي - ﷺ - سأله : أي آية في كتاب الله أعظم . . . ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ثم قال أبي : آية الكرسي قال الرسول عليه السلام : ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفعتين تقدس الملك عند ساق العرش ، ورواه الامام مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريري به وليس عنده زيادة (والذي نفسي بيده) الخ .

(٤) سورة الحجر آية رقم ٩ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٥) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٤٨ .

وقال تعالى ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ (١) فأخبر أنه أحسن الحديث ، فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٢) .

وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له اختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك .

وقد سمي الله القرآن كله مجيداً وكراماً وعزيراً . وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله ، أو بمثل عشر سور منه ، أو بمثل سورة منه فقال ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣) وقال ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ (٤) وقال ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (٥) .

وخصه بأنه لا يقرأ في الصلاة إلا هو ، فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته ، ولا بدون قراءته ، ولا يصلي بلا قرآن ، فلا يقوم غيره مقامه مع القدرة عليه وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها من كل وجه باتفاق المسلمين ، سواء قيل بأنها فرض تعاد الصلاة بتركها ، أو قيل بأنها واجبة يأثم تاركها ولا إعادة عليه أو قيل : إنها سنة ، فلم يقل أحد إن قراءة غيرها مساو لقراءتها من كل وجه .

وخص القرآن بأنه لا يمس مصحفه إلا طاهر ، كما ثبت ذلك عن الصحابة - مثل سعد وسلمان وابن عمر - وجماهير السلف والخلف الفقهاء الأربعة وغيرهم ، ومضت به سنة رسول الله ﷺ في كتابه الذي كتبه لعمر بن حزم ، الذي لا ريب في أنه كتبه له ، ودل على ذلك كتاب الله ، وكذلك لا

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة الحجر آية رقم ٨٧ .

(٥) سورة الطور آية رقم ٣٤ .

يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء الفقهاء الأربعة وغيرهم كما دلت على ذلك السنة .

وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه ، وإن كان ذلك ترجيحاً لأحد المتماثلين بلا مرجح .

وهذا خلاف ما علم من سنة الرب تعالى في شرعه بل وفي خلقه ، وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية .

وأيضاً فقد قال تعالى ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ ^(٣) فدل على

أن فيما أنزل حسن وأحسن سواء كان الأحسن هو الناسخ الذي يجب الأخذ به دون المنسوخ ، إذ كان لا ينسخ آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها ، أو كان غير ذلك .

والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم ، وكلام القائلين بذلك كثير منتشر في كتب كثيرة ، مثل ما سيأتي ذكره عن أبي العباس ابن سريج ^(٤) في تفسيره لهذا الحديث بأن الله أنزل القرآن على ثلاث

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ١٨ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥ .

(٤) هو أحمد بن عمر بن سريج البغدادي أبو العباس ، فقيه الشافعية في عصره ، مولده عام ٢٤٩ هـ ووفاته في بغداد عام ٣٠٦ هـ له نحو ٤٠٠ مصنف منها الأقسام والخصال ، ولي القضاء بشيراز ، وقام بنصرة المذهب الشافعي ، فنشره في أكثر الآفاق حتى قيل : بعث الله عمر بن عبد العزيز على رأس المئة من الهجرة فأظهر السنة ، وأمات البدعة ومن الله في المئة الثانية بالامام الشافعي ، فأحيى السنة ، وأخفى البدعة ، ومن بابن سريج في المئة الثالثة فنصر السنن وخذل =

أقسام : ثلث منه أحكام وثلث منه وعد ووعد ، وثلث منه الأسماء والصفات وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

ومثل ما ذكره أصحاب الشافعي وأحمد في مسألة تعيين الفاتحة في الصلاة .

قال أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني الشافعي في كتابه « الاصطلام » وأما قولهم : إن سائر الأحكام المتعلقة بالقرآن لا تختص بالفاتحة .

قلت : سائر الأحكام قد تعلقت بالقرآن على العموم وهذا على الخصوص ، بدليل أن عندنا قراءة الفاتحة على التعيين مشروعة على الوجوب وعندكم على السنة قال : وقد قال أصحابنا : إن قراءة الفاتحة لما وجبت في الصلاة وجب أن تتعين الفاتحة ، لأن القرآن امتاز عن غيره بالإعجاز ، وأقل ما يحصل به الإعجاز سورة ، وهذه السورة أشرف السور لأنها السبع المثاني ، ولأنها تصلح عوضاً عن جميع السور ولا تصلح جميع السور عوضاً عنها ، ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل سورة ما على قدرها من الآيات وذلك من الثناء والتحميد للرب ، والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد ، فإذا صارت هذه السورة أشرف السور ، وكانت الصلاة أشرف الحالات ، فتعينت أشرف السور في أشرف الحالات وبينوا من شرفها على غيرها ما ذكره .

وكذلك ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أحمد كالقاضي أبي يعلى^(١)

= البدع ، وكان حاضر الجواب ، له مناظرات ومساجلات مع محمد بن داود الظاهري ، وله نظم حسن . [راجع طبقات الشافعية للسبكي ٣ : ٨٧ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٢٨٧]

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى ، عالم عصره في الأصول والفروع ، وأنواع الفنون ، من أهل بغداد ، ارتفعت مكانته عند القادر ، والقائم ، وولاه القائم دار الخلافة والحريم ، له تصانيف كثيرة ، منها الإيمان ، والأحكام السلطانية ، والكفاية في أصول =

ابن القاضي أبي حازم ، ابن القاضي أبي يعلى ، ابن الفراء ، قال في تعليقه - ومن خطه نقلت - قال في مسألة كون قراءة الفاتحة ركنا في الصلاة أما الطريق المعتمد في المسألة فهو أنا نقول : الصلاة أشرف العبادات وجبت فيها القراءة ، فوجب أن يتعين لها أشرف السور ، والفاتحة أشرف السور ، فوجب أن تتعين .

قال : وأعلم أنا نحتاج في تمهيد هذه الطريقة الى شيئين :

أحدهما : أن الصلاة أشرف العبادات .

والثاني : أن الحمد أشرف السور .

واستدل على ذلك بما ذكره قال : وأما الدليل على أن فاتحة الكتاب أشرف ، فالنص والمعنى ، والحكم أما النص فما تقدم من أنها عوض من غيرها .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : فاتحة الكتاب شفاء من السم .

وقال الحسن البصري : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها :

التوراة والإنجيل والزبور ، والفرقان .

ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزل ، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور

الفقه ، وأحكام القرآن ، وعيون المسائل ، وأربع مقدمات في أصول الديانات ، ومقدمة في الأدب ، وردود على الأشعرية توفي عام ٤٥٨ هـ . [راجع طبقات الخنابلة لابن أبي يعلى ٢ : ١٩٣ - ٢٣٠ ومختصره للناقلي ٣٧٧ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦ ، وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ : ٧] .

والقرآن .

وأما المعنى فهو أن الله قابلهما بجميع القرآن فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (١) وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها .

قلت : هذا على قول من جعلها هي السبع المثاني ، وجعل القرآن العظيم جميع القرآن ، قال : ولأنها تسمى أم القرآن وأم الشيء أصله ومادته ، ولهذا سمي الله مكة أم القرى لشرفها عليهن ، ولأنها السبع المثاني ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل عليه سورة من الثناء والتحميد للرب تعالى والاستعانة به ، والاستعاذة والدعاء من العبد ، على ما قال النبي ﷺ يقول الله تعالى : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي » (٢) الحديث المشهور .

قال : ولأنه لم ينزل مثلها في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ، ولا في شيء من الكتب يدل عليها أنها تيسر قراءتها على كل أحد ما لا ييسر غيرها من القرآن وتضرب بها الأمثال .

ولهذا يقال : فلان يحفظ الشيء مثل الفاتحة وإذا كانت بهذه المثابة فغيرها لا يساويها في هذا فاختصت بالشرف ، ولأنها السبع المثاني .

قال أهل التفسير : معنى ذلك أنها تثنى قراءتها في كل ركعة ، قال بعضهم : ثنى نزولها على النبي ﷺ قلت : وفيه أقوال آخر .

قال : وأما الحكم فلأنه تستحب قراءتها في كل ركعة ويكره الإخلال بها ، ولولا أنها أشرف لما اختصت بهذا المعنى يدل عليه أن عند المنازعين -

(١) سورة الحجر آية رقم ٨٧ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٣٨ - ٤٠ ورواه أبو داود في الصلاة ١٣٢ ، والترمذي في التفسير سورة ١ ، ١ والنسائي في الافتتاح ٢٣ وابن ماجه في كتاب الأدب ٥٢ باب ثواب القرآن ٣٧٨٤ - حدثنا أبو مروان محمد بن عثمان العثماني ، ثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول - قال الله عز وجل وذكره .

يعني أصحاب أبي حنيفة - أن من أخل بقراءتها وجب عليه سجود السهو فنقول : لا يخلو إما أن تكون ركناً أو ليست بركن . فإن كانت ركناً وجب أن لا تجبر بالسجود ، وإن لم تكن ركناً وجب أن لا يجب عليه سجود .

قلت: يعني بذلك: أن السجود لا يجب إلا بترك واجب في حال العمد، فإذا سها عنه وجب له السجود ، وما كان واجباً فإذا تعمد تركه وجب أن تبطل صلاته ؛ لأنه لم يفعل ما أمر به ، بخلاف من سها عن بعض الواجبات ، فإن هذا يمكن أن يجبر ما تركه بسجود السهو .

ومذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة أن سجود السهو واجب ، لأن من الواجبات ما إذا تركه سهواً لم تبطل الصلاة ، كما لا تبطل بالزيادة سهواً باتفاق العلماء ، ولو زاد عمداً لبطلت الصلاة ، لكن مالكاً وأحمد في المشهور عنهما يقولان : ما كان واجباً إذا تركه عمداً بطلت صلاته وإذا تركه سهواً فممنه ما يبطل الصلاة ، ومنه ما ينجر بسجود السهو ، فترك الركوع والسجود والقراءة يبطل الصلاة مطلقاً ، وترك الشاهد الأول عندهما يبطل الصلاة عهده ، ويجب السجود لسهوه .

وأما أبو حنيفة فيقول : الواجب الذي ليس بفرض كالفاتحة - إذا تركه كان مسيئاً ولا يبطل الصلاة . والشافعي لا يفرق في الصلاة بين الركن والواجب ، ولكن فرق بينهما في الحج هو وسائر الأئمة .

والمقصود هنا ذكر بعض من قال : إن الفاتحة أشرف من غيرها وقال أبو عمر بن عبد البر ^(١) ، وأما قول النبي ﷺ لأبي : هل تعلم سورة ما أنزل الله

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي أبو عمر من كبار حفاظ الحديث ، مؤرخ ، أديب ، بحاث يقال له حافظ المغرب ولد بقرطبة ، ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها وولي قضاء لشبونة وتوفي بشاطبة عام ٤٦٣ هـ .

من كتبه : الدرر في اختصار المغازي والسير ، والعقل والعلاء ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وجامع بيان العلم وفضله ، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، والنقص =

لا في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، فمعناه مثلها في جمعها لمعاني الخير ، لأن فيها الثناء على الله عز وجل بما هو أهله وما يستحقه من الحمد الذي هو له حقيقة لا لغيره ؛ لأن كل نعمة وخير منه لا من سواه ، فهو الخالق الرازق لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وهو محمود على ذلك ، وإن حمد غيره فإليه يعود الحمد ، وفيها التعظيم له وأنه الرب للعالم أجمع ومالك الدنيا والآخرة وهو المعبود والمستعان ، وفيها تعليم الدعاء والهدى ، ومجانبة طريق من ضل وغوى ، والدعاء لباب العبادة ، فهي أجمع سورة للخير ليس في الكتب مثلها على هذه الوجوه قال : وقد قيل : إن معنى ذلك أنها تجزى الصلاة بها دون غيرها ولا يجزى غيرها عنها ، وليس هذا بتأويل مجتمتع عليه ، قلت : يعني بذلك أن في هذا نزاعاً بين العلماء ، وهو كون الصلاة لا تجزى إلا بها وهذا يدل على أن الوصف الأول متفق عليه بين العلماء وهو أنها أفضل السور .

ومن هذا الباب ما في الكتاب والسنة من تفضيل القرآن على غيره من كلام الله التوراة والإنجيل وسائر الكتب وأن السلف كلهم كانوا مقرين بذلك ، ليس فيهم من يقول : الجميع كلام الله فلا يفضل للقرآن على غيره . قال الله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ ^(١) فأخبر أنه أحسن الحديث .

وقال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ^(٢) و ﴿ أحسن القصص ﴾ قيل : إنه مصدر ، وقيل : أنه مفعول به .

= لحديث الموطأ أو تحريد التمهيد ، والإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف . وغير ذلك كثير .
[راجع بغية الملتبس ٤٧٤ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤٨ وآداب اللغة ٣ : ٦٦ ، وجمهرة الأنساب ٢٨٥ والمغرب في حل المغرب ٢ : ٤٠٧] .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣ .

قيل : المعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص .

كما يقال : نكلمك أحسن التكليم ، ونبين لك أحسن البيان قال
الزجاج : نحن نبين لك أحسن البيان ، والقاص الذي يأتي بالقصة على
حقيقتها .

قال : وقوله ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ أي بوحينا إليك هذا
القرآن .

ومن قال هذا قال : بما أوحينا إليك هذا القرآن وعلى هذا القول فهو
كقوله : نقرأ عليك أحسن القراءة وتتلوا عليك أحسن التلاوة ، والثاني أن
المعنى نقص عليك أحسن ما يقص ، أي أحسن الأخبار المقصوصات ، كما
قال في السورة الأخرى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ وَمَنْ
أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ^(٢)

ويدل على ذلك قوله في قصة موسى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ
الْقَصَصَ ﴾ ^(٣) .

وقوله ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٤) المراد خبرهم
ونبأهم وحديثهم ، ليس المراد مجرد المصدر والقولان متلازمان في المعنى
كما سنبينه ، ولهذا يجوز أن يكون هذا المنصوب قد جمع معنى المصدر
ومعنى المفعول به لأن فيه كلا المعنيين بخلاف المواضع التي يباين فيها
الفعل المفعول به ، فإنه إذا انتصب بهذا المعنى امتنع المعنى الآخر .
ومن رجح الأول من النحاة - كالزجاج ^(٥) وغيره -

(٣) سورة القصص آية رقم ٢٥ .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٢ .

(٥) هو إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو اسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد عام ٢٤١ هـ في
بغداد وتوفي عام ٣١١ هـ كان في فتوته يخرط الزجاج ، ومال الى النحو فعلمه المبرد ، أصاب =

قالوا القصص مصدر ، يقال : قص أثره يقصه قصصاً ومنه قوله تعالى ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ ^(١) وكذلك اقتص أثره وتقصص ، وقد اقتصصت الحديث رويته على وجهه ، وقد اقتص عليه الخبر قصصاً وليس القصص بالفتح جمع قصة كما يظنه بعض العامة فإن ذلك يقال في قصص بالكسر واحدة قصة ، والقصة هي الأمر والحديث الذي يقص ، فعلة بمعنى مفعول وجمعه قصص بالكسر .

وقوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ^(٢) بالفتح لم يقل أحسن القصص بالكسر ، ولكن بعض الناس ظنوا أن المراد أحسن القصص بالكسر ، وأن تلك القصة قصة يوسف ، وذكر هذا طائفة من المفسرين ثم ذكروا : لم سميت أحسن القصص ؟

ف قيل : لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة .

وقيل : لامتداد الأوقات بين مبتدأها ومنتهاها .

وقيل لحسن محاورة يوسف وإخوته ، وصبره على أذاهم وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء ، وكرمه في العفو ، وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والانعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن ، وفيها أيضاً ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني ، والفوائد التي تصلح

= ثروة كبيرة ، وكانت له مناقشات مع ثعلب وغيره من كتبه معاني القرآن ، والاشتقاق ، وخلق الإنسان ، واعراب القرآن . [راجع معجم الأدباء ٤٧ : ١ وابن النديم وانباء الرواة ١ : ١٥٩ واداب اللغة ٢ : ١٨١ وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩] .

(١) سورة الكهف آية رقم ٦٤ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣ .

للدين والدنيا وقيل فيها ذكر الحبيب والمحبوب ، وقيل ﴿ أحسن ﴾ بمعنى أعجب .

والذين يجعلون قصة يوسف أحسن القصص منهم من يعلم أن ﴿ القصص ﴾ بالفتح هو النبأ والخبر ، ويقولون هي أحسن الأخبار والأنباء ، وكثير منهم يظن أن المراد أحسن القصص بالكسر ، وهؤلاء جهال بالعربية وكلا القولين خطأ ، وليس المراد بقوله ﴿ أحسن القصص ﴾ قصة يوسف وحدها ، بل هي مما قصه الله ، ومما يدخل في أحسن القصص .

ولهذا قال تعالى في آخر السورة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) فبين أن العبرة في قصص المرسلين ، وأمر بالنظر في عاقبة من كذبهم ، وعاقبتهم بالنصر .

ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن ثناها الله أكثر من غيرها ، وبسطها وطولها أكثر من غيرها ، بل قصص سائر الأنبياء كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين - أعظم من قصة يوسف ، وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية ، وحسدوه على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله وابتلى صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلى الفاحشة فصبر واتقى الله في هذا

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٩ - ١١١ .

وفي هذا فكانت قصته من أحسن القصص ، وهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن ، فإن الناس قد يظلمون ويحسدون ويدعون إلى الفاحشة ويبتلون بالملك ، لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن اتقى الله وصبر مثل يوسف ، ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف .

وهذا كما أن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين كل منهما هي في جنسها أحسن من غيرها ، فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك ، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة فقلوه تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ^(١) يتناول كل ما قصه في كتابه فهو أحسن مما لم يقصه ليس المراد أن قصة يوسف أحسن ما قص في القرآن وأين ما جرى ليوسف مما جرى لموسى ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل ؟!

وأين ما عودي أولئك مما عودي فيه يوسف ؟! وأين فضل أولئك عند الله وعلو درجتهم من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين ؟

وأين نصر أولئك من نصر يوسف ، فإن يوسف كما قال الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٢) .

وأذل الله الذين ظلموه ، ثم تابوا فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر واتقى الله كانت له العاقبة ، وأن الظالم الحاسد قد يتوب الله عليه ويعفو عنه ، وأن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه .

وبهذا اعتبر النبي ﷺ يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة ، وقد أذل الله له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء ، فقال : ماذا أنتم قائلون ؟ فقالوا :

(١) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٦ .

نقول : أخ كريم وابن عم كريم فقال : إني قائل لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

وكذلك عائشة لما ظلمت وافترى عليها ، وقيل لها : إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فقالت في كلامها : أقول كما قال أبو يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّٰهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (٢)

ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلي بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك .

لكن أين قصة نوح وإبراهيم وموسى والمسيح ونحوهم ممن كانت قصته أنه دعا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وأذوه وآذوا من آمن به ؟

فإن هؤلاء أودوا اختياراً منهم لعبادة الله فعودوا ، وأودوا في محبة الله وعبادته باختيارهم ، فإنهم لولا إيمانهم ودعوتهم الخلق إلى عبادة الله لما أودوا ، وهذا بخلاف من أودى بغير اختياره ، كما أخذ يوسف من أبيه بغير اختياره ، ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة وامرأة العزيز ، واختياره السجن على معصية الله . أعظم من إيمانه ، ودرجته عند الله وأجره من صبره على ظلم إخوته له ، ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك .

ولهذا قال تعالى فيه ﴿ كَذٰلِكَ لِنُصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

وهذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر على المصائب فالأول أعظم ، وهو صبر المتقين أولياء الله .

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٢ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ١٨ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

قال سهل بن عبد الله التستري (١) : أفعال البر يفعلها البر والفاجر .
ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق ، ويوسف صلوات الله وسلامه عليه كان
صديقاً نبياً .

وأما من يظلم بغير اختياره ويصبر فهذا كثير ومن لم يصبر صبر الكرام
سلا سلو البهائم . وكذلك إذا مكن المظلوم وقهر ظالمه فتاب الظالم وخضع
له فعفوه عنه من المحاسن والفضائل ، لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل
الدين وعقلاء الدنيا ، فإن حلم الملوك والولاة أجمع لأمرهم وطاعة الناس
لهم ، وتأليفهم لقلوب الناس .

وكان معاوية من أحلم الناس ، وكان المأمون حليماً حتى كان يقول :
لو علم الناس محبتي في العفو تقربوا إلي بالذنوب ولهذا لما قدر على من
نازعه في الملك - وهو عمه ابراهيم بن المهدي - عفا عنه .

وأما الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله ، لا رجاء لمخلوق ولا خوفاً
منه ، مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة ، واختياره الحبس الطويل على ذلك
كما قال يوسف ﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (٢) فهذا لا يوجد
نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين ، وأوليائه المتقين ، كما قال تعالى
﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ إِنَّ عِبَادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٤) ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلاً

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد ، أحد أئمة التصوف ، وعلمائهم ،
والمتكلمين في علوم الاخلاص ، والرياضيات وعبود الأفعال ، له كتاب في التفسير ، مختصر ،
وكتاب رقائق المحيين وغير ذلك توفي عام ٢٨٣ هـ [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ ، والوفيات
١ : ٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ ، والشعراني ١ : ٦٦ ، والمناوي ١ : ٢٣٧] .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٣ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

بل الهم الذي هم به لما تركه الله كتب له به حسنة ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة واستغفاراً كما ذكر توبة الأنبياء كآدم وداود ونوح وغيرهم وإن لم يذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة والله الحمد . وإنما كانت توباتهم من أمور آخر هي حسنات بالنسبة إلى غيرهم ، ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما ابتلي به من دواعي الفاحشة ، وتقواه وصبره في ذلك وإنما يعرف لغيره ما هو دون ذلك كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) .

وإذا كان الصبر على الأذى لثلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره على ظلم إخوانه ، فكيف يصبر الرسل على أذى المكذبين لثلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ؟

فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله إذ كان الجهاد مقصوداً به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله ، فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال كما قال النبي ﷺ : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » (٢) .

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة - والبخاري في ٨٦ كتاب الحدود ١٩ باب فضل من ترك الفواحش ، ورواه الامام مسلم في ١٢ - كتاب الزكاة ٣٠ باب فضل إخفاء الصدقة حديث ٩١ ورواه الامام مالك في الموطأ ٥ باب ما جاء في المتحايين في الله ١٤ وحدثني عن مالك عن خبيب ابن عبد الرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد الخدري ، أو عن أبي هريرة ، أنه قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٢ باب كف اللسان في الفتنة ٣٩٧٣ - حدثنا محمد بن =

وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه وهو من حديث معاذ بن جبل الطويل - وهو أحب الأعمال إلى الله - فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهى عنه ، وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه في الله ، وجاهد عدو الله الظاهر والباطن ، والمهاجر الصابر على ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه ، ثم يجاهد عدو الله الظاهر لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، وصبر المظلوم صبر المصاب لكن المصاب بمصيبة سماوية تصبر نفسه ما لا تصبر نفس من ظلمه الناس ، فإن ذاك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتياأس نفسه من الدفع والمعاقبة ، وأخذ الثأر بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس ، فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكن دفعه وعقوبته ، وأخذ ثأره منه فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه ، وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصائب السماوية ، ويكون أيضاً لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، وليسلم قلبه من الغل للناس وكلا النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه ، وهو مما يكفر الله به سيئاته ويستغفر ويتوب ، وأيضاً يرى أن ذلك الصبر واجب عليه وأن الجزع مما يعاقب عليه ، وإن ارتقى إلى الرضا رأى أن الرضا جنة الدنيا ومستراح العابدين وباب الله الأعظم ، وأن رأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه ، وقربه إلى الله وتكفير سيئاته وصوته عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله على هذه النعم .

فالمصائب السماوية والأدمية تشترك في هذه الأمور ومعرفة الناس بهذه

= أبي عمر العدني ، ثنا عبد الله بن معاذ عن معمر بن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن معاذ بن جبل ، قال : كنت مع النبي - ﷺ - في سفر - فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت يا رسول الله . أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . قال : لقد سألت عظيمًا وإنه ليسير على من يسره الله عليه وذكره . ورواه الامام الترمذي في كتاب الإيمان ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٨ (حلي) .

الأمور وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به على من يشاء من عباده ، ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تبايناً عظيماً ثم إذا شهد العبد القدر وأن هذا أمر قدره الله وقضاه ، وهو الخالق له ، فهو مع الصبر يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء ، وهذا حال الصابر ، وقد يسلم تسليمه للرب المحسن المدبر له بحسن اختياره الذي لا يقضي للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له كما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ ، وهذا تسليم راضٍ لعلمه بحسن اختيار الله له ، وهذا يورث الشكر ، وقد يسلم تسليمه للرب المحسن إليه المتفضل عليه بنعم عظيمة وإن لم ير هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راضٍ غير شاكر ، وقد يسلم تسليمه لله الذي لا إله إلا هو المستحق لأن يعبد لذاته ، وهو محمود على كل ما يفعله ، فإنه عليم حكيم رحيم ، لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ، وهو مستحق لمحبتة وعبادته وحمده على كل ما خلقه ، فهذا تسليم عبد عابد حامد ، وهذا من الحمادين الذين هم أول من يدعى إلى الجنة ، ومن بينهم صاحب لواء الحمد ، وآدم ، فمن دونه تحت لوائه ، وهذا يكون القضاء خيراً له ونعمة من الله عليه .

لكن يكون حمده لله ، ورضاه بقضائه من حيث عرف الله وأحبه وعبده ، لاستحقاقه الألوهية ، وحده لا شريك له ، فيكون صبره ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة ، وهذا يشهد بقلبه أنه لا إله إلا الله ، والاله عندهم هو المستحق للعبادة بخلاف من لم يشهد إلا مجرد ربوبيته ومشيتته وقدرته ، أو مجرد إحسانه ونعمته ، فإنهما مشهدان ناقصان قاصران ، وإنما يقتصر عليهما من نقص علمه بالله وبدينه الذي بعث به رسله ، وأنزل به كتبه وكأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية ، والقدرية المعتزلة ، فإن الأول مشهد أولئك ، والثاني مشهد هؤلاء ، وشهود ربوبيته وقدرته ومشيتته مع شهود رحمته وإحسانه وفضله ، مع شهود الهيته ومحبتة

ورضاه وحمده ، والثناء عليه ومجده هو مشهد أهل العلم والإيمان من أهل السنة والجماعة التابعين بإحسان للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن هذا يكون للمؤمن في عموم المصائب وما يكون بأفعال المؤمنين فله فيه كظم الغيظ والعفو عن الناس .

ويوسف الصديق صلوات الله عليه كان له هذا ، وأعلى من ذلك الصبر على الفاحشة مع قوة الداعي إليها فهذا الصبر أعظم من ذلك الصبر ، بل وأعظم من الصبر على الطاعة ، ولهذا قال سبحانه في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١) .

فوصفهم بالكرم والحلم ، وبالإِنْفَاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس ، ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة منها فقال :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فوصفهم بالتوبة منها ، وترك الإصرار عليها ، لا بترك ذلك بالكلية ، فإن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح : كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزني وزناها السمع واللسان

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣٣ - ١٣٦ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٥ .

يزني وزناه النطق ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١) .

وفي الحديث « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٢) .

فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة ، وكثير منهم يقع في الكبيرة فيؤمر بالتوبة ، ويؤمرون أن لا يصبروا على صغيرة ، فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار .

ويوسف ﷺ صبر على الذنب مطلقاً ولم يوجد منه إلا هم تركه الله كتب له به حسنة . وقد ذكر طائفة من المفسرين أنه وجد منه بعض المقدمات ، مثل حل السراويل ، والجلوس مجلس الخاتن ، ونحو ذلك ، لكن ليس هذا منقولاً نقلاً يصدق به ، فإن هذا لم ينقل عن النبي ﷺ ، ومثل هذه الاسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي ﷺ لم يعرف صدقها ولهذا لا يجوز تصديقها ، ولا تكذيبها إلا بدليل والله تعالى يقول في القرآن ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ (٣) فدل القرآن على أنه صرف عنه السوء والفحشاء مطلقاً ، ولو كان قد فعل صغيرة لتاب منها ، والقرآن ليس فيه ذكر توبته ، ومن وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء لم يكن ذلك قد صرف عنه ، بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه . والقرآن يدل على خلاف هذا وقد شهدت النسوة له أنهن ما علمن عليه من سوء ، ولو كان قد بدت منه هذه المقدمات لكانت

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١ : ٤١٢ ، ٢ : ٣٤٣ ، ٣٧٢ ، ٤١١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٥ ، ٥٢٦ (حلي)

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٠ باب ذكر التوبة ٤٢٥١ حدثنا أحمد بن منيع ، ثنا زيد ابن الحباب ، ثنا علي بن مسعدة عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .
ورواه الترمذي في كتاب القيامة ٤٩ ، والدارمي في كتاب الرقاق ١٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٩٨ (حلي)

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

المرأة قد رأت ذلك ، وهي من النسوة اللاتي شهدن وقلن ما علمنا عليه من سوء ، وقالت مع ذلك ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ^(١) وقالت ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٢) وقوله « سوء » نكرة في سياق النفي ، فدل ذلك على أن المرأة لم تر منه سوءاً ، فإن الهم في القلب لم تطلع عليه ، ولو اطلعت عليه فإنه إذا تركه الله كان حسنة ، ولو تركه مطلقاً لم يكن حسنة ولا سيئة ، فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو العمل .

وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم ، والواقع فيها من الجانبين ، فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعدته ووعدته ، ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله ، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين . وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه ، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه ، أولئك أولو العزم . الذين خصهم الله بالذكر في قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ^(٤) وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة ، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر ، فقليل له . ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ^(٥) فقصصهم أحسن من قصة يوسف ، ولهذا ثناها الله في القرآن لا سيما قصة موسى . قال الإمام أحمد بن حنبل أحسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى . والمقصود

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٢ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥١ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٧ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

(٥) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥ .

هنا أن قوله « أحسن القصص » قد قيل إنه مصدر ، وقيل : إنه مفعول به ، والقولان متلازمان لكن الصحيح أن القصص مفعول به وإن كان أصله مصدراً ، فقد غلب استعماله في المقصوص كما في لفظ الخبر والنبأ ، والاستعمال يدل على ذلك كما تقدم ذكره ، وقد اعترف بذلك أهل اللغة قال الجوهري ^(١) : وقد قص عليه الخبر قصصاً ، والاسم أيضاً القصص بالفتح ، وضع موضع المصدر ، حتى صار أغلب عليه ، فقوله أحسن القصص كقوله « نخبرك أحسن الخبر ، وننبؤك أحسن النبأ ، ونحدثك أحسن الحديث ولفظ الكلام يراد به مصدر كلمه تكليماً ، ويراد به نفس القول ، فإن القول فيه فعل من القائل هو مسمى المصدر ، والقول ينشأ عن ذلك الفعل ، ولهذا تارة يجعل القول نوعاً من العمل ؛ لأنه حاصل بعمل ، وتارة يجعل قسيماً له ، يقال : القول والعمل ، وكذلك قد يقال في لفظ « القصص » ، و« البيان » ، و« الحديث » و« الخبر » ، ونحو ذلك .

فإذا أريد بالقصص ونحوه المصدر الذي سماه الفعل فهو مستلزم للقول ، والقول تابع ، وإذا أريد به نفس الكلام والقول فهو مستلزم للفعل تابع للفعل ، فالمصادر الجارية على سنن الأفعال يراد بها الفعل كقولك : كلمته تكليماً ، وأخبرته إخباراً ، وأما ما لم يجر على سنن الأفعال يراد بها الفعل كقولك كلمته تكليماً ، وأخبرته إخباراً وأما ما لم يجر على سنن الفعل - مثل الكلام والخبر ونحو ذلك - فإن هذا إذا أطلق أريد به القول ، وكذلك قد يقال في لفظ القصص فإن مصدره القياسي قصاً ، مثل عده عدداً ومده مدداً ، وكذلك قصه قصاً .

وأما قصص فليس هو قياس مصدر المضعف ولم يذكرها على كونه مصدراً إلا قوله ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية [راجع : معجم الأدباء ٢ : ٢٦٩ والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٠٧ ولسان الميزان ١ : ٤٠٠ وإنباه الرواة ١ : ١٩٤ ونزهة الألبا ٤١٨] .

وهذا لا يدل على أنه مصدر ، بل قد يكون اسم مصدر أقيم مقامه ،
كقوله ﴿ وَاللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ^(١) .

وإن جعل مصدر قص الأثر لم يلزم أن يكون مصدر قص الحديث . لأن
الحديث خبر ونبا ، فكان لفظ قصص كلفظ خبر ونبا وكلام .

وأسماء المصادر في باب الكلام تتضمن القول نفسه ، وتدل على فعل
القائل بطريق التضمن واللزوم ، فإنك إذا قلت : الكلام والخبر والحدث
والنبا والقصص ، لم يكن مثل قولك : التكليم والإنباء والإخبار والتحديث ،
ولهذا يقال : إنه منصوب على المفعول به ، واسم المصدر ينتصب على
المصدر كما في قوله ﴿ وَاللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ^(١) فإذا قال : كلمته
كلاماً حسناً وحدثه حديثاً طيباً ، وأخبرته أخباراً سارة ، وقصصت عليه قصصاً
صادقة ، ونحو ذلك كان هذا منصوباً على المفعول به ، لم يكن هذا كقولك
كلمته تكليماً ، وأنبأته انباء ، فتبين أن قوله ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ^(٢) منصوب
على المفعول وكل ما قصه الله فهو أحسن القصص ، ولكن هذا إذا كان
يتضمن معنى المصدر ، ومعنى المفعول به جاز أن ينتصب على المعنيين
جميعاً ، فإنهما متلازمان ، تقول : قلت قولاً حسناً وقد أسمعتة قولاً ، ولم
يسمع الفعل الذي هو مسمى المصدر ، وإنما سمع الصوت .

وتقول : قال يقول قولاً فتجعله مصدراً ، والصوت نفسه ليس هو مسمى
المصدر ، وإنما مسمى المصدر الفعل المستلزم للصوت ، ولكن هما
متلازمان ولهذا تنازع أهل السنة والحديث في التلاوة والقرآن هل هي القرآن
المتلو أم لا ؟

(١) سورة نوح آية رقم ١٧ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن
الغافلين ﴾ .

وقد تظن ابن قتيبة (١) وغيره لما يناسب هذا المعنى وتكلم عليه .

وسبب الاشتباه أن المتلو هو القرآن نفسه الذي هو الكلام والتلاوة قد يراد بها هذا وقد يراد بها نفس حركة التالي وفعله وقد يراد بها الأمران جميعاً .

فمن قال : التلاوة هي المتلو أراد بالتلاوة نفس القرآن المسموع وذلك هو المتلو ومن قال غيره أراد بالتلاوة حركة العبد وفعله ، وتلك ليست هي القرآن ومن نهى عن أن يقال : التلاوة هي المتلو أو غير المتلو ؛ فلأن لفظ التلاوة يجمع الأمرين كما نهى الامام أحمد وغيره عن أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق (٢) ؛ لأن اللفظ يراد به الملفوظ نفسه الذي هو كلام الله ، ويراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً وهو فعل العبد وأطلق قوم من أهل الحديث أن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وأطلق ناس آخرون أن لفظي به مخلوق .

قال ابن قتيبة : لم يتنازع أهل الحديث في شيء من أقوالهم إلا في مسألة اللفظ ، وهذا كان تنازع أهل الحديث والسنة ، الذين كانوا في زمن أحمد بن حنبل ، وأصحابه الذين أدركوه ثم جاء بعد هؤلاء طائفة قالوا : التلاوة غير المتلو ، وأرادوا بالتلاوة نفس كلام الله العربي الذي هو القرآن ، وأرادوا بالمتلو معنى واحداً قائماً بذات الله .

وقال آخرون : التلاوة هي المتلو ، وأرادوا بالتلاوة نفس الأصوات المسموعة من القرآن ، جعلوا ما سمع من الأصوات هو نفس الكلام الذي ليس بمخلوق ، ولم يميزوا بين سماع الكلام من المتكلم ، وبين سماعه من

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - سبق الترجمة له في كلمة وافية - وتوفي عام ٢٧٦ هـ [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ والأنباري ٢٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٦٠] .

(٢) راجع ما كتبه الامام البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) عند حديثه عن هذه الجملة . بتحقيقنا وتعليقنا عليه . طبع دار عكاظ بجدة .

المبلغ له عنه ، فزاد كل من هؤلاء وهؤلاء من البدع ما لم يكن يقوله أحد من أهل السنة والعلم ، فلم يكن من أهل السنة من يقول : إن القرآن العربي ليس هو كلام الله ، ولا يجعل المتلو مجرد معنى ، ولا كان فيهم من يقول : إن أصوات العباد - وغيرها من خصائصهم - غير مخلوق ، بل هم كلهم متفقون على أن القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزل به روح القدس من الله بالحق ، وهو كلام الله الذي تكلم له ، ولكن تنازعوا في تلاوة العباد له هل هي القرآن نفسه ، أم هي الفعل الذي يقرأ به القرآن ؟

والتحقيق أن لفظ « التلاوة » يراد به هذا وهذا ولفظ ﴿ القرآن ﴾ يراد به المصدر ، ويراد به الكلام قال الله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : إن علينا أن نجمله في قلبك ، وتقرأه بلسانك (٢) .

وقال أهل العربية : يقال قرأت الكتاب قراءة وقرآنًا ، ومنه قول حسان (٣) :

ضَحَّوْا بِاشْمَطِ عَنَوَانِ السُّجُودِ بِهِ يقطع الليل تسبيحاً وقرآنًا
وقد قال تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٤) .

(١) سورة القيامة آية رقم ١٧ - ١٩ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التفسير ٢ باب ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس : قرآنه : بيناه ، فاتبع : اعمل به ٤٩٢٩ حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : وذكره .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٨ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ (٢) وهم إنما يستمعون الكلام نفسه ، ولا يستمعون مسمى المصدر الذي هو الفعل ، فإن ذلك لا يسمع فقوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (٣) من هذا الباب ، من باب نقرأ عليك أحسن القصص كما قال تعالى ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس : أي قرأه جبريل ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ فاستمع له حتى يقضي قراءته .

والمشهور في قوله ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ أنه منصوب على المفعول به ، فكذلك أحسن القصص ، لكن في كلاهما معنى المصدر أيضاً كما تقدم ، ففيه معنى المفعول به ، ومعنى المصدر جميعاً ، وقد يغلب هذا كما في قوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٥) .

فالمراد هنا نفس مسمى المصدر ، وقد يغلب هذا تارة كما في قوله ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ (٦) . وقوله ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٧) وقوله ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٨) وغالب ما يذكر لفظ ﴿ القرآن ﴾ إنما يراد به نفس الكلام ، لا

(١) سورة الاسراء آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٤ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ .

(٥) سورة القيامة آية رقم ١٧ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٤ .

(٧) سورة الاسراء آية رقم ٨٨ .

(٨) سورة الاسراء آية رقم ٩ وتكملة الآية ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .

يراد به التكلم بالكلام الذي هو مسمى المصدر .

ومثل هذا كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائماً ، وإما غالباً ، فيطلق الاسم عليهما ويغلب هذا تارة ، وهذا تارة ، وقد يقع على أحدهما مفرداً كلفظ « النهر » و« القرية » و« الميزاب » ونحو ذلك مما فيه حال ومحل فالاسم يتناول مجرى الماء والماء الجاري ، وكذلك لفظ القرية يتناول المساكن والسكان ، ثم تقول : حفر النهر فالمراد به المجرى ، وتقول : جرى النهر فالمراد به الماء ، وتقول جرى الميزاب ، تعني الماء ونصب الميزاب ، تعني الخشب ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ ^(١) والمراد السكان في المكان وقال تعالى ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ ^(٢) وقال تعالى ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ ^(٤) وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ ^(٥) .

وقال تعالى ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ^(٦) وقال تعالى ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ

(١) سورة النحل آية رقم ١١٢ وتكملة الآية ﴿ والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٤ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٨٢ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٥٩ .

(٥) سورة هود آية رقم ١٠٢ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ٩٢ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال : « لتنذر » بدون (الواو) .

مَشِيد ﴿ (١) .

والخاوي على عروشه المكان لا السكان وقال تعالى ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ (٢) لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان إرادتهم أكثر في كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر كقوله ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ (٤) فهذا كثير أكثر من قولهم حفرنا النهر .

وكذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاق على نفس التكلم وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص وسائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم ، وهذه الأمور ليسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن قوله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (٥) المراد الكلام الذي هو أحسن القصص ، وهو عام في كل ما قصه الله لم يخص به سورة يوسف ولهذا قال ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (٦) ولم يقل : بما أوحينا إليك هذه السورة ، والآيات المأثورة في ذلك عن السلف تدل كلها على ذلك وعلى أنهم كانوا يعتقدون أن القرآن أفضل من سائر الكتب ، وهو المراد . والمراد من هذا حاصل على كل تقدير ، فسواء كان أحسن القصص مصدراً ، أو مفعولاً أو جامعاً للأمرين فهو يدل على أن القرآن وما في القرآن من القصص أحسن من غيره ، فإننا قد ذكرنا أنهم متلازمان فأيهما كان

(١) سورة الحج آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٩ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٣٣ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ .

أحسن كان الآخر أحسن ، فتبين أن قوله تعالى ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ^(١) كقوله ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ^(٢) ، والآثار السلفية تدل على ذلك .

والسلف كانوا مقرين بأن القرآن أحسن الحديث وأحسن القصص ، كما أنه المهيمن على ما بين يديه من كتب السماء ، فكيف يقال : إن كلام الله كله لا فضل لبعضه على بعض .

روى ابن أبي حاتم عن المسعودي عن القاسم أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله ، فأنزل الله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ^(٣) .

ثم ملوا ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله ، فنزلت ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ^(٤) .

ثم ملوا ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله ، فأنزل الله ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ^(٥) .

وقد روى أبو عبيد ^(٦) من « فضائل القرآن » عن بعض التابعين فقال : حدثنا حجاج عن المسعودي عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا : يا رسول الله : حدثنا ، فأنزل الله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ

(١) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٣ وتكملة الآية ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٥) سورة الحديد آية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

(٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الأجزاء السابقة .

أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴿١﴾ .

قال: ثم نعتة فقال: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٢) إلى آخر الآية ، قال ، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : يا رسول الله ، حدثنا شيئاً فوق الحديث ، ودون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله : ﴿الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ - إِلَى قَوْلِهِ - نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٣) قال : فإن أرادوا الحديث دلهم على أحسن الحديث ، وإن أرادوا القصص دلهم على أحسن القصص .

ورواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن مرفوعاً عن مصعب بن سعد عن سعد بن سعد قال : نزل على رسول الله ﷺ القرآن ، فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فأنزل الله تعالى ﴿الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فتلاه عليهم زماناً ولما كان القرآن أحسن الكلام نهوا عن اتباع ما سواه ، قال تعالى ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ (٤) وروى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى بيد عمر ابن الخطاب شيئاً من التوراة فقال : لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم (٥)

وفي رواية ما وسعه إلا اتباعي .

وفي لفظ : فتغير وجه النبي ﷺ لما عرض عليه عمر ذلك ، فقال له بعض الأنصار يا بن الخطاب ، ألا ترى إلى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ولهذا كان الصحابة ينهون عن

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٥١ .

(٥) سبق تخريج هذا الحديث .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١ - ٣ .

اتباع كتب غير القرآن .

وعمر انتفع بهذا حتى إنه لما فتحت الاسكندرية وجد فيها كتب كثيرة من كتب الروم فكتبوا فيها إلى عمر ، فأمر بها أن تحرق ، وقال : حسبنا كتاب الله .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا اسماعيل بن خليل بن قيس عن خالد بن عرفطة قال : كنت عند عمر بن الخطاب ، إذ أتني برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس ، فقال له عمر : أنت فلان ابن فلان العبدى ؟

قال : نعم ، قال وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم ، فضربه بقناة معه ، فقال له : ما ذنبى قال : فقرأ عليه ﴿ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ ^(١) فقرأها عليه ثلاث مرات وضربه ثلاث ضربات ثم قال له عمر : أنت الذي انتسخت كتاب دانيال قال : نعم ، قال : اذهب فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ولا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس فقرأ عليه عمر هذه الآية ليبين له أن القرآن أحسن القصص فلا يحتاج معه إلى غيره ، وهذا يدل على أن القصص عام لا يختص بسورة يوسف ويدل على أنهم كانوا يعلمون أن القرآن أفضل من كتاب دانيال ونحوه من كتب الأنبياء ، وكذلك مثل هذه القصة مأثورة عن ابن مسعود لما أتى بما كتب من الكتب محاه ، وذكر فضيلة القرآن كما فعل عمر رضي الله عنهما .

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ^(٢) قال : من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ ^(٣)

(١) سورة يوسف آية رقم ١ - ٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣ .

وهذا يدل على أن أحسن القصص نعم هذا كله بل لفظ ﴿ القصص ﴾ يتناول ما قصه الأنبياء من آيات الله غير أخبار الأمم كقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ ^(١). وقال في موضع آخر ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم ﴾ ^(٢) وقد قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ ^(٣).

وروي ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن ابن عباس قال : مؤتمناً عليه ، قال :

وروي عن عكرمة والحسن وسعيد بن جبير ^(٤) وعطاء الخراساني أنه الأمين .

وروي عن تفسير الوالي عن ابن عباس قال : المهيمن الأمين ، قال : على كل كتاب قبله وكذلك عن الحسن قال : مصدقاً بهذه الكتب وأميناً عليها .

ومن تفسير الوالي أيضاً عن ابن عباس ومهيمناً عليه ، على كل كتاب قبله .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٨٠ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٧١ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٤٨ وتكملة الآية ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ .

(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي أبو عبد الله تابعي ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر ثم كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألوني وفيكم ابن أم دهماء ؟... ؟ توفي عام ٩٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٠٤ وطبقات ابن سعد ٦ : ١٧٨ وتهذيب التهذيب ٤ : ١١ وحلية الأولياء ٤ : ٢٧٢] .

قال : وروي عن سعيد بن جبير وعكرمة وعطية وعطاء الخراساني ومحمد بن كعب وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك :

وابن أبي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير أنه طلب منه إخراج تفسير القرآن مختصراً بأصح الأسانيد ، وأنه تحرى إخراجَه بأصح الأخبار اسناداً ، وأشبعها متناً .

وذكر إسناده عن كل من نقل عنه شيئاً .

فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة ، ومن أسماء الله « المهيمن » ويسمى الحاكم على الناس القائم بأمرهم « المهيمن » قال المبرد ^(١) والجوهري ^(٢) وغيرهما : المهيمن في اللغة المؤتمن ، وقال الخليل ^(٣) : الرقيب الحافظ .

وقال الخطابي ^(٤) : المهيمن الشهيد .

قال : وقال بعض أهل اللغة : الهيمنة القيام على الشيء والرعاية له ، وأنشد :

ألا إن خير الناس بعد نبيهم مهيمنه التالية في العرف والنكر
يريد القائم على الناس بالرعاية لهم ، وفي مهيمن قولان : قيل : أصله مؤيمن ، والهاء مبدلة من الهمزة ، وقيل : بل الهاء أصلية .

وهكذا القرآن فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً وبين الأدلة والبراهين على ذلك ، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

الرسول كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسول بأنواع الحجج والبراهين ، وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها ، وبين ما حُرف منها وبُدل ، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة . وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها ، وشاهد بكذب ما حُرف منها ، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه ، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأموريات .

وكذلك معنى الشهادة ، والحكم ، يتضمن إثبات ما أثبتته الله من صدق ومحكم ، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة بل هي متبعة لشرعية التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل ، بخلاف القرآن ، ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته .

وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به وفيه أيضاً : من ضرب الأمثال ، وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن ، ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرين في أصول الدين والعلوم الإلهية ، وأمر المعاد والنبوات والأخلاق . والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمفلسة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن .

ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر فضلاً عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره ، سواء كان من علم المحدثين والملهمين أو من علم أرباب النظر والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « إنه كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر » ^(١) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي =

فعلق ذلك تعليقاً في أمته مع جزمه به فيمن تقدم ، لأن الأمم قبلنا كانوا محتاجين إلى المحدثين ، كما كانوا محتاجين إلى نبي بعد نبي ، وأما أمة محمد ﷺ فأغناهم الله برسولهم وكتابتهم عن كل ما سواه ، حتى أن المحدث منهم كعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما يؤخذ منه ما وافق الكتاب والسنة ، وإذا حدث شيئاً في قلبه لم يكن له أن يقبله حتى يعرضه على الكتاب والسنة ، وكذلك لا يقبله إلا إن وافق الكتاب والسنة ، وهذا باب واسع في فضائل القرآن على ما سواه .

والمقصود أن نبين أن مثل هذا هو من العلم المستقر في نفوس الأمة السابقين والتابعين ، ولم يعرف قط أحد من السلف رد مثل هذا ، ولا قال : لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، فإنه كله من صفات الله ونحو ذلك . إنه حدث هذا الإنكار لما ظهرت بدع الجهمية الذين اختلفوا في الكتاب وجعلوه عظيم .

وممن ذكر تفضيل بعض القرآن على بعض في نفس أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما كالشيخ أبي حامد الاسفرائيني ^(١) والقاضي أبي الطيب ^(٢) وأبي اسحاق الشيرازي ^(٣) وغيرهم ، ومثل القاضي أبي يعلى والحلواني الكبير وابنه عبد الرحمن وابن عقيل ^(٤) ، قال أبو الوفاء بن عقيل في « كتاب الواضح في أصول الفقه » في احتجاجه على أن القرآن لا ينسخ بالسنة قال :

= حفص القرشي - العدوي - رضي الله عنه .

٣٦٨٩ - حدثنا يحيى بن قزعة ، حدثنا ابراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ - لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية . (٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية . (٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

فمن ذلك قوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (١) وليست السنة مثل القرآن ولا خيراً منه ، فبطل النسخ بها ، لأنه يؤدي إلى المحال ، وهو كون خبره بخلاف مخبره ، وذلك محال على الله ، فما أدى إليه فهو محال قال : فإن قيل : أصل استدلالكم مبني على أن المراد بالخير الفضل ، وليس المراد به ذلك ، وإنما المراد نأت بخير منها لكم ، وذلك يرجع إلى أحد أمرين في حقنا ، إما سهولة في التكليف فهو خير عاجل أو أكثر ثواباً لكونه أثقل وأشق ، ويكون نفعاً في الآجل ، والعاقبة ، وكلاهما قد يتحقق بطريق السنة ويحتمل : نأت بخير منها لا ناسخاً لها ، بل يكون تكليفاً مبتدأ هو خير لكم ، وإن لم يكن طريقه القرآن الناسخ ، ولا السنة الناسخة ، قالوا : يوضح هذه التأويلات أن القرآن نفسه ليس بعضه خيراً من بعض ، فلا بد أن يصرفوا اللفظ عن ظاهره من خير يعود إلى التكليف لا إلى الطريق .

وقالوا في الجواب : قولهم : الخير يرجع إلى ما يخصنا من سهولة ، أو ثواب لا يصح لأنه لو أراد ذلك لقال : « لكم » فلما حذف ذلك دل على ما يقتضيه الإطلاق وهو كون الناسخ خيراً من جهة نفسه وذاته ، ومن جهة الانتفاع به في العاجل والآجل على أن ظاهره يقتضي بآيات خير منها ، فإن ذلك يعود إلى الجنس ، كما إذا قال القائل : ما آخذ منك ديناراً إلا أعطيك خيراً منه ، لا يعقل بالإطلاق إلا ديناراً خيراً منه ، فيتخير من الجنس أولاً ، ثم النفع ، فأما أن يرجع ذلك إلى ثوب أو عرض غير الدينار فلا ، وفي آخر الآية ما يشهد بأنه أراد به القرآن لأنه قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ووصفه لنفسه بالقدرة يدل على أن الذي يأتي به هو أمر يرجع إليه دون غيره وكذلك قوله ﴿ أَوْ مِثْلَهَا ﴾ يشهد لما ذكرناه ، لأن المماثلة يقتضي إطلاقها من كل وجه ، لا سيما وقد أثبتنا تأنيث الآية ، فكأنه قال : نأت بآية خير منها أو بآية مثلها (٣) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ وصدر الآية ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ .

(٣) هكذا جاءت في الأصل على هذا التأويل والتخريج .

« قلت » وأيضاً فلا يجوز أن يراد بالخير من جهة كونه أخف عملاً أو أشق وأكثر ثواباً ، لأن هذين الوصفين ثابتان لكل ما أمر الله به مبتدأ وناسخاً ، فإنه إما أن يكون أيسر من غيره في الدنيا ، وإما أن يكون أشق فيكون ثوابه أكثر فإذا كانت هذه الصفة لازمة لجميع الأحكام لم يحسن أن يقال : ما ننسخ من حكم نأت بخير منه أو مثله ، فإن المنسوخ أيضاً يكون خيراً ومثلاً بهذا الاعتبار ، فإنهم إن فسروا الخير بكونه أسهل فقد يكون المنسوخ أسهل فيكون خيراً ، وإن فسروه بكونه أعظم أجراً لمشتقته فقد يكون المنسوخ كذلك ، والله قد أخبر أنه لا بد أن يأتي بخير مما ينسخه أو مثله ، فلا يأتي بما هو دونه .

وأيضاً فعلى ما قالوه لا يكون شيء خيراً من شيء بل إن كان خيراً من جهة السهولة فذلك خير من جهة كثرة الأجر .

قال ابن عقيل : وأما قولهم إن القرآن في نفسه لا يتخاير ولا يتفاضل فعلم أنه لم يرد به الخير الذي هو الأفضلية ، فليس كذلك ، فإن توحيد الله الذي في « سورة الإخلاص » وما ضمنها من نفي التجزي والانقسام أفضل من ﴿ تبت ﴾ المتضمنة ذم أبي لهب وذم زوجته ، إن شئت في كون المدح أفضل من القدح وإن شئت في الإعجاز ، فإن تلاوة غيرها من الآيات التي تظهر منها الفصاحة والبيان أفضل ، وليس من حيث كان المتكلم واحداً لا يكون التفاضل لمعنى يعود إلى الكلام ثانياً كما أن المرسل واحد لذى النون وإبراهيم وإبراهيم أفضل من ذي النون .

قال : وأما قولهم ﴿ نأت بخير منها ﴾ ^(١) لا يكون ناسخاً ، بل مبتدأ فلا يصح ؛ لأنه خرج مخرج الجزاء مجزوماً ، وهذا يعطي البدلية والمقابلة مثل قولهم : إن تكرمني أكرمك ، وإن أطعني أطعك ، يقتضي أن يكون الجزاء مقابلة وبدلاً لا فعلاً مبتدأ .

قلت : المقصود هنا ذكر ما نصره - من كون القرآن في نفسه بعضه خيراً

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

من بعض - ليس المقصود الكلام في مسألة النسخ ، وكذلك غير هؤلاء صرحوا بأن بعض القرآن قد يكون خيراً من بعض وممن ذكر ذلك أبو حامد الغزالي في كتابه « جواهر القرآن » قال : لعلك تقول : قد توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض ، والكل كلام الله ، فكيف يفارق بعضها بعضاً ، وكيف يكون بعضها أشرف من بعض ؟ فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي ، وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص ، وسورة تبت ، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الخوارة المستغرقة في التقليد فقلد صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ، فهو الذي أنزل عليه القرآن ، وقال : « قلب القرآن يس » وقد دلت الأخبار على شرفه بعضه على بعض فقال : « فاتحة الكتاب أفضل سور القرآن » .

وقال : « آية الكرسي سيدة آي القرآن » وقال « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن والأخبار الواردة في فضائل قوارع القرآن وتخصص بعض السور والآيات بالفضل ، وكثرة الثواب في تلاوتها لا تحصى ، فاطلبه من كتب الحديث إن أردت ، وننبهك الآن على معنى هذه الأخبار الأربعة في تفضيل هذه السور .

قلت : وسنذكر إن شاء الله ما ذكره في تفضيل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وممن ذكر كلام الناس في ذلك ، وحكى هذا القول عمن حكاه من السلف القاضي عياض^(١) في « شرح مسلم » قال في قول النبي ﷺ لأبي : أتدري أي آية من كتاب الله أعظم ؟

وذكر آية الكرسي : فيه حجة لتفضيل بعض القرآن على بعض ،

(١) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصي السبي أبو الفضل توفي عام ٥٤٤ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢ وقصة الأندلس ١٠١ والفهرس التمهيدي ٣٦٨ وبغية الملتبس ٤٢٥ ومفتاح السعادة ٢ : ١٩] .

وتفضيل القرآن على سائر كتب الله عند من اختاره ، منهم اسحاق بن راهويه ^(١) وغيره من العلماء والمتكلمين ، قال : وذلك راجع إلى عظم أجر قارئ ذلك وجزيل ثوابه على بعضه أكثر من سائرته قال : وهذا مما اختلف أهل العلم فيه ، فأبى ذلك الأشعري ، وابن ^(٢) الباقلاني وجماعة من الفقهاء وأهل العلم لأن مقتضى الأفضل نقص المفضول عنه ، وكلام الله لا يتبعض قالوا : وما ورد من ذلك بقوله ، أفضل وأعظم لبعض الأي والسور ، فمعناه : عظيم وفاضل قال : وقيل : كانت آية الكرسي أعظم لأنها جمعت أصول الأسماء والصفات من الالهية والحياة والوحدانية والعلم والملك والقدرة والارادة ، وهذه السبعة ، قالوا : هي أصول الأسماء والصفات قلت : المقصود ما ذكره من كلام العلماء ، وأما قول القائل إن هذه السبعة هي أصول الأسماء فهذه السبعة عند كثير من المتكلمين هي المعروفة بالعقل وما سواها قالوا إنما يعلم بالسمع ، وهذا أمر يرجع إلى طريق علمنا لا إلى أمر حقيقي ثابت لها في نفس الأمر ، فكيف والجمهور على أن ما سواها قد يعلم بالعقل أيضاً كالمحبة والرضا ، والأمر والنهي ؟!

ومذهب ابن كلاب ، وأكثر قدماء الصنفات أن العلو من الصفات العقلية ، وهو مذهب أبي العباس القلانسي ^(٣) ، والحارث المحاسبي ^(٤) ،

(١) هو اسحاق بن ابراهيم بن غلغل الحنظلي التميمي المروزي ، أبو يعقوب بن راهويه ولد عام ١٦١ هـ وتوفي عام ٢٣٨ هـ سبق الترجمة له . [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥] .

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، أبو بكر : قاض من كبار علماء الكلام توفي عام ٤٠٣ هـ سبق الترجمة له . [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ - ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٢٩٤] .

(٣) هو محمد بن الحسين بن بندار القلانسي الواسطي : مقرر العراق في عصره ولد عام ٤٣٥ هـ وتوفي عام ٥٢١ هـ بواسط من كتبه : إرشاد المبتدي ، وتذكرة المنتهي - ورسالة في القراءات ، والكفاية الكبرى في القراءات . [راجع غاية النهاية ٢ : ١٢٨ والوافي بالوفيات ٣ : ٤] .

(٤) هو الحارث بن أسد المحاسبي ، أبو عبد الله ، من أكابر الصوفية كان عالماً بالأصول والمعاملات ، واعظاً مبكياً وله تصانيف توفي عام ٣٤٣ هـ سبق الترجمة له . [وراجع طبقات

ومذهب طوائف من أهل الكلام والحديث والفقه . وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى ، وأبي الحسن بن الزاغوني وغيره ، ومذهب ابن كرام وأصحابه ، وهو قول عامة أئمة الحديث والفقه والتصوف .

وكذلك ما فسرہ القاضي عياض من قول المفضلين إن المراد كثير الثواب ، فهذا لا ينازع فيه الأشعري وابن الباقلاني ، فإن الثواب مخلوق من مخلوقات الله تعالى فلا ينازع أحد من أن بعضه أفضل من بعض ، وإنما النزاع في نفس كلام الله الذي هو كلامه ، فحكايته النزاع يناقض ما فسر به قول المثبتة ، وقد بين مأخذ الممتنعين عن التفضيل :

منهم من نفى التفاضل في الصفات مطلقاً ، بناء على أن القديم لا يتفاضل ، والقرآن من الصفات ومنهم من خص القرآن بأنه واحد على أصله ، فلا يعقل فيه معنيين فضلاً أن يعقل فيه فاضل ومفضول وهذا أصل أبي الحسن^(١) ، ومن وافقه كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وهؤلاء الذين ذكرنا أقوالهم في أن كلام الله يكون بعضه أفضل من بعض ، ليس فيهم أحد من القائلين بأن كلام الله مخلوق - كما يقول ذلك من يقوله من أهل البدع كالجهمية والمعتزلة - بل كل هؤلاء يقولون : إن كلام الله غير مخلوق ، ولو تتبع ذكر من قال ذلك لكثروا ، فإن هذا قول جماهير

= الصوفية ، وتهذيب التهذيب ٢ : ١٣٤ وابن الوردي ١ : ٢٢٧ وصفة الصفوة ٢ : ٢٠٧ وميزان الاعتدال ١ : ١٩٩ وحلية الأولياء ١٠ : ٧٣]

(١) هو علي بن اسماعيل بن إسحاق ، أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ، ولد في البصرة عام ٢٦٠ هـ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ، ثم رجع وجاهر بخلافهم ، وتوفي ببغداد عام ٣٢٤ هـ من مصنفاته : « مقالات الإسلاميين » و « الإبانة عن أصول الديانة » ومقالات الملحدين وغير ذلك كثير . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧ ودوائر المعارف الإسلامية ٢ : ٢١٨] .

المسلمين من السلف والخلف ، أهل السنة وأهل البدعة ، أما السلف - كالصحابه والتابعين لهم بإحسان - فلم يعرف لهم في هذا الأصل تنازع ، بل الآثار متواترة عنهم به واشتهر القول بإنكار تفاضله بعد المائتين لما أظهرت الجهمية القول بأن القرآن مخلوق واتفق أئمة السنة ، وجماهير الأمة على إنكار ذلك ، وردة عليهم ، وظنت طائفة كثيرة - مثل أبي محمد بن كلاب ^(١) ومن وافقه - أن هذا القول لا يمكن رده ، إلا إذا قيل إن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا كلم موسى حين أتاه ولا قال للملائكة اسجدوا لآدم ^(٢) بعد أن خلقه ، ولا يغضب على أحد بعد أن يكفر به ولا يرضى عنه بعد أن يطيعه ، ولا يحبه بعد أن يتقرب إليه بالنوافل ^(٣) ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام ، فتكون كلماته لا نهاية لها ، إلى غير ذلك مما ظنوا انتفاءه عن الله ، وقالوا إنما يمكن مخالفة هؤلاء إذا قيل بأن القرآن وغيره من الكلام لازم لذات الله تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم بكل كلام له كقوله : يا آدم ^(٤) ، يا نوح ^(٥) ، وصاروا طائفتين طائفة تقول : إنه معنى واحد قائم بذاته وطائفة تقول : إنه حروف أو حروف وأصوات مقترن بعضها ببعض أزلاً وأبداً ، وإن كانت مترتبة في ترتباً ذاتياً لا ترتباً وجودياً كما قد بين مقالات الناس في كلام الله في غير هذا الموضع ، والأولون عندهم كلام الله شيء واحد لا بعض له ، فضلاً عن أن يقال : بعضه أفضل من بعض ، والآخرون يقولون هو قديم لازم لذاته ، والقديم لا يتفاضل وربما نقل عن بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليها في الجزء الأول .

(٢) يقصد قول الله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أب واستكبر وكان من الكافرين ﴾ سورة البقرة آية رقم ٣٤ .

(٣) يقصد الحديث القدسي : ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحبته . الخ .

(٤) وهي كثيرة منها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

(٥) وهي كثيرة في القرآن منها في سورة هود : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن

مِنْهَا ﴿١﴾ أَنَّهُ قَالَ : خَيْرَ لَكُمْ مِنْهَا أَوْ أَنْفَعَ لَكُمْ ، فَيُظَنُّ الظَّانُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَائِلُ مُوَافِقٌ لِهَؤُلَاءِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ مَقْصُودُهُ بَيَانُ وَجْهِ كَوْنِهِ خَيْرًا ، وَهُوَ أَنَّ يَكُونُ أَنْفَعًا لِلْعِبَادِ ، فَإِنْ مَا كَانَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَلَامِ نَفْعًا لِلْعِبَادِ كَانَ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ ، كَمَا بَيَّنَّ فِي مَوْضِعِهِ وَصَارَ مِنْ سَلَكِ مَسَلِكِ الْكَلَابِيَّةِ مِنْ مَتَأَخَّرِي أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْقَوْلَ بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ إِنَّمَا يُمْكِنُ عَلَى قَوْلِ الْمَعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ مَخْلُوقٌ ، فَإِنَّ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ يَرَوْنَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ ، فَضْلَ مَخْلُوقٍ عَلَى مَخْلُوقٍ ، وَتَفْضِيلَ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى بَعْضٍ لَا يَنْكَرُهُ أَحَدٌ ، فَإِذَا ظَنَّ أُولَئِكَ أَنَّ الْقَوْلَ بِتَفْضِيلِ بَعْضِ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى بَعْضٍ مُسْتَلْزِمٌ لَكَوْنِ الْقُرْآنِ مَخْلُوقًا ، فَارَوْا مِنْ ذَلِكَ وَأَنْكِرُوا الْقَوْلَ بِهِ لِأَجْلِ مَا ظَنُّوهُ مِنَ التَّلَازُمِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوهُ ، بَلْ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَجُمْهُورُهَا يَقُولُونَ : إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَكَذَلِكَ سَائِرُ كَلَامِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ : إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَأَثَارُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ يَعْرِفُ فِي ذَلِكَ عَنْهُمْ وَحَدَّثَنَا أَبِي عَنْ جَدِّنَا أَبِي الْبَرَكَاتِ (٢) وَصَاحِبِهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَنَّهُمَا نَظَرَا فِيمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٣) وَأَظْنَهُ كَانَ نَظَرُهُمْ فِي تَفْسِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ تَيْمِيَّةَ (٤) فَلَمَّا رَأَى تِلْكَ الْأَقْوَالَ قَالَا :

= معك وأمم ستمتعهم ثم يمسه منا عذاب أليم ﴿

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الأول فليرجع إليها .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٤) هو محمد بن الحضر بن علي بن تيمية الحراني الحنبلي أبو عبد الله ، فخر الدين مفسر وخطيب ، واعظ كان شيخ حران وخطيبها ، مولده ووفاته فيها من كتبه « التفسير الكبير عدة مجلدات ، وتخليص المطلب في تلخيص المذهب فقه ، وترغيب القاصد فقه ، وبلغة الساعب فقه ، وشرح الهداية وغير ذلك توفي عام ٦٢٢ هـ [راجع الوافي بالوفيات ٣ : ٣٧] .

هذا إنما يجيء على قول المعتزلة ، وزار مرة أبو عبد الله بن عبد الوهاب ^(١) هذا لشيخنا أبي زكريا بن الصيرفي ^(٢) وكان مريضاً ، فدعا أبو زكريا بدعاء مأثور عن الإمام أحمد يقول فيه : أسألك - بقدرتك التي قدرت بها أن تقول للسماوات والأرض ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ^(٣) - أن تفعل بنا كذا وكذا ، فلما خرج الناس من عنده قال له : ما هذا الدعاء الذي دعوت به ؟ هذا إنما يجيء على قول المعتزلة الذين يقولون القرآن مخلوق ، فأما أهل السنة فلا يقال عندهم قدر أن يتكلم ، أو يقول ، فإن كلامه قديم ، لازم لذاته ، لا يتعلق بمشيئته وقدرته .

وكان أبو عبد الله بن عبد الوهاب رحمه الله قد تلقى هذا عن البحوث التي يذكرها أبو الحسن بن الزاغوني ^(٤) وأمثاله ، وقبله أبو الوفاء بن عقيل ^(٥) وأمثاله وقبلهما القاضي أبو يعلى ^(٦) ونحوه ، فإن هؤلاء وأمثالهم من أصحاب مالك والشافعي - كأبي الوليد الباجي ^(٧) وأبي المعالي الجويني ^(٨) ، وطائفة

(١) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

(٢) هو يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح بن رافع الحراني ، أبو زكريا ، جمال الدين الحبيشي ، ويعرف أيضاً بابن الصيرفي ، فقيه حنبلي ، إمام ، ولد بخران وسافر الى الموصل وبغداد سنة ٦٠٧ هـ ثم استقر بدمشق ، وتوفي بها قال ابن الفخر : أفتى ببغداد ، وحران ، ودمشق ، وله مناقب منها قول الحق ، وإنكار المنكر على أي كان ، وقال الذهبي ، كانت له حلقة بجامع دمشق ، وتخرج به جماعة له مصنفات منها « عقوبات الجرائم » ونوادر المذهب ، وانتهاز القرض فيمن أفتى بالرخص » توفي عام ٦٧٨ هـ . [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ٢٩٥ - ٢٩٧ وشذرات ٥ : ٣٦٣] .

(٣) سورة فصلت آية رقم ١١ .

(٤) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني ، مؤرخ فقيه توفي عام ٥٢٧ هـ . سبق الترجمة له .

(٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٧) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٨) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

من أصحاب أبي حنيفة يوافقون ابن كلاب على قوله : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وعلى قوله : إن القرآن لازم لذات الله بل يظنون أن هذا قول السلف - قول أحمد بن حنبل ومالك والشافعي وسائر السلف - الذين يقولون القرآن غير مخلوق ، حتى إن من سلك مسلك السليمانية ^(١) من هؤلاء - كالقاضي وابن عقيل ، وابن الزاغوني يصرحون بأن مذهب أحمد أن القرآن قديم ، وأنه حروف وأصوات ، وأحمد بن حنبل وغيره من الأئمة الأربعة لم يقولوا هذا قط ، ولا تناظروا عليه ، ولكنهم وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة لم يعرفوا أقوالهم في بعض المسائل ولكن الذين ظنوا أن قول ابن كلاب وأتباعه هو مذهب السلف ومن أن القرآن غير مخلوق هم الذين صاروا يقولون : إن كلام الله بعضه أفضل إنما يجيء على قول أهل البدع الجهمية والمعتزلة ، كما صار يقول ذلك طوائف من أتباع الأئمة كما سنذكره من أقوال بعض أصحاب مالك والشافعي ولم يعلموا أن السلف لم يقل أحد منهم بهذا ، بل أنكروا على ابن كلاب هذا الأصل ، وأمر أحمد بن حنبل وغيره بهجر الكلابية على هذا الأصل ، حتى هجر الحارث المحاسبي ^(٢) لأنه كان صاحب ابن كلاب ، وكان قد وافقه على هذا الأصل ، ثم روى عنه أنه رجع عن ذلك ، وكان أحمد يحذر من الكلابية ، وكان قد وقع بين أبي بكر بن خزيمة ^(٣) الملقب بإمام الأئمة ، وبين بعض أصحابه مشاجرة على هذا

(١) هم أتباع سليمان بن جرير الزيدي الذي قال : إن الإمامة شورى وإنها تتعقد بعقد رجلين من خيار الأمة ، وأجاز إمامة المفضول ، وأثبت إمامة أبي بكر وعمر ، وكفر سليمان بن جرير عثمان بالأحداث التي نقمها الناقمون منه ، وأهل السنة يكفرون سليمان بن جرير من أجل أنه كفر عثمان - رضي الله عنه . [انظر عن هذه الفرقة مقالات الاسلاميين ١ : ١٣٥ والتبصير ١٧ والملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٩ والفرق بين الفرق ٣٢] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

(٣) هو محمد بن اسحاق بن خزيمة السلمي ، أبو بكر ، إمام نيسابور في عصره كان فقيهاً مجتهداً عالماً بالحديث مولده عام ٢٢٣ هـ بنيسابور ، رحل الى العراق ، والشام ، والجزيرة ، ومصر ، ولقبه السبكي : بإمام الأئمة تزيد مصنفاته على ١٤٠ منها كتاب التوحيد ، وإثبات صفات الرب توفي عام ٣١١ هـ [راجع طبقات السبكي ٢ : ١٣٠ وطبقات الحفاظ للسيوطي] .

الأصل ، لأنهم كانوا يقولون بقول ابن كلاب ، وقد ذكر قصتهم الحاكم أبو عبد الله النيسابوري ^(١) في « تاريخ نيسابور » وبسط الكلام على هذا الأصل له موضع آخر ، وإنما نبهنا على المآخذ التي تعرف بها حقائق الأقوال .

(١) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعم الضبي ، الشهير بالحاكم ويعرف بابن البيع ، أبو عبد الله من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين ولد عام ٣٢١ هـ توفي عام ٤٠٥ هـ بنيسابور ، رحل الى العراق سنة ٣٤١ هـ وحج ، وجال في بلاد خراسان وما وراء النهر ، وأخذ من نحو ألفي شيخ ، وولي قضاء نيسابور سنة ٣٥٩ هـ ثم قلد قضاء جرجان من كتبه : المستدرک علی الصحيحين ، والاكيل ، والمدخل ، والصحيح في الحديث وغير ذلك كثير . [راجع طبقات السبكي ٣ : ٦٤ والوفيات ١ : ٤٨٤ وميزان الاعتدال ٣ : ٨٥ ولسان الميزان ٥ : ٢٣٢] .

فصل

وبالجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية ،
والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات
الظاهرة المشهورة . وأيضاً فإن القرآن ، وإن كان كله كلام الله ، وكذلك
التوراة والإنجيل والأحاديث الالهية التي يحكيها الرسول عن الله تبارك وتعالى
كقوله « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا
تظالموا » (١) الحديث .

وكقوله « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » (٢) وأمثال ذلك ، هي
وإن اشتركت في كونها كلام الله ، فمعلوم أن الكلام له نسبتان ، نسبة إلى
المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار
نفسه أيضاً ، مثل الكلام الخبري له نسبتان ، نسبة إلى المتكلم المحبّر ،

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٥ : ١٦٠ حدثني أبي ثنا عبد الرحمن ، وعبد الصمد المعني
قالا ، ثنا همام عن قتادة قال عبد الصمد ثنا قتادة عن أبي قلابة عن أبي أسهاء ، وقال عبد
الصمد الرجبي عن أبي ذر عن النبي - ﷺ - وذكره .

وذكره الإمام مسلم في كتاب البر ٥٥ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في الذكر ٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ورواه الإمام البخاري في كتاب
التوحيد ١٥ ، ٤٣ ، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات ١٣١ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الأدب
٥٨ باب فضل العمل ٣٨٢٢ - عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول
الله - ﷺ - يقول الله سبحانه ، وذكره .

ورواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥١ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٤ (حلي)

ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه . ف ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(١) و ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ^(٢) كلاهما كلام الله ، وهما مشتركان من هذه الجهة ، لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه ، وصفته التي يصف بها نفسه ، وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه ، وهذه كلام الله الذي يتكلم به عن بعض خلقه ، ويخبر به عنه ويصف به حاله ، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين .

ألا ترى أن المخلوق يتكلم بكلام هو كله بكلامه ، لكن كلامه الذي يذكر به ربه أعظم من كلامه الذي يذكر به بعض المخلوقات ، والجميع كلامه ؟

فاشترك الكلامين بالنسبة إلى المتكلم لا يمنع تفاضلهما بالنسبة إلى المتكلم فيه ، سواء كانت النسبتان أو إحداهما توجب التفصيل أو لا توجبه ، فكلام الأنبياء ثم العلماء ، والخطباء ، والشعراء بعضه أفضل من بعض وإن كان المتكلم واحداً ، وكذلك كلام الملائكة والجن سواء أريد بالكلام المعاني فقط أو الألفاظ فقط أو كلاهما ، أو كل منهما ، فلا ريب في تفاضل الألفاظ والمعاني من المتكلم الواحد ، فدل ذلك على أن مجرد اتفاق الكلامين في أن المتكلم بهما واحد لا يوجب تماثلهما من سائر الجهات .

فتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه سواء كان خبراً أو إنشاءً ، أمر معلوم بالفطرة والشرعية فليس الخبر المتضمن للحمد لله ، والثناء عليه بأسمائه الحسنی كالخبر المتضمن لذكر أبي لهب وفرعون وإبليس ، وإن كان هذا كلاماً عظيماً معظماً تكلم الله به وكذلك ليس الأمر بالتوحيد والإيمان بالله ورسوله وغير ذلك من أصول الدين الذي أمرت به الشرائع كلها ، وغير ذلك

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ .

(٢) سورة المسد آية رقم ١ .

مما يتضمن الأمر بالمأمورات العظيمة ، والنهي عن الشرك ، وقتل النفس والزنا ، ونحو ذلك مما حرّمته الشرائع كلها وما يحصل معه فساد عظيم كالأمر ببلع الأصابع وإماطة الأذى عن اللقمة الساقطة ، والنهي عن القُرآن في التمر ، ولو كان الأمران واجبين فليس الأمر بالإيمان بالله ورسوله كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، والأمر بالإنفاق على الحامل ، وإيتاءها أجرها إذا أرضعت .

ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى تفاضل أنواع الإيجاب والتحرّيم ، وقالوا : إن إيجاب أحد الفعلين قد يكون أبلغ من إيجاب الآخر ، وتحريمه أشد من تحريم الآخر ، فهذا أعظم إيجاباً ، وهذا أعظم تحريماً ولكن طائفة من أهل الكلام نازعوا في ذلك كابن عقيل وغيره فقالوا ، التفاضل ليس في نفس الإيجاب والتحرّيم ، لكن في متعلق ذلك وهو كثرة الثواب والعقاب ، والجمهور يقولون : بل التفاضل في الأمرين والتفاضل في المسببات دليل على التفاضل في الأسباب ، وكون أحد الفعلين ثوابه أعظم وعقابه أعظم دليل على أن الأمر به ، والنهي عنه أوكد ، وكون أحد الأمرين والنهيين مخصوصاً بالتوكيد دون الثاني مما لا يستريب فيه عاقل ، ولو تساوى من كل وجه لامتنع الاختصاص بتوكيد أو غيره من أسباب الترجيح فإن التسوية والتفضيل متضادان . وجمهور أئمة الفقهاء على التفاضل في الإيجاب والتحرّيم ، وإطلاق ذلك هو قول جماهير المتأخرين من أصحاب الأئمة الأربعة ، وهو قول القاضي أبي يعلى ، وأبي الخطاب ^(١) ، والقاضي يعقوب البرزيني ^(٢) ، وعبد الرحمن الحلواني ^(٣) ، وأبو الحسن بن الزاغوني وغيرهم ، لكن من هؤلاء من يفسر التفاضل بتفاضل الثواب والعقاب ونحو ذلك مما لا ينزاع فيه

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

النفاة . والتحقيق أن نفس المحبة والرضا والبغض والإرادة والكرامة ، والطلب والإقتضاء ونحو ذلك من المعاني تتفاضل ، وتتفاضل الألفاظ الدالة عليها ، ونفس حب العباد لربهم يتفاضل ، كما قال تعالى ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ (١) .

ونفس حب الله لهم يتفاضل أيضاً ؛ فإن الخليلين ابراهيم ومحمداً أحب إليه من سواهما وبعض الأعمال أحب إلى الله من بعض .

والقول بأن هذا الفعل أحب إليّ من هذا مشهور ومستفيض في الآثار النبوية ، وكلام خير البرية ، كقول بعض الصحابة : لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لفعلناه ، فأنزل الله سورة الصف وهو مشهور ثابت : رواه الترمذي وغيره وكون هذا أحب إلى الله من هذا هو داخل من تفضيل بعض الأعمال ، وبعض الأشخاص على بعض ، وبعض الأمكنة والأزمنة على بعض وقد قال النبي ﷺ لمكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت » (٢) .

قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، رواه من حديث عبد الله بن عدي ابن الحمراء ، وكذلك تفضيل حبه وبغضه على حب غيره ، وبغضه كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال :

لا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين . وقال : لا أحد أغير من الله » (٣) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ وتكملة الآية ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ .

(٢)

(٣) سبق تخريج هذا الحديث ، وقد رواه الامام البخاري في كتاب التفسير سورة ٧٦ - باب ﴿ولا تقر بوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ ٤٦٣٤ - بسنده عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ .

وهذا في الصحيحين .

وقال تعالى ﴿ لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(١) الآية ومن المعلوم بالاضطرار تفاضل المأمورات ، فبعضها أفضل من بعض ، وبعض المنهيات شر من بعض وحينئذ فطلب الأفضل يكون في نفسه أكمل من طلب المفضول ، والطالب إذا كان حكيماً يكون طلبه لهذا أوكد . ففي الجملة من المستقر في فطر العقلاء أن كلاً من الخبر والأمر يلحقهما التفاضل من جهة المخبر عنه والمأمور به ، فإذا كان المخبر به أكمل وأفضل كان الخبر به أفضل ، وإذا كان المأمور به أفضل كان الأمر به أفضل . ولهذا كان الخبر بما فيه نجاة النفوس من العذاب ، وحصول السعادة الأبدية أفضل من الخبر بما فيه نيل منزلة أو حصول دراهم والرؤيا التي تتضمن أفضل الخبرين أعظم من الرؤيا التي تتضمن أدناهما ، وهذا أمر مستقر في فطر العقلاء قاطبة ، وإذا قدر أميران أمر أحدهما بعدل عام عمر به البلاد ، ودفع به الفساد كان هذا الأمر أعظم من أمر أمير يعدل بين خصمين في ميراث بعض الأموات وأيضاً فالخبر يتضمن العلم بالمخبر به ، والأمر يتضمن طلباً وإرادة للمأمور به ، وإن لم يكن ذلك إرادة فعل الأمر ، والله تعالى أمر العباد بما أمرهم به ، ولكن أعان أهل الطاعة فصار مريداً لأن يخلق أفعالهم ، ولم يعن أهل المعصية فلم يرد أن يخلق أفعالهم ، فهذه الإرادة الخلقية القدريّة لا تستلزم الأمر وأما الإرادة بمعنى أنه يحب فعل ما أمر به ويرضاه إذا فعل ويريد من المأمور أن يفعله من حيث هو مأمور فهذه لا بد منها في الأمر ولهذا أثبت الله هذه الإرادة في الأمر دون الأولى ، ولكن في الناس من غلط فنفي الإرادة

= رَوَاهُ أَيْضاً فِي كِتَابِ النِّكَاحِ ١٠٧ وَالتَّوْحِيدِ ١٥ ، ٢٠ ، وَرَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ اللَّعَانِ ١٧ وَفِي كِتَابِ التَّوْبَةِ ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ وَرَوَاهُ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ فِي الدَّعَوَاتِ ٩٥ ، وَالدَّارِمِيُّ فِي النِّكَاحِ ٣٧ ، وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي الْمُسْنَدِ ١ : ٣٨١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ (حَلَبِي) .

(١) سورة غافر آية رقم ١٠ وتكملة الآية ﴿ إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ .

مطلقاً ، وكلا الفريقين لم يميز بين الإرادة الخلقية والإرادة الأمرية ، والقرآن فرق بين الارادتين فقال في الأولى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (١) .

وقال نوح : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ (٢) وقال ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٣) .

وقال ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (٤) .

ولهذا قال المسلمون « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » (٥) .

وقال في الثانية : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٦) .

وقال ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٨) وقال ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة هود آية رقم ٣٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٣٩ .

(٥) سبق تخريج هذا الحديث في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٦) سورة البقرة آية رقم ١٨٥ .

(٧) سورة الأحزاب آية رقم ٣٣ .

(٨) سورة المائدة آية رقم ٦ .

قَبْلَكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ
وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿١﴾ وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لا بد في الأمر من طلب واستدعاء واقتضاء سواء
قيل : إن هناك إرادة شرعية ، وأنه لا إرادة للرب متعلقة بأفعال العباد سواها ،
كما تقوله المعتزلة ونحوهم من القدرية ، أو قيل : لا إرادة للرب إلا الإرادة
الخلقية القدرية التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن إرادته
عين نفس محبته ورضاه وأن إرادته ومحبته ورضاه متعلقة بكل ما يوجد من
إيمان وكفر ، ولا تتعلق بما لا يوجد سواء كان إيماناً أو كفراً ، وأنه ليس للعبد
قدرة لها أثر في وجود مقدوره ، وليس في المخلوقات قوى وأسباب يخلق
بها ، ولا لله حكمة يخلق بها ويأمر لأجلها ، كما يقول هذا وما يشبهه جهنم بن
صفوان ^(٢) رأس الجبرية هو ومن وافقه على ذلك أو بعضه من طوائف أهل
الكلام ، وبعض متأخري الفقهاء وغيرهم المبتئين للقدر على هذه الطريقة لا
على طريقة السلف والأئمة كأبي الحسن ^(٣) وغيره فإن هؤلاء ناقضوا القدرية
المعتزلة مناقضة ألجأتهم إلى إنكار حقيقة الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وإن
كان من يقول ببعض ذلك يتناقض وقد يثبت أحدهم من ذلك ما لا حقيقة له
في المعنى .

وأما السلف وأئمة الفقهاء وجمهور المسلمين فيثبتون الخلق والأمر
والإرادة الخلقية القدرية الشاملة لكل حادث ، والإرادة الأمرية الشرعية
المتناولة لكل ما يحبه الله ويرضاه لعباده ، وهو ما أمرت به الرسل ، وهو ما

(١) سورة النساء آية رقم ٢٦ - ٢٨ .

(٢) هو جهنم بن صفوان السمرقندي قتل عام ١٢٨ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع : ميزان
الاعتدال ١ : ١٩٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ ، وخطط المقرئ ٢ : ٣٤٩ و ٣٥١] .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

ينفع العباد ويصلحهم ، ويكون له العاقبة الحميدة النافعة في المعاد ، الدافعة للفساد ، فهذه الإرادة الأمرية الشرعية متعلقة بالهيئة المتضمنة لربوبيته ، كما أن تلك الإرادة الخلقية القدريّة متعلقة بربوبيته ولهذا كان من نظر إلى هذه فقط ، وراعى هذه الخلقية الكونية القدريّة دون تلك يكون له بداية بلا نهاية ، فيكون من الأخسرين أعمالاً ، يحصل لهم بعض مطالبهم في الدنيا لاستعانتهم بالله إذ شهدوا ربوبيته ، ولا خلاق لهم في الآخرة ، إذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين ، وقد وقع في هذا طوائف من أهل التصوف والكلام .

ومن نظر إلى الحقيقة الشرعية الأمرية دون تلك فإنه قد يكون له عاقبة حميدة ، وقد يراعى الأمر ، لكنه يكون عاجزاً مخذولاً حيث لم يشهد ربوبية الله وفقره إليه ليكون متوكلاً عليه برياً من الحول والقوة إلا به فهذا قد يقصد أن يعبد ، ولا يقصد حقيقة الاستعانة به ، وهي حال القدريّة من المعتزلة ونحوهم الذين يقولون أن الله ليس خالقاً أفعال العباد ، ولا مريداً للكائنات ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني ^(١) إنما يعجب بفعله القدري لأنه لا يرى أنه هو الخالق لفعله .

فأما أهل السنة الذين يفسرون أن الله خالق أفعالهم ، وأن الله المنّة عليهم في ذلك فكيف يعجبون بها ؟ أو كما قال .

والأول قد يقصد أن يستعينه ويسأله ويتوكل عليه ، ويبرأ من الحول والقوة إلا به ، ولكن لا يقصد أن يعبد بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه على ألسن رسله ، ولا يشهد أن الله يحب أن يعبد ويطاع ، وأنه يفرح بتوبة التائبين ويحب المتقين ، ويغضب على الكفار والمنافقين بل ينسلخ من الدين أو

(١) هو سليمان بن حبيب المحاربي الداراني أبو بكر : قاض من ثقات التابعين من أهل الشام ، كان ينعت بقاضي الخلفاء استمر في قضاء دمشق ثلاثين عاماً نسبته إلى «داريا» من غوطة دمشق ، توفي عام ١٢٠ هـ [راجع تهذيب ابن عساكر ٦ : ٢٤٦ وتهذيب التهذيب ٤ : ١٧٧ ومعجم البلدان ٤ : ٢٤] .

بعضه ، لا سيما في نهاية أمره ، وهذه الحال إن طردها صاحبها كان شراً من حال المعتزلة القدرية ، بل إن طردها طرداً حقيقياً أخرجته من الدين خروج الشعرة من العجين ، وهي حال المشركين .

وأما من هداه الله ، فإنه يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(١) ويعلم أن كل عمل لا يراد به وجه الله ، ولا يوافق أمره فهو مردود على صاحبه ، وكل قاصد لم يعنه الله فهو مصدود من مآربه ، فإنه يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعبد الله مخلصاً له الدين ، مستعيناً بالله على ذلك مؤمناً بخلقه وأمره ، بقدره وشرعه ، فيستعين الله على طاعته ، ويشكره عليها ، ويعلم أنها منة من الله عليه ، ويستعين بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويعلم أن ما أصابه من سيئة فمن نفسه ، مع علمه بأن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وأن الله الحجة البالغة على خلقه ، وأن له في خلقه وأمره حكمة بالغة ، ورحمة سابعة ، وهذه الأمور أصول عظيمة ، لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن الخبر الصادق يتضمن جنس العلم والاعتقاد ، والأمر يتضمن جنس الطلب باتفاق العقلاء .

ثم هل مدلول الخبر جنس من المعاني غير جنس العلم ، ومدلول الأمر جنس من المعاني غير جنس الإرادة ، كما يقول ذلك طائفة من النظار مثل ابن كلاب ، ومن وافقه ؟ أو المدلول من جنس العلم والإرادة ؟ كما يقوله جمهور نظار أهل السنة الذين يثبتون الصفات والقدر .

فيقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويقولون : إن الله خالق أفعال العباد ، والمعتزلة وغيرهم ممن يخالف أهل السنة في هذين الأصلين ، فإن هؤلاء يخالفون ابن كلاب ومن وافقه في دينك الأصلين .

ولهذا يقال : إنه لم يوافقه أحد من الطوائف على ما أحدثه من القول

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

في الكلام والصفات ، وإن كان قوله خيراً من قول المعتزلة والجهمية المحضة ، وأما جمهور المسلمين من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ، وطوائف النظار فلا يقولون بقول المعتزلة والجهمية المحضة .

وأما جمهور المسلمين من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وطوائف النظار فلا يقولون بقول المعتزلة ولا الكلاية كما ذكر ذلك فقهاء الطوائف من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم في أصول الفقه فضلاً عن غيرها من الكتب .

والمقصود هنا أن الناس متفقون على أن كلاً من أنواع الخبر والأمر لها معان : سواء سمي طلباً أو إرادة أو علماً ، أو حكماً ، أو كلاماً نفسانياً .

وهذه المعاني تتفاضل في نفسها ، فليس علمنا بالله وأسمائه كعلمنا بحال أبي لهب ^(١) ، وليس الطلب القائم بنا إذا أمرنا بالإيمان بالله ورسوله كالطلب القائم بنا إذا أمرنا برفع اليدين في الصلاة ، والأكل باليمين وإخراج الدرهم من الزكاة .

فعلم بذلك أن معاني الكلام قد تتفاضل في نفسها كما قد تتماثل ، وتبين بذلك أن ما تضمنه الأمر والنهي من المعاني التي تدل عليها صيغة الأمر سواء سميت طلباً أو اقتضاء ، أو استدعاء ، أو إرادة ، أو محبة أو رضا ، أو غير ذلك . فإنها متفاضلة بحسب تفاضل الأمور به ، وما تضمنه الخبر من أنواع العلوم والاعتقادات ، والأحكام النفسانية فهي متفاضلة في نفسها بحسب تفاضل المخبر عنها .

فهذا نوع من تفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه ، وإن كان المتكلم به

(١) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من قريش ، عم الرسول ﷺ - توفي عام ٢ هـ سبق الترجمة له . [وراجع : ابن الأثير ٢ : ٢٥ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٣٩٣ وتاريخ الإسلام للذهبي ١ : ٨٤ و١٦٩]

واحدًا ، وهو أيضاً متفاضل من جهة المتكلم به ، وإن كان المتكلم فيه واحداً كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِّهِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) ومعلوم أن تكليمه من وراء حجاب أفضل من تكليمه بالإيحاء أو بإرسال رسول ، ولهذا كان من فضائل موسى عليه السلام أن الله كلمه تكليماً وقال : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي ﴾ (٢) .

وقال ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٣) .

والذي يجد الناس من أنفسهم أن الشخص الواحد يتفاضل أحواله في أنواع الكلام ، بل وفي الكلام الواحد يتفاضل ما يقوم بقلبه من المعاني ، وما يقوم بلسانه من الألفاظ بحيث قد يكون إذا كان طالباً هو أشد رغبة ومحبة وطلباً لأحد الأمرين منه للآخر ، ويكون صوته به أقوى ولفظه به أفصح وحاله في الطلب أقوى وأشد تأثيراً ، ولهذا يكون للكلمة الواحدة من الموعظة ، بل للآية الواحدة إذا سمعت من اثنين من ظهور التفاضل ما لا يخفى على عاقل ، والأمر في ذلك أظهر وأشهر من أن يحتاج إلى تمثيل ، وكذلك في الخبر قد يقوم بقلبه من المعرفة والعلم ، وتصور المعلوم وشهود القلب إياه باللسان من حسن التعبير عنه لفظاً وصوتاً ما لا يقاربه ما يقوم بالقلب واللسان إذا أخبر عن غيره .

فهذا نوع إشارة إلى قول من يقول بتفضيل بعض كلام الله على بعض موافقاً لما دل عليه الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة .

(١) سورة الشورى آية رقم ٥١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

والطائفة الثانية تقول : إن كلام الله لا يفضل بعضه على بعض ، ثم لهؤلاء في تأويل النصوص الواردة في التفضيل قولان : أحدهما : أنه إنما يقع التفاضل في متعلقه ، مثل كون بعضه أنفع للناس من بعض لكون الثواب عليه أكثر ، أو العمل به أخف مع التماثل في الأجر ، وتأولوا قوله ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ ^(١) أي نأت بخير منها لكم ، لا أنها في نفسها خير من تلك . وهذا قول طائفة من المفسرين كمحمد بن جرير الطبري ^(٢) قال : نأت بحكم خير لكم من حكم الآية المنسوخة ، إما في العاجل لحقه عليكم وإما في الآخرة لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله قال : والمراد ما ننسخ من حكم آية كقوله ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ^(٣) أي حبه .

قال : ودل على أن ذلك كذلك قوله ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ^(٤) .

وغير جائز أن يكون من القرآن شيء خيراً من شيء لأن جميعه كلام الله ، ولا يجوز في صفات الله تعالى أن يقال : بعضها أفضل من بعض ، أو بعضها خير من بعض ، وطرد ذلك في أسماء الله ، فمنع أن يكون بعض أسمائه أعظم ، أو أفضل ، أو أكبر في بعض وقال : معنى الاسم الأعظم : العظيم ، وكلها سواء في العظمة ، وإنما يتفاضل حال الناس حين الدعاء فيكون الأعظم بحسب حال الدعاء ، لا أنه في نفسه أعظم وهذا القول الذي قاله في أسماء الله نظير القول الثاني في تفضيل بعض كلام الله على بعض ، فإن القول الثاني لمن منع تفضيله أن المراد بكون هذا أفضل أو خيراً كونه فاضلاً في نفسه لا أنه أفضل من غيره ، وهذا القول يحكى عن أبي الحسن الأشعري ،

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد ، الطبري ، أبو جعفر ، المؤرخ المفسر الامام توفي عام ٣١٠ هـ

وسبق الترجمة له . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ :

١٣٥ - ١٤٠ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٥ و٤١٥ ثم ٢ : ١٧٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٥] .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٩٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

ومن وافقه .

قالوا : إن معنى ذلك أنه عظيم فاضل ، وقالوا مقتضى الأفضل تقصير المفضول عنه ، وكلام الله لا يتبعض وهذا يقولونه في الكلام لأنه واحد بالعين عندهم يمتنع فيه تماثل أو تفاضل ، وأما في الصفات بعضها على بعض فلامتناع التغاير ، ولا يقولون هذا في القرآن العربي ، فإن القرآن العربي عندهم مخلوق ، وليس هو كلام الله على قول الجمهور منهم ، قالوا : لأن الكلام يمتنع قيامه بغير المتكلم كسائر الصفات ، والقرآن العربي يمتنع عندهم قيامه بذات الله تعالى ، ولو جوزوا أن يكون كلام الله قائماً بغيره لبطل أصلهم الذي اتفقوا عليه هم وسائر أهل السنة ، وردوا به على المعتزلة قولهم إن القرآن مخلوق ، وهؤلاء يسلمون أن القرآن العربي بعضه أفضل من بعض لأنه مخلوق عندهم ، ولكن ليس هو كلام الله عند جماهيرهم .

وبعض متأخريهم يقول : إن لفظ كلام الله يقع بالاشتراك على المعنى القائم بالنفس ، وعلى الكلام العربي المخلوق الدال عليه ، وأما كلام الله الذي ليس بمخلوق عندهم فهو ذلك المعنى ، وهو الذي يمتنع تفاضله عندهم .

وأصل هؤلاء أن كلام الله هو المعاني ، بل هو المعنى الواحد فقط .

وأن معاني كتاب الله هي شيء واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، فمعنى آية الكرسي ، وآية الدين والفتحة ، وقل هو الله أحد ، وتبت ومعنى التوراة والإنجيل ، وكل حديث إلهي وكل ما يكلم به الرب عباده يوم القيامة ، وكل ما يكلم به الملائكة والأنبياء ، إنما هي معنى واحد بالعين ، لا بالنوع ، ولا يتعدد ولا يتبعض وأن القرآن العربي ليس هو كلام الله بل كلام غيره : جبريل أو محمد أو مخلوق من مخلوقاته عبر به عن ذلك الواحد ، وذلك الواحد هو الأمر بكل ما أمر به ، والنهي من كل ما نهى عنه ، والاخبار بكل ما أخبر به ، وأن الأمر والنهي والخبر ليست أنواعاً للكلام وأقساماً له ، فإن الواحد بالعين لا

يقبل التنويع والتقسيم ، بخلاف الواحد بالنوع فإنه يقبل التنويع والتقسيم ، وإنما هي صفات لذلك الواحد بالعين ، وهي صفات إضافية له ، فإذا تعلق بما يطلب من أفعال العباد كان أمراً ، وإذا تعلق بما ينهى عنه كان نهياً ، وإذا تعلق بما يخبر عنه كان خبراً .

وجمهور العقلاء يقولون : فسأذ هذا معلوم بالاضطرار فإننا نعلم أن معاني ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(١) ليست هي معاني ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ^(٢) .

ولا معاني آية الدين معاني آية الكرسي ، ولا معاني الخبر عن صفات الله هي معاني الخبر عن مخلوقات الله ، وأن تعلق ذلك المعنى بالحقائق المخبر عنها والأفعال التي تعلق بها الأمر والنهي إن كان أمراً وجودياً فلا بد له من محل ، فإن قام بذات الله فقد تعددت معاني الكلام القائمة بذاته ، وإن قام بذات غيره كان صفة لذلك الخير لا الله . وإن قام لا بمحل كان ممتنعاً ، فإن المعاني لا تقوم بأنفسها ، وإن كان تعلق ذلك المعنى بالحقائق أمراً عديمياً لم يكن هناك ما يميز بين الخبر والأمر والنهي ، بل لا يميز بين خبر الله عن نفسه ، وعن قوم نوح وعاد ، إذ كان المعنى الواحد لا تعدد فيه فضلاً عن أن يمتاز بعضه عن بعض .

والحقائق المخبر عنها والمأمور بها ، والمنهي عنها لا تكون بأنفسها مخبراً بها ومأموراً بها ومنهياً عنها ، بل المخبر عنها ، والأمر بها والنهي عنها هو غير ذواتها فإذا لم يكن هنا أمر موجود غير ذلك المعنى الذي لا امتياز فيه ولا تعدد ، وغير المخلوقات التي لا تميز بين الأمر والنهي والخبر : لم يكن هنا ما يميز بين النهي والخبر ، ولا ما يجعل معاني آية الوضوء غير معاني آية الدين ، فإن الحروف المخلوقة الدالة على ذلك المعنى إن لم تدل إلا عليه فلا تعدد فيه ولا تنويع ، وإن دلت على التعلقات التي هي عدمية ، فالعدم

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ .

(٢) سورة المسد آية رقم ١ .

ليس بشيء حتى يكون أمراً ونهياً وخبراً ، وليس عند هؤلاء إلا ذلك المعنى وتعلقه بالحقائق المخبر عنها ، والمأمور بها ونفس القرآن العربي المخلوق عندهم هو الدال على ذلك المعنى ، فالمدلول إن كان هو ذلك المعنى فلا يتميز فيه أمر عن خبر ، ولا أمر بصلاة عن أمر بزكاة ، ولا نهى عن الكفر عن إخبار بتوحيد ، وإن كانت التعلقات عدمية فالمعدوم ليس بشيء ، ولا يكون العدم أمراً ونهياً وخبراً ، ولا يكون مدلول التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كتب الله أموراً عدمية لا وجود لها . ولا تكون الأمور العدمية هي التي بها وجبت الصلاة وحرم الظلم ، ولا يكون المعنى الواحد بتلك الأمور العدمية إلا صفات إضافية ، وهي من معنى السلبية ، فإنها إن لم تكن سلب أمر موجود ، فهي تعلق ليس بموجود ، فحقيقة الأمر - على قول هؤلاء - أنه ليس لله كلام لا معان ولا حروف إلا بمعنى واحد لا حقيقة له موجودة ولا معلومة .

ومن حجة هؤلاء أنه إذا قيل بعضه أفضل من بعض كان المفضول ناقصاً عن الفاضل . وصفات الله كاملة لا نقص فيها ، والقرآن من صفاته .

قال هؤلاء : صفات الله كلها متوافرة في الكمال متناهية إلى غاية التمام ، لا يلحق شيئاً منها نقص بحال ، ثم لما اعتقد هؤلاء أن التفاضل في صفات الله ممتنع ، ظنوا أن القول بتفضيل بعض كلامه على بعض لا يمكن إلا على قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم القائلين بأنه مخلوق ، فإنه إذا قيل : إنه مخلوق أمكن القول بتفضيل بعض المخلوقات على بعض ، فيجوز أن يكون بعضه أفضل من بعض قالوا : وأما على قول أهل السنة والجماعة الذين أجمعوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق فيمتنع أن يقع التفاضل في صفات الله القائمة بذاته .

ولأجل هذا الاعتقاد صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتناع التفضيل في القرآن كما قال أبو عبد الله بن (١) الدراج في مصنف صنفه في

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

هذه المسألة قال : أجمع أهل السنة على أن ما ورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض : إذ هو كله كلام الله وصفة من صفاته .

بل هو كله لله فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال .

وهذا النقل للإجماع هو بحسب ما ظنه لازماً لأهل السنة .

فلما علم أنهم يقولون : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، وظن هو أن المفاضلة إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات قال ما قال .

وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه أنكر فضل كلام الله بعضه على بعض ، لا في نفسه ولا في لوازمه ومتعلقاته ، فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً وليس هو لازماً لابن كلاب ، ومن وافقه كالأشعري وأتباعه ، فإن هؤلاء يجوزون وقوع المفاضلة في القرآن العربي ، وهو مخلوق عندهم ، وهذا المخلوق يسمى كتاب الله والمعنى القديم يسمى كلام الله ، ولفظ « القرآن » يراد به عندهم ذلك المعنى القديم ، والقرآن العربي المخلوق .

وحينئذ فهم يتأولون ما ورد من تفضيل بعض القرآن على بعض على القرآن المخلوق عندهم وإنما القول المتواتر عن أئمة السلف أنهم قالوا : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنهم أنكروا مقالة الجهمية الذين جعلوا القرآن مخلوقاً منفصلاً عن الله ، بل كفروا من قال ذلك والكتب الموجودة فيها ألفاظهم بأسانيدها وغير أسانيدها كثيرة : مثل : كتاب الرد على الجهمية . للإمام أبي محمد عبد الرحمن ^(١) بن أبي حاتم . و« الرد على الجهمية » لعبد الله ^(٢) بن محمد الجعفي شيخ البخاري . و« الرد على الجهمية » للحكم بن معبد ^(٣) الخزاعي و« كتاب السنة » لعبد الله بن أحمد بن ^(٤) حنبل و« السنة »

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

لحنبل بن عم^(١) الإمام أحمد . و« السنة » لأبي داود^(٢) السجستاني و« السنة » للأترم^(٣) . و« السنة » لأبي بكر^(٤) الخلال . و« السنة والرد على أهل الأهواء » لحشيش^(٥) بن أصرم و« الرد على الجهمية » لعثمان بن سعيد^(٦) الدارمي و« نقض عثمان بن سعيد على الجهمي الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله في التوحيد » و« كتاب التوحيد » لابن خزيمة^(٧) .

و« السنة » للطبراني^(٨) ، ولأبي الشيخ الأصبهاني و« شرح أصول السنة » لأبي القاسم^(٩) اللالكائي . و« الإبانة » لأبي عبد الله بن^(١٠) بطة . وكتب عبد الله بن منده^(١١) . و« السنة » لأبي ذر الهروي^(١٢) . و« الأسماء والصفات » للبيهقي^(١٣) و« الأصول » لأبي عمر الطلمنكي^(١٤) و« الفاروق » لأبي اسماعيل الأنصاري^(١٥) و« الحجة » لأبي القاسم^(١٦) التيمي إلى غير ذلك من المصنفات التي يطول تعدادها التي يذكر مصنفوها العلماء الثقات مذاهب السلف بالأسانيد الثابتة عنهم بألفاظهم الكثيرة ، المتواترة التي تعرف منها أقوالهم مع أنه من حين محنة الجهمية لأهل السنة - التي جرت في زمن أحمد ابن حنبل لما صبر فيها الامام أحمد ، وقام بإظهار السنة والصبر على محنة الجهمية حتى نصر الله الإسلام والسنة ، وأطفأ نار تلك الفتنة -

(١) هو حنبل بن اسحاق بن حنبل بن هلال الشيباني ، أبو علي من حفاظ الحديث ، كان ثقة ، له كتاب « التاريخ » ، وكتاب « الفتن » وكتاب « محنة الامام أحمد بن حنبل » وهو ابن عم الامام أحمد ، وتلميذه ، خرج الى واسط فتوفي بها عام ٢٧٣ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٦٠] .

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------------|
| (٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | (١٠) سبق الترجمة له في كلمة وافية . |
| (٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | (١١) سبق الترجمة له في كلمة وافية . |
| (٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | (١٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية . |
| (٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | (١٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية . |
| (٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | (١٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية . |
| (٧) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | (١٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية . |
| (٨) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | (١٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية . |
| (٩) سبق الترجمة له في كلمة وافية . | |

ظهر في ديار الإسلام ، وانتشر بين الخاص والعام أن مذهب أهل السنة والحديث المتبعين للسلف من الصحابة والتابعين أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

وأن الذين أحدثوا في الإسلام القول بأن القرآن مخلوق هم الجعد بن درهم^(١) والجهم بن صفوان ، ومن اتبعه من المعتزلة ، وغيرهم من أصناف الجهمية لم يقل هذا القول أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، فهذا القول هو القول المعروف عن أهل السنة والجماعة وهو القول بأن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق .

أما كونه لا يفضل بعضه على بعض فهذا القول لم ينقل عن أحد من سلف الأمة وأئمة السنة الذين كانوا أئمة المحنة كأحمد بن حنبل وأمثاله ، ولا عن أحد قبلهم ولو قدر أنه نقل عن عدد من أئمة السنة لم يجز أن يجعل ذلك إجماعاً منهم ، فكيف إذا لم ينقل عن أحد منهم ؟!

وإنما هذا نقل لما يظنه الناقل لازماً لمذهبهم فلما كان مذهب أهل السنة أن القرآن من صفات الله لا من مخلوقات الله ، وظن هذا الناقل أن التفاضل يمتنع في صفات الخالق نقل امتناع التفاضل عنهم بناء على هذا التلازم .

ولكن يقال له : أما المقدمة الأولى فمنقولة عنهم بلا ريب .

وأما المقدمة الثانية وهي أن صفات الرب لا تتفاضل ، فهل يمكنك أن تنقل عن أحد من السلف قولاً بذلك ، فضلاً عن أن تنقل إجماعهم على ذلك ؟!

(١) هو الجعد بن درهم ، من الموالي : مبتدع له أخبار في الزندقة توفي عام ١١٨ هـ . سبق الترجمة له . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥ واللباب ١ : ٢٣٠ ، والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٢] .

ما علمت أحداً يمكنه أن يثبت عن أحد من السلف أنه قال ما يدل على هذا المعنى لا بهذا اللفظ ولا بغيره ، فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً .

ولكن إن كان قال قائل ذلك ، ولم يبلغنا قوله ، فالله أعلم .

لكن الذي أقطع به ، ويقطع به كل من له خبرة بكلام السلف أن القول بهذا لم يكن مشهوراً بين السلف ، ولا قاله واحد واشتهر قوله عند الباقيين فسكتوا عنه ، ولا هو معروف في الكتب التي نقل فيها ألفاظهم بأعيانها ، بل المنقول الثابت عنهم - أو عن كثير منهم - يدل على أنهم كانوا يرون تفاضل صفات الله تعالى ، وهكذا من قال من أصحاب مالك ^(١) أو الشافعي ^(٢) أو أحمد ^(٣) عن أهل السنة أن القرآن لا يفضل بعضه على بعض فإنما مستندهم أن أهل السنة متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن كلامه من صفاته القائمة بنفسه ، ليس من مخلوقاته ، وهذا أيضاً صحيح عن أهل السنة .

ثم ظنوا أن التفاضل إنما يقع في المخلوق لا في الصفات وهذا الظن لم ينقلوه عن أحد من أئمة الإسلام كمالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والثوري ^(٤) والأوزاعي ^(٥) ولا من قبل هؤلاء ، ولهذا شنع هؤلاء على من ظن فضل بعضه على بعض ، كما دلت عليه النصوص والآثار لظنهم أن ذلك مستلزم لخلاف مذهب أهل السنة ، كما قال أبو عبد الله بن المرباط في الكلام على حديث البخاري في رده لتأويل من تأول هذا الحديث ، على أن

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع ابن عساكر ٢ : ٢٨ وحلية ٩ : ١٦١ وصفة الصفوة ٢ : ١٩٠ وابن خلكان ١ : ١٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٤١٢ .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع : دول الاسلام ١ : ٨٤ وابن النديم ١ : ٢٢٥ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ : ٢٥٧ والمعارف ٢١٧ .

(٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

هذه السورة إذا عدلت بثلاث القرآن أنها تفضل الربع منه ، وخمسه وما دون الثلث فهو التفاضل في كتاب الله تعالى ، وهو صفة من صفات الله جل جلاله .

وقال : فهذا لولا عذر الجهالة لحكم على قائله بالكفر إذ لا يصح التفاضل الا في المخلوقات ؛ إذ صفاته كلها فاضلة في غاية الفضيلة ، ونهاية العلو والكرامة فمن تنقص شيئاً منها عن سائرهما فقد ألحد فيها ألا تسمعه منع ذلك بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ ^(١) .

قال : وقد أجمع أهل السنة على أن القرآن صفة من صفات الله ، لا من صفة خلقه .

قال : وإنما أوقعهم في تأويل ذلك قوله تعالى : ﴿ نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ^(٢) ولا يخلو معنى ذلك من أحد وجهين : إما أن تكون النسخة خيراً من المنسوخة في ذاتها . وإما أن تكون خيراً منها لمن تعبد بها ، إذ محال أن يتفاضل القرآن في ذاته على ما ذهب إليه أهل السنة والاستقامة ، إذ كل من عند الله ، لأن القرآن العزيز صفة الله ، وأسماء الله وصفاته كلها متوافرة في الكمال ، متناهية إلى غاية التمام ، لا يلحق شيئاً منها نقص بحال .

فلما استحال أن تكون آية خيراً من آية في ذاتها علمنا أن المراد بخير منها إنما هو للمتعبدين بها ، لم ينقل عباده من تخفيف إلى تثقيل ، ولكنه نقلهم بالنسخ من تحريم إلى تحليل ، ومن إيجاب إلى تخيير ، ومن تطهير إلى تطهير ، والشاهد لنا قوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الحجر آية رقم ٩١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٢٨ .

فيقال : أما قول القائل : لولا عذر الجهالة لحكم على مثبت المفاضلة بالكفر ، فهم يقابلونه بمثل ذلك ، وحجتهم أقوى .

وذلك لأن الكفر حكم شرعي ، وإنما يثبت بالأدلة الشرعية ، ومن أنكر شيئاً لم يدل عليه الشرع بل علم بمجرد العقل لم يكن كافراً ، وإنما الكافر من أنكر ما جاء به الرسول ، ومعلوم أنه ليس في الكتاب والسنة نص يمنع تفاضل بعض كلام الله على بعض بل ولا يمنع تفاضل صفاته تعالى ، بل ولا نقل هذا النفي عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق في الأمة بحيث جعلوا أعلاماً للسنة وأئمة للأمة .

وأما تفضيل بعض كلام الله على بعض ، بل تفضيل بعض صفاته على بعض : فدلالة الكتاب والسنة والأحكام الشرعية ، والآثار السلفية كثيرة على ذلك . فلو قدر أن الحق في نفس الأمر أنها لا تتفاضل لم يكن نفي تفاضلها معلوماً إلا بالعقل لا بدليل شرعي ، وإذا قدر أنها تتفاضل فالدال على ذلك هو الأدلة الشرعية مع العقلية ، فإذا قدر أن الحق في نفس الأمر هو التفضيل لكان كفر جاحد ، ذلك أولى من كفر من يثبت التفضيل ، إذ لم يكن حقاً في نفس الأمر لأن ذلك جحد موجب الأدلة الشرعية بغير دليل شرعي بل لما رآه بعقله وأخطأ فيه ، إذ نحن نتكلم في هذا التقدير .

ومعلوم أن من خالف ما جاءت به الرسل عن الله بمجرد عقله فهو أولى بالكفر ممن لم يخالف ما جاءت به الرسل عن الله ، وإنما خالف ما علم بالعقل إن كان ذلك حقاً ونظير هذا قول بعض نفاة الصفات لما تأمل حال أصحابه ، وحال تثبيتها قال : لا ريب أن حال هؤلاء عند الله خير من حالنا ، فإن هؤلاء إن كانوا مصيبين فقد نالوا الدرجات العلى والرضوان الأكبر وإن كانوا مخطئين فإنهم يقولون : نحن يا رب صدقنا ما دل عليه كتابك وسنة رسولك ، إذ لم تبين لنا بالكتاب والسنة نفي الصفات ، كما دل كلامك على

اثباتها ، فنحن أثبتنا ما دل عليه كلامك وكلام رسولك فإن كان الحق في خلاف ذلك فلم يبين الرسول ما يخالف ذلك ، ولم يكن خلاف ذلك مما يعلم ببداهة العقول ، بل إن قدر أنه حق فلا يعلمه إلا الأفراد فكيف وعامة المنتهين في خلاف ذلك إلى الغاية يقرون بالحيرة والارتباب .

قال النافي : وإن كنا نحن مصيبين فإنه يقال لنا : أنتم قلتُم شيئاً لم آمركم بقوله ، وطلبتم علماً لم آمركم بطلبه ، فالثواب إنما يكون لأهل الطاعة ، وأنتم لم تمتثلوا أمري ، قال : وإن كنا مخطئين فقد خسرنا خسراناً مبيناً .

وهذا حال من أثبت المفاضلة في كلام الله وصفاته ومن نفاهما ، فإن المثبت معتصم بالكتاب والسنة والآثار ، ومعه من المعقولات الصريحة التي تبين صحة قوله ، وفساد قول منازعه ما لا يتوجه إليها طعن صحيح .

وأما النافي فليس معه آية من كتاب الله ولا حديث عن رسول الله ﷺ ، ولا قول أحد من سلف الأمة ، وإنما معه مجرد رأي يزعم أن عقله دل عليه ومنازعه يبين أن العقل إنما دل على نقيضه ، وأن خطأه معلوم بصريح المعقول ، كما هو معلوم بصحيح المنقول .

واحتجاج المحتج على نفي التفاضل بقوله : ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (١)

في غاية الفساد ، فإن الآية لا تدل على هذا بوجه من الوجوه ، سواء أريد بها من آمن ببعضه وكفر ببعضه ، أو أريد بها من عضه فقال : هو سحر وشعر ، ونحو ذلك ، بل من نفى فضل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٢) على ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (٣) فهو أولى بأن يكون ممن جعله عضين ، إن دلت الآية

(١) سورة الحجز آية رقم ٩١ .

(٢) سورة الصمد آية رقم ١ .

(٣) سورة المسد آية رقم ١ .

على هذه المسألة .

وذلك أن من آمن بما وصف الله به كلامه فأقر بأنه جميعه كلام الله ، وأقر به كله فلم يكفر بحرف منه ، وعلم أن كلام الله أفضل من كل كلام ، وأن خير الكلام كلام الله ، وأنه لا أحسن من الله حديثاً ، ولا أصدق منه قياً ، وأقر بما أخبر الله به ورسوله من فضل بعض كلامه ، كفضل « فاتحة الكتاب » وآية الكرسي ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ونحو ذلك ، بل وتفضيل ﴿ يس ﴾ و﴿ تبارك ﴾ والآيتين من آخر سورة البقرة ، بل وتفضيل « البقرة » و« آل عمران » وغير ذلك من السور والآيات التي نطقت النصوص بفضلها ؛ وأقر بأنه كلام الله ليس منه شيء كلاماً لغيره لا معانيه ولا حروفه ، فهو أبعد عن جعله عظيم ممن لم يؤمن بما فضل الله به بعضه على بعض ، بل آمن بفضله من جهة المتكلم ، ولم يؤمن بفضله من جهة المتكلم فيه ، فإن هذا في الحقيقة آمن به من وجه دون رجه .

وكذلك من قال : إنه معنى واحد ، وإن القرآن العربي لم يتكلم الله به ، بل هو مخلوق خلقه الله في الهواء أو أحدثه جبريل أو محمد ، فهذا أولى بأن يكون داخلاً فيمن عضه القرآن ، ورماه بالإفك وجعل القرآن العربي كلام مخلوق ، إما بشر وإما ملك وإما غيرهما ، فمن جعل القرآن كله كلام الله ليس بمخلوق ، ولا هر من إحداث مخلوق لا جبريل ولا محمد ولا شيء منه ، بل جبريل رسول ملك ، ومحمد رسول بشر ، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس فاصطفى لكلامه الرسول الملكي ، فنزل به على الرسول البشري الذي اصطفاه ، وقد أضافه إلى كل من الرسولين لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأه وابتداه .

قال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (١) .

(١) سورة التكوين آية رقم ١٩ - ٢١ .

فهذا نعت جبريل الذي قال فيه : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (١) .

وقال ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٢) .

وقال ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (٣) وقال في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤) .

فهذه صفة محمد ﷺ . وأضاف القول إلى كل منهما باسم الرسول فكان ﴿لقول رسول﴾ .

الرسول يدل على المرسل ، فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسل ، لم يقل : إنه لقول ملك ولا بشر بل كفر من جعله قول بشر بقوله :

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَيْنَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ . فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٥) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٩٧ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ - ١٩٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

(٤) سورة الحاقة الآيات من ٤٠ - ٤٧ .

(٥) سورة المدثر الآيات من ١١ - ٢٥ .

فمن قال : إنه قول بشر ، أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر ، ومن جعله قول رسول من البشر فقد صدق ؛ لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ والأداء كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (١) .

وفي سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » (٢) والذي اتفق عليه السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق وقال غير واحد منهم : منه بدأ وإليه يعود .

قال أحمد بن حنبل وغيره « منه بدأ » أي هو المتكلم به ، لم يتد من غيره كما قالت الجهمية (٣) القائلون بأن القرآن مخلوق . قالوا : خلقه في غيره ، فهو مبتدأ من ذلك المحل المخلوق ويلزمهم أن يكون كلاماً لذلك المحل المخلوق لا لله تعالى لا سيما والجهمية كلهم يقولون بأن الله خالق أفعال العباد وهم غلاة في الجبر ، ولكن المعتزلة توافقهم على نفي الصفات والقول بخلق القرآن وتخالفهم في القدر والأسماء والأحكام فإذا كان الله خالق كل ما سواه لزمهم أن يكون كل كلام كلامه ، لأنه هو الذي خلقه .

ولذلك قال ابن عربي الطائفي (٤) - وكان من غلاة هؤلاء الجهمية يقول بوحدة الوجود - قال :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه ولهذا قال سليمان بن داود الهاشمي (٥) - نظير أحمد بن حنبل الذي قال

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٧ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) هم أتباع جهم بن صفوان السمرقندي أبو عجز قال الذهبي : الضال المبدع ، هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شرأ عظيماً . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ وخطط المقرئ ٢ : ٣٤٩ و٣٥١] .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٥) هو سليمان بن داود الزهراني ، أبو الربيع فاضل من رجال الحديث ، مولده في البصرة ، سكن =

الشافعي : ما رأيت أعقل من رجلين : أحمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمي - قال : من قال : إني أنا الله لا إله إلا أنا ، مخلوق فهو كافر ، وإن كان القرآن مخلوقاً كما زعموا ، فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ^(١) وزعموا أن هذا مخلوق ، ومعنى ذلك كون قول فرعون « أنا ربكم الأعلى . كلاماً قائماً بذات فرعون ، فإن كان قوله ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ ^(٢) كلاماً خلقه في الشجرة كانت الشجرة هي القائلة لذلك .

كما كان فرعون هو القائل لذلك ، وحينئذ فيكون جعل الشجرة إلهاً أعظم كفراً من جعل فرعون إلهاً .

والجهمية والمعتزلة لم يقم عندهم بذات الله لا طلب ولا إرادة ، ولا محبة ولا رضا ولا غضب ، ولا غير ذلك مما يجعل مدلول الأصوات المخلوقة ، ولا قام بذاته عندهم إيجاب وإلزام ولا تحريم وحظر ، فلم يكن للكلام المخلوق في غيره معنى قائم بذاته يدل عليه ذلك المخلوق حتى يفرق بين ما خلقه في الجماد وما خلقه في الحيوان ، وكان مقصود السلف رضوان الله عليهم أن الله هو المتكلم بالقرآن وسائر كلامه ، وأنه منه نزل ، لم ينزل من غيره كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٤) لم يقل أحد من السلف : إن القرآن قديم ، وإنما قالوا هو كلام الله غير مخلوق .

= بغداد له مصنف في الحديث مرتب على الأبواب الفقهية توفي عام ٢٣٤ هـ [راجع الرسالة المستطرفة ٣١ وتاريخ بغداد ٩ : ٣٨] .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(١) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٤ .

وقالوا : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وكما شاء، ولا قال أحد منهم : إن الله في الأزل نادى موسى ، ولا قال : ان الله لم يزل ، ولا يزال يقول : يا آدم ، يا نوح ، يا موسى ، يا إبليس ، ونحو ذلك مما أخبر أنه قال .

ولكن طائفة ممن اتبع السلف اعتقدوا أنه إذا كان غير مخلوق فلا بد أن يكون قديماً ، إذ ليس عندهم إلا هذا وهذا ، وهؤلاء ينكرون أن يكون الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، أو يغضب على الكفار إذا عصوه ، أو يرضى عن المؤمنين إذا أطاعوه ، أو يفرح بتوبة التائبين إذا تابوا ، أو يكون نادى موسى حين أتى الشجرة ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة كقوله : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١) .

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَسْفَوْنا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ (٢) وقوله ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥) .

وقد أخبر أن كلماته لا نفاذ لها بقوله : ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (٦) .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧) وأتباع السلف

(٥) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

(٦) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .

(٧) سورة لقمان آية رقم ٢٧ .

(١) سورة محمد آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة طه آية رقم ١١ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١١ .

يقولون : إن كلام الله قديم ، أي لم يزل متكلماً إذا شاء ، لا يقولون : إن نفس الكلمة المعينة قديمة ، كندائه لموسى ونحو ذلك ، لكن هؤلاء اعتقدوا أن القرآن وسائر كلام الله قديم العين ، وأن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ثم اختلفوا : فمنهم من قال : القديم هو معنى واحد ، هو جميع معاني التوراة والإنجيل والقرآن ، وأن التوراة إذا عبر عنها بالعربية صارت قرآناً ، والقرآن إذا عبر عنه بالعربية صار توراة .

قالوا : والقرآن العربي ثم يتكلم الله به ، بل إما أن يكون خلقه في بعض الأجسام ، وإما أن يكون أحدثه جبريل أو محمد ، فيكون كلاماً لذلك الرسول ترجم به عن المعنى الواحد القائم بذات الرب الذي هو جميع معاني الكلام .

ومنهم من قال : بل القرآن القديم هو حروف ، أو حروف وأصوات ، وهي قديمة أزلية قائمة بذات الرب أزلاً وأبداً ، وهي متعاقبة في ذاتها وماهيتها لا في وجودها فإن القديم لا يكون بعضه متقدماً على بعض ، ففرقوا بين ذات الكلام وبين وجوده ، وجعلوا التعاقب في ذاته لا في وجوده ، كما يفرق بين وجود الأشياء بأعيانها وماهياتها من يقول بذلك من المعتزلة والمتفلسفة وكلا الطائفتين تقول : إنه إذا كنتم موسى أو الملائكة أو العباد يوم القيامة فإنه لا يكلمه بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته حين يكلمه ، ولكن يخلق له إدراكاً يدرك ذلك الكلام القديم اللازم لذات الله أزلاً وأبداً ، وعندهم لم يزل ولا يزال يقول ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ﴾ ^(١) و ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ ^(٢) و ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ﴾ ^(٣) ونحو ذلك ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها في مواضع .

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة ص آية رقم ٧٥ .

والمقصود أن هذين القولين لا يقدر أحد أن ينقل واحداً منهما عن أحد من السلف أعني الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين المشهورين بالعلم والدين ، الذين لهم في الأمة لسان صدق في زمن أحمد ابن حنبل ، ولا زمن الشافعي ، ولا زمن أبي حنيفة ، ولا قبلهم .

وأول من أحدث هذا الأصل هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ^(١) ، وعرف أن الحروف متعاقبة فيمتنع أن تكون قديمة الأعيان ، فإن المتأخر قد سبقه غيره ، والقديم لا يسبقه غيره ، والصوت المعين لا يبقى زمانين فكيف يكون قديماً ؟

فقال بأن القديم هو المعنى ، ثم جعل المعنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض ، لا امتناع اختصاصه بعدد معين وامتناع معان لا نهاية لها في آن واحد ، وجعل القرآن العربي ليس هو كلام الله .

فلما شاع قوله وعرف جمهور المسلمين فساده شرعاً وعقلاً ، قالت طائفة أخرى - ممن وافقته على مذهب السلف - إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وعلى الأصل الذي أحدثه من القول بقدم القرآن - إن القرآن قديم ، وهو مع ذلك الحروف المتعاقبة والأصوات المؤلفة ، فصار قول هؤلاء مركباً من قول المعتزلة وقول الكلابية ، فإذا ناظرُوا المعتزلة على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ناظرُوهم بطريقة ابن كلاب ، وإذا ناظرُوهم الكلابية على أن القرآن العربي كلام الله ، وأن القرآن الذي يقرأه المسلمون كلام الله ناظرُوهم بحجج المعتزلة .

وليس بشيء من هذه الأقوال قول أحد من السلف كما بسط في غير هذا الموضع ، ولا قال شيئاً من هذه الأقوال لا الأئمة الأربعة ، ولا أصحابهم الذين أدركوهم ، وإنما قاله - ممن يتسبب إليهم - بعض المتأخرين الذين

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

نقلوها عن قالها من أهل الكلام ، ولم يكن لهم خبرة لا بأقوال السلف التي دل عليها الكتاب والسنة والعقل الصريح ، ولا بحقائق أقوال أهل الكلام الذي ذمه السلف ، ولم قالوا هذا ، وما الذي ألجأهم إلى هذا ؟

وقد شاع عند العامة ، والخاصة ، أن القرآن ليس بمخلوق ، والقول بأنه مخلوق قول مبتدع ، مذموم عند السلف والأئمة ، فصار من يطالع كتب الكلام التي لا يجد فيها إلا قول المعتزلة ، وقول من رد عليهم وانتسب إلى السنة ، يظن أنه ليس في المسألة إلا هذا القول .

وهذا وذاك قد عرف أنه قول مذموم عند السلف ، فيظن القول الآخر قول السلف ، كما يقع مثل ذلك في كثير من المسائل في غير هذه . لا يعرف الرجل في المسألة إلا قولين أو ثلاثة ، فيظن الصواب واحداً منها ، ويكون فيها قول لم يبلغه وهو الصواب دون تلك ، وهذا باب واسع في كثير من المسائل . والله يهدينا وسائر إخواننا المسلمين إلى ما يحبه ويرضاه ، من القول والعمل ، ومن اجتهد بقصد طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده ، لم يكلفه الله ما يعجز عنه ، بل يشبه الله على ما فعله من طاعته ، ويغفر ما أخطأ فيه فعجز عن معرفته .

فصل

والنصوص ، والآثار ، في تفضيل كلام الله - بل وتفضيل صفاته - على بعض متعددة . وقول القائل : صفات الله كلها فاضلة في غاية التمام ، والكمال ، ليس فيها نقص كلام صحيح ، لكن توهمه أنه إذا كان بعضها أفضل من بعض ، كان المفضل معيماً منقوصاً خطأ منه ، فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه أفضل من بعض ، ولهذا يقال : دعا الله باسمه الأعظم .

وتدل على أن بعض صفاته أفضل من بعض ، وبعض أفعاله أفضل من بعض ، ففي الآثار ذكر اسمه العظيم ، واسمه الأعظم ، واسمه الكبير ، والأكبر ، كما في السنن ، ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن بريدة^(١) عن أبيه قال : دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو : « اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به

(١) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب بن عبد الله الحارثي والده الذي التقى بالرسول - ﷺ - فقال له نبي الله من أنت قال : أنا بريدة فالتفت الى أبي بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر برد أمرنا واصلح ، ثم قال لي : من أنت ؟ فقلت : من أسلم قال لأبي بكر : سلما قال : ثم قال : من بني من . . ؟ قلت : من بني سهم قال : خرج سهمك .

أعطى ، وإذا دعي به أجاب » (١) .

وعن أنس قال : كنت جالساً مع رسول الله ﷺ في الحلقة ، ورجل قائم يصلي ، فلما ركع وسجد ، تشهد ، ودعا فقال في دعائه : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (٢)

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : «إن رحمتي تغلب غضبي» (٣) .

وفي رواية « سبقت رحمتي غضبي » . .

فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه ، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها . وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » (٤) وروى الترمذي أنه

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٩ باب اسم الله الأعظم

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٩ باب اسم الله الأعظم ٣٨٥٨ حدثنا علي بن محمد ثنا وكيع ثنا أبو خزيمة عن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك قال : سمع رسول الله - ﷺ - رجلاً يقول : وذكره .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٧٥٥٤ حدثني محمد بن أبي غالب حدثنا محمد بن اسماعيل حدثنا معتمر سمعت أبي يقول حدثنا قتادة أن أبا رافع حدثه أنه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره ورواه أيضاً في بدء الخلق ١ ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة ١٤ - ١٦ وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ (حلي) .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٤٢ باب ما يقال في الركوع والسجود ٢٢٢ (٤٨٦) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أسامة ، حدثني عبيد الله بن عمر عن محمد بن يحيى بن

كان يقول ذلك في وتره ، لكن هذا فيه نظر .

وقد ثبت في الصحيح والسنن والمسانيد من غير وجه الاستعاذة بكلماته التامة ، كقوله : « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » (١) .

وفي صحيح مسلم عن خولة أنه قال ﷺ من نزل منزلاً فقال : « أعوذ بكلمات الله التامة لم يضره شيء حتى يرتحل منه » (٢) .

وفي الصحيح أنه قال لعثمان بن أبي العباس : « قل : أعوذ بعزة الله ، وقدرته ، من شر ما أجد ، وأحاذر » (٣) .

ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه فقد استعاذ برضاه من

حبان عن الأعرج عن أبي هريرة ، عن عائشة قالت : فقدت رسول الله - ﷺ - ليلة من الفرائش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : وذكره .
ورواه أبو داود في الصلاة ١٤٨ والوتر ٥ والترمذي في الدعوات ٧٥ : ١١٢ ، والنسائي في الطهارة ١١٩ وابن ماجه في الاقامة ١١٧ والدعاء ٣ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ (حلي) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ١٠ باب ٣٣٧١ حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : كان النبي - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٦ باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره ٥٥ حدثنا هارون بن معروف وأبو الطاهر كلاهما عن ابن وهب واللفظ له روى حدثنا عبد الله بن وهب قال : وأخبرنا عمرو وهو ابن الحارث أن يزيد بن أبي حبيب والحارث بن يعقوب حدثاه عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج عن بسر بن سعيد عن سعد بن أبي وقاص عن خولة بنت حكيم السلمية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : وذكره .

(٣) الحديث رواه أبو داود في الطب ١٩ والترمذي في الطب ٢٩ والدعوات ١٢٥ وابن ماجه في الطب ٣٦ باب ما عوذ به النبي ﷺ وما عوذ به ، ٣٥٢٢ حدثنا أبو بكر ، ثنا يحيى بن أبي بكر ثنا زهير بن محمد عن يزيد بن خصيفة عن عمرو بن عبد الله بن كعب عن نافع بن جبير عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه قال - قدمت على النبي - ﷺ - وبني جمع قد كاد يطلني فقال لي النبي - ﷺ - وذكره .

سخطه ، وبمعافاته من عقوبته .

وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين ، يستعيز به باعتبار تلك الجهة ومنه باعتبار تلك الجهة ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه ، إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه ، والمستعاذ به مدعو مستجار به ، ملتجأ إليه ، والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروباً منها ، لكن باعتبار جهتين نصح ، كما في الحديث الذي في الصحيحين عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ علم رجلاً أن يقول عند النوم :

« اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك . وألجأت ظهري إليك ، وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت » (١) .

فبين أنه لا ينجي منه إلا هو ، ولا يلتجأ منه إلا إليه وأعمل الفعل الثاني لما تنازع الفعلان في العمل ومعلوم أن جهة كونه منجياً غير جهة كونه منجياً منه وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه غير كونه ملتجأ منه سواء قيل إن ذلك يتعلق بمفعولاته ، أو أفعاله القائمة به ، أو صفاته ، أو بذاته باعتبارين . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم ، وأهلهم وما ولوا » (٢) .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٧ باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٥٦ (٢٧١٠) حدثنا عثمان بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم واللفظ لعثمان قال إسحاق أخبرنا وقال عثمان حدثنا جرير عن منصور عن سعد بن عبيدة حدثني البراء ابن عازب أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره ورواه البخاري في الوضوء ٧٥ والدعوات ٥ ، ٦ ، ٨ ، والتوحيد ٣٤ وأبو داود في الأدب ٩٨ والترمذي في الدعوات ١٦ ، ١١٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الامارة (٥) باب فضيلة الامام العادل ، وعقوبة الجائر ، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن ادخال المشقة عليهم .

وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ، ويذكر فيها أن كلتاهما يمين مع تفضيل اليمين .

قال غير واحد من العلماء : لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة ناقصة في الفعل ، بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم - كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار - بين النبي ﷺ أن كلتا يمين الرب مباركة ، ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه ، كما في صفات المخلوقين مع أن اليمين أفضلهما كما في حديث آدم قال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة ^(١) فإنه لا نقص في صفاته ، ولا ذم في أفعاله بل أفعاله كلها إما فضل وإما عدل .

وفي الصحيحين عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض » ^(٢) فبين ﷺ أن الفضل بيده اليميني ، والعدل بيده الأخرى .

ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل .

وهو سبحانه كل رحمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ورحمته أفضل

١٨ (١٨٢٧) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب وابن نمير قالوا حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو (يعني ابن دينار عن عمرو بن أوس عن عبد الله بن عمرو قال ابن نمير وأبو بكر يبلغ به النبي - ﷺ وفي حديث زهير قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه النسائي في أدب القضاة (١) وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٦٠ (حلي) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيها أنكرت الجهمية ١٩٧ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا يزيد بن هارون أنبأنا محمد بن اسحاق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : وذكره .

ورواه الترمذي في التفسير (٥) (٣) وأحمد بن حنبل في المقدمة ٢ : ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠ (حلي) .

من نقمته .

ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا
عن يده الأخرى .

وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم كما فضل في القرآن أهل
اليمين ، وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ، وإن كانوا
إنما عذبهم بعدله .

وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين هم أهل السعادة ،
وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة .

ومما يبين هذا أن الشر لم يرد في أسمائه ، وإنما ورد في مفعولاته ،
ولم يصف إليه إلا على سبيل العموم وأضافه إلى السبب المخلوق ، أو
بحذف فاعله ، وذلك كقوله تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(١) و﴿ مِنْ شَرِّ مَا
خَلَقَ ﴾ ^(٢) .

وكأسمائه المقترنة مثل : المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، المعز ،
المذل ، الخافض ، الرافع ، وكقوله ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ^(٣) وكقوله
﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ^(٤)
وكقول الجن ﴿ وَأَنَا لَا نَذْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
رَشْدًا ﴾ ^(٥) وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء
الاستفتاح « والخير بيدك والشر ليس إليك » ^(٦) .

وسواء أريد به : أنه لا يضاف إليك ولا يتقرب به إليك ، أو قيل : إن

(١) سورة الزمر آية رقم ٦٢ وتكملة الآية ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾

(٢) سورة الفلق آية رقم ٢ . (٥) سورة الجن آية رقم ١٠ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٨٠ . (٦) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) سورة الفاتحة آية رقم ٧ .

الشر إما عدم وإما من لوازم العدم ، وكلاهما ليس إلى الله ، فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير ، وأسماءه تدل على صفاته ، وكذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر ، وإنما وقع الشر في المخلوقات قال تعالى : ﴿ نَبِيٌّ عَبْدِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) . فجعل المغفرة والرحمة من معاني أسمائه الحسنی التي يسمي بها نفسه ، فتكون المغفرة والرحمة من صفاته .

وأما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له ، وذلك هو الأليم ، فلم يقل : وإني أنا المعذب ، ولا في أسمائه الثابتة عن النبي ﷺ اسم المنتقم ، وإنما جاء المنتقم في القرآن مقيداً بقوله ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (٤) وجاء معناه مضافاً إلى الله في قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (٥) وهذه نكرة في سياق الإثبات ، والنكرة في سياق الإثبات مطلقة ليس فيها عموم على سبيل الجمع . وذلك أن الله سبحانه حكيم رحيم ، وقد أخبر أنه لم يخلق المخلوقات إلا بحكمته ، كما قال في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٦) وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

(١) سورة الحجر آية رقم ٤٩ - ٥٠ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٩٨ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٦٥ .

(٤) سورة السجدة آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة ابراهيم آية رقم ٤٧ .

(٦) سورة ص آية رقم ٢٧ .

وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴿١﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَنَتَّخِذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٢) .

وقال في السورة الأخرى ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وهذا يبين أن معنى قوله في سائر الآيات ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ هو لهذا المعنى الذي يتضمن حكمته كما قال ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤) وقوله ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿ (٦) .

وبعض الناس يظن أن قوله ﴿ هو الخلاق ﴾ إشارة إلى أنه خالق أفعال العباد فلا ينبغي التشديد في الإنكار عليهم ، بل يصفح عنهم الصفح الجميل لأجل القدر ، وهذا من أعظم الجهل ، فإنه سبحانه قد عاقب المخالفين له ولرسله ، وغضب عليهم ، وأمر بمعاقبتهم ، وأعد لهم من العذاب ما ينافي قول هؤلاء المعطلين لأمره ونهيهِ ووعده ووَعِيدِهِ .

وقوله ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ تعلق بما قبله وهو قوله ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٧) فإن لهم موعداً يجزون فيه ، كما قال تعالى في نظائر ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٨) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ١٦ - ١٧ .

(٣) سورة الدخان آية رقم ٣٩ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٧٣ وقد جاءت في المطبوعة محرفة بدون (الواو)

(٥) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .

(٥) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .

(٨) سورة الرعد آية رقم ٤٠ .

(٦) سورة الحجر آية رقم ٨٦ .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (١) وقوله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ولم يعذر الله أحداً قط بالقدر ، ولو عذر به لكان أنبياءه وأوليائه أحق بذلك ، وآدم إنما حج موسى لأنه لومه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ وما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله ، ويعلم أنها مقدرة عليه ، كما قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ (٤) .

قال علقمة - وقد روى عن ابن مسعود - : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فالعبد مأمور بالتقوى والصبر .

فالتقوى فعل ما أمر به ، ومن الصبر الصبر على ما أصابه وهذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيُصَبِّرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٦) . وقال ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ (٧) وقال ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٨) .

-
- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة الغاشية آية رقم ٢٦ - ٢١ . | (٥) سورة يوسف آية رقم ٩٠ . |
| (٢) سورة الصافات آية رقم ١٧٤ . | (٦) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ . |
| (٣) سورة الزخرف آية رقم ٨٩ . | (٧) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ . |
| (٤) سورة التغابن آية رقم ١١ . | (٨) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ . |

ولا بد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة والاستغفار ،
ويتنلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر والاستغفار ، كما قيل
لأفضل الخلق ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (١) .

وقد بسط الكلام في غير هذا الموضوع على مناظرة آدم وموسى ، فإن
كثيراً من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة
ومنهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له ، والحديث حق يوجب أن الإنسان
إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه أو غير أبيه ، لا سيما إذا كان أبوه قد
تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعه ، كما جرى لآدم صلوات الله عليه
قال تعالى ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٢) .

وقال ﴿ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (٣) وكان آدم وموسى
أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر ويوافقه الآخر ، ولو كان كذلك
لم يحتج آدم إلى توبة ولا أهبط من الجنة ، وموسى هو القائل : ﴿ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ (٤) . وهو القائل ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥) .

وهو القائل ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (٦)
وهو القائل لقومه ﴿ فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ
بَارِئِكُمْ ﴾ (٧) .

فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا ، بل كان الاحتجاج

(٥) سورة الأعراف آية رقم ١٥١ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٥٥ .

(٧) سورة البقرة آية رقم ٥٤ .

(١) سورة غافر آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٧ .

(٤) سورة القصص آية رقم ١٦ .

بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله وقدرها .

ومن الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فالمؤمن يصبر على المصائب ، ويستغفر من الذنوب والمعائب والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته ، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه ، ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير ، فعكس القضية . بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها ، وتفضل بها ، فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها ، وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها ، وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه ، وهذا مبسوط في موضعه .

والمراد هنا أنه سبحانه بين أنه إنما خلق المخلوقات لحكمته ، وهذا معنى قوله : ﴿ بالحق ﴾ .

وقد ذم من ظن أنه خلق ذلك باطلاً وعبثاً فقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

وقال ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٢) وقال ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) فلا بد من جزاء العباد على أعمالهم ، فلهذا قيل : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٤) .

ولله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة يحبها ويرضاها وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، واتفق كل ما صنع ، فما وقع من الشر الموجود في

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٩٠ - ١٩١

(٤) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .

المخلوقات فقد وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية فهو من الله حسن جميل ، وهو سبحانه محمود عليه ، وله الحمد على كل حال ، وإن كان شراً بالنسبة إلى بعض الأشخاص . وهذا موضوع عظيم قد بسط في غير هذا الموضع ، فإن الناس - في باب خلق الرب وأمره ولم فعل ذلك - على طرفين ووسط :

فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا لتعظيم الرب وتنزيهه عما ظنوه قبيحاً من الأفعال وظلماً ، فأنكروا عموم قدرته ومشيتته ، ولم يجعلوه خالقاً لكل شيء ، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، بل قالوا : يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم - بالقياس على أنفسهم - وتكلموا في التعديل والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق فضلوا وأضلوا ، وقابلهم الجهمية الغلاة في الجبر ، فأنكروا حكمة الله ورحمته .

وقالوا : لم يخلق لحكمة ، ولم يأمر بحكمة ، وليس في القرآن « لام كي » لا في خلقه ولا في أمره . وزعموا أن قوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ (١) .

و ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ ﴾ (٤) وقوله ﴿ لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٥) وأمثال ذلك - إنما اللام فيه لام العاقبة . كقوله ﴿ فَالْتَقِطْهُ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (٦) وقول

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٨٥ .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .

(٦) سورة القصص آية رقم ٨ .

(١) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٣١ .

القائل : لدوا للموت وابنوا للخراب . ولم يعلموا أن لام العاقبة إنما تصح ممن يكون جاهلاً بعاقبة فعله كفرعون الذي لم يكن يدري ما ينتهي إليه أمر موسى ، أو ممن يكون عاجزاً عن رد عاقبة فعله ، كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم والخراب عن ديارهم .

فأما من هو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وهو مريد لكل ما خلق ، فيمتنع في حقه لام العاقبة التي تتضمن نفي العلم ، أو نفي القدرة .
وأنكر هؤلاء محبة الله ورضاه لبعض الموجودات دون بعض ، وقالوا : المحبة والرضا هو من معنى الإرادة ، والله مريد لكل ما خلقه فهو راض بذلك محب له .

وزعموا أن ما في القرآن من نفي حبه ورضاه بالكفر والمعاصي كقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ ^(١) ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ ^(٢) .

محمول على عباده الذين لم يقع ذلك منهم ، أو أنه لم يرد ديناً يشبه عليه .

وزعموا أن الله لا يحب ولا يرضى ما أمر به من العبادات إلا إذا وقع ، فيريده كما يريد حينئذ ما وقع من الكفر والمعاصي . إلى غير ذلك من أقوالهم المبسوطة في غير هذا الموضع ، وكثير من المتأخرين يظن أن هذا قول أهل السنة .

وهذا مما لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها . بل جميع مثبتة القدر المتقدمين كانوا يفرقون بين المحبة والرضا وبين الإرادة ، ولكن أبو الحسن

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٥ وصدر الآية ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٧ .

الأشعري^(١) اتبع حبهما في ذلك .

قال أبو المعالي الجويني^(٢) : ومما اختلف أهل الحق في إطلاقه وعدم إطلاقه المحبة والرضا ، فصار المتقدمون إلى أنه سبحانه لا يحب الكفر ولا يرضاه وكذلك كل معصية .

وقال شيخنا أبو الحسن : المحبة هي الإرادة نفسها وكذلك الرضا والاصطفاء ، وهو سبحانه يريد الكفر ، ويرضاه كفراً قبيحاً معاقباً عليه وهو كما قال أبو المعالي ، فإن المتقدمين من جميع أهل السنة على ما دل عليه الكتاب والسنة من أنه سبحانه لا يرضى ما نهى عنه ولا يحبه . وعلى ذلك قدماء أصحاب الأئمة الأربعة أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، كأبي بكر عبد العزيز وغيره من قدمائهم ، ولكن من المتأخرين من سوى بين الجميع ، كما قاله أبو الحسن ، وهو في الأصل قول لجهم ، فهو الذي قال في القدر بالجبر ، وبما يخالف أهل السنة ، وأنكر رحمة الله تعالى ، وكان يخرج إلى الجذمي فيقول : أرحم الراحمين يفعل هذا ؟ فنفي أن يكون الله أرحم الراحمين ، وقد قال الصادق المصدوق « الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها »^(٣) .

(١) هو علي بن إسماعيل بن اسحاق أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة توفي عام ٣٢٤ هـ [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمفريزي ٢ : ٣٥٩ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧] .

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين توفي عام ٤٧٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ ، والسبكي ٣ : ٢٤٩ والفهرس التمهيدي ٢٠٩ و ٥٥١] .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٧ - عن عبد الله بن عمر بن حفص ، عن نافع عن ابن عمر كنا مع رسول الله - ﷺ في بعض غزواته وذكره .

ورواه الامام البخاري في كتاب الأدب ١٨ ، ومسلم في التوبة ٢٢ ، وأبو داود في كتاب الجنائز ١ .

وهذه مسائل عظيمة ليس هذا موضع بسطها .

وإنما المقصود هنا التنبيه على الجمل ، فإن كثيراً من الناس يقرأ كتباً مصنفة في أصول الدين وأصول الفقه ، بل في تفسير القرآن والحديث ، ولا يجد فيها القول الموافق للكتاب والسنة الذي دل عليه سلف الأمة وأئمتها ، وهو الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول ، بل يجد أقوالاً كل منها فيه نوع من الفساد والتناقض ، فيحار ما الذي يؤمن به في هذا الباب ، وما الذي جاء به الرسول ، وما هو الحق والصدق إذ لم يجد في تلك الأقوال ما يحصل به ذلك ؟ . وإنما الهدى فيما جاء به الرسول الذي قال الله فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (١) .

(١) سورة الشورى آي رقم ٥٢ - ٥٣ .

فصل

وإذا علم ما دل عليه الشرع مع العقل ، واتفاق السلف من أن بعض القرآن أفضل من بعض ، وكذلك بعض صفاته أفضل من بعض ، بقي الكلام في كون ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(١) تعدل ثلث القرآن ، ما وجه ذلك ؟

وهل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن ، وإذا قدر أن الأمر كذلك فما وجه قراءة سائر القرآن ؟

فيقال : أما الأول فقد قيل فيه وجوه أحسنها - والله أعلم - الجواب المنقول عن الإمام أبي العباس بن سريج ، فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي ﷺ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن « ^(٢) .

فقال : معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام : ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد وثلث منها الأسماء والصفات ، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي ^(٣) في هذا الحديث ثلاثة أوجه بدأ

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٣) هو عبد الرحمن بن علي ، بن محمد الجوزي ، القرشي ، البغدادي ، أبو الفرج علامة عصره في

بهذا الوجه .

فروي قول ابن سريج هذا بإسناده عن زاهد عن الصابوني والبيهقي عن الحاكم أبي عبد الله الحافظ قال : سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول : سألت أبا العباس بن سريج قلت : ما معنى قول النبي ﷺ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن ؟

قال : إن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام ، فثلث أحكام ، وثلث وعد ووعد ، وثلث أسماء وصفات ، وقد جمع في قل هو الله أحد أحد الأثلاث وهو الصفات ، ف قيل : إنها تعدل ثلث القرآن .

الوجه الثاني - من الوجوه الثلاثة التي ذكرها أبو الفرج بن الجوزي - أن معرفة الله هي معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة أفعاله .

فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته ؛ إذ لا يوجد شيء إلا وجد من شيء ما خلا الله فإنه ليس له كفاء ، ولا له مثل .

قال أبو الفرج ذكره بعض فقهاء السلف .

قال : والوجه الثالث : أن المعنى من عمل ما تضمنته من الاقرار بالتوحيد والإذعان للخالق كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته .

ذكره ابن عقيل ^(١) ، قال ابن عقيل : ولا يجوز أن يكون المعنى : من قرأها فله أجر ثلث القرآن لقول رسول الله ﷺ : من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ^(٢) .

قلت : كلا الوجهين ضعيف .

التاريخ والحديث توفي عام ٥٩٧ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٧ وذيل الروضتين ٢١ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٢٥] .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) الحديث رواه الدارمي في فضائل القرآن ١ .

أما الأول فيدل على ضعفه وجوه :

الأول : أن نقول : القرآن ليس كله هو المعرفة المذكورة ، بل فيه أمر بالأعمال الواجبة ، ونهي عن المحرمات ، والمطلوب من العباد المعرفة الواجبة والعمل الواجب ، والأمة كلها متفقة على وجوب الأعمال التي فرضها الله ، لم يقل أحد : بأنها ليست من الواجبات ، وإن كان طائفة من الناس نازعوا في كون الأعمال من الإيمان ، فلم ينازعوا في أن الله فرض الصلوات الخمس ، وغيرها من شرائع الإسلام وحرمة الفواحش ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿ .

وإذا كان كذلك وقدر أن سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن الثاني : أن يقال : قول القائل : معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة أفعاله إن أراد بذلك أن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية والسلبية فهذا ممتنع ، ولو قدر إمكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذاتاً مجردة عن جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذاك معرفته بالله البتة ، ولا هو رب العالمين ذات مجردة عن كل أمر سلبى أو ثبوتى ولهذا لم يقل أحد من العقلاء هذا إلا القرامطة ^(١) الباطنية يقولون : يسلب عنه كل أمر ثبوتى وعدمى ، فلا يقال : موجود ولا معدوم ، ولا عالم وليس بعالم ، ولا قادر ولا ليس بقادر ، ولا نحو ذلك ، وهؤلاء مع أن قولهم معلوم الفساد

(١) القرامطة : دعوة اسماعيلية متطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ هـ في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حمدان القرميطي ، وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب ، والأنباط ، والزنج ، المستعبدين ، وانتهى الأمر هؤلاء أن جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف . مبادئهم : قالوا : إن الصلاة مولاة إمامهم ، وأن الحج زيارته وخدمته ، أما الصوم فهو الإمساك عن إفشاء سره ، وقالوا من عرف معنى العبادة سقط عنه فرائضها ، فهذه الأفكار تتنافى تماماً مع مبادئ الإسلام ، فهذه الفرقة لم يبق لها أثر في العالم الاسلامي .

بضرورة العقل فإنهم متناقضون أما الأول : فلأن سلب النقيضين ممتنع ، كما أن جمعهما ممتنع فيمتنع أن يكون شيء من الأشياء لا موجوداً ولا معدوماً . وأما تناقضهم لا بد أن يذكروا أنه يسلب عنه النقيضان ببعض الأمور التي يتميز بها ليخبر عنه بهذا السلب . وأي شيء قالوه فلا بد أن يتضمن نفياً أو إثباتاً ، بل لا بد أن يتضمن إثباتاً ، وقد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع . ولهذا كان كثير من الملاحدة لا يصلون إلى هذا الحد ، بل يقولون كما قال أبو يعقوب السجستاني وغيره من الملاحدة نحن لا ننفي النقيضين ، بل نسكت عن إضافة واحد منهما إليه ، فلا نقول : هو موجود ولا معدوم ، ولا حي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، فيقال لهم : إعراض قلوبكم عن العلم به ، وكف ألسنتكم عن ذكره لا يوجب أن يكون هو في نفسه مجرداً عن النقيضين ، بل يفيد هذا كفركم بالله وكراحتكم لمعرفته ، وذكره وعبادته ، وهذا حقيقة مذهبكم ومن قال من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف والتحقيق كابن سبعين^(١) والصدر القونوي^(٢) وغيرهما : إنه وجود مطلق بشرط الإطلاق عن كل وصف ثبوتي وسلبى فهو من جنس هؤلاء . لكن هؤلاء يقولون هو وجود مطلق فيخصونه بالوجود دون العدم ، ثم يقولون هو مطلق ، والمطلق بشرط الإطلاق عن كل قيد سلبى وثبوتي إنكا يكون في الأذهان لا في الأعيان .

وهؤلاء يقولون : الوجود الكلي المقسوم إلى واجب وممكن الذي يجعله الفلاسفة موضوع العلم الإلهي ويسمون « الحكمة العليا » و« الفلسفة

(١) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد ، بن نصر ، ابن سبعين الأشيلي ، المرسي القرطبي . توفي عام ٦٦٩ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع جلاء العينين ٥١ ، وفوات الفوات ١ : ٢٤٧ ونفح الطيب ١ : ٤٢١ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٣٢] .

(٢) هو محمد بن اسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي توفي عام ٦٧٣ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع مفتاح السعادة ١ : ٤٥١ ثم ٢ : ٢١١ وطبقات السبكي ٥ : ١٩ ، وجامع كرامات الأولياء ١ : ١٣٣ وكشف الظنون ٢ : ١٩٥٦] .

الأولى « إنما يكون كلياً في الأذهان لا في الأعيان ، فليس في الخارج قط وجود هو بعينه واجب ، وهو بعينه ممكن ولا وجود هو نفسه يتصف به الواجب ، وهو بنفسه يتصف به الممكن ، بل صفة الواجب تختص به ، وصفة الممكن تختص به ، ووجود الواجب يخصه لا يشركه فيه غيره ، ووجود الممكن يخصه لا يشركه فيه غيره . ولهذا كان كل ما وصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع أن يكون له فيها مشارك أو مماثل ، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئاً من الذوات ، وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئاً من الصفات ، بل هو سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

فاسمه « الأحد » دل على نفي المشاركة والمماثلة .
واسمه « الصمد » دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال كما بسط الكلام على ذلك في الشرح الكبير المصنف في تفسير هذه السورة ، وصفات التنزيه كلها ، بل وصفات الإثبات يجمعها هذان المعنيان .

وقد بسط الكلام في التوحيد وأنه نوعان : علمي قولي وعملي قصدي
ف ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ اشتملت على التوحيد العملي نصاً ، وهي دالة على العلمي لزوماً .

و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً .

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك .

وقد ثبت أنه كان يقرأ أيضاً في ركعتي الفجر بآية الإيمان التي في البقرة ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ ^(١) في الركعة الأولى وآية الإسلام التي في آل عمران

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ وتكملة الآية ﴿ وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل =

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

والمقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه السورة .

أحدهما : نفي النقائص عنه ، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال ، فمن ثبت له الكمال التام انتفى نقصان المضاد له ، والكمال من مدلول اسمه الصمد .

والثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة وهذا من مدلول اسمه الأحد ، فهذان الاسمان العظيمان - الأحد ، الصمد - يتضمنان تنزيهه من كل نقص وعيب وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال ، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونفي جميع صفات النقص فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله ، وتضمنت أيضاً كل ما يجب إثباته من وجهين ، من اسمه الصمد ومن جهة أن ما نفى عنه من الأصول والفروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضاً ، فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً ، بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي ، فلا بد أن يتضمن ثبوتاً ، وإلا فالنفي المحض معناه عدم محض والعدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون صفة كمال .

وهذا كما يذكره سبحانه في آية الكرسي مثل قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

= وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .
(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ .

الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿١﴾ فنفي أخذ السنة والنوم له مستلزم لكمال حياته وقيوميته فإن النوم ينافي القيومية ، والنوم أخو الموت . ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون .

ثم قال ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ﴿٢﴾ فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه ، إذ كل من شفع إليه شافع بلا إذنه ، فقبل شفاعته كان منفعلاً عن ذلك الشافع ، فقد أثرت شفاعته فيه فصيرته فاعلاً بعد أن لم يكن ، وكان ذلك الشافع شريكاً للمشفوع إليه في ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة إذ كانت بدون إذنه ، لا سيما والمخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه ، فقبل الشفاعة وإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة : إما من الشافع أو من غيره ، وإلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتاج إلى شفاعة ، والله تعالى منزّه عن ذلك كله ، كما قال في الحديث الإلهي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا نقعي فتتفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني » (٣) .

ولهذا كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالشفاعة إليه ، فكان إذا أتاه طالب حاجة يقول : اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء (٤) « أخرجاه في الصحيحين ، وكان مقصوده أنهم يؤجرون على الشفاعة ، وهو إنما يفعل ما أمره الله به .

وكذلك قوله ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ٥٥ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأدب ٣٦ باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ٦٠٢٧ بسنده عن أبي موسى - رضي الله عنه وأيضاً في كتاب الزكاة ٢١ ، وأبو داود في الأدب ١١٧ والترمذي في كتاب العلم ١٤ ، والنسائي في كتاب الزكاة ٦٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٤٠٠، ٤٠٩، ٤٠٣ (حلي) .

عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿١﴾ .

بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه كما قالت الملائكة ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (٢) فكان في هذا النفي إثبات أن عباده لا يعلمون إلا ما علمهم إياه فأثبت أنه الذي علمهم ، لا ينالون العلم إلا منه فإنه ﴿ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٣) و ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٤) ثم قال ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ (٥) .

أي لا يكرثه ولا يثقله ، وهذا النفي تضمن كمال قدرته فإنه مع حفظا
للسموات والأرض لا يثقل ذلك عليه كما يثقل على من في قوته ضعف .

وهذا كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (٦) فنزه نفسه عن مس اللغوب .

قال أهل اللغة : اللغوب الإعياء والتعب وكذلك قوله ﴿ لَا تُذِرْكُهُ
الْأَبْصَارُ ﴾ (٧) الإدراك عند السلف والأكثرين هو الإحاطة .

وقال طائفة : هو الرؤية ، وهو ضعيف ، لأن نفي الرؤية عنه لا مدح
فيه ، فإن العدم لا يرى ، وكل وصف يشترك فيه الوجود والعدم لا يستلزم أمراً
ثبوتياً فلا يكون فيه مدح ، إذ هو عدم محض ، بخلاف ما إذا قيل لا يحاط
به ، فإنه يدل على عظمة الرب جل جلاله .

وإن العباد مع رؤيتهم له لا يحيطون به رؤية ، كما أنهم مع معرفته لا
يحيطون به علماً ، وكما أنهم مع مدحه والثناء عليه لا يحيطون ثناء عليه ، بل

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٣٢ .

(٣) سورة العلق آية رقم ١ - ٢ .

(٤) سورة العلق آية رقم ٤ - ٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٦) سورة ق آية رقم ٣٨ .

(٧) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

هو كما أثنت على نفسه المقدسة .

ولهذا قال أفضل الخلق وأعلمهم « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) .

وهذه الأمور مبسوسة في موضع آخر .

والمقصود هنا : الكلام على معنى كون ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن ، وبيان أن الصواب القول الأول الوجه الثالث الذي يدل على فساد القول الثاني أن يقال : قول القائل : معرفة أفعاله « إن أراد بذلك معرفة آياته الدالة عليه فهذه من تمام معرفته ، ويبقى معرفة وعده ووعيده ، وقصص الأمم المؤمنة والكافرة لم يذكره وهو القسم الثاني من أقسام معاني القرآن ، كما لم يذكر أمره ونهييه ، وإن جعل هذه من مفعولاته فمعلوم أن معرفة الوعد والوعيد والقصص المطلوب فيها الإيمان باليوم الآخر ، وجزاء الأعمال ، كما أن المطلوب بالأمر والنهي طاعته ، فإنه لا بد من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن العمل الصالح لكل أمة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

الوجه الرابع : أن يقال : ما ذكره من نفي المثل عنه ومن نفي الولادة المذكور في غير هذه السورة فلم يختص بهذا المعنى الوجه الخامس : أن يقال : هب أنها تضمنت التنزيه كما ذكره الله ، فمعرفة الله ليست بمعرفة

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٢ باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ ٣٨٤١ - عن الأعرج عن أبي هريرة ، عن عائشة قالت : وذكره ، ورواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٢٢٢ ، وأبو داود في كتاب الصلاة ١٤٨ ، والوتر ٥ ، والنسائي في قيام الليل ٥١ ، والترمذي في الدعوات ٧٥ ، ١١٢ ، وصاحب الموطأ في مس القرآن ٣١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ٦ : ٥٨ (حلي) .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

صفات السلب . بل الأصل فيها صفات الإثبات ، والسلب تابع ومقصوده
تكميل الإثبات ، كما أشرنا إليه من أن كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات .

ولهذا كان قول « سبحان الله » متضمناً لتنزيه الرب وتعظيمه ، ففيها
تنزيهه من العيوب والنقائص ، وفيها تعظيمه سبحانه وتعالى كما قد بسط
الكلام على ذلك في مواضع وأما القول الثالث وهو المراد به أن من عمل بما
تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته ، فهذا أيضاً ضعيف ،
وما نفاه من المعادلة فهو مبني على قول من اعتبر في مقدار الأجر كثرة الحروف
وهو قول باطل ، كما قد بين في موضعه ، وذلك أن العمل بها إن أراد به
العمل الواجب من التصديق بمضمونها ، وتوحيد الله فهذا أجره أعظم من
أجر من قرأ القرآن جملة ولم يعمل بذلك . فإنه إن خلا عن الإيمان بمضمون
القرآن فهو منافق ، وإن خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق ، ومعلوم أن
هذا لو قرأ القرآن عشر مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقي .

وأيضاً فإن هذا الأجر على الإيمان بمضمونها سواء قرأها أو لم يقرأها ،
والأجر المذكور في الحديث هو لمن قرأها فلا بد أن يكون قد قرأها مع
الإيمان بما تضمنته وأيضاً فالنبي ﷺ جعل قراءتها تعدل ثلث القرآن ، وقرأها
على أصحابه ، وأخبرهم أنه قرأ عليهم ثلث القرآن ، فكانت قراءته لها تعدل
قراءته هو للثلاث وكذلك الرجل الذي جعل يرددها .

وكذلك إخباره لهم بأنها تعدل ثلث القرآن ، وإنما يراد به ثلثه إذا قرأوه
هم ، لم يرد به الثلاث إذا قرأها منافق لا يؤمن بمعنى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

ثم إن كون المراد بذلك من قرأ الثلاث بلا إيمان بها معنى ليس في
اللفظ ما يدل عليه ، وإنما يدل اللفظ على نقيضه .

وهذا التأويل وأمثاله هو من تحريف الكلم عن مواضعه الذي ذم الله
عليه من فعل ذلك من أهل الكتاب وهو نوع من الإلحاد في كلام الله
ورسوله .

وقد ذكر أبو حامد الغزالي ^(١) وجهاً آخر غير هذه الثلاثة فقال في كتابه « جواهر القرآن ودرره » أما قوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ، ما أراك تفهم وجه ذلك ، فتارة تقول : ذكر هذا للترغيب في التلاوة ، وليس المعنى به التقدير ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك .

وتارة تقول : هذا بعيد عن الفهم والتأويل ؛ فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية ، فهذا القدر كيف يكون ثلثها ؟ وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن ، ونظرك إلى ظاهر ألفاظه ، فتظن أنها تعظم وتكثر بطول الألفاظ ، وتقصر بقصرها ، وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظراً إلى كثرتها .

فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعاً ، وترجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن وهي : معرفة الله ، ومعرفة الآخرة ، ومعرفة الصراط المستقيم ، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي تابع ، وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع ، وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفاء ، والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه .

نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم فلذلك تعدل ثلث القرآن ، أي ثلث الأصول من القرآن ، كما قال « الحج عرفة » ^(٢) أي هو

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ، حجة الاسلام توفي عام ٥٠٥ هـ سبق الترجمة له . [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وشذرات الذهب ٤ : ١٠ ومفتاح السعادة ٢ : ١٩١ - ٢١٠ وتبين كذب المفتري ٢٩١ - ٣٠٦] .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المناسك ٥٧ باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع : ٣٠١٥ عن بكر بن عطاء ، سمعت عبد الرحمن بن يعمر الديلي ، قال : شهدت رسول الله - ﷺ - وهو واقف بعرفة ، وأتاه ناس من أهل نجد فقالوا : يا رسول الله كيف الحج .. ؟ قال : الحج عرفة .

الأصل ، والباقي تبع .

قلت : آيات القرآن نوعان : علمية وعملية وفي الآيات ما يجمع الأمرين .

وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله ، دون ما يتعلق باليوم الآخر والقصص ، وسماها « جواهر القرآن » وجمع العمليات وسماها « درر القرآن » وجعل الشطر الأول من « الفاتحة » من الجواهر والثاني من الدر ، والآيات التي تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها ، ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف وخمسمائة آية ، وجعل معاني القرآن ستة أصناف : ثلاثة أصول ، وثلاثة توابع فذكر أن القرآن هو البحر المحيط ، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين .

وقال : سر القرآن ولبابه الأصفى ، ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى وخالق السموات العلى والأرضين السفلى .

فالثلاثة المهمة : تعريف المدعو إليه ، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه . وتعريف الحال عند الوصول إليه .

وأما الثلاثة المعنية فأحدها : أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم ، وسره ومقصوده التشويق والترغيب ، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة ، وكيفية قمع الله لهم ، وتنكيله بهم . وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب .

وثانيها : حكاية أقوال الجاحدين ، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحااجة على الحق . ومقصوده وسره في جنبه الباطل الإفصاح .

= ورواه الترمذي في كتاب تفسير سورة ٢ : ٢٢ ، وأبو داود في كتاب المناسك ٦٨ ، والدارمي في المناسك ٥٤ .

والتحذير والتنفير وفي جنبه الحق الإيضاح والتثبيت والتقدير .

وثالثها : تعريف عمارة منازل الطريق ، وكيفية أخذ الزاد والراحلة ، والأهبة للاستعداد . قلت : ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة فهو حق كما ذكره ، ولا بد من الثلاثة في كل ملة ودين كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

ونحو ذلك في سورة المائدة، فذكر هذه الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح وأما الثلاثة الآخر التابعة فهي داخلة في هذه الثلاثة ، فإن ما في القرآن من ذكر أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة فهو من تفضيل الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح ، وما فيه من المجادلة والمحاجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة ، فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والأدلة المثبتة لذلك وذكر شبه الجاحدين وبين فسادها .

وقد ذكر أبو حامد ذلك فقال : القسم الجائي لمحاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح ، وكشف أباطيلهم وتخايلهم ، وأباطيلهم ثلاثة أنواع :

الأول : ذكر الله بما لا يليق به من أن الملائكة بناته ، وأن له ولداً شريكاً ، وأنه ثالث ثلاثة .

الثاني : ذكر رسول الله ﷺ بأنه ساحر وكاهن وشاعر ، وإنكار نبوته .

وثالثها : إنكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار ، وإنكار

(١) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

عاقبة الطاعة والمعصية .

وأما ما فيه من الإخبار بأحوال المؤمنين والكفار في الدنيا - وهو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين والناكبين - فهذا من تمام الأدلة والآيات ، فإن هذا أمر شوهد في الدنيا ورثيت آثاره ، وتواترت أخباره ، ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد .

ولهذا يذكر سبحانه هذا في معرض الاحتجاج والاستدلال ، مع ما في ذلك من الموعظة كقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^(١) ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِيتِ الثَّقَاتِ ، فَتَهُ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأًي الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ^(٢)

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ^(٣) .

وقوله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ^(٤) .

وقوله ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

(٣) سورة الحشر آية رقم ٢ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١١ .

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .

الصُّدُورِ ﴿١﴾ .

وقوله ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٢﴾ الْآيَةُ .

وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط ﴿فَجَعَلْنَا عَلَیْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَیْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ، وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٣﴾ . والمتوسم : المستدل بالسمة والسيما ، وهي العلامة قال تعالى ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴿٤﴾ .

فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها ، لكن هذا يكون إذا تكلموا ، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله ، فإن ذلك أخفى .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٥﴾ قال مجاهد وابن قتيبة : للمتفرسين .

قال ابن قتيبة : يقال : توسمت في فلان الخير أي : تبينته .

وقال الزجاج : المتوسمون في اللغة النظار المشتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال : توسمت في فلان كذا أي عرفت .

وقوله : المشتون في نظرهم . أي في نظر أعينهم حتى يعرفوا السيما ، بخلاف الذين قيل فيهم ﴿وَكَايُنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٦﴾ .

(٤) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٥) سورة الحجر آية رقم ٧٥ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ١٠٥ .

(١) سورة الحج آية رقم ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٩ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٧٤ - ٧٦ .

وقال الضحاك : الناظرون .

وقال ابن زيد : المنتقدون .

وقال قتادة : المعتبرون . وكل هذا صحيح ؛ فإن المتوسم يجمع هذا كله .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴾ ^(١) .

ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة ، ثم قال ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ^(٢) أي بطريق متبين للناس واضح وكذلك في موضع آخر لما قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ^(٣) وقال في سفينة نوح ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ^(٤) .

فأخبر أنه أبقى آيات ، وهي العلامات والدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا ، وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يستدل بها ويعتبر بها علماً ووعظاً ، فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل ، ويفيد الترغيب والترهيب .

ويدل ذلك على أن الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم ، ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته ، فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل ، ويستدل بأحكام الأفعال على علمه ، لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل وبالتخصيص على مشيئته ، لأن التخصيص مستلزم لإرادته ، فكذا يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٣٥ - ٣٧ .

(٤) سورة القمر آية رقم ١٥ .

(١) سورة الحجر آية رقم ٧٦ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٧٩ .

حكيمته ، لأن تخصيص الفعل بما هو محمود في العاقبة مستلزم للحكمة .

ويستدل بتخصيص الأنبياء وأتباعهم بالنصر وحسن العاقبة ، وتخصيص مكذبيهم بالخزي وسوء العاقبة على أنه يأمر ويحب ويرضى ما جاءت به الأنبياء ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم ؛ لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة : يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول ، وبغض ما فعله الصنف الثاني . وأما الإرادة التي يقال فيها : إنها تخص أحد المثلين عن الآخر بلا سبب ، فتلك هل يوصف الله بها ؟ فيه نزاع .

فإن قيل : إنه لا يوصف بها فلا كلام .

وإن قيل : إنه يوصف بها فمعلوم أن تخصيص الأنبياء عليهم السلام بهذا ، وتخصيص أعدائهم بهذا لم يصدر عن تخصيص بلا مخصص ، بل يعلم أنه قصد تخصيص هؤلاء بالإكرام ، وهؤلاء بالعقاب وأن إيمان هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا ، وكفر هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا .

وليسط هذه الأمور موضع آخر .

لكن المقصود هنا أن هذه الثلاثة داخلة في الثلاثة الأول ، ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ، ويجعل أخبار الأنبياء علم القصص .

ويقول : إن الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل بل إنما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ، ويجعل أهله من جنس خضراء الحجيج ، ويجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا ، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس وتكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه . كما تكلموا على ما ذكره في هذا الكتاب « جواهر القرآن » وغيره من كتبه من معاني الفلسفة ، وجعل ذلك هو باطن القرآن ، وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك ؛

فإن هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة ، كما تكلموا على ما ذكره في النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها . والمقصود أن هذا الذي ذكره في ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أحسن من قول كثير من الناس فيها ، وهو أقرب إلى القول الذي ذكرناه عن ابن سريج . ونصرناه ، لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب ، فإن النبي ﷺ أخبر . بأن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ جزءاً من اجزاء القرآن ، وهذا يقتضي أن مجموع القرآن ثلاثة أجزاء ، ليس هو ستة : ثلاثة أصول ، وثلاثة فروع .

وكذلك أخبر أن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ، لم يقل ثلث المهم منه ، ولا ثلث أكثره ، ولا أصوله ، فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف ، وعلى ما ذكره أبو حامد هو ستة : ثلاثة مهمة ، وثلاثة توابع ، والسورة أحد الثلاثة المهمة وهذا خلاف الحديث .

وأيضاً : فإن تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام تقسيم بالدليل فإن القرآن كلام ، والكلام إما إخبار وإما إنشاء والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق ، فهذا تقسيم بين ، وأما جعل علم الفقه خارجاً عن الصراط المستقيم والعمل الصالح ، وجعل علم الأدلة والحجج خارجاً عن الإيمان والمعرفة بالله واليوم الآخر . فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف . وأبو حامد إنما ذكر هذا لأنه يقول : إنما يعرف معاني ذلك بطريق التصفية فقط ، لا بطريق الخبر النبوي ، ولا بطريق النظر الاستدلالي ، فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل .

وهذا مما أنكره عليه الناس وصنفوا كتباً في رد ذلك كما فعل جماعات من العلماء ، ولكن عذر أبي حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق في ذلك ، ولم يعلم طريقاً عقلية غير ذلك . فنفي أن يعلم بطريق النظر فيه .

وأما الطرق الخبرية الثبوتية فلم يكن له خبرة بما صح من ألفاظ

الرسول ، وبطريق دلالة ألفاظه على مقاصده ، وظن - بما شارك به بعض أهل الكلام والفلسفة - أن الرسول لم يبين مراده بألفاظه فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي ، وظن أن المطلوب يحصل له بطريق التصفية والعمل ، فسلك ذلك ، فلم يحصل له المقصود أيضاً ، فرجع في آخر عمره إلى قراءة البخاري ومسلم .

وقد ذكر القاضي عياض ^(١) أقوالاً في كون ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن .

وكذلك المازري قبله قال : قال الإمام - يعني أبا عبد الله المازري - قيل معنى ذلك : أن القرآن على ثلاثة أنحاء : قصص وأحكام ، وأوصاف لله جلّت قدرته .

و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تشتمل على ذكر الصفات فكانت ثلثاً من هذه الجهة ، قال : وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن .

قلت : هذا هو قول ابن سريج - وهو الذي نصرناه - ذكره المازري في كلام ابن ^(٢) بطلال كما سيأتي .

قال : وقيل : معنى ثلث القرآن لشخص بعينه قصيده رسول الله ﷺ ، وذكره ابن بطلال أيضاً .

(١) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السني أبو الفضل عالم المغرب ، وإمام أهل الحديث في وقته ، كان من أعلم الناس بكلام العرب ، وأنسابهم وأيامهم وولي قضاء سبته ، ثم قضاء غرناطة توفي بمراكش عام ٥٤٤ هـ من كتبه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢ وقضاة الأندلس ١٠١ وقلائد العقبان ٢٢٢ والفهرس التمهيدي ٣٦٨] .

(٢) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال ، أبو الحسن ، عالم بالحديث من أهل قرطبة ، له شرح البخاري . الجزء الأول منه ، والثالث والرابع في الأزهرية ، والثاني : كتب سنة ٧٧٦ في خزانة القرويين بفاس والخامس (الأخير منه) منه قطعة مخطوطة في استنبول أولها (باب زيادة الايمان ونقصانه) توفي عام ٤٤٩ هـ [راجع شذرات الذهب ٣ : ٢٨٣ والأزهرية ١ : ٥١٤] .

قال : وقيل معناه إن الله يتفضل بتضعيف الثواب لقارئها ، ويكون
 منتهى التضعيف إلى مقدار ثلث ما يستحق من الأجر على قراءة القرآن من
 دون تضعيف أجر . قال : وفي بعض روايات هذا الحديث أن رسول الله ﷺ
 حشد الناس وقال : سأقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قتال
 المازري : وهذه الرواية تقدر في تأويل من جعل ذلك لشخص بعينه قال
 القاضي عياض : قال بعضهم قال الله تعالى ﴿ آلر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ
 فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ^(١) ثم بين التفضيل فقال ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
 اللَّهَ ﴾ فهذا فصل الألوهية ، ثم قال ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ^(٢) وهذا
 فصل النبوة ، ثم قال :

﴿ وَإِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ ^(٣) .

فهذا فصل التكليف ، وما وراءه من الوعد والوعيد وعامة أجزاء القرآن
 مما فيه من القصص فمن فصل النبوة لأنها من أدلتها وفهمها أيضاً .

وهذا يدل على أن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ جمعت الفصل الأول .

قلت : مضمون هذا القول أن معاني القرآن ثلاثة أصناف . الالهيات ،
 والنبوات ، والشرائع .

وأن هذه السورة منها الالهيات ، وجعل صاحب هذا القول الوعد
 والوعيد والقصص من قسم النبوة ؛ لأن ذلك مما أخبر به النبي ﷺ أو ممَّا يدل
 على نبوته .

وهذا القول ضعيف أيضاً ، فإنه يقال : والأمر والنهي أيضاً مما جاء به

(١) سورة هود آية رقم ١ .

(٢) سورة هود آية رقم ٢ .

(٣) سورة هود آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ يَمْتَعِكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ
 وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ .

النبى ، كما جاء بالوعد والوعيد . ويقال أيضاً : القصص تدل على الأمر والنهى كما تدل على النبوة ، فإنها تدل على إكرامه لمن أطاعه ، وعقوبته لمن عصاه ، وهذا تقرير للأمر والنهى كما تقدم . وأيضاً : فإن مقصود النبوة هو الإخبار بما أمر الله به وبما أخبر به ، وما دل على إثبات النبوة من القصص يدل على إثبات ما جاء به النبى ، وما دل على إثبات ما جاء به النبى يدل على الأمر والنهى الذى جاء به النبى فهما متلازمان .

ثم الالهيات أيضاً هي مما جاء به النبى ﷺ فبين الدلائل العقلية على ما يمكن أن يعرف بالعقل . وأخبر عن الغيب المطلق الذى تعجز العقول عن معرفته فلا معنى لجعل القصص داخلة في النبوة دون الالهيات فإنه إن عنى أن القصص تدل على نبوته فهي تدل من جهة إخباره بها كإخباره بغيرها من الغيب ، وفيما أخبر به من الالهيات والأمور المستقبلات ما هو كالقصص في ذلك وأبلغ .

وإن عنى أن تعذيب المكذبين يدل على النبوة فهي تدل على جنس النبوة ، وعلى نبوة من عذب قومه لا تدل على نبوة المتأخر ، إلا أن يكون ما أخبر به من جنس ما أخبر به الأول .

وهذه الأمور كلها موجودة في الالهيات وزيادة ، فإنه قد أخبر فيها بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله .

قد ذكر الله ذلك في غير موضع كقوله ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

(١) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الانبياء آية رقم ٢٥ .

وقوله ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ﴾ (١) .

وقد أخبر الله عن الأنبياء الذين قص أخبارهم كنوح وهود وصالح
وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين أن كلاً منهم يقول لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) .
بل يفتح دعوته بذلك .

وذكر تعالى عن الأنبياء وأممهم من نوح إلى الحواريين أنهم كانوا
مسلمين ، كما قد بسط في غير موضع وأيضاً فالالهيات التي تعلم منها قدرة
الرب ، وإرادته وحكمته ، وأفعاله :

منها يعلم النبي من المتنبى ، ومنها يعلم صدق النبي فهي أدل على
صدق النبي من مجرد القصص ، وما في القصص من الدلالة على صدقه إنما يدل
مع الالهيات وإلا فلو تجرد لم يدل على شيء ، فالنبوة مرتبطة بالالهيات أعظم من
ارتباطها بغيرها ، والأنبياء إنما بعثوا بالدعوة إلى الله وحده ، وقد يذكرون المعاد
مجملاً ومفصلاً ، والقصص قد يذكر بعضهم بعضاً مجملاً . وأما الالهيات فهي
الأصل ، ولا بد من تفصيل الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه ، فلا بد لكل
نبي من الأصول الثلاثة ، الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، والأصول
الكلية التي يشترك فيها الأنبياء يذكرها الله في السور المكية مثل : الأنعام
والأعراف وذوات ﴿ الر ﴾ و ﴿ طسم ﴾ و ﴿ حم ﴾ وأكثر المفصل ، ونحو ذلك ،
والمدنيات تتضمن بخطاب من آمن بجنس الرسل من أهل الكتاب من المؤمنين
بالشرائع التي بعث بها خاتم الرسل .

وأما قول من قال : إن هذا في شخص بعينه ، ففي غاية الفساد لفظاً
ومعنى .

(١) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ .

ثم إن الله إنما يخص الشيء المعين بحكم يخصه لمعنى يختص به كما قال لأبي بردة بن نيار ^(١) - وكان قد ذبح في العيد قبل الصلاة - قبل أن يشرع لهم النبي ﷺ أن الذبح يكون بعد الصلاة . فلما قال النبي ﷺ أن الذبح يكون بعد الصلاة ، فلما قال النبي ﷺ « أول ما نبداً به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نذبح فمن ذبح قبل الصلاة فليعد ؛ فإنما هي شاة لحم قدمها لأهلها » .

ذكر له أبو بردة أنه ذبح قبل الصلاة ولم يكن يعرف أن ذلك لا يجوز ، وذكر له أن عنده عناقاً خيراً من جذعة فقال : تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك ^(٢) .

فخصه بهذا الحكم لأنه كان معذوراً في ذبحه قبل الصلاة ؛ إذ فعل ذلك قبل شرع الحكم فلم يكن ذلك الذبح منهيّاً عنه بعد ، مع أنه لم يكن عنده إلا هذا السن ، وأما أمره لامرأة أبي حذيفة بن عتبة أن ترضع سالماً مولاه خمس رضعات ^(٣) ليصير لها محرماً فهذا مما تنازع فيه السلف : هل هو مختص أو

(١) هو ابن عمرو بن عبيد بن عمرو بن كلاب ، بن دهمان ، واسم أبي بردة ، هانيء وله عقب ، وهو خال البراء بن عازب صاحب رسول الله ﷺ ، وقد شهد العقبة مع السبعين من الأنصار في رواية موسى بن عقبة ، ومحمد بن اسحاق ، وأبي معشر ، ومحمد بن عمر . وشهد أبو بردة غزوة بدر ، وأحد والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ - مات أبو بردة في خلافة معاوية راجع طبقات ابن سعد ٤٥١ - ٤٥٢ .

(٢) الحديث : رواه الامام البخاري في كتاب العيدين ٥ باب الأكل يوم النحر ٩٥٥ - حدثنا عثمان ، قال : حدثنا جرير عن منصور ، عن الشعبي ، عن البراء بن عازب - رضي الله عنها قال : خطبنا النبي ﷺ - يوم الأضحى بعد الصلاة فقال : من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فإنه قبل الصلاة ولا نسك له : ثم ذكره .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب النكاح ٣٦ باب رضاع الكبير ١٩٤٣ - حدثنا هشام بن عمار ، ثنا سفيان بن عيينة ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة - قالت : جاءت سهلة بنت سهيل الى النبي ﷺ - فقالت : يا رسول الله إني أرى في وجه أبي حذيفة الكراهية من دخول سالم علي . قال النبي ﷺ - أرضعيه قالت : كيف أرضعه ، وهو رجل كبير فتقسم رسول الله ﷺ - وقال : قد علمت أنه رجل كبير ، ففعلت . فأنت النبي ﷺ - فقالت : ما رأيت في وجه أبي حذيفة شيئاً أكرهه بعده ، وكان شهد بدرأ .

مشارك ؟

وإذا قيل هذا لمن يحتاج إلى ذلك - كما احتاجت هي إليه كان في ذلك جمع بين الأدلة .

وبالجملة فالشارع حكيم ، لا يفرق بين متماثلين إلا لاختصاص أحدهما بما يوجب الاختصاص ولا يسوي بين مختلفين غير متساويين ، بل قد أنكر سبحانه على من نسبته إلى ذلك وقبح من يحكم بذلك .

فقال تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ (٥) .

ولمّا يكون الاعتبار إذا سوى بين المتماثلين وأما إذا قيل : ليس الواقع كذلك فلا اعتبار . وقد تنازع الناس في هذا الأصل ، وهو أنه هل يختص بالأمر والنهي ما يخصه لا لسبب ولا لحكمة قط ، بل مجرد تخصيص أحد المتماثلين على الآخر .

(١) سورة ص آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة المجادلة آية رقم ٢١ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٣٥ - ٣٦ .

(٤) سورة القمر آية رقم ٤٣ .

(٥) سورة الحشر آية رقم ٢ .

فقال بذلك جهم بن صفوان^(١) ومن وافقه من الجبرية ، ووافقهم كثير من المتكلمين المثبتين للقدر .

وأما السلف وأئمة الفقه والحديث والتصوف وأكثر طوائف الكلام المثبتين للقدر كالكرامية وغيرهم ونفاته كالمعتزلة وغيرهم فلا يقولون بهذا الأصل بل يقولون : هو سبحانه يخص ما يخص من خلقه وأمره لأسباب والحكمة له في التخصيص . كما بسط الكلام على هذا الأصل في مواضع وكذلك قول من قال : يضعف لقارئها مقدار ما يعطاه قارئ ثلث القرآن بلا تضعيف : قول لا يدل عليه الحديث ، ولا في العقل ما يدل عليه ، وليس فيه مناسبة ولا حكمة فإن النص أخبر أن قراءتها تعدل ثلث القرآن وأن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن ، فإن كان في هذا تضعيف ففي هذا تضعيف وإن لم يكن في هذا تضعيف لم يكن في الآخر فتخصيص أحدهما بالتضعيف تحكم .

ثم جعل التضعيف بقدر ثلث القرآن إنما هو لما اختصت به السورة من الفضل ، وحينئذ ففضلها هو سبب هذا التقدير من غير حاجة إلى نقص ثواب سائر القرآن ، وأيضاً فهذا تحكم محض لا دليل عليه ولا سبب يقتضيه ، ولا حكمة فيه ، والناس كثيراً ما يغلطون من جهة نقص علمهم وإيمانهم بكلام الله ورسوله وقدر ذلك وما اشتمل عليه ذلك من العلم الذي يفوق علم الأولين والآخرين .

ومن علم أن الرسول أعلم الخلق بالحق وأفصح الخلق في البيان ، وأنصح الخلق للخلق علم أنه قد اجتمع في حقه كمال العلم بالحق ، وكمال القدرة على بيانه وكمال الإرادة له ، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه ، فيعلم أن كلامه أبلغ ما يكون وأتم ما يكون ،

(١) هو جهم بن صفوان السمرقندي ، أبو عمر : رأس الجهمية قتل عام ١٢٨ هـ سبق الترجمة له .
[راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ والكامل لابن الأثير حوادث ١٢٨ هـ ولسان الميزان ٢ :

وأعظم ما يكون بياناً لما بينه في الدين من أمور الالهية وغير ذلك .

فمن وقر هذا في قلبه لم يقدر على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرت وجد من أرادها بذلك القول من أبعد الناس عما يجب اتصاف الرسول به ، وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص ما أوتيته من العلم والإيمان ، وقد قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) .

فنسأل الله أن يجعلنا وإخواننا ممن رفع درجاته من أهل العلم والإيمان .

وإذ قد تبين ضعف هذه الأقوال - غير القول الأول الذي نصرناه وهو قول ابن سريج وغيره كالمهلب والأصيلي وغيرهما - فنقول : قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم ، فإنه سبحانه واحد ، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه .

والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضل من السور سورة الفاتحة وقال « إنه لم ينزل في التوراة والانجيل ولا في القرآن مثلها » (٢) والأحكام الشرعية تدل على ذلك . وقد بسط الكلام على معانيها في غير هذا الموضع ، وفضل من الآيات آية الكرسي .

وقال في الحديث الصحيح لأبي بن كعب « أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم » . قال ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٣) فضرب بيده في صدره وقال : ليهنك العلم أبا المنذر » (٤) .

وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي .

(١) سورة المجادلة آية رقم ١١ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة .

وسنبين إن شاء الله أنه إذا كانت ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة ، ولا أنها يكتفي بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن ، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرئ القرآن كله إلا مرة واحدة كما كتبت في المصحف ، فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف ، لا يزداد على ذلك ولا ينقص منه والتكبير المأثور عن ابن كثير ^(١) ليس هو مستنداً عن النبي ﷺ ، ولم يسنده أحد إلى النبي ﷺ إلا البزي وخالف بذلك سائر من نقله ، فإنهم إنما نقلوه اختصاراً ممن هو دون النبي ، وانفرد هو برفعه ، وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث ، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء فالمقصود أن من السنة في القرآن أن يقرأ كما في المصاحف ، ولكن إذا قرئت ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك ، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن ، لكن عدل الشيء - بالفتح - يكون من غير جنسه ، كما سنذكره إن شاء الله والثواب أجناس مختلفة ، كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك وإذا ملك الرجل من أحد أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلاً لم يلزم من ذلك أن يستغني عن سائر أجناس المال بل إذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك ، وكذلك إن كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره ، وإن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى

(١) هو اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي أبو الفداء ، عماد الدين ، حافظ ، مؤرخ فقيه ، ولد عام ٧٠١ هـ في قرية من أعمال بصرى الشام وانتقل الى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ورحل في طلب العلم ، وتوفي بدمشق عام ٧٧٤ هـ من تصانيفه البداية والنهاية ، وشرح صحيح البخاري لم يكمله ، وطبقات الفقهاء الشافعيين ، وتفسير القرآن الكريم . [راجع : ذبلا طبقات الحفاظ للحسين والسيوطي ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٣ ، والبدر الطالع ١ : ١٥٣ وشذرات الذهب ٦ : ٢٣١ وآداب اللغة ٣ : ١٩٣] .

جميع الأنواع التي يحتاج إلى أنواعها ومنافعها .

والفاتحة فيها من المنافع ثناء ودعاء مما يحتاج الناس إليه ما لا تقوم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مقامه في ذلك ، وإن كان أجرها عظيماً فذلك الأجر العظيم إنما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب ولهذا لو صلى بها وحدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته ولو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح صلاته لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لا بد للعبادة منها وقد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع وبين أن ما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه ، وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه ، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه ، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة ، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه ، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن - دع ثلثه - ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقيم مقامه ولم يسد مسده وهذا كما لو قدر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيماً يكون أفضل من قراءة القرآن مرات وهو لم يصل ذلك اليوم الصلوات الخمس لم يقيم ثواب هذه الأعمال مقام هذه ، كما لو كان عند الرجل من الذهب والفضة والرقيق والحيوان والعقار أموال عظيمة ، وليس عنده ما يتغذى به ويتعشى من الطعام فإنه يكون جائعاً متألماً فاسد الحال ولا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج إليه تلك الأموال العظيمة .

ولهذا قال الشيخ أبو مدين (٢) رحمه الله : أشرف العلوم علم التوحيد ،

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٦ - ٧ .

(٢) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين : صوفي من مشاهيرهم ، أصله من الأندلس ، أقام بفاس ، وسكن بجاية ، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور وتوفي بتلمسان عام ٥٩٤ هـ وقد قارب الثمانين أو تجاوزها له « مفاتيح الغيب » و « ستر العيب » [راجع جذوة الاقتباس]

وأنتفع العلم أحكام العبيد فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت بل الأنفع في كل وقت ما يحتاج إليه العبد في ذلك الوقت ، وهو فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا يقال : المفضل في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل ، إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة ، والقراءة أفضل من الذكر والذكر أفضل من الدعاء ، فهذا أمر مطلق . وقد تحرم الصلاة في أوقات فتكون القراءة أفضل منها في ذلك الوقت .

والتسبيح في الركوع والسجود هو المأمور به ، والقراءة منهي عنها ، ونظائر هذا كثير .

فهكذا يعلم الأمر في فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وغيرها ، فقراءة الفاتحة في أول الصلاة أفضل من قراءتها بل هو الواجب ، والاجتزاء بها وحدها لا يمكن ، بل تبطل معه الصلاة .

ولهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل ، والتقرب بالنوافل إنما يكون تقريباً إذا فعلت الفرائض ، لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب الفتوحات المكية ^(١) ونحوه ، من أن قرب الفرائض تكون بعد قرب النوافل ، والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه ، فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد ، كما بين .

وبين أن الحديث يتناقض مذهبه من وجوه ، كما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « يقول الله ، من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به

= ٢٣٢ وشجرة النور ١٦٤ وشذرات الذهب ٤ : ٣٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٣٩٩ .

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن العربي أبو بكر الحاتمي الطائفي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي . توفي عام ٦٣٨ هـ . [راجع فوات الوفيات ٢ : ٢٤١ وجذوة الاقتباس ١٧٥ ومفتاح السعادة

١ : ١٨٧ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٨ وجامع كرامات الأولياء ١ : ١١٨] .

وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي
يسمع ، وببي يبصر ، وببي يبطش ، وببي يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن
استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس
عبيد المؤمن يكره الموت ، وأكره مساءلته ولا بد له منه ^(١) » وقد بين في
هذا الحديث أن المتقرب ليس هو المتقرب إليه ، بل هو غيره . وأنه ما تقرب
إليه عبده بمثل أداء المفروض ، وأنه لا يزال بعد ذلك يتقرب بالنوافل حتى
يصير محبوباً لله ، فيسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشي به ، ثم قال « ولئن
سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .

ففرق بين السائل والمسؤول ، والمستعيز والمستعاذ به وجعل العبد
سائلاً لربه مستعيزاً به .

وهذا حديث شريف جامع لمقاصد عظيمة ليس هذا موضعها ، بل
المقصود هنا الكلام على ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وقد بينا أن أحسن الوجوه أن
معاني القرآن ثلاثة أنواع : توحيد ، وقصص ، وأحكام . وهذه السورة صفة
الرحمن فيها التوحيد وحده وذلك لأن القرآن كلام الله . والكلام نوعان : إما
إنشاء ، وإما إخبار .

والإخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق . فالإنشاء هو
الأحكام كالأمر والنهي ، والخبر عن المخلوق هو القصص .

والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته . وليس في القرآن سورة هي
وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق ٣٨ باب التواضع

٦٥٠٢ - حدثني محمد بن عثمان بن كرامة ، حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني
شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره .

على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم به ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك « فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال رسول الله ﷺ : « أخبروه أن الله يحبه » (١) .

وقال البخاري في « باب الجمع بين السورتين في ركعة » : وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم بها في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، فكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه وقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى ، فإذا أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى . فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتهم أن يؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم ذلك تركتكم وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة « قال : إني أحبها ، قال : حبك إياها أدخلك الجنة » (٢) . وقول النبي ﷺ « إنها تعدل ثلث القرآن » حق كما أخبر به ؛ فإنه ﷺ الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى لم يخرج من بين شفتيه إلا حق .

والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان : أحدهما : منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض وقد تبين ضعفه .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ، ١ باب ما جاء في دعاء النبي - ﷺ - أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى .

٧٣٧٥ بسنده عن عائشة - رضي الله عنه . ورواه الامام مسلم في صلاة المسافرين ٢٦٣ ، ورواه الامام النسائي في الافتتاح ٦٩ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأذان ١٠٦ باب الجمع بين السورتين في الركعة ٧٧٤ قال عبيد الله بن عمر عن ثابت عن أنس - رضي الله عنه - وذكره .

الثاني : اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف ، فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم .

قالوا : لأن النبي ﷺ قال « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول ﴿ الم ﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف وميم حرف » .

قال الترمذي : حديث صحيح (١) .

قالوا : ومعلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر .

فيقال لهم : هذا حق كما أخبر به النبي ﷺ ولكن الحسنات فيها كبار وصغار والنبي ﷺ مقصوده أن الله يعطي العبد بكل حسنة عشر أمثالها ، كما قال تعالى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (٢) .

فإذا قرأ حرفاً كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات ، لكن لم يقل : إن الحسنات في الحروف متماثلة ، كما أن من تصدق بدينار يعطى بتلك الحسنة عشر أمثالها .

والواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . كما ثبت ذلك في الصحيحين (٣) عن النبي ﷺ ، فهو إذا أنفق مداً كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها .

ولكن لا تكون تلك الحسنة بقدر حسنة من أنفق مداً من الصحابة

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب فضائل القرآن .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٠ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١١ فضل أهل بدر ١٦١ عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره .

ورواه الامام البخاري في فضائل أصحاب النبي ٥ ، ورواه الامام مسلم في فضائل الصحابة ٢٢١ - ٣٢٢ ، وأبو داود في السنة ١٠ والترمذي في المناقب ٥٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١ ، ٥٤ (حلي)

السابقين . ونظائر هذا كثيرة .

فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعاني وغير ذلك فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ .

وإذا كان الشيء يعدل غيره فعدل الشيء - بالفتح - هو مساويه ، وإن كان من غير جنسه ، كما قال تعالى : ﴿ أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ (١) .

والصيام ليس من جنس الطعام ، والجزاء ، ولكنه يعادله في القدر ، وكذلك قوله ﷺ : لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً (٢) .

وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ (٣) أي فدية والفدية ما يعدل بالمفدي وإن كان من غير جنسه ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٤) .

أي يجعلون له عدلاً ، أي ندأ في الالهية ، وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه ولو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة ، ولآخر ذهب بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا ، وإن لم يكن من جنسه ، ولهذا قد يكون عند الرجل من الذهب وغيره من الأموال ما يعدل شيئاً عظيماً ، وإذا احتاج إلى دواء أو مركب أو مسكن ، أو نحو ذلك ولم يكن قادراً على اشتراؤه لم تنفعه تلك الأموال العظيمة فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص وإن كان التوحيد أعظم من ذلك ، وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهى عنه من الأفعال ، أو احتاج إلى ما يؤمر به ، ويعتبر به من

(١) سورة المائدة آية رقم ٩٥ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ٧ باب اجتناب البدع والجدل بسنده عن حذيفة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ، ورواه الامام البخاري في المدينة ١ ، والجزية ١٠ ، ٤٧ والامام مسلم في الحج ٤٦٣ - ٤٦٧ - ٤٧٠ والترمذي في الوصايا ٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٦ ، ٨١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٢٣ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١ .

القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده ، فلا يسد التوحيد مسد هذا ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي ، ولا الأمر والنهي مسد القصص ، بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه .

فإذا قرأ الإنسان ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن ، لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن ، بل قد يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص ، فلا تسد ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مسد ذلك ولا تقوم مقامه فلهذا لو لم يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا يحصل له بقراءتها ، بل يبقى فقيراً محتاجاً إلى ما يتم به إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ولو قام بالواجب عليه .

فالمعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة ، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب وإن كان قارئ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاثاً يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب ، لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التي يحتاج إليها العبد ، كمن معه ثلاثة آلاف دينار فإن هذا معه ما ينتفع به في جميع أموره ، وذلك محتاج إلى ما مع هذا ، وإن كان ما معه يعدل ما مع هذا . وكذلك لو كان معه طعام من أشرف الطعام يساوي ثلاثة آلاف دينار ، فإنه محتاج إلى لباس ومساكن ، وما يدفع به الضرر من السلاح والأدوية وغير ذلك مما لا يحصل بمجرد الطعام ومما ينبغي أن يعلم أن فضل القراءة والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل ، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا نذير ، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك .

وفي الأثر : « إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض » .

وكان بعض الشيوخ يرقى بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وكان لها بركة عظيمة

فيرقي بها غيره فلا يحصل ذلك فيقول : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ من كل أحد تنفع كل أحد وإذا عرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره ويكون قراءة بعض السور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره لـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وغيرها .

والإنسان الواحد يختلف أيضاً حاله ، فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة وقد غفر الله لبغي لسقيها الكلب ، كما ثبت ذلك في الصحيحين وهذا لما حصل لها في ذلك العمل من الأعمال القلبية وغيرها . وقد ينفق الرجل أضعاف ذلك فلا يغفر له ؛ لعدم الأسباب المزكية للعمل ، فإن الله إنما يتقبل من المتقين .

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ حد أحدهم ولا نصيفه » ^(١) يقوله عن أصحابه من السابقين الأولين رضي الله عنهم . فإذا قيل « إن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن » فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات ، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك ، بل قد يكون قول العبد : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة .

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة ، وما اشتملت عليه ، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

فصل

وأصل هذه المسألة أن يعلم أن التفاضل والتماثل إنما يقع بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء .

فالتفاضل في صفاته تعالى إنما يعقل إذا أثبت له صفات متعددة كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والمحبة والبغض ، والرضا ، والغضب .

وكإثبات أسماء له متعددة تدل على معان متعددة ، وأثبت له كلمات متعددة تقوم بذاته حتى يقال : هل بعضها أفضل من بعض أم لا ؟

وكل قول سوى قول السلف والأئمة في هذا الباب فهو خطأ متناقض ، وأي شيء قاله في جواب هذه المسألة كان خطأ لا يمكنه أن يجيب فيه بجواب صحيح .

فمن قال : إنه ليس له صفة ثبوتية بل ليس له صفة إلا سلبية أو إضافية . كما يقول ذلك الجهمية المحضة من المتفلسفة والمتكلمة أتباع جهم ابن صفوان - فهذا إذا قيل له : أيهما أفضل : نسبته التي هي الخلق إلى السموات والأرض أم إلى بعوضة أم أيها أفضل : نفى الجهل بكل شيء عنه والعجز عن كل شيء ، أم نفى الجهل بالكليات ؟

لم يمكنه أن يجيب بجواب صحيح على أصله الفاسد . فإنه إن قال : خلق السموات مماثل خلق البعوضة كان هذا مكابرة للعقل والشرع .

قال تعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (١) وإن قال : بل ذلك أعظم وأكبر كما في القرآن . قيل له : ليس عندك أمران وجوديان يفضل أحدهما الآخر ؛ إذ الخلق على قولك لا يُزيد على المخلوق ، فلم يبق إلا العدم المحض ، فكيف يعقل في المعدومين من كل وجه أن يكون أحدهما أفضل من صاحبه إذا لم يكن هناك وجود يحصل فيه التفاضل ؟ وكذلك إذا قيل : نفي الجهل والعجز عن بعض الأشياء مثل نفي ذلك عن بعض الأشياء كان هذا مكابرة وإن قال : بل نفي الجهل العام أكمل من نفي الجهل الخاص .

قيل له : إذا لم يلزم من نفي الجهل ثبوت علم بشيء من الأشياء ، بل كان النفيان عديمين محضين فكيف يعقل التفاضل في الشيء الواحد من كل وجه فإنه لا يعقل في العدم المحض والنفي الصرف ، فإن ذلك ليس بشيء أصلاً ، ولا حقيقة له في الوجود ولا فيه كمال ولا مدح ، وإنما يكون التفاضل بصفات الكمال ، والكمال لا بد أن يكون وجوداً قائماً بنفسه أو صفة موجودة قائمة بغيرها ، فأما العدم المحض فلا كمال فيه أصلاً .

ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه لا السلبية العدمية لتضمنها أموراً وجودية تكون كمالاً يتمدح سبحانه بها ، كما قد بسط في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (٢)

فنفي ذلك يتضمن كمال الحياة والقيومية . وكذلك قوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٣) يتضمن كمال الملك والربوبية وانفراده بذلك . ونفي انفراده بالملك والهداية والتعليم وسائر

(١) سورة غافر آية رقم ٥٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

صفات الكمال هو من صفات الكمال .

ولهذا كانت السورة فيها الإسمان الأحد الصمد وكل منهما يدل على الكمال .

فقوله ﴿أحد﴾ يدل على نفي النظير .

وقوله ﴿الصمد﴾ بالتعريف يدل على اختصاصه بالصمدية .

ولهذا جاء التعريف في اسمه الصمد دون الأحد لأن أحداً لا يوصف به في الإثبات غيره ، بخلاف الصمد ، فإن العرب تسمي السيد صمداً .

قال يحيى بن أبي كثير : الملائكة تسمى صمداً والآدمي أجوف ، فقوله ﴿الصمد﴾ بيان لاختصاصه بكمال الصمدية .

وقد ذكرنا تفسير الصمد ، واشتماله على جميع صفات الكمال كما رواه العلماء من تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقد ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم في قوله ﴿الصمد﴾ يقول : السيد الذي قد كمل في سؤده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحليم الذي قد كمل في حلمه وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثله شيء ، سبحانه الواحد القهار . وكذلك قد ثبت من حديث الأعمش عن أبي وائل وقد ذكره البخاري في صحيحه .

ورواه كثير من أهل العلم في كتبهم قال : الصمد السيد الذي انتهى سؤده .

وقد قال غير واحد من السلف كابن مسعود وابن عباس وغيرهما : الصمد الذي لا جوف له . وكلا القولين حق موافق للغة ، كما قد بسط في موضعه .

أما كون الصمد هو السيد فهذا مشهور . وأما الآخر فهو أيضاً معروف في اللغة .

وقد ذكر الجوهري ^(١) وغيره أن الصمد لغة في الصمت وليس هذا من إبدال الدال بالتاء كما ظنه بعضهم بل لفظ صمد يصمد صمداً يدل على ذلك .

والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة ، والصفات السلبية إنما تكون كمالات إذا تضمنت أموراً وجودية ، ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً : فقول العبد : سبحان الله ، يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه ، ليس هو عدماً محضاً لا يتضمن وجوداً ، فأن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم . وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك .

كقوله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ^(٢) إلى قوله ﴿ إِذَا لَا تَتَّعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٤) وغير ذلك .

فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوحدانية ، وهو من تمام الكمال ، فإن ماله نظير قد انقسمت صفات الكمال

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ - ٤٤ .

(٤) سورة الصافات آية رقم ١٨١ - ١٨٠ .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٠ .

وأفعال الكمال فيه وفي نظيره ، فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها ،
فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها ولهذا كان
أهل التوحيد والإخلاص أكمل حباً لله من المشركين الذين يحبون غيره ،
الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه . قال تعالى ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ
يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ (١)

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع ، قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر
الذي لا يغفره الله تعالى .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب
أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل
ولدى خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة
جارك » (٢) .

وأنزل الله تعالى تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ
وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ (٣) الآية .

فمن جعل لله نداً يحبه كحب الله فهو ممن دعا مع الله الهاً آخر وهذا
من الشرك الأكبر .

والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل
لكل واحد ، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل فلهذا كان حب المؤمنين

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ .

(٢) الحديث زواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٤٠ باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ .
٧٥٢٠ - عن منصور عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله قال : سألت النبي - ﷺ -
وذكره . ورواه أيضاً في الحدود ٢٠ ورواه الامام مسلم في الإيمان ١٤١ ، ١٤٢ ، وأبو داود في الطلاق
٥٠ ، والامام الترمذي في التفسير سورة ٢٥ ، ١ ، والنسائي في كتاب الإيمان ٦ ، والتحريم ٤ ،
وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ (حلي)

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ .

الموحدين المخلصين لله أكمل .

وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية . في عبادتهم وطاعتهم ومعرفته ومحبتهم وذلك من زكاهم ، كما أن الزرع كلما نقى عنه الدغل كان أزكى له وأكمل لصفات الكمال الوجودية فيه ، قال تعالى ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾^(١) وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص ، كما فسرنا بذلك أكابر السلف .

وقال تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾^(٢) .

وقال ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٣) وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من نفى عن الله النقائص كالموت والجهل والعجز والصمم والعمى والبكم ، ولم يثبت له صفات وجودية كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ، بل زعم أن صفاته ليست إلا عدمية محضة ، وأنه لا يوصف بأمر وجودي ، فهذا لم يثبت له صفة كمال أصلاً ، فضلاً عن أن يقال : أي الصفتين أفضل ؟

فإن التفضيل بين الشيتين فرع كون كل منهما له كمال ما ، ثم ينظر أيهما أكمل ، فأما إذا قدر أن كلا منهما عدم محض فلا كمال ولا فضيلة هناك أصلاً .

وكذلك من أثبت له الأسماء دون الصفات فقال : إنه حي عليم قدير سميع بصير عزيز حكيم - ولكن هذه الأسماء لا تتضمن اتصافه بحياة ولا علم

(١) سورة فصلت آية رقم ٦ ، ٧ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا حكمة -

فإذا قيل له : أي الإسمين أفضل ؟ لم يجب بجواب صحيح . فإنه إن قال : العليم أعظم من السميع لعموم تعلقه مثلاً . أو قال : العزيز أكمل من القدير ؛ لأنه مستلزم للقدرة من غير عكس .

قيل : إذا لم يكن للأسماء عندك معان موجودة تقوم به لم يكن هناك لا علم ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا قدرة ، ليس إلا ذات مجردة عن صفات ومخلوقات ، والذات المجردة ليس فيها ما يمكن أن يقع فيه تفاضل ولا تماثل ، والمخلوقات لم يكن السؤال عن تفضيل بعضها على بعض ، فإن ذلك مما يعلمه كل واحد ، ولا يشتبه على عاقل .

ولذلك من جعل بعض صفاته بعضاً ، أو جعل الصفة هي الموصوف مثل من قال : العلم هو القدرة ، والعلم والقدرة هما العالم القادر ، كما يقول ذلك من يقوله من جهمية الفلاسفة ونحوهم .

أو قال : كلامه كله هو معنى واحد قائم بذاته ، هو الأمر بكل مأمور ، والخبر عن كل مخبر به ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وأن معنى آية الكرسي ، وآية الدين واحد ، وأن الأمر والنهي صفات نسبية للكلام ليست أنواعاً ، بل ذات الكلام الذي هو أمر هو ذات الكلام الذي هو نهى ، وإنما تنوعت الإضافة .

فهذا الكلام الذي تقوله الكلامية ، وإن كان جمهور العقلاء يقولون : إن مجرد تصويره كاف في العلم بفساده . فلا يمكن على هذا القول الجواب بتفضيل كلام الله بعضه على بعض ولا مماثلة بعضه لبعض ، لأن الكلام على قولهم شيء واحد بالعين لا يتعدد ولا يتبعض فكيف يمكن أن يقال : هل بعضه أفضل من بعض أم بعضه مثل بعض ولا بعض له عندهم ؟

وإن قالوا : التماثل والتفاضل يقع في العبارة الدالة عليه ، قيل : تلك

ليست كلاماً لله على أصله ولا عند أئمتهم ، بل هي مخلوق من مخلوقاته ،
والتفاضل في المخلوقات لا إشكال فيه .

ومن قال من أتباعهم : إنها تسمى كلام الله حقيقة وإن اسم الكلام يقع
عليها وعلى معنى ذلك المعنى القائم بالنفس بالاشتراك اللفظي ، فإنه لم يعقل
حقيقة قولهم ، بل قوله هذا يفسر أصلهم . لأن أصل قولهم : أن الكلام لا
يقوم إلا بالمتكلم لا يقوم بغيره ، إذ لو جاز قيام الكلام بغير المتكلم لجاز أن
يكون كلام الله مخلوقاً قائماً بغيره مع كونه كلام الله .

وهذا أصل الجهمية المحضة والمعتزلة الذي خالفهم فيه الكلائية وسائر
المثبته .

وقالوا : إن المتكلم لا يكون متكلماً حتى يقوم به الكلام وكذلك في
سائر الصفات قالوا : لا يكون العالم عالماً حتى يقوم به العلم ، ولا يكون
المريد مريداً حتى تقوم به الإرادة ، فلو جوزوا أن يكون لله ما هو كلام له وهو
مخلوق منفصل عنه بطل هذا الأصل .

وأصل النفاة المعطلة من الجهمية والمعتزلة : أنهم يصفون الله بما لم
يقم به ، بل بما قام بغيره ، أو بما لم يوجد ، ويقولون : هذه إضافات لا
صفات فيقولون : هو رحيم ويرحم ، والرحمة لا تقوم به بل هي مخلوقة ،
وهي نعمته .

ويقولون : هو يرضى ويغضب والرضا والغضب لا يقوم به ، بل هو
مخلوق ، وهو ثوابه وعقابه .

ويقولون : هو متكلم ويتكلم ، والكلام لا يقوم به بل هو مخلوق قائم
بغيره ، وقد يقولون : هو مريد ويريد ، ثم قد يقولون : ليست الإرادة شيئاً
موجوداً ، وقد يقولون : إنها هي المخلوقات والأمر المخلوق ، وقد يقولون :
أحدث إرادة لا في محل وهذا الأصل الباطل الذي أصله نفاة الصفات

الجهمية المحضة من المعتزلة وغيرهم ، هو الذي فارقهم به جميع المثبتة للصفات من السلف والأئمة ، وأهل الفقه والحديث والتصوف والتفسير ، وأصناف نظار المثبتة كالكلابية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم ، وكالهشامية والكرامية وغيرهما من طوائف النظار المثبتة للصفات ، وعلى هذا أئمة المسلمين المشهورون بالإمامة ، وأئمة الفقهاء من أتباعهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم فقول من قال : إن الكلام يقع حقيقة على العبارة وهي مع ذلك مخلوقة ، يناقض الأصل الفارق بين المثبتة والمعطلة ، إلا أن يسمى متعلق الصفة باسم الصفة كما يسمى المأمور به أمراً ، والمرحوم به رحمة ، والمخلوق خلقاً ، والقدر قدرة ، والمعلوم علماً ، لكن يقال له ، هذا كله ليس هو الحقيقة عند الإطلاق .

وأيضاً فهذه الأمور أعيان قائمة بأنفسها ، فإذا أضيفت إلى الله علم إنها إضافة ملك لا إضافة وصف ؛ بخلاف العبارة فإنها لا تقوم بنفسها كما لا يقوم المعنى بنفسه وهذا هو الأصل الفارق بين إضافة الصفات ، وإضافة المخلوقات ، فإن المعطلة النفاة من الصابئة والفلاسفة والمعتزلة وغيرهم من الجهمية ومن اتبعهم كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما في بعض مصنفاتهما - وإن كانا في موضع آخر يقولان بخلاف ذلك - يقولون : ليس في النصوص إلا إضافة هذه الأمور إلى الله . وهذه الأمور تسمى نصوص الإضافات لا نصوص الصفات .

ويقولون : نصوص الإضافات وأحاديث الإضافات لا آيات الصفات وأحاديث الصفات .

والإضافة تكون إضافة مخلوق ، لاختصاصه ببعض الوجوه كإضافة البيت والناقة والروح في قوله ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي ﴾ ^(١) وقوله ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ^(٢) وقوله

(١) سورة الحج آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ وسورة هود آية رقم ٦٤ والشمس آية ١٣ .

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (١) وقالت الحلولية من النصارى ، وغلاة الشيعة والصوفية ومن اتبعهم ممن يقول بقدوم الروح - أرواح العباد - وينتسب إلى أئمة المسلمين كالشافعي وأحمد وغيرهما مثل طائفة من أهل جيلان وغيرهم - بل إضافة الروح إلى الله كإضافة الكلام والقدرة ، والكلام والقدرة صفاته فكذلك الروح .

وقالوا في قوله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (٢) دليل على أن روح العبد صفة لله قديمة .

وقالت النصارى : عيسى كلمة الله ، وكلام الله غير مخلوق فعيسى غير مخلوق .

وقالت الصابئة والجهمية : عيسى كلمة الله وهو مخلوق والقرآن كلام الله فهو أيضاً مخلوق .

وهذه المواضع اشتبهت على كثير من الناس وقد تكلم فيها الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره ، وتكلموا في إضافة الكلام والروح ومناظرة الجهمية والنصارى وقد سئلت عن ذلك من جهة الحلولية تارة ، ومن جهة المعطلة تارة ، والسائلون تارة من أهل القبلة وتارة من غير أهلها ، وقد بسط جواب ذلك في غير موضع لكن المقصود هنا أن الفارق بين المضافين : أن المضاف إن كان شيئاً قائماً بنفسه أو حالاً في ذلك القائم بنفسه فهذا لا يكون صفة لله ، لأن الصفة قائمة بالموصوف . فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله ، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة ، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضى للإضافة لا لكونها صفة ، والروح الذي هو جبريل من هذا الباب ، كما أن الكعبة والناقة

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٢٩ .

من هذا الباب ، ومال الله من هذا الباب ، وروح بني آدم من هذا ، وذلك كقوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (١) .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (٢) ﴿ وَظَهَّرَ بَيْتِي ﴾ (٣) ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ (٤) ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (٥) وأما إن كان المضاف إليه لا يقوم بنفسه ، بل لا يكون إلا صفة كالعلم والقدرة والكلام والرضا والغضب فهذا لا يكون إلا إضافة صفة إليه فتكون قائمة به سبحانه فإذا قيل : استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك فعلمه صفة قائمة به ، وقدرته صفة قائمة به ، وكذلك إذا قيل : أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك « فرضاه وسخطه قائم به ، وكذلك عفوه وعقوبته .

وأما أثر ذلك وهو ما يحصل للعبد من النعمة واندفاع النقمة فذاك مخلوق منفصل عنه ليس صفة له ، وقد يسمى هذا باسم ذاك كما في الحديث الصحيح .

« يقول الله للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي » (٦) فالرحمة هنا عين قائمة بنفسها ، لا يمكن أن تكون صفة لغيرها فهذا هو الفارق بين ما يضاف إضافة وصف وإضافة ملك وإذا قيل « المسيح كلمة

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٢٦ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ١٣ .

(٥) سورة الحشر آية رقم ٧ .

(٦) الحديث رواه الامام البخاري في التفسير ٥٠ - ١ باب وتقول هل من مزيد ، ٤٨٥٠ عن همام عن أبي

هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ - تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين ، والمتكبرين . وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم . قال الله تبارك وتعالى للجنة . وذكره

الله «فمعناه أنه مخلوق بالكلمة ، إذ المسيح نفسه ليس كلاماً .

وهذا بخلاف القرآن فإنه نفسه كلام ، والكلام لا يقوم بنفسه إلا بالمتكلم ، فإضافته إلى المتكلم إضافة صفة إلى موصوفها ، وإن كان يتكلم بقدرته ومشيتته ، وإن سمي فعلاً بهذا الاعتبار فهو صفة باعتبار قيامه بالمتكلم .

وإذا كان كذلك فمن قال : إن الكلام . معنى واحد قائم بذات المتكلم ، لم يمكنه أن يجيب عن هذه المسألة بجواب صحيح ، فإذا قيل له : كلام الله هل بعضه أفضل من بعض ؟ امتنع الجواب على أصله بنعم أم لا ، لا امتناع تبعضه عنده . ولكون العبارة ليست كلاماً لله لكن إذا أريد بالكلام العبارة أو قيل له : هل بعض القرآن أفضل من بعض - وأريد بالقرآن الكلام العربي الذي نزل به جبريل ، فهو عنده مخلوق لم يتكلم الله به ، بل هو عنده إنشاء جبريل أو غيره . أو قيل : هل بعض كتب الله أفضل من بعض - وكتاب الله عنده هو القرآن العربي المخلوق عنده - فهذا السؤال يتوجه على قوله في الظاهر ، وأما في نفس الأمر فكلاهما ممتنع على قوله ؛ لأن العبارة تدل على المعاني ، فإن المعاني القائمة في النفس تدل عليها العبارات ، وقد علم أن العبارات تدل على معان متنوعة ، وعلى أصله ليس المعنى إلا واحداً ، فيمتنع بالضرورة العقلية أن يكون القرآن العربي كله ، والتوراة والانجيل وسائر ما يضاف إلى الله من العبارات إنما يدل على معنى واحد لا يتعود ولا يتبعض ، وحينئذ فتبعض العبارات الدالة على المعاني بدون تبعض تلك المعاني ممتنع ولهذا قيل لهم : موسى عليه السلام لما سمع كلام الله أسمعه كله ، أم سمع بعضه ؟

إن قلتم : «كله» فقد علم كل ما أخبر الله به وما أمر به وقد ثبت في الصحيح أن الخضر قال له : «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر» وقد قال تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً

لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَتَفْعَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١﴾ .

وإن قلتم : سمع بعضه ، فقد تبعض ، وعندكم لا يتبعض وأيضاً فقد فرق الله بين تكليمه لموسى عليه الصلاة والسلام وبين إيحائه إلى غيره من النبيين ، وفرق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب ، فلو كان المعنى واحداً لكان الجميع إيحاء ولم يكن هناك تكليم يتميز على ذلك .

ولا يتمتع أن يكون الرب تعالى منادياً لأحد ، إذ المعنى القائم بالنفس لا يكون نداء ، وقد أخبر الله تعالى بندائه في القرآن في عدة مواضع .

وعلى هذا فمن قال من هؤلاء : إن كلام الله لا يفضل بعضه بعضاً فحقيقة قوله : أن هذه المسألة ممتنعة ، فليس هناك أمران حتى يقال : إن أحدهما يكون مثل الآخر أو أفضل منه .

والتماثل والتفاضل إنما يعقل بين اثنين فصاعداً . وهكذا عند هؤلاء في إرادته وعلمه وسمعه وبصره فكل من جعل الصفة واحد بالعين امتنع - على قوله - أن يقال : هل بعضها أفضل من بعض أم لا ؟ إذ لا بعض لها عنده .

وكذلك من وافق هؤلاء على وحدة هذه الصفات بالعين وقال : إن كلام الله حروف قديمة الأعيان ، أو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، سواء قال مع ذلك إنها أعيان الأصوات المسموعة من القراء ، أو قال : إنها بعض الأصوات المسموعة من القراء .

وإن كان فساد ذلك معلوماً بالاضطرار ، وقال : إن هذه الأصوات غير تلك .

فمن قال بأن الكلام حروف أو حروف وأصوات مقترن بعضها ببعض أزلاً وأبداً وهي مع ذلك شيء واحد فقوله معلوم الفساد عند جمهور العقلاء ،

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .

كما أن من جعلها قولاً واحداً فقله معلوم الفساد عن جمهور العقلاء على كل تقدير ، فيمتنع مع القول بوحدة شيء أن يقال : هل بعضه أفضل من بعض أم لا ؟

وأما من أثبت ما يتعدد من المعاني والحروف ، أو أحدهما فهذا يعقل على قوله : السؤال عند التماثل التفاضل ، ثم حينئذ يقع السؤال : هل يتفاضل كلام الله وصفاته وأسمائه أم لا يقع التفاضل إلا في المخلوق ؟ وعلى هذا فما ذكره ابن بطال في شرح البخاري لما تكلم على هذا الحديث حيث قال :

قال المهلب - وحكاه عن الأصيلي - ومذهب الأشعري وأبي بكر بن الطيب ^(١) ، وابن أبي زيد والداودي وأبي الحسن القاسبي وجماعة علماء السنة أن القرآن لا يفضل بعضه بعضاً ، إذ كله كلام الله تعالى وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا في المخلوقات ، هو نقل لأقوال هؤلاء بحسب ما ظنه لازماً لهم حيث اعتقد أن التفاضل لا يكون إلا في المخلوق والقرآن عند هؤلاء ليس بمخلوق ، لكن قدمنا أن السلف الذين قالوا : إنه غير مخلوق لم ينقل عن أحد منهم أنه قال ليس بعضه أفضل من بعض ، بل المنقول عنهم خلاف ذلك .

وأما نقل هذا القول عن الأشعري وموافقيه فغلط عليهم ؛ إذ كلام الله عندهم ليس له كل ولا بعض ، ولا يجوز أن يقال : هل يفضل بعضه بعضاً أو لا يفضل ، فامتناع التفاضل فيه عنده كامتناع التماثل ، ولا يجوز أن يقال : إنه متمثل ولا متفاضل ، إذ ذلك لا يكون إلا بين شيئين .

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، أبو بكر : قاض . من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة عام ٣٣٨ هـ وتوفي ببغداد عام ٤٠٣ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ - ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٢٩٤ والديباج المذهب ٢٦٧] .

ولكن هذا السؤال يتصور عنده في الصفات المتعددة كالعلم والقدرة فيقال : أيها أفضل ؟ فإن كان قال : إن صفات الرب لا تتفاضل ؛ لأن مقتضى الأفضل نقص المفضول عنه فإنما يستقيم هذا الجواب في هذه الصفات المتعددة لا في نفس الكلام ، مع أن هذا النقل عن الأشعري في نفى تفاضل الصفات غير محرر ، فإن الأشعري لم يقل : إن الصفات لا تتفاضل ، بل هذا خطأ عليه ، ولكن هو يقول : إن الكلام لا يدخله التفاضل كما لا يدخله التماثل لأنه واحد عنده ، لا لما ذكر .

وأما الصفات المتعددة فإنه قد صرح بأنها ليست متماثلة ، ومذهبه أن الذات ليست مثل الصفات ، المتعددة فإنه قد صرح بأنها ليست متماثلة ، ومذهبه أن الذات ليست مثل الصفات ، ولا كل صفة مثل الأخرى ، فهو لا يثبت تماثل المعاني القديمة عنده فكيف يقال - على أصله - ما يوجب تماثلها ، وإذا امتنع من إطلاق التفاضل فهو كامتناعه من إطلاق لفظ التماثل ، وكمامتناعه من إطلاق لفظ التغاير .

وفي الجملة : فمن نقل عنه أنه نفى التفاضل وأثبت التماثل فقد أخطأ ، لكن قد لا يطلق لفظ التفاضل كما لا يطلق لفظ التماثل ، لا لأن الصفات متماثلة عنده ؛ بل هو ينفي التماثل لعدم التعدد ، ولعدم إطلاق التغاير ، كما يقال هل يقال : الصفات مختلفة أم لا ؟

وهل هي متغايرة أم لا ؟

وهل يقال في كل صفة : إنها الذات أو غيرها ، أو لا يجمع بين نفيهما ، وإنما يفرد كل نفي منهما ، أو لا يطلق شيء من ذلك ؟ فهذه الأمور لا اختصاص لها بهذه المسألة مسألة التفضيل ولا ريب أن التماثل أو التفاضل لا يعقل إلا مع التعدد وتعدد أسماء الله وصفاته وكلماته هو القول الذي عليه جمهور المسلمين ، وهو الذي كان عليه سلف الأمة وأئمتها ، وهو الموافق لفطرة الله التي فطر عليها عباده فلهذا كان الناس يتخاطبون بموجب الفطرة

والشرعة وإن كانت لبعضهم أقوال آخر تنافي الفطرة والشرعة وتستلزم بطلان ما يقوله بمقتضى الفطرة والشرعة ، فإن القرآن والسنة قد دلا على تعدد كلمات الله في غير موضع وقد قال تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع قول السلف وأنهم كانوا يشبتون لله كلمات لا نهاية لها ، وبيننا النزاع في تعدد العلوم والإرادات ، وأن كثيراً من أهل الكلام يقول ما عليه جمهور الناس من تعدد ذلك ، وأن الذين قالوا يريد جميع المرادات بإرادة واحدة إنما أخذوه عن ابن كلاب وجمهور العقلاء قالوا : هذا معلوم الفساد بالضرورة حتى إن من فضلاء النظر من ينكر أن يذهب إلى هذا عاقل من الناس ؛ لأنه رآه ظاهر الفساد في العقل ولم يعلم أنه قاله طائفة من النظر .

وكذلك من جعل نفس إرادته هي رحمته وهي غضبه يكون قوله ﷺ « أعوذ برضاك من سخطك » (٣) معناه يكون مستعيذاً عنده بنفس الإرادة من نفس الإرادة وهذا ممتنع ، فإنه ليس عنده للإرادة صفة ثبوتية يستعاذ بها من أحد

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان آية رقم ٢٧ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١١٧ باب ما جاء في القنوت والوتر ، ١١٧٩ عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن علي بن أبي طالب : أن النبي - ﷺ - كان يقول في آخر الوتر : وذكره .

ورواه الامام مسلم في الصلاة ٢٢٢ ، وأبو داود في كتاب الصلاة ١٤٨ ، والوتر ٥ ، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات ٧٥ ، ١١٢ والنسائي في كتاب الطهارة ١١٩ ، والتطبيق ٤٧ ، والسهو ٧١ ، ٨٩ ، وقيام الليل ٥١ ، والاستعاذة ٦٢ ، وصاحب الموطأ في مس القرآن ٣١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ٦ : ٥٨ ، ٢٠١ (حلي) .

الوجهين باعتبار ذلك الوجه منها باعتبار الوجه الآخر .

بل الإرادة عنده لها مجرد تعلق بالمخلوقات ، والتعلق أمر عديمي .

وهذا بخلاف الاستعاذة به منه ، لأن له سبحانه صفات متنوعة ، فيستعاذ به باعتبار ، ومنه باعتبار .

ومن قال : إنه ذات لا صفة لها ، أو موجود مطلق لا يتصف بصفة ثبوتية فهذا يمتنع تحققه في الخارج .

وإنما يمكن تقدير هذا في الذهن كما تقدر الممتنعات فضلاً عن أن يكون ربا خالقاً للمخلوقات ، كما قد بسط في موضعه .

وهؤلاء ألجأهم إلى هذه الأمور مضايقات الجهمية والمعتزلة لهم في مسائل الصفات ، فإنهم صاروا يقولون لهم : كلام الله هو الله أو غير الله ؟ إن قلتم هو غيره فما كان غير الله فهو مخلوق وإن قلتم هو هو فهو مكابرة .

وهذا أول ما احتجوا به على الإمام أحمد في المحنة فإن المعتصم لما قال لهم : ناظروه ، قال له عبد الرحمن بن اسحاق يا أبا عبد الله ، ما تقول في القرآن - أو قال في كلام الله - يعني أهو الله أو غيره ؟ فقال له أحمد : ما تقول في علم الله أهو الله أو غيره ؟

فعارضه أحمد بالعلم ، فسكت عبد الرحمن .

وهذا من حسن معرفة أبي عبد الله بالمناظرة - رحمه الله فإن المبتدع الذي بنى مذهبه على أصل فاسد متى ذكرت له الحق الذي عندك ابتداء أخذ يعارضك فيه ، لما قام في نفسه من الشبهة ، فينبغي إذا كان المناظر مدعياً أن الحق معه أن يبدأ بهدم ما عنده ، فإذا انكسر وطلب الحق فأعطه إياه ، وإلا فما دام معتقداً نقيض الحق لم يدخل الحق إلى قلبه ، كاللوح الذي كتب فيه كلام باطل امحه أولاً ، ثم اكتب فيه الحق .

وهؤلاء كان قصدهم الاحتجاج لبدعتهم ، فذكر لهم الإمام أحمد رحمه الله من المعارضة والنقض ما يطلها . وقد تكلم الإمام أحمد في رده على الجهمية في جواب هذا وبين أن لفظ « الغير » لم ينطق به الشرع لا نفيًا ولا إثباتًا ، وحينئذ فلا يلزم أن يكون داخلًا لفظ « الغير » في كلام الشارع ولا غير داخل فلا يقوم دليل شرعي على أنه مخلوق .

وأيضاً فهو لفظ مجمل : يراد بالغير ما هو منفصل عن الشيء ، ويراد بالغير ما ليس هو الشيء .

فلهذا لا يطلق القول بأن كلام الله وعلم الله ونحو ذلك هو هو ، لأن هذا باطل .

ولا يطلق أنه غيره ، لئلا يفهم أنه بائن عنه منفصل عنه .

وهذا الذي ذكره الإمام أحمد عليه الخذاق من أئمة السنة ، فهو لا يطلقون أنه هو ، ولا يطلقون أنه غيره ، ولا يقولون ليس هو هو ولا غيره . فإن هذا أيضاً إثبات قسم ثالث وهو خطأ ، ففرق بين ترك إطلاق اللفظين لما في ذلك من الإجمال وبين نفي مسمى اللفظين مطلقاً ، وإثبات معنى ثالث خارج عن مسمى اللفظين .

فجاء بعد هؤلاء « أبو الحسن » وكان أحذق ممن بعده فقال : نفي مفرداً لا مجموعاً ، فنقول مفرداً : ليست الصفة هي الموصوف ، ونقول مفرداً ليست غيره ، ولا يجمع بينهما فيقال : لا هي هو ولا هي غيره ؛ لأن الجمع بين النفي فيه من الإيهام ما ليس في التفريق ، وجاء بعده أقوام فقالوا : بل نفي مجموعاً فنقول : لا هي هو ولا هي غيره ، ثم كثير من هؤلاء إذا بحثوا يقولون هذا المعنى ، أما أن يكون غيره فيتناقضون . وسبب ذلك أن لفظ الغير مجمل : يراد بالغير المباين المنفصل ويراد بالغير : ما ليس هو عين الشيء ، وقد يعبر عن الأول بأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما وعدمه ، أو ما

جَازَ مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود ويعبر عن الثاني بأنه ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر.

وبين هذا وهذا فرق ظاهر ، فصفت الرب اللازمة له لا تفارقه البتة ، فلا تكون غيراً بالمعنى الأول . ويجوز أن تعلم بعض الصفات دون بعض ، وتعلم الذات دون الصفة فتكون غيراً باعتبار الثاني ، ولهذا أطلق كثير من مشبته الصفات عليها اغياراً للذات . ومنهم من قال : نقول : إنها غير الذات ، ولا نقول : إنها غير الله ، فإن لفظ الذات لا يتضمن الصفات بخلاف اسم الله فإنه يتناول الصفات ؛ ولهذا كان الصواب - على قول أهل السنة - أن لا يقال في الصفات إنها زائدة على مسمى اسم الله ؛ بل من قال ذلك فقد غلط عليهم .

وإذا قيل : هل هي زائدة على الذات أم لا ؟

كان الجواب : إن الذات الموجودة في نفس الأمر مستلزمة للصفات ، فلا يمكن وجود الذات مجردة عن الصفات ، بل ولا يوجد شيء من الذوات مجرداً عن جميع الصفات ، بل لفظ الذات تأنيث « ذو » ولفظ « ذو » مستلزم للإضافة . وهذا اللفظ مولد ، وأصله أن يقال : ذات علم ، ذات قدرة ، ذات سمع . كما قال تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ^(١) ويقال : فلانة ذات مال ، ذات جمال . ثم لما علموا أن نفس الرب ذات علم وقدرة وسمع وبصر - رداً على من نفى صفاتها - عرفوا لفظ الذات ، وصار التعريف يقوم مقام الإضافة ، فحيث قيل لفظ الذات فهو ذات كذا فالذات لا تكون إلا ذات علم وقدرة ، ونحو ذلك من الصفات لفظاً ومعنى .

وإنما يريد محققو أهل السنة بقولهم « الصفات زائدة على الذات » أنها زائدة على ما أثبتته نفاة الصفات من الذات ، فإنهم أثبتوا ذاتاً مجردة لا صفات لها ، فأثبت أهل السنة الصفات زائدة على ما أثبتته هؤلاء ، فهي زيادة في

(١) سورة الأنفال آية رقم ١ .

العلم والاعتقاد والخبر ، لا زيادة على نفس الله جل جلاله وتقدست
أسماءه .

بل نفسه المقدسة متصفة بهذه الصفات لا يمكن أن تفارقها ، فلا توجد
الصفات بدون الذات ، ولا الذات بدون الصفات ، وهذه الأمور مبسطة في
غير هذا الموضع .

والمقصود أن الأشعري وغيره من الصفاتية - الذين سلكوا مسلك ابن
كلاب - إذا قال أحدهم في الصفات : إنها متماثلة فإن هذا لا يقوله عاقل ، إذ
المثلان ما سد أحدهما مسد الآخر وقام مقامه ، والعلم ليس مثلاً للقدرة ، ولا
القدرة مثلاً للإرادة ، وأما الكلام فإنه عنده شيء واحد . والواحد يتمتع فيه
تفاضل أو تماثل .

وفي الجملة فالذين يمنعون أن يكون كلام الله بعضه أفضل من بعض
لهم مأخذان .

« أحدهما » أن صفات الرب لا يكون بعضها أفضل من بعض ، وقد
يعبرون عن ذلك بأن القديم لا يتفاضل « والثاني » إنه واحد ، والواحد لا
يتصور فيه تفاضل ولا تماثل ، وهذا على قول من يقول : إنه واحد بالعين ،
وهؤلاء الذين يقولون : إنه واحد بالعين منهم من يجعله مع ذلك حروفاً أو
حروفاً وأصواتاً قديمة الأعيان ، ويقول : هو مع ذلك شيء واحد ، كما يوجد
في كلام طائفة من المتأخرين الذين أخذوا عن الكلائية أنه ليس له إلا إرادة
واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة وكلام واحد وأن القرآن قديم وأخذوا عن
المعتزلة وغيرهم أنه مجرد الحروف والأصوات ، والتزموا أن الحروف
والأصوات قديمة الأعيان مع أنها مترتبة في نفسها ترتباً ذاتياً في الوجود أزلية
لم يزل بعضها مقارناً لبعض ، وفرقوا بين ذات الشيء وبين وجوده في الخارج
موافقة لمن يقول ذلك من المعتزلة وكثير من القائلين بقدمه ، وأنه حروف
وأصوات ، لا يقولون إنه شيء واحد بل يجعلونه متعدداً مع قدم القرآن ،

وقدم أعيان الحروف والأصوات .

والقول الآخر لمن يقول : إنه واحد بالعين : أن القديم هو معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، كما قد بين حقيقة قولهم . وهذا هو القول المنسوب إلى ابن كلاب والأشعري .

وهذا القول أول من عرف أنه قاله في الإسلام ابن كلاب لم يسبقه إليه أحد من الصحابة ولا التابعين ولا غيرهم من أئمة المسلمين ، مع كثرة ما تكلم الصحابة والتابعون في كلام الله تعالى ، ومع أنه من أعظم وأهم أمور الدين الذي تتوفر الهمم على معرفة ذكره ، ومع تواتر نص الكتاب والسنة وآثار الصحابة على خلاف هذا القول .

وكل من هذه الأقوال مما يدل الكتاب والسنة وآثار السلف على خلافه .

وكل منها مما اتفق جمهور العقلاء الذين يتصورونه على أن فساده معلوم بضرورة العقل ، ويجوز اتفاق طائفة من العقلاء على قول يعلم فساده بضرورة العقل إذا كان عن تواطؤ ، كما يجوز اتفاقهم على الكذب تواطؤاً ، وأما بدون ذلك فلا يجوز .

فالمذهب الذي تقلده بعض الناس عن بعض - كقول النصارى والرافضة والجهمية والدهرية ونحو ذلك - يجوز أن يكون فيه ما يعلم فساده بضرورة العقل ، وإن كان طائفة من العقلاء قالوه على هذا الوجه ، فأما أن يقولوه من غير تواطؤ فهذا لا يقع ، وأكثر المتقلدين للأقوال الفاسدة لا يتصورونها تصوراً تاماً حتى يكون تصورها التام موجباً للعلم بفسادها . ثم إذا اشتهر القول عند طائفة لم يعلموا غيره عن أهل السنة ظنوا أنه قول أهل السنة .

ولما كان المشهور عند المسلمين أن أهل السنة لا يقولون القرآن مخلوق صار كل من رأى طائفة تنكر قول من يقول القرآن مخلوق ، يظن أن كل ما قالته في هذا الباب هو قول السلف وأئمة السنة - والذين قالوا : إن

القرآن غير مخلوق ، بل قائم بذات الله ، ووافقوا السلف والأئمة في هذا لما ظهرت محنة الجهمية - وثبت فيها الإمام أحمد الذي أيد الله به السنة ونصر السنة - صار شعار أهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله يرى في الآخرة ، فكل من أنكر ذلك فهو من أهل البدعة في اللسان العام - فكثير حينئذ من يوافق أهل السنة والحديث على ذلك وإن كان لا يعرف حقيقة قولهم ، بل معه أصول من أصول أهل البدع الجهمية ، يريد أن يجمع بينها وبين قول أهل السنة كما يريد المتفلسف أن يجمع بين أقوال المتفلسفة المخالفين للرسول وبين ما جاءت به الرسل .

فلهذا صار المنتسبون إلى السنة الذين يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق لهم أقوال :

« أحدها » قول من يقول : إنه قديم العين ، وإن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام ، ثم هؤلاء على قولين :

منهم من يقول : ذلك القديم هو معنى واحد لازم لذات الله أبداً ، أو خمسة معان .

ومنهم من يقول : بل هو حروف وأصوات قديمة الأعيان لازمة لذات الله أبداً .

الثالث : قول من يقول : بل الرب في أزله لم يكن الكلام ممكناً له كما لم يكن الفعل ممكناً له عندهم ، لأن وجود الكلام والفعل لا يكون إلا بمشيئته واختياره ، ووجود ما يكون بالمشيئة والاختيار محال عندهم دوامه .

ثم « المشهور » عن هؤلاء قول من يقول : تكلم فيما لا يزال بحروف وأصوات تقوم بذاته ، كما يقوله طوائف متعددة منهم الكرامية وبعض الناس يذكر ما يقتضي أن الكلام الذي قام به شيئاً بعد شيء إنما هو علوم وإرادات ،

وأبو عبد الله ^(١) الرازي يميل إلى هذا في بعض كتبه .

و« الخامس » قول من يقول : لم يزل متكلماً كيف شاء . وهذا هو المعروف عن السلف وأئمة السنة ، مثل عبد الله ^(٢) بن المبارك وأحمد بن حنبل وسائر أهل الحديث والسنة .

ثم هؤلاء منهم من يقول : لم يزل متكلماً لا يسكت ، بل لا يزال متكلماً بمشيئته وقدرته .

وهذا هو الذي جعله ابن حامد المشهور من مذهب أحمد وأصحابه ، مع أنه حكى أنه لا يختلف قول أحمد أنه لم يزل متكلماً كيف شاء وكما شاء .

والقول الثاني : أنه يتكلم إذا شاء ، ويسكت إذا شاء وهذا القول حكاه أبو بكر عبد العزيز عن طائفة من أصحاب أحمد وكذلك خرج ابن حامد قولاً في المذهب ، مع ذكره أنه لم يختلف مذهبه في أنه لم يزل متكلماً كيف شاء وكما شاء وأنه لا يجوز أن يكون لم يزل ساكناً ثم صار متكلماً كما يقوله الكرامية ^(٣) ، وهذه الأقوال وتوابعها مبسطة في موضع آخر والمقصود هنا أن الذين قالوا : كلام الله غير مخلوق ، تنازعوا بعد ذلك على هذه الأقوال ، مع

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي أبو عبد الرحمن : الحافظ : شيخ الاسلام ، المجاهد ، التاجر صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه والعربية ، وأيام الناس ، والشجاعة والسخاء ، كان من سكان خراسان ومات بهيت عام ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم ، له كتاب في « الجهاد » وهو أول من صنف فيه ، « والرقائق » . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٣ ومفتاح السعادة ٢ : ١١٢ وحلية الأولياء ٨ : ١٦٢ وشذرات ١ : ٢٩٥] .

(٣) انظر في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٦٥ - والملل والنحل ١ : ١٠٨ والسفاري ١ : ٩١ والفرق بين الفرق ٢١٥ وصاحبها : محمد بن كرام السجستاني ، وكان من عباد المرجئة ويختلف العلماء في ضبط كرام ، والأكثر على أنه بفتح الكاف وتشديد الراء ، وانظر اللباب ٣ : ٣٢ ولسان الميزان ٥ : ٣٥٣ ، والقاموس المحيط .

أن أكثر الذين قالوا : بعض هذه الأقوال لا يعلمون ما قال غيرهم ، بل غاية ما عند أئمتهم المصنفين في هذا الباب معرفة قولين أو ثلاثة أو أربعة من هذه الأقوال - كقول المعتزلة والكلابية والسالمية والكرامية - ولا يعرفون أن في الإسلام من قال سوى ذلك ، ويصنف أحدهم كتاباً كبيراً في « مقالات الاسلاميين » ^(١) وفي « الملل والنحل » ^(٢) ويذكر عامة الأقوال المبتدعة في هذا الباب ، والقول المأثور عن السلف والأئمة لا يعرفه ولا ينقله ، مع أن الكتاب والسنة مع المعقول الصريح لا يدل إلا عليه ، وكل ما سواه أقوال مناقضة كما بسط في موضعه .

والقصد هنا : أن من كان عنده أن قول المعتزلة مثلاً ، أو قول المعتزلة والكرامية ، أو قول هؤلاء وقول الكلابية ، أو قول هؤلاء وقول السالمية - هو باطل من أقوال أهل البدع ، لم يبق عنده قول أهل السنة إلا القول الآخر الذي هو أيضاً من الأقوال المبتدعة المخالفة لصريح المعقول ، وصحيح المنقول ، فيفرع على ذلك القول ما يضيفه إلى السنة ، ثم إذا تدبر نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف وجدها تخالف ذلك القول أصلاً وفرعاً ، كما وقع لمن أنكر فضل « فاتحة الكتاب » و« آية الكرسي » و« قل هو الله أحد » على غيرها من القرآن فإن عمدتهم ما قدمته من الأصل الفاسد .

أما كون الكلام واحداً فلا يتصور فيه تفاضل ولا تماثل ولا تعدد .

وأما كون صفات الرب لا تتفاضل - وربما قالوا : القديم لا يتفاضل ، وهو من جنس قول الجهمية والمعتزلة ونحوهم القديم لا يتعدد - فهذا لفظ مجمل : فإن القديم إذا أريد به رب العالمين ، فرب العالمين إله واحد لا شريك له . وإذا أريد به صفاته ، فمن قال : إن صفات الرب لا تتعدد فهو يقول : العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ، والسمع والبصر هو العلم ،

(١) صاحبها الامام علي بن اسماعيل الأشعري ت ٣٢٤ هـ

(٢) صاحبها محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ت ٥٤٨ هـ .

وقد يقول بعضهم أيضاً : العلم هو الكلام ، ويقول آخرون : العلم والقدرة هو الإرادة ، ثم قد يقولون : إن الصفة هي الموصوف : فالعلم هو العالم والقدرة هي القادر وهذه الأقوال صرح بها نفاة الصفات من الفلاسفة والجهمية ونحوهم كما حكيت ألفاظهم في غير هذا الموضع ، ومعلوم أن في هذه الأقوال من مخالفة المعقول الصريح والمنقول الصحيح - بل مخالفة المعلوم بالاضطرار للعقلاء ، والمعلوم بالاضطرار من دين الإسلام ودين الرسل - ما يبين أنها في غاية الفساد شرعاً وعقلاً .

ثم إن هؤلاء تأولوا نصوص الكتاب والسنة بتأويلات باطلة : منهم من قال : المراد بكونه أعظم وأفضل وخيراً كونه عظيماً في نفسه ، وامتنع هؤلاء من إجراء التفضيل عليه ، وحكي هذا عن الأشعري وابن الباقلاني وجماعة غيرهما .

ومعلوم أن من تدبر ألفاظ الكتاب والسنة تبين له أنها لا تحتمل هذا المعنى ، بل هو من نوع القرمطة .

فإن الله تعالى يقول ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ^(١) وقال النبي ﷺ لأبي : « أتدري أي آية معك في كتاب الله أعظم » ^(٢) .

وقال « لأعلمنك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها » إلى غير ذلك مما تقدم ذكره .

ومنهم من قال : بل المراد بقوله « خير منها » أي خير منها لكم ، أي أكثر ثواباً أو أقل تعباً ، وقال : ما دل على أن بعضه أفضل من بعض ، فليس هو تفضيلاً لنفس الكلام بل لمتعلقه ، وهو أن تلاوة هذا والعمل به يحصل به من الأجر أكثر مما يحصل بالآخر .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

فيقال لهؤلاء : ما ذكرتموه حجة عليكم ، مع ما فيه من مخالفة النص وذلك أن كون الثواب على أحد القولين أو الفعلين أكثر منه على الثاني إنما كان لأنه في نفسه أفضل ، ولهذا إنما تنطق النصوص بفضل القول والعمل في نفسه ، كما قد سئل النبي ﷺ غير مرة : أي العمل أفضل ^(١) ؟ فيجيب بتفضيل عمل على عمل ، وذلك مستلزم لرجحان ثوابه .

وأما رجحان الثواب مع تماثل العملين فهذا مخالف للشرع والعقل .

وكذلك الكلام ، ففي صحيح مسلم عن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع - وهي من القرآن - سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ^(١) .

فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن مع كونها من القرآن ففضل نفس هذه الأقوال بعد القرآن على سواها وكذلك في صحيح مسلم أنه سئل : أي الكلام أفضل ؟ فقال : ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده « وفي الموطأ وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ » ^(٣) فأخبر أن هذا الكلام أفضل مما قاله هو والنبيون من قبله وفي سنن ابن ماجه عنه أنه قال « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » ^(٤) .

(١) راجع البخاري في الحج ٤ ، وتوحيد ٤٨ ، ٥٦ والامام مسلم في الايمان ١٣٥ ، ١٣٦ ، والترمذي في المواقيت ١٣ ، والبر ٢ ، والنسائي في الزكاة ٤٩ ، والمناسك ٤ ، وإيمان ١ وابن ماجه في المناسك ١٦ ، والدارمي في الجهاد ٤ ، والرقاق ٢٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٤ ، ٢٨٧ ، ٣٨٨ ، ٥٣١ ، ٥ ، ١٦٣ ، ٤٥١ ، ٦ : ٣٧٢ ، ٣٧٤ (حلي) .

(٢) ورواه أيضاً الامام أحمد في المسند ٥ : ١٤٨ (حلي) ورواه البخاري في كتاب الايمان ١٩ .

(٣) سورة التغابن آية رقم ١ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأدب ٥٥ باب فضل الحامدين ٣٨٠٠ ثنا موسى بن ابراهيم بن كثير

وقد رواه ابن أبي الدنيا .

وفي الصحيحين أنه قال « الإيمان بضع وستون - أو وسبعون - شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله » (١) .

ومثل هذا كثير في النصوص بفضل العمل على العمل . والقول على القول .

ويعلم من ذلك فضل ثواب أحدهما على الآخر .

أما تفضيل الثواب بدون تفضيل نفس القول والعمل فلم يرد به نقل ، ولا يقتضيه عقل ، فإنه إذا كان القولان متماثلين من كل وجه ، أو العملان متماثلين من كل وجه ، كان جعل ثواب أحدهما أعظم من ثواب الآخر ترجيحاً لأحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح .

وهذا أصل قول القدريّة والجهمية الذين يقولون : إن القادر يرجح أحد مقدوريه بلا مرجح ، وظنوا أنهم بهذا الأصل ينصرون الإسلام ، فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل تسلط عليهم سلف الأمة وأئمتها بالتبديع والتضليل والتكفير والتجهيل ، وتسلط عليهم خصومهم الدهرية (٢) وغيرهم بإلزامهم مخالفة المعقول . وجعلوا ذلك ذريعة إلى الزيادة في مخالفة المشروع والمعقول كما جرى للملحدين مع المبتدعين .

وأيضاً فقول القائل : إنه ليس بعض ذلك خيراً من بعض ، بل

= ابن بشير بن الفاكهة قال : سمعت طلحة بن خراش بن عم جابر . قال سمعت جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٨ ، ٥٧ ورواه أبو داود في السنة باب في رد الأرجاء ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره .

(٢) الدهرية : نسبة الى الذين جحدوا الله ، وزعموا أن العالم وجد بدون الله عز وجل ، تعالى الله عن ذلك ، وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . سورة الجاثية آية رقم

بعضه أكثر ثواباً : رد لخبر الله لصريح فإن الله يقول ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (١) . فكيف يقال ليس بعضه خيراً من بعض ؟ وإذا كان الجميع متماثلاً في نفسه امتنع أن يكون فيه شيء خيراً من شيء .

وكون معنى الخير أكثر ثواباً مع كونه متماثلاً في نفسه أمر لا يدل عليه اللفظ حقيقة ولا مجازاً ، فلا يجوز حمله عليه ، فإنه لا يعرف قط أن يقال : هذا خير من هذا وأفضل من هذا مع تساوي الذاتين بصفاتهما من كل وجه ، بل لا بد - مع إطلاق هذه العبارة - من التفاضل ولو ببعض الصفات فأما إذا قدر أن مختاراً جعل لأحدهما مع التماثل ما ليس للآخر مع استوائهما بصفاتهما من كل وجه فهذا لا يعقل وجوده ، ولو عقل لم يقل إن هذا خير من هذا أو أفضل لأمر لا يتصف به أحدهما البتة .

وأيضاً ففي الحديث الصحيح أنه قال في الفاتحة : « لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها » .

فقد صرح الرسول ﷺ بأن الله لم ينزل لها مثلاً ، فمن قال : إن كل ما نزل من كلام الله فهو مثل لها من كل وجه فقد ناقض الرسول في خبره . وأيضاً فقد تقدم قوله « أحسن الحديث » ومع تماثل كل حديث لله فليس القرآن أحسن من التوراة والإنجيل ، وكذلك تقدم ما خص الله به القرآن من الأحكام .

فإن قيل : نحن نسلم لكم أن الله خص بعض كلامه من الثواب والأحكام بما لا يشركه فيه غيره ، لكن هذا عندنا بمحض مشيئته لا باختصاص ذلك الكلام بوصف امتاز به عن الآخر .

قيل : أولاً هذا مخالف لصريح نصوص الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة مع مخالفته لصريح المعقول ، ثم هذا مبني على أصل الجهمية والقدرية ،

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

وهو أن القادر المختار يرجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح ، وهؤلاء لما جوزوا هذا قالوا : إن الرب لم يزل معطلاً ، وما كان يمكن في الأزل أن يتكلم ولا أن يفعل ، ثم صار الكلام والفعل ممكناً من غير حدوث شيء اقتضى انتقالهما من الامتناع إلى الإمكان وقالوا : إن القادر المرجح يرجح بلا مرجح .

ثم قالت الجهمية : والعبد ليس بقادر في الحقيقة ، فلا يرجح شيئاً ، بل الله هو الفاعل لفعله ، وفعله هو نفس فعل الرب .

وقالت القدرية : العبد قادر تام القدرة يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا سبب حادث ، ولا حاجة إلى أن يحدث الله ما به يختص به فعل أحدهما بل هو - مع أن نسبته إلى الضدين الإيمان والكفر سواء - يرجح أحدهما بلا مرجح لا من الله ولا من العبد ، ولا يفتقر إلى إعانة الله ولا إلى أن يجعله شائئاً ، ولا يجعله يقيم الصلاة ، ولا يجعله مسلماً .

ومعلوم بالعقول خلاف هذا ، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . لكن المدح في هذا الكلام معناه أنه مطلق المشيئة لا معوق له إذا أراد شيئاً ، كما قال النبي ﷺ : « اللهم أغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له » (١) .

فبين ﷺ أنه لا يفعل إلا بمشيئته ليس له مكره حتى يقال له : افعل إن شئت ، ولا يفعل إن لم يشأ .

فهو سبحانه إذا أراد شيئاً كان قادراً عليه لا يمنعه منه مانع لا يعني بذلك

(١) الحديث رواه البخاري في ٨٠ - كتاب الدعوات ٢١ باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ، ورواه مسلم في ٤٨ - كتاب الذكر ، والدعاء ، والتوبة ، والاستغفار ٣ باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت حديث ٩ .

ورواه صاحب الموطأ في كتاب القرآن ٨ باب ما جاء في الدعاء ٢٨ عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - ذكره .

أنه يفعل لمجرد مشيئة ليس معها حكمة بل يفعل عندهم ما وجود فعله وعدمه بالنسبة إليه سواء من كل وجه .

فإن هذا ليس بمدح ، بل المعقول من هذا أنه صفة ذم ، فمن فعل لمجرد إرادته الفعل من غير حكمة لفعله ، ولا تضمن غاية مجردة كان أن لا يفعل خيراً له .

وقد ذم الله سبحانه في كتابه من نسبه إلى هذا فقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (٢) .

قال المفسرون : العبث أن يعمل عملاً لا لحكمة ، وهو جنس من اللعب .

وقال ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٣) وقال ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٤) قال المفسرون وأهل اللغة : السدى المهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى ، كالذي يترك الإبل سدى مهملة وقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥) .

(١) سورة ص آية رقم ٢٧ .

(٢) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ - ١١٦ .

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ١٦ - ١٧ .

وقد بين سبحانه الفرق بين ما أمر به وما نهى عنه ، وبين من يحمده ويكرمه من أوليائه ومن يذمه ويعاقبه من أعدائه ، وأنهم مختلفون لا يجوز التسوية بينهما وجعل خلاف ذلك من المنكر الذي لا مساغ له فقال تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

وقال ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣) .

فبين أن هذا الحكم سيء في نفسه ليس الحكم به مساوياً للحكم بالتفاضل .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤) فأخبر أنه خلق الخلق ليجزي كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم أحداً فينقص من حسناته شيئاً بل كما قال ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٥) .

وقد نزه نفسه في غير موضع من القرآن أن يظلم أحداً من خلقه فلا يؤتیه أجره أو يحمل عليه ذنب غيره فقال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (٦) .

وقال تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٧) وقال تعالى ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ

(٥) سورة الكهف آية رقم ٤٩ .

(٦) سورة طه آية رقم ١١٢ .

(٧) سورة ق آية رقم ٢٨ .

(١) سورة القلم آية رقم ٣٥ - ٣٦ .

(٢) سورة ص آية رقم ٢٨ .

(٣) سورة الجاثية آية رقم ٢١ .

(٤) سورة الجاثية آية رقم ٢٢ .

نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١﴾ .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» (١) وما تزعمه القدرية من أن تفضيل بعض عباده على بعض بفضله وإحسانه من باب الظلم جهل منهم ، وكذلك جزاؤهم بأعمالهم التي جرى بها القدر ليس بظلم ، فإن الواحد من الناس إذا عاقبه غيره بسيئاته ، وانتصف للمظلوم من الظالم لم يكن ذلك ظلماً منه باتفاق العقلاء ، بل ذلك أمر محمود منه ولا يقول أحد إن الظالم معذور لأجل القدر فرب العالمين إذا أنصف بعض عباده من بعض وأخذ للمظلومين حقهم من الظالمين كيف يكون ذلك ظلماً منه لأجل القدر ؟

وكذلك الواحد من العباد إذا وضع كل شيء موضعه فجعل الطيب مع الطيب في المكان المناسب له وجعل الخبيث مع الخبيث في المكان المناسب له كان ذلك عدلاً منه وحكمة ، فرب العالمين إذا وضع كل شيء موضعه ولم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ولم يجعل المتقين كالفجار ، ولا المسلمين كالمجرمين والجنة طيبة لا يصلح أن يدخلها إلا طيب ، ولهذا لا يدخلها أحد إلا بعد القصاص الذي ينظفهم من الخبث ، كما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ « إن المؤمنين إذا عبروا الجسر - وهو الصراط المنصوب على متن جهنم - فإنهم يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » (٢) .

(١) سورة هود آية رقم ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ٥٥ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١٦٠ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المظالم ١ باب قصاص المظالم ٢٤٤٠ - عن قتادة ، عن أبي

وهذه الأمور مبسطة في غير هذا الموضع .

والمقصود : هنا أن ما يقوله القدرية من الظلم والعدل الذي يقيسون به الرب على عبادته من بدعهم التي ضلوا بها وخالفوا بها الكتاب والسنة ، إجماع سلف الأمة ، وكذلك من قابلهم فنفي حكمة الرب الثابتة في خلقه وأمره وما كتبه على نفسه من الرحمة ، وما حرمه على نفسه من الظلم ، وما جعله للمخلوقات والمشروعات من الأسباب التي شهد بها النص مع العقل والحس ، واتفق عليها سلف الأمة وأئمة الدين . كقوله تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (١) .

وقوله تعالى ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٢) ونحو ذلك ، فإن هذه الأقاويل أصلها مأخوذ من الجهم بن صفوان إمام غلاة المجبرة وكان ينكر رحمة الرب ويخرج إلى الجذمي فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ يريد بذلك أنه ما ثم إلا إرادة رجح بها أحد المتماثلين بلا مرجح لا لحكمة ولا رحمة .

ولهذا كان الذين وافقوه على قوله من المنتسبين إلى مذهب أهل السنة والجماعة يتناقضون ، لأنهم إذا خاضوا في الشرع احتاجوا أن يسلكوا مسالك أئمة الدين في إثبات محاسن الشريعة وما فيها من الأمر بمصالح العباد وما ينفعهم من النهي عن مفاسدهم وما يضرهم ، وأن الرسول الذي بعث بها بعث رحمة كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وقد وصفه الله تعالى بقوله ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

المتوكل الناجي ، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ - قال : وذكره ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٣ ، ٦٣ ، ٧٤ (حلي) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٤ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٧ .

يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴿١﴾ .

فأخبر أنه يأمر بما هو معروف وينهى عما هو منكر ، ويحل ما هو طيب ، ويحرم ما هو خبيث .

ولو كان المعروف لا معنى له إلا المأمور به ، والمنكر لا معنى له إلا ما حرم لكان هذا كقول القائل : يأمرهم بما يأمرهم وينهاهم عما ينهاهم ، ويحل لهم ما أحل لهم ويحرم عليهم ما حرم عليهم . وهذا كلام لا فائدة فيه فضلاً عن أن يكون فيه تفضيل له على غيره .

ومعلوم أن كل من أمر بأمر يوصف بذلك ، وكل نبي بعث فهذه حاله .
وقد قال تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (٢) .

فعلم أن الطيب وصف للعين ، وأن الله قد يحرقها مع ذلك عقوبة للعباد ، كما قال تعالى لما ذكر ما حرمه على بني اسرائيل ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ (٤) .

فلو كان معنى الطيب هو ما أحل كان الكلام لا فائدة فيه فعلم أن الطيب والخبيث وصف قائم بالأعيان .

وليس المراد به مجرد إلتذاذ الأكل ، فإن الإنسان قد يلتذ بما يضره من السموم ، وما يحميه الطبيب منه ، ولا المراد به التذاذ طائفة من الأمم

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٤٦ .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦ - ١٥٧ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦٠ .

كالعرب ، ولا كون العرب تعودته فإن مجرد كون أمة من الأمم تعودت أكله وطاب لها ، أو كرهته لكونه ليس في بلادها لا يوجب أن يحرم الله على جميع المؤمنين ما لم تعتده طباع هؤلاء ، ولا أن يحل لجميع المؤمنين ما تعودوه .

كيف وقد كانت العرب قد اعتادت أكل الدم والميتة وغير ذلك وقد حرمه الله تعالى .

وقد قيل لبعض العرب : ما تأكلون ؟

قال : ما دب ودرج ، إلا أم حبيبن . فقال : ليهن أم حبين العافية .

ونفس قريش كانوا يأكلون خبائث حرمها الله ، وكانوا يعافون مطاعم لم يحرمها الله .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قدم له لحم ضب ، فرفع يده ولم يأكل .

ف قيل : أحرام هو يا رسول الله ؟

قال : « لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه » ^(١) .

فعلم أن كراهة قريش وغيرها لطعام من الأطعمة لا يكون موجباً لتحريمه على المؤمنين من سائر العرب والعجم .

وأيضاً فإن النبي ﷺ وأصحابه لم يحرم أحد منهم ما كرهته العرب ، ولم يبح كل ما أكلته العرب وقوله تعالى ﴿ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرَّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ ﴾ ^(٢) إخبار عنه أنه سيفعل ذلك ، فأحل النبي ﷺ الطيبات ، وحرم

(١) الحديث رواه الامام البخاري عن خالد بن الوليد في ٧٢ كتاب الذبائح والصيد ، ٣٣ باب الضب ، ورواه مسلم عن ابن عباس في ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ٧ - باب اباحة الضب حديث ٤٣ ، ورواه صاحب الموطأ في كتاب الاستئذان ٤ باب ما جاء في أكل الضب ١٠ وحدثني مالك عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عبد الله بن عباس عن خالد بن الوليد بن المغيرة وذكره .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ .

الخبائث مثل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ، فإنها عادية باغية ، فإذا أكلها الناس - والغاذي شبيه بالمغتذي - صار في أخلاقهم شوب من أخلاق هذه البهائم وهو البغي والعدوان كما حرم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية ، وزيادته توجب طغيان هذه القوى وهو مجرى الشيطان من البدن ، كما قال النبي ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » (١) .

ولهذا كان شهر رمضان إذا دخل صفت الشياطين لأن الصوم جنة .

فالطيبات التي أباحها هي المطاعم النافعة للعقول والأخلاق والخبائث هي الضارة للمعقول والأخلاق ، كما أن الخمر أم الخبائث لأنها تفسد العقول والأخلاق ، فأباح الله للمتقين الطيبات التي يستعينون بها على عبادة ربهم التي خلقوا لها ، وحرم عليهم الخبائث التي تضرهم في المقصود الذي خلقوا له ، وأمرهم مع أكلها بالشكر ، ونهاهم عن تحريمها .

فمن أكلها ولم يشكر ترك ما أمر الله به واستحق العقوبة . قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٢) .

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » (٣) .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الصوم ٦٥ باب المعتكف يزوره أهله في المسجد ١٧٧٩ بسنده عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ - وذكره . ورواه الامام البخاري في كتاب الأحكام ٢١ وبدء الخلق ١١ ، والاعتكاف ١١ ، ١٢ وأبو داود في الصوم ٧٨ والسنة ١٧ والأدب ٨١ . وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩ ، ٦ : ٣٣٧ (حلي) .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٢ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر ٨٩ ، والامام الترمذي في كتاب الأطعمة ١٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١٧ ، ١٠٠ (حلي) .

وفي حديث آخر « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »^(١) وقال تعالى ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٢) .

أي من شكره ، فإنه لا يبيح شيئاً ويعاقب من فعله . ولكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه وعما حرمه عليه : هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣) .

فنهاهم عن تحريم الطيبات .

كما كان طائفة من الصحابة قد عزموا على الترهيب فأنزل الله هذه الآية .

وفي الصحيحين أن رجلاً من الصحابة قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر ، وقال آخر : أما أنا فأقوم لا أنام وقال آخر : أما أنا فلا أقرب النساء ، وقال آخر : أما أنا فلا أكل اللحم .

فقال النبي ﷺ : ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكنني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء ، وأكل اللحم .
« فمن رغب عن سنتي فليس مني »^(٤) .

(١) الحديث رواه البخاري في الأطعمة ٥٦ ، والترمذي في القيامة ٤٣ وابن ماجه في الصيام ٥٥ ، والدارمي في الأطعمة ٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٤ : ٣٤٣ (حلي) .

(٢) سورة التكاثر آية رقم ٨ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٨٧ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث . وراجع صحيح البخاري كتاب النكاح ١ والامام مسلم كتاب النكاح ٥ ، والنسائي كتاب النكاح ٤ ، والدارمي كتاب النكاح ٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٥٨ ، ٣ : ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ ، ٥ : ٤٠٩ حلي .

وليسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الله بين في كتابه وعلى لسان رسوله حكمته في خلقه وأمره كقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١) .

فعلل التحريم بأنها فاحشة بدون النهي ، وأن ذلك علة للنهي عنها .

وقوله ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آباءَنَا وَالله أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ الله لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (٢) .

فذكر براءته من هذا على وجه المدح له بذلك وتزويجه عن ذلك ، فدل على أن من الأمور ما لا يجوز أن يضاف إلى الله الأمر به ، ليست الأشياء كلها مستوية في أنفسها ولا عنده ، وأنه لا يخصص المأمور على المحذور لمجرد التحكم بل يخصص المأمور بالأمر والمحذور بالحظر لما اقتضته حكمته وقد تدبرت عامة ما رأيته من كلام السلف - مع كثرة البحث عنه ، وكثرة ما رأيته من ذلك - هل كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أو أحد منهم على ما ذكرته من هذه الأقوال التي وجدتها في كتب أهل الكلام من الجهمية والقدرية ومن تلقى ذلك عنهم ، مثل دعوى الجهمية أن الأمور المتماثلة بأمر الله بأحدها وينهى عن الآخر لا لسبب ولا لحكمة ، أو أن الأقوال المتماثلة والأعمال المتماثلة من كل وجه يجعل الله ثواب بعضها أكثر من الآخر بلا سبب ولا حكمة ، ونحو ذلك مما يقولونه : كقولهم إن كلام الله كل متماثل ، وإن كان الأجر في بعضه أعظم ، فما وجدت في كلام السلف ما يوافق ذلك . بل يصرحون بالحكم والأسباب ، وبيان ما في المأمور به من الصفات الحسنة المناسبة للأمر به ، وما في المنهى عنه من الصفات السيئة المناسبة للنهي عنه ، ومن تفضيل بعض الأقوال والأعمال في نفسها على بعض ، ولم أر عن

(١) سورة الاسراء آية رقم ٣٢ .

(٢) سورة الاعراف آية رقم ٢٨ .

أحد منهم قط أنه خالف النصوص الدالة على ذلك ، ولا استشكل ذلك ، ولا تأوله على مفهومه ، مع أنه يوجد عنهم في كثير من الآيات والأحاديث استشكل واشتباه وتفسيرها على أقوال مختلفة قد يكون بعضها خطأ والصواب هو القول الآخر ، وما وجدتهم في مثل قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ ﴾ (١) .

وقول النبي ﷺ لأبي « أي آية في كتاب الله أعظم » (٢) وقوله في الفاتحة « لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها » (٣)

ونحو ذلك إلا مقرين لذلك قائلين بموجبه .

والنبي ﷺ سأل أياً « أي آية في كتاب الله أعظم » فأجابه أبي بأنها آية الكرسي ، فضرب بيده في صدره وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر » (٤) .

ولم يستشكل أبي ولا غيره السؤال عن كون بعض القرآن أعظم من بعض ، بل شهد النبي ﷺ بالعلم لمن عرف فضل بعضه على بعض وعرف أفضل الآيات ، وكذلك قوله تعالى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ (٥) .

وما رأيتهم تنازعوا في تفسير « خير منها » فإن هذه الآية فيها قراءتان مشهورتان : قراءة الأكثرين ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ من أنساه ينسيه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « أَوْ نَنْسَاهَا » بالهمز من نساها ينسأها .

فالأول من النسيان ، والثاني من نسا إذا أضر . قال أهل اللغة : نساته نسا إذا أضرته ، وكذلك أنساته ، يقال نساته البيع وأنساته .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

قال الأصمعي (١) : أنسا الله في أجله ونسا من أجله بمعنى ومن هذه المادة بيع النسيئة .

ومن كلام العرب : من أراد النساء ولا نساء فليكر الغداء وليخفف الرداء ، وليقلل من غشيان النساء .

فأما القراءة فمعناها ظاهر عند أكثر المفسرين ، قالوا ، المراد به ما أنساه الله من القرآن كما جاءت الآثار بذلك فإن ما يرفع من القرآن إما أن يكون رفعاً شرعياً بإزالته من القلوب وهو الإنساء ، فأخبر تعالى أن ما ينسخه أو ينسيه فإنه يأتي بخير منه أو مثله ، بين ذلك فضله ورحمته لعباده المؤمنين ، فإنه قال قبل ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) .

فنهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في سوء أدبهم على الرسول وعلى ما جاء به ، وأخبر أنهم لحسدكم ما يودون أن الله ينزل عليه شيئاً من الكتاب والحكمة ، ثم أخبر بنعمته على المؤمنين ، فإنه قد كان بعض القرآن ينسخ وبعضه ينسى - كما جاءت الآثار بذلك - وما أنساه سبحانه هو ما نسخ حكمه وتلاوته ، بخلاف المنسوخ الذي يتلى ، وقد نسخ ما نسخ من حكمه أو نسخ تلاوته ولم ينس ، وفي النسخ والإنساخ نقص ما أنزله على عباده فبين سبحانه أنه لا نقص في ذلك ، بل كل ما نسخ أو ينسى فإن الله يأتي بخير منه أو مثله ،

(١) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي ، أبو سعيد الأصمعي راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر مولده عام ١٢٢ هـ ووفاته بالبصرة ٢١٦ هـ تصانيفه كثيرة منها « الأضداد » و « خلق الإنسان » و « شرح ديوان ذي الرمة » . راجع السيرافي ٥٨ وجمهرة الأنساب ٢٣٤ ، وابن خلكان ١ : ٢٨٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٤ - ١٠٥ .

فلا يزال المؤمنون في نعمة من الله لا تنقص بل تزيد ، فإنه إذا أتى بخير منها زادت النعمة ، وإن أتى بمثلها كانت النعمة باقية .

وقال تعالى ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ ^(١) فأضاف الإنشاء إليه ، فإن هذا الإنشاء ليس مذموماً ، بخلاف نسيان ما يجب حفظه فإنه مذموم ، فإن هذا إنشاء لما رفعه الله ، وأما نسيان ما أمر بحفظه مذموم .

قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ ^(٢) .

وهذا النسيان وإن كان متضمناً لترك العمل بها مع حفظها فإذا نسيت الآيات بالكلية حتى لا يعرف ما فيها كان ذلك أبلغ في ترك العمل بها فكان هذا مذموماً .

قال النبي ﷺ في الحديث الذي في السنن « من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجزم » ^(٣) .

ولهذا كره النبي ﷺ أن يضيف الإنسان النسيان إلى نفسه ، فقال في الحديث المتفق عليه : « بشس ما لأحدهم أن يقول : نسيت آية كيت وكيت ، بل هو أنسى استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتاً من صدور الرجال من النعم من عقلها » ^(٤) .

ثم منهم من جعل ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ هو ما ترك تلاوته ورسمه ونسخ

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٦ .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الصلاة : باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه ١٤٧٤ - حدثنا محمد بن العلاء ، أخبرنا ابن إدريس عن يزيد بن أبي زياد ، عن عيسى بن فائدة ، عن سعد بن عباد قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه الدارمي في فضائل القرآن ٣ .

(٤) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢٣ باب استذكروا القرآن وتعااهده ، ٥٠٣٢ - حدثنا محمد بن عرعة ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال النبي - ﷺ - وذكره .

حكمه ، وما أنسى هو ما رفع فلا يتلى .

ومنهم من أدخل في الأول ما نسخت تلاوته وإن كان محفوظاً فالأول قول مجاهد وأصحاب عبد الله بن مسعود .

وروى الناس بالأسانيد الثابتة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ ^(١) قال : ثبت خطها وبديل حكمها . قال : وهو قول عبد الله ابن مسعود ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أي غحوها فإن ما نسي لم يترك .

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار ، فأنزل الله ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ .

وكذلك روي عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن كعب وقتادة وعكرمة وكان سعد بن أبي وقاص يقرأها « أو تنسها » بالخطاب أي تنسها أنت يا محمد ، وتلا قوله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ^(٣) .

وقد جاءت الآثار بأن أحدهم كان يحفظ قرآنًا ثم ينساه ، ويذكرون ذلك للنبي ﷺ فيقول : « إنه رفع » ، مثل ما صح من حديث الزهري : حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف في مجلس سعيد بن المسيب أن رجلاً كان معه سورة فقام يقرأها من الليل فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها ، فأصبحوا فأتوا رسول الله ﷺ فقال بعضهم : ذهبت البارحة لأقرأ سورة كذا وكذا فلم أقدر عليها ، وقال الآخر : ما جئت إلا لذلك ، وقال الآخر ما جئت إلا لذلك وقال الآخر : وأنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ « إنها نسخت البارحة » .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ٦ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ٢٤ .

وقوله «أو ننسأها» النسأ بمعنى التأخير ، وفيه قولان للسلف :

القول الأول يروى عن طائفة ، قال السدي : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ قال : نسها قبضها «أو ننسأها» فتركها لا ننسها ﴿ نأت بخير ﴾ من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه .

وكذلك في تفسير الوالبي عن ابن عباس : « ما ننسخ من آية أو ننسأها » يقول : ما نبدل من آية أو نتركها فلا نرفعها من عندكم ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ روى ذلك عن الربيع بن أنس .

ومن الناس من فسر بهذا المعنى القراءة الأولى فقالوا : معنى نسها نتركها عندكم فإن النسيان هو الترك .

وقال الأزهري ^(١) نسها نأمر بتركها ، يقال : أنسيت الشيء ، وأنشد :
إني على عقبة أقضيها لست بناسيها ولا منسيها
أي : ولا أمر بتركها ، والقول الثالث تؤخرها عن العمل بها بنسخنا إياها .

والصواب : القول الأوسط .

روى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس قال : خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله « ما ننسخ من آية أو ننسأها » أي تؤخرها .

وإسناده المعروف عن أبي الغالية ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ فلا يعمل بها «أو ننسأها» أي نرجئها عندنا .

ومن لفظ عن أبي العالية : تؤخرها عندنا .

وعن عطاء : تؤخرها .

وقد ذكر قول ثالث عن السلف وهو قول رابع أن المعنى ﴿ ما ننسخ من

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

آية ﴿ وهو ما أنزلناه إليكم ولا نرفعه ﴾ أو ننسأها ﴾ أي تؤخر تنزيله فلا تنزله ونقل هذا بعضهم عن سعيد بن المسيب وعطاء أما ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ فهو ما قد نزل من القرآن جعلاه من النسخة ﴾ أو ننسأها ﴾ أي تؤخرها فلا يكون وهو ما لم ينزل .

وهذا فيه نظر ، فإن ابن أبي حاتم ، روى بالإسناد الثابت عن عطاء ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ أما ما نسخ فهو ما ترك من القرآن « بالكاف » وكأنه تصحف على من ظنه نزل من النزول ، فإن لفظ ترك فيه إبهام ، ولذلك قال ابن أبي حاتم : يعني ترك لم ينزل على محمد ، وليس مراد عطاء هذا ، وإنما مراده أنه ترك مكتوباً متلوّاً ونسخ حكمه كما تقدم عن غيره . وما أنسأه هو ما أخره لم ينزله .

وسعيد وعطاء من أعلم التابعين لا يخفى عليهما هذا وقد قرأ ابن عامر ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ .

وزعم أبو حاتم أنه غلط ، وليس كما قال ، بل فسرهما بعضهم بهذا المعنى فقال ما ننسخ نجعلكم تنسخونها كما يقال : أكتبته هذا .

وقيل : أنسخ جعله منسوخاً ، كما يقال : قبره إذا أراد دفنه ، وأقبره أي جعل له قبراً ، وطرده إذا نفاه ، وأطرده إذا جعله طريداً .

وهذا أشبه بقراءة الجمهور .

والصواب قول من فسر « أو ننسأها » أي تؤخرها عندنا فلا تنزلها .

والمعنى : أن ما ننسخه من الآيات التي أنزلناها أو تؤخر نزوله من الآيات التي لم تنزلها بعد ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ^(١) فكما أنه يعوضهم من المرفوع يعوضهم من المنتظر الذي لم ينزله بعد إلى أن ينزله فإن الحكمة اقتضت تأخير

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

نزوله فيعوضهم بمثله أو خير منه في ذلك الوقت ، إلى أن يجيء وقت نزوله فينزله أيضاً مع ما تقدم ، ويكون ما عوضه مثله أو خيراً منه قبل نزوله .

وأما ما أنزله إليهم ولم ينسخه فهذا لا يحتاج إلى بدل ، ولو كان كل ما لم ينسخه الله يأت بخير منه أو مثله لزم إنزال ما لا نهاية له .

وكذلك إن قدر أن المراد يؤخر نسخه إلى وقت ثم ينسخه ، فإنه ما دام عندهم لم يحتاج إلى بدل يكون مثله أو خيراً منه ، وإنما البديل لما ليس عندهم مما أنسوه أو آخر نزوله فلم ينزله بعد ، ولهذا لم يجعل البديل لكل ما لم ينزله ، بل لما نساه فأخر نزوله ، إذ لو كان كل ما لم ينزل يكون له بدل لزم إنزال ما لا نهاية له ، بل ما كان يعلم أنه سينزله وقد أخر نزوله يكونون فاقديه إلى حين ينزل . كما يفقدون ما نزل ثم نسخ ، فيجعل سبحانه لهذا بدلاً ولهذا بدلاً .

وأما ما أنزله وأقره عندهم وأقر نسخه إلى وقت فهذا لا يحتاج إلى بدل ، فإنه نفسه باق . ولو كان هذا مراداً لكان كل قرآن قد نسخه يجب أن ينزل قبل نسخه ما هو مثله أو خير منه ثم إذا نسخه يأتي بخير منه أو مثله ، فيكون لكل منسوخ بديلان :

بديل قبل نسخه ، وبديل بعد نسخه ، والبديل الذي قبل نسخه لا ابتداء لنزوله ، فيجب أن ينزل من أول الأمر فيلزم نزول ذلك كله في أول الوحي ، وهذا باطل قطعاً فإن قيل : فهذا يلزم فيما أخره فلم ينزله فإن له بدلاً ولا وقت لنزول ذلك البديل .

قيل : ما أخر نزوله وهو يريد إنزاله معلوم ، والبديل الذي هو مثله أو خير منه يؤتى به في كل وقت ، فإن القرآن ما زال ينزل ، وقد تضمن هذا أن كل ما أخر نزوله فلا بد أن ينزل قبله ما هو مثله أو خير منه ، وهذا هو الواقع ، فإن الذي تقدم من القرآن نزوله لم ينسخ كثير منه خير مما تأخر نزوله ، كالأيات المكية فإن فيها من بيان التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأصول الشرائع ، ما هو

أفضل من تفاصيل الشرائع ، كمسائل الربا ، والنكاح ، والطلاق ، وغير ذلك .

فهذا الذي أخره الله مثل آية الربا ، فإنها من أواخر ما نزل من القرآن ، وقد روي أنها آخر ما نزل ، وكذلك آية الدين ، والعدة ، والحيض ، ونحو ذلك ، قد أنزل الله قبله ما هو خير منه من الآيات التي فيها من الشرائع ما هو أهم من هذا ، وفيها من الأصول ما هو أهم من هذا .

ولهذا كانت سورة الأنعام أفضل من غيرها ، وكذلك سورة يس ، ونحوها من السور التي فيها أصول الدين ، التي اتفق عليها الرسل كلهم صلوات الله عليهم ولهذا كانت ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مع قلة حروفها تعدل ثلث القرآن ؛ لأن فيها التوحيد ، فعلم أن آيات التوحيد أفضل من غيرها ، وفاتحة الكتاب نزلت بمكة بلا ريب ، كما دل عليه قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ^(١) وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ^(٢) .

وسورة الحجر مكية بلا ريب ، وفيها كلام مشركي مكة وحاله معهم . فدل ذلك على أن ما كان الله ينسأه فيؤخر نزوله من القرآن كان ينزل قبله ما هو أفضل منه ، ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ مكية بلا ريب . وهو قول الجمهور وقد قيل : إنها مدنية ، وهو غلط ظاهر .

وكذلك قول من قال : الفاتحة لم تنزل إلا بالمدينة غلط بلا ريب .

(١) سورة الحجر آية رقم ٨٧ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري ٩ باب فضل فاتحة الكتاب ٥٠٠٦ - حدثنا علي بن عبد الواحد ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شعبة ، قال : حدثني حبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن الملق قال : وذكره .

ولو لم تكن معنا أدلة صحيحة تدلنا على ذلك لكان من قال إنها مكية معه زيادة علم .

وسورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة ولا منافاة ، فإن الله أنزلها بمكة أولاً ، ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى .

وهذا مما ذكره طائفة من العلماء وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين ، وأكثر من ذلك .

فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقاً .

والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها نزل جبريل فقرأها عليه ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك .

والواحد منا قد يسأل عن مسألة فيذكر له الآية أو الحديث ليبين له دلالة النص على تلك المسألة وهو حافظ لذلك ، لكن يتلى عليه ذلك النص ليتبين وجه دلالته على المطلوب .

فقد تبين أن البدل لما أخر نزوله بخلاف ما كان عندهم لم ينسخ فإن هذا لا بدل له ، ولو قدر أنه سينسخ فإنه ما دام محكماً لم يكن بدله خيراً منه .

وكذلك البدل عن المنسوخ يكون خيراً منه .

وأكثر السلف أطلقوا لفظ « خيراً منها » كما في القرآن ، ولم يستشكل ذلك أحد منهم .

وفي تفسير الوالبي : خير لكم في المنفعة وأرفق بكم وعن قتادة ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ آية فيها تخفيف فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي .

وهذان لم يستشكلا كونها خيراً من الأولى ، بل بينا وجه الفضيلة ، كما تقدم من أن الكلام الأمري يتفاضل بحسب المطلوب ، فإذا كان المطلوب أنفع

للمأمور كان طلبه أفضل كما أن رحمة الله التي سبقت غضبه هي أفضل من غضبه ، فما قاله تقرير للخيرية لا نفي لها .

فإن قيل : فآية الكرسي قد ثبت أنها أعظم آية في كتاب الله وإنما نزلت في سورة البقرة - وهي مدنية بالاتفاق - فقد أخرج نزولها ولم ينزل قبلها ما هو خير منها ولا مثلها . فيلحق عن هذا أجوبة :

أحدها أن الله قال ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ ولم يقل بآية خير منها ، بل يأتي بقرآن خير منها أو مثلها وآية الكرسي وإن كانت أفضل الآيات فقد يكون مجموع آيات أفضل منها .

والبقرة وإن كانت مدنية بالاتفاق ، وقد قيل : إنها أول ما نزل بالمدينة فلا ريب أن هذا في بعض ما نزل ، وإلا فتحریم الربا إنما نزل متأخراً .

وقوله ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ (١) من آخر ما نزل .

وقوله ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (٢) نزلت عام الحديبية سنة ست باتفاق العلماء .

وقد كانت سورة الحشر قبل ذلك ، فإنها نزلت في بني النضير باتفاق .

وقصة بني النضير كانت متقدمة على الحديبية ، بل على الخندق باتفاق الناس ، وإنما تأخر عن الخندق أمر بني قريظة فهم الذين حاصروهم النبي ﷺ عقب الخندق وأما بني النضير فكان أجلاهم قبل ذلك باتفاق العلماء . وكذلك سورة الحديد مدنية عند الجمهور ، وقد قيل إنها مكية وهو ضعيف ، لأن فيها ذكر المنافقين وذكر أهل الكتاب ، وهذا إنما نزل بالمدينة ، لكن يمكن أنها نزلت قبل كثير من البقرة .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٦ .

ففي الجملة نزول أول الحديد ، وآخر الحشر ، قبل آية الكرسي ممكن ،
والأنعام ، ويس ، وغيرها نزل قبل آية الكرسي بالاتفاق .

الجواب الثاني : أنه تعالى إنما وعد أنه إذا نسخ آية أو نساها أتى بخير منها
أو مثلها لما أنزل هذه الآية قوله ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ
مِثْلَهَا ﴾ (١) .

فإن هذه الآية جملة شرطية تضمنت وعده أنه لا بد أن يأتي بذلك وهو
الصادق الميعاد .

فما نسخه بعد هذه الآية أو أنسا نزوله مما يريد إنزاله يأت بخير منه أو
مثله .

وأما ما نسخه قبل هذه أو أنساه فلم يكن قد وعد حينئذ أنه يأتي بخير منه
أو مثله ، وبهذا أيضاً يندفع الجواب عن الفاتحة ، فإنه لا ريب أنه تأخر نزولها
عن سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (٢) وهي أفضل منها ، فعلم أنه قد يتأخر إنزال
الفاضل ، وأنه ليس كل ما تأخر نزوله نزل قبله مثله أو خير منه ، لكن إذا كان
الموعود به بعد الوعد لم يرد هذا السؤال يدل على ذلك قوله ﴿ ما ننسخ ﴾
فإن هذا الفعل المضارع المجزوم إنما يتناول المستقبل ، وجوازم الفعل إن
وأخواتها ونواصبه تخلصه للإستقبال .

وقد يجاب بجواب ثالث ، وهو أن يقال : ما نزل في وقته كان خيراً لهم
وإن كان غيره خيراً لهم في وقت آخر ، وحينئذ فيكون فضل بعضه على بعض
على وجهين : لازم كفضل آية الكرسي ، وفاتحة الكتاب ، وقل هو الله أحد .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة العلق آية رقم ١ .

وفضل عارض بحيث تكون هذه أفضل في وقت ، وهذه أفضل في وقت آخر ، كما قد يقال في آية التخيير للمقيم ، بين الصوم ، والفطر ، مع الفدية ، ومع آية إيجاب الصوم عزماً ، وهذا كما أن الأفعال المأمور بها كل منها في وقته أفضل ، فالصلاة إلى القدس قبل النسخ كانت أفضل ، وبعد النسخ الصلاة إلى الكعبة أفضل . وعلى ما ذكر فيتوجه الاحتجاج بهذه الآية على أنه لا ينسخ القرآن إلا قرآن كما هو مذهب الشافعي ، وهو أشهر الروايتين عن الإمام أحمد ، بل هي المنصوصة عنه صريحاً أن لا ينسخ القرآن إلا قرآن يجيء بعده وعليها عامة أصحابه ، وذلك لأن الله قد وعد أنه لا بد للمنسوخ من بدل مماثل أو خير ، ووعد بأن ما أنساه المؤمنين فهو كذلك ، وأن ما أخره فلم يأت وقت نزوله فهو كذلك ، وهذا كله يدل على أنه لا يزال عند المؤمن القرآن الذي رفع ، أو آخر مثله ، أو خير منه ولو نسخ بالسنة فإن لم يأت قرآن مثله أو خير منه فهو خلاف ما وعد الله .

غاية ما يقال : أنه لو لم ينسخ شيء لجاز أن لا ينزل بعد ذلك شيء وإذا نسخ شيء فلا بد من بدله ولو بعد حين .

وهذا مما يعتقدونه فإنهم قد اعتادوا نزول القرآن عند الحوادث والمسائل والحاجة فما كانوا يظنون أنه إذا نسخت آية - أن لا ينزل بعدها شيء ، فإنها لو لم تنسخ لم يظنوا ذلك ، فكيف يظنون إذا نسخت ؟

الثاني : أنه إذا كان قد ضمن لهم الإتيان بالبدل عن المنسوخ علم أن مقصوده أنه لا ينقصهم شيء مما أنزله ، بل لا بد من مثل المرفوع أو خير منه ، ولو بقوا مدة بلا بدل لنقصوا .

وأيضاً فإن هذا وعد معلق بشرط ، والوعد المعلق بشرط يلزم عقبه ، فإنه من جنس المعاوضة ، وذلك مما يلزم فيه أداء العوض على الفور إذا قبض

المعوض ، كما إذا قال : ما ألقيت من متاعك في البحر فعلى بدله ، وليس هذا وعداً مطلقاً كقوله ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ ^(١) ولهذا يفرق بين قوله : والله لأعطينك مائة . وبين قوله : والله لا آخذ منك شيئاً إلا أعطيتك بدله ، فإن هذا واجب على الفور . ومما يدل على المسألة أن الصحابة والتابعين الذين أخذ عنهم علم الناسخ والمنسوخ إنما يذكرون نسخ القرآن بقرآن ، لا يذكرون نسخه بلا قرآن بل بسنة ، وهذه كتب الناسخ والمنسوخ المأخوذة عنهم إنما تتضمن هذا .

وكذلك قول علي رضي الله عنه للقاص : هل تعرف الناسخ من المنسوخ في القرآن ؟

فلو كان ناسخ القرآن غير القرآن لوجب أن يذكر ذلك أيضاً . وأيضاً الذين جوزوا نسخ القرآن بلا قرآن من أهل الكلام والرأي إنما عمدتهم أنه ليس في العقل ما يحيل ذلك وعدم المانع الذي يعلم بالعقل لا يقتضي الجواز الشرعي فإن الشرع قد يعلم بخبره ما لا علم للعقل به ، وقد يعلم من حكمة الشارع التي علمت بالشرع ما لا يعلم بمجرد العقل ولهذا كان الذين جوزوا ذلك عقلاً مختلفين في وقوعه شرعاً ، وإذا كان كذلك فهذا الخبر الذي في الآية دليل على امتناعها شرعاً .

وأيضاً فإن الناسخ مهيمن على المنسوخ ، قاض عليه مقدم عليه ، فينبغي أن يكون مثله أو خيراً منه كما أخبر بذلك القرآن ، ولهذا لما كان القرآن مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب بتصديق ما فيه من حق ، وإقرار ما أقره ونسخ ما نسخه كان أفضل منه .

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٧ .

فلو كانت السنة ناسخة للكتاب لزم أن تكون مثله أو أفضل منه .

وأيضاً فلا يعرف في شيء من آيات القرآن أنه نسخه إلا قرآن ، والوصية للوالدين والأقربين منسوخة بآية المواريث ، كما اتفق على ذلك السلف .

قال تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١) والفرائض المقدرة من حدوده ، ولهذا ذكر ذلك عقب ذكر الفرائض ، فمن أعطى صاحب الفرائض أكثر من فرضه فقد تعدى حدود الله بأن نقص هذا حقه وزاد هذا على حقه .

فدل القرآن على تحريم ذلك وهو الناسخ .

(١) سورة النساء آية رقم ١٣ - ١٤ .

فصل

والناس في هذا المقام - وهو مقام حكمة الأمر والنهي - على ثلاثة أصناف :

فالمعتزلة القدريّة يقولون : إن ما أمر به ونهى عنه كان حسناً وقبيحاً قبل الأمر والنهي ، والأمر والنهي كاشف عن صفته التي كان عليها لا يكسبه حسناً ولا قبحاً ، ولا يجوز عندهم أن يأمر وينهى لحكمة تنشأ من الأمر نفسه .

ولهذا أنكروا جواز النسخ قبل التمكن من فعل العبادة ، كما في قصة الذبيح ، ونسخ الخمسين صلاة التي أمر بها ليلة المعراج إلى خمس ووافقهم على منع النسخ قبل وقت العبادة طائفة من أهل السنة المثبتين للقدر لظنهم أنه لا بد من حكمة تكون في المأمور به والمنهى عنه ، فلا يجوز أن ينهى عن نفس ما أمر به .

وهذا قياس من يقول : إن النسخ تخصيص في الأزمان فإن التخصيص لا يكون برفع جميع مدلول اللفظ لكنهم تناقضوا .

والجهمية الجبرية يقولون : ليس للأمر حكمة تنشأ ، لا من نفس الأمر ، ولا من نفس المأمور به ، ولا يخلق الله شيئاً لحكمة ، ولكن نفس المشيئة أوجبت وقوع ما وقع وتخصيص أحد المتماثلين بلا مخصص ، وليست الحسنات سبيلاً للثواب ولا السيئات سبيلاً للعقاب ، ولا لواحد منهما صفة صار بها حسنة

وسبئية ، بل لا معنى للحسنة إلا مجرد تعلق الأمر بها ، ولا معنى للسيئة إلا مجرد تعلق النهي بها ، فيجوز أن يأمر بكل أمر حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجوز أن ينهى عن كل أمر حتى عن التوحيد والصدق والعدل ، وهو لو فعل لكان كما لو أمر بالتوحيد والصدق والعدل ، ونهى عن الشرك والكذب والظلم هكذا يقول بعضهم ، وبعضهم يقول : يجوز الأمر بكل ما لا ينافي معرفة الأمر .

بخلاف ما ينافي معرفته ، وليس في الوجود عندهم سبب ، ولكن إذا اقترن أحد الشيئين بالآخر خلقاً أو شرعاً صار علامة عليه ، فالأعمال مجرد علامات محضة لا أسباب مقتضية .

وقالوا : أمر من لم يؤمن بالإيمان معناه إني أريد أن أعذبكم ، وعدم إيمانكم علامة على العذاب .

وكذلك أمره بالإيمان من علم أنه يؤمن معناه إني أريد أن أثيبك ، والإيمان علامة .

وهؤلاء منهم من ينفي القياس في الشرع والتعليل للأحكام .

ومن أثبت القياس منهم لم يجعل العلل إلا مجرد علامات ثم إنه مع هذا قد علم أن الحكم في الأصل ثابت بالنص والإجماع ، وذلك دليل عليه ، فأبي حاجة إلى العلة ؟ وكيف يتصور أن تكون العلة علامة على الحكم في الأصل ، وإنما تطلب علته بعد أن يعلم ثبوت الحكم ، وحينئذ فلا فائدة في العلامة وأما الفرع فلا يكون علة له حتى يكون علة للأصل ، وهؤلاء منهم من ينكر العلل المناسبة ويقول : المناسبة ليست طريقاً لمعرفة العلل وهم أكثر أصحاب هذا القول .

ومن قال بالمناسبة من متأخريهم يقول : إنه قد اعتبر في الشرع اعتبار المناسب ، فيستدل بمجرد الاقتران ، لا لأن الشارع حكم بما حكم به لتحصيل

المصلحة المطلوبة بالحكم ، ولا لدفع مفسدة أصلاً ، فإن عندهم أنه ليس في خلقه ، ولا أمره لام كي .

فجههم - رأس الجبرية - وأتباعه في طرف .

والقدرية في الطرف الآخر .

وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الإسلام كالفقهاء المشهورين وغيرهم ، ومن سلك سبيلهم من أهل الفقه والحديث ، والمتكلمين في أصول الدين وأصول الفقه فيقولون بالقدر ، ويقولون بالشرع ، ويقولون بالحكمة لله في خلقه وأمره - لكن قد يعرف أحدهم الحكمة وقد لا يعرفها - ويقولون بما جعله من الأسباب ، وما في خلقه وأمره من المصالح التي جعلها رحمة بعباده ، مع أنه خالق كل شيء وربّه ومليكه : أفعال العباد ، وغير أفعال العباد . وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . وأن كل ما وقع من خلقه وأمره فعديل وحكمة . سواء عرف العبد وجه ذلك أو لم يعرفه .

والحكمة الناشئة من الأمر ثلاثة أنواع :

أحدها : أن تكون في نفس الفعل - وإن لم يؤمر به - كما في الصدق والعدل ونحوهما من المصالح الحاصلة لمن فعل ذلك وإن لم يؤمر به ، والله يأمر بالصلاح وينهى عن الفساد .

والنوع الثاني : أن ما أمر به ونهى عنه صار متصفاً بحسن اكتسبه من الأمر ، وقبح اكتسبه من النهي كالخمر التي كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة ، والصلاة إلى الصخرة التي كانت حسنة فلما نهى عنها صارت قبيحة . فإن ما أمر به يحبه ويرضاه .

وما نهى عنه يبغضه ويسخطه .

وهو إذا أحب عبداً ووالاه أعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز بها على من أبغضه وعاداه .

وكذلك المكان والزمان الذي يحبه ويعظمه - كالكعبة وشهر رمضان -
يخصه بصفات يميزه بها على ما سواه بحيث يحصل في ذلك الزمان والمكان من
رحمته وإحسانه ونعمته ما لا يحصل في غيره .

فإن قيل : الخمر قبل التحريم وبعده سواء ، فتخصيصها بالخبث بعد
التحريم ترجيح بلا مرجح .

قيل : ليس كذلك ، بل إنما حرمها في الوقت الذي كانت الحكمة تقتضي
تحريمها ، وليس معنى كون الشيء حسناً وسيئاً مثل كونه أسود وأبيض ، بل هو
من جنس كونه نافعاً وضاراً ، وملائماً ومنافراً وصديقاً وعدواً ، ونحو هذا من
الصفات القائمة بالموصوف التي تتغير بتغير الأحوال : فقد يكون الشيء نافعاً في
وقت ضاراً في وقت ، والشيء الضار قد يترك تحريمه إذا كانت مفسدة التحريم
أرجح ، كما لو حرمت الخمر في أول الإسلام ، فإن النفوس كانت قد اعتادتها
عادة شديدة ، ولم يكن حصل عندهم من قوة الإيمان ما يقبلون ذلك التحريم ،
ولا كان إيمانهم ودينهم تاماً حتى لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من
صدها عن ذكر الله وعن الصلاة . فلهذا وقع التدريج في تحريمها .

فأنزل الله أولاً فيها : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (١) .

ثم أنزل الله فيها - لما شربها طائفة وصلوا فغلط الإمام في القراءة - آية
النهي عن الصلاة سكارى : ثم أنزل الله آية التحريم :

والنوع الثالث : أن تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر ، وليس في الفعل
البتة مصلحة ، لكن المقصود ابتلاء العبد ، هل يطيع أو يعصى ، فإذا اعتقد
الوجوب وعزم على الفعل حصل المقصود بالأمر فينسح حينئذ ، كما جرى
للخليل في قصة الذبح فإنه لم يكن الذبح مصلحة ، ولا كان هو مطلوب الرب

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٩ .

في نفس الأمر ، بل كان مراد الرب ابتلاء ابراهيم ليقدم طاعة ربه ومحبه على محبة الولد ، ولا يبقى في قلبه التفات إلى غير الله ، فإنه كان يحب الولد محبة شديدة وكان قد سأل الله أن يهبه إياه - وهو خليل الله - فأراد تعالى تكميل خلته لله بأن لا يبقى في قلبه ما يزاحم به محبة ربه :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

ومثل هذا الحديث الذي في صحيح البخاري حديث أبرص وأقرع وأعمى . كان المقصود ابتلاءهم لا نفس الفعل .

وهذا الوجه والذي قبله مما خفي على المعتزلة ، فلم يعرفوا إلا الأول .

والذين أنكروا الحكمة عندهم الجميع سواء ، لا يعتبرون حكمة ولا تخصيص فعل بأمر ، ولا غير ذلك ، كما قد عرف من أصلهم .

ثم إن كثيراً من هؤلاء وهؤلاء يتكلمون في تفسير القرآن والحديث والفقه فينبون على تلك الأصول التي لهم ولا يعرف حقائق أقوالهم إلا من عرف مأخذهم . فقول القائل : إن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و فاتحة الكتاب ، قد تكون كل واحدة منها في نفسها مماثلة لسائر الآيات ، وإنما خصت بكثرة ثواب قارئها ، أو لم تتعين الفاتحة في الصلاة ، ونحو ذلك إلا لمحض المشيئة من غير أن يكون فيها صفة تقتضي التخصيص ، هو مبني على أصول جهم ، في الخلق والأمر ، وإن كان وافقه عليه أبو الحسن وغيره ، وكتب السنة المعروفة التي فيها آثار السلف يذكر فيها هذا وهذا ، ويجعل هذا القول قول الجبرية ، المتبعين لجهم في أقوال القدرية الجبرية المبتدعة ، والسلف كانوا ينكرون قول الجبرية الجهمية كما ينكرون قول المعتزلة القدرية ، وهذا معروف عن سفيان

(١) سورة الصافات آية رقم ١٠٣ - ١٠٦ .

الثوري^(١) ، والأوزاعي^(٢) ، والزبيدي ، وعبد الرحمن بن مهدي^(٣) ، وأحمد ابن حنبل ، وغيرهم . وقد ذكر ذلك غير واحد من أتباع الأئمة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وسائر أهل السنة في كتبهم كما قد بسط في مواضعه ، وذكرت أقوال السلف والأئمة في ذلك .

وإنما نبهنا هنا على الأصل لأن كثيراً من الناس لا يعرف ذلك ، ولا يظن قول أهل السنة في القدر إلا القول الذي هو عند أهل السنة قول جهم وأتباعه المجبرة ، أو ما يشبه ذلك .

كما أن منهم من يظن أن قول أهل السنة في مسائل الأساء والأحكام ، والوعد والوعيد هو أيضاً القول المعروف عند أهل السنة بقول جهم .

وهذا يعرفه من يعرف أقوال الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام المشهورين في هذه الأصول .

وذلك موجود في الكتب المصنفة التي فيها أقوال جمهور الأئمة التي يذكر فيها أقوالهم في الفقه كثيراً ، والعلماء الأكابر من أتباع الأئمة الأربعة على مذهب السلف في ذلك ، وكثير من الكتب المصنفة التي يذكر فيها أقوال السلف على وجه الاتباع من تصنيف أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم يذكرون ذلك فيها . وينبغي للعاقل أن يعرف أن مثل هذه المسائل العظيمة التي هي من أعظم مسائل الدين لم يكن السلف جاهلين بها ، ولا معرضين عنها ، بل من لا يعرف ما قالوه فهو الجاهل بالحق فيها ، وبأقوال

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان الغبري البصري ، اللؤلؤي أبو سعيد ، من كبار حفاظ الحديث ، وله فيه « تصانيف » حدث ببغداد ولد عام ١٣٥ في البصرة ، وتوفي فيها عام ١٩٨ هـ قال الشافعي : لا أعرف له نظيراً في الدنيا . [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٩ وحلية الأولياء ٣ : ٩ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٢٤٠ واللباب ٣ : ٧٢]

السلف ، وبما دل عليه الكتاب والسنة ، والصواب في جميع مسائل النزاع ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وقولهم هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والعقل الصريح .

وقد بسط هذا في مواضع كثيرة . والله سبحانه أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

ومفتي الأنام : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية - رضي الله عنه - عن فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء في تفسير قول النبي ﷺ في سورة الإخلاص « إنها تعدل ثلث القرآن » (١) .

فكيف ذلك مع قلة حروفها ، وكثرة حروف القرآن ؟ بينوا لنا ذلك بياناً مبسوطاً شافياً ، وأفتونا مأجورين - إن شاء الله تعالى -

فأجاب رضي الله عنه - بما صورته :

الحمد لله : الأحاديث الماثورة عن النبي ﷺ في فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وأنها تعدل ثلث القرآن من أصح الأحاديث وأشهرها حتى قال طائفة من الحفاظ كالدارقطني (٢) : لم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن أكثر مما صح عنه في فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٢) هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ، أبو الحسن ، الدارقطني الشافعي إمام عصره في الحديث ، وأول من صنف القراءات ، وعقد لها أبواباً ولد بدار القطن (من أحياء بغداد) عام ٣٠٦ هـ ورحل إلى مصر فساعد بن خزيه وزير كافور الأحمدي على تأليف مسنده وعاد إلى بغداد فتوفي بها من تصانيفه كتاب « السنن » ، والعلل الواردة في الأحاديث النبوية ، وغير ذلك كثير توفي عام ٣٨٥ هـ . [راجع : وفيات الأعيان ١ : ٣٣١ وغاية النهاية ١ : ٥٥٨ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ٣٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٨٨ - ٩٠] .

وجاءت الأحاديث بالألفاظ كقوله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن .

وقوله « من قرأ قل هو الله أحد مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن ومن قرأها ثلاثاً فكأنما قرأ القرآن كله » .

وقوله للناس : « احتشدوا حتى أقرأ عليكم ثلث القرآن فحشدوا حتى قرأ عليهم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قال : والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن » .

وأما توجيه ذلك : فقد قالت طائفة من أهل العلم : إن القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث : ثلث توحيد ، وثلث قصص ، وثلث أمر ونهي ، و﴿ قل هو الله أحد ﴾ هي صفة الرحمن ونسبه وهي متضمنة ثلث القرآن ، وذلك لأن القرآن كلام الله تعالى ، والكلام إما إنشاء وإما إخبار ، فالإنشاء هو الأمر والنهي ، وما يتبع ذلك كالإباحة ونحوها وهو الأحكام . والإخبار : إما إخبار عن الخالق ، وإما إخبار عن المخلوق ، فالإخبار عن الخالق هو التوحيد ، وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ، والإخبار عن المخلوق هو القصص وهو الخبر عما كان وعما يكون ، ويدخل فيه الخبر عن الأنبياء وأممهم ، ومن كذبهم ، والإخبار عن الجنة والنار ، والثواب والعقاب .

قالوا : فبهذا الاعتبار تكون ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن لما فيها من التوحيد الذي هو ثلث معاني القرآن .

بقي أن يقال : فإذا كانت تعدل ثلث القرآن مع قلة حروفها كان للرجل أن يكتفي بها عن سائر القرآن .

فيقال في جواب ذلك : إن النبي ﷺ قال : « إنها تعدل ثلث القرآن » وعدل الشيء - بالفتح - يقال على ما ليس من جنسه كما قال تعالى ﴿ أَوْ عَدُلْ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ ^(١) فجعل الصيام عدل كفارة ، وهما جنسان ، ولا ريب أن

(١) سورة المائدة آية رقم ٩٥ .

الثواب أنواع مختلفة في الجنة ، فإن كل ما ينتفع به العبد ويلتذ به من مأكول ومشروب ومنكوح ومشوم هو من الثواب ، وأعلاه النظر إلى وجه الله تعالى ، وإذا كانت أحوال الدنيا لاختلاف منافعها يحتاج إليها كلها ، وإن كان بعضها يعدل ما هو أكبر منه في الصورة ، كما أن ألف دينار من ذلك ، وإن كان لا يستغني بذلك عن سائر أنواع المال التي ينتفع بها ، لأن المساواة وقعت في القدر لا في النوع والصفة فكذلك ثواب : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وإن كان يعدل ثواب ثلث القرآن في القدر فلا يجب أن يكون مثله في النوع والصفة ، وأما سائر القرآن ففيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد ما يحتاج إليه العباد .

فلهذا كان الناس محتاجين لسائر القرآن ، ومتنفعين به منفعة لا تغني عنها هذه السورة ، وإن كانت تعدل ثلث القرآن .

فهذه المسألة مبنية على أصل : وهو أن القرآن هل يتفاضل في نفسه ، فيكون بعضه أفضل من بعض ؟ وهذا فيه للمتأخرين قولان مشهوران منهم من قال : لا يتفاضل في نفسه ، لأنه كله كلام الله تعالى ، وكلام الله صفة له قالوا : وصفة الله لا تتفاضل ، لا سيما مع القول بأنه قديم ، فإن القديم لا يتفاضل ، كذلك قال هؤلاء في قوله تعالى . ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ قالوا : فخير إنما يعود إلى غير الآية ، مثل نفع العباد . وثوابهم .

والقول الثاني : أن بعض القرآن أفضل من بعض وهذا قول الأكثرين من الخلف والسلف ؛ فإن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح في الفاتحة إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها ^(١) .

فنفي أن يكون لها مثل فكيف يجوز أن يقال : إنه متمائل ؟ وقد ثبت عنه

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

في الصحيح أنه قال لأبي كعب : يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله أعظم ؟

قال : ﴿ الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (١) .

فضرب بيده في صدره وقال له : ليهنك العلم أبا المنذر (٢) « فقد بين أن هذه الآية أعظم آية في القرآن ، وهذا يبين أن بعض الآيات أعظم من بعض .

وأيضاً فإن القرآن كلام الله ، والكلام يشرف بالتكلم به سواء كان خبراً أو أمراً ، فالخبر يشرف بشرف المخبر ، ويشرف المخبر عنه والأمر يشرف بشرف الأمر ، ويشرف المأمور به فالقرآن وإن كان كله مشتركاً ، فإن الله تكلم به ، لكن منه ما أخبر الله به عن نفسه ، ومنه ما أخبر به عن خلقه ، ومنه ما أمرهم به ، فمنه ما أمرهم فيه بالإيمان ونهاهم فيه عن الشرك ، ومنه ما أمرهم به بكتابة الدين ونهاهم فيه عن الربا .

ومعلوم أن ما أخبر به عن نفسه : كـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ أعظم مما أخبر به عن خلقه كـ ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ ومأمر فيه بالإيمان ، وما نهى فيه عن الشرك أعظم مما أمر فيه بكتابة الدين ونهى فيه عن الربا .

ولهذا كان كلام العبد مشتركاً بالنسبة إلى العبد ، وهو كلام لتكلم واحد ، ثم إنه يتفاضل بحسب المتكلم فيه ، فكلام العبد الذي يذكر به ربه ، ويأمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر أفضل من كلامه الذي يذكر فيه خلقه ، ويأمر فيه بمباح أو محظور ، وإنما غلط من قال بالأول ؛ لأنه نظر إلى إحدى جهتي الكلام ، وهي جهة المتكلم به ، وأعرض عن الجهة الأخرى وهي جهة المتكلم فيه ، وكلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل والتماثل .

قالوا : ومن أعاد التفاضل إلى مجرد كثرة الثواب أو قلته من غير أن يكون

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

الكلام في نفسه أفضل ، كان بمنزلة من جعل عملين متساويين وثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر ، مع أن العاملين في أنفسهما لم يختص أحدهما بمزية ، بل كدرهم ودرهم تصدق بهما رجل واحد في وقت واحد ومكان واحد على اثنين متساويين في الاستحقاق ونيته بهما واحدة ، ولم يتميز أحدهما على الآخر بفضيلة ، فكيف يكون ثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر ، بل تفاضل الثواب والعقاب دليل على تفاضل الأعمال في الخير والشر ، وهذا الكلام متصل بالكلام في اشتغال الأعمال على صفات بها كانت صالحة حسنة ، وبها كانت فاسدة قبيحة .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وقول من قال : صفات الله لا تتفاضل ونحو ذلك قول لا دليل عليه ، بل هو مورد النزاع ، ومن الذي جعل صفته التي هي الرحمة لا تفضل على صفته التي هي الغضب ، وقد ثبت عن النبي ﷺ : « إن الله كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش : « إن رحمتي تغلب غضبي - وفي رواية - تسبق غضبي » (١) وصفة الموصوف من العلم والإرادة والقدرة والكلام والرضا والغضب وغير ذلك من الصفات تتفاضل من وجهين أحدهما : أن بعض الصفات أفضل من بعض ، وأدخل في كل الموصوف بها ، فلنا نعلم أن اتصاف العبد بالعلم والقدرة والرحمة أفضل من اتصافه بضد ذلك ، ولا يوصف إلا بصفات الكمال ، وله الأسماء الحسنى يدعى بها ، فلا يدعى إلا بأسمائه

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التوحيد ٥٥ باب قول الله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

٧٥٥٤ - حدثني محمد بن غالب ، حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا معتمر سمعت أبي يقول : حدثنا قتادة أن أبا رافع حدثه ، أنه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - وذكره .

ورواه في بدء الخلق ١ ، ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة ١٤ - ١٦ وابن ماجه في الزهد ٣٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ (حلي)

الحسنى ، وأسماءه متضمنة لصفاته ، وبعض أسمائه أفضل من بعض .
وأدخل في كمال الموصوف بها ، ولهذا في الدعاء المأثور أسألك باسمك
العظيم الأعظم ، الكبير الأكبر ^(١) .
« لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى » .
وأمثال ذلك ، فتفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات .

والثاني : أن الصفة الواحدة قد تتفاضل ، فالأمر بمأمور يكون أكمل من
الأمر بمأمور آخر ، والرضا عن النبيين أعظم من الرضا عمن دونهم ، والرحمة
لهم أكمل من الرحمة لغيرهم ، وتكليم الله لبعض عباده أكمل من تكليمه
لبعض وكذلك سائر هذا الباب ، وكما أن أسمائه وصفاته متنوعة ، فهي أيضاً
متفاضلة ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع العقل ، وإنما شبهة من
منع تفاضلها من جنس شبهة من منع تعددها ، وذلك يرجع إلى نفي
الصفات ، كما يقوله الجهمية لما ادعوه من التركيب ، وقد بينا فساد هذا مبسوطاً
في موضعه .

وسئل :

عمن يقرأ القرآن - هل يقرأ « سورة الإخلاص » مرة أو ثلاثاً ؟

وما السنة في ذلك ؟

فأجاب :

إذا قرأ القرآن كله ينبغي أن يقرأها كما في المصحف مرة واحدة ، هكذا
قال العلماء ؛ لئلا يزداد على ما في المصحف .

وأما إذا قرأها وحدها ، أو مع بعض القرآن فإنه إذا قرأها ثلاث مرات
عدلت القرآن . والله أعلم .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

وقال شيخ الإسلام
قدس الله روحه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن
سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى
الله عليه وسلم تسليماً . .

فصل

في تفسير ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

والاسم « الصمد » فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة ، وليست كذلك ، بل كلها صواب والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثاني : أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثاني : قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين ، والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدھا في كتب التفسير المسندة ، وفي كتب السنة وغير ذلك ، وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئاً كثيراً بإسناده فيما تقدم .

وتفسير ﴿ الصمد ﴾ بأنه الذي لا جوف له معروف عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً .

وعن ابن عباس ، والحسن البصري ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي وقتادة .

وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال : هو الذي لا حشوله .

وكذلك قال ابن مسعود : هو الذي ليست له أحشاء وكذلك قال الشعبي ^(١) : هو الذي لا يأكل ولا يشرب وعن محمد بن كعب ^(٢) القرظي ، وعكرمة : هو الذي لا يخرج منه شيء .

وعن ميسرة ^(٣) قال : هو المصمت .

قال ابن قتيبة : كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء ، والصمت من هذا .

قلت : لا إبدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر .

وسنبين إن شاء الله وجه القول من جهة الاشتقاق واللغة .

ومن الحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية رواه الإمام أحمد في المسند وغيره من حديث أبي سعد الصغاني : حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : إنسب لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ إلى آخر السورة (٤) .

قال الصمد الذي لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث وأن الله لا يموت ولا يورث .

وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج فهو أيضاً مروى عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس ، قال : ﴿ الصمد ﴾ السيد الذي كمل في سؤدده ، وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) الحديث عند الإمام أحمد في المسند ٥ : ١٣٤ ورواه الامام الترمذي في التفسير سورة ١١٢ آية رقم ١ .

ابن سلمة قال : هو السيد الذي انتهى سؤدده .

وعن أبي اسحاق الكوفي عن عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد .

ويروى هذا عن علي ، وعن كعب الأحبار : الذي لا يكافئه من خلقه أحد .

وعن السدي أيضاً : هو المقصود إليه في الرغائب والمستغاث به عن المصائب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه هو المستغني عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد ،

وعن سعيد بن جبير أيضاً : الكامل في جميع صفاته وأفعاله .

وعن الربيع : الذي لا تعتريه الآفات .

وعن مقاتل^(١) بن حيان : الذي لا عيب فيه . وعن ابن كيسان^(٢) هو الذي لا يوصف بصفته أحد . قال أبو بكر الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم .

وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السؤدد ، فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده .

وقد أنشدوا في هذا بيتين مشهورين أحدهما :

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أبو الحسن ، المعروف بابن كيسان عالم بالعربية نحواً ولغة ، من أهل بغداد ، أخذ عن المبرد وثعلب من كتبه تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها ، المهذب في النحو ، غريب الحديث ، معاني القرآن ، توفي عام ٢٩٩ هـ [راجع طبقات النحويين واللغويين ١٧٠ وشذرات الذهب ٢ : ٢٣٢] .

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد
وقال الآخر :

علوته بحسامي ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد
وقال بعض أهل اللغة : الصمد هو السيد المقصود في الحوائج .

تقول العرب : صمدت فلاناً أصمده - يكسر الميم - وأصمده - بضم
الميم - صمداً - بسكون الميم - إذا قصده ، والمصمود صمد كالقبض بمعنى
المقبوض والنقض بمعنى المنقوض ، ويقال : بيت مصمود ومصمد إذا قصده
الناس في حوائجهم .

قال طرفة :

وأن يلتق الحي الجميع تلاقني إلى ذروة البيت الرفيع المصمد
وقال الجوهري : صمده يصمده صمداً إذا قصده والصمد بالتحريك
السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج ويقال : بيت مصمد بالتشديد أي مقصود

وقال الخطابي ^(١) أصح الوجوه أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج لأن
الاشتقاق يشهد له ، فإن أصل الصمد القصد ، يقال : أصمد صمداً فلان أي
أقصد قصده ، فالصمد السيد الذي يصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج
وقال قتادة : الصمد الباقي بعد خلقه وقال مجاهد ، ومعر : هو الدائم .

وقد جعل الخطابي وأبو الفرج بن الجوزي ^(٢) : الأقوال فيه أربعة
هذين ، واللذين تقدما .

وسنين إن شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية .

وعن مرة الحمداني : هو الذي لا يبلى ولا يفنى .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وعنه أيضاً قال : هو الذي يحكم ما يريد ، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه . وقال ابن عطاء : هو المتعالي عن الكون والفساد وعنه أيضاً قال : الصمد الذي لم يتبين عليه أثر فيما أظهر ، يريد قوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ ^(١) وقال الحسين بن الفضل : هو الأزلي بلا ابتداء وقال محمد بن علي الحكيم الترمذي ^(٢) : هو الأول بلا عدد والباقي بلا أمد ، والقائم بلا عمد .

وقال أيضاً : الصمد الذي لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأفكار ، ولا تبلغه الأقطار ، وكل شيء عنده بمقدار .

وقيل : هو الذي جل عن شبه المصورين .

وقيل : هو الذي أيسر العقول من الاطلاع على كيفيته .

وكذلك قيل : هو الذي لا تدرك حقيقة نعوته وصفاته ، فلا يتسع له اللسان ، ولا يشير إليه البنان .

وقيل : هو الذي لم يعط خلقه من معرفته إلا الاسم والصفة .

وعن الجنيد ^(٣) قال : الذي لم يجعل لأعدائه سبيلاً إلى معرفته .

ونحن نذكر ما حضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها .

فروى ابن أبي حاتم في تفسيره قال : ثنا أبي ، ثنا محمد بن موسى بن نفع الجرشى ، ثنا عبد الله بن عيسى يعني أبا خلف الخزاز ، ثنا داود بن أبي

(١) سورة ق آية رقم ٣٨ .

(٢) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله ، الحكيم الترمذي ، باحث صوفي ، عالم بالحديث وأصول الدين من أهل ترمذ ، نفى منها بسبب تصنيفه كتاباً خالف فيه ما عليه أهلها توفي نحو ٣٢٠ هـ [راجع لسان الميزان ٥ : ٣٠٨ ومفتاح السعادة ٢ : ١٧٠ وطبقات السبكي ٢ : ٢٠ ودائرة المعارف الإسلامية ٥ : ٢٢٧] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله ﴿ الصمد ﴾ قال : الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

حدثنا أبو زرعة ، ثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسي ثنا محمد بن سواء ، ثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن أبي معشر عن ابراهيم قال : الصمد الذي يصمد العباد إليه في حوائجهم .

حدثنا أبي ، ثنا عبد الرحمن بن الضحاك ، ثنا سويد بن عبد العزيز ثنا سفيان بن حسين ، عن الحسن قال : الصمد الحي القيوم الذي لا زوال له .

حدثنا أبي ، ثنا نصر بن علي ، ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة ، عن الحسن ، قال : الصمد الباقي بعد خلقه . وهو قول قتادة حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا ابن نمير ، عن الأعمش عن شقيق في قوله : ﴿ الصمد ﴾ قال : السيد الذي قد انتهى سؤده .

حدثنا أبي ، ثنا أبو صالح ، ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ الصمد ﴾ قال : السيد الذي قد كمل في سؤده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، هو الله سبحانه وتعالى ، هذه صفته لا تنبغي لأحد إلا له ، ليس له كفاء ، وليس كمثل شيء سبحانه الله الواحد القهار .

حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزويني ، ثنا محمد بن سعيد بن سابق ، ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ الصمد ﴾ قال : الذي لم يلد ، ولم يولد ، حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا ابن علية عن أبي رجاء عن عكرمة في قوله ﴿ الصمد ﴾ قال : الذي لم يخرج منه شيء .

حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا أبو أحمد ، ثنا مندل بن علي عن أبي روق

عطية بن الحارث ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ^(١) ، عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي ليس له أحشاء .

وروي عن سعيد بن المسيب مثله .

حدثنا أبي ، ثنا محمد بن عمر بن عبد الله الرومي ، ثنا عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش ، عن صالح بن حيّان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ، قال : لا أعلمه إلا قد رفعه قال : « الصمد » الذي لا جوف له .

وروي عن عبد الله بن عباس . وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايات ، والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير ، ومجاهد في إحدى الروايات ، والضحاك مثل ذلك .

حدثنا أبي ثنا قبيصة ، ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال : الصمد الصمت الذي لا جوف له .

حدثنا أبو عبد الله الطهراني ، ثنا حفص بن عمر العدني ، ثنا الحكم بن إبان ، عن عكرمة في قوله : ﴿ الصمد ﴾ قال : « الصمد » الذي لا يطعم .

حدثنا أبي ، ثنا علي بن هاشم بن مرزوق ، ثنا هشيم عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي ^(٢) أنه قال : « الصمد » الذي لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب

حدثنا أبي وأبو زرعة قالوا ثنا أحمد بن منيع ثنا محمد بن ميسر - يعني أبا سعد الصغاني - ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية - وهو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري أبو عبد الرحمن من علماء الصوفية توفي عام ٤١٢ هـ [راجع طبقات الصوفية مقدمة كتبها نور الدين شريعة ١٦ - ٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٥١ وميزان الاعتدال ٣ : ٤٦٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٨] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

أبي بن كعب ^(١) في قوله : ﴿ الصمد ﴾ قال : « الصمد » الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يلد إلا يموت ، وليس شيء يموت إلا يورث ، وإن الله لا يموت ، ولا يورث .

﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ لم يكن له شبه ولا عدل وليس كمثله شيء .

حدثنا علي بن الحسين ، ثنا محمود بن خراش ، ثنا أبو سعد الصغاني ، ثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب : إن المشركين قالوا : أنسب لنا ربك ، فأنزل الله هذه السورة ^(٢) .

حدثنا أبو زرعة ثنا العباس بن الوليد ، ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ^(٣) قال : إن الله لا يكافئه من خلقه أحد .

حدثنا علي بن الحسين ثنا أبو عبد الله الجرشي ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : إن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف ^(٤) ، وحيي بن أخطب ، وجدي بن أخطب فقالوا : يا محمد ! صف لنا ربك الذي بعثك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ﴾ .

فيخرج منه الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج منه شيء . وقال ابن جرير الطبري في تفسيره : حدثنا أحمد بن منيع المروزي ، ومحمود بن خدّاش

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

(٤) هو كعب بن الأشرف الطائي من بني نهبان : شاعر جاهلي كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية ، وكان سيداً في أحواله يقيم في حصن له قريب من المدينة ، ما زالت بقاياه إلى اليوم ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وأكثر من هجو النبي - ﷺ وأصحابه ، وتخريض القبائل عليهم - أمر النبي بقتله في ظاهر حسنه عام ٣ هـ . [راجع الروض الأنف ٢ : ١٢٣ وامتناع الأسماع ١ : ١٠٧] .

الطالقاني فذكر مثل إسناد ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب سؤال المشركين للنبي ﷺ : انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حدثنا ابن حميد ، ثنا يحيى بن واضح ، ثنا الحسين عن يزيد ، عن عكرمة أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ أخبرنا عن صفة ربك ما هو ؟ ومن أي شيء هو ؟ فأنزل الله هذه السورة . ورواه أيضاً عن أبي العالية وعن جابر بن عبد الله حدثنا شريح ، ثنا اسماعيل بن مجاهد ، عن الشعبي عن جابر فذكره قال : وقيل : هو من سؤال اليهود حدثنا ابن حميد ، ثنا سلمة ، ثنا ابن اسحاق عن محمد بن سعيد قال : أتى رهط من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلقه ؟

فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه وقال : اخفض عليك جناحك يا محمد ، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال : يقول الله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا له : صف لنا ربك كيف خلقه ، كيف عضده كيف ساعده ؟ وكيف ذراعه ، فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ما سألوه فأنزل الله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (١) .

وروى الحكم بن معبد في كتاب « الرد على الجهمية » قال : ثنا عبد الله ابن محمد بن النعمان ، ثنا سلمة بن شبيب ، ثنا يحيى بن عبد الله ثنا ضرار ، عن أبان ، عن أنس ، قال : أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون ، وإبليس من لهب النار ، والسماء من دخان والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك ؟ قال : فلم يجبهم النبي ﷺ فأتاه جبريل فقال : يا محمد ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٩١ .

ليس له عروق شعب إليها .

« الصمد » ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ .

ليس له ولد ولا والد ينسب إليه .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ليس شيء من خلقه يعدل مكانه يمسك السموات والأرض أن تزولا » الحديث .

وقال ابن جرير : ثنا عبد الرحمن بن الأسود ، ثنا محمد بن ربيعة عن سلمة بن سابور ، عن عطية ، عن ابن عباس قال : « الصمد » الذي ليس بأجوف ، حدثنا ابن بشار ثنا عبد الرحمن ، ثنا سفيان عن منصور ، عن مجاهد « الصمد » المصمت الذي لا جوف له .

حدثنا أبو كريب ، ثنا وكيع ، عن سفيان ، عن منصور مثله سواء .
حدثنا الحارث ، ثنا الحسن ، ثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

حدثنا ابن بشار ، ثنا عبد الرحمن ، ثنا الربيع بن مسلم عن الحسن ، قال : « الصمد » الذي لا جوف له .

وبهذا الإسناد عن إبراهيم بن ميسرة قال : أرسلني مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن « الصمد » فقال : الذي لا جوف له حدثنا ابن بشار ، ثنا يحيى ، ثنا اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال : « الصمد » الذي لا يطعم الطعام .

ورواه يعقوب عن هشيم عن اسماعيل عنه قال : لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

حدثنا ابن بشار وزيد بن أنحزم قالوا : ثنا ابن داود عن المستقيم بن عبد

الملك ، عن سعيد بن المسيب ^(١) قال : « الصمد » الذي لا حشوله .

حدثنا الحسين ، ثنا أبو معاذ ، ثنا عبيد قال : سمعت الضحاك يقول :
« الصمد » الذي لا جوف له .

وروي عن ابن بريدة فيه حديثاً مرفوعاً لكنه ضعيف قال : وقال آخرون :
هو الذي لا يخرج منه شيء .

حدثنا يعقوب بن أبي عليّة عن أبي رجاء ، سمعت عكرمة قال : في قوله
« الصمد » لم يخرج منه شيء : لم يلد ولم يولد .

حدثنا ابن بشار ، ثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة ، عن أبي رجاء محمد بن
يوسف ، عن عكرمة ^(٢) قال : « الصمد » الذي لا يخرج منه شيء .

وقال آخرون : لم يلد ولم يولد ، وذكر حديث أبي بن كعب الذي رواه
ابن أبي حاتم ، والذي فيه : أنه سبحانه لا يموت ولا يورث .

قال : وقال آخرون : هو السيد الذي انتهى في سؤده قال : وثنا أبو
السائب ، ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن شقيق ، قال : « الصمد » هو
السيد الذي انتهى في سؤده .

حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الأعلى قالوا : ثنا وكيع عن
الأعمش عن أبي وائل قال : « الصمد » السيد الذي انتهى في سؤده .

حدثنا ابن حميد ، ثنا مهران ، عن سفيان ، عن الأعمش عن أبي وائلة
مثله .

(١) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي ، أبو محمد سيد التابعين ، وأحد
الفقهاء السبعة بالمدينة توفي عام ٩٤ هـ [راجع طبقات ابن سعد ٥ : ٨٨ والوفيات ١ : ٢٠٦
وصفة الصفوة ٢ : ٤٤ ، وحلية الأولياء ٢ : ١٦١] .

(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله ، مولى عبد الله بن عباس تابعي ، كان من
أعلم الناس بالتفسير والمغازي توفي عام ١٠٥ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٧ : ٢٦٣ - ٢٧٣
وحلية الأولياء ٣ : ٣٢٦ وميزان الاعتدال ٢ : ٢٠٨] .

حدثنا أبو صالح ، ثنا معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس في قوله ﴿ الصمد ﴾ قال : السيد الذي قد كمل في سؤده وذكر مثل الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم ، كما تقدم . قلت : الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً قول من قال : إن الصمد الذي لا جوف له .

وقول من قال : إنه السيد ، وهو على الأول أدل ، فإن الأول أصل للثاني ، ولفظ ﴿ الصمد ﴾ يقال : على ما لا جوف له في اللغة .

قال يحيى بن أبي كثير الملائكة صمد ، والأدميون جوف وفي حديث آدم : أن إبليس قال عنه : إنه أجوف ليس بصمد ^(١) .

وقال الجوهري : الصمد لغة في المصمت ، وهو الذي لا جوف له .

قال : والصمد عفاص القارورة .

وقال : الصمد المكان المرتفع الغليظ .

قال أبو النجم : يغادر الصمد كظهر الأجل .

وأصل هذه المادة الجمع والقوة .

ومنه يقال : يصمد المال : أي يجمعه .

وكذلك السيد أصله سيود اجتمعت ياء وواو ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ، كما قيل ميت ، وأصله ميوت .

والمادة في السواد والسود تدل على الجمع ، واللون الأسود هو الجامع للبصر .

وقد قال تعالى ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ ^(٢) قال أكثر السلف ﴿ سيداً ﴾

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ١١١

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٩ .

حليماً وكذلك يروى عن الحسن .

وسعيد بن جبير . وعكرمة ، وعطاء ، وأبي الشعثاء^(١) والربيع بن أنس ، ومقاتل .

وقال أبو روق عن الضحاك أنه الحسن الخلق .

وروى سالم عن سعيد بن جبير أنه التقى ، ولا يسود الرجل الناس حتى يكون في نفسه مجتمع الخلق ثابتاً . وقال عبد الله بن عمر : ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية ف قيل له : ولا أبو بكر ، ولا عمر ، قال : كان أبو بكر وعمر خيراً منه ، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية .

قال أحمد بن حنبل : يعني به الحليم ، أو قال : الكريم . ولهذا قيل : إذا شئت يوماً أن تسود قبيلة : فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بأنه سيد قومه في الدين وقال ابن زيد : هو الشريف .

وقال الزجاج^(٢) : الذي يفوق قومه في الخير .

وقال ابن الأنباري : السيد هنا الرئيس ، والإمام في الخير . وعن ابن عباس ومجاهد : هو الكريم على ربه .

وعن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم .

وقد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة : صماد .

قال الجوهري : العفاص : جلد يلبسه رأس القارورة . وأما الذي يدخل في فمه فهو الصماد ، وقد عفصت القارورة شددت عليها العفاص .

(١) هو جابر بن زيد الأزدي البصري أبو الشعثاء ، تابعي فقيه من الأئمة من أهل البصرة ، أصله من

عمان صاحب ابن عباس وكان من بحور العلم توفي عام ٩٣ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ :

٦٧ وتهذيب التهذيب ٢ : ٣٨ وحلية الأولياء ٣ : ٨٥] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

قلت : وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ في اللقطة : « ثم أعرف عفاصها ووكاءها » (١) .

والمراد بالعفاص : ما يكون فيه الدراهم كالخرقة التي تربط فيها الدراهم ، والوكاء : مثل الخيط الذي يربط به ، وهذا من جنس عفاص القارورة .

ولفظ العفص والسد والصمد ، والجمع والسؤدد معانيها متشابهة ، فيها الجمع والقوة ، ويقال : طعام عفص وفيه عفوصة ، أي تقبض ، ومنه العفص الذي يتخذ منه الخبر .

وقد قال الجوهري : هو مولد ليس من كلام أهل البادية وهذا لا يضر ، لأنه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم ، لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب وكذلك تسميتهم لما يدخل في فمها صمام ، فإن هذه المادة فيها معنى الجمع والسد .

قال الجوهري : صمام القارورة سدادها ، والحجر الأصم الصلب المصمت ، والرجل الأصم هو الذي لا يسمع لانسداده سمعه ، والرجل الصمة الشجاع ، والصمة الذكر من الحيات ، وصميم الشيء خالصه ، حيث لم

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب اللقطة ١ باب ضالة الابل والغنم والبقر .

٢٥٠٤ - ثنا سفيان بن عيينة ، عن يحيى بن سعيد ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن يزيد مولى المنبث عن زيد بن خالد الجهني ، فلقيت ربيعة فسألته فقال : حدثني يزيد عن زيد بن خالد الجهني عن النبي - ﷺ - قال : سئل عن ضالة الابل فغضب واحمرت وجنتاه فقال : مالك ولها ؟ . معها الحذاء والسقاء . ترد الماء وتاكل الشجر حتى يلقاها رها ، وسئل عن ضالة الغنم فقال : خذها ، فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب » وسئل عن اللقطة فقال : وذكره .

ورواه البخاري في كتاب اللقطة ٢ ، ٤ ، ٩ ، والامام مسلم في اللقطة ١ ، ٢ ، ٧٥ ، ٧ وأبو داود في اللقطة ١ ، والترمذي في الأحكام ٣٥ ، وصاحب الموطأ في الأقضية ٤٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١١٦ حلي .

يدخل اليه ما يفرقه ويضعفه .

يقال : صميم الحر ، وصميم البرد ، وفلان من صميم قومه
والصمصام : الصارم القاطع ، الذي لا ينثني .
وصميم في السير وغيره أي مضى ، ورجل صم أي غليظ ومنه في
الاشتقاق الأكبر الصوم ، فإن الصوم هو الإمساك .

قال أبو عبيدة (١) : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم ، لأن
الإمساك في اجتماع والصائم لا يدخل جوفه شيء .

ويقال : صام الفرس إذا قام في غير اعتلاف قال النابغة (٢) :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلق اللجيا
وكذلك السد ، والسداد ، والسؤدد ، والسواد . وكذلك لفظ الصمد فيه
الجمع ، والجمع فيه القوة ، فإن الشيء كلما اجتمع بعضه إلى بعض ، ولم يكن
فيه خلل ، كان أقوى مما إذا كان فيه خلل .

ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع : صمد ، لقوته وتماسكه ، واجتماع
أجزائه ، والرجل الصمد : هو السيد المصمود ؛ أي المقصود ، يقال قصدته
وقصدت له ، وقصدت إليه ، وكذلك هو مصمود ومصمود له وإليه ، والناس
إنما يقصدون في حوائجهم من يقوم بها ، وإنما يقوم بها من يكون في نفسه مجتمعا
قويا ثابتا ، وهو السيد الكريم ، بخلاف من يكون هلوعا جزوعا يتفرق ويقلق
ويتمزق من كثرة حوائجهم وثقلها ، فإن هذا ليس بسيد صمد يصمدون إليه في
حوائجهم .

فهم إنما سموا السيد من الناس صمدا ؛ لما فيه من المعنى الذي لأجله
يقصده الناس في حوائجهم ، فليس معنى السيد في لغتهم معنى إضافي فقط -

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

كلفظ القرب والبعد - بل هو معنى قائم بالسيد ؛ لأجله يقصده الناس ، والسيد من السؤدد ، والسواد ، وهذا من جنس السداد في الاشتقاق الأكبر ، فإن العرب تعاقب بين حرف العلة ، والحرف المضاعف كما يقولون : تقضى البازي ، وتقضض ، والساد هو الذي يسد غيره ، فلا يبقى فيه خلو ، ومنه سداد القارورة ، وسداد الثغر بالكسر فيهما . وهو ما يسد ذلك ، ومنه السداد بالفتح وهو الصواب ، ومنه القول السديد .

قال الله تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ^(١) قالوا : قصداً حقاً .

وعن ابن عباس : صواباً .

وعن قتادة ومقاتل : عدلاً .

وعن السدي : مستقيماً .

وكل هذه الأقوال صحيح ، فإن القول السديد هو المطابق الموافق ، فإن كان خبراً كان صدقاً مطابقاً لمخبره ، لا يزيد ولا ينقص .

وإن كان أمراً كان أمراً بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص ، ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل .

قال الجوهري : التسديد التوفيق للسداد ، وهو الصواب ، والقصد في القول والعمل . ورجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد ، والقصد . والمسدد المقوم ، وسدد رحمه ، وأمر سديد ، وأسد ، أي قاصد ، وقد استد الشيء استقام قال الشاعر :

أعلمه الترماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وقال الأصمعي ^(٢) : اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء وتعيرهم عن

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٧٠ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

السد بالقصد يدلّك على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة .

والقصد : العدل كما أنه السداد ، والصواب وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص وهذا هو الجامع المطابق .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ ^(١) أي السبيل القصد ، وهو السبيل العدل : أي إليه تنتهي السبيل العادلة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ ^(٢) أي الهدى إلينا .

هذا أصح الأقوال في الآيتين .

وكذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ^(٣) ومنه في الاشتقاق الأوسط : الصدق فإن حروفه حروف القصد ، فمنه الصدق في الحديث لمطابقته مخبره ، كما قيل في السداد ، والصدق بالفتح الصلب من الرماح ، ويقال : المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج .

والصندوق واحد الصناديق ، فإنه يجمع ما يوضع فيه وما ينبغي أن يعرف في باب الاشتقاق أنه إذا قيل : هذا مشتق من هذا فله معنيان :

أحدهما : أن بين القولين تناسباً في اللفظ والمعنى سواء كان أهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا ، وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر ، فإن المقصود أنه مناسب له لفظاً ومعنى ، كما يقال : هذا الماء من هذا الماء ، وهذا الكلام من هذا الكلام ، وعلى هذا فإذا قيل : إن الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل ، كان كلا القولين صحيحاً ، وهذا هو الاشتقاق الذي يقوم عليه دليل التصريف .

(١) سورة النحل آية رقم ٩ .

(٢) سورة الليل آية رقم ١٢ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤١ .

وأما المعنى الثاني في الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصل للآخر .

فهذا إذا عني به أن أحدهما تكلم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل في أكثر المواضع ، وإن عني به أن أحدهما متقدم على الآخر في العقل لكون هذا مفرداً وهذا مركباً فالفعل مشتق من المصدر ، والاشتقاق الأصغر اتفاق القولين في الحروف وترتيبها والأوسط اتفاقهما في الحروف لا في الترتيب والأكبر اتفاقهما في أعيان بعض الحروف . وفي الجنس لا في الباقي ، كاتفاقهما في كونهما من حروف الحلق ، إذا قيل : حزر وعزر وأزر ، فإن الجميع فيه معنى القوة والشدة وقد اشتركت مع الراء والزاي والحاء ، في أن الثلاثة حروف حلقية ، وعلى هذا فإذا قيل : الصمد بمعنى المصمت وأنه مُشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح ، فإن الدال أخت التاء ؛ فإن الصمت : السكوت وهو إمساك ، وإطباق للفم عن الكلام .

قال أبو عبيد : المصمت الذي لا جوف له ، وقد أصمته أنا ، وباب مصمت قد أبهم إغلاقه . والمصمت من الخيل : البهيم أي لا يخالط لونه لون آخر ومنه قول ابن عباس : إنما حرم من الحرير المصمت فالمصمد والمصمت متفقان في الاشتقاق الأكبر وليست الدال منقلبة عن التاء ، بل الدال أقوى والمصمد أكمل في معناه من المصمت ، وكلما قوي الحرف كان معناه أقوى ، فإن لغة العرب في غاية الإحكام والتناسب ، ولهذا كان الصمت إمساك عن الكلام مع إمكانه والإنسان أجوف يخرج الكلام من فيه ، لكنه قد يصمت بخلاف الصمد ، فإنه إنما استعمل فيما لا تفرق فيه ، كالصمد والسيد ، والصمد من الأرض ، وصمد القارورة ، ونحو ذلك ، فليس في هذه الألفاظ المتناسبة أكمل من ألفاظ الصمد ، فإن فيه الصاد والميم والدال ، وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يناسبها من الحروف والمعاني المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل .

ومما يناسب هذه المعاني من « الصبر » فإن الصبر فيه جمع وإمساك ، ولهذا

قيل : الصبر حبس النفس عن الجزع ، يقال : صبر ، وصبرته أنا . ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ (١) .

وكذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع ومنه الصبرة من الطعام ، فإنها مجتمعة مكومة والصبارة الحجارة ، وصبر الشيء غلظه ، وضده الجزع ، وفيه معنى التقطع والتفرق ، يقال : جزع له جزعة من المال ، أي قطع له قطعة . والجزوعة : القطعة من الغنم .

واجتزعت من الشجر عوداً أي اقتطعته ، واكتسرت وجزعت الوادي إذا قطعته عرضاً ، والجزع منعطف الوادي ، ومنه الجزع وهو الخرز اليماني الذي فيه بياض وسواد ، وكذلك جزع البسر تجزيعاً إذا أرطب نصفه ، أو ثلثاه ، وهو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما في ذلك من الاجتماع وفي هذا من التفرق .

وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ (٢) .

قال الجوهري : الهلع أفحش الجزع .

وقال غيره : هو في اللغة أشد الحرص ، وأسوأ الجزع .

ومنه قول النبي ﷺ :

« شر ما في المرء شح هالع ، وجبن خالع » (٣) .

(١) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة المعارج آية رقم ١٩ - ٢١ .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الجرأة والجبن ٢٥١١ - حدثنا عبد الله بن الجراح ، عن عبد الله بن يزيد ، عن موسى بن علي بن رباح عن أبيه ، عن عبد العزيز بن مروان ، قال : سمعت أبا هريرة - يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .
ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٠ (حلي)

وناقة هلوع إذا كانت سريعة السير خفيفة وذئب هلع بلع ، والهلع من
الحرص ، والبلع : من الإبتلاع ، ولهذا كان كلام السلف في تفسيره يتضمن
هذه المعاني .

فروي عن ابن عباس قال : هو الذي إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه
الخير منوعاً . وروي عنه أنه قال : هو الحريص على ما لا يحل له .
وعن سعيد بن جبير : شحيحاً .

وعن عكرمة : ضجوراً .

وعن جعفر : حريصاً .

وعن الحسن والضحاك : بخيلاً .

وعن مجاهد : شرهاً .

وعن الضحاك أيضاً : الهلوع : الذي لا يشبع .

وعن مقاتل : ضيق القلب .

وعن عطاء : عجولاً .

وهذه المعاني كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والإمسك والصبر .

وقد قال تعالى ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ وهذا وإن كان قد قيل : إن المراد به أنها تنصدع فيموتون ، فإنه كما
قيل : في مثل ذلك قد انصدع قلبه ، وقد تفرق قلبي ، وقد تشتت قلبي ، وقد
تقسم قلبي ، ومنه يقال للخوف : قد فرق قلبه ، ويقال : بإزاء ذلك هو ثابت
القلب ، مجتمع القلب ، مجموع القلب .

فصل

قال الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(١) فأدخل اللام في الصمد ، ولم يدخلها في أحد ، لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله تعالى ، بخلاف النفي وما في معناه : كالشرط والاستفهام فإنه يقال : هل عندك أحد ؟ وإن جاءني أحد من عندك أكرمته وإنما استعمل في العدد المطلق ، يقال : أحد اثنان ، ويقال : أحد عشر ، وفي أول الأيام يقال يوم الأحد فإن فيه - على أصح القولين ابتداء الله خلق السموات والأرض وما بينهما كما دل عليه القرآن والأحاديث الصحيحة ، فإن القرآن أخبر في غير موضع : أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾^(٢) .

وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته : أن آخر المخلوقات كان آدم ، خلق يوم الجمعة وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله « خلق الله التربة يوم السبت »^(٣)

(١) سورة الاخلاص آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٥٩ وسورة السجدة آية رقم ٤ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المناقبين ٢٧ ورواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٣٢٧ وتكملة الحديث : وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل .

فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره .

قال البخاري : الصحيح أنه موقوف على كعب . وقد ذكر تعليله البيهقي أيضاً ، وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخرجه إياه ، كما أنكروا عليه إخراج أشياء يسيرة ، وقد بسط هذا في مواضع أخر .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي (١) في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ (٢) .

قال ابن عباس : خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين وبه قال عبد الله بن سلام (٣) ، والضحاك ، ومجاهد وابن جريج ، والسدي ، والأكثر . وقال مقاتل : في يوم الثلاثاء والأربعاء .

قال : وقد أخرج مسلم حديث أبي هريرة « خلق الله التربة يوم السبت » .

قال : وهذا الحديث مخالف لما تقدم ، وهو أصح فصحيح هذا لظنه صحة الحديث ، إذ رواه مسلم ولكن هذا له نظائر :
روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط ، مثل قول أبي سفيان لما أسلم : أريد أن أزوجك أم حبيبة ولا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل إسلام أبي سفيان ولكن هذا قليل جداً .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٩ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وهو ابن الحارث الاسرائيلي أبو يوسف ، صحابي ، قيل أنه من نسل يوسف بن يعقوب أسلم عند قدوم النبي ﷺ - وكان اسمه « الحصن » فسماه رسول الله ﷺ - عبد الله ، وفيه الآية ﴿ وشهد شاهد من بني اسرائيل ﴾ الآية ، والآية ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية . توفي عام ٤٣ هـ . [راجع خلاصة تهذيب الكمال ٢٠٠ والاصابة رقم ٤٧٢٥ والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢: ٣٨٣] .

ومثل ما روي في بعض طرق حديث صلاة الكسوف أنه صلاها بثلاث ركوعات ، وأربع .

والصواب أنه لم يصلها إلا مرة واحدة بركوعين ولهذا لم يخرج البخاري إلا هذا ، وكذلك الشافعي وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه وغيرهما .
والبخاري سلم من مثل هذا .

فإنه إذا وقع في بعض الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التي تبين غلط الغلط ، فإنه كان أعرف بالحديث وعلمه ، وأفقه في معانيه من مسلم ونحوه وذكر ابن الجوزي في موضع آخر أن هذا قول ابن اسحاق ^(١) قال : وقال ابن الأتباري : وهذا إجماع أهل العلم .

وذكر قولاً ثالثاً في ابتداء الخلق : أنه يوم الاثنين وقاله ابن اسحاق ، وهذا تناقض .

وذكر أن هذا قول أهل الإنجيل ، والابتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة ، وهذا النقل غلط على أهل الإنجيل كما غلط من جعل الأول إجماع أهل العلم من المسلمين ، وكأن هؤلاء ظنوا أن كل أمة تجعل اجتماعها في اليوم السابع من الأيام السبعة التي خلق الله فيها العالم ، وهذا غلط ؛ فإن المسلمين إنما اجتماعهم في آخر يوم خلق الله فيه العالم وهو يوم الجمعة كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . والمقصود هنا : أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده ، وإنما يستعمل في غير الله في النفي .

قال أهل اللغة يقول : لا أحد في الدار ، ولا تقل فيها أحد ، ولهذا لم

(١) هو محمد بن اسحاق بن يسار المصلي بالبصرة ، من أقدم مؤرخي العرب ، من أهل المدينة ، له : السيرة النبوية ، هذبها ابن هشام زار الاسكندرية سنة ١١٩ هـ وسكن بغداد وتوفي بها عام ١٥١ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ٣٨ وتذكرة الحفاظ ١ : ١٦٣ وميزان الاعتدال ٣ : ٢١ وتاريخ بغداد ١ : ٢١٤] .

يحيىء في القرآن إلا في غير الموجب كقوله تعالى ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ^(١) وكقوله ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ^(٢) وقوله ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ ^(٣) وفي الإضافة كقوله ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ ^(٤) ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ ^(٥) .

وأما اسم ﴿الصمد﴾ فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم ، فلم يقل الله صمد ، بل قال ﴿الله الصمد﴾ فيين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ؛ فإنه يقبل التفرق والتجزئة ، وهو أيضاً محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ، ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك وتعالى ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم ، ويفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك بل حقيقة الصمدية وكما لها وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، كما قال في آخر السورة : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ^(٦) .

استعملها هنا في النفي ، أي ليس شيء من الأشياء كفواً له في شيء من الأشياء ؛ لأنه أحد .

(١) سورة الحاقة آية رقم ٤٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٢ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ١٩ .

(٥) سورة الكهف آية رقم ٣٢ وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت (وجعلنا) بزيادة (الواو) .

(٦) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

وقال رجل للنبي ﷺ : أنت سيدنا فقال « السيد الله » (١) .

ودل قوله ﴿الْأَحَدُ﴾ ﴿الصَّمَدُ﴾ على أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؛ فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أُتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَطِِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (٢) .

وفي قراءة الأعمش وغيره « ولا يطعم » بالفتح .

وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٣) .

ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد : المصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه عين من الأعيان ، فلا يلد .

ولذلك قال من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء ليس مرادهم أنه لا يتكلم ، وإن كان يقال في الكلام : إنه خرج منه كما قال في الحديث : ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه « (٤) .

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب باب في كراهية التماذج ٤٨٠٦ - حدثنا مسدد ، ثنا بشر - يعني ابن المفضل - ثنا أبو مسلمة سعيد بن يزيد ، عن أبي نضرة ، عن مطرف . قال : قال أبي : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ - فقلنا وذكره . ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٦ : ١٤٢ (حلي) .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤ وقد جاءت الآية محرفة في الأصل حيث قال (أغير) بدلاً من (قل) أغير .

(٣) سورة الذاريات الآيات ٥٦ - ٥٨ .

(٤) الحديث رواه الامام الترمذي في ثواب القرآن ١٧ ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٦٨ ، ٦ : ٢٥٦ (حلي) .

يعني : القرآن .

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة : إن هذا لم يخرج من إل .

فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه ، ويبلغ إلى غيره ، ليس بمخلوق في غيره ، كما يقول الجهمية ، ليس بمعنى أن شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه ، وينتقل عنه إلى غيره ، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين . أن تفارق الصفة محلها ، وتنتقل إلى غير محلها ، فكيف بصفات الخالق جل جلاله .

وقد قال تعالى في كلام المخلوقين ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (١) .

وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم ، وسمعت منه ليس خروجها من فيه ، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره ، فخرج كل شيء بحسبه ، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله . ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء وهو باق على حاله لم ينقص ، فقول من قال من السلف الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه .

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضاً قائماً بغيره فلا بد له من محل يقوم به ، فالأول نفاه بقوله ﴿ أحد ﴾ فإن الأحد هو الذي لا كفاء له ولا نظير ، فيمتنع أن تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى ﴿ أَوَّيْكَونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

(١) سورة الكهف آية رقم ٥ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠١ .

فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه ، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم . وبأنه خالق كل شيء ، وكل ما سواه مخلوق له ، ليس فيه شيء مولود له .

الثاني : نفاه بكونه سبحانه الصمد ، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا المتولد يفترق إلى أصل آخر وإلى أن يخرج منها شيء ، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى ، فإنه أحد فليس له كفاء يكون صاحبة ونظيراً ، وهو صمد لا يخرج منه شيء ، فكل واحد من كونه أحداً ، ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والداً ، ويمنع أن يكون مولوداً ، بطريق الأولى والأخرى .

وكما أن التوالد في الحيوان لا يكون إلا من أصلين - سواء كان الأصلان من جنس الولد ، وهو الحيوان المتوالد ، أو من غير جنسه وهو المتولد -

فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين ، أو كانا حجراً وحديداً ، أو غير ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَلْمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۚ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ (٣) قال غير واحد من المفسرين : هما شجرتان ، يقال لإحدهما : المرخ ، والأخرى : العفار فمن أراد

(١) سورة العاديات آية رقم ٢ .

(٢) سورة الواقعة آية رقم ٧١ - ٧٣ .

(٣) سورة يس آية رقم ٧٨ - ٨٠ .

منها النار قطع منها غصنين مثل السواكين ، وهما خضراوان يقطر منها الماء فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهو أنثى - فتخرج منها النار بإذن الله تعالى وتقول العرب في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار .

وقال بعض الناس : في كل شجرة نار الا العناب ﴿ فإذا أنتم منه توقدون ﴾ فذلك زنادهم .

وقد قال أهل اللغة، الجوهري وغيره: الزند العود الذي يقدح به النار ، وهو الأعلى ، والزنده السفلى فيها ثقب ، وهي الأنثى ، فإذا اجتمعا قيل : زندان .

وقال أهل الخبرة بهذا : إنهم يسحقون الثقب الذي في الأنثى بالأعلى ، كما يفعل ذكر الحيوان في أنثاه فبذلك السحق والحك يخرج منها أجزاء ناعمة تنقدح منها النار ، فتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة ، وسحق الأنثى بالذكر وقدها به يقتضي حرارة كل منها ويتحلل من كل منها مادة تنقدح منها النار ، كما أن إيلاج ذكر الحيوان في أنثاه بقدح وحك فرجها بفرجه ، فتقوى حرارة كل منها ، ويتحلل من كل منها مادة تمتاز بالأخرى ، ويتولد منها الولد ، ويقال : علقت النار في المحل الذي يقدح عليه ، الذي هو كالرحم للولد ، وهو الحراق والصوفان ، ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره ، كما علقت المرأة من الرجل ، وقد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة ، وقد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني ، والنار ليست من جنس الزنادين ، بل تولد النار منها كتولد حيوان من الماء والطين ، فإن الحيوان نوعان متوالد كالإنسان وبهيمة الأنعام ، وغير ذلك مما يخلق من أبوين ، ومتولد كالذي يتولد من الفاكهة والخل ، وكالقمل الذي يتولد من وسخ جلد الإنسان ، وكالفأر والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب .

وقد تنازع الناس فيما يخلقه الله من الحيوان والنبات والمعدن والمطر والنار التي توري بالزناد وغير ذلك ، هل تحدث أعيان هذه الأجسام فيقلب هذا الجنس إلى جنس آخر ، كما يقلب المني علقه ، ثم مضغة أو لا تحدث إلا أعراض ، وأما الأعيان التي هي الجواهر فهي باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ؟ على قولين :

فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل التجزي ، كما يقوله كثير من أهل الكلام وإما من جواهر لا نهاية لها كما يحكى عن النظام . فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر يقولون : إن الله لا يحدث شيئاً قائماً بنفسه ، وإنما يحدث الأعراض التي هي الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، وغير ذلك من الأعراض .

ثم من قال منهم بأن الجواهر محدثة قال : إن الله أحدثها ابتداء ، ثم جميع ما يحدثه إنما هو إحداث أعراض فيها لا يحدث الله بعد ذلك جواهر . وهذا قول أكثر المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم ، ومن أكابر هؤلاء من يظن أن هذا مذهب المسلمين ، ويذكر إجماع المسلمين عليه . وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ، ولا جمهور الأمة ، بل جمهور الأمة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد ، وتركب الأجسام من الجواهر وابن كلاب إمام أتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد وقد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك (١) في مصنفه الذي صنفه في مقالات ابن كلاب ، وما بينه وبين الأشعري من الخلاف ، وهكذا نفى الجوهر الفرد قول الهشامية (٢) والضرارية (٣) ، وكثير من

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع طبقات السبكي الكبرى ٣ : ٥٢ - ٥٦ ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ .

(٢) راجع في شأن هذه الفرقة التبصير ص ٥٣ وقد أدمجها الشهرستاني في الملل والنحل : ١ / ٧٨ مع الجبائية لكون أبي هاشم صاحب هذه الفرقة ابن أبي علي صاحب الجبائية . =

الكرامية (١) والبخارية (٢) أيضاً .

وهؤلاء القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة : المشهور عنهم ؛ بأن الجواهر متماثلة ، بل ويقولون أو أكثرهم : أن الأجسام متماثلة ؛ لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة ، وإنما اختلفت باختلاف الأعراض وتلك صفات عارضة لها ليست لازمة ، فلا تنفي التماثل ، فإن حد المثليين أن يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

وهم يقولون : إن الجواهر متماثلة ، فيجوز على كل واحد ما جاز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

وكذلك الأجسام المؤلفة من الجواهر ، ولهذا إذا أثبتوا حكماً لجسم قالوا : هذا ثابت لجميع الأجسام بناء على التماثل ، وأكثر العقلاء ينكرون هذا وحذاقهم قد أبطلوا الحجج التي احتجوا بها على التماثل ، كما ذكر ذلك الرازي (٣) والآمدني (٤) وغيرهما وقد بسط الكلام على هذا في مواضع .

والأشعري في « كتاب الإبانة » جعل القول بتماثل الأجسام من أقوال المعتزلة التي أنكرها .

وهؤلاء يقولون : إن الله يخص أحد الجسمين المتماثلين بأعراض دون

هم أتباع ضرار بن عمر وانظر في شأنها التبصير ص ٦٢ - والتنبيه ص ٤٣ ، واعتقادات فرق المسلمين ص ٦٩ ، والملل والنحل ١ : ٩٠ والمقالات ١ : ٣١٣ .

(١) رئيسهم أبو عبد الله محمد بن كرام السجستاني ، وراجع في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٦٥ ، والملل والنحل ١ : ١٠٨ والسفاري ١ : ٩١ .

(٢) رئيسهم الحسين بن محمد النجار وراجع في شأن هذه الفرقة مقالات الاسلاميين ١ : ٣١٥ ، والملل والنحل ١ : ٨٨ والتبصير ٦١ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

الآخر بمجرد المشيئة ، على أصل الجهمية ، أو لمعنى آخر كما تقوله القدرية ، ويقولون يمتنع انقلاب الأجناس ، فلا ينقلب الجسم عرضاً ولا جنس من الأعراض إلى جنس آخر .

فلو قالوا : إن الأجسام مخلوقة ، وإن المخلوق ينقلب من جنس إلى جنس آخر ، لزم انقلاب الأجناس فهؤلاء يقولون : إن التولد الحاصل من الرحم ، والثمر الحاصل من الشجر ، والنار الحاصلة من الزناد هي جواهر كانت في المادة التي خلق ذلك منها .

وهي باقية ؛ لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق والحركة والسكون . ولهذا لما ذكر أبو عبد الله ^(١) الرازي أدلة « إثبات الصانع » ذكر أربعة طرق :

إمكان الذوات وحدوثها ، وإمكان الصفات وحدوثها والطرق الثلاثة الأولى ضعيفة ، بل باطلة ، فإن الذوات التي ادعوا حدوثها ، أو إمكانها ، أو إمكان صفاتها ، ذكروها بألفاظ مجملة لا يتميز فيها الخالق عن المخلوق ، ولم يقيموا على ما ادعوه دليلاً صحيحاً وأما الطريق الرابع وهو الحدوث لما يعلم حدوثه فهو طريق صحيح ، وهو طريق القرآن لكن قصروا فيه غاية التقصير ؛ فإنهم على أصلهم لم يشهدوا حدوث شيء من الذوات ، بل حدوث الصفات ، وطريقة القرآن تبين أن كل ما سوى الله مخلوق ، وأنه آية الله وقد بسط الكلام على ما في القرآن من البراهين والآيات التي لم يصل إليها هؤلاء المتكلمة

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين البكري ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازي توفي عام ٦٠٦ هـ [راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ والوفيات ١ : ٤٧٤ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ - ٤٥١ ولسان الميزان ٤ : ٤٢٦ والبداية والنهاية ١٣ : ٥٥] .

والمتفلسفة وإن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن في غير موضع .

والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم في ابتداء الخلق وهو القول بإثبات الجوهر ^(١) الفرد - كان أصلهم في المعاد مبنياً عليه فصاروا على قولين :

منهم من يقول : تعدم الجواهر ثم تعاد .

ومنهم من قال : تتفرق الأجزاء ثم تجتمع فأورد عليهم الإنسان الذي يأكله حيوان ، وذلك الحيوان أكله إنسان آخر ، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا .

وأورد عليهم أن الإنسان يتحلل دائماً فما الذي يعاد ؟ أهو الذي كان وقت الموت ؟

فإن قيل بذلك ، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص ، وإن كان غير ذلك ، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ، ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني ، والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ، ليس فيه شيء باق فصار ما ذكره في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان ، وأوجب أن صار طائفة من النظائر إلى أن الله يخلق بدنًا آخر تعود الروح إليه . والمقصود تنعيم الروح وتعذيبها سواء كان هذا في البدن أو في غيره ، وهذا أيضاً مخالف للنصوص الصريحة بإعادة هذا البدن .

وهذا المذكور في كتب الرازي .

(١) سبق الحديث عنه في كلمة وافية في الأجزاء السابقة فليرجع إليها .

فليس في كتبه ، وكتب أمثاله في مسائل أصول الدين الكبار القول الصحيح الذي يوافق المنقول والمعقول ، الذي بعث الله به الرسول ، وكان عليه سلف الأمة وأئمتها ، بل يذكر بحوث المتفلسفة والملاحدة ، وبحوث المتكلمين المبتدعة الذين بنوا على أصول الجهمية والقدرية في مسائل الخلق ، والبعث ، والمبدأ ، والمعاد ، وكلا الطريقتين فاسد ، إذ بنوه على مقدمات فاسدة ، والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء من أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة والأطباء ، وهذا القول - وهو القول في خلق الله للأجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقلبها ويحيلها من جسم إلى جسم - هو الذي عليه السلف والفقهاء قاطبة والجمهور ولهذا يقول الفقهاء في النجاسة ؛ هل تظهر بالاستحالة أم لا ؟

كما تستحيل العذرة رماداً ، والخنزير وغيره ملحاً ونحو ذلك ، والمني الذي في الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة ، وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذي نزل عليها وغير ذلك من المواد التي يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته ، وكذلك الحبة يفلقها ، وتنقلب المواد التي يخلقها منها سنبله وشجرة وغير ذلك ، وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى . كما خلق آدم من الطين ، فقلب حقيقة الطين فجعلها عظماً ولحماً وغير ذلك من أجزاء البدن ، وكذلك المضغة يقلبها عظماً ، وغير عظام .

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١٢ - ١٦ .

وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد ناراً كما قال تعالى ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ﴾ (١) .

فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله ناراً من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلاً ، كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلاً ، ولا كان في بطن المرأة جنين أصلاً ، بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا ، وبما ضمه إلى هذا من مواد آخر ، وكذلك الإعادة بعيدة بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ابن آدم ، ومنه يركب » (٢) .

وهو إذا أعاد الإنسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه ، فإن هذه كائنة فاسدة وتلك كائنة لا فاسدة ، بل باقية دائمة ، وليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا ييصقون ولا يتمخطون ، وإنما هو رشح كرشح المسك » (٣) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٤) فهم يعودون غلفا لا مختونين » .

وقال الحسن البصري (٥) ومجاهد : كما بدأكم ، فخلقكم في الدنيا ولم

(١) سورة يس آية رقم ٨٠ .

(٢) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب الجنائز ١٦ باب جامع الجنائز ٤٨ - وحديثي عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج عن أبي هريرة - أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره . [وأخرجه الامام مسلم في ٥٢ - كتاب الفتن ٢٧ باب ما بين النفتين حديث ١٤٢] .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الجنة ١٨ ، ١٩٦ ، والدارمي في الرقاق ١٠٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٨٤ (حلي) .

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٤ .

(٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

تكونوا شيئاً ، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وقال قتادة : بدأهم من التراب ، وإلى التراب يعودون .

كما قال تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١) .

وقال ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٢) وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس في النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها في غير موضع .

كقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (٤) وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَن يُردُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَتَبَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٦) .

-
- | | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة طه آية رقم ٥٥ . | (٤) سورة قى الآيات من ٧ - ١١ . |
| (٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٥ . | (٥) سورة الحج آية رقم ٥ - ٦ . |
| (٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٧ . | (٦) سورة فاطر آية رقم ٩ . |

وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق ، وأنه يحيي العظام وهي رميم ، وأنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى ، هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (١) ويخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ، أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .
والمراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم ، كما أخبر بذلك في قوله ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٦) .

(١) سورة الروم آية رقم ٢٧ وقد جاءت في الأصل بدون (الواو)

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٩٨ - ٩٩ .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٤٩ - ٥٢ .

(٤) سورة الأحقاف آية رقم ٣٣ .

(٥) سورة الواقعة آية رقم ٥٨ - ٦٢ .

(٦) سورة الأحقاف آية رقم ٣٣ .

فإن القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق في هذه الدار ناساً أمثالهم ،
فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرناً بعد قرن ، يخلق الولد من الوالدين ،
وهذه هي النشأة الأولى وقد علموها ، وبها احتج عليهم على قدرته على النشأة
الآخرة كما قال ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقال ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ
ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّئِينَ لَّكُمْ ﴾ (٣) .

ولهذا قال ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ ﴾ (٤) أي : أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا
تعلمون كيف شئت ، وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون
الأمهات ، وليست الأخرى كذلك ، ومعلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان
نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة مخلقة ، ثم ينفخ فيه الروح ، وتلك النطفة من
مني الرجل والمرأة ، وهو يغذيه بدم الطمث الذي يربي الله به الجنين في ظلمات
ثلاث : ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم ، وظلمة البطن .

والنشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة ولا يغذون بدم ، ولا يكون
أحدهم نطفة رجل وامرأة ، ثم يصير علقه ، بل ينشأون نشأة أخرى ، وتكون
المادة من التراب ، كما قال : ﴿ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً
أُخْرَىٰ ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ فِيهَا تُحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٦) .

(١) سورة الواقعة آية رقم ٦٢ - ٦١ .

(٢) سورة يس آية رقم ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سورة طه آية رقم ٥٥ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٥ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٢٥ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٢٥ .

وقال ﴿وَاللهُ أَتَبَتُّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (١) .

وفي الحديث: «إن الأرض تمطر مطراً كمضي الرجال ينبتون في القبور ، كما ينبت النبات» (٢) .

كما قال تعالى ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (٣) ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (٤) ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥) .

فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان ويتمثلان ويتشابهان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ ، وجعل مثله أيضاً .

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله .

وهكذا كل ما أعيد .

فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد ، سواء في ذلك إعادة الأجسام والأعراض كإعادة الصلاة وغيرها فإن النبي ﷺ مرَّ برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة ، ويقال للرجل : أعد كلامك ، وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه ، ويعيد الدرس .

فالكلام هو الكلام ، وإن كان صوت الثاني غير صوت الأول وحركته ، ولا يطلق القول عليه أنه مثله ، بل قد قال تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ (٦) .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٩ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٥٧ .

(٦) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

(١) سورة نوح آية رقم ١٧ - ١٨ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سورة ق آية رقم ١١ .

وكان رسول الله ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً وإن كان يسمى مثلاً مقيداً حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان ، أي مثل هذا قال ، ويقال : فعل هذا عوداً على بدء ، إذا فعله مرة ثانية بعد أولى ومنه البثر البري ، والبثر العادي ، فالبري التي ابتدئت والعادي التي أعيدت ، وليست بنسبة إلى عاد كما قيل .

ويقال : استعدته الشيء فأعاده ، إذا سأله أن يفعله مرة ثانية ، ومنه سميت العادة ، يقال : عادته واعتاده ، وتعوده أي صار عادة له : وعود كلبه الصيد فتعوده ، وهو من المعاودة والمعاودة الرجوع إلى الأمر الأول ، ويقال : الشجاع معاود ؛ لأنه لا يمل المراس .

وعاودته الحمى ، وعاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة وتعاود القوم في الحرب وغيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه ، والعواد بالضم ما أعيد من الطعام بعدما أكل منه مرة أخرى ، وعواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة ، فإن الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى ، وإن تعدد الشخص .

ولهذا يقال : هو مثله ، ويقال : هذا هو هذا وكلاهما صحيح ، وأعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ، ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين ، فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده ، وإنما يقال حاكاه وشابهه ، بخلاف ما إذا أعاد فعلاً ثانياً مثل ما فعل أولاً ، فإنه يقال : أعاد فعله ، وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره : قد أعاده ، ولا يقال لمن أنشأ مثله : قد أعاده . ويقال : قرئ على هذا ، وأعاد على هذا . وهذا يقرأ أي يدرس ، وهذا يعيد ، ولو كان كلاماً آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد ، وكذلك من كسر خاتماً أو غيره من المصوغ يقال : أعده كما كان ، ويقال لمن هدم داراً أعدها كما

كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها ، فإن هذا لا يسمى معيداً ، والمعاد يقال فيه : هذا هو الأول بعينه ويقال : هذا مثل الأول من كل وجه ، ونحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه وبهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال : الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان ، ونحو ذلك مما يمنع إعادته في صريح العقل وإنما يعاد بالإتيان بمثله ، وإن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلاً بوجه من الوجوه .

والإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ ، وهي التي يدل عليها لفظ الإعادة ، والمعاد هو الأول بعينه ، وإن كان بين لوازم الإعادة ، ولوازم البداية فرق ، فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثاني مبيئاً للأول من كل وجه ، كما زعم بعضهم ، ولا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه ، كما ظن بعضهم ، وكما أنه سبحانه خلق الإنسان ، ولم يكن شيئاً ، كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً ، وعلى هذا فالإنسان الذي صار تراباً ونبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر ، وهلم جرا ، والإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان ، وأكل ذلك الحيوان إنساناً آخر ، ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان وهذا الإنسان وصار كل منهما تراباً ، كما كان قبل أن يخلق ، ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب ، وإنما يبقى عجب الذنب منه خلق ، ومنه يركب .

وأما سائرهم فعدم ، فيعاد من المادة التي استحال إليها ، فإذا استحال في القبر الواحد ألف ميت ، وصاروا كلهم تراباً ، فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر ، وينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدماً محضاً كما أنشأهم أولاً بعد أن كانوا عدماً محضاً ، وإذا صار ألف إنسان تراباً في قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر

من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة وجعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام والشراب ، كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات وحيوان ، وكذلك لو أكل إنساناً ، أو أكل حيواناً قد أكل إنساناً : فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة ، بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقه إلى مضغة ، ومن غير أن يغذوها بدم الطمث ، ومن غير أن يغذوها بلبن الأم وبسائر ما يأكله من الطعام والشراب ، فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي استحالت إلى أبدانهم فقد غلط .

وحينئذ فإذا أكل إنسان إنساناً فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية وهو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية ومعلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاماً وشراباً ثم يصير كلوساً كالثرثرة ثم كيموساً كالحريره ، ثم ينطبخ دماً فيقسمه الله تعالى في البدن كله ، ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه ، فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظماً ، واللحم لحماً ، والعرق عرقاً ، وهذا في الرزق كاستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقه ثم مضغة ، وكما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزاً وفاكهة ولحماً ثم يجعلها كلوساً وكيموساً ، ثم دماً ، ثم عظماً ولحماً وعروقاً ، بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة ، كما قال ﴿ وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ولا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الاستحالات التي كانت في النشأة الأولى .

(١) سورة الواقعة آية رقم ٦١ .

وبهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائماً في التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من انقلاب النطفة علقه والعلقة مضغة ، وحقيقة كل منها خلاف حقيقة الأخرى .

وأما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى وتمثلها ، وإذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى انقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بانقلابه بسبب التحلل ؟!

ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو شاب ثم رآه وهو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الاستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات ، كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل والاستحالة ثابت في سائر الحيوان والنبات ، كما هو في بدن الإنسان ، ولا يحتاج عاقل في اعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى ، وأن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين ، ولا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل ، ولا يخطر هذا ببال أحد ، ولا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذاك على تلك الأجزاء التي لا تعرف ولا تتميز عن غيرها ، بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة والفرس والإنسان ، مع أنه قد يكون كان صغيراً فكبير ، ولا يقال : إنما كان هو ذاك باعتبار أن النفس الناطقة واحدة ، كما زعمه من ادعى أن البدن الثاني ليس هو ذاك الأول ، ولكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ، ففي أي بدن كانت حصل المقصود ، فإن هذا أيضاً باطل مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مخالف للمعقول من الإعادة .

فإننا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون : هذا الفرس هو ذاك وهذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين ، مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه وتقوم بذاتها ، وكذلك يقولون مثل هذا في الحيوان ، وفي

الإنسان ، مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا وذاك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم ، فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك ، مع وجود الاستحالة ، وعلم بذلك أن ما ذكر من الاستحالة لا يتنافى أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن ، ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا ، كما قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لَلْجُلُودِ هِمٌّ لَّمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٢) ومعلوم أن الإنسان لو قال قولاً ، أو فعل فعلاً أو رأى غيره بفعل ، أو سمعه يقول ، ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أو فعل ، وهو الإقرار الذي يؤاخذ بموجبه ، أو شهد على غيره بما قبضه من الأموال ، وأقر به من الحقوق ، لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة ، مع استحالة بدمه في هذه المدة الطويلة ، ولا يقول عاقل من العقلاء : إن هذه الشهادة على مثله أو على غيره ، ولو قدر أن المعين حيوان أو نبات ، وشهد أن هذا الحيوان قبضه هذا من هذا ، وأن هذا الشجر سلمه هذا إلى هذا كان كلاماً معقولاً مع الاستحالة ، وإذا كانت الاستحالة غير مؤثرة ، فقول القائل يعيده على صفة ما كان وقت موته أو سمته أو هزاله أو غير ذلك جهل منه ، فإن صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال : إن الصفات هي المغيرة ؛ إذ ليس هناك استحالة ، ولا استفراغ ، ولا امتلاء ولا سمن ، ولا هزال ، ولا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة أبيهم آدم ، طول أحدهم ستون ذراعاً ، كما ثبت في الصحيحين (٣) وغيرهما . وروى أن

(١) سورة يس آية رقم ٦٥ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٢٠ - ٢١ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

عرضه سبعة أذرع ، وهم لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ، ولا يتمخضون . وليست تلك النشأة من أخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضاً ، كما في هذه النشأة ، ولا طعامهم مستحيلاً ، ولا شرابهم مستحيلاً من التراب والماء والهواء ، كما هي أطعماتهم في هذه النشأة ، ولهذا أبقى الله طعام الذي مر على قرية وشرابه مائة عام لم يتغير^(١) ، ودلنا سبحانه بهذا على قدرته .

فإذا كان في دار الكون والفساد يبقى الطعام الذي هو رطب وعنب أو نحو ذلك ، والشراب الذي هو ماء أو ما فيه ماء مائة عام لم يتغير ، فقد رتب سبحانه وتعالى على أن يجعل الطعام والشراب في النشأة الأخرى لا يتغير بطريق الأولى والأخرى .

وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

(١) قال تعالى : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ سورة البقرة آية رقم ٢٥٩ .

فصل

والمقصود هنا : أن التولد لا بد له من أصلين ، وإن ظن ظان أن نفس الهواء الذي بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته من غير مادة تخرج منها تنقلب ناراً فقد غلط ، وذلك لأنه لا تخرج نار إن لم يخرج منها مادة بالحك ، ولا تخرج النار بمجرد الحك .

وأيضاً : فإنهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتتزل النار عليه ، وإنما ينزل الثقيل ، فلولا أن هناك جزءاً ثقيلاً من الزناد الحديد والحجر لما نزلت النار ، ولو كان الهواء وحده انقلب ناراً لم ينزل ؛ لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط ، لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة ناراً قد ينقلب الهواء القريب منها ناراً ، إما دخاناً وإما لهيباً .

والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين ، كما خلق آدم من التراب والماء ، وإلا فالتراب المحض الذي لم يختلط به ماء لا يخلق منه شيء لا حيوان ولا نبات والنبات جميعه إنما يتولد من أصلين أيضاً ، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل ، كما قال تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾^(١) وقال ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾^(٢)

(١) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ .

وقال ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ
إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (١)

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها والجيب هو الطوق الذي في العنق ، ليس هو ما يسميه بعض العامة جيبا ، وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها ، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه : هو ذلك الجيب المعروف في اللغة وذكر أبو الفرج (٢) وغيره قولين : هل كانت النفخة في جيب الدرع ؟ أو في الفرج ؟ .

فإن من قال بالأول قال في فرج درعها .

وإن من قال : هو مخرج الولد ، قال : الهاء كناية عن غير مذكور ؛ لأنه إنما نفخ في درعها ، لا في فرجها وهذا ليس بشيء ، بل هو عدول عن صريح القرآن . وهذا النقل إن كان ثابتاً لم يناقض القرآن ، وإن لم يكن ثابتاً لم يلتفت إليه ، فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع ، فمراده أنه ﷺ لم يكشف بدنها ، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي ﷺ وعائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها . والمقصود إنما هو النفخ في الفرج ، كما أخبر الله به في آيتين وإلا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن ، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد ، ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ، ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين :

من نفخ جبريل ، وأمه مريم .

وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر والجنين مضغة ، فإن ذلك نفخ في بدن قد خلق ، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ - ١٩ .

(٢) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

خلق بعد ولا كانت مريم حملت ، وإنما حملت به بعد النفخ بدليل قوله ﴿ قَالَ
إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (١) .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢) .

فلما نفخ فيها جبريل حملت به ، ولهذا قيل في المسيح : ﴿ روح منه ﴾
باعتبار هذا النفخ .

وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه وهو جبريل ، هو الروح
الذي خاطبها ، وقال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً .

فقوله ﴿ فَنفَخْنَا فِيهَا ﴾ (٣) أو ﴿ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (٤) أي من هذا الروح
الذي هو جبريل ، وعيسى روح من هذا الروح ، فهو روح من الله ، بهذا
الاعتبار ومن لا ابتداء الغاية .

والمقصود هنا : أنه قد يكون الشيء من أصلين بانقلاب المادة التي بينهما
إذا التقيا ، كان بينهما مادة فتقلب وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من
نقص أجزائها ، وهذا مثل تولد النار بين الزنادين إذا قدح الحجر بالحديد ، أو
الشجر بالشجر ، كالمرخ والعفار ، فإنه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما
بالآخر يستحيل بعض أجزائهما ، ويسخن الهواء الذي بينهما فيصير ناراً ،
والزندان كلما قدح أحدهما بالآخر نقصت أجزاءهما بقوة الحك ، فهذه النار
استحالت عن الهواء وتلك الأجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر .

وكذلك النور الذي يحصل بسبب انعكاس الشعاع على ما يقابل المضيء
كالشمس والنار ، فإن لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه
كالنار التي في رأس المصباح ، وهذه لا تحصل إلا بمادة تنقلب ناراً كالخطب
والدهن ، ويستحيل الهواء أيضاً ناراً ، ولا ينقلب الهواء أيضاً ناراً إلا بنقص

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ .

(٤) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

(١) سورة مريم آية رقم ١٩ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٢٢ .

المادة التي اشتعلت ، أو نقص الزندين وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع : الشعاع الذي يكون على الأرض والحيطان من الشمس أو من النار ، فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه لا بد له من محل يقوم به يكون قابلاً له فلا بد في الشعاع من جسم مضيء ، ولا بد من شيء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع .

وكذلك النار الحاصلة في ذبالة المصباح إذا وضعت في النار ، أو وضع فيها حطب ، فإن النار تحيل أولاً المادة التي هي الدهن أو الحطب فيسخن.الهواء المحيط بها فينقلب ناراً ، وإنما ينقلب بعد نقص المادة .

وكذلك الريح التي تحرك النار مثل ما تهب الريح فتشتعل النار في الحطب ، ومثل ما ينفخ في الكير وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما في محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه ناراً وما في حركة الريح القوية من تحريك النار إلى المحل القابل له وقد ينقلب أيضاً الهواء القريب من النار ، فإن اللهب هو الهواء انقلب ناراً مثل ما في ذبالة المصباح ، ولهذا إذا أطفئت صار دخاناً ، وهو هواء مختلط بنار كالبخار وهو هواء مختلط بماء ، والغبار هواء مختلط بتراب . وقد يسمى البخار دخاناً ، ومنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (١) .

قال المفسرون : بخار الماء ، كما جاءت الآثار : « إن الله خلق السموات من بخار الماء » وهو الدخان ، فإن الدخان الهواء المختلط بشيء حار ثم قد لا يكون فيه ماء ، وهو الدخان الصرف ، وقد يكون فيه ماء ، فهو دخان ، وهو بخار كبخار القلح وقد يسمى الدخان بخاراً فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر وإن كان لا رطوبة هنا ، بل دخان الطيب سمي بخاراً . قال الجوهري (٢) :

(١) سورة فصلت آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

بخار الماء ما يرتفع منه كالدخان ، والبخور بالفتح ما يتبخر به ، لكن إنما يصير
الهواء ناراً بعد أن تذهب المادة التي انقلبت ناراً ، كالحطب والدهن فلم تتولد
النار إلا من مادة ، كما لم يتولد الحيوان إلا من مادة .

فصل

والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ التولد من الأعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصليين ، ومن انفصال جزء من الأصل ، وإذا قيل في الشيع والري إنه متولد ، أو في زهوق الروح ونحو ذلك من الأعراض إنه متولد ، فلا بد في جميع ما يستعمل فيه هذا اللفظ من أصليين ، لكن العرض يحتاج إلى محل ، لا يحتاج إلى مادة تنقلب عرضاً ، بخلاف الأجسام فإنها إنما تخلق من مواد تنقلب أجساماً ، كما تنقلب إلى نوع آخر . كانقلاب المني علقه ، ثم مضغة ، وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات .

وأما ما كان من أصل واحد ، كخلق حواء من الضلع القصري لآدم ، وهو وإن كان مخلوقاً من مادة أخذت من آدم فلا يسمى هذا تولداً ؛ ولهذا لا يقال : إن آدم ولد حواء ، ولا يقال : إنه أبو حواء ، بل خلق الله حواء من آدم كما خلق آدم من الطين .

وأما المسيح فيقال : إنه ولدته مريم ، ويقال : المسيح ابن مريم ، فكان المسيح جزءاً من مريم ، وخلق بعد نفخ الروح في قرع مريم ، كما قال تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ ^(١) وفي الأخرى ﴿ فَتَفَخَّنَا فِيهَا مِنْ

(١) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

رُوحَنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم ، كما خلق آدم من المادة الأرضية ، وهي الماء والتراب والريح الذي أبيضته حتى صار صلصالاً ، فلهذا لا يقال : إن آدم ولد حواء ، ولا آدم ولده التراب ، ويقال في المسيح : ولدته مريم فإنه كان من أصلين : من مريم ومن النفخ الذي نفخ فيها جبريل .

قال الله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢) .

إلى آخر القصة .

فهي إنما حملت به بعد النفخ ، لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الأدميين ، ففرق بين النفخ للحمل ، وبين النفخ لروح الحياة .

فتبين أن ما يقال إنه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها فلا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد ، ولا يكون إلا من أصلين ، والرب تعالى صمد ، فيمتنع أن يخرج منه شيء ، وهو سبحانه لم يكن له صاحبة فيمتنع أن يكون له ولد .

وأما ما يستعمل من تولد الأعراض كما يقال : تولد الشعاع وتولد العلم .

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ .

(٢) سورة مريم آية رقم ١٧ - ٢٢ .

عن الفكر، وتولد الشبع عن الأكل وتولدت الحرارة عن الحركة ، ونحو ذلك ، فهذا ليس من تولد الأعيان ، مع أن هذا لا بد له من محل ، ولا بد له من أصلين ، ولهذا كان قول النصارى : إن المسيح ابن الله - تعالى الله عن ذلك - مستلزماً لأن يقولوا : إن مريم صاحبة الله ، فيجعلون له زوجة وصاحبة ، كما جعلوا له ولداً .

وبأي معنى فسروا كونه ابنه ، فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى ، والأدلة الموجبة تنزيهه عن الصاحبة توجب تنزيهه عن الولد . فإذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازماً لهم ، وقد بسط هذا في الرد على النصارى

فصل

وهذا مما يبين أن ما نزه الله نفسه ونفاه عنه يقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ (١) .

ويقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً . وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

يعم جميع الأنواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم ، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتحادات الاصطفائية كما قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) قال السدي (٥) : قالوا : إن الله أوحى إلى اسرائيل إن ولدك بكري من الولد فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً

(٤) سورة المائدة آية رقم ١٨ .

(٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(١) سورة الإخلاص آية رقم ٣ .

(٢) سورة الصافات آية رقم ١٥٢ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٠ - ١٠١ .

حتى تطهرهم وتاكل خطاياهم ، ثم ينادي مناد أخرجوا كل مختون من بني اسرائيل .

وقد قال تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ (١) .

وقال ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ ﴾ (٢) وقال ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (٣) .

وقال ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ . وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيًّا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٥) وقال ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْحُورًا . أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا . قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٦) .

وقال ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ - ٢٩ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٥١ - ٥٧ .

(٦) سورة الاسراء آية رقم ٣٩ - ٤٢ .

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ١١١ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم ١ - ٢ .

شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ بِكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١﴾ .

وقال ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ إلى قوله ﴿ إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ (٣) قال بعض المفسرين : ﴿ جزءاً ﴾ أي نصيباً وبعضاً وقال بعضهم : جعلوا لله نصيباً من الولد ، وعن قتادة ومقاتل عدلاً .

وكلا القولين صحيح ، فإنهم يجعلون له ولداً والولد يشبه أباه .

ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ (٤) .

أي البنات .

كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾ (٥) فقد

(١) سورة الصافات آية رقم ١٤٩ - ١٦٣ .

(٢) سورة النجم آية رقم ١٩ - ٢٧ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ١٥ وتكملة الآية ﴿ إِنْ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٍ مُبِينٍ ﴾ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ١٧ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٥٨ .

جعلوها للرحمن مثلاً ، وجعلوا له من عباده جزءاً ، فإن الولد جزء من الوالد كما تقدم . قال ﷺ « إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي ^(١) » وقوله ﴿ وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ^(٢) .

قال الكلبي : نزلت في الزنادقة قالوا : إن الله وإبليس شريكان ، فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام ، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب .

وأما قوله ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَباً ﴾ ^(٣)

فقيل : هو قولهم : الملائكة بنات الله وسمى الملائكة جنّاً لاجتماعهم عن الأبصار وهو قول مجاهد وقتادة .

وقيل : قالوا لحي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس وهم بنات الله .

وقال الكلبي قالوا - لعنهم الله - بل تزوج من الجن فخرج بينهما الملائكة .

وقوله ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ^(٤) قال بعض المفسرين كالثعلبي وهم كفار العرب قالوا الملائكة والأصنام بنات الله ، واليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل الصحابة ١٢ باب مناقب قرابة رسول الله - ﷺ .

٣٧١٤ - حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره ، ورواه أيضاً في كتاب النكاح ١٠٩ ورواه الامام مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٩٣ ، ٩٤ ، وأبو داود في النكاح ١٢ ، والترمذي في المناقب ٦٠ وابن ماجه في كتاب النكاح ٥٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٥ ، ٣٢٦ (حلي)

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠٠ .

(٣) سورة الصافات آية رقم ١٥٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٠٠ .

فصل

وأما الذين كانوا يقولون من العرب : إن الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن ، فولدت له الملائكة فقد نفاه الله عنه بامتناع الصاحبة ، وبامتناع أن يكون منه جزء فإنه صمد ، وقوله ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ﴾ (١) وهذا كما تقدم من أن الولادة لا تكون إلا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى الجواهر وتولد الأعراض والصفات ، بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الوالد ، فإذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد ، وقد علموا كلهم أن لا صاحبة له لا من الملائكة ، ولا من الجن ، ولا من الإنس ، فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة ، فلهذا احتج بذلك عليهم ، وما حكي عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن ، فهذا فيه نظر ، وذلك أن كان قد قيل ، فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة وكذلك ما قالته النصارى من أن المسيح ابن الله . وما قاله طائفة من اليهود أن العزيز ابن الله فإنه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا .

فإن قيل : أما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم وأما الموجود في كلام علمائهم وكتبهم فإنهم يقولون : إن أقنوم الكلمة ، ويسمونها الابن تدرع المسيح أي اتخذه درعاً ، كما يتدرع الإنسان قميصه ، فاللاهوت تدرع الناسوت ، ويقولون : باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠١ .

قيل : قصدهم أن الرب موجود حي عليم ، فالموجود هو الأب ، والعلم هو الابن ، والحياة هو روح القدس هذا قول كثير منهم .

ومنهم من يقول : بل موجود عالم قادر ، ويقول : العلم هو الكلمة ، وهو المتدرع ، والقدرة هي روح القدس ، فهم مشتركون في أن المتدرع هو أقنوم الكلمة وهي الابن .

ثم اختلفوا في التدرع ، واختلفوا : هل هما جوهر أو جوهران ؟

وهل لهما مشيئة أو مشيئتان ، ولهم في الحلول والاتحاد كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه فإن مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينها ما يتعذر ضبطه ، فإن قولهم ليس مأخوذاً عن كتاب منزل ولا نبي مرسل ، ولا هو موافق لعقول العقلاء فقالت اليعقوبية ^(١) : صار جوهرًا واحدًا ، وطبيعة واحدة ، وأقنومًا واحدًا كالماء في اللبن .

وقالت النسطورية ^(٢) : بل هما جوهران وطبيعتان ومشيتان ، لكن حل اللاهوت في الناسوت حلول الماء في الظرف .

وقالت الملكية ^(٣) : بل هما جوهر واحد له مشيئتان وطبيعتان ، أو فعلان كالنار في الحديد . وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ^(٤) هم اليعقوبية .

وفي قوله ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ^(٥) هم الملكية .

وقوله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ ^(٦) هم النسطورية .

وليس بشيء ، بل الفرق الثلاث تقول المقالات التي حكاها الله عز وجل

(١) سبق التعريف بها في كلمة وافية . سورة المائدة آية رقم ٧٢ .

(٢) سبق التعريف بها في كلمة وافية . سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٣) سبق التعريف بها في كلمة وافية . سورة المائدة آية رقم ٧٣ .

(٤) سبق التعريف بها في كلمة وافية .

(٥) سبق التعريف بها في كلمة وافية .

(٦) سبق التعريف بها في كلمة وافية .

عن النصارى فكلهم يقولون : إنه الله ، ويقولون : إنه ابن الله ، وكذلك في أمانتهم التي هم متفقون عليها ، يقولون إله حق من إله حق وأما قوله ﴿ ثالث ثلاثة ﴾ فإنه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ (١) قال أبو الفرج بن الجوزي في قوله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

قال المفسرون : معنى الآية أن النصارى قالوا بأن الالهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم ، كل واحد منهم إله ، وذكر عن الزجاج : الغلو مجاوزة القدر في الظلم ، وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم هو الله ، وقول بعضهم هو ابن الله ، وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من أن الكلمة هي الابن ، والفرق الثلاثة متفقة على ذلك ، وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه :

أحدها : إنه ليس في شيء من كلام الأنبياء تسمية صفة الله ابناً لا كلامه ولا غيره ، فسميتهم صفة الله ابناً تحريف لكلام الأنبياء عن مواضعه وما نقلوه عن المسيح من قوله « عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس » .

لم يرد بالابن صفة الله التي هي كلمته ، ولا بروح القدس حياته ، فإنه لا يوجد في كلام الأنبياء ارادة هذا المعنى ، كما قد بسط هذا في الرد على النصارى الوجه الثاني : أن هذه الكلمة التي هي الابن أهي صفة الله قائمة به ، أم هي جوهر قائم بنفسه ؟ فإن كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه :

أحدها : أن الصفة لا تكون الهاً يخلق ويرزق ويحيي ويميت ، والمسيح عندهم إله يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت . فإذا كان الذي تدرعه ليس باله فهو أولى أن لا يكون الهاً .

(١) سورة المائدة آية رقم ١١٦ .

الثاني :

أن الصفة لا تقوم بغير الموصوف فلا تفارقه وإن قالوا : نزل عليه كلام الله أو قالوا : إنه الكلمة أو غير ذلك ، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الأنبياء .

الثالث :

أن الصفة لا تتحد وتندرع شيئاً إلا مع الموصوف فيكون الأب نفسه هو المسيح ، والنصارى متفقون على أنه ليس هو الأب ، فإن قولهم متناقض ، ينقض بعضه بعضاً ، يجعلونه إلهاً يخلق ويرزق ، ولا يجعلونه الأب الذي هو الإله ويقولون : إله واحد ، وقد شبهه بعض متكلميهم كيحيى بن عدي بالرجل الموصوف بأنه طيب وحاسب وكاتب وله بكل صفة حكم ، فيقال : هذا حق ، لكن قولهم ليس نظير هذا ، فإذا قلتم إن الرب موجود حي عالم ، وله بكل صفة حكم ، فمعلوم أن المتحد إن كان هو الذات المتصفة ، فالصفات كلها تابعة لها فإنه إذا تدرع زيد الطيب الحاسب الكاتب درعاً كانت الصفات كلها قائمة به ، وإن كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور .

وإن قالوا : المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين ، وهذا ممتنع ، فإن الصفات القائمة بموصوف واحد وهي لازمة له لا تفترق وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقي بخلاف صفات الرب تبارك وتعالى .

الرابع :

أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله ولا شيئاً من صفاته ، بل هو مخلوق بكلمة الله وسمي كلمة لأنه خلق بكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

وقال تعالى ﴿ ذَلِكْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ
لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالنوراة والإنجيل وسائر كلام الله لم يكن
كلام الله ولا شيء من صفاته خالقاً ولا رباً ولا إلهاً .

فالنصارى إذا قالوا : إن المسيح هو الخالق كانوا ضالين من جهة جعل
الصفة خالقة ومن جهة جعله هو نفس الصفة ، وإنما هو مخلوق بالكلمة ، ثم
قولهم بالتثليث ، وأن الصفات ثلاث باطل .

وقولهم أيضاً : بالحلول والاتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه
وغيرها .

فلو قالوا : إن الرب له صفات قائمة به ، ولم يذكروا اتحاداً ولا حلولاً ،
كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات .

وإن قالوا : إن الصفات أعيان قائمة بنفسها فهذا مكابرة ، فهم يجمعون
بين المتناقضين .

وأيضاً : فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل ، فإن صفات الرب أكثر من
ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير

والأقانيم عندهم التي جعلوها الصفات ليست إلا ثلاثة ولهذا تارة
يفسرونها بالوجود والحياة والعلم وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم
واضطرابهم كثير .

فإن قولهم في نفسه باطل ، ولا يضبطه عقل عاقل ، ولهذا يقال : لو
اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً .

وأيضاً : فكلمات الله كثيرة لا نهاية لها ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ لَوْ

(١) سورة مريم آية رقم ٣٤ - ٣٥ .

كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١﴾ . وهذا قول جماهير الناس من المسلمين وغير المسلمين وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلماً بمشيئته .

وقول من قال : إنه لم يزل قادراً على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاماً قائماً بذاته حادثاً ، وقول من قال كلامه مخلوق في غيرة .

وأما من قال : كلامه شيء واحد قديم العين . فهؤلاء منهم من يقول : إنه أمور لا نهاية لها مع ذلك .

ومنهم من يقول : بل هو معنى واحد ، ولكن العبارات عنه متعددة ، وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائماً بغير الله ، وإنما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة ، ويمتنع أن يكون المسيح شيئاً من تلك العبارات ، فإذا امتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء فعلى قول الجمهور أشد امتناعاً ؛ لأن كلمات الله كثيرة ، والمسيح ليس هو جميعها ، بل ولا مخلوقاً بجميعها ، وإنما خلق بكلمة منها ، وليس هو عين تلك الكلمة فإن الكلمة صفة من الصفات ، والمسيح عين قائم بنفسه .

ثم يقال لهم : تسميتكم العلم والكلمة ولداً وابناً تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء ، قالوا : لأن الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها ، فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام فلهذا سميت الكلمة ابناً ، قيل : هذا باطل من وجوه :

أحدها : أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا .

وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته فيمتنع أن يوصف بالتولد ، إلا أن يدعي المدعي أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه ، وهي ابن له ،

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .

ومعلوم أن هذا من أبطل الأمور في العقول واللغات ، فإن حياة الإنسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له ، لا يقال : إنها متولدة عنه ، وإنها ابن له ، وأيضاً فيلزم أن تكون حياة الرب أيضاً ابنه ومتولدة ، وكذلك قدرته ، وإلا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات .

وثانيها : إن هذا إن كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصليين ولا بد أن يخرج من الأصل جزء ، وأما علمنا وقولنا فليس عينا قائماً بنفسه ، وإن كان صفة قائمة بموصوف وعرضاً قائماً في محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضاً لا يتولد إلا عن أصليين ولا بد له من محل يتولد فيه ، والواحد منا لا يحدث له العلم والكلام إلا بمقدمات تتقدم على ذلك وتكون أصولاً للفروع ، ويحصل العلم والكلام في محل لم يكن حاصلاً فيه قبل ذلك .

فإن قلتم : إن علم الرب كذلك لزم أن يصير عالماً بالأشياء بعد أن لم يكن عالماً بها ، وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلماً .

وهذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين والنصارى وغيرهم فهو باطل في صريح العقل ، فإن الذات التي لا تكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها ، والله تعالى يمتنع عليه أن يكون متعلماً من خلقه ، وكذلك الذات التي تكون عاجزة عن الكلام يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة ، والواحد منها لا يولد جميع علومه ، بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها ، فإذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى ، فلا يقول أحد من بني آدم : إن الإنسان يولد علومه كلها ، ولا يقول أحد : إنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة ، بل الذي يقدره على النطق هو الذي أنطق كل شيء .

فإن قالوا : إن الرب يولد بعض علمه ، وبعض كلامه دون بعض ، بطل تسمية العلم - الذي هو الكلمة مطلقاً - الابن ، وصار لفظ الابن إنما يسمى به بعض علمه أو بعض كلامه ، وهم يدعون أن المسيح هو الكلمة ، وهو أقنوم العلم مطلقاً ، وذلك ليس متولداً عنه كله ولا يسمى كله ابناً باتفاق

وثالثها : أن يقال : تسمية علم العالم وكلامه ولدأ له لا يعرف في شيء من اللغات المشهورة ، وهو باطل بالعقل فإن علمه وكلامه كقدرته وعلمه ، فإن جاز هذا جاز تسمية صفات الإنسان كلها الحادثة متولدات عنه له وتسميتها أبناءه ، ومن قال من أهل الكلام القدريّة إن العلم الحاصل بالنظر متولد عنه ، فهو كقوله : إن الشبع والري متولد عن الأكل والشرب ، لا يقول إن العلم ابنه وولده ، كما لا يقول : إن الشبع والري ابنه ولا ولده ؛ لأن هذا من باب تولد الأعراض والمعاني القائمة بالإنسان ، وتلك لا يقال : إنها أولاده وأبنؤه .

ومن استعار فقال بنيات فكره ، فهو كما يقال بنيات الطريق ، ويقال : ابن السبيل ، ويقال لطير الماء ابن ماء ، وهذه تسمية مفيدة ، قد عرف أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الأب والابن والوالد والولد ، وأيضاً : فكلام الأنبياء ليس في شيء منه تسمية شيء من صفات الله ابناً فمن حمل شيئاً من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم ، وهذا مما يقربه علماء النصارى وما وجد عندهم من لفظ الابن في حق المسيح واسرائيل وغيرهما ، فهو اسم للمخلوق لا لشيء من صفات الخالق ، والمراد به أنه مكرم معظم .

ورابعها : أن يقال فإذا قدر أن الأمر كذلك فالذي حصل للمسيح إن كان هو ما علمه الله إياه من علمه وكلامه ، فهذا موجود لسائر النبيين فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله ، وإن كان هو أن العلم والكلام إله اتحد به ، فيكون العلم والكلام جوهرأ قائماً بنفسه ، فإن كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب ، وإن كان العلم والكلام جوهرأ آخر ، فيكون إلهان قائمان بأنفسهما فبين فساد ما قالوه بكل وجه .

وخامسها : أن يقال : من المعلوم عند الخاصة والعامة أن المعنى الذي خص به المسيح إنما هو أن خلق من غير أب ، فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه ، وبهذا ناظر نصارى نجران النبي ﷺ وقالوا : إن لم

يكن هو ابن الله فقل لنا من أبوه ؟

فعلم أن النصارى إنما ادعوا فيه البنوة الحقيقية وأن ما ذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ليزيلوا به الشناعة التي لا يبلغها عاقل ، وإلا فليس في جعله ابن الله وجه يختص به معقول ، فعلم أن النصارى جعلوه ابن الله ، وأن الله أحبل مريم والله هو أبوه ، وذلك لا يكون إلا بإنزال جزء منه فيها ، وهو سبحانه الصمد ، ويلزمه أن تكون مريم صاحبة وزوجة له ، ولهذا يتألهونها كما أخبر الله عنهم .

وأي معنى ذكروه في بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره ، ولا صار فيه معنى البنوة ، بل قالوا كما قال بعض مشركي العرب إنه صاهر الجن فولدت له الملائكة .
وإذا قالوا : اتخذه ابناً على سبيل الاصطفاء فهذا هو المعنى الفعلي ، وسيأتي إن شاء الله تعالى إبطاله .

وقوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ^(١) ليس فيه أن بعض الله صار في عيسى ، بل من لا ابتداء الغاية كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ ^(٢) وقال ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين : إن كان عينا قائمة بنفسها فهو مملوك له ، ومن لا ابتداء الغاية كما قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ ^(٤) وقال في المسيح ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ .

وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له ، كما يقال كلام الله وعلم الله ، وكما قال تعالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٥) وقال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمْ يُعَلِّمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٦) .

(٤) سورة مريم آية رقم ١٧ .

(٥) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ .

(٢) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

والفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمراً والمقدور قدرة ، والمرحوم به رحمة ، والمخلوق بالكلمة كلمة .

فإذا قيل في المسيح : إنه كلمة الله ، فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله ﴿ كن ﴾ ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر وإلا فعیسی بشر قائم بنفسه ليس هو كلاماً صفة للمتكلم يقوم به ، وكذلك إذا قيل عن المخلوق : إنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره ، كقوله ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ (٢) .

فالرب تعالى أحد صمد ، لا يجوز أن يتبعض ويتجزأ فيصير بعضه في غيره .

سواء سمي ذلك روحاً أو غيره ، فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابناً له ، وتبين أنه عبد من عباد الله وقد قيل : منشأ ضلال القوم أنه كان في لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالأب ، وبالأبن عن العبد المربى الذي يربه الله ويربيه ، فقال المسيح : عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس ، فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح ، ويؤمنوا بروح القدس جبريل ، فكانت هذه الأسماء لله ، ولرسوله الملكي ورسوله البشري .

قال الله تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (٣) وقد أخبر تعالى في غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس وهو جبريل عند جمهور المفسرين ، كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ النَّبِيَّاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٤) فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل بل هذا قول ابن عباس ، وقتادة ،

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٨٧ .

(١) سورة النحل آية رقم ١ .

(٢) سورة هود آية رقم ٨٢ .

والضحاك والسدي وغيرهم .

ودليل هذا قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه الاسم الذي كان يحيي به الموتى .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه الإنجيل .

وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ يُنْزَلُ الْمَلَأِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٣) .

فما ينزله الله في قلوب أنبيائه مما تحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحاً ، وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين منهم ؟!

والمسيح عليه السلام من أولي العزم ، فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والأنبياء .

وقال تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٤) .

وقد ذكر الزجاج في تأييده بروح القدس ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أيده به لإظهار أمره ودينه .

(٣) سورة النحل آية رقم ٢ .

(١) سورة النحل آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

الثاني : لدفع بني اسرائيل عنه إذ أرادوا قتله .

الثالث : أنه أيده به في جميع أحواله .

ومما يبين ذلك أن لفظ الابن في لغتهم ليس مختصاً بالمسيح ، بل عندهم

أن الله تعالى قال في التوراة لاسرائيل أنت ابني بكري .

والمسيح كان يقول : أبي وأبوكم فيجعله أباً للجميع ويسمي غيره ابناً

له ، فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك .

ولكن النصارى يقولون :

هو ابنه بالطبع ، وغيره ابنه بالوضع . فيفرون فرقاً لا دليل عليه .

ثم قولهم : هو ابنه بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلاً وسمعاً ما يبين

بطلانه .

فصل

وأما ما يقوله الفلاسفة القائلون بأن العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته ، وأنه صدر عنه عقل ، ثم عقل إلى تمام عشرة عقول ، وتسعة أنفس ، وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر ، والنفس بمنزلة الأنثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركي العرب ، وأهل الكتاب عقلاً وشرعاً ، ودلالة القرآن على فساده أبلغ ، وذلك من وجوه :

أحدها : أن هؤلاء يقولون بقدوم الأفلاك ، وقدم هذه الروحانيات التي يشبثونها ، ويسمونهم المجردات والمفارقات والجواهر العقلية ، وأن ذلك لم يزل قديماً أزلياً ، وما كان قديماً أزلياً امتنع أن يكون مفعولاً بوجه من الوجوه ، ولا يكون مفعولاً إلا ما كان حادثاً ، وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء ، وعليها الأولون والآخرين من الفلاسفة وسائر الأمم ، ولهذا كان جماهير الأمم يقولون : كل ممكن أن يوجد وأن لا يوجد ، فلا يكون إلا حادثاً وإنما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين كابن سينا^(١) ، ومن وافقه : زعموا أن الفلك قديم معلول لعلة قديمة .

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصانيف في الطب ، والمنطق ، والطبيعيات والالهيات توفي عام ٤٢٨ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٥٢ وتاريخ حكماء الاسلام ٢٧ - ٧٢ وخزانة البغداد ٤ : ٤٦٦] .

وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك وهم جمهورهم ، ومن كان قبل أرسطو^(١) ، فهؤلاء موافقون لأهل الملل ، ومن قال بقدم الفلك كأرسطو وشيعته فإنما يثبتون له علة غائية يتشبه الفلك بها ، لا يثبتون له علة فاعلة ، وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك ، كل ذلك قديم واجب بنفسه، وإن كان له علة غائية يتشبه الفلك بها لا يثبتون له علة فاعلة ، وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك ، كل ذلك قديم واجب بنفسه ، وإن كان له علة غائية ، وهؤلاء أكفر من هؤلاء المتأخرين ، لكن الغرض أن يعرفوا أن قول هؤلاء ليس قول أولئك .

الثاني : أن هؤلاء يقولون : إن الرب واحد ، والواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، ويعنون بكونه واحداً أنه ليس له صفة ثبوتية أصلاً ، ولا يعقل فيه معان متعددة لأن ذلك عندهم تركيب ، ولهذا يقولون : لا يكون فاعلاً وقابلاً لأن جهة الفعل غير جهة القبول ، وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب .

ومع هذا يقولون : إنه عاقل ومعقول وعقل ، وعاشق ومعشوق وعشق ، ولذيذ وملتذ ولذة ، إلى غير ذلك من المعاني المتعددة ، ويقولون : إن كل واحدة من هذه الصفات هي الصفة الأخرى ، والصفة هي الموصوف ، والعلم هو القدرة ، وهو الإرادة والعلم هو العالم وهو القادر .

ومن المتأخرين منهم من قال : العلم هو المعلوم فإذا تصور العاقل أقوالهم حق التصور تبين له أن هذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصور وجوده إلا في الأذهان ، لا في الأعيان .

وقد بسط الكلام عليه ، وبين فساد ما يقولونه في التوحيد والصفات ، وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة في مواضع غير هذا .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وإذا كان كذلك فالأصل الذي بنوا عليه قولهم ، « إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد » أصل فاسد .

الثالث : أن يقال : قولهم بصدور الأشياء مع ما فيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط في غاية الفساد .

الرابع : أنه لا يعلم في العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان ، فهذه الدعوى الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلاً .

الخامس : أنهم يقولون : صدر عنه واحد ، وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك ، فيقال : إن كان الصادر عنه واحداً من كل وجه فلا يصدر عن هذا الواحد إلا واحد أيضاً ، فيلزم أن يكون كل ما في العالم إنما هو واحد عن واحد وهو مكابرة . وإن كان في الصادر الأول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس واحداً من كل وجه ، فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد .

ولهذا اضطرب متأخروهم ، فأبو البركات ^(١) صاحب «المعتبر» أبطل هذا القول ورده غاية الرد وابن رشد ^(٢) الحفيد زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول ، والطوسي ^(٣) وزير الملاحدة يقرب من هذا ، فجعل الأول شرطاً في الثاني ، والثاني شرطاً في الثالث وهم مشتركون في الضلال ، وهو إثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تنزل ولا تزال معه ، لم تكن مسبقة بعدم ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي ، أبو الوليد : الفيلسوف من أهل قرطبة ، عني بكلام أرسطو ، وترجمه الى العربية ، وزاد عليه زيادات كثيرة ، وصنف نحو خمسين كتاباً منها فلسفة ابن رشد وفصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال ، ومنهاج الأدلة وغير ذلك كثير . توفي عام ٥٩٥ هـ [راجع : قضاة الأندلس ١١١ والتكملة ١ : ٢٦٩ ، والمعجب ٢٤٢ وطبقات الأطباء ٢ : ٧٥ وشذرات الذهب ٤ : ٣٢٠ وآداب اللغة ٣ : ١٠٤] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وجعل الفلك أيضاً أزلياً ، وهذا وحده فيه من مخالفة صريح المعقول ، والكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية .

الوجه السادس : أن الصوادر المعلومة في العالم إنما تصدر عن اثنين ، وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء ، كما تقدم التبيين عليه في المتولدات من الأعيان والأعراض ،

وكل ما يذكرونه من صدور الحرارة عن الحار ، والبرودة عن البارد والشعاع عن الشمس وغير ذلك فإنما هو صدور أعراض ، ومع هذا فلا بد لها من أصلين .

وأما صدور الأعيان عن غيرها فهذا لا يعلم إلا بالولادة المعروفة وذلك لا تكون إلا بانفصال جزء من الأصل ، وهذا الصدور والتولد والمعلولية التي يدعونها في المعقول والنفوس والأفلاك يقولون : إنها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط ، فهذا من أبطل قول قيل في الصدور والتولد لأن فيه صدور جواهر عن جوهر واحد وهذا لا يعقل وفيه صدوره عنه من غير جزء منفصل من الأصل وهذا لا يعقل ، وهم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الأعراض كالشعاع عن الشمس وحركة الخاتم عن حركة اليد ، وهذا تمثيل باطل ، لأن تلك ليست علة فاعلة ، وإنما هي شرط فقط ، والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد ، بل عن أصلين . والصادر عرض لا جوهر قائم بنفسه .

فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولد العقلي الذي يدعونه من أبعد الأمور عن التولد والصدور وهو أبعد من قول النصارى ومشركي العرب ، وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته .

وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه إنه متولد عنه . وحينئذ فهم في دعواهم إلهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء وهؤلاء ، ومن جعل من المتتبعين إلى الملل منهم هؤلاء هم الملكية .

فقلوه في جعل الملائكة متولدين عن الله شر من قول العرب وعوام
النصارى ، فإن أولئك أثبتوا ولادة حسية ، وكونه صمداً يبطلها ، لكن ما أثبتوه
معقول وهؤلاء ادعوا تولداً عقلياً باطلاً من كل وجه ، أبطل مما ادعته النصارى
من تولد الكلمة عن الذات ، فكان نفي ما ادعوه أولى من نفي ما ادعاه
أولئك ؛ لأن المحال الذي يعلم امتناعه في الخارج لا يمكن تصوره موجوداً في
الخارج ، فإنه يمتنع وجوده في الخارج بل هو يفرض في الذهن وجوده في
الخارج ، وذلك إنما يمكن إذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له في الوجود
الخارجي ما يشبهه ، كما إذا قدر مع الله الهاً آخر ، وقدر أن له ولداً فإنه يشبه
من له ولد من العباد ، ومن له شريك من العباد ثم بين امتناع ذلك عليه ،
فكلما كان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة . والولادة التي
ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة
التي ادعاها بعض مشركي العرب وعوام النصارى واليهود فكانت هذه الولادة
العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية ، إذ الولادة الحسية تعقل في
الأعيان القائمة بنفسها ، وأما الولادة العقلية فلا تعقل في الأعيان أصلاً ، وأيضاً
فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين ، وهذا هو الولادة المعقولة ، وهؤلاء أثبتوا ولادة
من أصل واحد ، وأولئك أثبتوا ولادة بانفصال جزء ، وهذا معقول .

وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك وهو لا يعقل وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها
على ولادة الأعيان للأعيان ، وهؤلاء أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الأعراض عن
الأعيان فعلم أن قول أولئك أقرب إلى المعقول وهو باطل ، كما بين الله فساده
وأنكره فقول هؤلاء أولى بالبطلان ، وهذا كما أن الله إذا كفر من أثبت مخلوقاً
يتخذ شافعاً معبوداً من دون الله ، فمن أثبت قديماً دون الله يعبد ، ويتخذ
شفيعاً كان أولى بالكفر .

ومن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله ، فمن أنكره
مع قوله بقديم العالم فهو أعظم كفراً عند الله تعالى .

وهذا كما أن النبي ﷺ لما نهى أمته عن مشابهة فارس المجوس والروم النصرارى فنهيه عن مشابهة الروم اليونان المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم .

وإذا كان ما دخل في بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموماً عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند والترك المشركين وغيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام من أهل الكتاب ، ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموماً عند الله تعالى ، وأن يكون ذمه أعظم من ذلك فهؤلاء الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين ، وذلك لأن الإسلام كان أهله أكمل وأعظم علماً ودينياً فإذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم ، وأما هؤلاء المتأخرون فالمسلمون وإن كان أنقص من سلفهم فإنه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الإسلام ، ولكن لما كثرت البدع من متأخري المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء ، ولبسوا عليهم دينهم وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان ؛ لأنهم إنما ابتلوا بسيف هؤلاء وألسنة هؤلاء ، وكان فيهم من نقص الإيمان ما أورث ضعفاً في العلم والجهاد ، وكما كان كثير من العرب في زمن النبي ﷺ فهذا هذا .

ومما يبين هذا أن مشركي العرب واليهود والنصارى يقولون : إن الله خلق السموات والأرض بمشيئته وقدرته ، بل يقولون : إنه خلق ذلك في ستة أيام ، وهؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن فضلاً عن أن يكون ذلك في ستة أيام ثم يلبسون على المسلمين فيقولون : العالم محدث يعنون بحدوثه أنه معلول علة قديمة ، فهو بمنزلة قولهم : متولد عن الله تعالى ، لكن هو أمر لا حقيقة له ولا يعقل .

وأيضاً فمشركوا العرب وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وإن كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعاً واحداً ، فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقطه وصار شيطاناً ، وينكرون أن يكون إبليس كان أب الجن ، وأن يكون الجن ينكحون ويولدون ويأكلون ويشربون ، فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فإن هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم إلا ما يثبتونه من العقول والنفوس ، أو من أعراض تقدم بالأجسام كالقوى الصالحة ، وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها ، فإن العرب كانت تثبت الجن وكذلك أكثر أهل الكتاب ، وهؤلاء لا يثبتونها ، ويجعلون الشياطين القوى الفاسدة .

وأيضاً فمشركوا العرب مع أهل الكتاب يدعون الله ويقولون : إنه يسمع دعاءهم ويحييهم .

وهؤلاء عندهم لا يعلم شيء من جزئيات العالم ، ولا يسمع دعاء أحد ، ولا يجب أحداً ، ولا يحدث في العالم شيئاً ، ولا سبب للحدوث عندهم إلا حركات الفلك ، والدعاء عندهم يؤثر ، لأنه تصرف النفس الناطقة في هيولى العالم ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : شتمني ابن آدم ، وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، فأما شتمه إياي فقلوه : إني اتخذت ولدأ وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد وأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته » (١) .

وهذا وإن كان متناولاً قطعاً لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ﴾ (٢) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التفسير ٢ - باب قوله : الله الصمد .

٤٩٧٥ - حدثنا اسحاق بن منصور ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ قال الله تعالى : وذكره .

ورواه النسائي في الجنايز ١١٧ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩٤ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٦ .

إلى قوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ ﴾ (١) .

فذكر الله هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى ، فإن هؤلاء
ينكرون الإعادة والابتداء أيضاً ، فلا يقولون : إن الله ابتداء خلق السموات
والأرض ، ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم .

وأما شتمهم إياه بقولهم : اتخذ ولداً ، فهؤلاء عندهم الفلك كله لازم
له ، معلول له ، أعظم من لزوم الولد والده ، والوالد له اختيار وقدرة في
حدوث الولد منه ، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة في لزوم الفلك له ،
بل ولا يمكنه أن يدفع لزومه عنه ، فالتولد الذي يشتمونه أبلغ من التولد الموجود
في الخلق ، ولا يقولون : إنه اتخذ ولداً بقدرته ، إنه لا يقدر عندهم على تغيير
شيء من العالم ، بل ذلك لازم له لزوماً حقيقته أنه لم يفعل شيئاً ، بل ولا هو
موجود ، وإن سموه علة ومعلولاً فعند التحقيق لا يرجعون إلى شيء محصل ،
فإن في قولهم من التناقض والفساد أعظم مما في قول النصارى .

وقد ذكر طائفة من أهل الكلام أن قولهم بالعلة والمعلول من جنس قول
غيرهم بالوالد والولد ، وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم في الذم ، وهذا
تقصير عظيم ، بل أولئك خير من هؤلاء ، وهؤلاء إذا حققت ما يقوله من هو
أقربهم إلى الإسلام ، كابن رشد الحفيد وجدت غايته أن يكون الرب شرطاً في
وجود العالم لا فاعلاً له وكذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من
ملاحدة الصوفية ، كابن عربي (٢) وابن سبعين (٣) ، حقيقة قولهم أن هذا العالم

(١) سورة مريم آية رقم ٨٨ - ٩٠ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصير ، ابن سبعين الأشبيلي المرسى ، أبو محمد ، فيلسوف

موجود واجب أزلي ، ليس له صانع غير نفسه ، وهم يقولون : الوجود واحد ،
وحقيقة قولهم أنه ليس في الوجود خالق خلق موجوداً آخر .

وكلامهم في المعاد والنبوات والتوحيد شر من كلام اليهود والنصارى ،
وعباد الأصنام ، فإن هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم في العالم ، لا يخصون بعض
الأصنام بالعبادة .

ومن القائلين بوحدة الوجود درس العربية والآداب بالأندلس وانتقل الى سبته ، وصنف كتاب ،
الحروف الوضعية في الصور الفلكية توفي عام ٦٦٩ هـ [راجع جلاء العينين ٥١ وفوات الوفيات
١ : ٢٤٧ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٣٢] .

فصل

وقد احتج بسورة الإخلاص من أهل الكلام المحدث من يقول : الرب تعالى جسم كـبعض الذين وافقوا هشام ^(١) بن الحكم ، ومحمد بن كرام ^(٢) ، وغيرهما ومن ينفي ذلك ويقول ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان ، وأبا الهذيل ^(٣) العلاف ، ونحوهما فأولئك قالوا : هو صمد ، والصمد لا جوف له وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا جوف لها ، كما في الجبال والصخور ، وما يصنع من عواميد الحجارة .

وكما قيل : إن الملائكة صمد ، ولهذا قيل : إنه لا يخرج منه شيء ، ولا يدخل فيه شيء . ولا يأكل ولا يشرب ، ونحو ذلك ، ونفي هذا لا يعقل إلا عمن هو جسم ، وقالوا : أصل « الصمد » الاجتماع ، ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع ، وأما النفاة فقالوا « الصمد » الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام أيضاً : « الأحد » الذي لا يقبل التجزيء والانقسام ، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزيء والانقسام .

وقالوا : إذا قلت : هو جسم كان مركباً ومؤلفاً من الجواهر الفردة ، أو

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

من المادة والصورة وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه وهو سبحانه صمد ، والصمد الغني عما سواه فالمركب لا يكون صمداً .

فيقال : أما القول بأنه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء ، وأنه يقبل التجزيء والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعاً وعقلاً ، فإن هذا ينافي كونه صمداً كما تقدم ، وسواء أريد بذلك أنه كانت الأجزاء متفرقة ثم اجتمعت ، أو قيل : إنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض ، كما في بدن الإنسان وغيره من الأجسام ، فإن الإنسان وإن كان لم يزل مجتمع الأعضاء ، لكن يمكن أن يفرق بين بعضه من بعض والله سبحانه منزّه عن ذلك ، ولهذا قدمنا أن كمال الصمدية له ، فإن هذا إنما يجوز على ما يجوز أن يفني بعضه أو يعدم ، وما قبل العدم والفناء لم يكن واجب الوجود بذاته ، ولا قديماً أزلياً ، فإن ما وجب قدمه امتنع عدمه ، وكذلك صفاته التي لم يزل موصوفاً بها وهي من لوازم ذاته ، فيمتنع أن يعدم اللازم إلا مع عدم الملزوم .

ولهذا قال من قال من السلف « الصمد » هو الدائم ، وهو الباقي بعد فناء خلقه ، فإن هذا من لوازم الصمدية ، إذ لو قبل العدم لم تكن صمدية لازمة له ، بل جاز عدم صمدية فلا يبقى صمداً ، ولا تنتفي عنه الصمدية إلا بجواز العدم عليه ، وذلك محال فلا يكون مستوجباً للصمدية إلا إذا كانت لازمة له ، وذلك ينافي عدمه .

وهو مستوجب للصمدية ؛ لم يصّر صمداً بعد أن لم يكن تعالى وتقدس ، فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقاً فجمع ، وأنه مفعول محدث مصنوع وهذه صفة مخلوقاته ، وأما الخالق القديم الذي يمتنع عليه أن يكون معدوماً أو مفعولاً أو محتاجاً إلى غيره بوجه من الوجوه فلا يجوز عليه شيء من ذلك ، فعلم أنه لم يزل صمداً ، ولا يزال صمداً ، فلا يجوز أن يقال : كان متفرقاً فاجتمع ، ولا أنه يجوز أن يتفرق بل ولا أن يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء .

وهذا عما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين ، سنيهم وبدعيهم وإن كان

أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك .

فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة ، كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول : إنه مولود ووالد ، وإن كان هذا قد قاله بعض الكفار وقد قال المتفلسفة المنتسبون إلى الإسلام من التولد والتعليل ما هو شر من قول أولئك وأما إثبات الصفات له ، وأنه يرى في الآخرة وأنه يتكلم بالقرآن وغيره ، وكلامه غير مخلوق ، فهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة ، من جميع الطوائف .

والخلاف في ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة وكثير من الفلاسفة والباطنية .

وهؤلاء يقولون إن اثبات الصفات يوجب أن يكون جسماً وليس بجسم ، فلا تثبت له الصفات .

قالوا : لأن المعقول من الصفات أعراض قائمة بجسم ، لا تعقل صفته إلا كذلك .

قالوا : والرؤية لا تعقل إلا مع المعاينة ، فالمعاينة لا تكون إلا إذا كان المرئي بجهة ، ولا يكون بجهة إلا ما كان جسماً .

قيلوا : ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسماً ، فلا يكون الكلام المضاف إليه إلا مخلوقاً منفصلاً عنه .

وهذه المعاني مما ناظروا بها الإمام أحمد ^(١) في « المحنة » وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفي التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث ^(٢) ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) كان على مذهب التجار في أكثر مذاهبه ، وخالفه في تسمية المكتسب فاعلاً فامتنع منه . راجع في شأن فرقه : التبصير ص ٦٢ وأدبهم الشهرستاني مع النجارية ١ : ٨٨ وشرح عقيدة السفاريني

تلميذ حسين ^(١) النجار وهو من أكابر المتكلمين ، فإن أبي دؤاد ^(٢) كان قد جمع للإمام أحمد من أمكنه من متكلمي البصرة وبغداد وغيرهم ممن يقول : إن القرآن مخلوق وهذا القول لم يكن مختصاً بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس ، فإن كثيراً من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة ، وبشر ^(٣) المريسي لم يكن من المعتزلة ، بل فيهم نجارية ، ومنهم برغوث ، وفيهم ضرارية ، وحفص ^(٤) الفرد الذي ناظر الشافعي كان من الضرارية أتباع ضرار بن عمرو .

وفيههم مرجئة ومنهم بشر المريسي .

وفيههم جهمية محضة ، ومنهم معتزلة ، وابن أبي دؤاد لم يكن معتزلياً ، بل كان جهمياً ينفي الصفات ، والمعتزلة تنفي الصفات فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة .

(١) يسمى الحسين بن محمد النجار رئيس الفرقة النجارية كان حائكاً في طراز العباس بن محمد الهاشمي ، له مع النظام مجالس ومناظرات راجع الفهرست ص ٢٦٨ .
(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي ، العدوي بالولاء أبو عبد الرحمن ، فقيه معتزلي عارف بالفلسفة يرمي بالزندقة ، وهو رأس الطائفة المريسية ، القائلة بالإرجاء توفي عام ٢١٨ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٩١ والنجوم الزاهرة ٢ : ٢٢٨ وتاريخ بغداد ٧ : ٥٦ وميزان الاعتدال ١ : ١٥٠] .

(٤) هو حفص الفرد . قال عنه ابن النديم « من المجبرة ، ومن أكابرهم يكنى أبا عمرو ، وكان من أهل مصر ، قدم البصرة فسمع بأبي الهذيل واجتمع معه وناظره ، فقطعه أبو الهذيل ، وكان أولاً معتزلياً ثم قال بخلق الأفعال ، وكان يكنى أبا يحيى ، ثم ذكر له عدة كتب (الفهرست ص ٢٦٩) وقال الذهبي : حفص الفرد : مبتدع . قال النسائي : صاحب كلام لكنه لا يكتب حديثه ، وكفره الشافعي في مناظرته (ميزان الاعتدال ١ : ٥٦٤ ص ٢١٤٣) .

(٥) هو ضرار بن عمرو ، ظهر في أيام واصل بن عطاء ، وقد وضع بشر بن المعتمر كتاباً في الرد على ضرار سماه « كتاب الرد على ضرار » وذكر صاحب الانتصار نقلاً عن الراوندي أن له كتاباً سماه « التحريش » ذكر فيه مستند كل فرقة فيما هي عليه من كلام الرسول ﷺ - ولا بد أنه قد اختلق فيه ووضع ونخب في الباطل ووضع (الانتصار ١٣٦ ميزان الاعتدال ٢ : ٣٢٨) ت رقم ٣٩٥٣ .

فلما احتج عليه برغوث بأنه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسماً وهذا منفي عنه .

وأحمد وأمثاله من السلف كانوا يعلمون أن هذه الألفاظ التي ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينبغيها قوم ليتوصلوا بنفيها إلى ما أثبتته الله تعالى ورسوله ، ويشبتها قوم ليتوصلوا بإثباتها إلى إثبات ما نفاه الله ورسوله .

فالأولى طريقة الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون أن قصدهم التنزيه ، ومقصودهم بذلك أن الله لا يرى في الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاماً في غيره ، وأنه ليس له علم يقوم به ، ولا قدرة ولا حياة ، ولا غير ذلك من الصفات .

قال الإمام أحمد في خطبته في « الرد على الجهمية والزنادقة » الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموق ، ويبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف القالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة فيهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب ، مجتمعون على مخالفة الكتاب ، يقولون على الله وفي الله ، وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم . فنعوذ بالله من فتن المضلين .

والثانية طريقة هشام ^(١) وأتباعه يحكى عنهم : أنهم أثبتوا ما قد نزه الله

(١) هو هشام بن الحكم الذي زعم أن معبوده ذو حد ونهاية وأنه طويل ، عريض ، عميق ، وأن طولُه مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه ، ولم يثبت طولاً غير الطويل ، ولا عرضاً غير العريض إلى غير ذلك من الكفر البواح .

انظر مقالات الاسلاميين ١ : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ وما بعدها والفرق بين الفرق

نفسه عنه من اتصافه بالنقاىص ، ومماثلته للمخلوقات ، فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) وقال ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ الْمَصْ . كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ ﴾ (٥) تأويلًا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

(٤) سورة طه آية رقم ١٢٣ - ١٢٦ .

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٥٩ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١ - ٣ .

تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ
أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١﴾

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ
مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى
الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ
الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظُهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا
بَلِيغًا . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . فَلَا
وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا
بِمَا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٢﴾ وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ
إِلَيْهِ وَأَتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥) .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٥٩ .

(٥) سورة الروم آية رقم ٣٠ - ٣٢ .

(١) سورة الحجرات آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٦٠ - ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

وقوله ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) .

فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل ، وبيان ما اختلف فيه الناس ، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة ، وأن من لم يتبع ذلك كان منافقاً وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقيماً معذباً ، وأن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم .

فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة ، المتبعين ما أنزل الله إليهم من ربهم ، وذلك أن نظرهما وجدنا الرب قد أثبت لنفسه في كتابه أثباته ، وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفينا ، وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ ، وكل لفظ وجد منفيًا نفي ذلك اللفظ .

وأما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة ، بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين لا إثباتها ولا نفيها .

وقد تنازع فيها الناس ، فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفى إلا بعد الاستفسار عن معانيها .

فإن وجدت معانيها مما أثبتته الرب لنفسه أثبتت وإن وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت ، وإن وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل ، أو نفى به حق وباطل ، أو كان مجملًا يراد به حق وباطل ، وصاحبه أراد به

(١) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

بعضها ، لكنه عند الإطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد .

فهذه الألفاظ لا يطلق إثباتها ولا نفيها ، كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى ، فقل من تكلم بها نفيًا أو إثباتًا إلا وأدخل فيها باطلاً ، وأن أراد بها حقاً .

والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث ، لاشتماله على باطل وكذب ، وقول على الله بلا علم ، وكذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ، ويقولون عليه بغير علم ، وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله ، ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ، ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل ، لا يصح بعقل ولا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس بن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال : وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر والأعراض ، وإنما بعث الله النبي ﷺ بإنكار ذلك ، ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين ، فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه ، وإنما أراد إنكار ما يعني بهما من المعاني الباطلة ، فإن أول من أحدثهما الجهمية والمعتزلة وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى ، أو أن يكون له كلام يتصف به ، وأنكرت الجهمية أسماءه أيضاً .

وأول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم ، فضحى به خالد بن عبد الله ^(١) القسري بواسط وقال : يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ،

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن اسد القسري من بجيلة أبو الهيثم ، أمير العراقيين ، وأحد خطباء العرب وأجوادهم من أهل دمشق ، رمي في آخر أيامه بالزندقة توفي عام ١٢٦ هـ [راجع الأغاني ١٩ - ٥٣ وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٦٧ - ٨٠ والوفيات ١ : ١٦٩ وتهذيب التهذيب وابن خلدون ٣ : ١٠٥] .

فإني مضح بالجعد بن درهم^(١) ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه وكلام السلف والأئمة في ذم هذا الكلام وأهله مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا إذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقوهم لا على إطلاق الإثبات ، ولا على إطلاق النفي ، وأهل البدع بالعكس ، ابتدعوا ألفاظاً ومعاني ؛ إما في النفي ، وإما في الإثبات ، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم ، الذي يجب اعتقاده والبناء عليه ثم نظروا في الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه ، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها ، فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً ، وما جاء به الرسول فرعاً له ومشكلاً : إذا لم يوافقه وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم ، وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية ، جميع كتبهم توجد على هذا الطريق ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله ، وبين السبل المخالفة له ، وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية ، ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة وألفاظ ومعان مشتركة .

فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور ، ثم يرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتقبل ، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب

(١) هو الجعد بن درهم المبتدع ، له أخبار في الزندقة ، أخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة ، في أيام هشام بن عبد الملك توفي نحو ١١٨ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٢] .

والسنة فترد ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى كما يوجد في ألفاظ أهل الرأي والكلام والتصوف ، وإنما يجوز أن يقال في بعض الآيات إنه مشكل ومتشابه إذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة ، فإذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر ، وجاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال في هذا إنه يرد المتشابه إلى المحكم أما إذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجوز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل ، ويجعل ما في القرآن والسنة مشكلاً متشابهاً فلا يقبل ما دل عليه .

نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها ، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها ، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس ، وفي القرآن بيان معناه ، فإن القرآن جعله الله شفاءً لما في الصدور ، وبياناً للناس ، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك ، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ .

إما أن لا يعرفوا اللفظ ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا المعنى ، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة ، ومن ها هنا يقع الشرك ، وتفريق الدين شيعاً ، كالفتن التي تحدث السيف .

فالفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم ، كما قال مالك بن أنس ^(١) : إذا قل العلم ظهر الجفاء ، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء .

ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم ، ولهذا قال أحمد في خطبته :

« الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم » .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١) .

فأهل الهدى والفلاح : هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان ، وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء ، يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء .

فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر ، لكن الله يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢) .

وقال ﴿ رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) .

وقال ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (٤) .

فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولاً رسولاً .

وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة .

وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين ؛ فإن الآخرة لا تكليف فيها ، وليس كما قال ، إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار ، وإلا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتنون يقال لأحدهم : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وكذلك في عرصات القيامة يقال : ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ١٥ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٥٩ .

يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة ، ويقول : أنا ربكم ، فيقولون ، نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا .

وفي رواية فيسألهم ويشتهم ، وذلك امتحان لهم ، هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة ، فيشتهم الله تعالى عند هذه المحنة ، كما يشتهم في فنة القبر ، فإذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون أتاها حينئذ في الصورة التي يعرفون فيكشف عن ساق فإذا رأوه خرجوا له سجداً ، إلا من كان منافقاً ، فإنه يريد السجود فلا يستطيعه ، يبقى ظهره مثل الطبق وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد ، وقد أخرجاها في الصحيحين ، ومن حديث جابر ، وقد رواه مسلم من حديث ابن مسعود ، وأبي موسى ، وهو معروف من رواية أحمد وغيره ، فدل ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء ، وأما قبل دار الجزاء امتحان وابتلاء .

فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن وحدثت البدع والفجور ، ووقع الشر بينهم ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين ، ومنعني الثالثة ، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » (١) .

والبأس مشتق من البؤس ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (٢) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ﴾ قال : هاتان أهون ^(١) فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال ، وهم فيها في جاهلية .

ولهذا قال الزهري : وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون ، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج ، أصيب بتأويل القرآن فهو هدر ، أنزلوهم منزلة الجاهلية .

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : ترك الناس العمل بهذه الآية تعني قوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(٢) .

فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى ، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية . وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم ، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً ، ولم يبع بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً ، ولا يعتدي عليه ، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه ، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله ، وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم ، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوه في بعض مسائل الدين ، وكذلك سائر أهل الأهواء ، فإنهم يتدعون بدعة ،

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٩ .

ويكفرون من خالفهم فيها كما تفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها ، واستحلوا منع حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول ﷺ ، إما عادلون وإما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره ، والظالم الذي يعتدي على غيره ، وهؤلاء الظالمون مع علمهم بأنهم يظلمون ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١) . وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضاً كالملقدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول ، وقالوا : هذه غاية ما قدرنا عليه ، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل ، مثل أن يدعي أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يديها ، ويذم من يخالفه مع أنه معذور وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين فابتدعوا كلاماً متشابهاً نفوا به الحق ، فأجابهم أحمد لما ناظره في المحنة ، وذكروا الجسم ونحو ذلك ، وأجابهم بأني أقول كما قال الله تعالى ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ، ليس على أحد أن يتكلم به البتة ، والمعنى الذي يراد به مجمل ، ولم تبينوا مرادكم حتى ثوافقكم على المعنى الصحيح ، فقال : ما أدري ما تقولون ؟ لكن أقول « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

يقول : ما أدري ما تعنون بلفظ الجسم ، فأنا لا أوافقكم على إثبات لفظ ونفيه ، إذ لم يرد الكتاب والسنة بإثباته ولا نفيه ، إن لم ندر معناه الذي عناه

(١) سورة البينة آية رقم ٤ وقد جاءت الآية محرفة حيث ذكر ﴿ ما جاءهم العلم بغياب بينهم ﴾ وهذه آية أخرى في سورة الشورى آية ١٤ ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياب بينهم ﴾ والله أعلم .

المتكلم فإن عني في النفي والإثبات ما يوافق الكتاب والسنة وافقناه وإن عني ما يخالف الكتاب والسنة في النفي والإثبات لم نوافقه . ولفظ « الجسم » و« الجوهر » ونحوهما لم يأت في كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا كلام أحد - من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسائر أئمة المسلمين - التكلم بها من حق الله تعالى لا بنفي ولا إثبات ولهذا قال أحمد في رسالته إلى المتوكل : لا أحب الكلام في شيء من ذلك إلا ما كان في كتاب الله ، أو في حديث عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين لهم بإحسان ، وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود وذكر أيضاً فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون : ليس فيه كذا ولا كذا ولا كذا ، وهو كما قال ، فإن لفظ الجسم له في اللغة التي نزل بها القرآن معنى ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ ^(٢) قال ابن عباس : كان طالوت أعلم بني إسرائيل بالحرب وكان يفوق الناس بمنكيه وعنقه ورأسه ، و« البسطة » السعة .

قال ابن قتيبة : هو من قولك بسطت الشيء إذا كان مجموعاً ففتحته ووسعته .

قال بعضهم : والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة إذ العادة أن من كان أعظم جسماً كان أكثر قوة فهذا لفظ الجسم في لغة العرب التي نزل بها القرآن قال الجوهري : قال أبو زيد الأنصاري : الجسم : الجسد وكذلك الجسمان والجثمان .

وقال الأصمعي : الجسم والجسد والجثمان الشخص .

(١) سورة المنافقون آية رقم ٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٤٧ .

وقال جماعة : جسم الإنسان يقال له الجثمان ، وقد جسم الشيء أي عظم ، فهو جسيم وجسام ، والجسام بالكسر جمع جسيم .

قال أبو عبيدة : تجسمت فلاناً من بين القوم أي اخترته كأنك قصدت جسمه ، كما تقول : تأتيته أي قصدت أتبه وشخصه ، وأنشد أبو عبيدة :

تجسمته من بينهن بمرفف

وتجسمت الأرض إذا أخذت نحوها تريدها ، وتجسم من الجسم وقال ابن السكيت : تجسمت الأمر أي ركبته أجسمه وجسيمه ، أي معظمه .

قال : وكذلك تجسمت الرمل والجبل ، أي ركبته أعظمه والأجسم الأضخم .

قال عامر بن طفيل (١) :

لقد علم الحي من عامر بأن لنا الذررة الأجسام
فهذا الجسم في لغة العرب ، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم ولا للنفس
الخارج من الإنسان جسم ، ولا لروحه المنفوخة فيه جسم .

ومعلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئاً من ذلك ، لا بدن الإنسان ولا غيره ، فلا يوصف الله تعالى بشيء من خصائص المخلوقين ، ولا يطلق عليه من الأسماء ما يختص بصفات المخلوقين ، فلا يجوز أن يقال : هو جسم ولا جسد « وأما أهل الكلام » فالجسم عندهم أعم من هذا ، وهم مختلفون في معناه اختلافاً كثيراً عقلياً ، واختلافاً لفظياً اصطلاحياً ، فهم يقولون : كل ما يشار

(١) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري ، من بني عامر بن صعصعة ، فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم وسادتهم في الجاهلية ، ولد ونشأ بنجد ، وكان يأمر منادياً في سوق عكاظ ينادي ، هل من راجل فنحمله ، أو جائع فنطعمه ، أو خائف فنؤمنه ؟... وخاض المعارك الكبيرة ، وأدرك الإسلام شيخاً كان من أعداء الاسلام والمسلمين توفي عام ١١ هـ . [راجع خزانة الأدب للبغدادى ١: ٤٧١، ٤٧٤ والبيان والتبيين ١: ٣٢٠] .

إليه إشارة حسية فهو جسم ، ثم اختلفوا بعد هذا ، فقال كثير منهم : كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة .

ثم منهم من قال : الجسم أقل ما يكون جوهراً بشرط أن ينضم إلى غيره ، وقيل : بل الجوهرة ، والجواهر فصاعداً ، وقيل بل أربعة فصاعداً ، وقيل : بل ستة ، وقيل : بل ثمانية وقيل : بل ستة عشر ، وقيل : بل اثنان وثلاثون ، وهذا قول من يقول : إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر التي لا تنقسم .

وقال آخرون من أهل الفلسفة : كل الأجسام مركبة من الهبولى والصورة لا من الجواهر الفردة .

وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام : ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا ، ولا من هذا ولا من هذا ، وهذا قول الهشامية^(١) والكلابية والضرارية^(٢) ، وغيرهم من الطوائف الكبار لا يقولون بالجواهر الفرد ولا بالمادة والصورة ، وآخرون يدعون إجماع المسلمين على إثبات الجواهر الفرد ، كما قال أبو المعالي^(٣) وغيره : اتفق المسلمون على أن الأجسام تنتهى في تجزئها وانقسامها حتى تصير أفراداً ، ومع هذا فقد شك هو فيه ، وكذلك شك فيه أبو الحسين البصري ، وأبو عبد الله الرازي .

(١) هما فرقان ؛ فرقة تنسب إلى هشام بن الحكم الرافضي ، والفرقة الثانية تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقي ، وكلتا الفرقتين قد ضمت إلى حيرتها في الإمامة ضلالتها في التجسيم ، وبدعتها في التشبيه .

انظر مقالات الاسلاميين ١ : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، والتبصير ٢٣ .

(٢) سبق الحديث عنها في كلمة وافية .

(٣) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ركن الدين الملقب بامام الحرمين ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ولد عام ٤١٩ - وتوفي عام ٤٧٨ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ والسبكي ٣ : ٢٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٠ ثم ٢ : ١٨٨ وتبيين كذب المفتري ٢٧٨ - ٢٨٥] .

ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ،
ولا من التابعين لهم بإحسان ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين .

وأول من قال ذلك في الإسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة وهذا من
الكلام الذي ذمه السلف وعابوه ، ولكن حاكي هذا الإجماع لما لم يعرف أصول
الدين إلا ما في كتب الكلام ولم يجد إلا من يقول بذلك اعتقد هذا إجماع
المسلمين والقول بالجواهر الفرد باطل ، والقول بالهويول والصورة باطل وقد بسط
الكلام على هذه المقالات في مواضع أخر . وقال آخرون : الجسم هو القائم
بنفسه ، وكل قائم بنفسه جسم ، وكل جسم فهو قائم بنفسه ، وهو مشار إليه
واختلفوا في الأجسام هل هي متماثلة أم لا ؟ على قولين مشهورين وإذا عرف
ذلك فمن قال : إنه جسم ، وأراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل ،
وكذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل أن الله
ليس كمثله شيء في شيء من صفاته .

فمن أثبت لله مثلاً في شيء من صفاته فهو مبطل . ومن قال : إنه جسم
بهذا المعنى فهو مبطل . ومن قال : إنه ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى في الآخرة
ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من
الصفات ، ولا ترفع الأيدي إليه في الدعاء ولا عرج بالرسول ﷺ إليه ، ولا
يصعد إليه بالكلم الطيب ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه فهذا قوله باطل .

وكذلك كل من نفى ما أثبتته الله ورسوله ، وقال : إن هذا تجسيم فنفيه
باطل ، وتسمية ذلك تجسيماً تلبيس منه ، فإنه إن أراد أن هذا في اللغة يسمى
جسماً فقد أبطل وإن أراد أن هذا يقتضي أن يكون جسماً مركباً من الجواهر
الفردة ، أو من المادة والصورة ، أو أن هذا يقتضي أن يكون جسماً ، والأجسام
متماثلة ، قيل له : أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة ، وفي أنها
مركبة ، فلا يقولون : إن الهواء مثل الماء ، ولا أبدان الحيوان مثل الحديد
والجبال ، فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون مماثلاً لخلقه ، إذا أثبتوا له

ما أثبت له الكتاب والسنة؟! والله تعالى قد نفى المماثلات في بعض المخلوقات وكلاهما جسم كقوله ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (١) مع أن كلاهما بشر ، فكيف يجوز أن يقال : إذا كان لرب السموات علم وقدرة أنه يكون مماثلاً لخلقه؟! والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

ونكتة الأمر أن الجسم في اعتقاد هذا النافي يستلزم مماثلة سائر الأجسام ، ويستلزم أن يكون مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة ، وأكثر العقلاء يخالفونه في هذا التلازم وهذا التلازم متنف باتفاق الفريقين . وهو المطلوب فإذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفي عن الله شرعاً وعقلاً بقي بحثهم في الجسم الاصطلاحي ، هل هو مستلزم لهذا المحذور؟ وهو بحث عقلي كبحث الناس في الأعراض هل تبقى أو لا تبقى؟

وهذا البحث العقلي لم يرتبط به دين المسلمين ، بل لم ينطق كتاب ولا سنة ، ولا أثر من السلف بلفظ الجسم في حق الله تعالى لا نفياً ولا اثباتاً ، فليس لأحد أن يتدع اسماً مجملاً يحتمل معاني مختلفة ، لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين ، ولو كان قد نطق باللغة العربية فكيف إذا أحدث للفظ معنى آخر .

والمعنى الذي يقصده إذا كان حقاً عبر عنه بالعبرة التي لا لبس فيها ، فإذا كان معتقده أن الأجسام متماثلة وأن الله ليس كمثله شيء ، وهو سبحانه لا سمي له ولا كفوله ، ولا ند له ، فهذه عبارات القرآن تؤدي هذا المعنى بلا تلبس إن نزاع ، وإن كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة ، وأن كل ما يرى وتقوم به الصفات فهو جسم ، فإن عليه أن يثبت ما أثبتته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته . كقوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (٢)

(١) سورة محمد آية رقم ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ ^(١) وقوله عليه السلام في حديث الاستخارة « اللهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك » ^(٢) .

وقوله في الحديث الآخر « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق » ^(٣) .

ويقول كما قال رسول الله ﷺ « إنكم ترون ربكم يوم القيامة عياناً كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤيته » ^(٤) .

فشبه الرؤية بالرؤية ، وإن لم يكن المرئي كالمرائي فهذه عبارات الكتاب والسنة عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة أقوال الصحابة ، ثم بعد هذا من كان قد تبين له معنى من جهة العقل إنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم الحق حق ، لكن ذلك المعنى لا بد أن يدل الشرع عليه فيبينه بالألفاظ الشرعية ، وإن قدر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده ، وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس إليه ، وإن قدر أنه في نفسه حق .

« ومسألة » تماثل الأجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام ، وكثير منهم يقول بهذا تارة ، وبهذا تارة .
وأكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة وقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

لكن المقصود هنا : أنه لو قدر أن الإنسان تبين له أن الأجسام ليست متمائلة ، ولا مركبة لا من هذا ، ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع في دين الإسلام قوله : إن الله جسم ، وينظر على المعنى الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة ، بل يكفيه إثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية ، ولو قدر أنه

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٨ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

تبين له أن الأجسام متماثلة ، وأن الجسم مركب ، لم يكن له أن يبتدع النفي بهذا الاسم ، وينظر على معناه الذي اعتقده بعقله ، بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن إظهاره بعبارة لا إجمال فيها ولا تلبيس والذين يقولون : إن الجسم مركب من الجواهر يدعي كثير منهم أنه كذلك في لغة العرب ؛ لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا ، يريدون به أنه أكثر أجزاء منه ، ويقولون : هذا جسيم أي كثير الأجزاء .

قال : والتفضيل بصيغة أفعل إنما يكون لما يدل عليه الاسم فإذا قيل : هذا أعلم وأحلم ، كان ذلك دالاً على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم ، فلما قالوا أجسم ، لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب ، فمن قال : جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب .

قالوا : وهذه تخلیطة في اللفظ ، وإن كنا لا نكفره إذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف وقد نازعهم بعضهم في قولهم : هذا أجسم من هذا وقالوا : ليس هذا اللفظ من لغة العرب كما يحكى عن أبي زيد فيقال له : لا ريب أن العرب تقول : هذا جسيم ، أي عظيم الجثة ، وهذا أجسم من هذا أي : أعظم جثة ، لكن كون العرب تعتقد أن ذلك لكثرة الأجزاء التي هي الجواهر الفردة ، إنما يكون إذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة والجواهر الفرد هو شيء قد بلغ من الصغر والحقارة إلى أنه لا يتميز يمينه من يساره .

ومعلوم أن أكثر العقلاء من بني آدم لا يتصور الجوهر الفرد ، والذين يتصورونه أكثرهم لا يثبتونه والذين أثبتوه إنما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة ، فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع في اللغة التي ينطق بها خواصها وعوامها أرادوا به هذا وقد علم بالاضطرار أن أحداً من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم ينطق بإثبات الجوهر الفرد ولا بما يدل على ثبوته عنده ، بل ولا العرب قبلهم ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة ، ولا اتباع الرسل ، فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا

لفظ جسم إلا لما كان مركباً مؤلفاً؟!

ولو قلت لمن شئت من العرب : الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزي ، أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى إلا بعد كلفة ثم إذا تصوره قد يكذبه بفطرته ، ويقول : كيف يمكن أن يكون الشيء لا يتميز منه جانب عن جانب ؟!

وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد ، فالفقهاء قاطبة تنكره وكذلك أهل الحديث والتصوف .

ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الأجسام الى بعض كاستحالة العذرة رماداً ، والخنزير ملحاً ثم تكلموا في هذه الاستحالة هل تطهر أم لا تطهر والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم بل تلك الجواهر التي كانت في الأول هي بعينها في الثاني ، وإنما اختلف التركيب ، ولهذا يتكلم بلفظ التركيب في الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين ، ويقول : إن الماء يفارق غيره في التركيب فقط .

وكذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم أنا لم نشاهد قط إحداث الله تعالى لشيء من الجواهر والأعيان القائمة بنفسها .

وأن جميع ما يخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب ، وغير ذلك إنما هو جمع الجواهر وتفريقها ، وتغيير صفاتها من حال إلى حال ، لا أنه يبدع شيئاً من الجواهر والأجسام القائمة بأنفسها ، وهذا القول أكثر العقلاء ينكره ويقول : هو مخالف للحس والعقل والشرع فضلاً عن أن يكون الجسم في لغة العرب مستلزماً لهذا المعنى .

ثم الجسم قد يراد به الغلط نفسه ، وهو عرض قائم بغيره ، وقد يراد به الشيء الغليظ ، وهو القائم بنفسه .

فنقول : هذا إثوب له جسم ، أي غلط ، وقوله : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ﴾

الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴿١﴾ قد يحتج به على هذا ، فإنه قرن الجسم بالعلم الذي هو مصدر .

فنقول : المعنى ﴿ زاده بسطة ﴾ في قدره ، فجعل قدر بدنه أكبر من بدن غيره ، فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر .

وكذلك قوله تعالى ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (٢) أي : صورهم القائمة بأبدانهم كما تقول : أعجبنى حسنه وجماله ولونه وبهاؤه ، فقد يراد صفة الأبدان ، وقد يراد نفس الأبدان وهم إذا قالوا : هذا أجسم من هذا أرادوا أنه أغلظ وأعظم منه ، أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر بال أهل اللغة إلا من أخذ ذلك عن معتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث في الإسلام بعد انقراض عصر الصحابة ، وأكثر التابعين ، فإن هذا لم يعرف في الإسلام من تكلم له ، أو بمعناه إلا في أواخر الدولة الأموية ، لما ظهر جهم بن صفوان (٣) والجعد بن درهم (٤) ، ثم ظهر في المعتزلة .

فقد تبين أن من قال : الجسم هو المؤلف المركب واعتقد أن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقلياً ينازعه فيه أكثر العقلاء من بني آدم .

ولم ينقل عن أحد من السلف أنه وافقه عليه ، وأنه جعل لفظ الجسم في اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ في اللغة ، فقد غير معنى اللفظ في اللغة ، وادعى معنى عقلياً فيه نزاع طويل ، وليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي ، فاللغة لا تدل على ما قال والشرع لا يدل على ما قال ، والعقل لم يدل على مسميات الألفاظ وإنما يدل

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٤٧ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سورة المنافقون آية رقم ٤ .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

على المعنى المجرد ، وذلك فيه نزاع طويل ، ونحن نعلم بالاضطرار أن ذلك المعنى الذي وجب نفيه عن الله لا يحتاج نفيه إلى ما أحدثه هذا من دلالة اللفظ ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي بل الذين جعلوا هذا عمدتهم في تنزيه الرب على نفي مسمى الجسم لا يمكن أن ينزهوه عن شيء من النقائص البتة .

فإنهم إذا قالوا : بهذا من صفات الأجسام فكل ما أثبتوه هو أيضاً من صفات الأجسام ، مثل كونه حياً عالياً قديراً بل كونه موجوداً قائماً بنفسه ، فإنهم لا يعرفون هذا في الشاهد إلا جسماً .

فإذا قال المنازع : أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا .

ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم ، هل علم بالإجماع فقط ، أو علم بالعقل أيضاً ؟

فيه قولان :

فمن قال : إن ذلك لم يعلم بالعقل كأبي المعالي والرازي وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلي ينزهون به الرب عن كثير من النقائص هذا إذا لم ينف إلا ما يجب نفيه عن الله ، مثل نفيه للنقائص ، فإنه يجب تنزيه الرب عنها ، وينفي عنه مماثلة المخلوقات ، فإنه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له .

وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله ، ﴿ قل هو الله أحد ﴾ دلت على النوعين .

فقوله ﴿ أحد ﴾ مع قوله ﴿ لم يكن له كفوا أحد ﴾ ينفي المماثلة والمشاركة .

وقوله ﴿ الصمد ﴾ يتضمن جميع صفات الكمال ، فالنقائص جنسها منفي عن الله تعالى .

وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها ،
بخلاف ما يوصف به الرب .

ويوصف العبد بما يليق به : مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك ، فإن
هذه ليست نقائص ، بل ما ثبت لله من هذه المعاني فإنه يثبت لله على وجه لا
يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلاً عن أن يماثله فيه ، بل ما خلقه الله في
الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم
وكلاهما مخلوق .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .
فقد أخبر الله أن في الجنة لبناً وخبثاً وعسلأ وماء وحريرأ وذهبأ وفضة ،
وتلك الحقائق ليست مثل هذه وكلاهما مخلوق ، فالخالق تعالى أبعد عن مماثلة
المخلوقات من المخلوق إلى المخلوق .

وقد سمي الله نفسه عليأ ، حليأ ، رؤوفاً ، رحيمأ ، سميعأ ، بصيرأ ،
عزيزأ ، ملكأ ، جبارأ ، متكبرأ ، مؤمناً ، عظيماً ، كريماً ، غنياً ، شكوراً ،
كبيرأ حفيظأ ، شهيدأ ، حقأ ، وكيلأ ، وليأ .

وسمي أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء ، فسمى الإنسان سميعأ
بصيرأ ، وسمى نبيه رؤوفاً رحيمأ وسمى بعض عباده ملكأ ، وبعضهم شكوراً ،
وبعضهم عظيماً ، وبعضهم حليأ وعليأ .

وسائر ما ذكر من الأسماء ، مع العلم بأنه ليس المسمى بهذه الأسماء من
المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء . وكذلك النزاع في لفظ
التحيز والجهة ونحو ذلك ، فمن الناس من يقول : هو متحيز ، وهو في جهة ،
ومنهم من يقول : ليس بمتحيز ، وليس في جهة ، ومنهم من يقول : هو في جهة
وليس بمتحيز . ولفظ المتحيز يتناول الجسم ، والجوهر الفرد .

ولفظ الجوهر قد يراد به المتحيز ، وقد يراد به الجوهر الفرد .

ومن الفلاسفة من يدعي إثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة ومتأخروا أهل الكلام كالشهرستاني^(١) والرازي والآمدي^(٢) ونحوهم يقولون : ليس في العقل ما يحيل ذلك .

ولهذا كان من سلك سبيل هؤلاء - وهو إنما يثبت حدوث العالم بحدوث الأجسام - يقول بتقدير وجود جواهر عقلية ، فليس في هذا الدليل ما يدل على حدوثها ، ولهذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة إلى قدم الجواهر العقلية ، وحدث الأجسام ، وأن السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس ، وبعض أعيان المصنفين كان يقول بهذا . وكذلك الأرموي صاحب « اللباب » الذي أجاب عن شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة أنه لا بد للحدوث من سبب ، فأجاب بالجواب الباهر الذي أخذه من كلام الرازي في « المطالب العالية » فإنه أجاب به ، وهو في « المثالب العالية » يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين ، وهو في مسألة الحدوث والقدم حائر ، وهذا الجواب من أفسد الأجوبة فإنه يقال : ما الموجب لحدوث تلك التصورات دائماً ثم إن النفس عندهم لا بد أن تكون متصلة بالجسم فيمتنع وجود نفس بدون جسم .

وأيضاً فالذي علم بالاضطرار من دين الرسل أن كل ما سوى الله مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن . وأيضاً : فما تثبتته الفلاسفة من الجواهر العقلية إنما يوجد في الذهن لا في الخارج ، وأما أكثر المتكلمين فقالوا : انتفاء هذه معلوم

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني من فلاسفة الاسلام ، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة ولد في شهرستان عام ٤٧٩ هـ من كتبه الملل والنحل ، ونهاية الأقدام في علم الكلام توفي عام ٥٤٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ وتاريخ حكماء الاسلام ١٤١ وآداب اللغة ٣ : ٩٩ ولسان الميزان ٥ : ٢٦٣] .

(٢) هو علي بن محمد بن سالم التغلبي أبو الحسن ، سيف الدين الآمدي ، أصولي باحث ، أصله من آمد « ديار بكر » ولد بها عام ٥٥١ ، حسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه الى فساد العقيدة ، والتعطيل ومذهب الفلاسفة ، توفي عام ٦٣١ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٣٢٩ والسبكي ٥ : ١٢٩ وميزان الاعتدال ١ : ٤٣٩ وفيه كان يترك الصلاة ، ونفي من دمشق لسوء اعتقاده] .

بضرورة العقل وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبين أن ما تدعي الفلاسفة إثباته من الجواهر العقلية التي هي العقل والنفس والمادة والصورة فلا حقيقة لها في الخارج ، وإنما هي أمور معقولة في الذهن يجردها العقل من الأمور المعينة ، كما يجرد العقل الكليات المشتركة بين الأصناف : كالحوانية الكلية والإنسانية الكلية ، والكليات إنما تكون كليات في الأذهان لا في الأعيان .

ومن هؤلاء من يظن أنها تكون في الخارج كليات وأن في الخارج ماهيات كلية مقارنة للأعيان غير الموجودات المعينة ، وكذلك منهم من يثبت كليات مجردة عن الأعيان يسمونها « المثل الأفلاطونية » ومنهم من يثبت دهرأ مجرداً عن المتحرك والحركة ، ويثبت خلاء مجرداً ليس هو متحيزاً ولا قائماً بمتحيز . ويثبت هيولى مجردة عن جميع الصور ، والهيولى في لغتهم بمعنى المحل .

يقال : الفضة هيولى الخاتم ، والدرهم والخشب هيولى الكرسي .

أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة ، وهذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض ، ويدعون أن للجسم هيولى محل الصورة الجسمية غير نفس الجسم القائم بنفسه ، وهذا غلط ، وإنما هذا يقدر في النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد ، وعدد مجرد عن كل معدود ، ومقدار مجرد عن كل مقدر وهذه كلها أمور مقدرة في الأذهان ، لا وجود لها في الأعيان ، وقد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر .

كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

فالجواهر العقلية التي يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها في الخارج وأما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لا يعرفها هؤلاء الفلاسفة أتباع أرسطو^(١) ، ولا يذكرونها بنفي ولا إثبات ، كما لا يعرفون النبوات ، ولا يتكلمون عليها بنفي ولا إثبات ، إنما تكلم في ذلك

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

متأخروهم كابن سينا^(١) وأمثاله ، الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات وبين الفلسفة ، فلبسوا ودلسوا .

وكذلك « العلة الأولى » التي يشتونها لهذا العالم إنما أثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها وتحريكها للفلك من جنس تحريك الإمام المقتدى به للمؤتم المقتدي ، إذا كان يجب أن يتشبه بإمامه ويقتدي بإمامه ، ولفظ « الإله » في لغتهم يراد به المتبوع الإمام الذي يتشبه به ، فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالإله ، ولهذا جعلوا « الفلسفة العليا » و« الحكمة الأولى » إنما هي التشبه بالإله على قدر الطاقة ، وكلام أرسطو^(٢) في علم ما بعد الطبيعة في « مقالة اللام » التي هي منتهى فلسفته وفي غيرها كله يدور على هذا ، وتارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعاشق لكن التحريك هنا قد يكون لمحبة العاشق ذات المعشوق ، أو لغرض يناله منه ، وحركة الفلك عندهم ليست كذلك ، بل يتحرك ليتشبه بالعلة الأولى ، فهو يحبها أي يجب التشبه بها ، لا يجب أن يعبدها ، ولا يجب شيئاً يحصل منها ، ويشبه ذلك أرسطو بحركة النواميس لاتباعها ، أي اتباع الناموس قائمون بما في الناموس ، ويقتدون به . والناموس عندهم هي السياسة الكلية للمدائن التي وضعها لهم ذوو الرأي والعقل ، لمصلحة دنياهم لئلا يتظالموا ، ولا تفسد دنياهم .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو أرسطو بن نيقوماخس الفيشاغوري ، تتلمذ على أفلاطون وتصدر بعده ، وكان أفلاطون يقدمه على جميع تلاميذه ويؤثره بالرعاية ، وإلى أرسطو انتهت فلسفة اليونانيين ، فكان هو خاتمة حكاهم ، وسيد علمائهم ، وهو الذي خلص صناعة البرهان من سائر صناعات المنطق وصورها بالأشكال وجعلها آلة العلوم النظرية ، وله في جميع فروع الفلسفة كتب قيمة ، وكان هو معلم الاسكندر بن فيلبس المقدوني ، وله رسائل بعثها إليه ، ولم يعن فلاسفة الاسلام بشيء من الفلسفة اليونانية بقدر عنايتهم بفلسفة أرسطو ، وله كتاب في الحيوان تسع عشرة مقالة ، وقد نقله ابن البطريق إلى العربية ، ونقل من قبل إلى السريانية . (انظر تاريخ الحكماء ٢٧ - ٥٣ ، وفهرس ابن النديم ٣٥٩) .

ومن عرف النبوات منهم يظن أن شرائع الأنبياء من جنس نواميسهم ،
وأن المقصود بها مصلحة الدنيا بوضع قانون عدلي .

ولهذا أوجب ابن سينا وأمثاله النبوة ، وجعلوا النبوة لا بد منها لأجل
وضع هذا الناموس .

ولما كانت الحكمة العملية عندهم هي الخلقية والمنزلية
والمدنية ، جعلوا ما جاءت به الرسل من العبادات والشرائع والأحكام هي من
جنس الحكمة الخلقية والمنزلية والمدنية ، فإن القوم لا يعرفون الله ، بل هم
أبعد عن معرفته من كفار اليهود والنصارى بكثير وأرسطو المعلم الأول من أجهل
الناس برب العالمين إلى الغاية ، لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية وهذا بحر
علمهم ، وله تفرغوا ، وفيه ضيعوا زمانهم ، وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها
منجوس جدا وأما ملائكته وأنبيأؤه وكتبه ورسله والمعاد فلا يعرفون ذلك البتة ،
ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا إثبات ، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في
الملل .

وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركاً وسحراً ،
يعبدون الكواكب والأصنام ، ولهذا عظمت عنايتهم بعلم الهيئة والكواكب
لأجل عبادتها .

وكانوا يبنون لها الهياكل ، وكان آخر ملوكهم « بطليموس » صاحب
المجسطي .

ولما دخلت الروم في النصرانية فجاء دين المسيح صلوات الله عليه وسلامه
أبطل ما كانوا عليه من الشرك . ولهذا بدل من بدل دين المسيح فوضع ديناً
مركباً من دين الموحدين ودين المشركين ، فإن أولئك كانوا يعبدون الشمس
والقمر والكواكب ، ويصلون لها ويسجدون ، فجاء قسطنطين ملك النصارى
ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة إلى المشرق ، وجعلوا السجود إلى الشمس بدلاً عن
السجود لها ، وكان أولئك يعبدون الأصنام المجسدة التي لها ظل ، فجاءت

النصارى وصورت تماثيل القداديس في الكنائس ، وجعلوا الصور المرقومة في الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بأنفسها التي لها ظل .

وأرسطو كان وزير الاسكندر بن فيلبس المقدوني - نسبة إلى مقدونية - وهي جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الذين يسمون المشائين ، وهي اليوم خراب ، أو غمرها الماء ، وهو الذي يؤرخ له النصارى واليهود التاريخ الرومي وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ، فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة أنه كان وزيراً لذي القرنين المذكور في القرآن ، ليعظم بذلك قدره ، وهذا جهل . فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جداً . وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج ، وهذا المقدوني ذهب إلى بلاد فارس ، ولم يصل إلى بلاد الصين فضلاً عن السد .

والملائكة التي أخبر الله ورسوله بها لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ليسوا عشرة ولا تسعة ، وهم عباد الله أحياء ناطقون ، ينزلون إلى الأرض ، ويصعدون إلى السماء ، ولا يفعلون إلا بإذن ربهم كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ^(٢) .

وأمثال هذه النصوص .

وهؤلاء يدعون أن العقول قديمة أزلية ، وأن العقل الفعال هو رب كل

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٦ .

ما تحت هذا الفلك . والعقل الأول هو رب السموات والأرض وما بينهما والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بني عبيد كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وغيرهم ، وملاحدة الصوفية مثل ابن عربي ^(١) ، وابن سبعين ^(٢) ، وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع « أول ما خلق الله العقل » وفي كلام أبي حامد الغزالي ^(٣) في « الكتب المضمون بها على غير أهلها » وغير ذلك من معاني هؤلاء قطعة كبيرة .

ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ، ومراده بذلك الجسم والنفس والعقل فيأخذ هؤلاء العبارات الاسلامية ويودعونها معاني هؤلاء ، وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فإذا سمعوها قبلوها ، ثم إذا عرفوا المعاني التي قصدوها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الإسلام .

وأن هذه معاني هؤلاء الملاحدة ليست هي المعاني التي عناها محمد ﷺ - وإخوانه المرسلون مثل موسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس وعدم المعرفة بحقيقة ما جاء به الرسول ، وما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم ، والعبادة ، والتصوف ، ومن ليس له غرض في مخالفة محمد ﷺ ، بل يحب اتباعه مطلقاً ، ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله ، لكن لعدم كمال علمه بمعاني ما أخبر به الرسول ومقاصد هؤلاء ، يقبل هذا ، لا سيما إذا كان المتكلم به ممن له نصيب وافر في العلم والكلام والتصوف والزهد والفقه والعبادة .

ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين إنما يعرفون الشرع الظاهر ، وفوق مرتبة المحدث الذي غايته أن ينقل ألفاظاً لا يعلم معانيها ، وكذلك المقرئ والمفسر ، ورأى من يعظمه من أهل الكلام إما موافق لهم ، وإما

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

خائف منهم ، ورأى بحوث المتكلمين معهم في مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق
يبين فساد قولهم ، بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة ، وتارة
يخالفونهم في أمر قالته الفلاسفة ويكون حقاً ، مثل من يرى كثيراً من المتكلمين
يخالفهم في أمور طبيعية ورياضية ظاناً أنه ينصر الشرع ، ويكون الشرع موافقاً لما
علم بالعقل مثل استدارة الأفلاك ، فإنه لم يعلم بين السلف خلاف في أنها
مستديرة والآثار بذلك معروفة . والكتاب والسنة قد دلا على ذلك ، وكذلك
استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ، هو مما اتفق عليه الفقهاء ، كما قال
هؤلاء ، إلى أمور آخر .

لكن كثيراً من المتكلمين أو أكثرهم لا خبرة لهم بما دل عليه الكتاب
والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، بل ينصر مقالات يظنها دين
المسلمين ، بل إجماع المسلمين ، ولا يكون قد قالها أحد من السلف ، بل
الثابت عن السلف مخالف لها .

فلما وقع بين المتكلمين تقصير وجهل كثير بحقائق العلوم الشرعية ، وهم
في العقلية تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم ، وتارة يخالفونهم في حقهم ،
صارت المناظرات بينهم دولاً . وإن كان المتكلمون أصح مطلقاً في العقلية
الالهية والكلية ، كما أنهم أقرب إلى الشرعيات من الفلاسفة ، فإن الفلاسفة
كلامهم في الالهيات والكلية العقلية كلام قاصر جداً وفيه تخليط كثير ، وإنما
يتكلمون جيداً في الأمور الحسية الطبيعية ، وفي كلياتها ، فكلامهم فيها في
الغالب جيد .

وأما الغيب الذي تخبر به الأنبياء والكلية العقلية التي تعم الموجودات
كلها ، وتقسيم الموجودات كلها قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة ، فإن هذا لا
يكون إلا ممن أحاط بأنواع الموجودات وهم لا يعرفون إلا الحسيات ، وبعض
لوازمها وهذا معرفة بقليل من الموجودات جدا ، فإن ما لا يشهده الآدميون من
الموجودات أعظم قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير .

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار ، وهم يظنون أن لا موجود إلا ما علموه هم والفلاسفة : يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه ، وإن كان هذا لا دليل عليه ، وليس لهم بهذا النفي علم ، فإن عدم العلم ليس علماً بالعدم لكن نفياً لهذا كنفى الطبيب للجن ، لأنه ليس في صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن ، وإلا فليس في علم الطب ما ينفي وجود الجن ، وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافياً لما لم يعلمه ، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به .

قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١).

وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحسن والعقل ، فإذا أثبتوا شيئاً وصدقوا به كان حقاً ولهذا كان التواتر مقبولاً من جميع أجناس بني آدم ، لأنهم يجربون عما شاهدوه وسمعوه وهذا أمر لا يشترك الخلق العظيم في الغلط فيه ولا من تعمد الكذب فيه ، فإذا علم أنهم لم يتواطؤا عليه ، ولم يأخذ به بعضهم عن بعض ، كما تؤخذ المذاهب والآراء التي يتلقاها المتأخر عن المتقدم ، وقد علم أن هذا مما لا يغلط فيه عادة علم قطعاً صدقهم فإن المخبر إما أن يتعمد الكذب ، وإما أن يغلط وكلاهما مأمون في التواترات ، بخلاف ما نفوه وكذبوا به ، فإن غالبهم أو كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه .

فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة ، إذا سمعوا ما أخبرت به الأنبياء من العرش والكرسي قالوا : العرش هو الفلك التاسع ، والكرسي هو الثامن ، وقد تكلمنا على ذلك في مسألة الإحاطة ، وبيننا جهل من قال هذا عقلاً وشرعاً ، وإذا سمعهم يذكرون الملأكة ظن أنهم العقول والنفوس التي يثبتها المتفلسفة ، والقوى التي في الأجسام ، وكذلك الجن والشياطين يظن

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

أنها أعراض قائمة بالنفوس^٢، حيث كان هذا مبلغه من العلم وكذلك يظن ما ذكره ابن سينا وأمثاله من أن الغرائب في هذا العالم سببها قوة فلكية ، أو طبيعية أو نفسانية ويجعل معجزات الأنبياء من باب القوى النفسانية ، وهي من جنس السحر ، لكن الساحر قصده الشر ، والنبي قصده الخير ، وهذا كله من الجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات وأنواعها ، ومن الجهل بما جاء به الرسول ، فلا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الالهية إلا ما يعرفه الفلاسفة المتقدمون ، وزيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام ، أو عن أهل الملة نل هذا صار كلام المتأخرين كابن سينا وأمثاله في الالهيات والكيليات أجود من كلام سلفه ، ولهذا قربت فلسفة اليونان إلى أهل الإلحاد المتدعة من أهل الملل ، لما فيها من شوب الملة ، ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة ، فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفوس ، وعن المجوس النور والظلمة ، وسموهم السابق والتالي وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتأله كابن سبعين وأمثاله سلكوا مسلكاً جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة ، وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة .

وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء في غير هذا الموضع .

وإنما ذكروا هنا لأن أهل الكلام المحدث صاروا - لعدم علمهم بما علمه السلف وأئمة السنة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ، ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة - يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة في الإسلام أموراً باطلة ، ويحصل بهم من الضلال والغي ما لا يتسع هذا الموضع لذكره .

ولما أحدثت الجهمية محتتهم ، ودعوا الناس إليها وضرب أحمد بن حنبل في سنة عشرين ومائتين ، كان مبدأ حدوث القرامطة^(١) الملاحدة الباطنية من

(١) القرامطة : دعوة اسماعيلية منطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ م في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حمدان قرمط ، وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب ، والأبناط والزنج المستعبدين وانتهى الأمر بهؤلاء أن جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف .

ذلك الزمان فصارت البدع باب الإلحاد ، كما أن المعاصي بريد الكفر ولبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا : الكلام على لفظ التحيز والجهة ، وهؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع من الملائكة ، هل هي متحيزة أم لا ؟

فمن مال إلى الفلسفة ورأى أن الملائكة هي العقول والنفوس التي يشتهيها الفلاسفة ، وأن تلك ليست متحيزة ، لا سيما وطائفة من الفلاسفة لم تجعل عددها عشرة عقول وتسعة نفوس ، كما هو المشهور عن المشائين ، بل قل : لا دليل على نفي الزيادة ، ورأى النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة ، فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية ، كما فعل ذلك أبو البركات صاحب « المعبر » والرازي في « المطالب العالية » وغيرهما .

وأما المتكلمون فإنهم يقولون : إن كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو : إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز وكثير منهم يقول : كل موجود إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز ، ويقولون : لا يعقل موجود إلا كذلك كما قاله طوائف من أهل الكلام والنظر .

ثم المتفلسفة كابن سينا وأتباعه والشهرستاني والرازي وغيرهم لما أرادوا إثبات موجود ليس كذلك كان أكبر عمدتهم إثبات الكليات كالإنسانية المشتركة والحيوانية المشتركة ، وإذا كانت هذه لا تكون كليات إلا في الذهن ، فلم ينازعهم الناس في ذلك ، وإنما نازعواهم في إثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه لا يمكن الإحساس به بحال بل لا يكون معقولاً .

وقالوا لهم : المعقول ما كان في العقل ، وأما ما كان موجوداً قائماً بنفسه فلا بد أن يمكن الإحساس به وإن لم نحس نحن به في الدنيا ، كما لا نحس بالجن والملائكة وغير ذلك ، فلا بد أن يحس به غيرنا كالملائكة والجن ، وأن يحس به بعد الموت ، أو في الدار الآخرة ، أو يحس به بعض الناس دون بعض

في الدنيا كالأنبياء الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامهم .

وهذه الطريقة - وهو أن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته - هي التي سلكها أئمة النظر ، كابن كلاب وغيره ، وسلكها ابن الزاغوني^(١) وغيره .

وأما من قال : إن كل موجود يجوز رؤيته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس ، كما يقوله الأشعري وموافقه كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي وغيرهما فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء ، بل يقولون : فسادها معلوم بالضرورة ، بعد التصور التام ، كما بسط في موضعه .

وكذلك نزاعهم في روح الإنسان التي تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها ، ولا جزءاً من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه ، فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن ، أو جزء من أجزاء البدن ، لكن هذا مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والخلف ، ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم ، ومخالف للأدلة العقلية .

وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض ، وبهذا نقول : إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال : الروح الكائن في الجسد ضربان أحدهما : الحياة القائمة به ، والآخر النفس والنفس ربح ينبث به .

والمراد بالنفس ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام ، وهذا قول الاسفراييني وغيره .

(١) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة ، من أهل بغداد ، قال ابن رجب كان متفتناً في علوم شتى من الأصول والفروع ، والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله « من كتبه تاريخ علي السنين » والخلاف الكبير ، والمفردات كلها في الفقه ، وغير ذلك توفي عام ٥٢٧ هـ . [راجع الذيل على طبقات الحنابلة ١ : ٢١٦ واللباب ١ : ٤٨٩ وشذرات الذهب ٤ : ٨] .

وقال ابن فورك^(١) : هو ما يجري في تجاوزيف الأعضاء وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابهة للأجسام المحسوسة ، أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابهتها لها ، فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة .

ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة : أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن ، وتنعم وتعذب ، ليست هي البدن ولا جزءاً من أجزائه ، كالنفس المذكور .

ولما كان الإمام أحمد ممن نص على ذلك ، كما نص عليه غيره من الأئمة لم يختلف أصحابه في ذلك لكن طائفة منهم كالقاضي أبي يعلى زعموا أنها جسم وأنها الهواء المتردد في مخاريق البدن ، موافقة لأحد المعنيين الذين ذكرهما ابن الباقلاني^(٢) .

وهذه الأقوال لما كانت من أضعف الأقوال تسلط بها عليهم خلق كثير .

والمقصود هنا أن الذين قالوا : إنها عين قائمة بنفسها غير البدن وأجزائه وأعراضه تنازعوا : هل هي جسم متحيز ؟ على قولين كتنازعهم في الملائكة .

فالمتكلمون منهم يقولون : جسم ، والمتفلسفة يقولون : جوهر عقلي ليس بجسم ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن ما تسميه المتفلسفة جواهر عقلية لا توجد إلا في الذهن ، وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات هو مأخوذ من نفس الإنسان فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت ، وتتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر ، قاض من كبار علماء الكلام ولد عام ٣٣٨ - وتوفي عام ٤٠٣ هـ سبق الترجمة له ، وراجع : [وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ - ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩] .

أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها مفارقات ومجردات ، بناء على ذلك ، وهم يريدون بالمفارق للمادة ما لا يكون جسماً ولا قائماً بجسم ، لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير والعقل ، ولا تعلق له بالأجسام أصلاً ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التي تفارق ، والجمهور يسمون ذلك روحاً ، وهذا جسماً ، لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصطلاح المتكلمين بل الجسم هو الجسد كما تقدم ، وهو الجسم الغليظ أو غلظه ، والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً ، فمن جعل الملائكة والأرواح ونحو ذلك ليست أجساماً بالمعنى اللغوي فقد أصاب في ذلك ، ورب العالمين أولى أن لا يكون جسماً ، فإنه من المشهور في اللغة الفرق بين الأرواح والأجسام وأما أهل الاصطلاح من المتكلمين والمتفلسفة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك ، وهو ما أمكنت الإشارة الحسية إليه ، وما قيل إنه هنا وهناك ، وما قبل الأبعاد الثلاثة ، ونحو ذلك .

وكذلك المتحيز في الاصطلاح عند هؤلاء هو الجسم ، ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته ، وقد تقدم معنى الجسم في اللغة ، وأما المتحيز فقد قال تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ ذُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وقال الجوهري : الحوز الجمع ، وكل من ضم إلى نفسه شيئاً فقد حازه حوزاً ، وحيازة ، واحتازه أيضاً والحوز والحيز السوق اللين .

وقد حاز الإبل يحوزها ويحيزها ، وحوز الإبل ساقها إلى الماء .

وقال الأصمعي : إذا كانت الإبل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة توجهها إلى الماء ليلة الحوز ، وتحوزت الحية وتحيزت تلوت .

(١) سورة الأنفال آية رقم ١٦ .

يقال : مالك تتحوز تحوز الحية ، وتتحيز تحيز الحية قال سيويه (١) : هو
تفعل من حزت الشيء . قال القطامي (٢) :

تحيز مني خشية أن أضيفها كما انحازت الأفعى مخافة ضارب
يقول : تتنحي عني هذه العجوز ، وتتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفاً .

والحيز ما انضم إلى الدار من مرافقها ، وكل ناحية حيز وأصله من
الواو ، والحيز تخفيف الحيز مثل هين وهين ولين ولين ، والجمع أحياز ، والحوزة
الناحية وانحاز عنه انعدل ، وانحاز القوم تركوا مركزهم إلى آخر ، يقال
للأولياء : انحازوا عن العدو ، وحاصوا والأعداء انهزموا وولوا مدبرين ،
وتحاوز الفريقان في الحرب ، انحاز كل فريق عن الآخر .

فهذا المذكور عن أهل اللغة في هذا اللفظ ومادته يقتضي أن التحيز
والانحياز والتحوز ونحو ذلك يتضمن عدولاً من محل إلى محل . وهذا أخص من
كونه يحوزه أمر موجود ، فهم يراعون في معنى الحوز ذهابه من جهة إلى جهة ،
ولهذا يقولون : حزت المال وحزت الإبل ، وذلك يتضمن نقله من جهة إلى جهة
فالشيء المستقر في موضعه كالجبل والشمس والقمر لا يسمونه متحيزاً .

وأعم من هذا أن يراد بالمتحيز ما يحيط به حيز موجود فيسمى كل ما
أحاط به غيره أنه متحيز ، وعلى هذا فما بين السماء والأرض متحيز ، بل ما في
العالم متحيز إلا سطح العالم الذي لا يحيط به شيء ، فإن ذلك ليس بمتحيز ،

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو بشر الملقب سيويه ولد عام ١٤٨ وتوفي عام
١٨٠ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٣٨٥ والبداية والنهاية ١٠ : ١٧٦ وطبقات النحويين ٦٦ -

[٧٤] .

(٢) هو عمير بن شبيب بن عمرو بن عباد من بني جشم بن بكر أبو سعيد التغلبي ، الملقب
بالقطامي : شاعر غزل فحل كان من نصارى تغلب في العراق وأسلم - وجعله ابن سلام في
الطبقة الثانية من المسلمين . وقال الأخطل أبعد منه ذكراً ، وأمتن شعراً توفي عام ١٣٠ هـ
[راجع الشعر والشعراء ٢٧٧ ومعاهد التنصيص ١ : ١٨٠ وطبقات الشعراء ١٢١] .

وكذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهذا الاعتبار فإنه ليس في عالم آخر أحاط به ،
والتكلمون يريدون بالمتحيز ما هو أعم من هذا .

والحيز عندهم أعم من المكان ، فالعالم كله في حيز وليس هو في مكان ،
والمتحيز عندهم لا يعتبر فيه أنه يحوزه غيره ، ولا يكون له حيز وجودي ، بل
كل ما أشير إليه وإمتاز منه شيء عن شيء ، فهو متحيز عندهم . ثم هم مختلفون
بعد هذا في المتحيز ، هل هو مركب من الجواهر المنفردة ؟؟ أو من المادة
والصورة ؟ أو هو غير مركب لا من هذا ، ولا من هذا ؟ كما تقدم نزاعهم في
الجسم .

فالجسم عندهم متحيز ، ولا يخرج عنه شيء إلا الجوهر الفرد عند من
أثبتته ، وهؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب أي يقبل
الانقسام إلى جزء لا يتجزأ بل يظن بعضهم أن هذا إجماع المسلمين ، وأكثرهم
يقولون : المتحيزات متماثلة في الحد والحقيقة ، ومن كان معنى المتحيز عنده هذا
فعليه أن ينزه الله تعالى أن يكون متحيزاً بهذا الاعتبار ، أو الروح متحيزة بهذا
الاعتبار نازعه في ذلك جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم بل لا يعرف أحد من
سلف الأمة وأئمتها يقول : إن الملائكة متحيزة بهذا الاعتبار ، ولا قالوا لفظاً
يدل على هذا المعنى ، فإذا كان إثبات هذا التحيز للملائكة والروح بدعة في
الشرع وباطلاً في العقل فلأن يكون ذلك بدعة وباطلاً في رب العالمين بطريق
الأولى والأخرى .

ومن هنا يتبين أن عامة ما يقوله المتفلسفة وهؤلاء المتكلمة في نفوس بني
آدم وفي الملائكة باطل ، فكيف بما يقولونه في رب العالمين ولهذا توجد الكتب
المصنفة التي يذكر فيها مقالات هؤلاء وهؤلاء في هذه المسائل الكبار في رب
العالمين ، وفي ملائكته ، وفي أرواح بني آدم ، وفي المعاد وفي النبوات ، ليس
فيها قول يطابق العقل والشرع ولا يعرفون ما قاله السلف والأئمة في هذا الباب
ولا ما دل عليه الكتاب والسنة .

فلهذا يغلب على فضلائهم الحيرة ، فإنهم إذا أمعنوا النظر لم يصلوا إلى علم ، لأن ما نظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبيين . ولهذا قال أبو عبد الله الرازي في آخر عمره : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فيما رأيتها تشفي علياً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ^(١) ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ^(٢) . واقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ^(٣) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ ^(٤)

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وأما من اعتقد أن المتحيز هو ما باين غيره فانحاز عنه ، وليس من شرطه أن يكون مركباً من الأجزاء المنفردة ، ولا أنه يقبل التفريق والتقسيم فإذا قال : إن الرب متحيز بهذا المعنى ، أي أنه بائن عن مخلوقاته فقد أراد معنى صحيحاً ، لكن إطلاق هذه العبارة بدعة ، وفيها تلبيس ، فإن هذا الذي أراده ليس معنى المتحيز في اللغة ، وهو اصطلاح له ولطائفته ، وفي المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء فصار يحتمل معنى فاسداً يجب تنزيه الرب عنه وليس للإنسان أن يطلق لفظاً يدل عند غيره على معنى فاسد ، ويفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفاسد من غير بيان مراده ، بل هؤلاء المتكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ما كان مؤلفاً من أجزاء لا تقبل القسمة ، وهو ما كان قابلاً للقسمة إذا قالوا إن كل ممكن أو كل محدث ، أو كل مخلوق فهو : إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم في هذا التقسيم ولم يكن أحد من أئمة المسلمين ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، ولا سائر أئمة المسلمين ، موافقاً لهم على هذا التقسيم ، فكيف إذا قال من قال منهم : كل موجود فهو إما متحيز وإما قائم بمتحيز ، وأراد بالمتحيز ما أراده هؤلاء فإن قوله حينئذ يكون أبعد عن

(٣) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٤) سورة طه آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة طه آية رقم ٥ .

الشرع والعقل من قول أولئك ، ولهذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هذا الحصر وليس خطأ هؤلاء من جهة ما أثبتته المتفلسفة من الجواهر العقلية ، فإن تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضاً . وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة من أنها لا يشار إليها ، ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليست داخل العالم ولا خارجه ، هو أيضاً كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء ولا سيما من يقول منهم - كابن سينا وأمثاله - أنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية ، وإنما تعرف الأمور الكلية ، فإن هذا مكابرة ظاهرة ، فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده ، وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها ، فكيف يقال : إنها لا تعرف الأمور المعينة ، وإنما تعرف أموراً كلية . وكذلك قولهم إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف ، كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام ، فإن الملك يدبر أمر مملكته فيأمر وينهى ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ان لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم ، والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بألمه ، وليس كذلك الروح والبدن ، بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به ، ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الأجسام المشهودة ، فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية فإن هذه إنما تلاقي السطح الداخلى من الأوعية لا بطونها ولا ظهورها ، وإنما يلاقي الأوعية منها أطرافها دون أوساطها ، وليس كذلك الروح والبدن ، بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره ، وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الأكل فإن ذلك له مجاز معروفة ، وهو مستحيل - إلى غير ذلك من صفاته - ولا جريانها في البدن كجريان الدم فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض .

ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر ، بخلاف الروح والبدن ، لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه ، وتخرج منه وقت الموت وتسل منه شيئاً فشيئاً فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً ، لا

تفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبرها والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً عسر عليهم التعبير عن حقيقتها وهذا تنبيه لهم على أن رب العالمين لم يعرفوا حقيقته ، ولا تصوروا كيفيته سبحانه وتعالى ، وأن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله .

فإن الروح التي هي بعض عبيده توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان ، وتسجد تحت العرش ، وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية ، والإنسان في نومه يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه ، فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان إلى مكان ، وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك .

فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله ﷺ بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة ، وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج ، وأنه كلم موسى في الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وأنه استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة ، حتى يقال ذلك يستلزم تفرغ مكان وشغل آخر ، فإن نزول الروح وصعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين ؟!

وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس فلا يجوز نفي ما أثبتته الله ورسوله من الأسماء والصفات ، ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات لا سيما ما لا نشاهده من المخلوقات فإن ما ثبت لما لا نشاهده من المخلوقات من الأسماء والصفات ليس ممثلاً لما نشاهده منها ، فكيف برب العالمين الذي هو أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق ؟!

وكل مخلوق فهو أشبه بالمخلوق الذي لا يماثله من الخالق بالمخلوق ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهذا الذي نبهنا عليه مما يظهر به أن ما يذكره صاحب « المحصل »

وأمثاله من تقسيم الموجودات على رأي المتفلسفة والمتكلمة كله تقسيم غير حاصر وكل من الفريقين مقصر عن سلفه .

أما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلك الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة . وكذلك هؤلاء المتفلسفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين ، فإن أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم ، وكانوا يقولون : إن فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبي ﷺ به الجنة ، وكانوا يثبتون معاد الأبدان ، كما يوجد هذا في كلام سقراط وطاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة ، وقد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم أرسطو^(١) .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

فصل

وهذه الألفاظ المحدثّة المجملّة النافية مثل لفظ « المركب » و« المؤلف » و« المنقسم » ونحو ذلك ، قد صار كل من أراد نفي شيء عما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات عبر بها عن مقصوده فيتوهم من لا يعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذي ورد به القرآن ، وهو إثبات أحديته وصمديته ويكون قد أدخل في تلك الألفاظ ما رآه هو منفيّاً وعبر عنه بتلك العبارة وضعاً له واصطلاحاً اصطلاح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب ، وليس ذلك من لغة العرب التي نزل بها القرآن ، ولا من لغة أحد من الأمم ، ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد والصمد والواحد ونحو ذلك من الأسماء الموجودة في الكتاب والسنة ويجعل ما نفاه من المعاني التي أثبتتها الله ورسوله من تمام التوحيد .

واسم « التوحيد » اسم معظم جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، فإذا جعل تلك المعاني التي نفاه من التوحيد ، ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول ﷺ أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل ، ويسمي طائفته الموحدين ، كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة . ومن وافقهم على نفي شيء من الصفات ، ويسمون ذلك توحيداً .

وطائفتهم الموحدين ، ويسمون علمهم التوحيد كما تسمي المعتزلة ومن وافقهم نفي القدر عدلاً . ويسمون أنفسهم العدلية ، وأهل العدل ، ومثل هذه البدع كثير جداً يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله

ورسوله بتلك الألفاظ ، ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله عز وجل ورسوله ﷺ ، بل عن شبه حصلت لهم ، وأئمة لهم ، وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم ، وعمدة لهم ، ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول ﷺ لا مخالفون له وكثير منهم لا يعرفون أن ما ذكره مخالف للرسول ﷺ بل يظن أن هذا المعنى الذي أراده هو المعنى الذي أراده الرسول ﷺ وأصحابه فلهذا يحتاج المسلمون إلى شيئين : أحدهما : معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة ، بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل ، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ ، فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه ، وقد بلغوا تلك المعاني إلى إتباعين أعظم مما بلغوا حروفه ، فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين مثل معنى التوحيد ، ومعنى الواحد ، والأحد ، والإيمان والإسلام ، ونحو ذلك . كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله ﷺ من معرفته ولا يحفظ القرآن كله إلا القليل منهم ، وإن كان كل شيء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر ، والقرآن مملوء من ذكر وصف الله بأنه أحد وواحد ، ومن ذكر أن الهكم واحد ، ومن ذكر أنه لا إله إلا الله ونحو ذلك .

فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك ، فإن معرفته أصل الدين وهو أول ما دعا الرسول ﷺ إليه الخلق وهو أول ما يقاتلهم عليه ، وهو أول ما أمر رسله أن يأمرؤا الناس به ، وقد تواتر عنه أنه أول ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلا الله ، ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » ^(١) وفي الصحيحين أنه لما بعث معاذاً

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ١٧، ٢٨ ، وفي الصلاة ٢٨ ، والزكاة ١ . والاعتصام ٢ ، ٢٨ ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٣٢ - ٣٦ وأبو داود في الجهاد ٩٥ ، والترمذي في التفسير سورة ٨٨ والامام النسائي في الزكاة ٣ ، وابن ماجه في الفتن ١ - ٣ والدارمي في السير ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٨ (حلي)

إلى اليمن قال له « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (١) فقال لمعاذ : ليكن أول ما تدعوهم إليه التوحيد ، ومع هذا كانوا من أهل الكتاب كانوا يهوداً ، فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن ، وهذا الذي أمر به معاذاً موافق لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ (٢) .

وفي الآية الأخرى ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ (٣) .

وهذا مطابق لقوله تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (٤) .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « الإيمان بضع وستون ، أو بضع

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزكاة ١ باب فرض الزكاة ١٧٨٣ - حدثنا علي بن محمد ، ثنا وكيع بن الجراح ، ثنا زكريا بن اسحاق المكي عن يحيى بن عبد الله بن صيفي عن أبي معبد ، مولى ابن عباس عن ابن عباس أن النبي - ﷺ - بعث معاذاً إلى اليمن فقال : وذكره ورواه البخاري في كتاب الزكاة ٤١ - ٦٣ والمغازي ٦٠ والتوحيد ١ ، ورواه الامام مسلم في الايمان ٢٩ ، ٣١ وأبو داود في الزكاة ٥ ، والترمذي في الزكاة ٦ والنسائي في الزكاة ٤٦ وابن ماجه في الزكاة (١) والدارمي في الزكاة ١ ، ٩ وأحمد بن حنبل ١ : ٢٣٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١١ .

(٤) سورة البينة آية رقم ٥ .

وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ،
والحياء شعبة من الإيمان^(١) فالمقصود أن معرفة ما جاء به الرسول وما أرادته
بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة ، ثم معرفة ما
قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها .
والألفاظ نوعان : نوع يوجد في كلام الله ورسوله ، ونوع لا يوجد في كلام الله
ورسوله ، فيعرف معنى الأول ويجعل ذلك المعنى هو الأصل ، ويعرف ما يعنيه
الناس بالثاني ، ويرد إلى الأول .

هذا طريق أهل الهدى والسنة ، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس ،
يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل ، ويجعلون ما قاله الله
ورسوله تبعاً لهم فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ، ويقولون : نحن
نفسر القرآن بالعقل واللغة ، يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ، ثم
يتأولون القرآن عليه مما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف
الكلم عن مواضعه ، ولهذا قال الإمام أحمد : أكثر ما يخطئ الناس من جهة
التأويل والقياس .

وقال : يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس . وهذه
الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار فهي طريق الجهمية والمعتزلة
ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة .

وأما حذاق الفلاسفة فيقولون : إن المراد بخطاب الرسول ﷺ إنما هو أن
يخيل إلى الجمهور ما ينتفعون به في مصالح دنياهم ، وإن لم يكن ذلك مطابقاً
للحق . قالوا : وليس مقصود الرسول ﷺ بيان الحق وتعريفه ، بل مقصوده أن
يخيل إليهم ما يعتقدونه ويجعلون خاصة النبوة قوة التخيل .

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في الإيمان ١٦ ، ٣ ، ومسلم في الإيمان ٥٧ ، ٥٩ ، وأبو داود في
السنة ١٤ ، والترمذي في البر ٥٦ ، ٨٠ وابن ماجه في المقدمة ٩ والموطأ في حسن الخلق ١٠ .

فهم يقولون : إن الرسول ﷺ لم يبين ولم يفهم ، بل ولم يقصد ذلك .

وهم متنازعون هل كان يعلم الأمور على ما هي عليه ؟ على قولين :

منهم من قال : كان يعلمها ، لكن ما كان يمكنه بيانها وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف . ومنهم من يقول : بل ما كان يعرفها ، أو ما كان حاذقاً في معرفتها ، وإنما كان يعرف الأمور العملية .

وهؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي ﷺ لأن الأمور العملية أكمل من العلمية ، فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول ﷺ إنما فيه التخيل ، وأولئك يقولون : لم يقصد به التخيل ، ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل . وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد ، فخطب الجمهور بما يخيل لهم ، كما يقولون : إنه لو قال : إن ربكم ليس بداخل العالم ولا خارجه ، ولا يشار إليه ولا هو فوق العالم ، ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه ، وقالوا : هذا لا يعرف ، قالوا فخطبهم بالتجسيم حتى ثبت لهم رباً يعبدونه وإن كان يعرف أن التجسيم باطل ، وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح ، واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول ﷺ من الإثبات كما يوجد في كلام غير واحد .

وتارة يقولون : إنما عدل الرسول ﷺ عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير تعريفه ويجتهدوا في تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك وهو اجتهداهم في عقلياتهم ، وتأويلاتهم .

ولا يقولون إنه قصد به إفهام العامة الباطل ، كما يقول أولئك المتفلسفة .

وهذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل^(١) وأمثاله ، وأبو حامد وابن رشد الحفيد وأمثالهما يوجد في

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

كلامهم المعنى الأول .

وأبو حامد إنما ذم التأويل في آخر عمره ، وصنف « الجام العوام عن علم الكلام » محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء الظواهر على ما هي عليه ، وإن كان هو يرى ما ذكره في كتبه « المصنون بها » أن النفي هو الثابت في نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدى ، كما وصف الله به كتابه ونبيه حيث قال : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) وقال ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ^(٢)

وقال ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٣)

وقال ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٤)

وقال ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ^(٥) .

وأمثال ذلك .

وقال النبي ﷺ « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » ^(٦) .

وقال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ ^(٧) .

وقال ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(٨) .

(٥) سورة ابراهيم آية رقم ١ .

(٦) سبق تخريج هذا الحديث .

(٧) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٨) سورة النور آية رقم ٥٤ ، وسورة العنكبوت آية رقم ١٨ . (٨) سورة المائدة آية رقم ١٥ - ١٦ .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢ .

وقال ﴿ مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ
مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وقال ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وثم طائفة ثالثة كثرت في المتأخرين المتتبعين إلى السنة يقولون ما يتضمن
أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف معاني ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات ،
بل لازم قولهم أيضاً أنه كان يتكلم بأحاديث الصفات ولا يعرف معانيها .

وهؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين
لهم بإحسان أن الوقف التام عند قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٣) وافقوا
السلف وأحسنوا في هذه الموافقة ، لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو معنى اللفظ
وتفسيره أو هو التأويل الاصطلاحي الذي يجري في كلام كثير من متأخري أهل
الفقه والأصول ، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح
لدليل يقترن به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء وهؤلاء ، فصار لفظ التأويل عندهم
هذا معناه .

ولما سمعوا قول الله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٤) ظنوا أن لفظ
التأويل في القرآن معناه هو معنى لفظ التأويل في كلام هؤلاء ، فلزم من ذلك
أنه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص إلا الله ، لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما بل
كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف ما في القرآن من الأخبار عن الله بأسمائه
وصفاته ، وهو لا يعرف معنى ذلك أصلاً ، ثم كثير منهم يذمون ويبطلون
تأويلات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهما ، وهذا جيد ، لكن قد
يقولون : تجري على ظواهرها وما يعلم تأويلها إلا الله ، فإن عنوا بظواهرها ما

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(١) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ .

يظهر منها من المعاني كان هذا مناقضاً لقولهم إن لها تأويلاً يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله ، وإن عنوا بظواهرها مجرد الألفاظ كان معنى كلامهم أنه يتكلم بهذه الألفاظ ولها باطن يخالف ما ظهر منها ، وهو التأويل ، وذلك لا يعلمه إلا الله وفيهم من يريد بإجرائها على ظواهرها هذا المعنى ، وفيهم من يريد الأول ، وعامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث وقد يريدون به الثاني ، فإنه أحياناً قد يفسر النص بما يوافق ظاهره ، وتبين من هذا أنه ليس من التأويل الثالث ، فيأبون ذلك ويكرهون تدبر النصوص والنظر في معانيها - أعني النصوص التي يقولون : إنه لم يعلم تأويلها إلا الله .

ثم هم في هذه النصوص بحسب عقائدهم ، فإن كانوا من القدرية قالوا : النصوص المثبتة لكون العبد فاعلاً محكمة ، والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريداً لكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، إذا كانوا ممن لا يتأولها ، فإن عامة الطوائف منهم من يتأول ما يخالف قوله ، ومنهم من لا يتأوله ، وإن كانوا من الصفاتية المثبتين للصفات التي زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخري الكلائية كأبي المعالي في آخر عمره ، وابن عقيل في كثير من كلامه .

قالوا : من النصوص المتضمنة للصفات التي لا نعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، وكثير منهم يكون له قولان وحالان : تارة يتأول ويوجب التأويل ، أو يجوزه .

وتارة يحرمه ، كما يوجد لأبي المعالي ولابن عقيل ولأمثالهما من اختلاف

الأقوال .

ومن أثبت العلو بالعقل ، وجعله من الصفات العقلية كأبي محمد بن كلاب ، وأبي الحسن بن الزاغوني ومن وافقه ، وكالقاضي أبي يعلى في آخر قوله وأبي محمد ، أثبتوا العلو ، وجعلوا الاستواء من الصفات الخبرية التي يقولون لا يعلم معناها إلا الله ، وإن كانوا ممن يرى أن الفوقية والعلو أيضاً من الصفات الخبرية كقول القاضي أبي بكر وأكثر الأشعرية وقول القاضي أبي يعلى في أول

قوله ، وابن عقيل في كثير من كلامه ، وأبي بكر البيهقي ^(١) ، وأبي المعالي وغيرهم ، ومن سلك مسلك أولئك ، وهذه الأمور مبسوبة في موضعها . « والمقصود هنا » أن كل طائفة تعتقد من الآراء ما يناقض ما دل عليه القرآن ، يجعلون تلك النصوص من التشابه ثم إن كانوا ممن يرى الوقف عند قوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ قالوا : لا يعلم معناها إلا الله ، فيلزم أن لا يكون محمد وجبريل ، ولا أحد علم معاني تلك الآيات والأخبار ، وأن رأوا أن الوقف على قوله ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ^(٢) .

جعلوا الراسخين يعلمون ما يسمونه هم تأويلاً ويقولون : إن الرسول ﷺ إنما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس في معرفة الحق من غير جهته بعقولهم وأذهانهم ، ويجتهدون في تحريج ألفاظه على اللغات العربية ، فيجتهدون في معرفة غرائب اللغات التي يتمكنون بها من التأويل ، وهذا إن قالوا : إنه قصد بالقرآن والحديث معنى حقاً في نفس الأمر ، وإن قالوا بقول الفلاسفة والباطنية الذين لا يرون التأويل .

قالوا : لم يقصد بهذه الألفاظ إلا ما يفهمه العامة والجمهور ، وهو باطل في نفس الأمر ، لكن أراد أن يخيل لهم ما ينتفعون به ولم يمكنه أن يعرفهم الحق فإنهم كانوا ينفرون عنه ولا يقبلونه .

وأما من قال من الباطنية الملاحدة وفلاسفتهم بالتأويل فإنه يتأول كل شيء مما أخبر به الرسل من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم يؤولون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية .

وأبو حامد في « الإحياء » ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة وقال : إنهم أسرفوا في التأويل ، وأسرفت الحنابلة في الجمود وذكر عن أحمد بن حنبل

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

كلاماً لم يقله أحد ، فإنه لم يكن يعرف ما قاله أحد ، ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث .

وقد سمع مضافاً إلى الحنابلة ما يقوله طائفة منهم ومن غيرهم من المالكية والشافعية ، وغيرهم في الحرف والصوت .

وبعض الصفات مثل قولهم : إن الأصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية ، وإن الحروف المتعاقبة قديمة الأعيان وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، ويخلو منه العرش ، حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه ، وبعضها تحته ، إلى غير ذلك من المنكرات ، فإنه ما من طائفة إلا وفي بعضهم من يقول أقوالاً ظاهرها الفساد ، وهي التي يحفظها من ينفر عنهم ، ويشنع بها عليهم ، وإن كان أكثرهم ينكرها ويدفعها ، كما في هذه المسائل المنكرة التي يقولها بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعي فإن جماهير هذه الطوائف ينكرها ، وأحد وجهور أصحابه منكرون لها .

وكلامهم في إنكارها وردّها كثير جداً ، لكن يوجد في أهل الحديث مطلقاً من الحنبلية وغيرهم من الغلط في الإثبات أكثر مما يوجد في أهل الكلام ، ويوجد في أهل الكلام من الغلط في النفي أكثر مما يوجد في أهل الحديث ، لأن الحديث إنما جاء بإثبات الصفات ليس فيه شيء من النفي الذي انفرد به أهل الكلام .

والكلام المأخوذ عن الجهمية والمعتزلة مبني على النفي المناقض لصرائح القرآن والحديث بل والعقل الصريح أيضاً ، لكنهم يدعون أن العقل دل على النفي ، وقد ناقضهم طوائف من أهل الكلام ، وزادوا في الإثبات كالهشامية^(١) والكرامية^(٢) وغيرهم ، لكن النفي في جنس الكلام المبتدع الذي ذمه السلف أكثر .

(١) سبق الحديث عنها في كلمة وافية .

(٢) سبق الحديث عنها في كلمة وافية .

والمنتسبون إلى السنة من الحنابلة وغيرهم ، الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسمين ، يتمسكون بما يجدونه في كلام الأئمة المتشابه مثل قول أحمد في رواية حنبل ولا كيف ولا معنى ظنوا أن مراده : أنا لا نعرف معناها .

وكلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع ، وقد بين أنه إنما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله ، وصنف كتابه في « الرد على الزنادقة والجهمية »^(١) فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله ورسوله ، وهم إذا تأولوه يقولون : معنى هذه الآية كذا ، والمكيفون يثبتون كيفية يقولون : إنهم علموا كيفية ما أخبر به من صفات الرب ، فنفى أحمد قول هؤلاء ، وقول هؤلاء ، قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية ، وقول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون : معناه كذا وكذا .

وقد كتبت كلام أحمد بالفاظه - كما ذكره الخلال^(٢) في كتاب السنة وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك - في غير هذا الموضع ، وبين أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل في لغة القرآن ، كقوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾^(٣) .

وعن ابن عباس في قوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ تصديق ما وعد في القرآن .

وعن قتادة : تأويله ثوابه .

(١) قمنا بتحقيق هذا الكتاب وقامت بطبعه ونشره دار اللواء بالرياض .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

وعن مجاهد : جزاؤه .

وعن السدي : عاقبته .

وعن ابن زيد : حقيقته .

قال بعضهم : تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار .

وقوله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ ^(١) قال بعضهم : تصديق ما وعدوا به من الوعيد ، والتأويل ما يؤول إليه الأمر ، وعن الضحاك يعني عاقبة ما وعد الله في القرآن أنه كائن من الوعيد .

والتأويل : ما يؤول إليه الأمر .

وقال الثعلبي : تفسيره ، وليس بشيء .

وقال الزجاج : لم يكن معهم علم تأويله .

وقال يوسف الصديق عليه السلام ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٢) .

فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه .

وقال قبل هذا : ﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ ^(٣) .

أي قبل أن يأتیکما التأويل .

والمعنى : لا يأتیکما طعام ترزقانه في المنام لما قال أحدهما : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا ﴾ ^(٤) .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٦ .

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

﴿إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في اليقظة ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ الطعام . هذا قول أكثر المفسرين ، وهو الصواب وقال بعضهم : لا يأتِيَكُمَا طعام ترزقانه تطعمانه ، وتأكلانه ﴿إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتفسيره وألوانه ، أي طعام أكلتم وكم أكلتم ، ومتى أكلتم ؟

فقالوا : هذا فعل العرافين والكهنة ، فقال : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك العلم مما يعلمني ربي ، وهذا القول ليس بشيء فإنه قال ﴿إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ ^(١) وقد قال أحدهما ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَهْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا بِتَأْوِيلِهِ﴾ ^(٢) .

فطلبنا منه تأويل ما رآياه ، وأخبرهما بتأويل ذلك ، ولم يكن تأويل الطعام في اليقظة ، ولا في القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه في اليقظة فكيف يقول قولاً عاماً .

﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامُ تَرْزُقَانِهِ﴾ وهذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله ، والأنبياء يخبرون ببعض ذلك ، لا يخبرون بكل هذا .
وأيضاً فصفة الطعام وقدره ليس تأويلاً له .

وأيضاً . فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا ، قال يعقوب عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ^(٣) .

وقال يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ^(٤) .

وقال ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ ^(٥)

(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠١ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٦ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٦ .

ولما رأى الملك الرؤيا قال له : ﴿ الذي ﴾ اذكر بعد أمة ﴿ أنا أُنبئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (١) .

والملك قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد وقال تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٣) .

قال مجاهد وقتادة : جزاء وثوابا .

وقال السدي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج : عاقبة .

وعن ابن زيد أيضاً : تصديقاً .

كقوله ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾

وكل هذه الأقوال صحيحة ، والمعنى واحد ، وهذا تفسير السلف أجمعين .

ومنه قوله ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٤) فلما ذكر له ما ذكر قال ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٥) .

وهذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله والمراد به عاقبة هذه الأقوال بما يؤول إليه ما فعلته : من مصلحة أهل السفينة ، ومصلحة أبوي الغلام ، ومصلحة أهل الجدار .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٧٨ .

(٥) سورة الكهف آية رقم ٨٢ .

(١) سورة يوسف آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٤٣ - ٤٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٥٩ .

وأما قول بعضهم : ردكم إلى الله والرسول أحسن من تأويلكم ، فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم .

وهذا من جنس ما ذكر في تلك الآية في لفظ التأويل ، وهو تفسير له بالاصطلاح الحادث ، لا بلغة القرآن ، فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء ، كما يقول ابن جرير^(١) : القول في تأويل هذه الآية . أي في تفسيرها .

ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد ، وهو إمام التفسير جعل الوقف على قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ فإن الراسخين في العلم يعلمون تفسيره ، وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة ، وكان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد واسحاق .

وقد بسط الكلام على ذلك في كتابه في « المشكل » وغيره وأما متأخروا المفسرين كالثعلبي فيفرون بين التفسير والتأويل .

قال : فمعنى التفسير هو التنوير ، وكشف المغلق من المراد بلفظه .

والتأويل : صرف الآية إلى معنى تحتمله يوافقه ما قبلها وما بعدها ، وتكلم في الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه ، إلا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر .

وأبو الفرج بن الجوزي يقول : اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد ؟

أم يختلفان ؟ .

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر : المؤرخ المفسر الامام ، ولد عام ٢٢٤ هـ واستوطن بغداد وتوفي بها عام ٣١٠ هـ وعرض عليه القضاء فامتنع . [راجع ارشاد الأريب ٦ : ٤٢٣ وتذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠] .

فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنها بمعنى . وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين .

وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما ، فقالوا التفسير إخراج الشيء عن مقام الخفاء إلى مقام التجلي ، والتأويل نقل الكلام عن وضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك آل الشيء إلى كذا . أي صار إليه . فهؤلاء لا يذكرون للتأويل إلا المعنى الأول . والثاني ، وأما التأويل في لغة القرآن فلا يذكرونه وقد عرف أن التأويل في القرآن هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام ، وإن كان ذلك موافقاً للمعنى الذي يظهر من اللفظ ، بل لا يعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفاً لما يدل عليه اللفظ خلاف اصطلاح المتأخرين . والكلام نوعان : إنشاء وإخبار ، فالإنشاء الأمر والنهي والإباحة ، وتأويل الأمر والنهي نفس فعل المأمور ، ونفس ترك المحذور كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي بتأويل القرآن» (١) .

فكان هذا الكلام تأويل قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ (٢) .

قال ابن عيينة (٣) : السنة تأويل الأمر والنهي وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة في نهي النبي ﷺ عن اشتمال الصماء قال : والفقهاء أعلم بالتأويل .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة النصر آية رقم ٣ .

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي من الموالى ، ولد بالكوفة ، وسكن مكة ، وتوفي بها عام ١٩٨ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ والرسالة المستطرفة ٣١ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٣٧٠ والشعراني ١ : ٤٠ وتاريخ بغداد ٩ : ١٤٧] .

يقول : هو أعلم بتأويل ما أمر الله به ، وما نهى عنه فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها ، وأعيان الأفعال المحظورة التي نهى عنها .
وتفسير كلامه ليس هو نفس ما يوجد في الخارج بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه .

فالتفسير من جنس الكلام ، يفسر الكلام بكلام يوضحه .
وأما التأويل فهو فعل المأمور به ، وترك المنهى عنه ليس هو من جنس الكلام .

والنوع الثاني : الخبر ، كإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه وصفاته وإخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد ، وهذا هو التأويل المذكور في قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ (١) .

وهذا كقولهم ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢) .

ومثله قوله ﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ (٣) وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ : هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ (٤) .

ونظائره متعددة في القرآن .

وكذلك قوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

(٢) سورة يس آية رقم ٥٢ .

(٣) سورة المرسلات آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة الملك آية رقم ٢٥ - ٢٧ .

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴿١﴾ .

فإن ما وعدوا به في القرآن لما يأتهم بعد ، وسوف يأتيهم . فالتفسير هو الإحاطة بعلمه ، والتأويل هو نفس ما وعدوا به إذا أتاهم ، فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله . وقد يحيط الناس بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، فالرسول ﷺ يحيط بعلم ما أنزل الله عليه ، وإن كان تأويله لم يأت بعد .

وفي الحديث عن النبي ﷺ لما نزل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ (٢) الآية ، قال : إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعد ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ * لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ .

قال بعضهم : موضع قرار وحقيقة ومتهى ينتهي إليه فيبين حقه من باطله وصدقه من كذبه .

وقال مقاتل : لكل خبر يخبر به الله وقت ومكان يقع فيه من غير حلف ولا تأخير .

وقال ابن السائب (٤) : لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه ، وما كان منه في الآخرة فسوف يبدو لكم ، وسوف تعملون .

(١) سورة يونس آية رقم ٣٨ - ٣٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦٦ .

(٤) هو هشام بن محمد أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي أبو المنذر مؤرخ عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها . كثير التصانيف من أهل الكوفة توفي عام ٢٠٤ هـ له نيف ومئة وخمسون كتاباً منها جهرة الأنساب ، والأصنام ، وبيوتات قريش وغير ذلك [راجع ابن النديم ١ : ٩٥ وابن خلدون ٢ : ٢٦٢ ووفيات الأعيان ٢ : ١٩٥ - ١٩٦ وتاريخ بغداد ١٤ - ٤٥] .

وقال الحسن : لكل عمل جزاء ، فمن عمل عملاً من الخير جوزي به في الجنة ، ومن عمل عمل سوء جوزي به في النار ، وسوف تعلمون .

ومعنى قول الحسن : أن الأعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد فالوعد والوعيد عليها هو النبأ الذي له المستقر ، فبين المعنى ، ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ وعن السدي قال : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أي ميعاد وعدتكموه ، فسيأتىكم حتى تعرفونه .

وعن عطاء : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه ، فإذا عمل ذنبه عاقبه ، أي لا يعاقب بالوعد حتى يفعل الذنب الذي توعدده عليه .

ومنه قول كثير من السلف في آيات : هذه ذهب تأويلها وهذه لم يأت تأويلها .

مثل ما روى أبو الأشهب عن الحسن ، والربيع عن أبي العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) الآية فقال ابن مسعود : ليس هذا بزمانها ، قولوها ما قبلت منكم ، فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال : إن القرآن نزل حيث نزل ، فمنه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن .

ومنه أي وقع تأويلهن على عهد النبي ﷺ ومنه أي وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير .

ومنه أي يقع تأويلهن بعد اليوم .

ومنه أي يقع تأويلهن في آخر الزمان .

ومنه أي يقع تأويلهن يوم القيامة ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار .

فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضكم

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠٥ .

بأس بعض ، فأمرُوا وانْهوا فإذا اختلفت القلوب والأهواء ، وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض ، فأمرؤ ونفسه ، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

فابن مسعود رضي الله عنه قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر ، وتأويل الخبر ، فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر ، وما ذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر ، وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به ، وتأويل الأمر هو فعل المأمور به ، فالآية التي مضى تأويلها قبل نزولها هي من باب الخبر : يقع الشيء فيذكره الله ، كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له ، وهي وإن مضى تأويلها فهي عبرة ، ومعناها ثابت في نظيرها .

ومن هذا قول ابن مسعود : خمس قد مضين . ومنه قوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (١) وإذا تبين ذلك ، فالمتشابه من الأمر لا بد من معرفة تأويله ؛ لأنه لا بد من فعل المأمور ، وترك المحذور وذلك لا يمكن إلا بعد العلم ، لكن ليس في القرآن ما يقتضي أن في الأمر متشابهاً ، فإن قوله : ﴿ وَأَخْرَجْنَا مُتَشَابِهَاتٍ ﴾ (٢) قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به في الجنة من اللحم واللبن والعسل والماء والحريز والذهب ، فإن بين هذا وبين ما في الدنيا تشابه في اللفظ والمعنى ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا ، وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٤) فهذا الذي وعد الله

(١) سورة القمر آية رقم ١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٣) سورة السجدة آية رقم ١٧ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٣٥ باب قول الله تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ٨٤٩٨ حدثنا معاذ بن أسد أخبرنا عبد الله ، أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - وذكره . ورواه أيضاً في بدء الخلق ٨ ، والتفسير سورة

به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله ، وأشراطها .

وكذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب ، لا يعلم كيفيته إلا الله ، فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به ، فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك ، فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله ، كما قال ربعة بن أبي عبد الرحمن ، ومالك بن أنس .

وسائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنها بالقبول لما قيل ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (١)

كيف استوى ؟

فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

هذا لفظ مالك ، فأخبر أن الاستواء معلوم ، وهذا تفسير اللفظ ، وأخبر أن الكيف مجهول ، وهذا هو الكيفية التي استأثر الله بعلمها .

وكذلك سائر السلف كابن الماجشون (٢) ، وأحمد بن حنبل وغيرهما يبينون

٣٢، ٢، ٥٦-١ وابن ماجه في الزهد ٣٩ ، والدارمي في الرقاق ٩٨-١٠٥ وأحمد بن حنبل في

المسند ٢: ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ (حلي) ٧

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمي بالولاء ، أبو مروان بن الماجشون : فقيه مالكي فصيح ، دارت عليه الفتيا في زمانه وعلى أبيه قبله ، كان مولعاً بسماع الغناء في اقامته وارتجاله توفي عام ٢١٢ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ٢ : ١٥٠ والانتقاء ٥٧ وابن خلكان ١ :

[٢٨٧] .

أن العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه ، فالكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله . وأما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فإنهم يفهمون معنى السمع ، ومعنى البصر ، وأن مفهوم هذا ليس هو مفهوم هذا ، ويعرفون الفرق بينهما ، وبين العليم والقدير ، وإن كانوا لا يعرفون كيفية سمعه وبصره ، بل الروح التي فيهم يعرفونها من حيث الجملة ، ولا يعرفون كيفيتها ، كذلك يعلمون معنى الاستواء على العرش وأنه يتضمن علو الرب على عرشه وارتفاعه عليه ، كما فسره بذلك السلف قبلهم ، وهذا معنى معروف من اللفظ لا يحتمل في اللغة غيره . كما قد بسط في موضعه . ولهذا قال مالك : الاستواء معلوم . ومن قال : الاستواء له معان متعددة فقد أجهل كلامه فإنهم يقولون : استوى فقط ، ولا يصلونه بحرف وهذا له معنى .

ويقولون : استوى على كذا وله معنى .

واستوى إلى كذا ، وله معنى .

واستوى مع كذا وله معنى .

فتنوع معانيه بحسب صلاته .

وأما استوى على كذا فليس في القرآن ولغة العرب المعروفة إلا بمعنى واحد .

قال تعالى ﴿ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ ^(١) وقال ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ ﴾ ^(٢)

وقال ﴿ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٤ وقد جاءت الآية محرفة في الأصل حيث قال (استوى) بدلاً من (استوت)

(٣) سورة الزخرف آية رقم ١٣ .

وقال ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ ﴾ ^(١) وقد أتى النبي ﷺ بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الغرز قال « بسم الله » فلما استوى على ظهرها قال « الحمد لله » .

وقال ابن عمر : أهل رسول الله ﷺ بالحج لما استوى على بعيره .
وهذا المعنى يتضمن شيئين :

علوه على ما استوى عليه ، واعتداله أيضاً .

فلا يسمون المائل على الشيء مستوياً عليه .

ومنه حديث الخليل بن أحمد لما قال : استووا . وقوله :

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق هو من هذا الباب ، فإن المراد به بشر بن مروان ^(٢) . واستواؤه عليها ، أي على كرسي ملكها ، لم يرد بذلك مجرد الاستيلاء ، بل استواء منه عليها . إذ لو كان كذلك لكان عبد الملك الذي هو الخليفة قد استوى أيضاً على العراق ، وعلى سائر مملكة الإسلام . ولكان عمر بن الخطاب قد استوى على العراق وخراسان والشام ومصر ، وسائر ما فتحه .

ولكان رسول الله ﷺ قد استوى على اليمن وغيرها مما فتحه .

ومعلوم أنه لم يوجد في كلامهم استعمال الاستواء في شيء من هذا ، وإنما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد ، فإنه مستو على سرير ملكه ، كما يقال : جلس فلان على السرير ، وقعد على التخت .

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٢٨ .

(٢) هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي أمير ، كان سمحاً جواداً ولي إمرة العراقين (البصرة والكوفة) لأخيه عبد الملك سنة ٧٤ هـ وهو أول أمير مات بالبصرة عام ٧٥ هـ . [راجع خزانة البغدادى ٤ : ١١٧ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٤٨ والمعارف لابن قتيبة ١٢١] .

ومنه قوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ﴾ (١) وقوله ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

وقول الزمخشري وغيره : استوى على كذا بمعنى ملك . دعوى مجردة ، فليس لها شاهد في كلام العرب ، ولو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلاً في استواء الله على العرش لأنه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد أخبر أن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه ، فكيف يكون الاستواء عليه مؤخراً عن خلق السموات والأرض ؟!

وأيضاً فهو مالك لكل شيء مستول عليه ، فلا يخص العرش بالاستواء ، وليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) فإنه قد يخض لعظمته ، ولكن يجوز ذلك في سائر المخلوقات فيقال : رب العرش ، ورب كل شيء ، وأما الاستواء فمختص بالعرش ، فلا يقال استوى على العرش وعلى كل شيء ، ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين في كل شيء ، ولا يوجد في كتاب ولا سنة كما استعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة ، وفي كل شيء عامة ، وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الألفاظ التي تخص ، وتعم .

كقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٤) .

فالاستواء من الألفاظ المختصة بالعرش ، لا تضاف إلى غيره ، لا خصوصاً ولا عموماً .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٢٩ .

(٤) سورة العلق آية رقم ١ - ٢ .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٢٣ .

وهذا مبسوط في موضع آخر .

وإنما الغرض بيان صواب كلام السلف في قولهم : الاستواء معلوم ، بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى ، كما ذكر ذلك ابن عربي المعافري يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ، ومناظرتهم للنبي ﷺ في أمر المسيح كما ذكر ذلك أهل التفسير ، وأهل السيرة ، وهو من المشهور ، بل من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبي ﷺ ودعاهم إلى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران ، فأقروا بالجزية ولم يباهلوه وصدر آل عمران نزل بسبب ما جرى ، ولهذا عامتها في أمر المسيح وذكروا أنهم احتجوا بما في القرآن من لفظ « أنا » و« نحن » ونحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه ، وتركوا المحكم الذي في القرآن من أن الاله واحد .

﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ (١) .

فإنهم قصدوا بذلك الفتنة ، وهي فتنة القلوب بالكفر ، وابتغاء تأويل لفظ « أنا » و« نحن » « وما يعلم تأويل » هذه الأسماء « إلا الله » لأن هذه الأسماء إنما تقال للواحد الذي له أعوان إما أن يكونوا شركاء له ، وإما أن يكونوا مماليك له . ولهذا صارت متشابهة ، فإن الذي معه شركاء يقول : فعلنا نحن كذا ، وإننا نفعل نحن كذا ، وهذا ممتنع في حق الله تعالى ، والذي له مماليك ومطيعون يطيعونه - كالملك - يقول : فعلنا كذا ، أي أنا فعلت بأهل ملكي وملكلي ، وكل ما سوى الله مخلوق له مملوك له ، وهو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه وملائكته التي هي رسله في خلقه وأمره ، وهو سبحانه أحق من قال : إنا ونحن بهذا الاعتبار ، فإن ما سواه ليس له ملك تام .

ولا أمر مطاع طاعة تامة ، فهو المستحق أن يقول : أنا و« نحن » والملك

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

لهم شبه بهذا ، فصار فيه أيضاً من التشابه معنى آخر ، ولكن الذي ينسب لله من هذا الاختصاص لا يماثله فيه شيء ، وتأويل ذلك معرفة ملائكته وصفاتهم وأقدارهم ، وكيف يدبر بهم أمر السماء والأرض .

وقد قال تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ^(١) فهذا التأويل لهذا التشابه لا يعلمه إلا هو ، وإن علمنا تفسيره ومعناه ، لكن لم نعلم تأويله الواقع في الخارج ، بخلاف قوله ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ^(٢) فإنها آية محكمة ليس فيها تشابه ، فإن هذا الاسم مختص بالله ، ليس مثل « إنا ، ونحن » التي تقال لمن له شركاء ، ولن له أعوان يحتاج اليهم والله تعالى منزّه عن هذا وهذا ، كما قال : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ^(٣) وقال ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ ^(٤) .

فالمعنى الذي يراد به هذا في حق المخلوقين لا يجوز أن يكون نظيره ثابتاً لله ، فلهذا صار متشابهاً وكذلك قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(٥) فإنه قد قال ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ ^(٦)

وقال : ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ﴾ ^(٧) .

(١) سور المدثر آية رقم ٣١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ وتكملة الآية ﴿ السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

(٣) سورة سبأ آية رقم ٢٢ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ١١١ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٣ وسورة الأعراف آية رقم ٥٤ .

(٦) سورة هود آية رقم ٤٤ .

(٧) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

وقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ ﴾ (١) وقال :
﴿ لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ (٢)

فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوي إلى المستوى عليه ، وأنه لو عدم من تحته لخر ، والله تعالى غني عن العرش ، وعن كل شيء ، بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش ، وحمله العرش ، وقد روي : أنهم إنما أطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فصار لفظ الاستواء متشابهاً يلزمه في حق المخلوقين معاني ينزه الله عنها ، فنحن نعلم معناه ، وأنه العلو والاعتدال ، لكن لا نعلم الكيفية التي اختص بها الرب التي يكون بها مستوياً من غير افتقار منه إلى العرش بل مع حاجة العرش ، وكل شيء محتاج إليه من كل وجه ، وأنا لم نعهد في الموجودات ما يستوي على غيره مع غناه عنه ، وحاجة ذلك المستوى عليه إلى المستوي ، فصار متشابهاً من هذا الوجه ، فإن بين اللفظين والمعنيين قدراً مشتركاً ، وبينهما قدراً فارقاً هو مراد في كل منهما ، ونحن لا نعرف الفارق الذي امتاز الرب به ، فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه . وذلك هو تأويله ، والأول هو تفسيره .

وكذلك ما أخبر الله به في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس كاللبن والعسل والخمر والماء ، فإننا لا نعرف لبناً إلا مخلوقاً من ماشية يخرج من بين فرث ودم ، وإذا بقي أياماً يتغير طعمه .

ولا نعرف عسلاً إلا من نحل نصنعه في بيوت الشمع المسدسة ، فليس هو عسلاً مصفى ، ولا نعرف حريراً إلا من دود القز ، وهو يبل .

وقد علمنا أن ما وعد الله به عباده ليس مماثلاً لهذه ، لا في المادة ، ولا في الصورة والحقيقة ، بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه ، وذلك هو من التأويل

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ١٣ .

الذي لا نعلمه نحن .

قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

لكن يقال : فالملائكة قد تعلم هذا ؟ فيقال : هي لا تعلم ما لم يخلق بعد ، ولا تعلم كل ما في الجنة . وأيضاً فمن النعم ما لا تعرفه الملائكة .

والتأويل يتناول هذا كله ، وإذا قدرنا أنها تعرف ما لا نعرفه فذاك لا يكون من المتشابه عندها ، ويكون من المتشابه عندنا فإن المتشابه قد يراد به ما هو صفة لازمة للآية ، وقد يراد به ما هو من الأمور النسبية ، فقد يكون متشابهاً عند هذا ما لا يكون متشابهاً عند هذا .

وكلام الإمام أحمد وغيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فإن أحمد ذكر في رده على الجهمية : أنها احتجت بثلاث آيات من المتشابه قوله تعالى ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ^(٣)

وقد فسر أحمد قوله ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ فإذا كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهةً عندنا ، وهي متشابهة عند من احتج بها ، وكان عليه أن يردّها هو إلى ما يعرفه من المحكم .

وكذلك قال أحمد في ترجمة كتابه الذي صنّفه في الحبس وهو « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكّت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله ، ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية ، فبين أنها ليست متشابهة عنده ، بل قد عرف معناها .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٣ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذي هو تفسيره ، وأما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة في الخارج ، فتلك لا يعلمها إلا الله ، ولكن قد يقال : هذا المتشابه الإضافي ليس هو المتشابه المذكور في القرآن ، فإن ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله إلا الله وإنما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لا يفهمون معناها وغيرهم من الناس يعرف معناها ، وعلى هذا فقد يجاب بجوابين : أحدهما : أن يكون في الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله : ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وقراءة من يقف عند قوله ﴿والراسخون في العلم﴾ وكلتا القراءتين حق ، ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره ، وهو تأويله ، ومثل هذا يقع في القرآن كقوله ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلتَّزْوِلِ (١) مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ و﴿لَتَزُولَ﴾ فيه قراءتان مشهورتان بالنفي والإثبات وكل قراءة لها معنى صحيح .

وكذلك القراءة المشهورة ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (٢) .

وقرأ طائفة من السلف «لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» وكلا القراءتين حق ، فإن الذي يتعدى حدود الله هو الظالم وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه ، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب ، وعلى هذا قوله ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣) فأنجى الله الناهين عن السوء ، وأما أولئك الكارهون للذنوب الذين قالوا : ﴿لَمْ تَعْطُون قَوْمًا﴾ (٤) فالأكثر على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين ، فأنكروا بحسب قدرتهم .

(١) سورة إبراهيم آية رقم ٤٦ . (٣) سورة الأعراف آية رقم ١٦٥ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ . (٤) سورة الأعراف آية رقم ١٦٤ .

وأما من ترك الإنكار مطلقاً فهو ظالم يعذب « كما قال النبي ﷺ : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »^(١) .

وهذا الحديث موافق للآية .

والمقصود هنا أن يصح النفي والإثبات باعتبارين ، كما أن قوله ﴿ لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾^(٢)

أي لا تختص بالمعتدين ، بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره ومن قرأ « لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أدخل في ذلك من ترك الإنكار مع قدرته عليه ، وقد يراد بذلك أنهم يعذبون في الدنيا ، ويبعثون على نياتهم ، كالجيش الذين يغزون البيت فيخسف بهم كلهم ، ويحشر المكره على نيته .

والجواب الثاني : القطع بأن المتشابه المذكور في القرآن هو تشابهها في نفسها اللازم لها ، وذاك الذي لا يعلم تأويله إلا الله .

وأما الإضافي الموجود في كلام من أراد به التشابه الإضافي فمرادهم أنهم تكلموا فيما اشتبه معناه ، وأشكل معناه على بعض الناس ، وأن الجهمية استدلوا بما اشتبه عليهم ، وأشكل . وإن لم يكن هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله وكثيراً ما يشتبه على الرجل ما لا يشتبه على غيره .

ويحتمل كلام الإمام أحمد أنه لم يرد إلا المتشابه في نفسه الذي يلزمه التشابه ، لم يرد بشيء منه التشابه الإضافي وقال : تأولته على غير تأويله أي غير

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢٠ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠٠٥ - بسنده عن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإننا سمعنا رسول الله - ﷺ يقول : وذكره ورواه الإمام أحمد في المسند ١ : ٢ (حلي) .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .

تأويله الذي هو تأويله في نفس الأمر ، وإن كان ذلك التأويل لا يعلمه إلا الله ، وأهل العلم يعلمون أن المراد به ذلك التأويل فلا يبقى مشكلاً عندهم محتملاً لغيره ، ولهذا كان التشابه في الخبريات إما عن الله ، وإما عن الآخرة ، وتأويل هذا كله لا يعلمه إلا الله ، بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل ، كما للمتشابه تأويل ، كما قال ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ (١) .

ومع هذا فذلك التأويل لا يعلم وقته وكيفيته إلا الله وقد يقال : بل التأويل للمتشابه ، لأنه في الوعد والوعيد وكله متشابه ، وأيضاً فلا يلزم في كل آية ظنها بعض الناس متشابهاً أن تكون من المتشابه .

فقول أحمد : احتجوا بثلاث آيات من المتشابه ، وقوله ما شكت فيه من متشابه القرآن ، قد يقال : إن هؤلاء ، أو أن أحد جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه ، فإن قول الله تعالى ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (٢) .

لم يرد به هنا الإحكام العام ، والتشابه العام الذي يشترك فيه جميع آيات القرآن ، وهو المذكور في قوله : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِمْ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى نَادَىٰ ذُرِّيَّتَهُ عَلَىٰ الْأَعْصَىٰ قَالَ أَصْحَابُ الْأَعْصَىٰ نَحْنُ أَكْبَرُ الْفُلْكِ مِمَّا فُكِّمُوا مِنْهُ قَالُوا سِوَاهُ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذَا الْعَرْشِ الْمَكِينِ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِدُ بِمَا لَوَّحَ الْغَوْثِ الْأَعْصَىٰ قَالُوا إِنَّا بِمَا لَوَّحَ الْغَوْثِ الْأَعْصَىٰ كَاذِبُونَ قُلِ اللَّهُ يَخْتَلِفُ فِي مَا يَشَاءُ مِنْ شَيْءٍ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

وفي قوله ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (٤) .

فوصفه هنا كله بأنه متشابه ، أي متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضاً ، وهو عكس المتضاد المختلف المذكور في قوله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٥) .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٣) سورة هود آية رقم ١ .

وقوله ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾ (١).

فإن هذا التشابه يعم القرآن ، كما أن إحكام آياته تعمه كله .

وهنا قد قال : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (٢) .

فجعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً ، فصار التشابه له معنيان ، وله معنى ثالث وهو الإضافي ، يقال : قد اشتبه علينا هذا ، كقول بني اسرائيل : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ (٣) .

وإن كان في نفسه متميزاً منفصلاً بعضه عن بعض وهذا من باب اشتباه الحق بالباطل ، كقوله ﷺ في الحديث « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس » (٤) فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها ، فليست مشتبهة على جميع الناس ، بل على بعضهم ، بخلاف ما لا يعلم تأويله إلا الله ، فإن الناس كلهم مشتركون في عدم العلم بتأويله ومن هذا ما يروى عن المسيح - عليه السلام - أنه قال : الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه .

فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه ، ويبينوا الفرق بين المشتبهين ، وهذا هو الذي أراده من جعل الراسخين يعلمون التأويل فإنه جعل المشتبهات في القرآن من هذا الباب الذي يشتبه على بعض الناس دون بعض ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه ما يعرفه بعض الناس ، وهذا المعنى صحيح في نفسه لا ينكر ، ولا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون ما اشتبه على غيرهم .

وقد يكون هذا قراءة في الآية كما تقدم ، من أنه يكون فيها قراءتان ؛

(٣) سورة البقرة آية رقم ٧٠ .

(٤) سبق تحريج هذا الحديث .

(١) سورة الذاريات آية رقم ٨ - ٩ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير ووجه ذلك أنهم يعلمون تأويله من حيث الجملة ، كما يعلمون تأويل المحكم ، فيعرفون الحساب والميزان والصراط والثواب والعقاب وغير ذلك مما أخبر الله به ورسوله معرفة مجملة ، فيكونون عالمين بالتأويل ، وهو ما يقع في الخارج على هذا الوجه ، ولا يعلمونه مفصلاً ، إذ هم لا يعرفون كيفيته وحقيقته ، إذ ذلك ليس مثل الذي علموه في الدنيا وشاهدوه . وعلى هذا يصح أن يقال : علموا تأويله ، وهو معرفة تفسيره ، ويصح أن يقال : لم يعلموا تأويله ، وكلا القراءتين حق . وعلى قراءة النفي هل يقال أيضاً : إن المحكم له تأويل لا يعلمون تفصيله ، فإن قوله « وما يعلم تأويل ما تشابه منه » ﴿ إلا الله ﴾ لا يدل على أن غيره يعلم تأويل المحكم ، بل قد يقال : إن من المحكم أيضاً ما لا يعلم تأويله إلا الله ، وإنما خص التشابه بالذكر ، لأن أولئك طلبوا علم تأويله ، أو يقال : بل المحكم يعلمون تأويله لكن لا يعلمون وقت تأويله ومكانه وصفته .

وقد قال كثير من السلف : إن المحكم ما يعمل به ، والمتشابه ما يؤمن به ، ولا يعمل به ، كما يجيء في كثير من الآثار ، ونعمل بحكمه ، ونؤمن بمتشابهه ، وكما جاء عن ابن مسعود ، وغيره في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ ^(١) قال : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، وكلام السلف في ذلك يدل على أن التشابه أمر إضافي ، فقد يشته على هذا ما لا يشته على هذا .

فعلى كل أحد أن يعمل بما استبان له ، وبكل ما اشتبه عليه إلى الله ، كقول أبي بن كعب - رضي الله عنه - في الحديث الذي رواه الثوري عن مغيرة - وليس بشيء - عن أبي العالية قال : قيل لأبي بن كعب : أوصني فقال : اتخذ كتاب الله إماماً أرضى به قاضياً وحاكماً ، هو الذي استخلف فيكم رسوله شفيع مطاع ، وشاهد لا يتهم ، فيه خبر ما قبلكم وخبر ما بينكم ، وذكر ما قبلكم ،

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢١ .

وذكر ما فيكم .

وقال سفيان عن رجل سماه عن ابن أبزي عن أبي قال : فما استبان لك فاعمل به ، وما شبه عليك فآمن به ، وكله إلى عالمه .

فمنهم من قال : المتشابه هو المنسوخ ، ومنهم من جعله الخبريات مطلقاً .

فعن قتادة والربيع والضحاك والسدي : المحكم الناسخ الذي يعمل به ، والمتشابه المنسوخ يؤمن به ، ولا يعمل به وكذلك في تفسير العوفي عن ابن عباس .

وأما تفسير الوالبي عن ابن عباس فقال : محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ، وما يؤمن به ، ويعمل به .

والمتشابهات منسوخة ومقدمة ومؤخرة ، وأمثاله وأقسامه ، وما يؤمن به ولا يعمل به .

أما القول الأول فهو - والله أعلم - مأخوذ من قوله : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ ^(١) فقابل بين المنسوخ والمحكم ، وهو سبحانه إنما أراد نسخ ما ألقاه الشيطان ، لم يرد نسخ ما أنزله ، لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابهاً لأنه يشبه غيره في التلاوة والنظم وأنه كلام الله وقرآن ومعجز ، وغير ذلك من المعاني مع أن معناه قد نسخ .

ومن جعل المتشابه كل ما لا يعمل به من المنسوخ ، والأقسام والأمثال ، فلان ذلك متشابه ، ولم يؤمر الناس بتفصيله بل يكفيهم الإيمان المجمل به ، بخلاف المعمول به فإنه لا بد فيه من العلم المفصل ، وهذا بيان لما يلزم كل الأمة ، فإنهم يلزمهم معرفة ما يعمل به تفصيلاً ليعملوا به .

(١) سورة الحج آية رقم ٥٢ .

وما أخبروا به فليس عليهم معرفته ، بل عليهم الإيمان به ، وإن كان العلم به حسناً أو فرضاً على الكفاية فليس فرضاً على الأعيان ، بخلاف ما يعمل به ، ففرض على كل إنسان معرفة ما يلزمه من العمل مفصلاً ، وليس عليه معرفة العلميات مفصلاً وقد روي عن مجاهد وعكرمة : المحكم ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضاً فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور في قوله ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ (١) .

والحلال مخالف للحرام ، وهذا على قول مجاهد إن العلماء يعلمون تأويله ، لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه ، وهنا خص البعض به ، فيستدل به على ضعف هذا القول .

وكذلك قوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ (٢) لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه بعضاً لكان اتباع ذلك غير محذور ، وليس في كونه يصدق بعضه بعضاً ما يمنع ابتغاء تأويله .

وقد يحتج لهذا القول بقوله ﴿ متشابهات ﴾ فجعلوا أنفسها متشابهات ، وهذا يقتضي أن بعضها يشبه بعضاً ليست مشابهة لغيرها .

ويجاب عن هذا بأن اللفظ إذا ذكر في موضعين بمعنيين صار من المتشابه ، كقوله ﴿ إنا ﴾ و ﴿ نحن ﴾ المذكور في سبب نزول الآية .

وقد ذكر محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران ونزول الآية قال : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتتمل في التأويل أوجهاً ، ومعنى هذا أن ذلك اللفظ المحكم لا يكون تأويله في الخارج إلا شيئاً واحداً وأما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة ، لكن لم يرد الله إلا واحداً منها ، وسياق الآية يدل على المراد .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

وحينئذ فالراسخون في العلم يعلمون المراد من هذا ، كما يعلمون المراد من المحكم ، لكن نفس التأويل الذي هو الحقيقة ووقت الحوادث ونحو ذلك لا يعلمونه لا من هذا ولا من هذا .

وقد قيل : إن نصارى نجران احتجوا بقوله ﴿ كَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ^(١) ولفظ كلمة الله : يراد به الكلام ، ويراد به المخلوق بالكلام وروح منه : يراد به ابتغاء الغاية ، ويراد به التبعض .

فعلى هذا إذا قيل : تأويله لا يعمل به إلا الله ، المراد به الحقيقة أي لا يعلمون كيف خلق عيسى بالكلمة ، ولا كيف أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً ، ونفخ فيها من روحه .

وفي صحيح البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » ^(٢) .

والمقصود هنا : أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه ، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين ، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ ، سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون ، أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما ولا يعلمون الآخر .

وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المشابه من القرآن ، وبين أن يقال : الراسخون في العلم يعلمون كان هذا الإثبات خيراً من ذلك النفي ، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره ، وهذا مما يجب القطع به ،

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ .

(٢) الحديث سبق تخريجه ، وراجع صحيح الامام البخاري كتاب التفسير سورة ٣ آية ١ ، وأبو داود في السنة ٢ والدارمي في المقدمة ١٩ .

وليس معناه قاطع على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه ، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد - مع جلالة قدره - والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ، ونقلوا ذلك عن ابن عباس وأنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وقول أحمد فيما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله وقوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلم على معناها ، دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه ، وأن المذموم تأويله على غير تأويله فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم وهذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده ، وهو التفسير في لغة السلف ولهذا لم يقل أحد ولا غيره من السلف : إن في القرآن آيات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها ، بل يتلون لفظاً لا يعرفون معناه ، وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة ، منهم ابن قتيبة ، وأبو سليمان الدمشقي ، وغيرهما .

وابن قتيبة من المتسبين إلى أحمد واسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة، وله في ذلك مصنفات متعددة قال فيه صاحب كتاب «التحديث بمناب أهل الحديث» وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً ، له زهاء ثلاثمائة مصنف ، وكان يميل إلى مذهب أحمد واسحاق وكان معاصراً لابراهيم الحربي ، ومحمد بن نصر المروزي وكان أهل المغرب يعظمونه ، ويقولون : من استجاز الوقعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه .

قلت : ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ^(١) للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

وقد نقل عن ابن عباس أيضاً القول الآخر ، ونقل ذلك عن غيره من الصحابة ، وطائفة من التابعين ، ولم يذكر هؤلاء على قولهم نصاً عن رسول الله

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

ﷺ ، فصارت مسألة نزاع فترد إلى الله والرسول ، وأولئك احتجوا بأنه قرن ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله ، وبأن النبي ﷺ ذم مبتغى التشابه وقال : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأحدروهم .

ولهذا ضرب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صبيغ بن عسل لما سأله عن التشابه ولأنه قال : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ ^(١) ولو كانت الواو واو عطف مفرد على مفرد لا واو الاستئناف التي تعطف جملة على جملة لقال : ويقولون .

فأجاب الآخرون عن هذا بأن الله قال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ^(٢) .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ ﴾ ^(٣) .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(٤) .

قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد ، والفعل حال من المعطوف فقط ، وهو نظير قوله ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ .

بل قال : والمؤمنون يقولون آمنا به ، فإن كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به ، فلما خص الراسخين في العلم بالذكر علم أنهم امتازوا بعلم تأويله .

فعلموه لأنهم عالمون ، وآمنوا به لأنهم يؤمنون ، وكان إيمانهم به مع العلم أكمل في الوصف ، وقد قال عقيب ذلك ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٥) .

(٤) سورة الحشر آية رقم ١٠ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ٨ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ٩ .

وهذا يدل على أن هنا تذكراً يختص به أولو الألباب فإن كان ما ثم إلا
الإيمان بالفاظ فلا يذكر لما بدلهم على ما أريد بالمتشابه .

ونظير هذا قوله في الآية الأخرى : ﴿ لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ
وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ^(١) فلما وصفهم بالرسوخ
في العلم ، وأنهم يؤمنون ، قرن بهم المؤمنين فلو أريد هنا مجرد الإيمان لقال :
والراسخون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا به ، كما قال في تلك الآية لما كان
مراده مجرد الإخبار بالإيمان جمع بين الطائفتين .

قالوا : وأما الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء
تأويله ، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن فلا
يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب ، وهو فتنتها به ، ويطلبون تأويله ، وليس
طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء ، بل هذا لأجل الفتنة ، وكذلك صبيغ بن
عسل ضربه عمر ؛ لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة ، وهذا
كمن يورد أسئلة وإشكالات على كلام الغير ، ويقول : ماذا أريد بكذا وغرضه
التشكيك والظعن فيه ، ليس غرضه معرفة الحق ، وهؤلاء هم الذين عناهم
النبي ﷺ بقوله « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه » ^(٢) .

ولهذا يتبعون أي يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحكم مثل المتبع
للشيء الذي يتحراه ويقصده ، وهذا فعل من قصده الفتنة .

وأما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبه وهو
عالم بالمحكم متبع له ، مؤمن بالمتشابه ، لا يقصد فتنة فهذا لم يذمه الله ،
وهكذا كان الصحابة يقولون - رضي الله عنهم - مثل الأثر المعروف الذي رواه
ابراهيم بن يعقوب الجوزجاني ، وقد ذكره الطلمنكي - حدثنا يزيد بن عبد

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٢ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

ربه ، ثنا بقية ، ثنا عتبة بن أبي حكيم ، ثنى عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال : يقرأ القرآن رجلاً فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس ، يلتمس أن يجد فيه أمراً يخرج به على الناس أولئك شرار أمتهم ، أولئك يعمي الله عليهم سبل الهدى ورجل يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية يفليه فلي الرأس . فما تبين له منه عمل به ، وما اشتبه عليه وكله إلى الله ، ليتفقهن فيه فقهاً ما فقهه قوم قط ، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة ، فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه ، أو يفهمه إياها من قبل نفسه .

قال بقية أشهدني ابن عيينة حديث عتبة هذا .

فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة ، وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لا بد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقهاً ما فقهه قوم قط .

قالوا : والدليل على هذا أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك ، كما سأل عمر فقال : ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به ؟ وسأله أيضاً عمر : ما بالنا نقصر الصلاة . وقد آمنا ؟ ولما نزلنا قوله ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ ^(١) .

شق عليهم وقالوا : أينما لم يظلم نفسه حتى بين لهم . ولما نزل قوله ﴿ وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ^(٢) شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك .

ولما قال النبي ﷺ : « من نوقش الحساب عذب » قالت عائشة : ألم يقل الله ؟ ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسيراً ﴾ ^(٣) قال : إنما ذلك العرض .

قالوا : والدليل على ما قلناه إجماع السلف ، فإنهم فسروا جميع القرآن .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٣) سورة الانشقاق آية رقم ٨ .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقضه عند كل آية وأسأله عنها ، وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه ، لا لأن أحداً من الناس لا يعلمه ، لكن لأنه هو لم يعلمه .

وأيضاً فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقاً ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر ، ولا قال : لا تدبروا المتشابه .

والتدبر بدون الفهم ممتنع ، ولو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف فإن الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره .

وهذا أيضاً مما يحتجون به ، ويقولون : المتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشته على هذا ما لا يشته على غيره .

قالوا : ولأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور ولم يستثن منه شيئاً من هذا الوصف ، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى .

قالوا : ولأن من العظيم أن يقال : إن الله أنزل على نبيه كلاماً لم يكن يفهم معناه ، لا هو ولا جبريل ، بل وعلى قول هؤلاء كان النبي ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم ، ولم يكن يعرف معنى ما يقوله ، وهذا لا يظن بأقل الناس .

وأيضاً فالكلام إنما المقصود به الإفهام ، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثاً وباطلاً ، والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث ، فكيف يقول الباطل

والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه ، لا يريد به إفهامهم ، وهذا من أقوى حجج الملحددين . وأيضاً : فما في القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها ، وبينوا ذلك .

وإذا قيل : فقد يختلفون في بعض ذلك .

قيل : كما قد يختلفون في آيات الأمر والنهي ، وآيات الأمر والنهي مما اتفق المسلمون على أن الراسخين في العلم يعلمون معناها وهذا أيضاً مما يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه ، فإن المتشابه قد يكون في آيات الأمر والنهي كما يكون في آيات الخبر ، وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها ، فكذلك الأخرى ، فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه إلا الله ، لا ملك ولا رسول ولا عالم وهذا خلاف إجماع المسلمين في متشابه الأمر والنهي .

وأيضاً : فلفظ التأويل يكون للمحكم ، كما يكون للمتشابه ، كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك ، وهم يعلمون معنى المحكم ، فكذلك معنى المتشابه .

وأي فضيلة في المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه ، والمحكم أفضل منه ، وقد بين معناه لعباده ، فأبي فضيلة في المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه ، وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به خطاباً ، ولم يذكر في القرآن آية تدل على وقت الساعة ونحن نعلم أن الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها ، وإنما النزاع في كلام أنزله وأخبر أنه هدى وبيان وشفاء ، وأمر بتدبره ثم يقال : إن منه ما لا يعرف معناه إلا الله ، ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه ، ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران ، وقد احتجوا بقوله : ﴿ إنا ﴾ و﴿ نحن ﴾ ويقول ﴿ كلمة منه ﴾ و﴿ روح منه ﴾ وهذا قد اتفق المسلمون على معرفة معناه ، فكيف يقال : إن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا أحد من السلف ، وهو من كلام الله الذي أنزله

إلينا ، وأمرنا أن نتدبره ونعقله ، وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء ونور، وليس المراد من الكلام إلا معانيه ، ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له .

وقد قال الحسن : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت ، وماذا عنى بها .

ومن قال : إن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم في ﴿الم﴾ بحساب الجمل ، فهذا نقل باطل .

أما أولاً : فلأنه من رواية الكلبي (١) .

وأما ثانياً : فهذا قد قيل إنهم قالوه في أول مقدم النبي ﷺ إلى المدينة ، وسورة آل عمران إنما نزل صدرها متأخراً لما قدم وفد نجران بالنقل المستفيض المتواتر وفيها قرئ الحج ، وإنما فرض سنة تسع أو عشر ، لم يفرض في أول الهجرة باتفاق المسلمين .

وأما ثالثاً : فلأن حروف المعجم ، ودلالة الحرف على بقاء هذه الأمة ليس هو من تأويل القرآن الذي استأثر الله بعلمه ، بل إما أن يقال : إنه ليس مما أراه الله بكلامه ، فلا يقال : إنه انفرد بعلمه ، بل دعوى دلالة الحروف على ذلك باطل . وإما أن يقال : بل يدل عليه فقد علم بعض الناس ما يدل عليه .

وحيث قد علم الناس ذلك ، أما دعوى دلالة القرآن على ذلك ، وأن أحداً لا يعلمه فهذا هو الباطل .

وأيضاً فإذا كانت الأمور العلمية التي أخبر الله بها في القرآن لا يعرفها الرسول ، كان هذا من أعظم قدح الملاحظة فيه وكان حجة لما يقولونه من أنه

(١) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي أبو النضر نسابة راوية ، عالم بالتفسير ، والأخبار ، وأيام العرب من أهل الكوفة ، مولده ووفاته فيها وهو من « كلب » بن برة توفي عام ١٤٦ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ وميزان الاعتدال ٣ : ٦١ والمعارف لابن قتيبة ٢٣٣] .

كان لا يعرف الأمور العلمية ، - أو أنه كان يعرفها ولم يبينها ، بل هذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها فإن ما لا يعلمه إلا الله لا يعلمه النبي ولا غيره .

وبالجملة : فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول : إن في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره .

نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم ، وليس ذلك في آية معينة ، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا ، وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره ، وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق ، وتارة لعدم التدبر التام ، وتارة لغير ذلك من الأسباب ، فيجب القطع بأن قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ (١) .

إن الصواب قول من يجعله معطوفاً ، ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد ، أو يكون كلا القولين حقاً ، وهي قرأتان والتأويل المنفي غير التأويل المثبت ، وإن كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف ، فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيات التي لا يعلمها غيره ، وهذا فيه نظر وابن عباس جاء عنه أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله ، وجاء عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويله .

وجاء عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه :
تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادعى علمه فهو كاذب .
وهذا القول يجمع القولين ، ويبين أن العلماء يعلمون من تفسيره ما لا يعلمه غيرهم ، وأن فيه ما لا يعلمه إلا الله ، فأما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عن قوله ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وجعل التأويل بمعنى التفسير ، فهذا خطأ قطعاً .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

وأما التأويل بالمعنى الثالث ، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجع إلى الاحتمال المرجوح ، فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عرف في عهد الصحابة ، بل ولا التابعين ، بل ولا الأئمة الأربعة ، ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفاً في القرون الثلاثة ، بل ولا علمت أحداً منهم خص لفظ التأويل بهذا ، ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعاً في عرف كثير من المتأخرين ، فظنوا أن التأويل في الآية هذا معناه ، صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معاني تخالف ما يفهم منه ، وفرقوا دينهم بعد ذلك وصاروا شيعاً ، والمتشابه المذكور الذي كان سببه نزول الآية لا يدل ظاهره على معنى فاسد ، وإنما الخطأ في فهم السامع . نعم قد يقال : إن مجرد هذا الخطاب لا يبين كمال المطلوب ، ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب ، وبين دلالته على نقيض المطلوب فهذا الثاني هو المنفى ، بل وليس في القرآن ما يدل على الباطل البتة ، كما قد بسط في موضعه .

ولكن كثير من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى ، إما معنى يعتقده ، وإما معنى باطلاً فيحتاج إلى تأويله ، ويكون ما قاله باطلاً لا تدل الآية على معتقده ، ولا على المعنى الباطل ، وهذا كثير جداً ، وهؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيراً ما يحتاج إلى التأويل المحدث ، وهو صرف اللفظ عن مدلوله إلى خلاف مدلوله .

ومما يحتاج به من قال : الراسخون في العلم يعلمون التأويل : ما ثبت في صحيح البخاري وغيره - عن ابن عباس : أن النبي ﷺ دعا له وقال : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» (١) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الوضوء ١٠ باب وضع الماء عند الخلاء ١٤٣ - حدثنا عبد الله بن محمد ، قال : حدثنا هشام بن القاسم قال : حدثنا ورقاء عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس - أن النبي ﷺ - دخل الخلاء فوضعت له وضوءاً قال : من وضع هذا ؟ ... فأخبر فقال : وذكره . ورواه الامام مسلم في فضائل الصحابة ١٣٨ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٦٦ - ٣١٤ - ٣٢٨ ، ٣٣٥ (حلي) .

فقد دعا له بعلم التأويل مطلقاً ، وابن عباس فسر القرآن كله قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقفه عند كل آية ، وأسأله عنها ، وكان يقول : أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله .

وأيضاً : فالنقول متواترة عن ابن عباس رضي الله عنها أنه تكلم في جميع معاني القرآن من الأمر والخبر ، فله من الكلام في الأسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ، ومن الكلام في الأمر والنهي والأحكام ما يبين أنه كان يتكلم في جميع معاني القرآن .

وأيضاً قد قال ابن مسعود : ما من آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما ذا نزلت .

وأيضاً : فإنهم متفقون على أن آيات الأحكام يعلم تأويلها وهي نحو خمسمائة آية ، وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته أو عن اليوم الآخر والجنة والنار ، أو عن القصص ، وعاقبة أهل الإيمان ، وعاقبة أهل الكفر ، فإن كان هذا هو المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله .

فجمهور القرآن لا يعرف أحد معناه ، لا الرسول ولا أحد من الأمة ومعلوم أن هذا مكابرة ظاهرة .

وأيضاً : فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤيا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذي يخبر به ، فإن دلالة الرؤيا على تأويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدي لها جمهور الناس ، بخلاف دلالة الكلام على معناه ، فإذا كان الله قد علم عباده تأويل الأحاديث التي يرونها في المنام ، فلأن يعلمهم تأويل الكلام العربي المبين الذي ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى .

قال يعقوب ليوسف ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ^(١) .

(١) سورة يوسف آية رقم ٦ .

وقال يوسف ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ﴾ (١) .

وقال ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ (٢) .
وأيضاً : فقد ذم الله الكفار بقوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا
بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (٣) وقال ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً يَمَنَّ يُكْذِبُ
بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَآذَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

وهذا ذم لمن كذب بما لم يحيط بعلمه .

فما قاله الناس من الأقوال المختلفة في تفسير القرآن وتأويله ليس لأحد أن
يصدق بقول دون قول بلا علم ، ولا يكذب بشيء منها ، إلا أن يحيط بعلمه ،
وهذا لا يمكن إلا إذا عرف الحق الذي أريد بالآية ، فيعلم أن ما سواه باطل ،
فيكذب بالباطل الذي أحاط بعلمه ، وأما إذا لم يعرف معناها ، ولم يحيط بشيء
منها علماً ، فلا يجوز له التكذيب بشيء منها .

مع أن الأقوال المتناقضة بعضها باطل قطعاً ، ويكون حينئذ المكذب
بالقرآن كالمكذب بالأقوال المتناقضة ، والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل ، وفساد
اللازم يدل على فساد الملزوم وأيضاً : فإنه إن بنى على ما يعتقده من أنه لا يعلم
معاني الآيات الخبرية إلا الله لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية
على شيء من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تكلم في تفسير ذلك ، وكذلك
يلزم مثل ذلك في أحاديث الرسول ﷺ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٣٨ - ٣٩ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٨٣ - ٨٤ .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠١ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

وإن قال : المتشابه هو بعض الخبريات ، لزمه أن يبين فصلاً يتبين به ما يجوز أن يعلم معناه من آيات القرآن وما لا يجوز أن يعلم معناه ، بحيث لا يجوز أن يعلم معناه لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا أحد من الصحابة ولا غيرهم ، ومعلوم أنه لا يمكن أحداً ذكر حد فاصل بين ما يجوز أن يعلم معناه بعض الناس ، وبين ما لا يجوز أن يعلم معناه أحد ، ولو ذكر ما ذكر انتقض عليه ، فعلم أن المتشابه ليس هو الذي لا يمكن أحداً معرفة معناه .

وهذا دليل مستقل في المسألة .

وأيضاً فقله ﴿ لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ ^(١) ﴿ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً ﴾ ^(٢) ذم لهم على عدم الإحاطة مع التكذيب ، ولو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الإحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة ، ولكان الذم على مجرد التكذيب ، فإن هذا بمنزلة أن يقال : أكذبتُم بما لم تحيطوا به علماً ، ولا يحيط به علماً ولا يحيط به علماً إلا الله كان أقرب إلى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فلو لم يحط بها علماً الراسخون كان ترك هذا الوصف أقوى من ذمهم من ذكره .

ويتبين هذا بوجه آخر هو دليل في المسألة ، وهو أن الله ذم الزائفين بالجهل وسوء القصد ، فإنهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله ، ولا يعلم تأويله إلا الراسخون في العلم وليسوا منهم ، وهم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم والحق . وهذا كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ^(٣) .

فإن المعنى بقوله ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ فهم القرآن .

يقول : لو علم الله فيهم حسن قصد وقبولاً للحق لأفهمهم القرآن ،

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٤ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٢٣ .

لكن لو أفهمهم لتولوا عن الإيمان وقبول الحق لسوء قصدهم ، فهم جاهلون ظالمون ، كذلك الذين في قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصد ، مع طلب علم ما ليسوا من أهله وليس إذا عيب هؤلاء على العلم ومنعوه يعاب من حسن قصده وجعله الله من الراسخين في العلم .

فإن قيل : فأكثر السلف على أن الراسخين في العلم لا يعلمون التأويل ، وكذلك أكثر أهل اللغة ، يروى هذا عن ابن مسعود وأبي بن كعب ، وابن عباس ، وعروة ، وقتادة ، وعمر بن عبد العزيز ، والفراء ، وأبي عبيد ، وثعلب ، وابن الأنباري قال ابن الأنباري : في قراءة عبد الله : إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم .

وفي قراءة أبي وابن عباس : ويقول الراسخون في العلم قال : وقد أنزل الله في كتابه أشياء استأثر بعلمها كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١)

وقوله ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ (٢)

فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ، ويكفر به الكافر فيشقى .

قال ابن الأنباري : والذي روى القول الآخر عن مجاهد هو ابن أبي نجيح ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد .

فيقال : قول القائل : إن أكثر السلف على هذا قول بلا علم ، فإنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال : إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه .

وعن ابن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت « كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه وبمتشابهه ولا يعلمونه » (٣) .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٣٨ .

(٣) لم نثر على هذا الأثر فعل الله يهدينا إليه عن طريق أحد الذين فقههم الله وأرشدهم .

فقد روى البخاري عن ابن أبي مليكة عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها الحديث المرفوع في هذا ، وليس فيه هذه الزيادة ولم يذكر أنه سمعها من القاسم ، بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون كما تقدم حديث معاذ بن جبل في ذلك .

وكذلك نحوه عن ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وغيرهم .
وما ذكر من قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب ليس لها إسناد يعرف حتى يحتاج بها .

والمعروف عن ابن مسعود أنه كان يقول : ما في كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيماذا أنزلت ، وماذا عنى بها .

وقال أبو عبد الرحمن ^(١) السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل .
وهذا أمر مشهور رواه الناس عن عامة أهل الحديث والتفسير وله إسناد معروف ، بخلاف ما ذكر من قراءتهما .

وكذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه دعا له بعلم تأويل الكتاب فكيف لا يعلم التأويل مع أن قراءة عبد الله : إن تأويله إلا عند الله لا تناقض هذا القول ، فإن نفس التأويل لا يأتي به إلا الله كما قال تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ (٢) .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

وقال ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (١) وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه . وتأويل ذلك هو مجيء الموعود به ، وذلك عند الله لا يأتي به إلا هو وليس في القرآن إن علم تأويله إلا عند الله ، كما قال في الساعة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (٢) .

وكذلك لما قال فرعون لموسى ﴿فَمَا بِالْأُولَى قَالَتْ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (٣) .

فلو كانت قراءة ابن مسعود تقتضي نفي العلم عن الراسخين لكانت إن علم تأويله إلا عند الله لم يقرأ إن تأويله إلا عند الله فإن هذا حق بلا نزاع .

وأما القراءة الأخرى المروية عن أبي وابن عباس ، فقد نقل عن ابن عباس ما يناقضه ، وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد ، وعلى تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثوري والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري (٤) .

وقال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

والشافعي في كتبه أكثر الذي ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وكذلك البخاري في صحيحه يعتمد على هذا التفسير . وقول القائل :

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣) سورة طه آية رقم ٥١ - ٥٢ .

(٤) هو محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله حبر الاسلام ، والحافظ لحديث رسول الله - ﷺ صاحب الجامع الصحيح ، والتاريخ ، وخلق أفعال العباد والضعفاء في رجال الحديث ، والأدب المفرد وغير ذلك كثير توفي عام ٢٥٦ هـ .

لا تصح رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .

جوابه : أن تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب في التفسير أصح من تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد إلا أن يكون نظيره في الصحة ، ثم معه ما يصدقه وهو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية وأسأله عنها .

وأيضاً فأبي بن كعب رضي الله عنه قد عرف عنه أنه كان يفسر ما تشابه من القرآن ، كما فسر قوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ ^(١) وفسر قوله ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٢) .

وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ ^(٣) وغير ذلك .

ونقل ذلك معروف عنه بالإسناد أثبت من نقل هذه القراءة التي لا يعرف لها إسناد .

وقد كان يسأل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر ، وسئل عن ليلة القدر .

وأما قوله : إن الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن .

فيقال : هذا حق ، لكن هل في الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف أن الأنبياء والملائكة والصحابة لا يفهمون ذلك الكلام المجمل ؟

أم العلماء متفقون على أن المجمل في القرآن يفهم معناه ويعرف ما فيه من الإجمال ، كما مثل به من وقت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذي أخبر الله به عن الساعة ، وأنها آية لا محالة ، وأن الله انفرد بعلم

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٢ .

وقتها ، فلم يطلع على ذلك أحداً ، ولهذا قال النبي ﷺ لما سأله السائل عن الساعة ، وهو في الظاهر أعرابي لا يعرف ، قال له : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) .

ولم يقل : إن الكلام الذي نزل في ذكرها لا يفهمه أحد ، بل هذا خلاف إجماع المسلمين ، بل والعقلاء فإن إخبار الله عن الساعة وأشراتها كلام بين واضح يفهم معناه .

وكذلك قوله ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ (٢) .

قد علم المراد بهذا الخطاب ، وأن الله خلق قروناً كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله ، كما قال « وما يعلم جنود ربك إلا هو » فأي شيء في هذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر لا يفهم معناه أحد لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا الصحابة ولا غيرهم .

وأما ما ذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه أنه كان لا يفسر عامة أي القرآن إلا آيات قليلة رواها عن عائشة ، ومعلوم أنه إذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لا يعرفه غيره من الخلفاء الراشدين ، وعلماء الصحابة ، كابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وابن عباس وغيرهم .

وأما اللغويون الذين يقولون : إن الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون في ذلك ، فإن هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء في القرآن ، ويتوسعون في القول في ذلك ، حتى ما منهم أحد إلا وقد قال في ذلك أقوالاً لم يسبق إليها ، وهي خطأ . وابن الأنباري الذي بالغ في نصر

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الايمان ٣٧ باب سؤال جبريل النبي - ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة ٥٠ بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : كان النبي - ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : وذكره ، ورواه ابن ماجه في المقدمة ٩

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٣٨ .

ذلك القول هو من أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات ، يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ، ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة ، وقصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة ، وليس هو أعلم بمعاني القرآن والحديث وأتبع للسنّة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك ، وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة . وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسيره غريب الحديث ، وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم ، وهو وأمثاله يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى ، فإن كان المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، فهم كلهم يجترئون على الله ، يتكلمون في شيء لا سبيل إلى معرفته ، وإن كان ما بينوه من معاني المتشابه قد أصابوا فيه - ولو في كلمة واحدة - ظهر خطأهم في قولهم : إن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، ولا يعلمه أحد من المخلوقين ، فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا ومعلوم أنهم أصابوا في شيء كثير مما يفسرون به المتشابه وأخطأوا في بعض ذلك ، فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقيني ، فإنهم أصابوا في كثير من تفسير المتشابه وكذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، فكتابه في التفسير من أشهر الكتب ، ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ، ورواية سعيد بن أبي عروبة عنه ، ولهذا كان المصنفون في التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل عنه ، ومع هذا يفسر القرآن كله محكمه ومتشابهه والذي اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع كالجهمية والقدريّة من المعتزلة وغيرهم ، فصار أولئك يتكلمون في تأويل القرآن برأيهم الفاسد ، وهذا أصل معروف لأهل البدع ، أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلي ، وتأويلهم اللغوي فتفاسير المعتزلة مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراد الله ورسوله ، فإنكار السلف والأئمة هو لهذه التأويلات الفاسدة ، كما قال الإمام

أحمد في ما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ، فهذا الذي أنكره السلف والأئمة من التأويل . فجاء بعدهم قوم انتسبوا إلى السنة بغير خبرة تامة بها ، وبما يخالفها ظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، فظنوا أن معنى التأويل هو معناه في اصطلاح المتأخرين : وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح ، فصاروا في موضع يقولون وينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، ثم يتناقضون في ذلك من وجوه . أحدها : أنهم يقولون النصوص تجري على ظواهرها ، ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ، ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر ويقولون المعنى الظاهر ، ويقولون مع هذا : إن له تأويلاً لا يعلمه إلا الله والتأويل عندهم ما يناقض الظاهر ، فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر ، وقد قرر معناه الظاهر ، وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ذلك ابن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى .

ومنها : أنا وجدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم ، لا في مسألة أصلية ، ولا فرعية ، إلا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية والقدرية للنصوص التي تخالفهم . فأين هذا من قولهم : لا يعلم معاني النصوص المتشابهة إلا الله تعالى ؟!

واعتبر هذا بما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة في مسائل الصفات والقرآن والقدر ، إذا احتجت المعتزلة على قولهم بالآيات التي تناقض قول هؤلاء ، مثل أن يحتجوا بقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ ^(١) ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ ^(٢) .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٣)

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٥ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٧ .

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٥٦ .

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (١)
 ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢)
 ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ (٣) .

ونحو ذلك ، كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد ، وإن كان في بعضها حق فإن كان ما تأولوه حقاً ، دل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه ، فظهر تناقضهم وإن كان باطلاً فذلك أبعد لهم .

وهذا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة الصابر في المحنة الذي قد صار للمسلمين معياراً يفرقون به بين أهل السنة والبدعة لما صنف كتابه في « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله تكلم على معاني المتشابه الذي اتبعه الزائفون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله آية آية ، وبين معناها وفسرها ليبين فساد تأويل الزائفين ، واحتج على أن الله يرى وأن القرآن غير مخلوق ، وأن الله فوق العرش بالحجج العقلية والسمعية ، وبين معاني الآيات التي سماها هو متشابهة وفسرها آية آية ، وكذلك لما ناظروه واحتجوا عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آية وحديثاً حديثاً ، وبين فساد ما تأولها عليه الزائغون وبين هو معناها ، ولم يقل أحمد إن هذه الآيات والأحاديث لا يفهم معناها إلا الله ، ولا قال أحد له ذلك ، بل الطوائف كلها مجتمعة على إمكان معرفة معناها ، لكن يتنازعون في المراد كما يتنازعون في آيات الأمر والنهي وكذلك كان أحمد يفسر المتشابه من الآيات والأحاديث التي يحتج بها الزائغون من الخوارج وغيرهم كقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٠ .

ولا يشرب الشارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن» (١) وأمثال ذلك .

ويبطل قول المرجئة والجهمية، وقول الخوارج والمعتزلة، وكل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابهة على قولها ، ولم يقل أحد لا من أهل السنة ، ولا من هؤلاء ، لما يستدل به هو ، أو يستدل به عليه منازعه : هذه آيات وأحاديث لا يعلم معناها أحد من البشر ، فأمسكوا عن الاستدلال بها ، وكان الإمام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال بسنة رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين ، الذين بلغهم الصحابة معاني القرآن ، كما بلغوهم ألفاظه ، ونقلوا هذا كما نقلوا هذا لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ، ويدعون أن هذا هو التأويل الذي يعلمه الراسخون ، وهم مبطلون في ذلك ، لا سيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة ، وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية والقدرية وغيرهم .

ولكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون التأويل ، وإنما غايتهم أن يقولوا : نأهره هذه الآية غير مراد ، ولكن يحتمل أن يراد كذا ، وأن يراد كذا ، ولو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهو لا يعلم أنه مراد الله ورسوله ، بل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عندهم غير ذلك ، كالتأويلات التي يذكرونها في نصوص الكتاب ، كما يذكرونه في قوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (٢) .

﴿ ينزل ربنا ﴾

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٣)

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٣ باب النبي عن النبهة ٣٩٣٦ عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام عن أبي هريرة - أن رسول الله - ﷺ قال : وذكره .

(٢) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة طه آية رقم ٥ .

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ^(١)

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ^(٢)

﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٣)

وأمثال ذلك من النصوص ، فإن غاية ما عندهم يحتمل أن يراد به كذا ، ويجوز كذا ، ونحو ذلك ، وليس هذا علماً بالتأويل ، وكذلك كل من ذكر في نص أقوالاً واحتمالات ، ولم يعرف المراد ، فإنه لم يعرف تفسير ذلك وتأويله وإنما يعرف ذلك من عرف المراد .

ومن زعم من الملاحدة أن الأدلة السمعية لا تفيد العلم فمضمون مدلولاته لا يعلم أحد تفسير المحكم ، ولا تفسير المتشابه ، ولا تأويل ذلك .

وهذا إقرار منه على نفسه بأنه ليس من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه ، فضلاً عن تأويل المحكم ، فإذا انضم إلى ذلك أن يكون كلامهم في العقلیات فيه من السفسطة والتلبیس ما لا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لا معرفة بالسمعیات ولا بالعقلیات وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ^(٤)

ومدح الذين ﴿إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ^(٥) والذين يفقهون ويعقلون .

وذن الذين لا يفقهون ولا يعقلون في غير موضع من كتابه وأهل البدع المخالفون للكتاب والسنة يدعون العلم والعرفان والتحقيق ، وهم من أجهل الناس بالسمعیات والعقلیات ، وهم يجعلون ألفاظاً لهم جملة متشابهة تتضمن حقاً وباطلاً ، يجعلونها هي الأصول المحکمة ، ويجعلون ما عارضها من نصوص

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٤ .

(٢) سورة الفتح آية رقم ٦ .

(٣) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(٤) سورة الملك آية رقم ١٠ .

(٥) سورة الفرقان آية رقم ٧٣ .

الكتاب والسنة من المتشابه الذي لا يعلم معناه عندهم إلا الله وما يتأولونه بالاحتمالات لا يفيد ، فيجعلون البراهين شبهات ، والشبهات براهين .

كما قد بسط ذلك في موضع آخر .

وقد نقل القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد أنه قال : المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتاج إلى بيان ، والمتشابه ما احتاج إلى بيان .

وكذلك قال الإمام أحمد في رواية ، والشافعي قال : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً والمتشابه ما احتمل من التأويل وجوهاً ، وكذلك قال الامام أحمد ، وكذلك قال ابن الأنباري المحكم ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه الذي تعتوره التأويلات ، فيقال حينئذ فجميع الأمة سلفها وخلفها يتكلمون في معاني القرآن التي تحتمل التأويلات .

وهؤلاء الذين ينصرون أن الراسخين في العلم لا يعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاماً فيه .

والأئمة كالشافعي وأحمد ومن قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معاني ، ويرجحون بعضها على بعض بالأدلة في جميع مسائل العلم الأصولية والفروعية ، لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص احتج به محتج في مسألة : أن هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به ، ولو قال أحد ذلك لقليل له مثل ذلك وإذا ادعى في مسائل النزاع المشهورة بين الأئمة أن نصه محكم يعلم معناه ، وأن النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه قبول بمثل هذه الدعوى .

وهذا بخلاف قولنا : إن من النصوص ما معناه جلي واضح ظاهر لا يحتمل إلا وجهاً واحداً لا يقع فيه اشتباه ، ومنها ما فيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون في العلم ، فإن هذا تفسير صحيح ، وحينئذ فالخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه ، فمن قال : إنه يعرف معناه يبين حجته على ذلك .

وأيضاً فما ذكره السلف والخلف في التشابه يدل على أنه كله يعرف معناه .

فمن قال : إن التشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف . وهذا القول مأثور عن ابن مسعود ، وابن عباس وقتادة ، والسدي ، وغيرهم .

وابن مسعود وابن عباس وقتادة هم الذين نقلوا عنهم أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله ، ومعلوم قطعاً باتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ وأنه منسوخ ، فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل ، ويدل على أنه كذب إن كان هذا صدقاً ، وإلا تعارض النقلان عنهم ، والمنقول عنهم أن الراسخين يعلمون معنى التشابه .

والقول الثاني مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال : المحكم ما علم العلماء تأويله ، والتشابه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل ، كقيام الساعة ، ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه إلا الله ، فإذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به ، لا يعلم وقت تأويله إلا الله ، وهذا حق ، ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك ، وكذلك إن أريد بالتأويل حقائق ما يوجد ، وقيل : لا يعلم كيفية ذلك إلا الله . فهذا قد قدمناه ، وذكر أنه على قول هؤلاء من وقف عند قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) هو الذي يجب أن يراد بالتأويل . وأما أن يراد بالتأويل التفسير ، ومعرفة المعنى ويوقف على قوله إلا الله ، فهذا خطأ قطعاً مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

ومن قال ذلك من المتأخرين فإنه متناقض يقول ذلك ويقول ما يناقضه ، وهذا القول يناقض الإيمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة ، ويوجب القدرح في الرسالة ، ولا ريب أن الذي قالوه لم يتدبروا لوازمه وحقيقته ، بل أطلقوه وكان أكبر قصدهم رفع تأويلات أهل البدع للمتشابه ، وهذا الذي قصدوه حق وكل

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

مسلم يوافقهم عليه، لكن لا ندفع باطلاً بباطل آخر، ولا نرد بدعة ببدعة، ولا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بأن يقال: الرسول ﷺ والصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ما تشابه من القرآن، ففي هذا من الطعن في الرسول وسلف الأمة، ما قد يكون أعظم من خطأ طائفة في تفسير بعض الآيات، والعاقل لا يبني قصراً ويهدم قصراً. والقول الثالث: أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى عن ابن عباس، وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاماً تاماً من الجمل الأسمية والفعلية، وإنما هي أسماء موقوفة، ولهذا لم تعرب، فإن الإعراب إنما يكون بعد العقد والتركيب، وإنما نطق بها موقوفة كما يقال: أ ب ت ث ولهذا تكتب بصورة الحرف، لا بصورة الاسم الذي ينطق به، فإنها في النطق أسماء، ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد، قالوا: زاء، قال: نطقتم بالاسم، وإنما النطق بالحرف زه، فهي في اللفظ أسماء وفي الخط حروف مقطعة، ﴿الم﴾ لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي ﷺ «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ﴿الم﴾ حرف ولكن «ألف» حرف، و«لام» حرف، و«ميم» حرف» (١).

والحرف في لغة الرسول ﷺ وأصحابه يتناول الذي يسميه النحاة اسماً وفعلاً وحرفاً.

ولهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام اسم، وفعل وحرف، جاء لمعنى، ليس باسم ولا فعل، فإنه لما كان معروفاً من اللغة أن الاسم حرف، والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف إنه جاء لمعنى، ليس باسم ولا فعل، وهذه حروف المعاني التي يتألف منها الكلام.

وأما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد وينطق بها

(١) الحديث رواه الدارمي في فضائل القرآن ١ ورواه الامام مسلم في المسافرين ٢٧٤ والترمذي في ثواب القرآن ١٦.

غير معربة ، ولا يقال فيها معرب ولا مبني ، لأن ذلك إنما يقال في المؤلف ، فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود ، فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله ، وكلام رسوله ﷺ ثم يقال : هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفاً فقد عرف معنى التشابه ، وإن لم يكن معروفاً وهي التشابه كان ما سواها معلوم المعنى وهذا المطلوب .

وأيضاً فإن الله تعالى قال ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (١) .

وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء ، وإنما يعدها آيات الكوفيون .

وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضاً متشابه ، ولكن هذا القول يوافق ما نقل عن أنبيهود من طلب علم المفرد من حروف الهجاء .

والرابع : أن التشابه ما اشتبهت معانيه .

قال مجاهد : وهذا يوافق قول أكثر العلماء ، وكلهم يتكلم في تفسير هذا التشابه ، ويبين معناه .

والخامس : أن التشابه ما تكررت ألفاظه ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : المحكم ما ذكر الله تعالى في كتابه من قصص الأنبياء ففصله وبينه ، والمتشابه هو ما اختلفت ألفاظه في قصصهم عن التكرير كما قال في موضع من قصة نوح ﴿ ائْجُلْ فِيهَا ﴾ (٢) وقال في موضع آخر ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ (٣) وقال في عصى موسى ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ (٤) .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٠ وتكملة الآية ﴿ من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٢٧ وتكملة الآية ﴿ من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ .

(٤) سورة طه آية رقم ٢٠ .

وفي موضع آخر ﴿ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (١)

وصاحب هذا القول جعل التشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى كما يشتهه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ ، وقد صنف بعضهم في هذا التشابه ، لأن القصة الواحدة يتشابه معناها في الموضعين ، فاشتبه على القارئ أحد اللفظين بالآخر وهذا التشابه لا ينفي معرفة المعاني بلا ريب ، ولا يقال في مثل هذا : إن الراسخين يختصون بعلم تأويله ، فهذا القول إن كان صحيحاً كان حجة لنا ، وإن كان ضعيفاً لم يضرنا .

والسادس : أنه ما احتاج إلى بيان كما نقل عن أحمد .

والسابع : أنه ما احتمل وجوهاً ، كما نقل عن الشافعي وأحمد وقد روي عن أبي الدرداء (٢) رضي الله عنه أنه قال : إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً .

وقد صنف الناس « كتب الوجوه والنظائر » فالنظائر اللفظ الذي اتفق معناه في الموضعين وأكثر .

والوجوه : الذي اختلف معناه ، كما يقال : الأسماء المتواطئة والمشاركة ، وإن كان بينهما فرق ، ولبسطه موضع آخر .

وقد قيل : هي نظائر في اللفظ ومعانيها مختلفة ، فتكون كالمشاركة وليس كذلك ، بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول وقد تكلم المسلمون

(١) سورة الشعراء آية رقم ٣٢ .

(٢) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء ، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ثم انقطع للعبادة ، ولما ظهر الاسلام اشتهر بالعبادة والنسك ، وفي الحديث : عويمر حكيم أمي ، ونعم الفارس عويمر . توفي عام ٣٢ هـ . [راجع الاصابة ت ٦١١٩ وحلية الأولياء ١ : ٢٠٨ وتاريخ الاسلام للذهبي ٢ : ١٠٧] .

سلفهم وخلفهم في معاني الوجوه ، وفيما يحتاج إلى بيان ، وما يحتمل وجوهاً فعلم يقيناً أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه ، وعلم أن من قال : إن من القرآن ما لا يفهم أحد معناه ، ولا يعرف معناه إلا الله ، فإنه مخالف لإجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة .

والثامن : أن التشابه هو القصص والأمثال ، وهذا أيضاً يعرف معناه . والتاسع : أنه مما يؤمن به ولا يعمل به ، وهذا أيضاً مما يعرف معناه والعاشر : قول بعض المتأخرين : إن التشابه آيات الصفات وأحاديث الصفات ، وهذا أيضاً مما يعلم معناه ، فإن أكثر آيات الصفات ، اتفق السلف على أنه يعرف معناها والبعض الذي تنازع الناس في معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية ، ونفوا علم الناس بكيفيته : كقول مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وكذلك قال سائر أئمة السنة ، وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم ، وبين الكيف المجهول ، فإن سمي الكيف تأويلاً ساغ أن يقال : هذا التأويل لا يعلمه إلا الله ، كما قدمناه أولاً وأما إذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلاً كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلاً .

وقيل : إن النبي ﷺ وجبريل والصحابة والتابعين ما كانوا يعرفون معنى قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ^(١) ولا يعرفون معنى قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ ^(٢) ولا معنى قوله ﴿وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ^(٣) بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمي الذي لا يفهمه العربي .

وكذلك إذا قيل كان عندهم قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ^(٤)

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) سورة ص آية رقم ٧٥ .

(٣) سورة الفتح آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

وقوله ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ ﴾ (١) وقوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٢)

وقوله ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٣)

وقوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ (٤)

وقوله ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥)

وقوله ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٦)

وقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (٧)

وقوله ﴿ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٨)

وقوله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٩)

وقوله ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ

وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ (١٠)

وقوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (١١)

وقوله ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ

آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ (١٢)

وقوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (١٣)

وقوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١٤)

إلى أمثال هذه الآيات .

فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وعن الصحابة

(٨) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٩) سورة النمل آية رقم ٨ .

(١٠) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(١١) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(١٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .

(١٣) سورة فصلت آية رقم ١١ .

(١٤) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٤ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١١٩ .

(٤) سورة محمد آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٩٥ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٧) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين والجماعة ، أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني هذه الآيات ، بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة ، وإنما كانوا يقرأون ألفاظاً لا يفهمون لها معنى ، كما يقرأ الإنسان كلاماً لا يفهم منه شيئاً فقد كذب على القوم والنقول المتواترة عنه تدل على نقيض هذا وأنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن ، وإن كان كنه الرب عز وجل لا يحيط به العباد ، ولا يحصون ثناء عليه فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه وصفاته ما علمهم سبحانه وتعالى ، كما أنهم إذا علموا أنه بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته ، وإذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته .

وهذا مما يستدل به على أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ، ومعلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لا ينفي العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام وبيان معناه ، بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه ، ولا يعرفون كيفية الرب لا من هذا ولا من هذا . فإن قيل : هذا يقدر فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير ، وبين التأويل الذي من كتاب الله تعالى .

قيل : لا يقدر في ذلك ، فإن معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك في القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج المراد بذلك الكلام ، فإن الشيء له وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان .

فالكلام لفظ له معنى في القلب ، ويكتب ذلك اللفظ بالخط فإذا عرف الكلام وتصور معناه في القلب ، وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج ، وليس كل من عرف الأول عرف عين الثاني .

مثال ذلك : أن أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد ﷺ وخبره ونعته ، وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره ، وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث ، فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام ، وكذلك الإنسان

قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمسجد ومنى وعرفة ومزدلفة ، ويفهم معنى ذلك ، ولا يعرف أعيان الأهمكة حتى يشاهدها ، فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة في قوله ﴿ وَٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّاسِ حَجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ (١) . وكذلك أرض عرفات هي المذكورة في قوله ﴿ فَإِذَا أَقْسَمْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ﴾ (٢) .

وكذلك المشعر الحرام هي المزدلفة التي بين مأزمي عرفة ووادي محسر ، يعرف أنها المذكورة في قوله ﴿ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِنْدَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (٣) . وكذلك الرؤيا قد يراها الرجل ، ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره : مثل أن يقول : هذا يدل على أنه كان كذا ويكون كذا وكذا ، ثم إذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه ، ولهذا قال يوسف الصديق ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ (٥) . فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتي التأويل ، والإنباء ليس هو التأويل ، فالنبي ﷺ عالم بالتأويل وإن كان التأويل لم يقع بعد ، وإن كان لا يعرف متى يقع ، فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله في القرآن من الوعد والوعيد ، وإن كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور في قوله سبحانه وتعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ (٦) الآية .

وقال تعالى ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ (٧) . فنحن نعلم مستقر نبأ الله ، وهو الحقيقة التي أخبر الله بها ولا نعلم متى يكون ، وقد لا نعلم كيفيتها وقدرها ، وسواء في هذا تأويل المحكم والمتشابه ، كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ . | (٥) سورة يوسف آية رقم ٣٧ . |
| (٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٨ . | (٦) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ . |
| (٣) سورة البقرة آية رقم ١٩٨ . | (٧) سورة الأنعام آية رقم ٦٧ . |
| (٤) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ . | |

فَوْقَكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعاً وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴿١﴾ .
قال النبي ﷺ : إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد ، فقد عرف تأويلها ،
وهو وقوع الاختلاف والفتن ، وإن لم يعرف متى يقع ، وقد لا يعرف صفته ولا
حقيقته ، فإذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذي دلت عليه الآية .
وغيره قد لا يعرف ذلك ، أو ينساه بعدما كان عرفه ، فلا يعرف أن هذا
تأويل القرآن ، فإنه لما نزل قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٢) .
قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زماناً ، وما أَرَأانا من أهلها وإذا نحن
المعنيون بها : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ .
وأيضاً فإن الله قد ذم في كتابه من يسمع القرآن ولا يفقه معناه وذم من لم
يتدبره ، ومدح من يسمعه ويفقهه ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ (٣) الآية فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم :
ماذا قال الرسول في هذا الوقت المتقدم ، فدل على أن أهل العلم من الصحابة
كانوا يعرفون من معاني كلام رسول الله ﷺ ما لا يعرفه غيرهم ، وهؤلاء هم
الراسخون في العلم الذين يعلمون معاني القرآن محكمه ومتشابهة ، وهذا كقوله
تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٤) فدل على أن
العالِمين يعقلونها ، وإن كان غيرهم لا يعقلها . والأمثال هي المتشابهة عند كثير
من السلف ، وهي إلى المتشابهة أقرب من غيرها لما بين الممثل والممثل به من
التشابه وعقل معناها هو معرفة تأويلها الذي يعرفه الراسخون في العلم دون
غيرهم ، ويشبه هذا قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٥) .
فلولا أنهم عرفوا معنى ما أنزل كيف عرفوا أنه حق أو باطل وهل يحكم

(١) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة محمد آية رقم ١٦ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٤٣ .

(٥) سورة سبأ آية رقم ٦ .

على كلام لم يتصور معناه أنه حق أو باطل ؟!

وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١) وقال ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٢) .
وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣)
وقال تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٤) .
وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .
وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٧) .
وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾ (٨) فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم أحد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه ، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن ، لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كآيات الخيرية ، والإخبار عن اليوم الآخر أو الجنة والنار ، وعن نفي الشركاء والأولاد عن الله وتسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيًا وإثباتًا ، وما يخبرهم به عن اليوم الآخر وقد ذم الله من لا يعقل ذلك ولا يفقهه ولا يتدبره . فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك وتدبره ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٩) .
﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (١٠) .

- (٦) سورة يوسف آية رقم ٢ .
(٧) سورة هود آية رقم ١ .
(٨) سورة فصلت آية رقم ٣ - ٥ .
(٩) سورة يونس آية رقم ٤٢ .
(١٠) سورة يونس آية رقم ٤٣ .

- (١) سورة محمد آية رقم ٢٤ .
(٢) سورة النساء آية رقم ٨٢ .
(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨ .
(٤) سورة الزمر آية رقم ١٧ - ١٨ .
(٥) سورة الفرقان آية رقم ٧٣ .

وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ^(١) الآية .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا ﴾ ^(٢) الآية وقد استدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان
منفرداً به ، كقوله ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا
اللَّهُ ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى ﴿ لَا يُجْلِيهَا لَوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ^(٤) .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ^(٥) .

فيقال : ليس الأمر كذلك ، بل هذا بحسب العلم المنفي فإن كان مما
استأثر الله به قيل فيه ذلك ، وإن كان مما علمه عباده ذكر ذلك ، كقوله ﴿ وَلَا
يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ^(٦) .

وقوله تعالى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ إلى قوله
﴿ رَصْدًا ﴾ ^(٧) .

وقوله تعالى ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ
الْكِتَابِ ﴾ ^(٨) .

وقوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ ﴾ ^(٩) .

وفوله تعالى ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ إلى قوله

-
- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ . | (٦) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ . |
| (٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٥ - ٤٦ . | (٧) سورة الجن آية رقم ٢٦ - ٢٧ . |
| (٣) سورة النمل آية رقم ٦٥ . | (٨) سورة الرعد آية رقم ٤٣ . |
| (٤) سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ . | (٩) سورة آل عمران آية رقم ١٨ . |
| (٥) سورة المدثر آية رقم ٣١ . | |

﴿شَهِيداً﴾^(١) .

وقوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢) وقال للملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) وقالت الملائكة ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾^(٤) وفي كثير من كلام الصحابة الله ورسوله أعلم .

وفي الحديث المشهور : «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » وقد قال تعالى ﴿فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٥) .

وأول النزاع النزاع في معاني القرآن ، فإن لم يكن الرسول عالماً بمعانيه امتنع الرد إليه .

وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه ، وتدل عليه ، وتعبر عن مجمله ، وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر .

وقال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(٦) إلى قوله : ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٧) .

ومن أعظم الاختلاف الاختلاف في المسائل العلمية الخبرية ، المتعلقة بالإيمان بالله واليوم الآخر فلا بد أن يكون الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك ، ويمتنع أن يكون حاكماً إن لم يكن معرفة معناه ممكناً ، وقد نصب الله عليه دليلاً وإلا فالحاكم الذي يبين ما في نفسه لا يحكم بشيء

(٥) سورة النساء آية رقم ٥٩ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٧) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٠ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٣٢ .

وكذلك إذا قيل : هو الحاكم بالكتاب ، فإن حكمه فصل يفصل به بين الحق والباطل ، وهذا إنما يكون بالبيان وقد قال تعالى في القرآن ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ (١) أي فاصل يفصل بين الحق والباطل ، فكيف يكون فصلاً إذا لم يكن إلى معرفة معناه سبيل ؟!

وأيضاً فإن الله قال ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢) .

فدم هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى كما دم الذين يحرفون معناه ، ويكذبون ، فقال تعالى ﴿ أَفَتَتَّظَمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

إلى قوله ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فهذا أحد الصنفين ، ثم قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ (٤) أي تلاوة ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ .

ثم دم الذين يفترون كتباً يقولون هي من عند الله ، وما هي من عند الله ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) .

وهذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان :

أحدهما : عالم بالحق يتعمد خلافه ، والثاني جاهل متبع لغيره فالأولون : يبتدعون ما يخالف كتاب الله ، ويقولون هو من عند الله أما أحاديث مفتريات ، وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل ، ويعضدون ذلك بما يدعونه من

(٤) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٧٩ .

(١) سورة الطارق آية رقم ١٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٧٥ .

الرأي والعقل ، وقصدهم بذلك الرياسة والمأكُل ، فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنًا قليلًا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل ، وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك ، وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الالهية ، وقيل لهم هذه تخالفكم ، حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة ، قال الله تعالى : ﴿ أَتَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) وأما النوع الثاني : الجاهل ، فهؤلاء الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، وإن هم إلا يظنون . فعن ابن عباس وقتادة في قوله ﴿ ومنهم أميون ﴾ أي غير عارفين بمعاني الكتاب ، يعلمونها حفظًا وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه .

وقوله ﴿ إلا أماني ﴾ أي تلاوة ، فهم لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعون به يتلى عليهم ، قاله الكسائي والزجاج وكذلك قال ابن السائب لا يحسنون قراءة الكتاب ، ولا كتابته إلا أماني ، إلا ما يحدثهم به علماؤهم .

وقال أبو روق وأبو عبيدة أي تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ولا يقرأونها في الكتب ، ففي هذا القول جعل الأماني التي هي التلاوة تلاوة الأميين أنفسهم ، وفي ذلك جعله ما يسمعون من تلاوة علمائهم ، وكلا القولين حق . والآية تعمهما فإنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ لم يقل : لا يقرأون ولا يسمعون .

ثم قال ﴿ إلا أماني ﴾ وهذا استثناء منقطع .

لكن يعلمون أماني إما بقراءتهم لها ، وإما بسماعهم قراءة غيرهم ، وإن جعل الاستثناء متصلاً كان التقدير لا يعلمون الكتاب إلا علم أماني ، لا علم تلاوة فقط بلا فهم .

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٥ .

والأمانى جمع أمنية وهي التلاوة .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

قال الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر
والأميون نسبة إلى الأمة .

قال بعضهم : إلى الأمة وما عليه العامة ، فمعنى الأمي العامي الذي لا
تميز له ، وقد قال الزجاج : هو على خلق الأمة التي لم تتعلم فهو على
جبلته .

وقال غيره : هو نسبة إلى الأمة ، لأن الكتابة كانت في الرجال دون
النساء ، ولأنه على ما ولدته أمه .

والصواب : أنه نسبة إلى الأمة كما يقال عامي نسبة إلى العامة التي لم
تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة ، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما
يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة .

ويقال الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتاباً . ثم يقال لمن ليس لهم كتاب
منزل من الله يقرأونه ، وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل وبهذا المعنى كان
العرب كلهم أميين ، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله .

قال الله تعالى ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا
فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ (٢)

(١) سورة الحج آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ .

وقال ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (١)

وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب ، وكلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتاباً من حفظهم ، بل هم يقرأون القرآن من حفظهم وأناجيلهم في صدورهم ، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم ، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم ، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال : خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء - وقال فيه - إني مبتليكم ومبتل بك ، وأنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه ، نائماً ويقظاناً (٢) .

فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم ، بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة ، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه ، كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا » (٣) .

فلم يقل : إنا لا نقرأ كتاباً ولا نحفظ ، بل قال : لا نكتب ولا نحسب ، فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب ، كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرم بكتاب وحساب ، ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم ، ولهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع ، وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه .

(١) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في الجنة ٦٣ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الصوم ١٣ باب قول النبي ﷺ - لا نكتب ولا نحسب .

١٩١٣ حدثنا الأسود بن قيس ، حدثنا سعيد بن عمرو أنه سمع ابن عمر - رضي الله عنهما عن النبي ﷺ - أنه قال : وذكره .

وقوله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ ^(١) هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب ، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ ، والأمي في اصطلاح الفقهاء خلاف القاريء : وليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول ، ويعنون به في الغالب من لا يحسن الفاتحة ، ف قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا﴾ ^(٢).

أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة لا يفهمون معناها ، وهذا يتناول من لا يحسن الكتابة ولا القراءة من قبل ، وإنما يسمع أماني علماً ، كما قال ابن السائب ^(٣) ، ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتاب ، كما قال أبو روق وأبو عبيدة وقد يقال : إن قوله ﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أي الخط ، أي لا يحسنون الخط ، وإنما يحسنون التلاوة ، ويتناول أيضاً من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم ما يقرأه ويكتبه .

كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معاني الكتاب ، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ، ولا يدرون ما فيه ، والكتاب هنا المراد به الكتاب المنزل ، وهو التوراة ليس المراد به الخط فإنه قال : ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ^(٤) .

فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعاني الكتاب ، وإلا فكون الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم أن يكون لا علم عنده ، بل يظن ظناً ، بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب وكثير ممن لا يكتب يكون عالماً بمعاني ما يكتبه غيره .

وأيضاً فإن الله ذكر هذا في سياق الذم لهم ، وليس في كون الرجل لا يخط ذم إذا قام بالواجب ، وإنما الذم على كونه لا يعقل الكتاب الذي أنزل إليه ، سواء كتبه وقرأه ، أو لم يكتبه ولم يقرأه ، كما قال النبي ﷺ هذا أوان

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

يرفع العلم - فقال له زياد بن لبید : كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن ، فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا فقال له : «إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ، أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم» (١) وهو حديث معروف رواه الترمذي وغيره .

ولأنه قال تعالى قبل هذا : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فأولئك عقلوه ثم حرفوه ، وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرأونه حفظاً وكتابة ، أو لم يكونوا كذلك ، فكان من المناسب أن يذكر الذين لا يعقلونه وهم الذين لا يعلمونه إلا أماني ، فإن القرآن أنزله الله كتاباً متشابهاً مثاني ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام فيكون مثاني ويذكر الأمثال فيكون متشابهاً ، وهؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرأون فهم أميون من أهل الكتاب ، كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي وساذج وعامي ، وإن كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب إذا كان لا يعرف معناه .

وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه ، كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، دل على أن كلا النوعين مذموم : الجاهل الذي لا يفهم معاني النصوص ، والكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه ، وهذا حال أهل البدع ، فإنهم أحد رجلين : إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه ، ويتكلم برأيه ويؤوله بما يضيفه إلى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ويجعلون تلك المقالات التي ابتدعوها هي مقالة الحق . وهي التي جاء بها الرسول ، والتي كان عليها السلف ، ونحو ذلك ، ثم يحرفون النصوص التي تعارضها ، فهؤلاء إذا تعمدوا ذلك ، وعلموا أن الذي يفعلونه

(١) الحديث رواه الترمذي كما قال المؤلف .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٥ .

مخالف للرسول ، فهم من جنس هؤلاء اليهود ، وهذا يوجد في كثير من الملاحظة ، ويوجد في بعض الأشياء في غيرهم .

وأما الذين قصدهم اتباع الرسول باطناً وظاهراً ، وغلطوا فيما كتبوه وتأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم ، لكن قد وقع بسبب غلطهم ما هو من جنس ذلك الباطل ، كما قيل : إذا زل العالم زل بزلته عالم ، وهذا حال المتأولين من هذه الأمة .

وأما رجل مقلد أمي لا يعرف من الكتاب إلا ما يسمعه منهم أو ما يتلوه هو ، ولا يعرف إلا أمانني ، وقد ذمه الله على ذلك فعلم أن الله ذم الذين لا يعرفون معاني القرآن ولا يتدبرونه ولا يعقلونه ، كما صرح القرآن بذهمهم في غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال : إن أكثر القرآن أو كثيراً منه لا يعلمه أحد من الخلق إلا أمانني ، لا جبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين فإن هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به .

فإن قيل : أفلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية ؟ قيل : نعم لكن معرفة معاني الجميع فرض على الكفاية ، وعلى كل مسلم معرفة ما لا بد منه ، وهؤلاء ذمهم الله لأنهم لا يعلمون معاني الكتاب إلا تلاوة ، وليس عندهم إلا الظن ، وهذا يشبه قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١) .

فإن قيل : فقد قال بعض المفسرين : ﴿ إلا أمانني ﴾ إلا ما يقولونه بأفواههم كذباً وباطلاً .

وروي هذا عن بعض السلف ، واختاره الفراء . وقال : « الأمانني » الأكاذيب المفتعلة .

قال بعض العرب لابن دأب - وهو يحدث - أهذا شيء رويته أم تمنيته ، أي افتعلته ، فأراد بالأمانني الأشياء التي كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ، ثم

(١) سورة هود آية رقم ١١٠ .

أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد ﷺ .

وقال بعضهم : « الأمانى » يتمنون على الله الباطل والكذب ، كقولهم : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ (١) .

وقولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (٢) وهذا أيضاً يروى عن بعض السلف .

قيل : كلا القولين ضعيف ، والصواب الأول لأنه سبحانه قال . ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ (٣) وهذا الاستثناء إما أن يكون متصلاً أو منقطعاً ، فإن كان متصلاً لم يجز استثناء الكذب ولا أمانى القلب من الكتاب ، وإن كان منقطعاً ، فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيهاً له من بعض الوجوه ، فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ ، ليس من جنس المذكور ولهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ وذلك كقوله ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ﴾

ثم قال ﴿ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ (٤) فهذا منقطع ؛ لأنه يحسن أن يقال ﴿ لَا يَذُوقُونَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ (٥) .

وقوله ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ (٦)

يصلح أن يقال : وما لهم إلا اتباع الظن ، فهنا لما قال : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ فإنهم يعلمونه تلاوة يقرأونها ويسمعونها ، ولا يحسن أن يقال : لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم ، أو لا يعلمون إلا الكذب ، فإنهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق أيضاً ، فليس كل ما علموه من علمائهم كان كذباً ،

(١) سورة آل عمران آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٥٧ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ١٨ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٨ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ .

بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب ، فإنه لا يعلم إلا تلاوة .

وأيضاً فهذه الأمانى الباطلة التي تمنوها بقلوبهم وقالوها بألسنتهم كقوله تعالى ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ (١) قد اشتركوا فيها كلهم فلا يخص بالذم الأميون منهم وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه ، ولا لنفي العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه ، بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل ولهذا لما ذم الله بها عموم ولم يخص فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ (٢) الآية .

وأيضاً فإنه قال : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٣) فدل على أنه ذمهم على نفي العلم ، وعلى أنه ليس معهم إلا الظن وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب لا حال من يعلم أنه يكذب ، فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ، ولو أريد ذلك لقليل لا يقولون إلا أمانى ، لم يقل لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً فهم يحرفون معاني الكتاب وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويكذبون في لفظهم وخطهم وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ (٤) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني اسرائيل .

٣٤٥٦ - حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا غسان قال حدثني زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار

عن أبي سعيد - رضي الله عنه أن النبي ﷺ - قال : وذكره .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال « لتأخذن أمتي مآخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع قالوا : يا رسول الله فارس والروم ، قال : ومن الناس إلا أولئك ؟ » (١) .

فهذا دليل على أن ما ذم الله به أهل الكتاب في هذه الآية يكون في هذه الأمة من يشبههم فيه ، وهذا حق قد شوهد .

قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

فمن تدبر ما أخبر الله به ورسوله رأى أنه قد وقع في ذلك أمور كثيرة ، بل أكثر الأمور ، ودله ذلك على وقوع الباقي .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٤ باب قول النبي - ﷺ -

لتبعن سنن من كان قبلكم .

٧٣١٩ - حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة - رضي الله عنه

عن النبي - ﷺ - وذكره . ورواه الامام مسلم في كتاب العلم ٦

(٢) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

فصل

فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة ، ومعرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم ، فكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم ، فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً فكيف بأصول التوحيد والإيمان .

ثم إذا عرف ما بينه الرسول نظر في أقوال الناس وما أرادوه بها ، فعرضت على الكتاب والسنة والعقل الصريح دائماً موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط ، فإن الميزان مع الكتاب ، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان ، لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به ، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وचारوا فيه ، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه ، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول ، لا تخبر بمحالات العقول ، فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم ، وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك : أن يبتدع بدعة برأي رجال وتأويلاتهم ، ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لها ، ويحرف ألفاظه ، ويتأول على وفق ما أصلوه .

وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول ولا يتلقون الهدى منه ، ولكن ما وافقهم منه قبلوه ، وجعلوه حجة لا عمدة ، وما خالفهم تأولوه ، كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، أو فوضوه ، كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني وهؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول ، إما

عجزاً ، وإما تفريطاً ، فإنه يحتاج إلى مقدمتين :

أن الرسول قال كذا ، وأنه أراد به كذا .

أما الأولى فعامتهم لا يرتابون في أنه جاء بالقرآن وإن كان من غلاة أهل البدع من يرتاب في بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها ، وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ ، ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها ، والأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث ، فإن هؤلاء يقطعون قطعاً يقيناً بعمامة المتون الصحيحة التي في الصحيحين كما قد بسطناه في غير هذا الموضع .

وأما المقدمة الثانية : فإنهم قد لا يعرفون معاني القرآن والحديث ومنهم من يقول : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم وقد بسطنا الكلام على فساد ذلك في غير هذا الموضع . وكثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم ، فالنصوص التي توافقهم يحتجون بها ، والتي تخالفهم يتأولونها ، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر اتباع نص أصلاً ، وهذا في البدع الكبار مثل الرفض والجهمية ، فإن الذي وضع الرفض كان زنديقاً ابتداءً تعمد الكذب السريع الذي يعلم أنه كذب ، كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ما افتراه أولئك وهم في شك منه ، كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَبِئْسَ شَكٌّ مِنْهُمْ مُرِيبٌ ﴾ (١) .

وكذلك الجهمية ليس معهم على نفى الصفات وعلو الله على العرش ونحو ذلك نص أصلاً ، لا آية ولا حديث ، ولا أثر عن الصحابة ، بل الذي ابتداءً ذلك لم يكن قصده اتباع الأنبياء بل وضع ذلك كما وضعت عبادة

(١) سورة الشورى آية رقم ١٤ .

الأوثان ، وغير ذلك من أديان الكفار ، مع علمهم بأن ذلك مخالف للرسول كما ذكر عن مبدلة اليهود ، ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك .

وهذا بخلاف بدعة الخوارج ، فإن أصلها ما فهموه من القرآن فغلطوا في فهمه ، ومقصودهم اتباع القرآن باطناً وظاهراً ليسوا زنادقة .

وكذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد الذي جاءت به الرسل ، ويتبعون من القرآن ما دل على ذلك .

فعمر بن عبيد^(١) وأمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول ﷺ كالذي ابتدع الرفض .

وكذلك الأرجاء إنما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين ، ليسوا كفاراً ، قابلوا الخوارج والمعتزلة فصاروا في طرف آخر .

وكذلك التشيع المتوسط - الذي مضمونه تفضيل علي وتقديمه على غيره ، ونحو ذلك لم يكن من إحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه والعصمة ، فإن الذي ابتدع ذلك كان منافقاً زنديقاً ، ولهذا قال عبد الله^(٢) بن المبارك ويوسف بن أسباط^(٣) وغيرهما : أصول البدع أربعة :

الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة .

(١) هو عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء أبو عثمان البصري شيخ المعتزلة في عصره ، ومفتيها ، وأحد الزهاد المشهورين كان جده من سبي فارس ، وأبوه ناسجاً ثم شرطياً للحجاج في البصرة ، واشتهر عمرو بعلمه وزهده ، وأخباره مع المنصور العباسي وغيره ، وفيه قال المنصور : كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد له رسائل وكتب منها « التفسير » والرد على القدرية ، توفي عام ١٤٤ هـ [راجع وفیات الأعيان ١ : ٣٨٤ والبداية والنهاية ١٠ : ٧٨] .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء المروزي أبو عبد الرحمن ، الحافظ ، شيخ الاسلام المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات له كتاب في الجهاد توفي عام ١٨١ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٣ ومفتاح السعادة ٢ : ١١٢ وشذرات ١ : ٢٩٥] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

قالوا : والجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة وكذلك ذكر أبو عبد الله ابن حامد عن أصحاب أحمد في ذلك قولين :

هذا أحدهما ، وهذا أرادوا به التجهم المحض الذي كان عليه جهم نفسه ومتبعوه عليه ، وهو نفي الأسماء مع نفي الصفات بحيث لا يسمي الله بشيء من أسمائه الحسنى ولا يسميه شيئاً ولا موجوداً ، ولا غير ذلك ، وإنما نقل عنه إنه كان يسميه قادراً - لأن جميع الأسماء يسمي بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه ، بخلاف القادر - فإنه كان رأس الجبرية ، وعنده ليس للعبد قدرة ولا فعل ، ولا يسمي غير الله قادراً ، فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً . وشر منه نفاة الأسماء والصفات ، وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة ، ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين ، بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى ، وهؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة ، وإذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا منافقين ، كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وأولئك كانوا أقرب إلى الإسلام من هؤلاء ، فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة ، وهؤلاء قد يقولون برفعها ، فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة ، لكن قد يقال إن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء وأما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطناً وظاهراً ، فهؤلاء من أمة محمد ﷺ بلا ريب .

وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية .

وكذلك الشيعة المفضلين لعلي ، ومن كان منهم يقول بالنص والعصمة مع اعتقاده نبوة محمد ﷺ باطناً وظاهراً وظنه أن ما هو عليه هو دين الإسلام ، فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد ﷺ ، بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .

وعامة هؤلاء ممن يتبع ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ،

كما أن من المنافقين والكفار من يفعل ذلك ولهذا قال طائفة من المفسرين كالربيع بن أنس ، هم النصارى كنصارى نجران .

وقالت طائفة كالكلبي : هم اليهود : وقالت طائفة كابن جريج هم المنافقون .

وقالت طائفة كالحسن هم الخوارج .

وقالت طائفة كقتادة : هم الخوارج والشيعة .

وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ .

يقول : إن لم يكونوا الحرورية ، والسبائية ، فلا أدري من هم .

والسبائية نسبة إلى عبد الله بن سبأ رأس الرافضة

فصل

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك ، والنند قد دل عليه قوله سبحانه ﴿ أَحَدٌ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٢)

وقوله ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٣) .

وأمثال ذلك فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك .

وقول القائل : الأحد أو الصمد أو غير ذلك هو الذي لا ينقسم ولا يتفرق ، أو ليس بمركب ، ونحو ذلك هذه العبارات إذا عنى بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهذا حق ، وإما إن عنى به أنه لا يشار إليه بحال ، أو من جنس ما يعنون بالجواهر الفرد أنه لا يشار إليه بحال ، أو من جنس ما يعنون بالجواهر الفرد أنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء ، فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده ، وإنما يقدر في الذهن تقديراً ، وقد علمنا أن العرب حيث أطلقت لفظ الواحد والأحد نفيًا وإثباتًا لم ترد هذا المعنى فقوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

(١) سورة الاخلاص آية رقم ١ .

(٢) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

(٣) سورة مريم آية رقم ٦٥ .

المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ ﴿١﴾ لم يرد به هذا المعنى الذي فسروا به الواحد والأحد .

وكذلك قوله ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ (٢)

وكذلك قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٣)

فإن المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفواً له ، فإن كان الأحد عبارة عما لا يتميز منه شيء عن شيء ، ولا يشار إلى شيء منه دون شيء ، فليس في الموجودات ما هو أحد إلا ما يدعونه من الجوهر الفرد ، ومن رب العالمين ، وحيث لا يكون قد نفى عن شيء من الموجودات أن يكون كفواً للرب ، لأنه لم يدخل في مسمى واحد وقد بسطنا الكلام على هذا بسطاً كثيراً في المباحث العقلية والسمعية التي يذكرها نفاة الصفات من الجهمية وأتباعهم في كتابنا المسمى «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف - كالإمام أحمد وغيره - على نفي الصفات باسم الواحد .

قال أحمد : قالوا لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء ، قلنا : نحن نقول : كان الله ولا شيء . ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهاً واحداً ، وضربنا لهم في ذلك مثلاً . فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة ، أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخصوص وجمار واسمها شيء واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها ؟ فكذلك الله - وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد ، لا نقول : إنه قد كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة ، ولا نقول : قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى خلق له علماً ولكن نقول : لم يزل عالماً قادراً مالِكاً ،

(١) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١ .

(٣) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

لا متى ولا كيف ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذي ذكره المفسرون يدل على ذلك فإنهم ذكروا أسباباً .

أحدها : ما تقدم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك فنزلت هذه السورة .

والثاني : أن عامر بن الطفيل قال للنبي ﷺ : إلام تدعونا إليه يا محمد ؟ قال : إلى الله .

قال : فصفه لي .

أمن ذهب هو ، أم من فضة ، أم من حديد ؟ فنزلت هذه السورة » .

وروي ذلك عن ابن عباس من طريق أبي ظبيان وأبي صالح عنه .

والثالث : أن بعض اليهود قال ذلك ، قالوا : من أي جنس هو ، وممن ورث الدنيا ، ولمن يورثها ؟ فنزلت هذه السورة ، قاله قتادة والضحاك قال الضحاك وقاتلة ومقاتل : جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : يا محمد صف لنا ربك ، لعلنا نؤمن بك ، فإن الله أنزل نعتة في التوراة ، فأخبرنا به من أي شيء هو ؟

ومن أي جنس هو : أمن ذهب ؟ أم من نحاس هو أم من صفر ، أم من حديد ، أم من فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا ؟ ولمن يورثها ؟ فأنزل الله هذه السورة ، وهي نسبة الله خاصة .

والرابع : ما روي عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي ﷺ بسبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب منهم السيد والعاقب ، فقالوا للنبي ﷺ : صف لنا ربك من أي شيء هو ؟ قال النبي ﷺ : إن ربي ليس من شيء وهو بائن من الأشياء ، فأنزل الله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات وهل هو من مادة ، فبين الله تعالى أنه أحد ، ليس من جنس شيء من المخلوقات ، وأنه صمد

ليس من مادة ، بل هو صمد لم يلد ولم يولد ، وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد ، فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى ، فإن المولود من نظير مادته أكمل من مادة ما خلق من مادة أخرى ، كما خلق آدم من الطين ، فالمادة التي خلق منها أولاده أفضل من المادة التي خلق منها هو . ولهذا كان خلقه أعجب ، فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيهاً ، وهذا كما أنه إذا كان منزهاً عن أن يكون أحد كفواً له ، فلأن يكون منزهاً عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى وهذا مما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد ، على النفي والإثبات ، ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن فالصمدية تثبت الكمال المنافي للنقائص ، والأحادية تثبت الانفراد بذلك .

وكذلك إذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد ، فلأن ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بطريق الأولى والأحرى .

وإذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن ينزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى .

والإنسان يخرج منه مادة الولد ، ويخرج منه مادة غير الولد ، كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك ، ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك .

وقد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك . وأخبر الرسول ﷺ أنهم لا يبولون ، ولا يتغوطون ولا ييصقون ، ولا يتمخطون ، وأنه يخرج منهم مثل رشح المسك وأنهم يجامعون بذكر لا يخفى ، وشهوة لا تنقطع ، ولا مني ولا منية ، وإذا اشتهى أحدهم الولد كان حمله ووضعه في زمن يسير (١) .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٩ باب صفة الجنة ٤٣٣٣ - ثنا محمد بن فضيل عن =

فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد ، وأن يخرج منه شيء من الأشياء ، كما يخرج من غيره من المخلوقات وهذا أيضاً من تمام معنى الصمد ، كما سبق في تفسيره أنه الذي لا يخرج منه شيء ، وكذلك تنزيه نفسه عن أن يولد - فلا يكون من مثله - تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى والأحرى .

وقد تقدم في حديث أبي بن كعب أنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا يورث ، والله تعالى لا يموت ولا يورث وهذا رد لقول اليهود : ممن ورث الدنيا ، ولمن يورثها ؟ وكذلك ما نقل من سؤال النصارى : صف لنا ربك : من أي شيء هو ؟

فقال النبي ﷺ : « إن ربي ليس من شيء ، وهو بائن من الأشياء » (١) .

وكذلك سؤال المشركين واليهود : أمن فضة هو ؟ أم من ذهب هو ؟ أم من حديد ؟

وذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التي يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها ، فعباد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة ، وحديد ، وغير ذلك . وعباد البشر سواء كان البشر لم يأمرهم بعبادتهم ، أو أمرهم بعبادتهم كالذين يعبدون المسيح وعزيراً ، وكقوم فرعون الذين قال لهم ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ

= عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه الامام البخاري في الأنبياء ١ ، وبه الخلق ٨ ، ورواه الامام مسلم في الجنة ١٥ - ١٧ - ١٩ والترمذي في الجنة ٧ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٢ ، ٣٥٣ ، ٣١٦ ، ٣٥٧ (حلي) (١) الحديث رواه الامام أحمد حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغانى حدثنا أبو جعفر الرازي ، حدثنا الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب . وكذا رواه الترمذي ، وابن جرير ، عن أحمد بن منيع زاد ابن جرير ، ومحمود بن خدّاش عن أبي سعيد محمد بن ميسرة به ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد محمد بن ميسرة به ، ثم رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن أبي الربيع عن أبي العالية فذكره مرسلًا .

الْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ﴿٢﴾ وقال لموسى ﴿لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَهَاءُ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾ ﴿٣﴾ وكالذي أتاه الله نصيباً من الملك الذي حاج إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ﴿٤﴾ وكالدجال الذي يدعي الالهية ، وما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال ، وكالذين قالوا : ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ﴿٥﴾ وقد قال غير واحد من السلف : إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم بعد ذلك عبدوهم ، وذلك أول ما عبدت الأصنام وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب ، وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد .

أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل .

وأما سواع فكانت لهذيل .

وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ .

وأما يعوق فكانت لهمدان .

وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع .

أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت .

ونوح عليه السلام أقام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

(٥) سورة نوح آية رقم ٢٣ .

(١) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

التوحيد ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت ذلك في الصحيح .

ومحمد ﷺ خاتم الرسل ، وكلا المرسلين بعث إلى مشركين يعبدون هذه الأصنام التي صورت على صور الصالحين من البشر والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين .

وكذلك المشركون من أهل الكتاب ، ومن مبتدعة هذه الأمة وضلالها هذا غاية شركهم ، فإن النصارى يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأمه ، مثل : مار جرجس وغيره من القديسين ، ويعبدون تلك الصور ، ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين ، وينذرون لها النذور ، ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين .

والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين ، تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذي يدعي ويعبد فيظن داعيه أنه قد أتى ، أو يظن أن الله صور ملكاً على صورته ، فإن النصراني مثلاً يدعو في الأسر وغيره مار جرجس أو غيره فيراه قد أتاه في الهواء وكذلك آخر غيره ، وقد سألوا بعض بطارقهم عن هذا كيف يوجد في هذه الأماكن ، فقال : هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعو ، وإنما تلك شياطين أضلت المشركين .

وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة ، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت ، أو يستغيث به عند قبره ويسأله ، وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره ، أو كلمه ببعض ما سأله عنه ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حياً ، حتى إنني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به ، وقد رأوه أتاهاهم في الهواء فيذكرون ذلك له .

وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ . فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية ، فإن كان يحب الرياسة

سكت ، وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم ، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على صورتى وجعل هذا من كرامات الصالحين ، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ، ويتخذهم أرباباً ، وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم .

ولهذا أعرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه يقول : إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي ، وليستنجدني وليستوصني ، ويقول : أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله ، وتضل أتباعه ، فتحسن لهم الإشراف بالله ، ودعاء غير الله ، والاستغاثة بغير الله ، وأنها قد تلقي في قلبه أنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك ، فيظن هذا من خطاب الهي ألقى في قلبه ، فيأمر أصحابه بذلك ، وأعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه في حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به ، وإعانتهم ، وغير ذلك ، فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ ويشعرون أنه لم يموت ، ويرسلون إلى أصحابه رسائل بخطاب ، وقد كان يجتمع بي بعض أتباع هذا الشيخ ، وكان فيه زهد وعبادة ، وكان يحبني ويحب هذا الشيخ ، ويظن أن هذا من الكرامات ، وأن الشيخ لم يموت ، وذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته فقرأه فإذا هو كلام الشياطين بعينه .

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي فرأوني في الهواء ، وقد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد ، مثل من أحاط به النصارى الأرمن ليأخذوه وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ، ونحو ذلك ، فذكرت لهم أني ما دريت بما جرى أصلاً ، وحلفت لهم على ذلك حتى لا يظنوا أني كتمت ذلك كما تكتم الكرامات ، وأنا قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع ، بل هو شرك

وبدعة ، ثم تبين لي فيما بعد ، وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به .

وحكى لي غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك .

وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فأروا مثل ذلك واستفاض هذا حتى عرف أن هذا من الشياطين .

والشياطين تغوي الإنسان بحسب الإمكان ، فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته في الشرك الظاهر، والكفر المحض ، فأمرته أن لا يذكر الله ، وأن يسجد للشيطان ، ويذبح له وأمرته أن يأكل الميتة والدم ويفعل الفواحش ، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض ، وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف ، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يضعف إيمان أصحابها ، حتى قد جرى ذلك في مصر والشام على أنواع يطول وصفها ، وهو في أرض الشرق قبل ظهور الإسلام في التتار كثير جداً ، وكلما ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم وإن كان مسلماً يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش ، وهذا كثير جداً ، أكثر من الذي قبله في البلاد التي في أهلها إسلام وجاهلية، وبر وفجور وإن كان الشيخ فيه إسلام وديانة ولكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ وقد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات وهو لا يعرف كمال الولاية ، وأنها الإيمان والتقوى واتباع الرسل باطناً وظاهراً ، أو يعرف ذلك مجملًا ولا يعرف من حقائق الإيمان الباطن وشرائع الاسلام الظاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية ، وبين النفسانية والشيطانية كما أن الرؤيا ثلاثة أقسام :

رؤيا من الله ، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، ورؤيا من الشيطان .

فكذلك الأحوال ، فإذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد ﷺ أمرته الشياطين بأمر لا ينكره ، فتارة يحملون أحدهم في الهواء ويقفون به بعرفات ثم يعيدونه إلى بلده ، وهو لابس ثيابه لم يحرم حين حاذى المواقيت ، ولا كشف رأسه ولا تجرد عما يتجرد عنه المحرم ، ولا يدعونه بعد الوقوف يطوف طواف الإفاضة ، ويرمي الجمار ويكمل حجه ، بل يظن أن مجرد الوقوف - كما فعل - عبادة .

وهذا من قلة علمه بدين الإسلام ، ولو علم دين الإسلام لعلم أن هذا الذي فعله ليس عبادة لله ، وأنه من استحل هذا فهو مرتد يجب قتله ، بل اتفق المسلمون على أنه يجب الإحرام عند الميقات ، ولا يجوز للإنسان المحرم اللبس في الإحرام إلا من عذر ، وأنه لا يكفي بالوقوف ، بل لا بد من طواف الإفاضة باتفاق المسلمين ، بل وعليه أن يفيض إلى المشعر الحرام ، ويرمي جمرة العقبة ، وهذا مما تنوزع فيه ، هل هو ركن ، أو واجب يجبره دم ؟

وعليه أيضاً رمي الجمار أيام منى باتفاق المسلمين ، وقد تحمل أحدهم الجن فتزوره بيت المقدس وغيره ، وتطير به في الهواء ، وتمشي به في الماء ، وقد تريه أنه قد ذهب به إلى مدينة الأولياء ، وربما أرته أنه يأكل من ثمار الجنة ويشرب من أنهارها .

وهذا كله وأمثاله مما أعرفه قد وقع لمن أعرفه ، لكن هذا باب طويل ليس هذا موضع بسطه .

وإنما المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين ، وعبادة تماثيلهم ، وهم المقصودون .

ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب ، إما الشمس وإما القمر ، وإما غيرهما ، وصورت الأصنام طلائع تلك الكواكب وشرك قوم إبراهيم - والله أعلم - كان من هذا ، أو كان بعضه من هذا .

ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن ، وضعت الأصنام لأجلهم ، وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذاتها ، بل لأسباب اقتضت ذلك .

وشرك العرب كان أعظمه الأول ، وكان فيه من الجميع .

فإن عمرو بن لحي^(١) هو أول من غير دين إبراهيم - عليه السلام - وكان قد أتى الشام وراهم باللقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع ويدفعون بها المضار ، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش ، وكان هو سيد خزاعة . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق يجر قصبه في النار - أي أمعاءه - وهو أول من غير دين إبراهيم وسيب السوائب ، وبحر البحيرة^(٢) » وكذلك - والله أعلم - شرك قوم نوح ، وإن كان مبدأه من عبادة الصالحين ، فالشيطان يجر الناس من هذا إلى غيره لكن هذا أقرب إلى الناس ، لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه ، فيعكفون على قبره ، ويقصدون ذلك منه فتارة يسألونه ، وتارة يسألون الله به ، وتارة يصلون ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت .

ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبي ﷺ هذا الباب ، كما سد باب الشرك بالكواكب .

ففي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني

(١) هو عمر بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي من قحطان أول من غير دين اسماعيل ، ودعا العرب الى عبادة الأوثان ، كنيته أبو ثمامة زار بلاد الشام ودخل أرض مواب في وادي الأردن باللقاء فوجد أهلها يعبدون الأصنام فنقلها الى الكعبة [راجع الأصنام لابن الكلبي ٨ واليعقوبي ١ : ٢١١ والبداية والنهاية ٢ : ١٨٧] .

(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٦٦ (حلي).

أنهاكم عن ذلك» (١) .

وفي الصحيحين عنه ﷺ ذكر له كنيسة بأرض الحبشة ، وذكر من حسننها وتصاوير فيها ، فقال : « إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة » (٢) .

وفي الصحيحين عنه أنه قال ﷺ في مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا » (٣) .

قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

وفي مسند أحمد وصحيح أبي حاتم عنه أنه قال ﷺ « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » (٤) .

وفي سنن أبي داود وغيره عنه أنه قال ﷺ « لا تتخذوا قبوري عيداً ، وصلوا علي حيث ما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني » (٥) .

وفي موطأ مالك عنه أنه قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٦) .

وفي صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المساجد ١٩ ، ٢٠ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الصلاة ٤٨ ، ٥٢ والجنايز ٩٦ ، والأنبياء ٥٠ ، ورواه الامام مسلم في المساجد ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) الحديث رواه البخاري في الصلاة ٤٨ والجنايز ٦٢ ، والأنبياء ٥٠ والمغازي ٨٣ ، ورواه الامام مسلم في المساجد ١٩ ، ٢٣ ورواه صاحب الموطأ في المدينة ١٧ .

(٤) الحديث عند الامام أحمد في المسند ١ : ٢١٨ ، ٢ : ٢٦٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ (حلي) .

(٥) الحديث رواه أبو داود في المناسك ٩٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٧ (حلي) .

(٦) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب قصر الصلاة في السفر ٢٤ باب جامع الصلاة ٨٥ وحدثني عن مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار أن رسول الله - ﷺ قال وذكره .

طالب - رضي الله عنه - ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ، أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالاً إلا طمسته » (١) فأمره بمحو التمثالين الصورة الممثلة على صورة الميت ، والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره ، فإن الشرك يحصل بهذا وبهذا .

وقد ثبت عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه كان في سفر فرأى قوماً يتتابون مكاناً للصلاة فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ فقال : إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد ، من أدركته الصلاة فليصل ، وإلا فليمض (٢) . وبلغه أن قوماً يذهبون إلى الشجرة التي بايع النبي ﷺ أصحابه تحتها فأمر بقطعها .

وأرسل إليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال ، وعنده مصحف فيه أخبار ما سيكون ، قد ذكر فيه أخبار المسلمين ، وأنهم إذا أجذبوا كشفوا عن القبر فمطروا ، فأرسل إليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ، ويدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتنوا به ، فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله ، وإن لم يبين عليها مسجداً كان بناء المساجد عليها أعظم كذلك قال العلماء : يحرم بناء المساجد على القبور ويجب هدم كل مسجد بني على قبر ، وإن كان الميت قد قبر في مسجد ، وقد طال مكثه سوي القبر حتى لا تظهر صورته ، فإن الشرك إنما يحصل إذا ظهرت صورته ، ولهذا كان مسجد النبي ﷺ أولاً مقبرة للمشركين ، وفيها نخل وخرب ، فأمر بالقبور فنبشت ، وبالنخل فقطع ، وبالخرب فسويت ، فخرج عن أن يكون مقبرة ، فصار مسجداً .

ولما كان اتخاذ القبور مساجد ، وبناء المساجد عليها محرماً ، ولم يكن

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الجنائز ٩٣ ، ورواه أبو داود في الجنائز ٦٨ ، والترمذي في

الجنائز ٥٦ ، والنسائي في الجنائز ٩٩ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١٢٩ (حلي) .

(٢) لم نعثر على هذا الأثر ولعله في مصنف عبد الرزاق .

شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يكن يعرف قط مسجد على قبر وكان الخليل عليه السلام في المغارة التي دفن فيها وهي مسدودة لا أحد يدخل إليها ، ولا تشد الصحابة الرحال لا إليه ولا إلى غيره من المقابر ؛ لأن في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا ، فكان يأتي من يأتي منهم إلى لمسجد الأقصى يصلون فيه ، ثم يرجعون ، لا يأتون مغارة الخليل ولا غيرها ، وكانت مغارة الخليل مسدودة ، حتى استولى النصارى على الشام في أواخر المائة الرابعة ، ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة ، ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذوه بعض الناس مسجداً .

وأهل العلم ينكرون ذلك ، والذي يرويه بعضهم في حديث الإسراء أنه قيل للنبي ﷺ : هذه طيبة أنزل فصل ، فنزل فصلى ، هذا مكان أبيك ، أنزل فصل ، كذب موضوع ، لم يصل النبي ﷺ تلك الليلة إلا في المسجد الأقصى خاصة ، كما ثبت في الصحيح ، ولا نزل إلا فيه .

ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصي عددهم إلا الله .

وقدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس ، وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية وشرط عليهم الشروط المعروفة وقدمها مرة ثالثة حتى وصل إلى سرغ ، ومعه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل ولا غيرها من آثار الأنبياء التي بالشام لا بيت المقدس ، ولا بدمشق ولا غير ذلك ، مثل الآثار الثلاثة التي بجبل قاسيون في غربيه الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام ، وفي شرقيه المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام ، وفي وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل ، فهذه البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها ولا يزورونها ، ولا يرجون منها بركة ، فإنها محل الشرك .

ولهذا توجد فيها الشياطين كثيراً ، وقد رأهم غير واحد على صورة
الإنس ، ويقولون لهم رجال الغيب ، يظنون أنهم رجال من الإنس غائبين عن
الأبصار ، وإنما هم جن ، والجن يسمون رجالاً ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ^(١) .
والإنس سموا إنساً لأنهم يؤنسون كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ ^(٢)
أي رأيته .

والجن سموا جنّاً لاجتنانهم ، يجتنون عن الأبصار أي يستترون . كما
قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ ^(٣) أي استولى عليه فغطاه وستره ، وليس
أحد من الإنس يستتر دائماً عن أبصار الإنس ، وإنما يقع هذا لبعض الإنس
في بعض الأحوال ، تارة على وجه الكرامة له وتارة يكون من باب السحر
وعمل الشياطين .

وليسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر . والمقصود ها
هنا أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبي ولا رجل
صالح مسجداً ، ولا جعلوه مشهداً ومزاراً ، ولا على شيء من آثار الأنبياء مثل
مكان نزل فيه أو صلى فيه ، أو فعل فيه شيئاً من ذلك ، لم يكونوا يقصدون
بناء مسجد لأجل آثار الأنبياء والصالحين ، ولم يكن جمهورهم يقصدون
الصلاة في مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه ، بل نزل فيه أو صلى فيه
اتفاقاً ، بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب وغيره ينهي عن قصد الصلاة في
مكان صلى فيه رسول الله ﷺ اتفاقاً لا قصداً .

وإنما نقل عن ابن عمر خاصة أنه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول

(١) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٠ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٦ .

الله ﷺ ، وينزل حيث نزل . ويصلي حيث صلى ، وإن كان النبي ﷺ لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل ، بل حصل اتفاقاً .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً صالحاً شديد الاتباع ، فرأى هذا من الاتباع ، وأما أبوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلي وسائر العشرة وغيرهم ، مثل ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل ابن عمر وقول الجمهور أصح .

وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل ، على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل .

فإذا قصد الصلاة والعبادة في مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة في ذلك المكان متابعة له ، وأما إذا لم يقصد تلك البقعة ، فإن قصدها يكون مخالفة لا متابعة له .

مثال الأول لما قصد الوقوف والذكر والدعاء بعرفة ومزدلفة وبين الجمرتين كان قصد تلك البقاع متابعة له ، وكذلك لما طاف وصلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له .

وكذلك لما صعد على الصفا والمروة للذكر والدعاء كان قصد ذلك متابعة له .

وقد كان سلمة بن الأكوع^(١) يتحرى الصلاة عند الأسطوانة قال : لأنني رأيت رسول الله ﷺ يتحرى الصلاة عندها فلما رآه يقصد تلك البقعة لأجل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة .

وكذلك لما أراد عتيان بن مالك أن يبني مسجداً لما عمي فأرسل إلى رسول الله ﷺ قال له : إني أحب أن تأتيني تصلي في منزلي فأتخذه مصلي .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وفي رواية فقال : تعال فخط لي مسجداً ، فأتى النبي ﷺ ومن شاء من أصحابه .

وفي رواية النهار : فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له ، فلم يجلس حتى دخل البيت ، فقال : أين تحب أن أصلي من بيتك ؟ فأشرت له إلى ناحية من البيت ، فقام رسول الله ﷺ فقمنا وراءه فصلّى ركعتين ثم سلم . الحديث .

فإنه قصد أن يبنى مسجداً ، وأحب أن يكون أول من يصلي فيه النبي ﷺ ، وأن يبنيه في الموضع الذي صلى فيه ، فالمقصود كان بناء المسجد ، وأراد أن يصلي النبي ﷺ في المكان الذي يبنيه ، فكانت الصلاة مقصودة لأجل المسجد ، لم يكن بناء المسجد مقصوداً لأجل كونه صلى فيه اتفاقاً .

وهذا المكان مكان قصد النبي ﷺ الصلاة فيه ليكون مسجداً ، فصار قصد الصلاة فيه متابعة له ، بخلاف ما اتفق أنه صلى فيه بغير قصد .

وكذلك قصد يوم الاثنين والخميس بالصوم متابعة لأنه قصد صوم هذين اليومين .

وقال في الحديث الصحيح « إنه تفتح أبواب الجنة في كل خميس واثنين ، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال : انظروا هذين حتى يصطلحا » (١) .

وكذلك قصد إتيان مسجد قباء متابعة له ، فإنه قد ثبت عنه في الصحيحين أنه كان يأتي قباء كل سبت ركباً وماشيئاً . وذلك أن الله أنزل عليه : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ (٢) .

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب حسن الخلق ٤ باب ما جاء في المهاجرة ١٧ وحدثني عن مالك ، عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ قال وذكره . [وأخرجه الامام مسلم في ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ١١ باب النهي عن الشحناء والتهاجر حديث ٣٤] .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ .

وكان مسجده هو الأحق بهذا الوصف ، وقد ثبت في الصحيح أنه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال : هو مسجدي هذا « يريد أنه أكمل في هذا الوصف من مسجد قباء ، ومسجد قباء أيضاً أسس على التقوى ، وبسببه نزلت الآية : ﴿ فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ^(١) وكان أهل قباء مع الوضوء والغسل يستنجون بالماء ، تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود ، ولم تكن العرب تفعل ذلك فأراد النبي ﷺ أن لا يظن ظان أن ذاك هو الذي أسس على التقوى دون مسجده ، فذكر أن مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوى فقلوه ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ ^(٢) يتناول مسجده ومسجد قباء ، ويتناول كل مسجد أسس على التقوى بخلاف مساجد الضرار .

ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه ذلك ويرون العتيق أفضل من الجديد ، لأن العتيق أبعد أن يكون بني ضراراً من الجديد الذي يخاف ذلك فيه ، وعق المسجد مما يحمد به ، ولهذا قال ﴿ ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ ^(٣) .

وقال ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ ^(٤) فإن قدمه يقتضي كثرة العبادة فيه أيضاً ، وذلك يقتضي زيادة فضله ، ولهذا لم يستجب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد شيء من المساجد والمزارات التي بالمدينة وما حولها بعد مسجد النبي ﷺ إلا مسجد قباء ، لأن النبي ﷺ لم يقصد مسجداً بعينه يذهب إليه إلا هو .

وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الأنصار مسجد لكن ليس في قصده دون أمثاله فضيلة ، بخلاف مسجد قباء فإنه أول مسجد بني في المدينة على الإطلاق ، وقد قصده الرسول ﷺ بالذهاب إليه ، وصح عنه ﷺ أنه

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٩٦ .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ .

قال: « من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة » (١) .

ومع هذا فلا يسافر إليه ، لكن إذا كان الإنسان بالمدينة أتاه ولا يقصد إنشاء السفر إليه ، بل يقصد إنشاء السفر إلى المساجد الثلاثة لقوله ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » (٢) .

ولهذا لو نذر السفر إلى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، بخلاف المسجد الحرام فإنه يجب الوفاء بالنذر إليه باتفاقهم ، وكذلك مسجد المدينة ، وبيت المقدس في أصح قولهم ، وهو مذهب مالك وأحمد والشافعي في أحد قوليه وفي الآخر وهو قول أبي حنيفة ليس عليه ذلك ، لكنه جائز ومستحب ، لأن من أصله أنه لا يجب بالنذر إلا ما كان واجباً بالشرع ، والأكثرون يقولون : يجب بالنذر كل ما كان طاعة لله ، كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » (٣) .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٩٧ باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء .

١٤١١ - عن عبد الحميد بن جعفر ثنا أبو الأبرد ، مولى بني خزيمة أنه سمع أسيد بن ظهير الأنصاري ، وكان من أصحاب النبي - ﷺ - يحدث عن النبي - ﷺ - أنه قال وذكره . ورواه الترمذي في المواقيت ١٢٥ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في مسجد مكة ١ ، ٦ والصوم ٦٧ ، والصيد ٢٦ ، ورواه الامام مسلم في الحج ٤١٥ ، ٥١١ ، ٥١٢ وأبو داود في المناسك ٩٤ ، والترمذي في الصلاة ١٢٦ والنسائي في المساجد ١٠ والدارمي في الصلاة ١٣٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٧٨ ، ٥٠١ ، ٣ : ٧ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧١ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في الايمان ٢٨ ، ٣١ ورواه أبو داود في الايمان ١٩ ، والترمذي في النذور ٢ والنسائي في الايمان ٢٧ ، ٢٨ وابن ماجه في الكفارات ١٦ ، وصاحب الموطأ نذور ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٦ (حلي)

ويستحب أيضاً زيارة قبور أهل البقيع ، وشهداء أحد للدعاء لهم والاستغفار ؛ لأن النبي ﷺ كان يقصد ذلك مع أن هذا مشروع لجميع موتى المسلمين ، كما يستحب السلام عليهم والدعاء لهم والاستغفار ، وزيارة القبور بهذا القصد مستحبة ، وسواء في ذلك قبور الأنبياء والصالحين وغيرهم وكان عبدالله بن عمر إذا دخل المسجد يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ثم ينصرف .

وأما زيارة قبور الأنبياء والصالحين لأجل طلب الحاجات منهم أو دعائهم والإقسام بهم على الله ، أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه في المساجد والبيوت فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين .

ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك ، ولا كانوا إذا سلموا على النبي ﷺ يقفون يدعون لأنفسهم ، ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء ، وقالوا : إنه من البدع التي لم يفعلها السلف .

واتفق العلماء الأربعة وغيرهم من السلف على أنه إذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة ، ولا يستقبل قبر النبي ﷺ ، وأما إذا سلم عليه فأكثروهم قالوا : يستقبل القبر ، قاله مالك والشافعي وأحمد .

وقال أبو حنيفة : بل يستقبل القبلة أيضاً ، ويكون القبر عن يساره ، وقيل : بل يستدبر القبلة .

ومما يبين هذا الأصل أن رسول الله ﷺ لما هاجر هو وأبو بكر ذهباً إلى الغار الذي بجبل ثور^(١) ولم يكن على طريقهما بالمدينة ، فإنه من ناحية اليمن ، والمدينة من ناحية الشام ولكن اختبأ فيه ثلاثاً لينقطع خبرهما عن

(١) ثور جبل بمكة وفيه الغار المذكور في القرآن ، وفي الحديث « حرم ما بين عير إلى ثور » . قال أبو عبيدة : أصل الحديث حرم ما بين عير إلى أحد ، لأنه ليس بالمدينة جبل يقال له ثور ، وقال غيره إلى بمعنى مع كأنه جعل المدينة مضافة إلى مكة في التحريم . والثور : برج في السماء

المشركين ، فلا يعرفون أين ذهبها ، فإن المشركين كانوا طالبين لهما ، وقد بذلوا في كل واحد منهما ديتة لمن يأتي به وكانوا يقصدون منع النبي ﷺ أن يصل إلى أصحابه بالمدينة ، وأن لا يخرج من مكة ، بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة ، فلو سلك الطريق ابتداء لأدركوه ، فأقام بالغار ثلاثاً لأجل ذلك فلو أراد المسافر من مكة إلى المدينة أن يذهب إلى الغار ثم يرجع لم يكن ذلك مستحباً بل مكروهاً ، والنبي ﷺ في الهجرة سلك طريق الساحل وهي طويلة ، وفيها دورة ، وأما في عمرته وحجته فكان يسلك الوسط ، وهو أقرب إلى مكة ، فسلك في الهجرة طريق الساحل ، لأنها كانت أبعد عن قصد المشركين ، فإن الطريق الوسطى كانت أقرب إلى المدينة ، فيظنون أنه سلكها ، كما كان إذا أراد غزوة يرى بغيرها .

وهو ﷺ لما قسم غنائم حنين بالجعرانة اعتمر منها ، ولما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية ، وكان قد أنشأ الإحرام بالعمرة من ميقات المدينة ذي الحليفة ، ولم يدخل الكعبة في عمره ولا حجته ، وإنما دخلها عام الفتح ، وكان بها صور مصورة فلم يدخلها حتى محيت تلك الصور ، وصلى بها ركعتين ، وصلى يوم الفتح ثمان ركعات وقت الضحى كما روت ذلك أم هانئ .

ولم يكن يقصد الصلاة وقت الضحى إلا لسبب مثل أن يقدم من سفر ، فيدخل المسجد فيصلّي فيه ركعتين ، ومثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلّي بالنهار ثنتي عشرة ركعة شفعاً لفوات وقت الوتر ، فإنه ﷺ قال : « المغرب وتر صلاة النهار ، فأوتروا صلاة الليل وقال : اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً » (١) .

وقال « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بركة » (٢)

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٣٠ ، ٤١ ، ٨٣ ، ١٥٤ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الإمام النسائي في قيام الليل ٣٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٧٥ (حلي) .

والمأثور عن السلف أنهم إذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر ،
ولا يؤخرونه إلى ما بعد الصلاة .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنهما أنها قالت : ما صلى رسول
الله ﷺ سبحة الضحى قط ، وإنني لأسبحها وإن كان ليدع العمل وهو يحب
أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ، وقد ثبت عنه في
الصحيح أنه أوصى بركعتي الضحى لأبي هريرة ، ولأبي الدرداء ، وفيها
أحاديث ، لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة
الضحى .

وقال آخرون : لم يصلها إلا يوم الفتح ، فعلم أنه صلاها لأجل الفتح ،
وكانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلي الإمام ثمان ركعات شكراً لله ،
ويسمونها صلاة الفتح ، قالوا : لأن الاتباع يعتبر فيه القصد ، والنبى ﷺ لم
يقصد الصلاة لأجل الوقت ، ولو قصد ذلك لصلى كل يوم ، أو غالب الأيام
كما كان يصلي ركعتي الفجر كل يوم ، وكذلك كان يصلي بعد الظهر
ركعتين ، وقبلها ركعتين أو أربعاً ، ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاها بعد
العصر ، وهو ﷺ لما نام هو وأصحابه عن صلاة الفجر في غزوة خيبر فصلوا
بعد طلوع الشمس ركعتين ، ثم ركعتين ، لم يقل أحد : إن هذه الصلاة في
هذا الوقت سنة دائماً ، لأنهم إنما صلوها قضاء لكونهم ناموا عن الصلاة ،
ولما فاتته العصر في بعض أيام الخندق فصلوها بعدما غربت الشمس .

وروي أن الظهر فاتته أيضاً فصلى الظهر ، ثم العصر ، ثم المغرب ،
ولم يقل أحد : إنه يستحب أن يصلي بين العشاءين إحدى عشرة ركعة ، لأن
ذلك كان قضاء ، بل ولا نقل عنه أحد أنه خص ما بين العشاءين بصلاة .

وقوله تعالى ﴿ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ ^(١) عند أكثر العلماء هو إذا قام الرجل بعد

(١) سورة المزمل آية رقم ٦ .

نوم ليس هو أول الليل ، وهذا هو الصواب ؛ لأن النبي ﷺ هكذا كان يصلي ، والأحاديث بذلك متواترة عنه ، كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين .

وكذلك أكله ما كان يجد من الطعام ، ولبسه الذي يوجد بمدينة طيبة مخلوقاً فيها ، ومجلوباً إليها من اليمن وغيرها ، لأنه هو الذي يسره الله له ، فأكله التمر . وخبزه الشعير ، وفاكهته الرطب والبطيخ الأخضر والقش ، ولبس ثياب اليمن ، لأن ذلك هو كان أيسر في بلده من الطعام والثياب ، لا لخصوص ذلك فمن كان ببلد آخر وقوتهم البر والذرة ، وفاكهتهم العنب والرمان ونحو ذلك ، وثيابهم مما ينسج بغير اليمن القز لم يكن إذا قصد أن يتكلف من القوت والفاكهة واللباس ما ليس في بلده - بل يتعسر عليهم - متبعاً للرسول ﷺ ، وإن كان ذلك الذي يتكلفه تمراً أو رطباً أو خبز شعير .

فعلم أنه لا بد في المتابعة للنبي ﷺ من اعتبار القصد والنية ، فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فعلم أن الذي عليه جمهور الصحابة وأكابرهم هو الصحيح ومع هذا فابن عمر رضي الله عنهما لم يكن يقصد أن يصلي إلا في موضع نزوله ومقامه ، ولا كان أحد من الصحابة يذهب إلى الغار المذكور في القرآن للزيارة والصلاة فيه - وإن كان النبي ﷺ وصاحبه أقاما به ثلاثاً يصلون فيه الصلوات الخمس - ولا كانوا أيضاً يذهبون إلى حراء وهو المكان الذي كان يتعبد فيه قبل النبوة وفيه نزل عليه الوحي أولاً . وكان هذا مكان يتعبدون فيه قبل الإسلام فإن حراء أعلى جبل كان هناك ، فلما جاء الإسلام ذهب النبي ﷺ إلى مكة مرات بعد أن أقام بها قبل الهجرة بضع عشرة سنة ، ومع هذا فلم يكن هو ولا أصحابه يذهبون إلى حراء .

ولما حج النبي ﷺ استلم الركنين اليمانيين ولم يستلم الشاميين ؛ لأنهما لم يبنيا على قواعد ابراهيم فإن أكثر الحجر من البيت ، والحجر الأسود استلمه وقبله واليماني استلمه ولم يقبله ، وصلى بمقام ابراهيم ولم يستلمه

ولم يقبله ، فدل ذلك على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة ، ودل على أن استلام مقام ابراهيم وتقبيله ليس بسنة ، وإذا كان هذا نفس الكعبة ، ونفس مقام ابراهيم بها ، فمعلوم أن جميع المساجد حرمتها دون الكعبة ، وإن مقام ابراهيم بالشام وغيرها ، وسائر مقامات الأنبياء دون المقام الذي قال الله فيه ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (١) .

فعلم أن سائر المقامات لا تقصد للصلاة فيها ، كما لا يحج إلى سائر المشاهد ، ولا يتمسح بها ، ولا يقبل شيء من مقامات الأنبياء ولا المساجد ولا الصخرة ولا غيرها ، ولا يقبل ما على وجه الأرض إلا الحجر الأسود .

وأيضاً فالنبي ﷺ لم يصل بمسجد بمكة إلا المسجد الحرام ، ولم يأت للعبادات إلا المشاعر : منى ، ومزدلفة وعرفة ، فلهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجداً بمكة للصلاة غير المسجد الحرام ، ولا تقصد بقعة للزيارة غير المشاعر التي قصدها رسول الله ﷺ وإذا كان هذا في آثارهم ، فكيف بالمقابر التي لعن رسول الله ﷺ من اتخذها مساجد ، وأخبر أنهم شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

ودين الإسلام أنه لا تقصد بقعة للصلاة إلا أن تكون مسجداً فقط ، ولهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرام تقصد للنسك لا للصلاة ، فلا صلاة بعرفة ، وإنما صلى النبي ﷺ الظهر والعصر يوم عرفة بعرفة خطب بها ثم صلى ، ثم بعد الصلاة ذهب إلى عرفات فوقف بها ، وكذلك يذكر الله ويدعي بعرفات وبمزدلفة على قزح ، وبالصفاء والمروة ، وبين الجمرات ، وعند الرمي ، ولا تقصد هذه البقاع للصلاة وأما غير المساجد ، ومشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة ولا للذكر ولا للدعاء ، بل يصلي المسلم حيث أدركته

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢٥ وتكملة الآية ﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

الصلاة إلا حيث نهى، ويذكر الله ويدعوه حيث تيسر من غير قصد تخصيص بقعة بذلك ، وإذا اتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك ، كما نهى عن الصلاة في المقبرة ، إلا ما يفعله الرجل عند السلام على الميت من الدعاء له وللمسلمين ، كما يفعل مثل ذلك في الصلاة على الجنازة ، فإن زيارة قبر المؤمن من جنس الصلاة على جنازته ، يفعل في هذا من جنس ما يفعل في هذا ، ويقصد بالدعاء هنا ما يقصد بالدعاء هنا ومما يشبه هذا أن الأنصار بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة بالوادي الذي وراء جمرة العقبة ؛ لأنه مكان منخفض قريب من منى ، يستمر من فيه ، فإن السبعين الأنصار كانوا قد حجوا مع قومهم المشركين ، وما زال الناس يحجون إلى مكة قبل الإسلام وبعده فجاؤوا مع قومهم إلى منى ؛ لأجل الحج ، ثم ذهبوا بالليل إلى ذلك المكان لقربه وسره لا لفضيلة فيه ولم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه -

ولهذا لما حج النبي ﷺ هو وأصحابه لم يذهبوا إليه ، ولا زاروه ، وقد بني هناك مسجد ، وهو محدث وكل مسجد بمكة وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث ، ومنى نفسها لم يكن بها على عهد النبي ﷺ مسجد مبني ولكن قال : منى مناخ لمن سبق ، فنزل بها المسلمون وكان يصلي بالمسلمين بمنى ، وغير منى ، وكذلك خلفاؤه من بعده ، واجتماع الحجاج بمنى أكثر من اجتماعهم بغيرها فإنهم يقيمون بها أربعاً ، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر يصلون بالناس بمنى وغير منى ، وكانوا يقصرون الصلاة بمنى وعرفة ومزدلفة ، ويجمعون بين الظهر والعصر بعرفة ، والمغرب والعشاء بمزدلفة ويصلي بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة وغير أهل مكة وكلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر ، وكلهم يجمعون بعرفة ومزدلفة .

وقد تنازع العلماء في أهل مكة ونحوهم ، هل يقصرون ، أو يجمعون ؟

ف قيل :- لا يقصرون ، ولا يجمعون ، كما يقول ذلك من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد ، وقيل : يجمعون ولا يقصرون ، كما يقول ذلك أبو

حنيفة وأحمد ومن وافقه من أصحابه وأصحاب الشافعي .

وقيل : يجمعون ويقصرون كما قال ذلك مالك وابن عيينة واسحاق بن راهويه (١) وبعض أصحاب أحمد وغيرهم ، وهذا هو الصواب بلا ريب فإنه الذي فعله أهل مكة خلف النبي ﷺ بلا ريب .

ولم يقل النبي ﷺ قط ولا أبو بكر ولا عمر بمنى ولا عرفة ولا مزدلفة : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإننا قوم سفر ، ولكن ثبت أن عمر قال ذلك في جوف مكة ، وكذلك في السنن عن النبي ﷺ أنه قال ذلك في جوف مكة في غزوة الفتح ، وهذا من أقوى الأدلة على أن القصر مشروع لكل مسافر ، ولو كان سفره بريداً ، فإن عرفة من مكة بريد أربع فراسخ ، ولم يصل النبي ﷺ ولا خلفاؤه بمكة صلاة عيد ، بل ولا صلى في أسفاره قط صلاة العيد ، ولا صلى بهم في أسفاره صلاة جمعة يخطب ، ثم يصلي ركعتين بل كان يصلي يوم الجمعة في السفر ركعتين ، كما يصلي في سائر الأيام . وكذلك لما صلى بهم الظهر والعصر بعرفة صلى ركعتين كصلاته في سائر الأيام ، ولم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة في السفر ، لا بعرفة ولا بغيرها ، ولا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة في السفر .

فعلم أن الصواب ما عليه سلف الأمة وجماهيرها من الأئمة الأربعة وغيرهم ، من أن المسافر لا يصلي جمعة ولا غيرها وجهورهم أيضاً على أنه لا يصلي عيداً ، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين ، وهذا هو الصواب أيضاً ، فإن النبي ﷺ وخلفاءه لم يكونوا يصلون العيد إلا

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي أبو يعقوب بن راهويه ، عالم خراسان في عصره من سكان مرو ، وهو أحد كبار الحفاظ ، طاف البلاد لجمع الحديث ، وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي وغيرهم ، رحل الى العراق ، والحجاز ، والشام ، واليمن ، وله تصانيف منها « المسند » توفي عام ٢٣٨ هـ [راجع تهذيب ابن عساکر ٢ : ٤٠٩ - ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ وحلية الأولياء ٩ : ٢٣٤ وطبقات الحنابلة ٦٨] .

في المقام ، لا في السفر .

ولم يكن يصلي صلاة العيد إلا في مكان واحد مع الإمام يخرج بهم إلى الصحراء فيصلي هناك ، فيصلي المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد ، كما يصلون الجمعة ، ولم يكن أحد من المسلمين يصلي صلاة عيد في مسجد قبيلته ولا بيته كما لم يكونوا يصلون جمعة في مساجد القبائل ، ولا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلي صلاة عيد على عهد النبي ﷺ وخلفائه بل عيدهم بمنى بعد إفاضتهم من المشعر الحرام ، ورمي جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لسائر أهل الأمصار يرمون ثم ينحرون وسائر أهل الأمصار يصلون ثم ينحرون ، والنبي ﷺ لما أفاض من منى نزل بالمحصب ، فاختلف أصحابه أهل التحصيب سنة لاختلافهم في قصده ، هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان أسمع لخروجه .

وهذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم في المتابعة . ولما اعتمر عمرة القضية وكانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد وكان المشركون قد قالوا : يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يشرب وقعد المشركون خلف قعيقان ، وهو جبل المروة ينظرون إليهم فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ليرى المشركون جلدتهم وقوتهم .

وروي أنه دعا لمن فعل ذلك ، ولم يرملوا بين الركنتين ؛ لأن المشركين لم يكونوا يرونهم من ذلك الجانب فكان المقصود بالرمل إذ ذاك من جنس المقصود بالجهاد ، فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك ، لأنه فعل لقصد وزال ، لكن ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ وأصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الأسود إلى الحجر الأسود فكملوا الرمل بين الركنتين وهذا قدر زائد على ما فعلوه في عمرة القضية ، وفعل ذلك في حجة الوداع مع الأمن العام ، فإنه لم يحج معه إلا مؤمن ، فدل ذلك على أن الرمل صار من سنة الحج فإنه فعل أولاً لمقصود الجهاد ، ثم شرع نسكا ، كما روي في سعي هاجر ، وفي

رمي الجمار ، وفي ذبح الكبش : أنه فعل أولاً لمقصود ، ثم شرعه الله نِسْكَاً وعبادة ، لكن هذا يكون إذا شرع الله ذلك ، وأمر به ، وليس لأحد أن يشرع ما لم يشرعه الله ، كما لو قال قائل : أنا أستحب الطواف بالصخرة سبْعاً ، كما يطاف بالكعبة ، أو أستحب أن اتخذ من مقام موسى وعيسى مصلًى ، كما أمر الله أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلًى ، ونحو ذلك ، لم يكن له ذلك لأن الله تعالى يختص ما يختصه من الأعيان والأفعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه ، إما لمعنى يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم ، وإما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم ، كما خص الكعبة بأن يحج إليها ويطاف بها . وكما خص عرفات بالوقوف بها ، وكما خص منى برمي الجمار بها وكما خص الأشهر الحرم بتحريمها ، وكما خص شهر رمضان بصيامه وقيامه إلى أمثال ذلك .

وإبراهيم ومحمد كل منهما خليل الله ، فإنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » (١) .

وقد ثبت في الصحيح : أن رجلاً قال للنبي ﷺ يا خير البرية . قال : « ذاك إبراهيم » (٢) .

فإبراهيم أفضل الخلق بعد محمد ﷺ .

وقوله « ذاك إبراهيم » تواضع منه ، فإنه قد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١١ باب فضائل أصحاب رسول الله - ﷺ - ٩٣ ثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث رواه أبو داود في السنة ١٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٧٨ ، ١٨٤ (حلي) .

فخر» ^(١) إلى غير ذلك من النصوص المبينة أنه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وإبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ^(٢) .

وهو الأمة أي القدوة الذي قال الله فيه ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ ^(٣) .

وهو الذي بوأه الله مكان البيت ، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج إليه ، وقد حرم الله الحرم على لسانه وإسماعيل نبأه معه ، وهو الذبيح الذي بذل نفسه لله وصبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة في غير هذا الموضع ، وأمه هاجر هي التي أطاعت الله ورسوله إبراهيم في مقامها مع ابنها في ذلك الوادي الذي لم يكن به أنيس ، كما قال الخليل ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ ^(٤) .

وكان لإبراهيم ولآل إبراهيم من محبة الله وعبادته والإيمان به وطاعته ما لم يكن لغيرهم ، فخصهم الله بأن جعل لبيته الذي بنوه له خصائص لا توجد لغيره ، وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ، ولا ريب أن الله شرع لإبراهيم السعي ورمي الجمار والوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر وإسماعيل وقصة الذبيح وغير ذلك ما كان ، كما شرع لمحمد الرمل في الطواف حيث أمره أن ينادي في الناس بحج البيت ، والحج مبناه على الذل والخضوع لله ، ولهذا خص باسم النسك و« النسك » في اللغة العبادة .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الشفاعة ٤٣٠٨ أنبأنا علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ، ورواه أبو داود في السنة ١٣ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٥ (حلي)

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٢٤ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٠ .

(٤) سورة إبراهيم آية رقم ٣٧ وتكملة الآية ﴿ رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال الجوهري : النسك العبادة ، والناسك العابد ، وقد نسك وتنسك أي تعبد ، ونسك بالضم أي صار ناسكاً ، ثم خص الحج باسم النسك لأنه أدخل في العبادة والذل لله من غيره ولهذا كان فيه من الأفعال ما لا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله ، والعبادة له ، كالسعي ورمي الجمار ، قال النبي ﷺ « إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله » (١) رواه الترمذي وخص بذلك الذبح الفداء أيضاً دون مطلق الذبح ؛ لأن إراقة الدم لله أبلغ في الخضوع والعبادة له ، ولهذا كان من قبلنا لا يأكلون القربان ، بل تأتي نار من السماء فتأكله ، ولهذا قال تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ . فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضاً لله لا للمغنم ، ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم .

وأمة محمد ﷺ وسع الله عليهم لكمال يقينهم وإخلاصهم ، وأنهم يقاتلون لله ، ولو أكلوا المغنم ويذبحون لله ولو أكلوا القربان .

ولهذا كان عباد الشياطين والأصنام يذبحون لها الذبائح أيضاً ، فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له .

ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ، ولا أن يسمى غير الله على الذبائح وحرّم سبحانه ما ذبح على النصب ، وهو ما ذبح لغير الله وما سمي عليه غير اسم الله ، وإن قصد به اللحم لا القربان ولعن النبي ﷺ من ذبح لغير الله ، ونهى عن ذبائح الجن ، وكانوا يذبحون للجن ، بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقاً كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع .

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في الحج ٦٤ والدارمي في المناسك ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٣ .

وقد قال تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ^(١) أي انحر لربك كما قال الخليل : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) وقد قال هو واسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ ^(٣) فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها ، كما قال تعالى ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ^(٥) .

وقال ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ تَتَّقُوا مِنْكُمْ ﴾ ^(٦) كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ ^(٧) فالمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ما سواه بغاية العبودية له ، والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص ، وهذه ملة ابراهيم الخليل .

وهذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل ، كما قال النبي ﷺ « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » ^(٨) .

(١) سورة الكوثر آية رقم ٢ .

(٢) سورة الانعام آية رقم ١٦٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٢٧ - ١٢٨ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٦٧ .

(٥) سورة الحج آية رقم ٣٤ .

(٦) سورة الحج آية رقم ٣٧ .

(٧) سورة الحج آية رقم ٣٢ .

(٨) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الايمان ٣٩ ورواه الامام مسلم في المساقاة ١٠٧ وابن

ماجه في الفتن ١٤ ، والدارمي في البيوع ١ .

والنية والقصد هما عمل القلب ، فلا بد للمتابعة للرسول ﷺ من اعتبار النية والقصد .

ومن هذا الباب أن النبي ﷺ لما احتجم وأمر بالحجامة وقال في الحديث الصحيح « شفاء أمتي في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وما أحب أن أكتوي » (١) .

كان معلوماً أن المقصود بالحجامة إخراج الدم الزائد الذي يضر البدن ، فهذا هو المقصود ، وخص بالحجامة لأن البلاد الحارة يخرج الدم فيها إلى سطح البدن فيخرج بالحجامة فلهذا كانت الحجامة في الحجاز ونحوه من البلاد الحارة يحصل بها مقصود استفراغ الدم ، وأما البلاد الباردة فالدم يفرور فيها إلى العروق فيحتاجون إلى قطع العروق بالفصد وهذا أمر معروف بالحس والتجربة ، فإنه في زمان البرد تسخن الأجواف وتبرد الظواهر ، لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، فإذا برد الهواء برد ما يلاقيه من الأبدان والأرض ، فيهرب الحر الذي فيها من البرد المضاد له إلى الأجواف فيسخن باطن الأرض ، وأجواف الحيوان ، ويأوي الحيوان إلى الأكنان الدافئة ، ولقوة الحرارة في باطن الإنسان يأكل في الشتاء وفي البلاد الباردة أكثر مما يأكل في الصيف وفي البلاد الحارة ؛ لأن الحرارة تطبخ الطعام وتصرفه ، ويكون الماء النابع في الشتاء سخناً لسخونة جوف الأرض ، والدم سخن فيكون في جوف العروق لا في سطح الجلد ، فلو احتجم لم ينفعه ذلك بل قد يضره .

وفي الصيف والبلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم في الشتاء ، ويكون الماء النابع بارداً لبرودة باطن الأرض ، وتظهر الحيوانات إلى البراري لسخونة الهواء ، فهؤلاء قد لا

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الطب ٢٣ باب الكي ٣٤٩١ حدثنا أحمد بن منيع عن ابن عباس . قال وذكره ، ورواه الامام البخاري في الطب ٤ ، ١٥ والامام مسلم في السلام ٧١ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٤٦ ، ٣ : ٣٤٣ ، ٤ : ١٤٦ حلي .

ينفعهم الفضاد بل قد يضرهم والحجامة أنفع لهم .

وقوله « شفاء أمتي » إشارة إلى من كان حينئذ من أمته وهم كانوا بالحجاز ، كما قال ما بين المشرق والمغرب قبله ، لأن هذا كان قبله أمتي حينئذ ، لأنهم كانوا بالمدينة وما حولها ، وهذا كما أنه في آخر الأمر بعد أن فرض الحج سنة تسع أو سنة عشر وقت ثلاث مواقيت للمدينة ولنجد وللشام ، ولما فتح اليمن وقت لهم يللم ثم وقت ذات عرق لأهل العراق ، وهذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير عن كل صغير وكبير ذكراً وأنثى من المسلمين ، وكان هذا هو الفرض على أهل المدينة ، لأن الشعير والتمر كان قوتهم ، ولهذا كان جماهير العلماء على أنه من اقتات الأرز والذرة ونحو ذلك يخرج من قوته ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وهل يجزيه أن يخرج التمر والشعير إذا لم يكن يقتاته . فيه قولان للعلماء وكان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التي تشبه قوس الندف وفتح الله لهم بها البلاد ، وقد رويت آثار في كراهة الرمي بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار ، فأما بعد أن اعتادها المسلمون وكثرت فيهم وهي في أنفسها أنفع في الجهاد من تلك القوس ، فلا تكره في أظهر قولي العلماء ، أو قول أكثرهم لأن الله تعالى قال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (١) .

والقوة في هذا أبلغ بلا ريب ، والصحابة لم تكن هذه عندهم فعدلوا عنها إلى تلك ، بل لم يكن لهم غيرها ، فينظر من قصدتهم بالرمي ، أكان لحاجة إليها إذ ليس لهم غيرها ؟

أم كان لمعنى فيها ؟

ومن كره الرمي بها كرهه لمعنى لازم ، كما يكره الكفر وما يستلزم الكفر ، أم كرهها لكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبه بهم وهذا كما أن

(١) سورة الانفال آية رقم ٦٠ .

الكفار من اليهود والنصارى إذا لبسوا ثوب الغيار من أصفر وأزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم ، وإن كان لو خلا عن ذلك لم يكره ، ومن بلاد لا يلبس هذه الملابس عندهم إلا الكفار فنهى عن لبسها ، والذين اعتادوا ذلك من المسلمين لا مفسدة عندهم في لبسها .

ولهذا كره أحمد وغيره لباس السواد لما كان في لباسه تشبه بمن يظلم ، أو يعين على الظلم ، وكره بيعه لمن يستعين بلبسه على الظلم ، فأما إذا لم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه .

وكره من كره من الصحابة والتابعين بيع الأرض الخراجية لأن المسلم المشتري لها إذا أدى الخراج عنها أشبه أهل الذمة في التزام الجزية ، فإن الخراج جزية الأرض ، وإن لم يؤدها ظلم المسلمين بإسقاط حقهم من الأرض .

لم يكرهوا بيعها لكونها وقفاً ، فإن الوقف إنما منع من بيعه لأن ذلك يبطل الوقف ، ولهذا لا يباع ولا يوهب ولا يورث ، والأرض الخراجية تنتقل إلى الوارث باتفاق العلماء ، وتجوز هبتها ، والمتهب المشتري يقوم فيها مقام البائع فيؤدي ما كان عليه من الخراج ، وليس في بيعها مضرة لمستحقي الخراج كما في بيع الوقف .

وقد غلط كثير من الفقهاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكونها وقفاً ، واشتبه عليهم الأمر ؛ لأنهم رأوا الآثار مروية في كراهة بيعها ، وقد عرفوا أن عمر جعلها فيئاً لم يقسمها قط ، وذلك في معنى الوقف فظنوا أن بيعها مكروه لهذا المعنى ، ولم يتأملوا حق التأمل فيرون أن هذا البيع ليس هو من جنس البيع المنهى عنه في الوقف فإن هذه يصرف فعلها إلى مستحقها قبل البيع وبعده ، وعلى حد واحد ، ليست كالدار التي إذا بيعت تعطل نفعها عن أهل الوقف وصارت للمشتري .

وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا : مكة . إنما كره بيع رباعها

لكونها فتحت عنوة ، ولم تقسم أيضاً وهم قد قالوا مع جميع الناس : إن الأرض العنوة التي جعلت أرضها فيئاً يجوز بيع مساكنها ، والخراج إنما جعل على المزارع لا على المساكن ، فلو كانت مكة قد جعلت أرضها للمسلمين ، وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها لذلك ، فكيف ومكة أقرها النبي ﷺ بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعها ولم يقسمها ولم يضرب عليها خراجاً ، ولهذا قال من قال : إنها فتحت صلحاً ، ولا ريب أنها فتحت عنوة ، كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة ، لكن النبي ﷺ أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل إلا من قاتله ، ولم يسب لهم ذرية ، ولا غنم لهم مالاً ، ولهذا سموا الطلقاء .

وأحمد وغيره من السلف إنما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين ، كما قال تعالى ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ (١) .

وهذه هي العلة التي اختصت بها مكة دون سائر الأمصار فإن الله أوجب حجها على جميع الناس ، وشرع اعتمارها دائماً فجعلها مشتركة بين جميع عبادہ ، كما قال ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ (٢) .

ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر ، من سبق إلى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه ، كالمساجد .

ومكة نفسها من سبق إلى مكان فهو أحق به ، والإنسان أحق بمسكنه ما دام محتاجاً إليه ، وما استغنى عنه من المنافع فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج وغيرهم ، ولهذا كانت الأقوال في إجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة : قيل : لا يجوز لا هذا ، ولا هذا .

(١) سورة الحج آية رقم ٢٥ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٢٥ وتكملة الآية ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .

وقيل : يجوز الأمران .

والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ، ولا يجوز إجارتها .

وعلى هذا تدل الآثار المنقولة في ذلك عن النبي ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم ، فإن الصحابة كانوا يتبايعون دورها ، والدور تورث وتوهب .

وإذا كانت تورث وتوهب جاز أن تباع بخلاف الوقف فإنه لا يباع ولا يورث ولا يوهب .

وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لم يجوز هبتها ولا أن تورث وأما إجارتها فقد كانت تدعى السواثب - على عهد النبي ﷺ ، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن ؛ لأن المسلمين كلهم محتاجون إلى المنافع فصارت كمنافع الأسواق والمساجد والطرق التي يحتاج إليها المسلمون فمن سبق إلى شيء منها فهو أحق به ، وما استغنى عنه أخذه غيره بلا عوض ، وكذلك المباحات التي يشترك فيها الناس ، ويكون المشتري لها استفاد بذلك أنه أحق من غيره ما دام محتاجاً ، وإذا باعها الإنسان قطع اختصاصه بها وتوريثه إياها ، وغير ذلك من تصرفاته ولهذا له أن لا يبذله إلا بعوض ، والنبي ﷺ من على أهل مكة ، فإن الأسير يجوز المن عليه للمصلحة ، وأعطاهم مع ذلك ذراريهم وأموالهم ، كما من على هوازن لما جاؤوا مسلمين بإحدى الطائفتين : السبي أو المال ، فاختاروا السبي فأعطاهم السبي وكان ذلك بعد القسمة ، فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم ، وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم وقريش لم تحاربه كما حاربه هوازن ، وهو إنما من على من لم يقاتله منهم كما قال : من أغلق بابيه فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما كف جمهورهم عن قتاله ، وعرف أنهم مسلمون أطلقهم ، ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم ، ولم يضرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم بل

سماهم الطلقاء من قريش ، بخلاف ثقيف فإنهم سموا العتقاء ، فإنه اعتق أولادهم بعد الاسترقاق والقسمة وكان في هذا ما دل على أن الإمام يفعل بالأموال والرجال والعقار والمنقول ما هو أصلح ، فإن النبي ﷺ فتح خير فقسمها بين المسلمين ، وسبى بعض نساءها وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك ، فلم يسترقهم ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة . وقد تنازع العلماء في الأرض إذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخير لأنها مغنم ، أو تصير فيئاً كما دلت عليه سورة الحشر ، وليست الأرض من المغنم ، أو يخير الإمام فيما بين هذا وهذا على ثلاثة أقوال ، وأكثر العلماء على التخيير ، وهو الصحيح ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وغيرهما .

ولو فتح الإمام بلداً وغلب على ظنه أن أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، كما فعل النبي ﷺ بأهل مكة فإنهم أسلموا كلهم بلا خلاف ، بخلاف أهل خير فإنه لم يسلم منهم أحد ، فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفاراً مصرين على الكفر ، وهؤلاء تركها لهم ؛ لأنهم كلهم صاروا مسلمين .

والمقصود بالجهد أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله .

وقد كان النبي ﷺ يعطي المؤلفات قلوبهم ليتألفهم على الإسلام ، فكيف لا يتألفهم بإبقاء ديارهم وأموالهم .

وهم لما حضروا معه حيناً أعطاهم من غنائم حنين ما تألفهم به ، حتى عتب بعض الأنصار ، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك « أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم - قال أنس :

فحدث ذلك النبي ﷺ من قولهم ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال : ما حديث بلغني عنكم ؟! فقال له فقهاء الأنصار أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم .

فقال رسول الله ﷺ : فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم ، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رجالكم برسول الله فوالله لما تتقلبون به خير مما ينقلبون به ، فقالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، قال : فإنكم ستجدون بعدي أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض ، قالوا : سنصبر - وفي رواية لو سلك الناس وادياً أو شعباً ، وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم ، الناس دثار والأنصار شعار ، ولولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ، وحدثهم حتى بكوا رضي الله تعالى عنهم » (١) .

فهذا كله بذل وعطاء لأجل إسلام الناس ، وهو المقصود بالجهاد .

ومن قال إن الإمام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقاً ، فقلوه في غاية الضعف ، مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر ، وليس معه حجة واحدة توجب ذلك ، فإن قسمة النبي ﷺ خير تدل على جواز ما فعل ، لا تدل على وجوبه ، إذ الفعل لا يدل بنفسه على الوجوب وهو لم يقسم مكة ولا شك أنها فتحت عنوة ، وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الأحاديث ، وكذلك المنقول من قال : إنه يجب قسمه كله بالسوية بين الغانمين في كل غزاة .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب مناقب الأنصار (١) باب مناقب الأنصار ٣٧٧٨ حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن أبي التياح قال : سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : وذكره ، ورواه الامام مسلم في الزكاة ١٣٣ - ١٣٥ ، ١٣٩ ، والترمذي في المناقب ٦٥ ، وابن ماجه في المقدمة ١١ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤١٠ ، ٤١٩ ، ٤٦٩ ، ٣ : ٦٧ ، ٧٧ ، ١٥٨ ، ١٥٦ (حلي)

فقوله ضعيف ، بل يجوز فيه التفضيل للمصلحة كما كان النبي ﷺ يفضل في كثير من المغازي والمؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي ﷺ من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان :

أحدهما : أنه من الخمس ، والثاني أنه من أصل الغنيمة . وهذا أظهر .

فإن الذي أعطاهم إياه هو شيء كثير لا يحتمله الخمس . ومن قال : العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الأمر ولم يقل هذا أحد من المتقدمين ، هذا مع قوله « ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » ^(١) وهذا لأن المؤلفة قلوبهم كانوا من العسكر ، ففضلهم في العطاء للمصلحة كما كان يفضلهم فيما يقسمه من الفبيء للمصلحة .

وهذا دليل على أن الغنيمة للإمام أن يقسمها باجتهاده كما يقسم الفبيء باجتهاده ، إذا كان إمام عدل قسمها بعلم وعدل ، ليس قسمتها بين الغانمين كقسمة الميراث بين الورثة ، وقسمة الصدقات في الأصناف الثمانية ، ولهذا قال في الصدقات ، إن الله لم يرض فيها بقسمة نبي ولا غيره ولكن جعلها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأصناف أعطيتك » فعلم أن ما أفاء الله من الكفار بخلاف ذلك .

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب الجهاد ١٣ باب ما جاء في الغلول ٢٢ حدثني يحيى عن مالك ، عن عبد الرحمن بن سعيد عن عمرو بن شعيب أن رسول الله - ﷺ - حين صدر من حنين - وهو يريد الجعرانة ، سأله الناس حتى دنت ناقته من شجرة فتشبت بردائه حتى نزع عن ظهره ، فقال رسول الله - ﷺ : ردوا علي ردائي ، وذكره . قال ابن عبد البر : لا خلاف عن مالك في إرساله ، ووصله النسائي في ٣٨ كتاب قسم الفبيء حديث ٧ ورواه أبو داود في الجهاد ١٢١ - ١٤٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٢٨ ، ٥ : ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ (حلي)

وقد قسم النبي ﷺ من خير لأهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ، ولم يقسم لأحد غاب عنها غيرهم وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان .

وكان قد أقام بالمدينة ، وهؤلاء الذين كانوا يريدون القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها في جهاد . وأيضاً أهل السفينة وطلحة والزبير وعثمان لم يكونوا كغيرهم والقتال لم يكن لأجل الغنيمة ، فليست الغنيمة كمباح اشترك فيه ناس مثل الاحتشاش والاحتطاب والاصطياد ، فإن ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال ، بخلاف الغنيمة ، بل من قاتل فيها لأجل المال لم يكن مجاهداً في سبيل الله ، ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلنا وأبيحت لنا معونة على مصلحة الدين .

فَالْغَنَائِمُ أُبِيحَتْ لِمَصْلَحَةِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ ، فَمَنْ كَانَ قَدْ نَفَعَ الْمُجَاهِدِينَ بِنَفْعٍ اسْتَعَانُوا بِهِ عَلَى تَمَامِ جِهَادِهِمْ جَعَلَ مِنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَحْضُرْ . وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « الْمُسْلِمُونَ يَدُ وَاحِدَةٍ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَيُرَدُّ مَتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِهِمْ » ^(١) فَإِنَّ الْمَتَسَرِّيَ إِنَّمَا تَسْرَى بِقُوَّةِ الْقَاعِدِ ، فَالْمُعَاوَنُونَ لِلْمُجَاهِدِينَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ وَلِبَسْطِ هَذِهِ الْأُمُورِ مَوْضِعٌ آخَرُ .

والمقصود هنا : ذكر متابعة النبي ﷺ وهو أنه يعتبر فيه متابعتة في قصده ، فإذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة ، وأما إذا صلى فيه اتفاقاً من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سنة ، ولهذا لم يكن جمهور الصحابة يقصدون متشابته في ذلك .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الفرائض ٢١ باب إثم من تبرأ من مواليه ٦٧٥٥ بسنده عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال : علي - رضي الله عنه وذكره وفيه زيادة . ورواه في المدينة (١) ، والجزية ١٠ والاعتصام ٥ ورواه الامام مسلم في الحج ٤٦٧ ، ٤٧٠ وفي العتق ٢٠ ، وأبو داود في المناسك ٩٥ والجهاد ١٤٧ والديات ١١ والترمذي في السير ٢٥ والنسائي في القسامة ١٠ - ١٤ وابن ماجه في الديات ٣١ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨١ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٥١ ، ١٩٢ : ٢١١ ، ٣٩٨ (حلي) .

وابن عمر رضي الله عنهما مع أنه كان يحب مشابهته في ظاهر الفعل لم يكن يقصد الصلاة إلا في الموضع الذي صلى فيه لا في كل موضع نزل به ، ولهذا رخص أحمد بن حنبل في ذلك إذا كان شيئاً يسيراً كما فعله ابن عمر ، ونهى عنه رضي الله عنه إذا كثر لأنه يفضي إلى المفسدة ، وهي اتخاذ آثار الأنبياء مساجد وهي التي تسمى المشاهد ، وأما أحدث في الإسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهو من البدع المحدثه في الإسلام ، من فعل من لم يعرف شريعة الإسلام ، وما بعث الله به محمداً ﷺ من كمال التوحيد وإخلاص الدين لله ، وسد أبواب الشرك التي يفتحها الشيطان لبني آدم .

ولهذا يوجد من كان أبعد عن التوحيد وإخلاص الدين لله ومعرفة دين الإسلام هم أكثر تعظيماً لمواضع الشرك .

فالعارفون بسنة رسول الله ﷺ وحديثه أولى بالتوحيد وإخلاص الدين لله ، وأهل الجهل بذلك أقرب إلى الشرك والبدع .

ولهذا يوجد ذلك في الرافضة ^(١) أكثر مما يوجد في غيرهم ، لأنهم أجهل من غيرهم ، وأكثر شركاً وبدعاً ، ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من غيرهم ، ويخربون المساجد أكثر من غيرهم ، فالمساجد لا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ، ولا يصلون فيها إن صلوا إلا أفراداً وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد حتى قد يرون أن زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام ، ويسمونها الحج الأكبر . وصنف ابن المفيد منهم كتاباً سماه « مناسك حج المشاهد » وذكر فيه من الأكاذيب والأقوال ما لا يوجد في سائر الطوائف ، وإن كان في غيرهم أيضاً نوع من الشرك والكذب والبدع ، لكن هو فيهم أكثر .

وكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في

(١) سبق الحديث عن الرافضة في كلمة وافية .

الدين ، وإذا بعد عن متابعتة نقص من دينه بحسب ذلك ، فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول والله إنما أمر في كتابه وسنة رسوله بالعبادة في المساجد ، والعبادة فيها هي عمارتها .

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ (١) ولم يقل مشاهد الله .

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) .

ولم يقل عند كل مشهد ، فإن أهل المشاهد ليس فيهم إخلاص الدين لله ، بل فيهم نوع من الشرك .

وقال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ (٣) الآيات وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، ثم قرأ هذه الآية » (٤) .

فإن المراد بعمارتها ع (د)ها بالعبادة فيها كالصلاة والاعتكاف يقال : مدينة عامرة إذا كانت مسكونة ، ومدينة خراب إذا لم يكن فيها ساكن .

(١) سورة البقرة آية رقم ١١٤ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٧ - ١٨ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المساجد ١٩ باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة ٨٠٢ عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ، عن رسول الله - ﷺ قال : وذكره ورواه الدارمي في الصلاة ٢٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٦٨ ، ٧٦ (حلي) .

ومنه قوله تعالى ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن بينها البر والفاجر ، والمسلم والكافر ، وذلك يسمى بناء ، كما قال النبي ﷺ : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » (٢) .

فبين الله تعالى أن المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر .

وبين أنما يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، وهذه صفة أهل التوحيد وإخلاص الدين لله ، الذين لا يخشون إلا الله ، ولا يرجون سواه ، ولا يستعينون إلا به ، ولا يدعون إلا إياه ، وعمار المشاهد يخافون غير الله ، ويرجون غيره ، ويدعون غيره وهو سبحانه لم يقل : إنما يعمر مشاهد الله ، فإن المشاهد ليست بيوت الله ، إنما هي بيوت الشرك ، ولهذا ليس في القرآن آية فيها مدح المشاهد ، ولا عن النبي ﷺ في ذلك حديث ، وإنما ذكره الله عمن كان قبلنا أنهم بنوا مسجداً على قبر أهل الكهف ، وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال ﷺ : في الحديث الصحيح :

(١) سورة التوبة آية رقم ١٩ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المساجد ١ باب من بنى لله مسجداً ٧٣٥ عن الوليد بن أبي الوليد عن عثمان بن عبد الله بن سراقه العدوي ، وعن عمر بن الخطاب ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

في الزوائد : حديث عمر مرسل . فإن عثمان بن عبد الله بن سراقه روى عن عمر بن الخطاب وهو جده لأمه ، ولم يسمع منه قاله المزي في التهذيب ، ورواه ابن حبان في صحيحه بهذا الإسناد .

ورواه الامام مسلم في المساجد ٢٤ ، ٢٥ وفي الزهد ٤٣ - ٤٤ والترمذي في المواقيت ١٢٠ والنسائي في المساجد ١ .

« إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » (١) . ففي هذا الحديث ذم أهل المشاهد ، وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة ، كما قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا » (٢) .

وقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم أو أكثرها كذب فإن الشرك مقرون بالكذب في كتاب الله كثيراً ، قال تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ (٣) وقال النبي ﷺ « عدلت شهادة الزور الإشراف بالله » قالها ثلاثاً (٤) .

وكذلك كالشهد الذي بني بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم ، ورأس الحسين لم يحمل إلى هناك أصلاً وأصله من عسقلان .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٥٠ ، ٣٤٥٣ - ٣٤٥٤ بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما ، ورواه الامام مسلم في المساجد ١٩ : ٢٠ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني اسرائيل عن الزهري قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس - رضي الله عنهم قالا : لما نزل برسول الله - ﷺ - طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال - وهو كذلك - وذكره .

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٠ - ٣١ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في الأحكام ٣٢ باب شهادة الزور ٢٣٧٢ - ثنا سفيان العصفري ، عن أبيه ، عن حبيب بن النعمان الأسدي ، عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى النبي ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال : وذكره .

ورواه الترمذي في الشهادات ٣ ، وأبو داود في الأفضية ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٧٨ - ٢٣٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ (حلي) .

وقد قيل : إنه كان رأس راهب ، ورأس الحسين لم يكن بعسقلان ، وإنما أحدث هذا في أواخر دولة الملاحدة بني عبيد .

وكذلك مشهد علي - رضي الله عنه - إنما أحدث في دولة بني بويه .

وقال محمد بن عبد الله مطين الحافظ وغيره : إنما هو قبر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وعلي رضي الله عنه إنما دفن بقصر الإمارة بالكوفة ، ودفن معاوية بقصر الإمارة بمصر ، خوفاً عليهم إذا دفنوا في المقابر البارزة أن ينشهم الخوارج المارقون ، فإن الخوارج المارقون كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة ، فقتل ابن ملجم علياً وجرح صاحبه معاوية ، وعمره كان استخلف رجلاً اسمه خارجة فقتله الخارجي ، وقال : أردت عمراً وأراد الله خارجة ، فصارت مثلاً .

فالمقصود أن هذا المشهد إنما أحدث في دولة الملاحدة دولة بني عبيد ، وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاوضة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثيرة ، ولهذا كان في زمنهم قد تضعع الإسلام تضععاً كثيراً ، ودخلت النصارى إلى الشام فإن بني عبيد ملاحدة منافقون ليس لهم غرض في الإيمان بالله ورسوله ، ولا في الجهاد في سبيل الله ، بل في الكفر والشرك ، ومعاداة الإسلام بحسب الإمكان وأتباعهم كلهم أهل بدع وضلال ، فاستولت النصارى في دولتهم على أكثر الشام ، ثم قيض الله من ملوك السنة مثل : نور الدين ، وصلاح الدين وإخوته وأتباعهم ، ففتحوا بلاد الإسلام ، وجاهدوا الكفار والمنافقين .

ونهى النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها ، وإن كان المسلم المصلي لا يقصد السجود لها ، لكن سد الذريعة لئلا يشبه بالمشركين في بعض الأمور التي يختصون بها فيفضي إلى ما هو شرك ولهذا نهى عن تحري الصلاة في هذين الوقتين هذا لفظ ابن عمر الذي في الصحيحين ، فقص

الصلاة فيها منهي عنه .

وأما إذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله : مثل تحية المسجد وصلاة
اله سوف ، وسجود التلاوة ، وركعتي الطواف ، وإعادة الصلاة مع إمام الحي
ونحو ذلك ، فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء والأظهر جواز ذلك
واستحبابه ، فإنه خير لا شر فيه ، وهو يفوت إذا تركه ، وإنما نهى عن قصد
الصلاة وتحريها في ذلك الوقت لما فيه من مشابهة الكفار بقصد السجود
ذلك الوقت ، فما لا سبب له قد قصد فعله في ذلك الوقت وإن لم يقصد
الوقت ، بخلاف ذي السبب فإنه فعل لأجل السبب ، فلا تأثير فيه للوقت
بحال ، ونهى النبي ﷺ عن الصلاة في المقبرة عموماً فقال : الأرض كلها
مسجد إلا المقبرة والحمام ^(١) رواه أهل السنن .

وقد روي مسنداً ومرسلاً ، وقد صحح الحفاظ أنه مسند فإن الحمام
مأوى الشياطين ، والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور
مساجد ، وإن كان المصلي قد لا يقصد الصلاة لأجل فضيلة تلك البقعة ، بل
اتفق له ذلك . لكن فيه تشبه بمن قصد ذلك ، فنهى عنه كما ينهي عن
الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب ، وإن لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما
فيه من التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون ، فنهى عن
الصلاة في هذا الزمان كنهيه عن الصلاة في ذلك المكان ، فلما كان الشرك
الذي أضل أكثر بني آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على
صورهم ، فإن المشركين قد اعتادوا آلهة يلدون ويولدون ، ويرثون ويورثون ،
ويكونون من شيء من الأشياء ، فسألوا النبي ﷺ عن إلهه الذي يعبد : من

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المساجد ٤ باب المواضع التي تكرر فيها الصلاة ٧٤٥ - عن
عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، وحمام بن سلمة ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن أبي
سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

ورواه أبو داود في كتاب الصلاة ٢٤ ، والترمذي في الصلاة ١١٩ والدارمي في الصلاة ١١١
وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٨٣ (حلي)

أي شيء هو؟

أمن كذا ، أم من كذا ؟ وعن ورث الدنيا ؟ ولمن يورثها ؟ فقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١)

وفي حديث أبي بن كعب ، لأنه ليس أحد يولد إلا يموت ولا أحد يرث إلا يورث .

يقول : كل من عبد من دون الله قد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين وتمثيلهم ، ومثل الفراعنة المدعين الالهية ، فهذا مولود يموت ، وهو وإن كان ورث من غيره ما هو فيه ، فإذا مات ورثه غيره والله سبحانه حي لا يموت ، ولا يورث ، سبحانه وتعالى ، والله أعلم وصلى الله على محمد .

(١) سورة الاخلاص كامله .

سورة الفلق

وقال شيخ الإسلام ، ناصر السنة ، قانع البدعة تقي الدين أحمد بن تيمية ، نفعا المولى بعلومه - وهو مما كتبه في القلعة .

فصل

في ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ^(١)
قال تعالى ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ ^(٢)
وقال تعالى ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ ^(٣)

والفلق : فعل بمعنى مفعول ، كالقبض بمعنى المقبوض فكل ما فلقه الرب فهو فلق .

قال الحسن : الفلق كل ما انفلق من شيء ، كالصبح والحب والنوى
قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات
والسحاب بالمطر .

وقد قال كثير من المفسرين : انفلق الصبح ، فإنه يقال : هذا أبين من
فلق الصبح ، وفرق الصبح .

(١) سورة الفلق آية رقم ١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٩٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٦ .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله ، وأما من قال : إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم ، أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا تعرف صحته ، لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي ﷺ ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة ، بخلاف ما إذا قال رب الخلق أو رب كل ما انفلق ، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار ، فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به .

وإذا قيل : الفلق يعم ويخص ، فعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق .

وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب . فإن الغاسق قد فسر بالليل ، كقوله ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ (١) .

وهذا قول أكثر المفسرين ، وأهل اللغة قالوا : ومعنى ﴿ وقب ﴾ دخل في كل شيء .

قال الزجاج « الغاسق » البارد ، وقيل : الليل غاسق لأنه أبرد من النهار .

وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة « أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال : يا عائشة تعوذني بالله من شره ، فإنه الغاسق الذي وقب » (٢) .

وروي من حديث أبي هريرة مرفوعاً « أن الغاسق النجم » وقال ابن زيد : هو الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه

(١) سورة الإسراء آية رقم ٧٨ .

(٢) الحديث رواه الامام الترمذي في التفسير سورة ١١٣ - ١١٤ آية رقم ١ ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٦١ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ (حلي) .

قولاً آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه .

قال ابن قتيبة : ويقال : الغاسق القمر إذا كسف واسود ومعنى وقب دخل في الكسوف ، وهذا ضعيف ، فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول إلا الحق ، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه ، بل مع ظهوره ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (١) .

فالقمر آية الليل ، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته ، والدليل مستلزم للمدلول ، فإذا كان شر القمر موجوداً فشر الليل موجود ، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره ، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى ، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى « هو مسجدي هذا » مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً .

وكذلك قوله عن أهل الكساء « هؤلاء أهل بيتي ، مع أن القرآن يتناول نساءه ، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف ، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة ، والليل مظلم ، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك ، فالشر دائماً مقرون بالظلمة ، ولهذا إنما جعله الله لسكون الأدميين وراحتهم ، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار ، ويتوسلون بالقمر ويدعونه والقمر وعبادته ، وأبو معشر البلخي له « مصحف القمر » يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه . فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموماً ، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب ، وهو الزمان الذي يعم شره ، ثم خص بالذكر السحر ، والحسد .

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٢ .

فالسحر يكون من الأنفس الخبيثة ، لكن بالإستعانة بالأشياء كالنفت في العقد ، والحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضاً إما بالعين ، وإما بالظلم وباللسان واليد ، وخصر من السحر النفاثات في العقد ، وهن النساء ، والحاسد الرجال في العادة ، ويكون من الرجال ومن النساء .

والشر الذي يكون من الأنفس الخبيثة من الرجال والنساء هو شر منفصل عن الإنسان ، ليس هو في قلبه كالوسواس الخناس .

وفي سورة الناس ذكر ﴿ الوسواس ، الخناس ﴾ فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان ففيها الاستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التي تضره من الكفر والفسوق والعصيان ، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه .

وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً ، ولهذا قيل فيها برب الفلق ، وقيل في هذه برب الناس ، فإن فلق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر .

وفلق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات .

وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه .

فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه ، وهو سبحانه لا يفلق شيئاً إلا بخير ، فهو فلق الإصباح بالنور الهادي ، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد . وفلق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم .

والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق وهذا حاصل بالفلق .

والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر
الناس ، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتداءً بإنعامه
عليه .

وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة ، وإخراج الشيء من
ضده كما يخرج الحي من الميت ، والميت من الحي . وهذا من نوع
الفلق ، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بال ضد النافع .

سورة الناس

وقال رحمه الله :

فصل

في ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ^(١) إلى آخرها . قوله ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ^(٢) فيها أقوال ، ولم يذكر ابن الجوزي إلا قولين ، ولم يذكر الثالث وهو الصحيح .

وهو أن قوله من الجنة والناس لبيان الوسواس ، أي الذي يوسوس من الجنة ، ومن الناس في صدور الناس فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدواً وشياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وإيحاؤهم هو وسوستهم ، وليس من شرط الوسوس أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يشاهد .

قال تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ، وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الناس آية رقم ١ .

(٢) سورة الناس آية رقم ٤ - ٦ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٢٠ - ٢١ .

وهذا كلام من يعرف قائله ، ليس شيئاً يلقي في القلب لا يدري ممن هو ، وإبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر ، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم وهو نسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم وأما آدم فقد رآه .
وقد يرى الشياطين والجن كثير من الإنس ، لكن لهم من الاجتنان والاستتار ما ليس للإنس .

وقد قال تعالى ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ﴾ (١) .

وفي التفسير والسيرة : أن الشيطان جاءهم في صورة بعض الناس .
وكذلك قوله ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وفي حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن . قلت : أول للإنس شياطين ؟
قال : نعم ، شر من شياطين الجن » (٣) .
وأيضاً : فالنفوس لها وسوسة كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (٤) .

فهذا توسوس به نفسه لنفسه ، كما يقال : حديث النفس قال النبي ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » (٥)

(١) سورة الأنفال آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٦ .

(٣) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥ (حلي) .

(٤) سورة ق آية رقم ١٦ .

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق ١٤ باب من طلق في نفسه ولم يتكلم به ٢٠٤٠ =

أخرجاه في الصحيحين .

فبالذي يوسوس في صدور الناس نفسه ، وشياطين الجن ، وشياطين الإنس .

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة ، ووسوسة الإنس والا أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط ، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره ، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن ؟!

وأما قول الفراء : إن المراد من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس : الطائفتين من الجن والإنس ، وأنه سمي الجن ناساً كما سماهم رجالاً ، وسماهم نفراً فهذا ضعيف فإن لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج الى تنويحه إلى الجن ، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس في غير موضع .

وأيضاً فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان ، وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس وإنما يعرف هذا بخبر ، ولا خبر هنا ، ثم قد قال ﴿ من الجنة والناس ﴾ فكيف يكون لفظ الناس عاماً للجنة والناس ، وكيف يكون قسيم الشيء قسماً منه ، فهو يجعل الناس قسيم الجن ، ويجعل الجن نوعاً من الناس وهذا كما يقال : أكرم العرب من العجم والعرب ، فهل يقول هذا أحد ؟!

وإذا سماهم الله تعالى رجالاً لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناساً ، وإن قدر أنه يقال جاء ناس من الجن فذاك مع التقييد ، كما يقال إنسان من طين وماء دافق ، ولا يلزم من هذا أن يدخلوا في لفظ الناس ، وقد قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ، ورواه البخاري في العتق ٦ ، والطلاق ١١ وإيمان ١٥ ورواه الامام مسلم في إيمان ٢٠١ ، ٢٠٢ وأبو داود في الطلاق ١٥ والترمذي في الطلاق ٨ والنسائي في الطلاق

رُؤُوسَهَا ﴿١﴾ فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء ، مع أنه سبحانه يخاطب الجن والإنس .

والرسول ﷺ مبعوث إلى الجنسين ، لكن لفظ الناس لم يتناول الجن ، ولكن يقول : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ (٢) . وكذلك قول الزجاج : إن المعنى ﴿ من شر الوسواس ﴾ الذي هو الجنة ، ومن شر الناس فيه ضعف ، وإن كان أرجح من الأول ، لأن شر الجن أعظم من شر الإنس فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس ، ولا يستعيز إلا من بعض الجن؟!!

وأيضاً فالوسواس الخناس ان لم يكن إلا من الجنة فلا حاجة إلى قوله ﴿ من الجنة ﴾ ومن ﴿ الناس ﴾ فلماذا يخص الاستعاذة من وسواس الجنة دون وسواس الناس .

وأيضاً فإنه إذا تقدم المعطوف اسماً كان عطفه على القريب أولى ، كما أن عود الضمير إلى الأقرب أولى ، إلا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد ، فعطف الناس هنا على الجنة المقرون به أولى من عطفه على الوسواس ويكفي أن المسلمين كلهم يقرأون هذه السورة من زمن نبيهم ولم ينقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة ، والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا بل إنما فيها القول الذي نصرناه ، كما في تفسير معمر عن قتادة ﴿ من الجنة والناس ﴾ .

قال : إن في الجن شياطيناً ، وإن في الإنس شياطيناً ، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فينبى قتادة أن المعنى الاستعاذة من شياطين الإنس

(١) سورة النساء آية رقم ١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ وفيها ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ .

وسورة الرحمن آية رقم ٢٣ وفيها ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ .

والجن .

وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله :
﴿ الوسواس الخناس ﴾ .

قال : الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإنس ، فبين
ابن زيد أن الوسواس الخناس من الصنفين وكان يقال : شياطين الإنس أشد
على الناس من شياطين الجن : شيطان الجن يوسوس ولا تراه ، وهذا يعاينك
معاينة .

وعن ابن جريج ﴿ من الجنة والناس ﴾ قال : إنهما وسواسان فوسواس
من الجنة فهو ﴿ الخناس ﴾ .

ووسواس من نفس الإنسان فهو قوله ﴿ والناس ﴾ وهذا القول الثالث
وإن كان يشبه قول الزجاج فهذا أحسن منه ، فإنه جعل من الناس الوسواس
الذي من نفس الإنسان ، فمعناه أحسن ، ذكر الثلاثة ابن أبي حاتم في
تفسيره .

وأيضاً فإنه ذكر في الآية ﴿ يَرْبُّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ
النَّاسِ ﴾ (١) .

فإن كان المقصود أن يستعيز الناس بربهم وملكهم والههم من شر ما
يوسوس في صدورهم ، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم ، ويطلب
منه دفع الشر الذي يضرهم والوسواس أصل كل شر يضرهم ؛ لأنه مبدأ للكفر
والفسوق والعصيان ؛ وعقوبات الرب إنما تكون على ذنوبهم ، وإذا لم يكن
لأحدهم ذنب ، فكل ما يصيبه نعمة في حقه ، وإذا ابتلي بما يؤلمه فإن الله
يرفع درجته ويأجره ، وإذا قدر عدم الذنب مطلقاً ، لكن هذا ليس بواقع
منهم ، فإن كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون .

(١) سورة الناس آية رقم ١ - ٣ .

وقد قال تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (١) فغاية المؤمنين الأنبياء فمن دونهم هي التوبة . قال الله تعالى ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وقال نوح ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) وقال ابراهيم واسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

وقال موسى ﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (٥) .

ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف .

فكان الوسواس مبدأ كل شر ، فإن كانوا قد استعاذوا بربهم ، وملكهم والههم من شره ، فقد دخل في ذلك وسواس الجن والإنس ، وسائر شر الإنس إنما يقع بذنوبهم ، فهو جزاء على أعمالهم ، كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس ، وكما يحصل من العقوبات السماوية وهم لم يستعيذوا هنا من شر المخلوقات مطلقاً ، كما استعاذوا في سورة الفلق ، بل من شر الذي يكون مبدأه في نفوسهم ، وإن كان ذكر رب الناس ملك الناس إليه الناس يستعيذوا به ليعيذهم ، وليعيذ منهم ، وهذا أعم المعنيين ، فذلك يحصل بإعاذته من شر الوسواس الموسوس في صدور الناس ، فإنه هو الذي يوسوس بظلم الناس بعضهم بعضاً ، وبإغواء بعضهم بعضاً ، وبإعانة بعضهم بعضاً على الإثم والعدوان . فما حصل للإنسي شر من إنسي إلا كان مبدأه

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٧٢ - ٧٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٢٨ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة هود آية رقم ٤٧ .

من الوسواس الخناس ، وإلا فما يحصل من أذى بعضهم لبعض إذا لم يكن من الوسواس ، بل كان من الوحي الذي بعث الله به ملائكته كان عدلاً ، كإقامة الحدود وجهاد الكفار ، والاقتصاص من الظالمين ، فهذه الأمور فيها ضرر وأذى للظالمين من الإنس ، لكن هي بوحي الله لا من الوسواس ، وهي نعمة من الله في حق عباده ، حتى في حق المعاقب ، فإنه إذا عوقب كان ذلك كفارة له إن كان مؤمناً ، وإلا كان تخفيفاً لعذابه في الآخرة بالنسبة إلى عذاب من لم يعاقب في الدنيا .

ولهذا كان محمد ﷺ رحمة في حق العالمين باعتبار ما حصل من الخير العام به ، وما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا والآخرة ، وباعتبار أنه في نفسه رحمة ، فمن قبلها وإلا كان هو الظالم لنفسه ، وباعتبار أنه قمع الكفار والمنافقين فنقص شرهم ، وعجزوا عما كانوا يفعلونه بدونه ، وقتل من قتل منهم ، فكان تعجيل موته خيراً من طول عمره في الكفر له وللناس ، فكان محمد ﷺ رحمة للعالمين بكل اعتبار ، فلا يستعاذ منه ومن أمثاله من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين ، وهم من الناس ، وإن كانوا يفعلون بأعدائهم ما هو أذى وعقوبة وألم لهم ، فلم تبق الاستعاذة من الناس إلا مما يأتي به الوسواس إليهم ، فيستعاذ برب الناس ملك الناس إله الناس على هذا التقدير من شر الوسواس الذي يوسوس للمستعيز ، ومن شر الوسواس الذي يوسوس لسائر الناس ، حتى لا يحصل منهم شر للمستعيز ، فإذا لم يكن للناس شر إلا من الوسواس كانت الاستعاذة من شر الذي يوسوس لهم تحصيلاً للمقصود ، وكان حسماً للمادة ، وأقرب إلى العدل ، وكان مخرجاً لأنبياء الله وأوليائه أن يستعاذ من شرهم ، وأن يقرنوا بالوسواس الخناس ، ويكون ذلك تفضيلاً للجن على الإنس وهذا لا يقوله عاقل .

فإن قيل : فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن .

قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس ، كما قال ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (١) .

فالشر من الجهتين جميعاً ، والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين ، والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ، يقال : فلان يوشوش فلاناً ، وقد وشوشه إذا حدثه سرّاً في أذنه .

وكذلك الوسوسة ، ومنه وسوسة الحلّى لكن هو بالسّين المهملة أخص .

﴿ رب الناس ﴾ الذي يربّهم بقدرته ومشيّته وتدبيره ، وهورب العالمين كلهم ، فهو الخالق للجميع ولأعمالهم .

﴿ ملك الناس ﴾ الذي يأمرهم وينهاهم ، فإن الملك يتصرف بالكلام والجماد لا ملك له ، فإنه لا يعقل الخطاب ، لكن له مالك ، وإنما يكون الملك لمن يفهم عنه ، والحيوان يفهم بعضه عن بعض .

كما قال ﴿ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ ﴾ (٢) .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ﴾ (٣)

فلهذا كان له ملك من جنسه ، ومن غير جنسه كما كان سليمان ملكهم ، والإله : هو المعبود الذي هو المقصود بالارادات ، والأعمال كلها .

كما قد بسط الكلام على ذلك .

وقد قيل : إنما خص الناس بالذكر ، لأنهم مستعيذون أو لأنهم المستعاذ من شرهم ، ذكرهما أبو الفرج ، وليس لهما وجه ، فإن وسواس

(١) سورة ق آية رقم ١٦ .

(٢) سورة النمل آية رقم ١٦ .

(٣) سورة النمل آية رقم ١٨ .

الجن أعظم ، ولم يذكره ، بل ذكر الناس ؛ لأنهم المستعيزون ،
فيستعيزون بربهم الذي يصونهم ، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم ، وبإلههم
الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته ، ويستعيزون أيضاً من
شر الوسواس الذي يحصل في نفوس الناس منهم ، ومن الجنة فإنه أصل الشر
الذي يصدر منهم ، والذي يرد عليهم .

فصل

وبهذا يتبين بعض هذه الاستعاذة والتي قبلها كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلها ، فإن الوسواس أصل كل كفر وفسوق وعصيان فهو أصل الشر كله ، فمتى وقى الإنسان شره وقى عذاب جهنم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، فإن جميع هذه إنما تحصل بطريق الوسواس ووقى عذاب الله في الدنيا والآخرة ، فإنه إنما يعذب على الذنوب وأصلها من الوسواس ، ثم إن دخل في الآية وسواس غيره بحيث يكون قوله ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ ^(١) استعاذة من الوسواس الذي يعرض له ، والذي يعرض للناس بسببه ، فقد وقى ظلمهم ، وإن كان إنما يريد وسواسه فهم إنما يسلطون عليه بذنوبه وهي من وسواسه .

قال تعالى ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٢) .

وقال ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ^(٣) وقال ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(٤) .

والوسواس من جنس الحديث والكلام .

(٣) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(١) سورة الناس آية رقم ٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

ولهذا قال المفسرون في قوله ﴿ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (١) قالوا : ما تحدث به نفسه .

وقد قال ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » (٢) .

وهو نوعان : خبر ، وإنشاء .

فالخبر : إما عن ماض ، وإما عن مستقبل .

فالماضي يذكره به ، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله ، أو فعل غيره ، فهذه الأمانى والمواعيد الكاذبة .

والإنشاء : أمر ونهي وإباحة .

والشيطان تارة يحدث وسواس الشر ، وتارة ينشئ الخير وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس .

قال تعالى في النسيان ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

وقال فتى موسى ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ (٤) وقال تعالى ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ (٥) .

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل ، فإذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضي الثوب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه

(٤) سورة الكهف آية رقم ٦٣ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

(١) سورة ق آية رقم ١٦ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦٨ .

فيقول : أذكر كذا ، أذكر كذا ، لما لم يذكر حتى يظل الرجل لم يذكر كم صلى ﴿ (١) .

فالشيطان ذكره بأمور ماضية ، حدث بها نفسه ، مما كانت في نفسه من أفعاله ، ومن غير أفعاله ، فبتلك الأمور نسي المصلي كم صلى ولم يذكر كم صلى ، فإن النسيان أزال ما في النفس من الذكر وشغلها بأمر آخر حتى نسي الأول .

وأما إخباره بما يكون في المستقبل من المواعيد والأمانى فكقوله ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢) وفي هذه الآية أمره ووعد .

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعْهَدُ يَوْمَهُمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ وَمَا يَعْهَدُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) ففي هذه أيضاً أمره ووعد .

وقال موسى لما قتل القبطي ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (٥) .

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في ١٠ - كتاب الأذان ٤ باب فضل التأذين ، ومسلم في ٤ - كتاب الصلاة ٨ - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه حديث ١٩ ورواه صاحب الموطأ في كتاب الصلاة (١) باب ما جاء في النداء للصلاة ٦ وحدثني عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره .

(٢) سورة إبراهيم آية رقم ٢٢ . (٤) سورة البقرة آية رقم ٢٦٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١١٩-١٢١ . (٥) سورة القصص آية رقم ١٥ .

وقد قال غير واحد من الصحابة كأبي بكر وابن مسعود فيما يقولونه باجتهادهم ، إن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان ، فجعلوا ما يلقي في النفس من الاعتقادات التي ليست مطابقة من الشيطان ، وإن لم يكن صاحبها آثماً لأنه استفرغ وسعه ، كما لا يَأْثُمُ بالوسواس الذي يكون في الصلاة من الشيطان ، ولا بما يحدث به نفسه .

وقد قال المؤمنون ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (١) وقد قال الله : قد فعلت .

والنسيان للحق من الشيطان ، والخطأ من الشيطان .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

وقد قال ﷺ « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » (٣) .

ولما نام هو وأصحابه عن الصلاة في غزوة خيبر قال لأصحابه : « ارتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه شيطان » .

وقال « إن الشيطان أتى بلالاً فجعل يهديه كما يهدي الصبي حتى نام » (٤) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٨ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الصلاة ١٠ باب من نام عن الصلاة أو نسيها ٦٩٨ - عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة قال : ذكروا تفريطهم في النوم فقال : ناموا حتى طلعت الشمس فقال رسول الله ﷺ - وذكره ، ورواه الترمذي في الصلاة ١٦ والنسائي في المواقيت ٥٣ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الصلاة ١٠ باب من نام عن الصلاة أو نسيها ٦٩٧ حديثها حرملة بن يحيى ثنا عبد الله بن وهب ، ثنا يونس عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - حين قفل من غزوة خيبر فصار ليلة حتى =

وكان النبي ﷺ وكل بلالاً أن يوقظهم عند الفجر والنوم الذي يشغل عما أمر به ، والنعاس من الشيطان وإن كان معفواً عنه .

ولهذا قيل : النعاس في مجلس الذكر من الشيطان وكذلك الاحتلام في المنام من الشيطان ، والنائم لا قلم عليه .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « الرؤيا ثلاثة ، رؤيا من الله ، ورؤيا من الشيطان ورؤيا ما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في النوم » (١) وقد قيل : إن هذا من كلام ابن سيرين ، لكن تقسيم الرؤيا إلى نوعين : نوع من الله ، ونوع من الشيطان صحيح عن النبي ﷺ بلا ريب ، فهذان النوعان من وسواس النفس ، ومن وسواس الشيطان يغشى القلب كطيف الخيال ، فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق ، فيقع في الباطل ، فإذا كان من المتقين كان كما قال الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب ، وقد يكون لطيفاً ، وقد يكون كثيفاً إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه إِبْصَارَ الحق .

قال النبي ﷺ : إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) .

لكن طيف الشيطان غير رين الذنوب ، هذا جزاء على الذنب والغين

أدركه الكرى عرس وقال لبلال أكلأ لنا الليل « فصل بلال ما قدر له ، ونام رسول الله - ﷺ - وأصحابه ، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته فلما استيقظوا قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٧ .

(٣) سورة المطففين آية رقم ١٤ .

الطف من ذلك ، كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ قال : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » (١) .

فالشيطان يلقي في النفس الشر ، والملك يلقي الخير وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « ما منكم من أحد ألا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » (٢) وفي رواية : « فلا يأمرني إلا بخير » أي استسلم وانقاد . وكان ابن عيينة يرويه فأسلم بالضم ، ويقول : إن الشيطان لا يسلم ، لكن قوله في الرواية الأخرى : فلا يأمرني إلا بخير ، دل على أنه لم يبق يأمره بالشر ، وهذا إسلامه ، وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته ، لا عن إيمانه بالله ، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره .

وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر فلا يقبله ، بل يعاقبه على ذلك ، فيحتاج لانقهاره معه إلى أنه لا يشير عليه إلا بخير لذلتة وعجزه لا لصالحه ودينه . ولهذا قال ﷺ : « إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » وقال ابن مسعود : إن للملك لمة ، وإن للشيطان لمة ، فلمة الملك إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق (٣) .

وقد قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ ﴾ (٤) : أي يخوفكم أوليائه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة ، كشيطان الإنس الذي

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الوتر باب في الاستغفار ١٥١٥ حدثنا سليمان بن حرب ومسدد قالا : ثنا حماد ، عن ثابت عن أبي بردة ، عن الأعز المزني ، قال مسدد في حديثه ، وكانت له صُبة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في المسافرين ٦٩ والدارمي في الرقاق ٢٥ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٦٠ (حلي) .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في التفسير سورة ٢ : ٣٥ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٧٥ .

يخوف من العدو فيرجف ويخذل .

وعكس هذا قوله تعالى ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (٣) .

والثبوت جعل الإنسان ثابتاً لا مرتاباً ، وذلك بإلقاء ما يشته من التصديق بالحق والوعد بالخير . كما قال ابن مسعود : لمة الملك وعد بالخير وتصديق بالحق فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه ، وإذا علم أن الله قد وعده بالتصديق وثق بوعد الله فثبت ، فهذا يثبت بالكلام ، كما يثبت الإنسان الإنسان في أمر قد اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه ، ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت ، وقد يكون الثبوت بالفعل بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت .

وفي الحديث عن النبي ﷺ « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده فهذا الملك يجعله شديد القول بما يلقي في قلبه من التصديق بالحق والوعد بالخير ، وقد قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) .

فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور .

وقد ذكر إخراجهم للمؤمنين من الظلمات إلى النور في غير آية كقوله

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٧٤ .

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٤٣ .

(١) سورة الأنفال آية رقم ١٢ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٧ .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (١) .

وقال ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٢) .

وقال ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ (٣) .

وفي الحديث : « إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير » (٤) .

وذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، والجزاء من جنس العمل ، ولهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة .

كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ (٥) والصلاة هي الدعاء ، إما بخير يتضمن الدعاء ، وإما بصيغة الدعاء ، فالملائكة يدعون للمؤمنين .

كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه : اللهم أغفر له ، اللهم أرحمه ، ما لم يحدث » (٦) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٧ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٩ .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ١ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٥٦ .

(٦) الحديث رواه الامام البخاري في الآذان ٣٠ ، ٣٦ ، والترمذي في الصلاة ١٢٨ والدارمي في =

فبين أن صلاتهم قولهم « اللهم أغفر له اللهم أرحمه » وفي الأثر « إن الرب يصلي فيقول : سبقت - أو غلبت - رحمتي غضبي » (١) .

وهذا كلامه سبحانه هو خبر وإنشاء يتضمن أن الرحمة تسبق الغضب وتغلبه ، وهو سبحانه لا يدعو غيره أن يفعل ، كما يدعو الملائكة وغيرهم من الخلق ، بل طلبه بأمره وقوله ، وقسمه ، كقوله : لأفعلن كذا ، وقوله : كن فيكون . وقوله : لأفعلن كذا . قسم منه كقوله ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (٤) وقوله ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَّا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٥) وهذا وعد مؤكد بالقسم بخلاف قوله ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرَنَّ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٦) .

فإن هذا وعد وخبر ليس فيه قسم ، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم .

وقوله ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ (٧) .

= الصلاة ١٢٢ وصاحب الموطأ في السفر ٥١ ، ٥٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٤٢٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ (حلي) .

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| (١) سبق تخريج هذا الحديث . | (٥) سورة المجادلة آية رقم ٢١ . |
| (٢) سورة ص آية رقم ٨٥ . | (٦) سورة غافر آية رقم ٥١ . |
| (٣) سورة السجدة آية رقم ١٣ . | (٧) سورة الفتح آية رقم ٢٠ . |
| (٤) سورة النور آية رقم ٥٥ . | |

وقوله ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ (١) ونحو ذلك وعد مجرد .

وقد قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (٢) .

فأخبر أنه يوحى إلى البشر تارة وحياً منه ، وتارة يرسل رسولاً فيوحى إلى الرسول بإذنه ما يشاء .

والملائكة رسل الله ، ولفظ الملك يتضمن معنى الرسالة فإن أصل الكلمة ملاك على وزن مفعول ، لكن لكثرة الإستعمال خففت ، بأن أُلقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها ، وحذفت الهمزة ، وملاك مأخوذ من المألك والمألك ، بتقديم الهمزة على اللام ، واللام على الهمزة ، وهو الرسالة ، وكذلك الألوكة بتقديم الهمزة على اللام .

قال الشاعر :

أبلغ النعمان عني مألِكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري
وهذا بتقديم الهمزة ، لكن الملك هو بتقديم اللام على الهمزة وهذا أجود ، فإن نظيره في الاشتقاق الأكبر لأك يلوك إذا لأك الكلام ، واللبجام .

والهمزة أقوى من الواو ، ويليه في الاشتقاق الأوسط أكل يأكل ، فإن الأكل يلوك ما يدخله في جوفه من الغذاء والكلام والعلم ما يدخل في الباطن ويغذي به صاحبه .

قال عبد الله بن مسعود : إن كل آدب يجب أن تؤق مأدبته وإن مأدبة الله القرآن ، والأدب المضيف ، والمأدبة الضيافة ، وهو ما يجعل من الطعام للضيف .

(١) سورة الأنفال آية رقم ٧ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥١ .

فبين أن الله ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهم فهو غذاء قلوبهم وقوتها ، وهو أشد انتفاعاً به ، واحتياجاً إليه من الجسد بغذائه .

وقال علي رضي الله عنه : الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها .

وقد قال ﷺ « إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » (١) .

وقد أخبر الله تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور ، والناس إلى الغذاء أحوج منهم إلى الشفاء في القلوب والأبدان .

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة أمسكت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (٢) .

فأخبر أن ما بعث به للقلوب كالماء للأرض ، تارة تشربه فتنبت ، وتارة تحفظه ، وتارة لا هذا ولا هذا والأرض تشرب الماء وتغتذي به حتى يحصل الخير وقد أخبر الله تعالى أنه روح تحيا به القلوب ، فقال ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الصوم ٤٩ ، وفي الحدود ٤٣ (محاربين ٢٨) والاعتصام ٥ ، والتمني ٩ ، ورواه الامام مسلم في الصيام ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ والترمذي في الصوم ٦١ ، والدارمي في الصوم ١٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣ : ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ (حلي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب العلم ٢٠ باب فضل من علم وعلم .
٧٩ - حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي - ﷺ - قال : وذكره ورواه الامام مسلم في الفضائل ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٩٩

إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ وإذا
كان ما يوحى إليه إلى عباده تارة يكون بوساطة ملك وتارة بغير وساطة ، فهذا
للمؤمنين كلهم مطلقاً لا يختص به الأنبياء .

قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَإِذْ
أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) وإذا كان قد قال ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (٤) الآية فذكر
أنه يوحى إليهم فإلى الإنسان أولى .

وقال تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (٥)

وقد قال تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٦) فهو
سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس ، والفجور يكون بواسطة الشيطان وهو
إلهام وسواس ، والتقوى بواسطة ملك وهو إلهام وحي ، وهذا أمر بالفجور ،
وهذا أمر بالتقوى ، والأمر لا بد أن يقترب به خير .

وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أطلق لا يراد به الوسوسة ، وهذه
الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي ، وبين الوسوسة ، فالمأمور به
إن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي ، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة
الشيطان .

فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب
والسنة ، فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى الله
فهو من الإلهام المحمود ، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس

(٤) سورة النحل آية رقم ٦٨ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ١٢ .

(٦) سورة الشمس آية رقم ٨ .

(١) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٧ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

المذموم ، وهذا الفرق مطرد لا ينتقص ، وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة الشيطان فقال : ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فأنهها عنه .

وقد تكلم النظار في العلم الحاصل في القلب عقب النظر والاستدلال فذكروا فيه ثلاثة أقوال كما ذكر ذلك أبو حامد ^(١) « في مستصفاه » وغيره قول الجهمية وقول القدرية ، وقول الفلاسفة ، وكثير من أهل الكلام لا يذكر إلا القولين : قول الجهمية ، وقول القدرية . وذلك أنهم يذكرون في كتبهم ما يعرفونه من أقوال من يعرفونه تكلم في هذا ، وهم لا يعرفون إلا هؤلاء ، والمسألة هي من فروع القدر ، فإن الحاصل في نفس حادث فيها فالقول فيه كالقول في أمثاله .

ومذهب جهنم ومن وافقه كأبي الحسن الأشعري ، وكثير من المتأخرين المثبتة هو مذهب أهل السنة والجماعة ، أن الله خالق كل شيء ، وأن الله خالق أفعال العباد لكنه لا يثبت سبباً ولا قدرة مؤثرة ، ولا حكمة لفعل الرب فأنكر الطبائع والقوى التي في الأعيان ، وأنكر الأسباب والحكم فلهذا لم يجعل لشيء سبباً . بل يقول : هذا حاصل بخلق الله وقدرته . ولم يذكروا له سبباً ، وهم صادقون في إضافته إلى قدره ، وأنه خالقه خلافاً للقدرية ، لكن من تمام المعرفة إثبات الأسباب ومعرفتها .

وأما القدرية من المعتزلة وغيرهم فبنوه على أصلهم ، وهو أن كل ما تولد عن فعل العبد فهو فعله لا يضاف إلى غيره ، كالشبع والري وزهوق

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ، حجة الاسلام فيلسوف متصوف ، له نحو مئتي مصنف ولد عام ٤٥٠ هـ في الطائيران (قصة طوس) وتوفي بها عام ٥٠٥ هـ رحل إلى نيسابور ، ثم إلى بغداد ، فالحجاز فبلاد الشام فمصر . من كتبه (الأحياء) والمنقذ من الضلال . وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١] .

الروح ، ونحو ذلك فقالوا : هذا العلم متولد عن نظر العبد أو تذكر النظر . والمتفلسفة بنوه على أصلهم : في أن ما يحدث من الصور هو من فيض العقل الفعال عند استعداد المواد القابلة ، فقالوا : يحصل في نفوس البشر من فيض العقل الفعال عند استعداد النفس باستحضار المقدمتين ، وهذا القول خطأ ، والذي قبله أقرب منه والأول أقرب ، وليس في شيء منها تحقيق الأمر في ذلك . وحقيقته أن الله وكل بالإنس ملائكة وشياطين يلقون في قلوبهم الخير والشر ، فالعلم الصادق من الخير ، والعقائد الباطلة من الشر ، كما قال ابن مسعود لمة الملك تصديق بالحق ، ولمة الشيطان تكذيب بالحق .

وكما قال النبي ﷺ في القاضي : « أنزل الله عليه ملكاً يسرده » (١) .

وكما أخبر الله أن الملائكة توحى إلى البشر ما توحىه وإن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك ، كما لا يشعر بالشیطان الموسوس ، لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحياً ، ويكلمه بملك يوحى بإذنه ما يشاء ، والثالث التكليم من وراء حجاب .

وقد قال بعض المفسرين : المراد بالوحي هنا الوحي في المنام ولم يذكر أبو الفرج غيره ، وليس الأمر كذلك ، فإن المنام تارة يكون من الله ، وتارة يكون من النفس ، وتارة يكون من الشيطان ، وهكذا ما يلقي في اليقظة ، والأنبياء معصومون في اليقظة والمنام .

ولهذا كانت رؤيا الأنبياء وحياً ، كما قال ذلك ابن عباس وعبيد بن

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأقضية باب في طلب القضاء والتسرع إليه ٣٥٧٨ حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا إسرائيل ، ثنا عبد الأعلى ، عن بلال ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

ورواه الترمذي في الأحكام ١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١٨ ، ٢٢٠ (حلي) .

عمير ، وقرأ قوله ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ (١) .

وليس كل من رأى رؤيا كانت وحياً ، فكذلك ليس كل من ألقى في قلبه شيء يكون وحياً ، والإنسان قد تكون نفسه في يقظته أكمل منها في نومه كالمصلي الذي يتاجي ربه ، فإذا جاز أن يوحى إليه في حال النوم فلماذا لا يوحى إليه في حال اليقظة ، كما أوحى إلى أم موسى ، والحواريين ، وإلى النحل ؟!

لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه أنه وحي لا في يقظة ، ولا في المنام إلا بدليل يدل على ذلك ، فإن الوسواس غالب على الناس . والله أعلم .

(١) سورة الصافات آية رقم ١٠٢ .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

فصل

في « سورة الفلق والناس »

في « الفلق » أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص ، فإنه فسر بالخلق عموماً ، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى وهو غالب الخلق ، وفسر بالفجر ، وأما تفسيره بالمنار أو بجب ، أو شجرة فيها ، فهذه مرجعه إلى التوقيف . و« الغاسق » قد روي في الحديث المرفوع عن عائشة في الترمذي والنسائي « أن النبي ﷺ نظر إلى القمر ، وقال لها : يا عائشة تعوذني بالله من هذا ، فهذا الغاسق إذا وقب »^(١)

قال ابن قتيبة : « الغاسق » القمر إذا كسف فاسود ومعنى وقب دخل في الكسوف .

والمشهور عند أهل التفسير واللغة أن « الغاسق » الليل ﴿ وقب ﴾ دخل في كل شيء فأظلم .

و« الغسق » الظلمة .

وقال الزجاج « الغاسق » البارد ، فليل ليل غاسق لأنه أبرد من النهار ، أو يقال : الغسق السيلان والإحاطة ، وغسق الليل سيلانه وإحاطته بالأرض

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

وإذا فسر بالقمر ، فقد يقال : وقوبه أي دخوله . وهو دخوله في الكسوف ، ولا منافاة بين تفسيره بالليل وبالقمر ، فإن القمر آية الليل ، فهنا ثلاث مراتب الليل مطلقاً ، ثم القمر مطلقاً ، ثم القمر حال كسوفه وهذا مناسب لما ذكر في المستعاذ به ، فإن عموم الفلق للخلق بإزاء من شر ما خلق ، وخصوصه بالفجر الذي هو ظهور النور بإزاء الغاسق إذا وقب ، الذي هو دخول الظلام .

وقال ابن زيد : الغاسق : الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وقد تقع عند طلوعها ويشبهه - والله أعلم - أن يكون من الحكمة في ذلك : أن النور هو جنس الخير ، والظلمة جنس الشر ، وفي الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع في النهار ، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه ، فإن النبي ﷺ قال « إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده » والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف ، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب ، أو مظنته ، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب بأهل الأرض .

ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة ، والصدقة والعقاقة ، والدعاء لدفع العذاب ، وكذلك عند سائر الآيات التي هي إنشاء العذاب كالزلزلة ، وظهور الكواكب ، وغير ذلك وهو أقرب الكواكب التي لها تأثير في الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك .

ولهذا كان الطالبون للمنفعة والمضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر ، فإذا كان في شرفه كالسرطان كان الوقت عندهم سعيداً .

وإذا كان في العقرب وهو هبوطه كان نحساً ، فهذا في علمهم ، وكذلك في عملهم من السحر وغيره :

القمر أقرب المؤثرات ، حتى صنفوا « مصحف القمر » لعبادته وتسبيحه ، فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب ، انتقلاً من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل ، فجعلت أربعة

أقسام .

الأول : من شر المخلوقات عموماً ، وقول الحسن : إنه إبليس وذريته ، وقول بعضهم : إنه جهنم : ذكر للشر الذي هو لناشر محض من الأرواح والأجسام .

والثاني : شر الغاسق إذا وقب ، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب . كالشريا وسلطانة الذي هو القمر ، ودخل في ذلك سحر التمرسحات الذي هو أعلى السحر وأرفعه .

الثالث : شر النفاثات في العقد ، وهن السواحر اللواتي يتصورون بأفعال في أجسام .

و« الرابع » الحاسد ، وهي النفوس المضرة سفهاً ، فانتظم بذلك جميع أسباب الشرور ، ثم خص في « سورة الناس » الشر الصادر من الجن والإنس ، وهم الأرواح المضرة .

فصل

وتظهر المناسبة بين السورتين من وجه آخر ، وهو أن المستعاذ منه هو الشر ، كما أن المطلوب هو الخير .

إما من فعل العبد ، وإما من غير فعله ، ومبدأ فعله للشر هو الوسواس ، الذي يكون تارة من الجن ، وتارة من الإنس وجسم الشر يحسم أصله ومادته أجود من دفعه بعد وقوعه ، فإذا أعيد العبد من شر الوسواس الذي يوسوس في الصدور ، فقد أعيد من شر الكفر والفسوق والعصيان .

فهذا في فعل نفسه ، وتعم الآية أيضاً فعل غيره لسوء معه .

فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد .

وأما الشر الصادر من غيره فسورة « الفلق » فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم -

هذا نهاية الجزء الأخير من التفسير الكبير أعاننا الله على تحقيقه وتخريج أحاديثه وترقيم آياته ، وكان الانتهاء منه في مساء يوم الخميس من ذي القعدة سنة ١٤٠٦ هـ الموافق ١٠ من يولييه سنة ١٩٨٦ م .

أ . د . عبد الرحمن عميره